سورة الأنفال

[٤١٨] روى أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال: قال النبي [ﷺ]: **«من قتل قتيلاً فله كذا وكذا، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا»**، فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم، فقالت المشيخة للشبان: أشركونا معكم فإنا كنا لكم ردأ، ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا، فاختصموا إلى النبي [ﷺ]، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾(١).

[٤١٩] وروى أحمد(٢) عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر قتل أخي عمير فقتلت به سعيد بن العاص، وأخذت سيفه فأتيت به النبي [ﷺ] فقال: **«اذهب فاطرحه في القبر»** فرجعت وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي، وأخذ سلبي فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي النبي [ﷺ]: **«اذهب فخذ سيفك»**.

[٤٢٠] وروى أبو داود والترمذي والنسائي(٣) عن سعد قال: لما كان يوم بدر جئت بسيف، فقلت يا رسول الله: إن الله قد شقّ صدري من المشركين هب لي هذا السيف، فقال: **«هذا ليس لي ولا لك»**، فقلت: عسى أن يعطى هذا من لا يبلي بلائي، فجاءني الرسول [ﷺ] فقال: **«إنك سألتني وليس لي، وإنه قد صار لي وهو لك»**، قال فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾(٤) الآية.

[٤٢١] ك.. وأخرج ابن جرير عن مجاهد: أنهم سألوا النبي [ﷺ] عن

---

[٤١٨] (١) سورة الأنفال: الآية (١).

[٤١٩] (٢) مسند أحمد (١/ ١٨٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٢/ ٣٧٠)، وسعيد بن منصور في سننه (٢٦٨٩) والواحدي في أسباب النزول ص (١٣٢).

[٤٢٠] (٣) سنن أبي داود (٢٧٤٠)، والترمذي (٣٠٧٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٣٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٢٩١) والواحدي في أسباب النزول ص (١٣٢).

(٤) سورة الأنفال: الآية (١).

الخمس بعد الأربعة الأخماس، فنزلت: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾(١) الآية(٢).

ك.. **قوله تعالى:** ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ﴾ [الأنفال: ٥] الآية.

[٤٢٢] أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال رسول الله [ﷺ] ونحن بالمدينة، وبلغه أن عير أبي سفيان قد أقبلت فقال: **«ما ترون فيها لعل الله يغنمناها ويسلمنا»** فخرجنا فسرنا يوماً أو يومين فقال: **«ما ترون»** فقلنا: يا رسول الله ما لنا طاقة بقتال القوم إنما خرجنا للعير، فقال المقداد: لا تقولوا كما قال قوم موسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون» فأنزل الله ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝٥﴾(٣) وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه.

ك.. **قوله تعالى:** ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ [الأنفال: ٩] الآية.

[٤٢٣] روى الترمذي عن عمر بن الخطاب قال: نظر نبي الله [ﷺ] إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً، فاستقبل القبلة ثم مد يديه وجعل يهتف بربه: **«اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»** فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه وألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ

---

[٤٢١] (١) سورة الأنفال: الآية (١).

(٢) وزيادة على ما تقدم في هذه الآية هنا ما رواه الواحدي في أسباب النزول.. قال الواحدي: أخبرنا أبو بكر الحارث قال: أخبرنا عبدالله بن محمد بن جعفر قال: حدثنا أبو يحيى قال: حدثنا سهل بن عثمان قال: حدثنا يحيى بن زائدة عن ابن أبي الزناد عن عبد الرحمن بن الحارث عن سليمان بن موسى الأشدق عن مكحول عن أبي سلام الباهلي عن أبي أمامة الباهلي عن عبادة بن الصامت قال: لما هزم العدو يوم بدر واتبعتهم طائفة يقتلونهم وأحدثت طائفة برسول الله ﷺ واستولت طائفة على العسكر والنهب فلما نفى الله العدو ورجع الذين طلبوهم وقالوا: لنا النفل بحسن طلبنا العدو وبنا نفاهم وهزمهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: والله ما أنتم بأحق به منا نحن أحدقنا برسول الله ﷺ لا ينال العدو منه غرة فهو لنا وقال الذين استولوا على العسكر والنهب: والله ما أنتم بأحق به منا نحن أخذناه واستولينا عليه فهو لنا فأنزل الله تعالى **﴿يسألونك عن الأنفال﴾** فقسمه رسول الله ﷺ بالسوية.

[٤٢٢] (٣) سورة الأنفال: الآية (١و ٥).

﴿رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾[1] فأمدهم الله بالملائكة[2].

قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧] الآية.

[٤٢٤] روى الحاكم[3] عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: أقبل أبي بن خلف يوم أُحد إلى النبي [ﷺ] فخلوا سبيله، فاستقبله مصعب بن عمير ورأى رسول الله [ﷺ] ترقوة أبي من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة، فطعنه بحربته فسقط عن فرسه ولم يخرج من طعنته دم، فكسر ضلعاً من أضلاعه فأتاه أصحابه وهو يخور خوار الثور، فقالوا له: ما أعجزك إنما هو خدش، فذكر لهم قول رسول الله [ﷺ]: «**بل أنا أقتل أُبيًا**»، ثم قال والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون، فمات أبي قبل أن يقدم مكة، فأنزل الله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[4] الآية صحيح الإسناد، لكنه غريب.

[٤٢٥] وأخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن جبير أن رسول الله [ﷺ] يوم خيبر دعا بقوس، فرمى الحصن فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق وهو في فراشه، فأنزل الله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾[5] الآية. مرسل جيد الإسناد، لكنه غريب، والمشهور أنها نزلت في رميه يوم بدر بالقبضة من الحصبا.

[٤٢٦] روى ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر سمعنا صوتاً وقع من السماء إلى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت في طست، ورمى رسول الله [ﷺ] بتلك الحصبا. فانهزمنا فذلك قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾[6] الآية.

وأخرج أبو الشيخ نحوه عن جابر وابن عباس، ولابن جرير من وجه آخر مرسلاً نحوه.

قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟﴾ [الأنفال: ١٩] الآية.

---

[٤٢٣] (١) سورة الأنفال: الآية (٩).
(٢) وأصل الحديث عند مسلم في صحيحه (١٣٨٤) وأحمد في مسنده (١/ ٣٠).
[٤٢٤] (٣) ورواه الطبري (٩/ ١٣٧)، والواحدي في أسباب النزول ص (١٣٣).
(٤) سورة الأنفال: الآية (١٧).
[٤٢٥] (٥) سورة الأنفال: الآية (١٧).
[٤٢٦] (٦) سورة الأنفال: الآية (١٧).

[٤٢٧] روى الحاكم[1] عن عبدالله بن ثعلبة بن صعير قال: كان المستفتح أبا جهل فإنه قال حين التقى القوم: اللهم أينا كان أقطع للرحم وأتى بما لا يعرف فأحنه الغداة وكان ذلك استفتاحاً فأنزل الله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

[٤٢٨] وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية قال: قال أبو جهل اللهم انصر أعز الفئتين وأكرم الفرقتين، فنزلت.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾ [الأنفال: ٢٧] الآية.

[٤٢٩] روى سعيد بن منصور وغيره[3] عن عبدالله بن أبي قتادة قال: نزلت هذه الآية ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾[4] في أبي لبابة بن عبد المنذر سأله بنو قريظة يوم قريظة ما هذا الأمر؟ فأشار إلى حلقه يقول الذبح فنزلت، قال أبو لبابة: ما زالت قدماي حتى علمت أني خنت الله ورسوله.

[٤٣٠] ك.. وروى ابن جرير[5] وغيره عن جابر بن عبدالله أن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبريل النبي [ﷺ] فقال: إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا، فقال رسول الله [ﷺ]: **«إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتموا»**، فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان: إن محمداً يريدكم فخذوا حذركم، فأنزل الله ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾[6] الآية. غريب جداً في سنده وسياقه نظر.

[٤٣١] وأخرج ابن جرير عن السدي قال: كانوا يسمعون من النبي [ﷺ] الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين فنزلت.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ﴾ [الأنفال: ٣٠] الآية.

[٤٣٢] أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن نفراً من قريش ومن أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما

---

[٤٢٧] (١) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٣٤) من طريق صالح عن ابن شهاب قال حدثني عبدالله بن ثعلبة بن صعير... الحديث.
(٢) سورة الأنفال: الآية (١٩).
[٤٢٩] (٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول بلا إسناد بأبسط من ذلك ـ.
(٤) سورة الأنفال: الآية (٢٧).
[٤٣٠] (٥) ابن جرير (٩/١٤٦).
(٦) سورة الأنفال: الآية (٢٧).

رأوه قالوا من أنت؟ قال: شيخ من أهل نجد سمعت بما اجتمعتم له، فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم مني رأي ونصح، قالوا: أجل فادخل، فدخل معهم، فقال: انظروا في شأن هذا الرجل، فقال قائل: احبسوه في وثاق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير والنابغة فإنما هو كأحدهم، فقال عدو الله الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي والله ليخرجن رائده من محبسه إلى أصحابه فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم ثم يمنعوه منكم فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم فانظروا غير هذا الرأي، فقال قائل: أخرجوه من بين أظهركم واستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع، فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه وأخذه للقلوب بما يستمع من حديثه، والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه ثم ليسيرن إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم، قالوا صدق والله، فانظروا رأياً غير هذا، فقال أبو جهل والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، ما أرى غيره، قالوا وما هذا؟ قال تأخذوا من كل قبيلة وسيطاً شاباً جلداً، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلتموه تفرق دمه في القبائل كلها فلا أظن هذا الحي من بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلهم وأنهم إذا رأو ذلك قبلوا العقل واسترحنا وقطعنا عنا أذاه، فقال الشيخ النجدي هذا والله هو الرأي، القول ما قال الفتى لا أرى غيره فتفرقوا على ذلك وهم يجمعون له، فأتى جبريل النبي [ﷺ] فأمره بأن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت، وأخبره بمكر القوم فلم يبت رسول الله [ﷺ] في بيته تلك الليلة وأذن الله له عند ذلك في الخروج، وأنزل عليه بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾(١) الآية.

[٤٣٣] وأخرج ابن جرير(٢) من طريق عبيد بن عمير عن المطلب بن أبي وداعة أن أبا طالب قال للنبي [ﷺ]: ما يأتمر بك قومك؟ قال: «**يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني**» قال: من حدّثك بهذا؟ قال: «**ربي**». قال: نعم الرب ربك، فاستوص به خيراً، قال: «**أنا أستوصي به! بل هو يستوصى بي**»، فنزلت: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ

---

[٤٣٢] (١) سورة الأنفال: الآية (٣٠).

[٤٣٣] (٢) رواه ابن جرير (٩/ ١٤٩)، وانظر الدر المنثور (٣/ ١٧٩) و (٦٧٩).

بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[1] الآية. قال ابن كثير: ذكر أبي طالب فيه غريب، بل منكر، لأن القصة ليلة الهجرة، وذلك بعد موت أبي طالب بثلاث سنين.

ك.. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ﴾ [الأنفال: ٣١] الآية.

[٤٣٤] أخرج ابن جرير[2] عن سعيد بن جبير قال: قتل النبي [ﷺ] يوم بدر عقبة بن أبي معيط وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث، وكان المقداد أسر النضر فلما أمر بقتله قال المقداد: يا رسول الله أسيري، فقال رسول الله [ﷺ]: «إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول»، قال وفيه أنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا﴾[3] الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ﴾ [الأنفال: ٣٢] الآية.

[٤٣٥] ك.. أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ﴾[4] الآية. قال: نزلت في النضر بن الحارث.

[٤٣٦] وروى البخاري[5] عن أنس قال: قال أبو جهل بن هشام: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فنزلت ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[6] الآية.

[٤٣٧] ك.. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: غفرانك غفرانك، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾[7] الآية.

[٤٣٨] وأخرج ابن جرير عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس قالا: قالت قريش بعضها لبعض: محمد أكرمه الله من بيننا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية، فلما أمسوا ندموا على ما قالوا،

---

(١) سورة الأنفال: الآية (٣٠).

[٤٣٤] (٢) ابن جرير (٩/ ١٢٥).

(٣) سورة الأنفال: الآية (٣١).

[٤٣٥] (٤) سورة الأنفال: الآية (٣٢).

[٤٣٦] (٥) رواه البخاري عن أحمد بن النضر ومسلم في صحيحه عن عبدالله بن معاذ والواحدي في أسباب النزول من طريق شعبه عن عبد الحميد صاحب الزيادي سمع أنس بن مالك مثله.

(٦) سورة الأنفال: الآية (٣٣).

[٤٣٧] (٧) سورة الأنفال: الآية (٣٣).

فقالوا غفرانك اللهم. فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

[٤٣٩] ك.. وأخرج ابن جرير أيضاً عن ابن أبزى قال: كان رسول الله [ﷺ] بمكة، فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[2] فخرج إلى المدينة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[3] وكان أولئك البقية من المسلمين الذين بقوا فيها يستغفرون، فلما خرجوا أنزل الله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾[4] الآية. فأذن في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾ [الأنفال: ٣٥] الآية.

[٤٤٠] أخرج الواحدي[5] عن ابن عمر قال: كانوا يطوفون بالبيت ويصفقون ويصفرون، فنزلت هذه الآية.

[٤٤١] وأخرج ابن جرير عن سعيد قال: كانت قريش يعارضون النبي [ﷺ] في الطواف يستهزؤن به يصفرون ويصفقون، فنزلت.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: ٣٦] الآية.

[٤٤٢] قال ابن إسحاق: حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمير بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن قالوا لما أصيبت قريش يوم بدر ورجعوا إلى مكة مشى عبدالله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم، فكلموا أبا سفيان ومن كان له في ذلك العير من قريش تجارة، فقالوا يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا أن ندرك منه ثأراً ففعلوا ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يُحْشَرُونَ﴾[6].

---

[٤٣٨] (١) سورة الأنفال: الآية (٣٣).
[٤٣٩] (٢) سورة الأنفال: الآية (٣٣).
(٣) سورة الأنفال: الآية (٣٣).
(٤) سورة الأنفال: الآية (٣٤).
[٤٤٠] (٥) أسباب النزول للواحدي (١٣٥).
[٤٤٢] (٦) سورة الأنفال: الآية (٣٦) ـ والأثر ذكره الواحدي في أسباب النزول وعزاه إلى محمد بن إسحاق عن رجاله ـ هكذا قال.

[٤٤٣] وأخرج ابن أبي حاتم عن الحكم بن عتيبة قال: نزلت في أبي سفيان أنفق على المشركين أربعين أوقية من ذهب.

[٤٤٤] وأخرج ابن جرير عن ابن أبزى وسعيد بن جبير قالا: نزلت في أبي سفيان استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش ليقاتل بهم رسول الله [ﷺ].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ [الأنفال: ٤٧] الآية.

[٤٤٥] أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان والدفوف، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا﴾(١) الآية.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٤٩] الآية.

[٤٤٦] روى الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن أبي هريرة قال: لما أنزل الله على نبيه بمكة: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾(٢) قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله أي جمع؟ وذلك قبل بدر، فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرت إلى رسول الله [ﷺ] في آثارهم مصلتاً بالسيف يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾(٣) فكانت ليوم بدر، فأنزل الله فيهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾(٤) الآية. وأنزل ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾(٥) الآية. ورماهم رسول الله [ﷺ] فوسعتهم الرمية وملأت أعينهم وأفواههم حتى إن الرجل ليقتل وهو يقذي عينيه وفاه، فأنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾(٦) وأنزل في إبليس: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾(٧) الآية.

وقال عتبة بن ربيعة وناس معه من المشركين يوم بدر: غرّ هؤلاء دينهم، فأنزل الله: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾(٨).

---

[٤٤٥] (١) سورة الأنفال: الآية (٤٧).
[٤٤٦] (٢) سورة القمر: الآية (٤٥).
(٣) سورة القمر: الآية (٤٥).
(٤) سورة المؤمنون: الآية (٦٤).
(٥) سورة إبراهيم: الآية (٢٨).
(٦) سورة الأنفال: الآية (١٧).
(٧) سورة الأنفال: الآية (٤٨).
(٨) سورة الأنفال: الآية (٤٩).

ك.. قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: ٥٥] الآية.

[٤٤٧] أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: نزلت: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥﴾(١) في ستة رهط من اليهود فيهم ابن التابوت.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ [الأنفال: ٥٨] الآية.

[٤٤٨] روى أبو الشيخ عن ابن شهاب قال: دخل جبريل على رسول الله [ﷺ]، فقال قد وضعت السلاح وما زلت في طلب القوم، فاخرج فإن الله قد أذن لك في قريظة، وأنزل فيهم ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾(٢) الآية.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤] الآية.

[٤٤٩] ك.. روى البزار بسند ضعيف من طريق عكرمة(٣) عن ابن عباس قال: لما أسلم عمر قال المشركون: قد انتصف القوم منا اليوم، وأنزل الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤﴾(٤) وله شواهد(٥).

[٤٥٠] ك.. أخرج الطبراني وغيره من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أسلم مع النبي [ﷺ] تسعة وثلاثون رجلاً وامرأة، ثم إن عمر أسلم فكانوا أربعين نزل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤﴾(٦) الآية.

[٤٥١] وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال: لما أسلم مع النبي [ﷺ] ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة، ثم أسلم عمر نزلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾(٧) الآية.

[٤٥٢] وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن المسيب قال: لما أسلم عمر أنزل الله في إسلامه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾(٨) الآية.

---

[٤٤٧] (١) سورة الأنفال: الآية (٥٥).
[٤٤٨] (٢) سورة الأنفال: الآية (٥٨).
[٤٤٩] (٣) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٣٦) من طريق خلف بن خليفة عن ابن هشام الزماني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مثله.
(٤) سورة الأنفال: الآية (٦٤).
(٥) ومن شواهده ما ذكرته من رواية الواحدي.
[٤٥٠] (٦) سورة الأنفال: الآية (٦٤).
[٤٥١] (٧) سورة الأنفال: الآية (٦٤).
[٤٥٢] (٨) سورة الأنفال: الآية (٦٤).

قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥] الآية.

[٤٥٣] أخرج إسحاق بن راهويه في مسنده عن ابن عباس قال: لما افترض الله عليهم أن يقاتل الواحد عشرة ثقل ذلك عليهم وشق فوضع الله ذلك عنهم إلى أن يقاتل الواحد الرجلين، فأنزل الله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾(١) إلى آخر الآية.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ﴾ [الأنفال: ٦٧] الآية.

[٤٥٤] وروى أحمد(٢) وغيره عن أنس قال: استشار النبي [ﷺ] الناس في الأسارى يوم بدر، فقال: «**إن الله قد أمكنكم منهم**» فقام عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه، فقام أبو بكر فقال: نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء، فأنزل الله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾(٣) الآية.

[٤٥٥] وروى أحمد والترمذي والحاكم(٤) عن ابن مسعود قال: لما كان يوم بدر وجيء بالأسارى قال رسول الله [ﷺ]: «**ما تقولون في هؤلاء الأسارى**» الحديث. وفيه نزل القرآن بقول عمر ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾(٥) إلى آخر الآيات.

[٤٥٦] وأخرج الترمذي(٦) عن أبي هريرة عن النبي [ﷺ] قال: «**لم تحل الغنائم لم تحل لأحد سود الرؤوس من قبلكم كانت تنزل نار من السماء فتأكلها**» فلما كان يوم بدر وقعوا في الغنائم قبل أن تحلَّ لهم فأنزل الله ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾(٧).

---

[٤٥٣] (١) سورة الأنفال: الآية (٦٥).

[٤٥٤] (٢) مسند أحمد (٣/٢٤٣).

(٣) سورة الأنفال: الآية (٦٨).

[٤٥٥] (٤) الحديث رواه الترمذي في سننه (١٧١٤) و (٣٠٨٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٢/٤١٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٨٩)، والحاكم في المستدرك (٣/٢١) وابن جرير (١٠/٣١).

(٥) سورة الأنفال: الآية (٦٧).

[٤٥٦] (٦) رواه الترمذي في سننه (٣٠٨٥)، وأحمد في مسنده (٢/٢٥٢) وابن حبان (١٦٦٨ موارد الظمآن) وعبد الرزاق في مصنفه (٩٤٩٢).

(٧) سورة الأنفال: الآية (٦٨).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم﴾ [الأنفال: ٧٠] الآية.

[٤٥٧] روى الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال: قال العباس: فيَّ والله نزلت حين أخبرت رسول الله [ﷺ] بإسلامي وسألته أن يحاسبني بالعشرين أوقية التي وجدت معي فأعطاني بها عشرين عبداً كلهم تاجر بمالي في يده مع ما أرجو من مغفرة الله.

ك.. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: ٧٣] الآية.

[٤٥٨] أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي عن أبي مالك قال: قال رجل: نورث أرحامنا المشركين فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ [الأنفال: ٧٥] الآية.

[٤٥٩] أخرج ابن جرير عن ابن الزبير قال: كان الرجل يعاقد الرجل ترثني وأرثك، فنزلت: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾(٢) الآية.

[٤٦٠] وأخرج ابن سعد من طريق هشام بن عروة عن أبيه قال: آخى رسول الله [ﷺ] بين الزبير بن العوام وبين كعب بن مالك قال الزبير: لقد رأيت كعباً أصابته الجراحة بأحد، فقلت لو مات فانقطع عن الدنيا وأهلها لورثته فنزلت هذه الآية ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾(٣) فصارت المواريث بعد للأرحام والقرابات، وانقطعت تلك المواريث في المؤاخاة.

* * *

---

[٤٥٨] (١) سورة الأنفال: الآية (٧٣).

[٤٥٩] (٢) سورة الأنفال: الآية (٧٥).

[٤٦٠] (٣) سورة الأنفال: الآية (٧٥).

(٨) سورة الأنفال مدنية
وآياتها خمس وسبعون

سورةُ الأنفالِ إحدى السورة المدنية التي عُنيت بجانب التشريع – كسائر السور المدنية – وبخاصة فيما يتعلق بأمر الجهاد في سبيل الله ، فقد عالجت بعضَ النواحي العسكرية والحربية ، التي ظهرت عقب بعض الغزوات ، وتضمنتْ كثيراً من التشريعات الحربية ، والإرشادات الإلهية التي يجب على المؤمنين اتباعها في قتالهم لأعداء الله ، وتناولت جانب السِّلْم والحرب ، وقواعدَ المعاهدات الدوليّة ، وأحكام الأسر والغنائم . نزلت هذه السورة الكريمة في أعقاب « غزوة بدر » التي خاضها المسلمون ضدَّ المشركين من كفار مكة ، والتي كانت فاتحة الغَزَوات في تاريخ الإسلام المجيد ، وبداية النصر لجند الرحمن حتى سمَّاها بعضُ الصحابة « سورة بدر » لأنها تناولت أحداث هذه الغزوة بإسهاب ، ورسمت الخطَّة التفصيلية للقتال ، ونَبَّهت المؤمنين إلى بعض نقاط الضعف حتى يتداركوها ، وبيَّنتْ ما ينبغي أن يكون عليه الجنديُّ المسلم ، من البطولة والشجاعة ، والعزم والحزم ، والجرأةِ والصمود ، لأنه يقاتل في سبيل غاية نبيلة ، ويجاهد لإعلاء كلمة الله .
ومن المعلوم من تاريخ الغزوات والحروب التي خاضها المسلمون أن غزوة بدر كانت في رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وكانت الجولةَ الأولى من جولات الحق مع الباطل ، لردِّ البغي والطغيان ، وإنقاذِ المستضعفين من الرجال والنساء والوِلْدان ، الذين قعد بهم الضعفُ

في مكة فلم يستطيعوا الهجرة لبلد الأمن والإيمان ، وأخذوا في الضراعة إلى الله جلَّ وعلا أن ينقذهم من طغيان الكفرة ويخرجهم من القرية الظالم أهلُها ، وقد استجاب الله سبحانه ضراعتهم ، فهيأ لهم ظروف تلك الغزوة ، التي تمَّ فيها النصر للمؤمنين على قلةٍ في عَدَدهم ، أوضعفٍ في عُدَدهم ، وعلى عدم تهيئهم للقتال ، وبها عرف أنصارُ الباطلِ والظلم والطغيان ، أنه مهما طال أَمَدُه ، وقويتْ شوكتُه ، وامتدَّ سلطانه ، فلا بدَّ للباطل من يوم ٍ يخرُّ فيه صريعاً أمام جلال الحق ، وقوة الإيمان ، وهكذا كانت غزوة بدر درساً لا يُنسى ، وعبرةً لا تُمحى ، أمام التاريخ والأجيال ، في أنَّ النصر من عند الله وصدق الله ﴿ فلم تقتلوهم ولكنَّ اللهَ قتلَهم ، وما رميتَ إذْ رميتَ ولكنَّ الله رمى ، وليبليَ المؤمنين منه بلاءً حسناً إن اللهَ سميعٌ عليهم﴾ وهكذا نصرَ اللهُ المؤمنين على قلَّتهم ، على المشركين على كثرتهم ، وكانتْ عبرةً للمعتبرين . وفي ثنايا سَرْد أحداث بدر ، جاءت النداءات الإلهية للمؤمنين ستَّ مرات بوصف الإيمان « يا أيها الذين آمنوا » كحافز لهم على الصبر والثبات في مجاهدتهم لأعداء الله ، وكتذكير لهم بأنَّ هذه التكاليف التي أمروا بها من مقتضيات الإيمان الذي تحلَّوا به ، وأن النصر الذي حازوا عليه كان بسبب « الإيمان » لا بكثرة السلاح والرجال . **أما النداء الأول** : فقد جاء فيه التحذيرُ للمؤمنين من الفرار من المعركة ومن ميدان القتال لأن ذلك يُغري بهم الأعداء ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا القيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار﴾ وقد توعدت الآياتُ المنهزمين أمام الأعداء بأشد العذاب . **وأما النداء الثاني** : فقد جاء فيه الأمر للمؤمنين بالسمع والطاعة لأمر الله وأمر رسوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسولَه ولا تولَّوْا عنه وأنتم تسمعون . ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ كما صوَّرتْ لهم

الآياتُ صورة الكافرين بالأنعام السارحة التي لا تسمع ، ولا تعي ولا تستجيبُ لدعوة الله ﴿ إنَّ شرَّ الدوابِّ عند الله الصمُّ البكمُ الذين لا يعقلون﴾ . **وأما النداء الثالث** : فقد بيَّن تعالى فيه للمؤمنين حقيقة الدعوة المحمدية ، وأنها دعوة إلى سعادة الدارين ، وفيها الحياةُ والعزةُ والنجاح ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا للهِ وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم ..﴾ . **وأما النداء الرابع** : فقد جاء فيه التحذيرُ من إفشاء السرّ للأعداء – وعلى الوجه الأخص – شئون الحرب فإن ذلك خيانة للدين والأمة ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتخونوا اللهَ والرسولَ وتخونوا أماناتِكم وأنتم تعلمون﴾ **وأما النداء الخامس** : فقد جاء فيه التنبيهِ إلى مرتبة التقوى التي هي الحصنُ الحصينُ للمؤمن ، وأن من أعظم ثمرات التقوى ذلك النور الرباني ، الذي يَقْذفه اللهُ في قلب المؤمن ، وبه يفرق الإنسان بين الرُّشد والغيِّ ، والهدى والضلال ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا اللهَ يجعلْ لكم فرقاناً ويكفِّرْ عنكم سيئاتِكم ويغفر لكم ..﴾ **وأما النداء السادس** : وهو النداءُ الأخير فقد وضَّح الباري جل وعلا للمؤمنين فيه طريقَ العزة ، وأسسَ النصر ، وذلك بالثباتِ أمام الأعداء ، والصبرِ عند اللقاء ، واستحضار عظمة الله التي لا تُحدُّ ، وقوته التي لا تُقهر ، والاعتصام بالمدد الروحي الذي يعينهم على الثبات وهو ذكرُ الله جلَّ وعلا ﴿ ياأيهاالذين آمنوا اذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾ وقد جاءت هذه النداءات متتالية مذكِّرةً لهم بنعمة الإيمان . وقد ختمت السورة الكريمة ببيان فضل الهجرة والجهاد ، وبيان الولاية الكاملة بين المؤمنين مهما تناءتْ ديارهُم ، واختلفت أجناسُهم ، فهم أولاً وآخراً أمةٌ واحدة ، جمعتهم عقيدةُ الإيمان ، وظلَّلتهم راية التوحيد ، فعليهم أن يتعاونوا ويتناصروا ، ويكونوا صفاً واحداً أمام الأعداء ، وقد ذكّرهم المولى جلَّ وعلا بما لهم

مِن الأجر والرزق الكريم في جنات النعيم ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله ، والذين آوَوْا ونَصَروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريم﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنفال

بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[١]

قوله عز وجل: **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول**، اختلف فيه. قال بعضهم: **الأنفال** هي المغانم التي يغنمها المسلمون من أهل الحرب. وقال بعضهم: **الأنفال** هي الفُضُول عن حقوق أصحاب الغنائم.[١] فإن كانت **الأنفال** الغنائم فالسؤال يحتمل وجهين. يحتمل[٢] أنهم سألوا عن حِلّها وحرمتها، لأن الغنائم كانت لا تحلّ في الابتداء. قيل: إنهم كانوا يغنمونها ويجمعون في موضع فتجيء[٣] نار فتحرقها.[٤] سألوا[٥] عن حِلّها وحرمتها، فقال: **الأنفال لله والرسول**، أي الحكم فيها لله، يجعلها لمن يشاء. ويحتمل السؤال عنها عن قسمتها. وهو ما روي في بعض القصة أن الناس كانوا يوم بدر ثلاثةَ أَثْـلَاث، ثُلث في نَحْر العدو، وثُلث[٦] خَلْفهم رِدْء لهم، وثُلث مع رسول الله يحرسونه. فلما فتح الله عليهم اختلفوا في الغنائم. فقال الذين كانوا في نحر العدو: نحن[٧] أحق بالغنائم، نحن وَلِينا القتال. وقال الذين كانوا رِدْءً لهم: لستم بأولى بها[٨] منا، وكنا لكم رِدْءً. وقال الذين أقاموا مع رسول الله:

---

[١] نَفَّلْت فلانا تنفيلا: أعطيته نَفَلا وغُنْما... و نَفَّل الإمام الجند: جعل لهم ما غَنِموا... والنَّفَل: الغنيمة والهبة والزيادة التي يجعلها الإمام للجنود تشجيعا لهم... والجمع أَنْفَال (*لسان العرب* لابن منظور، «نفل»).

[٢] ك: ويحتمل.

[٣] جميع النسخ: فجاءت.

[٤] كان ذلك في الأمم الماضية قبل أمتنا؛ انظر: صحيح *البخاري*، فرض الخمس ٨؛ وصحيح *مسلم*، الجهاد ٣٢.

[٥] ك:فسألوا.

[٦] ك: وثلثهم.

[٧] ع: ونحن.

[٨] ع م – بها.

[٢٨٠و] لستم بأحق[1] بها منا، كنا نحن حَرَسا لرسول الله. فتنازعوا / فيها إلى رسول الله. فنزل: **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول.**[2] وقال أبو أُمامة الباهلي: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال، قال:[3] فينا نزلت[4] معشرَ أصحاب بدر حين اختلفنا وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسوله، فقسمه على السواء.[5] ومجاهد وعكرمة قالا: كانت **الأنفال لله والرسول**، فنسخها: وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ.[6] وكذلك روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: **الأنفال** المغانم، كانت لرسول الله خالصة، ليس لأحد فيها شيء، ما أصاب سرايا المسلمين من شيء أَتَوْه به، فمن حبس منه إبرة أو سِلْكا فهو غُلُول، فسألوا[7] رسول[8] الله صلى الله عليه وسلم أن[9] يعطيهم منها، فقال: **قل الأنفال لله والرسول**، ليس لكم فيها شيء.[10] ويحتمل أن يكون **الأنفال** هي فضول المغانم على ما قال بعضهم. نحو ما روي في الأخبار أن منهم من أخذ[11] كُبَّة[12] فقال: اجعلها لي يا رسول الله، وأخذ الآخر سيفا وقال: اجعلها لي، ونحو ذلك، كانوا يسألون رسول الله ذلك،

[1] ع: بحق.

[2] روي نحو ذلك عن عبادة بن الصامت، وابن عباس، وابن جريج؛ انظر: *مسند أحمد بن حنبل*، ٣٢٣/٥؛ وسنن *أبي داود*، الجهاد ١٤٤-١٤٥؛ و*تفسير الطبري*، ١٧٢/٩، ١٧٥؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٥/٤، ٦؛ وذكر الهيثمي أن رواة أحمد ثقات؛ انظر: *مجمع الزوائد* للهيثمي، ٢٦/٧.

[3] ع – قال.

[4] م: زلت.

[5] ع م: على السؤال. انظر: *مسند أحمد بن حنبل*، ٣٢٢/٥؛ و*تفسير الطبري*، ١٧٢/٩-١٧٣؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٥/٤؛ وذكر الهيثمي أن رواة أحمد ثقات؛ انظر: *مجمع الزوائد* للهيثمي، ٢٦/٧.

[6] سورة الأنفال، ٤١/٨. انظر: *تفسير الطبري*، ١٧٥/٩، ١٧٦؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٩/٤.

[7] م – فسألوا.

[8] م: ولرسول.

[9] ع: وسلم عليهم.

[10] انظر: *تفسير الطبري*، ١٧٣/٩؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٨/٤.

[11] ع – أخذ.

[12] جميع النسخ هكذا. والكُبَّة تأتي بمعنى الإبل العظيمة؛ وليس لها معنى آخر يناسب هذا السياق؛ انظر: *لسان العرب* لابن منظور، «كبب». و لم أجد ذلك في الروايات. وقد وردت لفظة "ذا الكتيفة" في رواية لحديث سعد رضي الله عنه. فلعلها هي. عن سعد بن أبي وقاص قال: «لما كان يوم بدر قُتِل أخي عُمَير، وقَتلتُ سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكَتِيفَة، فأتيت به نبي الله صلى الله عليه وسلم، قال: «اذهب فاطرحه في القَبَض»، قال: فرجعت وبي ما لا يعلمه إلا الله من قَتْل أخي وأخذ سَلَبي، قال: فما جاوزت إلا يسيرا حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اذهب فخذ سيفك» (*مسند أحمد بن حنبل*، ١٨٠/١). والله أعلم. والسيف الكَتِيف أي العَرِيض (*لسان العرب* لابن منظور، «كتف»).

فقال: **قل الأنفال لله والرسول.**[١] ويحتمل[٢] أن يكون سؤالهم عن التنفيل، أن يُنَفِّلَهم الرسول بعد ما وقع في أيديهم، أو بعد ما انهزم الكفار وأدبر العدو، وإنما يجوز للإمام التنفيل في حال إقبال الحرب. وكذلك روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: النَّفَل ما لم يلتق الزحفان أو الصفان، فإذا التقيا فهو مَغْنَم.[٣] وروي عن مصعب بن سعد [عن أبيه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه] قال: نزلت فيَّ أربعُ آيات -يُرَى[٤] أنه يوم بدر- أَصَبْتُ سيفا، فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: نَفِّلْنِيه، فقال: «ضعه»، ثم قام، فقلت: يا نبي الله، نَفِّلْنِيه، أُجْعَل كمَن لا عمل له؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ضعه من حيث أخذته»، فنزلت هذه الآية: **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول**، ثم قال سعد: دعاني رسول الله، فقال: «اذهب فخذ سيفك».[٥] فدل حديث سعد أن النبي لم يُنَفِّل قبل الحرب أحدا[٦] منهم مالاً[٧] يأخذه، لأنه لو كان نَفَّلهم لم يمنع سعدا[٨] رضي الله عنه السيف الذي جاء به. ويدل على أن النبي لم يأمر في الغنيمة بشيء حتى نزلت آية النَّفَل، فرد الله الأمر في الغنيمة إلى رسوله، فأطلق له رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رُدَّ الأمر [إليه]. ويجوز أن يكون النبي لم يُنَفِّل أحدا قبل الحرب شيئا، ولكنه كان يُنفِّل مما يؤتَى به من شاء[٩] ممن قَتَل، بغير إيجاب متقدم، بيّن ذلك[١٠] قول سعد: أُجْعَل كمن لا عمل[١١] له؟ وحديث[١٢] عبادة يخبر أن النبي نَفَّل ما يأخذون من أهل الحرب قبل أن يأخذوه. فهذا[١٣] موضع الاختلاف بين الحديثين.

---

[١] روي نحو ذلك عن سعيد بن أبي وقاص؛ انظر: *صحيح مسلم*، الجهاد ٣٣؛ *وسنن الترمذي*، التفسير ٨؛ *وتفسير الطبري*، ١٧٣/٩.

[٢] ع: يحتمل.

[٣] *المصنف* لابن أبي شيبة، ٤٩٩/٦.

[٤] أي يظن ذلك. والله أعلم. ولا توجد كلمة "يرى" في مصادر الرواية.

[٥] *مسند أحمد بن حنبل*، ١٨٠/١؛ وصحيح *مسلم*، الجهاد ٣٤.

[٦] جميع النسخ + شيئا.

[٧] جميع النسخ: منه مما لا يأخذه.

[٨] ن: سعد.

[٩] ع: من يشأ؛ م: من يشاء.

[١٠] م: يبين ذلك.

[١١] م: لا عمله.

[١٢] ن: ووحديث.

[١٣] م: وهذا.

والظاهر من ذلك أن النَّفَل[1] قد كان وقع في الغنائم، لأن الله قد سماها أنفالا قبل أن يُحِلّها، فلو لا أن النبي كان[2] نَفَّلهم إياها قبل الحرب أو بعدها لم يسم الله أنفالا. *والله أعلم*. وفي حديث[3] عُبادة أن قوله: وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ،[4] نزل[5] بعد ذكر النَّفَل، وأنه الحكم[6] الناسخ الثابت.[7] وكذلك قول ابن عباس يدل على ذلك.[8] وقد أجمع أهل العلم على ما ذكره عبادة في آخر حديثه، فقالوا جميعا: إن الغنيمة يُخرَج خُمسها[9] للأصناف الذين ذكرهم الله،[10] إلا ما اختلفوا فيه من سهم ذوي القربى،[11] ثم تُقسَم[12] الأربعة الأخماس[13] بين أهل القسمة. وجَعَلوا للإمام أن يُنَفِّل السَّلَب[14] وغيره، فيقولَ: «مَن قَتَل قَتِيلا فله سَلَبُه»،[15] يُحرِض بذلك المُقاتِلة، ويُنَفِّلَ السَّرِيَّة تخرج[16] من العسكر[17] شيئا بعد الخُمس. ومما أجمعوا عليه قسمة[18] الغنيمة أخماسا لنزول[19] القرآن [بذلك]. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الغنيمة لم تَحِلّ[20] لأحد قبلنا، وقد أُحِلَّت لنا».[21]

---

[1] جميع النسخ: الفعل.

[2] ن – كان.

[3] ع: وفي الحديث.

[4] سورة الأنفال، ٨/٤١.

[5] ع م: ذكر.

[6] ع م: وأنه حكم.

[7] أخرجه ابن مَرْدَوَيه عن عبادة بن الصامت؛ انظر: *الدر المنثور* للسيوطي، ٤/٧١.

[8] *تفسير الطبري*، ٩/١٧٥؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٤/٨.

[9] ن: خمسه.

[10] أي الذين ذكروا في الآية: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير﴾ (سورة الأنفال، ٨/٤٤).

[11] م: ذو القربى.

[12] ن – يقسم، صح، ه؛ ن + يقيم؛ ع م: ثم يقسم.

[13] ك: أخماس.

[14] السَّلَب: هو ما يأخذه المُقاتِل من عدوّه مما يكون عليه ومعه من سلاح وثياب وغيرها (*النهاية في غريب الحديث* لابن الأثير، «سلب»).

[15] وهو لفظ حديث نبوي؛ انظر: صحيح *البخاري* فرض الخمس ١٨؛ وصحيح *مسلم*، الجهاد ٤١.

[16] ن ع م: يخرج.

[17] ن: عن العسكر.

[18] جميع النسخ: عليه من قسمة.

[19] جميع النسخ: نزول.

[20] ع: لم تحمل.

[21] روي بمعناه؛ انظر: صحيح *البخاري*، فرض الخمس ٨؛ وصحيح *مسلم*، الجهاد ٣٢.

وروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لم تَحِلَّ الغنيمة لقومٍ سُودِ الرءوس[١] قبلكم، كانت[٢] تنزل نار[٣] من السماء فتأكلها»، فلما كان يوم بدر أسرع الناس في الغنائم، فأنزل الله تعالى: لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا،[٤] ونحو ذلك. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **يسألونك عن الأنفال**، يحتمل وجوها. أحدها **يسألونك** عمن له **الأنفال**، فقال: **قل الأنفال لله والرسول**. والثاني **يسألونك**[٥] **الأنفال**، على إسقاط "عَنْ"، وقد كانوا يسألون[٦] **الأنفال** والمغانم. والثالث يسأل كلٌّ عن نَفَله[٧] الذي جُعِل له. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **فاتقوا الله وأصلحوا**، قال أهل التأويل: **اتقوا الله** في أخذ **الأنفال**، ولكن في **الأنفال** وفي غيرها **اتقوا**[٨] معصية الله ومخالفته في أمره ونهيه. **وأصلحوا ذات بينكم**، أمر بإصلاح ذات البين، لما ذكر من عظيم[٩] مِنَّته ونِعَمه التي أنعم عليهم، بقوله: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا،[١٠] أخبر أنهم كانوا أعداء فألّف بين قلوبهم،[١١] وذلك من[١٢] عظيم نعمه عليهم. فأمر هاهنا بإصلاح ذات البين ليكونوا على النعمة التي أنعمها عليهم مجتمعين غير متفرّقين.

وقوله عز وجل: **وأطيعوا الله ورسوله**، أي **أطيعوا الله**،[١٣] في أمره ونهيه، **ورسوله**، / في آدابه [٢٨٠ظ] وسننه، **إن كنتم مؤمنين**. أو يقول: **أطيعوا الله**، فيما دعاكم إليه ورغّبكم فيه، **ورسوله**، فيما بين لكم، **إن كنتم مؤمنين**، يعني مصدّقين به.

---

[١] م: الرأس. «والمراد بسود الرءوس بنو آدم، لأن رءوسهم سود» (*تحفة الأحوذي* للمُبارَكْفُوري، ٣٧٧/٨).
[٢] ن + تترك.
[٣] م: نار تنزل.
[٤] سورة الأنفال، ٦٨/٨-٦٩. وانظر: مسند *أحمد بن حنبل*، ٢٥٢/٢؛ وسنن *الترمذي*، التفسير ٨. وصححه الترمذي.
[٥] م + عن.
[٦] ن ع م: يسألونك.
[٧] جميع النسخ: عن نفل له.
[٨] ن: واتقوا.
[٩] ن: من عظم.
[١٠] سورة آل عمران، ١٠٣/٣.
[١١] ن - قلوبهم؛ ع م: قلوبكم.
[١٢] ع + أمر.
[١٣] ن + ورسوله.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٢]

وقوله عز وجل: **إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِر الله وَجِلت قلوبهم**، إلى آخر ما ذكر، يحتمل وجوها. [الأول] يحتمل قوله: **إنما المؤمنون الذين** حققوا إيمانهم بما ذكر من الأفعال. والثاني[١] **إنما المؤمنون الذين** ظهر صدقهم عندكم بما ذكر من الأفعال مِن وَجَل القلب والخشية والثبات واليقين على ما كان عليه. ليس[٢] كالمنافقين الذين كانوا مرتابين في إيمانهم،[٣] كما وصفهم في آية أخرى، حيث قال: وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى،[٤] وكانوا إذا أنفقوا أنفقوا كارهين،[٥] وكانوا لا يذكرون الله إلا قليلا مراءاة للناس.[٦] وأما المؤمنون فهم الذين يقومون بوفاء ذلك كله حقيقة، فيظهر صدقهم بذلك. وهو ما وصفهم في آية أخرى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ.[٧] و[الثالث] يحتمل[٨] أن يكون على الاعتقاد خاصة، ليس على نفس العمل، كأنه قال: **إنما المؤمنون الذين** اعتقدوا في إيمانهم ما ذكر مِن وَجَل القلوب، والخشية عند ارتكاب المعصية والتقصير عن القيام بما عليه. وما يرتكب المؤمن من المعاصي إنما يرتكب عن جهالة، ثم يتوب عن قريب، كقوله: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ،[٩] يرتكب ذلك إما لغلبة[١٠] شهوة، أو يعتقد التوبة من بعده، أو يرجو[١١] رحمة الله وفضله[١٢] في العفو عن ذلك.

---

[١] ع – قوله إنما المؤمنون الذين حققوا إيمانهم بما ذكر من الأفعال والثاني؛ م – إنما المؤمنون الذين حققوا إيمانهم بما ذكر من الأفعال والثاني.

[٢] ن – ليس، صح هـ.

[٣] م: في إيمانكم نهم.

[٤] سورة النساء، ١٤٢/٤.

[٥] ﴿وما مَنَعهم أنْ تُقْبَل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كُسَالَى ولا ينفقون إلا وهم كارهون﴾ (سورة التوبة، ٥٤/٩).

[٦] ﴿إن المنافقين يُخَادِعون الله وهو خَادِعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسَالَى يُرَاءُون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا﴾ (سورة النساء، ١٤٢/٤).

[٧] سورة الحجرات، ١٥/٤٩.

[٨] ع: يحتمل.

[٩] سورة النساء، ١٧/٤.

[١٠] ن: إما الغلبة.

[١١] ع: أو يرجوا.

[١٢] ع م: من فضله.

فيكون قوله: **إنما المؤمنون** [هم] الذين اعتقدوا[١] ما ذكر من الأفعال. وهو كقوله: فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ،[٢] هو على[٣] الاعتقاد والقبول له، أنهم إذا اعتقدوا ذلك وقبلوا يخلّي سبيلهم وإن لم يقيموا الصلاة وما ذكر، فعلى ذلك الأول[٤] يحتمل ذلك.
والرابع يحتمل قوله: **إنما المؤمنون** هم الذين فعلوا هذا وأتوا بذلك كله. لكنهم أجمعوا أنّ مَن آمن بقلبه وصدّق كان مؤمنا وإن لم يأت بغيره من الأفعال، نحو أن يؤمن ثم يُخْتَرَم[٥] ويموت من ساعته، [فإنه] يموت[٦] مؤمنا. فدل أنه لم يخرج ذلك على الشرط لما ذكرنا، ولكن على الوجوه الثلاثة التي ذكرنا.[٧] *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم**، يخرج على وجوه. أحدها يخبر أن المؤمن[٨] هو على وصف ما ذكر. أو يقول:[٩] إن المؤمنين [هم] الذين ينبغي أن يكونوا ما ذكر.[١٠] أو يقول:[١١] **إنما المؤمنون** [هم] المختارون ما ذكر. جَعَل الله تعالى ما ذكر مِن وَجَل القلب[١٢] وغيره عَلَما بين الذين حقّقوا[١٣] الإيمان في الظاهر والباطن وبين الذين أظهروا الإيمان وأضمروا[١٤] الكفر والخلاف. وكذلك ما ذكر في آية أخرى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا.[١٥]

---

[١] جميع النسخ + إيمانهم.
[٢] سورة التوبة، ٩/٥.
[٣] م - على.
[٤] ع م: الأفعال.
[٥] م: ثم يخرم. أُخْتُرِم فلان عنا: مات وذهب، واخْتَرَمَته المَنِيَّة مِن بين أصحابه: أخذته من بينهم، واخْتَرَمَهم الدهر وتَخَرَّمَهم أي اقتطعهم واستأصلهم (*لسان العرب* لابن منظور، «خرم»).
[٦] ن ع م: مات.
[٧] لعله يقصد الوجه الثاني واللذين بعده.
[٨] م: أن المؤمنين.
[٩] ع م: أو نقول.
[١٠] ن: أما ذكر.
[١١] ك: أو يقولون.
[١٢] ع: القلوب.
[١٣] ك: تحققوا.
[١٤] ك: وأظهر ضمروا.
[١٥] ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه﴾ (سورة النور، ٢٤/٦٢).

وقوله عز وجل: **وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيمانا**، يحتمل قوله: **آياته**، حججه وبراهينه، **إذا تُليت عليهم** تلك[1] يزداد لهم ثباتا وقوة على ما كانوا. وأما المنافقون فإن الآيات التي تنزل[2] كانت تزداد لهم بها[3] رجسا وبُعدا؛ وأما المؤمنون[4] يزيد لهم ذلك[5] ثباتا وقوة. أو ذكر الزيادة[6] لأن للإيمان حكم التجدّد والحدوث في كل وقت وكل ساعة،[7] فإذا كان له حكم الحدوث والتجدّد فهو زيادة على ما كان، فإن شئت سميتها زيادة، وإن شئت سميتها[8] ثباتا. وقال أبو حنيفة رحمه الله: يزيد الإيمان، بالتفسير على الإيمان بالجملة، فإذا فسّروا لهم وقالوا: فلان رسول ونبي، ازداد بذلك له إيمانا، وإن كان قد آمن به بالجملة. وكذلك الإيمان بجميع الكتب والأَمْر، وإنْ كُنّا نؤمن في الجملة أن له الخَلْق والأَمْر، فإذا عرف ذلك الأَمْر ازداد له إيمانا في ذلك. *والله أعلم*. لأنّ[9] مَن آمن بالله وأنّ له الخلق والأمر فقد أتى بِعُقْدة الإيمان، فإذا جاء بالتفسير واحدا بعد واحد ازداد له إيمانه بالتفسير على إيمانه بالجملة.

وقوله عز وجل: **وعلى ربهم يتوكلون**، أي **على ربهم** يَثِقون ويعتمدون في كل أمورهم، لا يَتّكِلون[10] على غيره، إنما **يتوكلون** على الله. وليس كالمنافقين، هم إنما **يتوكلون** على النعم التي أُعْطُوا، كقوله: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ،[11] ونحو ذلك. وأما المؤمن فإنه في جميع أحواله يتوكّل على الله ومنه يخاف، وإن كان يصل ذلك إليه ويجري على يدي غيره فهو في الحقيقة من الله.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٣]

وقوله عز وجل: **الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون**، بحق الله الذي عليهم.

---

[1] جميع النسخ: ذلك.
[2] م: التي نزلت.
[3] م - بها.
[4] ع: وبعد فإن المؤمنون؛ م: فإن المؤمنون.
[5] ع - ذلك.
[6] ك: للزيادة.
[7] م: وساعة.
[8] ك ن ع: سميته.
[9] م + كل.
[10] ع: لا يكلمون.
[11] سورة الحج، ١١/٢٢.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[٤]

وقوله عز وجل: **أولئك هم المؤمنون حقا**، يحتمل وجهين. يحتمل **أولئك** الذين حقّقوا إيمانهم. والثاني **أولئك** [هم] **المؤمنون** الذين وعد لهم وعدا **حقا**، وهو ما وعد[١] لهم من الدرجات والمغفرة، حقّ لهم ذلك الوعد. *والله أعلم*.

لهم درجات عند ربهم، قيل: فضائل **عند ربهم ومغفرة**، أي يستر عليهم ذنوبهم -التي كانت لهم في الدنيا- في الجنة وينسونها، لأنّ ذِكر ذلك يُنَغِّص[٢] عليهم نعمهم[٣] التي أنعم عليهم، **ورزق كريم**، قال[٤] الحسن: **ورزق** يُكرَم أهلُه به.[٥]

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾[٥]

وقوله عز وجل: **كما أخرجك ربك / من بيتك بالحق**، لم يخرج لهذا الحرف جواب في الظاهر، [٢٨١و] لأن جوابه أن يقول: **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** يفعل بك كذا. ثم أهل التأويل اختلفوا في جوابه. قال بعضهم: هو صلة قوله: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ،[٦] يقول: **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون** يُجَادِلُونَكَ،[٧] [أي] كما كرهوا الخروج وجادلوك في قسمة الأنفال جادلوك في أمر السَّيْر.[٨] ومنهم من يقول: جوابه في أمره بالقتال، يقول: **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** وهم كارهون لذلك كذلك يُكلِّفك القتال وهم كارهون لذلك. ومنهم من يقول: جوابه في قوله: إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ،[٩]

---

[١] ن - ما وعد.

[٢] م: ينقص. نَغَّص عليه عَيْشه تَنغِيصا، أي كَدَّره... نَغَّص علينا أي قَطَع علينا ما كان نُحب الاستكثار منه (*لسان العرب* لابن منظور، «نغص»).

[٣] ن ع م: نعمتهم.

[٤] جميع النسخ: قيل. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٣٢٣و.

[٥] م: به أهله.

[٦] سورة الأنفال، ٨/١.

[٧] الآية التالية.

[٨] ن ع م: الغير. أي السَّيْر إلى القتال. وعبارة الشارح كما يلي: «يقول: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعدما تبين﴾ لهم كذلك يجادلونك في قسمة الأنفال ويسألونك عنها» (*شرح التأويلات*، ورقة ٣٢٣و).

[٩] سورة الأنفال، ٨/١١.

يقول: كما أجبتم الله في الخروج[١] للقتال على غير تدبير منكم في ذلك ولا نظر[٢] فعلى ذلك يجيبكم في النعاس أَمَنَةً منه وإنزال الماء من السماء والتطهير به وتثبيت الأقدام على غير علم[٣] منكم ولا تدبير. ومنهم من يقول: قوله: **كما أخرجك ربك من بيتك**، غير مُتَأَهِّبين للقتال ولا مُستعدّين له كذلك يَعِدكم النصر والظفر. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **بالحق**، يحتمل وجوها. يحتمل **بالحق** الذي لله عليهم من الأمر بالخروج والقتال. ويحتمل **بالحق**، بالوعد الذي وعد، إذ وعد[٤] لهم النصر والظفر. وقال بعض أهل التأويل: **بالحق**، أي بالقرآن. ولكن إن كان[٥] فهو ما ذكرنا بالأمر الذي[٦] يأمر القرآن.

وقوله عز وجل: **وإن فريقا من المؤمنين لكارهون**، يحتمل وجهين. يحتمل **فريقا من المؤمنين** في الظاهر، وهم المنافقون، كرهوا الخروج للقتال. ويحتمل أن يكون المؤمنون في الحقيقة كرهوا الخروج للقتال كراهة الطبع لا كراهة الاختيار، لما أُمِروا بالخروج للقتال وهم غير مُتأهِّبين للقتال[٧] ولا مُستعدِّين له،[٨] فكرهت أنفسهم ذلك كراهة الطبع لما لم يكن معهم أسباب القتال، لا أنهم[٩] كرهوا أمر الله كراهة الاختيار. وفي هذه الآية دلالة أنّ الأمر قد يكون في الشيء وإن لم يُعلَم وقتَ الأمر فيما يؤمر. وفيه دليل جواز تأخر[١٠] البيان، لأنهم أُمِروا بالخروج للقتال وهم لم يعلموا[١١] وقت الخروج على ماذا يؤمرون.

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾[٦]

وقوله عز وجل: **يجادلونك في الحق**، قيل: في القتال. وقيل: قوله: **في الحق**، الذي أُمِرت به أن تسير إلى القتال. ويحتمل أن يكون قوله: **في الحق**، الوعد الذي وعد لهم بالنصر والظفر **بعد ما تبيّن** لهم.

---

١ ك: بالخروج.
٢ ع: وعلى نظر.
٣ ن – علم، صح هـ.
٤ ع م – إذ وعد.
٥ ع م: ولكن كان.
٦ ك: بالذي.
٧ ع م – وهم غير متأهبين للقتال.
٨ ع م – له.
٩ ع: لأنهم.
١٠ ع + جواز تأخر.
١١ م: و لم يعلموا.

يحتمل[١] قوله: **بعد ما تبيّن** لهم الوعد الذي[٢] وعد لهم الله[٣] عز وجل بالنصر.

وقوله عز وجل: **كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون**، فإن كانت الآية في المنافقين فهو ظاهر، وهم كذلك وُصِفوا بالكسل في جميع الخيرات والطاعات، كقوله: وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً.[٤] وإن كان في المؤمنين الذين حققوا الإيمان فهو لما كانوا غير مستعدين للقتال ولا متأهِّبين له، كانوا كارهين لذلك[٥] كراهة الطبع لا كراهة الاختيار.

وقال قائلون: قوله: **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون**، أي[٦] **وإن فريقا من المؤمنين** أجابوا ربهم وإن كانوا كارهين للخروج من شدة الخوف، وإن كانوا من الخوف **كأنما**[٧] **يساقون إلى الموت**، فأجاب الله تعالى لهم بالنصر والظفر وآمَنَهم من ذلك الخوف. ***والله أعلم.***

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾[٧]

وقوله عز وجل: **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم**، ذكر في بعض القصة أنّ عِير[٨] قريش حين أقبلت من الشام خرج أصحاب رسول الله نحوهم على ما يُخرَج إلى العِير غير مُتأهِّبين[٩] للحرب. وخرجت قريش من مكة تُغيث عِيرها، فهي الطائفة الأخرى. وعد لهم أن **إحدى الطائفتين** لهم، إما العِير وإما العسكر أنهم يُنصَرون عليهم. **وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم**، أي التي ليس فيها حرب، ثم يكون لكم العِير، وهي أهون شوكة وأعظم غنيمة، كانوا يَودّون ذلك. وقوله عز وجل: **وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم**، لما لم تكونوا مُعدّين للقتال[١٠] والحرب، وكان بهم ضَعف، وفي أولئك قوة وعُدّة. ***والله أعلم.***

---

[١] م: ويحتمل.
[٢] ن: والذي.
[٣] ك ن - الله.
[٤] سورة النساء، ٤/١٤٢.
[٥] ع م: كذلك.
[٦] ع: وأي.
[٧] ن: كأنهم.
[٨] العِير القافلة (*لسان العرب* لابن منظور، «عير»).
[٩] ع م + إنها لكم ذكر في بعض القصة.
[١٠] ك: القتال.

قال الله تعالى: **ويريد الله أن يُحِقّ الحقّ بكلماته**، يحتمل[1] -والله أعلم- يريد أن يُظهِر الحق بآية[2] منه[3] من غير وجود الأسباب منهم. وهو كما ذكر في قوله: قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ،[4] أخبر أن في غلبة أولئك مع ضعف أبدانهم وقلة عددهم وقصور أسباب الحرب من السلاح والعُدة وغير ذلك، وقوة أبدان أولئك وكثرة عددهم وعدتهم وتأهبهم واستعدادهم لذلك، آيةً عظيمة. فأراد أن يُظهِر الحق بالآية، ليعلم كل منهم أنه إنما كان ذلك بالله لا بهم. وهو ما قال: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى،[5] أخبر أنه كان بالله ذلك لا بهم. ويحتمل قوله: **بكلماته**، بالوعد الذي وعد رسول الله عليه السلام بالنصر والظفر لهم، فأراد أن يُظهِر / ذلك ويحقِّقه. ويحتمل **بكلماته**، بعلمه وأمره. ويحتمل [٢٨١ظ] **بكلماته**، بحججه،[6] أي يوجب الحق ويُظهِره[7] بحججه وبراهينه. ويحتمل **بكلماته**، البِشارات التي بَشّر بها المؤمنين[8] بالنصر لهم والظفر والعِدَات[9] التي كانت[10] منه[11] [لهم]. ويحتمل **بكلماته**،[12] ملائكته الذين بعثهم مَددا لهم[13] يوم بدر على ما ذكر، فأضافهم إليه تعظيما لهم وإجلالا[14] على ما سمّى عيسى روح الله وكلمته، وموسى كليمَ الله، تعظيما لهم وإجلالا، فعلى ذلك هذا.[15] *والله أعلم*.

ويقطع دابر الكافرين، يحتمل يقطع[16] آثار الكافرين، يُقتَلون جميعا ويستأصلون حتى لا يبقى لهم أثر. ويحتمل يقطع ما أدبرهم حتى لا يأتيهم مَدد.

---

[1] ع: ويحتمل.
[2] م: بأنه.
[3] ع – منه.
[4] سورة آل عمران، ١٣/٣.
[5] سورة الأنفال، ١٧/٨.
[6] ن: حججه.
[7] جميع النسخ: ويظهر.
[8] ن + لهم.
[9] ك ن: والعداة؛ ع م: والعداوة. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٣٢٣ظ.
[10] ن ع: كان.
[11] جميع النسخ: منهم.
[12] ك ن ع + كلماته.
[13] ك: لهم مددا.
[14] ك + لهم.
[15] م – هذا.
[16] ع م – يقطع.

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[٨]

وقوله عز وجل: **ليُحِقّ الحقَّ**، أي ليُظهِر الحق ويوجب، يقال: حَقَّ كذا، أي وجب. ويحتمل ليُظهِر حقّ الحقّ، ويُظهِر بطلان الباطل. أو أن يقال: قوله: **ليحق الحق ويبطل الباطل**، ما ذكرنا، يجب الحق ويجيء،[١] ويذهب[٢] الباطل، كقوله: جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ،[٣] أي ذهب. فعلى ذلك[٤] هذا، يجيء الحق ويجب، ويذهب الباطل، وإن كره المشركون.*

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[٩] ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١٠]

ثم اختلف في قوله: **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنّي مُمِدُّكم**، الآية. قال[٥] بعضهم: هو صلة قوله: وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ،[٦] قالوا: قوله: **بألف من الملائكة مُرْدِفِين**، ألفان، وقوله: بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ، فيكون خمسة آلاف مُسَوِّمِين. ومنهم من يقول: ثلاثة [آلاف] كان في أُحُد، إذ ذكر على أثر قصة أُحُد. فإن كان ما ذكروا فكان قوله:[٧] **بألف من الملائكة مُرْدِفين**، إما في إرداف الكفرة، وهو التتابُع،[٨] [أي يتابعون المشركين يوم بدر في حال ما][٩] تَابَع أهلُ بدر المشركين وهم منهزمون. أو أن يكون الإرداف الإمداد، فيكون ألفان. وقال بعض أهل التأويل: إن قوله: **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم**، هو رسول الله. وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم [لمّا] رأى كثرة المشركين ببدر[١٠] علم أنه لا قوة لهم إلا بالله،

[١] ن: وتجيء؛ م – ويجيء.
[٢] م: يذهب.
[٣] سورة الإسراء، ٨١/١٧.
[٤] ن – ذلك.
* وقع هنا مقطع من التفسير متعلق بمجموع هذه الآيات، فأخرناه إلى تفسير الآية التالية؛ انظر: ورقة ٢٨١ظ/سطر ٩-٢٣.
[٥] ع م: وقال.
[٦] ﴿ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلّة فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألَنْ يكفيَكم أن يُمِدَّكم ربكم بثلاثة آلافٍ من الملائكة مُنْزَلين. بلى إنْ تصبروا وتتقوا ويأتوكم مِن فَوْرِهم هذا يُمْدِدْكم ربّكم بخمسة آلاف من الملائكة مُسَوِّمِين (سورة آل عمران، ١٢٣/٣-١٢٥).
[٧] ع + ما ذكروا فكان قوله.
[٨] جميع النسخ: المتتابع.
[٩] والتصحيح مع الزيادة من *شرح التأويلات*، ورقة ٣٢٤و.
[١٠] ن – ببدر.

فدعا ربه وتضرّع إليه.[1] ولكن ذلك قولهم عندنا -والله أعلم- أعني قول المؤمنين. ألا ترى أنه قال: إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بكذا. *والله أعلم بذلك*. وليس لنا[2] إلى معرفة ذلك حاجة، سوى أن فيه البِشارة لهم بالنصر والطُّمَأْنِينَة لقلوبهم، وإنباء أنّ حقيقة النصر إنما يكون بالله، لا بأحد سواه. وذلك قوله: **وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز**، لا يُذِلّه شيء ولا يُعْجِزه، **حكيم**، في أمره ونهيه، لا يأمر بشيء ولا ينهى عن شئ إلا وفيه حكمة. وفائدة ما ذكر مِن بَعْث مَدَدِ ألف ملك وثلاثة آلاف وما ذكر،[3] لطمأنينة قلوب أولئك المؤمنين، وإلّا مَلَك واحد كافٍ لهم وإن كَثُروا، لأنه يراهم ولا يرونه،[4] وإهلاك مثله سهل.

[٢٨١و س٩] *فإن قيل: في قوله: كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ،[5] وقوله: **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم**، كيف خافوا كل هذا الخوف حتى وصفهم بشدة الخوف، كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ، وقد وعد لهم النصر والظفر بقوله: وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ،[6] وكيف[7] استغاثوا ربهم في ذلك وقد سبق منه لهم الوعد بالظفر والنصر؟[8]

قيل:[9] يمكن أن تُصرَف[10] الآية إلى المنافقين، وهو قوله: كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ،[11] غير أنه ذكر في بعض القصة أنه لم يكن ببدر منافق،[12] بل كانوا كلهم مؤمنين، حتى افتخر بذلك مَن شَهِد بدرا. وإن كان[13] في المؤمنين فهو ما ذكرنا لقلة عددهم وضعفهم

---

[1] ع م - إليه. وللحديث انظر: صحيح *مسلم*، الجهاد ٥٨؛ وسنن *الترمذي*، التفسير ٨؛ وتفسير *الطبري*، ١٨٩/٩؛ والدر *المنثور* للسيوطي، ٢٨/٤.
[2] ع م - لنا.
[3] ع: وذكر.
[4] ع: ولا يرون.
[5] سورة الأنفال، ٦/٨.
[6] سورة الأنفال، ٧/٨.
[7] م: كيف.
[8] ك: بالنصر والظفر.
[9] جميع النسخ: وقد.
[10] م: يمكن تصرف.
[11] سورة الأنفال، ٦/٨.
[12] ورد معناه في حديث طويل قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «... وما يُدريك لعلّ الله أن يكون قد اطَّلع على أهل بدر فقال: "اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم"» (صحيح *البخاري*، الجهاد ١٤١؛ وصحيح *مسلم*، فضائل الصحابة ١٦١».
[13] ك: البدر أو إن كان.

وكثرة أولئك وعُدّتهم كانوا كما وصف. *والله أعلم*. لكن الآية تحتمل[١] وجوها. أحدها أمكن أن يكون الوعد لهم بالنصر بُيّن لرسوله ولم يُبَيَّن لهم، فأُلقِي في قلوبهم الرعبُ والخوفُ لما لم يُبَيَّن لهم الوعد بالنصر. أو بُيِّن[٢] لهم وبلغهم الوعد بذلك، لكن لم يُبَيَّن لهم الوقت متى يكون ذلك؛ ألا ترى أنهم أُمِروا بالخروج ولا يدرون إلى ماذا يؤمرون. والثالث يجوز[٣] أيضا أنّ بيّن لهم الوعد بالنصر وبلغهم ذلك،[٤] غير أنهم خافوا ذلك وكرهوا خوف طَبْع وكراهة النفس، لا كراهة الاختيار. وجائز[٥] الخوف في مثل هذا وكراهة الطبع، وإن كانوا على يقين بالنصر والظفر وتحقيق ذلك لهم. والرابع يجوز أن يكون الوعد لهم بالنصر والظفر بالتضرّع إليه والاستغاثة منه، على ما يكون في الدعوات،[٦] يكون شقاوة بعض ودخوله النار بمعاصٍ[٧] يرتكبها، وسعادة آخر ودخوله الجنة بخيرات يأتي بها، فيصير من أهلها. والخامس جائز أن يكون ذلك من الله تعالى لهم محنة يمتحنهم بها، كقوله: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ،[٨] الآية. يحتمل[٩] معنى الآية الوجوه التي ذكرنا.[١٠]
والله أعلم.* [٢٨١ظ س٢٣]

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾[١١]

وقوله عز وجل: **إذ يُغَشِّيكم النعاس أَمَنَةً منه وينزّل عليكم من السماء ماء ليطهّركم به**، ذكر **النعاس** بعد شدة خوفهم، و**النعاس** لا يكون ممن اشتدّ به الخوف، ولا يغشاه إلا بعد الأمن، فذكر[١١] لطفه ومنّته،

---

[١] ن: يحتمل.
[٢] ن ع: أو يبين.
[٣] ع: ويجوز.
[٤] ع + ذلك.
[٥] ن + أن يكون.
[٦] ع: في الدعواة.
[٧] ك: بمعاصي.
[٨] سورة البقرة، ١٥٥/٢.
[٩] ن + أن يكون.
[١٠] ع: ذكر.
* وقع ما بين النجمتين في تفسير الآية السابقة، فأخرناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٨١ظ/سطر ٩-٢٣.
[١١] ك: وذكر.

[وهو] الأمن بعد شدة الخوف. ذَكَر عظيم ما منّ عليهم من الأمن، لما ذكر من إلقاء **النعاس** عليهم، و **النعاس** إنما يكون بعد الأمن، بعد ما كان من حالهم ما ذكر حيث قال: كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ.[1]

وقوله عز وجل: **وينزّل عليكم من السماء ماء ليطهّركم به،** ذكر في بعض[2] القصة [٢٨٢و] / أن المشركين سبقوا فأخذوا الماء، فبقي المسلمون في رَمْل لا يثبت أقدامهم عَطْشَى، فوسوس إليهم الشيطان أنهم لو كانوا على حقٍ ما بُلُوا بمثل ذلك في رَمْل لا تثبت أقدامهم عَطْشَى، فأبدل الله تعالى لهم[3] مكان الخوف أَمْنًا يأمَنون به، وأنزل عليهم **من السماء ماء** ليطهّرهم به، ويشربون ويَشُدّ[4] به الرَّمْل، وتثبت[5] أقدامهم، فذلك قوله: **إذ يُغَشِّيكم النعاسَ أَمَنَةً منه وينزّل عليكم من السماء ماء ليطهّركم به ويُذهِب عنكم رِجز الشيطان وليَربِط على قلوبكم ويثبِّت به الأقدام.** قال أهل التأويل: **[رجز الشيطان]** وسوسة الشيطان التي وسوس إليهم. وقيل: الرجز الإثم، ذَهَب ذلك عنهم، كقوله: فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا.[6] وقوله عز وجل: **وينزّل عليكم من السماء ماء ليطهّركم به،** ذكر هذا -والله أعلم- على المبالغة في المنة،[7] أنه[8] أخبر أنه أنزل **من السماء** ما فَضَل[9] عن حوائجهم حتى وجدوا ما يطهّر[10] أنفسهم وأبدانهم. وذَهَب عنهم[11] **رجز الشيطان،** ذكر السبب الذي به يذهب الرجز، لأن الرجز[12] هو العذاب، فذكر الرجز والمراد منه[13] سبب الرجز.

---

[1] سورة الأنفال، ٨/٦.
[2] ن - بعض.
[3] ع م - لهم.
[4] جميع النسخ: ويشدد.
[5] ن ع م: فثبت.
[6] ﴿قل لا أجد في ما أوحي إليّ محرّما على طاعم يَطْعَمُه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فِسْقًا أُهِلَّ لغير الله به﴾ (سورة الأنعام، ٦/١٤٥).
[7] ع - في المنة.
[8] م - في المنة أنه.
[9] ن: ماء فضل.
[10] ك ن: وجدوا لتطهير؛ ع: وجدوا ليطهر.
[11] ك: عنه.
[12] ع - لأن الرجز.
[13] ك ن ع: منهم.

[٢٨٢و س١٣ *وقوله: **ويذهب عنكم رجز الشيطان**، قيل: وسوسة الشيطان. وهو ما ذكر في بعض القصة أن المسلمين أصابهم ضَعْف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم القُنُوط[١] و[هو] يوسوسهم ويقول لهم: تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تُصلّون مُجْنِبين،[٢] فأمطر الله عليهم مطرا شديدا، فشرب المسلمون وتطهّروا وذهب[٣] عنهم **رجز الشيطان**، ونَشِف الرَّمْل حين أصابه المطر، [و]مشى الناس عليه والدوابّ، فساروا إلى القوم، وأمدّ الله عز وجل نبيّه والمؤمنين بألف من الملائكة، فذلك قوله: بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ.[٤]* ٢٨٢و س١٨]

وقوله عز وجل: **وليَرْبِط على قلوبكم ويُثَبِّت به الأقدام**، يحتمل حقيقة تثبيت **الأقدام**. ويحتمل الثبات على[٥] ما هم عليه. والربط هو الشدّ لشيء. فيحتمل قوله: **وليَربِط على قلوبكم**، أي شدّها حتى لا يزول[٦] أحد عما هو[٧] فيه ولا يزيغ عن ذلك، وإن ابتلاه الله تعالى بأنواع الشدائد والبلايا. ذكر في التوحيد والإيمان الربط والتثبيت،[٨] بقوله:[٩] كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ،[١٠] وقوله: **وليَربِط على قلوبكم**، وقوله: وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ.[١١] وذكر في الشرك والكفر الطبع والختم والقُفْل،[١٢] ونحوه. فهو -والله أعلم- عقوبة لهم لما اختاروا[١٣] ذلك.[١٤]

---

[١] ك ن ع: القنط.

[٢] ع: مجنبين. أي تصلون في حال الجنابة غير طاهرين.

[٣] م: وأذهب.

[٤] سورة الأنفال، ٨/٩.

* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٨٢و/سطر ١٣-١٨.

[٥] ع + هؤلاء.

[٦] ع م: لا يزال.

[٧] ن - هو.

[٨] ع: والتثبت.

[٩] ك: فقوله.

[١٠] سورة الفرقان، ٢٥/٣٢.

[١١] سورة الكهف، ١٨/١٤.

[١٢] ع: والفعل. ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٠١)؛ ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ (سورة البقرة، ٢/٧)؛ ﴿أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوبٍ أَقْفَالُها﴾ (سورة محمد، ٤٧/٢٤).

[١٣] ع: ما اختاروا.

[١٤] ك: لذلك.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[١٢]

ثم قال: **إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبّتوا الذين آمنوا**، الوحي كأنه[١] يسمّى وحيًا لسرعة قَذْفه في القلوب ووقوعه[٢] فيها. ولذلك سمّى -والله أعلم- وساوس الشيطان وحيا بقوله: وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ،[٣] أي يقذفون في قلوبهم ويَدْعون إلى أشياء من غير أنْ عَلِموا بذلك أنه ممن جاء ذلك. وما سبب ذلك [إلا] لسرعة قَذْفه ووقوعه في القلوب. وكذلك سمّى الإلهام وحيًا لسرعة وقوعه في القلب.[٤] قال الله[٥] تعالى: وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ،[٦] قيل:[٧] هو الإلهام، أي ألهم النحل لتتخذ[٨] من الجبال بيوتا. وقال عز وعلا: وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ،[٩] أخبر أنْ ليس له أن يُكلّمه إلا وحيا، وهو ما ألهمه. سمّي وحيا لسرعة وقوعه في القلب وقذفه فيه[١٠] على غير علم منهم أنه من[١١] أين كان وممّ كان. وفيه دلالة أنّ غيره هو الذي أَخْطَر ذلك في القلوب وقذفه[١٢] فيها، لا أنه يَحدُث ذلك بنفسه[١٣] على غير إخطار أحد ولا قذفه. فإن كان ما قذف فيه خيرا فهو من المَلَك، وإن كان شرا فهو من قذف الشيطان ووسوسته. ففيه دليل ثبوت المَلَك والشيطان. ***والله أعلم***.

وقوله: **أني معكم**، قيل: **أني معكم** في النصر والمعونة ودفع العدو عنكم. أو يقول: **أني معكم** في التوفيق. ويحتمل أن يكون قوله: **إذ يوحي ربك إلى الملائكة**، أي أخبر[١٤] المؤمنين **أني معكم**، لما ذكرنا من النصر والمعونة والدفع.

---

[١] ك: وكأنه؛ ع م: كان.
[٢] ع: وقوعه.
[٣] سورة الأنعام، ١٢١/٦.
[٤] م: في القلوب.
[٥] ك م – الله.
[٦] سورة النحل، ٦٨/١٦.
[٧] جميع النسخ: وقيل.
[٨] ع: تتخذ.
[٩] سورة الشورى، ٥١/٤٢.
[١٠] م – فيه.
[١١] ع + كان.
[١٢] جميع النسخ: وقذف.
[١٣] ن ع: سفه.
[١٤] ك ن ع: أي أخبروا.

وقوله عز وجل: **فثبتوا الذين آمنوا**، أمر ملائكته أن يثبّتوا الذين آمنوا بالنصر لهم والأمن بعد ما كانوا خائفين فَشِلين[١] جَبِينين[٢] لما أجابوا ربهم مع ضعف أبدانهم وقلة عددهم. فأبدلهم الله مكان الخوف لهم أَمْنا، ومكان الضَّعْف القوة والنصر، ومكان الذُّلّ العِزّ، وأبدل[٣] المشركين مكان الأمن لهم خوفا، ومكان العِزّ الذُّلّ، ومكان الكثرة الضَّعْف والفَشَل. فذلك[٤] -والله أعلم- قوله: **سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب**. وقوله: **فثبتوا الذين آمنوا**، جائز أن يكون نفسُ نزول الملائكة تثبيتَهم، لأنهم[٥] سبب تثبيتهم.[٦] أو يثبّتهم[٧] من غير أنْ عَلِم[٨] المؤمنون بهم.

وقوله: **فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بَنَان**، قال قائلون: قوله: **فاضربوا فوق الأعناق**،[٩] إذا ظفروا بهم ووقعوا في أيديهم، فعند ذلك يضرب **فوق الأعناق**، وهو المَفْصِل الذي يَبِين[١٠] الرأس [منه] بالضرب، لما نهي عن المُثْلة،[١١] وفي الضرب في غير ذلك مُثْلَة. ويحتمل قوله: **فاضربوا فوق الأعناق**، أي اضربوا الأعناق وما فوق الأعناق. **واضربوا منهم كل بَنان**، معناه -والله أعلم- أي اضربوا على ما تهيّأ لكم من الأطراف وغيرها. وأما قوله: **واضربوا منهم كل بَنان**، في الحرب، لأنه لا سبيل في الحرب إلى أن يضرب ضربا لا يكون مُثْلة، فكأنه قال: **فاضربوا فوق الأعناق**، إذا قدرتم عليهم ووقعوا[١٢] في أيديكم، **واضربوا منهم** / **كل بنان**، بحيث[١٣] ما تقدرون. ***والله أعلم***. [٢٨٢ظ]

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[١٣]

وقوله: **ذلك**، يعني -والله أعلم- **ذلك** الضرب والقتل، **بأنهم شاقوا الله**، أي حاربوا **الله ورسوله**، والمُشَاقَّة الخلاف، خالفوا الله ورسوله. **ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب**، له[١٤] في الآخرة.

---

[١] الفَشِل: الرجل الضعيف الجبان (*لسان العرب* لابن منظور، «فشل»).
[٢] جميع النسخ: جبنين. وجَبِين بمعنى جبان (*لسان العرب* لابن منظور، «جبن»).
[٣] م: وإبدال.
[٤] ن - فذلك.
[٥] ن: لأنه.
[٦] ك: تثبتهم؛ م - لأنهم سبب تثبيتهم.
[٧] ع: أو تثبيتهم.
[٨] ن: أن علموا؛ ع: غير علم.
[٩] ع + أي اضربوا الأعناق.
[١٠] ك ن ع: بيان.
[١١] انظر: صحيح *البخاري*، المظالم ٣٠؛ وصحيح *مسلم*، الجهاد ٣.
[١٢] ع: وقعوا.
[١٣] م: كيف.
[١٤] ن م - له.

﴿ذٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾[١٤]

وقوله: **ذلكم**، أي **ذلكم**[1] العقاب والعذاب، **فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار**، بالخلاف لله ورسوله والمحاربة معهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾[١٥] ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[١٦]

وقوله: **يا أيها الذين آمنوا إذا لَقِيتم الذين كفروا زَحْفًا فلا تُوَلُّوهم الأدبار**، كأنّ أولَ الأمرِ بالقتال وفرضِه كان لبذل الأنفس للهلاك،[2] لأنه ذكر الزَّحْف، والزَّحْف هو الجماعة والعَدد[3] الذي لا يُعَدّ،[4] وليس للواحد[5] القيام[6] للجماعة، فكان فرض القتال لبذل الأنفس للقتل. وعلى ذلك يخرج قوله: إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ،[7] وليس[8] في وسع الواحد القيام لعشرة إذا أحيط به. ويجوز أن يُفرَض بذل الأنفس للقتال، كقوله: وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ،[9] أخبر أنه لو أمر بذلك لم يفعل إلا القليل منهم، فجائز الأمر بذلك امتحانا منه لهم. فإن احتمل ما ذكرنا كان قوله: كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ،[10] هو على التحقيق، إذ إلى ذلك يُساقُون. ويحتمل وجها آخر، وهو أن الله عز وجل أمر بذلك ليكون آيةً ويَعرفَ كلُّ أحدٍ أنه إنما قام بالله، لا بقوة نفسه، إذ ليس في وُسْعِ أحدٍ القيامُ لعشرةٍ أو لجماعةٍ بقوّته إذا أحيط[11] به، فهو على الآية[12] إن كان فيه ما ذكرنا. *والله أعلم*.

---

[1] ك + أي.
[2] ن – للهلاك، + للقتل وعلى ذلك يخرج قوله إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين.
[3] م: والعدو.
[4] ن: لا يحد؛ ع م: لا يجد.
[5] م + للواحد.
[6] ك: للقيام.
[7] سورة الأنفال، ٨/٦٥.
[8] ن – وليس.
[9] سورة النساء، ٤/٦٦.
[10] سورة الأنفال، ٨/٦.
[11] ك: إذ أحيط.
[12] أي على وجه المعجزة.

وقوله:[١] **فلا تُوَلُّوهم الأَدْبَار ومن يُوَلِّهم يومئذ دُبُرَه إلا مُتَحَرِّفًا لِقتالٍ أو مُتَحَيِّزًا إلى فئة،** والمُتَحَرِّف للقتال هو المتنقِّل من مكان إلى مكان للحرب، والمتحيِّز إلى فئة هو الملتجئ إلى فئة على جهة العَوْد إليهم والحرب. يُقال: تحوَّزت وتحيَّزت بالواو والياء[٢] جميعا، [إذا توجّه][٣] نحو الحرب. وفيه النهي عن الانهزام والتولِّي عن العدو إلا ما ذكر من التحرُّف للقتال أو التحيُّز إلى الفئة على جهة العَوْد إليهم. ثم أخبر أن من ولَّى دُبُرَه بسوى ما ذكر، **فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير.**

قالت المعتزلة: دل ما أوعد المتحرّف بغير قتال والمتحيّز إلى غير الفئة بقوله: **فقد باء بغضب من الله،** أن مرتكب الكبيرة يخلد في النار، لأنه ذكر في أول الآية المؤمنين، ولهم خرج الخطاب بقوله: **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا،** ثم أوعد لهم الوعيد الشديد ما يوعد أهل النار غير أهل الإيمان. دلّ أنه يخرج عن الإيمان بارتكاب الكبيرة ويخلد في النار. وقالوا: لا يجوز صرف الآية إلى أهل النفاق، لما ذكر في القصة أنه لم يكن يوم بدر منافق.

لكن هذا غلط، قال الله تعالى: إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ،[٤] وإنما قالوا ذلك يوم بدر، كذلك ذكر. *والله أعلم*. وقوله عز وجل: **إلا متحرّفا لقتال أو متحيّزا إلى فئة،** فإن كان مستثنى من قوله: **فقد باء بغضب من الله،** لم يكن فيه رخصة التولِّي، ولكن فيه دفع الوعيد الذي ذكر. وإن كان مستثنى من قوله: **ومن يولهم يومئذ دبره،** ففيه رخصة التولِّي إلى ما ذكر. ثم الدلالة على أنه مستثنى من هذا دون الأول ما جاء عن غير واحد من الصحابة تَوْلِيَة الدبر إلى ما ذكر، وكذلك ما روي[٥] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أنا فئة لكل مسلم».[٦] وبَعد، فإنه لم يكن لأهل الإسلام فئة يوم بدر يتحيّزون إليها، فدل أنها في المنافقين وأهل[٧] الكفر. *والله أعلم*.

---

[١] ك: ثم قوله.

[٢] ك ن ع: بالياء والواو.

[٣] جميع النسخ + وهما. والتصحيح مع الزيادة من شرح *التأويلات*، ورقة ٣٢٥و.

[٤] سورة الأنفال، ٨/٤٩.

[٥] ك: وكذلك روي.

[٦] عن ابن عمر قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سَرِيَّة، فحاص الناس حَيْصَة، فقَدِمْنا المدينة، فاختَبَيْنا بها، وقلنا: هَلَكْنا، ثم أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلنا: يا رسول الله، نحن الفَرَّارُون، قال: «بل أنتم العَكَّارُون، وأنا فِئَتُكم» (*سنن أبي داود*، الجهاد ٩٦؛ و*سنن الترمذي*، الجهاد ٣٧). وفي رواية: «وأنا فئة كل مسلم» (*مسند أحمد بن حنبل*، ٢/١١٠). قال الترمذي: «هذا حديث حسن... ومعنى قوله: فحاص الناس حَيْصَة، يعني أنهم فَرُّوا من القتال، ومعنى قوله: "بل أنتم العَكَّارُون"، والعَكَّار الذي يفِرّ إلى إمامه لينصره، ليس يريد الفرار من الزحف» (المصدر السابق).

[٧] ن: أهل.

ثم يُقال: يجوز أن يكون ما ذكر من الوعيد لمعنىً في التولية عن الدبر والإعراض، لا لنفس التولية عن الدبر، إذ قد ذكر التولية عن الدبر في آية أخرى والعفو عن ذلك، وهو قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا،[١] الآية.[٢] فإن قيل: لعل التوبة مضمرة فيه، تابوا فعفا عنهم، قيل: إن جاز أن يجعل التوبة مضمرة فيها جاز أن يضمر في التولية عن الدبر الردّةُ، فليس تلك أولى بإضمار التوبة من هذه بإضمار الردة. وفي الآية مَعانٍ تدلّ على الإضمارِ، إضمارِ[٣] ما يوجب الوعيد الذي ذكر. *والله أعلم*. أحدها ذكر[٤] التحيُّز إلى فئة، وإذا لم يكن للمسلم فئة يتحيّز إليها فإذا تحيّز إنما يتحيّز ليصير إلى العدو، فهو الردة التي ذكرنا. والثاني ما ذكر في بعض القصة أنه لما اصطفّ القوم[٥] رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه فقال: «يا رب، إنْ تَهْلِكْ هذه العصابةُ[٦] فلن تُعبَدَ في الأرض أبدا».[٧] ومن هرب أو ولّى الدبر عن مثل تلك الحال لم يولّ إلا لِقَصْد أن لا يعبد، فهو كُفْر. والثالث قد وعد لهم النصر والظفر على العدو، فمن ولّى عن الدبر لم يولِ إلا لتكذيبٍ بالوعد الذي وعد لهم.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١٧]

وقوله عز وجل: **فلم تقتلوهم ولكنَّ اللهَ قتلهم وما رميتَ إذْ رميتَ ولكنَّ اللهَ رمى**، قيل فيه بوجوه. يحتمل قوله: **فلم تقتلوهم**، أي لم تكن جِراحاتكم التي أصابتهم مصيبةً[٨] المَقْتَلَ، ولا عاملةً في استخراج الروح، ولا كانت قاتلةً، ولكن الله تعالى صيَّرها قاتلةً[٩] مصيبةً المَقْتَلَ[١٠] عاملةً في استخراج الروح،

[١] ﴿إن الذين تولَّوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلَّهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عَفَا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾ (سورة آل عمران، ١٥٥/٣).
[٢] ن– الآية.
[٣] بدل من "الإضمار".
[٤] ن: ما ذكر.
[٥] ن – القوم.
[٦] رويت أيضا على وجه آخر: "إن تُهلِكْ هذه العصابةَ".
[٧] روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ انظر: صحيح *مسلم*، الجهاد ٥٨؛ وسنن *الترمذي*، التفسير ٨.
[٨] ع: مصيبته؛ م: بمصيبة.
[٩] ن + المقتل.
[١٠] م: القتل.

لأن[1] من الجراحات ما إذا[2] أصابت لم تصب المَقْتَل، ولا عملت في استخراج / الروح. وقوله: [٢٨٣و] **فلم تقتلوهم**، الآية، تخرج[3] على وجوه. أحدها أن العبد لا صُنع له في القتل واستخراج الروح منه، إنما ذلك فِعل الله، وإليه ذلك، وهو المالك لذلك، لأن الضربة والجَرح قد يكون ولا موت هنالك. وكذلك الرمي،[4] ليس كل من أرسل شيئا من يده هو[5] رَمَى، إنما يصير رَمْيًا بالله، [لأنه هو الذي][6] أنشأ السهم حتى يَصِل[7] بطبعه المَبْلَغَ الذي بَلَغ، فكأنه لا صنع له في الرمي؛ ألا ترى أنه لا يملك[8] ردّ السهم[9] إذا أرسله، ولو كان فعله لَمَلَكَ[10] ردّه. ولهذا قال أبو حنيفة رضي الله عنه: إن الاستئجار على القتل باطل.[11] والثاني[12] قتلوا بمعونة الله ونصره، كما يقول الرجل لآخر: إنك لم تقتله، وإنما قتله فلان، أي بمعونة فلان[13] قَتَلْتَه،[14] فعلى ذلك الأول. وقوله:[15] **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**، أي ما أصاب رميُك المقصدَ الذي قصدت، ولكن الله بالغٌ[16] ذلك المقصدَ الذي قَصدتم. والثالث[17] **فلم تقتلوهم**، أي لم تطمعوا بخروجكم إليهم قتلهم، لأنهم كانوا بالمحلّ الذي وصفهم من الضَّعْف وشدة الخوف والذلّة،

---

[1] ع – لأن.
[2] ك: من إذا.
[3] ك: يخرج.
[4] ن: المرمى.
[5] م: وهو.
[6] من *شرح التأويلات*، ورقة ٣٢٥و؛ حيث قال الشارح: «لأنه هو الذي أنشأ فِعْلَ المُضِيّ في السهم وفِعْلَ الإصابةِ والانجراحِ».
[7] ع: حتى يصلي.
[8] ن – لا يملك.
[9] ع + حتى يصلي بطبعه المبلغ الذي بلغ فكأنه لا صنع له في الرمي ألا ترى أنه لا يملك رد السهم.
[10] ع: الملك.
[11] «ولو قال الأمير لمسلم حر أو عبد: إن قتلت ذلك الفارس من المشركين فلك عليّ أجر مائة دينار، فقَتَلَه، لم يكن له أجر؛ لأنه لما صرّح بالأجر لا يمكن حَمْلُ كلامِه على التَّنفِيل، والاستئجارُ على الجهاد لا يجوز... وأصلُ جوازِ الاستئجار على القتل عنده [أي الإمام محمد] لا عندهما [أي الإمامين أبي حنيفة وأبي يوسف] لأنه إزهاق الروح، وليس مِن عملِه» (*رد المحتار على الدر المختار* لابن عابدين، ٤/١٥٤-١٥٥).
[12] ع: والثالث.
[13] ع – أي بمعونة فلان.
[14] ك ن ع: قتله.
[15] ن: قوله.
[16] ن + ولكن الله بالغ.
[17] جميع النسخ: والثاني؛ ك هـ: لعله الثالث.

كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ،[1] فإذا كانوا بالمحلّ الذي ذكر فيقول -والله أعلم- لم تطمعوا[2] بخروجكم[3] إليهم وقصدِكم[4] إياهم قتلَهم لما كان فيكم من الضَّعْف وقوةِ أولئك، ولكن الله أذلَّهم وألقى في قلوبهم الرعب والخوف[5] حتى قتلتموهم. وكذلك قوله: **وما رميتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى،** لا يطمع الإنسان برميٍ كفٍّ مِن ترابٍ النكبةَ بأعدائه، **ولكن الله رمى،** حيث بلَّغ ذلك وغطَّى أبصارَهم وأعينَهم بذلك الكفِّ من التراب على ما ذكر في القصة أنه[6] رمى كفًّا من تراب، فغَشِيَ أبصارَ[7] المشركين، فانهزموا لذلك.[8] ويحتمل أن يكون نسبةُ هذه الأفعال إلى نفسه وإضافتُها إليه لما نَسب وأضاف كلَّ خير ومعروف إلى نفسه. من ذلك قوله: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا،[9] الآية، وقولُه: وَلَٰكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ،[10] وقولُه: اِهْدِنَا الصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ،[11] الآية، وغير ذلك من الآيات التي فيها إضافة الأفعال التي خَلُصَت لله وصَفَت[12] له،[13] فعلى ذلك نَسب[14] فعلهم إلى نفسه لخُلُوصه وصَفائه له. ***والله أعلم.***

وقوله: **وليُبلي المؤمنينَ منه بلاءً حَسَنًا،** أي نعمة عظيمة، حيث[15] نصرهم على عدوهم مع ضَعْف أبدانهم وقلّة عددهم وكثرة أعدائهم وقوة أبدانهم وعُدّتهم، وهو ما ذكر في هلاك فرعون وقومه أنه بلاء من ربكم عظيم، بقوله: وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ،[16] فعلى ذلك[17] هذا. ***والله أعلم.***

---

[1] سورة الأنفال، ٨/٦.

[2] ن ع م: لم يطمعوا.

[3] م: بخرجكم.

[4] ن: ولا قصدكم.

[5] ن - والخوف.

[6] أي النبي عليه السلام.

[7] ع: أبصارهم.

[8] *تفسير الطبري*، ٩/٢٠٥.

[9] ﴿يمنُّون عليك أن أسلَموا قُل لا تَمُنُّوا عليَّ إسلامَكم بل الله يَمُنُّ عليكم أنْ هَدَاكُم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ (سورة الحجرات، ٤٩/١٧).

[10] سورة البقرة، ٢/٢٧٢.

[11] سورة الفاتحة، ١/٦.

[12] من الصَّفَاء.

[13] ع م - له.

[14] ن: وصف.

[15] ن - حيث.

[16] سورة البقرة، ٢/٤٩.

[17] ن - ذلك.

وقوله عز وجل: **إن الله سميع**، أي سميع لدعائكم الذي دعوتم وتضرُّعِكم الذي تضرّعتم إليه. أو أن يقول:[١] **سميع**، أي مجيب لدعائكم، **عليم** بأقوالكم وأفعالكم التي[٢] تُسِرّون وتُعلِنون. *والله أعلم*.

﴿ذٰلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾[١٨]

وقوله: **ذلكم وأنّ الله مُوهِنُ كيدِ الكافرين**، قوله: **ذلكم**، أي ذلك الذي[٣] كان بهم من القتل والأسر والهزيمة لِما أَوْهَن وأَضْعَف كيدَهم تعالى. ويحتمل أن يكون صلة قوله: وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا،[٤] أي ذلك الإنعام والإبلاء الذي مَنَّ الله إليكم لما أوهن كيدهم، وذلك يكون في جملة المؤمنين، ما من مؤمن إلا وله من الله إليه إبلاءٌ[٥] وإنعامٌ[٦] في كل حالٍ لإيهانه كيدَ الكافرين.

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١٩]

وقوله: **إن تَستفتِحوا فقد جاءكم الفتح**، الاستفتاح يحتمل وجوها ثلاثة. يحتمل الاستكشاف وطلب البيان. ويكون طلب النصر والمعونة، كقوله: وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا،[٧] أي يستنصرون. ويكون طلب الحكم والقضاء بين الحق والباطل، يقال: فتح بكذا، أي حكم به وقضى. فهو يخرج على وجهين. على طلب بيان المُحِق من المُبْطِل[٨] وطلبِ بيانِ أحقِ الدينين بالنصر والحكم. فقد بين الله لهم أَحَقَّ الدينين [على] ما ذكر في القصة أن أبا جهل قال: اللهم اقض بيننا وبين محمد، فقال: اللهم أيّنا كان أَوْصَل للرحم[٩] وأَرْضَى عندك[١٠] فانصره؛ ففعل الله ذلك ونصر المؤمنين وهزم المشركين، فنزلت هذه الآية.

---

[١] ن: أو أن يكون.
[٢] ع م – التي.
[٣] ع م – الذي.
[٤] الآية السابقة.
[٥] ك: بلاء.
[٦] ن – وإنعام.
[٧] ﴿ولَمّا جاءهم كتابٌ مِن عندِ الله مُصَدِّقٌ لِمَا معهم وكانوا مِن قبلُ يَستفتحون على الذين كفروا فلَمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنةُ اللهِ على الكافرين﴾ (سورة البقرة، ٢/٨٩).
[٨] ع: والمبطل.
[٩] ع م: الرحم.
[١٠] جميع النسخ: عنك.

وقيل: إنه دعا: اللهم انصر أَعَزَّ الجُندين وأَكْرَمَ الفئتين وخيرَ القبيلتين، فكان ما ذكرنا.[1] **فقد** بيّن الله عز وجل أحقّ الدينين وأعزّ الجندين لما هزم المشركين مع قوتهم وعُدّتهم وكثرة عددهم بفئة ضعيفة ذليلة قليلة العدد وضعيفة الأبدان والأسباب، دلّ أنه قد بيّن لهم الأحق من غيره. وقيل: إنهم استفتحوا بالعذاب، وكان استفتاحهم ما قالوا: اللّٰهُمَّ إِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ،[2] فجاءهم العذاب يوم بدر،[3] وأخبرهم [عن] يوم أحد: **وإن تعودوا نَعُدْ ولن تُغنيَ عنكم فئتُكم شيئا**، الآية. والاستفتاح هو ما ذكرنا. قال الحسن: الفتح القضاء. وكذلك[4] قال قتادة. قالوا: إن تستقضوا فقد[5] جاءكم القضاء في يوم بدر،[6] كقوله: رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ،[7] الآية. وقال القُتَبي: قوله: **إن تستفتحوا**، تسألوا[8] الفتح وهو النصر،[9] **فقد جاءكم**، وهو ما ذكرنا.

وقوله: **وإن تنتهوا فهو خير لكم**، يحتمل قوله: **وإن تنتهوا**، عما كنتم [فيه]، **فهو خير لكم**، يغفر لكم، كقوله: إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ.[10] وقيل: **وإن تنتهوا**، عن قتال محمد، **فهو خير لكم**، من أن ينتهي محمد عن قتالكم.

وقوله: **وإن تعودوا نَعُدْ**، يحتمل **وإن تعودوا**، إلى قتال محمد، **نَعُدْ**، إليكم من القتل والقتال والأسر والقهر. ويحتمل **وإن تعودوا**، بعد البيان[11] والكشف إلى ما كنتم من قبل[12] / البيان من التكذيب والكفر لمحمد، **نَعُدْ**، إلى الانتقام والتعذيب، كقوله: وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ. [٢٨٣ظ]

وقوله تعالى: **ولن تُغْنِيَ عنكم فئتُكم شيئا ولو كَثُرَتْ وأنّ الله مع المؤمنين**، بالنصر والمعونة.

---

[1] *تفسير الطبري*، ٩/٢٠٧-٢٠٩؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٤/٤٢.
[2] سورة الأنفال، ٨/٣٢.
[3] م: البدر.
[4] ك ن م: ولذلك.
[5] ع: وفقد.
[6] لم أجده عن الحسن وقتادة، لكن روي ذلك عن ابن عباس والضحاك وعكرمة؛ انظر: *تفسير الطبري*، ٩/٢٠٧؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٤/٤٢.
[7] سورة الأعراف، ٧/٨٩.
[8] ن ع م: فسألوا.
[9] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٧٨.
[10] ﴿قُل لِلَّذين كفروا إن يَنتهوا يُغفَرْ لهم ما قد سلف وإن يَعودوا فقد مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلين﴾ (سورة الأنفال، ٨/٣٨).
[11] جميع النسخ: نعد إلى البيان. والتصحيح من *شرح التأويلات*، ورقة ٣٢٥ظ.
[12] ك: كنتم قبل.

فإن قيل: ذكر أنه **لن تغني عنكم فئتكم**[١] وكَثْرَتُكم[٢] وقد أغناهم كَثْرَتُهم وفئتُهم يوم أُحُد حيث ذكر[٣] أن الهزيمة كانت على المؤمنين.

قيل: هذا لوجهين. أحدهما أنَّ عاقبةَ الأمر كانت للمؤمنين، وإن كان في الابتداء كان عليهم، فلن يغني عنهم ذلك على ما ذكر، لأنه لو أغناهم ذلك لكان لهم الابتداء والعاقبة. والثاني أنه لم تكن[٤] النَّكْبَةُ والهزيمةُ على المؤمنين إلا لعصيانٍ كان[٥] منهم، كقوله: وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ،[٦] الآية، فما أصاب المؤمنين من النَّكَبَات إنما كان بسببٍ كان منهم، لا بالعدو، لذلك كان الجواب ما ذكر.[٧] *والله أعلم*.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾[٢٠]

وقوله عز وجل: **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله**، أي **أطيعوا الله** في أمره ونهيه، **ورسولَه** في بيانه وفيما دعا إليه. وقيل: **أطيعوا الله** في فرائضه، **ورسوله**[٨] في سننه وآدابه. **ولا تَوَلَّوْا عنه وأنتم تسمعون**، آياته وحُجَجَه.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[٢١]

ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، أي لا تكونوا[٩] في الإيمان والتوحيد والآيات **كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون**، ولا يجيبون ولا يؤمنون.[١٠] ويحتمل أن يكون قوله:[١١] **ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا**،[١٢] الآيات والحجج، **وهم لا يسمعون**، أي لا ينتفعون بسماعهم،

---

[١] ع + شيئا.
[٢] ك: وكثرتم.
[٣] ن – أنه لن تغني عنكم فئتكم وكثرتهم وقد أغناهم كثرتهم وفئتهم يوم أحد حيث ذكر.
[٤] م: لم يكن.
[٥] ن ع م – كان.
[٦] ﴿ولقد صَدَقَكم الله وعده إذ تَحُسُّونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون﴾ (سورة آل عمران، ١٥٢/٣).
[٧] ع: ما ذكروا.
[٨] ن + أي أطيعوا الله في أمره ونهيه ورسوله في بيانه وفيما دعا إليه وقيل أطيعوا الله في فرائضه ورسوله.
[٩] ع م: أي لا يكونوا.
[١٠] ع: كالذين قالوا سمعنا ذلك وهم لا يسمعون أي لا يجيبون ولا يسمعون ولا يؤمنون؛ م: كالذين قالوا سمعنا بذلك وهم لا يسمعون أي لا يجيبون ولا يسمعون ولا يؤمنون.
[١١] ع م – قوله.
[١٢] ك – وهم لا يسمعون ولا يجيبون ولا يؤمنون ويحتمل أن يكون قوله ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا.

أو لا يعقلون، كالدوابّ وغيرها. قال أبو بكر الأصمّ: قوله: **ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا**[١] **وهم لا يسمعون**، استثقالا وبُغْضا، أي لا يستمعون إليه، لأنّ مَن استثقل شيئا وأبغض لم يستمع إليه، كقوله: لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ.[٢]

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٢٢]

وقوله عز وجل: **إنّ شرّ الدوابِّ عند الله الصُّمُّ البُكْمُ الذين لا يعقلون**، تأويله -والله أعلم- أن الذين[٣] هم[٤] من **شر الدواب عند الله** هم **الصُّمُّ** الذين[٥] لا ينتفعون بسمعهم، **والبُكْمُ الذين** لا ينتفعون بألسنتهم ونطقهم،[٦] لأنهم لم ينتفعوا بسمعهم لِما جعل لهم[٧] السمع، ولم ينتفعوا بنطقهم لِما جعل لهم[٨] النطق، ولم ينتفعوا بعقلهم لِما جعل لهم[٩] العقل. فهم **شرّ الدوابّ**، كقوله: أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ.[١٠] كانوا أضلّ[١١] وأشرّ، لأن الدوابّ والأنعام انتفعت بهذه الحواسّ لِما جُعلت لها هذه الحواسّ، عَرفت بهذه الحواسّ المَهالِكَ والمَضارّ، فتَوَقَّتْ عنها وعَرفت المَلَاذَّ والمنافعَ بها فتَرغب فيها وتَقَع. فانتفعت الدوابّ بالحواسّ التي جُعلت[١٢] لها لِما جُعلت، ولم يُجعَل لها هذه الحواسُّ إلا للمقدار الذي عَرفت وفَهمت وانتفعت بها.[١٣] وهؤلاء الكَفَرة لم ينتفعوا بالحواسّ التي جُعلت لهم لِما جُعلت، وإنما جُعلت[١٤] لهم ذلك ليعرفوا المنافع لهم والملاذّ في العاقبة فيعملوا لذلك، ويعرفوا الضارّ لهم في العاقبة والمُهلِكَ فيَتوقَّوْا عنه،

[١] ع - الآيات والحجج وهم لا يسمعون أي لا ينتفعون بسماعهم أو لا يعقلون كالدواب وغيرها قال أبو بكر الأصم قوله ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا.

[٢] ﴿وقال الذين كفروا لا تَسمعوا لهذا القرآن والْغَوْا فيه لعلكم تَغلِبون﴾ (سورة فصلت، ٤١/٢٦).

[٣] ك ع م: ان الذي.

[٤] جميع النسخ: هو.

[٥] ك ن: الذي؛ ع م: البكم.

[٦] جميع النسخ: لا ينتفع بسمعه والبكم الذي لا ينتفع بلسانه ونطقه.

[٧] ع م: له.

[٨] م: له.

[٩] م: له.

[١٠] سورة الأعراف، ٧/١٧٩.

[١١] ع م - كانوا أضل.

[١٢] ع م: التي جعل.

[١٣] ع م - بها.

[١٤] ع - وإنما جعلت.

فلم ينتفعوا بحواسّهم لِما جُعلت الحواسُّ، فالدوابُّ انتفعت بها، لذلك كانوا أَضَلَّ وأَشَرَّ منها.[١]

[ويحتمل][٢] **إنّ شرّ الدوابِّ** [هم] الذين اكتسبوا الصَّمَمَ الدائم والعَمَى الدائم، وذلك في الآخرة، كقوله: وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا،[٣] وقوله: اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ،[٤] أي تَركوا اكتساب البصر الدائم والسمع الدائم والحياة الدائمة. والثاني[٥] سمّاهم صُمًّا وبُكْمًا وعُمْيًا[٦] لِما لم يكتسبوا بصر القلب ونُطق القلب وسمع القلب، فهذه هي الحواسّ[٧] التي تكون بالاكتساب، ولم يكتسبوها، إنما لهم الحواسّ الظاهرة. أو يقول:[٨] **إنّ شرّ الدوابّ،** [هم] الذين[٩] لم ينتفعوا بالذي ذكر من الحواسّ وتركوا استعمالها. ***والله أعلم.***

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[٢٣]

وقوله عز وجل: **ولو عَلِمَ الله فيهم خيرًا لأَسْمَعَهم،** قيل: نزلت الآية في المَرَدَة من الكفرة. وقال ابن عباس: هم نفر من بني[١٠] [عبد] الدار،[١١] كانوا يسألون رسول الله آيةً بعد آية، وقد أعطاهم آياتٍ[١٢] قَبْل ذلك لم يقبلوها، فقال: **لو علم الله فيهم خيرا،** أنهم يقبلون جواب المسائل التي سألوا لأَوْحَى إليهم ولأَسْمَعَهم، ولكن عَلِم أنه وإن أسمعهم جواب مسائلهم لا يقبلون. وقالت المعتزلة: دلت[١٣] الآية أنه قد كان أعطاهم[١٤] جميع ما كان عنده، لكنهم لم يقبلوا، لأنه قال: **لو علم... فيهم خيرا لأسمعهم،** فدلّ أنه لم يكن عنده ما يعطي، وإلا لو كان[١٥] عنده ما يقبلون لأسمعهم.

---

[١] م – منها.
[٢] جميع النسخ + وقوله عز وجل. والتصحيح مع الزيادة من شرح *التأويلات*، ورقة ٣٢٦و.
[٣] سورة الإسراء، ٩٧/١٧.
[٤] سورة المؤمنون، ١٠٨/٢٣.
[٥] ع م: والباقي.
[٦] م: بكما وعميا وصما.
[٧] ك ن: فهي هذه الحواس هي.
[٨] ك – أو يقول.
[٩] جميع النسخ: التي.
[١٠] ن – بني.
[١١] *تفسير الطبري*، ٢١٢/٩. وبنو عبد الدار من قبائل قريش المشهورة. فهم بطن من قصي بن كلاب من القبائل العدنانية. وكانوا يسكنون في شعب مكة. انظر: معجم *قبائل العرب* لعمر رضا كحالة، ٧٢٣/٢، ٩٤٨/٣.
[١٢] ع م: وقد أعطاهم آية بعد آية.
[١٣] ن – دلت.
[١٤] ك: كان قد أعطاهم.
[١٥] جميع النسخ + ذلك.

لكن هذا بعيد، لأنه لم يقل: لو علم الله عنده خيرا لأسمعهم، ولكن قال: **لو علم الله فيهم خيرا،** فإنما نفى أنه ليس عندهم خير، والوجه فيه ما ذكرنا: أنه لو علم فيهم خيرا يعملون به لأَوْحَى إليهم وأسمعهم، لكنه علم أنهم[1] لا يقبلون، بقوله:[2] **ولو أسمعهم لَتَوَلَّوْا وهم معرضون،** أي مكذِّبون جوابَ ما سألوا تَعَنُّتا وتمرُّدا منهم، وأخبر أنهم يسألون سؤالَ تعنُّتٍ وتمرُّدٍ لا سؤالَ استرشاد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[٢٤]

وقوله: **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لِما يُحْيِيكم،** قال بعضهم: هذه الآية صلة قوله: كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ،[3] يقول –والله أعلم– أجيبوا لله وللرسول[4] إلى ما يدعوكم وإن كانت أنفسكم تكره الخروج لذلك لقلة عددكم وضعف أبدانكم وكثرة عدد العدو وقوتهم. وقوله عز وجل: **إذا دعاكم لما يحييكم،**
[٢٨٤و] أي دعاكم لما يحييكم[5] بالذكر / والشرف والثناء الحسن في الدنيا والحياةِ في الآخرة اللذيذة الدائمة، وإن متُّم وهلكتم فيما يدعوكم إليه يكون لكم في الآخرة حياةُ الأبد. ويحتمل أن تكون[6] الآية في جملة المؤمنين، أي **استجيبوا لله،** في أوامره[7] ونواهيه، **وللرسول،** فيما يدعوكم إليه. وإنما كان يدعو[8] إلى دار الآخرة، كقوله تعالى: وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ.[9] ودار الآخرة هي دار الحياة، كقوله: وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.[10] كأنه قال –والله أعلم– أجيبوا لله وللرسول، فإنه إنما دعاكم إلى ما تَحْيَوْن فيها، ليس كالكافر الذي لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا،[11] بتركه الإجابة.

---

[1] ع – أنهم.
[2] ك: فقوله.
[3] سورة الأنفال، ٨/٥.
[4] ك: والرسول.
[5] ن ع م – أي دعاكم لما يحييكم.
[6] ن م: أن يكون؛ ع + ويحتمل أن يكون.
[7] جميع النسخ: في أموره.
[8] ع: يدعوا.
[9] سورة يونس، ١٠/٢٥.
[10] سورة العنكبوت، ٢٩/٦٤.
[11] ﴿إنه مَنْ يأتِ ربَّه مُجرِما فإنّ له جهنّم لا يموت فيها ولا يحيا﴾ (سورة طه، ٢٠/٧٤)؛ ويقول تعالى: ﴿الذي يَصْلَى النارَ الكبرى. ثم لا يموت فيها ولا يَحْيا﴾ (سورة الأعلى، ٨٧/١٢-١٣).

وقوله: **واعلموا أن الله يَحُول بين المرء وقلبه**، أمكن أن يخرج هذا على الأول، أي **اعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه**، يجعل القويَّ ضعيفا والعزيزَ ذليلا، والضعيفَ قويا والذليلَ عزيزا، والشُّجاعَ جَبانا، والخائفَ آمِنا[١] والآمِنَ خائفا، فأجيبوا للرسول بالخروج للجهاد وإن كنتم تخافون لضَعْفكم وقوتهم. ويحتمل في جملة المؤمنين أنّ مَن أجاب لله[٢] وللرسول[٣] إذا دعاه يجعل قلبه هو الغالبَ على نفسه والحائلَ بينه وبين ما يدعو إليه النفس، وإذا ترك الإجابة يجعل نفسه هي الحائلةَ بينه وبين ما يدعو إليه قلبه والداعيةَ[٤] إلى ذلك؛ **وأنه إليه تحشرون**.

وقيل: **استجيبوا لله وللرسول**، بالطاعة في أمر القتال، **إذا دعاكم**، إلى الحرب، **لما يحييكم**، يعني بالحرب التي أعزّكم الله [بها]، يقول: أحياكم الله بعد الذلّ وقوّاكم بعد الضَّعْف، فكان[٥] ذلك حياةً. **واعلموا أن الله يَحُول بين المرء وقلبه**، يقول:[٦] يحول بين قلبِ المؤمن وبين الكُفْر، ويحول بين الكافر وبين الإيمان.

وقوله: **واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه**، يخرج على وجهين. أحدهما يستعجل[٧] التوبة قبل أن ينزل به الموت، يقول: أجيبوا لله وللرسول قبل أن يُحال بين المرء وبين التوبة بالموت. والثاني **يحول بين المرء وقلبه** بالأعمال التي يكتسبها، يُنشئ الفعلُ[٨] الذي يفعله طَبْعَ قلبِه وخَتْمَه، ويُنشئ ظُلْمَةً تحول بينه وبين ما يقصِده ويُدْعَى إليه. *والله أعلم*.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٢٥]

وقوله: **واتقوا فتنةً لا تُصِيبَنَّ الذين ظلموا منكم خاصَّةً**، قال بعضهم: "لا" هاهنا صلة زائدة، كأنه قال: واتقوا فتنة تصيبن[٩] الذين ظلموا منكم خاصة، أي اتقوا فتنة[١٠] تُصيب الظَّلَمَةَ منكم خاصّة بظلمهم،

---

[١] ن ع م: أمينا.
[٢] ع: الله.
[٣] ك: والرسول.
[٤] معطوفة على "الحائلة".
[٥] ع م: وكان.
[٦] م: وقلبه يخرج على وجهين.
[٧] ك: يستعمل.
[٨] ك: بفعل.
[٩] ع: لا تصيبن.
[١٠] جميع النسخ + التي.

وهو العذاب، كقوله: وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ،[1] فعلى ذلك قوله [هذا، أي] واتقوا فتنة تصيبنّ الذين ظلموا في الآخرة، وهو العذاب. وذلك جائز في الكلام، نحو ما قرأ بعضهم قوله: وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ،[2] بفتح[3] الألف وطَرْح "لا": أنها إذا جاءت يؤمنون، أي إنها[4] وإن جاءت لا يؤمنون.[5] وأما على إثبات "لا" فإنه يحتمل وجوها. قيل: **اتقوا فتنة لا تُصِيبَنّ الذين ظلموا**، أي اتقوا أن لا تكونوا[6] فتنة للذين ظلموا، كقوله: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا،[7] رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.[8] ووجهُ جعلِه إياهم فتنةً للذين كفروا هو أن يجعل العدو غالبا عليهم ناصرين وهم المغلوبون، فيظنّون أنهم على حق والمؤمنين[9] على باطل، فذلك معنى دعائهم رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ،[10] لئلا يقولوا: لو كانوا على حق ما غُلِبوا ولا قُهِروا ولا انتصروا منهم.

وقيل: قوله: **واتقوا فتنة لا تُصِيبَنَّ الذين ظلموا**،[11] نهى[12] الأتباعَ منهم أن لا يَسْعَوْا[13] فيما بين الظَّلَمَة بالفساد ولا يُغْروا[14] بعضَهم على بعض فيقعَ فيما بينهم الفساد فيكونَ هؤلاء الأتباعُ فتنةً لأولئك الظَّلَمَة[15] بإغراء[16] بعضهم على بعض. وذلك معروف فيما بين الخَلْق في الظَّلَمَة، يُغري الأتباعُ بعضَهم على بعض، فذلك فتنة.

---

[1] سورة آل عمران، ١٣١/٣.

[2] سورة الأنعام، ١٠٩/٦.

[3] جميع النسخ: بكسر.

[4] ن – أي إنها.

[5] انظر تفسير الآية من سورة الأنعام، ١٠٩/٦. والآية فيها قراءتان متواترتان بفتح همزة أنّ، وكسرها. انظر: *كتاب السبعة* لابن مجاهد، ٢٦٥.

[6] ك: أن لا تكون؛ ع م: أن تكونوا.

[7] سورة الممتحنة، ٥/٦٠.

[8] سورة يونس، ٨٥/١٠.

[9] جميع النسخ: والمؤمنون.

[10] ك – ووجه جعله إياهم فتنة للذين كفروا هو أن يجعل العدو غالبا عليهم ناصرين وهم المغلوبون فيظنون أنهم على حق والمؤمنون على باطل فذلك معنى دعائهم ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين.

[11] ن + أنه.

[12] ن – نهى، صح، هـ.

[13] ن: لا يسعون؛ ع م: لا يسمعون.

[14] جميع النسخ: ولا يغري.

[15] ع م: للذين ظلموا.

[16] ع: أبا غراء.

ويحتمل وجها آخر، وهو أن الله تعالى[١] يغير[٢] الأحوال في الخلق مرةً سَعَةً وخِصْبًا، ومرةً قَحْطا وضِيقا، ومرةً غلبةَ العدو[٣] على الأولياء، ونحوه، ويدفع العذاب عن الظَّلَمَةِ بمن لم يظلم ما لم يشاركوا الظَّلَمَة، فإذا شاركوا أولئك يحلّ بأولئك بظلمهم وأهلِ الصلاح والعدلِ بتركِهم الظَّلَمَةَ وأهلَ الفساد عن الظلم والفساد[٤] ولهم قوة المنع لهم عن ذلك، فيقول: **لا تُصِيبَنَّ الذين ظلموا منكم خاصّة**، ولكن تصيبهم وتصيبكم، فقال:[٥] **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم**،[٦] أخذَ الظَّلَمَةَ العذابُ لمشاركةِ أهلِ العدل أولئك، فيكونون فتنة لهم، كقوله: وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ.[٧] أو أن يدفع عن الظَّلَمَة البلاء والعذاب ما دام أهلُ العدل يأمرونهم بالمعروف ويُغَيِّرون[٨] عليهم المنكر، فإذا تركوا ذلك [و]لا يغيّرون[٩] عليهم المنكر نزل[١٠] بهم البلاء، فيَعُمُّهم البلاءُ: الظالمَ وغيرَه. والفتنة على وجهين. فتنة الجزاء، جزاءِ أعمالهم، وذلك يأخذ أهله خاصّة؛ وفتنةُ المحنة، وذلك يعمّ الخلق. *والله أعلم*.[١١]

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢٦]

وقوله عز وجل: **واذكروا إذ أنتم قليلٌ مُستضعَفون في الأرض تخافون أن يتخطّفكم الناسُ**، الآية. إن أهل الإسلام في ابتداء الأمر كانوا قليل العدد مستضعَفين عند الكفرة،[١٢] حتى كانوا يخافون أن يَسلُب الكفرةُ أرواحَهم، وكانوا لا يأمنون على أنفسهم بالمُقام في البُلدان لقلة عددهم وضَعْفِهم خوفا على أنفسهم وإشفاقا، فتركوا المقام بالبُلدان، / وخرجوا إلى الجبال والغِيران،[١٣] [٢٨٤ظ]

---

[١] ك: أنه تعالى.
[٢] ع م: تغير.
[٣] ع: غلبت العدوة.
[٤] ن – عن الظلم والفساد.
[٥] ن: فقالوا.
[٦] ك + خاصة.
[٧] سورة البقرة، ٢/٢٥١.
[٨] ع: ويغيرن.
[٩] ع م: فإذا تركوا ولا يغيرون.
[١٠] ن ع م: ترك.
[١١] ع – والله أعلم.
[١٢] ع: عند الكفر.
[١٣] الغيران جمع غار.

فأقاموا فيها، وأكلوا الحشيش والكلأَ طعامَ الأنعام خوفا على أبدانهم، وإشفاقا على دينهم.[1] ثم إن الله عز وجل آواهم وأنزلهم في البُلدان والأمصار، وأيّدهم ونصرهم على عدوهم، ورزقهم الطيباتِ طعامَ البشر بعدما أكلوا الحشيشَ طعامَ البهائم لعلهم يشكرون، ليلزمهم الشكر على ذلك، ولا يجوز لهم أن لا يشكروا بعدما أصابوا ما أصابوا.[2] ذكر[3] هذا -والله أعلم- لنا لنكون[4] نحن من الإشفاق في الدين مثل أولئك حين هربوا منهم، واتخذوا الجبال والغِيرانَ بيوتا، والحشيش طعاما، وتركوا أموالهم ونِعمَهم، ورَضُوا بذلك إشفاقا على دينهم. وقال عامة أهل التأويل: نزلت الآية في أهل بدر، وكانوا قليلَ[5] العدد والعُدَّةِ ضعيفَ الأبدان، والعدوُّ كثيرَ العدد وقويَّ الأبدان، فاشتدّ عليهم الخروج لذلك، كقوله: كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ،[6] الآية. فكيف ما كان ففيه ما ذكرنا. *والله أعلم*.

وقوله: **واذكروا إذ أنتم قليل مُستضعَفون**، أي إذ كنتم قليلا. وفيه دلالة لقول أبي حنيفة رحمه الله فيمن قال: هذا الشيء لفلان، اشتريته منه، صُدِّق، ويصير كأنه قال: هذا الشيء كان لفلان، اشتريته منه.[7] دليله قوله: **واذكروا إذ أنتم قليل مُستضعَفون في الأرض**، أي إذ كنتم قليلا.

وقوله: **وأيّدكم بنصره**، على هذا التأويل، أي[8] بالملائكة، **ورزقكم من الطيبات**، المغانم التي رزقهم وأحلّ لهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢٧]

وقوله عز وجل: **يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم**، جعل الله[9] عز وجل هذه الأمة وَسَطا عَدْلا بقوله: وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ،[10]

---

[1] لعله يشير إلى ما حدث من حصار مشركي قريش للمسلمين في شِعب أبي طالب في مكة ثلاث سنين حتى جاعوا وأصابهم الضُرُّ الشديد؛ انظر لتفاصيل القصة: *البداية والنهاية* لابن كثير، ٣/٨٤-٨٨.

[2] م – ما أصابوا.

[3] ن – ذكر.

[4] ن: ليكون.

[5] ك: قليلين.

[6] ﴿وإنّ فريقا من المؤمنين لَكارهون﴾ (سورة الأنفال، ٨/٥).

[7] انظر: *المبسوط* للسرخسي، ١٨/١٨٠.

[8] ع م – أي.

[9] م – الله.

[10] سورة البقرة، ٢/١٤٣.

فكأنه قال: يا أيها الذين آمنوا قد جعلكم الله أُمَنَاءَ عَدْلًا وَسَطًا، فلا تخونوا الله فيه، كقوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ،[١] الآية، وقال: وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى،[٢] وقال: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،[٣] أخبر أنه ألزمهم الأمانة، أعني البشر دون ما ذكر من الخلائق. ثم منهم من ضَيَّع تلك الأمانة من نحو المنافقين والمشركين، وخانوا فيها، فلحقهم الوعيد بالتضييع، وهو قوله: لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ، الآية. فكأنه قال: يا أيها الذين آمنوا قد قبلتم أمانة الله، فلا تضيّعوها، ولا تخونوا فيها، كما قال: وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ،[٤] وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ،[٥] وغيرها من الآيات التي فيها ذكر[٦] الأمانات؛ نهاهم أن يخونوا فيها، فيكونون كأنهم خانوا[٧] أمانتهم. ويحتمل قوله [وجها آخر، كأنه قال:][٨] يا أيها الذين آمنوا إن أنفسكم وأموالكم لله، وهي عندكم أمانةٌ استَحْفَظَكم فيها، فلا تستعملوها في غير ما أَذِن لكم، لأن من استَحْفَظ أحدا في شيء ووضع عنده آمانة فاستعملها في غير ما أَذِن له صار خائنا فيها ضامنا لها،[٩] فعلى ذلك أنفسكم وأموالكم لله[١٠] عندكم أمانةٌ استَحْفَظَكم فيها، فإن استعملتم[١١] في غير ما أَذِن لكم فيها خُنْتُم الله والرسول فيها، فتخونوا أماناتكم التي لكم عند الله؛ وإذا حفظتم[١٢] الأمانة [كان] كقوله: وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ.[١٣] وقال بعضهم: قوله: **وتخونوا أماناتِكم**، أي **لا تخونوا الله والرسول ولا تخونوا أماناتكم**، التي فيما بينكم.

---

[١] سورة النساء، ١٣٥/٤.

[٢] سورة المائدة، ٨/٥.

[٣] ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبالِ فأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ منها وحَمَلَها الإنسان إنه كان ظَلوما جَهولا. ليعذِّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٧٢-٧٣).

[٤] سورة النحل، ٩١/١٦.

[٥] سورة البقرة، ٤٠/٢.

[٦] م: التي ذكر فيها.

[٧] ن: خافوا.

[٨] من *الشرح* ورقة ٣٢٧و.

[٩] ع م - لها.

[١٠] ن: الله؛ م - لله.

[١١] م: فإذا استعملتم.

[١٢] م: إذا ضيعتم.

[١٣] أي وإذا حفظتم الأمانة وأوفيتم بعهد الله أوفى الله بعهده تجاهكم وكافأكم.

وأصله أن الله عز وجل امتحنهم فيما امتحنهم لمنافعِ أنفسهم ولحاجتهم، فيصيرون فيما خانوا فيما امتحنهم كأنهم[1] خانوا أنفسهم وخانوا[2] أماناتهم، كقوله: وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ،[3] وقوله: إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا،[4] وقوله: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ،[5] الآية. ثم خيانة المنافقين والمشركين في الدين، وخيانة المؤمنين في أفعالهم، فوعد لهم التوبة عن خيانتهم، ووعد أولئك على ما خانوا بقوله: لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ.[6]

وقوله عز وجل: **وأنتم تعلمون**، أن أنفسكم وأموالكم ليست لكم، إنما هي لله عندكم أمانة، فلا تخونوا فيها. وعن ابن عباس قال: الأمانة الأعمال التي ائتَمَن اللهُ عليها العبادَ، يعني الفريضة، يقول: **لا تخونوا الله**، أي لا تَنْقُصُوا.[7]

ثم اختلف أهل التأويل في نزول الآية. قال بعضهم: نزلت في أبي لُبَابَة. وذلك ما قيل في بعض القصة: إن النبي صلى الله عليه وسلم حاصر يهود قُرَيْظَة،[8] فسألوا الصلح على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أَذْرِعَات،[9] فأبى النبي إلا أن ينزلوا على الحكم، فأَبَوْا، فقالوا:[10] فأَرْسِل إلينا أبا لُبَابَة، وكان مُناصِحَهم. فبعثه النبي إليهم، فلما أتاهم قالوا: يا أبا لُبَابَة،[11] أَنَنْزِل على حكم محمد؟ فأشار أبو لُبَابَة[12] بيده أنْ لا تَنْزِلوا على الحكم، فأطاعوه. وكان أبو لُبَابَة[13] مالُه وولدُه معهم،

[1] ك ع م: كانوا؛ ن: كان.
[2] ع – أنفسهم وخانوا.
[3] سورة البقرة، ٢/٥٧؛ وسورة الأعراف، ٧/١٦٠.
[4] سورة الإسراء، ١٧/٧.
[5] سورة فصلت، ٤١/٤٦؛ وسورة الجاثية، ٤٥/١٥.
[6] سورة الأحزاب، ٣٣/٧٣.
[7] *تفسير الطبري*، ٩/٢٢٣؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٤/٤٩. ويقول الطبري عقيب ذلك: «... لا تَنقُصُوا اللهَ حقوقَه عليكم من فرائضه، ولا رسولَه من واجبِ طاعتِه عليكم، ولكن أطيعوهما فيما أمراكم به ونهياكم عنه، لا تَنقُصُوهما وتخونوا أماناتكم وتَنقُصُوا أديانكم وواجبَ أعمالِكم ولازِمَها لكم، وأنتم تعلمون أنها لازمة عليكم وواجبة بالحُجَج التي قد ثبتت لله عليكم» (المصدر السابق).
[8] ع م: وقريظة.
[9] موضع بالشام، كان يُنسَب إليها الخمر (*لسان العرب* لابن منظور، «ذرع»).
[10] ع م: قالوا.
[11] م: يا با لبابة.
[12] ع م: أبو لبانة.
[13] ع: أبو لبانة.

فخان المسلمين، فنزلت الآية في شأنه.[١] وقال بعضهم: نزلت[٢] في شأن حاطب[٣] بن [أبي] بَلْتَعَة،[٤] ففعل ما فعل أبو لُبَابَة.[٥] وقيل: نزلت في شأن قومٍ بينهم وبين رسول الله عهدٌ،[٦] كانوا يعبدون الأوثان والأصنام. لٰكِنَّا لا ندري[٧] في شأن من نزلت، وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة سِوَى أنّ فيه ما ذكرنا من النهي في الخيانة في أمانة الله، والأمرِ بحفظها. **والله أعلم.**

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٢٨]

وقوله عز وجل: **واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة**، أي لم يعطهم الأولاد والأموال[٨] لعبا وباطلا، أو ليكون لهم الأموال والأولاد، ولكن أعطاهم محنةً وابتلاءً. وكذلك/ جميع ما أنشأ في الدنيا من [٢٨٥و] الأشياء إنما أنشأ لنا فتنةً ومحنةً، كقوله: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ،[٩] الآية، وقوله: وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ،[١٠] وقال: وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ،[١١] الآية، وغيره[١٢] من الآيات. يدلّ أن جميع ما أنشأ في الدنيا إنما أنشأ[١٣] فتنةً ومحنةً يمتحن به[١٤] البشر، كقوله:[١٥] **أنما أموالكم وأولادكم فتنة**، أي محنة وابتلاء امتحنَنا[١٦] به في أنواع التأديب والتعليم والحفظ والحقوق التي جعلها لهم علينا.

---

[١] رويت القصة بمعناها. انظر: *تفسير الطبري*، ٩/٢٢١-٢٢٢؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٤/٤٨-٤٩. ولم يكن أبو لبابة رضي الله عنه من المنافقين، وقد تاب بعد ذلك. وهو أبو لُبَابة الأنصاري، اسمه بَشِير، وقيل: رِفَاعة بن عبد المنذر، صحابي مشهور، وكان أحد النُّقَبَاء، وشهد بدرا، وعاش إلى خلافة علي رضي الله عنه. انظر: *الاستيعاب في معرفة الأصحاب* لابن عبد البر، ٤/١٧٤٠-١٧٤٢؛ و*تقريب التهذيب* لابن حجر، ٦٦٩.

[٢] ع م - في شأنه وقال بعضهم نزلت.

[٣] م: خاطب.

[٤] ك ن ع: بن فلان.

[٥] ع: أبو لبانة. لم أجد هذه الرواية، لكن الصحيح المشهور أن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه كتب إلى قريش قبل فتح مكة يخبرهم بذلك، فنزل فيه أول سورة الممتحنة، ٦٠/١.

[٦] جميع النسخ + الذين.

[٧] م: لكنا ندري.

[٨] ع - والأموال.

[٩] سورة البقرة، ٢/١٥٥.

[١٠] سورة الأنبياء، ٢١/٣٥.

[١١] ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٦٨).

[١٢] ع م: أو غيره.

[١٣] ع م - في الدنيا إنما أنشأ.

[١٤] ك: بها.

[١٥] ن ع م: بقوله.

[١٦] ن م: امتحنا.

وهو[1] كقوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ،[2] الآية. وأوجب في الأموال حقوقا امتحنَنَا بأداء تلك الحقوق التي فيها. وكذلك في جميع ما أمر الله[3] الخلائق بأمورٍ ونهاهم، إنما أمر ونهى لمنفعة الخلائق ودَفْعِ الضرر عنهم، لا لمنفعةِ نفسِه أو ضَرَرٍ أو حاجةٍ[4] يدفع به عن نفسه، إذ له ملك ما في السماوات والأرض، وهو العزيز بذاته، لا يمسّه حاجةٌ، يتعالى عن ذلك.

وقوله عز وجل: **وأن الله عنده أجر عظيم**، لمن لم يخن الله[5] والرسول. وَعَدَ لهم الأجر العظيم إذا قاموا[6] بوفاء ما امتحنهم الله[7] وابتلاهم به من الأموال والأولاد، حيث قال: **وأن الله عنده أجر عظيم**.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[٢٩]

وقوله عز وجل: **يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا**، قال بعض أهل التأويل: إن هذه الآية صلة لما سبق[8] من الأمر بالجهاد بِبَدْر والخروج إليه، كأنه قال: **إن تتقوا الله**، أطعتم[9] الله وأجبتم له فيما دعاكم إليه، **يجعل لكم فرقانا**. يحتمل قوله: **يجعل لكم فرقانا**،[10] أي يجعل[11] خروجكم إليه وجهادكم آية عظيمة يُظهر بها المُحِق من المُبْطِل،[12] كقوله: وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ،[13] وقال: لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ،[14] أي لِيُظْهِر الحق من الباطل،

---

[1] م: جعلها لها عليهم هو.

[2] ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكُم نارا وَقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غِلاظ شِداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ (سورة التحريم، ٦٦/٦).

[3] م + به.

[4] ك ن ع: أو حاجته.

[5] م – الله.

[6] ن: إذ قاموا.

[7] ك + به.

[8] ن ع م: ما سبق.

[9] م: وأطعتم.

[10] م – يحتمل قوله يجعل لكم فرقانا.

[11] م + لكم.

[12] ع: والمبطل.

[13] سورة الأنفال، ٨/٧.

[14] سورة الأنفال، ٨/٨.

وقد كان بحمد الله[١] ذلك، وبان الحقُّ من الباطل والمُحِقُّ من المُبْطِل. وقيل: قوله: **فرقانا**، أي مُخْرِجا في الدين من الشُّبُهات. وقيل: مَخْرَجا في الدنيا والآخرة. و يحتمل **فرقانا**، أي بيانا لما ذكرنا. جعل الله تعالى التقوى مشتملا على كل خير، وأصلا لكل برّ، وصيّره مُخرِجا من كل شبهة ومن كل ضِيق وشدة، وجعله سبيلا[٢] يُوصَل به إلى كل لذّة وسرور، ويُنال به كل خير وبركة، على ما ذكر في غير آي من القرآن.

وقوله عز وجل: **ويُكَفِّرْ عنكم سيئاتِكم**، التي سبقت، **ويَغفرْ لكم**، أي يستر عليكم ذنوبكم، لا يُطْلِعُ[٣] أحدا عليها، وذلك من أعظم النعم. وأصل المغفرة السَّتْر.[٤] وقوله عز وجل: **والله ذو الفضل العظيم**، أي عند الله فضل، يعطيكم خيرا مما تطمعون[٥] بالتقوى[٦] الذي ذكر.[٧]

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[٣٠]

وقوله عز وجل: **وإذ يَمْكُرُ بك الذين كفروا لِيُثْبِتُوك أو يَقتلوك أو يُخْرِجُوك**، من الناس من يقول بأن هذه الآية هي[٨] صلة قوله تعالى: إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ،[٩] كانوا ضُعفاءَ أَذِلّاءَ فيما بين الكفرة، خائفين فيما بينهم؛ فهَمُّوا[١٠] أن يَمْكُروا برسول الله. والمكر به ما ذكر من القتل والإثبات، وهو الحبس، أو الإخراج، كأنهم تشاوروا فيما بينهم، واستأمروا ما يفعلون به.[١١] فذكر في القصة أنّ بعضَهم أشاروا إلى القتل، وبعضَهم إلى الحبس، وبعضَهم إلى الإخراج.[١٢] فكان مشاورتهم وأَمْرُهم رجعت إلى أحد هذه الوجوه،

---

[١] ع: لله.
[٢] ع م + ثم.
[٣] ن: ولا يطلع.
[٤] انظر: *لسان العرب* لابن منظور، «غفر».
[٥] ن ع: مما تطعمون.
[٦] ع – بالتقوى.
[٧] م – بالتقوى الذي ذكر.
[٨] م – هي.
[٩] سورة الأنفال، ٢٦/٨.
[١٠] أي الكافرون.
[١١] جميع النسخ: ما يفعل بهم.
[١٢] ن ع م: بالإخراج.

إما القتل، وإما الحبس، وإما الإخراج.[1] ثم أخرج الله رسوله من بين أظهرهم على الوجه الذي يكون مطيعا لله متعبِّدا له، فيما كان خروجه بأمره، ليكون خروجُه على غير الجهة التي أرادوا هم[2] به، وسمَّى خروجَه هجرة، وليَعلموا أنه إنما علم بكيدهم[3] ومكرهم به بالله، ليكون آيةً من آيات نبوتِه ورسالتِه بعد خروجه من بين أظهرهم ومُفارقتِه إياهم، كما كان له من الآيات وقتَ مُقامه بين أظهرهم. وهو كما كان لعيسى آياتٌ وقتَ مقامِه بين أظهرهم،[4] وآيةٌ كانت له بالرفع بعد مفارقته قومه.[5] فعلى ذلك الأول. ولو كانوا لم يَتوافَقُوا بما ذكرنا من القتل أو الحبس[6] دون الإخراج لم يكن ليخرج رسوله من بين أظهرهم وهم قد هَمُّوا بإخراجه. *والله أعلم.*

وفي قوله: **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك**، إلى آخر ما ذكر، تذكيرُ ما أنعم على رسوله وأصحابه، لأنه آواهم إلى الأمن بعدما كانوا خائفين فيهم،[7] وأنزلهم المدينة بعدما كانوا في الغِيران في الجبال هاربين منهم، ورزقهم[8] الطيباتِ طعامَ البشر بعدما كانوا يتناولون من طعام البهائم والسباع.

يَذكر نعمه عليهم باستنقاذه إياهم من بين ظَهْرَانَيْهم، والحيلولةَ بينه وبين ما قصدوا وهَمُّوا بالمكر به والهلاك، بقوله: **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.** فيه [أنواعٌ] من الوجوه احتجاجا عليهم. أحدها[9] ما ذكرنا أنهم تشاوروا فيما بينهم بالمكر له، لم يُطْلِعُوا أحدا، ثم علم ذلك هو فخَرَج، ليعلموا أن الله هو الذي أَطْلَعَه على ذلك. والثاني كان يخوِّفهم الهلاك بمكرهم برسوله، فخَرَج من بينهم من غير أن أصابه ما هَمُّوا به، وقد أصابهم من الهلاك الذي كان يخوِّفهم، وحَلَّ بهم ما كانوا هَمُّوا[10] به وقصدوه، وذلك ما ذكر مِن مَكْرِ الله بهم.

[1] ع م – وإما الإخراج.
[2] م: أرادوهم.
[3] ك: مكيدهم.
[4] ع – أظهرهم.
[5] ن ع: قومهم؛ م: مفارقة قومهم.
[6] ك: والحبس.
[7] ن – فيهم.
[8] ع م + من.
[9] م: أحدهما.
[10] ع م – هموا.

وقوله عز وجل: **و يمكر الله والله خير الماكرين**، قال بعضهم: أرادوا هم[١] بمكرهم به شرا، وهو أن يطفئوا هذا النور ليَذهَب هذا الدين ويَدرُس آثارُه، وأراد الله أن يُسلِم منهم نفر / ليكونوا أعوانا ونُصَراءَ له ليأخذوا حظّهم بذلك، فهو **خير الماكرين**. وقيل: **ويمكرون** [٢٨٥ظ] **ويمكر الله**، أي أرادوا قتله، **ويمكر الله**، أراد قتلهم، فقتلهم ببدر. **والله خير الماكرين**، أي أفضل مكرا منهم، غلب مكرُه مكرَهم. وقال بعضهم: قوله: **ويمكرون ويمكر الله**، أي يجزيهم جزاء مكرهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هٰذَا إِنْ هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[٣١]

وقوله: **وإذا تُتلَى عليهم آياتنا**، يحتمل قوله: **آياتنا**، آيات القرآن التي كان يتلو[٢] رسول الله.[٣] ويحتمل آياتُه حُجَجَه وبراهينَه التي توجب التوحيد وتصديق الرسل.

وقوله: **قالوا قد سمعنا لو نشاء لَقُلْنَا مِثْلَ هذا**، قالوا ذلك مُتَعَنِّتِين، إذ كان يَقْرَعُ أسماعَهم قولُه: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ،[٤] وقولُه: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ،[٥] الآية، ثم لم يكن يطمع أحد منهم أن يأتي بمثله، وتَكلَّفوا[٦] في ذلك، دلّ أنّ قولهم **لو نشاء لَقُلْنَا مِثْلَ هذا**، تعنُّتٌ وعناد. **إن هذا إلا أساطير الأولين**، كذلك كان يقول العرب: إنه **أساطير الأولين**.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللّٰهُمَّ إِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٣٢]

وقوله: **وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأَمْطِرْ علينا حجارةً من السماء**، الآية، يذكر نهايةَ سَفَهِهم، وغايةَ جَرَاءَتِهم على الله، وبُغْضَهم الحقَّ، مع علمهم أن الله هو الإله، وأنه قادر على إنزال العذاب، وله السلطان على إمطار الحجارة، بقولهم: **اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأَمطِرْ علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم**،

---

[١] م: أرادوهم.
[٢] ع: يتلوا.
[٣] ع م – الله.
[٤] سورة الإسراء، ٨٨/١٧.
[٥] سورة البقرة، ٢٣/٢.
[٦] ن ع م: أو تكلفوا.

فلم يُبالوا[1] إهلاكَ[2] أنفسهم لشدةِ سَفَهِهم وجُرأَتِهم على الله وبُغضِهم الحق. وهذا ذُكِر -والله أعلم- لِيَعلم الناسُ ما لَحِق رسولَ الله بدعائه هؤلاء السفهاء إلى دين الله الذين لم يُبالوا[3] إهلاكَ أنفسهم لشدة بُغضِهم الحقَّ وجُرأَتِهم على الله، وما يَتحمَّل منهم من المُؤَن[4] العظيمة.[5]

[٢٨٥ظ س٣٦ * وفي إثبات قول السفهاء ودعائِهم بإمطار الحجارة عليهم، وجَعلِ ذلك كتابا يُتلَى في الصلوات أوجه ثلاثة من الحكمة. أحدها[6] تعريفٌ لهذه الأمة المعاملةَ مع السفهاء عند ارتكاب المناكير، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنهم إذا تَمَادَوْا[7] في غَيِّهم واستقبلوا بالمكروه والأذى أنْ لا يُترَك الأمرُ لهم بالمعروف،[8] ولا يُؤْيَس[9] مِن خيرهم، اقتداءً بالنبي،
[٢٨٦و] أنه لم يَترك[10] دعاءهم وأَمْرَهم بالمعروف مع شدة / سَفَهِهم وتمرُّدِهم. والثاني لِيَعلم الخلقُ أن حجة الله تلزم العباد[11] وإن كانوا قد جهلوه إذا كان التضييع جاء مِن قِبَلهم في ترك النظر والتفكُّر، إذ لو عَلِموا حقيقة العلم أنه الحق لم يكونوا لِيَدْعُوا على أنفسهم بالهلاك.
٢٨٦و س٣] والثالث يكون فيه بيان [ما لَحِق النبيَّ صلى الله عليه وسلم منهم].[12]*

﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٣٣]

وقوله: **وما كان الله لِيعذِّبَهم وأنت فيهم**، يحتمل قوله: **وأنت فيهم**، أي في جملة المؤمنين، أنه لا يعذب أحدا في الدنيا ما دام هو فيهم، وما دام مؤمنٌ فيهم، بقوله: **وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون**، أي يؤمنون. وهو كما ذكر أنه أرسله رحمةً، بقوله: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ،[13]

---

[1] ن ع: فلم ينالوا.
[2] ع: إهلاكهم.
[3] ع: لم ينالوا.
[4] ع: من المؤمن؛ م – المؤن.
[5] ن ع م: العظيم.
[6] ع: أحدهما.
[7] ع م: إنما تمادوا.
[8] ن – والنهي عن المنكر أنهم إذا تمادوا في غيهم واستقبلوا بالمكروه والأذى أن لا يترك الأمر لهم بالمعروف.
[9] ن: ولا يوئس؛ ع: ولا يونس.
[10] ن: لم ينزل.
[11] ن: العبادة.
[12] من شرح *التأويلات*، ورقة ٣٢٧ظ.
* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٨٥ظ/سطر ٣٦ - ٢٨٦و/سطر ٣.
[13] سورة الأنبياء، ١٠٧/٢١.

ومن رحمته أن لا يعذِّب أحدا من أمّته في الدنيا، إنما يؤخِّر ذلك إلى يوم التَّنَاد،[١] بقوله: إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ كذا،[٢] وقوله: وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ.[٣] ويحتمل أن يكون قوله: **وأنت فيهم**، في أهل مكة خاصة، أنه لا يعذبهم ما دام هو فيهم، وما دام[٤] فيهم أحد[٥] من المسلمين، من نحو النساء والذراري، كقوله: وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ،[٦] الآية. أي لا نعذبهم **وأنت** يا محمد **فيهم**، أي بين أظهرهم، حتى نخرجك[٧] من بينهم، **وما كان الله معذِّبَهم وهم يستغفرون**، أي يُصَلُّون، وقيل: يؤمنون، وكذلك روي عن ابن عباس رضي الله عنه.[٨] ولكن يعذبهم تعذيبَ القتال والجهاد، ولا يعذبهم تعذيبَ استئصالٍ وإهلاكٍ جملةً، أي تعذيبَ استئصالٍ[٩] على ما هلك سائر الأمم.

ثم إن المعتزلة[١٠] تعلّقت بظاهر قوله تعالى: **وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون**، أي سيؤمنون، أي لا يعذبهم ما دام يعلم أن فيهم أحدا يؤمن في آخر عمره؛ إذ من[١١] قولهم أنْ لا يجوزُ لله أن يهلك أحدا إذا كان في علمه أنه سيؤمن في آخر عمره، لقولهم في الأصلح: إن الله لا يفعل بخلقه إلا ما هو أصلح لهم في الدين. فعلى ذلك تأوّلوا ظاهر هذه الآية، أنه لا يعذبهم **وهم يستغفرون**، أي سيؤمنون. لكن لو كان كما قالوا لكان لا يجوز الجهاد معهم أبدا، ويسقط الأمر بالقتال، إذ لعل فيهم من يُسلِم. فإذا أمره بالجهاد والقتال معهم دلّ أن ذلك ليس ما توهموا. ***والله أعلم***.

---

[١] ﴿ويا قومِ إني أخاف عليكم يوم التّنَاد﴾ (سورة المؤمن، ٣٢/٤٠). ويوم التناد يوم القيامة. والتناد من النداء، أي يوم ينادي الناس بعضهم بعضا. وقيل: من نَدَّ البعير إذا شَرَد وهرب، أي يجتمع الناس ويركضون إلى المحشر. وقيل غير ذلك (*لسان العرب* لابن منظور، «ندد، ندى»).

[٢] ﴿ولا تحسبنّ الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخّرهم ليومٍ تَشْخَصُ فيه الأبصار﴾ (سورة إبراهيم، ٤٢/١٤).

[٣] ﴿بل الساعةُ مَوْعِدُهم والساعةُ أدْهَى وأَمَرُّ﴾ (سورة القمر، ٤٦/٥٤).

[٤] ع – هو فيهم وما دام.

[٥] ن – والساعة أدهى وأمر ويحتمل أن يكون قوله وأنت فيهم في أهل مكة خاصة أنه لا يعذبهم ما دام هو فيهم وما دام فيهم أحد.

[٦] سورة الفتح، ٢٥/٤٨.

[٧] ك ن: حتى يخرجك.

[٨] *تفسير الطبري*، ٢٣٥/٩.

[٩] ع م – وإهلاك جملة أي تعذيب استئصال.

[١٠] م: ثم المعتزلة.

[١١] م: أو من.

وقال بعضهم في قوله: **وما كان الله معذِّبهم وهم يستغفرون**، أي وهم يدخلون في الإسلام.[١] وقيل: يُسلِمون. وقال بعضهم: **وهم يستغفرون**،[٢] بقيةُ مَن بَقي في مكة من المسلمين، فلما خرجوا منها قال: وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ،[٣] الآية. وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان[٤] فيكم أَمَانَان.[٥] أحدهما رسول الله، لقول الله:[٦] **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم**. والآخر[٧] الاستغفار، لقول الله:[٨] **وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون**. قال: فذهب أَمَانٌ، وهو رسول الله، و بقي أَمَانٌ، وهو الاستغفار.[٩] وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن الله[١٠] جعل في هذه الأمة أَمَانَين، لا يزالون معصومين من قوارع العذاب ما دام بين أظهُرهم؛ فأمانٌ قَبَضَه الله إليه، وأمانٌ بَقي فيكم، وهو الاستغفار الذي ذكر.[١١] وروي عن عبد الله بن عمرو[١٢] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ساجدا في آخِر سجودِه في صلاة الآيات،[١٣] فقال: «أُفٍّ، أُفّ»، فقال: «ربِّ، ألم تَعِدْني[١٤] أن لا تعذبهم وأنا فيهم، ربِّ، ألم تَعِدْني[١٥] أن لا تعذبهم وهم يستغفرون».[١٦] وعن بعضهم: أَمَانَان أنزلهما الله؛ أمّا أحدهما فمضى، وهو نبي الله، وأما الآخر فأبقاه الله تعالى بين أظهُركم، وهو الاستغفار والتوبة.*

---

[١] ع: في السلام.
[٢] ن - وهم يستغفرون.
[٣] الآية التالية.
[٤] ع م - كان.
[٥] ن: أمانا.
[٦] ن: لقوله.
[٧] ع: وآخر.
[٨] ن: لقوله.
[٩] أخرجه أبو الشيخ والحاكم -وصححه- والبيهقي في *شُعَب الإيمان*؛ انظر: *الدر المنثور* للسيوطي، ٥٧/٤.
[١٠] ك - الله.
[١١] *تفسير الطبري*، ٢٣٥/٩؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٥٧/٤.
[١٢] جميع النسخ: عبد الله بن عمر.
[١٣] أي الحوادث الطبيعية العظيمة مثل الكسوف والزلازل. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة الكسوف.
[١٤] ع م: ألم تعد.
[١٥] م: ألم تعد.
[١٦] ع: وهم يستغفر. وذلك حين انكسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. انظر: *سنن أبي داود*، صلاة الاستسقاء ٩؛ و*سنن النسائي*، الكسوف ٢٠.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة، فقدمناه إلى هناك؛ انظر: ورقة ٢٨٥ظ/سطر ٣٦ - ٢٨٦و/سطر ٣.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣٤]

وقوله عز وجل: **وما لهم أنْ لا يعذِّبَهم الله وهم يَصدُّون عن المسجد الحرام**، أي ما لهم مِن عُذر في صَرْف العذاب عن أنفسهم، إذ قد كان منهم مِن أنواعِ ما كان لو كان واحدٌ مِن ذلك لكانوا يستوجبون العذاب، مِن تكذيبِهم الرسولَ والآياتِ التي أرسلها إليهم، وصَدِّهم[١] الناسَ عن المسجد الحرام وهو مكان العبادة، وسؤالِهم بقولهم: فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.[٢] أي ليس لهم عُذر في صَرْف العذاب عن أنفسهم، والاحتجاجِ على الله أنه لم يرسل رسولا بقولهم:[٣] لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا،[٤] الآية. بل أرسل إليهم الرسول فكذّبوه، وبعث إليهم الآيات فكذّبوها، وصَدُّوا الناس عن المسجد الحرام، فلا عذر لهم في وجه من الوجوه أن يَصرف[٥] العذاب عنهم،[٦] إلّا أن الله بفضله ورحمته يَصرف العذاب عنهم ببركة النبي صلى الله عليه وسلم واستغفار المؤمنين، وإلا[٧] قد كان منهم جميع أسباب العذاب التي يستوجبون بها.

وقوله: **وهم يَصدُّون عن المسجد الحرام**، أي عن الصلاة فيها. ويحتمل أن يكون صَدُّوا الناس عن رسول الله، لكنه ذكر المسجد لِما كان[٨] رسول الله فيه، لئلا لا يَروا رسول الله فيتبعوه.[٩]

وقوله عز وجل: **وما كانوا أولياءَه**، أي لم[١٠] يكونوا أولياءه ليصرفوا العذاب عن أنفسهم بالولاية، وهو صلة قوله: **وما لهم أن لا يعذبهم الله**، وهم ليسوا بأوليائه. ويحتمل قوله:[١١] **وما كانوا أولياءه**، أنهم كانوا يصدُّون الناس عن المسجد الحرام لِما ادَّعَوْا[١٢] أنهم أولياؤه،

---

[١] م + وصدهم.
[٢] سورة الأنفال، ٣٢/٨.
[٣] ك ن: لقولهم.
[٤] سورة طه، ١٣٤/٢٠؛ وسورة القصص، ٤٧/٢٨.
[٥] ن – من الوجوه أن يصرف، صح هـ؛ ن + من.
[٦] م – عنهم.
[٧] ع: إلا.
[٨] ن: لمكان.
[٩] ك ن: فيتبعونه؛ ع م: فيتبعوا.
[١٠] ك: إذ لم؛ ن ع: ان لم.
[١١] ع – وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم ليسوا بأوليائه ويحتمل قوله.
[١٢] ن: لما اعوا.

وأنهم أولى بالمسجد الحرام منهم،[1] ثم أخبر أنهم ليسوا أولياءه،[2] إنما أولياؤه **المتقون**، الذين اتَّقَوْا ما أَتَوْا هم،[3] أو أولياؤه[4] الموحِّدون، لا الذين أشركوا غيرَه في عبادته وألوهيته.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[٣٥]

وقوله عز وجل: **وما كان صلاتُهم عند البيت إلا مُكَاءً وتَصْدِيَة**، قال بعضهم: كان أحسنَ حالِهم التي هُم عليها هي حالُ الصلاة، فإذا كان صلاتهم **مكاء وتصدية**[5] فكيف حالهم في غير الصلاة؟ وقال بعضهم: قوله: **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكَاءً وتَصْدِيَة**، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إذا صَلَّوْا في المسجد الحرام قام[6] طائفة من المشركين عن يمين النبي وأصحابه، فيُصَفِّرُون كما يُصَفِّر المُكَّاءُ،[7] وطائفة تقوم عن يسارهم، فيُصَفِّقُون بأيديهم لِيَخْلِطوا على النبي وأصحابِه صلاتَهم، فنزل قوله تعالى: **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكَاءً وتَصْدِيَة**.[8] ثم[9] اختلف في المُكَاء والتَّصْدِيَة. قال بعضهم: المُكَاء هو مثل نَفْخ البُوق، والتَّصْدِيَة هو طوافهم[10] على الشمال. وقال القُتَبي: المُكَاء الصَّفِير، يقال: مَكَا يَمْكُو، وهو مثل ما قيل للطائر: مُكَّاء، لأنه يَمْكُو، أي يُصَفِّر،[11] يعني يُصَوِّت؛ والتَّصْدِيَة هو التصفيق، يقال: صَدَّى،[12] إذا صَفَّق بيديه.[13] وقال أبو عَوْسَجَة: المُكَاء شِبْه[14] الصَّفِير؛ والتَّصْدِيَة ضَرْبٌ باليدين، وهو من الصَّدَى مِن الصوت. وقيل: المُكَاء صَفِير كان أهل الجاهلية يلعبون به، والتَّصْدِيَة الصدّ عن سبيل الله ودينه.

---

[1] م – منهم.

[2] ع – أنهم كانوا يصدون الناس عن المسجد الحرام لما ادعوا أنهم أولياؤه وأنهم أولى بالمسجد الحرام منهم ثم أخبر أنهم ليسوا أولياءه.

[3] ن ع: ما أتوهم؛ م: لما أتوهم. أي الذين اتقوا أفعال المشركين واجتنبوها.

[4] ع م: وأولياؤه.

[5] ك – قال بعضهم كان أحسن حالهم التي هم عليها هي حال الصلاة فإذا كان صلاتهم مكاء وتصدية.

[6] ع: قال.

[7] المُكَّاء نوع من الطير، سمي بذلك لأنه يجمع يديه ثم يصفر فيهما صفيرا حسنا. ومَكَا الإنسان يَمْكُو مَكْوا ومُكَاء: صفر بفَمِه. وقال بعضهم: هو أن يجمع بين أصابع يديه ثم يُدخلها في فيه ثم يصفر فيها (*لسان العرب* لابن منظور، «مكو»).

[8] روي بمعناه عن ابن عباس وغيره. انظر: *تفسير الطبري*، ٢٤٢/٩؛ *والدر المنثور* للسيوطي، ٦١/٤.

[9] ع – ثم.

[10] ع: في طوافهم.

[11] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٧٩.

[12] ع م: صدا.

[13] ع: بيده.

[14] ع: يشبه.

وقوله: **فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**، قال بعض أهل التأويل: ذوقوا العذاب يوم بدر، وهو الهزيمة والقتل الذي كان عليهم يوم بدر. ويحتمل قوله: **فذوقوا العذاب**، في الآخرة بكفرهم في الدنيا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[٣٦]

وقوله عز وجل: **إنّ الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله**، الآية، يُذكِّرهم -والله أعلم- النعم التي أنعمها عليهم من أنواع النعم. أحدها[١] ما أنزلهم في بُقْعَة خُصَّت تلك البُقْعَة وفُضِّلت على غيرها من البقاع، وهي[٢] مكان العبادة، ثم صدّوا الناس عن الدخول فيها والعبادة فيها. ومِن ذلك بَعْثُ الرسول منهم فيهم، فكذّبوه؛ وما أعطاهم من الأموال، فأنفقوها في الصدِّ، صدِّ الناس[٣] عن مكان العبادة وإقامة العبادة فيه. ثم اختلف في معنى الصّدّ. قال بعضهم: إن كفار قريش استأجروا لقتال بدر رجالا من قبائل العرب عَوْنا لهم على قتال النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فذلك نفقتهم التي أنفقوا، فصار ذلك حسرةً عليهم لما كانت الهزيمة عليهم. روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه سئل عن هذه الآية، فقال: تلك قد خَلَتْ، إن ناسا في الجاهلية كانوا يعطون أموالهم ناسا،[٤] فيقاتلون نبي الله، فأسلموا[٥] عليها، فغُلِبُوا،[٦] فكانت عليهم حسرة.[٧] وعن سعيد بن جُبير قال: نزلت في أبي سفيان بن حرب، استأجر يوم أُحُد أُجَرَاء من الأَحَابِيش من كِنَانَة،[٨] فقاتلهم النبي.[٩]

---

[١] ع م: أحد.
[٢] ع م: وهو.
[٣] ع م: الإنسان.
[٤] ن: كان يعطون الناس أموالهم؛ ع م: يعطون ناسا أموالهم.
[٥] أي الذين أخذوا الأموال.
[٦] جميع النسخ: فطلبوا.
[٧] ع م - حسرة. روي بمعناه. انظر: *تفسير الطبري*، ٩/٢٤٥؛ *والدر المنثور* للسيوطي، ٤/٦٣.
[٨] والأَحَابِيش أحياءٌ من القارَة من كِنَانة. سُمُّوا بذلك لاسوِدَادِهم. وقيل: الأَحَابِيش مأخوذ من حَبْش الشيء بمعنى جَمْعه، لأنهم ناس ليسوا من قبيلة واحدة. وكِنَانة قبيلة من مُضَر. والقَارَة قبيلة من كِنَانة سُمُّوا قَارَة لاجتماعِهم والتِفافِهم لَمَّا أراد ابن الشَّدَّاخ أن يُفرِّقهم في بني كِنانة، وهم مشهورون بالرَّمْي (*لسان العرب* لابن منظور، «قور، حبش، كنن»).
[٩] *تفسير الطبري*، ٩/٢٤٤؛ *والدر المنثور* للسيوطي، ٤/٦٣.

ويحتمل أن يكون قوله:[1] **ثم تكون عليهم حسرة**، يوم القيامة، أي النفقة التي أنفقوها تصير[2] عليهم حسرة في الآخرة لما أنفقوها في غير حِلّ[3] لصد الناس عن سبيل الله. وقوله: **والذين كفروا إلى جهنم يحشرون**، أي يُجمَعون، وهو ظاهر، يُجمَعون إلى جهنم بكفرهم بالله.

﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٣٧]

وقوله: **لِيَمِيزَ اللهُ الخبيثَ من الطيب**، جعل الله تعالى الخبيث مختلطا بالطيب في الدنيا، في سمعهم[4]
[٢٨٦ظ] وبصرهم ونطقهم وجميع / جوارحهم، ولباسهم وطعامهم وشرابهم، وجميع منافعهم من الغنى والفقر وأنواع المنافع. جعل بعضهم ببعض مختلطين في الدنيا على ما ذكرنا، لكنه ميّز بين الطيب والخبيث[5] في الآخرة بأعلام يُعرَف بتلك الأعلام[6] الخبيث من الطيب، من نحو ما ذكر في الطيب قوله: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ،[7] و وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ،[8] وقال في الكافر: وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ،[9] وقال: وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا،[10] وقوله: وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا،[11] وقال: وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا،[12] الآية، وغير ذلك من الآيات. ميّز الله تعالى بين الخبيث والطيب بالأعلام[13] التي ذكرنا في سمعهم وبصرهم ووجوههم ولباسهم ومَأْكَلِهم ومَشْرَبِهم حتى يُعرَفوا جميعا بالأعلام. ويحتمل ما ذكر من التمييز بين الخبيث والطيب بالمُبَاهَلَة[14] التي جَرَت بين أبي جهل وبين النبي صلى الله عليه وسلم،

---

[1] ع م – قوله.
[2] ع م – تصير.
[3] م – في غير حل.
[4] ن: بسمعهم.
[5] ك: بين الخبيث والطيب.
[6] ك: العلامات.
[7] سورة القيامة، ٧٥/٢٢-٢٣.
[8] سورة عبس، ٨٠/٣٨-٣٩.
[9] سورة عبس، ٨٠/٤٠-٤١.
[10] سورة طه، ٢٠/١٠٢.
[11] سورة الإسراء، ١٧/٩٧.
[12] ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ (سورة طه، ٢٠/١٢٤).
[13] جميع النسخ: بأعلام.
[14] بَاهَل القومُ بعضُهم بعضا وتَبَاهَلُوا وابْتَهَلُوا: تَلَاعَنُوا. والمُبَاهَلَة: المُلَاعَنَة. ويقال: بَاهَلْتُ فلانا، أي لَاعَنْتُه، ومعنى المُبَاهَلَة أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لعنة الله على الظالم مِنّا (*لسان العرب* لابن منظور، «بهل»).

حيث قال أبو جهل: اللهم[1] انصر أَهْدَانا[2] سبيلا وأبرّنا قَسَما[3] وأَوْصَلنَا[4] رَحِما، فأُجيب، فنصر رسولَه وأصحابَه، فميّز بين المُحِق والمُبْطِل. ويحتمل ما ذكر من التمييز في الآخرة، كقوله: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ.[5]

وقوله عز وجل: **ويجعلَ الخبيث بعضه على بعض فيَرْكُمَه جميعا**، هذا يحتمل وجهين. أحدهما أن يجعلهم دَرَكاتٍ بعضُها أسفلُ من بعض، كقوله تعالى: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ.[6] ويحتمل أن يجعل بعضهم على بعض مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ،[7] **فيَرْكُمَه جميعا**، قيل: يجمعه جميعا،[8] بعضهم على بعض. ويحتمل قوله:[9] **فيَرْكُمَه جميعا**، إخبارا عن الضِيق،[10] كقوله: وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا.[11] وقال القُتَبي: **فيَرْكُمَه جميعا**، أي يجعله رُكاما بعضه[12] فوق بعض.[13] وكذلك قال أبو عَوْسَجَة: يُقال: رَكَمْت المتاع، إذا جعلت بعضه فوق بعض. وقوله: **فيجعَلَه في جهنم**، جهنم[14] هو[15] المكان الذي يجمع أهل النار في التعذيب.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾[٣٨]

وقوله عز وجل: **قل للذين كفرو إن يَنتهوا يُغفَرْ لهم ما قد سلف**، ذكر عز وجل غايةَ كَرَمِه وجُودِه بما وعد لهم من المغفرة والتجاوز عما كان منهم من الإشراك في ألوهيته،

---

[1] ع م – اللهم.
[2] جميع النسخ: انصر من أهدانا.
[3] أَبَرَّ فُلانٌ قَسَم فُلان: أجابه إلى ما أَقْسَم عليه (*لسان العرب* لابن منظور، «برر»).
[4] جميع النسخ: وأوصل.
[5] سورة الشورى، ٧/٤٢.
[6] سورة النساء، ١٤٥/٤.
[7] هذا اقتباس من قوله تعالى: ﴿وترى المجرمين يومئذٍ مُقَرَّنِين في الأَصْفَاد﴾ (سورة إبراهيم، ٤٩/١٤). مُقَرَّنين أي مربوطين بعضهم مع بعض (*لسان العرب* لابن منظور، «قرن»). الأصفاد جمع الصِفاد، وهو حبل يُوثق به أو غُلّ (*لسان العرب* لابن منظور، «صفد»).
[8] ن – قيل يجمعه جميعا.
[9] ع م – قوله.
[10] ن + كذا.
[11] سورة الفرقان، ١٣/٢٥.
[12] ع م: بعضها.
[13] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٧٩.
[14] جميع النسخ: الجهنم.
[15] ن – هو.

وصرفِ العبادة إلى غيره، وصدِّ الناس عن عبادته وطاعته، ونَصْبِ الحروب التي نَصَبوا بينهم وبين المؤمنين، وغيرِ ذلك من أنواع الهلاك. فمع ما كان منهم وَعَد لهم المغفرة بالانتهاء من ذلك، لِيُعلَم غايةُ كَرَمِه وجُودِه. والمغفرة تحتمل[١] التجاوز، أي يتجاوز[٢] عنهم ما كان منهم، لا يؤاخذهم[٣] بذلك. ويحتمل: يستر عليهم معاصيَهم التي كانت[٤] منهم، ولا يَذكُرون ذلك، لأنهم لو ذَكَروا ذلك يُنَغِّص[٥] عليهم[٦] النعم.

وفيه دلالةُ نقضِ قولِ المعتزلة، لأنه أخبر أنهم إن انتهوا وتابوا غفر لهم ما قد كان منهم، وإنما كانوا مُنتهين بالإيمان، و لم يجعل بين الإيمان والكفر منزلة ثالثة، وهم يجعلون بينهما منزلة ثالثة، ويقولون: إذا ارتكب كبيرة خرج من الإيمان، ويخلد في النار أبدا، و لم يكن داخلا في الكفر. وفيه دليلُ نقضِ قولِ مَن يقول بأن على الكافر فعلَ العبادات من نحو الصلاة والزكاة والصيام، لأنه ذكر الانتهاء، والانتهاءُ عما كان منهم[٧] مِن ترك العبادات القيامُ بقضائها وأداءِ[٨] ما تَركوا. فلمّا لم يجب عليهم أداءُ شيءٍ من ذلك دلّ أنه لم يكن عليهم في حال كفرهم فعلُ تلك العبادات. إنما عليهم اعتقاد تلك العبادات،[٩] إذ لو كانت عليهم لكان الانتهاءُ عنها بقضاء[١٠] ذلك، كقوله صلى الله عليه وسلم: «من نام عن صلاة أو نسيها فعليه أن يصليها[١١] إذا ذكرها [و]إذا استيقظ،[١٢] وذلك[١٣] كفارته».[١٤]

[١] ع م: يحتمل.
[٢] ع م – أي يتجاوز.
[٣] ع م: لا يؤخذهم.
[٤] ن ع م: كان.
[٥] نَغَّص عليه عَيْشه تَنْغِيصا، أي كَدَّره... نَغَّص علينا أي قَطَع علينا ما كان نُحب الاستكثار منه (*لسان العرب* لابن منظور، «نغص»).
[٦] ع: وعليهم.
[٧] م – منهم.
[٨] ع م: وإذا.
[٩] ع: العبادة.
[١٠] ك ن ع: قضاء.
[١١] ع: أن يصلها.
[١٢] ك: أو استيقظ.
[١٣] ن: وكذلك.
[١٤] ذكر المؤلف الحديث بمعناه. وقد روي الحديث بألفاظ متقاربة، منها: «مَن نسي صلاة أو نام عنها فكفارتها أن يصلِّيَها إذا ذكرها» (*صحيح البخاري*، مواقيت الصلاة ٣٧؛ و*صحيح مسلم*، المساجد ٣١٥). واللفظ لمسلم. وزيادة الواو في الحديث من *المصنف* لابن أبي شيبة، ٤١٢/١.

وكذلك تأويل[1] قوله تعالى: فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ،[2] ليس على الفعل، ولكن في حق الاعتقاد؛ إذ لا سبيل[3] إلى القيام بفعل ما ذكر إلا بعد حَوْل[4] ووقت طويل. وفي هذه الآية دلالةٌ على أنْ ليس بين الشرك والإيمان منزلة ثالثة، على ما يقوله المعتزلة في صاحب الكبيرة، لأنه لو كان بين الكفر والإيمان منزلة ثالثة لكانوا إذا انتهَوْا عن الكفر و لم ينتهوا عن تلك المنزلة لا يغفر لهم على قولهم، فدلّ ما ذكر من المغفرة على أنْ ليس بينهما منزلة، ولكن إذا انتهَوا عن الكفر دخلوا في الإيمان.

وقوله عز وجل: **وإن يعودوا فقد مَضَتْ سُنة الأولين**، قال بعضهم: **وإن يعودوا**، إلى الكفر وقتال محمد بعدما انتهوا عنه فقد مضى كذا، يعني القتال. ويحتمل أن يكون قوله: **يعودوا**، أي داموا فيه،[5] لا أنْ كانوا خرجوا منه، نحو قوله: يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ،[6] كانوا فيه، لا أنْ كانوا خرجوا منه ثم دخلوا في غير ذلك. ثم يحتمل وجهين بعد هذا. أحدهما أنّ للكفر[7] حكمَ التجدُّد في كل وقت. والثاني ما ذكرنا أنّ ذِكرَ[8] العَوْدِ فيه لدوامهم فيه[9] وإن لم يخرجوا منه، وذلك جائز في اللسان، كقوله: يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، ابتداءَ إخراجٍ من غير أنْ كانوا فيه،[10] وكقوله: رَفَعَ السَّمَاوَاتِ،[11] ابتداءَ رَفْعٍ، لا أنْ كانت موضوعة فرفعها مِن بَعْد. فعلى ذلك قوله: **وإن يعودوا**، يحتمل أي داموا فيه. وقوله: **فقد مَضَتْ سُنة الأولين، مَضَت**، يحتمل ما ذكرنا من القتال. والثاني **سنة الأولين**، الهلاك الذي كان.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٣٩]

وقوله: **وقاتلوهم / حتى لا تكون فتنة**، قيل: الفتنة الشرك، أي قاتلوهم حتى لا يكون الشرك، [٢٨٧و]

---

[1] م – تأويل.
[2] سورة التوبة، ٥/٩.
[3] ن: أنه لا سبيل؛ ع: لأنه لا سبيل.
[4] حَوْل أي قوة لأداء العبادة، أو حولان الحول أي السنة لأداء الزكاة وغيرها (*لسان العرب* لابن منظور، «حول»).
[5] ك: فيها؛ ن – فيه.
[6] ﴿الله وَلِيُّ الذين آمنوا...﴾ (سورة البقرة، ٢٥٧/٢).
[7] ع: أن الكفر.
[8] ك: إنه ذكر.
[9] م – لدوامهم فيه.
[10] ن – فيه.
[11] ﴿الله الذي رفع السماوات بغير عَمَدٍ ترونها﴾ (سورة الرعد، ٢/١٣).

ويكون الدين كله لله. ويحتمل قوله: **حتى لا تكون فتنة**، أي محنة القتال، كأنه قال: قاتلوهم إلى الوقت الذي يرتفع المحنة،[1] وهو يوم القيامة. وفيه دلالة لزوم الجهاد إلى يوم[2] الدين. والفتنة هي المحنة التي فيها الشدة. **ويكون الدين كله لله**.

وقوله[3] عز وجل: **ويكون الدين كله لله**، هو يخرج على وجهين. أحدهما **ويكون** من **الدين** الذي هو الدين **كله لله**، لا نصيب لأحد فيه، وهو السبيل التي كانت للشيطان، كأنه قال: ويكون الأديان التي يُدان بها دينا واحدا، وهو دين الله الذي يُدعَى الخلق إليه، وبذلك بُعث الرسل[4] والكتب. *والله أعلم*. ويحتمل أن يكون[5] الحكم **كله لله**، كقوله: مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ،[6] أي في حكم الملك.

وقوله:[7] **فإن انتهَوْا فإن الله بما يعملون بصير**.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[٤٠]

وقوله: **وإن تولَّوْا فاعلموا أن الله مولاكم**، قيل: ناصركم. وقيل: المولى المليك. **نعم المولى ونعم النصير**، أي نعم الناصر والمعين، **ونعم النصير**، لأنه لا يُعجزه شيء. وقيل: **مولاكم**، أي أولى بكم.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤١]

وقوله عز وجل: **واعلموا أنّ ما غَنِمتم من شيء فأنّ لله خُمُسَه وللرسول ولذي القربى**، قال عامة أهل التأويل: إن الغنيمة هي التي أصاب المسلمون من أموال المشركين بالقتال عَنْوَةً،[8]

---

[1] ك: ترتفع الفتنة.
[2] ع: إلى يو.
[3] ن: قوله.
[4] ن: الرسول.
[5] ك: ويكون.
[6] ﴿فبَدَأ بأَوْعِيَتِهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كِدْنَا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ (سورة يوسف، ١٢/٧٦).
[7] ن – وقوله.
[8] مِن عَنَا يَعْنُو إذا ذلّ وخضع، وفُتحت هذه البلدة عَنوة، أي فُتحت بالقتال، قُوتل أهلُها حتى غُلبوا عليها، وفُتحت البلدة الأخرى صُلحا، أي لم يُغلَبوا، ولكن صُولحوا على خَرْج يؤدّونه، وفي حديث الفتح أنه دخل مكة عَنْوَة، أي قَهْرا وغَلَبة (*لسان العرب* لابن منظور، «عنو»).

والفيء ما يعطون بأيديهم صُلحا. والغنيمة يأخذ الإمام الخمس منها، والباقي يقسم بينهم، والفيء يأخذه الإمام فيضعه في مصلحة المسلمين، وليس فيه الخمس. وقال بعضهم: الغنيمة والفيء واحد.

ثم قوله: **واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه**، إلى آخر ما ذكر، ذكر الخمس ولم يذكر الأربعة الأخماس[١] أنها لِمَن. لكنها للمُقاتِلة، بقوله:[٢] فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا.[٣] فكانت الغنيمة كلها لمن غنمها بظاهر هذه الآية، إلا ما استثنى الله منها[٤] بالآية الأولى، وهو الخمس. وهذا مما أجمع عليه أهل العلم، وعلى ذلك تواترت الأخبار[٥] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن صحابته موقوفةً مِن بَعده. رُوي أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن المال، يعني الغنيمة، قال: «لي خمسه، وأربعة أخماسه[٦] لهؤلاء»، يعني المسلمين.[٧] وروي أنه قسمها بين المُقاتِلة، يعني الأربعة الأخماس.[٨] وفي بعض الأخبار أن أبا الدرداء وعُبادة بن[٩] الصامت[١٠] والحارث بن معاوية كانوا جلوسا، فقال أبو الدرداء:[١١] أيكم يذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث صلى إلى بعير من المَغْنَم،[١٢] فلما انصرف تناول[١٣] من وَبَر البعير فقال: «ما يحل لي من غنائمكم ما يَزِن هذه إلا الخمس، ثم هو مَردُود فيكم».[١٤] وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: كانت الغنائم تُجَزَّأ[١٥] خمسة أجزاء، ثم يُسهَم عليها، فما صار لرسول الله فهو له.[١٦]

---

[١] ك: أخماس.
[٢] ك: لقوله.
[٣] سورة الأنفال، ٦٩/٨.
[٤] ع م: عنها.
[٥] ك - الأخبار.
[٦] م: أخما.
[٧] أخرجه ابن أبي شيبة والبغوي وابن مردويه والبيهقي في شعب *الإيمان*؛ انظر: *الدر المنثور* للسيوطي، ٦٩/٤.
[٨] ورد في هذا المعنى أحاديث كثيرة؛ انظر مثلا: *صحيح مسلم*، الجهاد ٤٧-٥٠؛ وسنن *أبي داود*، الخراج ٢٣-٢٤. وانظر للمزيد من الروايات: *نصب الراية* للزيلعي، ٤١٢/٣.
[٩] ك: ابن.
[١٠] ع: وعباد بن صامت.
[١١] ع: أبوا الدرداء.
[١٢] ع: من الغنم.
[١٣] ك ن: فناول؛ ع م: فتناول.
[١٤] روي بمعناه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه؛ انظر: *مسند أحمد بن حنبل*، ٣١٦/٥، ٣١٩، ٣٢٦؛ وسنن *النسائي*، قسم الفيء ١.
[١٥] ك: تجزئ.
[١٦] روي عن ابن عمر بلفظ: ... فما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهو له يَتَخَيَّرُ. انظر: *مسند أحمد بن حنبل*، ٧١/٢.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانت الغنيمة تُقسَم على خمسة أخماس، فأربعة منها لمن قاتل عليها،[1] وغير ذلك من الأخبار. وعلى ذلك اتفاق الأمة.[2] ومنهم من يقول: يُقسَم [الخُمس] على ستة، سَهمٌ لله يُجعَل في ستر الكعبة، وسهمٌ لرسوله ينتفع به. ومنهم من قال: يُقسَم[3] على خمسة، سهمٌ لرسول الله،[4] وأربعة أخماس[5] لمن غنم. ومنهم من يقول: يُقسَم[6] على أربعة، سهمٌ لرسوله، وثلاثة أرباعه لمن غنم.

ثم قوله: **فأن لله خمسه وللرسول**، يحتمل إضافة ذلك إلى نفسه وجهين. أحدهما لِما جعل ذلك لإقامة العبادات وأنواع البر والخير والقُرَب التي هي لله، فأضيف إليه على ما أضيف المساجد إليه، بقوله:[7] وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ،[8] وإن كانت البقاع كلها لله. وكذلك ما سمى الكعبة بيت الله -وإن كانت البيوت كلها لله- لِما جعلها[9] موضعا[10] لإقامة العبادات وأنواع القُرَب، فأضيف إلى الله لذلك.[11] فعلى ذلك يحتمل إضافة ذلك السهم إلى الله لما جعله لإقامة العبادات والقُرَب وأنواع البر. *والله أعلم*.

والثاني أضاف ذلك إلى نفسه خصوصية لرسول الله، إذ كان[12] ذلك لرسوله، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع أحواله وأموره لله خالصا، لم يكن لنفسه ولا لأحد من الخلق، فعلى ذلك جميع ماله وما كان تَحْوِيه يدُه لم يكن له، إنما كان ذلك[13] لله خالصا يصرف ذلك في أنواع القُرَب والبر في القرابة واليتامى والمساكين وابن السبيل، الأحياء منهم والأموات جميعا، والقريب منهم والبعيد جميعا. ألا ترى أنه قال: «إنّا معشرَ الأنبياء لا نُورَث، ما تَرَكْنا صدقةٌ».[14]

---

[1] *تفسير الطبري*، ١٠/٤؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٤/٦٦.
[2] ك: الأئمة.
[3] ك: تقسم.
[4] ع – الله؛ م: لرسوله.
[5] ك: أخماسه.
[6] ك: تقسم.
[7] ك: لقوله.
[8] سورة الجن، ٧٢/١٨.
[9] ع: ما جعلها.
[10] ع م – موضعا.
[11] ع م: ذلك.
[12] ن: إذا كان.
[13] ك – ذلك.
[14] روي قريبا منه. انظر: *مسند أحمد بن حنبل*، ٢/٤٦٣؛ و*صحيح البخاري*، فرض الخمس ١؛ و*صحيح مسلم*، الجهاد ٥١.

هذا يدل أن ما يترك[١] صدقة[٢] لا يُورَث منه، ولو كان له لَوَرِث[٣] ورثتُه ما يُورَث مِن غيرِه. دلّ أن نفسه وماله كان لله خالصا. وكذلك جميع أموره لله خالصا.[٤] ألا ترى أنه رُوي في الخبر أنه كان يجوع يوما ويشبع يوما، ويشبع يوما[٥] ويجوع ثلاثا،[٦] وكان يربط الحجر على بطنه للجوع.[٧] فإذا كان كذلك كان[٨] إضافة ذلك الخمس[٩] إلى الله لخصوصيته[١٠] له، وخُلوصِ نفسِه ومالِه له.[١١] وإن كان جميع الخلائق[١٢] وما تَحْوِيه أيديهم لله حقيقة، لٰكِنْ لهم فيها الانتفاعُ وقضاءُ الحوائج والتدبيرُ لأنواع التصرّف في ذلك ومشاركةُ غيرٍ في ذلك، لم يُخَصّ بالإضافة إليه، وإن كان ذلك كله[١٣] لله حقيقة. ولَمَّا كان نفسُ رسولِ الله وما تَحْوِيه[١٤] يدُه لله، لا تدبيرَ له في ذلك، ولا شِركَ لأحدٍ فيه، خُصّ بإضافة[١٥] ذلك إليه.[١٦] وهذا / كما قال -والله أعلم- ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ،[١٧] وقال: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلّٰهِ،[١٨] وقال: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ،[١٩] وقال: وَبَرَزُوا لِلّٰهِ جَمِيعًا،[٢٠] [٢٨٧ظ]

---

[١] ن ع: ما ينزل.

[٢] ع + هذا يدل أن ما ينزل صدقة.

[٣] ك ن ع: ليورث؛ م: ليوارث.

[٤] ع م - خالصا.

[٥] ع م - ويشبع يوما.

[٦] عن أبي أُمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «عَرَض عليَّ ربِّي لِيجعل لي بَطْحَاء مكّة ذَهَبا، قلت: لا يا ربّ، ولكن أشبع يوما وأجوع يوما -أو قال- ثلاثا -أو نحو هذا- فإذا جُعْتُ تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك» (*مسند أحمد بن حنبل*، ٥/٢٥٤؛ و*سنن الترمذي*، الزهد ٣٥). وحسّنه الترمذي.

[٧] وذلك في غزوة الخندق. انظر: *مسند أحمد بن حنبل*، ٣/٣٠٠؛ وصحيح *البخاري*، المغازي ٢٩. وروي أنه صلى الله عليه وسلم كان يربط حَجَرَيْن. انظر: *سنن الترمذي*، الزهد ٣٨.

[٨] ع م - كذلك كان.

[٩] م: الجنس.

[١٠] م: لخصوصية.

[١١] ن - له.

[١٢] م: الخلق.

[١٣] ن - كله.

[١٤] ك: وما يحويه.

[١٥] جميع النسخ: بالإضافة.

[١٦] م + كله لله حقيقة ولما كان نفس رسول الله.

[١٧] سورة الحج، ٢٢/٥٦.

[١٨] سورة المؤمن، ٤٠/١٦.

[١٩] سورة الفاتحة، ١/٤.

[٢٠] سورة إبراهيم، ١٤/٢١.

خصّ[1] بالذكر مُلْكَ ذلك اليوم له[2] والبُروزَ له لما ينقطع يومئذٍ تدبيرُ جميعِ ملوكِ الأرض ويذهب سلطانهم عنهم ويصفو[3] البروزُ له، وإن كان المُلك له[4] في الأحوال كلها والأوقات جميعا، وكذلك البروزُ له والمصيرُ إليه، وإن كان ذلك راجعا إليه في كل الأحوال. فعلى ذلك الأول. *والله أعلم*.

ثم ليس في ظاهر الآية دليل أن المراد[5] بقوله: **وَلِذِي الْقُرْبَى**، قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل في ظاهره دلالة أنه أراد به قرابة أهل السهام في ذلك؛ لأنه خاطب به الكل، بقوله: **واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى**، وظاهره أنه أراد به قُرْبَى مَن خاطب، وكان الخطاب لهم جميعا. ألا ترى أنه لم يفهم من قوله: لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ،[6] قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن قرابة المخاطبين جميعا.[7] وكذلك لم يرجع قوله: إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ،[8] إلى قرابة رسول الله، بل إلى قرابة المخاطبين به.[9] فعلى ذلك الظاهر من قوله: **ولذي القربى**. إلّا أن يقال: أراد قرابة[10] رسول الله بدلالة أخرى سوى ظاهر الآية، وهو ما رُوي أنه[11] قسم الخمس بين بني هاشم،[12] وما رُوي أنه قال: «ما لي من هذا المال إلا الخمس، والخمس مردود فيكم»،[13] وما رُوي أن نَجْدَة[14] كَتب إلى ابن عباس[15] يسأله عن سهم ذي القربى،

[1] ع – بإضافة ذلك إليه وهذا كما قال والله أعلم الملك يومئذ لله وقال لمن الملك اليوم لله وقال مالك يوم الدين وقال وبرزوا لله جميعا خص.

[2] ع م – له.

[3] ك: عنه ويصفوا؛ ع م: ويصفوا.

[4] ع م – له.

[5] م: دليل المراد.

[6] سورة النساء، ٧/٤.

[7] ع م – جميعا.

[8] سورة البقرة، ١٨٠/٢.

[9] ن – به.

[10] ع: بالقرابة.

[11] ع م – أنه.

[12] روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى بني هاشم وبني المطلب من الخمس. انظر: *صحيح البخاري*، المغازي ٣٨؛ وسنن *أبي داود*، الخراج ١٩–٢٠.

[13] روي نحوه عن طريق عدد من الصحابة. انظر: مسند *أحمد بن حنبل*، ١٨٤/٢، ٣١٦/٥، ٣١٩، ٣٢٦؛ وسنن *أبي داود*، الجهاد ١٢١، ١٤٩؛ وسنن *النسائي*، قسم الفيء ١.

[14] نَجْدَة بن عامر بن عمير اليَمَامِي، من رءوس الخوارج. خرج باليمامة عقب موت يزيد بن معاوية. وله مقالات معروفة، وأتباع انقرضوا. مات مقتولا في سنة ٧٠هـ/٦٩٠م. انظر: *لسان الميزان* لابن حجر، ١٤٨/٦.

[15] م: كتب إلى إلى.

فكتب إليه: كتبتَ[١] تسألني عن سهم ذي القربى[٢] لمن هو، وهو لنا أهلَ البيت، وقد كان عُمَر دعانا إلى أن يُنْكِح منه أَيِّمَنا ويقضي[٣] عنه[٤] مَغْرَمنا، فأَبَيْنا إلّا أن يُسَلِّمَه إلينا، فأبى ذلك علينا.[٥] فدل فِعل عُمَر هذا على أن التأويل في الخمس كان عنده أن رسول الله كان يَصِل[٦] به قرابته، ويَسُدّ بالخمس حاجتهم، إذ كان[٧] سبيل الخمس ما ذكرنا أنه لله،[٨] بمعنى أنه يصرف في وجوه القُرَب إليه، فلو كان الخمس حقًّا لجميع[٩] القرابة أعطى من ذلك غنيّهم وفقيرَهم. وما يأخذه الأغنياء من الخمس فإنه لا يجري مجرى الصدقة ولا مجرى القُربة، فبان بذلك أنه [كان] لا يُعطِي منه أغنياءهم بل يَصرف[١٠] إلى فقرائهم على قدر حاجتهم، إذ لم يكن له مَكاسِب سواه يَصِل بها كما يكون لغيره من الناس من المكاسب وأنواع الحِرَف. ومما يدل على أن رسول الله أعطى بعض القرابة دون بعض ما رُوي عن جُبَير بن[١١] مُطعِم قال: لما قسم رسول الله سهم ذوي القربى[١٢] بين[١٣] بني هاشم وبني المُطَّلِب أتيت أنا وعثمان، فقلنا: يا رسول الله، هؤلاء بنو هاشم[١٤] لا ننكر فضلهم لمكانك الذي وضعك الله فيهم، أرأيت بني المُطَّلِب، أَعطيتهم ومَنعتَنا، وإنما نحن وهم منك بمنزلة واحدة. فقال:[١٥] «إنهم لم يفارقوني[١٦] في جاهلية ولا إسلام، وإنما بنو هاشم وبنو المُطَّلِب شيء واحد»، وشَبَّك بين أصابعه.[١٧]

---

[١] ك ن ع: كنت.
[٢] م – فكتب إليه كتبت تسألني عن سهم ذي القربى.
[٣] ن ع م: ونقضي.
[٤] ع – عنه.
[٥] *مسند أحمد بن حنبل*، ١/٣٢٠؛ و*سنن النسائي*، قسم الفيء ١. وروي مختصرا؛ انظر: *صحيح مسلم*، الجهاد ١٣٧؛ و*سنن أبي داود*، الخراج ١٩–٢٠.
[٦] ع: يصلى.
[٧] ع م + جعل.
[٨] ن: أن لله.
[٩] ن ع م: بجميع.
[١٠] ن: بل يعطى؛ م – يصرف.
[١١] ن ع: ابن.
[١٢] م: وذي القربى.
[١٣] ك: بني.
[١٤] ك: بني هاشم.
[١٥] ع م: يقال.
[١٦] ع م: لا يفارقوني.
[١٧] *صحيح البخاري*، المغازي ٣٨؛ و*سنن أبي داود*، الخراج ١٩–٢٠؛ و*سنن النسائي*، قسم الفيء ١؛ و*تفسير الطبري*، ١٠/٦؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٤/٦٩.

وقوله: **فأن لله خمسه وللرسول**، إلى آخر ما ذكر، بَيَّن أنّ خُمُس الغنيمة يُصرَف في وجوه البر والقُرَب إلى الله، ثم فسّر تلك الوجوه، فقال: **وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل**، فكانت تسمية هذه الأصناف -والله أعلم- تعليما لنا أن الخمس يُصرَف فيمن ذكر من أهلها دون غيرهم. وليس ذلك إيجابا منه لكل صنف منها شيئا[1] معلوما، ولكن على بيان الأهل والموضع. وهو كقوله: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ،[2] الآية. حمل أصحابنا ذلك على أن الصدقة لا تجوز[3] إلا لمن كان من أهل هذه الأصناف[4] دون غيرهم، ولم يحملوا الأمر على أن لكل صنف منهم شيئا معلوما محدودا، ولكن على بيان أهلها. وعلى ذلك رُوي عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، منهم عمر وعلي وحذيفة وابن عباس وجماعة من السلف ما يَكثُر عددهم، قالوا: إذا وَضعتَ الصدقة في صنف واحد أَجزأَك،[5] فلو كان لأهل كل صنف الثُّمُن[6] منها كان المُعطِي بها صنفا واحدا مخالفا لما أمر به. فعلى ذلك قوله: **فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى**، الآية، معناه -والله أعلم- أن الخمس الذي يُتَقَرَّب به من الغنيمة إلى الله لا يستحقه إلا الرسول، ومن كان من الأصناف التي ذكرها[7] فإلى أيهم[8] دفع ذلك الخمس أجزأه. وإذا كان التأويل ما وصفنا لم يكن لأحد من أهل هذه الأصناف أن يدّعي منه خمسا ولا ربعا، ولكن يُعطَى كلُّ مَن حضر منهم بقدر فَاقَتِه وحاجته وعلى قدر ما يراه الإمام، فإذا جاء فريق آخرون أُعطُوا مما يُدفَع إلى الإمام من ذلك الخمس من المال كفايتَهم. وكذلك رُوي عن ابن عمر أن ابن[9] عباس قال: كان عمر يعطينا من الخمس نحوا[10] مما كان يرى أنه لنا، فرَغِبنا عن ذلك وقلنا: حق[11] ذي القربى خمس الخمس، فقال عمر:

---

[1] ك: شيئا منها.

[2] ﴿إنما الصدقاتُ للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلَّفة قلوبهُم وفي الرِّقاب والغارِمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضةً من الله والله عليم حكيم﴾ (سورة التوبة، ٩/٦٠).

[3] ك ع م: لا يجوز.

[4] ك: الأصنام.

[5] انظر لمجموع الروايات: *تفسير الطبري*، ١٠/١٦٦-١٦٧.

[6] أي لو أعطى لكل صنف من الأصناف الثمانية المذكورين في آية الصدقة الثُّمُن...

[7] ن: أذكرها.

[8] م: فإلى رأيهم.

[9] ع م – ابن.

[10] ع: نحو.

[11] ن + حق.

إنما جعل الله الخمس لأصنافٍ سمّاها، فأَسْعَدُهم بها أكثرُهم عددا وأشدُّهم فاقة، فأخذ ذلك ناس وتركه ناس.[١] وكذلك فَعل عمر لَمّا وَلِيَ الأمرَ، كما روي[٢] عن ابن عباس قال: عَرَض علينا عمر أن يُزَوِّج من الخمس أَيِّمَنا ويقضي[٣] منه مَغْرَمنا، فأبينا[٤] عليه إلا أن يُسلِّمه إلينا، فأبى ذلك علينا. فدل فِعل عمر على أن القرابة يُعطَون من الخمس قدر حاجتهم وما يسدّ به فاقتهم، إذ لو كان الخمس حقا لجميع[٥] القرابة أعطى من ذلك غنيَّهم وفقيرَهم. ومما يدل أيضا على أن الخمس لو كان حقا لجميع[٦] القرابة غنيّهم / وفقيرهم[٧] لَقَسمه[٨] رسول الله [٢٨٨و] صلى الله عليه وسلم فيهم كما قسم الأربعة الأخماس بين المُقاتِلة، بل أَعطى منه بعض القرابة وحَرَم بعضا، لما ذكرنا في [حديث] جُبَير بن مُطعِم. ومما يدل أيضا أن ذلك لأهل الحاجة منهم[٩] دون الكل ما روي أن الفضل بن[١٠] عباس وفلانا[١١] دخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يومئذ عند زينب بنت جحش، فقالا:[١٢] يا رسول الله، أنت أبرّ الناس وأوصل الناس، وقد بلغنا النكاح، فجئناك لِتُؤَمِّرَنا على هذه الصدقات، فنؤدي إليك ما يؤدي العُمّال، ونُصيبُ منها ما يُصيبون. فسكت طويلا حتى أردنا أن نكلمه[١٣] ثانيا، حتى جعلت زينب تَلْمَع[١٤] إلينا من وراء الحجاب أنْ لا تُكلّماه. ثم قال: «أَلَا إن الصدقة لا تنبغي[١٥] لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس، ادعوا[١٦] لي مَحْمِيَة[١٧] -وكان على الخمس-

[١] روي قريبا منه؛ انظر: *السنن الكبرى* للبيهقي، ٦/٣٤٤.
[٢] جميع النسخ: ما روي.
[٣] ن ع م: ونقضي.
[٤] ع م: بينا.
[٥] ن ع م: بجميع.
[٦] ن ع م: بجميع.
[٧] م – ومما يدل أيضا على أن الخمس لو كان حقا لجميع القرابة غنيهم وفقيرهم.
[٨] ع: لقسمة؛ ن: بقسمة.
[٩] ن – منهم، صح هـ.
[١٠] ن: ابن.
[١١] جميع النسخ: وفلان. وهو عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب.
[١٢] م: فقال.
[١٣] ع م – أن نكلمه.
[١٤] لمع يلْمَع وألمع يُلمِع أي أشار بيده (*لسان العرب* لابن منظور، «لمع»).
[١٥] ع م: لا ينبغي.
[١٦] ع – ادعوا.
[١٧] ع: إلى محية.

ونوفل[١] بن الحارث بن عبد المطلب»،[٢] فجاءاه.[٣] فقال لمَحْمِيَة:[٤] «أَنْكِحْ هذا الغلامَ ابنتَك»، للفَضْل، فأَنْكَحَه؛ وقال لنوفل:[٥] «أَنْكِحْ هذا الغلامَ ابنتَك»، فأَنْكَحَني،[٦] ثم قال لمَحْمِيَة:[٧] «أَصْدِقْهما[٨] من الخمس كذا وكذا».[٩] دل هذا على أن[١٠] الحق لهم فيه لأهل الحاجة منهم. ومما يدل أيضا على ذلك ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما لي من هذا[١١] المال إلا الخمس، والخمس مردود فيكم».[١٢] لم يخص القرابة بشيء منه. كان سبيلُهم سبيلَ أمر المسلمين، يعطي من يحتاج منهم كفايته. وعلى هذا [كان] أمر[١٣] الأئمة الراشدين، ولم يغيره علي رضي الله عنه لَمّا وَلِيَ الأمر، وكان ذلك عندنا مما لا يجوز مخالفتهم عليه.

فإن قيل: لو كان قرابة النبي إنما يُعطَوْن من الخمس على سبيل الفقر والحاجة فهم على هذا يدخلون في عموم المساكين، فما وجه ذِكره إياهم إذًا؟

قيل: إن الله تبارك وتعالى قال في الصدقات: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ،[١٤] الآية،[١٥] ثم رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تحل الصدقة لمحمد، ولا لآل محمد»،[١٦] فلو لم يُسهِم الله في الخمس جاز أن يقول قائل: لا يجوز أن يُعطَوْا من الخمس وإن كانوا[١٧] فقراء، كما لا يجوز أن يُعطَوْا من الصدقة إذ كانوا[١٨] فقراء، فكان[١٩] سبب ذِكر الله إياهم في الخمس لذلك. **والله أعلم**.

---

[١] م: ونوافل.
[٢] ع: ونوافل ابن الحارث ابن عبد المطلب.
[٣] م: فجاؤه.
[٤] ع: لمحية.
[٥] ع م: النوفل.
[٦] م: فأنكحه.
[٧] ع: لمحية.
[٨] م: اصدقها. أي أعطهما الصَّدَاق وهو المهر.
[٩] صحيح *مسلم*، الزكاة ١٦٧؛ وسنن *أبي داود*، الخراج ١٩-٢٠.
[١٠] ن: هذا أن.
[١١] ع م: من هذه.
[١٢] تقدم تخريجه قريبا.
[١٣] جميع النسخ: مما أمر.
[١٤] سورة التوبة، ٦٠/٩.
[١٥] ع م - الآية.
[١٦] سنن *أبي داود*، الخراج ١٩-٢٠؛ وسنن *النسائي*، الزكاة ٩٥.
[١٧] ك: وإن كان؛ ع م: وإن يكونوا.
[١٨] ع م: أو كانوا.
[١٩] ع م: فكانوا.

ثم اختلف أهل العلم بعد وفاة رسول الله في سهم الرسول وسهم ذي القربى. فقال طائفة منهم:[١] سهم الرسول للخليفة من بعده، وسهم ذي القربى لقرابة الخليفة. وقال طائفة: سهم القربى لقرابة الرسول.[٢] وقال الحسن [بن محمد]: سهم القرابة لقرابة الخلفاء.[٣] وقال غيره: القرابة قرابة رسول الله. وقد ذكرنا أنه يحتمل أنه كان[٤] له، يَصِل به قرابتَه بحق الصلة، أو يعطيهم بحق القرابة ما دام حيا. ثم قد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا نُورَث، ما تَرَكْنا صدقةٌ»،[٥] فإذا لم يُورَث عنه ما قد حازه من سهامه فكيف يُورَث عنه ما غُنِم بعد وفاته. ولو كان سهمه الذي لم يَلْحَقْه موروثا عنه كان سهمه الذي قد حازه أَحْرَى أن يُورَث عنه، فإذا لم يُورَث الذي قد حازه ومَلَكه عنه لا يُورَث الآخَر. **والله أعلم**.

وعن عائشة أن فاطمة والعباس[٦] أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله، وهما حينئذ[٧] يطلبان أرضه مِن فَدَك وسهمَه من خيبر، فقال لهما أبو بكر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا نُورَث، ما تَرَكْنا صدقةٌ»، إنما يأكل آل محمد في هذا المال -أي من[٨] الغنائم- واللهِ لا أدع أمرًا رأيت رسول الله يصنعه فيه إلّا أصنعه.[٩] وفي بعض الأخبار قال: «لا يَقسِم ورثتي دينارا ولا درهما، ما تركتُ بعد نفقة نسائي ومَئُونة عاملي[١٠] فهو[١١] صدقة».[١٢] وعن عمر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق مما أفاء الله عليه سنة، ويجعل ما بقي [يَجْعَلَ] مال الله. وروي أيضا عنه[١٣] قال: كانت أموال بني النَّضير[١٤] مما أفاء الله على رسوله،

---

[١] ك ع م – منهم.
[٢] ن: رسول الله.
[٣] تفسير *الطبري*، ١٠/٧؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٤/٦٥. والقائل هو الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب؛ وليس الحسن البصري كما يتبادر إلى الذهن عند الإطلاق.
[٤] ع: أن يحتمل كان.
[٥] تقدم تخريجه قريبا.
[٦] ن: وعباس.
[٧] ك: ح.
[٨] ع م: أي حق.
[٩] صحيح *البخاري*، فرض الخمس ١؛ وصحيح *مسلم*، الجهاد ٥٢.
[١٠] جميع النسخ: نفقة عاملي ومئونة نسائي.
[١١] م + فهو.
[١٢] مسند *أحمد بن حنبل*، ٢/٤٦٤؛ وصحيح *البخاري*، الوصايا ٣٢؛ وصحيح *مسلم*، الجهاد ٥٥. ولفظ الصحيحين: «لا يَقْتَسِم...».
[١٣] ع: عنه أيضا.
[١٤] م: بني النضر.

وكانت له خالصا، وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة، وما بقي جَعَلَه في الكُرَاع[1] والسلاح.[2] فهذه الأخبار تبين أنه لم يُورَّث سهمُ النبي بعد وفاته، فهي تدل على أن لا نُقَدِّر[3] بعد موت النبي من خمس الغنائم للخليفة شيئا، وأن ذلك إنما[4] كان خصوصا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كالصَّفِيّ الذي كان له خاصة دون غيره،[5] وكما لم يُوجِف[6] عليه المسلمون بِخَيْل ولا رِكَاب فكان له ذلك خاصة، فليس لأحد لغير النبي صلى الله عليه وسلم خصوص من الخمس كما[7] ليس له خصوص من الصَّفِيّ وغيره،[8] فكان ذلك له خاصة.[9] وإذا كان الأمر في سهم الرسول كما وصفنا ولم يَنقص من الخمس الذي هو لله شيءٌ بعد موت النبي ويخرج ذلك الخمس كله من الغنيمة، فذلك يدل على أن الخمس ليس لأهل هذه السهام حقا مقسوما، ولكن يُعطَوْن منه بقدر فاقتهم. ويدل ذلك أيضا على أنه لا يجب لكل صنف من هذه الأصناف سهم معلوم، لأنا قد رددنا سهم النبي من الخمس على سائر السهام، فكما جاز أن يُرَدّ عليهم سهمُ النبي فكذلك يجوز أن يُجعَل سهمُ اليتامى أو بعضُه للمساكين إذا حضروا وطلبوا و لم يحضر اليتامى؛ لأن المعنى في الآية –والله أعلم– أن لا يُعطيَ إلا من كان من أهل هذه الأصناف، وإذا أُعطِيَ واحدٌ من أهل هذه الأصناف[10] فقد وُضِع الحقُّ في موضعه و لم يُتَعَدَّ به إلى غيره.

---

[1] الكُراع: اسم يجمع الخيل. والكُراع: السلاح. وقيل: هو اسم يجمع الخيل والسلاح (*لسان العرب* لابن منظور، «كرع»).

[2] صحيح *البخاري*، الجهاد ٨٠، فرض الخمس ١؛ وصحيح *مسلم*، الجهاد ٤٨.

[3] ن: أن نقدر؛ ع م: أن لا نقد.

[4] م – إنما.

[5] سنن *أبي داود*، الخراج ١٨-١٩؛ وسنن *النسائي*، قسم الفيء ١. والصَّفِيّ من الغنيمة ما اختاره الرئيس من المَغْنَم واصطفاه لنفسه قبل القسمة من فرس أو سيف أو غيره. وهو الصَّفِيَّة أيضا. وجمعه صَفَايا (*لسان العرب* لابن منظور، «صفو»).

[6] الوَجْف: سرعة السير. وَجَف البعيرُ والفرسُ يَجِف وَجْفا و وَجِيفا: أسرع. والوَجِيف: ضَرْب من سير الإبل والخيل. وأَوْجَف دابته: إذا حَثَّها. وقوله تعالى: ﴿فما أَوْجَفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾ (سورة الحشر، ٥٩/٦)، أي ما أَعْمَلتم، يعني ما أفاء الله على رسوله من أموال بني النضير مما لم يُوجِف المسلمون عليه خيلا ولا ركابا، والركاب: الإبل. وفي الحديث: لم يُوجِفوا عليه بخيل ولا ركاب، الإيجاف: سرعة السير (*لسان العرب* لابن منظور، «وجف»).

[7] ع – كما.

[8] ع: وغير.

[9] ن ع م – فكان ذلك له خاصة.

[10] ع م – وإذا أعطى واحد من أهل هذه الأصناف.

ثم الخطاب في قوله: **واعلموا أن ما غنمتم من شيء**، لا يحتمل كُلًّا في نفسه كالخطاب بأداء الزكاة وغيرها من الحقوق، بل الخطاب راجع إلى الجماعة الذين غنموا؛ ألا ترى أن العسكر أو السرايا إذا دخلوا دار الحرب فتفرّقوا فيها فغنم واحد منهم يجب ضمُّ ذلك / إلى جميع العسكر والسرايا، فعند ذلك يخرج الخمس منه. دلّ أن الخطاب بذلك راجع [٢٨٨ظ] إلى جماعة، وهي الجماعة التي لهم مَنَعَة يقومون للعدو، لا أنه خاطب كلَّ أحد في نفسه. فهذا يدل على أن الواحد أو الاثنين إذا دخلوا دار الحرب بغير إذن الإمام فغَنِموا[١] غنائمَ لا تُخَمَّس، ولكن يُسَلَّم الكلَّ له.[٢] وأمّا الغنيمة نفسها لا يحتمل[٣] أن ترجع إلى حدّ[٤] معلوم أو مقدار محدود كالزكاة وسائر الحقوق، لأن الغنيمة شيء يؤخذ من أيدي الكفرة، وإنما يؤخذ قَدْرُ ما يُظْفَر به ويوجد، فلا يحتمل أن يرجع الخطاب به إلى قَدْر دون قَدْر، بل القليل[٥] من ذلك والكثير سواء، لا حدَّ في ذلك ولا مقدار، ليس كالزكاة وغيرها من الحقوق التي جَعل [الشارع] فيها حدّا ومقدارا للوجه الذي ذكرنا. وأما المصيبون لها والآخذون فلهم في ذلك مقدار، وهم الذين لهم مَنَعَة.

ثم نذكر[٦] مسألة في قسمة السهام بين الرَّجّالة[٧] والفُرسان وإن لم يكن في الآية ذِكرُ ذلك. رُوي عن ابن عمر قال: أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر الرجل سهما والفرس سهمين، ثلاثة أسهم له ولفرسه.[٨] وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر للراجل سهما، وللفارس ثلاثة أسهم، سهما له وسهمين للفرس.[٩]

---

[١] جميع النسخ: فغنم.
[٢] م – له.
[٣] ن: لا تحتمل.
[٤] ع م: إلى أحد.
[٥] ع: قدر القليل.
[٦] ن ع: ثم تذكر.
[٧] رَجِل الرَّجُل رَجَلا، فهو راجِل ورَجِل، إذا لم يكن له ظهر في سفر يركبه، والجمع رِجَال ورَجّالة... (*لسان العرب* لابن منظور، «رجل»).
[٨] روي الحديث بألفاظ مختلفة، فلفظ البخاري هكذا: عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر للفرس سهمين، وللراجل سهما. قال: فسّره نافع فقال: إذا كان مع الرجل فرس فله ثلاثة أسهم، فإن لم يكن له فرس فله سهم. انظر: *صحيح البخاري*، المغازي ٣٨. ولفظ مسلم: عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم في النَّفَل للفرس سهمين وللرجل سهما. وفي رواية أخرى لم يذكر: "في النَّفَل". انظر: *صحيح مسلم*، الجهاد ٥٧.
[٩] رواه إسحاق بن راهويه وغيره؛ ولم يذكر: "يوم خيبر". انظر: *نصب الراية* للزيلعي، ٣/٤١٢، ٤١٤.

وعن زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى الزبير يوم خيبر أربعة أسهم، سهمَ ذي القربى، وسهما[1] له مع المسلمين، وسهمين للفرس.[2] ثم رُوي أيضا عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسم للفارس سهمين وللراجل سهما.[3] وعن المقداد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم[4] أسهم له يوم بدر سهما، ولفرسه سهما.[5] وعن علي قال: للفارس سهمان.[6] وعن المنذر قال: بعثه عمر في جيش إلى حِمْص،[7] فأصابه غنائم، فقسم للفارس سهمين وللراجل سهما،[8] فرضي بذلك عمر.[9] فجعل بعض أهل العلم ما ذكره في هذه الأحاديث من الإسهام للخيل، وقولِ بعضِ الرواة: ثلاثة أسهم، للفرس سهمين،[10] وقولِ بعضِهم: أَسْهَم للفارس سهمين، اختلافا وتضادّا، فحملوا على التناسخ. وقد يجوز أن لا يكون ذلك كذلك. وقد تكون زيادته التي زاد[11] النبي للفرس على سهم -إن كان محفوظا ثابتا- لِنَفَلٍ نَفَّلَه الأَفْرَاسَ حينئذ[12] ترغيبا منه للمقاتِلة في اتخاذها، وتحريضا، كما يجوز أن يقول الإمام: من قتل قتيلا فله سَلَبُه، ومن جاء برأس كذا فله كذا،[13] يحرِّض بذلك المقاتلة في القتال. فعلى ذلك زيادة سهم لمكان الأَفْرَاس ترغيبا منه وتحريضا على اتخاذها. فأما إن كَثُرت الأَفْرَاس فإن سُهْمانَها لا تكون أكثر من سُهْمَانِ أصحابها، لأن الفارس أكثر غَنَاءً من فرسه، فإن لم يزد عليه لم ينقص عما يُسهَم [له]. وكان أبو حنيفة رحمه الله يُسهِم للفارس بسهمين،

---

[1] ك ن: وسهم.

[2] ع م – وعن زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى الزبير يوم خيبر أربعة أسهم سهم ذي القربى وسهما له مع المسلمين وسهمين للفرس. وانظر للحديث: *مسند أحمد بن حنبل*، ١٦٦/١؛ و*سنن النسائي*، الخيل ١٧.

[3] جميع النسخ: سهم. والحديث رواه ابن أبي شيبة والدارقطني؛ انظر: *نصب الراية* للزيلعي، ٤١٧/٣.

[4] ك – كان يقسم للفارس سهمين وللراجل سهما وعن المقداد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[5] رواه الطبراني؛ انظر: *نصب الراية* للزيلعي، ٤١٧/٣.

[6] *المصنف* لابن أبي شيبة، ٤٨٩/٦.

[7] جميع النسخ: إلى مصر.

[8] جميع النسخ: سهم.

[9] *كتاب الآثار* لأبي يوسف، ١٧١.

[10] ع م – وللراجل سهم فرضي بذلك عمر فجعل بعض أهل العلم ما ذكره في هذه الأحاديث من الإسهام للخيل وقول بعض الرواة ثلاثة أسهم للفرس سهمين.

[11] ع + به؛ م: التي زادته.

[12] ك: ح.

[13] ع – كذا.

وأبو يوسف[1] يرى أن يُسهم للفرس سهمين، ولصاحبه بسهم. والحجة في ذلك قوله[2] تعالى: وَمَا أَفَاءَ اللّٰهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ،[3] فكانت النضير خالصة لرسول الله، و لم يكن لمن حضرها من المسلمين شيء، إذ لم يُوجِفوا عليها[4] بِخَيْل ولا رِكَاب، وقد أَتَوْها مُشَاةً، فلما منع الرَّجَّالة من السُّهْمَان لاستغنائهم في فتحها عن الخيل جاز أن يُزاد الخيل في السُّهْمان على سُهْمان الرَّجَّالة إذا كان الرجال يُمنَعون السهام وإن حضروا إذا لم يُلْجَئُوا إلى ركوب الخيل. لكن الحجة على هذا ما ذُكِر أنّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحاربوا على النضير فُرسانا ولا رَجَّالة، ولو احتاجوا إلى الحرب لاحتاجوا إلى الخيل، فمن حيث لم يحاربوا[5] عليها لم يستحقوا منها شيئا. وإنما ذَكَّرنا الله تعالى على سهولة أمرها وأنهم لم يحاربوا عليها خيلا ولا رِكَابا. وإذا لم يُحَارَبْ على مدينة فغَنِموا بمال فهو مصروف في مصالح المسلمين، لا يجري فيه السهام. فكانت النضير على ما ذُكِر خالصةً للنبي، يأخذ منها نفقة نسائه، ويصرف سائرها إلى مصالح المسلمين. ومن الدليل على أن النضير لو احتيج منها[6] إلى حربٍ حَارَبهَم [فيه] النبيُ وأصحابُه رَجَّالةً لجَرَتْ[7] في غنائمهم القسمةُ أنّ قوما من المسلمين لو حاربوا اليوم على مدينة من مدائن الشرك رَجَّالة قُسِم ما يُغنَم منها كما يُقسَم لو كان معهم فُرسان. ومن الدليل على ذلك أيضا أن الرَّجَّالة إذا كانوا مع الفُرسان في الحرب قُسم لهم[8] كما يُقسم للفارس خاصة، فلو كانت الغنيمة إنما تُقسم لسبب الخيل ما أُعطي الرَّجَّالة منها شيئا، إذ لا أَفْراس لهم، وذلك يفسد ما ذكرنا لأبي يوسف.

وقوله عز وجل: **إن كنتم آمنتم بالله**، قال بعضهم: هو صلة قوله: وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّٰهِ،[9] ثم قال: وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ مَوْلَاكُمْ،[10] أي وَإِنْ تَوَلَّوْا هُمْ[11]

---

[1] م: فأبو يوسف.
[2] جميع النسخ: بقوله، + قال الله.
[3] ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجَفتُم عليه من خيل ولا ركاب ولكنّ الله يُسَلِّط رُسُلَه على من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ (سورة الحشر، ٦/٥٩).
[4] ك: عليه.
[5] ع م: حيث يحاربوا.
[6] ن – منها.
[7] جميع النسخ: جرت.
[8] ن – لهم.
[9] سورة الأنفال، ٣٩/٨.
[10] الآية السابقة.
[11] م: وإن تولوهم.

وقد آمنتم أنتم فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ، ليس بمولى لهم. وقالت طائفة: قوله: **إن كنتم آمنتم بالله**، ليس على الشرط على أن لا يكون غنيمة إذا لم يكونوا مؤمنين، ولا يجب[1] العدل في القسمة إذا كانوا غير مؤمنين، ولكن على التنبيه والإيقاظ، كقوله: وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ،[2] وكقوله: وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ،[3] ليس على أنه لا يجب أن يذروا إذا لم يكونوا مؤمنين، ولا يجب أن يطيعوا إذا لم يكونوا مؤمنين، ولكن على ما ذكرنا، فعلى ذلك الأول. *والله أعلم*.

وقوله: **وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان**، قيل: قوله:[4] **ما أنزلنا على عبدنا**، الملائكة الذين أرسلهم يوم بدر لنصرة[5] المؤمنين،[6] وأنزل عليهم المطر حتى شدّ الأرض بذلك، فاستقرت أقدامهم وثبتت بعد ما لا تقرّ[7] الأقدام فيها ولا تثبت، وشربوا منه ورَوَوْا بعدما أصابهم العطش، إذ كان[8] المشركون أخذوا الماء. وقوله: **وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان**،
[٢٨٩و] يوم بدر. وقوله: **يوم الفرقان**، قيل: يومَ فَرْقٍ بين الحق والباطل، لأنه عز وجل جعل يوم / بدر آية، حيث غَلَب المؤمنون المشركين[9] مع قلة عددهم وضَعْف أبدانهم وفَقْد الأسباب التي بها يحارَب ويقاتَل، وكثرةِ العدو وقوتهم ووجودِ أسباب الحرب والقتال، ليعلموا أنهم غَلبوا أولئك وهزموهم بنصر الله إياهم، فكان آيةَ فَرْقِ المُحِقّ منهم والمُبْطِل. وقيل: هو **يوم الفرقان**، ويومُ الجَمْعِ، جَمْعِ النبي والمؤمنين وجَمْعِ المشركين، ويومُ الافتراقِ افتراقِ[10] المشركين من المؤمنين وانهزامِهم،[11] وهو كما سمي يوم القيامة يوم الجمع ويوم الفراق بقوله:[12] يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ،[13]

---

[1] ع م + في.
[2] سورة البقرة، ٢/٢٧٨.
[3] م – وكقوله وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين. وانظر للآية: سورة الأنفال، ٨/١.
[4] ن – قوله.
[5] ع: النضرة.
[6] ك: المسلمين.
[7] ن م: لا يقر؛ ع: لا يقرأ.
[8] ع: إذ كانوا.
[9] م: حيث غلب المشركون.
[10] ع: افتران.
[11] م: انهزامهم.
[12] ك: لقوله.
[13] سورة التغابن، ٦٤/٩.

وقال في آية أخرى: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ،[١] فهو يوم الجمع[٢] في حال، ويوم الافتراق في حال أخرى. **والله أعلم**.

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٤٢]

وقوله عز وجل: **إذ أنتم بالعُدْوَة الدُّنيا وهم بالعُدْوَة القُصْوَى**، قال بعضهم: العُدْوَة القُصْوَى شَفِير الوادي الأقصى،[٣] والعُدْوَة الدُّنيا شَفِير الوادي الأدنى. وكذلك قال القُتَبي: العُدْوَة الشَّفِير، شَفِير الوادي.[٤] وقال أبو عَوْسَجَة: العُدْوَة ناحية الوادي التي تَلِيهم. وقال: إنما سميت "الدُّنيا" لأنها دَنَتْ منك، و"الآخرة" لأنها استأخرت. وقيل: في حرف ابن مسعود "إذ أنتم بالعُدْوَة العُلْيَا وهم بالعُدْوَة السُّفْلَى." وقال[٥] أبو معاذ:[٦] العُدْوَة والعِدْوَة لغتان.[٧] **والرَّكْب** والرُّكْبَان والرِّكَاب والراكبون كله[٨] لغة. وقال في حرف حفصة: "إذ أنتم بالعُدْوَة القُصْيَا."[٩] وقال بعضهم: **إذ أنتم**، معشر المؤمنين، **بالعُدْوَة الدُّنْيا**، من دون الوادي على الشَّطّ مما يلي المدينة، **وهم بالعُدْوَة القُصْوَى**، من الجانب الآخر مما يلي مكة، يعني مشركي مكة.

وقوله: **والرَّكْب أسفلَ منكم**، يعني أصحاب العِير على ساحل البحر، أو على الماء. وقال قتادة: جمع الله المشركين والمسلمين ببدر على غير ميعاد، وهما شَفِيرا[١٠] الوادي، كان المسلمون بأعلاه،[١١]

---

[١] سورة الروم، ١٤/٣٠.

[٢] ع م - ويوم الفراق بقوله يوم يجمعكم ليوم الجمع وقال في آية أخرى ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فهو يوم الجمع.

[٣] ع م: والأقصى.

[٤] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٧٩.

[٥] ك: قال.

[٦] بُكَير بن معروف الأسدي أبو معاذ أو أبو الحسن النيسابوري ويقال الدامغاني (ت. ١٦٣هـ/٧٨٠م)، صاحب التفسير، كان على قضاء نيسابور، ثم سكن دمشق، روى الحديث عن أبي حنيفة ومقاتل وغيرهم. انظر: *تهذيب التهذيب* لابن حجر، ٤٣٤/١؛ *وطبقات المفسرين* للسيوطي، ٤٢/١.

[٧] وقد قرئ بهما في المتواتر، فقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب من القراء العشرة بكسر العين، والباقون بضم العين؛ انظر: *النشر في القراءات العشر* لابن الجزري، ٢٧٦/٢.

[٨] م - كله.

[٩] نُسبت هذه القراءة إلى زيد بن علي؛ انظر: *روح المعاني* للآلوسي، ٦/١٠.

[١٠] ن ع م: شفير.

[١١] ن: بأعاه.

والمشركون بأسفله، **والرَّكْب أسفلَ منكم**، أبو سفيان انطلق بالعِير[1] في رَكْب نحو البحر.[2] وقيل: **إذ أنتم** بأدنى المدينة وهم بأقصى مما يلي مكة على ما ذكرنا.

وقوله: **ولو تَواعَدتم لاختلفتم في الميعاد**، يحتمل أي لو علمتم أنكم[3] تخرجون إلى الحرب دون العِير لم تخرجوا إلا بميعاد[4] لتتأهَّبوا للحرب والقتال،[5] فاختلفتم في الميعاد، إما للخروج نفسه، وإما للميعاد نفسه، أتخرجون أو لا تخرجون، أو منكم من يؤخِّر الخروج عن وقت الميعاد، ومنكم من لا يخرج رأسا لينقضي ذلك.

وقوله عز وجل: **ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا**، يحتمل ليُنجِز الله ما كان وَعد من الظفر والنصر. أو **ليقضي الله أمرا كان** في علمه **مفعولا**،[6] أن إحدى الطائفتين[7] لكم، كأنه[8] قال: [**كان**] وعد الله **مفعولا**، أي مُنجَزا. ويحتمل القضاءُ ابتداءَ إنشاءٍ وخَلْقٍ، أي **ولكن** لينشئ الله ما قد علم أنه يكون كائنا؛ أو ليحكم ما قد علم أنه يكون كائنا.[9] *والله أعلم.*

وقوله: **لِيَهلِك من هلك عن بينة ويَحيا من حَيَّ عن بينة**، قال بعض أهل التأويل: ليكفر من كفر بعد ذلك عن بينة وحجة أن رسول الله كان على الحق وكان صادقا، ويؤمن من آمن على مثل ذلك.[10] وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: **لِيَهلِك من هلك عن بينة**، قال: ليموت من مات عن بينة، **ويحيا من حي عن بينة**، يقول: عن بيان وحجة. وهو –والله أعلم– أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان أتاهم بآيات حِسّية فسمَّوه ساحرا،[11]

---

[1] م: بالعين.

[2] جميع النسخ: الحرب؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٣١و. وقد رويت الرواية بمعناها. انظر: *تفسير الطبري*، ١٠/١٠؛ *والدر المنثور* للسيوطي، ٧٤/٤.

[3] ن – أنكم.

[4] م: إلا لميعاد.

[5] ن: أو القتال.

[6] ع م + لا.

[7] جميع النسخ + أنها.

[8] ع: كافة.

[9] ك – كائنا.

[10] ع: هذا.

[11] ﴿وعَجِبوا أنْ جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾ (سورة ص، ٤/٣٨). والآيات في هذا الباب كثيرة.

وأخبرهم[١] بالأنباء الماضية[٢] التي كانت في كتبهم فقالوا: إِنْ هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ،[٣] وقالوا: إنه مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ،[٤] إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ.[٥] وقد كان رسول الله يخالفهم في جميع صنيعهم من عبادتهم الأصنام والأوثان دون الله، وكان يخوّفهم ويُوعِدهم بأشياء، وكان لا يخافهم، وهم كانوا رؤساء كُبَراء لا يخالفهم أحد في أمرهم ونهيهم إلا من كان به جنون. فلما رأوا رسول الله خالفهم في جميع أمورهم[٦] نسبوه إلى الجنون، وقالوا:[٧] ساحر، مجنون، و مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ.[٨] فأراد الله أن يجعل له آية عظيمة حتى لا يقدروا بالنسبة إلى شيء مما كانوا ينسبونه[٩] من قبل، فوعد لهم النصر والفتح يوم بدر بعدما عَلِم أولئك ضَعْفَ المؤمنين وقِلّةَ عددهم وقوةَ أنفسهم وكثرةَ عددهم، ليكون حياةُ مَن حَيّ بعد ذلك عن بينة وآية،[١٠] وموتُ من مات على مثل ذلك، وإن كان له من الآيات ما لو لم يعاندوا[١١] ولا كابروا عقولهم لكانت واحدةٌ[١٢] منها كافية.

فإن قيل: ما الحكمة في ذكر القصة من أولها إلى أخرها وهم قد علموا ذلك كله وشاهدوا؟

قيل: يُذكِّرهم[١٣] -والله أعلم- الحال التي كانوا هم عليها من الضَّعْف والقلّة والخوف وفَقْدِ أسباب الحرب والقتال وكثرةِ العدو[١٤] وقوتِهم ووجودِ أسباب[١٥] الحرب والقتال ليعلم الخلق أن النصر والغلبة ليس يكون بالكثرة[١٦] والقوة والأسباب، ولكن بالله عز وجل،

---

[١] ع: أو أخبرهم.
[٢] جميع النسخ: بأنباء ماضية.
[٣] انظر مثلا: سورة الأنعام، ٢٥/٦.
[٤] ﴿ثم تَولَّوْا عنه وقالوا مُعَلَّمٌ مجنون﴾ (سورة الدخان، ١٤/٤٤).
[٥] ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يُعلِّمه بشر لسان الذي يُلحِدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ (سورة النحل، ١٠٣/١٦).
[٦] ك: أمرهم.
[٧] ع + هذا.
[٨] ع – ومعلم مجنون. ﴿ثم تولوا عنه وقالوا معلَّم مجنون﴾ (سورة الدخان، ١١/٤٤).
[٩] ع: ينسبون.
[١٠] ع م – وآية.
[١١] ك: لو يعاندوا.
[١٢] ع + لكانت واحدة.
[١٣] ع م + الله.
[١٤] ع + وكثرتهم.
[١٥] ع: أسبابهم.
[١٦] م – من الضعف والقلة والخوف وفقد أسباب الحرب والقتال وكثرة العدو وقوتهم ووجود أسباب الحرب والقتال ليعلم الخلق أن النصر والغلبة ليس يكون بالكثرة.

لئلا يَكِلوا إلى الكثرة ولا يعتمدوا على القوة ولا يَضْعُفوا لقلّةٍ[1] ولا يَجْبُنوا ولا يخافوا غيره، [و]ليعرفوا أن ما أصابهم من الهزيمة والغلبة إنما[2] أصابهم لمعصيةٍ كانت منهم أو إعجابا بالكثرة واعتمادا بالقوة والأسباب. *والله أعلم.*

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٤٣]

وقوله عز وجل: **إذ يُرِيكَهم الله في مَنامِك قليلا**، اختلف فيه. قال بعضهم: قوله: **في منامك قليلا**، المنام نفسه، كان الله يُرِي رسولَه المشركين في منامه قليلا، فأخبر[3] بذلك أصحابه بما رأى، فقالوا: رؤيا النبي حقّ، القوم قليل، ليس كما بلغنا أنهم كثير. فلمّا التقَوْا ببدر[4] قلّل الله المشركين في أعين المؤمنين تصديقا لرؤيا رسول الله.[5] وقال الحسن: قوله: **إذ يريكهم الله في منامك قليلا**، أي في عينيك التي تنام بهما، وهو في اليقظة،[6] لأنه ذكر أنه قال رسول الله[7] صلى الله عليه وسلم: «تنام / عيني، ولا ينام قلبي»،[8] وإنما أراه إياهم قليلا في العين الذي به ينام، وهو عَيْنَا الوجه. ويدل على ذلك ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لقد قُلِّلوا في أعيننا يوم بدر حتى قُلْتُ لصاحبٍ لي: تراهم سبعين، فقال: أراهم مائة، حتى أخذنا رجلا منهم فسألناه، فقال: كنا ألفا.[9] فإن كان التأويل هذا الثاني أنه أراهم رسوله قليلا في اليقظة بالذي ينام فهو ظاهر. فإن كان أراه إياهم في المنام حقيقةً فلقائلٍ أن يقول: إن رؤيا الرسول وحي، فكيف أراه إياهم قليلا وهم كثير خلاف ما هو في الحقيقة؟ قيل: يحتمل أن يكون أراه[10] بعضهم، لا الكل، فهو حقيقةُ ما أراه إياهم، فذلك قليل.[11] *والله أعلم.* [٢٨٩ظ]

[1] ع م – لقلة.
[2] م – إنما.
[3] ع م + الله.
[4] ن – ببدر.
[5] روي مختصرا عن مجاهد؛ انظر: *تفسير الطبري*، ١٠/١٢؛ *والدر المنثور* للسيوطي، ٤/٧٤.
[6] *روح المعاني* للآلوسي، ١٠/٦.
[7] ك ن – رسول الله.
[8] *صحيح البخاري*، المناقب ٢٤؛ وصحيح *مسلم*، صلاة المسافرين ١٢٥.
[9] *تفسير الطبري*، ١٠/١٣-١٤؛ *والدر المنثور* للسيوطي، ٤/٧٤.
[10] ن: رآه.
[11] ع م: فلذلك قيل.

وجائزٌ أن يكون أرى أصحابه إياهم قليلا وإن أضاف ذلك إلى رسول الله. دليله ما ذكر في آخره حيث قال: وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ.[١] وذلك كثير في القرآن، يخاطب[٢] به رسوله والمراد به غيره. ألا ترى أنه قال: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ،[٣] ومعلومٌ أنّ نزول هذه الآية بعد وفاة[٤] والديه.

وقوله عز وجل: **ولو أَرَاكَهم كثيرا لَفَشِلْتم**، أي لجَبُنتم، **ولتنازعتم في الأمر**، أي اختلفتم[٥] في أمر القتال والحرب. **ولكن الله سلّم**، قيل: **سلّم** وأتمّ للمسلمين أمرهم على عدوهم، فهزمهم ونصرهم عليهم. ويحتمل قوله: **سلّم**، أي أجاب للمسلمين لمّا استغاثوا واستنصروه بالنصر والظفر لهم. **إنه عليم بذات الصدور**، أي **عليم** بما في قلوب المؤمنين من الجُبْن والفَشَل وأمر عدوهم. *والله أعلم.*

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[٤٤]

وقوله عز وجل: **وإذ يُرِيكُمُوهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويُقَلِّلُكم في أعينهم**، يحتمل قوله: **وإذ يريكموهم**، الآية، لما رأوا الملائكة لأنفسهم أنصارا وأعوانا، إذ كان قد وعد لهم النصر والإعانة بالملائكة، وكان[٦] العدو مع الملائكة فاستقلّوا، لأن العدو وإن كانوا كثيرا فهم قليل مع الملائكة، فرأوهم قليلا على ما كانوا. وقلّل هؤلاء في أعين أولئك، لأنهم كذلك[٧] كانوا[٨] قليلا، فرأوا على ما كانوا، ولم يروا الملائكة. وقال بعض[٩] أهل التأويل: قلّل هؤلاء في أعين هؤلاء، وهؤلاء في أعين هؤلاء[١٠] إذا التقوا، ليُضْرِي بعضَهم على بعض، وليجترئ بعضهم على بعض على القتال. *والله أعلم.*

---

[١] الآية التالية.
[٢] ع م: القرآن أن يخاطب.
[٣] سورة الإسراء، ٢٣/١٧.
[٤] ع م: وفات.
[٥] ع: أي أختلفتم.
[٦] ك: فكان.
[٧] ع م: لذلك.
[٨] ن + به.
[٩] ع: بعضهم.
[١٠] ن – وهؤلاء في أعين هؤلاء.

وقوله: **ليقضي الله أمرا كان مفعولا**، هو ما ذكرنا أنه ليُنجِز ما كان وعد لهم من النصر والظفر للمؤمنين، والغلبة والهزيمة على أولئك.[١] وكذلك ذكر في القصة أن قوله: سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ،[٢] في بدر،[٣] فيه وعد ذلك لهم،[٤] كقوله: كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً.[٥] ويحتمل قوله: **ليقضي الله**، أي ليخلق الله وينشئ ما قد علم أنه يكون كائنا، أو ليفصل بين الحق والباطل مما قد علم أنه يكون. وقال بعض أهل التأويل: **ليقضي الله أمرا كان**، في علمه، **مفعولا**، كائنا، يقول: فيوجب أمرا لا بُدّ[٦] كائن، ليعزّ الإسلام وأهله بالنصر، ويذلّ الشرك وأهله بالقتل والهزيمة. ***والله أعلم***. وهو قريب مما ذكرنا.

وإلى الله تُرجَع الأمور، أي إلى الله يرجع تدبير الأمور وتقديرها،[٧] له التدبير في ذلك في الدنيا والآخرة. وذكر في بعض القصة أن أبا جهل[٨] لما رأى قلة المؤمنين ببدر قال: والله لا يُعبَد الله بعد اليوم،[٩] فأكذبه الله وقتَله، فقال: **وإلى الله تُرجَع الأمور**، لا إلى الخلق. ***والله أعلم***. وأمر بدر من أوله إلى آخره كان آية حتى عرف كل أحد ذلك إلا من عاند وكابر[١٠] عقله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٤٥]

وقوله عز وجل: **يا أيها الذين آمنوا إذا لَقِيتم فئة فاثبُتوا**، قيل:[١١] الفئة اسم جماعة يُنْحَازُ[١٢] إليها، وهو من الفيء، وهو الرجوع،[١٣] يَفِيئون[١٤] إليها ويرجعون. ذكر هاهنا الفئة وذكر في الآية التي تقدمت الزّحف، وهو قوله: إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا،[١٥] مكان الفئة،[١٦]

---

[١] ن – أولئك.
[٢] سورة القمر، ٥٤/٤٥.
[٣] *صحيح البخاري*، الجهاد ٨٩؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٧/٦٨٠-٦٨١.
[٤] ع م – لهم.
[٥] سورة المزمل، ٧٣/١٨.
[٦] ن + لا بد.
[٧] جميع النسخ: وتقديره.
[٨] ك + لعنه الله.
[٩] روي عن قتادة؛ انظر: *تفسير الطبري*، ١٠/٢١.
[١٠] ك: من كابر وعاند.
[١١] ع: قليل.
[١٢] ن ع م: ينحاز.
[١٣] م: من الفيء والرجوع.
[١٤] ك ع: يفئون؛ ن: بعنون.
[١٥] يقول الله تعالى: ﴿إذا لقيتم الذين كفروا زحفًا فلا تُوَلُّوهم الأدبار﴾ (سورة الأنفال، ٨/١٥).
[١٦] ك – وذكر في الآية التي تقدمت الزحف وهو قوله إذا لقيتم الذين كفروا زحفا مكان الفئة.

ونهى أولئك عن تولية الأدبار بقوله: فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ،[١] وقال هاهنا: **فاثبُتوا**، لِيُعلَم أن في النهي عن تولية الأدبار أمرٌ بالثبات، وفي الأمر بالثبات نهيٌ عن تولية الأدبار، فيكون في النهي عن الشيء أمرٌ بضدّه، و[في] الأمر بالشيء[٢] نهيٌ عن ضدّه. ***والله أعلم***.

وقوله: **واذكروا الله كثيرا**، قال أبو بكر الكيساني: قوله: **اذكروا الله كثيرا**، أي اذكروا الله فيما تعبّدكم مِن طاعته ووَعَدكم مِن نصره، ولا تنظروا إلى الكثرة، فتظفروا.[٣] ويحتمل قوله: **اذكروا الله**، فيما له[٤] من أنفسكم وأموالكم، أي إن أنفسكم وأموالكم له، إن شاء أخذها منكم بوجهٍ تتقرّبون به إلى الله، فاذكروا الله[٥] على ذلك. وهو ما ذكر [في] قوله: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ،[٦] الآية. ويحتمل **اذكروا الله كثيرا**، في النعم التي أنعمها عليكم. أو يقول: اذكروا المُقام بين يدي رب العالمين، وذلك بالذي يمنعكم عن المعاصي[٧] والخلاف لأمره، و[فيه] بعض ما يُرغّبكم في طاعته. فيكون على هذا التأويل الأمر بذكر الأحوال. ويحتمل الأمر بذكر الله باللسان، وذلك بعض ما يُستعان به[٨] في أمر الحرب. **لعلكم تفلحون**، لكي تفلحوا بالنصر والظفر، أو **تفلحون**، أي تظفرون.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٤٦]

وقوله: **وأطيعوا الله ورسوله**، أطيعوا الله فيما يأمركم بالجهاد والثبات مع العدو، ورسولَه فيما يأمركم بالمقام في المكان والثبات وترك الاختلاف والتنازع في الحرب. وذلك بعض ما يُستَعان به في أمر الحرب. **ولا تَنازعوا فتَفشَلوا**، أي لا تُنازِعوا[٩] / رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢٩٠و]

[١] ن – بقوله فلا تولوهم الأدبار.
[٢] ع: بشيء.
[٣] ك ن ع: فتضطروا.
[٤] ع م: لكم.
[٥] ن + فيما له من أنفسكم وأموالكم أي إن أنفسكم وأموالكم له إن شاء أخذها منكم بوجه تتقربون به إلى الله فاذكروا الله؛ ع – الله.
[٦] ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يُقاتِلون في سبيل الله فيَقتُلون ويُقتَلون وَعدا عليه حقًا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ (سورة التوبة، ٩/١١١).
[٧] ع م: من المعاصي.
[٨] م – به.
[٩] ع: أي تنازعوا.

فيما يأمركم في أمر الحرب وعما ينهاكم، كقوله: يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ،[1] لأنكم إذا تنازعتم اختلفتم، فإذا اختلفتم[2] تفرّقتم، فإذا تفرقتم فَشِلتم وجَبُنتم، فلا تُنصَرون ولا تَظفَرون[3] على عدوكم، بل ظفر بكم عدوكم. أو أن يقال: **لا تنازعوا**، لأنكم إذا تنازعتم تباغضتم، فيشغلكم التباغُض بأنفسكم [عن الجهاد]، ويترك[4] الجهاد مع العدو.[5] *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **وتذهبَ ريحُكم**، قال بعضهم: يذهب[6] نصركم وظفركم. وقال بعضهم: يذهب ريح دولتكم. ويحتمل **ريحكم**،[7] الريح التي بها تُنصَرون، على[8] ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه[9] قال: «نُصِرتُ بالصَّبَا، وأُهلِكَ عاد بالدَّبُور».[10] وهو ما ذكر:[11] فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا.[12]

وقوله: **واصبروا**، أي اصبروا للجهاد ولقتال[13] عدوكم. **إن الله مع الصابرين**، بالنصر لهم والظفر. وفي هذه الآية تأديب من الله المؤمنين وتعليم منه لهم فيما ذكرنا، أي في أمر الحرب وأسباب القتال والمجاهدة مع العدو، لأنه[14] أمرهم بالثبات، وأمرهم بذكر الله، ونهاهم عن التنازع والاختلاف، وذلك بعض ما يُستَعان[15] به في الانتصار على عدوهم.

---

[1] ﴿يجادلونك في الحق بعد ما تبيَّن كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ (سورة الأنفال، ٨/٦).

[2] ع: فإذا أخلفتم.

[3] م: ولا ولا تظفرون.

[4] جميع النسخ: فيبقى.

[5] وعبارة الشارح هكذا: «فيشغلكم التباغُض بأنفسكم عن الجهاد، فيظفر بكم العدو، أو يُترَك الجهاد معهم ولا يقوم» (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٢٣و).

[6] ع م - يذهب.

[7] ن - ريحكم، صح ه؛ ع م - ريحكم.

[8] م: وعلى.

[9] ن ع م - أنه.

[10] صحيح *البخاري*، الاستسقاء ٢٦؛ وصحيح *مسلم*، صلاة الاستسقاء ١٧.

[11] ع م: ما ذكرنا.

[12] ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٩).

[13] ن: والقتال.

[14] ع م: ولأنه.

[15] ن: ما يستفاد.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[٤٧]

وقوله عز وجل: **ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بَطَرا ورِئَاء الناس**، قوله: **بَطَرا**، أي كُفْرا بنعم الله، كقوله: وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً،[١] الآية، فعلى ذلك هؤلاء[٢] خرجوا من ديارهم كفرا بأَنْعُم الله، لأنهم خرجوا إلى قتال محمد، وهو من أعظم نعم الله تعالى على خلقه، وهم كفروا تلك النعمة حيث خرجوا لقتاله. وكذلك قالوا في قوله: بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا،[٣] أي كفرت. وقوله: **بَطَرا**،[٤] كُفْرانا وتكبُّرا، أي خرجوا متكبرين كافرين. **ورِئَاء الناس**، يحتمل مراءاتهم وجهين، أحدهما مراءاتهم في الدين،[٥] لأنهم قالوا: اللهم[٦] انصر أهدانا سبيلا وأَوْصَلَنا رَحِما وأَقْرَانا ضَيْفا، عندهم أنهم على حق وأن المؤمنين على باطل. ويحتمل مراءاتهم في أمر الدنيا، لأنهم كانوا أهل ثروة ومال وأهل عُدّة وقوة، خرجوا[٧] مرائين للناس. وقوله: **ورِئَاء الناس**، لأنهم كانوا أهل شرف عندهم، فخرجوا لمراءاة[٨] الناس. **ويصدون عن سبيل الله**، أي يصدون الناس عن دين الله. أخبر عز وجل عن خروج أولئك الكفرة أنهم خرجوا لما ذكر، فكان فيه أمر للمؤمنين بالخروج على ضد ذلك، كأنه قال: اخرجوا أنتم شاكرين لنعم الله، قابلين منته، متواضعين، مخلصين له الدين، داعين الناس إلى دين الله، اخرجوا[٩] على ضد ما خرجوا هم.[١٠]

وقوله عز وجل: **والله بما يعملون محيط**، أي علمه محيط بهم، لا يغيب عنه شيء، أو لا يتخلّص[١١] أحد عن ملكه ولا يغيب. وقوله: **والله بما يعملون محيط**، يخرج على وجهين،

[١] ﴿وضرب الله مثلا قرية كانت آمنةً مُطْمَئِنّةً يأتيها رزقُها رَغَدًا من كل مكان فكفرت بأَنْعُمِ الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ (سورة النحل، ١٦/١١٢).

[٢] ع م – هؤلاء.

[٣] ﴿وكم أهلكنا من قرية بَطِرَتْ معيشَتَها﴾ (سورة القصص، ٢٨/٥٨).

[٤] ع م – الله تعالى على خلقه وهم كفروا تلك النعمة حيث خرجوا لقتاله وكذلك قالوا في قوله بطرت معيشتها أي كفرت وقوله بطرا.

[٥] ع: في الذين.

[٦] ع – اللهم.

[٧] ع: خرجوا!.

[٨] ع: المراءاة.

[٩] ع م – أنتم شاكرين لنعم الله قابلين منته متواضعين مخلصين له الدين داعين الناس إلى دين الله اخرجوا.

[١٠] ع: على ما صد ما خرجوهم؛ م: ما خرجوهم.

[١١] ن: شيء لا يتخلص.

أحدهما **والله بما يعملون محيط**،[1] من مكايدهم وحِيَلهم والمكر برسول الله، في الدفع عنه والنصر له. والثاني **محيط**، بما يعملون، يَجْزيهم ويكافئهم، ولا يفوت عنه شيء، على الوعيد. *والله أعلم*.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٤٨]

وقوله: **وإذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم**، قال بعضهم: **زيّن لهم الشيطان أعمالهم**، بالوساوس. **وقال لا غالب لكم اليوم من الناس**، وإنما قال لهم هذا ووسوس لهم لَمّا أُلقي إليهم: إنكم أهلُ حَرَمِ الله، وسُكّانُ بيتِه وحُفّاظُه، فيقول: يدفع عنكم نَكْبَة هؤلاء، يعني أصحاب محمد، كما دفع عنكم فيما كان من قبل.

وقوله عز وجل: **وإني جارٌ لكم**، قيل: مُجير لكم مُغيث. فعلى هذا التأويل كان قوله: **إني جار لكم**، كأنّه يخبر عن الله أنه يغيثهم كما أغاثهم[2] من قبل في غير مرة. وقال بعضهم: إن الشيطان تمثّل بصورة[3] رجلٍ يُقال له: سُراقة بن مالك بن[4] جُعْشُم، فأتاهم فقال: لا ترجعوا حتى تستأصلوهم،[5] فإنكم كثير وعدوكم قليل، فيأمَن غيركم،[6] ونحو[7] هذا من الكلام.[8] وقال صاحب التأويل الأول: لا يحتمل هذا، لأن أهل مكة كانوا جبابرة وأهل قوة وبَطْش وبأس، فلا يحتمل أن يَصْدُروا لآراء[9] رجلٍ هو دونهم، وهم بالوصف الذي ذكرنا.

---

[1] ع م – أو لا يتخلص أحد عن ملكه ولا يغيب وقوله والله بما يعملون محيط يخرج على وجهين أحدهما والله بما يعملون محيط.

[2] ن: كما أعانهم.

[3] م: في صورة.

[4] ع: ابن.

[5] م: حتى تستأصلوا.

[6] أي إن قتلتم المسلمين سيأمن غيركم من الناس أيضا، ولن يخافوا من المسلمين بعد ذلك.

[7] ن: وغير.

[8] في هذا المعنى روايات كثيرة. وكانت بين قريش وبين بني بكر عداوة، فخافوا أن يستغل بنو بكر هذه الفرصة ويهجموا عليهم من ورائهم. فلذلك تمثل لهم الشيطان في صورة سراقة الذي هو من أشراف بني بكر وطمأنهم. انظر: *تفسير الطبري*، ١٨/١٠-٢٠؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٧٧/٤-٧٨. وسُراقة بن مالك مشهور بقصته حين اتبع النبي صلى الله عليه وسلم عند خروجه من مكة للهجرة، ثم ساخت قوائم فرسه في الرمل،...، وهو من مُسلِمة الفتح، (ت. ٢٤هـ/ ٦٤٤م). انظر: *الكاشف* للذهبي، ٤٢٦/١؛ و*تقريب التهذيب* لابن حجر، ٢٢٩.

[9] ك: لآرا.

وعلى هذا[١] التأويل[٢] -أنه تمثّل به فلان- يكون قوله: **وإني جار لكم**، ما ذكر في بعض القصة أن أبا جهل وأصحابه اعتزلوا واستشاروا[٣] فيما بينهم، فأتاهم إبليس مُتمثِّلا بسُرَاقَة، فامتنعوا عنه واستأخروا، فلما رأى ذلك منهم فقال: **إني جار لكم**، وكان جارا[٤] لهم، فتأويل هؤلاء أشبه بما ذكر في آخر الآية.

وقوله عز وجل: **فلما تَرَاءَت الفئتان نَكَصَ على عَقِبَيْه**، أي رجع مُستأخِرا مُقبِلا وجهه إليهم، فقال **إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب**، إذا عاقب. قيل: رأى جبريلَ مع الملائكة ينزلون،[٥] فخاف منهم.[٦] ففيه دلالة أنه كان يخاف[٧] الهلاك قبل اليوم[٨] المعلوم.[٩]

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٤٩]

وقوله عز وجل: **إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض**، قال بعضهم: **الذين في قلوبهم مرض**، هم المشركون، **غَرَّ هؤلاء دينُهم**. وعن الحسن: **إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض**، قال:[١٠] هم قوم لم يشهدوا[١١] القتال يوم بدر، فسُمُّوا منافقين.[١٢] وقال بعض أهل التأويل: إن قوما كانوا أسلموا بمكة، فأقاموا بها مع المشركين، ولم يهاجروا إلى المدينة. فلما خرج كفار مكة إلى قتال بدر[١٣] خرج هؤلاء معهم،[١٤] فلما عاينوا قلّة المؤمنين وضَعْفَهم شَكُّوا في دينهم وارتابوا،

---

[١] ك ن ع + أهل.
[٢] م – الأول لا يحتمل هذا لأن أهل مكة كانوا جبابرة وأهل قوة وبطش وبأس فلا يحتمل أن يصدروا لآراء رجل هو دونهم وهم بالوصف الذي ذكرنا وعلى هذا التأويل.
[٣] ك: وأشاروا.
[٤] ن + لكم.
[٥] ع: تنزلون.
[٦] جميع النسخ: عنهم.
[٧] ع – يخاف.
[٨] جميع النسخ: يوم.
[٩] يشير إلى قوله تعالى: ﴿قال فإنك من المُنظَرين. إلى يوم الوقت المعلوم﴾ (سورة الحجر، ١٥/٣٧-٣٨).
[١٠] ن + بعضهم.
[١١] ع: قوم يشهدوا.
[١٢] *تفسير الطبري*، ١٠/٢١؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٤/٧٩.
[١٣] ع م: إلى بدر.
[١٤] ع – معهم.

وقالوا:[1] **غَرَّ هؤلاء دينُهم**، يعنون أصحاب محمد.[2] يقول الله: **ومن يتوكل على الله**، فيثق بوعده في النصر ببدر لقولهم: **غَرَّ هؤلاء دينُهم. فإن الله عزيز**، لا يُعجِزه شيء. وقوله: **غَرَّ هؤلاء دينُهم**، لأنه لم يكن معهم عُدَّة ولا أسباب الحرب من السلاح وغيره، فلم يكونوا يقاتلون إلا لقوة دينهم.

وقوله: **إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غَرَّ هؤلاء دينُهم**؛ فإن قيل لنا: ما الحكمة[3]
[٢٩٠ظ] في ذكر قول المنافقين في القرآن حتى نتلوه في الصلاة؟ قيل: ذكر -والله أعلم- / لنعرف نحن عظيمَ منزلةِ الدين وخطيرَ قَدْرِه[4] في قلوبهم، أعني قلوب المؤمنين. وذلك أنهم بذلوا أنفسهم للهلاك لخروجهم لقتال عدوهم مع ضَعْفِهم وقلّة عددهم وكثرة أعدائهم وقوتهم، رَجَاءَ أن يَسْلَمَ لهم دينُهم. يَذكر [ذلك] لنا[5] لنعرف عظيمَ محلِّ الدين في قلوبهم، ليكون محلُّ الدين في قلوبنا على مثل قَدْرِه في قلوبهم.[6] وفي قوله: **إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غَرَّ هؤلاء دينُهم**، دلالة إثبات رسالة محمد، لأنهم إنما قالوا ذلك سرا فيما بينهم، فأَطْلَعَ اللهُ رسولَه[7] على ذلك، لِيُعلَم أنه عرف بالله.

ثم اختلف في قوله: **والذين في قلوبهم مرض**. قال بعضهم: هم المشركون، قال المنافقون والمشركون للمؤمنين: **غَرَّ هؤلاء دينُهم**. وقال بعضهم: هم قومٌ أسلموا، وقد كانوا ضُعَفاء في الإسلام والدين، فلما خرجوا إلى بدر فرأَوْا ضَعْف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوة أولئك القوم قالوا عند ذلك: **غَرَّ هؤلاء دينُهم**. وقد ذُكر في بعض القصة أن قوما كانوا أسلموا بمكة، ثم أقاموا مع المشركين، ولم يهاجروا إلى المدينة. فلما خرج كفار مكة إلى قتال بدر خرج هؤلاء معهم. فلما عاينوا قلّة المسلمين شَكُّوا في دينهم وارتابوا، فقالوا مع المنافقين: **غَرَّ هؤلاء دينُهم**، يعنون أصحاب رسول الله[8] صلى الله عليه وسلم. فقال الله[9] تعالى: **ومن يتوكل على الله**، من المؤمنين فيثق به[10] في النصر ببدر، لقولهم: **غَرَّ هؤلاء دينُهم**.[11]

---

[1] ن: فقالوا؛ ع م: فقال.
[2] روي عن الكلبي وغيره؛ انظر: *تفسير الطبري*، ٢١/١٠؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٧٩/٤.
[3] ك: ما الحكمة لنا.
[4] ع: قدرته.
[5] م + عظيم.
[6] ع م - في قلوبهم.
[7] ع: ورسوله.
[8] ن: محمد.
[9] ك ن - الله.
[10] ن - به.
[11] وقد تكررت هذه العبارات أعلاه، ولعل ذلك نتيجة لأسلوب الإملاء المتَّبع في تأليف الكتاب.

وقوله: **إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض**، يجيء أن يكونوا[١] هم المنافقين[٢] على ما فسّره في آية أخرى.[٣] فإن كان على ذلك فيكون على إسقاط الواو، كأنه[٤] قال:[٥] يقول المنافقون الذين في قلوبهم مرض. إلّا أنْ يُقال: إن المنافقين هم الذين أَضمروا الكفر حقيقةً، **والذين في قلوبهم مرض**، هم الذين لم يُضمِروا الكفر، لكنهم[٦] ارتابوا وشَكُّوا، واعترض شَكٌّ وارتيابٌ مِن بَعد إذ رأَوْا[٧] تأخُر الموعود.

وقوله عز وجل: **غَرَّ هؤلاء دينُهم**، يخرج على وجهين. أحدهما قالوا: **غَرَّ** الموعودُ الذي وعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفتوح لهم والنصر في الدنيا. يقولون: **غَرَّ [هؤلاء]** ذلك الموعودُ الذي كانوا [وُعِدوا] به من الفتوح والنصر.[٨] والثاني يقولون: **غَرَّ هؤلاء**، الموعودُ الذي وُعِدوا في الآخرة من النعيم الدائم والحياة الدائمة. فيكون أحد التأويلين بالموعود في الآخرة، وهو بالإسلام يكون. والثاني بالموعود في الدنيا، وهو الفتح والنصر الذي ذكرناه. وقوله: **غَرَّ هؤلاء دينُهم**، لما رأوا أنهم تركوا آباءهم وأولادهم وجميع شهواتهم وبذلوا أنفسهم للقتال ليَسْلَم لهم دينُهم؛ لذلك قالوا: **غَرَّ هؤلاء دينُهم**، لما لم يكن خروجُهم وبذلُهم أنفسَهم لذلك إلا إشفاقا وخوفا على دينهم. أو طلبوا[٩] لما بذلوا أنفسهم حياة الأبد في الآخرة، فقالوا: **غَرَّ هؤلاء دينُهم**. ***والله أعلم***.

وقوله: **ومن يتوكل على الله**، أي اعتمد على الله في حرب بدر –على ما ذكر أهل التأويل– والنصرِ فيه. وقوله: **فإن الله عزيز**، لا يُعجِزه شيء، يُعِزّ من يشاء بالنصر، ويُذِلّ من يشاء بالقتل والهزيمة. أو **من يتوكل على الله**، في جميع أموره ويَكِل إليه أمورَه. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **عزيز حكيم**، العزيز في هذا الموضع هو الغالب، **حكيم**، مما أمر بالقتل.

---

[١] ك ع م: أن يكون.

[٢] جميع النسخ: المنافقون.

[٣] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يَكذِبون﴾ (سور البقرة، ١٠/٢).

[٤] ن ع: وكأنه.

[٥] ن: يقول.

[٦] ن – لكنهم.

[٧] جميع النسخ: إذا رأوا.

[٨] ك ع م + الذي وعد لهم؛ ن – وعدهم رسول الله من الفتوح لهم والنصر في الدنيا يقولون غر هؤلاء ذلك الموعود الذي كانوا وعدوا به من الفتوح والنصر.

[٩] م: وطلبوا.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[٥٠]

وقوله عز وجل: **ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم،** قال بعضهم: الآية [في] مقابلة قوله: وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ.[1] يقول –والله أعلم– **ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا،** أي تُقبَض[2] أرواح الذين كفروا، كيف يقبضون أرواحهم وكيف يضربون وجوههم وأدبارهم. كأنه قال –والله أعلم– لو رأيت الحال التي تقبض[3] فيها أرواحهم وما ينزل لرأيت أنّ ما عملوا مِن صدّ الناس عن سبيل الله واستكبارهم على المؤمنين وخروجهم لقتال أصحاب رسول الله إنما عملوا[4] بأنفسهم لا بالمؤمنين. وقوله: **ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم،** يحتمل ما ذكر من فعل الملائكة يوم بدر، لأن الآية ذُكرت في قصة بدر. ويحتمل أن يكون ذلك في كل كافر أنّ الملائكة يفعلون به ما ذكر، كقوله: وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ،[5] الآية، هذا في كل كافر. وقوله: **يضربون وجوههم وأدبارهم،** ليس على إرادة حقيقة الوجه والدبر، ولكن على إرادة إيصال الألم إليهم بكل ضَرْب وكل جهة، كقوله: لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ،[6] ليس على إرادة التحت والفوق، ولكن على إرادة إحاطة العذاب بهم،[7] فعلى ذلك الأول. وقال بعضهم: **يضربون وجوههم،** في حال إقبالهم[8] [على] المؤمنين، **وأدبارهم،** في حال إدبارهم وانهزامهم منهم.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[٥١]

وقوله عز وجل: **ذلك بما قدّمت أيديكم،** ذكر تقديم اليد وإن كان الكفر من عمل القلب لما باليد يُقَدَّم في العُرف. وقوله: **ذلك بما قدّمت أيديكم وأن الله ليس بظلّام للعبيد،**

---

[1] سورة الأنفال، ٤٧/٨.
[2] ك: أي يقبض.
[3] ن ع م: يقبض.
[4] ع: إنما علموا. أي إنما ضَرُّوا بأعمالهم أنفسهم ولم يضروا المؤمنين.
[5] ﴿ولو ترى إذِ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تُجزون عذابَ الهُونِ بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ (سورة الأنعام، ٩٣/٦).
[6] سورة الزمر، ١٦/٣٩.
[7] ن – بهم.
[8] م: في إقبالهم.

وفي الآية دلالة الرد على المجبرة،[١] لأنهم لا يجعلون[٢] للعبيد في أفعالهم صُنعا، يجعلون حقيقة الأفعال لله. وذكر **بما قدّمت أيديكم**، فلو لم يكن لهم صُنع لم يكن[٣] لقوله: **بما قدّمت أيديكم**، معنى. وكذلك قوله: **وأن الله ليس بظلّام للعبيد**، فلو لم يكن لهم حقيقة[٤] الفعل لكان التعذيب[٥] ظلما، دلّ أن لهم فِعلا. ***والله أعلم***. قوله: **ليس بظلّام للعبيد**،[٦] فيما شرع من القتال والإهلاك والتعذيب في الآخرة، لأنه مَكّن لهم ما يكسبون به من النجاة والحياة[٧] الدائمة، فما لحقهم مما ذكر / إنما كان باكتسابهم واختيارهم. [٢٩١و]

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٥٢]

وقوله عز وجل: **كدَأْب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله**، قال بعضهم: صنيع هؤلاء، أي صنيع أهل مكة بمحمد كصنيع فرعون وقومه بموسى، يعني[٨] في التكذيب[٩] والكفر بآياته. وقال قائلون: صُنْع الله بأهل مكة بالعقوبة والتعذيب[١٠] كصنيعه بفرعون وآله ومن سبق من الأمم من الإهلاك والتعذيب. وقد فعل بأهل مكة يوم بدر بسوء معاملتهم رسول الله كما فعل ذلك بفرعون وآله[١١] بسوء معاملتهم موسى.[١٢] و **كدَأْب**، قيل: كصنيع، وقيل: كفِعل، وقيل: كأشباه، وقيل: كعمل، وهو واحد.

وقوله عز وجل: **فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب**، وقوله: **شديد العقاب**، أي لا يُضعِفه شيء يمنعه عما يريد.

---

[١] أي الجبرية.
[٢] ن: لا لا يجعلون.
[٣] ع – لم يكن.
[٤] ع: لحقيقة.
[٥] ع: لكانت تعذيب.
[٦] ك – فلو لم يكن لهم حقيقة الفعل لكان التعذيب ظلما دل أن لهم فعلا والله أعلم قوله ليس بظلام للعبيد.
[٧] ن: إذ الحياة.
[٨] ع م– يعني.
[٩] ع: فالتكذيب.
[١٠] ع م – والتعذيب.
[١١] ن: بفرعون والله اعلم.
[١٢] ع: بموسى.

﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٥٣]

وقوله: **ذلك**، أي **ذلك** العذاب والعقاب الذي ذكره، **بأن الله لم يَكُ مُغيّرًا نعمةً أنعمها على قوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم**، قال قائلون: النعمة التي أنعمها عليهم هم الرسل التي بعثهم إليهم، والكتب التي أنزلها عليهم، **لم يَكُ مُغيّرا**، لتلك النعم، **حتى يُغيّروا ما بأنفسهم**، بالتكذيب والرد وترك القبول. وهو كقوله: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً،[١] وقوله: وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا،[٢] الآية. وقال قائلون: قوله: **لم يَكُ مُغيّرا نعمةً أنعمها على قوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم**، أي حتى يصرفوا[٣] شُكر نعمه إلى غير الله ويعبدوا[٤] دونه، أي لا يغير النعم التي أنعمها عليهم، **حتى يغيروا ما بأنفسهم**، يعبدون غير الله ويشكرون غير الذي أنعم عليهم، فعند ذلك غَيَّرَ الله[٥] ما بهم من النعمة. وكذلك قال ابن عباس: نعمة من النعم، إن تولَّوْا عن شكرها غَيَّرَ الله عليهم وأخذها منهم. والثاني يحتمل[٦] النعمة الدينية، وهو تكذيبهم الرسل وردُّهم الكتب بعدما أقسموا أنهم يكونون أهدى مِن إحدى الأمم،[٧] واختيارُهم الشركَ والكفرَ على الإسلام والتوحيد، فإذا اختاروا تغيير[٨] ذلك غَيَّرَ عليهم.

وقوله عز وجل: **ذلك بأن الله لم يَكُ مُغيّرًا نعمةً أنعمها على قوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم**، يخرج على وجهين، أحدهما النعمة الدنيوية،[٩] لا تتغير تلك عليهم إلا بتغيير مِن قِبَلهم، إمّا بترك الشكر[١٠] لها، وإمّا بصَرْفه إلى غير الذي أنعمها عليهم. ولو غُيِّرت عليهم غُيِّرت ببَدَل، فليس ذلك في الحقيقة تغييرا.[١١] **وأن الله سميع عليم**، قيل: أي **سميع** لشكر من يشكره ويحمده،

[١] سورة الإسراء، ١٥/١٦.
[٢] سورة القصص، ٥٩/٢٨.
[٣] ك: أي يصرفوا.
[٤] ع م: ويعبدون.
[٥] ن – غير الله.
[٦] ك: تحتمل.
[٧] ﴿وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم لئن جاءهم نذير لَيكونُنّ أَهْدَى مِن إحدى الأُمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نُفُورا﴾ (سورة فاطر، ٤٢/٣٥).
[٨] ن: تغير؛ م: التغيير.
[٩] ن ع م: الدنياوية.
[١٠] ع: الشرك.
[١١] جميع النسخ: تغير.

عليم، لزيادة النعمة إذا شكر. ويحتمل **سميع**، أي مجيب، **عليم**، بمصالحهم. ويحتمل أنه **سميع**، لما أَسَرّوا من القول وجَهَروا به، **عليم**، بما أَضْمَروا من العمل والشُّرُور.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾[٥٤]

وقوله عز وجل: **كَدَأْبِ آل فرعون والذين من قبلهم كذّبوا بآيات ربهم**. فإن قيل: ما فائدة تخصيص ذِكر آل فرعون مِن بينهم،[١] وما الحكمة في تكرار قوله: **كدأب آل فرعون**؟[٢] قيل: يحتمل تخصيص[٣] ذكر آل فرعون لِما كانوا أقرب إلى هؤلاء من غيرهم ممن كان قبلهم؛ ألا ترى أنه قال: إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً.[٤] أو أنْ يُذَكِّرَ[٥] أهلَ الكتاب منهم لِما كانوا ينكرون بعث الرسول[٦] من غيرهم، ويقولون: إن محمدا أُمّي بُعث إلى الأُمّيين مثلِه، فقال: إن موسى لم يكن من القِبْط فبُعث رسولا إليهم، فعلى ذلك محمد وإن[٧] كان أُمّيا فبُعث[٨] إلى الأُمّيين وغيرهم. *والله أعلم بذلك*. وأما فائدة التكرار -والله أعلم- فهو[٩] أنه ذكر[١٠] في الآية الأولى الأخذ بالذنوب والتعذيب، ولم يبيّن ما كان ذلك العذاب، فبيّن في الآية الأخرى أن ذلك العذاب هو الإهلاك والاستئصال حيث قال: **فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون**، الآية. ويحتمل قوله: فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ،[١١] في الآخرة بكفرهم بآيات الله في الدنيا، ذكر في إحدى[١٢] الآيتين العذاب في الآخرة وفي الآية الأخرى الإهلاك في الدنيا. ولأنه ذكر في الآية الأولى[١٣] الكفر بآيات الله ولم يبين ذلك،

[١] ع: من دينهم.
[٢] تكرر ذلك قبل آيتين؛ انظر: سورة الأنفال، ٥٢/٨.
[٣] م – تخصيص.
[٤] سورة المزمل، ١٥/٧٣.
[٥] م: وأن يذكر.
[٦] ع م: الرسل.
[٧] م – وإن.
[٨] ك: بعث.
[٩] جميع النسخ: وهو.
[١٠] ن: أن ذكر.
[١١] سورة الأنفال، ٥٢/٨.
[١٢] ع م: في أحد.
[١٣] ن – الأولى، صح هـ.

وذكر في الآية[١] الأخرى التكذيب[٢] بآياته، فبيّن[٣] أن الكفر بآياته هو تكذيبها. ثم التكذيب[٤] إنما يكون في الأخبار، وكذلك التصديق،[٥] وفيه دلالة أن الإيمان هو التصديق، لأنه جُعل مقابِله، وضده التكذيب. وفيه أن الإيمان ليس هو المعرفة، لأن مقابِله الجهل، والجهل[٦] بالله ليس هو التكذيب، لكن بالمعرفة يكون التصديق،[٧] وبالجهل يكون التكذيب.[٨]

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٥٥] ﴿اَلَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾[٥٦]

وقوله عز وجل: **إنّ شرّ الدوابّ عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون**، ذكر هاهنا: **إن شر الدواب عند الله الذين... لا يؤمنون**، وقال[٩] في آية أخرى: **إنّ شرّ الدوابّ عند الله الصُّمُّ البُكْمُ الذين لا يعقلون**، هم شرّ دوابٍّ حيث سمعوا الآيات والحق وعقلوها فلم يؤمنوا بها، أي لم ينتفعوا بما عقلوا مما وقع في مسامعهم ومما درسوا، كمن لا سمع له[١٠] ولا لسان، نفى عنهم ذلك لما لم ينتفعوا بما عقلوا. ويحتمل أن يكون في الآخرة،[١١] أي يبعثون يوم القيامة صُمًّا بُكْمًا عُمْيًا لما لم ينتفعوا في هذه الدنيا[١٢] بهذه الحواسّ،[١٣] كقوله: وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا،[١٤] الآية. وقوله: **إن شر الدواب عند الله**، أي شرٌّ[١٥] مِن الدوابّ عند الله، **الذين كفروا فهم لا يؤمنون**. وهو كما ذكر في آية أخرى:

---

[١] ع: وذكر الآية.
[٢] م – التكذيب.
[٣] ك: نبين.
[٤] ك ن ع: فمن التكذيب.
[٥] ع – التصديق.
[٦] ع م – والجهل.
[٧] ع م: بالتصديق.
[٨] م: بالتكذيب.
[٩] ك: وذكر.
[١٠] ك – له.
[١١] جميع النسخ + هم.
[١٢] ن ع م: في الدنيا.
[١٣] ع م – الحواس.
[١٤] سورة الإسراء، ١٧/٩٧.
[١٥] ك: أي إن شر.

أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ،[١] أخبر أن الذين كفروا بالله وكذبوا بآياته أضلّ من الأنعام. وقد ذكرنا / فائدة قوله: بَلْ هُمْ أَضَلُّ، في موضعه. ويحتمل قوله: **شرّ الدواب**، أي شرُّ مَن يَدِبّ [٢٩١ظ] على وجه الأرض من الممتحَنين، **الذين كفروا فهم لا يؤمنون**. ثم يكونون بهذا الوصف إذا خُتموا بالكفر وترك الإيمان. ثم اختلف فيه. قال بعضهم: نزل في بني قُرَيْظَة، عاهدوا رسول الله ثم أعانوا مشركي مكة[٢] على رسول الله بالسلاح وغيره، فأَقَالَهم رسول الله، وكانوا يقولون: نسينا وأخطأنا. ثم عاهدهم ثانية، فنقضوا[٣] العهد، فذلك قوله: **ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون**، نَقْضَ العهد، أو **لا يتقون**،[٤] الشرك. وقال بعضهم: نزل قوله: **إن شرّ الدواب**، إلى آخر الآية[٥] في المَرَدَة والفراعنة من الكفار، كانوا عقلوا ما سمعوا ودرسوا ولكن غيّروها فلم يؤمنوا به. على هذا حمل أهل التأويل تأويل الآية، وإلى ما ذكرنا صرفوا. وإلّا صَرْفُ الآية إلى أهل النفاق أولى، لأنهم هم المعروفون بنقض العهد مرة[٦] بعد مرة.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[٥٧]

وقوله عز وجل: **فإما تثقفنّهم في الحرب**، قيل: تأسرنهم في الحرب، وقيل: تَلقينَّهم في الحرب، وقيل: تجدنهم في الحرب. **فشَرِّدْ بهم مَن خلفهم**، قيل: نَكِّلْ بهم مَن بعدهم، أي اصنع بهم ما يَنكُلون مَن خلفهم،[٧] أي يمتنعون. وقيل: فعِظْ بهم مَن خلفهم، أي مَن سِواهم. الآية نزلت في قومٍ عَلِم الله أنهم لا يؤمنون، وكان عادتهم نقض العهد، فأمر[٨] عز وجل رسوله أن يُنَكِّل هؤلاء ليكون ذلك عبرة وزجرا لمن بعدهم، إن لم يكن ذلك لهم زجرا[٩] فيكون في تنكيل هؤلاء منفعة لغيرهم، إذا رأى غيرهم أنه فعل بهؤلاء ما ذكر يكون ذلك زجرا لهم عن مثل صنيعهم. ولهذا ما قال: وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ،[١٠] مَن رأى أنه يُقتَل به امتنع عن قتل آخر، فيكون في ذلك حياة الخلق.

---

[١] سورة الأعراف، ١٧٩/٧.
[٢] ن – مكة، صح هـ.
[٣] ك: ثم نقضوا.
[٤] ع – نقض العهد أو لا يتقون.
[٥] ن – الآية.
[٦] ع م: ومرة.
[٧] ك: من بعدهم.
[٨] ع م: فأمرهم.
[٩] ك: زجرا لهم.
[١٠] سورة البقرة، ١٧٩/٢.

وكذلك ما جعل الله من القتال مع العدو ونصب الحرب فيما بينهم رحمةً، لأن في الطِّباع النِّفار عن القتل، فإذا رأى أنه يُقتَل بتركه الإسلام أجاب إلى ذلك إشفاقا على نفسه وخوفا على تلف مُهْجَتِه،[1] فيكون في القتال رحمة. وكذلك جميع ما جعل الله فيما بين الخلق من العقوبات في النفس[2] وما دون النفس، جعل زَوَاجِرَ ومَوَانِعَ[3] عن المعاودة إلى مثله. فعلى ذلك قوله: **فشَرِّدْ بهم مَن خلفهم**، عظةً وزجرًا لمن بعدهم، **لعلهم يذّكّرون**، لكي يذكروا[4] النكال فلا ينقضوا العهد. وكذلك كل مرغوب في الدنيا ومرهوب[5] جُعل دواعي وزواجر لموعودٍ في الآخرة، وجُعل كل لذيذ وشَهِيّ في الدنيا داعيا[6] لما وُعد في الآخرة في الجنة،[7] وكلُّ كَرِيهٍ وقبيح زاجرا له عن الموعود في الآخرة في النار، على هذا بناءُ أمرِ الدنيا. والتَّشْرِيد[8] قال أبو عبيدة: معناه من التفرقة، أي فَرِّق بهم.[9] وقال القُتَبي: قوله: **فشَرِّدْ بهم مَن خلفهم**، أي افعل بهم فعلا من العقوبة والتنكيل يتفرّق به مَن وراءَهم من الأعداء. قال: ويقال: شَرِّدْ[10] بهم: سَمِّعْ بهم بلغة[11] قريش. وقيل: نَكِّلْهم، أي اجعلهم عظة لمن وراءهم وعبرة،[12] وهو ما ذكرنا. وقال[13] أبو عوسجة: التنكيل التخويف والرد عما يكره، والنكال العذاب. وقال غيره: قوله:[14] **فشَرِّدْ بهم مَن خلفهم**، أي أَخِفْهم[15] بهم، بما صنع هؤلاء. وقال أبو عُبَيد: التشريد في كلامهم التبديد والتفريق. وبعضه قريب من بعض. قال أبو عَوْسَجَة: قوله: **فشَرِّد بهم**، أي نَكِّل بهم حتى يخافك مَن خلفهم.[16] والشَّرِيد الطَّرِيد، والشريد أيضا القليل.

---

[1] ك: نفسه.
[2] ع م: في النقض.
[3] ك: زواجرا ومانعا؛ ن ع م: زواجرا وموانعا.
[4] ع م: يذكرون.
[5] ك ن ع: ومرغوب.
[6] ن: وداعيا.
[7] ع م - في الجنة.
[8] ن - والتشريد.
[9] *مجاز القرآن* لأبي عبيدة، ١/٢٤٨.
[10] ع م: وشرد.
[11] ن - بلغة.
[12] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٨٠.
[13] ع: قال.
[14] ن م - قوله.
[15] م: أي أخلفهم.
[16] ك: من بعدهم.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[٥٨]

وقوله: **وإمّا تخافنّ من قوم خيانة فانبِذ إليهم على سواء**، قال بعضهم: قوله: **تخافنّ**، أي تعلمنّ،[١] **من قوم خيانة فانبِذ إليهم على سواء**،[٢] أي لا تفعل بهم مثل ما فعلوا من الخيانة فتكون أنت وهم[٣] في الخيانة سواء، لأنّ عندهم أنكم معاهِدون لقيام العهد بَعد،[٤] ولكن انبِذ إليهم العهد،[٥] ثم نَاصِبْ فيما بينهم الحرب. وقال بعضهم: هو على حقيقة الخوف، يقول: إذا خفت منهم النقض أو الخيانة **فانبِذ إليهم**، أي ألْقِ إليهم نقضك، لتكون أنت وهم في العلم بالنقض سواء. قال أبو عبيدة: قوله: **فانبِذ إليهم على سواء**، أي أَظْهِرْ[٦] لهم أنك عدو، وأنك مُناصِب لهم، حتى يعلموا ذلك فيصيروا على ذلك سواء.[٧] وقال بعضهم: **[على] سواء**، أي على أمر بَيِّن. قال أبو عُبَيد:[٨] قال غير واحد من أهل العلم: **فانبِذ إليهم على سواء**، أَعْلِمْهم[٩] أنك تريد أن تحاربهم حتى يصيروا مثلك في العلم، فذلك السواء. وقال[١٠] الكيساني: السواء العدل، وقال: **فانبِذ إليهم على سواء**، أي سِرْ إليهم وقد علموا بك وعلمتَ بهم. وبعضهم قريب من بعض. وحاصل التأويل هو التأويلان اللذان[١١] ذكرتهما. *والله أعلم*.

وأصل العهد ما ذكر عز وجل في آية أخرى، وهو قوله: إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ،[١٢] أمر عز وجل بإتمام العهد إلى المدة إذا لم يَنْقُصُونا شيئا[١٣] ولم يخونوا ولم يظاهروا علينا أحدا منهم،

---

[١] ك: تخافن تعلمن.
[٢] م – قال بعضهم قوله تخافن أي تعلمن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء.
[٣] ك – وهم، صح هـ.
[٤] جميع النسخ: معاهدون على عهد بعد عهد؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٣٣ظ.
[٥] ع م – العهد.
[٦] ع: سواء أظهر.
[٧] *مجاز القرآن* لأبي عبيدة، ٢٤٩/١.
[٨] ع: أبو عبيدة.
[٩] ع: علمهم.
[١٠] ع م: قال.
[١١] ن ع: هو التأويلين اللذين؛ م: هو التأويلين الذين.
[١٢] سورة التوبة، ٤/٩.
[١٣] ن ع: لم ينقضوناشيا؛ م: لم ينقضوا ناسيا.

فإذا فعلوا شيئا من ذلك فلنا[1] أن ننقض العهد الذي كان بيننا وبينهم. وكذلك ابتداء العهد فيما[2] بيننا وبينهم، إذا سألونا ليس للإمام أن يعطي لهم[3] العهد إذا لم يكن في العهد منفعةٌ للمسلمين منفعةً ظاهرة وخيرًا لهم. فعلى ذلك ما دام يرجو في العهد منفعةً للمسلمين وخيرًا لهم [فيجب] مراعاة ذلك العهد وحفظه. فإذا خاف منهم أو اطّلع على خيانة منهم فله نقضُه.
[٢٩٢و] *والله أعلم*. ثم إذا كان تلك الخيانة من جملتهم أو ممن له مَنَعَة[4] فله أن يُناصِب / معهم الحرب وإن لم ينبِذ إليهم، وإذا كان ذلك من بعضٍ على سبيل التلصُّص والسَّرِقة فليس له أن يحاربهم إلا بعد النَّبْذ إليهم.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾[٥٩]

وقوله عز وجل: **ولا يحسبنّ الذين كفروا سبقوا إنهم لا يُعجِزون**، قال بعضهم: لا يحسبنّ الذين نَجَوْا وتخلَّصوا منك -يا محمد- من المشركين يوم بدر[5] أنّي لا أُظفِرك[6] بهم في غيره من الحروب والمغازي، وأنهم يفوتون[7] ويُعجِزون الله عن ذلك. وقال بعضهم: لا يحسبنّ الذين كفروا أنهم يُعجِزون[8] ويفوتون عن نِقْمَة الله وعذابه. وقرأ بعضهم بنصب الألف: أَنهم لا يعجزون، فمن قرأ بالنصب طرح "لا"، وجعلها صلة، وقال: يحسبنّ أنهم يُعجِزون. وأما قراءة العامة فهي بالخفض: إنهم، فهو على الابتداء،[9] فقال: **إنهم لا يعجزون**.[10] وقيل: المُعجِز والسابق[11] والفائت واحد. وقال القُتَبي: **سبقوا**، أي فاتوا،[12] وجَعل قولَه: **إنهم لا يُعجِزون**،[13] على الابتداء.

---

[1] ع: قلنا.
[2] ع م – فيما.
[3] ك – لهم.
[4] ن ع م: منفعة.
[5] ع م – يوم بدر.
[6] ع م: لأظفرك.
[7] م: يقولون.
[8] ع: أنهم لا يعجزون.
[9] ع م: فهو بالابتداء.
[10] قرأ ابن عامر من الأئمة العشرة بفتح الهمزة، والباقون بكسرها. انظر: *النشر في القراءات العشر* لابن الجزري، ٢/٢٧٧.
[11] ع م: السابق.
[12] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٨٠.
[13] ك – وقيل المعجز والسابق والفائت واحد وقال القتبي سبقوا أي فاتوا وجعل قوله انهم لا يعجزون.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[٦٠]

وقوله عز وجل: **وأَعِدُّوا لهم**[١] **ما استطعتم من قوة**، قال بعضهم: **وأَعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوة**، ولا تخرجوا إلى الحروب والمغازي[٢] كما خرجتم إلى بدر بلا سلاح ولا قوة، لأنه أراد أن يجعل حرب بدرٍ آية ليميز بين المُحِقّ[٣] والمُبْطِل وبين الحق والباطل، لذلك أمركم بالخروج إليه بلا سلاح ولا عُدّة، وأما غيرها من الحروب والمغازي فلا تخرجوا إليها إلا مستعدّين لها.[٤] وبَعد، فإنهم إنما تركوا الاستعداد طاعة لربهم، وفي الاشتغال بالاستعداد تركُ الطاعة[٥] له. وأمر عز وجل بالاعتداد[٦] لهم بما استطاعوا[٧] من الأسباب لِما أنّ ذلك أَرْهَبُ للعدو من ترك الاستعداد، وإن كان عز وجل قادرا[٨] أن ينصرهم على عدوهم بلا سبب يجعله[٩] لأنفسهم، وهو كقوله: لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ،[١٠] فأمر الله بالأسباب في الحروب وإن كان قادرا على نصر أوليائه على عدوه بلا سبب. لكنه أمر بالأسباب لِما أنّ جميع أمور الدنيا جعلها بالأسباب من نحو الموت والحياة وجميع الأشياء، وإن كان يقدر على إبقاء الإنسان والخلائق جميعا بلا غذاء يجعل لهم، و[على] الموت بلا مرض ولا سبب، ولكن فعل بما ذكرنا.[١١]

ثم اختلف في قوله: **من قوة**، قال بعضهم: القوة الرمي، وعلى ذلك رَوَوْا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [أنه] قال: **وأَعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوة**، فقال: «ألا إن[١٢] القوة الرمي»،

---

[١] ع م – والفائت واحد وقال القتبي سبقوا أي فاتوا وجعل قوله إنهم لا يعجزون على الابتداء وقوله عز وجل وأعدوا لهم.
[٢] م: من المغازي.
[٣] ع: بين الحق.
[٤] ن: إليها.
[٥] ن ع م: للطاعة.
[٦] إعداد الشيء واعتِداده و استعداده وتَعْداده: إحضاره (*لسان العرب* لابن منظور، «عدّ»).
[٧] جميع النسخ: ما استطاعوا.
[٨] ع: قادر.
[٩] جميع النسخ: يجعلها.
[١٠] سورة الحشر، ١٣/٥٩.
[١١] ع: ما ذكرنا.
[١٢] ك: فقال إن.

قال ذلك ثلاثا.[١] ويحتمل قوله: **ما استطعتم من قوة**، ما تَقْوَوْن به [على] الحرب،[٢] لا ما لا تَقْوَوْن به.[٣] وقال بعضهم: القوة السلاح. وقال غيره: الخيل. وأمكن أن يكون[٤] جميع أسباب[٥] الحرب. وفيه دلالة أن القوة التي هي أسباب الفعل يجوز أن تتقدّم،[٦] ويكون قوله: لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ،[٧] أراد استطاعة الأسباب لا استطاعة الفعل. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **ومِن رِباط الخيل تُرهِبون به عدو الله وعدوكم**، أَمَر برباط الخيل والإعداد للحرب رهبةً للعدو. **وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم**، اختلف أهل التأويل[٨] فيه. قال بعضهم: تُرهبون برباط الخيل المشركين، وقال: **وآخرين من دونهم**، اليهود والنصارى، وهؤلاء الذين كانوا فيما بينهم، يُرهَب هؤلاء أيضا. وقال بعضهم: **وآخرين من دونهم**، المنافقين[٩] الذين كانوا فيما بينهم، لا يعرفونهم، كانوا طلائع[١٠] للمشركين وعيونا لهم، يخبرونهم عن حال المؤمنين، يرهب هؤلاء أيضا. وقال آخرون: قوله: **وآخرين من دونهم**، هم الشياطين، ورووا على ذلك خبرا[١١] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «هم الشياطين –وقال– لن يُخَبِّل[١٢] الشيطان[١٣] إنسانا في داره فرس عَتِيق».[١٤]

---

[١] صحيح مسلم، الإمارة ١٦٧؛ وسنن الترمذي، التفسير ٨.

[٢] ع م: الحروب.

[٣] ك: لا ما تقوون به؛ ن + الحرب. قال الشارح رحمه الله تعالى: «ويحتمل قوله: ﴿ما استطعتم من قوة﴾، أي أَعِدُّوا من السلاح ما تَقْوَوْن به وتقدرون على استعماله، لا ما لا تَقْوَوْن به ولا تقدرون على استعماله» (شرح التأويلات، ورقة ٣٣٤و).

[٤] ك: أن تكون.

[٥] م: الأسباب.

[٦] ن ع م: أن يتقدم.

[٧] ﴿لو كان عَرَضًا قريبا وسفرا قاصدا لا تّبعوك ولكن بَعُدت عليهم الشُّقَّة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يُهلِكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ (سورة التوبة ٤٢/٩).

[٨] ك ن – أهل التأويل.

[٩] ع م – المنافقين.

[١٠] ن ع م: طلائعا.

[١١] ع م – خبرا.

[١٢] ن ع: لن يخيل. الخَبَل هو الجنون ومس الجن، وخَبَّله أي جَنَّنه (لسان العرب لابن منظور، «خبل»).

[١٣] ع م: الشياطين.

[١٤] أخرجه الطبراني بلفظ "الجن" بدلا عن الشيطان. وفي إسناده رواة مجاهيل. انظر: مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٧/٧؛ والدر المنثور للسيوطي، ٩٧/٤. و العَتيق: الكريم الرائع من كل شيء، والخِيار من كل شيء... والعِتق: الكرم، يقال: ما أبين العِتق في وجه فلان، يعني الكرم. والعِتق: الجمال. وفرس عتيق: رائع كريم بَيِّن العِتق (لسان العرب لابن منظور، «عتق»).

ويحتمل أن يكون قوله: **وآخرين من دونهم**، هم[1] الأعداء الذين يكونون مِن بَعد إلى يوم القيامة، **لا تعلمونهم الله يعلمهم**، فإن كان ذلك ففيه دلالة بقاء الجهاد إلى يوم القيامة. وقال بعضهم: **وآخرين من دونهم**، هم الشياطين. **لا تعلمونهم الله يعلمهم**، وهو كقوله: إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ.[2] فإن قيل: أي رهبة تقع للشياطين فيما ذكر من **رباط الخيل**، والسلاح الذي ذكر؟ قيل: يكون لهم رهبة في قَمْع أوليائهم. أو يكون لأوليائهم[3] رهبة، [ولكن] نسب ذلك إليهم، وذلك كثير في القرآن. وقوله: **عدوَّ الله وعدوَّكم**، سمي عدو الله عدوا للمؤمنين،[4] لِيُعلَم [أن] من اعتقد عداوة الله صار عدوا للمؤمنين، ومن اعتقد ولاية الله صار وليا للمؤمنين، ومن كان ولي المؤمنين[5] يكون وليا لله.

وقوله عز وجل: **وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يُوَفَّ إليكم**، أخبر أن ما أنفقوا في سبيل الله يُوَفَّر[6] عليهم ذلك.[7] أما الخَلَف في الدنيا كقوله: وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ،[8] وأما في الآخرة الثواب. **وأنتم لا تُظلَمون**، يحتمل وجهين. يحتمل **وأنتم لا تُظلَمون**، فيما يأمركم[9] بالجهاد في سبيل الله واتخاذ العُدّة والإنفاق فيها، إذ أنفسكم وأموالكم[10] لله، له أن يأخذها منكم. والثاني **وأنتم لا تُظلَمون**، في الثواب[11] في الآخرة، أي يعطيكم الثواب في الآخرة، أو الخَلَف في الدنيا. ***والله أعلم***.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٦١]

وقوله: **وإن جنحوا للسَّلْم فاجنح لها**، قرئ بالنصب: للسَّلْم، وقرئ بالخفض: للسِّلْم.[12]

---

[1] ك – هم.

[2] ﴿يا بني آدم لا يَفتِنَنَّكم الشيطان كما أخرج أبَوَيكم من الجنة يَنزِع عنهما لباسهما لِيُرِيَهما سَوْآتِهما إنه يراكم هو وقَبِيلُه من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ (سورة الأعراف، ٢٧/٧).

[3] ع – أو يكون لأوليائهم.

[4] ك: عدو المؤمنين.

[5] م: وليا للمؤمنين.

[6] م: يوفي.

[7] ن – ذلك.

[8] ﴿قل إن ربي يَبسُط الرزق لمن يشاء من عباده ويَقْدِر له وما أنفقتم من شيء فهو يُخلِفُه وهو خير الرازقين﴾ (سورة سبأ، ٣٩/٣٤).

[9] ع: فيما أمركم.

[10] ع: وأموالهم.

[11] ع: والثواب.

[12] قراءة الكسر هي رواية أبي بكر عن عاصم، وقرأ الباقون بفتح السين؛ انظر: *النشر في القراءات العشر* لابن الجزري، ٢٧٧/٢.

وقال أهل اللغة: من قرأ بالنصب: للسَّلْم، حمل على المصالحة والموادعة، ومن قرأ[1] بالخفض للسِّلْم، جعل ذلك في الإسلام. وتأويله -والله أعلم- أي إذا خضعوا للصلح وطلبوا منك فاجنح لهم، أي مِلْ إليهم
[٢٩٢ظ] / ولا يمنعك[2] عن الصلح معهم ما كان منهم من نَقْض العهد على ما ذكر في قوله: الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ،[3] يقول: لا يمنعك عن الصلح إذا طلبوا ذلك ما كان منهم من النَّقْض ونَكْث العهود.[4] **وتوكل على الله**، ولا تخف خيانتهم ونقضهم العهد، فإن الله يُطلعك ويكفيك على ذلك. ومنهم من قال:[5] قوله: **وإن جنحوا للسَّلْم**، أي إذا خضعوا وتواضعوا للإسلام فاقبل منهم واخضع لهم، كقوله: وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ،[6] أمره بخفض الجناح لهم.[7] ذكر هاهنا أنهم إذا طلبوا الصلح منا يلزمنا[8] أن نعطيهم، وإذا لم يطلبوا منا ذلك لا يحل لنا أن نطلب منهم الصلح إلا أن نضطر[9] إلى ذلك. وهو ما ذكر في آية أخرى حيث قال: فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ،[10] نهانا أن ندعوهم إلى الصلح ولنا قوة وعُدّة للقتال معهم، وأما إذا كانوا طلبوا منا ذلك أولا فيجاب لهم[11] إلى ذلك. ويحتمل ما ذكرنا، أي لا يمنعك لما كان منهم من نقض العهد.

وقوله: **فَاجْنَحْ لها**، يحتمل ذكره بالتأنيث، أي للمسالمة والمصالحة. وقال بعضهم: السَّلْم هو مؤنث، كقول القائل:

السَّلْمُ تَأخذُ منها[12] ما رضيتَ به ... والحَرْبُ يَكفيكَ مِن أنْفاسِها جُرَعُ.[13]

---

[1] ع - قرأ.
[2] ع م: ولا يمنعنك.
[3] سورة الأنفال، ٨/٥٦.
[4] ع: المعهود.
[5] ع: من قالوا.
[6] سورة الحجر، ١٥/٨٨.
[7] م + وكقول أبي بكر.
[8] ن - يلزمنا.
[9] ك: أن يضطر.
[10] سورة محمد ٤٧/٣٥.
[11] م: فيجابون.
[12] م: منا.
[13] ك ن ع + وكقول أبي بكر. والبيت للشاعر عباس بن مِرداس، يقول: إن السَّلْم وإنْ طالتْ لا تضرك ولا يلحقك منها أذى، والحربُ أقلُّ شيءٍ منها يَكفيك (*لسان العرب* لابن منظور، «أبس»). وجَرَع الماء وجَرِعه يَجْرَعه جَرْعا: بَلَعَه... والجُرْعة: مِلْء الفم يبتلعه، وجمع الجُرعة جُرَع (*لسان العرب* لابن منظور، «جرع»). والعباس بن مرداس من الصحابة، شهد فتح مكة وغزوة حُنين، وهو من شُجعان الشعراء. انظر: *الإصابة في حياة الصحابة* لابن حجر، ٣/٦٣٣.

فإن قيل: ما المعنى في قول من قال بالإسلام بقوله:[١] **فاجنح لها**، وهو كان يدعو إلى الإسلام، ولا شك[٢] أنه كان يقبل منهم الإسلام؟

قيل: يحتمل أن يكون الأمر بالقبول أمرا بترك المؤاخذة بما كان[٣] منهم في حال نقض العهد، لأن من قولنا: إن ما أصابوا في حال العهد من الجراحات والأَخْذ[٤] يُتبَعون بها ويؤاخذون إذا أسلموا، وإذا نقضوا[٥] العهد ثم أصابوا[٦] شيئا من ذلك ثم أسلموا لم يؤاخذوا بذلك. فيحتمل أن يقول لهم: **فاجنح لها**، ولا تؤاخذهم[٧] بما كان منهم في حال نقض العهد. وقال الحسن: هذا منسوخ، نسخه[٨] قوله: قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ،[٩] الآية.[١٠] وقال بعضهم: نسخه[١١] قوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ،[١٢] الآية. وقال بعضهم: نسخه[١٣] قوله: فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ. والوجه فيه ما ذكرنا أن الإمام إذا رأى الصلح والموادعة نظرًا للمسلمين أجابهم إلى ذلك وصالحهم، وإذا طلبوا هم منه الصلح وبالمسلمين قوة للقتال[١٤] والحرب معهم لم يجبهم إلى ذلك. وما ذكر هؤلاء من نسخه فذلك لا نعرفه. ***والله أعلم***.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾[٦٢]

وقوله عز وجل: **وإن يريدوا أن يخدعوك**، في الصلح ويخونوك، **فإن حسبك الله**، أي أمكنك الله منهم، كقوله: وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ.[١٥]

---

١ ك: لقوله.
٢ ع م: وهو لا شك.
٣ جميع النسخ: ما كان.
٤ والأخذ يأتي بمعنى الأسر والقتل (*لسان العرب* لابن منظور، «أخذ»).
٥ ع: وإذا انقضوا.
٦ ن - في حال العهد من الجراحات والأخذ يتبعون بها ويؤاخذون إذا أسلموا وإذا نقضوا العهد ثم أصابوا.
٧ ع: ولا تؤاخذوهم.
٨ جميع النسخ: نسخها.
٩ ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحَرِّمون ما حَرَّم الله ورسوله ولا يَدِينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾ (سورة التوبة، ٢٩/٩).
١٠ *تفسير الطبري*، ٣٤/١٠.
١١ جميع النسخ: نسخها.
١٢ ﴿فإذا انسلَخَ الأشهرُ الحُرُمُ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخُذُوهم واحصُروهم واقعُدُوا لهم كلَّ مَرْصَد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخَلُّوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾ (سورة التوبة، ٥/٩).
١٣ جميع النسخ: نسخها.
١٤ ن ع م: القتال.
١٥ سورة الأنفال، ٧١/٨.

وإن كان قوله: فَاجْنَحْ لَهَا،[1] في الإسلام، فيكون قوله: **فإن حسبك الله**، أي يُطلِعك الله على ما في قلوبهم من النفاق، أي وإن خفت منهم أنهم يُظهِرون لك الإسلام في الظاهر ويكونون في السر على ما كانوا من قبل فلا يمنعك ذلك عن قبول الإسلام منهم، فإن الله يُطلِعك ذلك ويكفيك على ذلك. *والله أعلم.*

وقوله عز وجل: **هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين**، يحتمل قوله: **وبالمؤمنين**، بالملائكة الذين أنزلهم معونةً للمؤمنين يوم بدر. ويحتمل **بالمؤمنين**، المؤمنين الذين[2] كانوا معه. فأخبر أنه يؤيده بنصره وبنصر المؤمنين، وكان النصر له بالله في الحقيقة، بقوله:[3] وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ.[4] النصر من الله يكون مرة[5] بالأسباب: بالمؤمنين وبغير ذلك من الأسباب، ومرة باللطف منه بلا سبب.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٦٣]

وقوله عز وجل: **وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم**، قال بعضهم: **ألّف بين قلوبهم**، بالدين الذي اجتمعوا عليه، كقوله: إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ [فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا]،[6] أخبر أنهم كانوا أعداء ما داموا في الكفر، فلما أسلموا صاروا إخوانا. ولكن عندنا الإسلام يوجب التأليف بين القلوب[7] والاجتماع بينها، ولكن يجوز أن لا يوجد التأليف وإن وجد الإسلام[8] ليعلم أن الله هو الذي يؤلّف بينهم بلطفه وفضله، بقوله:[9] **ولكن الله ألّف بينهم**. وقد يجوز أن يكون ما ذكر من تأليف القلوب يكون مرة بالدين ومرة باللطف من الله، فإذا كان الخلاف والعداوة[10] بينهم بسبب الدين فإنه إذا وجد الوِفاق ارتفع الخلاف والعداوة،

---

[1] الآية السابقة.
[2] ن – الذين.
[3] م: فقوله.
[4] سورة آل عمران، ١٢٦/٣؛ وسورة الأنفال، ١٠/٨.
[5] ك: مرة يكون.
[6] سورة آل عمران، ١٠٣/٣.
[7] ع م – بين القلوب.
[8] ع م – الإسلام.
[9] ك: لقوله.
[10] م – والعداوة.

وإذا كان للأطماع فهو يرتفع باللطف من الله. **إنه عزيز حكيم، عزيز:**[١] لا يُعجزه شيء، **حكيم:** في أمره وحُكمه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٦٤]

وقوله عز وجل: **يا أيها النبي حَسْبُكَ الله ومن اتبعك من المؤمنين،** قال بعضهم: **حَسْبُكَ الله** و حَسْبُكَ **من اتبعك من المؤمنين،** أي كفاك الله[٢] في العون والنصر[٣] لك، وكفاك للمؤمنين أيضا فيما ذكرنا. وقال بعضهم: **حَسْبُكَ الله** و حَسْبُكَ **من اتبعك من المؤمنين،** أي **حَسْبُكَ**[٤] نصر الله،[٥] وحَسْبُكَ نصر المؤمنين، وهو على ما ذكر: هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ.[٦] والأول أشبه. ***والله أعلم.***

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾[٦٥]

وقوله عز وجل: **يا أيها النبي حَرِّض المؤمنين على القتال،** التحريض على القتال يكون بوجهين.[٧] أحدهما أن يَعِد لهم من المنافع في الدنيا و يُطمِع لهم ذلك، من نحو ما جاء مِن التنفيل، أنّ مَن فعل كذا فله كذا، أو يَعِد لهم المنافع في الآخرة، كقوله: إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ،[٨] الآية. وما ذكر من الثواب في الآخرة بالنفقة التي ينفقونها[٩] في سبيل الله، قوله: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ،[١٠] الآية. فيما ذكرنا فيه وعد المنافع لهم في الدنيا والآخرة / ووعد النصر لهم. [٢٩٣و]

---

[١] ن – عزيز.
[٢] ع – الله.
[٣] ك: النصر في والعون.
[٤] ع م – وحسبك من اتبعك من المؤمنين أي حسبك.
[٥] ع: نصرك الله.
[٦] سورة الأنفال، ٦٢/٨.
[٧] ع: وجهين.
[٨] ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتُلون ويُقتَلون وَعدًا عليه حَقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشِروا ببَيْعِكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ (سورة التوبة، ١١١/٩).
[٩] ك: تنفقونها.
[١٠] ﴿هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يَغفِرْ لكم ذنوبكم ويُدْخِلْكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكنَ طيبةً في جنات عَدْنٍ ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نَصْرٌ من الله وفَتْحٌ قريب وبَشِّر المؤمنين﴾ (سورة الصف، ١٠-١٣).

والثاني يكون التحريض بضرر[١] يلحق أولئك ونكبةٍ تَصِل إليهم، كقوله: أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ -إلى قوله- قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ،[٢] جمع الله عز وجل في هذه الآية جميع أنواع الخير الذي يكون في القتال مع العدو مِن النصر[٣] للمؤمنين عليهم وإدخال السرور في صدورهم[٤] ونَفْيِ الحزن عنهم وتعذيب أولئك بأيديهم. وفيه إغراء على العدو بقوله: أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ، فذلك كله يحرّض على القتال ويرغّبهم في الحرب مع العدو. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا**، الآية، اختلف في معنى هذا. قال بعضهم: قوله: **إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا** كذا، على الأمر، كأنه قال: لِيَكُنْ **منكم عشرون صابرون يغلبوا** كذا، أَمَر العشرةَ القيامَ لمائةٍ، وقال: دليله أنه على الأمر قوله: اَلْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ.[٥] ولو لم يكن على الأمر والعزيمة لم يكن لذكر التخفيف معنى. وقال آخرون: هو على الوعد[٦] أنهم إذا صبروا وثبتوا لعدوهم غلبوا عدوهم على ما أخبر: كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ،[٧] ليس على الأمر، لأنه قال: **إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين**، أخبر أنهم إذا صبروا غلبوهم وهم[٨] كذلك -والله أعلم- إذ ظاهرُه وعدٌ وخبرٌ.[٩] والأشبه[١٠] أن يكون على الأمر، ليس على الخبر، على ما ذكرنا من قوله: اَلْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ.[١١]

وقوله: **ذلك بأنهم قوم لا يفقهون**، ما لهم وما عليهم.

---

[١] ك: لضرر.

[٢] ﴿أَلَا تُقاتِلون قوما نَكَثُوا أَيْمَانَهم وهَمُّوا بإخراج الرسول وهُم بَدَءُوكم أوّل مرة أتخشَوْنهم فالله أحقُّ أن تخشَوْه إن كنتم مؤمنين﴾ (سورة التوبة، ٩/١٣-١٥).

[٣] ك ن ع: من وعد النصر.

[٤] ن: في قلوبهم.

[٥] الآية التالية.

[٦] ن ع م: على الوعيد.

[٧] ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٤٩).

[٨] جميع النسخ: وهو.

[٩] وعبارة الشارح هكذا: «أخبر أنهم إذا صبروا غلبوا على ما وعد الله تعالى وأخبر عنه» (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٣٤ظ).

[١٠] ع: ولا شبه.

[١١] الآية التالية.

﴿اَلْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٦٦]

وقوله: **الآن خفف الله عنكم وعَلِم أنّ فيكم ضَعْفا.**

فإن قيل: ما معنى قوله: **وعَلِم أنّ فيكم ضَعْفا**، وقد كان يعلم أن فيهم ضَعْفا[١] وَقْتَ ما أَمَر العشرةَ القيامَ لمائةٍ، والعشرين لمائتين؟

قيل: أمر بذلك مع علمه أن فيهم ضَعْفًا وإن كان في[٢] ذلك إهلاك أنفسهم، وذلك منه عدل، إذ له الأنفس، إن شاء أتلفها بالموت، وإن شاء بالقتل، بقتل العدو، والتخفيفُ منه رحمة وفضل. أَمَر الواحدَ القيامَ لعشرةٍ على علم منه بالضعف ابتداءَ امتحان منه، وله أن يمتحن عباده بما فيه وُسْعُهم وبما لا وُسْعَ لهم فيه. وفي الحكمة ذلك، إذ له[٣] الأنفس، له[٤] أن يُتلِفَها كيف شاء بما شاء. وهو ما ذكر [في] قوله: وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ.[٥] ولو لم يكن له في الحكمة ذلك لا يحتمل أن يكتب ذلك عليهم. والثاني يعلم فيهم الضَّعْف كائنا شاهدا كما علم أنه يكون. وهو ما ذكرنا في قوله: حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ،[٦] أي يعلم مجاهدا كما علم أنه يجاهد. فعلى ذلك هذا.

ثم ذكر العشرين والمائتين [وذكر المائة والألف][٧] يحتمل على التحديد. ويحتمل لا على التحديد؛ ألا ترى أنه ذكر في الناسخ عددا غَيْرَ العدد الذي في المنسوخ، لأن في المنسوخ ذكر العشرين لمائتين، وفي الناسخ ذكر ألف لألفين،[٨] بقوله:[٩] **وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله.** فإن كان لا على التحديد فيلزم لواحدٍ القيامُ لاثنين، وفي الأول الواحدُ لعشرةٍ، وعلى ذلك روي[١٠] عن عمر رضي الله عنه قال: إذا لقي الرجل رجلين من الكفار فاسْتُأْسِرَ فلا فداء له علينا،

---

[١] ن ع م: ضعف.
[٢] ك: وأن في.
[٣] ع: أذلة.
[٤] ن – له.
[٥] ﴿ولو أنّا كتبنا عليهم أنِ اقتُلُوا أنفسكم أوِ اخرُجُوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يُوعَظون به لكان خيرا لهم وأشدّ تثبيتا﴾ (سورة النساء، ٦٦/٤).
[٦] ﴿ولَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونَبْلُوَ أخباركم ﴾ (سورة محمد، ٣١/٤٧).
[٧] جميع النسخ: العشرة والعشرين؛ والتصحيح مع الزيادة من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٣٥و.
[٨] ع: لا لغير.
[٩] ك: لقوله.
[١٠] ن – روي.

وإذا[1] لقي ثلاثة فأُسِر فعلينا فداؤه. و لم يجعل للواحد الفرار من اثنين حيث لم يوجب عليه الفداء، وقد جعل له الفرار من ثلاثة[2] حيث جعل عليه الفداء. وكذلك روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال ذلك.[3] ويحتمل على التحديد، إذا كَمُل العدد الذي ذكر لم يسع الفرار، ويلزمهم القيام لهم، وإذا كانوا دون ذلك لم يلزم. وكذلك قال الحسن: أمر أن يصبر عشرون لمائتين، إن فَرُّوا منهم لم يُعْذَروا، وأن يصبر مائة لألف،[4] إن فَرُّوا منهم لم يُعْذَروا، قال: ثم أنزل الله: **الآنَ خفَّف الله عنكم وعَلِم أنّ فيكم ضَعْفًا**، فأمر أن يصبر مائة لمائتين، وإن فَرُّوا منهم لم يُعْذَروا، وأن يصبر الألف لألفين، إن فَرُّوا منهم لم يُعْذَروا. فإن كان على التحديد فهو على ما[5] يقولون أنهم ما لم[6] يكونوا [في] مَنَعَة[7] فإنه يسعهم أن لا يقاتلوا.

وقوله عز وجل: **فإن يكن منكم مائة صابرة**، قال بعض أهل التأويل:[8] الصبر هو حبس النفس على ما أمر الله، وكفّها[9] عن جميع شهواتها ولذّاتها، فإذا فعل ذلك غلب على العدو وقهره. وقال بعضهم: الصبر هو أن يوطّن نفسه في القتال مع العدو، ويحبسها في ذلك. والشكر قيل: هو أن يبذل نفسه[10] وما يحويه لله، لا يجعل لغيره. فيكون الشكر والصبر في الحاصل سواء، وإن كانا في العبارة مختلفين، لأن الشكر هو بذل النفس وما حَوَتْه يدُه لله، والصبر هو الكفّ والاحتباس على جميع ما أمر الله، وأداءُ ما افترض[11] الله عليه، فإذا حبسها عن غيره يكون باذلا له.[12] ولهذا سمي الصبر إيمانا بقوله: إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ،[13]

---

[1] م: فإذا.

[2] جميع النسخ: عن ثلاثة؛ ع + حيث لم يوجب عليه الفداء وقد جعل له الفرار عن ثلاثة.

[3] أي إنه كان في بدء الأمر يجب أن لا يفر الواحد من العشرة، ثم نسخ ذلك وخُفِّف بأنه يجب على الواحد عدم الفرار من الاثنين؛ انظر: *صحيح البخاري*، التفسير سورة ٨/٦؛ و*تفسير الطبري*، ١٠/٣٩؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٤/١٠٢، ١٠٣.

[4] م: وأن يصبر الألف لألفين.

[5] ك ع م: فهو ما.

[6] م: أنهم لم.

[7] فلان في مَنَعَة، أي في قوم يحمونه ويمنعونه (*لسان العرب* لابن منظور، «منع»).

[8] ك ع م: قال بعضهم.

[9] ك ن ع: ويكفها.

[10] ك: لنفسه.

[11] ن ع م: ما افرض.

[12] ع م - له.

[13] سورة هود، ١١/١١.

ذكر الصبر هاهنا مكان ما ذكر في غيره[١] الإيمان بقوله: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.[٢]

وقوله: **والله مع الصابرين**، في النصر لهم على عدوهم والغلبة عليهم.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٦٧]

وقوله عز وجل: **ما كان لنبي أن يكون له أَسرَى حتى يُثخِن في الأرض**، قال أبو بكر الكيساني:[٣] عاتب الله رسولَه[٤] وأصحابَه في أخذ الأَسَارَى بقوله: **ما كان لنبي أن يكون له أَسرَى حتى يُثخِن في الأرض**، وبالغ في العتاب في أخذ / الفداء من الأُسَارَى بقوله: **تريدون عَرَضَ الدنيا والله يريد الآخرة**. وكذلك روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لما استشار أصحابه في الأُسَارَى أشار أبو بكر إلى أخذ الفداء، وعُمَرُ إلى القتل، فقال: «لو نزل من السماء عذاب ما نجا إلا عمر».[٥] عاتبهم بالأخذ، أَخْذِ الأُسَارَى، و[عاتبهم] أشدَّ العتابِ في أخذ الفداء. وأمر[٦] بالقتل وضَرْبِ الرقاب بقوله: فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ،[٧] إنما أمر بضرب الرقاب وضرب البنان. وكذلك يخرج قوله:[٨] لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ،[٩] على العتاب. إلى هذا يذهب[١٠] أبو بكر[١١] الأصم. وعن ابن عباس قال:[١٢] لم يكن[١٣] الأنبياء صلوات الله عليهم فيما مضى يكون لهم أُسَارَى حتى يُثْخِنوا في الأرض.[١٤] [٢٩٣ظ]

---

[١] ك ن: في غير.
[٢] انظر مثلا: سورة الشعراء، ٢٢٧/٢٦.
[٣] م: الكسائي.
[٤] ع: ورسوله.
[٥] روي عن ابن زيد؛ انظر: *تفسير الطبري*، ٤٨/١٠. وأخرجه ابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه من طريق نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ انظر: *الدر المنثور* للسيوطي، ١٠٨/٤.
[٦] ع م: أو أمر.
[٧] سورة الأنفال، ١٢/٨.
[٨] ن: يخرج من قوله.
[٩] الآية التالية.
[١٠] ك – يذهب.
[١١] ن: أبي بكر.
[١٢] ك – قال.
[١٣] ك: لم تكن.
[١٤] *تفسير الطبري*، ٤٥/١٠، ٤٧؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ١٠٩/٤.

وعن سعيد بن جبير قال: لا يُفادَى أُسَارَى المشركين ولا يُمَنُّ عليهم حتى يُثْخَنوا بالقتل،
[٢٩٤ظ س٨ ثم تلا: حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ.[1] إلى هذا ذهب هؤلاء.* والإثخان قال ابن عباس: القتل. وقال[2] أبو معاذ: يُثْخِنوا،[3] أي يُذَلِّلوا، المُثْخَن: الذليل. وقال[4] أبو عوسجة: **حتى يُثْخِن في الأرض**، أي **يُثْخِن** في أهل الأرض، يُكثِر القتلى والجِراحات، يقال: **أَثْخَنْت** في القوم، إذا أكثرت[5] فيهم القتل والجراحات، ويقال: ضربه حتى أَثْخَنه، أي ضربه[6] حتى لا يقدر على القيام. وهو ما ذكر محمد في بعض مسائله أنه إذا رمى صيدا بسهم فأصابه حتى أَثْخَنه، ثم رمى آخر بسهم فأصابه، فإنه للأول، لِما أنه صيّره بالإثخان خارجا من أن يكون صيدا. وهو الضرب الذي وصفنا.[7] وثَخُن يَثْخُن ثَخَانة، فهو ثَخِين، وثَخُن يَثْخُن ثُخُونة، واحد،
٢٩٤ظ س١٣] أي غَلُظ.[8]*

وقوله: **ما كان لنبي أن يكون له أَسْرَى**، يخرج تأويل الآية على وجهين. أحدهما يقول: **ما كان لنبي**، أن يأخذ من الأسرى الفداء، **حتى يُثْخِن في الأرض**، أي يَغلب، حتى إذا أخذ الفداء وسرّحهم بعدما غَلَب في الأرض يكون رجوعهم إلى غير مَنَعَة وشوكة، وإذا لم يَغلب في الأرض ثم أخذ الفداء يكون رجوعهم إلى مَنَعَة، وذلك لا يحل.

والثاني يقول: **ما كان لنبي**، أن يأسر الأُسَارَى حتى يغلب في الأرض،[9] أي حتى يصير الدين كله لله، كقوله: وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ،[10] الآية، هذا كان لمن قبله، فرخص لرسوله ذلك.

---

[1] ﴿فإذا لَقِيتُم الذين كفروا فضَرْبَ الرِقابِ حتى إذا أَثْخَنتموهم فشُدُّوا الوَثَاقَ فإمّا مَنًّا بَعدُ وإمّا فِداءً حتى تضع الحرب أوزارها﴾ (سورة محمد، ٤٧/٤). وانظر: *تفسير الطبري*، ١٠/٤٣؛ *والدر المنثور* للسيوطي، ٧/٤٥٧.

[2] م: قال.

[3] ع م: يثخنون.

[4] ع م: قال.

[5] ع م: إذا كثرت.

[6] ع – حتى أثخنه أي ضربه.

[7] م: وصفناه.

[8] انظر: *لسان العرب* لابن منظور، «ثخن».

* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية الآتية برقم ٧٠، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٩٤ظ/سطر ٨-١٣.

[9] ع م – ثم أخذ الفداء يكون رجوعهم إلى منعة وذلك لا يحل والثاني يقول ما كان لنبي أن يأسر الأسارى حتى يغلب في الأرض.

[10] ﴿وقاتلُوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ (سورة الأنفال، ٨/٣٩).

* وقال بعض أهل التأويل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استشار في أُسَارَى[١] يومِ [٢٩٣ظ س٣٦]
بدرٍ أصحابَه، فقال لأبي بكر: «يا أبا بكر، ما تقول فيهم؟»،[٢] فقال: يا رسول الله، قومك وأهلك، فاسْتَبْقِهِم واستَأْنِ بهم،[٣] لعل الله يتوب عليهم.[٤] وقال عمر: يا رسول[٥] الله، كذّبوك وأخرجوك، قَدِّمْهم فاضرب أعناقهم. وقال[٦] عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، انظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه واضْرِمْه عليهم نارا، فقال له العباس: قطعتَ رَحِمَك، فسكت
رسول الله، فلم يجبهم شيئا. / ثم قام فدخل، فقال ناس: يقول بقول[٧] أبي بكر، وقال ناس: [٢٩٤و]
يقول بقول عمر، وقال ناس: يقول بقول عبد الله. ثم خرج عليهم رسول الله، فقال: «إن الله لَيُلين قلوب رجال فيه حتى تكون أَلْيَنَ من اللبن، وإن الله لَيُشدّد قلوب رجال فيه[٨] حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر[٩] كمثل إبراهيم، قال: فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ،[١٠] وإن مثلك يا أبا بكر[١١] كمثل عيسى حيث قال: إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ،[١٢] وإن مثلك يا عمر كمثل موسى حيث قال: رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ[١٣] -وقال- يا عمر، ومثلك[١٤] كمثل نوح حيث قال: رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا.[١٥] ولا يَنْفَلِتَنَّ[١٦] أحدٌ منهم[١٧] إلا بفداء أو ضربة عُنُق».

[١] م: في الأسارى.
[٢] ن ع م: ما تقولون فيه.
[٣] ك ن: واستأنهم؛ ع م: واسقانهم. استأنِ بهم: أي ترفق بهم وأمهلهم (*لسان العرب* لابن منظور، «أنى»).
[٤] ن – عليهم.
[٥] ك: يرسول.
[٦] ن: قال.
[٧] ع – بقول.
[٨] م – فيه.
[٩] م: يا با بكر.
[١٠] ن ع م – ومن عصاني فإنك غفور رحيم. وانظر: سورة إبراهيم، ٣٦/١٤.
[١١] م: يا با بكر.
[١٢] ﴿إن تعذّبهُم فإنهم عبادُك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ (سورة المائدة، ١١٨/٦).
[١٣] ﴿ربّنا اطْمِس على أموالهم واشدُد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ (سورة يونس، ٨٨/١٠).
[١٤] م: إن مثلك.
[١٥] سورة نوح، ٢٦/٧١.
[١٦] جميع النسخ: ولا يسالن.
[١٧] جميع النسخ: منكم.

قال عبد الله: إلا سُهَيْل بن بيضاء، فإني سمعته يذكر الإسلام. فسكت رسول الله. فما رأيتُني في يومٍ أَخْوَفَ[1] مني[2] أن يقع عليّ حجارة[3] في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله: «إلا سُهَيْل بن بيضاء». فأنزل الله: **ما كان لنبي أن يكون له أسرى**، إلى آخر ما ذكر.[4]

ثم يحتمل قوله:[5] **ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثْخِن في الأرض**، قَبْلَكم، وأما أنتم فقد أُحِلَّت لكم الأُسَارَى[6] والغنيمة. ويدل أيضا ما روي من الأخبار والآيات على أنه إذا أثخن في الأرض جاز له الأسر، لأنه لو لم يجز ذلك كما لا يجوز قبل الإثخان في الأرض زالت فائدة الخصوص. وقد بيّن الله ذلك بقوله: حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ.

ثم اختلف أهل العلم في فداء الأُسَارَى بالمال. قال ابن عباس رضي الله عنه قال كان[7] ذلك يوم بدر والمسلمون قليل، فلما كَثُروا واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى بعد هذا[8] في الأُسَارَى: فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً، فجُعِل النبي والمؤمنون بالخيار، [إن شاءوا قتلوهم، وإن شاءوا استعبدوهم، و]إن شاءوا فَادَوْهم.[9] وعن الحسن قال: يصنع به[10] ما صنع رسول الله بالأُسَارَى،[11] يمنّ عليه أو يفادي.[12] وقال غيرهم بخلاف ذلك. وقال أصحابنا: إن احتاج الإمام إلى مال فاداهم. وقد دل ما ذكرنا من الآيات والأخبار على جواز الفداء بعد الإثخان فيهم. فإن لم يكن إلى المال محتاجا فله قتلهم، لأن ذلك أنكأ في العدو، وأشد [في] رهبتهم من المؤمنين. وقال[13] بعضهم:[14]

---

[1] ع: بدخوف.

[2] ك – مني.

[3] ك + مني.

[4] روي عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه؛ انظر: *مسند أحمد بن حنبل*، ٣٨٣/١؛ و*سنن الترمذي*، التفسير ٨؛ و*تفسير الطبري*، ٤٣/١٠-٤٤.

[5] ن – قوله.

[6] ن: الأسرى.

[7] ن ع م – كان.

[8] ك ع م: تعاهدا؛ ن: تعاهدوا. والتصحيح من مصادر الرواية.

[9] جميع النسخ: فدوهم. والتصحيح مع الزيادة من مصادر الرواية. انظر: *تفسير الطبري*، ٤٢/١٠؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ١٠٨/٤-١٠٩.

[10] أي بالأسير.

[11] جميع النسخ: بأسارى.

[12] *المصنف* لابن أبي شيبة، ٤٩٤/٦؛ وأخرجه عبد بن حميد؛ انظر: *الدر المنثور* للسيوطي، ٤٥٨/٧.

[13] ع: قال.

[14] ع م – بعضهم.

وله[1] أن يَسْتَرِقَّهم. فهو كما قالوا إذا كان الأسير من أهل الكتاب أو من العجم. فأما عَرَبُ عَبَدَةِ الأوثان فلا يُسْتَرَقُّون، لأنّا لا نعلم أحدا منهم استرقّه النبي لمّا أسره، و لم يبلغنا أن أبا بكر استرقّ[2] واحدا من أهل الردة. وكيف يجوز استرقاقهم وقد قال الله تعالى: تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ.[3] وأما الفداء والقتل فقد ظهر من فعل رسول الله في أُسَارَى بدر.[4] وفيما رُوي من الاستشارةِ، استشارةِ النبي أصحابه في الأُسَارَى دلالةُ العمل بالاجتهاد. وما روي في الخبر عن نبي الله صلى الله عليه وسلم [أنه] قال لأبي بكر وعمر: «يا أبا بكر[5] ويا عمر، إن ربي يوحي إليّ أن أُشاوركما، ولولا أنكما تختلفان ما عصيتكما، أو ما عملت بخلاف رأيكما».[6] فيه أنه لا يجوز لأحدٍ أن يخالفهما ورسول الله يقول: «لولا أنكما تختلفان ما عصيتكما، أو ما عملت بخلاف رأيكما». ثم ما أخذ من الأُسَارَى من الفداء لا يُدرَى على أي وجه أخذ، على الترك والرد إلى أوطانهم[7] من غيرِ أنْ تَرَكَهم بالجزية، إذ من قولهم أنْ لا يجوز أخذُ الجزية منهم، والتركُ على ذلك، وفي الآية دلالة ذلك، وهو قوله: تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ، وفي الخبر: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب»،[8] إلا أن يقال: إن المفاداة التي[9] ذُكرت[10] كان قبل[11] هذا، وهذا كان بعده. ***والله أعلم***.* [٢٩٤و س٢٦]

---

[1] جميع النسخ: فله.

[2] ن – استرق.

[3] ﴿قل للمُخَلَّفين من الأعراب ستُدْعَوْن إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون﴾ (سورة الفتح، ٤٨/١٦). وقد روي أن الآية تشير إلى قتال المرتدين في عهد أبي بكر رضي الله عنه.

[4] وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل النَّضْر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعَيط وطُعْمة بن عدي من أسرى بدر، لأنهما كان من رؤساء المشركين في أذى المسلمين. انظر: *السيرة النبوية* لابن هشام، ١٩٣/٣–١٩٤؛ وسنن *أبي داود*، الجهاد ١١٨؛ *والدر المنثور* للسيوطي، ١٠٧/٤.

[5] م: يا با بكر.

[6] لم أجده بهذا اللفظ؛ ولكن رواه الطبراني في *المعجم الكبير* و*المعجم الأوسط* بلفظ: «لو اجتمعتما ما عصيتكما»، وذلك في شأن أسرى بدر، وفي إسناده أبو عبيدة بن الفضيل بن عياض، وهو لَيِّن، وبقية رجاله ثقات. انظر: *مجمع الزوائد* للهيثمي، ٦٨/٩.

[7] ع: إلى الأوطانهم.

[8] روي بهذا اللفظ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعا؛ انظر: *الموطأ* للإمام مالك بن أنس، الجامع ١٨. وروي بمعناه في مصادر أخرى؛ انظر: صحيح *البخاري*، الجهاد ١٧٦؛ وصحيح *مسلم*، الوصية ٢٠، الجهاد ٦٣.

[9] ع م: المفاد إلا التي.

[10] جميع النسخ: ذكر.

[11] ع م – قبل.

* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٩٣ظ/سطر ٣٦–٢٩٤و/سطر ٢٦.

[٢٩٣ظ س٢٤ * ثم قالت المعتزلة: في قوله: **تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة**، دلالة على أن الله لا يريد ما أراد العباد إذا أرادوا المعاصي، لأنه[١] أخبر أنهم أرادوا **عَرَض الدنيا**، وهو يريد الآخرة، فهم أرادوا المعصية، وهو يريد لهم الآخرة. ولكن التأويل عندنا أنّ قوله: **تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة**، أي **تريدون عرض الدنيا والله يريد**، حياة، **الآخرة**، وعَرَضَها. وبَعدُ، فإنه قد كان الله أراد لهم الآخرة وحياتها، وهم أرادوا العِير وعَرَضَ الدنيا، وقد كان ما أراد الله لهم، لا ما أرادوا هم،[٢] أي اختار لهم غير ما اختاروا هم. وأصله أن الله عز وجل أراد الآخرة لأهل البدر،[٣] فكان ما أراد، وأراد لأولئك الكفرة النار، فكان ما أراد، كقوله: يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ.[٤] والأشبه أن تكون الإرادة هاهنا المودة والمحبة، أي تودون وتحبون **عَرَض الدنيا والله يريد الآخرة**. وهو ما ذكر في آية أخرى حيث قال: وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ،[٥] كانوا يودون أن القتال[٦] مع غير ذات الشوكة، حتى يكون لهم الغنائم. والإرادة التي تضاف إلى الله تخرج[٧] على وجوه ثلاثة. أحدها الرضاء، كقوله:[٨] سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا،[٩] كانوا يستدلون بتركه إياهم وهم على أن الله قد رضي[١٠] بصنيعهم. والثاني الإرادة: الأمر، كقوله: وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا.[١١] والثالث الإرادة: هي صفةُ فِعلِ كلِ فاعلٍ يَخرُج فِعلُه على غير سهو وغفلة ولا طَبْع، بل

٢٩٣ظ س٣٦] يخرج على الاختيار.*

---

[١] ع + لو.
[٢] م: لا ما أرادوهم.
[٣] ك: بدر.
[٤] ولا يَحْزُنك الذين يُسارِعون في الكفر إنهم لن يَضُرُّوا الله شيئا يريد الله ألّا يجعل لهم حظًا في الآخرة ولهم عذاب عظيم﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٧٦).
[٥] سورة الأنفال، ٨/٧.
[٦] ن: إلى القتال.
[٧] ن م: يخرج.
[٨] ع - كقوله.
[٩] سورة الأنعام، ٦/١٤٨.
[١٠] ع: قدر رضى.
[١١] سورة الأعراف، ٧/٢٨.
* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٩٣ظ/سطر ٢٤-٣٦.

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٦٨]

وقيل في قوله: **لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم**، بوجوه.[١]

أحدها ما قال أبو بكر الأصم: تأويله: **لولا كتاب من الله سبق**، أن لا يعذب المخطئين في عملهم على خلاف أمره وإلا، **لَمَسَّكم**[٢] **فيما أخذتم**، من الأُسَارَى والفداء منهم، **عذاب عظيم**. وقال آخرون: قوله: **لولا كتاب من الله**، أنْ أحلّ الغنائم لهذه الأمة وإلا، **لَمَسَّكم**[٣] **فيما أخذتم**، واستحللتم، **عذاب عظيم**. وقال بعضهم: **لولا كتاب من الله سبق**، أنهم يتوبون عما عملوا من الأخذ وغيره وأنه يتوب عليهم وإلا، **لَمَسَّكم**، العذاب من ذلك.[٤] وأمكن أن يكون[٥] التأويل في هذا غير هذا. كان في قوله: فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ،[٦] دلالة إباحة الأسر[٧] ورخصته، لأنه قال: فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ، والضرب فوق الأعناق[٨] هو الإبانة من المفصل الذي يُبان به الرءوس، وذلك قلّ ما[٩] يمكن في القتال، ولا يقدر إبانة الرءوس في الحرب، إنما يمكن ذلك بعدما أخذوا ووقعوا[١٠] في أيديهم. وأما ما ذكر من ضرب البنان فهو في الحرب، لأنه في الحرب[١١] إنما يضرب[١٢] فيما ظفر ووجد السبيل إلى ذلك، ففيه دلالة وتأويل قوله: **لولا كتاب من الله سبق لمسكم**، الآية. ويحتمل[١٣] أن يكون ملحقا على ما سبق من قوله: كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ،[١٤] الآية، أي **لولا كتاب من الله سبق**، أي لولا مِن حُكم الله أن يجعل لكم الظفر على إحدى[١٥] الطائفتين

[١] ع: وجوه.
[٢] جميع النسخ + العذاب.
[٣] جميع النسخ + العذاب.
[٤] ك: بذلك.
[٥] ع م – من ذلك وأمكن أن يكون.
[٦] سورة الأنفال، ٨/١٢.
[٧] ن ع م: الأمر.
[٨] ع م – والضرب فوق الأعناق.
[٩] ك: قلما.
[١٠] م: ودفعوا.
[١١] ن + إنما يمكن ذلك.
[١٢] ن + ذلك.
[١٣] ك ن م: يحتمل.
[١٤] سورة الأنفال، ٨/٥-٦.
[١٥] ع: في إحدى.

وإلا، **لمسّكم**، العذاب بمجادلتكم رسول الله ومخالفتكم إياه في الخروج وإرادتكم[1] العِير. أو أن يقال: لولا مِن حُكم الله أن لا يعذب أحدا ولا يؤاخذ له في الخطأ في العمل بالاجتهاد[2] وإلا، **لمسّكم**، كذا، ويكون قوله: **أخذتم**، أي عملتم.[3]*

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٦٩]

وقوله عز وجل: **فكلوا مما غَنِمتم حلالا طيبا**، قال بعضهم: قوله: **حلالا طيبا**، واحد، كل حلال طيب، وكل حرام خبيث، وإنما يطيب إذا حل، ويخبث إذا حرم. ولكن يحتمل قوله: **حلالا طيبا**، **حلالا**،[4] بالشرع، **طيبا**، في الطبع، وكذلك الحرام هو حرام بالشرع، وخبيث بالطبع. وإنما يُتكلَّم بالحل والحرمة من جهة الشرع، والطِّيب والخُبث[5] بالطبع. والطيب هو الذي يُتَلذَّذ به ولا تَبِعة فيه، لأن خوف التَّبِعة يُنَغِّص عليه[6] ويَذهب بطِيبه ولذته. وجائز ما ذكر من الطيب هاهنا لِما أن أهل الشرك كانوا يأخذون الأموال ويجمعونها من وجه لا يحل[7] وبأسباب فاسدة، فيكرهون التناول منها إذا غنموا لتلك الأسباب الفاسدة، فطيّب قلوبهم بقوله: **طيبا**. وفيه دليل جواز [التصرف و]التقلّب[8] في [المقبوض في] البيع الفاسد، وطِيب التناول منه وإن كان مكتسبا بأسباب فاسدة بعد أن يكون بإذن،[9] فعلى ذلك الأول يحتمل ما ذكرنا. وفيه دلالة أنّ أهل الكفر لا يؤاخذون بالأفعال التي كانت لهم في الكفر ولا ما كانوا تركوا من العبادات لما ليست عليهم، إنما يؤاخذون بالاعتقاد.

وقوله: **واتقوا الله**، فيما أمركم به ونهاكم عنه، فلا تعصوه. **إن الله غفور رحيم**، لمن تاب ورجع عما فعل.

---

[1] ع: وإردتكم.
[2] ن - بلاجتهاد.
[3] ع م: أي علمتم.
وقع هنا مقطعان من تفسير الآية السابقة، فقدمناهما إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٩٣ظ/سطر ٢٤-٣٦؛ وكذلك انظر: ورقة ٢٩٣ظ/سطر ٣٦-٢٩٤و/سطر ٢٦.
[4] ع م - حلالا.
[5] ن ع م: والخبيث.
[6] ع: وعليه.
[7] ك: لا تحل.
[8] الزيادة من شرح *التأويلات*، ورقة ٣٣٦ظ.
[9] أي بإذن البائع. وزاد الشارح: «كأموال الكفرة المستفادة بأسباب فاسدة في حق من يملكها بالاستيلاء والاستغنام» (شرح *التأويلات*، ورقة ٣٣٦ظ). وانظر لأحكام البيع الفاسد بالتفصيل: *البحر الرائق في شرح كنز الدقائق* لابن نجيم، ٩٩/٦؛ ورد *المحتار على الدر المختار* لابن عابدين، ٨٨/٥.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٧٠]

وقوله عز وجل: **يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أُخِذ منكم**، قال عامة أهل التأويل: إن الآية نزلت في العباس بن[1] عبد المطلب وأصحابه. وكذلك يقول ابن عباس: قالوا للنبي: آمنا بما جئت به، ونشهد أنك رسول الله، فنزل: **إن يعلم الله في قلوبكم خيرا**، أي إن يعلم الله اعتقاد الإيمان والتصديق له في قلوبكم، **يؤتكم خيرا مما أُخِذ منكم**، أي إيمانا وتصديقا، فيُخلِف عليكم خيرا مما أصيب عليكم.[2] لكنها فيه وفي غيره، مَن / فَعل مثل فِعله فهو في ذلك سواء، يكون من الموعود الذي ذكر[3] ما يكون له. [٢٩٤ظ]
وقوله: **إن يعلم الله في قلوبكم خيرا**، هو[4] الإيمان الذي علم أنهم اعتقدوا في قلوبهم. وقوله: **يؤتكم خيرا مما أُخِذ منكم**، أي آتاكم **خيرا**، وهو الإيمان، **مما أُخِذ منكم**، من المال الذي ذكر في القصة. ويجوز "يَفْعَل" مكان "فَعَل"، كقوله: إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ،[5] أي قال المنافقون،[6] وذلك كثير في القرآن. فعلى ذلك قوله: **يؤتكم خيرا**، أي آتاكم **خيرا**. ويحتمل قوله **يؤتكم**، أيضا، أي يُثِيبكم ويُعطيكم أفضل مما أُخِذ منكم في الآخرة. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **ويغفر لكم والله غفور**، لما كان في الشرك، كقوله: فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ،[7] للذنوب، وذو تجاوز،[8] **رحيم**، يرحمهم في الإسلام. ويحتمل قوله أيضا[9] **يؤتكم خيرا مما أُخِذ منكم**، من الفداء. أو ما أُخِذ[10] منهم بمكة، أخبر أنه يؤتيهم[11] خيرا من ذلك في الدنيا من الأموال وغيرها.*

---

[1] ن: ابن.
[2] *تفسير الطبري*، ١٠/٤٩-٥٠؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٤/١١٢-١١٣.
[3] م: ذكرنا.
[4] جميع النسخ: وهو.
[5] ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غَرَّ هؤلاء دينُهم﴾ (سورة الأنفال، ٨/٤٩).
[6] ع - اعتقدوا في قلوبهم وقوله يؤتكم خيرا مما أخذ منكم أي آتاكم خيرا وهو الإيمان مما أخذ منكم من المال الذي ذكر في القصة ويجوز يفعل مكان فعل كقوله إذ يقول المنافقون أي قال المنافقون.
[7] سورة البقرة، ٢/١٩٢.
[8] م: وذ تجاوز.
[9] ع م - أيضا.
[10] ع: وما أخذ.
[11] جميع النسخ: يؤتهم.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة برقم ٦٧، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٩٤ظ/سطر ٨-١٣.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٧١]

وقوله عز وجل: **وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم**، يحتمل أن يكون الآية صلة ما سبق من الآيات، وهو قوله: الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ،[١] الآية، وقوله: وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ،[٢] الآية، وغير ذلك، وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً،[٣] ونحوه، فقال: **وإن يريدوا خيانتك**، في نقض العهد وغير ذلك من الأمانات، **فقد خانوا الله من قبل**. يحتمل قوله: **فقد خانوا الله**،[٤] فيما عاهدوا[٥] أن يُوفُوا بذلك.[٦] من ذلك[٧] قولهم: لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ،[٨] فقد أنجاهم الله عن ذلك، فلم يكونوا من الشاكرين، وكقوله: وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ،[٩] فقد آتاهم الله ذلك، فلم يَفُوا بما عاهدوا،[١٠] وغير ذلك من العهود التي عاهدوا،[١١] والأمانات التي اؤتُمِنوا فيها، فخانوا الله في ذلك.[١٢] أو ما عَهِد إليهم في أمر محمد وإظهار نَعْته وصفته في كتبهم، فكتموا ذلك وحرّفوه، وأظهروا خلاف نَعْته وصفته، فذلك منهم خيانة. فيقول إنهم قد **خانوا الله من قبل فأمكن**، الله، **منهم**، فإذا خانوك يمكنك الله[١٣] منهم أيضا. وقوله: **فأمكن منهم**، قال بعضهم: أمكن منهم،[١٤] أي انتقم منهم جزاء خيانتهم. وقال بعضهم:[١٥] أمكنك حتى انتقمت منهم. وقوله: **وإن يريدوا خيانتك**،

---

[١] سورة الأنفال، ٥٦/٨.

[٢] سورة الأنفال، ٦٢/٨.

[٣] سورة الأنفال، ٥٨/٨.

[٤] ن + من قبل يحتمل قوله فقد خانوا الله من قبل؛ ع م – يحتمل قوله فقد خانوا الله.

[٥] جميع النسخ: عهدوا.

[٦] جميع النسخ: ذلك.

[٧] ع م – من ذلك.

[٨] ﴿حتى إذا كنتم في الفُلْكِ وجَرَيْن بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أُحِيط بهم دَعَوا الله مخلصين له الدين...﴾ (سورة يونس، ٢٢/١٠).

[٩] سورة التوبة، ٧٥/٩.

[١٠] جميع النسخ: ما عهدوا.

[١١] جميع النسخ: عهدوا.

[١٢] م – في ذلك.

[١٣] ن ع م – الله.

[١٤] ع م – قال بعضهم أمكن منهم.

[١٥] ع م – بعضهم.

ليس على الإرادة، ولكن على وقوع فعل الخيانة، كأنه قال: وإن خانوك **فقد خانوا الله من قبل**، لكنه ذكر الإرادة لما هي صفة كل فاعل مختار، لما لا يكون الأفعال إلا بإرادة.

وقوله: **والله عليم**، بما يُسِرّون ويُضمِرون من الخيانة ونقض العهود، **حكيم**، في أمره وحكمه، حيث أمكنك منهم. وقال بعضهم في قوله: **وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل**، أي إن خانوك[1] بعد إسلامهم بالكفر بك، **فقد خانوا الله من قبل**، أي فقد كفروا بالله قبل هذا، يقول: إن خانوك أمكنك منهم فقتلتهم وأسرتهم كما فعلت بهم ببدر، **والله عليم**، بخلقه، **حكيم**، في أمره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٧٢]

وقوله عز وجل: **إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله**، قوله: **آمنوا**، أي صدّقوا آيات الله وحججه، أو صدّقوا رسوله في جميع ما جاء به. كأنه مقابل قوله: كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ،[2] و كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ،[3] ذكر هاهنا التصديق مكان التكذيب في ذلك. وقوله: **وجاهدوا**، في إظهار دين الله ونصره، **بأموالهم وأنفسهم**، أي بذلوا ذلك، **والذين آوَوْا**، أي ضَمُّوا[4] النبي، **ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض**، قال ابن عباس وعامة أهل التأويل: الولاية التي ذكرت في الآية في التوارث، جعل الميراث للمهاجرين والأنصار دون ذوي الأرحام الذين آمنوا و لم يهاجروا إلى المدينة، وكذلك قالوا في قوله: **والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من وَلايتهم من شيء**، يعني الميراث.[5] وروي عن عبد الله [بن مسعود] قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة، والطُّلَقَاء من قريش والعُتَقَاء[6] من ثَقِيف بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة».[7]

---

[1] م: أي خانوك.
[2] سورة الأنفال، ٨/٥٢.
[3] ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذّبوا بآيات ربهم﴾ (سورة الأنفال، ٨/٥٤).
[4] ن: آووا ضموا.
[5] *تفسير الطبري*، ١٠/٥١-٥٢؛ *والدر المنثور* للسيوطي، ٤/١١٤-١١٥.
[6] الطُّلَقَاء هم من أسلم من قريش يوم فتح مكة، والعُتَقَاء من أسلم من ثقيف بعد غزوة حُنَين.
[7] *المعجم الكبير* للطبراني، ١٠/١٨٧، *ومسند أبي يعلى*، ٨/٤٤٦ *ومسند البزار*، ٥/١٣٧؛ وقال الهيثمي: «رواه الطبراني وأبو يعلى والبزار، وفيه عاصم ابن بَهْدَلَة، وفيه خلاف، وبقية رجال البزار رجال الصحيح» (*مجمع الزوائد* للهيثمي، ١٠/١٥).

وعن جرير بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال[1] كذلك.[2] وعن المسعودي عن القاسم قال: آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه، فآخى بين عبد الله بن مسعود والزبير بن العوام أخوّة يتوارثون بها، لأنهم هاجروا وتركوا قراباتهم، حتى أنزل الله آية المواريث. وعن ابن عباس في قوله: وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ،[3] قال: كان المهاجرون حين
[٢٩٥و] قدموا المدينة يرث [المهاجري] الأنصاري[4] دون [ذوي][5] رَحِمه بالأخوّة التي / آخى النبي بينهم، فلما نزل قوله: وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ، نسخها، [ثم قال:] وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ، من النصر والنصيحة والرِّفادة،[6] ويوصي له، ولا ميراث.[7] وعن الحسن في قوله تعالى: [**إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله** -إلى قوله- **ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا**]:[8] فكان[9] المسلمون يتوارثون بالهجرة، فكان الأعرابي لا يرثه المهاجر، والمهاجر[10] لا يرثه[11] الأعرابي، فحرّضهم بذلك على الهجرة، حتى كثر المسلمون، فأنزل الله تعالى: وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ،[12] الآية، فورث الأعرابي المهاجر، وتوارثوا بالأرحام.[13] إلى هذا يذهب عامة أهل التأويل.

---

[1] ك – قال.

[2] *مسند أحمد بن حنبل*، ٣٦٣/٤؛ وصحيح *ابن حبان*، ٢٥٠/١٦؛ و*المعجم الكبير* للطبراني، ٣١٣/٢، ٣١٤، ٣١٥، ٣٤٣؛ وقال الهيثمي: «رواه أحمد والطبراني بأسانيد، وأحد أسانيد الطبراني رجاله رجال الصحيح» (*مجمع الزوائد* للهيثمي، ١٥/١٠).

[3] ﴿ولكلٍ جعلنا مواليَ مما ترك الوالدان والأقربون...﴾ (سورة النساء، ٣٣/٤).

[4] جميع النسخ: الأنصار. والتصحيح مع الزيادات من مصادر الرواية.

[5] من مصادر الرواية ومن شرح *التأويلات*، ورقة ٣٣٧و.

[6] الرِّفد بالكسر: العطاء والصلة، والرَّفد بالفتح: المصدر. رَفَده يَرْفِده رَفدا: أعطاه، ورَفَده وأرْفَده: أعانه... وفي حديث ابن عباس: ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾، من النُّصْرة والرِّفادة: أي الإعانة (*لسان العرب* لابن منظور، «رفد»).

[7] *صحيح البخاري*، التفسير ٧/٤؛ وسنن *أبي داود*، الفرائض ١٦.؛ و*تفسير الطبري*، ٥٣/٥؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٥٠٩/٢.

[8] جميع النسخ: وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله. والتصحيح من *تفسير الطبري*، ٥٣/١٠.

[9] ن: وكان.

[10] م – والمهاجر.

[11] م: ولا يرثه.

[12] سورة الأنفال، ٧٥/٨.

[13] *تفسير الطبري*، ٥٣/١٠.

وكانوا[1] يرون أن الهجرة[2] كانت مفترَضة، فزال فرضها بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا هجرة بعد الفتح، ولكنه جهاد ونية».[3] وعن عائشة رضي الله عنها قالت: انقطعت الهجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، فإنما كانت الهجرة إلى الله ورسوله والمؤمنون يَفِرّون بدينهم مِن أنْ يُفْتَنُوا[4] عنه،[5] وقد أفشى الله الإسلام.[6] هذا الذي ذهب هؤلاء [إليه] في قوله:[7] **بعضُهم أولياء بعض**، في التوارث محتمل. ويحتمل غير هذا، وهو أن قوله: **إن الذين آمنوا وهاجروا**[8] -إلى قوله- **والذين آوَوْا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض**، أي **بعضهم**[9] **أولياء بعض** في تمام الوَلاية في التناصر والتعاون والحقوق والديانة، فهم أولى بعضُهم ببعض من **الذين آمنوا ولم يهاجروا**، لأنهم آمنوا وهاجروا، أي تركوا منازلهم وأهلهم وقَراباتِهم وبلدهم الذي كانوا فيه مقيمين، إشفاقا على دينهم واستسلاما له[10] ولأنفسهم، والأنصار آوَوْهم وأنزلوهم في منازلهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم، وتحمّلوا جميع مُؤَنهم من غيرِ أنْ كان سبق منهم إليهم[11] شيء، فصاروا لهم أعوانا وأنصارا، فصار[12] **بعضهم أولياء بعض**، في تمام ما ذكرنا من الولاية. **والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من وَلايتهم من شيء حتى يهاجروا**، أي **ما لكم من وَلايتهم**، أي من تمام ما ذكرنا من الوَلاية[13] لهم وَلاية الدين، وليس لهم وَلاية التناصر والتعاون والحقوق والمنافع التي تُكتسَب بالدين.

---

[1] ك: وكان.

[2] ع - حتى كثر المسلمون فأنزل الله تعالى وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله الآية فورث الأعرابي المهاجر وتوارثوا بالأرحام إلى هذا يذهب عامة أهل التأويل وكانوا يرون أن الهجرة.

[3] *صحيح البخاري*، الجهاد ١؛ و*صحيح مسلم*، الإمارة ٨٦.

[4] جميع النسخ: أن يقيموا؛ والتصحيح من مصدر الرواية ومن شرح *التأويلات*، ورقة ٣٣٧و.

[5] ن - عنه.

[6] *صحيح البخاري*، مناقب الأنصار ٤٥.

[7] م: في قول.

[8] ن + إلى قوله والذين آمنوا وهاجروا.

[9] ن: أي أو بعضهم.

[10] جميع النسخ: لهم. والمعنى: طلبا لسلامة دينهم وأنفسهم. وقد استعمل المؤلف نفس العبارة في تفسير الآية رقم ٧٤.

[11] م - إليهم.

[12] ك - فصار.

[13] ك - والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا أي ما لكم من ولايتهم أي من تمام ما ذكرنا من الولاية.

[٢٩٥و س٣٠ *وقوله[١] عز وجل: **ما لكم من وَلايتهم من شيء**، قرئ بالخفض: وِلايتهم، وبالنصب جميعا: وَلايتهم، أعني بنصب الواو وخفضها. وكذلك التي في الكهف: هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ،[٢] بالخفض والنصب جميعا [لكلمة] الولاية.[٣] ثم قال بعض أهل الأدب: الوَلاية بفتح الواو: النُّصْرَة[٤] والمعونة، والوِلاية بخفض الواو: السلطان،[٥] أي السلطان لله. وقال بعضهم: الوِلاية بالخفض: المعونة والنُّصْرَة، والوَلاية: السلطان. وقال[٦] آخرون: هما سواء، وهو النُّصْرَة[٧]

٢٩٥و س٣٤] والمعونة والولاية[٨] في الأمارة والسلطان، والولاية في الدين.*

وفي قوله: **والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من وَلايتهم من شيء**، دلالةُ نقضِ قول المعتزلة، لأنه جل وعلا أبقى للذين[٩] لم يهاجروا اسم الإيمان، وكانت الهجرة عليهم مفترَضة، و[كانوا] في تركهم الهجرة مرتكبين كبيرة، فدل أن صاحب الكبيرة لا يزول عنه اسم الإيمان.*

وقوله عز وجل: **وإن استَنصَرُوكم في الدين**، يعني الذين[١٠] لم يهاجروا. ويحتمل[١١] وجهين. يحتمل إذا طلبوا منكم المعونة والنُّصْرَة على عدوهم، **فعليكم النصر**، والمعونة لهم إذا لم يكن بينكم وبين أولئك ميثاق. والثاني إذا علمتم أنهم يخشون على أنفسهم من عدوهم ويخافونه[١٢] فانصروهم، **إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق**، أي إذا استنصروكم في الدين على قوم بينكم وبينهم ميثاق فلا تنصروهم، أي[١٣] وليس عليكم أن تنصروهم.

---

[١] ن – وقوله.
[٢] سورة الكهف، ١٨/٤٤.
[٣] ع م: الآية. والقراءتان متواترتان، فقرأ حمزة بكسر الواو في الموضعين، ووافقه الكسائي وخلَف في سورة الكهف، وقرأ الباقون بفتح الواو في الموضعين؛ انظر: *النشر في القراءات العشر* لابن الجزري، ٢/ ٢٧٧.
[٤] ع م: والنصرة.
[٥] ك: اللسطان.
[٦] ن ع م: قال.
[٧] ك: النصر.
[٨] ع: والولالة.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٩٥و/سطر ٣٠-٣٤.
[٩] ك: الذين.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية الآتية برقم ٧٥، فأخرناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٩٥و/سطر ١٩-٢٢.
[١٠] ن – الذين.
[١١] ك ن م: يحتمل.
[١٢] ك: وتخافونه.
[١٣] ك – أي.

تأويله: حتى تَنبِذوا إليهم العهد. يقول: **إن استنصروكم**، يا معشر المهاجرين، إخوانُكم المؤمنون الذين لم يهاجروا إليكم، فأتاهم عدوهم من المشركين فقاتَلوهم ليرّدوهم[1] عن الإسلام فانصُروهم. ثم استثنى فقال: **إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق**، يقول:[2] إن استنصركم[3] الذين لم يهاجروا إلى المدينة على أهل عَهْدكم فلا تنصروهم. **والله بما تعملون بصير**، في المعونة والنُّصْرَة ونحوه.*

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[٧٣]

وقوله عز وجل: **والذين كفروا بعضهم أولياء بعض**، على قول ابن عباس وعامة أهل التأويل: **بعضهم أولياء بعض**، في التوارث،[5] على ما قالوا في المهاجرين والأنصار: بعضهم أولياء بعض. ويحتمل ما ذكرنا أنّ **بعضهم أولياء بعض**، في التناصر والتعاون والدين والحقوق جميعا، على ما ذكرنا في المؤمنين.

وقوله: **إلّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**، قيل فيه بوجوه. أحدها أن إخوانكم الذين لم يهاجروا إذا استنصروكم على عدوهم فلم تنصروهم تكون **فتنة في الأرض وفساد كبير**، أي إن لم تكونوا بعضُكم أعوانا وأنصارا لبعض على ما كان[6] أهل الكفر بعضهم أنصارا لبعضٍ غلبكم العدو وقهركم،[7] فيكون في ذلك فتنة وفساد. ويكون كأنه قال: وَقَاتِلُوهُمْ / حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ.[8] وقال بعضهم: قوله: **إلّا تفعلوه** [٢٩٥ظ]
تكن فتنة، مُلْحَق[9] بقوله: إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ،[10] أي إن استنصركم إخوانكم على قوم بينكم وبينهم عهد[11] فنصرتموهم **تكن فتنة... وفساد كبير**. وقال بعضهم:

---

[1] جميع النسخ: لتردوهم.

[2] ك + إن استنصروكم يا معشر المهاجرين إخوانكم المؤمنون الذين لم يهاجروا إليكم فأتاهم عدوهم من المشركين فقاتلوهم لتردهم عن الإسلام فانصروهم ثم استثنى فقال إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق يقول.

[3] ك ن م: إن استنصروكم.

* وقع هنا مقطع من تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٩٥و/سطر ٣٠-٣٤.

[5] *تفسير الطبري*، ١٠/٥٦؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٤/١١٦.

[6] ك: ما كانوا.

[7] ع: وقهرك.

[8] سورة الأنفال، ٨/٣٩.

[9] ك ن م: ملحقا؛ ع – ملحقا.

[10] الآية السابقة.

[11] ع م: ميثاق.

قوله: **إلّا تفعلوه**، فيما أمركم به مِن جَعْل التوارث فيما بين المؤمنين، وجعلتم الميراث[1] والتوارث فيما بينكم وبين الكفار، **تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**، لأن الله عز وجل ذكر المواريث، ثم ذكر في آخر الآية: تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ،[2] وما ذكر؛ فمَن تَرَك[3] حدود الله وطاعة رسوله وجَعَل الميراث في غير ما أمر عز وجل **تكن** [بسببه] **فتنة في الأرض وفساد كبير**.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[٧٤]

وقوله عز وجل: **والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آوَوْا ونصروا**، أي ضمّوا رسول الله والمهاجرين ونصروهم، **أولئك هم المؤمنون حقا**، أي المهاجرون والأنصار الذين ضمّوا، **أولئك هم المؤمنون حقا**، لِما حقّقوا إيمانهم بأعمالهم، لأنهم هاجروا [من] بلادهم وأهلهم وأموالهم إشفاقا على دينهم واستسلاما له، وأجابوا رسول الله وأطاعوه في ذلك، وأولئك الأنصار ضمّوا إلى أنفسهم وأنزلوهم في منازلهم وبذلوا أنفسهم وأموالهم ونصروهم على عدوهم، فقد حقّقوا جميعا إيمانهم بأعمالهم التي عملوا. ويحتمل قوله: **أولئك هم المؤمنون حقا**، أي صدقا في السر والعلانية، ليس كإيمان المنافقين يكون في العلانية ولا يكون في السر، كقوله: وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ،[4] وقال: وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ.[5] ويحتمل قوله: **أولئك هم المؤمنون حقا**، أي وعد لهم وعدا حقا، وهو ما ذكر في آخر الآية:[6] **لهم مغفرة ورزق كريم**. ويحتمل **أولئك هم المؤمنون حقا**،[7] أي أولئك المؤمنون الذين حقّقوا الإيمان به.[8] وقوله: **لهم مغفرة ورزق كريم**، أي حسن يكرم أهله به.

---

[1] ع: المتراث.
[2] ﴿تلك حدود الله ومن يطع الله ورسولَه يُدْخِلْه جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم. ومن يَعْصِ اللهَ ورسولَه ويتعدَّ حدوده يُدْخِلْه نارا خالدًا فيها وله عذاب مُهِين﴾ (سورة النساء، ١٣/٤-١٤).
[3] جميع النسخ: من ترك.
[4] سورة العنكبوت، ٣/٢٩.
[5] سورة العنكبوت، ١١/٢٩.
[6] ن ع م: في آية أخرى.
[7] ك - أي وعد لهم وعدا حقا وهو ما ذكر في آخر الآية لهم مغفرة ورزق كريم ويحتمل أولئك هم المؤمنون حقا؛ م + أي أولئك المؤمنون حقا.
[8] ن - به.

*ثم لزوم الهجرة على الذين[١] هاجروا مع رسول الله وعلى الذين تأخر هجرتهم سواء، [٢٩٥ظ س ٢٩ قد سوّى بينهم في اللزوم، وجمع بين المهاجرين والأنصار في حق الشهادة لهم بالتصديق والإيمان حيث قال: **أولئك هم المؤمنون حقا**، وجمع بينهم في حق الولاية وما يكتسب بها من المنافع حيث قال: أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ،[٢] وجمع بينهم في الثواب والدرجة حيث قال: **لهم مغفرة ورزق كريم**، وجمع بينهم في هذه الخصال -وإن قدّم ذِكرَ المهاجرين في غير واحد من الآيات- لِما كانوا مُستوِين في الأسباب التي[٣] استوجبوا ذلك؛ لأنه[٤] [كان] من المهاجرين ترك الأوطان والمنازل والخروج منها والمفارقة عن أهليهم وأموالهم وكان من الأنصار مقابلَ ذلك إنزالهُم في منازلهم وأوطانهم وبذل أموالهم وقيام أهليهم في خدمتهم، لذلك كان ما ذكر. *والله أعلم*.* ٢٩٥ظ س ٣٥]

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٧٥]

وقوله عز وجل: **والذين آمنوا مِن بَعدُ وهاجروا وجاهدوا معكم**، أي مَن آمن بعد هؤلاء وهاجر[٥] بعد مهاجرة أولئك فإنهم يلحقون أوائلهم في جميع ما ذكر في أولئك الذين هاجروا من قبل. يذكر هذا -والله أعلم- لنعمل[٦] نحن على ما عمل أولئك من الهجرة والنُّصرَة وبذل الأنفس والأموال وغير ذلك للدين على ما بذل أولئك وأشفقوا على دينهم.

وقوله عز وجل: **فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله**، هو ما ذكرنا أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض بالتركة والتوارث من جملة المؤمنين، فإذا لم يكن أولو[٧] الأرحام فجملة المؤمنين أولى. وعلى ذلك يخرج قول أصحابنا: إن أولي الأرحام بالميراث أولى من جملة المؤمنين،[٨] وهو بيت المال، فما دام واحد من هؤلاء فهو أولى بالميراث.

---

[١] ك: على الذي.
[٢] سورة الأنفال، ٧٢/٨.
[٣] ن: الذي.
[٤] جميع النسخ: لأن.
* وقع ما بين النجمتين في آخر تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٩٥ظ/سطر ٢٩-٣٥.
[٥] م: وهاجروا.
[٦] ن: لنعلم.
[٧] ك ع م: أولوا.
[٨] ك - وعلى ذلك يخرج قول أصحابنا إن أولي الأرحام بالميراث أولى من جملة المؤمنين.

وعلى ذلك يخرج قولهم في العَقْل:[1] إنه على ذوي الأرحام ما داموا هم،[2] فإذا لم يكن أحد منهم فهو على جملة المؤمنين في بيت المال.

* وقوله عز وجل: **وأُولُو الأرحام بعضهم أولى ببعض**، أي أُولُو[3] الأرحام إذا آمنوا وهاجروا، [٢٩٥و س١٩
بعضهم أولى ببعض، من غيرهم، لأنهم إذا آمنوا وهاجروا ولهم قرابةٌ سابقةٌ ورَحِمٌ متقدِّمٌ كانوا هم أولى من غيرهم الذين[4] لا قرابة بينهم ولا رَحِم. إذا اجتمع فيهم الرحم والمعونة والنصر والديانة والحقوق اجتمع فيهم[5] أشياء أربعة، وفي أولئك ثلاثة، فهم أولى بهم من غيرهم.
هذا على التأويل الذي ذكرنا. *والله أعلم*.* ٢٩٥و س٢٢]

وقوله عز وجل: **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض**، أي **بعضهم أولى ببعض**، في حق التوارث من المؤمنين الذين هاجروا، فنسخت[6] هذه الآية حكم الميراث الذي ذكر في قوله: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ،[7] لأنه كان جَعل التوارث بينهم بحق الإيمان والهجرة، ثم نَسخ ذلك، وجعل الميراث بالرحم، حيث قال: **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض**. وكذلك ما ذكر في سورة الأحزاب حيث قال: وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ.[8] فإذا لم يبق من الرحم أحد فبعد ذلك يكون لجملة[9] المؤمنين.

وقوله عز وجل: **في كتاب الله**، في حكم الله، أو في كتاب الله، لأنه ذكر في كتاب الله.*

* وقوله عز وجل: **إن الله بكل شيء عليم**، بالعباد وما يكون منهم، و **بكل شيء عليم**، [٢٩٥ظ س٢٣
بما يحتاجون وما[10] لا يحتاجون،[11] وهو حرف وعيد. *والله أعلم*.* ٢٩٥ظ س٢٤]

---

[1] أي الدية.
[2] م: ما داموهم.
[3] ك: أي أولوا.
[4] جميع النسخ: الذي.
[5] ن ع م: فيه.
* وقع ما بين النجمتين في تفسير الآية السابقة برقم ٧٢، فأخرناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٩٥و/سطر ١٩-٢٢.
وقع هنا مقطع من تفسير الآية متقدما على موضعه، فأخرناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٩٥ظ/سطر ٢٣-٢٤.
[6] جميع النسخ: فنسخ.
[7] سورة الأنفال، ٧٢/٨.
[8] سورة الأحزاب، ٦/٣٣.
[9] م: جملة.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٩٥ظ/سطر ٢٩-٣٥.
[10] ن: وبما.
[11] ع - وما لا يحتاجون.
* وقع ما بين النجمتين متقدما على موضعه في تفسير الآية، فأخرناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٩٥ظ/سطر ٢٣-٢٤.

سورة الأنفال

مدنية إلا من آية: ٣٠ إلى غاية ٣٦ فمكية وآياتها ٧٥ نزلت بعد البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾

اعلم أن قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ يقتضي البحث عن خمسة أشياء، السائل والمسئول وحقيقة النفل، وكون ذلك السؤال عن أي الأحكام كان، وإن المفسرين بأي شيء فسروا الأنفال.

أما البحث الأول: فهو أن السائلين من كانوا؟ فنقول إن قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ إخبار عمن لم يسبق ذكرهم وحسن ذلك ههنا، لأن حالة النزول كان السائل عن هذا السؤال معلومًا معينًا فانصرف هذا اللفظ إليهم، ولا شك أنهم كانوا أقوامًا لهم تعلق بالغنائم والأنفال وهم أقوام من الصحابة.

وأما البحث الثاني: وهو أن المسئول من كان؟ فلا شك أنه هو النبي ﷺ.

وأما البحث الثالث: وهو أن الأنفال ما هي فنقول: قال الزهري: النفل والنافلة ما كان زيادة على الأصل، وسميت الغنائم أنفالاً، لأن المسلمين فضلوا بها على سائر الأمم الذين لم تحل لهم الغنائم، وصلاة التطوع نافلة لأنها زيادة على الفرض الذي هو الأصل. وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾[الأنبياء: ٧٢] أي زيادة على ما سأل.

وأما البحث الرابع: وهو أن السؤال عن أي أحكام الأنفال كان؟ فنقول: فيه وجهان: الأول: لفظ السؤال، وإن كان مبهمًا إلا أن تعيين الجواب يدل على أن السؤال كان واقعًا عن ذلك المعين، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾[البقرة: ٢٢٢] ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[البقرة: ٢٢٠] فعلم منه أنه سؤال عن حكم من أحكام المحيض واليتامى، وذلك الحكم غير معين، إلا أن الجواب كان معينًا لأنه تعالى قال في المحيض: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾[البقرة: ٢٢٢] فدل هذا الجواب على أن ذلك السؤال كان سؤالاً عن مخالطة النساء في المحيض. وقال

في اليتامى: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] فدل هذا الجواب المعين على أن ذلك السؤال المعين كان واقعًا عن التصرف في مالهم ومخالطتهم في المواكلة. وأيضًا قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥] وليس فيه ما يدل على أن ذلك السؤال عن أي الأحكام إلا أنه تعالى قال في الجواب: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ فدل هذا الجواب على أن ذلك السؤال كان عن كون الروح محدثًا أو قديمًا، فكذا ههنا لما قال في جواب السؤال عن الأنفال: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ دل هذا على أنهم سألوه عن الأنفال كيف مصرفها ومن المستحق لها.

والقول الثاني: أن قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ أي: من الأنفال، والمراد من هذا السؤال: الاستعطاء على ما روي في الخبر، أنهم كانوا يقولون يا رسول الله أعطني كذا أعطني كذا، ولا يبعد إقامة عن مقام من هذا قول عكرمة. وقرأ عبد الله: (يسألونك الأنفال).

والبحث الخامس: وهو شرح أقوال المفسرين في المراد بالأنفال. فنقول: إن الأنفال التي سألوا عنها يقتضي أن يكون قد وقع بينهم التنازع والتنافس فيها، ويدل عليه وجوه: الأول: أن قوله: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ يدل على أن المقصود من ذكر منع القوم عن المخاصمة والمنازعة. وثانيها: قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ يدل على أنهم إنما سألوا عن ذلك بعد أن وقعت الخصومة بينهم. وثالثها: أن قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يدل على ذلك.

إذا عرفت هذا فنقول: يحتمل أن يكون المراد من هذه الأنفال الغنائم، وهي الأموال المأخوذة من الكفار قهرًا؛ ويحتمل أن يكون المراد غيرها.

أما الأول: ففيه وجوه: أحدها: أنه ﷺ قسم ما غنموه يوم بدر على من حضر وعلى أقوام لم يحضروا أيضًا، وهم ثلاثة من المهاجرين وخمسة من الأنصار، فأما المهاجرون فأحدهم عثمان فإنه عليه السلام تركه على ابنته لأنها كانت مريضة، وطلحة وسعيد بن زيد. فإنه عليه السلام كان قد بعثهما للتجسس عن خبر العير وخرجا في طريق الشام، وأما الخمسة من الأنصار، فأحدهم أبو لبابة مروان بن عبد المنذر، خلفه النبي ﷺ على المدينة، وعاصم خلفه على العالية، والحرث بن حاطب: رده من الروحاء إلى عمرو بن عوف لشيء بلغه عنه، والحرث بن الصمة أصابته علة بالروحاء، وخوات بن جبير، فهؤلاء لم يحضروا، وضرب النبي ﷺ لهم في تلك الغنائم بسهم، فوقع من غيرهم فيه منازعة. فنزلت هذه الآية بسببها، وثانيها: روى أن يوم بدر الشبان قتلوا وأسروا والأشياخ وقفوا مع رسول الله ﷺ في المصاف، فقال الشبان: الغنائم لنا لأنا قتلنا وهزمنا، وقال الأشياخ: كنا ردأ لكم ولو انهزمتهم لانحزتم إلينا، فلا تذهبوا بالغنائم دوننا، فوقعت المخاصمة بهذا السبب. فنزلت الآية. وثالثها: قال الزجاج: الأنفال الغنائم. وإنما سألوا عنها لأنها كانت حرامًا على من كان قبلهم، وهذا الوجه ضعيف لأن على هذا التقدير يكون المقصود من هذا السؤال طلب حكم الله تعالى فقط، وقد بينا بالدليل أن هذا

السؤال كان مسبوقًا بالمنازعة والمخاصمة.

وأما الاحتمال الثاني: وهو أن يكون المراد من الأنفال شيئًا سوى الغنائم، فعلى هذا التقدير في تفسير الأنفال أيضًا وجوه: أحدها: قال ابن عباس في بعض الروايات: المراد من الأنفال ما شذ عن المشركين إلى المسلمين من غير قتال، من دابة أو عبد أو متاع، فهو إلى النبي ﷺ يضعه حيث يشاء، وثانيها: الأنفال الخمس الذي يجعله الله لأهل الخمس، وهو قول مجاهد، قال: فالقوم إنما سألوا عن الخمس. فنزلت الآية، وثالثها: أن الأنفال هي السلب وهو الذي يدفع إلى الغازي زائدًا على سهمه من المغنم، ترغيبًا له في القتال، كما إذا قال الإمام: «**مَنْ قتلَ قَتِيلاً فلهُ سلبُهُ**» أو قال لسرية: ما أصبتم فهو لكم، أو يقول: فلكم نصفه أو ثلثه أو ربعه، ولا يخمس النفل، وعن سعد بن أبي وقاص أنه قال: قتل أخي عمير يوم بدر فقتلت به سعد بن العاصي وأخذت سيفه فأعجبني فجئت به إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إِنَّ اللَّه تَعَالَى قَدْ شَفَى صَدْرِي مِنْ الْمُشْرِكِينَ, فَهَبْ لِي هَذَا السَّيْف! فَقَالَ: «**لَيسَ هَذَا لِي وَلاَ لَك أطرحه في الموضع الذي وضعت فيه الغنائم**» فطرحته وبي ما يعلمه الله من قتل أخي وأخذ سلبي، فما جاوزت إلا قليلاً حتى جاءني رسول الله ﷺ وقد أنزلت سورة الأنفال فقال: يا سعد «**إِنَّك سَأَلْتنِي السَّيْف وَلَيسَ لِي، وَإِنَّهُ قَدْ صَارَ لِي فَخُذْه**»[1] قال القاضي: وكل هذه الوجوه تحتمله الآية، وليس فيها دليل على ترجيح بعضها على بعض. وإن صح في الأخبار ما يدل على التعين قضى به، وإلا فالكل محتمل، وكما أن كل واحد منها جائز، فكذلك إرادة الجميع جائزة فإنه لا تناقض بينها، والأقرب أن يكون المراد بذلك ماله عليه السلام أن ينفل غيره من جملة الغنيمة قبل حصولها وبعد حصولها، لأنه يسوغ له تحريضًا على الجهاد وتقوية للنفوس كنحو ما كان ينفل واحدًا في ابتداء المحاربة. ليبالغ في الحرب. أو عند الرجعة. أو يعطيه سلب القاتل، أو يرضخ لبعض الحاضرين، وينفله من الخمس الذي كان عليه السلام يختص به. وعلى هذا التقدير فيكون قوله: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ المراد الأمر الزائد على ما كان مستحقًا للمجاهدين.

أما قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

ففيه بحثان:

البحث الأول: المراد منه أن حكمها مختص بالله والرسول يأمره الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته، وليس الأمر في قسمتها مفوضًا إلى رأي أحد.

البحث الثاني: قال مجاهد وعكرمة والسدي: إنها منسوخة بقوله فإن لله خمسه وللرسول، وذلك لأن قوله: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ يقتضي أن تكون الغنائم كلها للرسول، فنسخها الله

---

(١) **صحيح**: أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٣/ ٣٧٢) حديث رقم/ ١٥٦٥٧، وأحمد في (مسنده) (١/ ١٧٨) حديث رقم/ ١٥٣٨، وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (٨/ ٣١٢) جميعًا من طريق عاصم عن مصعب بن سعد بن مالك. . . به.

بآيات الخمس وهو قول ابن عباس في بعض الروايات، وأجيب عنه من وجوه: الأول: أن قوله: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ معناه أن الحكم فيها لله وللرسول. وهذا المعنى باق فلا يمكن أن يصير منسوخًا، ثم إنه تعالى حكم بأن يكون أربعة أخماسها ملكًا للغانمين. الثاني: أن آية الخمس. تدل على كون الغنيمة ملكًا للغانمين، والأنفال ههنا مفسرة لا بالغنائم، بل بالسلب. وإنما ينفله الرسول عليه السلام لبعض الناس لمصلحة من المصالح.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.

وفيه بحثان:

البحث الأول: معناه فاتقوا عقاب الله ولا تقدموا على معصية الله، واتركوا المنازعة والمخاصمة بسبب هذه الأحوال. وارضوا بما حكم به رسول الله ﷺ.

البحث الثاني: في قوله: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: وأصلحوا ذات بينكم من الأقوال، ولما كانت الأقوال واقعة في البين، قيل لها ذات البين، كما أن الأسرار لما كانت مضمرة في الصدور قيل لها ذات الصدور.

ثم قال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ والمعنى أنه تعالى نهاهم عن مخالفة حكم الرسول بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ ثم أكد ذلك بأن أمرهم بطاعة الرسول بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ ثم بالغ في هذا التأكيد فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ والمراد أن الإيمان الذي دعاكم الرسول إليه ورغبتم فيه لا يتم حصوله إلا بالتزام هذه الطاعة، فاحذروا الخروج عنها، واحتج من قال: ترك الطاعة يوجب زوال الإيمان بهذه الآية، وتقريره أن المعلق بكلمة إن على الشيء عدم عند عدم ذلك الشيء، وههنا الإيمان معلق على الطاعة بكلمة ﴿إِنَّ﴾ فيلزم عدم الإيمان عند عدم الطاعة وتمام هذه المسألة مذكور في قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١] والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١] واقتضى ذلك كون الإيمان مستلزمًا للطاعة، شرح ذلك في هذه الآية مزيد شرح وتفصيل، وبين أن الإيمان لا يحصل إلا عند حصول هذه الطاعات فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية. واعلم أن هذه الآية تدل على أن الإيمان لا يحصل إلا عند حصول أمور خمسة: الأول: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ

﴿قُلُوبُهُمْ﴾ قال الواحدي يقال: وجل يوجل وجلاً، فهو وجل، وأوجل إذا خاف. قال الشاعر:

لعمرك ما أدري وإني لأوجل   على أينا تعدو المنية أول[1]

والمراد أن المؤمن إنما يكون مؤمنًا إذا كان خائفًا من الله، ونظيره قوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣] وقوله: ﴿الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢] وقال أصحاب الحقائق: الخوف على قسمين: خوف العقاب، وخوف العظمة والجلال. أما خوف العقاب فهو للعصاة. وأما خوف الجلال والعظمة فهو لا يزول عن قلب أحد من المخلوقين، سواء كان ملكًا مقربًا أو نبيًا مرسلاً، وذلك لأنه تعالى غني لذاته عن كل الموجودات وما سواه من الموجودات فمحتاجون إليه، والمحتاج إذا حضر عند الملك الغني يهابه ويخافه، وليست تلك الهيبة من العقاب، بل مجرد علمه بكونه غنيًا عنه، وكونه محتاجًا إليه يوجب تلك المهابة، وذلك الخوف.

إذا عرفت هذا فنقول: إن كان المراد من الوجل القسم الأول، فذلك لا يحصل من مجرد ذكر الله، وإنما يحصل من ذكر عقاب الله. وهذا هو اللائق بهذا الموضع، لأن المقصود من هذه الآية إلزام أصحاب بدر طاعة الله وطاعة الرسول في قسمة الأنفال، وأما إن كان المراد من الوجل القسم الثاني، فذلك لازم من مجرد ذكر الله، ولا حاجة في الآية إلى الإضمار.

فإن قيل: إنه تعالى قال ههنا ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨] فكيف الجمع بينهما؟ وأيضًا قال في آية أخرى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] قلنا: الاطمئنان إنما يكون عن ثلج اليقين، وشرح الصدر بمعرفة التوحيد، والوجل إنما يكون من خوف العقوبة، ولا منافاة بين هاتين الحالتين، بل نقول: هذان الوصفان اجتمعا في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] والمعنى: تقشعر الجلود من خوف عذاب الله، ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند رجاء ثواب الله.

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ وهو كقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤].

ثم فيه مسائل:

المسألة الأولى: زيادة الإيمان الذي هو التصديق على وجهين:

---

(١) البيت من البحر الطويل للشاعر محمد عثمان جلال وهو محمد بن عثمان بن يوسف الحسني الجلالي الونائي. ١٢٤٢-١٣١٦ هـ/ ١٨٢٦-١٨٩٨ م شاعر ومترجم وأديب مصري، نشأ يتيمًا إذ توفي والده (١٢٤٩ هـ ١٨٣٣ م) وعمره لم يتجاوز السبع سنين ونشأ على محبة العلم والاجتهاد. اختاره رفاعة الطهطاوي لدراسة اللغات الفرنسية والعربية في دار اللغات لما رأى فيه من نبوغ وفطنة، وندب في عام ١٢٦١ هـ ١٨٤٥ م لتعليم اللغة الفرنسية في الديوان الخديوي. ا هـ. بتصرف.

الوجه الأول: وهو الذي عليه عامة أهل العلم على ما حكاه الواحدي رحمه الله: أن كل من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان أزيد إيمانًا، لأن عند حصول كثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «لَوْ وُزِنَ إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ بِإِيمَانِ أَهْلِ الْأَرْضِ لَرَجَحَ» يريد أن معرفته بالله أقوى.

ولقائل أن يقول: المراد من هذه الزيادة: إما قوة الدليل أو كثرة الدلائل. أما قوة الدليل فباطل، وذلك لأن كل دليل فهو مركب لا محالة من مقدمات، وتلك المقدمات إما أن يكون مجزومًا بها جزمًا مانعًا من النقيض أو لا يكون فإن كان الجزم المانع من النقيض حاصلاً في كل المقدمات، امتنع كون بعض الدلائل أقوى من بعض على هذا التفسير، لأن الجزم المانع من النقيض لا يقبل التفاوت، وأما إن كان الجزم المانع من النقيض غير حاصل إما في الكل أو في البعض فذلك لا يكون دليلاً، بل أمارة، والنتيجة الحاصلة منها لا تكون علمًا بل ظنًا، فثبت بما ذكرنا أن حصول التفاوت في الدلائل بسبب القوة محال، وأما حصول التفاوت بسبب كثرة الدلائل فالأمر كذلك، لأن الجزم الحاصل بسبب الدليل الواحد، إن كان مانعًا من النقيض فيمتنع أن يصير أقوى عند اجتماع الدلائل الكثيرة، وإن كان غير مانع من النقيض لم يكن دليلاً، بل كان أمارة ولم تكن النتيجة معلومة بل مظنونة، فثبت أن هذا التأويل ضعيف.

واعلم أنه يمكن أن يقال: المراد من هذه الزيادة الدوام وعدم الدوام، وذلك لأن بعض المستدلين لا يكون مستحضرًا للدليل والمدلول إلا لحظة واحدة، ومنهم من يكون مداومًا لتلك الحالة وبين هذين الطرفين أوساط مختلفة، ومراتب متفاوتة، وهو المراد من الزيادة.

والوجه الثاني: من زيادة التصديق أنهم يصدقون بكل ما يتلى عليهم من عند الله، ولما كانت التكاليف متوالية في زمن الرسول ﷺ متعاقبة، فعند حدوث كل تكليف كانوا يزيدون تصديقًا وإقرارًا، ومن المعلوم أن من صدق إنسانًا في شيئين كان تصديقه له أكثر من تصديق من صدقه في شيء واحد. وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ معناه: أنهم كلما سمعوا آية جديدة أتوا بإقرار جديد فكان ذلك زيادة في الإيمان والتصديق، وفي الآية وجه ثالث: وهو أن كمال قدرة الله وحكمته، إنما تعرف بواسطة آثار حكمة الله في مخلوقاته، وهذا بحر لا ساحل له، وكلما وقف عقل الإنسان على آثار حكمة الله في تخليق شيء آخر، انتقل منه إلى طلب حكمة في تخليق شيء آخر، فقد انتقل من مرتبة إلى مرتبة أخرى أعلى منها وأشرف وأكمل، ولما كانت هذه المراتب لا نهاية لها، لا جرم لا نهاية لمراتب التجلي والكشف والمعرفة.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن الإيمان هل يقبل الزيادة والنقصان أم لا؟ أما الذين قالوا: الإيمان عبارة عن مجموع الاعتقاد والإقرار والعمل، فقد احتجوا بهذه الآية من وجهين: الأول: أن قوله: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ يدل على أن الإيمان يقبل الزيادة، ولو كان الإيمان عبارة عن المعرفة والإقرار لما قبل الزيادة. والثاني: أنه تعالى لما ذكر هذه الأمور الخمسة. قال: في

الموصوفين بها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ وذلك يدل على أن كل تلك الخصال داخل في مسمى الإيمان. وروي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلاهَا شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»(١) واحتجوا بهذه الآية على أن الإيمان عبارة عن مجموع الأركان الثلاثة. قالوا: لأن الآية صريحة في أن الإيمان يقبل الزيادة، والمعرفة والإقرار لا يقبلان التفاوت، فوجب أن يكون الإيمان عبارة عن مجموع الإقرار والاعتقاد والعمل، حتى أن بسبب دخول التفاوت في العمل يظهر التفاوت في الإيمان، وهذا الاستدلال ضعيف، لما بينا أن التفاوت بالدوام وعدم الدوام حاصل في الاعتقاد والإقرار، وهذا القدر يكفي في حصول التفاوت في الإيمان، والله أعلم.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ ظاهره مشعر بأن تلك الآيات هي المؤثرة في حصول الزيادة في الإيمان، وليس الأمر كذلك، لأن نفس تلك الآيات لا توجب الزيادة، بل إن كان ولا بد فالموجب هو سماع تلك الآيات أو معرفة تلك الآيات توجب زيادة في المعرفة والتصديق والله أعلم.

الصفة الثالثة: للمؤمنين قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ واعلم أن صفة المؤمنين أن يكونوا واثقين بالصدق في وعده ووعيده، وأن يقولوا صدق الله ورسوله، وأن لا يكون قولهم كقول المنافقين ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢] ثم نقول: هذا الكلام يفيد الحصر، ومعناه: أنهم لا يتوكلون إلا على ربهم، وهذه الحالة مرتبة عالية ودرجة شريفة، وهي: أن الإنسان بحيث يصير لا يبقي له اعتماد في أمر من الأمور إلا على الله. واعلم أن هذه الصفات الثلاثة مرتبة على أحسن جهات الترتيب، فإن المرتبة الأولى هي: الوجل من عقاب الله.

والمرتبة الثانية: هي الانقياد لمقامات التكاليف لله.

والمرتبة الثالثة: هي الانقطاع بالكلية عما سوى الله، والاعتماد بالكلية على فضل الله، بل الغنى بالكلية عما سوى الله تعالى.

والصفة الرابعة والخامسة: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ واعلم أن المراتب الثلاثة المتقدمة أحوال معتبرة في القلوب والبواطن، ثم انتقل منها إلى رعاية أحوال الظاهر ورأس الطاعات المعتبرة في الظاهر، ورئيسها بذل النفس في الصلاة، وبذل المال في مرضاة الله، ويدخل فيه الزكوات والصدقات والصلاة، والإنفاق في الجهاد، والإنفاق على المساجد والقناطر، قالت المعتزلة: إنه تعالى مدح من ينفق ما رزقه الله، وأجمعت الأمة على أنه لا يجوز الإنفاق من الحرام، وذلك يدل على أن الحرام لا يكون رزقًا، وقد سبق ذكر هذا الكلام مرارًا.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الإيمان) باب (أمور الإيمان) (١/ ٦٧) حديث رقم/ ٩، ومسلم في كتاب (الإيمان) باب (بيان عدد شعب الإيمان) (١/ ٥٨/ ٦٣) كلاهما من طريق عبد الله بن دينار... به.

واعلم أن الله تعالى لما ذكر هذه الصفات الخمس: أثبت للموصوفين بها أموزا ثلاثة:

الأول: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿حَقّٗا﴾ بماذا يتصل. فيه قولان: أحدهما: بقوله: ﴿هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي هم المؤمنون بالحقيقة. والثاني: أنه تم الكلام عند قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ثم ابتدأ وقال: ﴿حَقّٗا لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾ .

المسألة الثانية: ذكروا في انتصاب (حقا) وجوهًا: الأول: قال الفراء: التقدير: أخبركم بذلك حقًا، أي أخبارًا حقًا، ونظيره قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا﴾ [النساء: ١٥١] والثاني: قال سيبويه: إنه مصدر مؤكد لفعل محذوف يدل عليه الكلام، والتقدير: وإن الذي فعلوه كان حقًا صدقًا. الثالث: قال الزجاج. التقدير: أولئك هم المؤمنون أحق ذلك حقًا.

المسألة الثالثة: اتفقوا على أنه يجوز للمؤمن أن يقول أنا مؤمن، واختلفوا في أنه هل يجوز للرجل أن يقول أنا مؤمن حقًا أم لا؟ فقال أصحاب الشافعي: الأولى أن يقول الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله، ولا يقول أنا مؤمن حقًا. وقال أصحاب أبي حنيفة رحمه الله: الأولى أن يقول أنا مؤمن حقًا، ولا يجوز أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، أما الذين قالوا إنه يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، فلهم فيه مقامان:

المقام الأول: أن يكون ذلك لأجل حصول الشك في حصول الإيمان.

المقام الثاني: أن لا يكون الأمر كذلك. أما المقام الأول، فتقريره: أن الإيمان عند الشافعي رضي الله عنه عبارة عن مجموع الاعتقاد والإقرار والعمل. ولا شك أن كون الإنسان آتيًا بالأعمال الصالحة أمر مشكوك فيه، والشك في أحد أجزاء الماهية يوجب الشك في حصول تلك الماهية، فالإنسان وإن كان جازمًا بحصول الاعتقاد والإقرار، إلا أنه لما كان شاكًا في حصول العمل كان هذا القدر يوجب كونه شاكًا في حصول الإيمان، وأما عند أبي حنيفة رحمه الله، فلما كان الإيمان اسمًا للاعتقاد والقول، وكان العمل خارجًا عن مسمى الإيمان، لم يلزم من الشك في حصول الأعمال الشك في الإيمان. فثبت أن من قال إن الإيمان عبارة عن مجموع الأمور الثلاثة يلزمه وقوع الشك في الإيمان، ومن قال العمل خارج عن مسمى الإيمان يلزمه نفي الشك عن الإيمان، وعند هذا ظهر أن الخلاف ليس إلا في اللفظ فقط. وأما المقام الثاني: وهو أن نقول: إن قوله: أنا مؤمن إن شاء الله ليس لأجل الشك، فيه وجوه: الأول: أن كون الرجل مؤمنًا أشرف صفاته وأعرف نعوته وأحواله، فإذا قال أنا مؤمن، فكأنه مدح نفسه بأعظم المدائح. فوجب أن يقول: إن شاء الله ليصير هذا سببًا لحصول الانكسار في القلب وزوال العجب. روي أن أبا حنيفة رحمه الله، قال لقتادة: لم تستثني في إيمانك؟ قال: اتباعًا لإبراهيم

عليه السلام في قوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢] فقال أبو حنيفة رحمه الله: هلا اقتديت به في قوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] وأقول: كان لقتادة أن يجيب، ويقول: إنه بعد أن قال: ﴿بَلَىٰ﴾ قال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ فطلب مزيد الطمأنينة، وهذا يدل على أنه لا بد من قول إن شاء الله. الثاني: أنه تعالى ذكر في هذه الآية أن الرجل لا يكون مؤمنًا إلا إذا كان موصوفًا بالصفات الخمسة، وهي الخوف من الله، والإخلاص في دين الله، والتوكل على الله، والإتيان بالصلاة والزكاة لوجه الله تعالى. وذكر في أول الآية ما يدل على الحصر، وهو قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ﴾ هم كذا وكذا. وذكر في آخر الآية قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ وهذا أيضًا يفيد الحصر، فلما دلت هذه الآية على هذا المعنى، ثم إن الإنسان لا يمكنه القطع على نفسه بحصول هذه الصفات الخمس، لا جرم كان الأولى أن يقول: إن شاء الله. روى أن الحسن سأله رجل وقال: أمؤمن أنت؟ فقال: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فأنا مؤمن، وإن كنت تسألني عن قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فوالله لا أدري أمنهم أنا أم لا؟ الثالث: أن القرآن العظيم دل على أن كل من كان مؤمنًا، كان من أهل الجنة فالقطع بكونه مؤمنًا يوجب القطع بكونه من أهل الجنة، وذلك لا سبيل إليه، فكذا هذا. ونقل عن الثوري أنه قال: من زعم أنه مؤمن بالله حقًا، ثم لم يشهد بأنه من أهل الجنة، فقد آمن بنصف الآية. والمقصود أنه كما لا سبيل إلى القطع بأنه من أهل الجنة، فكذلك لا سبيل إلى القطع بأنه مؤمن. الرابع: أن الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب وعن المعرفة، وعلى هذا فالرجل إنما يكون مؤمنًا في الحقيقة عند ما يكون هذا التصديق وهذه المعرفة حاصلة في القلب حاضرة في الخاطر، فأما عند زوال هذا المعنى، فهو إنما يكون مؤمنًا بحسب حكم الله، أما في نفس الأمر فلا.

إذا عرفت هذا لم يبعد أن يكون المراد بقوله إن شاء الله عائدًا إلى استدامة مسمى الإيمان واستحضار معناه أبدًا دائمًا من غير حصول ذهول وغفلة عنه، وهذا المعنى محتمل. الخامس: أن أصحاب الموافاة يقولون: شرط كونه مؤمنًا في الحال حصول الموافاة على الإيمان، وهذا الشرط لا يحصل إلا عند الموت، ويكون مجهولاً، والموقوف على المجهول مجهول. فلهذا السبب حسن أن يقال: أنا مؤمن إن شاء الله. السادس: أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله عند الموت، والمراد صرف هذا الاستثناء إلى الخاتمة والعاقبة، فإن الرجل وإن كان مؤمنًا في الحال، إلا أن بتقدير أن لا يبقى ذلك الإيمان في العاقبة؛ كان وجوده كعدمه، ولم تحصل فائدة أصلاً، فكان المقصود من ذكر هذا الاستثناء هذا المعنى. السابع: أن ذكر هذه الكلمة لا ينافي حصول الجزم والقطع، ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] وهو تعالى منزه عن الشك والريب. فثبت أنه تعالى إنما ذكر ذلك تعليمًا منه لعباده، هذا المعنى، فكذا ههنا الأولى ذكر هذه الكلمة الدالة على تفويض

الأمور إلى الله، حتى يحصل ببركة هذه الكلمة دوام الإيمان. الثامن: أن جماعة من السلف ذكروا هذه الكلمة، ورأينا لهم ما يقويه في كتاب الله وهو قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ وهم المؤمنون في علم الله وفي حكمه، وذلك يدل على وجود جمع يكونون مؤمنين، وعلى وجود جمع لا يكونون كذلك. فالمؤمن يقول: إن شاء الله حتى يجعله الله ببركة هذه الكلمة من القسم الأول لا من القسم الثاني. أما القائلون: أنه لا يجوز ذكر هذه الكلمة فقد احتجوا على صحة قولهم بوجوه: الأول: أن المتحرك يجوز أن يقول: أنا متحرك ولا يجوز أن يقول أنا متحرك إن شاء الله، وكذا القول في القائم والقاعد، فكذا ههنا وجب أن يكون المؤمن مؤمنًا، ولا يجوز أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، وكما أن خروج الجسم عن كونه متحركًا في المستقبل لا يمنع من الحكم عليه بكونه متحركًا حال قيام الحركة به فكذلك احتمال زوال الإيمان في المستقبل، لا يقدح في كونه مؤمنًا في الحال. الثاني: أنه تعالى قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فقد حكم تعالى عليهم بكونهم مؤمنين حقًّا فكان قوله إن شاء الله يوجب الشك فيما قطع الله عليه بالحصول وذلك لا يجوز.

والجواب عن الأول: أن الفرق بين وصف الإنسان بكونه مؤمنًا، وبين وصفه بكونه متحركًا، حاصل من الوجوه الكثيرة التي ذكرناها، وعند حصول الفرق يتعذر الجمع، وعن الثاني أنه تعالى حكم على الموصوفين بالصفات المذكورة بكونهم مؤمنين حقًّا، وذلك الشرط مشكوك فيه، والشك في الشرط يوجب الشك في المشروط. فهذا يقوي عين مذهبنا. والله أعلم.

الحكم الثاني: من الأحكام التي أثبتها الله تعالى للموصوفين بالصفات الخمسة قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ والمعنى: لهم مراتب بعضها أعلى من بعض.

واعلم أن الصفات المذكورة قسمان: الثلاثة الأول: هي الصفات القلبية والأحوال الروحانية، وهي الخوف والإخلاص والتوكل. والاثنتان الأخيرتان هما الأعمال الظاهرة والأخلاق. ولا شك أن لهذه الأعمال والأخلاق تأثيرات في تصفية القلب، وفي تنويره بالمعارف الإلهية. ولا شك أن المؤثر كلما كان أقوى كانت الآثار أقوى وبالضد، فلما كانت هذه الأخلاق والأعمال لها درجات ومراتب. كانت المعارف أيضًا لها درجات ومراتب، وذلك هو المراد من قوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ والثواب الحاصل في الجنة أيضًا مقدر بمقدار هذه الأحوال. فثبت أن مراتب السعادات الروحانية قبل الموت وبعد الموت، ومراتب السعادات الحاصلة في الجنة كثيرة ومختلفة، فلهذا المعنى قال: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

فإن قيل: أليس أن المفضول إذا علم حصول الدرجات العالية للفاضل وحرمانه عنها، فإنه يتألم قلبه، ويتنغص عيشه. وذلك مخل بكون الثواب رزقًا كريمًا؟

والجواب: أن استغراق كل واحد في سعادته الخاصة به تمنعه من حصول الحقد والحسد، وبالجملة فأحوال الآخرة لا تناسب أحوال الدنيا إلا بالاسم.

الحكم الثالث والرابع: أن قوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ المراد من المغفرة أن يتجاوز الله عن سيئاتهم ومن الرزق الكريم نعيم الجنة. قال المتكلمون: أما كونه رزقًا كريمًا فهو إشارة إلى كون تلك المنافع خالصة دائمة مقرونة بالإكرام والتعظيم، ومجموع ذلك هو حد الثواب. وقال العارفون: المراد من المغفرة إزالة الظلمات الحاصلة بسبب الاشتغال بغير الله، ومن الرزق الكريم الأنوار الحاصلة بسبب الاستغراق في معرفة الله ومحبته. قال الواحدي: قال أهل اللغة: الكريم اسم جامع لكل ما يحمد ويستحسن، والكريم المحمود فيما يحتاج إليه، والله تعالى موصوف بأنه كريم والقرآن موصوف بأنه كريم. قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾[النمل: ٢٩] وقال: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾[الشعراء: ٧، لقمان: ١٠] وقال: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[النساء: ٣١] وقال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[الإسراء: ٢٣] فالرزق الكريم هو الشريف الفاضل الحسن. وقال هشام بن عروة: يعني ما أعد الله لهم في الجنة من لذيذ المآكل والمشارب وهناء العيش، وأقول يجب ههنا أن نبين أن اللذات الروحانية أكمل من اللذات الجسمانية، وقد ذكرنا هذا المعنى في هذا الكتاب في مواضع كثيرة وعند هذا يظهر أن الرزق الكريم هو اللذات الروحانية وهي معرفة الله ومحبته والاستغراق في عبوديته.

فإن قال قائل: ظاهر الآية يدل على أن الموصوف بالأمور الخمسة محكوم عليه بالنجاة من العقاب وبالفوز بالثواب، وذلك يقتضي أن لا تكليف على العبد فيما سوى هذه الخمسة وذلك باطل بإجماع المسلمين، لأنه لا بد من الصوم والحج وأداء سائر الواجبات.

قلنا: إنه تعالى بدأ بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وجميع التكاليف داخل تحت هذين الكلامين، إلا أنه تعالى خص من الصفات الباطنة التوكل بالذكر على التعيين، ومن الأعمال الظاهرة الصلاة والزكاة على التعيين، تنبيهًا على أن أشرف الأحوال الباطنة، التوكل وأشرف الأعمال الظاهرة، الصلاة والزكاة.

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن قوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ يقتضي تشبيه شيء بهذا الإخراج وذكروا فيه وجوهًا: الأول: أن النبي ﷺ لما رأى كثرة المشركين يوم بدر وقلة المسلمين قال: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ وَمَنْ أَسَرَ أَسِيرًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا»[1] ليرغبهم في القتال، فلما انهزم المشركون قال

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (المغازي) باب (تفسير سورة التوبة) (٧/ ٦٣٠) حديث رقم/ ٤٣٢١، ومسلم في كتاب (الجهاد) باب (استحقاق القاتل سلب القتيل) (٣٣/ ٤١/ ١٣٧٠) كلاهما من طريق مالك... به.

سعد بن عبادة: يا رسول الله إن جماعة من أصحابك وقومك فدوك بأنفسهم، ولم يتأخروا عن القتال جبنًا ولا بخلاً ببذل مهجهم ولكنهم أشفقوا عليك من أن تغتال فمتى أعطيت هؤلاء ما سميته لهم بقي خلق من المسلمين بغير شيء فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ [الأنفال: ١] يصنع فيها ما يشاء، فأمسك المسلمون عن الطلب وفي أنفس بعضهم شيء من الكراهية، وأيضًا حين خرج الرسول ﷺ إلى القتال يوم بدر كانوا كارهين لتلك المقاتلة على ما سنشرح حالة تلك الكراهية، فلما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ كان التقدير أنهم رضوا بهذا الحكم في الأنفال وإن كانوا كارهين له كما أخرجك ربك من بيتك بالحق إلى القتال وإن كانوا كارهين له وهذا الوجه أحسن الوجوه المذكورة هنا. الثاني: أن يكون التقدير ثبت الحكم بأن الأنفال لله، وإن كرهوه كما ثبت حكم الله بإخراجك إلى القتال وإن كرهوه. الثالث: لما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾ [الأنفال: ٤] كان التقدير: أن الحكم بكونهم مؤمنين حق، كما أن حكم الله بإخراجك من بيتك للقتال حق. الرابع: قال الكسائي: (الكاف) متعلق بما بعده، وهو قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ﴾ والتقدير ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ على كره فريق من المؤمنين كذلك هم يكرهون القتال ويجادلونك فيه. والله أعلم.

المسألة الثانية: قوله: ﴿مِنۢ بَيْتِكَ﴾ يريد بيته بالمدينة أو المدينة نفسها، لأنها موضع هجرته وسكناه بالحق، أي إخراجًا متلبسًا بالحكمة والصواب ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ في محل الحال، أي: أخرجك في حال كراهيتهم. روي أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها أموال كثيرة ومعها أربعون راكبًا منهم أبو سفيان، وعمرو بن العاص، وأقوام آخرون، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ، فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقي العير لكثرة الخير، وقلة القوم، فلما أزمعوا وخرجوا، بلغ أهل مكة خبر خروجهم، فنادى أبو جهل فوق الكعبة: يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول إن أخذ محمد عيركم لن تفلحوا أبدًا، وقد رأت أخت العباس بن عبد المطلب رؤيا، فقالت لأخيها: إني رأيت عجبًا رأيت كأن ملكًا نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل، ثم حلق بها فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا أصابه حجر من تلك الصخرة. فحدث بها العباس. فقال أبو جهل: ما ترضى رجالهم بالنبوة حتى ادعى نساؤهم النبوة فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير، وفي المثل السائر: لا في العير ولا في النفير فقيل له: العير أخذت طريق الساحل ونجت، فارجع إلى مكة بالناس. فقال: لا والله لا يكون ذلك أبدًا حتى ننحر الجزور ونشرب الخمور، وتغني القينات والمعازف ببدر فتتسامع جميع العرب بخروجنا، وإن محمدًا لم يصب العير فمضى إلى بدر بالقوم. وبدر كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يومًا في السنة، فنزل جبريل وقال: يا محمد إن الله وعدكم إحدى الطائفتين، إما العير وإما النفير من قريش، واستشار النبي ﷺ أصحابه فقال: ما تقولون إن القوم خرجوا من مكة على كل صعب وذلول. فالعير أحب إليكم أم النفير؟ قالوا: بل العير أحب إلينا من لقاء العدو. فتغير وجه

رسول الله ﷺ وقال: إن العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو، فقام عند غضب النبي ﷺ أبو بكر وعمر فأحسنا، ثم قام سعد بن عبادة فقال: امض إلى ما أمرك الله به فإنا معك حيثما أردت. فوالله لو سرت إلى عدن لما تخلف عنك رجل من الأنصار. ثم قال المقداد بن عمرو: يا رسول الله امض إلى ما أمرك الله به، فإنا معك حيثما أردت، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكنا نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ما دامت منا عين تطرف. فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «سِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ وَاللهِ لَكَأَنِّي الآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ»(١)، ولما فرغ رسول الله من بدر، قال بعضهم: عليك بالعير. فناداه العباس وهو في وثاقه، لا يصلح، فقال النبي ﷺ: «لِمَ؟» قال: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك(٢).

إذا عرفت هذه القصة فنقول: كانت كراهية القتال حاصلة لبعضهم لا لكلهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ والحق الذي جادلوا فيه رسول الله ﷺ تلقى النفير لإيثارهم العير. وقوله: ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ المراد منه: إعلام رسول الله بأنهم ينصرون. وجدالهم قولهم: ما كان خروجنا إلا للعير، وهلا قلت لنا؟ لنستعد ونتأهب للقتال، وذلك لأنهم كانوا يكرهون القتال، ثم إنه تعالى شبه حالهم في فرط فزعهم ورعبهم بحال من يجر إلى القتل ويساق إلى الموت، وهو شاهد لأسبابه ناظر إلى موجباته، وبالجملة فقوله: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ كناية عن الجزم والقطع. ومنه قوله عليه السلام: «من نفى ابنه وهو ينظر إليه» أي: يعلم أنه ابنه. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠] أي: يعلم.

واعلم أنه كان خوفهم لأمور: أحدها: قلة العدد. وثانيها: أنهم كانوا رجالة. روي أنه ما كان فيهم إلا فارسان. وثالثها: قلة السلاح.

المسألة الثالثة: روي أنه ﷺ إنما خرج من بيته باختيار نفسه، ثم إنه تعالى أضاف ذلك الخروج إلى نفسه فقال: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهذا يدل على أن فعل العبد بخلق الله تعالى إما ابتداء أو بواسطة القدرة والداعية اللذين مجموعهما يوجب الفعل كما هو

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (الجهاد) باب (غزوة بدر) (٣/ ١٤٠٣/ ٨٣)، وأبو داود في كتاب (الجهاد) باب (في الأسير ينال ويضرب ويقرر) (٣/ ١١٦٢) حديث رقم/ ٢٦٨١، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٢١٩) من طريق حماد بن سلمة... بنحوه.

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٢٦٩) حديث رقم/ ٣٠٨٠، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وأحمد في (مسنده) (١/ ٢٢٨) حديث رقم/ ٢٠٢٢، وأبو يعلي في (مسنده) (٤/ ٢٦١) حديث رقم/ ٢٣٧٣، والطبراني في (الكبير) (١١/ ٢٧٩) حديث رقم/ ١١٧٣٣، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٣٥٧) حديث رقم/ ٣٢٦١ جميعًا من طريق عكرمة عن ابن عباس... به. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

قولنا. قال القاضي معناه: أنه حصل ذلك الخروج بأمر الله تعالى وإلزامه، فأضيف إليه.

قلنا: لا شك أن ما ذكرتموه مجاز، والأصل حمل الكلام على حقيقته.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾

اعلم أن قوله: (إذ) منصوب بإضمار اذكر أنها لكم بدل من إحدى الطائفتين. قال الفراء والزجاج: ومثله قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ [الزخرف: ٦٦] (وأن) في موضع نصب كما نصب الساعة، وقوله أيضًا: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ [الفتح: ٢٥] (أن) في موضع رفع بلولا. والطائفتان: العير والنفير: وغير ذات الشوكة. العير. لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارسًا والشوكة كانت في النفير لعددهم وعدتهم. والشوكة الحدة مستعارة من واحدة الشوك، ويقال شوك القنا لسنانها، ومنه قولهم شاكي السلاح. أي تتمنون أن يكون لكم العير لأنها الطائفة التي لا حدة لها ولا شدة، ولا تريدون الطائفة الأخرى ولكن الله أراد التوجه إلى الطائفة الأخرى ليحق الحق بكلماته، وفيه سؤالات:

السؤال الأول: أليس أن قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ثم قوله بعد ذلك: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ تكرير محض؟

والجواب: ليس ههنا تكرير لأن المراد بالأول سبب ما وعد به في هذه الواقعة من النصر والظفر بالأعداء، والمراد بالثاني تقوية القرآن والدين ونصرة هذه الشريعة، لأن الذي وقع من المؤمنين يوم بدر بالكافرين كان سببًا لعزة الدين وقوته، ولهذا السبب قرنه بقوله: ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ الذي هو الشرك، وذلك في مقابلة ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الذي هو الدين والإيمان.

السؤال الثاني: الحق حق لذاته، والباطل باطل لذاته، وما ثبت للشيء لذاته فإنه يمتنع تحصيله بجعل جاعل وفعل فاعل فما المراد من تحقيق الحق وإبطال الباطل؟

والجواب: المراد من تحقيق الحق وإبطال الباطل، بإظهار كون ذلك الحق حقًّا، وإظهار كون ذلك الباطل باطلاً، وذلك تارة يكون بإظهار الدلائل والبينات، وتارة بتقوية رؤساء الحق وقهر رؤساء الباطل.

واعلم أن أصحابنا تمسكوا في مسألة خلق الأفعال بقوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ قالوا: وجب حمله على أنه يوجد الحق ويكونه، والحق ليس إلا الدين والاعتقاد، فدل هذا على أن الاعتقاد الحق لا يحصل إلا بتكوين الله تعالى. قالوا: ولا يمكن حمل تحقيق الحق على إظهار آثاره لأن ذلك الظهور حصل بفعل العباد، فامتنع أيضًا إضافة ذلك الإظهار إلى الله تعالى، ولا يمكن أن يقال المراد من إظهاره وضع الدلائل عليها، لأن هذا المعنى حاصل بالنسبة إلى الكافر وإلى

المسلم. وقبل هذه الواقعة، وبعدها فلا يحصل لتخصيص هذه الواقعة بهذا المعنى فائدة أصلاً.

واعلم أن المعتزلة أيضًا تمسكوا بعين هذه الآية على صحة مذهبهم. فقالوا هذه الآية تدل على أنه لا يريد تحقيق الباطل وإبطال الحق البتة، بل إنه تعالى أبدًا يريد تحقيق الحق وإبطال الباطل، وذلك يبطل قول من يقول إنه لا باطل ولا كفر إلا والله تعالى مريد له.

وأجاب أصحابنا بأنه ثبت في أصول الفقه أن المفرد المحلى بالألف واللام ينصرف إلى المعهود السابق فهذه الآية دلت على أنه تعالى أراد تحقيق الحق وإبطال الباطل في هذه الصورة، فلم قلتم إن الأمر كذلك في جميع الصور؟ بل قد بينا بالدليل أن هذه الآية تدل على صحة قولنا.

أما قوله: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فالدابر الآخر فاعل من دبر إذا أدبر، ومنه دابرة الطائر وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال، والمراد أنكم تريدون العير للفوز بالمال، والله تعالى يريد أن تتوجهوا إلى النفير، لما فيه من إعلاء الدين الحق واستئصال الكافرين.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أنه يحق الحق ويبطل الباطل، بين أنه تعالى نصرهم عند الاستغاثة.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: يجوز أن يكون العامل في (إذ) هو قوله: ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الأنفال: ٨] فتكون الآية متصلة بما قبلها، ويجوز أن تكون الآية مستأنفة على تقدير واذكروا إذ تستغيثون.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ قولان:

القول الأول: أن هذه الاستغاثة كانت من الرسول عليه السلام. قال ابن عباس: حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر ونظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلثمائة ونيف، استقبل القبلة ومد يده وهو يقول: «**اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ فَلَنْ تُعْبَدَ فِي الْأَرْضِ**» ولم يزل كذلك حتى سقط رداؤه ورده أبو بكر ثم التزمه ثم قال: كفاك يا نبي الله مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك[(١)]، فنزلت هذه الآية ولما اصطفت القوم قال أبو جهل: اللهم أولانا بالحق فانصره ورفع رسول الله يده بالدعاء المذكور.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٣/ ١٣٨٣/ ١٧٦٣)، والترمذي في (سننه) (٥/ ٢٦٩) حديث رقم/ ٣٠٨١، وأحمد في (مسنده) (١/ ٣٠) حديث رقم/ ٢٠٨ جميعًا من طريق أبي زميل عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب... به.

القول الثاني: أن هذه الاستغاثة كانت من جماعة المؤمنين لأن الوجه الذي لأجله أقدم الرسول على الاستغاثة كان حاصلاً فيهم، بل خوفهم كان أشد من خوف الرسول، فالأقرب أنه دعا عليه السلام وتضرع على ما روي، والقوم كانوا يؤمنون على دعائه تابعين له في الدعاء في أنفسهم فنقل دعاء رسول الله لأنه رفع بذلك الدعاء صوته، ولم ينقل دعاء القوم، فهذا هو طريق الجمع بين الروايات المختلفة في هذا الباب.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ أي: تطلبون الإغاثة يقول الواقع في بلية أغثني أي فرج عني.

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم الاستغاثة بين أنه تعالى إجابهم. وقال: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ أصله بأني ممدكم، فحذف الجار وسلط عليه استجاب، فنصب محله، وعن أبي عمرو: أنه قرأ (أني ممدكم) بالكسر على إرادة القول أو على إجراء استجاب مجرى قال لأن الاستجابة من القول.

المسألة الثانية: قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم (مردفين) بفتح الدال والباقون بكسرها. قال الفراء: (مردِفين) أي: متتابعين يأتي بعضهم في أثر بعض كالقوم الذين أردفوا على الدواب و (مردَفين) أي: فعل بهم ذلك، ومعناه أنه تعالى أردف المسلمين وأيدهم بهم.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أن الملائكة هل قاتلوا يوم بدر؟ فقال قوم: نزل جبريل عليه السلام في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر، وميكائيل في خمسمائة على الميسرة، وفيها علي بن أبي طالب في صورة الرجال عليهم ثيابهم بيض وقاتلوا. وقيل: قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا يوم الأحزاب ويوم حنين، وعن أبي جهل أنه قال لابن مسعود: من أين كان الصوت الذي كنا نسمع ولا نرى شخصًا قال: هو من الملائكة، فقال أبو جهل: هم غلبونا لا أنتم، وروى أن رجلاً من المسلمين بينما هو يشتد في أثر رجل من المشركين إذ سمع صوت ضربة بالصوت فوقه فنظر إلى المشرك وقد خر مستلقيًا وقد شق وجهه فحدث الأنصاري رسول الله فقال (صدقت). ذاك من مدد السماء، وقال آخرون: لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين، وإلا فملك واحد كاف في إهلاك الدنيا كلها فإن جبريل أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط وأهلك بلاد ثمود وقوم صالح بصيحة واحدة، والكلام في كيفية هذا الإمداد مذكور في سورة آل عمران بالاستقصاء والذي يدل على صحة أن الملائكة ما نزلوا للقتال قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ قال الفراء: الضمير عائد إلى الأرداف والتقدير: ما جعل الله الإرداف إلا بشرى. وقال الزجاج: ما جعل الله المردفين إلا بشرى، وهذا أولى لأن الأمداد بالملائكة حصل بالبشرى. قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يوم بدر في العريش

قاعدًا يدعو، وكان أبو بكر قاعدًا عن يمينه ليس معه غيره، فخفق رسول الله ﷺ من نفسه نعسًا، ثم ضرب بيمينه على فخذ أبي بكر وقال: «**أبشر بنصر الله ولقد رأيت في منامي جبريل يقدم الخيل**»(١) وهذا يدل على أنه لا غرض من إنزالهم إلا حصول هذه البشرى، وذلك ينفي إقدامهم على القتال.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ والمقصود التنبيه على أن الملائكة وإن كانوا قد نزلوا في موافقة المؤمنين، إلا أن الواجب على المؤمن أن لا يعتمد على ذلك بل يجب أن يكون اعتماده على إغاثة الله ونصره وهدايته وكفايته لأجل أن الله هو العزيز الغالب الذي لا يغلب، والقاهر الذي لا يقهر، والحكيم فيما ينزل من النصرة فيضعها في موضعها.

قوله تعالى: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الزجاج: (إذ) موضعها نصب على معنى ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ﴾ [آل عمران: ١٢٦] في ذلك الوقت. ويجوز أيضًا أن يكون التقدير: اذكروا إذ يغشيكم النعاس أمنة.

المسألة الثانية: في ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ ثلاث قراآت: الأولى: قرأ نافع بضم الياء، وسكون الغين، وتخفيف الشين (النعاس) بالنصب. الثانية: (يغشاكم) بالألف وفتح الياء وسكون الغين (النعاس) بالرفع وهي قراءة أبي عمرو وابن كثير. الثالثة: قرأ الباقون (يُغَشِّيكم) بتشديد الشين وضم الياء من التغشية (النعاس) بالنصب، أي: يلبسكم النوم. قال الواحدي: القراءة الأولى من أغشى، والثانية من غشي، والثالثة من غشي فمن قرأ (يغشاكم) فحجته قوله: ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤] يعني: فكما أسند الفعل هناك إلى النعاس والأمنة التي هي سبب النعاس كذلك في هذه الآية ومن قرأ (يُغْشِيكم) أو (يُغَشِّيكم) فالمعنى واحد وقد جاء التنزيل بهما في قوله تعالى: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [يس: ٩] وقال: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٤] وقال: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ [يونس: ٢٧] وعلى هذا فالفعل مسند إلى الله.

(١) تقدم قبل قليل.

المسألة الثالثة: أنه تعالى لما ذكر أنه استجاب دعاءهم ووعدهم بالنصر فقال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ذكر عقيبه وجوه النصر وهي ستة أنواع: الأول: قوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ أي: من قبل الله، واعلم أن كل نوم ونعاس فإنه لا يحصل إلا من قبل الله تعالى فتخصيص هذا النعاس بأنه من الله تعالى لا بد فيه من مزيد فائدة وذكروا فيه وجوهًا: أحدها: أن الخائف إذا خاف من عدوه الخوف الشديد على نفسه وأهله فإنه لا يؤخذه النوم، وإذا نام الخائفون أمنوا، فصار حصول النوم لهم في وقت الخوف الشديد يدل على إزالة الخوف وحصول الأمن. وثانيها: أنهم خافوا من جهات كثيرة. أحدها: قلة المسلمين وكثرة الكفار. وثانيها: الأهبة والآلة والعدة للكافرين وقلتها للمؤمنين. وثالثها: العطش الشديد فلولا حصول هذا النعاس وحصول الاستراحة حتى تمكنوا في اليوم الثاني من القتال لما تم الظفر.

والوجه الثالث: في بيان كون ذلك النعاس نعمة في حقهم، أنهم ما ناموا نومًا غرقًا يتمكن العدو من معافصتهم بل كان ذلك نعاسًا يحصل لهم زوال الأعياء والكلال مع أنهم كانوا بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله ولقدروا على دفعه.

والوجه الرابع: أنه غشيهم هذا النعاس دفعة واحدة مع كثرتهم، وحصول النعاس للجمع العظيم في الخوف الشديد أمر خارق للعادة. فلهذا السبب قيل: إن ذلك النعاس كان في حكم المعجز.

فإن قيل: فإن كان الأمر كما ذكرتم فلو خافوا بعد ذلك النعاس؟

قلنا: لأن المعلوم أن الله تعالى يجعل جند الإسلام مظفرًا منصورًا وذلك لا يمنع من صيرورة قوم منهم مقتولين.

فإن قيل: إذا قرئ ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ بالتخفيف والتشديد ونصب (النعاس) فالضمير لله عز وجل (وأمنة) مفعول له. أما إذا قرئ (يغشاكم النعاس) فكيف يمكن جعل قوله: ﴿أَمَنَةً﴾ مفعولاً له، مع أن المفعول له يجب أن يكون فعلاً لفاعل الفعل المعلل؟

قلنا: قوله: (يغشياكم) وإن كان في الظاهر مسندًا إلى النعاس، إلا أنه في الحقيقة مسند إلى الله تعالى، فصح هذا التعليل نظرًا إلى المعنى. قال صاحب (الكشاف): وقرئ (أمنة) بسكون الميم، ونظير أمن أمنة، حي حياة، ونظير أمن أمنة، رحم رحمة. قال ابن عباس: النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة وسوسة من الشيطان.

النوع الثاني: من أنواع نعم الله تعالى المذكورة في هذا الموضع قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ولا شبهة أن المراد منه المطر، وفي الخبر أن القوم سبقوا إلى موضع الماء، واستولوا عليه، وطمعوا لهذا السبب أن تكون لهم الغلبة، وعطش المؤمنون وخافوا، وأعوزهم الماء للشرب والطهارة، وأكثرهم احتلموا وأجنبوا، وانضاف إلى ذلك أن ذلك الموضع كان رملاً تغوص فيه الأرجل ويرتفع منه الغبار الكثير، وكان الخوف حاصلاً في قلوبهم، بسبب كثرة العدو وسبب كثرة آلاتهم وأدواتهم، فلما أنزل الله تعالى ذلك المطر صار ذلك دليلاً على حصول النصرة والظفر، وعظمت النعمة به من جهات:

أحدها: زوال العطش، فقد روي أنهم حفروا موضعًا في الرمل، فصار كالحوض الكبير، واجتمع فيه الماء حتى شربوا منه وتطهروا وتزودوا. وثانيها: أنهم اغتسلوا من ذلك الماء، وزالت الجنابة عنهم، وقد علم بالعادة أن المؤمن يكاد يستقذر نفسه إذا كان جنبًا، ويغتم إذا لم يتمكن من الاغتسال ويضطرب قلبه لأجل هذا السبب فلا جرم عد تعالى وتقدس تمكينهم من الطهارة من جملة نعمه. وثالثها: أنهم لما عطشوا ولم يجدوا الماء ثم ناموا واحتلموا تضاعفت حاجتهم إلى الماء ثم إن المطر نزل فزالت عنهم تلك البلية والمحنة وحصل المقصود. وفي هذه الحالة ما قد يستدل به على زوال العسر وحصول اليسر والمسرة.

أما قوله: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ففيه وجوه: الأول: أن المراد منه الاحتلام لأن ذلك من وساوس الشيطان. الثاني: أن الكفار لما نزلوا على الماء، وسوس الشيطان إليهم وخوفهم من الهلاك، فلما نزل المطر زالت تلك الوسوسة، روى أنهم لما ناموا واحتلم أكثرهم، تمثل لهم إبليس وقال: أنتم تزعمون أنكم على الحق وأنتم تصلون على الجنابة، وقد عطشتم ولو كنتم على الحق لما غلبوكم على الماء فأنزل الله تعالى المطر حتى جرى الوادي واتخذ المسلمون حياضًا واغتسلوا وتلبد الرمل حتى ثبتت عليه الأقدام. الثالث: أن المراد من رجز الشيطان سائر ما يدعو الشيطان إليه من معصية وفساد.

فإن قيل: فأي هذه الوجوه الثلاثة أولى؟

قلنا: قوله: ﴿لِيُطَهِّرَكُم﴾ معناه: ليزيل الجنابة عنكم، فلو حملنا قوله: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ على الجنابة لزم منه التكرير وأنه خلاف الأصل، ويمكن أن يجاب عنه فيقال المراد من قوله: ﴿لِيُطَهِّرَكُم﴾ حصول الطهارة الشرعية. والمراد من قوله: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ إزالة جوهر المني عن أعضائهم فإنه شيء مستخبث، ثم تقول: حمله على إزالة أثر الاحتلام أولى من حمله على إزالة الوسوسة وذلك لأن تأثير الماء في إزالة العين عن العضو تأثير حقيقي أما تأثيره في إزالة الوسوسة عن القلب فتأثير مجازي وحمل اللفظ على الحقيقة أولى من حمله على المجاز، واعلم أنا إذا حملنا الآية على هذا الوجه لزم القطع بأن المني رجز الشيطان، وذلك يوجب الحكم بكونه نجسًا مطلقًا لقوله تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥].

النوع الثالث: من النعم المذكورة في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ والمراد أن بسبب نزول هذا المطر قويت قلوبهم وزال الخوف والفزع عنهم، ومعنى الربط في اللغة الشد، وقد ذكرنا ذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ [آل عمران: ٢٠٠] ويقال لكل من صبر على أمر، ربط قلبه عليه كأنه حبس قلبه عن أن يضطرب يقال: رجل رابط أي: حابس. قال الواحدي: ويشبه أن يكون (على) ههنا صلة والمعنى: وليربط قلوبكم بالنصر وما وقع من تفسيره يشبه أن لا يكون صلة لأن كلمة (على) تفيد الاستعلاء. فالمعنى أن القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها وارتفع فوقها.

والنوع الرابع: من النعم المذكورة ههنا قوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾ وذكروا فيه وجوهًا: أحدها: أن ذلك المطر لبد ذلك الرمل وصيره بحيث لا تغوص أرجلهم فيه، فقدروا على المشي عليه كيف أرادوا، ولولا هذا المطر لما قدروا عليه، وعلى هذا التقدير، فالضمير في قوله: ﴿بِهِ﴾ عائد إلى المطر. وثانيها: أن المراد أن ربط قلوبهم أوجب ثبات أقدامهم، لأن من كان قلبه ضعيفًا فر ولم يقف، فلما قوى الله تعالى قلوبهم لا جرم ثبت أقدامهم، وعلى هذا التقدير فالضمير في قوله: ﴿بِهِ﴾ عائد إلى الربط. وثالثها: روى أنه لما نزل المطر حصل للكافرين ضد ما حصل للمؤمنين، وذلك لأن الموضع الذي نزل الكفار فيه كان موضع التراب والوحل، فلما نزل المطر عظم الوحل، فصار ذلك مانعًا لهم من المشي كيفما أرادوا فقوله: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾ يدل دلالة المفهوم على أن حال الأعداء كانت بخلاف ذلك.

النوع الخامس: من النعم المذكورة ههنا قوله: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ﴾ وفيه بحثان: الأول: قال الزجاج: (إذ) في موضع نصب، والتقدير: وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام حال ما يوحي إلى الملائكة بكذا وكذا، ويجوز أيضًا أن يكون على تقدير اذكروا. الثاني: قوله: ﴿أَنِّي مَعَكُمۡ﴾ فيه وجهان: الأول: أن يكون المراد أنه تعالى أوحى إلى الملائكة بأنه تعالى معهم أي مع الملائكة حال ما أرسلهم رداً للمسلمين. والثاني: أن يكون المراد أنه تعالى أوحى إلى الملائكة أني مع المؤمنين فانصروهم وثبتوهم، وهذا الثاني أولى لأن المقصود من هذا الكلام إزالة التخويف والملائكة ما كانوا يخافون الكفار، وإنما الخائف هم المسلمون.

ثم قال: ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ واختلفوا في كيفية هذا التثبيت على وجوه: الأول: أنهم عرفوا الرسول ﷺ أن الله ناصر المؤمنين والرسول عرف المؤمنين ذلك، فهذا هو التثبيت والثاني: أن الشيطان كما يمكنه إلقاء الوسوسة إلى الإنسان، فكذلك الملك يمكنه إلقاء الإلهام إليه فهذا هو التثبيت في هذا الباب. والثالث: أن الملائكة كانوا يتشبهون بصور رجال من معارفهم وكانوا يمدونهم بالنصر والفتح والظفر.

والنوع السادس: من النعم المذكورة في هذه الآية قوله: ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ وهذا من النعم الجليلة، وذلك لأن أمر النفس هو القلب فلما بين الله تعالى أنه ربط قلوب المؤمنين بمعنى أنه قواها وأزال الخوف عنها ذكر أنه ألقى الرعب والخوف في قلوب الكافرين فكان ذلك من أعظم نعم الله تعالى على المؤمنين.

أما قوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ ففيه وجهان: الأول: أنه أمر للملائكة متصل بقوله تعالى: ﴿فَثَبِّتُواْ﴾ وقيل: بل أمر للمؤمنين وهذا هو الأصح لما بينا أنه تعالى ما أنزل الملائكة لأجل المقاتلة والمحاربة، واعلم أنه تعالى لما بين أنه حصل في حق المسلمين جميع موجبات النصر والظفر، فعند هذا أمرهم بمحاربتهم، وفي قوله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ قولان: الأول: أن ما فوق العنق هو الرأس، فكان هذا أمرًا بإزالة الرأس عن الجسد. والثاني: أن قوله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ

﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي فاضربوا الأعناق.

ثم قال: ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ يعني الأطراف من اليدين والرجلين، ثم اختلفوا فمنهم من قال المراد أن يضربوهم كما شاؤوا، لأن ما فوق العنق هو الرأس، وهو أشرف الأعضاء، والبنان عبارة عن أضعف الأعضاء، فذكر الأشرف والأخس تنبيهًا على كل الأعضاء، ومنهم من قال: بل المراد إما القتل، وهو ضرب ما فوق الأعناق أو قطع البنان، لأن الأصابع هي الآلات في أخذ السيوف والرماح وسائر الأسلحة، فإذا قطع بنانهم عجزوا عن المحاربة.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الوجوه الكثيرة من النعم على المسلمين. قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ والمعنى: أنه تعالى ألقاهم في الخزي والنكال من هذه الوجوه الكثيرة بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله. قال الزجاج: (شاقوا) جانبوا، وصاروا في شق غير شق المؤمنين، والشق الجانب ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ مجاز، والمعنى: شاقوا أولياء الله، ودين الله.

ثم قال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يعني أن هذا الذي نزل بهم في ذلك اليوم شيء قليل مما أعده الله لهم من العقاب في القيامة، والمقصود منه الزجر عن الكفر والتهديد عليه.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال الزجاج: (ذلكم) رفع لكونه خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: الأمر ذلكم فذوقوه، ولا يجوز أن يكون (ذلكم) ابتداء، وقوله: (فذوقوه) خبر، لأن ما بعد الفاء لا يكون خبرًا للمبتدأ، إلا أن يكون المبتدأ اسمًا موصولاً أو نكرة موصوفة، نحو: الذي يأتيني فله درهم، وكل رجل في الدار فمكرم. أما أن يقال: زيد فمنطلق، فلا يجوز إلا أن نجعل زيدًا خبرًا لمبتدأ محذوف، والتقدير: هذا زيد فمنطلق، أي فهو منطلق.

المسألة الثانية: أنه تعالى لما بين أن من يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب، بين من بعد ذلك صفة عقابه، وأنه قد يكون معجلاً في الدنيا، وقد يكون مؤجلاً في الآخرة، ونبه بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ وهو المعجل من القتل والأسر على أن ذلك يسير بالإضافة إلى المؤجل لهم في الآخرة، فلذلك سماه ذوقًا، لأن الذوق لا يكون إلا تعرف طعم اليسير ليعرف به حال الكثير، فعاجل ما حصل لهم من الآلام في الدنيا كالذوق القليل بالنسبة إلى الأمر العظيم المعد لهم في الآخرة، وقوله: ﴿فَذُوقُوهُ﴾ يدل على أن الذوق يحصل بطريق آخر سوى إدراك الطعوم المخصوصة، وهي كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] وكان عليه السلام يقول: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» فهذا يدل على إثبات الذوق والأكل والشرب بطريق روحاني مغاير للطريق الجسماني.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال الأزهري: أصل الزحف للصبي، وهو أن يزحف على استه قبل أن يقوم، وشبه بزحف الصبي مشي الطائفتين اللتين تذهب كل واحدة منهما إلى صاحبتها للقتال، فيمشي كل فئة مشيًا رويدًا إلى الفئة الأخرى قبل التداني للضراب. قال ثعلب: الزحف المشي قليلاً قليلاً إلى الشيء، ومنه الزحاف في الشعر يسقط مما بين حرفين. حرف فيزحف أحدهما إلى الآخر.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا ﴾ أي: متزاحفين نصب على الحال، ويجوز أن يكون حالاً للكفار، ويجوز أن يكون حالاً للمخاطبين وهم المؤمنون، والزحف مصدر موصوف به كالعدل والرضا، ولذلك لم يجمع، والمعنى: إذا ذهبتم إليهم للقتال، فلا تنهزموا، ومعنى ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ أي لا تجعلوا ظهوركم مما يليهم. ثم إنه تعالى لما نهى عن هذا الانهزام بين أن هذا الانهزام محرم إلا في حالتين: إحداهما: أن يكون متحرفًا للقتال، والمراد منه أن يخيل إلى عدوه أنه منهزم. ثم ينعطف عليه، وهو أحد أبواب خدع الحرب ومكايدها، يقال: تحرف وانحرف إذا زال عن جهة الاستواء. والثانية: قوله: ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ قال أبو عبيدة: التحيز التنحي وفيه لغتان: التحيز والتحوز. قال الواحدي: وأصل هذا الحوز، وهو الجمع. يقال: حزته فانحاز وتحوز وتحيز إذا انضم واجتمع، ثم سمى التنحي تحيزًا، لأن المتنحى عن جانب ينفصل عنه ويميل إلى غيره.

إذا عرفت هذا فنقول: الفئة الجماعة، فإذا كان هذا المتحيز كالمنفرد، وفي الكفار كثرة، وغلب على ظن ذلك المنفرد أنه إن ثبت قتل من غير فائدة، وإن تحيز إلى جمع كان راجيًا للخلاص، وطامعًا في العدو بالكثرة، فربما وجب عليه التحيز إلى هذه الفئة فضلاً عن أن يكون ذلك جائزًا والحاصل أن الانهزام من العدو حرام إلا في هاتين الحالتين.

ثم إنه تعالى قال: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ ﴾ إلا في هاتين الحالتين، فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير.

المسألة الثانية: احتج القاضي بهذه الآية على القطع بوعيد الفساق من أهل الصلاة، وذلك لأن الآية دلت على أن من انهزم إلا في هاتين الحالتين استوجب غضب الله ونار جهنم. قال وليس للمرجئة أن يحملوا هذه الآية على الكفار دون أهل الصلاة، كصنعهم في سائر آيات الوعيد، لأن هذا الوعيد مختص بأهل الصلاة.

واعلم أن هذه المسألة قد ذكرناها على الاستقصاء في سورة البقرة، وذكرنا أن الاستدلال بهذه الظواهر لا يفيد إلا الظن، وقد ذكرنا أيضًا أنها معارضة بعمومات الوعد، وذكرنا أن الترجيح بجانب عمومات الوعد من الوجوه الكثيرة، فلا فائدة في الإعادة.

المسألة الثالثة: اختلف المفسرون في أن هذا الحكم هل هو مختص بيوم بدر أو هو حاصل على الإطلاق، فنقل عن أبي سعيد الخدري والحسن وقتادة والضحاك أن هذا الحكم مختص بمن كان انهزم يوم بدر، قالوا: والسبب في اختصاص يوم بدر بهذا الحكم أمور: أحدها: أن رسول الله ﷺ كان حاضرًا يوم بدر ومع حضوره لا يعد غيره فيه، أما لأجل أنه لا يساوي به سائر الفئات. بل هو أشرف وأعلى من الكل، وأما لأجل أن الله تعالى وعده بالنصر والظفر فلم يكن لهم التحيز إلى فئة أخرى. وثانيها: أنه تعالى شدد الأمر على أهل بدر، لأنه كان أول الجهاد ولو اتفق للمسلمين انهزام فيه، لزم منه الخلل العظيم، فلهذا وجب عليهم التشدد والمبالغة، ولهذا السبب منع الله في ذلك اليوم من أخذ الفداء من الأسرى.

والقول الثاني: أن الحكم المذكور في هذه الآية كان عامًّا في جميع الحروب، بدليل أن قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عام فيتناول جميع الصور، أقصى ما في الباب أنه نزل في واقعة بدر، لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

المسألة الرابعة: اختلفوا في أن جواز التحيز إلى فئة هل يحظر إذا كان العسكر عظيمًا أو إنما يثبت إذا كان في العسكر خفة؟ قال بعضهم: إذا عظم العسكر فليس لهم هذا التحيز. وقال بعضهم: بل الكل سواء، وهذا أليق بالظاهر لأنه لم يفصل.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: قال مجاهد: اختلفوا يوم بدر. فقال هذا: أنا قتلت. وقال الآخر: أنا قتلت فأنزل الله تعالى هذه الآية يعني أن هذه الكسرة الكبيرة لم تحصل منكم، وإنما حصلت بمعونة الله روي أنه لما طلعت قريش قال رسول الله ﷺ: (هذه قريش)، قد جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مَا وَعَدْتَنِي**» فنزل جبريل وقال: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فلما التقى الجمعان قال لعلي (أعطني قبضة من التراب من حصباء الوادي)، فرمى بها في وجوههم، وقال: (شاهت الوجوه)، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فانهزموا[1]. قال

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الجهاد) باب (غزوة بدر) (٣/ ١٤٠٣/ ٨٣)، وأبو داود في كتاب (الجهاد) باب (في الأسير ينال ويضرب ويقرر) (٣/ ١١٦٢) حديث رقم/ ٢٦٨١، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٢١٩) جميعًا من طريق حماد عن ثابت عن أنس . . . بنحوه.

صاحب (الكشاف) والفاء في قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ جواب شرط محذوف تقديره إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم.

ثم قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ يعني أن القبضة من الحصباء التي رميتها، فأنت ما رميتها في الحقيقة، لأن رميك لا يبلغ أثره إلا ما يبلغه رمي سائر البشر، ولكن الله رماها حيث نفذ أجزاء ذلك التراب وأوصلها إلى عيونهم، فصورة الرمية صدرت من الرسول عليه الصلاة والسلام وأثرها إنما صدر من الله، فلهذا المعنى صح فيه النفي والإثبات.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، وجه الاستدلال أنه تعالى قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ ومن المعلوم أنهم جرحوا، فدل هذا على أن حدوث تلك الأفعال إنما حصل من الله. وأيضًا قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ أثبت كونه عليه السلام راميًا، ونفى عنه كونه راميًا، فوجب حمله على أنه رماه كسبًا وما رماه خلقًا.

فإن قيل: أما قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ فيه وجوه: الأول: أن قتل الكفار إنما تيسر بمعونة الله ونصره وتأييده، فصحت هذه الإضافة. الثاني: أن الجرح كان إليهم، وإخراج الروح كان إلى الله تعالى، والتقدير: فلم تميتوهم ولكن الله أماتهم.

وأما قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ قال القاضي فيه أشياء: منها أن الرمية الواحدة لا توجب وصول التراب إلى عيونهم، وكان إيصال أجزاء التراب إلى عيونهم ليس إلا بإيصال الله تعالى، ومنها أن التراب الذي رماه كان قليلاً، فيمتنع وصول ذلك القدر إلى عيون الكل، فدل هذا على أنه تعالى ضم إليها أشياء أخر من أجزاء التراب وأوصلها إلى عيونهم، ومنها أن عند رميته ألقى الله تعالى الرعب في قلوبهم، فكان المراد من قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ هو أنه تعالى رمى قلوبهم بذلك الرعب.

والجواب: أن كل ما ذكرتموه عدول عن الظاهر، والأصل في الكلام الحقيقة.

فإن قالوا: الدلائل العقلية تمنع من القول بأن فعل العبد مخلوق لله تعالى. فنقول: هيهات فإن الدلائل العقلية في جانبنا والبراهين النقلية قائمة على صحة قولنا، فلا يمكنكم أن تعدلوا عن الظاهر إلى المجاز. والله أعلم.

المسألة الثالثة: قرئ (ولكنْ الله قتلهم، ولكن الله رمى) بتخفيف ولكن ورفع ما بعده.

المسألة الرابعة: في سبب نزول هذه الآية ثلاثة أقوال: الأول: وهو قول أكثر المفسرين أنها نزلت في يوم بدر. والمراد أنه عليه السلام أخذ قبضة من الحصباء، ورمى بها وجوه القوم وقال شاهت الوجوه، فلم يبق مشرك إلا ودخل في عينيه ومنخريه منها شيء، فكانت تلك الرمية سببًا للهزيمة، وفيه نزلت هذه الآية. والثاني: أنها نزلت يوم خيبر روي أنه عليه السلام أخذ قوسًا وهو على باب خيبر. فرمى سهمًا. فأقبل السهم حتى قتل ابن أبي الحقيق، وهو على فرسه،

فنزلت ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ والثالث: أنها نزلت في يوم أحد في قتل أُبي بن خلف، وذلك أنه أتى النبي ﷺ بعظم رميم وقال: يا محمد من يحيى هذا وهو رميم؟ فقال عليه السلام (يحييه الله ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك النار) فأُسر يوم بدر، فلما افتدى. قال لرسول الله: إن عندي فرسًا أعتلفها كل يوم فرقًا من ذرة، كي أقتلك عليها. فقال ﷺ: «**بَلْ أَنَا أَقْتُلُكَ إِنْ شَاءَ الله**» (١) فلما كان يوم أحد أقبل أبي يركض على ذلك الفرس حتى دنا من الرسول عليه الصلاة والسلام فاعترض له رجال من المسلمين ليقتلوه. فقال عليه السلام: «**استأخروا**» ورماه بحربة فكسر ضلعًا من أضلاعه، فحمل فمات ببعض الطريق ففي ذلك نزلت الآية (٢) والأصح أن هذه الآية نزلت في يوم بدر، وإلا لدخل في أثناء القصة كلام أجنبي عنها، وذلك لا يليق بل لا يبعد أن يدخل تحته سائر الوقائع، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

أما قوله تعالى: ﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾ فهذا معطوف على قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ والمراد من هذا البلاء الإنعام، أي: ينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصرة والغنيمة والأجر والثواب، قال القاضي: ولولا أن المفسرين اتفقوا على حمل الابتلاء ههنا على النعمة، وإلا لكان يحتمل المحنة بالتكليف فيما بعده من الجهاد، حتى يقال: إن الذي فعله تعالى يوم بدر، كان السبب في حصول تكليف شاق عليهم فيما بعد ذلك من الغزوات.

ثم إنه تعالى ختم هذا بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي: سميع لكلامكم عليم بأحوال قلوبكم، وهذا يجري مجرى التحذير والترهيب، لئلا يغتر العبد بظواهر الأمور، ويعلم أن الخالق تعالى مطلع على كل ما في الضمائر والقلوب.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (موهِّن) بتشديد الهاء من التوهين (كيد) بالنصب، وقرأ حفص عن عاصم (موهنُ كيدِ) بالإضافة، والباقون (موهن) بالتخفيف (كيدَ) بالنصب، ومثله قوله: ﴿ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ ﴾ [الزمر: ٣٨] بالتنوين وبالإضافة.

---

(١) أخرجه ابن سعد في (الطبقات الكبرى) (٢/ ٤٦) من طريق ليث بن سعد عن عبد الرحمن بن خالد عن بن شهاب عن سعيد بن المسيب... به. وذكره ابن كثير في (السيرة النبوية) (٣/ ٦٩) قال: قال ابن إسحاق وكان أبي بن خلف كما حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف... فذكره. وابن إسحاق في (السيرة) (١/ ٣٠١) قال: حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف... به. وهذا إسناد مرسل.

(٢) انظر سابقه.

المسألة الثانية: الكلام في ذلك ومحله من الإعراب كما في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ [الأنفال: ١٤].

المسألة الثالثة: توهين الله تعالى كيدهم. يكون بأشياء بإطلاع المؤمنين على عوراتهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، وتفريق كلمتهم، ونقض ما أبرموا بسبب اختلاف عزائمهم. قال ابن عباس ينبىء رسول الله ويقول: إني قد أوهنت كيد عدوك حتى قتلت خيارهم وأسرت أشرافهم.

أما قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾

فيه قولان:

القول الأول: وهو قول الحسن ومجاهد والسدي أنه خطاب للكفار، روي أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم انصر أفضل الدينين وأحقه بالنصر، وروي أنه قال: اللهم أينا كان أقطع للرحم وأفجر، فأهلكه الغداة[1]، وقال السدي: إن المشركين لما أرادوا الخروج إلى بدر أخذوا أستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين، فأنزل الله هذه الآية، والمعنى: إن تستفتحوا أي تستنصروا لأهدى الفئتين وأكرم الحزبين، فقد جاءكم النصر. وقال آخرون: أن تستقضوا فقد جاءكم القضاء.

والقول الثاني: أنه خطاب للمؤمنين، روي أنه عليه السلام لما رأى المشركين وكثرة عددهم استغاث بالله، وكذلك الصحابة وطلب ما وعده الله به من إحدى الطائفتين وتضرع إلى الله فقال: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ والمراد أنه طلب النصرة التي تقدم بها الوعد، فقد جاءكم الفتح، أي: حصل ما وعدتم به فاشكروا الله والزموا طاعته. قال القاضي: وهذا القول أولى لأن قوله: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ لا يليق إلا بالمؤمنين، أما لو حملنا الفتح على البيات والحكم والقضاء، لم يمتنع أن يراد به الكفار.

أما قوله: ﴿وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فتفسير هذه الآية، يتفرع على ما ذكرنا من أن قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ خطاب للكفار أو للمؤمنين.

فإن قلنا: إن ذلك خطاب للكفار، كان تأويل هذه الآية إن تنتهوا عن قتال الرسول وعداوته وتكذيبه فهو خير لكم، أما في الدين فبالخلاص من العقاب والفوز بالثواب. وأما في الدنيا فبالخلاص من القتل والأسر والنهب.

ثم قال: ﴿وَإِن تَعُودُوا﴾ أي إلى القتال ﴿نَعُدْ﴾ أي نسلطهم عليكم، فقد شاهدتم ذلك يوم بدر

---

(١) أخرجه الطبري في (تفسيره) (٩/ ٢٠٧)، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٣٥٧) حديث رقم/ ٣٢٦٤ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. والنسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٣٥٠) حديث رقم/ ١١٢٠١، والضياء في (الأحاديث المختارة) (٩/ ١١٨) حديث رقم/ ١٠٦ جميعًا من طريق الليث قال: حدثني عقيل عن ابن شهاب قال: أخبرني عبد الله بن ثعلبة بن صفير العدوي... فذكره.

وعرفتم تأثير نصرة الله للمؤمنين عليكم ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ أي كثرة الجموع كما لم يغن ذلك يوم بدر. وأما إن قلنا إن ذلك خطاب للمؤمنين كان تأويل هذه الآية وإن تنتهوا عن المنازعة في أمر الأنفال وتنتهوا عن طلب الفداء على الأسرى فقد كان وقع منهم نزاع يوم بدر في هذه الأشياء حتى عاتبهم الله بقوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال: ٦٨]فقال تعالى: ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عن مثله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟﴾ إلى تلك المنازعات ﴿نَعُدْ﴾ إلى ترك نصرتكم لأن الوعد بنصرتكم مشروط بشرط استمراركم على الطاعة وترك المخالفة، ثم لا تنفعكم الفئة والكثرة، فإن الله لا يكون إلا مع المؤمنين الذين لا يرتكبون الذنوب.

واعلم أن أكثر المفسرين حملوا قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟﴾ على أنه خطاب للكفار، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ﴾ فظنوا أن ذلك لا يليق إلا بالقتال، وقد بينا أن ذلك يحتمل الحمل على ما ذكرناه من أحوال المؤمنين، فسقط هذا الترجيح.

وأما قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ بفتح الألف في (أن) والباقون بكسرها. أما الفتح فقيل: على تقدير، ولأن الله مع المؤمنين، وقيل: هو معطوف على قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وأما الكسر فعلى الابتداء. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما خاطب المؤمنين بقوله: ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا﴾ [الأنفال: ١٩]أتبعه بتأديبهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ولم يبين أنهم ماذا يسمعون إلا أن الكلام من أول السورة إلى هنا لما كان واقعًا في الجهاد علم أن المراد وأنتم تسمعون دعاءه إلى الجهاد، ثم إن الجهاد اشتمل على أمرين: أحدهما: المخاطرة بالنفس. والثاني: الفوز بالأموال، ولما كانت المخاطرة بالنفس شاقة شديدة على كل أحد، وكان ترك المال بعد القدرة على أخذه شاقًّا شديدًا، لا جرم بالغ الله تعالى في التأديب في هذا الباب فقال: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الإجابة إلى الجهاد، وفي الإجابة إلى تركه المال إذا أمره الله بتركه والمقصود تقرير ما ذكرناه في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١].

فإن قيل: فلم قال ولا تولوا عنه فجعل الكناية واحدة مع أنه تقدم ذكر الله ورسوله؟.

قلنا: إنه تعالى أمر بطاعة الله وبطاعة رسوله. ثم قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟﴾ لأن التولي إنما يصح في

حق الرسول بأن يعرضوا عنه وعن قبول قوله وعن معونته في الجهاد.

ثم قال مؤكدًا لذلك: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ والمعنى: أن الإنسان لا يمكنه أن يقبل التكليف وأن يلتزمه إلا بعد أن يسمعه، فجعل السماع كناية عن القبول. ومنه قولهم سمع الله لمن حمده، والمعنى: ولا تكونوا كالذين يقولون بألسنتهم أنا قبلنا تكاليف الله تعالى، ثم إنهم بقلوبهم لا يقبلونها. وهو صفة للمنافقين كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ واختلفوا في الدواب. فقيل: شبههم بالدواب لجهلهم وعدولهم عن الانتفاع بما يقولون. ويقال لهم: ولذلك وصفهم بالصم والبكم وبأنهم لا يعقلون. وقيل: بل هم من الدواب لأنه اسم لما دب على الأرض ولم يذكره في معرض التشبيه، بل وصفهم بصفة تليق بهم على طريقة الذم، كما يقال لمن لا يفهم الكلام، هو شبح وجسد وطلل على جهة الذم.

ثم قال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ والمعنى: أن كل ما كان حاصلاً فإنه يجب أن يعلمه الله فعدم علم الله بوجوده من لوازم عدمه، فلا جرم حسن التعبير عن عدمه في نفسه بعدم علم الله بوجوده، وتقرير الكلام لو حصل فيهم خير، لأسمعهم الله الحجج والمواعظ سماع تعليم وتفهيم، ولو أسمعهم بعد أن علم أنه لا خير فيهم لم ينتفعوا بها، ولتولوا وهم معرضون. قيل: إن الكفار سألوا الرسول عليه السلام أن يحيي لهم قصي بن كلاب وغيره من أمواتهم ليخبروهم بصحة نبوته، فبين تعالى أنه لو علم فيهم خيرًا، وهو انتفاعهم بقول هؤلاء الأموات لأحياهم حتى يسمعوا كلامهم، ولكنه تعالى علم منهم أنهم لا يقولون هذا الكلام إلا على سبيل العناد والتعنت، وأنه لم أسمعهم الله كلامهم لتولوا عن قبول الحق ولأعرضوا عنه.

وفي هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى حكم عليهم بالتولي عن الدلائل وبالإعراض عن الحق وأنهم لا يقبلونه البتة، ولا ينتفعون به البتة. فنقول: وجب أن يكون صدور الإيمان منهم محالاً، لأنه لو صدر الإيمان، لكان إما أن يوجد ذلك الإيمان مع بقاء هذا الخبر صدقًا أو مع انقلابه كذبًا والأول محال، لأن وجود الإيمان مع الإخبار بعدم الإيمان جمع بين النقيضين وهو محال. والثاني محال، لأن انقلاب خبر الله الصدق كذبًا محال. لا سيما في الزمان الماضي المنقضي، وهكذا القول في انقلاب علم الله جهلاً، وتقريره سبق مرارًا.

المسألة الثانية: النحويون يقولون: كلمة (لو) وضعت للدلالة على انتفاء الشيء لأجل انتفاء غيره، فإذا قلت: لو جئتني لأكرمتك، أفاد أنه ما حصل المجيء، وما حصل الإكرام. ومن الفقهاء من قال: إنه لا يفيد إلا الاستلزام، فأما الانتفاء لأجل انتفاء الغير، فلا يفيده هذا اللفظ

والدليل عليه الآية والخبر، أما الآية، فهي هذه الآية، وتقريره: أن كلمة (لو) لو أفادت ما ذكروه لكان قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ يقتضي أنه تعالى ما علم فيهم خيرًا وما أسمعهم. ثم قال: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا﴾ فيكون معناه: أنه ما أسمعهم وأنهم ما تولوا لكن عدم التولي خير من الخيرات، فأول الكلام يقتضي نفي الخير، وآخره يقتضي حصول الخير، وذلك متناقض. فثبت أن القول بأن كلمة (لو) تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره يوجب هذا التناقض، فوجب أن لا يصار إليه. وأما الخبر فقوله عليه السلام: «نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه» فلو كانت لفظة (لو) تفيد ما ذكروه لصار المعنى أنه خاف الله وعصاه، وذلك متناقض. فثبت أن كلمة (لو) لا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، وإنما تفيد مجرد الاستلزام.

واعلم أن هذا الدليل أحسن إلا أنه على خلاف قول جمهور الأدباء.

المسألة الثالثة: أن معلومات الله تعالى على أربعة أقسام: أحدها: جملة الموجودات. والثاني: جملة المعدومات. والثالث: أن كل واحد من الموجودات لو كان معدومًا فكيف يكون حاله. الرابع: أن كل واحد من المعدومات لو كان موجودًا كيف يكون حاله، والقسمان الأولان علم بالواقع، والقسمان الثانيان عم بالمقدر الذي هو غير واقع، فقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ من القسم الثاني وهو العلم بالمقدرات، وليس من أقسام العلم بالواقعات ونظيره قوله تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الحشر: ١١، ١٢] فعلم تعالى في المعدوم أنه لو كان موجودًا كيف يكون حاله، وأيضًا قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] فأخبر عن المعدوم أنه لو كان موجودًا كيف يكون حاله.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال أبو عبيد والزجاج ﴿ٱسْتَجِيبُوا﴾ معناه أجيبوا وأنشد قول الشاعر:

فَلَم يَستَجِبهُ عِندَ ذاكَ مُجيبُ[1]

المسألة الثانية: أكثر الفقهاء على أن ظاهر الأمر للوجوب، وتمسكوا بهذه الآية على صحة قولهم من وجهين:

الوجه الأول: أن كل من أمره الله بفعل فقد دعاه إلى ذلك الفعل وهذه الآية تدل على أنه لا

(١) البيت من البحر الطويل للشاعر كعب بن سعد الغنوي وقد تقدمت ترجمته.

بد من الإجابة في كل ما دعاه الله إليه.

فإن قيل: قوله: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ﴾ أمر. فلم قلتم: إنه يدل على الوجوب؟ وهل النزاع إلا فيه، فيرجع حاصل هذا الكلام إلى إثبات أن الأمر للوجوب بناء على أن هذا الأمر يفيد الوجوب، وهو يقتضي إثبات الشيء بنفسه وهو محال.

والجواب: أن من المعلوم بالضرورة أن كل ما أمر الله به فهو مرغب فيه مندوب إليه، فلو حملنا قوله: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ على هذا المعنى كان هذا جاريًا مجرى إيضاح الواضحات وأنه عبث، فوجب حمله على فائدة زائدة، وهي الوجوب صونًا لهذا النص عن التعطيل، ويتأكد هذا بأن قوله تعالى بعد ذلك ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ جار مجرى التهديد والوعيد، وذلك لا يليق إلا بالإيجاب.

الوجه الثاني: في الاستدلال بهذه الآية على ثبوت هذا المطلوب. ما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ مر على باب أُبي بن كعب فناداه وهو في الصلاة فعجل في صلاته ثم جاء فقال: «**ما منعك عن إجابتي**» قال: كنت أصلي قال: «**ألم تخبر فيما أوحى إلي استجيبوا لله وللرسول**» فقال: لا جرم لا تدعوني إلا أجيبك (١)، والاستدلال به أن النبي ﷺ لما دعاه فلم يجبه لامه على ترك الإجابة، وتمسك في تقرير ذلك اللوم بهذه الآية فلولا دلالة هذه الآية على الوجوب، وإلا لما صح ذلك الاستدلال وقول من يقول مسألة أن الأمر يفيد الوجوب، مسألة قطعية، فلا يجوز التمسك فيها بخبر الواحد ضعيف، لأنا لا نسلم أن مسألة الأمر يفيد الوجوب مسألة قطعية، بل هي عندنا مسألة ظنية، لأن المقصود منها العمل، والدلائل الظنية كافية في المطالب العملية.

فإن قالوا: إنه تعالى ما أمر بالإجابة على الإطلاق بل بشرط خاص وهو قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ فلم قلتم إن هذا الشرط حاصل في جميع الأوامر؟

قلنا: قصة أبي بن كعب تدل على أن هذا الحكم عام وغير مخصوص بشرط معين، وأيضًا فلا يمكن حمل الحياة ههنا على نفس الحياة. لأن إحياء الحي محال. فوجب حمله على شيء آخر وهو الفوز بالثواب، وكل ما دعا الله إليه ورغب فيه فهو مشتمل على ثواب، فكان هذا الحكم عامًّا في جميع الأوامر وذلك يفيد المطلوب.

المسألة الثالثة: ذكروا في قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ وجوهًا: الأول: قال السدي: هو الإيمان والإسلام وفيه الحياة لأن الإيمان حياة القلب والكفر موته، يدل عليه قوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ [الروم: ١٩] قيل المؤمن من الكافر. الثاني: قال قتادة: يعني القرآن أي أجيبوه إلى ما في القرآن ففيه الحياة والنجاة والعصمة، وإنما سمي القرآن بالحياة لأن القرآن سبب العلم.

---

(١) اخرجه البخاري في (القراءة خلف الإمام) (١/ ٥٣) حديث رقم/ ١٠٥ من طريق خالد بن مخلد أخبرنا محمد بن جعفر بن أبي كثير حدثني العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة... به.

والعلم حياة، فجاز أن يسمى سبب الحياة بالحياة. الثالث: قال الأكثرون: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ هو الجهاد، ثم في سبب تسمية الجهاد بالحياة وجوه: أحدها: هو أن وهن أحد العدوين حياة للعدو الثاني. فأمر المسلمين إنما يقوى ويعظم بسبب الجهاد مع الكفار. وثانيها: أن الجهاد سبب لحصول الشهادة وهي توجب الحياة الدائمة قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وثالثها: أن الجهاد قد يفضي إلى القتل، والقتل يوصل إلى الدار الآخرة، والدار الآخرة معدن الحياة. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]أي الحياة الدائمة.

والقول الرابع: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي لكل حق وصواب، وعلى هذا التقدير فيدخل فيه القرآن والإيمان والجهاد وكل أعمال البر والطاعة. والمراد من قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الحياة الطيبة الدائمة قال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ يختلف تفسيره بحسب اختلاف الناس في الجبر والقدر. أما القائلون بالجبر، فقال الواحدي حكاية عن ابن عباس والضحاك: يحول بين المرء الكافر وطاعته، ويحول بين المرء المطيع ومعصيته، فالسعيد من أسعده الله، والشقي من أضله الله. والقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء، فإذا أراد الكافر أن يؤمن والله تعالى لا يريد إيمانه يحول بينه وبين قلبه. وإذا أراد المؤمن أن يكفر والله لا يريد كفره حال بينه وبين قلبه. قلت: وقد دللنا بالبراهين العقلية على صحة أن الأمر كذلك وذلك لأن الأحوال القلبية إما العقائد وإما الإرادات والدواعي. أما العقائد: فهي إما العلم، وإما الجهل. أما العلم فيمتنع أن يقصد الفاعل إلى تحصيله إلا إذا علم كونه علمًا ولا يعلم ذلك إلا إذا علم كون ذلك الاعتقاد مطابقًا للمعلوم ولا يعلم ذلك إلا إذا سبق علمه بالمعلوم وذلك يوجب توقف الشيء على نفسه وأما الجهل فالإنسان البتة لا يختاره ولا يريده إلا إذا ظن أن ذلك الاعتقاد علم، ولا يحصل له هذا الظن إلا بسبق جهل آخر، وذلك أيضًا يوجب توقف الشيء على نفسه، وأما الدواعي والإرادات فحصولها إن لم يكن بفاعل يلزم الحدوث لا عن محدث، وإن كان بفاعل فذلك الفاعل إما العبد وإما الله تعالى، والأول باطل، وإلا لزم توقف ذلك القصد على قصد آخر وهو محال، فتعين أن يكون فاعل الاعتقادات والإرادات والدواعي هو الله تعالى، فنص القرآن دل على أن أحوال القلوب من الله، والدلائل العقلية دلت على ذلك، فثبت أن الحق ما ذكرناه. أما القائلون بالقدر فقالوا: لا يجوز أن يكون المراد من هذه الآية ما ذكرتم، وبيانه من وجوه:

الوجه الأول: قال الجبائي: إن من حال الله بينه وبين الإيمان فهو عاجز، وأمر العاجز سفه، ولو جاز ذلك لجاز أن يأمرنا الله بصعود السماء، وقد أجمعوا على أن الزمن لا يؤمر بالصلاة قائمًا، فكيف يجوز ذلك على الله تعالى؟ وقد قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا

وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال في المظاهر: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤] فأسقط فرض الصوم عمن لا يستطيعه.

الوجه الثاني: أن الله تعالى أمر بالاستجابة لله وللرسول. وذكر هذا الكلام في معرض الذكر والتحذير عن ترك الإجابة، ولو كان المراد ما ذكرتم لكان ذلك عذرًا قويًّا في ترك الإجابة، ولا يكون زجرًا عن ترك الإجابة.

الوجه الثالث: أنه تعالى أنزل القرآن ليكون حجة للرسول على الكفار، لا ليكون حجة للكفار على الرسول، ولو كان المعنى ما ذكرتم لصارت هذه الآية من أقوى الدلائل للكفار على الرسول ولقالوا إنه تعالى لما منعنا من الإيمان فكيف يأمرنا به؟ فثبت بهذه الوجوه أنه لا يمكن حمل الآية على ما قاله أهل الجبر، قالوا: ونحن نذكر في الآية وجوهًا: الأول: أن الله تعالى يحول بين المرء وبين الانتفاع بقلبه بسبب الموت، يعني بذلك أن تبادروا في الاستجابة فيما ألزمتكم من الجهاد وغيره قبل أن يأتيكم الموت الذي لا بد منه ويحول بينكم وبين الطاعة والتوبة. قال القاضي: ولذلك قال تعالى عقيبه ما يدل عليه وهو قوله: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ والمقصود من هذه الآية الحث على الطاعة قبل نزول الموت الذي يمنع منها. الثاني: أن المراد أنه تعالى يحول بين المرء وبين ما يتمناه ويريده بقلبه، فإن الأجل يحول دون الأمل، فكأنه قال: بادروا إلى الأعمال الصالحة ولا تعتمدوا على ما يقع في قلوبكم من توقع طول البقاء، فإن ذلك غير موثوق به، وإنما حسن إطلاق لفظ القلب على الأماني الحاصلة في القلب لأن تسمية الشيء باسم ظرفه جائزة كقولهم، سال الوادي. الثالث: أن المؤمنين كانوا خائفين من القتال يوم بدر، فكأنه قيل لهم، سارعوا إلى الطاعة ولا تتمنعوا عنها بسبب ما تجدون في قلوبكم من الضعف والجبن، فإن الله تعالى يغير تلك الأحوال فيبدل الضعف بالقوة، والجبن بالشجاعة، لأنه تعالى مقلب القلوب. الرابع: قال مجاهد: المراد من القلب ههنا العقل فكان المعنى أنه يحول بين المرء وقلبه. والمعنى فبادروا إلى الأعمال وأنتم تعقلون، فإنكم لا تؤمنون زوال العقول التي عند ارتفاعها يبطل التكليف. وجعل القلب كناية عن العقل جائز، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] أي لمن كان له عقل. الخامس: قال الحسن معناه، أن الله حائل بين المرء وقلبه، والمعنى أن قربه تعالى من عبده أشد من قرب قلب العبد منه، والمقصود منه التنبيه على أنه تعالى لا يخفى عليه شيء مما في باطن العبد ومما في ضميره، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] فهذه جملة الوجوه المذكورة في هذا الباب لأصحاب الجبر والقدر.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي واعلموا أنكم إليه تحشرون أي إلى الله ولا تتركون مهملين معطلين، وفيه ترغيب شديد في العمل وتحذير عن الكسل والغفلة.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى كما حذر الإنسان أن يحال بينه وبين قلبه، فكذلك حذره من الفتن، والمعنى: واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالمين خاصة بل تتعدى إليكم جميعًا وتصل إلى الصالح والطالح. عن الحسن: نزلت في علي وعمار وطلحة والزبير وهو يوم الجمل خاصة. قال الزبير: نزلت فينا وقرأناها زمانًا وما ظننا أنا أهلها فإذا نحن المعنيون بها، وعن السدي: نزلت في أهل بدر اقتتلوا يوم الجمل، وروي أن الزبير كان يسامر النبي ﷺ يومًا إذ أقبل علي رضي الله عنه، فضحك إليه الزبير فقال رسول الله: «**كيف حبك لعلي؟**»، فقال: يارسول الله أحبه كحبي لولدي أو أشد فقال: «**كيف أنت إذا سرت إليه تقاتله**»(١).

فإن قيل: كيف جاز دخول النون المؤكدة في جواب الأمر؟

قلنا: فيه وجهان: الأول: أن جواب الأمر جاء بلفظ النهي، ومتى كان كذلك حسن إدخال النون المؤكدة في ذلك النهي، كقولك: انزل عن الدابة لا تطرحك أو لا تطرحنك، وكقوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾[النمل: ١٨]، الثاني: أن التقدير: واتقوا فتنة تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، إلا أنه جيء بصيغة النهي مبالغة في نفي اختصاص الفتنة بالظالمين كأن الفتنة نهيت عن ذلك الاختصاص. وقيل لها لا تصيبي الذين ظلموا خاصة، والمراد منه: المبالغة في عدم الاختصاص على سبيل الاستعارة.

ثم قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والمراد منه: الحث على لزوم الاستقامة خوفًا من عقاب الله.

فإن قيل: حاصل الكلام في الآية أنه تعالى يخوفهم من عذاب لو نزل لعم المذنب وغيره، وكيف يليق برحمة الرحيم الحكيم أن يوصل الفتنة والعذاب إلى من لم يذنب؟

قلنا: إنه تعالى قد ينزل الموت والفقر والعمى والزمانة بعبده ابتداء، إما لأنه يحسن منه تعالى ذلك بحكم المالكية، أو لأنه تعالى علم اشتمال ذلك على نوع من أنواع الصلاح على اختلاف المذهبين، وإذا جاز ذلك لأحد هذين الوجهين فكذا ههنا. والله أعلم.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) (١١/ ٢٤١) حديث رقم/ ٢٠٤٣٠ والبيهقي في (دلائل النبوة) (٧/ ٢٦٢) حديث رقم/ ٢٧١٧ كلاهما من طريق معمر عن قتادة... به. وقال البيهقي: هذا مرسل. وأيضًا وصله في الحديث الذي بعده برقم/ ٢٧١٨ من طريق منجاب بن الحارث حدثنا عبد الله بن الأجلح قال: حدثنا أبي عن يزيد الفقير عن أبيه قال: وسمعت الفضل بن فضالة يحدث أبي عن أبي حرب بن الأسود الدؤلي عن أبيه دخل حديث أحدهما في حديث صاحبه... فذكره بنحوه.

قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما أمرهم بطاعة الله وطاعة الرسول، ثم أمرهم باتقاء المعصية، أكد ذلك التكليف بهذه الآية، وذلك لأنه تعالى بين أنهم كانوا قبل ظهور الرسول ﷺ في غاية القلة والذلة، وبعد ظهوره صاروا في غاية العزة والرفعة، وذلك يوجب عليهم الطاعة وترك المخالفة. أما بيان الأحوال التي كانوا عليها قبل ظهور محمد فمن وجوه: أولها: أنهم كانوا قليلين في العدد. وثانيها: أنهم كانوا مستضعفين، والمراد أن غيرهم يستضعفهم، والمراد من هذا الاستضعاف أنهم كانوا يخافون أن يتخطفهم الناس. والمعنى: أنهم كانوا إذا خرجوا من بلدهم خافوا أن يتخطفهم العرب، لأنهم كانوا يخافون من مشركي العرب لقربهم منهم وشدة عداوتهم لهم، ثم بين تعالى أنهم بعد أن كانوا كذلك قلبت تلك الأحوال بالسعادات والخيرات، فأولها: أنه آواهم والمراد منه أنه تعالى نقلهم إلى المدينة، فصاروا آمنين من شر الكفار، وثانيها: قوله: ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ والمراد منه وجوه النصر في يوم بدر، وثالثها: قوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وهو أنه تعالى أحل لهم الغنائم بعد أن كانت محرمة على من كان قبل هذه الأمة.

ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: نقلناكم من الشدة إلى الرخاء، ومن البلاء إلى النعماء والآلاء، حتى تشتغلوا بالشكر والطاعة، فكيف يليق بكم أن تشتغلوا بالمنازعة والمخاصمة بسبب الأنفال؟

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أنه رزقهم من الطيبات، فههنا منعهم من الخيانة.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في المراد بتلك الخيانة على أقوال: الأول: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في أبي لبابة حين بعثه رسول الله ﷺ إلى قريظة لما حاصرهم، وكان أهله وولد فيهم. فقالوا يا أبا لبابة ما ترى لنا أننزل على حكم سعد بن معاذ فينا؟ فأشار أبو لبابة إلى حلقه، أي: أنه الذبح فلا تفعلوا، فكان ذلك منه خيانة لله ورسوله. الثاني: قال السدي: كانوا يسمعون الشيء

من النبي ﷺ ، فيشقونه ويلقونه إلى المشركين ، فنهاهم الله عن ذلك . الثالث : قال ابن زيد : نهاهم الله أن يخونوا كما صنع المنافقون ، يظهرون الإيمان ويسرون الكفر . الرابع : عن جابر بن عبد الله : أن أبا سفيان خرج من مكة ، فعلم النبي ﷺ خروجه وعزم على الذهاب إليه ، فكتب إليه رجل من المنافقين أن محمدًا يريدكم فخذوا حذركم ، فأنزل الله هذه الآية . الخامس : قال الزهري والكلبي : نزلت في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى أهل مكة لما هم النبيّ ﷺ بالخروج إليها ، حكاه الأصم . والسادس : قال القاضي : الأقرب أن خيانة الله غير خيانة رسوله ، وخيانة الرسول غير خيانة الأمانة ، لأن العطف يقتضي المغايرة .

إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى أمرهم أن لا يخونوا الغنائم ، وجعل ذلك خيانة له ، لأنه خيانة لعطيته وخيانة لرسوله لأنه القيم بقسمها ، فمن خانها فقد خان الرسول ، وهذه الغنيمة قد جعلها الرسول أمانة في أيدي الغانمين وألزمهم أن لا يتناولوا لأنفسهم منها شيئًا فصارت وديعة ، والوديعة أمانة في يد المودع ، فمن خان منهم فيها فقد خان أمانة الناس ، إذ الخيانة ضد الأمانة ، قال : ويحتمل أن يريد بالأمانة كل ما تعبد به ، وعلى هذا التقدير : فيدخل فيه الغنيمة وغيرها ، فكان معنى الآية : إيجاب أداء التكاليف بأسرها على سبيل التمام والكمال من غير نقص ولا إخلال . وأما الوجوه المذكورة في سبب نزول الآية ، فهي داخلة فيها ، لكن لا يجب قصر الآية عليها ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

المسألة الثانية : قال صاحب (الكشاف) : معنى الخون النقص . كما أن معنى الوفاء التمام . ومنه تخونه إذا انتقصه ، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء . لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه .

المسألة الثالثة : في قوله : ﴿وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾ وجوه : الأول : التقدير (ولا تخونوا أماناتكم) والدليل عليه ما روي في حرف عبد الله (ولا تخونوا أماناتكم) الثاني : التقدير : لا تخونوا الله والرسول ، فإنكم إن فعلتم ذلك فقد خنتم أماناتكم ، والعرب قد تذكر الجواب تارة بالفاء ، وأخرى بالواو ، ومنهم من أنكر ذلك .

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فيه وجوه : الأول : وأنتم تعلمون أنكم تخونون يعني أن الخيانة توجد منكم عن تعمد لا عن سهو . الثاني : وأنتم علماء تعلمون قبح القبيح ، وحسن الحسن ، ثم إنه لما كان الداعي إلى الإقدام على الخيانة هو حب الأموال والأولاد . نبه تعالى على أنه يجب على العاقل أن يحترز عن المضار المتولدة من ذلك الحب . فقال : ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنها تشغل القلب بالدنيا ، وتصير حجابًا عن خدمة المولى .

ثم قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ تنبيهًا على أن سعادات الآخرة خير من سعادات الدنيا لأنها أعظم في الشرف ، وأعظم في الفوز ، وأعظم في المدة ، لأنها تبقى بقاء لا نهاية له ، فهذا هو المراد من وصف الله الأجر الذي عنده بالعظم . ويمكن أن يتمسك بهذه الآية في بيان أن

الاشتغال بالنوافل أفضل من الاشتغال بالنكاح لأن الاشتغال بالنوافل يفيد الأجر العظيم عند الله، والاشتغال بالنكاح يفيد الولد ويوجب الحاجة إلى المال، وذلك فتنة، ومعلوم أن ما أفضى إلى الأجر العظيم عند الله، فالاشتغال به خير مما أفضى إلى الفتنة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما حذر عن الفتنة بالأموال والأولاد، رغب في التقوى التي توجب ترك الميل والهوى في محبة الأموال والأولاد.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: لقائل أن يقول: إدخال الشرط في الحكم إنما يحسن في حق من كان جاهلاً بعواقب الأمور، وذلك لا يليق بالله تعالى.

والجواب: أن قولنا إن كان كذا كان كذا، لا يفيد إلا كون الشرط مستلزمًا للجزاء، فأما أن وقوع الشرط مشكوك فيه أو معلوم فذلك غير مستفاد من هذا اللفظ، سلمنا أنه يفيد هذا الشك إلا أنه تعالى يعامل العباد في الجزاء معاملة الشاك، وعليه يخرج قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾[محمد: ٣١].

المسألة الثانية: هذه القضية الشرطية شرطها شيء واحد وهو تقوى الله تعالى، وذلك يتناول اتقاء الله في جميع الكبائر. وإنما خصصنا هذا بالكبائر لأنه تعالى ذكر في الجزاء تكفير السيئات، والجزاء يجب أن يكون مغايرًا للشرط، فحملنا التقوى على تقوى الكبائر وحملنا السيئات على الصغائر ليظهر الفرق بين الشرط والجزاء، وأما الجزاء المرتب على هذا الشرط فأمور ثلاثة: الأول: قوله: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ والمعنى أنه تعالى يفرق بينكم وبين الكفار. ولما كان اللفظ مطلقًا وجب حمله على جميع الفروق الحاصلة بين المؤمنين وبين الكفار فنقول: هذا الفرقان إما أن يعتبر في أحوال الدنيا أو في أحوال الآخرة. أما في أحوال الدنيا فإما أن يعتبر في أحوال القلوب وهي الأحوال الباطنة أو في الأحوال الظاهرة، أما في أحوال القلوب فأمور: أحدها: أنه تعالى يخص المؤمنين بالهداية والمعرفة. وثانيها: أنه يخص قلوبهم وصدورهم بالانشراح كما قال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[الزمر: ٢٢] وثالثها: أنه يزيل الغل والحقد والحسد عن قلوبهم ويزيل المكر والخداع عن صدورهم، مع أن المنافق والكافر يكون قلبه مملوءًا من هذه الأحوال الخسيسة والأخلاق الذميمة، والسبب في حصول هذه الأمور أن القلب إذا صار مشرقًا بطاعة الله تعالى زالت عنه كل هذه الظلمات لأن معرفة الله نور، وهذه الأخلاق ظلمات، وإذا ظهر النور فلا بد من زوال الظلمة. وأما في الأحوال الظاهرة، فإن الله تعالى يخص المسلمين بالعلو والفتح والنصر والظفر، كما قال:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقين: ٨] وكما قال: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣] وأمر الفاسق والكافر بالعكس من ذلك. وأما في أحوال الآخرة، فالثواب والمنافع الدائمة والتعظيم من الله والملائكة وكل هذه الأحوال داخلة في الفرقان.

والنوع الثاني: من الأجزية المرتبة على التقوى قوله: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ فنقول: إن حملنا قوله: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ على الاتقاء من الكفر، كان المراد بقوله: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ جميع السيئات التي وجدت قبل الكفر، وإن حملناه على الاتقاء عن الكبائر، كان المراد من هذا تكفير الصغائر.

والنوع الثالث: قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ واعلم أن المراد من تكفير السيئات سترها في الدنيا ومن المغفرة إزالتها في القيامة لئلا يلزم التكرار. ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ومن كان كذلك فإنه إذا وعد بشيء وفى به، وإنما قلنا: إن أفضال الله أعظم من أفضال غيره لوجوه: الأول: أن كل ما سوى الحق سبحانه فإنه لا يتفضل ولا يحسن إلا إذا حصلت في قلبه داعية الإفضال والإحسان، وتلك الداعية حادثة فلا تحصل إلا بتخليق الله تعالى، وعند هذا ينكشف أن المتفضل ليس إلا الله الذي خلق تلك الداعية الموجبة لذلك الفعل. الثاني: أن كل من تفضل يستفيد به نوعًا من أنواع الكمال إما عوضًا من المال أو عوضًا من المدح والثناء، وإما عوضًا من نوع آخر وهو دفع الألم الحاصل في القلب بسبب الرقة الجنسية والله تعالى يعطي ويتفضل ولا يطلب به شيئًا من الأعواض لأنه كامل لذاته، وما كان حاصلاً للشيء لذاته امتنع أن يستفيده من غيره. الثالث: أن كل من تفضل على الغير فإن المتفضل عليه يصير ممنونًا عليه من ذلك المتفضل، وذلك منفر، أما الحق سبحانه وتعالى فهو الموجد لذات كل أحد بجميع صفاته، فلا يحصل الاستنكاف من قبول إحسانه. الرابع: أن كل من تفضل على غيره فإنه لا ينتفع المتفضل عليه بذلك التفضل إلا إذا حصلت له عين باصرة وأذن سامعة ومعدة هاضمة. حتى ينتفع بذلك الإحسان، وعند هذا ينكشف أن المتفضل هو الله في الحقيقة فثبت بهذه البراهين صحة قوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر المؤمنين نعمه عليهم بقوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ [الأنفال: ٢٦] فكذلك ذكر رسوله نعمه عليه وهو دفع كيد المشركين ومكر الماكرين عنه، وهذه السورة مدنية. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم من المفسرين: إن مشركي قريش تآمروا في دار الندوة ودخل عليهم إبليس في صورة شيخ، وذكر أنه من أهل نجد. فقال بعضهم: قيدوه نتربص به ريب المنون، فقال إبليس: لا مصلحة فيه، لأنه يغضب له قومه فتسفك له الدماء. وقال بعضهم

أخرجوه عنكم تستريحوا من أذاه لكم، فقال إبليس: لا مصلحة فيه لأنه يجمع طائفة على نفسه ويقاتلكم بهم. وقال أبو جهل: الرأي أن نجمع من كل قبيلة رجلاً فيضربوه بأسيافهم ضربة واحدة فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على محاربة قريش كلها، فيرضون بأخذ الدية، فقال إبليس: هذا هو الرأي الصواب، فأوحى الله تعالى إلى نبيه بذلك وأذن له في الخروج إلى المدينة وأمره أن لا يبيت في مضجعه وأذن الله له في الهجرة، وأمر عليًا أن يبيت في مضجعه، وقال له: تسج ببردتي فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه وباتوا مترصدين، فلما أصبحوا ثاروا إلى مضجعه فأبصروا عليًا فبهتوا وخيب الله سعيهم. وقوله: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ قال ابن عباس: ليوثقوك ويشدوك وكل من شد فقد أثبت، لأنه لا يقدر على الحركة ولهذا يقال لمن اشتدت به علة أو جراحه تمنعه من الحركة. فقد أثبت فلان فهو مثبت، وقيل ليسجنوك، وقيل ليحبسوك، وقيل ليثبتوك في بيت فحذف المحل لوضوح معناه، وقرأ بعضهم (ليثبتوك) بالتشديد وقرأ النخعي (ليثبتوك) من البيات وقوله: ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ وهو الذي حكيناه عن أبي جهل لعنه الله ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ أي من مكة، ولما ذكر تعالى هذه الأقسام الثلاثة قال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ وقد ذكرنا في سورة آل عمران في تفسير قوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] تفسير المكر في حق الله تعالى، والحاصل أنهم احتالوا على إبطال أمر محمد والله تعالى نصره وقواه، فضاع فعلهم وظهر صنع الله تعالى. قال القاضي: القصة التي ذكرها ابن عباس موافقة للقرآن إلا ما فيها من حديث إبليس، فإنه زعم أنه كانت صورته موافقة لصورة الإنس وذلك باطل، لأن ذلك التصوير إما أن يكون من فعل الله أو من فعل إبليس، والأول باطل لأنه لا يجوز من الله تعالى أن يفعل ذلك ليفتن الكفار في المكر، والثاني أيضًا باطل، لأنه لا يليق بحكمة الله تعالى أن يقدر إبليس على تغيير صورة نفسه.

واعلم أن هذا النزاع عجيب، فإنه لما لم يبعد من الله تعالى أن يقدر إبليس على أنواع الوساوس فكيف يبعد منه أن يقدره على تغيير صورة نفسه؟

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ ولا خير في مكرهم؟.

قلنا: فيه وجوه: أحدها: أن يكون المراد أقوى الماكرين فوضع (خير) موضع أقوى وأشد، لينبه بذلك على أن كل مكر فهو يبطل في مقابلة فعل الله تعالى. وثانيها: أن يكون المراد خير الماكرين لو قدر في مكرهم ما يكون خيرًا وحسنًا. وثالثها: أن يكون المراد من قوله: ﴿خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ ليس هو التفضيل، بل المراد أنه في نفسه خير كما يقال: الثريد خير من الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا

كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى مكرهم في ذات محمد. حكى مكرهم في دين محمد، روى أن النضر بن الحرث خرج إلى الحيرة تاجرًا، واشترى أحاديث كليلة ودمنة، وكان يقعد مع المستهزئين والمقتسمين وهو منهم، فيقرأ عليهم أساطير الأولين، وكان يزعم أنها مثل ما يذكره محمد من قصص الأولين، فهذا هو المراد من قوله: ﴿قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وههنا موضع بحث، وذلك لأن الاعتماد في كون القرآن معجزًا عن أنه ﷺ تحدى العرب بالمعارضة، فلم يأتوا بها، وهذا إشارة إلى أنهم أتوا بتلك المعارضة، وذلك يوجب سقوط الدليل المعول عليه.

والجواب: أن كلمة (لو) تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره. فقوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ﴾ يدل على أنه ما شاء ذلك القول، وما قال. فثبت أن النضر بن الحرث أقر أنه ما أتى بالمعارضة، وإنما أخبر أنه لو شاءها لأتى بها، وهذا ضعيف. لأن المقصود إنما يحصل لو أتى بالمعارضة، أما مجرد هذا القول فلا فائدة فيه.

والشبهة الثانية: لهم قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي بنوع آخر من العذاب أشد من ذلك وأشق منه علينا.

فإن قيل: هذا الكلام يوجب الإشكال من وجهين: الأول: أن قوله ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ حكاه الله عن الكفار، وكان هذا كلام الكفار وهو من جنس نظم القرآن فقد حصلت المعارضة في هذا القدر، وأيضًا حكى عنهم أنهم قالوا في سورة بني إسرائيل: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] وذلك أيضًا كلام الكفار فقد حصل من كلامهم ما يشبه نظم القرآن ومعارضته، وذلك يدل على حصول المعارضة. الثاني: أن كفار قريش كانوا معترفين بوجود الإله وقدرته وحكمته وكانوا قد سمعوا التهديد الكثير من محمد عليه الصلاة والسلام في نزول العذاب، فلو كان نزول القرآن معجزًا لعرفوا كونه معجزًا لأنهم أرباب الفصاحة والبلاغة، ولو عرفوا ذلك لكان أقل الأحوال أن يصيروا شاكين في نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، ولو كانوا كذلك لما أقدموا على قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لأن المتوقف الشاك لا يتجاسر على مثل هذه المبالغة، وحيث أتوا بهذه المبالغة، علمنا أنه ما لاح لهم في القرآن وجه من الوجوه المعجزة.

والجواب عن الأول: أن الإتيان بهذا القدر من الكلام لا يكفي في حصول المعارضة، لأن

هذا المقدار كلام قليل لا يظهر فيه وجوه الفصاحة والبلاغة، وهذا الجواب لا يتمشى إلا إذا قلنا التحدي ما وقع بجميع السور، وإنما وقع بالسورة الطويلة التي يظهر فيها قوة الكلام.

والجواب عن الثاني: هب أنه لم يظهر لهم الوجه في كون القرآن معجز إلا أنه لما كان معجزًا في نفسه، فسواء عرفوا ذلك الوجه أو لم يعرفوا فإنه لا يتفاوت الحال فيه.

المسألة الثانية: قوله: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ قال الزجاج: القراءة بنصب (الحق) على خبر (كان) ودخلت (هو) للفصل ولا موضع لها، وهي بمنزلة (ما) المؤكدة ودخلت ليعلم أن قوله: ﴿الْحَقَّ﴾ ليس بصفة لهذا وأنه خبر. قال: ويجوز هو الحق رفعًا ولا أعلم أحدًا قرأ بها ولا خلاف بين النحويين في إجازتها، ولكن القراءة سنة، وروى صاحب (الكشاف) عن الأعمش أنه قرأ بها.

واعلم أنه تعالى لما حكى هاتين الشبهتين لم يذكر الجواب عن الشبهة الأولى، وهو قوله: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾ ولكنه ذكر الجواب عن الشبهة الثانية، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن تقرير وجه الجواب أن الكفار لما بالغوا وقالوا: اللهم إن كان محمد محقًّا فأمطر علينا حجارة من السماء، ذكر تعالى أن محمدًا وإن كان محقًّا في قوله إلا أنه مع ذلك لا يمطر الحجارة على أعدائه، وعلى منكري نبوته، لسببين: الأول: أن محمدًا عليه الصلاة والسلام ما دام يكون حاضرًا معهم، فإنه تعالى لا يفعل بهم ذلك تعظيمًا له، وهذا أيضًا عادة الله مع جميع الأنبياء المتقدمين، فإنه لم يعذب أهل قرية إلا بعد أن يخرج رسولهم منها، كما كان في حق هود وصالح ولوط.

فإن قيل: لما كان حضوره فيهم مانعًا من نزول العذاب عليهم، فكيف قال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤].

قلنا: المراد من الأول عذاب الاستئصال، ومن الثاني: العذاب الحاصل بالمحاربة والمقاتلة.

والسبب الثاني: قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وفي تفسيره وجوه: الأول: وما كان الله معذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون، فاللفظ وإن كان عامًّا إلا أن المراد بعضهم كما يقال: قتل أهل المحلة رجلًا، وأقدم أهل البلدة الفلانية على الفساد، والمراد بعضهم. الثاني: وما كان الله معذب هؤلاء الكفار، وفي علم الله أنه يكون لهم أولاد يؤمنون بالله ويستغفرونه، فوصفوا بصفة أولادهم وذراريهم. الثالث: قال قتادة والسدي: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: لو استغفروا لم يعذبوا، فكان المطلوب من ذكر هذا الكلام استدعاء الاستغفار منهم. أي: لو اشتغلوا بالاستغفار لما عذبهم الله. ولهذا ذهب بعضهم إلى أن الاستغفار ههنا بمعنى الإسلام والمعنى: أنه كان معهم قوم كان في علم الله أن يسلموا.

منهم أبو سفيان بن حرب. وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب. والحرث بن هشام. وحكيم بن حزام. وعدد كثير، والمعنى ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ مع أن في علم الله أن فيهم من يؤل أمره إلى الإيمان. قال أهل المعاني: دلت هذه الآية على أن الاستغفار أمان وسلامة من العذاب. قال ابن عباس: كان فيهم أمانان نبي الله والاستغفار، أما النبي فقد مضى، وأما الاستغفار فهو باق إلى يوم القيامة، ثم قال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ واعلم أنه تعالى بين في الآية الأولى أنه لا يعذبهم ما دام رسول الله فيهم، وذكر في هذه الآية أنه يعذبهم فكان المعنى أنه يعذبهم إذا خرج الرسول من بينهم ثم اختلفوا في هذا العذاب فقال بعضهم: لحقهم هذا العذاب المتوعد به يوم بدر، وقيل: بل يوم فتح مكة، وقال ابن عباس: هذا العذاب هو عذاب الآخرة، والعذاب الذي نفاه عنهم هو عذاب الدنيا، ثم بين تعالى ما لأجله يعذبهم، فقال: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وقد ظهرت الأخبار أنهم كيف صدوا عنه عام الحديبية، ونبه على أنهم يصدون لادعائهم أنهم أولياؤه، ثم بيّن بطلان هذه الدعوى بقوله: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الذين يتحرزون عن المنكرات، كالذي كانوا يفعلونه عند البيت من المكاء والتصدية، والمقصود بيان أن من كانت هذه حاله لم يكن وليًّا للمسجد الحرام، فهم إذن أهل لأن يقتلوا بالسيف ويحاربوا، فقتلهم الله يوم بدر، وأعز الإسلام بذلك على ما تقدم شرحه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قال في حق الكفار أنهم ما كانوا أولياء البيت الحرام. وقال: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤] بين بعده ما به خرجوا من أن يكونوا أولياء البيت، وهو أن صلاتهم عند البيت وتقربهم وعبادتهم إنما كان بالمكاء والتصدية. قال صاحب (الكشاف): المكاء فعال بوزن النغاء والرغاء من مكا يمكو إذا صفر، والمكاء الصفير. ومنه المكاء وهو طائر يألف الريف، وجمعه المكاكي سمي بذلك لكثرة مكانه. وأما التصدية فهي التصفيق. يقال: صدى يصدي تصدية إذا صفق بيديه، وفي أصلها قولان: الأول: أنها من الصدى وهو الصوت الذي يرجع من جبل. الثاني: قال أبو عبيدة: أصلها تصددة، فأبدلت الياء من الدال. ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] أي: يعجزون، وأنكر بعضهم هذا الكلام، والأزهري صحح قول أبي عبيدة. وقال: صدى أصله صدى، فكثرت الدالات الدالة فقلبت إحداهن ياء.

إذا عرفت هذا فنقول: قال ابن عباس: كانت قريش يطوفون بالبيت عراة يصفرون ويصفقون وقال مجاهد: كانوا يعارضون النبي ﷺ في الطواف ويستهزؤون به ويصفرون ويخلطون عليه

طوافه وصلاته، وقال مقاتل: كان إذا صلى الرسول في المسجد يقومون عن يمينه ويساره بالتصفير والتصفيق ليخلطوا عليه صلاته. فعلى قول ابن عباس: كان المكاء والتصدية نوع عبادة لهم، وعلى قول مجاهد ومقاتل، كان إيذاء للنبي ﷺ. والأول أقرب لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾.

فإن قيل: المكاء والتصدية ما كانا من جنس الصلاة فكيف يجوز استثناؤهما عن الصلاة؟

قلنا: فيه وجوه: الأول: أنهم كانوا يعتقدون أن المكاء والتصدية من جنس الصلاة، فخرج هذا الاستثناء على حسب معتقدهم. الثاني: أن هذا كقولك وددت الأمير فجعل جفائي صلتي. أي أقام الجفاء مقام الصلة فكذا ههنا. الثالث: الغرض منه أن من كان المكاء والتصدية صلاته فلا صلاة له، كما تقول العرب، ما لفلان عيب إلا السخاء. يريد من كان السخاء عيبه فلا عيب له.

ثم قال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: عذاب السيف يوم بدر، وقيل: يقال لهم في الآخرة: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال هؤلاء الكفار في الطاعات البدنية، أتبعها بشرح أحوالهم في الطاعات المالية. قال مقاتل والكلبي: نزلت في المطعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً من كبار قريش. وقال سعيد بن جبير ومجاهد: نزلت في أبي سفيان وإنفاقه المال على حرب محمد يوم أحد، وكان قد استأجر ألفين من الأحابيش سوى من استجاش من العرب، وأنفق عليهم أربعين أوقية والأوقية اثنان وأربعون مثقالاً، هكذا قاله صاحب (الكشاف). ثم بين تعالى أنهم إنما ينفقون هذا المال ليصدوا عن سبيل الله، أي: كان غرضهم في الإنفاق الصد عن اتباع محمد وهو سبيل الله، وإن لم يكن عندهم كذلك.

ثم قال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ يعني: أنه سيقع هذا الإنفاق ويكون عاقبته الحسرة، لأنه يذهب المال ولا يحصل المقصود، بل يصيرون مغلوبين في آخر الأمر كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

ففيه بحثان:

البحث الأول: أنه لم يقل: وإلى جهنم يحشرون، لأنه كان فيهم من أسلم، بل ذكر أن الذين

بقوا على الكفر يكونون كذلك.

البحث الثاني: أن ظاهر قوله: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يفيد أنه لا يكون حشرهم إلا إلى جهنم، لأن تقديم الخبر يفيد الحصر.

واعلم أن المقصود من هذا الكلام أنهم لا يستفيدون من بذلهم أموالهم في تلك الإنفاقات إلا الحسرة والخيبة في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة، وذلك يوجب الزجر العظيم عن ذلك الإنفاق، ثم قال: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.

وفيه قولان:

القول الأول: ليميز الله الفريق الخبيث من الكفار من الفريق الطيب من المؤمنين فيجعل الفريق الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا وهو عبارة عن الجمع والضم حتى يتراكموا كقوله تعالى: ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾[الجن: ١٩] يعني لفرط ازدحامهم فقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الفريق الخبيث.

والقول الثاني: المراد بالخبيث نفقة الكافر على عداوة محمد، وبالطيب نفقة المؤمن في جهاد الكفار، كإنفاق أبي بكر وعثمان في نصرة الرسول عليه الصلاة والسلام فيضم تعالى تلك الأمور الخبيثة بعضها إلى بعض فيلقيها في جهنم ويعذبهم بها كقوله تعالى: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾[التوبة: ٣٥] واللام في قوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ﴾ على القول الأول متعلق بقوله: ﴿يُحْشَرُونَ﴾ والمعنى أنهم يحشرون ليميز الله الفريق الخبيث من الفريق الطيب، وعلى القول الثاني متعلق بقوله: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ثم قال: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ وهو إشارة إلى الذين كفروا.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين صلاتهم في عباداتهم البدنية، وعباداتهم المالية، أرشدهم إلى طريق الصواب وقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي قل لأجلهم هذا القول، وهو: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم﴾ ولو كان بمعنى خاطبهم به لقيل: إن تنتهوا يغفر وقال ابن مسعود هكذا.

المسألة الثانية: المعنى: أن هؤلاء الكفار إن انتهوا عن الكفر وعداوة الرسول، ودخلوا الإسلام والتزموا شرائعه غفر الله لهم ما قد سلف من كفرهم وعداوتهم للرسول وإن عادوا إليه

وإصروا عليه فقد مضت سنة الأولين. وفيه وجوه: الأول: المراد فقد مضت سنة الأولين منهم الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر. الثاني: فقد مضت سنة الأولين الذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم الذين قد مروا فليتوقعوا مثل ذلك إن لم ينتهوا. الثالث: أن معناه أن الكفار إذا انتهوا عن الكفر وأسلموا غفر لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصي وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين وهي قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[المجادلة: ٢١] ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾[الصافات: ١٧١] ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[الأنبياء: ١٠٥].

المسألة الثالثة: اختلف الفقهاء في أن توبة الزنديق هل تقبل أم لا؟ والصحيح أنها مقبولة لوجوه: الأول: هذه الآية، فإن قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ يتناول جميع أنواع الكفر.

فإن قيل: الزنديق لا يعلم من حاله أنه هل انتهى من زندقته أم لا؟

قلنا: أحكام الشرع مبنية على الظواهر، كما قال عليه السلام: «**نَحْنُ نَحْكُمُ بِالظَّاهِرِ**»(١) فلما رجع وجب قبول قوله فيه. الثاني: لا شك أنه مكلف بالرجوع ولا طريق له إليه إلا بهذه التوبة فلو لم تقبل لزم تكليف ما لا يطاق. الثالث: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾[الشورى: ٢٥].

المسألة الرابعة: احتج أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية على أن الكفار ليسوا مخاطبين بفروع الشرائع، قالوا لأنهم لو كانوا مخاطبين بها، لكان إما أن يكونوا مخاطبين بها مع الكفر أو بعد زوال الكفر. والأول باطل بالإجماع، والثاني باطل؛ لأن هذه الآية تدل على أن الكافر بعد الإسلام لا يؤاخذ بشيء مما مر عليه في زمان الكفر وإيجاب قضاء تلك العبادات ينافي ظاهر هذه الآية.

المسألة الخامسة: احتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية على أن المرتد إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات التي تركها في حالة الردة وقبلها، ووجه الدلالة ظاهر.

---

(١) وأورده ابن حجر في (التلخيص) (٤/ ١٩٢) حديث رقم/ ٢١٠٠ وقال: هذا الحديث استنكره المزني فيما حكاه ابن كثير عنه في أدلة التنبيه، وقال النسائي في سننه باب الحكم بالظاهر ثم أورد حديث أم سلمة الذي قبله، وقد ثبت في تخريج أحاديث المنهاج للبيضاوي سبب وقوع الوهم من الفقهاء في جعلهم هذا حديثًا مرفوعًا وأن الشافعي قال في كلام له وقد أمر الله نبيه أن يحكم بالظاهر والله متولي السرائر، وكذا قال ابن عبد البر في التمهيد: أجمعوا أن أحكام الدنيا على الظاهر وأن أمر السرائر إلى الله، وأغرب إسماعيل بن علي بن إبراهيم بن أبي القاسم الجنزوي في كتابه إدارة الأحكام فقال: إن هذا الحديث ورد في قصة سنان والحضرمي اللذين اختصما في الأرض فقال المقضي عليه: قضيت علي والحق لي فقال ﷺ: (إنما أقضي بالظاهر والله يتولى السرائر) وفي الباب حديث عمر: إنما كانوا يؤخذون بالوحي على عهد النبي ﷺ وإن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن. بما ظهر لنا من أعمالكم أخرجه البخاري، وحديث أبي سعيد رفعه (إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس) وهو في الصحيح في قصة الذهب الذي بعث به علي. وقال ابن الملقن في (خلاصة البدر المنير) (٢/ ٤٣٢) حديث رقم/ ٢٨٧١: غريب قال الحافظ جمال الدين المزني: لانعرفه.

المسألة السادسة: قال عليه السلام: «الإِسْلَام يَجُبُّ مَا قَبْلَه» فإذا أسلم الكافر لم يلزمه قضاء شيء من العبادات البدنية والمالية وما كان له من جناية على نفس أو مال فهو معفو عنه وهو ساعة إسلامه كيوم ولدته أمه. وقال يحيى بن معاذ الرازي في هذه الآية أن توحيد ساعة يهدم كفر سبعين سنة، وتوحيد سبعين سنة كيف لا يقوى على هدم ذنب ساعة؟

قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن هؤلاء الكفار إن انتهوا عن كفرهم حصل لهم الغفران، وإن عادوا فهم متوعدون بسنة الأولين، أتبعه بأن أمر بقتالهم إذا أصروا فقال: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ قال عروة بن الزبير: كان المؤمنون في مبدأ الدعوة يفتنون عن دين الله، فافتتن من المسلمين بعضهم وأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن يخرجوا إلى الحبشة، وفتنة ثانية وهو أنه لما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ بيعة العقبة، توامرت قريش أن يفتنوا المؤمنين بمكة عن دينهم، فأصاب المؤمنين جهد شديد، فهذا هو المراد من الفتنة، فأمر الله تعالى بقتالهم حتى تزول هذه الفتنة. وفيه وجه آخر، وهو أن مبالغة الناس في حبهم أديانهم أشد من مبالغتهم في حبهم أرواحهم، فالكافر أبدًا يسعى بأعظم وجوه السعي في إيذاء المؤمنين وفي إلقاء الشبهات في قلوبهم وفي إلقائهم في وجوه المحنة والمشقة، وإذا وقعت المقاتلة زال الكفر والمشقة، وخلص الإسلام وزالت تلك الفتن بالكلية. قال القاضي: إنه تعالى أمر بقتالهم ثم بين العلة التي بها أوجب قتالهم، فقال: ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ ويخلص الدين الذي هو دين الله من سائر الأديان، وإنما يحصل هذا المقصود إذا زال الكفر بالكلية. إذا عرفت هذا فنقول: إما أن يكون المراد من الآية ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ ﴾ لأجل أن يحصل هذا المعنى أو يكون المراد ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ ﴾ لغرض أن يحصل هذا المعنى فإن كان المراد من الآية هو الأول وجب أن يحصل هذا المعنى من القتال فوجب أن يكون المراد ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ في أرض مكة وما حواليها، لأن المقصود حصل هنا، قال عليه السلام: «لاَ يَجْتَمِعُ دِيْنَانِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ» (١) ولا يمكن حمله على جميع البلاد، إذ لو كان ذلك مرادًا لما بقي الكفر فيها مع حصول القتال الذي أمر الله به، وأما إذا كان المراد من

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (١/ ١٩٥) حديث رقم/ ١٦٩١ قال: حدثنا يحيى بن سعيد... به. وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح. والدارمي في كتاب (السير) باب (إخراج المشركين من جزيرة العرب) (٢/ ٩٩) حديث رقم/ ٢٤٩٨، والبيهقي في (السنن) (٩/ ٢٠٨) قال: حدثنا يحيى بن سعيد... به. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٥/ ٣٢٥) وقال: رواه أحمد بإسنادين ورجال طريقتين منها ثقات متصل إسنادهما ورواه أبو يعلي... به. وأورده الأصفهاني في (الحلية) (٨/ ٣٧٢).

الآية هو الثاني، وهو قوله: قاتلوهم لغرض أن يكون الدين كله لله، فعلى هذا التقدير لم يمتنع حمله على إزالة الكفر عن جميع العالم لأنه ليس كل ما كان غرضًا للإنسان، فإنه يحصل، فكان المراد الأمر بالقتال لحصول هذا الغرض سواء حصل في نفس الأمر أو لم يحصل.

ثم قال: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ والمعنى ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن الكفر وسائر المعاصي بالتوبة والإيمان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عالم لا يخفى عليه شيء يوصل إليهم ثوابهم ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ يعني عن التوبة والإيمان ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي وليكم الذي يحفظكم ويرفع البلاء عنكم، ثم بين أنه تعالى ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ وكل ما كان في حماية هذا المولى وفي حفظه وكفايته، كان آمنًا من الآفات مصونًا عن المخوفات.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر بالمقاتلة في قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾ وكان من المعلوم أن عند المقاتلة قد تحصل الغنيمة، لا جرم ذكر الله تعالى حكم الغنيمة.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: الغنم: الفوز بالشيء، يقال: غنم يغنم غنمًا فهو غانم، والغنيمة في الشريعة ما دخلت في أيدي المسلمين من أموال المشركين على سبيل القهر بالخيل والركاب.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف): (ما) في قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ موصولة وقوله: ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ يعني أي شيء كان حتى الخيط والمخيط ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: فحق أو فواجب أن لله خمسه، وروى النخعي عن ابن عمر (فإن لله خمسه) بالكسر، وتقديره: على قراءة النخعي فلله خمسه والمشهور آكد وأثبت للإيجاب، كأنه قيل: فلا بد من إثبات الخمس فيه، ولا سبيل إلى الإخلال به، وذلك لأنه إذا حذف الخبر واحتمل وجوهًا كثيرة من المقدرات كقولك ثابت: واجب، حق، لازم، كان أقوى لإيجابه من النص على واحد، وقرئ (خُمْسَه) بالسكون.

المسألة الثالثة: في كيفية قسمة الغنائم.

اعلم أن هذه الآية تقتضي أن يؤخذ خمسها، وفي كيفية قسمة ذلك الخمس قولان:

القول الأول: وهو المشهور أن ذلك الخمس يخمس، فسهم لرسول الله، وسهم لذوي قرباه من بني هاشم وبني المطلب، دون بني عبد شمس وبني نوفل، لما روي عن عثمان وجبير بن مطعم أنهما قالا لرسول الله ﷺ: هؤلاء إخوتك بنو هاشم لا ينكر فضلهم لكونك منهم أرأيت

إخواننا بني المطلب أعطيتهم وحرمتنا، وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة، فقال عليه السلام: «إِنَّهُمْ لَمْ يُفَارِقُونَا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلاَ إِسْلاَمٍ إِنَّمَا بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَّلِبِ شَيْءٌ وَاحِدٌ» وشبك بين أصابعه[(١)] وثلاثة أسهم لليتامى والمساكين وابن السبيل، وأما بعد وفاة الرسول ﷺ، فعند الشافعي رحمه الله: أنه يقسم على خمسة أسهم، سهم لرسول الله، يصرف إلى ما كان يصرفه إليه من مصالح المسلمين، كعدة الغزاة من الكراع والسلاح، وسهم لذوي القربى من أغنيائهم وفقرائهم يقسم بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين، والباقي للفرق الثلاثة وهم: اليتامى، والمساكين، وابن السبيل. وقال أبو حنيفة رحمه الله: إن بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام سهمه ساقط بسبب موته، وكذلك سهم ذوي القربى، وإنما يعطون لفقرهم، فهو أسوة سائر الفقراء، ولا يعطى أغنياؤهم فيقسم على اليتامى والمساكين وابن السبيل. وقال مالك: الأمر في الخمس مفوض إلى رأي الإمام إن رأى قسمته على هؤلاء فعل، وإن رأى إعطاء بعضهم دون بعض، فله ذلك.

واعلم أن ظاهر الآية مطابق لقول الشافعي رحمه الله وصريح فيه، فلا يجوز العدول عنه إلا لدليل منفصل أقوى منها، وكيف وقد قال في آخر الآية: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ [يونس: ٨٤] يعني: إن كنتم آمنتم بالله فاحكموا بهذه القسمة، وهو يدل على أنه متى لم يحصل الحكم بهذه القسمة، لم يحصل الإيمان بالله.

والقول الثاني: وهو قول أبي العالية: إن خمس الغنيمة يقسم على ستة أقسام، فواحد منها لله، وواحد لرسول الله، والثالث لذوي القربى، والثلاثة الباقية لليتامى والمساكين وابن السبيل قالوا: والدليل عليه أنه تعالى جعل خمس الغنيمة لله، ثم للطوائف الخمسة، ثم القائلون بهذا القول منهم من قال: يصرف سهم الله إلى الرسول، ومنهم من قال: يصرف إلى عمارة الكعبة. وقال بعضهم: إنه عليه السلام كان يضرب يده في هذا الخمس، فما قبض عليه من شيء جعله للكعبة، وهو الذي سمى لله تعالى.

والقائلون بالقول الأول أجابوا عنه: بأن قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ ليس المقصود منه إثبات نصيب لله. فإن الأشياء كلها ملك لله، وملكه وإنما المقصود منه افتتاح الكلام بذكر الله على سبيل التعظيم، كما في قوله: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١] واحتج القفال على صحة هذا القول بما روي عن رسول الله ﷺ، أنه قال لهم في غنائم خيبر: «مَا لِي مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إلاَّ الْخُمُسُ

---

(١) أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٣/ ٥٥٦) حديث رقم/ ١٦١١٩ من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن جبير بن مطعم... به. وجاء بإسناد حسن صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الخراج والإمارة) باب (بيان قسم الخمس) (٣/ ١٤٦) حديث رقم/ ٢٩٨٠ من طريق هشيم... به. والنسائي في كتاب (قسم الفيء) (٤/ ٥٦) حديث رقم/ ٤١٤٨ من طريق يزيد بن هارون... به. وأحمد في (مسنده) (٤/ ٨١) من طريق يزيد بن هارون... به. كلاهما (يزيد، هشيم) عن محمد بن إسحاق... به.

وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ»[١] فقوله: ما لي إلا الخمس يدل على أن سهم الله وسهم الرسول واحد، وعلى الإضمام سهمه السدس لا الخمس، وإن قلنا: إن السهمين يكونان للرسول. صار سهمه أزيد من الخمس، وكلا القولين ينافي ظاهر قوله: -ما لي إلا الخمس- هذا هو الكلام في قسمة خمس الغنيمة، وأما الباقي وهو أربعة أخماس الغنيمة فهي للغانمين. لأنهم الذين حازوه واكتسبوه كما يكتسب الكلأ بالاحتشاش، والطير بالاصطياد، والفقهاء استنبطوا من هذه الآية مسائل كثيرة مذكورة في كتب الفقه.

المسألة الرابعة: دلت الآية على أنه يجوز قسمة الغنائم في دار الحرب، كما هو قول الشافعي رحمه الله، والدليل عليه: أن قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ يقتضي ثبوت الملك لهؤلاء في الغنيمة، وإذا حصل الملك لهم فيه، وجب جواز القسمة لأنه لا معنى للقسمة على هذا التقدير إلا صرف الملك إلى المالك، وذلك جائز بالاتفاق.

المسألة الخامسة: اختلفوا في ذوي القربى. قيل: هم بنو هاشم. وقال الشافعي رحمه الله: هم بنو هاشم وبنو المطلب. واحتج بالخبر الذي رويناه. وقيل: آل علي، وجعفر، وعقيل، وآل عباس، وولد الحرث بن عبد المطلب، وهو قول أبي حنيفة.

المسألة السادسة: حكى صاحب (الكشاف) عن الكلبي: أن هذه الآية نزلت ببدر. وقال الواقدي رحمه الله: كان الخمس في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهرًا من الهجرة.

ثم قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ والمعنى اعلموا أن خمس الغنيمة مصروف إلى هذه الوجوه الخمسة فاقطعوا عنه أطماعكم واقنعوا بالأخماس الأربعة ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعني: إن كنتم آمنتم بالله وبالمنزل على عبدنا يوم الفرقان، يوم بدر. والجمعان: الفريقان من المسلمين والكافرين، والمراد منه ما أنزل عليه من الآيات، والملائكة، والفتح في ذلك اليوم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: يقدر على نصركم وأنتم قليلون ذليلون والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الجهاد) باب (في فداء الأسير بالمال) (٣/ ٦٢) حديث رقم/ ٢٦٩٤ مطولا من طريق حماد بن سلمة... به. والنسائي في كتاب (قسم الفيء) (٤/ ٥٧) حديث رقم/ ٤١٥٠ من طريق حماد بن سلمة... به. وأحمد في (مسنده) (٢/ ١٨٤) من طريق حماد بن سلمة... به. وكذلك في (٢/ ٢١٨) من طريق إبراهيم بن سعد... به. كلاهما (حماد، إبراهيم) عن محمد بن إسحاق... به.

﴿مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قولان: أحدهما: أنه متعلق بمضمر معناه واذكروا إذ أنتم كذا وكذا، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ [الأنفال: ٢٦] والثاني: أن يكون قوله: ﴿إِذْ﴾ بدلاً عن يوم الفرقان.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو (بالعدوة) بكسر العين في الحرفين. والباقون بالضم، وهما لغتان. قال ابن السكيت: عدوة الوادي وعدوته جانبه، والجمع عدى، وعدي. قال الأخفش: الكسر كلام العرب لم يسمع عنهم غير ذلك. وقال أحمد بن يحيى: الضم في العدوة أكثر اللغتين. وحكى صاحب (الكشاف): الضم والفتح والكسر. قال: وقرئ بهن و (بالعدية) على قلب الواو ياء، لأن بينها وبين الكسر حاجزًا غير حصين، كما في الفتية. وأما (الدنيا) فتأنيث الأدنى وضده (القصوى) وهو تأنيث الأقصى، وكل شيء تنحى عن شيء، فقد قصا، والأقصى والقصوى كالأكبر والكبرى.

فإن قيل: كلتاهما فعلى من باب الواو، فلم جاءت إحداهما بالياء والثانية بالواو؟

قلنا: القياس قلب الواو ياء، كالعليا. وأما القصوى، فقد جاء شاذًا، وأكثر استعماله على أصله.

المسألة الثالثة: المراد بالعدوة الدنيا: ما يلي جانب المدينة، وبالقصوى: ما يلي جانب مكة وكان الماء في العدوة التي نزل بها المشركون، وكان استظهارهم من هذا الوجه أشد (والركب) العير التي خرجوا لها كانت في موضع ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ إلى ساحر البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أنتم وأهل مكة على القتال، لخالف بعضكم بعضًا لقلتكم وكثرتهم ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي أنه يثبتكم الله، وينصركم، ليقضي أمرًا كان مفعولاً، واجبًا أن يخرج إلى الفعل وقوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ﴾ بدل من قوله: ﴿لِّيَقْضِيَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لا شك أن عسكر الرسول عليه السلام في أول الأمر كانوا في غاية الخوف والضعف بسبب القلة وعدم الأهبة، ونزلوا بعيدين عن الماء، وكانت الأرض التي نزلوا فيها أرضًا رملية تغوص فيها أرجلهم. وأما الكفار، فكانوا في غاية القوة بسبب الكثرة في العدد، وبسبب حصول الآلات والأدوات، لأنهم كانوا قريبين من الماء، ولأن الأرض التي نزلوا فيها كانت صالحة للمشي، ولأن العير كانوا خلف ظهورهم، وكانوا يتوقعون مجيء المدد من العير

إليهم ساعة فساعة، ثم إنه تعالى قلب القصة وعكس القضية، وجعل الغلبة للمسلمين، والدمار على الكافرين فصار ذلك من أعظم المعجزات وأقوى البينات على صدق محمد ﷺ، فيما أخبر عن ربه من وعد النصر والفتح والظفر. فقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ إشارة إلى هذا المعنى، وهو أن الذين هلكوا إنما هلكوا بعد مشاهدة هذه المعجزة، والمؤمنون الذين بقوا في الحياة شاهدوا هذه المعجزة القاهرة، والمراد من البينة هذه المعجزة.

المسألة الثانية: اللام في قوله: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ وفي قوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ لام الغرض، وظاهره يقتضي تعليل أفعال الله وأحكامه بالأغراض والمصالح، إلا أنا نصرف هذا الكلام عن ظاهره بالدلائل العقلية المشهورة.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ ظاهره يقتضي أنه تعالى أراد من الكل العلم والمعرفة والخير والصلاح، وذلك يقدح في قول أصحابنا: أنه تعالى أراد الكفر من الكافر، لكنا نترك هذا الظاهر بالدلائل المعلومة.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم والبزي عن ابن كثير ونصير عن الكسائي (من حيي) بإظهار الياءين وأبو عمرو، وابن كثير برواية القواس، وابن عامر وحفص عن عاصم والكسائي بياء مشددة على الإدغام. فأما الإدغام فللزوم الحركة في الثاني، فجرى مجرى رد لأنه في المصحف مكتوب بياء واحدة. وأما الإظهار فلامتناع الإدغام في مضارعه من (يحيى) فجرى على مشاكلته، وأجاز بعض الكوفيين الإدغام في (يحيى).

ثم إنه تعالى ختم الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي يسمع دعاءكم ويعلم حاجتكم وضعفكم، فأصلح مهمكم.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثاني من التي أنعم الله بها على أهل بدر.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ منصوب بإضمار اذكر، أو هو بدل ثان من يوم الفرقان أو متعلق بقوله: ﴿لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢] أي يعلم المصالح إذ يقللهم في أعينكم.

المسألة الثانية: قال مجاهد: أرى الله النبي عليه السلام كفار قريش في منامه قليلاً فأخبر

بذلك أصحابه. فقالوا: رؤيا النبي حق، القوم قليل، فصار ذلك سببًا لجراءتهم وقوة قلوبهم.

فإن قيل: رؤية الكثير قليلاً غلط، فكيف يجوز من الله تعالى أن يفعل ذلك؟

قلنا: مذهبنا أنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وأيضًا لعله تعالى أراه البعض دون البعض فحكم الرسول على أولئك الذين رآهم بأنهم قليلون. وعن الحسن: هذه الأراءة كانت في اليقظة. قال: والمراد من المنام العين التي هو موضع النوم.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا﴾ لذكرته للقوم ولو سمعوا ذلك لفشلوا ولتنازعوا، ومعنى التنازع في الأمر، الاختلاف الذي يحاول به كل واحد نزع صاحبه عما هو عليه، والمعنى: لاضطرب أمركم واختلفت كلمتكم ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي سلمكم من المخالفة فيما بينكم. وقيل: سلم الله لهم أمرهم حتى أظهرهم على عدوهم، وقيل سلمهم من الهزيمة يوم بدر والأظهر أن المراد: ولكن الله سلمكم من التنازع ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يعلم ما يحصل فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثالث من النعم التي أظهرها الله للمسلمين يوم بدر، والمراد أن القليل الذي حصل في النوم تأكد ذلك بحصوله في اليقظة. قال صاحب (الكشاف): ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الضميران مفعولان يعني إذ يبصركم إياهم، و﴿ قَلِيلًا﴾ نصب على الحال.

واعلم أنه تعالى قلل عدد المشركين في أعين المؤمنين، وقلل أيضًا عدد المؤمنين في أعين المشركين. والحكمة في التقليل الأول، تصديق رؤيا الرسول ﷺ وأيضًا لتقوى قلوبهم وتزداد جراءتهم عليهم، والحكمة في التقليل. الثاني: أن المشركين لما استقلوا عدد المسلمين لم يبالغوا في الاستعداد والتأهب والحذر، فصار ذلك سببًا لاستيلاء المؤمنين عليهم.

فإن قيل: كيف يجوز أن يريهم الكثير قليلاً؟

قلنا: أما على ما قلنا فذاك جائز، لأن الله تعالى خلق الإدراك في حق البعض دون البعض. وأما المعتزلة فقالوا: لعل العين منعت من إدراك الكل، أو لعل الكثير منهم كانوا في غاية البعد فما حصلت رؤيتهم.

ثم قال: ﴿ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

فإن قيل: ذكر هذا الكلام في الآية المتقدمة، فكان ذكره ههنا محض التكرار.

قلنا: المقصود من ذكره في الآية المتقدمة هو أنه تعالى فعل تلك الأفعال ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين على وجه يكون معجزة دالة على صدق الرسول ﷺ. والمقصود من ذكره ههنا، ليس هو ذلك المعنى، بل المقصود أنه تعالى ذكر ههنا أنه قلل عدد المؤمنين في

أعين المشركين، فبين ههنا أنه إنما فعل ذلك ليصير ذلك سببًا لئلا يبالغ الكفار في تحصيل الاستعداد والحذر، فيصير ذلك سببًا لانكسارهم.

ثم قال: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ والغرض منه التنبيه على أن أحوال الدنيا غير مقصودة لذواتها، وإنما المراد منها ما يصلح أن يكون زادًا ليوم المعاد.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أنواع نعمه على الرسول وعلى المؤمنين يوم بدر علمهم إذا التقوا بالفئة وهي الجماعة من المحاربين نوعين من الأدب: الأول: الثبات وهو أن يوطنوا أنفسهم على اللقاء ولا يحدثوها بالتولي. والثاني: أن يذكروا الله كثيرًا، وفي تفسير هذا الذكر قولان:

القول الأول: أن يكونوا بقلوبهم ذاكرين الله وبألسنتهم ذاكرين الله. قال ابن عباس: أمر الله أولياءه بذكره في أشد أحوالهم، تنبيهًا على أن الإنسان لا يجوز أن يخلي قلبه ولسانه عن ذكر الله، ولو أن رجلاً أقبل من المغرب إلى المشرق ينفق الأموال سخاء، والآخر من المشرق إلى المغرب يضرب بسيفه في سبيل الله، كان الذاكر لله أعظم أجرًا.

والقول الثاني: أن المراد من هذا الذكر الدعاء بالنصر والظفر، لأن ذلك لا يحصل إلا بمعونة الله تعالى.

ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وذلك لأن مقاتلة الكافر إن كانت لأجل طاعة الله تعالى كان ذلك جاريًا مجرى بذل الروح في طلب مرضاة الله تعالى، وهذا هو أعظم مقامات العبودية، فإن غلب الخصم فاز بالثواب والغنيمة، وإن صار مغلوبًا فاز بالشهادة والدرجات العالية، أما إن كانت المقاتلة لا لله بل لأجل الثناء في الدنيا وطلب المال لم يكن ذلك وسيلة إلى الفلاح والنجاح.

فإن قيل: فهذه الآية توجب الثبات على كل حال، وهذا يوهم أنها ناسخة لآية التحرف والتحيز.

قلنا: هذه الآية توجب الثبات في الجملة، والمراد من الثبات الجد في المحاربة. وآية التحرف والتحيز لا تقدح في حصول الثبات في المحاربة بل كان الثبات في هذا المقصود، لا يحصل إلا بذلك التحرف والتحيز.

ثم قال تعالى مؤكدًا لذلك: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في سائر ما يأمر به، لأن الجهاد لا ينفع إلا مع التمسك بسائر الطاعات.

ثم قال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: بين تعالى أن النزاع يوجب أمرين: أحدهما: أنه يوجب حصول الفشل والضعف. والثاني: قوله: ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ وفيه قولان: الأول: المراد بالريح الدولة، شبهت الدولة وقت نفاذها وتمشية أمرها بالريح وهبوبها. يقال: هبت رياح فلان، إذا دانت له الدولة ونفذ أمره. الثاني: أنه لم يكن قط نصر إلا بريح يبعثها الله، وفي الحديث «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»[١] والقول الأول أقوى، لأنه تعالى جعل تنازعهم مؤثرًا في ذهاب الريح، ومعلوم أن اختلافهم لا يؤثر في هبوب الصبا. قال مجاهد: ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ أي: نصرتكم، وذهبت ريح أصحاب محمد حين تنازعوا يوم أحد.

المسألة الثانية: احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا: القول بالقياس يفضي إلى المنازعة، والمنازعة محرمة، فهذه الآية توجب أن يكون العمل بالقياس حرامًا، بيان الملازمة المشاهدة، فإنا نرى أن الدنيا صارت مملوءة من الاختلافات بسبب القياسات، وبيان أن المنازعة محرمة. قوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ وأيضًا القائلون بأن النص لا يجوز تخصيصه بالقياس تمسكوا بهذه الآية. وقالوا: قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ صريح في وجوب طاعة الله ورسوله في كل ما نص عليه، ثم أتبعه بأن قال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾ ومعلوم أن من تمسك بالقياس المخصص بالنص فقد ترك طاعة الله وطاعة رسوله. وتمسك بالقياس الذي يوجب التنازع والفشل، وكل ذلك حرام، ومثبتو القياس أجابوا عن الأول؛ بأنه ليس كل قياس يوجب المنازعة.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ والمقصود أن كمال أمر الجهاد مبني على الصبر، فأمرهم بالصبر. كما قال في آية أخرى: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] وبين أنه تعالى مع الصابرين، ولا شبهة أن المراد بهذه المعية النصرة والمعونة.

ثم قال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ قال المفسرون: المراد قريش حين خرجوا من مكة لحفظ العير، فلما وردوا الجحفة بعث الحقاف الكناني كان صديقًا لأبي جهل إليه بهدايا مع ابن له، فلما أتاه قال: إن أبي ينعمك صباحًا ويقول لك إن شئت أن أمدك بالرجال أمددتك، وإن شئت أن أزحف إليك بمن معي من قرابتي فعلت، فقال أبو جهل: قل لأبيك جزاك الله والرحم خيرًا، إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله ما لنا بالله من طاقة، وإن كنا نقاتل الناس، فوالله إن بنا على الناس لقوة، والله ما نرجع عن قتال

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٢/ ٦١٧/ ٩٠٠) قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالا: حدثنا أبو معاوية. . . به. ورواه البخاري في (صحيحه) (١/ ٣٥٠) حديث رقم/ ٩٨٨ من طريق الحكم عن مجاهد عن ابن عباس. . . به. وأحمد في (مسنده) (١/ ٢٢٣) حديث رقم/ ١٩٥٥ قال: حدثنا أبو معاوية. . . به. الصبا: هي الريح الشرقية. والدبور: مقابلها أي من الغرب بتصرف. (الفتح) (٦/ ٣٠١).

محمد حتى نرد بدرًا فنشرب فيها الخمور وتعزف علينا فيها القيان، فإن بدرًا موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم حتى تسمع العرب بهذه الواقعة. قال المفسرون: فوردوا بدرًا وشربوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان.

واعلم أنه تعالى وصفهم بثلاثة أشياء: الأول: البطر قال الزجاج: البطر الطغيان في النعمة. والتحقيق أن النعم إذا كثرت من الله على العبد فإن صرفها إلى مرضاته وعرف أنها من الله تعالى فذاك هو الشكر. وأما إن توسل بها إلى المفاخرة على الأقران والمكاثرة على أهل الزمان فذاك هو البطر. والثاني: قوله: ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ والرئاء عبارة عن القصد إلى إظهار الجميل مع أن باطنه يكون قبيحًا، والفرق بينه وبين النفاق أن النفاق إظهار الإيمان مع إبطان الكفر، والرئاء إظهار الطاعة مع إبطان المعصية. روي أنه ﷺ لما رآهم في موقف بدر قال: «**اللَّهُمَّ إِنَّ قُرَيْشًا أَقْبَلَتْ بِفَخْرِهَا وَخُيَلاَئِهَا لمعارضة دينك ومحاربة رسولك**»(١) والثالث: قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فعل مضارع وعطف الفعل على الاسم غير حسن. وذكر الواحدي فيه ثلاثة أوجه: الأول: أن يكون قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بمنزلة صادين. والثاني: أن يكون قوله: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ﴾ بمنزلة يبطرون ويراءون، وأقول: إن شيئًا من هذه الوجوه لا يشفي الغليل، لأنه تارة يقيم الفعل مقام الاسم وأخرى يقيم الاسم مقام الفعل، ليصح له كون الكلمة معطوفة على جنسها، وكان من الواجب عليه أن يذكر السبب الذي لأجله عبر عن الأولين بالمصدر، وعن الثالث بالفعل. وأقول: إن الشيخ عبد القاهر الجرجاني، ذكر أن الاسم يدل على التمكين والاستمرار والفعل على التجدد والحدوث، قال: ومثاله في الاسم قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨] وذلك يقتضي كون تلك الحالة ثابتة راسخة، ومثال الفعل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٣١] وذلك يدل على أنه تعالى يوصل الرزق إليهم ساعة فساعة، هذا ما ذكره الشيخ عبد القاهر.

إذا عرفت هذا فنقول: إن أبا جهل ورهطه وشيعته كانوا مجبولين على البطر والمفاخرة والعجب، وأما صدهم عن سبيل الله فإنما حصل في الزمان الذي ادعى محمد عليه الصلاة والسلام النبوة. ولهذا السبب ذكر البطر والرئاء بصيغة الاسم، وذكر الصد عن سبيل الله بصيغة الفعل والله أعلم.

وحاصل الكلام: أنه تعالى أمرهم عند لقاء العدو بالثبات والاشتغال بذكر الله، ومنعهم من أن يكون الحامل لهم على ذلك الثبات؛ البطر والرئاء، بل أوجب عليهم أن يكون الحامل لهم عليه طلب عبودية الله.

واعلم أن حاصل القرآن من أوله إلى آخره دعوة الخلق من الاشتغال بالخلق، وأمرهم بالعناء في طريق عبودية الحق، والمعصية مع الانكسار أقرب إلى الإخلاص من الطاعة مع الافتخار،

---

(١) تقدم تخريجه.

ثم ختم هذه الآية بقوله: (والله بما تعملون محيط) والمقصود أن الإنسان ربما أظهر من نفسه أن الحامل له والداعي إلى الفعل المخصوص طلب مرضاة الله تعالى مع أنه لا يكون الأمر كذلك في الحقيقة، فبين تعالى كونه عالمًا بما في دواخل القلوب، وذلك كالتهديد والزجر عن الرثاء والتصنع.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾

اعلم أن هذا من جملة النعم التي خص أهل بدر بها.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: العامل في (إذ) فيه وجوه: قيل: تقديره اذكر إذ زين لهم، وقيل: هو عطف على ما تقدم من تذكير النعم، وتقديره: واذكروا إذ يريكموهم وإذ زين، وقيل: هو عطف على قوله: خرجوا بطرًا ورئاء الناس. وتقديره: لا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم.

المسألة الثانية: في كيفية هذا التزيين وجهان: الأول: أن الشيطان زين بوسوسته من غير أن يتحول في صورة الإنسان، وهو قول الحسن والأصم. والثاني: أنه ظهر في صورة الإنسان. قالوا: إن المشركين حين أرادوا المسير إلى بدر خافوا من بني بكر بن كنانة، لأنهم كانوا قتلوا منهم واحدًا، فلم يأمنوا أن يأتوهم من ورائهم، فتصور لهم إبليس بصورة سراقة بن مالك بن جعشم وهو من بني بكر بن كنانة وكان من أشرافهم في جند من الشياطين، ومعه راية، وقال: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم مجيركم من بني كنانة، فلما رأى إبليس نزول الملائكة نكص على عقيبه. وقيل: كانت يده في يد الحرث بن هشام، فلما نكص قال له الحرث: أتخذلنا في هذه الحال؟ فقال: إني أرى ما لا ترون ودفع في صدر الحرث وانهزموا. وفي هذه القصة سؤالات:

السؤال الأول: ما الفائدة في تغيير صورة إبليس إلى صورة سراقة؟

والجواب فيه معجزة عظيمة للرسول عليه السلام وذلك لأن كفار قريش لما رجعوا إلى مكة قالوا هزم الناس سراقة، فبلغ ذلك سراقة فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم. فعند ذلك تبين للقوم أن ذلك الشخص ما كان سراقة بل كان شيطانًا.

فإن قيل: فإذا حضر إبليس لمحاربة المؤمنين. ومعلوم أنه في غاية القوة، فلم لم يهزموا جيوش المسلمين؟

قلنا: لأنه رأى في جيش المسلمين جبريل مع ألف من الملائكة، فلهذا السبب خاف وفر.

فإن قيل: فعلى هذا الطريق وجب أن ينهزم جميع جيوش المسلمين لأنه يتشبه بصورة البشر ويحضر ويعين جمع الكفار ويهزم جموع المسلمين، والحاصل: أنه إن قدر على هذا المعنى فلم لا يفعل ذلك في سائر وقائع المسلمين؟ وإن لم يقدر عليه فكيف أضفتم إليه هذا العمل في واقعة بدر؟

الجواب: لعله تعالى إنما غير صورته إلى صورة البشر في تلك الواقعة أما في سائر الوقائع فلا يفعل ذلك التغيير.

السؤال الثاني: أنه تعالى لما غير صورته إلى صورة البشر فما بقي شيطانًا بل صار بشرًا.

الجواب أن الإنسان إنما كان إنسانًا بجوهر نفسه الناطقة، ونفوس الشياطين مخالفة لنفوس البشر فلم يلزم من تغيير الصورة تغيير الحقيقة، وهذا الباب أحد الدلائل السمعية على أن الإنسان ليس إنسانًا بحسب بنيته الظاهرة وصورته المخصوصة.

السؤال الثالث: ما معنى قول الشيطان ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وما الفائدة في هذا الكلام مع أنهم كانوا كثيرين غالبين؟

والجواب: أنهم وإن كانوا كثيرين في العدد إلا أنهم كانوا يشاهدون أن دولة محمد عليه الصلاة والسلام كل يوم في الترقي والتزايد، ولأن محمدًا كلما أخبر عن شيء فقد وقع فكانوا لهذا السبب خائفين جدًا من قوم محمد ﷺ، فذكر إبليس هذا الكلام إزالة للخوف عن قلوبهم، ويحتمل أن يكون المراد أنه كان يؤمنهم من شر بني بكر بن كنانة خصوصًا وقد تصور بصورة زعيم منهم، وقال: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ والمعنى: إني إذا كنت وقومي ظهيرًا لكم فلا يغلبكم أحد من الناس ومعنى الجار ههنا: الدافع عن صاحبه أنواع الضرر كما يدفع الجار عن جاره، والعرب تقول: أنا جار لك من فلان أي حافظ من مضرته فلا يصل إليك مكروه منه.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ أي التقى الجمعان بحيث رأت كل واحدة الأخرى نكص على عقبيه، والنكوص الإحجام عن الشيء، والمعنى: رجع وقال: إني أرى ما لا ترون، وفيه وجوه: الأول: أنه روحاني، فرأى الملائكة فخافهم. قيل: رأى جبريل يمشي بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام. وقيل: رأى ألفًا من الملائكة مردفين. الثاني: أنه رأى أثر النصرة والظفر في حق النبي عليه الصلاة والسلام، فعلم أنه لو وقف لنزلت عليه بلية.

ثم قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ قال قتادة صدق في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ وكذب في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ وقيل: لما رأى الملائكة ينزلون من السماء خاف أن يكون الوقت الذي أنظر إليه قد حضر فقال ما قال إشفاقًا على نفسه.

أما قوله ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فيجوز أن يكون من بقية كلام إبليس، ويجوز أن ينقطع كلامه عند قوله: أخاف الله.

ثم قال تعالى بعده: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إنما لم تدخل الواو في قوله: ﴿ إِذْ يَقُولُ ﴾ ودخلت في قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ﴾ [الأنفال: ٤٨] لأن قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ﴾ عطف على هذا التزيين على حالهم وخروجهم بطرًا ورئاء، وأما هنا وهو قوله: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ فليس فيه عطف لهذا الكلام على ما قبله بل هو كلام مبتدأ منقطع عما قبله، وعامل الإعراب في (إذ) فيه وجهان: الأول: التقدير والله شديد العقاب إذ يقول المنافقون والثاني: اذكروا إذ يقول المنافقون.

المسألة الثانية: أما المنافقون فهم قوم من الأوس والخزرج، وأما الذين في قلوبهم مرض فهم قوم من قريش أسلموا وما قوي إسلامهم في قلوبهم ولم يهاجروا. ثم إن قريشًا لما خرجوا لحرب رسول الله ﷺ قال أولئك: نخرج مع قومنا فإن كان محمد في كثرة خرجنا إليه، وإن كان في قلة أقمنا في قومنا. قال محمد بن إسحاق: ثم قتل هؤلاء جميعًا مع المشركين يوم بدر. وقوله: ﴿ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ قال ابن عباس: معناه أنه خرج بثلثمائة وثلاثة عشر يقاتلون ألف رجل، وما ذاك إلا أنهم اعتمدوا على دينهم. وقيل المراد: إن هؤلاء يسعون في قتل أنفسهم، رجاء أن يجعلوا أحياء بعد الموت ويثابون على هذا القتل.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي ومن يسلم أمره إلى الله ويثق بفضله ويعول على إحسان الله، فإن الله حافظه وناصره، لأنه عزيز لا يغلبه شيء، حكيم يوصل العذاب إلى أعدائه، والرحمة والثواب إلى أوليائه.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال هؤلاء الكفار شرح أحوال موتهم، والعذاب الذي يصل إليهم في ذلك الوقت، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن عامر وحده (إذ تتوفى) بالتاء على تأنيث لفظ الملائكة والجمع، والباقون بالياء على المعنى.

المسألة الثانية: جواب (لو) محذوف. والتقدير: لرأيت منظرًا هائلاً، وأمرًا فظيعًا، وعذابًا شديدًا.

المسألة الثالثة: (ولو ترى) ولو عاينت وشاهدت، لأن (لو) ترد المضارع إلى الماضي كما ترد (إن) الماضي إلى المضارع.

المسألة الرابعة: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ رفعها بالفعل، و﴿يَضْرِبُونَ﴾ حال منهم، ويجوز أن يكون في قوله: ﴿يَتَوَفَّى﴾ ضمير لله تعالى، والملائكة مرفوعة بالابتداء، ويضربون خبر.

المسألة الخامسة: قال الواحدي: معنى يتوفى الذين كفروا: يقبضون أرواحهم على استيفائها وهذا يدل على أن الإنسان شيء مغاير لهذا الجسد، وأنه هو الروح فقط؛ لأن قوله: ﴿يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يدل على أنه استوفى الذات الكافرة، وذلك يدل على أن الذات الكافرة هي التي استوفيت من هذا الجسد، وهذا برهان ظاهر على أن الإنسان شيء مغاير لهذا الجسد، وقوله: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ قال ابن عباس: كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيف، وإذا ولوا ضربوا أدبارهم، فلا جرم قابلهم الله بمثله في وقت نزع الروح، وأقول فيه معنى آخر ألطف منه: وهو أن روح الكافر إذا خرج من جسده فهو معرض عن عالم الدنيا مقبل على الآخرة، وهو لكفره لا يشاهد في عالم الآخرة إلا الظلمات، وهو لشدة حبه للجسمانيات، ومفارقته لها لا ينال من مباعدته عنها إلا الآلام والحسرات، فسبب مفارقته لعالم الدنيا تحصل له الآلام بعد الآلام والحسرات، وبسبب إقباله على الآخرة مع عدم النور والمعرفة، ينتقل من ظلمات إلى ظلمات، فهاتان الجهتان هما المراد من قوله: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ وفيه إضمار، والتقدير: ونقول ذوقوا عذاب الحريق ونظيره في القرآن كثير قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ [البقرة: ١٢٧] أي: ويقولان ربنا، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ [السجدة: ١٢] أي: يقولون ربنا. قال ابن عباس: قول الملائكة لهم: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ إنما صح لأنه كان مع الملائكة مقامع، وكلما ضربوا بها التهبت النار في الأجزاء والأبعاض، فذاك قوله: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ قال الواحدي: والصحيح أن هذا تقوله الملائكة لهم في الآخرة. وأقول: أما العذاب الجسماني فحق وصدق. وأما الروحاني فحق أيضًا لدلالة العقل عليه، وذلك لأنا بينا أن الجاهل إذا فارق الدنيا حصل له الحزن الشديد بسبب مفارقة الدنيا المحبوبة، والخوف الشديد بسبب تراكم الظلمات عليه في عالم الخوف والحزن. والخوف والحزن كلاهما يوجبان الحرقة الروحانية، والنار الروحانية.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ قيل هذا إخبار عن قول الملائكة.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي: يجوز أن يقال ذلك مبتدأ، وخبره قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ويجوز أن يكون محل ذلك نصبًا، والتقدير: فعلنا ذلك بما قدمت أيديكم.

المسألة الثانية: المراد من قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ هذا أي هذا العذاب الذي هو عذاب الحريق، حصل بسبب ما قدمت أيديكم، وذكرنا في قوله: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١، ٢]أن معناه هذا الكتاب وهذا المعنى جائز.

المسألة الثالثة: ظاهر قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ﴾ يقتضي أن فاعل هذا الفعل هو اليد، وذلك ممتنع من وجوه: أحدها: أن هذا العذاب إنما وصل إليهم بسبب كفرهم، ومحل الكفر هو القلب لا اليد. وثانيها: أن اليد ليست محلاً للمعرفة والعلم، فلا يتوجه التكليف عليها، فلا يمكن إيصال العذاب إليها، فوجب حمل اليد ههنا على القدرة، وسبب هذا المجاز أن اليد آلة العمل والقدرة هي المؤثرة في العمل، فحسن جعل اليد كناية عن القدرة.

واعلم أن التحقيق أن الإنسان جوهر واحد وهو الفعل وهو الدراك وهو المؤمن وهو الكافر وهو المطيع والعاصي، وهذه الأعضاء آلات له وأدوات له في الفعل فأضيف الفعل في الظاهر إلى الآلة، وهو في الحقيقة مضاف إلى جوهر ذات الإنسان.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ يقتضي أن ذلك العقاب كالأمر المتولد من الفعل الذي صدر عنه، وقد عرفت أن العقاب إنما يتولد من العقائد الباطلة التي يكتبها الإنسان، ومن الملكات الراسخة التي يكتسبها الإنسان، فكان هذا الكلام مطابقًا للمعقول.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في محل (أن) وجهان:

أحدهما: النصب بنزع الخافض يعني بأن الله.

والثاني: أنك إن جعلت قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ في موضع رفع جعلت (أن) في موضع رفع أيضًا، بمعنى وذلك أن الله، قال الكسائي: ولو كسرت ألف (أن) على الابتداء كان صوابًا، وعلى هذا التقدير: يكون هذا كلامًا مبتدأ منقطعًا عما قبله.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: لو كان تعالى يخلق الكفر في الكافر، ثم يعذبه عليه لكان ظالمًا، وأيضًا قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ يدل على أنه تعالى إنما لم يكنْ ظالمًا بهذا العذاب، لأنه قدم ما استوجب عليه هذا العذاب، وذلك يدل على أنه لو لم يصدر منه ذلك التقديم لكان الله تعالى ظالمًا في هذا العذاب، فلو كان الموجد للكفر والمعصية هو الله لا العبد لوجب كون الله ظالمًا، وأيضًا تدل هذه الآية على كونه قادرًا على الظلم، إذ لو لم يصح منه لما كان في التمدح بنفيه فائدة.

واعلم أن هذه المسألة قد سبق ذكرها على الاستقصاء في سورة آل عمران، فلا فائدة في الإعادة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى لما بين ما أنزله بأهل بدر من الكفار عاجلاً وآجلاً كما شرحناه أتبعه بأن بين أن هذه طريقته وسنته في الكل. فقال: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ والمعنى: عادة هؤلاء في كفرهم كعادة آل فرعون في كفرهم. فجوزي هؤلاء بالقتل والسبي كما جوزي أولئك بالإغراق وأصل الدأب في اللغة إدامة العمل يقال: فلان يدأب في كذا، أي يداوم عليه ويواظب ويتعب نفسه، ثم سميت العادة دأبًا لأن الإنسان مداوم على عادته ومواظب عليها.

ثم قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ والغرض منه التنبيه على أن لهم عذابًا مدخرًا سوى ما نزل بهم من العذاب العاجل، ثم ذكر ما يجري مجرى العلة في العقاب الذي أنزله بهم، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿ لَمْ يَكُ ﴾ أكثر النحويين يقولون إنما حذفت النون. لأنها لم تشبه الغنة المحضة، فأشبهت حروف اللين ووقعت طرفًا، فحذفت تشبيهًا بها كما تقول لم يدع ولم يرم ولم يل وقال الواحدي: وهذا ينتقض بقولهم لم يزن ولم يخن فلم يسمع حذف النون ههنا.

وأجاب علي بن عيسى عنه. فقال إن كان ويكون أم الأفعال من أجل أن كل فعل قد حصل فيه معنى كان فقولنا ضرب معناه كان ضرب ويضرب معناه يكون ضرب، وهكذا القول في الكل فثبت أن هذه الكلمة أم الأفعال. فاحتيج إلى استعمالها في أكثر الأوقات، فاحتملت هذا الحذف بخلاف قولنا لم يخن ولم يزن، فإنه لا حاجة إلى ذكرها كثيرًا فظهر الفرق. والله أعلم.

المسألة الثانية: قال القاضي: معنى الآية أنه تعالى أنعم عليهم بالعقل والقدرة وإزالة الموانع وتسهيل السبل والمقصود أن يشتغلوا بالعبادة والشكر ويعدلوا عن الكفر، فإذا صرفوا هذه الأحوال إلى الفسق والكفر، فقد غيروا نعمة الله تعالى على أنفسهم، فلا جرم استحقوا تبديل النعم بالنقم والمنح بالمحن قال: وهذا من أوكد ما يدل على أنه تعالى لا يبتدئ أحدًا بالعذاب والمضرة، والذي يفعله لا يكون الأجزاء على معاص سلفت، ولو كان تعالى خلقهم وخلق

جسمانهم وعقولهم ابتداء للنار كما يقوله القوم، لما صح ذلك، قال أصحابنا: ظاهر الآية مشعر بما قاله القاضي الإمام إلا أنا لو حملنا الآية عليه لزم أن يكون صفة الله تعالى معللة بفعل الإنسان، وذلك لأن حكم الله بذلك التغيير وإرادته لما كان لا يحصل إلا عند إتيان الإنسان بذلك الفعل، فلو لم يصدر عند ذلك الفعل لم يحصل لله تعالى ذلك الحكم وتلك الإرادة، فحينئذ يكون فعل الإنسان مؤثرًا في حدوث صفة في ذات الله تعالى، ويكون الإنسان مغيرًا صفة الله ومؤثرًا فيها، وذلك محال في بديهة العقل، فثبت أنه لا يمكن حمل هذا الكلام على ظاهره، بل الحق أن صفة الله غالبة على صفات المحدثات، فلولا حكمه وقضاؤه أولاً لما أمكن للعبد أن يأتي بشيء من الأفعال والأقوال.

المسألة الثالثة: أنه تعالى ذكر مرة أخرى قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ذكروا فيه وجوهًا كثيرة: الأول: أن الكلام الثاني يجري مجرى التفصيل للكلام الأول، لأن الكلام الأول فيه ذكر أخذهم، وفي الثاني ذكر إغراقهم وذلك تفصيل. والثاني: أنه أريد بالأول ما نزل بهم من العقوبة في حال الموت، وبالثاني ما ينزل بهم في القبر في الآخرة. الثالث: أن الكلام الأول هو قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ والكلام الثاني هو قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ فالأول إشارة إلى أنهم أنكروا الدلائل الإلهية، والثاني إشارة إلى أنه سبحانه رباهم وأنعم عليهم بالوجوه الكثيرة، فأنكروا دلائل التربية والإحسان مع كثرتها وتواليها عليهم، فكان الأثر اللازم من الأول هو الأخذ والأثر اللازم من الثاني هو الإهلاك والإغراق، وذلك يدل على أن لكفران النعمة أثرًا عظيمًا في حصول الهلاك والبوار، ثم ختم تعالى الكلام بقوله: ﴿وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ والمراد منه أنهم كانوا ظالمي أنفسهم بالكفر والمعصية، وظالمي سائر الناس بسبب الإيذاء والإيحاش، وأن الله تعالى إنما هلكهم بسبب ظلمهم، وأقول في هذا المقام اللهم أهلك الظالمين وطهر وجه الأرض منهم فقد عظمت فتنتهم وكثر شرهم، ولا يقدر أحد على دفعهم إلا أنت، فادفع يا قهار يا جبار يا منتقم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف كل الكفار بقوله: ﴿وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أفرد بعضهم بمزية في الشر والعناد. فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في حكمه وعلمه من حصلت له صفتان:

الصفة الأولى: الكافر الذي يكون مستمرًا على كفره مصرًا عليه لا يتغير عنه البتة.

الصفة الثانية: أن يكون ناقضًا للعهد على الدوام فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي الذين عاهدت من الذين كفروا وهم شر الدواب وقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ للتبعيض فإن المعاهدة إنما تكون مع أشرافهم وقوله: ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ قال

أهل المعاني إنما عطف المستقبل على الماضي، لبيان أن من شأنهم نقض العهد مرة بعد مرة.
قال ابن عباس: هم قريظة فإنهم نقضوا عهد رسول الله ﷺ وأعانوا عليه المشركين بالسلاح في يوم بدر، ثم قالوا: أخطأنا فعاهدهم مرة أخرى فنقضوه أيضًا يوم الخندق، وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ معناه أن عادة من رجع إلى عقل وحزم أن يتقي نقض العهد حتى يسكن الناس إلى قوله ويثقوا بكلامه، فبين تعالى أن من جمع بين الكفر الدائم وبين نقض العهد على هذا الوجه كان شر الدواب.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾

اعلم أنه تعالى تارة يرشد رسوله إلى الرفق واللطف في آيات كثيرة. منها قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ومنها قوله: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وتارة يرشد إلى التغليظ والتشديد كما في هذه الآية، وذلك لأنه تعالى لما ذكر الذين ينقضون عهدهم في كل مرة، بين ما يجب أن يعاملوا به فقال: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ﴾ قال الليث: ثقفنا فلانًا في موضع كذا، أي أخذناه وظفرنا به، والتشريد عبارة عن التفريق مع الاضطراب. يقال: شرد يشرد شرودًا، وشرده تشريدًا، فمعنى الآية أنك إن ظفرت في الحرب بهؤلاء الكفار الذين ينقضون العهد فافعل بهم فعلاً يفرق بهم من خلفهم. قال عطاء: تثخن فيهم القتل حتى يخافك غيرهم، وقيل: نكل بهم تنكيلاً يشرد غيرهم من ناقضي العهد ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لعل من خلفهم يذكرون ذلك النكال فيمنعهم ذلك عن نقض العهد، وقرأ ابن مسعود فشرذ بالذال المنقطة من فوق بمعنى ففرق وكأنه مقلوب شذر، وقرأ أبو حيوة من خلفهم، والمعنى: فشرد تشريدًا متلبسًا بهم من خلفهم لأن أحد العسكرين إذا كسروا الثاني، فالكاسرون يعدون خلف المكسرين فأمر رسول الله ﷺ أن يشردهم في ذلك الوقت.

وأما قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ يعني من قوم معاهدين خيانة ونكثًا بأمارات ظاهرة ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ فاطرح إليهم العهد على طريق مستو ظاهر، وذلك أن تظهر لهم نبذ العهد وتخبرهم إخبارًا مكشوفًا بينا أنك قطعت ما بينك وبينهم، ولا تبادرهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد، فيكون ذلك خيانة منك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ في العهود وحاصل الكلام في هذه الآية أنه تعالى أمره بنبذ من ينقض العهد على أقبح الوجوه وأمره أن يتباعد على أقصى الوجوه من كل ما يوهم نكث العهد ونقضه. قال أهل العلم: آثار نقض العهد إذا ظهرت، فإما أن تظهر ظهورًا محتملاً أو ظهورًا مقطوعًا به، فإن كان الأول وجب الإعلام على ما هو مذكور في هذه

الآية، وذلك لأن قريظة عاهدوا النبي ﷺ ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله فحصل لرسول الله خوف الغدر منهم به وبأصحابه فههنا يجب على الإمام أن ينبذ إليهم عهودهم على سواء ويؤذنهم بالحرب، أما إذا ظهر نقض العهد ظهورًا مقطوعًا به فههنا لا حاجة إلى نبذ العهد كما فعل رسول الله بأهل مكة فإنهم لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم من ذمة النبي ﷺ وصل إليهم جيش رسول الله بمر الظهران، وذلك على أربعة فراسخ من مكة. والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما بين ما يفعل الرسول في حق من يجده في الحرب ويتمكن منه وذكر أيضًا ما يجب أن يفعله فيمن ظهر منه نقض العهد، بين أيضًا حال من وفاته في يوم بدر وغيره، لئلا يبقى حسرة في قلبه فقد كان فيهم من بلغ في أذية الرسول عليه الصلاة والسلام مبلغًا عظيمًا فقال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ والمعنى: أنهم لما سبقوا فقد فاتوك ولم تقدر على إنزال ما يستحقونه بهم، ثم ههنا قولان: الأول: أن المراد ولا تحسبن أنهم انفلتوا منك، فإن الله يظفرك بعيرهم. والثاني: لا تحسبن أنهم لما تخلصوا من الأسر والقتل أنهم قد تخلصوا من عقاب الله ومن عذاب الآخرة ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أي أنهم بهذا السبق لا يعجزون الله من الانتقام منهم والمقصود تسلية الرسول فيمن فاته ولم يتمكن من التشفي والانتقام منه.

المسألة الثانية: قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم (لا يحسبن) بالياء المنقطة من تحت، وفي تصحيحه ثلاثة أوجه: الأول: قال الزجاج: ولا يحسبن الذين كفروا أن يسبقونا، لأنها في حرف ابن مسعود أنهم سبقونا فإذا كان الأمر كذلك فهي بمنزلة قولك حسبت أن أقوم، وحسبت أقوم وحذف أن كثير في القرآن قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ [الزمر: ٦٤] والمعنى: أن أعبد. الثاني: أن نضمر فاعلاً للحسبان ونجعل الذين كفروا المفعول الأول، والتقدير: ولا يحسبن أحد الذين كفروا. والثالث: قال أبو علي: ويجوز أيضًا أن يضمر المفعول الأول، والتقدير: ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا أو إياهم سبقوا، وأما أكثر القراء فقرءوا (ولا تحسبن) بالتاء المنقطة من فوق على مخاطبة النبي ﷺ والذين كفروا المفعول الأول وسبقوا المفعول الثاني وموضعه نصب والمعنى: ولا تحسبن الذين كفروا سابقين.

المسألة الثالثة: أكثر القراء على كسر (إن) في قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ وهو الوجه لأنه ابتداء كلام غير متصل بالأول كقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ﴾ [العنكبوت: ٤] وتم الكلام ثم قال: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ فكما أن قوله: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ منقطع من الجملة التي قبلها، كذلك قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ وقرأ ابن عامر (أنهم) بفتح الألف، وجعله متعلقًا بالجملة

الأولى، وفيه وجهان: الأول: التقدير لا تحسبنهم سبقوا، لأنهم لا يفوتون فهم يجزون على كفرهم. الثاني: قال أبو عبيد: يجعل (لا) صلة، والتقدير: لا تحسبن أنهم يعجزون.

قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أوجب على رسوله أن يشرد من صدر منه نقض العهد، وأن ينبذ العهد إلى من خاف منه النقض، أمره في هذه الآية بالإعداد لهؤلاء الكفار. قيل: إنه لما اتفق أصحاب النبي ﷺ في قصة بدر أن قصدوا الكفار بلا آلة ولا عدة أمرهم الله أن لا يعودوا لمثله وأن يعدوا للكفار ما يمكنهم من آلة وعدة وقوة، والمراد بالقوة هنا: ما يكون سببًا لحصول القوة وذكروا فيه وجوهًا: الأول: المراد من القوة أنواع الأسلحة. الثاني: روي أنه ﷺ قرأ هذه الآية على المنبر وقال: «أَلاَ إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ»[(١)] قالها ثلاثًا. الثالث: قال بعضهم: القوة هي الحصون. الرابع: قال أصحاب المعاني الأولى أن يقال: هذا عام في كل ما يتقوى به على حرب العدو، وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة. وقوله عليه الصلاة والسلام: «القُوَّة الرَّمْيُ» لا ينفي كون غير الرمي معتبرًا، كما أن قوله عليه الصلاة والسلام: «الحَجُّ عَرَفَةٌ»[(٢)] و«النَّدمُ تَوْبةٌ»[(٣)] لا ينفي اعتبار غيره، بل يدل على أن هذا المذكور جزء شريف من المقصود فكذا هنا،

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (الإمارة) باب (الرمي والحث عليه) (٣/ ١٥٢٢/ ١٧٦)، وأبو داود في كتاب (الجهاد) باب (في من يغزو ويلتمس الدنيا) (٣/ ١٠٨٩) حديث رقم/ ٢٥١٥، وأحمد في (مسنده) (٥/ ٢٣٤) والدارمي في كتاب (الجهاد) باب (الغزو غزوان) (٢/ ٢٧٤) حديث رقم/ ٢٤١٧ جميعًا عن بقية... به.

(٢) **حسن**: أخرجه أبو داود في كتاب (المناسك) باب (من لم يدرك عرفة) (٣/ ١٩٦) حديث رقم/ ١٩٤٩ من طريق سفيان... به. والترمذي في كتاب (الحج) باب (فيمن أدرك الإمام) (٣/ ٢٣٧) حديث رقم/ ٨٨٩ من طريق سفيان... به. والنسائي في كتاب (مناسك الحج) باب (فرض الوقوف بعرفة) (٣/ ٢٦٨) حديث رقم/ ٣٠١٦ من طريق سفيان... به. وابن ماجه في كتاب (المناسك) باب (من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع) (٢/ ١٠٠٣) حديث رقم/ ٣٠١٥ من طريق سفيان... به. وأحمد في (مسنده) (٤/ ٣٠٩/ ٣٣٥) من طريق سفيان... به. جميعًا من طريق سفيان... به.

(٣) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه في كتاب (الزهد) باب (ذكر التوبة) (٢/ ١٤٢٠) حديث رقم/ ٤٢٥٢ قال: حدثنا هشام بن عمارة حدثنا سفيان عن عبد الكريم الجزري... به. وأحمد في (مسنده) (١/ ٣٧٦) حديث رقم/ ٣٥٦٨ قال: حدثنا سفيان عن عبد الكريم... به. والحاكم في (المستدرك) (٤/ ٢٧١) حديث رقم/ ٧٦١٢ من طريق سفيان... به. والطحاوي في (شرح معاني الآثار) (٤/ ٢٩١) من طريق يونس قال حدثنا شعبة... به. والشاشي في (مسنده) (١/ ٣٠٩) حديث رقم/ ٢٦٩ من طريق علي بن الجعد أخبرنا سفيان بن سعيد وشريك بن عبد الله عن عبد الكريم الجزري... به. والحميدي في (مسنده) (١/ ٥٨) حديث رقم/ ١٠٥ قال: حدثنا سفيان... به. والطبراني في (مسند الشاميين) (١/ ١٤٨) حديث رقم/ ٢٣٧ من طريق عبد الرحمن بن ثابت وسفيان الثوري عن عبد الكريم الجزري... به. وأبو داود الطياسي في (مسنده) (١/ ٥٠) حديث رقم/ ٣٨١ قال: حدثنا

وهذه الآية تدل على أن الاستعداد للجهاد بالنبل والسلاح وتعليم الفروسية والرمي فريضة، إلا أنه من فروض الكفايات. وقوله: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ الرباط المرابطة أو جمع ربيط، كفصال وفصيل، ولا شك أن ربط الخيل من أقوى آلات الجهاد. روي أن رجلاً قال لابن سيرين: إن فلانا أوصى بثلث ماله للحصون. فقال ابن سيرين: يشتري به الخيل فتربط في سبيل الله ويغزى عليها، فقال الرجل إنما أوصى للحصون، فقال هي الخيل ألم تسمع قول الشاعر:

وَلَقَد عَلِمتُ عَلى تَجَنُّبِيَ الرَّدى   أَنَّ الحُصونَ الخَيلُ لا مَدَرُ القُرى (١)

قال عكرمة: ومن رباط الخيل الأناث وهو قول الفراء، ووجه هذا القول أن العرب تسمي الخيل إذا ربطت في الأفنية وعلفت ربطًا واحدها ربيط، ويجمع ربط على رباط وهو جمع

زهير بن معاوية عن عبد الكريم الجزري عن زياد وليس بابن أبي مريم عن عبد الله بن معقول . . . به. وأبو يعلي في (مسنده) (٨/ ٣٨٠) حديث رقم/ ٤٩٦٩ من طريق سفيان . . . به. ورواه أيضا في (٩/ ١٣) حديث رقم (٥٠٨١) من طريق شريك عن عبد الكريم . . . به. وابن الجعد في (مسنده) (١/ ٢٦٤) حديث رقم/ ١٧٣٨/ ١٧٣٩ من طريق سفيان وشريك عن عبد الكريم . . . به. والقضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ٤٣/ ١٤) من طريق سفيان . . . به. والدارقطني في (العلل) (٥/ ١٩٠) حديث رقم/ ٨١٣ وقال: فقال يرويه عبد الكريم بن مالك الجزري وخصيف بن عبد الرحمن وأبو سعد البقال فأما عبد الكريم فاختلف عنه فرواه مالك بن أنس عن عبد الكريم عن رجل لم يسمه عن أبيه عن عبد الله عن النبي ﷺ تفرد به بن وهب عن مالك وخالفه عمر بن سعيد بن مسروق وفرات بن سلمان وزهير بن معاوية وعبيد الله بن عمرو الرقي وشريك بن عبد الله وسفيان الثوري فرووه عن عبد الكريم عن زياد بن الجراح ومنهم من قال زياد بن أبي مريم عن عبد الله بن معقل أنه سمع مع أبيه عن ابن مسعود، وقال خصيف بن عبد الرحمن عن زياد بن أبي مريم عن عبد الله بن معقل عن أبيه عن بن مسعود واختلف عن أبي سعد البقال فرواه الحسن بن صالح عن أبي سعد عن عبد الله بن معقل عن بن مسعود مرفوعًا به وتابعه ابن عيينة وعلي بن يزيد الصدائي وخالفهم وكيع ويحيى بن يمان وأبو معاوية الضرير فرووه عن أبي سعد عن بن معقل عن ابن مسعود موقوفًا عدا الجماعة أبو يحيى الحماني من رواية ابنه يحيى عنه فرواه عن أبي سعد عن أبي عمرو الشيباني عن عبد الله موقوفا ولم يصح شيء في ذكر أبي عمرو الشيباني وقد خالفه غيره ممن رواه عن الحماني عن أبي سعد بن معقل عن عبد الله موقوفا أيضًا وروي هذا الحديث معمر بن راشد عن عبد الكريم الجزري بإسناد آخر حدث به وهيب عن معمر عن عبد الكريم الجزري عن أبي عبيدة عن عبد الله عن النبي ﷺ ولم يتابع على هذا القول غبد الكريم والصحيح ما رواه الثوري وأخوه عمر بن سعيد ومن تابعهما عن عبد الكريم عن زياد عن ابن معقل أنه كان مع أبيه ثم ابن مسعود فسمعه يقول عن النبي ﷺ مرفوعا حدثنا الحسين بن إسماعيل المحاملي ثنا الفضل بن سهل الأعرج ثنا قراد أبو نوح ثنا يونس بن أبي إسحاق عن أبيه إسرائيل عن رجل عن عبد الله بن معقل عن أبيه أنه سمع ابن مسعود يقول: والله ما أعلم التوبة إلا الندم، كذا رواه يونس بن أبي إسحاق عن أبيه إسرائيل عن رجل عن أبيه ويروى عن إسرائيل عن عبد الكريم عن زياد عن ابن معقل عن ابن مسعود عن النبي ﷺ وهو الصواب. وصححه الألباني في (صحيح الجامع) (١١٧٤٨) وقال: صحيح.

(١) هذا البيت للبحر الكامل وهو للشاعر الأسعر الجعفي، وهو الأسعر بن الحارث بن معاوية الجعفي. شاعر جاهلي، وردت له قصيدة في كتب التراث وردت في الأصمعيات والوحشيات وحماسة البحتري، وكان قد قرضها يعرض فيها بإخوته لأبيه الذين لم يثأروا لمقتل أبيهم وقبلوا الدية من قاتليه وباعوا فرسه وأكلوا ثمنها ولما شب وقوي ساعده ثأر لأبيه واستعاد خيله ووصفها وآثرها على غيرها . . . وتفاخر ببطولاته على صهواتها.

الجمع، فمعنى الرباط ههنا، الخيل المربوط في سبيل الله، وفسر بالإناث لأنها أولى ما يربط لتناسلها ونمائها بأولادها، فارتباطها أولى من ارتباط الفحول، هذا ما ذكره الواحدي.

ولقائل أن يقول: بل حمل هذا اللفظ على الفحول أولى، لأن المقصود من رباط الخيل المحاربة عليها، ولا شك أن الفحول أقوى على الكر والفر والعدو، فكانت المحاربة عليها أسهل، فوجب تخصيص هذا اللفظ بها، ولما وقع التعارض بين هذين الوجهين وجب حمل اللفظ على مفهومه الأصلي، وهو كونه خيلاً مربوطًا، سواء كان من الفحول أو من الإناث، ثم إنه تعالى ذكر ما لأجله أمر بإعداد هذه الأشياء. فقال: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ومستعدين له مستكملين لجميع الأسلحة والآلات خافوهم، وذلك الخوف يفيد أمورًا كثيرة: أولها: أنهم لا يقصدون دخول دار الإسلام. وثانيها: أنه إذا اشتد خوفهم فربما التزموا من عند أنفسهم جزية. وثالثها: أنه ربما صار ذلك داعيًا لهم إلى الإيمان. ورابعها: أنهم لا يعينون سائر الكفار. وخامسها: أن يصير ذلك سببًا لمزيد الزينة في دار الإسلام.

ثم قال تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ والمراد أن تكثير آلات الجهاد وأدواتها كما يرهب الأعداء الذين نعلم كونهم أعداء، كذلك يرهب الأعداء الذين لا نعلم أنهم أعداء، ثم فيه وجوه: الأول: وهو الأصح أنهم هم المنافقون، والمعنى: أن تكثير أسباب الغزو كما يوجب رهبة الكفار فكذلك يوجب رهبة المنافقين.

فإن قيل: المنافقون لا يخافون القتال فكيف يوجب ما ذكرتموه الإرهاب؟

قلنا: هذا الإرهاب من وجهين: الأول: أنهم إذا شاهدوا قوة المسلمين وكثرة آلاتهم وأدواتهم انقطع عنهم طمعهم من أن يصيروا مغلوبين، وذلك يحملهم على أن يتركوا الكفر في قلوبهم وبواطنهم ويصيروا مخلصين في الإيمان، والثاني: أن المنافق من عادته أن يتربص ظهور الآفات ويحتال في إلقاء الإفساد والتفريق فيما بين المسلمين، فإذا شاهد كون المسلمين في غاية القوة خافهم وترك هذه الأفعال المذمومة.

والقول الثاني: في هذا الباب ما رواه ابن جريج عن سليمان بن موسى قال: المراد كفار الجن. روي أن النبي ﷺ قرأ: (وآخرون من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) فقال إنهم الجن. ثم قال: «**إِنَّ الشَّيطَانَ لاَ يَخْبِلُ أَحَدًا فِي دَارٍ فِيهَا فَرَسٌ عَتِيقٌ**» وقال الحسن: صهيل الفرس يرهب الجن، وهذا القول مشكل، لأن تكثير آلات الجهاد لا يعقل تأثيره في إرهاب الجن.

والقول الثالث: أن المسلم كما يعاديه الكافر، فكذلك قد يعاديه المسلم أيضًا، فإذا كان قوي الحال كثير السلاح، فكما يخافه أعداؤه من الكفار، فكذلك يخافه كل من يعاديه مسلمًا كان أو كافرًا.

ثم إنه تعالى قال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو عام في الجهاد وفي سائر وجوه

الخيرات ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ قال ابن عباس: يوف لكم أجره، أي لا يضيع في الآخرة أجره، ويعجل الله عوضه في الدنيا ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي لا تنقصون من الثواب، ولما ذكر ابن عباس هذا التفسير تلا قوله تعالى: ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾[الكهف: ٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾

واعلم أنه لما بين ما يرهب به العدو من القوة والاستظهار، بين بعده أنهم عند الإرهاب إذا جنحوا أي مالوا إلى الصلح، فالحكم قبول الصلح. قال النضر: جنح الرجل إلى فلان، وأجنح له إذا تابعه وخضع له، والمعنى: إن مالوا إلى الصلح فمل إليه وأنث الهاء في لها، لأنه قصد بها قصد الفعلة والجنحة كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأعراف: ١٥٣] أراد من بعد فعلتهم. قال صاحب (الكشاف): السلم تؤنث تأنيث نقيضها وهي الحرب. قال الشاعر:

السَلمُ تَأخذُ مِنها ما رَضيتَ بهِ ... وَالحَربُ يَكفيكَ مِن أَنفاسِها جُرَعُ

وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿لِلسِّلْمِ﴾ بكسر السين، والباقون بالفتح وهما لغتان. قال قتادة: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[التوبة: ٥] وقوله: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[التوبة: ٢٩] وقال بعضهم الآية غير منسوخة لكنها تضمنت الأمر بالصلح إذا كان الصلاح فيه، فإذا رأى مصالحتهم فلا يجوز أن يهادنهم سنة كاملة، وإن كانت القوة للمشركين جاز مهادنتهم للمسلمين عشر سنين ولا يجوز الزيادة عليها اقتداء برسول الله ﷺ، فإنه هادن أهل مكة عشر سنين، ثم إنهم نقضوا العهد قبل كمال المدة.

أما قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فالمعنى فوض الأمر فيما عقدته معهم إلى الله ليكون عونًا لك على السلامة، ولكي ينصرك عليهم إذا نقضوا العهد وعدلوا عن الوفاء، ولذلك قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تنبيهًا بذلك على الزجر عن نقض الصلح، لأنه عالم بما يضمره العباد، وسامع لما يقولون. قال مجاهد: الآية نزلت في قريظة والنضير. وورودها فيهم لا يمنع من إجرائها على ظاهر عمومها. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر في الآية المتقدمة بالصلح، ذكر في هذه الآية حكمًا من أحكام الصلح وهو أنهم إن صالحوا على سبيل المخادعة، وجب قبول ذلك الصلح، لأن الحكم يبنى على الظاهر لأن الصلح لا يكون أقوى حالاً من الإيمان، فلما بنينا أمر الإيمان عن الظاهر لا على

الباطن، فههنا أولى ولذلك قال: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ﴾ المراد من تقدم ذكره في قوله: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ﴾.

فإن قيل: أليس قال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾[الأنفال: ٥٨] أي: أظهر نقض ذلك العهد، وهذا يناقض ما ذكره في هذه الآية؟

قلنا: قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ محمول على ما إذا تأكد ذلك الخوف بأمارات قوية دالة عليها، وتحمل هذه المخادعة على ما إذا حصل في قلوبهم نوع نفاق وتزوير، إلا أنه لم تظهر أمارات تدل على كونهم قاصدين للشر وإثارة الفتنة، بل كان الظاهر من أحوالهم الثبات على المسألة وترك المنازعة، ثم إنه تعالى لما ذكر ذلك. قال: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ أي فالله يكفيك، وهو حسبك وسواء قولك هذا يكفيني، وهذا حسبي. ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾. قال المفسرون: يرد قواك وأعانك بنصره يوم بدر، وأقول هذا التقييد خطأ لأن أمر النبي عليه السلام من أول حياته إلى آخر وقت وفاته، ساعة فساعة. كان أمرًا إلهيًّا وتدبيرًا علويًّا، وما كان لكسب الخلق فيه مدخل، ثم قال: ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس: يعني الأنصار.

فإن قيل: لما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ فأي حاجة مع نصره إلى المؤمنين، حتى قال: ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قلنا: التأييد ليس إلا من الله لكنه على قسمين: أحدهما: ما يحصل من غير واسطة أسباب معلومة معتادة. والثاني: ما يحصل بواسطة أسباب معلومة معتادة. فالأول: هو المراد من قوله أيدك بنصره، والثاني: هو المراد من قوله: ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم إنه تعالى بين أنه كيف أيده بالمؤمنين. فقال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أن النبي ﷺ بعث إلى قوم أنفتهم شديدة وحميتهم عظيمة حتى لو لطم رجل من قبيلة لطمة قاتل عنه قبيلته حتى يدركوا ثأره، ثم إنهم انقلبوا عن تلك الحالة حتى قاتل الرجل أخاه وأباه وابنه، واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصارًا، وعادوا أعوانًا. وقيل هم الأوس والخزرج، فإن الخصومة كانت بينهم شديدة والمحاربة دائمة، ثم زالت الضغائن، وحصلت الألفة والمحبة، فإزالة تلك العداوة الشديدة وتبديلها بالمحبة القوية والمخالصة التامة مما لا يقدر عليها إلا الله تعالى، وصارت تلك معجزة ظاهرة على صدق نبوة محمد ﷺ.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن أحوال القلوب من العقائد والإرادات والكرامات كلها من خلق الله تعالى، وذلك لأن تلك الألفة والمودة والمحبة الشديدة إنما حصلت بسبب الإيمان ومتابعة الرسول عليه الصلاة والسلام. فلو كان الإيمان فعلاً للعبد لا فعلاً لله تعالى، لكانت المحبة المرتبة عليه فعلاً للعبد لا فعلاً لله تعالى، وذلك على خلاف صريح

الآية. قال القاضي: لولا ألطاف الله تعالى ساعة فساعة، لما حصلت هذه الأحوال، فأضيفت تلك المخالصة إلى الله تعالى على هذا التأويل، ونظيره أنه يضاف علم الولد وأدبه إلى أبيه، لأجل أنه لم يحصل ذلك إلا بمعونة الأب وتربيته، فكذا ههنا.

والجواب: كل ما ذكرتموه عدول عن الظاهر وحمل للكلام على المجاز، وأيضًا كل هذه الألطاف كانت حاصلة في حق الكفار، مثل حصولها في حق المؤمنين، فلو لم يحصل هناك شيء سوى الألطاف لم يكن لتخصيص المؤمنين بهذه المعاني فائدة، وأيضًا فالبرهان العقلي مقو لظاهر هذه الآية، وذلك لأن القلب يصح أن يصير موصوفًا بالرغبة بدلاً عن النفرة وبالعكس، فرجحان أحد الطرفين على الآخر لا بد له من مرجح، فإن كان ذلك المرجح هو العبد عاد التقسيم، وإن كان هو الله تعالى، فهو المقصود، فعلم أن صريح هذه الآية متأكد بصريح البرهان العقلي فلا حاجة إلى ما ذكره القاضي في هذا الباب.

المسألة الثالثة: دلت هذه الآية على أن القوم كانوا قبل شروعهم في الإسلام ومتابعة الرسول في الخصومة الدائمة والمحاربة الشديدة يقتل بعضهم بعضًا ويغير بعضهم على البعض، فلما آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر. زالت الخصومات، وارتفعت الخشونات، وحصلت المودة التامة والمحبة الشديدة.

واعلم أن التحقيق في هذا الباب أن المحبة لا تحصل إلا عند تصور حصول خير وكمال، فالمحبة حالة معللة بهذا التصور المخصوص، فمتى كان هذا التصور حاصلاً كانت المحبة حاصلة، ومتى حصل تصوير الشر والبغضاء: كانت النفرة حاصلة، ثم إن الخيرات والكمالات على قسمين: أحدهما: الخيرات والكمالات الباقية الدائمة، المبرأة عن جهات التغيير والتبديل، وذلك هو الكمالات الروحانية والسعادات الإلهية. والثاني: وهو الكمالات المتبدلة المتغيرة، وهي الكمالات الجسمانية والسعادات البدنية، فإنها سريعة التغيير والتبدل، كالزئبق ينتقل من حال إلى حال، فالإنسان يتصور أن له في صحبة زيد مالاً عظيمًا فيحبه، ثم يخطر بباله أن ذلك المال لا يحصل فيبغضه، ولذلك قيل إن العاشق والمعشوق ربما حصلت الرغبة والنفرة بينهما في اليوم الواحد مرارًا لأن المعشوق إنما يريد العاشق لماله، والعاشق إنما يريد المعشوق لأجل اللذة الجسمانية، وهذان الأمران مستعدان للتغير والانتقال، فلا جرم كانت المحبة الحاصلة بينهما والعداوة الحاصلة بينهما غير باقيتين بل كانتا سريعتي الزوال والانتقال.

إذا عرفت هذا فنقول: الموجب للمحبة والمودة، إن كان طلب الخيرات الدنيوية والسعادات الجسمانية كانت تلك المحبة سريعة الزوال والانتقال، لأجل أن المحبة تابعة لتصور الكمال، وتصور الكمال تابع لحصول ذلك الكمال، فإذا كان ذلك الكمال سريع الزوال والانتقال، كانت معلولاته سريعة التبدل والزوال، وأما إن كان الموجب للمحبة تصور الكمالات الباقية المقدسة عن التغير والزوال، كانت تلك المحبة أيضًا باقية آمنة من التغير، لأن حال المعلول في البقاء

والتبدل تبع لحالة العلة، وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

إذا عرفت هذا فنقول: العرب كانوا قبل مقدم الرسول طالبين للمال والجاه والمفاخرة، وكانت محبتهم معللة بهذه العلة، فلا جرم كانت تلك المحبة سريعة الزوال، وكانوا بأدنى سبب يقعون في الحروب والفتن، فلما جاء الرسول ﷺ ودعاهم إلى عبادة الله تعالى والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة، زالت الخصومة والخشونة عنهم. وعادوا إخوانًا متوافقين، ثم بعد وفاته عليه السلام لما انفتحت عليهم أبواب الدنيا وتوجهوا إلى طلبها عادوا إلى محاربة بعضهم بعضًا، ومقاتلة بعضهم مع بعض، فهذا هو السبب الحقيقي في هذا الباب ثم إنه تعالى ختم هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي قادر قاهر، يمكنه التصرف في القلوب. ويقلبها من العداوة إلى الصداقة، ومن النفرة إلى الرغبة، حكيم بفعل ما يفعله على وجه الإحكام والإتقان. أو مطابقًا للمصلحة والصواب على اختلاف القولين في الجبر والقدر.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ۝٦٥﴾

اعلم أنه تعالى لما وعده بالنصر عند مخادعة الأعداء. وعده بالنصر والظفر في هذه الآية مطلقًا على جميع التقديرات وعلى هذا الوجه لا يلزم حصول التكرار، لأن المعنى في الآية الأولى، إن أرادوا خداعك كفاك الله أمرهم. والمعنى في هذه الآية عام في كل ما يحتاج إليه في الدين والدنيا وهذه الآية نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال والمراد بقوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الأنصار وعن ابن عباس رضي الله عنهما، نزلت في إسلام عمر، قال سعيد بن جبير أَسْلَمَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثَلاثَةٌ وَثَلاثُونَ رَجُلاً وَسِتُّ نِسْوَةٍ، ثُمَّ أَسْلَمَ عُمَرُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ(١). قال المفسرون: فعلى هذا القول هذه الآية مكية، كتبت في سورة مدنية بأمر رسول الله ﷺ، وفي الآية قولان: الأول: التقدير، الله كافيك وكافي أتباعك من المؤمنين. قال الفراء: الكاف في حسبك خفض و(من) في موضع نصب والمعنى: يكفيك الله ويكفي من اتبعك، قال الشاعر:

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا ... فحسبك والضحاك سيف مهند

(١) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه الطبراني في (الكبير) (١٢/ ٦٠) حديث رقم/ ١٢٤٧٠ من طريق إسحاق بن بشر الكاهلي حدثنا خلف بن خليفة عن أبي هاشم الرماني عن سعيد بن جبير عن بن عباس ... به. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٧/ ٢٨) وقال: رواه الطبراني وفيه إسحاق بن بشر الكاهلي وهو كذاب.

قال؛ وليس بكثير من كلامهم أن يقولوا حسبك وأخاك، بل المعتاد أن يقال حسبك وحسب أخيك. والثاني: أن يكون المعنى كفاك الله وكفاك أتباعك من المؤمنين. قال الفراء وهذا أحسن الوجهين، أي ويمكن أن ينصر القول الأول بأن من كان الله ناصره امتنع أن يزداد حاله أو ينقص بسبب نصرة غير الله، وأيضًا إسناد الحكم إلى المجموع يوهم أن الواحد من ذلك المجموع لا يكفي في حصول ذلك المهم. وتعالى الله عنه ويمكن أن يجاب عنه بأن الكل من الله، إلا أن من أنواع النصرة ما لا يحصل بناء على الأسباب المألوفة المعتادة، ومنها ما يحصل بناء على الأسباب المألوفة المعتادة. فلهذا الفرق اعتبر نصرة المؤمنين، ثم بين أنه تعالى وإن كان يكفيك بنصره وبنصر المؤمنين، فليس من الواجب أن تتكل على ذلك إلا بشرط أن تحرض المؤمنين على القتال فإنه تعالى إنما يكفيك بالكفاية بشرط أن يحصل منهم بذل النفس والمال في المجاهدة. فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ والتحريض في اللغة كالتحضيض وهو الحث على الشيء، وذكر الزجاج في اشتقاقه وجهًا آخر بعيدًا، فقال: التحريض في اللغة أن يحث الإنسان غيره على شيء حثًّا يعلم منه أنه إن تخلف عنه كان حارضًا، والحارض الذي قارب الهلاك، أشار بهذا إلى أن المؤمنين لو تخلفوا عن القتال بعد حث النبي ﷺ، كانوا حارضين، أي هالكين. فعنده التحريض مشتق من لفظ الحارض والحرض.

ثم قال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ وليس المراد منه الخبر بل المراد الأمر كأنه قال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ﴾ فليصبروا وليجتهدوا في القتال حتى ﴿يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ والذي يدل على أنه ليس المراد من هذا الكلام الخبر وجوه: الأول: لو كان المراد منه الخبر، لزم أن يقال: إنه لم يغلب قط مائتان من الكفار عشرين من المؤمنين، ومعلوم أنه باطل. الثاني: أنه قال ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾ [الأنفال: ٦٦] والنسخ أليق بالأمر منه بالخبر. الثالث: قوله من بعد: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦] وذلك ترغيبًا في الثبات على الجهاد، فثبت أن المراد من هذا الكلام هو الأمر وإن كان واردًا بلفظ الخبر، وهو كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾ [البقرة: ٢٣٣] ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ حاصله وجوب ثبات الواحد في مقابلة العشرة، **فما الفائدة في العدول عن هذه اللفظة الوجيزة إلى تلك الكلمات الطويلة؟**

وجوابه أن هذا الكلام إنما ورد على وفق الواقعة، وكان رسول الله يبعث السرايا، والغالب أن تلك السرايا ما كان ينتقص عددها عن العشرين وما كانت تزيد على المائة، فلهذا المعنى ذكر الله هذين العددين.

المسألة الثانية: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر (إن تكن) بالتاء، وكذلك الذي بعده (فإن تكن

منكم مائة صابرة) وقرأ أبو عمرو الأول بالياء والثاني بالتاء والباقون بالياء فيهما.

المسألة الثالثة: أنه تعالى بين العلة في هذه الغلبة، وهو قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ وتقرير هذا الكلام من وجوه:

الوجه الأول: أن من لا يؤمن بالله ولا يؤمن بالمعاد، فإن غاية السعادة والبهجة عنده ليست إلا هذه الحياة الدنيوية. ومن كان هذا معتقده فإنه يشح بهذه الحياة ولا يعرضها للزوال، أما من اعتقد أنه لا سعادة في هذه الحياة وأن السعادة لا تحصل إلا في الدار الآخرة فإنه لا يبالي بهذه الحياة الدنيا ولا يلتفت إليها ولا يقيم لها وزنًا، فيقدم على الجهاد بقلب قوي وعزم صحيح، ومتى كان الأمر كذلك، كان الواحد من هذا الباب يقاوم العدد الكثير من الباب الأول.

الوجه الثاني: أن الكفار إنما يعولون على قوتهم وشوكتهم، والمسلمون يستعينون بربهم بالدعاء والتضرع، ومن كان كذلك كان النصر والظفر به أليق وأولى.

الوجه الثالث: وهو وجه لا يعرفه إلا أصحاب الرياضات والمكاشفات، وهو أن كل قلب اختص بالعلم والمعرفة كان صاحبه مهيبًا عند الخلق، ولذلك إذا حضر الرجل العالم عند عالم من الناس الأقوياء الجهال الأشداء، فإن أولئك الأقوياء الأشداء الجهال يهابون ذلك العالم ويحترمونه ويخدمونه، بل نقول: إن السباع القوية إذا رأت الآدمي هابته وانحرفت عنه، وما ذاك إلا أن الآدمي بسبب ما فيه من نور العقل يكون مهيبًا، وأيضًا الرجل الحكيم إذا استولى على قلبه نور معرفة الله تعالى، فإنه تقوى أعضاؤه وتشتد جوارحه، وربما قوي عند ظهور التجلي في قلبه على أعمال يعجز عنها قبل ذلك الوقت.

إذا عرفت هذا فالمؤمن إذا أقدم على الجهاد فكأنه بذل نفسه وماله في طلب رضوان الله. فكان في هذه الحالة كالمشاهد لنور جلال الله فيقوى قلبه وتكمل روحه ويقدر على ما لا يقدر غيره عليه، فهذه أحوال من باب المكاشفات تدل على أن المؤمن يجب أن يكون أقوى قوة من الكافر فإن لم يحصل فذاك لأن ظهور هذا التجلي لا يحصل إلا نادرًا وللفرد بعد الفرد. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: روي أنه ﷺ كان يبعث العشرة إلى وجه المائة، بعث حمزة في ثلاثين راكبًا قبل بدر إلى قوم فلقيهم أبو جهل في ثلثمائة راكب وأرادوا قتالهم، فمنعهم حمزة وبعث

رسول الله عبد الله بن أنيس إلى خالد بن صفوان الهذلي وكان في جماعة، فابتدر عبد الله وقال: يا رسول الله صفه لي، فقال: «**إنك إذا رأيته ذكرت الشيطان ووجدت لذلك قشعريرة وقد بلغني أنه جمع لي فاخرج إليه واقتله**» قال: فخرجت نحوه فلما دنوت منه وجدت القشعريرة فقال لي: من الرجل؟ قلت له: من العرب سمعت بك وبجمعك؟ ومشيت معه حتى إذا تمكنت منه قتلته بالسيف وأسرعت إلى الرسول ﷺ وذكرت أني قتلته. فأعطاني عصا وقال: «**أمسكها آية بيني وبينك يوم القيامة**»[1] ثم إن هذا التكليف شق على المسلمين فأزاله الله عنهم بهذه الآية قال عطاء عن ابن عباس: لما نزل التكليف الأول ضج المهاجرون، وقالوا: يا رب نحن جياع وعدونا شباع، ونحن في غربة وعدونا في أهليهم، ونحن قد أخرجنا من ديارنا وأموالنا وأولادنا وعدونا ليس كذلك، وقال الأنصار: شغلنا بعدونا وواسينا إخواننا، فنزل التخفيف، وقال عكرمة: إنما أمر الرجل أن يصبر لعشرة، والعشرة لمائة حال ما كان المسلمون قليلين، فلما كثروا خفف الله تعالى عنهم، ولهذا قال ابن عباس: أيما رجل فر من ثلاثة فلم يفر، فإن فر من اثنين فقد فر[2]، والحاصل أن الجمهور ادعوا أن قوله: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾ ناسخ للآية المتقدمة وأنكر أبو مسلم الأصفهاني هذا النسخ، وتقرير قوله أن يقال: إنه تعالى قال في الآية الأولى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ فهب أنا نحمل هذا الخبر على الأمر إلا أن هذا الأمر كان مشروطًا بكون العشرين قادرين على الصبر في مقابلة المائتين، وقوله: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾ يدل على أن ذلك الشرط غير حاصل في حق هؤلاء، فصار حاصل الكلام أن الآية الأولى دلت على ثبوت حكم عند شرط مخصوص، وهذه الآية دلت على أن ذلك الشرط مفقود في حق هذه الجماعة، فلا جرم لم يثبت ذلك الحكم، وعلى هذا التقدير لم يحصل النسخ البتة.

فإن قالوا: قوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ معناه: ليكن العشرون الصابرون في مقابلة المائتين، وعلى هذا التقدير فالنسخ لازم.

قلنا: لم لا يجوز أن يقال إن المراد من الآية إن حصل عشرون صابرون في مقابلة المائتين، فليشتغلوا بجهادهم؟ والحاصل أن لفظ الآية ورد على صورة الخبر خالفنا هذا الظاهر وحملناه على الأمر، أما في رعاية الشرط فقد تركناه على ظاهره، وتقديره إن حصل منكم عشرون

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه أحمد في (مسنده) (٣/ ٤٩٦) وأبو يعلي في (مسنده) (٢/ ٢٠١) حديث رقم/ ٩٠٥، والبيهقي في (سننه الكبرى) (٣/ ٢٥٦) حديث رقم/ ٥٨٢٠، والضياء في (المختارة) (٩/ ٣٠) جميعًا من طريق محمد بن جعفر بن الزبير عن ابن عبد الله بن أنيس عن أبيه... به. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٦/ ٢٠٣) وقال: رواه أحمد وأبو يعلي... بنحوه. وفيه راو لم يسم وهو ابن عبد الله بن أنيس وبقية رجاله ثقات.

(٢) **صحيح موقوف**: أخرجه سعيد بن منصور في (سننه) (٥/ ٢٢٥) حديث رقم/ ١٠٠١، والشافعي في (مسنده) (١/ ٣١٤)، وابن أبي شيبة في (مصنفه) (١٢/ ٥٣٧) حديث رقم/ ٣٤٣٧٨ جميعًا من طريق ابن نجيح عن عطاء عن ابن عباس... به.

موصوفون بالصبر على مقاومة المائتين فليشتغلوا بمقاومتهم، وعلى هذا التقدير فلا نسخ.

فإن قالوا: قوله: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾ مشعر بأن هذاالتكليف كان متوجهًا عليهم قبل هذا التكليف.

قلنا: لا نسلم أن لفظ التخفيف يدل على حصول التثقيل قبله، لأن عادة العرب الرخصة بمثل هذا الكلام، كقوله تعالى عند الرخصة للحر في نكاح الأمة ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢٨] وليس هناك نسخ وإنما هو إطلاق نكاح الأمة لمن لا يستطيع نكاح الحرائر، فكذا ههنا. وتحقيق القول أن هؤلاء العشرين كانوا في محل أن يقال إن ذلك الشرط حاصل فيهم، فكان ذلك التكليف لازمًا عليهم، فلما بين الله أن ذلك الشرط غير حاصل وأنه تعالى علم أن فيهم ضعفاء لا يقدرون على ذلك فقد تخلصوا عن ذلك الخوف، فصح أن يقال خفف الله عنكم، ومما يدل على عدم النسخ أنه تعالى ذكر هذه الآية مقارنة للآية الأولى، وجعل الناسخ مقارنًا للمنسوخ لا يجوز.

فإن قالوا: العبرة في الناسخ والمنسوخ بالنزول دون التلاوة فإنها قد تتقدم وقد تتأخر، ألا ترى أن في عدة الوفاة الناسخ مقدم على المنسوخ.

قلنا: لما كان كون الناسخ مقارنًا للمنسوخ غير جائز في الوجود، وجب أن لا يكون جائزًا في الذكر، اللهم إلا لدليل قاهر وأنتم ما ذكرتم ذلك، وأما قوله في عدة الوفاة الناسخ مقدم على المنسوخ فنقول: إن أبا مسلم ينكر كل أنواع النسخ في القرآن فكيف يمكن إلزام هذا الكلام عليه؟ فهذا تقرير قول أبي مسلم. وأقول: إن ثبت إجماع الأمة على الإطلاق قبل أبي مسلم على حصول هذا النسخ فلا كلام عليه، فإن لم يحصل هذا الإجماع القاطع فنقول: قول أبي مسلم صحيح حسن.

المسألة الثانية: احتج هشام على قوله إن الله تعالى لا يعلم الجزئيات إلا عند وقوعها بقوله: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾ قال: فإن معنى الآية: الآن علم الله أن فيكم ضعفًا وهذا يقتضي أن علمه بضعفهم ما حصل إلا في هذا الوقت. والمتكلمون أجابوا بأن معنى الآية: أنه تعالى قبل حدوث الشيء لا يعلمه حاصلاً واقعًا، بل يعلم منه أنه سيحدث، أما عند حدوثه ووقوعه فإنه يعلمه حادثًا واقعًا، فقوله: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾ معناه: أن الآن حصل العلم بوقوعه وحصوله، وقبل ذلك فقد كان الحاصل هو العلم بأنه سيقع أو سيحدث.

المسألة الثالثة: قرأ عاصم وحمزة ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾ بفتح الضاد وفي الروم مثله، والباقون فيهما بالضم، وهما لغتان صحيحتان، الضعف والضعف كالمكث والمكث. وخالف حفص عاصمًا في هذا الحرف وقرأهما بالضم وقال: ما خالفت عاصمًا في شيء من القرآن إلا في هذا الحرف.

المسألة الرابعة: الذي استقر حكم التكليف عليه بمقتضى هذه الآية أن كل مسلم بالغ مكلف وقف بإزاء مشركين، عبدًا كان أو حرًّا فالهزيمة عليه محرمة ما دام معه سلاح يقاتل به، فإن لم يبق معه سلاح فله أن ينهزم، وإن قاتله ثلاثة حلت له الهزيمة والصبر أحسن. روى الواحدي في (البسيط) أنه وقف جيش موتة وهم ثلاثة آلاف وأمراؤهم على التعاقب زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبي طالب ثم عبد الله بن رواحة في مقابلة مائتي ألف من المشركين، مائة ألف من الروم ومائة ألف من المستعربة وهم لخم وجذام.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فيه بيان أنه لا تقع الغلبة إلا بإذن الله. والإذن ههنا هو الإرادة. وذلك يدل على قولنا في مسألة خلق الأفعال وإرادة الكائنات.

واعلم أنه تعالى ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ والمراد ما ذكره في الآية الأولى من قوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥] فبين في آخر هذه الآية أن الله مع الصابرين والمقصود أن العشرين لو صبروا ووقفوا فإن نصرتي معهم وتوفيقي مقارن لهم، وذلك يدل على صحة مذهب أبي مسلم وهو أن ذلك الحكم ما صار منسوخًا بل هو ثابت كما كان، فإن العشرين إن قدروا على مصابرة المائتين بقي ذلك الحكم، وإن لم يقدروا على مصابرتهم فالحكم المذكور ههنا زائل.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

واعلم أن المقصود من هذه الآية تعليم حكم آخر من أحكام الغزو والجهاد في حق النبي ﷺ وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ أبو عمر (وتكون) بالتاء والباقون بالياء، أما قراءة أبي عمرو بالتاء فعلى لفظ الأسرى، لأن الأسرى وإن كان المراد به التذكير للرجال فهو مؤنث اللفظ، وأما القراءة بالياء فلأن الفعل متقدم، والأسرى مذكرون في المعنى، وقد وقع الفصل بين الفعل والفاعل وكل واحد من هذه الثلاثة إذا انفرد أوجب تذكير الفعل كقولك جاء الرجال وحضر قبيلتك وحضر القاضي امرأة. فإذا اجتمعت هذه الأشياء كان التذكير أولى. وقال صاحب (الكشاف): قرئ (للنبي) ﷺ على التعريف و(أسارى) و(يثخن) بالتشديد.

المسألة الثانية: روي أن النبي ﷺ أتى بسبعين أسيرًا فيهم العباس عمه وعقيل بن أبي طالب فاستشار أبا بكر فيهم فقال: قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم، وخذ منهم فدية

تقوى بها أصحابك، فقام عمر وقال: كذبوك وأخرجوك فقدمهم واضرب أعناقهم. فإن هؤلاء أئمة الكفر وإن الله أغناك عن الفداء. فمكن عليًا من عقيل وحمزة من العباس ومكني من فلان ينسب له فنضرب أعناقهم. فقال عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّ اللَّهَ لَيُلَيِّنُ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أَلْيَنَ مِنَ اللَّبَنِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُشَدِّدُ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الْحِجَارَةِ، وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ كَمَثَلِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ**: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] **وَمَثَلِ عِيسَى فِي قَوْلِهِ**: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] **وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا عُمَرُ كَمَثَلِ نُوحٍ قَالَ** ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] **وَمَثَلُ مُوسَى حَيْثُ قَالَ**: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨]» ومال رسول الله ﷺ إلى قول أبي بكر[١] . روي أنه قال لعمر: يا أبا حفص وذلك أول ما كناه، تأمرني أن أقتل العباس، فجعل عمر يقول: ويل لعمر ثكلته أمه، وروي أن عبد الله بن رواحة أشار بأن تضرم عليهم نار كثيرة الحطب فقال له العباس: قطعت رحمك[٢] . وروي أنه ﷺ قال: «**لا تخرجوا أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلاَّ بِفِدَاءٍ أَوْ ضَرْبَةِ عُنُقٍ**»[٣] فقال ابن مسعود: إِلاَّ سُهَيْلَ ابْنَ بَيْضَاءَ فَإِنِّي سَمِعْتُهُ يَذْكُرُ الإِسْلاَمَ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ واشتد خوفي. ثم قال من بعد: «**إِلاَّ سُهَيْلَ ابْنَ بَيْضَاءَ**» وعن عبيدة السلماني قال: قال رسول الله ﷺ للقوم: «**إِنْ شِئْتُمْ قَتَلْتُمُوهُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ فَادَيْتُمُوهُمْ وَاسْتُشْهِدَ مِنْكُمْ بِعِدَّتِهِمْ**»[٤] فقالوا: بَلْ نَأْخُذ الْفِدَاء فاستشهدوا بأحد. وكان فداء الأسارى عشرين أوقية وفداء العباس أربعين أوقية، وعن محمد بن سيرين كان فداؤهم مائة أوقية والأوقية أربعون درهمًا أو ستة دنانير. وروي أنهم أخذوا الفداء نزلت هذه الآية فدخل عمر على رسول الله ﷺ، فإذا هو وأبو بكر يبكيان فقال: يا رسول الله أخبرني فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ، فقال: «**أَبْكِي على أَصْحَابِكَ مِنْ أَخْذِهِمْ الْفِدَاءَ، وَلَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ**»؛ لِشَجَرَةٍ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٣/ ١٣٨٣/ ١٧٦٣)، والترمذي في (سننه) (٥/ ٢٦٩) حديث رقم/ ٣٠٨١، وأحمد في (مسنده) (١/ ٣٠) حديث رقم/ ٢٠٣ جميعًا من طريق عكرمة بن عمار... به.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد في (مسنده) (١/ ٣٨٣) حديث رقم/ ٣٦٣٢ والطبري في (تفسيره) (١٠/ ٤٣) كلاهما من طريق الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله... به. وفي إسناده انقطاع بين أبي عبده وأبيه فلم يسمع منه.

(٣) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٢٧١) حديث رقم/ ٣٠٨٤ من طريق أبي معاوية... به. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه. والحاكم في (المستدرك) (٣/ ٢٤) حديث رقم/ ٤٣٠٤ من طريق الأعمش... به. وأحمد في (مسنده) (١/ ٣٨٣) حديث رقم/ ٣٦٣٢ قال: حدثنا أبو معاوية... به. وأبو يعلي في (مسنده) (٩/ ١١٦) حديث رقم/ ٥١٨٧ من طريق الأعمش... به. وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه كما قال الترمذي.

(٤) الحاكم في (المستدرك) (٢/ ١٥١) حديث رقم/ ٢٦١٩ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. والضياء في (الأحاديث المختارة) (٢/ ٢٤٧) حديث رقم/ ٦٢٤، والبيهقي في (سننه الكبرى) (٦/ ٣٢١) حديث رقم/ ١٢٦٢٤ جميعًا من طريق ابن عون عن محمد عن عبيدة عن علي... به.

قَرِيبَةٍ منه «ولو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ»(١) . هذا هو الكلام في سبب نزول هذه الآية .

المسألة الثالثة: تمسك الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجوه:

الوجه الأول: أن قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ صريح في أن هذا المعنى منهي عنه، وممنوع من قبل الله تعالى. ثم إن هذا المعنى قد حصل، ويدل عليه وجهان: الأول: قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ [الأنفال: ٧٠] الثاني: أن الرواية التي ذكرناها قد دلت على أنه عليه الصلاة والسلام ما قتل أولئك الكفار، بل أسرهم، فكان الذنب لازمًا من هذا الوجه.

الوجه الثاني: أنه تعالى أمر النبي عليه الصلاة والسلام وجميع قومه يوم بدر بقتل الكفار وهو قوله: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] وظاهر الأمر للوجوب، فلما لم يقتلوا بل أسروا كان الأسر معصية.

الوجه الثالث: أن النبي ﷺ حكم بأخذ الفداء، وكان أخذ الفداء معصية، ويدل عليه وجهان: الأول: قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وأجمع المفسرون على أن المراد من عرض الدنيا ههنا هو أخذ الفداء. والثاني: قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وأجمعوا على أن المراد بقوله: ﴿أَخَذْتُمْ﴾ ذلك الفداء.

الوجه الرابع: أن النبي ﷺ وأبا بكر بكيا، وصرح الرسول ﷺ أنه إنما بكى لأجل أنه حكم بأخذ الفداء، وذلك يدل على أنه ذنب.

الوجه الخامس: أن النبي ﷺ قال: «**إن العذاب قرب نزوله ولو نزل لمَا نَجَا مِنْهُ إلاّ عُمَرَ**» وذلك يدل على الذنب، فهذه جملة وجوه تمسك القوم بهذه الآية.

والجواب عن الوجه الذي ذكروه أولاً: أن قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يدل على أنه كان الأسر مشروعًا، ولكن بشرط سبق الإثخان في الأرض، والمراد بالإثخان هو القتل والتخويف الشديد، ولا شك أن الصحابة قتلوا يوم بدر خلقًا عظيمًا، وليس من شرط الأثخان في الأرض قتل جميع الناس. ثم إنهم بعد القتل الكثير أسروا جماعة، والآية تدل على أن بعد الإثخان يجوز الأسر فصارت هذه الآية دالة دلالة بينة على أن ذلك الأسر كان جائزًا بحكم هذه الآية، فكيف يمكن التمسك بهذه الآية في أن ذلك الأسر كان ذنبًا ومعصية؟ ويتأكد هذا الكلام بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤].

فإن قالوا: فعلى ما شرحتموه دلت الآية على أن ذلك الأسر كان جائزًا والإتيان بالجائز المشروع لا يليق ترتيب لعقاب عليه، فلم ذكر الله بعده ما يدل على العقاب؟ فنقول: الوجه فيه

(١) تقدم الحديث في أسارى بدر.

أن الإثخان في الأرض ليس مضبوطًا بضابط معلوم معين، بل المقصود منه إكثار القتل بحيث يوجب وقوع الرعب في قلوب الكافرين، وأن لا يجترئوا على محاربة المؤمنين، وبلوغ القتل إلى هذا الحد المعين لا شك أنه يكون مفوضًا إلى الاجتهاد، فلعله غلب على ظن الرسول عليه الصلاة والسلام أن ذلك القدر من القتل الذي تقدم كفى في حصول هذا المقصود، مع أنه ما كان الأمر كذلك فكان هذا خطأ واقعًا في الاجتهاد في صورة ليس فيها نص، وحسنات الأبرار سيئات المقربين. فحسن ترتيب العقاب على ذكر هذا الكلام لهذا السبب، مع أن ذلك لا يكون البتة ذنبًا ولا معصية.

والجواب عن الوجه الذي ذكروه ثانيًا أن نقول: إن ظاهر قوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢] أن هذا الخطاب إنما كان مع الصحابة لإجماع المسلمين على أنه عليه الصلاة والسلام ما كان مأمورًا أن يباشر قتل الكفار بنفسه، وإذا كان هذا الخطاب مختصًا بالصحابة، فهم لما تركوا القتل وأقدموا على الأسر، كان الذنب صادرًا منهم لا من الرسول ﷺ. ونقل أن الصحابة لما هزموا الكفار وقتلوا منهم جمعًا عظيمًا والكفار فروا ذهب الصحابة خلفهم وتباعدوا عن الرسول وأسروا أولئك الأقوام، ولم يعلم الرسول بإقدامهم على الأسر إلا بعد رجوع الصحابة إلى حضرته، وهو عليه السلام ما أسر وما أمر بالأسر، فزال هذا السؤال.

فإن قالوا: هب أن الأمر كذلك، لكنهم لما حملوا الأسارى إلى حضرته فلِمَ لَمْ يأمر بقتلهم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢].

قلنا: إن قوله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ﴾ تكليف مختص بحالة الحرب عند اشتغال الكفار بالحرب، فأما بعد انقضاء الحرب فهذا التكليف ما كان متناولاً له. والدليل القاطع عليه أنه عليه الصلاة والسلام استشار الصحابة في أنه بماذا يعاملهم؟ ولو كان ذلك النص متناولاً لتلك الحالة، لكان مع قيام النص القاطع تاركًا لحكمه وطالبًا ذلك الحكم من مشاورة الصحابة، وذلك محال، وأيضًا فقوله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢] أمر، والأمر لا يفيد إلا المرة الواحدة، وثبت بالإجماع أن هذا المعنى كان واجبًا حال المحاربة فوجب أن يبقى عديم الدلالة على ما وراء وقت المحاربة، وهذا الجواب شاف.

والجواب عما ذكروه ثالثًا، وهو قولهم: إنه عليه الصلاة والسلام حكم بأخذ الفداء، وأخذ الفداء محرم. فنقول: لا نسلم أن أخذ الفداء محرم.

وأما قوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ فنقول هذا لا يدل على قولكم، وبيانه من وجهين: الأول: أن المراد من هذه الآية حصول العتاب على الأسر لغرض أخذ الفداء، وذلك لا يدل على أن أخذ الفداء محرم مطلقًا. الثاني: أن أبا بكر رضي الله عنه قال الأولى: أن نأخذ الفداء لتقوى العسكر به على الجهاد، وذلك يدل على أنهم إنما طلبوا ذلك الفداء للتقوى به على الدين، وهذه الآية تدل على ذم من طلب الفداء لمحض عرض الدنيا ولا تعلق لأحد البابين

بالثاني . وهذان الجوابان بعينهما هما الجوابان عن تمسكهم بقوله تعالى: ﴿ لَوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

والجواب عما ذكروه رابعًا: أن بكاء الرسول عليه الصلاة والسلام يحتمل أن يكون لأجل أن بعض الصحابة لما خالف أمر الله في القتل، واشتغل بالأسر استوجب العذاب، فبكى الرسول عليه الصلاة والسلام خوفًا من نزول العذاب عليهم، ويحتمل أيضًا ما ذكرناه أنه عليه الصلاة والسلام اجتهد في أن القتل الذي حصل هل بلغ مبلغ الإثخان الذي أمره الله به في قوله: ﴿ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ووقع الخطأ في ذلك الاجتهاد، وحسنات الأبرار سيئات المقربين، فأقدم على البكاء لأجل هذا المعنى.

والجواب عما ذكروه خامسًا: أن ذلك العذاب إنما نزل بسبب أن أولئك الأقوام خالفوا أمر الله بالقتل، وأقدموا على الأسر حال ما وجب عليهم الاشتغال بالقتل، فهذا تمام الكلام في هذه المسألة. والله أعلم.

المسألة الرابعة: في شرح الألفاظ المشكلة في هذه الآية.

أما قوله: (ما كان لنبي أن تكون له أسرى) فلقائل أن يقول: كيف حسن إدخال لفظة كان على لفظة تكون في هذه الآية.

والجواب: قوله ﴿مَا كَانَ﴾ معناه النفي والتنزيه، أي ما يجب وما ينبغي أن يكون له المعنى المذكور ونظيره ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥] قال أبو عبيدة. يقول: لم يكن لنبي ذلك، فلا يكون لك، وأما من قرأ (ما كان للنبي) فمعناه: أن هذا الحكم ما كان ينبغي حصوله لهذا النبي، وهو محمد عليه الصلاة والسلام. قال الزجاج: (أسرى) جمع، و(أسارى) جمع الجمع. قال ولا أعلم أحدًا قرأ (أسارى) وهي جائزة كما نقلنا عن صاحب (الكشاف): أنه نقل أن بعضهم قرأ به.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

فيه بحثان:

البحث الأول: قال الواحدي: الإثخان في كل شيء عبارة عن قوته وشدته، يقال: قد أثخنه المرض إذا اشتد قوة المرض عليه، وكذلك أثخنه الجراح، والثخانة الغلظة فكل شيء غليظ، فهو ثخين. فقوله: ﴿ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: حتى يقوى ويشتد ويغلب ويبالغ ويقهر، ثم إن كثيرًا من المفسرين. قالوا المراد منه: أن يبالغ في قتل أعدائه. قالوا وإنما حملنا اللفظ عليه لأن الملك والدولة إنما تقوى وتشتد بالقتل. قال الشاعر:

لا يَسلَمُ الشَرَفُ الرَّفيعُ مِنَ الأذى حَتّى يُراقَ عَلى جَوانِبِهِ الدَمُ[1]

(١) البيت ضمن قصيدة من البحر الكامل للشاعر ابن زيدون، وهو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون

ولأن كثرة القتل توجب قوة الرعب وشدة المهابة، وذلك يمنع من الجراءة، ومن الإقدام على ما لا ينبغي، فلهذا السبب أمر الله تعالى بذلك.

البحث الثاني: أن كلمة (حتى) لانتهاء الغاية. فقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يدل على أن بعد حصول الإثخان في الأرض له أن يقدم على الأسر.

أما قوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ فالمراد الفداء، وإنما سمى منافع الدنيا ومتاعها عرضًا، لأنه لا ثبات له ولا دوام، فكأنه يعرض ثم يزول، ولذلك سمى المتكلمون الأعراض أعراضًا، لأنه لا ثبات لها كثبات الأجسام لأنها تطرأ على الأجسام، وتزول عنها مع كون الأجسام باقية، ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ يعني أنه تعالى لا يريد ما يفضي إلى السعادات الدنيوية التي تعرض وتزول وإنما يريد ما يفضي إلى السعادات الأخروية الباقية الدائمة المصونة عن التبديل والزوال. واحتج الجبائي والقاضي بهذه الآية على فساد قول من يقول: لا كائن من العبد إلا والله يريده لأن هذا الأسر وقع منهم على هذا الوجه، ونص الله على أنه لا يريده بل يريد منهم ما يؤدي إلى ثواب الآخرة وهو الطاعة دون ما يكون فيه عصيان.

وأجاب أهل السنة عنه بأن قالوا: إنه تعالى ما أراد أن يكون هذا الأسر منهم طاعة، وعملاً جائزًا مأذونًا. ولا يلزم من نفي إرادة كون هذا الأسر طاعة، نفي كونه مراد الوجود، وأما الحكماء فإنهم يقولون الشيء مراد بالعرض مكروه بالذات.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ والمراد أنكم إن طلبتم الآخرة لم يغلبكم عدوكم لأن الله عزيز لا يقهر ولا يغلب حكيم في تدبير مصالح العالم. قال ابن عباس: هذا الحكم إنما كان يوم بدر، لأن المسلمين كانوا قليلين، فلما كثروا وقوي سلطانهم أنزل الله بعد ذلك في الأسارى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤] وأقول إن هذا الكلام يوهم أن قوله: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ يزيد على حكم الآية التي نحن في تفسيرها، وليس الأمر كذلك لأن كلتا الآيتين متوافقتان، فإن كلتاهما يدلان على أنه لا بد من تقديم الإثخان، ثم بعده أخذ الفداء.

ثم قال تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

واعلم أنه كثر أقاويل الناس في تفسير هذا الكتاب السابق. ونحن نذكرها ونذكر ما فيها من المباحث:

فالقول الأول: وهو قول سعيد بن جبير وقتادة لولا كتاب من الله سبق يا محمد بحل الغنائم لك

المخزومي الأندلسي، أبو الوليد. ٣٩٤-٤٦٣هـ/ ١٠٠٣-١٠٧٠م وزير، كاتب وشاعر من أهل قرطبة، انقطع إلى ابن جهور من ملوك الطوائف بالأندلس، فكان السفير بينه وبين ملوك الأندلس فأعجبوا به. واتهمه ابن جهور بالميل إلى المعتضد بن عباد فحبسه، فاستعطفه ابن زيدون برسائل عجيبة فلم يعطف. فهرب واتصل بالمعتضد صاحب إشبيلية فولاه وزارته، وفوض إليه أمر مملكته فأقام مبجلاً مقربًا إلى أن توفي بإشبيلية في أيام المعتمد على الله بن المعتضد. وأيضًا جاء ضمن قصيدة للمتنبي وتقدمت ترجمته.

ولأمتك، لمسكم العذاب. وهو مشكل لأن تحليل الغنائم والفداء هل كان حاصلاً في ذلك الوقت، أو ما كان حاصلاً في ذلك الوقت؟ فإن كان التحليل والإذن حاصلاً في ذلك الوقت امتنع إنزال العذاب عليهم، لأن ما كان مأذونًا فيه من قبل لم يحصل العقاب على فعله، وإن قلنا: إن الإذن ما كان حاصلاً في ذلك الوقت كان ذلك الفعل حرامًا في ذلك الوقت أقصى ما في الباب أنه كان في علم الله أنه سيحكم بحله بعد ذلك إلا أن هذا لا يقدح في كونه حرامًا في ذلك الوقت.

فإن قالوا: إن كونه بحيث سيصير حلالاً بعد ذلك يوجب تخفيف العقاب.

قلنا: فإذا كان الأمر كذلك امتنع إنزال العقاب بسببه، وذلك يمنع من التخويف بسبب ذلك العقاب.

القول الثاني: قال محمد بن إسحاق: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ إني لا أعذب إلا بعد النهي لعذبتكم فيما صنعتم، وأنه تعالى ما نهاهم عن أخذ الفداء، وهذا أيضًا ضعيف لأنا نقول حاصل هذا القول أنه ما وجد دليل شرعي يوجب حرمة ذلك الفداء، فهل حصل دليل عقلي يقتضي حرمته أم لا؟ فإن قلنا حصل، فيكون الله تعالى قد بين تحريمه بواسطة ذلك الدليل العقلي، ولا يمكن أن يقال إنه تعالى لم يبين تلك الحرمة، وإن قلنا: إنه ليس في العقل ولا في الشرع ما يقتضي المنع، فحينئذ امتنع أن يكون المنع حاصلاً، وإلا لكان ذلك تكليف ما لا يطاق، وإذا لم يكن المنع حاصلاً كان الإذن حاصلاً، وإذا كان الإذن حاصلاً، فكيف يمكن ترتيب العقاب على فعله؟

القول الثالث: قال قوم قد سبق حكم الله بأنه لا يعذب أحدًا ممن شهد بدرًا مع النبي ﷺ، وهذا أيضًا مشكل لأنه يقتضي أن يقال: إنهم ما منعوا عن الكفر والمعاصي والزنا والخمر وما هددوا بترتيب العقاب على هذه القبائح، وذلك يوجب سقوط التكاليف عنهم ولا يقوله عاقل. وأيضًا فلو صار كذلك، فكيف آخذهم الله تعالى في ذلك الموضع بعينه في تلك الواقعة بعينها، وكيف وجه عليهم هذا العقاب القوي؟

والقول الرابع: لولا كتاب من الله سبق في أن من أتى ذنبًا بجهالة، فإنه لا يؤاخذه به لمسهم العذاب، وهذا من جنس ما سبق.

واعلم أن الناس قد أكثروا فيه، والمعتمد في هذا الباب أن نقول: أما على قولنا: فنقول: يجوز أن يعفو الله عن الكبائر. فقوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ معناه لولا أنه تعالى حكم في الأزل بالعفو عن هذه الواقعة لمسهم عذاب عظيم، وهذا هو المراد من قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] ومن قوله: (سبقت رحمتي غضبي) وأما على قول المعتزلة فهم لا يجوزون العفو عن الكبائر، فكان معناه ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ في أن من احترز عن الكبائر صارت صغائره مغفورة وإلا لمسهم عذاب عظيم، وهذا الحكم وإن كان ثابتًا في حق جميع

المسلمين، إلا أن طاعات أهل بدر كانت عظيمة وهو قبولهم الإسلام، وانقيادهم لمحمد ﷺ، وإقدامهم على مقاتلة الكفار من غير سلاح وأهبة فلا يبعد أن يقال: إن الثواب الذي استحقوه على هذه الطاعات كان أزيد من العقاب الذي استحقوه على هذا الذنب، فلا جرم صار هذا الذنب مغفورًا، ولو قدرنا صدور هذا الذنب من سائر المسلمين لما صار مغفورًا، فبسبب هذا القدر من التفاوت حصل لأهل بدر هذا الاختصاص.

ثم قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ روى أنهم أمسكوا عن الغنائم ولم يمدوا أيديهم إليها، فنزلت هذه الآية. وقيل هو إباحة الفداء.

فإن قيل: ما معنى الفاء في قوله: ﴿فَكُلُوا﴾؟

قلنا التقدير: قد أبحت لكم الغنائم ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا﴾ نصب على الحال من المغنوم أو صفة للمصدر، أي أكلًا حلالاً ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والمعنى: واتقوا الله فلا تقدموا على المعاصي بعد ذلك، واعلموا أن الله غفور ما أقدمتم عليه في الماضي من الزلة، رحيم ما أتيتم من الجرم والمعصية، فقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ إشارة إلى لمستقبل. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إشارة إلى الحالة الماضية.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

اعلم أن الرسول لما أخذ الفداء من الأسارى وشق عليهم أخذ أموالهم منهم، ذكر الله هذه الآية استمالة لهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في العباس، وعقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحرث، كان العباس أسيرًا يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليطعم الناس، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لأهل بدر فلم تبلغه التوبة حتى أسر، فقال العباس: كنت مسلمًا إلا أنهم أكرهوني، فقال عليه السلام: «**إن يكن ما تذكره حقًا فالله يجزيك فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا**»(١). قال العباس: فكلمت رسول الله أن يرد ذلك الذهب علي، فقال: «**أما شيء خرجت لتستعين به علينا فلا**» قال: وكلفني الرسول فداء ابن أخي عقيل بن أبي طالب عشرين أوقية، وفداء نوفل بن الحرث، فقال العباس: تركتني يا محمد أتكفف قريشًا، فقال رسول الله ﷺ: «**أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها: لا أدري ما يصيبني، فإن حدث بي حادث فهو لك**

(١) أخرجه أحمد في (مسنده) (١/ ٣٥٣) حديث رقم/ ٣٣١٠ من طريق ابن إسحاق قال: حدثني من سمع عكرمة عن ابن عباس . . . به. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٦/ ١١٤) حديث رقم/ ١٠٠٠٦ وقال: رواه أحمد وفيه راو لم يسم وبقية رجاله ثقات.

ولعبد الله وعبيد الله والفضل» فقال العباس: وما يدريك؟ قال: «أخبرني به ربي» قال العباس: فأنا أشهد أنك صادق وأن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل، ولقد كنت مرتابًا في أمرك، فأما إذ أخبرتني بذلك فلا ريب. قال العباس: فأبدلني الله خيرًا من ذلك، لي الآن عشرون عبدًا، وإن أدناهم ليضرب في عشرين ألفًا، وأعطاني زمزم، وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي. وروي أنه قدم على رسول الله مال البحرين ثمانون ألفًا، فتوضأ لصلاة الظهر وما صلى حتى فرقه (١)، وأمر العباس أن يأخذ منه، فأخذ ما قدر على حمله، وكان يقول: هذا خير مما أخذ مني، وأنا أرجو المغفرة. واختلف المفسرون في أن الآية نازلة في العباس خاصة، أو في جملة الأسارى. قال قوم: إنها في العباس خاصة، وقال آخرون: إنها نزلت في الكل، وهذا أولى، لأن ظاهر الآية يقتضي العموم من ستة أوجه: أحدها: قوله: ﴿قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم﴾، وثانيها: قوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾، وثالثها: قوله: ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾، ورابعها: قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾، وخامسها: قوله: ﴿مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾، وسادسها: قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، فلما دلت هذه الألفاظ الستة على العموم، فما الموجب للتخصيص؟ أقصى ما في الباب أن يقال: سبب نزول الآية هو العباس، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

أما قوله: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾.

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: يجب أن يكون المراد من هذا الخير: الإيمان والعزم على طاعة الله وطاعة رسوله في جميع التكاليف، والتوبة عن الكفر وعن جميع المعاصي، ويدخل فيه العزم على نصرة الرسول، والتوبة عن محاربته.

المسألة الثانية: احتج هشام بن الحكم على قوله: إنه تعالى لا يعلم الشيء إلا عند حدوثه بهذه الآية، لأن قوله: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ فعل كذا وكذا شرط وجزاء، والشرط هو حصول هذا العلم، والشرط والجزاء لا يصح وجودهما إلا في المستقبل، وذلك يوجب حدوث علم الله تعالى.

والجواب: أن ظاهر اللفظ وإن كان يقتضي ما ذكره هشام، إلا أنه لما دل الدليل على أن

(١) هذا الحديث لا يصح حيث أن مال البحرين لم يأت إلا بعد موت النبي ﷺ كما جاء في الصحيحين: أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٨٠٣) حديث رقم/ ٢١٧٤ ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٠٦/ ٢٣١٤) كلاهما من طريق محمد بن علي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ (ثم لو قد جاء مال البحرين قد أعطيتك هكذا وهكذا) وهكذا فلم يجئ مال البحرين حتى قُبض النبي ﷺ فلما جاء مال البحرين أمر أبو بكر فنادى من كان له ثَم النبي ﷺ عدة أو دين فليأتنا فأتيته فقلت: إن النبي ﷺ قال لي كذا وكذا. فحثي لي حثية فعددتها فإذا هي خمسمائة وقال: خذ مثليها واللفظ للبخاري.

علم الله يمتنع أن يكون محدثًا وجب أن يقال: ذكر العلم وأراد به المعلوم من حيث إنه يدل حصول العلم على حصول المعلوم.

أما قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): قرأ الحسن (مما أَخَذَ منكم) على البناء للفاعل.

المسألة الثانية: للمفسرين في هذا الخير أقوال:

القول الأول: المراد: الخلف مما أخذ منهم في الدنيا. قال القاضي: لأنه تعالى عطف عليه أمر الآخرة بقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فما تقدم يجب أن يكون المراد منه منافع الدنيا.

ولقائل أن يقول: إن قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ المراد منه إزالة العقاب، وعلى هذا التقدير: لم يبعد أن يكون المراد من هذا الخير المذكور أيضًا الثواب والتفضل في الآخرة.

والقول الثاني: المراد من هذا الخير ثواب الآخرة، فإن قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ المراد منه في الآخرة، فالخير الذي تقدمه يجب أيضًا أن يكون في الدنيا.

والقول الثالث: أنه محمول على الكل.

فإن قيل: إذا حملتم الخير على خيرات الدنيا، فهل تقولون إن كل من أخلص من الأسارى قد آتاه الله خيرًا مما أخذ منه؟

قلنا: هكذا يجب أن يكون بحكم الآية، إلا أنا لا نعلم من المخلص بقلبه. حتى يتوجه علينا فيه السؤال، ولا نعلم أيضًا من الذي آتاه الله علمًا، وقد علمنا أن قليل الدنيا مع الإيمان أعظم من كثير الدنيا مع الكفر.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهو تأكيد لما مضى ذكره من قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ والمعنى: كيف لا يفي بوعده المغفرة وأنه غفور رحيم؟

أما قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: في تفسير هذه الخيانة وجوه: الأول: أن المراد منه الخيانة في الدين وهو الكفر، يعني إن كفروا بك فقد خانوا الله من قبل. الثاني: أن المراد من الخيانة منع ما ضمنوا من الفداء. الثالث: روي أنه عليه السلام لما أطلقهم من الأسر عهد معهم أن لا يعودوا إلى محاربته وإلى معاهدة المشركين، وهذا هو العادة فيمن يطلق من الحبس والأسر، فقال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ أي: نكث هذا العهد فقد خانوا الله من قبل، والمراد أنهم كانوا يقولون ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢] ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩] ثم إذا وصلوا إلى النعمة وتخلصوا من البلية نكثوا العهد ونقضوا الميثاق، ولا يمنع

دخول الكل فيه، وإن كان الأظهر هو هذا الأخير.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ قال الأزهري: يقال أمكنني الأمر يمكنني فهو ممكن ومفعول الإمكان محذوف، والمعنى: فأمكن المؤمنين منهم، والمعنى أنهم خانوا الله بما أقدموا عليه من محاربة الرسول يوم بدر فأمكن الله منهم قتلاً وأسرًا، وذلك نهاية الإمكان والظفر. فنبه الله بذلك على أنهم قد ذاقوا وبال ما فعلوه ثَم، فإن عادوا كان التمكين منهم ثابتًا حاصلاً، وفيه بشارة للرسول ﷺ بأنه يتمكن من كل من يخونه وينقض عهده.

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي ببواطنهم وضمائرهم ﴿حَكِيمٌ﴾ يجازيهم بأعمالهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى قسم المؤمنين في زمان الرسول ﷺ إلى أربعة أقسام، وذكر حكم كل واحد منهم، وتقرير هذه القسمة أنه عليه السلام ظهرت نبوته بمكة ودعا الناس هناك إلى الدين، ثم انتقل من مكة إلى المدينة، فحين هاجر من مكة إلى المدينة صار المؤمنون على قسمين منهم من وافقه في تلك الهجرة، ومنهم من لم يوافقه فيها بل بقي هناك.

أما القسم الأول: فهم المهاجرون الأولون، وقد وصفهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وإنما قلنا إن المراد منهم المهاجرون الأولون لأنه تعالى قال في آخر الآية: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا﴾ وإذا ثبت هذا ظهر أن هؤلاء موصوفون بهذه الصفات الأربعة: أولها: أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقبلوا جميع التكاليف التي بلغها محمد ﷺ ولم يتمردوا، فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ يفيد هذا المعنى.

والصفة الثانية: قوله: ﴿وَهَاجَرُوا﴾ يعني: فارقوا الأوطان، وتركوا الأقارب والجيران في طلب مرضاة الله، ومعلوم أن هذه الحالة حالة شديدة، قال تعالى: ﴿أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ [النساء: ٦٦] جعل مفارقة الأوطان معادلة لقتل النفس، فهؤلاء في المرتبة الأولى تركوا الأديان القديمة لطلب مرضاة الله تعالى، وفي المرتبة الثانية تركوا الأقارب والخلان

والأوطان والجيران لمرضاة الله تعالى.

والصفة الثالثة: قوله: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أما المجاهدة بالمال فلأنهم لما فارقوا الأوطان فقد ضاعت دورهم ومساكنهم وضياعهم ومزارعهم، وبقيت في أيدي الأعداء، وأيضًا فقد احتاجوا إلى الإنفاق الكثير بسبب تلك العزيمة، وأيضًا كانوا ينفقون أموالهم على تلك الغزوات، وأما المجاهدة بالنفس فلأنهم كانوا أقدموا على محاربة بدر من غير آلة ولا أهبة ولا عدة مع الأعداء الموصوفين بالكثرة والشدة، وذلك يدل على أنهم أزالوا أطماعهم عن الحياة وبذلوا أنفسهم في سبيل الله.

وأما الصفة الرابعة: فهي أنهم كانوا أول الناس إقدامًا على هذه الأفعال والتزامًا لهذه الأحوال، ولهذه السابقة أثر عظيم في تقوية الدين. قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠] وقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] وإنما كان السبق موجبًا للفضيلة، لأن إقدامهم على هذه الأفعال يوجب اقتداء غيرهم بهم، فيصير ذلك سببًا للقوة أو الكمال، ولهذا المعنى قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] وقال عليه السلام: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسنةً فلهُ أجرهَا وأجْرُ من عَملَ بها إلى يَوْمِ القِيامَةِ**» ومن عادة الناس أن دواعيهم تقوى بما يرون من أمثالهم في أحوال الدين والدنيا، كما أن المحن تخف على قلوبهم بالمشاركة فيها، فثبت أن حصول هذه الصفات الأربعة للمهاجرين الأولين يدل على غاية الفضيلة ونهاية المنقبة، وأن ذلك يوجب الاعتراف بكونهم رؤساء المسلمين وسادة لهم.

وأما القسم الثاني: من المؤمنين الموجودين في زمان محمد ﷺ فهم الأنصار، وذلك لأنه عليه السلام لما هاجر إليهم مع طائفة من أصحابه، فلولا أنهم آووا ونصروا وبذلوا النفس والمال في خدمة رسول الله ﷺ وإصلاح مهمات أصحابه لما تم المقصود البتة، ويجب أن يكون حال المهاجرين أعلى في الفضيلة من حال الأنصار لوجوه: أولها: أنهم هم السابقون في الإيمان الذي هو رئيس الفضائل وعنوان المناقب: وثانيها: أنهم تحملوا العناء والمشقة دهرًا دهيرًا، وزمانًا مديدًا من كفار قريش وصبروا عليه، وهذه الحال ما حصلت للأنصار. وثالثها: أنهم تحملوا المضار الناشئة من مفارقة الأوطان والأهل والجيران، ولم يحصل ذلك للأنصار. ورابعها: أن فتح الباب في قبول الدين والشريعة من الرسول عليه السلام إنما حصل من المهاجرين، والأنصار اقتدوا بهم وتشبهوا بهم، وقد ذكرنا أنه عليه السلام قال: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسنةً فلهُ أجرهَا وأجْرُ من عَملَ بها إلى يَوْمِ القِيامَةِ**» (١) فوجب أن يكون المقتدى أقل مرتبة من

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم في كتاب (الزكاة) باب (الحث على الصدقة ولو بشق تمرة) (٢/ ٦٩) حديث رقم/ ٧٠٤، والترمذي في كتاب (العلم) باب (فيمن دعا إلى هوى أو إلى ضلالة) (٥/ ٤٢) حديث رقم/ ٢٦٧٥ قال أبو عيسى:

المقتدى به، فجملة هذه الأحوال توجب تقديم المهاجرين الأولين على الأنصار في الفضل والدرجة والمنقبة، فلهذا السبب أينما ذكر الله هذين الفريقين قدم المهاجرين على الأنصار وعلى هذا الترتيب ورد ذكرهما في هذه الآية.

واعلم أن الله تعالى لما ذكر هذين القسمين في هذه الآية قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ واختلفوا في المراد بهذه الولاية، فنقل الواحدي عن ابن عباس والمفسرين كلهم، أن المراد هو الولاية في الميراث. وقالوا جعل الله تعالى سبب الإرث الهجرة والنصرة دون القرابة. وكان القريب الذي آمن ولم يهاجر لم يرث من أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر، واعلم أن لفظ الولاية غير مشعر بهذا المعنى، لأن هذا اللفظ مشع بالقرب على ما قررناه في مواضع من هذا الكتاب. ويقال: (السلطان ولي من لا ولي له) ولا يفيد الإرث وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] ولا يفيد الإرث بل الولاية تفيد القرب فيمكن حمله على غير الإرث، وهو كون بعضهم معظمًا للبعض مهتمًا بشأنه مخصوصًا بمعاونته ومناصرته، والمقصود أن يكونوا يدًا واحدة على الأعداء، وأن يكون حب كل واحد لغيره جاريًا مجرى حبسه لنفسه، وإذا كان اللفظ محتملاً لهذا المعنى كان حمله على الإرث بعيدًا عن دلالة اللفظ، لا سيما وهم يقولون إن ذلك الحكم صار منسوخًا بقوله تعالى في آخر الآية: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ وأي حاجة تحملنا على حمل اللفظ على معنى لا إشعار لذلك اللفظ به، ثم الحكم بأنه صار منسوخًا بآية أخرى مذكورة معه، هذا في غاية البعد، اللهم إلا إذا حصل إجماع المفسرين على أن المراد ذلك، فحينئذ يجب المصير إليه إلا أن دعوى الإجماع بعيد.

القسم الثالث: من أقسام مؤمني زمان الرسول عليه السلام وهم المؤمنون الذين ما وافقوا الرسول في الهجرة وبقوا في مكة وهم المعنيون بقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾ فبين تعالى حكمهم من وجهين:

الأول: قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن الولاية المنفية في هذه الصورة، هي الولاية المثبتة في القسم الذي تقدم، فمن حمل تلك الولاية على الإرث، زعم أن الولاية المنفية ههنا هي الإرث، ومن حمل تلك الولاية على سائر الاعتبارات المذكورة، فكذا ههنا. واحتج الذاهبون، إلى أن المراد من هذه الولاية الإرث، بأن قالوا: لا يجوز أن يكون المراد منها الولاية بمعنى النصرة والدليل عليه

هذا حديث حسن صحيح. والنسائي في كتاب (الزكاة) باب (التحريض على الصدقة) (٥/ ٧٩) حديث رقم/ ٢٥٥٣، وابن ماجه في كتاب (المقدمة) باب (من سن سنة حسنة أو سيئة) (١/ ٧٤) حديث رقم/ ٢٠٣ من طريق أبي عوانة... به. وأحمد في (مسنده) (٤/ ٣٥٧/ ٣٥٩)، والدارمي في كتاب (المقدمة) باب (من سن سنة حسنة أو سيئة) (١/ ١٢٤) حديث رقم/ ٥١٢ جميعًا عن جرير بن عبد الله... به.

أنه تعالى عطف عليه قوله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ ولا شك أن ذلك عبارة عن الموالاة في الدين والمعطوف مغاير للمعطوف عليه، فوجب أن يكون المراد بالولاية المذكورة أمرًا مغايرًا لمعنى النصرة وهذا الاستدلال ضعيف، لأنا حملنا تلك الولاية على التعظيم والإكرام وهو أمر مغاير للنصرة، ألا ترى أن الإنسان قد ينصر بعض أهل الذمة في بعض المهمات وقد ينصر عبده وأمته بمعنى الإعانة مع أنه لا يواليه بمعنى التعظيم والإجلال فسقط هذا الدليل.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ يوهم أنهم لما لم يهاجروا مع رسول الله ﷺ سقطت ولايتهم مطلقًا، فأزال الله تعالى هذا الوهم بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ يعني أنهم لو هاجروا لعادت تلك الولاية وحصلت، والمقصود منه الحمل على المهاجرة والترغيب فيها، لأن المسلم متى سمع أن الله تعالى يقول: إن قطع المهاجرة انقطعت الولاية بينه وبين المسلمين ولو هاجر حصلت تلك الولاية وعادت على أكمل الوجوه، فلا شك أن هذا يصير مرغبًا له في الهجرة، والمقصود من المهاجرة كثرة المسلمين واجتماعهم وإعانة بعضهم لبعض، وحصول الألفة الشوكة وعدم التفرقة.

المسألة الثالثة: قرأ حمزة (من ولايتهم) بكسر الواو، والباقون بالفتح. قال الزجاج: من فتح جعلها من النصرة والنسب. وقال: والولاية التي بمنزلة الإمارة مكسورة للفصل بين المعنيين وقد يجوز كسر الولاية لأن في تولي بعض القوم بعضًا جنسًا من الصناعة كالقصارة والخياطة فهي مكسورة. وقال أبو علي الفارسي: الفتح أجود، لأن الولاية ههنا من الدين والكسر في السلطان.

والحكم الثاني: من أحكام هذا القسم الثالث، قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾.

واعلم أنه تعالى لما بين الحكم في قطع الولاية بين تلك الطائفة من المؤمنين، بين أنه ليس المراد منه المقاطعة التامة كما في حق الكفار بل هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا لم استنصروكم فانصروهم ولا تخذلوهم. روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ قام الزبير وقال: فهل نعينهم على أمر إن استعانوا بنا؟ فنزل ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ﴾ والمعنى أنه لا يجوز لكم نصرهم عليهم إذ الميثاق مانع من ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن هذا الترتيب الذي اعتبره الله في هذه الآية في غاية الحسن لأنه ذكر

ههنا أقسامًا ثلاثة: فالأول: المؤمنون من المهاجرين والأنصار وهم أفضل الناس وبين أنه يجب أن يوالي بعضهم بعضًا.

والقسم الثاني: المؤمنون الذين لم يهاجروا فهؤلاء بسبب إيمانهم لهم فضل وكرامة وبسبب ترك الهجرة لهم حالة نازلة فوجب أن يكون حكمهم حكمًا متوسطًا بين الإجلال والإذلال وذلك هو أن الولاية المثبتة للقسم الأول، تكون منفية عن هذا القسم، إلا أنهم يكونون بحيث لو استنصروا المؤمنين واستعانوا بهم نصروهم وأعانوهم. فهذا الحكم متوسط بين الإجلال والإذلال. وأما الكفار فليس لهم البتة ما يوجب شيئًا من أسباب الفضيلة. فوجب كون المسلمين منقطعين عنهم من كل الوجوه فلا يكون بينهم ولاية ولا مناصلة بوجه من الوجوه، فظهر أن هذا الترتيب في غاية الحسن.

المسألة الثانية: قال بعض العلماء: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ يدل على أن الكفار في الموارثة مع اختلاف مللهم كأهل ملة واحدة، فالمجوسي يرث الوثني، والنصراني يرث المجوسي، لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

واعلم أن هذا الكلام إنما يستقيم إذا حملنا الولاية على الإرث وقد سبق القول فيه، بل الحق أن يقال: إن كفار قريش كانوا في غاية العداوة لليهود فلما ظهرت دعوة محمد ﷺ تناصروا وتعاونوا على إيذائه ومحاربته، فكان المراد من الآية ذلك. وتمام التحقيق فيه أن الجنسية علة الضم وشبيه الشيء منجذب إليه، والمشركون واليهود والنصارى لما اشتركوا في عداوة محمد ﷺ صارت هذه الجهة موجبة لانضمام بعضهم إلى بعض وقرب بعضهم من بعض وذلك يدل على أنهم ما أقدموا على تلك العداوة لأجل الدين، لأن كل واحد منهم كان في نهاية الإنكار لدين صاحبه، بل كان ذلك من أدل الدلائل على أن تلك العداوة لمحض الحسد والبغي والعناد.

ثم إنه تعالى لما بين هذه الأحكام قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ والمعنى: إن لم تفعلوا ما أمرتكم به في هذه التفاصيل المذكورة المتقدمة تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة، وبيان هذه الفتنة والفساد من وجوه: الأول: أن المسلمين لو اختلطوا بالكفار في زمان ضعف المسلمين وقلة عددهم، وزمان قوة الكفار وكثرة عددهم، فربما صارت تلك المخالطة سببًا لالتحاق المسلم بالكفار. الثاني: أن المسلمين لو كانوا متفرقين لم يظهر منهم جمع عظيم، فيصير ذلك سببًا لجراءة الكفار عليهم. الثالث: أنه إذا كان جمع المسلمين كل يوم في الزيادة في العدة والعدة، صار ذلك سببًا لمزيد رغبتهم فيما هم فيه ورغبة المخالف في الالتحاق بهم.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا القسم الثالث، عاد إلى ذكر القسم الأول والثاني مرة أخرى فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

واعلم أن هذا ليس بتكرار وذلك لأنه تعالى ذكرهم أولاً ليبين حكمهم وهو ولاية بعضهم بعضًا، ثم إنه تعالى ذكرهم ههنا لبيان تعظيم شأنهم وعلو درجتهم، وبيانه من وجهين: الأول: أن الإعادة تدل على مزيد الاهتمام بحالهم وذلك يدل على الشرف والتعظيم. والثاني: وهو أنه تعالى أثنى عليهم ههنا من ثلاثة أوجه: أولها: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يفيد الحصر وقوله: ﴿حَقًّا﴾ يفيد المبالغة في وصفهم بكونهم محقين محققين في طريق الدين، والأمر في الحقيقة كذلك، لأن من لم يكن محقًا في دينه لم يتحمل ترك الأديان السالفة، ولم يفارق الأهل والوطن ولم يبذل النفس والمال ولم يكن في هذه الأحوال من المتسارعين المتسابقين. وثانيها: قوله: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وتنكير لفظ المغفرة يدل على الكمال كما أن التنكير في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] يدل على كمال تلك الحياة، والمعنى: لهم مغفرة تامة كاملة عن جميع الذنوب والتبعات. وثالثها: قوله: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ والمراد منه الثواب الرفيع الشريف. والحاصل: أنه تعالى شرح حالهم في الدنيا وفي الآخرة، أما في الدنيا فقد وصفهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ وأما في الآخرة فالمقصود إما دفع العقاب، وإما جلب الثواب، أما دفع العقاب فهو المراد بقوله: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وأما جلب الثواب فهو المراد بقوله: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهذه السعادات العالية إنما حصلت لأنهم أعرضوا عن اللذات الجسمانية، فتركوا الأهل والوطن وبذلوا النفس والمال، وذلك تنبيه على أنه لا طريق إلى تحصيل السعادات إلا بالإعراض عن هذه الجسمانيات.

القسم الرابع: من مؤمني زمان محمد ﷺ هم الذين لم يوافقوا الرسول في الهجرة إلا أنهم بعد ذلك هاجروا إليه، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في المراد من قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ نقل الواحدي عن ابن عباس: بعد الحديبية وهي الهجرة الثانية، وقيل بعد نزول هذه الآية، وقيل: بعد يوم بدر، والأصح أن المراد والذين هاجروا بعد الهجرة الأولى، وهؤلاء هم التابعون بإحسان كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

المسألة الثانية: الأصح أن الهجرة انقطعت بفتح مكة لأن عنده صارت مكة بلد الإسلام وقال الحسن: الهجرة غير منقطعة أبدًا، وأما قوله عليه السلام: «لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ» فالمراد الهجرة المخصوصة، فإنها انقطعت بالفتح وبقوة الإسلام. أما لو اتفق في بعض الأزمان كون المؤمنين في بلد وفي عددهم قلة، ويحصل للكفار بسبب كونهم معهم شوكة وإن هاجر المسلمون من تلك البلدة وانتقلوا إلى بلدة أخرى ضعفت شوكة الكفار، فههنا تلزمهم الهجرة على ما قاله الحسن، لأنه قد حصل فيهم مثل العلة في الهجرة من مكة إلى المدينة.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ﴾ يدل على أن مرتبة هؤلاء دون مرتبة المهاجرين السابقين لأنه ألحق هؤلاء بهم وجعلهم منهم في معرض التشريف، ولولا كون القسم الأول أشرف وإلا لما صح هذا المعنى. فهذا شرح هذه الأقسام الأربعة التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية.

ثم قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الذين قالوا المراد من قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ ولاية الميراث قالوا هذه الآية ناسخة له، فإنه تعالى بين أن الإرث كان بسبب النصرة والهجرة، والآن قد صار ذلك منسوخًا فلا يحصل الإرث إلا بسبب القرابة وقوله: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ المراد منه السهام المذكورة في سورة النساء، وأما الذين فسروا تلك الآية بالنصرة والمحبة والتعظيم قالوا: إن تلك الولاية لما كانت محتملة للولاية بسبب الميراث بين الله تعالى في هذه الآية أن ولاية الإرث إنما تحصل بسبب القرابة، إلا ما خصه الدليل، فيكون المقصود من هذا الكلام إزالة هذا الوهم، وهذا أولى، لأن تكثير النسخ من غير ضرورة ولا حاجة لا يجوز.

المسألة الثانية: تمسك محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم في كتابه إلى أبي جعفر المنصور بهذه الآية في أن الإمام بعد رسول الله ﷺ هو علي بن أبي طالب فقال: قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ يدل على ثبوت الولاية وليس في الآية شيء معين في ثبوت هذه الأولوية، فوجب حمله على الكل إلا ما خصه الدليل، وحينئذ يندرج فيه الإمامة، ولا يجوز أن يقال: إن أبا بكر كان من أولي الأرحام لما نقل أنه عليه السلام أعطاه سورة براءة ليبلغها إلى القوم، ثم بعث عليًا خلفه وأمر بأن يكون المبلغ هو علي، وقال: «**لا يُؤدِّيها إلاَّ رَجُلٌ مِنِّي**» وذلك يدل على أن أبا بكر ما كان منه، فهذا هو وجه الاستدلال بهذه الآية.

والجواب: إن صحت هذه الدلالة كان العباس أولى بالإمامة، لأنه كان أقرب إلى رسول الله من علي. وبهذا الوجه أجاب أبو جعفر المنصور عنه.

المسألة الثالثة: تمسك أصحاب أبي حنيفة رحمه الله بهذه الآية، في توريث ذوي الأرحام، وأجاب أصحابنا عنه بأن قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ مجمل في الشيء الذي حصلت فيه هذه الأولوية، فلما قال: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ كان معناه في الحكم الذي بينه الله في كتابه، فصارت هذه الأولوية مقيدة بالأحكام التي بينها الله في كتابه، وتلك الأحكام ليست إلا ميراث العصبات. فوجب أن يكون المراد من هذا المجمل هو ذلك فقط فلا يتعدى إلى توريث ذوي الأرحام.

ثم قال في ختم السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ والمراد أن هذه الأحكام التي ذكرتها وفصلتها

كلها حكمة وصواب وصلاح، وليس فيها شيء من العبث والباطل، لأن العالم بجميع المعلومات لا يحكم إلا بالصواب. ونظيره أن الملائكة لما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ قال مجيبًا لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] يعني لما علمتم كوني عالمًا بكل المعلومات، فاعلموا أن حكمي يكون منزهًا عن الغلط كذا ههنا. والله أعلم.

تم تفسير هذه السورة ولله الحمد والشكر، كما هو أهله ومستحقه. يوم الأحد في رمضان سنة إحدى وستمائة في قرية يقال لها بغدان. ونسأل الله الخلاص من الأهوال وشدة الزمان، وكيد أهل البغي والخذلان، إنه الملك الديان. وصلاته وسلامه على حبيب الرحمن، محمد المصطفى صاحب المعجزات والبرهان.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأنفال

مدنيَّةٌ بدريَّةٌ في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء. وقال ابن عباس: هي مدنيةٌ إلَّا سبعَ آيات؛ من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلى آخر سبع آيات[1].

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: روى عُبادةُ بنُ الصَّامت قال: خرجَ رسولُ الله ﷺ إلى بدر، فَلَقُوا العدوَّ؛ فلمَّا هزمَهُم الله اتبعتهم طائفةٌ من المسلمين يقتلونهم، وأحدقتْ طائفةٌ برسول الله ﷺ، واستلوَتْ[2] طائفةٌ على العسكر والنَّهْب[3]، فلما نَفى الله العدوَّ ورَجَع الذين طلبوهم؛ قالوا: لنا النَّفَل؛ نحن الذين طلبْنَا العدوَّ، وبنَا نفاهمُ الله وهَزَمهم. وقال الذين أحدَقوا برسول الله ﷺ: ما أنتم أحقَّ به منَّا، بل هو لنا، نحن أحدَقْنا برسول الله ﷺ لئلَّا ينالَ العدوُّ منه غِرَّة. وقال الذين استلوَوْا على العسكر والنَّهْب: ما أنتم بأحقَّ منَّا، هو لنا، نحن حَوَيْنَاه واستَلْوَيْنا[4] عليه؛ فأنْزلَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٢٩٢، وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٦ .

(٢) في النسخ: واستولت، والمثبت من الدُّرَر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ص١١١ ـ والكلام منه ـ، وسيرد شرحها.

(٣) النَّهْب: الغنيمة. النهاية (نهب).

(٤) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): واستولينا، والمثبت من (خ)، وهو موافق للدُّرر.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. فقَسَمه رسولُ الله ﷺ عن فُوَاقٍ بينهم[(١)].

قال أبو عمر[(٢)]: قال أهلُ العلمِ بلسان العرب: استَلْوَوْا: أطافوا وأحاطوا؛ يقال: الموتُ مُسْتَلْوٍ على العباد. وقوله: فقَسَمَه عن فُواق: يعني عن سرعة. قالوا: والفُوَاق ما بين حَلْبَتي الناقة. يقال: انتظره فُواقَ ناقة؛ أي: هذا المقدار. ويقولونها بالضمّ والفتح: فُواق وفَواق.

وكانَ هذا قبل أنْ ينزل: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ الآية [الأنفال: ٤١]. وكأنَّ المعنى عند العلماء: أي: إلى الله وإلى الرسول الحُكْمُ فيها والعملُ بها بما يُقرِّبُ من الله تعالى.

وذكر محمد بن إسحاق قال: حدَّثني عبدُ الرحمن بن الحارث وغيره مِنْ أصحابنا، عن سليمانَ بنِ موسى الأشْدَق، عن مكحول، عن أبي أُمامةَ الباهِليِّ قال: سألتُ عُبادةَ بنَ الصَّامت عن الأنفال، فقال: فينا معشرَ أصحاب بدرٍ نزلتْ حين اختلفنا في النَّفَل، وساءَتْ فيه أخلاقُنا، فنزعَهُ اللهُ من أيدينا وجعلَهُ إلى الرسول، فقسَمَه رسولُ الله ﷺ عن بَوَاء. يقول: على السَّوَاء[(٣)]. فكان ذلك تقوى الله وطاعةَ رسوله وصلاحَ ذاتِ البَيْن[(٤)].

ورُويَ في الصحيح عن سعدِ بن أبي وَقَّاص قال: أصابَ رسولُ الله ﷺ[(٥)] غَنِيمةً

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ١٣٥ - ١٣٦ ، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٢٩٢ ، وعندهما: استولت... استولوا... بدل: استلوت... استلووا... التي وقعت عند ابن عبد البر، ولم نقف على هذا اللفظ في المعاجم، غير أنه جاء في المعجم الوسيط: استلوى بهم الدهر: أبادهم.

(٢) هو ابن عبد البر، وكلامه في الدُّرَر ص١١١ .

(٣) السيرة النبوية ١/ ٦٤٢ ، وأخرجه من طريق ابن إسحاق أحمد (٢٢٧٥٣).

(٤) الدُّرر لابن عبد البر ص١١١ - ١١٢ .

(٥) في (د) و(م): اغتنم أصحاب رسول الله ﷺ، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) وهو الموافق لصحيح مسلم ٢/ ١٨٧٧ (١٧٤٨) كتاب فضائل الصحابة: باب في فضل سعد بن أبي وقاص ﷺ، واللفظ له كما سيذكر المصنف، وما سيرد بين حاصرتين منه.

عظيمة، فإذا فيها سيفٌ، فأخذتُه، فأتيتُ به النبيَّ ﷺ، فقلت: نَفِّلني هذا السيفَ، فأنا مَنْ قد عَلِمْتَ حالَه. قال: «رُدَّه مِنْ حيثُ أَخَذْتَه». فانطلقتُ حتى [إذا] أردتُ أن أُلقِيَه في القَبَض[1]؛ لامتني نفسي، فرجَعتُ إليه فقلتُ: أَعْطِنيه. قال: فَشدَّ لي صوتَه: «رُدَّه مِنْ حيث أَخذْتَه». فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾. لفظُ مسلم. والرواياتُ كثيرة، وفيما ذكرناه كفايةٌ، والله الموفق للهداية.

الثانية: الأنفال واحدها نَفَل، بتحريك الفاء، قال:

إنَّ تَقْوَى رَبِّنا خيرُ نَفَلْ وبإذن اللهِ رَيْثي وعَجَلْ[2]

أي: خيرُ غنيمة.

والنَّفْل: اليمين؛ ومنه الحديث: «فَتُبرِئكم يهودُ بنَفْل خمسين منهم»[3]. والنَّفْل: الانتفاء، ومنه الحديث: «فانْتَفَلَ من وَلَدِها»[4].

والنَّفَل: نبتٌ معروف[5]. والنَّفْل: الزيادةُ على الواجب؛ وهو التطوُّع. وولدُ الولد نافلة؛ لأنَّه زيادةٌ على الولد. والغنيمةُ نافلة؛ لأنَّها زيادةٌ فيما أحلَّ الله لهذه الأمَّةِ ممَّا كان محرَّماً على غيرها. قال ﷺ: «فُضِّلتُ على الأنبياء بستٍّ» وفيها: «وأُحِلَّتْ لِيَ الغنائم»[6]. والأنفال: الغنائم أنفسُها. قال عنترة:

---

(١) القَبَض، بالتحريك: هو ما جُمع من الغنيمة قبل أن تُقْسَم. النهاية (قبض).

(٢) قائله لبيد، وهو في ديوانه ص١٧٤، وقوله: رَيْثي: الرَّيث: الإبطاء. اللسان (ريث).

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه البخاري (٦٨٩٩) من حديث أنس ﷺ مطولاً وفيه: «أترضون نَفْل خمسين من اليهود ما قتلوه»، وسلفت أحاديث القسامة ٢/ ١٩٦ . . .

(٤) أخرجه بهذا اللفظ مالك في الموطأ ٢/ ٥٦٧، وأخرجه أحمد (٤٥٢٧)، والبخاري (٥٣١٥) وعندهما: فانتفى من ولدها. ينظر التمهيد ١٥/ ١٣، والاستذكار ١٧/ ٢١٦، وينظر الفتح ٩/ ٤٦٠. وفي معاجم اللغة: انتفل من الشيء، أي: انتفى منه.

(٥) هو نحو البِرْسِيم (الفِصَّة، أو: الفِصْفِصَة): العَلَفُ المعروف. ينظر القاموس والمعجم الوسيط (برسم، نفل).

(٦) أخرجه أحمد (٩٣٣٧)، ومسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٢٤، وينظر تهذيب اللغة ١٥/ ٣٥٥.

إنَّـا إذا احـمـرَّ الـوَغـى نُـروِي الـقَـنـا ونَـعِـفُّ عـنـدَ مـقـاسـمِ الأنـفـال[١]

أي: الغنائم.

الثالثة: واختلَفَ العلماء في مَحَلِّ الأنفال على أربعةِ أقوال: الأوّل: محلُّها فيما شَذَّ عن الكافرين إلى المسلمين، أو أُخِذَ بغير حرب. الثاني: مَحلُّها الخُمس. الثالث: خُمس الخُمس. الرابع: رأسُ الغَنيمة؛ حَسَبَ ما يراه الإمام.

ومذهب مالك رحمه الله أنَّ الأنفالَ مَواهِبُ الإمام من الخُمس، على ما يرى من الاجتهاد، وليس في الأربعةِ الأخماسِ نَفَلٌ، وإنَّما لم يَرَ النَّفَل من رأسِ الغنيمة؛ لأنَّ أهلَها مُعَيَّنون، وهم المُوجِفون، والخُمس مردودٌ قَسْمُه إلى اجتهادِ الإمام. وأهلُه غيرُ مُعَيَّنين[٢]. قال ﷺ: «ما لي ممَّا أفاءَ اللهُ عليكم إلا الخُمس، والخُمس مردودٌ عليكم»[٣]. فلم يُمكن بعد هذا أنْ يكون النَّفَل من حقِّ أحد، وإنَّما يكون من حقِّ رسول الله ﷺ، وهو الخُمس[٤]. هذا هو المعروف من مذهبه.

وقد رُوي عنه أنَّ ذلك من خُمس الخُمس. وهو قولُ ابن المسيِّب والشافعيّ وأبي حنيفة[٥].

وسببُ الخلاف حديثُ ابن عمر، رواه مالك[٦] قال: بعثَ رسولُ الله ﷺ سَرِيَّةً قِبَلَ نَجْدٍ، فَغَنِمُوا إبلاً كثيرة، وكانت سُهْمانُهم اثْنَيْ عشرَ بعيراً، أو أحدَ عشرَ بعيراً؛

(١) ديوان عنترة ص١٩٣ ، وفيه: حَمِسَ، بدل: احمرَّ، وكلاهما بمعنى: اشتدَّ. اللسان. (حمر) و(حمس). وفيه: تقاسم، بدل: مقاسم.

(٢) التمهيد ١٥/ ٥٣ ، والاستذكار ١٥/ ١٠١ ، وأحكام القرآن ٢/ ٨٢٥ - ٨٢٦ .

(٣) أخرجه أحمد (٦٧٢٩)، وأبو داود (٢٦٩٤)، والنسائي ٦/ ٢٦٢ - ٢٦٤ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وفي الباب عن العرباض بن سارية ﷺ عند أحمد (١٧١٥٤)، وعن عمرو بن عَبَسة ﷺ عند أبي داود (٢٧٥٥). وعن عبادة بن الصامت ﷺ عند أحمد (٢٢٧١٨).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٢٧ .

(٥) المفهم ٣/ ٥٣٦ .

(٦) في الموطأ ٢/ ٤٥٠ ، وهو عند أحمد (٥٢٨٨)، والبخاري (٣١٣٤)، ومسلم (١٧٤٩).

ونُفِّلوا بعيراً بعيراً.

هكذا رواه مالكٌ على الشَّكِّ في رواية يحيى عنه، وتابعَه على ذلك جماعةُ رُواةِ «الموطأ» إلَّا الوليدَ بن مسلم، فإنَّه رواه عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر؛ فقال فيه: فكانت سُهمانهم اثني عشر بعيراً، ونُفِّلوا بعيراً بعيراً. ولم يَشُكَّ.

وذكرَ الوليدُ بن مسلم والحَكَمُ بن نافع، عن شُعيبِ بن أبي حمزة، عن نافع، عن ابن عمر قال: بَعَثَنا رسولُ الله ﷺ في جيشٍ قِبَلَ نجد - في رواية الوليد: أربعة آلاف - وانبعثَتْ سَرِيَّةٌ من الجيش - في رواية الوليد: فكنتُ ممن خرجَ فيها - فكان سُهمانُ الجيش اثني عشرَ بعيراً، اثني عشرَ بعيراً؛ ونَفَّلَ أهلَ السريَّة بعيراً بعيراً، فكان سُهمانُهم ثلاثةَ عشرَ بعيراً؛ ذكره أبو داود[1].

فاحتجَّ بهذا من يقول: إنَّ النَّفَل إنَّما يكونُ من جُملة الخُمس. وبيانُه أنَّ هذه السريَّة لو نُزِّلت على أنَّ أهلَها كانوا عشرةً مثلاً أصابوا في غَنيمتهم مئةً وخمسين، أخرجَ منها خُمسها ثلاثين، وصار لهم مئةٌ وعشرون؛ قُسِّمت على عشرة وَجَب لكلِّ واحدٍ اثنا عشر بعيراً، اثنا عشر بعيراً، ثم أعطى القومَ من الخُمس بعيراً بعيراً؛ لأن خُمس الثلاثين لا يكون فيه عشرةُ أبعرة. فإذا عَرَفتَ ما للعشرة عَرَفتَ ما للمئة والألْف وأزْيدَ.

واحتجَّ من قال: إنَّ ذلك كان من خُمس الخُمس بأنْ قال: جائزٌ أن يكونَ هناك ثيابٌ تُباع، ومتاعٌ غيرُ الإبل، فأعطى من لم يبلُغْه البعيرُ قيمةَ البعير من تلك العُرُوض[2].

ومما يعضُدُ هذا ما رَوى مسلمٌ[3] في بعض طرقِ هذا الحديث: فأصبنا إبلاً وغنماً؛ الحديثَ.

---

(١) في سننه (٢٧٤١)، والكلام السابق في التمهيد ١٤/ ٣٥ ، وفيه رواية الوليد بن مسلم التي أشار إليها المصنف.

(٢) التمهيد ١٤/ ٦٥ - ٦٦ ، والاستذكار ١٤/ ١٠٥ - ١٠٦ .

(٣) الحديث (١٧٤٩): (٣٧).

وذكر محمد بن إسحاق في هذا الحديث: أنَّ الأمير نَفَّلَهم قبل القَسم، وهذا يُوجبُ أن يكون النَّفَل من رأس الغنيمة، وهو خلافُ قول مالك[١]. وقولُ من رَوى خلافَه أولى لأنَّهم حُفَّاظ؛ قاله أبو عمر رحمه الله[٢].

وقال مكحول والأوزاعيُّ: لا يُنَفَّل بأكثر من الثُّلث؛ وهو قولُ الجمهور من العلماء. قال الأوزاعيُّ: فإنْ زادهم فَلْيَفِ لهم ويجعلْ ذلك من الخُمس.

وقال الشافعيُّ: ليس في النَّفَل حدٌّ لا يتجاوزه الإمام[٣].

الرابعة: ودلَّ حديثُ ابن عمر على ما ذكره الوليد والحَكَم عن شعيب عن نافع أنَّ السريَّة إذا خرجت من العَسْكر فَغَنِمت أنَّ العَسْكَر شُرَكاؤُهم. وهذه مسألةٌ وحُكْمٌ لم يذكره في الحديث غيرُ شعيب عن نافع، ولم يختلف العلماءُ فيه، والحمد لله[٤].

الخامسة: واختلف العلماء في الإمام يقولُ قبلَ القتال: مَنْ هَدم كذا من الحِصْن فله كذا، ومن بَلغ إلى موضع كذا فله كذا، ومن جاءَ برأسٍ فله كذا، ومن جاء بأسيرٍ فله كذا؛ يُضَرِّيهم[٥]؛ فرُوي عن مالك أنَّه كرهه. وقال: هو قتالٌ على الدنيا. وكان لا يُجيزُه. قال الثَّوْرِيّ: ذلك جائزٌ ولا بأسَ به[٦].

قلت: وقد جاء هذا المعنى مرفوعاً من حديث ابن عباس قال: لمَّا كان يومُ بدرٍ قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ قتلَ قتيلاً فله كذا، ومَنْ أسرَ أسيراً فله كذا». الحديث بطوله[٧].

وفي رواية عكرمة عنه[٨] عن النبيّ ﷺ: «مَنْ فَعَلَ كذا وكذا، وأتى مكانَ كذا

---

(١) التمهيد ١٤/ ٤١ ، ورواية محمد بن إسحاق أخرجها أبو داود (٢٧٤٣).

(٢) التمهيد ١٤/ ٤٦ - ٤٧ .

(٣) التمهيد ١٤/ ٥٣ و ٥٥ ، والاستذكار ١٤/ ١٠٤ و ١٠٧ .

(٤) الاستذكار ١٤/ ١٠٠ ، والمفهم ٣/ ٥٣٧ .

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): يُغريهم، وكلاهما بمعنى واحد.

(٦) التمهيد ١٤/ ٥١ و ٥٥ ، والاستذكار ١٤/ ١٠٢ .

(٧) أخرجه أبو داود (٢٧٣٨).

(٨) أخرجها أبو داود (٢٧٣٧) والرواية السالفة عن عكرمة عنه أيضاً.

وكذا، فله كذا». فتسارعَ الشُّبانُ وثبتَ الشُّيوخُ مع الرَّايات؛ فلما فُتِح لهم؛ جاء الشُّبَّانُ يَطْلُبون ما جُعل لهم، فقال لهم الأشياخ: لا تذهبون به دونَنا، فقد كُنَّا رِدْءاً لكم؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ ذكره إسماعيل بن إسحاق أيضاً.

ورُوي عن عمر بن الخطاب أنَّه قال لجرير بن عبد الله البَجَليّ لمَّا قَدِم عليه في قومه وهو يُريد الشَّام: هل لك أن تأتيَ الكوفةَ ولك الثُّلث بعد الخُمس من كلِّ أرضٍ وسَبْي[(١)]؟ وقال بهذا جماعةُ فقهاء الشام: الأوزاعيُّ ومكحولٌ وابنُ حَيْوَةَ وغيرهم. ورَأوا الخُمسَ من جُملة الغنيمة، والنَّفَلَ بعد الخُمس ثمَّ الغنيمةُ بين أهل العسكر؛ وبه قال إسحاق وأحمد وأبو عُبيد. قال أبو عُبيد: والناسُ اليوم على أنْ لا نَفَل من جملة[(٢)] الغنيمة حتى تُخَمَّس.

وقال مالك: لا يجوز أنْ يقولَ الإمامُ لسَرِيَّة: ما أخذتُم فلكم ثُلثه. قال سُحْنُون: يُريد ابتداءً. فإنْ نزلَ مضَى، ولهم أنصباؤهم في الباقي.

وقال سحنون: إذا قال الإمامُ لِسَرِيَّةٍ: ما أخذتُم فلا خُمسَ عليكم فيه؛ فهذا لا يجوز، فإن نزل رددته؛ لأنَّ هذا حُكمٌ شاذٌّ لا يجوز ولا يمضي[(٣)].

السادسة: واستحبَّ مالكٌ رحمه الله ألَّا يُنفِّل الإمامُ إلَّا ما يظهر، كالعِمَامة والفرس والسيف. ومنع بعضُ العلماء أنْ يُنفِّل الإمامُ ذهباً أو فضةً أو لؤلؤاً ونحوه. وقال بعضهم: النَّفَل جائزٌ من كلِّ شيء[(٤)]. وهو الصحيح؛ لقول عمر[(٥)] ومقتضى الآية، والله أعلم.

---

(١) أخرجه أبو عبيد في الأموال (١٥٦).

(٢) في (د) و(ز) و(م): جهة، والمثبت من (خ) و(ظ) وهو الموافق للمصادر. والكلام في الأموال لأبي عبيد ص٣٢٢، والتمهيد ١٤/٥٦، والاستذكار ١٤/١٠٧ - ١٠٨.

(٣) المحرر الوجيز ٢/٤٩٨.

(٤) المحرر الوجيز ٢/٤٩٩.

(٥) سلف قريباً.

السابعة: قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أمرٌ بالتقوى والإصلاح، أي: كونوا مجتمعين على أمر الله في الدُّعاء: اللَّهُمَّ أَصْلِحْ ذاتَ البَيْن، أي: الحالَ التي يقع بها الاجتماع[1]. فدلَّ هذا على التصريح بأنَّه شَجَرَ بينهم اختلاف، أو مالت النفوسُ إلى التَّشاحِّ؛ كما هو منصوصٌ في الحديث[2].

وتقدَّم معنى التقوى[3]، أي: اتقوا اللهَ في أقوالكم وأفعالكم، وأصلحوا ذاتَ بينكم. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الغنائم وغيرها[4]. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إنَّ سبيلَ المؤمن أنْ يمتثلَ ما ذكرنا. وقيل: «إنْ» بمعنى «إذْ».

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قال العلماء: هذه الآيةُ تحريضٌ على إلزامِ طاعة الرسول ﷺ فيما أَمَرَ به من قِسمة تلك الغَنيمة[5].

والوَجَلُ: الخوف. وفي مُستقبله أربعُ لغات: وَجِل يَوْجَلُ ويَاجَل ويَيْجَل ويِيجَلُ، حكاه سيبويه[6]. والمصدر وَجِل وَجَلاً ومَوْجَلاً ـ بالفتح ـ وهذا مَوْجِلُه ـ بالكسر ـ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧٥ .

(٢) يعني حديث عبادة بن الصامت ﷺ السالف في المسألة الأولى. والكلام بنحوه في المفهم ٣/ ٥٣٧ .

(٣) ١/ ٢٤٨ .

(٤) في (م): ونحوها.

(٥) الوسيط ٢/ ٤٤٤.

(٦) الكتاب ٤/ ١١١ - ١١٢ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧٥ .

للموضع والاسم. فمن قال: ياجَل في المستقبل؛ جَعَلَ الواو ألفاً لفتحةِ ما قبلها. ولغةُ القرآن الواو ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ﴾ [الحجر: ٥٣].

ومن قال: «يِيْجَل» بكسر الياء؛ فهي على لغة بني أسد، فإنَّهم يقولون: أنا إِيْجَلُ، ونحن نِيْجل، وأنت تِيْجل؛ كلُّها بالكسر. ومن قال: «يَيْجَلُ» بناهُ على هذه اللغة، ولكنه فَتَحَ الياء كما فتحوها في يَعلم، ولم تُكسر الياء في يَعلم لاستثقالهم الكسرَ على الياء. وكُسِرت في «يِيْجل» لِتقوِّي إحدى الياءَين بالأخرى. والأمرُ منه «إِيجَلْ» صارت الواو ياءً لكسرة ما قبلها. وتقول: إنِّي منه لأَوْجَل[1]. ولا يقال في المؤنَّث: وَجْلاء: ولكن وَجِلة.

ورَوى سفيانُ عن السُّدِّي في قوله جلَّ وعزَّ: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: إذا أرادَ أنْ يَظلم مَظْلِمةً قيل له: اتَّقِ الله، كَفَّ ووَجِلَ قلبُه[2].

الثانية: وَصف الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالخوفِ والوَجَل عند ذكره. وذلك لقوة إيمانهم ومُراعاتِهم لربِّهم، وكأنَّهم بين يديه. ونظيرُ هذه الآية: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ . الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥]. وقال: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]. فهذا يَرجع إلى كَمال المعرفة وثِقة القلب.

والوَجَل: الفَزَعُ من عذاب الله ؛ فلا تناقض. وقد جمع الله بين المعنيين في قوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]. أي: تَسكُنُ نفوسُهم من حيثُ اليقينُ إلى الله وإنْ كانوا يخافون الله[3].

فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سَطوته وعُقُوبته؛ لا كما يفعله جُهَّال

(١) كذا في الصحاح (وجل)، والكلام منه، وفي اللسان: وتقول منه: إني لأوجل.

(٢) أخرجه الطبري ١١/ ٢٩ ، والبيهقي في الشعب (٧٣٧).

(٣) تفسير الرازي ١٥/ ١١٨ .

العوامّ والمبتدِعة الطَّغَام[١] من الزَّعيق والزَّئير، ومن النُّهاقِ الذي يُشبه نُهاق الحمير. فيقال لمن تعاطَى ذلك، وزَعم أنَّ ذلك وَجْدٌ وخشوعٌ: لم تبلغ أنْ تُساويَ حالَ الرسول ﷺ ولا حالَ أصحابه في المعرفة بالله، والخوفِ منه، والتعظيم لجَلاله؛ ومع ذلك فكانت حالُهم عند المواعظ الفهمَ عن الله والبكاءَ خوفاً من الله. وكذلك[٢] وصفَ الله أحوالَ أهل المعرفة عند سماع ذكره، وتلاوةِ كتابه فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]. فهذا وصفُ حالهم وحكايةُ مَقالهم.

ومن لم يكن كذلك؛ فليس على هديهم، ولا على طريقتهم فمن كان مُسْتَنًّا فليستَنَّ، ومن تعاطى أحوال المجانين والمجون[٣]؛ فهو من أخسِّهم حالاً. والجُنون فنون.

روى مسلم عن أنس بن مالك أنَّ النَّاس سألوا النبيَّ ﷺ حتى أَحْفَوْه في المسألة، فخرج ذاتَ يومٍ فَصَعِدَ المِنبرَ فقال: «سَلُونِي، لا تسألوني عن شيءٍ إلَّا بيَّنتُه لكم ما دمتُ في مقامي هذا». فلمَّا سمعَ ذلك القومُ أَرَمُّوا ورَهِبُوا أنْ يكونَ بين [يَدَيْ] أمرٍ قد حَضَر. قال أنس: فجعلتُ ألتفِتُ يميناً وشِمالاً؛ فإذا كلُّ إنسان لافٌّ رأسَه في ثوبه يبكي. وذكر الحديث[٤].

وروى الترمذيّ[٥] ـ وصحَّحه ـ عن العِرْباض بن سارِيَة قال: وَعَظَنا رسولُ الله ﷺ موعظةً بليغةً ذَرَفَت منها العيون، ووَجِلَتْ منها القلوب. الحديث. ولم يقل: زَعَقْنا، ولا رَقَصْنا، ولا زَفَنَّا[٦]، ولا قُمنا.

---

(١) أي: أوغاد الناس. الصحاح (طغم).

(٢) في (خ) و(د) و(م): ولذلك، والمثبت من (ز) و(ظ)، وهو الموافق للمفهم ٦/ ١٦٠ ، والكلام منه.

(٣) في (د) و(ز) و(م): الجنون، والمثبت من (خ) و(ظ) وهو الموافق للمفهم.

(٤) صحيح مسلم (٢٣٥٩): (١٣٧)، وما بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (١٢٨٢٠)، والبخاري (٦٣٦٢) وقوله: أحفَوْه، أي: ألحُّوا عليه. وقوله: أرمُّوا، أي: سكتوا. المفهم ٦/ ١٥٨ - ١٥٩ .

(٥) في سننه (٢٦٧٦)، وهو عند أحمد (١٧١٤٢)، وسلف ص١١٨ من هذا الجزء.

(٦) الزَّفْن: الرقص. الصحاح (زفن).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي: تصديقاً. فإنَّ إيمانَ هذه الساعة زيادةٌ على إيمان أمس، فمن صدَّق ثانياً وثالثاً فهو زيادةُ تصديقٍ بالنسبة إلى ما تقدَّم[١].

وقيل: هو زيادةُ انشراح الصدر بكَثْرة الآيات والأدلَّة، وقد مضى هذا المعنى في «آل عمران»[٢].

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ تقدَّم معنى التوكل في «آل عمران» أيضاً[٣].

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ تقدَّم في أوَّل سورة البقرة[٤].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: الذي استوى في الإيمانِ ظاهرُهم وباطنُهم. ودلَّ هذا على أنَّ لكلِّ حقٍّ حقيقةً، وقد قال عليه الصلاة والسلام لحارثة[٥]: «إنَّ لكلِّ حقٍّ حقيقةً، فما حقيقةُ إيمانك؟» الحديث[٦].

وسألَ رجلٌ الحسنَ فقال: يا أبا سعيد، أمؤمنٌ أنت؟ فقال له: الإيمانُ إيمانان، فإنْ كنت تسألُني عن الإيمان بالله وملائكته وكُتبه ورُسله والجنَّة والنَّار والبَعْث والحِساب، فأنا به مؤمن. وإنْ كنت تسألني عن قول الله تباركَ وتعالى: ﴿إِنَّمَا

(١) الوسيط للواحدي ٢/ ٤٤٤ ، وزاد المسير ٣/ ٣٢٠ .

(٢) ٥/ ٤٢٣ - ٤٢٦ .

(٣) ٥/ ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٤) ١/ ٢٥٣ .

(٥) هو الحارث بن مالك الأنصاري، قال الذهبي في التجريد ١/ ١٠٨ : قيل: هو حارثة الأنصاري الذي روي أن النبي ﷺ قال: كيف أصبحت يا حارث. وينظر التعليق التالي.

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٣٦٧)، والبيهقي في الشعب (١٠٥٩١) من حديث الحارث بن مالك الأنصاري ﷺ صاحب القصة، وفي إسناده ابن لهيعة، وهو ضعيف. وأخرجه البيهقي (١٠٥٩٠) من حديث أنس ﷺ، وفي إسناده يوسف بن عطية البصري؛ قال الحافظ ابن حجر في الإصابة ٢/ ١٧٤-١٧٥ : وهو ضعيف جدًّا، ونقل عن البيهقي قوله: هذا منكر، وقد خبط فيه يوسف فقال مرة: الحارث، وقال مرة: حارثة. وأورده الذهبي في الميزان ٤/ ٤٦٩ وعدَّه من مناكير يوسف بن عطية. وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٣١٤) عن صالح بن مسمار. قال الحافظ ابن حجر: هو معضل.

ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فوالله ما أدري أنا منهم أمْ لا[١].

وقال أبو بكر الواسِطِيّ: مَنْ قال: أنا مؤمنٌ بالله حقًّا؛ قيل له: الحقيقةُ تُشير إلى إشرافٍ واطِّلاعٍ وإحاطة، فمن فَقَدَه بَطَل دعواه فيها.

يريدُ بذلك ما قاله أهلُ السُّنَّة: إنَّ المؤمن الحقيقيَّ مَنْ كان محكوماً له بالجنَّة، فمن لم يَعلم ذلك من سِرِّ حكمته تعالى فدعواه بأنه مؤمنٌ حقًّا غيرُ صحيح[٢].

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال الزَّجَّاج[٣]: الكافُ في موضع نصب؛ أي: الأنفالُ ثابتةٌ لك كما أخرجك ربُّك من بيتك بالحق، أي: مثلَ إخراج ربِّك إيَّاك من بيتك[٤] بالحقِّ. والمعنى: امضِ لأمرك في الغنائم، ونَفِّل مَنْ شئت وإنْ كَرِهوا؛ لأنَّ بَعضَ الصحابة قال لرسول الله ﷺ حين جَعَلَ لكلٍّ مَن أتى بأسيرٍ شيئاً؛ قال: يَبقى أكثرُ الناس بغيرِ شيءٍ[٥]. فموضعُ الكاف في «كما» نَصْبٌ كما ذكرنا. وقاله الفرَّاء أيضاً[٦].

قال أبو عُبيدة: هو قَسَم، أي: والذي أخرجَك، فالكافُ بمعنى الواو، و«ما»

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٧٦). والحسن: هو البصري.

(٢) الرسالة القشيرية ١/ ٥٠ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٠ .

(٤) في النسخ: مثل إخراجك ربك من بيتك، والمثبت من معاني القرآن للزجاج، والكلام منه.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩٤٨٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفي إسناده محمد بن السائب الكلبي، وهو متهم بالكذب كما ذكر الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب. وينظر حديث ابن عباس رضي الله عنهما السالف ص٤٤٦ من هذا الجزء.

(٦) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٠٣ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧٦ .

بمعنى الذي[(١)].

وقال سعيدُ بن مَسْعَدة: المعنى: أولئكَ هم المؤمنون حقًّا كما أخرجك ربُّك من بيتك بالحقِّ[(٢)]. قال: وقال بعضُ العلماء: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ[(٣)].

وقال عكرمة: المعنى: أطيعوا الله ورسولَه كما أخرجَك[(٤)]. وقيل: «كَمَا أَخْرَجَكَ» متعلِّقٌ بقوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ المعنى: لهم درجاتٌ عند ربِّهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريم، أي: هذا الوعدُ للمؤمنين حقٌّ في الآخرة كما أخرجَك ربُّك من بيتك بالحقِّ الواجبِ له، فأنجزَك[(٥)] وعدَك، وأظفرَك بعدوِّك وأوْفَى لك؛ لأنَّه قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال:٧]. فكما أنجزَ هذا الوعدَ في الدُّنيا؛ كذا يُنجزكُم ما وعدَكم به في الآخرة. وهذا قولٌ حسنٌ ذكره النحَّاس واختاره[(٦)].

وقيل: الكافُ في «كما» كافُ التشبيه، ومخرجُه على سبيل المُجازاة؛ كقول القائل لعبده: كما وجَّهتُك إلى أعدائي فاستَضْعَفوك، وسألتَ مَدَداً فأمددتُك، وقوَّيتُك وأزحتُ علَّتَك؛ فخُذهم الآن فعاقبهم بكذا. وكما كسوتُك، وأجريتُ عليك الرِّزق؛

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٢٤٠ لأبي عُبيدة، وأورده النحاس في إعراب القرآن ٢/ ١٧٦، وابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٢. وجواب القسم ـ على هذا القول ـ: «يجادلونك في الحق..». وقد ردَّ الناس قاطبةً على أبي عُبيدة قوله هذا وقالوا: كان ضعيفاً في النحو. كما في الدر المصون ٥/ ٥٦٠.

(٢) معاني القرآن لسعيد بن مسعدة، وهو الأخفش ٢/ ٥٤١، ونقله المصنف عنه مع قوله الذي بعده بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧٦. وعلى هذا القول فإن الكاف نعتٌ لـ «حقًّا». قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٢: والمعنى على هذا التأويل كما تراه لا يتناسق.

(٣) يعني ـ على هذا القول ـ أن الكاف في محل رفع؛ كأنه ابتداء وخبر. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٢: وهذا المعنى وضعه هذا المفسِّر، وليس من ألفاظ الآية في ورد ولا صدر.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٢، وأخرجه الطبري ١١/ ٣٣.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): فأنجز.

(٦) في إعراب القرآن ٢/ ١٧٦ - ١٧٧.

فاعمل كذا وكذا. وكما أحسنتُ إليك فاشْكُرني عليه. فقال: كما أخرجكَ ربُّك من بيتك بالحقِّ، وغشَّاكم النُّعاسَ أَمَنَةً منه ـ يعني به إيَّاه ومن معه ـ وأنزلَ من السماء ماءً لِيطهِّرَكُم به، وأنزلَ عليكُم من السماء ملائكةً مُرْدِفين؛ فاضربوا فوقَ الأعناق، واضربوا منهم كل بنَان؛ كأنَّه يقول: قد أزحتُ عِلَلَكم، وأمددْتُكم بالملائكة؛ فاضربوا منهم هذه المواضع، وهو المَقْتل؛ لِتَبْلُغوا مُرادَ الله في إحقاق الحقِّ وإبطال الباطل. والله أعلم[١].

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ أي: لكارهون تركَ مكَّة، وتركَ أموالهم وديارهم.

قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾؛ مجادلتُهم: قولُهم لمَّا ندبَهم إلى العِير[٢]، وفاتَ العِيرُ، وأمرَهم بالقتال، ولم يكن معهم كبيرُ أُهْبَة؛ شقَّ ذلك عليهم، وقالوا: لو أخبرتَنا بالقتال لأخذنا العُدَّة. ومعنى «في الحقِّ» أي: في القتال. «بعدَ ما تبيَّنَ» لهم أنَّك لا تأمرُ بشيءٍ إلَّا بإذن الله.

وقيل: بعد ما تَبيَّنَ لهم أنَّ الله وَعَدَهم؛ إمَّا الظَّفَرَ بالعِير أو بأهل مكَّة، وإذْ[٣] فاتَ العيرُ، فلابدَّ من أهل مكَّة والظَّفرِ بهم. فمعنى الكلامِ الإنكارُ لمجادلتهم.

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ كراهةً لِلقاء القوم. ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي: يعلمون أنَّ ذلك واقعٌ بهم؛ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠] أي: يعلم.

---

(١) أورد هذا القول أبو حيان في البحر ٤/ ٤٦٢، وقال: وملخص هذا القول الطويل أنَّ «كما أخرجك» يتعلق بقوله: «فاضربوا» [الآية: ١٢]، وفيه من الفصل والبعد ما لا خفاء به.

(٢) يعني عِيرَ أبي سفيان، والقصة مشهورة، وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٣.

(٣) في (د) و(ز) و(ظ): وإذا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ «إِحْدَى» في موضع نَصْب مفعول ثانٍ. «أنَّها لكم» في موضع نصبٍ أيضاً بدلاً من «إحدى».

﴿وَتَوَدُّونَ﴾ أي: تحبُّون. ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ قال أبو عُبيدة[1]: أي: غيرَ ذاتِ الحدِّ. والشَّوكَةُ: السِّلاح. والشَّوْكُ: النَّبتُ الذي له حَدٌّ؛ ومنه رجلٌ شائِكُ السِّلاح، أي: حديدُ السلاح. ثمَّ يُقلَب فيقال: شاكي السِّلاحِ[2]. أي: تودُّون أنْ تَظْفَروا بالطائفة التي ليس معها سلاحٌ ولا فيها حرب؛ عن الزجاج[3].

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: أنْ يُظهر الإسلامَ. والحَقُّ حَقٌّ أبداً، ولكن إظهاره تحقيقٌ له من حيثُ إنَّه إذا لم يظهر أشبهَ الباطلَ[4].

«بِكلماته» أي: بوعده؛ فإنَّه وَعَدَ نبيَّه ذلك في سورة الدّخان فقال: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الآية: ١٦] أي: من أبي جَهْلٍ وأصحابه. وقال: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[5] [التوبة: ٣٣]. وقيل: «بِكلماته» أي: بأمره إيَّاكم أنْ تُجاهدوهم[6]. ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: يَستأصِلَهم بالهلاك.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يُظهرَ دينَ الإسلام ويُعزَّه. ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: الكُفر. وإبطالُه: إعدامُه؛ كما أنَّ إحقاقَ الحقِّ إظهارُه؛ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا

---

(١) في مجاز القرآن ١/ ٢٤١، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧٧، وما قبله منه.

(٢) تهذيب اللغة ١٠/ ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٢، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧٧.

(٤) تفسير الرازي ١٥/ ١٢٨.

(٥) زاد المسير ٣/ ٣٢٤.

(٦) تفسير الطبري ١١/ ٤٩.

هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ الاستغاثة: طلبُ الغَوْث والنَّصر. غوَّث الرجل؛ قال: واغوْثاه. والاسمُ: الغَوْث والغُوَاث والغَوَاث. واستغاثني فلانٌ فأغثتُه، والاسمُ: الغِياث؛ عن الجوهري(١).

وروى مسلمٌ(٢) عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: لمَّا كان يوم بدرٍ نَظر رسولُ الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألفٌ، وأصحابُه ثلاثُ مئةٍ وسبعةَ عشرَ رجلاً(٣)؛ فاستقبل نبيُّ الله ﷺ القِبلَة، ثم مدَّ يدَيْه، فجعل يَهتِفُ بربه: «اللهم أَنْجِزْ لي ما وَعَدْتَني، اللهمَّ آتِني ما وَعَدْتَني، اللهمَّ إنْ تُهْلِك هذه العِصابةَ من أهل الإسلام لا تعبدْ في الأرض». فما زال يَهتِفُ بربِّه مادًّا يَدَيْه مستقبلَ القبلة حتى سَقَطَ رِداؤه عن مَنْكِبيه. فأتاه أبو بكر، فأخذَ رِداءه فألقاه على مَنْكِبَيْه، ثم التزمَه من ورائه وقال: يا نبيَّ الله، كفاكَ(٤) مُناشدتُك ربَّك، فإنه سَيُنجِزُ لك ما وعدَكَ. فأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾. فأمدَّه اللهُ بالملائكة. وذكر الحديث.

﴿مُرْدَفِينَ﴾ بفتح الدَّال قراءةُ نافع. والباقون بالكسر؛ اسم فاعل(٥)، أي:

---

(١) الصحاح (غوث).

(٢) في صحيحه (١٧٦٣)، وهو عند أحمد (٢٠٨)، وسلف ٥/ ٢٩٦.

(٣) رواية المطبوع من صحيح مسلم: ثلاث مئة وتسعة عشر رجلاً، والرواية أعلاه هي رواية المفهم ٣/ ٥٧٢، قال أبو العباس القرطبي: والمشهور بين أهل التواريخ أن جميع من شهد بدراً مع مَن ضَرَبَ له رسولُ الله ﷺ بسهمه وأجره في عَدَدِ ابن إسحاق: ثلاث مئة وأربعة عشر، وفي عدد موسى بن عقبة: ثلاث مئة وستة عشر.

(٤) قال الإمام النووي في شرح مسلم ١٢/ ٨٥: وقع لجماهير رواة مسلم: كذاك، بالذال، ووقع لبعضهم: كفاك، بالفاء.

(٥) السبعة ص٣٠٤، والتيسير ص١١٦.

مُتابعين[١]، تأتي فرقةٌ بعد فرقة، وذلك أَهْيبُ في العيون.

و«مُرْدَفين» بفتح الدَّال على ما لم يُسمَّ فاعلُه؛ لأنَّ النَّاس الذين قاتلوا يومَ بدرٍ أُردِفوا بألفٍ من الملائكة؛ أي: أُنزِلوا إليهم لمعونتهم على الكفار. ف «مُرْدَفين» بفتح الدَّال نعتٌ لـ «ألفٍ». وقيل: هو حالٌ من الضمير المنصوب في «مُمِدُّكُم». أي: مُمِدُّكم في حال إرادفكم بألفٍ من الملائكة[٢]، وهذا مذهبُ مجاهد[٣].

وحكى أبو عُبيدة[٤]: أنّ رَدِفَني وأَرْدَفني واحدٌ. وأنكر أبو عُبيد أنْ يكون أردفَ بمعنى رَدِفَ، قال: لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات:٧]، ولم يقل: المُرْدِفَةُ.

قال النحاس ومَكِّيّ[٥] وغيرهما: وقراءةُ كَسْر الدَّال أَوْلى؛ لأنَّ أهلَ التأويل على هذه القراءة يُفسِّرون. أي: أَردفَ بعضُهم بعضاً، ولأنَّ فيها معنى الفتح على ما حكى أبو عُبيدة، ولأنَّ عليه أكثرَ القُرَّاء.

قال سيبويه: وقرأ بعضُهم: «مُرَدِّفين» بفتح الراء وشدِّ الدال، وبعضُهم: «مُرِدِّفين» بكسر الراء. وبعضُهم: «مُرُدِّفين» بضمِّ الراء. والدال مكسورةٌ مشدَّدةٌ في القراءات الثلاث. فالقراءةُ الأولى تقديرها عند سيبويه: مُرْتَدفين، ثمَّ أدغم التاء في الدال، وألقى حركتَها على الراء لئلَّا يلتقيَ ساكنان. والثانيةُ كُسِرت فيها الراء لالتقاء الساكنين. وضُمَّت الراء في الثالثة إتباعاً لِضمة الميم؛ كما تقول: رُدُّ يا هذا[٦].

وقرأ جعفر بن محمد وعاصم الجحدريّ: «بآلُفٍ» جمع ألف؛ مثل فَلْس وأَفْلُس.

---

(١) أخرجه الطبري ١١/ ٥٤ من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٤٨٩ .

(٣) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٢/ ١٧٨ .

(٤) في مجاز القرآن ١/ ٢٤١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٤٨٩ .

(٥) قول النحاس في إعراب القرآن ٢/ ١٧٨ ، وما قبله منه ، وقول مكيّ في الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٤٨٩ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧٩ ، وينظر كتاب سيبويه ٤/ ٤٤٤ ، والمحتسب ١/ ٢٧٣ .

وعنهما أيضاً: «بآلاف»[١].

وقد مضى في «آل عمران» ذكرُ نُزولِ الملائكة وسِيماهم وقتالهم. وتقدَّم فيها القولُ في معنى قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾[٢]. والمُراد الإمداد. ويجوز أنْ يكون الإرداف.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ نبَّه على أنَّ النصر من عنده جلَّ وعزَّ؛ لا من الملائكة، أي: لولا نصرُه لَمَا انْتُفِع بِكَثْرة العدد بالملائكة. والنصرُ من عند الله يكونُ بالسيف ويكون بالحجَّة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾ مفعولان. وهي قراءةُ أهل المدينة[٣]، وهي حسنةٌ لإضافة الفعل إلى الله عزَّ وجلَّ لِتقدُّم ذكره في قوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾. ولأنَّ بعده: «وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ»، فأضافَ الفعلَ إلى الله عزَّ وجلَّ. فكذلك الإغشاء يُضافُ إلى الله عزَّ وجلَّ لِيتشاكل الكلام.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «يَغْشَاكُمُ النعاسُ»[٤] بإضافةِ الفعل إلى النُّعاس. دليلُه: ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ﴾ [آل عمران: ١٥٤] في قراءة من قرأ بالياء أو بالتاء[٥]؛ فأضاف الفعلَ إلى النُّعاس أو الأَمَنةِ. والأَمَنَةُ هي النُّعاس، فأخبر أنَّ النُّعاسَ هو الذي يَغشى القوم.

---

(١) وزن: أحمال، كما في الدرّ المصون ٥/٥٦٦ ، ووقع في النسخ: بألف. وينظر القراءات الشاذة ص٤٩ ، والمحرر الوجيز ٢/٥٠٤ .

(٢) ٥/٢٩٦ - ٢٩٩ و ٣٠٤ .

(٣) يعني بضم الياء وسكون الغين، وكسر الشين المخففة، وبعدها ياء ساكنة، ونصب «النعاس»، وقرأ بها نافع وأبو جعفر. السبعة ص٣٠٤ ، والنشر ٢/٢٧٦ وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/١٧٩ . (ووقع سقط في مطبوع التيسير ص١١٦).

(٤) السبعة ص٣٠٤ ، والتيسير ص١١٦ .

(٥) قرأ حمزة والكسائي من السبعة: «تغشى» بالتاء، وقرأ الباقون بالياء، وسلفت ٥/ ٣٧٠ .

وقرأ الباقون: «يُغَشِّيكُم» [بضم الياء و] بفتح الغين وشدِّ الشين[١]. «النعاسَ» بالنصب على معنى قراءة نافع، لغتان بمعنى؛ غَشّى وأغْشى، قال الله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ [يس: ٩]. وقال: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٤]. وقال: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [يونس: ٢٧].

قال مكيّ[٢]: والاختيار ضمُّ الياء والتشديد ونصبُ النُّعاس؛ لأنَّ بعده ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ والهاء في «منه» لله، فهو الذي يُغشِّيهمُ النعاسَ، ولأنَّ الأكثرَ عليه. وقيل: أمنةً من العدوّ.

و﴿أَمَنَةً﴾ مفعولٌ من أجله أو مصدر؛ يقال: أَمِنَ أَمَنَةً وأَمْناً وأماناً[٣]، كلُّها سواء.

والنعاسُ حالةُ الآمن الذي لا يخاف. وكان هذا النعاسُ في الليلة التي كان القتالُ من غَدِها، فكان النومُ عجيباً مع ما كان بين أيديهم من الأمر المُهِمِّ، ولكنَّ اللهَ رَبَطَ جَأْشَهم. وعن عليٍّ ﷺ قال: ما كان فينا فارسٌ يومَ بدر غيرُ المِقْدَاد على فرسٍ أَبْلَقَ، ولقد رأيتُنا وما فينا إلَّا نائمٌ إلَّا رسولَ الله ﷺ تحت شجرةٍ يُصلي ويبكي حتى أصبح. ذكره البيهقيّ[٤].

الماورديّ[٥]: وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان: أحدهما: أَنْ قَوّاهم بالاستراحة على القتال من الغد. الثاني: أنْ أَمَّنَهم بزوال الرُّعب من قلوبهم؛ كما يقال: الأمنُ مُنِيم، والخوف مُسْهِر. وقيل: غَشَّاهم في حال التقاءِ الصَّفَّين. وقد مضى مثلُ هذا في يوم أُحُد في «آل عمران»[٦].

---

(١) السبعة ص٣٠٤، والتيسير ص١١٦.
(٢) في الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٤٨٩ - ٤٩٠ وما قبله وما سلف بين حاصرتين منه.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧٩.
(٤) في دلائل النبوة ٣/ ٣٨ - ٣٩، وهو في مسند أحمد (١٠٢٣).
(٥) في النكت والعيون ٢/ ٢٩٩.
(٦) ٥/ ٣٦٩.

قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ ظاهرُ القرآن يدلُّ على أنَّ النُّعاسَ كان قبل المطر. وقال ابن أبي نَجِيح: كان المطرُ قبلَ النُّعاس[1].

وحكى الزجاج[2]: أنَّ الكفارَ يومَ بدرٍ سبقوا المؤمنين إلى ماء بدرٍ فنزلوا عليه، وبَقِيَ المؤمنون لا ماءَ لهم[3]، فَوَجَسَتْ[4] نفوسُهم، وعَطِشوا، وأجنبوا، وصَلَّوا كذلك، فقال بعضُهم في نفوسهم بإلقاء الشيطان إليهم: نزعمُ أنَّا أولياءُ الله وفينا رسولُه وحالُنا هذه والمشركون على الماء! فأنزلَ اللهُ المطرَ ليلةَ بدرٍ السابعةَ عشرةَ من رمضان حتَّى سالت الأودية، فشربوا وتطهَّروا وسَقَوا الظَّهْر، وتلبَّدت السَّبَخة[5] التي كانت بينهم وبين المشركين حتَّى ثبَتَتْ فيها أقدامُ المسلمين وقتَ القتال.

وقد قيل: إنَّ هذه الأحوالَ كانت قبلَ وصولهم إلى بَدْر؛ وهو أَصَحُّ، وهو الذي ذكره ابنُ إسحاق في سيرته[6] وغيرُه. وهذا اختصاره:

قال ابن عباس: لمَّا أخبرَ رسولُ الله ﷺ بأبي سفيان أنَّه مُقْبِلٌ من الشام ندبَ المسلمين إليهم وقال: «هذه عِيرُ قريشٍ فيها الأموال، فاخرجوا إليهم لعلَّ اللهَ أنْ يُنَفِّلَكُموها» قال: فانبعثَ معه مَنْ خَفَّ؛ وثَقُل قومٌ وكَرِهوا الخروج، وأسرعَ رسولُ الله ﷺ لا يَلْوِي على من تعذَّر، ولا ينتظرُ من غابَ ظهرُه، فسار في ثلاث مئةٍ وثلاثةَ عشر من أصحابه من مهاجرِيٍّ وأنصاريّ.

وفي البخارِيِّ عن البراء بن عازِب قال: كان المهاجرون يومَ بدرٍ نيفاً وثمانين،

---

(١) أخرجه الطبري ١١/ ٦٦ عن ابن أبي نجيح عن مجاهد، وهو في تفسير مجاهد ص٢٥٨ - ٢٥٩ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٣ - ٤٠٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٦ .

(٣) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٧ : والصحيح من القول... أن المؤمنين سبقوا إلى الماء ببدر، وفي هذا كلام حباب بن المنذر حين نزل رسول الله ﷺ على أول الماء.. وسيأتي.

(٤) في (ظ): فوحشت.

(٥) السَّبَخة: الأرض المالحة والتي تسوخ فيها الأقدام. اللسان (سبخ).

(٦) كما في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٠٦ - ٦٠٧ ، وأخرجه من طريق ابن إسحاق الطبري ١١/ ٤١ .

وكان الأنصارُ نيفاً وأربعين ومئتين(١). وخرَّج أيضاً عنه قال: كنَّا نتحدَّث أنَّ أصحابَ محمدٍ ﷺ كانوا ثلاث مئةٍ وبضعةَ عشر، على عِدَّة(٢) أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوزَ معه إلا مؤمن(٣).

وذكر البيهقيُّ(٤) عن أبي أيوب الأنصاري قال: فخرجنا. يعني إلى بدر؛ فلمَّا سِرنا يوماً أو يومين؛ أَمَرَنا رسولُ الله ﷺ أن نَتعادَّ، ففعلنا؛ فإذا نحن ثلاثُ مئةٍ وثلاثةَ عشر رجلاً، فأَخْبَرنا النبيَّ ﷺ بعدَّتنا، فسُرَّ بذلك وحَمِدَ الله وقال: «عِدَّةُ أصحاب طالوت».

قال ابن إسحاق(٥): وقد ظنَّ النَّاس بأجمعهم أنَّ رسولَ الله ﷺ لا يَلْقَى حَرْباً؛ فلم يَكثُر استعدادُهم. وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتجسَّسُ(٦) الأخبارَ، ويسألُ مَن لَقِيَ من الرُّكبان تخوّفاً على أموال الناس، حتى أصابَ خبراً من بعض الرُّكبان أنَّ محمداً رسولَ الله ﷺ قد استنفرَ لكم النَّاس؛ فَحَذِرَ عند ذلك، واستأجرَ ضَمْضَمَ بنَ عمرٍو الغِفارِيّ، وبعثَه إلى مكَّة، وأَمَرَه أنْ يأتِيَ قريشاً يَستنفرهم إلى

(١) كذا قال المصنف رحمه الله، والذي في صحيح البخاري (٣٩٥٦) من طريق شعبة: كان المهاجرون يوم بدر نيِّفاً على ستين.. وأما الرواية التي ذكرها المصنف أعلاه، فقد أخرجها الحاكم في المستدرك ٣/ ٢١ من طريق آخر عن شعبة، وذكرها الحافظ ابن حجر في الفتح ٧/ ٢٩١ وقال: وهو خطأ في هذه الرواية لإطباق أصحاب شعبة على ما وقع في البخاري. ا.هـ. وبنحو ما ذكره المصنف عن عدد المهاجرين أخرجه البخاري أيضاً (٤٠٢٦) عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهري قال: .. فجميع من شهد بدراً من قريش ممن ضُرب له بسهمه أحدٌ وثمانون رجلاً. قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٧/ ٣٢٦: فيجمع بينهما بأن حديث البراء أورده فيمن شهدها حسًّا وحديث الباب (يعني حديث ابن شهاب) فيمن شهدها حسًّا وحكماً...

(٢) في (د) و(م): عدد، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ).

(٣) صحيح البخاري (٣٩٥٩).

(٤) في دلائل النبوة ٣/ ٣٧.

(٥) كما في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٠٧. وهو في أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٢٩.

(٦) في السيرة النبوية: يتحسس (بالحاء) قال السُّهيلي في الروض الأُنف ٣/ ٤٣: التحسس ـ بالحاء ـ أن تتسمع الأخبار بنفسك، والتجسس ـ بالجيم ـ: أن تفحص عنها بغيرك.

أموالهم، ويُخبرهم أنَّ محمداً ﷺ قد عَرَضَ لها في أصحابه، ففعل ضَمْضَم.

فخرجَ أهلُ مكَّة في ألفِ رجلٍ أو نحو ذلك، وخرج النبيُّ ﷺ في أصحابه، وأتاه الخبرُ عن قريش بخروجهم لِيَمنعوا عِيْرَهم، فاستشار النبيُّ ﷺ الناسَ، فقام أبو بكر فقال فأحسنَ، وقام عمرُ فقال فأحسنَ، ثم قام المِقدادُ بن عمرو فقال: يا رسولَ الله، اِمْضِ لِمَا أمرَكَ الله، فنحنُ معك، واللهِ، لا نَقول كما قالت بنو إسرائيل: «اذْهَبْ أنت وربُّك فقاتِلا إنَّا هاهنا قاعدون» [المائدة: ٢٤]، ولكنْ اذهَبْ أنت وربُّك فقاتلا، إنَّا معكم مقاتلون، والذي بعثَك بالحقِّ، لو سِرْتَ إلى بَرْك الغِماد - يعني مدينة الحبشة[١] - لَجالدنَا معك من دونه؛ فسُرَّ بذلك رسولُ الله ﷺ ودعا له بخير. ثم قال: «أشِيروا عَلَيَّ أيُّها الناس» يريدُ الأنصار. وذلك أنَّهم عدَدُ النَّاس، وكانوا حين بايعوه بالعَقَبةِ قالوا: يا رسول الله، إنَّا بُرآءُ من ذِمامكَ حتى تَصِلَ إلى ديارنا، فإذا وَصلْتَ إلينا فأنتَ في ذِمَمنا، نمنعُك ممَّا نمنعُ منه أنْفُسَنا وأبناءَنا ونساءنا.

فكان رسولُ الله ﷺ يتخوَّفُ ألَّا تكون الأنصارُ ترى أنَّ عليها نُصرتَه إلَّا بالمدينة، وأنَّه ليس عليهم أنْ يسيرَ بهم إلى عدوٍّ بغير بلادهم. فلمَّا قال ذلك رسولُ الله ﷺ كلَّمه سعدُ بن معاذ - وقيل: سعد بن عُبادة، ويمكنُ أنَّهما تكلَّما جميعاً في ذلك اليوم - فقال: يا رسول الله، كأنَّك تريدُنا معشرَ الأنصار؟ فقال رسول الله ﷺ: «أجل». فقال: إنَّا قد آمنَّا بكَ واتَّبَعْنَاك، فامضِ لِمَا أمركَ الله، فوالذي بعثك بالحقِّ، لو استعرضتَ بنا هذا البحرَ فخضتَه لخضناهُ معك. فقال رسول الله ﷺ: «امضُوا على بركةِ الله، فكأنِّي أنظرُ إلى مصارعِ القوم»[٢].

---

(١) عزاه السُّهيلي في الروض الأنف ٣/ ٤٥ لبعض كتب التفسير. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ٧/ ٢٣٢: هو موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن. وقيل: هي أقاصي هجر، وقيل: هو في أقصى اليمن. قال الحافظ ابن حجر: والأول أولى.

(٢) السيرة النبوية ١/ ٦١٤ - ٦١٥، وأحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٢٩. وأخرجه بتمامه الطبري ١١/ ٤١ - ٤٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه مختصراً أحمد (١٣٢٩٦) و(١٣٢٩٧)، ومسلم (١٧٧٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وفيهما أن الذي تكلَّم عن الأنصار هو سعد بن عبادة. قال =

فمضى رسولُ الله ﷺ وسبقَ قريشاً إلى ماء بدر. ومنع قريشاً من السَّبق إليه مطرٌ عظيمٌ أنزلَه الله عليهم، ولم يُصِبْ منه المسلمين إلا ما شدَّ لهم دَهْسَ الوادي وأعانهم على المَسير. والدَّهْسُ: الرملُ اللَّيِّنُ الذي تسوخُ فيه الأرجلُ. فنزل رسولُ الله ﷺ على أدنى ماءٍ من مياه بدرٍ إلى المدينة، فأشارَ عليه الحُبَابُ بنُ المنذر بن الجَمُوح[١] بغير ذلك وقال له: يا رسولَ الله، أرأيتَ هذا المنزل، أمنزلٌ[٢] أنزَلَكَهُ الله؛ فليس لنا أنْ نتقدَّمه أو نتأخَّر عنه، أم هو الرأيُ والحرب والمَكِيدة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «بل هو الرأيُ والحربُ والمَكيدةُ». فقال: يا رسولَ الله، إنَّ هذا ليس لك بمنزل، فانهضْ بنا إلى أدنى ماءٍ من القوم فننزلَهُ ونُغوِّرَ[٣] ما وراءَه من القُلُب[٤]، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤُه فنشربُ ولا يشربون. فاستحسنَ رسولُ الله ﷺ ذلك من رَأيه، وفَعَلَه.

ثم التقَوْا، فنصرَ الله نبيَّهُ والمسلمين، فَقَتَلَ من المشركين سبعين وأَسَرَ منهم سبعين[٥]، وانتَقَمَ منهم للمؤمنين، وشفى الله صَدْرَ رسولِه عليه الصلاة والسلام وصدورَ أصحابه من غَيْظِهم. وفي ذلك يقول حسان[٦]:

عَـرَفـتُ ديـارَ زيـنـبَ بـالـكَـثِـيـبِ ... كـخَـطِّ الـوحـيِ فـي الـورَق الـقَـشِـيـبِ[٧]

= الحافظ ابن حجر في الفتح ٧/ ٢٨٨ : فيه نظر؛ لأن سعد بن عبادة لم يشهد بدراً وإن كان يُعَدُّ فيهم لكونه ضرب له بسهمه.. ووقع عند الطبراني أن سعد بن عبادة قال ذلك بالحديبية، وهذا أولى بالصواب. اهـ. وقول المقداد بن عمرو ﷺ عند البخاري (٤٦٠٩) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(١) وقع في النسخ والدُّرر لابن عبد البر ص١٠٦ ـ والكلام منه ـ: الحباب بن المنذر بن عمرو بن الجموح، والمثبت من الاستيعاب لابن عبد البر (بهامش الإصابة) ٢/ ٢٨٧ وغيره من كتب الرجال. والحُباب بن المنذر: أنصاري خزرجي سُلمي، توفي في خلافة عمر رضي الله عنهما. الإصابة ٢/ ١٩٦-١٩٧ .

(٢) في (م): أمنزلاً.

(٣) في (د) و(ز): نعول، وهو تحريف، وفي (خ) و(م): نعوّر (بالعين المهملة) والمثبت من (ظ) وهو الموافق للدُّرر. قال الخشني في شرح غريب السير ٢/ ٣٥ : من رواه بالغين المعجمة فمعناه: تُذهِبه وتَدفِنه، ومن رواه بالعين المهملة فمعناه: تُفسده.

(٤) القُلُب: جمع قَليب، وهي البئر التي لم تُطْوَ. النهاية (قلب).

(٥) قاله ابن عباس ﷺ ضمن حديث طويل، أخرجه مسلم (١٧٦٣) وسلف ٥/ ٢٩٧ .

(٦) في ديوانه ص١٢-١٤ ، وينظر السيرة النبوية ١/ ٦٣٩ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٣١ - ٨٣٢ .

(٧) الكثيب: كُدْسُ الرَّمل. والقشيب: الجديد. شرح غريب السير للخشني ٢/ ٤٠ وما بعدها.

تداولُها الرياحُ وكلُّ جَوْنٍ ... من الوَسْمِيِّ مُنْهمِرٍ سَكُوبِ[١]
فأمسى رَبْعُها خَلَقاً وأمستْ ... يَباباً بعدَ ساكِنِها الحبيبِ[٢]
فَدَعْ عنك التذكُّرَ كُلَّ يومٍ ... ورُدَّ حرارةَ[٣] الصَدْرِ الكئيبِ
وخَبِّرْ بالذي لا عيبَ فيه ... بِصدقٍ غيرِ إخبارِ الكذوبِ
بما صنعَ الإلهُ غداةَ بدرٍ ... لَنَا في المشركين من النصيبِ
غداة كأنَّ جَمْعَهُمُ حِراءٌ ... بَدَتْ أركانُه جُنْحَ الغُروبِ
فلاقيناهُمُ مِنَّا بجمعٍ ... كأُسْدِ الغابِ مُرْدَانٍ وشِيبِ
أمامَ محمدٍ قدْ وازَرُوه ... على الأعداء في لَفْحِ الحروبِ
بأيديهم صوارِمُ مُرْهَفاتٌ ... وكلُّ مجرَّبٍ خاظِي الكُعُوبِ[٤]
بنو الأوسِ الغطارِفُ وازرَتْها[٥] ... بنو النجارِ في الدِّين الصَّليبِ[٦]
فغادَرْنا أبا جهلٍ صَرِيعاً ... وعُتبةَ قد تركْنا بالجَبُوبِ[٧]
وشيبةَ قد تركْنا في رجالٍ ... ذوِي نَسَبٍ إذا نُسِبوا حسيبِ[٨]

---

(١) الجَوْن: السحاب الأسود، والوَسْمِيّ: مطر الخريف. وسَكُوب: كثير السيلان. المصدر السابق.

(٢) الرَّبع: المنزل ودار الإقامة. اللسان (ربع) وفي الديوان: رسمها، بدل: ربعها. وقوله: يباباً، أي: قفراً. شرح الخشني.

(٣) في الديوان: حزازة. وهي وجع في القلب من غيظ ونحوه. اللسان (حزز).

(٤) الصوارم: السيوف، والمرهَفات: القاطعات. وخاظي الكعوب، معناه: مُكْتَنِزٌ شديد، والكعوب: عُقَد القنا (الرمح). شرح غريب السير ٢/ ٤٠ - ٤١ .

(٥) في الديوان: آزرتها. قال السهيلي في الروض الأنف ٣/ ٦٣ : ولو قال: آزرتها ـ بالهمز ـ لجاز.. لكن أراد حسان معنى الوزير.

(٦) الغطاريف: السادة، واحدهم غِطريف، وحذف الياء من الغطاريف لإقامة وزن الشعر. الدين الصليب، أي: الشديد. شرح غريب السير ٢/ ٤١ .

(٧) الجَبوب: وجه الأرض. المصدر السابق.

(٨) في الديوان: ذوي حسب إذا نسبوا نسيب.

يُنـاديـهـم رسـولُ الـلـه لـمَّـا قَـذَفْـنـاهُـم كَـبـاكِـبَ فـي الـقَـلِـيـبِ[١]
ألـمْ تَـجِـدُوا كـلامِـي كـان حـقًّـا وأمـرُ الـلـه يـأخُـذُ بـالـقـلـوبِ
فـمـا نَـطَـقُـوا، ولـو نَـطَـقُـوا لَـقَـالـوا أصـبـتَ وكـنـتَ ذا رأيٍ مُـصِـيـبِ

وهنا ثلاث مسائل:

الأولى: قال مالك: بلغني أنَّ جبريلَ عليه السلام قال للنبيِّ ﷺ: كيف أهلُ بدرٍ فيكم؟ قال: «خيارُنا» فقال: إنَّهم كذلك فينا[٢]. فدلَّ هذا على أنَّ شَرَفَ المخلوقات ليس بالذوات، وإنَّما هو بالأفعال. فللملائكةِ أفعالُها الشريفةُ من المواظبة على التسبيح الدائم، ولنَا أفعالُنا بالإخلاص بالطَّاعة، وتتفاضلُ الطاعاتُ بتفضيل الشرع لها، وأفضلُها الجهاد، وأفضلُ الجهاد يوم بدرٍ؛ لأنَّ بناءَ الإسلام كان عليه.

الثانية: ودلَّ خروجُ النبيِّ ﷺ لِيَلْقى العِيرَ على جواز النَّفَر[٣] للغنيمة؛ لأنَّها كَسْبٌ حلال. وهو يردُّ ما كَرِه مالكٌ من ذلك؛ إذ قال: ذلك قتالٌ على الدنيا[٤]، وما جاءَ أنَّ «مَنْ قاتلَ لتكونَ كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيلِ الله[٥]» دون مَن يقاتلُ للغنيمة، يرادُ به إذا كان قصدَه وحده، وليس للدِّين فيه حظٌّ. وروى عِكرمة عن ابن عباس قال: قالوا للنبيِّ ﷺ حين فَرَغَ من بدر: عليكَ بالعير، ليس دونها شيء، فناداه العباسُ ـ وهو في الأَسْرى ـ: لا يصلحُ هذا. فقال له النبيّ ﷺ: «ولم»؟ قال: لأنَّ اللهَ وعدكَ إحدى الطَّائفتين، وقدْ أعطاكَ الله ما وَعدك. فقال النبيُّ ﷺ: «صدقت»[٦]. وعَلِمَ ذلك

---

(١) كباكب، أي: جماعات. شرح غريب السير ٢/ ٤١ .

(٢) نقله المصنف عن ابن العربي في أحكام القرآن ٢/ ٨٣١ ـ وما بعده منه ـ وأخرجه أحمد (١٥٨٢٠) من حديث رافع بن خَدِيج ﷺ، والبخاري (٣٩٩٢) من حديث رفاعة بن رافع الزرقي.

(٣) في (خ) و(د) و(م): النفير.

(٤) سلف ٧/ ٣٦٣ .

(٥) أخرجه أحمد (١٩٤٩٣)، والبخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري والكلام إلى آخر هذه المسألة من أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٣٠ - ٨٣١ .

(٦) أخرجه أحمد (٢٠٢٢) دون قول النبي ﷺ: «صدقت».

العباسُ بحديثِ أصحاب النبيِّ ﷺ وبما كان من شأنِ بَدْر، فسمعَ ذلك في أثناء الحديث.

الثالثة: رَوى مسلمٌ[١] عن أنس بن مالك أنَّ رسولَ الله ﷺ تركَ قتلى بدرٍ ثلاثاً، ثمَّ قام عليهم فناداهم فقال: «يا أبا جهلِ بنَ هشام، يا أُميَّةَ بنَ خَلَف، يا عُتبةَ بنَ ربيعةَ، يا شيبةَ بنَ ربيعةَ، أليس قد وجدتُم ما وَعدَ ربُّكم حقًّا؟ فإنِّي قد وجدتُ ما وعدني ربِّي حقاً». فسمع عمرُ قولَ النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، كيف يسمعون، وَأنَّى يُجيبون وقد جَيَّفُوا؟ قال: «والذي نفسي بيدِه، ما أنتم بأسمعَ لِمَا أقولُ منهم، ولكنَّهم لا يقدرُون أنْ يُجِيبوا». ثم أمر بهم فَسُحِبوا فأُلقُوا في القَلِيب، قليبِ بدر.

«جَيَّفُوا» بفتح الجيم والياء، ومعناه: أَنْتَنُوا فصاروا جِيَفاً.

وقول عمر: «يسمعون» استبعادٌ على حُكم ما جَرتْ به العادة[٢]. فأجابه النبيُّ ﷺ بأنَّهم يسمعون كَسَمْعِ الأحياء.

وفي هذا ما يدلُّ على أنَّ الموتَ ليس بعَدَمٍ محضٍ، ولا فناءٍ صِرْف، وإنَّما هو انقطاعُ تعلُّق الروحِ بالبدن ومفارقتُه، وحيلولةٌ بينهما، وتبدُّلُ حالٍ، وانتقالٌ من دارٍ إلى دار. قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الميتَ إذا وُضِع في قبره، وتولَّى عنه أصحابه؛ إنَّه لَيسمعُ قَرْعَ نِعالِهم» الحديث. أخرجه الصحيح[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ الضمير في «به» عائدٌ على الماء الذي شدَّ دَهْسَ الوادي، كما تقدَّم[٤]. وقيل: هو عائدٌ على رَبْطِ القلوب؛ فيكون تثبيتُ الأقدام عبارةً عن النصر والمعونة في موطن الحرب[٥].

---

(١) في صحيحه (٢٨٧٤)، وهو عند أحمد (١٣٢٩٦) مطول.

(٢) في النسخ: على ما جرت به حكم العادة، والمثبت من المفهم ٧/ ١٥١ ، والكلام منه.

(٣) أخرجه أحمد (١٢٢٧١)، والبخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠) من حديث أنس ﷺ، والكلام بنحوه في أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٣٠ .

(٤) ص٤٦٣ من هذا الجزء.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٧ .

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ العاملُ في «إذ» «يُثبِّت»، أي: يُثَبِّتَ به الأقدامَ ذلك الوقت. وقيل: العاملُ «لِيربط»، أي: وليربِطَ إذ يُوحِي. وقد يكون التقدير: أُذْكُر إذ يُوحي ربُّك إلى الملائكة. ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ في موضع نَصْب، والمعنى: بأني معكم، أي: بالنصر والمعونة. «مَعَكم» بفتح العين ظرفٌ، ومن أسْكَنَها فهي عنده حرف[1].

﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بشِّرُوهم بالنصر، أو القتالِ معهم، أو الحضورِ معهم من غير قتال؛ فكان المَلَكُ يسير أمامَ الصفِّ في صورة الرجل ويقول: سِيروا، فإنَّ اللهَ ناصرُكم[2]. ويظنُّ المسلمون أنَّه منهم.

وقد تقدَّم في «آل عمران»[3] أنَّ الملائكةَ قاتلتْ ذلك اليوم. فكانوا يَروْن رؤوساً تَنْدُر[4] عن الأعناق من غير ضاربٍ يَرونَه. وسَمِعَ بعضهم قائلاً يسمع قولَهُ ولا يرى شخصَه: أَقْدِمْ حيزوم[5]. وقيل: كان هذا التثبيتُ ذِكْرَ رسولِ الله ﷺ للمؤمنين نزولَ الملائكة مَدَداً.

قوله تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ تقدَّم في «آل عمران» بيانُه[6].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٠٤ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٠ .

(٢) أورده الواحدي في الوسيط ٢/ ٤٤٧ ونسبه لمقاتل.

(٣) ٥/ ٢٩٦ .

(٤) أي: تسقط، القاموس (ندر).

(٥) قطعة من قول ابن عباس ﷺ، أخرجه مسلم (١٧٦٣)، وسلف ٥/ ٢٩٧ .

(٦) ٥/ ٣٥٦ .

﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ هذا أمرٌ للملائكة. وقيل: للمؤمنين[(١)]، أي: اضرِبوا الأعناقَ، و«فوق» زائدةٌ؛ قاله الأخفش[(٢)] والضَّحّاك وعطِية[(٣)]. وقد رَوى المسعودِيُّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إني لم أُبعَثْ لأُعذِّبَ بعذاب الله، وإنَّما بُعِثتُ بضرب الرِّقاب وشَدِّ الوَثاق»[(٤)].

وقال محمدُ بن يزيد: هذا خطأ؛ لأنَّ «فوق» تفيدُ معنًى، فلا يجوز زيادتُها، ولكن المعنى أنَّهم أُبيحَ لهم ضَرْب الوجوهِ وما قَرُب منها[(٥)].

وقال ابن عباس: كلّ هامٍ وجُمْجُمة[(٦)]. وقيل: أي: ما فوقَ الأعناق، وهو الرؤوس؛ قاله عكرمة[(٧)].

والضَّرْبُ على الرأس أبلغُ؛ لأنَّ أدنى شيءٍ يُؤَثِّر في الدِّماغ. وقد مضى شيءٌ من هذا المعنى في «النساء»، وأنَّ «فوق» ليست بزائدة عند قوله: ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾[(٨)] [النساء: ١١].

﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال الزَّجّاج[(٩)]: واحد البَنان بَنانةٌ، وهي هنا الأصابعُ وغيرها من الأعضاء. والبنان مشتقٌّ من قولهم: أَبَنَّ الرجلُ بالمكان: إذا أقامَ به. فالبَنان يُعْتَمَلُ به ما يكون للإقامة والحياة. وقيل: المرادُ بالبنان هنا أطرافُ

---

(١) الوسيط للواحدي ٢/ ٤٤٨ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٥٤١ - ٥٤٢ .

(٣) أخرجه الطبري ١١/ ٧٠ .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٣٩٠ ، والطبري ١١/ ٧٠ من طريق المسعودي عن القاسم بن عبد الرحمن ابن عبد الله بن مسعود ﷺ مرسلاً.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٠ .

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٤٤٨ من قول عطاء، وقوله: هام: هو جمع هامة، وهي الرأس. الصحاح (هيم).

(٧) أخرجه الطبري ١١/ ٧١ .

(٨) ٦/ ١٠٥ .

(٩) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٠ .

الأصابع من اليدَيْن والرِّجْلَين. وهو عبارةٌ عن الثَّبَاتِ في الحرب وموضع الضَّرب؛ فإذا ضربتَ البَنان؛ تعطَّل من المضروب القتالُ بخلاف سائر الأعضاء[١].

قال عنترة:

وكان فَتَى الهَيْجاءِ يَحمِي ذِمَارَها ... ويَضْربُ عند الكَرْب كلَّ بَنانِ[٢]

ومما جاء أنَّ البنانَ الأصابعُ قولُ عنترة أيضاً:

وأنَّ الموتَ طوعُ يدي إذا ما ... وَصَلْتُ بَنانَها بالهِنْدُوانِي[٣]

وهو كثيرٌ في أشعار العرب، البَنان: الأصابع.

قال ابن فارس[٤]: البَنانُ: الأصابع، ويقال: الأطراف. وذكَر بعضُهم أنَّها سُمِّيت بناناً لأنَّ بها صلاحَ الأحوال التي بها يستقرُّ الإنسانُ ويُبِنُّ. وقال الضَّحَّاك: البَنانُ كلُّ مَفْصِل[٥].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ «ذلِك» في موضع رفعٍ على الابتداء [أو خبر]، والتقدير: ذلك الأمرُ، أو الأمرُ ذلك[٦]. «شَاقُّوا اللهَ» أي: أولياءَه. والشِّقاق: أنْ يصيرَ كلُّ واحدٍ في شِقٍّ. وقد تقدَّم[٧].

﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ قال الزَّجَّاج[٨]: «ذلكم» رفع

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٨ .

(٢) ديوان عنترة ص٧٠ ، وفيه: لدى، بدل: فتى.

(٣) ديوان عنترة ص٧٢ ، وقوله: بالهندواني: هو السيف المطبوع من حديد الهند. الصحاح (هند).

(٤) مجمل اللغة ١/ ١١٤ .

(٥) أخرجه الطبري ١١/ ٧٢ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٠ ، وما بين حاصرتين منه.

(٧) ٢/ ٤١٩ .

(٨) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٧ .

بإضمار الأمر أو القصَّة، أي: الأمرُ ذلكم فذوقوه. ويجوز أنْ يكون في موضع نصبٍ بـ «ذُوقُوا»؛ كقولك: زيداً فاضربه[١]. ومعنى الكلام التوبيخُ للكافرين.

«وأنَّ» في موضع رَفْع عطف على «ذلكم». قال الفرَّاء[٢]: ويجوزُ أنْ يكون في موضع نصبٍ؛ بمعنى: وبأنَّ للكافرين. قال: ويجوزُ أن تُضْمر: واعلموا أنَّ. الزَّجَّاج[٣]: لو جازَ إضمارُ: واعلموا لجاز زيدٌ منطلقٌ، وعَمْراً جالساً، بل كان يجوز في الابتداء: زيداً منطلقاً؛ لأنَّ المُخبِر مُعلِمٌ، وهذا لا يقوله أحدٌ من النحويين.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿زَحْفًا﴾ الزَّحفُ: الدُّنُوُّ قليلاً قليلاً. وأصلُه الاندفاعُ على الأَلْيَة؛ ثمَّ سُمِّيَ كلُّ ماشٍ في الحرب إلى آخرَ زاحفاً[٤]. والتزاحفُ: التداني والتقارب؛ يقال: زحفَ إلى العدوِّ زَحْفاً. وازدحفَ القومُ، أي: مشى بعضُهم إلى بعض. ومنه زِحافُ الشِّعر، وهو أن يسقُطَ بين الحرفين حرف فيَزْحَف أحدُهما إلى الآخر[٥].

يقول: إذا تدانَيْتم وتعايَنْتم فلا تَفِرُّوا عنهم، ولا تُعطُوهم أدبارَكم. حرَّم اللهُ ذلك على المؤمنين حين فَرَضَ عليهم الجهادَ وقتالَ الكفار[٦].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٩ .

(٢) في معاني القرآن له ١/ ٤٠٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨١ .

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٤٠٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨١ .

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٩ .

(٥) تهذيب اللغة ٤/ ٣٧١ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٣٢ .

قال ابن عطية: والأدبارُ جمع دُبُر. والعبارة بالدُّبُر في هذه الآية متمكِّنةُ الفصاحة؛ لأنَّها بَشِعةٌ على الفارِّ، ذامَّةٌ له[١].

الثانية: أمرَ الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية ألَّا يُولِّيَ المؤمنون أمام الكفار. وهذا الأمرُ مقيَّدٌ بالشريطة المنصوصة في مِثْلَي المؤمنين؛ فإذا لَقِيتْ فئةٌ من المؤمنين فئةً ـ هي ضِعف ـ من المشركين؛ فالفرضُ ألَّا يَفِرُّوا أمامَهم. فمن فرَّ من اثنين فهو فارٌّ من الزَّحف. ومن فرَّ من ثلاثةٍ فليس بفارٍّ من الزَّحف، ولا يتوجَّه عليه الوعيد. والفِرارُ كبيرةٌ مُوبِقةٌ بظاهر القرآن وإجماع الأكثر من الأئمة[٢].

وقالت فرقةٌ؛ منهم ابن الماجِشون في «الواضحة»: إنَّه يُراعَى الضِّعفُ والقوَّة والعُدَّة، فيجوزُ على قولهم أنْ يفِرَّ مئةُ فارسٍ من مئة فارس إذا عَلموا أنَّ ما عند المشركين من النَّجدة والبَسالة ضِعْفُ ما عندهم. وأمَّا على قول الجمهور فلا يحلُّ فِرار مئةٍ إلَّا مِمَّا زادَ على المئتين[٣]. فمهما كان في مقابلة مسلمٍ أكثرُ من اثنين؛ فيجوزُ الانهزام، والصبر أحسنُ. وقد وقف جيشُ مُؤْتَةَ وهم ثلاثةُ آلاف في مقابلة مئتي ألف، فيهم مئةُ ألفٍ من الروم، ومئةُ ألفٍ من المُستعربة من لَخْم وجُذَام.

قلت: ووقع في تاريخ فتح الأندلس، أنَّ طارقاً[٤] مولى موسى بن نُصير سَار في ألفٍ وسبع مئة رجلٍ إلى الأندلس، وذلك في رجب سنةَ ثلاثٍ وتسعين من الهجرة[٥]؛ فالتقى ومِلِك الأندلس لُذريق وكان في سبعين ألف عِنان، فزَحف إليه

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٠ ، دون قوله: الأدبار جمع دبر.

(٢) في (د) و(ز) و(ظ): الأمة.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٠ .

(٤) كان أميراً على طنجة بأقصى المغرب، هزم الفرنج، وافتتح قرطبة، وكتب بالنصر إلى مولاه موسى بن نُصير، فحسده وتوعَّده، ثم قبض عليه وأساء إليه. وموسى بن نصير: هو أبو عبد الرحمن اللخمي، متولي إقليم المغرب، حجَّ مع سليمان، فمات بالمدينة. السير ٤/ ٤٩٦ و ٥٠٠ .

(٥) في تاريخ الطبري ٦/ ٤٦٨ ، والمنتظم ٦/ ٣٠٣ ، والكامل لابن الأثير ٤/ ٥٦١ - ٥٦٢ أن فتح الأندلس سنة اثنتين وتسعين من الهجرة، وأن عدد جيش المسلمين اثنا عشر ألفاً.

طارقٌ وصَبَر له، فَهَزم اللهُ الطاغيةَ لُذريق، وكان الفتح.

قال ابن وهب: سمعتُ مالكاً يُسأل عن القوم يَلْقون العدوَّ أو يكونون في محرسٍ يحرُسون، فيأتيهم العدوُّ وهم يسيرٌ، أيُقَاتلون أو ينصرفون فَيُؤذِنون أصحابَهم؟ قال: إن كانوا يَقْوَوْن على قتالهم قاتلوهم، وإلَّا انصرفوا إلى أصحابهم فآذنُوهُم[1].

الثالثة: واختلفَ الناسُ هل الفرارُ يومَ الزَّحف مخصوصٌ بيوم بدرٍ، أم عامٌّ في الزحوف كلِّها إلى يوم القيامة؟ فرُوي عن أبي سعيدٍ الخُدرِيِّ أنَّ ذلك مخصوصٌ بيوم بدر، وبه قال نافع والحسن وقتادة ويزيدُ بن أبي حبيب والضَّحَّاك[2]، وبه قال أبو حنيفة[3]. وأنَّ ذلك خاصٌّ بأهل بدر، فلم يكن لهم أنْ ينحازوا، ولو انحازوا لانحازوا للمشركين، ولم يكنْ في الأرض يومئذٍ مسلمون غيرهم، ولا للمسلمين فئةٌ إلَّا النبي ﷺ، فأمَّا بعد ذلك فإنَّ بعضَهم فئةٌ لبعض.

قال الكِيا[4]: وهذا فيه نَظَرٌ، لأنَّه كان بالمدينة خلقٌ كثيرٌ من الأنصار، لمْ يأمرهم النبيُّ ﷺ بالخروج، ولم يكونوا يرونَ أنَّه قتال، وإنما ظنُّوا أنَّها العِير؛ فخرجَ رسولُ الله ﷺ فيمن خَفَّ معه.

ويُروى عن ابن عباس وسائرِ العلماء أنَّ الآية باقيةٌ إلى يوم القيامة[5].

احتجَّ الأوّلون بما ذَكرنا، وبقوله تعالى: «يومئذ»، فقالوا: هو إشارةٌ إلى يوم بدر، وأنَّه نُسِخَ حُكم الآية بآيةِ الضِّعف[6]. وبقي حُكم الفِرار من الزَّحف ليس بكبيرة. وقد فرَّ الناسُ يومَ أُحدٍ، فعفا الله عنهم، وقال الله فيهم يومَ حُنين: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم

---

(١) الكافي لابن عبد البر ١/ ٤٦٤ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٣٢ ، وقول أبي سعيد الخدري ﷺ أخرجه الطبري ١١/ ٧٧ .

(٣) النكت والعيون ٢/ ٣٠٤ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٣ ، والكلام السابق فيه مختصر.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٣٢ .

(٦) يعني قوله تعالى: ﴿الآن خفَّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئةٌ صابرة يغلبوا مئتين...﴾ [الأنفال: ٦٦].

﴿مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، ولم يقعْ على ذلك تعنيفٌ.

وقال الجمهورُ من العلماء: إنَّما ذلك إشارةٌ إلى يوم الزَّحف الذي يتضمَّنه قوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ﴾. وحكمُ الآية باقٍ إلى يوم القيامة بشرط الضِّعف الذي بيَّنه الله تعالى في آيةٍ أخرى، وليس في الآية نسخٌ[١]. والدليلُ عليه أنَّ الآية نزلتْ بعدَ القتال وانقضاءِ الحرب وذهابِ اليوم بما فيه[٢]. وإلى هذا ذهب مالكٌ والشافعيُّ وأكثرُ العلماء.

وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرة[٣] أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «اجتنبوا السَّبْعَ المُوبِقات»: وفيه: «والتولِّي يومَ الزَّحْف» وهذا نصٌّ في المسألة. وأما يوم أُحدٍ فإنَّما فرَّ الناسُ من أكثرَ من ضِعْفهم[٤] ومع ذلك عُنِّفوا. وأمَّا يومَ حُنين فكذلك مَنْ فرَّ إنَّما انكشفَ عن الكَثْرة؛ على ما يأتي بيانه[٥].

الرابعة: قال ابن القاسم: لا تجوز شهادةُ من فرَّ من الزَّحف. ولا يجوز لهم الفِرار وإنْ فرَّ إمامُهم؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾ الآية. قال: ويجوزُ الفِرار من أكثر من ضِعْفهم[٦]. وهذا ما لمْ يبلغ عددُ المسلمين اثني عشر ألفاً؛ فإنْ بَلَغَ اثني عشر ألفاً لم يَحِلَّ لهمُ الفِرارُ، وإنْ زادَ عددُ المشركين على الضِّعف؛ لقول رسول الله ﷺ: «ولن يُغْلَبَ اثنا عشر ألفاً من قِلَّة»[٧] فإنَّ أكثرَ أهل العلم خصَّصوا هذا العددَ بهذا الحديث من عموم الآية.

قلت: رواه أبو بشرٍ وأبو سلمة العامليّ ـ وهو الحكم بن عبد الله بن خُطَّاف،

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٠ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٣٣ .

(٣) الحديث (٨٩)، وهو عند البخاري (٢٧٦٦).

(٤) في (خ) و(ظ): ضعفيهم، والكلام في المحرر الوجيز ٢/ ٥١٠ .

(٥) في سورة التوبة عند تفسير الآية (٢٥) منها.

(٦) في (خ) و(ظ): ضعفيهم. وينظر قول ابن القاسم في النوادر والزيادات ٣/ ٥٤ بنحوه.

(٧) النوادر والزيادات ٣/ ٥٣ ، وسيأتي تخريج الحديث بعده.

وهو متروك ـ قالا: حدَّثنا الزُّهرِيّ، عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «يا أَكْثَم بن الجَوْن، اُغْزُ مع غير قومك يَحسُنْ خُلقُك، وتكرم على رُفقائك. يا أكثم بن الجون، خيرُ الرُّفقاء أربعةٌ، وخيرُ الطلائع أربعون، وخيرُ السَّرايا أربع مئة، وخيرُ الجيوش أربعةُ آلاف، ولن يُؤتَى اثنا عشر ألفاً من قِلَّة»[١].

ورُويَ عن مالك ما يدلُّ على ذلك من مذهبه، وهو قولُه للعُمَرِيّ العابد[٢] إذْ سأله: هل لك سَعَةٌ في ترك مجاهدةِ مَن غيَّر الأحكام وبدَّلها؟ فقال: إنْ كان معك اثنا عشرَ ألفاً فلا سَعَةَ لك في ذلك[٣].

الخامسة: فإنْ فرَّ فَلْيستغفر اللهَ عزَّ وجلَّ. روى الترمذِيُّ عن بلال بن يسار بن زيد قال: حدّثني أبي عن جدِّي، سمعَ النبيَّ ﷺ يقول: «مَنْ قال: أستغفرُ اللهَ الذي لا إله إلا هو الحيُّ القيوم وأتوبُ إليه؛ غَفَرَ الله له، وإنْ كان قد فرَّ من الزَّحف». قال: هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرِفه إلَّا من هذا الوجه[٤].

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ التحرُّف: الزوال عن جِهة الاستواء. فالمتحرِّفُ من جانبٍ إلى جانب لمكايدِ الحرب غيرُ مُنهزم؛ وكذلك المتحيِّزُ إذا نوى التحيُّزَ إلى فئةٍ من المسلمين لِيَستعينَ بهم؛ فيرجعَ إلى القتال

(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٢٣٨)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٩٥١)، وقال: أبو بشر هو الوليد بن محمد المُوَقَّري، وكلاهما ليس بشيء (يعني أبا سلمة وأبا بشر) قال الدارقطني: كان الحكم يضع الحديث، وقال يحيى: الموقري كذاب. وأخرجه ابن ماجه (٢٨٢٧) من طريق أبي سلمة وحده، وليس فيه ذكر الطلائع. وأخرج أحمد (٢٦٨٢) وأبو داود (٢٦١١)، والترمذي (١٥٥٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربع مئة، وخير الجيوش... إلى آخر الحديث. قال أبو داود: الصحيح أنه مرسل. وقوله: «خير الرفقاء أربعة» سلف ٦/ ٤٥٠ .

(٢) عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ، أبو عبد الرحمن القرشي، المدني، الزاهد، توفي سنة (١٨٤هـ). السير ٨/ ٣٧٣ .

(٣) أحكام القرآن للكيا الهراسي ٣/ ١٥٤ .

(٤) سنن الترمذي (٣٥٧٧)، وهو عند أبي داود (١٥١٧)، وفي إسناده يسار بن زيد، قال الذهبي في ميزان الاعتدال ٤/ ٤٤٤ : لا يعرف.

غيرُ منهزمٍ أيضاً.

روى أبو داود عن عبد الله بن عمر أنَّه كان في سريةٍ من سرايا رسول الله ﷺ قال: فحاصَ الناسُ حَيْصَةً، فكنتُ فيمن حاص، قال: فلمَّا بَرَزْنا قلنا: كيف نصنعُ وقد فَرَرْنا من الزَّحف وبُؤْنا بالغضب. فقلنا: ندخلُ المدينة، فنتثبَّتُ[1] فيها، ونذهبُ ولا يرانا أَحَدٌ. قال: فدخلنا فقلنا: لو عَرَضْنا أنفسَنا على رسول الله ﷺ، فإنْ كانت لنا توبةٌ أقمنا، وإنْ كان غيرَ ذلك ذهبنا. قال: فجلسنا لرسول الله ﷺ قبلَ صلاة الفجر، فلمَّا خرج قُمنا إليه فقلنا: نحنُ الفرَّارون، فأقبل إلينا فقال: «لا، بل أنتم العَكَّارون». قال: فدنونا فقبَّلْنا يدَه. فقال: «أنا فئةُ المسلمين»[2].

قال ثعلب: العكَّارون هم العطَّافون[3]. وقال غيره: يقال للرجل الذي يُوَلِّي عند الحرب ثمَّ يَكِرُّ راجعاً: عَكَر واعتكر[4].

وروى جرير عن منصور، عن إبراهيم قال: انهزم رجلٌ من القادسِية، فأتى المدينةَ إلى عمر فقال: يا أميرَ المؤمنين، هلكت! فررتُ من الزَّحْف. فقال عمر: أنا فئتُك[5].

وقال محمد بن سيرين: لما قُتِل أبو عُبيد[6] جاء الخبرُ إلى عمر فقال: لو انحاز

---

(١) سنن أبي داود (٢٦٤٧)، وهو عند أحمد (٥٣٨٤)، والترمذي (١٧١٦). وفي إسناده يزيد بن أبي زياد، وهو ضعيف. وقوله: فحاص الناس حيصة، قال السندي في حاشية المسند: أي: جالوا جولة يطلبون الفرار.

(٢) في (ز) و(ظ): فنبيت، وفي (د): ونبيت، وفي (خ): فننبتُّ وهي رويات؛ كما في نسخة أبي داود (٢٦٣٩) تحقيق الشيخ محمد عوامة، وذكر أيضاً رواية: فننبتُّ.

(٣) غريب الحديث لابن الجوزي ٢/ ١٢٠ .

(٤) تهذيب اللغة ١/ ٣٠٥ .

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٥٧٥ .

(٦) في النسخ: أبو عبيدة، وهو خطأ، والمثبت من المصادر، وأبو عُبيد: هو ابن مسعود بن عمرو الثقفي، أسلم في عهد رسول الله ﷺ، واستعمله عمر ﷺ سنة ثلاث عشرة، وسيَّره إلى العراق، وقُتل شهيداً. أسد الغابة ٦/ ٢٠٥ ، والإصابة ١١/ ٢٤٩ . والأثر أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٥٣٦ ، والطبري ١١/ ٨٠ ، وابن الأثير في أسد الغابة.

إليَّ لكنتُ له فئةً، فأنا فئةُ كلِّ مسلم.

وعلى هذه الأحاديث لا يكون الفِرارُ كبيرةً؛ لأنَّ الفئَة هنا المدينةُ والإمامُ وجماعةُ المسلمين حيث كانوا. وعلى القول الآخر يكونُ كبيرةً؛ لأنَّ الفئَة هناك الجماعةُ من الناس الحاضرةُ للحرب. هذا على قول الجمهور أنَّ الفِرار من الزَّحف كبيرة. قالوا: وإنَّما كان ذلك القول من النبيِّ ﷺ وعمرَ على جهة الحِيْطَة على المؤمنين، إذْ كانوا في ذلك الزمان يَثْبُتون لأضعافهم مِراراً[١]، والله أعلم. وفي قوله: «والتَّوَلِّي يوم الزَّحف»[٢] ما يَكفي.

السابعة: قوله تعالى: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: استحقَّ الغضب. وأصلُ: «باءَ»: رَجَعَ. وقد تقدَّم[٣]. ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ أي: مُقامُه. وهذا لا يدلُّ على الخلودِ؛ كما تقدَّم في غير موضع[٤]. وقد قال ﷺ: «مَنْ قال: أستغفرُ اللهَ الذي لا إله إلَّا هو الحيُّ القيوم، غُفِر له وإنْ كان قد فرَّ من الزَّحف»[٥].

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي: يومَ بدر. رُوي أنَّ أصحابَ رسول الله ﷺ لمَّا صَدَروا عن بَدْر؛ ذَكَر كلٌّ واحدٍ منهم ما فعل: قتلتُ كذا، فعلتُ كذا؛ فجاء من ذلك تَفاخرٌ ونحو ذلك. فنزلت الآيةُ إعلاماً بأنَّ الله تعالى هو المميتُ والمقدِّر لجميع الأشياء، وأنَّ العبدَ إنَّما يُشارك بتكسُّبه وقَصْده.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٠.

(٢) يعني في حديث أبي هريرة: «اجتنبوا السبع الموبقات...» وسلف في المسألة الثالثة.

(٣) ٢/ ١٥٥.

(٤) ١/ ٣٦٢ و ٦/ ١٣٦ و ٧/ ٤٥.

(٥) سلف في المسألة الخامسة، وإسناده ضعيف.

وهذه الآية تردُّ على من يقول بأنَّ أفعال العباد خلقٌ لهم[١]. فقيل: المعنى فلم تقتلوهم، ولكنَّ الله قتلَهم بِسَوْقهم إليكم حتى أَمْكَنكُم منهم. وقيل: ولكنَّ الله قَتَلهم بالملائكة الذين أمدَّكُم بهم[٢].

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ مِثله. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾. واختلف العلماء في هذا الرمي على أربعة أقوال:

الأوّل: إنَّ هذا الرميَ إنَّما كان في حَصْب رسول الله ﷺ [المشركين] يومَ حُنين[٣]؛ رواه ابنُ وهب عن مالك. قال مالك: ولم يبقَ في ذلك اليوم أَحَدٌ إلَّا وقد أصابَه ذلك. وكذلك رَوى عنه ابن القاسم أيضاً[٤].

الثاني: أنَّ هذا كان يوم أُحُدٍ حين رَمى أُبَيَّ بنَ خَلَف بالحَرْبة[٥] في عُنقه؛ فَكَرَّ أُبَيٌّ مُنهزماً. فقال له المشركون: والله، ما بكَ مِنْ بأس. فقال: والله، لو بَصَق عليَّ لَقَتَلَني. أليس قد قال: بل أنا أَقتُلُه؟! وكان قد أَوْعد أُبَيٌّ رسولَ الله ﷺ بالقتل بمكَّة؛ فقال له رسولُ ﷺ: «بَلْ أنا أَقتلُكَ». فمات عدوُّ الله منْ ضربةِ رسول الله ﷺ في مَرْجعه إلى مكة، بموضعٍ يقال له: سَرِف[٦].

قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب: لمَّا كان يومُ أُحُد أقبلَ أَبَيٌّ مُقَنَّعاً في الحديد على فرسه يقول: لا نجوتُ إنْ نجا محمد؛ فَحَمَلَ على رسول الله ﷺ يريد قَتْلَه.

قال موسى بن عقبة: قال سعيدُ بن المسيِّب: فاعترضَ له رجالٌ من المؤمنين، فأمرَهُم رسولُ الله ﷺ، فَخلَّوْا طريقَه؛ فاستقبله مُصعبُ بن عُمير يَقِي رسولَ الله ﷺ،

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥١١ .

(٢) النكت والعيون ٢/ ٣٠٤ .

(٣) أخرجه مسلم (١٧٧٥) من حديث العباس ﷺ مطولاً، وفيه: ثم أخذ رسول الله ﷺ حَصَيات فرمى بهنَّ وجوه الكفار.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٣٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٣٣ .

(٦) الدُّرر لابن عبد البر ص١٦٣ ، وسَرِف، ككتف: موضع قرب التنعيم. القاموس (سرف).

فقُتِل مُصعب بن عُمير، وأبصرَ رسولُ الله ﷺ تَرْقُوَةَ أُبَيِّ بن خَلَف من فُرْجَةٍ بين سابغة البَيْضةِ والدِّرع؛ فطعنَه بحربته، فوقع أُبيٌّ عن فرسه، ولم يخرج من طَعْنته دمٌ. قال سعيد: فكسر ضِلَعاً من أضلاعه. قال: ففي ذلك نَزَل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[1]. وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّ الآية نزلَتْ عَقِيب بدر[2].

الثالث: أنَّ المرادَ السَّهمُ الذي رَمَى به رسولُ الله ﷺ في حِصن خَيْبر، فسارَ في الهواء حتى أصابَ ابنَ أبي الحُقَيق وهو على فراشه. وهذا أيضاً فاسدٌ، وخَيْبَرُ وفتحُها أبعدُ من أُحُد بكثير. والصحيح في صورةِ قتل ابن أبي الحُقَيق غيرُ هذا[3].

الرابع: أنَّها كانت يومَ بدر؛ قاله ابن إسحاق. وهو أصحُّ؛ لأنَّ السورة بَدْرية، وذلك أنَّ جبريلَ عليه السَّلام قال للنبيِّ ﷺ: «خُذْ قبضةً من التراب». فأخذَ قبضةً من التراب، فرمَى بها وجوهَهم، فما من المشركين من أحدٍ إلَّا وأصاب عينيه ومَنْخِرَيْه وفَمَه ترابٌ من تلك القَبْضة؛ وقاله ابن عباس[4]، وسيأتي.

قال ثعلب: المعنى: «ومَا رَمَيْتَ» الفَزَعَ والرُّعب في قلوبهم «إذْ رَمَيْتَ» بالحَصْباء فانهزموا، «ولكنَّ اللهَ رَمَى»[5] أي: أعانك وأظْفرك. والعربُ تقول: رَمَى اللهُ لك، أي: أعانَك وأَظْفرَك وصَنَعَ لك. حكى هذا أبو عُبيدة في كتاب المجاز[6].

وقال محمد بن يزيد: وما رَميتَ بقوَّتك إذْ رَمَيْتَ، ولكنَّك بقوَّة الله رَمَيْتَ[7].

﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ البلاءُ هاهنا النِّعمة. واللَّام تتعلقُ بمحذوف،

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢١١ - ٢١٢ . والتَّرْقُوَة (بفتح التاء): العظم الذي بين ثُغْرة النحر والعاتق. والبيضة يعني الخُوذة.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥١١ .

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥١١ ، والخبر أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٧٣ عن عبد الرحمن بن جُبير بن نُفير.

(٤) أخرجه الطبري ١١/ ٨٦ ، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٣٤ .

(٥) تهذيب اللغة ١٥/ ٢٧٧ .

(٦) ١/ ٢٤٤ .

(٧) تهذيب اللغة ١٥/ ٢٧٧ .

أي: وليُبْليَ المؤمنين فِعلَ ذلك.

﴿ذلكم وأنَّ الله مُوَهِّنُ كَيْدَ الكَافِرِينَ﴾ قراءةُ أهل الحَرَمين وأبي عمرو[١]. وقراءةُ أهل الكوفة: ﴿مُوهِنٌ كَيْدَ الكَافِرِينَ﴾[٢]. وفي التشديد معنى المبالغة. ورُوي عن الحسن: ﴿مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بالإضافة والتخفيف[٣]. والمعنى: أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُلقي في قُلوبهم الرُّعبَ حتى يَتشتَّتوا ويتفرَّق جمعُهم فَيَضْعُفوا. والكَيْد: المَكْر. وقد تقدَّم[٤].

قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ شرطٌ وجوابُه. وفيه ثلاثةُ أقوال:

يكون خِطاباً للكفَّار؛ لأنَّهم استفتحوا فقالوا: اللَّهمّ؛ أَقطَعُنا للرَّحِم، وأظلَمُنا لصاحبه، فانصُرْه عليه؛ قاله الحسن ومجاهد وغيرهما[٥]. وكان هذا القولُ منهم وقتَ خروجهم لِنُصرَة العِيْر.

وقيل: قاله أبو جهلٍ وقتَ القتال[٦].

وقال النَّضرُ بن الحارث: اللَّهم إنْ كان هذا هو الحقَّ من عندك فأَمْطِرْ علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم. وهو ممن قُتِل ببدر[٧].

والاستفتاح: طلبُ النصر، أي: قد جاءَكُم الفتح، ولكنَّه كان للمسلمين عليكم؛

---

(١) السبعة ص٣٠٤ ، والتيسير ص١١٦ ويعني بأهل الحرمين نافعاً وابن كثير.

(٢) يعني هي قراءة عاصم في رواية شعبة،وحمزة والكسائي. وقرأ بها أيضاً ابن عامر الشامي.

(٣) وهي قراءة عاصم في رواية حفص، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٢ ، وما بعده منه.

(٤) ٦/ ٤٦٢ .

(٥) مجمع البيان ٩/ ١٢٥ . وينظر النكت والعيون ٢/ ٣٠٥ .

(٦) أخرجه أحمد (٢٣٦٦١) من قول عبد الله بن ثعلبة بن صُعير ﷺ.

(٧) تفسير الطبري ١١/ ١٤٤ - ١٤٥ ، وسيرد عند تفسير الآية (٣٢) من هذه السورة.

أي: فقد جاءَكُم ما بانَ به الأمرُ، وانكشفَ لكم الحقُّ.

﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ أي: عن الكفر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. ﴿وَإِن تَعُودُوا۟﴾ أي: إلى هذا القول وقتالِ محمد. ﴿نَعُدْ﴾ إلى نَصْر المؤمنين[١]. ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ أي: جماعتُكم ﴿شَيْـًٔا﴾. ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: في العَدَد.

الثاني: يكون خطاباً للمؤمنين، أي: إنْ تستنصروا فقد جاءكُم النصر. وإن «تَنْتَهُوا»، أي: عن مثلِ ما فعلتموه من أَخْذِ الغنائم والأسرى قبل الإذن، «فهو خيرٌ لكم». «وَإِنْ تَعُودُوا» أي: إلى مِثل ذلك نَعُد إلى توبيخكم. كما قال: ﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية [الأنفال:٦٨].

والقول الثالث: أنْ يكون ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ خطاباً للمؤمنين، وما بعده للكفار[٢]، أي: وإنْ تعودوا إلى القتال نَعُد إلى مثلِ وقعة بَدْر.

القشيري: والصحيح أنَّه خطابٌ للكفار، فإنَّهم لمَّا نَفَرُوا إلى نُصرةِ العِير تعلَّقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصرْ أهدى الطائفتين، وأفضلَ الدِّينَين.

المهدوِيّ: ورُوي أنَّ المشركين خرجوا معهم بأستار الكعبة يستفتحون بها، أي: يَستنصرون[٣].

قلت: ولا تَعارُضَ، لاحتمال أنْ يكونوا فعلوا الحالتين.

﴿وإنَّ اللهَ مع المؤمنينَ﴾ بكسر الألف على الاستئناف، وبفتحها عطف على قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾. أو على قوله: «أنِّي معكُم». أو المعنى: ولأنَّ الله؛ والتقدير: لِكثرَتها وأنَّ الله[٤]. أي: من كان الله في نَصْره؛ لم تَغْلِبْه فئةٌ وإنْ كَثُرت[٥].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٢ .

(٢) إعراب النحاس ٢/ ١٨٢ .

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٩٢ .

(٤) قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية حفص بفتح الهمزة، والباقون بكسرها. السبعة ص١ ، والتيسير ص١١٦ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٢ .

(٥) الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي ١/ ٤٩١ .

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الخِطابُ للمؤمنين المُصدِّقين. أفردَهم بالخِطاب دون المنافقين إجلالاً لهم. جدَّد الله عليهم الأمرَ بطاعة الله والرسول، ونهاهُم عن التَّولِّي عنه. هذا قول الجمهور. وقالت فرقةٌ: الخِطابُ بهذه الآية إنَّما هو للمنافقين. والمعنى: ياأيُّها الذين آمنوا بألسنتهم فقط.

قال ابن عطية[١]: وهذا وإنْ كان مُحتمِلاً على بُعد، فهو ضَعيفٌ جداً؛ لأجل أنَّ الله تعالى وَصَف مَنْ خاطَبَ في هذه الآية بالإيمان. والإيمان التصديق، والمنافقون لا يتَّصفون من التصديق بشيء. وأبعدُ من هذا مَن قال: إنَّ الخِطابَ لبني إسرائيل، فإنَّه أجنبيٌّ من الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ التولِّي: الإعراض. وقال: «عنه» ولم يقلْ: عنهما لأنَّ طاعةَ الرسول طاعتُه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[٢] [التوبة: ٦٢].

﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ في موضع الحال. والمعنى: وأنتم تسمعون ما يُتْلى عليكُم من الحُجج والبراهين في القرآن[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ أي: كاليهود أو المنافقين أو المشركين. وهو من سَماع الأذن. ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يتدبَّرون ما سَمِعوا، ولا

---

(١) في المحرر الوجيز ٢/ ٥١٣ ، وما قبله منه.

(٢) الكشاف للزمخشري ٢/ ١٥٠ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٣ .

يُفكِّرون فيه، فَهُم بمنزلة مَن لم يَسمَعْ وأعرضَ عن الحقِّ. نهى المؤمنين أنْ يكونوا مِثْلَهم[١].

فدلَّت الآيةُ على أنَّ قول المؤمن: سمعتُ وأطعتُ؛ لا فائدةَ له[٢] ما لم يَظْهر أثرُ ذلك عليه بامتثال فِعْله. فإذا قَصَّر في الأوامر فلم يَأْتِها، واعتمدَ النواهيَ فاقتحمَها، فأيُّ سَمْعٍ عنده، وأيُّ طاعة؟! وإنَّما يكون حينئذٍ بمنزلة المنافق الذي يُظهِر الإيمان، ويُسِرُّ الكُفرَ؛ وذلك هو المُراد بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾. يعني بذلكَ المنافقين[٣]، أو اليهود أو المشركين، على ما تقدّم.

ثمَّ أخبر تعالى أنَّ الكفارَ شرُّ ما دبَّ على الأرض. وفي البخاري[٤] عن ابن عباس: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قال: هم نَفَرٌ من بني عبد الدَّار. والأصلُ: أشرُّ، حُذِفت الهمزةُ لِكَثْرة الاستعمال. وكذا: خير، الأصل: أخيَرُ[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ قيل: الحُجَج والبراهين؛ إسماعَ تَفَهُّم. ولكنْ سبقَ عِلْمُه بشقاوتهم. ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي: لو أفهمَهم لَمَا آمنوا بعد عِلْمِه الأزَليِّ بكفرهم. وقيل: المعنى: لأسمعَهم كلامَ الموتى الذين طلبوا إحياءهم؛ لأنَّهم طلبوا إحياءَ قُصَيِّ بنِ كلاب وغيره لِيشهدوا بنبوَّة محمد ﷺ.

الزجاج[٦]: لأسمعَهم جوابَ كلِّ ما سألوا عنه .﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٣ .

(٢) في (م): فيه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٣٤ .

(٤) الحديث (٤٦٤٦).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٣ .

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٣٠٧ ، وما قبله منه.

إذْ سبقَ في علمه أنَّهم لا يؤمنون.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ هذا خطاب للمؤمنين المصدِّقين بلا خلاف[1]. والاستجابة: الإجابة. و﴿يُحۡيِيكُمۡ﴾ أصله: يُحْيِيُكُم، حُذفت الضمةُ من الياء لثقلها، ولا يجوز الإدغام[2].

قال أبو عبيدة[3]: معنى «اسْتَجِيبُوا»: أجيبوا، ولكنْ عُرْفُ الكلام أنْ يتعدَّى «استجاب» بلام، ويتعدَّى «أجاب» دون لام. قال الله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١]. وقد يتعدَّى «استجاب» بغير لام، والشاهد له قول الشاعر:

وداعٍ دعا يا مَنْ يُجيب إلى النَّدَى فلم يَستجِبْهُ عند ذاك مُجيبُ[4]

تقول: أجابه وأجاب عن سؤاله. والمصدر: الإجابة. والاسم: الجابة؛ بمنزلة الطاقة والطاعة. تقول: أساء سَمْعاً فأساء جابة[5]. هكذا يُتَكلَّم بهذا الحرف. والمجاوبة والتجاوب: التحاور. وتقول: إنه لَحَسن الجِيبة (بالكسر) أي: الجواب[6].

﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ متعلق بقوله: «استجيبوا». المعنى: استجيبوا لِما يحييكم إذا

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٣.

(٣) في مجاز القرآن ١/ ٢٤٥.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٤. والبيت نسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٢٤٥، والجوهري في الصحاح (جوب) لكعب بن سعد الغنوي، وهو في الأصمعيات ص٩٦.

(٥) قال في اللسان (جوب): أصل هذا المثل أنه كان لسهل بن عمرو ابنٌ مضعوف، فقال له إنسان: أين أمُّكَ؟ - أي: أين قصدُكَ؟ فظنَّ أنه يقول له: أين أُمُّكَ - فقال: ذهبت تشتري دقيقاً، فقال أبوه: أساء سمعاً فأساء جابة.

(٦) الصحاح (جوب).

دعاكم. وقيل: اللام بمعنى: إلى، أي: إلى ما يحييكم، أي: يُحيِي دينكم ويعلمكم. وقيل: أي: إلى ما يحيي به قلوبكم فتوحِّدوه. وهذا إحياء مستعار؛ لأنه من موت الكفر والجهل.

وقال مجاهد والجمهور: المعنى: استجيبوا للطاعةِ وما تضمَّنه القرآنُ من أوامرَ ونواهٍ[١]؛ ففيه الحياة الأبدية، والنعمة السرمدِية. وقيل: المراد بقوله: «لِما يحيِيكم»: الجهادُ، فإنه سبب الحياة في الظاهر؛ لأنَّ العدوَّ إذا لم يُغزَ؛ غَزا، وفي غَزْوِه الموتُ، والموتُ في الجهاد الحياةُ الأبدية؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. والصحيحُ العمومُ؛ كما قال الجمهور.

الثانية: رَوَى البخارِيُّ عن أبي سعيد بن المُعَلَّى قال: كنتُ أُصلِّي في المسجد، فدعاني رسولُ الله ﷺ فلم أُجِبْهُ، ثم أتيتُه فقلت: يا رسول الله، إني كنتُ أُصلِّي. فقال: «أَلَمْ يَقُلِ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾». وذكر الحديث. وقد تقدَّم في الفاتحة[٢]. وقال الشافعيُّ رحمه الله: هذا دليلٌ على أنَّ الفعلَ الفرضَ أو القولَ الفرضَ إذا أتِيَ به في الصلاة لا تبطل؛ لأمرِ رسولِ الله ﷺ بالإجابة؛ وإن كان في الصلاة[٣].

قلت: وفيه حجَّةٌ لقول الأوزاعي: لو أنَّ رجلاً يصلِّي، فأبصر غلاماً يريد أن يسقطَ في بئر، فصاح به، وانصرف إليه، وانتهره؛ لم يكن بذلك بأس[٤]. والله أعلم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ قيل: إنه يقتضي النصَّ منه على خَلْقِه تعالى الكفرَ والإيمانَ، فيَحُولُ بين المرء الكافر وبين الإيمان

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٤.

(٢) صحيح البخاري (٤٤٧٦). وهو في مسند أحمد (١٥٧٣٠)، وسلف ١/ ١٦٧.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٣٥.

(٤) ذكره ابن عبد البر في التمهيد ١/ ٣٤٩.

الذي أمره به، فلا يكتسبُه إذا لم يُقْدِرْه عليه؛ بل أَقْدَرَه على ضِدِّه؛ وهو الكفر. وهكذا المؤمن يحولُ بينه وبين الكفر.

فبَانَ بهذا النصِّ أنه تعالى خالقٌ لجميعِ اكتسابِ العباد خيرِها وشرِّها. وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «لا ومُقَلِّبِ القلوب»(١). وكان فِعْلُ اللهِ تعالى ذلك عدلاً فيمن أضلَّه وخذَلَه؛ إذ لم يمنعْهم حقًّا وجب عليه فتزول صفةُ العدل، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضَّلَ به عليهم، لا ما وجب لهم.

قال السُّدِّي: يحول بين المرء وقلبه، فلا يستطيع أن يؤمنَ إلا بإذنه، ولا يكفرَ أيضاً إلا بإذنه، أي: بمشيئته. والقلبُ موضعُ الفِكْر(٢). وقد تقدَّم في «البقرة» بيانُه(٣). وهو بيدِ الله، متى شاء حالَ بين العبد وبينه بمرضٍ أو آفةٍ كيلا يعقل، أي: بادِروا إلى الاستجابةِ قبل ألَّا تتمكَّنوا منها بزوال العقل.

وقال مجاهد: المعنى: يحول بين المرء وعقله حتى لا يدري ما يصنع(٤). وفي التنزيل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] أي: عقل. وقيل: يحول بينه وبينه بالموت، فلا يُمكنه استدراكُ ما فات.

وقيل: خاف المسلمون يوم بَدْر كثرة العدوِّ، فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه، بأن يبدِّلَهم بعد الخوف أمْناً، ويبدِّل عدوَّهم من الأمن خوفاً(٥). وقيل: المعنى يقلِّبُ الأمورَ من حالٍ إلى حال. وهذا جامع.

واختيار الطبري(٦): أن يكون ذلك إخباراً من الله عزَّ وجلَّ بأنه أملكُ لقلوب

---

(١) أخرجه أحمد (٤٧٨٨)، والبخاري (٦٦١٧) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. قال: كانت يمين النبيِّ ﷺ التي يحلفُ عليها: «لا ومقلِّبِ القلوب».

(٢) أخرجه الطبري ١١/ ١١١ .

(٣) ١/ ٢٨٥ .

(٤) أخرجه الطبري ١١/ ١١٠ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٥ .

(٦) في تفسيره ١١/ ١١٢ .

العباد منهم، وأنه يحولُ بينهم وبينها إذا شاء؛ حتى لا يدرك الإنسانُ شيئاً إلا بمشيئة الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ عطف. قال الفرَّاء[١]: ولو استأنفت فكسرت: «وإنه» كان صواباً.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قال ابن عباس: أمر اللهُ المؤمنين ألّا يُقِرُّوا المنكَر بين أظهرهم، فيعمّهم العذابُ[٢]. وكذلك تأوّل فيها الزبيرُ بنُ العوَّام فإنه قال يومَ الجمل، وكان سنة ست وثلاثين: ما علمتُ أنَّا أُرِدنا بهذه الآية إلا اليوم، وما كنتُ أظنُّها إلا فيمن خوطب ذلك الوقت[٣]. وكذلك تأوَّل الحسنُ البصري والسُّدِّي وغيرُهما؛ قال السدِّي: نزلت الآية في أهل بدرٍ خاصَّة، فأصابتهم الفتنةُ يومَ الجمل فاقتتلوا[٤].

وقال ابن عباس ﷺ: نزلت هذه الآية في أصحاب رسول الله ﷺ، وقال: أَمَر اللهُ المؤمنين ألا يُقِرُّوا المنكر فيما بينهم، فيعمَّهم الله بالعذاب.

وعن حُذيفةَ بنِ اليَمَان قال: قال رسول الله ﷺ : «يكون بين ناسٍ من أصحابي فتنةٌ؛ يغفرُها اللهُ لهم بصحبتهم إيّاي، يستنُّ بهم فيها ناسٌ بعدَهم يُدخلُهم اللهُ بها النارَ»[٥].

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٤٠٧ . ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٣ .

(٢) أخرجه الطبري ١١/ ١١٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٥ . وأخرج نحوه أحمد (١٤٣٨)، والنسائي في الكبرى (١١١٤٢).

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٥ . وأخرج ابن أبي شيبة ١٥/ ٢٧٦ و ٢٧٧ ، والطبري ١١/ ١١٣ - ١١٤ و ١١٥ قول الحسن والسدي.

(٥) أخرج نحوه الطبراني في الأوسط (٣٢٤٣). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٣٤ : فيه إبراهيم بن أبي الفياض؛ قال ابن يونس: يروي عن أشهب مناكير.

قلت: وهذه التأويلات هي التي تعضدها الأحاديث الصحيحة؛ ففي صحيح مسلم عن زينب بنت جحش أنها سألت رسولَ الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله، أَنَهْلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: «نَعَم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ»[1]. وفي صحيح الترمذيِّ: «إنَّ الناسَ إذا رَأَوُا الظَّالمَ ولم يأخذوا على يديه أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بعِقابٍ مِنْ عندهِ»[2]. وقد تقدَّمت هذه الأحاديث[3].

وفي صحيح البخاريِّ والترمذيِّ: عن النعمان بن بشير، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَثَلُ القائمِ على حدود الله والواقعِ فيها، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا على سفينةٍ، فأصابَ بعضُهم أعلاها، وبعضُهم أسفلَها، فكان الذين في أَسفلِها إذا اسْتَقَوْا من الماء مَرُّوا على مَنْ فَوقَهم، فقالوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنا في نَصِيبنا خَرْقاً ولم نُؤْذِ مَنْ فوقَنا. فإنْ يَتركوهم وما أرادوا؛ هلكوا جميعاً، وإنْ أَخذوا على أَيْدِيهم؛ نَجَوْا ونَجَوْا جميعاً»[4]. ففي هذا الحديث تعذيبُ العامَّة بذنوب الخاصَّة، وفيه استحقاقُ العقوبةِ بتركِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال علماؤنا: فالفتنة إذا عُملتْ هَلَكَ الكلُّ، وذلك عند ظهور المعاصي وانتشارِ المنكر وعدمِ التغيير، وإذا لم تُغيَّر وجب على المؤمنين المنكِرين لها بقلوبهم هِجرانُ تلك البلدة والهرب منها. وهكذا كان الحكم فيمن كان قبلنا من الأمم؛ كما في قِصَّة السَّبْت حين هجروا العاصين وقالوا: لا نُساكِنُكم[5].

وبهذا قال السلف ﷺ؛ رَوَى ابنُ وهب عن مالك أنه قال: تُهجر الأرضُ التي يُصنع فيها المنكر جِهاراً، ولا يُستقرُّ فيها[6]. واحتجَّ بصنيع أبي الدَّرداء في خروجه

(١) صحيح مسلم (٢٨٨٠). وأخرجه أيضاً أحمد (٢٧٤١٣)، والبخاري (٣٣٤٦).

(٢) في قوله: صحيح الترمذي، تجوّز، وهو في سننه (٢١٦٨) عن أبي بكر الصديق ﷺ. وأخرجه أيضاً أبو داود (٤٣٣٨)، وبنحوه أخرجه أحمد (١)، وابن ماجه (٤٠٠٥). قال الترمذي: حديث صحيح.

(٣) ٣/ ٣٨٦ ، ٧/ ١٥٧ .

(٤) صحيح البخاري (٢٤٩٣)، وسنن الترمذي (٢١٧٣). وهو في مسند أحمد (١٨٣٦١).

(٥) تقدم ٢/ ١٧٠ .

(٦) ذكره ابن حجر في فتح الباري ١٣/ ١٠ .

عن أرض معاوية حين أعلن بالرِّبا؛ فأجاز بيعَ سِقاية الذهبِ بأكثرَ من وزنها. خرَّجه الصحيح[1].

ورَوَى البخاريُّ عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أنزلَ اللهُ بقوم عذاباً، أصابَ العذابُ مَنْ كان فيهم، ثم بُعِثوا على أعمالهم»[2]. فهذا يدلُّ على أنَّ الهلاكَ العامَّ؛ منه ما يكون طُهرة للمؤمنين، ومنه ما يكون نِقمة للفاسقين. ورَوَى مسلم عن عبد الله بن الزبير، أنَّ عائشةَ رضي الله عنها قالت: عَبِثَ رسولُ الله ﷺ في منامه، فقلت: يا رسولَ الله، صنعتَ شيئاً في منامكَ لم تكن تفعلُه؟ فقال: «العَجَبُ، إنَّ ناساً من أُمَّتي يَؤُمُّون هذا البيتَ برجلٍ من قريش، قد لجأ بالبيت، حتى إذا كانوا بالبيداءِ خُسِفَ بهم». فقلنا: يا رسولَ الله، إنَّ الطريقَ قد يَجمعُ الناسَ. قال: «نعم، فيهم المُسْتَبْصِرُ والمجبورُ وابنُ السبيلِ، يهلكون مَهلكاً واحداً، ويَصدُرون مصادرَ شتَّى، يبعثُهم اللهُ تعالى على نِيَّاتهم»[3].

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وهذا يوجب ألَّا يؤخذ أحدٌ بذنب أحد، وإنما تتعلق العقوبةُ بصاحب الذنب.

فالجواب: أنَّ الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمِنَ الفرضِ على كلِّ مَنْ رآه أن يغيِّره، فإذا سكت عليه؛ فكلُّهم عاصٍ؛ هذا بفعله، وهذا برضاه. وقد جعل الله في حُكمه

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٦٣٤ من حديث عطاء بن يسار عن أبي الدرداء. قال ابن عبد البر في التمهيد ٤/ ٧١ - ٧٢: عطاء لا أحفظ له سماعاً من أبي الدرداء... ولم يشهد هذه القصة...، وأنكرها بعضهم لأن شبيهاً بهذه القصة عرضت لمعاوية مع عبادة بن الصامت، وهي صحيحة مشهورة محفوظة لعبادة مع معاوية. وسلف الخبر ٤/ ٣٨٤ - ٣٨٥.

(٢) صحيح البخاري (٧١٠٨). وأخرجه أيضاً أحمد (٥٨٩٠)، ومسلم (٢٨٧٩).

(٣) صحيح مسلم (٢٨٨٤). وهو بنحوه في مسند أحمد (٢٤٧٣٨). وقوله: «عَبِثَ» أي: اضطرب بجسمه، وقيل: حرَّك أطرافه كمن يأخذ شيئاً أو يدفعه. و«المستبصر»: المستبين لذلك القاصد له عمداً. و«المجبور»: المكره. و«ابن السبيل»: سالك الطريق معهم وليس منهم. و«يصدرون»: يبعثون. شرح النووي على صحيح مسلم ١٨/ ٦ - ٧.

وحِكمته الراضي بمنزلة العامل؛ فانتظم في العقوبة؛ قاله ابن العربيّ[١]، وهو مضمون الأحاديث كما ذكرنا. ومقصود الآية: واتقوا فِتنة تتعدَّى الظالم، فتصيب الصالح والطالح.

الثانية: واختلف النحاة في دخول النون في «لَا تُصِيبَنَّ»؛ فقال الفراء: هو بمنزلة قولك: انزلْ عن الدابَّة لا تطرحنَّك؛ فهو جوابُ الأمر بلفظِ النهي، أي: إنْ تنزل عنها لا تطرحنَّك، ومثله قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ [النمل: ١٨] أي: إنْ تدخلوا لا يحطمنكم؛ فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء[٢].

وقيل: لأنه خرج مخرج القَسَم، والنون لا تدخل إلا على فعل النهي أو جواب القَسَم[٣].

وقال أبو العباس المبرِّد: إنه نهيٌ بعد أمر، والمعنى النَّهْيُ للظالمين، أي: لا تقربنَّ الظلم. وحكى سيبويه: لا أرينَّك هاهنا، أي: لا تكن هاهنا، فإنه مَن كان هاهنا رأيتُه[٤].

وقال الجُرْجانِيُّ: المعنى: اتقوا فتنة تصيب الذين ظلموا خاصة، فقوله: «لَا تُصِيبَنّ» نهيٌ في موضع وصفِ النكرة، وتأويلُه الإخبارُ بإصابتها الذين ظلموا.

وقرأ عليٌّ وزيدُ بن ثابت وأُبَيٌّ وابنُ مسعود: «لَتصيبن» بلا ألف[٥]. قال المَهدَوِيُّ: مَن قرأ: «لَتصيبن» جاز أن يكون مقصوراً من: «لا تصيبن» حُذفت الألفُ كما حُذفت من «ما» وهي أخت «لا» في نحو: أمَ والله لأفعلنَّ، وشبهه[٦]. ويجوز أن تكون مخالفة لقراءة الجماعة، فيكون المعنى أنها تصيب الظالم خاصَّة.

---

(١) في أحكام القرآن ٢/ ٨٣٦ .

(٢) ذكر نحوه الفراء في معاني القرآن ١/ ٤٠٧ مختصراً. وينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤١١ .

(٣) ذكر نحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥١٥ ونسبه للمهدوي.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٦ .

(٥) القراءات الشاذة ص٤٩ ، والمحتسب ١/ ٢٧٧ .

(٦) المحتسب ١/ ٢٧٧ ، والدر المصون ٥/ ٥٩٢ .

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ قال الكَلْبي: نزلت في المهاجرين؛ يعني وصف حالهم قبل الهجرة وفي ابتداء الإسلام. ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ نعت. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرض مكة. ﴿تَخَافُونَ﴾ نعت. ﴿أَن يَتَخَطَّفَكُمُ﴾ في موضع نصب[١]. والخطف: الأخذ بسرعة. ﴿النَّاسُ﴾ رفع على الفاعل.

قَتادة وعِكرمة: هم مشركو قريش. وهب بن منبِّه: فارس والرُّوم. ﴿فَآوَاكُمْ﴾ قال ابن عباس: إلى الأنصار. السُّدِّي: إلى المدينة؛ والمعنى واحد[٢].

آوَى إليه؛ بالمد: ضَمَّ إليه. وأوَى إليه؛ بالقصر: انضمَّ إليه.

﴿وَأَيَّدَكُم﴾: قوَّاكم. ﴿بِنَصْرِهِ﴾ أي: بقوته[٣]. وقيل: بالأنصار. وقيل: بالملائكة يوم بدر. ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: الغنائم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قد تقدَّم معناه[٤].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾

رُويَ أنها نزلت في أبي لُبابة بن عبد المنذر حين أشار إلى بني قُريظة بالذبح. قال أبو لُبابة: والله ما زالت قدماي حتى علمتُ أني قد خنتُ اللهَ ورسولَه؛ فنزلت هذه الآية. فلما نزلت شدَّ نفسَه إلى سارية من سواري المسجد، وقال: والله لا أذوقُ طعاماً ولا شراباً حتى أموتَ، أو يتوبَ اللهُ عليَّ. الخبر مشهور[٥].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٤ .

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري ١١/١١٨ - ١٢٠ .

(٣) في (ظ): تقوية. وفي (م): بعونه.

(٤) ٢/ ١٠٤ .

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ١١/ ١٢١ ، وفي تاريخه ٢/ ٥٨٤ - ٥٨٥ ، وذكره ابن هشام في السيرة ٢/ ٢٣٦ - ٢٣٧ .

وعن عكرمة قال: لما كان شأن قريظة بعثَ النبيُّ ﷺ عليًّا ﷺ فيمن كان عنده من الناس، فلما انتهى إليهم؛ وقَعُوا في رسول الله ﷺ، وجاء جبريل عليه السلام على فرس أبلق، فقالت عائشة رضي الله عنها: فلكأنّي أنظرُ إلى رسول الله ﷺ يمسح الغبار عن وجه جبريل عليه السلام، فقلت: هذا دِحية يا رسولَ الله؟ فقال: «هذا جبريل عليه السلام». قال: «يا رسول الله، ما يمنعك من بني قُريظةَ أن تأتيَهم؟» فقال رسولُ الله ﷺ: «فكيف لي بحصنهم؟» فقال جبريل: «فإني أُدخل فرسي هذا عليهم». فركب رسولُ الله ﷺ فرساً مُعْرَوْرًى؛ فلما رآه عليٌّ ﷺ قال: يا رسول الله، لا عليك ألّا تأتيهم، فإنهم يشتمونك. فقال: «كلّا، إنها ستكون تحية». فأتاهم النبيُّ ﷺ فقال: «يا إخوةَ القِرَدة والخنازير» فقالوا: يا أبا القاسم، ما كنت فحّاشاً. فقالوا: لا ننزل على حكم محمد، ولكنّا ننزل على حكم سعد بن معاذ؛ فنزل. فحكم فيهم أن تُقتل مقاتِلتُهم وتُسْبَى ذراريهم. فقال رسول الله ﷺ: «بذلك طَرَقني المَلَكُ سَحَراً». فنزل فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. نزلت في أبي لُبابةَ، أشار إلى بني قُريظة - حين قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ - لا تفعلوا، فإنه الذبح، وأشار إلى حلقه(١).

وقيل: نزلت الآيةُ في أنهم كانوا يسمعون الشيءَ من النبيِّ ﷺ، فيُلقونه إلى المشركين ويُفشونه(٢).

وقيل: المعنى بغلول الغنائم. ونسبتها إلى الله؛ لأنه هو(٣) الذي أمرَ بقسمتها، وإلى الرسول ﷺ؛ لأنه المؤدّي عن الله عزَّ وجلَّ والقيِّمُ بها(٤).

والخيانة: الغدر وإخفاء الشيء، ومنه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ وكان عليه الصلاة والسلام يقول: «اللهم إني أعوذُ بكَ منَ الجُوعِ، فإنه بِئْسَ الضَّجِيعِ، ومنَ الخيانةِ،

---

(١) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٣/ ١٧٨ وينظر حديث عائشة رضي الله عنها في مسند أحمد (٢٥٠٩٧). والمُعْرَوْر: لا سَرْج عليه ولا غيره. النهاية (عرا).

(٢) أخرجه الطبري ١١/ ١٢٣ عن السدي.

(٣) لفظ: (هو) من (ظ).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٤ .

فإنها بئستِ البِطانة». أخرَّجه النسائيُّ عن أبي هريرة قال: كان رسولُ الله ﷺ يقول...؛ فذكره[١].

﴿وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾ في موضع جزم، نسقاً على الأوَّل. وقد يكون على الجواب، كما يقال: لا تأكلِ السمكَ وتشربَ اللبن[٢].

والأمانات: الأعمال التي ائتمن اللهُ عليها العبادَ[٣]، وسُميت أمانة لأنها يُؤمَنُ معها من منعِ الحقّ؛ مأخوذةٌ من الأمْن. وقد تقدَّم في «النساء» القولُ في أداء الأمانات والودائع وغير ذلك[٤].

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي ما في الخيانة من القُبح والعار. وقيل: تعلمون أنها أمانة.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ كان لأبي لبابة أموالٌ وأولادٌ في بني قُريظة؛ وهو الذي حَملَه على ملاينتهم[٥]، فهذا إشارةٌ إلى ذلك. ﴿فِتْنَةٌ﴾ أي: اختبار؛ امتحنهم بها. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فآثِرُوا حقَّه على حقِّكم.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩﴾

قد تقدَّم معنى «التقوى[٦]». وكان الله عالماً بأنهم يتقون أم لا يتقون، فذكر بلفظ

---

(١) سنن النسائي المجتبى ٨/ ٢٦٣ ، والكبرى (٧٨٥١) و(٧٨٥٢). وأخرجه أيضاً أبو داود (١٥٤٧)، وابن ماجه (٣٣٥٤).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٤ .

(٣) تفسير الطبري ١١/ ١٢٥ .

(٤) تقدم ٦/ ٤٢٣ .

(٥) تفسير الواحدي ٢/ ٤٥٤ .

(٦) ١/ ٢٤٨ .

الشرط؛ لأنه خاطب العبادَ بما يخاطِب بعضُهم بعضاً. فإذا اتقى العبدُ ربَّه ـ وذلك باتِّباع أوامره، واجتنابِ نواهيه ـ وتركَ الشبهاتِ مخافةَ الوقوعِ في المحرَّمات، وشحنَ قلبَه بالنية الخالصة، وجوارحَه بالأعمال الصالحة، وتحفَّظ من شوائب الشرك الخَفِيِّ والظاهِر بمراعاة غير الله في الأعمال، والركون إلى الدنيا بالغفلة[١] عن المال، جعل له بين الحقِّ والباطل فرقاناً، ورزقَه فيما يريد من الخير إمكاناً. قال ابن وهب: سألتُ مالكاً عن قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ قال: مخرجاً، ثم قرأ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾. وحكى ابن القاسم وأشهب عن مالك مثله سواء[٢]، وقاله مجاهد قبله[٣].

وقال الشاعر:

مَا لَكَ مِن طُولِ الأَسَى فُرقانُ بعدَ قَطِينٍ رَحلُوا وبانُوا

وقال آخر:

وكيف أُرَجِّي الخلدَ والموتُ طالبي وما ليَ من كأسِ المنيةِ فرقانُ[٤]

ابن إسحاق: «فُرْقَاناً»: فَصْلاً بين الحق والباطل[٥]؛ وقاله ابن زيد[٦]. السديّ: نجاة[٧]. الفرَّاء[٨]: فتحاً ونصراً. وقيل: في الآخرة، فيدخلُكم الجنةَ، ويُدخلُ الكفارَ النار.

---

(١) في (م): بالعفة.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٣٩.

(٣) أخرجه الطبري ١١/ ١٢٨.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٨.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٣٩. وأخرجه الطبري ١١/ ١٣١.

(٦) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٣٤٦.

(٧) أخرجه الطبري ١١/ ١٣٠.

(٨) في معاني القرآن له ١/ ٤٠٨.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

هذا إخبارٌ بما اجتمع عليه المشركون من المكر بالنبيِّ ﷺ في دار النَّدْوة؛ فاجتمع رأيُهم على قتله، فبيَّتوه، ورصدوه على باب منزله طول ليلتهم ليقتلوه إذا خرج، فأمر النبيُّ ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب أن ينامَ على فراشه، ودعا الله عزَّ وجلَّ أن يُعمِّيَ عليهم أثرَه، فطمسَ اللهُ على أبصارهم، فخرج وقد غَشِيَهم النومُ، فوضع على رؤوسهم تراباً ونهض. فلما أصبحوا خرج عليهم عليٌّ فأخبرهم أنْ ليس في الدار أحدٌ، فعلموا أنَّ رسولَ الله ﷺ قد فاتَ ونجا[١]. الخبر مشهور في السيرة وغيرها[٢].

ومعنى «لِيُثْبِتُوكَ»: ليحبسوك؛ يقال: أثبتّه: إذا حبستَه. وقال قتادة: «لِيُثْبِتُوكَ» وَثَاقاً. وعنه أيضاً وعبدِ الله بن كَثير: لِيسجنوك[٣].

وقال أَبان بن تَغْلِب وأبو حاتم: لِيثخنوك بالجراحات والضرب الشديد. قال الشاعر:

فقلتُ ويحكما ما في صحيفتكم   قالوا الخليفةُ أمسى مُثبَتاً وَجِعا[٤]

﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ عطف. ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ مستأنف. والمكر: التدبير في الأمر في خفية. ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ ابتداء وخبر. والمكر من الله هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون[٥].

---

(١) الدرر لابن عبد البر ص٧٣ - ٧٤.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٨١ - ٤٨٢.

(٣) تفسير الطبري ١١/ ١٣٢ - ١٣٣.

(٤) مجمع البيان للطبرسي ٩/ ١٣٧. ونسب البيت في الأغاني ١٧/ ٢١٢ لمعاوية بن يزيد، وهو في ديوانه ص١٢. وفيه: قلنا لك الويل ماذا في صحيفتكم. وفي مجمع البيان: فقلت ويحك ماذا في صحيفتكم.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٤ - ١٨٥.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾

نزلت في النَّضر بن الحارث؛ كان خرج إلى الحِيرة في التجارة، فاشترى أحاديث كَلِيلة ودِمنة، وكِسرى وقيصر؛ فلما قصَّ رسول الله ﷺ أخبارَ مَنْ مَضَى قال النضر: لو شئتُ لقلتُ مثلَ هذا. وكان هذا وَقَاحةً وكذِباً[١].

وقيل: إنهم توهَّموا أنهم يأتون بمثله، كما توهَّمت سحرةُ موسى، ثم راموا ذلك فعجزوا عنه، وقالوا عِناداً: إنْ هذا إلا أساطير الأوَّلين. وقد تقدَّم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

القراءة[٣] على نصب «الحَقّ» على خبر «كان»، ودخلت «هو» للفصل. ويجوز: «هو الحقُّ» ـ بالرفع ـ «مِنْ عِنْدِكَ»[٤]. قال الزجاج[٥]: ولا أعلمُ أحداً قرأ بها، ولا اختلافَ بين النحويين في إجازتها، ولكن القراءةَ سُنَّة، لا يُقرأ فيها إلا بقراءة مَرْوِيَّة[٦].

واختلف فيمن قال هذه المقالة؛ فقال مجاهد وابن جُبير: قائل هذا هو النضر بن الحارث[٧].

أنس بن مالك: قائلُه أبو جهل؛ رواه البخاريُّ ومسلم[٨].

(١) تفسير الواحدي ٢/ ٤٥٥، والطبري ١١/ ١٤٢ - ١٤٣.
(٢) ٨/ ٣٤٦.
(٣) في (م): القراء.
(٤) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٩ للأعمش.
(٥) في معاني القرآن ٢/ ٤١١، وما قبله منه.
(٦) في النسخ: مرضية. والمثبت من معاني القرآن.
(٧) أخرجه الطبري ١١/ ١٤٤.
(٨) صحيح البخاري (٤٦٤٨) و(٤٦٤٩)، وصحيح مسلم (٢٧٩٦).

ثم يجوز أن يقال: قالوه لشبهة كانت في صدورهم، أو على وجه العِناد والإيهام[١] على الناس أنهم على بصيرة، ثم حلَّ بهم يوم بدر ما سألوا.

حُكي أنَّ ابن عباس لَقِيَه رجلٌ من اليهود، فقال اليهوديُّ: ممن أنت؟ قال: من قريش. فقال: أنت من القوم الذين قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية. فهلّا عليهم أن يقولوا: إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فاهدنا له! إنَّ هؤلاء قوم يجهلون. قال ابن عباس: وأنت يا إسرائيليُّ، مَن القوم الذين لم تَجِفَّ أرجلُهم من بلل البحر الذي أُغرق فيه فرعون وقومُه، وأُنجيَ موسى وقومُه؛ حتى قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ فقال لهم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، فأطرق اليهوديُّ مُفحَماً[٢].

﴿فَأَمْطِرْ﴾ أمطرَ في العذاب. ومَطَرَ في الرحمة؛ عن أبي عبيدة[٣]. وقد تقدَّم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

لمَّا قال أبو جهل: «اللَّهُمّ إن كان هذا هو الحقَّ مِن عِندِك» الآية، نزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ كذا في صحيح مسلم[٥].

وقال ابن عباس: لم يعذب أهل قرية حتى يخرج النبيُّ منها والمؤمنون؛ ويَلحقوا بحيث أُمِروا[٦].

---

(١) في (م): والإبهام.

(٢) المفهم ٧/ ٣٤٧.

(٣) مجاز القرآن ١/ ٢٤٥. ونقل عنه المصنف بواسطة المحرر الوجيز ٢/ ٥٢١.

(٤) لم نقف عليه، وذكره عند تفسير الآية (٨٢) من سورة هود.

(٥) (٢٧٩٦) وهو عند البخاري، وسلف قريباً.

(٦) أخرجه الطبري بنحوه ١١/ ١٥٠.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ابن عباس: كانوا يقولون في الطواف: غفرانك[١]. والاستغفار وإنْ وقع من الفُجّار يُدفع به ضربٌ من الشرور والإضرار.

وقيل: إنَّ الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم؛ أي: وما كان الله معذِّبهم وفيهم مَن يستغفر من المسلمين؛ فلما خرجوا عذَّبهم اللهُ يوم بدر وغيره؛ قاله الضحاك وغيره[٢].

وقيل: إنَّ الاستغفار هنا يراد به الإسلام؛ أي: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: يسلمون؛ قاله مجاهد وعكرمة[٣].

وقيل: «وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» أي: في أصلابهم مَن يستغفر الله. رُوي عن مجاهد أيضاً[٤].

وقيل: معنى «يَسْتَغْفِرُونَ»: لو استغفروا، أي: لو استغفروا لم يعذَّبوا، استدعاهم إلى الاستغفار؛ قاله قتادة وابن زيد[٥].

وقال المدائني عن بعض العلماء قال: كان رجل من العرب في زمن النبيِّ ﷺ مُسْرِفاً على نفسه، لم يكن يتحرَّج؛ فلما أن تُوُفِّيَ النبيُّ ﷺ لبس الصوفَ ورجعَ عمَّا كان عليه، وأظهر الدِّينَ والنُّسكَ. فقيل له: لو فعلتَ هذا والنبيُّ ﷺ حيٌّ لَفرِح بكَ. قال: كان لي أمانان، فمضى واحدٌ وبقيَ الآخرُ؛ قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ فهذا أمان. والثاني: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري ١١/١٥١.

(٢) أخرجه الطبري ١١/١٤٨ - ١٤٩.

(٣) أخرجه الطبري ١١/١٥٤ - ١٥٥.

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣/٣٥١.

(٥) أخرجه الطبري ١١/١٥٣ - ١٥٤.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ المعنى: وما يمنعهم من أن يُعذَّبوا[(١)]. أي: إنهم مستحقُّون العذابَ لِمَا ارتكبوا من القبائح والأسباب، ولكنْ لكلِّ أجلٍ كتاب، فعذَّبهم الله بالسيف بعد خروج النبيِّ ﷺ، وفي ذلك نزلت: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١][(٢)].

وقال الأخفش[(٣)]: إنَّ «أنْ» زائدة. قال النحاس[(٤)]: لو كان كما قال لرفع «يعذبهم». ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنَّ المتقين أولياؤه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قال ابن عباس: كانت قريش تطوف بالبيت عُراة، يصفِّقون ويصفِّرون؛ فكان ذلك عبادة في ظنِّهم[(٥)].

والمُكَاءُ: الصَّفير، والتصديةُ: التصفيق؛ قاله مجاهد والسُّدِّيُّ وابنُ عمر ﷺ[(٦)].

ومنه قول عنترة:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٥ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ١٤٩ .

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٥٤٥ .

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ١٨٥ . وعنه نقل المصنف قول الأخفش.

(٥) أخرجه بنحوه الطبري في تفسيره ١١/ ١٦٤ .

(٦) أخرج هذه الأقوال الطبري ١١/ ١٦٣ - ١٦٥ .

وحَليلِ غانيةٍ تركتُ مُجَدَّلاً تَمْكُو فَرِيصتُه كشِدْقِ الأعْلِم[(١)]

أي: تصوّت. ومنه: مكَتِ استُ الدابة: إذا نَفخت بالريح.

قال السُّدِّي: المُكاء: الصفير، على لحن طائر أبيض بالحجاز يقال له: المُكاء[(٢)].

قال الشاعر:

إذا غَرَّدَ المُكَّاء في غير رَوْضةٍ فوَيْلٌ لأهل الشَّاءِ والحُمُراتِ[(٣)]

قتادة: المُكَاء: ضربٌ بالأيدي، والتّصدية: صياح[(٤)]. وعلى التفسيرين ففيه ردٌّ على الجهّال من الصوفية الذين يَرقُصون ويُصَفّقون ويصعقون. وذلك كلُّه منكر يتنزَّه عن مثله العقلاء، ويتشبَّه فاعله بالمشركين فيما كانوا يفعلونه عند البيت.

ورَوَى ابنُ جُريج وابنُ أبي نَجيح عن مجاهد أنه قال: المُكَاءُ: إدخالُهم أصابعَهم في أفواههم، والتَّصديةُ: الصَّفِير، يريدون أن يشغلوا بذلك محمداً ﷺ عن الصلاة[(٥)]. قال النحاس[(٦)]: المعروف في اللغة ما رُوي عن ابن عمر. حكى أبو عبيد[(٧)] وغيره أنه يقال: مَكَا يَمْكُو مَكْواً ومُكاء: إذا صَفَّر. وصَدَّى يُصدِّي تصدية: إذا صفَّق[(٨)]؛ ومنه قول عمرو بن الإطنابة[(٩)]:

---

(١) ديوان عنترة ص٢٤ . الحليل: الزوج. والغانية: الزوجة التي غنيت بزوجها، أو التي غنيت بحُسنها وجمالها. والمجدّل: الملقى بالجَدالة، وهي الأرض. والفريصة: اللحم بين الكتف والصدر. والأعلم: مشقوق الشفة العليا. ينظر اللسان (حلل، غنى، جدل، فرص، علم).

(٢) أخرجه الطبري ١١/ ١٦٦ . وفيه: على نحو طائر. . .

(٣) أدب الكاتب ص١٩٣ ، وأمالي القالي ٢/ ٣٢ ، واللسان (مكو).

(٤) تفسير الطبري ١١/ ١٦٦ .

(٥) أخرجه الطبري ١١/ ١٦٥ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ١٥٢ . وما قبله منه.

(٧) في (د) ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ١٥٢ : أبو عبيدة.

(٨) إعجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٤٦ .

(٩) النكت والعيون للماوردي ٢/ ٣١٥ ، قال في اللسان (طنب): ابن الإطنابة: رجل شاعر، والإطنابة أُمُّه، وهي امرأة من بني كنانة بن القيس.. واسم أبيه: زيد مَناة .

وظلُّوا جميعاً لهم ضجَّةٌ مُكاءٌ لدى البيت بالتَّصدِيه

أي: بالتصفيق.

سعيد بنُ جبير وابنُ زيد: معنى التَّصدية: صدُّهم عن البيت[١]؛ فالأصل على هذا تَصْدِدَة، فأبدل من إحدى الدَّالين ياء.

ومعنى ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي: المؤمن من الكافر. وقيل: هو عامٌّ في كلِّ شيء من الأعمال والنفقات وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أُمِرَ النبيُّ ﷺ أن يقول للكفار هذا المعنى، وسواءٌ قاله بهذه العبارة أو غيرها. قال ابن عطية[٢]: ولو كان كما ذَكَر الكسائيُّ أنه في مصحف عبد الله بن مسعود: «قل للذين كفروا إن تنتهوا يغفر لكم»[٣] لَمَا تأدَّت الرسالةُ إلا بتلك الألفاظ بعينها، هذا بحسب ما تقتضيه الألفاظ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِن يَنتَهُوا۟﴾ يريد عن الكفر. قال ابن عطية[٤]: ولابُدَّ، والحامل على ذلك جواب الشرط بـ «يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ»، ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لِمُنْتَهٍ عن الكفر.

ولقد أحسن القائل أبو سعيد أحمد بن محمد الزبيري:

يستوجبُ العفوَ الفتى إذا اعترف ثم انتهى عما أتاه واقترف

(١) تفسير الطبري ١١/ ١٦٧ و ١٦٨ .

(٢) في المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٧ ، وما قبله منه.

(٣) القراءات الشاذة ص٥١ ، والكشاف ٢/ ١٥٧ .

(٤) في المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٧ .

لقوله سبحانه في المعترف إن ينتهوا يُغْفَرْ لهم ما قد سَلَفْ[١]

رَوَى مسلمٌ عن ابن شُمَاسةَ[٢] المَهرِيِّ قال: حضرْنا عمرو بنَ العاص وهو في سِياقةِ الموت، فبكَى[٣] طويلاً. الحديث. وفيه: فقال النبيُّ ﷺ: «أمَا عَلِمْتَ أنَّ الإسلامَ يَهدِمُ ما كان قبلَه، وأنَّ الهِجْرَةَ تَهْدِمُ ما كانَ قَبْلَها، وأنَّ الحجَّ يَهْدِمُ ما كان قبلَه» الحديث[٤].

قال ابنُ العربيِّ[٥]: هذه لطيفةٌ من الله سبحانه مَنَّ بها على الخلق؛ وذلك أنَّ الكفارَ يقتحمون الكفرَ والجرائم، ويرتكبون المعاصيَ والمآثم؛ فلو كان ذلك يوجب مؤاخذةً لهم لما استدركوا أبداً توبةً، ولا نالتهم مغفرةٌ. فيسَّر الله تعالى عليهم قَبولَ التوبةِ عند الإنابة، وبَذْلَ المغفرةِ بالإسلام، وهَدَمَ جميعَ ما تقدم؛ ليكون ذلك أقربَ لدخولهم في الدين، وأدْعَى إلى قبولهم لكلمة المسلمين، ولو عَلِموا أنهم يؤاخَذون لَمَا تابوا ولا أسلموا.

وفي صحيح مسلم: أنَّ رجلاً فيمن كان قبلكم قَتَلَ تسعةً وتسعين نَفْساً، ثم سأل: هل له من توبة؟ فجاء عابداً فسأله: هل له من توبة؟ فقال: لا توبة لك. فقتله، فكَمَّلَ به مئة؛ الحديث[٦].

---

(١) تقدم البيت الأول دون نسبة ٥/ ٣٢٨ . وهو في المستطرف ٢/ ٤١٧ . ونسبه الثعالبي في يتيمة الدهر ٢/ ٣٦٨ إلى عبد المحسن بن محمد الصوري.

(٢) في (خ) و(د) و(ز) و(م): أبي شماسة. وفي (ظ): ابن اسما. وهو خطأ. وابن شماسة ـ بفتح الشين وضمها، كما في المفهم ١/ ٣٢٨ ، وشرح النووي ٢/ ١٣٧ ،وقيّده ابن حجر في تقريب التهذيب بالكسر. واسمه عبد الرحمن.

(٣) في (د) و(م): يبكي. والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) وهو موافق لصحيح مسلم.

(٤) صحيح مسلم (١٢١)، وهو في مسند أحمد (١٧٨٢٧).

(٥) في أحكام القرآن ٢/ ٨٤١ .

(٦) صحيح مسلم (٢٧٦٦) من حديث أبي سعيد الخدري بنحوه. ونقله المصنف عنه بواسطة أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٤٢ ، وفيه: «عالماً» بدل: «عابداً». وأخرجه أيضاً أحمد (١١١٥٤)، والبخاري (٣٤٧٠).

فانظروا إلى قول العابد[١]: لا توبة لك؛ فلمَّا علم أنه قد أيأسه؛ قَتَله، فِعْلَ الآيس من الرحمة. فالتنفيرُ مفسدةٌ للخليقة، والتيسير مصلحة لهم.

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان إذا جاء إليه رجلٌ لم يَقتلْ فسأله: هل لقاتلٍ من توبة؟ فيقول: لا توبة؛ تخويفاً وتحذيراً. فإذا جاءه مَن قَتَل فسأله: هل لقاتل من توبة؟ قال له: لكَ توبة؛ تيسيراً وتأليفاً. وقد تقدَّم.

الثالثة: قال ابنُ القاسم وابنُ وهب عن مالك: من[٢] طَلَّق في الشرك ثم أسلم: فلا طلاق له. وكذلك مَن حلف فأسلم؛ فلا حِنْثَ عليه. وكذا من وجبت عليه هذه الأشياء [ثم أسلم] فذلك مغفور له. فأمّا مَن افترى على مسلم ثم أسلم، أو سَرق ثم أسلم؛ أُقيم عليه الحدُّ للفِرية والسرقة. ولو زنى وأسلم، أو اغتصب مسلمة ثم أسلم؛ سقط عنه الحدُّ.

ورَوَى أشهب عن مالك أنه قال: إنما يعني اللهُ عزَّ وجلَّ ما قد مضَى قبل الإسلام، من مالٍ أو دمٍ أو شيءٍ. قال ابنُ العربيِّ[٣]: وهذا هو الصواب؛ لِمَا قدَّمناه من عموم قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾، وقوله: «الإسلام يهدِم ما كان قبله»[٤]، وما بيَّنَّاه من المعنى من التيسير وعدم التنفير.

قلت: أمّا الكافرُ الحربِيُّ فلا خلاف في إسقاط ما فَعَلَه في حال كفره في دار الحرب. وأمّا إنْ دخل إلينا بأمان فقَذَفَ مسلماً؛ فإنه يُحدُّ، وإنْ سرقَ؛ قُطِع. وكذلك الذِّمِّيُّ إذا قَذَف حُدَّ ثمانين، وإذا سَرق قُطِع، وإنْ قَتَل قُتِل. ولا يُسقط الإسلامُ ذلك عنه لنقضه العهدَ حال كفره؛ على رواية ابن القاسم وغيرِه.

قال ابن المنذر: واختلفوا في النصراني يزنِي ثم يُسلم، وقد شهدت عليه بينة من

---

(١) في أحكام القرآن لابن العربي: العالم.

(٢) في النسخ: فيمن، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي. وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٤٢ ، وما قبله منه.

(٤) سلف في المسألة الثانية.

المسلمين؛ فحُكِي عن الشافعيِّ ﷺ إذ هو بالعراق: لا حدَّ عليه ولا تغريب؛ لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾. قال ابن المنذر: وهذا موافق لما رُوي عن مالك.

وقال أبو ثور: إذا أقرَّ وهو مسلم أنه زَنَى وهو كافر، أُقيم عليه الحدُّ. وحُكيَ عن الكوفي أنه قال: لا يُحدُّ.

الرابعة: فأمّا المرتدُّ إذا أسلم وقد فاتته صلوات، وأصاب جناياتٍ وأتلف أموالاً؛ فقيل: حكمه حكم الكافر الأصلي إذا أسلم؛ لا يؤخذ بشيء مما أحدثه في حال ارتداده.

وقال الشافعيُّ في أحد قوليه: يلزمه كل حقٍّ لله عزَّ وجلَّ وللآدمي؛ بدليل أنَّ حقوقَ الآدميين تلزمه، فوجب أنْ تلزمَه حقوقُ الله تعالى.

وقال أبو حنيفة: ما كان للهِ يسقط، وما كان للآدمي لا يسقط.

قال ابنُ العربيّ(١): وهو قول علمائنا؛ لأنَّ اللهَ تعالى مستغنٍ عن حقِّه، والآدميُّ مفتقر إليه. ألا ترى أنَّ حقوقَ الله عزَّ وجلَّ لا تجب على الصبيِّ، وتلزمُه حقوقُ الآدميين. قالوا: وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ عامٌّ في الحقوق التي لله تعالى.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ يريد: إلى القتال؛ لأنَّ لفظة «عادَ» إذا جاءت مطلقة فإنما تتضمن الرجوعَ إلى حالةٍ كان الإنسان عليها، ثم انتقل عنها. قال ابن عطية(٢): ولسنا نجدُ في هذه الآية لهؤلاء الكفار حالةً تشبه ما ذكرنا إلا القتال. ولا يجوز أنْ يُتأوَّل: إلى الكفر؛ لأنهم لم ينفصلوا عنه، وإنما قلنا ذلك في «عادَ» إذا كانت مطلقة؛ لأنها قد تجيء في كلام العرب داخلة على الابتداء والخبر، فيكون

---

(١) في أحكام القرآن ٢/ ٨٤٢ - ٨٤٣، وما قبله منه.

(٢) في المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٧، وما قبله منه.

معناها معنى صار؛ كما تقول: عاد زيدٌ مَلِكاً؛ تريد: صار. ومنه قول أبي الصلت[١]:

تلك المكارمُ لا قَعْبانِ[٢] من لَبَنٍ شِيبَا بماءٍ فعادا بعدُ أبْوالا

وهذه لا تتضمن الرجوعَ إلى حالة قد كان العائدُ عليها قَبْلُ، فهي مقيدة بخبرها؛ لا يجوز الاقتصار دونه[٣]، فحكمها حكم صار.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عبارةٌ تجمع الوعيدَ والتهديدَ والتمثيلَ بمن هلك من الأمم في سالف الدهر بعذاب الله.

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: كُفْرٌ. إلى آخر الآية تقدَّم معناها وتفسير ألفاظها في «البقرة»[٤] وغيرها، والحمد لله.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾

---

(١) الشعر والشعراء ١/ ٤٦٢، والعقد الفريد ٢/ ٢٤، ومعجم البلدان (غمدان) ٤/ ٢١١. وأبو الصلت هو والد أمية، والبيت أيضاً في ديوان أمية بن أبي الصلت ص١٧٩، وديوان النابغة الجعدي ص١١٢.

(٢) القَعْب: القَدَح الضخم الغليظ الجافي. وقيل: قدح من خشب مقعر. لسان العرب (قعب).

(٣) في النسخ: دونها، والمثبت من المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٧، والكلام منه، إلى آخر تفسير الآية.

(٤) ٣/ ٢٤٦.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾.

فيه ستٌّ وعشرون مسألة(١):

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ الغنيمة في اللغة: ما ينالُه الرجلُ أو الجماعةُ بِسَعْيٍ، ومن ذلك قولُ الشاعر(٢):

وقد طوَّفتُ في الآفاق حتى ... رضيتُ من الغنيمة بالإيابِ

وقال آخر:

ومُطْعَمُ الغُنْمِ يومَ الغُنْمِ مُطْعَمُهُ ... أنَّى تَوَجَّهَ والمَحْرُومُ مَحْرُومُ(٣)

والمَغْنَم والغنيمة بمعنًى؛ يقال: غَنِمَ القومُ غُنْماً [بالضم](٤).

واعلم أنَّ الاتفاق حاصلٌ على أنَّ المراد بقوله تعالى: ﴿غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ مالُ الكفار إذا ظَفِرَ به المسلمون على وجه الغَلَبة والقَهْر. ولا تقتضي اللغةُ هذا التخصيصَ على ما بيَّنَّاه، ولكنَّ عُرْفَ الشرع قيَّد اللفظَ بهذا النوع. وسَمَّى الشرعُ الواصلَ من

---

(١) كذا في النسخ، لكن ورد فيهاخمسٌ وعشرون مسألة.

(٢) هو امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص٩٩ ، وسلف ٥/ ٥٧ .

(٣) قائله علقمة الفحل، وهو في ديوانه ص٦٦ ، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٢٨ ، والكلام منه.

(٤) الصحاح (غنم)، وما بين حاصرتين منه.

الكفار إلينا من الأموال باسْمين: غنيمةً وفَيْئاً[١].

فالشيءُ الذي ينالُه المسلمون من عدوِّهم بالسعي وإيجافِ الخيل والرِّكاب يُسَمَّى غنيمة. ولَزِم هذا الاسمُ هذا المعنى حتى صار عُرْفاً. والفَيْءُ مأخوذٌ من فاءَ يفيء: إذا رجع، وهو كلُّ مالٍ دخل على المسلمين من غير حربٍ ولا إيجاف، كخَراج الأرض، وجِزْيةِ الجماجم[٢]، وخُمسِ الغنائم، ونحوِ هذا[٣]؛ قاله سفيان الثَّوْريُّ وعطاء بنُ السائب[٤].

وقيل: إنهما واحد، وفيهما الخُمس؛ قاله قتادة[٥].

وقيل: الفَيْءُ عبارةٌ عن كلِّ ما صار للمسلمين من الأموال بغير قهر. والمعنى متقارب.

الثانية: هذه الآية ناسخةٌ لأول السورة عند الجمهور. وقد ادَّعى ابنُ عبد البر[٦] الإجماعَ على أنَّ هذه الآيةَ نزلت بعد قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ﴾، وأنَّ أربعة أخماسِ الغنيمة مقسومةٌ على الغانمين، على ما يأتي بيانه. وأنَّ قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ﴾ نزلت حين تشاجرَ أهلُ بدرٍ في غنائم بدر، على ما تقدَّم أولَ السورة.

قلت: ومما يدلُّ على صحة هذا ما ذكره إسماعيل بنُ إسحاق قال: حدّثنا محمد ابنُ كثير قال: حدَّثنا سفيان قال: حدثني محمد بنُ السائب، عن أبي صالح، عن ابن عباسٍ قال: لمَّا كان يومُ بدرٍ قال النبيُّ ﷺ: «مَن قَتَلَ قتيلاً فله كذا، ومَن أَسَرَ أسيراً فله كذا» ـ وكانوا قتلوا سبعين، وأسرُوا سبعين[٧] ـ فجاء أبو اليَسَر بنُ عمرو بأسيرَين

---

(١) أحكام القرآن للكيا للطبري ٣/١٥٦.

(٢) هي الجزية المفروضة على رؤوس أهل الذمة، إذ يُعبر بالجمجمة عن الرأس. الموسوعة الفقهية ١٥/ ١٥١.

(٣) المحرر الوجيز ٢/٥٢٨.

(٤) أخرجه عنهما ابن أبي شيبة ١٢/ ٤٣٤، والطبري ١١/ ١٨٤ - ١٨٥.

(٥) أخرجه الطبري ١١/١٨٥ - ١٨٦.

(٦) في التمهيد ١٤/٤٩ و٦٢.

(٧) قوله: وأسروا سبعين، من (م).

فقال: يا رسول الله، إنك وعدتَنا: مَن قتل قتيلاً فله كذا، وقد جئتُ بأسيرَين. فقام سعدٌ فقال: يا رسول الله، إنَّا لم يمنعنا زَهادَةٌ(١) في الأجر، ولا جُبنٌ عن العدوِّ، ولكنَّا قمنا هذا المقامَ خشيةَ أن يَعطِفَ المشركون، فإنك إن تُعْطِ هؤلاء لا يبقَ لأصحابك شيء. قال: وجعل هؤلاء يقولون وهؤلاء يقولون، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ﴾. فَسَلَّموا الغنيمةَ لرسول الله ﷺ، ثم نزلت: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ الآية(٢).

وقد قيل: إنها مُحكَمةٌ غيرُ منسوخة، وأنَّ الغنيمة لرسول الله ﷺ، وليست مقسومةً بين الغانمين، وكذلك لِمَن بعده من الأئمة(٣). كذا حكاه الماوَرْديُّ(٤) عن كَثيرٍ من أصحابنا، ﷺ، وأنَّ للإمام أن يُخرجَها عنهم، واحتجُّوا بفتح مكةَ وقصةِ حُنين. وكان أبو عبيدٍ يقول: افتتح رسولُ الله ﷺ مكة عَنوةً، ومنَّ على أهلها فردَّها عليهم، ولم يقسمها ولم يجعلها عليهم فَيْئاً. ورأى بعضُ الناس أنَّ هذا جائزٌ للأئمة بعده(٥).

قلت: وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ والأربعةَ الأخماسِ للإمام، إن شاء حبَسها، وإن شاء قسمها بين الغانمين. وهذا ليس بشيء؛ لِمَا ذكرناه، ولأنَّ الله سبحانه أضاف الغنيمة للغانمين فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾، ثم عيَّن الخُمسَ لمن سَمَّى في كتابه، وسكت عن الأربعة الأخماس، كما سكت عن الثُّلثين في قوله: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ﴾ [النساء: ١١]، فكان للأب الثُّلثان اتفاقاً. وكذا الأربعةُ الأخماس للغانمين إجماعاً؛

---

(١) في النسخ «زيادة» والمثبت من المصادر.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٩٤٨٣) وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٠/ ٢٥١، عن سفيان الثوري بهذا الإسناد، وسلف الكلام على رواية محمد بن السائب الكلبي. وأخرجه أبو داود (٢٧٣٧) من طريق آخر عن ابن عباس، بنحوه وله شاهد من حديث عبادة بن الصامت ﷺ سلف ٩/ ٤٤١ - ٤٤٢.

(٣) ذكره أبو العباس في المفهم ٣/ ٥٣٦ عن ابن عباس.

(٤) في (م): المازري، وينظر الأحكام السلطانية للماوردي ص١٤٠.

(٥) الأموال لأبي عبيد ص٨٢.

على ما ذكره ابنُ المنذر وابن عبد البَرّ والدَّاوُدِيُّ والمازَرِيُّ أيضاً والقاضي عِياضٌ وابنُ العربيّ[١].

والأخبار بهذا المعنى متظاهِرةٌ، وسيأتي بعضُها. ويكون معنى قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية؛ ما يُنفِّله الإمام لمن شاء، لِمَا يراه من المصلحة قبل القِسْمة. وقال عطاءٌ والحسن: هي مخصوصةٌ بما شذَّ من المشركين إلى المسلمين من عبدٍ أو أمَة أو دابَّة[٢]؛ يقضي فيها الإمامُ بما أحبّ. وقيل: المراد بها أنفالُ السَّرايا[٣]، أي: غنائمها، إن شاء خمَّسها الإمام، وإن شاء نفَّلها كلَّها.

وقال إبراهيم النَّخَعيُّ في الإمام يبعث السَّرِيةَ فيصيبون المغنم: إن شاء الإمامُ نفَّلَه كلَّه، وإن شاء خَمَّسه. وحكاه أبو عمر[٤] عن مكحولٍ وعطاء؛ قال عليُّ بن ثابت: سألت مكحولاً وعطاءً عن الإمام ينفِّل القومَ ما أصابوا، قال: ذلك لهم. قال أبو عمر[٥]: مَن ذهب إلى هذا: تأوَّلَ قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أنَّ ذلك للنبيِّ ﷺ يضعها حيث شاء، ولم يرَ أنَّ هذه الآيةَ منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾. وقيل غيرُ هذا ممَّا قد أتينا عليه في كتاب «المقتبس[٦] في شرح مُوَطَّأ مالك بنِ أنس».

ولم يقل أحدٌ من العلماء فيما أعلم أنَّ قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية، ناسخٌ لقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ بل قال الجمهور على ما ذكرنا: إنَّ قوله: ﴿مَا غَنِمْتُمْ﴾ ناسخ، وهم الذين لا يجوز عليهم التحريفُ ولا

---

(١) ينظر الأوسط ١١/ ٩٢، والتمهيد ١٤/ ٤٩، وإكمال المعلم ٦/ ٧٥، وأحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٥١.

(٢) المفهم ٣/ ٥٣٦، وقول عطاء أخرجه أبو عبيد في الأموال ص٣٨٣، والطبري ١١/ ٧.

(٣) المفهم ٣/ ٥٣٦، وأخرج هذا القول الطبري ١١/ ٧ عن علي بن صالح بن حي.

(٤) في الاستذكار ١٤/ ١٠٢ - ١٠٣، وما قبله منه.

(٥) في الاستذكار ١٤/ ١٠٣.

(٦) في (د) و(ظ) و(م): القبس، وهو خطأ، وينظر ١/ ٢٦٧.

التبديلُ لكتاب الله تعالى.

وأما قصة فتحِ مكةَ فلا حجةَ فيها؛ لاختلاف العلماءِ في فتحها. وقد قال أبو عبيد[١]: ولا نعلم مكةَ يُشبهها شيءٌ من البلدان من جهتين: إحداهما: أنَّ رسول الله ﷺ كان الله قد خصَّه من الأنفال والغنائم ما لم يجعله لغيره، وذلك لقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية، فنرى أنَّ هذا كان خاصًّا له. والجهةُ الأخرى: أنه سَنَّ لمكة سُنَناً ليست لشيءٍ من البلاد.

وأما قصة حُنين فقد عوَّض الأنصارَ لمَّا قالوا: يعطي الغنائمَ قريشاً ويتركُنا وسيوفُنا تقطر من دمائهم! فقال لهم: «أما تَرْضَوْنَ أنْ يرجعَ الناسُ بالدنيا، وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم». خرَّجه مسلم وغيره[٢]. وليس لغيره أن يقول هذا القول، مع أنَّ ذلك خاصٌّ به على ما قاله بعضُ علمائنا[٣]. والله أعلم.

الثالثة: لم يختلف العلماء أنَّ قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ ليس على عمومه، وأنه يَدخله الخصوص؛ فمما خصَّصوه بإجماعٍ أنْ قالوا: سَلَبُ المقتولِ لقاتله إذا نادى به الإمام[٤]. وكذلك الرِّقاب ـ أعني الأُسارى ـ الخِيرَة فيها إلى الإمام بلا خلافٍ[٥]، على ما يأتي بيانُه.

ومما خُصَّ به أيضاً الأرضُ. والمعنى: ما غنمتم من ذهبٍ وفضة وسائرِ الأمتعة والسَّبي، وأما الأرضُ فغيرُ داخلةٍ في عموم هذه الآية؛ لِمَا روى أبو داود عن عمر بنِ الخطاب أنه قال: لولا آخِرُ الناسِ ما فُتِحتْ قريةٌ إلا قَسَمْتُها كما قَسم رسولُ الله ﷺ خَيْبر[٦].

---

(١) في الأموال ص٨٢ .

(٢) صحيح مسلم (١٠٥٩)، وأخرجه أحمد (١٢٧٣٠)، والبخاري (٣٧٧٨) وهو من حديث أنس ﷺ.

(٣) المفهم ٣/ ١٠٧ .

(٤) التمهيد ١٤/ ٥٩ .

(٥) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ١٦١ .

(٦) سنن أبي داود (٣٠٢٠)، وهو عند أحمد (٢٨٤)، والبخاري (٢٣٣٤)، والتمهيد ٦/ ٤٥٥ - ٤٥٦ =

ومما يصحِّح هذا المذهبَ ما رواه الصحيحُ[(١)] عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَنَعت العراقُ قَفِيزَها ودرهمها، ومنَعت الشامُ مُدْيَها[(٢)] ودينارَها» الحديث. قال الطَّحاويُّ: «منعت» بمعنى: ستمنع. فدلَّ ذلك على أنها لا تكون للغانمين؛ لأنَّ ما ملَكه الغانمون لا يكون فيه قفيزٌ ولا درهم، ولو كانت الأرض تُقسَم؛ ما بقي لمن جاء بعد الغانمين شيء، والله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ [الحشر: ١٠] بالعطف على قوله: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾. قال: وإنما يُقسَم ما يُنقل من موضعٍ إلى موضع[(٣)].

وقال الشافعيّ: كلُّ ما حصلَ من الغنائم من أهل دار الحرب من شيءٍ؛ قلَّ أو كَثُر، مِن دارٍ أو أرض أو متاع أو غيرِ ذلك؛ قُسم، إلّا الرجال البالغون[(٤)]؛ فإنَّ الإمام فيهم مخيَّرٌ أن يَمُنَّ أو يقتل [أو يُفاديَ] أو يَسْبيَ. وسبيل ما أُخذ منهم وسُبيَ سبيلُ الغنيمة. واحتجَّ بعموم الآية. قال: والأرض مغنومةٌ لا محالة؛ فوجب أن تُقسمَ كسائر الغنائم. وقد قَسَم رسولُ الله ﷺ ما افتتح عَنوةً من خَيْبر.

قالوا: ولو جاز أن يُدَّعَى الخصوصُ في الأرض؛ جاز أن يدَّعى في غير الأرض، فيبطلُ حكمُ الآية. وأما آية «الحشر» فلا حجَّة فيها؛ لأنَّ ذلك إنما هو في الفيء لا في الغنيمة. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ استئنافُ كلامٍ بالدعاء لمن سبقهم بالإيمان؛ لا لغير ذلك.

قالوا: وليس يخلو فِعْلُ عمرَ في توقيفه الأرضَ من أحد وجهين: إما أن تكون

= والكلام منه. وقد ذكر ابن عبد البر في التمهيد ٦/ ٤٤٦ إجماع العلماء على أن ما فتح من خيبر صلحاً عمل فيه رسول الله ﷺ بسنَّة الفيء، وما فتح عنوة عمل فيه بسنة الغنائم. وينظر ما ورد من آثار في أمر تقسيم رسول الله ﷺ خيبر في التمهيد ٦/ ٤٤٦ - ٤٥٣ .

(١) صحيح مسلم (٢٨٩٦)، وهو عند أحمد (٧٥٦٥).

(٢) في (د) و(ظ) و(م): مدها، وهو خطأ. والمُدْي: مكيال لأهل الشام يسع خمسة عشر مكُّوكاً. والمكُّوك: حوالي ٣٤٧٩ غراماً. والقفيز: حوالي ٢٧٨٣٥ غراماً. النهاية (مدا) ومعجم متن اللغة ١/ ٨٦ .

(٣) التمهيد ٦/ ٤٥٦ - ٤٥٧ ، وينظر شرح معاني الآثار ٢/ ١٢٠ .

(٤) كذا في النسخ والتمهيد ٦/ ٤٥٩ والكلام منه، وفي (م): البالغين وما سيرد بين حاصرتين من التمهيد.

غنيمةً استطاب أنفُسَ أهلِها وطابت بذلك، فوَقَفَها. وكذلك روى جَريرٌ أنَّ عمر استطاب أنفسَ أهلها[1]. وكذلك صَنع رسولُ الله ﷺ في سَبْيِ هَوَازِنَ لمَّا أتَوْه، استطابَ أنفُسَ أصحابِه عما كان في أيديهم[2]، وإما أنْ يكونَ ما وقفَه عمرُ فَيْئاً؛ فلم يحتجْ إلى مُراضاةِ أحد.

وذهب الكوفيون إلى تخيير الإمام في قَسْمها، أو إقرارِها وتوظيفِ الخَراج عليها، وتصيرُ ملكاً لهم كأرض الصُّلح؛ قال شيخنا أبو العباس ﷺ[3]: وكأنَّ هذا جمعٌ بين الدليلين ووسطٌ بين المذهبين، وهو الذي فهمه عمرُ ﷺ قطعاً؛ ولذلك قال: لولا آخِرُ الناس؛ فلم يُخْبِر بنسخ فعلِ النبيِّ ﷺ، ولا بتخصيصه بهم، غير أنَّ الكوفيين زادوا على ما فعل عمر، فإنَّ عمر إنما وَقَفَها على مصالح المسلمين، ولم يملِّكها لأهل الصلح، وهم[4] قالوا: للإمام أنْ يملِّكَها لأهل الصُّلح.

الرابعة: ذهب مالكٌ وأبو حنيفة والثَّورِيُّ إلى أنَّ السَّلَب ليس للقاتل، وأنَّ حكمه حكمُ الغنيمة؛ إلَّا أنْ يقول الأمير: مَن قَتَل قتيلاً فله سَلَبُه، فيكونُ حينئذٍ له.

وقال الليث والأوزاعِيُّ والشافعيُّ [وأحمد] وإسحاقُ وأبو ثورٍ وأبو عبيدٍ والطبريُّ وابن المنذر: السَّلَبُ للقاتل على كلِّ حال، قاله الإمامُ أو لم يَقُلْه.

إلا أنَّ الشافعيَّ ﷺ قال: إنما يكون السَّلَبُ للقاتل إذا قتلَ قتيلاً مُقْبلاً عليه، وأما إذا قتله مُدبراً عنه فلا[5]. قال أبو العباس بنُ سُريج من أصحاب الشافعي: ليس الحديث: «مَن قَتَل قتيلاً فله سَلَبُه»[6] على عمومه؛ لإجماع العلماءِ على أنَّ مَن قتلَ

(١) التمهيد ٦/ ٤٦٠ - ٤٦١ ، وخبر جرير - وهو ابن عبد الله ﷺ - أخرجه أبو عبيد في الأموال ص٧٨ .

(٢) أخرجه أحمد (١٨٩١٤)، والبخاري (٢٣٠٧ ، ٢٣٠٨) من حديث مروان بن الحكم والمِسْوَر بن مخرمة رضي الله عنهما.

(٣) في المفهم ٤/ ٤١٩ ، وما قبله منه.

(٤) بعدها في النسخ: الذين، والمثبت من المفهم.

(٥) التمهيد ٢٣/ ٢٤٧ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وقول أبي عبيد في الأموال ص٣٩٤ ، وقول ابن المنذر في الأوسط ١١/ ١٢٠ .

(٦) أخرجه أحمد (٢٢٦٠٧)، والبخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١) من حديث أبي قتادة ﷺ.

أسيراً أو امرأةً أو شيخاً أنه ليس له سَلَبُ واحدٍ منهم. وكذلك مَن ذَفَّف على جريح[(١)]، ومَن قَتَل مَن قُطعت يداه ورجلاه. قال: وكذلك المنهزمُ لا يَمتنع[(٢)] في انهزامه، وهو كالمكتوف. قال: فعُلم بذلك أنَّ الحديث إنما جَعَل السَّلَب لِمَن لِقتلِه معنًى زائدٌ، أو لِمَن في قتله فضيلةٌ، وهو القاتل في الإقبال؛ لِمَا في ذلك من المؤنة. وأما مَن أثخنَ فلا[(٣)].

وقال الطبري: السَّلَبُ للقاتل، مُقبِلاً قَتَله أو مُدْبِراً، هارباً أو مُبارِزاً، إذا كان في المعركة. وهذا يردُّه ما ذكره عبدُ الرزاق ومحمد بنُ بكرٍ عن ابن جُريج قال: سمعتُ نافعاً مولى ابنِ عمر يقول: لم نَزَلْ نسمعُ: إذا التقى المسلمون والكفار؛ فقتل رجلٌ من المسلمين رجلاً من الكفار، فإنَّ سَلَبَه له، إلَّا أن يكون في مَعْمَعةِ القتال؛ لأنه حينئذٍ لا يُدْرَى مَن قَتَل قتيلاً. فظاهِرُ هذا يردُّ قولَ الطبريِّ؛ لاشتراطه في السَّلَب القتلَ في المعركة خاصَّة[(٤)].

وقال أبو ثَور وابنُ المنذر: السَّلَبُ للقاتل في معركةٍ كان أو غيرِ معركة، في الإقبال والإدبار، والهروبِ والانتهاز[(٥)]، على كلِّ الوجوه؛ لعموم قولِه ﷺ: «مَن قَتَلَ قتيلاً فله سَلَبُه»[(٦)].

قلت: روى مسلمٌ عن سلمة بنِ الأكْوَع قال: غَزَوْنا مع رسول الله ﷺ هوازِن، فبينا نحن نَتَضَحَّى مع رسول الله ﷺ، إذ جاء رجلٌ على جمل أحمرَ، فأناخه، ثم انتزع طَلَقاً من حَقَبِه، فقيَّد به الجمل، ثم تقدَّم يتغدَّى مع القوم، وجعل ينظر، وفينا

---

(١) أي: أجهزَ عليه.

(٢) في (ظ): يتبع.

(٣) التمهيد ٢٣/ ٢٥١ .

(٤) التمهيد ٢٣/ ٢٤٧ ، والأثر في مصنف عبد الرزاق (٩٤٧١).

(٥) في (خ) و(ظ) و(م): الانتهار، والمثبت موافق لما في التمهيد. وناهزه: داناه. القاموس (نهز).

(٦) التمهيد ٢٣/ ٢٤٩ ، وسلف الحديث قريباً، وقول ابن المنذر في الأوسط ١١/ ١٢٠ - ١٢١ ، وقد سلف قوله وقول أبي ثور في بداية المسألة.

ضَعْفةٌ ورِقَّة في الظَّهر، وبعضُنا مُشاةٌ، إذ خرج يشتدُّ، فأتى جملَه فأطلق قيده، ثم أناخه وقعد عليه، فأثاره، فاشتدَّ به الجمل، فاتَّبعه رجلٌ على ناقةٍ وَرْقاءَ. قال سلمة: وخرجتُ أشتدُّ، فكنتُ عند وَرِك الناقة، ثم تقدَّمتُ حتى كنتُ عند وَرِكِ الجمل، ثم تقدَّمتُ حتى أخذتُ بِخِطام الجملِ فأَنَخْتُه، فلما وضع ركبتَه في الأرض؛ اخترطتُ سيفي فضربت رأسَ الرجلُ، فَنَدَر، ثم جئتُ بالجمل أقودُه، عليه رَحْلُه وسلاحُه، فاستقبلني رسولُ الله ﷺ والناسُ معه، فقال: «مَن قَتَلَ الرجلَ؟» قالوا: ابنُ الأكوع. قال: «له سَلَبُه أجمع»(١). فهذا سلمةُ قتله هارباً غيرَ مُقْبِل، وأعطاه سلَبَه.

وفيه حجةٌ لمالك مِن أنَّ السَّلَب لا يستحقُّه القاتل إلا بإذن الإمام، إذ لو كان واجباً له بنفس القتلِ لَمَا احتاج إلى تكرير هذا القول(٢).

ومن حُجَّته أيضاً ما ذكره أبو بكر بنُ أبي شيبة(٣) قال: حدَّثنا أبو الأحوص، عن الأسود بنِ قيس، عن شَبْر بن علقمة(٤) قال: بارزتُ رجلاً يوم القادِسِية، فقتلتُه وأخذتُ سَلَبَه، فأتيتُ سعداً، فخطب سعدٌ أصحابَه ثم قال: هذا سَلَبُ شَبر بنِ علقمة، لهو(٥) خيرٌ من اثني عشرَ ألفَ درهم، وإنَّا قد نفَّلناه إياه. فلو كان السَّلَبُ للقاتل قضاءً من النبيِّ ﷺ ما احتاج الأمراء(٦) أن يُضِيفوا ذلك إلى أنفسهم

(١) صحيح مسلم (١٧٥٤)، وهو عند أحمد (١٦٥٢٣). قوله: نتضحى: نتغدى في وقت الضُّحاء، وهو بعد امتداد النهار وفوق الضُّحى. والطَّلَق: الحبل. والحَقَب والحقيبة: ما يجعله الراكب خلفه. وفينا ضَعْفة: ضبطوه على وجهين، الصحيح المشهور وروايةُ الأكثرين بفتح الضاد وسكون العين، أي: حالة ضَعْفٍ وهزال. والثاني: بفتح العين جمع ضعيف. نَدَر: سقط. ينظر شرح صحيح مسلم للنووي ١٢/ ٦٦ ، والمفهم ٣/ ٥٤٦ .

(٢) المفهم ٣/ ٥٤٦ .

(٣) في مصنفه ١٢/ ٣٧٠ - ٣٧١ ، وأخرجه عبد الرزاق (٩٤٧٣) بنحوه.

(٤) في (م): بشر بن علقمة في الموضعين، وهو خطأ، وهو شَبْر بن علقمة العَبْدي الكوفي، له إدراك، وله رواية عن ابن مسعود. الإصابة ٥/ ١٠٠ .

(٥) في (د): هو، وفي (م): فهو.

(٦) في (د) و(م): الأمر، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في التمهيد ٣/ ٢٥٨ ، والكلام منه.

باجتهادهم، وَلأَخَذه القاتلُ دون أمرهم. والله أعلم.

وفي الصحيح[١] أنَّ معاذ بنَ عمرو بنِ الجَمُوح[٢] ومعاذَ بنَ عَفراءَ[٣] ضربا أبا جهلٍ بسَيْفَيْهما حتى قتلاه، فأتَيا رسولَ الله ﷺ فقال: «أيُّكما قتله؟» فقال كلٌّ واحدٍ منهما: أنا قتلتُه. فنظر في السيفين فقال: كِلَاكما قتلَه». وقضى بسَلَبه لمعاذ بنِ عمرو ابنِ الجموح. وهذا نصٌّ على أنَّ السَّلَب ليس للقاتل؛ إذ لو كان له، لَقَسمه النبيُّ ﷺ بينهما.

وفي الصحيح أيضاً عن عوف بنِ مالكٍ قال: خرجتُ مع مَن خرج مع زيد بنِ حارثة في غزوة مُؤْتة، ورافقني مَدَدِيٌّ من اليمن. وساق الحديث، وفيه: فقال عوف: يا خالد، أمَا علمتَ أنَّ رسول الله ﷺ قضى بالسَّلَب للقاتل؟ قال: بلى، ولكني استكثرتُه[٤].

وأخرجه أبو بكر البَرْقانيُّ بإسناده الذي أخرجه به مسلم، وزاد فيه بياناً أنَّ عوف ابنَ مالكٍ قال: إنَّ رسول الله ﷺ لم يكن يخمِّس السَّلَب، وإنَّ مَدَدِيًّا كان رفيقاً لهم في غزوة مُؤْتة[٥] في طَرَفٍ من الشام. قال: فجعل رُوميٌّ منهم يشتدُّ على المسلمين، وهو على فرس أشقرَ وسرجٍ مُذَهَّبٍ ومِنطقة مُلَطَّخة وسيفٍ محلًّى بذهب. قال: فيُغْرِي بهم، قال: فتلطَّف له المَدَدِيُّ حتى مرَّ به، فضرب عُرْقوبَ فرسِه فوقع، وعلاه بالسيف، فقتله وأخذ سلاحَه. قال: فأعطاه خالد بنُ الوليد وحَبَسَ منه، قال عوف: فقلتُ له:

---

(١) صحيح البخاري (٣١٤١)، وصحيح مسلم (١٧٥٢)، وهو عند أحمد (١٦٧٣)، وهو من حديث عبد الرحمن بن عوف ﷺ.

(٢) الأنصاري الخزرجي السَّلَمي، شهد العقبة، ومات في زمن عثمان. الإصابة ٩/ ٢٢٤ .

(٣) هو معاذ بن الحارث بن رفاعة البخاري الأنصاري الخزرجي، وعفراء أمه عُرف بها، شهد العقبة الأولى وبدراً وعاش بعد ذلك، وقيل: بل جرح ببدر فمات من جراحته. الإصابة ٩/ ٢٢١ .

(٤) صحيح مسلم (١٧٥٣): (٤٤)، هو عند أحمد (٢٣٩٩٧). قوله: مدديّ: أي: رجل من المدد الذين جاؤوا يمدون جيش مؤتة ويساعدونهم. شرح صحيح مسلم للنووي ١٢/ ٦٥ - ٦٦ .

(٥) أخرجه بهذه الزيادة البيهقي ٦/ ٣١٠ ، وما سيأتي من الحديث فهو بنحوه عند أحمد (٢٣٩٨٧)، ومسلم (١٧٥٣): (٤٣).

أعطِه كلَّه، أليس قد سمعتَ رسولَ الله ﷺ يقول: «السَّلَب للقاتل؟!». قال: بلى، ولكنِّي استكثرتُه. قال عوف: وكان بيني وبينه كلام، فقلت له: لأُخبِرَنَّ رسولَ الله ﷺ. قال عوف: فلما اجتمعنا عند رسولِ الله ﷺ، ذكر عوفٌ ذلك لرسول الله ﷺ، فقال لخالد: «لِمَ لَمْ تُعطِه؟» قال: فقال: استكثرتُه. قال: «فادفَعْه إليه». فقلتُ له: ألم أُنجِز لك ما وعدتُك؟ قال: فغضب رسول الله ﷺ وقال: «يا خالد، لا تَدْفَعْه إليه، هل أنتم تاركون[1] لي أُمرَائي». فهذا يدلُّ دَلالةً واضحة على أنَّ السَّلَب لا يستحقُّه القاتلُ بنفس القتل، بل برأي الإمام ونظرِه.

وقال أحمد بنُ حنبل: لا يكون السَّلَبُ للقاتل إلَّا في المبارزة خاصَّة[2].

الخامسة: اختلف العلماءُ في تخميس السَّلَب؛ فقال الشافعيّ: لا يُخمَّس[3]. وقال إسحاق: إنْ كان السَّلَبُ يسيراً فهو للقاتل، وإن كان كثيراً خُمِّس. وفعلَه عمر بنُ الخطاب مع البَراء بنِ مالكٍ حين بارز المَرْزُبانَ[4] فقتله، فكانت قيمةُ مِنْطَقَتِه وسِوارَيه ثلاثين ألفاً، فخمّس ذلك[5].

أنس عن البَرَاء بن مالك: أنه قتلَ من المشركين مئةَ رجلٍ إلَّا رجلاً مبارزةً؛ وأنهم لمَّا غَزَوا الزَّارَة خرج دُهقانُ الزَّارةِ فقال: رجلٌ ورجل؛ فبرزَ البراءُ، فاختلفا بسيفيهما ثم اعتنقا، فتورَّكه البراءُ، فقعد على كبده، ثم أخذ السيفَ فذبحه، وأخذ سلاحَه ومِنطقَته وأتى به عمرَ، فنفَّله السلاحَ، وقوَّم المِنطقةَ بثلاثين ألفاً، فخمَّسها، وقال: إنها مال[6].

---

(١) في (ظ): تاركو، وهي رواية أيضاً، كما ذكر النووي في شرح مسلم.

(٢) الأوسط ١١/ ١٢٠ .

(٣) الأوسط ١١/ ١٠٩ ، والتمهيد ٢٣/ ٢٤٧ .

(٤) هو رئيس الفرس، ويطلق هذا الاسم عندهم على الفارس الشجاع المقدَّم على القوم دون الملك، وهو معرَّب. ينظر النهاية (مرز).

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٩ ، وينظر الأوسط ١١/ ١٠٩ - ١١٠ .

(٦) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي ٦/ ٣١١ ، وبنحوه عبد الرزاق (٩٤٦٨)، وابن أبي شيبة ١٢/ ٣٧١ - ٣٧٢ . والزارة: قرية كبيرة في المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية، ينظر المعجم الجغرافي لحمد الجاسر (القسم الثاني) ص٧٩٩ ، ومعجم البلدان ٣/ ١٢٦ .

وقال الأوزاعيُّ ومكحول: السَّلَب مغنمٌ، وفيه الخُمس. ورُويَ نحوُه عن عمر بنِ الخطاب(١).

والحجة للشافعيِّ ما رواه أبو داود(٢) عن عوف بنِ مالك الأشجعيِّ وخالد بنِ الوليد: أنَّ رسول الله ﷺ قضى في السَّلَب للقاتل ولم يخمِّس السَّلَب.

السادسة: ذهب جمهور الفقهاء إلى أنَّ السَّلَب لا يُعطى للقاتل إلا أن يُقيمَ البيِّنة على قتله. قال أكثرهم: ويُجزئ شاهدٌ واحد على حديث أبي قَتادة(٣). وقيل: شاهدان أو شاهدٌ ويمين.

وقال الأوزاعيّ: يُعطاه بمجرَّد دعواه، وليست البيِّنةُ شرطاً في الاستحقاق، بل إنِ اتفق ذلك فهو الأَوْلى دفعاً للمنازعة. ألَا ترى أنَّ النبيَّ ﷺ أعطى أبا قتادة سَلَبَ مقتولِه من غير شهادةٍ ولا يمين؟ ولا تكفي شهادةُ واحد، ولا يُناط بها حكمٌ بمجرَّدها. وبه قال الليث بنُ سعد(٤).

قلت: سمعت شيخنا الحافظَ المنذريَّ الشافعيَّ أبا محمدٍ عبدَ العظيم(٥) يقول: إنما أعطاه النبيُّ ﷺ السَّلَبَ بشهادة الأسود بنِ خزاعيٍّ وعبد الله بنِ أُنَيس(٦). وعلى هذا يندفع النِّزاعُ، ويزول الإشكال، ويطَّرد الحكم.

---

(١) الأوسط ١١/ ١١٠ ، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٩٩ .

(٢) في سننه (٢٧٢١)، وهو عند أحمد (١٦٨٢٢)، وابن المنذر في الأوسط ١١/ ١٠٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٩ ، وحديث أبي قتادة أخرجه أحمد (٢٢٦٠٧)، والبخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١) وقد سلفت قطعة منه ص١١ من هذا الجزء. وفيه أن أبا قتادة قتل رجلاً يوم حنين ثم شغله عنه القتال، وعندما انتهت المعركة قال رسول الله ﷺ: «من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه» فقال أبو قتادة: من يشهد لي. فقال رجل: صدق يا رسول الله وسَلَبُه عندي...، فأعطى رسول الله ﷺ أبا قتادة سَلَبَ القتيل.

(٤) المفهم ٣/ ٥٤٣ ، وينظر الإشراف ١١/ ١١٧ ، والتمهيد ٢٣/ ٢٥٨ ، وإكمال المعلم ٦/ ٦٢ .

(٥) هو زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي، الشامي الأصل، المصري، اختصر صحيح مسلم، وسنن أبي داود، ومن كتبه أيضاً الترغيب والترهيب، توفي سنة (٦٥٦هـ). السير ٢٣/ ٣١٩ .

(٦) ذكر الخبر الواقدي في المغازي ٣/ ٩٠٨ ، وفيه: فقام عبد الله بن أنيس فشهد لي، ثم لقيت الأسود بن الخزاعي فشهد لي، وإذا صاحبي الذي أخذ السَّلَب لا ينكر أني قتلته...

وأمَّا المالكية فيخرَّج على قولهم أنه لا يحتاج الإمامُ فيه إلى بيِّنة؛ لأنه من الإمام ابتداءً عطيةٌ، فإنْ شَرَطَ الشهادةَ؛ كان له، وإن لم يشترط؛ جاز أن يُعطيَه من غير شهادة[١].

السابعة: واختلفوا في السَّلَب ما هو؛ فأمَّا السلاحُ وكلُّ ما يُحتاج للقتال؛ فلا خلافَ أنه من السَّلَب، وفرسُه إن قاتل عليه وصُرع عنه. وقال أحمد في الفرس: ليس من السَّلَب. وكذلك إن كان في هِمْيانه أو في مِنطقته دنانيرُ أو جواهر أو نحوُ هذا؛ فلا خلافَ أنه ليس من السلَب[٢].

واختلفوا فيما يُتزيَّن به للحرب[٣]؛ فقال الأوزاعيُّ: ذلك كلُّه من السَّلَب. وقالت فِرقة: ليس من السَّلَب. وهذا مرويٌّ عن سُحنون رحمه الله؛ إلا المِنْطقَةَ؛ فإنها عنده من السَّلَب. وقال ابن حبيب في «الواضحة»: والسِّواران من السَّلَب[٤].

الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ قال أبو عبيد: هذا ناسخٌ لقوله عزَّ وجلَّ في أوّل السورة: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ولم يخمِّس رسولُ الله ﷺ غنائمَ بدر، فنُسخ حكمُه في ترك التخميس بهذا[٥]. إلَّا أنه يظهر من قول عليٍّ ﵁ في «صحيح» مسلم: كان لي شارِفٌ مِن نصيبي من المَغْنَم يوم بَدْر، وكان رسول الله ﷺ أعطاني شارِفاً من الخُمس يومئذ. الحديث[٦]، أنه خمَّس؛ فإن كان هذا، فقولُ أبي عبيد مردودٌ.

---

(١) المفهم ٣/ ٥٤٣ .

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٩ ، وذكر صاحب المفهم ٣/ ٥٤٢ - ٥٤٣ عن ابن حبيب قوله: إن المِنطقة التي فيها دنانير ودراهم داخلة في السَّلَب. اهـ. والهِمْيان: شِدادُ السراويل، وكيسٌ للدراهم يشدُّ في الوسط، وهو المراد هنا.

(٣) وهي كالتاج والسوارين والأقراط والمناطق المثقلة بالذهب والأحجار. المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٩ .

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٩ ، وينظر الإشراف ١١/ ١٢٦ - ١٢٩ .

(٥) الأموال ص٣٨٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٩ ، والكلام الذي بعده لابن عطية، وينظر ما سلف في المسألة الثانية.

(٦) صحيح مسلم (١٩٧٩): (٢)، وهو عند البخاري (٢٠٨٩). والشارف: الناقة المُسِنَّة. النهاية (شرف).

قال ابن عطية[1]: ويَحتمل أن يكونَ الخُمسُ الذي ذَكر عليٌّ من إحدى الغزواتِ التي كانت بين بدر وأُحُد؛ فقد كانت غزوةُ بني سُليم وغزوةُ السَّوِيق[2] وغزوة ذي أَمَر وغزوة بُحْران[3]، ولم يُحفظ فيها قتال، ولكنْ يمكن أنْ غُنمت غنائم. والله أعلم.

قلت: وهذا التأويل يردُّه قولُ عليٍّ: يومئذ، وذلك إشارةٌ إلى يوم قَسْمِ غنائمِ بدر؛ إلَّا أنه يحتمل أن يكونَ من الخُمس - إن كان لم يقع في بدرٍ تخميس - من خُمس سَرِيَّة عبد الله بنِ جَحْش؛ فإنها أوّلُ غَنيمةٍ غُنمت في الإسلام، وأوّلُ خُمسٍ كان في الإسلام، ثم نزل القرآن: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾[4]. وهذا أَوْلى من التأويل الأوّل. والله أعلم.

التاسعة: «ما» في قوله: «مَا غَنِمْتُمْ» بمعنى الذي، والهاءُ محذوفة؛ أي: الذي غنمتموه. ودخلت الفاء لأنَّ في الكلام معنى المجازاة. و«أنَّ» الثانيةَ توكيدٌ للأولى، ويجوز كسرُها[5]، ورُوي عن أبي عمرو[6].

قال الحسن: هذا مِفتاحُ كلام، الدنيا والآخرةُ لله؛ ذَكَره النَّسائي[7]. واستفتح عزَّ وجلَّ الكلامَ في الفيء والخُمسِ بذكر نفسِه؛ لأنهما أشرفُ الكسب، ولم ينسب الصدقةَ إليه؛ لأنها أوساخُ الناس.

---

(١) في المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٩ .

(٢) في النسخ: بني المصطلق، بدل: السويق، والمثبت من المحرر الوجيز، وهو الصواب، فغزوة بني المصطلق كانت بعد أحد سنة ستٍّ للهجرة، أما غزوة السويق فكانت بعد بدر في شهر ذي الحجة، وكان فراغ رسول الله ﷺ من بدر في عقب شهر رمضان أو في شوال. سيرة ابن هشام ٢/ ٤٣-٤٤ و٢٨٩ .

(٣) بُحران: موضع بناحية الفُرْع، وبين الفُرع والمدينة ثمانية بُرُد. وأَمَر: موضع بنجد من ديار غطفان. معجم البلدان ١/ ٢٥٢ و ٣٤١ .

(٤) سلف الخبر ٣/ ٤٢١ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٧ - ١٨٨ .

(٦) القراءات الشاذة ص٤٩ .

(٧) في المجتبى ٧/ ١٣٣ ، والكلام الذي بعده كذلك هو من قول النسائي ٧/ ١٣٤ - ١٣٥ . والحسن هو ابن محمد بن علي بن أبي طالب، كما في التحفة ١٣/ ١٧٦ .

العاشرة: واختلف العلماء في كيفية قَسْمِ الخُمس على أقوالٍ ستَّة:

الأوّل: قالت طائفة: يُقسم الخُمسُ على ستة، فيُجعل السُّدسُ للكعبة، وهو الذي لله، والثاني لرسول الله ﷺ، والثالثُ لذَوِي القُربى، والرابع لليتامى، والخامس للمساكين، والسادس لابن السبيل. وقال بعض أصحابِ هذا القول: يُردُّ السهمُ الذي لله على ذوي الحاجة(١).

الثاني: قال أبو العالية والرَّبيع: تقسم الغنيمةُ على خمسة، فيُعزل منها سهمٌ واحد، وتقسم الأربعةُ على الناس، ثم يَضربُ بيده في(٢) السهم الذي عزله، فما قَبض عليه مِن شيءٍ جعله للكعبة، ثم يَقسم بقيَّةَ السهم الذي عزله على خمسة، سهم للنبيِّ، وسهم لذوي القُربَى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل(٣).

الثالث: قال المِنهال بنُ عمرو: سألت عبد الله بنَ محمد بنِ عليٍّ وعليَّ بن الحسين عن الخُمس، فقال: هو لنا. قلت لعليٍّ: إنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فقال: أيتامُنا ومساكينُنا(٤).

الرابع: قال الشافعيُّ: يقسم على خمسة. ورأى أنَّ سهمَ الله ورسولِه واحد، وأنه يُصرف في مصالح المؤمنين، والأربعةُ الأخماسِ على الأربعة الأصنافِ المذكورين في الآية(٥).

الخامس: قال أبو حنيفة: يقسم على ثلاثة: اليتامى والمساكينِ وابن السبيل.

---

(١) بنحوه في الأوسط ١١/٨٦ ، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٣٠ ، والمفهم ٣/ ٥٥٦ .

(٢) في (م): على.

(٣) الأوسط ١٠/٨٦ ،وأخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٤٢٩ ، والطبري ١١/ ١٨٩ - ١٩٠ من طريق الربيع عن أبي العالية.

(٤) أخرجه الطبري ١١/ ١٩٩ . وعبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب هو أبو هاشم المدني، قال ابن سعد: كان ثقة قليل الحديث، توفي في خلافة سليمان سنة (٩٨هـ). السير ٤/ ١٢٩ .

(٥) المفهم ٣/ ٥٥٦ .

وارتفع عنده حكمُ قرابةِ رسول الله ﷺ بموته، كما ارتفع حكمُ سهمه[١]. قالوا: ويبدأ من الخُمس بإصلاح القناطر، وبناءِ المساجد، وأرزاقِ القضاة والجند[٢]. ورويَ نحوُ هذا عن الشافعيِّ أيضاً.

السادس: قال مالك: هو موكولٌ إلى نظر الإمام واجتهادِه؛ فيأخذ منه [حاجتَه] من غير تقدير، ويعطي منه القرابةَ باجتهاد، ويَصْرف الباقي في مصالح المسلمين. وبه قال الخلفاءُ الأربعة، وبه عملوا. وعليه يدلُّ قولُه ﷺ: «مالي مما أفاء اللهُ عليكم إلا الخُمس، والخُمسُ مردودٌ عليكم». فإنه لم يَقسمه أخماساً ولا أثلاثاً[٣]، وإنما ذُكر في الآية مَن ذُكر على وجه التنبيه عليهم؛ لأنهم من أهمِّ مَن يُدفع إليه.

قال الزجَّاج[٤] محتجًا لمالك: قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ [البقرة: ٢١٥] وللرجل[٥] جائزٌ بإجماع أن يُنفِقَ في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك.

وذكرَ النَّسائيُّ[٦] عن عطاء قال: خُمُسُ الله وخُمُسُ رسوله واحد، كان رسول الله ﷺ يَحمل منه ويعطي منه ويضعه حيث شاء، ويصنع به ما شاء.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ليست اللامُ لبيان الاستحقاقِ

---

(١) الأوسط ١١/ ٩٥، وشرح معاني الآثار ٣/ ٣١٠، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٣٠.

(٢) كذا قال المصنف رحمه الله والذي ذكره الطحاوي في شرح معاني الآثار ٣/ ٣١١ أن إصلاح القناطر وغير ذلك مما ذكر أعلاه يُبدأ به من الفيء، ثم يوضع ما بقي منه بعد ذلك في مثل ما يوضع فيه خمس الغنائم.

(٣) المفهم ٣/ ٥٥٦، وما سلف بين حاصرتين منه، والحديث أخرجه أحمد (٢٢٧١٨) والنسائي في المجتبى ٧/ ١٣١ عن عبادة بن الصامت ﷺ. وأخرجه أحمد (٦٧٢٩)، وأبو داود (٢٦٩٤) والنسائي ٧/ ١٣١ - ١٣٢ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٤١٥، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٩ - ٥٣٠. وما قبله منه.

(٥) في المحرر الوجيز: وللإمام، بدل: وللرجل.

(٦) في المجتبى ٧/ ١٣٢ - ١٣٣.

والمِلْك، وإنما هي لبيان المَصْرِفِ والمَحَلّ[١]. والدليل عليه ما رواه مسلمٌ[٢] أنَّ الفضل بنَ عباس وعبد المطلب بن ربيعة[٣] أتيا النبيَّ ﷺ، فتكلَّم أحدُهما فقال: يا رسول الله، أنت أبرُّ الناس وأوصلُ الناس، وقد بلغْنا النِّكاحَ، فجئنا لتؤمِّرَنا على بعض هذه الصَّدقات، فنؤدِّيَ إليك كما يؤدِّي الناس، ونُصيبَ كما يصيبون. فسكت طويلاً حتى أردنا أن نكلِّمَه. قال: وجعلت زينبُ تُلْمِعُ إلينا من وراء الحجاب ألَّا تكلِّماه، قال ثم قال: «إنَّ الصدقة لا تَحِلُّ لآل محمد، إنما هي أوساخُ الناس. أُدعُوَا لي مَحْمِيَةَ[٤] - وكان على الخُمس - ونَوْفَلَ بنَ الحارث بنِ عبد المطلب» قال: فجاءاه، فقال لمَحْمِيَة: «أَنْكِحْ هذا الغلامَ ابنتَك» - للفضل بن عباس - فأَنْكَحَه. وقال لنوفل بن الحارث: «أنْكِح هذا الغلامَ ابنتك» - يعني عبد المطلب بن ربيعة - وقال لِمَحْمِيَة: «أَصْدِقْ عنهما من الخُمس كذا وكذا».

وقال ﷺ: «مالي مما أفاء اللهُ عليكم إلا الخُمس، والخُمسُ مردودٌ عليكم». وقد أعطى جميعَه وبعضَه، وأعطى منه المؤلَّفةَ قلوبُهم وليس ممن ذكرهم الله في التقسيم، فدلَّ على ما ذكرناه، والموفِّقُ الإله[٥].

الثانية عشرة: واختلف العلماءُ في ذوِي القربى على ثلاثة أقوال: قريش كلُّها؛ قاله بعضُ السلف[٦]؛ لأن النبيَّ ﷺ لمَّا صَعِدَ الصَّفا جعل يَهتِف: «يا بَني فلان، يا بني عبدِ مَناف، يا بني عبد المطلب، يا بني كعب، يا بني مُرَّة، يا بني عبدِ شمس،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٤٨ .

(٢) برقم (١٠٧٢)، وهو عند أحمد (١٧٥١٩).

(٣) في النسخ: ربيعة بن عبد المطلب في الموضعين، والصواب ما أثبتناه. وهو عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم، سكن الشام في أيام عمر، وتوفي في دولة يزيد، وقيل: سنة (٦١هـ). السير ٣/ ١١٢ .

(٤) هو ابن جَزْء الزبيدي.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٤٨ ، وسلف الحديث في المسألة السابقة.

(٦) تفسير الطبري ٢/ ٨٤٥ ، والنكت والعيون ٢/ ٣٢٠ ، وتفسير البغوي ٢/ ٢٤٩ .

أنقذوا أنفسَكم من النار» الحديث. وسيأتي في «الشعراء»[١].

وقال الشافعيُّ وأحمد وأبو ثَوْر ومجاهدٌ وقتادة وابن جُريج ومسلم بنُ خالد: بنو هاشم وبنو عبدِ المطلب[٢]؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا قسم سهمَ ذوي القُرْبى بين بني هاشم وبني عبد المطلب قال: «إنهم لم يُفارقوني في جاهليةٍ ولا إسلام، إنما بنو هاشمٍ وبنو المطَّلب شيءٌ واحد»، وشبَّك بين أصابعه. أخرجه النَّسائيُّ والبخاريّ[٣].

قال البخاريّ[٤]: قال الليث: حدثني يونُس، وزاد: [قال جبير:] ولم يَقْسم النبيُّ ﷺ لبني عبد شمسٍ ولا لبني نَوْفل شيئاً. قال ابن إسحاق: وعبدُ شمس وهاشمٌ والمطَّلب إخوةٌ لأمّ، وأمُّهم عاتكة بنتُ مُرَّة. وكان نوفل أخاهم لأبيهم.

قال النَّسائيّ[٥]: وأسهمَ النبيُّ ﷺ لذوي القُربى، وهم بنو هاشمٍ وبنو المطَّلب، بينهم الغنيُّ والفقير. وقد قيل: إنه للفقير منهم دون الغنيِّ، كاليتامى وابنِ السبيل، وهو أشبهُ القولين بالصواب عندي، والله أعلم. والصغيرُ والكبير والذَّكَر والأنثى سواء؛ لأن الله تعالى جعل ذلك لهم، وقسمه رسولُ الله ﷺ فيهم. وليس في الحديث أنه فضَّل بعضَهم على بعض.

الثالث: بنو هاشمٍ خاصَّة؛ قاله مجاهد وعليُّ بنُ الحسين[٦]. وهو قول مالكٍ

(١) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ الآية (٢١٤)، والحديث عند أحمد (٨٤٠٢)، والبخاري (٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٦) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) الاستذكار ٤/ ١٨٧ .

(٣) صحيح البخاري (٣١٤٠)، وسنن النسائي (المجتبى) ٧/ ١٣٠ - ١٣١ ، وهو عند أحمد (١٦٧٤١)، وهو من حديث جبير بن مطعم ﷺ.

(٤) في صحيحه إثر الحديث المذكور، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٥) بنحوه في المجتبى ٧/ ١٣٥ ، والسنن الكبرى إثر الحديث (٤٤٣٣).

(٦) أخرجه عنهما الطبري ١١/ ١٩٣ - ١٩٤ ، وأخرج أحمد (٢٢٣٥)، ومسلم (١٨١٢)، والطبري ١١/ ١٩٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كتب لمن أرسل يسأله عن سهم ذوي القربى: إنا كنا نزعم أنا نحن هم، فأبى ذلك علينا قومنا.

والثَّوريّ والأوزاعيّ وغيرهم[1].

الثالثة عشرة: لمَّا بيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ حُكمَ الخُمس وسكتَ عن الأربعة الأخماس، دلَّ ذلك على أنها مِلكٌ للغانمين. وبيَّنَ النبيُّ ﷺ ذلك بقوله: «وأيُّما قريةٍ عصت اللهَ ورسولَه، فإنَّ خُمسَها لله ورسوله، ثم هي لكم». وهذا ما لا خلافَ فيه بين الأمة ولا بين الأئمة؛ على ما حكاه ابنُ العربيّ في «أحكامه»[2] وغيرُه. بَيْدَ أنَّ الإمام إن رأى أنْ يَمُنَّ على الأُسارى بالإطلاق فعل، وبطلت حقوقُ الغانمين فيهم[3]؛ كما فعل النبيُّ ﷺ بثُمامة بنِ أُثال[4] وغيرِه، وقال: «لو كان المُطْعِم بنُ عَدِيٍّ حيّاً ثم كلَّمني في هؤلاء النَّتْنَى - يعني أُسارى بدر - لتركتُهم له» أخرجه البخاريّ[5]؛ مكافأةً له لقيامه في شأن نَقْضِ الصحيفة[6]. وله أن يقتلَ جميعَهم؛ وقد قتل رسولُ الله ﷺ عُقبة بنَ أبي مُعَيط من بين الأسرى صَبْراً[7]، وكذلك النضر بن الحارث؛ قتله بالصفراء صَبْراً[8]، وهذا ما لا خلافَ فيه[9].

وكان لرسول الله ﷺ سهمٌ كسهم الغانمين، حضرَ أو غابَ. وسهمُ الصَّفِيّ؛

---

(١) الاستذكار ١٤/ ١٨٦.

(٢) ٢/ ٨٥١، والحديث أخرجه أحمد (٨٢١٦)، ومسلم (١٧٥٦) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٥١.

(٤) أخرجه أحمد (٩٨٣٣)، والبخاري (٤٦٢)، ومسلم (١٧٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ. وقد سلف ٢/ ٤٢٢.

(٥) في صحيحه (٣١٣٩)، وهو عند أحمد (١٦٧٣٣)، وهو من حديث جبير بن مطعم ﷺ.

(٦) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٧٥، ودلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ٣٦٢، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣١٤.

(٧) أخرجه عبد الرزاق (٩٣٩٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٨) السيرة النبوية ١/ ٦٤٤، وأخرجه أبو عبيد في الأموال ص١٧١، وابن أبي شيبة ١٤/ ٣٧٢، وأبو داود في المراسيل (٣٣٧) عن سعيد بن جبير، ووصله الطبراني في الأوسط (٣٨١٣) بذكر ابن عباس. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٩٠ : رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عبد الله بن حماد بن نمير، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. وينظر التلخيص الحبير ٤/ ١٠٨.

(٩) الأموال ص١٧١.

يصطفي سيفاً أو سهماً أو خادماً أو دابَّة. وكانت صَفِيَّة بنتُ حُيَيٍّ من الصَّفِيِّ من غنائم خَيْبر[١]. وكذلك ذو الفَقَار كان من الصَّفيّ[٢]. وقد انقطع بموته؛ إلَّا عند أبي ثَوْر؛ فإنه رآه باقياً للإمام يجعلُه[٣] مجعلَ سهمِ النبيِّ ﷺ. وكانت الحكمةُ في ذلك أنَّ أهل الجاهلية كانوا يَرَون للرئيس ربعَ الغنيمة. قال شاعرهم:

لكَ المِرْباعُ منها والصَّفايا وحُكْمُك والنَّشِيطةُ والفُضولُ[٤]

وقال آخر:

مِنَّا الذي رَبَعَ الجيوشَ لصُلبه عشرون وهْو يُعَدُّ في الأحياءِ[٥]

يقال: رَبَعَ الجيشَ يَرْبَعه رَباعةً: إذا أخذ رُبعَ الغنيمة. قال الأصمعيُّ: رَبَع في الجاهلية، وخَمس في الإسلام[٦]؛ فكان يأخذ بغير شرعٍ ولا دِينٍ الرُّبعَ من الغنيمة، ويصطفي منها، ثم يتحكَّم بعدَ الصَّفيِّ في أيِّ شيءٍ أراد، وكان ما شذَّ منها وما فضَل من خُرْثيٍّ ومتاعٍ له. فأحكَمَ الله سبحانه الدِّينَ بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾. وأَبقى سهمَ الصَّفيِّ لنبيِّه ﷺ، وأسقط حكمَ الجاهلية[٧].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٩٩٤) عن عائشة رضي الله عنها. وفي الباب عن أنس ﷺ عند أحمد (١١٩٩٢)، والبخاري (٢٨٩٣)، ومسلم في كتاب النكاح (١٣٦٥): (٨٤).

(٢) أخرجه الترمذي (١٥٦١)، وابن ماجه (٢٨٠٨)، وابن المنذر في الأوسط ١١/ ٩١ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقال صاحب القاموس (فقر): ذو الفقار سيف العاص بن منبِّه؛ قتل يوم بدر كافراً، فصار إلى النبي ﷺ، ثم صار إلى علي ﷺ. وذكر ابن الأثير في النهاية (فقر): أنه كان فيه حُفَر صغار حِسان؛ قال: والمفقَّر من السيوف الذي فيه حزوز مطمئنة.

(٣) في أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٤٨ (والكلام منه): فجعله، وقال ابن المنذر في الأوسط ١١/ ٩٦: ولا أعلم أحداً وافق أبا ثور على ما قال.

(٤) قائله عبد الله بن عَنَمَة، وهو في الأصمعيات ص٣٧، والبيان والتبيين ١/ ٣٨١، والمعاني الكبير ٢/ ٩٤٩، وشرح الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٠٢٤. قال ابن قتيبة: النشيطة: ما أخذوه في قَفْلهم. والفضول: ما فضل عن القَسْم. وسيأتي تتمة شرح البيت.

(٥) قائله أبو النجم العجلي، وهو في ديوانه ص٤٤، وأمالي القالي ١/ ١٤٤، ورواية الديوان: عُدُّوا كمن رَبَع...

(٦) أمالي القالي ١/ ١٤٤.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٤٨، وقد قال هذا الكلام في شرح بيت عبد الله بن عَنَمَة المذكور. والخُرْثيُّ: أردأ المتاع والغنائم وأسقاطُها، جمعها: الخَراثيُّ. معجم متن اللغة (خرث).

وقال عامرٌ الشَّعْبيُّ: كان لرسول الله ﷺ سهمٌ يُدعَى الصَّفيَّ، إن شاء عبداً أو أَمةً أو فرساً يختاره قبل الخُمس؛ أخرجه أبو داود(١).

وفي حديث أبي هريرة قال: فيلقَى العبدَ فيقول: «أيْ فُلْ، ألم أُكرِمْكَ وأسَوِّدْك وأزوِّجْك، وأسَخِّرْ لك الخيلَ والإبل، وأذَرْك تَرأسُ وتَرْبَع» الحديث. أخرجه مسلم(٢). «تربَع» بالباء الموحَّدة من تحتها: تأخذ المِرْباع، أي: الرُّبع مما يحصل لقومك من الغنائم والكَسْب.

وقد ذهب بعضُ أصحاب الشافعيِّ ﷺ إلى أنَّ خُمس الخُمسِ كان للنبيِّ ﷺ؛ يصرفُه في كفاية أولاده ونسائه، ويدَّخر مِن ذلك قوتَ سَنَتِه، ويصرف الباقيَ في الكُراع والسِّلاح(٣). وهذا يردُّه ما رواه عمرُ قال: كانت أموال بني النَّضِير مما أفاء اللهُ على رسوله مما لم يُوجِفْ عليه المسلمون بخيلٍ ولا رِكاب، فكانت للنبيِّ ﷺ خاصَّة، فكان ينفق على نفسه منها قُوتَ سَنة، وما بقي جعله في الكُراع والسلاح عُدَّةً في سبيل الله. أخرجه مسلم(٤). وقال: «والخمس مردودٌ عليكم»(٥).

الرابعة عشرة: ليس في كتاب الله تعالى دلالةٌ على تفضيل الفارس على الراجل، بل فيه أنهم سواء؛ لأن الله تعالى جعل الأربعة الأخماسِ لهم، ولم يَخُصَّ راجلاً مِن فارس. ولولا الأخبارُ الواردة عن النبيِّ ﷺ لكان الفارسُ كالراجل، والعبدُ كالحرّ، والصبيُّ كالبالغ(٦).

---

(١) في سننه (٢٩٩١).

(٢) برقم (٢٩٦٨)، وسلف ٨/ ٣٤١ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٤٩ . والكُراع: اسم يجمع الخيل. القاموس (كرع).

(٤) برقم (١٧٥٧)، وهو عند أحمد (١٧١)، والبخاري (٢٩٠٤). قال ابن العربي في أحكام القرآن ٢/ ٨٥٠ : ثبت أن خيبر وفَدَك وبني النضير كانت لقوت رسول الله ﷺ لنفسه وعياله سنة، لا خُمس الخُمس الذي ادعاه أصحاب الشافعي.

(٥) سلف في المسألة الحادية عشرة.

(٦) الأوسط ١١/ ١٥٣ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٥١ .

وقد اختلف العلماءُ في قسمة الأربعة الأخماس؛ فالذي عليه عامَّةُ أهلِ العلم فيما ذكر ابنُ المنذر(١) أنه يُسْهم للفرس(٢) سهمان، وللرجل(٣) سهمٌ. وممن قال ذلك مالك بنُ أنس ومَن تَبِعه من أهل المدينة، وكذلك قال الأوزاعيُّ ومَن وافقه من أهل الشام، وكذلك قال الثَّوريُّ ومَن وافقه من أهل العِراق. وهو قول اللَّيث بنِ سعد ومَن تبعه من أهل مِصر، وكذلك قال الشافعيُّ ﷺ وأصحابُه، وبه قال أحمد بنُ حنبل وإسحاقُ وأبو ثور ويعقوبُ ومحمد.

قال ابن المنذر(٤): ولا نعلم أحداً خالف في ذلك إلا النُّعمان؛ فإنه خالف فيه السنَنَ وما عليه جُلُّ(٥) أهلِ العلم في القديم والحديث. قال: لا يُسْهَم للفرس(٦) إلا سهمٌ واحد.

قلت: ولعله شُبِّه عليه بحديث ابنِ عمرَ: أنَّ رسول الله ﷺ جعل للفارس سهمين، وللراجل سهماً. خرَّجه الدَّارَقُطْنيُّ(٧) وقال: قال الرَّمَاديُّ: كذا يقول ابنُ نُمَير. قال لنا النَّيسابوري: هذا عندي وَهمٌ من ابن أبي شيبة أو من الرَّمادي؛ لأن أحمد بنَ حنبل وعبد الرحمن بنَ بِشْر وغيرَهما رَوَوْه عن ابن نمير(٨) بخلاف هذا، وهو أنَّ رسول الله ﷺ أسهم للرجل ولفرسه ثلاثةَ أسهم، سهماً له وسهمين لفرسه؛ هكذا رواه عبد الرحمن ابنُ بشر، عن عبد الله بن نُمَير، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر،

(١) في الأوسط ١١/ ١٥٥ .

(٢) في (د) و(ظ) و(م): للفارس، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في الأوسط، وهو الصواب.

(٣) في النسخ: وللراجل، والمثبت من الأوسط، وهو الصواب.

(٤) في الأوسط ١١/ ١٥٥ - ١٥٦ .

(٥) في (د) والأوسط: جُمل.

(٦) في (د) و(م): للفارس.

(٧) في سننه (٤١٨٠).

(٨) في النسخ: عن ابن عمر، والمثبت من سنن الدارقطني، وابن نمير هو عبد الله بن نمير، والرمادي هو أحمد بن منصور، والنيسابوري هو أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد الشافعي شيخ الدارقطني، وهم جميعاً من رجال الإسناد في هذا الحديث.

وذَكَر الحديث(١).

وفي صحيح البخاريِّ عن ابن عمر أنَّ رسول الله ﷺ جعل للفرس سهمين، ولصاحبه سهماً(٢). وهذا نَصٌّ.

وقد روى الدَّارَقُطْنيُّ عن الزُّبير قال: أعطاني رسولُ الله ﷺ أربعةَ أسهم يومَ بدر: سهمين لفرسي، وسهماً لي، وسهماً لأمِّي من ذوي القرابة. وفي رواية: وسهماً لأمِّه سهمَ ذوي القربى(٣).

وخرَّج عن بشير بن عمرو بن محصن قال: أسهمَ رسولُ الله ﷺ لفرسَيَّ أربعةَ أسهم، ولي سهماً؛ فأخذتُ خمسةَ أسهم(٤).

وقيل: إنَّ ذلك راجعٌ إلى اجتهاد الإمام، فيُنْفِذ ما رأى. والله أعلم.

الخامسة عشرة: لا يفاضَلُ بين الفارس والراجل بأكثرَ مِن فرسٍ واحد؛ وبه قال الشافعيُّ.

وقال أبو حنيفة: يُسْهم لأكثرَ من فرس واحد؛ لأنه أكثر غناءً(٥) وأعظمُ منفعة؛ وبه قال ابنُ الجَهْم من أصحابنا، ورواه سُحنون عن ابن وهب(٦).

ودليلُنا أنه لم تَرِد روايةٌ عن النبيِّ ﷺ بأن يُسهِمَ لأكثرَ من فرسٍ واحد، وكذلك الأئمةُ بعده، ولأن العدوَّ لا يمكن أن يقاتَلَ إلا على فرسٍ واحد، وما زاد على ذلك

---

(١) أخرجه الدارقطني (٤١٦٦) بهذا الإسناد، وأخرجه (٤١٦٧) من طريق أحمد بن حنبل عن ابن نمير مثله. ورواه أحمد في المسند (٤٤٤٨) عن هشيم بن بشير وأبي معاوية، عن عبيد الله بن عمر به. وينظر فتح الباري ٦/ ٦٨ .

(٢) صحيح البخاري (٢٨٦٣)، وهو عند مسلم (١٧٦٢)، وهو عند أحمد كما سلف في التعليق السابق.

(٣) سنن الدارقطني (٤١٨٧) و(٤١٨٨). وهو عند أحمد (١٤٢٥)، والنسائي في المجتبى ٦/ ٢٢٨ .

(٤) سنن الدارقطني (٤١٧٧) وهو حديث ضعيف.

(٥) في النسخ: عناءً، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٥١ ، والكلام منه. وقد ذكر ابن المنذر في الأوسط ١١/ ١٥٧ ، والجصاص في مختصر اختلاف العلماء ٣/ ٤٤١ ، وابن عبد البر في الاستذكار ١٤/ ١٧٢ عن أبي حنيفة مثل قول الشافعي.

(٦) ذكره ابن شاس في عقد الجواهر الثمينة ١/ ٥٠٧ .

فرفاهيةٌ وزيادةُ عُدَّة؛ وذلك لا يؤثّر في زيادة السُّهمان[١]، كالذي معه زيادةُ سيوفٍ أو رماح، واعتباراً بالثالث والرابع.

وقد رُويَ عن سليمان بنِ موسى أنه يُسهَم لمن كان عنده أفراس، لكلِّ فرسٍ سهم[٢].

السادسة عشرة: لا يُسهمُ إلَّا للعِتاق من الخيل؛ لِمَا فيها من الكرِّ والفرِّ، وما كان من البَراذين والهُجْن بمثابتها في ذلك. وما لم يكن كذلك لم يُسهم له[٣].

وقيل: إن أجازها الإمامُ أسهم لها؛ لأنَّ الانتفاع بها يختلف بحسَبِ المواضع، فالهجنُ والبراذين تصلح للمواضع المتوعِّرة؛ كالشِّعاب والجبال، والعِتاقُ تصلح للمواضع التي يتأتَّى فيها الكرُّ والفرّ؛ فكان ذلك متعلِّقاً برأي الإمام. والعِتاق: خيل العرب. والهُجْن والبراذين: خيل الروم[٤].

السابعة عشرة: واختلف علماؤنا في الفرس الضعيف؛ فقال أشهب وابنُ نافع: لا يُسْهَمُ له؛ لأنه لا يمكن القتالُ عليه الآن[٥]، فأشبهَ الكَسير[٦]. وقيل: يُسهم له لأنه يُرجى بُرْؤُه.

ولا يُسهم للأعجف[٧] إذا كان في حيِّزِ ما لا يُنتفع به، كما لا يُسهم للكَسِير. فأمَّا المريضُ مرضاً خفيفاً مثل الرَّهيص[٨]، وما يجري مَجراه مما لا يمنعه المرضُ عن

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٥٢ ، والمفهم ٣/ ٥٥٩ .

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي شيبة ١٢/ ٤٠٥ ، وأخرجه عبد الرزاق (٩٣٢١) بلفظ: لكل فرس سهمان. وكذلك هو في الأوسط ١١/ ١٥٩ ، والاستذكار ١٤/ ١٧٣ ، والمفهم ٣/ ٥٥٩ .

(٣) عقد الجواهر الثمينة ١/ ٥٠٧ .

(٤) المعونة ١/ ٦١٥ - ٦١٦ .

(٥) قوله: الآن، ليس في (خ) و(م).

(٦) المنتقى ٣/ ١٩٦ .

(٧) العَجَف محركة: ذهاب السِّمَن، وهو أعجف، وهي عجفاء. القاموس (عجف).

(٨) الرهيص: الفرس أصابته الرهصة، وهي وَقْرة تصيب باطن حافره. القاموس (رهص).

حصول المنفعةِ المقصودة منه، فإنه يُسْهَم له. ويعطَى الفرسُ المستعار والمستأجَر، وكذلك المغصوبُ؛ وسهمُه لغاصبه[(١)].

ويستحَقُّ السهمُ للخيل وإن كانت في السفن ووقعت الغنيمةُ في البحر؛ لأنها مُعَدَّةٌ للنزول إلى البرّ[(٢)].

الثامنة عشرة: لا حقَّ في الغنائم للحُشْوة، كالأُجَراء والصُّنَّاع الذين يصحبون الجيشَ للمعاش؛ لأنهم لم يقصِدوا قتالاً ولا خرجوا مجاهدين. وقيل: يُسهَم لهم؛ لقوله ﷺ: «الغنيمةُ لمن شهد الوقعة»[(٣)]. أخرجه البخاريّ[(٤)].

وهذا لا حجَّة فيه؛ لأنه جاء بياناً لمن باشرَ الحربَ وخرج إليه، وكفى ببيان الله عزَّ وجلَّ المقاتلين وأهلَ المعاش من المسلمين حيث جعلهم فرقتين متميِّزتين، لكلٍّ واحدةٍ حالُها في حُكْمها، فقال: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠] إلَّا أنَّ هؤلاء إذا قاتلوا لا يَضرُّهم كونُهم على معاشهم؛ لأنَّ سبب الاستحقاق قد وُجد منهم[(٥)].

وقال أشهب: لا يستحقُّ أحدٌ منهم وإن قاتل، وبه قال ابنُ القصَّار في الأجير: لا يُسهَمُ له وإن قاتل[(٦)]. وهذا يردُّه حديثُ سلمة بنِ الأكْوَع قال: كنت تَبِيعاً لطلحة بنِ عبيد الله أسقي فرسه وأَحُسُّه وأخدمه وآكل من طعامه، الحديث. وفيه: ثم أعطاني

---

(١) في النسخ: لصاحبه، والمثبت من عقد الجواهر الثمينة ١/ ٥٠٧، والكلام منه. وينظر التاج والإكليل ٢/ ٣٧٢.

(٢) عقد الجواهر الثمينة ١/ ٥٠٧.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٥٢.

(٤) لم يخرِّجه البخاريّ، ولا هو مرفوع إليه ﷺ، إنما أورده البخاريّ ترجمةً للحديث (٣١٢٥). فقال: باب الغنيمة لمن شهد الوقعة. وهو من كلام عمر ﷺ كتبه إلى عمار، فيما أخرجه عنه عبد الرزاق (٩٦٨٩) وصحح إسناده الحافظ في الفتح ٦/ ٢٢٤.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٥٢.

(٦) قول أشهب في المنتقى ٣/ ١٧٨، وقول ابن القصار في أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٥٢.

رسولُ الله ﷺ سهمين، سهمَ الفارس وسهمَ الراجل، فجمعهما لي. خرَّجه مسلم[(١)].

واحتجَّ ابنُ القصَّار ومَن قال بقوله بحديث عبد الرحمن بنِ عوف، ذكره عبدُ الرزاق؛ وفيه: فقال رسول الله ﷺ لعبد الرحمن: «هذه الثلاثةُ الدنانيرِ حظُّه ونصيبُه من غزوته في أمر دنياه وآخرتِه»[(٢)].

التاسعة عشرة: فأمَّا العبيدُ والنساءُ؛ فمذهب الكِتاب أنه لا يُسْهَمُ لهم ولا يُرْضَخ[(٣)]. وقيل: يُرضخ لهم؛ وبه قال جمهورُ العلماء[(٤)]. وقال الأوزاعيُّ: إن قاتلت المرأةُ أُسهِم لها. وزعم أنَّ رسول الله ﷺ أسهم للنساء يوم خَيْبر. قال: وأخذ المسلمون بذلك عندنا. وإلى هذا القولِ مال ابنُ حبيبٍ من أصحابنا[(٥)].

خرَّج مسلم عن ابن عباسٍ أنه كان في كتابه إلى نَجْدةَ: تسألُني: هل كان رسولُ الله ﷺ يغزو بالنساء؟ وقد كان يغزو بهنَّ، فَيُداوِين الجرحى ويُحْذَيْن من الغنيمة، وأما بِسهمٍ فلم يَضرِب لهن[(٦)].

وأما الصِّبيانُ، فإنْ كان مطيقاً للقتال ففيه عندنا ثلاثةُ أقوال: الإسهام. ونَفْيُه حتى يَبلُغ - لحديث ابنِ عمر - وبه قال أبو حنيفة والشافعيُّ. والتفرِقَةُ بين أن يقاتِلَ فيُسهَم له، أو لا يقاتلَ فلا يُسْهَم له[(٧)].

---

(١) برقم (١٨٠٧)، وهو بنحوه عند أحمد (١٦٥٣٩).

(٢) مصنف عبد الرزاق (٩٤٥٧)، وفيه أن عبد الرحمن بن عوف اتفق مع رجل على أن يخرج معه إلى الغزو مقابل ثلاثة دنانير، فلما هزموا العدو وأصابوا الغنائم طلب الرجل نصيبه منها، فرفعوا الأمر لرسول الله ﷺ فقال: «هذه الثلاثة...». وأخرج أبو داود (٢٥٢٧) نحو هذه القصة عن يعلى بن منية ﷺ.

(٣) المدونة ٢/ ٣٣ ، والكلام في عقد الجواهر الثمينة ١/ ٥٠٣ ، ويُرضخ، أي: يُعطى .

(٤) الأوسط ١١/ ١٨١ و ١٨٥ ، والمفهم ٣/ ٦٨٧ .

(٥) المفهم ٣/ ٦٨٧ ، وأخرج قول الأوزاعي الترمذيُّ إثر الحديث (١٥٥٦).

(٦) صحيح مسلم (١٨١٢) ونجده هو ابن عامر الحروري، نسب إلى حروراء، وهي موضع بقرب الكوفة خرج منه الخوارج على علي ﷺ، وفيها قتلوا، وكان نجدة هذا منهم وعلى رأيهم. المفهم ٣/ ٦٨٧ .

(٧) عقد الجواهر الثمينة ١/ ٥٠٤ ، وينظر الأوسط ١١/ ١٧٨ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٥٢ ، وحديث ابن عمر رضي الله عنهما سلف ٦/ ٦٢ .

والصحيحُ الأوَّلُ؛ لأمر رسولِ الله ﷺ في بني قُريظة أن يُقتلَ منهم مَن أَنْبَتَ ويُخْلَى مَن لم يُنبِت. وهذه مراعاةٌ لإطاقة القتال لا للبلوغ(١).

وقد روى أبو عمر في «الاستيعاب»(٢) عن سَمُرَة بنِ جُنْدُب قال: كان رسول الله ﷺ يُعرَضُ عليه الغِلمانُ من الأنصار، فيُلحِقُ مَن أدرك منهم؛ فعُرِضْتُ عليه عاماً، فألْحقَ غلاماً وردَّني، فقلت: يا رسول الله، ألحقتَه ورَدَدْتَني، ولو صارعني صرعتُه. قال: فصارعَني فصرعتُه، فألحقني.

وأما العبيد فلا يُسْهَم لهم أيضاً، ويُرْضخ لهم(٣).

الموفية عشرين: الكافر إذا حضر بإذن الإمام وقاتل، ففي الإسهام له عندنا ثلاثةُ أقوال: الإسهام. ونفيُه؛ وبه قال مالكٌ وابن القاسم، زاد ابنُ حبيب: ولا نصيبَ لهم. ويفرِّق في الثالث ـ وهو لسُحْنون ـ بين أن يستقِلَّ المسلمون بأنفسهم فلا يُسهَم له، أو لا يستقلُّوا ويفتقروا إلى معونته فيُسْهَمَ له. فإن لم يقاتل فلا يستحقُّ شيئاً. وكذلك العبيدُ مع الأحرار.

وقال الثَّوْريُّ والأوزاعيُّ: إذا اسْتُعين بأهل الذِّمَّة أُسهم لهم(٤).

وقال أبو حنيفة وأصحابُه: لا يُسْهَمُ لهم، ولكن يُرضخ لهم. وقال الشافعيُّ ﵁: يستأجرهم الإمام من مالٍ لا مالكَ له بعينه، فإن لم يفعل أعطاهم سهمَ النبيِّ ﷺ. وقال في موضع آخر: يُرضخ للمشركين إذا قاتلوا مع المسلمين.

قال أبو عمر(٥): اتفق الجميعُ أنَّ العبد ـ وهو ممن يجوز أمانُه ـ إذا قاتل لم يُسْهَمْ له، ولكن يُرضخ(٦)؛ فالكافرُ بذلك أولى ألَّا يُسْهَمَ له.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٥٣ ، وخبر بني قريظة سلف ٦/ ٦٣ .

(٢) ٤/ ٢٥٨ (على هامش الإصابة)، وأخرج الخبر أيضاً الطبراني في الكبير (٦٧٤٩)، والحاكم ٢/ ٦٠ .

(٣) الأوسط ١١/ ١٧٩ و ١٨٦ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٥٣ - ٨٥٤ ، وعقد الجواهر الثمينة ١/ ٥٠٤ .

(٥) في التمهيد ١٢/ ٣٧ ، وما قبله منه.

(٦) وذكر ابن المنذر في الأوسط ١١/ ١٧٩ عن الحسن والنَّخَعي أنهم قالوا: يُسْهَم للعبيد، قال: وروينا ذلك عن عمر بن عبد العزيز، وقال أبو ثور: إن كانوا قد اختلفوا فيه فإنه يسهم له، وذلك أن حرمته وحرمة الحر بمنزلة من طريق الدِّين، وهو يقاتل كما يقاتل الحر وأكثر، وفيه من الغَناء ما في الحرّ.

الحادية والعشرون: لو خرج العبيد وأهلُ الذِّمَّةِ لصوصاً وأخذوا مالَ أهل الحرب فهو لهم ولا يخمَّس؛ لأنه لم يدخل في عموم قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ أحدٌ منهم ولا من النساء. فأما الكفارُ فلا مَدخلَ لهم من غير خلاف. وقال سُحنون: لا يخمَّس ما ينوب العبدَ. وقال ابن القاسم: يخمَّس؛ لأنه يجوز أن يأذنَ له سيِّدُه في القتال ويقاتل على الدِّين؛ بخلاف الكافر. وقال أشهب في كتاب محمد: إذا خرج العبد والذِّمِّيُّ من الجيش وغنما[(١)]، فالغنيمةُ للجيش دونهم.

الثانية والعشرون: سبب استحقاق السهمِ شهودُ الوقعة لنصر المسلمين؛ على ما تقدَّم. فلو شهد آخرَ الوقعةِ استَحَقَّ، ولو حضر بعد انقضاء القتالِ فلا، ولو غاب بانهزامٍ فكذلك، فإن كان قَصَدَ التحيُّزَ إلى فئةٍ فلا يَسقُطُ استحقاقُه[(٢)].

روى البخاريُّ وأبو داود أنَّ رسول الله ﷺ بعث أبان بنَ سعيد على سَرِيَّة من المدينة قِبَلَ نَجْد؛ فقدم أبان بنُ سعيد وأصحابُه على رسول الله ﷺ بخيبر بعد أن فتحَها، وإنَّ حُزُمَ خَيْلِهم لِيفٌ، فقال أبان: اقسِم لنا يا رسول الله. قال أبو هريرة: فقلتُ: لا تَقْسِم لهم يا رسول الله، فقال أبان: أنت بها يا وَبْرُ تَحَدَّرَ علينا من رأس ضَالٍ. فقال رسولُ الله ﷺ: «اجلس يا أبان». ولم يقسم لهم رسولُ الله ﷺ[(٣)].

الثالثة والعشرون: واختلف العلماءُ فيمن خرج لشهود الوقعةِ، فمنعَه العذرُ منه؛ كمن ضلَّ[(٤)]، ففي ثبوت الإسهام له ونفيِه ثلاثةُ أقوال؛ يُفرَّق في الثالث، وهو

---

(١) في أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٥٤ ، والكلام منه: وغنم.

(٢) عقد الجواهر الثمينة ١/ ٥٠٥ .

(٣) صحيح البخاري (٤٢٣٨) تعليقاً، وسنن أبي داود (٢٧٢٣) واللفظ له، وهو من حديث أبي هريرة ﷺ قوله: أنت بها ـ وفي رواية البخاري: وأنت بهذا ـ يعني: أنت المتكلم بهذه الكلمة. وقوله: يا وَبْر، الوبر بسكون الباء دُوَيبة على قدر السِّنَّور، شبَّهه به تحقيراً له. وقوله: تحدَّرَ، كأنه يقول: تهجم علينا بغتة، وقوله: ضال بالتخفيف: مكان أو جبل بعينه، ويروى بالنون، وهو أيضاً جبل في أرض دوس، يريد توهين أمره وتحقير قَدْره. ينظر معالم السنن ٢/ ٣٠٥ ، والنهاية (وبر) و(ضيل)، وفتح الباري ٧/ ٤٩٢ .

(٤) في النسخ: كمرض، والمثبت من عقد الجواهر الثمينة ١/ ٥٠٦ ، والكلام منه.

المشهور، فيُثْبِته إن كان الضلالُ قبل القتال وبعد الإدراب[(١)] ـ وهو الأصحُّ؛ قاله ابنُ العربيّ[(٢)] ـ ويَنْفيه إن كان قبله. وكمن بعثه الأميرُ من الجيش في أمرٍ من مصلحة الجيش، فشغله ذلك عن شهود الوقعة، فإنه يسهم له[(٣)]؛ قاله ابنُ المَوَّاز، ورواه ابنُ وَهْب وابنُ نافع عن مالك. وروي: لا يُسْهَم له، بل يُرْضخ له؛ لعُدْم السبب الذي يستحقُّ به السَّهم، والله أعلم[(٤)].

وقال أشهب: يُسْهَم للأسير وإن كان في الحديد. والصحيحُ أنه لا يُسهم له؛ لأنه مِلْكٌ مُسْتَحَقٌّ بالقتال؛ فمن غاب أو حضر مريضاً كمن لم يحضر[(٥)].

الرابعة والعشرون: الغائب المطلَق لا يُسْهَم له، ولم يُسهِم رسولُ الله ﷺ لغائبٍ قطُّ إلَّا يومَ خيبر؛ فإنه أسهم لأهل الحُدَيْبِية مَن حضر منهم ومَن غاب؛ لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ٢٠][(٦)]؛ قاله موسى بنُ عقبة. ورُوي ذلك عن جماعةٍ من السلف[(٧)]. وقَسَمَ يوم بدرٍ لعثمان ولسعيد بنِ زيد وطلحة، وكانوا غائبِين[(٨)]؛ فهم كمن حضرها إن شاء اللهُ تعالى:

فأما عثمان؛ فإنه تخلَّف على رُقَيَّة بنتِ رسول الله ﷺ بأمره مِن أجْل مرضِها، فضَرب له رسولُ الله ﷺ بسهمه وأَجْرِه؛ فكان كمن شهدها.

وأما طلحة بنُ عبيد الله؛ فكان بالشام في تجارة، فضرب له رسولُ الله ﷺ بسهمه

---

(١) الإدراب: دخول أرض العدو. اللسان (درب).

(٢) في أحكام القرآن ٢/ ٨٥٤، إلا أنه قاله في المرض؛ قال: وإن مرض بعد الإدراب وقبل القتال ففيه قولان، والأصح وجوب ذلك (يعني الإسهام) له.

(٣) عقد الجواهر الثمينة ١/ ٥٠٦.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٥٤.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

(٧) أخرجه أبو داود في المراسيل (٢٧٦) عن الزهري، والبيهقي في دلائل النبوة ٤/ ٢٦٤ - ٢٦٥ عن موسى بن عقبة.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٥٤.

وأجره، فيُعَدُّ لذلك في أهل بدر(١).

وأما سعيد بنُ زيد؛ فكان غائباً بالشام أيضاً، فضرب له رسولُ الله ﷺ بسهمه وأجره. فهو معدودٌ في البدريِّين(٢).

قال ابنُ العربيّ(٣): أما أهلُ الحديبية فكان ميعاداً من الله اختصَّ به أولئك النفرَ؛ فلا يشاركُهم فيه غيرُهم. وأما عثمانُ وسعيدٌ وطلحةُ فيحتمل أن يكونَ أَسهمَ لهم من الخُمس؛ لأن الأمة مُجْمِعةٌ على أنَّ مَن بقيَ لعذرٍ فلا يُسهَمُ له.

قلت: الظاهر أنَّ ذلك مخصوصٌ بعثمان وطلحةَ وسعيد، فلا يقاسُ عليهم غيرُهم. وأنَّ سهمهم كان من صُلْب الغنيمة كسائر مَن حضرها، لا من الخُمس. هذا الظاهر من الأحاديث، والله أعلم.

وقد روى البخاريُّ(٤) عن ابن عمر قال: لمَّا تغيَّب عثمان عن بدر فإنه كان تحته ابنةُ رسول الله ﷺ، وكانت مريضة، فقال له النبيُّ ﷺ: «إنَّ لك أجرَ رجلٍ ممَّن شهد بدراً وسهمَه».

الخامسة والعشرون: قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ قال الزَّجَّاج(٥) عن فِرقة: المعنى: فاعلموا أنَّ الله مولاكم إن كنتم؛ فـ«إنْ» متعلِّقةٌ بهذا الوعد.

وقالت فرقة: إنَّ «إنْ» متعلِّقةٌ بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾. قال ابن عطية(٦): وهذا هو الصحيح؛ لأن قوله: «واعلموا» يتضمَّن الأمرَ بالانقياد والتسليمِ لأمر الله

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٨٩)، والحاكم ٣/ ٣٦٨ عن عروة بن الزبير. وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب على هامش الإصابة ٥/ ٢٣٦ عن الزبير بن بكار. وسيأتي خبر عثمان ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود في المراسيل (٢٧٦) عن الزهري. وقد سلفت الإشارة إليه قريباً. وذكره مطولاً ابن سعد في الطبقات ٢/ ١١ عن الواقدي.

(٣) في أحكام القرآن ٢/ ٨٥٤.

(٤) برقم (٣١٣٠)، وهو عند أحمد (٦٠١١)، وسلف ٥/ ٣٧٤ مطولاً.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٤١٦، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٣١.

(٦) في المحرر الوجيز ٢/ ٥٣١.

في الغنائم، فعلَّق «إنْ» بقوله: «واعلموا» على هذا المعنى، أي: إن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلِّموا لأمر الله فيما أعلمكم به من حال قسمةِ الغنيمة.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ «ما» في موضع خفضٍ؛ عطفٌ على اسم الله. «يومَ الفُرْقان» أي: اليوم الذي فَرَقتُ فيه بين الحقِّ والباطل، وهو يومُ بدر[1]. ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ حِزبُ الله وحزبُ الشيطان. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ أي: أنزلنا إذ أنتم على هذه الصفة. أو يكون المعنى: واذكروا إذ أنتم. والعُدْوَة: جانب الوادي.

وقُرئ بضم العين وكسرِها[2]؛ فعلى الضمِّ يكون الجمع: عُدًى، وعلى الكسر: عِدًى، مثل: لحية ولِحًى، وفِرْية وفِرًى. والدنيا: تأنيث الأدنى. والقُصوى: تأنيث الأقصى. من دنا يدنُو، وقَصَا يقصُو. ويقال: القُصْيا، والأصل الواو[3]، وهي لغة أهل الحجاز: قُصوى.

فالدُّنيا كانت مما يلي المدينة، والقُصوى مما يلي مكة، أي: إذ أنتم نُزولٌ بشفير الوادي بالجانب الأدنى إلى المدينة، وعدوُّكم بالجانب الأقصى.

﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ يعني ركبَ أبي سفيان وغيرِه؛ كانوا في موضعٍ أَسْفَلَ منهم إلى ساحل البحر[4] فيه الأمتعة.

---

(١) أخرجه الطبري ١١/ ٢٠٠ - ٢٠٣ عن ابن عباس وعروة بن الزبير ومجاهد وقتادة وغيرهم.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر العين، والباقون بضمها. السبعة ص٣٠٦، والتيسير ص١١٦.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٨، وتفسير البغوي ١/ ٢٥٢.

(٤) تفسير الطبري ١١/ ٢٠٣.

وقيل: هي الإبل التي كانت تحمل أمتعتهم، وكانت في موضع يأمنون عليها توفيقاً من الله عزَّ وجلَّ لهم، فذكَّرهم نِعَمَه عليهم[(١)].

«الرَّكْب» ابتداء، «أسْفَلَ منكم» ظرفٌ في موضع الخبر، أي: مكاناً أسفلَ منكم. وأجاز الأخفشُ والكسائيُّ والفراءُ: والركبُ أسفلُ منكم، أي: أشدُّ تسفُّلاً منكم[(٢)].

والرَّكْبُ جمع راكب. ولا تقول العرب: رَكْب، إلا للجماعة الراكبي الإبل. وحكى ابنُ السِّكِّيت وأكثرُ أهل اللُّغة أنه لا يقال: راكب ورَكْب، إلا للذي على الإبل، ولا يقال لمن كان على فرسٍ أو غيرها: راكبٌ[(٣)]. والرَّكْب والأَرْكُب والرُّكْبان والراكبون لا يكونون إلا على جِمال؛ عن ابن فارس[(٤)].

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي: لم يكن يقع الاتفاق؛ لكثرتهم وقلَّتكم؛ فإنكم لو عرفتُم كثرتهم لتأخَّرتُم، فوفَّق الله عزَّ وجلَّ لكم[(٥)].

﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ من نصر المؤمنين وإظهار الدِّين. واللام في «لِيَقْضِيَ» متعلقةٌ بمحذوف. والمعنى: جَمَعَهم[(٦)] ليقضيَ الله، ثم كرَّرها فقال: ﴿لِيَهْلِكَ﴾ أي: جمعهم هنالك ليقضي أمراً لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ. «مَن» في موضع رفعٍ. «ويَحْيَا» في موضع نصبٍ؛ عطف على «ليهلك».

والبيِّنة: إقامة الحجة والبرهان، أي: ليموتَ مَن يموتُ عن بيِّنة رآها وعِبرة عايَنها، فقامت عليه الحجةُ. وكذلك حياةُ مَن يحيا. وقال ابن إسحاق: ليكفرَ مَن كفر

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٨ . وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٢ : والركب بإجماع من المفسرين: عِير أبي سفيان.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٨ ، وقول الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٥٤٦ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ١/ ٤١١ ، وقوله: وأجاز. . . أسفلُ منكم، يعني في اللغة، لا في القراءة.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٨ ، وقول ابن السكيت في إصلاح المنطق ص٤٦ .

(٤) في مجمل اللغة ٢/ ٣٩٦ .

(٥) تفسير الطبري ١١/ ٢٠٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٨ .

(٦) في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٨ (والكلام منه): جمعكم.

بعد حجَّة قامت عليه وقطعت عُذْرَه، ويؤمنَ مَن آمَنَ على ذلك[١].

وقرئ: ﴿مَنْ حَيِيَ﴾ بيائين على الأصل. وبياء واحدة مشدَّدة، الأولى قراءةُ أهل المدينة والبَزِّيِّ وأبي بكر. والثانية قراءةُ الباقين[٢]، وهي اختيارُ أبي عبيد؛ لأنَّها كذلك وقعت في المصحف[٣].

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾

قال مجاهد: رآهم النبيُّ ﷺ في منامه قليلاً، فقصَّ ذلك على أصحابه؛ فثبَّتهم الله بذلك[٤].

وقيل: عنى بالمنام محلَّ النوم، وهو العين، أي: في موضع منامك، فحذف. عن الحسن؛ قال الزجَّاج[٥]: وهذا مذهبٌ حسنٌ، ولكن الأول[٦] أسْوَغُ في العربية؛ لأنه قد جاء: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ فدلَّ بهذا على أنَّ هذه رؤيةُ الالتقاء، وأنَّ تلك رؤيةُ النوم.

ومعنى ﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾: لَجَبُنْتُم عن الحرب. ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ اختلفتُم. ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي: سلَّمكم من المخالفة. ابن عباس: من الفشل[٧]. ويَحتمل منهما. وقيل: «سلَّم» أي: أتمَّ أمر المسلمين بالظَّفَر[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٢٥٢، وقول ابن إسحاق في سيرة ابن هشام ١/ ٦٧٣. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٣: فالهلاك والحياة على هذا ـ أي: على قول ابن إسحاق ـ مستعارتان.

(٢) السبعة ص٣٠٦، والتيسير ص١١٦. والبزي هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة أحد راويي ابن كثير.

(٣) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٢/ ١٨٨.

(٤) أخرجه الطبري ١١/ ٢٠٩.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٤١٩.

(٦) في (د) و(م): الأولى.

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٣٢٣ دون نسبة.

(٨) أخرج الطبري ١١/ ٢١٠ نحوه عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ هذا في اليقظة. ويجوز حملُ الأُولى على اليقظة أيضاً إذا قلت: المنام موضعُ النوم، وهو العين، فتكون الأولى على هذا خاصةً بالنبيِّ ﷺ، وهذه للجميع(١).

قال ابن مسعود: قلت لإنسان كان بجانبي يومَ بدر: أتراهم سبعين؟ فقال: هم نحوُ المئة. فأسرْنا رجلاً فقلنا: كم كنتم؟ فقال: كنَّا ألفاً(٢).

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ كان هذا في ابتداء القتال حتى قال أبو جهل في ذلك اليوم: إنَّما هم أَكْلةُ جَزُور، خُذُوهم أخذاً وارْبِطُوهم بالحبال(٣). فلما أخذوا في القتال؛ عَظُم المسلمون في أعينهم فكثروا، كما قال: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣] حسب ما تقدَّم في «آل عمران» بيانُه(٤).

﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ تكرَّر هذا؛ لأنَّ المعنى في الأوّل من اللقاء، وفي الثاني من قتلِ المشركين وإعزازِ الدين، وهو إتمام النعمة على المسلمين. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: مصيرُها ومَرَدُّها إليه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي: جماعة ﴿فَٱثْبُتُوا۟﴾ أمرٌ بالثبات عند قتال الكفار، كما في الآية قبلها النَّهيُ عن الفرار عنهم، فالتقى الأمر

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤١٩ .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٤/ ٣٧٤ ، والطبري ١١/ ٢١١ .

(٣) ذكره البغوي ٢/ ٢٥٣ ، وأخرج الطبري ١١/ ٢١٢ نحوه عن السُّدِّيّ. قوله: جَزور: هو من الإبل يقع على الذكر والأنثى.

(٤) ٥/ ٣٩ .

والنهيُ على سواء. وهذا تأكيدٌ على الوقوف للعدوّ والتجلُّد له[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ للعلماء في هذا الذِّكر ثلاثةُ أقوال:

الأوّل: اذكروا اللهَ عند جَزَعِ قلوبِكم؛ فإنَّ ذِكْرَه يُعين على الثبات في الشدائد.

الثاني: أُثبُتوا بقلوبكم، واذكروا[٢] بألسنتكم؛ فإنَّ القلبَ قد يَسْكُن[٣] عند اللقاء ويضطرب اللسان، فأمرَ بالذِّكر حتى يثبتَ القلبُ على اليقين، ويثبتَ اللسانُ على الذِّكر، ويقول ما قاله أصحاب طالوت: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠]. وهذه الحالة لا تكون إلا عن قوةِ المعرفة، واتِّقاد البصيرة، وهي الشجاعةُ المحمودة في الناس.

الثالث: أُذكروا ما عندكم من وَعْد الله لكم في ابتياعه أنفسَكم ومُثامنته[٤] لكم.

قلت: والأظهرُ أنه ذِكرُ اللسان الموافقُ للجَنان. قال محمد بن كعب القُرَظِيُّ: لو رُخِّص لأحد في ترك الذِّكر لرُخِّص لزكريا، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ٤١]. ولَرُخِّص للرجل يكون في الحرب، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٥].

وقال قتادة: افترض الله جلَّ وعزَّ ذِكرَه على عباده أشغلَ ما يكونون عند الضِّراب بالسيوف. وحُكْم هذا الذِّكر أن يكون خفيًّا؛ لأنَّ رفعَ الصوت في مواطن القتال رديءٌ مكروهٌ إذا كان إلغاطاً[٦]، فأما إذا كان من الجميع عند الحملة، فحسن؛ لأنه يَفُتُّ في أعضاد العدو.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٥٥ .

(٢) في (د) و(م): واذكروه.

(٣) في (د) و(ظ) و(م): فإن القلب لا يسكن، والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٥٥ .

(٤) في (ظ): ومثابته.

(٥) سلف ٥/ ١٢٥ .

(٦) في (م): إذا كان الذاكر واحداً، ولم تجود في (د)، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٦ ، والكلام منه، وتفسير الثعالبي ٢/ ١٠١ .

وروى أبو داود عن قيس بن عُبَاد قال: كان أصحابُ رسول الله ﷺ يكرهون الصوتَ عند القتال[١]. وروى أبو بُرْدة عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ مثلَ ذلك[٢].

قال ابن عباس: يكره التلثُّم عند القتال. قال ابن عطية[٣]: وبهذا ـ والله أعلم ـ اسْتَنَّ المرابطون بطَرْحِه عند القتال على ضنانتهم[٤] به.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟﴾ هذا استمرارٌ على الوصيةِ لهم، والأخذِ على أيديهم في اختلافهم في أمر بَدْر وتنازُعِهم. ﴿فَتَفْشَلُوا۟﴾ نصب بالفاء في جواب النهي. ولا يُجيز سيبويه حذفَ الفاء والجزمَ، وأجازه الكسائيّ[٥]. وقرئ: «فتفْشِلوا» بكسر الشين. وهو غير معروف[٦].

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: قُوَّتُكم ونصرُكم، كما تقول: الريح لفلان: إذا كان غالباً في الأمر. قال الشاعر:

إذا هَبَّتْ رياحُك فاغْتَنِمْها ... فإنَّ لكلِّ خافِقَةٍ[٧] سُكونُ

وقال قتادة وابن زيد: إنه لم يكن نصرٌ قطُّ إلا بريح تهُبُّ، فتضرب في وجوه

(١) لم نقف عليه عند أبي داود، وأخرجه البيهقي ٩/ ١٥٣ من طريق أبي داود، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٤٦٢ بلفظ: كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون رفع الصوت عند ثلاث: عند القتال، وعند الجنائز، وعند الذكر. وقيس بن عباد هو الضُّبَعي، أبو عبد الله البصري، مات بعد (٨٠هـ)، ووهم مَن عدَّه من الصحابة. تقريب التهذيب ص٣٩٣ .

(٢) أخرجه البيهقي ٩/ ١٥٣ من طريق أبي داود أيضاً.

(٣) في المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٦ .

(٤) في النسخ: صيانتهم، والمثبت من المحرر الوجيز، وضن به: لم يبرحه. معجم متن اللغة (ضنن).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٩ .

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٦ ، ونسب القراءة لإبراهيم، وهي في القراءات الشاذة ص٥٠ عن الحسن، وذكرها أبو حيان في البحر ٤/ ٥٠٣ عن إبراهيم والحسن وقال: قال أبو حاتم: هذا غير معروف، وقال غيره: هي لغة.

(٧) في النسخ الخطية: عاصفة، والمثبت من (م) والمصادر، وقد سلف ٧/ ١٢٧ .

الكفار[(١)]، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهلِكَتْ عاد بالدَّبُور»[(٢)]. قال الحَكَم: «وتَذْهبَ ريحكُم» يعني الصَّبا؛ إذ بها نُصر محمد عليه الصلاة والسلام وأمّتُه. وقال مجاهد: وذهبت ريحُ أصحاب محمد ﷺ حين نازعوه يومَ أُحُد[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أمرٌ بالصبر، وهو محمودٌ في كلّ المَواطِن؛ وخاصَّةً موطنَ الحرب، كما قال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

يعني أبا جهل وأصحابَه الخارجين يوم بدر لنُصرة العِير؛ خرجوا بالقِيَان والمغنِّياتِ والمعازف، فلما وردوا الجُحْفَةَ بعث خُفَافُ الكِنانيُّ[(٤)] ـ وكان صديقاً لأبي جهل ـ بهدايا إليه مع ابنٍ له، وقال: إن شئتَ أمددتُك بالرجال، وإن شئتَ أمددتُك بنفسي مع مَن خفَّ من قومي. فقال أبو جهل: إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد؛ فوالله ما لنا بالله من طاقة، وإن كنا نقاتل الناس؛ فوالله إنَّ بنا على الناس لقوّةً، واللهِ لا نرجع عن قتال محمد حتى نَرِدَ بدراً، فنشربَ فيها الخمور، وتعزف علينا القِيان، فإن بدراً موسم من مواسم العرب، وسوقٌ من أسواقهم، حتى تسمع العرب بمخرجنا فتهابنا آخِرَ الأبد[(٥)]. فورَدُوا بدراً، ولكنْ جرى ما جرى من هلاكهم.

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٢٥٣ ، وأخرجه عن ابن زيد الطبري ١١/ ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢) أخرجه أحمد (٢٠١٣)، والبخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقد سلف ٢/ ٤٩٩ . الصَّبا: الريح الشرقية، والدَّبُور: الريح الغربية. إكمال المعلم ٣/ ٣٢٨ .

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٦ - ٥٣٧ ، وخبر مجاهد في تفسيره ١/ ٢٦٤ ، وأخرجه الطبري ١١/ ٢١٥ .

(٤) هو خفاف بن إيماء الغفاري ذكره ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ١/ ٦٢١ ، والطبري في التاريخ ٢/ ٤٤١ ، وابن كثير في البداية والنهاية ٥/ ٨٤ ، وذكروا أن الذي بعث بالهدايا هو خفاف أو أبوه إيماء ابن رحضة، وقال الحافظ في الإصابة ٣/ ١٤٧ : له ولأبيه صحبة، وتوفي في خلافة عمر أو قبل ذلك.

(٥) من قوله: والله لا نرجع عن قتال محمد...، أخرجه الطبري ١١/ ٢١٧ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

والبَطَر في اللغة: التقويةُ بنعم الله عزَّ وجلَّ وما ألبسه من العافية على المعاصي. وهو مصدرٌ في موضع الحال[١]، أي: خرجوا بَطِرين مُرائين صادِّين. وصدُّهم إضلالُ الناس.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾

رُويَ أنَّ الشيطانَ تَمثَّل لهم يومئذ في صورة سُراقةَ بن مالك بن جُعْشُم، وهو من بني بكر بن كنانة، وكانت قريش تخاف من بني بكر أن يأتوهم من ورائهم؛ لأنهم قتلوا رجلاً منهم. فلما تمثَّل لهم قال ما أخبر الله به عنه[٢].

وقال الضحاك: جاءهم إبليس يوم بدر برايته وجنوده، وألقى في قلوبهم أنهم لن يُهزموا وهم يقاتلون على دين آبائهم[٣].

وعن ابن عباس قال: أمدَّ الله نبيَّه محمداً ﷺ والمؤمنين بألفٍ من الملائكة، فكان جبريل عليه السلام في خمس مئة من الملائكة مُجنِّبة، وميكائيل في خمس مئة من الملائكة مُجنِّبة. وجاء إبليس في جند من الشياطين ومعه رايةٌ في صورة رجال من بني مُدْلِج، والشيطان في صورة سراقةَ بن مالك بن جُعْشم. فقال الشيطان للمشركين: لا غالبَ لكم اليوم من الناس وإنِّي جار لكم. فلما اصطفَّ القومُ قال أبو جهل: اللهم أَوْلانا بالحق فانصره. ورفع رسولُ الله ﷺ يده فقال: «يا رَبِّ إن تَهلك[٤] هذه العصابةُ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٩ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦١٢ . وينظر ما ذكره الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير ٩/ ٣٤ - ٣٥ عن خروج سراقة بن مالك في قومه لنصرة المشركين، ثم انخذاله عنهم بتقدير من الله عزَّ وجلَّ ليتمّ نصرُ المسلمين.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ١٦٢ .

(٤) في (خ) و(د) و(م): يا رب إنك إن تهلك.

فلن تُعبد في الأرض أبداً». فقال جبريل: «خُذْ قبضةً من التراب». فأخذ قبضة من التراب، فرمى بها وجوههم، فما من المشركين من أحد إلا أصاب عينَيْه ومِنخَرَيْه وفمه. فولَّوْا مدبرين، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس، فلما رآه وكانت[1] يده في يد رجل من المشركين، انتزع إبليس يده ثم ولى مدبراً وشِيعَتُه؛ فقال له الرجل: يا سُراقة! ألم تزعُم أنك لنا جارٌ؟ قال: إني بريءٌ منكم؛ إني أرى ما لا تَرَوْن. ذكره البيهقيُّ وغيره[2].

وفي مُوَطّأ مالك عن إبراهيم بن أبي عَبْلة، عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما رؤي الشيطانُ يوماً[3] هو فيه أصغرُ ولا أحقرُ ولا أَدْحَرُ ولا أَغْيَظُ منه في يوم عرفةَ، وما ذاك إلا لِمَا رأى[4] من تَنَزُّل الرحمةِ، وتجاوزِ الله عن الذنوب العظام، إلا ما رأى يومَ بدر». قيل: وما رأى يومَ بدرٍ يا رسول الله؟ قال «أمَا إنَّه رأى جبريلَ يَزَعُ الملائكة»[5]. ومعنى نكص: رجع، بلغة سُليم. عن مؤرِّجٍ وغيره. وقال الشاعر:

ليس النكُوصُ على الأدبار مَكْرُمَةً إنَّ المكارمَ إقدامٌ على الأَسَلِ[6]

وقال آخر:

وما ينفع المستأخرين نكوصُهمْ ولا ضرَّ أهلَ السابقاتِ التقدُّمُ[7]

---

(١) في النسخ: كانت، والمثبت من المصادر.

(٢) دلائل النبوة ٣/ ٧٨ - ٧٩ ، وأخرج بعضه الطبري ١١/ ٢٢١ ، وابن أبي حاتم ٥/ ١٧١٥ (٩١٥٧).

(٣) في (د) و(م): ما رأى الشيطان نفسه يوماً.

(٤) في النسخ الخطية: يرى.

(٥) الموطأ ١/ ٤٢٢ ، وهو مرسل من هذا الوجه، ووصله البيهقي في الشعب (٤٠٧٠) بإسناد ضعيف.
قوله: يزع الملائكة، أي: يرتبهم ويسويهم ويصفُّهم للحرب. النهاية (وزع).

(٦) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٨ ، والكلام منه. والأَسَل: الرماح والنبل. تهذيب اللغة ١٣/ ٧٥ .

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٣٢٥ .

وليس هاهنا قَهقَرى بل هو فرار، كما قال: «إذا سَمِع الأذانَ أدبرَ وله ضُراط»[١].

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ قيل: خاف إبليس أن يكونَ يومُ بدر اليومَ الذي أُنْظِر إليه. وقيل: كذب إبليسُ في قوله: إني أخاف الله، ولكنْ عَلم أنه لا قوةَ له[٢].

ويُجمع جار على أجوار وجِيران، وفي القليل: جِيرة[٣].

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

قيل: المنافقون: الذين أظهروا الإيمانَ وأبطنوا الكفرَ، والذين في قلوبهم مرض: الشاكُّون، وهم دون المنافقين؛ لأنهم حديثو عهد بالإسلام، وفيهم بعضُ ضعفِ نيةٍ. قالوا عند الخروج إلى القتال وعند التقاء الصفَّين: غَرَّ هؤلاءِ دينُهم.

وقيل: هما واحد، وهو أَوْلى، ألا ترى إلى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٣و٤] وهما لواحد[٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾

قيل: أراد مَن بقيَ[٥] ولم يُقتل يومَ بدر. وقيل: هي فيمن قُتل ببدر.

وجواب «لو» محذوف، تقديره: لرأيتَ أمراً عظيماً. ﴿يَضْرِبُونَ﴾ في موضع الحال[٦].

---

(١) سلف ٨/ ٧١.

(٢) وهذا قول قتادة كما أخرجه عنه الطبري ١١/ ٢٢٣، والقول الذي قبله ذكره الزجاج في معاني القرآن ٢/ ٤٢١، ونقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٩ وقال: ويقويه أنه ـ أي إبليس ـ رأى خَرْق العادة ونزول الملائكة للحرب.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩٠.

(٤) المصدر السابق.

(٥) في (ظ): يتوفى.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩٠.

﴿وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ أي: أستاهَهم، كَنَى عنها بالأدبار. قاله مجاهد وسعيد بن جُبير[١]. الحسن: ظهورهم، وقال: إنَّ رجلاً قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، إنِّي رأيت بظهر أبي جهلٍ مثلَ الشِّراك! قال: «ذلك ضربُ الملائكة»[٢].

وقيل: هذا الضرب يكون عند الموت، وقد يكون يومَ القيامة حين يصيرون بهم إلى النار[٣].

﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ قال الفرَّاء[٤]: المعنى: ويقولون: ذوقوا، فحذف. وقال الحسن: هذا يومَ القيامة، تقول لهم خَزَنَةُ جهنم: ذوقوا عذابَ الحريق. ورُوِيَ[٥] في بعض التفاسير: أنه كان مع الملائكة مقامِعُ من حديد، كلَّما ضَربوا الْتَهبتْ النارُ في الجراحات، فذلك قوله: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[٦].

والذَّوق يكون محسوساً ومعنًى، وقد يوضع موضعَ الابتلاء والاختبار، تقول: اِركب هذا الفرسَ فذُقْه، وانظر فلاناً فذُقْ ما عنده. قال الشمَّاخ يصف قوساً[٧]:

فذاق فأعطَتْهُ من اللِّين جانباً كفَى ولها أنْ يُغْرِقَ السهمَ حاجِزُ[٨]

وأصله من الذَّوْق بالفم.

---

(١) أخرجه عنهما الطبري ١١/ ٢٣٠ .

(٢) أخرجه الطبري ١١/ ٢٣٠ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩٠ .

(٤) في معاني القرآن ١/ ٤١٣ .

(٥) في النسخ غير (ظ): ورُوي أنَّ.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٢٥٦ .

(٧) في النسخ: فرساً، والصواب ما أثبتناه.

(٨) ديوان الشماخ ص١٩٠ ، والمعاني الكبير ٢/ ١٠٤٢ ، وتهذيب اللغة ٩/ ٢٦٣ ، ومقاييس اللغة ٢/ ٣٦٥ .
قال ابن قتيبة: ذاق يعني: راز ونظر. كفى، أي: وكفى ذلك اللين منها، وإن أراد أن يغرق النبل فيها منعت ذلك، أي: فيها لين وشدة. وقال ابن فارس: يقال: ذاق القوس: إذا نظر ما مقدارُ إعطائها، وكيف قوتُها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ في موضع رفع، أي: الأمرُ ذلك. أو: ذلك جزاؤكم. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: اكتسبتم من الآثام. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ إذ قد أوضح السبيلَ وبعث الرسلَ، فلِمَ خالفتُم؟

و«أنَّ» في موضع خفضٍ عطف على «ما»، وإنْ شئت نَصَبْتَ، بمعنى: وبأنَّ، وحذفت الباء، أو بمعنى: وذلك أنَّ الله. ويجوز أن يكون في موضع رفعٍ نسقاً على ذلك[١].

قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾

الدَّأْبُ: العادة. وقد تقدَّم في «آل عمران»[٢]، أي: العادةُ في تعذيبهم عند قَبْضِ الأرواح وفي القبور كعادة آل فرعون[٣]. وقيل: المعنى: جُوزيَ هؤلاء بالقتل والسَّبْي كما جُزيَ آلُ فرعون بالغرق، أي: دأبُهم كدأب آل فرعون[٤].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

تعليلٌ، أي: هذا العقاب؛ لأنهم غيَّروا وبدَّلوا، ونعمةُ الله على قريش الخِصْبُ والسَّعَة، والأمن والعافية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ الآية [العنكبوت: ٦٧] وقال السُّدّيّ: نعمةُ الله عليهم محمدٌ ﷺ، فكفروا به، فنُقل إلى المدينة، وحَلَّ بالمشركين العقابُ[٥].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩١ .

(٢) ٥/ ٣٥ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩١ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٢٠ .

(٥) أخرجه الطبري ١١/ ٢٣٣ .

قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

ليس هذا بتكرير؛ لأنَّ الأوّلَ للعادة في التعذيب[1]، والثاني للعادة في التغيير، وباقي الآية بيِّن.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ اللَّهِ﴾ أي: مَنْ يَدِبُّ على وجه الأرض في علم الله وحُكمِه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. نظيره: ﴿الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]. ثم وصَفَهم فقال: ﴿الَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أي: لا يخافون الانتقامَ.

و«مِن» في قوله «منهم» للتبعيض؛ لأنَّ العهدَ إنما كان يجري مع أشرافهم، ثم ينقضونه. والمعنيُّ بهم: قُريظةُ والنَّضِيرُ؛ في قول مجاهد وغيره[2]. نقضوا العهدَ، فأعانوا مشركي مكةَ بالسلاح، ثم اعتذروا فقالوا: نسينا، فعاهدهم عليه الصلاة والسلام ثانيةً، فنقضوا يومَ الخندق[3].

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

شرطٌ وجوابه. ودخلت النون توكيداً لمَّا دخلت «ما»؛ هذا قول البصريين. وقال الكوفيون: تدخل النونُ الثقيلةُ والخفيفةُ مع «إمَّا» في المجازاة؛ للفَرْق بين المجازاة والتخيير[4].

---

(١) في النسخ: التكذيب، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩١ ، والكلام منه.

(٢) أخرجه الطبري ١١/ ٢٣٥ بذكر بني قريظة فقط، وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٢ : أجمع المتأولون أن الآية نزلت في بني قريظة، وهي بعدُ تعمُّ كلَّ مَن اتَّصف بهذه الصفة إلى يوم القيامة.

(٣) ذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٣ عن ابن عباس، وذكره البغوي ٢/ ٢٥٧ عن مقاتل والكلبي.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩١ .

ومعنى «تثقفنَّهم»: تأسِرُهم وتجعلُهم[١] في ثِقَاف، أو تلقاهم بحالِ ضَعْفٍ تَقْدِرُ عليهم فيها وتغلبُهم. وهذا لازمٌ من اللفظ؛ لقوله: «في الحرب»[٢].

وقال بعض الناس: تصادفُهم[٣] وتلقاهم؛ يقال: ثَقِفْتُه أَثْقَفُه ثَقْفاً، أي: وجدتُه. وفلانٌ ثَقِفٌ لَقِفٌ، أي: سريع الوجود لِمَا يحاولُه ويطلبُه. وثَقْفٌ لَقْفٌ. وامرأة ثَقَاف[٤].

والقولُ الأوّلُ أَوْلى؛ لارتباطه بالآية[٥] كما بيَّنَّا. والمصادَف قد يُغلَب؛ فيُمْكِن التشريدُ به، وقد لا يُغلب. والثِّقَاف في اللغة: ما تُشدُّ به القناة ونحوُها[٦]. ومنه قول النابغة:

تدعو قُعَيناً وقد عَضَّ الحديدُ بها   عَضَّ الثِّقافِ على صُمِّ الأنابيبِ[٧]

﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ قال سعيد بن جُبير: المعنى: أنذِرْ بهم مَن خَلْفَهُم[٨]. قال أبو عبيد: هي لغة قريش؛ شَرِّدْ بهم: سَمِّعْ بهم. وقال الضحاك: نَكِّلْ بهم[٩]. الزجاج[١٠]: افْعَلْ بهم فِعْلاً من القتل تُفرِّقْ به مَن خَلْفَهُم.

والتشريد في اللغة: التبديدُ والتفريق؛ يقال: شرَّدتُ بني فلان: قلعتُهم عن

---

(١) في (ظ): وتحصلهم.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٢ .

(٣) في النسخ غير (د): تصادفنَّهم.

(٤) أي: فَطِنة. القاموس (ثقف)، والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٦٠ .

(٥) في (خ): لارتباط الآية.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٢ ، وقال الجوهري في الصحاح (درب): الثقاف خشبة تشد بها الرماح.

(٧) ديوان النابغة الذبياني ص١٦ . عض الثقاف بأنابيب الرمح، وعض عليها: لزمها. معجم متن اللغة ٤/ ١٣٠ وقُعين حي في بني أسد، وقُعين أيضاً في قيس بن عيلان. اللسان (قعن).

(٨) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٢٦١ ، والطبري ١١/ ٢٣٧ .

(٩) معاني القرآن للنحاس ٣/ ١٦٤ ، وقول الضحاك أخرجه الطبري ١١/ ٢٣٨ .

(١٠) في معاني القرآن له ٢/ ٤٢٠ .

مواضعهم وطردتُهم عنها حتى فارقوها. وكذلك الواحد: تقول: تركتُه شريداً عن وطنه وأهله؛ قال الشاعر من هُذيل[١]:

أُطَــوِّفُ فــي الأبــاطــحِ كــلَّ يــومٍ ... مــخــافــةَ أن يُــشــرِّدَ بــي حــكِــيــمُ[٢]

ومنه: شَرَدَ البعير والدابَّة: إذا فارقَ صاحبه. و«مَن» بمعنى الذي؛ قاله الكسائيّ[٣].

ورويَ عن ابن مسعود: «فشَرِّذ» بالذال المعجَمَة[٤]، وهما لغتان. وقال قُطْرُب: التشريذ بالذال المعجمة: التنكيل، وبالدال المهملة: التفريق. حكاه الثعلبيُّ. وقال المَهْدَوِيّ: الذال لا وجه لها، إلا أن تكون بدلاً من الدال المهملة لتقارُبهما، ولا يُعرف في اللغة «فشرذ»[٥].

وقرئ: «مِن خَلْفِهم» بكسر الميم والفاء[٦].

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: يتذكَّرون تَوعُّدَك[٧] إياهم. وقيل: هذا يرجع إلى «مَن خَلْفَهم»؛ لأنَّ مَن قُتل لا يتذكر، أي: شرِّد بهم مَنْ خلفَهم: مَن عَمِلَ بمثل عملِهم.

---

(١) كذا قال، والشاعر من قريش كما سيرد، وليس من هذيل.

(٢) في (د): يشرِّدني حكيم، وهي رواية، والبيت قائله الحارث بن أمية الأصغر كما في أخبار مكة للأزرقي ٢/ ٢٤٢، وأخبار مكة للفاكهي ٣/ ٢٨١، والمنمق لابن حبيب ص٢٨٦. وحكيم هو ابن أميةَ ابنِ حارثة السلمي حليف بني أمية، وكانت قريش قد استعملته على سفهائها، فأحدث الحارث بن أمية الأصغر حدثاً، فطلبه حكيم ففرَّ منه، فهدم داره، فقال الحارث هذا البيت. وذكره ياقوت في معجم البلدان ٥/ ١٤٧ برواية: أطوف بالمطابخ، وقال: المطابخ موضع في مكة مذكور في قصة تبع. وقال ابن الأثير في أسد الغابة ٢/ ٤٣: حكيم بن أمية أسلم قديماً بمكة.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩١.

(٤) القراءات الشاذة ص٥٠، وذكرها ابن جني في المحتسب ١/ ٢٨٠ عن الأعمش.

(٥) قال نحوه ابن جني في المحتسب ١/ ٢٨٠، وقال الزمخشري في الكشاف ٢/ ١٦٥: وكأنه مقلوبُ شَذَر من قولهم: ذهبوا شَذَر مَذَر، ومنه الشَّذَر الملتقط من المعدن لتفرُّقه.

(٦) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٥٠ عن أبي حَيْوة. قال أبو حيان في البحر ٤/ ٥٠٩: مفعول فشرد محذوف، أي: ناساً من خلفهم.

(٧) في (د): توعد، وفي باقي النسخ: بوعدك، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩٢ والكلام منه.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ أي: غِشًّا ونقضاً للعهد. ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ وهذه الآية نزلت في بني قُريظة[(١)]، وحكاه الطبري[(٢)] عن مجاهد. قال ابن عطية[(٣)]: والذي يظهر من ألفاظ القرآن أنَّ أمر بني قريظة انقضى عند قوله: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾، ثم ابتدأ تبارك وتعالى في هذه الآية بأمره فيما يصنعه في المستقبل مع مَن يَخافُ منه خيانة [إلى سالف الدهر، وبنو قريظة لم يكونوا في حدِّ مَن تُخاف خيانتُه] فتترتَّبَ فيهم هذه الآية، وإنما كانت خيانتُهم ظاهرةً [مُشْتَهِرة].

الثانية: قال ابن العربيّ[(٤)]: فإن قيل: كيف يجوز نقضُ العهد مع خوف الخيانة، والخوفُ ظنٌّ لا يقينَ معه، فكيف يسقط يقينُ العهد مع ظنِّ[(٥)] الخيانة؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنَّ الخوفَ قد يأتي بمعنى اليقين، كما قد يأتي الرجاء بمعنى العلم، قال الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

الثاني: إذا ظهرت آثارُ الخيانة وثبتت دلائلُها؛ وَجَب نبذُ العهد؛ لئلّا يُوْقِع التمادي عليه في الهَلَكة، وجاز إسقاطُ اليقين هنا [بالظن] ضرورة.

وأما إذا عُلم اليقين؛ فيستغنَى عن نبذ العهد إليهم، وقد سار النبيُّ ﷺ إلى أهل مكة عامَ الفتح؛ لمَّا اشْتَهر منهم نقضُ العهد من غير أن ينبِذ إليهم عهدَهم.

---

(١) بعدها في (م): وبني النضير.

(٢) في تفسيره ١١/ ٢٣٩ .

(٣) في المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٣ ، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في أحكام القرآن ٢/ ٨٦٠ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٥) في أحكام القرآن: بظن، بدل: مع ظن.

والنَّبْذُ: الرَّمْيُ والرَّفْض. قال الأزهريّ[١]: معناه: إذا عاهدتَ قوما، فَخِفْتَ[٢] منهم النقضَ بالعهد، فلا تُوْقِع بهم سابقاً إلى النقض حتى تُلقيَ إليهم أنك قد نقضتَ العهد والمُوادَعة؛ فيكونوا [معك] في علم النقض مستوين، ثم أَوْقِع بهم.

قال النحاس: هذا مِنْ مُعْجِز ما جاء في القرآن، مما لا يوجد في الكلام مثلُه على اختصاره وكثرة معانيه. والمعنى: وإما تخافَنَّ من قوم - بينك وبينهم عهدٌ - خيانةً، فانبِذْ إليهم العهد، أي: قُلْ لهم: قد نبذتُ إليكم عهدَكم، وأنا مُقاتِلُكم؛ ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواءً، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهدٌ وهم يثقون بك[٣]؛ فيكون ذلك خيانةً وغدراً، ثم بيَّن هذا بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.

قلت: ما ذكره الأزهريُّ والنحاس من إنباذ العهد مع العلم بنقضه يردُّه فعلُ النبيِّ ﷺ في فتح مكة؛ فإنهم لمَّا نقضوا؛ لم يوجِّه إليهم، بل قال: «اللَّهُمَّ اقْطَعْ خَبرَنَا عنهم»[٤]. وغزاهم. وهو أيضاً معنى الآية؛ لأنَّ في قطع العهد منهم ونكثه مع العلم به حصولَ نقضِ عهدِهم والاستواءَ معهم، فأما مع غير العلم بنقض العهد منهم، فلا يَحِلُّ ولا يجوز.

روى الترمذِيُّ وأبو داود عن سُلَيْم بن عامر قال: كان بين معاويةَ والرومِ عهدٌ،

---

(١) في تهذيب اللغة ١٤/ ٤٤١ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) في النسخ: فعلمتَ، والمثبت من تهذيب اللغة، وهو الأشبه، وقد نقل الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٢٧٩ كلام الأزهري هذا، وفيه: فخشيت.

(٣) في (د) و(ز) و(ظ): يتقونك.

(٤) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وهو بنحوه في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٩٧ ، وطبقات ابن سعد ٢/ ١٣٤ والثقات لابن حبان ٢/ ٤٠ ، وتاريخ الطبري ٣/ ٤٧ ، وأخرج نحوه البيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٧ من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، و ٥/ ١١ عن موسى بن عقبة. والطبراني في الكبير ٢٣/ (١٠٥٢) من حديث ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها. قلنا: وما ذكره المصنف عن الأزهري والنحاس من إنباذ العهد مع العلم بنقضه، فإن قولهما إنما هو في حال الخوف من الخيانة وتوقُّعها كما سلف ذكر ذلك عنهما، وليس في حال العلم بحصولها - كما كان عليه الحال في فتح مكة - فلا يخالف قولُهما فعلَ رسول الله في فتح مكة. وينظر أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ١٦٢ .

وكان يسيرُ نحو بلادهم ليقرُب؛ حتى إذا انقضى العهدُ غزاهم؛ فجاءه رجلٌ على فرسٍ أو بِرْذَوْنٍ وهو يقول: الله أكبر، الله أكبر، [وفاءٌ لا غدرٌ]. فنظروا؛ فإذا هو عمرو بن عَبَسَة[١]، فأرسل إليه معاويةُ فسأله، فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ كان بينه وبين قومٍ عهدٌ، فلا يشدَّ عُقْدَةً ولا يَحُلَّها حتى ينقضيَ أمدُها، أويَنبِذَ إليهم على سواء». فرجع معاوية بالناس. قال الترمذيُّ: هذا حديث حسن صحيح[٢]. والسَّواء: المساواة والاعتدال.

وقال الراجز:

فـاضْـرِبْ وجـوهَ الـغُـدَّرِ الأعـداءِ حـتـى يُـجـيـبـوك إلـى الـسَّـوَاءِ[٣]

وقال الكسائيُّ: السَّواء: العَدْل[٤]. وقد يكون بمعنى الوَسَط، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥]. ومنه قول حسان[٥]:

يـا وَيْـحَ أنـصـارِ[٦] الـنَّـبـيِّ ورَهْـطِـهِ بـعـدَ الـمُـغَـيَّـبِ فـي سـواء الـمُـلْـحَـدِ

الفرّاء[٧]: ويقال: «فَانْبِذْ إِلَيهِمْ عَلَى سَوَاءٍ»: جَهْراً لا سِرًّا.

الثالثة: روى مسلم عن أبي سعيد الخُدرِيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «لكلِّ غادرٍ لواءٌ يوم القيامة؛ يُرفع له بقَدْر غَدْرِه[٨]، ألَا ولا غادِرَ أعظمُ غَدْراً من أميرِ عامَّةٍ»[٩].

---

(١) في النسخ: عنبسة، والصواب ما أثبتناه.

(٢) سنن الترمذي (١٥٨٠)، وسنن أبي داود (٢٧٥٩)، وما بين حاصرتين منهما. وهو عند أحمد (١٧٠١٥)، والنسائي في الكبرى (٨٦٧٩).

(٣) هو في غريب الحديث للخطابي ٢/ ١٨٧ ، وأحكام القرآن للجصاص ٣/ ٦٧ ، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٤٤ والكلام منه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩٢ .

(٥) في ديوانه ص٥٨ ، وسلف ٢/ ٣١٢ .

(٦) في (د) و(ز) و(م): أصحاب.

(٧) في معاني القرآن ١/ ٤١٤ .

(٨) في (ظ) و(د): غدرته.

(٩) صحيح مسلم (١٧٣٨)، وهو عند أحمد (١١٤٢٧).

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: إنما كان الغدرُ في حقِّ الإمام أعظمَ وأفحشَ منه في غيره لِمَا في ذلك من المَفْسَدة؛ فإنَّهم إذا غدَروا وعُلم ذلك منهم ولم ينبِذوا بالعهد، لم يأمنهم العدوُّ على عهد ولا صلح، فتشتدُّ شوكتُه ويعظُمُ ضررُه، ويكون ذلك منفِّراً عن الدخول في الدِّين، وموجباً لذمِّ أئمة المسلمين. فأمَّا إذا لم يكن للعدوِّ عهدٌ، فينبغي أن يُتحيَّلَ عليه بكل حيلة، وتُدارَ عليه كلُّ خديعة. وعليه يُحمل قولُه ﷺ: «الحرب خُدْعة»[1].

وقد اختلف العلماء؛ هل يُجاهَد مع الإمام الغادر؛ على قولين؛ فذهب أكثرُهم إلى أنه لا يقاتَل معه، بخلاف الخائن والفاسق. وذهب بعضهم إلى الجهاد معه. والقولان في مذهبنا[2].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوٓاْ﴾ أي: مَنْ أفلتَ من وقعة بدر سَبَقَ إلى الحياة. ثم استأنف فقال: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أي: في الدنيا حتى يُظْفِرك الله بهم. وقيل: يعني في الآخرة. وهو قول الحسن.

وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة: «يَحْسَبَنَّ» بالياء، والباقون بالتاء[3]، على أنْ يكون في الفعل ضميرُ الفاعل، و«الذين كفروا» مفعول أوّل، و«سَبَقُوا» مفعول ثان.

وأما قراءة الياء فزَعَم جماعة من النحويين ـ منهم أبو حاتم ـ أنَّ هذا لحنٌ لا تَحِلُّ القراءة به، ولا يُسمع[4] لمن عَرَف الإعراب أو عُرِّفه[5]. قال أبو حاتم: لأنه لم يأت

---

(١) المفهم ٣/ ٥٢١ ، والحديث أخرجه أحمد (١٤١٧٧)، والبخاري (٣٠٣٠)، ومسلم (١٧٣٩) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. وقوله: خُدعة؛ يُروى بفتح الخاء وضمها مع سكون الدال، وبضمها مع فتح الدال. النهاية (خدع).

(٢) المفهم ٣/ ٥٢١ .

(٣) وفتحَ السين من قرأ بالياء، وكسرَها من قرأ بالتاء، غير شعبة، فإنه فتحَها. السبعة ص٣٠٧ ، والتيسير ص١١٧ .

(٤) في النسخ: ولا تسع، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩٢ والكلام منه.

(٥) في (ظ): أو فرقه.

لـ «يحسبنَّ» بمفعول، وهو يحتاج إلى مفعولين. قال النحاس[١]: وهذا تَحامُلٌ شديد، والقراءة تجوز، ويكون المعنى: ولا يحسبنَّ مَن خَلْفَهم الذين كفروا سبقوا، فيكون الضمير يعود على ما تقدَّم، إلا أنَّ القراءة بالتاء أَبْيَن.

المَهْدوِيُّ: ومَن قرأ بالياء احْتَمَل أن يكون في الفعل ضميرُ النبيِّ ﷺ، ويكون «الذين كفروا سبقوا» المفعولين. ويجوز أن يكون «الذين كفروا» فاعلاً، والمفعول الأوّل محذوف، المعنى: ولا يحسبن الذين كفروا أنفُسَهم سبقوا.

مَكِّي[٢]: ويجوز أن يُضمَر مع «سبقوا»: أنْ، فيسدّ مسدَّ المفعولين، والتقدير: ولا يحسبنَّ الذين كفروا أنْ سبقوا؛ فهو مثل: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ [العنكبوت: ٢] في سدِّ أنْ مسدَّ المفعولين.

وقرأ ابن عامر: «أَنَّهم لا يُعجزون» بفتح الهمزة[٣]، واستبعد هذه القراءةَ أبو حاتم وأبو عُبيد. قال أبو عبيد: وإنَّما يجوز على أن يكون المعنى: ولا تحسبنَّ الذين كفروا أنهم لا يُعجزون. قال النحاس[٤]: الذي ذكره أبو عبيد لا يجوز عند النحويين البصريين، [لا يجوز:] حسبت زيداً أنه خارج، إلا بكسر إنَّ[٥]، وإنما لم يجز لأنه في موضع المبتدأ[٦]، كما تقول: حسبت زيداً [أبوه خارج. ولو فتحتَ لصار المعنى: حسبت زيداً] خروجَه. وهذا محال. وفيه أيضاً من البعد أنه لا وجهَ لِمَا قاله يصحُّ به معنًى، إلا أن يجعل «لا» زائدة، ولا وجهَ لتوجيه حرفٍ في كتاب الله عزَّ وجلَّ إلى التطوُّل[٧] بغير حجة يجب التسليمُ لها. والقراءة جيدةٌ على أن يكون المعنى: لأنهم لا يعجزون.

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ١٩٢ .

(٢) في الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٤٩٥ .

(٣) السبعة ص٣٠٨ ، والتيسير ص١١٧ .

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ١٩٣ ، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٥) في (د) و(م): بكسر الألف.

(٦) يعني أن مفعول حسب إذا كان جملة وكان مفعولاً ثانياً، كانت إن فيه مكسورة؛ لأنه موضع ابتداء وخبر. الدر المصون ٥/ ٦٢٦ .

(٧) يعني الزيادة. ينظر حاشية تفسير الطبري بتحقيق الشيخ محمود شاكر رحمه الله ١٤/ ٣٠ .

مَكِّيٌّ[١]: فالمعنى: لا يحسبنَّ الكفارُ أنفسَهم فاتوا لأنهم لا يُعْجِزون، أي: لا يفوتون. فـ «أنَّ» في موضع نصبٍ بحذفِ اللام، أو في موضع خفضٍ على إعمال اللام؛ لكثرة حَذْفِها مع «أنَّ»، وهو يُروَى عن الخليل والكسائيِّ. وقرأ الباقون بكسر «إن» على الاستئناف والقطعِ مما قبله، وهو الاختيار؛ لِمَا فيه من معنى التأكيد، ولأن الجماعة عليه.

ورُوِيَ عن ابن مُحَيْصِن أنه قرأ: «لا يُعجِّزونِ» بالتشديد وكسر النون. النحاس[٢]: وهذا خطأ من وجهين: أحدهما: أن معنى عجَّزه: ضعَّفه وضعَّف أمره. والآخَر: أنه كان يجب أن يكون بنونين[٣]. ومعنى أعجزه: سبقَه وفاتَه حتى لم يقدر عليه.

قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾ أمرَ الله سبحانه المؤمنين بإعداد القوَّة[٤] للأعداء بعد أن أكَّد تَقْدِمةَ التقوى. فإنَّ الله سبحانه لو شاء لهزمهم بالكلام، والتَّفْلِ في وجوههم، وبحَفْنة من تراب كما فعل رسولُ الله ﷺ[٥]. ولكنَّه أراد أن يبتَلِيَ بعضَ

---

(١) في الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٤٩٤.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ١٦٥ - ١٦٦، وما قبله منه.

(٣) قال أبو حيان في البحر ٤/ ٥١١ : أما كونه بنون واحدة فهو جائز لا واجب، وقد قرئ به في السبعة [يعني في مواضع]. وأما عجَّزني مشدَّداً فذكر صاحب اللوامح أن معناه: بطَّأ وثبَّط، قال: وقد يكون بمعنى: نسبني إلى العجز، والتشديدُ في هذه القراءة من هذا المعنى، فلا تكون القراءة خطأ كما ذكر النحاس.

(٤) في (خ): العدة.

(٥) سلف ص٤٣ من هذا الجزء.

الناس ببعض بعلمه السابق وقضائه النافذ[١]. وكلُّ ما تُعِدُّه لصديقك من خير، أو لعدوّك من شرّ، فهو داخل في عُدَّتك. قال ابن عباس: القوّة هاهنا السلاح والقِسِيّ[٢].

وفي «صحيح» مسلم[٣] عن عقبةَ بن عامر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ وهو على المِنْبر يقول: «وأعِدُّوا لهم ما استطعتُم من قوة، ألَا إنَّ القوةَ الرّميُ، ألَا إنَّ القوةَ الرّميُ، ألَا إنَّ القوةَ الرّميُ». وهذا نصٌّ رواه عن عقبةَ أبو عليٍّ ثمامةُ بن شُفَيٍّ الهَمْداني[٤]، وليس له في الصحيح غيره[٥].

وحديث آخر في الرّمي عن عقبة أيضاً قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ستُفتَحُ عليكم أرَضُونَ، ويكفيكم الله، فلا يَعْجِزْ أحدُكم أن يَلهُوَ بأسْهُمِه»[٦].

وقال ﷺ: «كلُّ شيء يَلْهُو به الرجلُ باطلٌ إلا رَمْيَه بقوسه، وتأديبَه فرسَه، وملاعَبَتَهُ أهلَه، فإنه من الحقّ»[٧]. ومعنى هذا والله أعلم: أنَّ كلَّ ما يتلهَّى به الرجل مما لا يفيده في العاجل ولا في الآجل فائدةً، فهو باطل، والإعراضُ عنه أوْلى. وهذه الأمور الثلاثة، فإنه وإن كان يفعلها على أنه يتلهَّى بها ويَنْشَط، فإنها حقٌّ لاتصالها بما قد يفيد، فإنَّ الرميَ بالقوس وتأديبَ الفرس جميعاً من مَعاوِن القتال. وملاعبة الأهل

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٦١ .

(٢) أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه كما في الدر المنثور ٣/ ١٩٢ بنحوه، وقِسِيّ جمع قوس.

(٣) برقم (١٩١٧)، وهو عند أحمد (١٧٤٣٢).

(٤) الأُخْروجي، ويقال: الأصبحي، المصري، سكن الإسكندرية، توفي في خلافة هشام بن عبد الملك قبل العشرين ومئة. التهذيب ١/ ٢٧٤ .

(٥) كذا قال المصنف، إلا أن مسلماً قد روى له في الجنائز أيضاً (٩٦٨) عن فضالة بن عبيد. وينظر رجال صحيح مسلم لابن مَنْجُويه ١/ ١١١ .

(٦) أخرجه أحمد (١٧٤٣٣)، ومسلم (١٩١٨). قوله: «فلا يعجز أحدكم أن يلهوَ بأسهمه»، أي: يجعل الرمي بدلاً من اللهو، فيندرج عليه ويشتغل به حتى لا ينساه ولا يغفل عنه فيأثم. المفهم ٣/ ٧٦٠ .

(٧) أخرجه أحمد (١٧٣٠٠)، وأبو داود (٢٥١٣)، والترمذي (١٦٣٧)، والنسائي في المجتبى ٦/ ٢٢٢-٢٢٣ من حديث عقبة أيضاً ﷺ. قال الترمذي: حسن صحيح.

قد تؤدِّي إلى ما يكون عنه ولدٌ يوحِّد الله ويعبده؛ فلهذا كانت هذه الثلاثةُ من الحقّ[١].

وفي «سنن» أبي داود والترمذيِّ والنسائيِّ عن عقبة بن عامر عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ الله يُدخل ثلاثةَ نفر الجنةَ بسهم واحد؛ صانعَه يحتسب في صنعته الخيرَ، والرامِيَ، ومُنَبِّلَه»[٢].

وفضلُ الرّمي عظيم، ومنفعتُه عظيمة للمسلمين، ونِكايتُه شديدة على الكافرين. قال ﷺ: «يا بني إسماعيل، اِرْمُوا، فإنَّ أباكم كان رامياً»[٣]. وتعلُّمُ الفروسِيّة واستعمالِ الأسلحة فرضُ كفاية، وقد يتعيَّن.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ وقرأ الحسن وعمرو بن دِينار وأبو حَيْوَةَ: «ومِن رُبُط الخيل» بضمِ الراء والباء، جمع رِباط، ككتاب وكُتُب[٤].

قال أبو حاتم عن أبي زيد[٥]: الرِّباط من الخيل: الخَمْسُ فما فوقها، وجماعته رُبُط. وهي التي تُرتَبَط؛ يقال منه: رَبَط يَرْبِط رَبْطاً، وارتبط يرتبط ارتباطاً. ومَرْبِطُ الخيل ومَرابِطُها: وهي ارتباطُها بإزاء العدوّ. قال الشاعر[٦]:

أَمَـرَ الإلـهُ بِـرَبْـطِـهـا لِـعَـدُوِّه ... فـي الـحـرب إنَّ الـلـه خـيـرُ مـوفِّـقِ

وقال مكحول بن عبد الله.

تـلـومُ عـلـى رَبْـطِ الـجِـيـاد وحَـبْـسِـهـا ... وأَوْصَـى بـهـا الـلـهُ الـنـبـيَّ مـحـمـداً[٧]

(١) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ٣/ ٩٠، وشعب الإيمان للبيهقي إثر الحديث (٦٤٩٦).

(٢) سنن أبي داود (٢٥١٣)، وسنن الترمذي (١٦٣٧)، وسنن النسائي (المجتبى) ٦/ ٢٢٢، وهو عند أحمد (١٧٣٠٠)، وقد سلفت قطعة منه قريباً.

(٣) أخرجه أحمد (١٦٥٢٨)، والبخاري (٢٨٩٩) من حديث سلمة بن الأكوع، وسلف ٦/ ١٠٣.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٦، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٥٠ عن الحسن.

(٥) في (م): عن ابن زيد، والكلام في التمهيد ٤/ ٢٠٥.

(٦) هو كعب بن مالك، والبيت في ديوانه ص١٩٦، والتمهيد ٤/ ٢٠٥.

(٧) ذكره ابن عبد البر في التمهيد ٤/ ٢٠٦.

ورباط الخيل فضلٌ عظيم ومنزلة شريفة. وكان لعُروةَ البارقيِّ سبعون فرساً مُعَدَّةً للجهاد[(١)]. والمستحَبُّ منها الإناث؛ قاله عكرمة وجماعة. وهو صحيح؛ فإن الأنثى بطنها كنز وظهرُها عِزٌّ. وفرس جبريل كان أنثى[(٢)].

وروى الأئمةُ عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «الخيل ثلاثة؛ لرجلٍ أجرٌ، ولرجلٍ سترٌ، ولرجلٍ وِزرٌ» الحديث[(٣)]. ولم يخصَّ ذكَراً من أنثى. وأجودُها أعظمُها أجراً وأكثرها نفعاً.

وقد سئل رسولُ الله ﷺ: أيُّ الرِّقاب أفضلُ؟ فقال: «أغلاها ثمناً، وأنْفَسُها عند أهلها»[(٤)].

وروى النَّسائيُّ عن أبي وَهْب الجُشَمِيِّ ـ وكانت له صحبة ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «تسمَّوا بأسماء الأنبياء، وأحبُّ الأسماء إلى الله عزَّ وجلَّ عبدُ الله وعبدُ الرحمن، وارتَبِطوا الخيلَ، وامسحُوا بنَواصيها وأكْفالها، وقلِّدوها ولا تقلِّدوها الأوتار، وعليكم بكلِّ كُمَيْتٍ أغرَّ مُحَجَّل، أو أشقرَ أغرَّ محجَّل، أو أدهمَ أغرَّ مُحَجَّل»[(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد إثر الحديث (١٩٣٥٥)، والبخاري إثر الحديث (٣٦٤٣) دون قوله: معدة للجهاد.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٦٣ .

(٣) سلف ٥/ ٥٢ .

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢١٣٣١)، والبخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤) عن أبي ذر ﷺ.

(٥) سنن النسائي (المجتبى) ٦/ ٢١٨ - ٢١٩ ، وهو عند أحمد (١٩٠٣٢)، وأبي داود (٢٥٤٣) و(٢٥٥٣). وهو من طريق محمد بن مهاجر، عن عقيل بن شبيب، عن أبي وَهْب به.
قال الذهبي في الميزان ٣/ ٨٨ : عقيل بن شبيب عن أبي وهب الجشمي، لا يعرف هو ولا الصحابي إلا بهذا الحديث. وقال ابن القطان في بيان الوهم والإيهام ٤/ ٣٨٠ : وعقيل المذكور غير معروف الحال، وكلُّ مَن رأيته ذكر أبا وهب في الصحابة فإنما ذكره بهذا الذي قال فيه عقيل هذا. وينظر علل ابن أبي حاتم ٢/ ٣١٢-٣١٣ . وقوله: «وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن» له شاهد من حديث ابن عمر عند مسلم (٢١٣٢).
قال السندي كما في حاشية مسند أحمد: «وارتبطوا الخيل» كناية عن تحصيلها وتسمينها للغزو. «وامسحوا»: المقصود من المسح تنظيفُها من الغبار، وتَعَرُّف حال سِمَنِها، وقد يحصل به الأنس للفرس بصاحبه. «وقلدوها» أي: طلب إعلاء الدين والدفاع عن المسلمين. «الأوتار» جمع وِتر بالكسر: وهو الدم، والمعنى: لا تقلدوها طلب دماء الجاهلية، أي: اقصدوا بها الخير ولا تقصدوا بها الشر. وقيل: جمع وَتَر بفتحتين: وهو وتر القوس. والكُمَيْت: هو الذي لونه بين السواد والحُمرة. «أغر»: هو الذي في وجهه غُرة، أي: بياض. «محجَّل»: الذي في قوائمه بياض. «أشقر» الشقرة في الخيل: هي الحمرة الصافية. «أدهم» أي: أسود.

وروى الترمِذيُّ عن أبي قتادة، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «خيرُ الخيل الأدهمُ الأقْرَحُ الأرْثَم، [ثم الأقرح المحجَّل] طَلْقُ اليمين، فإن لم يكن أدْهَم، فكُميتٌ على هذه الشِّيَة»(١).

ورواه الدارميُّ عن أبي قتادة أيضاً، أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، إني أريد أن أشتريَ فرساً، فأيَّها أشتري؟ قال: «اشترِ أدهمَ أرْثَمَ محجَّلاً؛ طَلْقَ اليد اليمنى، أو من الكُمَيْت على هذه الشِّيَة، تَغْنمْ وتَسْلَمْ»(٢).

وكان ﷺ يكره الشِّكال من الخيل. والشكال: أن يكون الفرس في رجله اليمنى بياضٌ وفي يده اليسرى، أو في يده اليمنى ورجله اليسرى. خرَّجه مسلم عن أبي هريرة ﷺ(٣). ويُذكر أنَّ الفرسَ الذي قُتل عليه الحسين بن عليٍّ رضي الله عنهما كان أشْكَلَ.

الثالثة: فإن قيل: إن قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ كان يكفي، فلِمَ خَصَّ الرّميَ والخيلَ بالذِّكر؟ قيل له: إنَّ الخيلَ لمَّا كانت هي أصلَ الحروب وأوزارِها(٤)، التي عُقِد الخير في نواصيها، وهي أقوى القوّةِ وأشدُّ العُدَّةِ وحصونُ الفرسان، وبها يجال(٥) في الميدان، خصَّها بالذِّكر تشريفاً، وأقسمَ بغبارها تكريماً. فقال: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ الآية [العاديات: ١]. ولمَّا كانت السِّهام من أنجع ما يُتعاطى في الحروب والنِّكايةِ في العدوِّ، وأقربِها تناوُلاً للأرواح، خصَّها رسولُ الله ﷺ بالذِّكر لها والتنبيهِ عليها(٦). ونظيرُ هذا في التنزيل، ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨] ومثلُه كثير.

---

(١) سنن الترمذي (١٦٩٦)، وما سلف بين حاصرتين منه، وسلف ٥/ ٥١ . والأقرح: ما كان في جبهته قُرحة بالضم، وهي بياض يسير في وجه الفرس دون الغرة. والأرثم: الذي أنفه أبيض وشفته العليا. النهاية (قرح) و(رثم).

(٢) سنن الدارمي (٢٤٢٨)، وسلف ٥/ ٥١ - ٥٢ .

(٣) صحيح مسلم (١٨٧٥)، وهو عند أحمد (٧٤٠٧).

(٤) الأوزار: هي السلاح وآلات الحرب.

(٥) في (ظ): يصال.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٦ ، وينظر أحاديث السهام والرمي في المسألة الأولى.

الرابعة: وقد استدلَّ بعضُ علمائنا بهذه الآية على جواز وقف الخيل والسلاح، واتخاذِ الخزائن والخُزَّان لها عُدَّةً للأعداء.

وقد اختُلف عن مالك[١] في جواز وقف الحيوان ـ كالخيل والإبل ـ على قولين: المنع، وبه قال أبو حنيفةَ. والصحة، وبه قال الشافعيُّ ﷺ. وهو أصح[٢]؛ لهذه الآية. ولحديث عمر[٣] في الفرس الذي حمل عليه في سبيل الله[٤]. وقولِه عليه الصلاة والسلام في حقِّ خالد: «وأما خالدٌ؛ فإنَّكم تظلمون خالداً، فإنه قد احْتَبَسَ أَدْرَاعَه وأَعْتادَه في سبيل الله » الحديث[٥]. وما رُويَ أنَّ امرأةً جعلت بعيراً في سبيل الله، فأراد زوجُها الحجَّ، فسألتْ رسولَ الله ﷺ فقال: «ادفعيه إليه ليحُجَّ عليه؛ فإنَّ الحجَّ من[٦] سبيل الله»[٧]. ولأنه مال يُنتفع به في وجهِ قُربة، فجاز أن يُوقَف كالرِّباع[٨].

وقد ذكر السُّهَيْليُّ في هذه الآية تسميةَ خيلِ النبيِّ ﷺ، وآلةِ حَرْبِه. مَن أرادها وجدَها في كتاب «الإعلام»[٩].

---

(١) في (خ) و(م): وقد اختلف العلماء، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في المفهم ٤/ ٦٠١، والكلام منه.

(٢) المفهم ٤/ ٦٠١ .

(٣) في النسخ: ابن عمر، والصواب ما أثبتناه.

(٤) أخرجه أحمد (٢٨١)، والبخاري (١٤٩٠)، ومسلم (١٩٢٠) من حديث عمر ﷺ، وأخرجه أحمد (٥١٧٧)، والبخاري (٢٧٧٥)، ومسلم (١٦٢١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما في قصة فرس عمر.

(٥) أخرجه أحمد (٨٢٨٤)، والبخاري (١٤٦٨)، ومسلم (٩٨٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) في (خ): في.

(٧) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه أبو داود (١٩٩٠) من حديث ابن عباس ﷺ مطولاً، وفيه أن امرأة قالت لزوجها أحجني على جملك فلان، قال: ذاك حبيس في سبيل الله عزَّ وجلَّ، فأتى رسولَ الله ﷺ فذكر له ذلك، فقال: «أما إنك لو أحججتها عليه كان في سبيل الله»، وأخرج نحوه أحمد (٢٧١٠٧) و(٢٧٢٨٥)، وأبو داود (١٩٨٩) من حديث أم معقل الأسدية، والبزار (١١٥١) (زوائد) من حديث أبي طليق الأشجعي. وينظر نصب الراية ٢/ ٣٩٥ - ٣٩٧ .

(٨) جمع رَبْع، وهي الدار بعينها حيث كانت. القاموس (ربع).

(٩) هو التعريف والإعلام فيما أبهم من الأسماء والأعلام في القرآن، والكلام فيه ص٦٦ - ٦٧ .

الخامسة: قوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ يعني تُخيفون به عدوَّ الله وعدوَّكم من اليهود وقريشٍ وكفار العرب.

﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ يعني فارسَ والروم[١]. قاله السُّدِّيّ[٢].

وقيل: الجنّ. وهو اختيار الطبري[٣]. وقيل: المراد بذلك كلُّ مَن لا تُعرف عداوته[٤].

قال السُّهَيْليّ[٥]: قيل: هم قُريظة. وقيل: هم من الجنّ. وقيل غيرُ ذلك. ولا ينبغي أن يقال فيهم شيء؛ لأنَّ اللهَ سبحانه قال: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فكيف يدَّعي أحد علماً بهم، إلَّا أن يَصِحَّ حديثٌ جاء في ذلك عن رسول الله ﷺ، وهو قوله في هذه الآية: «هم الجنُّ»، ثم قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الشيطان لا يخبِّلُ أحداً في دارٍ فيها فرسٌ عتيق» وإنما سُمِّيَ عتيقاً لأنه قد تخلَّص من الهِجانة. وهذا الحديث أسنده الحارثُ بن أبي أسامة، عن ابن المُلَيْكي، عن أبيه، عن جدِّه، عن رسول الله ﷺ[٦]. ورُوي أنَّ الجنَّ لا تَقْرَبُ داراً فيها فرسٌ، وأنها تنفِر من صَهيل الخيل[٧].

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ﴾ أي: تتصدَّقوا. وقيل: تنفقوه على أنفسكم أو خيلكم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ في الآخرة، الحسنةُ بعشر أمثالها إلى

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٦٤ .

(٢) أخرجه الطبري ١١/ ٢٤٨ عنه قال: هؤلاء أهل فارس.

(٣) في تفسيره ١١/ ٢٤٩ .

(٤) النكت والعيون ٢/ ٣٣٠ .

(٥) في التعريف والإعلام ص٦٨ .

(٦) مسند الحارث (٦٥٢ - زوائد)، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير ١٧/ (٥٠٦). وذكره ابن كثير مختصراً بذكر الجن عند تفسير هذه الآية وقال: هذا الحديث منكر، لا يصح إسناده ولا متنه. اهـ. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٧ : فيه مجاهيل.

(٧) ذكره الطبري ١١/ ٢٥٠ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٧ ، والزمخشري في الكشاف ٢/ ١٨٨ ، وقال الحافظ في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص٧٠ : لم أجده.

سبع مئة ضِعْفٍ[١]، إلى أضعاف كثيرة ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ إنما قال: «لها» لأنَّ السَّلْم مؤنثة. ويجوز أن يكون التأنيثُ للفَعْلة[٢]. والجُنوح: الميل. يقول: إن مالوا ـ يعني الذين نَبَذَ إليهم عهدَهم ـ إلى المسالمة، أي: الصلحِ، فمِلْ إليها[٣]. وجنح الرجلُ إلى الآخر: مال إليه، ومنه قيل للأضلاع: جوانح؛ لأنها مالت على الحُشوة[٤]. وجنحت الإبلُ: إذا مالت أعناقُها في السير؛ وقال ذو الرُّمّة:

إذا مات فوق الرَّحْل أحييتُ روحَه ... بذكراكِ والعِيسُ المراسيلُ جُنَّحُ[٥]

وقال النابغة:

جوانحُ قد أيقنَّ أنَّ قبيلَهُ ... إذا ما التقى الجمعانِ أوّلُ غالبِ[٦]

يعني: الطير. وجُنْحُ الليل: إذا أقبل وأمال أطنابَه على الأرض. والسَّلْم والسلام هو الصُّلح.

(١) أخرج أحمد (٧١٩٦)، والبخاري (٤٢)، ومسلم (١٢٩) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أحسن أحدكم إسلامه، فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف...».

(٢) معاني القرآن للفراء ٤١٦/١ ، وإعراب القرآن للنحاس ١٩٤/٢ ، وقوله: ويجوز أن يكون التأنيث للفَعْلة، يعني كما تقول للرجل يعقُّ أباه: لن تفلح بعدها أبداً، تريد بعد هذه الفعلة. المذكر والمؤنث للفراء ص١٩ ، والمذكر والمؤنث لأبي القاسم الأنباري ٤٤٤/١ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤٢٢/٢ .

(٤) المحرر الوجيز ٥٤٧/٢ ، والحشوة بالضم والكسر: الأمعاء. النهاية (حشا).

(٥) ديوان ذي الرمة ١٢١٥/٢ ، والمحرر الوجيز ٥٤٧/٢ والكلام منه. ويتكلم عن رجل يقول: إذا مات فوق الرحل، وذلك من شدة النعاس، فأذْكُرك ـ يعني في شعره ـ فأوقظه. والعيس: الإبل البيض. جُنَّح: قد أكبَّت في السير. المراسيل: السِّراع في سهولة. قاله أبو نصر الباهلي شارح الديوان.

(٦) ديوان النابغة الذبياني ص١٠ ، والخزانة ٢٨٩/٤ . يتكلم عن الطير التي تتبع العساكر للقتلى. ينظر الشعر والشعراء ١٦٩/١ .

وقرأ الأعمش وأبو بكر وابنُ مُحَيْصِن والمفضَّلُ: «لِلسِّلِم» بكسر السين[١]. الباقون بالفتح. وقد تقدَّم معنى ذلك في «البقرة»[٢] مستوفًى. وقد يكون السلام من التسليم[٣]. وقرأ الجمهور: «فاجنَح» بفتح النون، وهي لغة تميم. وقرأ الأشهب العقيلي: «فاجنُح» بضم النون، وهي لغة قيس. قال ابن جِنِّي[٤]: وهذه اللغةُ هي القياس.

الثانية: وقد اختُلف في هذه الآية؛ هل هي منسوخةٌ أم لا؟ فقال قتادةُ وعِكرمة: نسخها ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] وقالا: نسختْ براءةُ كلَّ موادعة، حتى يقولوا: لا إله إلا الله[٥].

ابن عباس: الناسخ لها: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾[٦] [محمد: ٣٥].

وقيل: ليست بمنسوخة، بل أراد قبولَ الجِزية من أهل الجزْية[٧]. وقد صالح أصحابُ رسول الله ﷺ في زمن عمرَ بن الخطاب ﷺ ومَن بعده من الأئمة كثيراً من بلاد العجم على ما أخذوه منهم، وتركوهم على ما هم فيه وهم قادرون على استئصالهم[٨]. وكذلك صالح رسول الله ﷺ كثيراً من أهل البلاد على مالٍ يؤدُّونه، من

(١) رواية أبي بكر - وهي عن عاصم - من السبعة، ولم نقف على من نسبها لابن محيصن والمفضل، أما الأعمش فالذي ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٢٢٤ عنه أنه قرأ بفتح السين في البقرة خاصة، وينظر السبعة ص٣٠٨، والتيسير ص١١٧.

(٢) ٣/ ٣٩٢.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٦٤.

(٤) في المحتسب ١/ ٢٨٠، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٨.

(٥) أخرجه الطبري ١١/ ٢٥٢ عن مجاهد مختصراً، وعن قتادة مطولاً، وأخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٣٨٥ عن قتادة.

(٦) ذكره النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٣٨٥ - ٣٨٦. وقال: والبيِّن في باب النظر أن لا تكون منسوخة، وأن تكون الثانية مبينة للأولى. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٨: هذا قول بعيد من أن يقوله ابن عباس.

(٧) ينظر تفسير الطبري ١١/ ٢٥٤.

(٨) ينظر الأموال لأبي عبيد ص١٩٠ وما بعدها.

ذلك خَيْبر، ردَّ أهلَها إليها بعد الغلبة على أن يعملوا ويؤدُّوا النصفَ[١].

قال ابن إسحاق: قال مجاهد: عنَى بهذه الآية قريظةَ؛ لأنَّ الجزيةَ تُقبل منهم، فأما المشركون فلا يُقبل منهم شيء. وقال السُّدِّيُّ وابنُ زيد: معنى الآيةِ: إن دَعَوْك إلى الصلح فأجِبْهم، ولا نَسْخَ فيها.

قال ابن العربيّ[٢]: وبهذا يختلف الجواب عنه، وقد[٣] قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]. فإذا كان المسلمون على عِزَّةٍ وقُوّةٍ ومنَعَة، وجماعة عديدة، وشدّة شديدة، فلا صُلْحَ، كما قال:

فلا صلحَ حتى تُطْعَنَ الخيلُ بالقَنا ... وتُضربَ بالبِيض الرقاقِ الجماجمُ[٤]

وإن كان للمسلمين مصلحةٌ في الصلح، لنفعٍ يجتلبونه، أو ضرر يدفعونه، فلا بأس أن يبتدئ المسلمون به إذا احتاجوا إليه. وقد صالح رسولُ الله ﷺ أهلَ خيبر على شروط نقضوها، فنقض صُلْحَهم. وقد صالح الضَّمْرِيَّ[٥] وأكَيْدِرَ دُومَةَ[٦] وأهلَ نجران، وقد هادَنَ قريشاً لعشرة أعوام حتى نقضوا عهدَه. وما زالت الخلفاءُ والصحابةُ على هذه السبيل التي شرعناها سالكةً، وبالوجوه التي شرحناها عاملة.

قال القُشَيريُّ: إذا كانت القوةُ للمسلمين؛ فينبغي ألَّا تبلغ الهُدْنة سنة. وإذا كانت

---

(١) أخرجه أحمد (٤٦٦٣)، والبخاري (٢٣٣٨)، ومسلم (١٥٥١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) في أحكام القرآن ٢/ ٨٦٤ - ٨٦٥.

(٣) العبارة في أحكام القرآن: وأما من قال: إن دعوك إلى الصلح فأجبهم فإن ذلك يختلف الجواب فيه، وقد...

(٤) قائله عمرو بن برَّاقة ـ وقيل: ابن برَّاق ـ وهو في الأغاني ٢١/ ١٧٤ ، وفيه: حتى تعثر بدل: حتى تُطعن، والمؤتلف والمختلف للآمدي ص٨٨ ، والحماسة البصرية ١/ ١١٢ . وفيهما: حتى تُقْرَع. البيض جمع الأبيض: وهو السيف. الصحاح (بيض).

(٥) هو مخشيُّ بن عمر الضمري، كان سيد قومه في زمانه، وضمرة من بني كنانة. طبقات ابن سعد ٢/ ٨ .

(٦) هو أكيدر بن عبد الملك، صاحب دومة الجندل. قيل: إنه أسلم ثم ارتد. وقتله خالد ﷺ في أيام أبي بكر، ودومة بين الحجاز والشام. الإصابة ١/ ٢٠٥ .

القوةُ للكفار، جاز مهادنتُهم عشر سنين، ولا تجوز الزيادةُ. وقد هادَنَ رسولُ الله ﷺ أهلَ مكة عشر سنين.

قال ابن المنذر[١]: اختلف العلماءُ في المدة التي كانت بين رسولِ الله ﷺ وبينَ أهل مكةَ عام الحُدَيْبِية، فقال عروةُ: كانت أربع سنين. وقال ابنُ جريج: كانت ثلاثَ سنين. وقال ابنُ إسحاق: كانت عشر سنين[٢].

وقال الشافعيّ رحمه الله: لا تجوز مهادنةُ المشركين أكثرَ من عشر سنين، على ما فعل النبيُّ ﷺ عام الحديبية، فإن هُودِنَ المشركون أكثرَ من ذلك فهي مُنْتَقِضَة؛ لأنَّ الأصلَ فرضُ قتال المشركين حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية.

وقال ابن حبيب عن مالك ﷺ: تجوز مهادنة المشركين السنة والسنتين والثلاث، وإلى غير مدة. قال المهلَّب: إنَّما قاضاهم النبيُّ ﷺ هذه القضية التي ظاهِرُها الوهنُ على المسلمين؛ لسبب حَبْسِ الله ناقةَ رسولِ الله ﷺ عن مكة، حين توجَّه إليها فبركت. وقال: «حَبَسها حابِسُ الفيل». على ما خرَّجه البخاريُّ من حديث المِسْوَر بن مَخْرمة[٣]. ودلَّ على جواز صُلْح المشركين ومهادنتِهم دون مالٍ يؤخذ منهم؛ إذا رأى ذلك الإمام وجهاً.

ويجوز عند الحاجة للمسلمين عقدُ الصلح بمالٍ يبذلونه للعدوّ؛ لموادعة النبيِّ ﷺ عُيينةَ بن حِصْن[٤] الفَزَاريَّ، والحارثَ بن عوف[٥] المُرِّيَّ يومَ الأحزاب، على أن

---

(١) في الأوسط ١١/ ٣٣٢ - ٣٣٣ .

(٢) قول ابن جريج ذكره ابن المنذر ولم ينسبه، وهو في المفهم ٣/ ٦٤٣ ، وقول ابن إسحاق في سيرة ابن هشام ٢/ ٣١٧ ،وأخرجه أحمد (١٨٩١٠) مطولاً، وأبو داود (٢٧٦٦) عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم. وأصله في البخاري (٢٧٣١) دون ذكر المدة. وينظر الدراية شرح الهداية لابن حجر ٢/ ١١٧ .

(٣) برقم (٢٧٣١)، وهو عند أحمد (١٨٩١٠) وهو من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، وينظر التعليق السابق.

(٤) من المؤلفة، كان أحمق مطاعاً؛ شهد حنيناً والطائف، ثم ارتد، ثم أسر، ثم لم يزل مظهراً للإسلام. تجريد أسماء الصحابة ص ١/ ٤٣٢ .

(٥) في النسخ الخطية: نوفل، والصواب ما أثبتناه. وهو الحارث بن عوف، أبو حارثة بن مرة، كان أحد رؤوس الأحزاب ثم أسلم. تجريد أسماء الصحابة ص١٠٦ .

يعطيَهما ثلثَ ثمر المدينة، وينصرفا بمن معهما من غَطَفان ويخذلا قريشاً، ويرجعا بقومهما عنهم. وكانت هذه المقالة مُراوضةً ولم تكن عقداً. فلما رأى رسول الله ﷺ منهما أنهما قد أنابا ورضيا، استشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فقالا: يا رسول الله، هذا أمر تحبُّه فنصنَعَه لك، أو شيءٌ أمرك الله به فنسمعَ له ونطيع، أو أمر تصنعه لنا؟ فقال: «بل أمر أصنعه لكم؛ فإن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة». فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، والله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وما طمِعوا قطُّ أن ينالوا منا ثمرة، إلا شراءً أو قِرًى؛ فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له وأعزَّنا بك، نعطيهم أموالَنا! والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكمَ اللهُ بيننا وبينهم. فسُرَّ بذلك رسولُ الله ﷺ وقال: «أنتم وذاك». وقال لُعيينة والحارث: «انصرفا، فليس لكما عندنا إلا السيف». وتناول سعد الصحيفة وليس فيها شهادةٌ، فمحاها[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ أي: بأن يُظهروا لك السَّلْم، ويُبطنوا الغدر والخيانة، فاجنح، وما عليك من نياتهم الفاسدة[٢] ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾: كافيك الله؛ أي: يتولَّى كفايتك وحِيَاطتك[٣]. قال الشاعر:

إذا كانت الهيجاءُ وانشقَّتِ العصا فحسبُكَ والضَّحاكَ سيفٌ مُهَنَّدُ[٤]

أي: كافيك وكافي الضحاك سيفٌ.

(١) في (م): وليس فيها شهادة أن لا إله إلا الله فمحاها، والمثبت من النسخ الخطية، وهو موافق لما في الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ص١٩٥ - ١٩٦ والكلام منه، والخبر في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٣.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٨.

(٣) حاطه حَوْطاً وحِيطة وحِياطة: صانه وذبَّ عنه وتوفَّر على مصالحه. معجم متن اللغة (حوط).

(٤) سلف ٢/ ١٣٨.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ أي: قوَّاك بنصره. يريد يومَ بدر. ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال النعمان بن بشير: نزلت في الأنصار[١]. ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: جمع بين قلوب الأوْس والخَزْرج[٢]. وكان تألُّفُ القلوب مع العَصبية الشديدة في العرب من آيات النبيِّ ﷺ ومعجزاته؛ لأن أحدهم كان يُلطَم اللطمة فيقاتل عنها حتى يستقيدَها[٣]. وكانوا أشدَّ خَلْقِ الله حَمِيَّة، فألَّف الله بالإيمان بينهم، حتى قاتل الرجلُ أباه وأخاه بسبب الدِّين. وقيل: أراد التأليفَ بين المهاجرين والأنصار. والمَعنى متقارب[٤].

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾

ليس هذا تكريراً؛ فإنه قال فيما سبق: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ وهذه كفايةٌ خاصة. وفي قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ أراد بالتعميم؛ أي: حسبك الله في كلِّ حال.

قال ابن عباس: نزلت في إسلام عمر؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ كان أسلم معه ثلاثةٌ وثلاثون رجلاً وستُّ نسوة، فأسلم عمرُ وصاروا أربعين[٥]. والآية مكية، كُتبت بأمر رسولِ الله ﷺ في سورةٍ مدنيّة؛ ذكره القُشيريّ.

قلت: ما ذكره من إسلام عمرَ ﷺ عن ابن عباس، فقد وقع في السيرة خلافُه؛ عن

---

(١) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٣/ ١٩٩، وأخرجه النحاس في معاني القرآن ٣/ ١٦٨، والطبري ١١/ ٢٥٧ عن بشير بن ثابت من آل النعمان بن بشير.

(٢) تفسير الطبري ١١/ ٢٥٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٤٨.

(٣) في (ظ): يستعيدها.

(٤) ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٨. وقال ابن عطية: وكل تألُّف في الله فتابعٌ لذلك التألُّف الكائن في صدر الإسلام.

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٤٧٠)، والواحدي في الوسيط ٢/ ٤٦٩ - ٤٧٠ بلفظ: أسلم مع النبي ﷺ تسعة وثلاثون رجلاً وامرأة، وأسلم عمر تمام الأربعين، فأنزل الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٨: فيه إسحاق بن بشر الكاهلي وهو كذاب. اهـ. واللفظ المذكور أعلاه أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٧٢٨ (٩١٣٥) عن سعيد بن جبير.

عبد الله بن مسعود قال: ما كنا نقدِرُ على أن نُصلِّيَ عند الكعبة حتى أسلم عمرُ، فلما أسلم قاتَلَ قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه[١]. وكان إسلام عمرَ بعد خروج مَن خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة[٢]. قال ابن إسحاق: وكان جميع مَن لَحِق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين، سوى أبنائِهم الذين خرجوا بهم صغاراً أو وُلدوا بها، ثلاثةً وثمانين رجلاً، إن كان عمَّار بن ياسر منهم. وهو يُشكُّ فيه[٣].

وقال الكَلْبيُّ: نزلت الآية بالبَيْداء في غزوة بدر قبل القتال[٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: المعنى: حسبك الله، وحسبك المهاجرون والأنصار. وقيل: المعنى: كافيك الله، وكافي مَن اتَّبعك؛ قاله الشَّعْبيُّ وابنُ زيد[٥]. والأوّل عن الحسن، واختاره النحاس[٦] وغيره.

فـ «من» على القول الأوّل في موضع رفع، عطفاً على اسم الله تعالى. على معنى: فإنَّ حسبَك اللهُ وأتباعُك من المؤمنين[٧]. وعلى الثاني على إضمار[٨]. ومثلُه قوله ﷺ: «يَكفِينِيه اللهُ وأبناءُ قَيْلة»[٩]. وقيل: يجوز أن يكون المعنى: ومَن اتَّبعَكَ من المؤمنين

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٤٢، وأخرجه ابن سعد ٣/ ٢٧٠، والحاكم مختصراً ٣/ ٨٣.
(٢) السيرة النبوية ١/ ٣٤٢.
(٣) السيرة النبوية ١/ ٣٣٠.
(٤) النكت والعيون ٢/ ٣٣١، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٩ عن النقاش.
(٥) أخرج قولهما الطبري ١١/ ٢٦٠.
(٦) في إعراب القرآن ٢/ ١٩٥.
(٧) وقد ردَّ ابن قيِّم الجوزية في زاد المعاد ١/ ٣٨ هذا التقدير، وقال: هذا وإن قاله بعض الناس، فهو خطأ محض، لا يجوز حملُ الآية عليه، فإنَّ الحَسْبَ والكفاية للهِ وحدَه، كالتوكل والتقوى والعبادة.
(٨) والتقدير: وحسبك مَن اتبعك. وهو قول ثانٍ من ثلاثة أقوال على الرفع، وهو اختيار النحاس، كما في إعراب القرآن ٢/ ١٩٥، والكلام منه.
(٩) لم نقف عليه بهذا اللفظ عند غير النحاس، وقد أورده مثالاً للقول الذي قبلَه، ثم ردَّه لِما صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه نهى أن يقال: ما شاء الله وشئت. اهـ. وقَيْلَة: اسم أمٍّ للأوس والخزرج، وهي قَيْلَة بنت كاهل. النهاية (قيل). وأخرج البغوي ٣/ ٩-١٠ بإسناد ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لعامر بن الطُّفَيل: «يمنعك الله تعالى من ذلك وابنا قيلة».

حسبُهم الله، فيضمَر الخبر(١).

ويجوز أن يكون «مَن» في موضع نصب، على معنى: يكفيك الله ويكفي من اتَّبعك(٢).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ﴾ أي: حُثَّهم وحُضَّهم. يقال: حارَضَ على الأمر وواظَبَ وواصَبَ وأَكَبَّ؛ بمعنى واحد. والحارِضُ: الذي قد قارَبَ الهلاك(٣)، ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ [يوسف: ٨٥] أي: تذوب غمًّا، فتقارِبَ الهلاك، فتكونَ من الهالكين(٤).

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ﴾ لفظُ خبر، ضِمْنُه وعْدٌ بشرط؛ لأن معناه: إن يصبر منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين. وعشرون وثلاثون وأربعون كلُّ واحد منها اسمٌ موضوعٌ على صورة الجمع لهذا العدد. ويجري هذا الاسم مجرَى فلسطين(٥).

---

(١) وهو القول الثالث على الرفع. وقد رجَّح ابن قيِّم الجوزية أن تكون الواو في قوله: «ومن» واو: مع ـ وهو قول الزمخشري ـ وتكون «من» في محل نصب عطفاً على الموضع، فإن «حسبك» في معنى: كافيك، أي: الله يكفيك ويكفي من اتبعك، كما تقول العرب: حسبك وزيداً درهمٌ.

(٢) وهذا على قول الشعبي وابن زيد. ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩٤ .

(٣) تهذيب اللغة ٤/ ٢٠٤ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٢٤ .

(٥) يعني أن كل ما كان على بناء الجمع من الواحد؛ فإعرابه إعراب الجمع، فيقولون: هذه فلسطون يا فتى، ورأيت فلسطين يا فتى. وهذه قِنَّسْرون ورأيت قِنَّسرين. ينظر الكامل للمبرد ٢/ ٦٣٤ ، والخزانة ٨/ ٦٧ .

فإن قال قائل: لِمَ كُسِرَ أوّل عشرين؛ وفُتح أوّل ثلاثين؛ وما بعده إلى الثمانين؛ إلا سِتِّين؟ فالجواب عند سيبويه: أنَّ عشرين من عشرة بمنزلة اثنين من واحد، فكُسِر أوّل عشرين كما كسر اثنان. والدليل على هذا قولهم: سِتُّون وتسعون، كما قيل: ستة وتسعة[١].

وروى أبو داود[٢] عن ابن عباس قال: نزلت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾. فشَقَّ ذلك على المسلمين؛ حين فرض الله عليهم ألا يَفِرَّ واحدٌ من عشرة، ثم إنه جاء التخفيف؛ فقال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ قرأ أبو تَوبة[٣] إلى قوله: ﴿مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾. قال: فلما خفَّف الله تعالى عنهم من العدد، نقص من الصبر بقَدْر ما خفّف عنهم.

وقال ابن العربيّ[٤]: قال قوم: إن هذا كان يومَ بدر ونُسخ. وهذا خطأٌ مِن قائِله. ولم يُنقل قطُّ أنَّ المشركين صافوا المسلمين عليها[٥]، ولكن الباري جلَّ وعزَّ فرض ذلك عليهم أوّلاً، وعلَّق ذلك[٦] بأنكم تفقهون ما تقاتلون عليه، وهو الثواب. وهم لا يعلمون ما يقاتلون عليه.

قلت: وحديثُ ابن عباس يدلُّ على أن ذلك فُرض، ثم لمَّا شَقَّ ذلك عليهم حُطَّ الفرض إلى ثبوت الواحد للاثنين، فخفّف عنهم وكتب عليهم ألَّا يفرَّ مئة من مئتين، فهو على هذا القول تخفيفٌ لا نسخ، وهذا حسن. وقد ذكر القاضي ابن الطيِّب أن

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩٦ .

(٢) في سننه (٢٦٤٦)، وهو عند البخاري (٤٦٥٣).

(٣) هو شيخ أبي داود في هذا الحديث، وهو الإمام الحافظ الربيع بن نافع الحلبي، توفي سنة (٢٤١هـ). السير ١٠/ ٦٥٣ - ٦٥٤ .

(٤) في أحكام القرآن ٢/ ٨٦٦ .

(٥) العبارة في أحكام القرآن: ...وهذا خطأ من قائله؛ لأن المسلمين كانوا يوم بدر ثلاث مئة ونيفاً، والكفار كانوا تسع مئة ونيفاً، فكان للواحد ثلاثة، وأما هذه المقابلة فلم يذكر أن المسلمين صافوا المشركين عليها.

(٦) في أحكام القرآن: وعلله، بدل: وعلق ذلك.

الحكم إذا نُسخ بعضُه أو بعضُ أوصافه، أو غُيِّر عدده، فجائزٌ أن يقال: إنه نسخ؛ لأنه حينئذٍ ليس بالأول، بل هو غيره. وذكر في ذلك خلافاً[(١)].

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَسْرَىٰ﴾ جمع أَسِير؛ مثلُ: قتيل وقَتْلَى، وجَريح وجَرْحَى. ويقال في جمع أسيرٍ أيضاً: أُسارَى ـ بضم الهمزة ـ وأسارَى بفتحها، وليست بالعالية. وكانوا يَشُدُّون الأسيرَ بالقِدِّ، وهو الإسار[(٢)]؛ فسُمِّيَ كلُّ أَخِيذٍ وإن لم يُؤسر أسيراً؛ قال الأعشى:

وقَـيَّـدني الـشِّـعـرُ فـي بـيـتِـهِ كـمـا قَـيَّـدَ الآسِـراتُ الـحِـمـارا

وقد مضى هذا في سورة البقرة[(٣)].

وقال أبو عمرو بنُ العلاء: الأسرى: هم غير المُوثَقين عندما يؤخذون، والأسارى هم الموثَقون رَبْطاً. وحكى أبو حاتم أنه سمع هذا من العرب[(٤)].

الثانية: هذه الآيةُ نزلت يومَ بدر عتاباً من اللهِ عزَّ وجلَّ لأصحاب نبيِّه ﷺ. والمعنى: ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعلَ الذي أوجب أن يكون للنبيِّ ﷺ أسرى قبل الإثخان. ولهم هو[(٥)] الإخبارُ بقوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾. والنبيُّ ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجالِ وقتَ الحرب، ولا أراد قَطُّ عَرَضَ الدنيا، وإنما فعله جمهورُ مُباشِري الحرب، فالتوبيخُ والعتاب إنما كان متوجِّهاً بسببِ مَن أشار على النبيِّ ﷺ

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٠ .

(٢) في النسخ الخطية: الأسر، والمثبت من (م). والأُسُر جمع الإسار، وهو ما يشدُّ به. القاموس (أسر).

(٣) سلف الكلام والبيت ٢/ ٢٤٠ .

(٤) المحرر الوجيز ٢/٥٥٣ .

(٥) في (م): هذا.

بأخذ الفِدية. هذا قول أكثرِ المفسرين، وهو الذي لا يصح غيرُه. وجاء ذكر النبيِّ ﷺ في الآية حين لم يَنْه عنه حين رآه من العَرِيش. وأنكره[١] سعد بن معاذ، وعمرُ بن الخطاب، وعبد الله بن رواحة، ولكنه عليه الصلاة والسلام شغَلَه بَغْتُ الأمر ونزولُ النصر، فتَرَكَ[٢] النهيَ عن الاستبقاء؛ ولذلك بكى هو وأبو بكر حين نزلت الآية. والله أعلم.

روى مسلمٌ[٣] من حديث عمر بن الخطاب، وقد تقدَّم أوَّلُه في «آل عمران»[٤] وهذا تمامه: قال أبو زُمَيل[٥]: قال ابن عباس: فلما أسروا الأُسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «ما تَرَوْنَ في هؤلاء الأُسارى؟» فقال أبو بكر: يا نبيَّ اللهِ، هم بنو العمِّ والعَشِيرةِ، أرى أن تأخذَ منهم فِديةً، فتكونَ لنا قوَّة على الكفار، فَعَسى اللهُ أنْ يَهدِيَهُم للإسلام. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟». قلت: لا واللهِ يا رسولَ الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكِّنَّا فنَضرِبَ أعناقَهم، فَتُمَكِّن عَلِيًّا من عَقِيلٍ فيضرِبَ عنقَه، وتمكِّنِّي من فلان ـ نَسِيباً لعمر ـ فأضربَ عنقَه؛ فإن هؤلاء أئمةُ الكفر وصناديدُها. فهَوِيَ رسولُ الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلتُ، فلمَّا كان من الغد جئتُ؛ فإذا رسولُ اللهِ ﷺ وأبو بكرٍ قاعِدَيْن يبكيان، فقلت: يا رسولَ الله! أخبرني من أيِّ شيءٍ تبكي أنت وصاحبُك، فإن وجدتُ بكاءً بكَيْتُ، وإن لم أجد بكاءً تباكَيْتُ لبُكائِكُما؟ فقال رسول الله ﷺ: «أبْكي للذي عَرَض عليَّ أصحابُك من أَخْذِهم الفداءَ، لقد عُرِضَ عليَّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرةِ» ـ شجرة قريبة كانت من نبيِّ الله ﷺ ـ وأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ فأحلَّ اللهُ الغنيمةَ لهم.

---

(١) في النسخ: وإذ كره، والمثبت من المحرر الوجيز ٢/ ٥٥١، والكلام منه.

(٢) في (خ): فنزل.

(٣) برقم (١٧٦٣)، وهو عند أحمد (٢٠٨).

(٤) ٥/ ٢٩٦.

(٥) هو سِماك بن الوليد الحنفي.

وروى يزيد بن هارون قال: أخبرنا يحيى قال: حدَّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي عُبيدة، عن عبد الله، قال: لمَّا كان يومُ بدرٍ جيء بالأسارى وفيهم العباس، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما تَرَوْنَ في هؤلاء الأسارى» فقال أبو بكر: يا رسولَ الله، قومُك وأهلُك[(١)]، اِستَبْقِهم لعلَّ الله أنْ يتوبَ عليهم. وقال عمر: كَذَّبوك وأخرجوك وقاتلوك، قَدِّمهم فاضربْ أعناقَهم. وقال عبدُ الله بن رَواحة: انظرْ وادياً كثيرَ الحَطَبِ؛ فأَضرِمْه عليهم. فقال العباسُ وهو يسمع: قطعتَ رَحِمَك. قال: فدخل رسول الله ﷺ ولم يَرُدَّ عليهم شيئاً. فقال أُناسٌ: يأخذ بقول أبي بكر ﷺ. وقال أُناس: يأخذ بقول عمر. وقال أُناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. فخرج رسول الله ﷺ فقال: «إنَّ الله لَيُلِينُ قلوبَ رجالٍ فيه حتى تكونَ أَلْينَ من اللَّبَن، ويُشدِّد قلوبَ رجال فيه حتى تكون أشدَّ من الحجارة. مَثَلُك يا أبا بكر مَثَل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، ومَثَلُك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]. ومَثَلُك يا عمرُ كمَثَلِ نوح عليه السلام إذ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. ومَثَلُك يا عمرُ كمثَل موسى عليه السلام إذ قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]. أنتم عالَةٌ، فلا يَنْفَلِتَنَّ أحدٌ إلا بفداء أو ضَرْبةِ عنق». فقال عبد الله [فقلت]: إلا سُهيلَ بن بيضاءَ، فإني سمعتُه يذكر الإسلامَ، فسكت رسولُ الله ﷺ. قال: فما رأيتُني أخوفَ أنْ تقَعَ عليَّ الحجارةُ من السماء منِّي في ذلك اليوم [حتى قال: «إلا سهيل بن بيضاء»]. فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآيتين[(٢)].

---

(١) في (خ) و(ظ): وأصلك.

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٣٢) وما سلف بين حاصرتين منه، والترمذي مختصراً (١٧١٤) و(٣٠٨٤) وقال: هذا حديث حسن، وأبو عبيدة ـ وهو ابن عبد الله بن مسعود ـ لم يسمع من أبيه. قال ابن سعد في الطبقات ٢١٣/٤: والذي روى هذه القصة في سهيل بن بيضاء قد أخطأ، سهيل بن بيضاء أسلم قبل عبد الله بن مسعود ولم يستخفِ بإسلامه، وهاجر إلى المدينة وشهد بدراً مع رسول الله ﷺ مسلماً لا شك فيه، فغلط من روى الحديث ما بينه وبين أخيه، لأن سهيلاً أشهر من أخيه سهل، والقصة في سهل، وأقام سهل بالمدينة بعد ذلك، وشهد مع النبي ﷺ بعض المشاهد. قلنا: وقد ورد الاسم على الصحيح في رواية أحمد (٣٦٣٤).

في رواية: فقال رسول الله ﷺ: «إن كاد لَيُصِيبنا في خلاف ابن الخطاب عذابٌ، ولو نزل عذابٌ ما أَفْلَتَ إلا عُمر»[(١)].

وروى أبو داود[(٢)]، عن عمر قال: لمَّا كان يوم بدرٍ، وأخَذ ـ يعني رسول اللهِ ﷺ ـ الفداءَ، أنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. ثم أحلَّ الغنائم.

وذكر القُشيريُّ أنَّ سعد بنَ معاذٍ قال: يا رسول اللهِ، إنه أوَّلُ وقعةٍ لنا مع المشركين، فكان الإثخانُ أحبَّ إليَّ[(٣)].

والإثخانُ: كثرةُ القتلِ؛ عن مجاهدٍ وغيره[(٤)]، أي: يُبالِغ في قتل المشركين. تقول العرب: أَثْخَن فلانٌ في هذا الأمر، أي: بالَغ. وقال بعضهم: حتى يَقْهَرَ ويَقْتُل[(٥)]. وأنشد المفضَّلُ:

تُصَلِّي الضُّحى ما دَهْرُها بتعبُّدٍ وقد أَثْخَنَتْ فرعونَ في كُفْره كفرا[(٦)]

وقيل: «حتى يُثْخِنَ»: يتمكَّن. وقيل: الإثخانُ: القوةُ والشدة[(٧)]. فأعلَم اللهُ سبحانه وتعالى أنَّ قتلَ الأسرى الذين فُودُوا ببدرٍ كان أولى من فدائهم.

وقال ابن عباس ﷺ: كان هذا يومَ بدرٍ والمسلمون يومئذ قليلٌ، فلما كثُروا واشتدَّ سلطانُهم؛ أنزَل الله عزَّ وجلَّ بعدَ هذا في الأسارى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٢٠٢ - ٢٠٣ ، وقال: أخرجه ابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه من طريق نافع عن ابن عمر. وأخرجه الحاكم ٢/ ٣٢٩ ، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٤٣ من طريق مجاهد عن ابن عمر بلفظ: «كاد أن يصيبنا في خلافك بلاء».

(٢) في سننه (٢٦٩٠).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٢٨ .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٤٢٠ ، والطبري ١١/ ٢٧٢ .

(٥) تفسير الطبري ١١/ ٢٧١ .

(٦) ذكره السمين الحلبي في الدرّ المصون ٥/ ٦٣٨ .

(٧) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٢٥ .

[محمد: ٤](١) على ما يأتي بيانُه في سورة القتال إن شاء اللهُ تعالى.

وقد قيل: إنما عُوتِبُوا لأن قضيةَ بدرٍ كانت عظيمةَ الموقع، والتصرُّفُ(٢) في صناديد قريشٍ وأشرافهم وساداتهم وأموالهم بالقتل والاسترقاق والتملُّكِ؛ ذلك(٣) كلُّه عظيمُ الموقع، فكان حقُّهم أن ينتظروا الوَحْيَ ولا يستعجلوا، فلمَّا استعجلوا ولم ينتظروا؛ توجَّه عليهم ما توجَّه. والله أعلم.

الثالثة: أسند الطبريُّ وغيرُه أنَّ رسول الله ﷺ قال للناس: «إنْ شئتُم أخذتُم فداءَ الأسارى ويُقتل منكم في الحرب سبعون على عددهم، وإن شئتم قُتلوا وسَلِمتم». فقالوا: نأخذُ الفداءَ؛ ويستشهد منَّا سبعون(٤).

وذكر عبدُ بن حُميدٍ بسنده أن جبريل عليه السلام نزلَ على النبيِّ ﷺ بتخيير الناس هكذا(٥). وقد مضى في «آل عمران» القولُ في هذا(٦). وقال عَبِيدةُ السَّلْمَانيُّ: طلبوا الخِيرتَين كلتَيهِما؛ فقُتل منهم يومَ أُحُدٍ سبعون(٧).

وينشأ هنا إشكالٌ وهي:

الرابعة: وهو أن يقال: إذا كان التخيير، فكيف وقع التوبيخُ بقوله: «لَمَسَّكم»؟

---

(١) أخرجه أبو عبيد في الأموال ص١٧٠، والطبري ١١/ ٢٧١ - ٢٧٢، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٣٩٠.

(٢) في (خ) و(م): والتصريف، والمثبت موافق لما في المفهم ٣/ ٥٨١، والكلام منه.

(٣) في (م): وذلك.

(٤) تفسير الطبري ٦/ ٢١٩ و ١١/ ٢٧٩ عن عبيدة السلماني مرسلاً، وينظر التعليق التالي.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٣، وأخرجه الترمذي (١٥٦٧)، والنسائي في الكبرى (٨٦٠٨)، والطبري ٦/ ٢١٩ - ٢٢٠ من طريق عبيدة السلماني عن علي ﷺ مرفوعاً. وسلف ٥/ ٤٠٢. وأخرجه ابن سعد في الطبقات ٢/ ٢٢، وعبد الرزاق (٩٤٠٢)، وابن أبي شيبة ١٤/ ٣٦٨، والطبري ٦/ ٢١٩ و ١١/ ٢٧٩ عن عبيدة السلماني مرسلاً. قال الدارقطني في العلل ٤/ ٣١: المرسل أشبه بالصواب. وينظر علل الترمذي ٢/ ٦٧٠.

(٦) ٥/ ٤٠٢.

(٧) مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٣٦٨، وتفسير الطبري ١١/ ٢١٩.

فالجواب: أنَّ التوبيخَ وقَع أوّلاً لحرصهم على أخذ الفداء، ثم وقع التخيير بعد ذلك. ومما يدلُّ على ذلك أنَّ المِقدادَ قال حين أَمَر رسولُ اللهِ ﷺ بقتل عُقبةَ بنِ أبي مُعَيط: أسيري يا رسولَ اللهِ[(١)]. وقال مُصعب بنُ عُمير للذي أَسَرَ أخاه: شُدَّ عليه يدَك، فإنَّ له أمًّا موسرةً[(٢)]. إلى غير ذلك من قصصهم وحِرْصهم على أخذ الفِداء، فلمَّا تحصَّل الأُسارى وسِيقوا إلى المدينة، وأَنْفَذ رسول الله ﷺ القتلَ في النَّضْر وعقبةَ وغيرِهما، وجعَل يرتئي في سائرهم، نزلَ التخيير من الله عزَّ وجلَّ؛ فاستشار رسولُ اللهِ ﷺ أصحابَه حينئذٍ، فَمَرَّ عمر على أوَّل رأيه في القتل، ورأى أبو بكر المصلحةَ في قوة المسلمين بمالِ الفِداء، ومالَ رسولُ الله ﷺ إلى رأي أبي بكر. وكلا الرأيين اجتهادٌ بعد تخيير، فلم ينزل بعدُ على[(٣)] هذا شيءٌ من تعنيتٍ[(٤)]. واللهُ أعلم.

الخامسة: قال ابنُ وهب: قال مالك: كان ببدرٍ أسارى مشركون، فأنزل اللهُ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وكانوا يومئذ مشركين، وفادَوْا ورجعوا، ولو كانوا مسلمين لأقاموا ولم يرجعوا. وكان عِدَّةُ مَن قُتل منهم أربعةً وأربعين رجلاً؛ ومثلهم أُسِروا. وكان الشهداء قليلاً.

وقال [أبو] عمرو بن العلاء: إنَّ القتلى كانوا سبعين، والأسرى كذلك. وكذلك قال ابن عباس، وابنُ المسيِّب[(٥)]، وغيرُهم. وهو الصحيح كما في «صحيح» مسلم: فقَتلوا يومئذ سبعين، وأسروا سبعين[(٦)].

وذكر البَيْهَقيُّ[(٧)]: قالوا: فجيء بالأسارى وعليهم شُقْرانُ مولى رسول الله ﷺ،

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (٣٣٧)، والطبري ١١/ ١٤٣ عن سعيد بن جبير.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٣ ، والخبر في سيرة ابن هشام ١/ ٦٤٥ ، وتاريخ الطبري ٢/ ٤٦٠ .

(٣) قوله: على، ليس في (ظ).

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٣ ، ووقعت العبارة الأخيرة فيه: فلم ينزل على شيء من هذا عتب.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٦٩ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٦) صحيح مسلم (١٧٦٣)، وسلف بعضه ص٧٣ من هذا الجزء. قال ابن عبد البر في الدرر ص١١٦ : ولا يختلفون في أن القتلى يومئذ سبعون والأسرى سبعون في الجملة، وقد يختلفون في تفصيل ذلك.

(٧) في دلائل النبوة ٣/ ١٣٣ .

وهم تسعةٌ وأربعون رَجُلاً الذين أُحصوا، وهم سبعون في الأصل، مجْتَمَعٌ عليه لا شك فيه.

قال ابن العربيِّ(١): إنما قال مالك: وكانوا مشركين. لأن المفسرين رَوَوْا أنَّ العباس قال للنبيِّ ﷺ: إني مسلم. وفي رواية: أن الأسارى قالوا للنبيِّ ﷺ: آمنا بك. وهذا كلُّه ضعَّفه مالكٌ، واحتج على إبطاله بما ذكر من رجوعهم، وزيادة عليه أنهم غَزَوْه في أُحُد.

قال أبو عمر بن عبد البر(٢): اختلفوا في وقت إسلام العباس؛ فقيل: أسلم قبل يوم بدر؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «مَن لَقِيَ العباسَ فلا يقتله، فإنما أُخرج كَرهاً». وعن ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «إنَّ أُناساً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كَرهاً لا حاجة لهم بقتالنا، فَمَن لقيَ منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومَن لقيَ أبا الْبَخْتَرِيّ فلا يقتله، ومن لقي العباسَ فلا يقتله؛ فإنه إنما أُخرج مستكْرَهاً» وذكر الحديث(٣). وذُكر أنه أَسلَم حين أُسر يوم بدر(٤). وذُكر أنه أسلم عامَ خيبر، وكان يكتب لرسولِ اللهِ ﷺ بأخبار المشركين، وكان يحبُّ أن يهاجر، فكتب إليه رسولُ اللهِ ﷺ: «امكُثْ بمكةَ، فَمُقامُك بها أنفعُ لنا»(٥).

قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

فيه مسألتان:

---

(١) في أحكام القرآن ٢/ ٨٧٠.

(٢) في الاستيعاب على هامش الإصابة ٦/٦.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٤/ ١٠، والفسوي في المعرفة والتاريخ ١/ ٥١٣، والبيهقي في دلائل النبوة ٣/ ١٤٠ من طريق ابن إسحاق قال: حدثني العباس بن عبد الله بن معبد، عن بعض أهله، عن ابن عباس.

(٤) ذكره النووي في تهذيب الأسماء ١/ ٢٥٨، وسيأتي ص٨٠ من هذا الجزء.

(٥) الاستيعاب ٦/٦، وأخرجه بنحوه أحمد في فضائل الصحابة (١٨١٢)، وأبو يعلى (٢٦٤٦) من حديث سهل بن سعد ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٦٩: فيه أبو مصعب إسماعيل بن قيس وهو متروك. وينظر طبقات ابن سعد ٤/ ١٠ و ٣١، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٩٩.

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ في أنه لا يعذِّب قوماً حتى يبيِّن لهم ما يتَّقون.

واختلف الناسُ في كتاب اللهِ السابقِ على أقوال، أصحُّها ما سبَق من إحلالِ الغنائم، فإنها كانت محرَّمة على مَن قبلَنا، فلمَّا كان يومُ بدرٍ أسرَعَ الناسُ إلى الغنائم، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ أي: بتحليل الغنائم(١).

روى أبو داود الطَّيالِسيُّ في مسنده(٢): حدَّثنا سلَّام، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: لمَّا كان يومُ بدرٍ تعجَّل الناسُ إلى الغنائم فأصابوها، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ الغنيمة لا تَحِلُّ لأحد سودِ الرؤوس غيركم». فكان النبيُّ(٣) وأصحابُه إذا غنِموا الغنيمة جمعوها، ونزلَت نارٌ من السماء فأكلتها، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ إلى آخِرِ الآيتين. وأخرجه التِّرمذيُّ وقال: حديثٌ حسن صحيح(٤)، وقاله مجاهدٌ والحسن(٥).

وعنهما أيضاً وسعيدِ بن جبير: الكتابُ السابق: هو مغفرة اللهِ لأهل بدر؛ ما تقدَّم أو تأخَّر من ذنوبهم(٦). وقالت فرقة: الكتاب السابق: هو عفوُ الله عنهم في هذا الذنب معيَّناً(٧).

والعموم أصح؛ لقول رسول اللهِ ﷺ لعمرَ في أهل بدر: «وما يُدْريك لعلَّ اللهَ اطَّلَعَ على أهل بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتُم فقد غفرتُ لكم». خَرَّجه مسلم(٨).

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٧١ .

(٢) برقم (٢٤٢٩)، وأخرجه أيضاً الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٣١٠).

(٣) يعني مَن كان قبل النبي ﷺ، في رواية الطحاوي.

(٤) سنن الترمذي (٣٠٨٥) بنحوه، وهو عند أحمد (٧٤٣٣).

(٥) لم نقف عليه عن مجاهد، وأخرجه الطبري ١١/ ٢٧٦ - ٢٨٠ عن الحسن وابن عباس وغيرهما.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٣ ، وأخرج قولهم الطبري ١١/ ٢٨٠ ، وقول مجاهد وسعيد بن جبير في تفسير مجاهد ١/ ٢٦٨ .

(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٣ .

(٨) برقم (٢٤٩٤)، وهو عند أحمد (٦٠٠)، والبخاري (٣٠٠٧).

وقيل: الكتاب السابق: هو ألَّا يعذِّبَهم ومحمدٌ عليه الصلاة والسلام فيهم.

وقيل: الكتاب السابق: هو ألَّا يعذِّب أحداً بذنب أتاه جاهلاً حتى يتقدَّم إليه[١].

وقالت فرقة: الكتاب السابق هو ما قضى اللهُ من مَحْوِ الصغائر باجتناب الكبائر. وذهب الطبريُّ[٢] إلى أن هذه المعانيَ كلَّها داخلةٌ تحت اللفظ وأنه يعمُّها، ونَكَبَ عن تخصيص معنًى دون معنًى.

الثانية: ابن العَرَبيِّ[٣]: وفي الآية دليلٌ على أنَّ العبد إذا اقتحم ما يعتقده حراماً مما هو في علم الله حلالٌ له، لا عقوبةَ عليه، كالصائم إذا قال: هذا يوم نَوْبي[٤] فأُفطِر الآن. وتقول المرأة: هذا يومُ حيضتي فأُفطِر، ففعلا ذلك، وكان النَوْبُ والحيض الموجبانِ للفطر، ففي المشهور من المذهب فيه الكفارة، وبه قال الشافعيُّ. وقال أبو حنيفة: لا كفارةَ عليه، وهي الرواية الأخرى.

وجهُ الرواية الأولى: أنَّ طُروء الإباحة لا يثبت[٥] عُذراً في عقوبة التحريم عند الهتك، كما لو وَطِئَ امرأة ثم نكحها.

وجهُ الرواية الثانية: أنَّ حرمةَ اليوم ساقطةٌ عند الله عزَّ وجلَّ، فصادف الهَتْكُ محلًّا لا حرمةَ له في علم الله، فكان بمنزلة ما لو[٦] قصد وطء امرأة قد زُفَّت إليه وهو يعتقدها أنها ليست بزوجته، فإذا هي زوجته. وهذا أصح. والتعليل الأول لا يَلزم؛ لأنَّ علم الله سبحانه وتعالى مع علمنا قد استوى في مسألة التحريم[٧]، وفي مسألتنا

---

(١) يعني لا يعذب أحداً إلا بعد النهي. وأخرج الطبري ١١/ ٢٨١ - ٢٨٢ هذا القول عن مجاهد ومحمد بن علي بن الحسين.

(٢) في تفسيره ١١/ ٢٨٢ - ٢٨٣، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٤.

(٣) في أحكام القرآن ٢/ ٨٧٢.

(٤) النوب والنوبة: ما كان منك مسيرة يوم وليلة، أو ما كان على ثلاثة أيام، أو على فرسخين أو ثلاثة. معجم متن اللغة (نوب).

(٥) في أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٧٢ (والكلام منه): ينتصب.

(٦) في (ظ): فكان كما لو.

(٧) يعني في مسألة من وطئ امرأة ثم نكحها، وهو ما احتجَّ به أصحاب القول الأول، ينظر أحكام القرآن.

اختلف فيها علمنا وعلمُ الله، فكان المعوَّل على علم الله. كما قال: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

يقتضي ظاهره أن تكون الغنيمة كلُّها للغانمين، وأن يكونوا مشتركين فيها على السواء؛ إلّا أنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ بيَّن وجوبَ إخراج الخُمس منه وصرفِه إلى الوجوه المذكورة. وقد تقدَّم القول في هذا مستوفًى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ قيل: الخطابُ للنبيِّ ﷺ وأصحابِه. وقيل: له وحدَه. قال ابن عباس ﷺ: الأسرى في هذه الآية عباسٌ وأصحابُه؛ قالوا للنبيِّ ﷺ: آمنَّا بما جئتَ به، ونشهد أنك رسولُ الله، لَننصحنَّ لك على قومك؛ فنزلت هذه الآية[١]. وقد تقدَّم بُطلان هذا من قول مالك[٢].

وفي «مصنَّف» أبي داود[٣]، عن ابن عباس ﷺ: أنَّ النبيَّ ﷺ جعل فداءَ أهل الجاهلية يومَ بدر أربعَ مئة.

وعن ابن إسحاقَ: بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم؛ فَفَدى كلُّ قومٍ أسيرَهم بما رضُوا. وقال العباس: يا رسول الله، إني قد كنت مسلماً. فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فالله يَجزيك بذلك، فأمَّا

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٤، وأخرجه الطبري ١١/ ٢٨٦.

(٢) ص٧٧ من هذا الجزء.

(٣) برقم (٢٦٩١).

ظاهرُ أمرِكَ فكان علينا، فافْدِ نفسَك وابنَي أخيك[١] نوفلَ بن الحارث بن عبد المطلب، وعَقيلَ بنَ أبي طالب، وحليفَكَ عتبةَ بن عمرو أخا بني الحارث بن فهر» قال: ما ذاك عندي يا رسول الله. قال: «فأين المالُ الذي دفنتَه أنت وأمُّ الفضل، فقلتَ لها: إن أُصبتُ في سفري هذا؛ فهذا المالُ لِبَنِيَّ: الفضلِ وعبد الله وقُثَم»؟ فقال: والله يا رسول الله، إني لأعلمُ أنك رسول الله، إنَّ هذا لشيءٌ ما علمه غيري وغيرُ أمِّ الفضل، فاحْسُب لي يا رسول الله ما أصبتُم منِّي عشرين أوقيةً من مالٍ كان معي. فقال رسول الله ﷺ: «لا، ذاك شيءٌ أعطانا الله منك». ففدى نفسه وابني أخويه وحليفَه، وأنزل الله فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ الآية[٢].

قال ابن إسحاق: وكان أكثر الأسارى فداءً العباس بن عبد المطلب؛ لأنه كان رجلاً موسراً، فافتدى نفسه بمئةِ أُوقِيَّة من ذهب[٣].

وفي البخاريِّ[٤]: وقال موسى بن عقبة: قال ابن شهاب: حدَّثني أنس بن مالك: أنَّ رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ائذن لنا فلْنترك لابن أختنا عباسٍ فداءَه. فقال: «لا واللهِ لا تذرون درهماً».

وذكر النقَّاش وغيره: أنَّ فداءَ كلِّ واحد من الأسارى كان أربعين أوقِية، إلا العباسَ؛ فإن النبيَّ ﷺ قال: «أَضْعِفوا الفداءَ على العباس». وكلَّفه أن يَفديَ ابنَي أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، فأدّى عنهما ثمانين أوقِية، وعن نفسه ثمانين أوقِيّة، وأُخذ منه عشرون أوقيةً وقت الحرب. وذلك أنه كان أحدَ العشرة الذي ضَمِنوا الإطعام لأهل بدر، فبلغت النَّوْبة إليه يوم بَدْر، فاقتتلوا قبل أن يُطعِم، وبقيت

(١) في (م): أخويك.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ١٤٢ - ١٤٣ من طريق ابن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن عروة، عن الزهري وجماعة سماهم وأخرجه الحاكم ٣/ ٣٢٤ من حديث عائشة رضي الله عنها. وأخرجه بنحوه أحمد (٣٣١٠) من طريق ابن إسحاق قال: حدثني من سمع عكرمة عن ابن عباس.

(٣) دلائل النبوة ٣/ ١٤١.

(٤) برقم (٤٠١٨).

العشرون معه، فأُخذت منه وقت الحرب، فأُخذ منه يومئذٍ مئةُ أوقِيَّةٍ وثمانون أوقيةً. فقال العباس للنبيِّ ﷺ: لقد تركتَني ما حييتُ أسأل قريشاً بكَفِّي. فقال النبي ﷺ: «أين الذهبُ الذي تركتَه عند امرأتك أمِّ الفضل»؟ فقال العباس: أيُّ ذهب؟ فقال له رسول الله ﷺ: «إنك قلتَ لها: لا أدري ما يُصيبني في وجهي هذا، فإنْ حدثَ بي حَدَثٌ فهو لك ولولدِك» فقال: يا ابنَ أخي، مَن أخبرك بهذا؟! قال: «اللهُ أخبرني». قال العباس: أشهدُ أنك صادق، وما علمتُ أنك رسولُ الله قطُّ إلا اليومَ، وقد علمتُ أنه لم يُطْلِعْكَ عليه إلا عالمُ السرائر، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبدُه ورسوله، وكفَرْتُ بما سواه[١]. وأمر ابني أخويه فأسلما؛ ففيهما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾.

وكان الذي أسر العباسَ أبا اليَسَر كعب بنَ عمرو أخا بني سَلمة، وكان رجلاً قصيراً، وكان العباس ضخماً طويلاً؛ فلمَّا جاء به إلى النبيِّ ﷺ قال له: «لقد أعانك عليه مَلَك»[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ أي: إسلاماً. ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ أي: من الفِدْية؛ قيل: في الدنيا، وقيل: في الآخرة. وفي «صحيح» مسلم[٣]: أنه لمَّا قَدِم على النبيِّ ﷺ مالٌ من البحرين قال له العباس: إني فاديتُ نفسي وفاديتُ عَقِيلاً. فقال له رسول الله ﷺ: «خذ». فبسط ثوبَه وأخذ ما استطاعَ أن يحمله. مختصر.

في غير الصحيح: فقال له العباس: هذا خيرٌ مما أُخِذ منِّي، وأنا بعدُ أرجو أن يغفرَ الله لي[٤]. وقال العباس: وأعطاني زمزمَ، وما أُحِبُّ أنَّ لي بها جميعَ أموالِ

---

(١) ذكره بنحوه الواحدي في أسباب النزول ص٢٣٨ عن الكلبي، والبغوي ٢/ ٢٦٣ دون نسبة.

(٢) الاستيعاب ١٢/ ١٨٥ ، وأخرجه ابن سعد ٤/ ١٢ ، وأحمد (٣٣١٠)، والطبري في التاريخ ٢/ ٤٦٣ مطولاً.

(٣) لم نقف عليه عند مسلم، وهو في صحيح البخاري (٤٢١) من حديث أنس ﷺ.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٥ ، وأخرجه الطبري ١١/ ٢٨٥ عن قتادة.

أهلِ مكة[١].

وأسند الطبري[٢] إلى العباس أنه قال: فيَّ نزلت حين أعلمتُ رسولَ الله ﷺ بإسلامي، وسألتُه أن يحاسبني بالعشرين أوقِيَّة التي أُخِذت منِّي قبل المُفاداة، فأَبَى وقال: «ذلك فَيْءٌ». فأبدلني الله من ذلك عشرين عبداً كلُّهم تاجِرٌ بمالي.

وفي «مصنف» أبي داود عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: لمَّا بعث أهلُ مكة في فداء أسراهم بعثَتْ زينبُ في فداء أبي العاص بمال، وبعَثَتْ فيه بِقِلادةٍ لها كانت عند خديجةَ أدخلتها بها على أبي العاص. قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ؛ رَقَّ لها رِقَّةً شديدة وقال: «إنْ رأيتُم أن تُطلقوا لها أسيرَها وتَرُدُّوا عليها الذي لها». فقالوا: نعم. وكان النبيُّ ﷺ أخذ عليه ـ أوْ وَعَده ـ أن يُخلِّيَ سبيل زينبَ إليه. وبعث رسول الله ﷺ زيد بنَ حارثة ورجلاً من الأنصار فقال: «كونا ببطن يأجَجَ حتى تمرَّ بكما زينبُ، فتَصْحَباها حتى تأتيا بها»[٣].

قال ابن إسحاق[٤]: وذلك بعد بَدْر بشهر. قال عبد الله بن أبي بكر[٥]: حُدِّثت عن زينبَ بنتِ رسول الله ﷺ أنها قالت: لمَّا قدم أبو العاص مكةَ قال لي: تجهَّزي، فالْحقي بأبيك. قالت: فخرجتُ أتجهَّز، فلَقِيَتْني هند بنتُ عتبةَ فقالت: يا بنتَ محمد، أَلَمْ يبلغني أنك تريدين اللّحوقَ بأبيك؟ فقلت لها: ما أردتُ ذلك. فقالت؛ أيْ بنتَ عَمّ، لا تفعلي، إني امرأة مُوسِرة، وعندي سِلَع من حاجتك، فإن أردتِ سلْعة بِعتُكِهَا، أو قَرْضاً من نفقة أقرضتك؛ فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال. قالت:

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٢٦٣ .

(٢) في التفسير ١١/ ٢٨٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٥ .

(٣) سنن أبي داود (٢٦٩٢)، وهو عند أحمد (٢٦٣٦٢)، ويأجج كيَسْمَع ويَضْرِب ويَنْصُر: موضع بمكة. القاموس (أجج).

(٤) كما في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٥٣ .

(٥) هو عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وكلامه في السيرة النبوية ١/ ٦٥٣ ، وتاريخ الطبري ٢/ ٤٦٩ . والمستدرك ٤/ ٤٢ ، ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ١٥٥ والكلام منه.

فواللهِ ما أُراها قالت ذلك إلا لتفعل، فخفتُها فكتمتُها وقلتُ: ما أريد ذلك. فلما فرغتْ زينبُ من جِهازها ارتحلت، وخرج بها حَمُوها يقود بها نهاراً كنانةُ بن الربيع[١]. وتَسامَعَ بذلك أهلُ مكة، وخرج في طلبها هَبَّار بن الأسود ونافع بن عبد القيس الفِهريُّ، وكان أوّلَ مَن سَبَقَ إليها هبَّار، فروَّعها بالرمح وهي في هَوْدجها. وبرك كِنانةُ ونثر نَبله، ثم أخذ قوسَه وقال: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعتُ فيه سهماً. وأقبل أبو سفيان في أشراف قريش فقال: يا هذا، أَمسِكْ عنَّا نَبْلَكَ حتى نكلِّمك، فوقف عليه أبو سفيان وقال: إنك لم تصنع شيئاً، خرجتَ بالمرأة على رؤوس الناس، وقد عرفتَ مصيبَتَنا التي أصابتنا ببَدْر، فتظنُّ العرب وتتحدث أنَّ هذا وَهْنٌ منا وضعفٌ خروجُك إليه بابنته على رؤوس الناس من بين أَظْهُرنا. اِرجع بالمرأة فأَقِمْ بها أياماً، ثم سُلَّها سَلًّا رفيقاً في الليل، فأَلْحقها بأبيها، فلعَمْري ما لنا بحبْسِها عن أبيها من حاجة، وما لنا في ذلك الآن من ثُؤْرة[٢] فيما أصاب منا، ففعل. فلما مرَّ به يومان أو ثلاثةٌ؛ سلَّها، فانطلقت حتى قدمت على رسول الله ﷺ. فذكروا أنها قد كانت ألقت ـ للرّوعة التي أصابتها حين روَّعها هَبَّار بنُ أمِّ درهم ـ ما في بطنها[٣].

الثالثة: قال ابن العربيِّ[٤]: لما أُسِرَ مَن أُسِرَ من المشركين؛ تكلَّم قومٌ منهم بالإسلام، ولم يمضوا فيه عزيمةً، ولا اعترفوا به اعترافاً جازماً. ويُشبه أنهم أرادوا أن يَقربوا من المسلمين، ولا يَبعدوا من المشركين. قال علماؤنا: إن تكلَّم الكافر بالإيمان في قلبه وبلسانه ولم يمض فيه عزيمةً لم يكن مؤمناً. وإذا وُجد مثل ذلك من المؤمن كان كافراً؛ إلا ما كان من الوسوسة التي لا يقدر على دفعها؛ فإن الله قد عفا عنها وأسقطَها. وقد بيَّنَ الله لرسوله ﷺ الحقيقة فقال: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ أي: إن كان هذا القولُ منهم خيانةً ومكراً ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ بكفرهم ومكرهم بك

(١) هو أخو زوجها أبي العاص بن الربيع. ينظر السيرة النبوية ١/ ٦٥٤ .

(٢) أي: حقد وعداوة.

(٣) من قوله: قال عبد الله بن أبي بكر، إلى هذا الموضع من (خ) و(م).

(٤) في أحكام القرآن ٢/ ٨٧٤ .

وقتالهم لك. وإن كان هذا القولُ منهم خيراً ويعلمه الله، فيقبل منهم ذلك، ويعوِّضهم خيراً مما خرج عنهم، ويغفر لهم ما تقدَّم من كفرهم وخيانتِهم ومكرِهم.

وجمع خيانة: خَيَائن، وكان يجب أن يقال: خوائن؛ لأنه من ذوات الواو، إلا أنهم فرَّقوا بينه وبين جمع خائنة. ويقال: خائن وخُون[١] وخَوَنة وخانة[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خَتَم السورة بذكر الموالاة ليعلم كلُّ فريق وليَّه الذي يستعين به. وقد تقدَّم معنى الهجرة والجهاد لغةً ومعنًى[٣]. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟﴾ معطوفٌ عليه. وهم الأنصار الذين تبوَّؤوا الدار والإيمان مِن قبلهم، وانضَوى إليهم النبيُّ ﷺ والمهاجرون. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ رفع بالابتداء. ﴿بَعْضُهُمْ﴾ ابتداء ثان ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ خبره، والجميع خبر «إنّ»[٤].

قال ابن عباس: «أولياء بعض» في الميراث؛ فكانوا يتوارثون بالهجرة، وكان

(١) في النسخ الخطية: خون، والمثبت من (م).
(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩٨ .
(٣) تقدم ٣/ ٤٣٢ .
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩٩ .

لا يرث مَن آمن ولم يهاجر مَن هاجر، فنسخ الله ذلك بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ الآيةَ. أخرجه أبو داود[1]. وصار الميراث لذوي الأرحام من المؤمنين. ولا يتوارث أهل ملَّتين شيئاً. ثم جاء قوله عليه الصلاة والسلام: «ألحِقوا الفرائضَ بأهلها» على ما تقدَّم بيانه في آية المواريث[2].

وقيل: ليس هنا نسخ، وإنما معناه: في النصرة والمعونة[3]؛ كما تقدَّم في «النساء»[4].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ابتداء، والخبر: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾. وقرأ يحيى بن وَثَّاب والأعمشُ وحمزة: ﴿مِن وِلايتهم﴾[5] بكسر الواو. وقيل: هي لغة[6]. وقيل: هي من وَلِيتُ الشيء[7]؛ يقال: وَليٌّ بيِّن الوَلاية. ووالٍ بيِّن الوِلاية. والفتح في هذا أبيَنُ وأحسن؛ لأنه بمعنى النُّصْرة والنسب[8]. وقد تُطلق الوِلاية والوَلاية بمعنى الإمارة[9].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ يريد: إنْ دَعَوْا هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا من أرض الحرب عونَكم بنفير أو مال لاستنقاذهم فأعينوهم[10]، فذلك فرضٌ عليكم فلا تخذلوهم. إلَّا أنْ يستنصروكم على قومٍ كفارٍ بينكم وبينهم

---

(١) في سننه (٢٩٢٤)، وأخرجه أيضاً الطبري ١١/ ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٢) سلف ٦/ ١٠١ .

(٣) تفسير الطبري ١١/ ٢٨٩ و ٣٠٠ ، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٥٥ - ٥٥٦ .

(٤) ٦/ ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩٩ ، وقراءة حمزة في السبعة ص٣٠٩ ، والتيسير ص١١٧ .

(٦) وهو قول أبي الحسن الأخفش كما في المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٦ .

(٧) الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٤٩٧ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩٩ .

(٩) قال الفراء في معاني القرآن ١/ ٤١٨ - ٤١٩ : كسر الواو في الوِلاية أعجب إليَّ من فتحها؛ لأنها إنما تفتح أكثر من ذلك إذا كانت في معنى النصرة، ويختارون في ولِيتُه وِلاية الكسر، وقد سمعناهما بالفتح والكسر في معناهما جميعاً.

(١٠) في (ظ): فأغيثوهم.

ميثاقٌ فلا تنصروهم عليهم، ولا تنقضوا العهد حتى تَتِمَّ مُدَّتُه. ابن العربي[١]: إلا أن يكونوا [أُسَراء] مستضعَفين، فإنَّ الوَلاية معهم قائمةٌ، والنصرةَ لهم واجبة، حتى لا تبقى منا عينٌ تَطْرِفُ حتى تخرج إلى استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك، أو نبذل جميعَ أموالنا في استخراجهم حتى لا يبقى لأحدٍ درهم. كذلك قال مالك وجميع العلماء، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، على ما حلَّ بالخلق في تركهم إخوانَهم في أسر العدوِّ، وبأيديهم خزائن الأموال، وفضولُ الأحوال، والقدرةُ والعدد والقوّة والجَلَد.

الزجاج: ويجوز: «فعليكم النصرَ» بالنصب على الإغراء[٢].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ قطع الله الوَلاية بين الكفار والمؤمنين، فجعلَ المؤمنين بعضَهم أولياءَ بعض، والكفارَ بعضَهم أولياءَ بعض، يتناصَرون بدينهم ويتعاملون باعتقادهم[٣].

قال علماؤنا في الكافرة يكون لها الأخ المسلم: لا يزوِّجها؛ إذ لا وَلايةَ بينهما، ويزوِّجها أهل ملَّتها. فكما لا يزوِّج المسلمة إلا مسلمٌ، فكذلك الكافرةُ لا يزوِّجها إلا كافر قريبٌ لها، أو أسْقُفٌ، ولو من مسلم؛ [ولا يصحُّ عقد مسلم عليها] إلا أن تكون معتَقَة، فإن عُقد على غير المعتقَة فُسخ إن كان لمسلم، ولا يعرض للنَّصرانيِّ. وقال أَصْبَغ: لا يفسخ، عقدُ المسلم أولى وأفضل[٤].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ الضمير عائد على الموارثة والتزامها. المعنى: إلا تتركوهم يتوارثون كما كانوا يتوارثون؛ قاله ابن زيد[٥].

وقيل: هي عائدة على التناصُر والمؤازرة والمعاونة واتصال الأيدي؛ ابن جُريج

---

(١) في أحكام القرآن ٢/ ٨٧٥ - ٨٧٦ ، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩٩ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٧٦ .

(٤) عقد الجواهر الثمينة ٢/ ٢٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) أخرجه الطبري ١١/ ٢٩٧ - ٢٩٨ .

وغيرُه. وهذا إن لم يُفعل تقع الفتنة عنه عن قريب، فهو آكَدُ من الأوّل[١].

وذكر الترمذِيُّ عن عبد الله بن مسلم بن هُرْمز، عن محمدٍ وسعيد[٢] ابني عُبيد، عن أبي حاتم المزنيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جاءكم مَن تَرْضَوْن دينَه وخُلُقَه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكنْ فتنةٌ في الأرض وفساد كبير». قالوا: يا رسول الله، وإن كان فيه؟ قال: «إذا جاءكم مَن تَرْضَوْن دينَه وخلقَه فأنكحوه». ثلاثَ مرات. قال: حديث [حسن] غريب[٣].

وقيل: يعود على حفظ العهد والميثاق الذي تضمَّنه قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾، وهذا إن[٤] لم يُفعل فهو الفتنة نفسُها. وقيل: يعود على النصر للمسلمين [المستنصِرين] في الدين[٥]. وهو معنى القولِ الثاني.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٧ ، وقول ابن جريج أخرجه الطبري ١١/ ٢٩٨ - ٢٩٩ .

(٢) في النسخ: وسعد، والصواب ما أثبتناه.

(٣) سنن الترمذي (١٠٨٥)، وما بين حاصرتين منه ومن التحفة ٩/ ١٤٢ ، وأخرجه أيضاً أبو داود في المراسيل (٢٢٤). قال الترمذي: وأبو حاتم المزني له صحبة، ولا نعرف له عن النبي ﷺ غير هذا الحديث. وقال الحافظ في التهذيب ٤/ ٥٠٦ : أبو حاتم مختلف في صحبته. اهـ وقال ابن القطان في بيان الوهم والإيهام ٥/ ٢٠٣ : حديث أبي حاتم لا يصح، وذِكْر أبي داود إياه في المراسيل دليل على أنه عنده ـ أعني أبا حاتم المزني ـ غير صحابي. ومحمد وسعيد ابنا عبيد مجهولان. وعبد الله بن هرمز لم يكن يحيى بن سعيد القطان ولا عبد الرحمن بن مهدي يحدثان عنه، وسئل عنه ابن حنبل فقال: ليس بشيء، ضعيف الحديث.

وأخرجه الترمذي (١٠٨٤)، وابن ماجه (١٩٦٧) من طريق عبد الحميد بن سليمان، عن ابن عجلان، عن ابن وثيمة النصري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. قال أبو داود في المراسيل إثر الحديث (٢٢٥): وهو خطأ. وقال الترمذي في العلل ١/ ٤٢٦ : ولم يَعُدَّ البخاري حديث عبد الحميد محفوظاً، وقال (يعني البخاري): رواه الليث بن سعد، عن ابن عجلان، عن عبد الله بن هرمز عن النبي ﷺ مرسلاً. قلنا: قد أخرجه أبو داود في المراسيل (٢٢٥) من هذه الطريق.

وقد ذكر الترمذي في سننه إثر الحديث (١٠٨٤) رواية الليث هذه، ووقع في مطبوعه: عن ابن عجلان، عن أبي هريرة (ولعله محرف عن ابن هرمز) ونقل عن البخاري قوله: حديث الليث أشبه.

(٤) في النسخ: وإن، والمثبت من المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٧ ، والكلام منه.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٧ ، وقال ابن عطية: ويجوز أن يعود الضمير مجملاً على جميع ما ذُكر.

قال ابن إسحاق[١]: جعل الله المهاجرين والأنصارَ أهلَ وَلايةٍ[٢] في الدِّين دون مَنْ سواهم، وجعل الكافرين بعضَهم أولياءَ بعض. ثم قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ وهو أن يتولّى المؤمنُ الكافرَ دون المؤمنين ﴿تَكُن فِتْنَةٌ﴾ أي: محنة، بالحرب وما انْجرَّ معها من الغارات والجَلاء والأسر. والفسادُ الكبير: ظهور الشرك[٣]. قال الكسائيُّ: ويجوز النصب في قوله: ﴿تَكُن فِتْنَةٌ﴾[٤] على معنى: تكن فَعلتُكم فتنةً وفساداً كبيراً.

﴿حَقًّا﴾ مصدر، أي: حَقَّقوا إيمانهم بالهجرة والنُّصرة. وحقَّق الله إيمانَهم بالبِشارة في قوله: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: ثوابٌ عظيم في الجنة.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا﴾ يريد: من بعد الحُدَيْبِية وبيعة الرضوان. وذلك أنَّ الهجرة من بعد ذلك كانت أقلَّ رتبةً من الهجرة الأولى. والهجرةُ الثانية هي التي وقع فيها الصلح، ووضعت الحرب أوزارها نحو عامين، ثم كان فتحُ مكة. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «لا هجرة بعد الفتح»[٥]. فبيَّن أنَّ مَن آمن وهاجَر من بعدُ يلتحق بهم. ومعنى «منكم»، أي: مثلكم في النصر والموالاة.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ ابتداء. والواحد ذو، والرَّحِم مؤنثة، والجمع أرحام[٦]. والمراد بها هاهنا العَصَباتُ دون المولود بالرحم. ومما يبيِّن أن المراد بالرحِم العصباتُ قولُ العرب: وَصَلَتْك رَحِم. لا يريدون قرابة الأمّ. قالت قُتيلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث ـ كذا قال ابن هشام[٧]. قال السهيليُّ: الصحيح

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٧٧ .

(٢) في النسخ: ولايته، والمثبت من السيرة النبوية.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٧ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩٩ .

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٧ ، والحديث سلف ٦/ ٥٠٦ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩٩ .

(٧) في السيرة ٢/ ٤٢ ، وقال ذلك أيضاً أبو الفرج في الأغاني ١/ ١٩ ، والقيرواني في زهر الآداب ١/ ٢٨ .

أنها بنت النضر لا أخته، كذا وقع في كتاب «الدلائل»[(١)] - ترثي أباها حين قتله النبيُّ ﷺ صَبْراً بالصفراء:

يـا راكـبـاً إن الأُثـيـل مَـظِـنَّـةٌ ... مِـن صُبحِ خـامـسـةٍ وأنـت مُـوَفَّـقُ[(٢)]
أبـلِـغْ بـهـا مَـيْـتـاً بـأنَّ تـحـيَّـةً ... ما إنْ تـزالُ بـهـا الـنَّـجائـبُ تَـخْـفِـقُ[(٣)]
مـنِّـي إلـيـك وعَـبـرةً مـسـفـوحـةً ... جـادت بِـوَاكِـفِـهـا[(٤)] وأخـرى تَـخْـنُـقُ
هـل يـسـمـعَـنِّـي الـنَّـضْـرُ إن نـاديـتُـهُ ... أم كـيـف يـسـمـعُ مـيِّـتٌ لا يـنـطـقُ
أمـحـمـدٌ يـا خـيـرَ ضِـنْءٍ كـريـمـةٍ ... فـي قـومـهـا والـفـحلُ فـحلٌ مُـعْـرِقُ[(٥)]
مـا كـان ضـرَّكَ لـو مـنـنْـتَ وربَّـمـا ... مَـنَّ الـفـتـى وهـو الـمَـغِـيـظُ الـمُـحْـنَـقُ
لـو كـنـتَ قـابِـلَ فـديـةٍ لَـفَـدَيْـتُـهُ ... بـأعـزِّ مـا يُـفْـدَى بـه مـا يُـنْـفَـقُ
فـالـنَّـضـر أقـربُ مَـن أسَـرْتَ قـرابـةً ... وأحـقُّـهُـمْ إن كـان عِـتـقٌ يُـعـتَـقُ
ظـلَّـت سـيـوفُ بـنـي أبـيـه تَـنـوشُـه ... لـلـه أرحـامٌ هـنـاك تُـشَـقَّـقُ
صَـبْـراً يُـقـاد إلـى الـمـنـيَّـة مُـتْـعَـبـاً ... رَسْـفَ الـمُـقـيَّـدِ وَهْـو عـانٍ مُـوثَـقُ

السابعة: واختلف السلفُ ومَن بعدَهم في توريث ذَوِي الأرحام، وهو مَن لا سهمَ له في الكتاب [والسنة] مِن قرابة الميتِ وليس بعصبة[(٦)]، كأولاد البنات، وأولاد

---

(١) الروض الأنف ٣/ ١٣٥ ، وقال أنها ابنته أيضاً البصري في الحماسة البصرية ١/ ٢١٢ ، والمرزوقي في شرح ديوان الحماسة ٢/ ٩٦٣ ، وابن عبد البر في الدرر ص١١٠ . وابن حجر في الإصابة ١٣/ ٩٥ . وسماها الجاحظ في البيان والتبيين ٤/ ٤٤ : ليلى بنت النضر بن الحارث.

(٢) الأثيل: موضع قرب المدينة؛ كان فيه قبر النضر، والمَظِنَّة: المنزل المَعْلَم. وقولها: من صبح خامسة...، تريد من صبح ليلة خامسة للَّيلة التي تبتدئ في السير منها إلى الأثيل، وأنت على الطريق غير عادل عنها. شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٩٦٤ .

(٣) النجائب: الإبل الكرام. تخفق: تسرع. الإملاء المختصر في شرح غريب السير ص٩٢ .

(٤) وكفت العين الدمع: أسالته. اللسان (وكف).

(٥) الضِّنْءُ: الأصل. والمعرق: الكريم. الإملاء ص٩٢ . والمعنى: أنت كريم من الطرفين مُعِمٌّ مُخْوِلٌ. شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٩٦٧ .

(٦) الاستذكار ١٥/ ٤٧٠ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

الأَخَوات، وبناتِ الأخ، والعمَّةِ والخالة، والعمِّ أخِ الأبِ للأم، والجدِّ أبي الأم، والجدّة أمّ [أبي] الأم، ومَن أدْلَى بهم(١).

فقال قوم: لا يرث مَن لا فرضَ له من ذوي الأرحام. ورُوِيَ عن أبي بكر الصدِّيق وزيد بنِ ثابت وابنِ عمر، وروايةٌ عن عليٍّ، وهو قولُ أهلِ المدينة، ورُوِيَ عن مكحول والأوزاعيّ، وبه قال الشافعيُّ ﷺ.

وقال بتوريثهم عمر بنُ الخطاب وابنُ مسعود ومعاذٌ وأبو الدَّرْدَاء وعائشة، وعليٌّ في روايةٍ عنه، وهو قول الكوفيِّين وأحمدَ وإسحاق(٢). واحتجُّوا بالآية، وقالوا: وقد اجتمع في ذوي الأرحام سببان: القرابةُ والإسلام، فهم أَوْلى ممن له سببٌ واحد، وهو الإسلام(٣).

أجاب الأوّلون فقالوا: هذه آيةٌ مُجمَلةٌ جامعة، والظاهر لكل رَحِمٍ قَرُب أو بَعُد، وآياتُ المواريث مفسَّرة، والمفسَّر قاضٍ على المجمَل ومبيِّن.

قالوا: وقد جعلَ النبيُّ ﷺ الوَلاءَ سبباً ثابتاً، أقام المَوْلَى فيه مقام العصبة فقال: «الوَلاءُ لمن أعتق»(٤). ونهى عن بيع الوَلاءِ وعن هبته(٥).

احتجَّ الآخَرون بما روى أبو داود والدَّارَقُطْنيُّ عن المِقدام قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن ترك كَلًّا فإليَّ ـ وربما قال: فإلى الله وإلى رسوله ـ ومَن ترك مالاً فلورثته. وأنا وارثُ مَن لا وارثَ له، أعقِل عنه وأرثُه. والخال وارثُ مَن لا وارثَ له، يَعقِل عنه ويرثه»(٦).

---

(١) ينظر الموطأ ٢/ ٥١٨ والاستذكار ١٥/ ٤٨٠ - ٤٨١ ، وما سلف بين حاصرتين منهما، وفيهما زيادة على مَن ذكر المصنف: الخال وابن الأخ للأم، وزاد الكلوذاني في كتاب التهذيب في الفرائض ص٢١٦ : بنات الأعمام. وذكرهم جميعاً ـ وهم أحد عشر ـ ابن قدامة في المغني ٩/ ٨٢ .

(٢) ينظر الاستذكار ١٥/ ٤٨٠ - ٤٨٢ ، والتهذيب في الفرائض ص٢١٦ - ٢١٩ ، والمغني ٩/ ٨٢ .

(٣) الاستذكار ١٥/ ٤٨٤ .

(٤) سلف ٨/ ٢٤٧ .

(٥) سلف ٨/ ٢٤٦ .

(٦) سنن أبي داود (٢٨٩٩)، وسنن الدارقطني (٤١١٦)، وهو عند أحمد (١٧١٧٥)، وابن ماجه (٢٧٣٨). الكَلّ: العيال. النهاية (كلل).

وروى الدَّارَقُطْنيُّ عن طاوس قال: قالت عائشة رضي الله عنها: الله مَوْلَى مَن لا مَوْلَى له، والخالُ وارثُ مَن لا وارثَ له. موقوفٌ(١).

ورَوَى عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الخال وارث»(٢).

ورَوَى عن أبي هريرة قال: سئل رسولُ الله ﷺ عن ميراث العمَّةِ والخالة فقال: «لا أدري حتى يأتيَني جبريل» ثم قال: «أين السائلُ عن ميراث العمَّةِ والخالة؟» قال: فأتى الرجلُ، فقال: «سارَّني جبريل أنه لا شيءَ لهما». قال الدَّارقطنيُّ: لم يُسْنده غيرُ مَسعدةَ عن محمد بنِ عمرو، وهو ضعيف، والصوابُ مرسل(٣).

ورَوَى عن الشَّعبيِّ قال: قال زياد بنُ أبي سفيان لجليسه: هل تدري كيف قضى عمرُ في العمَّة والخالة؟ قال: لا. قال: إني لأعلمُ خلقِ الله كيف قضى فيهما عمر، جعل الخالةَ بمنزلة الأم، والعمةَ بمنزلة الأب(٤).

---

(١) سنن الدارقطني (٤١١٨).

(٢) سنن الدارقطني (٤١٢١) و(٤١٢٢).

(٣) سنن الدارقطني (٤١٥٩)، ومسعدة هو ابن اليسع الباهلي، قال الذهبي في الميزان ٤/ ٩٨ : هالك، كذبه أبو داود، وقال أحمد بن حنبل: خرقنا حديثه منذ دهر.

(٤) سنن الدارقطني (٤١٦١). قال ابن عبد البر في الاستذكار ١٥/ ٤٨٤ : واحتجوا بآثار كثيرة كلُّها ضعيفة ومحتملة للتأويل، لا تلزم بها حجة.

سُورَةُ الأَنفَالِ

مَدنيَّةٌ، وآيُها سِتٌّ وسَبعونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾؛ أي: عن الغنائمِ[١]، يعني: حكمَها، وإنَّما سُمِّيَت الغَنيمةُ نَفَلًا لأنَّها عطيَّةٌ مِن اللهِ وفضلٌ؛ كمَا سُمِّيَ به ما يَشْرطُه الإمامُ لمقتحمِ خَطَرٍ عطيَّةً له وزيادةً على سَهمِه.

﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾؛ أي: أمرُها مختصٌّ بهمَا، يَقْسِمُها الرَّسولُ على ما يأمرُهُ اللهُ به.

وسببُ نُزولِه: اختلافُ المُسلمينَ في غنائمِ بَدرٍ أنَّها كيفَ تُقسَمُ؟ ومَن يَقسِمُ: المُهاجرونَ مِنهُم أو الأنصارُ[٢]؟

---

(١) اختلف في معنى الأنفال على أقوال ذكرها الراغب في «المفردات» (ص: ٨٢٠) (مادة: نفل)، فقال: النَّفَلُ قيل: هو الغَنيمَةُ بعَيْنِهَا لكن اختلفتِ العبارةُ عنه لاختلافِ الاعْتِبَارِ، فإنه إذا اعتُبِر بكونه مظفوراً به يقال له: غَنِيمَةٌ، وإذا اعْتُبِرَ بكونه مِنْحَةً من الله ابتداءً من غير وجوبٍ يقال له: نَفَلٌ، ومنهم من فَرَقَ بينهما من حيثُ العمومُ والخصوصُ، فقال: الغَنِيمَةُ ما حَصَلَ مسْتَغْنَماً بِتَعَبٍ كان أو غَيْرِ تَعَبٍ، وباستحقاقٍ كان أو غيرِ استحقاقٍ، وقبل الظَّفَرِ كـان أو بَـعْـدَهُ. والنَّفَلُ: ما يَحْصُلُ للإنسانِ قبْلَ القِسْمَةِ من جُمْلَةِ الغَنِيمَةِ، وقيل: هو ما يَحْصُلُ للمسلمين بغير قتالٍ، وهو الفَيْءِ، وقيل هو ما يُفْصَلُ من المَتَاعِ ونحوه بَعْدَ ما تُقْسَمُ الغنائمُ، وعلى ذلك حُمِلَ قولُه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية [الأنفال: ١]، وأصل ذلك من النَّفْلِ. أي: الزيادةِ على الواجبِ، ويقال له: النَّافِلَةُ. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، وعلى هذا قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] وهو وَلَدُ الوَلَدِ، ويقال: نَفَلْتُهُ كذا. أي: أعطيْتُهُ نَفْلًا.

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٢٢٧٦٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٨٥٥)، الحاكم في «المستدرك» (٢٦٠٧)، وصححه، ووافقه الذهبي في «التلخيص».

وقيلَ: شرطَ رَسولُ اللهِ ﷺ لِمَن كانَ له غَناءٌ أن ينفِّلَهُ، فتسارعَ شُبّانُهم حتّى قتَلُوا سبعينَ وأَسَرُوا سَبعينَ، ثمَّ طَلَبُوا نَفَلَهُم وكانَ المالُ قليلًا، فقالَ الشُّيوخُ والوجوهُ الَّذينَ كانُوا عندَ الرَّاياتِ: كُنَّا رِدْءًا لكم وفئةً تَنحازونَ إليها، فنزلَتْ، فقسَمَها رسولُ اللهِ ﷺ بينَهُم على السَّواءِ(١).

ولهذا قيلَ: لا يلزَمُ الإمامَ أن يفيَ بما وعدَ، وهو قولٌ للشّافعيِّ(٢) رضيَ اللهُ عنه.

وعن سَعدِ بنِ أبي وقّاصٍ قالَ: لَمّا كانَ يومُ بدرٍ قُتِلَ أخي عميرٌ وقَتَلْتُ سعيدَ بنَ العاصِ(٣)، وأخذتُ سيفَهُ فأتيتُ بِهِ رسولَ اللهِ ﷺ واستَوْهَبْتُه منه فقالَ:

---

(١) رواه أبو داود (٢٧٣٧)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٣٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٠٩٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢٨٧٦)، وصححه، ووافقه الذهبي في «التلخيص». ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٣١). قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ٦٧): وأما قوله: «حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين» فليس في هذا الحديث.

قلت: وهذه العبارة التي نبه عليها الحافظ وردت في سياق آخر رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٨٨) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وذكره ابن أبي زمنين في «تفسيره» (٢/ ١٦٤) عن الكلبي، والثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٩) عن ابن عباس، وفي رواية عبد الرزاق بعض اختصار. والكلبي متروك.

(٢) في نسخة الطبلاوي والتفتازاني: «قول الشافعي»، والمثبت من نسخة الخيالي، وهو الموافق لعبارة «الكشاف» (٣/ ٣٦١): وعند الشافعي رحمه الله في أحد قولَيْه: لا يلزم.

(٣) قال أبو عبيد: كذا فيه سَعيدُ بن العاصِ، والمحفوظُ عِندَنا العاصُ بنُ سَعيد. انظر: «الأموال» للقاسم بن سلام (٧٥٦).

قال الأستاذ محمود شاكر في طبعته من «تفسير الطبري» (١٣/ ٣٧٤): فالذي جاء في الخبر هنا «سعيد بن العاص» وَهم، فإن سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية الأموي متأخر، قُبِضَ رسولُ الله ﷺ وله تسع سنين، وهو لم يُشرك قط، وقُتل أبوه العاص بن سعيد يوم بدرٍ كافراً، أما جده =

«ليسَ هذا لي ولا لكَ اطرَحْهُ فـي القبضِ»، فطَرَحْتُه وبي ما لا يعلَمُهُ إلَّا اللهُ مِن قتلِ أخي وأخذِ سَلَبي، فما جاوزتُ إلَّا قَليلًا حتَّى نزلَتْ سُورَةُ الأنفالِ، فقالَ لي رسولُ اللهِ ﷺ: «سألتَني السَّيفَ وليسَ لي، وإنَّه قد صارَ لي فاذهَبْ فخُذْهُ»[1].

وقُرِئَ: «يَسألونكَ عَلَّنْفال» بحذفِ الهمزةِ وإلقاءِ حَرَكتِها على اللَّامِ وإدغامِ نونِ «عَن» فيها[2]، و: «يَسألونَكَ الأَنفَال»[3]؛ أي: يسألكَ الشُّبَّان ما شَرَطْتَ لهم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فـي الاختـلافِ والمشاجرةِ ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾: الحالَ الَّتي بينكُم بالمواساةِ والمساعدَةِ فيما رزقَكُم اللهُ، وتسليمِ أمرِهِ إلى اللهِ والرَّسولِ.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيهِ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإنَّ الإيمانَ يَقتَضِي ذلك، أو إن كنتُم كامِلِي الإيمانِ؛ فإنَّ كمالَ الإيمانِ بهذه الثَّلاثةِ: طاعةِ الأوامرِ، والاتِّقاءِ عَن المعاصي، وإصلاحِ ذاتِ البينِ بالعَدْلِ والإحسانِ.

= سعيد بن العاص بن أمية فمات قبل بدرٍ مشركاً، ويكون الصواب كما قال ابن حجر في «الإصابة» في ترجمة عمير بن أبي وقاص: العاص بن سعيد بن العاص، ويكون الاختلاف إذن في الذي قَتَله: أهو علي بن أبي طالب، أم سعد بن أبي وقاص؟

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٥٥٦)، وسعيد بن منصور في «سننه» (٢٦٨٩)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٣٠٨٥)، وأبو عبيد في «الأموال» (٧٥٦)، وابن زنجويه في «الأموال» (١١٢٦)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ١٥).
ووقع في «سنن سعيد بن منصور» مكان عمير: عتبة، وهو تحريف.
وأصل الحديث رواه مسلم (١٧٤٨).

(٢) تنسب لابن محيصن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٤).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٨) عن ابن مسعود، وزاد ابن جني في «المحتسب» (١/ ٢٧٢) نسبتها لجعفر بن محمد بن علي بن الحسين ولأبيه ولجده ولطلحة بن مصرف.

(٢) ـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: الكامِلُون في الإيمانِ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فزِعَت لذكرِه استعظامًا له وتهيُّبًا مِن جلالِه.

وقيلَ: هو الرَّجلُ يهمُّ بمعصيةٍ فيقالُ له: اتَّقِ اللهَ، فيَنْزِعُ عنه خوفًا مِن عقابِه.

وقُرِئَ: «وجَلَتْ» بالفتحِ[١]، وهي لغةٌ، و: «فَرِقَتْ»[٢]؛ أي: خافَتْ.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ لزيادةِ المؤمَنِ بـه، أو لاطمئنانِ النَّفسِ ورسوخِ اليَقينِ بتظاهُرِ الأدلَّةِ، أو بالعملِ بمَوْجِبِها، وهو قولُ مَن قالَ: «الإيمانُ يزيدُ بالطَّاعةِ وينقصُ بالمعصيَةِ» بناءً على أنَّ العملَ داخلٌ فيه.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: يفوِّضـونَ إليـه أمورَهُـم، ولا يخشَـونَ ولا يرجُونَ إلَّا إيَّاه.

(٣ ـ ٤) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنَّهم حقَّقُوا إيمانَهُم بأنْ ضمُّوا إليه مكارِمَ أعمالِ القلوبِ مِن الخشيَةِ والإخلاصِ والتَّوكُّلِ ومحاسنَ أفعالِ الجوارحِ الَّتي العِيارُ[٣] عليهَا الصَّلاةُ والصَّدقةُ.

و﴿حَقًّا﴾ صفةُ[٤] مَصدرٍ محذوفٍ، أو مصدرٌ مُؤكِّدٌ كقولِهِم: «هو عبدُ اللهِ حقًّا».

﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: كرامةٌ وعُلوُّ مَنزلةٍ، وقيلَ: درجاتُ الجنَّةِ يرتَقونَها بأعمالِهِم.

---

(١) نسبت ليحيى وأبي واقد. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٤).

(٢) نسبت لابن مسعود. انظر: «تفسير الثعلبي» (١٣/ ١٧)، و«الكشاف» (٣/ ٣٦٦)، و«البحر المحيط» (١١/ ١٣).

(٣) في نسخة التفتازاني: «المعيار».

(٤) في نسخة التفتازاني: «وحقًّا منصوب بصفة».

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لِمَا فَرَطَ مِنْهُم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أُعدَّ لَهُم في الجنَّةِ لا ينقطِعُ عَددُهُ ولا يَنتهِي أَمدُه.

(٥) ـ ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ خبرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ تقديرُهُ: هذه الحالُ في كراهَتِهِم إيَّاها كحالِ إخراجِكَ للحربِ في كراهتِهِم له، أو صِفَةُ مصدرِ الفعلِ المقدَّرِ في قولِه: ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾؛ أي: الأنفالُ ثبتَتْ للهِ والرَّسولِ ﷺ مع كراهَتِهِم ثباتًا مثلَ ثباتِ إخراجِك ربُّك من بيتكَ، يعني: المدينةَ؛ لأنَّها مُهاجَرُه ومَسكَنُه، أو بيتَهُ فيها مع كراهَتِهِم.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ في موقعِ الحالِ؛ أي: أخرجكَ في حالِ كراهَتِهِم.

وذلك أنَّ عيرَ قريشٍ أقبلَتْ مِن الشَّامِ وفيها تجارةٌ عَظِيمَةٌ ومعها أربعونَ راكبًا، منهم أبو سفيانَ وعمرُو بنُ العاصِ ومخرمةُ بنُ نوفلٍ وعمرُو بن هشامٍ، فأخبر جبريلُ رسولَ اللهِ عليهما السَّلامُ، فأخبرَ المُسلمينَ فأعجبَهُم تلقِّيهَا لكثرةِ المالِ وقلَّةِ الرِّجالِ، فلمَّا خرَجُوا بلغَ الخبرُ أهلَ مكَّةَ، فنادى أبو جهلٍ فوقَ الكعبَةِ: يا أهلَ مكَّةَ! النَّجاءَ النَّجاءَ على كلِّ صعبٍ وذَلُولٍ، عيرُكُم أموالُكُم، إنْ أصابَها محمَّدٌ لم تُفلِحُوا بعدَها أبدًا[1].

وقد رأَتْ قبلَ ذلك بثلاثٍ عاتكَةُ بنتُ عبدِ المطَّلبِ أنَّ ملَكًا نزلَ مِن السَّماءِ فأخذَ صخرةً مِن الجبلِ ثمَّ حلَّقَ بها[2]، فلم يبقَ بيتٌ في مكَّةَ إلَّا أصابَه شيءٌ مِنها.

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٠٦) من قول ابن إسحاق، ورواه ابن جرير (١١/ ٤٢) عن ابن عباس، و(١١/ ٤٣) عن السدي، و(١١/ ٤١) عن عروة.

(٢) قوله: (حلق بها): التحليق بالشيء: الرمي به إلى فوق. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٧/ ٢٣).

فحدَّثَتْ بها العَبَّاسَ، وبلغَ ذلك أبا جهلٍ فقالَ: ما يرضَى رِجالُهُم أن يَتنبَّؤُوا حتَّى تَنبَّأَ نِساؤُهُم[1]!

فخرجَ أبو جهلٍ بجميعِ أهلِ مكَّةَ ومضى بهم إلى بدرٍ، وهو ماءٌ كانَت العربُ تجتمِعُ عليه لسُوقِهم يومًا في السَّنَةِ، وكانَ رَسولُ اللهِ ﷺ بوادِي ذَفِرانَ[2]، فنزلَ عليه جبريلُ بالوَعدِ بإحدى الطَّائفتينِ: إمَّا العيرُ وإمَّا قريشٌ، فاستشارَ فيه أصحابَه؛ فقالَ بعضُهُم: هلَّا ذكرتَ لَنَا القتالَ حتَّى نتأهَّبَ له، إنَّا خرجنا للعيرِ، فردَّ عليهِم وقالَ: «إنَّ العيرَ مَضَتْ على ساحلِ البَحرِ، وهذا أبو جهلٍ قد أقبَلَ»، فقالوا: يا رسولَ اللهِ عليكَ بالعيرِ ودَعِ العدوَّ، فغضبَ رسولُ اللهِ، فقامَ أبو بكرٍ وعُمَرُ فأحسنَا، ثمَّ قامَ سعدُ بنُ عُبادةَ فقالَ: فانظُرْ أمرَكَ فامضِ، فواللهِ لو سرْتَ إلى عَدَنِ أَبْيَنَ[3] ما تخلَّفَ عنك رجلٌ مِن الأنصارِ[4].

---

(١) حديث الرؤيا رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٢٩٧) عن ابن عباس وعروة. ورواه الطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٣٤٤ و٣٤٦) من حديث عاتكة رضي الله عنها صاحبة الرؤيا.

(٢) ذفران: بفتح أوّله، وكسر ثانيه ثمّ راء مهملة، وآخره نون: واد قرب وادي الصفراء على طريق بدر. انظر: «معجم البلدان» (٣/ ٦).

(٣) أبين: يفتح أوله ويكسر بوزن أحمر ويقال: يبين، وذكره سيبويه في الأمثلة بكسر الهمزة، ولا يعرف أهل اليمن غير الفتح، وحكى أبو حاتم، قال: سألنا أبا عبيدة كيف تقول: عدن أبين أو إبين، فقال: أبين وإبين جميعًا، وعدن أبين: مَدينةٌ مَعروفةٌ باليَمنِ، منه عدن، سميت برجلٍ مِن حِمْيَرَ عَدَنَ بها؛ أي: أَقَامَ. انظر: «معجم ما استعجم من أسماء البلاد» (١/ ١٠٣)، و«معجم البلدان» (١/ ٨٦)، و«النهاية» مادة: (عدن)، و(٣/ ١٩٢).

(٤) كذا ذكر المؤلف قول سعد بن عبادة هنا قبل كلام المقداد وقبل قول النبي ﷺ: «أشيروا علي أيها الناس» يريد بذلك الأنصار، متابعًا في ذلك الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٣٧٠)، وتابعه على ذلك أيضًا بعض المفسرين كأبي البركات النسفي وأبي السعود، وكذا ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» عند هذه الآية، وفي ذكره في هذا الموضع إخلال بتسلسل الأحداث، فإن سعد بن =

ثم قالَ مِقدادُ بنُ عمرٍو: امضِ لِمَا أمركَ اللهُ فإنَّا معكَ حيثُمَا أحببتَ، لا نقولُ لكَ كما قالَتْ بنو إسرائيلَ لِمُوسى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكنْ: اذهَبْ أنتَ وربُّكَ فقاتِلَا إنَّا مَعَكُما مقاتلونَ، فتبسَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ(١).

= عبادة من الأنصار، بل هو من زعمائهم وكبارهم، وموقعه فيهم كموقع سعد بن معاذ من حيث الزعامة والوجاهة، وقد تكلم باسم الأنصار، وصرح في كلامه بنصرتهم للنبي ﷺ إذا وقع اللقاء، فلم يبق مسوغ لذكر طلب النبي ﷺ بعد ذلك رأي الأنصار، وما جاء من قوله: «أشيروا عليَّ أيها الناس» وهو يريد الأنصارَ... إلى قول سعد بن مُعاذٍ: لكأنَّك تُريدنا يا رسول الله؟ إلى آخر كلامه.

ومن العجيب أن يغيب مثل هذا عن هؤلاءِ الأئمة مع رسوخهم في العلم وسعة اطلاعهم، ولعل السبب في وقوع ذلك هو خلط بعض الروايات ببعضها، فقد روى مسلم (١٧٧٩) القصة بذكر كلام سعد بن عبادة لكن لم يرد فيه بعد ذلك طلب المشورة من الأنصار، ولفظه: عن أنسٍ: أن رسولَ اللهِ ﷺ شاوَرَ حين بَلَغه إقبالُ أبي سفيانَ، قال: فتكلَّم أبو بكر، فأَعْرَض عنه، ثُم تكلَّم عمرُ فأَعْرَض عنه، فقام سعدُ بنُ عبادةَ، فقال: إيَّانا تريدُ يا رسولَ الله؟ والذي نفسي بيده، لو أمَرْتنا أن نُخِيضها البحرَ لأَخضناها، ولو أمَرْتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْكِ الغِمَادِ لَفعَلْنا، قال: فنَدَب رسولُ اللهِ ﷺ الناسَ، فانطلَقوا حتى نزلوا بدرًا... الحديث.

فليس في هذا الحديث إشكال من حيث التسلسل، لكن ذكر سعد بن عبادة رضي الله عنه في القصة أصلًا فيه نظر نبه عليه الحافظ في «الفتح» (٧/ ٢٨٨) قال: لأن سعد بن عبادة لم يشهد بدرًا، وإن كان يعدُّ فيهم لكونه ممن ضرب له بسهمه...، قال: ووقع عند الطبراني أن سعد بن عبادة قال ذلك بالحديبية، وهذا أولى بالصواب.

قلت: لعل ذكر سعد بن عبادة رضي الله عنه وقع في حديث مسلم بدلًا من ذكر سعد بن معاذ رضي الله عنه.

(١) قول المقداد إلى هنا رواه بنحوه البخاري (٤٦٠٩) من حديث ابن مسعود، وفيه: فكأنه سري عن رسول الله ﷺ. بدل: فتبسم رسول الله ﷺ.

ثمَّ قالَ: «أشيروا عليَّ أيُّها النَّاسُ» وهو يريدُ الأنصارَ لأنَّهم كانُوا عُدَدهم[1]، وقد شَرَطُوا حين بايعوهُ بالعقبةِ أنَّهم بُرَآءُ مِن ذمامِهِ حتَّى يَصِلَ إلى دِيارِهِم، فتخوَّفَ أن لا يَرَوْا نُصرَتَه إلَّا على عَدوٍّ دَهِمَهُ بالمدينةِ، فقامَ سَعدُ بنُ مُعاذٍ فقالَ: لَكأنَّكَ تريدُنا يا رَسولَ الله؟ فقالَ: «أجل»، قالَ: إنَّا قد آمَنَّا بك وصَدَّقناكَ وشَهِدْنا أنَّ ما جِئْتَ به هو الحقُّ، وأعطيناكَ على ذلك عُهودَنا ومَواثِيقَنا على السَّمعِ والطَّاعةِ، فامضِ يا رسولَ اللهِ لِمَا أردتَ فوالذي بعثَكَ بالحقِّ لو استعرضْتَ بِنَا هذا البَحْرَ فخُضتَهُ لخُضْناهُ معكَ، ما تخلَّفَ منا رجلٌ واحِدٌ، وما نكرَهُ أَنْ تَلْقَى بنا عَدُوَّنا، وإنَّا لصُبُرٌ عندَ الحربِ صُدُقٌ عندَ اللقاءِ، ولعلَّ اللهَ يُريكَ مِنَّا ما تقرُّ به عينُكَ، فسِرْ بِنَا على بركةِ اللهِ تَعالى.

فنشَّطَه قولُه، ثمَّ قالَ: «سيروا على بَرَكَةِ اللهِ وأبشِرُوا فإنَّ اللهَ قَدْ وعدَنِي إحدى الطَّائفتينِ، واللهِ لكَأنِّي أنظرُ إلى مصارعِ القَوْمِ»[2].

---

(١) قوله: «عُدَدهم» هكذا ضبطت في نسخة التفتازاني والخيالي، وعليه شرح القونوي في «الحاشية» (٩/ ١٧) فقال: هو جمع عدة بضم العين: ما أعد للمحاربة، لكن المراد هنا: ما أعد للمعاونة: إما حقيقة إن قيل بالاشتراك، أو مجازًا وهو الظاهر. وفي نسخة الطبلاوي: «عدوُّهم».

(٢) حديث غزوة بدر رواه مطولاً الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤١) من طريق محمد بن إسحاق، عن محمد بن مسلم الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا، عن عبد الله بن عباس، كُلٌّ قد حدثني بعض هذا الحديث، فاجتمع حديثهم فيما سُقت من حديث بدر. فذكره ومن ضمنه أكثر ما أورده المؤلف هنا. وانظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٢٩) وما بعدها، و«السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٠٧) وما بعدها، و«المعجم الكبير» (٢٤/ ٣٤٦ـ ٣٤٧).

وقصة إراءتهم مصارع القوم رواها مسلم (٢٨٧٣) من حديث أنس عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، كان يُرينا مَصارعَ أهلِ بدرٍ بالأمسِ، يقولُ: (هذا مَصْرَعُ فلانٍ غدًا إنْ شاءَ اللهُ)، قال: فقال عمر: فوالذي بَعَثَه بالحقِّ ما أخطَؤوا الحُدودَ التي حَدَّ رسولُ الله ﷺ.

وقيلَ: إنَّه عليه السَّلامُ لمَّا فرغَ مِن بدرٍ قيلَ له: عليكَ بالعيرِ، فناداهُ العبَّاسُ وهو في وثاقِه: لا يصلحُ، فقالَ له: «لمَ»؟ فقالَ: لأنَّ اللهَ وعدَكَ إِحْدَى الطَّائفتينِ وقد أعطاكَ ما وعدَكَ، فكرِهَ بعضُهُم قولَه[1].

(٦) ـ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾: في إيثارِكَ الجِهَادَ بإظهارِ الحقِّ لإيثارِهِم تلقِّيَ العيرِ عليه.

﴿بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ لهم أنَّهُم يُنصرونَ أينَمَا توجَّهُوا بإعلامِ الرَّسولِ.

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾؛ أي: يكرهونَ القِتالَ كراهةَ مَن يُساقُ إلى الموتِ وهو يشاهدُ أَسبابَه، وكانَ ذلك لقلَّةِ عددِهِم وعدمِ تأهُّبِهِم، إِذْ رُوِيَ أنَّهُم كانُوا رجَّالةً وما كانَ فيهِمْ إلَّا فارسانِ[2]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ مُجادلَتُهم كانَ لفرطِ فَزَعِهِم ورُعبِهِم.

(٧) ـ ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾ على إضمارِ «اذكر»، و﴿إِحۡدَى﴾ ثاني مَفْعُولي ﴿يَعِدُكُمُ﴾ وقد أبدلَ عنها ﴿أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ بدلَ الاشتمالِ.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ يعني: العيرَ؛ فإنَّه لم يَكُن فيهَا إلَّا أربعونَ فارسًا، ولذلك يَتمنَّوْنَها ويكرهونَ مُلاقاةَ النَّفيرِ لكثرةِ عَددِهِم وعُدَدِهِم، و﴿ٱلشَّوۡكَةِ﴾: الحِدَّةُ، مُستعارَةٌ مِن واحدَةِ الشَّوكِ.

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾؛ أي: يُثْبِتَه ويُعْلِيَه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الموحَى بها في هذه الحالِ، أو بأوامرِهِ للملائكَةِ بالإمدادِ.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٨٧٣)، والترمذي (٣٠٨٠)، وقال: هذا حديث حسن، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٦١)، وصححه، ووافقه الذهبي في «التلخيص».

(٢) قال الطِّيبيُّ: قيل: هما المِقدادُ بنُ الأسود والزُّبيرُ بنُ العوَّام. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٧/ ٢٨)، رواه الطبراني في «الكبير» (٢٣١)، عن إسماعيل بن أبي خالد عن البهي.

وقُرِئَ: «بكَلِمَتِه»[١].

﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ويستأصِلَهُم، والمعنى: أنَّكُم تُريدونَ أنْ تصيبوا مَالًا ولا تلقَوْا مَكروهًا، واللهُ يُريدُ إعلاءَ الدِّينِ وإظهارَ الحقِّ وما يُحصِّلُ لكم فوزَ الدَّارينِ.

(٨) ـ ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾؛ أي: فعلَ ما فعلَ، وليسَ بتكريرٍ؛ لأنَّ الأوَّلَ لبيانِ المرادِ وما بينَه وبينَ مُرادِهِم مِن التَّفاوُتِ، والثَّاني لبَيانِ الدَّاعي إلى حملِ الرَّسولِ على اختيارِ ذاتِ الشَّوكةِ ونصرِه عليها.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك.

(٩) ـ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ بدلٌ مِن «إذ يعدُكُم»، أو متعلِّقٌ بقولِه: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾، أو على إضمارِ «اذكر»، واستغاثَتُهم: أنَّهم لَمَّا عَلِمُوا أنْ لا محيصَ مِن القتالِ أخذوا يَقولونَ: أي ربِّ انصُرْنا على عدوِّكَ، أَغِثْنَا يا غِياثَ المُستغيثينَ.

وعن عُمرَ رَضيَ اللهُ عنه أنَّه عليهِ السَّلامُ نظرَ إلى المشركينَ وهم ألفٌ، وإلى الصَّحابةِ وهُم ثلاثُ مئةٍ، فاستقبلَ القِبْلَةَ ومدَّ يديهِ يَدعُو: «اللهمَّ أَنجِز لي ما وعَدْتَني، اللهمَّ إنْ تَهْلِكْ هذه العِصابةُ لا تُعبَد في الأرضِ» فما زالَ كذلك حتَّى سَقطَ رِداؤُه، فقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنه: يا نبي الله، كفاكَ مُناشدَتَكَ ربَّكَ فإنَّه سينجزُ لك ما وعدَكَ[٢].

﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم﴾: بأنِّي مُمدُّكُم، فحُذِفَ الجارُّ وسُلِّطَ عليه الفعلُ.

---

(١) نسبت لمسلمة بن محارب. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٤).

(٢) رواه مسلم (١٧٦٣)، والترمذي (٣٠٨١)، وقال: حديث حسن صحيح غريب.

وقرأ أبو عَمرٍو بالكسرِ[(١)] على إرادَةِ القَولِ، أو إجراءِ «استجاب» مُجرى «قال»؛ لأنَّ الاستجابةَ مِن القَوْلِ.

﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾: مُتَّبِعينَ المؤمنينَ، أو: بعضَهُم بعضًا، من أردَفْتُه: إذا جئتُ بعدَه، أو: مُتْبِعِينَ بعضَهُم بعضًا المؤمنينَ، أو: أنفسَهُم المؤمنينَ، من أردَفْتُه إيَّاهُ فرَدِفَه.

وقرأ نافِعٌ ويَعقوبُ ﴿مُرْدَفين﴾ بفتحِ الدَّالِ[(٢)]؛ أي: مُتْبَعين أو مُتَّبَعين، بمعنى: أنَّهم كانُوا مقدمَةَ الجيشِ أو ساقَتَهُم.

وقُرِئَ: «مُرِدِّفين» بكسرِ الرَّاءِ وضمِّها، وأصلُها مُرْتَدِفينَ بمعنى مُترادِفينَ، فأُدغِمَت التَّاءُ في الدَّالِ فالتقى ساكنانِ فحُرِّكَت الرَّاءُ بالكسرِ على الأصلِ أو بالضَّمِّ على الإتباعِ[(٣)].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص ٥٤) وهي خلاف المشهور عن أبي عمرو.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٤)، و«التيسير» (ص: ١١٦)، و«النشر» (٢/ ٢٧٥).

(٣) القراءة بكسر الراء في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٩)، و«المحتسب» (١/ ٢٧٣).
وبضم الراء في «المحتسب» (١/ ٦٠).
وفيها قراءة ثالثة بفتح الراء، ذكرها النحاس في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٩١)، وابن جني في «المحتسب» (١/ ٦٠).
قال الزجاج في «معاني القرآن» (٢/ ٤٠٣): جوِّز في الراءِ مع تشديد الدال: كسرُها وفتحها وضمها، والدال مُشدَّدَة مكسورة على كل حال، قال سيبويه: الأصل: (مُرْتَدِفِينَ)، فأدغمت التاءُ في الدال فصارت (مُرَدِّفينَ)، لأنك طرحت حركة التاءِ على الراءِ، قال: وإن شئت لم تطرح حركة التاءِ وكسرت الراءَ لالتقاءِ السَّاكنين، والذين ضموا الراءَ جعلوها تابعة لضمة الميم. وانظر: «الكتاب» (٤/ ٤٤٤).

وقُرِئَ: «بآلافٍ»[١] ليوافِقَ ما في سورةِ آل عمران، ووجهُ التَّوفيقِ بينه وبينَ المشهورِ: أنَّ المرادَ بالألفِ: الَّذينَ كانُوا على المقدِّمَةِ أو السَّاقةِ، أو وجوهُهُم وأعيانُهُم، أو مَن قاتلَ مِنْهُم.

واختُلِفَ في مُقاتَلَتِهِم، وقد رُوِيَ أخبارٌ تدلُّ عليهَا[٢].

(١٠) ـ ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الإمدادَ ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾: إلَّا بشارةً لَكُم بالنَّصرِ ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ فيزولَ مَا بها مِن الوَجَلِ لِقِلَّتِكُم وذِلَّتِكُم.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وإمدادُ الملائكَةِ وكثرةُ العددِ والأُهَبِ[٣] ونحوُهما وسائطُ لا تأثيرَ لها، فلا تحسَبُوا النَّصرَ مِنْها ولا تيأَسُوا منه بفَقْدِها.

(١١) ـ ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ بدلٌ ثانٍ مِن ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ﴾ لإظهارِ نِعمَةٍ ثالثَةٍ، أو مُتعلِّقٌ بـ﴿ٱلنَّصْرُ﴾ أو بما في ﴿عِندِ ٱللَّهِ﴾ مِن مَعنى الفعلِ، أو بـ«جَعَلَ»، أو بإضمارِ: اذكُرْ.

---

(١) نسبت للسدي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٤)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٥٠٤)، و«الكشاف» (٣/ ٣٧٩)، و«البحر» (١١/ ٢٨)، و«الدر المصون» (٥/ ٥٦٦). وتحرفت في مطبوع «المختصر في شواذ القراءات» إلى: «بالألف».

(٢) منها: ما رواه مسلم (١٧٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ومنها: ما رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٧٧٨)، والطبري في «تفسيره» (٦/ ٢٣)، من طريق ابن إسحاق حدثني أبي إسحاق بن يسار، عن رجل من بني مازن بن النجار، عن أبي داود المازني، وكان شهد بدرًا...، وإسناده ضعيف لإبهام الواسطة بين إسحاق بن يسار والد محمد بن إسحاق وبين أبي داود المازني.

(٣) الأُهَب: جمع الأُهْبةِ وهي: العُدَّة، وأُهْبةُ الحرب: عُدَّتُها. انظر: «الصحاح» (مادة: أهب).

وقرأ نافعٌ بالتَّخفيفِ مِن أَغْشَيْتُه الشَّيءَ: إذا غَشَّيْتُه إيَّاه. والفاعلُ على القراءتينِ هوَ اللهُ تَعالى.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو: ﴿يَغْشَاكُم النُّعاسُ﴾ بالرَّفعِ[1].

﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾: أمنًا مِن اللهِ، وهو مفعولٌ له باعتبارِ المعنى، فإنَّ قولَه: ﴿يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ مُتضمِّنٌ معنى: تنعسونَ، و﴿يَغْشاكُم﴾ بمعناهُ، والأمنَةُ فِعْلٌ لفاعلِه. ويجوزُ أن يرادَ بها الإيمانُ فتكونُ فعلَ المغشِّي[2].

وأن تُجعلَ على القراءةِ الأخيرةِ فعلَ النُّعاسِ على المجازِ لأنَّها لأَصحابِه، أو لأنَّه كانَ مِن حَقِّه أن لا يَغشاهم لشدَّةِ الخوفِ، فلمَّا غَشِيَهم فكأنَّه حَصلَت له أَمَنَةٌ مِن اللهِ لولاها لم يغشَهُم كقولِه:

يَهَابُ النَّومُ أَنْ يَغْشَى عُيُونًا تَهَابُكَ فَهْوَ نَفَّارٌ شَرُودُ[3]

وقُرِئَ: «أَمْنَةً» كرَحْمةٍ[4]، وهي لغة.

---

(١) وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي بضم الياء وتشديد الشين من التغشية، انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٢)، و«التيسير» (ص: ١١٦)، و«جامع البيان في القراءات السبع» للداني (٣/ ١١٣٥)، و«النشر» (٢/ ٢٧٦)، وسقطت قراءة نافع من مطبوع «التيسير».

(٢) قوله: «ويجوز أن يراد بها»؛ أي: بالأَمَنةِ على قراءة نصب ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ ـ كما صرَّحَ به «الكشاف» ـ (الإيمان) بمعنى: الأمانِ، «فتكون»؛ أي: الأَمَنةُ بمعنى الإيمان المرادِ به الأمانُ «فعلَ المغشِّي» فيتَّحدُ فيه الفاعلان أيضًا؛ إذ الإنعاسُ والإيمانُ بالمعنى المذكورِ فعلُه تعالى. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٤).

(٣) نسب البيت للزمخشري. انظر: «الكشاف» (٣/ ٣٨١)، و«فتوح الغيب» (٧/ ٤٠)، و«حاشية الخفاجي على البيضاوي» (٤/ ٢٥٨)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٤).

(٤) انظر: «المحتسب» (١/ ٢٧٣)، و«البحر المحيط» (١١/ ٣٣) عن ابن محيصن والنخعي =

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ مِن الحدثِ والجنابةِ ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ يعني: الجنابةَ؛ لأنَّها مِن تخييلِهِ، أو: وَسوسَته وتَخويفه إيَّاهُم مِن العطشِ.

رُويَ أنَّهُم نَزَلُوا في كَثيبٍ أعْفَرَ تسوخُ فيهِ الأقدامُ على غيرِ ماءٍ، وناموا فاحتَلَم أكثرُهُم وقَدْ غلبَ المُشرِكُونَ على الماءِ، فوَسْوَسَ إليهم الشَّيطانُ وقالَ: كيفَ تُنْصَرونَ وقد غُلِبْتُم على الماءِ وأَنْتُم تُصَلُّونَ مُحدِثِينَ مُجْنِبِينَ وتَزعمونَ أنَّكُم أَوْلِياءُ اللهِ وفيكُم رَسولُهُ، فأشفَقُوا فأنزلَ اللهُ المطرَ فمُطِرُوا ليلًا حتَّى جرى الوادي، فاتَّخذُوا الحياضَ على عُدْوَتِه وسَقَوا الرِّكَابَ واغتَسَلُوا وتوضَّؤُوا، وتلبَّدَ الرَّملُ الَّذي بَينَهُم وبينَ العَدوِّ حتَّى ثبتَتْ عليهِ الأقدامُ وزالَت الوَسْوَسَةُ[1].

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ بالوثوقِ على لطفِ اللهِ بهم ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ أي: بالمطرِ حتَّى لا تَسُوخَ في الرَّملِ أو بالرَّبطِ على القلوبِ حتَّى تثبتَ في المعركَةِ.

(١٢) ـ ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ﴾ بدلٌ ثالثٌ أو مُتعلِّقٌ بـ«يُثبِّتَ» ﴿إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ في إعانَتِهِم وتثبيتِهِم، وهو مفعولُ ﴿يُوحِى﴾.

وقُرِئَ بالكسرِ[2] على إرادةِ القولِ أو إجراءِ الوَحيِ مُجراه.

﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالبشارةِ، أو بتكثيرِ سوادِهِم، أو بمحاربَةِ أعدائِهِم،

= ويحيى بن يعمر. وقد تقدمت هذه القراءة عند تفسير الآية (١٥٤) من آل عمران، وقال المؤلف عندها: كأنها المرةُ من الأمْن.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٧)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٤٠٠)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥) عن الضحاك، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٦٥ ـ ١٦٦٦) عن قتادة، وذكره أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» عند هذه الآية عن الكلبي.

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٠٧)، و«البحر المحيط» (١١/ ٣٨)، عن عيسى بن عمر.

فيكونُ قولُه: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ كالتَّفسيرِ لقولِه: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا﴾.

وفيه دَليلٌ على أنَّهم قاتَلُوا، ومَن منعَ ذلك جعلَ الخِطابَ فيه معَ المؤمنينَ: إمَّا على تَغييرِ الخطابِ، أو على أنَّ قولَه: ﴿سَأُلْقِي﴾ إلى قولِه: ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ تلقينٌ للمَلائِكَةِ ما يثبِّتونَ المؤمنينَ به؛ كأنَّه قالَ: قولُوا لهم قَوْلِي هذا.

﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾: أعالِيَها الَّتي هي المذابِحُ أو الرُّؤوسُ ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾: أصابع؛ أي: جزُّوا رِقابَهُم واقطَعُوا أطرافَهُم.

(١٣) ـ ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الضَّربِ أو الأمرِ به، والخطابُ للرَّسُولِ عليهِ السَّلامُ أو لكلِّ أحدٍ[1] مِن المُخاطبينَ قبلُ.

﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: بسببِ مُشاقَّتِهم لهمَا، واشتقاقُه مِن الشَّقِّ؛ لأنَّ كُلًّا[2] مِن المتعانِدينَ في شِقٍّ خلافَ شِقِّ الآخرِ، كالمعاداةِ مِن العُدْوَةِ، والمخاصمَةِ مِن الخُصْمِ وهو الجانِبُ.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تقريرٌ للتَّعليلِ، أو وعيدٌ بما أعدَّ لهم في الآخرةِ بعدما حاقَ بهم في الدُّنيا.

(١٤) ـ ﴿ذَلِكُمْ﴾ الخطابُ فيه مع الكَفَرةِ على طريقَةِ الالتفاتِ، ومحلُّهُ الرَّفعُ؛ أي: الأمرُ ذلكُم، أو: ذلكُم واقعٌ، أو نصبٌ بفعلٍ دلَّ عليه: ﴿فَذُوقُوهُ﴾ أو غيرُه مثلَ: باشِروا، أو عليكُم، لتكونَ الفاءُ عاطِفَةً.

﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ عطفٌ على ﴿ذَلِكُمْ﴾ أو نصبٌ على

---

(١) في نسخة التفتازاني: «واحد».

(٢) في نسخة الخيالي: «كل واحد».

المفعولِ معه، والمعنى: ذوقوا ما عُجِّلَ لكُم مع ما أُجِّلَ لكم في الآخرةِ، ووُضِعَ الظَّاهرُ فيه مَوضِعَ الضَّميرِ للدَّلالةِ على أنَّ الكفرَ هو سَبَبُ العَذابِ الآجلِ، أو الجمعِ بينَهُما[١].

وقُرِئَ «وإنَّ» بالكسرِ[٢] على الاستئنافِ.

(١٥) - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا ﴾ كثيرًا بحيثُ يُرى لكثرتِهم كأنهم يزحفونَ، وهو مصدرُ زَحَفَ الصَّبِيُّ: إذا دبَّ على مقعدِه قليلًا قليلًا، سُمِّيَ به وجُمِعَ على زُحوفٍ، وانتصابُه على الحالِ.

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴾ بالانهزامِ، فَضلًا عَنْ أَنْ يَكونُوا مِثْلَكُم أو أقلَّ مِنْكُم.

والأظهرُ أنَّها مُحكمَةٌ مَخصوصَةٌ بقولِه: ﴿حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ الآية [الأنفال: ٦٥].

ويجوزُ أن ينتصبَ ﴿زَحۡفٗا﴾ مِن الفاعلِ والمفعولِ؛ أي: إذا لقيتُمُوهم مُتزاحِفينَ يَدِبُّونَ إِلَيْكُم وتَدِبُّونَ إليهم فلا تَنهزِمُوا. أو مِن الفاعلِ وحدَه ويكونُ إشعارًا بما سيكونُ مِنهُم يومَ حُنَيْنٍ حينَ تَوَلَّوْا وهُم اثنا عشرَ ألفًا.

(١٦) - ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ ﴾ يريدُ: الكرَّ بعدَ الفرِّ، وتغريرَ العَدُوِّ، فإنَّه مِن مَكايدِ الحربِ.

﴿أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ﴾: أو مُنحازًا إلى فئةٍ أُخرَى من المسلمينَ على القربِ ليَستعينَ بهم.

ومِنْهُم مَن لَمْ يَعتَبِر القُربَ؛ لِمَا رَوَى ابنُ عُمَرَ رضي اللهُ عنهما: أنَّه كانَ في

---

(١) قوله: «أو الجمع بينهما»؛ أي: بين العاجل والآجل.

(٢) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٤)، و«الكشاف» (٣/ ٣٨٧).

سَرِيَّةٍ بعثَهُم رَسولُ اللهِ ﷺ، ففرُّوا إلى المدينَةِ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ! نحنُ الفَرَّارُون، فقالَ: «بَلْ أَنْتُم العَكَّارُونَ وأَنَا فِئَتُكُم»[1].

وانتصابُ ﴿مُتَحَرِّفًا﴾ و﴿مُتَحَيِّزًا﴾ على الحالِ، و﴿إِلَّا﴾ لغوٌ لا عملَ له، أو الاستثناءُ مِن المولِّينَ؛ أي: إلَّا رَجُلًا مُتحرِّفًا أو مُتحيِّزًا، ووزنُ مُتَحَيِّز: «مُتَفَيْعِل» لا «مُتَفعِّل» وإلَّا لكانَ: مُتَحَوِّزًا؛ لأنَّه مِن حازَ يحوزُ.

﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذا إِذَا لَمْ يَزِد العَدُوُّ على الضِّعفِ؛ لقولِه: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ الآيةَ [الأنفال: ٦٦].

وقيلَ: الآيةُ مَخصوصَةٌ بأهلِ بيتِهِ والحاضرينَ معَهُ في الحَربِ.

(١٧) ـ ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بقوَّتِكُم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بنصْرِكُم وتَسليطِكُم عليهم وإلقاءِ الرُّعبِ في قُلوبِهِم.

رُوِيَ أنَّه لَمَّا طلعَتْ قُرَيشٌ مِن العَقَنْقَلِ[2] قالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «هذه قريشٌ جاءَت بخيلائِها وفَخرِها يكذِّبونَ رَسولَكَ، اللهمَّ إنِّي أسأَلُكَ ما وعدْتَنِي»، فأتاهُ جِبريلُ وقالَ له: خُذْ قبضَةً من ترابٍ فارمِهِم بها، فلَمَّا التقَى الجَمْعانِ تناوَلَ كَفًّا مِن الحصباءِ فرَمَى بها في وُجوهِهِم وقالَ: «شاهَتِ الوُجوهُ» فلم يبقَ مُشرِكٌ إلَّا شُغلَ

---

(١) رواه أبو داود في «سننه» (٢٦٤٧)، والترمذي في «سننه» (١٧١٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال الترمذي: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبي زياد.

وفي «النهاية»: العَكَّارُونَ: الكَرَّارونَ إلى الحربِ والعَطَّافونَ نحوَها، يقالُ للرَّجُلِ يُوَلِّي عَن الحربِ ثمَّ يكرُّ راجعًا إليها: عَكَرَ واعتكَرَ. انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير مادة: (عكر).

(٢) العَقَنْقَلُ: الكَثِيبُ العَظِيمُ المُتداخِلُ الرَّملِ، والجمع: عَقاقِلُ. انظر: «الصحاح» للجوهري مادة: (عقنقل).

بعَينَيْهِ، فانهزَمُوا ورَدِفَهُم المُؤمنونَ يقتلُونَهُم ويَأسِرُونَهُم، ثمَّ لَمَّا انصرَفُوا أقبَلُوا على التَّفاخُرِ فيقولُ الرَّجلُ: قَتَلْتُ وأَسَرْتُ، فنزَلَت[١].

والفاءُ جوابُ شَرطٍ مَحذوفٍ تقديرُه: إن افتَخَرْتُم بقَتْلِهِم فلَمْ تَقْتُلُوهُم ولكنَّ اللهَ قَتَلَهُم.

﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ يا محمَّدُ رَمْيًا تُوْصِلُه إلى أعيُنِهِم ولم تقدِرْ عليه ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾؛ أي: أتيتَ بصُورَةِ الرَّمي ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾: أَتَى بما هو غايَةُ الرَّمي فأوصَلَها إلى أَعيُنِهِم جميعًا حتَّى انهزَمُوا وتَمكَّنْتُم مِن قطعِ دابِرِهِم، وقد عرفتَ أنَّ اللَّفظَ يُطلَقُ على المُسمَّى وعَلى ما هو كمالُه والمَقصودُ منه.

وقيلَ: مَعناه: ما رميتَ بالرُّعبِ إذ رميتَ بالحصباءِ، ولكنَّ اللهَ رَمَى بالرُّعبِ في قُلوبِهِم.

وقيلَ: إنَّه نزَلَ في طعنَةٍ طعنَ بها أُبيَّ بنَ خلفٍ يومَ أحدٍ، ولم يخرج منهُ دمٌ فجعلَ يَخورُ حتَّى ماتَ[٢]، أو رميةِ سهمٍ رماهُ يومَ خَيبر نحو الحصنِ فأصابَ كنانَةَ بنَ أبي الحقيقِ على فراشِهِ[٣].

---

(١) الكلام بهذا السياق مجموع من عدة أخبار. انظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٨٤ ـ ٨٧)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦٧٢ ـ ١٦٧٣).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ١٠٠ ـ ١٠٢) عن السدي، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٩١٠) عن ابن المسيب.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٩١١)، ورواه الطبري كما في «الدر المنثور» (٤/ ٤١)، ولم أقف عليه في المطبوع من «تفسير الطبري»، وذكر الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تعليقه على نسخته من «تفسير الطبري» (١٣/ ٤٤٧): أخشى أن يكون هذا في هذا الموضع من التفسير نقص، فإني وجدت ابن كثير قد ذكر في تفسير هذه الآية [في «تفسيره» (٤/ ٣١)] ما نسبه إلى ابن جرير، وهذا نصه، بترتيبه وتعليقه: =

والجُمهور على الأوَّلِ.

وقرأ ابنُ عامرٍ وحمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿ولكِنْ﴾ بالتَّخفيفِ ورفعِ ما بعدَه في المَوضِعينِ[١].

﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾: ولِيُنْعِمَ عليهم نعمَةً عَظيمَةً بالنَّصرِ والغَنيمَةِ ومُشاهدةِ الآياتِ[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لاستغاثَتِهم ودُعائِهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنِيَّاتِهم وأَحْوالِهم.

= وههنا قولان آخران غريبان جدًا:

أحدهما: قال ابن جرير: حدثني محمد بن عوف الطائي، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان بن عمرو، حدثنا عبد الرحمن بن جبير: أن رسول الله ﷺ يوم ابن أبي الحقيق بخيبر، دعَا بقوس، فأُتِيَ بقوسٍ طويلة، وقال: جيئوني بقوس غيرها. فجاؤوه بقوسٍ كَبْداء، فرمى النبيّ ﷺ الحصن، فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق، وهو في فراشه، فأنزل الله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

وهذا غريب، وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير بن نفير، ولعله اشتبه عليه، أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله، وإلا فسياق الآية في سورة الأنفال في قصة بدرٍ لا مَحالة، وهذا مما لا يخفي على أئمة العلم، والله أعلم.

والثاني: روى ابن جرير أيضًا، والحاكم في «مستدركه» بإسناد صحيح إلى سعيد بن المسيّب والزهري أنهما قالا: أنزلت في رمية النبي ﷺ يوم أُحُدٍ أُبَيَّ بن خلفٍ بالحربة في لأْمَته، فخدشه في تَرْقُوَته، فجعل يتدأدأ عن فرسه مرارًا. حتى كانت وفاتُه بعد أيام قاسى فيها العذاب الأليمَ، موصولاً بعذابِ البرزخ، المتصل بعذاب الآخرة.

وهذا القول عن هذين الإمامين غريب أيضًا جدًّا، ولعلهما أرادَا أن الآية تتناوله بعمومها، لا أنها نزلت فيه خاصة، كما تقدم، والله أعلم.

(١) أي: ﴿ولكنِ اللهُ قَتَلَهم﴾ ﴿ولكنِ اللهُ رَمَى﴾. انظر: «السبعة» (ص: ١٦٨)، و«التيسير» (ص: ٧٥).

(٢) في نسخة التفتازاني زيادة: «فعل ما فعل».

(١٨) ـ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارةٌ إلى البلاءِ الحسنِ أو القتلِ والرَّمي، ومحلُّهُ الرَّفعُ؛ أي: المقصودُ، أو الأمر ﴿ذَٰلِكُمْ﴾، وقولُه: ﴿وأنَّ اللهَ مُوْهِنٌ كيدَ الكافرين﴾ مَعطوفٌ عليهِ؛ أي: المقصودُ إبلاءُ المؤمنينَ وتوهينُ كيدِ الكافرينَ وإبطالُ حِيَلِهِم.

وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرٍو: ﴿مُوَهِّنٌ﴾ بالتَّشديدِ، وحَفصٌ: ﴿مُوهِنُ كَيْدِ﴾ بالإضافَةِ والتَّخفيفِ(١).

(١٩) ـ ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ خطابٌ(٢) لأهلِ مكَّةَ على سبيلِ التَّهكُّمِ، وذلك أنَّهم حين أرادُوا الخروجَ تعلَّقُوا بأستارِ الكعبةِ وقالوا: اللهمَّ انصُرْ أعلى الجُنْدَيْنِ وأهدَى الفِئتَيْنِ وأكرَمَ الحِزْبَيْنِ(٣).

﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عن الكُفرِ ومُعاداةِ الرَّسولِ(٤) ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لتَضمُّنِه سَلامَةَ الدَّارينِ وخيرَ المَنْزِلَيْنِ.

﴿وَإِن تَعُودُوا۟﴾ لِمُحاربتِه ﴿نَعُدْ﴾ لنَصْرِهِ، ﴿وَلَن تُغْنِىَ﴾: ولن تدفعَ ﴿عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾: جماعَتُكُم ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناءِ أو المضارِّ(٥) ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فئتُكم.

﴿وإنَّ اللهَ معَ المؤمنينَ﴾ بالنَّصرِ والمعونَةِ.

وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وحفصٌ: ﴿وَأَنَّ﴾ بالفتحِ(٦) على: ولأنَّ الله مع المؤمنينَ كانَ ذلك.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٤ ـ ٣٠٥)، و«التيسير» (ص: ١١٦).

(٢) في نسخة التفتازاني: «الخطاب».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٩٢) عن السدي.

(٤) في نسخة الخيالي: «الرسل».

(٥) في نسخة التفتازاني: «والمضار».

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٥)، و«التيسير» (ص: ١١٦).

وقيلَ: الآيَةُ خطابٌ للمُؤمنينَ، والمعنى: إن تَسْتَنصِرُوا فقد جاءَكُم النَّصرُ، وإِنْ تَنْتَهُوا عَن التَّكاسُلِ في القتالِ والرَّغبةِ عمَّا يَستأثِرُهُ الرَّسولُ فهوَ خيرٌ لَكُم، وإن تَعودُوا إليه نَعُد علَيْكُم بالإنكارِ أو تهييجِ العدوِّ، ولَنْ تُغنِيَ حينئذٍ كثرتُكُم إذا لم يَكُن اللهُ معكُم بالنَّصرِ، فإنَّه مع الكاملينَ في إيمانِهم، ويؤكِّدُ ذلك:

(٢٠) ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾؛ أي: ولا تتولَّوا عَن الرَّسولِ، فإنَّ المرادَ مِن الآيةِ الأمرُ بطَاعَتِه والنَّهيُ عَن الإعراضِ عنه، وذكرُ طاعةِ اللهِ للتَّوطِئَةِ والتَّنبيهِ علَى أنَّ طاعةَ اللهِ في طاعةِ الرَّسولِ؛ لقولِه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقيلَ: الضَّميرُ للجِهادِ، أو للأمرِ الَّذي دَلَّ عليهِ الطَّاعَةُ.

﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ القرآنَ والمواعظَ سماعَ فهمٍ وتَصديقٍ.

(٢١) ـ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا﴾ كالكفَرَةِ أو المُنافِقينَ[1] الَّذينَ ادَّعَوا السَّماعَ ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ سماعًا يَنتَفعونَ به، وكأنَّهُم لا يَسمعونَ رأسًا.

(٢٢) ـ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾: شرَّ ما يدبُّ على الأَرضِ، أو: شرَّ البهائمِ ﴿ٱلصُّمُّ﴾ عَن الحقِّ ﴿ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ إيَّاه، عدَّهُم مِن البَهائمِ ثمَّ جعلَهُم شرَّهَا؛ لإبطالِهم ما مُيِّزُوا به وفُضِّلُوا لأجلِه.

(٢٣) ـ ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾: سعادةً كُتِبَت لهم، أو انتفاعًا[2] بالآياتِ ﴿لَّأَسۡمَعَهُمۡ﴾ سماعَ تفهُّمٍ ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ﴾ وقَدْ علِمَ أَنْ لا خيرَ فيهم ﴿لَتَوَلَّواْ﴾ ولم يَنتفِعُوا بِهِ، أو ارتدُّوا بعدَ التَّصديقِ والقَبولِ ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ لعِنادِهم.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «والمنافقين».

(٢) في نسخة التفتازاني: «وانتفاعًا».

وقيلَ: كانُوا يَقولونَ للنَّبيِّ عليهِ السَّلامُ: أحيِ لنا قُصَيًّا؛ فإنَّه كانَ شيخًا مُبارَكًا حتَّى يشهدَ لك ويؤمنَ بك، والمعنى: لأسمعَهُم كلامَ قُصَيٍّ[1].

(٢٤) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بالطَّاعةِ ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وُحِّد الضَّميرُ فيه لِمَا سبقَ، ولأنَّ دعوةَ اللهِ تُسمعُ مِن الرَّسولِ.

ورُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ مرَّ على أُبَيِّ بن كعبٍ وهو يُصلِّي فدَعاهُ، فعجَّلَ في صَلاتِه ثمَّ جاءَ، فقالَ: «ما منعَكَ عَن إجابتي؟» قالَ: كنتُ أصلِّي، قالَ: «ألَمْ تُخْبَرْ فيمَا أوحِيَ إلي: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾؟»[2].

واختُلفَ فيه، فقيلَ: هذا لأنَّ إجابتَهُ لا تَقطعُ الصَّلاةَ فإنَّ الصَّلاةَ أيضًا إجابةٌ.

وقيلَ: إنَّ دُعاءَه كانَ لأمرٍ لا يحتمِلُ التَّأخيرَ، وللمُصلِّي أن يقطعَ الصَّلاةَ لِمثلِه.

وظاهرُ الحَديثِ يناسِبُ الأوَّلَ.

﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ مِن العُلومِ الدِّينيَّةِ، فإنَّها حياةُ القلبِ والجهلُ مَوْتُه، قالَ:

لا تُعجِبَنَّ الجَهُولَ حُلَّتُهُ ... فَذاكَ مَيْتٌ وَثَوْبُهُ كَفَنُ[3]

أو: ممَّا يورثُكُم الحياةَ الأَبديَّةَ في النَّعيمِ الدَّائمِ مِن العَقائدِ والأعمالِ.

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٠٧)، وقال: قاله بعض المتأخرين.

(٢) رواه الترمذي في «سننه» (٢٨٧٥)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٤١) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وفي الباب عن أنس. قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ٦٨): وأخرجه ابن مردويه من الوجه الذي أخرجه منه الترمذي وفي آخره قال: (إني لا جرم يا رسول الله لا تدعوني إلا أجبتك وإن كنت أصلي).

(٣) للزمخشري، كما قال الشهاب في «حاشيته على البيضاوي» (٢/ ٢١٠)، وقد ذكر أنه من قصيدة مدح بها الزمخشريُّ الخليفة المؤتمن بالله.

أو: مِن الجِهادِ فإنَّه سببُ بَقائِكُم؛ إذ لو تركوهُ لغَلَبَهُم العدوُّ وقَتَلَهم، أو الشَّهادةِ لقولِه تَعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ تمثيلٌ لغايةِ قُربِه مِن العبدِ؛ كقولِه تَعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وتَنبيهٌ على أنَّه مُطَّلِعٌ على مكنوناتِ القلوبِ ما عسى يغفلُ عنه صاحِبُها، أو حثٌّ على المبادرةِ إلى إخلاصِ القُلوبِ وتَصفِيَتِها.

وتصفيتُها قيلَ: أن يَحولَ اللهُ بينَه وبينَ القَلبِ بالموتِ أو غيره، أو تَصويرٌ وتَخييلٌ لتَملُّكِهِ على العبدِ قلبَه، فيفسخُ عزائِمَهُ ويغيِّرُ مَقاصِدَهُ ويَحولُ بينَه وبينَ الكُفْرِ إنْ أرادَ سَعادتَهُ، وبينَه وبينَ الإيمانِ إنْ قَضى شَقاوَتَه.

وقُرِئَ: «بينَ المرِّ» بالتَّشديدِ[1] على حذفِ الهَمزَةِ وإلقاءِ حَركتِها على الرَّاءِ وإجراءِ الوَصلِ مُجرى الوقفِ على لغةِ مَن يشدِّدُ فيه.

﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيُجازِيكُم بأعمالِكُم.

(٢٥) - ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾: اتَّقُوا ذَنْبًا يَعمُّكُم أثرُهُ كإقْرَارِ المنكَرِ بين أظهُرِهم[2]، والمداهنَةِ[3] في الأمرِ بالمعروفِ، وافتراقِ الكَلمَةِ، وظهورِ البِدَعِ، والتَّكاسُلِ في الجِهادِ، عَلى أنَّ قولَه: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ إمَّا جوابُ الأمرِ عَلى مَعنى: إنْ أصابَتْكُم لا تُصيبُ الظَّالمينَ مِنْكُم خاصةً، وفيهِ أنَّ جوابَ الشَّرطِ مُترَدِّدٌ فلا يليقُ به النُّونُ المؤكِّدَةُ، لكنَّه لَمَّا تَضمَّنَ معنى النَّهيِ ساغَ فيه كقولِه تَعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ﴾ [النمل: ١٨].

---

(١) نسبت للحسن والزهري. انظر: «المحتسب» (١/ ٢٧٦).

(٢) في نسخة الخيالي: «أظهركم»، و«بين أظهرهم» ليست في نسخة الطبلاوي.

(٣) في نسخة الطبلاوي: «والمراقبة».

وإمَّا صفةٌ لـ﴿فِتۡنَةٗ﴾ و﴿لَّا﴾ للنَّفيِ وفيه شذوذٌ؛ لأنَّ النُّونَ لا تَدخُلُ المنفيَّ في غيرِ القسمِ، أو للنَّهيِ على إرادةِ القولِ، كقولِه:

حَتَّى إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ وَاخْتَلَطْ جَاؤُوا بِمَذْقٍ هَلْ رَأَيْتَ الذِّئْبَ قَطْ[1]

وإمَّا جوابُ قَسَمٍ مَحذوفٍ كقراءَةِ[2] مَن قرأَ: «لتصيبَنَّ»[3] وإن اختلفَا في المعنى.

ويحتمِلُ أَنْ يكونَ نهيًا بعدَ الأمرِ باتِّقاءِ الذَّنبِ عَن التَّعرُّضِ للظُّلمِ فإنَّ وَبالَهُ يصيبُ الظَّالمَ خاصَّةً ويعودُ عليه.

و«مِن» في ﴿مِنكُمۡ﴾ على الوُجوهِ الأُوَلِ للتَّبعيضِ[4]، وعلى الأَخيرينِ للتَّبيينِ،

---

(١) الرجز دون نسبة في: «البيان والتبيين» للجاحظ (٢/ ١٩٣)، و«الكامل» للمبرد (٣/ ١١٠)، و«تصحيح الفصيح» لابن درستويه (ص: ٤٤٥)، و«الأزمنة والأمكنة» للمرزوقي (ص: ٢٧)، و«خزانة الأدب» (٢/ ١٠٩)، وفيه: وهذا الرجز لم ينسبهُ أحد من الرواة إلى قائله. وقيل: قائله العجَّاج، والله أعلم.

قال العيني: المذق: اللبن الممزوج بالماء فيقل بياضه بمزجه بالماء، فيشبه بلون الذئب. والراجز يصف قومًا أضافوه وأطالوا عليه، ثم أتوه بلبن مخلوط بالماء حتى إن لونه في العشية لون الذئب. الاستشهاد فيه في قوله: «هل رأيت الذئب قط» وذلك لأنها جملة إنشائية، وظاهرها يشبه أن يكون صفة لقوله: «بمذق» وليس كذلك؛ إذ لا توصف النكرة بالجملة الإنشائية بل إنما توصف بالجمل الخبرية فحينئذ يؤول هذا، والتقدير: جاؤوا بمذق مقول عند رؤيته: هل رأيت الذئب قط. انظر: «المقاصد النحوية» (٤/ ١٥٥٦).

(٢) في نسخة الطبلاوي والخيالي: «القراءة».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٤) عن ابن مسعود، وهي في «المحتسب» (١/ ٢٧٧) عن علي وزيد بن ثابت وأبي جعفر علي بن الحسين والربيع بن أنس وأبي العالية وابن جماز.

(٤) قوله: «ومن في ﴿مِنكُمۡ﴾ على الوجوه الأول»؛ أي: وهي كونُ ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ جوابَ الأمر، أو صفةً لـ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾، و(لا) نافية أو ناهية. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٢٤ ـ ٢٥).

وفائدَتُه: التَّنبيهِ علـى أنَّ الظُّلْمَ مِنْكُم أقبَحُ مِـن غَيـرِكُم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

(٢٦) ـ ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أرضِ مكَّةَ، يَستضعِفُكُم قريشٌ، والخِطابُ للمُهاجرينَ.

وقيلَ: للعربِ كافَّةً، فإنَّهُم كانُوا أذلَّاءَ في أيدي فارسَ والرُّومِ.

﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ كُفَّارُ قُريشٍ، أو مَـن عَداهُم فإنَّهُم كانُوا جَمِيعًا مُعادِينَ مُضادِّينَ لهم.

﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ إلى المدينةِ، أو جَعَلَ مأوًى لكُمْ تتحصَّنُونَ بِهِ عَن أعادِيكُم.

﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ على الكُفَّارِ، أو بمُظاهرةِ الأنصارِ، أو بإمدادِ المَلائِكَةِ يومَ بَدرٍ.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: مِن الغَنائمِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النِّعَمَ.

(٢٧) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ بتَعطيلِ الفَرائضِ والسُّنَنِ، أو بأَنْ تُضمِرُوا خلافَ ما تُظهِرُونَ، أو بالغُلولِ في المَغانِمِ.

ورُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ حاصرَ بَنِي قُرَيظَةَ إحدى وعِشْرينَ ليلةً، فسَألُوا الصُّلْحَ كمَا صالَحَ إخوانَهُم بني النَّضيرِ على أن يَسيرُوا إلى إخوانِهِم بأَذْرِعَاتٍ وأريحاءَ مِن الشَّامِ، فأبى إلَّا أن يَنزِلُوا على حكمِ سَعدِ بنِ مُعاذٍ، فأبَوْا وقالُوا: أرسِلْ إلينا أبا لُبابَةَ، وكانَ مُناصِحًا لهم لأنَّ عِيالَه ومالَه في أيديهِم، فبعثَه إليهِم فقالوا: ما ترى؟ هل ننزِلُ على حكمِ سَعدٍ؟ فأشارَ إلى حلقِه أنَّه الذبحُ.

قالَ أبو لبابَةَ: فما زالَتْ قدمايَ حتَّى عَلِمْتُ أنِّي قَد خنتُ اللهَ ورَسولَه فنزَلَتْ، فشدَّ نفسَهُ على ساريةٍ في المسجدِ وقالَ: واللهِ لا أَذوقُ طَعامًا ولا شرابًا حتَّى أَموتَ أو يتوبَ اللهُ عليَّ، فمكثَ سبعةَ أيَّامٍ حتَّى خرَّ مَغشِيًّا عليهِ، ثمَّ تابَ اللهُ عليه، فقيلَ له:

قد تيبَ عليكَ فحُلَّ نفسَك، فقالَ: لا واللهِ لا أحلُّهَا حتَّى يكونَ رسولُ اللهِ هو الَّذي يُحلِّنِي، فقالَ: إنَّ مِن تمامِ تَوْبَتِي أن أهجرَ دارَ قَومِي الَّتي أصبتُ فيها الذَّنبَ، وأن أنخلِعَ مِن مالي، فقالَ عليهِ السَّلام: «يَجزيكَ الثلثُ أَنْ تتصدَّقَ به»[1].

وأصلُ الخونِ: النَّقصُ؛ كمَا أنَّ أصلَ الوفاءِ التَّمامُ، واستعمالُه في ضدِّ الأمانةِ لتَضمُّنِه إيَّاه.

﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾ فيما بينكُم، وهو مجزومٌ بالعطفِ على الأوَّلِ، أو مَنصوبٌ على الجوابِ بالواوِ.

﴿وَأَنتُمْ تَعْـلَمُونَ﴾ أنَّكُم تَخونونَ، أو: وأنتم علماءُ تُميِّزونَ الحَسَنَ مِن القَبيحِ.

(٢٨) ـ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنَّهُم سببُ الوُقوعِ في الإثمِ أو العقابِ[2]، أو محنةٌ مِن اللهِ ليبلُوَكُم فيهِم فلَا يَحمِلَنَّكُم حبُّهُم على الخيانةِ كأَبِي لُبابَةَ.

---

(١) انظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ١٥) من طريق معبد بن كعب، و(٥/ ٢٧١) من طريق سعيد بن المسيب.
وقد ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٧٢ ـ ٧٤) عن الزهري والكلبي، وخبر الزهري رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٢١)، وخبر الكلبي رواه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٤/ ٤٨).
وذكره مطولاً ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٣٦ ـ ٢٣٨)، وقال البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ١٥) بعد ذكر طريق ابن إسحاق عن أبيه عن معبد بن كعب بن مالك: هكذا قال ابن إسحاقَ بإسناده، وزعَم سعيدُ بنُ المسيِّب أنَّ ارتباطَه بساريَة التَّوبة كان بعد تَخَلُّفِه عن غزوةِ تبوكَ، حين أَعْرَض عنه رسولُ اللهِ ﷺ وهو عليه عاتبٌ بما فَعَل يومَ قُريظةَ ثُم تَخَلَّف عن غزوة تبوكَ فيمَن تَخَلَّف، واللهُ أعلمُ. وفي روايةِ عليِّ بن أبي طلحةَ، وعَطِيَّةَ بنِ سعدٍ، عن ابن عباسٍ في ارتباطه حين تَخَلَّف عن غزوة تبوكَ ما يؤكِّد قولَ ابن المسيِّب. اهـ. وروايتي علي بن أبي طلحة وعطية عن ابن عباس رواهما الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥١ ـ ٦٥٢).

(٢) في نسخة الطبلاوي والتفتازاني: «والعقاب».

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ لِمَن آثرَ رِضا اللهِ عَلَيهِم، وراعَى حُدودَهُ فيهِم، فأَنِيطُوا هِمَمَكُم[1] بما يُؤدِّيكُم إليه.

(٢٩) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾: هدايةً في قُلوبِكُم تفرِّقُونَ بها بينَ الحقِّ والباطلِ، أو: نصرًا يفرِّقُ بين المحقِّ والمبطِلِ بإعزازِ المؤمنينَ وإذلالِ الكافرينَ، أو مَخْرَجًا من الشُّبهاتِ، أو نجاةً عمَّا تحذَرُونَ في الدَّارينِ، أو ظُهورًا يَشْهرُ أمرَكُم ويبثُّ صِيتكُم، مِن قولِهِم: بتُّ أفعَلَ كذا حتَّى سطعَ الفُرقانُ؛ أي: الصُّبحُ.

﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾: ويسترُها ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ بالتَّجاوُزِ والعَفْوِ عنه.

وقيلَ: السيِّئاتُ: الصَّغائرُ، والذُّنوبُ: الكبائرُ.

وقيلَ: المرادُ: ما تقدَّمَ وما تأخَّرَ؛ لأنَّها في أهلِ بدرٍ وقد غفرَ اللهُ لهم.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ تنبيهٌ على أنَّ ما وعدَهُ لهم على التَّقوى تفضُّلٌ منه وإحسانٌ، وأنَّه ليسَ ممَّا يوجِبُ تَقواهُم عليه؛ كالسيِّدِ إذا وعدَ عبدَه إنعامًا على عملٍ.

(٣٠) ـ ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تذكارٌ لِمَا مكرَ قريشٌ به حينَ كانَ بمكَّةَ؛ ليشكرَ نعمةَ اللهِ في خلاصِه مِن مَكرِهِم واستيلائِه عليهِم، والمَعنى: واذكُرْ إذ يمكرونَ بك.

﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾ بالوَثاقِ، أو الحبسِ، أو الإثخانِ بالجَرحِ، مِن قولِهِم: ضربه حتَّى أثبتَه لا حراكَ بِه ولا براحَ.

---

(١) في هامش نسخة الخيالي: «في نسخة: همكم» وعليها «أصح»، وكذا رسمت في نسخة الطبلاوي.

وقُرِئَ: «ليُثبِّتوكَ» بالتَّشديدِ[(١)]، و: «ليُبَيِّتوكَ» من البياتِ[(٢)]، و: «ليُقيِّدوكَ»[(٣)].

﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بسيوفِهِم ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكَّةَ.

وذلك أنَّهُم لَمَّا سَمِعُوا بإسلامِ الأنصارِ ومُبايعَتِهِم فَرِقُوا واجتمَعُوا في دارِ النَّدوَةِ مُتشاورينَ في أمرِه، فدخلَ عليهم إبليسُ في صُورَةِ شيخٍ وقالَ: أنَا مِن نَجدٍ سمعتُ اجتِماعَكُم فأردتُ أَنْ أحضُرَكُم ولن تعدَمُوا مِنِّي رَأْيًا ونُصْحًا، فقالَ أبو البَخْتَرِيِّ: رأيي أن تحبسوهُ في بيتٍ وتَسدُّوا منافِذَهُ غيرَ كوةٍ تُلقونَ إليه طعامَه وشرابَه مِنْها حتَّى يموتَ، فقالَ الشَّيخُ: بئسَ الرَّأيُ؛ يأتيكُمْ مَن يُقاتِلُكُم مِن قَومِه ويخلِّصُه من أيديكم.

فقالَ هشامُ بن عمرٍو: رأيِي أَنْ تَحمِلُوهُ على جملٍ فتُخرِجُوه مِن أَرضِكُم فلا يَضرُّكُم ما صنعَ، فقالَ: بئسَ الرَّأيُ، يُفسِدُ قومًا غيرَكُم ويُقاتِلُكُم بهم.

فقالَ أبو جهلٍ: أنا أرى أن تأخُذُوا من كلِّ بطنٍ غُلامًا وتُعطوهُ سَيْفًا، فيضربوهُ ضَربَةً واحدَةً فيتفرَّقَ دمُهُ في القبائلِ، فلَا يَقْوَى بنو هاشمٍ على حربِ قريشٍ كلِّهِم، فإذا طلبُوا العَقْلَ عَقَلْنَاه، فقالَ: صدقَ هذا الفتى، فتَفرَّقُوا على رأيِه.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٤) عن يحيى وإبراهيم.

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٣/ ٨٢)، و«الكشاف» (٣/ ٤٠٥)، و«البحر المحيط» (١١/ ٨٢)، عن النخعي.

(٣) انظر: «الكشاف» (٣/ ٤٠٥) عن ابن عباس، وفي «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٤): (ليُعْبِدوك) عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي.

ولفظ (ليقيدوك) ذكره الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٣١) تفسيرًا لا قراءة، ثم روى معناه عمن ذكرهم ابن خالويه.

فأتـى جبريلُ النَّبـيَّ عليهِما السَّـلامُ وأخبـرَهُ الخبرَ وأمـرَهُ بالهِجرَةِ فبيَّـتَ عَلِيًّا كـرَّمَ اللهُ وَجهَـهُ عَلـى مَضجَعِه وخـرجَ مع أبـي بَكرٍ رضـيَ اللهُ عنهُ إلـى الغارِ[1].

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ بـردِّ مَكرِهِـم عليهِـم، أو بمجازاتِهِـم عليـه، أو بمُعاملَةِ الماكريـن مَعَهـم بـأَنْ أخرجَهُـم إلى بدرٍ وقلَّل المسـلمينَ فـي أعيُنِهـم حتَّى حملوا عليهِـم فقُتلوا.

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ إذ لا يؤبَهُ بمكرِهِم دونَ مكرِه، وإسنادُ أمثالِ هذا إنَّما[2] يَحْسُنُ للمُزاوجَةِ، ولا يجوزُ إطلاقُها ابتداءً لِمَا فيه مِن إيهامِ الذَّمِّ.

(٣١) ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾ هو قولُ النَّضرِ بنِ الحارثِ[3]، وإسنادُه إلى الجميعِ إسنادُ ما فعلَهُ رئيسُ القومِ إليهِم؛ فإنَّه كانَ قاصَّهُم.

أو: قولُ الَّذينَ ائتمرُوا في أمرِهِ عليه السَّلامُ.

وهذا غايةُ مكابَرَتِهِم وفَرْطُ عِنادِهِم؛ إذ لو استَطاعُوا مِن ذلك فما منعَهُم أن

---

(١) ذكره بأتم من هذا الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٧٧) عن ابن عباس وغيره من المفسرين، ورواه ابن إسحاق ـ كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٨٠) وما بعدها ـ فقال: فحدثني مَن لا أتهم من أصحابنا، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد بن جبر وغيره ممن لا أتهم، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فذكره.

ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٨)، من طريق بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، دون قوله: «فبيت عليًّا...».

(٢) في نسخة الطبلاوي والخيالي: «مما».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٨٤) مطولاً عن ابن عباس، وهو في «تفسير مقاتل» (٢/ ١١٢ ـ ١١٣).

يشاؤوا؟ وقد تحدَّاهُم وقرَّعَهُم بالعجزِ عشرَ سِنينَ، ثمَّ قارَعَهُم بالسَّيفِ فلم يعارِضُوا سواه[١]، مع أَنَفَتِهِم وفَرْطِ استنكافِهِم أن يُغْلَبُوا خصوصًا في بابِ البَيانِ.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: ما سطَّرَهُ الأولونَ مِن القصصِ.

(٣٢)- ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا أيضًا من كلامِ ذاك القائلِ أبلَغُ في الجحودِ.

روي أنَّه لمَّا قالَ النضر: «إنْ هذا إلَّا أساطيرُ الأوَّلين»، قالَ له النبيُّ عليه السَّلام: «ويلَكَ! إنَّه كلامُ اللهِ» فقالَ ذلك[٢]، والمعنى: إن كانَ القرآنُ حَقًّا منزلًا فأمطِر الحِجارَةَ علينا عُقوبَةً على إنكارِه، وائتِنا بعَذابٍ أَليمٍ سِواه، والمرادُ مِنه: التَّهكُّمُ، وإظهارُ اليقينِ، والجزم التَّامُّ على كونِه باطِلًا.

وقُرِئَ: «الحقُّ» بالرَّفعِ[٣] على أنَّ ﴿هُوَ﴾ مُبتدأٌ غيرُ فصلٍ، وفائدَةُ التَّعريفِ فيه للدَّلالةِ على أنَّ المُعلَّقَ به كونُه حقًّا بالوجهِ الَّذي يدَّعيهِ النبيُّ وهو تنزيلُه، لا الحقَّ مُطلقًا؛ لتَجويزِهِم أَنْ يكونَ مُطابِقًا للواقعِ غيرَ مُنزَلٍ كأساطيرِ الأوَّلينَ.

---

(١) قوله: «فلم يعارضوا سواه»؛ أي: سوى السيفِ، وفي نسخة: «سورةً»؛ أي: من القرآنِ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٢٩).

(٢) قطعة من الخبر السابق دون المرفوع منه، لكن في الصحيحين أن قائل ذلك أبو جهل، روى البخاري (٤٦٤٨)، ومسلم (٢٧٩٦)، عن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الآية [الأنفال: ٣٣ ـ ٣٤].

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٤)، و«الكشاف» (٣/ ٤٠٧)، عن الأعمش.

(٣٣) ـ ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ بيانٌ لـ«ما كان» الموجبِ لإمْهَالِهِم والتَّوقُّفِ في إجابَةِ دُعائِهِم، واللَّامُ لتأكيدِ النَّفيِ والدَّلالةِ على أنَّ تَعذيبَهُم عذابَ استئصالٍ والنبيُّ بينَ أَظْهُرِهِم خارجٌ عَن عادَتِه غيرُ مُستَقيمٍ في قَضائِه.

والمرادُ باستغفارِهِم: إمَّا استغفارُ مَن بَقِيَ فيهم مِن المؤمنينَ، أو قولُهُم: اللهمَّ غُفرانك[1]، أو فَرْضُه على مَعنى: لو استغفروا لم يُعذَّبُوا كقولِه: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧].

(٣٤) ـ ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾: وما لَهُم ممَّا يمنَعُ تَعذيبَهُم مَتى زالَ ذلك، وكيفَ لا يُعذَّبونَ ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وحالُهُم ذلكَ، ومِن صَدِّهِم عنه إلجاءُ رَسولِ اللهِ ﷺ والمؤمنينَ إلى الهجرةِ وإحصارُهُم عامَ الحُدَيبيةِ.

﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾: مُستحِقِّينَ وِلايَةَ أمرِهِ مع شِرْكِهِم، وهو ردٌّ لِمَا كانُوا يَقولونَ: «نحنُ وُلاةُ البيتِ والحرمِ فنصدُّ مَن نشاءُ ونُدخِلُ من نَشاءُ».

﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ مِنَ الشِّركِ الَّذينَ لا يعبدونَ فيه غيرَه، وقيلَ: الضَّميرانِ للهِ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنْ لا وِلايَةَ لهُم عليهِ؛ كأنَّه نبَّهَ بأنَّ الأكثرَ مِنْهُم مَن يعلَمُ ويُعانِدُ، أو أرادَ به الكُلَّ كما يرادُ بالقلَّةِ العدمُ.

(٣٥) ـ ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ ﴾؛ أي: دعاؤُهم، أو ما يسمُّونهُ صلاةً، أو ما يضعونَ موضعَها ﴿إِلَّا مُكَاءً ﴾: صَفيرًا، فُعالٌ من مَكا يَمْكُو: إذا صَفَرَ، وقُرِئَ بالقصرِ كالبُكا[2].

---

(١) في نسخة الخيالي: «اغفر»، والمثبت من نسخة التفتازاني.

(٢) نسبت لعباس عن أبي عمرو. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٤).

﴿وَتَصۡدِيَةٗ﴾: تصفيقًا، تفعلةٌ من الصَّدَى، أو من الصَّدِّ على إبدالِ أحدِ حرفي التَّضعيفِ بالياءِ.

وقُرِئَ: «صلاتَهم» بالنَّصبِ[1] على أنَّهُ الخبرُ المقدَّمُ، ومَساقُ الكلامِ لتَقريرِ استِحقاقِهم العذابَ، أو عدمِ ولايتِهم للمَسجِدِ فإنَّها لا تليقُ بمن هذهِ صلاتُهُ.

رُويَ أنَّهم كانُوا يطوفونَ عراةً، الرِّجالُ والنساءُ مشبِّكينَ بينَ أصابِعِهم يَصفِرونَ فيها ويصفِّقُونَ[2].

وقيلَ: كانُوا يفعلُونَ ذلكَ إذا أرادَ النَّبيُّ أن يُصلِّيَ يخلطونَ عليهِ[3]، ويُرُونَ أنَّهم يصلُّونَ أيضًا.

﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ يعني: القتلَ والأسرَ يومَ بدرٍ، وقيلَ: عذابَ الآخرةِ، واللَّامُ يحتمِلُ أن تكونَ للعهدِ، والمعهودُ: ائتنا بعذابٍ.

﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ اعتقادًا وعملًا.

---

(١) هي قراءة عن عاصم رواها ابن مجاهد في «السبعة» (ص: ٣٠٥) من طريقين عن حسين عن أبي بكر عن عاصم، ونسبت للأعمش. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٤)، و«المحتسب» (١/ ٢٧٨). وقال ابن خالويه: رويت عن علي. و(مكاءٌ) في هذه القراءة بالرفع كما في المصدرين المذكورين.

(٢) روى البخاري (١٦٦٥)، ومسلم (١٢١٩)، عن عروة رضي الله عنه قال: كان الناس يطوفون في الجاهلية عراة إلا الحمس، والحمس قريش وما ولدت، وكانت الحمس يحتسبون على الناس، يعطي الرجل الرجل الثياب يطوف فيها، وتعطي المرأة المرأة الثياب تطوف فيها، فمن لم يعطه الحمس طاف بالبيت عرياناً.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٦٤ ـ ١٦٥) عن سعيد ومجاهد.

(٣٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ نزلت في المطعِمِينَ يومَ بدرٍ، وكانُوا اثني عشرَ رجلًا من قريشٍ يُطعمُ كلُّ واحدٍ منهم كلَّ يومٍ عشرَ جُزُرٍ[1].

أو في أبي سفيانَ استأجرَ ليومِ أُحدٍ ألفينِ من العربِ سوى مَن استجاشَ من العربِ وأنفقَ عليهم أربعينَ أوقيَّةً[2].

أو لأصحابِ العيرِ؛ فإنَّهُ لمَّا أصيبَ قريشٌ ببدرٍ قيلَ لهم: أَعينوا بهذا المالِ على حَرْبِ محمَّدٍ لعلَّنا نُدْرِكُ منهُ ثأرَنا، ففعَلُوا[3].

والمرادُ بسبيلِ اللهِ: دينُهُ واتِّباعُ رسولِهِ.

﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ بتَمامِها، ولعلَّ الأولَّ إخبارٌ عن إنفاقِهِم في تلكَ الحالِ وهوَ إنفاقُ بدرٍ، والثَّاني إخبارٌ عن إنفاقِهِم فيما يُستقبَلُ وهو إنفاقُ أُحُدٍ.

ويحتمِلُ أن يرادَ بهما واحدٌ على أنَّ مساقَ الأوَّلِ لبيانِ غرضِ الإنفاقِ ومساقَ الثَّاني لبيانِ عاقبتِهِ وأنَّهُ لم يقَعْ بعدُ.

﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾: نَدمًا وغمًّا؛ لفواتِها مِن غيرِ مقصودٍ، جعلَ ذاتَها تصيرُ حسرةً ـ وهي عاقبةُ إنفاقِها ـ مبالغةً.

﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ آخرَ الأمرِ، وإن كانَ الحربُ بينهم سجالًا قبلَ ذلكَ.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾؛ أي: الَّذينَ ثَبَتُوا على الكفرِ مِنْهُم إذ أسلمَ بعضُهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾: يساقونَ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٩٦) عن الكلبي ومقاتل. وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٦٤ ـ ٦٦٦)، و«المغازي» للواقدي (١/ ١٤٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٧٠ ـ ١٧١) عن سعيد بن جبير وابن أبزى والحكم بن عتيبة.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٧٣) من طريق ابن إسحاق عن مشايخه.

(٣٧) ـ ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾: الكافرَ مِن المؤمنِ، أو: الفسادَ من الصَّلاحِ، واللَّامُ متعلِّقةٌ بـ﴿يُحْشَرُونَ﴾ أو ﴿يُغْلَبُونَ﴾.

أو: ما أنفقَهُ المشركونَ في عَداوةِ رَسولِ اللهِ ﷺ ممَّا أنفقَهُ المسلمونَ في نصرتهِ، واللَّامُ متعلقةٌ بقولهِ: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾.

وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ ويعقوبُ: ﴿ليُمَيِّزَ﴾ مِن التَّمييزِ[1]، وهو أبلغُ مِن المَيْزِ.

﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾: فيَجمعَهُ ويضمَّ بعضَهُ إلى بعضٍ حتَّى يتراكَبُوا[2] لفَرْطِ ازدِحامِهم، أو يضمَّ إلى الكافرِ ما أنفقَهُ ليزيدَ بهِ عذابَهُ كمالَ الكانِزينَ.

﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ كلَّهُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الخبيثِ لأنَّهُ مقدَّرٌ بالفريقِ الخبيثِ، أو إلى المنفقينَ ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: الكاملونَ في الخسرانِ؛ لأنَّهم خَسِرُوا أنفسَهم وأموالَهم.

(٣٨) ـ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يعني: أبا سفيانَ وأصحابَهُ، والمعنى: قُلْ لأَجلِهم.

﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ عَن مُعاداةِ الرَّسولِ بالدُّخولِ في الإسلامِ ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ مِن ذُنوبِهِم.

وقُرِئَ بالتَّاءِ والكافِ على أنَّه خاطَبَهم[3].

و: «يَغفِرْ» على البناءِ للفاعلِ[4] وهوَ اللهُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٦)، و«التيسير» (ص: ٩٢)، و«النشر» (٢/ ٢٤٤).

(٢) في نسخة التفتازاني: «يتراكموا».

(٣) أي: (إن تَنتَهوا يغفر لكم) نسبت لابن مسعود. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٦).

(٤) انظر: «البحر المحيط» (١١/ ٩٩).

﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ إلى قتالِهِ ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ - الَّذينَ تحزَّبوا على الأنبياءِ - بالتَّدميرِ كما جَرى على أهلِ بدرٍ، فلْيَتوقَّعوا مثلَ ذلك.

(٣٩) - ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾: لا يُوجَدَ فيهم شِرْكٌ ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾: وتَضمَحِلَّ عنهمُ الأديانُ الباطلةُ.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ من الكفرِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيُجازِيهم على انتهائِهم عنهُ وإسلامِهم.

وعن يعقوبَ: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاءِ[1]، على معنى: فإنَّ اللهَ بما تعملونَ مِن الجهادِ والدَّعوةِ إلى الإسلامِ والإخراجِ مِن ظُلْمَةِ الكفرِ إلى نورِ الإيمانِ بصيرٌ فيُجازِيكُم، ويكونُ تعليقُهُ بانتهائِهم دلالةً على أنَّهُ كما يَستدعي إثابَتَهم للمُباشَرةِ يَستدعي إثابةَ مُقاتلِيهم للتَّسبُّبِ.

(٤٠) - ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ ولم يَنْتَهُوا ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾: ناصِرُكم، فثِقُوا بهِ ولا تُبالوا بمُعَاداتِهم.

﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لا يضيعُ مَن تولَّاهُ ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾: لا يُغلبُ مَن نصرَهُ.

(٤١) - ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾؛ أي: الَّذي أَخَذْتُموهُ مِن الكفَّارِ قهرًا ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ ممَّا يقعُ عليهِ اسمُ الشَّيءِ حتَّى الخيط.

﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ مبتدأٌ خبرُهُ محذوفٌ؛ أي: فثابتٌ أنَّ للهِ خُمُسهُ. وقُرِئَ: «فإنَّ» بالكسرِ[2].

والجمهورُ على أنَّ ذكرَ اللهِ للتَّعظيمِ كما في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ١٧٦).

(٢) هي رواية الجعفي عن أبي عمرو. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٥).

يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، وأنَّ المرادَ قَسْمُ الخُمسِ على الخمسةِ المعطوفينَ: ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فكأنَّهُ قالَ: للهِ خمسُهُ يصرَفُ إلى هؤلاءِ الأخصِّينَ بهِ.

وحكمُهُ بعدُ باقٍ، غيرَ أنَّ سهمَ الرَّسولِ - صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ - يُصرفُ إلى ما كانَ يَصرفُهُ إليهِ من مصالحِ المسلمينَ كما فعلهُ الشَّيخانِ(١).

وقيلَ: إلى الإمامِ.

وقيلَ: إلى(٢) الأصنافِ الأربعةِ.

وقالَ أبو حنيفةَ: سَقَطَ سهمُهُ وسَهْمُ ذوي القُربى بوفاتِهِ وصارَ الكلُّ مصروفًا إلى الثَّلاثةِ الباقيةِ.

وعن مالكٍ: الأمرُ فيهِ مفوَّضٌ إلى رأيِ الإمامِ يَصْرِفهُ إلى ما يراهُ أهمَّ.

وذهبَ أبو العَاليَةِ إلى ظاهرِ الآيةِ وقالَ: يُقسَمُ ستَّةَ أقسام، ويصرَفُ سهمُ اللهِ إلى الكعبةِ؛ لِمَا روى أنَّهُ عليهِ السَّلامُ كانَ يأخذُ منهُ قبضةً فيجعلُها للكعبةِ، ثمَّ يَقْسِمُ ما بقيَ على خمسةِ أقسامٍ(٣).

وقيلَ: سهمُ اللهِ لبيتِ المالِ.

وقيلَ: هوَ مضمومٌ إلى سهمِ الرَّسولِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٩٧) من طريق الأعمش عن إبراهيم قال: كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يجعلان سهم النبي ﷺ في الكُرَاع والسلاح. فقلت لإبراهيم: ما كان علي رضي الله عنه يقول فيه؟ قال: كان عليٌّ أشدَّهم فيه.

(٢) في نسخة التفتازاني: «وقيل في».

(٣) رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في «الأموال» (٣٨)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٣٢٩٨)، وأبو داود في «المراسيل» (٣٧٤)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ١٨٩).

وذَوُو القُربى: بنو هاشمٍ وبنو عبدِ المطَّلبِ؛ لِمَا رُوِيَ أَنَّهُ عليهِ السَّلامُ قسَّمَ سهمَ ذوي القربى عليهِما، فقالَ لهُ عثمانُ وجبيرُ بنُ مطعمٍ: هؤلاءِ إخوتُكَ بنو هاشمٍ لا ننكرُ فضلَهم لمكانكَ الَّذي جعلكَ اللهُ منهم، أرأيتَ إخوانَنا مِن بني المطَّلبِ أعطيتَهم وحرَمْتَنا وإنَّما نحنُ وهم بمنزلةٍ، فقالَ عليهِ السَّلامُ: «إنَّهم لم يفارقونا في جاهليةٍ ولا إسلامٍ»، وشبَّكَ بينَ أصابعهِ[1].

وقيلَ: بنو هاشمٍ وحدَهم.

وقيلَ: جميعُ قريشٍ، والغنيُّ والفقيرُ فيهِ سواءٌ.

وقيلَ: هوَ مخصوصٌ بفقرائِهم كسهمِ ابنِ السَّبيلِ.

وقيلَ: الخمسُ كلُّهُ لهم.

وقيلَ: المرادُ باليَتامى والمساكينِ وابنِ السَّبيلِ مَن كانَ مِنهم، والعطفُ للتَّخصيصِ.

والآيةُ نزلت ببدرٍ[2].

وقيلَ: كانَ الخُمسُ في غزوةِ بني قَيْنُقاعَ بعدَ بدرٍ بشهرٍ وثلاثةِ أيامٍ للنِّصفِ من شوَّالَ على رأسِ عشرينَ شهرًا من الهجرةِ[3].

---

(١) رواه أبو داود في «سننه» (٢٩٨٠)، وابن ماجه في «سننه» (٢٨٨١)، ورواه البخاري في «صحيحه» (٣١٤٠)، ولم يرد في روايته: «إنَّهم لَمْ يفارقُوني في جاهليَّةٍ ولا إسلامٍ»، وكذا ما بعده من قول الراوي: (وشبك بين أصابعه). ورواه أيضاً الإمام أحمد في «المسند» (١٦٧٤١)، والنسائي (٤١٣٧).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٨٩) عن الكلبي.

(٣) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٤١٨) عن الواقدي.

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ دلَّ عليهِ ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾؛ أي: إن كنتُم آمنتُم باللهِ فاعلَموا أنَّهُ جَعَلَ الخمسَ لهؤلاءِ فسلِّموهُ إليهم واقتَنِعوا بالأخماسِ الأربعةِ الباقية؛ فإنَّ العلمَ العمليَّ إذا أُمرَ بِهِ لم يُرَد منهُ العلمُ المجرَّدُ؛ لأنَّهُ مقصودٌ بالعَرَضِ والمقصودُ بالذَّاتِ هو العملُ.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمدٌ من الآياتِ والملائكةِ والنَّصرِ.

وقُرِئَ: «عُبُدِنا» بضمَّتينِ[1]؛ أي: الرسولِ والمؤمنينَ.

﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾: يومَ بدرٍ فإنَّهُ فُرِقَ فيهِ بينَ الحقِّ والباطلِ.

﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾: المسلمونَ والكفَّارُ.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدرُ على نصرِ القليلِ على الكثيرِ والإمدادِ بالملائكةِ.

(٤٢) ـ ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بدلٌ مِن ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾، و«العدوة» بالحركاتِ الثَّلاثِ: شطُّ الوادي، وقد قرئَ بها، والمشهورُ الضمُّ والكسرُ وهو قراءةُ ابنِ كثيرٍ وأبي عمرٍو ويعقوبُ[2].

﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾: البُعْدَى مِن المدينةِ، تأنيثُ الأقصى، وكانَ قياسُهُ

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٥) عن بعضهم، و«البحر المحيط» (١١/ ١١٣) عن زيد بن علي.

(٢) وقرأ باقي السبعة بالضم. انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٦)، و«التيسير» (ص: ١١٦)، و«النشر» (٢/ ٢٧٦). أما القراءة بفتح العين فنسبت إلى الحسن وزيد بن علي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٥)، و«المحتسب» (١/ ٢٨٠)، و«البحر» (١١/ ١١٤).

قلبَ الواوِ كالدُّنيا والعُليا تفرقةً بينَ الاسمِ والصِّفةِ، فجاءَ على الأصل كالقَوَدِ[1] وهو أكثرُ استعمالًا من القُصْيَا.

﴿وَٱلرَّكۡبُ﴾؛ أي: العيرُ، أو: قُوَّادُها ﴿أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾: في مكانٍ أسفلَ من مكانِكُم، يعني: السَّاحلَ، وهو منصوبٌ على الظَّرفِ واقعٌ موقعَ الخبرِ، والجملةُ حالٌ من الظَّرفِ قبلَهُ، وفائدتُها: الدَّلالةُ على قوَّةِ العدوِّ، واستظهارِهم بالرَّكبِ، وحرصِهِم على المقاتلةِ عنها، وتوطينِ نفوسِهم على أن لا تخْلُو مراكزُهُم[2]، ويبذُلوا منتهَى جُهدِهم، وضعفِ شأنِ المسلمينَ، والْتِيَاثِ[3] أمرِهم، واستبعادِ غلَبتِهم عادةً.

وكذا ذكرُ مراكزِ الفريقينِ؛ فإنَّ العُدوةَ الدُّنيا كانَت رِخوةً تسوخُ فيها الأرجلُ ولا يُمْشَى فيها إلَّا بتعبٍ ولم يكن بها[4] ماءٌ، بخلافِ العُدوةِ القُصوى.

وكذا قولُه: ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾؛ أي: لو تواعدْتُم أنتُم وهمُ القتالَ ثمَّ علمتُم حالَكُم وحالَهُم لاختلفتُم أنتم في الميعادِ هيبةً منهُم ويأسًا منَ الظَّفَرِ عليهم؛ ليتحقَّقوا أنَّ ما اتَّفقَ لهُم من الفتح ليسَ إلَّا صُنعًا من اللهِ خارقًا للعادةِ فيزدادُوا إيمانًا وشكرًا.

---

(١) قوله: «كالقود»: يعني: القياس أن تُقلب واوها ألفًا كأشباهه، فتركوه على ما كان، كذلك ﴿ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾. انظر: «فتوح الغيب» (٧/ ١١٠). والقود بالتحريك: القصاص، وبالتسكين: مصدر قاد.

(٢) قال الشهاب الخفاجي: قوله: (أن لا تخلو مراكزهم) من الإخلاء؛ أي لا يجعلوها خالية منهم، ولو كان من الخلل كان (مراكزهم) منصوباً بنزع الخافض، أو مضمَّناً معنى ما يتعدّى بنفسه، والأوّل أولى. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) في نسخة الطبلاوي: «وإلباث»، قال الشهاب الخفاجي: (والتياث أمرهم) أي صعوبته والتباسه عليهم من قولهم: التاثت عليه الأمور والبست واختلطت. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) في نسخة التفتازاني: «فيها».

﴿وَلَٰكِن﴾ جمعَ بينكُم على هذا [١] الحالِ من غيرِ ميعادٍ ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾: حقيقًا بأن يُفعَلَ، وهوَ نصرُ أوليائِهِ وقهرُ أعدائِهِ.

وقولُه: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ بدلٌ منهُ، أو متعلِّقٌ بقولِهِ: ﴿مَفْعُولًا﴾ والمعنى: ليموتَ مَن يموتُ عن بيِّنةٍ عايَنها، ويعيشَ مَن يعيشُ عن حجَّةٍ شاهدَها، لئلَّا يكونَ لهُ حجَّةٌ ومعذرةٌ، فإنَّ وقعةَ بدرٍ من الآياتِ الواضحةِ.

أو ليَصْدُرَ كُفرُ مَن كَفرَ وإيمانُ مَن آمنَ عن وضوحِ بيِّنةٍ، على استعارةِ الهلاكِ والحياةِ للكفرِ والإسلامِ، والمرادُ بـ﴿مَنْ هَلَكَ﴾ و﴿مَنْ حَىَّ﴾: المشارِفُ للهلاكِ والحياةِ، أو مَن هذا حالُهُ في علمِ اللهِ وقضائِهِ.

وقُرِئَ: «ليَهْلَكَ» بالفتحِ [٢].

وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو بكرٍ ويعقوبُ: ﴿مَنْ حَيِيَ﴾ بفكِّ الإدغامِ [٣] للحملِ على المستقبلِ.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بكفرِ مَن كَفَرَ وعقابِهِ، وإيمانِ مَن آمنَ وثوابِه، ولعلَّ الجمعَ بينَ الوصفينِ لاشتمالِ الأمرينِ على القولِ والاعتقادِ.

(٤٣) - ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ مقدَّرٌ بـ: اذكر، أو بدلٌ ثانٍ من ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾، أو متعلِّقٌ بـ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: يعلمُ المصالحَ إذ يقلِّلُهم في عينِكَ في رؤياكَ، وهو أن تُخبرَ بهِ أصحابَكَ فيكونَ تثبيتًا لهم وتشجيعًا على عدوِّهم.

---

(١) في نسخة الطبلاوي والتفتازاني: «هذه».

(٢) هي رواية عصمة عن أبي بكر عن عاصم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٥)، و«البحر المحيط» (١١/ ١١٣) وزاد أبو حيان نسبتها للأعمش.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٦)، و«التيسير» (ص: ١١٦)، و«النشر» (٢/ ٢٧٦). وقراءة ابن كثير من رواية البزي.

﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾: لَجَبُنْتُم ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ في أمرِ القتالِ، وتفرَّقت آراؤُكُم بينَ الثَّباتِ والفِرارِ.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾: أَنْعَمَ بالسَّلامةِ من الفشلِ والتَّنازُعِ.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يعلمُ ما سَيكونُ فيها وما يغيِّرُ أحوالها.

(٤٤) ـ ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ الضَّميرانِ مفعولا «يُري»، و﴿قَلِيلًا﴾ حالٌ من الثَّاني، وإنَّما قلَّلَهم في أعينِ المسلمينَ ـ حتَّى قالَ ابنُ مسعودٍ لِمَن إلى جنبِهِ: أتراهُم سبعينَ؟ فقالَ: أُراهُم مئةً[1] ـ تثبيتًا لهُم وتصديقًا لرُؤيا الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ.

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ حتَّى قالَ أبو جهلٍ: إنَّ محمَّدًا وأصحابَهُ أَكَلَةُ جزورٍ[2].

وقلَّلهم في أعيُنهم قبلَ التحامِ القتالِ ليجترِؤُوا عليهم ولا يستعدُّوا لهم، ثمَّ كثَّرهُم حتَّى يرونَهم مثلَيهم لتُفاجِئَهمُ الكثرةُ فتبهتَهُم وتكسِرَ قلوبَهُم، وهذا مِن عَظائمِ آيات تلكَ الوقعةِ، فإنَّ البصرَ وإن كانَ قد يرَى الكثيرَ قليلًا والقليلَ كثيرًا لكنْ لا على هذا الوجهِ، ولا إلى هذا الحدِّ، وإنَّما يُتصوَّرُ ذلكَ بصدِّ اللهِ الأبصارَ عن إبصارِ بعضٍ دونَ بعضٍ معَ التَّساوي في الشُّروطِ.

﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾: كرَّرَهُ لاختلافِ الفعلِ المعلَّلِ بهِ، أو لأنَّ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٨٣٣)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٢١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٠).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٦٧٨) عن ابن عباس رضي الله عنه.

قوله: «أكلة جزور» يُضرب في القلة والأمر الذي لا يُعبأ به، يقال: هم أكلة رأس؛ أي: قليل يشبعهم رأس واحد، وهو جمع آكل. انظر: «فتوح الغيب» (٧/ ١١٩).

المرادَ بالأمرِ ثَمَّ الاكتفاءُ على الوجهِ المحكيِّ، وهاهنا إعزازُ الإسلامِ وأهلِهِ، وإذلالُ الشِّركِ وحزبِهِ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

(٤٥) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ﴾: حارَبْتُم جماعةً، ولم يَصِفها لأنَّ المؤمنينَ ما كانُوا يلقونَ إلَّا الكفَّارَ، واللِّقاءُ ممَّا غلبَ في القتالِ.

﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾ للقائِهم ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ في مواطنِ الحربِ داعينَ لهُ مستظهِرينَ بذكرِهِ مترقِّبينَ لنصرِهِ ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾: تظفرونَ بمرادِكُم من النُّصرةِ والمَثوبةِ.

وفيهِ تنبيهٌ على أنَّ العبدَ ينبغي أن لا يَشْغَلَهُ شيءٌ عن ذكرِ اللهِ، وأن يلتجئَ إليهِ عندَ الشَّدائدِ ويُقبلَ عليهِ بشراشرِهِ[١] فارغَ البالِ واثقًا بأنَّ لطفَهُ لا ينفكُّ عنهُ في شيءٍ منَ الأحوالِ.

(٤٦) ـ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ باختلافِ الآراءِ كما فعلتُم ببدرٍ أو أُحدٍ ﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾ جوابُ النَّهيِ، وقيلَ: عطفٌ عليهِ، ولذلكَ قرئَ: (وتذهبْ ريحُكُم) بالجزمِ[٢]، والرِّيحُ مُستعارةٌ للدَّولةِ من حيثُ إنَّها في تمشِّي أمرِها ونفاذِهِ مشبَّهةٌ بها في هبوبِها ونفوذِها.

وقيلَ: المرادُ بها الحقيقةُ؛ فإنَّ النُّصرةَ لا تكونُ إلَّا بريحٍ يبعثُها اللهُ، وفي الحديثِ: «نُصِرْتُ بالصَّبا وأُهلِكَتْ عادٌ بالدَّبورِ»[٣].

---

(١) يُقال: أَلْقَى عليه شَرَاشِرَه، أي: نَفْسَه، ويُقال: بل هي مَحَبَّةُ النَّفْس. انظر: «المنجد في اللغة» (ص: ٨٨).
وقال الطيبي: ألقى عليه شراشره، أي: جملته، وصرف إليه همه. انظر: «فتوح الغيب» (١/ ٦٣٦).

(٢) عزاها ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٣٦) لهبيرة عن حفص عن عاصم. وقرئ كذلك أيضًا لكن بالياء: (ويذهبْ) نسبت لعيسى بن عمر في «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٣٦)، و«البحر» (١١/ ١٢٤).
وقراءة الجمهور: ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾.

(٣) رواه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالكَلاءةِ والنُّصرةِ[١].

(٤٧) ـ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ يعني: أهلَ مكةَ حينَ خرجُوا منها لحمايةِ العيرِ ﴿بَطَرٗا﴾: فخرًا وأَشَرًا ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ ليثنُوا عليهم بالشَّجاعةِ والسَّماحةِ، وذلكَ أنَّهم لمَّا بلغُوا جُحْفَةَ وافاهُم رسولُ أبي سفيانَ: أن ارجِعُوا فقد سلِمَت عيرُكُم، فقالَ أبو جهلٍ: لا واللهِ حتَّى نَقْدَمَ بدرًا ونشربَ فيها الخمورَ وتَعْزِفَ علينا القِيَانُ ونُطعِمَ بِها من حَضَرَنا منَ العربِ[٢]. فوافَوها ولكن سُقُوا كأسَ المَنَايا، وناحَت عليهِم النَّوائحُ، فنَهى المؤمنينَ أن يكونوا أمثالَهم بَطِرِينَ مُرائِينَ، وأمرَهُم بأن يكونوا أهلَ تقوَى وإخلاصٍ من حيثُ إنَّ النَّهيَ عنِ الشَّيءِ أمرٌ بضدِّهِ.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ معطوفٌ على ﴿بَطَرٗا﴾ إن جُعلَ مصدرًا في موضعِ الحالِ، وكذا إن جُعلَ مفعولًا لهُ لكنْ على تأويلِ المصدَرِ.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ فيجازيكُم عليهِ.

(٤٨) ـ ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ مقدَّرٌ بـ: اذكُر.

﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ في معاداةِ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ وغيرِها بأن وسوسَ إليهم ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡ﴾ مقالةٌ نفسانيَّةٌ[٣]، والمعنى: أنَّه

---

(١) في نسخة الخيالي والتفتازاني: «والنصر».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢١٧ ـ ٢٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعروة بن الزبير ومحمد بن إسحاق.

(٣) قوله: «مقالة نفسانية»؛ أي: حديث نفسي ووسوسة في قلوبهم لا أن الشيطان تمثل ظاهرًا وتكلم به، وعلى هذا فالقول في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ مجاز عن الوسوسة، والنكوص استعارة تمثيلية، ولذا قال المصنف في تفسير (نكص)؛ أي: بطل كيده. يدل عليه ما ذكره الزمخشري عن الحسن من قوله: كان ذلك على سبيل الوسوسة ولم يتمثّل لهم. انظر: «حاشية =

ألقَى في رُوعِهم وخيَّلَ إليهم أنَّهم لا يغلبونَ ولا يُطاقُونَ لكثرةِ عَددِهم وعُدَدهم، وأوهمَهُم أنَّ اتِّباعَهُم إيَّاهُ فيما يظنُّونَ أنَّها قرباتٌ مجيرٌ لهم، حتَّى قالُوا: اللهمَّ انصُر أَهْدَى الفئتينِ وأفضلَ الدِّينَينِ.

و﴿لَكُمْ﴾ خبرُ ﴿لَا غَالِبَ﴾ أو صفتُهُ، وليسَ صِلتَه وإلَّا لانتصبَ كقولِكَ: «لا ضاربًا زيدًا عندنا».

﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾؛ أي: تَلاقى الفريقانِ ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾: رجعَ القهقَرَى؛ أي: بطلَ كيدُهُ وعادَ ما خَيَّلَ إليهم أنَّهُ مجيرُهُم سببَ هلاكِهم.

﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾؛ أي: تبرَّأَ منهم وخافَ عليهم وأيِسَ من حالِهم لَمَّا رأى إمدادَ اللهِ المسلمينَ بالملائكةِ.

= الجاربردي» (٩/ ١٠٠)، وقول الحسن في «الكشاف» (٣/ ٤٢٨).

وقد تعقب كل هذا وضعَّفه: ابنُ كمال باشا في «تفسيره» عند هذه الآية فقال: ولا يخفَى ضعفه؛ فإن قوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ ليس مما يُلقَى بالوسوسة، وكذا النُّكوص على عقبيه وما بعده من الأقوال، وليس مما يُلقَى بها.

قلت: وقول الحسن لعله يريد به ما رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٢٤) عن حميد بن هلال قال: قال الحسن ـ وتلا هذه الآية: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ الآية، قال ـ: سار إبليس مع المشركين ببدر برايته وجنوده، وألقى في قلوب المشركين أن أحدًا لن يغلبكم وأنتم تقاتلون على دين آبائكم، ولن تغلبوا كثرةً، فلما التقوا ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ يقول: رجع مدبرًا وقال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، يعني: الملائكة.

فلعل الزمخشري ذكره بمعناه أخذًا مما جاء فيه من قوله: (وألقى في قلوب المشركين أن أحدًا لن يغلبكم...) فالإلقاء في القلوب فيه إشارة إلى أن ذلك كان عن طريق الوسوسة، لكن الخبر صريح في أنه كان قد خرج معهم وأن نكوصه عند رؤيته الملائكة لم يكن بطلان كيد ـ كما فسره المصنف ـ بل نكوصا حقيقةً، وسيأتي قريبًا من الخبر عن ابن عباس وغيره من تمثله بسراقة ما يؤيده.

وقيلَ: لمَّا اجتمعَتْ قُريشٌ على المسيرِ ذكرتْ ما بينَهم وبينَ كنانةَ من الإِحْنَةِ وكادَ ذلكَ يُثنيهِم، فتمثَّلَ لهم إبليسُ بصورةِ سراقةَ بن مالكٍ الكِنانيِّ وقالَ: لا غالبَ لكمُ اليومَ وإني مجيرُكم من بني كِنانةَ، فلمَّا رأى الملائكةَ تنزلُ نكصَ، وكانَ يدهُ في يدِ الحارثِ بن هشامٍ، فقالَ لهُ: إلى أينَ؟ أتخذلُنا في هذهِ الحالةِ؟ فقالَ: إنِّي أرى ما لا ترونَ[1]، ودفعَ في صدرِ الحارثِ فانطلقَ، وانهزَمُوا، فلمَّا بلغوا مكَّةَ قالُوا: هزمَ النَّاسَ سراقةُ، فبلغهُ ذلكَ فقالَ: واللهِ ما شعرتُ بمسيرِكُم حتَّى بلَغَتْنِي هزيمَتُكم، فلمَّا أسلَمُوا علمُوا أنَّهُ الشَّيطانُ[2].

وعلى هذا يحتمِلُ أن يكونَ معنى قولِهِ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾: إني أخافُهُ أن يصيبَني مكروهًا من الملائكةِ أو يهلِكَني، ويكونَ الوقتُ هو الوقتَ الموعودَ؛ إذ رأى فيهِ ما لم يرَ قبلهُ، والأوَّلُ ما قالهُ الحسنُ واختارَهُ ابنُ بحرٍ[3].

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يجوزُ أن يكونَ من كلامِهِ وأن يكونَ مستأنَفًا.

(٤٩) ـ ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: والذينَ لم يطمئنُّوا إلى الإيمانِ بعدُ وبقيَ في قلوبهم شبهةٌ، وقيلَ: همُ المشركونَ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٢١-٢٢٣) عن ابن عباس والسدي وعروة بن الزبير وابن إسحاق.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ١١٧)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٣٦٦)، عن الكلبي.

(٣) قوله: «والأول»؛ أي: ما تقدم من كون قول الشيطان كان وسوسة، وكونه قول الحسن قد تقدم الكلام عليه، وكونه اختيار ابن بحر ذكره أبو السعود في «تفسيره» (٤/ ٢٦). وابن بحر هو محمد بن بحر الأصفهاني، وقد أكثر بعض المفسرين النقل عنه كالماوردي والرازي وأبي حيان، وتارة يسمونه ابن بحر، وتارة أبا مسلم الأصفهاني، وهو مفسر معتزلي قال عنه ياقوت في «معجم الأدباء» (٦/ ٢٤٣٨): كان كاتباً مترسلًا بليغًا متكلمًا جدلًا، له «جامع التأويل لمحكم التَّنزيل» على مذهب المعتزلة، و«الناسخ والمنسوخ»، وكتاب في النحو، وجامع رسائله، مولده سنة (٢٥٤هـ)، وتوفي سنة (٣٢٢هـ).

وقيلَ: المنافقونَ، والعطفُ لتغايرِ الوصفينِ.

﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعنون: المؤمنينَ ﴿دِينُهُمْ﴾ حتَّى تعرَّضُوا لما لا يَدَيْ لهم بـهِ، فخرَجُوا وهم ثلاثُ مئةٍ وبضعةَ عشرَ إلى زُهاءِ الألفِ.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ جوابٌ لهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: غالبٌ لا يـذلُّ مـن استجارَ بِهِ وإنْ قلَّ ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعلُ بحكمتِهِ البالغةِ ما يستبعدُه العقلُ ويعجزُ عن إدراكِهِ.

(٥٠) ـ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾: ولو رأيتَ، فإنَّ «لو» تجعلُ المضارعَ ماضيًا عكسَ «إنْ».

﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ببـدرٍ، و﴿إِذْ﴾ ظـرفُ ﴿تَرَىٰٓ﴾، والمفعولُ محـذوفٌ؛ أي: ولـو تَـرى الكفـرةَ ـ أو حالَـهم ـ حينئـذٍ، والملائكـةُ فاعلُ ﴿يَتَوَفَّى﴾، ويـدلُّ عليـهِ قراءةُ ابـنِ عامرٍ بالتَّـاءِ[1]، ويجوزُ أن يكـونَ الفاعلُ ضميـرَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهـوَ مبتـدأٌ خبـرُه: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ والجملـةُ حـالٌ مـنَ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ واستُغنيَ فيـهِ بالضَّميـرِ عنِ الـواوِ، وهو علـى الأوَّلِ حـالٌ مِنهم أو مـنَ الملائكةِ، أو منهما لاشـتمالهِ علـى الضَّميرِ.

﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾: ظهورَهُم وأستاهَهم، ولعلَّ المرادَ تعميمُ الضَّربِ؛ أي: يضربونَ ما أقبلَ منهُم وما أدبرَ.

﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ عطفٌ على ﴿يَضْرِبُونَ﴾ على إضمارِ القولِ؛ أي: ويقولونَ: ذوقُوا، بشارةً لهم بعذابِ الآخرةِ.

وقيلَ: كانَت معَهُم مقامعُ مِن حديدٍ كلَّما ضربُوا الْتَهَبتِ النَّارُ منها.

وجوابُ «لو» محذوفٌ لتفظيعِ الأمرِ وتهويلِهِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٧)، و«التيسير» (ص: ١١٦).

(٥١) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الضربُ والعذابُ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾: بسببِ ما كسَبْتُم من الكفرِ والمعاصي وهو خبرٌ لـ﴿ذَٰلِكَ﴾.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ عطفٌ على «ما» للدَّلالةِ على أنَّ سببيَّتَهُ مقيَّدةٌ بانضمامهِ إليهِ؛ إذ لولاهُ لأَمْكنَ أن يعذِّبَهم بغيرِ ذنوبِهم لا أن لا يعذِّبَهم بذنوبِهم؛ فإنَّ تركَ التَّعذيبِ مِن مستحقِّهِ ليسَ بظلمٍ شرعًا ولا عقلًا حتَّى ينتهضَ نفيُ الظلمِ سببًا للتعذيبِ.

و«ظلَّامٌ» للتَّكثيرِ لأجلِ العبيدِ.

(٥٢) ـ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: دأبُ هؤلاءِ مثلُ دأبِ آلِ فرعونَ، وهو عملُهم وطريقُهم الَّذي دأَبُوا فيهِ؛ أي: دامُوا عليهِ ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: من قبلِ آلِ فرعونَ ﴿كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تفسيرٌ لدأبِهم ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أخذَ هؤلاءِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لا يغلبُهُ في دفعهِ شيءٌ.

(٥٣) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما حلَّ بهم ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾: بسببِ أنَّ اللهَ ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾: مبدِّلًا إيَّاها بالنِّقمةِ ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾: يبدِّلُوا ما بهم من الحالِ إلى حالٍ أسوأَ؛ كتغييرِ قريشٍ حالَهم في صلةِ الرَّحمِ، والكفِّ عن تعرُّضِ الآياتِ والرُّسولِ[1] بمعاداةِ الرَّسولِ ومَن تَبِعهُ منهم، والسَّعيِ في إراقةِ دمائِهم، والتَّكذيبِ بالآياتِ والاستهزاءِ بها، إلى غيرِ ذلكَ ممَّا أحدثُوهُ بعدَ المبعَثِ، وليسَ السَّببُ عدمَ تغييرِ اللهِ ما أنعمَ عليهم حتَّى يغيِّروا حالَهم، بل ما هوَ المفهومُ لهُ، وهوَ جريُ عادتِهِ تعالى على تغييرِهِ متى يغيِّروا حالَهم.

(١) في نسخة الطبلاوي والتفتازاني: «والرسل».

وأصلُ ﴿يَكُ﴾: يكونُ، فحذفتِ الحركةُ للجزمِ، ثمَّ الواوُ لالتقاءِ السَّاكنينِ، ثمَّ النُّونُ لشبههِ بالحروفِ اللَّينةِ تخفيفًا.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لِمَا يقولونَ ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلونَ.

(٥٤) ـ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ، ولِمَا نيطَ بهِ من الدَّلالةِ على كفرانِ النِّعمِ بقولهِ: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، وبيانُ ما أَخذَ بهِ آلَ فرعونَ.

وقيلَ: الأوَّلُ لتشبيهِ الكفرِ والأخذِ بهِ، والثَّاني لتشبيهِ التَّغييرِ في النِّعمةِ بسببِ تغييرِهم ما بأنفُسِهم.

﴿وَكُلٌّ﴾ من الفرقِ المكذِّبةِ أو مِن غرقى القِبطِ وقتلى قريشٍ ﴿كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ أنفسَهُم بالكفرِ والمعاصِي.

(٥٥) ـ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: أصرُّوا على الكُفرِ ورسَخوا فيهِ ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يُتوقَّعُ منهم إيمانٌ[1]، ولعلَّهُ إخبارٌ عن قومٍ مطبوعينَ على الكُفرِ بأنَّهم لا يؤمنونَ، والفاءُ للعطفِ والتَّنبيهِ على أنَّ تحقُّقَ المعطوفِ عليهِ يستدعي تحقُّقَ المعطوفِ.

(٥٦) ـ وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بدلَ البعضِ للبيانِ والتَّخصيصِ، وهم يهودُ قريظةَ عاهدَهُم رسولُ اللهِ ﷺ أن لا يمالِئُوا عليهِ فأعانُوا المشركينَ بالسِّلاحِ وقالوا: نَسينا، ثمَّ عاهَدهُم فنكثُوا ومالَؤُوهم عليهِ يومَ الخندقِ، وركبَ كعبُ بن الأشرفِ إلى مكَّةَ فحالَفَهُم، و«مِن» لتضمينِ المعاهدةِ معنى الأخذِ، والمرادُ بالمرَّةِ: مرَّةُ المعاهَدةِ والمحاربةِ[2].

---

(١) في نسخة التفتازاني: «إيمانهم».

(٢) في نسخة الطبلاوي والخيالي: «أو المحاربة».

﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ سُبَّةَ الغدرِ ومغبَّتَهُ، أو: لا يتقونَ اللهَ فيهِ، أو نصرَه للمؤمنينَ وتسليطَهُ عليهم.

(٥٧) ـ ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾: فإمَّا تُصادِفنَّهم وتظفرنَّ بهم ﴿فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم﴾: ففرِّق عن مُناصبَتِكَ ونكِّل عنها بقتلِهم والنِّكايةِ فيهم ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾: مَن وراءَهم من الكفرةِ.

والتَّشريدُ: تفريقٌ على اضطرابٍ.

وقُرِئَ: «شَرِّذْ» بالذَّالِ المعجمةِ[١]، وكأنَّهُ مقلوبُ: شَذِّرْ.

و: «مِنْ خَلْفِهِم»[٢]، والمعنى واحدٌ، فإنَّهُ إذا شرَّدَ مَن وراءَهُم فقد فعلَ التَّشريدَ في الوراءِ[٣].

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾: لعلَّ المشرَّدينَ يتَّعظونَ.

(٥٨) ـ ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ معاهَدينَ ﴿خِيَانَةً﴾ نَقْضَ عهدٍ بأماراتٍ تلوحُ لكَ ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ﴾: فاطرَحْ إليهم عهدَهُم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾: على عدلٍ وطريقٍ قصدٍ في العداوةِ[٤]، ولا تناجِزْهُم الحربَ فإنَّهُ يكونُ خيانةً منك.

أو: على سواءٍ في الخوفِ أو العلمِ بنقضِ العهدِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٥) عن ابن مسعود، و«المحتسب» (١/ ٢٨٠) عن الأعمش.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» عن أبي حيوة (ص: ٥٥).

(٣) في نسخة الخيالي: «في ورائهم».

(٤) قوله: «على عدل وطريق قصد..»؛ أي: انبذها وأنت على طريقٍ قصدٍ؛ أي: مستقيم؛ أي: ثابتًا على عهدك فلا تبغتهم بالقتال بل أعلمهم به. انظر: «حاشية الخفاجي».

وهوَ في موضعِ الحالِ من النَّابذِ على الوجهِ الأوَّلِ؛ أي: ثابتًا على طريقٍ سويٍّ، أو منهُ أو من المنبوذِ إليهم أو منهُما على غيرِهِ[١].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ تعليلٌ للأمر بالنَّبذِ، والنهيِ عن مناجزةِ القتال المدلولِ عليه بالحالِ على طريق الاستئناف.

(٥٩) ـ ﴿وَلَا تحسبَنَّ﴾ خطابٌ للنبيِّ عليهِ السَّلامُ، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ مفعولاهُ.

وقرأَ ابنُ عامرٍ وحمزةُ وحفصٌ بالياءِ[٢] على أنَّ الفاعلَ ضميرُ «أحدٌ»، أو ﴿مَنْ خَلْفَهُمْ﴾، أو ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ والمفعولُ الأوَّلُ «أنفسَهم» فحُذفَ للتكرارِ[٣].

أو علـى تقديرِ: أنْ سـبقُوا[٤]، وهو ضعيـفٌ لأنَّ «أنْ» المصدريَّةَ كالموصولِ فلا تُحذفُ[٥].

---

(١) هذا على غير الوجه الأول.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٧)، و«التيسير» (ص: ١١٧)، و«النشر» (٢/ ٢٧٧). وقد تكلم الزمخشري على هذه القراءة بأنها ليست بنيرة، كما زعم تفرد حمزة بها، فتعقبه العلماء وردوا عليه في الأمرين: في زعمه تفرد حمزة بها، وفي ادعائه أنها غيرُ نيِّرة. انظر: «فتوح الغيب» (٧/ ١٤٠)، و«البحر» (١١/ ١٤٢)، و«روح المعاني» (١٠/ ١٦٣).

(٣) قوله: «فحذف للتكرار»؛ أي: التكرار المعنوي؛ إذ (أنفسَهم) هم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في المعنى. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٤٨).

(٤) قوله: «أو على تقدير أنْ: سبقوا» عطفٌ في المعنى على قوله: «والمفعولُ الأولُ أنفسَهم»؛ أي: إذا جُعِل ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فاعلًا، فمفعولا (حَسِبَ): الأولُ (أنفسَهم)، والثاني ﴿سَبَقُوٓا۟﴾، أو مفعولاه بتقدير (أنْ)، وهي معَ مدخولِها سادٌّ مسدَّ المفعولين. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٤٨).

(٥) قوله: «لأن (أنْ) المصدريَّة كالموصول، فلا تحذف» يجاب بأنَّ (أنْ) ليست مصدريَّةً، بل مخففةٌ من الثقيلة. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٤٨).

أو على إيقاعِ الفعلِ على ﴿أنهم لا يُعْجِزون﴾ بالفتحِ على قراءةِ ابنِ عامرٍ[١]، وأنَّ ﴿لَا﴾ صلة، و﴿سَبَقُوٓاْ﴾ حالٌ بمعنى: سابقينَ؛ أي: مُفلِتينَ.

والأظهرُ أنَّهُ تعليلٌ للنَّهيِ[٢]؛ أي: لا تحسبنَّهُم سبقُوا فأفلتُوا لأنَّهم لا يفوتونَ اللهَ أو لا[٣] يجدونَ طالبَهُم عاجزًا عن إدراكِهم، وكذا إن كُسرت «إنَّ» إلَّا أنَّهُ تعليلٌ على سبيلِ الاستئنافِ، ولعلَّ الآيةَ إزاحةٌ لِمَا يحذرُ به من نبذِ العهدِ وإيقاظِ العدوِّ.

وقيلَ: نزلت فيمَن أفلتَ مِن فَلِّ المشركينَ[٤].

(٦٠) ـ ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ أيُّها المُؤمنونَ ﴿لَهُم﴾: لناقضِي العهدِ أو للكُفَّارِ ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾: مِن كُلِّ ما يُتقوَّى بهِ في الحربِ.

وعَن عُقبَةَ بنِ عامرٍ: سمعتُه عليهِ السَّلامُ يقولُ على المنبرِ: «ألا إنَّ القوَّةَ الرَّميُ» قالَها ثلاثًا[٥]. ولعلَّه عليهِ السَّلامُ خصَّه بالذِّكرِ لأنَّه أقواه[٦].

﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾: اسمٌ للخَيلِ الَّتي تُربَطُ في سَبيلِ اللهِ، فِعَالٌ بمعنى

---

(١) وباقي السبعة بكسر الهمزة. انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٨)، و«التيسير» (ص: ١١٧).

قوله: «أو على إيقاع الفعل...» عطف على قوله: «على تقدير أنْ سبقوا»، وأنْ مع مدخولها قائمٌ مقامَ المفعولين. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٤٨ ـ ٤٩).

(٢) قوله: «والأظهر أنه»؛ أي: (أنهم لا يعجزون). انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٤٩).

(٣) في نسخة الطبلاوي والخيالي والتفتازاني: «ولا».

(٤) عن ابن شهاب الزهري. انظر: «الكشاف» (٣/ ٤٣٧)، و«البحر المحيط» (١١/ ١٤١).

(٥) رواه مسلم (١٩١٧) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٦) قوله: «ولعله عليه الصلاة والسلام خصَّه»؛ أي: الرميَ؛ «لأنه أقواه»؛ أي: أقوى ما يُتقوَّى به في الحرب. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٤٩).

مَفعـولٍ، أو مَصْدَرٌ سُـمِّيَ به، يُقالُ: رَبَطَ رَبْطًـا ورِبَاطًا، ورابَطَ مُرابَطَـةً ورِبَاطًا، أو جمعُ رَبيطٍ كفَصِيـلٍ وفِصَالٍ.

وقُرِئَ: «رُبُـطِ الخَيْلِ» بضمِّ الباءِ وسُكونِها جمعُ رِبَاطٍ[١]، وعطفُهَا على القُوَّةِ كعَطفِ جبريلَ وميكائيلَ على الملائكةِ.

﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ﴾: تُخَوِّفونَ به، وعَنْ يَعقوبَ: ﴿تُرَهِّبُونَ﴾ بالتَّشديدِ[٢]، والضَّميرُ لـ﴿مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ أو للإعدادِ.

﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ يعني: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ﴾: مِن غيرِهم مِن الكَفَرَةِ، قيلَ: هُم اليهودُ، وقيلَ: المُنافقونَ، وقيلَ: الفرسُ.

﴿لَا تَعۡلَمُونَهُمُ﴾: لا تَعرِفُونَهُم بأَعيَانِهِم ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ﴾: يَعرِفُهُم.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ جزاؤُه ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ بتضييعِ العَملِ ونقصِ[٣] الثَّوابِ.

(٦١) ـ ﴿وَإِن جَنَحُواْ﴾: مَالُوا، ومنه: الجَنَاحُ، وقد يُعدَّى باللَّامِ و«إلى».

﴿لِلسَّلۡمِ﴾: للصُّلحِ أو الاستسلامِ، وقرأَ أبو بكرٍ بالكَسْرِ[٤].

﴿فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ وعاهِدْ مَعَهُم، وتأنيثُ الضَّميرِ لحملِ السِّلْمِ على نَقيضِها فيه، قالَ:

السِّلْمُ تَأْخُذُ مِـنْـهَا مَـا رَضِـيـتَ بِـهِ والحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرَعُ[٥]

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٥) بالضم عن الحسن وبالسكون عن أبي حيوة.

(٢) هي رواية رويس عن يعقوب، وباقي العشرة بالتخفيف. انظر: «النشر» (٢/ ٢٧٧).

(٣) في نسخة الطبلاوي والتفتازاني: «أو نقص».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٨)، و«التيسير» (ص: ١١٧).

(٥) البيت للعباس بن مرداس السلمي يخاطب خفاف بن ندبة. انظر: «إصلاح المنطق» (ص: ٢٩ و٢٥٥)، =

وقُرِئَ: «فاجْنُح» بالضَّمِّ[١].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: ولا تخَفْ مِن إبطانِهم خِداعًا فيه[٢]، فإنَّ اللهَ يَعصِمُكَ مِن مَكرِهِم ويحيقُه بهِم.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالِهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنيَّاتِهِم.

والآيةُ مَخصوصَةٌ بأهلِ الكتابِ لاتِّصالِها بقِصَّتِهِم.

وقيلَ: عامَّةٌ نسَخَتْها آيَةُ السَّيفِ.

(٦٢) - ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾: فإنَّ مُحْسِبَكَ اللهُ وكافيكَ قالَ جريرٌ:

إنِّي وَجَدْتُ مِنَ المَكَارِمِ حَسْبَكُمْ ... أَنْ تَلْبَسُوا حُرَّ الثِّيَابِ وَتَشْبَعُوا[٣]

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جميعًا.

= و«اللسان» (مادة: أبس)، و«المقاصد النحوية» للعيني (٢/ ٦١٢)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٤/ ١٨) وفيه: الجرع: جمع جرعة: وهي ملْء الفم. وتقدم عند تفسير الآية (٢٠٨) من سورة البقرة.

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٥)، و«المحتسب» (١/ ٢٨٠)، عن الأشهب العقيلي.

(٢) «فيه»: ليس في نسخة التفتازاني.

(٣) كذا ذكره المصنف، وقد تبع فيه الزمخشريَّ في «الكشاف» (٣/ ٤٤)، ولم أقف عليه في «ديوان جرير»، ولا وجدت من نسبه لجرير قبل الزمخشري، وعزاه ابن داود الظاهري في «الزهرة» (١/ ٢٣٦) لحسان بن ثابت رضي الله عنه، وكذا في «تاريخ بغداد» (٩/ ٤٧٦)، و«تاريخ دمشق» (٢٩/ ١٨١)، ونسب في «الكتاب» لسيبويه (٣/ ١٥٣)، و«أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٢٣٩) لعبد الرحمن بن حسان. ونسب في «الحماسة البصرية» (٢/ ٢٦٥)، و«شرح أبيات سيبويه» للسيرافي (٢/ ٢٦٨)، و«ربيع الأبرار» للزمخشري (٤/ ٤٣٠) لسعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت. ونسبه ابن عبد ربه الأندلسي في «العقد الفريد» (٢/ ٣٣٥) لبعض المحدثين ولم يسمه، والله أعلم.

(٦٣) - ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ مع ما فيهِمْ مِن العَصبيَّةِ والضَّغينةِ في أَدْنى شيءٍ، والتَّهالُكِ على الانتقامِ بحيثُ لا يكادُ يأتَلِفُ فيهِمْ قَلبانِ، حتَّى صارُوا كنَفْسٍ واحدَةٍ، وهذا مِن مُعجزَاتِه صلواتُ اللهِ عليهِ، وبيانُه:

﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾؛ أي: تَناهى عَداوَتهم إلى حَدٍّ لو أنفَقَ مُنفِقٌ في إصلاحِ ذاتِ بَينِهم ما في الأرضِ مِن الأَمْوالِ لم يَقدِرْ عَلى الأُلفَةِ والإِصْلاحِ.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡ﴾ بقُدرَتِه البالغَةِ فإنَّه المالكُ للقُلُوبِ يقلِّبُها كيفَ يَشاءُ.

﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾: تامُّ القُدرَةِ والغَلَبَةِ لا يَعْصَى عليه ما يريدُه ﴿حَكِيمٞ﴾ يَعلَمُ أنَّه كيفَ ينبَغِي أَنْ يفعلَ ما يُريدُه.

وقيلَ: الآيةُ في الأَوسِ والخَزْرَجِ[١]؛ كانَ بينَهُم إِحَنٌ لا أمدَ لها، ووقائعُ هَلَكَت فيها سادَاتُهم، فأَنْسَاهُم اللهُ ذلكَ وأَلَّفَ بينَهُم بالإسلامِ حتَّى تَصافَوْا وصارُوا أَنْصارًا.

(٦٤) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾: كافيكَ ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إمَّا في محلِّ النَّصبِ على المفعولِ معَهُ، كقولِه:

إِذَا كَانَـتِ الهَيْجَـاءُ وَاشْـتَجَرَ القَنَـا[٢] فَحَسْـبُكَ وَالضَّحَّـاكَ سَـيْفٌ مُهَنَّـدُ[٣]

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٥٦) عن ابن إسحاق.

(٢) في نسخة التفتازاني: «وانشقت القنا»، وهذا الصدر ليس في نسخة الخيالي.

(٣) بلا نسبة في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤١٧)، و«الصحاح» (مادة: عصا)، و«شرح المفصل» لابن يعيش (٢/ ٤٨)، وعزاه في «ذيل الأمالي» (ص: ١٤٠) لجرير، وليس في ديوانه. ونسبه الباقولي في «إعراب القرآن» (٣/ ٨٧٠) للبيد، وليس في ديوانه. وقال البغدادي في «شرح أبيات المغني» (٧/ ١٩١): قائله مجهول.

أو الجرِّ[1] عَطفًا على المَكْنِيِّ عندَ الكُوفِيِّينَ.

أو الرَّفعِ عَطْفًا على اسمِ اللهِ؛ أي: كفاكَ اللهُ والمُؤمنونَ.

والآية نزلَتْ بالبَيْدَاءِ في غَزْوَةِ بَدْرٍ[2].

وقيلَ: أسلَمَ معَ النَّبيِّ ثَلاثَةٌ وثَلاثُونَ رَجُلًا وسِتُّ نِسوَةٍ، ثمَّ أسلَمَ عُمَرُ رضيَ اللهُ عنهُ فنَزَلَتْ[3]، ولذلكَ قالَ ابنُ عبَّاسٍ: نزلَتْ في إسلامِه[4].

(٦٥) ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾: بالِغْ في حَثِّهِم عليهِ، وأصلُه: الحَرْضُ، وهو أنْ يَنْهَكَهُ المرضُ حتَّى يُشْفِيَ على الموتِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «والجر».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٢٣١) عن ابن عباس، والماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٣١) عن الكلبي، فلعله مما رواه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وذكر هذا القول أيضا ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٤٩) عن النَّقَّاش. وقد سئل ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه البخاري (٤٦٤٥) عن سورة الأنفال فقال: (نزلت في بدر). وذكر عنه الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٢٣١): أن سورة الأنفال كلَّها مدنية إلَّا هذه الآيةَ فإنها نزلت بالبيداء.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٨) عن سعيد بن جبير.
ورواه الطبراني في «الكبير» (١٢٤٧٠)، والآجري في «الشريعة» (١٣٥٣)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٤٦٩ ـ ٤٧٠)، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٨): (فيه إسحاق بن بشر الكاهلي، وهو كذاب).
وقالَ القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٦٧) تعقيبًا على هذا الخبر: (وقع في السيرة خلافه..) وانظر كلامه ثمة، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٤٢).

(٤) رواه البزار في «مسنده» (٢٤٩٥ ـ كشف) من طريق النضر أبي عمر عن عكرمة عن ابن عباس، والنضر هو ابن عبد الرحمن الخزاز، وهو متروك كما في «التقريب».
وذكره أبو حفص النسفي في «تفسيره» عند هذه الآية من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وهذا الإسناد أضعف من الذي قبله، فالكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

وقُرِئَ: «حَرِّص» مِن الحِرْصِ(١).

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ شرطٌ في مَعنى الأمرِ بمصابرةِ الواحدِ للعَشرةِ، والوَعدِ بأَنَّهم إِنْ صَبَرُوا غلَبُوا بعونِ اللهِ وتأييدِه.

وقرأ ابنُ كثيرٍ ونَافِعٌ وابنُ عامرٍ: ﴿تكُن﴾ بالتَّاءِ في الآيتينِ، ووافقَهُم البصريَّانِ في ﴿وإِنْ تكُن مِنْكُم مائةٌ﴾(٢).

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ بسببِ أَنَّهم جَهَلَةٌ باللهِ واليومِ الآخرِ لا يَثْبتونَ ثباتَ المُؤمنينَ رجاءَ الثَّوابِ وعَوالي(٣) الدَّرجاتِ قَتَلُوا أو قُتِلُوا، ولا يَستَحِقُّونَ من اللهِ إلَّا الهوانَ والخُذْلَان.

(٦٦) ـ ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ لَمَّا أوجَبَ على الواحدِ مُقاوَمَةَ العشرةِ والثَّباتَ لَهُم وثَقُلَ ذلكَ علَيْهِم خفَّفَ عَنْهُم بمُقاوَمَةِ الواحدِ الاثنينِ.

وقيلَ: كانَ فيهِمْ قِلَّةٌ فأُمِرُوا بذلك، ثمَّ لَمَّا كَثُروا خفَّفَ عَنْهُم، وتكريرُ المَعنى الواحدِ بذكرِ الأعدادِ المتناسبَةِ للدَّلالةِ على أنَّ حكمَ القَليلِ والكثيرِ واحدٌ.

والضَّعفُ: ضَعْفُ البَدَنِ، وقيلَ: ضَعْفُ البَصيرَةِ، وكانُوا مُتفاوِتينَ فيها، وفيه لُغتانِ: الفَتْحُ وهو قِراءَةُ عاصِمٍ وحَمْزَةَ، والضَّمُّ وهو قراءَةُ البَاقينَ(٤).

---

(١) حكاها الأخفش. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٥).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٨)، و«التيسير» (ص: ١١٧)، و«النشر» (٢/ ٢٧٧). والبصريان: أبو عمرو من السبعة، ويعقوب من العشرة.

(٣) في نسخة التفتازاني: «وعالي».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٨ ـ ٣٠٩)، و«التيسير» (ص: ١١٧).

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ بالنَّصرِ[١] والمعونَةِ، فكيفَ لا يَغلبونَ؟

(٦٧) ـ ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ ﴾ وقُرِئَ: «للنَّبِيِّ»[٢] على العهدِ ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ وقرأ البَصريَّانِ بالتَّاءِ[٣].

﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: يُكثرَ القتلَ ويُبالِغَ فيه، حتَّى يُذِلَّ الكُفرَ ويُقِلَّ حِزبَهُ، ويُعِزَّ الإسلامَ ويَستولِيَ أهلُه، مِن أثخنَه المرضُ: إذا أثقلَهُ، وأصلُه: الثَّخانَةُ.

وقُرِئَ: «يُثَخِّنَ» بالتَّشديدِ للمُبالغَةِ[٤].

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ حطامُها بأخذِكُم الفِداءَ.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ يريدُ لَكُم ثوابَ الآخرةِ، أو سببَ[٥] نيلِ الآخرةِ مِن إعزازِ دينِهِ وقمعِ أعدائِهِ.

وقُرِئَ بجرِّ «الآخرةِ»[٦] على إضمارِ المضافِ كقولِه:

أَكُلَّ امْـــرِئٍ تَحْسَـــبِينَ امْرَأً وَنَـــارٍ تَوَقَّـــدُ بِاللَّيْـــلِ نَـــارَا[٧]

---

(١) في نسخة التفتازاني: «بالنصرة».

(٢) نسبت لأبي الدرداء وأبي حيوة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٦).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٩)، و«التيسير» (ص: ١١٧)، و«النشر» (٢/ ٢٧٧).

(٤) نسبت ليزيد بن القعقاع ويحيى بن يعمر. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٠). ويزيد بن القعقاع هو أبو جعفر أحد القراء العشرة لكن هذه القراءة خلاف المشهور عنه.

(٥) في نسخة التفتازاني: «وسبب».

(٦) انظر: «المحتسب» (١/ ٢٨١) عن ابن جماز.

(٧) البيت بيت لأبي دؤاد الإيادي، كما في «الكتاب» لسيبويه (١/ ٦٦)، و«الأصمعيات» (ص: ١٩١). وعزاه المبرد في «الكامل» (١/ ٢٢٩) و(٣/ ٧٥) لعدي بن زيد العبادي.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يُغلِّبُ أولياءَهُ على أعدائِه ﴿حَكِيمٌ﴾ يعلمُ[١] ما يليقُ بكُلِّ حالٍ ويخصُّه بها[٢]، كما أمرَ بالإثخانِ ومنعَ عَنِ الافتداءِ حين كانَت الشَّوكَةُ للمُشركينَ، وخيَّرَ بينَهُ وبينَ المنِّ لَمَّا تَحوَّلَت الحالُ وصارَت الغَلَبَةُ للمُؤمِنينَ.

رُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ أُتي يومَ بدرٍ بسَبعينَ أسيرًا فيهم العَبَّاسُ وعَقِيلُ بنُ أبي طالبٍ، فاستشارَ فيهِم فقالَ أبو بكرٍ: قومُكَ وأهلُكَ استَبْقِهِم لعلَّ اللهَ يَتوبُ عليهم، وخُذْ مِنْهُم فديَةً تُقوِّي بها أصحابَك، وقالَ عمر: اضرِبْ أعناقَهُم فإنَّهُم أئمَّةُ الكفرِ، وإنَّ اللهَ أغناكَ عن الفِداءِ، مَكِّنِّي مِن فلانٍ ـ لنسيبٍ له ـ ومَكِّنْ عَلِيًّا وحمزَةَ مِن أخوَيْهِمَا فلنضرِبْ أعناقَهُم، فلم يهوَ ذلك رَسولُ اللهِ وقالَ: «إنَّ اللهَ ليُلَيِّنُ قلوبَ رجالٍ حتَّى تكونَ ألينَ مِن اللبنِ، وإنَّ اللهَ يشدِّدُ قلوبَ رِجالٍ حتَّى تكونَ أشدَّ من الحجارَةِ، وإنَّ مَثَلَك يا أبا بكرٍ مثلُ إبراهيمَ قالَ: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، ومَثَلَكَ يا عمرُ مثلُ نوحٍ قالَ: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]» فخيَّرَ أصحابَهُ فأخذُوا الفداءَ فنزلَتْ.

فدخلَ عُمَرُ على رسولِ اللهِ ﷺ فإذا هو وأبو بَكرٍ يبكيَانِ فقالَ: يا رسولَ الله! أخبِرْني فإنْ أجِدْ بكاءً بَكَيْتُ وإلَّا تباكَيْتُ، فقالَ: «أَبْكِي على أصحابِكَ في أخذِهِم الفِداءَ، ولقَدْ عُرِضَ عليَّ عذابُهُم أدْنَى من هذه الشَّجَرةِ» لشجرةٍ قريبةٍ[٣].

والآيـةُ[٤] دليـلٌ علـى أنَّ الأنبيـاءَ يَجتَهِـدُون، وأنَّـه قَـدْ يكـونُ خَطَـأً ولكـن لا يُقَـرُّونَ عليهِ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «يفعل».

(٢) في نسخة الخيالي: «به».

(٣) رواه مسلم (١٧٦٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في نسخة الخيالي: «وفيه».

(٦٨) - ﴿ لَّوۡلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾: لولا حكمٌ مِن اللهِ سبق إثباتُه في اللَّوح[1]، وهو أن لا يعاقِبَ المخطئَ في اجتهادِهِ، أو أن لا يعذِّبَ أهلَ بدرٍ، أو قومًا بما لم يصرِّح لهم بالنَّهي عنه، أو أنَّ الفِديَةَ الَّتي أخذوهَا ستَحِلُّ لهم.

﴿لَمَسَّكُمۡ﴾: لنالَكُم ﴿فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ﴾ مـن الفِداءِ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ رُوِيَ أنَّـه عليه السَّلامُ قالَ: «لو نزلَ العذابُ لَمَا نجَا منه غيرُ عمرَ وسعدِ بنِ مُعاذٍ»[2]، وذلك لأنَّه أيضًا أشارَ بالإثخانِ.

(٦٩) - ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ ﴾ من الفديةِ فإنَّها مِن جُملةِ الغَنائمِ، وقيلَ: أمسَكُوا عن الغَنائمِ فنزلَت[3]، والفاءُ للتَّسبيبِ[4]، والسَّببُ مَحذوفٌ تقديرُه: أَبحْتُ لَكُم الغنائمَ فكُلُوا. وبنحوِه تشبَّثَ مَن زعمَ أنَّ الأمرَ الواردَ بعدَ الحظرِ للإباحَةِ.

﴿حَلَٰلًا﴾ حالٌ مِن المغنومِ، أو صِفَةٌ للمَصدرِ؛ أي: أكلًا حَلالًا، وفائدتُهُ: إزاحَةُ ما وقعَ في نفوسِهم منه بسببِ تلك المعاتبَةِ أو حُرمتِها على الأوَّلينَ، ولذلك وصفَهُ بقولِه: ﴿طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفَتِه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ غفرَ لَكُم ذنبَكُم ﴿رَّحِيمٞ﴾ أباحَ لَكُم ما أَخذْتُم.

(٧٠) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ وقـرأ أبـو عَمْـرٍو: ﴿مِـن الأُسَارَى﴾[5].

---

(١) في نسخة الخيالي زيادة: «المحفوظ».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٨٣) عن ابن إسحاق كما ذكر المؤلف لكن دون ذكر عمر. وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ٧٠): ورواه الواقدي في «المغازي» من وجه آخر منقطع بمعناه، وروى ابن مردويه من حديث ابن عمر رفعه: «لو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب».

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٢٦٠) عن المفسرين.

(٤) في نسخة التفتازاني: «للتسبب».

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٩)، و«التيسير» (ص: ١١٧).

﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرًا﴾: إيمانًا وإخلاصًا ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ مِن الفداءِ.

رُوِيَ أنَّها نَزَلَت في العبَّاسِ كلَّفَهُ رَسولُ اللهِ أن يفدِيَ نفسَه وابنَيْ أخوَيْه عقيلِ بنِ أبي طالبٍ ونوفَلِ بنِ الحارثِ فقالَ: يا محمَّدُ! تركتَنِي أتكفَّفُ قريشًا ما بقيتُ، فقالَ: «فأينَ الذَّهبُ الَّذي دفعتَهُ إلى أمِّ الفَضلِ وقتَ خُروجِكَ وقلتَ لها: إني لا أَدْرِي ما يُصيبُنِي في وجهي هذا، فإنْ حَدَثَ بي حَدَثٌ فهو لكِ ولعبدِ اللهِ وعُبَيدِ اللهِ والفَضلِ وقُثَمَ، فقالَ العبَّاسُ: وما يُدريك؟ قالَ: «أخبرَنِي به رَبِّي» قالَ: فأشهَدُ أنَّكَ صادِقٌ وأنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وإنَّكَ لرَسُولُه، واللهِ لم يطَّلِعْ عليهِ أحَدٌ إلَّا اللهُ، ولقَدْ دفعتُهُ إلَيْهَا في سوادِ اللَّيلِ، قالَ العبَّاسُ: فأبدَلَني اللهُ خيرًا من ذلك، لي الآنَ عِشرونَ عبدًا إنَّ أدناهُم ليضربُ في عشرينَ ألفًا، وأعطاني زمزَمَ ما أُحبُّ أنَّ لي بها جميعَ أموالِ أهلِ مَكَّةَ، وأنا أنتظرُ المغفرَةَ مِن ربِّكُم[1]. يعني الموعودَ بقولِه: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٥٤٠٩) مِن حَديثِ عائشةَ رضي الله عنها، وقال الذهبي في «التلخيص»: على شرط مسلم. وروى نحوه الإمام أحمد في «المسند» (٣٣١٠) من طريق ابن إسحاق قال: حدثني من لا أتهم عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ١٤٢) من طريق ابن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن عروة، عن الزهري وجماعة سماهم. ورواه ابن سعد في «الطبقات» (٤/ ١٥) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وروى قول العباس في آخره: (فأبدلني الله...) أيضاً الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٨٤ ـ ٢٨٧) من طرق عن ابن عباس دون ذكر إعطائه زمزم. وهذا لم أجده سوى في خبر الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عند ابن سعد.

(٧١) ـ ﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾ يعني: الأُسَارَى ﴿خِيَانَتَكَ﴾: نقضَ ما عهدوكَ ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ﴾ بالكفرِ ونَقضِ ميثاقِه المأخوذِ بالعقلِ ﴿مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: فأمكنكَ مِنْهُم كما فعلَ يومَ بدرٍ، فإن أعادوا الخِيانَةَ فسيُمَكِّنُكَ مِنهُم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

(٧٢) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ وهم المهاجرونَ هاجَرُوا أوطانَهُم حُبًّا للهِ ولرَسولِه.

﴿وَجَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ فصرَفُوهَا في الكُراعِ والسِّلاحِ، وأنفَقُوهَا على المحاويجِ ﴿وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بمباشرةِ القِتالِ.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ هم الأنصارُ، آوَوُا المهاجرينَ إلى دِيارِهم ونَصروهُم على أعدائِهم.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في الميراثِ، وكانَ المهاجرونَ والأنصارُ يَتوارثونَ بالهجرةِ والنُّصرةِ دونَ الأقاربِ، حتَّى نُسِخَ بقولِه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥] أو بالنُّصرَةِ والمُظاهرَةِ.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾؛ أي: مِن تَوَلِّيهم في الميراثِ.

وقرأ حمزَةُ: ﴿وِلَايَتِهِم﴾ بالكسرِ[1] تَشْبيهًا لها بالعملِ والصِّناعَةِ كالكِتابَةِ والإمارَةِ، كأنَّه بتولِّيهِ صاحِبَهُ يزاوِلُ عمَلًا.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٩)، و«التيسير» (ص: ١١٧). قال أبو حيان في «البحر» (١١/ ١٧٢): قال الزجاج: بالفتح من النصرة والنسب، وبالكسر بمنزلة الإمارة، ويجوز الكسر لأنَّ في تولي بعض القوم بعضًا جنسًا من الصناعة والعمل وكل ما كان من جنس الصناعة مكسورٌ مثلُ القصارة والخياطة.

قال: وتبع الزمخشري الزجاج فقال: (وقرىء من ولايتهم بالفتح والكسر؛ أي: من توليهم في الميراث، ووجه الكسر أنّ تولي بعضهم بعضًا شبه بالعمل والصناعة...).

﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾: فواجبٌ عليكُم أَنْ تنصُروهُم على المُشركين.

﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾: عهدٌ؛ فإنَّه لا ينقضُ عهدُهُم لنصرِهِم عليهِم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(٧٣) - ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في الميراثِ أو المؤازرَةِ، وهو بمفهومِهِ يَدلُّ على منعِ التَّوارُثِ أو المؤازرةِ بينَهُم وبينَ المُسلمينَ.

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾: إنْ لا تفعلوا ما أُمِرْتُم به من التَّواصُلِ بينكُم وتَولِّي بعضِكُم لبَعضٍ حتَّى في التَّوارُثِ وقطعِ العَلائقِ بينكُم وبينَ الكُفَّارِ ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: تحصُلْ فِتنَةٌ فيها عظيمةٌ وهي ضعفُ الإيمانِ وظهورُ الكُفرِ ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ في الدِّينِ، وقُرِئَ: «كثيرٌ»(١).

(٧٤) - ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لَمَّا قَسَّمَ المؤمنينَ ثلاثةَ أقسامٍ بيَّنَ أنَّ الكامِلينَ في الإيمانِ مِنْهُم هم الَّذينَ حقَّقُوا إيمانَهُم بتَحصيلِ مُقتضاه مِن الهجرةِ والجهادِ وبذلِ المالِ ونُصرَةِ الحقِّ، ووعدَ لَهُم الموعدَ الكريمَ، فقالَ: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا تبعةَ له ولا منَّةَ فيه، ثمَّ ألحقَ بهم في الأمرينِ مَن سيلحَقُ بهم ويتَّسِمُ بسِمَتِهِم فقالَ:

(٧٥) - ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾؛ أي مِن جُملَتِكُم أيُّها المُهاجرونَ والأنصارُ.

﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التَّوارُثِ مِن الأجانبِ ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: في حُكمِهِ، أو في اللوحِ، أو في القُرآنِ. واستدلَّ به على توريثِ ذَوِي الأَرحامِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٥٦) عن عيسى بن سليمان الحجازي عن الكسائي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ مِن المَواريثِ، والحكمَةِ في إناطَتِها بِنسبَةِ الإسلامِ والمظاهرةِ أوّلًا، واعتبارِ القرابةِ ثانيًا.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سُورةَ الأنفالِ فأَنا شَفيعٌ له يومَ القيامَةِ وشاهِدٌ أَنَّه بريءٌ مِن النِّفاقِ وأُعطِيَ عشرَ حَسَناتٍ بعددِ كلِّ مُنافِقٍ ومُنافِقَةٍ وكانَ العَرْشُ وحمَلَتُهُ يَستَغفِرُونَ لهُ أيَّامَ حياتِه»[1].

***

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٨)، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً.

سورة الانفال[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية، هذه السورة مدنية كلها إلا سبع آيات أولها «وإذ يمكر بك الذين كفروا»[2] إلى آخر الآيات، قاله ابن عباس. ولا خلاف أنها نزلت في يوم بدر وأمر غنائمه. وقال ابن زيد: لا نسخ فيها إنما أخبر أن الغنائم لله تعالى من حيث هي ملكه ورزقه، وللرسول ﷺ من حيث هو مبيّن لحكم الله تعالى والصادع فيها ليقع التسليم فيها من الناس، وحكم القسمة نازل في خلال ذلك.

و«الأنفال» جمع نفل، قال ابن عباس وجماعة: هي الغنائم. ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أمر بإصلاح ذات البين وهذا يدل على أنه كانت بينهم مباينة ومباعدة، وربما خيف أن تفضي بهم إلى إفساد ما بينهم من المودّة

---

(١) مدنية وآياتها خمس وسبعون.

(٢) الآيات ٣٠ - ٣٦.

والمصافاة. وتقدم الكلام على «ذات» في قوله «بذات الصدور»[1]. والبين هنا الفراق والتباعد و«ذات» هنا نعت لمفعول محذوف أي: وأصلحوا أحوالاً[2] ذاتَ افتراقكم، لما كانت الاحوال ملابسة للبَيْن أضيفت صفتها إليها كما تقول: اسقني ذا إنائك، أي: ماءً صاحبَ إنائك، لما لابس الماء الإناء وصف بذا وأضيف [إلى] الإناء، والمعنى: اسقني ما في الإناء من الماء.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: كاملي الإيمان. قال ابن عطية: وجواب الشرط في قوله المتقدم «وأطيعوا» هذا مذهب سيبويه. ومذهب أبي العباس أن الجواب محذوف متأخر يدلّ عليه المتقدم تقديره: إن كنتم مؤمنين أطيعوا. ومذهبه في هذا أن لا يتقدم الجواب على الشرط انتهى. والذي قاله مخالف لكلام النحاة فإنهم يقولون [إن] مذهب سيبويه أن الجواب محذوف وأن مذهب أبي العباس وأبي زيد الأنصاري والكوفيين جواز تقديم جواب الشرط عليه وهذا النقل هو الصحيح.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ﴾ [٢٣٥/أ] قرىء: [وجلت] بفتح الجيم وهي لغة. ولما كان معنى «إن كنتم مؤمنين» أي: كاملي الإيمان قال: «إنما المؤمنون» أي: الكاملو الإيمان. ثم أخبر عنهم بموصول وُصل بثلاث مقامات عظيمة وهي مقام الخوف ومقام الزيادة للإيمان ومقام التوكل. ويحتمل قوله ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ أن يذكر اسمه فقط ويلفظ به تفزع قلوبهم لذكره استعظاماً له وتهيّباً وإجلالاً. ويحتمل أن يكون ذكر الله على حذف مضاف أي: ذكر عظمة الله وقدرته وما خوّف به من عصاه.

---

(١) لم يتقدم في آل عمران ١١٩، ١٥٤ والمائدة: ٧.

(٢) ق: أحوال.

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية، حسن أن يكون [الذين] صفة لـ «الذين» السابقة حتى تدخل في حيّز الخبرية، فيكون ذلك إخباراً عن المؤمنين بثلاث: الصفة[1] القلبية، وعنهم بالصفة البدنية والصفة المالية. وجمع أفعال القلوب لأنها أشرف، وجمع في أفعال الجوارح [بين الصلاة والصدقة لأنها عمود أفعال الجوارح]. والظاهر أن قوله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ عامّ في الزكاة ونوافل الصدقات وصلات الرحم وغير ذلك من المبارّ المالية.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ «حقًّا» نعت لمصدر محذوف تقديره: إيماناً حقًّا، ويجوز أن يكون توكيداً لمضمون الجملة السابقة، فيكون العامل فيه محذوفاً تقديره: أحقّه حقًّا. و«هم» في قوله «هم المؤمنون» [يجوز أن يكون فصلاً بين المبتدأ والخبر، وأن يكون مبتدأً خبره «المؤمنون»] والجملة خبر «أولئك» ويجوز أن يكون بدلاً من «أولئك». ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ لما تقدمت ثلاث صفات قلبية وبدنية ومالية ترتّب عليها ثلاثة أشياء، فقوبلت الأعمال القلبية بالدرجات، والبدنية بالغفران، وقوبلت المالية بالرزق الكريم. وهذا النوع من المقابلة من بديع علم البديع.

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ذكر في البحر[2] في تأويل هذه الآية خمسة عشر قولاً لم يتّضح شيء منها. ومن دُفع إلى حوك الكلام وتقلّب في إنشاء أفانينه، وزاول الفصاحة والبلاغة لم يستحسن شيئاً من تلك الأقوال

(١) ق: الصلات.

(٢) انظر البحر ٤: ٤٥٩ وما بعدها.

وإن كان بعض قائليها له إمامة في علم النحو ورسوخ قدم، لكنه لم يتحنّك بلَوْك الكلام ولم يكن في طبعه صوغه أحسن صوغ ولا التصرف في النظر فيه من حيث الفصاحة وما به يظهر الإعجاز.

وقبل تسطير هذه الأقوال في البحر وقفتُ على جملة منها فلم يَلِقْ بخاطري منها شيء، فرأيت في النوم أني أمشي في رصيف ومعي رجل أباحثه في قوله تعالى «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق» فقلت له: ما مرّ بي شيء مشكل في القرآن مثل هذا، ولعلّ ثَمَّ محذوفاً يصحّ به المعنى وما وقفت فيه لأحدٍ من المفسرين على شيء طائل. ثم قلت له: ظهر لي الساعة تخريجه وأن ذلك المحذوف هو: نصرك. واستحسنتُ أنا وذلك الرجل هذا التخريج، ثم انتبهت من النوم وأنا أذكره. والتقدير: فكأنه قيل «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق» أي: بسبب إظهار دين الله تعالى وإعزاز شريعته، وقد كرهوا خروجك تهيباً للقتال وخوفاً من الموت؛ إذ كان أمر عليه السلام بخروجهم بغتةً ولم يكونوا مستعدّين للقتال وجادلوك في الحق بعد وضوحه - نصرك الله وأمدّك بملائكته. ودلّ على هذا المحذوف الكلام الذي بعده وهو قوله «إذ تستغيثون ربكم»[1].

ويظهر أنّ الكاف في هذا التخريج المناميّ ليست لمحض التشبيه بل فيها معنى التعليل. [وقد نصّ النحويون أنها قد يحدث فيها معنى التعليل] وخرّجوا عليه قوله تعالى ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ ﴿١٩٨﴾﴾ [البقرة] وأنشدوا[2]:

[وشخصت أبصارهم وأجذموا]   لا تَشْتِمِ الناس كما لا تُشْتَمُ

(١) الآية ٩ الآتية وما بعدها.

(٢) الرجز لرؤبة في ديوانه ص١٨٣.

أي: لاتقاء أن يشتمك الناس لا تشتمهم. ومن الكلام الشائع على هذا المعنى: كما تطيع الله تعالى يدخلك الجنة، أي: لإطاعتك الله يدخلك [٢٣٥/ب] الجنة، فكان المعنى: لأجل أن خرجت لإعزاز دين الله وقتل أعدائه نصرك الله وأمدّك بالملائكة. والظاهر أن «من بيتك» هو مقام سكناه بالمدينة لأنها مُهاجَرُه ومختصّة به. والواو في «وإن فريقاً» واو الحال. ومفعوله «لكارهون» هو الخروج، أي: لكارهون الخروج [معك، وكراهتهم ذلك إما لنفرة الطبع وإما لأنهم لم يستعدّوا للخروج].

والظاهر أن ضمير الرفع في «يجادلونك» عائد على فريق من المؤمنين الكارهين. وجدالهم قولهم: ما كان خروجنا إلا للعير ولو عرفنا لاستعددنا للقتال. و«الحق» هنا نصرة دين الإسلام. ويحتمل أن يكون «يجادلونك» [في موضع الحال من الضمير في «لكارهون»، ويحتمل أن يكون] استئناف إخبار. و«ما» في قوله «ما تبيّن» مصدرية، أي: بعد تبيُّنه. وهذا أبلغ في الإنكار لجدالهم بعد وضوح الحق. ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ شبّه حالهم في فرط فزعهم - وهم يُسار بهم إلى الظّفر والغنيمة - بحال من يساق على الصّغار إلى الموت، وهو شاهد لأسبابه ناظر إليها لا يشكّ فيها. وقيل: كان خوفهم لقلّة العدد، وأنهم كانوا رجّالة. وروي أنهم ما كان فيهم إلا فارسان وكانوا ثلاث مئة وثلاثة عشر، وكان المشركون في نحو ألف رجل. وقصة بدر مستوعبة في كتب السير.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ
ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ
رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ

ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم
بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ
يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾
ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ هي غير معيّنة، والطائفتان هما طائفة عير قريش، وكانت فيها تجارة عظيمة لهم ومعها أربعون راكباً [فيها] أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام، وطائفة الذين استنفرهم أبو جهل، وكانوا في العدد الذي ذكرناه.

و﴿غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾ هي العير لأنها ليست ذات قتال، إنما هي غنيمة باردة. ومعنى إحقاق الحق: تثبيته وإعلاؤه.

و﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة، وبما أمر الملائكة من نزولهم للنّصرة، وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم في قليب بدر، وبما أظهر من خبره صلى الله عليه وسلم. وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال، والمعنى أنكم ترغبون في الفائدة العاجلة وسلامة الأحوال، والله تعالى يريد معالي الأمور وإعلاء الحق والفوز في الدارين، وشتّان ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم ذات الشوكة وأراكم عياناً خَذْلهم ونصرَكم وأذلّهم وأعزّكم، وحصل لكم ما أربى على فائدة العير وما أدناه وأقلّه خيرٌ منها.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ «إذ» بدل من «إذ يعدكم». واستغاث: طلب الغوث، لمّا علموا أنه لا بدّ من القتال شرعوا في طلب الغوث من الله تعالى

والدعاء بالنصرة. والظاهر أنه خطاب لمن خوطب بقوله «وإذ يعدكم الله» و«تودّون»، وأن الخطاب في قوله «كما أخرجك» و«يجادلونك» هو خطاب لرسول الله ﷺ ولذلك أفرد، فالخطابان مختلفان. واستغاث يتعدى بنفسه كما هو في الآية، وكما هو في قوله ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ ﴿١٥﴾﴾ [القصص] [ويتعدّى] بحرف الجر كما جاء في باب الاستغاثة وكقول الشاعر[(١)]:

حتى استغاثت بماءٍ لا رشاءَ له   من الأباطح في حافاته البُرَكُ

والظاهر أن قراءة من قرأ: مرْدَفين، بسكون الراء وفتح الدال أنه صفة لقوله «بألف» أي: أردف بعضهم ببعض.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ الضمير في «وما جعله» عائد على الإمداد المنسبك من «أنّي ممدّكم»، وتقدّم تفسير هذه الآية[(٢)]. والمعنى إلا بشرى لكم، [فحذف «لكم»] وأثبت في آل عمران لأن القصة فيها مُسْهبة وهنا موجزة فناسب هنا الحذف. وهنا قدّم «به» وأخّر هناك على سبيل التفنّن والاتّساع في الكلام. وهنا جاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مراعاة لأواخر الآي، وهناك [٢٣٦/أ] ليست آخر آية لِتَعَلُّقِ «ليقطع» بما قبله فناسب أن يأتي «العزيز الحكيم» على سبيل الصفة، وكلاهما مشعر بالعلّية كما تقول: أكرِمْ زيداً العالم، وأكرم زيداً إنه عالم.

---

(١) البيت لزهير في ديوانه ص١٧٥. وهو من البسيط

(٢) انظر تفسير الآيتين ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [آل عمران] وأثبتّهما لتسهيل المقارنة.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ[1] ٱلنُّعَاسَ﴾ «إذ» بدل من ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾ [الأنفال: ٧]. عدّد تعالى نعمه على المؤمنين في يوم بدر؛ قال الزمخشري[2]: «إذ» منصوب بالنصر، أو بما في «من عند الله» من معنى الفعل، أو بـ«ما جعله الله»، أو بإضمار: اذكر.انتهى.

أمّا كونه منصوباً بالنصر ففيه ضعف من وجوه: أحدها أنه مصدر فيه أل وفي إعماله خلاف، ذهب الكوفيون إلى أنه لا يجوز إعماله. الثاني: أنه موصول وقد فُصل بينه وبين معموله بالخبر الذي هو «إلا من عند الله» وذلك لا يجوز، لا يقال: ضرب زيد شديد عمراً. الثالث: أنه يلزم منه إعمال ما قبل إلاّ فيما بعدها من غير أن يكون ذلك المعمول مستثنى أو مستثنى منه أو صفة له، و«إذ» ليس واحداً من هذه الثلاثة فلا يجوز: ما قام إلا زيد يوم الجمعة، وقد أجاز ذلك الكسائي والأخفش.

وأمّا كونه منصوباً بما في «عند الله» من معنى الفعل فيضعفه المعنى لأنه يصيّر استقرار النصر مقيّداً بالظرف، والنصر من عند الله مطلقاً في وقت غشي النعاس وغيره. وأما كونه منصوباً بـ«ما جعله الله» فقد سبقه إليه الحوفي، وهو ضعيف أيضاً لطول الفصل ولكونه معمول ما قبل إلا، وليس أحد تلك الثلاثة. وانتصب «أمنةً» على أنه مفعول من أجله لاتّحاد الفاعل في قراءة من قرأ: يُغْشِيْكم، والمغشي هو الله تعالى.

ومعنى ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ أي: من الجنابات، وكان المؤمنون لحق أكثرهم في سفرهم الجنابات وعدموا الماء وكانت بينهم وبين ماء بدر مسافة طويلة

(١) ق: يغشاكم.
(٢) الكشاف ٢: ١٤٦.

من رمل دَهْس[١] ليّن تسوخ فيه الأرجل، وكان المشركون قد سبقوهم إلى ماء بدر، وكان نزول المطر قبل ذلك.

﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: عذابه لكم بوسواسه، والرجز: العذاب. والظاهر أن تثبيت الأقدام هو حقيقة لأن المكان الذي وقع فيه اللقاء كان[٢] رملاً تغوص فيه الأقدام فلبّده المطر حتى ثبتت عليه الأقدام. والضمير في «به» عائد على المطر. وانظر إلى فصاحة مجيء هذه التعليلات: بدأ أولاً منها بالتعليل الظاهر وهو تطهيرهم من الجنابة وهو فعل جسماني أعني اغتسالهم من الجنابة، وعطف عليه بغير لام العلّة ما هو من لازم التطهير وهو إذهاب رجز الشيطان حيث وسوس إليهم بكونهم يصلّون ولم يغتسلوا من الجنابة، ثم عطف بلام العلّة ما ليس بفعل جسماني وهو فعل محلّه القلب وهو التشجيع والاطمئنان والصبر على اللقاء، وعطف عليه بغير لام العلّة ما هو من لازمه وهو كونهم لا يفرّون وقت الحرب. فحين ذكر التعليل الظاهر الجسماني والتعليل الباطن القلبي ظهر حرف التعليل، وحين ذكر لازِمَهما، لم يؤكّد بلام التعليل. وبدأ أولاً بالتطهير لأنه الآكد والأسبق في الفعل والذي تؤدّى به أفضل العبادات وتحيا به القلوب.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ هذا أيضاً من تعديد النعم، إذ الإيحاء إلى الملائكة بأنه تعالى معهم أي: ينصرهم ويعينهم. تقدّم أن الخطاب السابق للمؤمنين، وهنا الخطاب في قوله «إذ يوحي ربك» لرسول الله ﷺ وحده من ربه أي: مالكه والناظر في إصلاحه. و«الملائكة» هم الذين أمدّ الله المؤمنين بهم.

(١) الدَّهْس: اللّين السّهل.

(٢) ق: وكان.

و﴿ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ بالنصر والتأييد. ثم أمر الملائكة بتثبيت المؤمنين وأخبر أنّه سيلقي الرعب في قلوب الكفار، ثم أمره بضرب ما فوق الأعناق وهي الرؤوس وضرب [٢٣٦/ب] كل بنان وهي الأصابع، [وهي] اسم جنس الواحد منها بنانة.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ الإشارة إلى ما حلّ بهم من إلقاء الرعب في قلوبهم وما أصابهم من الضرب والقتل. والكاف لخطاب السّامع و«ذلك» مبتدأ و«بأنهم» خبره، والضمير عائد على الكفار. وتقدم الكلام في المشاقّة في قوله تعالى ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [البقرة]. والمشاقّة هنا مفاعلة، فكأنه تعالى لما شرع شرعاً وأمر بأوامر وكذبوا هم وصدّوا تباعد ما بينهم وانفصل وانشقّ. وعبّر المفسرون عن قوله «شاقّوا الله» أي: صاروا في شق غير شقّه. والضمير في جملة الجواب العائد على اسم الشرط الذي هو «من» محذوف تقديره: شديد العقاب له.

﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾ الآية، جمع بين العذابين: عذاب الدنيا وهو المعجّل، وعذاب الآخرة وهو المؤجّل. والإشارة بـ«ذلكم» إلى ما حلّ بهم من عذاب الدنيا، والخطاب للمشاقّين. ولمّا كان عذاب الدنيا بالنسبة إلى عذاب الآخرة يسيراً[١]، سمّى ما أصابهم منه ذوقاً، لأن الذّوق يُعرف به الطَّعم وهو يسيرٌ ليُعرف به حال الطعم. «ذلكم» مبتدأ خبره محذوف تقديره: ذلكم العقاب، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: العقاب ذلكم. وقال الزمخشري[٢]: ويجوز أن يكون نصباً على: عليكم ذلكم فذوقوه كقولك: زيداً فاضربه انتهى. ولا يجوز هذا التقدير لأن «عليكم» من أسماء الأفعال

---

(١) ق: يسير.

(٢) الكشاف ٢: ١٤٨.

وأسماء الأفعال لا تضمر، وتشبيهه له بزيد فاضربه، ليس بجيد، لأنهم لم يقدّروه بعليك زيداً فاضربه، وإنما هو منصوب على الاشتغال.

﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ قال ابن عطية: إما على تقدير: وحَتْمٌ أنّ، فيقدر ابتداء محذوف يكون «أنّ» خبره، وإما على تقدير: واعلموا أنّ، فهي على هذا في موضع نصب انتهى. وقرأ الحسن وزيد بن علي وسليمان التيمي: وإنّ، بكسر الهمزة على استئناف إخبار، ونبّه على العلّة في كون عذاب النار لهم وهي الكفر.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ﴾ الآية، وانتصب «زحفاً» على الحال من المفعول أي: زاحفين إليكم، أو من الفاعل أي: زاحفين إليهم، أو منهما أي: متزاحفين. قال الفراء: الزحف: الدنوّ قليلاً قليلاً، يقال: زحف إليه يزحف زحفاً إذا مشى [انتهى]. وعدل[1] عن [لفظ الظهور إلى] لفظ الأدبار تقبيحاً لفعل الفارّ وتبشيعاً لانهزامه. وتضمّن هذا النهي الأمر بالثّبات والمصابرة على القتال.

(١) ق: ومن يولّهم وعدل.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ لمّا نهى تعالى عن تولّي الأدبار، توعّد من ولّى[١] دبره وقت لقاء العدوّ. وناسب قوله «ومن يولّهم» قوله «فقد باء بغضب من الله» كأن المعنى: فقد ولّى مصحوباً بغضب الله، قال الشاعر[٢]: [من الطويل]

ولَسْنا على الأعقاب تَجْري كُلُومُنَا ولٰكِنْ على أقدامِنا تَقْدُمُ الدِّما

والظاهر أن الجملة المحذوفة بعد إذ وعوّض منها التنوين هي قوله: إذ لقيتم الكفار وانتصب «متحرفاً» و«متحيزاً» على الحال من الضمير المستكنّ في «يولّهم» العائد على «من».

﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا﴾ التحرف للقتال هو الكرّ بعد الفرّ، يخيّل عدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه. وهذا من باب خدع الحرب ومكائدها. و«متحيزاً»[٣] اسم فاعل من تحيّز، أصله: تَحَيْوَزَ تَفَيْعَلَ، من الحوز؛ اجتمعت ياء وواو، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء[٤]، وأدغمت الياء في الياء فصار: تحيّز. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المخصوص بالذمّ محذوف تقديره: بئس المصير هي، أي: جنهم.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ الآية، لما رجع الصحابة من بدر ذكروا مفاخرهم فيقول القائل: قتلتُ وأسرتُ فنزلت[٥]. قال الزمخشري[٦]: والفاء جواب شرط

(١) ق: تولّى.

(٢) البيت للحصين بن الحمام في الشعر والشعراء ٢: ٦٤٨، والخزانة ٣: ٣٥٢ مع اختلاف في الرواية.

(٣) ق: إلا متحيّزاً.

(٤) ق: وقلبت ياءً.

(٥) انظر أسباب النزول ص١٥٦.

(٦) الكشاف ٢: ١٤٩.

محذوف تقديره: إن افتخرتم بقتلهم فأنتم [٢٣٧/أ] لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم انتهى. وليست الفاء جواب شرط محذوف كما زعم، وإنما هي للربط بين الجمل، لأنه لما قال ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢﴾ كان امتثال ما أُمروا به سبباً للقتل فقيل «فلم تقتلوهم» أي: لستم مستبدين بالقتل لأن الإقدار عليه والخلق له إنما هو لله تعالى ليس للقاتل فيها شيء لكنه أُجري على يده، فنفى عنهم إيجاد القتل[١] وأثبته لله تعالى. وعطف الجملة [المنفيّة] بما على الجملة المنفية بلَمْ، لأن لم نفيٌ للماضي وإن كان بصورة المضارع.

﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ﴾ قال ابن عباس: قبض رسول الله ﷺ يوم بدر قبضة من تراب فرماهم بها وقال: شاهت الوجوه[٢]، أي: قبحت. فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه وفي منخريه[٣] وفيه منها شيء. ومجيء «لكنّ» هنا في الموضعين أحسن مجيء لكونها بين نفي وإثبات، فالمثبت لله تعالى هو المنفي عنهم وهو حقيقة القتل.

﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قال السّدي: ينصرهم وينعم عليهم، يقال: أبلاه إذا أنعم عليه، وبلاه إذا امتحنه. والبلاء يستعمل للخير والشر، والبلاء الحسن: قيل بالنصر والغنيمة، وقيل بالشهادة. واللام في «ليبلي» تتعلّق بمحذوف بعد الواو تقديره: وفعلنا ذلك - أي قَتْلَهم ورَمْيَهم، أو مقدّر آخر الجملة تقديره: بلاءً حسناً فعلنا ذلك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع لكلامكم وما تفخرون به، عليم بما انطوت عليه الضمائر.

(١) ق: العقل.
(٢) أخرجه مسلم ٣: ١٤٠٢ من حديث إياس بن سلمة عن أبيه، في غزوة حنين.
(٣) ق: وهي متحرّبة!.

﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ قال الزمخشري[١]: «ذلكم» إشارة إلى البلاء الحسن، ومحلّه الرفع «وأن الله موهن» معطوف على «وليبلي»[٢] يعني أن الغرض إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين انتهى. وهذا فيه بُعْدٌ لفصل المعطوف الذي هو «وأن الله» عن «ليبلي» بجملتين إحداهما «إن[٣] الله سميع عليم» والاخرى ما قدّره في قوله «ذلكم». وقال ابن عطية: «ذلكم» إشارة إلى ما تقدّم من قتل الله ورميه إياهم، وموضع «ذلكم» من الإعراب رفع. قال سيبويه: التقدير: الأمر ذلكم. وقرىء: مُوَهِّن من وهّن، والتعدية بالتضعيف فيما عينه حرف حلق غير الهمزة قليل نحو: ضعّفت ووهّنت، وبابه أن يُعدّى بالهمزة نحو: أذهلته وأوهنته. وقرىء بالتنوين ونصب «كيد»، وبحذفه وجرّ «كيد» على الإضافة.

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ قال الجمهور: هي خطاب لأهل مكة على سبيل التهكّم، وذلك أنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلّقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أقرانا للضيف وأوصلنا للرحم وأفكّنا للعاني، إن كان محمد على حق فانصره وإن كنّا على حق فانصرنا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾
وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ
ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ
أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ
إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ

(١) الكشاف ٢: ١٥٠.
(٢) في الكشاف: معطوف على «ذلكم»، وهو يُضْعف ردّ المصنّف على الزمخشري.
(٣) ق: على ليبلو بجملتين أحدهما وأنّ.

تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ الظاهر أنه خطاب للمؤمنين الخُلّص، حثّهم بالأمر على الطاعة لله تعالى ورسوله، وأفردهم بالأمر رفعاً لأقدارهم. ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ الضمير في «عنه» عائد على رسول الله ﷺ. ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ أي: الأمر بالطاعة والنهي عن التولي.

﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ الآية، تقدّم الكلام على الصم البكم في البقرة[1]. وقيل: نزلت في طائفة من بني عبد الدار كانوا يقولون: نحن صمّ بكمٌ عميٌ عمّا جاء به محمد لا نسمعه ولا نجيبه، فقتلوا جميعاً بأحد وكانوا أصحاب اللواء.

﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾ قال ابن عطية: أخبر تعالى بأن عدم سمعهم وهداهم إنما هو بما علم الله تعالى منهم وسبق من قضائه عليهم، فخرّج ذلك في عبارة بليغة في ذمّهم بقوله «ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم» والمراد: لأسمعهم[2] إسماع تفهّم وهدى. ثم ابتدأ عزّ وجلّ الخبر عنهم بما هم عليه من حتمه عليهم بالكفر فقال ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ﴾ أي: ولو فهّمهم، ﴿لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [٢٣٧/ب] بحكم القضاء السابق فيهم، ولأعرضوا عمّا تبيّن لهم من الهدى.

---

(١) انظر تفسير الآية ١٨ من البقرة.

(٢) ق: لأنهم سمعهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ تقدّم الكلام على استجاب في قوله ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة]. وأفرد الضمير في «دعاكم» كما أفرده في ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ [عَنْهُ ﴿٢٠﴾﴾] [الأنفال]. والظاهر تعلُّق «لما» بقوله «دعاكم» ودعا يتعدى باللام، قال الشاعر[1]: [من المتقارب]

دعوتُ[2] لِمَا نابَنِي مِسْوَراً [فلبَّى فلبَّيْ يدَيْ مِسْوَرِ]

وقال آخر[3]: [من الطويل]

وإن أُدْعَ للجُلّى أَكُنْ مِن حُماتِها [وإن يَأْتِكَ الأعداءُ بالجَهد أَجْهَدِ]

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ المعنى أنه تعالى هو المتصرف في جميع الأشياء والقادر على الحيلولة بين الإنسان وبين ما يشتهيه قلبه، فهو الذي ينبغي أن يستجاب [له] إذا دعا، إذ بيده ملكوت كل شيء وزمامه.

﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً﴾ الآية، هذا الخطاب ظاهره العموم باتّقاء الفتنة التي لا تختص بالظالم، بل تعمّ الصالح والطالح. والجملة من قوله «لا تصيبن» خبرية صفة لقوله «فتنة» أي: غير مصيبة الظالم خاصة. إلاّ أن دخول نون التوكيد على المنفي بلا مختلَفٌ فيه؛ فالجمهور لا يجيزونه ويحملون ما جاء منه على الضرورة أو على النّدور. والذي نختاره الجواز، وإليه ذهب بعض النحويين. وإذا كان قد جاء لحاقها بالفعل منفياً بلا مع الفصل نحو قوله[4]:

[من الطويل]

(١) البيت في كتاب سيبويه ١: ٣٥٢ غير منسوب.

(٢) ق: دحوت.

(٣) البيت لطرفة من معلقته، انظر شرح القصائد السبع ص٢٠٥.

(٤) البيت لحسّان السّعدي في النوادر ص١١٢.

فـلاذا نعيـمٍ يتـركَـنْ لنعيمـه وإن قال قرّظني وَخُذْ رشوةً أبى

فَلأَن تلحقه مع غير الفصل أولى نحو «لا تصيبنّ». وزعم الزمخشري أن الجملة صفة وهي نهي، قال[١]: وكذلك إذا جعلته صفة على إرادة القول كأنه قيل: واتّقوا فتنةً مقولاً فيها: لا تصيبنّ. وزعم الفرّاء أن الجملة جواب للأمر نحو قولك: انزل عن الدّابة لا تطرحنّك، أي: [إن] تنزل عنها لا تطرحنّك. [قال[٢]: ومنه ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ ۝١٨﴾ [النمل] أي: إن تدخلوا لا يحطمنكم، فدخلت النون لما فيها من معنى الجزاء انتهى. وهذا المثال وهو قوله «ادخلوا»[٣] ليس نظير «واتقوا فتنة» لأنه ينتظم من المثال والآية شرط وجزاء كما قدّر، ولا ينتظم ذلك هنا. ألا ترى أنه لا يصحّ تقدير: إن تتّقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة، لأنه يترتب إذ ذاك على الشرط غير مقتضاه من جهة المعنى.

وأخذ الزمخشري قول الفرّاء وزاده فساداً وخبط فيه فقال[٤]: وقوله «لا تصيبنّ» لا يخلو من أن يكون جواباً للأمر أو نهياً بعد أمر أو صفة لـ«فتنة». فإذا كان جواباً فالمعنى: إن أصابتكم فتنة لا تصيب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمّكم انتهى تقريره لهذا القول. فانظر كيف قرّر أن يكون جواباً للأمر الذي هو «اتقوا» ثم قدّر أداة الشرط داخلة على غير مضارع «اتقوا» فقال: فالمعنى إن أصابتكم، يعني الفتنة. وانظر كيف قدّر الفرّاء في: انزل عن الدابّة لا تطرحنك] وفي قوله «ادخلوا» فأدخل أداة الشرط على مضارع

(١) الكشاف ٢: ١٥٢.
(٢) معاني القرآن ٢: ٤٠٧، ونقل المصنّف مضمون عبارة الفرّاء.
(٣) يريد قوله تعالى ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ ۝١٨﴾.
(٤) الكشاف ٢: ١٥٢.

فعل الأمر. وهكذا يقدّر ما كان جواباً للأمر، وفيه تخريجات أخر ذكرت في البحر[١]. قال الزمخشري[٢]: «خاصّة» أصله أن يكون نعتاً لمصدر محذوف اي: إصابة خاصّة، وهي حال من الفاعل المستكنّ في «لا تصيبنّ»، ويحتمل أن يكون حالاً من «الذين ظلموا» أي: مخصوصين بها بل تعمّهم وغيرهم. قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون «خاصة» حالاً من الضمير في «ظلموا» انتهى. لا أتعقّل أنا هذا الوجه.

﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ الآية، نزلت عقيب بدر فقيل: خطاب للمهاجرين خاصة كانوا بمكّة قليلي العدد مقهورين فيها يخافون أن يستلبهم المشركون قاله ابن عباس، فآواهم بالمدينة وأيّدهم بنصره يوم بدر. و﴿الطَّيِّبَٰتِ﴾ الغنائم وما فتح به عليهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ قال ابن عباس: نزلت في أبي لبابة حين استنصحه قريظة لمّا أبى رسول الله ﷺ أن يسيّرهم إلى أذرعات وأريحا كفعله ببني النضير، فأشار أبو لبابة إلى حلقه، أي: ليس عند رسول الله ﷺ إلا الذبح[٣]، فكانت هذه خيانته في قصة طويلة[٤].

---

(١) انظر ٤: ٤٨٤.

(٢) لم أجده في الكشاف، وانظر المفصل ص١١٦.

(٣) ق: الربح.

(٤) انظر تفسير الطبري ٩: ١٤٦.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ وفي كون الأجر العظيم عنده تعالى إشارة إلى أن[1] لا يفتن المرء بماله وولده فيؤثر محبّته لهما على ما عند الله فيجمع المال ويحب الولد حتى يُؤثر ذلك كما فعل أبو لبابة لأجل كون ماله وولده كانوا عند بني قريظة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الآية، الفرقان مصدر، من فرق بين الشيئين أي: حال بينهما. قال ابن عباس وجماعة: فرقاناً: مخرجاً، قال الشاعر[2]:

وكيف أُرجّي الخُلْدَ والموتُ طالبي ... ومـالـيَ مِـن كـأسِ المنيّـةِ فُـرقـانُ

[من الطويل]

أي: مخرج ومخلص.

﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ
ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ
لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣١ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ
هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ
أَلِيمٖ ٣٢ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ
يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ
وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٤
وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا
كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥﴾.

﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لما ذكّر المؤمنين نعمة ربهم عليهم ذكّره[3] ﷺ

(١) ق: أنه.

(٢) البيت في القرطبي ٧: ٣٩٦ غير منسوب.

(٣) ق: ذكّرهم.

نعمه عليه في خاصة نفسه، وكانت قريش تشاوروا في دار الندوة بما يُفعل به؛ فمن [٢٣٨/أ] قائل: يُحبس ويُقيَّد ويُتربّص به ريب المنون، ومن قائل: يُخرج من مكة لتستريحوا منه. وتصوّر لهم إبليس في صورة شيخ نجدي وفيّل[١] هذين الرأيين. ومن قائل: يجتمع من كل قبيلة رجل ويضربونه ضربة واحدة بأسيافهم فيتفرق دمه في القبائل فلا يقدر بنو هاشم على محاربة قريش كلها، فيرضون بأخذ الديّة. فصوّب إبليس لعنة الله عليه هذا الرأي، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى نبيّه ﷺ بذلك وأمره ألاّ يبيت في مضجعه، وأذن له في الخروج إلى المدينة. فأمر علياً أن يبيت في مضجعه ويتّشح ببردته وباتوا راصدين، فبادروا إلى المضجع فأبصروا علياً فبُهتوا، وخلّف عليًّا ليردّ ودائع[٢] كانت عنده، وخرج إلى المدينة. ومعنى «ليثبتوك» أي: ليثخنوك بالجراح والضرب، من قولهم: ضربوه حتى أثبتوه لا حراك به ولا براح، ورمى الطائر فأثبته أي: أثخنه، وقال الشاعر[٣]: [من البسيط]

فقلتُ ويحكَ ماذا في صحيفتكم ... قالوا الخليفةُ أمسى مُثْبَتاً وَجِعا

أي: مثخناً.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الآية، قائل ذلك النضر بن الحارث واتّبعه قائلون كثيرون، وكان من مردة قريش، سافر إلى فارس والحيرة وسمع من قصص الرهبان والأناجيل وأخبار[٤] رستم وإسفنديار، ورأى[٥] اليهود والنصارى

---

(١) أي خطّأهما وأضعفهما.

(٢) ق: وحلف ليردوا ودائع. وانظر في ذلك السيرة النبوية ٢: ١٢٤ وما بعدها.

(٣) البيت في القرطبي ٧: ٣٩٧ غير منسوب.

(٤) ق: وأخبارهم.

(٥) ق: ويرى.

يركعون ويسجدون. والنضر قتله رسول الله ﷺ صبراً بالصّفراء بالأثيّل[١] منها، مُنْصَرَفَه من بدر. وفي هذا التركيب جواز وقوع المضارع بعد إذا وجوابه الماضي جوازاً فصيحاً، بخلاف أدوات الشرط فإنه لا يجوز ذلك فيها إلا في الشعر نحو[٢]:

من يكدني بشيء كنت منه

ومعنى ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾: ولا نطيع، أو قد سمعنا مثل هذا. [وقولهم ﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ أي: لو نشاء القول لقلنا مثل] الذي يتلوه، وذكر على معنى المتلوّ. وهذا القول منهم على سبيل البهت والمصادمة، وليس ذلك في استطاعتهم فقد طولبوا بسورة منه فعجزوا، وكانوا أحب شيء إليهم الغلبة وخصوصاً في باب البيان، فقد كانوا يتمالطون[٣] ويتعارضون ويُحكم بينهم في ذلك. وكانوا أحرص الناس على قهر رسول الله ﷺ، فكيف يحيلون المعارضة على مشيئتهم ويتعلّلون بأنهم لو أرادوا لقالوا مثل هذا القول. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تقدم في الأنعام[٤].

﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ﴾ الآية، قائل ذلك النضر بن الحارث، وقيل أبو جهل، رواه البخاري ومسلم[٥]. والإشارة في قوله «إن [كان] هذا» إلى القرآن أو ما جاء به رسول الله ﷺ من التوحيد وغيره، أو نبوّته عليه السلام من بين سائر

(١) الأثيل: موضع قرب المدينة، والصفراء: واد. انظر معجم البلدان «الأثيل».

(٢) لم أجد تمامه وقائله، وانظر البحر ٤ : ٤٨٨.

(٣) مالطه: قال نصف بيت وأتمّه الآخر.

(٤) انظر تفسير الآية ٢٥ من الأنعام.

(٥) انظر البخاري ٤ : ١٧٠٤، ولم أجده في مسلم، وانظر السيرة النبوية ٢ : ٣٢٥.

قريش. وتقدم الكلام على «اللّهم»(١). وقرأ الجمهور: هو الحقَّ، بالنصب، جعلوا «هو» فصلاً. وقال ابن عطية: ويجوز في العربية رفع «الحق» على أنه خبر «هو» والجملة خبر «كان». قال الزّجاج: ولا أعلم أحداً قرأ بهذا الجائز، وقراءة الناس إنما هي بنصب «الحق» انتهى. وقد قرأ بها الأعمش وزيد بن علي وهي جائزة في العربية، فالجملة خبر كان وهي لغة تميم يرفعون بعد «هو» التي هي فصل في لغة غيرهم.

قال الزمخشري(٢): فإن قلت: ما فائدة قوله «من السماء» والأمطار لا تكون إلا منها؟ قلت: كأنه أراد أن يقال: أمطر علينا السّجيل وهي الحجارة المسوّمة للعذاب، فوضع «حجارة من السماء» موضع السّجيل، كما يقال: صبّ عليه مسرودة من حديد، يريد درعاً انتهى.

ومعنى جوابه أن قوله «من السماء» جاء على سبيل التوكيد، كما أن قوله: من حديد، معناه التوكيد لأن المسرودة لا تكون إلا من حديد، كما أن الأمطار لا تكون إلا من السماء. وقال ابن عطية: وقولهم «من السماء» مبالغة وإغراق انتهى. [٢٣٨/ب] والذي يظهر لي أن حكمة قولهم «من السماء» هي [في] مقابلتهم مجيء الأمطار من الجهة التي ذكر صلى الله عليه وسلم أنه يأتيه الوحي من جهتها، أي: أنك تذكر أنك يأتيك الوحي من السماء، فأْتنا بعذاب من الجهة التي يأتيك منها الوحي، إذ كان يحسن أن يعبّر عن إرسال الحجارة [عليهم] من غير جهة السماء بقولهم: فأمطر علينا حجارة. وقالوا ذلك على سبيل الاستبعاد والاعتقاد أن ما أتى به ليس بحقّ.

---

(١) انظر تفسير الآية ٢٦ من آل عمران.

(٢) الكشاف ٢: ١٥٥.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ اللام في «ليعذّبهم» لام الجحود والنصب في الفعل بإضمار أن بعد اللام، وتقدم الكلام عليها في آل عمران[١] عند «ما كان الله ليذر المؤمنين»[٢]. وقال ابن بزّي: نزلت الجملة الأولى بمكة إثر قوله «بعذاب أليم»، والثانية عند خروجه من مكة في طريقه إلى المدينة وقد بقي بمكة مؤمنون يستغفرون، والثالثة بعد بدر عند ظهور العذاب عليهم. قال ابن عباس: لم تعذّب أمّة قطّ ونبيّها فيها انتهى.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الآية، انظر إلى حسن مساق هاتين الجملتين: لما كانت كينونته فيهم سبباً لانتفاء تعذيبهم أكّد خبر «كان» باللام على رأي الكوفيين، أو جعل خبر «كان» الإرادة المنتفية على رأي البصريين. وانتفاء الإرادة للعذاب أبلغ من انتفاء العذاب. ولمّا كان استغفارهم دون تلك الكينونة الشريفة لم يؤكّد باللام بل جاء خبر «كان» قوله «معذّبهم» فشتّان ما بين استغفارهم وكينونته صلى الله عليه وسلم فيهم. والظاهر أن هذه الضمائر كلها في الجمل عائدة على الكفّار. وقال ابن عباس أيضاً ما مقتضاه أن الضميرين عائدان على الكفار، وكانوا يقولون في دعائهم: غفرانك، ويقولون: لبّيك لا شريك لك، ونحو هذا ممّا هو دعاء واستغفار فجعله الله تعالى أمنة من عذاب الدنيا.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الظاهر أنّ «ما» استفهامية أي: أيّ شيء لهم في انتفاء العذاب؟ وهو استفهام معناه التقرير، أي: كيف لا يعذَّبون وهم متّصفون بهذه الحال المقتضية للعذاب، وهي صدّهم للمؤمنين عن المسجد الحرام وليسوا بولاة البيت ولا متأهلين لولايته. ومن صدّهم ما فعلوا مع

---

(١) ق: البقرة.

(٢) انظر تفسير الآية ١٧٩ من آل عمران.

رسول الله ﷺ عام الحديبية، وإخراجه مع المؤمنين داخل في الصدّ. كانوا يقولون: نحن ولاة البيت نصدّ من نشاء وندخل من نشاء.

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾ الآية، لما نفى عنهم أن يكونوا أولياء البيت ذكر من فعلهم القبيح ما يؤكد ذلك، وأن من كانت صلاته ما ذكر لا يستأهل أن يكونوا أولياءه، فالمعنى - والله أعلم - أن الذي يقوم مقام صلاتهم هو المكاء والتّصدية. وضعوا مكان الصلاة والتقرب إلى الله الصفير والتصفيق، وكانوا يطوفون بالبيت عراة رجالهم ونساؤهم مشبكين بين أصابعهم يصفرون ويصفقون، يفعلون ذلك إذا قرأ رسول الله ﷺ يخلطون عليه في صلاته وقراءته. «مكاء» مصدر مكا يمكو، وجاء على فُعال. ويكثر فُعال في الأصوات كالصراخ.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ نزلت[1] في [نفقة] المشركين الخارجين إلى بدر، كانوا ينحرون يوماً عشراً من الإبل ويوماً تسعاً، وقيل غير ذلك.

---

(١) انظر أسباب النزول ص١٥٩.

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ هذا إخبار بما يؤول إليه حال الكفار في الآخرة من حشرهم إلى جهنم إذ[1] أخبر بما آل إليه حالهم في الدنيا من حسرتهم وكونهم مغلوبين. ومعنى قوله «والذين كفروا» من وافى[2] على الكفر. وأعاد الظاهر لأنّ من أنفق ماله من الكفار أسلم منهم جماعة. ولام «ليميز» متعلّقة بقوله «يحشرون». و«الخبيث» [٢٣٩/أ] و«الطيب» وصفان يصلحان للآدميين، و«الخبيث» هم الكفار، و«الطيب» هم المؤمنون. و«بعضه» بدل من «الخبيث» أي: ويجعل بعض الخبيث على بعض «فيركمه» أي: يضمّه. و«أولئك» إشارة إلى «الخبيث». و«الخبيث» اسم جنس لوحظ أولاً إفراده في قوله «بعضه» وفي قوله «فيركمه»، ولوحظ ثانياً جمعه في قوله «أولئك هم الخاسرون».

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ﴾ لمّا ذكر ما يحلّ بهم من حشرهم إلى النار وجَعْلهم فيها وخُسْرهم[3]، تلطّف بهم وأنّهم إذا انتهوا عن الكفر وآمنوا غفرت لهم ذنوبهم السالفة. وليس ثَمَّ ما يترتّب على الانتهاء عنه غفرانُ الذنوب سوى الكفر، فلذلك كان المعنى: وإن ينتهوا عن الكفر ويسلموا. واللام في «للذين» الظاهر أنها للتبليغ وأنه أُمر أن يقول لهم هذا المعنى الذي تضمّنته ألفاظ الجملة المحكيّة بالقول، وسواء أقاله[4] بهذه العبارة أم غيرها. ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ العَوْد يقتضي الرجوع إلى شيء سابق، ولا يكون الكفر لأنهم لم ينفصلوا عنه، فالمعنى عودهم إلى [ما]

---

(١) ق: إذا.
(٢) ق: آفى.
(٣) ق: وحشرهم.
(٤) ق: قاله.

أمكن انفصالهم عنه وهو الارتداد بعد الإسلام. وجواب الشرط: قالوا: فقد مضت سنة الأولين. ولا يصحّ ذلك على ظاهره بل ذلك دليل على الجواب والتقدير: وإن يعودوا انتقمنا منهم وأهلكناهم فقد مضت سنة الأولين في أنّا انتقمنا منهم فأهلكناهم بتكذيب أنبيائهم وكفرهم.

﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ تقدم الكلام على نظير هذه الجملة في البقرة[1]، وهنا زيادة «كله» توكيداً لـ«الدين». ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ ﴾ أي: عن الكفر. ومعنى ﴿ بَصِيرٌ ﴾: بإيمانهم فيجازيهم على ذلك ويثيبهم.

﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾: أعرضوا عن الإسلام. والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: ونعم النّصير الله تعالى.

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾.

(١) انظر تفسير الآية ١٩٣ وهي قوله تعالى ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ وأثبتّها للمقارنة.

﴿ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم ﴾ الآية، قال الواقدي: كان الخمس في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة. ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾ قال ابن عباس وجماعة: «[لله] خمسه» استفتاح كلام كما يقول الرجل لعبده: أعتقك الله وأعتقتُك، على جهة التبرّك وتفخيم الامر، والدنيا كلها لله تعالى. وقسم الله تعالى وقسم الرسول ﷺ واحد، وكان عليه السلام يقسم الخمس على خمسة أقسام. والظاهر أن «ما» موصولة، و«غنمتم» صلة ما، والعائد محذوف. و«من شيء» تفسير لما انبهم في لفظ «ما» أريد بها العموم، فلذلك دخلت الفاء في خبر «أنّ» لتضمّن العموم معنى الشرط. و«أنّ لله» في موضع رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: فالحكم أن لله[1] خمسه. وأجاز الفراء[2] أن تكون «ما» شرطية منصوبة بـ«غنمتم»، واسم «أن» ضمير الشأن محذوف تقديره: أنّه، وحَذْف هذا الضمير مع أنّ المشددة مخصوص عند سيبويه بالشعر. وتقدم الكلام على ذوي القربى وما بعدها في البقرة[3]. وظاهر العطف يقتضي التشريك فلا يُحرم أحد. «وما أنزلنا» معطوف على «بالله». و﴿ يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ ﴾ يوم بدر بلا خلاف، فرّق فيه بين الحق والباطل. و﴿ ٱلۡجَمۡعَانِۗ ﴾ جمع المؤمنين وجمع الكافرين. والمُنزل: الآيات والملائكة والنصر. وختم بصفة القدرة لأنه تعالى أدال المؤمنين على قلّتهم[4] على الكافرين على كثرتهم ذلك اليوم.

﴿ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ «العدوة» شط الوادي ويسمى شفيراً وضفة،

---

(١) ق: الله.

(٢) انظر معاني القرآن ١: ٤١١.

(٣) انظر تفسير الآية ٨٣ من البقرة.

(٤) ق: قتلهم.

سميت بذلك لأنها عدت ما في الوادي من ماء أن يتجاوزه، أي: منعته، قال الشاعر[١]: [من الوافر]

عَـدَتْني عـن زيـارتهـا العـوادي وحـالـت دونهـا حـربٌ زَبـونُ

ويسمّى الفضاء المساير للوادي عدوة للمجاورة. وقرىء: بالعِدوة بكسر العين وبضمها. ومعنى «الدنيا» [٢٣٩/ب] القربى، و«القصوى» البُعدى. وثبوت الواو في «القصوى» شاذ في القياس فصيح في الاستعمال، والقياس: القصيا بالياء، وقد قاله بعض العرب لأن الفُعلى من ذوات الواو تقلب ياءً كالدنيا من الدنوّ، والعليا من العلوّ. والمدينة من الوادي من[٢] موضع الوقعة منه في الشرق وبينهما مرحلتان. وقرىء: أسفلَ، بالنصب منصوباً على الظرف وهي في موضع الخبر للمبتدأ قبله، وأصله وصف لموصوف محذوف تقديره: والركب مكاناً أسفل منكم، أي: [في] مكان. وقرىء: أسفلُ بالرفع، اتسع في الظرف فجُعل خبراً للمبتدأ قبله، وذلك أن العدوة القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء وكانت أرضاً لا بأس بها، ولا ماء بالعدوة الدنيا وهي الأرض اللينة التي تغوص فيها الأقدام ولا يُمشى فيها إلا بتعب ومشقّة. وكانت العير وراء ظهور العدوّ مع كثرة عددهم.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ كان الالتقاء على غير ميعاد، قال مجاهد: أقبل أبو سفيان وأصحابه تجاراً من الشام، لم يشعروا بأصحاب محمد ولا بأصحاب بدر. ولم يشعر أصحاب محمد ﷺ بكفار قريش ولا كفّار قريش بمحمد وأصحابه حتى التقوا على ماء بدر لسقي

(١) البيت للنابغة في ديوانه ص٢٥٦.

(٢) ق: هي.

ركابهم[١]، فاقتتلوا فغلبهم أصحاب محمد ﷺ ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا﴾ أي: ولكن تلاقيتم على غير ميعاد ليقضي الله أمراً من نصر دينه وإعزاز كلمته وكسر الكفار وإذلالهم. ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: موجوداً متحققاً واقعاً. ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ بدل من «ليقضي» فيتعلق بمثل ما تعلق به «ليقضي». والظاهر أن المعنى: ليقتل من قتل من كفار قريش وغيرهم عن بيان [من الله تعالى وإعذار بالرسالة، ويعيش من يعيش عن بيان] منه[٢] وإعذار لا حجة لأحد عليه. وقرىء: حَيِيَ، بياءين على الفك، وحَيَّ: بالإدغام.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، وتظاهرت الروايات أنّها رؤيا منام رأى رسول الله ﷺ فيها الكفار قليلاً فأخبر بها أصحابه فقويت نفوسهم وشجعت على أعدائهم. وقال النبي ﷺ لأصحابه حين انتبه «أبشروا لقد نظرت إلى مصارع القوم»[٣]. والمراد بالقلّة قلّة القدر والبأس والنجدة وأنّهم مهزومون مصروعون. ولا يُحمل على قلة العدد لأنه صلى الله عليه وسلم رؤياه حقّ، وقد كان علم أنهم ما بين تسع مئة إلى ألف فلا يمكن حمل ذلك على قلّة العدد. وانتصب «قليلاً» على أنه مفعول ثالث ليُري، والأول ضمير الخطاب، والثاني ضمير الغيبة. و«كثيراً» مفعول ثالث لأرى، والأول ضمير الخطاب، والثاني ضمير الغيبة، أجريت[٤] الحلمية مجرى: أعلمت، فتعدّت إلى ثلاثة مفاعيل. وجواز حذف هذا المنصوب

---

(١) ليستقي كلهم.

(٢) ق: منهم.

(٣) في صحيح مسلم ٤: ٢٢٠٣ من حديث عمر أن رسول الله ﷺ «كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس».

(٤) ق: أجرت.

يبطل هذا [المذهب]، تقول: رأيت زيداً في النوم وأرى الله زيداً في النوم.

وقال الزمخشري[١]: انتصب «قليلاً» على الحال. وما قاله ظاهر لأن: ارى منقولة بالهمزة من رأى البصرية فتعدّت إلى اثنين: الأول كاف الخطاب للرسول، والثاني ضمير الكفار. فـ«قليلاً» و«كثيراً» منصوبان على الحال. و﴿وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ أي: تفرقت آراؤكم في أمر القتال، فكان يكون ذلك سبباً لانهزامكم وعدم إقدامكم على قتال أعدائكم، لأنه لو رآهم كثيراً أخبركم برؤياه ففشلتم. ولما كان رسول الله ﷺ محمياً عن الفشل معصوماً من النقائص، أسند الفشل إلى من يمكن ذلك في حقّه فقال تعالى «لفشلتم» وهذا من محاسن القرآن. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ﴾ من الفشل والتنازع والاختلاف بإراءته له صلى الله عليه وسلم الكفار [٢٤٠/أ] قليلاً فأخبرهم بذلك.

﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ﴾ الآية، [هذه] الرؤية[٢] [يقظة] لا منام. وقلّل الكفار في أعين المؤمنين تحقيراً لهم ولئلاّ يجبنوا عن لقائهم وقال ابن مسعود: لقد قُلّلوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مئة. وقُلّل المؤمنون في أعين الكفار حتى قال قائل منهم: إنما هم أَكَلَةُ جزور، وذلك قبل الالتقاء [بهم] ليجترئوا على المؤمنين فتقع الحرب ويلتحم القتال، إذ لو كُثّروا قبل اللقاء لأحجموا وتحيّلوا في الخلاص أو استعدوا واستنصروا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ

(١) الكشاف ٢: ١٦١.

(٢) ق: هي الرؤية.

تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ
النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ
الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ
فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا
تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَٰفِقُونَ وَالَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ الآية، أي: فئة كافرة، حذف الوصف لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار. واللقاء اسم للقتال غالب. وأمرهم تعالى بالثبات وهو مقيّد بآية الضعف. وفي الحديث[1] «لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا». وأمرهم بذكره تعالى كثيراً في هذا الموطن العظيم من مصابرة العدوّ والتلاحم بالرماح والسيوف، وهي حالة يقع فيها الذهول عن كلّ شيء فأُمروا بذكر الله إذ هو سبحانه وتعالى الذي يُفزع إليه عند الشدائد. والأظهر أن يكون «فتفشلوا» [جواباً للنهي فهو منصوب، ولذلك عطف عليه منصوب: لأنه يتسبّب عن التنازع الفشل وهو الخور والجبن عن لقاء العدو. ويجوز أن يكون «فتفشلوا»] مجزوماً عطفاً على «ولا تنازعوا» ذلك على قراءة عيسى بن عمر: ويذهبْ، بالياء وسكون الباء. ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ قال الزمخشري[2]: والريح: الدولة شبّهت

(١) أخرجه مسلم ٣: ١٣٦٢ من حديث أبي هريرة وروايته: فإذا لقيتموهم فاصبروا. وانظر صحيح الجامع الصغير ٦: ١٣٢.
(٢) الكشاف ٢: ١٦٢. ومع البيت الذي أورده ثانٍ.

بنفوذ أمرها وتمشّيه[١] بالريح وهبوبها فقيل: هبّت رياح فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره. وقول الشاعر[٢]: [من البسيط]

أَتَنْظرانِ قليلاً رَيْثَ غَفْلَتِهم   أم تَغْدُوَان فإنّ الرّيحَ للغادي

انتهى. وهو قول أبي عبيدة إن الريح هي الدولة. وقال آخر[٣]:

إذا هبَّتْ رياحُكَ فاغْتَنِمْها   فإنّ لكلّ خافقةٍ سكونا

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم ﴾ الآية، نزلت في أبي جهل وأصحابه[٤]، خرجوا لنصرة العير بالقينات والمعازف، ووردوا الجحفة فبعث خفاف الكناني، وكان[٥] صديقاً له، بهدايا مع ابنه وقال: إن شئت أمددناك بالرجال وإن شئت بنفسي مع من خفّ من قومي. فقال أبو جهل: إن كنّا نقاتل الله تعالى كما يزعم محمد فوالله ما لنا بالله طاقة، وإن كنّا نقاتل [الناس] فوالله إنّ بنا على الناس لقوّة، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدراً فنشرب فيها الخمور وتعزف علينا القيْنات، فإنّ بدراً مركز من مراكز العرب وسوق من أسواقهم، حتى تسمع العرب بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد. فَوَردوا بدراً فسُقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القينات. فنهى الله تعالى المؤمنين أن يكونوا مثل هؤلاء بطرين طربين مرائين

(١) ق: وتسببه.

(٢) البيت لسليك بن السلكة في شرح شواهد الكشاف ص٣٧٤.

(٣) البيت في القرطبي ٨: ٢٤ غير منسوب. وهو من الوافر

(٤) انظر لباب النقول ص١١٢.

(٥) ق: وإن.

بأعمالهم صادّين عن سبيل الله تعالى. وقال رسول الله ﷺ[١]: «اللهم إنّ قريشاً أقبلت بفخرها وخيلائها تحادّك وتكذّب رسولك، اللهم فأَحِنْها[٢] الغداةَ». وفي قوله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ وعيد وتهديد لمن بقي[٣] من الكفار. وانتصب «بطراً ورئاء» على أنه مفعول من أجله.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ وهي ما كانوا فيه من الشرك وعبادة الأصنام ومسيرهم إلى بدر وعزمهم على قتال رسول الله ﷺ. وهذا التزيين والقول والنكوص من وسوسة الشيطان على سبيل المجاز وهو من باب مجاز التمثيل. ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ رجع في ضدّ إقباله، أي: رجع إلى وراء. ﴿وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ مبالغة في الخذلان والانفصال عنهم، لم يكتف بالفعل حتى أكّد ذلك بالقول ﴿[إِنِّىٓ] أَرَىٰ[٢٤٠/ب] مَا لَا تَرَوْنَ﴾ رأى خرق العادة ونزول الملائكة. ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ قال قتادة[٤] وابن الكلبي: معذرة كاذبة لأنه لم يخف الله قط. وقال الزّجاج وغيره: بل خاف مما رأى من الهول أنه يكون اليوم الذي أنظر إليه انتهى. ويحتمل أن يكون ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ معطوفاً على معمول القول، قال ذلك بسطاً لعذره عندهم وهو متحقق أن عقاب الله شديد. ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى استأنفه تهديداً لإبليس ومن تابعه من مشركي قريش وغيرهم.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ الآية، ظاهر العطف التغاير فقيل: المنافقون هم

---

(١) انظر السيرة النبوية ٢: ٢٧٣.

(٢) تحادّك: تعاديك. أَحِنْها: أَهْلِكْها. وفي القرطبي ١٧: ١٤٦: فأَحْنِهم الغداة، من الخنا وهو الهلاك.

(٣) ق: لقي.

(٤) ق: قتال.

من الأوس والخزرج لما خرج رسول الله ﷺ قال بعضهم: نخرج معه، وقال بعضهم: لا نخرج. غرّ هؤلاء المؤمنين دينهم، يزعمون أنهم على حق وأنهم لا يُغلبون، هذا معنى قول ابن عباس. ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قوم أسلموا ومنعتهم أقرباؤهم من الهجرة وأخرجتهم قريش معها كرهاً، فلما نظروا إلى قلة المسلمين ارتابوا وقالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ فقتلوا جميعاً. ولم يُذكر أن منافقاً شهد بدراً مع المسلمين إلا متعب بن قشير فإنه ظهر منه يوم أحد قوله ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران]. «والذين في قلوبهم مرض» هو من عطف الصفات وهي لموصوف واحد؛ وصفوا بالنفاق وهو إظهار ما لا يخفيه، وبالمرض لقوله تعالى ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة] وهم منافقو[1] المدينة.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ﴾ الآية، «لو» التي ليست شرطاً في المستقبل تقلب المضارع للمضيّ، فالمعنى: لو رأيت وشاهدت. وحَذْف جواب «لو» جائز بليغ حذفه في مثل هذا لأنه يدلّ على التعظيم أي: لرأيت أمراً عجيباً وشيئاً هائلاً. والظاهر أن «الملائكة» فاعل «يتوفى» ويدلّ عليه

(١) ق: منافقون.

قراءة من قرأ: تتوفى، بالتاء. وقيل في هذه القراءة: الفاعل ضمير «الله» و«الملائكة» مبتدأ، والجملة حالية كهي في «يضربون». قال ابن عطية: ويضعفه سقوط واو الحال فإنها في الأغلب تلزم مثل هذا انتهى. ولا يضعفه إذا جاء بغير واوٍ في كتاب الله وفي كثير من كلام العرب، ولكن يضعفه تفكيك الكلام من حيث صار جملتين. وانصباب الرؤية على الملائكة في حال ضربهم وجوه الكفار. والملائكة هم المُمَدُّ بهم يوم بدر. و«يضربون» حال من «الملائكة». و«وجوههم» حال الإقبال. «وأدبارهم» حالة هزيمتهم؛ لأن الضرب في الأدبار أخزى وأشد نكالاً. ﴿وَذُوقُواْ[١] عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ هو كلام مستأنف من الله تعالى يقوله لهم في الآخرة.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ تقدم الكلام [عليه في آل عمران][٢].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً﴾ الآية، «ذلك» مبتدأ وخبره «بأن الله» إلخ، أي: ذلك العذاب والانتقام بسبب كذا. وظاهر النعمة أنه يراد بها ما يكون فيه من سعة الحال والرفاهية والعزّة والأمن والخصب وكثرة الأولاد. ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ «حتى» هنا للغاية، المعنى: إلى أن يغيّروا. و«ما» موصولة بمعنى الذي. و«بأنفسهم» صلته، والباء ظرفية أي: في أنفسهم من تبديل شكر الله تعالى بكفران النعمة.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الدأب: العادة. وهذه الجملة تأكيد للجملة السابقة. ﴿وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ حُمل على معنى كلّ فجُمع الضمير في «كانوا» [و«ظالمين» مراعاة لمعنى «كل» أو] لأجل الفواصل. ولم يُحمل على لفظه

(١) ق: ونقول ذوقوا.

(٢) انظر تفسير الآية ١١ من آل عمران.

كما حُمل في قوله ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴿٨٤﴾﴾ [الإسراء] فأفرد الضمير كما أفرده في ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت]. قال الزمخشري(1): وكلٌّ من غرقى القبط وقتلى قريش كانوا ظالمين(2) أنفسهم بالكفر والمعاصي انتهى. لا يظهر تخصيص الزمخشري «كلًّا» بغرقى القبط وقتلى قريش؛ إذ الضمير في «كذّبوا» وفي «أهلكناهم» لا يختصّ بهما، فالذي يظهر عموم المشبّه به [١/٢٤١] وهم آل فرعون والذين من قبلهم، أو عموم المشبّه والمشبّه بهم.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية، نزلت في بني قريظة منهم كعب بن الأشرف وأصحابه؛ عاهدهم رسول الله ﷺ ألّا يمالئوا عليه فنكثوا [بأن أعانوا مشركي مكة بالسلاح وقالوا: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدهم فنكثوا] ومالؤوا معهم يوم الخندق، وانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم(3). ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إخبار منه تعالى أنهم لا يؤمنون فلا يمكن أن يقع منهم إيمان، قال ابن عباس: شر الناس الكفار، وشر الكفار منهم المصرّون، وشرّ المصرّين الناكثون للعهود: فأخبر تعالى أنهم جامعون لأنواع الشر.

---

(1) الكشاف ٢: ١٦٤.

(2) ق: ظالمي.

(3) ق: فخالفهم.

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ بدل من «الذين كفروا».

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ أي: فإمّا تظفر بهم. وثمّ محذوف تقديره: فاقتلهم، لأن التشريد لا يتسبب عن الظّفر فقط، بل عن الظفر والقتل. والتشريد: التطريد والإبعاد. ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: من الكفار. وقرأ الأعمش بخلافٍ عنه: فشرّذ، بالذال المعجمة، وكذا في مصحف عبد الله. قالوا: ولم تُحفظ هذه المادة في لغة العرب، وقيل: الذّال بدل من الدال كما قالوا: لحم خراديل وخراذيل[1].

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ الظاهر أن هذا استئناف كلام. أخبره تعالى بما يصنع في المستقبل مع من يخاف منه خيانة. وقوله «من قوم» يدل على أنهم ليسوا الذين تقدّم ذكرهم، إذ لو كانوا إياهم لكان التركيب: وإما تخافن منهم. أمر تعالى نبيّه عليه السلام إذا أحسّ من أهل عهدٍ ما ذكرنا وخاف خيانتهم أن يلقي إليهم عهدهم وهو النبذ. ومفعول «فانبذ» محذوف، التقدير: فانبذ إليهم عهدهم أي: ارمه واطرحه. وفي قوله «فانبذ» عدم اكتراث [به] كقوله تعالى ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ١٨٧﴾ [آل عمران]. ومعنى ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾: على طريق مستوٍ قَصْدٍ، وذلك أن يظهر لهم نبذ العهد ويخبرهم إخباراً مكشوفاً بيّناً أنك قطعت ما بينك وبينهم.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ قال الزهري: نزلت فيمن أفلت من الكفار يوم بدر، فالمعنى: لا تظنّهم ناجين مفلتين لا يعجزون طالبهم بل لا بدّ من أخذهم في الدنيا. وقرىء: ولا يحسبنّ، بياء الغيبة والفاعل ضمير يعود على الرسول عليه السلام أو على السامع، والمفعول الأول «الذين» والثاني

(١) لحم خراديل وخراذيل: إذا كان مقطّعاً.

«سبقوا»، قال الزمخشري[١]: وليست هذه القراءة التي تفرّد بها حمزة بنيّرة[٢]، يشير إلى قراءته «ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا» بياء الغيبة انتهى. لم ينفرد بها حمزة كما ذكر بل قرأ بها ابن عامر وهو من العرب الذين سبقوا اللحن، وقرأ علي وعثمان وحفص عن عاصم، وأبو جعفر يزيد بن القعقاع وأبو عبد الرحمن وابن محيصن وعيسى والأعمش. وكان الزمخشري توهّم أن الفاعل «الذين» فما استنارت له. وقرىء: تحسبنّ، بتاء الخطاب والمفعول [الأول] «الذين كفروا» والثاني «سبقوا». وقرىء: إنهم، بكسر الهمزة، واستبعد أبو عبيد وأبو حاتم هذه القراءة. ولا استبعاد فيها لأنها تعليل للنّهي أي: لا تحسبنّهم فائتين لأنهم[٣] لا يعجزون أي: لا يقع منك حسبان لفوتهم لأنهم لا يُعجزون. وقرىء: أنهم، بفتح الهمزة وهو تعليل للنهي أي: لأنهم لا يعجزون من طلبهم.

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ الآية، لما اتفق في قصة بدر أن قصدوا

---

(١) الكشاف ٢: ١٦٥.

(٢) ق: بثيرة.

(٣) ق: أنهم.

الكفار بلا تكميل عدّة ولا آلة، وأمره تعالى بالتشريد وبنبذ العهد للناقضين، كان ذلك سبباً للأخذ في قتاله والتمالؤ عليه، فأمره تعالى والمؤمنين بإعداد ما قدروا عليه من القوة للجهاد ولإعداد الأرصاد، وعلّق ذلك بالاستطاعة لطفاً منه تعالى. والمخاطبون هم المؤمنون، والضمير في «لهم» عائد على الكفار المتقدمي الذكر وهم المأمور بحربهم في ذلك الوقت. والظاهر العموم في كل ما يُتقوى به في حرب العدو والآلات كالرمي وذكور الخيل وقوة القلوب [٢٤١/ب] واتفاق الكلمة والحصون المشيّدة وآلات الحرب وعُددها والأزواد[١] والملابس الباهية. و«رباط» جمع رَبْط، قال ابن عطية: «ورباط» جمع رَبْط ككلب وكلاب، فلا يكثر ربطها إلا وهي كثيرة. ويجوز أن يكون الرباط مصدراً من رَبَط كصاح صياحاً، لأن مصادر الثلاثي غير المزيد لا تنقاس انتهى. وليس بصحيح بل له مصادر منقاسة ذكرها النحويون. وقوله «من قوة ومن رباط الخيل» تفسير لما أبهم في قوله «ما استطعتم».

وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا وإن القوة الرّمي»[٢] ومعناه - والله أعلم - أنّ[٣] معظم القوة وأنكاها للعدوّ الرّمي. ﴿تُرۡهِبُونَ﴾ تخوّفون وقرىء: ترهّبون، بالتشديد. ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ﴾ الظاهر أنهم المنافقون لأنه قال «لا تعلمونهم الله يعلمهم» أي: لا تعلمون أشخاصهم إذ هم متستّرون[٤] عنكم أن تعلموهم بالإسلام. فالعلم هنا كالمعرفة تعدّى إلى

---

(١) ق: والازدراد. والأزواد: جمع الزّود وهو طعام السفر والحضر جميعاً.

(٢) أخرجه مسلم ٣: ١٥٢٢، وانظر صحيح الجامع الصغير ٢: ٣٧١.

(٣) ق: أنه.

(٤) ق: يسترون.

واحد وهو متعلق بالذوات وليس متعلقاً بالنسبة.

﴿ ۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ الضمير في «جنحوا» عائد على الذين نبذ [إليهم] على سواء وهم بنو قريظة والنضير. جنح الرجل إلى الآخر: مال إليه، وجنحت إليه، وجنحت الإبل: أمالت أعناقها في السير، قال ذو الرّمة[1]: [من الطويل]

إذا مات فوق الرّحل أحييتُ روحه بذكراكِ والعيسُ المراسيل جُنَّحُ

أي: مائلات. وجنَح: يتعدى بـ«إلى» وباللام. و«للسلم» يذكّر ويؤنث فقيل: التأنيث لغة، وقيل: على معنى المسالمة، وقيل: حملاً على النقيض وهو الحرب.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: وإن يرد[2] الجانحون للسّلم بأن يظهروا السلم ويبطنوا الخيانة والغدر مخادعة فاجنح لها، فما عليك من نيّاتهم الفاسدة، فإنّ حسبك وكافيك هو الله تعالى، ومن كان الله تعالى حسبه فلا يبالي بمن نوى سوءاً. ثمّ ذكّره بما فعل معه أولاً من تأييده بالنصر وبائتلاف المؤمنين على إعانته ونصره على أعدائه، فكما لطف بك أولاً يلطف بك آخراً. والمؤمنون هنا الأوس والخزرج [وكان بين الطائفتين من العداوة للحروب التي جرت بينهم ما كان لولا الإسلام ليُقضى أبداً، ولكنه تعالى منّ عليهم بالإسلام فأبدلهم بالعداوة محبّة وبالتباعد قرباً. ومعنى ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ أي: على تأليف قلوبهم واجتماعها على محبة بعضها بعضاً، وكونها في الأوس والخزرج] تظاهرت به أقوال المفسّرين.

---

(١) ديوانه ص٨٧.

(٢) ق: يريدوا.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ
الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن
مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ
خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا
مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ﴾ الآية، نزلت بالبيداء في غزوة [بدر] قبل القتال. والظاهر رفع «ومن» عطفاً على ما قبله، أي: حسبك الله والمؤمنون. وقال الشعبي وابن زيد: معنى الآية: حسبك الله وحسب من اتبعك. قال ابن عطية: فـ«من» في هذا التأويل في موضع نصب عطفاً على موضع الكاف لأن موضعها نصب على المعنى بيكفيك الذي سدت [«حسبك»] مسدّها انتهى. وهذا ليس بجيد لان «حسبك» ليس مما تكون الكاف فيه في موضع نصب، بل هذه إضافة صحيحة ليست من نصب، و﴿ حَسْبُكَ ﴾ مبتدأ مضاف إلى الضمير وليس مصدراً ولا اسم فاعل. والذي ينبغي أن يُحمل عليه كلام الشعبي وابن زيد هو أن يكون ﴿ وَمَنِ ﴾ مجرورة على حذف «وحسب» لدلالة «حسب» عليه، فيكون كقول الشاعر(١): [من المتقارب]

أكلَّ امرئٍ تحسبين امرأً ... ونارٍ تَوَقَّدُ باللّيل نارا

أي: وكلّ نارٍ، فلا يكون من العطف على الضمير المجرور. وقال ابن عطية: وهذا الوجه من حذف المضاف مكروه، بابه في ضرورة الشعر انتهى. وليس بمكروه ولا ضرورة، وقد أجازه(٢) سيبويه في الكلام وخرّج عليه

(١) هو أبو دؤاد الإيادي، والبيت في الأصمعيات ص١٩١.
(٢) ق: أجاز.

البيت وغيره من الكلام الفصيح. قال الزمخشري[١]: «ومن اتّبعك» الواو بمعنى مع وما بعده منصوب [٢٤٢/أ] تقول: حسبك وزيداً درهم، ولا يُجرّ[٢] لأن عطف الظاهر المجرور على المكنى ممتنع قال[٣]: [من الطويل]

[إذا كانتِ الهيجاءُ وانشقَّتِ العصا] فَحَسْبُكَ والضحّاكَ سيفٌ مهنّدُ

والمعنى: كفاك وكفى أتباعك من المؤمنين الله ناصراً انتهى. وهذا الذي قاله الزمخشري مخالف لكلام سيبويه، قال سيبويه[٤]: قالوا: حسبك وزيداً درهم، لما كان فيه معنى كفاك، وقبح أن يحملوه على المضمر نَوَوُا الفعل كأنه قال: حسبك ويحسب أخاك درهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هاتان الجملتان شرطيتان في ضمنهما الأمر بصبر عشرين لمئتين، وبصبر مئة لألف، ولذلك دخلها النسخ؛ إذ لو كان خبراً محضاً لم يكن فيه النسخ، لكن الشرط إذا كان فيه معنى التكليف جاز فيه النسخ، وهذا من ذلك، ولذلك نُسخ بقوله «الآن خفف الله عنكم». والتقييد بالصبر في أول كل شرط لفظاً هو محذوف من الثانية لدلالة ذكره في الأولى، وتقييد الشرط الثاني بقوله «من الذين كفروا» لفظاً هو محذوف من الشرط الأول في قوله «يغلبوا مئتين». فانظر إلى فصاحة هذا الكلام حيث أثبت قيداً[٥] في الجملة الأولى وحذف نظيره من الثانية، وأثبت قيداً في

(١) الكشاف ٢: ١٦٧.

(٢) ق: يجيز.

(٣) نسب في ذيل الأمالي ص١٤٠ لجرير وليس في ديوانه. وهو في معاني القرآن ١: ٤١٧، وشرح شواهد الكشاف ص٣٧٤ غير منسوب فيهما.

(٤) لم أجد النصّ في كتابه وانظر ٢: ٣٤٧.

(٥) ق: قيد.

الثانية وحذف من الأولى. ولمّا كان الصبر شديد المطلوبية أثبت في أولى جملتي التخفيف وحذف من الثانية لدلالة السابقة عليه، ثم ختمت الآية بقوله تعالى «والله مع الصابرين» مبالغة في شدة المطلوبية، ولم يأت في جملتي التخفيف قيد الكفر اكتفاءً بما قبل ذلك.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ نزلت في أسارى بدر، وكان رسول الله ﷺ قد استشار أبا بكر وعمر وعليًّا، فأشار أبو بكر بالاستحياء وعمر بالقتل في حديث طويل يوقف عليه في صحيح مسلم[1]. وقرأ أبو الدرداء وأبو حيوة: ما كان للنبي، معرَّفاً، والمراد به في التنكير والتعريف رسول الله ﷺ، ولكن في التنكير إبهام في كون النفي لم يتوجّه عليه معيّناً. وتقدّم مثل هذا التركيب وكيفية هذا النفي في آل عمران في قوله ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴿١٦١﴾﴾ [آل عمران][2] وهو هنا على حذف مضاف أي: ما كان لأصحاب نبي أو لأتباع نبيٍّ فحذف اختصاراً، ولذلك جاء الجمع في قوله «تريدون عرض الدنيا» [ولم يجيء التركيب: يريد أو تريد عرض الدنيا] لأنه عليه السلام لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد عرض الدنيا قطّ، وإنما فعله

(١) ٣: ١٣٨٥، أخرجه من حديث ابن عباس.

(٢) ق: وما كان للنبي.

جمهور مباشري الحرب. ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الإثخان: المبالغة في القتل والجراحات، يقال: أثخنته الجراحات: أثبتته حتى تثقل عليه الحركة، وأثخنه المرض: أثقله، من الثخانة التي هي الغلظ والكثافة.

﴿لَمَسَّكُمْ﴾ قال ابن عباس ومقاتل: لولا أن الله تعالى كتب في أمّ الكتاب أنه يسجل لكم الغنائم لمسّكم فيما تعجّلتم منها ومن الفداء يوم بدر قبل أن تؤمروا بذلك عذاب عظيم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ نزلت هذه الآية عقيب بدر في أسرى بدر، أُعلموا أنّ لهم ميلاً إلى الإسلام وأنهم يؤمّلونهم إن فُدُوا ورجعوا إلى قومهم. والظاهر أن الضمير في ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ عائد على «الأسرى» لأنه أقرب مذكور. والخيانة هي كونهم أظهر الإسلام بعضهم ثم رجعوا إلى دينهم. ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ بخروجهم مع المشركين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ﴾ الآية، قسّم المؤمنين إلى المهاجرين والأنصار والذين لم يهاجروا، فبدأ بالمهاجرين لأنهم أصل الإسلام وأول من استجاب لله تعالى، فهاجر قوم إلى المدينة [وقوم إلى الحبشة وقوم إلى ابن

ذي يزن، ثم هاجروا إلى المدينة] وكانوا قدوة لغيرهم في الإيمان وسَبَبَ تقوية للدين. «من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة»[١]. وثنّى بالأنصار لأنهم ساوَوْهم في الإيمان وفي الجهاد بالنفس والمال، لكنه عادل الهجرة بالإيواء والنصر، وانفرد المهاجرون بالسبق. وذكر [٢٤٢/ب] ثالثاً من آمن ولم يهاجر ولم ينصر ففاتتهم هاتان الفضيلتان وحُرموا الولاية حتى يهاجروا.

ومعنى ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ في النصرة والتعاون والمؤازرة كما جاء في غير آية ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة]. وآخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فكان المهاجريّ يرثه أخوه الأنصاري إذا لم يكن له بالمدينة ولي مهاجريّ، ولا توارث بينه وبين قريبه المسلم غير المهاجريّ. قال ابن زيد: واستمرأمرهم كذلك إلى فتح مكّة ثم توارثوا بعدُ لمّا لم تكن هجرة، فمعنى «ما لكم من ولايتهم من شيء» نفي الموالاة في التّوارث، وكان قوله تعالى «وأولوا الأرحام» نسخاً لذلك. ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ والمعطوف مغاير للمعطوف عليه، فوجب أن تكون الولاية المنفيّة غير النصرة انتهى. ولما نزل «ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا» قال الزبير: هل نعينهم على أمر إن استعانوا بنا؟ فنزل «وإن استنصروكم». والاستثناء في قوله «إلا على قوم» معناه أنّ من بيننا وبينهم ميثاق، لا ننصر[٢] المستنصرين الذين لم يهاجروا عليهم بل نتركهم وإياهم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ لمّا ذكر أقسام المؤمنين الثلاثة، وأنهم

---

(١) أخرجه مسلم من حديث جرير ٢: ٧٠٤، وانظر صحيح الجامع الصغير ٥: ٣٠٤.

(٢) ق: لا تنصروا.

أولياء ينصر بعضهم بعضاً ويرث بعضهم بعضاً، بين أن فريق الكفّار كذلك، إذ كانوا قبل بعثة رسول الله ﷺ يعادي أهل الكتاب منهم قريشاً ويتربّصون بهم الدوائر، فصاروا بعد بعثته عليه السلام يوالي بعضهم بعضاً وإلباً[١] واحداً على رسول الله ﷺ خوفاً على رئاستهم وتحزّباً على المؤمنين. «إلا تفعلوه[٢]» الضمير عائد على الاستنصار[٣] وهو المصدر المفهوم من قوله «وإن استنصروكم». و«تكن» تامّة، و«فتنة» فاعل. والفتنة إهمال المسلمين المستنصرين بنا حتى يتسلّط عليهم عدوّهم من الكفّار. وقرأ أبو موسى الحجازي عن الكسائي: كثير، بالثاء.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ هذه الآية فيها تعظيم المهاجرين والأنصار، وهي مختصرة إذ حذف منها: بأموالهم وأنفسهم، وليست تكراراً لأن السابقة تضمّنت ولاية بعضهم بعضاً وتقسيم المؤمنين إلى الأقسام الثلاثة وبيان حكمهم في ولايتهم ونصرهم، وهذه تضمّنت الثناء والتشريف والاختصاص وما آل إليه حالهم من المغفرة والرزق الكريم. وتقدم تفسير نظير أواخر[٤] هذه الآية في أوائل السورة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ﴾ يعني الذين لحقوا بالهجرة من سبق إليها، فحكم تعالى بأنهم من المؤمنين السابقين في الثواب والأجر، وإن كان للسابقين شفوف السبق وتقدم الإيمان والهجرة والجهاد. ومعنى «من بعد»:

(١) الإلب: القوم تجمعهم عداوة واحد.

(٢) ق: تفعلوا.

(٣) ق: الانتصار.

(٤) ق: أواخر نظير. وانظر تفسير الآية ٤ من الأنفال.

من بعد الهجرة الأولى، وذلك بعد الحديبية، قاله ابن عباس. ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ قيل: هو المواريث واستدلّ بها أبو حنيفة على توريث ذوي الأرحام، وقيل: ليست في المواريث والله أعلم.

سورة الأنفال(١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ
وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ
وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ
﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى
ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ
أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ
وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ
رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا
بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ
يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ
ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ
فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟
مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ
شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

النَّفْل: الزيادة على الواجب، وسُمِّيت الغنيمةُ به؛ لأنَّها زيادةٌ على القيام بحماية الحَوْزَة، وقال لبيد: المفردات

إنَّ تقوى ربِّنا خيرُ نَفَلْ ... وبإذنِ اللهِ رَيْثي وعَجَلْ(٢)

أي: خيرُ غنيمة، وقال عنترة:

---

(١) بعدها في المطبوع: خمس وسبعون آية مدنية.

(٢) ديوان لبيد ص ١٧٤، وقوله: ريثي. الرَّيْث: الإبطاء. اللسان (ريث).

إنَّا إذا احمرَّ (١الوغى نُروي القَنَا١) ونَعِفُّ عند مقاسِمِ الأنفالِ(٢)

الوَجَل: الفَزَع.

الشَّوكة: قال المبرِّد: السلاح، وأصله مِن الشَّوْك، وهو النَّبْتُ الذي له (٣حَدٌّ، شُبِّه٣) السلاحُ به، يقال: رجلٌ شاكي السلاح: إذا كان حديدَ السِّنَان والنَّصْل، وأصله: شائِك، وهو اسمُ فاعل مِن الشَّوْك، وقال:

لدى أَسَدٍ شَاكي السِّلاح مُقَذَّفٍ له لِبَدٌ أظفارُه لم تُقَلَّمِ(٤)

وقال أبو عبيد(٥): الشاكي والشائك جميعاً: ذو الشوكةِ والحدِّ(٦) في سلاحه. ويُوصَف به السلاح كما يُوصَف به الرَّجُل، وقال:

وأَلْبَسُ مِن رِضاهُ في طريقي سلاحاً يَذْعَرُ الأبطالَ شاكا(٧)

وتقول: رجلٌ شَاكٌ، وسلاحٌ شاكٌ وشاكٍ، فشَاكٌ أصله: شَوِكٌ، نحو: كَبْش صافٍ، أي: صَوِف، وشَاكٍ إمَّا محذوف، وإمَّا مقلوبٌ، وإيضاح هذا في علم النحو.

الاستغاثة: طَلَب الغَوْث والنَّصر، غَوَّثَ الرَّجُلُ، قال: واغَوْثاه، والاسم: الغَوْث والغُوَاث والغَوَاث.

(١-١) في (أ): الوغى يزوي القنا. وفي المطبوع: الوغاء ذوي الغنى.

(٢) ديوان عنترة ص ١٩٣، وفيه: حَمِسَ، بدل: احمرَّ - وكلاهما بمعنى - وتقاسم، بدل: مقاسم.

(٣-٣) تحرفت في المطبوع إلى: خربشة.

(٤) البيت لزهير، وهو من معلَّقته المشهورة، وهو في شرح ديوانه ص ٢٣، وشاكي السلاح: أي: سلاحه ذو شوكة. والمُقذَّف: الغليظ اللحم. واللِّبد: الشعر المتراكب على زُبْرَة الأسد، إذا أسنَّ فهو ذو لبدة. أظفاره لم تُقلَّم: أي: هو تامُّ السلاح حديدُه.

(٥) في (ب) والمطبوع: أبو عبيدة. وكلام أبي عبيد نقله عنه الأزهريُّ في تهذيب اللغة ١٠/ ٣٠٣، وينظر غريب الحديث لأبي عبيد ١/ ٢٠٢.

(٦) تحرفت في المطبوع إلى: وانجرّ.

(٧) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٣/ ١٣٤، وورد في (ب) و(ز١) و(يه): يذعن، بدل: يذعر. والمثبت من باقي النسخ.

وقيل: الاستغاثة: طَلَب سَدّ[١] الخَلَّة وقتَ الحاجة، وقيل: الاسْتِجارة.

رَدِفَ وأَرْدَفَ بمعنًى واحد[٢]: تَبِعَ، قال[٣]:

إذا الجوزاءُ أردفت الثريا ظننتُ بآلِ فاطمة الظُّنونا[٤]

ويقال: أَرْدَفته إيَّاه، أي: أَتْبَعْته.

العُنُق معروف، وجمعه في القلَّة على: أَعناق، وفي الكثرة على: عُنوق.

البَنَان: الأصابع، وهو اسمُ جنسٍ، واحدُه: بَنَانة، وقالوا فيه: البَنَام، بالميم بدل النون، قال رؤبة:

يا هالَ ذاتَ المنطق التمتامْ وكَفُّك المخضَّبِ البَنَامْ[٥]

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

التفسير ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾ هذه السورة مدنيَّة كلُّها، قال ابن عباس:

(١) في المطبوع: سرّ.

(٢) ليست في (ب) و(ز١)، وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٤١، والكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي ١/ ٤٨٩، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٥٧.

(٣) من هنا إلى نهاية بيت الشعر، لم يرد في المطبوع.

(٤) البيت لخزيمة بن مالك بن نهد، وهو في الأغاني ١٣/ ٧٨، والأزمنة والأمكنة للمرزوقي ٢/ ١٩٩، وجمهرة الأمثال للعسكري ١/ ١٢٣، ومجمع الأمثال للميداني ١/ ٧٥، والأمثال لأبي عبيد ص ٣٤٥، وفيه: حزيمة، بالحاء، وأشار لذلك الميداني فقال: ويروى: حزيمة، كذا روى أبو الندى في أمثاله. وفاطمة هي بنت يَذْكُر بن عَنَزَة، وكان خزيمة يهواها.

(٥) الرجز في ديوان رؤبة بن العجاج ص ١٨٣ في الأبيات المفردة المنسوبة له، والشطر الأول في ديوانه ص ١٤٤، وبعده: كأنَّ وَسْواسَكِ بالنُّمام.

وهو بالرواية المذكورة أعلاه عند ابن جنّي في سرِّ صناعة الإعراب ١/ ٤٢٢، والزمخشري في المفصل كما في شرح ابن يعيش ١٠/ ٣٣، والتمتمة: أن تَسبق كلمتُه إلى حنكه الأعلى، فهو تمتام، وهي تمتامة.

إلَّا سَبْعَ آياتٍ، أوَّلها: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ﴾ [الآية: ٣٠] إلى آخِر الآيات. وقال مقاتل: غير آيةٍ واحدة، وهي: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية[١]، نزلت في قصَّة وقعت بمكَّة، ويمكن أن تنزل الآيةُ في ذلك بالمدينة، ولا خلافَ في أنَّها نزلت في يوم بدر وأَمْرِ غنائمه.

وقد طوَّل المفسِّرون الزمخشريُّ وابنُ عطيَّة وغيرُهما في تعيين ما كان سببَ نزول هذه الآيات، وملخَّصها أنَّ نفوسَ أهل بدر تنافرت ووَقَع فيها ما يَقع في نفوسِ البشر مِن إرادة الأُثْرَة والاختصاص، ونحن لا نُسمِّي مَن أَبْلَى ذلك اليومَ[٢]، فنزلت، ورضي المسلمون وسَلَّموا وأَصلح اللهُ ذاتَ بينهم[٣].

واختلف المفسِّرون في المراد بالأنفال؛ فقال ابنُ عباس وعكرمة ومجاهد والضَّحَّاك وقتادة وعطاء وابنُ زيد: هي الغنائمُ مُجملةً[٤].

قال عكرمة ومجاهد: كان هذا الحُكم من الله لرَفْع[٥] الشَّغْب، ثم نُسِخَ بقوله: «واعلموا أنَّما غنمتم مِن شيء» الآية [٤١]. وقال ابن زيد: لا نَسْخَ، إنَّما أخبر أنَّ الغنائمَ لله مِن حيث هي مِلْكُه ورِزْقُه، وللرسولِ مِن حيث هو مبيِّن لحُكم الله والصَّادِعُ فيها؛ ليقعَ التسليمُ فيها مِن الناس، وحُكم القسمةِ نازل[٦] خلالَ ذلك[٧].

وقال ابنُ عباس أيضاً: «الأنفال» في الآية ما يُعطيه الإمامُ لمَن رآه؛ مِن سيفٍ أو فرسٍ أو نحوِه.

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٦، والنكت والعيون ٢/ ٢٩٢، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٤١.

(٢) يقال: أَبْلَى فلان: إذا اجتهد في صفة حربٍ أو كَرَم، يقال: أَبْلَى ذلك اليومَ بلاءً حسناً. اللسان (بلي)، وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٧.

(٣) ينظر الكشاف ٢/ ١٤١، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٩٦-٤٩٧، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٤١-٤٤٣.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٦، وينظر النكت والعيون ٢/ ٢٩٢، وتنظر الآثار عند الطبري ١١/ ٥-٦.

(٥) في (ب) والمطبوع: لدفع. وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٦.

(٦) في المطبوع: قاتل.

(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٧، وما بعده منه أيضاً، وأخرج قول مجاهد وعكرمة الطبريُّ ١١/ ٢١، وابن أبي شيبة (٣٣٩٦١)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٥١٩) و(٥٢٠)، وابن الجوزي في نواسخ القرآن ص ١٦٤، وقول ابن زيد أخرجه الطبري ١١/ ٢٢- ٢٤.

وقال عليُّ بنُ صالح بنِ حَيّ[١] والحسنُ: «الأنفال» في الآية [٢]إنَّما تَجِيْءُ به السرايا خاصَّة.

وقال مجاهد: الأنفال في الآية[٢] الخُمُس[٣].

وقال ابنُ عباس وعطاء أيضاً: «الأنفال» في الآية ما شَذَّ مِن أموالِ المشركين إلى المسلمين، كالفرس العائر[٤]، والعَبْدِ الآبِق، هو للنبيِّ ﷺ يَصنع فيه ما يشاء.

وقال ابنُ عباس أيضاً: «الأنفال» في الآية ما أُصيبَ مِن أموال المشركين بعد قِسْمة الغنيمة[٥].

وهذه الأقوال الأربعة مخالفة لما تضافرت عليه أسبابُ النزول المرويَّة، والجيِّد هو القولُ الأوَّل، وهو الذي تظاهرت الرواياتُ به.

وقال الشعبيُّ: «الأنفال» الأسارى. وهذا إنَّما هو منه على جهةِ المثال[٦]، وقد طوَّل ابنُ عطيَّة وغيرُه في أحكام ما يُنفِّله الإمامُ، وحُكم السَّلَب، وموضع ذلك كتبُ الفقه[٧].

وضمير الفاعل في «يسألونك» ليس عائداً على مذكورٍ قبله، إنَّما يُفسِّره وقعةُ بَدْر، فهو عائد على مَن حَضَرها مِن الصَّحابة، وكأنَّ السائلَ معلومٌ معيَّن ذلك

(١) تحرفت في المطبوع إلى: وابن جني. وورد في مطبوع المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٨ هكذا: وقال علي بن صالح بن جني. اهـ. وكذا وردت في (ب) و(يه)، وعلي بن صالح بن صالح بن حيّ هو الهمداني أبو محمد الكوفي، أخو الحسن بن صالح، وهما توأمان. تهذيب الكمال. وخبره أخرجه عنه الطبري ١١/ ٧.

(٢-٢) ليست في المطبوع.

(٣) أخرجه عنه الطبري ١١/ ١٠.

(٤) في (يه) و(ع): الغابر. والخبر أخرجه عنهما الطبري ١١/ ٧-٨، وأبو عبيد في الأموال (٧٥٨) و(٧٦٢)، وابن زنجويه (١١٢٨) و(١١٣٢)، وعارَ الفرسُ يَعيرُ: ذهب هنا وهنا؛ من نشاطه، أو: هَامَ على وجهه لا يثنيه شيء. المغرب ص ٩٢ (عير).

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٨، وأخرجه عنه الطبري ١١/ ٨.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٨ وعزاه للنقاش.

(٧) ينظر المصدر السابق، والتمهيد ١٥/ ٥٣، والاستذكار ١٥/ ١٠١، وأحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٢٥، والقرطبي ٩/ ٤٤٤ وما بعدها.

اليوم، فعاد الضمير عليه، والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام، والسؤال قد يكون لاقتضاء معنًى في نفس المسؤول، فيتعدَّى إذ ذاك بـ «عن» كما قال:

سَلِي إنْ جَهلتِ الناسَ عنَّا وعَنْهُمُ[1]

وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الأحزاب:٦٣]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة:٢١٧]، وكذا هنا «يسألونك عن الأنفال» أي: حُكمِها، ولمَن تكون؟ ولذلك جاء الجوابُ: «قل الأنفال لله والرسول».

وقد يكون السؤال لاقتضاءِ مالٍ أو نحوِه فيتعدَّى إذ ذاك لمفعولَين، تقول: سألت زيداً مالاً، وقد جعل بعضُ المفسِّرين السؤالَ هنا بهذا المعنى، وادَّعى زيادةَ «عن»، وأنَّ التقدير: يسألونكَ الأنفالَ، وهذا لا ضرورةَ تدعو إلى ذلك، وينبغي أن تُحمل قراءة مَن قرأ بإسقاط «عن» على إرادتها؛ لأنَّ حذفَ الحرف وهو مرادٌ معنًى أسهلُ من زيادته لغير معنًى غير التوكيد، وهي قراءةُ سعد بنِ أبي وقَّاص وابنِ مسعود وعليِّ بنِ الحسين وولدَيْه زيدٍ ومحمدٍ الباقرِ وولدِه جعفرٍ الصادقِ وعكرمة وعطاءٍ والضَّحَّاك وطلحةَ بنِ مُصرِّف[2].

وقيل: «عن» بمعنى «مِن»، أي: يسألونك من الأنفال. ولا ضرورةَ تدعو إلى تضمين الحرفِ معنى الحرف.

وقرأ ابنُ محيصن: «عَلَّنْفال»، نَقَلَ حركةَ الهمزة إلى لامِ التعريف، وحَذَفَ الهمزة واعتدَّ بالحركة العارضة فأدغم[3]، نحو: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ [العنكبوت:٣٨].

ومعنى: «قل الأنفال لله والرسول» ليس الحُكم فيها لأحد مِن المهاجرين ولا مِن الأنصارِ، ولا فُوِّض إلى أحدٍ، بل ذلك مفوَّض لله على ما يُريده، وللرسولِ حيث هو مبلِّغ عن الله الأحكامَ، وأَمَرهم بالتقوى؛ ليزولَ عنهم التخاصمُ ويَصيروا

(١) صدر بيت للسموءل، وهو في ديوانه ص ٩٢، وعجزه: فليس سواءً عالِمٌ وجهولُ.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٦، والقراءة في القراءات الشاذة ص ٤٨، والمحتسب ١/ ٢٧٢.
(٣) الكشاف ٢/ ١٤١، والقراءات الشاذة ص ٤٨.

متحابِّين [(١] في الله، وأَمَر بإصلاح ذاتِ البَين، وهذا يدلُّ على أنَّه كانت بينهم [١)] مبايَنة ومُباعَدة ربَّما خِيف أن تُفْضي بهم إلى إفساد ما بينهم مِن المودَّة والمصافاة، وتقدَّم الكلام على «ذات» في قوله: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

والبَين هنا الفِراق والتباعد، و«ذات» هنا نعتٌ لمفعول محذوف، أي: وأصلحوا أحوالاً ذاتَ افتراقِكم، لمَّا كانت الأحوالُ ملابسةً للبَين، أُضيفت صفتُها إليه، كما تقول: اسقِني ذا إنائك، أي: ماءَ صاحِبَ إنائك، لمَّا لابسَ الماءُ الإناءَ وُصفَ بـ «ذا»، وأُضيف إلى الإناء، والمعنى: اسقني ما في الإناءِ مِن الماء.

قال ابنُ عطيَّة: و«ذات» في هذا الموضع يُراد بها نفسُ الشيء وحقيقتُه، والذي يُفهَم مِن «بينكم» هو معنًى يعمُّ جميعَ الوُصَل والالتحامات والمودَّات، وذاتُ ذلك هو المأمورُ بإصلاحها، أي: نَفْسه وعَيْنه، فحضَّ اللهُ على إصلاح تلك الأجزاء، فإذا صلحت[٢] تلك حصل إصلاحُ ما يعمُّها وهو البَين الذي لهم، وقد تُستعمل لفظة الذات على أنَّها لَزِيْمَةُ ما تُضاف إليه وإن لم يكن نَفْسه وعَيْنه، وذلك في قوله: ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣] و﴿ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾ [الأنفال: ٧]، وتحتمل ذات البين أن تكون هذه، وقد تُقال الذاتُ أيضاً بمعنى آخَر وإن كان يَقرُب مِن هذا، وهو قولهم: فعلتُ كذا ذات يومٍ، ومنه قولُ الشاعر:

لا يَنْبَحُ الكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ ذات العشاءِ ولا تَسري أفاعيها[٣]

وذكر الطبريُّ عن بعضِهم أنَّه قال: «ذات بينكم» الحال التي بَيْنكم، كما: ذاتُ العِشاء: الساعةُ التي فيها العشاءُ، ووجَّهه[٤] الطبريُّ، وهو قولٌ بَيِّن الانتقاض. انتهى.

(١-١) ليست في (ب).
(٢) في المطبوع: حصلت.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٠، والبيت لجنوب أخت عمرو ذي الكلب، وهو في ديوان الهذليين ٣/ ١٢٦، والمعاني الكبير للدينوري ١/ ٢٣٣، وفيهما: من العشاء، بدل: ذات العشاء. فلا ذِكْر للشاهد فيه.
(٤) في (ب): ووجّه. وفي المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٠: ورجَّحه، وهو الصواب، ينظر تفسير الطبري ١١/ ٢٦.

وتلخَّص أنَّ البَين يُطلَق على الفراق، ويُطلَق على الوَصْل، وهو قول الزجَّاج هنا، قال: ومِثْله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنُكُم﴾[1] [الأنعام:٩٤]، وتكون ظرفاً بمعنى: وَسْط.

ويحتمل «ذات» أن تُضاف لكلِّ واحدٍ مِن هذه المعاني، وإنَّما اخترنا أنَّه بمعنى الفراق؛ لأنَّ استعمالَه فيه أشهرُ مِن استعماله في الوَصْل، ولأنَّ إضافة «ذاتٍ» إليه أكثرُ مِن إضافة «ذات» إلى «بين» الظرفيَّة؛ لأنَّها ليست كثيرةَ التصرُّف، بل تصرُّفها كتصرُّف «أمام» و«خَلْفٍ»، وهو تصرُّف متوسِّط ليس بكثير.

وأَمَرَ تعالى أوَّلاً بالتقوى؛ لأنَّها أصلُ الطاعات، ثم بإصلاح ذاتِ البين، لأنَّ ذلك أهمُّ نتائجِ التقوى في ذلك الوقت الذي تَشاجروا فيه، ثم أَمَرَ بطاعته وطاعةِ رسوله فيما أَمَرَكم به مِن التقوى والإصلاح وغيرِ ذلك.

[٢]وعن عطاء: كان الإصلاح بينهم أنْ دعاهم، وقال: اقْسِموا غنائمكم بالعدل. فقالوا: قد أَكَلنا وأَنْفَقنا. فقال: لِيَرُدَّ بعضُكم على بعض[٢].

ومعنى: «إن كنتم مؤمنين» أي: إن كنتم كَامِلي الإيمان، وتَسَنَّنَ هنا الزمخشريُّ واضْطَرب، فقال: وقد جَعل التقوى وإصلاحَ ذاتِ البين وطاعةَ الله تعالى والرسولِ ﷺ مِن لوازم الإيمان وموجباتِه، ليُعلمهم أنَّ كمالَ الإيمان موقوفٌ على التوفُّر عليها، ومعنى: «إن كنتم مؤمنين» إن كنتم كاملي الإيمان[٣].

قال ابنُ عطيَّة: كما يقولُ الرَّجُلُ: إن كنتَ رجلاً فافعل كذا، أي: إن كنتَ كاملَ الرجوليَّة، قال: وجوابُ الشَّرْط في قوله المتقدِّم: «وأطيعوا» هذا مذهب سيبويه، ومذهب أبي العبَّاس أنَّ الجوابَ محذوفٌ متأخِّر يدلُّ عليه المتقدِّم،

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٠٠، و«بينُكم» بضمِّ الميم قراءة الجمهور، في حين قرأ نافع والكسائي وحفص في روايته عن عاصم وأبو جعفر: بفتح الميم. السبعة ص ٢٦٣، والتيسير ص ١٠٥، والنشر ٢/ ٢٦٠.

(٢-٢) ليست في المطبوع. والكلام من الكشاف ٢/ ١٤١، وقول عطاء أورده أيضاً الآلوسي في روح المعاني ١٠/ ١٨-١٩ وفيه أنَّ الذي دعاهم هو رسول الله ﷺ، وهو الذي قال لهم: «اقسموا...» و«ليَرُدَّ...» ولم يُصرَّح بذلك في مطبوع الكشاف ولا مخطوطه الورقة (١٨١)، فليحرَّر!.

(٣) الكشاف ٢/ ١٤١-١٤٢.

تقديره: إن كنتم مؤمنين أطيعوا، ومذهبه في هذا أنْ لا يتقدَّم الجوابُ على الشَّرْط[١]. انتهى.

والذي قالَ مخالفٌ لكلام النُّحاة، فإنَّهم يقولون: إنَّ مذهبَ سيبويه أنَّ الجوابَ محذوفٌ، وأنَّ مذهبَ أبي العباس وأبي زيد الأنصاريِّ والكوفيين جوازُ تقديمِ جوابِ الشرط عليه، وهذا النَّقْل هو الصحيحُ[٢].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ قُرئَ: «وَجَلَت» بفتح الجيم، وهي لغة[٣]، وقرأ ابنُ مسعود: «فَرِقَتْ»، وقرأ أُبيٌّ: «فَزِعَتْ»[٤]، وينبغي أن تُحمل هاتان القراءتان على التفسير.

ولمَّا كان معنى «إن كنتم مؤمنين»: [٥]إن كنتم كاملي الإيمان[٥]، قال: «إنَّما المؤمنونَ» أي: الكامِلُو الإيمان، ثم أَخبر عنهم بموصول وُصِلَ بثلاثِ مقامات عظيمة؛ مقامِ الخوف، ومقامِ زيادة الإيمان، ومقامِ التوكُّل.

ويَحتمل قوله: «إذا ذُكرَ اللهُ»: إنْ يُذكَر اسمُه فقط ويُلفَظ به تَفْزَع قلوبُهم لذِكْره؛ استعظاماً له وتهيُّباً وإجلالاً، ويكون هذا الذِّكْر مخالفاً للذِّكْر في قوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣] لأنَّ ذِكْرَ الله هناك رأفتُه ورحمته وثوابُه، ويَحتمل أن يكون «ذكر الله» على حَذْفٍ، أي: ذُكِرَت عظمةُ الله وقدرته وما خوَّف به مَن عصاه، قاله الزجَّاج[٦].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٠.
(٢) ينظر الكتاب ٣/ ٦٥ وما بعدها، والمقتضب ٢/ ٦٨ وما بعدها، والإنصاف في مسائل الخلاف ٢/ ٦٢٣ وما بعدها، والدر المصون ٥/ ٥٥٨ حيث عقَّب الأخير على المسألة بقوله: ويجوز أن يكون للمبرد قولان وكذا لسيبويه، فنقل كلُّ فريقٍ عن كلٍّ منهما أحدَ القولين.
(٣) الكشاف ٢/ ١٤٢، والقراءة في القراءات الشاذة ص ٤٨ وعزاها ليحيى وأبي واقد.
(٤) القراءتان في المحرر الوجيز ٢/ ٥٠١، وقراءة ابن مسعود ذكرها أيضاً الثعلبي في التفسير ٣/ ١١٥، والزمخشري في الكشاف ٢/ ١٤٢.
(٥-٥) ليست في المطبوع.
(٦) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٠٠.

وقال السُّدِّيُّ: هو الرجل يَهُمُّ بالمعصية فيَذكر اللهَ فيَنْزِع عنها. وفي الحديث في السبعة الذين يُظِلُّهم اللهُ تحتَ ظِلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه: «ورجلٌ دَعَتْهُ امرأةٌ ذات جمالٍ ومنصب، فقال: إنِّي أخافُ الله»(١).

ومعنى «زادتهم إيماناً» أي: يقيناً وتثبيتاً، لأنَّ تظاهُر الأدلَّة وتضافرها أقوى على الطمأنينة للمدلول عليه وأرسخُ لقَدَمِه.

وقيل: المعنى أنَّه إذا كان لم يَسمع حكماً مِن أحكام القرآن منزلٍ على النبيِّ ﷺ فسمعه فآمَنَ به زاد إيماناً إلى سائر ما قد آمَن به، إذ لكلِّ حكم تصديقٌ خاصٌّ(٢)، ولهذا قال مجاهد: عبَّر بزيادة الإيمان عن زيادةِ العِلْم بأحكامه. وقيل: زيادةُ الإيمان كنايةٌ عن زيادة العمل.

وعن عمر بنِ عبد العزيز: إنَّ للإيمان سنناً وفرائضَ وشرائعَ، فمَن استكملها استكملَ الإيمان(٣).

وقيل: هذا في الظالم يُوعَظ فيُقال له: اتَّقِ اللهَ، فيُقلِع، فيزيده ذلك إيماناً.

والظاهر أنَّ قوله: «وعلى ربِّهم يتوكلون» داخلٌ في صِلَة «الذين»، كما قلنا قَبْلُ، وقيل: هو مستأنَف، وترتَّبت هذه المقامات أحسن ترتيبٍ، فبُدئ بمقام الخوف؛ إمَّا خوفِ الإجلال والهيبة، وإمَّا خوفِ العقاب، ثم ثانياً بالإيمان بالتكاليف الواردة، ثم ثالثاً بالتفويض إلى الله والانقطاع إليه ورَفْضِ(٤) ما سواه.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ الأحسن أن يكون «الذين» صفةً لـ «الذين» السابقة حتى تدخلَ في حيِّز الخبريَّة(٥)، فيكون ذلك إخباراً عن

---

(١) قول السدي في تفسير الثعلبي ٣/ ١١٥، والحديث أخرجه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١)، وأحمد (٩٦٦٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠١.

(٣) الكشاف ٢/ ١٤٢، وأورده أيضاً البخاري في صحيحه معلقاً قبل الحديث (٨)، والثعلبي في الكشف والبيان ٣/ ١١٥ وهو مما كَتَبه لعديّ بن عديّ. والقرطبيُّ ١٠/ ٤٣٦ لكن مما كَتَبه الحسن لعمر بن عبد العزيز، وقال عمر بن عبد العزيز إثره: فإن أَعِشْ فسأبيِّنها لكم، وإن أَمُتْ فما أنا على صحبتكم بحريص. وعزاه للبخاري.

(٤) في المطبوع: ورخص.

(٥) في المطبوع: الجزئية.

المؤمنين بثلاث الصِّلَاتِ القلبيَّة، وعنهم بالصفة البدنيَّة والصفة الماليَّة، وجمعَ أفعال القلوب؛ لأنَّها أشرفُ، وجمعَ في أفعال الجوارح بين الصلاةِ والصدقةِ؛ لأنَّهما عمودا أفعالِ الجوارح، وأجاز الحوفيُّ والتبريزيُّ أن يكون «الذين» بدلاً مِن «الذين»، وأن يكون خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هم الذين.

والظاهر أنَّ قولَه: «وممَّا رزقناهم يُنفقون» عامٌّ في الزكاة ونوافلِ الصدقات وصِلَات الرَّحِم وغيرِ ذلك مِن المَبَارِّ الماليَّة، وقد خصَّ ذلك جماعة من المفسِّرين بالزكاة؛ لاقترانها بالصَّلاة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾ قال ابنُ عطيَّة: «حقًّا» مصدر مؤكِّد، كذا نصَّ عليه سيبويه، وهو المصدرُ غيرُ المنتقل، والعاملُ فيه: أَحقُّ ذلك حقًّا[1]. انتهى. ومعنى ذلك أنَّه تأكيدٌ لِمَا تضمَّنته الجملةُ مِن الإسناد الخَبَرِيِّ، وأنَّه لا مجازَ في ذلك الإسناد.

وقال الزمخشريُّ: «حقًّا» صفةٌ للمصدر المحذوف، أي: أولئك هم المؤمنون إيماناً حقًّا، أو هو مصدر مؤكِّد للجملة التي هي «أولئك هم المؤمنون»، كقوله: هو عبد الله حقًّا، أي: حقَّ ذلك حقًّا، وعن الحسن أنَّ رَجُلاً سأله: أمؤمنٌ أنت؟ قال: الإيمانُ إيمانانِ؛ فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبِه ورسلِه واليوم الآخِرِ والجنَّة والنار والبعثِ والحساب، فأنا مؤمن، وإن كنتَ تسألني عن قوله: «إنما المؤمنون»، فواللهِ لا أدري أمنهم أنَا أم لا[2]؟

وأَبْعَدَ مَن زعم أنَّ الكلامَ تمَّ عند قوله: «أولئك هم المؤمنون»، وأنَّ «حقًّا» متعلِّق بما بَعْدَه، أي: حقًّا لهم درجاتٌ[3]، وهذا لأنَّ انتصابَ «حقًّا» على هذا التقدير يكون عن تمامِ جملة الابتداء، فمكانه التأخير عنها؛ لأنَّه مصدرٌ مؤكِّد لمضمونِ الجملة، فلا يجوز تقديمُه، وقد أجاز ذلك بعضهم، وهو ضعيف.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠١، وينظر الكتاب ٣/ ٤٩٧.

(٢) الكشاف ٢/ ١٤٢، وقول الحسن - وهو البصري - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٦).

(٣) ينظر تفسير الرازي ١٥/ ١٢٠.

﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾لما تقدَّمت ثلاثُ صفاتٍ؛ قلبيَّة وبدنيَّة وماليَّة، ترتَّب عليها ثلاثةُ أشياء، فقُوبلت الأعمال القلبيَّة بالدرجات، والبَدَنيَّة بالغفران، وفي الحديث أنَّ رجلاً أتى مِن امرأةٍ أجنبيَّة ما يَأتيه الرجلُ مِن أهله غيرَ الوَطْءِ، فسأله الرَّسول ﷺ لمَّا أخبره بذلك: «أصليتَ مَعَنَا؟»، فقال: نعم، فقال له: [«قد غُفِرَ لَكَ»][(١)]، وقُوبلت الماليَّة بالرِّزق الكريم، وهذا النوع مِن [(٢)]المقابلةِ من[(٢)] بَدِيْع عِلْم البديع[(٣)].

وقال ابنُ عطيَّة: الجمهور أنَّ المرادَ مراتبُ الجنَّة ومنازلُها ودرجاتُها على قَدْرِ أعمالهم، وحكى الطبريُّ عن مجاهد أنَّها درجاتُ أعمال الدنيا.

وقوله: «ورزق كريم» يريد به مآكلَ الجنَّة ومشاربَها، و«كريم» صفةٌ تقتضي رَفْعَ [(٤)]المذامِّ، كقولك[(٤)]: ثوبٌ كريم، وحَسَبٌ كريم. وقال الزمخشريُّ: «درجاتٌ» شَرَف وكرامةٌ، وعلوُّ منزلة، «ومغفرة» وتجاوزٌ لسيئاتِهم، «ورزقٌ كريم» ونعيم الجنَّة، يعني: منافع حسنة دائمة على سبيل التعظيم، وهذا معنى الثواب[(٥)]. انتهى.

وقال عطاء: درجات الجنَّة يَرتقونها بأعمالهم. وقال الربيع بنُ أنس: سبعون درجة، ما بين كلِّ درجتين حُضْرُ[(٦)] الفَرَس المُضمَّرِ سبعينَ سنةً.

---

(١) مكانها في النسخ بياض، وما بين حاصرتين من مستدرك الحاكم ٤/ ٢٥٣ من حديث أنس، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي في التلخيص.
وأصل الحديث عند البخاري (٦٨٢٣)، ومسلم (٢٧٦٤) من حديث أنس ﷺ بنحوه، وعند البخاري (٤٦٨٧)، ومسلم (٢٧٦٣)، وأحمد (٣٦٥٣) من حديث ابن مسعود ﷺ بنحوه. وعند مسلم (٢٧٦٥)، وأحمد (٢٢١٦٣) من حديث أبي أمامة ﷺ بنحوه وبروايات وألفاظ متعددة.

(٢-٢) ليست في (أ) و(ع).

(٣) في (ع): البيان.

(٤-٤) في (أ) والمطبوع: المقام كقوله. والمثبت من باقي النسخ الخطية والمحرر الوجيز ٢/ ٥٠١.

(٥) الكشاف ٢/ ١٤٢.

(٦) في (ب) والمطبوع: حصن. وفي (ع): حَصر، وينظر تفسير البغوي ٢/ ٢٢٩-٢٣٠، والحُضْرُ: العَدْو. الصحاح (حضر). والخبر أخرجه بهذا اللفظ الطبري ١١/ ٣٢ لكن عن ابن محيريز.

وقيل: منازل ومراتبُ في الجنَّة بعضُها على بعض، وفي الحديث: «إنَّ أهلَ الجنَّة ليَتَراءون أهلَ الغُرَفِ كما يُتراءَى الكوكبُ الدُّرِّيُّ»[١]. وثلاثة الأقوال هذه تدلُّ على أنَّه أُريدَ الدرجات حقيقةً، وعن مجاهد: «درجاتٌ» أعمالٌ رفيعة[٢].

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ اضطرب أهلُ التفسير في المراد بقوله: «كما أخرجك ربُّك مِن بيتك بالحقِّ»، واختلفوا على خمسةَ عَشَر قولاً:

أحدُها: أنَّ الكافَ بمعنى واو القَسَم، و«ما» بمعنى «الذي» واقعةٌ على ذي العلم، وهو الله، كما وقعت في قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل:٣] وجوابُ القَسَم: «يجادلونك»، والتقدير: واللهِ الذي أخرجكَ مِن بيتِكَ يُجادلونك في الحقِّ، قاله أبو عبيدة[٣]، وكان ضعيفاً في عِلْم النحو.

وقال الكرمانيُّ: هذا سهو. وقال ابنُ الأنباري: الكافُ ليست مِن حروف القَسَم. انتهى. وفيه أيضاً أنَّ جوابَ القَسَم بالمضارع المُثبَت جاء بغيرِ لامٍ ولا نونِ توكيد، ولا بُدَّ منهما في مِثْلِ هذا على مذهب البصريين، أو مِن معاقبةِ أحدِهما الآخَر على مذهب الكوفيين؛ أمَّا عُرُوُّه[٤] عنهما أو عن أحدِهما، فهو قولٌ مخالف لما أَجمعَ عليه الكوفيون والبَصريون.

القول الثاني: أنَّ الكافَ بمعنى «إذ»، و«ما» زائدة، تقديره: اذْكُر إذ أخرجك، وهذا ضعيف؛ لأنَّه لم يَثبُت أن الكاف تكون بمعنى «إذ» في لسان العرب، ولم يَثبُت أنَّ «ما» تُزاد بعد «إذ» غير الشرطيَّة، فكذلك لا تُزاد بَعْدَ ما ادُّعيَ أنَّه بمعناها.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١)، وأحمد (١١٢٠٦) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) تفسير الثعلبي ٣/ ١١٦، وأخرجه عنه الطبري ١١/ ٣١، وابن أبي حاتم ٥/ ١٦٥٨.

(٣) مجاز القرآن ١/ ٢٤٠، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٠٢، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٥٢-٤٥٣.

(٤) في المطبوع: خلوّه.

القول الثالث: أنَّ الكافَ بمعنى «على»، و«ما» بمعنى «الذي»، تقديره: امْضِ على الذي أخرجَك ربُّك مِن بيتك. وهذا ضعيف؛ لأنَّه لم يَثْبُت أنَّ الكافَ تكون بمعنى «على»، ولأنَّه يحتاج الموصول إلى عائد، وهو لا يجوز أن يُحذف في مِثْلِ هذا التركيب.

القول الرابع: قال عكرمة: التقدير: وأَطيعوا اللهَ ورسولَه إن كنتم مؤمنين، كما أخرجك، في الطاعةِ خيرٌ لكم كما كان إخراجُك خيراً لهم[١].

القول الخامس: قال الكسائيُّ وغيره: المعنى: كما أخرجك ربُّك مِن بيتكَ على كراهةٍ مِن فريقٍ منهم، كذلك يُجادلونك في قتال كفَّار مكَّة، ويودُّون غيرَ ذاتِ الشوكةِ من بعد ما تبيَّن لهم أنَّكَ إنَّما تَفعل ما أُمرتَ به لا ما يُريدون.

قال ابنُ عطيَّة: والتقدير على هذا التأويل: [٢]يُجادلونك في الحقِّ مجادلةً ككراهتهم إخراجَ ربِّكَ إيَّاكَ مِن بيتك، فالمجادَلة على هذا التأويل[٢] بمثابة الكراهية، وكذا وَقَع التشبيه في المعنى، وقائلُ هذه المقالة يقول: إنَّ المجادلين هم المشركون[٣].

القول السادس: قال الفرَّاء: التقدير: امْضِ لأمْرِك في الغنائم، ونَفِّل مَن شئتَ وإن كَرهوا، كما أخرجك ربُّك[٤]. انتهى.

قال ابنُ عطيَّة: والعبارة بقوله: امْضِ لأمْرِك ونَفِّل مَن شئتَ. غيرُ محرَّرة، وتحريرُ هذا المعنى عندي أن يُقال: إنَّ هذه الكاف شَبَّهت هذه القصَّة ـ التي هي إخراجُه مِن بيته ـ بالقصَّة المتقدِّمة التي هي سؤالُهم عن الأنفال، كأنَّهم سألوا عن النَّفْل وتشاجروا، فأَخرج اللهُ ذلك عنهم، فكانت هذه الخِيَرة، كما كَرهوا في هذه

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٢، وعبارته فيه هكذا: وقال عكرمة: التقدير: وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين كما أخرجك، أي: الطاعةُ خير لكم كما كان إخراجك خيراً لكم.

(٢-٢) ليست في (ب).

(٣) كذا في النُّسخ، والذي في المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٢: هم المؤمنون. وأما قوله: إن المجادلين هم المشركون. فَرَدَّه إلى القول الذي ذكره عن الفرَّاء، وسيأتي عندنا بعد هذا القول.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠١-٥٠٢، وقول الفراء في كتابه معاني القرآن ١/ ٤٠٣.

القصَّة انبعاثَ النَّبيِّ ﷺ، فأخرجه اللهُ مِن بيته، فكانت في ذلك الخِيَرة، وتشاجرهم في النَّفْل بمثابة كراهيتهم هاهنا الخروجَ، وحُكم اللهِ في النَّفل بأنَّه لله والرسول دونَهم، فهو بمثابة إخراجه نبيَّهُ ﷺ مِن بيته، ثم كانت الخِيَرة في القصَّتين فيما صنع الله، وعلى هذا التأويل يمكن أن يكون قوله: «يجادلونك» كلاماً مستأنَفاً يُراد به الكفَّار، أي: يجادلونك في شريعة الإسلام مِن بعد ما تبيَّن الحقُّ فيها، كأنَّما يُساقون إلى الموت في الدُّعاء إلى الإيمان، وهذا الذي ذكرتُ مِن أنَّ «يجادلونك» في الكفار منصوص، قال ابنُ عطيَّة: فهذان قولانِ مطَّردان يتمُّ بهما المعنى، ويَحسُن وصف[1] اللفظ. انتهى.

ويعني بالقولين قولَ الفرَّاء وقولَ الكسائيِّ، وقد كَثُر الكلامَ في هاتين المقالتين، ولا يظهرانِ ولا يلتئمانِ مِن حيث دلالةُ الألفاظ[2].

القول السابع: قال الأخفش: الكاف نعت لـ «حقًّا»، والتقدير: هم المؤمنون حقًّا كما أخرجك. قال ابنُ عطيَّة: والمعنى على هذا التأويل كما تراه لا يتناسق[3].

القول الثامن: أنَّ الكافَ في موضع رَفْع، والتقدير: كما أخرجكَ ربُّك فاتَّقوا اللهَ، كأنَّه ابتداءٌ وخبر، قال ابنُ عطيَّة: وهذا المعنى وَضَعه هذا المفسِّر، وليس مِن ألفاظِ الآية في وِرْدٍ ولا صَدَر[4].

القول التاسع: قال الزجَّاج: الكافُ في موضع نَصْب، والتقدير: الأنفال ثابتةٌ لله ثباتاً، كما أخرجك ربُّك، وهذا القول أخَذه الزمخشريُّ وحسَّنه، فقال: يَنتصب على أنَّه صفةُ مصدر للفعل المقدَّر في قوله: «الأنفال لله والرَّسول» أي: الأنفالُ استقرَّت لله والرسولِ، وثبتت - مع كراهتهم - ثباتاً مِثْل ثباتِ إخراج ربِّك إيَّاك مِن بيتك وهم كارهون[5]. انتهى. وهذا فيه بُعْدٌ؛ لكثرة الفَصْل بين المشبَّه والمشبَّه به، ولا يَظهر كبيرُ معنًى لتشبيه هذا بهذا، بل لو كانا متقارِبَين لم يَظهر للتشبيه كبيرُ فائدة.

---

(١) كذا في النسخ، والذي في المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٢: رصف. ولعلَّها الصواب.
(٢) في المطبوع: العاطف.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٢، وقول الأخفش في كتابه معاني القرآن ٢/ ٥٤١.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٢، والوِرْد: الجُزْء. وهو أيضاً ضِدُّ الصَّدَر. مختار الصحاح (ورد).
(٥) الكشاف ٢/ ١٤٣، وينظر قول الزجاج في كتابه معاني القرآن ٢/ ٣٩٩-٤٠٠.

القول العاشر: أنَّ الكافَ في موضع رَفْع، والتقدير: لهم درجاتٌ عند ربِّهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريم، هذا وعدٌ حقٌّ كما أخرجك، وهذا فيه حذفُ مبتدأ وخبر، ولو صرَّحَ بذلك، لم يَلتئم التشبيهُ ولم يَحْسُن.

القول الحادي عشر: أنَّ الكاف في موضع رَفْع أيضاً، والمعنى: وأصلحوا ذاتَ بينكم، ذلكم خيرٌ لكم، كما أَخرجك، فالكاف نعتٌ لخبرِ ابتداءٍ محذوف، وهذا أيضاً فيه حَذْفٌ وطُولُ فَصْلٍ بين قوله: «وأصلحوا» وبين: «كما أخرجك».

القول الثاني عشر: أنَّه شَبَّه كراهيَةَ أصحاب رسولِ الله ﷺ بخروجه مِن المدينة حين تحقَّقوا خروجَ قريش للدَّفْع عن أبي سفيانَ وحِفْظِ عِيْرِه = بكراهيتهم نزعَ الغنائم مِن أيديهم وجَعْلِها للرسول أو التنفيل منها، وهذا القول أَخَذَهُ الزمخشريُّ وحسَّنه، فقال: يرتفع محلُّ الكافِ على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوف، تقديره: هذه الحالُ كحالِ إخراجِك، يعني أنَّ حالَهم في كراهة ما رأيتَ مِن تنفيلِ الغُزاة[1] مِثْلُ حالِهم في كراهة خروجِهم للحرب[2]، وهذا الذي قاله هذا القائل وحسَّنه الزمخشريُّ هو ما فسَّر به ابنُ عطيَّة قولَ الفرَّاء بقوله: هذه الكافُ شبَّهت هذه القصَّة ـ التي هي إخراجه مِن بيته ـ بالقصَّة المتقدِّمة التي هي سؤالهم عن الأنفال، إلى آخِرِ كلامه.

القول الثالث عشر: أنَّ المعنى: قِسْمَتُكَ الغنائمَ حقٌّ، كما كان خروجُك حقًّا.

القول الرابع عشر: أنَّ التشبيهَ وَقَعَ بين إخراجين، أي: إخراج ربِّك إيَّاكَ مِن بيتِكَ ـ وهو مكَّة ـ وأنتَ كارهٌ لخروجِكَ، وكانت عاقبةُ ذلك الخيرَ والنَّصْرَ والظَّفَر، كإخراج ربِّك إيَّاكَ مِن المدينة وبعضُ المؤمنين كارهٌ، يكون عقيبَ ذلك الظَّفَرُ والنَّصر.

القول الخامس عشر: الكاف للتشبيهِ على سبيل المجاز، كقول القائل لعبدِه: كما وجَّهْتُكَ إلى أعدائي فاستضعفوكَ، وسألت مَدَداً فأَمْدَدْتُكَ وقوَّيتك وأَزَحْتُ عِلَلَكَ، فخُذْهم الآنَ فعاقِبْهم بكذا، وكما كسوتُكَ وأجريت عليكَ الرزقَ، فاعمل

(١) في المطبوع: القراءة!.
(٢) الكشاف ٢/ ١٤٢-١٤٣.

كذا، وكما أَحسنتُ إليكَ فاشكرني عليه[١].

فتقدير الآية: كما أخرجكَ ربُّك مِن بيتك بالحقِّ، وغشَّاكم النعاسَ أمنةً منه - يعني به: إيَّاه ومَن معه - وأَنزل مِن السماء ماءً ليُطهِّركم به، وأنزل عليكم مِن السماء ملائكةً مُردِفين «فاضربوا فوقَ الأعناق، واضربوا منهم كلَّ بنان» كأنَّه يقول: قد أَزحتُ عِلَلَكم، وأَمددتُكم بالملائكة، فاضربوا منهم هذه المواضع، وهو القَتْل[٢]، لتَبلغوا مرادَ الله في إحقاقِ الحقِّ وإبطالِ الباطل، وملخَّص هذا القول الطويل أنَّ «كما أخرجك» يتعلَّق بقوله: «فاضربوا» وفيه مِن الفَصْل والبُعْد ما لا خفاءَ به.

وقد انتهى ذِكْر هذه الأقوال الخمسةَ عَشَر التي وَقَفْنا عليها، ومَن دفعَ إلى حَوْكِ الكلام[٣] وتقلُّبِه في إنشاء أفانينه، وزاولَ الفصاحةَ والبلاغة، لم يَستحسن شيئاً مِن هذه الأقوال، وإن كان بعضُ قائليها له إمامةٌ في عِلْم النحو ورسوخ قَدَم، لكنَّه [٤]لم يتحنَّك بِلَوْكِ[٤] الكلام، ولم يكن في طبعه صوغُه أحسنَ صَوْغٍ، ولا التصرُّفُ في النظر فيه مِن حيث الفصاحةُ وما به يَظهر الإعجاز.

وقَبْلَ تسطيرِ هذه الأقوال هنا وقفتُ[٥] على جملةٍ منها، فلم يلْقَ بخاطري منها شيءٌ، فرأيتُ في النوم أنَّني أمشي في رَصيفٍ، ومعي رجلٌ أُباحثه في قوله تعالى: «كما أخرجك ربُّك مِن بيتك بالحق»، فقلت له: ما مرَّ بي شيءٌ مُشْكِل في القرآن مثْل هذا، ولعلَّ ثَمَّ محذوفاً يصحُّ به المعنى، وما وقفتُ فيه لأحدٍ مِن المفسِّرين على شيء طائلٍ، ثم قلتُ له: ظهر لي الساعةَ تخريجُه، وأنَّ ذلك المحذوفَ هو:

(١) في (ب): فاشكر لي إليك. وفي المطبوع: ما شكرتني عليه. والمثبت من باقي النسخ وتفسير القرطبي ٩/ ٤٥٣-٤٥٤.

(٢) كذا في النسخ والدر المصون ٥/ ٥٦٢، والذي في تفسير القرطبي ٩/ ٤٥٤: وهو المقتل. ولعلَّها أصوب.

(٣) حَاكَ الشِّعْرَ يَحوكه حَوكاً: نَسَجه، مستعارٌ من حاك الثوبَ من البُرد، ومن ذلك قول زهير:

فمن للقوافي شانَها من يحوكها ... إذا ما نوى كعب وفوَّز جَروَلُ

تاج العروس (حوك).

(٤-٤) في المطبوع: لم يحتط بلفظ. واللَّوْكُ: أهونُ المَضْغ، وفلان يَلوكُ أعراضَ الناس، أي: يقع فيهم. اللسان (لوك).

(٥) في (أ) والمطبوع: وقعت.

نَصَرَكَ، واستحسنتُ أنا وذلك الرَّجُل هذا التخريجَ، ثم انتبهتُ مِن النوم وأَنَا أَذْكُره، والتقدير: فكأنَّه قيل: كما أخرجكَ ربُّك مِن بيتك بالحقِّ، أي: بسبب إظهار دينِ الله وإعزازِ شريعتِه، وقد كَرِهوا خروجَك؛ تهيُّباً للقتال وخوفاً مِن الموت، إذ كان أُمِرَ عليه الصلاة والسلام بخروجهم بغتةً، ولم يكونوا مستعدِّين للخروج، وجادلوكَ في الحقِّ بعد وضوحِه = نَصَرَكَ اللهُ وأمدَّك بملائكتِه، ودلَّ على هذا المحذوف الكلامُ الذي بعده، وهو قوله تعالى: «إذ تستغيثونَ ربَّكم» الآيات.

ويَظهر أنَّ الكافَ في هذا التخريج المناميِّ ليست لمحضِ التشبيه، بل فيها معنى التعليل، وقد نصَّ النحويون على أنَّها قد يحدثُ فيها معنى التعليل، وخرَّجوا عليه قولَه تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨] وأنشدوا:

لا تَشْتُمِ الناسَ كما لا تُشْتَمُ[1]

أي: لانتفاءِ أن يَشْتُمكَ الناسُ لا تَشْتِمهم. ومِن الكلام السائغ[2] على هذا المعنى: كما تطيع اللهَ يُدْخلك الجنَّة، أي: لأجل طاعتِك اللهَ يُدخِلْك الجنَّة، فكأنَّ المعنى: لأجل أنْ خرجتَ لإعزاز دِيْنِ اللهِ وقَتْلِ أعدائه، نَصَرك اللهُ، وأمدَّك بالملائكة.

والواو في «وإنَّ فريقاً» واوُ الحال، والظاهر أنَّ «مِن بيتك» هو مقام سُكْناهُ، وقيل: المدينة؛ لأنَّها مُهاجَره ومختصَّة به، وقيل: مكة، وفيه بُعْدٌ؛ لأنَّ الظاهرَ أنَّ هذا إخبارٌ عن خروجه إلى بَدْر، فَصَرْفه إلى الخروج مِن مكَّة ليس بظاهر.

ومفعول «لكارهون» هو الخروج، أي: لكارهونَ الخروجَ معك، وكراهتُهم ذلك؛ إمَّا لنُفْرةِ الطَّبْع، أو لأنَّهم لم يستعدُّوا[3]، أو للعدول مِن العِير إلى النَّفِير؛ لما في ذلك مِن فَوْتِ[4] أَخْذِ الأموال، ولما في هذا مِن القَتْل والقتال، أو لتَرك مكَّة وديارهم وأموالهم، أقوال أربعة.

---

(١) الرجز منسوب لرؤبة بن العجاج، وهو في ملحق ديوانه ص ١٨٣، وقبله:
وشخصت أبصارهم وأجذموا

(٢) في المطبوع: الشائع. وكذا وردت في الدر المصون ٥/ ٥٦٣.

(٣) في المطبوع: يستنفروا.

(٤) في المطبوع: قوَّة.

والظاهر أنَّ ضميرَ الرفع في «يجادلونك» عائد على فريقِ المؤمنين الكارهين، وجِدَالُهم قولُهم: ما كان خروجنا إلَّا للعِيْر، ولو عرفنا لاستعدَدْنا للقِتال.

و«الحقُّ» هنا نُصْرةُ دين الإسلام، وقيل: الضمير يَعود على المشركين، وجدالُهم في الحقِّ هو في شريعة الإسلام.

وقرأ عبد الله: «بعدما بُيِّن» بضمِّ الباء مِن غير تاء[(١)].

وفي قوله: «بعدما تبيَّن» إنكارٌ عظيم عليهم؛ لأنَّ مَن جادل في شيء لم يتَّضح، كان أخفَّ عَتَباً، أمَّا مَن نازع في أمْرٍ واضح، فهو جدير باللَّوم والإنكار، ثم شبَّه حالهم في فَرْط فَزَعهم وهم يُسارُ بهم إلى الظَّفَر والغنيمة بحال مَن يُساق على الصَّغَارِ[(٢)] إلى الموت، وهو مشاهِد لأسبابه، ناظر إليها لا يشكُّ فيها. وقيل: كان خوفهم لقلَّة العدد، وأنَّهم كانوا رَجَّالة، وروي أنَّه ما كان فيهم إلَّا فارسان، وكانوا ثلاثَ مئة وثلاثةَ عشر، وكان المشركون في نحو ألفِ رجل[(٣)]، وقصَّةُ بدرٍ هذه مستوعَبة في كتاب السِّيَر[(٤)]، وقد لخَّص منها الزمخشريُّ وابنُ عطيَّة ما يُوقف عليه في كتابَيْهما[(٥)].

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ إحدى الطائفتين غيرُ معيَّنة، والطائفتان هما: طائفةُ عِيْر قريش، وكانت فيها تجارةٌ عظيمة لهم، ومعها أربعون راكباً فيها أبو سفيان

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٢، والقراءة في القراءات الشاذة ص ٤٨.
(٢) في (أ): الصفار، وفي المطبوع: الصفا.
(٣) كذا ورد في خبرٍ عن ابن عباس، وهو عند أحمد (٢٢٣٢)، والطبراني في الكبير (١٢٠٨٣)، وأما الرواية في مسلم (١٧٦٣) فكانوا ثلاث مئة وتسعة عشر رجلاً. قال أبو العباس القرطبي ٣/ ٥٧٢: والمشهور بين أهل التواريخ أن جميع من شهد بدراً مع مَن ضَرَبَ له رسولُ الله ﷺ بسهمه وأجره في عَدَدِ ابنِ إسحاق: ثلاث مئة وأربعة عشر، وفي عدد موسى بن عقبة: ثلاث مئة وستَّة عشر.
(٤) كذا في النسخ، والذي في المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٣: في كتاب سيرة رسول الله ﷺ لابن هشام. تنظر: سيرة ابن هشام ١/ ٦٠٦ وما بعدها.
(٥) ينظر الكشاف ٢/ ١٤٣-١٤٤، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٠٣.

وعمرو بنُ العاصي وعمرو بنُ هشام، وطائفةُ الذين استنفرهم أبو جهل، وكانوا في العَدَد الذي ذكرناه.

و«غير ذات الشوكة» هي العِيْر؛ لأنَّها ليست ذات قتالٍ، وإنَّما هي غنيمةٌ باردة، ومعنى إحقاقِ الحقِّ: تثبيته وإعلاؤه، و«بكلماته» بآياته المنزَّلة في محاربة ذاتِ الشوكة، وبما أمرَ الملائكة مِن نزولهم للنُّصرة، وبما قضى مِن أَسْرهم وقَتْلهم وطَرْحهم في قَلِيْب بدر، وبما ظهر ما أخبر به ﷺ.

وقَطْعُ الدَّابِر عبارة عن الاستئصال، والمعنى أنَّكم ترغبون في الفائدة[١] العاجلة وسلامة الأحوال وسفساف الأمور، [٢]والله يريد معاليَ الأمور[٢] وإعلاءَ الحقِّ والفوزَ في الدارين، وشتَّان ما بين المُرادين، ولذلك اختار لكم ذاتَ الشوكة، وأراكهم عَياناً خَذْلَهم ونَصْركم، وأذلَّهم وأعزَّكم، وحصّل لكم ما أربى على فائدة[٣] العِيْر، وما أدناه خيرٌ منها.

وقرأ مسلمة بنُ محارب: «يَعِدْكم» بسكون الدال؛ لتوالي الحركات[٤]، وابنُ محيصن: «الله احدَى» بإسقاط همزة «إحدى» على غير قياس[٥]، وعنه أيضاً: «أَحَدَ» على التذكير[٦]، إذ تأنيثُ الطائفة مجازٌ، وأدغم أبو عمرو: «الشوكة تكون»[٧].

وقرأ مَسْلَمة بنُ محارب: «بكلمته» على التوحيد، وحكاها ابنُ عطيَّة عن شيبة

(١) في المطبوع: إبقاء.
(٢-٢) ليست في المطبوع.
(٣) في المطبوع: دائرة.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٣، والقراءة في المحتسب ١/ ٢٧٣.
(٥) ينظر المحرر الوجيز٢/٥٠٣، والقراءة في القراءات الشاذة ص٤٩، والمحتسب ١/ ٢٧٢-٢٧٣.
(٦) لم نقف عليها عند غيره، ونقلها عنه السمين في الدر المصون ٥/ ٥٦٤، وابن عادل في اللباب ٩/ ٤٥٧.
(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٣، والقراءة في التيسير ص ٢٠، والنشر ١/ ٢٨٠، وينظر السبعة ص١١٦.

وأبي جعفر ونافع بخلافٍ عنهم[١]، وأُطلق المُفرد مراداً به الجمع؛ للعِلْم به، أو أُريد به كلمةُ تكوينِ الأشياء، وهي: كُنْ.

قيل: «وكلماته»: هي ما وَعَدَ نبيَّه في سورة الدخان، فقال: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الآية:١٦] أي: من أبي جهلٍ وأصحابِه. وقيل: أوامره ونواهيه، وقيل: مواعيده النَّصرَ والظَّفَر والاستيلاء على إحدى الطائفتين، وقيل: كلماته التي سَبَقت في الأَزَل.

ومعنى: «ليُحقَّ الحقَّ» ليُظهِر ما يَجب إظهاره وهو الإسلام، «ويُبطِل الباطل»، [٢]أي: الكفر[٢]، وقيل: «الحقّ» القرآن، و«الباطل» إبليس.

وتتعلَّق هذه اللام بمحذوف تقديره: ليُحقَّ الحقَّ ويُبطِل الباطل فَعَلَ ذلك، أي: ما فَعَلَه إلَّا لهما، وهو إثبات الإسلام وإظهارُه، وإبطالُ الكفر ومَحْوه، وليس هذا بتكريرٍ؛ لاختلاف المعنَيَيْن؛ الأول تمييزٌ بين الإرادتين، والثاني بيانٌ لما فعلَ مِن اختيار ذات الشوكة على غيرِها لهم ونُصْرتهم عليها، وأنَّه ما نَصَرهم ولا خَذَل أولئك على كثرتهم إلَّا لهذا المقصد الذي هو أسنى المقاصد.

وتقديرُ ما تعلَّق به متأخِّراً أحسنُ، قال الزمخشريُّ: ويجب أن يُقدّر المحذوف متأخِّراً حتى يفيدَ معنى الاختصاص ويَنطبق عليه المعنى[٣]. انتهى.

وذلك على مذهبه في أنَّ تقديمَ المفعول والمجرور يدلُّ على الاختصاص والحَصْر، وذلك عندنا لا يدلُّ على ذلك إنَّما يدلُّ على الاعتناء والاهتمام بما قدّم لا على تخصيصهِ ولا حَصْره، وقد تقدَّم الكلام معه في ذلك.

وقيل: يتعلَّق «ليُحقَّ» بقوله: «ويَقطع».

وقال ابنُ عطيَّة: «ولو كَره» أي: وكراهتكم واقعةٌ، فهي جملة في موضع الحال[٤]. انتهى. وقد تقدَّم لنا الكلام في نحو: «أولو»[٥]وأنَّ التحقيقَ فيه أنَّ الواوَ

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٤، والقراءة في القراءات الشاذة ص ٤٩ عن مسلمة بن محارب.
(٢-٢) في المطبوع: فعل ذلك.
(٣) الكشاف ٢/ ١٤٥.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٤.
(٥) عند تفسير الآية (١٧٠) من سورة البقرة.

للعطف على محذوف، ذلك المحذوف في موضع الحال، والمعطوف على الحال حال، ومثَّلنا ذلك بقوله: «أعطوا السائلَ ولو جاء على فَرَس»[١] أي: على كلِّ حال، ولو في هذه الحالة التي تُنافي الصدقة على السائل، وأنَّ «ولو» هذه تأتي لاستقصاء ما يُظَنُّ أنَّه لا يَندرج في عمومِ ما قَبْله؛ للمنافاة التي بين هذه الحال وبين المُسْنَد الذي قبلها.

وقال الحسن: هاتان الآيتان متقدِّمتان في النزول على قوله: «كما أخرجكَ ربُّك»، وفي القراءةِ بَعْدَهما؛ ليقابل الحقّ بالحقّ، والكراهة بالكراهة. انتهى. وهذه دعوى لا دليلَ عليها ولا حاجةَ تَضْطَرُّنا إلى تصحيحها.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝﴾ استَغاثَ: طَلَب الغَوْثَ، لمَّا علموا أنَّه لا بُدَّ مِن القتال، شَرَعوا في طَلَب الغَوثِ مِن الله تعالى والدعاءِ بالنُّصْرة، والظاهر أنَّه خطابٌ لمَن خُوطبَ بقوله: «وإذ يَعِدكم اللهُ» و«تودُّون»، وأنَّ الخطاب في قوله: «كما أخرجك» و«يجادلونك» هو خطابٌ للرسول، ولذلك أُفرد، فالخطابان مختلفان، وقيل: المستغيث هو النبيُّ ﷺ، وروي عن ابنِ عباس أنَّه قال: حدَّثني عمر بن الخطاب، قال: لمَّا كان يوم بدرٍ نَظَر إلى أصحابه وهم ثلاث مئة ونيِّف، وإلى المشركين وهم ألف، فاستقبل القِبْلةَ ومدَّ يدَه، وهو يقول: «اللَّهمَّ أَنْجِز لي ما وعدتني، اللَّهمَّ إنْ تَهْلِك هذه العِصابةُ لا تُعبَدْ في الأرض» ولم يَزَل كذلك حتى سَقط رداؤه، فردَّه أبو بكر ثمَّ قال: كفاكَ يا نَبيَّ الله مُناشدتُكَ ربَّك، فإنَّه سيُنجز لكَ ما وَعَدك[٢]. قالوا: فيكون مِن خطاب الواحد المعظَّم خطابُ الجميع، وروي أنَّ أبا جهل عندما اصْطَفَّ القوم، قال: اللَّهمَّ أَوْلَانا بالحقِّ فانْصُرْه[٣].

(١) سلف تخريجه ثمة.
(٢) تفسير الثعلبي ٣/ ١١٩، والخبر أخرجه مسلم (١٧٦٣)، وأحمد (٢٠٨)، وسلف عند تفسير الآية (١٢٣) من آل عمران، و«تهلك»: ضُبطت بفتح التاء وضمِّها، فعلى الأول ترفع «العصابة» على أنها فاعل، وعلى الثاني تنصب وتكون مفعوله. وضبطها ابن حجر بالفتح لا غير. شرح مسلم للنووي ١٢/ ٨٥، وفتح الباري ٧/ ٢٨٩.
(٣) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٧٨-٧٩.

و«إذ» بدلٌ مِن «إذ يعدكم» قاله الزمخشريُّ وابنُ عطيَّة[١]، وكان قد قدَّم أنَّ العامل في «إذ يعدكم»: اذكُر. وقال الطبريُّ: هي متعلِّقة بـ «يحق» و«يُبطل»، وأجاز هو والحوفيُّ أن تكون منصوبةً بـ «يعدكم»، وأجاز الحوفيُّ أن تكون مستأنفةً على إضمار: واذكروا، وأجاز أبو البقاء أن تكون ظرفاً لـ «تودُّون»[٢].

واستغاث يتعدَّى بنفسه كما هو في الآية، ويتعدَّى بحرفِ جرٍّ، كما جاء في لفظِ سيبويه في باب الاستغاثة، وفي عبارة ابنِ مالك في النحو: المستغاث، ولا يقول: المستغاث به[٣]، وكأنَّه لمَّا رآه في القرآن تعدَّى بنفسه قال: المستغاث، ولم يُعدِّه بالباء كما عدَّاه سيبويه والنحويون، وزعم أنَّ كلامَ العرب بخلاف ذلك، وكلاهما مسموعٌ مِن لسان العرب؛ فممَّا جاء معدًّى بالباء قولُ الشاعر:

حتى استغاثَ بماءٍ لارِشاءَ له ... مِن الأباطحِ في حافاتِهِ البُرَكُ
مُكَلَّلٌ بأصول النَّبْتِ تَنْسُجه ... ريحٌ خريقٌ لضاحي مائِهِ حُبُكُ
كما استغاث بِسَيْءٍ فَزُّ غَيْطَلةٍ ... خاف العيونَ فلم يُنْظَرْ به الحَشَكُ[٤]

وقرأ الجمهور: «أنِّي» بفتح الهمزة، أي: بأنِّي، وعيسى بن عمر، ورواها عن أبي عمرو: «إنِّي» بكسرها[٥]، على إضمار القول على مذهب البصريين، أو على

---

(١) الكشاف ٢/ ١٤٤، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٠٤.
(٢) الإملاء ٢/ ٤.
(٣) ينظر الكتاب ٢/ ٢١٥، وأوضح المسالك ص ٥٣١-٥٣٣.
(٤) الأبيات لزهير، وهي في شرح ديوانه ص ١٧٥-١٧٧، وفيها: النجم، بدل: النبت. والرِّشاء: الدلو. والبُرَك: طَيْر بيض. وريح خريق: شديدة. ولضاحي مائه: ما ضحا للشمس من الماء، أي: بَرَز لها، والحُبُك: طرائق الماء. والسَّيْء: اللَّبن الذي يكون في الضرع قبل نزول الدِّرَّة، والفَزُّ: ولدُ البقرة. والغيطلة: الشجر الملتف، أو البقرة. والحَشْك: الاجتهاد والدفع باللَّبن. مع الإشارة إلى أنَّه ورد في مطبوع البحر صدرُ البيت الثالث هكذا:

كما استغاث بشيء قبر عنطلة؟!.

(٥) كذا في النسخ، والذي في المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٤: وقرأ أبو عمرو في بعض ما روي عنه وعيسى بن عمر بخلاف عنه: «إني» بكسر الألف. والذي في القراءات الشاذة ص ٤٨-٤٩: «إني ممدكم» بكسر الهمزة وأحمد عن أبي عمرو. وأوردها في الكشاف ٢/ ١٤٥ عن =

الحكاية بـ: استجاب؛ لإجرائه مُجرى القول، إذ هو في معناه، وتقدَّم الكلام في شَرْح: استجاب[١]، وأمَدَّ[٢].

وقرأ الجمهور: «بألفٍ» على التوحيد، والجحدريُّ: «بآلُفٍ» على وزن أَفْلُس، وعنه وعن السديِّ بـ «آلافٍ»[٣]، والجمعُ بين الإفرادِ والجمعِ أن يُحمل الإفرادُ على مَن قاتل منهم، أو على الوجوه الذين مَن سواهم أتباعٌ لهم.

وقرأ نافع وجماعة مِن أهل المدينة وغيرهم: «مُرْدَفين» بفتح الدال، وباقي السبعة ومجاهد والحسن بكسرها[٤]، أي: متابِعاً بعضهم بعضاً، وروي عن ابنِ عباس: خَلْفَ كلِّ مَلَكٍ مَلَكٌ وراءه[٥].

وقرأ بعضُ المَكِّيِّين فيما روى عنه الخليل بنُ أحمد، وحكاه عنه ابنُ عطيَّة: «مُرَدِّفين» بفتح الراء وكسر الدال مشدَّدة[٦]، أصله: مُرْتَدِفين، فأُدغم.

وقال أبو الفضل الرازيُّ: وقد يجوز فتح الراء؛ فراراً إلى أخفِّ الحركات، أو لنَقْل حركة التاء إلى الراء عند الإدغام، ولا أعرف فيه أثراً[٧]. انتهى.

وروي عن الخليل أنَّها بضمِّ الراء إتباعاً لحركة الميم، كقولهم: مُخُضِّم[٨].

= أبي عمرو فقط. فعبارة المصنِّف تُوهِم أن عيسى بن عمر هو الذي روى القراءة عن أبي عمرو، فليحرَّر! ولينظر الدر المصون ٥/ ٥٦٦.

(١) عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ [البقرة: ١٨٦].

(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٤، وينظر مشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ٣١١، والإملاء للعكبري ٢/ ٤، والكشاف ٢/ ١٤٦، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٥٧-٤٥٨، والقراءات الشاذة ص ٤٩.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٤، والقراءة في السبعة ص ٣٠٤، والتيسير ص ١١٦.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٤، وينظر النكت والعيون ٢/ ٢٩٨.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٤، والقراءة في المحتسب ١/ ٢٧٣، والقراءات الشاذة ص ٤٩.

(٧) ينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٠٣.

(٨) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٥، والقراءة في المحتسب ١/ ٢٧٣. والمُخَضِّم: الشديد الخضم، أي: الأكل. تهذيب اللغة ٤/ ١٧٩ (خضم). والمُخْضِم: الماء الذي لا يبلغ أن يكون أُجاجاً. اللسان (خضم)، وزاد في تاج العروس (خضم): والمخضم كمعظَّم ومكرم: الموسَّع عليه في الدنيا، واقتصر في المحكم على الضبط الأول. اهـ. فليُحرَّر.

وقُرِئَ كذلك إلّا أنّه بكسر الراء إتباعاً لحركة الدَّال، أو حُرِّكت بالكسر على أصل التقاء الساكنين، قال ابنُ عطيَّة: ويَحسُن مع هذه القراءة كَسْرُ الميم، ولا أحفظه قراءةً، كقولهم: مُخِضِّم[١].

وتقدَّم الخلافُ في عدد الملائكة، وهل قاتلت أم لم تقاتل؟ في «آل عمران» ولم تتعرَّض الآية لقتالهم.

والظاهر أنَّ قراءة مَن قرأ «مُرْدَفين» بسكون الراء وفتح الدال أنّه صفة لقوله: «بألف» أي: أُرْدِفَ بعضُهم ببعض، قال ابنُ عطيَّة: ويحتمل أن يُراد بالمردَفين المؤمنين، أي: أُردفوا بالملائكة، فمردَفين على هذا حال مِن الضمير[٢].

قال الزمخشريُّ: وأردفته إيَّاه: إذا أتبعتَهُ، ويقال: أردفته، كقولك: اتَّبعتُه، إذا جئتَ بَعْدَه، فلا يخلو المكسورُ الدالِ من أن يكون بمعنى: متْبِعين أو متَّبِعين، [٣]فإن كان بمعنى: متْبِعين؛ فلا يخلو أن يكون بمعنى متْبِعين بعضهم بعضًا، أو متْبِعين[٣] بعضهم لبعض، أو بمعنى: مُتْبِعين إيَّاهم المؤمنين، أي: يتقدَّمونهم فيُتْبعونهم أنفسَهم، أو متْبِعين لهم يُشَيِّعونهم ويُقدِّمونهم بين أيديهم وهم على ساقتِهم ليكونوا على أعينهم وحفظِهم، أو بمعنى متْبِعين أنفسَهم ملائكةً آخَرين، أو متَّبِعين غيرَهم مِن الملائكة، ويَعضُد هذا الوجهَ قولُه تعالى في سورة «آل عمران»: ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [الآية: ١٢٤] ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[٤] [الآية: ١٢٥]. انتهى.

وهذا تكثيرٌ في الكلام، وملخَّصه أنَّ: اتَّبع ـ مشدَّداً ـ يتعدَّى إلى واحد، و: أَتْبع ـ مخفَّفاً ـ يتعدَّى إلى اثنين، وأَرْدَف أتَى بمعناهما، والمفعول لـ: اتَّبع، محذوف، والمفعولان لـ: أَتْبع، محذوفان، فيقدَّر ما يصحُّ به المعنى.

وقوله: أو مُتْبعين إيَّاهم المؤمنين. هذا ليس مِن مواضع فَصْلِ الضمير، بل ممَّا يتَّصل وتُحذَف له النون، لا يقال: هؤلاء كاسونَ إيَّاك ثوبًا، بل يقال: كاسوكَ،

---

(١) ينظر التعليق السابق، والدر المصون ٥/ ٥٦٩.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٤.

(٣-٣) ليست في (ب).

(٤) الكشاف ٢/ ١٤٦. والساقة: مؤخَّر الجيش. القاموس (سوق).

فتصحيحه أن يقولَ: أو بمعنى: متبعيهم المؤمنين، أو يقول: أو بمعنى: مُتْبعين أنفسَهم المؤمنين.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ تقدَّم تفسيرُ نظيرِ هذه الآية[1]، والمعنى: إلَّا بشرى لكم، فحذف: «لكم»، وأثبتَ في «آل عمران»، لأنَّ القصَّةَ فيها مُسْهَبة وهنا مُوجَزة، فناسب هنا الحَذْف، وهنا قدّم به، وأخّر هناك؛ على سبيل التفنُّن والاتِّساع في الكلام، وهنا جاء: «إنَّ الله عزيز حكيم» مراعاةً لأواخر الآي، وهناك ليست آخِرَ آيةٍ لتعلّق «ليقطع» بما قبله، فناسب أن يأتي «العزيز الحكيم» على سبيل الصفة، وكلاهما مُشعِر بالعِلِّيَّة، كما تقول: أكرِم زيداً العالِمَ، وأكرِم زيداً إنَّه عالِم.

والضمير في «وما جعله» عائد على الإمداد المُنسَبك مِن «أنِّي ممدكم»، أو على المَدَد، أو على الوَعْد الدالِّ عليه «يعدكم الله إحدى الطائفتين»، أو على الألْف، أو على الاستجابة، أو على الإرداف، أو على الخَبَر بالإمداد، أو على جبريل، أقوال محتمَلة مقولة، أظهرها الأوَّل، ولم يَذكُر الزمخشريُّ غيرَه[2].

﴿إِذْ يَغْشَاكُمُ النُّعاسُ[3] أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ قال الزمخشريُّ: «إذ يغشاكم» بدلٌ ثانٍ مِن «إذ يَعدكم»، أو منصوب بـ «النصر»، أو بما في «عند الله» مِن معنى الفِعْل، أو بـ: «ما جَعله الله»، أو بإضمار: اذْكُر. انتهى.

أمَّا كونه بدلاً ثانياً مِن «إذ يعدكم» فوافقه عليه ابنُ عطيَّة، قال: العامل في «إذ» هو العامل الذي عَملَ في قوله: «وإذ يعدكم» بتقديرِ تكراره؛ لأنَّ الاشتراكَ في العامل الأوَّل نفسِه لا يكون إلَّا بحرف عطف، وإنَّما القصدُ أن يُعدِّد نِعَمه على المؤمنين في يوم بدر، فقال: واذكروا إذ فَعَلْنا بكم كذا، إذ فعلنا كذا، إذ فعلنا كذا[4].

---

(١) عند تفسير الآية (١٢٦) من سورة آل عمران.

(٢) الكشاف ٢/ ١٤٦.

(٣) كذا في النسخ، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو ومجاهد وابن محيصن، وستأتي قريباً، والكلام من الكشاف ٢/ ١٤٦.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٥- ٥٠٦.

وأمَّا كونه منصوباً بـ «النصر» ففيه ضعفٌ مِن وجوه: أحدها: أنَّه مصدرٌ فيه «أل» وفي إعماله خلافٌ؛ ذهب الكوفيون إلى أنَّه لا يَجوز إعماله.

الثاني: أنَّه موصولٌ، وقد فُصلَ بينه وبين معمولِه بالخبر الذي هو «إلا مِن عند الله»، وذلك لا يَجوز، لا يقال: ضَرْبُ زيدٍ شديدٌ عَمْراً.

الثالث: أنَّه يَلزم مِن ذلك إعمال ما قَبْل «إلَّا» فيما بعدها مِن غير أن يكون ذلك المعمولُ مستثنًى، أو مستثنًى منه، أو صفةً له، وإذ ليس واحداً مِن هذه الثلاثة، فلا يَجوز: ما قام إلَّا زيدٌ يومَ الجمعة، وقد أجاز ذلك الكسائيُّ والأخفش.

وأما كونه منصوباً بما في «عند الله» مِن معنى الفعل، فيُضعفه المعنى؛ لأنَّه يَصير استقرارُ النصر مقيَّداً بالظَّرْف، والنَّصْر مِن عند الله مطلقاً في وقت غَشْيِ النعاس وغيرِه.

وأمَّا كونه منصوباً بـ «ما جَعَله اللهُ» فقد سبقه إليه الحوفيُّ، وهو ضعيف أيضاً؛ لطُول الفَصْل، ولكونه معمولَ ما قبل «إلَّا»، وليس أحدَ تلك الثلاثة.

وقال الطبريُّ: العامل في «إذ» قولُه: «ولتطمئنَّ»، قال ابنُ عطيَّة: وهذا مع احتماله فيه ضَعْفٌ[١]. وقال أبو البقاء: ويجوز أن يكون ظرفاً لما دلَّ عليه «عزيز حكيم»[٢]، وقد سَبَقه إلى قريبٍ من هذا ابنُ عطيَّة، فقال: ولو جعل العامل في «إذ» شيئاً قرنها [٣]بما قَبْلها؛ لكان الأولى في ذلك أن يَعمل في «إذ»: «حكيمٌ»؛ لأنَّ إلقاءَ النُّعاس[٣] عليهم وجَعْلَه أَمَنَةً حكمةٌ مِن الله عزَّ وجلَّ[٤]. انتهى.

والأجود مِن هذه الأقوال أن يكون بدلاً.

وقرأ مجاهد وابنُ محيصن وأبو عمرو وابنُ كثير: «يَغْشَاكُمُ النعاسُ» مضارع: غَشِيَ، و«النعاسُ» رفع به[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٦، وكلام الطبري في تفسيره ١١/ ٥٩.
(٢) الإملاء ٢/ ٤.
(٣-٣) ليست في (ب).
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٦.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٦، والقراءة في السبعة ص ٣٠٤، والتيسير ص ١١٦.

وقرأ الأعرج وابنُ نصاح وأبو حفص ونافع: «يُغْشِيكم» مضارع: أَغْشَى[١].

وقرأ عروة بنُ الزبير ومجاهد والحسن وعكرمة وأبو رجاء وابنُ عامر والكوفيون: «يُغَشِّيكم» مضارع: غشَّى، و«النعاس» في هاتين القراءتين منصوب[٢]، والفاعل ضميرُ الله، وناسَبَ قراءةَ نافعٍ قولُه: ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقراءة الباقين: «ويُنزِّل» حيث لم يختلف الفاعل.

ومعنى «يُغشِّيكم» يُغطِّيكم به، وهو استعارةٌ، جَعَلَ ما غلّب عليهم مِن النعاس غشياناً لهم، وتقدَّم شَرْحُ «النعاس» و«أمنة» في «آل عمران»[٣].

والضمير في «منه» عائد على الله، وانتصب «أمنةً»؛ قيل: على المصدر، أي: فأَمِنْتُم أَمَنةً، والأظهر أنَّه انتصب على أنَّه مفعول له في قراءة «يُغشِّيكم» لاتِّحاد الفاعل؛ لأنَّ المغشِّي والمؤمِن هو الله تعالى، وأمَّا على قراءة: «يَغْشَاكم» فالفاعل مختلف، إذ فاعل «يَغشاكم» هو «النعاسُ» والمؤمِن هو الله، وفي جواز مجيء المفعول له مع اختلافِ الفاعل خلافٌ.

وقال الزمخشريُّ: فإن قلت: أمَا وجبَ أن يكون فاعلُ الفعل المعلَّل والعلَّةُ واحداً؟ قلت: بلى، ولكن لمَّا كان معنى «يغشاكم النعاسُ»: تتغشَّون، انتصبَ «أَمَنةً» على أنَّ النعاس والأَمَنة لهم، والمعنى: إذ تتغشَّون[٤] «أَمَنةً» بمعنى أمنًا، أي: لأَمْنِكم، و«منه» صفة لها، أي: أَمَنةً حاصلةً لكم مِن الله تعالى.

فإن قلت: هل يجوز أن يَنتصبَ على أنَّ الأمنةَ للنعاس الذي هو [فاعل][٥] «يغشاكم»، أي: «يغشاكم النعاسُ» لأَمْنِه، على أنَّ إسنادَ الأَمْن إلى النعاس إسنادٌ مجازيٌّ، وهو لأصحاب النُّعاس على الحقيقة، أو على أنَّه أنامكم[٦] في وقتٍ

(١) المصادر السابقة.
(٢) ينظر التعليق ما قبل السابق.
(٣) عند تفسير الآية (١٥٤).
(٤) كذا في النسخ، والذي في مطبوع الكشاف ٢/ ١٤٧ ومخطوطه الورقة (١٨٣): تنعسون.
(٥) ما بين حاصرتين لم ترد في النسخ، واستدرك من مطبوع الكشاف ٢/ ١٤٧ ومخطوطه.
(٦) في المطبوع: أمامكم.

كان مِن حقِّ النعاس في ذلك الوقت المَخُوف أن لا يقدمَ على غشيانكم، وإنَّما غشَّاكم أَمَنةً حاصلة له مِن الله تعالى، لولاها لم يَغشاكم، على طريقة التمثيل والتخييل؟ قلت: لا تَبعد[1] فصاحةُ القرآن عن احتماله، وله فيه نظائر، ولقد أَلَمَّ به مَن قال:

يَهابُ النومُ أنْ يَغشى عيوناً تهابُكَ فهو نَفَّارٌ شَرُودُ[2]

وقُرِئَ: «أَمْنَة» بسكون الميم[3]، ونظير: أَمِنَ أَمَنة: حَيِيَ حياة، ونحو: أَمِنَ أَمْنَة: رَحِمَ رَحْمة، والمعنى أنَّ ما كان بهم مِن الخوف كان يَمنعهم مِن النوم، فلمَّا طَأْمَنَ[4] اللهُ تعالى قلوبَهم وأمَّنهم رَقَدُوا[5].

وعن ابنِ عباس: النعاسُ في القتال أَمَنةٌ مِن الله تعالى، وفي الصلاة وسوسةٌ مِن الشيطان[6]. انتهى.

وعن ابنِ مسعود شبيهُ هذا الكلام، قال: النعاسُ عند حضورِ القتال علامةُ أمنٍ مِن العدوِّ، وهو مِن الله تعالى، وهو في الصلاة مِن الشيطان. قال ابنُ عطيَّة: وهذا إنَّما طريقُه الوحي، فهو لا محالةَ يُسْنِده[7]. انتهى.

والذي قَرأَ: «أَمْنَة» بسكون الميم، هو: ابنُ محيصن، ورُويت عن النخعيِّ ويحيى بن يَعْمَر.

---

(١) في المطبوع: لا تتعدى.
(٢) مطبوع الكشاف ٢/ ١٤٧ ومخطوطه الورقة (١٨٣)، والبيت من قصيدة للزمخشري فيما ذكر عنه ذلك الشهابُ الخفاجيُّ في حاشيته على تفسير البيضاوي ٤/ ٢٥٨. وينظر روح المعاني للآلوسي ١٠/ ٤٤.
(٣) الكشاف ٢/ ١٤٧، وهي قراءة ابن محيصن والنخعي ويحيى بن يعمر، وستأتي قريباً.
(٤) كذا في النسخ ومخطوط الكشاف الورقة (١٨٣)، والذي في مطبوع الكشاف ٢/ ١٤٧: طمأن. وكلاهما بمعنًى.
(٥) في المطبوع: وأقروا.
(٦) الكشاف ٢/ ١٤٧، وتفسير الرازي ١٥/ ١٣٣، ولم نقف على الخبر عن ابن عباس، بل الوارد عن ابن مسعود، وكما سيأتي بعده، وكذا قال ابن حجر في الكافي الشاف ص ٦٨، وخبر ابن مسعود أورده الثعلبي أيضاً في التفسير ٣/ ١٢٠، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٢٥٦، وفي المصنَّف (٤٢١٩)، والطبري ١١/ ٥٩-٦٠، وابن أبي حاتم ٥/ ١٦٦٤.
(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٦، وينظر التعليق السابق، وتخريج كلام ابن مسعود ثمَّة.

وغشيانُ النوم إيَّاهم؛ قيل: حالَ التقاءِ الصَّفَّين، ومضى مِثْلُ هذا في يوم أُحُد في «آل عمران»[١].

وقيل: الليلة التي كان القتال في غَدِها، امتنَّ عليهم بالنَّوم، مع الأَمْرِ المُهمِّ الذي يَرُومُونَهُ في غدٍ ليستريحوا تلك الليلة، ويَنشطوا في غَدِها للقتال، ويزول رُعْبهم، ويقال: الأَمْن مُنِيْمٌ، والخوف مُسْهِر.

والأولى أن يكون ترتيبُ هذه الجمل في الزمان كترتيبها في التلاوة، فيكون إنزال المطر تأخَّر عن غشيانِ النعاس، وعن ابنِ أبي نجيح أنَّ المطر كان قبل النُّعاس[٢]، واختاره ابنُ عطيَّة، قال: ونزولُ الماء كان قَبْلَ تَغْشيةِ النعاس، ولم يترتَّب كذلك في الآية، إذ القصد منها تعديدُ النِّعم فقط[٣].

وقرأ طلحة: «ونُنَزِّن» بالنون والتشديد[٤]، وقرأ الجمهور: «ماءً» بالمدِّ، وقرأ الشعبيُّ: «ما» بغير همز، حكاه ابنُ جنِّيّ وصاحبُ «اللوامح في شواذِّ القراءات»[٥]، وخرَّجاه على أنَّ «ما» بمعنى «الذي»، قال صاحبُ «اللوامح»: وصِلَته حرفُ الجَرِّ الذي هو «لِيُطَهِّركم»، والعائد عليه: هو، فمعناه: الذي هو لِيُطَهِّركم به. انتهى.

وظاهرُ هذا التخريج فاسد؛ لأنَّ لام «كي» لا تكون صلةً، ومِن حيث جَعل العائد[٦]: هو، وقال: معناه: الذي هو لِيُطَهِّركم، لا تكون لام «كي» هي الصلة، بل الصلة: هو، ولام الجرِّ والمجرور.

وقال ابن جِنِّيّ: «ما» موصولة، وصلتها حرفُ الجَرِّ بما جرَّه، فكأنَّه قال: ما لِلطَّهور[٧]. انتهى. وهذا فيه ما قلنا مِن مجيء لام «كي» صلةً.

---

(١) عند تفسير الآية (١٥٤).
(٢) تفسير القرطبي ٩/ ٤٦٠، وأخرجه عنه عن مجاهد الطبريُّ ١١/ ٦٦.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٧.
(٤) ينظر الكشاف ٢/ ١٤٧.
(٥) ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٧، وكلام ابنِ جنِّي في المحتسب ١/ ٢٧٤.
(٦) في المطبوع: الضمائر.
(٧) المحتسب ١/ ٢٧٤.

ويمكن تخريجُ هذه القراءة على وجه آخَر، وهو أنَّ «ما» ليس موصولاً بمعنى «الذي»، وأنّه بمعنى: ماءٍ، الممدود[١]، وذلك أنّهم حَكوا أنَّ العربَ حذفت هذه الهمزة، فقالوا: شربت مًا يا هذا، بحذف الهمزة وتنوينِ الميم، فيُمكن أن تُخرَّج على هذا، إلّا أنّهم أجْرَوا الوصلَ مُجرى الوقف، فحذفوا التنوينَ؛ لأنّك إذا وقفت على: شربت مًا؟ قلت: شربت مَا. بحذف التنوين وإبقاء الألف؛ إمَّا ألف الأصل التي هي بدل مِن الواو وهي عين الكلمة، وإمَّا الألف التي هي بدلٌ مِن التنوين حالةَ النصب.

وقرأ ابنُ المسيّب: «لِيُطْهِرَكم» بسكون الطاء[٢].

ومعنى: «لِيُطَهِّركم به» مِن الجَنَابات، وكان المؤمنونَ لَحِقَ أكثرَهم في سفرهم الجنَاباتُ وعَدِموا الماءَ، وكانت بينهم وبين ماءِ بدر مسافةٌ طويلة مِن رَمْلٍ دَهْسٍ[٣] لَيِّن تَسوخُ فيه الأرْجلُ، وكان المشركون قد سَبقوهم إلى ماء بدر.

وقيل: بل المؤمنونَ سبقوا إلى الماء ببدر، وكان نزول[٤] المطر قبل ذلك، والمرويُّ عن ابنِ عباس وغيرِه أنَّ الكفارَ يوم بدر سَبقوا المؤمنين إلى ماءِ بدر، فنزلوا عليه وبقيَ المؤمنونَ لا ماءَ لهم، فوَجَسَت نفوسُهم وعَطشوا وأجْنَبوا وصَلُّوا كذلك، فقال بعضهم في نفوسهم بإلقاء الشيطان إليهم: تزعم أنَّا أولياءُ اللهِ وفينا رسولُ الله وحالُنا هذه، والمشركون على الماء؟! فأنزل اللهُ المطرَ ليلةَ بدرٍ السابعة عَشْرة مِن رمضان حتى سالت الأوديةُ، فشرب الناسُ وتطهَّروا، وسَقوا الظَّهْر، وتدمَّنت[٥] السَّبَخة التي كانت بينهم وبين المشركين حتى ثَبَتت فيها أقدامُ المسلمين وقتَ القتال، وكانت قَبْلَ المطر تَسوخُ فيها الأرجل، فلمَّا نزل تلبَّدت، قالوا: فهذا معنى قوله: «لِيُطهِّركم به» أي: من الجَنابة.

---

(١) في المطبوع: المحدود.
(٢) أي: من أطهره الله. ينظر تفسير الثعلبي ٣/ ١٢١، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٠٧، والقراءة في القراءات الشاذة ص٤٩.
(٣) الدَّهْسُ والدَّهاس: المكان السهل اللَّين، لا يبلغ أن يكون رملاً، وليس هو بتراب ولا طين، ومنه: رمال دُهْس. الصحاح (دهس).
(٤) بعدها في (ع): الماء قبل.
(٥) في المطبوع: وتلبَّدت. وفي المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٦: وتدمثت.

«ويُذهِبَ عنكم رِجْزَ الشيطان» أي: عذابَه لكم بوساوسه، والرِّجْز: العذاب[١]، وقيل: رِجْزُه: كيدُه ووسوسته، وقيل: الجنابة مِن الاحتلام، فإنَّها مِن الشيطان، وورد: ما احتلم نبيٌّ قطُّ، إنَّما الاحتلام يكون مِن الشيطان[٢].

وقرأ عيسى بن عمر: «ويُذهِبْ» بجزم الباء[٣]، وقرأ ابنُ محيصن: «رُجْز» بضمِّ الراء[٤]، وأبو العالية: «رِجْس» بالسين[٥].

ومعنى الرَّبْط على القلب: هو اجتماعُ الرأي، والتشجيعُ على لقاء العدوِّ، والصبرُ على مكافحة العدوِّ.

والرَّبْط: الشَّدُّ، وهو حقيقة في الأجسام، فاستُعير هنا لِمَا حصل في القلب مِن الشِّدَّة والطمأنينةِ بعد التَّزلزل.

ومقتضى ذلك الرَّبْط، قال ابنُ عباس: الصبر، وقال مقاتل: الإيمان، وقيل: نزول المطر[٦]، وهو الظاهر؛ لأنَّ قوله: «لِيُطهِّركم» وما بعده تعليلٌ لإنزال المطر.

والظاهر أنَّ تثبيتَ الأقدام هو حقيقة؛ لأنَّ المكانَ الذي وقع فيه اللقاءُ كان رملاً تَغوصُ فيه الأرجل، فلبَّدَه المطرُ حتى ثَبتت عليه الأقدام، والضمير في «به» عائد على المطر.

وقيل: التثبيت للأقدام معنويٌّ، والمراد به كونه لا يفرّ وقتَ القتال.

والضمير في «به» عائد على المصدر الدالِّ عليه: «وليربط».

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٦، وخبر ابن عباس السالف أخرجه الطبري ٩/ ٦٤-٦٦، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٤٠٠)، وينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٠٣-٤٠٤، وزاد المسير ٣/ ٣٢٨، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٦٠.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٥٦٤)، وفي الأوسط (٨٠٦٢)، وابن عدي في الكامل ٣/ ٩٣ عن ابن عباس موقوفاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٢٦٧: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه: عبد العزيز بن أبي ثابت، وهو مجمع على ضعفه.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٦.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٦، وينظر القراءات الشاذة ص ٤٩.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٦، والقراءة في المحتسب ١/ ٢٧٥.

(٦) زاد المسير ٣/ ٣٢٨.

وانظر إلى فصاحة مجيء هذه التعليلات، بَدَأ أوّلاً منها بالتعليل الظاهر، وهو تطهيرهم مِن الجنابة، وهو فِعْلٌ جسمانيٌّ، أعني: اغتسالهم مِن الجنابة، وعطفَ عليه بغير لام العلَّة ما هو مِن لازمِ التطهير، وهو إذهاب رِجْز الشيطان حيث وَسوس إليهم بكونهم يُصَلُّون ولم يَغتسلوا مِن الجنابة، ثم عطفَ بلام العلَّة ما ليس بفِعْل جسمانيٍّ، وهو فِعْلٌ محلُّه القلب، وهو التشجيع والاطمئنان والصبرُ على اللقاء، وعطف عليه بغير لام العلَّة ما هو مِن لازِمِه، وهو كونهم لا يفرُّون وقتَ الحرب.

فحين ذكرَ التعليل الظاهر الجسمانيّ والتعليل الباطن القلبيّ، ظهر حرفُ التعليل، وحين ذكرَ لازمهما، لم يؤكِّد بلام التعليل، وبَدَأ أوّلاً بالتطهير؛ لأنَّه الآكدُ والأسبقُ في الفعل، ولأنَّه الذي تُؤدَّى به أفضلُ العبادات وتَحْيا به القلوب.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ هذا أيضاً مِن تعديد النِّعم، إذ الإيحاء إلى الملائكة بأنَّه تعالى معهم، أي: ينصرهم ويُعينهم، وأَمْرُهم بتثبيت المؤمنين والإخبار بما يأتي بَعْدُ مِن إلقاء الرُّعب في قلوب أعدائهم، والأَمْر بضَرْبٍ فوق أعناقهم، وكلّ بَنَانٍ منهم = مِن أعظم النِّعم، وفي ذلك إعلامٌ بأنَّ الغَلَبة والظَّفَر والعاقبة للمؤمنين.

وقال الزمخشريُّ: «إذ يوحي» يجوز أن يكون بدلاً ثالثاً مِن «إذ يعدكم» وأن ينتصب بـ «يثبِّت»[(١)].

وقال ابنُ عطيَّة: العامل في «إذ» العامل الأول على ما تقدَّم فيما قبلها، ولو قدَّرناه قريباً لكان قوله: «ويُثبِّت» على تأويل عودِ الضمير على الربط، وأمَّا على عَودِه على الماء فيَقْلَق أن يَعمل «ويثبّت» في «إذ»[(٢)]. انتهى. وإنَّما يقْلَق ذلك عنده؛ لاختلاف زمانِ التثبيت عنده وزمانِ هذا الوحي؛ لأنَّ زمانَ إنزال المطر وما تعلَّق به مِن تعاليله متقدِّم على تغشية النُّعاس [(٣)]وذلك الوحي، وتغشية النعاس[(٣)] والإيحاء كانا وقتَ القتال، وهذا الوحي إمَّا بإلهام وإمَّا بإعلام.

(١) الكشاف ٢/١٤٧-١٤٨.
(٢) المحرر الوجيز ٢/٥٠٧.
(٣-٣) ليست في (ب) والمطبوع، والمثبت من (أ).

وقرأ عيسى بنُ عمر بخلافٍ عنه: «إنِّي معكم» بكسر الهمزة[1]، على إضمار القول على مذهب البصريين، أو على إجراء «يوحي» مُجرى: يقول، على مذهب الكوفيين.

والملائكة هم الذين أُمِدَّ المؤمنونَ بهم، ولمَّا كان ما تقدَّم مِن تعداد النِّعم على المؤمنين، جاء الخطاب لهم بـ «يُغشِّيكم» و«ينزل عليكم» و«ليطهِّركم» و«يذهب عنكم رجز» و«ليربط على قلوبكم»، إذ كان في هذه أشياءُ لا تُناسِب منصبَ الرسالة، ولمَّا ذَكَر الوحيَ إلى الملائكة، أتَى بخطاب الرسول وَحْدَه، فقال: «إذ يوحي ربك» ففي[2] ذلك تشريفٌ به بمواجهته بالخطاب وَحْدَه، أي: مُرَبِّيك والناظر في مصلحتِك.

وتثبيت الذين آمنوا، قال الحسن: بالقتال. أي: فقاتِلوا، وقال مقاتل: بَشِّروهم بالنَّصْر، فكان المَلَكُ يسير أمام الصَّفِّ في صورة الرجل، فيقول: أبْشِروا فإنَّ اللهَ ناصرُكم.

وذَكَر الزجَّاجُ أنَّهم يُثبِّتونهم بأشياءَ يُلْقونها في قلوبهم تقوى بها، وذَكَر الثعلبيُّ نحوه، قال: صَحَّحوا عزائمَهم ونيَّاتِهم على الجهاد[3].

وقال ابنُ عطيَّة نحوَه، قال: ويحتمل أيضاً أن يكون التثبيتُ الذي أمرَ به ما يُلقيه المَلَك في قلب الإنسان مِن توهُّم الظَّفَر واحتقارِ الكفار، ويُجري عليه مِن خواطر تشجيعه، ويقوِّي هذا التأويل مطابقةُ قوله: «سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب» وإن كان إلقاءُ الرعبِ يُطابِق التثبيتَ على أيِّ صورة كان التثبيت، ولكنَّه أشبه بهذا، إذ هي مِن جنس واحد، وعلى هذا التأويل يَجِيْء قوله: «سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب» مخاطبةً للملائكة، ثم يَجِيْءُ قوله: «فاضربوا فوق الأعناق» لفظُه لفظُ

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٧، وينظر الكشاف ٢/ ١٤٨.
(٢) هنا وقع اضطراب في ترتيب أوراق الجزء الخامس من النسخة الخطية المحمودية (ح)، حيث تقدَّمت الورقة التاسعة وحتى الورقة الحادية والثلاثين على الأوراق التسع الأولى، وبالعكس.
(٣) زاد المسير ٣/ ٣٢٩، وقول الزجاج في كتابه معاني القرآن ٢/ ٤٠٤، وقول الثعلبي في التفسير ٣/ ١٢١.

الأمر، ومعناه الخبرُ عن صورة الحال، كما تقول إذا وصفتَ لمَن تُخاطبه: لَقِيْنا القومَ وهزمناهم، فاضْرِب بسيفك حيث شئت، واقتُل، وخُذْ أسيرَك، أي: هذه كانت صفة الحال.

ويَحتمل أن يكون «سألقي» إلى آخِر الآية، خبراً يُخاطب به المؤمنين عمَّا يَفعله بالكفار في المستقبل، كما فعله في الماضي، ثم أمَرهم بضَرْب الرِّقاب والبَنَان؛ تشجيعاً لهم وحَضًّا على نُصْرة الدِّين[1].

وقال الزمخشريُّ: والمعنى: إنِّي مُعينكم على التثبيت، فثبِّتوهم.

وقوله: «سأُلقي... فاضربوا» يجوز أن يكون تفسيراً لقوله: «أنِّي معكم فثبِّتوا»، ولا معونةَ أعظم مِن إلقاء الرعب في قلوب الكفرةِ، ولا تَثبيت أبلغ مِن ضَرْب أعناقهم، واجتماعهما غايةُ النصرة.

ويجوز أن يكون غيرَ تفسير، وأن يُراد بالتثبيت أن يُخطِروا ببالهم ما تقوى به قلوبُهم، وتصحُّ عزائمهم ونيَّاتهم في القتال، وأن يُظهِروا ما يتيقَّنون به أنَّهم مُمَدّون بالملائكة.

وقيل: كان المَلَك يتشبَّه بالرجل الذي يَعرفون وجهَه، فيأتي فيقول: إنِّي سمعتُ المشركين يقولون: واللهِ لَئِن حَملوا علينا لننكشفنَّ، ويمشي بين الصَّفَّين فيقول: أَبْشِروا فإنَّ اللهَ تعالى ناصرُكم؛ لأنَّكم تَعبدونه، وهؤلاء لا يَعبدونَهُ[2]. انتهى.

ثم قال: ويَجوز أن يكون قوله: «سأُلقي» إلى قوله: «كلّ بنان» عقيبَ قوله: «فثبِّتوا الذين آمنوا» تلقيناً للملائكة ما يُثبِّتونهم به، كأنَّه قال: قولوا لهم: «سأُلقي»، والضاربون على هذا همُ المؤمنون[3]. انتهى.

والذي يَظهر أنَّ ما بَعْدَ «يوحي ربُّك إلى الملائكة» هو مِن جملة الموحَى به، وأنَّ الملائكةَ هم المخاطبونَ بتثبيت المؤمنين، وبضَرْبِ فوق الأعناق، وكلّ بنان.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٨.
(٢) الكشاف ٢/ ١٤٨.
(٣) المصدر السابق.

وقال السائب بنُ يسار: كنَّا إذا سألنا يزيد بنَ عامر السُّوائي عن الرُّعب الذي ألقاه الله في قلوب المشركين، كيفَ كان؟ يَأخُذ الحَصَا ويَرمي به الطَّسْت فَيَطِنُّ، فيقول: كنَّا نجد في أجوافنا مِثْلَ هذا[١].

وقرأ ابنُ عامر والكسائيُّ والأعرج: «الرُّعُبَ» بضمِّ العين[٢].

و«فوق» قال الأخفش: زائدة، أي: فاضربوا الأعناقَ، وهو قول عطيَّة والضَّحَّاك[٣]، فتكون «الأعناق» هي المفعولَ بـ «اضربوا»، وهذا ليس بجيِّد؛ لأنَّ «فوق» اسمٌ ظرفٌ، والأسماء لا تُزاد.

وقال أبو عبيدة: «فوق» بمعنى «على»، تقول: ضربته فوقَ الرأس، وضربته على الرأس[٤]. ويكون مفعول: «فاضربوا» على هذا محذوفاً، أي: فاضربوهم فوقَ الأعناق، وهذا قولٌ حسن لإبقاء «فوق» على معناها مِن الظرفيَّة.

وقال ابن قتيبة: «فوق» هنا بمعنى: «دُون»، قال ابنُ عطيَّة: وهذا خَطَأٌ بَيِّن، وإنَّما دَخَل عليه اللَّبْسُ مِن قوله تعالى: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] [٥أي: فما دونها، وليست «فوق» هنا بمنزلة «دون»، وإنَّما المراد: فما فوقها٥] في القلَّة والصِّغَر، فأشبه المعنى «دون». انتهى.

وعلى قولِ ابنِ قتيبة، يكون المفعول محذوفاً، أي: فاضربوهم.

وقال عكرمة: «فوق» على بابها، وأراد الرؤوسَ؛ إذ هي فوقَ الأعناق[٦].

---

(١) زاد المسير ٣/ ٣٢٩، والخبر أخرجه عبد بن حميد في مسنده (٤٣٩)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٤٦٤)، والطبراني في الكبير ٢٢/ ٢٣٧ (٦٢٣)، والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ١٤٣-١٤٤، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٨٤: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٢) السبعة ص ٢١٧، والتيسير ص ٩١، والنشر ٢/ ٢١٦، وهي أيضاً قراءة أبي جعفر ويعقوب من العشرة.

(٣) قول الأخفش في كتابه معاني القرآن ٢/ ٥٤١-٥٤٢، وقول الضحاك وعطية أخرجه عنهما الطبري ١١/ ٧٠.

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٤٢.

(٥-٥) ليست في (ب) والمطبوع، والكلام من المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٨، والذي في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٧٧: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي: الأعناق.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٨، وينظر تفسير القرطبي ٩/ ٤٦٨، وأخرجه عنه الطبري ١١/ ٧١.

قال الزمخشريُّ: يعني: ضَرْبَ الهامِ، قال:

وأضْرِبُ هامَةَ البَطَلِ المُشِيحِ

وقال آخَرُ:

غَشَّيْتُه وَهْو في جَأْواءَ باسلةٍ عَضْباً أصابَ سواءَ الرأسِ فانفلقَا[1]

انتهى.

وقال ابنُ عطيَّة: وهذا التأويلُ أنْبَلُها، ويَحتمل عندي أن يُريد بقوله: «فوق الأعناق» وَصْفَ أَبْلغِ ضَرَبات العُنُق وأَحْكَمِها، وهي الضَّرْبة التي تكون فوقَ عَظْم العُنُق ودونَ عَظْم الرأس في المَفْصِل، ويُنظر إلى هذا المعنى قول دريد بنِ الصِّمَّة الجُشَمِيِّ لابنِ الدَّغِنَة السُّلَمي، حين قال له: خذ سيفي وارْفَع عن العَظْم واخْفِض عن الدِّماغ، فهكذا كنتُ أَضربُ أعناقَ الأبطال، ومنه قولُ الشاعر:

جعلتُ السيفَ بين الجِيْدِ منه وبينَ أَسِيْلِ خَدَّيْه عِذارا

فيجيء على هذا «فوق الأعناق» متمكّناً[2]. انتهى.

فإن كان قولُ عكرمة تفسيرَ معنًى فَحَسَنٌ، ويكون مفعول: «فاضربوا» محذوفاً، وإن كان أراد أنَّ «فوق» هو المضروب، فليس بجيِّد؛ لأنَّ «فوق» مِن الظروف التي لا يتصرّف فيها؛ لا تكون مبتدأةً ولا مفعولاً بها ولا مضافاً إليها، إنَّما يتصرَّف فيها بحرف جرٍّ، كقوله: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر:١٦] هذا هو الصحيح في «فوق».

---

(١) الكشاف ٢/ ١٤٨، وعجز البيت الأول لعمرو بن الإطْنابة، وهو في كتاب الحيوان للجاحظ ٦/ ٤٢٥، والكامل للمبرد ١/ ١١٩ و٣/ ١٤٣٤، وأمالي القالي ١/ ٢٥٨، وورد عندهم: وضربي، بدل: وأضرب، وصدر البيت عند بعضهم: وإعطائي على الإعدام مالي، وعند آخرين: وإقدامي على المكروه نفسي. ووقع في الكامل: وإجشامي، بدل: وإقدامي.
قال أبو علي القالي: المُشِيح: المبادر المنكمش، ويقال: بطل مُشيح، أي: حامل.
والبيت الآخر لبلعاء بن قيس الكناني، وهو في ديوان المعاني للعسكري ١/ ١١٤، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٦٠، والتذكرة السعدية ص ٤٣، وخزانة الأدب ٦/ ٥٥٦.
والعَضْب: القطع، وسيف عَضْب، أي: قاطع، والسَّواء: الوسط، وأصاب بمعنى: طَلَب، وبمعنى: نال، والجأواء: المخضرَّة.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٨، ولم نقف على البيت عند غيره، وأورده السمين الحلبيُّ في الدر المصون ٥/ ٥٧٩، وابن عادل في اللباب ٩/ ٤٧٢، نقلاً عن البحر المحيط.

وقد أجاز بعضُهم أن يكون «فوق» في الآية مفعولاً به، وأجاز فيها التصرُّفَ، قال: تقول: فوقُك رأسُك، بالرفع، وفوقَك قَلَنسُوتُك، بالنصب، ويَظهر هذا القول مِن الزمخشريِّ قال: «فوق الأعناق» أرادَ أعاليَ الأعناق التي هي المَذابح؛ لأنَّها مفاصلُ، فكان إيقاع الضَّرْب فيها حَزًّا وتطييراً للرؤوس[١]. انتهى.

والبَنَانُ تقدَّم الكلام فيها في المفردات، وقالت فرقة منهم الضَّحَّاك: البَنَان: هي المفاصِلُ حيث كانت مِن الأعضاء[٢]. وقالت فرقة: البَنانُ: الأصابعُ مِن اليدين والرِّجْلين، وقيل: الأصابع وغيرُها مِن الأعضاء، والمختار أنَّها الأصابع، وقال عنترة:

وكان فَتَى الهَيْجَاءِ يَحْمي ذِمارَها ... ويَضْرِبُ عندَ الكَرْبِ كلَّ بَنانِ[٣]

وقال أيضاً:

وأنَّ الموتَ طَوْعُ يدي إذا ما ... وَصَلْتُ بَنانَها بالهِنْدُوانِي[٤]

وضَرْب الكفَّار مشروعٌ في كلِّ موضع منهم، وإنَّما قصدَ أبلغ المواضع وأثبت ما تكون المَقَاتِل؛ لأنَّه إذا عَمد إلى الرأس أو الأطراف كان ثابتَ الجَأْش متبصِّراً فيما يَضَع فيه آلةَ قتاله؛ مِن سيفٍ ورمحٍ وغيرهما، ممَّا يَقع به اللقاء، إذ ضَرْبُ الرأس فيه أشغلُ شاغلٍ عن القتال، وكثيراً ما يؤدِّي إلى الموت، وضَرْبُ البنان فيه تعطيلُ القتال مِن المضروب، بخلاف سائر الأعضاء.

قال الفرَّاء: علَّمهم مواضعَ الضَّرْب، فقال: اضربوا الرؤوس والأيدي والأرجل[٥]، فكأنَّه قال: فاضربوا الأعاليَ إن تمكَّنتم مِن الضَّرْب فيها، فإن لم تَقدروا فاضربوهم في أوساطهم، فإن لم تقدروا فاضربوهم في أسافلهم؛ فإنَّ الضَّرْبَ في الأعالي يُسرع بهم إلى الموت، والضَّرْب في الأوساط يُسرع بهم إلى

(١) الكشاف ٢/ ١٤٨.
(٢) أخرجه عنه الطبري ١١/ ٧٢.
(٣) ديوان عنترة ص ٧٠، وفيه: لدى، بدل: فتى. والذِّمار: كل ما يلزمك حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه، وإن ضيَّعه لزمه اللوم. اللسان (ذمر).
(٤) ديوان عنترة ص ٧٢، والهندواني: السيف المطبوع من حديد الهند. الصحاح (هند).
(٥) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٠٥.

عدم الامتناع، والضرب في الأسافل يَمنعهم مِن الكَرِّ والفَرِّ، فيحصل من ذلك إمَّا إهلاكُهم بالكُلِّيَّة، وإمَّا الاستيلاء عليهم وقَسْرُهم. انتهى. وفي قول الفرَّاء هذا تحميلُ ألفاظِ القرآن ما لا تَحتمله.

وقال الزمخشريُّ: والمعنى: فاضربوا المقاتِل والشَّوَى[1]؛ لأنَّ الضَّرْبَ إمَّا واقع على مَقتَل أو غيرِ مَقتَل، فأمَرهم بأن يَجمعوا عليهم النوعين معاً[2]. انتهى.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الإشارة إلى ما حلَّ بهم مِن إلقاء الرُّعب في قلوبهم وما أصابهم مِن الضَّرْب والقَتْل، والكافُ لخطابِ الرسول، أو لخطاب كلِّ سامع، أو لخطاب الكفَّار على سبيل الالتفات.

و«ذلك» مبتدأ، و«بأنَّهم» هو الخبر، والضمير عائد على الكفار، وتقدَّم الكلام في المشاقَّة في قوله: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ [البقرة:١٣٧] والمشاقَّة هنا مُفاعَلة، فكأنَّه تعالى لمَّا شَرَعَ شَرْعاً وأمَرَ بأوامِرَ وكذَّبوا بها وصدُّوا، تباعَدَ ما بينهم وانفصلَ وانشقَّ، وعبَّر المفسِّرون عن قوله: «شاقُّوا الله» أي: صاروا في شِقٍّ غيرِ شِقِّه.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١٣﴾ أجمعوا على الفَكِّ في «يُشاقِق» اتِّباعاً لخطِّ المصحف[3]، وهي لغة الحجاز، والإدغام لغة تميم، كما جاء في الآية الأخرى: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ [الحشر:٤] وقيل: فيه حذفُ مضاف، تقديره: شاقُّوا أولياءَ الله، و«مَن» شرطيَّة، والجواب: «فإنَّ» وما بعدها، والعائد على «مَن» محذوف، أي: شديد العقاب له، وتضمَّن وعيداً وتهديداً، وبَدَأهم بعذاب الدنيا مِن القَتْل والأَسْر والاستيلاء عليهم.

﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٤﴾ جمع بين العذابَيْن؛ عذابِ الدُّنيا وهو المعجَّل، وعذابِ الآخرة وهو المؤجَّل، والإشارة بـ «ذلكم» إلى ما حلَّ بهم مِن عذاب الدنيا، والخطابُ للمشاقِّين، ولمَّا كان عذابُ الدنيا بالنسبة إلى

(١) الشَّوَى: جلدة الرأس، والشَّوَى: اليدان والرجلان والرأس من الآدميين، وكلُّ ما ليس مَقتَلاً. الصحاح (شوي).
(٢) الكشاف ٢/ ١٤٨.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٩.

عذاب الآخرة يسيراً، سمَّى ما أصابهم منه ذَوْقاً؛ لأنَّ الذَّوقَ يُعرَف به الطَّعْم، وهو يسيرٌ ليُعرَف به حال الطَّعْم الكثير، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ [الواقعة: ٥١-٥٣] فما حَصَل لهم مِن العذاب في الدنيا كالذَّوْق القليل بالنسبة إلى ما أعدَّ لهم في الآخرةِ من العذاب العظيم.

و«ذلكم» مرفوع إمَّا على الابتداء، والخبر محذوف، أي: ذلكم العقابُ، أو على الخبر، والمبتدأ محذوف، أي: العقاب ذلكم، وهما تقديران للزمخشريِّ[1]، وقال ابنُ عطيَّة: أي: ذلكم الضَّرْب والقَتْل وما أوقع اللهُ بهم يومَ بدرٍ، فكأنَّه قال: الأَمْرُ ذلكم فذُوقوهُ[2]. انتهى. وهذا تقدير الزجَّاج[3].

وقال الزمخشريُّ: ويجوز أن يكون نصباً على: عليكم ذَلكم فذوقُوه، كقولك: زيداً فاضْرِبه[4]. انتهى. ولا يجوز هذا التقدير؛ لأنَّ «عليكم» مِن أسماء الأفعال، وأسماءُ الأفعال لا تُضمَر، وتشبيهه لهُ بقولك: زيداً فاضْرِبه، ليس بجيِّد؛ لأنَّهم لم يُقدِّروه بـ: عليكَ زيداً فاضْرِبه، وإنَّما هذا منصوب على الاشتغال، وقد أجازَ بعضهم في «ذلكم» أن يكون منصوباً على الاشتغال.

وقال بعضهم: لا يجوز أن يكون «ذلكم» مبتدأً، و«فذوقوه» خبراً؛ لأنَّ ما بعد الفاء لا يكون خبراً لمبتدأ إلَّا أن يكون المبتدأُ اسماً موصولاً أو نكرةً موصوفةً، نحو: الذي يأتي فله درهمٌ، وكلُّ رجل في الدار فمكرَمٌ[5]. انتهى.

وهذا الذي قاله صحيح، ومسألةُ الاشتغال تنبني على صحَّة جواز أن يكون «ذلكم» يصح فيه الابتداءُ إلَّا أنَّ قولهم: زيداً فاضْرِبه، و: زيدٌ فاضْرِبه، ليست الفاء هنا كالفاء في: الذي يأتيني فله درهم، لأنَّ هذه الفاءَ دخلت لتضمُّن المبتدأ معنى اسمِ الشرط، ولذلك شروطٌ ذُكرت في النحو، والفاء في: زيد فاضربه، هي جوابٌ لأمرٍ مقدَّر، ومؤخّرة مِن تقديم، والتقدير: تنبَّه، فزيدٌ اضْرِبه، وقالت العرب: زيداً

(١) الكشاف ٢/ ١٤٨.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٩.
(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٤٠٧.
(٤) الكشاف ٢/ ١٤٨.
(٥) تفسير الرازي ١٥/ ١٣٧.

فاضْرِب، وقدَّره النحاةُ: تَنبَّهْ، فاضْرِب زيداً، وابتنى الاشتغال في: زيداً فاضْرِبه، على هذا التقدير، فقد بَانَ الفرقُ بين الفاءَين، ولولا هذا التقدير لم يجز: زيداً فاضْرِب، بل كان يكون التركيب: زيداً اضْرِب، كما هو إذا لم يقدَّر هناكَ أَمْرٌ بالتنبيه محذوفٌ.

وقرأ الجمهور: «وأنَّ» بفتح الهمزة، قال الزمخشريُّ: عطف على «ذلكم» في وجهَيْه، أو نصب على أنَّ الواو بمعنى: «مع»، والمعنى: ذوقوا هذا العذابَ العاجل مع الآجِل الذي لكم في الآخرة، فوضع الظاهرُ موضع الضمير[1]. [2]انتهى. ويعني بقوله: في وجهَيْه. أي: وجهَي الرفع. وقوله: فوضع الظاهر موضع الضمير[2]. أي: مكان: وأنَّ لكم: «وأنَّ للكافرين».

وقال ابنُ عطيَّة: إمَّا على تقدير: وحَتْمٌ «أنَّ»، فتقدّر ابتداء محذوف تكون «أنَّ» خبرَه، وقال سيبويه: التقدير: الأَمْرُ ذلكم، وإمَّا على تقدير: واعلموا أنَّ، فهي على هذا في موضع نصبٍ[3]. انتهى.

وقرأ الحسن وزيد بنُ عليٍّ وسليمان التيميُّ: «وإنَّ» بكسر الهمزة[4]، على استئناف الإخبار.

* * *

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن
يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ
وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ
رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾
ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن

(١) الكشاف ٢/ ١٤٨.
(٢-٢) ليست في (ب) والمطبوع.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٩، وينظر كتاب سيبويه ٣/ ١٢٥.
(٤) القراءات الشاذة ص ٤٩ عن الحسن، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٠٩ عن سليمان عن الحسن بن أبي الحسن.

تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾
وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ
ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم
مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ
أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةًۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ
مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ
وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ
﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ
لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ
يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ
سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ
إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ
﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ
إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ
إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةًۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ
بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل
لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ
ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ
ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

المفردات

الزَّحْف: قال اللَّيث: الجماعةُ يَمشون إلى عدوِّهم[١]. قال الأعشى:

لِمَنِ الظَّعَائِنُ سَيْرُهُنَّ تَزَحُّفُ مِثْلَ السَّفِينِ إذا تقاعَسَ تُجذَفُ[٢]

وقال الفرَّاء: الزَّحْف: الدُّنوُّ قليلاً قليلاً، يقال: زَحَفَ إليه يَزْحَف زَحْفاً: إذا مشى، وأَزْحَفتُ القومَ: دنوتُ لِقتالهم، وكذلك: تَزَحَّف وتَزاحَف، وأَزْحَفَ لنا عدوُّنا إزحافاً: صاروا يَزحفون لقتالنا، وازْدَحَف القومُ ازدِحافاً: مَشَى بعضُهم إلى بعض. وقال ثعلب: ومنه الزِّحافُ في الشِّعْر، وهو أن يسقطَ بين الحرفين حرفٌ، ويَزحف أحدُهما إلى الآخَر.

وسُمِّي الجيش العَرَمْرَم بالزَّحْف؛ لكثرته، كأنَّه يَزحف، أي: يَدِبُّ دَبِيباً، مِن: زَحَفَ الصبيُّ: إذا دبَّ على أَلْيَتِهِ قليلاً قليلاً، وأصله: مصدر: زَحَف، وقد جُمع: الزَّحْف، على: زُحوف، وقال الهُذليُّ يصف مَنْهَلاً:

كأنَّ مَزاحِفَ الحيَّاتِ فيه قُبَيْلَ الصبحِ آثارُ السِّيَاطِ[٣]

المُتَحَيِّز: المُنْضمُّ إلى جانب، وقال أبو عبيد[٤]: التحيُّز والتحوُّز: التَّنَحِّي. وقال الليث: مالَكَ تَتحوَّز[٥]؟ إذا لم تستقرَّ على الأرض، وأصله: مِن الحَوْز وهو الجَمْع، يقال: حُزْتُه في الطِّرْسِ[٦] فانْحازَ، وتحيَّز: انضمَّ واجتمع، وتحوَّزت

---

(١) ينظر المخصص لابن سِيْدَه، السِّفْر السادس ص ٢٠٤.

(٢) القائل: أعشى همدان، والبيت قاله ذاكراً ما لحقه من أسْر الدَّيلم، وهو عند الجاحظ في البيان والتبيين ٣/ ١٨٨، والأصفهاني في الأغاني ٦/ ٣٥، وابن حمدون في التذكرة الحمدونية ٧/ ١٨٣، وورد عند بعضهم: سَيْر، وعند آخرين: عَوْم، بدل: مثل. والتزحُّف: السير في بُطْءٍ وكلال. وتقاعس: تأخَّر ورجع إلى خلف. ويقال: جذف الملاح السفينة: حرَّكها بالمجذاف.

(٣) القائل: المُتَنَخِّل مالك بن عويمر الهذلي، والبيت في ديوان الهذليين ٢/ ٢٥، ومزاحف الحيَّات: آثار انسيابها، ومواضع مَدَبِّها. اللسان (زحف).

(٤) في المطبوع: أبو عبيدة. وكذا في مطبوع تفسير الرازي ١٥/ ١٣٧، وكلام أبي عبيدة في اللسان (حوز)، والمثبت من (أ) و(ب) و(ز١)، وكلام أبي عبيد في كتابه غريب الحديث ٣/ ١٠٧.

(٥) في (أ): متحوز، وفي (ب) والمطبوع: متحوزاً. وينظر لسان العرب (حوز).

(٦) الطِّرْس: الصَّحيفة، أو الكتابُ الذي مُحيَ ثم كُتِبَ، والجمع: أطراس وطروس. المعجم الوسيط (طرس).

الحيَّةُ: انطوت واجتمعت، وسُمّي التّنحّي تحيُّزاً؛ لأنَّ المتنحّي عن جانب ينضمُّ عنه ويَجتمع إلى غيره، وتَحيَّز: تَفَيْعَل، أصلُه: تَحَيْوَز، اجتمعت ياءٌ وواو وسُبقت إحداهما بالسُّكون، فقُلبت الواو ياء، وأُدغمت فيها الياء، وتَحَوّز: تَفَعّل، ضُعِّفت عينه.

الرَّمْي معروف، ويكون بالسَّهم والحَجَر والتراب.

المُكَاءُ: الصَّفِيْر، وقال عنترة:

وحليلِ غانيةٍ تَرَكْتُ مُجَدَّلاً تَمكو فَرِيْصَتُه كَشِدْقِ الأعْلَمِ[1]

أي: تصوّت، ومنه: مكَتِ استُ الدَّابَّة: إذا نَفَخَت بالرِّيْح، وقال السُّدِّيُّ: المُكاءُ: الصَّفِيْر على لَحْنِ طائرٍ أبيضَ بالحجاز، يقال له: المُكَّاءُ[2]، قال:

إذا غرَّد المُكَّاء في غيرِ روضةٍ فويلٌ لأَهْلِ الشَّاءِ والحُمُراتِ[3]

وقال أبو عُبيدة[4] وغيره: مَكَا يَمْكُو مُكُوًّا ومُكَاءً: إذا صَفَر، والكثيرُ في الأصوات أن تكون على: فُعَال، كالصُّراخ والخُوار والدُّعاء والنُّباح.

التَّصْدِيَةُ: التَّصْفِيق، صَدَّى يُصَدِّي تَصْدِيَةً: صَفَّق، وهو فَعَّلَ مِن الصَّدَى، وهو الصَّوتُ.

---

(١) ديوان عنترة ص ٢٤، ووقع في (ع) و(ح) ومطبوع البحر: وخليل، بدل: وحليل، والحليل: الزوج، والغانية: الزوجة التي غنيت بزوجها، أو التي غُنيت بحُسنها وجمالها. والمجدَّل: الملقى بالجَدالة، وهي الأرض. والفريصة: اللحم بين الكتف والصدر. والأعلم: مشقوق الشفة العليا. ينظر اللسان (حلل)، (غني)، (جدل)، (فرص)، (علم).

(٢) ينظر تفسير القرطبي ٤٩٨/٩-٤٩٩، وأخرجه عنه الطبري ١٦٦/١١، وفيه: على نحو طائر، بدل: على لحن طائر...

(٣) البيت في أدب الكاتب لابن قتيبة ص ١٩٣، وأمالي القالي ٣٢/٢، والصاحبي لابن فارس ص ٢٤٦، ومحاضرات الأدباء للأصفهاني ٧٤٧/٤ دون نسبة، والبيت أومئ فيه إلى الجَدْب، وذلك أن المُكّاء يألف الرياض، فإذا أجدبت الأرض سقط في غير روضة.

(٤) كذا في النسخ، وإحدى النسخ الخطية لتفسير القرطبي، كما ورد بهامش مطبوعه ٤٩٩/٩، والذي في معاني القرآن للنحاس ١٥٢/٣ والنسخ الخطية الأخرى للقرطبي ومطبوعه: أبو عبيد. والكلام بنحوه في مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢٤٦/١، فليُحرَّر!.

الرَّكْمُ: قال الليث: جَمْعُك[١] شيئاً فوقَ شيء حتى تجعلَه رُكاماً مَرْكوماً، كرُكام الرَّمْلِ والسَّحاب[٢].

مضى: تقدَّم، والمصدرُ: المُضِيُّ.

* * *

التفسير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ مناسبة هذه الآية لِمَا قبلها أنَّه تعالى لمَّا أخبر أنَّه سيُلقي الرعبَ في قلوب الكفَّار وأَمَرَ مَن آمَنَ بضَرْبِ فوقَ أعناقهم وبَنانهم، حَرَّضهم على الصبر عند مكافحة العدوِّ، ونهاهم عن الانهزام.

وانتصبَ «زَحْفاً» على الحال، فقيل: مِن المفعول، أي: لقيتموهم وهم جمٌّ كثير وأنتم قليل، فلا تفرُّوا فَضْلاً عن أن تُدانوهم في العَدَد أو تساووهم.

وقيل: مِن الفاعل، أي: وأنتم زَحْفٌ مِن الزحوف، وكأنَّ ذلك إشعار بما سيكون منهم يومَ حُنَيْن حين انهزموا وهم اثنا عشر ألفاً بعد أن نهاهم عن الفِرار يومئذ.

وقيل: حال مِن الفاعل والمفعول، أي: متزاحفين أنتم وهم، ولم يذكر ابنُ عطيَّة إلَّا ما يدلُّ على أنَّه حالٌ منهما، قال: «زحفاً» يُرادُ به متقابِلي الصفوف والأشخاص، أي: يزحف بعضهم إلى بعض[٣].

وقيل: [٤]انتصب «زَحْفاً» على المصدر بحال محذوفة، أي: زاحفين زَحْفاً.

وهذا الذي قيل مُحْكَمٌ، فيَحرم الفِرارُ عند اللقاء بكلِّ حالٍ[٤]، وقيل: كان هذا في ابتداء الإسلام حيث كان[٥] الأَمْرُ بالمصابرة أن يواقف[٦] مسلمٌ عشرةَ كفَّار، ثم

---

(١) في (أ) والمطبوع: جمع. وينظر الدر المصون ٥/ ٥٨٣.
(٢) ونقله عنه الأزهري في تهذيب اللغة ١٠/ ٢٤٢، وينظر العين ٥/ ٣٦٩ (ركم).
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٩.
(٤-٤) ليست في (ب).
(٥) بعدها في (ب): عند القتال.
(٦) في (ح): يوافق. وفي (أ): يرافق، وينظر النكت والعيون ٢/ ٣٠٢.

خُفِّف فجعل واحدٌ في مقابلة اثنين، ويأتي حُكْمُ المؤمِنَة الفارَّةِ مِن ضِعْفَيها في آيةِ التخفيف[١] إن شاء الله تعالى.

وعَدلَ من لفظ الظهور إلى لفظ الأدبار؛ تقبيحاً لِفِعْل الفارِّ وتبشيعاً لانهزامه، وتضمَّن هذا النهيُ الأمرَ بالثبات والمصابرة على القتال.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ لمَّا نهى تعالى عن تولِّي الأدبار، توعَّد مَن ولَّى دُبُرَه وقتَ لقاء العدوِّ، وناسب قولَه: «ومَن يولهم» قولُه: «فقد باء بغضب» كأنَّ المعنى: فقد وَلَّى مصحوباً بغَضَب الله، وعَدَل أيضاً عن ذِكْر الظَّهْر إلى الدُّبُر مبالغةً في التقبيح والذَّمِّ، إذ تلك الحالة مِن الصفات القبيحة المذمومة جدًّا، ألَا ترى إلى قول الشاعر:

فلسنا على الأعقاب تَجري كُلُومُنا ولكن على أقدامِنا تَقْطُرُ الدِّمَا[٢]

قال في «التحرير»: وهذا النوع مِن عِلْم البيان يُسمَّى التَّعْرِيْض، عرَّض بسُوء حالهم وقُبْح فِعْلهم وخَسَاسة منزلتهم، وبعضهم يُسمِّيه: الإيماء، وبعضهم يُسمِّيه: الكِناية، وهذا ليس بشيء، فإنَّ الكناية أن تُصرِّح باللفظ الجميل على المعنى القَبيح. انتهى.

والظاهر أنَّ الجملةَ المحذوفة بعد «إذ»[٣] وعوِّض منها التنوين: هي قوله: «إذا لقيتم» الكفَّار، وقيل: المراد يومُ بدرٍ وما وَلِيَه، وفي ذلك اليوم وَقَع الوعيدُ بالغضب على مَن فرَّ، ونُسِخَ بعد ذلك حُكْمُ الآية بآيةِ الضَّعْف، وبَقِيَ الفرارُ من الزحف ليس كبيرةً، وقد فرَّ الناسُ يومَ أُحُد فعفا الله عنهم، وقال اللهُ فيهم: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا

---

(١) يعني قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: ٦٦].

(٢) القائل: الحُصين بن الحُمام المريّ، والبيت في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٩٨، ومحاضرات الأدباء ٣/ ٥٢٥، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٢٢٨، ٤٦٩، وخزانة الأدب ٧/ ٤٩٠، ومعنى البيت: نتوجَّه نحو الأعداء في الحرب ولا نُعرِض عنهم، فإذا جُرحنا كانت الجراحات في مُقدَّمنا لا مُؤخَّرنا، وسالت الدماء على أقدامنا لا على أعقابنا.

(٣) يعني: من قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾.

رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] ولم يقع على ذلك تعنيف[١]. انتهى.

وهذا القولُ بأنَّ الإشارة بقوله: «يومئذٍ» إلى يوم بدر، لا يَظهَر؛ لأنَّ ذلك في سياق الشَّرْط وهو مُسْتَقبَل، فإن كانت الآية نزلت يومَ بدر قَبْلَ انقضاء القتالِ، فيوم بدرٍ فردٌ مِن أفراد أيام لقاء الكفَّار فيَندرج فيه، ولا يكون خاصًّا به، وإن كانت نزلت بعده، فلا يَدخُل يوم بدر فيه، بل يكون ذلك استئنافَ حكم في الاستقبال.

قال ابنُ عطيَّة: والجمهور على أنَّه إشارة إلى يوم اللقاء الذي تضمَّنه قوله: «إذا لقيتم»، وحُكْمُ الآية باقٍ إلى يوم القيامة بسبب الضَّعْف الذي بيَّنه اللهُ تعالى في آية أُخرى، وليس في الآية نَسْخ، وأمَّا يوم أُحُد فإنَّما فرَّ الناسُ مِن مراكزهم مِن ضِعْفهم، ومع ذلك عُنِّفوا؛ لكونِ رسول الله ﷺ فيهم وفرارهم عنه، وأمَّا يومُ حنين فكذلك مَن فرَّ إنَّما انكشفَ أمام الكثرة، ويحتمل أنَّ عفوَ الله عمَّن فرَّ يوم أُحُدٍ كان عفواً عن كثرة[٢]. انتهى.

وقرأ الحسن: «دُبْرَه» بسكون الباء[٣]، وانتصبَ «مُتحرِّفاً» و«متحيِّزاً» على الحال مِن الضمير المستكنّ في «يُولِّهم» العائد على «مَن».

قال الزمخشريُّ: و«إلَّا» لَغوٌ، أو عنِ الاستثناء مِن المُولِّين، أي: ومَن يُولِّهم إلا رجلاً منهم متحرِّفاً أو متحيِّزاً[٤]. انتهى.

وقال ابنُ عطيَّة: وأمَّا الاستثناء فهو مِن المولِّين الذين يتضمَّنهم «مَن»[٥]. انتهى.

ولا يريد الزمخشريُّ بقوله: و«إلَّا» لغو. أنَّها زائدة، إنَّما يُريد أنَّ العامل الذي هو «يُولِّهم» وَصَل إلى العمل فيما بعدَها، كما قالوا في: «لا» مِن قولهم: جئتُ

(١) ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٥١٠، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٧٢-٤٧٣، والناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٣٧٦.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٠.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٠، والقراءة في القراءات الشاذة ص ٤٩.

(٤) الكشاف ٢/ ١٤٩.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٠.

بلا زاد: أنَّها لغوٌ، وفي الحقيقة هو استثناء مِن حالة محذوفة، والتقدير: ومَن يولِّهم مُلْتبساً بأيَّةِ حالةٍ إلَّا في حال كذا، وإن لم يُقدَّر حالٌ عامَّة[١] محذوفة، لم يصحَّ دخولُ «إلَّا»؛ لأنَّ الشَّرْطَ عندهم واجبٌ، وحُكْم الواجب أن لا تدخل «إلَّا» فيه؛ لا في المفعول ولا في غيرِه مِن الفَضَلات؛ لأنَّه يكون استثناء مفرَّغاً، والاستثناءُ المفرَّغ لا يكون في الواجب، لو قلت: ضربتُ إلَّا زيداً، أو: قمتُ إلَّا ضاحكاً، لم يصحَّ، والاستثناء المفرَّغ إنَّما يكون مع النفي أو النهي أو المؤوَّل بهما، فإن جاء ما ظاهرُه خلاف ذلك، قُدِّر عموم قَبْلَ «إلَّا» حتى يصحَّ الاستثناء مِن ذلك العموم، فلا يكون استثناء غير مفرَّغ.

وقال قوم: الاستثناء هو مِن أنواع التولِّي، ورُدَّ بأنَّه لو كان ذلك لوجب أن يكون: إلَّا تحرُّفاً أو تحيُّزاً[٢].

والتحرُّف للقتال: هو الكَرُّ بعد الفَرِّ، يُخيِّل عدوَّه أنَّه مُنهزِمٌ، ثم يَعطِفُ عليه، وهو من باب خُدَعِ الحرب ومكائدِها، قاله الزمخشريُّ[٣]، وقال[٤]: يُراد به الذي يرى أنَّ فِعْله ذلك أنكى للعدوِّ وأعودُ عليه بالشَّرِّ.

والفئة هنا، قال الجمهور: هي الجماعة مِنَ الناس الحاضِرة للحرب، فاقتضى هذا الإطلاق أن تكون هذه الفئة مِن الكفَّار، [٥]أي: لكونه يرى أنَّه يُنكِي فيها العدوَّ ويبلي أكثر مِن إبلائه فيما قابله مِن الكفَّار[٥]؛ إمَّا لعدم مقاومته، أو لكون غيرِه يُغني فيمَن قابله منهم، فيتحيَّز إلى فئة أخرى مِن الكفَّار ليُبليَ فيها.

واقتضى أيضاً أن تكون هذه الفئة مِن المسلمين، أي: تحيَّز إليها ليَنْصُرَها ويُقوِّيَها إذا رأى فيها ضَعْفاً، وأغنى غيرَه في قتال مَن قَابَلَهُ مِن الكفار، وبهذا فسَّر الزمخشريُّ، قال: «إلى فئة»: إلى جماعة أُخرى مِن المسلمين سوى الفئةِ التي هو فيها[٦].

(١) في المطبوع: غاية.
(٢) ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٥١٠.
(٣) الكشاف ٢/ ١٤٩.
(٤) يعني ابنَ عطية، وكلامه في المحرر الوجيز ٢/ ٥١٠.
(٥-٥) ليست في (أ).
(٦) الكشاف ٢/ ١٤٩.

وقيل: الفئة هنا المدينةُ والإمامُ وجماعةُ المسلمين أينما كانوا، ورويَ هذا عن عمر، انهزم رجلٌ مِن القادسيَّة، فأتَى المدينةَ إلى عمر فقال: يا أميرَ المؤمنين، هَلَكْتُ! فَرِرتُ مِن الزَّحْف. فقال عمرُ: أنا فِئَتُكَ[١].

وعن ابنِ عمر: خرجَت سَرِيَّةٌ وأنا فيهم، ففَرُّوا، فلمَّا رجعوا إلى المدينة اسْتَحْيَوا، فدخلوا البيوت، فقلت: يا رسولَ الله، نحن الفرَّارون. فقال: «بل أنتم العكَّارون، وأنا فئتكم»[٢]. قال ثعلب: العكَّارون: العطَّافون. وقال غيرُه: يُقال للرجل الذي يُولِّي عند الحرب [٣]ثمَّ يَكِرُّ[٣] راجعاً: عَكَر واعْتَكَر. وعن ابنِ عباس: الفِرار مِن الزَّحْف مِن أكبرِ الكبائر[٤]. وفي «صحيح البخاريِّ» من حديث أبي هريرة، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «اتَّقُوا السَّبْعَ المُوبقات»[٥] وعدَّد فيها الفرارَ مِن الزحف.

وفي «التحرير»: التَّولِّي الذي وَقَع عليه الوعيدُ هو الفِرار مع المصابرة على الثبات، فأمَّا إذا جاءَه مَن لا يستطيع معه الثبات، فليس ذلك بالفرار. انتهى.

وما أَحسن ما استَعْذَرَ الحارث بنُ هشام إذ فرَّ، فقيل فيه:

تَـرَكَ الأحِـبَّـةَ أن يُـقـاتِـلَ دونَـهـم ... ونَـجَـا بـرأسِ طِـمِـرَّةٍ ولـجـامِ[٦]

فقال الحارث مِن أبيات:

---

(١) الكشاف ٢/ ١٤٩، وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٥١٠، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٧٥، والخبر أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٤٦٦) عن إبراهيم النخعي.

(٢) الكشاف ٢/ ١٤٩، والخبر أخرجه أبو داود (٢٦٤٧)، والترمذي (١٧١٦)، وأحمد (٥٣٨٤)، وفي إسناده يزيد بن أبي زياد، وهو ضعيف.

(٣-٣) في النسخ: لم يكن. والمثبت من تفسير القرطبي ٩/ ٤٧٥، وتهذيب اللغة ١/ ٣٠٥، وقول ثعلب أورده أيضاً ابن الجوزي في غريب الحديث ٢/ ١٢٠.

(٤) الكشاف ٢/ ١٤٩.

(٥) صحيح البخاري (٢٧٦٦)، وأخرجه أيضاً مسلم (٨٩).

(٦) القائل: حسان بن ثابت، والبيت في السيرة النبوية ٢/ ١٧، وفي ديوانه ص ٤١٩ ضمن قصيدة طويلة، مع ذِكْر اعتذار الحارث بن هشام الآتي، والطِّمِرَّة: الفرس الطويل القوائم الخفيف. القاموس (طمر).

وعـلـمـتُ أنِّـي إن أُقـاتـل واحـداً أُقْتَـل ولا يـضـرزْ عَـدُوِّي مَشْـهَـدِي[١]

واستدلَّ القاضي بهذه الجملة الشرطيَّة على وَعيد الفُسَّاق مِن أهلِ الصلاة؛ لأنَّها دلَّت على أنَّ مَنِ انهزم ـ إلَّا في هاتين الحالتين ـ استوجَبَ غَضَبَ اللهِ ومأواه جهنَّم، قال: وليس للمُرْجئة أن يَحملوا ذلك على الكفَّار كما فعلوا في آيات الوعيد؛ لأنَّ ذلك مُفْتَتَحٌ بأهلِ الصلاة، وهو قوله: «يا أيها الذين آمنوا»[٢]. انتهى. ولا حُجَّةَ في ذلك؛ لأنَّه عامٌّ مخصوص.

والظاهر أنَّه يجوز التحيُّز، سواء عَظُمَ العسكر أم لا، وقيل: لا يجوز إذا عظم.

والظاهر أنَّ الفرارَ مِن الزحف بغير شروطه كبيرةٌ؛ للتوعُّد، ولذلك قال ابنُ القاسم: لا تُقبَل شهادةُ مَن فرَّ مِن الزحف وإن فرَّ إمامُهم[٣]، ومَن فرَّ فليستغفر اللهَ، ففي الترمذيِّ: «مَن قال: أستغفرُ اللهَ الذي لا إلهَ إلَّا هو الحيُّ القيوم، غُفرَ له، وإن كان قد فرَّ مِن الزحف»[٤].

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ لـمَّا رجَع الصحابةُ مِن بدرٍ، ذَكَروا مفاخرَهم، فيقول القائل: قتلتُ وأسرتُ. فنزلت[٥].

قال الزمخشريُّ: والفاءُ جواب شَرْطٍ محذوف، تقديره: إنِ افتخرتم بقَتْلِهم، فأنتم لم تقتلوهم، ولكنَّ الله قَتَلهم؛ لأنَّه هو الذي أنزل الملائكةَ، وألقى الرعبَ في قلوبهم، وشاء النَّصْرَ والظَّفَر، وقوَّى قلوبَكم، وأذهبَ عنها الفَزَع والجَزَع[٦]. انتهى.

---

(١) السيرة النبوية ٢/١٨، وتنظر الأبيات أيضاً في عيون الأخبار ١/١٦٩، والأغاني ٤/١٦٩، وغرر الخصائص الواضحة ص ٣٦٧-٣٦٨ وغيرها من كتب الأدب واللغة.
(٢) تفسير الرازي ١٥/١٣٨.
(٣) تفسير القرطبي ٩/٤٧٣، وينظر قول ابن القاسم في النوادر والزيادات للقيرواني ٣/٥٤.
(٤) سنن الترمذي (٣٥٧٧) من حديث زيد مولى النبي ﷺ، وهو أيضاً عند أبي داود (١٥١٧)، قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. اهـ. وفي إسناده: يسار بن زيد، قال الذهبي عنه في ميزان الاعتدال ٥/١٧١: لا يعرف.
(٥) ينظر المحرر الوجيز ٢/٥١١، وتفسير القرطبي ٩/٤٧٦.
(٦) الكشاف ٢/١٤٩.

وليست الفاءُ جوابَ شَرْطٍ محذوف، كما زعم، وإنَّما هي للرَّبْط بين الجُمل؛ لأنَّه لمَّا قال: «فاضربوا فوقَ الأعناق واضربوا منهم كلَّ بنان» كان امتثالُ ما أُمروا به سبباً للقَتْل، فقيل: «فلم تقتلوهم» أي: لستم مُسْتَبِدِّين بالقَتْل؛ لأنَّ الإقْدارَ عليه والخَلْقَ له إنَّما هو لله تعالى، ليس للقاتل فيها شيء، لكنَّه أُجريَ على يدِه، فنفي عنهم إيجادُ القَتْل وأُثبت لله تعالى، وفي ذلك ردٌّ على مَن زعم أنَّ أفعالَ العباد خَلْقٌ لهم.

ومجيء «لكنَّ» هنا أحسنُ مجيء؛ لكونها بين نفي وإثبات، فالمُثبَت لله هو المنفيُّ عنهم وهو حقيقة القتل، ومَن زعم أنَّ أفعالَ العباد مخلوقةٌ لهم، أَوَّلَ الكلامَ على معنى: فلم تتسبَّبوا؛ لقَتْلكم إيَّاهم[1]، «ولكنَّ اللهَ قتلهم» [2]أي: تسبَّب إلى قتلهم بسوقهم إليكم حتى أمكنكم من قتلهم، ولذلك قال الزمخشري: «ولكن الله قتلهم»[2] لأنَّه هو الذي أنزل الملائكة[3]، إلى آخِر كلامه.

وعطف الجملة المنفيَّة بـ «ما» على الجملة المنفيَّة بـ «لم»؛ لأنَّ «لم» نفيٌ للماضي وإن كان بصورة المضارع؛ لأنَّ لنفي الماضي طريقين: أحدهما: أن تدخل «ما» على لفظه، والآخَر: أن تنفيَه بـ «لم» فتأتي بالمضارع، والأصلُ هو الأوَّل؛ لأنَّ النفي ينبغي أن يكون على حسَب الإيجاب.

وفي الجملة مبالغة مِن وجهين: أحدهما: أنَّ النفيَ جاء على حسَب الإيجاب لفظاً.

الثاني: أنَّه نفي ما صُرِّح بإثباته وهو قوله: «وما رميت إذ رميت»، ولم يُصرِّح في قوله: «فلم تقتلوهم» بقوله: إذ قتلتموهم، وإنَّما بولغ في هذا؛ لأنَّ الرميَ كان أمراً خارقاً للعادة معجزاً، آيةً مِن آياتِ الله، على أيِّ وجهٍ فُسِّر الرميُ؛ لأنَّهم اختلفوا فيه:

فقال ابنُ عباس: قَبضَ رسولُ الله ﷺ يومَ بدرٍ قبضةً مِن تراب فرماهم، فقال:

(١) في (ع) و(ز١): إياه.
(٢-٢) ليست في المطبوع.
(٣) الكشاف ١٤٩/٢، وتفسير الرازي ١٣٩/١٥.

«شاهتِ الوجوهُ» أي: قَبُحَت، فلم يَبْقَ مشركٌ إلَّا دخل في عينيه وفِيْهِ ومنْخِريه منها شيءٌ[(١)].

وقال حكيم بن حزام: فسمعنا صوتاً مِن السماء كأنَّه صوتُ حصاةٍ وقعت في طَسْتٍ، فرمَى رسولُ الله ﷺ تلك الرميةَ، فانهزمنا[(٢)].

وقال أنس: رمَى ثلاثَ حصياتٍ يومَ بدر؛ واحدة في مَيْمَنة القوم، وواحدة في مَيْسرتهم، وثالثة بين أظهرهم، وقال: «شاهت الوجوه» فانهزموا[(٣)].

وقيل: الرميُ هنا رَمْيُ رسولِ الله ﷺ بحربةٍ على أُبَيِّ بنِ خَلَف يومَ أُحُد[(٤)]. قال ابنُ عطيَّة: وهذا ضعيف؛ لأنَّ الآيةَ نزلت عَقِبَ بدر، وعلى هذا القول تكون أجنبيَّةً ممَّا قبلها وبعدها، وذلك بعيد[(٥)].

وقيل: المراد السهم الذي رَمى به رسولُ الله ﷺ في حِصْن خيبر، فسار في الهواء حتى أصابَ ابنَ أبي الحُقَيْق[(٦)]. وهذا فاسد، والصحيح في صورة قتلِ ابنِ أبي الحُقَيْق غيرُ هذا[(٧)].

وقوله: «وما رميت» نفيٌ، و«إذ رميت» إثباتٌ، فاحتيج إلى تأويل، وهو أن يغاير بين الرَّمْيَين، فالمنفيُّ الإصابةُ والظَّفَر، والمُثبَت الإرسالُ. وقيل: المنفيُّ

(١) أخرجه الطبري ١١/ ٨٦، وابن أبي حاتم ٥/ ١٦٧٣.

(٢) في المطبوع: فانهزموا. والخبر أخرجه الطبري ١١/ ٨٤-٨٥، وابن أبي حاتم ٥/ ١٦٧٢، والطبراني في الكبير (٣١٢٨).

(٣) أخرجه الطبري ١١/ ٨٦، وابن أبي حاتم ٥/ ١٦٧٣ لكن عن ابن زيد، وكذا أورده الثعلبي في الكشف والبيان ٣/ ١٢٥، والبغوي في التفسير ٢/ ٢٣٨ عن ابن زيد وقتادة.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥١١، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٣٣، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٧٧.

(٥) والخبر أورده ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٨٤، وأخرجه عنه البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢٣٧-٢٣٨.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٥١١، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٧٨، والخبر أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٧٣، وأورده ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وعزاه لابن جرير، ولم نقف عليه في المطبوع من التفسير، وينظر ما قاله الشيخ محمود شاكر عن ذلك ١٣/ ٤٤٦.

(٧) ينظر خبر مقتله عند ابن هشام في السيرة ٢/ ٢٧٣-٢٧٥، وأخرجه الطبري في تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٤٩٣-٤٩٩.

إزهاق الروح، والمثبت أَثَر الرمي، وهو الجَرح، وهذان القولان متقاربان. وقيل: ما استبددتَ بالرَّمْي إذ أرسلتَ الترابَ؛ لأنَّ الاستبداد به هو فعلُ الله تعالى حقيقةً، وإرسال التراب منسوبٌ إليه كَسْباً، كأنَّ المعنى: وما رميتَ الرميَ الكافيَ إذ رميتَ، ونحوه قول العباس بنِ مرداس:

وقد كنتُ في الحربِ ذا تُدْرَإٍ فلم أُعْطَ شيئاً ولم أُمْنَعِ[(١)]

أي: لم أُعْطَ شيئاً مرضيًّا.

وقيل: متعلَّق المنفيّ الرعبُ، ومتعلَّق المثبت الحصياتُ، أي: وما رميت الرعبَ في قلوبهم إذْ رميتَ حصياتك.

وقال الزمخشريُّ: يعني أنَّ الرميةَ التي رَمَيْتها لم تَرْمِها أنتَ على الحقيقة؛ لأنَّكَ لو رَمَيْتَها لَمَا بلغَ أَثَرُها إلَّا ما يَبلغه رَمْيُ البشر، ولكنَّها كانت رميةَ اللهِ تعالى حيث أثَّرت ذلك الأثر العظيم، فأثبتَ الرميَ لرسولِ الله ﷺ؛ لأنَّ صورةَ الرمي وُجِدت منه، ونفاها عنه؛ لأنَّ أثَرها الذي لا يُطيقه البَشَر فِعْلُ الله تعالى، فكأنَّ اللهَ تعالى هو فاعلُ الرمي على الحقيقة، وكأنَّها لم تُوجد مِن الرسول أصلاً[(٢)]. انتهى. وهو راجعٌ لمعنى القولَين أوَّلاً.

وتقدَّم خلافُ القرَّاء في «لكنَّ» وما بعدها في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة:١٠٢].

«وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً» قال السديُّ: يَنصرهم ويُنعِم عليهم، يقال: أَبْلاه: إذا أنْعَم عليه، وبَلَاه: إذا امْتَحنه، والبلاءُ يُستعمل للخير والشَّرِّ، ووصْفُه بحَسَن يدلُّ على النَّصر والعِزَّة. وقال الزمخشريُّ: وليُعطيهم عطاءً جميلاً، كما قال:

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥١١، والبيت ضمن أبيات طويلة في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٩٣-٤٩٤، قالها العباس حين أُعطي أباعر قليلة فسَخِطها، ومعنى: ذا تُدْرَإٍ: ذا دَفْعٍ، من قولك: درأه، إذا دفعه. الإملاء المختصر في شرح غريب السِّيَر للخشني ٣/ ١٣٠، وأصل الخبر عند مسلم (١٠٦٠) عن رافع بن خديج، وفيه ذكر بعضٍ من الأبيات دون البيت المذكور أعلاه، وينظر الأغاني ١٤/ ٣٠٨، وخزانة الأدب ١/ ١٥٣.

(٢) الكشاف ٢/ ١٤٩-١٥٠.

فـأبـلاهـمـا خـيـرَ الـبـلاءِ الـذي يَـبْـلُـو[١]

انتهى.

والبَلاءُ الحَسَن، قيل: بالنصر والغنيمة، وقيل: بالشهادة لمَن استشهد يومَ بدر، وهم أربعة عَشَر رجلاً، منهم: عُبيدة بن الحارث بنِ عبد المطلب، ومِهْجَع مولى عمر، ومعاذ وعَمْرو ابنا عَفْراء[٢].

وحُكي عن القاضي[٣] أنَّه قال: لولا أنَّ المفسِّرين اتَّفقوا على حَمْلِ البلاء هنا على النِّعْمة، لكان يَحتمل المحنة للتكليف بما بَعْدَه مِن الجهاد، حتى يقال: إنَّ الذي فَعَله تعالى يومَ بدرٍ كان كالسبب في حصولِ تكليفٍ شاقٍّ عليهم فيما بَعْدَ ذلك مِن الغزوات[٤]. انتهى.

وسياقُ الكلام ينفي أن يُراد بالبلاء المحنة؛ لأنَّه قال: «وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً» فَعَلَ ذلك، أي: قَتْلَ الكفَّار ورَمْيَهم، ونسبة ذلك إلى الله تعالى، وكان ذلك سببَ هزيمتهم والنصرِ عليهم وجَعْلهم نُهْبةً للمؤمنين، وهذا ليس بمِحْنَة، بل مِنْحَة.

«إن الله سميع عليم» لمَّا كانوا قد أقبلوا على المفاخر بقَتْلِ مَن قَتَلوا وأسْرِ مَن أسَرُوا، وكان رُبَّما قد لا يخلُص العمل مِن بعض المقاتلين؛ إمَّا لقتالٍ حميَّةً، وإمَّا لدَفْعٍ عن نفسٍ أو مالٍ، خُتمت بهاتين الصفتين، فقيل: «إنَّ الله سميع» لكلامكم وما تفخرون به، «عليم» بما انطوت عليه الضمائر، ومَن يُقاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٤٩-١٥٠، وعجز البيت في ديوان زهير ص ١٠٩، وصدره:

جـزى الله بـالإحـسـان مـا فَـعَـلا بـكـم —

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥١١، وينظر السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٧٠٦-٧٠٨ فصل في تسمية من استشهد من المسلمين يوم بدر. والمغازي للواقدي ١/ ١٤٥-١٤٧، وفيهما: ومنهم: عوف ومعوِّذ ابنا عفراء. فليُحرَّر!.

(٣) قوله: وحكي عن القاضي. ليست في المطبوع.

(٤) تفسير الرازي ١٥/ ١٤١.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨﴾ قال الزمخشريُّ: «ذلكم» إشارة إلى البلاء الحَسَن، ومحلُّه الرَّفع، «وأنَّ اللهَ موهنُ» معطوف على «وليبلي»، يعني أنَّ الغَرَض إبلاءُ المؤمنين وتوهينُ كيد الكافرين[١]. انتهى.

وقال ابنُ عطيَّة: «ذلكم» إشارة إلى ما تقدَّم مِن قَتْل اللهِ [٢]ورَمْيه إياهم[٢]، وموضع «ذلكم» من الإعراب رَفْعٌ، قال سيبويه: التقدير: الأمر ذلكم، وقال بعض النحويين: يجوز أن يكون في موضع نصبٍ، بتقدير: فَعَلَ ذلك، «وأنَّ» معطوف على «ذلكم»، ويحتمل أن يكون خبرَ مبتدأ مقدَّر، تقديره: وحَتْمٌ وسَابق وثابت، ونحو هذا[٣]. انتهى.

وقال الحوفيُّ: «ذلكم» رفع بالابتداء، والخبر محذوف، والتقدير: ذلكم الأمرُ، ويجوز أن يكون «ذلكم» الخبرَ، والأمْر الابتداء، ويجوز أن يكون في موضع نصب، تقديره: فَعَلْنا ذلكم، والإشارة إلى القَتْل أو إلى إبلاء المؤمنين بلاءً حسناً.

وفي فتح «أنَّ» وجهان؛ النصب، والرفع عطفاً على «ذلكم»، على حسَب التقديرين، أو على إضمار فِعْلٍ، تقديره: واعلموا أنَّ اللهَ موهن. انتهى.

وقرأ الحِرْميَّان وأبو عمرو: «مُوَهِّنٌ» من وَهَّن[٤]، والتعدية بالتضعيف فيما عينُه حرف حَلْق غير الهمزة قليلٌ، نحو: ضَعَّفْتُ ووَهَّنْت، وبابُه أن يُعدَّى بالهمزة، نحو: أذهلته، وأوهنته، وألحمته، وقرأ باقي السبعة والحسنُ وأبو رجاء والأعمش وابنُ محيصن مِن: أَوْهَنَ، وأضافَه حفص[٥].

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٩﴾ تقدَّم ذِكْر المؤمنين والكافرين، وسَبَق الخطابُ للمؤمنين بقوله: «فلم تقتلوهم» وبقوله: «ذلكم» فحَمَله

(١) الكشاف ٢/ ١٥٠.
(٢-٢) في (ع) و(ز١): ورميهم إياه.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٢، وينظر الكتاب ٣/ ١٢٥.
(٤) السبعة ص ٣٠٤، والتيسير ص ١١٦، والنشر ٢/ ٢٧٦، والحِرْميَّان: نافع وابن كثير.
(٥) السبعة ص ٣٠٥، والتيسير ص ١١٦، والنشر ٢/ ٢٧٦، وينظر تفسير الثعلبي ٣/ ١٢٧.

قومٌ على أنَّه خطابٌ للمؤمنين، ويؤيِّده قوله: «فقد جاءكم الفتح» إذ لا يليق هذا الخطاب إلَّا بالمؤمنين، هذا على إرادة النَّصْر بالاستفتاح، وإن حُملَ على البيان والحُكم ناسَبَ أن يكون خطاباً للكفَّار والمؤمنين، فإذا كان خطاباً للمؤمنين، فالمعنى: إن تستنصروا فقد جاءكم النَّصْر، «وإن تنتهوا» عن مِثْلِ ما فعلتموه في الغنائم والأسرى قَبْلَ الإذن «فهو خيرٌ لكم وإن تعودوا» إلى مِثْلِ ذلك «نَعُد» إلى توبيخكم، كما قال: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية [الأنفال:٦٨]، ثم أعلمهم أنَّ الفئةَ ـ وهي الجماعة ـ لا تُغني وإن كثرت إلَّا بنَصْر الله ومعونتِه، ثم آنسَهم بإخباره أنَّه تعالى مع المؤمنين.

وقال الأكثرون: هي خطابٌ لأهلِ مكَّة على سبيل التَّهكُّم، وذلك أنَّهم حين أَرادوا أن يَنفروا تعلَّقوا بأستار الكعبة، وقالوا: اللَّهمَّ انْصُرْ أَقْرَانا للضَّيْف، وأَوْصَلَنا للرَّحِم، وأفكَّنا للعاني، إن كان محمَّد على حقٍّ فانْصُره، وإن كنَّا على حقٍّ فانْصُرنا.

وروي أنَّهم قالوا: اللَّهمَّ انْصُرْ أَعْلَى الجُنْدَين، وأهدى الفِئَتين، وأكْرَم الحِزْبَين. ورُوي أنَّ أبا جهلٍ قال صَبيحةَ يوم بدر: اللَّهمَّ أيُّنا كان أهجرَ وأقْطَعَ للرَّحِم، فأَحِنْه اليومَ. أي: فأَهْلِكْه[١].

ورُوي عنه دعاءٌ شِبْه هذا.

وقال الحسن ومجاهد وغيرهما: كان هذا القولُ مِن قريش وقتَ خروجهم لنُصْرة العِيْر[٢].

وقال النضر بنُ الحارث: «اللَّهمَّ إن كان هذا هو الحقَّ مِن عندك» الآية[٣]،

(١) الكشاف ٢/ ١٥٠، وقول أبي جهل أورده ابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٢٨٠، وأخرجه أحمد (٢٣٦٦١)، وابن أبي شيبة (٣٧٨٢٩)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٦٣١)، والطبري في التفسير ١١/ ٩٣ عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعَير ﷺ.

(٢) ينظر مجمع البيان ٩/ ١٢٥، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٧٩، والنكت والعيون ٢/ ٣٠٥.

(٣) يعني: وبسبب قولِه هذا نزل قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، ينظر تفسير القرطبي ٩/ ٤٧٩، وأخرجه الطبري ١١/ ١٤٤ عن مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والسدي.

وهو ممَّن قُتلَ يوم بدر، وعلى هذا القول يكون معنى قوله: «فقد جاءكم الفتح»: ولكنَّه كان للمسلمين عليكم.

وقيل: معناه: فقد جاءَكم ما بَانَ لكم به الأَمْرُ، واستقرَّ به الحُكم، وانكشف لكم به الحقّ، ويكون الاستفتاح على هذا بمعنى الحُكم والقضاء، «وإن تنتهوا» أي: عن الكفر، «وإن تعودوا» إلى هذا القول وقتالِ محمَّد بَعْدُ «نَعُد» إلى نَصْر المؤمنين وخذلانِكم.

وقالت فرقة: «إن تستفتحوا» خطابٌ للمؤمنين، «وإن تنتهوا» خطابٌ للكافرين، أي: «وإن تنتهوا» عن عداوة رسولِ الله ﷺ «فهو خيرٌ لكم وإن تعودوا» لمحاربته «نَعُدْ» لنُصرته عليكم. وقال الكرمانيُّ: «وإن تَنتهوا» عن أَمْرِ الأنفال وفداءِ الأسرى ببدر، «وإن تعودوا» إلى معصية الله «نَعُد» إلى الإنكار.

وقرئ: «ولن يُغني» بالياء[1]؛ لأنَّ التأنيثَ مجازٌ، وحسَّنه الفَصْلُ.

وقرأ الصاحبان وحفص: «وأنَّ الله» بفتح الهمزة، وباقي السبعة بكسرها[2]، وابنُ مسعود: «واللهُ مع المؤمنين»[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠﴾ لمَّا تقدَّم قوله: «وإن تنتهوا» وكان الضميرُ ظاهره العَوْدُ على المؤمنين، ناداهم وحرَّكهم إلى طاعة الله ورسولِه.

والظاهر أنَّه نداءٌ وخطاب للمؤمنين الخُلَّص، حثَّهم بالأَمْرِ على طاعة الله ورسوله، ولمَّا كانت الآيةُ قَبْلَها مسوقةً في أَمْرِ الجهاد، [4]قيل: معنى «أطيعوه» فيما يَدعوكم إليه مِن الجهاد[4]. وقيل: في امتثال الأَمْر والنهي، وأفردهم بالأَمْرِ؛ رَفْعاً لأقدارهم وإن كان غيرُهم مأموراً بطاعة الله ورسولِه، وهذا قولُ الجمهور.

---

(١) القراءات الشاذة ص ٤٩ وعزاها ليحيى وإبراهيم.

(٢) السبعة ص ٣٠٥، والتيسير ص ١١٦، والنشر ٢/ ٢٧٦، وهي أيضاً قراءة أبي جعفر من العشرة، والصاحبان: ابن عامر ونافع.

(٣) تفسير الثعلبي ٣/ ١٢٨، والمحرر الوجيز ٢/ ٥١٣.

(٤-٤) ليست في (ب).

وأمَّا مَن قال: إنَّ قوله: «وإن تنتهوا» خطابٌ للكفار، فيَرى أنَّ هذه الآية نزلت بسبب اختلافهم في النَّفْل ومجادلتهم في الحقِّ وتفاخرِهم بقَتْل الكفَّار والنكاية فيهم.

وأبْعَدَ مَن ذهب إلى أنَّه نداءٌ وخطاب للمنافقين، أي: يا أيُّها الذين آمنوا بألسنتهم، وهذا لا يُناسب؛ لأنَّه وَصَفهم بالإيمان وهو التصديق، وليس المنافقون مِن التصديق في شيء.

وأبْعَدَ مَن ذهب أيضاً إلى أنَّه نداءٌ وخطاب لبني إسرائيل؛ لأنَّه يكون أجنبيًّا مِن الآيات.

وأَصْلُ: «ولا تَولَّوا»: ولا تتولّوا، وتقدَّم الخلافُ في حَذف التاء في نحو هذا، أهيَ حرفُ المضارعة أم تاءُ تَفَعَّل.

والضميرُ في «عنه» قال الزمخشريُّ: لرسول الله ﷺ؛ لأنَّ المعنى: وأطيعوا رسولَ الله، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة:٦٢] ولأنَّ طاعةَ الرسولِ وطاعةَ اللهِ شيءٌ واحد ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء:٨٠] فكان رجوعُ الضمير إلى أحدهما كرجوعِه إليهما، كقولك: الإحسانُ والإجمال لا يَنفع في فلان. ويجوز أن يرجعَ إلى الأمْرِ بالطاعة، أي: «ولا تَوَلَّوا» عن هذا الأمر وامتثالِه، وأنتم تسمعونه، أو: ولا تَتولَّوا عن رسولِ الله ﷺ ولا تُخالفوه «وأنتم تسمعون»، أي: تُصدِّقون؛ لأنَّكم مؤمنون لستم كالصُّمِّ المكذِّبين مِن الكفرة(١). انتهى.

وإنَّما عاد على الرسول؛ لأنَّ التولِّي إنَّما يصحُّ في حقِّ الرسول بأنْ يُعرِضوا عنه، وهذا على أن يكون التولِّي حقيقةً، وإذا عاد على الأمْرِ، كان مجازاً.

وقيل: هو عائد على الطاعة، (٢)وذُكِّر؛ لأنها بمعنى الطَّوع(٢)، وقيل: هو عائد على الله تعالى.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٥٠-١٥١.
(٢-٢) ليست في المطبوع.

وقال الكرمانيُّ ما معناه: إنَّه لمَّا لم يطلق لفظ التثنية على الله وحده، لم يجمع بينه تعالى وبين غيره في ضميرِها، بخلاف الجمع فإنَّه أطلق على لفظه تعظيماً، فجُمع بينه وبينَ غيره في ضميره، ولهذا نظائر في القرآن، منها: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] ومنها ﴿أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] وفي الحديث ذَمُّ مَن جمع في التثنية بينهما في الضمير، وتعليمه أن يقول: «ومَن عصى اللهَ ورسولَه»[(١)].

«وأنتم تسمعون» جملة حاليَّة، أي: لا يناسب سماعَكم التولِّي ولا يُجامعُه، وفي متعلَّقه أقوال: أحدها: وَعْظ اللهِ لكم، الثاني: الأمر والنهي، الثالث: التعبير بالسماع عن العقل والفَهْم، الرابع: التعبير به عن التصديق وهو الإيمان.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ نهى أن يكونوا كالذين ادَّعَوا السماعَ، والمشبَّه بهم اليهودُ، أو المنافقون، أو المشركون، أو الذين قالوا: ﴿سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١]، أو بنو عبد الدار بن قُصَي، ولم يُسْلِم منهم إلَّا رجلان: مصعَب بنُ عُمير وسُوَيْبِط[(٢)] بنُ حَرْملة، أو النضر بنُ الحارث ومَن تابعه، ستَّة أقوال.

ولمَّا لم يُجْدِ سماعُهم ولا أثَّر فيهم، نفى عنهم السماع؛ لانتفاء ثمرته، إذ ثمرةُ سماع الوحي تصديقُه والإيمانُ به، والمعنى: إنَّكم مُصدِّقون بالقرآن والنبوَّة، فإذا صَدَرَ منكم تولٍّ عن الطاعة، كان تصديقُكم كلا تصديق، فأشبه سماعُكم سماعَ مَن لا يُصدِّق.

وجاءت الجملةُ النافية على غيرِ لفظِ المُثبِتة، إذ لم تأتِ: وهم ما سمعوا، لأنَّ لفظَ المضيِّ لا يدلُّ على استمرار الحال ولا ديمومتِه، بخلاف نفي المضارع،

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٨٧٠) عن عدي بن حاتم: أن رجلاً خطب عند النبي ﷺ، فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى. فقال رسول الله ﷺ: «بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله» وهو عند أحمد (١٨٢٤٧).

(٢) في النسخ: وسويد. وكذا في مطبوع الكشاف ٢/ ١٥١ ومخطوطه الورقة (١٨٤)، وتفسير السمرقندي ٢/ ١٢، وتفسير النيسابوري ٩/ ١٣٩، والمثبت من السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٢٥، والمغازي للواقدي ١/ ١٥٥، والإصابة ٤/ ٢٩٧-٢٩٨، وتفسير الثعلبي ٣/ ١٢٩، والبغوي ٢/ ٢٤٠، وهو: سُوَيْبِط بن حرملة، ويقال: ابن سعد بن حرملة القرشي العبدري.

فكما يدلُّ إثباته على الديمومة في قولهم: هو يعطي ويمنع، كذلك يَجِيءُ نفيُه.

وجاء حرفُ النفي «لا»؛ لأنَّها أوسعُ في نفي المضارع مِن «ما»، وأدلُّ على انتفاءِ السماع في المستقبل، أي: هم ممَّن لا يَقبل أن يَسمع.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ لمَّا أخبر تعالى أنَّ هؤلاء المشبَّهَ بهم لا يَسمعون، أخبر أنَّ شَرَّ الحيوان الذي يَدِبُّ الصُّمُّ، أو أنَّ شَرَّ البهائم، فجمع بين هؤلاء وبين جميع الدوابِّ، وأخبر أنَّهم شرُّ الحيوان مطلقاً.

ومعنى «الصُّمّ» عن ما يُلقى إليهم مِن القرآن، «البُكْم» عن الإقرار بالإيمان وما فيه نجاتُهم، ثم جاء بانتفاء الوَصْف المنتج لهم الصَّمَمَ والبَكَمَ الناشِئَين عنه وهو العقل، وكان الابتداءُ بالصَّمَم؛ لأنَّه ناشىءٌ عنه البَكَم، إذ يَلزم أن يكون كلُّ أصَمّ خِلْقةً أبْكَمَ؛ لأنَّ الكلام إنَّما يتلقَّفه ويتعلَّمه مَن كان سالمَ حاسَّةِ السمع، وهذا مطابِق لقوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١] إلَّا أنَّه زاد في هذه وَصْف العَمَى، وكلُّ هذه الأوصاف كنايةٌ عن انتفاء قَبولهم للإيمان وإعراضهم عمَّا جاء به الرسولُ ﷺ.

وظاهر هذا الإخبار العمومُ، وقيل: نزلت في طائفة مِن بني عبد الدار كانوا يقولون: نحن صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ عمَّا جاء به محمَّد، لا نَسمعه ولا نُجيبه، فقُتلوا جميعاً بأُحُد، وكانوا أصحابَ اللواء. وقال ابنُ جريج: هم المنافقون. وقال الحسن: هم أهل الكتاب[١].

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ قال ابنُ عطيَّة: أخبر تعالى بأنَّ عدمَ سمعهم وهداهم إنَّما هو بما علمه اللهُ منهم وسَبَق مِن قضائه عليهم، فخرج ذلك في عبارة بليغة في ذمِّهم بقوله: «ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم»، والمراد: لأسمعهم إسماعَ تفهُّم وهُدًى، ثم ابتدأ عزَّ وجلَّ الخبرَ عنهم بما هو عليه مِن خَتْمه عليهم بالكفر، فقال: «ولو أسمعهم» أي: ولو فهَّمهم «لتَولَّوا وهم معرضون» بحكم القضاء السابق فيهم، ولأعرضوا عمَّا تبيَّن لهم مِن الهدى[٢].

---

(١) الكشاف ٢/ ١٥١، وينظر تفسير الثعلبي ٣/ ١٢٩، والطبري ١١/ ١٠٠.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٣-٥١٤.

وقال الزمخشريُّ: «ولو علم اللهُ» في هؤلاء الصُّمِّ البُكْم «خيراً»، أي: انتفاعاً باللُّطف، «لأسمعهم» اللُّطفَ بهم حتى سمعوا سماعَ المُصدِّقين، ثم قال تعالى: «ولو أسمعهم لتولَّوا» يعني: ولو لطفَ بهم لما نفعهم اللطف، فلذلك مَنَعهم ألطافه، أي: ولو لطفَ بهم فصدَّقوا لارتدوا بعد ذلك وكذَّبوا ولم يَستقيموا(١).

وقال الزجَّاج: «لأسمعهم» جوابَ كلِّ ما سألوا(٢).

وحكى ابنُ الجوزيِّ: «لأسمعهم» كلامَ الموتى الذين طَلَبوا إحياءَهم، لأنَّهم طلبوا إحياءَ قصيِّ بنِ كلاب وغيرِه ليَشهدوا بنبوَّة محمَّد ﷺ(٣).

وقال أبو عبد الله الرازيُّ: حَسُنَ التعبيرُ عن عدمِه في نفسِه بعَدَم عِلْم الله بوجودِه، وتقديرُ الكلام: لو حصل فيهم خيرٌ لأسمعهم اللهُ الحُجَجَ والمواعظَ سماعَ تعليم وفَهْم، «ولو أسمعهم» إذ علم أنَّه لا خيرَ فيهم، لم ينتفعوا بها، وتولَّوا وهم معرضون.

وقال أيضاً: معلومات الله تعالى على أربعةِ أقسام: أحدها: جملة الموجودات. الثاني: جملة المعدومات. الثالث: إن كان كلُّ واحد مِن الموجودات لو كان معدوماً، فكيف حاله؟. الرابع: إن كان كلُّ واحدٍ مِن المعدومات لو كان موجوداً، فكيف حاله؟

فالقِسْمان الأوَّلان علمٌ بالواقع، والقسمان الثانيان علم بالمقدَّر الذي هو غير واقع، فقوله: «ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم» مِن القسم الثاني، وهو العِلْم بالمقدَّرات، وليس مِن أقسام العلم بالواقعات، ونظيره قولُه تعالى حكايةً عن المنافقين ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ فقال تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر:١١-١٢] فعَلِم اللهُ تعالى في المعدوم أنَّه لو كان موجوداً كيف يكون حاله، وأيضاً قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا﴾ [الأنعام:٢٨] أخبر عن المعدوم

---

(١) الكشاف ٢/ ١٥١.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٠٩.
(٣) ينظر زاد المسير ٣/ ٣٣٨، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٨٢.

أنَّه لو كان موجوداً كيف يكون حاله[1]. انتهى.

وأقول: ظاهر هاتين الملازمتين يَحتاج إلى تأمُّلٍ[2]؛ لأنَّه تعالى أخبر أنَّه كان يقع إسماعٌ منه لهم على تقدير عِلْمه خيراً فيهم، ثم أخبر أنَّه كان يقع تولِّيهم على تقدير إسماعِه إيَّاهم، فأنتج أنَّه كان يقع تولِّيهم على تقدير عِلْمه تعالى خيراً فيهم، وذلك بحذف[3] الواسطة؛ لأنَّ المرتَّب على شيء يكون مُتَرتِّباً على ما رُتِّب عليه ذلك الشيء، وهذا لا يكون؛ لأنَّه لا يقع التولِّي على تقدير عِلْمه فيهم خيراً، ويصير الكلام في الجملتَيْن في تقدير كلامٍ واحد، فيكون التقدير: ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خيراً فأسمعهم لتولَّوا، ومعلوم أنَّه لو عَلِمَ فيهم خيراً ما تولَّوا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ تقدَّم الكلام في: استجابَ، في: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ [البقرة:١٨٦] وأفردَ الضمير في «دعاكم» كما أفرده في «ولا تولَّوا عنه»؛ لأنَّ ذِكْر أحدِهما مع الآخَر إنَّما هو على سبيل التوكيد، والاستجابة هنا الامتثالُ والدعاء بمعنى التحريض والبَعْثِ على ما فيه حياتهم.

وظاهر «استجيبوا» الوجوبُ، ولذلك قال الرسول ﷺ لأُبَيٍّ حين دَعاهُ وهو في الصلاة فتَلَبَّث: «ما مَنَعَكَ عن الاستجابة، أَلَم تُخبَر فيما أُوحيَ إليَّ: ﴿ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾؟»[4].

والظاهر تعلُّق «لِمَا» بقوله: «دعاكم»، ودعا يتعدَّى باللام، قال:

دعــوتُ لِــمَــا نــابَــنــي مِــسْــوَراً[5]

(١) تفسير الرازي ١٥/ ١٤٤-١٤٥.

(٢) في المطبوع: تأويل.

(٣) في (ب): بخلاف. وفي المطبوع: بحرف.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٨٧٥)، والنسائي في الكبرى (١١١٤١)، وأحمد (٩٣٤٥) عن أبي هريرة ﷺ. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وفي الباب عن أنس، وفيه عن أبي سعيد بن المعلَّى. اهـ. وحديث أبي سعيد بن المعلَّى عند البخاري (٤٤٧٤)، قال الحافظ في الفتح ٨/ ١٥٧: وجمع البيهقي بأن القصة وقعت لأبي بن كعب ولأبي سعيد بن المعلى، ويتعين المصير إلى ذلك لاختلاف مخرج الحديثين، واختلاف سياقهما.

(٥) وعجزه: فلبَّى، فلبَّيْ يَدَيْ مِسْوَرِ، وهو في الكتاب ١/ ٣٥٢، وسرّ صناعة الإعراب ٢/ ٧٤٧، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٢٤٧، و٤/ ١٨١٨، ومغني اللبيب ص٧٥٣، وخزانة =

وقال آخَر:

وإنْ أُدْعَ لِلْجُلَّى أَكُنْ مِن حُماتِها[1]

وقيل: اللام بمعنى «إلى»، وتتعلَّق بـ«استجيبوا»، فلذلك قدَّره بـ«إلى» حتى يتغايرَ مدلُول الكلام فيتعلَّق الحرفان بفعلٍ واحد. قال مجاهد والجمهور: المعنى: استجيبوا للطاعة وما تضمَّنه القرآنُ مِن أوامرَ ونواهٍ؛ ففيه الحياةُ الأبديَّة والنِّعْمة السرمديَّة[2]. وقيل: «ما يُحْيِيكم» هو مجاهدة الكفَّار؛ لأنَّهم لو تَرَكوها لغَلَبوهم وقَتَلوهم، كقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة:١٧٩]. وقيل: الشهادة؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩] قاله ابنُ إسحاق[3]. وقيل: «لما يحييكم» مِن علوم الديانات والشرائع؛ لأنَّ العلمَ حياةٌ، كما أنَّ الجهلَ موتٌ، وقال:

لا تُعْجِبَنَّ الجهولَ حِلْيَتُهُ فذاكَ مَيْتٌ وثَوبُه كَفَنُ[4]

وهذا نحوٌ مِن قول الجمهور ومجاهد، وقال مجاهد أيضاً: «ما يحييكم» هو الحقُّ[5]. وقيل: هو إحياءُ أمورِهم وطِيْب أحوالهم في الدنيا ورِفْعَتهم، يقال: حَيِيَتْ حالُه: إذا ارتفعت. وقيل: ما يَحصل لكم مِن الغنائم في الجهاد وتعيشون منها. وقيل: الجنَّة.

= الأدب ٢/ ٩٣، قال البغدادي: هذا البيت من الأبيات الخمسين التي لا يعرف لها قائل. ونسبه السيوطي في شرح شواهد المغني ٢/ ٩١٠ لأعرابي من بني أسد.

(١) وعجزه: وإنْ يأتِكَ الأعداءُ بالجَهْدِ أَجْهَدِ، والبيت من معلقة طرفة بن العبد، وهو في ديوانه ص ٣٥، والجُلَّى: تأنيث الأجل، وهي الخطة العظيمة، والأمر العظيم.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٥١٤، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٨٤، والذي أخرجه الطبري ١١/ ١٠٤-١٠٥ عن مجاهد أنه فسَّره بالحقِّ، وعن قتادة أنه ما تضمَّنه القرآن. . . . وكذا ورد عند الثعلبي ٣/ ١٢٩، وينظر ما سيأتي قريباً عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري ١١/ ١٠٥بنحوه، وأورده الثعلبي ٣/ ١٢٩ لكن عن القتيبي، وعن ابن إسحاق بنحوه.

(٤) القائل الزمخشري، والبيت في الكشاف ٢/ ١٥٢، قال الشهاب في حاشيته على تفسير البيضاوي ٤/ ٢٦٤: البيت المذكور للزمخشري من قصيدة مدح بها المؤتمن بالله الخليفة. وينظر روح المعاني ١٠/ ٧٦، وورد في مطبوع الكشاف ومخطوطه الورقة (١٨٤) وبعض النسخ الخطية للبحر والمطبوع: حلَّته. بدل: حليته.

(٥) سلف تخريجه قريباً.

والذي يَظهر هو القول الأوَّل؛ لأنَّه في سياق قوله: «ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خيراً لأسمعهم» فالذي يحيا به مِن الجهل هو سماعُ ما يَنفع ممَّا أمَر به ونهى عنه، فيمتثل المأمورَ به، ويَجتنب المنهيَّ عنه، فيَؤول إلى الحياتين الطيِّبتين الدنياويَّة والأخراويَّة.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ المعنى أنَّه تعالى هو المتصرِّف في جميع الأشياء والقادر على الحيلولة بين الإنسان وبين ما يَشتهيه قلبُه، فهو الذي ينبغي أن يُستجابَ له إذا دَعا، إذ بيده تعالى مَلَكوتُ كلِّ شيء وزمامُها، وفي ذلك حضٌّ على المراقبة والخوف لله، والبِدار إلى الاستجابة له تعالى.

وقال ابنُ عباس وابنُ جبير والضحَّاك: «يحول» بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان. وقال مجاهد: «يحول» بين المرء وعَقْلِه، فلا يدري ما يَعمل[(١)]، عقوبةً على عنادِه، وفي التنزيل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق:٣٧] أي: عقل. وقال السُّدِّيُّ: «يَحول» بين كلِّ واحدٍ وقلبِه، فلا يَقدر على إيمان ولا كفرٍ إلَّا بإذنه. وقال ابنُ الأنباري: بينه وبين ما يتمنَّاه[(٢)]. وقال ابنُ قتيبة: بينَه وبينَ هواه[(٣)]. وهذان راجعان إلى القول الأوَّل.

وقال عليُّ بنُ عيسى: هو أن يتوفَّاه، لأنَّ الأَجَل يَحول بينه وبين أَمَلِ قلبه[(٤)]، وهذا حثٌّ على انتهازِ الفُرْصة قبلَ الوفاة، (٥)وبَسَطَ هذا القولَ الزمخشريُّ، فقال: يعني أنَّه يميتُه فتفوته الفُرصَة(٥) التي هو واجدها، وهي التمكُّن مِن إخلاص القلب ومخالجة[(٦)] أدوائِه وعِلَلِه، وردِّه سليماً، كما يُريده اللهُ تعالى، فاغتنموا هذه الفُرْصة

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٣٠٨، وأخرجه عنهم الطبري ١١/ ١٠٧-١١١.

(٢) النكت والعيون ٢/ ٣٠٨، وقول السدي أخرجه الطبري ١١/ ١١١-١١٢، وينظر زاد المسير ٣/ ٣٣٩.

(٣) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ١٧٨.

(٤) النكت والعيون ٢/ ٣٠٨.

(٥-٥) ليست في المطبوع.

(٦) كذا في النسخ، والذي في مطبوع الكشاف ٢/ ١٥٢ ومخطوطه الورقة (١٨٤): ومعالجة.

وأخلصوا قلوبَكم لطاعةِ الله ورسولِه. انتهى. وهو على طريقة المعتزلة، وعليُّ بنُ عيسى: هو الرُّمَّانيُّ، وهو معتزليٌّ[١].

وقال الزمخشريُّ أيضاً: وقيل معناه: أنَّ اللهَ قد تملَّك[٢] على العبد قلبَه، فيفسخ عزائمَه ويغيِّر نيَّاته ومقاصدَه، ويُبدله بالخوف أَمْناً وبالأَمْن خوفاً، وبالذِّكْر نسياناً، وبالنِّسيان ذِكْراً، وما أشبَهَ ذلك ممَّا هو جائز على الله تعالى؛ فأمَّا مايُثاب عليه العبدُ ويُعاقَب مِن أفعال القلوب فلا، والمُجبرة على أنَّه يَحول بين المرءِ والإيمان إذا كفر، وبينَه وبينَ الكفر إذا آمَنَ. تعالى عمَّا يقول الظالمون علوًّا كبيراً[٣]. انتهى.

وجعلَ هذا المسكينُ صَدْرَ هذه الأمَّة ظالمين، إذ قائلُ ذلك هو ابنُ عبَّاس تَرْجمانُ القرآن ومَن ذُكرَ معه مِن سادات التابعين.

وقيل: يُبدل الجُبْنَ جُرْأةً، وهو تحريضٌ على القتال بعد الأمْر به بقوله: «استجيبوا» ويَكشِفُ حقيقتَه قولُه ﷺ: «قلبُ ابنِ آدمَ بين أُصبعين مِن أصابعِ الرَّحمن، يُقلِّبه كيف يشاء»[٤]، وتأويلُه: بَيْنَ أثَرين مِن آثارِ رُبوبيَّته.

وقيل: يَحول بين المؤمنِ وبين المعاصي التي يهمُّ بها قلبُه؛ بالعِصْمة.

وقيل: معناه: أنَّه يَطَّلع على كلِّ ما يُخْطِرُه المرءُ بباله، لا يَخفى عليه شيء مِن ضمائره، فكأنَّه بينه وبين قلبه.

واختار الطبريُّ أن يكون المعنى: أنَّ اللهَ أخبر أنَّه أمْلَكُ لقلوب العباد منهم، وأنَّه يَحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يُدرِك الإنسانُ شيئاً إلَّا بمشيئته تعالى[٥].

وقرأ ابنُ أبي إسحاق: «بين المِرْءِ» بكسر الميم[٦]؛ إتباعاً لحركة الإعراب، إذ

---

(١) تنظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٦/ ٥٣٣-٥٣٤، وبغية الوعاة ٢/ ١٨٠-١٨١.
(٢) في (أ) و(ح) والمطبوع: يملك. وكذا في مطبوع الكشاف ٢/ ١٥٢ ومخطوطه.
(٣) الكشاف ٢/ ١٥٢.
(٤) أخرجه بهذا اللفظ ابن عدي في الكامل ٧/ ٩٦ عن عبادة بن الصامت ﷺ، وهو قطعة من حديث أخرجه أحمد (٦٥٦٩)، ومسلم (٢٦٥٤) عن عبد الله بن عمرو ﷺ بنحوه.
(٥) تفسير الطبري ١١/ ١١٢.
(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٤-٥١٥.

في «المَرء» لغتان؛ فتحُ الميم مطلقاً، وإتباعُها حركةَ الإعراب.

وقرأ الحسن والزهريُّ: «بين المَرِّ» بتشديد الراء مِن غير همز[(١)]، ووجهُه أنَّه نقل حركةَ الهمزة إلى الراءِ، وحذفَ الهمزة، ثم شدَّدها، كما تشدَّد في الوقف، وأجرى الوصلَ مُجرى الوقف، وكثيراً ما تَفعل العربُ ذلك تُجري الوصلَ مُجرى الوقف، وهذا توجيهُ شذوذٍ.

«وأنَّه إليه تحشرون» الظاهر أنَّ الضميرَ في «أنَّه» عائد على الله تعالى، ويحتمل أن يكون ضميرَ الشأن.

ولمَّا أَمَرَهم بأنْ يعلموا قدرةَ الله وحيلولتَه بين المرءِ ومقاصدِ قلبه، أَعْلَمَهم بأنَّه تعالى إليه مَحشرهم فيُثيبهم على أعمالهم، فكان في ذلك تذكارٌ لِمَا يَؤول إليه أمرُهم مِن البَعْث والجزاء بالثواب والعقاب.

﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ هذا الخطاب ظاهره العمومُ باتِّقاء الفتنة التي لا تختصُّ بالظالم، بل تعمُّ الصَّالِحَ والطَّالِحَ، وكذلك روي عن ابنِ عباس قال: أَمَرَ المؤمنين أنْ لا يُقِرُّوا المُنكَر بين أظهرهم فيعمَّهم اللهُ بالعذاب[(٢)]. وفي «البخاريِّ» و«الترمذيِّ»: «إنَّ الناسَ إذا رَأَوُا الظالمَ ولم يَأخذوا على يدَيْه، أَوْشَكَ أنْ يَعمَّهم اللهُ بعذاب مِن عنده»[(٣)]، وفي «مسلم» مِن حديث زينب بنتِ جحشٍ، سألتُ رسولَ الله ﷺ: أَنَهْلِكُ وفينا الصَّالحون؟ قال: «نعم إذا كَثُرَ الخَبَثُ»[(٤)]. وقيل: الخطاب للصَّحابة، وقيل: لأهل بدر، وقيل: لعليٍّ وعمَّار

(١) المحتسب ١/ ٢٧٦، والقراءة في المحرر الوجيز ٢/ ٥١٥ لكن عن الحسن والزبيدي. فليحرَّر.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٥، وأخرجه عنه الطبري ١١/ ١١٥، وابن أبي حاتم ٥/ ١٦٨٢.

(٣) سنن الترمذي (٢١٦٨) و(٣٠٥٧) عن أبي بكر الصديق، ولم نقف عليه عند البخاري، وهو عند أحمد (٣٠)، والحديث أورده القرطبي في التفسير ٩/ ٤٨٧ وعزاه للترمذي، وأورد بعده حديثاً عزاه للبخاري [٢٤٩٣] والترمذي [٢١٧٣]، وهو حديث النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ: «مَثَل القائم على حدود الله والواقع فيها...» الحديث، فلعلَّ سَبق النظر للمصنِّف حصل من هنا، والله تعالى أعلم.

(٤) صحيح مسلم (٢٨٨٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٧٤١٣)، والبخاري (٣٣٤٦).

وطلحة والزبير(١)، (٢)وقيل: لرجلين مِن قريش، قاله أبو صالح عن ابنِ عباس ولم يسمِّهما.

والفتنة(٢) هنا: القتال في وَقْعَة الجمل، أو الضلالة، أو عدم إنكار المنكَر، أو بالأموال والأولاد، أو بظهور البِدَع، أو العقوبة، أقوال(٣).

وقال الزبير بنُ العوَّام يومَ الجمل: ما عَلِمْتُ أنَّا أُرِدْنا بهذه الآية إلَّا اليوم، وما كنتُ أظنُّها إلَّا فيمَن خوطب بها في ذلك الوقت(٤).

والجملة مِن قوله: «لا تصيبنَّ» خبريَّة، صفة لقوله: «فتنة» أي: غير مُصيبةٍ الظالمَ خاصَّة، إلَّا أنَّ دخولَ نون التوكيد على المنفيِّ بـ«لا» مُختَلف فيه؛ فالجمهور لا يُجيزونه ويَحملون ما جاء منه على الضرورة أو النُّدُور، والذي نختاره الجواز، وإليه ذهب بعضُ النحويين، وإذا كان قد جاء لحاقها الفعل منفيًّا بـ«لا» مع الفَصْل نحو قوله:

فلا ذا نَعِيمٍ يُتْرَكَنْ لنَعِيمِهِ وإن قال قَرِّظْنِي وخُذْ رشوةً أَبَى
ولا ذا بَئِيسٍ يُتْرَكَنَّ لِبُوسِهِ فينفَعَه شَكْوٌ إليه إنِ اشْتَكَى(٥)

فَلَأَنْ يَلحقه مع غيرِ الفَصْل أولى، نحو: «لا تصيبنَّ».

وزعم الزمخشريُّ أنَّ الجملةَ صفةٌ، وهي نَهْي، قال: وكذلك إذا جعلتَه صفةً على إرادة القول، كأنَّه قيل: واتقوا فتنةً مقولاً فيها: لا تُصيبنَّ، ونظيره قولهُ:

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٥، وتفسير الثعلبي ٣/ ١٣١، والخبر أخرجه الطبري ١١/ ١١٣-١١٤ عن الحسن، وفيه: وعثمان، بدل: وعمار.

(٢-٢) ليست في (ب)، وقول ابن عباس أورده ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٣٤١.

(٣) ينظر زاد المسير ٣/ ٣٤١.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٥، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٨٦، والخبر أخرجه أحمد (١٤٣٨)، والنسائي في الكبرى (١١١٤٢)، والطبري ١١/ ١١٤.

(٥) البيتان في النوادر لأبي زيد ص ١١٢، ونسبهما ـ مع أبيات أُخَر ـ لحسان السعدي من زيادات ابن الأعرابي، واقتصر في ارتشاف الضَّرَب ٢/ ٦٥٧ على البيت الأول، ولم ينسبه، وورد في مطبوع البحر: قرِّظني، بدل: فرِّطني، ووقع في النوادر: بؤوس، بدل: بئيس.

حـتـى إذا جَـنَّ الـظَّـلامُ واخـتَـلَـطْ
جـاؤوا بـمَـذْقٍ هـل رأيـتَ الـذئـبَ قَـطّ[١]

أي: بمَذقٍ مقولٍ فيه هذا القول، لأنَّ فيه لونَ الوُرْقَة[٢] التي هي معنًى الذئب[٣]. انتهى.

وتحريره أنَّ الجملةَ معمولةٌ لصفةٍ محذوفة، وزعم الفرَّاء أنَّ الجملةَ جوابٌ للأَمْر، نحو قولك: انْزِلْ عن الدَّابَّة لا تَطْرَحَنَّكَ، أي: إنْ تَنزل عنها لا تَطْرَحَنَّكَ. قال: ومنه: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ﴾ [النمل:١٨] أي: إن تدخلوا لايَحْطِمَنَّكم، فدخلت النون؛ لما فيه مِن معنى الجزاء[٤]. انتهى.

وهذا المثال وقوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ ليس نظيرَ: «واتقوا فتنة لا تصيبنَّ»؛ لأنَّه يَنتظم مِن المثال والآيةِ شَرْطٌ وجزاءٌ، كما قدّر، ولا يَنتظم ذلك هنا، أَلَا ترى أنَّه لا يصحُّ تقدير: إن تتَّقوا فتنةً لا تُصِبِ الذين ظَلموا منكم خاصَّة، لأنَّه يترتَّب إذ ذاك على الشَّرْط غيرُ مقتضاه مِن جهة المعنى.

وأَخَذ الزمخشريُّ قولَ الفرَّاء، وزاده فساداً وخَبَّطَ فيه، فقال: وقوله: «لا تصيبنَّ» لا يَخلو مِن أن يكون جواباً للأَمْر، أو نهياً بعد أمْرٍ، أو صفةً لـ«فتنة»، فإذا كانت جواباً، فالمعنى: إن أصابَتْكم لا تُصِبِ الظالمينَ منكم خاصَّة، ولكنَّها تعمّكم[٥]. انتهى تقريره هذا القولَ، فانظر كيف قرَّر أن يكون جواباً للأَمْر الذي هو «اتقوا» ثم قدَّر أداةَ الشرط داخلةً على غير مضارع: «اتَّقوا»، فقال: فالمعنى: إن أصابتكم، يعني الفتنة، وانظر كيف قدَّر الفرَّاء في: انزِل عن الدابَّة لا تَطْرَحنَّك،

---

(١) الرجز في البيان والتبيين للجاحظ ٢/ ٢٨١، والكامل للمبرد ٢/ ١٠٥٤، والأزمنة والأمكنة للمرزوقي ١/ ٢٦، وخزانة الأدب ٢/ ١٠٩، وفيه: المَذْق: اللَّبن الممزوج بالماء، وهو يشبه لون الذئب لأنَّ فيه غُبْرة وكدورة. . . والرجز لم ينسبه أحد من الرواة إلى قائله، وقيل: قائله العجاج، والله أعلم. اهـ. ولم نقف عليه في المطبوع من ديوانه.

(٢) في المطبوع: الزرقة. والوُرْقة: سواد في غُبْرَة، وقيل: سواد وبياض. تاج العروس (ورق).

(٣) كذا في النسخ، والذي في مطبوع الكشاف ٢/ ١٥٢ ومخطوطه الورقة (١٨٥): لأنه سَمَارٌ فيه لون الوُرْقة التي هي لون الذئب.

(٤) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٠٧ مختصراً، وينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤١١، وتفسير الثعلبي ٣/ ١٣١، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٨٩.

(٥) الكشاف ٢/ ١٥٢.

وفي قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ فأدخل أداةَ الشَّرْط على مضارع فِعْلِ الأمر، وهكذا يقدَّر ما كان جواباً للأمْر.

وزعم بعضُهم أنَّ قولَه: «لا تصيبنَّ» جوابُ قَسَم محذوف، فقيل: «لا» نافية، وشُبّه النفيُ بالموجب فدخلت النون، كما دخلت في: لتضربَنَّ، التقدير: واللهِ لا تصيبنَّ، فعلى القول الأوَّل بأنَّها صفة، أو جوابُ أمْر، أو جواب قَسَم، تكون النون قد دخلت في المنفيِّ بـ «لا».

وذهب بعضُ النحويين إلى أنَّها جوابُ قَسَم محذوف، والجملة موجبة، فدخلت النون في محلِّها ومُطِلَت اللامُ[1] فصارت «لا»، والمعنى: واللهِ لتصيبَنَّ، ويؤيِّد هذا القولَ قراءةُ ابنِ مسعود وعليِّ بن أبي طالب وزيدِ بن ثابت والباقر والربيع بن أنس وأبي العالية وابن جمَّازٍ: «لَتُصيبنَّ»[2]، وفي ذلك وعيدٌ للظالمين فقط.

وعلى هذا التوجيه خرَّج ابنُ جِنِّيّ أيضاً قراءةَ الجماعة: «لا تصيبنَّ»، وكون اللام مُطِلَت فحدثت عنها الألفُ إشباعاً، ضعيف؛ لأنَّ الإشباع بابُه الشِّعْر، وقال ابنُ جنِّيّ في قراءة ابنِ مسعود ومَن معه: يحتمل أن يُراد بهذه القراءة: لا تصيبنَّ، فحذفت الألف من «لا» تخفيفاً واكتفاءً بالحركة، كما قالوا: أَمَ واللهِ[3].

قال المهدويُّ: كما حُذفت مِن «ما» وهي أخت «لا» في نحو: أَمَ واللهِ لأفعلنَّ، وشِبْهه[4]. انتهى. وليست [5]«لا» أخت «أما» لأنَّ: «أَمَا»، في قولهم: أَمَ واللهِ لأفعلنَّ، ليست[5] للنفي.

وحكى النقَّاش عن ابنِ مسعود أنَّه قرأ: «فتنة أنْ تصيب»[6]، وعن الزبير بن

---

(١) مَطَلْتُ الحديدةَ أمْطُلها مَطْلاً: مَدَدْتها. معجم مقاييس اللغة (مطل).
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٦ دون ذِكْر ابنِ مسعود، وهي أيضاً هكذا في المحتسب ١/ ٢٧٧، وذكرها عن ابن مسعود ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص ٤٩، والزمخشريُّ في الكشاف ٢/ ١٥٢-١٥٣.
(٣) المحتسب ١/ ٢٧٧-٢٧٨.
(٤) ينظر تفسير القرطبي ٩/ ٤٨٩.
(٥-٥) ليست في (أ) و(ع) و(ح) والمطبوع.
(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٦، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٣٧.

العوَّام: «لتصيبنَّ»[١]، وخرَّج المبرِّد والفرَّاء والزجَّاج[٢] قراءةَ: «لا تصيبنَّ» على أن تكون نهياً، وتمَّ الكلامُ عند قوله: «واتقوا فتنةً»، وهو خطابٌ عامٌّ للمؤمنين تمَّ الكلام عنده، ثم ابتُدئ نَهْيُ الظَّلَمة خاصَّة عن التعرُّض للظُّلم فتصيبهم الفِتنة خاصَّة، وأُخرج النهي على جهة إسناده للفتنة، فهو نهيٌ محوَّل، كما قالوا: لا أَرَيَنَّكَ ها هنا! أي: لا تكن هنا فيقع مِنِّي رؤيتك، والمراد هنا لا يتعرَّض الظالمُ للفتنة فتقعَ إصابتُها له خاصَّة.

وقال الزمخشريُّ في تقرير هذا الوجه: وإذا كانت نهياً بعد أَمْرٍ، فكأنَّه قيل: واحذروا ذَنْباً أو عقاباً، ثم قيل: لا تتعرَّضوا للظُّلم فيصيب العقاب أو أَثَرُ الذنب مَن ظَلَم منكم خاصَّة[٣].

وقال الأخفش الصغير[٤]: «لا تصيبنَّ» هو على معنى الدعاء[٥]. انتهى. والذي دَعَاه إلى هذا ـ واللهُ أعلم ـ استبعادُ دخولِ نونِ التوكيد في المنفيِّ بـ «لا» واعتياضُ تقريره نهياً، فعدل إلى جعلِه دعاءً، فيصير المعنى: لا أصابت الفتنةُ الظالمين خاصَّة، واستلزمت الدعاء على غيرِ الظالمين، فصار التقدير: لا أَصابت ظالماً ولا غيرَ ظالم، فكأنَّه قيل: واتَّقوا فتنةً لا أَوقعها اللهُ بأحَدٍ.

فتلخَّص في تخريج قوله: «لا تصيبنَّ» أقوالٌ؛ الدعاءُ والنهيُ على تقديرين، وجوابُ قَسَم على تقديرين، وجوابُ أَمْرٍ على تقديرين، وصفةٌ.

قال الزمخشريُّ: فإن قلت: كيف جاز أن تَدخُل النونُ المؤكِّدة في جواب الأَمْرِ؟

---

(١) المحرر الوجيز ٢/٥١٦، وقراءتُه كقراءة ابنِ مسعود وعليٍّ وزيد بن ثابت ومن تابعهم، وسلفت قريباً.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٢/٥١٥-٥١٦، وتفسير القرطبي ٩/٤٨٩، ومعاني القرآن للفراء ١/٤٠٧، وللزجاج ٢/٤١١.

(٣) الكشاف ٢/١٥٢.

(٤) ليست في المطبوع، ويعني بالأخفش الصغير: أبا الحسن علي بن سليمان بن الفضل، المتوفى سنة (٣١٥هـ)، والذي تلقَّى العلم عن ثعلب والمبرِّد وغيرهما. وسلفت ترجمته.

(٥) ذكره عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/٥١٦ نقلاً عن الزهراوي.

قلت: لأنَّ فيه معنى النهي[1]، إذا قلت: انْزِل عن الدابَّة لا تَطْرَحْك، فلذلك جاز: لا تَطْرَحنَّكَ، و«لا تصيبنَّ» و«لا يحطمنَّكم». انتهى. وإذا قلت: لا تَطْرَحْك، وجعلته جواباً لقولك: انزل، فليس فيه معنى نهي، بل هو نفيٌ محضٌ، جوابُ الأمْرِ نُفيَ بـ «لا»، وجزمه على الجواب، على الخلاف الذي في جوابِ الأمْر والسِّتَّة معه، هل ثَمَّ شَرْطٌ محذوف دلَّ عليه الأمْرُ وما ذكر معه، [2]أو: ضُمِّنت جملة الأمر وما ذكر معه[2] معنى الشَّرْط، وإذا فرَّعنا على مذهب الجمهور في أنَّ الفعل المنفيَّ بـ «لا» لا تدخل عليه النونُ للتأكيد، لم يَجُزْ: انزل عن الدَّابَّة لا تَطْرَحنَّك.

وقال الزمخشريُّ: فإن قلت: ما معنى «مِن» في قوله: «الذين ظلموا منكم خاصَّة»؟

قلت: التبعيضُ على الوجه الأوَّل، والتَّبيين على الثاني، لأنَّ المعنى: لا تُصبْكم خاصَّة على ظُلْمكم؛ لأنَّ الظُّلْم منكم أقبحُ مِن سائر الناس[3]. انتهى. ويعني بالأوَّل أن تكون جواباً بَعْدَ أمْرٍ، وبالثاني أن تكون نهياً بعد أمْرٍ.

و«خاصَّة»: أصله أن يكون نعتاً لمصدر محذوف، أي: إصابةً خاصَّةً، وهي حال مِن الفاعل المستكنّ في «لا تصيبنَّ»، ويحتمل أن يكون حالاً مِن «الذين ظلموا»، أي: مخصوصين بها، بل تعمُّهم وغيرَهم.

وقال ابنُ عطيَّة: ويَحتمل أن يكون «خاصَّة» حالاً مِن الضمير في «ظلموا»[4]. ولا أتعقَّل هذا الوجه[5].

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ هذا وعيدٌ شديد مناسِب لقوله: «لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصَّة» إذ فيه حثٌّ على لزوم الاستقامة؛ خوفاً مِن عقاب الله، لا يقال: كيف يُوصِلُ الرحيمُ الكريمُ الفتنةَ والعذابَ لمَن لم يُذنِب؛

---

(١) في (أ) و(ع) و(ح) والمطبوع: التمني. والمثبت من (ب) و(ز١) والكشاف ٢/ ١٥٣.
(٢-٢) ليست في المطبوع.
(٣) الكشاف ٢/ ١٥٣.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٦.
(٥) ينظر ما قاله السمين الحلبي في الدر المصون ٥/ ٥٩٤ حول هذا الكلام.

لأنَّه تصرُّف بحُكْم المِلْك، كما قد يُنزِل الفقرَ والمرضَ بعبدِه ابتداءً فيَحسُن ذلك منه، أو لأنَّه تعالى عَلِمَ اشتمالَ ذلك على مزيدِ ثوابٍ لمَن أوقع به ذلك.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ نزلت عقبَ بدر، فقيل: خطابٌ للمهاجرين خاصَّة، كانوا بمكَّة قليلي العَدَد مقهورينَ فيها يَخافون أن يستلبهم المشركون، قاله ابنُ عباس[1]، فآواهم بالمدينة، وأيَّدهم بالنصر يومَ بدر، و«الطَّيِّبات»: الغنائم وما فُتِحَ به عليهم.

وقيل: الخطاب للرسول والصَّحابة، وهي حالُهم يومَ بدرٍ، و«الناس» عَسْكرُ مكَّة وسائر القبائل المجاورة، والتأييد هو الإمداد بالملائكة والتغليب على العدوِّ، و«الطيِّبات» الغنائم.

وقال وهب وقتادة: الخطاب للعرب قاطِبَةً، فإنَّها كانت أَعْرى الناسِ أجساماً، وأجوعَهم بطوناً، وأقلَّهم حالاً حسنةً، و«الناس» فارس والروم، والمأوى: النبوَّة والشريعة، والتأييدُ بالنصر: فتحُ البلاد وغَلَبة الملوك، و«الطيبات» نِعَمُ[2] المآكلِ والمشارب والملابسِ.

قال ابنُ عطيَّة: وهذا التأويل يردُّه أنَّ العربَ كانت في وقت نزولِ هذه الآية كافرةً إلَّا القليلَ، ولم تترتَّب الأحوال التي ذكَرَ هذا المتأوِّل، وإنَّما كان يمكن أن يُخاطب العرب بهذه الآية في آخِرِ زمانِ عمر بن الخطاب ﵁، فإن تمثَّل أحدٌ بهذه الآية بحالِ العرب، فتمثيلُه صحيحٌ، وأمَّا أن تكون حالةُ العرب هي سببَ نزول الآية، فبعيدٌ؛ لِمَا ذكرناه[3]. انتهى.

وهذه الآية تعديد[4] لنِعَمه تعالى عليهم، قال الزمخشريُّ: «إذ أنتم» نصب على

(١) زاد المسير ٣/٣٤٣.
(٢) في النسخ عدا (ز١): تعمّ. والمثبت من (ز١) والمحرر الوجيز ٢/٥١٦-٥١٧، وأخرج قولهما الطبريُّ ١١/١١٨-١١٩.
(٣) المحرر الوجيز ٢/٥١٦-٥١٧.
(٤) في المطبوع: تعديل.

أنَّه مفعول به مذكورٌ لا ظَرْفٌ، أي: اذكُروا وقتَ كونِكم أقلَّةً أذلَّةً[١]. انتهى.

وفيه التصرُّف في «إذ» بنصبها مفعولة، وهي مِن الظروف التي لا تتصرَّف إلَّا بأن أُضيف إليها الأزمانُ.

وقال ابنُ عطيَّة: و«إذ» ظرفٌ لمعمول: «واذكروا» تقديره: واذكروا حالَكم الكائنة أو الثابتة «إذ أنتم قليل»، ولا يجوز أن تكون «إذ» ظرفاً لـ: اذكُرْ، إنَّما يعمل: اذكُر، في «إذ» لو قدَّرناها مفعولَةً[٢]. انتهى. وهو تخريجٌ حَسَن.

وقال الحوفيُّ: «إذ أنتم» ظرفٌ، العامل فيه: «اذكروا». انتهى. وهذا لا يتأتَّى أصلاً لأنَّ: اذكُر، للمستقبل، فلا يكون ظرفُه إلَّا مستقبَلاً، و«إذ» ظرف ماضٍ يَستحيل أن يقع فيه المستقبل، و«لعلكم تشكرون» متعلِّق بقوله: «فآواكم» وما بعده، أي: فَعَلَ هذا الإحسان لإرادة الشكر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾
قال ابن عباس والأكثرون: نزلت في أبي لُبابة حين استنصحته قريظة لمَّا أبَى الرسولُ ﷺ أن يُسيِّرَهم إلى أَذْرِعَات وأَرِيْحاء، كفعله ببني النَّضِيْر، فأشار أبو لبابة إلى حَلْقه، أي: ليس عند الرسول إلَّا الذَّبح، فكانت هذه خيانته، في قصَّة طويلة[٣].

وقال جابر: في رجلٍ مِن المنافقين كتب إلى أبي سفيان بشيءٍ مِن أخبارِ الرسول ﷺ[٤].

---

(١) الكشاف ٢/ ١٥٣.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٦.
(٣) زاد المسير ٣/ ٣٤٣-٣٤٤، وينظر أسباب النزول للواحدي ص ٢٣١-٢٣٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٥١٧، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٩٠، والخبر أخرجه الطبري في التفسير ١١/ ١٢١، وفي التاريخ ٢/ ٥٨٤-٥٨٥ عن الزهري، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٢٧٠-٢٧١ عن الزهري، عن ابن المسيب. وأورده ابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٢٣٦-٢٣٧، وأذرعات: بلد في أطراف الشام، يجاور البلقاء وعَمَّان. معجم البلدان ١/ ١٣٠-١٣١.
وأريحاء: مدينة الجبارين في الغور من أرض الأُردنّ بالشام. معجم البلدان ١/ ١٦٥.
(٤) زاد المسير ٣/ ٣٤٤، وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٥١٧، والخبر أخرجه الطبريُّ ١١/ ١٢١، وأورده ابن كثير في التفسير، ثم قال: غريب جدًا، وفي سنده وسياقه نَظَرٌ.

وقال المغيرة بنُ شعبة: في قَتْل عثمان[١]. قال ابنُ عطيَّة: ويُشبه أن يتمثَّل بالآية في قَتْلِ عثمان، فقد كان قتلُه خيانةً لله ورسولِه والأماناتِ[٢]. انتهى.

وقيل: في حاطب بنِ أبي بَلْتَعة حين كتب إلى أهل مكَّة يُعْلِمهم بخروج الرسولِ ﷺ إليها[٣].

وقيل: في قومٍ كانوا يسمعونَ الحديثَ مِن الرسول فيُفْشُونه حتى يبلغَ المشركين[٤].

وخيانتهم اللهَ: في عَدَم امتثال أوامرِه وفِعْلِ ما نهى عنه في سِرٍّ، وخيانةُ الرسولِ: فيما اُستحفظَ، وخيانة الأماناتِ: إسقاطُها وعدمُ الاعتبار بها.

وقيل: «وتخونوا» ذوي أماناتكم.

«وأنتم تعلمون» جملة حاليَّة، أي: وأنتم تَعلمون تَبِعَةَ ذلك ووبَالَه، فكان ذلك أبعدَ لكم مِن الوقوع في الخيانة؛ لأنَّ العالِم بما يترتَّب على الذنب يكون أبعدَ الناس[٥] عنه.

وقيل: «وأنتم تعلمون» أنَّ الخيانةَ تُوجد منكم عن تعمُّد لا عن سهو.

وقيل: «وأنتم» عالمون؛ «تعلمون» قُبْحَ القبيح وحُسْن الحَسَن.

وجوَّزوا في «وتخونوا» أن يكون مجزوماً عطفاً على «لا تخونوا»، ومنصوباً على جواب النهي، وكونُه مجزوماً هو الراجحُ؛ لأنَّ النصبَ يقتضي النهيَ عن الجَمْع، والجَزْمَ يقتضي النهيَ عن كلٍّ واحد.

وقرأ مجاهد: «أمانتَكُم» على التوحيد، وروي ذلك عن أبي عمرو[٦].

---

(١) زاد المسير ٣/ ٣٤٤، وينظر تفسير الثعلبي ٣/ ١٣٣، والخبر أخرجه الطبري ١١/ ١٢٢، وفي إسناده: يونس بن الحارث، وهو ضعيف.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٧.
(٣) خبر حاطب أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤)، وأحمد (٦٠٠) من حديث علي ﷺ.
(٤) ينظر تفسير القرطبي ٩/ ٤٩١، والخبر أخرجه الطبري ١١/ ١٢٣ من قول السدي.
(٥) بعدها في (ب): من الوقوع.
(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٨، والقراءة في القراءات الشاذة ص ٤٩.

﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ أي: سبب الوقوع في الفتنة ـ وهي الإثم، أو العذاب ـ أو مِحْنةٌ واختبار لكم، وكيف تحافظون على حدودِهِ فيها، وفي كون الأجر العظيم عنده تعالى إشارةٌ إلى أن لا يُفتنَ المرءُ بماله وولده فيُؤثِرَ محبَّتَه لهما على ما عندَ الله، فيَجمع المالَ ويحبّ الولدَ حتى يُؤثِر ذلك، كما فعل أبو لبابة لأجل كون مالِه وولدِهِ كانوا عند بني قريظة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ «فرقاناً» قال ابنُ عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك والسُّدِّيُّ وابنُ قتيبة ومالك فيما روى عنه ابنُ وهب وابنُ القاسم وأشهب: مَخْرجاً[(١)]، وقرأ مالك: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، والمعنى: مَخْرَجاً في الدِّين مِن الضَّلال. وقال مُزَرِّد بنُ ضرار:

بادَرَ الأفقَ أن يغيبَ فلمَّا ... أظلَمَ الليلُ لم يَجِدْ فُرْقانا[(٢)]

وقال الآخر:

ما لَكَ مِن طول الأسى فُرْقانُ ... بعد قَطِينٍ رَحَلوا وبانُوا[(٣)]

وقال الآخر:

وكيف أُرجِّي الخلدَ والموتُ طالبي ... وما ليَ مِن كأسِ المنيَّةِ فُرْقانُ[(٤)]

وقال ابن زيدٍ وابنُ إسحاق: فَصْلاً بين الحقِّ والباطل[(٥)].

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٥١٨، وأحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٣٩، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٩٣، والقول أخرجه الطبري ١١/ ١٢٨-١٣٠ عن مجاهد وابن عباس والضحاك وعكرمة.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٨.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٨، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٩٣.
(٤) ينظر التعليق السابق.
(٥) تفسير القرطبي ٩/ ٤٩٣، والثعلبي ٣/ ١٣٤، وقول ابن إسحاق ذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٢/ ٨٣٩، وأخرجه عنه الطبري ١١/ ١٣١، وقول ابن زيد ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٣٤٦.

وقال قتادة وغيره: نجاةً[١].

وقال الفرَّاء: فتحاً ونَصْراً. وهو في الآخرة يُدخِلكم الجنَّةَ، والكفارَ النارَ[٢].
وقال ابنُ عطية: فرقاً بين حقِّكم وباطلِ مَن ينازعكم، أي: بالنصر والتأييد عليهم.

والفرقان: مَصْدر مِن: فَرَقَ بين الشيئين: حالَ بينهما[٣].

وقال الزمخشريُّ: نَصْراً؛ لأنَّه يفرق بين الحقِّ والباطل، وبين الكُفر بإذلال حِزْبه، والإسلامِ بإعزاز أهله، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، أو بياناً وظهوراً يُشْهِرُ أَمْرَكم ويَبُثُّ صِيْتكم وآثارَكم في أقطار الأرض، من قولهم: بِتُّ أَفْعَلُ كذا حتى سَطَعَ الفرقانُ، أي: طلع الفجر. أو مخرجاً مِن الشُّبُهات وتوفيقاً وشَرْحاً للصدور، أو تَفرقةً بينكم وبين غيركم مِن أهل الأديان، وفضلاً ومزيَّة في الدنيا والآخرة[٤]. انتهى.

ولفظ «فرقاناً» مُطلَقٌ، فيَصلح لما يقعُ به فرقٌ بين المؤمنين والكافرين في أحوال الدنيا والآخرة.

والتقوى هنا إن كانت مِن اتِّقاء الكفر[٥]، كانت السَّيِّئاتُ [٦]جميعَ الذنوب التي وُجدت قبل الفرقان، وإن كانت من اتِّقاء الكبائر، كانت السَّيِّئاتُ[٦] الصغائرَ؛ ليتغاير الشَّرْط والجزاء.

وتكفيرُها سَتْرها في الدنيا، ومغفرتها إزالتها في القيامة، وتغايَرَ الطَّرَفان[٧]؛ لئلا يَلزم التكرارُ، وتقدَّم شَرْح «والله ذو الفضل العظيم» في «البقرة»[٨].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٨، وأورده القرطبي ٩/ ٤٩٣ عن السدي، والثعلبي ٣/ ١٣٤ عن عكرمة، وأخرجه الطبري ١١/ ١٣٠ عن عكرمة ومجاهد والسدي وابن عباس وقتادة.
(٢) تفسير القرطبي ٩/ ٤٩٣، وكلام الفراء في كتابه معاني القرآن ١/ ٤٠٨.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٨.
(٤) الكشاف ٢/ ١٥٤.
(٥) في (أ) والمطبوع: الكبائر.
(٦-٦) ليست في (أ) و(ع) و(ح) والمطبوع.
(٧) في (ز١) و(يه): الظرفان.
(٨) عند تفسير الآية (١٠٥).

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ لمَّا ذَكَّر المؤمنين نعمَةُ تعالى عليهم، ذكَّره ﷺ نِعَمَه عليه في خاصَّة نفسِه، وكانت قريش قد تشاوروا في دار النَّدْوة بما يُفعل به؛ فمِن قائلٍ: يُحبَس ويُقيَّد ويُتربَّص به رَيْب المَنُون، ومِن قائل: يُخرَج مِن مكَّة ليستريحوا منه، وتصوَّر إبليسُ لهم في صورة شيخ نجديٍّ وفيَّل[1] هذين الرأيين، ومِن قائلٍ: يَجتمع مِن كلِّ قبيلةٍ رجلٌ ويَضربونه ضربةً واحدةً بأسيافهم فيتفرَّق دمُه في القبائل، فلا يَقدِر بنو هاشم محاربةَ قريش كلِّها فيَرضون بأَخْذِ الدِّيَة، فصوَّب إبليسُ هذا الرأيَ، فأَوحى الله تعالى إلى نبيِّه بذلك، وأَمَرَه أن لا يبيتَ في مَضْجعه وأَذِنَ له في الخروج إلى المدينة، وأَمَرَ عليًّا أن يبيتَ في مَضْجعه ويتَّشح ببُرْدته، وباتُوا راصِدين، فبادروا إلى المَضْجع فأَبصروا عليًّا، فبُهتوا، وخلَّف عليًّا ليَرُدَّ ودائعَ كانت عنده وخرج إلى المدينة[2].

قال ابن عباس ومجاهد: «ليُثبِتوك» أي: ليُقيِّدوك[3]. وقال عطاء والسُّدِّي وابنُ كثير: ليَسْجُنوك، وقيل: ليَسْحَروك، وقيل[4]: ليُثْخِنوك بالجَرْح والضَّرْب،

(١) في (أ) و(ب) و(يه) والمطبوع: وقيل. والمثبت من (ز١) و(ح)، ومعنى: وفيَّل، أي: وضعَّف، يقال: فيَّل رأيه تفييلاً، أي: ضعَّفه، فهو فيِّل الرأي، ورجلٌ فِيْلُ الرأي، ورجلٌ فالٌ، أي: ضعيف الرأي. الصحاح (فيل).

(٢) الخبر أخرجه ابن إسحاق في المغازي كما في الكافي الشاف ص ٦٩ عن ابن عباس ﷺ، ونقله عنه ابن هشام في السيرة النبوية ١/ ٤٨٠-٤٨٣، وأخرجه أيضاً أحمد (٣٢٥١)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (١٥٤)، وهو عند عبد الرزاق (٩٧٤٣) ضمن حديث مطوَّل. وفي إسناد أحمد: عثمان الجزري، قال عنه أحمد: روى أحاديث مناكير زعموا أنه ذهب كتابه. ومبيت سيِّدنا عليّ في فراشه ﷺ أخرجه أيضاً ابنُ إسحاق، عن يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً كما في السيرة النبوية ١/ ٤٨٣، وأورده أبو نعيم في دلائل النبوة ١/ ٢٦١-٢٦٢ إثر الحديث (١٥٤). وينظر تتمة التخريج في مسند أحمد ثمَّة، وتفسير الطبري ١١/ ١٣٤ وما بعدها.
وأمَّا أَمْرُه عليًّا بِرَدِّ الودائع فأخرجه ابن إسحاق بسند قوي كما في التلخيص الحبير ٣/ ٩٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٢٨٩.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٩، وفيه: ليوثقوك. وأخرجه هكذا عنهما الطبريُّ ١١/ ١٣٢.

(٤-٤) ليست في (أ) و(ع) والمطبوع، والقول الأول أخرجه الطبري ١١/ ١٣٢-١٣٣ عن ثلاثتهم، والقول الثاني أخرجه الطبري ١١/ ١٣٣ عن المطَّلب بن أبي وداعة.

مِن قولهم: ضَرَبوه حتى أثبتوه لا حراكَ به ولا بَرَاحَ[١]، ورَمَى الطائرَ فأثبتَه، أي: أثْخَنه. وقال الشاعر:

فقلتُ ويحكَ ماذا في صحيفتِكم قالوا الخليفةُ أمسى مُثبَتاً وَجِعاً[٢]

أي: مُثْخَناً.

وقرأ [٣]يحيى بن وثَّاب: «لِيُثَبِّتُوكَ» عدَّاه بالتضعيف، وقرأ[٣] النخعيُّ: «لِيُبَيِّتُوكَ» من البَيَات[٤].

وهذا المكرُ هنا هو بإجماع المفسِّرين ما اجتمعت عليه قريش في دار الندوة كما أشرنا إليه، وهذه الآية مدنيَّة كسائر السورة وهو الصَّوابُ، وعن عكرمة ومجاهد أنَّها مكِّيَّة، وعن ابنِ زيد نزلت عقيبَ كفاية اللهِ رسولَه المستهزئين، ويُتأوَّل قولُ عكرمة ومجاهد على أنَّهما أشارا إلى قصَّة الآية لا إلى وقتِ نزولها[٥]، وتكرّر «ويمكرون» إخباراً باستمرار مَكْرهم وكثرته، وتقدَّم شرح مِثْل باقي الآية في «آل عمران»[٦].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ قائل ذلك النضر بنُ الحارث ـ واتَّبعه قائلون كثيرون ـ كان مِن مَرَدة قريشٍ، سافر إلى فارس والحِيْرة، وسمع مِن قصصِ الرُّهبان والأناجيل وأخبار رُسْتُم وأسفِنديَارَ[٧]، ويرى اليهودَ والنصارى يركعون ويسجدون، قَتَله رسولُ الله ﷺ صَبْراً بالصفراء بالأُثَيْل

(١) قال الشهاب الخفاجي في حاشيته على تفسير البيضاوي ٤/ ٢٦٩: والبراح مصدر: بَرِح، فكأنه زال عنه، فنفيه يدلُّ على الثبوت.

(٢) مجمع البيان للطبرسي ٩/ ١٣٧، والبيت ليزيد بن معاوية قاله حين أتاه نعيُ معاوية، وهو في التعازي والمراثي للمبرِّد ص١١٩، والأغاني ١٧/ ٢١٢، والعقد الفريد ٤/ ٣٧٣، وأوَّله عندهم: قلنا لك الويلُ... البيت.

(٣-٣) ليست في (أ) و(ح) و(ع) والمطبوع، وقراءة يحيى في القراءات الشاذة ص ٤٩.

(٤) الكشاف ٢/ ١٥٥، وتفسير الثعلبي ٣/ ١٣٦، وأوردها أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥١٩ نقلاً عن النقاش عن يحيى بن وثاب.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٨، وأخرج قولهما الطبريُّ ١١/ ١٤٠-١٤١.

(٦) عند تفسير الآية (٥٤).

(٧) في (أ) و(ع): وأسفنديار، وفي (ب): وأسفيدبار. وينظر التعليق الآتي.

منها مُنْصَرَفَهُ مِن بدر[١].

وفي هذا التركيب جوازُ وقوعِ المضارع بعد «إذا» وجوابه الماضي جوازاً فصيحاً، بخلاف أدواتِ الشرط فإنَّه لا يجوز ذلك فيها إلَّا في الشِّعْر نحو:

مَنْ يَكِدْني بِسَيِّئٍ كُنْت منه[٢]

ومعنى «قد سمعنا»: قد سمعنا ولا نطيع، أو: قد سمعنا مِثْلَ هذا.

وقولهم: «لو نشاء» أي: لو نشاء القولَ لقُلنا مِثْلَ هذا الذي تتلوه، وذُكِّر على معنى المَتْلوِّ، وهذا القول منهم على سبيل البَهْت والمصادمة، وليس ذلك في استطاعتهم، فقد طُولبوا بسورةٍ منه فعجزوا، [٣]وكانوا أحبَّ[٣] شيء إليهم الغَلَبةُ، وخصوصاً في باب البيان، فقد كانوا يَتمالطون[٤] ويَتعارَضون ويُحكِّم بينهم في ذلك، وكانوا أحرصَ الناس على قَهْرِ رسولِ الله ﷺ، فكيف يُحيلون المعارضة على

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٠، وينظر تفسير القرطبي ٩/ ٤٩٥، وتفسير البغوي ٢/ ٢٤٥، وتفسير الواحدي ٢/ ٤٥٥، والروض الأنف ٢/ ٥٢-٥٣، ورستم هذا هو: رستم بن ريسان من ملوك الترك، وأسفنديار هو: ابن كي يستاسب بن كي لهراسب - و: كي، في أوائل هذه الأسماء عبارة عن البهاء، ويقال: عبارة عن إدراك الثأر - وكانت بين رستم وأسفنديار ملاحم يطول ذكرها، لكنَّ أسفنديار قَتَل رستم واستباح عساكره. ينظر الروض الأنف، وتاريخ الطبري ١/ ٥٦١ وما بعدها.

وأما قتله ﷺ للنضر بالصفراء، فأورده ابن هشام في السيرة النبوية ١/ ٦٤٤، وأخرجه أبو عبيد في الأموال ص ١٧١، وابن أبي شيبة (٣٧٨٤٧)، وأبو داود في المراسيل (٣٣٧) عن سعيد بن جبير، ووصله الطبراني في الأوسط (٣٨٠١) بذكر ابن عباس، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٩٠: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عبد الله بن حماد بن نمير، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. اهـ. وينظر التلخيص الحبير ٤/١٠٨.

والقَتْل صَبْراً: أي: قصاصاً، وأصله الحبس حتى يُقتَل. الفائق (شزن)، والصفراء: وادٍ من ناحية المدينة، وهو كثير النخل والزرع والخير، بينه وبين بدر مرحلة، والأُثَيْل: موضع في ذلك الصقع. معجم البلدان (الصفراء)، (الأثيل).

(٢) وعجزه: كالشَّجَا بين حَلْقِهِ والوريدِ، والبيت لأبي زُبيد الطائي، وهو في المقتضب ٢/٥٩، والمقرَّب ١/ ٢٧٥، ورصف المباني ص١٠٥، وخزانة الأدب ٩/ ٧٦، والشَّجَا: ما يعترض في الحَلْق كالعظم.

(٣-٣) في المطبوع: وكان أصعب.

(٤) يُقال: مالَطَ فُلانٌ فلاناً؛ إذا قال هذا نِصفَ بيتٍ وأتمَّه الآخَر. اللسان (ملط).

المشيئة، ويتعلَّلون بأنَّهم لو أرادوا لقالوا مِثْلَ هذا القول؟!

﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣١﴾ تقدَّم شرحه في «الأنعام»[١].

﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ قائلُ ذلك النَّضْرُ، وقيل: أبو جهل، رواه البخاريُّ ومسلم[٢]. وقال الجمهور: قائل ذلك كُفَّار قريش، والإشارة في قوله: «إن كان هذا» إلى القرآن، أو ما جاء به الرسولُ مِن التوحيد وغيره، أو نبوَّة الرسول من بين سائر قريش، أقوالٌ، وتقدَّم الكلام على «اللَّهمَّ»[٣].

وقرأ الجمهور: «هو الحقَّ» بالنصب، جعلوا «هو» فَصْلاً، وقرأ الأعمش وزيد بنُ عليٍّ بالرفع[٤]، وهي جائزة في العربيَّة، فالجملة خبر «كان»، وهي لغة تميم يَرفعون بعد «هو» التي هي فَصْل في لغةِ غيرهم، كما قال:

وكنتَ عليها بالمَلَا أنتَ أَقْدَرُ[٥]

وتقدّم الكلامُ على الفَصْل وفائدتِه في أوَّل «البقرة»[٦].

وقال ابنُ عطيَّة: ويجوز في العربيَّة رَفْعُ «الحقّ» على أنَّه خبر «هو»، والجملة خبر «كان»، قال الزجَّاج: ولا أعلم أحداً قرأ بهذا الجائز، وقراءة الناس إنَّما هي بنصب «الحقّ»[٧]. انتهى. وقد ذكرنا مَن قرأ بالرَّفع، وهذه الجملة الشرطيَّة فيها مبالغة في إنكارٍ للحقِّ عظيمةٌ، أي: إن كان حقًّا فعاقِبْنا على إنكاره بإمطار الحجارة علينا أو بعذاب آخَر.

قال الزمخشريُّ: ومراده نفيُ كونه حقًّا، فإذا انتفَى كونه حقًّا، لم يَستوجب

---

(١) عند تفسير الآية (٢٥).
(٢) صحيح البخاري (٤٦٤٨)، وصحيح مسلم (٢٧٩٦) من حديث أنس بن مالك ﷺ.
(٣) عند تفسير الآية (٢٦) من سورة آل عمران.
(٤) ينظر الكشاف ٢/ ١٥٥، والقراءات الشاذة ص ٤٩.
(٥) وصدره: تُبكّي على لُبنى وأنتَ تركتَها، والبيت لقيس بن ذريح، وهو في كتاب سيبويه ٢/ ٣٩٣، والحُلَل ص١٨٥، وشرح المفصل لابن يعيش ٣/ ١١٢.
(٦) عند تفسير الآية (٥).
(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢١، وكلام الزجاج في كتابه معاني القرآن وإعرابه ٢/ ٤١١.

مُنْكِرُه عذاباً، فكان تعليقُ العذاب بكونه حقًّا مع اعتقاد أنَّه ليس بحقٍّ، (١كتعلُّقه بالمُحال في قوله: إن كان الباطلُ حقًّا، مع اعتقاد أنَّه ليس بحقّ١)، وقوله: «هو الحقّ» تهكُّم بمَن يقول على سبيل التخصيص والتعيين: هذا هو الحقّ، ويقال: أمْطَرت، كأَنْجَمَت وأَسْبَلَت، ومَطَرَت كهَتَنَت[٢]، وكَثُرَ الإمطار في معنى العذاب.

فإن قلت: ما فائدة قوله: «مِن السماء» والإمطارُ لا يكون إلَّا منها؟

قلت: كأنَّه أراد أن يُقال: فأَمْطِر علينا السِّجِّيل، وهي الحجارة المسوَّمة للعذاب، فوضع «حجارة مِن السماء» موضع السِّجِّيل، كما يقال: صَبَّ عليه مسرودةً مِن حديد، يريد: دِرْعاً[٣]. انتهى.

ومعنى جوابه: أنَّ قولَه «مِن السماء» جاء على سبيل التوكيد، كما أنَّ قوله: مِن حديد، معناه: التأكيد؛ لأنَّ المَسْرُودة لا تكون إلَّا من حديد، كما أنَّ الإمطار لا يكون إلَّا من السماء.

وقال ابنُ عطيَّة: وقولهم: «مِن السماء» مبالغةٌ وإغراق[٤]. انتهى.

والذي يظهر لي أنَّ حكمةَ قولهم: «من السماء» هي مقابلتهم مَجِيْء الإمطار مِن الجهة التي ذَكَر ﷺ أنَّه يأتيه الوحيُ مِن جهتها، أي: إنَّكَ تَذكُر أنَّه يأتيكَ الوحيُ مِن السماء، فَأْتنا بعذابٍ مِن الجهة التي يأتيكَ منها الوحي، إذ كان يَحسُن أن يُعبّر عن إرسال الحجارة عليهم مِن غيرِ جهة السماء، بقولهم: «فأمطر علينا حجارة»، وقالوا ذلك على سبيل الاستبعاد والاعتقاد أنَّ ما أَتَى به ليس بحقٍّ.

وقيل: على سبيل الحَسَد والعِناد مع عِلْمهم بأنَّه حقٌّ، واستَبْعد هذا الثاني ابنُ فورك، قال: ولا يقول هذا على وَجْه العِناد عاقلٌ[٥]. انتهى. وكأنَّه لم يَقرأ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

(١-١) ليست في (ب).

(٢) أَنْجَمَ المطرُ: إذا كَثُر ودام، يقال: أنجمت السماءُ أياماً ثم أنجمت. وهَتَن المطرُ: إذا قَطَر متتابعاً. الصحاح (نجم) و(هتن).

(٣) الكشاف ٢/ ١٥٥.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢١.

(٥) ونقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٠.

وقصَّة أُميَّة بن أبي الصَّلْت[١] وأخبار اليهود الذين قال تعالى فيهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة:٨٩] وقول الرسولِ لهم: «واللهِ إنَّكم لتَعلمُنَّ أنِّي رسولُ الله»[٢] أو كلاماً يُقارِبه، واقتراحهم هذين النوعين = هو على ما جرى عليه اقتراحُ الأمم السالفة.

وسَأَل يهوديٌّ ابنَ عبَّاس: ممَّن أنت؟ قال: مِن قريش. فقال: أنتَ مِن الذين قالوا: «إن كان هذا هو الحقَّ» الآية، فهلَّا قالوا: فاهدنا إليه. فقال له ابنُ عباس: فأنتَ يا إسرائيليُّ مِن الذين لم تَجِفَّ أرجلُهم مِن بَلَلِ البحر الذي أُغرِقَ فيه فرعونُ وقومُه، ونُجِّي موسى وقومه حتى قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ فقال لهم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فأطرق اليهوديُّ مُفْحَماً[٣].

وعن معاوية أنَّه قال لرجلٍ مِن سَبَأ: ما أَجْهَلَ قومَك حين مَلَّكوا عليهم امرأة؟! فقال: أجهلُ مِن قومي قومُك، قالوا لرسولِ الله حين دَعَاهم إلى الحقِّ: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ الآية، ولم يقولوا: فاهْدِنا له[٤].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ نزلت هذه إلى ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ بمكة. وقيل: بعد وقعة بدر حكايةً عمَّا مضى[٥].

وقال ابنُ أَبْزَى: الجملة الأولى بمكَّة إِثْر قوله: «بعذاب أليم»، والثانية عند خروجِه مِن مكَّة في طريقه إلى المدينة، وقد بَقِيَ بمكة مؤمنون يستغفرون، والثالثة بعد بدر عند ظُهور العذاب عليهم[٦].

ولمَّا علَّقوا إمطارَ الحجارةِ أو الإتيانَ بعذابٍ أليم على تقدير كينونةِ ما جاء به

---

(١) تقدَّم ذِكْر خبره في سورة الأعراف، عند تفسير الآية (١٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩١١)، وأحمد (١٣٢٠٥)، من حديث أنس ﷺ، وورد فيهما وفي مطبوع البحر: لتعلمون، بدل: لتعلمنَّ.

(٣) تفسير القرطبي ٩/ ٤٩٦، والخبر في المفهم ٧/ ٣٤٧.

(٤) الكشاف ٢/ ١٥٥، والخبر أورده الجاحظ في البيان والتبيين ٤/ ٧١، وابن عبد البرّ في بهجة المجالس ١/ ١٠٢، وابن حمدون في التذكرة الحمدونية ٧/ ١٨١.

(٥) في المطبوع: حصل فيها. والكلام من المحرر الوجيز ٢/ ٥٢١.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢١، وأخرجه عنه الطبري ١١/ ١٤٨، وابن أبي حاتم ٥/ ١٦٩٣.

الرسولُ حقًّا، أخبر تعالى أنَّهم مستحقو العذاب، لكنَّه لا يُعذِّبهم وأنتَ فيهم؛ إكراماً له عليه الصلاة والسلام، وجرياً على عادته تعالى مع مكذِّبي أنبيائه أن لا يعذِّبهم ـ وأنبياؤهم مقيمون فيهم ـ عذاباً يَستأصلهم فيه، قال ابنُ عبَّاس: لم تُعذَّب أمَّةٌ قطُّ ونبيُّها فيها. وعليه جماعة المتأوِّلين، فالمعنى: فما كانت لتُعذَّبَ أمَّتُكَ وأنتَ فيهم، بل كرامتُك عند ربِّك أعظمُ[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] ومِن رحمته تعالى أنْ لَا يعذِّبهم والرسولُ فيهم.

ولمَّا كان الإمطار للحجارة عليهم مندرجاً تحت العذاب، كان النفي متسلِّطاً على العذاب الذي إمطارُ الحجارة نوعٌ منه، فقال تعالى: «وما كان اللهُ ليعذِّبهم» ولم يَجِئ التركيب: وما كانَ الله ليُمطِرَ أو يأتي بعذابٍ، وتقييد نفي العذاب بكينونة الرسولِ فيهم إعلامٌ بأنَّه إذا لم يكن فيهم وفارَقهم، عذَّبَهُم، ولكنَّه لا يُعذِّبُهم؛ إكراماً له، مع كونهم بصددِ مَن يُعذَّب؛ لتكذيبهم.

قال ابنُ عطيَّة عن أبي زيد: سمعتُ مِن العرب مَن يقول: «وما كانَ اللهُ لَيعذِّبهم» بفتح اللام، وهي لغةٌ غيرُ معروفة ولا مُستعمَلة في القرآن[2]. انتهى. وبفتح اللام في «لَيُعَذِّبهم» قرأ أبو السَّمَّال[3]، وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو بالفتح في لامِ الأمْرِ في قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾[4] [عبس:٢٤]. وروى ابنُ مجاهد عن أبي زيد أنَّ مِن العرب مَن يَفتح كلَّ لامٍ إلَّا في نحو: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[5]. انتهى. يعني: لامَ الجرِّ إذا دخلت على الظاهر، أو على ياء المتكلِّم.

والظرفيَّة في «فيهم» مجاز، والمعنى: وأنت مقيمٌ بينهم غيرُ راحل عنهم.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ انظر إلى حُسْنِ مَسَاق هاتين الجملتين؛ لما كانت كينونته فيهم سبباً لانتفاء تعذيبهم، أكّد خبر «كان» باللام على

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢١، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١١/ ١٥٠بنحوه.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢١، وقول أبي زيد نقله عنه ابن جنّيّ في سرِّ صناعة الإعراب ١/ ٣٣٠، وقال: وهذا من الشذوذ بحيث لا يُقاس عليه.
(٣) القراءات الشاذة ص ٤٩.
(٤) القراءات الشاذة ص ٤٩-٥٠.
(٥) ونقله أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٥٠.

رأي الكوفيين، أو جعل خبر «كان» الإرادة المنتفية على رأي البصريين، وانتفاءُ الإرادة للعذاب أبلغُ مِن انتفاء العذاب، ولمَّا كان استغفارُهم دون تلك الكينونة الشريفة، لم يؤكَّد باللام، بل جاء خبر «كان» قوله: «معذِّبهم»، فشتانَ ما بين استغفارهم وكينونتِه ﷺ فيهم.

والظاهر أنَّ هذه الضمائر كلَّها في الجمل عائدةٌ على الكفار، وهو قول قتادة[(١)]. وقال ابنُ عباس وابنُ أَبْزَى وأبو مالك والضحاك ما مقتضاه: إنَّ الضميرَ في قوله: «معذِّبهم» عائد على كفَّار مكَّة، والضمير في قوله: «وهم» عائد على المؤمنين الذين بَقُوا بَعْدَ الرسولِ ﷺ بمكَّة، أي: وما كان اللهُ ليُعذِّبَ الكفارَ والمؤمنونَ بينهم يستغفرون[(٢)].

قال ابنُ عطيَّة: ويَدفع في صَدْر هذا القول أنَّ المؤمنين الذين رُدَّ الضمير إليهم لم يَجْرِ لهم ذِكْر. وقال ابنُ عباس أيضاً ما مقتضاه: إنَّ الضميرين عائدان على الكفَّار، وكانوا يقولون في دعائهم: غفرانك، ويقولون: لبَّيكَ لا شريكَ لَكَ، ونحو هذا ممَّا هو دعاءٌ واستغفار، فجَعَله اللهُ أَمَنَةً مِن عذاب الدنيا، وعلى هذا تركَّب قولُ أبي موسى الأشعريِّ وابنِ عباس: إنَّ اللهَ جَعَلَ مِن عذاب الدنيا أَمَنَتَيْنِ؛ كون الرسولِ ﷺ مع الناس، والاستغفار، فارتفعت الواحدة وبَقِيَ الاستغفار إلى يوم القيامة.

وقال الزجَّاج ـ وحكي عن ابنِ عباس ـ: «وهم يستغفرون» عائد على الكفَّار، والمراد به مَن سَبَق له في عِلْم الله أنْ يُسلِم ويستغفر، فالمعنى: وما كان اللهُ ليُعذِّب الكفَّار ومنهم مَن يستغفر ويؤمن في ثاني حال.

وقال مجاهد: «وهم يستغفرون» أي: وذُرِّيّتهم يستغفرونَ ويُؤمنون، فأسند إليهم، إذ ذُرِّيّتهم منهم[(٣)].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٢.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٢، وأخرجه عنهم الطبريُّ ١١/١٤٨-١٥٠.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢١-٥٢٢، وقول ابن عباس الأول أخرجه الطبري ١١/ ١٥٠-١٥١، قال ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٣٥٠: وفيه ضعف؛ لأن استغفار المشرك لا أَثَر له في القبول.

=

والاستغفار: طَلَب الغفران، وقال الضحاك ومجاهد: معنى «يستغفرون»: يُصَلُّون. وقال عكرمة ومجاهد أيضاً: يُسلِمون[١].

وظاهر قوله: «وهم يستغفرون» أنَّهم مُلْتبسون[٢] بالاستغفار، أي: هم يستغفرون فلا يُعذَّبون، كما أنَّ الرسولَ فيهم فلا يعذَّبون، فكلا الحالين موجودٌ؛ كونُ الرسولِ فيهم واستغفارُهم.

وقال الزمخشريُّ: «وهم يستغفرون» في موضع الحال، ومعناه: نفيُ الاستغفار عنهم، أي: ولو كانوا ممَّن يُؤمِن ويَستغفر مِن الكفر لَمَا عذَّبهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود:١١٧] ولكنَّهم لا يستغفرون ولا يؤمنون ولا يُتوقَّع ذلك منهم[٣]. انتهى.

وما قاله تَقَدَّمه إليه غيرُه[٤]، فقال: المعنى: وهم بحالِ توبةٍ واستغفارٍ مِن كفرهم أنْ لو وَقَعَ ذلك منهم. واختاره الطبريُّ، وهو مرويٌّ عن قتادة وابنِ زيد[٥].

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ الظاهر أنَّ «ما» استفهاميَّة، أي: أيُّ شيءٍ لهم في انتفاء العذاب، وهو استفهامٌ معناه التقرير، أي: كيف لا يُعذَّبون (٦وهم متَّصفون بهذه الحال المقتضية للعذاب٦)، وهي صدُّهم المؤمنين عن المسجد الحرام، وليسوا بوُلاةِ البيت ولا متأهِّلين لولايته، ومِن صَدِّهم ما فعلوا

= وقول أبي موسى الأشعري أخرجه الطبري ١١/ ١٥٢، والحاكم في المستدرك ١/ ٥٤٢، وأخرجه أيضاً الترمذي (٣٠٨٢) عن أبي موسى مرفوعاً، وقال: هذا حديث غريب، وإسماعيل بن مهاجر يضعف في الحديث. اهـ.
وينظر قول الزجاج في كتابه معاني القرآن وإعرابه ٢/ ٤١١-٤١٢.

(١) ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٢، وزاد المسير ٣/ ٣٥١، وأخرجه عنهم الطبري ١١/ ١٥٤-١٥٦.
(٢) في (ع): متلبّسون.
(٣) الكشاف ٢/ ١٥٦.
(٤) يعني بذلك ابنَ عطيَّة، وكلامه في المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٢.
(٥) أخرجه عنهما الطبري ١١/ ١٥٣-١٥٤، وينظر النكت والعيون ٢/ ٣١٤.
(٦-٦) ليست في (ب).

بالرسول ﷺ عامَ الحديبية، وإخراجُه مع المؤمنين داخلٌ في الصَّدِّ، كانوا يقولون: نحن ولاةُ البيت نَصُدُّ مَن نشاء، ونُدخِل مَن نشاء.

و«أنْ» مصدريَّة، وقال الأخفش: هي زائدة. قال النحَّاس: لو كان كما قال لرَفَع «يعذِّبهم»[1]. انتهى. فكان يكون الفعل في موضع الحال، كقوله: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ [المائدة:٨٤] وموضع «أنْ» نصبٌ أو جَرٌّ على الخلاف، إذ حذف منه «في»، وهي تتعلَّق بما تعلَّق به «لهم»، أي: أيُّ شيءٍ كائن أو مستقرٌّ لهم في أنْ لا يعذِّبهم اللهُ، والمعنى: لاحظَّ لهم في انتفاء العذاب، وإذا انتفى ذلك فهم معذَّبون ولا بُدَّ، وتقديرُ الطبريِّ: وما يَمنعهم مِن أن يُعذَّبوا[2]، هو تفسيرُ معنًى لا تفسيرُ إعراب، وكذلك ينبغي أن يتأوَّل كلامُ ابنِ عطيَّة أنَّ التقدير: وما يدريهم، ونحوه مِن الأفعال التي توجب أن تكون «أنْ» في موضع نصبٍ.

والأظهر عودُ الضمير في «أولياءه»[3] على المسجد؛ لقُرْبه وصحَّة المعنى.

وقيل: «ما» للنفي، فيكون إخباراً، أي: وليس لهم أنْ لا يعذِّبهم الله، أي: ليس ينتفي العذابُ عنهم مع تلبُّسهم بهذه الحال، وقيل: الضمير في «أولياءه» عائدٌ على الله تعالى، وروي عن الحسن[4].

والظاهر أنَّ قوله: «وما كانوا أولياءه» استئنافُ إخبار، أي: وما استحقُّوا أن يكونوا ولاةَ أَمْرِه «إنْ أولياؤه إلَّا المتقون» أي: المتَّقون للشِّرْك، وقال الزمخشريُّ: «إلَّا المتَّقون» من المسلمين، ليس كلُّ مسلم أيضاً ممَّن يَصلُح أن يَلي أمرَه، إنَّما يَستأهل ولايته مَن كان بَرًّا تَقِيًّا، فكيف عبدة الأصنام[5]؟! انتهى.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٥، وقول الأخفش فيه وفي كتابه معاني القرآن ٢/ ٥٤٥، وينظر تفسير القرطبي ٩/ ٤٩٨.
(٢) تفسير الطبري ١١/ ١٥٧.
(٣) من هنا إلى لفظة: «أولياءه» الآتية، ليست في (ب).
(٤) ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٢، وزاد المسير ٣/ ٣٥٢، وفيهما أنَّ ما روي عن الحسن هو القول الأول ـ أي: أن الضمير عائد على المسجد ـ ولفظه في الزاد: إن المشركين قالوا: نحن أولياء المسجد الحرام، فردَّ الله عليهم بهذا.
(٥) الكشاف ٢/ ١٥٦.

ويجوز أن يكون «وما كانوا أولياءه» معطوفاً على «وهم يَصدُّون» فيكون حالاً، والمعنى: كيف لا يُعذِّبهم اللهُ وهم متَّصفون بهذين الوصفَين؛ صدِّهم عن المسجد الحرام، وانتفاءِ كونهم أولياءَه، أي: أولياءَ المسجد، أي: ليسوا وُلاتَه، فلا ينبغي أن يَصدُّوا عنه، أو: أولياءَ الله، فهم كفَّار، فيكون قد ارتقى مِن حالٍ إلى أعظمَ منها، وهو كونهم ليسوا مؤمنين، فمَن كان صادًّا عن المسجد كافراً بالله، فهو حقيقٌ بالتعذيب.

والضمير في «إنْ أولياؤه» مترتِّب على ما يعود عليه في قوله: «وما كانوا أولياءَه».

واختلفوا في هذا التعذيب؛ فقال قوم: هو الأوَّل، إلَّا أنَّه كان امتنع بشيئين؛ كون النبيِّ فيهم واستغفار مَن بينَهم مِن المؤمنين، فلما وقع التمييزُ بالهجرة وَقَعَ بالباقين يومَ بدر، وقيل: بل وقع بفتح مكَّة.

وقال قوم: هذا التعذيبُ غيرُ ذلك، فالأوَّل: استئصالُ كلِّهم، فلم يَقع؛ لِمَا عُلمَ مِن إسلام بعضِهم وإسلام بعضِ ذراريهم، والثاني: قَتْل بعضِهم يومَ بدر.

وقال ابنُ عباس: الأوَّل عذابُ الدنيا، والثاني عذابُ الآخرة. فالمعنى: وما كان اللهُ معذِّبَ المشركين؛ لاستغفارهم في الدنيا، وما لهم أنْ لا يعذِّبهم اللهُ في الآخرة، ومتعلّق «لا يعلمون» محذوف، تقديره: لايعلمون أنَّهم ليسوا أولياءَه، بل يظنُّون أنَّهم أولياؤه.

والظاهر استدراك الأكثر في انتفاء العلم، إذ كان بينهم وفي خلالهم مَن جَنَحَ إلى الإيمان، فكان يَعلم أنَّ أولئك الصَّادِّين ليسوا أولياءَ البيت، أو أولياء الله، فكأنَّه قيل: «ولكنَّ أكثرهم» أي: أكثر المقيمين بمكَّة «لايعلمون» ليخرج منهم العبَّاس وأمّ الفَضْل وغيرهما ممَّن وقع له عِلْم، أو إذ كان فيهم مَن يَعلم وهو يُعانِد؛ طلباً للرياسة، أو أُريد بالأكثر الجميع على سبيل المجاز، فكأنَّه قيل: ولكنَّهم لا يعلمون، كما قيل: قلَّما رجلٌ يقول ذلك، في معنى النفي المحض، وإبقاء الأكثر على ظاهره أولى، وكونه أُريد به الجميع هو تخريجُ الزمخشريِّ وابنِ عطيَّة[١].

(١) الكشاف ٢/ ١٥٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٢٢.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ لمَّا نَفَى عنهم أن يكونوا ولاةَ البيت، ذَكَر مِن فِعْلِهم القبيح ما يُؤكِّد ذلك، وأنَّ مَن كانت صلاته ما ذُكرَ لا يَستأهل أن يكونوا أولياءَه، فالمعنى - والله أعلم - أنَّ الذي يقوم مقامَ صلاتهم هو المُكاء والتَّصْدِيَة، وَضَعوا مكانَ الصلاة والتقرُّب إلى الله الصَفيرَ والتَّصفيق، كانوا يَطوفون عُراةً رجالهم ونساؤهم، مُشبِّكين بين أصابعهم، يَصْفِرون ويُصفِّقون، يفعلون ذلك إذا قرأ الرسول، يخلِّطون عليه في صلاته، ونظير هذا المعنى قولهم: كانت عقوبَتُك عَزْلَتَك، أي: القائم مقام العقوبة هو العَزْل، وقال الشاعر:

وما كنتُ أَخشى أن يكون عطاؤُه ... أداهِمَ سوداً أو مدحرجةً[1] سُمْرا

أقام مقام العطاءِ القيودَ والسياطَ، كما أقاموا مقامَ الصلاة المكاءَ والتَّصْدِية.

وقال ابنُ عباس: كان ذلك عبادة في ظنِّهم[2].

قال ابنُ عطيَّة: لمَّا نفى تعالى ولايتهم للبيت، أمكن أن يَعترض مُعتَرِض بأن يقول: كيف لا نكون أولياءَه ونحن نسكنه ونُصلِّي عنده؟ فقَطَع اللهُ هذا الاعتراضَ: وما كان صلاتهم إلا المكاء والتصدية[3]، كما يقول الرجل: أنا أفعل الخير. فيقال له: ما فِعْلك الخير إلَّا أن تشربَ الخمر وتَقتل، أي: هذه عادتك وغايتك؟!

قال: والذي مرَّ بي مِن أَمْرِ العرب في غيرِ ما ديوانٍ أنَّ المكاءَ والتصديةَ كانا مِن فِعْلِ العرب قديماً قَبْلَ الإسلام على جهة التقرُّب والتشرُّع، وروي عن بعضِ أقوياء العرب أنَّه كان يمكو على الصَّفَا فيُسمَع مِن جبل حِرَاء، وبينهما أربعةُ أميال[4].

وعلى هذا يَستقيم تَعييرهم وتَنقُّصهم بأنَّ شرعَهم وصلاتهم وعبادتهم لم تكن رهبةً ولا رغبةً، إنَّما كانت مُكاءً وتصديةً مِن نوع اللَّعب، ولكنَّهم كانوا يتزيَّدون فيها وقتَ قراءةِ النبيِّ ﷺ ليشغلُوهُ وأمَّته عن القراءة والصَّلاة.

(١) كذا في النسخ، والذي في ديوان الفرزدق ـ والبيت له ـ ١/ ١٨٨: مُحَدْرجةً. وسلف.
(٢) تفسير القرطبي ٩/ ٤٩٨.
(٣) من قوله: وقال ابن عباس، إلى هنا، ليست في (ب).
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٤-٥٢٥، وما بعده منه أيضاً والذي كان يمكو هو: قيس بن مَخْرمة بن =

قال ابن عمر ومجاهد والسديُّ: المُكاء: الصَّفِير، والتَّصْدية: التَّصْفِيق.

وعن مجاهد أيضاً: المُكاء: إدخالُهم أصابعَهم في أفواههم، والتصدية: الصَّفِير[1].

والصَّفِير بالفَم، وقد يكون بالأصابع والكَف في الفَم، قاله مجاهد وأبو سَلَمة بنُ عبد الرحمن[2]، وقد يُشارك الأنفُ، يريدون أن يُشغلوا بذلك الرسولَ عن الصلاة. وقال ابنُ جبير وابنُ زيد: التصدية: صدُّهم عن البيت. وقال ابنُ بحر: إنَّ صلاتهم ودعاءَهم غيرُ رادَّيْن عليهم ثواباً إلَّا كما يُجيب الصَّدَى الصائحَ[3].

فتلخَّص في معنى الآية ثلاثة أقوال:

أحدها: ما ظاهره أنَّ الكفارَ كانت لهم صلاة وتعبُّد، وذلك هو المكاء والتصدية.

والثاني: أنَّه كانت لهم صلاة، ولا جَدوى لها ولا ثوابَ، فجعلت كأنَّها أصواتُ الصَّدَى حيث ليس لها حقيقة.

والثالث: أنَّه لا صلاة لهم، لكنَّهم أقاموا مقامها المُكاء والتصدية.

وقال بعضُ شيوخنا: أكْثَرُ أهلِ العلم على أنَّ الصلاةَ هنا هي الطوافُ، وقد سمَّاه الرسولُ ﷺ صلاةً[4].

= المطلب بن عبد مناف، وهو صحابي، وخبره في البيان والتبيين للجاحظ ١/ ١٢٣، والاشتقاق لابن دريد ١/ ٨٦.

(١) تفسير القرطبي ٩/ ٤٩٨، وأخرجه عنهم الطبري ١١/ ١٦٣-١٦٥.

(٢) ينظر تفسير الثعلبي ٣/ ١٤٠، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٢٣، وزاد المسير ٣/ ٣٥٣، وأخرجه عنهما الطبري ١١/ ١٦٣-١٦٤.

(٣) ينظر تفسير الثعلبي ٣/ ١٤٠، والنكت والعيون ٢/ ٣١٥، وأخرجه عن ابن جبير وابنِ زيد الطبريُّ ١١/ ١٦٧-١٦٨.

(٤) في قوله ﷺ: «الطواف حول البيت مثلُ الصلاة إلَّا أنكم تتكلَّمون فيه، فمن تكلَّم فيه، فلا يتكلَّمنَّ إلا بخير» وهو عند الترمذي (٩٦٠) من حديث ابن عباس مرفوعاً، وعند النسائي في السنن الكبرى (٣٩٣٠) عن رجلٍ أدرك النبيَّ ﷺ، و(٣٩٣١) عن ابن عباس موقوفاً.
قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ١/ ١٢٩-١٣٠: واختلف في رفعه ووقفه، ورجَّح الموقوفَ النسائيُّ والبيهقيُّ وابنُ الصلاح والمنذري والنووي، . . . إلى آخر كلامه، وصحَّح رواية النسائي- الآنفة الذكر- عن رجلٍ من أصحاب النبي ﷺ، وقال: وهي تعضد رواية عطاء بن السائب، وترجَّح الرواية المرفوعة. . . . إلى آخر كلامه.

وقرأ أبان بنُ تغلب وعاصم والأعمش بخلافٍ عنهما: «صلاتَهم» بالنصب «إلَّا مكاءٌ وتصديةٌ» بالرفع[(١)]، وخطَّأ قومٌ منهم أبو عليٍّ الفارسيُّ هذه القراءة؛ لجَعْل المعرفةِ خبراً والنكرةِ اسماً، قالوا: ولا يجوز ذلك إلَّا في الضرورة، كقوله:

يكون مزاجَها عسلٌ وماءُ[(٢)]

وخرَّجها أبو الفتح[(٣)] على أنَّ المُكاء والتصدية اسمُ جنسٍ، واسمُ الجنس تعريفُه وتنكيره واحدٌ. انتهى. وهو نظير قولِ مَن جَعَل «نَسْلَخ» صفة للَّيل في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس:٣٧] و: يَسبُّني، صفة: للئيم، في قوله:

ولقد أمُرُّ على اللئيمِ يَسُبُّني[(٤)]

وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه: «إلَّا مكاً» بالقَصْر منوَّناً[(٥)]، فمَن مَدَّ فكالثُّغاء والرُّغاء[(٦)]، ومَن قَصَر فكالبُكى، في لغة مَن قَصَر.

والعذاب في قوله: «فذوقوا العذاب» قيل: هو في الآخرة، وقيل: هو قَتْلهم وأَخْذ غنائمهم ببدر وأَسْرُهم. قال ابنُ عطيَّة: فيَلزم أن تكون هذه الآية الأخيرة نزلت بَعْدَ بدرٍ ولا بُدَّ، والأشبه أنَّ الكُلَّ بعد بدرٍ حكاية عن ماضٍ، وكون عذابهم بالقَتْل يوم بدر، هو قول الحسن والضحاك وابنِ جريج[(٧)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٣، والقراءة في القراءات الشاذة ص ٤٩، والمحتسب ١/ ٢٧٨-٢٧٩.
(٢) وصدره: كأنَّ سَبِيئةً من بيت رأس، والبيت لحسان بن ثابت، وهو في شرح ديوانه ص ٥٩، والسبيئة: الخمر، شَبَّه طعم رضابها بطعم خمر قد مُزجت بعسل وماء.
(٣) يعني: ابنَ جنِّي، وكلامه في المحتسب ١/ ٢٧٩.
(٤) وعجزه: فمضيت ثمَّت قلت لا يعنيني، وسلف في سورة النساء، عند تفسير الآية (٩٨).
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٤، والقراءة في القراءات الشاذة ص ٤٩، ووردت فيه هكذا: مُكَاً، بالهمز، ولعله تصرُّف من المحقِّق.
(٦) الثُّغاء: صوت الشاة والمَعْز وما شاكلهما. والرُّغاء: صوت ذوات الخفِّ. المختار (ثغا) و(رغا).
(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٥، وقول الضحاك وابن جريج أخرجه الطبري ١١/ ١٦٩.

حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ قال مقاتل والكلبيُّ[1]: نزلت في المُطْعِمين يومَ بدرٍ، وكانوا اثني عشر رجلاً: أبو جهل بنُ هشام، وعُتْبة وشَيْبة ابنا ربيعة، ونُبَيْه ومُنَبِّه ابنا حجاج، وأبو البختري بنُ هشام، والنضر بنُ الحارث، وحكيم بن حزام، وأُبَيّ بنُ خَلَف، وزَمْعَة بنُ الأسود، والحارث بنُ عامر بنِ نوفل، والعبَّاس بنُ عبد المطلب، وكلُّهم مِن قريش، وكان يُطعِم كلٌّ واحد منهم كلَّ يوم عَشرَ جزائر[2].

وقال مجاهد والسُّدِّيُّ وابنُ جبير وابنُ أبزى: نزلت في أبي سفيان بنِ حرب، استأجر يوم أُحُد أَلفين مِن الأحابيش يُقاتل بهم النبيَّ ﷺ سوى مَن استجاش مِن العرب، وفيهم يقول كعب بن مالك:

فجِئْنَا إلى موجٍ مِن البَحْرِ وَسْطَهُ   أحابيشُ منهم حاسرٌ ومُقَنَّعُ
ثلاثةُ آلافٍ ونحن نَصِيَّةٌ   ثلاثُ مِئينَ إن كَثُرنا وأَرْبَعُ[3]

وقال الحكم بن عُتَيْبَة: أنفق على الأحابيش وغيرهم أربعينَ أوقيَّة مِن ذهب[4].

وقال الضحاك وغيره: نزلت في نفقة المشركين الخارجين إلى بدرٍ، كانوا يَنحرون يوماً عشراً مِن الإبل ويوماً تسعاً[5]. وهذا نحوٌ مِن القول الأوَّل.

وقال ابنُ إسحاق عن رِجاله[6]: لمَّا رَجَعَ فَلُّ[7] قريش إلى مكَّة مِن بدرٍ، ورجع

---

(١) ونقله عنهما الثعلبي في التفسير ٣/ ١٤١، والواحدي في أسباب النزول ص ٢٣٢، والبغوي ٢/ ٢٤٧.

(٢) أوردهم ابن هشام في السيرة النبوية ١/ ٦٦٤-٦٦٦، والواقدي في المغازي ١/ ١٤٤-١٤٥، وابن حبيب في المحبَّر ص ١٦١-١٦٢، وابن سيِّد الناس في عيون الأثر ١/ ٢٤٩-٢٥٠، مع اختلاف في عددهم وأسمائهم، تنظر ثمَّة.

(٣) تفسير الثعلبي ٣/ ١٤١، وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٥، والكشاف ٢/ ١٥٦، وتفسير الرازي ١٥/ ١٦٠-١٦١، والبيتان في ديوان كعب ص ١٨٢، والخبر أخرجه الطبري ١١/ ١٧٠-١٧١ عن سعيد بن جبير مطوَّلاً، و١١/ ١٧٢ عن مجاهد مختصراً، وهو عند ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٩٧، وفي النكت والعيون ٢/ ٣١٦. والنَّصِيَّة: الخيار من القوم والأشراف. اللسان (نصي)، وورد بدلها في (ز١) و(ح) و(ع): بقية.

(٤) تفسير الثعلبي ٣/ ١٤١، والخبر أخرجه الطبري ١١/ ١٧١، وابن أبي حاتم ٥/ ١٦٩٧.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٥ وعزاه للنقاش.

(٦) سيأتي ذكرهم بعد نهاية الخبر.

(٧) قومٌ فَلٌّ: منهزمون. والجمع: فلول وأفلال. القاموس (فلل).

أبو سفيان بِعِيْره، كلَّم أبناءُ مَن أُصيب ببدر وغيرُهم أبا سفيان وتُجَّارَ العِيْر في الإعانة بالمال الذي سَلِمَ: لعلَّنا نُدرِك ثأراً لمَن أُصيب، ففعلوا، فنزلت[١]. وروي نحوه عن ابنِ شهاب، ومحمد بنِ يحيى بنِ حبَّان، وعاصم بنِ عمر بنِ قتادة، والحصين بنِ عبد الرحمن بنِ عمرو بنِ سعد بنِ معاذ[٢].

ومناسبة هذه الآية لِمَا قبلها أنَّه تعالى لمَّا ذَكَر وشَرَح أحوالَهم في الطاعات البدنيَّة ـ وهي صلاتهم ـ شَرَح حالهم في الطاعات الماليَّة، وهي إنفاقهم أموالَهم للصَّدِّ عن سبيل الله[٣].

والظاهر الإخبار عن الكفار بأنَّ إنفاقهم ليس في سبيل الله، بل سَبَبُه الصَّدُّ عن سبيل الله، فيندرج هؤلاء الذين ذُكروا في هذا العموم، وقد يكون اللفظ عامًّا والسببُ خاصًّا، والمعنى أنَّ الكفَّار يَقصدون بنفقتهم الصَّدَّ عن سبيل الله وغَلَبة المؤمنين، فلا يَقَعُ إلا عكسُ ما قَصَدوا، وهو تندُّمهم وتحسُّرهم على ذهاب أموالهم، ثم غَلَبتهم، والتمكُّن منهم أَسْراً وقَتْلاً وغُنْماً.

والعطف بـ «ثم» يقوِّي أنَّ الحسرةَ في الدنيا، وقيل: الحسرة في الآخِرة، وفي قوله: «فسينفقونها» إلى آخِره مِن الإخبار بالغيوب، لأنَّه أخبر بما يكون قَبْلَ كونه، ثم كان كما أَخبَر، والإخبار بسين الاستقبال يدلُّ على إنفاق متأخِّر عن وَقْعة أُحُد وبدر، وأنَّ ذلك إخبارٌ عن علوِّ الإسلام وغَلَبة أهله، وكذا وَقَع؛ فَتَحوا البلادَ، ودوَّخوا العبادَ، ومَلأَ الإسلامُ معظمَ أقطار الأرض، واتَّسعت هذه الملَّة اتِّساعاً لم يكن لشيء مِن المِلَل السابقة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ

---

(١) تفسير الثعلبي ٣/ ١٤١، وينظر التعليق الآتي.

(٢) هو نفس الخبر السالف الذكر، لكنَّه هنا صرَّح بأسماء من روى عنه ابنُ إسحاق، ولعلَّ المصنِّف وقع على الخبر عند الثعلبي، عن ابن إسحاق عن رجاله، ومن ثَمَّ نقله عن المحرر الوجيز من قول ابن شهاب الزهري وغيره، وهما خبر واحد، والخبر في سيرة ابن هشام ٢/ ٦٠-٦١، وتفسير الطبري ١١/ ١٧٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٩٨، ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٢٢٤، فليحرَّر!.

(٣) ينظر تفسير الرازي ١٥/ ١٦٠.

بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ هـذا إخبار بما يَؤول إليه حالُ الكفار في الآخرة[١]؛ مِن حَشْرهم إلى جهنَّم، إذ أخبر بما آلَ إليه حالُهم في الدنيا مِن حَسْرتهم وكونهم مغلوبينَ.

ومعنى قوله: «والذين كفروا» مَن وافى[٢] على الكُفْر، وأعاد الظاهرَ؛ لأنَّ مَن أنفق مالَه مِن الكفار أَسلم منهم جماعةٌ، ولام «ليميز» متعلِّقة بقوله: «يُحشرون».

والخبيث والطيِّب وصفان يَصلحان للآدميين وللمالِ، وتقدَّم ذِكْرهما في قوله: «إن الذين كفروا ينفقون أموالهم» فمِن المفسِّرين مَن تأوَّل الخبيث والطَّيِّب على الآدميِّين، فقال ابنُ عباس: ليميز أهلَ السعادة مِن أهل الشقاوة، ونحوَه قال[٣] السُّدِّيُّ ومقاتل، قالا: أراد المؤمنَ مِن الكافر[٤].

وتحريره: ليميز أهلَ الشقاوة مِن أهل السعادة، والكافرَ مِن المؤمن، وقدَّره الزمخشريُّ: الفريقَ الخبيثَ مِن الكفَّار مِن الفريقِ الطَّيِّب مِن المؤمنين[٥].

ومعنى جَعْلِ الخبيث بعضَه على بعضٍ ورَكْمِه: ضَمُّه وجَمْعه حتى لا يفلتَ منهم أحدٌ، واحتمل الجَعْل أن يكون مِن باب التصيير ومِن باب الإلقاء.

وقال ابنُ القشيريّ: «ليميز الله الخبيث مِن الطيِّب» بتأخير عذابِ كفَّار هذه الأمَّة[٦] إلى يوم القيامة؛ ليستخرجَ المؤمنين مِن أصلاب الكفَّار. انتهى.

فعلى ما سبق يكون التميز في الآخرة، وعلى هذا القولِ يكون في الدنيا.

ومِن المفسِّرين مَن تأوَّل الخبيثَ والطَّيِّب على الأموال، فقال ابنُ سلَّام والزجَّاج: المعنيُّ بـ«الخبيث» المال الذي أنفقه المشركون، كَمَالِ أبي سفيان وأبي جهل وغيرِهما المُنفَق في عداوة رسولِ الله ﷺ والإعانة عليه في الصَّدِّ عن سبيل الله، و«الطَّيِّب» هو ما أنفقه المؤمنون في سبيل الله[٧]، كَمَالِ أبي بكر وعمر وعثمان..

(١) هنا يبدأ الجزء الخامس من نسخة دار الكتب المصرية (د١).
(٢) في (أ) و(ح) و(ع): دام.
(٣) من هنا، إلى قوله الآتي: أهل الشقاوة من، ليست في (ب).
(٤) زاد المسير ٣/ ٣٥٦، وأخرجه عن ابن عباس والسدي الطبريُّ ١١/ ١٧٥-١٧٦.
(٥) الكشاف ٢/ ١٥٧.
(٦) في (أ) و(ب): الآية.
(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٦، وكلام الزجاج في كتابه معاني القرآن ٢/ ٤١٢.

ولام «ليميز» على هذا متعلِّقة بقوله: «يغلبون» قاله ابنُ عطيَّة[١]، وقال الزمخشريُّ: بقوله: «ثم تكون عليهم حسرة»[٢].

والمعنى: ليميز اللهُ الفَرْقَ بين الخبيث والطَّيِّب؛ فيخذلَ أهلَ الخبيث، وينصرَ أهلَ الطَّيِّب، ويكون قوله: «فيجعله في جهنَّم» مِن جملة ما يُعذَّبون به، كقوله: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥] قاله الحسن[٣].

وقيل: «الخبيث» ما أُنفق في المعاصي، و«الطَّيِّب» ما أُنفق في الطاعات، وقيل: المال الحرام مِن المال الحلال، وقيل: ما لم تُؤَدَّ زكاته مِن الذي أُدِّيت زكاته، وقيل: هو عامٌّ في الأعمال السَّيِّئة.

وَرَكْمُها: ضمُّها[٤] وجَعْلُها قلائدَ في أعناق عُمَّالها في النار، ولكثرتها جُعلَ بعضُها فوق بعض.

وإن كان المعنيُّ بالخبيث الأموالَ التي أنفقوها في حرب رسولِ الله ﷺ، فقيل: الفائدة في إلقائها في النار أنَّها لمَّا كانت عزيزةً في أنفسهم عظيمةً بينهم، ألقاها اللهُ في النار ليُريَهم هَوَانَهَا، كما يُلقَى الشمسُ والقمرُ في النار ليَرى مَن عَبَدهما ذلَّهما وصَغَارَهما.

والذي يظهر مِن هذه الأقوال هو الأوَّل، وهو أن يكون المراد بالخبيث الكفَّار، وبالطَّيِّب المؤمنون، إذ الكفار أوَّلاً هم المحدَّث عنهم بقوله: «ينفقون أموالهم» وقوله: «فسينفقونها»، وبقوله: «ثم إلى جهنم يُحشرون»، وآخِراً هم المشار إليهم بقوله: «أولئك هم الخاسرون».

ولمَّا كان تقلُّب[٥] الإنسان في مالِه وتصرُّفه فيه يَرجو بذلك حصولَ الربح له،

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٦.
(٢) الكشاف ٢/ ١٥٧.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٦.
(٤) في (د١): وختمها.
(٥) في (أ) و(ب) و(د١) والمطبوع: تغلّب. والمثبت من (ح) و(ز١) و(به).

أَخبر تعالى أنَّ هؤلاء هم الذين خسروا في إنفاقهم، وأَخْفَقَت صَفْقَتُهم؛ حيث بَذَلَ أعزَّ ما عندَه في مقابلة عذابِ الله، ولا خسرانَ أعظمُ مِن هذا.

وتقدَّم ذِكْر الخلاف في قراءة «ليميز» في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩] ويقال: ميَّزته فتميَّز، ومِزْتُهُ فانْمَازَ، حكاه يعقوب، وفي الشَّاذِّ: «وانْمازُوا اليومَ»[1][يس:٥٩]، وأنشد أبو زيد قولَ الشاعر:

لـمـا ثَـنَـى اللهُ عـنِّـي شَـرَّ غَـدْرتِـهِ[2] وانْـمَـزْتُ لا مُـنْـسِـأً ذُعْـراً ولا وَجِـلا

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ لـمَّا ذَكَر ما يحلُّ بهم مِن حشرهم إلى النار وجَعْلِهم فيها وخُسْرهم، تلطَّف بهم، وأنَّهم إذا انْتَهَوا عن الكفر وآمَنوا، غُفرت لهم ذنوبُهم السالفة، وليس ثمَّ ما يترتَّب على الانتهاء عنه غفران الذنوب سوى الكفرِ، فلذلك كان المعنى: إن ينتهوا عن الكفر.

واللام في «للذين» الظاهر أنَّها للتبليغ، وأنَّه أُمِرَ أن يقول لهم هذا المعنى الذي تضمَّنته ألفاظُ الجملة المحكيَّة بالقول، وسواء قاله بهذه العبارة أم غيرها، وجعل الزمخشريُّ اللامَ لامَ العلَّة، فقال: أي: قلْ لأجلهم هذا القولَ: «إن ينتهوا»، ولو كان بمعنى: خاطِبْهم به، لقيل: «إن تنتهوا يغفر لكم»، وهي قراءةُ ابنِ مسعود، ونحوه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف:١١] خاطبوا به غيرَهم ليسمعوه[3]. انتهى.

وقرئ: «يَغْفِر» مبنيًّا للفاعل، والضمير لله عزَّ وجلَّ[4].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٦، وما بعده منه أيضاً، ولم نقف على القراءة عند غيره.

(٢) في المطبوع: عذرته، وفي المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٦: غَذْوته. وكذا في النوادر لأبي زيد ص٢٨٥، ونسبه لمالك بن الرَّيْب المازني، وروايته عنده هكذا:

لـمَّـا ثـنـى الله عـنـي شَـرَّ غَـذْوتـه وانْـمزتُ لا مُـنْـسِـئاً ذُعْـراً ولا بَـعِـلا

وأورده أيضاً الأصفهاني في الأغاني ٢٢/ ٢٩٣ برواية قريبة من النوادر، إلا أن فيه: رقدت لا مُثْبَتاً، بدل: وانمزت لا مُنْسئاً. وليس فيها محلُّ الشاهد. ووقع في بعض المصادر: نبا، بدل: ثنى، وفي (د١) و(ح): رجلا، بدل: وجلا، وينظر الدر المصون ٥/ ٦٠٣، واللباب ٩/ ٥١٤.

(٣) الكشاف ٢/ ١٥٧، وقراءة ابن مسعود في القراءات الشاذة ص ٥١.

(٤) الكشاف ٢/ ١٥٧.

﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾ العَوْدُ يقتضي الرجوعَ إلى شيء سابِق، ولا يكون الكفرَ؛ لأنَّهم لم يَنفصلوا عنه، فالمعنى عودُهم إلى ما أمكن انفصالهُم منه، وهو قتالُ رسولِ الله ﷺ.

وقيل: «وإن يعودوا» إلى الارتداد بعد الإسلام، وبه فسَّر أبو حنيفة «وإن يعودوا»، واحتجَّ بالآية على أنَّ المرتدَّ إذا أسلم فلا يَلزمه قضاءُ العبادات المتروكةِ في حال الرِّدَّة وقَبْلها، وأجمعوا على أنَّ الحربيَّ إذا أسلم، لم تَبْقَ عليه تَبِعةٌ، وأمَّا إذا أسلم الذِّمِّيُّ فيَلزمه قضاءُ حقوقِ الآدميين لا حقوقِ اللهِ تعالى[1].

والظاهر دخولُ الزِّنديق في عموم قوله: «قل للذين كفروا» فتُقبَل توبته، وهو مذهب أبي حنيفة والشافعيّ، وقال مالك: لا تُقبَل[2].

وقال يحيى بنُ معاذ الرازيُّ: التوحيدُ لا يَعجِز عن هَدْم ما قبله مِن كفرٍ، فلا يَعجِز عن هَدْم ما بَعْدَه مِن ذنبٍ[3].

وجوابُ الشرط، قالوا: «فقد مضت سُنَّة الأوَّلين»، ولا يصحُّ ذلك على ظاهره، بل ذلك دليلٌ على الجواب، والتقدير: «وإن يعودوا» انتَقَمنا منهم وأهلكناهم «فقد مضت سُنّة الأولين» في أنَّا انتقمنا منهم وأهلكناهم بتكذيبِ أنبيائهم وكفرِهم.

ويحتمل «سُنَّة الأوَّلين» أن يُراد بها سُنَّة الذين حاقَ بهم مكرُهم يومَ بدر، وسُنَّة الذين تحزَّبوا على أنبيائهم، فدُمِّروا، فليتوقعوا مِثْلَ ذلك، وتخويفُهم بقصَّة بدرٍ أشدُّ؛ إذ هي قريبةٌ معايَنة لهم، وعليها نصّ السدّيّ وابن إسحاق[4].

ويحتمل أن يُراد بقوله: «سُنَّة الأولين» مَن تقدَّم مِن أهل بدر والأممِ السالفة، والمعنى: فقد عاينتم قصَّة بدر وسَمعتم ما حلَّ بالأُمَم[5].

---

(١) الكشاف ٢/ ١٥٧، وتفسير الرازي ١٥/ ١٦٢-١٦٣، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٤٢-٨٤٣.
(٢) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٩٦٧-٩٦٨.
(٣) ونقله عنه الثعلبي في التفسير ٣/ ١٤٣.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٧، وأخرجه عنهما الطبري ١١/ ١٧٨.
(٥) في المطبوع: بهم.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ تقدَّم تفسيرُ نظيرِ هذه الآية[١]، وهنا زيادة: «كلّه» توكيداً للدين.

وقرأ الأعمش: «ويكونُ» برفع النون[٢]، والجمهور بنصبها.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ أي: «فإن انتهوا» عن الكفر، ومعنى «بصير» بإيمانهم فيجازيهم على ذلك ويُثيبهم.

وقرأ الحسن ويعقوب وسلّام بنُ سليمان: «بما تعملون» بالتاء[٣] على الخطاب لمَن أُمِروا بالمقاتلة، أي: «بما تعملون» مِن الجهاد في سبيله، والدعاء إلى دينه، «بصير» يجازيكم عليه أحسنَ الجزاء.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ أي: مُواليكم ومُعِيْنكم، وهذا وعدٌ صريح بالظَّفر والنَّصر، والأغْرَقُ في الفصاحة أن يكون «مولاكم» خبر «أنَّ»، ويجوز أن يكون عطفَ بيان، والجملة بعده خبر «أنَّ»، والمخصوص بالمدح محذوف، أي: الله، أو: هو، والمعنى: فثِقوا بموالاته ونُصْرته.

واستُدلَّ بقوله: «وقاتلوهم» على وجوب قتالِ أصنافِ أهلِ الكفر إلَّا ما خصَّه الدليل وهم أهل الكتاب والمجوس، فإنَّهم يُقرُّون بالجزية، وأنَّه لا يُقَرُّ سائرُ الكفار على دينهم بالذِّمَّة إلَّا هؤلاء الثلاثة؛ لقيام الدليلِ على جواز إقرارها بالجزية[٤].

❁ ❁ ❁

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ

---

(١) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].
(٢) القراءات الشاذة ص ٤٩.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٨، والكشاف ٢/ ١٥٧.
(٤) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٥٠.

مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ
﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى
ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ
أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ
ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ
ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ
ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ
مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ
ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ
﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ
وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ
فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ
لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا
تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟
مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا
وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ
أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ
قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ

يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا
يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ
يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ
لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا
غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ
ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَـٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُولَـٰٓئِكَ
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ
ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ
﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَـٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ
حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَـٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَـٰٓئِكَ مِنكُمْ
وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ .

المفردات

القُصُوُّ: البُعْد، والقُصْوى: تأنيث الأقصى، ومعظم أهلِ التصريف فَصَّلوا في الفُعْلى ممَّا لامُهُ واوٌ، فقالوا: إن كان اسماً أُبدلت الواو ياءً، ثم يُمثِّلون بما هو صفة، نحو: الدنيا، والعُلْيا، والقُصْيا، وإن كان صفةً أُقِرَّت نحو: الحُلْوَى، تأنيث: الأَحْلَى، ولهذا قالوا: شَذَّ القُصْوى - بالواو - وهي لغةُ الحجاز، والقُصْيا لغةُ تميم.

وذهب بعضُ النحوِّيين إلى أنَّه إن كان اسماً أُقِرَّت الواو، نحو: حُزْوَى[1]، وإن كان صفةً أُبدلت، نحو: الدُّنيا والعُلْيا، وشَذَّ إقرارها، نحو: الحُلْوَى، ونصَّ على ندورِ القُصْوى ابنُ السِّكِّيت[2].

(١) موضع بنجد في ديار تميم، وقيل غير ذلك. ينظر معجم البلدان ٢/ ٢٥٥ (حزوى).
(٢) إصلاح المنطق ص ١٥٧.

وقال الزمخشريُّ: فأمَّا القُصْوى فكالقَوَد في مَجيئه على الأصل، وقد جاء القُصْيا، إلَّا أن استعمالَ القُصوى أكثرُ، كما كَثُرَ استعمال: اسْتَصْوَبَ، مع مَجيء: اسْتَصَاب، وأَغْيَلَت مع أَغَالَت[١]. والترجيح بين المذهبين مذكورٌ في النحو.

البَطَر: قال الهَرَويُّ: الطُّغيان عند النِّعمة. وقال ابنُ الأعرابيّ: سوءُ احتمال الغنى. وقال الأصمعيُّ: الحِيرة عند الحقِّ، فلا يَرَاه حقًّا[٢]. وقال الزجَّاج: يتكبَّر عند الحقِّ فلا يَقبَلُه. وقال الكسائيُّ: مأخوذ مِن قول العرب: ذَهَبَ دَمُهُ بِطَراً، أي: باطلاً. وقال ابنُ عطيَّة: البَطَر: الأشَر، وغَمْط النِّعمة، والشُّغْل بالمَرَح فيها عن شُكْرِها[٣].

نَكَصَ، قال النَّضر بنُ شُمَيْل: رَجَعَ القَهْقَرى هارباً[٤]. وقال غيره: هذا أصلُهُ، ثم استُعمِل في الرجوع مِن حيث جاء. وقال الشاعرُ:

هم يَضربونَ حَبِيكَ البَيْضِ إذ لَحِقُوا ... لا يَنْكصون إذا ما استُلْحِموا لَحمُوا[٥]

ويقال: أراد أمراً ثم نَكَصَ عنه. وقال تأبَّط شَرًّا:

ليس النكوصُ على الأدْبار مَكْرُمَةً ... إنَّ المكارمَ إقدامٌ على الأَسَلِ

ليس[٦] هنا قَهْقَرى بل هو فرار، وقال مؤرِّج: نَكَصَ: رَجَعَ، بلغة سُلَيم[٧].

شَرَّد: فرَّق وطرَّد، والمُشَرَّد[٨]: المُفرَّق المُبعَّد، وأمَّا شَرَّذ ـ بالذال ـ فسيأتي إن شاء الله تعالى عند ذِكْر قراءة مَن قرأ بالذال.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٥٩، وأغالت المرأةُ ولدَها وأغيلت: إذا سقته الغَيْل، وهو اللبن. مختار الصحاح (غيل).

(٢) ينظر تهذيب اللغة والصحاح (بطر).

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٧.

(٤) ونقله عنه البغوي في التفسير ٢/ ٢٥٤.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٨، وما بعده منه أيضاً، والبيت لزهير، وهو في شرح ديوانه ص١٥٩، وفيه: لا ينكلون، بدل: لا ينكصون. وأشار محقِّقه إلى هذه الرواية بالهامش. وحَبيك البَيْض: طرائقه، واحدها: حَبِيكة. واستلحموا: أُدرِكوا. وحَمُوا: غضبوا.

(٦) بعدها في (ح) و(ع): النكوص.

(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٨، والبيت أورده أيضاً القرطبي في التفسير ٩/ ٤٣. والأَسَل: الرماح والنبل. تهذيب اللغة ١٣/ ٧٥.

(٨) في (ب): الشرد. وفي المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٢: والشريد: المُبْعد عن وطنٍ أو نحوه.

التحريْضُ: المبالغة في الحَثِّ، وحرَّكَهُ[١] وحرَّشه وحرَّضه بمعنًى.

وقال الزمخشريُّ: من الحَرَض، وهو أن يَنْهَكه المَرَضُ ويتبالغَ فيه حتى يُشْفيَ على الموت، أو أَنْ تُسَمّيه حَرَضاً وتقول له: ما أراك إلَّا حَرَضاً في هذا الأمر ومُمرَّضاً فيه، لتهيِّجَه ويحرّك منه[٢].

وقالت فرقة: المعنى: حرِّض على القتال حتى يتبيَّن لكَ فيمَن تَركه أنَّه حارِض. قال النقَّاش: وهذا قولٌ غيرُ ملتئم ولا لازم مِن اللفظ، ونحا إليه الزجَّاج، والحارضُ الذي هو القريبُ مِن الهلاك، لفظةٌ مباينة لهذه ليست منها في شيء[٣].

أَثْخَنَتْهُ الجراحات: أَثْبَتَتْهُ حتى تثقلَ عليه الحركةُ، وأَثْخَنَه المَرَضُ: أَثْقَلَه، مِن الثّخانة التي هي الغِلَظ والكثافة، والإثْخَان: المبالغة في القَتْل والجراحات[٤].

* * *

التفسير ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ قال ابن الكلبيّ: نزلت ببدر، وقال الواقديُّ: كان الخُمْس في غزوة بني قَيْنُقاع بَعْدَ بدر بشهرٍ وثلاثة أيام للنصفِ مِن شوَّال على رأسِ عشرين شهراً مِن الهجرة[٥].

---

(١) في (ب): والحركة.
(٢) الكشاف ٢/ ١٦٧.
(٣) من قوله: وقالت فرقة... إلى هنا، كذا في النسخ، والعبارة من المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٩-٥٥٠ إلا أنها وردت فيه هكذا: قوله: «حرض» معناه: حثهم وحضهم، قال النقاش: وقرئت: «حرّص» بالصاد غير منقوطة، والمعنى متقارب. والحارض الذي هو القريب من الهلاك لفظةٌ مباينة لهذه ليست منها في شيء، وقالت فرقة من المفسِّرين: المعنى: حرّض على القتال حتى يبين لك فيمن تركه أنه حرض. قال القاضي أبو محمد: وهذا قول غير ملتئم ولا لازم من اللفظ، ونحا إليه الزجاج. اهـ. فالعبارة فيها تقديم وتأخير واضطراب، فلتحرَّر! وينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٢٣-٤٢٤.
(٤) ينظر الكشاف ٢/ ١٦٨، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٥٢.
(٥) الكشاف ٢/ ١٥٩، ونقله عنه الرازي في التفسير ١٥/ ١٦٦، وينظر المغازي للواقدي ١/ ١٧٦-١٨٠.

ومناسبة هذه الآية لِمَا قَبْلَها أنَّه لمَّا أَمَرَ تعالى بقتال الكفَّار حتى لا تكونَ فتنة، اقتضى ذلك وقائعَ وحروباً، فذَكَر بعضَ أحكام الغنائم، وكان في ذلك تبشيرٌ للمؤمنين بغَلَبتهم للكفار وقَسْم ما تحصَّل منهم مِن الغنائم[١].

والخطاب في «واعلموا» للمؤمنين، والغنيمةُ عُرفاً: ما يَناله المسلمون مِن العدوِّ بسَعْي، وأصله: الفوز بالشيء، يقال: غَنِم غُنْماً، قال الشاعر:

وقد طَوَّفتُ في الآفاقِ حتى ... رضيتُ مِن الغنيمة بالإيابِ

وقال الآخر:

ومُطْعَمُ الغُنْمِ يومَ الغُنْمِ مُطْعَمُهُ ... أنَّى تَوجَّه والمَحْرومُ مَحْرُومُ[٢]

والغنيمة والفيء هل هما مترادفان أو متباينان؛ قولان، وسيأتي ذلك عند ذِكْر الفيء إن شاء الله تعالى.

والظاهر أنَّ ما غُنِمَ يُخمَّس كائناً ما كان، فيكون خمسه لمَن ذَكَرَ اللهُ، فأمَّا قوله: «فأنَّ لله خمسه» فالظاهر أنَّ ما نُسبَ إلى الله يُصرَف في الطاعات، كالصدقة على فقراء المسلمين، وعمارة الكعبة، ونحوهما. وقال بذلك فرقةٌ، وأنَّه كان الخمسُ يُقسَم على ستَّة، فما نُسبَ إلى الله قُسمَ على مَن ذكرنا.

وقال أبو العالية: سهمُ اللهِ يُصرَف إلى رِتَاج الكعبة، وعنه: كان رسولُ الله ﷺ يَأخُذ الخمسَ فيَضرب بيده فيه، فيَأخذ منه قبضةً فيَجعلها للكعبة، وهو سهمُ الله تعالى، ثم يَقسِم ما بقي على خمسةٍ. وقيل: سهم الله تعالى لبيتِ المال[٣].

وقال ابنُ عباس والحسن والنخعيُّ وقتادة والشافعيُّ: قوله: «فأنَّ لله خمسه» استفتاحُ كلام، كما يقول الرجل لعبده: أعتقكَ اللهُ، وأَعْتَقْتُكَ، على جهة التبرُّك

(١) تفسير الرازي ١٥/ ١٦٤بنحوه.

(٢) المحرر الوجيز ٥٢٨/٢، والبيت الأول لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٩٩، والبيت الثاني لعلقمة الفَحْل، وهو في ديوانه ص ٦٦، ومعنى البيت: من كُتب له رزق وغُنم، أُطعمه أينما توجَّه، ومَن كُتب له الحرمان وقُدِّر عليه حُرِم.

(٣) الكشاف ١٥٩/٢، وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٠، وتفسير القرطبي ١٩/١٠، وقول أبي العالية أخرجه ابن أبي شيبة (٣٣٩٧٣)، وأبو عبيد في الأموال (٨٣٦)، وابن زنجويه في الأموال (٧١) و(١٢٢٧)، وأبو داود في المراسيل (٣٧٤)، والطبري ١١/ ١٨٩-١٩٠.

وتَفْخيم الأمر، والدنيا كلُّها لله، وقِسْمُ اللهِ وقِسْمُ الرسولِ واحدٌ، وكان الرسول ﷺ يَقْسِم الخمسَ على خمسة أقسام[١].

وهذا القول هو الذي أورده الزمخشريُّ احتمالاً، فقال: يَحتمل أن يكون معنى «لله وللرسول» كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] وأن يُراد بقوله: «فأنَّ لله خُمسه» أي: مِن حقِّ الخُمس أن يكون متقرَّباً إليه لا غير، ثم خصَّ مِن وجوه القُرَب هذه الخمسةَ؛ تفضيلاً لها على غيرِها، كقوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[٢] [البقرة: ٩٨].

والظاهر أنَّ للرسول عليه الصلاة والسلام سهماً مِن الخُمس، وقال ابنُ عباس فيما روى الطبريُّ: ليس لله ولا للرسولِ شيء، وسَهمه لقرابته يُقسَم الخمس على أربعة أقسام.

وقالت فرقة: هو مَردود على الأربعة الأخماس.

وقال عليٌّ: يلي الإمامُ سهمَ اللهِ ورسولِه[٣].

والظاهر أنَّه ليس له عليه السلام غير سهم واحد مِن الغنيمة، وقال ابنُ عطيَّة: كان مخصوصاً عليه الصلاة والسلام مِن الغنيمة بثلاثة أشياء؛ كان له خُمْسُ الخُمُس، وكان له سهمُ رجلٍ في سائر الأربعة الأخماس، وكان له صَفِيٌّ يَأخذه قَبْلَ قَسْمِ الغنيمة؛ دابَّة أو سيف أو جارية، ولا صَفِيَّ بعده لأحدٍ بالإجماع إلَّا ما قاله أبو ثور مِن أنَّ الصَّفِيَّ بعده إلى الإمام، وهو قولٌ معدود في شواذِّ الأقوال[٤]. انتهى.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٠، والآثار أخرجها الطبري ١١/ ١٨٧-١٨٩.
(٢) الكشاف ٢/ ١٥٩.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٠، وقول ابن عباس عند الطبري ١١/ ١٩٠-١٩١، وأخرجه أيضاً أبو عبيد في الأموال (٣٧) و(٨٣٥)، وابن زنجويه في الأموال (٧٧) و(١٢٢٥)، وقول عليٍّ أورده الثعلبي في التفسير ٣/ ١٤٥.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٠، وينظر الاستذكار ١٤/ ١٩٢، وأحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٤٨، قال ابن المنذر في الأوسط ١١/ ٩٦: ولا أعلم أحداً وافق أبا ثور على ما قال.

وقالت فرقة: لم يُورَث الرسولُ ﷺ، فسَقَطَ سهمُه(١).

وقيل: سهمُه موقوف على قَرابته عليه الصلاة والسلام، وقد بَعَثه إليهم عمرُ بنُ عبد العزيز(٢).

وقالت فرقة: هو لقرابةِ القائم بالأمْرِ بَعْدَه(٣).

وقال الحسن وقتادة: كان للرسول ﷺ في حياته، فلمَّا توفِّي جُعِلَ لوليِّ الأمر مِن بعده(٤). انتهى.

وذوو القُرْبى: معناه: قُرْبى رسولِ الله ﷺ، والظاهرُ عمومُ قُرْباه، فقالت فرقة: قريش كلُّها بأَسْرِها ذوو قُرْبى(٥).

وقال أبو حنيفة والشافعيُّ: هم بنو هاشم وبنو المطلب استحقُّوه بالنُّصْرة والمُظاهرة دون بني عبد شمس وبني نوفل(٦).

وقال عليُّ بنُ الحسين وعبد الله بنُ الحسن وابنُ عباس: هم بنو هاشم فقط. قال مجاهد: كان آلُ محمَّد لا تَحلُّ لهم الصدقة، فجُعلَ لهم خُمسُ الخُمُسِ. قال ابنُ عباس: ولكن أَبَى ذلك علينا قومُنا، وقالوا: قريش كلُّها قربى(٧).

والظاهر بقاءُ هذا السهم لذوي القُربى وأنَّه لغنيِّهم وفقيرهم، وقال ابنُ عباس: كان على ستَّة؛ لله وللرَّسول سهمان، وسهم لأقاربه حتى قبضَ، فأجرى

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٠، وعزاه لأصحاب الرأي، وينظر أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٦٢، والاستذكار ١٤/ ١٨٦.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣١، وفيه أن عمر بن عبد العزيز بعثه إلى بني هاشم وبني المطلب فقط، وأورد الخبرَ ابنُ عبد البَرِّ في الاستذكار ١٤/ ١٨٧، وعنده أن عمر بن عبد العزيز يذهب إلى أن ذوي القربى بنو هاشم فقط، وكذا أورده ابنُ المنذر في الأوسط ١١/ ١٠١، وابن حجر في فتح الباري ٦/ ٢٤٥.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣١، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٤٥.

(٤) ينظر التعليق السابق، وقول قتادة أخرجه الطبري ١١/ ١٩٥.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٠، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٤٥.

(٦) الكشاف ٢/ ١٥٨، وينظر أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٦٣-٦٤.

(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٠، وقول علي بن الحسين وابن عباس أخرجه عنهما الطبري ١١/ ١٩٣-١٩٤، وأخرجه عن ابن عباس أيضاً أحمد (٢٨١١)، ومسلم (١٨١٢).

أبو بكر الخمسَ على ثلاثة، وكذلك روي عن عمر ومَن بعده مِن الخلفاء، وروي أنَّ أبا بكر مَنَعَ بني هاشم الخمسَ، وقال: إنَّما لكم أن يُعطى فقيركم، ويُزوَّج أيِّمكم، ويُخدَم مَن لا خادم له منكم، وأمَّا الغنيُّ منكم فهو بمنزلة ابنِ السبيل الغنيِّ لا يُعطى مِن الصدقة شيئاً، ولا يتيم مُوسِرٌ. وعن زيد بنِ عليٍّ: ليس لنا أن نبنيَ منه قُصُوراً ولا أن نركبَ منه البراذين. وقال قوم: سهم ذوي القُربى لقَرابة الخليفة[١].

والظاهر أنَّ اليتامى والمساكينَ وابنَ السَّبيل عامٌّ في يتامى المسلمين ومساكينهم وابنِ السَّبيل منهم. وقيل: الخمسُ كلُّه للقَرابة.

وقيل لعليٍّ: إنَّ الله تعالى قال: «واليتامى والمساكين»؟ فقال: أيتامنا ومساكيننا[٢]. وروي عن عليِّ بنِ الحسين وعبد الله بنِ محمد بنِ عليٍّ أنَّهما قالا: الآية كلُّها في قريش ومساكينها[٣].

وظاهر العطف يقتضي التشريكَ، فلا يُحرَم أحدٌ، قاله الشافعيُّ، قال: وللإمام أن يُفضِّل أهلَ الحاجةِ لكن لا يَحرِم صنفاً منهم. وقال مالك: للإمام أن يُعطيَ الأحوجَ ويَحرم غيرَه مِن الأصناف[٤].

ولم تتعرَّض الآية لمَن تُصرَف الأربعة الأخماس، والظاهر أنَّه لا يُقسَم لمَن لم يَغنم، فلو لَحِقَ مَدَدٌ للغانمين قَبْلَ حَوْزِ الغنيمة لدار الإسلام، فعند أبي حنيفة: هم شركاؤهم فيها، وقال مالك والثوريُّ والأوزاعيُّ والليث والشافعيُّ: لا يُشاركونهم[٥].

والظاهر أنَّ مَن غنمَ شيئاً، خُمِّس ما غنم إذا كان وَحْدَهُ ولم يَأذن الإمام، وبه قال الثوريُّ والشافعيُّ. وقال أصحاب أبي حنيفة: هو له خاصَّة ولا يُخمَّس،

(١) الكشاف ٢/ ١٥٩، وينظر تفسير النيسابوري ١٠/ ٦.
(٢) أخرجه الطبري ١١/ ١٩٩.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٠-٥٣١، وينظر تفسير الثعلبي ٣/ ١٤٥، والقرطبي ١٠/ ١٩.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٠.
(٥) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٥٦، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٥٢، والأوسط لابن المنذر ١١/ ١٤٨-١٤٩، ومختصر اختلاف العلماء للجصاص ٣/ ٤٦٠-٤٦٢.

وعن بعضهم: فيه تفصيل[١]. وقال الأوزاعيُّ: إن شاء الإمام عاقبه وحَرَمه، وإن شاء خمّس والباقي له[٢].

والظاهر أنَّ قوله: «غنمتم» خطاب للمؤمنين، فلا يُسهَم لكافر حَضَر بإذن الإمام وقَاتَل، ويَندرج في الخطاب العبيدُ المسلمون فما يخصُّهم لساداتهم. وقال الثوريُّ والأوزاعيُّ: إذا استُعين بأهلِ الذمة يُسهَم لهم. وقال أشهب: إذا خرج العبدُ[٣] والذميُّ مِن الجيش وغَنِما، فالغنيمة للجيش دونَهم[٤].

والظاهر أنَّ قوله: «أنّما غنمتم مِن شيء فأنَّ لله خمسَه» عامٌّ في كلِّ ما يُغنَم مِن حيوانٍ ومتاع ومعدِنٍ وأرض وغير ذلك، فيخمَّس جميع ذلك، وبه قال الشافعيُّ، إلَّا الرِّجال البالغين، فقال: الإمام فيهم مخيَّرٌ بين أن يَمنَّ أو يَقتل أو يَسبي، ومَن سُبيَ منهم فسبيلُه سبيل الغنيمة. وقال مالك: إن رأى الإمامُ قسمةَ الأرض، كان صواباً، أو إن أدَّاه الاجتهاد إلى أن لا يقسِمها، لم يَقسِمْها[٥].

والظاهر أنَّه لا يُخرج مِن الغنيمة غير الخمس، فسَلَبُ المقتولِ غنيمةٌ لا يختصُّ به القاتل إلَّا أن يجعل له الأميرُ ذلك على قَتْله، وبه قال مالك وأبو حنيفة والثوريُّ. وقال الأوزاعيُّ والليث والشافعيُّ وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد والطبريُّ وابنُ المنذر: السَّلَب للقاتل. قال ابنُ سُرَيج: وأجمعوا على أنَّ مَن قَتل أسيراً أو امرأةً أو شيخاً، أو ذفَّف على جريح، أو قَتَل مَن قُطعت يداه ورجله[٦]، أو مُنهزِماً لا يمنع بانهزامه، كالمكتوف = ليس له سَلَبُ واحدٍ مِن هؤلاء، والخلاف هل مِن شرطه أن يكون القاتلُ مُقبِلاً على المقتول، وفي معركة، أم ليس ذلك مِن شرطه[٧]؟

(١) بعدها في (ب) كلمة غير واضحة، ولعلها: وتفريق. والكلام من أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٥٥، وفيه تفصيل عن محمد وأبي يوسف في المسألة، وينظر الأوسط لابن المنذر ٣/ ١٨٦-١٨٧، ومختصر اختلاف العلماء للجصاص ٣/ ٤٦٢-٤٦٣.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٥٥، ومختصر اختلاف العلماء ٣/ ٤٦٢-٤٦٣.

(٣) في المطبوع: المقيد.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ٨٥٣-٨٥٤، وينظر الأوسط ١١/ ١٧٩-١٨١ و١٨٥-١٨٦.

(٥) التمهيد ٦/ ٤٥٨-٤٥٩ بنحوه.

(٦) كذا في النسخ، والذي في التمهيد ٢٣/ ٢٥١، والكلام منه: ورجلاه.

(٧) التمهيد ٢٣/ ٢٤٧-٢٥١، وتفسير القرطبي ٩/ ١١-١٢ ـ وغالبُ نَقْلِ الأحكام السالفة منه ـ =

ودلائل هذه المسائل مستوفاة في كتب الفقهِ وفي كتب مسائل الخلاف، وفي كتب أحكام القرآن.

والظاهر أنَّ «ما» موصولة بمعنى «الذي»، وهي اسم «أنَّ» وكتبت «أنَّ» متصلة بـ «ما»، وكان القياس أن تُكتب مفصولةً، كما كتبوا ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ [الأنعام:١٣٤] مفصولةً، وخبر «أنَّ» هو قوله: «فأنَّ لله خمسه»، [1]و«أنَّ لله» في موضع رفع على أنَّه خبر مبتدأ محذوف، أي: فالحكم أنَّ لله خُمُسَه[1]، ودخلت الفاء في هذه الجملة الواقعة خبراً لـ «أنَّ»، كما دخلت في خبر «إنَّ» في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠] وقال الزمخشريُّ: «فأنَّ لله» مبتدأ، خبره محذوف، تقديره: حقٌّ، أو: فواجبٌ أنَّ للهِ خمسَه[2]. انتهى.

وهذا التقدير الثاني الذي هو: أو: فواجب أنَّ لله خمسه. تكون «أنَّ» ومعمولاها في موضع مبتدأ، خبره محذوف، وهو قوله: فواجب، وأجاز الفرَّاء[3] أن تكون «ما» شرطيَّة منصوبة بـ «غنمتم»، واسم «أنَّ» ضمير الشأن محذوف، تقديره: أنَّه، وحَذْفُ هذا الضمير مع «أنَّ» المشدَّدة مخصوصٌ عند سيبويه بالشِّعْر[4].

وروى الجعفيُّ، عن هارون، عن أبي عمرو: «فإنَّ لله» بكسر الهمزة، وحكاها ابنُ عطيَّة، عن الجعفيِّ، عن أبي بكر، عن عاصم[5]، ويقوِّي هذه القراءة قراءةُ النخعيِّ «فللَّه خمسُه»[6].

= وقول ابن المنذر في الأوسط ١١/ ١١٠، وابن سريج هو: أبو العباس أحمد بن عمر البغدادي، الباز الأشهب، كان يُفضَّل على جميع أصحاب الشافعي حتى على المزني، له مصنفات كثيرة، منها: الرَّدّ على ابن داود في القياس وغيره. (توفي سنة ٣٠٦هـ). طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ١٧-٣٩، ومعنى: ذفَّف على جريح: أجهز عليه. القاموس (ذفف).

(١-١) ليست في (أ) و(ح) و(ع).

(٢) الكشاف ٢/ ١٥٨.

(٣) معاني القرآن له ١/ ٤١١.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣١، وينظر الكتاب ٣/ ٧١-٧٤.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣١، والقراءة في القراءات الشاذة ص ٤٩.

(٦) ينظر المصدران السابقان.

وقرأ الحسن وعبد الوارث عن أبي عمرو: «خُمْسَه» بسكون الميم[(١)].

وقرأ الجعفيُّ[(٢)]: «خِمْسَهُ» بكسر الخاء على الإتباع، يعني: إتباع حركة الخاء لحركة ما قَبْلها، كقراءة مَن قرأ «والسماءِ ذاتِ الحِبُك»[الذاريات:٧] بكسر الحاء إتباعاً لحركة التاء[(٣)]، ولم يعتدَّ بالساكن[(٤)]؛ لأنَّه ساكنٌ غيرُ حصين.

وانظر إلى حُسْنِ هذا التركيب؛ كيف أفرد كينونة الخمس لله، وفَصَلَ بين اسمِه تعالى وبين المعاطيف بقوله: «خمسه»، ليَظهر استبدادُه تعالى بكينونةِ الخمسِ له، ثم أشرك المعاطيف مَعَه على سبيل التبعيَّة له، ولم يأتِ التركيب: فأنَّ للهِ وللرسول ولذي القُربى واليتامى والمساكين وابنِ السبيل خُمُسَه، وجوابُ الشرط محذوف، أي: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنَّ الخُمسَ مِن الغنيمة يجب التقرُّب به، ولا يُراد مجرَّد العلم، بل العلم والعمل بمقتضاه، ولذلك قدَّره بعضهم: إن كنتم آمنتم بالله فاقْبَلوا ما أُمرتم به في الغنائم.

وأبْعَدَ مَن ذهب إلى أنَّ الشرطَ متعلِّق معناه بقوله: «نِعْمَ المولى ونِعْمَ النَّصير»، والتقدير: فاعلموا أنَّ اللهَ مولاكم[(٥)]، «وما أنزلنا» معطوف على «بالله».

ويوم الفرقان: يومُ بدر بلا خلافٍ، فرقَ فيه بين الحقِّ والباطل، والجمعان: جَمْعُ المؤمنين وجَمْعُ الكافرين، قُتلَ فيها صناديدُ قريش، نصَّ عليه ابنُ عباس ومجاهد ومِقْسَم والحسن وقتادة، وكانت يومَ الجمعة سابعَ عشر رمضان في السنة الثانية مِن الهجرة، هذا قول الجمهور. وقال أبو صالح: لتسعة عشر يوماً[(٦)].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣١، والكشاف ٢/ ١٥٨، وزاد المسير ٣/ ٣٥٨.

(٢) في (أ) و(ح) و(د١) و(ع) والمطبوع: النخعي. وينظر الدر المصون ٥/ ٦٠٧، واللباب ٩/ ٥١٨.

(٣) وهي قراءة أبي مالك الغفاري، وقراءته في المحتسب ٢/ ٢٨٦، وستأتي.

(٤) أي: بلام التعريف. الدر المصون ٥/ ٦٠٧.

(٥) ذكره الزجاج عن فرقة، كما في المحرر الوجيز ٢/ ٥٣١، وينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤١٦.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٢، والآثار أخرجها عنهم الطبري ١١/ ٢٠٠-٢٠٣، وقول أبي صالح - وهو عبد الله بن صالح كاتب الليث - أخرجه أيضاً الطبري ١١/ ٢٠١ بإسناده عنه، عن الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير. وينظر عيون الأثر ١/ ٢٤١.

والمنزّل: الآياتُ والملائكةُ والنَّصر، وخَتَم بصفة القدرة؛ لأنّه تعالى أدالَ[1] المؤمنين على قلّتهم على الكافرين على كثرتهم ذلك اليومَ.

وقرأ زيدُ بنُ عليٍّ: «على عُبُدِنا» بضمَّتين[2]، كقراءة مَن قرأ«وعُبُد الطاغوت» [المائدة: ٦٠] بضمَّتين[3]، فعلى «عَبْدنا» هو الرَّسولُ ﷺ، وعلى «عُبُدنا» هو الرسولُ ومَن معه مِن المؤمنين.

وانتصاب «يوم الفرقان» على أنَّه ظرفٌ معمول لقوله: «وما أنزلنا». وقال الزجَّاج: ويحتمل أن ينتصبَ بـ «غنمتم» أي: إنَّ ما غنمتم يومَ الفرقان يومَ التقى الجمعان فأنَّ خمسَه لكذا وكذا، إنْ كنتم آمنتم بالله، أي: فانقادوا لذلك وسَلِّموا[4]. قال ابنُ عطيَّة: وهذا تأويل حَسَن في المعنى، ويعترض فيه الفَصْل بين الظرف وبين ما تعلَّق به بهذه الجملة الكثيرة مِن الكلام[5]. انتهى.

ولا يجوز ما قالهُ الزجَّاج؛ لأنَّه إن كانت «ما» شرطيَّة ـ على تخريج الفرَّاء ـ لزِمَ فيه الفَصْل بين فِعْلِ الشَّرْط ومعمولِه بجملةِ الجزاء ومتعلَّقاتها، وإن كانت موصولةً فلا يجوز الفَصْل بين فِعْل الصِّلَة ومعمولِه بخبر «أنَّ».

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ العُدْوة: شَطُّ الوادي، ويسمَّى: شفيراً، وضَفَّةً[6]، سُمِّيت بذلك؛ لأنَّها عَدَتْ ما في الوادي مِن ماءٍ أن يتجاوزه، أي: مَنَعَتْهُ، وقال الشاعر:

عَدَتْني عن زيارتها العَوَادي ... وحالت دُونها حَرْبٌ زَبُونُ[7]

(١) أدال فلاناً وغيرَه على فلان أو منه: نَصَره وغَلَّبه عليه وأظفره به. المعجم الوسيط (دال).
(٢) الكشاف ٢/ ١٥٩، والقراءات الشاذة ص٥٠ دون نسبة.
(٣) وهي قراءة ابن عباس في رواية ومجاهد وابن وثاب وغيرهم، وسلفت في تفسير سورة المائدة، عند تفسير الآية (٦٠).
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣١، وينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤١٦.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣١-٥٣٢.
(٦) في (أ) و(ب): وصفة. وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٢.
(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٢، والبيت أورده القالي في الأمالي ١/ ١٢ ولم ينسبه، ونسبه البكريُّ في شرح الأمالي ١/ ٥٨، للنابغة الذبياني، والقصيدة في ديوان النابغة الذبياني ص١٢٦ دون ذكر البيت. وعَدَتني: صَرَفَتْني. والعوادي: الصوارف. والزَّبُون من النوق: التي تَرْمَح عند =

ويسمَّى الفضاءُ المساير للوادي: عِدْوة؛ للمجاورَة[١].

وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو: «بالعِدْوة» بكسر العين فيهما، وباقي السبعة بالضَّمِّ[٢]، والحسن وقتادة وزيد بنُ عليٍّ وعمرو بنُ عبيد بالفتح[٣]، وأنكر أبو عمرو الضَّمَّ.

وقال الأخفش: لم يسمع مِن العرب إلَّا الكسرُ. وقال أبو عبيد: الضَّمُّ أكثرُهما. وقال اليزيديُّ: الكَسْر لغةُ الحجاز. انتهى. فيحتمل أن تكون الثلاثُ لُغًى، ويحتمل أن يكون الفتحُ مصدراً سُمِّي به، وروي بالكسر والضَّمِّ بيتُ أوس:

وفارسٍ لم يَحُلَّ اليوم عُدْوَتَهُ وَلَّوْا سِراعاً وما هَمُّوا بإقْبالِ[٤]

وقُرِئ: «بالعِدْيَة» بقلب الواو ياءً لكسرة العين[٥]، ولم يعتدُّوا بالسَّاكن؛ لأنَّه حاجزٌ غيرُ حصين، كما فعلوا ذلك في صِبْيَةٍ وقِنْيَة، ودِنْياً مِن قولهم: هو ابنُ عمِّي دِنْياً، والأصل في هذا التصحيح كالصِّفْوة والذِّرْوَة والرِّبوة.

وفي حرف ابنِ مسعود: «بالعدوة العليا وهم بالعدوة السفلى» ووادي بدر آخِذٌ بين الشَّرْق والقِبْلة، منحرفٌ إلى البحر الذي هو قريب مِن ذلك الصُّقْع، والمدينة مِن الوادي مِن موضع الوقعة منه في الشرق، وبينهما مَرْحلتان[٦].

= الحلب. أي: حرب شديدة صعبة. وورد في (ع) و(يه): زيون، بدل: زبون، وورد في مطبوع البحر: وقالت، بدل: وحالت.

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٢.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٢، والقراءة في السبعة ص ٣٠٦، والتيسير ص ١١٦، وقرأ بها أيضاً يعقوب من العشرة، النشر ٢/ ٢٧٦.

(٣) القراءات الشاذة ص ٥٠، والمحتسب ١/ ٢٨٠.

(٤) ديوان أوس بن حجر ص ١٠٤، وفيه: لا يحل الحي، بدل: لم يحل اليوم. ومعناه: هو عزيز الجانب يهابه الناس.

(٥) الكشاف ٢/ ١٥٩، ونقلها عنه الرازي في التفسير ١٥/ ١٦٧، وينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٤٦ وضُبطت فيه بالشَّكْل بضمِّ العين.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٢، ولم نقف على القراءة عند غيره. والمَرْحلة، واحدة: المراحل، وهو المَنْزِل بين المَنْزِلين. تاج العروس (رحل).

وقرأ زيد بنُ عليٍّ: «القُصْيا»[1]، وقد ذكرنا أنَّه القياس، وذلك لغةُ تميم، والأحسن أن يكون «وهم» و«الرَّكْب» معطوفان على «أنتم»، فهي مبتدآتٌ؛ تَقْسيمٌ لحالهم وحالَي أعدائهم. ويَحتمل أن تكون الوَاوَانِ فيهما وَاوَي الحال، و«أسفل» ظرف في موضع الخبر.

وقرأ زيدُ بنُ عليّ: «أسفلُ» بالرفع[2]، اتَّسع في الظَّرْف فجعله نفسَ المبتدأ مجازاً.

و«الرَّكْب»: هم الأربعونَ الذين كانوا يَقودون العِيْرَ عِيْرَ أبي سفيان.

وقيل: الإبل التي كانت تحمل أزوادَ الكفار وأمتعتهم كانت في موضع يَأمنون عليها.

قال الزمخشريُّ: فإن قلت: ما فائدةُ هذا التوقيتِ وذِكْرِ مراكز الفريقين وأنَّ العِيْرَ كانت أسفلَ منهم؟

قلت: الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالَّة على قوَّة شأن العدوِّ وشَوْكتِه وتكامل عُدَّته، وتمهُّد أسباب الغَلَبة له، وضَعْف شأن المسلمين، والْتِيَاثِ[3] أمرِهم، وأنَّ غلبتهم في مِثْل هذه الحال ليست إلَّا صُنْعاً مِن الله تعالى، ودليلٌ على أنَّ ذلك أَمْرٌ لم يتيسَّر إلَّا بحَوْله تعالى وقوَّته وبَاهِر قدرته، وذلك أنَّ العُدوة القُصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماءُ وكانت أرضاً لابأسَ بها، ولا ماءَ بالعُدوة الدنيا وهي خَبَار[4] تَسوخ فيها الأرجلُ، ولا يُمشَى فيها إلَّا بتعب ومشقَّة، وكانت العِيْر وراءَ ظهور العدوِّ مع كثرة عُدَدهم، وكانت الحمايةُ دونَها تُضاعِف حَمِيَّتهم، وتَشْحَذُ في المقاتلة عنها نيَّاتهم، ولهذا كانت العربُ تَخرج إلى الحرب بظُعْنهم[5] وأموالهم

---

(١) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٨، والكشاف ٢/ ١٥٩، وتفسير القرطبي ١٠/ ٣٥.

(٢) ينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٤٦، وللفراء ١/ ٤١١، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٨٨، ومشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ٣١٥-٣١٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٣٣، وتفسير القرطبي ١٠/ ٣٦.

(٣) في المطبوع: وشتات. والالتياث: الاختلاط والالتباس وصعوبة الأمر وشدَّته. التاج (لوث).

(٤) هي الأرض الرخوة ذات الجِحَرَة. الصحاح (خبر).

(٥) الظَّعِيْنة: الهودج، كانت فيه امرأةٌ أو لم تكن، والجمع: ظُعْن، وظُعُن، وظعائن، وأظعان. مختار الصحاح (ظعن).

ليَبعثهم الذَّبُّ عن الحَرم[١] والغَيْرة على الحُرم على بَذْلِ تجهيزاتهم[٢] في القتال، وأن لا يَتركوا وراءَهم ما يُحدِّثون أنفسَهم بالانحياز إليه، فيَجمع ذلك قلوبَهم ويَضبط هِمَمَهم ويوطِّن نفوسهم على أن لا يَبرحوا مواطنهم[٣]، ولا يُخَلُّوا مراكزَهم، ويَبذلوا منتهى نَجْدَتهم وقصارى شدَّتهم، وفيه تصويرُ ما دبَّر سبحانه مِن أَمْرِ وقعة بدر[٤]. انتهى. وهو كلامٌ حَسَن.

وقال ابنُ عطيَّة: كان الرَّكْبُ ومُدبِّر أَمْرِه أبو سفيان قد نَكَّب عن بدرٍ حين نَذِر بالنبيِّ ﷺ وأَخَذَ سِيْفَ البحر، فهو أسفلُ بالإضافة إلى أعلى الوادي مِن حيث يأتي[٥].

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ كان الالتقاءُ على غيرِ ميعاد، قال مجاهد: أقبل أبو سفيان وأصحابُه مِن الشام تُجّاراً لم يَشعروا بأصحاب بدرٍ، ولم يَشعر أصحابُ محمَّد ﷺ بكفَّار قريش، ولا كفَّارُ قريش بمحمَّد ﷺ وأصحابِه، حتى الْتَقوا على ماءِ بدرٍ للسَّقْي[٦] كلُّهم، فاقتتلوا، فغَلَبهم أصحابُ محمَّد ﷺ فأَسروهم[٧].

قال الطبريُّ وغيره: المعنى: لو تَواعدتم على الاجتماع ثم عَلِمتم كَثْرَتَهم وقلَّتَكم، لخالفتم ولم تَجتمعوا معهم[٨]. وقال معناه الزمخشريُّ، قال: ولو تواعدتم أنتم وأهلُ مكَّة وتَواضعتم بينَكم على موعد تَلْتقونَ فيه للقتال، لخاف[٩] بعضُكم بعضاً، فثبَّطكم قلَّتُكم وكثرتُهم عن الوفاء بالموعد، وثبَّطهم ما في قلوبهم

(١) كذا في النسخ، والذي في مطبوع الكشاف ٢/ ١٦٠ ومخطوطه الورقة (١٨٧): الحريم.
(٢) في (أ) و(ب) و(د١) و(ع) و(يه) والمطبوع: تجيهداتهم، وفي (ح) والكشاف: جهيداتهم. والمثبت من (ز١).
(٣) في المطبوع: مواطنهم، وفي (د١): مواطيهم.
(٤) الكشاف ٢/ ١٦٠.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٣، وسِيْفُ البحر: ساحله. الصحاح (سيف).
(٦) في (ح): ليسيقي، وفي (د١): ليسقي، وفي (ع): ليستقوا.
(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٣، والخبر أخرجه عنه الطبريُّ ١١/ ٢٠٤.
(٨) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٣، وكلام الطبري في التفسير ١١/ ٢٠٦.
(٩) في (ع) ومطبوع الكشاف ومخطوطه الورقة (١٨٧): لخالف.

مِن تهيُّب رسولِ الله ﷺ والمسلمين، فلم يتَّفق لكم مِن التلاقي ما وفَّقه الله تعالى وسبَّب له[١].

وقال المهدويُّ: المعنى: لاختَلَفتم بالقَواطع والعَوارض القاطعة بالناس. قال ابنُ عطيَّة: وهذا أنْبَلُ[٢] ـ يعني مِن قول الطبريِّ ـ وأصحُّ[٣]، وإيضاحُه أنَّ المقصدَ مِن الآية تبيُّن نعمةِ الله وقدرتِه في قصَّة بدر وتيسيره ما تيسَّر مِن ذلك، فالمعنى: إذ هيَّأ اللهُ لكم هذه الحال[٤]، «ولو تَواعدتم» لها «لاختلفتم» إلَّا مع تيسير اللهِ الذي تمَّم ذلك، وهذا كما تقول لصاحبك في أمرٍ شاءَه[٥] اللهُ دون تَعَبٍ كبير: لو بِتْنا[٦] على هذا وسَعَيْنا فيه، لم يتمَّ هكذا. انتهى.

وقال الكرمانيُّ: «ولو تواعدتم» أنتم والمشركون للقتال «لاختلفتم في الميعاد» أي: كانوا لا يَصدقون في مواعدتكم؛ طَلَباً لغرَّتكم والحيلة عليكم. وقيل: المعنى: «ولو تواعدتم» مِن غير قضاءِ الله أَمْرَ الحرب «لاختلفتم في الميعاد»؛ لأنَّه تعالى إذا لم يُقدِّر أمراً لم يَقع. انتهى.

«ولكن ليقضيَ» أي: ولكن تلاقيتم على غيرِ ميعاد «ليقضيَ اللهُ أمراً» مِن نَصْر دينه وإعزاز كلمته وكَسْر الكفار وإذلالهم «كان مفعولاً» أي: موجوداً متحقَّقاً واقعاً، وعبَّر بقوله: «مفعولاً» لتحقُّق كونه.

قال ابنُ عطيَّة: ليقضيَ أمراً قد قدَّره في الأزل مفعولاً لكم بشَرْط وجودكم في وقت وجودكم، وذلك كلُّه معلومٌ عنده[٧].

---

(١) الكشاف ٢/ ١٦٠.
(٢) في (ب) و(يه): نيل. وكذا وردت في المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٣، والمثبت من (ح) و(ز١) و(ع).
(٣) في (أ) و(ب) و(د١) و(يه): واضح. وكذا في المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٣، والمثبت من (ح) و(ز١) و(ع).
(٤) في مطبوع المحرر الوجيز: الجمال.
(٥) كذا في النسخ عدا (ب) و(ع)، وفيهما: شاء. وفي مطبوع المحرر الوجيز: سَنَّاه. ومعناه: سهَّله. ولعلَّه أقربُ للمعنى.
(٦) كذا في النسخ عدا (د١) والمطبوع، ففيهما: ثبنا، وفي المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٣: بنينا.
(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٣.

وقال الزمخشريُّ: «ليقضيَ اللهُ» متعلِّق بمحذوف، أي: ليقضيَ الله أَمْراً كان واجباً أن يُفعَل ـ وهو نَصْرُ أوليائه وقهرُ أعدائه ـ دَبَّرَ ذلك[(١)].

وقيل: «كان» بمعنى «صار»، «ليهلك» بدلٌ مِن «ليقضيَ» فيتعلَّق بمثل ما تعلَّق به «ليقضي»، وقيل: يتعلَّق بقوله: «مفعولاً»، وقيل: الأصل: وليهلك، فحذف حرف العطف.

والظاهر أنَّ المعنى: ليُقتلَ مَن قُتلَ من كفَّار قريش وغيرهم عن بيانٍ مِن الله وإعذارٍ بالرسالةِ، ويعيش مَن عاش عن بيانٍ منه وإعذار، لا حجَّة لأحدٍ عليه.

وقال ابنُ إسحاق وغيره: ليكفر ويؤمن، فالمعنى أنَّ الله تعالى جعل قصَّة بدر عبرةً وآيةً ليُؤمن مَن آمَنَ عن وضوح وبيانٍ، ويَكفرَ مَن كَفَر عن مِثْلِ ذلك[(٢)].

وقرأ الأعمش وعصمة عن أبي بكر عن عاصم: «لِيَهْلَك» بفتح اللام[(٣)].

وقرأ نافع والبزيُّ وأبو بكر: «من حَيِيَ» بالفَكِّ، وباقي السبعة بالإدغام[(٤)]، وقال المُتَلمِّس:

فـهـذا أوانُ الـعِـرْضِ حَـيَّ ذُبـابُـه[(٥)]

والفَكُّ والإدغام لغتان مشهورتان، وختم بهاتين الصفتين؛ لأنَّ الكفرَ والإيمانَ يَستلزمان النطقَ اللسانيَّ والاعتقادَ الجَنَانيَّ، فهو «سميع» لأقوالكم «عليم» بنيَّاتكم.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٦٠.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٣، وقول ابن إسحاق في سيرة ابن هشام ١/ ٦٧٣، وينظر تفسير الثعلبي ٣/ ١٤٦، والبغوي ٢/ ٢٥٢، والقرطبي ١٠/ ٣٦-٣٧، وأخرجه عنه الطبري ١١/ ٢٠٨.

(٣) القراءات الشاذة ص ٥٠، وينظر الكشاف ٢/ ١٦٠، وقراءة عاصم المشهورة عنه كقراءة الجماعة.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٣، والقراءة في السبعة ص ٣٠٦، والتيسير ص ١١٦، وقرأ بها أيضاً أبو جعفر ويعقوب وخلف من العشرة، النشر ٢/ ٢٧٦، والبَزِّي هو: أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بَزَّة، أحد راويَي ابنِ كثير.

(٥) وعجزه: زنابيره والأزرق المتلمِّس، والبيت في ديوانه ص ١٢٣، والعِرْض: وادٍ باليمامة، و: حيَّ ذبابه: عاش بالخصب فيه، ورواية الديوان: جنَّ، وبهامشه: حيَّ، و: حيٌّ. والأزرق: جنس آخر غير الأول. والمتلمس: الطالب.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ الخطابُ للرسول ﷺ، وتظاهرت الرِّوايات أنَّها رؤيا منامٍ رأى الرسولُ ﷺ فيها الكفارَ قليلاً، فأخبر بها أصحابَه، فقَويت نفوسُهم، وشَجُعت على أعدائهم، وقال النبيُّ ﷺ لأصحابه حين انتبه: «أبْشِروا، لقد نظرتُ إلى مصارعِ القوم»[1].

والمراد بالقلَّة هنا قلَّةُ القَدْر والبأس[2] والنجدة وأنَّهم مهزومونَ مُصَرَّعونَ، ولا يُحمل على قلَّة العَدَد؛ لأنَّه ﷺ رؤياه حقٌّ، وقد كان علمَ أنَّهم ما بين تسع مئة إلى ألفٍ، فلا يُمكن حمل ذلك على قلَّة العدد، وروي عن الحسن أنَّ معنى «في منامك»: في عينك؛ لأنَّها مكانُ النوم، كما قيل للقَطِيْفَة: المنامة؛ لأنَّه يُنام فيها، فتكون الرؤية في اليقظة، وعلى هذا فسَّر النقَّاش وذكره عن المازنيّ[3].

وما روي عن الحسن ضعيفٌ، قال الزمخشريُّ: وهذا تفسيرٌ فيه تعسُّف، وما أحسب الرِّوايةَ فيه صحيحةً عن الحسن، وما يلائم عِلْمَه بكلام العرب وفصاحته[4]. والمعنى: ولو أراكهم في منامك كثيراً لفشلتم، أي: لَخُرْتُم وجَبُنْتُم عن اللقاء، «ولتنازعتم في الأمر» أي: تفرَّقت آراؤكم في أَمْرِ القتال، فكان يكون ذلك سبباً لانهزامكم وعدمِ إقْدَامكم على قتال أعدائكم، لأنَّه لو رآهم كثيراً، أخبركم برؤياه، ففشلتم.

ولَمَّا كان الرسول عليه الصلاة والسلام محميًّا مِن الفَشَل معصوماً مِن

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٤-٥٣٥، والخبر في سيرة ابن هشام ١/ ٦١٥ عن ابن إسحاق، وإخباره ﷺ بمصارع القوم أخرجه مسلم (١٧٧٩)، عن أنس ﷺ، وهو عند أحمد (١٣٢٩٧).

(٢) في (ب): الناس، وفي المطبوع: اليأس. والمثبت من باقي النسخ، وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٥.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٤-٥٣٥، والكشاف ٢/ ١٦١، وقول الحسن أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٩١١٩)، وقال عنه ابن كثير في تفسيره: وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام هاهنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه. اهـ. وينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤١٩.

(٤) الكشاف ٢/ ١٦١.

النقائص، أسند الفشلَ (١إلى مَن يمكن ذلك في حقِّه، فقال تعالى: «الفشلتم»، وهذا مِن محاسن القرآن، «ولكنَّ الله سلَّم» مِن الفَشَل١) والتنازع والاختلاف بإرَاءَتِه له ﷺ الكفارَ قليلاً، فأخبرهم بذلك فقَويت به نفوسهم «إنَّه عليم بذات الصدور» يَعلم ما سيكون فيها مِن الجُرْأة والجُبْن والصَّبْر والجَزَع.

و«إذ» بدل مِن «إذ»، وانتصب «قليلاً» قال الزمخشريُّ: على الحال[٢]. وما قاله ظاهر؛ لأنَّ: أرَى، منقولةٌ بالهمزة مِن: رأى، البَصَريَّة، فتعدَّت إلى اثنين؛ الأوَّل: كافُ خطاب الرسول، والثاني: ضميرُ الكفار، فـ«قليلاً» و«كثيراً» منصوبان على الحال.

وزعم بعضُ النَّحْويِّين أنَّ: أرَى، الحُلْميَّة تتعدَّى إلى ثلاثة[٣]، كَأَعلم، وجعل مِن ذلك قوله تعالى: «إذ يريكهم الله في منامك قليلاً» فانتصاب «قليلاً» عنده على أنَّه مفعولٌ ثالث، وجواز حذفِ هذا المنصوب اقتصاراً يُبطِل هذا المذهب، تقول: رأيتُ زيداً في النوم، وأراني اللهُ زيداً في النوم.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ هذه الرؤية هي يَقَظة لا منام، وقُلِّل الكفار في أعين المؤمنين؛ تحقيراً لهم، ولئلا يَجبنوا عن لقائهم. قال ابنُ مسعود: لقد قُلِّلوا في أعيننا حتى قُلت لرجلٍ إلى جَنْبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مئة. وهذا مِن عبد الله؛ لكونه لم يَسمع ما أعلم به الرسولُ ﷺ مِن عَدَدهم، وقُلِّل المؤمنون في أعين الكفار حتى قال قائل منهم: إنَّما هم أَكَلَةُ جَزُور[٤]. وذلك قَبْلَ الالتقاء؛ ليَجْترئوا على المؤمنين فتقعَ الحربُ ويَلتحم القتال، إذ لو كُثِّروا قَبْلَ اللقاء لأَحْجَموا وتحيَّلوا في الخلاص، أو استعدُّوا واستنصَروا.

(١-١) ليست في (ع).
(٢) الكشاف ٢/ ١٦١.
(٣) أي: مفاعيل، وهي: الكاف والهاء من قوله تعالى: ﴿يُرِيكُمُوهُمْ﴾، و﴿قَلِيلًا﴾ المفعول الثالث.
(٤) ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٥، وتفسير القرطبي ١٠/ ٣٨، وقول ابن مسعود أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٨٣٣)، والطبري ١١/ ٢١١.

ولمَّا التحمَ القتالُ كَثَّر اللهُ المؤمنين في أعين الكفار فبُهِتوا وهابوا وفُلَّت شوكتهم ورَأَوا ما لم يكن في حسابهم، كما قال: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران:١٣] وعُظْمُ الاحتجاجِ عليهم استيضاحُ الآية البيِّنة مِن قلَّتهم أوَّلاً وكَثْرتهم آخِراً، ورؤية كلٍّ مِن الطائفتين يكون بأنْ سَتَر اللهُ بعضها عن بعض، أو بأن أَحْدَثَ في أعينهم ما يستقلُّون به الكثيرَ، هذا إذا كانت الرؤيةُ حقيقةً، وأمَّا إذا كانت بمعنى التَّخْمِين والحَزْرِ الذي يَستعمله الناس، فيمكن ذلك.

وعلى التقديرين لا يَندرج الرسولُ في خطاب «وإذ يريكموهم» لأنَّه لا يَجوز عليه أن يَرى الكثير قليلاً لا حقيقةً ولا تخميناً، على أنَّه يحتمل أن يكون مِن باب تقليل القَدْر والمَهَابة والنَّجْدة لا مِن باب تقليل العَدَد، أَلَا ترى إلى قولهم: المرءُ كثيرٌ بأخيه[1]، وإلى قولِ الشاعر:

أَرُوحُ وأَغْتَدي سَفَهاً أُكَثِّرُ مَنْ أَقِلُّ بِهِ[2]

فهذا مِن باب التقليل والتكثير في المنزلة والقَدْر لا مِن باب تقليلِ العَدَد.

«ليقضي» أي: فَعَل ذلك ليقضيَ، والمفعول في الآيتين هو القصَّة بأسْرها، وقيل: هما لمعنيين مِن معاني القصَّة، أُريد بالأوَّل الوَعْد بالنُّصْرة يومَ بدر، وبالثاني الاستمرار عليها، وتقدَّم تفسير «وإلى الله ترجع الأمور»، واختلافُ القُرَّاء في «ترجع» في سورة «البقرة»[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: فئةً كافرة، حذف الوصف؛ لأنَّ المؤمنين ما كانوا يَلقون إلَّا الكفار، واللقاء اسمٌ للقتال غالِبٌ، وأَمَرهم تعالى بالثبات وهو مقيَّد بآية الضَّعف، وفي الحديث: «لا تَتمنَّوا لقاءَ العدوِّ، وسَلُوا اللهَ العافيةَ، فإذا لقيتموهم فاثْبُتوا»[4]

---

(١) وقد ورد هذا اللفظ عن أنس عن النبيِّ ﷺ مرفوعاً، وهو عند أبي الشيخ في الأمثال (٤٦)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٨٦)، وأورده الشوكاني في الفوائد المجموعة ص ٢٦٠، وقال عنه: موضوع.

(٢) البيت للمعافى بن زكريا، وهو في الجليس الصالح الكافي ١/ ١٦٥، وفيه: غَبَناً، بدل: سَفَهاً.

(٣) عند تفسير الآية (٢١٠).

(٤) أخرجه البخاري (٢٩٦٥)، ومسلم (١٧٤٢)، وهو عند أحمد (١٩١١٤) من حديث

وأَمَرهم بذِكْره تعالى كثيراً في هذا الموطن العظيم مِن مصابرة العدوِّ والتَّلَاحُم بالرِّماح والسُّيُوف، وهي حالة يقع فيها الذهول عن كلِّ شيء، فأُمروا بذِكْر الله، إذ هو تعالى الذي يُفزَع إليه عند الشدائد، ويُستأنس بذِكْره ويُستَنصَر بدعائه، ومَن كان كثيرَ التعلُّق بالله ذَكَره في كلِّ موطن حتى في المواضع التي يذهلُ فيها عن كلِّ شيء ويغيب فيها الحِسُّ ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

وحكى لي بعضُ الشُّجْعان أنَّه حالةَ التحامِ القتال، تَأخُذ الشجاعَ هِزَّةٌ، ويعتريه مِثْلُ السُّكْر؛ لِهَوْل الملتقى، فأمَرَ المؤمنين بذِكْر الله في هذه الحالة العظيمة، وقد نَظَم الشعراءُ هذا المعنى، فذَكَروا أنَّهم في أشقِّ الأوقات عليهم وأشدِّها لم يَنْسوا محبوبَهم وأكثروا في ذلك، فقال بعضهم:

ذكرتُ سُلَيْمَى وَحَرُّ الوَغَى كقلبيَ ساعةَ فارَقْتُها
وأَبصرتُ بين القَنا قَدَّها وقد مِلْنَ نَحْوِي فعانَقْتُها[١]

قال قتادة: افترضَ اللهُ تعالى ذِكْرَه أَشْغَلَ ما يكون العبدُ عند الضِّراب والسيوف[٢].

وقال الزمخشريُّ: فيه إشعارٌ بأنَّ على العبد أنْ لا يَفتُر عن ذِكْر اللهِ، أَشْغَل ما يكون قلباً، وأكثر ما يكون همًّا، وأن تكون نفسُه مجتمعةً لذلك وإن كانت متوزِّعة عن غيره[٣]. وذكرَ أنَّ الثباتَ وذِكْرَ اللهِ سَبَبَا الفلاحِ وهو الظَّفَر بالعدوِّ في الدنيا، والفوز في الآخرة بالثواب.

= عبد الله بن أبي أوفى، وورد عندهم: «فاصبروا» بدل: «فاثبتوا»، وهو بهذا اللفظ الأخير عند عبد الرزاق (٩٥١٨)، وابن أبي شيبة (٣٤١٠١)، والدارمي (٢٤٤٠) لكن من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(١) البيتان لأبي الحسن محمد أحد بني القَبْطُرْنَة ـ ويقال: القبطورنة، أو القبطرنية، أو القبطرية ـ وهما في المُغْرب في حُلَى المغرب لابن سعيد الأندلسي ١/٣٦٨، والكشكول للعاملي ١/٤٠٣، ونفح الطيب للتلمساني ٣/ ٢٧٠، ونفحة الريحانة للمحبي ٤/ ٢٤٣، وورد عند بعضهم: بقلبي، وعند آخرين: كجسمي، بدل: كقلبي، وورد أيضاً: فقبَّلتها، بدل: فعانقتها.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٦، وينظر تفسير الثعلبي ٣/١٤٨، والقرطبي ١٠/ ٣٩، وأخرجه عنه الطبري ١١/ ٢١٣.

(٣) الكشاف ٢/ ١٦١.

والظاهر أنَّ الذِّكْرَ المأمورَ به هو باللسان، فأَمرَ بالثبات بالجَنان، وبالذِّكْر باللسان.

والظاهر أن لا يُعَيَّن ذِكْرٌ، وقيل: هو قول المجاهدين: اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ، عند لقاء الكفار، وقيل: الدعاء عليهم: اللَّهمَّ اخْذُلْهم، اللَّهمَّ دَمِّرهم، وشِبْهه، وقيل: دعاء المؤمنين لأنفسهم بالنَّصْر والظَّفَر والتثبيت، كما فعل قومُ طالوت، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة: ٢٥٠]. وقيل: «حم، لا يُنْصَرون» وكان هذا شعارَ المؤمنين عند اللقاء(١).

وقال محمد بنُ كعب: لو رُخِّص تَرْكُ الذِّكْر لرُخِّصَ في الحرب، ولزكريا(٢) حيث أُمِرَ بالصَّمْتِ، ثم قيل له: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾(٣)[آل عمران: ٤١].

وحُكْم هذا الذِّكْر أن يكون خفيًّا إلَّا إن كان مِن الجميع وقتَ الحَمْلة فحَسَنٌ رَفْعُ الصوت به؛ لأنَّه يَفُتُّ في أعضادِ الكفار، وفي «سنن أبي داود»: كان أصحابُ الرَّسُولِ ﷺ يَكرهون الصوتَ عند القتال وعند الجِنازة(٤).

وقال ابنُ عباس: يُكرَه التَّلَثُّم عند القتال(٥).

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أَمَرهم تعالى بالطَّاعة للهِ ولرسوله، ونهاهم عن التنازُع وهو تجاذبُ الآراء وافتراقُها، والأظهر أن يكون «فتفشلوا» جواباً للنهي، فهو منصوب، ولذلك عطف عليه منصوبٌ؛ لأنَّه يتسبَّب عن التنازع الفَشَلُ، وهو الخَوَر والجُبْن عن لقاء العدوِّ،

(١) أخرج أبو داود (٢٥٩٧)، والترمذي (١٦٨٢)، وأحمد (١٦٦١٥) عن المهلب بن أبي صُفْرَة، عمَّن سمعَ النبيَّ ﷺ أنه يقول: «إن بُيِّتم، فليكن شعاركم: حم، لا ينصرون».

(٢) في المطبوع: ولذكرنا.

(٣) ينظر تفسير القرطبي ١٠/ ٣٩، والمحرر الوجيز ١/ ٤٣٢، والخبر أخرجه الطبري ٥/ ٣٩١، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ٢١٥.

(٤) سنن أبي داود (٢٦٥٦) عن قيس بن عُباد، وأخرجه أيضاً برقم (٢٦٥٧) من طريق أبي بُردة، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ مرفوعاً. وقيس بن عُبَاد هو القيسي الضُّبَعي أبو عبد الله البصري، من تابعي أهل البصرة، وكان ثقة، قليل الحديث. تهذيب الكمال.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٦، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٠. والتلثُّم: تغطية الفم أو الأنف بعمامة ونحوها.

وذهابُ الدولة باستيلاء العدوِّ، ويجوز أن يكون «فتفشلوا» مجزوماً عطفاً على «ولا تنازعوا»، وذلك في قراءة عيسى بنِ عمر: «ويَذْهَبْ» بالياء وجزم الباء[1].

وقرأ أبو حيوة وأبان وعصمة عن عاصم: «ويَذْهَبَ» بالياء ونصب الباء[2].

وقرأ الحسن وإبراهيم: «فتفشِلوا» بكسر الشين، قال أبو حاتم: وهذا غير معروف[3]. وقال غيره: هي لغة.

قال مجاهد: الرِّيح: النَّصْر والقوَّة، وذهبت رِيْحُ أصحابِ رسول الله ﷺ حين نازعُوه[4] بأُحُد[5].

وقال الزمخشريُّ: والرِّيحُ: الدَّولة، شُبِّهت لنفوذِ أَمْرِها وتَمَشِّيه[6] بالرِّيح وهبوبِها، فقيل: هبَّت رياحُ فلانٍ: إذا دَالَت له الدولةُ ونفذَ أَمْرُه، ومنه قوله:

أَتَنْظُرانِ قليلاً رَيْثَ غَفْلَتِهم ... أم تَغْدُوانِ فإنَّ الريحَ للعادِي[7]

انتهى. وهو قول أبي عُبيدة إنَّ الريحَ هي الدولة[8]، ومِن استعارة الريح قولُ الآخَر:

إذا هبَّت رياحُك فاغْتَنِمْها ... فإنَّ لكلِّ عاصِفَةٍ سُكُونا[9]

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٦، وينظر الإملاء ٢/ ٨، والكشاف ٢/ ١٦٢، وزاد المسير ٣/ ٣٦٥، وعزاه الأخير لأبان.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٦، والقراءة في القراءات الشاذة ص ٤٩ عن قتادة وأبان عن عاصم.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٦ وعزا القراءة لإبراهيم، وهي في القراءات الشاذة ص ٥٠ عن الحسن.
(٤) في المطبوع: ناغوه.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٦، والخبر أخرجه الطبري ١١/ ٢١٥، وابن أبي حاتم ٥/ ١٧١٢.
(٦) في (أ): وسببه، وفي (ع): وتسببه، وفي (د١) و(ز١) و(يه) والمطبوع: وتشبيه. والمثبت من (ح) ومطبوع الكشاف ٢/ ١٦٢ ومخطوطه الورقة (١٨٨).
(٧) الكشاف ٢/ ١٦٢، والبيت نُسب لتأبّط شرًّا، وهو في ديوانه ص ٢٤١، ونُسب لسُلَيْك بن سُلَكة، وهو في الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٣٦٦، والأغاني ٢٠/ ٣٧٧، وأورده ابن منظور في اللسان (روح) ونسبه لتأبّط شرًّا أو سُلَيك بن سُلَكة.
(٨) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٤٧، وينظر النكت والعيون ٢/ ٣٢٤.
(٩) في (أ): سكون. والبيت بهذا اللفظ في نفح الطيب ٦/ ٣١٥ دون نسبة، وهو في التمثيل والمحاضرة للثعالبي ص٢٤١، وأدب الدنيا والدين للماوردي ص١٨٦، ومحاضرات الأدباء =

ورواه أبو عبيدة[١]: ركُودا. وقال شاعر الأنصار:

قد عَوَّدَتْهم صَبَاهُم[٢] أن تكونَ لهم ... ريحُ القتالِ وأسلابُ الذين لَقُوا[٣]

وقال زيد بنُ عليٍّ: «وتذهب رِيحكم» معناه: الرُّعْب مِن قلوب عدوِّكم[٤]. ومنه قيل للخائف: انْتَفَخَ سَحْرُه[٥].

قال ابنُ عطيَّة: وهذا حَسَن بشَرْط أن يعلم العدوّ بالتنازع، فإذا لم يعلم، فالذاهب قوَّة المتنازعين، فينهزمون[٦]. انتهى.

وقال ابن زيد وغيره: الريح على بابها، وروي في ذلك أنَّ النَّصْر لم يكن قطُّ إلَّا بريح تهبُّ فتَضْرِب في وجوه الكفَّار. واستند بعضُهم في هذه المقالة إلى قوله ﷺ: «نُصِرْتُ بالصَّبَا». وقال الحَكَم: «وتَذْهَبَ ريحكم» يعني: الصَّبا، إذ بها نَصْرُ محمَّد ﷺ وأمَّته[٧].

= ١/ ٣٦٣، والحلل للبطليوسي ص٣٠٢، وغرر الخصائص الواضحة ص ٢٤٠، ونُسب عند الأخير لابن هندو، وورد عندهم الشطر الثاني هكذا: فإن لكلِّ خافقة سكون. إلا أنه ورد عند الثعالبي: فعقبى كلٍّ، بدل: فإن لكل.

(١) كذا في النسخ عدا (أ) والمطبوع، وفيهما وفي الدر المصون ٥/ ٦١٧، واللباب ٩/ ٥٣٤: أبو عبيد، ولم نقف على هذه الرواية فيما بين أيدينا من مصادر.

(٢) كذا في النسخ، ولعلَّها من ريح الصَّبَا، بدليل ما سيأتي قريباً، والذي في المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٧، والدر المصون ٥/ ٦١٧: ظُبَاهم.

(٣) البيت بهذا اللفظ من المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٧، ولعلَّ المقصود بشاعر الأنصار حسانُ بن ثابت، ولم نقف على البيت في ديوانه، وهو في السيرة النبوية ٢/ ١٤٦ منسوباً لضرار بن الخطاب، ورواية صدره هكذا:

قد عُوِّدوا كلَّ يوم أن تكون لهم

وظُبَةُ السيف، وظُبَة السهم: طَرَفه. الصحاح (ظبي).

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٦.

(٥) أي: مَلأَ الخوفُ جوفَه فانتفخ السَّحْرُ - وهو الرِّئة - حتى رفع القلب إلى الحلقوم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]. تهذيب اللغة ٤/ ٢٩٤-٢٩٥ (سحر).

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٦-٥٣٧.

(٧) المصدر السابق، وينظر أيضاً تفسير البغوي ٢/ ٢٥٣، والقرطبي ١٠/ ٤٠-٤١، وقول ابن زيد أخرجه الطبريُّ ١١/ ٢١٥-٢١٦، والحديث المرفوع أخرجه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠)، وأحمد (٢٠١٣) عن ابن عباس ﷺ، والصَّبا: الريح الشرقيَّة. وهي المعنيَّة برواية بيت الشعر السالف الذكر.

وقال مقاتل: «ريحكم»: حدَّتكم. وقال عطاء: جَلَدُكم[١]. وحكى التبريزيُّ: هَيْبتكم. ومنه قول الشاعر:

كما حَمَيناكَ يومَ النَّعْفِ مِن شَطِطٍ والفَضْلُ للقوم مِن ريحٍ ومن عَدَدِ[٢]

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ نزلت في أبي جهل وأصحابِهِ خَرجوا لِنُصْرة العِيْر بالقَيْنات والمعازِف، ووَرَدُوا الجُحْفة[٣]، فبعث خُفَافُ الكنانيُّ ـ وكان صديقاً له ـ بهدايا مع ابنِه، وقال: إن شئتَ أَمْدَدْناكَ بالرِّجال، وإن شئتَ بنفسي مع مَن خفَّ مِن قومي. فقال أبو جهل: إن كنَّا نقاتل اللهَ كما يزعم محمَّد، فواللهِ ما لنا بالله طاقة، وإن كنَّا نقاتل الناسَ، فواللهِ إنَّ بنا على الناس لقوَّةً، واللهِ لا نرجع عن قتال محمَّد حتى نَرِدَ بدراً فنشربَ فيها الخمورَ، وتعزف علينا القَيْنات، فإنَّ بدراً مركزٌ مِن مراكز العرب وسُوق مِن أسواقهم، حتى تسمعَ العربُ بمَخْرجنا فتهابنا آخِرَ الأَبَد[٤].

فوَردوا بدراً، فسُقُوا كؤوسَ المنايا مكان الخمرِ، وناحت عليهم النوائحُ مكانَ القَيْنات، فنهى اللهُ المؤمنين أن يكونوا مثل هؤلاء بَطِرين طَرِبِيْن مُرَائِين بأعمالهم صادِّين عن سبيل الله[٥].

---

(١) تفسير الثعلبي ٣/ ١٤٨، وينظر قول مقاتل في تفسير البغوي ٢/ ٢٥٣.

(٢) البيت لعَبيد بن الأبرص، وهو في ديوانه ص ٥٦، وفيه: شطب، بدل: شطط، والسيف المشطوب: الذي فيه طرائق، والشَّطِب: جبل، والنعف: ما انحدر من مزونة الجبل وارتفع من منحدر الوادي، ويوم النعف أحد أيام حروبهم.

(٣) الجُحْفة: منزل بين مكة والمدينة قرب رابغ بين بدر وخُلَيص، ويقال: كان اسمها: مَهْيَعة. المصباح المنير (جحف).

(٤) تفسير القرطبي ١٠/ ٤١، والخبر في سيرة ابن هشام ١/ ٦٢١ وما بعدها، والبداية والنهاية ٥/ ٨٣-٨٤ عن ابن إسحاق، وأخرجه الطبري في تاريخه ٢/ ٤٤٠-٤٤١، وفي التفسير ١١/ ٢١٧-٢١٨ عن ابن عباس ﷺ، وورد في المصادر: وقد كان خُفاف بن إيماء بن رَحَضة الغفاري، أو أبوه: إيماء بن رَحَضة الغفاري ـ ويقال: الكناني، لأن غِفار هو ابن مُلَيْل بن ضمرة بن عبد مناة بن كنانة ـ بعث إلى قريش ـ حين مرُّوا به ـ ابناً له بجزائره أهداها لهم،... الخبر. قال الحافظ في الإصابة ٣/ ١٤٧-١٤٨: له ولأبيه صحبة، وتوفي في خلافة عمر أو قبل ذلك. اهـ. وفيه: رَخْصة، بفتح الراء المهملة، ثم معجمة، وورد في الأنساب ٩/ ١٦٧ وفيه: رَخْصة. فليحرَّر!.

(٥) ينظر تفسير الثعلبي ٣/ ١٤٨-١٤٩، والكشاف ٢/ ١٦٢.

وقال رسولُ الله ﷺ: «اللَّهمَّ إنَّ قريشاً أَقبلت بفَخْرِها وخُيَلائها، تُجادل وتُكذِّب رسولَك، اللَّهمَّ فأَحِنْها الغداةَ»[1].

وفي قوله: «والله بما يعملون محيط» وعيدٌ وتهديد لمَن بقيَ مِن الكفار.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ «أعمالهم» ما كانوا فيه من الشِّرْك وعبادةِ الأصنام ومسيرِهم إلى بدرٍ وعَزْمِهم على قتال الرسول ﷺ، وهذا التزيين والقولُ والنُّكُوص هل ذلك على سبيل المجاز أو الحقيقة؛ قولان للمفسِّرين، بدأ الزمخشريُّ بالأوَّل فقال: وسوسَ إليهم أنَّهم لا يُغلَبون ولا يُطاقون، وأوهمهم أنَّ اتِّباع خطواتِ الشيطان وطاعتَه ممَّا يُجيرهم، فلمَّا تلاقى الفريقان، نَكَصَ الشيطانُ وتبرَّأَ منهم، أي: بطلَ كيدُه حين نزلت جنودُ الله، وكذا عن الحسن: كان ذلك على سبيل الوسوسة ولم يتمثَّل لهم[2]. انتهى. ويكون ذلك مِن باب مجاز[3] التمثيل.

وقال المهدويُّ: يُضعف هذا القولَ أنَّ قولَه: «وإنِّي جارٌ لكم» ليس مما يُلقى بالوسوسة. انتهى[4].

ويمكن أن يكون صدورُ هذا القول على لسان بعضِ الغُواةِ مِن الناس قال لهم ذلك بإغواء إبليسَ له، ونسبَ ذلك إلى إبليس؛ لأنَّه هو المتسبِّب في ذلك القول، فيكون القولُ والنكوص صادرَيْن مِن إنسانٍ حقيقةً.

والجمهور على أنَّ إبليس تصوَّر لهم، فعنِ ابنِ عباس: في صورة رجلٍ مِن بني

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٧، والحديث أخرجه الطبري ١١/ ٢١٩ عن قتادة بلفظ: «إن قريشاً أقبلت بفخرها وخيلائها لتحادَّك ورسولَك». والحَيْن: الهلاك.

(٢) الكشاف ٢/ ١٦٢.

(٣) لفظة: مجاز، ليست في (أ) و(ب) و(ح) و(ع).

(٤) كذا في النُّسَخ، والذي في المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٧: وحكى المهدويُّ وغيره أنَّ التزيين في هذه الآية وما بعده من الأقوال هو بالوسوسة والمحادثة في النفوس. قال القاضي أبو محمد ـ يعني: ابن عطية ـ: ويُضعف هذا القول أن قوله: «وإني جارٌ لكم» ليس مما يلقى بالوسوسة. انتهى. وهو الصواب، ولعلَّ في النُّسَخ سقطاً في الكلام، والله تعالى أعلم.

مُدْلِج في جندٍ مِن الشياطين معه رايةٌ[١].

وقيل: جاءَهم في طريقهم إلى بدر في صورة سُراقة بنِ مالك بنِ جُعْشُم، وقد خافوا مِن بني بَكْر وكِنانة لِذُحُول[٢] كانت بينهم، وكان مِن أشراف كنانة، فقال ما حكى اللهُ عنه[٣].

ومعنى: «جارٌ لكم» مُجيركم مِن بني كنانة، فلمَّا رأى الملائكةَ تَنزل، نَكَصَ.

وقيل: كانت يدُه في يَدِ الحارث بنِ هشام، فلمَّا نَكَصَ قال له الحارث: إلى أين، أَتخذُلنا في هذه الحال؟ فقال: إنِّي أرَى ما لا تَرَوْن. ودفع في صَدْرِ الحارث، وانطلق وانهزموا، فلمَّا بَلَغوا مكَّة، قالوا: هزم الناسَ سراقةُ بنُ مالك. فبَلَغ ذلك سراقة، فقال: واللهِ ما شعرتُ بمسيركم حتى بلغتني هزيمتُكم، فلمَّا أسلموا علموا أنَّه الشيطان[٤].

وفي «الموطَّأ» وغيره: ما رُئيَ الشيطانُ في يوم أقلّ ولا أحقر ولا أصغر منه في يوم عرفة، لِمَا يَرَى مِن نزول الرحمة إلَّا ما رأى يومَ بدر، قيل: وما رَأى يا رسول الله؟ قال: «رأى الملائكةَ يَزَعُها[٥] جبريلُ»[٦].

(١) أخرجه عنه الطبري ١١/ ٢٢١، وابن أبي حاتم ٥/ ١٧١٥، والبيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٧٨-٧٩.

(٢) في النُّسَخ عدا (ز١): لدخول. والمثبت من (ز١) وهو الصواب. والذُّحُول جمع: الذَّحْل، وهو الثأر، أو العداوة والحِقْد. القاموس (ذحل).

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٨، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٢-٤٣، وينظر أيضاً التعليق ما قبل السابق، وأَثَرُ ابنِ إسحاق في السيرة النبوية ١/ ٦٦٣، والطبري ١١/ ٢٢٢-٢٢٣.

(٤) الكشاف ٢/ ١٦٣، وينظر تفسير السمرقندي ٢/ ٢١، والثعلبي ٣/ ١٤٩، والبغوي ٢/ ٢٥٤-٢٥٥، وزاد المسير ٣/ ٣٦٧.

(٥) في (أ): نرعها، وفي (ب): نزعها، وفي المطبوع: يريحها. والمثبت من باقي النسخ ومصادر التخريج.

(٦) موطأ مالك ١/ ٤٢٢ عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيْز عن النبي ﷺ مرسلاً، وأخرجه من طريقه عبد الرزاق ٤/ ٣٧٨، والبغوي في شرح السنة (١٩٣٠) ووصله البيهقي في الشعب (٣٧٧٦) عن طلحة، عن أبي الدرداء. ومعنى: ولا أدحر. أي: أبْعد وأذلّ، ومعنى: يزعها: أي: يرتِّبها ويُسوِّيها ويَصفّها للحرب، فكأنه يكفّهم عن التفرق والانتشار. النهاية (وزع).

وقال الحسن: رأى إبليسُ جبريلَ يَقود فرسَه بين يدي النبيِّ ﷺ وهو مُعْتَجِرٌ ببردة وفي يده اللِّجام[(١)].

و«لكم» ليس متعلِّقاً بقوله: «لا غالب» لأنَّه كان يَلزم تنوينُه، لأنه يكون اسمُ «لا» مطوَّلاً، والمُطوَّل يُعرَب ولا يُبنَى، بل «لكم» في موضع رَفْع على الخبر، أي: كائن لكم، وبما تعلَّق المجرورُ تعلَّق الظرفُ.

واليوم عبارةٌ عن يوم بدر.

ويحتمل أن يكون قوله: «وإنِّي جارٌ لكم» معطوفاً على: «لا غالب لكم اليوم»، ويحتمل أن تكون الواوُ للحال، أي: لا أحدَ يَغلبكم وأنا جارٌ لكم، أُعِيْنُكم وأَنْصُركم بنفسي وبقومي.

والفئتان: جَمْعَا المؤمنين والكافرين، وقيل: فئة المؤمنين وفئة الملائكة.

«نَكَص على عَقِبَيْه» رجع في ضِدِّ إقباله «وقال إنِّي بريءٌ منكم» مبالغة في الخذلان والانفصال عنهم، لم يَكْتَفِ بالفعل حتى أكّد ذلك بالقول: «ما لا تَرَون» رأى خَرْق العادَةِ ونزولَ الملائكة.

«إنِّي أخافُ اللهَ» قال قتادة وابنُ الكلبيّ: معذِرةٌ كاذبة، لم يَخَفِ اللهَ قطُّ. وقال الزجّاج وغيره: بل خاف ممَّا رأى مِن الهول أنَّه يكون اليوم الذي أُنْظِرَ إليه[(٢)]. انتهى. ويُنظَر إلى هذه الآية قولُه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾[(٣)] الآية [الحشر:١٦].

ويحتمل أن يكون «والله شديد العقاب» معطوفاً على معمولِ القول، قال ذلك

---

(١) المحرر الوجيز ٢/٥٣٩، وينظر تفسير الثعلبي ٣/١٤٩-١٥٠، وأخرجه عنه الطبري ١١/٢٢٤، وابن أبي حاتم ٥/١٧١٦. والاعتجار: لَيُّ الثوب على الرأس من غير إدارة تحت الحنك. تاج العروس (عجر).

(٢) المحرر الوجيز ٢/٥٣٩، وقول قتادة أخرجه عنه الطبري ١١/٢٢٣، وابن أبي حاتم ٥/١٧١٦، وقول الزجاج في كتابه معاني القرآن ٢/٤٢١.

(٣) من هنا بدأ الجزء الخامس من النسخة الخطية (ح)، والأصل أن تتأخر هذه الأوراق التسعة في المخطوط إلى ما بعدها، كما أشرنا إليه سابقاً.

بَسْطاً لعُذْره عندهم، وهو متحقِّق أنَّ عقابَ الله شديد، ويحتمل أن يكون مِن كلامِ الله استأنَفَه تهديداً لإبليس ومَن تابعه مِن مشركي قريش وغيرهم.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ العامل في «إذ»: «زيَّن» أو «نكص» أو «شديد العقاب»[1] أو: اذْكُروا، أقوالٌ، وظاهرُ العطفِ التغايرُ؛ فقيل: المنافقون هم مِن الأوس والخَزْرج، لمَّا خرج الرسولُ ﷺ قال بعضُهم: نَخرُج معه، وقال بعضُهم: لا نخرج «غرَّ هؤلاء» أي: المؤمنينَ «دينُهم» فإنَّهم يَزعمون أنَّهم على حقٍّ وأنَّهم لا يُغلَبون، هذا معنى قولِ ابنِ عباس، «والذين في قلوبهم مرض» قومٌ أَسلموا ومَنَعَهم أقرباؤهم مِن الهجرة، فأخرجتهم قريشٌ معها كرهاً، فلمَّا نظروا إلى قلَّة المسلمين ارْتَابوا وقالوا: «غرَّ هؤلاء دينُهم» فقُتلوا جميعاً، منهم: قيس[2] بنُ الوليد بنِ المغيرة، وأبو قيس ابنُ الفَاكه بنِ المغيرة، والحارث بنُ زَمعة بنِ الأسود، وعليّ بن أميَّة، والعاصي بنُ مُنَبِّه بنِ الحَجَّاج، ولم يُذكَر أنَّ منافقاً شهد بدراً مع المسلمين إلَّا مُعَتِّب بن قُشير، فإنَّه ظهر منه يوم أُحُد قولُه: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾[3] [آل عمران: ١٥٤].

وقيل: «والذين في قلوبهم مرض» هو مِن عطف الصفات، وهي لموصوف واحد، وُصِفوا بالنِّفاق ـ وهو إظهار ما نُخفيه ـ وبالمرض كما قال تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] وهم منافقو المدينة. وعن الحسن: هم المشركون[4]، ويَبعُد هذا، إذ لا يتَّصف المشركون بالنِّفاق؛ لأنَّهم مجاهِرون بالعداوة لا منافقون.

وقال ابنُ عطيَّة: قال المفسِّرون: إنَّ هؤلاء الموصوفين بالنِّفاق ومرضِ القلوب إنَّما هم مِن أهلِ عَسْكَر الكفَّار، لمَّا أَشرفوا على المسلمين ورَأَوْا قلَّة عَدَدِهم، قالوا

---

(١) في النسخ: أو «سميع عليم»، ولعلَّ المثبت هو الصواب، ينظر الدر المصون ٥/٦١٨، وروح المعاني ١٠/١٤٨.

(٢) كذا في النُّسَخ والمحرر الوجيز ٢/٥٣٩، وتفسير الثعلبي ٣/١٥٠، والبغوي ٢/٢٥٥، وزاد المسير ٣/٣٦٨، والذي في مطبوع الطبري: أبو قيس بن الوليد بن المغيرة. ولعلَّه الصواب، ينظر سيرة ابن هشام ١/٦٤١، والمغازي للواقدي ١/١٥٠، والمنمق لابن حبيب ص ٢٢٥، وليُحرَّر!.

(٣) المحرر الوجيز ٢/٥٣٩، وينظر خبرُ مجاهد والشعبي في تفسير الطبري ١١/٢٢٦-٢٢٧.

(٤) الكشاف ٢/١٦٣.

مشيرينَ إلى المسلمين: «غَرَّ هؤلاء دينُهم» أي: اغترّوا فأَدخلوا أنفسَهم فيما لا طاقةَ لهم به، وكنى بالقلوب عن العقائد، والمرضُ أَعَمُّ مِن النفاق، إذ يُطلَق مَرَضُ القلبِ على الكفر[١].

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ هذا يتضمَّن الرَّدَّ على مَن قال: «غَرَّ هؤلاء دينُهم» فكأنَّه قيل: هؤلاء في لقاء عدوِّهم هم متوكِّلون على اللهِ فهم الغالبون، «ومَن يتوكَّل على الله» يَنصُره ويُعِزُّه، «فإنَّ اللهَ عزيزٌ» لا يُغالَب بقوَّة ولا بكَثْرة «حكيمٌ» يَضَعُ الأشياءَ مواضعَها، أو حاكِمٌ بنُصْرة مَن توكَّل عليه، فيُدِيلُ[٢] القليلَ على الكثير.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا۟ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ «لو» التي ليست شرطاً في المستقبَل تَقْلِبُ المضارعَ للمضيِّ، فالمعنى: لو رأيتَ وشاهدتَ، وحَذْفُ جواب «لو» جائزٌ بَلِيْغٌ حذفُه في مِثْل هذا؛ لأنَّه يدلُّ على التعظيم، أي: لرأيتَ أَمْراً عجيباً وشَأْناً هائِلاً، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام:٢٧].

والظاهرُ أنَّ «الملائكة» فاعل «يتوفَّى»، ويدلُّ عليه قراءةُ ابنِ عامر والأعرج: «تتوفَّى» بالتاء[٣]، وذُكِّر في قراءة غيرِهما؛ لأنَّ تأنيثَ الملائكة مجازٌ، وحسَّنه الفَصْل.

وقيل[٤]: في هذه القراءة الفاعلُ ضميرُ الله، و«الملائكة» مبتدأ، والجملة حاليَّة كهيَ في: «يضربون».

قال ابنُ عطيَّة: ويُضعِّفه سقوطُ واوِ الحال، فإنَّها في الأغلب تَلزم مِثْلَ هذا[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٩.
(٢) الإدالة: الغَلَبة، ومنه حديث أبي سفيان وهِرَقْل: نُدالُ عليه، ويُدال علينا. أي: نَغلبه مرَّة، ويَغلبنا أخرى. اللسان (دول).
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٠، وقراءة ابن عامر في السبعة ص ٣٠٧، والتيسير ص ١١٦، والنشر ٢/ ٢٧٧.
(٤) بعدها في المطبوع: الفاعل.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٠.

انتهى. ولا يُضعِّفه؛ إذ جاء بغير واوٍ في كتاب الله وفي كثيرٍ مِن كلام العرب[(١)].

و«الملائكة» مَلَكُ الموت، وذُكر بلفظ الجمع؛ تعظيماً، أو هو وأعوانُه مِنَ الملائكة، فيكون التوفِّي قبضَ أرواحهم.

أو «الملائكةُ» المُمَدّ بهم يومَ بدرٍ، والتوفِّي قَتْلُهم ذلك اليوم.

أو ملائكة العذاب، فالتوفِّي سَوْقُهم إلى النَّار، أقوالٌ ثلاثة.

والظاهر حقيقةُ الوجوه، والأدبارُ كناية عن الأسْتَاه. قاله مجاهد[(٢)]، وخُصَّا بالضَّرْب؛ لأنَّ الخزيَ والنَّكال فيهما أشدُّ.

وقيل: ما أَقْبَلَ منهم وأدبر، فيكون كنايةً عن جميع البَدَن، وإذا كان ذلك يوم بدر، فالظاهرُ أنَّ الضَّارِبِينَ هم الملائكةُ.

وقيل: الضمير عائد على المؤمنين، أي: يَضرِبُ المؤمنون؛ فمَن كان أمامَهم مِن المؤمنين ضَربوا وجوهَهم، ومَن كان وراءَهم ضَربوا أدبارَهم.

فإن كان ذلك عند الموت، ضَرَبتهم الملائكةُ بسياطٍ مِن نار.

«وذوقوا» هذا على إضمار القول مِن الملائكة، أي: ويقولون لهم: ذوقوا عذابَ الحريق، ويكون ذلك يوم بدر، وكانت لهم أسواط مِن نارٍ يَضربونهم بها، فتشتعلُ جراحاتهم ناراً[(٣)]، أو يقال لهم ذلك في الآخرة.

وهو كلام مستأنَف مِن الله على سبيل التقريع للكافرين؛ إمَّا في الدنيا حالةَ الموت، أي: مقدِّمة عذابِ النار، وإمَّا في الآخرة.

---

(١) منها قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة:٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد:٤١].
ومنها قول المُسَيَّب بن عَلَسٍ:
نَصَفَ النهارُ الماءُ غامرُهُ ورفيقُهُ بالغيب لا يدري
أي: انتصف النهارُ والغائص لطلب اللؤلؤ لم يَظهر، وصاحبه لا يدري ما حاله. مغني اللبيب ص ٦٥٦، ٨٣٣.
(٢) تفسير الثعلبي ٣/ ١٥٠، وأخرجه عنه الطبريُّ ١١/ ٢٣٠.
(٣) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٢٥٦، والقرطبي ١٠/ ٤٥.

ويَحتمل «ذلك» وما بَعْدَه أن يكون مِن كلام الملائكة، أو مِن كلام الله. «ذلك» أي: ذلك العذاب، (١)وهو مبتدأ، خبرُه: «بما قدَّمت أيديكم»، و«أنَّ الله» عطف على «ما»، أي: ذلك العذاب بسبب كُفْركم، وبسبب أنَّ الله لا يَظلمكم، إذْ أنتم مستحقُّون العذابَ(١)، فتعذيبُكم عَدْلٌ منه، وتقدَّم تفسير هذه الجملة في أواخر سورة «آل عمران»[٢].

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ تقدَّم تفسيرُ نظير هذه الآية في أوائلِ سورة «آل عمران»[٣].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ «ذلك» مبتدأ، وخبره: «بأنَّ الله لم يَكُ» أي: ذلك العذاب أو الانتقام بسبب كذا.

وظاهر النِّعمة أنَّه يُراد بها ما يكونون فيه مِن سَعَة الحال والرفاهِية والعزَّة والأَمْن والخِصْب وكثرة الأولاد، والتغيير قد يكون بإزالة الذات، وقد يكون بإزالة الصفات، فقد تكون النِّعمة أُذهِبت رأساً، وقد تكون قُلِّلت وأُضعفت.

وقال القاضي: أنعم اللهُ عليهم بالعقل والقُدرة، وإزالة الموانع، وتسهيلِ السبيل، والمقصود أن يَشتغلوا بالعبادة والشُّكْر ويَعدلوا عن الكُفر، فإذا صرفوا هذه الأمور إلى الكفر والفِسْق، فقد غيَّروا نِعَمَ الله على أنفسهم، فلا جَرَم استحقُّوا تبديلَ النِّعَم بالنِّقَم، والمِنَح بالمِحَن، وهذا مِن أوكد ما يدلُّ على أنَّه تعالى لا يَبْتَدِئُ أحداً بالعذاب والمضرَّة، وأنَّ الذي يفعله لا يكون إلَّا جزاءً على معاصٍ سلفت، ولو كان تعالى خَلَقهم وخَلَق حياتهم[٤] وعقولهم ابتداءً للنار ـ كما يقوله القوم ـ لَمَا صحَّ ذلك. انتهى.

(١-١) ليست في (ب).

(٢) عند تفسير الآية (١٨٢)، ومن هنا إلى قوله الآتي: أوائل سورة آل عمران. سقط من (ع).

(٣) عند تفسير الآية (١١).

(٤) كذا في النُّسَخ، والذي في تفسير الرازي ١٥/ ١٨١ ـ والكلام منه ـ: جسمانهم. وكذا وردت في اللباب ٩/ ٥٤٤.

قيل: وظاهرُ الآية يدلُّ على ما قاله القاضي إلَّا أنَّه لا[١] يمكن الحملُ على الظاهر، لأنَّه يَلزم مِن ذلك أن تكون صفةُ الله معلَّلةً بفِعْل الإنسان ومتأثِّرة له، وذلك محالٌ في بديهة العَقْل، وقد قام الدليلُ على أنَّ حُكْمَه وقضاءَه سابقٌ أوَّلاً، فلا يمكن أن يكون فِعْلٌ إلَّا بقضائه وإرادته[٢].

وقيل: أشار بالنِّعمة إلى محمَّد ﷺ، بَعَثَه رحمةً فكذَّبوه، فبدَّل اللهُ ما كانوا فيه مِن النِّعمة بالنِّقمة في الدنيا، وبالعقاب في الآخرة، قاله السدِّيُّ[٣].

والظاهرُ مِن قوله: «على قوم» العمومُ في كلِّ مَن أنعم اللهُ عليه مِن مسلم وكافر، وبَرٍّ وفاجر، وأنَّه تعالى متى أنعم على أحدٍ فلم يَشكر، بدَّله عنها بالنقمة.

وقيل: القوم هنا قريش، أنعم اللهُ تعالى عليهم ليَشكروا، ويُفْرِدوه بالعبادة، فجَحدوا وأشركوا في أُلوهيَّته، وبعثَ إليهم الرسولَ ﷺ فكذَّبوه، فلمَّا غيَّروا ما اقتضته نِعَمه، وحدَّثتهم أنفسُهم بأنَّ تلك النِّعَم مِن قِبَلِ أوثانهم وأصنامهم، غيَّر تعالى عليهم بنِقَمه في الدنيا، وأعَدَّ لهم العذابَ في العُقْبى.

وقال ابنُ عطيَّة: ومثال هذا نعمةُ الله على قريش بمحمَّد ﷺ، فكَفروا وغيَّروا ما كان يَجب أن يكونوا عليه، فغيَّر اللهُ تلك النعمةَ، بأن نَقَلها إلى غيرهم مِن الأنصار وأحلَّ بهم عقوبتَه[٤]. انتهى.

وتغييرُ آلِ فرعون ومشركي مكَّة ومَن يجري مجراهم؛ بأن كانوا كفَّاراً ولم تكن لهم حالة مرضيَّة، فغيَّروا تلك الحالة المسخوطة إلى أسخطَ منها مِن تكذيبِ الرُّسُل والمعاندةِ والتحريب[٥] وقَتْلِ الأنبياء والسَّعْي في إبطال آياتِ الله، فغيَّر اللهُ تعالى ما كان أنعم عليهم به وعاجَلَهم ولم يُمهلهم.

---

(١) ليست في المطبوع.
(٢) تفسير الرازي ١٥/ ١٨١.
(٣) تفسير القرطبي ١٠/ ٤٦، وأخرجه عنه الطبريُّ ١١/ ٢٣٣.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤١.
(٥) في (أ): والتخريب، وفي (ح) و(ع): والتحزيب، وفي (يه): والتحريف. والمثبت من (د١) و(ز١) والمطبوع، وينظر الكشاف ٢/ ١٦٤، والتحريب: إثارة الحرب. غريب القرآن للأصفهاني (حرب).

وفي قول الزمخشريِّ: ذلك العذابُ أو الانتقام بسبب أنَّ الله تعالى لم يَنْبَغِ له ولم يَصِحَّ في حكمته أن يغيِّر نِعَمَه عند قومٍ حتى يغيِّروا ما بهم مِن الحال = دَسِيْسَةُ الاعتزال، «وأنَّ الله سميع» لأقوال مكذِّبي الرسلِ «عليمٌ» بأفعالهم، فهو مجازيهم على ذلك.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ قال قومٌ: هذا التكرير للتأكيد، وقال ابنُ عطيَّة: هذا التكرير لمعنًى ليس للأوَّل، إذ الأوَّل دَأْبٌ في أنْ هلكوا لمَّا كفروا، وهذا الثاني دَأْبٌ في أنْ لم تُغيَّر نعمتهم حتى غيَّروا ما بأنفسهم[(١)]. انتهى.

وقال قوم: كُرِّرَ لوجوهٍ، منها: أنَّ الثاني جرى مجرى التفصيل للأوَّل، لأنَّ في ذلك ذِكْر إحْرَاقِهم[(٢)]، وفي هذا ذِكْر إغراقهم، وأُريد بالأوَّل[(٣)] ما نزل بهم مِن العقوبة حالَ الموت، وبالثاني ما نزل بهم مِن العذاب في الآخرة، وفي الأوَّل[(٤)]«بآيات الله» إشارةٌ إلى إنكار دلائل الإلهيَّة، وفي الثاني «بآيات ربِّهم» إشارة إلى إنكار نِعَم مَن ربَّاهم ودلائلِ تربيته وإحسانِه على كثرتها وتواليها، وفي الأوَّل اللازم منه الأخذ، وفي الثاني اللازم منه الهَلَاك والإغراق.

وقال الزمخشريُّ في قوله تعالى: «بآياتِ ربِّهم» زيادةُ دلالة على كُفْران النِّعَم وجُحود الحقِّ، وفي ذِكْر الإغراق بيانٌ للأَخْذ بالذُّنوب[(٥)].

وقال الكرمانيُّ: يحتمل أن يكون الضمير في الآية الأولى في «كفروا» عائداً على قريش، وفي الأخيرة في «كذَّبوا» عائداً على «آلِ فرعون والذين مِن قبلهم»[(٦)]. انتهى.

وقيل: «فأهلكناهم» هم الذين أُهلكوا يوم بدر، فيَلزم مِن هذا القول أن يكون «كذَّبوا» عائداً على كفار قريش.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤١.
(٢) في المطبوع: إجرامهم. وفي تفسير الرازي ١٥/ ١٨١ ـ والكلام منه ـ: أخذهم.
(٣) يعني بذلك الوجهَ الثاني من الوجوه. ينظر تفسير الرازي ١٥/ ١٨١.
(٤) وهو الوجه الثالث من وجوه التكرار. ينظر تفسير الرازي ١٥/ ١٨١.
(٥) الكشاف ٢/ ١٦٤.
(٦) أسرار التكرار في القرآن لتاج القرَّاء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني ص ٩٥.

وقال التبريزيُّ: «فأهلكناهم» قومَ نوح بالطُّوفان، وعَاداً بالرِّيح، وثموداً بالصَّيْحَة، وقومَ لوطٍ بالخَسْف، وفرعونَ وآلَه بالغَرَق، وقومَ شُعيبٍ بالظُّلَّة، وقومَ داود بالمَسْخ، وأهلك قريشاً وغيرَها؛ بعضُهم بالفَزَع، وبعضُهم بالسَّيف، وبعضهم بالعَدَسَة[١] كأبي لهب، وبعضهم بالغُدَّة[٢] كعامر بنِ الطُّفَيل، وبعضهم بالصَّاعقة كأَرْبَد بنِ قيس[٣]. انتهى.

فيَظهر مِن هذا الكلام أنَّ الضمير في «كذَّبوا» و«أهلكناهم» عائد على المشبَّه والمشبَّه به في «كدَأْب»، إذْ عمَّ الضميرُ القَبِيلَين[٤]، وإنَّما خصَّ «آل فرعون» بالذِّكْر، وذُكرَ الذي أُهلكوا به ـ وهو إغراقهم ـ لأنَّه انضمَّ إلى كفرهم دعوى الإلهيَّة والربوبيَّة لغير الله تعالى، فكان ذلك أَشنع الكفر وأَفظعه، ومراعاةُ لفظِ «كلّ» إذا حُذف ما أُضيفت إليه ومعناه جائزةٌ، واختير هنا مراعاة المعنى؛ لأجل الفواصل، إذ لو كان التركيب: وكلٌّ كان ظالماً، لم يقع فاصلةً.

وقال الزمخشريُّ: وكلُّهم مِن غَرْقى القِبْط وقَتْلى قريش كانوا ظالمين أنفسهم بالكفر والمعاصي[٥]. انتهى. ولا يَظهر تخصيص الزمخشريِّ كلًّا بغَرقى القِبْط وقَتْلى قريش، إذ الضمير في «كذَّبوا» وفي «فأهلكناهم» لا يختصُّ بهما، فالذي يَظهر عموم المشبَّه به وهم «آل فرعون والذين من قبلهم»، أو عموم المشبَّه والمشبَّه بهم.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ نزلت في بني قريظة منهم كعبُ بنُ الأشرف وأصحابُه عاهدهم الرسولُ ﷺ أن لا يمالئوا عليه أحداً، فنكثوا بأن أعانوا

(١) العَدَسَة: بَثْرَة صغيرة شبيهة بالعَدَسة تخرج بالبَدَن مفرَّقةً كالطاعون، فتقتل غالباً، وقلَّما يسلم منها. تاج العروس (عدس)، وخبر أبي لهب سيأتي في سورة المسد.

(٢) الغُدَّة: طاعون الإبل، والسِّلْعة يركبها الشحم. اللسان (غدد).

(٣) ينظر خبر هلاك عامر بن الطفيل وأربد بن قيس في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥٦٨-٥٦٩، والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البَرّ ص ٣٠٧-٣٠٨، وسيأتي خبرهما عند تفسير سورة الرعد.

(٤) في (د١) والمطبوع: القبيلتين.

(٥) الكشاف ٢/ ١٦٤.

مشركي مكَّة بالسلاح، وقالوا: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدهم، فنكثوا ومالؤوا معهم يوم الخندق، وانطلق كعب بنُ الأشرف إلى مكَّة فحالفهم[١].

قال البغوي: مَن روى أنَّه كعب بنُ الأشرف أخطأ ووَهِم، بل يَحتمل أنَّه كعب بنُ أسد فإنَّه كان سيِّدَ قريظة[٢].

وقيل: هم بنو قريظة والنضير، وقيل: نفرٌ مِن قريش مِن عَبْدِ الدَّار، حكاه التبريزيُّ في تفسيره.

«فهم لا يؤمنون» إخبارٌ منه تعالى أنَّهم لا يؤمنون، فلا يمكن أن يقع منهم إيمان. قال ابن عباس: شرُّ الناس الكفار، وشرُّ الكفَّار المصرُّون منهم، وشرُّ المصرِّين الناكثون للعهود[٣]، فأخبر تعالى أنَّهم جامعون لأنواع الشَّرِّ.

«الذين عاهدت منهم» بدل مِن «الذين كفروا»، قاله الحوفيُّ، والزمخشريُّ[٤]، وأجاز أبو البقاء أن يكون خبر مبتدأ محذوف[٥]، وضمير الموصول محذوف، أي: عاهدتهم منهم، أي: مِن الذين كفروا.

قال ابنُ عطية: يحتمل أن يكون وصف «شرّ الدواب» بثلاثة أوصاف؛ الكفر، والموافاةِ عليه، والمعاهدةِ مع النقضِ، و«الذين» على هذا بدلُ بعضٍ مِن كلٍّ، ويحتمل أن يكون «الذين عاهدت» فرقة أو طائفة، ثم أخذ يَصِفُ حالَ المعاهَدين بقوله: «ثمَّ ينقضون عهدَهم في كلِّ مرَّة»[٦]. انتهى.

(١) ينظر تفسير السمرقندي ٢/ ٢٣، وتفسير الطبري ١١/ ٢٣٥، وتفسير الثعلبي ٣/ ١٥٢، والكشاف ٢/ ١٦٤.
(٢) الذي في تفسير البغوي ٢/ ٢٥٧: قال الكلبي ومقاتل: يعني يهود بني قريظة، منهم كعب بن الأشرف وأصحابه. اهـ. ولم نقف على كلامه المذكور أعلاه لا عنده ولا عند غيره، وينظر خبر كعب بن أسد مع حيي بن أخطب ونقض عهده مع الرسول ﷺ في السيرة النبوية ٢/ ٢٢٠-٢٢١، وفي المغازي للواقدي ٢/ ٤٨٥ وما بعدها.
(٣) الكشاف ٢/ ١٦٤، وتفسير النيسابوري ١٠/ ١٧، دون عزوه لابن عباس.
(٤) الكشاف ٢/ ١٦٤.
(٥) الإملاء ٢/ ٨-٩.
(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤١.

فعلى هذا الاحتمال يكون «الذين» مبتدأ، ويكون الخبر قوله: «فإمَّا تثقفنَّهم»، ودخلت الفاء لتضمُّن المبتدأ معنى اسمِ الشرط، فكأنَّه قيل: مَن تُعاهد منهم، أي: مِن الكفار، [1]فإن تظفر بهم فاصنع كذا.

و«من» للتبعيض؛ لأنَّ المعاهدين بعضُ الكفار[1]، وهي في موضع الحال، أي: كائنين منهم. وقيل: بمعنى «مع». وقيل: الكلام محمول على المعنى، أي: أخذتَ منهم العهد، فتكون على هذا التقدير لابتداءِ الغاية، وقيل: «مِن» زائدة، أي: عاهدتهم، وهذه الأقوال الثلاثة ضعيفة، وأتى «ثمَّ ينقضون» بالمضارع؛ تنبيهاً على أنَّ مِن شأنهم نقضَ العهد مرَّة بعد مرَّة.

«وهم لا يتَّقون» لا يخافون عاقبةَ الغدر[2]، ولا يُبالون بما في نَقْض العهد مِن العارِ واستحقاقِ النَّار.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: فإن تظفر بهم في الحرب وتتمكَّن منهم «فَشَرِّد بهم مَن خَلْفَهم». قال ابنُ عباس: فنكِّل بهم مَن خلفهم. وقال ابنُ جبير: أَنْذِرْ مَن خلفهم [3]مِن أهل مكة واليمن[4]. انتهى، وكنى بتشريد مَن خلفهم[3] عن قَتْل مَن ظفر به وتنكيلِه، فكأنَّ المعنى: فإنْ تظفر بهم فاقتلهم قَتْلاً ذريعاً حتى يَفِرَّ عنك مَن خلفهم ويتفرَّق.

ولمَّا كان التشريد ـ وهو التطريد والإبعاد ـ ناشئاً عن قَتْل مَن ظفر به في الحرب مِن المعاهدين الناقضين، جُعلَ جواباً للشرط، إذ هو يتسبَّب عن الجواب.

وقالت فرقة: فسَمِّع بهم، وحكاه الزهراويُّ عن أبي عبيدة[5].

وقال الزمخشريُّ: «مَن وراءهم» مِن الكفرة حتى لا يَجسُر عليك بعدهم أحدٌ؛

(١-١) ليست في (ب).

(٢) في (أ) و(ب) والمطبوع: العدو. وفي (ع): العدّ.

(٣-٣) ليست في المطبوع.

(٤) تفسير الثعلبي ٣/ ١٥٢-١٥٣، والبغوي ٢/ ٢٥٧، وأخرجه عنهما الطبري ١١/ ٢٣٦-٢٣٧.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٢، ولم نقف على كلام أبي عبيدة في كتابه مجاز القرآن، فلعلَّه أبو عبيد كما ورد في معاني القرآن للنحاس ٣/ ١٦٤، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٨.

اعتباراً بهم واتعاظاً بحالهم[١]. وقال الكرماني: قيل: التشريد: التخويف الذي لا يبقى معه القرار، أي: لا ترضَ منهم إلا الإيمان أو السَّيف.

وقرأ الأعمش بخلافٍ عنه: «فشرِّذ» بالذال، وكذا في مصحف عبد الله، قالوا: ولم تحفظ هذه المادة في لغة العرب. فقيل: الذال بدلٌ مِن الدال، كما قالوا: لَحْم خَراديل وخَراذيل[٢].

وقال الزمخشري: «فشرِّذ» بالذال المعجمة بمعنى فَفرِّق، وكأنَّه مقلوب شَذَر، مِن قولهم: ذهبوا شِذَر مِذَر، ومنه: الشَّذَر المُلتَقط مِن المعدِن؛ لتفرُّقه[٣]. انتهى. وقال الشاعر:

غـرائـرُ فـي كِـنٍّ وصـونٍ ونَـعـمـةٍ يُـحـلَّـيـنَ يـاقـوتـاً وشَـذْراً مُـفَـقَّـرا[٤]

وقال قطرُب: بالذال المعجمة: التنكيل، وبالمهملة: التفريق[٥].

وقرأ أبو حيوة والأعمش بخلاف عنه: «مِن خَلْفِهم» جارًّا ومجروراً[٦]، ومفعول «فشرِّد» محذوف، أي: ناساً مِن خَلْفِهم.

[٧]والضميرُ في «لعلَّهم» يظهر أنَّه عائد على «مَن خَلْفَهم»[٧] وهم المشرَّدون، أي: لعلَّهم يتَّعظونَ بما جرى لناقضي العهد، أو يتذكَّرون توعُّدَك إياهم.

وقيل: الضمير عائد إلى المثقوفين، وفيه بُعدٌ؛ لأنَّ مَن قُتلَ لا يُتذكَّر.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ الظاهر أنَّ هذا استئنافُ كلام، أخبره تعالى بما يصنع في المستقبل مَعَ مَن

(١) الكشاف ٢/ ١٦٥.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٣، والقراءة في القراءات الشاذة ص ٥٠، والمحتسب ١/ ٢٨٠، ومعنى: خراديل، أي: لحم مقطَّع قطعاً وافرة.

(٣) الكشاف ٢/ ١٦٥.

(٤) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٥٩، والغرائر: الغوافل، والكِنّ: ما يكتنُّ به عن الحرّ والبرد، والشَّذر: قِطَع الذهب، والمُفَقَّر: المصوغ على هيئة فِقار الجرادة.

(٥) تفسير الثعلبي ٣/ ١٥٣، ونقله عنه القرطبي ١٠/ ٤٩.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٣، والقراءة في القراءات الشاذة ص ٥٠ عن أبي حيوة، وفي تفسير الثعلبي ٣/ ١٥٣ عن الأعمش.

(٧-٧) ليست في (ب).

يخاف منه خيانةً إلى سالف الدهر. وقال مجاهد: هي في بني قريظة. (١)ولا يَظهر ما قال؛ لأنَّ بني قريظة(١) لم يكونوا في حدِّ مَن يخاف منه خيانة؛ لأنَّ خيانتهم كانت ظاهرة مشهورة، ولقوله: «مِن قوم»؛ فلو كانت في بني قريظة لقال: وإمَّا تخافنَّ منهم.

وقال يحيى بن سلَّام: «تخافنَّ» بمعنى تعلم(٢)، وحكاه بعضهم أنَّه قولُ الجمهور.

وقيل: الخوف على بابه، فالمعنى أنَّه يَظهر منهم مبادِئُ الشَّرِّ، ويُنقَل عنهم أقوالٌ تدلُّ على الغَدْر، فالمبادِئ معلومة، والخيانة التي هي غايةُ المبادئ مَخُوفة لا متيقَّنة، ولفظ الخيانة دالٌّ على تقدُّم عهد؛ لأنَّه مَن لا عهدَ بينكَ وبينه لا تكون محاربتُه خيانةً، فأَمَرَ تعالى نبيَّه إذا أحسَّ مِن أهل عهدٍ ما ذكرنا وخافَ خيانتهم، أن يُلقي إليهم عهدَهم، وهو النَّبْذُ.

ومفعول: «فانبِذْ» محذوفٌ، التقدير: فانبِذ إليهم عهدهم، أي: ارمِهِ واطْرَحْه، وفي قوله: «فانبذ» عدمُ اكتراثٍ به، كقوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٤٠] كما قال: نَبْذَ الحذاءِ المرقَّع.

وكأنَّه لا يُنبَذ ولا يُرمَى إلَّا الشيء التافِهُ الذي لا يُبالَى به، وقوَّة هذا اللفظ تقتضِي حربَهم ومناجزتهم أن يُسْتَقْصوا(٣).

ومعنى «على سواء» أي: على طريقٍ مستوٍ قَصْدٍ، وذلك أن تُظهِر لهم نَبْذَ العهد وتُخبرهم إخباراً مكشوفاً بَيِّناً أنَّكَ قطعتَ ما بينكَ وبينهم، ولا تُناجزهم الحربَ وهم على توهُّم بقاءِ العهد، فيكون ذلك خيانةً منكَ.

«إنَّ اللهَ لا يحبُّ الخائنين» فلا يكن منكَ إخفاء العهد، قاله الزمخشريُّ بلفظه، وغيرُه ـ كابنِ عباسٍ ـ بمعناه(٤).

(١-١) ليست في (ب)، وقول مجاهد أخرجه عنه الطبري ١١/ ٢٣٩.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٣.
(٣) كذا في النسخ، والذي في مطبوع المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٣: ومناجزتهم إن لم يستقيموا.
(٤) الكشاف ٢/ ١٦٥، ولم نقف على قول ابن عباس.

وقال الوليد بن مسلم: «على سواء» على مَهَلٍ، كما قال تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية(١) [التوبة: ١].

وقال الفرَّاء: المعنى: «فانبذ إليهم على» اعتدالٍ و«سواء» مِن الأمْرِ، أي: بيِّن لهم على قَدْر ما ظهر منهم، لا تفرِّط ولا تفجأ بحرب، بل افعَل بهم مثلَ ما فعلوا بك(٢)، يعني موازنةً ومقايسةً.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ: «سِواء» بكسرالسين(٣).

وظاهرُ «إنَّ الله» أن يكون تعليلاً لقوله: «فانبذ»، أي: «فانبذ إليهم على سواء» على تبعُّد مِن الخيانة «إنَّ الله لا يحبُّ الخائنين»، ويحتمل أن يكون طعناً على الخائنين الذين عاهدهم الرَّسولُ، ويحتمل «على سواء» أن يكون في موضع الحال مِن الفاعلِ في «فانبذ» أي: كائناً على طريقٍ قَصْدٍ، أو مِن الفاعل والمجرور، أي: كائنين على استواء في العلم، أو في العداوة.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ قال الزهريُّ: نزلت فيمَن أفلتَ مِن الكفار في بدر(٤)، فالمعنى: لا تظنَّهم ناجينَ مُفْلتين، فإنَّهم لا يعجزون طالبهم، بل لابدَّ مِن أخذهم. قيل: وذلك في الدنيا ولا يفوتون، بل يُظفركَ اللهُ بهم. وقيل: في الآخرة، قاله الحَسَن(٥). وقيل: «الذينَ كفروا» عامّ، قاله ابنُ عباس(٦)، وأَعْجَزَ: غلبَ وفات، قال سُويد:

وأَعجزَنا أبو ليلى طُفَيْلٌ   صحيحَ الجِلْد مِن أَثَرِ السِّلاحِ(٧)

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٣، وزاد المسير ٣/ ٣٧٣، وأخرجه عنه الطبري ١١/ ٢٤٠.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٣، وينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٤١٤.
(٣) لم نقف عليها، وأوردها عنه السمين الحلبي في الدر المصون ٥/ ٦٢٢.
(٤) الكشاف ٢/ ١٦٥.
(٥) تفسير القرطبي ١٠/ ٥٣.
(٦) زاد المسير ٣/ ٣٧٤.
(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٤، ونسبه الجاحظ في البيان والتبيين ٢/ ١١ إلى صفوان بن عبد ياليل الشويعر، وكذا نقل عنه ابن رشيق في العمدة ١/ ١١٥ وفيهما: وأفلتنا. بدل: وأعجزنا.

وقرأ ابنُ عامر وحمزة وحفص: «ولا يَحسَبنَّ» بالياء[1]، أي: ولا يحسبنَّ الرسولُ، أو حاسِبٌ، أو المؤمِنُ، أو فيه ضميرٌ يعود على «مَن خلفهم» فيكون مفعولا «يَحسَبنَّ»: «الذين كفروا» و«سبقوا» كقراءة باقي السبعة بالتاء، خطاباً للرسول أو للسَّامع.

وجوَّزوا أن يكون في قراءة الياء فاعل «لا يحسبنَّ» هو «الذين كفروا»، وخرّج ذلك على حذف المفعول الأوَّل؛ لدلالة المعنى عليه، تقديره: أنفسَهم سَبَقوا، أو على إضمار «أنْ» قبل «سبقوا»، فحذفت وهي مرادة، فسدَّت مَسدَّ مفعولَي «يحسبنَّ»، ويؤيِّده قراءة عبد الله: «أنَّهم سبقوا»[2].

وقيل: التقدير: ولا يحسبنَّهم الذين كفروا، فحذف الضمير؛ لكونه مفهوماً، وقد رَدَدْنا هذا القولَ في أواخِر «آل عمران»[3].

وعلى أنَّ الفاعل هو «الذين كفروا» خرَّج الزمخشريُّ قراءةَ الياء، وذَكَر نَقْلَ توجيهها على حذفِ المفعول؛ إمَّا الضمير، وإمَّا أنفسهم، وإمَّا حذف «أنْ»، وإمَّا أنَّ الفعلَ وقع على «أنَّهم لا يعجزون» على أنَّ «لا» صلةٌ، و«سبقوا» في موضع الحال، يعني: سابقين أي: مفلتين هاربين، وعلى: ولا يحسبنَّ قبيلُ[4] المؤمنينَ الذين كفروا سَبَقوا، ثم قال: وهذه الأقاويل كلُّها مُتَمحِّلة[5]، وليست هذه القراءة التي تفرَّد بها حمزة بنيِّرة. انتهى.

ولم يَنفرد بها حمزة كما ذَكَر، بل قرأ بها ابنُ عامر ـ وهو مِن العرب الذين سبقوا اللَّحن وقرأ على عثمان ـ وحفصٌ عن عاصم، وأبو جعفر بنُ القعقاع، وأبو عبد الرحمن، وابنُ محيصن، وعيسى، والأعمشُ، وتقدَّم ذِكْر توجيهها ـ على غيرِ ما نقل ـ ممَّا هو جيِّد في العربيَّة، فلا التفاتَ لقوله: وليست بنيِّرة، وتقدَّم ذِكْرٌ في فتحِ السين وكسرِها في قوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

---

(١) السبعة ص ٣٠٧، والتيسير ص ١١٧، وقرأ بها أيضاً من العشرة أبو جعفر. النشر ٢/ ٢٧٧.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٥، ومعاني القرآن للفراء ١/ ٤١٤، والكشاف ٢/ ١٦٥.
(٣) عند تفسير الآية (١٧٨)، والآية (١٨٨).
(٤) في (أ) و(ز١) و(ع) والمطبوع: قتيل. وينظر الكشاف ٢/ ١٦٥.
(٥) في (ب): متحملة.

وأمَّا قوله: وقيل: وقع على «أنَّهم لا يعجزون» على أنَّ «لا» صلة. فهذا لا يتأتَّى على قراءة حمزة؛ لأنَّه يقرأ بكسر الهمزة، ولو كان واقعاً عليه لفتح «أنَّ»، وإنَّما فتحها مِن السبعة ابنُ عامر وَحْدَه.

واستبعد أبو عبيد وأبو حاتم قراءةَ ابنِ عامر[1]، ولا استبعادَ فيها؛ لأنَّها تعليلٌ للنهي، أي: لا تحسبنَّهم فائتين؛ [2]لأنَّهم لا يعجزون، أي: لا يقع منكَ حسبانٌ لفَوتهم؛ لأنَّهم لا يعجزون، أي: لا[2] يفوتون.

وقرأ الأعمشُ: «ولا يَحْسَب» بفتح السين والياء مِن تحت وحذف النون[3]، وينبغي أن يُخرَّج على حذف النون الخفيفة؛ لملاقاة الساكن، فيكون كقوله:

لا تُهينَ الفقيرَ عَلَّكَ أن تَرْ ... كعَ يوماً والدهرُ قد رَفَعَه[4]

وقرأ ابنُ محيصن: «لا يعجزوني»[5] بكسر النون وياء بعدها[6].

وقال الزجَّاج: الاختيار فتح النون، ويجوز كسرها على أنَّ المعنى: إنَّهم لا يعجزونَني، وتحذف النون الأولى؛ لاجتماع النونين، كما قال الشاعر:

تَرَاهُ كالثَّغامِ يُعَلُّ مِسْكاً ... يَسُوءُ الفالياتِ[7] إذا فَلَيْني[8]

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٤١٤-٤١٥، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩٢-١٩٤.

(٢-٢) ليست في (ب).

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٤، والقراءة في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩٣ هكذا: «ولا تحسَبَ الذين» بفتح الباء، ودون نسبة، وكذا وقعت في معاني القرآن للفراء ١/ ٤١٤-٤١٥ ونسبها إلى عبد الله، وتصحفت في مطبوعه إلى: «يحسبنَّ»، بدل: «يحسب». وأورد القراءة أيضاً الزمخشري عن الأعمش هكذا: «ولا تحسب الذين كفروا» بكسر الباء وبفتحها على حذف النون الخفيفة. ووقعت القراءة في كتاب المصاحف ١/ ٣١٧ عن مصحف ابن مسعود هكذا: «ولا يَحْسَبُ» بضم الباء على الخبر.

(٤) سلف عند تفسير الآية (١٤٢) من سورة آل عمران.

(٥) في (أ) و(ح) و(ع): لا يعجزونني، وفي (د١) والمطبوع: لا تعجزونني، والمثبت من (ب) و(ز١) و(يه)، ولم نقف على القراءة عند غيره، وأوردها عنه السمين الحلبي في الدر المصون ٥/ ٦٢٦.

(٦) في (ع): وبحذف النون الأولى وياء بعدها.

(٧) في (ب): الغاليات، وفي المطبوع: الغالبات.

(٨) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٢٢، والبيت سلف عند تفسير الآية (١٣٩) من سورة البقرة، ومن =

البيت لعَمْرو بنِ معدي كرب، وقال أبو الحسن الأخفش في قول مُتَمِّم بنِ نُوَيْرَة:

ولقد عَلِمْت ولا محالةَ أنَّني ... للحادثاتِ فهل تَرَيْني أجزَعُ

فهذا يجوز على الاضطرار[١]. فقال قوم: حَذفَ النون الأُولى، وحذفها لا يجوز؛ لأنَّها في موضع الإعراب. وقال المبرِّد: أرى فيما كان مِثْل هذا حذف الثانية، وكذا كان يقول في بيتِ عمرٍو[٢].

وقرأ طلحة: بكسر النون مِن غير تشديد ولا ياء[٣]، وعن ابنِ محيصن: تشديد النون وكسرها[٤]، أَدغم نونَ الإعراب في نونِ الوقاية، وعنه أيضاً: بفتح العين وتشديد الجيم وكسر النون[٥]، قال النَّحَّاسُ: وهذا خطأٌ مِن وجهين؛ أحدهما أنَّ معنى عجَّزه ضَعَّفَه، وضعَّفَ أمْرَه، والآخر أنَّه كان يجب أن يكون بنونين[٦]. انتهى.

أمَّا كونه بنونٍ واحدة فهو جائز لا واجبٌ، وقد قُرِئَ به في السبعة، وأمَّا: عجَّزني، مشدَّداً، فذكر صاحبُ «اللوامح» أنَّ معناه: بَطَّأَ وثَبَّط، قال: وقد يكون بمعنى نَسبني إلى العَجْز، والتشديدُ في هذه القراءة مِن هذا المعنى، فلا تكون القراءةُ خطأً، كما ذكر النحَّاسُ.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

= قوله السالف: حاسب أو المؤمن، أو فيه ضمير يعود على من خلفهم... إلى قوله: وقرأ على عثمان وحفص عن عاصم. تكرر هنا في (أ)، ولا داعي له.

(١) لم نقف على كلامه في كتابه معاني القرآن، ونقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٥، والبيت في المفضليات ص٥٣، ومنتهى الطلب ٦/ ٣٧٨.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٥.

(٣) القراءات الشاذة ص ٥٠ ونسبها لابن محيصن.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٥، والكشاف ٢/ ١٦٥، لكن ذكرها الأخير بكسر النون، ولم يذكر التشديد.

(٥) تفسير القرطبي ١٠/ ٥٥، وينظر الكشاف ٢/ ١٦٥، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ١٦٥.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/ ١٦٥-١٦٦، وينظر تفسير القرطبي ١٠/ ٥٥.

يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ لمَّا اتَّفق في قصَّة بدرٍ أن قَصدوا الكفارَ بلا تكميلِ آلةٍ ولا عُدَّة، وأَمَره تعالى بالتشريد وبنبذِ العهد للناقضين، كان ذلك سبباً للأَخْذ في قتاله والتمالُؤِ عليه، فأَمره تعالى والمؤمنين بإعداد ما قدروا عليه مِن القوَّة للجهاد، والإعدادُ: الإرصادُ، وعلَّق ذلك بالاستطاعة لطفاً منه تعالى بهم، والمخاطبون هم المؤمنون.

والضمير في «لهم» عائد على الكفار المتقدِّمي الذِّكْر، وهم المأمورُ بحَربهم في ذلك الوقت وتَعُمُّ مَن بعدَه. وقيل: تَعود على الذين ينبذ إليهم العهد.

والظاهر العمومُ في كلِّ ما يتقوَّى به على حرب العدوِّ ممَّا أَورده المفسِّرون على سبيل الخصوص، والمراد به التمثيل كالرَّمي، وذكور[1] الخيل، وقوَّة القلوب، واتِّفاق الكلمة، والحصون المشيَّدة، وآلات الحرب وعُدَدها، والأزواد، والملابس الباهية حتى إنَّ مجاهداً رُئِيَ يتجهَّز للجهاد وعنده جُوالق، فقال: هذا مِن القوَّة[2].

وأمَّا ما ورد في «صحيح مسلم» عن عقبة بنِ عامر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة، ألَا وإنَّ القوَّةَ الرميُ، ألَا إنَّ القوَّة الرمي»[3] فمعناه ـ والله أعلم ـ أنَّ [4]معظمَ القوَّة وأنكاها للعدوِّ الرميُ، كما جاء: «الحجُّ عَرَفَةُ»[5]، وجاء في[4] فضل الرمي أحاديثُ[6]، وعلى ما اخترناه

---

(١) في (أ) و(ح) و(ع): وركوب.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٥، وتفسير الثعلبي ٣/ ١٥٣، وأخرجه عنه الطبري ١١/ ٢٤٦، وابن أبي حاتم ٥/ ١٧٢٢، والجوالق: أعجميٌّ معرَّب، وأصله بالفارسية: كُوَالَه، وجمعه: جَوَالق، بفتح الجيم، وهو وعاء من الأوعية معروف. المعرَّب ص ١٥٨، ولسان العرب (جلق).

(٣) صحيح مسلم (١٩١٧)، وهو عند أحمد (١٧٤٣٢).

(٤-٤) ليست في (ب).

(٥) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٢/ ١١١، ومسلم في التمييز (٧٦) و(٧٧)، وأبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩) و(٨٩٠)، والنسائي في المجتبى ٥/ ٢٥٦، وفي الكبرى (٣٩٩٧)، وابن ماجه (٣٠١٥)، وأحمد (١٨٧٧٣) عن عبد الرحمن بن يَعْمَر رضي الله عنه.

(٦) ينظر باب فضل الرمي عند مسلم الحديث (١٩١٧) وما بعده، وعند الترمذي الحديث (١٦٣٧) وما بعده.

من عموم القوَّة يكون قوله: «ومِن رباط الخيل» تنصيصٌ على فَضْل رباط الخيل، إذ كانت الخيلُ هي أَصلَ الحروب، والخير معقود بنواصيها[١]، وهي مراكبُ الفرسان الشُّجْعان.

وقال أبو زيد: الرباطُ مِن الخيل: الخَمْسُ فما فوقها، وجِماعُهُ: رُبُط، وهي التي تُرتَبَط، يقال منه: رَبَط رَبْطاً وارْتَبَط[٢]. انتهى.

قال:

تَلومُ على رَبْطِ الجِيادِ وحَبْسِها وأَوصى بها اللهُ النبيَّ محمَّدا[٣]

قال ابنُ عطيَّة: و«رباط الخيل» جَمْع: رَبْطٍ، ككلب وكِلاب، ولا يكثر ربطها إلَّا وهي كثيرةٌ، ويجوز أن يكون الرباط مصدراً مِن: رَبَط، كصَاح صياحاً؛ لأنَّ مصادرَ الثلاثيِّ غيرِ المزيد لاتنقاس، وإن جعلناه مصدراً مِن: رَابَط، فكأنَّ ارتباطَ الخيل واتِّخاذها يَفعله كلُّ واحدٍ لفعلِ آخَر، فيرابط المؤمنون بعضهم بعضاً، فإذا ربط كلُّ واحد منهم فرساً لأجل صاحبِه، فقد حصل بينهم رباط، وذلك الذي حَضَّ في الآية عليه، وقد قال ﷺ: «مَن ارتبط فرساً في سبيل الله، فهو كالباسط يدَه بالصدقة لا يَقبضها»، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة[٤]. انتهى.

فجوّز في «رباط» أن يكون جمعاً لرَبْط، وأن يكون مصدراً لرَبَط أو لرَابَط، وقوله: لأنَّ مصادر الثلاثيِّ غيرِ المزيد لاتنقاس. ليس بصحيح، بل لها مصادر منقاسة ذَكَرها النحويُّون.

---

(١) ومنه قوله ﷺ: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجرُ والغنيمةُ» وهو عند مسلم (١٨٧٢)، وأحمد (١٩١٩٦) عن جرير بن عبد الله ﷺ.

(٢) تفسير القرطبي ١٠/ ٥٧، والكلام في التمهيد ٤/ ٢٠٥-٢٠٦.

(٣) البيت قاله مكحول بن عبد الله، ينظر المصدران السابقان، وينظر أيضاً كتاب الخيل لأبي عبيدة، مقدمة كتابه، وحلية الفرسان وشعار الشجعان لابن هذيل، الباب الرابع عشر في ذكر نبذة من الشعر في إيثار العرب الخيلَ على غيرها.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٦، والحديث بهذا اللفظ أخرجه ابن أبي عاصم كما في الدر المنثور ٣/ ١٩٧ عن سهل ابن الحنظلية، وأخرجه عنه أيضاً أحمد (١٧٦٢٢)، وأبو داود (٤٠٨٩) بلفظ: «المنفق على الخيل كالباسط يده بالصدقة لا يقبضها». وتنظر بقية أحاديث الباب عند أحمد والسيوطي.

وقال الزمخشريُّ: والرِّباط: اسمٌ للخيل التي تُربَط في سبيل الله، ويجوز أن تُسمَّى بالرِّباط الذي هو بمعنى المرابطة، ويجوز أن يكون جَمْعَ: رَبِيْط، كفَصِيْل وفِصَال[١].

وقرأ الحسن وأبو حَيْوة وعمرو بن دينار: «ومِن رُبُط» بضمِّ الراء والباء، وعن أبي حيوة والحسن أيضاً: «رُبْط» بضمِّ الراء وسكون الباء، وذلك نحو كتاب وكُتُب وكُتْب.

قال ابنُ عطيَّة: وفي جمعه ـ وهو مصدر غير مختلف ـ نَظَرٌ[٢]. انتهى. ولا يتعيَّن كونه مصدراً، أَلَا ترى إلى قول أبي زيدٍ إنَّه مِن الخيل الخَمْس فما فوقها، وأنَّ جِماعها رُبُط، وهي التي تُرتَبط.

والظاهر عمومُ الخيل ذكورها وإناثها، وقال عكرمة: «رباط الخيل»: إناثها[٣]، وفسّر القوَّة بذكورِها، واستحبَّ رباطَها بعضُ العلماء؛ لِمَا فيها مِن النِّتاج، كما قال: بُطُونها كَنْزٌ[٤]. وقيل: «رباط الخيل» الذكورُ منها؛ لِمَا فيها مِن القوَّة والجَلَد على القتال والكفاح والكرِّ والفرِّ والعَدْوِ.

والضمير في «به» عائد على «ما» مِن قوله: «ما استطعتم». وقيل: على الإعداد. وقيل: على القوَّة، وقيل: على «رباط».

و«تُرهبون» قالوا: حالٌ مِن ضمير «وأعدُّوا»، أو مِن ضمير «لهم»، ويحصل بهذا الارتباط والإرهاب فوائدُ؛ منها أنَّهم لا يقصدون دخولَ دار الإسلام، وباشتداد الخوف قد يَلتزمون الجزيةَ أو يُسلمون، أو لا يُعِيْنون سائرَ الكفار.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٦٥، ودابَّة رَبِيط: مربوطة. اللسان (ربط).

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٦، والقراءتان في القراءات الشاذة ص٥٠.

(٣) أخرجه عنه ابن أبي شيبة (٣٤١٨٠)، والطبري ١١/ ٢٤٦، وابن أبي حاتم ٥/ ١٧٢٢.

(٤) أورده ابن عبد البرِّ في بهجة المجالس ٣/ ٦٨ عن عمر بن الخطاب قولَه، وأورده أيضاً الجاحظ في البيان والتبيين ٢/ ١٩، وابن عبد ربِّه في العقد الفريد ١/ ١٥٢، وابن حمدون في التذكرة الحمدونية ٥/ ٢٤١ عن النبي ﷺ مرفوعاً، ولم نقف عليه مسنداً إلا ما أورده ابن قتيبة في عيون الأخبار ١/ ١٥٣ عن سهل بن محمد، عن أبي عبيدة أن النبي ﷺ قال: «عليكم بإناث الخيل، فإن ظهورها حِرْز وبطونها كنز».

وقرأ الحسن ويعقوب وابنُ عقيل لأبي عمرو: «تُرَهِّبون» مشدَّداً، عُدِّيَ بالتضعيف، كما عُدِّي بالهمزة، قال أبو حاتم: وزَعَم عَمْرو أنَّ الحسنَ قَرَأ: «يُرْهبون» بالياء مِن تحت وخفَّفها[١]. انتهى.

والضمير في «يرهبون» عائدٌ على ما عاد عليه «لهم» وهم الكفار، والمعنى: إنَّ الكفار إذا علموا بما أعددتم للحرب مِن القوَّة ورِباطِ الخيل، خَوَّفوا مَن يَليهم مِن الكفار وأرْهبوهم، إذ يُعلمونهم ما أنتم عليه مِن الإعداد للحرب فيَخافون منكم، وإذا كانوا قد أخافوا مَن يَليهم منكم فهو أشدُّ خوفاً لكم.

وقرأ ابنُ عبَّاس وعكرمة ومجاهد: «تُخْزُونَ به»[٢] مكان «ترهبون به»، وذكرها الطبريُّ على جهة التفسير لا على جهةِ القراءة[٣]، وهو الذي ينبغي؛ لأنَّه مخالفٌ لسواد المصحف.

وقرأ السُّلمي: «عدوًّا لله» بالتنوين ولامِ الجرّ[٤]، قال صاحبُ «اللوامح»: فقيل أراد به اسمَ الجنس، ومعناه: أعداء الله، وإنَّما جعله نكرةً بمعنى العامَّة؛ لأنَّها نكرة أيضاً، لم يتعرَّف بالإضافة إلى المَعرفة؛ لأنَّه اسمُ الفاعل ومعناه الحال والاستقبال، ولا يتعرَّف ذلك وإن أُضيف إلى المعارف، وأمَّا «وعدوَّكم» فيجوز أن يكون كذلك نكرةً، ويجوز أن يكون قد تعرَّف؛ لإعادة ذِكْره، ومثله: رأيتُ صاحباً لكم، فقال لي صاحبكم، والله أعلم. انتهى.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٦، وقراءة يعقوب ـ وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٢٧٧، وأورد القراءة الأولى ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص ٥٠ ونسبها للسلمي وعصمة لكن بالياء بدل التاء. والقراءة الثانية ـ وقول أبي حاتم ـ أورده السمين في الدر المصون ٥/ ٦٢٨ لكن ورد عنده: أنَّ أبا عمرو نقل قراءة الحسن. . . ، يعني بزيادة: أبا. قبل: عمرو. فليحرَّر، والقراءة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٥٠ وعزاها للسلمي والحسن.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٦، والكشاف ٢/ ١٦٦، والقراءة في القراءات الشاذة ص ٥٠ لكن تصحفت في مطبوعه إلى: يجرون به. فليحرَّر.

(٣) تفسير الطبري ١١/ ٢٤٦-٢٤٧، وهي مذكورة عنده تخريجاً عنهم، لكن وقع في مطبوعه أثَرُ ابنِ عباس في بعض الروايات هكذا: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ قال: تُخْزُون به عدوَّ الله وعدوَّكم، وكذا كان يقرؤها: «تُخْزُون»، وأشار محقِّقوه إلى أن لفظة: «تخزون» وقعت في النسخ: «ترهبون»، وأن التصويب من قِبَلهم اعتماداً على ما ورد في الكشاف والبحر، فليحرَّر.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٦، والقراءة في القراءات الشاذة ص ٥٠.

وذكر أوَّلاً «عدوّ الله» تعظيماً لما هم عليهِ من الكفر وتقويةً لذمِّهم، وأنَّه يجب لأجل عداوتهم لله تعالى أن يُقاتَلوا ويُبغَضوا، ثم قال: «وعدوّكم» على سبيل التحريض على قتالهم، إذ في الطبع أن يُعاديَ الإنسانُ مَن عاداه، وأن يَبغي له الغوائل، والمراد بهاتين الصفتين مَن قَرُبَ مِن الكفار مِن ديار الإسلام مِن أهل مكَّة ومشركي العرب، قيل: ويجوز أن يُراد جميع الكفار.

«وآخَرين مِن دونهم» أصلُ: «دُون» أن تكون ظرفَ مكان حقيقةً أو مجازاً، قال ابنُ عطيَّة: «مِن دونهم» بمنزلة قولك: دون أن يكون هؤلاء، فـ «دون» في كلام العرب و«مِن دون» يقتضي عدمَ المذكور بعدها مِن النازلة التي فيها القول، ومنه المَثَل: وأُمِرَّ دونَ عُبَيْدَةَ الوَذَمُ[1].

قال مجاهد: «وآخرين» بنو قريظة، وقال مقاتل: اليهود، وقال السُّدِّي: أهلُ فارس، وقالت فرقة: كفَّار الجِنِّ، ورجَّحه الطبريُّ[2]، واستند في ذلك إلى ما رُوِيَ من أنَّ صَهِيلَ الخيل تَنفر الجِنُّ منه، وأنَّ الشياطينَ لا تَدخُل داراً فيها فرسُ الجهاد، ونحو هذا.

وقالت فرقة: هم كلُّ عدوٍّ للمسلمين غيرِ الفِرْقة التي أُمِرَ النبيُّ ﷺ أن يُشرِّد بهم مَن خَلْفهم.

وقال ابن زيد: هم المنافقون[3]، وهذا أظهر؛ لأنَّه قال: «لا تعلمونهم الله يعلمهم» أي: لا تعلمون أعيانَهم وأشخاصَهم، إذ هم متستِّرون عن أن تعلموهم بالإسلام، فالعِلْم هنا كالمعرفة تعدَّى إلى واحدٍ، وهو متعلِّقٌ بالذوات وليس متعلِّقاً بالنسبة، ومَن جَعَله متعلِّقاً بالنسبة فقدّر مفعولاً ثانياً محذوفاً، وقدَّره: محارِبين = فقد

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٧، والمثل في جمهرة الأمثال للعسكري ١/ ١٦٥، ومجمع الأمثال للميداني ٢/ ٢٨٥، والمثل يُضرب للرجل يُقطَع الأمرُ دونه، وهو ممَّا يُهجى به، والوَذَم: سَيْر يُشَدُّ به أُذُن الدَّلْو. والمَثَل ورد في بيت لطرفة بن العبد:

ولقد هممتُ بذاك إذ حُبِسَت ... وأُمِرّ دونَ عُبيدةَ الوَذَمُ

وهو في ديوانه ص ٨٩.

(٢) في (أ) و(ح) و(ع): الطوسي. وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٦، وتفسير الطبري ١١/ ٢٤٧-٢٥٠.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٦، وتفسير الطبري ١١/ ٢٤٨-٢٤٩.

أَبعدَ؛ لأنَّ حذفَ مِثْلِ هذا دونَ تقدُّم ذِكْرٍ، ممنوعٌ عند بعض النحويِّين، وعَزيزٌ جدًّا عند بعضهم، فلا يُحمَل القرآنُ عليه مع إمكان حملِ اللفظ على غيره وتمكُّنه مِن المعنى.

وقدَّره بعضهم: «لا تَعلمونهم» فازِعين[١] راهبينَ «اللهُ يعلمهم» بتلك الحالة.

والظاهر أن تكون إشارةً إلى المنافقين ـ كما قلنا ـ على جهة الطَّعْن عليهم والتنبيهِ على سُوء حالهم، وليستريبَ بنفسِه كلُّ مَن يعلم منها نفاقاً إذا سمع الآية، وبفَزَعهم ورهبتهم غَناءٌ كبير في ظهور الإسلام وعلُوِّه.

وقال القرطبيُّ ما معناه: لا ينبغي أن يُعيِّن قوله: «وآخرين»؛ لأنَّه تعالى قال: «لا تعلمونهم اللهُ يعلمهم» فكيف يَدَّعي أحدٌ عِلْماً بهم، إلَّا أن يصحَّ حديثٌ فيه عن الرسول ﷺ[٢]. انتهى.

ثم حضَّ تعالى على النفقة في سبيل الله مِن جهاد وغيرِه، وكان الصحابة ﷺ يَحملُ واحدٌ منهم الجماعةَ على الخيل والإبل، وجهَّز عثمانُ ﷺ جيشَ العُسْرةِ بألف دينار، «يوفَّ إليكم» جزاؤه وثوابُه مِن غيرِ نقص، وقيل: هذه التوفية في الدنيا على ما أنفقوا مع ما أعدّ لهم في الآخِرة مِن الثواب.

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ جَنَحَ الرَّجلُ إلى الآخَر[٣]: مَالَ إليه، وجَنحت الإبلُ: مالت أعناقُها في السَّير، قال ذو الرُّمَّة:

إذا مات فوقَ الرَّحْلِ أحييتُ روحَهُ بذِكْراكِ والعِيْسُ المراسيلُ جُنَّحُ[٤]

وجَنَحَ اللَّيلُ: أَقبلَ وأَمالَ أطنابَه[٥] على الأرض. وقال النابغة يَصف طُيوراً تتبع الجيش:

---

(١) في (أ) و(ب) و(ع): فارغين. وفي المطبوع: فازغين. وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٧.

(٢) تفسير القرطبي ١٠/ ٦١، وينظر الحديث الذي أورده ثمَّة، والذي قال عنه ابن كثير: منكر، لا يصح إسناده ولا متنه.

(٣) في (أ): الأمر. وكذا في المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٧، وينظر تفسير القرطبي ١٠/ ٦٢.

(٤) تفسير القرطبي ١٠/ ٦٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٤٧، والبيت في ديوان ذي الرّمّة ٢/ ١٢١٥، ومعنى: إذا مات. أي: من شدَّة النعاس، والعيس: الإبل البيض، والمراسيل: السراع في سهولة، و: جُنَّح: قد أكبَّت في السير.

(٥) الطُّنُب: حبل طويل يُشدُّ به سُرادق البيت، أو الوتدُ، والجمع: أطناب وطِنَبَة. القاموس (طنب)، والمراد به هنا خيوط الليل.

جَـوانِـحَ قـد أَيـقـنَّ أنَّ قَـبِـيْـلَـهُ إذا ما التقى الجَمْعانِ[١] أوَّلُ غالبِ

ومنه قيل للأضلاع: جوانح؛ لأنَّها مالت على الحُشوة[٢]، ومنه: الجَنَاح؛ لمَيْله.

وقال النَّضر بنُ شُمَيل: جَنَحَ الرجلُ إلى فلانٍ، وجَنَحَ له: إذا تابعه، وخَضَع له[٣].

والضمير في «جنحوا» عائد على الذين نُبذَ إليهم على سواء، وهم بنو قريظة والنضير، وقيل: على مشركي قريش والعرب، وقيل: على قوم سألوا مِنَ الرسول ﷺ قَبولَ الجزية منهم.

وجَنَح يتعدَّى بـ «إلى» وباللام، و«السَّلْم» يذكَّر ويؤنَّث، فقيل: التأنيث لغة، وقيل: على معنى المسالمة، وقيل: حَمْلاً على النقيض، وهو الحرب، وقال الشاعرُ:

وأَفـنـيـتُ فـي الـحـرب آلاتِـهـا وأَعْـدَدتُ لـلـسَّـلْـم أوزارَهـا[٤]

وتقدَّم الخلاف في قراءة فتح السين وكسرها[٥]، والسِّلْم: الصُّلْحُ لغةً. فقال قتادة: هي موادعة المشركين ومهادنتهم[٦]، وهذا راجع إلى رأي الإمام، فإن رآه مصلحةً فَعَل، وإلَّا فلا. وقيل: نزلت في قوم معتِّب سألوا الموادعةَ، فأمر اللهُ نبيَّه بالإجابةِ إليها، ثم نُسخت بقوله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:٢٩]. وقيل: أداء الجزية، [٧]وقال الحسن: السِّلْم: الإسلام، وعن ابنِ عباس: نُسخت بقوله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٧] [التوبة:٢٩]، وعن مجاهد: بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ

(١) في (أ) و(ب) و(ح) و(د١) والمطبوع: الجيشان، وينظر تفسير القرطبي ١٠/ ٦٢، وديوان النابغة ص ١٠.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٧، وتفسير القرطبي ١٠/ ٦٢، والحُشوة، بالضَّمّ والكسر: الأمعاء. النهاية (حشا).
(٣) تهذيب اللغة ٤/ ١٥٥ (جنح)، واللسان (جنح).
(٤) القائل: ابن حمديس، والبيت في ديوانه ص ١٨١.
(٥) عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة:٢٠٨].
(٦) أخرجه عنه الطبري ١١/ ٢٥٢-٢٥٣، وعنه النحاس في الناسخ والمنسوخ (٥٤٠).
(٧-٧) ليست في (أ)، وقول الحسن أخرجه الطبري ١١/ ٢٥٣ لكن عن ابن إسحاق، وكلامه في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٧٤، وقول ابن عباس في الكشاف ٢/ ١٦٦، وأخرجه أبو عبيد

حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة:٥]. قال الزمخشريُّ: والصحيح أنَّ الأمرَ موقوفٌ على ما يَرى فيه الإمامُ صلاحَ الإسلام وأهلِه مِن حرب أو سِلْم، وليس بحتمٍ أن يُقاتَلوا أبداً أو يجابوا إلى الهدنة أبداً(١).

وقرأ الأشهبُ العقيليّ: «فاجْنُح» بضمِّ النون، وهي لغةُ قيس، والجمهور بفتحها وهي لغة تميم، وقال ابنُ جنّيّ: القياس في فَعَلَ اللازم ضمُّ عينِ الكلمة في المضارع، وهي أقيس مِن يَفعِل بالكسر(٢).

وأمره تعالى بالتوكُّل عليه، فلا يبالي بهم وإن أَبطنوا الخديعةَ في جنوحهم إلى السَّلْم، فإنَّ اللهَ كافي مَن توكَّل عليه، وهو «السميع» لأقوالهم «العليم» بنيَّاتهم.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ أي: وإن يُرِدِ الجانحونَ للسَّلْم بأن يظهروا السَّلْم ويبطنوا الخيانةَ والغَدْر مخادعةً، فاجنح لها، فما عليك مِن نيَّاتهم الفاسدة، فإنَّ مُحْسِبَكَ وكافيَك هو «اللهُ»، ومَن كان اللهُ حَسبَه لا يبالي بمن نوى سوءاً، ثمَّ ذكَّره بما فَعَل معه أوَّلاً مِن تأييده بالنَّصْر وبائتلاف المؤمنين على إعانتهِ ونَصْره على أعدائه، فكما لطفَ بكَ أوَّلاً يَلطف بك آخِراً.

والمؤمنون هنا: الأوس والخَزْرَج، وكان بين الطائفتين مِن العداوة للحروب التي جرت بينهم ما كان ـ لولا الإسلامُ ـ لِيَنْقَضِي أبداً، ولكنَّه تعالى مَنَّ عليهم بالإسلام، فأَبْدَلهم بالعداوة محبَّةً، وبالتباعد قُرْباً.

ومعنى «لو أنفقتَ ما في الأرض جميعاً» أي: (٣)على تأليف قلوبهم واجتماعها على محبَّة بعضها بعضاً(٣)، وكونها في الأوس والخزرج تظاهرت به أقوالُ

= في الناسخ والمنسوخ (٣٦١)، وينظر كلام الطبري في تفسيره ١١/ ٢٥٣-٢٥٤ وابنِ عطية في المحرر الوجيز ٢/٥٤٨ حول قضية النَّسْخ هذه.

(١) الكشاف ٢/١٦٦، وقول مجاهد السالف فيه.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٢/٥٤٨، والقرطبي ١٠/٦٣، والقراءة ـ وكلامُ ابن جنّي ـ في المحتسب ١/ ٢٨٠، وينظر أيضاً كتابه المُنْصِف ١/ ١٨٥-١٨٦.

(٣-٣) ليست في (ب).

المفسِّرين، وقال ابنُ مسعود: نزلت في المتحابِّين في الله[١].

قال ابنُ عطيَّة: ولو ذهبَ ذاهبٌ إلى عموم المؤمنين في المهاجرين والأنصار، وجعل التأليف ما كان بين جميعهم، فكلٌّ يألَفُ في الله[٢].

وقال الزمخشريُّ: التأليف بين قلوب مَن بُعثَ إليهم رسولُ الله ﷺ لما رَأَوا مِن الآيات الباهرة؛ لأنَّ العربَ لما فيهم مِن الحميَّة والعصبيَّة والانطواء على الضَّغِينة في أدنى شيء وإلقائه بين أعينهم إلى أن ينتقموا، لا يَكاد يَأتَلِف منهم قلبان، ثم ائتَلفت قلوبُهم على اتِّباع رسول الله ﷺ واتَّحدوا، وذلك لما نظم اللهُ مِن أُلفتهم، وجَمع مِن كلمتهم، وأَحدث بينهم مِن التحابِّ والتوادِّ، وأماط عنهم مِن التباغض، وكلَّفهم مِن الحبِّ في الله، والبُغْض في الله، ولا يَقدر على ذلك إلَّا مَن يَملك القلوب، فهو يقلِّبها كما يشاء، ويَصنع فيها ما أراد[٣]. انتهى.

وكلامه أخيراً قريب مِن كلام أهل السُّنَّة؛ لأنَّهم قالوا: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ العقائد والإراداتِ والكراهاتِ مِن خَلْق الله، لأنَّ ما حصل مِن الأُلف هو بسبب الإيمان ومتابعةِ الرسول ﷺ، فلو كان الإيمانُ فِعْلاً للعبد [٤]لكانت المحبَّة المترتِّبة عليه فعلاً للعبد[٤]، وذلك خلافُ صريح الآية.

وقال القاضي: لولا ألطاف الله تعالى ساعةً ساعةً ما حصلت هذه الأحوال، فأضيفت إلى الله على هذا التأويل، ونظيره أنَّه يُضاف عِلْمُ الولد وأَدَبُه إلى أبيه؛ لأجل أنَّه لم يُحصِّل ذلك إلَّا بمعونة الأبِ وتربيته، فكذلك هنا[٥]. انتهى. وهذا هو مذهبُ المعتزلة.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٨، وأخرجه عنه النسائي في الكبرى (١١١٤٦)، والطبري ١١/ ٢٥٩.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٨-٥٤٩، وعبارته فيه هكذا: ولو ذهب إلى عموم المؤمنين في المهاجرين والأنصار، وجعل التأليف ما كان من جميعهم من التحابّ حتى تكون ألفة الأوس والخزرج جزءاً من ذلك لساغ ذلك، وكلّ تألف في الله فتابع لذلك التألف الكائن في صدر الإسلام.
(٣) الكشاف ٢/ ١٦٦.
(٤-٤) ليست في (ب).
(٥) تفسير الرازي ١٥/ ١٨٩، وما قبله منه أيضاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ نزلت بالبَيداء في غزوة بدر قَبْلَ القتال[١]. وقال ابنُ عباسٍ وابنُ عمر وأنس: في إسلام عمر[٢]. قال ابنُ جبير: أسلم ثلاثة وثلاثون رجلاً وستُّ نسوةٍ، ثم أَسلم عمر، فنزلت[٣].

والظاهر رفع «ومَنْ» عطفاً على ما قبله، وعلى هذا فسَّره الحسنُ وجماعةٌ، أي: حَسْبُك اللهُ والمؤمنون[٤]. وقال الشعبيُّ وابنُ زيد: معنى الآية: حَسْبُك اللهُ وحَسْبُ مَن اتَّبعكَ.

قال ابنُ عطيَّة[٥]: فـ«مَن» في هذا التأويل في موضع نصب عطفاً على موضع الكاف؛ لأنَّ موضعها نصبٌ على المعنى بـ: يكفيك، الذي سدَّت «حَسْبُك» مسدَّها. انتهى. وهذا ليس بجيِّدٍ؛ لأنَّ «حَسْبك» ليس ممَّا تكون الكاف فيه في موضع نَصْب، بل هذه إضافة صحيحة ليست مِن نصبٍ، و«حَسْبك» مبتدأ مضاف إلى الضمير، وليس مصدراً ولا اسمَ فاعل، إلَّا إن قيل: إنَّه عطف على التوهُّم، كأنَّه تُوهِّم أنَّه قيل: يكفيكَ اللهُ، أو: كفاك اللهُ، لكن العطف على التوهُّم لا ينقاس، فلا يُحمَل عليه القرآنُ ما وُجدت مندوحة عنه، والذي ينبغي أن يُحمل عليه كلام الشعبيِّ وابنِ زيد هو أن تكون «ومَن» مجرورة على حذف: وحسب، لدلالة «حَسْبك» عليه، فيكون كقوله:

أَكُلَّ امرئٍ تحسبين امْرَأً ونارٍ تَوقَّدُ بالليل ناراً[٦]

أي: وكلّ نارٍ، فلا يكون مِن العطف على الضمير المجرور.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٩ وعزا القولَ فيه للنقاش.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٩، وأثر ابن عباس أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٤٧٠)، والواحدي في الوسيط ٢/ ٤٦٩-٤٧٠، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٨: فيه إسحاق بن بشر الكاهلي، وهو كذاب. اهـ. وقال القرطبي في تفسيره ١٠/ ٦٧-٦٨: ما ذكر من إسلام عمر عن ابن عباس، فقد وقع في السيرة [١/ ٣٤٢] خلافه... إلى آخر كلامه. فلينظر ثمَّة.

(٣) تفسير الثعلبي ٣/ ١٥٥، والكشاف ٢/ ١٦٧، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم (٩١٣٥)، وينظر التعليق السابق.

(٤) ينظر تفسير القرطبي ١٠/ ٦٨، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩٥، وقد رَدَّ هذا الكلام ابن القيم في زاد المعاد ١/ ٣٨ حيث قال: هذا التقدير وإن قاله بعض الناس، فهو خطأ محض، لا يجوز حمل الآية عليه، فإن الحَسْب والكفاية لله وحده.

(٥) في المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٩، وما قبله منه أيضاً، وأثر الشعبي وابنِ زيد أخرجه عنهما الطبري ١١/ ٢٦٠.

(٦) سلف في سورة النساء، عند تفسير الآية (٣٤).

وقال ابنُ عطيَّة: وهذا الوجه مِن حذف المضاف مكروهٌ، بابُه[1] ضرورةُ الشعر. انتهى. وليس بمكروهٍ ولا ضرورة، وقد أجازه سيبويه في الكلام، وخرَّج عليه البيتَ وغيرَه مِن الكلام الفصيح[2].

وقال الزمخشريُّ: «ومَن اتَّبعك» الواو بمعنى «مع» وما بعدَه منصوبٌ، تقول: حَسْبُكَ وزيداً درهمٌ، ولا تجرّ، لأنَّ عطفَ الظاهر المجرور على المُكْنى ممتنعٌ، قال:

فحَسْبُكَ والضَّحَّاكَ سيفٌ مهنَّدُ[3]

والمعنى: كفاكَ وكفى تُبَّاعَك مِن المؤمنين اللهُ ناصراً. انتهى.

وهذا الذي قاله الزمخشريُّ مخالفٌ لكلام سيبويه، قال سيبويه: قالوا: حَسْبك وزيداً درهمٌ، لمَّا كان فيه معنى: كفاكَ، وقَبُح أن يَحملوه على المضمَر، نَوَوا الفعلَ، كأنَّه قال: حَسْبُك ـ ويُحْسِبُ[4] ـ أخاكَ درهمٌ، وكذلك: كَفْيُك[5]. انتهى.

كَفْيُك: هو مِن كَفاه يَكفيه، وكذلك: قَطْكَ، تقول: كَفْيُك وزيداً درهمٌ، وقَطْكَ وزيداً درهمٌ، وليس هذا مِن باب المفعول معه، وإنما جاء سيبويه به حجَّةً للحمل على الفعل للدلالة، فحسبُك يدلُّ على كفاك، و: يُحْسبني، مضارع: أَحْسَبني فلانٌ: إذا أعطاني حتى أقولَ: حَسْبِي، فالناصبُ في هذا فعلٌ يدلُّ عليه المعنى، وهو في: كَفْيُك وزيداً درهمٌ، أوضحُ؛ لأنَّه مصدرٌ للفعل المضمَر، أي: ويكفي زيداً، وفي: قَطْكَ وزيداً درهمٌ، التقدير فيه أبعدُ؛ لأنَّ قَطْكَ ليس في الفعل

---

(١) في (أ) و(ب) و(د١) و(ز١) و(ع) و(يه): بأنه. والمثبت من (ح) والمحرر الوجيز ٢/ ٥٤٩.

(٢) ينظر الكتاب ١/ ٦٥-٦٦.

(٣) الكشاف ٢/ ١٦٧، وعجز البيت في الصحاح (عصا)، وشرح المفصل ٢/ ٥١، والأمالي ٢/ ٢٦٢، وذيل الأمالي للقالي ص١٤٠، ونُسب عند الأخير لجرير، ولم نقف عليه في ديوانه، وصدره:

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا

وورد في تفسير البيضاوي ٣/ ٥٦، وروح المعاني ١٠/ ١٧٨: واشتجر القنا، بدل: وانشقت العصا، وورد البيت في روح المعاني عجزُه صدراً وبالعكس.

(٤) في (ح): ومُحْسِبُ.

(٥) الكتاب ١/ ٣١٠.

المضمَر شيءٌ مِن لفظه، إنَّما هو مفسَّرٌ مِن حيث المعنى فقط، وفي ذلك الفعل المضمَر فاعل يَعود على الدرهم، والنِّيَّةُ بالدرهم التقديمُ، فيصير مِن عطف الجمل، ولا يجوز أن يكون مِن باب الإعمال؛ لأنَّ طلبَ المبتدأ للخبر وعملَه فيه، ليسَ مِن قَبيل طَلَب الفعل أو ما جرى مجراه، ولا عمله، فلا يتوهَّم ذلك فيه.

وقال الزجَّاج: حَسْبُ: اسمُ فعلٍ، والكاف نصبٌ، والواو بمعنى «مع». انتهى. فعلى هذا يكون «الله» فاعلاً بـ«حَسْبُكَ»، وعلى هذا التقدير يجوز في «ومَن» أن يكون معطوفاً على الكاف؛ لأنَّها مفعولٌ باسم الفعل لا مجرور، لأنَّ اسمَ الفعل لا يُضاف، إلَّا أنَّ مذهبَ الزجَّاج خطأ؛ لدخول العواملِ على «حسبك»، تقول: بحَسْبك درهمٌ، وقال تعالى: «فإنَّ حَسْبَك اللهُ» ولم يَثبت كونه اسمَ فِعْلٍ في مكان فيُعتقد فيه أنَّه يكون اسمَ فعلٍ واسماً غيرَ اسمِ فِعْلٍ، كـ: رُوَيْدَ، وأجاز أبو البقاء رَفْعَ «ومَن» على أنَّه خبر مبتدأ محذوف، تقديره: وحَسْبُكَ مَن اتَّبعك، وعلى أنَّه مبتدأ محذوفُ الخبر، تقديره: ومَن اتَّبعك مِن المؤمنين كذلك، أي: حَسْبهم اللهُ[(١)].

وقرأ الشعبيُّ: «ومَنْ أَتْبَعك» بإسكان النون[(٢)]، وأتبع على وزن أَكْرَم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ هاتان الجملتان شرطيَّتان في ضمنهما الأمرُ بصَبْر عشرين لمئتين، وبصبر مئة لألف، ولذلك دخلها النَّسْخ، إذ لو كان خبراً محضاً لم يمكن فيه النَّسْخ، لكن الشرط إذا كان فيه معنى التكليف جاز فيه النَّسْخ، وهذا مِن ذلك، ولذلك نُسخَ بقوله: «الآن خفَّف الله عنكم»، والتقييد بالصبر في أوَّل كلِّ شرط لفظاً هو محذوف مِن الثانية؛ لدلالة ذِكْره في الأولى، وتقييد الشرط الثاني بقوله: «من الذين كفروا» لفظاً هو محذوف مِن الشرط

(١) الإملاء ٢/ ١٠، ولم يُذكَر في مطبوعه الوجه الثاني، بل ذُكر وجه آخر وهو أن يكون خبراً آخر، ولعلَّه سقط من مطبوعه هذا الوجه، بدليل أنه قال: للرفع ثلاثة أوجه، ولم يذكر سوى اثنين، فليحرَّر.

(٢) القراءات الشاذة ص ٥٠.

الأوَّل في قوله: «يغلبوا مئتين» فانظر إلى فصاحة هذا الكلام؛ حيث أثبت قيدٌ في الجملة الأولى وحذف نظيرُه مِن الثانية، وأُثبت قيد في الثانية وحُذف مِن الأولى، ولمَّا كان الصبرُ شديدَ المطلوبيَّة أُثبت في أُولى جملتَي التخفيف، وحُذف مِن الثانية؛ لدلالة السابقة عليه، ثم خُتمت الآية بقوله: «واللهُ مَعَ الصابرين» مبالغة في شدَّة المطلوبيَّة، ولم يأتِ في جملتَي التخفيف قيدُ الكفر؛ اكتفاءً بما قبلَ ذلك.

وتظاهرت الروايات عن ابنِ عباس[(١)] وغيره مِن الصحابة أنَّ ثباتَ الواحد للعشرة كان فَرْضاً، ثم لما شقَّ عليهم انتقل إلى ثباتِ الواحد للاثنين، [(٢)]ومرويٌّ أيضاً عن ابن عباس أن ذلك كان على سبيل الندب لا الفرض[(٣)]، ثم انتقل إلى ثبات الواحد للاثنين[٢)] على سبيل الندب[(٤)] أيضاً، وسواء كان فرضاً أم نَدْباً هو نَسْخٌ، وقول مَن قال: إنَّه تخفيفٌ لا نَسْخ، كمكِّي بنِ أبي طالب = ضعيفٌ، قال مكِّيّ: إنَّما هو كتخفيفِ الفِطْر في السفر، ولو صامَ لم يَأثم وأجزأه[(٥)].

ومناسبة هذه الأعداد أنَّ فَرْضيَّة الثبات أو نَدْبيَّته كان أوَّلاً في ابتداء الإسلام؛ فكان العشرون تمثيلاً للسَّرِيَّة، والمئة تمثيلاً للجيش، فلمَّا اتَّسع نطاقُ الإسلام ـ وذلك بعدَ زمان ـ كان المئة تمثيلاً للسرايا، والألف تمثيلاً للجيش.

وليس في أمرِه تعالى نبيَّه بتحريض المؤمنين على القتال دليلٌ على ابتداءِ فَرْضِيَّة القتال، بل كان القتالُ مُفترَضاً قَبْلَ هذه الآية، وإنَّما جاءت هذه حثًّا على أَمْرٍ كان وَجَبَ عليهم.

ونصَّ تعالى على سبب الغَلَبة؛ بأنَّ الكفارَ «قومٌ لا يَفقهون»، والمعنى: أنَّهم قومٌ جَهَلة يُقاتِلون على غير احتساب وطلبِ ثواب، كالبهائم، فتَفُلُّ نيَّاتهم ويَعدَمُون؛ لجهلهم بالله تعالى نُصْرَتَه، فهو تعالى يَخذلهم، وذلك بخلاف مَن يُقاتِل على بصيرة وهو موعودٌ مِن الله تعالى بالنَّصْرِ والغَلَبة.

---

(١) أخرجه عنه البخاري (٤٦٥٢) و(٤٦٥٣).

(٢-٢) ليست في (أ) و(ح) و(ع) والمطبوع، والمثبت من (ب) و(ز١).

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٠، وينظر تفسير الطبري ١١/ ٢٦٢ وما بعدها.

(٤) في (د١) و(ع) والمطبوع: التقرب.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٠، وكلام مكي في الهداية ٤/ ٢٨٧٥.

وعن ابنِ جريج: كان عليهم أن لا يفرُّوا ويثبت الواحد للعَشَرة، وكان رسولُ الله ﷺ قد بعث حمزةَ في ثلاثين راكباً، فلقي أبا جهل في ثلاث مئة راكب. قيل: ثم ثَقُلَ عليهم ذلك وضَجُّوا منه، وذلك بعد مُدَّةٍ طويلة، فنُسخ وخفّف عنهم بمقاومة الواحدِ للاثنين(١).

وقال بعضُ العلماء: الذي استقرَّ حُكم التكليف عليه بمقتضى هذه الآية أنَّ كلَّ مسلم بالِغ وقفَ بإزاء المشركين عبداً كان أو حرًّا، فالهزيمة عليه محرَّمة مادام معه سلاحُه يُقاتل به، فإن كان ليس معه سلاح، فله أن يَنهزم، وإنْ قابَلَه(٢) ثلاثة حلَّت له الهزيمة، والصبرُ أَحسَنُ.

وروى البيهقيُّ وغيرُه أنَّ جيشَ مُؤْتَة ـ وكانوا ثلاثةَ آلاف من المسلمين ـ وقفوا لمئتي ألفٍ؛ مئة ألفٍ مِن الرُّوم، ومئة ألفٍ مِن الأنباط، ورُويَ أنَّهم وقفوا لأربع مئة ألف(٣)، والأوَّلُ هو الصحيح.

وفي تاريخ فتح الأندلس أنَّ طارقاً مولى موسى بنِ نُصَيْر صار في ألف رجلٍ وسبع مئة رجل إلى الأندلس، وذلك في رَجَبٍ سنة ثلاثٍ وتسعين مِن الهجرة، فالتقى هو ومَلِك الأندلس لُذْرِيق، وكان في سبعين ألف عِنان، فزحفَ إليه طارق وصَبَر له، فهزم اللهُ الطاغيةَ لُذْرِيق وكان الفتحُ(٤). انتهى.

---

(١) الكشاف ٢/١٦٧، وأثر ابن جريج أخرجه الطبري ١١/٢٦٢ عنه، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس رضي الله عنهما مطوّلاً، وسلف قريباً أثر ابن عباس، وخبر إرسال النبيّ ﷺ حمزة أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ١٠-١٢، وأورده ابن هشام في السيرة النبوية ١/ ٥٩٥، وابن عبد البرّ في الدرر في اختصار المغازي والسير ص ٩١، مع اختلاف بالروايات والعَدد عند البيهقي.

(٢) في (ب): قاتله.

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٤/٣٥٨-٣٦٠ من حديث عروة بن الزبير رضي الله عنهما، وأورده ابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٣٧٣ وما بعدها، والواقدي في المغازي ٣/١١١٧، وابن سعد في الطبقات ٢/ ١٧٠، ولم نقف على الرواية الثانية.

(٤) تفسير القرطبي ١٠/ ٤٧١-٤٧٢، والذي في تاريخ الطبري ٦/٤٦٨، والمنتظم ٦/٣٠٣، والكامل ٤/ ٥٦١-٥٦٢ أن فتح الأندلس كان سنة اثنتين وتسعين من الهجرة، وأن عدد المسلمين كان اثني عشر ألفاً، وأنَّ دخول موسى بن نصير كان سنة ثلاث وتسعين، فليحرَّر. وطارق كان أميراً على طنجة بأقصى المغرب، هزم الفرنج، وافتتح قرطبة، وكتب بالنصرِ =

وما زالت جزيرةُ الأندلس تلتقي الشِّرْذمةُ القليلة منهم بالعدد الكثير مِن النصارى فيَغلبونهم، وأَخبَرنا مَن حَضَرَ الوقعة التي كانت في الديموس الصغير على اثني عشر ميلاً مِن مدينة غِرْناطة سنة تسع عشرة وسبع مئة، وكان المسلمون ألفاً وسبع مئة فارس مِن الأندلسيين والبَرْبَر، وكان النصارى مئة ألف راجل[١]، وستِّين ألف رامٍ، وخمسةَ عَشَر ألف فارسٍ بين رامٍ ومُدرَّع، فصبروا لهم[٢]، وأَسروا أكابرَهم، وقتلوا مَلِك قُشتَالَة ذُوْن جُوَان[٣]، ونجا أخوه: ذُوْن بِطْرُ[٤] مجروحاً، وكان ملوك النصارى - مَلِك قشتَالَة المذكور، ومَلِك أفرنسة[٥]، وملكُ يُرْطُقال[٦]، وملك غلَسِيَّة[٧]، وملك قلعة رَباح - قد خرجوا عازمينَ على استئصال المسلمين مِن الجزيرة، فهزمهم اللهُ تعالى.

قال الزمخشريُّ: فإن قلت: لم كرَّر المعنى الواحد؛ وهو مقاومة الجماعة لأكثرَ منها مرَّتين قبلَ التخفيف وبَعْدَه؟

قلت: للدلالة على أنَّ الحال مع القلَّة والكثرة واحدةٌ ولا تتفاوت؛ لأنَّ الحال قد تتفاوت بين مقاومةِ العشرين للمئتين والمئة للألف، فكذلك بين المئة للمئتين، والألف للألفين[٨]. انتهى.

= إلى مولاه موسى بن نصير، فحسده وتوعَّده، ثم قبض عليه وأساء إليه. وموسى بن نصير هو أبو عبد الرحمن اللخمي، متولي إقليم المغرب، حجَّ مع سليمان فمات بالمدينة. سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٩٦-٥٠٢.
مع الإشارة إلى أنه وقع اسمُ ملك الأندلس في تاريخ الطبري: أذرينوق، ووقع في الكامل: أدرينوق.

(١) في (ب): واحد.
(٢) بعدها في (ب): وهزموهم.
(٣) في (أ) و(د١): دون جوان. وقُشتالَة: عمل من الأعمال الأندلسية. الروض المعطار (قشتالة).
(٤) في (أ) و(ب): بظر.
(٥) في (ب): أفريسة. وأفرنسة: مدينة عظيمة مجاورة لجزيرة الأندلس. فريدة العجائب لابن الوردي.
(٦) في (أ): يرطقاك. وفي (ب): برطقال. وفي (د١) والمطبوع: يوطقال.
(٧) في (أ): غليسية. وفي (ب): علسبته. مع الإشارة إلى أن هذه المدن ضبطت هكذا في (ز١)
(٨) الكشاف ٢/ ١٦٧.

ومعنى «بإذن الله» بإرادته وتمكينه، وفي قوله: «والله مع الصابرين» ترغيبٌ في الثبات للقاء العدوِّ، وتبشيرٌ بالنَّصْر والغَلَبة؛ لأنَّه مَن كان اللهُ معه هو الغالبَ.

وقرأ الأعمش: «حَرِّص» بالصاد المهملة[١]، وهو مِن الحِرْص، وهو قريبٌ مِن قراءة الجمهور بالضاد.

وقرأ الكوفيُّون: «يَكن منكم مئةٌ» على التذكير فيهما، ورواها خارجةُ عن نافع، وقرأ الحِرْميَّان وابنُ عامر على التأنيث، وقرأ أبو عمرو على التذكير في الأولى ولَحَظَ «يغلبوا»، والتأنيث في الثانية ولَحَظَ «صابرة»، وقرأ الأعرج على التأنيث كلِّها إلَّا قوله: «وإن يكن منكم ألفٌ» فإنَّه على التذكير بلا خلاف[٢].

وقرأ المُفَضّل عن عاصم: «وعُلِمَ» مبنيًّا للمفعول[٣].

وقرأ الحِرْميَّان والعربيَّان والكسائيُّ وابنُ عُمر والحسن والأعرج وابنُ القعقاع وقتادة وابنُ أبي إسحاق: «ضُعْفاً» ـ وفي «الروم» ـ بضمِّ الضاد وسكون العين، وعيسى بنُ عمر: بضمِّهما، وحمزة وعاصم: بفتح الضاد وسكون العين[٤]، وهي كلُّها مصادر، وعن أبي عمرو بن العلاء: ضمُّ الضاد لغةُ الحجاز، وفتحُها لغة تميم[٥].

وقرأ ابنُ القعقاع: «ضُعَفاء» جمع: ضَعِيف، كظَرِيْف وظُرَفاء، وحكاها النقَّاش عن ابنِ عباس[٦]، فقيل: الضَّعف في الأبدان، وقيل: في البَصِيرة والاستقامة في

---

(١) القراءات الشاذة ص ٥٠، والكشاف ٢/ ١٦٧ نقلاً عن الأخفش، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٤٩ دون نسبة.

(٢) قراءةُ الكوفيين ـ وهم: عاصم وحمزة والكسائي وخَلَف ـ وقراءةُ الحِرْميان ـ وهما: نافع وابن كثير ـ وابنِ عامر وأبي عمرو في السبعة ص ٣٠٨، والتيسير ص ١١٧، والنشر ٢/ ٢٧٧، وقراءة الأعرج في المحرر الوجيز ٢/ ٥٥١.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥١.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥١، والحرميان: نافع وابن كثير، والعربيان: ابن عامر وأبو عمرو. والقراءتان في السبعة ص ٣٠٨-٣٠٩، والتيسير ص ١١٣، والنشر ٢/ ٢٧٧، والقراءة الثانية أيضاً قراءة خلف من العشرة.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥١.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥١، والقراءة في النشر ٢/ ٢٧٧، والقراءات الشاذة ص ٥٠.

الدِّين، وكانوا متفاوتين في ذلك. وقال الثعالبيُّ: الضَّعْف ـ بفتح الضاد ـ في العقل والرأي، والضُّعْف في الجسم. وقال ابنُ عطيَّة: وهذا قولٌ تَردُّه القراءة[1]. انتهى.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ نزلت في أسرى بدر، وكان الرسول ﷺ قد استشار أبا بكر وعمر وعليًّا، فأشار أبو بكر بالاستحياء، وعُمر بالقَتْل، في حديث طويل يُوقَف عليه في «صحيح مسلم»[2].

وقرأ أبو الدرداء وأبو حَيْوة: «ما كان للنَّبيِّ» معرَّفاً[3].

والمراد به في التنكير والتعريفِ الرسولُ ﷺ، ولكن في التنكير إبهام في كون النفي لم يتوجَّه عليه معيَّناً، وتقدَّم مثلُ هذا التركيب وكيفيَّة هذا النفي، وهو هنا على حذفِ مضاف، أي: ما كان لأصحابِ نبيٍّ، أَوْ: لأَتباعِ نبيٍّ، فحذِف اختصاراً، ولذلك جاء الجمع في قوله: «تريدون عَرَض الدنيا» ولم يَجِئِ التركيبُ: تريد ـ أو: يُريد ـ عَرَض الدنيا؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام لم يَأمر باستبقاءِ الرجال وقتَ الحرب، ولا أَراد عَرَض الدُّنيا قطُّ، وإنَّما فَعَله جمهورُ مباشري الحرب، وقد طوَّل المفسِّرون في قصَّة هؤلاء الأسارى، وذلك مذكور في السِّيَر، وحَذَفناه نحنُ؛ لأنَّ في بعضه ما لا يناسبُ ذِكْرُه بالنسبة إلى مناصب الرُّسُل عليهم السلام.

وقرأ أبو عمرو: «أن تكون» على تأنيث لفظ الجمع[4]، وباقي السبعة والجمهور على التذكير على المعنى.

وقرأ الجمهور والسَّبعة: «أَسْرَى» على وزن فَعْلَى، وهو قياس فَعِيْل بمعنى مفعول، إذا كان آفةً، كجريح وجَرْحَى.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/٥٥١، وكلام الثعالبي في كتابه فقه اللغة وسرّ العربية ص٣٣، مع الإشارة إلى أن الاضطراب الذي وقع في النسخة المحمودية (ح) ينتهي هنا، وتتتابع بعده الأوراق على الجادَّة والصواب.

(٢) برقم (١٧٦٣)، وهو عند أحمد (٢٠٨) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(٣) القراءات الشاذة ص ٥٠، وقال أيضاً: وهي في مصحف أبي الشميط.

(٤) المحرر الوجيز ٢/٥٥٢، والقراءة في السبعة ص ٣٠٩، والتيسير ص ١١٧، والنشر ٢/٢٧٧ وهي أيضاً قراءة يعقوب من العشرة.

وقرأ يزيد بنُ القعقاع والمفضَّل عن عاصم: «أُسارى»، وشُبِّه فَعِيْل بفَعْلان، نحو: كَسْلان وكُسالى، كما شبَّهوا كَسْلان بأسير، فقالوا فيه جمعاً: كَسْلَى، قاله سيبويه، وهما شاذَّان. وزعم الزجَّاجُ أنَّ أُسارى جمع أَسرى، فهو جمعُ جمعٍ[1]، وقد تقدَّم لنا ذِكْر الخلاف في فُعالَى؛ أهو جمعٌ أو اسمُ جَمْع، وأنَّ مذهبَ سيبويه أنَّه مِن أبنية الجموع، ومدلول أَسْرى وأُسارى واحدٌ.

وقال أبو عَمْرو بن العلاء: الأسرى هم غير المُوثَّقين[2] عندما يُؤخَذون، والأسارى هم الموثَّقون ربْطاً. وحكى أبو حاتم أنَّه سمع ذلك مِن العرب، وقد ذكره أيضاً أبو الحسن الأخفش، وقال: العَرب لا تَعرف هذا، كلاهما عندهم سواء[3].

وقرأ أبو جعفر ويحيى بن يَعْمَر ويحيى بن وثَّاب: «حتى يثَخّن» مشدَّداً[4]، عَدَّوْه بالتضعيف، والجمهور بالتخفيف، عَدَّوه بالهمزة، إذ كان قبلَ التعدية: ثَخُن.

ومعنى «عَرَض الدنيا» ما أَخذتم في فداء الأسارى، وكان فداءُ كلِّ رجل عشرين أُوقيَّة، وفداءُ العبَّاس أربعون أوقيَّة، وعن ابن سيرين: مئة أوقيَّة، والأوقيَّة: أربعون درهماً أو ستَّة دنانير[5]، وكانوا مَالوا إلى الفداء ليتقوَّوا بما يصيبونه على الجهاد وإيثاراً للقرابة ورجاءَ الإسلام، وكان ذلك الإثخان والقَتْل أهيبَ للكفَّار وأَرفعَ لمنار الإسلام، وكان ذلك إذ المسلمون قليلٌ، فلمَّا اتسَعَ نطاقُ الإسلام وعزَّ أهله، نزلَ: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤].

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٢، والقراءة السالفة في النشر ٢/ ٢٧٧، وينظر الكتاب ٣/ ٦٤٧-٦٥٠، وكلام الزجاج في كتابه معاني القرآن ٢/ ٤٢٤-٤٢٥.
(٢) في المطبوع: الموثوقين.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٣، وينظر تفسير القرطبي ١٠/ ٧١.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٢، والقراءة في القراءات الشاذة ص ٥٠ وعزاها ليزيد بن القعقاع وابن يعمر.
(٥) تفسير الرازي ١٥/ ١٩٨، وقول ابنِ سيرين أخرجه الطبري ١١/ ٢٧٩ عنه، عن عَبيدة، وينظر الكشاف ٢/ ١٦٨، والكافي الشاف ص٧١، والقرطبي ١٠/ ٧٥ و٨٠-٨٢ وتنظر الأقوال الواردة في المسألة، ومنها ما أخرجه أبو داود (٢٦٩١) عن ابن عباس، أن النبيَّ ﷺ جعل فداءَ أهل الجاهلية يوم بدر أربعَ مئة.

وقرئ: «يريدون» بالياء مِن تحت، وسُمِّيَ عَرَضاً؛ لأنَّه حَدَثٌ قليلُ اللُّبث[١].

وقرأ الجمهورُ: «الآخرةَ» بالنصب، وقرأ سليمان بنُ جمَّاز المدنيُّ بالجرِّ[٢]، واختلفوا في تقدير المضاف المحذوف؛ فمنهم مَن قدَّره: عَرَضَ الآخرةِ، قال: وحُذفَ؛ لدلالة «عَرَض الدنيا» عليه. قال بعضهم: وقد حُذفَ العَرَض في قراءة الجمهور وأُقيم المضاف إليه مقامه في الإعراب، فنُصب، وممَّن قدَّره: عَرَض الآخرةِ، الزمخشريُّ قال: على التقابل، يعني: ثوابَها[٣]. انتهى.

ويعني أنَّه لما أطلق على الفِداء «عَرَض الدنيا»، أطلق على ثواب الآخرة عَرَضاً على سبيل التقابل، لا أنَّ ثوابَ الآخرةِ زائلٌ فانٍ كعَرَض الدنيا، فسُمِّي عَرَضاً على سبيل التقابُل، وإن كان لولا التقابل لم يُسمَّ عَرَضاً.

وقدَّره بعضُهم: عَمَلَ الآخرة، أي: المؤدِّي إلى الثواب في الآخرة، وكلُّهم جعله كقوله:

ونـــارٍ تـــوقَّـــدُ بـــالـــلـــيـــل نـــاراً[٤]

ويعنون في حذف المضاف فقط وإبقاء المضاف إليه على جرِّه؛ لأنَّ جرَّ مثلِ: ونارٍ، جائزٌ فصيح، وذلك إذا لم يُفصَل بين المجرور وحرفِ العطف، أو فصلَ بـ «لا» نحو: ما مثل زيدٍ ولا أخيه يقولان ذلك، وتقدَّم المحذوف مثله لفظاً ومعنًى، وأمَّا إذا فُصل بينهما بغير «لا» كهذه القراءة، فهو شاذٌّ قليلٌ.

«والله عزيز» يَنصرُ أولياءَه ويَجعل الغَلَبة لهم ويمكِّنهم من أعدائهم قَتْلاً وأَسْراً «حكيم» يضع الأشياءَ مواضعها.

قال ابنُ عبَّاسٍ ومقاتل: لولا أنَّ اللهَ كَتَبَ في أمِّ الكتاب أنَّه سيحلّ لكم الغنائم، لمسَّكم فيما تعجَّلتم منها ومِن الفداء يوم بدرٍ قَبْلَ أن تُؤمَروا بذلك عذابٌ عظيم.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٦٨، والقراءة في القراءات الشاذة ص ٥١.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٢، والقراءة في المحتسب ١/ ٢٨١.

(٣) الكشاف ٢/ ١٦٨.

(٤) وصدره:

أكـــلَّ امـــرئٍ تـــحـــســـبـــيـــنَ امـــرأً

وسلف.

وقال ابنُ عباس أيضاً ومجاهد: لو سَبَق أنَّه يُعذِّب مَن أتى ذنباً على جهالة، لعوقبتم. وقال عليُّ بنُ أبي طالب ومحمد بنُ عليِّ بن الحسين وابنُ إسحاق: سَبَق أن لا يعذِّب إلَّا بعد النهي، ولم يكن نهاهم.

وقال الحسن وابنُ جبير وابنُ زيد وابنُ أبي نجيح عن مجاهد: لولا ما سَبَق لأهل بدرٍ أنَّ الله لا يُعذِّبهم، لَعَذَّبهم[١].

وقال الماورديُّ: لولا أنَّ القرآنَ اقتضى غفرانَ الصغائر لعذَّبهم[٢]. وقال قوم: الكتاب السابق عفوُه عنهم في هذا الذنب مُعيَّناً. وقيل: هو أن لا يعذِّبهم والرسولُ فيهم. وقيل: ما كَتَبه على نفسه مِن الرحمة. وقيل: سَبَقَ أنَّه لا يُضِلُّ قوماً بعد إذ هداهم. وقيل: سَبق أنَّه سيُحلُّ لهم الغنائمَ والفداءَ، قاله ابنُ عباس وأبو هريرة والحسن[٣].

وقيل: سَبق أن يَغفر الصغائر لمن اجتنبَ الكبائر، لعذَّبكم بأَخْذِ الغنائم، واختاره النحَّاسُ[٤]. وقال قوم: الكتاب السابق هو القرآنُ، والمعنى: لولا الكتاب الذي سَبق فآمنتم به وصدَّقتم، لمسَّكم العذابُ لأَخْذِكم هذه المفاداة.

وقال الزمخشريُّ: لولا حُكمٌ منه تعالى سَبق إثباتُه في اللَّوح وهو أنْ لا يُعاقِب أحداً بخطأ، وكان هذا خطأً في الاجتهاد؛ لأنَّهم نظروا في أنَّ استبقاءَهم ربَّما كان سبباً في إسلامهم وتوبتهم، وأنَّ فداءَهم يُتقوَّى به على الجهاد في سبيل الله، وخَفيَ عنهم أنَّ قتلَهم أعزُّ للإسلام، وأَهيَبُ لمَن وراءَهم، وأفلُّ لشوكتهم[٥]. انتهى.

ورُوي: «لو نزل في هذا الأمر عذابٌ، لنَجا منه عمر»، وفي حديثٍ آخَر: «وسعد بن معاذ»، وذلك أنَّ رَأيهما كان أن تُقتَل الأسارى[٦].

---

(١) ينظر تفسير الثعلبي ٣/ ١٥٧، والنكت والعيون ٢/ ٣٣٢-٣٣٣، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٥٣-٥٥٤، وزاد المسير ٣/ ٣٨١-٣٨٢، وتنظر الآثار الآنفة الذكر في تفسير الطبري ١١/ ٢٧٦-٢٨٢.

(٢) النكت والعيون ٢/ ٣٣٣.

(٣) ينظر التعليق ما قبل السابق.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٩٧.

(٥) الكشاف ٢/ ١٦٨.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٤، وتفسير الثعلبي ٣/ ١٥٨، وينظر سيرة ابن هشام ١/ ٦٢٨، وخبر عمر وسعد بن معاذ عن الطبري ١١/ ٢٨٣.

والذي أقوله: إنَّهم كانوا مأمورين أوَّلاً بقَتْل الكفَّار في غيرِ ما آيةٍ، كقوله: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [النساء:٨٩] ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة:١٩١] فلمَّا كانت وقعة بدرٍ وأَسَروا جماعةً مِن المشركين اختلفوا في أَخْذِ الفداء منهم وفي قتلهم، فعُوتبَ[١] مَن رأى الفداءَ؛ إذ كان قد تقدَّم الأَمْرُ بالقَتْل حيث لم يَستصحبوا امتثالَ الأَمْرِ، ومَالوا إلى الفداء، وحرصوا على تحصيل المال، أَلَا ترى إلى قول المِقْداد حين أَمَرَ الرسولُ ﷺ بقَتْل عقبةَ بنِ أبي مُعَيْطٍ، قال: أسيري يارسولَ اللهِ[٢]. وقولِ مُصعَب بنِ عمير لمَن أَسَر أخاه: شُدَّ يَدَك عليه، فإنَّ له أمًّا مُوسِرةً[٣].

ثمَّ بعد هذه المعاتبة أَمَرَ الرسولُ بقَتْل بعضٍ، والمَنِّ بالإطلاق في بعضٍ، والفداءِ في بعضٍ، فكان ذلك نَسْخاً لتحتُّم القَتْل، ثم قال تعالى: «لولا كتابٌ مِن الله سَبق» في تأييدكم ونَصْركم وقَهْركم أعداءَكم حتى استوليتم عليهم قتلاً وأَسْراً ونَهْباً على قلَّة عَدَدكم وعُدَدِكم = «لمسَّكم فيما أخذتم» من غنائمهم وفدائهم «عذابٌ عظيم» منهم؛ لكونهم كانوا أكثرَ عَدداً منكم وعُدَداً، ولكنَّه سهَّل تعالى عليكم، ولم يمسَّكم منهم عذابٌ لا بقَتْلٍ ولا أَسْرٍ ولا نهب، وذلك بالحُكم السابق في قضائه أنَّه يُسلِّطكم عليهم ولا يُسلِّطهم عليكم، فليس المعنى: لمسَّكم مِن اللهِ، وإنَّما المعنى: لمسَّكم مِن أعدائكم، كما قال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [آل عمران:١٤٠] وقال: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [النساء:١٠٤].

ثمَّ قال تعالى: «فكلوا مما غنمتم حلالاً طيِّباً» أي: ممَّا غَنمتم، ومنه ما حَصَل بالفداء الذي أقرَّه الرسولُ ﷺ، وقال: «لا يفلتنَّ منهم رجلٌ إلَّا بفدية أو ضَرْبِ عُنُقٍ»[٤]، وليس هذا الأمرُ مُنْشِأً لإباحة الغنائم، إذ قد سَبق تحليلُها قبلَ يوم بدر،

---

(١) في (ب): فعوقب.

(٢) أخرجه أبو داود في المراسيل (٣٣٧)، والطبري ١١/ ١٤٣ عن سعيد بن جبير.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٣، وتفسير القرطبي ١٠/ ٧٦، والخبر أورده ابن هشام في السيرة ١/ ٦٤٥، والطبري في التاريخ ٢/ ٤٦٠.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٢، وتفسير الثعلبي ٣/ ١٥٥-١٥٦، والقرطبي ١٠/ ٧٣، والحديث أخرجه أحمد (٣٦٣٢) مطوَّلاً من حديث ابن مسعود، وأخرجه أيضاً الترمذي (١٧١٤) و(٣٠٨٤) مختصراً، وقال: هذا حديث حسن، وأبو عبيدة ـ وهو ابن عبد الله بن مسعود ـ لم يسمع من أبيه. اهـ. وورد في المصادر: لا يَنْفَلِتَنَّ. بدل: لا يفلتنَّ.

ولكنَّه أَمْرٌ يفيد التوكيدَ واندراجَ مالِ الفداء في عموم ما غنمتم، إذ كان قد وقع العتابُ في المَيْل للفِداء، ثم أقرَّه الرسول عليه السلام.

وانتصبَ «حلالاً» على الحال مِن «ما» إن كانت موصولةً، أو مِن ضميره المحذوف، أو على أنَّه نعتٌ لمصدرٍ محذوف، أي: أكلاً حلالاً، وجوَّزوا في «ما» أن تكون مصدريَّةً.

ورُوِيَ أنَّهم أَمسكوا عن الغنائم ولم يمدُّوا أيديَهم إليها، فنزلت، وجَعل الزمخشريُّ قولَه: «فكلوا» مُتسبّباً عن جملة محذوفة هي سببٌ، وأفادت ذلك الفاءُ، وقدَّرها: قد أَبحتُ لكم الغنائمَ فكلوا[1].

وقال الزجَّاج: الفاءُ للجزاء، والمعنى: قد أَحللتُ لكم الفداءَ فكلوا[2].

وأَمَرَ تعالى بتقواه؛ لأنَّ التقوى حاملةٌ على امتثال أَمْرِ الله، وعَدَمِ الإقدام على ما لم يتقدَّم فيه إذن، ففيه تحريض على التقوى مَن مَالَ إلى الفِداء، ثم جاءت الصفتانِ مشعرتَين بغفرانِ الله ورحمته عن الذين مَالوا إلى الفداء قَبْلَ الإذن.

وقال الزمخشريُّ: معناه: إذا اتَّقيتموه بعدما فَرَط منكم مِن استباحة الفِداء قَبْلَ أن يُؤذَنَ لكم فيه، غَفَرَ لكم ورَحِمَكم وتابَ عليكم[3].

وقال ابنُ عطيَّة: وجاء قوله: «واتَّقوا الله» اعتراضاً فصيحاً في أثناء القول؛ لأنَّ قوله: «إنَّ الله غفور رحيم» هو متصلٌ بقوله: «فكلوا ممَّا غنمتم حلالاً طيِّباً»[4]، وقيل: «غفور» لمَا أَتيتم «رحيم» بإحلال ما غنمتم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٠ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٧١﴾ نزلت هذه الآية عقيبَ بدرٍ في أسرى بدر أعلموا أنَّ لهم ميلاً إلى الإسلام، وأنَّهم يؤمِّلونه إن فُدُوا ورَجعوا إلى قومهم.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٦٩.
(٢) زاد المسير ٣/ ٣٨٢.
(٣) الكشاف ٢/ ١٦٩.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٤.

وقيل: في عبَّاسٍ وأصحابه، قالوا للرسول: آمنَّا بما جئتَ، ونشهد أنَّك رسولُ الله، لننصحنَّ لكَ على قومنا[(١)].

ومعنى «في أيديكم» أي: في ملكتكم، كأنَّ الأيدي قابضةٌ عليهم، والصحيح أنَّ الأسارى كانوا سبعين والقَتْلى سبعين كما ثبت في «صحيح مسلم»، وهو قولُ ابنِ عباس وابنِ المسيّب وأبي عَمْرو بنِ العلاء، وكان عليهم حين جِيْءَ بهم إلى المدينة شُقْران مولى رسول الله ﷺ. وقال مالك: كانوا مشركين[(٢)]، ومنهم العباس بنُ عبد المطَّلب أَسَره أبو اليَسَر كعب بنُ عَمْرو أخو بني سَلِمة وكان قصيراً والعبَّاسُ ضَخْمٌ طويل، فلمَّا جاء به، قال الرسول ﷺ: «لقد أعانك عليه مَلَكٌ»، وعن العبَّاس: كنتُ مسلماً، ولكنَّهم استكرهوني. فقال رسول الله ﷺ: «إن يكن ما تقول حقًّا، فاللهُ يَجزيك، فأمَّا ظاهرُ أَمْرِكَ فقد كنتَ علينا»[(٣)]، وكان أَحَدَ الذين ضَمنوا إطعامَ أهل بدر، وخرج بالذَّهَب لذلك[(٤)].

ورُوِيَ أنَّ رسول الله ﷺ قال للعبَّاس: «افْدِ ابْنَي أخيكَ عَقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث»، فقال: يا محمد، تركتني أتكفَّف قريشاً ما بقيتُ. فقال له: «أين المال الذي دفعتَه إلى أمِّ الفَضْل وقتَ خروجك مِن مكَّة، وقلتَ لها: لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإنْ حَدَثَ بي حَدَثٌ فهو لكِ ولعبدِ الله وعُبيدِ الله والفَضْل»؟ فقال العبَّاس: وما يدريك؟ قال: «أخبرني به ربِّي». قال العبَّاسُ: فأنا أَشهد أنَّكَ صادقٌ، وأنْ لا إله إلَّا الله وأنتَ عبدُه ورسولُه، واللهِ لم يطَّلع عليه أحدٌ

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٤، والخبر أخرجه الطبري ١١/ ٢٨٦ عن ابن عباس، وينظر أسباب النزول للواحدي ص٢٣٨-٢٣٩.

(٢) تفسير القرطبي ١٠/ ٧٦-٧٧، وأحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٦٩-٨٧٠، وخبر مسلم في صحيحه (١٧٦٣) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، وقول ابن المسيب وابن عباس أخرجه الواقدي في المغازي ١/ ١٤٤ ورواه عن غيرهما أيضاً بزيادة في العَدد، ومَجيء شُقران بهم أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ١٣٣.

(٣) تفسير القرطبي ١٠/ ٨٢، والكلام في المفهم ٦/ ٧٠، والخبر أخرجه ابن سعد في الطبقات ٤/ ١١، وأحمد (٣٣١٠)، والطبري في التاريخ ٢/ ٤٦٣ عن ابن عباس مطوَّلاً.

(٤) الكشاف ٢/ ١٦٩، وتفسير الثعلبي ٣/ ١٥٨، والبغوي ٢/ ٢٦٣، وتفسير الرازي ١٥/ ٢٠٤، قال ابن حجر في الكافي الشاف ص ٧١: لم أجد هذا.

إلَّا الله، ولقد دفعتُه إليها في سواد الليل، ولقد كنتُ مرتاباً في أمرِك، فأمَّا إذ أخبرتني بذلك فلا ريبَ، قال العباس: فأبدلني اللهُ خيراً مِن ذلك، لي الآنَ عشرون عبداً؛ إن أدناهم ليَضرب في عشرين ألفاً، وأعطاني زمزم، ما أحبُّ أنَّ لي بها جميعَ أموال مكة، وأنا أنتظر المغفرة مِن ربِّي.

ورُوِيَ أنَّه قدمَ على رسول الله ﷺ مالُ البحرين ثمانون ألفاً، فتوضَّأ لصلاة الظهر وما صلَّى حتى فرَّقَه، وأَمَرَ العبَّاسَ أن يَأخذ منه، فأَخَذ ما قَدرَ على حَمْله، وكان يقول: هذا خيرٌ ممَّا أُخذ منِّي، وأرجو المغفرةَ[(١)].

ومعنى: «إن يَعلم اللهُ» إن يتبيَّن للناس عِلْمُ الله «في قلوبكم خيراً» أي: إسلاماً كما زعمتم، بأن تظهروا الإسلام، فإنَّه سيُعطيكم أفضلَ «ممَّا أُخذ منكم» بالفداء، وسيغفر لكم ما اجترحتموه، فإنَّ الإسلام يجبُّ ما قَبْلَه.

وقرأ الجمهور: «مِن الأَسْرى»، وابنُ محيصن: «مِن أَسْرى» منكَّراً[(٢)]، وقتادة وأبو جعفر وابنُ أبي إسحاق ونصر بنُ عاصم وأبو عمرو مِن السبعة: «مِن الأُسَارى» واختلف عن الحسن وعن الجحدريِّ[(٣)].

وقرأ الأعمش: «يُثِبْكم خيراً» مِن الثواب[(٤)].

وقرأ الحسنُ وأبو حَيْوة وشيبة وحُمَيد: «ممَّا أَخذ» مبنيًّا للفاعل[(٥)].

---

(١) الكشاف ٢/ ١٦٩، وينظر تفسير الثعلبي ٣/ ١٥٨، وتفسير الرازي ١٥/ ٢٠٤، والخبر الأول أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ١٤٢-١٤٣، عن الزهري وجماعة، وأخرجه أيضاً الحاكم ٣/ ٣٢٤ من حديث عائشة ﵂، وذِكْر إعطائه زمزم أخرجه ابن سعد في الطبقات ٤/ ١٣-١٤، وينظر التخريج الآنف الذكر، والخبر الثاني عند الطبري في التفسير ١١/ ٢٨٥ عن قتادة، وأخرجه أيضاً الحاكم ٣/ ٣٢٩-٣٣٠ عن أبي موسى الأشعري ﵁ بنحوه، وأصل الخبر عند البخاري (٤٢١) من حديث أنس ﵁.

(٢) الدر المصون ٥/ ٦٣٩، وأوردها ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٤ لكن رواها بالإدغام هكذا: «مِن لَّسْرى»، فليُحرَّر.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٤، والقراءة في السبعة ص ٣٠٩، والتيسير ص ١١٧، والنشر ٢/ ٢٧٧.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٤، وتصحفت في مطبوعه إلى: «يثيبكم»، والقراءة في القراءات الشاذة ص ٥٠.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٤، والقراءات الشاذة ص٥٠.

وإيتاءُ هذا الخير؛ قيل: في الدنيا، وقيل: في الآخِرة، وقيل: فيهما.

والظاهر أنَّ الضميرَ في «وإن يريدوا» عائدٌ على الأسرى؛ لأنَّه أقربُ مذكور، والخيانة هي كونهم أَظْهَرَ الإسلامَ بعضُهم ثم ردّوا إلى دينهم، فقد خانوا اللهَ بخروجهم مع المشركين، وقال الكرماني: «وإن يريدوا» يعني: الأسرى «خيانتكَ» يعني: نقضَ ما عاهدوا معك «فقد خانوا اللهَ» بالكفر والشِّرك قبل العهد، وقيل: قَبْل بدر [(١)] وقيل: إنْ منعوكَ ما تدعو إليه من الإيمان، فقد فَعلوا مثلَه قبلُ [(١)] «فأمكنَ منهم» أي: فأمكنكَ منهم وهَزَمتهم وأَسَرْتهم.

وقال الزمخشريُّ: «خيانتك» أي: بنَكْثِ ما بايعوكَ عليه من الإسلام والرِّدَّة واستحباب دينِ آبائهم «فقد خانوا اللهَ مِن قَبْل» في كفرهم ونقضِ ما أُخذ على كلِّ عاقل مِن ميثاقه[(٢)] «فأمكن منهم» كما رأيتم يوم بدرٍ، فسيمكن منهم إن أعادوا الخيانةَ، وقيل: المراد بالخيانة مَنْعُ ما ضمنوا مِن الفدا[(٣)].

وقال ابنُ عطيَّة: إنْ أخلصوا فعلَ بهم كذا، وإن أبطنوا خيانةَ ما رَغبوا أن يؤتمنوا عليه مِن العهد، فلا يسرُّهم ذلك، ولا يَسكنون إليه، فإنَّ اللهَ بالمرصاد، فهم الذين خانوه بكُفرهم وتَرْكهم النَّظَرَ في آياته، وهو قد بيَّنها لهم وجعل لهم إدراكاً يُحصِّلونها به، فصار ذلك كعهدٍ متقرّر، فجُعل جزاؤهم على خيانتهم إيَّاه أنْ مكَّن منهم المؤمنين، وجَعلهم أَسرى في أيديهم «والله عليمٌ» بما يُبطنونه مِن إخلاص أو خيانةٍ «حكيمٌ» فيما يُجازيهم[(٤)]. انتهى.

وقيل: الضمير في «وإن يريدوا» عائد على الذين قيل في حقِّهم: «وإن جَنَحوا للسَّلْم» أي: «وإن يُريدوا خيانتك» في إظهار الصُّلح، والجمهور على أنَّ الضميرَ في «وإن يريدوا» عائد على الأسرى.

وروي عن قتادة أنَّ هذه الآيَة في قصَّة عبد الله بنِ أبي سَرْح، فإن كان قال ذلك

(١-١) ليست في المطبوع.
(٢) في المطبوع: مشاقه.
(٣) الكشاف ٢/ ١٦٩.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٥.

على سبيل التمثيلِ فيُمكن، وإن كان على سبيل أنَّها نزلت في ذلك فلا؛ لأنَّه إنَّما بُيِّن أَمرُهُ في فتح مكَّة، وهذه نزلت عقيبَ بدر[١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ قَسَم المؤمنين إلى المهاجرين، والأنصار، والذين لم يُهاجروا؛ فبدأ بالمهاجرين؛ لأنَّهم أصلُ الإسلام وأوَّلُ مَن استجابَ لله، فهاجر قوم إلى المدينة، وقوم إلى الحبشة، وقوم إلى ابن ذي يزن[٢]، ثم هاجروا إلى المدينة وكانوا قدوةً لغيرهم في الإيمان وسبب تقويةِ الدِّين، «مَن سنَّ سُنَّة حسنةً، فله أجرُها وأجْرُ مَن عمل بها إلى يوم القيامة»[٣].

وثنَّى بالأنصار؛ لأنَّهم ساوَوْهم في الإيمان وفي الجهاد بالنَّفْس والمال، لكنَّه عادَلَ الهجرةَ الإيواءُ والنَّصْرُ، وانفردَ المهاجرون بالسَّبْق.

وذَكَر ثالثاً مَن آمَنَ ولم يُهاجِر ولم يَنصُر، ففاتهم هاتان الفضيلتان وحُرموا الولايةَ حتى يهاجروا.

ومعنى «أولياءُ بعض» في النُّصْرة والتعاوُن والمُوازَرة، كما جاء في غير آية نحو: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ذلك في الميراث؛ آخَى الرسولُ ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فكان المهاجريُّ يَرثه أخوه الأنصاريُّ إذا لم يكن له بالمدينة وليٌّ مهاجريٌّ، ولا توارثَ

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٥، وخبر قتادة أخرجه الطبري ١١/ ٢٨٨، وابن أبي حاتم ٥/ ١٧٣٨، وأخرجه أيضاً البيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٦٠-٦١ عن قتادة، عن أنس بن مالك ﷺ دون ذكر الآية.

(٢) لم نقف على هذه الهجرة بعد مبعثه ﷺ، بل الوارد أن وفداً من قريش أَتَوا سيفَ بنَ ذي يزن وفيهم عبد المطلب وأمية وخويلد في ناسٍ من وجوه قريش يهنِّؤونه بظَفَره على الحبشة، وذلك بعد مولد النبي ﷺ بسنتين، والخبر أخرجه الأزرقي في أخبار مكة ١/ ١٤٩ عن ابن عباس ﷺ، ورجَّح ابن حجر في الإصابة ٥/ ٤٣ في ترجمة ابن ذي يزن أنَّه مات قبل البعثة. فليحرَّر.

(٣) أخرجه مسلم (١٠١٧) وأحمد (١٩١٥٦) من حديث جرير ﷺ.

بينه وبين قريبه المسلم غيرِ المهاجريِّ. قال ابنُ زيد: واستمرَّ أمرهم كذلك إلى فتح مكة، ثم توارثوا بَعْدُ لمَّا لم تكن هجرة[(١)]، فمعنى «مالكم مِن ولايتهم مِن شيء» نفيُ الموالاة في التوارث، وكان قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ [الأنفال:٧٥] نَسْخاً لذلك.

وعلى القول الأوَّل يكون المعنى في نفي الولاية على أنَّها صفة للحال، إذ لا يمكن ولايته ونَصْره؛ لتباعُد ما بين المهاجرين وبينهم، وفي ذلك حَضٌّ للأعراب على الهجرة. قيل: ولا يجوز أن تكون الموالاة [(٢)]بمعنى النُّصرة[(٢)]؛ لأنَّه عطفَ عليه «وإنِ استنصروكم في الدين فعليكم النصر» والمعطوفُ مغايرٌ للمعطوف عليه، فوجبَ أن تكون الولاية المنفيَّة غيرَ النُّصْرة[(٣)]. انتهى.

ولمَّا نزل: «مالكم مِن ولايتهم مِن شيء حتى يهاجروا» قال الزبير: هل نُعينهم على أمْرٍ إنِ استعانوا بنا؟ فنزل: «وإنِ استنصروكم»[(٤)].

ومعنى «ميثاق»: عَهْدٌ؛ لأنَّ نَصْركم إيَّاهم نقضٌ للعهد فلا يُقاتَلون؛ لأنَّ الميثاق مانعٌ من ذلك، وخصَّ الاستنصار بالدِّين؛ لأنَّه بالحميَّة والعصبيَّة في غير الدِّين منهيٌّ عنه، و«على» تقتضي الوجوبَ، ولذلك قدَّره الزمخشريُّ بقوله: فواجبٌ عليكم أن تنصروهم[(٥)]. وقال زهير:

على مُكْثريهم رِزْقُ مَن يَعتريهمُ ... وعند المُقِلِّينَ السماحةُ والبَذْلُ[(٦)]

وقرأ الأعمش وابن وثَّاب وحمزة: «وِلايتهم» بالكسر، وباقي السبعة والجمهورُ بالفتح، وهما لغتان، قاله الأخفش، ولحَّنَ الأصمعيُّ الأخفشَ[(٧)] في قراءته

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٥-٥٥٦، والآثار الواردة عند الطبري١١/ ٢٨٩-٢٩٥، وابن أبي حاتم ٥/ ١٧٣٩-١٧٤٠، وأثر ابن عباس عند أبي داود (٢٩٢٤).

(٢-٢) ليست في (أ) و(ح) و(د١) والمطبوع.

(٣) تفسير الرازي ١٥/ ٢١٠.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الكشاف ٢/ ١٧٠.

(٦) ديوان زهير ص١١٤، وفيه: حقّ، بدل: رزق. وسلف.

(٧) في (ب) و(ح) و(ع): الأعمش. وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٦، والكلام منه، وتصحفت في مطبوعه إلى: والأعمش. والقراءة في السبعة ص ٣٠٩، والتيسير ص ١١٧، والنشر ٢/ ٢٧٧، وينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٤٨-٥٤٩، والحجَّة للفارسي ٤/ ١٦٥-١٦٦.

بالكسر، وأَخطأ في ذلك؛ لأنَّها قراءة متواترة. وقال أبو عبيدة: بالكسر، مِن ولاية السلطان، وبالفتح مِن المَوْلى، يقال: مولًى بيِّن الوَلاية، بفتح الواو[١].

وقال الزجَّاجُ: بالفتح مِن النُّصْرة والنسب، وبالكسر بمنزلة الإمارة، قال: ويجوز الكسرُ؛ لأنَّ في تولِّي بعضِ القوم بعضاً جنساً مِن الصناعة والعمل، وكلُّ ما كان مِن جنس الصناعة مكسورٌ، مثل: القِصَارة والخِياطة[٢].

وتَبِعَ الزمخشريُّ الزجَّاجَ، فقال: وقُرئَ: «مِن ولايتهم» بالفتح والكسر، أي: مِن تولِّيهم في الميراث، ووجه الكَسْر أنَّ تولِّي بعضِهم بعضاً شُبِّه بالعمل والصناعة، كأنَّه بتولِّيه صاحبَه يُزاول أمراً ويُباشِر عملاً[٣].

وقال أبو عبيد: والذي عندنا الأَخْذ بالفتح في هذين الحرفين، يعني هنا وفي «الكهف»[٤]؛ لأنَّ معناهما مِن الموالاة[٥] في الدِّين. [٦]وقال أبو عليّ: الفتح أجود؛ لأنها في الدِّين[٦].

وقال الفرَّاء: يريد مِن موارثتهم، فكسرُ الواو أحبُّ إليَّ مِن فتحها؛ لأنَّها إنَّما تفتح إذا كانت نصرةً، وكان الكسائيُّ يَذهب بفتحها إلى النُّصْرة، وقد ذكرَ الفتح والكسر في المعنيين جميعاً[٧].

وقرأ السُّلميُّ والأعرج: «بما يعملون» بالياء على الغَيبة[٨].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ وقرأت فرقة: «أولى ببعضٍ»، قال ابنُ عطيَّة: هذا لجَمْع الموارثة والمعاونة والنُّصْرة[٩].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٦، وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٥١.
(٢) تفسير الرازي ١٥/ ٢١٠.
(٣) الكشاف ٢/ ١٧٠.
(٤) عند قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤].
(٥) بعدها في المطبوع: لأنها.
(٦-٦) ليست في المطبوع. وكلام أبي عليّ في الحجة ٤/ ١٦٦.
(٧) معاني القرآن للفراء ١/ ٤١٨-٤١٩.
(٨) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٦، والقراءة في الدر المصون ٥/ ٦٤١.
(٩) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٧.

وقال الزمخشريُّ: ظاهره إثباتُ الموالاة بينهم، كقوله في المسلمين، ومعناه نهيُ المسلمين عن موالاة الذين كفروا وموارثتهم، وإيجاب (١مباعدتهم ومصارمتهم١) وإن كانوا أقاربَ، وأن يُتركوا يتوارثون بعضهم بعضاً.

وقال غيره: لمَّا ذَكَر أقسامَ المؤمنين الثلاثة وأنَّهم أولياء يَنصُر بعضُهم بعضاً ويَرث بعضُهم بعضاً، بَيَّن أنَّ فريقَ الكفار كذلك، إذ كانوا قبلَ بعثة الرسولِ ﷺ يُعادي أهلُ الكتاب منهم قريشاً ويتربَّصون بهم الدوائر، فصاروا بعد بَعْثِه يُوالي بعضُهم بعضاً وإلْباً[٢] واحداً على الرسولِ؛ خوفاً[٣] على رياساتهم وتحزُّباً على المؤمنين.

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ الضميرُ المنصوبُ في «تفعلوه» عائدٌ على الميثاق، أي: على حفظه، أو على النَّصْر، أو على الإرث، أو على مجموع ما تقدَّم، أقوال أربعة.

وقال الزمخشريُّ: أي: إنْ لا تفعلوا ما أَمرتكم به مِن تواصل المسلمين وتولِّي بعضهم بعضاً حتى في التوارث تفضيلاً لنسبة الإسلام على نسبة القَرابَة، ولم تقطعوا العلائقَ بينكم وبين الكفار، ولم تجعلوا قرابتهم كَلَا قرابة = تحصل فتنةٌ في الأرض ومفسدةٌ عظيمة؛ لأنَّ المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدةً على الشِّرْك، كان الشركُ ظاهراً والفسادُ زائداً[٤].

وقال ابنُ عطيَّة: والفتنةُ: المِحْنةُ بالحرب وما انجرَّ معها مِن الغاراتِ والجلاء والأَسْر، والفساد الكبير: ظهور الشِّرْك[٥].

وقال البغويُّ: الفتنةُ في الأرض قوَّة الكفر، والفسادُ الكبير ضَعْفُ الإسلام[٦].

(١-١) في (أ) و(د١): مساعدتهم ومصادمتهم. وفي المطبوع: مسارعتهم ومصادقتهم. وينظر الكشاف ٢/ ١٧٠.

(٢) في (أ) و(ع): وإلياً، وفي (ب): والباء. والإِلْب بالفتح والكسر: القوم يجتمعون على عداوة إنسان. تاج العروس (ألب).

(٣) في المطبوع: صوناً.

(٤) الكشاف ٢/ ١٧٠.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٧.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٢٦٤.

وقرأ أبو موسى الحجازيّ عن الكسائيّ: «كثير» بالثاء المثلَّثة، ورُوِيَ أنَّ الرسولَ ﷺ قرأ: «وفسادٌ عريضٌ»[١].

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ هذه الآية فيها تعظيمُ المهاجرين والأنصار، وهي مختصرة، إذْ حُذفَ منها: «بأموالهم وأنفسهم» وليست تكراراً؛ لأنَّ السابقة تضمَّنت ولايةَ بعضهم بعضاً، وتقسيمَ المؤمنين إلى الأقسام الثلاثة، وبيانَ حكمهم في ولايتهم ونَصْرهم، وهذه تضمَّنت الثناءَ والتشريف والاختصاص وما آلَ إليه حالُهم مِن المغفرة والرزق الكريم، وتقدَّم تفسيرُ أواخر نظيرة هذه الآية في أوائل هذه السُّورة.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ يعني الذين لحقوا بالهجرة مَن سبق إليها، فحكم تعالى بأنَّهم مِن المؤمنين السابقين في الثواب والأجر، وإن كان للسابقين شفوفُ السَّبق وتقدُّم الإيمان والهجرة والجهاد.

ومعنى «مِن بَعْدُ» مِن بعدِ الهجرة الأولى، وذلك بعد الحديبية، قاله ابنُ عباس[٢]، وزاد ابنُ عطيَّة: وبيعةَ الرضوان، وذلك أنَّ الهجرةَ مِن بعد ذلك كانت أقلَّ رتبةً مِن الهجرة قَبْلَ ذلك، وكان يقال لها: الهجرة الثانية؛ لأنَّ الحربَ وضعت أوزارها نحو عامين، ثم كان فتحُ مكَّة، وبه قال عليه السلام: «لا هجرةَ بعد الفتح»، وقال الطبريُّ: مِن بعدِما بيَّنت حكم الولاية. فكان الحاجزُ بين الهجرتين نزولَ الآية، فأخبر تعالى في هذه الآية أنَّهم مِن الأوَّلين في المؤازرة وسائرِ أحكام

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٧، والقراءة الأولى في القراءات الشاذة ص ٥٠-٥١، وأبو موسى هو: عيسى بن سليمان، وقراءةُ النبيِّ أخرجها الدوريُّ في جزء فيه قراءات النبيِّ ﷺ ص١٠٣-١٠٤ وهكذا: «إذا جاءكم من ترضون عرضه ودينه فزوِّجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض» من حديث أبي هريرة، وأخرجه أيضاً هكذا الترمذيُّ (١٠٨٤)، وابن ماجه (١٩٦٧)، قال الترمذي: حديث حسن غريب. ورجَّح كونه مرسلاً، والمرسل عند أبي داود في المراسيل (٢٢٤)، وعند الترمذي برقم (١٠٨٥) عن أبي حاتم المزني، وصرَّح بأنَّ له صحبة.

(٢) زاد المسير ٣/ ٣٨٧.

الإسلام[1]. وقيل: مِن بعد يوم بدر. وقال الأصمُّ: من بعد الفتح.

وفي قوله: «معكم» إشعارٌ أنّهم تَبَعٌ لا صَدر، كما قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٤٦] وكذلك «فأولئكَ منكم»، كما جاء: «مولى القومِ منهم»، و«ابنُ أختِ القومِ منهم»[2].

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾ أي: وأصحاب القَرابات، ومَن قال: إنَّ قوله في المؤمنين المهاجرين والأنصار «بعضهم أولياء بعض» في المواريث بالأُخوَّة التي كانت بينهم = قال: هذه في المواريث، وهي نَسْخٌ للميراث بتلك الأخوَّة وإيجاب أن يرث الإنسانَ قريبُه المؤمنُ وإن لم يكن مهاجراً، واستدلَّ بها أصحابُ أبي حنيفة على توريث ذوي الأرحام.

وقالت فرقةٌ منهم مالك: ليست في المواريث، وهذا فرارٌ عن توريث الخالِ والعمَّة ونحو ذلك.

وقالت فرقة: هي في المواريث إلَّا أنَّها نسختها آيةُ المواريث المبيّنة[3].

والظاهرُ أنَّ «كتاب الله» هو القرآن المنزل، وذلك في آية المواريث. وقيل: «في كتابِ الله» السابقِ اللوحِ المحفوظِ، وقيل: «في كتاب الله» في هذه الآية المنزلة.

وقال الزجَّاجُ: في حكمه، وتَبِعه الزمخشريُّ فقال: في حكمه وقسمته.

وخَتم السورة بقوله: «إنَّ الله بكلِّ شيء عليم» في غاية البراعة؛ إذ قد تضمَّنت أحكاماً كثيرة في مهمَّات الدِّين وقوامه، وتفصيلاً لأحوالٍ، فصفةُ العِلْم تَجمع ذلك كلّه، وتُحيط بمبادئه وغاياته.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٧، والحديث أخرجه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣)، وهو عند أحمد (١٩٩١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وكلام الطبري في التفسير ١١/ ٣٠٠.

(٢) أخرجهما البخاري (٦٧٦١) و(٦٧٦٢)، وأحمد (١٢١٨٧) و(١٢٧٦٦)، والطرف الثاني عند مسلم (١٠٥٩) (١٣٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٧، وينظر الاستذكار ١٥/ ٤٧٠ وما بعدها، وأحكام القرآن للجصاص ٣/ ٧٥-٧٦، وتفسير القرطبي ١٠/ ٩٠-٩٢.

(٨) سورة الأنفال مدنية وآياتها خمس وسبعون

وهي مدنية. آياتها سبعون وخمس آيات، كلماتها ألف كلمة وستمائة كلمة وإحدى وثلاثون كلمة، حروفها خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفاً، والله أعلم .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾

قال البخاري: الأنفال المغانم، عن سعيد بن جبير قال، قلت لابن عباس رضي الله عنهما سورة الأنفال، قال: نزلت في بدر، وروي عن ابن عباس أنه قال: الأنفال الغنائم، كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء[1]؛ قال فيها لبيد

إن تقوى ربنا خير نَفَلْ وبإذن الله رَيْثي والعجل

وقال ابن جرير عن القاسم بن محمد قال: سمعت رجلاً يسأل ابن عباس عن الأنفال؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: الفرس من النفل والسلب من النفل، ثم عاد لمسألته، فقال ابن عباس أيضاً، ثم قال الرجل: الأنفال التي قال الله في كتابه ما هي؟ قال القاسم: فلم يزل يسأله حتى كاد يحرجه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا؟.. مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل، والله أعلم. وقال مجاهد: إنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخمس بعد الأربعة من الأخماس، فنزلت: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾، وقال ابن مسعود: لا نفل يوم الزحف، إنما النفل قبل التقاء الصفوف، وقال ابن المبارك عن عطاء بن أبي رباح في الآية ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ قال: يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في

---

(١) وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان وغير واحد أنها المغانم .

غير قتال من دابة أو عبد أو أمة أو متاع، فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء، قال ابن جرير وقال آخرون: هي أنفال السرايا، بلغني في قوله تعالى ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ قال: السرايا، ومعنى هذا ما ينفله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش، وقد صرح بذلك الشعبي، واختار ابن جرير أنها الزيادة على القسم، ويشهد بذلك ما ورد في سبب نزول الآية وهو ما روي عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر قتل أخي (عمير) وقتلت (سعيد بن العاص) وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكتيفة، فأتيت به النبي ﷺ فقال: «اذهب فاطرحه في القبض»، قال: فرجعت وبي ما لا يعلمه الله من قتل أخي وأخذ سلبي، قال: فما جاوزت إلا يسيراً، حتى نزلت سورة الأنفال فقال لي رسول الله ﷺ: «اذهب فخذ سلبك».

(سبب آخر في نزول الآية)

وقال الإمام أحمد عن أبي أمامة قال: سألت (عبادة) عن الأنفال، فقال: فينا أصحاب بدر نزلت، حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء، يقول: عن سواء. وقال الإمام أحمد أيضاً عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدراً، فالتقى الناس فهزم الله تعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فنزلت: ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾، فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين، وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفل الربع، فإذا أقبل راجعاً نفل الثلث، وكان يكره الأنفال[1]. وروى أبو داود والنسائي وابن مردويه واللفظ له، عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا» فتسارع في ذلك شبان القوم وبقي الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت المغانم جاءوا يطلبون الذي جعل لهم، فقال الشيوخ لا تستأثروا علينا فإنا كنا ردءاً لكم لو انكشفتم لفئتم إلينا، فتنازعوا، فأنزل الله تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال - إلى قوله - وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾، وقال الإمام القاسم بن سلام رحمه الله في كتاب (الأموال الشرعية): أما الأنفال فهي المغانم، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب، فكانت الأنفال الأولى لرسول الله ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول﴾ فقسمها يوم بدر على ما أراه الله من غير أن يخمسها، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس فنسخت الأولى، قلت: هكذا روي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وعكرمة والسدي، وقال ابن زيد: ليست منسوخة بل هي محكمة، والأنفال أصلها جماع الغنائم إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب وجرت به السنّة. ومعنى الأنفال في كلام العرب: كل إحسان فعله فاعل تفضلا من غير أن يجب ذلك عليه، فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

أموال عدوهم، وإنما هو شيء خصهم الله به تفضلاً منه عليهم، بعد أن كانت الغنائم محرمة على الأمم قبلهم، فنفلها الله تعالى هذه الأمة فهذا أصل النفل. وشاهد هذا ما في الصحيحين: «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي» وذكر تمام الحديث.

وقوله تعالى: ﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾ أي اتقوا الله في أموركم وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا، فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه، ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ أي في قسمه بينكم على ما أراده الله، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف، وقال ابن عباس: هذا تحريج من الله ورسوله أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم، وقال السدي ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ أي لا تستبوا، ولنذكر ههنا حديثاً أورده الحافظ أبو يعلى الموصلي رحمه الله في مسنده عن أنس رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، فقال عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ فقال: «رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة تبارك وتعالى، فقال أحدهما: يا رب خذ لي مظلمتي من أخي، قال الله تعالى: أعط أخاك مظلمته، قال: يا رب لم يبق من حسناتي شيء، قال: رب فليحمل عني من أوزاري»، قال: ففاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، ثم قال: «إن ذلك ليوم عظيم، يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم، فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك وانظر في الجنان فرفع رأسه فقال: يا رب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ، لأي نبي هذا؟ لأي صديق هذا؟ لأي شهيد هذا؟ قال: هذا لمن أعطى ثمنه؟ قال: رب ومن يملك ثمنه؟ قال: أنت تملكه، قال: ماذا يا رب؟ قال تعفو عن أخيك، قال: يا رب فإني قد عفوت عنه. قال الله تعالى: خذ بيد أخيك فادخلا الجنة». ثم قال رسول الله ﷺ: «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة»[1]

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾

قال مجاهد: ﴿وجلت قلوبهم﴾ فرقت أي فزعت وخافت، وهذه صفة المؤمن حق المؤمن الذي إذا ذكر الله وجل قلبه أي خاف منه، ففعل أوامره، وترك زواجره، كقوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ الآية، وكقوله تعالى: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ۞ فإن الجنة هي المأوى﴾ ولهذا قال سفيان الثوري، سمعت السدي يقول في قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال يهم بمعصية، فيقال له: اتق الله فيجل قلبه؛ وعن أم الدرداء في قوله: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ قالت: الوجل في القلب كاحتراق السَّعْفة[2]، أما تجد له قشعريرة؟ قال: بلى، قالت: إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك فإن الدعاء يذهب ذلك،

---

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي. (٢) السعفة: جريدة النخل.

وقوله: ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾، كقوله: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾، وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد كما بينا ذلك مستقصى في أول شرح البخاري ولله الحمد والمنة. ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان، وقوله: ﴿الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾، ينبه تعالى بذلك على أعمالهم بعدما ذكر اعتقادهم، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة وهو حق الله تعالى، وقال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها، وقال مقاتل: إقامتها المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد، والصلاة على النبي ﷺ، هذا إقامتها، والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه. قال قتادة في قوله: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ فأنفقوا مما رزقكم الله، فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم أوشكت أن تفارقها.

وقوله تعالى: ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ أي المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان. عن الحارث ابن مالك الأنصاري: أنه مر برسول الله ﷺ فقال له: «كيف أصبحت يا حارث؟» قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: «انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟» فقال: عزفتْ نفسي عن الدنيا، فأسهرتُ ليلي، وأظمأتُ نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون[1] فيها، فقال: «يا حارث عرفت فالزم» ثلاثاً[2]. وقال عمرو بن مرة في قوله تعالى: ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ إنما أنزل القرآن بلسان العرب كقولك: فلان سيد حقاً، وفي القوم سادة؛ وفلان تاجر حقاً وفي القوم تجار؛ وفلان شاعر حقاً وفي القوم شعراء. وقوله: ﴿لهم درجات عند ربهم﴾ أي منازل ومقامات ودرجات في الجنات، كما قال تعالى: ﴿هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون﴾، ﴿ومغفرة﴾ أي يغفر لهم السيئات ويشكر لهم الحسنات، وقال الضحاك: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضلَه على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفل منه أنه فضّل عليه أحد، ولهذا جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغائر في أفق من آفاق السماء» قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم؟ فقال: «بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»، وفي الحديث الآخر: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العلى كما تراءون الكوكب الغائر في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما»[3]

(١) يتضاغون: أي يرفعون أصواتهم بالصراخ والعويل.

(٢) أخرجه الحافظ الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري.

(٣) أخرجه الإمام أحمد وأهل السنن عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

قال الطبري: اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه الكاف في قوله: ﴿كما أخرجك ربك﴾ فقال بعضهم: شبه به في الصلاح للمؤمنين، والمعنى: أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها، فانتزعها الله منكم، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، كذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء وهم النفير الذين خرجوا لإحراز عيرهم، فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدره لكم على غير ميعاد رشداً وهدى، ونصراً وفتحاً، كما قال تعالى: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾، وقال آخرون: معنى ذلك ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ على كره من فريق من المؤمنين، كذلك هم كارهون للقتال، فهم يجادلونك فيه بعدما تبين لهم، قال مجاهد: ﴿كما أخرجك ربك﴾ كذلك يجادلونك في الحق. وقال بعضهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة كما جادلوك يوم بدر، فقالوا: أخرجتنا للعير ولم تعلمنا قتالاً فنستعد له. قلت: رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالباً لعير أبي سفيان التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام فيها أموال جزيلة لقريش، فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين، فخرج في ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً وجمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد، لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم والتفرقة بين الحق والباطل، والغرض أن رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفير أوحى الله إليه، يعده إحدى الطائفتين إما العير وإما النفير، ورغب كثير من المسلمين إلى العير، لأنه كسب بلا قتال، كما قال تعالى: ﴿وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾

روى ابن أبي حاتم قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا، قال: ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال عمر: مثل قول أبي بكر، ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله إيانا تريد؟ فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لي بها علم، ولئن سرت حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن لنسيرن معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، ولعلك أن تكون خرجت لأمر، وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فامض له، فصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعاد من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فنزل القرآن على قول سعد: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾(١) الآيات، وقال ابن عباس: لما شاور النبي ﷺ في لقاء العدو، وقال له سعد بن عبادة

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من حديث محمد بن عمرو بن علقمة بن أبي وقاص الليثي عن أبيه عن جده.

ما قال، وذلك يوم بدر أمر الناس أن يتهيأوا للقتال وأمرهم بالشوكة، فكره ذلك أهل الإيمان، فأنزل الله: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾، وقال مجاهد: يجادلونك في الحق: في القتال للقاء المشركين. عن عكرمة عن ابن عباس قال، قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعير ليس دونها شيء، فناداه العباس بن عبد المطلب وهو أسير في وثاقه: إنه لا يصلح لك، قال: ولم؟ قال: لأن الله عزَّ وجلَّ إنما وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك الله ما وعدك[1]. ومعنى قوله تعالى: ﴿وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ أي يحبون أن الطائفة التي لا منعة ولا قتال تكون لهم وهي العير، ﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته﴾ أي هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليظفركم بهم وينصركم عليهم، ويظهر دينه، ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالباً على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم.

وقال محمد بن إسحاق رحمه الله: لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكوها، فانتدب الناس فخف بعضهم، وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز، يتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أمر الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك، فاستأجر (ضمضم بن عمرو الغفاري) فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتي قريشاً، فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة، وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ وادياً يقال له ذفران، فخرج منه، حتى إذا كان ببعضه نزل، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار رسول الله ﷺ الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال فأحسن، ثم قام عمر رضي الله عنه، فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد - يعني مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا علي أيها الناس» وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا، ونساءنا وكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل»، فقال: فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أمرك الله، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك،

(١) أخرجه الإمام أحمد قال ابن كثير: إسناده جيد ولم يخرجه أحد من أهل الكتب الستة.

ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»، وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا، وكذلك قال السدي وقتادة وعبد الرحمن بن أسلم وغير واحد من علماء السلف والخلف، اختصرنا أقوالهم اكتفاء بسياق محمد بن إسحاق.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين، فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً» قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردّاه ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾، فلما كان يومئذ التقوا فهزم الله المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً، وأسر منهم سبعون رجلاً، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً فقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً، فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنني من فلان – قريب لعمر – فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان – أخيه – فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد قال عمر: فغدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر وهما يبكيان، فقلت: يا رسول الله ما يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، قال النبي ﷺ: «للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة» لشجرة قريبة من النبي ﷺ، وأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض – إلى قوله – فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾، فأحل لهم الغنائم، فلما كان يوم أُحُد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير﴾ بأخذكم الفداء[1]

قال البخاري في كتاب المغازي باب قول الله تعالى: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم﴾ الآية، عن طارق ابن شهاب قال، سمعت ابن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليَّ

(١) رواه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وابن جرير

مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا﴾، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك ومن خلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره، يعني قوله، وعن ابن عباس قال، قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك، فخرج وهو يقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر». وقوله تعالى: ﴿ بألف من الملائكة مردفين﴾ أي يردف بعضهم بعضاً، كما قال ابن عباس ﴿ مردفين﴾: متتابعين، ويحتمل أن المراد ﴿ مردفين﴾ لكم أي نجدة لكم، كما قال العوفي عن ابن عباس ﴿ مردفين﴾ يقول: المدد، كما تقول أنت للرجل زده كذا وكذا[1]. وفي رواية ﴿ مردفين﴾ قال: بعضهم على أثر بعض، وقال ابن جرير: نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ﷺ، وهذا يقتضي - إن صح إسناده - أن الألف مردفة بمثلها، ولهذا قرأ بعضهم: ﴿ مردفين﴾ بفتح الدال والله أعلم، والمشهور ما روي عن ابن عباس قال: وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مجنبة، وميكائيل في خمسمائة مجنبة، وروي عن ابن عباس قال: بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، قال: فنظر إليه، فإذا هو قد حطم وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ فقال: صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة، فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين[2]

وفي البخاري قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين» أو كلمة نحوها قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره في قتل (حاطب بن أبي بلتعة) «إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟»، وقوله تعالى: ﴿وما جعله الله إلا بشرى﴾ الآية، أي وما جعل الله بعث الملائكة إلا بشرى ﴿ ولتطمئن به قلوبكم﴾، وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ أي بدون ذلك، ولهذا قال: ﴿ وما النصر إلا من عند الله﴾ كما قال تعالى: ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض﴾، وقال تعالى: ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ فهذه حكم شرع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمم المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعاداً الأولى بالدبور، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل، وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه وأنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر﴾، وقتل المؤمنين للكافرين أشد إهانة للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين: ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، ويخزهم وينصركم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين﴾، ولهذا كان قتل

(١) وبه قال مجاهد وابن كثير القارىء وابن زيد.

(٢) أخرجه مسلم وابن جرير

صناديد قريش بأيدي أعدائهم، أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان، وقتل أبي جهل في معركة القتال أشد إهانة له من موته على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله عزيز﴾ أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة، ﴿حكيم﴾ فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى.

* ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾

يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم أماناً، أمّنهم به من خوفهم الذي حصل لهم، من كثرة عدوهم وقلة عددهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد، كما قال تعالى: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً﴾ الآية. قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مراراً؛ يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه، ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الحَجَف[1]، وقال الحافظ أبو يعلى عن علي رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح، وقال عبد الله بن مسعود: النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة من الشيطان. وقال قتادة: النعاس في الرأس، والنوم في القلب. وكأن ذلك كان للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله، وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم، ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه وهما يدعوان أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ثم استيقظ متبسماً فقال: «أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع»، ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾.

وقوله تعالى: ﴿وينزل عليكم من السماء ماء﴾، قال ابن عباس: إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا عنها، نزلوا على الماء يوم بدر، فغلبوا المؤمنين عليه، فأصاب المؤمنين الظمأ فجعلوا يصلون مجنبين محدثين، حتى تعاطوا ذلك في صدورهم، فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادي، فشرب المؤمنون، وملأوا الأسقية، وسقوا الركاب واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله في ذلك طهوراً وثبت به الأقدام[2]؛ وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة فبعث الله المطر عليها، والمعروف أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك

(١) الحجف: جمع حجفة وهي الترس.
(٢) وروي نحوه عن قتادة والضحاك.

أي أول ماء وجده، فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال: يا رسول الله هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلك الله إياه فليس لنا أن نجاوزه أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال: «بل منزل نزلته للحرب والمكيدة» فقال: يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل، ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلي القوم ونغور ما وراءه من القلب، ونستقي الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء، فسار رسول الله ﷺ ففعل ذلك. وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار وتلبدت به الأرض وطابت نفوسهم وثبتت به أقدامهم، وقوله: ﴿ليطهركم به﴾ أي من حدث أصغر أو أكبر وهو تطهير الظاهر، ﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ أي من وسوسة أو خاطر سيء وهو تطهير الباطن، كما قال تعالى في حق أهل الجنة ﴿عاليهم ثياب سندس خضر﴾ فهذا زينة الظاهر، ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾ أي مطهراً لما كان من غل أو حسد أو تباغض وهو زينة الباطن وطهارته، ﴿وليربط على قلوبكم﴾: أي بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء وهو شجاعة الباطن ﴿ويثبت به الأقدام﴾ وهو شجاعة الظاهر والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾ وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها، وهو أنه تعالى وتقدس أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه أن يثبتوا الذين آمنوا، قال ابن جرير: أي ثبتوا المؤمنين وقووا أنفسهم على أعدائهم سألقي الرعب والذلة والصغار على من خالف أمري وكذب رسولي، ﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ أي اضربوا الهام ففلقوها واحتزوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم وهي أيديهم وأرجلهم. وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿فوق الأعناق﴾ فقيل: معناه اضربوا الرؤوس، قاله عكرمة. وقيل معناه أي على الأعناق وهي الرقاب، قاله الضحاك. ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب﴾ وقال القاسم، قال النبي ﷺ: «إني لم أبعث لأعذب بعذاب الله، إنما بعثت لضرب الرقاب وشد الوثاق»، وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به، وقوله: ﴿واضربوا منهم كل بنان﴾، قال ابن جرير: معناه واضربوا من عدوكم أيها المؤمنون كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم، والبنان جمع بنانة كما قال الشاعر

ألا ليتني قطعت مني بنانة ولاقيته في البيت يقظان حاذراً

وقال ابن عباس ﴿واضربوا منهم كل بنان﴾ يعني بالبنان الأطراف[1]، وقال السدي: البنان الأطراف، ويقال كل مفصل، وقال الأوزاعي: اضرب منه الوجه والعين، وارمه بشهاب من نار فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك، وقال العوفي عن ابن عباس فأوحى الله إلى الملائكة: ﴿أني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾ الآية، فقتل أبو جهل لعنه الله في تسعة وستين رجلاً، وأسر عقبة بن أبي معيط، فقتل صبراً فوفى ذلك سبعين يعني قتيلاً، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ أي خالفوهما، فساروا في شق، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق، ومأخوذ أيضاً من شق العصا وهو جعلها فرقتين ﴿ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾ أي هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه لا يفوته شيء، ولا يقوم لغضبه شيء تبارك وتعالى لا إله غيره ولا رب سواه، ﴿ذلكم فذوقوه

(١) وكذا قال الضحاك وابن جرير والسدي.

وأن للكافرين عذاب النار﴾ هذا خطاب للكفار، أي ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا واعلموا أيضاً أن للكافرين عذاب النار في الآخرة

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً﴾ أي تقاربتم منهم ودنوتم إليهم ﴿فلا تولوهم الأدبار﴾ أي تفروا وتتركوا أصحابكم، ﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال﴾ أي يفر بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنه خاف منه، فيتبعه، ثم يكر عليه فيقتله فلا بأس عليه في ذلك[١]. وقال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبها، ﴿أو متحيزاً إلى فئة﴾ أي فر من ها هنا إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونوه، فيجوز له ذلك، حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة. قال الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ، فحاص الناس حيصة، فكنت فيمن حاص، فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة ثم بتنا، ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإذا كانت لنا توبة وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: «مَنْ القوم؟» فقلنا: نحن الفرارون، فقال: «لا، بل أنتم العكّارون أنا فئتكم وأنا فئة المسلمين» قال: فأتيناه حتى قبّلنا يده. وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿أو متحيزاً إلى فئة﴾[٢]. قال أهل العلم: معنى قوله «العكارون»: أي العرافون، وكذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أبي عبيدة لما قُتل بأرض فارس لكثرة الجيش من المجوس فقال عمر: لو تحيز إليَّ لكنت له فئة، ويروى عنه أنا فئة كل مسلم. وقال الضحاك في قوله ﴿أو متحيزاً إلى فئة﴾: المتحيز الفار إلى النبي وأصحابه، وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه، فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب فإنه حرام وكبيرة من الكبائر، لما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[٣]. ولهذا قال تعالى: ﴿فقد باء﴾ أي رجع ﴿بغضبٍ من الله ومأواه﴾ أي مصيره ومنقلبه يوم ميعاده ﴿جهنم وبئس المصير﴾.

وقال الإمام أحمد عن بشير بن معبد قال: أتيت النبي ﷺ لأبايعه فاشترط عليَّ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدي الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام، وأن أصوم شهر رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله، فقلت يا رسول الله أما اثنتان فوالله لا أطيقهما: الجهاد، فإنهم زعموا أنه من ولى الدبر فقد باء بغضبٍ من الله، فأخاف إن حضرت ذلك خشعت نفسي وكرهت الموت. والصدقة، فوالله مالي إلا غنيمة

---

(١) وهو قول سعيد بن جبير والسدي.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه

(٣) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة.

وعشر ذود هن رسل أهلي وحمولهم، فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حرك يده ثم قال: «فلا جهاد ولا صدقة فبم تدخل الجنة إذاً»؟ قلت: يا رسول الله أنا أبايعك، فبايعته عليهن كلهن[1]. وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراماً على الصحابة، لأن الجهاد كان فرض عين عليهم، وقيل: على الأنصار خاصة لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وقيل: المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة[2]. وحجتهم في هذا أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيئون إليها إلا عصابتهم تلك كما قال النبي ﷺ: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»، ولهذا قال الحسن في قوله: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره﴾ قال: ذلك يوم بدر، فأما اليوم فإن انحاز إلى فئة أو مصر فلا بأس عليه، وقال ابن المبارك عن يزيد بن أبي حبيب: أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار، قال: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله﴾، فلما كان يوم أُحد بعد ذلك قال: ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان﴾، إلى قوله: ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾، ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين، قال: ﴿ثم وليتم مدبرين * ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء﴾. وعن أبي سعيد أنه قال في هذه الآية: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره﴾ إنما أنزلت في أهل بدر، وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف حراماً على غير أهل بدر، وإن كان سبب نزول الآية فيهم، كما دل عليه حديث أبي هريرة المتقدم من أن الفرار من الزحف من الموبقات كما هو مذهب الجماهير، والله أعلم.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير، لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه، ولهذا قال: ﴿فلم تقتلوهم ولكنَّ الله قتلهم﴾ أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم، مع كثرة عددهم وقلة عددكم، بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً﴾ يعلم تبارك وتعالى أن النصر ليس بكثرة العَدَد والعُدَد، وإنما النصر من عنده تعالى، كما قال تعالى: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾، ثم قال تعالى لنبيه ﷺ أيضاً في شأن القبضة من التراب التي حصب بها وجوه الكافرين يوم بدر ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ أي هو الذي بلغ ذلك إليهم وكبتهم بها لا أنت، قال ابن عباس: رفع رسول الله ﷺ يديه يعني يوم بدر فقال: «يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً» فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين. وقال محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي: لما دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب

(١) أخرجه الإمام أحمد، قال ابن كثير: حديث غريب من هذا الوجه لم يخرجوه في الكتب الستة.

(٢) يروى هذا عن عمرو ابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد ونافع والحسن البصري وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والضحاك وغيرهم.

فرمى بها في وجوه القوم وقال: «شاهت الوجوه»، فدخلت في أعينهم كلهم، وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرونهم وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾. وقال عروة بن الزبير في قوله: ﴿وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً﴾ أي ليعرف المؤمنين نعمته عليهم، من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته، ﴿إن الله سميع عليم﴾ أي سميع الدعاء ﴿عليم﴾ بمن يستحق النصر والغلب، وقوله: ﴿ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين﴾ هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين، فيما يستقبل مصغر أمرهم، وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار.

إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى للكفار: ﴿إن تستفتحوا﴾ أي تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتم؛ كما قال أبو جهل، قال حين التقى القوم: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة؛ فكان المستفتح[1]؛ وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين، فقال الله: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ يقول: قد نصرت ما قلتم، وهو محمد ﷺ. وقوله: ﴿وإن تنتهوا﴾ أي عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ﴿فهو خير لكم﴾ أي في الدنيا والآخرة، وقوله تعالى: ﴿وإن تعودوا نعد﴾، كقوله: ﴿وإن عدتم عدنا﴾، معناه وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة نعد لكم بمثل هذه الواقعة، وقال السدي: ﴿وإن تعودوا﴾ أي إلى الاستفتاح ﴿نعد﴾ أي إلى الفتح لمحمد ﷺ والنصر له وتظفيره على أعدائه، والأول أقوى. ﴿ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت﴾ أي ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له، ﴿وإن الله مع المؤمنين﴾ وهم الحزب النبوي والجناب المصطفوي.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له، ولهذا قال: ﴿ولا تولوا عنه﴾ أي تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره، ﴿وأنتم تسمعون﴾ أي بعدما علمتم ما

(١) رواه أحمد والنسائي والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

دعاكم إليه، ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ قيل: المراد المشركون، واختاره ابن جرير، وقال ابن إسحاق: هم المنافقون فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك، ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة فقال: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم﴾ أي عن سماع الحق، ﴿البكم﴾ عن فهمه، ولهذا قال: ﴿الذين لا يعقلون﴾ فهؤلاء شر البرية لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا، ولهذا شبههم بالأنعام في قوله: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ وقيل: المراد بهؤلاء المذكورين نفر من بني عبد الدار من قريش؛ ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح ولا قصد لهم صحيح -لو فرض أن لهم فهماً- فقال: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾ أي لأفهمهم وتقدير الكلام (و) لكن لا خير فيهم فلم يفهمهم لأنه يعلم أنه ﴿لو أسمعهم﴾ أي أفهمهم ﴿لتولوا﴾ عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك ﴿وهم معرضون﴾ عنه

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

قال البخاري: ﴿استجيبوا﴾ أجيبوا ﴿لما يحييكم﴾ لما يصلحكم، عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني، فلم آته حتى صليت، ثم أتيته فقال: «ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾، ثم قال: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج»، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له. فقال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ هي السبع المثاني. وقال مجاهد ﴿لما يحييكم﴾ قال: للحق، وقال قتادة ﴿لما يحييكم﴾ هو هذا القرآن فيه النجاة والبقاء والحياة؛ وقال السدي: ﴿لما يحييكم﴾ ففي الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر، وقوله تعالى: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾، قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان[1]؛ وقال السدي: لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه، وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية؛ قال الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قال: فقلنا يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها»

(**حديث آخر**): قال الإمام أحمد عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه»، وكان يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قال: «والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه»[2]. (**حديث آخر**): قال الإمام أحمد عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه يقول: «اللهم مقلب القلوب ثبت

(١) وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك وعطية ومقاتل وفي رواية عن مجاهد (يحول بين المرء وقلبه) أي حتى يتركه لا يعقل.
(٢) ورواه النسائي وابن ماجه

قلبي على دينك » قالت، فقلت: يا رسول الله أو إن القلوب لتقلب؟ قال: « نعم ما خلق الله من بشر من بني آدم إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله عزَّ وجلَّ، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه. فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب » قالت، فقلت: يا رسول الله ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: « بلى، قولي اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن ما أحييتني »

وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين ﴿ فتنة ﴾ أي اختباراً ومحنة يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي، ولا من باشر الذنب، بل يعمهما حيث لم تدفع وترفع، كما قال الإمام أحمد عن مطرف، قال: قلنا للزبير يا أبا عبد الله ما جاء بكم؟ ضيّعتم الخليفة الذي قتل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير رضي الله عنه: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم: ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾، لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت[1]. وروى ابن جرير عن الحسن قال، قال الزبير: لقد خوفنا - يعني قوله تعالى: ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ ونحن مع رسول الله ﷺ، وما ظننا أنا خصصنا بها خاصة؛ وقال الحسن في هذه الآية: نزلت في (علي، وعمار، وطلحة، والزبير) رضي الله عنهم، وقال الزبير: لقد قرأت هذه الآية زماناً وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾، وقال السدي: نزلت في أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا، وقال ابن عباس: ﴿ لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ يعني أصحاب النبي ﷺ خاصة، وقال في رواية له عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب، وهذا تفسير حسن جداً، ولهذا قال مجاهد: هي أيضاً لكم، والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم، وإن كان الخطاب معهم هو الصحيح، ويدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن، عن عدي بن عميرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله عزَّ وجلَّ لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذّب الله الخاصة والعامة »[2]

(**حديث آخر**): قال الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال: « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم »، وقال حذيفة رضي الله عنه: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير منافقاً، وإني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات، لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر، ولتحاضُنَّ على الخير، أو ليسحتكم الله جميعاً بعذاب، أو ليؤمرن عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم. (**حديث آخر**): قال الإمام

---

(١) رواه أحمد والبزار

(٢) رواه أحمد، قال ابن كثير: لم يخرجه في الكتب الستة أحد وفيه رجل متهم.

أحمد أيضاً عن عامر رضي الله عنه قال: سمعت النعمان بن بشير يخطب يقول - وأومأ بأصبعيه إلى أذنيه - يقول: مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمدهن فيها كمثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فآذوهم، فقالوا: لو خرقنا في نصيبنا خرقاً فاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا ! فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً[1] . (حديث آخر): عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده » فقلت ؟ يا رسول الله أما فيهم أناس صالحون ؟ قال: « بلى » قالت: فكيف يصنع أولئك ؟ قال: « يصيبهم ما أصاب الناس ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان »[2]. وفي رواية: « ما من قوم يعملون بالمعاصي وفيهم رجل أعز منهم وأمنع لا يغيّره، إلا عمهم الله بعقاب أو أصابهم العقاب ». وفي أخرى عن عائشة ترفعه: « إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله بأهل الأرض بأسه » فقلت: وفيهم أهل طاعة الله ؟ قال: « نعم ثم يصيرون إلى رحمة الله »[3]

وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثرهم، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة، قليلين مستخفين مضطهدين، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله، لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة فآواهم إليها، وقيّض لهم أهلها آووا ونصروا وواسوا بأموالهم، وبذلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، قال قتادة: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاه عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراه جلوداً، وأبينه ضلالاً، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات منهم ردي في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام فمكّن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ،

---

(١) أخرجه البخاري والترمذي أيضاً .
(٢) رواه الإمام أحمد .
(٣) أخرجهما الإمام أحمد .

فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك، وأشار بيده إلى حلقه أي إنه الذبح، ثم فطن أبو لبابة، ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذواقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة، فربط نفسه في سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام، حتى كان يخر مغشياً عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله، فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية، فحلف لا يحله منها إلا رسول الله ﷺ بيده فحله، فقال: يا رسول الله إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة، فقال: « يجزيك الثلث أن تصدق به »[١].

وقال ابن جرير: نزلت هذه الآية في قتل عثمان رضي الله عنه ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ﴾ الآية. وفي الصحيحين قصة (حاطب بن أبي بلتعة) أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه، واستحضر حاطباً فأقر بما صنع، وفيها، فقام عمر ابن الخطاب فقال: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟ فقال: « دعه فإنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »، والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبيل خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء. والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية، وقال ابن عباس ﴿ وتخونوا أماناتكم ﴾: الأمانة الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد يعني الفريضة، يقول: لا تخونوا لا تنقضوها، وقال في رواية: لا تخونوا الله والرسول يقول: بترك سنته وارتكاب معصيته.

وقال السدي: إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم. وقال أيضاً: كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين، وقال ابن زيد: نهاكم أن تخونوا الله والرسول كما صنع المنافقون، وقوله: ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ أي اختبار وامتحان منه لكم إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها أو تشتغلون بها عنه وتعتاضون بها منه كما قال تعالى: ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾، وقال: ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾، وقال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾، وقوله: ﴿ وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ أي ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغني عنك شيئاً، والله سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة، وفي الأثر يقول الله تعالى: يا ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتُّكَ فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء، وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان أن يلقى في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه »[٢]، بل حب رسول الله ﷺ مقدم على الأولاد والأموال والنفوس كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين ».

(١) رواه عبد الرزاق بن أبي قتادة والزهري. (٢) أخرجه الشيخان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾

قال ابن عباس وغير واحد ﴿فرقاناً﴾ مخرجاً[١]، زاد مجاهد: في الدنيا والآخرة، وفي رواية عن ابن عباس ﴿فرقاناً﴾ نجاة، وفي رواية عنه: نصراء. وقال محمد بن إسحاق: ﴿فرقاناً﴾ أي فصلاً بين الحق والباطل؛ وهذا التفسير أعم مما تقدم، وهو يستلزم ذلك كله، فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره، وفّق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة وتكفير ذنوبه وهو محوها، وغفرها: سترها عن الناس، وسبباً لنيل ثواب الله الجزيل كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿ليثبتوك﴾ ليقيدوك؛ وقال عطاء وابن زيد: ليحبسوك، وقال السدي: الإثبات هو الحبس والوثاق، وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء، وهو مجمع الأقوال، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء، وقال عطاء: سمعت (عبيد بن عمير) يقول: لما ائتمروا بالنبي ﷺ ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، قال له عمه أبو طالب: هل تدري ما ائتمروا بك؟ قال: «يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني»، قال: من أخبرك بهذا؟ قال: «ربي»، قال: نعم الرب ربك استوص به خيراً، قال: «أنا أستوصي به؟ بل هو يستوصي بي»، قال فنزلت: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك﴾[٢] الآية. والدليل على صحة ما قلنا، ما روى محمد بن إسحاق صاحب المغازي عن مجاهد عن ابن عباس: أن نفراً من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا له من أنت؟ قال شيخ من أهل نجد سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم، ولن يعدمكم رأيي ونصحي قالوا: أجل ادخل فدخل معهم، فقال: انظروا في شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يواثبكم في أمركم بأمره، فقال قائل منهم: احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير والنابغة، قال: فصرخ عدو الله فقال: والله ما هذا برأي، والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم، قالوا صدق الشيخ فانظروا في غير هذا؛ قال قائل منهم: أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع إذا غاب

(١) وهو قول السدي وعكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل وغيرهم ويشهد له قول الله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾.

(٢) قال ابن كثير: ذكر أبي طالب في هذا غريب جداً بل منكر، لأن الآية مدنية واجتماع قريش وائتمارهم كان ليلة الهجرة، وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو ثلاث سنين.

عنكم أذاه، فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي ألم تروا حلاوة قوله، وطلاقة لسانه، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم، قالوا صدق والله، فانظروا رأياً غير هذا؛ قال: فقال أبو جهل لعنه الله: والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، لا أرى غيره، قالوا: وما هو؟ قال: تأخذون من كل قبيلة غلاماً شاباً وسيطاً نهداً، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، فما أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل (الدية) واسترحنا وقطعنا عنا أذاه، قال: فقال الشيخ النجدي: هذا والله الرأي، القول ما قال الفتى، ولا أرى غيره؛ قال: فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له، فأتى جبريل النبي ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم، فلم يبت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة الأنفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾، وأنزل في قولهم تربصوا به ريب المنون: ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾.

قال ابن إسحاق: أتاه جبريل عليه السلام فأمره أن لا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه، فدعا رسول الله ﷺ (علي بن أبي طالب) فأمره أن يبيت على فراشه ويتسجى ببرد له أخضر، ففعل ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم، وهم على بابه، وخرج معه بحفنة من تراب فجعل يذروها على رؤوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه ﷺ وهو يقرأ: ﴿يس والقرآن الحكيم - إلى قوله - فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾. وقد روى ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه عن ابن عباس قال: دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك يا بنية؟» قالت: يا أبت ومالي لا أبكي وهؤلاء الملأ من قريش في الحِجْر يتعاهدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونك، وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك، فقال: «يا بنية ائتني بوضوء»، فتوضأ رسول الله ﷺ، ثم خرج إلى المسجد، فلما رأوه قالوا: ها هو ذا، فطأطأوا رؤوسهم، وسقطت رقابهم بين أيديهم، فلم يرفعوا أبصارهم، فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها، وقال: «شاهت الوجوه»، فما أصاب رجلاً منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافراً[1]. وعن ابن عباس في قوله: ﴿وإذ يمكر بك﴾ الآية. قال: تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل اخرجوه، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فبات علي رضي الله عنه على فراش رسول الله ﷺ، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا علياً رد الله تعالى مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري، فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل، فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال[2]. وقال عروة بن الزبير في قوله: ﴿ويمكرون ويمكر الله﴾ أي فكرت بهم بكيدي المتين حتى خلصتك منهم.

---

(١) قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ولا أعرف له علة. (٢) رواه الإمام أحمد في المسند.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم وتمردهم وعنادهم، ودعواهم الباطل عند سماع آياته، إذا تتلى عليهم أنهم يقولون: ﴿قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ وهذا منهم قول بلا فعل، وإلا فقد تحدوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً، وقد قيل: إن القائل لذلك هو (النضر بن الحارث)، فإنه لعنه الله كان قد ذهب إلى بلاد فارس، وتعلم من أخبار ملوكهم رستم وأسفنديار، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله، وهو يتلو على الناس القرآن، فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس، جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار أولئك، ثم يقول: بالله أينا أحسن قصصاً أنا أو محمد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الأسارى أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبراً بين يديه، ففعل ذلك ولله الحمد، وكان الذي أسره (المقداد بن الأسود) رضي الله عنه كما قال ابن جرير. ومعنى ﴿أساطير الأولين﴾ جمع أسطورة: أي كتبهم، اقتبسها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس، وهذا هو الكذب البحت، كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً - إلى - إنه كان غفوراً رحيماً﴾ أي لمن تاب إليه وأناب فإنه يتقبل منه ويصفح عنه.

وقوله تعالى: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ هذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم، وهذا مما عيبوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه، ولكن استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب وتقديم العقوبة، كقوله تعالى: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب﴾، ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب﴾، وقوله: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾، وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة كما قال قوم شعيب له: ﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين﴾. عن أنس بن مالك قال أبو جهل ابن هشام: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾، فنزلت: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾[1]. وقال الأعمش عن ابن عباس في قوله: ﴿وإذ قالوا اللهم﴾ الآية، قال: هو النضر بن الحارث بن كلدة قال: فأنزل الله: ﴿سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾، قال ابن عباس: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٢) وهو قول مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والسدي.

وما ملك، ويقولون: غفرانك غفرانك، فأنزل الله: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ الآيه. قال ابن عباس: كان فيهم أمانان النبي ﷺ والاستغفار، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار(١). وعن ابن عباس: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ يقول ما كان الله ليعذب قوماً وأنبياؤهم بين أظهرهم حتى يخرجهم، ثم قال: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ يقول: وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الإيمان، وهو الاستغفار، يستغفرون يعني يصلون، يعني بهذا أهل مكة، وقال الضحاك: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ يعني المؤمنين الذين كانوا بمكة. وقال رسول الله ﷺ: «أنزل الله عليّ أمانين لأمتي: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾، فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة»(٢). ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب وعزتي وجلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»(٣)

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم، ولكنْ لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام الرسول ﷺ بين أظهرهم، ولهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر فقتل صناديدهم، وأسر سراتهم، وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد، قال قتادة والسدي: لم يكن القوم يستغفرون ولو كانوايستغفرون ما عذبوا. قال ابن جرير عن عكرمة والحسن البصري قالا، قال في الأنفال: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ فنسختها الآية التي تليها ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله – إلى قوله – فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ فقاتلوا بمكة فأصابهم فيها الجوع والضر، وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾، ثم استثنى أهل الشرك فقال: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾، وقوله: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام أي الذي بمكة، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة فيه والطواف به، ولهذا قال: ﴿وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون﴾ أي هم ليسوا أهل المسجد الحرام وإنما أهله النبي ﷺ وأصحابه، كما قال تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾، وقال تعالى:

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٢) رواه الترمذي في سننه.
(٣) أخرجه أحمد والحاكم، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

﴿وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله﴾ الآية. وقال الحافظ ابن مردويه في تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ من أولياؤك؟ قال: «كل تقي»، وتلا رسول الله ﷺ ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾. وقال الحاكم في مستدركه: جمع رسول الله ﷺ قريشاً فقال: «هل فيكم من غيركم؟» فقالوا: فينا ابن أختنا وفينا حليفنا وفينا مولانا، فقال: «حليفنا منا وابن أختنامنا ومولانا منا إن أوليائي منكم المتقون»

وقال عروة والسدي في قوله تعالى: ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾ قال: هم محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وقال مجاهد: هم المجاهدون من كانوا حيث كانوا، ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام وما كانوا يعاملونه به، فقال: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾ المكاء هو الصفير[1]، وزاد مجاهد: وكانوا يدخلون أصابعهم في أفواههم. وقال السدي: المكاء الصفير على نحو طير أبيض يقال له المكاء ويكون بأرض الحجاز. عن ابن عباس قال: كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق، والمكاء الصفير، والتصدية التصفيق. وقال ابن جرير عن ابن عمر في قوله: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾ قال: المكاء الصفير، والتصدية التصفيق، وعن ابن عمر أيضاً أنه قال: إنهم كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفقون ويصفرون، ويصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلاته، وقال الزهري: يستهزئون بالمؤمنين. وعن سعيد ابن جبير ﴿وتصدية﴾ قال: صدهم الناس عن سبيل الله عزَّ وجلَّ، قوله: ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ قال الضحّاك وابن جريج ومحمد بن إسحاق هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي، واختاره ابن جرير عن مجاهد قال: عذاب أهل الإقرار بالسيف، وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

قال محمد بن إسحاق: لما أصيب قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعيره، مشى (عبد الله بن أبي ربيعة) و (عكرمة بن أبي جهل) و (صفوان بن أمية) في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا، ففعلوا، قال: ففيهم أنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم - إلى قوله - هم الخاسرون﴾[2] وقال الضحاك: نزلت في أهل بدر، وعلى كل تقدير فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصاً، فقد أخبر تعالى

(١) وهو قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة.

(٢) في اللباب: أخرج ابن جرير أنها نزلت في أبي سفيان استأجر يوم أُحُد ألفين من الأحابيش ليقاتل بهم رسول الله ﷺ.

أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع الحق، فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم، ثم تكون عليهم حسرة أي ندامة، حيث لم تجد شيئاً لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متم نوره ولو كره الكافرون، فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوؤه، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي، ولهذا قال: ﴿فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾، وقوله تعالى: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ قال ابن عباس: يميز أهل السعادة من أهل الشقاء، وقال السدي: يميز المؤمن من الكافر؛ وهذا يحتمل أن يكون هذا التميز في الآخرة، كقوله: ﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم﴾ الآية، وقوله: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿يومئذ يصَّدعون﴾، وقال تعالى: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾، ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، أي: إنما أقدرناهم على ذلك ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ أي من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنكول عن ذلك، كقوله: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين، وليعلم الذين نافقوا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ الآية، فمعنى الآية على هذا إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه﴾ أي يجمعه كله، وهو جمع الشيء بعضه على بعض كما قال تعالى في السحاب ﴿ثم يجعله ركاماً﴾ أي متراكماً متراكباً، ﴿فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون﴾ أي هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا﴾ أي عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة يغفر لهم ما قد سلف: أي من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم، كما جاء في الصحيح: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر». وفي الصحيح أيضاً، أن رسول الله ﷺ قال: «الإسلام يجُبُّ ما قبله والتوبة تجبُّ ما كان قبلها». وقوله: ﴿وإن يعودوا﴾ أي يستمروا على ما هم فيه، ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾: أي فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم أنا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة، قال مجاهد في قوله: ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾ أي في قريش يوم بدر وغيرها من الأمم، وقوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾، قال البخاري عن ابن عمر: أن رجلاً جاء فقال: يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ الآية، فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي أعيَّر

بهذه الآية ولا أقاتل أحب إليّ من أن أعيّر بالآية التي يقول الله، قال عزَّ وجلَّ: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً﴾ إلى آخر الآية. قال فإن الله تعالى يقول: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾، قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يفتن في دينه، إما أن يقتلوه وإما أن يوثقوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد، قال: فما قولكم في علي وعثمان؟ قال ابن عمر: أما عثمان فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يعفو الله عنه، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وختنه وأشار بيده، وهذه ابنته أو بنته حيث ترون. وأتى رجلان في فتنة ابن الزبير إلى ابن عمر فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر ابن الخطاب وأنت صاحب رسول الله ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني الله أن حرم عليَّ دم المسلم، قالوا: أولم يقل الله: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ قال: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله.

وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ يعني لا يكون شرك[1]. وقال عروة بن الزبير: ﴿حتى لا تكون فتنة﴾ حتى لا يفتن مسلم عن دينه، وقوله: ﴿ويكون الدين كله لله﴾، قال الضحاك عن ابن عباس: يخلص التوحيد لله، وقال الحسن وقتادة: أن يقال لا إلّه إلا الله، أن يكون التوحيد خالصاً لله فليس فيه شرك ويخلع ما دونه من الأنداد، وقال عبد الرحمن بن أسلم: ﴿ويكون الدين كله لله﴾ لا يكون مع دينكم كفر، ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلّه إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عزَّ وجلَّ». وقوله: ﴿فإن انتهوا﴾ عما هم فيه من الكفر فكفوا عنه، وإن لم تعلموا بواطنهم ﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾، كقوله: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم﴾ الآية. وفي الآية الأخرى: ﴿فإخوانكم في الدين﴾، وقال: ﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف، فقال لا إلّه إلا الله فضربه فقتله، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال لأسامة: «أقتلته بعدما قال لا إلّه إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إلّه إلا الله يوم القيامة»؟ فقال: يا رسول الله إنما قالها تعوذاً، قال: «هلّا شققت عن قلبه»، وجعل يقول ويكرر عليه: «من لك بلا إلّه إلا الله يوم القيامة»؟ قال أسامة: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ، وقوله: ﴿وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير﴾ أي وان استمروا على خلافكم ومحاربتكم ﴿فاعلموا أن الله مولاكم﴾ سيدكم وناصركم على أعدائكم فنعم المولى ونعم النصير.

* وَاعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصاً لهذه الأمة الشريفة من بين سائر الأمم المتقدمة إحلال الغنائم، والغنيمة هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب، والفيء ما أخذ منهم بغير ذلك، كالأموال التي يصالحون

(١) وهو قول مجاهد والحسن وقتادة والسدي ومقاتل وزيد بن أسلم.

عليها أو يتوفون عنها ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك؛ هذا مذهب الإمام الشافعي، ومن العلماء من يطلق الفيء على ما تطلق عليه الغنيمة والعكس أيضاً، ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه﴾ توكيد لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط، قال الله تعالى: ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾ الآية، وقوله: ﴿فأن لله خمسه وللرسول﴾ اختلف المفسرون ههنا، فقال بعضهم لله نصيب من الخمس يجعل في الكعبة. وقال آخرون: ذكر الله ههنا استفتاح كلام للتبرك، وسهم لرسوله ﷺ. قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمَّس الغنيمة، فضرب ذلك الخمس في خمسة، ثم قرأ: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول﴾، فأن لله خمسه: مفتاح كلام ﴿لله ما في السموات وما في الأرض﴾، فجعل سهم الله وسهم الرسول ﷺ واحداً(١)، ويؤيد هذا ما رواه الحافظ البيهقي بإسناد صحيح عن عبد الله بن شقيق عن رجل قال: أتيت النبي ﷺ وهو بوادي القرى، وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله ما تقول في الغنيمة؟ فقال: «لله خمسها وأربعة أخماسها للجيش» قلت فما أحد أولى به من أحد؟ قال: «لا ولا السهم تستخرجه من جيبك ليس أنت أحق به من أخيك المسلم».

وقال ابن جرير عن الحسن قال: أوصى الحسن بالخمس من ماله، وقال: ألا أرضى من مالي بما رضي الله لنفسه؛ وعن عطاء قال: خمس الله والرسول واحد يحمل منه ويصنع فيه ما شاء، يعني النبي ﷺ، وهذا أعم وأشمل، وهو أنه ﷺ يتصرف في الخمس الذي جعله الله له بما شاء ويرده في أمته كيف شاء. ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب الكندي: أنه جلس مع عبادة بن الصامت وأبي الدرداء والحارث ابن معاوية الكندي رضي الله عنهم، فتذاكروا حديث رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء لعبادة: يا عبادة كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس، فقال عبادة: إن رسول الله ﷺ صلى بهم في غزوة إلى بعير من المغنم، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أنملتيه فقال: «إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخيط، وأكبر من ذلك وأصغر، ولا تغلوا، فإن الغلول عار ونار على أصحابه في الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس في الله القريب والبعيد، ولا تبالوا في الله لومة لائم، وأقيموا حدود الله في السفر والحضر، وجاهدوا في الله، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم ينجي الله به من الهم والغم»(٢). وعن عمرو بن عنبسة أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى بعير من المغنم، فلما سلم أخذ وبرة من هذا البعير ثم قال: «ولا يحل لي من غنائمكم مثل هذه إلا الخمس والخمس مردود عليكم»(٣) وقد كان للنبي ﷺ من الغنائم شيء يصطفيه لنفسه عبد أو أمة أو فرس أو سيف أو نحو ذلك، كما نص عليه محمد بن سيرين وعامر الشعبي، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء. وروى الإمام أحمد والترمذي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أُحد. وعن عائشة رضي الله عنها

(١) وهو قول النخعي والحسن البصري والشعبي وعطاء وقتادة وغيرهم.
(٢) قال ابن كثير: هذا حديث حسن عظيم ولم أره في شيء من الكتب الستة وله شواهد.
(٣) رواه أبو داود والنسائي

قالت: كانت صفية من الصفي[1]، وعن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمربد إذ دخل رجل معه قطعة أديم فقرأناها فإذا فيها: «من محمد رسول الله إلى بني زهير بن أقيش، إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأديتم الخمس من المغنم، وسهم النبي ﷺ، وسهم الصفي، أنتم آمنون بأمان الله ورسوله»، فقلنا: من كتب لك هذا؟ فقال: رسول الله ﷺ[2]. فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرير هذا وثبوته؛ ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه، وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين كما يتصرف في مال الفيء.

وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية رحمه الله: وهذا قول مالك وأكثر السلف وهو أصح الأقوال، فإذا ثبت هذا وعلم فقد اختلف أيضاً في الذي كان يناله عليه السلام من الخمس ماذا يصنع به من بعده؟ فقال قائلون: يكون لمن يلي الأمر من بعده، وقال آخرون: يصرف في مصالح المسلمين؛ وقال آخرون: بل هو مردود على بقية الأصناف ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، اختاره ابن جرير. وقال آخرون: بل سهم النبي ﷺ وسهم ذوي القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل، قال ابن جرير: وذلك قول جماعة من أهل العراق، وقيل: إن الخمس جميعه لذوي القربى، ثم اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال قائلون: سهم النبي ﷺ يُسلّم للخليفة من بعده، وقال آخرون: لقرابة النبي ﷺ، وقال آخرون: سهم القرابة لقرابة الخليفة، واجتمع رأيهم أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. قال الأعمش عن إبراهيم: كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي ﷺ في الكراع والسلاح، فقلت لإبراهيم: ما كان عليٌّ يقول فيه؟ قال: كان أشدهم فيه، وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء رحمهم الله، وأما سهم ذوي القربى فإنه يصرف إلى (بني هاشم) و (بني المطلب) لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام، ودخلوا معهم في الشعب غضباً لرسول الله ﷺ وحماية له، مسلمهم طاعة لله ولرسوله، وكافرهم حمية للعشيرة وأنفة وطاعة لأبي طالب عم رسول الله ﷺ؛ وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل، وإن كانوا بني عمهم فلم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم ونابذوهم، ومالأوا بطون قريش على حرب الرسول.

وقال جبير بن مطعم: مشيت أنا وعثمان بن عفان، إلى رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله ﷺ أعطيت بني المطلب من خمس خيبر وتركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة؟ فقال: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد»[3]. وفي بعض روايات هذا الحديث: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام»؛ وهذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب. قال ابن جرير: وقال آخرون: هم بنو هاشم، ثم روى عن مجاهد قال: علم الله أن في بني هاشم فقراء، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة، وفي رواية عنه قال: هم قرابة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة؛ عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «رغبت لكم عن غسالة الأيدي، لأن لكم من خمس

(١) رواه أبو داود في سننه.
(٢) رواه أبو داود والنسائي.
(٣) رواه البخاري في عدة أبواب.

الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم »[١] ، وقوله: ﴿ واليتامى ﴾ أي أيتام المسلمين، واختلف العلماء هل يختص بالأيتام الفقراء أو يعم الأغنياء والفقراء؟ على قولين، والمساكين هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنتهم ﴿ وابن السبيل ﴾ هو المسافر أو المريد للسفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة وليس له ما ينفقه في سفره ذلك، وسيأتي تفسير ذلك في آية الصدقات من سورة براءة إن شاء الله تعالى .

وقوله تعالى: ﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا ﴾ أي امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله، ولهذا جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس في وفد عبد القيس أن رسول الله ﷺ قال لهم: « وآمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: آمركم بالإيمان بالله، ثم قال: هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس من المغنم » الحديث، فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان، وقوله: ﴿ يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه بما فرق به بين الحق والباطل ببدر، ويسمى الفرقان، لأن الله أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل، وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه، قال ابن عباس: يوم الفرقان يوم بدر، فرق الله فيه بين الحق والباطل[٢] . وقال عروة بن الزبير: ﴿ يوم الفرقان ﴾ يوم فرق الله بين الحق والباطل، وهو يوم بدر، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ، وكان رأس المشركين (عتبة بن ربيعة) فالتقوا يوم الجمعان لتسع عشرة أو سبع عشرة مضت من رمضان وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة، فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على السبعين وأسر منهم مثل ذلك. وكانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان لسبع عشرة من رمضان، روى ابن مردويه عن علي قال: كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان في صبحيتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان، وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير .

إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان: ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا ﴾ أي إذ أنتم نزول بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة ﴿ وهم ﴾ أي المشركون نزول ﴿ بالعدوة القصوى ﴾ أي البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة ﴿ والركب ﴾ أي العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة، ﴿ أسفل منكم ﴾ أي مما يلي سيف البحر ﴿ ولو تواعدتم ﴾ أي أنتم والمشركون إلى مكان ﴿ لاختلفتم في الميعاد ﴾، قال محمد بن إسحاق في هذه الآية: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم ما لقيتموهم ﴿ ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ أي ليقضي

---

(١) رواه ابن أبي حاتم ، قال ابن كثير : حديث حسن الإسناد .

(٢) أخرجه الحاكم .

الله ما أراد بقدرته من اعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله من غير ملأ منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه[١]، وإنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، وقال ابن جرير: أقبل أبو سفيان في الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه، فالتقوا ببدر، ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى التقى السقاة ونهد الناس بعضهم لبعض، وقال محمد بن إسحاق وبعث أبو سفيان إلى قريش فقال: إن الله قد نجى عيركم وأموالكم ورجالكم فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نأتي بدراً – وكانت بدر سوقاً من أسواق العرب – فنقيم بها ثلاثاً، فنطعم بها الطعام وننحر بها الجزر، ونسقى بها الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبداً. وأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها». قال محمد بن إسحاق وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم، أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ لما التقى الناس يوم بدر: يا رسول الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه وننيخ إليك ركائبك، ونلقى عدونا؟ فإن أظفرنا الله عليهم وأعزنا فذاك ما نحب، وإن تكن الأخرى فتجلس على ركائبك وتلحق بمن وراءنا من قومنا، فقد والله تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد لك حباً منهم، لو علموا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ويوازرونك وينصرونك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له، فبني له عريش فكان فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر ما معهما غيرهما. قال ابن إسحاق: وارتحلت قريش حين أصبحت، فلما أقبلت ورآها رسول الله ﷺ قال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم أحنهم الغداة». وقوله: ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾ أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك، يقول تعالى: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهراً، والحجة قاطعة والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ يهلك من هلك، أي يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل لقيام الحجة عليه ﴿ويحيى من حيّ﴾ أي يؤمن من آمن ﴿عن بينة﴾ أي حجة وبصيرة، والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾، وقالت عائشة في قصة الإفك: فهلك فيّ من هلك، أي قال فيها ما قال من البهتان والإفك، وقوله: ﴿وإن الله لسميع﴾ أي لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ﴿عليم﴾ أي بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

١) أخرجه محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه.

قال مجاهد: أراهم الله إياه في منامه قليلاً، وأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتاً لهم، وقوله: ﴿ولو أراكهم كثيراً لفشلتم﴾ أي لجبنتم عنهم واختلفتم فيما بينكم ﴿ولكنَّ الله سلم﴾ أي من ذلك بأن أراكهم قليلاً، ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي بما تجنه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء، ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾، وقوله: ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً﴾ وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم إذ أراهم إياهم قليلاً في رأي العين فيجرؤهم عليهم ويطمعهم فيهم. قال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي تراهم سبعين؟ قال: لا، بل هم مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم، فسألناه فقال: كنا ألفاً[1]، وقوله: ﴿ويقللكم في أعينهم﴾، قال عكرمة: حضض بعضهم على بعض، ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ أي ليلقي بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته، ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلاً من الفريقين بالآخر، وقلّله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه، كما قال تعالى: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين﴾ وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلاً منها حق وصدق ولله الحمد والمنة.

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾

هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا﴾. وفي الصحيحين: «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»، ثم قام النبي ﷺ وقال: «اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم»[2]. وفي الحديث: «إن الله يحب الصمت عند ثلاث: عند تلاوة القرآن، وعند الزحف، وعند الجنازة»[3]. وفي الحديث الآخر المرفوع يقول الله تعالى: «إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجزٌ قرنه»: أي لا يشغله ذلك الحال عن ذكري ودعائي واستعانتي. وقال قتادة: افترض الله ذكره عند أشغل ما يكون، عند الضرب بالسيوف. وعن كعب الأحبار قال: ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾. فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه، بل يستعينوا به، ويتوكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا، فيكون

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير
(٢) أخرجه الشيخان عن عبد الله بن أبي أوفى مرفوعاً.
(٣) أخرجه الطبراني عن زيد بن أرقم مرفوعاً.

سبباً لتخاذلهم وفشلهم، ﴿وتذهب ريحكم﴾ أي قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ وقد كان للصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله به، وامتثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم، فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، وقهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

* وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم بطراً، أي دفعاً للحق، ﴿ورئاء الناس﴾ وهو المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل: لا والله، لا نرجع حتى نرد ماء بدر وننحر الجزر، ونشرب الخمر وتعزف علينا القيان، فانعكس ذلك عليه أجمع، لأنهم وردوا به الحِمام، وركموا في أطواء بدر مهانين أذلاء، في عذاب سرمدي أبدي، ولهذا قال: ﴿والله بما يعملون محيط﴾ أي عالم بما جاءوا به، ولهذا جازاهم عليه شر الجزاء لهم. قال ابن عباس ومجاهد: هم المشركون الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بـدر[1]، وقال محمد بن كعب، لما خرجت قريش من مكـة إلى بـدر خرجوا بالقيان والدفوف، فأنزل الله: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس﴾، وقوله تعالى: ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم﴾ الآية؛ حسَّن لهم لعنه الله ما جاءوا له وما هموا به، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم، كما قال تعالى عنه: ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾، قال ابن عباس في هذه الآية: لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين، وألقى في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم، وإني جار لكم، فلما التقوا ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة ﴿نكص على عقبيه﴾ قال: رجع مدبراً، وقال: ﴿إني أرى ما لا ترون﴾ الآية. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بـدر في جندٍ من الشياطين معه رايته، في صورة رجل من بني مدلج في صورة (سراقة بن مالك بن جعشم) فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم

(١) وهو قول قتادة والضحاك والسدي وغيرهم.

من الناس وإني جار لكم، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين، فولوا مدبرين، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين، انتزع يده ثم ولى مدبراً وشيعته، فقال الرجل يا سراقة أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب؛ وذلك حين رأى الملائكة. وقال قتادة: وذكر لنا أنه رأى جبريل عليه السلام تنزل معه الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة فقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله، وكذب عدو الله، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم وتبرأ منهم عند ذلك. قال تعالى: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾، وقوله تعالى: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم﴾، قال ابن عباس: لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون: غرَّ هؤلاء دينهم، وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم، فظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك، فقال الله: ﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم﴾، قال قتادة: وذكر لنا أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمد ﷺ وأصحابه قال: والله لا يعبد الله بعد اليوم قسوة وعتواً، وقال ابن جريج: هم قوم كانوا من المنافقين بمكة قالوه يوم بدر، وقال الشعبي: كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: غرَّ هؤلاء دينهم. وقال مجاهد: هم فئة من قريش خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: غرَّ هؤلاء دينهم، حتى قدموا على ما قدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم. وهكذا قال محمد بن إسحاق بن يسار سواء. وقال ابن جرير عن الحسن في هذه الآية قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين، وقوله: ﴿ومن يتوكل على الله﴾ أي يعتمد على جنابه ﴿فإن الله عزيز﴾ أي لا يضام من التجأ إليه، فإن الله عزيز منيع الجناب عظيم السلطان ﴿حكيم﴾ في أفعاله لا يضعها إلا في مواضعها، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيعاً منكراً، إذ ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم ويقولون ذوقوا عذاب الحريق﴾. قال ابن عباس: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة يضربون أدبارهم، وقال مجاهد في قوله: ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ يوم بدر، وقال سعيد بن جبير ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ قال: وأستاههم، ولكنَّ الله يكني؛ والسياق وإن كان سببه وقعة بدر، ولكنه عام في حق كل كافر، ولهذا قال تعالى: ﴿ولو ترى

إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ وفي سورة القتال مثلها، وتقدم قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ المجرمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم﴾ أي باسطو أيديهم بالضرب فيهم بأمر ربهم إذا استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهراً، وذلك إذا بشروهم بالعذاب والغضب من الله، كما في حديث البراء: «أن ملك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة يقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة إلى سموم وحميم وظل من يحموم، فتتفرق في بدنه، فيستخرجونها من جسده كما يخرج السفود من الصفوف المبلول، فتخرج معها العروق والعصب»، ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم: ذوقوا عذاب الحريق، وقوله تعالى: ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ أي هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا، جازاكم الله بها هذا الجزاء، ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾: أي لا يظلم أحداً من خلقه، بل هو الحكم العدل الذي لا يجور، تبارك وتقدس الغني الحميد، ولهذا جاء في الحديث القدسي الصحيح: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى: فعل هؤلاء من المشركين المكذبين بما أرسلت به يا محمد، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا، أي عادتنا وسنتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون، ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل، الكافرين بآيات الله ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أي بسبب ذنوبهم أهلكهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿إن الله قوي شديد العقاب﴾ أي لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحدٍ إلا بسبب ذنب ارتكبه، كقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾، وقوله: ﴿كدأب آل فرعون﴾ أي كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته، أهلكهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك بل كانوا هم الظالمين.

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

أخبر تعالى أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهداً نقضوه، وكلما أكدوه بالأيمان نكثوه، ﴿وهم لا يتقون﴾: أي لا يخافون من الله في شيء ارتكبوه من الآثام، ﴿فإما تثقفنهم في الحرب﴾ أي تغلبهم وتظفر بهم في حرب ﴿فشرّد بهم من خلفهم﴾ أي نكّل بهم[1]، ومعناه: غلظ عقوبتهم وأثخنهم قتلاً ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿لعلهم يذكرون﴾ لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وإما تخافن من قوم﴾ قد عاهدتهم ﴿خيانة﴾ أي نقضاً لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود ﴿فانبذ إليهم﴾ أي عهدهم على سواء: أي أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي تستوي أنت وهم في ذلك، قال الراجز:

فاضرب وجوه الغــدر للأعداء حتى يجيبوك إلى السواء

﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ ولو في حق الكفار لا يحبها أيضاً، عن سليم بن عامر قال: كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدر، إن رسول الله ﷺ قال: «ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها، حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء»، قال فبلغ ذلك معاوية، فرجع فإذا بالشيخ عمرو بن عنبسة رضي الله عنه[2]. وقال الإمام أحمد عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه انتهى إلى حصن أو مدينة، فقال لأصحابه: دعوني أدعوهم كما رأيتُ رسول الله ﷺ يدعوهم، فقال إنما كنت رجلاً منكم فهداني الله عزَّ وجلَّ للإسلام، فإن أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون، وإن أبيتم نابذناكم على سواء، ﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ولا تحسبن﴾ يا محمد ﴿الذين كفروا سبقوا﴾ أي فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا وفي قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا، كقوله تعالى: ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا

(١) قاله ابن عباس والحسن البصري والضحاك والسدي وعطاء الخراساني وابن عيينة.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان وقال الترمذي: حسن صحيح.

ساء ما يحكمون﴾ أي يظنون، وقوله تعالى: ﴿لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير﴾، وقوله تعالى: ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾. ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة فقال: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم﴾ أي مهما أمكنكم ﴿من قوة ومن رباط الخيل﴾. عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»[1]. وروى الإمام أحمد وأهل السنن عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ارموا واركبوا وأن ترموا خير من أن تركبوا﴾. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر. فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقى به كان ذلك حسنات له، فهي لذلك الرجل أجر، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له ستر، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء فهي على ذلك وزر». وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر؟ فقال: «ما أنزل الله عليّ فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾»[2]. وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمي، وقول الجمهور أقوى للحديث والله أعلم.

وفي الحديث: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، ومن ربط فرساً في سبيل الله كانت النفقة عليه كالماد يده بالصدقة لا يقبضها»[3]. وفي صحيح البخاري قال رسول الله ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم»، وقوله: ﴿ترهبون﴾ أي تخوفون ﴿به عدو الله وعدوكم﴾ أي من الكفار ﴿وآخرين من دونهم﴾، قال مجاهد: يعني بني قريظة، وقال السدي: فارس، وقال سفيان الثوري: هم الشياطين التي في الدور، وقال مقاتل: هم المنافقون، وهذا أشبه الأقوال، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾، وقوله: ﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ أي مهما أنفقتم في الجهاد فإنه يوف إليكم على التمام والكمال، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود أن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف كما تقدم في قوله تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾.

* وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ

(١) أخرجه مسلم وأحمد وابن ماجه وأبو داود.

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له ومسلم ومالك

(٣) أخرجه الطبراني عن سهل بن الحنظلية.

﴿حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٣﴾

يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة فانبذ إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حربك ومنابذتك فقاتلهم ﴿وإن جنحوا﴾ أي مالوا ﴿للسلم﴾ أي المسالمة والمصالحة والمهادنة ﴿فاجنح لها﴾ أي فمل إليها، واقبل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين، أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر. قال ابن عباس ومجاهد: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ الآية[1]، وفيه نظر، لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إن كان العدو كثيفاً فإنه يجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص والله أعلم. وقوله: ﴿وتوكل على الله﴾ أي صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقووا ويستعدوا ﴿فإن حسبك الله﴾ أي كافيك وحده، ثم ذكر نعمته عليه بما أيده من المؤمنين المهاجرين والأنصار، فقال: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألّف بين قلوبهم﴾ أي جمعها على الإيمان بك وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك، ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم﴾ أي لما كان بينهم من العداوة والبغضاء، فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية بين الأوس والخزرج، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾.

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنّ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾ أي عزيز الجناب فلا يخيب رجاء من توكل عليه ﴿حكيم﴾ في أفعاله وأحكامه، عن ابن عباس قال: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء، ثم قرأ: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾، وعن مجاهد قال: إذا التقى المتحابان في الله فأخذ أحدهما بيد صاحبه وضحك إليه، تحاتت خطاياهما كما تحات ورق الشجر، قال عبدة، فقلت له: إن هذا ليسير فقال: لا تقل ذلك، فإن الله يقول: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾ قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني. عن سلمان الفارسي أن رسول الله ﷺ قال: «إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذ بيده تحاتت عنهما ذنوبهما كما تحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ذنوبهما ولو كانت مثل زبد البحار».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾

(١) وهو قول عطاء وعكرمة والحسن وقتادة وزيد بن أسلم.

إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

يحرض تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال، ومناجزة الأعداء، ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبهم: أي كافيهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين. قال ابن أبي حاتم عن الشعبي في قوله: ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ قال: حسبك الله وحسب من شهد معك، ولهذا قال: ﴿يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال﴾ أي حثهم وذمرهم عليه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرض على القتال عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عَدَدهم وعُدَدهم: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فقال (عمير بن الحمام) عرضها السموات والأرض؟ فقال رسول الله ﷺ «نعم»، فقال: بخ بخ، فقال: «ما يحملك على قولك بخ بخ»؟ قال: رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها»، فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتهن من يده، وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه. ثم قال تعالى مبشراً للمؤمنين وآمراً: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا﴾ كل واحد بعشرة، ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة، قال عبد الله بن المبارك عن ابن عباس لما نزلت ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ شق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ إلى قوله ﴿يغلبوا مائتين﴾ قال: خفف الله عنهم من العدة ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم. وروى البخاري نحوه، وعن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ثقل على المسلمين وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائةٌ ألفاً، فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى فقال: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً﴾ الآية، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم لم يسغ لهم أن يفروا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك لم يجب عليهم قتالهم وجاز لهم أن يتحرزوا عنهم[1]. وروى الحافظ ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ قال: نزلت فينا أصحاب محمد ﷺ.

مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

(١) وروي عن مجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وزيد بن أسلم والضحاك وغيرهم نحو ذلك.

لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك، استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله أنت في واد كثير الحطب فاضرم الوادي عليهم ناراً ثم ألقهم فيه، قال: فسكت رسول الله ﷺ فلم يرد عليهم شيئاً، ثم قام فدخل، فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة؛ ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال: ﴿فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام قال: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾، وإن مثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام قال: ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾، وإن مثلك يا عبد الله كمثل نوح عليه السلام قال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ أنتم عالة فلا ينفكن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق»، قال ابن مسعود: قلت يا رسول الله إلّا (سهيل بن بيضاء) فإنه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع عليّ حجارة من السماء مني في ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ: «إلا سهيل بن بيضاء»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾ إلى آخر الآية[١]. عن ابن عمر قال: لما أسر الأسارى يوم بدر أسر العباس فيمن أسر، أسره رجل من الأنصار، قال: وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أنم الليلة من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه» فقال له عمر: أفآتيهم؟ فقال: «نعم»، فأتى عمر الأنصار، فقال لهم: أرسلوا العباس، فقالوا: لا والله لا نرسله، فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى، قالوا: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى فخذه، فأخذه عمر، فلما صار في يده قال له: يا عباس أسلم، فوالله لأن تسلم أحب إليّ من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك، قال: واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر فيهم، فقال أبو بكر: عشيرتك فأرسلهم، فاستشار عمر فقال: اقتلهم، ففاداهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾ الآية[٢]

قال ابن عباس ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾ قال: غنائم بدر قبل أن يحلها لهم، يقول: لولا أني لا أعذب من عصاني حتى أتقدم إليه، لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم، وكذا روي عن مجاهد، وقال الأعمش: سبق منه أن لا يعذب أحداً شهد بدراً، وقال شعبة عن مجاهد ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ أي لهم بالمغفرة، وعن ابن عباس في قوله ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ يعني في أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى لكم ﴿لمسكم فيما أخذتم﴾ من الأسارى ﴿عذاب عظيم﴾، ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه في الصحيحين: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرتُ بالرعب مسيرة شهر. وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة». وقد روى

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي والحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه ابن مردويه والحاكم في المستدرك وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

الإمام أبو داود في سننه عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة، وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء أن الإمام مخير فيهم، إن شاء قتل كما فعل ببني قريظة، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر، أو بمن أسر من المسلمين، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر، هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء، وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر في موضعه من كتب الفقه.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

قال محمد بن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «إني قد عرفت أن أناساً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً منهم - أي من بني هاشم - فلا يقتله، ومن لقي البختري بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرهاً»، فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العباس؟ والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف، فبلغت رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: «يا أبا حفص - قال عمر: والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ أبا حفص - أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف؟»، فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه فوالله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك: والله ما آمن من تلك الكلمة التي قلت ولا أزال منها خائفاً إلا أن يكفرها الله تعالى عني بشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيداً رضي الله عنه، قال محمد بن إسحاق: وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب، وذلك أنه كان رجلاً موسراً فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهباً. وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك: أن رجالاً من الأنصار قالوا: يا رسول الله ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه. قال: «لا والله لا تذرون منه درهماً»، وبعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله قد كنت مسلماً، فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان علينا، فافتد نفسك وابني أخيك نوفل وعقيل، وحليفك عتبة بن عمرو» قال: ما ذاك عندي يا رسول الله، قال: «فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها إن أصبت في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبنيّ الفضل وعبد الله وقثم»، قال: والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي، فقال رسول الله ﷺ: «لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك»، ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ فيه: ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾. قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة الله عزَّ وجلَّ. وقال أبو جعفر بن جرير: قال

العباس فيّ نزلت: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾، فأخبرت النبي ﷺ بإسلامي، وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذت مني فأبى، فأبدلني الله بها عشرين عبداً كلهم تاجرٌ مالي في يده.

وقال ابن عباس قالوا للنبي ﷺ: آمنا بما جئت به ونشهد أنك رسول الله لننصحن لك على قومنا، فأنزل الله: ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ يخلف لكم خيراً مما أخذ منكم ﴿ويغفر لكم﴾ الشرك الذي كنتم عليه، قال فكان العباس يقول: ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا وإن لي الدنيا، لقد قال: ﴿يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾، فقد أعطاني خيراً مما أخذ مني مائة ضعف، وقال: ﴿ويغفر لكم﴾ وأرجو أن يكون قد غفر لي. وقال قتادة: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفاً، وقد توضأ لصلاة الظهر، فما أعطى يومئذ شاكياً، ولا حرم سائلاً، وما صلى يومئذ حتى فرقه، فأمر العباس أن يأخذ منه ويحتثي، فكان العباس يقول: هذا خير مما أخذ منا وأرجو المغفرة. قال الحافظ أبو بكر البيهقي عن أنس بن مالك قال: أتي رسول الله ﷺ بمال من البحرين فقال: «انثروه في مسجدي» قال: وكان أكثر مال أتي به رسول الله ﷺ، فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاءه العباس، فقال: يا رسول الله أعطني فإني فاديت نفسي، وفاديت عقيلاً، فقال له رسول الله ﷺ: «خذ» فحثا في ثوبه، ثم ذهب يقله فلم يستطع، فقال: مر بعضهم يرفعه إليّ، قال: «لا»، قال: فارفعه أنت عليّ، قال: «لا»، فنثر منه ثم احتمله على كاهله، ثم انطلق، فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خفي عنه عجباً من حرصه، فما قام رسول الله ﷺ وثَمَّ منها درهم[1]. وقوله: ﴿وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل﴾ أي وإن يريدوا خيانتك فيما أظهروا لك من الأقوال ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾ أي من قبل بدر بالكفر به ﴿فأمكن منهم﴾ أي بالأسارى يوم بدر ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بفعله حكيم فيه، قال قتادة: نزلت في (عبد الله بن أبي سرح) الكاتب حين ارتد ولحق بالمشركين، وقال عطاء الخراساني: نزلت في عباس وأصحابه حين قالوا: لننصحن لك على قومنا، وقال السدي بالعموم، وهو أشمل وأظهر والله أعلم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

ذكر تعالى أصناف المؤمنين، وقسمهم إلى (مهاجرين) خرجوا من ديارهم وأموالهم، وجاءوا لنصر الله ورسوله وإقامة دينه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك، وإلى (أنصار) وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم وواسوهم في أموالهم، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم فهؤلاء ﴿بعضهم أولياء بعض﴾، أي كل منهم أحق بالآخر من كل أحد، ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كل اثنين أخوان،

(١) ورواه البخاري في مواضع من صحيحه تعليقاً.

فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، ثبت ذلك في صحيح البخاري عن ابن عباس، وقال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة»[1]، وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه فقال: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ الآية، وقال: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم﴾ الآية، وأحسن ما قيل في قوله: ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ أي لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء لا يختلفون في ذلك؛ ولهذا قال الإمام البزار عن سعيد بن المسيب عن حذيفة قال: خيّرني رسول الله ﷺ بين الهجرة والنصرة فاخترت الهجرة، وقوله تعالى: ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾، هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا بل أقاموا في بواديهم، فهؤلاء ليس لهم في المغانم نصيب، ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال، كما روي عن يزيد بن الخصيب الأسلمي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً، وقال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال - أو خلال - فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم»[2]، وقوله: ﴿وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر﴾، يقول تعالى: وإن استنصركم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم لأنهم إخوانكم في الدين إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار بينكم وبينهم ميثاق أي مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم.

* ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار، كما قال الحاكم عن أسامة عن النبي ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين ولا يرث مسلم كافراً ولا كافر مسلماً، ثم قرأ: ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾»، وفي الصحيحين: «لا يرث المسلم الكافر

(١) أخرجه أحمد عن جرير بن عبد الله البجلي ورواه الحافظ أبو يعلى عن ابن مسعود مرفوعاً.

(٢) أخرجه مسلم وعنده زيادات أخرى ورواه أحمد واللفظ له.

ولا الكافر المسلم » وفي المسند والسنن: « لا يتوارث أهل ملتين شتى »[١]، وقال رسول الله ﷺ: « أنا بريء من كل مسلم بين ظهراني المشركين، لا يتراءى ناراهما »[٢]، وروى أبو داود عن سمرة بن جندب: أما بعد قال رسول الله ﷺ: « من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله ». ومعنى قوله: ﴿إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ أي إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين وإلا وقعت فتنة في الناس، وهو التباس الأمر واختلاط المؤمنين بالكافرين فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل.

* وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا، عطف بذكر مالهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان، وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف الذي لا ينقطع ولا ينقضي، ولا يسأم ولا يمل لحسنه وتنوعه، ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة كما قال: ﴿والسابقون الأولون﴾ الآية، وقال: ﴿والذين جاءوا من بعدهم﴾ الآية، وفي الحديث المتفق عليه: « المرء مع من أحب »، وفي الحديث الآخر: « ومن أحب قوماً فهو منهم » وفي رواية: « حشر معهم »، وأما قوله تعالى: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ أي في حكم الله، وليس المراد بقوله: ﴿وأولوا الأرحام﴾[٣] خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض، على القرابة الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة، بل يدلون بوارث كالخالة والخال والعمة ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات، كما نص عليه ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغير واحد، على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولاً، وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص والله أعلم.

« آخر تفسير سورة الأنفال ولله الحمد والمنة وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل »

* * *

(١) أخرجه أحمد وأصحاب السنن وقال الترمذي: حسن صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير مرسلاً ومتصلاً.
(٣) أخرج ابن جرير: كان الرجل يعاقد الرجل فيقول ترثني وأرثك، فنزلت: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم ...﴾ الآية. وأخرج ابن سعد: آخى رسول الله ﷺ بين الزبير بن العوام وكعب بن مالك، قال الزبير: لقد رأيت كعباً أصابته الجراحة بأحد، فقلت: لو مات لورثته، فنزلت هذه الآية.

تفسير سورة الأنفال

وهى مدنية[١]، آياتها سبعون وست آيات[٢]، كلماتها ألف كلمة، وستمائة كلمة، وإحدى[٣] وثلاثون كلمة، حروفها خمسة آلاف ومائتان، وأربعة وتسعون[٤] حرفا، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١)﴾.

قال البخارى: قال ابن عباس: الأنفال: الغنائم: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان، أخبرنا هُشَيْم، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟ قال: نزلت فى بدر.

أما ما عَلَّقَه عن ابن عباس، فكذلك رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس أنه قال: «الأنفال»: الغنائم، كانت لرسول الله ﷺ خالصة، ليس لأحد منها[٥] شىء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، وقتادة، وعطاء الخراسانى، ومقاتل بن حيَّان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد أنها الغنائم[٦].

وقال الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس أنه قال: الأنفال: الغنائم، قال فيها لَبِيدُ:

إنّ تَقْوى رَبِّنَا خيرُ نَفَلْ ... وَبِإذْنِ الله رَيْثى وَعَجَلْ[٧]

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى مالك بن أنس، عن ابن شهاب، عن القاسم بن محمد قال: سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن «الأنفال»، فقال ابن عباس، رضى الله عنهما: الفرس من النَّفل، والسلبَ من النفل. ثم عاد لمسألته، فقال ابن عباس ذلك أيضا. ثم قال الرجل: الأنفال التى قال الله فى كتابه، ما هى؟ قال القاسم: فلم يزل يسأله حتى كاد يُحرجه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا، مثل صَبِيغ الذى ضربه عمر بن الخطاب[٨].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهرى، عن القاسم بن محمد قال: قال ابن عباس: كان

---

(١) فى د: «مكية».
(٢) فى د، م: «ستة وأربعون»، وفى أ: «أربعون وست آيات».
(٣) فى د: «واحد».
(٤) فى د: «سبعون».
(٥) فى د: «فيها».
(٦) فى د، ك، م: «المغانم».
(٧) البيت فى تفسير الطبرى (١٣/ ٣٦٦) ولسان العرب مادة (نفل).
(٨) تفسير الطبرى (١٣/ ٣٦٤).

عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، إذا سئل عن شىء قال: لا آمرك ولا أنهاك. ثم قال ابن عباس: والله ما بعث الله نبيه ﷺ إلا زاجرا آمرا محلا محرما. قال القاسم: فَسُلِّطَ على ابن عباس رجل يسأله[١] عن الأنفال، فقال ابن عباس: كان الرجل ينفل فرس الرجل وسلاحه. فأعاد عليه الرجل، فقال له مثل ذلك، ثم أعاد عليه حتى أغضبه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا؟ مثل صَبِيغ الذى ضربه عمر بن الخطاب، حتى سالت الدماء على عقبيه ـ أو على: رجليه ـ فقال الرجل: أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك[٢].

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس: أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه، بعد قسم أصل المغنم، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل، والله أعلم.

وقال ابن أبى نجيح، عن مجاهد: إنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخمس بعد الأربعة الأخماس، فنزلت: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ**﴾ [٣].

وقال ابن مسعود ومسروق: لا نفل يوم الزحف، إنما النفل قبل التقاء الصفوف. رواه ابن أبى حاتم عنهما.

وقال ابن المبارك وغير واحد، عن عبد الملك بن أبى سليمان، عن عطاء بن أبى رباح: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ**﴾، قال: يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين فى غير قتال، من دابة أو عبد أو أمة أو متاع، فهو نفل للنبى ﷺ يصنع به ما يشاء.

وهذا يقتضى أنه فسر الأنفال بالفىء، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: هى أنفال السرايا، حدثنى الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا على ابن صالح بن حى قال: بلغنى فى قوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ**﴾ قال: السرايا.

ويعنى[٤] هذا: ما ينفله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش، وقد صرح بذلك الشعبى، واختار ابن جرير أنها الزيادات على القسم، ويشهد لذلك ما ورد فى سبب نزول الآية، وهو ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا أبو إسحاق الشيبانى، عن محمد ابن عبد الله[٥] الثقفى، عن سعد بن أبى وقاص قال: لما كان يوم بدر، وقتل أخى عُمَيْر، وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وكان يسمى «ذا الكتيفة»، فأتيت به نبى الله ﷺ، فقال: «اذهب فاطرحه فى القبض». قال: فرجعت وبى ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخى وأخذ سلبى. قال: فما جاوزت إلا يسيرا حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لى رسول الله ﷺ: «اذهب فخذ سيفك»[٦].

---

(١) فى د، ك، م: «فسأله» وفى أ: «سأله».

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٣١) وصبيغ هو «ابن عسل» ويقال: «ابن سهل» التميمى. انظر قصته فى: الإصابة (٢/ ١٩٨).

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ٣٦٥).

(٤) فى د: «ومعنى».

(٥) فى أ: «عبيد الله».

(٦) المسند (١/ ١٨٠).

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا أبو بكر، عن عاصم بن أبى النَّجود، عن مصعب بن سعد، عن سعد بن مالك قال: قال: يا رسول الله، قد شفانى الله اليوم من المشركين، فهب لى هذا السيف. فقال: «إن هذا السيف لا لك ولا لى، ضعه» قال: فوضعته، ثم رجعت، قلت: عسى أن يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلى بلائى! قال: رجل[١] يدعونى من ورائى، قال: قلت: قد أنزل الله فى شيئا؟ قال: «كنت سألتنى السيف، وليس هو لى وإنه قد وهب لى، فهو لك» قال: وأنزل الله هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ .

ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى من طرق، عن أبى [بكر][٢] بن عياش، به[٣]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

وهكذا رواه أبو داود الطيالسى: أخبرنا شعبة، أخبرنا سماك بن حرب، قال: سمعت مصعب بن سعد، يحدث عن سعد قال: نزلت فىّ أربع آيات: أصبت سيفا يوم بدر، فأتيت النبى ﷺ فقلت: نَفِّلْنيه. فقال: «ضعه من حيث أخذته.» مرتين، ثم عاودته فقال النبى ﷺ: «ضعه من حيث أخذته.»، فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ﴾[٤].

وتمام الحديث فى نزول: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا[٥]﴾ [العنكبوت:٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾[المائدة: ٩٠]، وآية الوصية. وقد رواه مسلم فى صحيحه، من حدث شعبة، به[٦].

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى عبد الله بن أبى بكر، عن بعض بنى ساعدة قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة يقول: أصبت سيف ابن عائذ يوم بدر، وكان السيف يدعى بالمرزبان، فلما أمر رسول الله ﷺ الناس أن يردوا ما فى أيديهم من النفل، أقبلت به فألقيته فى النفل، وكان رسول الله ﷺ لا يمنع شيئا يسأله، فرآه الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى، فسأله رسول الله [ﷺ][٧]، فأعطاه إياه[٨].

ورواه ابن جرير من وجه آخر:

[سبب آخر فى نزول الآية]:

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن سلمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الرحمن، عن[٩] سليمان ابن موسى، عن مكحول، عن أبى أمامة قال: سألت عبادة عن الأنفال، فقال: فينا ـ أصحاب بدر ـ

---

(١) فى أ: «إذا رجل». (٢) زيادة من ك، م، أ .

(٣) المسند (١/ ١٧٨) وسنن أبى داود برقم (٢٧٤٠) وسنن الترمذى برقم (٣٠٧٩) والنسائى في السنن الكبرى برقم (١١١٩٦).

(٤) مسند الطيالسى برقم (٢٠٨) . (٥) فى أ: «إحسانا».

(٦) صحيح مسلم برقم (١٧٤٨) .

(٧) زيادة من ك، أ.

(٨) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ٣٧٤) من طريق ابن إسحاق به.

(٩) فى د: «بن» .

نزلت، حين اختلفنا فى النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء ـ يقول: عن سواء[(١)].

وقال أحمد أيضا: حدثنا معاوية بن عمرو، أخبرنا أبو[(٢)] إسحاق، عن عبد الرحمن بن الحارث ابن عبد الله بن عياش[(٣)] بن أبى ربيعة، عن سليمان بن موسى، عن أبى سلام، عن أبى أمامة، عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع النبى ﷺ، فشهدت معه بدرا، فالتقى الناس، فهزم الله [تعالى][(٤)] العدو، فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون، وأكبت[(٥)] طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه. وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لايصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها، فليس لأحد فيها نصيب. وقال الذين خرجوا فى طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن منعنا[(٦)] عنها[(٧)] العدو وهزمناهم. وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق منا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ، وخفنا أن يصب العدو منه غرة، فاشتغلنا به، فنزلت: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ**﴾، فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين ـ وكان رسول الله إذا غار فى أرض العدو نفل الربع، فإذا أقبل وكل الناس راجعا، نفل الثلث، وكان يكره الأنفال ويقول: «ليرد قوى المؤمنين على ضعيفهم».

ورواه الترمذى وابن ماجه، من حديث سفيان الثورى، عن عبد الرحمن بن الحارث به نحوه، وقال الترمذى: هذا حديث حسن. ورواه ابن حبان فى صحيحه، والحاكم فى مستدركه من حديث عبد الرحمن بن الحارث[(٨)]، وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وروى أبو داود والنسائى، وابن جرير، وابن مردويه ـ واللفظ له ـ وابن حبان، والحاكم من طرق، عن داود ابن أبى هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا، فتسارع[(٩)] فى ذلك شبان الرجال، وبقى الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت المغانم، جاؤوا يطلبون الذى جعل لهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا، فإنا كنا ردءًا لكم، لو انكشفتم لفئتم[(١٠)] إلينا. فتنازعوا فأنزل الله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[(١١)].

وقال الثورى، عن الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله

---

(١) المسند (٥/ ٣٢٢).
(٢) فى م، د: «ابن». (٣) فى أ: «عباس». (٤) زيادة من د، م.
(٥) فى د: «وأقبلت». (٦) فى د، ك، م، أ: «نفينا». (٧) فى د: «عنه».
(٨) المسند (٥/ ٣٢٤) وسنن الترمذى برقم (١٥٦١) وسنن ابن ماجة برقم (٢٨٥٢) وصحيح ابن حبان برقم (١٦٩٣) «موارد». والمستدرك (٢/ ١٣٦).
(٩) فى جميع النسخ: «فتنازع»، والمثبت من الطبرى. (١٠) فى د: «لنتبتم».
(١١) سنن أبى داود برقم (٢٧٣٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١١٩٧) وتفسير الطبرى (١٣/ ٣٦٨) والمستدرك (٢/ ٣٢٦).

ﷺ: «من قتل قتيلا فله كذا وكذا، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا». فجاء أبو اليَسَر بأسيرين، فقال: يا رسول الله،[١] وعدتنا، فقام سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، إن أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة فى الأجر، ولا جبن عن العدو، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك، نخاف أن يأتوك من ورائك، فتشاجروا، ونزل القرآن: ﴿**يسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ قال: ونزل القرآن: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ [وَلِلرَّسُولِ]**[٢]﴾ إلى آخر الآية [الأنفال: ٤١] [٣].

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، فى كتاب «الأموال الشرعية وبيان جهاتها ومصاريفها»: أما الأنفال: فهى المغانم، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب، فكانت الأنفال الأولى إلى النبى ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ فقسمها يوم بدر على ما أراده الله من غير أن يخمسها على ما ذكرناه فى حديث سعد، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس، فنسخت الأولى[٤].

قلت: هكذا روى على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، سواء. وبه قال مجاهد، وعكرمة والسُّدِّى.

وقال ابن زيد: ليست منسوخة، بل هى محكمة.

قال أبو عبيد: وفى ذلك آثار، والأنفال أصلها جمع[٥] الغنائم، إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب، وجرت به السنة. ومعنى الأنفال فى كلام العرب: كل إحسان فعله فاعل تفضلا من غير أن يجب ذلك عليه، فذلك النفل الذى أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم وإنما هو شىء خصه الله به تطولا منه عليهم بعد أن كانت المغانم محرمة على الأمم قبلهم، فنفلها الله هذه الأمة فهذا أصل النفل.

قلت: شاهد هذا فى الصحيحين عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى» فذكر الحديث، إلى أن قال: «وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى»، وذكر تمام الحديث[٦].

ثم قال أبو عبيد: ولهذا سمى ما جعل الإمام للمقاتلة نفلا، وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشىء سوى سهامهم، يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام والنكاية فى العدو. وفى النفل الذى ينفله الإمام سنن أربع، لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرى :

---

(١) فى أ: «يا رسول الله إنك». (٢) زيادة من أ.

(٣) رواه عبد الرزاق فى المصنف برقم (٩٤٨٣) عن الثورى به.

(٤) الأموال (ص٤٢٦).

(٥) فى د، ك، أ: «جماع».

(٦) انظر: تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية : ٤٣ من سورة النساء .

فإحداهن: فى النفل لا خمس فيه، وذلك السلب.

والثانية: فى النفل الذى يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس، وهو أن يوجه الإمام السرايا فى أرض الحرب، فتأتى بالغنائم فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس.

والثالثة: فى النفل من الخمس نفسه، وهو أن تحاز الغنيمة كلها، ثم تخمس، فإذا صار الخمس فى يدى الإمام نفل منه على قدر ما يرى.

والرابعة: فى النفل فى جملة الغنيمة قبل إن يخمس منها شىء، وهو أن يعطى الأدلاء ورعاة الماشية والسوّاق لها، وفى كل ذلك اختلاف.

قال الربيع: قال الشافعى: الأنفال: ألا يخرج من رأس الغنيمة قبل الخمس شىء غير السلب.

قال أبو عبيد: والوجه الثانى من النفل هو شىء زيدوه غير الذى كان لهم، وذلك من خمس النبى ﷺ؛ فإن له خمس الخمس من كل غنيمة، فينبغى للإمام أن يجتهد ، فإذا كثر العدو واشتدت شوكتهم، وقل من بإزائه من المسلمين، نفل منه اتباعا لسنة رسول الله ﷺ، وإذا لم يكن ذلك لم ينفل.

والوجه الثالث من النفل: إذا بعث الإمام سرية أو جيشًا، فقال لهم قبل اللقاء: من غنم شيئًا فله بعد الخمس، فذلك لهم على ما شرط الإمام؛ لأنهم على ذلك غزوا، وبه رضوا. انتهى كلامه[(١)].

وفيم تقدم من كلامه وهو قوله: «إن غنائم بدر لم تخمس»، نظر. ويرد عليه حديث على بن أبى طالب فى شارفيه اللذين حصلا له من الخمس يوم بدر، وقد بينت ذلك فى كتاب السيرة بيانًا شافيا[(٢)]، ولله الحمد [والمنة][(٣)].

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أى: اتقوا الله فى أموركم، وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: فى قسمه بينكم على ما أراده الله، فإنه قسمه[(٤)] كما أمره الله من العدل والإنصاف.

وقال ابن عباس: هذا تحريج من الله على المؤمنين أن يتقوا [الله][(٥)] ويصلحوا ذات بينهم. وكذا قال مجاهد.

وقال السدى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أى: لا تستبوا. ونذكر هاهنا حديثا أورده الحافظ أبو يعلى أحمد بن على بن المثنى الموصلى، رحمه الله، فى مسنده، فإنه قال: حدثنا مجاهد

---

(١) الأموال (ص٤٣١) .

(٢) السيرة لابن كثير (٢/ ٤٦٦).

(٣) زيادة من أ. (٤) فى أ: « يقسمه». (٥) زيادة من أ.

ابن موسى، حدثنا عبد الله بن بكر[١]، حدثنا عباد بن شيبة الحبطى[٢]، عن سعيد بن أنس، عن أنس، رضى الله عنه، قال: بينا رسول الله ﷺ جالس، إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، فقال عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبى أنت وأمى؟ فقال: «رجلان جثيا من أمتى بين يدى رب العزة، تبارك وتعالى، فقال أحدهما: يا رب، خذ لى مظلمتى من أخى. قال الله تعالى: أعط أخاك مظلمتك. قال: يا رب، لم يبق من حسناتى شىء. قال: رب، فليحمل عنى من أوزارى» قال: قال: وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، ثم قال: «إن ذلك[٣] ليوم عظيم، يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم، فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك فانظر فى الجنان، فرفع رأسه فقال: يا رب، أرى مدائن من فضة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ، لأى نبى هذا؟ لأى صديق هذا؟ لأى شهيد هذا؟ قال: هذا لمن أعطى الثمن. قال: يا رب، ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكه. قال: ماذا يا رب؟ قال: تعفو عن أخيك. قال: يا رب، فإنى قد عفوت عنه. قال الله تعالى: خذ بيد أخيك فأدخله الجنة». ثم قال رسول الله ﷺ: «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة»[٤].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شىء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشىء من آيات الله، ولا يتوكلون، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدوا فرائضه. ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ يقول: تصديقًا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: لا يرجون غيره.

وقال مجاهد: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فرقت، أى: فزعت وخافت. وكذا قال السدى وغير واحد.

وهذه صفة المؤمن حق المؤمن، الذى إذا ذكر الله وجل قلبه، أى: خاف منه، ففعل أوامره، وترك زواجره. كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] ولهذا قال سفيان الثورى: سمعت السدى يقول فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ

---

(١) فى أ: «كثير». (٢) فى د، أ: «الحنظلى». (٣) فى د، م: «وذلك».

(٤) ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/٥٧٦) من طريق عبد الله بن بكر السهمى به. وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبى فقال: «عباد بن شيبة الحبطى، عن سعيد، والأول ضعيف، وشيخه لا يعرف».

﴿قُلُوبُهُمْ﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم ـ أو قال: يهم بمعصية ـ فيقال له: اتق الله فَيَجل[١] قلبه.

وقال الثورى أيضاً: عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء فى قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قالت: الوجل فى القلب إحراق[٢] السعفة، أما تجد لها قشعريرة؟ قال: بلى. قالت لى: إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك، فإن الدعاء يذهب ذلك.

وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا [وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ][٣]﴾، كقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقد استدل البخارى وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها، على زيادة الإيمان وتفاضله فى القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة، كالشافعى، وأحمد بن حنبل، وأبى عبيد، كما بينا ذلك مستقصى فى أول الشرح[٤] البخارى، ولله الحمد والمنة.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف فى الملك، وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب؛ ولهذا قال سعيد ابن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، ينبه بذلك على أعمالهم، بعد ما ذكر اعتقادهم، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة، وهو حق الله تعالى.

وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها[٥]، ووضوئها، وركوعها، وسجودها.

وقال مقاتل بن حَيَّان: إقامتها: المحافظة على مواقتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبى ﷺ، هذا إقامتها.

والإنفاق مما رزقهم الله يشمل خراج[٦] الزكاة، وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عيال الله، فأحبهم[٧] إلى الله أنفعهم لخلقه.

قال قتادة فى قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: فأنفقوا مما أعطاكم الله، فإنما هذه الأموال عوارى وودائع عندك يا ابن آدم، أو شكت أن تفارقها.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أى: المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان.

---

(١) فى م: «فيوجل». (٢) فى أ: «كإحراق». (٣) زيادة من ك.
(٤) فى أ: «شرح». (٥) فى م: «أوقاتها» (٦) فى ك، م: «إخراج».
(٧) فى د: «أحبكم».

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى، حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنا ابن لَهيعَة، عن خالد بن يزيد[١] السَّكْسكِىّ، عن سعيد بن أبى هلال، عن محمد بن أبى الجهم، عن الحارث بن مالك الأنصارى؛ أنه مر برسول الله ﷺ فقال له: «كيف أصبحت يا حارث؟» قال: أصبحت مؤمنا حقا. قال: «انظر ماذا[٢] تقول، فإن لكل شىء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟» فقال: عَزَفَت نفسى عن الدنيا، فأسهرت ليلى، وأظمأت نهارى، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأنى أنظر إلى أهل النار يَتَضاغَوْن فيها، فقال: «يا حارث، عرفت فالزم» ثلاثا[٣].

وقال عمرو بن مُرَّة فى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾: إنما أُنزِلَ[٤] القرآن بلسان العرب، كقولك: فلان سيد حقا، وفى القوم سادة، وفلان تاجر حقا، وفى القوم تجار، وفلان شاعر حقا، وفى القوم شعراء.

وقوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أى: منازل ومقامات ودرجات فى الجنات، كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[آل عمران: ١٦٣].

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أى: يغفر لهم السيئات، ويشكر لهم الحسنات.

وقال الضحاك فى قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذى هو فوق فضله على الذى هو أسفل منه، ولا يرى الذى هو أسفلُ أنه فُضّل عليه أحد.

ولهذا جاء فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل علّيين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر فى أفق من آفاق السماء»، قالوا[٥]: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا ينالها غيرهم؟ فقال: «بلى، والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين»[٦].

وفى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد [و][٧] أهل السنن من حديث عَطية، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراؤون أهل الدرجات العلى كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعَمَا»[٨].

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى

---

(١) فى د،م: «زيد». (٢) فى م، أ: «ما».
(٣) المعجم الكبير (٣/٢٦٦) قال الهيثمى فى المجمع (١/٥٧): «فيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه».
(٤) فى د، ك، م: «نزل». (٥) فى أ: «فقالوا».
(٦) صحيح البخارى برقم (٣٢٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣١) من حديث أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه.
(٧) زيادة من د، ك، م، أ.
(٨) المسند (٣/٦١) وسنن أبى داود برقم (٣٩٨٧) وسنن الترمذى برقم(٣٦٥٨) وسنن ابن ماجة برقم (٩٦).

الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) ﴾.

قال الإمام أبو جعفر الطبرى: اختلف المفسرون فى السبب الجالب لهذه «الكاف» فى قوله: ﴿**كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ**﴾، فقال بعضهم: شُبِّه به فى الصلاح للمؤمنين، اتقاؤهم ربهم، وإصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم الله ورسوله.

ثم روى عن عكرمة نحو هذا.

ومعنى هذا أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم فى المغانم وتشاححتم فيها فانتزعها الله منكم، وجعلها إلى قَسْمه وقَسْم رسوله ﷺ[1]، فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة ـ وهم[2] النفير الذين خرجوا لنصر دينهم، وإحراز عيرهم ـ فكان عاقبة، كراهتكم للقتال ـ بأن قدَّره لكم، وجَمَع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد ـ رَشَدًا وهدى، ونصرا وفتحا، كما قال تعالى: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿ **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ**﴾ على كره من فريق من المؤمنين، كذلك هم كارهون للقتال، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم، ثم روى نحوه عن مجاهد أنه قال: ﴿ **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ**﴾ قال: كذلك يجادلونك فى الحق.

وقال السُّدِّى: أنزل الله فى خروجه[3] إلى بدر ومجادلتهم إياه فقال: ﴿ **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ** ﴾ لطلب المشركين ﴿**يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ**﴾.

وقال بعضهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة، كما جادلوك يوم بدر فقالوا: أخرجتنا للعير، ولم تعلمنا قتالا فنستعدَّ له.

قلت: رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالبا لعير أبى سفيان، التى بلغه خبرها أنها صادرة من الشام، فيها أموال جزيلة لقريش، فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين من خَف منهم، فخرج فى ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ فى طلبه، فبعث ضَمْضَم بن عمرو نذيرا إلى مكة، فنهضوا فى قريب من ألف مُقَنَّع، ما بين التسعمائة إلى الألف، وتيامن أبو سفيان بالعير إلى سيف البحر فَنَجا، وجاء النفير فوردوا ماء بدر، وجمع الله المسلمين والكافرين على غير ميعاد، لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين

---

(١) فى ك، م، أ: « صلوات الله وسلامه عليه». (٢) فى د: « وهو».
(٣) فى د: « خروجهم».

ونصرهم على عدوهم، والتفرقة[١] بين الحق والباطل، كما سيأتى بيانه.

والغرض: أنَّ رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفير، أوحى الله إليه يَعدهُ إحدى الطائفتين: إما العير وإما النّفير، ورغب كثير من المسلمين إلى العير؛ لأنه كسب بلا قتال، كما قال تعالى: ﴿**وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ**﴾.

قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه فى تفسيره: حدثنا سليمان بن أحمد الطبرانى، حدثنا بكر بن سهل، حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا ابن لَهِيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، عن أسلم أبى عمران حدثه أنه سمع أبا أيوب الأنصارى يقول: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: « إنى أخبرت عن عير أبى سفيان أنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله يُغْنمناهَا؟» فقلنا: نعم، فخرج وخرجنا، فلما سِرنْا يوما أو يومين قال لنا: « ما ترون فى قتال القوم؛ فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟» فقلنا: لا، والله ما لنا طاقة بقتال العدو، ولكنا أردنا العير، ثم قال: « ما ترون فى قتال القوم؟» فقلنا مثل ذلك فقال المقداد بن عمرو: إذاً لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ **فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾ [المائدة: ٢٤]، قال: فتمنينا ـ معشر الأنصار ـ أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم، قال: فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ** ﴾ وذكر تمام الحديث[٢].

ورواه ابن أبى حاتم، من حديث ابن لهيعة، بنحوه.

ورواه ابن مَرْدُويه أيضاً من حديث محمد بن عمرو بن عَلْقَمة بن وقاص الليثى، عن أبيه، عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، حتى إذا كان بالرَّوْحاء، خطب الناس فقال: « كيف ترون؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله، بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا. قال: ثم خطب الناس فقال: « كيف ترون؟» فقال عمر مثل قول أبو بكر. ثم خطب الناس فقال: « كيف تَرَون؟» فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله إيانا تريد؟ فو الذى أكرمك [بالحق][٣] وأنزل عليك الكتاب، ماسلكتها قَط ولا لى بها علم، ولئن سرت [بنا][٤] حتى تأتى «بَرْك الغماد» من ذى يمن لنسيرن معك، ولانكون كالذين قالوا لموسى: ﴿**فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون، ولعلك أن تكون خرجت لأمر، وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذى أحدث الله إليك، فامض له، فَصِلْ حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعاد من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فنزل القرآن على قول سعد: ﴿ **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ** ﴾ الآيات.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس: لما شاور النبى ﷺ فى لقاء العدو، وقال له سعد بن عبادة ما قال

(١) فى د: « التفريق».

(٢) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٤/ ١٧٤).

(٣) زيادة من م.

(٤) زيادة من أ.

وذلك يوم بدر، أمر الناس فعبئوا للقتال، وأمرهم بالشوكة، فكره ذلك أهل الإيمان، فأنزل الله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ . يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

وقال مجاهد: يجادلونك فى الحق: فى القتال. وقال محمد بن إسحاق: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ [بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ][(١)]﴾ أى: كراهية للقاء المشركين، وإنكار لمسير قريش حين ذكروا لهم.

وقال السُّدِّى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ أى: بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به.

قال ابن جرير: وقال آخرون: عنى بذلك المشركين.

حدثني يونس، أنبأنا ابن وَهْب قال: قال ابن زيد فى قوله تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ قال: هؤلاء المشركون، جادلوه فى الحق ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ حين يدعون إلى الإسلام ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ قال: وليس هذا من صفة الآخرين، هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر.

ثم قال ابن جرير: ولا معنى لما قاله؛ لأن الذى قبل قوله: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ خبر عن أهل الإيمان، والذى يتلوه خبر عنهم، والصواب قول ابن عباس وابن إسحاق أنه خبر عن المؤمنين.

وهذا الذى نصره ابن جرير هو الحق، وهو الذى يدل عليه سياق الكلام، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يحيى بن أبى بُكَير وعبد الرزاق قالا: حدثنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعير ليس دونها شىء فناداه العباس بن عبد المطلب ـ قال عبد الرزاق: وهو أسير فى وثاقه ـ ثم اتفقا: إنه لا يصلح لك، قال: ولم؟ قال: لأن الله عز وجل إنما وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك[(٢)].

إسناد جيد، ولم يخرجه[(٣)].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أى: يحبون أن الطائفة التى لا حَدَّ لها ولا منعة ولا قتال، تكون لهم وهى العير ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أى: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التى لها الشوكة والقتال، ليُظْفِّرَكم بهم ويظهركم عليهم، ويظهر دينه، ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالبا على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذى دبركم

---

(١) زيادة من أ.

(٢) المسند (١/ ٢٢٩) من رواية يحيى بن أبى بكير و(١/ ٣١٤) من رواية عبد الرزاق .

(٣) فى ك، م، أ: « يخرجوه».

بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم، كما قال تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ** [**وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**][(١)]﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال محمد بن إسحاق، رحمه الله: حدثنى محمد بن مسلم الزهرى، وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبى بكر، ويزيد بن رومان، عن عُرْوَة بن الزبير وغيرهم من علمائنا، عن عبد الله بن عباس ـ كل قد حدثنى بعض هذا الحديث، فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر ـ قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ بأبى سفيان مقبلا من الشام نَدب المسلمين إليهم، وقال: « هذه عيرُ قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن يُنفلُكُموها. » فانتدب الناسُ، فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يَلْقى حربا، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار، ويسأل من لقى من الركبان، تخوفا على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فَحَذِرَ عند ذلك، فاستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغفارى، فبعثه إلى أهل مكة، وأمره أن يأتى قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها فى أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة، وخَرَج رسول الله ﷺ فى أصحابه حتى بلغ واديا يقال له «ذَفِرَان»، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل، وأتاه الخبر عن قُرَيش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم فاستشار النبى ﷺ الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر، رضى الله عنه، فقال فأحسن، ثم قام عمر، رضى الله عنه، فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله به، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿**اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما[(٢)] مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى «بَرْك الغماد» ـ يعنى مدينة الحبشة ـ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيرا، ودعا له بخير، ثم قال رسول الله ﷺ: « أشيروا على أيها الناس» ـ وإنما يريد الأنصار ـ وذلك أنهم كانوا عَدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذِمَامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمَمنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة، من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: « أجل ». قال: فقال: فقد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت. فوالذى بعثك بالحق، إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبُر عند الحرب، صُدُق عند اللقاء، ولعل الله [أن][(٣)] يريك منا ما تَقَرّ به عينك، فَسِرْ بنا على بركة الله. فسُرّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونَشّطه

---

(١) زيادة من م، أ.
(٢) فى د، ك، م: « معكم».
(٣) زيادة من م .

ذلك، ثم قال: «سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم.»[(١)].

وروى العَوْفى عن ابن عباس نحو هذا، وكذلك قال السدى، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف والخلف، اختصرنا أقوالهم اكتفاء بسياق محمد بن إسحاق.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح قُرَاد، حدثنا عكرمة بن عَمَّار، حدثنا سماك الحَنَفى أبو زُمَيل، حدثنى ابن عباس[(٢)]، حدثنى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: لما كان يوم بدر نظر النبى[(٣)] ﷺ إلى أصحابه، وهم ثلاثمائة ونَيِّف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبى ﷺ القبلة، ثم مد يديه، وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «اللهم أين ما وعدتنى، اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد فى الأرض أبدا»، قال: فما زال يستغث ربه [عز وجل][(٤)] ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا رسول الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله، عز وجل: **﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾**، فلما كان يومئذ والتقوا، فهزم الله المشركين، فقُتِل منهم سبعون رجلا، وأسر منهم سبعون رجلا، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعلياً وعمر[(٥)]، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قُوَّةً لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عَضُدا، فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكنى أرى أن تُمكِّننى من فلان ـ قريب لعمر ـ فأضربَ عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضربَ عنقه، وتمكن حمزة من فلان ـ أخيه ـ فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس[(٦)] فى قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، فَهَوِىَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد ـ قال عمر ـ غدوت إلى النبى ﷺ وأبى بكر وهما يبكيان، فقلت: يا رسول الله، [أخبرنى][(٧)] ما[(٨)] يبكيك أنت وصاحبك، فإن وجدتُ بكاء بكَيتُ، وإن لم أجد بكاء تَبَاكيتُ لبكائكما! قال النبى ﷺ: «للذى عَرَض على أصحابك من أخذهم الفداء، قد عرض علىَّ عذابكم أدنى من هذة الشجرة ـ لشجرة قريبة»، وأنزل الله [عز وجل][(٩)]: **﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ**

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/٣٩٩).

(٢) فى ك: «ابن عياش».

(٣) فى أ: «رسول الله».

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى م: «أبا بكر وعمر وعليا».

(٦) فى ك: «ليست» وفى أ: «أنه ليست».

(٧) زيادة من أ.

(٨) فى أ: «ماذا».

(٩) زيادة من د، ك، م، أ.

أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ إلى قوله: ﴿ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم ﴾[الأنفال: ٦٧، ٦٨] من الفداء، ثم أحل لهم الغنائم، فلما كان يوم أحد من العام المقبل، عوقبوا مما صنعوا يوم بدر، من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون، وفرّ أصحابُ النبى ﷺ عن النبى ﷺ، وكسرت رباعيته، وهُشمت البَيْضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله [عز وجل][1]: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير﴾[آل عمران: ١٦٥]، بأخذكم الفداء.

ورواه مسلم، وأبو داود، والترمذى، وابن جرير، وابن مَرْدُويه، من طرق عن عكرمة بن عمار، به. وصححه على بن المدينى والترمذى، وقالا: لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليمانى[2].

وهكذا رَوَى على بن أبى طلحة والعَوْفى، عن ابن عباس: أن هذه الآية الكريمة قوله: ﴿إذ تستغيثون ربكم [فاستجاب لكم][3]﴾ أنها فى دعاء النبى ﷺ وكذا قال يزيد[4] بن يُثَيع، والسُّدِّى، وابن جريج.

وقال أبو بكر بن عياش، عن أبى حُصَين، عن أبى صالح قال: لما كان يوم بدر، جعل النبى ﷺ يناشد ربه أشد النِّشدةَ يدعو، فأتاه عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فقال: يا رسول الله، بعض[5] نشْدَتك، فوالله ليفَين الله لك بما وعدك[6].

وقال البخارى فى «كتاب المغازى»، باب قول الله عز وجل: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم﴾ إلى قوله: ﴿ فإن الله شديد العقاب﴾: حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا إسرائيل، عن مُخَارق، عن طارق بن شهاب قال: سمعت ابن مسعود يقول: شهدتُ من المقداد بن الأسود مَشْهداً لأن أكون صاحبه أحبَّ إلى مما عدل به: أتى النبى ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول[7] كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك، فرأيت النبى ﷺ أشرق وجهه وسره ـ يعنى قوله[8].

وحدثنا محمد بن عبد الله بن حَوْشَب، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا خالد الحَذَّاء، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: « اللهم أنشدك عَهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعْبَد»، فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك! فخرج وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ [القمر: ٤٥].

ورواه النسائى عن بُندار، عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى[9].

---

(١) زيادة من أ.

(٢) المسند (١/ ٣٠) وصحيح مسلم برقم (١٧٦٣) وسنن أبى داود برقم (٢٦٩٠) وسنن الترمذى برقم (٣٠٨١) وتفسير الطبرى (١٣/ ٤٠٩).

(٣) زيادة من أ.

(٤) فى د، م: « زيد».

(٥) فى أ: «يا رسول الله، تدعو بعض».

(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ٤١١) .

(٧) فى أ: «لا نقول لك».

(٨) صحيح البخارى برقم (٣٩٥٢) .

(٩) صحيح البخارى برقم (٣٩٥٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٥٧).

وقوله تعالى: ﴿بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أى: يُرْدِفُ بعضهم بعضا، كما قال هارون بن عنترة[١]، عن ابن عباس: ﴿مُرْدِفِينَ﴾: متتابعين.

ويحتمل أن [يكون][٢] المراد ﴿مُرْدِفِينَ﴾ لكم، أى: نجدة لكم، كما قال العَوْفى، عن ابن عباس: ﴿مُرْدِفِينَ﴾، يقول: المدَدَ، كما تقول: ائت الرجل فزدة كذا وكذا.

وهكذا قال مجاهد، وابن كثير القارئ، وابن زيد: ﴿مُرْدِفِينَ﴾: مُمدِّين.

وقال أبو كُدَيْنة، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ قال: وراء كل مَلَك ملك.

وفى رواية بهذا الإسناد: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ قال: بعضهم على أثر بعض. وكذا قال أبو ظِبْيان، والضحاك، وقتادة.

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا يعقوب بن محمد الزهرى، حدثنى عبد العزيز بن عمران، عن الزَّمْعى، عن أبى الحويرث، عن محمد بن جُبَير، عن على، رضى الله عنه، قال: نزل جبريل فى ألف من الملائكة عن ميمنة النبى ﷺ وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل فى ألف من الملائكة عن ميسرة النبى ﷺ، وأنا فى الميسرة.

وهذا يقتضى ـ لو صح إسناده ـ أن الألف مردفة بمثلها؛ ولهذا قرأ بعضهم: «مُرْدَفِين» بفتح الدال، فالله أعلم.

والمشهور ما رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قال: وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل فى خمسمائة من الملائكة مُجَنِّبة، وميكائيل فى خمسمائة مُجَنِّبة.

وروى الإمام أبو جعفر بن جَرير، ومسلم، من حديث عكرمة بن عمار، عن أبى زُمَيل سمَاك ابن وليد الحَنَفى، عن ابن عباس، عن عمر، الحديث المتقدم. ثم قال أبو زُميل [٣] : حدثنى[٤] ابن عباس قال: بينا رجل من المسلمين يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوتَ الفارس يقول: « أقدم حَيْزُوم[٥]» إذ نظر إلى المشرك أمامه، فخر مستلقيا قال: فنظر إليه، فإذا هو قد خُطِم أنفه، وشُقَّ وجهه كضربة السَّوْط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصارى فحدث ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صدقتَ، ذلك[٦] من مَدَد السماء الثالثة.»، فقَتَلوا يومئذ سبعين وأسروا سبْعين.

وقال البخارى «باب شهود الملائكة بدرا»: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا جرير، عن يحيى ابن سعيد، عن معاذ بن رِفاعة بن رافع الزُّرَقى، عن أبيه ـ وكان أبوه من أهل بدر ـ قال: جاء جبريل

---

(١) فى أ: «هبيرة».
(٢) زيادة من أ.
(٣) فى م: «أبو زميل سماك بن الوليد الحنفى».
(٤) فى م: « عن».
(٥) فى م: « حزوم».
(٦) فى د، ك، م: « ذاك».

إلى النبى ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين» ـ أو كلمة نحوها ـ قال: وكذلك من شهد بدرا من الملائكة.

انفرد بإخراجه البخارى[١]، وقد رواه الطبرانى فى المعجم الكبير من حديث رافع بن خَدِيج، وهو خطأ[٢]، والصواب رواية البخارى، والله [تعالى][٣] أعلم.

وفى الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره فى قتل حاطب بن أبى بَلْتَعَة: «إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد[٤] غفرت لكم»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلا بُشْرَىٰ [وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِندِ اللَّهِ][٦]﴾ الآية أى: وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بُشرى، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾؛ وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك، ولهذا قال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ. سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ. وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ ـ ٦]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١]، فهذه حكم شَرَعَ الله جهاد الكفار بأيدى المؤمنين لأجلها، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التى تعم تلك الأمة المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعاداً الأولى بالدَّبُور، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل[٧]، وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث الله تعالى موسى [عليه السلام][٨] وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق فى اليّم، ثم أنزل[٩] على موسى التوراة، شرع فيها قتال الكفار، واستمر الحكم فى بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ بَصَائِرَ [لِلنَّاسِ][١٠]﴾ [القصص: ٤٣]، وقَتْلُ المؤمنين الكافرين أشد إهانة للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ. [وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ][١١]﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]؛ ولهذا كان قَتلُ صناديد قريش بأيدى أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم، أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان. فَقَتْلُ أبى جهل فى معركة القتال وحومة الوغى، أشد إهانة له من أن

(١) صحيح البخارى برقم (٣٩٩٢).
(٢) المعجم الكبير (٤/ ٢٧٧).
(٣) زيادة من م.
(٤) فى د: «قد».
(٥) صحيح البخارى برقم (٣٩٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٤٩٤).
(٦) زيادة من د، ك، م.
(٧) فى ك، أ: «السجين».
(٨) زيادة من أ
(٩) فى ك: «أنزل الله».
(١٠) زيادة من م.
(١١) زيادة من أ.

يموت على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك، كما مات أبو لهب ـ لعنه الله ـ بالعَدَسة[١] بحيث لم يقربه أحد من أقاربه، وإنما غسلوه بالماء قذفًا من بعيد، ورجموه حتى دفنوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ . [يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُم][٢]﴾[غافر: ٥١، ٥٢]، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار، مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم، بحوله وقوته، سبحانه وتعالى.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤)﴾.

يذكرهم الله[٣] بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم، أمانا من خوفهم الذى حصل لهم من كثرة عَدُوَّهم وقلة عَدَدهم، وكذلك فَعَل تعالى بهم يوم أُحُد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال أبو طلحة[٤]: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدى مرارا يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه، ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الحَجَف.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زُهَيْر، حدثنا ابن مَهْدِى، عن شعبة، عن أبى إسحاق، عن حارثة ابن مُضَرِّب، عن على، رضى الله عنه، قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتُنا وما فينا إلا نائم إلا رسولُ الله ﷺ، يصلى تحت شجرة ويبكى حتى أصبح[٥].

وقال سفيان الثورى، عن عاصم عن أبى رَزِين، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، أنه قال: النعاس فى القتال أمنة من الله، وفى الصلاة من الشيطان.

وقال قتادة: النعاس فى الرأس، والنوم فى القلب.

قلت: أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد، وأمر ذلك مشهور جدا، وأما يوم بدر فى هذه الآية الشريفة[٦] إنما هى فى سياق قصة بدر، وهى دالة على وقوع ذلك أيضا وكأن ذلك كان سجية

(١) قال ابن الأثير فى النهاية (٣/ ١٩٠) فى حديث أبى رافع: «أن أبا لهب رماه الله بالعدسة» وهى بثرة تشبه العدسة تخرج فى مواضع من الجسد، من جنس الطاعون، تقتل صاحبها غالبا».
(٢) زيادة من أ.
(٣) فى ك، م: «تعالى».
(٤) فى أ: «قال على بن أبى طلحة».
(٥) مسند أبى يعلى (١/ ٢٤٢) ورواه أحمد فى مسنده (١/ ١٢٥) من طريق عبد الرحمن بن مهدى بهذا الإسناد.
(٦) فى ك، م: «الكريمة».

للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله. وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمه عليهم، وكما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]؛ ولهذا [جاء][١] فى الصحيح[٢]: أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر فى العريش مع الصديق، رضى الله عنه، وهما يدعوان، أخذت رسول الله سنة من النوم، ثم استيقظ متبسما فقال: «أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل على ثناياه النقع» ثم خرج من باب العريش، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قال: نزل النبى ﷺ ـ يعنى: حين سار إلى بدر ـ والمسلمون[٣] بينهم وبين الماء رملة دعصة[٤]، فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ، يوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مجنبين! فأمطر الله عليهم مطرا شديدا، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وانشف[٥] الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب، فساروا إلى القوم وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل فى خمسمائة مُجَنِّبة، وميكائيل فى خمسمائة مُجَنِّبة.

وكذا قال العوفى عن ابن عباس: إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا[٦] عنها، نزلوا على الماء يوم بدر، فغلبوا المؤمنين عليه. فأصاب المؤمنين الظمأ، فجعلوا يصلون مجنبين محدثين، حتى تعاظموا ذلك فى صدورهم، فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادى، فشرب المؤمنون، وملؤوا الأسقية، وسقوا الركاب[٧]، واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله فى ذلك طهورا، وثبت الأقدام. وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة، فبعث الله المطر عليها، فضربها حتى اشتدت، وثبت عليها الأقدام.

ونحو ذلك رُوى عن قتادة، والضحاك، والسدى.

وقد روى عن سعيد بن المسيب، والشعبى، والزهرى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أنه طش[٨] أصابهم يوم بدر.

والمعروف أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر، نزل على أدنى ماء هناك أى: أول ماء وجده، فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال: يا رسول الله، هذا المنزل الذى نزلته منزل أنزلكه الله فليس لنا أن نجاوزه، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال: «بل منزل نزلته للحرب والمكيدة». فقال: يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل، ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلى القوم ونغور ما وراءه من القُلُب،

---

(١) زيادة من م.
(٢) فى أ: «الصحيحين».
(٣) فى ك، م، أ: «المشركون».
(٤) فى أ: «وعصمة».
(٥) فى ك: «وانكشف».
(٦) فى ك، م: «ويقاتلوا».
(٧) فى م: «الركائب».
(٨) فى ك، م: «طس».

ونستقى الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء. فسار رسول الله ﷺ ففعل كذلك[(١)].

وفى مغازى «الأموى» أن الحباب لما قال ذلك نزل ملك من السماء وجبريل جالس عند رسول الله ﷺ، فقال ذلك الملك: يا محمد، إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن الرأى ما أشار به «الحباب بن المنذر»[(٢)]. فالتفت رسول الله [ﷺ][(٣)] إلى جبريل، عليه[(٤)] السلام، فقال: هل تعرف هذا؟ فنظر إليه فقال: ما كل الملائكة أعرفهم، وإنه ملك وليس بشيطان.

وأحسن ما فى هذا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب «المغازى»، رحمه الله: حدثنى يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء ـ وكان الوادى دهسا ـ فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشا ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه[(٥)].

وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس، فأطفأ بالمطر الغبار، وتلبدت به الأرض، وطابت نفوسهم[(٦)]، وثبتت به أقدامهم.

وقال ابن جرير: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا مصعب بن المقدام، حدثنا إسرائيل، حدثنا أبو إسحاق، عن حارثة، عن على، رضى الله عنه، قال: أصابنا من الليل طش[(٧)] من المطر ـ يعنى الليلة التى كانت فى صبيحتها وقعة بدر ـ فانطلقنا تحت الشجر والحَجَف نستظل تحتها من المطر. وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض»! فلما أن طلع الفجر، نادى: «الصلاة، عباد الله»، فجاء الناس من تحت الشجر والحَجَف، فصل بنا رسول الله ﷺ، وحرض على القتال.

وقوله: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ أى: من حدث أصغر أو أكبر، وهو تطهير[(٨)] الظاهر ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أى: من وسوسة أو[(٩)] خاطر سيئ، وهو تطهير الباطن، كما قال تعالى فى حق أهل الجنة: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾، فهذا زينة الظاهر ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] أى: مطهرًا لما كان من غل أو حسد أو تباغض، وهو زينة الباطن وطهارته.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أى: بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء، وهو شجاعة الباطن، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾، وهو شجاعة الظاهر، والله أعلم.

---

(١) فى م: «ذلك».

(٢) ورواه الواقدى فى المغازى (١/ ٥٤) إلى هذا الموضع. فقال: «حدثنى ابن أبى حبيبة، عن رواد بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: نزل جبريل.. فذكره».

(٣) زيادة من ك، م، أ.

(٤) فى ك: «عليهما».

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦٢٠).

(٦) فى ك، م: «طابت به أنفسهم».

(٧) فى ك، م: «طس».

(٨) فى م: «طهارة».

(٩) فى م: «و».

وقوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم، ليشكروه عليها، وهو[١] أنه ـ تعالى وتقدس وتبارك وتمجد ـ أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحى إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا.

قال ابن إسحاق: وازروهم. وقال غيره: قاتلوا معهم. وقيل: كثروا سوادهم. وقيل: كان ذلك بأن الملك كان يأتى الرجل من أصحاب النبى ﷺ يقول: سمعت هؤلاء القوم ـ يعنى المشركين ـ يقولون: «والله لئن حملوا علينا لننكشفن»، فيحدث المسلمون بعضهم بعضا بذلك، فتقوى أنفسهم[٢]. حكاه ابن جرير، وهذا لفظه بحروفه.

وقوله: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أى: ثبتوا أنتم المسلمين[٣] وقووا أنفسهم على أعدائهم، عن أمرى لكم بذلك، سألقى الرعب والمذلة والصغار على من خالف أمرى، وكذب رسولى[٤]. ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أى: اضربوا الهام ففلقوها، واحتزوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم، وهى أيديهم وأرجلهم.

وقد اختلف المفسرون فى معنى: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ فقيل: معناه اضربوا الرؤوس. قاله عكرمة.

وقيل: معناه: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أى: على الأعناق، وهى الرقاب. قاله الضحاك، وعطية العوفى.

ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤].

وقال وكيع، عن المسعودى، عن القاسم قال: قال رسول الله[٥] ﷺ: «إنى لم أبعث لأعذب بعذاب الله، إنما بعثت بضرب الرقاب وشد الوثاق»[٦].

واختار ابن جرير أنها قد تدل على ضرب الرقاب وفلق الهام.

قلت: وفى مغازى «الأموى» أن رسول الله ﷺ جعل يمر بين القتلى يوم بدر فيقول: «نُفَلِّق هاما...».

فيقول أبو بكر:

من رجال أعزة علينا ... وهم كانوا أعق وأظلما[٧]

---

(١) فى ك: «وهى». (٢) فى م: «أنفسهم بذلك».
(٣) فى ك، م، أ: «المؤمنين». (٤) فى أ: «رسلى».
(٥) فى م: «النبى».
(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ٤٢٩) وابن أبى شيبة فى المصنف (١٢/ ٣٩٠) من طريق وكيع بهذا الإسناد.
(٧) البيت للحصين بن الهمام المرى، وهو فى «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (٢/ ٦٤٨).

فيبتدئ رسول الله ﷺ بأول البيت، ويستطعم أبا بكر، رضى الله عنه، إنشاد آخره؛ لأنه كان لا يحسن إنشاد الشعر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس:٦٩].

وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوا هم بضرب فوق الأعناق، وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به.

وقوله: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال ابن جرير: معناه: واضربوه أيها المؤمنون من عدوكم كل طرف ومَفْصِل من أطراف أيديهم وأرجلهم. و «البنان»: جمع بنانة، كما قال الشاعر[(١)]:

ألا لَيْتنى قَطَّعْتُ منى بَنَانَةً ... ولاقَيْتُه فى البَيْت يَقْظَانَ حَاذِرَا

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ يعنى بالبنان: الأطراف. وكذا قال الضحاك وابن جريج.

وقال السدى: البنان: الأطراف، ويقال: كل مَفْصِل.

وقال عكرمة، وعطية العوف والضحاك ـ فى رواية أخرى ـ: كل مفصل.

وقال الأوزاعى فى قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال: اضرب منه الوجه والعين، وارمه بشهاب من نار، فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك.

وقال العوفى، عن ابن عباس ـ فذكر قصة بدر إلى أن قال ـ: فقال أبو جهل: لا تقتلوهم قتلا، ولكن خذوهم أخذا، حتى تعرفوهم الذى صنعوا من طعنهم فى دينكم، ورغبتهم عن اللات والعزى. فأوحى الله إلى الملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ فقتل أبو جهل لعنه الله، فى تسعة وستين رجلا، وأسر عقبة بن أبى مُعَيْط فقتل صبرا، فوفى ذلك سبعين ـ يعنى: قتيلا.

ولذلك قال [الله][(٢)] تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: خالفوهما فساروا فى شق، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه فى شق ـ وهو مأخوذ أيضا من شق العصا، وهو جعلها فرقتين ـ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه، لا يفوته شىء، ولا يقوم لغضبه شىء، تبارك وتعالى، لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾: هذا خطاب للكفار أى: ذوقوا هذا العذاب والنكال فى الدنيا، واعلموا أيضًا أن للكافرين عذاب النار فى الآخرة.

---

(١) هو العباس بن مرداس السلمى، والبيت فى تفسير الطبرى (١٣/ ٤٣١) ولسان العرب مادة (بنن).

(٢) زيادة من ك، م، أ.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) ﴾.

يقول تعالى متوعدا على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا ﴾ أي: تقاربتم منهم ودنوتم إليهم، ﴿ فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾ أي: تفروا وتتركوا أصحابكم، ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾ أي: يفر بين يدى قرنه مكيدة؛ ليريه أنه [قد][1] خاف منه فيتبعه، ثم يكر عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك. نص عليه سعيد بن جبير، والسدى.

وقال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبها.

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ أي: فر من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين، يعاونهم ويعاونوه[2]، فيجوز له ذلك، حتى [و][3] لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم، دخل في هذه الرخصة.

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا زُهَيْر، حدثنا يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما، قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ، فحاص الناس حيصة ـ وكنت فيمن حاص ـ فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة فبتنا؟ ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا؟ فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: «من القوم؟» فقلنا: نحن الفرارون. فقال: «لا، بل أنتم العكّارون، أنا فئتكم، وأنا فئة المسلمين» قال: فأتيناه حتى قَبَّلنا يده.

وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من طرق عن يزيد بن أبي زياد[4]، وقال الترمذي: حسن لا نعرفه إلا من حديثه.

ورواه ابن أبي حاتم، من حديث يزيد بن أبي زياد به. وزاد في آخره: وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾.

قال أهل العلم: معنى قوله: «العكّارون» أي: العطافون. وكذلك قال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، في أبي عبيد لما قتل على الجسر بأرض فارس، لكثرة الجيش من ناحية المجوس، فقال عمر: لو انحاز إليَّ كنت له فئة. هكذا رواه محمد بن سيرين، عن عمر[5].

وفي رواية أبي عثمان النهدي، عن عمر قال: لما قتل أبو عبيد قال عمر: يا أيها الناس، أنا فئتكم.

---

(١) زيادة من أ.
(٢) في ك، م: «يعاونونه».
(٣) زيادة من ك، م .
(٤) المسند (٢/ ٧٠) وسنن أبي داود برقم (٢٦٤٧) وسنن الترمذي برقم (١٧١٦) وسنن ابن ماجة برقم (٣٧٠٤) .
(٥) رواه الطبري في تفسيره (١٣/ ٤٣٩) .

وقال مجاهد: قال عمر: أنا فئة كل مسلم.

وقال عبد الملك بن عُمَيْر، عن عمر: أيها الناس، لا تغرنكم هذه الآية، فإنما كانت يوم بدر، وأنا[١] فئة لكل مسلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا حسان بن عبد الله المصرى، حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمى، حدثنا نافع: أنه سأل ابن عمر قلت: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا، ولا ندرى من الفئة: إمامنا أو عسكرنا؟ فقال: إن الفئة رسول الله ﷺ. فقلت: إن الله يقول: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا [فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ][٢]﴾، فقال: إنما نزلت هذه الآية فى يوم بدر، لا قبلها ولا بعدها.

وقال الضحاك فى قوله: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾: المتحيز: الفار إلى النبى وأصحابه، وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه.

فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب، فإنه حرام وكبيرة من الكبائر، لما رواه البخارى ومسلم فى صحيحهما عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات». قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتَّوَلِّى يوم الزَّحْفِ، وقَذْفِ المحصنات الغافلات المؤمنات»[٣].

ولهذا الحديث شواهد من وجوه أخر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ بَاءَ﴾ أى: رجع ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ﴾ أى: مصيره ومنقلبه يوم ميعاده: ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عَدِىّ، حدثنا عبيد الله بن عمرو الرَّقِّى، عن زيد بن أبى أُنَيْسَة، حدثنا جبلة بن سُحَيْم، عن أبى المثنى العبدى، سمعت السدوسى ـ يعنى ابن الخصاصية، وهو بشير بن معبد ـ قال: أتيت النبى ﷺ لأبايعه، فاشترط على: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمد عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدى الزكاة، وأن أحج حَجَّةَ الإسلام، وأن أصوم شهر رمضان، وأن أجاهد فى سبيل الله». فقلت: يا رسول الله، أما اثنتان فوالله لا أطيقهما: الجهاد، فإنهم زعموا أنه من ولى الدُّبُر فقد باء بغضب من الله، فأخاف إن حضرت ذلك خشعت نفسى وكرهت الموت. والصدقة، فوالله ما لى إلا غُنَيْمَةٌ وعشر ذَوْدٍ هُنَّ رَسَل أهلى وحَمُولتهم. فقبض رسول الله ﷺ يده، ثم حرك يده، ثم قال: «فلا جهاد ولا صدقة، فيم تدخل الجنة إذا؟» فقلت: يا رسول الله، أنا أبايعك. فبايعته عليهنَّ كلهنَّ.

هذا حديث[٤] غريب[٥] من هذا الوجه[٦]، ولم يخرجوه فى الكتب الستة.

---

(١) فى م: «وإنه». (٢) زيادة من ك، د، م، أ. وفى هـ: «الآية».
(٣) صحيح البخارى برقم (٢٧٦٦) وصحيح مسلم برقم (٨٩).
(٤) فى م: «الحديث». (٥) فى أ: «عزيز».
(٦) المسند (٥/ ٢٢٤).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة، حدثنا إسحاق بن إبراهيم أبو النضر، حدثنا يزيد بن ربيعة، حدثنا أبو الأشعث، عن ثوبان، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا ينفع معهن عمل: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف»[(١)].

وهذا أيضا حديث غريب جدا.

وقال الطبراني أيضا: حدثنا العباس بن الفضل الأَسْفَاطِيّ، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حفص بن عمر الشَّنِّي، حدثني عمرو بن مرة قال: سمعت بلال بن يسار بن زيد ـ مولى رسول الله ﷺ ـ قال: سمعت أبي حدث عن جدي قال: قال رسول الله: «من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو وأتوب إليه، غفر له وإن كان قد فر من الزحف».

وهكذا رواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل، به. وأخرجه الترمذي، عن البخاري، عن موسى ابن إسماعيل به. وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه[(٢)].

قلت: ولا يعرف لزيد مولى النبي ﷺ، عنه سواه.

وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراما على الصحابة؛ لأنه ـ يعني الجهاد ـ كان فرض عين عليهم. وقيل: على الأنصار خاصة؛ لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره. وقيل: [إنما][(٣)] المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة، يروى هذا عن عمر، وابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي نضرة، ونافع مولى ابن عمر، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

وحجتهم في هذا: أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيؤون إليها سوى عصابتهم تلك، كما قال النبي ﷺ: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»؛ ولهذا قال عبد الله بن المبارك، عن مبارك ابن فضالة، عن الحسن في قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ قال: ذلك يوم بدر، فأما اليوم: فإن انحاز إلى فئة أو مصر ـ أحسبه قال: فلا بأس عليه.

وقال ابن المبارك أيضا، عن ابن لَهيعة: حدثني يزيد بن أبي حبيب قال: أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار، قال: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، فلما كان يوم أُحُد بعد ذلك قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ [إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا][(٤)]﴾، ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، ثم كان يوم حُنَيْن بعد ذلك بسبع سنين، قال: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[التوبة: ٢٥]، ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ [التوبة: ٢٧].

---

(١) المعجم الكبير (٢/ ٩٥) قال الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٤): «فيه يزيد بن ربيعة ضعيف».

(٢) المعجم الكبير (٥/ ٨٩) وسنن أبي داود برقم (١٥١٧) وسنن الترمذي برقم (٣٥٧٧).

(٣) زيادة من ك، م، أ.

(٤) زيادة من ك، م، أ، وفي هـ «إلى قوله».

وفى سنن أبى داود، والنسائى، ومستدرك الحاكم، وتفسر ابن جرير، وابن مَرْدُويه، من حديث داود بن أبى هند، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد أنه قال فى هذه الآية: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾: إنما[1] أنزلت فى أهل بدر[2]. وهذا كله لا ينفى أن يكون الفرار من الزحف حراما على غير أهل بدر، وإن كان سبب النزول فيهم، كما دل عليه حديث أبى هريرة المتقدم، من أن الفرار من الزحف من الموبقات، كما هو مذهب الجماهير، والله [تعالى][3] أعلم.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨)﴾.

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر عنهم من خير؛ لأنه هو الذى وفقهم لذلك وأعانهم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أى: ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعدائكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، أى: بل هو الذى أظفركم [بهم ونصركم][4] عليهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ [فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ][5] ﴾[آل عمران: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، يعلم ـ تبارك وتعالى ـ أن النصر ليس عن كثرة العدد، ولا بلبس اللأمة والعدد، وإنما النصر من عند الله تعالى[6]، كما قال: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ثم قال لنبيه ﷺ أيضا فى شأن القبضة من التراب، التى حصب بها وجوه المشركين[7] يوم بدر، حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته، فرماهم بها، وقال: «شاهت الوجوه». ثم أمر الصحابة أن يصدقوا الحملة إثرها، ففعلوا، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله؛ ولهذا قال [تعالى][8]: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ أى: هو الذى بلغ ذلك إليهم، وكبتهم بها لا أنت.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: رفع رسول الله ﷺ يديه ـ يعنى يوم بدر ـ فقال: «يا رب، إن تهلك هذه العصابة، فلن تعبد فى الأرض أبدا». فقال له جبريل: «خذ قبضة من التراب، فارم بها فى وجوههم» فأخذ قبضة من التراب، فرمى بها فى وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين.

وقال السُّدِّى: قال رسول الله ﷺ لعلى، رضى الله عنه، يوم بدر: «أعطنى حصبا من الأرض».

---

(١) فى م: «أنها».

(٢) سنن أبى داود برقم (٢٦٤٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٠٣) والمستدرك (٢/ ٣٢٧) وتفسير الطبرى (١٣/ ٤٣٧).

(٣) زيادة من م.

(٤) زيادة من ك، م.

(٥) زيادة من ك، م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٦) فى م: «عنده تعالى».

(٧) فى أ: «القوم».

(٨) زيادة من أ.

فناوله حصبا(١) عليه تراب، فرمى به فى وجوه القوم، فلم يبق مشرك إلا دخل فى عينيه من ذلك التراب شىء، ثم ردفهم المؤمنون(٢) يقتلونهم ويأسرونهم، وأنزل الله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾.

وقال أبو معشر المدنى، عن محمد بن قَيْس ومحمد بن كعب القُرَظى قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض، أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب، فرمى بها فى وجوه القوم، وقال: «شاهت الوجوه». فدخلت فى أعينهم كلهم، وأقبل أصحاب رسول الله [ﷺ](٣) يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت هزيمتهم فى رَمْية رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: فى قوله [تعالى](٤): ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ قال: هذا يوم بدر، أخذ رسول الله ﷺ ثلاث حصيات فرمى بحصاة [فى](٥) مَيْمَنة القوم، وحصاة فى مَيْسَرَة القوم، وحصاة بين أظهرهم، وقال: «شاهت الوجوه»، فانهزموا.

وقد روى فى هذه القصة (٦) عن عُرْوَة بن الزبير، ومُجَاهِد وعِكْرِمة، وقتادة وغير واحد من الأئمة: أنها نزلت فى رمية النبى ﷺ يوم بدر، وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضا.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا يعقوب بن محمد، حدثنا عبد العزيز ابن عمران، حدثنا موسى بن يعقوب بن عبد الله بن زمعة، عن يزيد بن عبد الله، عن أبى بكر بن سليمان بن أبى حَثْمَة، عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر، سمعنا صوتا وقع من السماء، كأنه صوت حصاة وقعت فى طست، ورمى رسول الله ﷺ تلك الرمية، فانهزمنا(٧).

غريب من هذا الوجه. وهاهنا قولان آخران غريبان جدا:

أحدهما: قال ابن جرير: حدثنى محمد بن عوف الطائى، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان بن عمرو، حدثنا عبد الرحمن بن جبير؛ أن رسول الله ﷺ يوم ابن أبى الحقيق بخيبر، دعا بقوس، فأتى بقوس طويلة، وقال: «جيؤونى غيرها». فجاؤوا بقوس كبداء، فرمى النبى ﷺ الحصن، فأقبل السهم يهوى حتى قتل ابن أبى الحقيق، وهو فى فراشه، فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾(٨).

وهذا غريب، وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير بن نفير، ولعله اشتبه عليه، أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله، وإلا فسياق الآية فى سورة الأنفال فى قصة بدر لا محاله، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم، والله أعلم.

---

(١) فى م: «حصباء». (٢) فى م: «المسلمون».
(٣) زيادة من م، ك، أ. (٤) زيادة من م.
(٥) فى ك، م، أ: «فرمى فى».
(٦) انظر: تفسير الطبرى (١٣/ ٤٤٣ ـ ٤٤٥).
(٧) تفسير الطبرى (١٣/ ٤٤٣).
(٨) سقط هذا الأثر والذى يليه من نص الطبرى وأثبته المحقق فى الهامش (١٣/ ٤٤٦).

والثاني: روى ابن جرير أيضا، والحاكم فى مستدركه، بإسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب والزهرى أنهما قالا: أنزلت[١] فى رمية رسول الله ﷺ يوم أحد أُبى بن خلف بالحربة وهو فى لأمته، فخدشه فى ترقوته، فجعل يتدأدأ عن فرسه مرارا، حتى كانت وفاته [بها][٢] بعد أيام، قاسى فيها العذاب الأليم، موصولا بعذاب البرزخ، المتصل بعذاب الآخرة[٣].

وهذا القول عن هذين الإمامين غريب أيضا جدا، ولعلهما أرادا أن الآية تتناوله بعمومها، لا أنها نزلت فيه خاصة كما تقدم، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير، عن عُرْوَة بن الزبير فى قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا﴾ أى: ليُعَرِّف المؤمنين من نعمته عليهم، من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم، وقلة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه، ويشكروا بذلك نعمته.

وهكذا فسر[٤] ذلك ابن جرير أيضا. وفى الحديث: «وكل بلاء حسن أبلانا».

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: سميع الدعاء، عليم بمن يستحق النصر والغلب.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر: أنه أعلمهم تعالى بأنه مُضْعِفُ كيد الكافرين فيما يستقبل، مصغِّرا أمرهم، وأنهم كل ما لهم فى تبار[٥] ودمار، ولله الحمد والمنة.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)﴾.

يقول تعالى للكفار: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾ أى: تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتم، كما قال محمد بن إسحاق وغيره، عن الزهرى، عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعَيْر؛ أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أَقْطَعُنَا للرحم وآتانا بما لا نعرف[٦]، فأحْنه الغداة ـ وكان ذلك استفتاحا منه ـ فنزلت: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ إلى آخر الآية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد ـ يعنى ابن هارون ـ أخبرنا محمد بن إسحاق، حدثنى الزهرى، عن عبد الله بن ثعلبة: أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم، أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فأحنه الغداة، فكان المستفتح.

وأخرجه النسائى فى التفسير من حديث، صالح بن كيسان، عن الزهرى، به. وكذا رواه الحاكم

(١) فى م: «نزلت».
(٢) زيادة من أ.
(٣) المستدرك (٢/ ٣٢٧).
(٤) فى د: «فسره».
(٥) فى م: «شغال».
(٦) فى ك، م: «بما لم يعرف».

فى مستدركه من طريق الزهرى، به[١]. وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وروى [نحو][٢] هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، ويزيد بن رُومَان، وغير واحد.

وقال السُّدِّى: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بَدْر، أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين. فقال الله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾، يقول: قد نصرت ما قلتم، وهو محمد ﷺ.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو قوله تعالى إخبارا عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ [فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ][٣]﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقوله: ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾ أى: عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة. [وقوله][٤]: ﴿وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾ كقوله[٥]: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] معناه: وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة، نعد لكم بمثل هذه الواقعة.

وقال السدى: ﴿وَإِن تَعُودُوا﴾ أى: إلى الاستفتاح ﴿نَعُدْ﴾ إلى الفتح لمحمد ﷺ، والنصر له، وتظفيره على أعدائه، والأول أقوى.

﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أى: ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له، فإن الله مع المؤمنين، وهم الحزب النبوى، والجناب المصطفوى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣)﴾.

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أى: تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره، ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أى: بعد ما علمتم ما دعاكم إليه.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ قيل: المراد: المشركون. واختاره ابن جرير.

وقال ابن إسحاق: هم المنافقون؛ فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا، وليسو كذلك.

ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بنى آدم شر[٦] الخلق والخليقة، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ

(١) المسند (٥/ ٤٣١) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٠١) والمستدرك (٢/ ٣٢٨).
(٢) زيادة من د، وفى ك، م، أ: «فى هذا».
(٣) زيادة من ك، م، أ، وفى هـ: «الآية».
(٤) زيادة من د.
(٥) فى ك، م: «أى كقوله».
(٦) فى ك، م، أ: «سيئ».

الصُّمُّ أى: عن سماع الحق **﴿الْبُكْمُ﴾** عن فهمه؛ ولهذا قال: **﴿الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾**، فهؤلاء شر البرية؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله [عز وجل][(1)] فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا؛ ولهذا شبههم بالأنعام فى قوله: **﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً [صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ][(2)]﴾** [البقرة: ١٧١]. وقال فى الآية الأخرى: **﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾** [الأعراف: ١٧٩].

وقيل[(3)]: المراد بهؤلاء المذكورين نَفَرٌ من بنى عبد الدار من قريش. روى عن ابن عباس ومجاهد، واختاره ابن جرير، وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون.

قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين فى هذا؛ لأن كل منهم مسلوب الفهم الصحيح، والقصد إلى العمل الصالح.

ثم أخبر تعالى بأنهم لافهم لهم صحيح، ولا قصد لهم صحيح، لو فرض أن لهم فهما، فقال: **﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ﴾** أى: لأفهمهم، وتقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم؛ لأنه يعلم أنه **﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾** أى: أفهمهم **﴿لَتَوَلَّوْا﴾** عن ذلك قصدا وعنادا بعد فهمهم ذلك، **﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾** عنه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)﴾.

قال البخارى: **﴿اسْتَجِيبُوا﴾**: أجيبوا، **﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾**: لما يصلحكم. حدثنا إسحاق، حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن خبيب[(4)] بن عبد الرحمن قال: سمعت حفص بن عاصم يحدث عن أبى سعيد بن المعلى قال: كنت أصلى، فمر بى رسول الله ﷺ، فدعانى فلم آته حتى صليت، ثم أتيته فقال: «ما منعك أن تأتينى؟» ألم يقل الله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾** ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج»، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج، فذكرت له ـ وقال معاذ: حدثنا شعبة، عن خُبَيْب[(5)] بن عبد الرحمن، سمع حفص بن عاصم، سمع أبا سعيد رجلا من أصحاب النبى ﷺ بهذا ـ وقال: «هى **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**، السبع المثانى»[(6)].

هذا لفظه بحروفه، وقد تقدم الكلام على هذا الحديث بذكر طرقه فى أول تفسير الفاتحة.

وقال مجاهد فى قوله: **﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾** قال: الحق.

---

(١) زيادة من م.
(٢) زيادة من ك، م، أ، وفى هـ: «الآية».
(٣) فى د، م: «ثم قيل».
(٤، ٥) فى أ: «حبيب».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٦٤٧).

وقال قتادة: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾قال: هو هذا القرآن، فيه النجاة والتقاة[١] والحياة.

وقال السُّدِّى: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ : ففى الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عُرْوَةَ بن الزبير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أى: للحرب التى أعزكم الله تعالى بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان.

رواه الحاكم فى مستدركه موقوفا، وقال: صحيح ولم يخرجاه[٢]. ورواه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعا[٣]، ولا يصح لضعف إسناده، والموقوف أصح. وكذا قال مجاهد، وسعيد، وعكرمة، والضحاك، وأبو صالح، وعطية، ومُقَاتِل بن حَيَّان، والسُّدِّى.

وفى رواية عن مجاهد فى قوله: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾حتى تركه لا يعقل.

وقال السدى: يحول بين الإنسان وقلبه، فلا يستطع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه.

وقال قتادة هو كقوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبى سفيان، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: كان النبى ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبى على دينك». قال: فقلنا: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال[٤]:«نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها».

وهكذا رواه الترمذى فى «كتاب القدر» من جامعه، عن هناد بن السرى، عن أبى معاوية محمد ابن حازم الضرير،عن الأعمش ـ واسمه سليمان بن مهران ـ عن أبى سفيان ـ واسمه طلحة بن نافع ـ عن أنس[٥]،ثم قال: حسن. وهكذا روى عن غير واحد عن الأعمش، رواه بعضهم عنه، عن أبى سفيان، عن جابر، عن النبى ﷺ، وحديث أبى سفيان عن أنس أصح[٦]

حديث آخر: قال عبد بن حميد[٧] فى مسنده: حدثنا عبد الملك بن عمرو ، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن ابن أبى ليلى، عن بلال، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ كان يدعو: «يا مُقَلِّب القلوب

(١) فى ك، م: «البقاء» .
(٢) المستدرك (٢/ ٣٢٨).
(٣) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٤٥) .
(٤) فى أ: «فقال».
(٥) المسند (٣/ ١١٢) وسنن الترمذى برقم (٢١٤٠).
(٦) رواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٢٨٨) من طريق الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر، رضى الله عنه.
(٧) فى ك، م، أ: «قال الإمام عبد بن حميد».

ثَبِّت قلبى على دينك». هذا حديث جيد الإسناد إلا أن فيه انقطاعا. وهو ـ مع ذلك ـ على شرط أهل السنن ولم يخرجوه[١].

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم قال: سمعت ابن جابر يقول: حدثنى بسر بن عبد الله[٢] الحضرمى: أنه سمع أبا إدريس الخولانى يقول: سمعت النواس بن سَمْعان الكلابى، رضى الله عنه، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه». وكان يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلوبنا[٣] على دينك». قال: «والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه».

وهكذا رواه النسائى وابن ماجه، من حديث عبد الرحمن بن يزيد[٤] بن جابر[٥]، فذكر مثله.

حديث آخر: قال الإمام أحمد :حدثنا يونس،حدثنا حماد بن زيد، عن المعلى بن زياد، عن الحسن؛ أن عائشة قالت: دعوات كان رسول الله ﷺ يدعو بها: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبى على دينك». قالت: فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر [٦] تدعوا بهذا الدعاء. فقال: «إن قلب الآدمى بين أُصبعين[٧] من أصابع الله، فإذا شاء أزاغه [٨]، وإذا شاء أقامه [٩]»[١٠].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا عبد الحميد، حدثنى شهر، سمعت أم سلمة تحدث: أن رسول الله ﷺ كان يكثر فى دعائه يقول: «اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبى على دينك». قالت: فقلت[١١]: يا رسول الله، أو إن القلوب لتقلب[١٢]؟ قال: «نعم، ما[١٣] خلق الله من بشر من بنى آدم إلا أن قلبه بين إصبعين من أصابع الله، عز وجل، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه. فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب». قالت: قلت: يا رسول الله، ألا تعلمنى دعوة أدعو بها لنفسى؟ قال: «بلى، قولى: اللهم رب النبى محمد، اغفر لى ذنبى، وأذهب غيظ قلبى، وأجرنى من مضلات الفتن ما أحييتنى»[١٤].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حيوة، أخبرنى أبو هانئ، أنه سمع أبا عبد الرحمن الحُبُلى[١٥] أنه سمع عبد الله بن عمرو؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يُصَرِّف[١٦] كيف شاء[١٧]».ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مُصَرِّف القلوب، صَرِّف قلوبنا إلى طاعتك».

---

(١) المنتخب برقم (٣٥٩). (٢) فى د، ك، م: «عبيد الله». (٣) فى د، ك، م: «قلبى».
(٤) فى أ: «زيد».
(٥) المسند (٤/ ١٨٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (٧٧٣٨) وسنن ابن ماجة برقم (١٩٩).
(٦) فى أ: «تكثر أن». (٧) فى د: «الأصبعين». (٨) فى أ: «أزاغه أزاغه».
(٩) فى أ: «أقامه أقامه».
(١٠) المسند (٦/ ٩١).
(١١) فى ك،أ : «قلت». (١٢) فى أ: «وإن القلب ليتقلب». (١٣) فى أ: «ما من».
(١٤) المسند (٦/ ٣٠١) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٥٢٢) من طريق شهر بن حوشب به. قال الترمذى:«هذا حديث حسن».
(١٥) فى أ: «الجبلى». (١٦) فى د: «يصرفها». (١٧) فى د، م: «يشاء».

انفرد بإخراجه مسلم عن البخارى، فرواه مع النسائى من حديث حَيْوَة بن شُرَيْح المصرى، به(١).

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) ﴾.

يحذر تعالى عباده المؤمنين ﴿**فِتْنَةً**﴾أى: اختبارًا ومحنة، يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصى ولا من باشر الذنب، بل يعمهما، حيث لم تدفع وترفع. كما قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا شَدَّاد بن سعيد، حدثنا غَيْلان بن جرير، عن مُطرِّف قال: قلنا للزبير: يا أبا عبد الله، ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة الذى قتل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير، رضى الله عنه: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان، رضى الله عنهم: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً**﴾، لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت(٢).

وقد رواه البزار(٣) من حديث مطرف، عن الزبير، وقال: لا نعرف مطرفا روى عن الزبير غير هذا الحديث(٤).

وقد روى النسائى من حديث جرير بن حازم، عن الحسن، عن الزبير نحو هذا(٥).

وروى ابن جرير: حدثنى الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا مبارك بن فَضَالة، عن الحسن قال: قال الزبير: لقد خوفنا بها، يعنى قوله [تعالى](٦): ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً**﴾، ونحن مع رسول الله ﷺ، وما ظننا أنا خصصنا بها خاصة.

وكذا رواه حُمَيْد، عن الحسن، عن الزبير، رضى الله عنه(٧).

وقال داود بن أبى هِنْد، عن الحسن فى هذه الآية قال: نزلت فى على، وعثمان(٨)، وطلحة والزبير، رضى الله عنهم.

وقال سفيان الثورى عن الصَّلْت بن دينار، عن عقبة بن صُهْبان، سمعت الزبير يقول: لقد قرأت هذه الآية زمانا وما أرانا من أهلها فإن(٩) نحن المعنيون بها: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾.

وقد روى من غير وجه، عن الزبير بن العوام.

وقال السُّدِّى: نزلت فى أهل بدر خاصة، فأصابتهم يوم الجمل، فاقتتلوا.

(١) المسند (٢/١٦٨) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (٧٨٦١).
(٢) المسند (٤/١٦٥).
(٣) فى أ: «الترمذى».
(٤) مسند البزار برقم (٩٧٦).
(٥) وسنن النسائى الكبرى برقم(١١٢٠٦).
(٦) زيادة من ك.
(٧) تفسير الطبرى (١٣/ ٤٧٤).
(٨) فى د، ك،م، أ: «عمار».
(٩) فى د،ك،م: «فإذا».

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ يعنى: أصحاب النبى ﷺ خاصة.

وقال فى رواية له، عن ابن عباس، فى تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين ظهرانيهم إليهم فيعمهم الله بالعذاب.

وهذا تفسير حسن جداً؛ ولهذا قال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾: هى أيضاً لكم، وكذا قال الضحاك، ويزيد بن أبى حبيب، وغير واحد.

وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مُضِلاَّت الفتن. رواه ابن جرير.

والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم ـ وإن كان الخطاب معهم ـ هو الصحيح، ويدل على ذلك الأحاديث الواردة فى التحذير من الفتن، ولذلك كتاب مستقل يوضح فيه إن شاء الله تعالى، كما فعله الأئمة وأفردوه بالتصنيف، ومن أخص ما يذكر هاهنا ما رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدثنا أحمد بن الحجاج، أخبرنا عبد الله ـ يعنى ابن المبارك ـ أنبأنا سيف بن أبى سليمان، سمعت عَدِىّ بن عَدِىّ الكندى يقول: حدثنى مولى لنا أنه سمع جدى ـ يعنى عدىّ بن عميرة ـ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله، عز وجل، لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظَهْرانَيْهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عَذَّب الله الخاصة والعامة»(١).

فيه رجل مبهم، ولم يخرجوه فى الكتب الستة، ولا واحد منهم، والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان الهاشمى، حدثنا إسماعيل ـ يعنى ابن جعفر ـ أخبرنى عمرو بن أبى عمرو، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهل، عن حُذَيفة بن اليمان؛ أن رسول الله ﷺ قال: « والذى نفسى بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عِقابا من عنده، ثم لتَدعُنّه فلا يستجيب لكم»(٢).

ورواه عن أبى سعيد، عن إسماعيل بن جعفر، وقال: « أو ليبعثن الله عليكم قوما ثم تدعونه فلا يستجيب لكم»(٣).

وقال أحمد: حدثنا عبد الله بن نُمَيْر، حدثنا رَزين بن حبيب الجُهَنى، حدثنى أبو الرُّقاد قال: خرجت مع مولاى، فدفعت إلى حذيفة وهو يقول: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير منافقا، وإنى لأسمعها من أحدكم فى المقعد الواحد أربع مرات؛ لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولَتَحَاضُّن على الخير، أو لَيَسْحَتَنَّكم الله جميعا بعذاب، أو ليؤمرَنّ عليكم

(١) المسند (٤/ ١٩٢).
(٢) المسند (٥/ ٣٨٨).
(٣) فى المسند (٥/ ٣٨٨) «أبو سعيد مولى بنى هاشم عن سليمان بن بلال» ثم راجعت أطراف المسند للحافظ ابن حجر (٢/ ٢٦٣) فوجدته كما هو فى المسند.

شراركم، ثم يدعو خياركم فلايستجاب لهم[١].

حديث آخر: قال الإمام أحمد أيضا: حدثنى يحيى بن سعيد، عن زكريا، حدثنا عامر، قال: سمعت النعمان بن بشير، رضى الله عنه، يخطب يقول ـ وأومأ بأصبعيه[٢] إلى أذنيه ـ يقول: مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ـ أو[٣] المدْهن فيها ـ كمثل قوم ركبوا سفينة، فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا الماء مَرّوا على من فوقهم فآذَوهم، فقالوا: لو خرَقْنا فى نصيبنا خرْقا، فاستقينا منه، ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وأمرهم هَلَكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا جميعا.

انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم، فرواه فى «الشركة» و «الشهادات»، والترمذى فى الفتن من غير وجه، عن سليمان بن مِهْران الأعمش، عن عامر بن شَرَاحيل الشعبى، به[٤].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا خلَف بن خليفة، عن لَيْث، عن علْقَمَة بن مَرْثد، عن المعرور بن سُوَيْد، عن أم سلمة زوج النبى ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ظهرت المعاصى فى أمتى، عَمَّهم الله بعذاب من عنده». فقلت: يا رسول الله، أما فيهم أناس صالحون؟ قال: «بلى»، قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: « يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان»[٥].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حَجَّاج بن محمد، أخبرنا شريك، عن أبى إسحاق، عن المنذر بن جرير، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يعملون بالمعاصى، وفيهم رجل أعزّ منهم وأمنع لا يغيرون، إلا عمهم الله بعقاب[٦] ـ أو: أصابهم العقاب».

ورواه أبو داود، عن مُسَدَّد، عن أبى الأحْوَص، عن أبى إسحاق، به[٧].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت أبا إسحاق يحدث، عن عُبَيد الله ابن جرير، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: « ما من قوم يُعْمَل فيهم بالمعاصى، هم أعزّ وأكثر ممن يعمله، لم يغيروه، إلا عمهم الله بعقاب»[٨].

ثم رواه أيضاً عن وَكِيع، عن إسرائيل ـ وعن عبد الرزاق، عن مَعْمَر ـ وعن أسود، عن شريك ويونس ـ كلهم عن أبى إسحاق السَّبِيعى، به.

وأخرجه ابن ماجه، عن على بن محمد، عن وكيع، به[٩].

---

(١) المسند (٥/ ٣٩٠).

(٢) فى د، ك: « بأصبعه». (٣) فى ك،م: « و».

(٤) المسند (٤/ ٢٦٩) وصحيح البخارى برقم (٢٤٩٣)،(٢٦٨٦) وسنن الترمذى برقم (٢١٧٣).

(٥) المسند (٦/ ٣٠٤).

(٦) فى د: « بعذاب».

(٧) المسند (٤/ ٣٦١) وسنن أبى داود برقم (٤٣٣٩).

(٨) المسند (٤/ ٣٦٤).

(٩) سنن ابن ماجة برقم (٤٠٠٩).

[حديث آخر][(١)]: وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا جامع بن أبي راشد، عن مُنْذِر، عن حسن بن محمد، عن امرأته، عن عائشة تبلغ به النبي ﷺ: «إذا ظهر السوء في الأرض، أنزل الله بأهل الأرض بأسه». قالت: وفيهم أهل طاعة الله؟ قال: «نعم، ثم يصيرون إلى رحمة الله»[(٢)].

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)﴾.

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثَّرهم، ومستضعفين خائفين فقوَّاهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، واستشكرهم[(٣)] فأطاعوه، وامتثلوا جميع ما أمرهم. وهذا[(٤)] كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطرين[(٥)]، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله، من مشرك ومجوسي ورومي، كلهم أعداء لهم[(٦)] لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن لهم في الهجرة إلى المدينة، فآواهم إليها، وقَيَّض لهم أهلها، آووا ونصروا يوم بدر وغيره وآسَوا بأموالهم، وبذلوا مُهَجهم في طاعة الله وطاعة رسوله.

قال قتادة بن دِعَامة السَّدوسي، رحمه الله، في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ﴾ قال: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذُلا، وأشقاه عَيْشًا، وأجوعه بطونًا، وأعراه جلودا، وأبينه ضلالا، مكعومين على رأس حجر، بين الأسدين فارس والروم، ولا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات منهم رُدِّيَ في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قَبِيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلا منهم، حتى جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس. وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا لله نعمه، فإن ربكم مُنْعِم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله [تعالى][(٧)] [(٨)].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)﴾.

قال عبد الله بن أبي قتادة والزهري: أنزلت في أبي لُبابة بن عَبْد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قُرَيْظَة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك ـ وأشار بيده إلى حلقه ـ أي: إنه الذبح، ثم فطن أبو لبابة، ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذواقا حتى يموت أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة، فربط نفسه في سارية منه، فمكث

(١) زيادة من م.
(٢) المسند (٦/ ٤١).
(٣) في أ: «واستكثرهم». (٤) في د: «وهكذا». (٥) في د، ك، م، أ: «مضطهدين».
(٦) في م: «أعدائهم». (٧) زيادة من أ.
(٨) رواه الطبري في تفسيره (١٣/ ٤٧٨) وهذا كلام عظيم من إمام جليل يبين أن لا عز إلا بالإسلام وقد جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمتى ابتغينا بغير الإسلام أذلنا الله».

كذلك تسعة أيام، حتى كان يخر مغيشا عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله. فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية، فحلف لا يحله منها إلا رسول الله صلى الله عليه [وسلم](١) بيده، فحله، فقال: يا رسول الله، إنى كنت نذرت أن أنخلع من مالى صدقة، فقال(٢): «يجزيك الثلث أن تصدق به»(٣).

وقال ابن جرير: حدثنى الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا يونس بن الحارث الطائفى، حدثنا محمد بن عبيد الله أبو عون الثقفى، عن المغيرة بن شعبة قال: نزلت هذه الآية فى قتل عثمان، رضى الله عنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ الآية.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا القاسم بن بِشْر بن معروف، حدثنا شَبَابة بن سَوَّار، حدثنا محمد ابن المحرم قال: لقيت عطاء بن أبى رباح فحدثنى قال: حدثنى جابر بن عبد الله؛ أن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال: إن أبا سفيان فى كذا وكذا. فقال النبى(٤) ﷺ لأصحابه: «إن أبا سفيان فى موضع(٥) كذا وكذا، فاخرجوا إليه واكتموا» فكتب رجل من المنافقين إليه: إن محمدًا يريدكم، فخذوا حذركم، فأنزل الله [عز وجل](٦): ﴿لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ الآية(٧).

هذا حديث غريب جدًا، وفى سنده وسياقه نظر.

وفى الصحيحين قصة «حاطب بن أبى بَلْتَعَة» أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث فى إثر الكتاب فاسترجعه، واستحضر حاطبا فأقر بما صنع، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟ فقال: «دعه، فإنه قد شهد بدرا، ما(٨) يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»(٩).

قلت: والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء، والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾: الأمانة الأعمال التى ائتمن الله عليها العباد ـ يعنى الفريضة يقول: لا تخونوا: لا تنقضُوها.

وقال فى رواية: ﴿لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ يقول: بترك سنته وارتكاب معصيته.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير، عن عُرْوَة بن الزبير فى هذه الآية،

---

(١) زيادة من د،ك، م، أ.
(٢) فى أ: «فقال له».
(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ٤٨١).
(٤) فى أ: «رسول الله».
(٥) فى أ: «بمكان».
(٦) زيادة من د، ك،م.
(٧) تفسير الطبرى (١٣/ ٤٨٠).
(٨) فى ك، م: «وما».
(٩) انظر: تخريجه عند تفسير الآية: ٩ من هذه السورة.

أى: لا تظهروا لله[١] من الحق ما يرضى به منكم، ثم تخالفوه فى السر إلى غيره، فإن ذلك هلاك لأماناتكم، وخيانة لأنفسكم.

وقال السُّدِّى: إذا خانوا الله والرسول، فقد خانوا أماناتهم.

وقال أيضا: كانوا يسمعون من النبى ﷺ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين.

وقال عبد الرحمن بن زيد [بن أسلم][٢]: نهاكم أن تخونوا الله والرسول، كما صنع المنافقون.

وقوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أى: اختبار وامتحان منه لكم؛ إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه[٣] فيها، أو تشتغلون بها عنه، وتعتاضون بها منه؟ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٥]، وقال: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ الآية [التغابن: ١٤].

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أى: ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغنى عنك شيئاً، والله، سبحانه، هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة.

وفى الأثر يقول [الله][٤] تعالى: «ابن آدم، اطلبنى تَجدنى، فإن وَجَدْتَنِى وجَدْتَ كل شىء، وإن فُتُّك فاتك كل شىء، وأنا أحب إليك من كل شىء».

وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ [أنه قال][٥]: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان أن يلقى فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ[٦] أنقذه الله منه»[٧].

بل حب رسوله مقدم على الأولاد والأموال والنفوس، كما ثبت فى الصحيح أنه، عليه السلام، قال: «والذى نفسى بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين»[٨].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾.

قال ابن عباس، والسُّدِّى، ومُجاهِد، وعِكْرِمة، والضحاك، وقَتَادة، ومُقَاتِل بن حَيَّان: ﴿ فُرْقَانًا ﴾:

---

(١) فى د، ك، م: «لا تظهروا له».
(٢) زيادة من أ.
(٣) فى د، ك، م: «أتشكروه عليها وتطيعوه».
(٤) زيادة من د، ك، م، أ.
(٥) زيادة من أ.
(٦) فى د، ك، م، أ: «أن».
(٧) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٤٣) من حديث أنس بن مالك، رضى الله عنه.
(٨) صحيح البخارى برقم (١٤).

مخرجًا. زاد مجاهد: فى الدنيا والآخرة.

وفى رواية عن ابن عباس: ﴿فُرْقَانًا﴾: نجاة. وفى رواية عنه: نصرا.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿فُرْقَانًا﴾ أى: فصلا بين الحق والباطل.

وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم وقد يستلزم ذلك كله؛ فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره، وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره[١] ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه ـ وهو محوها ـ وغفرها: سترها عن الناس ـ سبباً لنيل ثواب الله الجزيل، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ [أى][٢]: ليقيدوك.

وقال عطاء، وابن زيد: ليحبسوك.

وقال السُّدِّى: «الإثبات»: هو الحبس والوثاق.

وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء، وهو مجمع الأقوال[٣]، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء.

وقال سُنَيْد، عن حجاج، عن ابن جُرَيْج، قال عطاء: سمعت عُبَيد بن عُمَير يقول: لما ائتمروا بالنبى ﷺ ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، قال له عمه أبو طالب: هل تدرى ما ائتمروا بك؟ قال: «يريدون أن يسحرونى[٤] أو يقتلونى أو يخرجونى»، فقال: من أخبرك[٥] بهذا؟ قال: «ربى»، قال: نعم الرب ربك، استوص به خيرا فقال: «أنا أستوصى به؟! بل هو يستوصى بى»[٦].

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنى محمد بن إسماعيل البصرى، المعروف بالوساوسى، أخبرنا عبد الحميد بن أبى روَّاد[٧]، عن ابن جريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن المطلب بن أبى وَدَاعة، أن أبا طالب قال لرسول الله ﷺ: ما يأتمر بك قومك؟ قال: «يريدون أن يسحرونى[٨] أو يقتلونى أو يخرجونى». فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: «ربى»، قال: نعم الربّ ربك، فاستوص به خيرا. «قال: أنا أستوصى به؟! بل هو يستوصى بى». قال: فنزلت: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآية[٩].

(١) فى أ: «نصرته». (٢) زيادة من أ. (٣) فى د: «وهذا يجمع الأقوال»، وفى ك،م: «وهو تجمع الأقوال».
(٤) فى د: «يسجنوننى»، وفى أ: «يسخرونى». (٥) فى ك، م، أ: «خبرك».
(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ٤٩٣).
(٧) فى د،م: «داود». (٨) فى د: «يسجنوننى»، وفى أ: «يسخرونى».
(٩) تفسير الطبرى (١٣/ ٤٩٢).

وذكر أبى طالب فى هذا، غريب جدا، بل منكر؛ لأن هذه الآية مدنية، ثم إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الائتمار والمشاورة على الإثبات أو النفى أو القتل، إنما كان ليلة الهجرة سواء، وكان ذلك بعد موت أبى طالب بنحو من ثلاث سنين لما تمكنوا منه واجترؤوا عليه بعد موت عمه أبى طالب، الذى كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه. والدليل على صحة ما قلنا: ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يَسَار صاحب «المغازى» عن عبد الله بن أبى نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: وحدثنى الكلبى، عن باذان مولى أم هانئ، عن ابن عباس؛ أن نفرا من قريش من أشراف كل قبيلة، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم[1] إبليس فى صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من نَجْد، سمعت أنكم اجتمعتم، فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم رأيى ونصحى. قالوا: أجل، ادخل فدخل معهم فقال: انظروا فى شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يواثبكم فى أمركم بأمره. قال: فقال قائل منهم: احبسوه فى وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم، قال: فصرخ عدو الله الشيخ النجدى فقال: والله ما هذا لكم برأى، والله ليخرجنه ربه من محبسه[2] إلى أصحابه، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيدكم، فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم قال: فانظروا فى غير هذا.

قال: فقال قائل منهم: أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع، إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم، وكان أمره فى غيركم، فقال الشيخ النجدى: والله ما هذا لكم برأى، ألم تروا حلاوة [قوله][3] وطلاوة لسانه، وأخذ القلوب ما تسمع[4] من حديثه؟ والله لئن فعلتم، ثم استعرض العرب، ليجتمعن عليكم[5]، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم. قالوا: صدق والله، فانظروا باباً غير هذا.

قال: فقال أبو جهل، لعنه الله: والله لأشيرن عليكم برأى ما أراكم تصرمونه[6] بعد، ما أرى غيره. قالوا: وما هو؟ قال: نأخذ من كل قبيلة غلاما شابا وسيطا نهداً، ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارما، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل [كلها][7]، فلا أظن هذا الحى من بنى هاشم يقوون على حرب قريش كلها. فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العَقْل، واسترحنا وقطعنا عنا أذاه.

قال: فقال الشيخ النجدى: هذا والله الرأى. القول ما قال الفتى لا رأى غيره، قال: فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له[8].

فأتى جبريل النبى ﷺ، فأمره ألا يبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم.

---

(١) فى د: « واعترضهم». (٢) فى أ: « من حبسه». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى أ: « ما نشبع». (٥) فى د،ك،م: « عليه». (٦) فى أ: « بصرتموه».
(٧) زيادة من د، ك،م، أ. (٨) زيادة من د، ك،م.

فلم يبت رسول الله ﷺ فى بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة «الأنفال» يذكر نعمه[١] عليه وبلاءه عنده: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، وأنزل [الله][٢] فى قولهم: «تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء»، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، وكان ذلك اليوم يسمى «يوم الزحمة»[٣]، للذى اجتمعوا عليه من الرأى[٤].

وعن السُّدِّى نحو هذا السياق، وأنزل الله فى إرادتهم إخراجه قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وكذا روى العَوْفى، عن ابن عباس. وروى عن مجاهد، وعُرْوَة بن الزبير، وموسى بن عُقْبَة، وقتادة، ومِقْسَم، وغير واحد، نحو ذلك.

وقال يونس بن بُكَيْر، عن ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله، حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به، وأرادوا به ما أرادوا، أتاه جبريل، عليه السلام، فأمره ألا يبيت فى مكانه الذى كان يبيت فيه[٥]، فدعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب، فأمره أن يبيت على فراشه وأن يتسجى ببُرد له أخضر، ففعل. ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه، وخَرَج معه بحفنة من تراب، فجعل يذرها على رؤوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ وهو يقرأ: ﴿يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١ ـ ٩].

قال الحافظ أبو بكر البيهقى: وروى عن عكرمة ما يؤكد هذا[٦].

وقد روى [أبو حاتم][٧] ابن حبَّان فى صحيحه، والحاكم فى مستدركه، من حديث عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: دخلت فاطمةُ على رسول الله ﷺ وهى تبكى، فقال: «ما يبكيك يا بُنَيَّة؟» قالت: يا أبت، [و][٨] ما لى لا أبكى، وهؤلاء الملأ من قريش فى الحجْر يتعاقدون باللات والعُزّى ومناة الثالثة الأخرى، لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلوك، وليس منهم إلا من قد عَرَف نصيبه من دمك. فقال: «يا بنية، ائتنى بَوضُوء». فتوضأ رسولَ الله ﷺ، ثم خرج إلى المسجد. فلما رأوه قالوا: إنما هو ذا[٩]. فطأطؤوا رؤوسهم، وسقطت أذقانهم بين أيديهم، فلم يرفعوا أبصارهم. فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها، وقال: «شاهت الوجوه». فما أصاب رجلا منهم حَصَاة من حصياته إلا قُتل يوم بدر كافرا.

ثم قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ولا أعرف له علة[١٠].

---

(١) فى ك، م: «نعمته». (٢) زيادة من د، ك، أ.
(٣) فى د، ك، م، أ: «الرحمة».
(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ٤٩٤) من طريق ابن إسحاق به.
(٥) فى د، ك، م: «به».
(٦) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٤٦٩، ٤٧٠).
(٧) زيادة من ك، م. (٨) زيادة من د. (٩) فى د، ك، م: «ها هوذا».
(١٠) صحيح ابن حبان برقم (١٦٩١) «موارد» والمستدرك (٣/ ١٥٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، أخبرني عثمان الجزَرَى، عن مِقْسَم مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ . قال: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق ـ يريدون النبى ﷺ ـ وقال بعضهم: بل اقتلوه. وقال بعضهم: بل أخرجوه. فأطلع الله نبيه على ذلك، فبات على، رضى الله عنه، على فراش رسول الله ﷺ، وخرج رسول الله[1] ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبى ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا علياً رَدَّ الله تعالى مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدرى. فاقتصا[2] أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا فى الجبل فمرّوا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال[3].

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عُرْوَة بن الزبير فى قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أى: فمكرت بهم بكيدى المتين، حتى خلصتك منهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾.

يخبر تعالى عن كفر قريش وعُتُوِّهم وتمرّدهم وعنادهم، ودعواهم الباطل عند سماع آياته حين تتلى عليهم أنهم يقولون: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾. وهذا منهم قول لا فعل، وإلا فقد تحدّوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلا. وإنما هذا قول منهم يَغُرّون به أنفسهم ومن اتبعهم على باطلهم.

وقد قيل: إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث ـ لعنه الله ـ كما قد نص على ذلك سعيد بن جبُير، والسدى، وابن جُرَيْج وغيرهم؛ فإنه ـ لعنه الله ـ كان قد ذهب إلى بلاد فارس، وتعلم من أخبار ملوكهم رُسْتم واسفنديار، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله، وهو يتلو على الناس القرآن، فكان إذا قام ﷺ[4] من مجلس، جلس فيه النضر فيحدثهم من أخبار أولئك، ثم يقول: بالله أيهما أحسن قصصا؟ أنا أو محمد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع فى الأسارى، أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبرا بين يديه، ففُعل ذلك، ولله الحمد. وكان الذى أسره المقداد بن

---

(١) فى ك،م: «النبى». (٢) فى د،ك،م: «فاقتصوا».

(٣) المسند (١/٣٤٨) قال الهيثمى فى المجمع (٧/٢٧): «فيه عثمان بن عمرو الجزرى وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٤) فى ك،د: «عليه السلام».

الأسود، رضى الله عنه، كما قال ابن جرير:

حدثنا محمد بن بَشَّار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعْبَة، عن أبى بِشْر، عن سعيد بن جُبَيْر قال: قَتَل النبى ﷺ يوم بدر صبرا عُقْبَة بن أبى مُعَيْط وطُعَيمة بن عَدِىّ، والنضر بن الحارث. وكان المقداد أسر النضر، فلما أمر بقتله، قال المقداد: يا رسول الله، أسيرى. فقال رسول الله ﷺ: «إنه كان يقول فى كتاب الله، عز وجل، ما يقول». فأمر رسول الله [1] ﷺ بقتله، فقال المقداد: يا رسول الله، أسيرى. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اغنِ المقداد من فضلك». فقال المقداد: هذا الذى أردت. قال: وفيه أنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[2].

وكذا رواه هُشَيْم، عن أبى بشر جعفر بن أبى وَحْشِيَّة، عن سعيد بن جبير؛ أنه قال: «المطعم بن عدى» «بدل طعيمة»[3]. وهو غلط؛ لأن المطعم بن عدى لم يكن حيا يوم بدر؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ يومئذ: «لو كان المطعم [4] حيا، ثم سألنى[5] فى هؤلاء النَّتْنَى[6]، لوهبتهم له»[7] ـ يعنى: الأسارى ـ لأنه كان قد أجار رسول الله ﷺ ويوم رجع من الطائف.

ومعنى: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، وهو جمع أسطورة، أى: كتبهم اقتبسها، فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس. وهذا هو الكذب البحت، كما أخبر الله عنهم فى الآية الأخرى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا. قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥، ٦] أى: لمن تاب إليه وأناب؛ فإنه يتقبل منه ويصفح عنه.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: هذا من كثرة جهلهم وعُتُوِّهم وعنادهم وشدة تكذيبهم، وهذا مما عِيبُوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: «اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا له، ووفقنا لاتباعه». ولكن استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب، وتقديم العقوبة كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ. لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ. مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ١ ـ ٣]، وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة، كما قال قوم شعيب له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وقال هؤلاء: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

---

(١) فى د، ك، م، أ: «النبى».

(٢) تفسير الطبرى (١٣/ ٥٠٤).

(٣) تفسير الطبرى (١٣/ ٥٠٤).

(٤) في د، ك، م، أ: «المطعم بن عدى». (٥) فى ك: «وسالنى». (٦) فى أ: «السبى».

(٧) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣١٣٩) من حديث جبير بن مطعم، رضى الله عنه.

قال شُعْبَة، عن عبد الحميد، صاحب الزّيادى، عن أنس بن مالك قال: هو أبو جهل بن هشام قال: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الآية.

رواه البخارى عن أحمد ومحمد بن النضر، كلاهما عن عُبَيد الله بن مُعَاذ، عن أبيه، عن شعبة، به(١).

وأحمد هذا هو: أحمد بن النضر بن عبد الوهاب. قاله الحاكم أبو أحمد، والحاكم أبو عبد الله النيسابورى، والله أعلم.

وقال الأعمش، عن رجل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قال: هو النضر بن الحارث بن كلَدَة، قال: فأنزل الله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ. لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾[المعارج: ١، ٢]، وكذا قال مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبَيْر، والسدى: إنه النضر بن الحارث ـ زاد عطاء: فقال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ. لِّلْكَافِرِينَ﴾[المعارج: ١، ٢]، قال عطاء: ولقد أنزل فيه بضع عشرة آية من كتاب الله، عز وجل.

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا الحسن بن أحمد بن الليث، حدثنا أبو غسان حدثنا أبو تُمَيْلة، حدثنا الحسين، عن ابن بُرَيْدة، عن أبيه قال: رأيت عمرو بن العاص واقفا يوم أُحُد على فرس، وهو يقول: اللهم، إن كان ما يقول محمد حقا، فاخْسِف بى وبفرسى».

وقال قتادة فى قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية، قال: قال ذلك سَفَهة هذه الأمة وَجَهلتها(٢)، فعاد الله بعائدته ورحمته على سَفَهة هذه الأمة وجهلتها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو حذيفة موسى بن مسعود، حدثنا عِكْرِمة بن عمار، عن أبى زُمَيْل سِمَاك الحنفى، عن ابن عباس قال: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك(٣). فيقول النبى ﷺ: «قَدْ قد»! ويقولون: لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. ويقولون: غفرانك، غفرانك، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: النبى ﷺ، والاستغفار، فذهب النبى ﷺ وبقى الاستغفار(٤).

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٦٤٨، ٤٦٤٩).

(٢) فى ك: «وجهلها».

(٣) فى أ: «لك لبيك».

(٤) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ٥١١) من طريق أبى حذيفة موسى بن مسعود به.

وقال ابن جرير: حدثنى الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا أبو مَعْشَر، عن يزيد بن رُومَان ومحمد بن قيس قالا: قالت قريش بعضها لبعض: محمد أكرمه الله من بيننا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فلما أمسوا ندموا على ما قالوا، فقالوا: غفرانك اللهم! فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ [لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ][١] مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ يقول: ما كان الله ليعذب قوما وأنبياؤهم بين أظهرهم حتى يخرجهم، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يقول: وفيهم من قد سبق له من الله الدخولُ فى الإيمان، وهو الاستغفار ـ يستغفرون، يعنى: يصلون ـ يعنى بهذا أهل مكة.

وروى عن مجاهد، وعكرمة، وعطية العَوْفى، وسعيد بن جُبَيْر، والسُّدِّى نحو ذلك.

وقال الضحاك وأبو مالك: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يعنى: المؤمنين الذين كانوا بمكة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الغفار بن داود، حدثنا النضر بن عَرَبى [قال][٢] قال ابن عباس: إن الله جعل فى هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم: فأمان قَبَضه الله إليه، وأمان بقى فيكم، قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

قال[٣] أبو صالح عبد الغفار: حدثنى بعض أصحابنا، أن النضر بن عربى حدثه هذا الحديث، عن مجاهد، عن ابن عباس.

وروى ابن مَرْدُويه وابن جرير، عن أبى موسى الأشعرى نحواً من هذا[٤]، وكذا رُوى عن قتادة وأبى العلاء النحوى المقرئ.

وقال الترمذى: حدثنا سفيان بن وَكيع، حدثنا ابن نُمَيْر، عن إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر، عن عبّاد بن يوسف، عن أبى بردة بن أبى موسى، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل الله على أمانين لأمتى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فإذا مضيت، تركتُ فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة»[٥].

ويشهد لهذا[٦] ما رواه الإمام أحمد فى مسنده، والحاكم فى مستدركه، من حديث عبد الله بن وهب: أخبرنى عمرو بن الحارث، عن درّاج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، أن رسول الله ﷺ

---

(١) زيادة من م. (٢) زيادة من د، ك، م، أ. (٣) فى ك: «وقال».

(٤) تفسير الطبرى (١٣/٥١٣).

(٥) سنن الترمذى برقم (٣٠٨٢) وقال الترمذى: «هذا حديث غريب، وإسماعيل بن مهاجر يضعف فى الحديث».

(٦) فى أ: «لصحة هذا».

قال: «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب، لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم فى أجسادهم. فقال الرب: وعزتى وجلالى، لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى».

ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[1].

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا رِشْدين ـ هو ابن سعد ـ حدثنى معاوية بن سعد التُّجيبى، عمن حدثه، عن فَضَالة بن عُبَيد، عن النبى ﷺ أنه قال: «العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله، عز وجل»[2].

﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)﴾.

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام رسول الله ﷺ بين أظهرهم؛ ولهذا لما خرج من بين أظهرهم، أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقُتل صناديدهم وأسرت سُراتهم. وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب، التى هم متلبسون بها من الشرك والفساد.

قال قتادة والسُّدِّى وغيرهما: لم يكن القوم يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون ما عذبوا.

واختاره ابن جرير، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين، لأوقع بهم البأس الذى لا يرد، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك، كما قال تعالى فى يوم الحديبية: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

قال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْد، حدثنا يعقوب، عن جعفر بن أبى المغيرة، عن ابن أبْزَى قال: كان النبى ﷺ بمكة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ قال: فخرج النبى ﷺ إلى المدينة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال: وكان أولئك البقية من المؤمنين[3] الذين بقوا فيها يستغفرون ـ يعنى بمكة ـ فلما خرجوا، أنزل الله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ قال: فأذن الله فى فتح مكة، فهو العذاب الذى وعدهم.

ورُوى عن ابن عباس، وأبى مالك، والضحاك، وغير واحد نحو هذا.

وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم.

---

(١) المسند (٣/ ٢٩) والمستدرك (٤/ ٢٦١) وهذا سياق الحاكم. وأما سياق أحمد فى المسند من طريق ابن لهيعة عن دراج به.
(٢) المسند (٦/ ٢٠).
(٣) فى د، ك، م: «المسلمين».

قال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْد، حدثنا يحيى بن واضح، عن الحسين بن واقد، عن يزيد النحوى، عن عكرمة والحسن البصرى قالا: قال فى «الأنفال»: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فنسختها الآية التى تليها: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، فقُوتلوا بمكة، فأصابهم فيها الجوع والضر.

وكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث أبى[1] تُمَيْلة يحيى بن واضح[2].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج بن محمد، عن ابن جُرَيْج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، ثم استثنى أهل الشرك فقال [تعالى][3]: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام أى الذى بمكة، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة عنده والطواف به؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أى: هم ليسوا أهل المسجد الحرام، وإنما أهله النبى ﷺ وأصحابه، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ. إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ [وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ][4]﴾ الآية [البقرة: ٢١٧].

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه فى تفسير هذه الآية: حدثنا سليمان بن أحمد ـ هو الطبرانى ـ حدثنا جعفر بن إلياس بن صدقة المصرى، حدثنا نُعَيم بن حماد، حدثنا نوح بن أبى مريم، عن يحيى ابن سعيد الأنصارى، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: سئل رسول الله ﷺ من آلُك؟ قال[5]: «كل تقى»، وتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلا الْمُتَّقُونَ﴾[6].

وقال الحاكم فى مستدركه: حدثنا أبو بكر الشافعى، حدثنا إسحاق بن الحسن، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم[7]، عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعة، عن أبيه، عن جده قال: جمع رسول الله ﷺ قريشا فقال: «هل فيكم من غيركم؟» قالوا: فينا ابن أختنا[8]، وفينا حليفنا، وفينا مولانا. فقال: «حليفنا منا، وابن أختنا منا، ومولانا منا، إن أوليائى منكم المتقون».

ثم قال: هذا [حديث][9] صحيح، ولم يخرجاه[10].

---

(١) فى أ: «ابن». (٢) فى ك: «وضاح». (٣، ٤) زيادة من أ.

(٥) فى أ: «فقال».

(٦) رواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٥٠٠٢) «مجمع البحرين» وقال: «لم يروه عن يحيى إلا نوح تفرد به نعيم». وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٦٩): «فيه نوح بن أبى مريم وهو ضعيف».

(٧) فى أ: «خيثم». (٨) فى د، ك، م: «أخينا». (٩) زيادة من أ.

(١٠) المستدرك (٢/٣٢٨).

وقال عُرْوَة، والسُّدِّى، ومحمد بن إسحاق فى قوله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلا الْمُتَّقُونَ﴾ قال: هم محمد ﷺ وأصحابه، رضى الله عنهم.

وقال مجاهد: هم المجاهدون، من كانوا، وحيث كانوا.

ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام، وما كانوا يعاملونه به، فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾: قال عبد الله[1] بن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو رجاء العطاردى، ومحمد بن كعب القرظى، وحُجْر بن عَنْبَس، ونُبَيْط بن شُرَيْط، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الصفير ـ وزاد مجاهد: وكانوا يدخلون أصابعهم فى أفواههم.

وقال السدى: المُكَاء: الصفير على نحو طير أبيض يقال له: «المُكاء»، ويكون بأرض الحجاز. والتصدية: التصفيق.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو خَلاَّد سليمان بن خلاد، حدثنا يونس بن محمد المؤدب، حدثنا يعقوب ـ يعنى ابن عبد الله الأشعرى ـ حدثنا جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ قال: كانت قريش تطوف بالكعبة[2] عراة تصفر وتصفق. والمكاء: الصفير، وإنما شبهوا بصفير الطير وتصدية التصفيق.

وهكذا روى على بن أبى طلحة والعَوْفى، عن ابن عباس. وكذا روى عن ابن عمر، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وأبى سلمة بن عبد الرحمن، والضحاك، وقتادة، وعطية العوفى، وحُجْر بن عَنْبَس، وابن أبزَى نحو هذا.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا أبو عمر، حدثنا قُرَّة، عن عطية، عن ابن عمر فى قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ قال: المكاء: الصفير. والتصدية: التصفيق. قال قرة: وحكَى لنا عطية فعل ابن عمر، فصفر ابن عمر، وأمال خده، وصفق بيديه.

وعن ابن عمر أيضاً أنه قال: كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويُصَفِّقون ويُصَفِّرون. رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره بسنده عنه.

وقال عكرمة: كانوا يطوفون بالبيت على الشمال.

قال مجاهد: وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبى ﷺ صلاته.

وقال الزهرى: يستهزئون بالمؤمنين.

وعن سعيد بن جُبَير وعبد الرحمن بن زيد: ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ قال: صدُّهم الناس عن سبيل الله، عز وجل.

---

(١) فى أ: «عبد الرزاق». (٢) فى ك: «البيت».

قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال الضحاك، وابن جُرَيْج، ومحمد بن إسحاق: هو ما أصابهم يوم بَدْر من القتل والسَّبْى. واختاره ابن جرير، ولم يحك غيره.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان، عن ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد قال: عذاب أهل الإقرار بالسيف، وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧)﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثنى الزهرى، ومحمد بن يحيى بن حبَّان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحُصَيْن بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر، ورجع فَلُّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بِعيرِه، مشى عبد الله بن أبى ربيعة، وعكرمة بن أبى جهل، وصفوان ابن أمية، فى رجال من قريش أصيب آباؤهم، وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له فى تلك[1] العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمدا قد وَتَرَكم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا! ففعلوا. قال: ففيهم ـ كما ذكر عن ابن عباس ـ أنزل الله، عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ [لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ][2]﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[3].

وهكذا روى عن مجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، والحَكَم بن عتيبة، وقتادة، والسدى، وابن أبزَى: أنها نزلت[4] فى أبى سفيان ونفقته الأموال فى أُحُد لقتال رسول الله ﷺ.

وقال الضحاك: نزلت فى أهل بدر.

وعلى كل تقدير، فهى عامة. وإن كان سبب نزولها خاصا، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق، فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم، ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أى: ندامة؛ حيث لم تُجْدِ شيئاً؛ لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متم نوره ولو كره الكافرون، وناصر دينه، ومُعْلِن كلمته، ومظهر دينه على كل دين. فهذا الخزى لهم فى الدنيا، ولهم فى الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم، رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوؤه، ومن قُتل منهم أو مات، فإلى الخزْى الأبدى والعذاب السَّرْمَدِى؛ ولهذا قال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ

(١) فى م، أ: «ذلك».
(٢) زيادة من م.
(٣) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ٥٣٢).
(٤) فى م: «أنزلت».

تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾: فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء[1]، وقال السدى: يميز المؤمن من الكافر. وهذا يحتمل أن يكون هذا التمييز فى الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم:١٤]، وقال فى الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس:٥٩].

ويحتمل أن يكون هذا التمييز فى الدنيا، بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، وتكون «اللام» معللة لما جعل الله للكفار من مال ينفقون فى الصد عن سبيل الله، أى: إنما أقدرناهم على ذلك؛ ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أى: من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنكول عن ذلك كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ. وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ﴾ الآية [آل عمران:١٦٦، ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ الآية [آل عمران:١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢]، ونظيرتها فى براءة أيضا.

فمعنى الآية على هذا: إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم، وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها فى ذلك؛ ليتميز[2] الخبيث من الطيب، فيجعل الخبيث بعضه عل بعض، ﴿فَيَرْكُمَهُ﴾ أى: يجمعه كله، وهو جمع الشىء بعضه على بعض، كما قال تعالى فى السحاب: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ [النور:٤٣] أى: متراكما متراكبا، ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أى: هؤلاء هم الخاسرون فى الدنيا والآخرة.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠) ﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا﴾ أى: عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد، ويدخلوا فى الإسلام والطاعة والإنابة، يغفر لهم ما قد سَلَف، أى: من كفرهم، وذنوبهم وخطاياهم، كما جاء فى الصحيح، من حديث أبى وائل عن ابن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من أحْسَن فى الإسلام، لم يُؤاخَذ بما عمل فى الجاهلية، ومن أساء فى الإسلام، أخذ بالأول

(١) فى أ: «الشقاوة».

(٢) فى د،م: « ليميز الله».

والآخر»[١].

وفى الصحيح أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال: «الإسلام يَجُبّ ما قبله[٢]، والتوبة تجب ما كان قبلها».

وقوله: ﴿وَإِن يَعُودُوا﴾ أى: يستمروا على ما هم فيه، ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾ أى: فقد مضت سنتنا فى الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا عل عنادهم، أنا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة.

وقوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾ أى: فى قريش يوم بدر وغيرها من الأمم. وقال السدى ومحمد بن إسحاق: أى: يوم بدر.

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾: قال البخارى: حدثنا الحسن بن عبد العزيز، حدثنا عبد الله بن يحيى، حدثنا حَيْوة بن شُرَيْح، عن بكر بن عمرو، عن بُكَير، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رجلا جاءه فقال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله فى كتابه: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ الآية [الحجرات:٩]، فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله فى كتابه؟ فقال: يا ابن أخى، أُعَيَّر بهذه الآية ولا أقاتل، أحب إلى من أن أعيَّر بالآية التى يقول الله، عز وجل: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ إلى آخر[٣] الآية [النساء:٩٣]، قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد النبى ﷺ إذ كان الإسلام قليلا، وكان الرجل يُفتن فى دينه: إما أن يقتلوه، وإما أن يوثقوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد، قال: فما قولك فى على وعثمان؟ قال ابن عمر: ما قولى فى على وعثمان؟ أما عثمان فكان الله قد عفا عنه، وكرهتم أن يعفو عنه، وأما على فابن عم رسول الله ﷺ وخَتَنُهُ ـ وأشار بيده ـ وهذه ابنته ـ أو: بنته ـ حيث ترون.

وحدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زُهَيْر، حدثنا بَيَان أن وَبَرَة حدثه قال: حدثنى سعيد بن جُبَيْر قال: خرج علينا ـ أو: إلينا ـ ابن عمر، رضى الله عنهما، فقال رجل: كيف ترى فى قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدرى ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان الدخول عليهم فتنة، وليس بقتالكم على الملك.

هذا كله سياق البخارى، رحمه الله[٤].

وقال عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر؛ أنه أتاه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى، وأنت ابن عمر بن الخطاب، وأنت صاحب رسول الله ﷺ، فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعنى أن الله حرم علىَّ دم أخى المسلم. قالوا: أو لم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٩٢١) وصحيح مسلم برقم (١٢٠).
(٢) فى ك، م: «ما كان قبله». (٣) فى ك،م: «آخرها».
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٦٥٠، ٤٦٥١).

﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾؟ قال: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين كله الله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله.

وكذا رواه حَمَّاد بن سلمة، عن على بن زيد، عن أيوب بن عبد الله اللخمي قال: كنت عند عبد الله بن عمر[١]، رضى الله عنهما، فأتاه رجل فقال: إن الله يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ فقال[٢] ابن عمر: قاتلت أنا وأصحابى حتى كان الدين كله لله، وذهب الشرك ولم تكن فتنة، ولكنك وأصحابك تقاتلون حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله. رواهما ابن مَرْدُويه.

وقال أبو عَوَانة، عن الأعمش، عن إبراهم التَّيْمِى، عن أبيه قال: قال ذو البطين ـ يعنى أسامة ابن زيد ـ لا أقاتل رجلا يقول: لا إله إلا الله أبدا. قال: فقال سعد بن مالك: وأنا والله لا أقاتل رجلا يقول: لا إله إلا الله أبدا. فقال رجل: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾؟ فقالا: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين كله لله. رواه ابن مردويه.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعنى: [حتى][٣] لا يكون شرك، وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدى، ومقاتل بن حَيَّان، وزيد بن أسلم.

وقال محمد بن إسحاق: بلغنى عن الزهرى، عن عُرْوَة بن الزبير وغيره من علمائنا: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾: حتى لا يفتن مسلم عن دينه.

وقوله: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس فى هذه الآية، قال: يخلص التوحيد لله.

وقال الحسن وقتادة، وابن جُرَيج: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾: أن يقال: لا إله إلا الله.

وقال محمد بن إسحاق: ويكون التوحيد خالصا لله، ليس فيه شرك، ويخلع ما دونه من الأنداد.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾: لا يكون مع دينكم كفر.

ويشهد له[٤] ما ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها، عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله، عز وجل»[٥]. وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال: سُئِل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حَمِيَّة، ويقاتل رِياءً، أىُّ: ذلك فى سبيل الله، عز وجل؟ فقال: « من قاتل لتكون

---

(١) فى أ: « عمرو».   (٢) فى أ: «قال».   (٣) زيادة من م.
(٤) فى أ: «لهذا».
(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٥) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٢) من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب، رضى الله عنهما.

كلمة الله هى العليا، فهو فى سبيل الله، عز وجل»[١].

وقوله: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ أى: بقتالكم عما هم فيه من الكفر، فكفوا عنه[٢]، وإن لم تعلموا[٣] بواطنهم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ[٤] بَصِيرٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، وفى الآية الأخرى: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

وقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣] وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأسامة ـ لما علا ذلك الرجل بالسيف، فقال: «لا إله إلا الله»، فضربه فقتله، فذكر ذلك لرسول الله ـ فقال لأسامة: «أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال: يا رسول الله، إنما قالها تعوذا. قال: «هلا شَقَقْتَ عن قلبه؟»، وجعل يقول ويكرر عليه: «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال أسامة: حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت إلا ذلك اليوم[٥] [٦].

وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أى: وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾: سيدكم وناصركم على أعدائكم، فنعم المولى ونعم النصير.

وقال محمد بن جرير: حدثنى عبد الوارث بن عبد الصمد، حدثنا أبى، حدثنا أبان العطار، حدثنا هشام بن عُرْوَة، عن عروة: أن عبد الملك بن مروان كتب إليه يسأله عن أشياء، فكتب إليه عروة: «سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد، فإنك كتبت إلى تسألنى عن مخرج رسول الله ﷺ من مكة، وسأخبرك[٧] به، ولا حول ولا قوة إلا بالله. كان من شأن مخرج رسول الله ﷺ من مكة، أن الله أعطاه النبوة، فَنِعْم النَّبىُّ، ونعم السيد، ونعم العشيرة، فجزاه الله خير، وعرّفنا وجهه فى الجنة، وأحيانا على ملته، وأماتنا عليها، وبعثنا عليه وإنه لما دعا قومه لما بعثه الله له من الهدى والنور الذى أنزل عليه، لم يبعدوا منه أول ما دعاهم إليه، وكادوا يسمعون منه، حتى ذكر طواغيتهم، وقدم ناس من الطائف من قريش، لهم أموال، أنكر ذلك عليه الناس واشتدوا عليه وكرهوا ما قال، وأغروا به من أطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس، فتركوه إلا من حفظه الله منهم، وهم قليل. فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث، ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم، وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال، فافتُتِن من افتتن، وعصم الله من شاء منهم، فلما فُعِل ذلك بالمسلمين، أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة. وكان

(١) صحيح البخارى برقم (٢٨١٠) وصحيح مسلم برقم (١٩٠٤).
(٢) فى ك،م: «عنهم».
(٣) فى ك،م: «إن كنتم لا تعلمون».
(٤) فى ك،م: «تعملون».
(٥) فى ك،م: «يومئذ».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٢٦٩) وصحيح مسلم برقم (٩٦).
(٧) فى م: «وسأحدثك».

بالحبشة ملك صالح يقال له: «النجاشي»، لا يظلم أحد بأرضه، وكان يُثْنَى عليه مع ذلك، وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش، يتجرون فيها، وكانت مَسْكَنًا لتجارهم، يجدون فيها رفاغا من الرزق وأمنا ومتجرا حسنا، فأمرهم بها النبى ﷺ، فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة، وخاف[١] عليهم الفتن. ومكث هو فلم يبرح. فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم. ثم إنه فشا الإسلام فيها، ودخل فيه رجال من أشرافهم ومنعتهم. فلما رأوا ذلك. استرخوا استرخاءة عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه، وكانت الفتنة الأولى هى أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قبل أرض الحبشة مخافتها، وفرارا مما كانوا فيه من الفتن والزلزال، فلما استرخى عنهم ودخل فى الإسلام من دخل منهم، تحدث باسترخائهم عنهم، فبلغ ذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ: أنه: قد استرخى عمن كان منهم بمكة، وأنهم لا يفتنون، فرجعوا إلى مكة، وكادوا يأمنون بها، وجعلوا يزدادون ويكثرون. وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير، وفشا بالمدينة الإسلام، وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكة، فلما رأت قريش ذلك، تآمرت على أن يفتنوهم ويشتدوا، فأخذوهم، فحرصوا على أن يفتنوهم، فأصابهم جهد شديد، فكانت[٢] الفتنة الأخيرة، فكانت فتنتان: فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة، حين أمرهم النبى ﷺ بها، وأذن لهم فى الخروج إليها ـ وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة. ثم إنه جاء رسول الله ﷺ من المدينة سبعون نقيبًا، رؤوس الذين أسلموا، فوافوه بالحج، فبايعوه بالعقبة، وأعطوه عهودهم على أنا منك وأنت منا، وعلى أن[٣] من جاء من أصحابك أو جئتنا، فإنا[٤] نمنعك مما نمنع منه أنفسنا، فاشتدت عليهم قريش عند ذلك، فأمر ﷺ أصحابه أن يخرجوا إلى المدينة، وهى الفتنة الآخرة التى أخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه، وخرج هو، وهى التى أنزل الله، عز وجل، فيها: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ**﴾ [٥].

ثم رواه عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن أبى الزِّنَاد، عن أبيه، عن عروة بن الزبير: أنه كتب إلى الوليد ـ يعنى ابن عبد الملك بن مروان ـ بهذا، فذكر مثله[٦]. وهذا صحيح إلى عروة، رحمه الله.

﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)**﴾.

---

(١) فى أ: «وخافوا». (٢) فى م، أ: «وكانت». (٣) فى ك، م: «أنه».
(٤) فى أ: «فإنما».
(٥) تفسير الطبرى (١٣/٥٣٩).
(٦) تفسير الطبرى (١٣/٥٤٢).

يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصا لهذه الأمة الشريفة، من بين سائر الأمم المتقدمة، من إحلال المغانم. و«الغنيمة»: هى المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب. و«الفىء»: ما أخذ منهم بغير ذلك، كالأموال التى يصالحون عليها، أو يتوفون عنها ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك. هذا مذهب الإمام الشافعى فى طائفة من علماء السلف(١) والخلف.

ومن العلماء من يطلق الفىء على ما تطلق(٢) عليه الغنيمة، والغنيمة على الفىء أيضا؛ ولهذا ذهب قتادة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية «الحشر»: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ الآية [الحشر: ٧]، قال: فنسخت آية «الأنفال» تلك، وجعلت الغنائم: أربعة أخماسها(٣) للمجاهدين، وخمساً منها لهؤلاء المذكورين. وهذا الذى قاله بعيد؛ لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بَدْر، وتلك نزلت فى بنى النَّضِير، ولا خلاف بين علماء السير والمغازى قاطبة أن بنى النضير بعد بدر. هذا أمر لا يشك فيه ولا يرتاب، فمن يفرق بين معنى الفىء والغنيمة يقول: تلك نزلت فى أموال الفىء وهذه فى المغانم. ومن يجعل أمر المغانم والفىء راجعا(٤) إلى رأى الإمام يقول: لا منافاة بين آية الحشر وبين التخميس إذا رآه الإمام، والله أعلم.

وقوله(٥) تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾: توكيدا لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط(٦) والمخيط، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

وقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾: اختلف المفسرون هاهنا، فقال بعضهم: لله نصيب من الخمس يجعل فى الكعبة.

قال أبو جعفر الرازى، عن الربيع، عن أبى العالية الرِّياحى قال: كان رسول الله ﷺ يؤتى بالغنيمة فيقسمها على خمسة، تكون أربعة أخماس لمن شهدها، ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه، فيأخذ منه الذى قبض كفه، فيجعله للكعبة(٧)، وهو سهم الله. ثم يقسم ما بقى على خمسة أسهم، فيكون سهم للرسول، وسهم لذوى القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل(٨).

وقال آخرون: ذكر الله هاهنا استفتاح كلام للتبرك، وسهم(٩) لرسوله عليه السلام(١٠).

---

(١) فى أ: «علماء من السلف».
(٢) فى م: «ما يطلق».
(٣) فى د: «الأربعة الأخماس»، وفى ك: «أربعة أخماس».
(٤) فى ك: «راجع».
(٥) فى ك: «ويقول»، وفى م: «فقوله».
(٦) فى ك، م: «الخياط».
(٧) فى د: «فى الكعبة».
(٨) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ٥٥٠).
(٩) فى م: «وسهمه».
(١٠) فى أ: «ﷺ».

قال الضحاك، عن ابن عباس، رضى الله عنهما: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سَرِيَّة فغنموا، خَمَّس الغنيمة، فضرب ذلك الخمس فى خمسة. ثم قرأ: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ**﴾، [قال: وقوله][(١)]: ﴿**فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ**﴾ مفتاح كلام، لله ما فى السموات وما فى الأرض، فجعل سهم الله وسهم الرسول واحداً.

وهكذا قال إبراهيم النَّخَعى، والحسن بن محمد بن الحنفية. والحسن البصرى، والشعبى، وعَطاء ابن أبى رباح، وعبد الله بن بريدة[(٢)]، وقتادة، ومغيرة، وغير واحد: أن سهم الله ورسوله واحد.

ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقى بإسناد صحيح، عن عبد الله بن شقيق، عن رجل من بلقين قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو بوادى القُرَى، وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله، ما تقول فى الغنيمة؟ فقال: «لله خمسها، وأربعة أخماس للجيش». قلت: فما أحد أولى به من أحد؟ قال: «لا، ولا السهم تستخرجه من جنبك، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم»[(٣)].

وقال ابن جرير: حدثنا عمران بن موسى، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أبان، عن الحسن قال: أوصى أبو بكر بالخمس[(٤)] من ماله، وقال: ألا أرضى من مالى بما رضى الله لنفسه[(٥)].

ثم اختلف قائلو هذا القول، فروى على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قال: كانت الغنيمة تقسم[(٦)] على خمسة أخماس، فأربعة منها بين من قاتل عليها، وخمس واحد يقسم على أربعة[(٧)]: فربع لله وللرسول ولذى القربى ـ يعنى: قرابة النبى ﷺ. فما كان لله وللرسول فهو لقرابة رسول الله ﷺ، ولم يأخذ النبى ﷺ من الخمس شيئاً، [والربع الثانى لليتامى، والربع الثالث للمساكين، والربع الرابع لابن السبيل][(٨)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو مَعْمَر المِنْقَرى، حدثنا عبد الوارث بن سعيد، عن حسين المعلم، عن عبد الله بن بُرَيْدَةَ فى قوله: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ**﴾ قال: الذى لله فلنبيه، والذى للرسول لأزواجه.

وقال عبد الملك بن أبى سليمان، عن عطاء بن أبى رباح قال: خمس الله والرسول[(٩)] واحد، يحمل منه ويصنع فيه ما شاء ـ يعنى: النبى ﷺ.

---

(١) زيادة من تفسير الطبرى.
(٢) فى ك، م، أ: «عبد الله بن أبى بريدة».
(٣) السنن الكبرى (٦/ ٣٢٤).
(٤) فى جميع النسخ: «أوصى الحسن بالخمس» والمثبت من الطبرى.
(٥) تفسير الطبرى (١٣/ ٥٥٠).
(٦) فى د: «تخمس».
(٧) فى د، ك، م، أ: «أربعة أخماس».
(٨) ما بين المعقوفين عن تفسير الطبرى.
(٩) فى د: «خمس الله وخمس الرسول».

وهذا أعم وأشمل، وهو أن الرسول[١] ﷺ[٢] يتصرف فى الخمس الذى جعله الله له بما شاء، ويرده فى أمته كيف شاء ـ ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى مريم، عن أبى سلام الأعرج، عن المقدام بن معد يكرب الكندى: أنه جلس مع عبادة بن الصامت، وأبى الدرداء، والحارث بن معاوية الكندى، رضى الله عنهم، فتذاكروا حديث رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء لعبادة: يا عبادة، كلمات رسول الله ﷺ فى غزوة كذا وكذا فى شأن الأخماس؟ فقال عبادة: إن رسول الله ﷺ صلى بهم فى غزوة إلى بعير من المغنم، فلما سلم قام[٣] رسول الله ﷺ فتناول وبَرة بين أنملتيه فقال: «إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لى فيها إلا نصيبى معكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخيط، وأكبر[٤] من ذلك وأصغر، ولا تغلوا، فإن الغلول نار وعار على أصحابه فى الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس فى الله[٥] القريب والبعيد، ولا تبالوا فى الله لومة لائم، وأقيموا حدود الله فى الحضر والسفر، وجاهدوا فى [سبيل][٦] الله، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة [عظيم][٧]، ينجى به الله من الهم والغم»[٨].

هذا حديث حسن عظيم، ولم أره فى شىء من الكتب الستة من هذا الوجه. ولكن روى الإمام أحمد أيضاً، وأبو داود، والنسائى، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو، عن[٩] رسول الله ﷺ نحوه فى قصة الخمس والنهى عن الغلول[١٠].

وعن عمرو بن عَبَسَة أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى بعير من المغنم، فلما سلم أخذ وبرة[١١] من ذلك البعير ثم قال: «ولا يحل لى من غنائمكم مثل هذه، إلا الخمس، والخمس مردود فيكم». رواه أبو داود والنسائى[١٢].

وقد كان للنبى ﷺ من المغانم[١٣] شىء يصطفيه لنفسه عبداً أو أمة أو فرساً أو سيفاً أو نحو ذلك، كما نص على ذلك محمد بن سيرين وعامر الشعبى، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء.

وروى الإمام أحمد، والترمذى ـ وحسنه ـ عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ تنفل سيفه ذا[١٤]

---

(١) فى د: «وهو أنه». (٢) فى أ: «صلوات الله وسلامه عليه». (٣) فى أ: «قال».
(٤) فى أ: «وأكثر». (٥) فى م: «فى سبيل الله». (٦، ٧) زيادة من ك، م، أ، ومسند أحمد.
(٨) المسند (٥/ ٣١٦).
(٩) فى أ: «أن».
(١٠) المسند (٢/ ١٨٤) وسنن أبى داود برقم (٢٦٩٤).
(١١) فى د: «أخذ منه وبرة».
(١٢) سنن أبى داود برقم (٢٧٥٥).
(١٣) فى د، ك، م: «الغنيمة». (١٤) فى أ: «ذو».

الفَقَار يوم بدر، وهو الذى رأى فيه الرؤيا يوم أحد(١).

وعن عائشة، رضى الله عنها، قالت: كانت صفية من الصّفى. رواه أبو داود فى سننه(٢).

وروى أيضاً بإسناده، والنسائى أيضاً عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمِرْبَد إذ دخل رجل معه قطعة أدِيم، فقرأناها فإذا فيها: «من محمد رسول الله إلى بنى زهير بن أقيش، إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأقمتم الصلاة،وآتيتم الزكاة، وأديتم الخمس من المغنم، وسهم النبى وسهم الصَّفى، أنتم آمنون بأمان الله ورسوله». فقلنا: من كتب لك هذا؟ فقال: رسول الله ﷺ(٣).

فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرر هذا وثبوته؛ ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه.

وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يتصرف فى مال الفىء.

وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية، رحمه الله: وهذا قول مالك وأكثر السلف، وهو أصح الأقوال.

فإذا ثبت هذا وعلم، فقد اختلف أيضاً فى الذى كان يناله عليه السلام(٤) من الخمس، ماذا يُصنع به من بعده؟ فقال قائلون: يكون لمن يلى الأمر من بعده. روى هذا عن أبى بكر وعلى وقتادة جماعة، وجاء فيه حديث مرفوع(٥).

وقال آخرون: يصرف فى مصالح المسلمين.

وقال آخرون: بل هو مردود على بقية الأصناف: ذوى القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، اختاره ابن جرير

وقال آخرون: بل سهم النبى ﷺ وسهم ذوى القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل.

قال ابن جرير: وذلك قول جماعة من أهل العراق.

وقيل: إن الخمس جميعه لذوى القربى كما رواه ابن جرير.

---

(١) المسند (١/ ٢٧١) وسنن الترمذى برقم (١٥٦١).

(٢، ٣) سنن أبى داود برقم (٢٩٩٤).

(٤) فى أ: «ﷺ».

(٥) رواه البيهقى فى السنن الكبرى (٦/ ٣٠٣) من طريق الوليد بن جميع عن أبى الطفيل: لما سألت فاطمة أبا بكر عن الخمس فقال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أطعم الله نبياً طعمة ثم قبضه كانت للذى يلى بعده» فلما وليت رأيت أن أرده على المسلمين.

حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا عبد الغفار، حدثنا المِنْهَال بن عمرو، وسألت عبد الله ابن محمد بن على، وعلى بن الحسين، عن الخمس فقالا: هو لنا. فقلت لعلى: فإن الله يقول: ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، فقالا: يتامانا ومساكيننا.

وقال سفيان الثورى، وأبو نُعَيم، وأبو أسامة، عن قيس بن مسلم: سألت الحسن بن محمد بن الحنفية، رحمه الله تعالى، عن قول الله[١] تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ قال[٢]: هذا مفتاح كلام، لله[٣] الدنيا والآخرة. ثم اختلف الناس فى هذين السهمين بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقال قائلون: سهم النبى ﷺ تسليما للخليفة من بعده. وقال قائلون: لقرابة النبى ﷺ. وقال قائلون: سهم القرابة لقرابة الخليفة. فاجتمع قولهم[٤] على أن يجعلوا هذين السهمين فى الخيل والعُدة فى سبيل الله، فكانا على ذلك فى خلافة أبى بكر وعمر، رضى الله عنهما[٥].

قال[٦] الأعمش، عن إبراهيم[٧]: كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبى ﷺ فى الكُرَاع والسلاح، فقلت لإبراهيم: ما كان على يقول فيه؟ قال: كان [على][٨] أشدهم فيه.

وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء، رحمهم الله.

وأما سهم ذوى القربى فإنه يصرف إلى بنى هاشم وبنى المطلب؛ لأن بنى المطلب وازروا بنى هاشم فى الجاهلية [وفى أول الإسلام][٩]، ودخلوا معهم فى الشعب غضبا لرسول الله ﷺ وحماية له: مسلمهم طاعة لله ولرسوله، وكافرهم حَمِيَّة للعشيرة وأنفة وطاعة لأبى طالب عم رسول الله. وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل ـ وإن كانوا أبناء عمهم ـ فلم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم ونابذوهم، ومالؤوا بطون قريش على حرب الرسول؛ ولهذا كان ذَمُّ أبى طالب لهم فى قصيدته اللامية أشدَّ من غيرهم، لشدة قربهم. ولهذا يقول فى أثناء قصيدته[١٠]:

جَزَى الله عَنَّا عبدَ شمس ونَوفلا ... عُقُوبة شرٍّ عاجل غير آجل
بميزان قسْط لا يَخيس شَعيرة ... لهُ شَاهدٌ من نَفْسه غير عائل
لقد سَفُهت أحلامُ قوم تَبَدَّلوا ... بنى خَلَف قَيْضا بنا والغَيَاطِل
ونحنُ الصَّميم من ذؤابة هاشم ... وآل قُصَى فى الخُطُوب الأوائل[١١]

---

(١) فى د: «عن قوله».
(٢) فى د: «فقال».
(٣) فى ك: «كلام الله».
(٤) فى ك، م: «رأيهم».
(٥) فى ك: «رضى الله عنهما وأرضاهما».
(٦) فى م: «وقال».
(٧) فى م: «إبراهيم قال».
(٨) زيادة من الطبرى.
(٩) زيادة من د، ك، م.
(١٠) فى ك: «قصيدته اللامية».
(١١) الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٧٧).

وقال جبير بن مطعم بن عدى [بن نوفل][١]: مشيت أنا وعثمان بن عفان ـ يعنى ابن أبى العاص ابن أمية بن عبد شمس ـ إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله، أعطيت بنى المطلب من خمس خيبر وتركتنا، ونحن وَهُم منك بمنزلة واحدة، فقال: «إنما بنو هاشم وبنو عبد المطلب شىء واحد».

رواه مسلم[٢]. وفى بعض روايات هذا الحديث: «إنهم لم يفارقونا فى جاهلية ولا إسلام»[٣].

وهذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب.

قال ابن جرير: وقال آخرون: هم بنو هاشم. ثم روى عن خُصَيْف، عن مجاهد قال: علم الله أن فى بنى هاشم فقراء، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة.

وفى رواية عنه قال: هم قرابة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة.

ثم روى عن على بن الحسين نحو ذلك.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل هم قريش كلها.

حدثنى يونس بن عبد الأعلى، حدثنى عبد الله بن نافع، عن أبى مَعْشَر، عن سعيد المَقْبُرِى قال: كتب نَجْدَةَ إلى عبد الله بن عباس يسأله عن «ذى القربى»، فكتب إليه ابن عباس: كنا نقول: إنا هم فأبى ذلك علينا قومنا، وقالوا: قريش كلها ذوو قربى[٤] [٥].

وهذا الحديث فى صحيح مسلم، وأبى داود، والترمذى، والنسائى من حديث سعيد المقبرى عن يزيد بن هرمُز أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن ذوى القربى فذكره إلى قوله: «فأبى ذلك علينا قومنا»[٦] والزيادة من أفراد أبى معشر نَجِيح بن عبد الرحمن المدنى، وفيه ضعف.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا إبراهيم بن مهدى المصيصى، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن حَنَش، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رغبت لكم عن غُسَالة الأيدى؛ لأن لكم من خُمْس الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم».

هذا حديث حسن الإسناد، وإبراهيم بن مهدى هذا وَثَّقه أبو حاتم، وقال يحيى بن معين[٧]:

---

(١) زيادة من د، ك، م.

(٢) لم أجده فى صحيح مسلم ولا عزاه المزى له فى تحفة الأشراف، ولم أجزم بوهم الحافظ هنا؛ لأن الزيلعى عزاه للصحيحين فى تخريج الكشاف (٢/ ٣٠)، ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٣١٤٠) من طريق سعيد بن المسيب عن جبير بن مطعم، رضى الله عنه، بنحوه.

(٣) الرواية فى سنن النسائى (٧/ ١٣٠).

(٤) فى أ: «قرابة».

(٥) تفسير الطبرى (١٣/ ٥٥٥).

(٦) صحيح مسلم برقم (١٨١٢) وسنن أبى داود برقم (٢٩٨٢) وسنن الترمذى برقم (١٥٥٦) وسنن النسائى (٧/ ١٢٨)، وهو عند أبى داود والنسائى من حديث الزهرى عن يزيد.

(٧) فى د: «سعيد».

يأتى بمناكير(١)، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ أى: يتامى المسلمين. واختلف العلماء: هل يختص بالأيتام الفقراء، أو يعم الأغنياء والفقراء؟ على قولين.

و﴿الْمَسَاكِينِ﴾: هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنتهم.

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: هو المسافر، أو المريد للسفر، إلى مسافة تقصر فيها الصلاة، وليس له ما ينفقه فى سفره ذلك. وسيأتى تفسير ذلك فى آية الصدقات فى سورة «براءة»، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة، وعليه التكلان.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أى: امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس فى الغنائم، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله؛ ولهذا جاء فى الصحيحين، من حديث عبد الله بن عباس، فى حديث وفد عبد القيس: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «وآمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: آمركم بالإيمان بالله ثم قال: هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادةُ أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس من المغنم..» الحديث بطوله(٢)، فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان، وقد بوَّب البخارى على ذلك فى «كتاب الإيمان» من صحيحه فقال: (باب أداء الخمس من الإيمان)، ثم أورد حديث ابن عباس هذا، وقد بسطنا الكلام عليه فى «شرح البخارى» ولله الحمد والمنة(٣).

وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أى: فى القسمة، وقوله: ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ينبه تعالى على نعمته(٤) وإحسانه إلى خلقه بما فَرَق به بين الحق والباطل ببدر ويسمى «الفرقان»؛ لأن الله تعالى أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل، وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه.

قال على بن أبى طالب والعَوْفى، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾: يوم بدر، فَرَق الله فيه بين الحق والباطل. رواه الحاكم.

وكذا قال مجاهد، ومِقْسَم وعبيد الله بن عبد الله، والضحاك، وقتادة، ومُقَاتل بن حيان، وغير واحد: أنه يوم بدر.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهرى، عن عُرْوَة بن الزبير فى قوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾: يوم

---

(١) انظر: ميزان الاعتدال للذهبى (١/ ٦٨).
(٢) صحيح البخارى برقم (٥٣) وصحيح مسلم برقم (١٧).
(٣) وانظر كلام الحافظ ابن حجر فى: فتح البارى (١/ ١٢٩ ـ ١٣٥).
(٤) فى أ: «نعمه».

فرق الله [فيه][(١)] بين الحق والباطل، وهو يوم بدر، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ. وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة، فالتقوا يوم الجمعة لتسعَ عشرةَ ـ أو: سبع عشرة ـ مضت من رمضان، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلا، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة. فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على السبعين، وأسر منهم مثل ذلك.

وقد روى الحاكم فى مستدركه، من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن ابن مسعود، قال فى ليلة القدر: تحروها لإحدى عشرة يبقين[(٢)] فإن صبيحتها[(٣)] يوم بدر. وقال: على شرطهما[(٤)].

وروى مثله عن عبد الله بن الزبير أيضا، من حديث جعفر بن بُرْقَان، عن رجل، عنه.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا يحيى بن يعقوب أبو طالب، عن ابن عَوْن محمد بن عبيد الله الثقفى[(٥)]، عن أبى عبد الرحمن السلمى قال: قال الحسن بن على: كانت ليلة «الفرقان يوم التقى الجمعان» لسبع عشرة من رمضان[(٦)]. إسناد جيد قوى.

ورواه ابن مَرْدُويه، عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن حبيب، عن على قال: كانت ليلة الفرقان، ليلة التقى الجمعان، فى صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان.

وهو الصحيح عند أهل المغازى والسير.

وقال يزيد بن أبى حبيب إمام أهل الديار المصرية فى زمانه: كان يوم بدر يوم الإثنين ولم يتابع على هذا، وقول الجمهور مقدم عليه، والله أعلم.

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)﴾.

يقول تعالى [مخبراً][(٧)] عن يوم الفرقان: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أى: إذ أنتم نُزُول بعدوة الوادى الدنيا القريبة إلى المدينة، ﴿وَهُم﴾ أى: المشركون نزول ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ أى: البعيدة التى من ناحية مكة، ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أى: العير الذى فيه أبو سفيان بما معه من التجارة ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أى: مما يلى سيف البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أى: أنتم والمشركون إلى مكان ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾.

---

(١) زيادة من د، ك. (٢) فى ك: «بقين». (٣) فى ك: «فإن فى صبيحتها».
(٤) المستدرك (٣/ ٢٠). (٥) فى جميع النسخ: «عن ابن عون، عن محمد بن عبد الله الثقفى»، والمثبت من الطبرى.
(٦) تفسير الطبرى (١٣/ ٥٦٢).
(٧) زيادة من أ.

قال محمد بن إسحاق: وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه فى هذه الآية قال: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم، ما لقيتموهم، ﴿وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾ أى: ليقضى الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، عن غير ملأ منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه.

وفى حديث كعب بن مالك قال: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عِيَر قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد[١].

وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن ابن عون، عن عمير بن إسحاق قال: أقبل أبو سفيان فى الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه، فالتقوا ببدر، لا يشعر هؤلاء بهؤلاء، ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى التَقَتِ السقاة، ونَهَدَ الناسُ بعضهم لبعض[٢].

وقال محمد بن إسحاق فى السيرة: ومضى رسول الله ﷺ على وجهه ذلك حتى إذا كان قريباً من «الصفراء» بعث بَسْبَس بن عمرو، وعدى بن أبى الزَّغباء الجُهَنيين، يلتمسان الخبر عن أبى سفيان، فانطلقا حتى إذا وردا بدراً فأناخا بعيريهما إلى تل من البطحاء ، فاستقيا فى شَنٍّ لهما من الماء، فسمعا جاريتين يَختصمان، تقول إحداهما لصاحبتها: اقضينى حقى. وتقول الأخرى: إنما تأتى العير غدا أو بعد غد، فأقضيك حقك. فَخَلَّص بَينهما مَجْدى بن عمرو، وقال: صَدَقت، فسمع ذلك[٣] بَسْبَسُ وَعَدى، فجلُسا على بعيريهما، حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه الخبر. وأقبل أبو سفيان حين وليا وقد حَذِر، فتقدم أمام عيره وقال لمجدى بن عمرو: هل أحسست على هذا الماء من أحد تنكره؟ فقال: لا والله، إلا أنى قد رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل، فاستقيا فى شَنّ لهما، ثم انطلقا. فجاء أبو سفيان إلى مُنَاخ بعيريهما، فأخذ من أبعارهما، فَفَتَّه، فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب. ثم رجع سريعاً فضرب وجه عيره، فانطلق بها فَسَاحَل حتى إذا رأى أن قد أحرز عيره بعث إلى قريش فقال: إن الله قد نجى عيركم وأموالكم ورجالكم، فارجعوا.

فقال أبو جهل: والله[٤] لا نرجع حتى نأتى بدرا ـ وكانت بدرُ سوقا من أسواق العرب ـ فنقيم بها ثلاثا، فنُطْعمُ بها الطعام، وننحرُ بها الجُزُر[٥]، ونُسقَى بها الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبسيرنا، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبدا.

فقال الأخنس بن شُرَيق: يا معشر بنى زُهَرة، إن الله قد نَجَّى أموالكم، ونَجَّى صاحبكم، فارجعوا. فأطاعوه، فرجعت بنو زهرة، فلم يشهدوها ولا بنو عدى[٦].

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٩٥١).
(٢) تفسير الطبرى (١٣/ ٥٦٧).
(٣) فى م: «بذلك». (٤) فى م: «لا والله». (٥) فى أ: «الجزور».
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦١٧).

قال محمد بن إسحاق : وحدثنى يزيد بن رُومان، عن عُرْوَة بن الزبير قال: وبعث رسول الله ﷺ ـ حين دنا من بدر ـ عليَّ بن أبى طالب، وسعدَ بن أبى وقاص، والزبير بن العوام، فى نفر من أصحابه، يتجسسون له الخبر فأصابوا سُقَاةً لقريش: غلاما لبنى[١] سعيد بن العاص، وغلاما لبنى الحجاج، فأتوا بهما رسول الله ﷺ، فوجدوه يصلى، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يسألونهما: لمن أنتما؟[٢] فيقولان: نحن سُقاة لقريش، بعثونا نسقيهم من الماء. فكره القوم خبرهما، ورجَوا أن يكونا لأبى سفيان، فضربوهما فلما ذلقوهما قالا: نحن لأبى سفيان. فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين، ثم سلم وقال: «إذا صدَقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما. صَدقا، والله إنهما لقريش، أخبرانى عن قريش». قالا: هم وراء هذا الكَثِيب الذى تَرى بالعدوة القصوى ـ والكثيب: العَقَنْقَل ـ فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم القوم؟» قالا: كثير. قال: «ما عدَّتهم؟» قالا: ما ندرى. قال: «كم ينحَرُون كلّ يوم؟» قالا: يوما تسعاً، ويوما عشراً، قال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف». ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش؟» قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البخْترى بن هشام، وحكيم بن حِزَام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطُعَيمة بن عدى بن [نوفل، والنضر بن الحارث، وزَمَعَة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية][٣] بن خلف، ونُبَيْه ومُنَبِّه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود. فأقبل رسول الله ﷺ وسلم على الناس فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»[٤].

قال محمد بن إسحاق، رحمه الله تعالى: وحدثنى عبد الله بن أبى بكر بن حزم: أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ، لما التقى الناس يوم بدر: يا رسول الله، ألا نبنى لك عَريشاً تكون فيه، ونُنِيخ إليك ركائبك، ونلقى عدونا، فإن أظهرنا الله عليهم وأعزنا فذاك ما نحب، وإن تكن الأخرى فتَجلسَ على ركائبك، وتلحق بمن وراءنا من قومنا، فقد ـ والله ـ تخلف عنك أقوام ما نحن بأشدَّ لك حبا منهم، لو علموا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، ويوادونك وينصرونك. فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به. فبُنِى له عريش، فكان فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر، ما معهما غيرهما[٥].

قال ابن إسحاق: وارتحلت قريش حين أصبحت، فلما أقبلت ورآها رسول الله ﷺ تُصَوِّب من العَقَنْقَل ـ وهو الكثيب ـ الذى جاؤوا منه إلى الوادى قال: «اللهم هذه[٦] قريش قد أقبلت بفخرها وخيلائها تُحَادُّك وتكذب رسولك، اللهم أحنْهم الغداة»[٧].

وقوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾: قال محمد بن إسحاق: أى ليكفر من

---

(١) فى أ: «لأبى». (٢) فى د، ك، م: «أنتم». (٣) زيادة من د، ك، م، أ، وابن هشام.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦١٦).

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦٢٠).

(٦) فى أ: «اللهم إن هذه».

(٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦٢١).

كفر بعد الحجة، لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك.

وهذا تفسير جيد، وبَسْطُ ذلك أنه[1] تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم فى مكان واحد على غير ميعاد، لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهراً، والحجة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ ﴿يَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ﴾ أى: يستمر فى الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل، لقيام الحجة عليه، ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ﴾ أى: يؤمن من آمن ﴿عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أى: حجة وبصيرة. والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقالت عائشة فى قصة الإفك: فِىَّ هلك من هلك أى: قال فيها ما قال من الكذب والبهتان والإفك.

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ أى: لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ﴿عَلِيمٌ﴾ أى: بكم وأنكم تستحقون النصرعلى أعدائكم الكفرة المعاندين.

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٤٤) ﴾.

قال مجاهد: أراه الله إياهم فى منامه[2] قليلا، فأخبر النبى ﷺ أصحابه بذلك، فكان تثبيتا لهم.

وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد. وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه رآهم بعينه التى ينام بها.

وقد روى ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يوسف بن موسى المدبر، حدثنا أبو قتيبة، عن سهل السراج، عن الحسن فى قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾ قال: بعينك.

وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام هاهنا، فلا حاجة إلى التأويل الذى لا دليل عليه[3].

وقوله: ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ﴾ أى: لجبنتم عنهم واختلفتم فيما بينكم، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أى: من ذلك: بأن أراكهم قليلا: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: بما تجنه الضمائر، وتنطوى عليه الأحشاء، فيعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

وقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً﴾: وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلا فى رأى العين، فيجرؤهم عليهم، ويطمعهم فيهم.

---

(١) فى أ: «أن الله».

(٢) فى جميع النسخ: «أراهم الله فى منامه» والمثبت من الطبرى.

(٣) فى أ: «له».

قال أبو إسحق السَّبيعى، عن أبى عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: لقد قُلِّلوا فى أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جانبى: تراهم سبعين؟ قال: لا، بل [هم][(١)] مائة، حتى أخذنا رجلا منهم فسألناه، قال[(٢)]: كنا ألفا. رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير[(٣)].

وقوله: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾: قال ابن أبى حاتم: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن الزبير بن الخِرِّيت[(٤)]، عن[(٥)] عكرمة: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ قال: حضض بعضهم على بعض.

إسناد صحيح.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه فى قوله تعالى: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾ أى: ليلقى بينهم الحرب، للنقمة ممن أراد الانتقام منه. والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته.

ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر، وقلله فى عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة. فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقى حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣]، وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلا منها[(٦)] حق وصدق، ولله الحمد والمنة.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) ﴾.

هذا تعليم الله[(٧)] عباده المؤمنين آداب اللقاء، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، [فقال][(٨)]: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾.

ثبت فى الصحيحين، عن عبد الله بن أبى أوفى، عن رسول الله ﷺ أنه انتظر فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: «يأيُّها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا[(٩)]، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». ثم قام النبى ﷺ وقال: «اللهم، مُنزل الكتاب، ومُجرى السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم»[(١٠)].

---

(١) زيادة من د، م. (٢) فى د: «فقال».
(٣) تفسير الطبرى (١٣/ ٥٧٢).
(٤) فى د: «الحارث». (٥) فى د: «وعن». (٦) فى د، م، أ: «منهما».
(٧) فى د،ك، م: «تعليم من الله». (٨) زيادة من د. (٩) فى أ: «فاثبتوا».
(١٠) صحيح البخارى برقم (٢٨١٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٢).

وقال عبد الرزاق، عن سفيان الثورى، عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن يزيد، عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله، فإن أجلبوا (١) وَضَجّوا (٢) فعليكم بالصمت»(٣).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوى، حدثنا أمية بن بِسْطام، حدثنا معتمر بن سليمان، حدثنا ثابت بن زيد، عن رجل، عن زيد بن أرقم، عن النبى ﷺ قال: «إن الله يحب الصمت عند ثلاث: عند تلاوة القرآن، وعند الزَّحْف، وعند الجنازة»(٤).

وفى الحديث الآخر المرفوع يقول الله تعالى: «إن عبدى كلَّ عبدى الذى يذكرنى وهو مناجز قرنه(٥)» أى: لا يشغله ذلك الحال عن ذكرى ودعائى واستعانتى.

وقال سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة فى هذه الآية، قال: افترض(٦) الله ذكره عند أشغل ما تكونون(٧)، عند الضراب بالسيوف.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبدة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك، عن ابن جرُيج، عن عطاء قال: وجب الإنصات والذكر عند الزحف، ثم تلا هذه الآية، قلت: يجهرون بالذكر؟ قال: نعم.

وقال أيضاً: قُرئ على يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرنى عبد الله بن عياش(٨)، عن يزيد بن قوذر، عن كعب الأحبار قال: ما من شىء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال، فقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

قال الشاعر:

ذكرتك والخَطى يخطرُ بَيْنَنَا وَقَد نَهِلَتْ فيناَ المُثَقَّفَةُ السُّمْرُ

وقال عنتر(٩):

وَلَقَد ذَكَرْتُك والرماحُ شَوَاجرٌ فينا وبَيضُ الهنْد تَقْطرُ منْ دَمى

(١) فى د،م،أ: «جلبوا». (٢) فى أ: «وصيحوا».

(٣) مصنف عبد الرزاق برقم (٩٥١٨) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٩/١٥٣) من طريق ابن وهب، وابن أبى شيبة فى المصنف (١٢/٤٦٣) من طريق عبد بن سليمان، كلاهما عن عبد الرحمن بن زياد به.

(٤) المعجم الكبير (٥/٢١٣) وفيه راوٍ لم يسم.

(٥) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٥٨٠) من طريق عفير بن معدان عن أبى دوس اليحصبى عن ابن عائذ عن عمارة بن زعكرة مرفوعاً، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ليس إسناده بالقوى، ولا نعرف لعمارة بن زعكرة عن النبى ﷺ إلا هذا الحديث الواحد».

(٦) فى د: «فرض». (٧) فى أ: «ما يكون».

(٨) فى أ: «عباس». (٩) فى م: «آخر».

[فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم][١]

فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله فى تلك الحال ولا ينسوه بل يستعينوا [٢]به ويتكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله فى حالهم ذلك. فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سببا لتخاذلهم وفشلهم.

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أى: قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال، ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

وقد كان للصحابة ـ رضى الله عنهم ـ فى باب الشجاعة والائتمار بأمر [٣] الله، وامتثال ما أرشدهم إليه ـ ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم؛ فإنهم ببركة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب [٤]والأقاليم شرقا وغربا فى المدة اليسيرة، مع قلة عَدَدهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحُبُوش وأصناف السودان والقبْط، وطوائف بنى آدم، قهروا الجميع حتى عَلَتْ كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت [٥] الممالك الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها، فى أقل من ثلاثين سنة، فرضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا فى زمرتهم، إنه كريم وهاب.

﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) ﴾.

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص فى القتال فى سبيله وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين فى خروجهم من ديارهم ﴿بَطَرًا﴾ أى: دفعا للحق، ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾، وهو: المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل ـ لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا ـ فقال: لا، والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر، وننحر الجُزُر، ونشرب الخمر، وتعزف [٦] علينا القيان، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبدا، فانعكس ذلك عليه أجمع؛ لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحمام، ورُمُوا فى أطواء بدر مهانين أذلاء، صغرة أشقياء فى عذاب سرمدى أبدى؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أى: عالم بما جاؤوا به وله، ولهذا جازاهم على ذلك شر الجزاء لهم.

---

(١)زيادة من م.
(٢) فى د: «يستغيثوا».
(٣) فى د،ك،م: « بأوامر».
(٤) فى م: «الثغور».
(٥) فى د: «واشتهرت».
(٦) فى ك: «وتضرب».

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدى فى قوله تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ قالوا: هم المشركون، الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر.

وقال محمد بن كعب: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر، خرجوا بالقيان والدفوف، فأنزل الله: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ الآية: حسَّن لهم ـ لعنه الله ـ ما جاؤوا له وما هموا به، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا فى ديارهم من عدوهم بنى بكر فقال: أنا جار لكم، وذلك أنه تبدى لهم فى صورة سُرَاقة بن مالك بن جُعْشُم، سيد بني مُدْلج، كبير تلك الناحية، وكل ذلك منه، كما قال [الله] (1) تعالى عنه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

قال ابن جريج(2): قال ابن عباس فى هذه الآية: لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين، وألقى فى قلوب المشركين: أن أحدا لن يغلبكم، وإنى جار لكم. فلما التقوا، ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة، ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ قال: رجع مدبرا، وقال: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ﴾ الآية.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر فى جند من الشياطين، معه رايته، فى صورة رجل من بنى مدلج، والشيطان فى صورة سراقة بن مالك(3) بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: ﴿لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾. فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوه المشركين، فولوا مدبرين وأقبل جبريل، عليه السلام، إلى إبليس، فلما رآه ـ وكانت يده فى يد رجل من المشركين ـ انتزع يده ثم ولى مدبرا هو وشيعته، فقال الرجل: ياسراقة، أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وذلك حين رأى الملائكة.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس؛ أن إبليس خرج مع قريش فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فلما حضر القتال ورأى الملائكة، نكص على عقبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ﴾، فتشبث (4) الحارث بن هشام فنخر فى وجهه، فخر صعقا، فقيل له: ويلك يا سراقة، على هذه الحال تخذلنا وتبرأ منا. فقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وقال محمد بن عمر الواقدى: أخبرنى عمر بن عقبة، عن شعبة ـ مولى ابن عباس ـ عن ابن

---

(1) زيادة من م.
(2) فى ك: «جرير».
(3) فى ك: «مالك المدلجى».
(4) فى ك: «فتشبث به».

عباس قال: لما تواقف الناس أغمى على رسول الله ﷺ ساعة ثم كشف عنه، فبشر الناس بجبريل فى جند من الملائكة ميمنة الناس، وميكائيل فى جند آخر ميسرة الناس، وإسرافيل فى جند آخر ألف. وإبليس قد تصور فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى، يدبر المشركين ويخبرهم أنه لا غالب لهم[(١)] اليوم من الناس. فلما أبصر عدوُّ الله الملائكة، نكص على عقبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ﴾، فتشبث به الحارث بن هشام، وهو يرى أنه سراقة لما سمع من كلامه، فضرب فى صدر الحارث، فسقط الحارث، وانطلق إبليس[(٢)] لا يرى حتى سقط فى البحر، ورفع ثوبه وقال: يارب، موعدك الذى وعدتنى[(٣)].

وفى الطبرانى عن رفاعة بن رافع قريب من هذا السياق وأبسط منه[(٤)]، ذكرناه فى السيرة.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: لما أجمعت[(٥)] قريش المسير[(٦)]، ذكرت الذى بينها وبين بنى بكر من الحرب، فكاد ذلك أن يثنيهم، فتبدى لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى ـ وكان من أشراف بنى كنانة ـ فقال: أنا جار لكم أن تأتيكم كنانة بشىء تكرهونه، فخرجوا سراعا.

قال محمد بن إسحاق: فذكر لى أنهم كانوا يرونه فى كل منزل فى صورة سراقة بن مالك[(٧)] لا ينكرونه، حتى إذا كان يوم بدر والتقى الجمعان، كان الذى رآه حين نكص الحارث بن هشام ـ أو: عمير بن وهب ـ فقال: أين، أى سراق؟[(٨)] ومثل عدو الله فذهب ـ قال: فأوردهم ثم أسلمهم ـ قال: ونظر عدو الله إلى جنود الله، قد أيد الله بهم رسوله[(٩)] والمؤمنين فانتكص[(١٠)] على عقبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ﴾، وصدق عدو الله، وقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ[(١١)] وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وهكذا روى عن السدى، والضحاك، والحسن البصرى، ومحمد بن كعب القرظى، وغيرهم، رحمهم الله.

وقال قتادة: وذكر لنا أنه رأى جبريل، عليه السلام، تنزل معه[(١٢)] الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة فقال: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، وكذب عدو الله، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم، وتبرأ منهم عند ذلك.

قلت: يعنى بعادته لمن أطاعه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ [الحشر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ

---

(١) فى م: «لكم». (٢) فى أ: «إبليس هاربا».
(٣) المغازى للواقدى (١/ ٧٠) (٤) المعجم الكبير (٥/ ٤٢) من طريق عبد العزيز بن عمران عن رفاعة بن يحيى بن معاذ بن رفاعة عن رفاعة بن رافع، رضى الله عنه، وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ٨٢): «وفيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف».
(٥) فى د،م،أ: «اجتمعت». (٦) فى د: «للسير». (٧) فى ك: «مالك المدلجى، وكان من أشراف ركانة».
(٨) فى د، أ: «إلى أين يا سراقة»، وفى ك،م: «أين أين سراقة».
(٩) فى أ: «رسله». (١٠) فى د،ك، م،أ: «فنكص».
(١١) فى ك،م، أ: «إنى أخاف عقاب الله» وهو خطأ. (١٢) فى د: «نزل مع».

وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال يونس بن بُكَيْر، عن محمد بن إسحاق: حدثنى عبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم، عن بعض بنى ساعدة قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعدما أصيب بصره يقول: لو كنت معكم الآن ببدر ومعى بصرى، لأخبرتكم بالشعب الذى خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أتمارى(١).

فلما نزلت الملائكة ورآها إبليس، وأوحى الله إليهم: أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا، وتثبيتهم أن الملائكة كانت تأتى الرجل فى صورة الرجل يعرفه، فيقول له: أبشر فإنهم ليسوا بشىء، والله معكم، كروا عليهم. فلما رأى إبليس الملائكة نكص على عقبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ﴾، وهو فى صورة سراقة، وأقبل أبو جهل يحضض أصحابه ويقول: لا يهولنكم خذلان سراقة إياكم، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه. ثم قال: واللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمدا وأصحابه فى الحبال، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذًا. وهذا من أبى جهل لعنه الله كقول فرعون للسحرة لما أسلموا: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣]، وكقوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]، وهو من باب البهت والافتراء، ولهذا كان أبو جهل فرعون هذه الأمة.

وقال مالك بن أنس، عن إبراهيم بن أبى عبلة(٢)، عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ما رؤى إبليس فى يوم هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة وذلك مما يرى من تنزل الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر». قالوا: يارسول الله، وما رأى يوم بدر؟ قال: «أما إنه رأى جبريل، عليه السلام، يزع الملائكة»(٣).

هذا مرسل من هذا الوجه.

وقوله: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى هذه الآية قال: لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين فى أعين المشركين، وقلل المشركين فى أعين المسلمين فقال المشركون: ﴿غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ ﴾ وإنما قالوا ذلك من قلتهم فى أعينهم، فظنوا (٤) أنهم سيهزمونهم، لا يشكون فى ذلك، فقال الله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وقال قتادة: رأوا عصابة من المؤمنين تشددت لأمر الله، وذكر لنا أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمد ﷺ وأصحابه قال: والله لا يعبدوا الله بعد اليوم، قسوة وعتوا.

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦٣٣). (٢) فى ك: «علية».

(٣) الموطأ (١/ ٤٢٢) وانظر كلام الإمام ابن عبد البر عن هذا الحديث فى: التمهيد (١/ ١١٥).

(٤) فى أ: «وظنوا».

وقال ابن جُرَيْج في قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: هم قوم كانوا من المنافقين بمكة، قالوه يوم بدر.

وقال عامر الشعبى: كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾.

وقال مجاهد فى قوله، عز وجل: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾ قال: فئة من قريش: [أبو][1] قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب، وعلى بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج، خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾، حتى قدموا على ما قدموا عليه، مع قلة عددهم وكثرة عدوهم.

وهكذا قال محمد بن إسحاق بن يَسَار، سواء.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن مَعْمَر، عن الحسن فى هذه الآية، قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر، فسموا منافقين ـ قال معمر: وقال بعضهم: هم قوم كانوا أقروا بالإسلام، وهم بمكة فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾[2].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: يعتمد على جنابه، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أى: لا يُضام من التجأ إليه، فإن الله عزيز منيع الجناب، عظيم السلطان، حكيم فى أفعاله، لايضعها إلا فى مواضعها، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١)﴾.

يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفى الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمرا عظيما هائلا فظيعا منكرا؛ إذ يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

قال ابن جُرَيْج، عن مجاهد: ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾: استاههم، قال: يوم بدر.

قال ابن جريج، قال ابن عباس: إذا أقبل المشركون [3] بوجوههم إلى المسلمين، ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم.

قال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد قوله: ﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ

(١) زيادة من د،ك،أ، وابن هشام والطبرى.

(٢) تفسير الطبرى(١٤/ ١٣).

(٣) فى ك: «المشركين» وهو خطأ.

وَأَدْبَارَهُمْ﴾: يوم بدر.

وقال وكيع، عن سفيان الثورى، عن أبى هاشم إسماعيل بن كثير، عن مجاهد، عن شعبة، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جُبَيْر: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ قال: وأستاهم[١]، ولكن الله يكْنِى.

وكذا قال عمر مولى غُفْرة[٢].

وعن الحسن البصرى قال: قال رجل: يا رسول الله، إنى رأيت بظهر أبى جهل مثل الشراك[٣] قال ماذاك؟ قال: «ضرب[٤] الملائكة».

رواه ابن جرير[٥]، وهو مرسل.

وهذا السياق ـ وإن كان سببه وقعة بدر ـ ولكنه عام فى حق كل كافر؛ ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ وفى سورة القتال مثلها[٦]، وتقدم فى سورة الأنعام [عند][٧] قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]. أى: باسطو أيديهم بالضرب فيهم، يأمرونهم إذا استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهراً. وذلك إذ بشروهم بالعذاب والغضب من الله، كما [جاء][٨] فى حديث البراء: إن ملك الموت ـ إذا جاء الكافر عند احتضاره فى تلك الصورة المنكرة ـ يقول: اخرجى أيتها النفس الخبيثة إلى سَمُوم وحميم، وظل من يحموم، فتتفرق فى بدنه، فيستخرجونها من جسده، كما يخرج السفود من الصوف المبلول فتخرج معها العروق والعصب؛ ولهذا أخبر[٩] تعالى أن الملائكة تقول لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وقوله تعالى: ذلك: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أى: هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة فى حياتكم الدنيا، جزاكم الله بها هذا الجزاء، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أى: لا يظلم أحدا من خلقه، بل هو الحكم العدل، الذى لا يجور، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه الغنى الحميد؛ ولهذا جاء فى الحديث الصحيح عند مسلم، رحمه الله، من رواية أبي ذر، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا. يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[١٠] ولهذا قال تعالى:

---

(١) فى د، ك: «وأستاههم». (٢) فى ك: «عمرة». (٣) فى د، ك: «الشوك».

(٤) فى د، ك: «ذاك ضرب».

(٥) تفسير الطبرى (١٤/ ١٦).

(٦) يشير ابن كثير ـ رحمه الله ـ إلى الآية: ٢٧ من سورة محمد. (٧) زيادة من م. (٨) زيادة من أ.

(٩) فى أ: «قال».

(١٠) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).

﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ﴾.

يقول تعالى: فعل هؤلاء المشركون المكذبون [١] بما أرسلت به يا محمد، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا، أي: عادتنا وسنتنا فى أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل، الكافرين بآيات الله. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [أي: بسبب ذنوبهم أهلكهم، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر][٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) ﴾.

يخبر تعالى عن تمام عدله، وقسطه فى حكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد [٣] إلا بسبب ذنب ارتكبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي: كصنعه [٤] بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته، أهلكم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التى أسداها إليهم من جنات وعيون، وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله فى ذلك، بل [٥] كانوا هم الظالمين.

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) ﴾.

أخبر تعالى أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لايؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهدًا نقضوه، وكلما أكدوه بالأيمان نكثوه، ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أي: لا يخافون من الله فى شىء ارتكبوه من الآثام.

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ ﴾ أي: تغلبهم وتظفر بهم فى حرب، ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: نكل بهم، قاله: ابن عباس، والحسن البصرى، والضحاك، والسُّدِّى، وعطاء الخُرَاسانى، وابن عُيَيْنة،

---

(١) فى م: « المشركين المكذبين».
(٢) زيادة من د، ك، م.
(٣) فى أ: «قوم».
(٤) فى د،ك: «كصنيعهم».
(٥) فى أ: «ولكن».

ومعناه: غَلِّظ عقوبتهم وأثخنهم قتلا، ليخاف من سواهم من الأعداء، من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

وقال السدى: يقول: لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيُصنع [1] بهم مثل ذلك.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)﴾.

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه[2]: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِيَانَةً﴾ أى: نقضا لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود، ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أى: عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أى: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أى: تستوى أنت وهم فى ذلك، قال الراجز.

فَاضْرِبْ وُجُوه الغُدر [الأعْداء] [3] حتى يجيبوك إلى السواء[4]

وعن الوليد بن مسلم أنه قال فى قوله: ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أى: على مهل، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ أى: حتى ولو فى حق الكافرين، لا يحبها أيضا.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة[5]، عن أبى الفيض، عن سليم بن عامر، قال: كان معاوية يسير فى أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر [الله أكبر][6]، وفاء لا غدرا، إن رسول الله ﷺ قال: «ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلَّنَّ عقدة ولا يشدها حتى ينقضى أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء» قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، وإذا الشيخ عمرو بن عبسة، رضى الله عنه.

وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسى، عن شعبة وأخرجه أبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن حبَّان فى صحيحه من طرق عن شعبة، به[7]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا محمد بن عبد الله الزبيرى، حدثنا إسرائيل، عن عطاء بن السائب، عن أبى البخترى عن سلمان ـ يعنى الفارسى ـ رضى الله عنه: أنه انتهى إلى حصن ـ أو: مدينة ـ فقال لأصحابه: دعونى أدعوهم كما رأيت رسول الله [8] ﷺ يدعوهم، فقال: إنما كنت رجلا منهم[9]، فهدانى الله، عز وجل للإسلام، فإذا أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فأدوا

---

(١) فى ك: «فنصنع». (٢) فى أ: «ﷺ». (٣) زيادة من د، م، أ، والطبرى.

(٤) الرجز فى تفسير الطبرى (١٤/ ٢٧).

(٥) فى ك: «سعيد». (٦) زيادة من د، ك، م، والمسند.

(٧) مسند أحمد (٤/ ١١١) ومسند الطيالسى برقم (١١٥٥) وسنن أبى داود برقم (٢٧٥٩) وسنن الترمذى برقم (١٥٨٠) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٧٣٢).

(٨) فى د، ك: «النبى». (٩) فى د، ك، م: «منكم».

الجزية وأنتم صاغرون، فإن أبيتم نابذناكم على سواء، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾، يفعل بهم ذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله[١].

﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠) ﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ﴾ يا محمدُ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أي: فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا وفي قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤] أي: يظنون، وقال تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٥٧]، وقال تعالى[٢]: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم﴾ أي: مهما أمكنكم، ﴿مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وَهْب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن أبي علي ثُمامة بن شُفَيّ، أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: « ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»[٣].

رواه مسلم، عن هارون بن معروف، وأبو داود عن سعيد بن منصور، وابن ماجة عن يونس بن عبد الأعلى، ثلاثتهم عن عبد الله بن وهب، به[٤].

ولهذا الحديث طرق أخر، عن عقبة بن عامر، منها ما رواه الترمذي، من حديث صالح بن كَيْسان، عن رجل، عنه[٥].

وروى الإمام أحمد وأهل السنن، عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ارموا واركبوا، وأن ترموا خير من أن تركبوا»[٦].

---

(١) المسند (٥/ ٤٤٠) ورواه الترمذي في السنن برقم (١٥٤٨) من طريق أبي عوانة، عن عطاء بن السائب، عن أبي البختري به نحوه، وقال: «حديث سلمان حديث حسن لانعرفه إلا من حديث عطاء بن السائب، وسمعت محمدًا يقول: أبو البختري لم يدرك سلمان؛ لأنه لم يدرك عليًا، وسلمان مات قبل علي».

(٢) في د: «وقوله».

(٣) في م ذكرت جملة « ألا إن القوة الرمي» ثلاث مرات.

(٤) المسند (٤/ ١٥٦) وصحيح مسلم برقم (١٩١٧) وسنن أبي داود برقم (٢٥١٤) وسنن ابن ماجة برقم (٢٨/١٣).

(٥) سنن الترمذي برقم (٣٠٨٣) وقال: «صالح بن كيسان لم يدرك عقبة بن عامر، وقد أدرك ابن عمر».

(٦) المسند (٤/ ١٤٤).

وقال الإمام مالك، عن زيد بن أسلم، عن أبى صالح السمان، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة: لرجل أجْر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر؛ فأما الذى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله، فأطال لها فى مرج ـ أو: روضة ـ فما أصابت فى طيلها ذلك من المرج ـ أو: الروضة ـ كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفا أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يرد أن يسقى به، كان ذلك حسنات له؛ فهى لذلك الرجل أجر. ورجل ربطها تغنيًا وتعففا، ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها، فهى له ستر، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء فهى على ذلك وزر». وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال: « ما أنزل الله على فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾» [الزلزلة: ٧، ٨].

رواه البخارى ـ وهذا لفظه ـ ومسلم، كلاهما من حديث مالك[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، أخبرنا شريك، عن الرُّكَيْن بن الربيع[٢]، عن القاسم بن حسان؛ عن عبد الله بن مسعود، عن النبى ﷺ قال: «الخيل ثلاثة: ففرس للرحمن، وفرس للشيطان، وفرس للإنسان، فأما فرس الرحمن فالذى يربط فى سبيل الله، فعلفه وروثه وبوله، وذكر ما شاء الله. وأما فرس الشيطان فالذى يقامر أو يراهن عليه، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها، فهى ستر من فقر»[٣].

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمى أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمى، وقول الجمهور أقوى للحديث، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج وهشام[٤] قالا: حدثنا ليث، حدثنى يزيد بن أبى حبيب، عن ابن شماسة: أن معاوية بن حديج[٥] مر على أبى ذر، وهو قائم عند فرس له، فسأله ما تعالج من فرسك هذا؟ فقال: إنى أظن أن هذا الفرس قد استجيب له دعوته! قال: وما دعاء بهيمة من البهائم؟ قال: والذى نفسى بيده، ما من فرس إلا وهو يدعو كل سحر فيقول: اللهم، أنت خولتنى عبدا من عبادك، وجعلت رزقى بيده، فاجعلنى أحب إليه من أهله وماله وولده[٦].

قال: وحدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الحميد بن جعفر؛ حدثنى يزيد بن أبى حبيب، عن سُوَيْد ابن قيس؛ عن معاوية بن حديج[٧]؛ عن أبى ذر، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه

(١) الموطأ (٢/ ٤١٤) ومن طريقه، رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٣٧١) وأما مسلم فرواه من طريق حفص بن ميسرة عن زيد بن أسلم عن أبى صالح به برقم (٩٨٧).

(٢) فى ك: «الربيع بن الركين».

(٣) المسند (١/ ٣٩٥).

(٤) فى ك، أ: «هاشم».

(٥) فى أ: «خديج».

(٦) المسند (٥/ ١٦٢).

(٧) فى أ: «خديج».

ليس من فرس عربى إلا يؤذن له مع كل فجر، يدعو بدعوتين، يقول: اللهم، إنك خولتنى من خولتنى من بنى آدم، فاجعلنى من أحب أهله وماله إليه» أو «أحب أهله وماله إليه».

رواه النسائى، عن عمرو بن على الفلاس، عن يحيى القَطّان، به[(١)].

وقال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا الحسين بن إسحاق التَّسْتُرِىّ، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا المطعم بن المقدام الصنعانى، عن الحسن بن أبى الحسن أنه قال لابن الحنظلية ـ يعنى: سهلا ـ : حَدِّثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، ومن ربط فرساً فى سبيل الله كانت النفقة عليه، كالماد يده بالصدقة لا يقبضها»[(٢)].

والأحاديث الواردة فى فضل ارتباط الخيل كثيرة، وفى صحيح البخارى، عن عُرْوَة بن أبى الجعد البارقى[(٣)]: أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغنم»[(٤)].

وقوله: «ترهبون» أى: تخوفون ﴿بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أى: من الكفار ﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ قال مجاهد: يعنى: قريظة، قال السدى: فارس، وقال سفيان الثورى: قال ابن يمان: هم الشياطين التى فى الدور. وقد ورد حديث بمثل ذلك، قال ابن أبى حاتم:

حدثنا أبو عتبة أحمد بن الفرج الحِمْصى، حدثنا أبو حيوة ـ يعنى: شريح بن يزيد المقرئ ـ حدثنا سعيد بن سنان، عن ابن عريب ـ يعنى: يزيد بن عبد الله بن عريب ـ عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ كان يقول فى قوله: ﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾، قال: «هم الجن»[(٥)].

ورواه الطبرانى، عن إبراهيم بن دُحَيْم؛ عن أبيه، عن محمد بن شعيب؛ عن سعيد بن سنان[(٦)]، عن يزيد بن عبد الله بن عريب، به، وزاد: قال رسول الله ﷺ: «لا يخبل بيت فيه عتيق من الخيل»[(٧)].

وهذا الحديث منكر، لا يصح إسناده ولا متنه.

وقال مقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المنافقون.

---

(١) المسند (٥/ ١٧٠) وسنن النسائى (٦/ ٢٢٣).

(٢) المعجم الكبير (٦/ ٩٨).

(٣) فى م: «المبارك».

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٨٥٠).

(٥) ورواه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده برقم (٦٥٠) «بغية الباحث» حدثنا داود بن رشيد عن أبى حيوة به.

(٦) فى جميع النسخ: «سنان بن سعيد بن سنان» والتصويب من المعجم الكبير.

(٧) المعجم الكبير (١٧/ ١٨٨) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (١٠٨٩): حدثنا ابن أبى عاصم عن دحيم به نحوه.

وهذا أشبه الأقوال، ويشهد له قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١].

وقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ أى: مهما أنفقتم فى الجهاد، فإنه يوفى إليكم على التمام [١] والكمال، ولهذا جاء فى حديث [٢] رواه أبو داود: أن الدرهم يضاعف ثوابه فى سبيل الله إلى سبعمائة ضعف [٣]، كما تقدم فى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكى، حدثنا أبى، عن أبيه، حدثنا الأشعث بن إسحاق، عن جعفر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ أنه كان يأمر ألا يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين.

وهذا أيضا غريب.

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)﴾.

يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة فانبذ إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حربك ومنابذتك فقاتلهم، ﴿وَإِن جَنَحُوا﴾ أى: مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ أى: المسالمة والمصالحة والمهادنة، ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ أى: فمل إليها، واقبل منهم ذلك؛ ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين؛ أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى، حدثنا فضيل بن سليمان ـ يعنى: النميرى ـ حدثنا محمد بن أبى يحيى، عن إياس بن عمرو الأسلمى، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه سيكون بعدى اختلاف ـ أو: أمر ـ فإن استطعت أن يكون السلم، فافعل»[٤].

وقال مجاهد: نزلت فى بنى قريظة.

---

(١) فى ك: «إليكم وأنتم لا تظلمون على التمام». (٢) فى د: «فى الحديث الذى».

(٣) سنن أبى داود برقم (٢٤٩٨) ولفظه: «إن الصلاة والصيام والذكر تضاعف على النفقة فى سبيل الله بسبعمائة ضعف» وقد تقدم نحو هذا اللفظ عند تفسير الآية: ٢٦١ من سورة البقرة من حديث عمران بن حصين.

(٤) زوائد المسند (١/ ٩٠) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٣٤): «رجاله ثقات».

وهذا فيه نظر؛ لأن السياق كله فى وقعة بدر، وذكرها مكتنف لهذا كله.

وقول ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، وعكرمة، والحسن، وقتادة: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف فى «براءة»: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الآية [التوبة: ٢٩] فيه نظر أيضا؛ لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيفاً، فإنه تجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبى ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقووا ويستعدوا، ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أى: كافيك وحده.

ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار؛ فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ. وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أى: جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أى: لما كان بينهم من العداوة والبغضاء فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة فى الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل فى الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار فى شأن غنائم حنين قال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى، وعالة فأغناكم الله بى، وكنتم متفرقين فألفكم الله بى» كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمَنّ (١).

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى: عزيز الجناب، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم فى أفعاله وأحكامه.

قال الحافظ أبو بكر البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا على بن بشر الصيرفى القزوينى فى منزلنا، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن الحسن (٢) القنديلى الاسترابادى، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن النعمان الصفار، حدثنا ميمون بن الحكم، حدثنا بكر بن الشرود، عن محمد بن مسلم الطائفى، عن إبراهيم بن ميسرة، عن طاوس، عن ابن عباس قال: قرابة الرحم تقطع، ومنة النعمة تكفر، ولم ير مثل تقارب القلوب؛ يقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، وذلك موجود فى الشعر:

إذا مَتَّ ذو القربى إليك برحمه ... فَغَشَّك واستَغْنى فليس بذى رحم

ولكن ذا القربى الذى إن دعوته ... أجاب ومن يرمى العدو الذى ترمى

(١) صحيح البخارى برقم (٤٣٣٠) وصحيح مسلم برقم (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم، رضى الله عنه.
(٢) فى جميع النسخ «الحسين» والتصويب من الشعب والميزان.

قال: ومن ذلك قول القائل:

ولقد صحبت الناس ثم سبرتهم وبلوت ما وصلوا من الأسباب

فإذا القرابة لا تُقَرِّبُ قاطعا وإذا المودة أقْربُ الأسْبَاب

قال البيهقى: لا أدرى هذا موصول بكلام ابن عباس، أو هو من قول من دونه من الرواة؟[(١)].

وقال أبو إسحاق السَّبِيعى، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، سمعته يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، قال: هم المتحابون فى الله، وفى رواية: نزلت فى المتحابين فى الله.

رواه النسائى والحاكم فى مستدركه، وقال: صحيح[(٢)].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شىء، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

رواه الحاكم أيضاً.

وقال أبو عمرو الأوزاعى: حدثنى عبدة بن أبى لُبابة، عن مجاهد ـ ولقيته فأخذ بيدى فقال: إذا تراءى المتحابان فى الله، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، وضحك إليه، تحاتت خطاياهما كما يتحات ورق الشجر. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسير! فقال: لا تقل ذلك؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾! . قال عبدة: فعرفت أنه أفقه منى[(٣)].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان[(٤)]، عن إبراهيم الخوزى[(٥)]، عن الوليد بن أبى مغيث، عن مجاهد قال: إذا التقى المسلمان فتصافحا غفر لهما، قال: قلت لمجاهد: بمصافحة يغفر لهما؟ فقال مجاهد: أما سمعته يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾؟ فقال الوليد لمجاهد: أنت أعلم منى.

وكذا روى طلحة بن مُصَرِّف، عن مجاهد.

وقال ابن عون، عن عمير بن إسحاق قال: كنا نحدث[(٦)] أن أول ما يرفع من الناس ـ [أو قال: عن الناس][(٧)] ـ الألفة.

وقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى، رحمه الله: حدثنا الحسين بن إسحاق

(١) شعب الإيمان للبيهقى برقم (٩٠٣٤).

(٢) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢١٠) والمستدرك (٢/٣٢٩).

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/٤٦).

(٤) فى هـ: «حدثنا أبو يمان» والتصويب من د،ك ،م، والطبرى.

(٥) فى د،ك: «الجزرى». (٦) فى د،ك: «نتحدث». (٧) زيادة من الطبرى.

التسترى، حدثنا عبيد الله بن عمر القواريرى، حدثنا سالم بن غيلان، سمعت جعدا أبا عثمان، حدثنى أبو عثمان النهدى، عن سلمان الفارسى: أن رسول الله ﷺ قال: «إن المسلم إذا لقى أخاه المسلم، فأخذ بيده، تحاتت عنهما ذنوبهما، كما يتحات الورق عن الشجرة اليابسة فى يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ولو كانت ذنوبهما مثل زبد البحار[(١)]»[(٢)].

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)﴾.

يحرض تعالى نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبهم، أى: كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم، حدثنا عبيد الله بن موسى، أنبأنا سفيان، عن شوذب[(٣)]، عن الشعبى فى قوله: **﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** قال: حسبك الله، وحسب من شهد معك.

قال: وروى عن عطاء الخراسانى، وعبد الرحمن بن زيد [بن أسلم][(٤)]، مثله.

ولهذا قال: **﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾** أى: حثهم وذمر[(٥)] عليه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرض على القتال عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر، حين أقبل المشركون فى عَدَدهم وعُدَدهم: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فقال عمير بن الحُمام: عرضها السموات والأرض؟! فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقال: بخ بخ، فقال: «ما يحملك على قولك بخ بخ؟» قال[(٦)]: رجاء أن أكون من أهلها! قال: «فإنك من أهلها» فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتهن من يده، وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة! ثم تقدم فقاتل حتى قتل، رضى الله عنه[(٧)].

---

(١) فى د،ك، أ: «البحر».

(٢) المعجم الكبير (٦/ ٢٥٦) وفيه: «مثل زبد البحر» وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٣٧): «رجاله رجال الصحيح غير سالم بن غيلان وهو ثقة».

(٣) فى هـ، ك: «عن ابن شوذب» والمثبت من م،أ، والطبرى. (٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «وذمرهم».

(٦) فى ك: «فقال».

(٧) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٩٠١) من حديث أنس، رضى الله عنه.

وقد روى عن سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير: أن هذه الآية نزلت حين أسلم عمر بن الخطاب، وكمل به الأربعون.

وفى هذا نظر؛ لأن هذه الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة وقبل الهجرة إلى المدينة، والله أعلم.

ثم قال تعالى مُبَشّرا للمؤمنين وآمرا: **﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾**، كل واحد بعشرة [١]. ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة.

قال عبد الله بن المبارك: حدثنا جرير بن حازم، حدثنى الزبير بن الخِرِّيت[٢]، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: **﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾**، شق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم ألا يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: **﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ﴾** إلى قوله: **﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾**، قال: خفف الله عنهم من العدة، ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم.

وروى البخارى من حديث ابن المبارك، نحوه[٣].

وقال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس فى هذه الآية قال: كتب عليهم ألا يفر عشرون من مائتين، ثم خفف الله عنهم، فقال: **﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾**، فلا ينبغى لمائة أن يفروا من مائتين.

وروى البخارى، عن على بن عبد الله، عن سفيان، به ونحوه[٤].

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى ابن أبى نجيح، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائة ألفاً، فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى فقال: **﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾** الآية، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدو لهم [٥] لم ينبغ لهم أن يفروا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم قتالهم، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم.

وروى على بن أبى طلحة والعوفى، عن ابن عباس، نحو ذلك. قال ابن أبى حاتم: وروى عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراسانى، والضحاك نحو ذلك.

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، من حديث المسيب بن شريك، عن ابن عون، عن نافع، عن ابن عمر، رضى الله عنهما: **﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾** قال: نزلت فينا أصحاب محمد ﷺ.

---

(١) فى ك: «العشرة». (٢) فى هـ: «الزبير بن الحارث» والمثبت من د، ك، م والطبرى.

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٥٣).

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٦٥٢).

(٥) فى د،ك: «عدوهم».

وروى الحاكم فى مستدركه، من حديث أبى عمرو بن العلاء، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضُعْفًا﴾ رفع، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه(١).

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا على بن عاصم، عن حميد، عن أنس، رضى الله عنه، قال: استشار رسول الله ﷺ الناس فى الأسارى يوم بدر، فقال: «إن الله قد أمكنكم منهم» فقام عمر بن الخطاب فقال: يارسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبى ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس». فقام عمر فقال: يارسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبى ﷺ، ثم عاد النبى ﷺ فقال للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، فقال: يارسول الله، نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء. قال: فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم، وقبل منهم الفداء. قال: وأنزل الله، عز وجل: ﴿لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية(٢).

وقد سبق فى أول السورة حديث ابن عباس فى صحيح مسلم بنحو ذلك.

وقال الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبى عبيدة، عن عبد الله قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «ما تقولون فى هؤلاء (٣) الأسارى؟» قال: فقال أبو بكر: يارسول الله، قومك وأهلك، استبقهم واستتبهم، لعل الله أن يتوب عليهم. قال: وقال عمر: يارسول الله، أخرجوك، وكذبوك، فقدمهم فاضرب أعناقهم. قال: وقال عبد الله بن رواحة: يارسول الله، أنت فى واد كثير الحطب، فأضرم الوادى عليهم ناراً، ثم ألقهم فيه. [قال: فقال العباس: قطعت رحمك] (٤) قال: فسكت رسول الله ﷺ فلم يرد عليهم شيئاً، ثم قام فدخل فقال ناس: يأخذ بقول أبى بكر. وقال ناس: يأخذ بقول عمر. وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم، عليه السلام، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى، عليه السلام، قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وإن مثلك يا عمر مثل موسى

---

(١) المستدرك (٢/ ٢٣٩).

(٢) المسند (٣/ ٢٤٣).

(٣) فى أ: «هذه».

(٤) زيادة من د، ك م، والمسند والطبرى.

عليه السلام، قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، وإن مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام، قال: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦]، أنتم عالة فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق». قال ابن مسعود: قلت: يارسول الله، إلا سهيل بن بيضاء، فإنه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيتنى فى يوم أخوف أن تقع على حجارة من السماء منى فى ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: «إلا سهيل بن بيضاء» فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ﴾ إلى آخر الآية.

رواه الإمام أحمد والترمذى، من حديث أبى معاوية، عن الأعمش، والحاكم فى مستدركه، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه(١) وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، عن عبد الله بن عمر، وأبى هريرة، رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ نحوه(٢)،وفى الباب عن أبى أيوب الأنصارى.

وروى ابن مردويه أيضاً ـ واللفظ له ـ والحاكم فى مستدركه، من حديث عبيد الله بن موسى: حدثنا إسرائيل، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: لما أسر الأسارى يوم بدر، أسر العباس فيمن أسر، أسره رجل من الأنصار، قال: وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه. فبلغ ذلك للنبى ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إنى لم أنم الليلة من أجل عمى العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه» فقال له عمر: فآتهم؟ قال: «نعم» فأتى عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس فقالوا: لا، والله لا نرسله. فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى؟ قالوا: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى فخذه. فأخذه عمر فلما صار فى يده قال له: يا عباس، أسلم، فوالله لأن تسلم أحب إلى من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك، قال: فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر، فقال أبو بكر: عشيرتك. فأرسلهم، فاستشار عمر، فقال: اقتلهم، ففاداهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ(٣) لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ الآيه.

قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه(٤).

وقال سفيان الثورى، عن هشام ـ هو ابن حسان ـ عن محمد بن سيرين، عن عبيدة، عن على، رضى الله عنه، قال: جاء جبريل إلى النبى ﷺ يوم بدر فقال: خيِّر أصحابك فى الأسارى: إن شاؤوا الفداء، وإن شاؤوا القتل على أن يقتل منهم مقبلا مثلهم. قالوا: الفداء ويقتل منا.

رواه الترمذى، والنسائى، وابن حبان فى صحيحه من حديث الثورى، به (٥) وهذا حديث غريب

---

(١) المسند (١/٣٨٣) وسنن الترمذى برقم (٣٠٨٤) والمستدرك (٣/ ٢١) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن وأبو عبيدة بن عبد الله لم يسمع من أبيه».

(٢) ذكرهما السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ١٠٤، ١٠٧).

(٣) فى ك:«تكون».

(٤) المستدرك (٢/ ٣٢٩) وقال الذهبى: «على شرط مسلم».

(٥) سنن الترمذى برقم (١٥٦٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٦٦٢) وقال الترمذى: «هذا حديث غريب من حديث الثورى لانعرفه إلا من حديث ابن أبى زائدة».

جدا.

وقال ابن عون [عن محمد بن سيرين][١] عن عبيدة، عن على قال: قال رسول الله ﷺ فى أسارى يوم بدر: «إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم فاديتموهم واستمتعتم بالفداء، واستشهد منكم بعدتهم». قال: فكان آخر السبعين ثابت بن قيس، قتل يوم اليمامة، رضى الله عنه[٢].

ومنهم من روى هذا الحديث عن عبيدة مرسلا [٣]، فالله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق، عن ابن أبى نجيح، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال: غنائم بدر، قبل أن يحلها لهم، يقول: لولا أنى لا أعذب من عصانى حتى أتقدم إليه، لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم.

وكذا روى ابن أبى نجيح، عن مجاهد.

وقال الأعمش: سبق منه ألا يعذب أحدا شهد بدرا. وروى نحوه عن سعد بن أبى وقاص، وسعيد بن جبير، وعطاء.

وقال شعبة، عن أبى هاشم[٤]، عن مجاهد: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أى: لهم بالمغفرة ونحوه عن سفيان الثورى، رحمه الله.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ يعني: فى أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى حلال لكم، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الأسارى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ الآية. وكذا روى العوفى، عن ابن عباس. وروى مثله عن أبى هريرة، وابن مسعود، وسعيد بن جبير، وعطاء، والحسن البصرى، وقتادة والأعمش أيضا: أن المراد ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ لهذه الأمة بإحلال الغنائم وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله.

ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه فى الصحيحين، عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا، لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة»[٥].

وقال الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لم

(١) زيادة من المستدرك ودلائل النبوة.

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ١٤٠) والبيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ١٣٩) من طريق إبراهيم بن عرعرة قال: أخبرنا أزهر، عن ابن عون، عن محمد عن عبيدة، عن على به، وقال ابن عرعرة: « رددت هذا على أزهر فأبى إلا أن يقول: عبيدة عن على» وصححه الحاكم وقال: «على شرط الشيخين».

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ٦٧) من طريق ابن علية عن ابن عون عن ابن سيرين عن عبيدة به مرسلاً.

(٤) فى د: «هشام».

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١).

تحل الغنائم لسود الرؤوس غيرنا»[١].

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء.

وقد روى الإمام أبو داود فى سننه: حدثنا عبد الرحمن بن المبارك العيشى، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة، عن أبى العنبس، عن أبى الشعثاء، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة[٢].

وقد استقر الحكم فى الأسرى[٣] عند جمهور العلماء: أن الإمام مخير فيهم: إن شاء قتل ـ كما فعل ببنى قريظة ـ وإن شاء فادى بمال ـ كما فعل بأسرى بدر ـ أو بمن أسر من المسلمين ـ كما فعل رسول الله ﷺ فى تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا فى سبى سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ فى مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر. هذا مذهب الإمام الشافعى وطائفة من العلماء، وفى المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر فى موضعه من كتب الفقه.

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثنى العباس بن عبد الله بن مغفل، عن بعض أهله، عن عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «إنى قد عرفت أن أناسا من بنى هاشم وغيرهم، قد أخرجوا كرها، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقى[٤] منكم أحدا منهم ـ أى: من بنى هاشم ـ فلا يقتله، ومن لقى أبا البخترى بن هشام فلا يقتله، ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرها». فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العباس؟! والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف؟ فبلغت رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: «يا أبا حفص» ـ قال عمر: والله إنه لأول يوم كنانى فيه رسول الله ﷺ ـ «أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟» فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لى فأضرب عنقه، فوالله لقد نافق. فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك: والله ما آمن من تلك الكلمة التى قلت، ولا أزال منها خائفا، إلا أن يكفرها الله عنى بشهادة. فقتل يوم اليمامة شهيدا، رضى الله عنه.

---

(١) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٠٨٥) من طريق معاوية بن عمرو عن زائدة، عن الأعمش به نحوه، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث الأعمش».

(٢) سنن أبى داود برقم (٢٦٩١).

(٣) فى د، ك، أ: «الأسارى».

(٤) فى أ: «شهد».

وبه، عن ابن عباس قال: لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر، والأسارى محبوسون بالوثاق، بات رسولُ الله ﷺ ساهراً أول الليل، فقال له أصحابه: يا رسول الله، ما لك لا تنام؟ ـ وقد أسر العباس رجل من الأنصار ـ فقال رسول الله ﷺ: «سمعت أنين عمى العباس فى وثاقه» فأطلقوه، فسكت، فنام رسول الله ﷺ.

قال محمد بن إسحاق: وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب، وذلك أنه كان رجلا موُسرا فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهبا[1].

وفى صحيح البخارى، من حديث موسى بن عقبة، قال ابن شهاب: حدثنى أنس بن مالك أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذنَ لنا فَلْنترُكْ لابن أختنا عباس فداءه. قال[2]: «لا، والله لا تَذَرون منه درهما»[3].

وقال يونس بن بُكَيْر، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رُومان، عن عُرْوَة ـ وعن الزهرى، عن جماعة سماهم قالوا: بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ فى فداء أسراهم، ففدى[4] كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله، قد كنت مسلما! فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان علينا، فافتد نفسك وابنىْ أخيك: نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعَقيل بن أبى طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخى بنى الحارث بن فهر» قال: ما ذاك عندى يا رسول الله! قال: «فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت[5] لها: أن أصبتُ فى سفرى هذا، فهذا المال الذى دفنته لبَنى: الفضل، وعبد الله، وقُثم». قال: والله يا رسول الله، إنى لأعلم أنك رسول الله، إن هذا لشىء ما علمه أحد[6] غيرى وغيرُ أم الفضل، فاحسب لى يا رسول الله ما أصبتم منى: عشرين أوقية من مال كان معى؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، ذاك شىء أعطانا الله تعالى منك». ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه، وأنزل الله، عز وجل فيه: ﴿يأَيُّهَا النَّبيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسارى[7] إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. قال العباس: فأعطانى الله مكان العشرين الأوقية فى الإسلام عشرين عبدا، كلهم فى يده مال يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة الله، عز وجل.

وقد روى ابن إسحاق أيضا، عن ابن أبى نَجِيح، عن عطاء، عن ابن عباس فى هذه الآية بنحو مما تقدم.

---

(١) فى د، ك: «ذهب».
(٢) فى ك: «فقال».
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٠٢٦).
(٤) فى ك: «يفادى».
(٥) فى د: «فقال».
(٦) فى أ: «بشر».
(٧) فى د: «الأسرى».

وقال[١] أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا ابن إدريس [عن ابن إسحاق][٢] عن ابن أبى نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال العباس: فىَّ نزلت: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾، فأخبرت النبىَّ ﷺ بإسلامى، وسألته أن يحاسبنى بالعشرين الأوقية التى أخذ[٣] منى، فأبى، فأبدلنى الله بها عشرين عبدا، كلهم تاجر، مالى فى يده.

وقال ابن إسحاق أيضا: حدثنى الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله ابن رئاب قال: كان العباس بن عبد المطلب يقول: فىَّ نزلت ـ والله ـ حين ذكرت لرسول الله ﷺ إسلامى ـ ثم ذكر نحو الحديث كالذى قبله.

وقال ابن جُريج، عن عطاء الخراسانى، عن ابن عباس: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسَارىٰ﴾: عباس وأصحابه. قال: قالوا للنبى ﷺ: آمنا بما جئت به، ونشهد أنك رسول الله، لننصحن لك على قومنا. فأنزل الله: ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾، إيمانا وتصديقا، يخلف[٤] لكم خيرا مما أخذ منكمْ ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ الشرك الذى كنتم عليه. قال: فكان العباس يقول: ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا، وأن لى الدنيا، لقد قال: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾، فقد أعطانى خيرا مما أخذ منى مائة ضعف، وقال: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، وأرجو أن يكون[٥] غفر لى.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى هذه الآية: كان العباس أسر يوم بدر، فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب، فقال العباس حين قرئت هذه الآية: لقد أعطانا[٦] الله، عز وجل، خَصلتين، ما أحب أن لى بهما الدنيا، إنى أسرت يوم بدر فَفَدَيت نفسى بأربعين أوقية. فآتانى أربعين عبدا، وأنا أرجو المغفرة التى وعدنا الله، جل ثناؤه.

وقال قتادة فى تفسير هذه الآية: ذُكر لنا أن رسول[٧] الله ﷺ لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفا، وقد توضأ لصلاة الظهر، فما أعطى يومئذ ساكتاً ولا حرم سائلاً، وما صلى يومئذ حتى فرقه، فأمر العباس أن يأخذ منه ويحتثى، فأخذ. قال: فكان العباس يقول: هذا خير مما أخذ منا، وأرجو المغفرة.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال قال: بعث ابن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفا، ما أتاه مال أكثر منه لا قَبلُ ولا بَعدُ. قال: فنثرت على حصير ونودى بالصلاة. قال: وجاء رسول الله ﷺ، فمثل قائما على المال،

---

(١) فى ك: «وقال أيضا».
(٢) زيادة من د، ك، م، والطبرى.
(٣) فى أ: «أخذت».
(٤) فى ك: «نخلف».
(٥) فى ك، أ: «يكون قد».
(٦) فى أ: «أعطاه».
(٧) فى ك: «نبى».

وجاء أهل المسجد فما كان يومئذ عَدَدٌ ولا وَزْنٌ، ما كان إلا قَبْضاً، [قال][(١)]: وجاء العباس بن عبدالمطلب يحثى فى خَميصة عليه، وذهب يقوم فلم يستطع، قال: فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ارفع على. قال: فتبسم رسول الله ﷺ حتى خرج ضاحكه ـ أو: نابه ـ وقال له: «أعدْ من المال طائفة، وقم بما تطيق». قال: ففعل، وجعل العباس يقول ـ وهو منطلق ـ: أمَّا إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا، وما ندرى ما يصنع فى الأخرى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسارى[(٢)]﴾ الآية، ثم قال: هذا خير مما أخذ منا، ولا أدرى ما يصنع الله فى الأخرى[(٣)]، فما زال رسول الله ﷺ مائلاً على ذلك المال، حتى ما بقى منهم درهم، وما بعث إلى أهله بدرهم، ثم أتى الصلاة فصلى[(٤)].

حديث آخر فى ذلك: قال الحافظ أبو بكر البيهقى: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنى أبو الطيب محمد بن محمد بن عبد الله السعيدى، حدثنا مَحْمش بن عصام، حدثنا حفص بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن طَهْمان، عن عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: أتى رسول الله ﷺ بمال من البحرين، فقال: «انثروه فى المسجد».

قال: وكان أكثر مال أتى به رسول الله ﷺ، فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه. فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاء العباس فقال: يا رسول الله، أعطنى فإنى فاديت نفسى، وفاديت عَقيلا. فقال له رسول الله ﷺ: «خذ». فحثا فى ثوبه، ثم ذهب يُقِلُّه فلم يستطع، فقال: مُرْ بعضهم يرفعه إلىَّ. قال: «لا». قال: فارفعه أنت علىَّ. قال: «لا». فنثر منه ثم احتمله على كاهله، ثم انطلق، فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خَفِىَ عنه، عَجَباً من حِرْصه، فما قام رسول الله ﷺ وثَمَّ منها درهم[(٥)].

وقد رواه البخارى فى مواضع من صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم، يقول: «وقال إبراهيم بن طَهْمان» ويسوقه، وفى بعض السياقات أتم من هذا[(٦)].

وقوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ أى: فيما أظهروا لك من الأقوال، ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أى: من قبل بدر بالكفر به، ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أى: بالإسار يوم بدر، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى: عليم بما يفعله، حكيم فيه.

قال قتادة: نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح الكاتب حين ارتد، ولحق بالمشركين.

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى د: «الأسرى». (٣) فى ك: «الآخرة».

(٤) ورواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٣٢٩) من طريق هاشم بن القاسم عن سليمان بن المغيرة به نحوه، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه».

(٥) السنن الكبرى (٦/ ٣٥٦) ووقع فيه «محمد بن محمد بن عبد الله الشعيرى».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٢١، ٣٠٤٩، ٣١٦٥).

وقال ابن جُرَيْج، عن عطاء الخُرَاسانى، عن ابن عباس: نزلت فى عباس وأصحابه، حين قالوا: لننصحن لك على قومنا.

وفسرها السُّدِّى على العموم، وهو أشمل وأظهر، والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢)﴾.

ذكر تعالى أصناف المؤمنين، وقسمهم إلى مهاجرين، خرجوا من ديارهم وأموالهم، وجاؤوا لنصر الله ورسوله، وإقامة دينه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم فى ذلك. وإلى أنصار، وهم: المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك، آووا إخوانهم المهاجرين فى منازلهم، وواسوهم فى أموالهم، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم، فهؤلاء بعضهم أولى ببعض[١]، أى: كل منهم أحق بالآخر من كل أحد؛ ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كل اثنين أخوَان، فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدمًا على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، ثبت ذلك فى صحيح البخارى، عن ابن عباس[٢]، ورواه العَوْفى، وعلى بن أبى طلحة، عنه[٣]. وقال[٤] مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وغيرهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيعْ، عن شريك، عن عاصم، عن أبى وائل، عن جَرير ـ هو ابن عبد الله البجلى ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة» تفرد به أحمد[٥].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا شيبان[٦]، حدثنا عِكرِمة ـ يعنى ابن إبراهيم الأزدى ـ حدثنا عاصم، عن شَقِيق، عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهاجرون والأنصار، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف، بعضهم أولياء بعض فى الدنيا والآخرة». هكذا رواه فى مسند عبد الله بن مسعود[٧].

---

(١) فى د، ك، م، أ: «بعضهم أولياء بعض».

(٢) صحيح البخارى برقم (٦٧٤٧).

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/٧٨).

(٤) فى أ: «وقاله».

(٥) المسند (٤/٣٦٣).

(٦) فى د: «سفيان».

(٧) مسند أبى يعلى (٨/٤٤٦) وفيه عكرمة بن إبراهيم، ضعيف.

وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار فى غير ما آية فى[(١)] كتابه، فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ الآية [التوبة: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ. وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الآية [الحشر: ٨، ٩].

وأحسن ما قيل فى قوله: ﴿وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أى: لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، لا يختلفون فى ذلك، ولهذا قال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده: حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا حماد بن سلمة، عن على ابن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن حذيفة قال: خيَّرنى رسولُ الله ﷺ بين الهجرة والنصرة، فاخترت الهجرة[(٢)].

ثم قال: لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم﴾: [قرأ حمزة: «ولايتهم» بالكسر، والباقون بالفتح، وهما واحد كالدِّلالة والدَّلالة][(٣)] ﴿مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾، هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا فى بَوَاديهم، فهؤلاء ليس لهم فى المغانم نَصِيبٌ، ولا فى خُمسها إلا ما حضروا فيه القتال، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وَكِيع، حدثنا سفيان، عن علقمة بن مَرْثَد، عن سليمان بن بُرَيدة، عن أبيه: بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلمى، رضى الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش، أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، وقال: «اغزوا باسم الله فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال ـ أو: خلال ـ فأيتهن ما أجابوك[(٤)] إليها فاقبل منهم، وكُفَّ عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب

---

(١) فى د، أ: «من».

(٢) مسند البزار برقم (٢٧١٨) «كشف الأستار» وفيه على بن زيد، ضعيف.

(٣) زيادة من د، م، أ.

(٤) فى أ: «ما أجابوا».

المسلمين، يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين، ولا يكون لهم فى الفىء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله ثم قاتلهم».

انفرد به[١] مسلم، وعنده زيادات أخر[٢].

وقوله: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: يقول تعالى: وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا فى قتال دينى، على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم؛ لأنهم إخوانكم فى الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ أى: مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم، ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم. وهذا مروى عن ابن عباس، رضى الله عنه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣)﴾.

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضُهم أولياء بعض، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار، كما قال الحاكم فى مستدركه:

حدثنا محمد بن صالح بن هانئ، حدثنا أبو سعد[٣] يحيى بن منصور الهروى، حدثنا محمد بن أبان، حدثنا محمد بن يزيد وسفيان بن حسين، عن الزهرى، عن على بن الحسين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة، عن النبى ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً، ولا كافر مسلما»، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[٤].

قلت: الحديث فى الصحيحين من رواية أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم»[٥]، وفى المسند والسنن، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى»[٦]، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد، [عن محمد بن ثور][٧]، عن مَعْمَر، عن الزهرى: أن

---

(١) فى أ: «انفرد بإخراجه».

(٢) المسند (٥/ ٣٥٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٣١).

(٣) فى جميع النسخ: «أبو سعيد» والتصويب من كتب الرجال.

(٤) المستدرك (٢/ ٢٤٠).

(٥) صحيح البخارى برقم (٦٧٦٤) وصحيح مسلم برقم (١٦١٤).

(٦) المسند (٢/ ١٩٥) وسنن أبى داود برقم (٢٩١١) ولم أقع عليه فى سنن الترمذى، وإنما أشار إليه عند حديث أسامة بن زيد، والله أعلم.

(٧) زيادة من م، أ، والطبرى.

رسول الله ﷺ أخذ على رجل دخل فى الإسلام فقال: «تقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان، وأنك لا ترى نار مشرك إلا وأنت له حرب»(١).

وهذا مرسل من هذا الوجه، وقد روى متصلا من وجه آخر، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «أنا برىء من كل مسلم بين ظهرانى المشركين»، ثم قال: «لايتراءى ناراهما»(٢).

وقال أبو داود فى آخر كتاب الجهاد: حدثنا محمد بن داود بن سفيان، أخبرنى يحيى بن حسان، أنبأنا سليمان بن موسى أبو داود، حدثنا جعفر بن سعد بن سَمُرَة بن جُنْدُب [حدثنى خبيب بن سليمان، عن أبيه سليمان بن سمرة](٣) عن سمرة بن جندب: أما بعد، قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله»(٤).

وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه، من حديث حاتم بن إسماعيل، عن عبد الله بن هرمز، عن محمد وسعيد ابنى عبيد، عن أبى حاتم(٥) المزنى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من تَرْضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوا(٦) تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض». قالوا: يا رسول الله، وإن كان؟ قال: «إذا أتاكم من تَرْضَون دينه وخلقه فأنكحوه» ثلاث مرات.

وأخرجه أبو داود والترمذى، من حديث حاتم بن إسماعيل، به بنحوه(٧).

ثم رُوِىَ من حديث عبد الحميد بن سليمان، عن ابن(٨) عَجْلان، عن ابن وَثِيمةَ النَّصْرى(٩)، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلا تفعلوا(١٠) تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض»(١١).

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أى: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة فى الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمن بالكافر، فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض.

---

(١) تفسيرالطبرى (١٤/ ٨٢).

(٢) رواه أبو داود فى السنن برقم (٢٦٤٥) والترمذى فى السنن برقم (١٦٠٤) والنسائى فى السنن (٨/ ٣٦) من حديث جرير بن عبد الله، رضى الله عنه.

(٣) زيادة من د، ك،م، وأبى داود.

(٤) سنن أبى داود برقم (٢٧٨٧).

(٥) فى أ: «حازم». (٦) فى ك: «تفعلوه».

(٧) رواه أبوداود فى المراسيل برقم(٢٢٤) والترمذى فى السنن برقم (١٠٨٥).

(٨) فى أ: «أبى». (٩) فى أ: «ابن أبى وثيمة النصرى». (١٠) فى ك: «تفعلوه».

(١١) ورواه الترمذى فى السنن برقم (١٠٨٤) من طريق عبد الحميد بن سليمان به، وقال: «حديث أبى هريرة قد خولف عبد الحميد ابن سليمان فى هذا الحديث، ورواه الليث بن سعد عن ابن عجلان عن أبى هريرة عن النبى ﷺ مرسلاً ثم قال: وحديث الليث أشبه، ولم يعد حديث عبد الحميد محفوظاً».

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)﴾.

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين فى الدنيا، عطف بذكر ما لهم فى الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان، كما تقدم فى أول السورة، وأنه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن ذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف، دائم مستمر أبدا لا ينقطع ولا ينقضى، ولا يُسْأم ولا يُمَلُّ لحسنه وتنوعه.

ثم ذكر أن الأتباع لهم فى الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم فى الآخرة كما قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] وفى الحديث المتفق عليه، بل المتواتر من طرق صحيحة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب»، وفى الحديث الآخر: «من أحب قوما حُشر معهم»(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن شريك، عن عاصم، عن أبى وائل، عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة». قال شريك: فحدثنا الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عبد الرحمن بن هلال، عن جرير، عن النبى ﷺ مثله.

تفرد به أحمد من هذين الوجهين(٢).

وأما قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أى: فى حكم الله، وليس المراد بقوله: ﴿وَأُوْلُو الأَرْحَامِ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة، الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة، بل يُدْلون بوارث، كالخالة، والخال، والعمة، وأولاد البنات، وأولاد الأخوات، ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية، ويعتقد ذلك صريحا فى المسألة، بل الحق أن الآية

(١) جاء من حديث أبى قرصافة وجابر، أما حديث جابر فرواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٩/٣) من طريق زياد عن عزة بنت عياض عن أبى قرصافة مرفوعاً بلفظ: «من أحب قوماً حشره الله فى زمرتهم»، وفى إسناده من لا يعرف. رواه الخطيب فى تاريخه (١٩٦/٥) من طريق إسماعيل بن يحيى عن سفيان عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر مرفوعاً بلفظ: «من أحب قوماً على أعمالهم. حشر يوم القيامة فى زمرتهم، فحوسب بحسابهم وإن لم يعمل أعمالهم» وإسماعيل بن يحيى، ضعيف.
(٢) المسند (٣٤٣/٤).

عامة تشمل جميع القرابات. كما نص ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة وغير واحد: على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولا، وعلى هذا فتشمل ذوى الأرحام بالاسم الخاص. ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث: «إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه، فلا وصِيَّة لوارث»، قالوا: فلو كان ذا حق لكان له فرض فى كتاب الله مسمى، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثا، والله أعلم.

ولله الحمد والمنة، وعليه[٢]

[الثقة و][٣] التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل

(١) زيادة من أ. (٢) فى أ: «وبه». (٣) زيادة من أ.

تفسير سورة الأنفال

وهي مدنية

آياتها : سبعون[١] وست آيات ، كلماتها : ألف كلمة ، وستمائة كلمة ، وإحدى وثلاثون كلمة ، حروفها : خمسة آلاف ومئتان ، وأربعة وتسعون حرفًا ، والله أعلم .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾

قال البخاري(١) : قال ابن عباس : ﴿ الأنفال ﴾ الغنائم . حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا سعيد بن سليمان ، أخبرنا[٢] هُشيم ، أخبرنا أبو بشر ، عن سعيد بن جبير ؛ قال : قلت لابن عباس ، رضي الله عنهما : سورة الأنفال ؟ قال : نزلت في بدر . أما ما علَّقه عن ابن عباس ، فكذلك رواه علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس(٢) أنه قال : ﴿ الأنفال ﴾ الغنائم ، كانت لرسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، خالصة ، ليس لأحد منها شيء . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وعطاء ، والضحاك ، وقتادة ، وعطاء الخراساني ، ومقاتل بن حيان ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد : إنها الغنائم(٣) . وقال الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس(٤) أنه قال : ﴿ الأنفال ﴾ المغانم[٣] ، قال فيها لبيد[٤] :

إنّ تقوىٰ ربنا خيرُ نَفَلْ وبإذن اللّه رَيثي وَعَجَلْ(٥)

وقال ابن جرير(٦) : حدثني يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني مالك بن أنس ، عن ابن

(١) - رواه البخاري ، كتاب التفسير برقم (٤٦٤٥) .
(٢) - تفسير ابن جرير (١٥٦٣٣/٣) .
(٣) - تفسير ابن جرير (١٥٦٢٨/٣ : ١٥٦٣٧) .
(٤) - **إسناده ضعيف جدًا** ؛ من أجل الكلبي . والأثر أخرجه ابن أبي شيبة ، وابن المنذر فيما عزاه إليهما السيوطي في الدر (٢٩٥/٣) .
(٥) - البيت في تفسير ابن جرير (٣٦٦/١٣) ولسان العرب مادة (نفل) .
(٦) - رواه مالك في الموطأ (٣٦٣/٢) ومن طريقه ابن جرير في تفسيره برقم ١٥٦٤٦ - (٣٦٤/١٣) .=

[١] - في خ : « أربعون » .
[٢] - في خ : « ثنا » .
[٣] - في خ : « الغنائم » .
[٤] - في خ : « لبيب » .

شهاب ، عن القاسم بن محمد قال : سمعت رجلًا يسأل ابن عباس عن ﴿ **الأنفال** ﴾ فقال ابن عباس ، رضي اللَّه عنهما : الفرس من النَّفَل ، والسلَب من النفل . ثم عاد لمسألته ، فقال ابن عباس ذلك أيضًا . ثم قال الرجل : ﴿ **الأنفال** ﴾ التي قال اللَّه في كتابه ، ما هي ؟ قال القاسم : فلم يزل يسأله حتي كاد يُحرجه ، فقال ابن عباس : أتدرون ما مثل هذا ؟ مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب .

وقال عبد الرزاق(٧) : أخبرنا معمر ، عن الزهري ، عن القاسم بن محمد قال : قال ابن عباس : كان عمر بن الخطاب ، رضي اللَّه عنه ، إذا سئل عن شيء قال : لا آمرك ولا أنهاك . ثم قال ابن عباس : واللَّه ما بعث اللَّه نبيه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، إلا زاجرًا آمرًا محلًّا محرمًا . قال القاسم : فسُلِّط على ابن عباس رجل ، يسأله[١] عن الأنفال ، فقال ابن عباس : كان الرجل يُنَفَّل فرس الرجل وسلاحه ، فأعاد عليه الرجل ، فقال له مثل ذلك ، ثم أعاد عليه حتى أغضبه ، فقال ابن عباس : أتدرون ما مَثَل هذا ؟ مثل صبيغ الذي ضربه عمر ابن الخطاب ، حتى سالت الدماء على[٢] عقبيه - أو على رجليه - فقال الرجل : أما أنت فقد انتقم اللَّه لعمر منك .

وهذا إسناد صحيح إلىٰ ابن عباس ، أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سَلَب أو نحوه ، بعد قَسْم أصل المغنم ، وهو المتبادر إلىٰ فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفَل ، واللَّه أعلم .

وقال ابن أبي نجيح(٨) : عن مجاهد : إنهم سألوا رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، عن الخُمس بعد الأربعة الأخماس ، فنزلت : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ .

وقال ابن مسعود ومسروق : لَا نفَل يوم الزحف ، إنما النفل قبل التقاء الصفوف[٣] . رواه ابن أبي حاتم عنهما .

وقال ابن المبارك وغير واحد ، عن عبد الملك بن أبي سليمان ، عن عطاء بن أبي رباح :

= وعزاه السيوطي في الدر المنثور إلى : ابن أبي شيبة ، وأبي عبيد ، وعبد بن حميد ، والنحاس ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه .

(٧) - تفسير عبد الرزاق (٢٣١/١) وصبيغ هو « ابن عسل » ويقال : « ابن سهل » التميمي . انظر قصته في : الإصابة (١٩٨/٢) .

(٨) - رواه ابن جرير في تفسيره (١٥٦٤٩/١٣) .

---

[١] - في خ : « فسأله » . [٢] - في خ : « في » .

[٣] - في خ : « الصوف » .

﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ قال : يسألونك فيما شذ من المشركين إلىٰ المسلمين في غير قتال ، من دابة ، أو عبد ، أو أمة ، أو متاع ، فهو نفل للنبي ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، يصنع به ما يشاء .

وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفيء وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال .

قال ابن جرير(٩) : وقال آخرون : هي أنفال السرايا .

حدثني الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا علي بن صالح بن حيّ قال : بلغني في قوله تعالىٰ : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ قال : السرايا .

ويعني هذا ما ينفله الإمام لبعض السرايا زيادة علىٰ قَسْمهم مع بقية الجيش ، وقد صرح بذلك الشعبي ، واختار ابن جرير أنها الزيادات علىٰ القسم ، ويشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية ، وهو ما رواه الإمام أحمد حيث قال(١٠) :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا أبو إسحاق الشيباني ، عن محمد بن عبيد اللّٰه الثقفي ، عن سعد بن أبي وقاص قال : لما كان يوم بدر ، وقتل أخي عمير ، وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه ، وكان يسمىٰ : « **ذا الكَتِيفَة**(١١) » ، فأتيت به النبي ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، فقال : « **اذهب فاطرحه في القَبَض**(١٢) » ، قال : فرجعت وبي ما لا يعلمه إلا اللّٰه ، من قتل أخي وأخذ سلبي ، قال : فما جاوزت إلا يسيرًا ، حتىٰ نزلت سورة الأنفال ، فقال لي رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، « **اذهب فخذ سيفك** » .

وقال الإمام أحمد أيضًا(١٣) : حدثنا أسود بن عامر ، أخبرنا أبو بكر ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن مصعب بن سعد ، عن سعد بن مالك قال : قلت : يا رسول اللّٰه ، قد شفاني اللّٰه اليوم من المشركين ، فهب لي هذا السيف ، فقال : « **إن هذا السيف لا لك ولا لي ، ضعه** » قال : فوضعته ، ثم رجعت فقلت : عسى أن يعطي هذا السيف اليوم من

---

(٩) – تفسير ابن جرير (١٣/١٥٦٣٨) .

(١٠) – المسند ١٥٥٦ – (١/١٨٠) ، ومحمد بن عبيد الله الثقفي أبو عون : ثقة ، ولكنه لم يدرك سعدًا ، قاله ابن أبي حاتم في المراسيل (٦٧) . ورواه أبو عبيد القاسم بن سلام في الأموال (٣٠٣) ، وعزاه في الدر المنثور لابن أبي شيبة ، وأحمد ، وابن جرير ١٥٦٥٩ – (١٣/٣٧٣) ، وابن مردويه .

(١١) – الكتيف : السيف الصفيح ، أي العريض .

(١٢) – القَبَض : بمعنى المقبوض ، وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم .

(١٣) – المسند ١٥٣٨ – (١/١٧٨) ورواه أبو داود في الجهاد برقم (٢٧٤٠) ، والترمذي في التفسير برقم (٣٠٧٩) ، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١١٩٦) .

لايبلي بلائي ، قال : إذا[١] رجل يدعوني من ورائي ، قال : قلت : قد أنزل الله فيَّ شيئًا ؟ قال : كنت سألتني السيف ، وليس هو لي ، وإنه قد وهب لي ، فهو لك . قال : وأنزل الله هذه الآية : ﴿ **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول** ﴾ .

ورواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، من طرق عن أبي بكر بن عياش ، به . وقال الترمذي : حسن صحيح .

وهكذا رواه أبو داود الطيالسي(١٤) : أخبرنا شعبة ، أخبرنا سماك بن حرب ، قال : سمعت مصعب بن سعد ، يحدث عن سعد ، قال : نزلت فيَّ أربع آيات : أصبت سيفًا يوم بدر ، فأتيت النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ، فقلت : نَفِّلْنيهِ ، فقال : « **ضعه من حيث أخذته** » ، مرتين ، ثم عاودته فقال النبي صلىٰ الله عليه وسلم : « **ضعه من حيث أخذته** » ؛ فنزلت هذه الآية : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ .

وتمام الحديث في نزول : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حسنًا** ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ **إنما الخمر والميسر** ﴾ ، وآية الوصية . وقد رواه مسلم في صحيحه من حديث شعبة به(١٥) .

وقال محمد بن إسحاق (١٦) : حدثني عبد الله بن أبي بكر ، عن بعض بني ساعدة قال : سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة يقول : أصبت سيف ابن عائذ يوم بدر ، وكان السيف يدعىٰ بالمرزبان ، فلما أمر رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، الناس أن يردوا ما في أيديهم من النفَل ، أقبلت به فألقيته في النفل ، وكان رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، لايمنع شيئًا يُسأله ، فرآه الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ، فسأله رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، فأعطاه ، إياه .

ورواه ابن جرير من وجه آخر(١٧) .

(١٤) - مسند الطيالسي برقم (٢٠٨) .

(١٥) - رواه مسلم من حديث محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن سماك بن حرب ، عن مصعب بن سعد ، عن أبيه ، نحوه ، برقم ٣٤ - (١٧٤٨) .

(١٦) - رواه ابن جرير في تفسيره ١٥٦٦٠ - (٣٧٤/١٣) من طريق ابن إسحاق ، به .

(١٧) - رواه ابن جرير من حديث يحيى بن جعفر ، قال : حدثنا أحمد بن أبي بكر ، عن يحيى بن عمران ، عن جده عثمان بن الأرقم ، وعن عمه ، عن جده قال : قال رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم يوم بدر : « **ردُّوا ما كان من الأنفال ...** » الحديث برقم ١٥٦٦١ - (٣٧٥/١٣) .

[١] - سقط من : ت .

(سبب آخر في نزول الآية)

وقال الإمام أحمد (١٨) : حدثنا محمد بن سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن عبد الرحمن ، عن سليمان بن موسي ، عن مكحول ، عن أبي أمامة قال : سألت عبادة عن الأنفال ، فقال : فينا - أصحاب بدر - نزلت ، حين اختلفنا في النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فانتزعه الله من أيدينا ، وجعله إلىٰ رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، فقسمه رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، بين المسلمين عن بواء - يقول : عن سواء .

وقال الإمام أحمد أيضًا(١٩) : حدثنا معاوية بن عمرو ، أخبرنا أبو إسحاق ، عن عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش[١] بن أبي ربيعة ، عن سليمان بن موسي ، عن أبي سلام ، عن أبي أمامة ، عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، فشهدت معه بدرًا ، فالتقىٰ الناس ، فهزم الله تعالىٰ العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون ، وأكَبَّت طائفة علىٰ العسكر يحوونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، لايصيب العدو منه غرة ، حتىٰ إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلىٰ بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها ، فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم بأحق به منا ، نحن منعنا عنها العدو وهزمناهم ، وقال الذين أحدقوا برسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : [لستم أحق بها منا ، نحن أحدقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، و][٢]خفنا أن يصيب العدو منه غرة ، فاشتغلنا به ؛ فنزلت : ﴿ **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم** ﴾ ، فقسمها رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، بين المسلمين ، وكان رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، إذا أغار في أرض العدو نفل الربع ، فإذا أقبل - [وكلّ الناس][٣] - راجعًا ، نفل الثلث ، وكان يكره الأنفال [ويقول : « **ليرد قويّ المؤمنين على ضعيفهم**][٤] » .

(١٨) - المسند ٢٢٨٥٢ - (٣٢٢/٥) ، وأورده الهيثمي (٢٦/٧) وقال : رواه أحمد ورجال الطريقين - يعني هذا ، والحديث التالي - ثقات .

(١٩) - عبد الرحمن بن الحارث بن عياش بن أبي ربيعة : صدوق له أوهام ، روى له البخاري في الأدب المفرد والأربعة . فهو ليس من رجال مسلم . والحديث في المسند ٢٢٨٦٧ - (٣٢٤/٥) ، وأورده الهيثمي والحديث الذي قبله (٢٦/٧) وقال : رجال الطريقين ثقات . ورواه ابن جرير في تفسيره ١٥٦٥٤ ، ١٥٦٥٥ - (٣٦٩/١٣) .

[١] - في خ : « عباس » .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

ورواه الترمذي(٢٠) وابن ماجة ، من حديث سفيان الثوري ، عن عبد الرحمن بن الحارث ، به نحوه . وقال الترمذي : هذا حديث حسن .

ورواه ابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه ، من حديث عبد الرحمن بن الحارث ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه .

وروىٰ أبو داود ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن مردويه(٢١) - واللفظ له - وابن حبان ، والحاكم من طرق ، عن داود بن أبي هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر ، قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا** » فتسارع[١] في ذلك شبان الرجال ، وبقي الشيوخ تحت الرايات ، فلما كانت المغانم جاءوا يطلبون الذي جعل لهم ، فقال الشيوخ : لاتستأثروا علينا ؛ فإنا كنَّا ردءًا لكم ، لو انكشفتم لفئتم إلينا ، فتنازعوا ، فأنزل اللَّه تعالىٰ : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ **وأطيعوا اللَّه ورسوله إن كنتم مؤمنين** ﴾ .

وقال الثوري(٢٢) ، عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر ، قال رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **من قتل قتيلًا فله كذا وكذا ، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا** » فجاء أبو اليسر بأسيرين ، فقال : يا رسول اللَّه ! وعدتنا ، فقام سعد ابن عبادة فقال : يارسول اللَّه ! إن أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء ، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الأجر ، ولا[٢] جبن عن العدو ، وإنما قمنا هذا المقام محافظةً عليك ، نخاف أن يأتوك من ورائك ، فتشاجروا ، ونزل القرآن : ﴿ **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال للَّه والرسول** ﴾ قال : ونزل القرآن : ﴿ **اعلموا أنما غنمتم من شيء فأن للَّه خمسه** ﴾ إلىٰ آخر الآية .

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه اللَّه(٢٣) في كتاب « الأموال الشرعية وبيان

(٢٠) - الحديث رواه الترمذي برقم (١٥٦١) ، وابن ماجة برقم (٢٨٥٢) ، وابن حبان برقم (١٦٩٣) « موارد » ، والحاكم في المستدرك (١٣٦/٢) ، ومن طريقه البيهقي (٢٩٢/٦) مطولاً ، ومختصراً ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه .

(٢١) - رواه أبو داود في كتاب الجهاد ، باب : النفل برقم (٢٧٣٧) ، والنسائي في الكبرى برقم (١١١٩٧) ، وابن جرير في تفسيره ١٥٦٥٠ ، ١٥٦٥٣ - (٣٦٨/١٣) ، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٦) ، والبيهقي في الكبرى (٣١٥/٦) .

(٢٢) - **إسناده ضعيف جدًا** ، رواه عبد الرزاق في المصنف برقم (٩٤٨٣) عن الثوري ، به .

(٢٣) - الأموال (ص ٤٣١) .

[١] - في خ : « فتنازع » . [٢] - سقط من : خ ، ز .

جهاتها ومصارفها » : أما الأنفال فهي المغانم ، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب ، فكانت الأنفال الأولىٰ [لرسول الله][١] صلىٰ الله عليه وسلم ، يقول الله تعالىٰ : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ﴾ ، فقسمها يوم بدر علىٰ ما أراه الله من غير أن يخمسها علىٰ ما ذكرناه في حديث سعد ، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس ، فنسخت الأولىٰ .

قلت : هكذا روىٰ علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس سواء ، وبه قال مجاهد وعكرمة والسدي .

وقال ابن زيد : ليست منسوخة بل هي محكمة .

قال أبو عبيد : وفي ذلك آثار . .. والأنفال أصلها جماع الغنائم ، إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله ، على ما نزل به الكتاب وجرت به السنة ، ومعنىٰ الأنفال في كلام العرب : كل إحسان فعله فاعل تفضلًا من غير أن يجب ذلك عليه ، فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم ، وإنما [هو شيء][٢] خصهم الله[٣] به تطولًا منه عليهم ، بعد أن كانت المغانم محرمة علىٰ الأمم قبلهم ، فنفلها الله تعالىٰ هذه الأمة . فهذا أصل النفل .

قلت : شاهد هذا في الصحيحين عن جابر -رضي الله عنه- أن رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، قال : « **أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي** » فذكر الحديث إلىٰ أن قال : « **وأحلت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي** » وذكر تمام الحديث(٢٤) .

ثم قال أبو عبيد : ولهذا سُمي ما جعل الإمام للمقاتلة نفلًا ، وهو تفضيله بعض الجيش علىٰ بعض بشيء سوىٰ سهامهم ، يفعل ذلك بهم علىٰ قدر الغناء عن الإسلام والنكاية في العدو ، وفي النفل الذي ينفله الإمام سنن أربع ، لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرىٰ :

(فإحداهن) : في النفل لا خمس فيه ، وذلك السلب .

(والثانية) : في[٤] النفل الذي يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس ، وهو أن يوجه الإمام السرايا في أرض الحرب ، فتأتي بالغنائم ، فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث [بعد

---

(٢٤) - تقدم تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية : ٤٣ من سورة النساء .

---

[١] - في ز ، خ : « إلى النبي » .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - سقط من : ز ، خ .
[٤] - سقط من : ز ، خ .

الخمس][١] .

(والثالثة) : في النفل من الخمس نفسه ، وهو أن تحاز الغنيمة كلها ، ثم تخمس ، فإذا صار الخمس في يدي الإِمام نفل منه علىٰ قدر ما يرىٰ .

(والرابعة) : في النفل في جملة الغنيمة قبل أن يخمس منها شيء ، وهو أن يعطي الأدلاء ورعاة الماشية والشوَّاق لها ، وفي كل ذلك اختلاف .

قال الربيع : قال الشافعي : الأنفال أن لا يخرج[٢] من رأس الغنيمة قبل الخمس شيء غير السلب .

قال أبو عبيد : والوجه الثاني من النفل : هو شيء زيدوه غير الذي كان لهم ، وذلك من خمس النبي ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، فإن له خمس الخمس من كل غنيمة ، فينبغي للإِمام أن يجتهد ، فإذا كثر العدو ، واشتدّت شوكتهم ، وقل من بإزائه من المسلمين ، نفل منه اتباعًا لسنة رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، وإذا لم يكن ذلك لم ينفل .

(والوجه الثالث) من النفل : إذا بعث الإِمام سرية أو جيشًا ، فقال لهم قبل اللقاء : من غنم شيئًا [فهو له][٣] بعد الخمس ، فذلك لهم علىٰ ما شرط الإِمام ؛ لأنهم علىٰ ذلك غزوا ، وبه رضوا . انتهىٰ كلامه .

وفيما تقدّم من كلامه ، وهو قوله : إن غنائم بدر لم تخمس - نظر ، ويرد عليه حديث علي بن أبي طالب في شارفيه الذين حصلا له من الخمس يوم بدر ، وقد بينت ذلك في كتاب السيرة بيانًا شافيًا (٢٥) . ولله الحمد والمنة[٤] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **فاتقوا اللّٰه وأصلحوا ذات بينكم** ﴾ أي : اتقوا اللّٰه في أموركم ، وأصلحوا فيما بينكم، ولا تظالموا ، ولا تخاصموا ، ولا تشاجروا ، فما آتاكم اللّٰه من الهدىٰ والعلم خير مما تختصمون بسببه . ﴿ **وأطيعوا اللّٰه ورسوله** ﴾ أي : في قسمه بينكم علىٰ ما أراده[٥] اللّٰه ، فإنه إنما[٦] قسمه كما أمره اللّٰه من العدل والإِنصاف .

وقال ابن عباس(٢٦) : هذا تحريج من اللّٰه [على المؤمنين][٧] أن يتقوا ويصلحوا ذات

---

(٢٥) - السيرة لابن كثير (٢/٤٦٦) .
(٢٦) - رواه ابن جرير (١٣/١٥٦٨١) .

---

[١] - سقط من : ز ، خ .
[٢] - في ز : « تخرج » .
[٣] - في ز ، خ : « فله » .
[٤] - سقط من : ز ، خ .
[٥] - في ز ، خ : « أراه » .
[٦] - سقط من : ت .
[٧] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

بينهم . وكذا قال مجاهد .

وقال السدي : ﴿ فاتقوا اللّٰه وأصلحوا ذات بينكم ﴾ أي : لا تستبوا .

ولنذكر هاهنا حديثًا[١] أورده الحافظ أبو يعلىٰ أحمد بن علي بن المثنىٰ الموصلي ، رحمه اللّٰه ، في مسنده فإنه قال(٢٧) : حدثنا مجاهد بن موسى ، حدثنا عبد اللّٰه بن بكر[٢] ، حدثنا عباد بن شيبة الحبطي[٣]، عن سعيد بن أنس ، عن أنس -رضي اللّٰه عنه- قال : بينا رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم جالس ، إذ رأيناه ضحك حتىٰ بدت ثناياه ، فقال عمر : ما أضحكك يا رسول اللّٰه ؟ بأبي أنت وأمي ! فقال : « **رجلان جثيا من أمّتي بين يدي رب العزة تبارك وتعالىٰ ، فقال أحدهما : يا رب خذ لي مظلمتي من أخي . قال اللّٰه تعالىٰ : أعط أخاك مظلمته ، قال : يا رب ، لم يبق من حسناتي شيء . قال : رب ، فليحمل عني من أوزاري** » قال : وفاضت عينا رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، بالبكاء ، ثم قال : « **إن ذلك ليوم عظيم ، يوم يحتاج الناس إلىٰ من[٤] يتحمل عنهم من أوزارهم ، فقال اللّٰه تعالىٰ للطالب : ارفع بصرك فانظر في الجنان ، فرفع رأسه فقال : يارب ، أرىٰ مدائن من فضة ، وقصورًا[٥] من ذهب ، مكللة باللؤلؤ ، لأيّ نبي هذا ؟ لأي صديق هذا ؟ لأي شهيد هذا ؟ قال : هذا لمن أعطىٰ الثمن ، قال : يارب ، ومن يملك ذلك ؟ قال : أنت تملكه ، قال : ماذا يارب ؟ قال : تعفو عن أخيك ، قال : يارب ، فإني قد**

---

(٢٧) - لم نقف عليه في المطبوع من مسند أبي يعلى ، وقد رواه الحاكم في المستدرك (٥٧٦/٤) من طريق عباد بن شيبة الحبطي ، عن سعيد بن أنس ، به . وكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله ، رقم (١١٨) ص ١٠٩ .

وقال الحاكم : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وتعقبه الذهبي فقال : « عباد بن شيبة الحبطي ، عن سعيد ، والأول ضعيف ، وشيخه لا يعرف » .

وعزاه صاحب كنز العمال للخرائطي في مكارم الأخلاق ، وذكره المنذري في الترغيب (٢١٠/٣) وعزاه أيضاً للبيهقي في البعث والنشور .

وقال البخاري في التاريخ الكبير (٤٥٩/٣) : سعيد بن أنس ، عن أنس ، عن النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم في المظالم ، لا يتابع عليه ، وأورده ابن أبي حاتم (٣/٤) ولم يذكر فيه جرحاً . وذكره العقيلي (٩٨/٢) وقال : مجهول في النقل ، وأورد قول البخاري .

وعباد بن شيبة ذكره ابن حبان في المجروحين (١٧١/٢) وقال : يروي عن سعيد بن أنس ، روى عنه عبد الله ابن بكر السهمي : منكر الحديث جدًّا ، على قلة روايته ، لا يجوز الاحتجاج به ؛ لما انفرد به من المناكير .

---

[١] - في ز : « حديث » .

[٢] - في ز ، خ : « بكير » .

[٣] - في ز ، خ : « الحنظلي » .

[٤] - في خ : « أن » .

[٥] - في ز : « قصور » .

عفوت عنه ، قال الله تعالىٰ : خذ بيد أخيك فأدخله الجنة » . ثم قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **فاتقوا الله ، وأصلحوا ذات بينكم ، فإن الله تعالىٰ يصلح بين المؤمنين يوم القيامة »** .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في[١] قوله : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ قال : المنافقون ، لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء[٢] فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون ، ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدّون زكاة أموالهم ، فأخبر الله تعالىٰ أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف الله[٣] المؤمنين فقال : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ فأدَّوْا فرائضه - ﴿ **وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا** ﴾ يقول : تصديقًا ﴿ **وعلىٰ ربهم يتوكلون** ﴾ يقول : لا يرجون غيره .

وقال مجاهد : ﴿ **وجلت قلوبهم** ﴾ فرقت ، أي : فزعت وخافت . وكذا قال السدي وغير واحد .

وهذه صفة المؤمن حق المؤمن ، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه ، أي خاف منه ، ففعل أوامره ، وترك زواجره ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا علىٰ ما فعلوا وهم يعلمون** ﴾ . وكقوله تعالىٰ : ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهىٰ النفس عن الهوىٰ فإن الجنة هي المأوىٰ** ﴾ . ولهذا قال سفيان الثوري : سمعت السدي يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ قال : هو الرجل يريد أن يظلم - أو قال : يهم بمعصية - فيقال له : اتق الله فَيَجِلُ قلبه .

وقال الثوري أيضًا ، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم ، عن شهر بن حوشب ، عن أم الدرداء في قوله : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ قالت : الوجل في

[١] - سقط من : خ .
[٢] - سقط من : خ . [٣] - سقط من : ز ، خ .

القلب كإحراق[١] السعفة، أما تجد لها[٢] قشعريرة ؟ قال : بلىٰ . قالت : إذا وجدت ذلك ، فادع الله عند ذلك ؛ فإن الدعاء يذهب ذلك .

وقوله : ﴿ **وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا** ﴾ ، كقوله : ﴿ **وإذا ما أُنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانًا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون** ﴾ .

وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها علىٰ زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب ، كما هو مذهب جمهور الأمة[٣] . بل قد حكىٰ الإجماع علىٰ ذلك غير واحد من الأئمة ، كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد ، كما بينا ذلك مستقصى في أول شرح البخاري، ولله الحمد والمنة .

﴿ **وعلىٰ ربهم يتوكلون** ﴾ أي : لايرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أن[٤] ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك ، وحده لا شريك له ، ولا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب ، ولهذا قال سعيد بن جبير : التوكل علىٰ الله جماع الإيمان .

وقوله : ﴿ **الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ ، ينبه تعالىٰ بذلك علىٰ أعمالهم ، بعد ما ذكر اعتقادهم . وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها ، وهو إقامة الصلاة ، وهو حق الله تعالىٰ .

وقال قتادة : إقامة الصلاة : المحافظة علي مواقيتها ، ووضوئها ، وركوعها ، وسجودها .

وقال مقاتل بن حيان : إقامتها : المحافظة علىٰ مواقيتها ، وإسباغ الطهور فيها[٥] ، وتمام ركوعها وسجودها ، وتلاوة القرآن فيها ، والتشهد ، والصلاة علىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم - هذا إقامتها .

والإنفاق مما رزقهم الله : يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق للعباد ، من واجب ومستحب ، والخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلىٰ الله أنفعهم لخلقه .

قال قتادة في قوله : ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ فأنفقوا مما أعطاكم الله ، فإنما هذه الأموال عَواري وودائع عندك يا بن آدم ، أوشكت أن تفارقها .

---

[١] - في ت : « كاحتراق » .
[٢] - في ت : « له » .
[٣] - في خ : « الأئمة » .
[٤] - في ز : « أنه » .
[٥] - في ز : « منها » .

وقوله : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقًّا ﴾ أي : المتصفون بهذه الصفات ، هم المؤمنون حق الإيمان .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني(٢٨) : حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا ابن لهيعة ، عن خالد بن يزيد السكسكي ، عن سعيد بن أبي هلال ، عن محمد بن أبي الجهم ، عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر برسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال له : « **كيف أصبحت يا حارث ؟** » قال : أصبحت مؤمنًا حقًّا . قال : « **انظر ماذا تقول ؛ فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون[١] فيها . فقال : « يا حارث ، عرفت فالزم** » ثلاثًا .

(٢٨) - المعجم الكبير (٢٦٦/٣) ، وقال الهيثمي في المجمع (٥٧/١) : « رواه الطبراني وفيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه » .

وروى هذا الحديث ابن المبارك في الزهد ، عن معمر ، عن صالح بن مسمار أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **يا حارث** ... » فذكره . وكذا أخرجه عبد الرزاق ، عن معمر ، عن صالح بن مسمار وجعفر بن برقان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للحارث .... فذكره ، وأخرجه في التفسير - يعني عبد الرزاق - عن الثوري .

ورواه البزار كما في مختصر زوائد البزار (٢٣) فقال البزار : حدثنا أحمد بن محمد الليثي ، ثنا يوسف بن عطية ، عن ثابت ، عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم ... فذكره إلا أنه سماه حارثة وقال البزار : تفرد به يوسف ، وهو لين الحديث .

قال الحافظ في الإصابة : وجاء موصولاً من طريق أخرى ، وأخرجه الطبراني ٣٣٦٧ - (٣٠٢/٣) من طريق سعيد بن أبي هلال ، عن محمد بن أبي الجهم . وابن منده من طريق سليمان بن سعيد ، عن الربيع بن لوط - كلاهما - عن الحارث بن مالك أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ... فذكره .

قال ابن منده : ورواه زيد بن أبي أنيسة ، عن عبد الكريم بن الحارث ، عن الحارث بن مالك .

ورواه جرير بن عتبة بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فإذا الحارث بن مالك ، فحركه برجله .... فذكر الحديث .

وروى البيهقي في الشعب من طريق يوسف بن عطية الصفار ، وهو ضعيف جدًّا ، عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي الحارث يوماً فقال : « **كيف أصبحت ؟** ... » الحديث بطوله .

قال البيهقي : هذا منكر ، وقد خبط فيه يوسف فقال مرة : الحارث ، وقال مرة : حارثة .

وقال أبو عاصم بن خشيش بن أصرم في كتاب الاستقامة له : حدثنا عبد العزيز بن أبان ، أخبرنا مالك =

[١] - في ز : « يتظاغون » . ومعنى يتضاغون : أي : يتصايحون ويبكون ؛ يقال : ضغا يضغوا ضغوًا وضغاءً إذا صاح وضجَّ .

وقال عمرو بن مرة في قوله تعالىٰ : ﴿ **أولئك هم المؤمنون حقًا** ﴾ ، إنما أنزل القرآن بلسان العرب ، كقولك : فلان سيد حقًّا ، وفي القوم سادة ، وفلان تاجر حقًّا ، وفي القوم تجار . وفلان شاعر حقًّا [وفي القوم][١] شعراء .

وقوله : ﴿ **لهم درجات عند ربهم** ﴾ أي : منازل و[٢]مقامات ودرجات في الجنات . كما قال تعالىٰ : ﴿ **هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون** ﴾ .

﴿ **ومغفرة** ﴾ أي : يغفر لهم السيئات ، ويشكر لهم الحسنات .

وقال الضحاك في قوله : ﴿ **لهم درجات عند ربهم** ﴾ : أهل الجنة بعضهم فوق بعض ، فيرىٰ[٣] الذي هو فوق فضله علىٰ الذي هو أسفل منه ، ولا يرىٰ الذي هو أسفل منه أنه فُضِّل عليه أحد .

ولهذا جاء في الصحيحين(٢٩) ، أن رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، قال : « **إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم ، كما ترون[٤] الكوكب الغابر[٥] في أفق من آفاق السماء** » . قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء ، لا ينالها غيرهم ؟ فقال : « **بلىٰ ، والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين** » .

وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن(٣٠) من حديث عطية ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **إن أهل الجنة ليتراءون أهل[٦]**

ابن مغول ، عن فضل بن غزوان قال : أغير على سرح المدينة ، فخرج الحارث بن مالك فقتل منهم ثمانية ، ثم قال : وهو الذي قال له النبي صلىٰ الله عليه وسلم : « **كيف أصبحت يا حارثة ؟** » ورواه ابن أبي شيبة ، عن ابن نمير ، عن مالك بن مغول بالمرفوع ، ولم يذكر فضيل بن غزوان . قال ابن صاعد بعد أن أخرجه عن الحسين بن الحسن المروزي ، عن ابن المبارك : لا أعلم صالح بن مسمار أسند إلا حديثًا واحدًا ، لا يثبت موصولاً اهـ من الإصابة (٥٩٧/١) .

(٢٩) - صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب : صفة الجنة ... برقم (٣٢٥٦) ، وصحيح مسلم برقم (٢٨٣١) ، من حديث أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه .

(٣٠) - **إسناده ضعيف لضعف عطية العوفي** ، ورواه أحمد ، ١١٢٢٠ ، ١١٢٢٧ ، ١١٦٠٤ (٢٦/٣ ، ٢٧ ، ٦١) وأخرجه أبو داود - كتاب الحروف والقراءات ، (٣٩٨٧) . والترمذي - كتاب المناقب ، باب : مناقب أبي بكر الصديق - (٣٦٥٩) . وابن ماجه - في المقدمة ، باب : في فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - (٩٦) . والحميدى - (٧٥٥) ، وعبد بن حميد (٨٨٧) ، وأبو يعلى =

---

[١] - مكررة في ز .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - في ز ، خ : « فترى » .
[٤] - في خ : « يرون » .
[٥] - في ز : « العابر » .
[٦] - سقط من : ز ، خ .

الدرجات العلىٰ ، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء ، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما » .

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

قال الإمام أبو جعفر الطبري : اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه « **الكاف** » في قوله : ﴿ **كما أخرجك ربك** ﴾ فقال بعضهم : شُبّه به في الصلاح للمؤمنين ، اتقاؤهم ربهم ، وإصلاحهم ذات بينهم ، وطاعتهم لله[١] ورسوله .

ثم روي عن عكرمة نحو هذا .

ومعنىٰ هذا أن الله تعالىٰ يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغانم، وتشاححتم فيها ، فانتزعها الله منكم ، وجعلها إلىٰ قَسْمه وقَسْم رسوله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، فقسمها علىٰ العدل والتسوية ، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم ، وكذلك لما كرهتم الخروج إلىٰ الأعداء من قتال ذات الشوكة - وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم ، وإحراز عيرهم - فكان عاقبة كراهتكم للقتال - بأن قدّره لكم ، وجمع به بينكم وبين عدوكم علىٰ غير ميعاد - رَشَدًا وهدىٰ ، ونصرًا وفتحًا ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسىٰ أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم**

= (١١٣٠، ١١٧٨، ١٢٧٨) . والطبراني في الأوسط - (٢٩٥١، ٣٤٢٧) ، وأبو نعيم في الحلية - (٧/ ٢٥٠) . والبغوي في شرح السنة (٣٨٩٢، ٣٨٩٣) ، والبيهقي في البعث (٢٥٠) وغيرهم .

وهو عند أحمد أيضاً برقم (١١٤٨٣، ١١٧٠٧، ١١٨٩٨، ١١٩٥٦) (٣/ ٥٠، ٧٢، ٩٣، ٩٨) . من طرق عن عطية العوفى ، به . وأخرجه ابن عدي في الكامل (٦/ ٢٠٩٨) من طريق كوثر بن حكيم عن أبي سعيد به . وكوثر هذا ضعفه أبو زرعة ، وقال أحمد : أحاديثه بواطيل ، ليس بشيء .وقال ابن عدي : عامة ما يرويه غير محفوظ . وقال الدارقطني : متروك الحديث [انظر لسان الميزان لابن حجر ت (٦٧٦٨) (٤/ ٥٧٩)]

[١] - في ز ، خ : « الله » .

لاتعلمون ﴾ .

قال ابن جرير : وقال آخرون : معنىٰ ذلك : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** ﴾ علىٰ كره من فريق من المؤمنين ، كذلك هم كارهون للقتال ، فهم يجادلونك فيه بعدما تبين لهم . ثم روى نحوه عن مجاهد ؛ أنه قال : ﴿ **كما أخرجك ربك** ﴾ قال : كذلك يجادلونك في الحق .

وقال السدي : أنزل الله فىٰ خروجه إلىٰ بدر ومجادلتهم إياه ، فقال : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقًا من المؤمنين لكارهون** ﴾ لطلب المشركين ، ﴿ **يجادلونك [فىٰ الحق]**[١] **بعدما تبين** ﴾ .

وقال بعضهم : يسألونك عن الأنفال مجادلة ؛ كما جادلوك يوم بدر فقالوا : أخرجتنا للعير ، ولم تعلمنا قتالًا فنستعدَّ له .

قلت : رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، إنما خرج من المدينة طالبًا لعير أبي سفيان ، التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام ، فيها أموال جزيلة لقريش ، فاستنهض رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، المسلمين من[٢] خَفَّ منهم ، فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا ، وطلب نحو الساحل من علىٰ طريق بدر ، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، في طلبه ، فبعث ضمضم بن عمرو نذيرًا إلىٰ مكة ، فنهضوا في قريب من ألف مُقَنَّع ما بين التسعمائة إلىٰ الألف، وتيامن أبو سفيان بالعير إلىٰ سيف البحر فنجا، وجاء النفير فوردوا ماء بدر، وجمع الله بين[٣] المسلمين والكافرين علىٰ غير ميعاد ، لما يريد الله تعالىٰ من إعلاء كلمة المسلمين ، ونصرهم علىٰ عدوهم ، والتفرقة بين الحق والباطل ، كما سيأتي بيانه .

والغرض أن رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، لما بلغه خروج النفير ، أوحىٰ الله إليه يَعِدُه إحدىٰ الطائفتين ؛ إما العير وإما النفير ، ورغب كثير من المسلمين إلىٰ العير ؛ لأنه كسب بلا قتال ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين** ﴾ .

قال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره(٣١) : حدثنا سليمان بن أحمد الطبراني ،

(٣١) - رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٧٤/٤) . وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٤/٦) وقال : إسناده حسن ، ورواه البيهقي في دلائل النبوة (٣٢٣/٢) مختصراً . =

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ . [٢] - في ز ، خ : « في » .

[٣] - سقط من : ز .

حدثنا بكر بن سهل ، حدثنا عبد الله بن يوسف ، حدثنا ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن أسلم بن[١] أبي عمران حدثه أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول : قال رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، ونحن[٢] بالمدينة : « **إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة ، فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير ؛ لعل الله أن[٣] يُغنمناها** ؟ » فقلنا : نعم ، فخرج وخرجنا ، فلما سرنا يومًا أو يومين قال لنا : « **ما ترون في قتال القوم ، فإنهم قد أخبروا بمخرجكم** ؟ » فقلنا : لا والله ، ما لنا طاقة بقتال العدو ، ولكنا أردنا العير . ثم قال : « **ما ترون في قتال القوم** ؟ » فقلنا مثل ذلك ، فقال المقداد بن عمرو : إذًا لا نقول، لك يا رسول الله ؛ كما قال قوم موسىٰ لموسىٰ : ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون** ﴾ . قال : فتمنينا - معشر الأنصار - أن لو قلنا كما قال المقداد ، أحب إلينا من[٤] أن يكون لنا مال عظيم . قال : فأنزل الله علىٰ رسوله صلىٰ الله عليه وسلم : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقًا من المؤمنين لكارهون** ﴾ . وذكر تمام الحديث .

ورواه ابن أبي حاتم ، من حديث ابن لهيعة بنحوه .

وروىٰ ابن مردويه أيضًا من حديث محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي ، عن أبيه ، عن جده ؛ قال : خرج رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، إلىٰ بدر ، حتىٰ إذا كان بالروحاء ، خطب الناس فقال : « **كيف ترون** ؟ » فقال أبو بكر رضي الله تعالىٰ عنه : يا رسول الله ، بلغنا أنهم [بمكان كذا][٥] وكذا . قال : ثم خطب الناس فقال : « **كيف ترون** ؟ » ؟ فقال عمر مثل قول أبي بكر ، ثم خطب الناس فقال : « **كيف ترون** » فقال سعد بن معاذ : يارسول الله ؛ إيانا تريد ؟ فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ، ما سلكتها قط ، ولا لي بها علم ، ولئن سرت حتىٰ تأتي(برك الغماد) من ذي يمن لنسيرن معك ، ولا نكون كالذين قالوا لموسىٰ : ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون** ﴾ ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون ، ولعلك أن تكون خرجت لأمر ، وأحدث الله[٦] إليك غيره ، فانظر الذي أحدث الله إليك ، فامض له ، فَصِلْ حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وَعَادِ من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، فنزل القرآن

= وبكر بن سهل : قال في اللسان : حمل الناس عنه ، وهو مقارب الحال . وقال النسائي : ضعيف ، وقال مسلمة بن قاسم : تكلم الناس فيه ، ووضعوه من أجل الحديث الذي حدث به عن سعيد بن كثير ، عن يحيى بن أيوب ، عن مجمع بن كعب ، عن مسلمة بن مخلد رفعه « **اعروا النساء يلزمن الحجاب** » . قال الحافظ : حديث مسلمة أخرجه الطبراني عنه .

[١] - سقط من : ز ، خ .
[٢] - سقط من : ت .
[٣] - سقط من : ز ، خ .
[٤] - سقط من : ز ، خ .
[٥] - في ز ، خ : « بكذا » .
[٦] - سقط من : ز ، خ .

على قول سعد : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقًا من المؤمنين لكارهون** ﴾ الآيات .

وقال العوفي(٣٢) ، عن ابن عباس : لما شاور النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في لقاء العدو ، وقال له سعد بن عبادة ما قال ، وذلك يوم بدر ، أمر الناس فعبئوا[١] للقتال ، وأمرهم بالشوكة ، فكره ذلك أهل الإيمان ، فأنزل الله ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقًا من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون** ﴾ .

[وقال مجاهد : ﴿ **يجادلونك في الحق** ﴾ ، في القتال . وقال محمد بن إسحاق : ﴿ **يجادلونك في الحق** ﴾][٢] أي : كراهية للقاء المشركين ، وإنكارًا لمسير قريش حين ذكروا لهم .

وقال السدي : ﴿ **يجادلونك في الحق بعد ما تبين** ﴾ أي : بعد ما تبين لهم [أنك لا][٣] تفعل إلا ما أمرك الله به .

قال ابن جرير : وقال آخرون : عنى بذلك المشركين .

حدثنا يونس ، أنبأنا ابن وهب ؛ قال : قال ابن زيد في قوله تعالى : ﴿ **يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون** ﴾ ، قال : هؤلاء المشركون جادلوه في الحق ، ﴿ **كأنما يساقون إلى الموت** ﴾ حين يدعون إلى الإسلام ﴿ **وهم ينظرون** ﴾ قال : وليس هذا من صفة الآخرين . هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر .

ثم قال ابن جرير : ولا معنى لما قاله ؛ لأن الذي قبل قوله : ﴿ **يجادلونك في الحق** ﴾ خبر عن أهل الإيمان ، والذي يتلوه خبر عنهم ، والصواب قول ابن عباس وابن إسحاق : إنه خبر عن المؤمنين .

وهذا الذي نصره ابن جرير هو الحق ، وهو الذي يدل عليه سياق الكلام . والله أعلم .

وقال الإمام أحمد رحمه الله(٣٣) : حدثنا يحيى بن أبي بكير وعبد الرزاق ؛ قالا : حدثنا

---

(٣٢) - **إسناده ضعيف جدًا** ، وهو عند الطبري برقم (١٥٧١٢/١٣) .

(٣٣) - **إسناده صحيح** ، وهو المسند ٢٠٢٢ - (٢٢٩/١) من رواية يحيى بن أبي بكير و٢٨٧٥ - (١/ ٣١٤) من رواية عبد الرزاق . ورواه الترمذي ٣٠٨٠ - (٢٦٩/٥) وقال : حديث حسن . ورواه الحاكم=

---

[١] - في ز : « فتعبوا » ، خ : « فتعبئوا » .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٣] - ما بين المعكوفتين في ز : « لما » .

إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ؛ قال : قيل لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم حين فرغ من بدر ، عليك بالعير ليس دونها شيء ، فناداه العباس بن عبد المطلب - قال عبد الرزاق : وهو أسير في وثاقه - ثم اتفقا : أنه لا يصلح لك . قال : « **ولم ؟** » قال : لأن الله - عز وجل - إنما وعدك إحدىٰ الطائفتين ، وقد أعطاك ما وعدك .

إسناد جيد ، ولم يخرجوه[١] .

ومعنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ **وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم** ﴾ أي : يحبون أن الطائفة التي لا حَدَّ لها ولا منعة ولا قتال تكون لهم ، وهي العير ، ﴿ **ويريد الله أن يحق الحق بكلماته** ﴾ أي : هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ؛ ليظفركم بهم وينصركم عليهم ، ويظهر دينه ، ويرفع كلمة الإِسلام ، ويجعله غالبًا علىٰ الأديان ، وهو أعلم بعواقب الأمور ، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره ، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم ، كما قال : ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسىٰ أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسىٰ أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم** ﴾ .

وقال محمد بن إسحاق رحمه الله(٣٤) : حدثني محمد بن مسلم الزهري ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، وعبد الله بن أبي بكر ، ويزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا ، عن عبد الله بن عباس - كل قد حدثني بعض هذا الحديث ، فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر - قالوا : لما سمع رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، بأبي سفيان مقبلًا من الشام ندب المسلمين إليهم . وقال : « **هذه عِيرُ قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها[٢] ؛ لعل الله أن ينفلكموها** » ، فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، يلقىٰ حربًا ، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار ، ويسأل من لقي من الركبان ، تخوفًا علىٰ أمر الناس ، حتىٰ أصاب خبرًا من بعض الركبان : أن محمدًا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك ؛ فَحَذِرَ عند ذلك فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري ، فبعثه إلىٰ أهل[٣] مكة ، وأمره أن يأتي قريشًا ، فيستنفرهم إلىٰ أموالهم ، ويخبرهم أن محمدًا قد عرض لها في أصحابه ، فخرج

= (٣٥٧/٢ العلمية) . ونسبه السيوطي في الدر المنثور (١٦٩/٣) للفريابي ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وأبي يعلى ٢٣٧٣ - (٢٦١/٤) ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ١١٧٣٣ - (١١/ ٢٧٩) ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه .

(٣٤) - رواه ابن جرير في تفسيره (١٥٧٢٠/١٣) . وهو في السيرة لابن هشام (٢٥٧/٢ ، ٢٥٨ ثم ٢/ ٢٦٦ ، ٢٦٧) وتاريخ الطبري (٢٧٠/٢ ، ٢٧٣) .

[١] - في ت : « يخرجه » .

[٢] - في ز ، خ : « إليه » .

[٣] - سقط من : ز .

ضمضم بن عمرو سريعًا إلىٰ مكة ، وخرج رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم في أصحابه ، حتىٰ بلغ واديًا يقال له « **ذَفران** » ، فخرج منه ، حتىٰ إذا كان ببعضه نزل ، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، فاستشار رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، الناس ، وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر - رضي اللّٰه عنه - فقال فأحسن ، ثم قام عمر رضي اللّٰه عنه فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول اللّٰه ، امض لما أمرك اللّٰه به ؛ فنحن معك ، واللّٰه لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ : ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون** ﴾ ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما[١] مقاتلون ، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلىٰ « **برك الغماد** » - يعني مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه ، حتىٰ تبلغه . فقال له رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه تعالىٰ عليه وآله وسلم ، خيرًا ، ودعا له بخير . ثم قال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **أشيروا علي أيها الناس** » ، وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنهم كانوا عدد الناس ، وذلك أنهم [ ][٢] حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله ، إنا برآء من ذمامك حتىٰ تصل إلىٰ دارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا . فكان رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم يتخوف أن لا تكون الأنصار ترىٰ عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلىٰ عدو من بلادهم ، فلما قال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ذلك ، قال له سعد بن معاذ : واللّٰه لكأنك تريدنا يا رسول اللّٰه ؟ قال : « **أجل** » . فقال : قد[٣] آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك علىٰ ذلك عهودنا ومواثيقنا علىٰ السمع والطاعة ، فامض يا رسول اللّٰه لما أردتَ ، فوالذي بعثك بالحق ، إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما يتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقىٰ بنا عدونا غدًا ، إنا لصُبُرٌ عند الحرب ، صُدق عند اللقاء ، ولعل اللّٰه يريك منا ما تقر به عينك ، فَسِر بنا علىٰ بركة اللّٰه ، فَسُرَّ رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم بقول سعد ، ونشّطه ذلك ، ثم قال : « **سيروا علىٰ بركة اللّٰه ، وأبشروا ؛ فإن اللّٰه قد[٤] وعدني إحدىٰ الطائفتين ، واللّٰه لكأني الآن أنظر إلىٰ مصارع القوم** » .

ورویٰ العوفي عن ابن عباس نحو هذا ، وكذلك قال السدي وقتادة وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم وغير واحد من علماء السلف والخلف ، اختصرنا أقوالهم اكتفاء بسياق محمد بن إسحاق .

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ

---

[١] - في ز ، خ : « معكم » .

[٢] - ما بين المعكوفتين في ز : « كانوا » .

[٣] - في خ : « فقد » .

[٤] - سقط من : ت .

﴿مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾

قال الإمام أحمد(٣٥) : حدثنا أبو نوح قراد ، حدثنا عكرمة بن عمار ، حدثنا سماك الحنفي أبو زُمَيل ، حدثني ابن عباس ، حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ قال : لما كان يوم بدر نظر النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ، إلىٰ أصحابه ، وهم ثلاثمائة ونيف ، ونظر إلىٰ المشركين فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ، القبلة [ثم مَدَّ يديه][١] وعليه رداؤه وإزاره ثم قال : « [**اللهم ، أين ما وعدتني**][٢] . **اللهم ،** [**أنجز لي ما وعدتني**][٣] . **اللهم ؛ إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدًا** » . قال : فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتىٰ سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر ، فأخذ [رداءه فردَّاه][٤] - ألبسه[٥] - ثم التزمه من ورائه ، ثم قال : يا نبي الله ؛ كفاك[٦] مناشدتك ربك ؛ فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله عز وجل : ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين** ﴾ . فلما كان يومئذ التقوا ، فهزم الله المشركين ، فقُتل منهم سبعون رجلًا ، وأسر منهم سبعون رجلًا ، واستشار رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعليًا ، فقال أبو بكر :

يا رسول الله ؛ هؤلاء بنو العم [ ][٧] والعشيرة والإخوان ، وإني أرىٰ أن تأخذ منهم الفدية ؛ فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا علىٰ الكفار ، وعسىٰ أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدًا . فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **ما ترىٰ يا بن الخطاب** » قال : قلت : والله[٨] ما أرىٰ ما رأىٰ أبو بكر ، ولكني أرىٰ أن تمكنني من فلان - قريب لعمر - فأضربَ عنقه ، وتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان - أخيه - فيضرب عنقه ، حتىٰ يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين ، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. فَهَوِي رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت ، وأخذ منهم الفداء . فلما كان من الغد - قال عمر : - فغدوت[٩] إلىٰ النبي ، صلىٰ الله عليه

(٣٥) - رواه أحمد في المسند (٣٠/١) و مسلم برقم (١٧٦٣) وأبو داود برقم (٢٦٩٠) والترمذي برقم (٣٠٨١) ، وابن جرير (١٥٧٣٤/١٣) .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - مكررة في : ز .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٥] - سقط من : ز ، خ .
[٦] - في ز : « كذلك » .
[٧] - ما بين المعكوفتين في ز : « والعم » .
[٨] - سقط من : ز ، خ .
[٩] - في خ : « فغدوا » .

وسلم ، وأبي[١] بكر وهما يبكيان ، فقلت : يا رسول الله ، ما[٢] يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيتُ ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم : « الذي[٣] **عرض علي أصحابك[٤] من أخذهم الفداء ، قد عرض عليّ عذابكم أدنىٰ من هذه الشجرة** » لشجرة قريبة ، وأنزل الله عز وجل : ﴿ **ما كان لنبي أن يكون له أسرىٰ حتىٰ يثخن في الأرض** ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ **لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم** ﴾ من الفداء ، ثم أحلَّ لهم الغنائم . فلما كان يوم أحد من العام المقبل ، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر ، من أخذهم الفداء ؛ فقتل منهم سبعون ، وفر أصحاب النبي صلىٰ الله عليه وسلم عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم ، وكسرت رباعيته ، وهُشمت البيضة علىٰ رأسه ، وسال الدم علىٰ وجهه ، فأنزل الله : ﴿ **أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنىٰ هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله علىٰ كل شيء قدير** ﴾ ، بأخذكم الفداء .

ورواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن جرير وابن مردويه من طرق ، عن عكرمة بن عمار به . وصححه علي بن المديني والترمذي ، وقالا : لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليمامي[٥] » .

وهكذا روىٰ علي بن أبي طلحة والعوفي ، عن ابن عباس ؛ أن هذه الآية الكريمة ، قوله : ﴿ **إذ تستغيثون ربكم** ﴾ أنها في دعاء النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ، وكذا قال يزيد بن تبيع والسدي وابن جريج .

وقال أبو بكر بن عياش(٣٦) ، عن أبي حصين ، عن أبي صالح ؛ قال : لما كان يوم بدر جعل النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ، يناشد ربه أشد النِّشدَة ، يدعو ، فأتاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : يا رسول الله ؛ بعض نِشْدَتك ، فوالله ليفين الله لك بما وعدك .

وقال البخاري(٣٧) في « كتاب المغازي » باب قول الله تعالىٰ : ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم** ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ **فإن الله شديد العقاب** ﴾ حدثنا أبو نعيم ، حدثنا إسرائيل ، عن مخارق ، عن طارق [بن شهاب][٦] ؛ قال : سمعت ابن مسعود يقول : شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا ، لأن أكون صاحبه أحب إليّ مما عُدل به ؛ أتىٰ النبي

---

(٣٦) - رواه ابن جرير في تفسيره (١٥٧٤١/١٣) .

(٣٧) - صحيح البخاري برقم (٣٩٥٢) .

---

[١] - في ز ، خ : « وأبو » .
[٢] - في ز : « ماذا » .
[٣] - في ز ، خ : « للذي » . والمثبت من المسند.
[٤] - في خ : « أصاحبك » .
[٥] - في ت : « اليماني » .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

صلىٰ اللّه عليه وسلم وهو يدعو علىٰ المشركين فقال : لا نقول كما قال قوم موسىٰ لموسىٰ[١] : ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا** ﴾ ، ولكن نقاتل عن يمينك ، وعن شمالك ، وبين يديك وخلفك ، فرأيت النبي صلىٰ اللّه عليه وسلم أشرق وجهه وسره ، [يعني : قوله][٢] .

وحدثنا محمد بن عبد اللّه بن حَوشب(٣٨) ، حدثنا عبد الوهاب ، حدثنا خالد الحذاء ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ؛ قال : قال النبي صلىٰ اللّه عليه وسلم يوم بدر : « **اللهم ، أنشدك عهدك ووعدك . اللهم ، إن شئت لم[٣] تُعْبَد** » . فأخذ أبو بكر بيده ، فقال : حسبك . فخرج وهو يقول : ﴿ **سيُهزم الجمع ويولون الدُّبُر** ﴾ .

ورواه النسائي ، عن بندار ، عن عبد الوهاب بن[٤] عبد المجيد الثقفي .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **بألف من الملائكة مردفين** ﴾ أي : يردف بعضهم بعضًا ، كما قال هارون بن عنترة[٥] ، عن ابن عباس : ﴿ **مردفين** ﴾ متتابعين .

ويحتمل أن المراد ﴿ **مردفين** ﴾ لكم ، أي : نجدة لكم ، كما قال العوفي عن ابن عباس : ﴿ **مردفين** ﴾ ، يقول : المدد ، كما تقول ايت[٦] الرجل فزده كذا وكذا .

وهكذا قال مجاهد وابن كثير القارئ وابن زيد : ﴿ **مردفين** ﴾ : مُمَدّين .

وقال أبو كُدَينة ، عن قابس[٧] ، عن أبيه ، عن ابن عباس ﴿ **ممدكم[٨] بألف من الملائكة مردفين** ﴾ ، قال : وراء كل مَلَكٍ ملك .

وفي رواية بهذا الإِسناد : ﴿ **مردفين** ﴾ ، قال : بعضهم علىٰ أثر بعض . وكذا قال أبو ظبيان والضحاك وقتادة .

وقال ابن جرير(٣٩) : حدثني المثنىٰ ، حدثنا إسحاق ، حدثنا يعقوب بن محمد الزهري ،

---

(٣٨) - صحيح البخاري برقم (٣٩٥٣) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٥٧) .

(٣٩) - رواه ابن جرير (١٥٧٥٦/١٣) ، وعبد العزيز بن عمران قال البخاري : منكر الحديث ، لا يكتب حديثه ، وقال ابن أبي حاتم : منكر الحديث جدًا . والزمعي : هو موسى بن يعقوب الزمعي : ثقة تكلم فيه . وأبو معاوية : هو عبد الرحمن بن معاوية بن الحويرث : ثقة ، متكلم فيه حتى قالوا : لا يحتج به .

---

[١] - سقط من : خ .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٣] - في ز ، خ : « أن » .

[٤] - في ز : « عن » .

[٥] - في ز ، خ : « هبيرة » .

[٦] - في ز : « أنت » .

[٧] - في ز ، خ : « قابوس » .

[٨] - بعده في خ : « ربكم » .

حدثني عبد العزيز بن عمران[١]، عن الزمعي، عن أبي الحويرث، عن محمد بن جبير ، عن علي رضي الله عنه قال : نزل جبريل [في ألف][٢] من الملائكة عن ميمنة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، [وفيها أبو بكر ، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ، صلى الله عليه وسلم][٣] ، وأنا في الميسرة .

وهذا يقتضي - لو صح إسناده - أن الألف مردفة بمثلها ؛ ولهذا قرأ بعضهم : ﴿ مردَفين ﴾ بفتح الدال ، فالله أعلم .

والمشهور ما رواه علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ؛ قال : وأمد الله نبيه ، صلى الله عليه وسلم ، والمؤمنين بألف من الملائكة ، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مُجَنَّبة ، وميكائيل في خمسمائة مجنبة .

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير ومسلم(٤٠) ، من حديث عكرمة بن عمار ، عن أبي زُمَيل سماك بن وليد الحنفي ، عن ابن عباس ، عن عمر الحديث المتقدم . ثم قال أبو زميل : حدثني ابن عباس قال : بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس[٤] [يقول : « أقدم حيزوم » . إذ نظر إلى المشرك أمامه ، فخر مستلقيًا ، قال][٥] : فنظر إليه ، فإذا هو قد خطم أنفه[٦] ، وشق وجهه كضربة السوط ، فاخضر[٧] ذلك أجمع ، فجاء الأنصاري ، فحدث ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « **صدقت ، ذلك من مدد السماء الثالثة** » ، فَقَتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين .

وقال البخاري(٤١) : « باب شهود الملائكة بدرًا »: حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا جرير ، عن يحيى بن سعيد ، عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي ، عن أبيه - وكان أبوه من أهل بدر - قال : جاء جبريل إلى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : « **من أفضل المسلمين** » أو كلمة نحوها ، قال : وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة .

---

(٤٠) - ابن جرير (١٥٧٣٤/١٢) وهو عند مسلم في الجهاد والسير برقم (١٧٦٣) .

(٤١) - صحيح البخاري ، كتاب المغازي برقم (٣٩٩٢) .

---

[١] - في ز : « عهران » .

[٢] - ما بين المعكوفتين في ز : « بألف » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٤] - سقط من : خ .

[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٦] - سقط من : خ .

[٧] - في ز : « فاحضر » .

انفرد بإخراجه البخاري ، وقد رواه الطبراني(٤٢) في المعجم الكبير من حديث رافع بن خديج وهو خطأ ، والصواب رواية البخاري ، والله أعلم .

وفي الصحيحين(٤٣) أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال لعمر ، لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة : « **إنه قد شهد بدرًا ، وما يدريك لعل الله قد[١] اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم** » .

قوله تعالى : ﴿ **وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله** ﴾ . أي : وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بشرى ، ﴿ **ولتطمئن به قلوبكم** ﴾ ، وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم ، بدون ذلك ؛ ولهذا قال ﴿ **وما النصر إلا من عند الله** ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ **فإذا[٢] لقيتم الذين كفروا فضربَ الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منًّا بعدُ وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب[٣] [ ][٤] الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين** ﴾ .

فهذه حكمٌ شَرَع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها ، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمة المكذبة ، كما أهلك قوم نوح بالطوفان ، وعادًا الأولى بالدَّبُور ، وثمود بالصيحة ، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل[٥] ، وقوم شعيب بيوم الظلة ، فلما بعث الله تعالى موسى ، وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليم ، ثم أنزل على موسى التوراة ، شرع فيها قتال الكفار ، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر** ﴾ ، وقتل المؤمنين للكافرين أشد إهانة[٦] للكافرين ، وأشفى لصدور المؤمنين ، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة : ﴿ **قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين** ﴾ .

(٤٢) - المعجم الكبير رقم ٤٤١٢ - (٢٧٧/٤) .

(٤٣) - البخاري في الجهاد والسير ، باب : الجاسوس ، برقم (٣٠٠٧) ، ومسلم في فضائل الصحابة ، برقم (٢٤٩٤) .

[١] - سقط من : ت .
[٢] - في ز : « وإذا » .
[٣] - في ز : « يهدي » .
[٤] - في ز ، خ : « القوم » .
[٥] - في ز : « السجين » .
[٦] - في ز : « أهنة » .

ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم أنكىٰ لهم وأشفىٰ لصدور حزب الإيمان ، فَقَتْلُ[١] أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغىٰ أشد إهانة[٢] له من أن يموت علىٰ فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك، كما مات أبو لهب - لعنه الله - بالعَدَسة(٤٤) ، بحيث لم يقربه أحد من أقاربه ، وإنما غسلوه بالماء قذفًا من بعيد ، ورجموه حتىٰ دفنوه ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **إن الله عزيز حكيم** ﴾ أي : له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾ . ﴿ **حكيم** ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار ، مع القدرة علىٰ دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته ، سبحانه وتعالىٰ .

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

يذكرهم الله تعالىٰ بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم ، أمانًا من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، وكذلك فعل تعالىٰ بهم يوم أحد ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسًا يغشىٰ طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم** ﴾ . قال أبو طلحة : كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد ، ولقد سقط السيف من يدي مرارًا يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه ، ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الحجف .

وقال الحافظ أبو يعلىٰ(٤٥) : حدثنا زهير ، حدثنا ابن مهدي ، عن شعبة ، عن أبي

---

(٤٤) - قال ابن الأثير في النهاية (١٩٠/٣) في حديث أبي رافع : « أن أبا لهب رماه الله بالعدسة » وهي بثرة تشبه العدسة تخرج في مواضع من الجسد ، من جنس الطاعون ، تقتل صاحبها غالبًا » .

(٤٥) - **إسناده صحيح** ، وهو في مسند أبي يعلى ٢٨٠ - (٢٤٢/١) ورواه أحمد في مسنده (١٢٥/١) من طريق عبد الرحمن بن مهدي ، بهذا الإسناد ، ورواه ابن حبان في صحيحه من طريق ابن خزيمة برقم (١٦٩٠ موارد) .

---

[١] - في خ : « كقتل » . [٢] - في ز : « أهنة » .

إسحاق ، عن حارثة بن[١] مضرب ، عن علي رضي الله عنه ؛ قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يصلي تحت شجرة ، ويبكي حتىٰ أصبح .

وقال سفيان الثوري ، عن عاصم ، عن أبي رزين ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : النعاس في القتال أمنة من الله ، وفي الصلاة من الشيطان .

وقال قتادة : النعاس في الرأس ، والنوم في القلب .

قلت : أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد ، وأمر ذلك مشهور جدًّا ، وأما يوم بدر فهذه الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدر ، وهي دالة علىٰ وقوع ذلك أيضًا ، وكأن ذلك كان سجية للمؤمنين عند شدة البأس ؛ لتكون[٢] قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله ، وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونِعَمِه عليهم ، وكما قال تعالىٰ : ﴿ **فإن مع العسر يسرًا * إن مع العسر يسرًا** ﴾ ، ولهذا جاء[٣] في الصحيح أن رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه ، وهما يدعوان ، أخذت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم سِنَة من النوم ، ثم استيقظ متبسمًا ، فقال : « **أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل علىٰ ثناياه النَّقْعُ** » . ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالىٰ : ﴿ **سيُهزم الجَمْعُ ويولون الدبر** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وينزل عليكم من السماء ماء** ﴾ ، قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ؛ قال : نزل النبي صلىٰ الله عليه وسلم - يعني : حين[٤] سار إلىٰ بدر - والمسلمون[٥] بينهم وبين الماء رملة دعْصَة ، فأصاب المسلمين ضعف شديد ، وألقىٰ الشيطان في قلوبهم الغيظ ، يوسوس بينهم : تزعمون أنكم أولياء الله تعالىٰ وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون علىٰ الماء ، وأنتم تصلون مُجْنبين ؛ فأمطر الله عليهم مطرًا شديدًا ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ، وأنشف الرمل حين أصابه المطر ومشىٰ الناس عليه والدواب ، فساروا إلىٰ القوم ، وأمد الله نبيه صلىٰ الله عليه وسلم والمؤمنين بألف من الملائكة ؛ فكان جبريل في خمسمائة مجنبة ، وميكائيل في خمسمائة مجنبة .

وكذا قال العوفي عن ابن عباس : إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا عنها ، نزلوا علىٰ الماء يوم بدر فغلبوا المؤمنين عليه ؛ فأصاب المؤمنين الظمأ ، فجعلوا يصلون

---

[١] - في ز : « عن » .

[٢] - في ز : « تكون » .

[٣] - سقط من : ز ، خ .

[٤] - سقط من : ز .

[٥] - في ز ، خ : « والمشركون » .

مجنبين محدثين ، حتىٰ تعاطوا ذلك في صدورهم ، فأنزل اللّٰه من السماء ماء ، حتىٰ سال الوادي، فشرب المؤمنون ، وملئوا الأسقية ، وسقوا الركاب ، واغتسلوا من الجنابة ، فجعل اللّٰه في ذلك طهورًا ، وثبت الأقدام ، وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة ، فبعث اللّٰه المطر عليها فضربها حتىٰ اشتدت ، وثبتت[١] عليها الأقدام .

ونحو ذلك رُوي عن قتادة والضحاك والسدي .

وقد رُوي عن سعيد بن المسيب والشعبي والزهري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه طَش أصابهم يوم بدر .

والمعروف أن رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، لما سار إلىٰ بدر ، نزل على أدنىٰ ماء هناك ، أي : أول ماء وجده فتقدم إليه الحباب بن المنذر ، فقال : يارسول الله ، هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلكه اللّٰه ؛ فليس لنا أن نجاوزه ، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة ؟ فقال : « **بل منزل نزلته للحرب والمكيدة** » . فقال : يا رسول اللّٰه ، إن هذا ليس بمنزل ، ولكن سِرْ بنا حتىٰ ننزل علىٰ أدنىٰ ماء يلي القوم ، ونُغَوِّر ما وراءه[٢] من القُلُب ، ونستقي الحياض ، فيكون لنا ماء وليس لهم ماء ، فسار رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ففعل كذلك .

وفي مغازي « **الأموي** » (٤٦) أن الحباب لما قال ذلك ، نزل ملك من السماء ، وجبريل جالس عند رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم فقال ذلك الملك : يا محمد ؛ إن ربك يقرئك[٣] السلام ، ويقول لك : إن الرأي ما أشار به « **الحباب بن المنذر** » ، فالتفت رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، إلىٰ جبريل عليه السلام فقال : « **هل تعرف هذا ؟** » فنظر إليه فقال : ما كل الملائكة أعرفهم ، وإنه مَلَكٌ وليس بشيطان .

وأحسن ما في هذا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب « **المغازي** » - رحمه اللّٰه(٤٧) - حدثني يزيد بن رُومان ، عن عروة بن الزبير ؛ قال : بعث اللّٰه السماء ، وكان الوادي دَهْسًا ، فأصاب رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، وأصحابه ما لبَّد لهم الأرض ، ولم يمنعهم من المسير ، وأصاب قريشًا ما لم يقدروا علىٰ أن يرتحلوا معه .

---

(٤٦) - ورواه الواقدي في المغازي (٥٤/١) إلى هذا الموضع . فقال : « حدثني ابن أبي حبيبة ، عن رواد بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : نزل جبريل .. فذكره » .

(٤٧) - السيرة النبوية لابن هشام (٦٢٠/١) .

---

[١] - في ز : « وثبت » .
[٢] - في ز : « وراءنا » .
[٣] - في ز ، خ : « يقرأ عليك » .

وقال مجاهد : أنزل اللّٰه عليهم المطر قبل النعاس ؛ فأطفأ بالمطر الغبار ، وتلبدت به الأرض ، وطابت نفوسهم وثبتت به أقدامهم .

وقال ابن جرير(٤٨) : حدثنا هارون بن إسحاق ، حدثنا مصعب بن المقدام ، حدثنا إسرائيل ، حدثنا أبو إسحاق ، عن حارثة[١] ، عن علي رضي اللّٰه عنه قال : أصابنا من الليل طَشٌّ من المطر - يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر - فانطلقنا تحت الشجر والحجف ، نستظل تحتها من المطر ، وبات رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، [يدعو ربه : « **اللهم ، إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض** » . فلما أن طلع الفجر نادىٰ : « **الصلاة ، عباد اللّٰه !** » فجاء الناس من تحت الشجر والحجف ، فصلىٰ بنا رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم][٢] ، وحرض علىٰ القتال .

وقوله : ﴿ **ليطهركم به** ﴾ أي : من حدث أصغر أو أكبر ، وهو تطهير الظاهر[٣] ، ﴿ **ويذهب عنكم رجز الشيطان** ﴾ أي : من وسوسة أو خاطر سيئ وهو تطهير الباطن ، كما قال تعالىٰ في حق أهل الجنة : ﴿ **عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة** ﴾ فهذا زينة الظاهر[٤] ، ﴿ **وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا** ﴾ أي : مطهرًا لما كان من غل أو حسد أو تباغض ، وهو زينة الباطن وطهارته .

﴿ **وليربط على قلوبكم** ﴾ أي : بالصبر والإقدام علىٰ مجالدة الأعداء ، وهو شجاعة الباطن . ﴿ **ويثبت به الأقدام** ﴾ وهو شجاعة الظاهر ، واللّٰه أعلم .

وقوله : ﴿ **إذ يوحي ربك إلىٰ الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا** ﴾ وهذه نعمة خفية أظهرها اللّٰه تعالىٰ لهم ليشكروه عليها ، وهو أنه - تعالىٰ وتقدّس وتبارك وتمجد - أوحىٰ[٥] إلىٰ الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين ، يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا .

قال ابن إسحاق : وازرُوهم . وقال غيره : قاتلوا معهم . وقيل : كثّروا سَوَادهم . وقيل : كان ذلك بأن المَلَك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي صلىٰ اللّٰه عليه وآله وسلم ، يقول : سمعت هؤلاء القوم يعني المشركين يقولون : واللّٰه لئن حملوا علينا لننكشفن ، فيحدِّث المسلمون بعضهم بعضًا بذلك ؛ فتقوىٰ أنفسهم . حكاه ابن جرير ، وهذا لفظه بحروفه .

---

(٤٨) - رواه ابن جرير (١٣/١٥٧٦٤) .

---

[١] - في ز ، خ : « جارية » .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٣] - في ز : « الطاهر » .

[٤] - في ز : « الطاهر » .

[٥] - سقط من : ز .

وقوله : ﴿ **سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب** ﴾ أي : ثبتوا أنتم المؤمنين[١] ، وقووا أنفسهم على أعدائهم ، عن أمري لكم بذلك ، سألقي الرعب والمذلة والصغار على من خالف أمري ، وكذب رسولي ؛ ﴿ **فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان** ﴾ أي : اضربوا الهام ففلقوها ، واحتزوا الرقاب فقطعوها ، وقطعوا الأطراف منهم ، وهي أيديهم وأرجلهم .

وقد اختلف المفسرون في معنى : ﴿ **فوق الأعناق** ﴾ فقيل : معناه اضربوا الرءوس . قاله عكرمة .

وقيل : معناه ﴿ **فوق الأعناق** ﴾ أي على الأعناق ، وهي الرقاب . قاله الضحاك وعطية العوفي .

ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى : ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق** ﴾ .

وقال وكيع(٤٩) ، عن المسعودي ، عن القاسم ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **إني لم أبعث لأعذب بعذاب الله ؛ إنما بعثت بضرب الرقاب ، [وشد الوثاق]**[٢] » .

واختار ابن جرير أنها [ ][٣] تدل على ضرب الرقاب وفلق الهام .

قلت : وفي مغازي الأموي أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، جعل يمر بين القتلى يوم بدر ، فيقول : « **نُفَلِّقُ**[٤] **هامًا ...** » .

فيقول أبو بكر :

... من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما(٥٠)

فيبتدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأول البيت ، ويستطعم أبا بكر - رضي الله عنه - إنشاد آخره ؛ لأنه كان لا يحسن إنشاد الشعر ، كما قال الله تعالى : ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغي له** ﴾ .

---

(٤٩) - **إسناده ضعيف لإرساله** ، ورواه ابن جرير في تفسيره (١٥٧٨٤/١٣) وابن أبي شيبة في المصنف (٣٩٠/١٢) من طريق وكيع بهذا الإسناد .

(٥٠) - البيت للحصين بن الهمام المري ، وهو في « الشعر والشعراء » لابن قتيبة (٦٤٨/٢) .

---

[١] - في ز ، خ : « المسلمين » .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٣] - ما بين المعكوفتين في ز : « قد » .

[٤] - في ز : « يفلق » .

وقال الربيع بن أنس : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلىٰ الملائكة ممن قتلوهم[١] ، بضرب فوق الأعناق وعلىٰ البنان ، مثل سمة النار قد أحرق به .

وقوله : ﴿ **واضربوا منهم كل بنان** ﴾ قال ابن جرير : معناه : واضربوا من عدوكم أيها المؤمنون كل طرف ومَفصل ، من أطراف أيديهم وأرجلهم ، والبنان : جمع بنانة ، كما قال الشاعر(٥١) :

ألا ليتني قطَّعْتُ مني بنانة ولاقيته[٢] في البيت يقظان حاذرًا[٣]

وقال علي بن أبي طلحة(٥٢) ، عن ابن عباس : ﴿ **واضربوا منهم كل بنان** ﴾ يعني بالبنان الأطراف . وكذا قال الضحاك وابن جريج .

وقال السدي : البنان الأطراف ، ويقال : كل مفْصَل .

وقال عكرمة وعطية العوفي والضحاك في رواية أخرىٰ : كل مفصل .

وقال الأوزاعي في قوله تعالىٰ : ﴿ **واضربوا منهم كل بنان** ﴾ قال : اضرب منه الوجه والعين ، وارمه بشهاب من نار ، فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك .

وقال العوفي ، عن ابن عباس ، فذكر قصة بدر إلىٰ أن قال : فقال أبو جهل : لا تقتلوهم قتلًا ، ولكن خذوهم أخذًا ، حتىٰ تعرفوهم الذي صنعوا من طعنهم[٤] في دينكم ، ورغبتهم عن اللات والعزىٰ. فأوحىٰ اللَّه إلىٰ الملائكة : ﴿ **أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان**﴾، فقتل أبو جهل (لعنه اللَّه) في تسعة وستين رجلًا ، وأسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبرًا ، فوفىٰ ذلك سبعين ، يعني : قتيلًا .

ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **ذلك بأنهم شاقوا اللَّه ورسوله** ﴾ أي : خالفوهما فساروا في شق ، وتركوا الشرع والإِيمان به واتباعه في شق ، وهو مأخوذ أيضًا من شق العصا ، وهو جعلها فرقتين ، ﴿ **ومن يشاقق اللَّه ورسوله فإن اللَّه شديد العقاب** ﴾ أي : هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه ، لا يفوته شيء ، ولا يقوم لغضبه شيء ، تبارك وتعالىٰ لا إله

(٥١) - هو العباس بن مرداس السلمي ، والبيت في تفسير ابن جرير (٤٣١/١٣) ، ولسان العرب مادة (بنن) .

(٥٢) - رواه ابن جرير (١٥٧٩٢/١٣) .

[١] - في ز : « قتلواهم » .
[٢] - في ز : « لافيته » .
[٣] - في ز : « جادرًا » .
[٤] - في ز : « طغيهم » .

[غيره ، ولا رب][١] سواه .

﴿ **ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار** ﴾ هذا خطاب للكفار ، أي : ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا ، واعلموا أيضًا أن للكافرين عذاب النار في الآخرة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٦)

يقول تعالىٰ متوعدًا علىٰ الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفًا** ﴾ أي : تقاربتم منهم ودنوتم منهم[٢] . ﴿ **فلا تولوهم الأدبار** ﴾ أي : تفروا وتتركوا أصحابكم . ﴿ **ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفًا لقتال** ﴾ أي : يفر بين يدي قرنه مكيدة ؛ ليريه أنه قد[٣] خاف منه فيتبعه ، ثم يكر عليه فيقتله ، فلا بأس عليه في ذلك ، نص عليه سعيد بن جبير والسدي .

وقال الضحاك : أن يتقدم عن أصحابه ليرىٰ غرة من العدّو فيصيبها .

﴿ **أو متحيزًا إلىٰ فئة** ﴾ أي : فر من هاهنا إلىٰ فئة أخرىٰ من المسلمين ؛ يعاونهم ويعاونوه ، فيجوز له ذلك حتىٰ لو[٤] كان في سرية ، ففر إلىٰ أميره أو إلىٰ الإمام الأعظم ، دخل في هذه الرخصة .

قال الإمام أحمد(٥٣) : حدثنا حسن ، حدثنا زهير ، حدثنا يزيد بن أبي زياد ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلي ، عن عبد اللّٰه بن عمر رضي اللّٰه عنهما ، قال : كنت في سرية من سرايا رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، فحاص الناس حيصة ، وكنت فيمن حاص[٥] ، فقلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب[٦] ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة فبتنا ، ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا علىٰ رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة ، فخرج فقال : « **من القوم ؟** » فقلنا : نحن

(٥٣) - **إسناده ضعيف** ، يزيد بن أبي زياد تكلم فيه غير واحد من الأئمة ، وهو في المسند ٥٣٨٤ - (٢/ ٧٠) وسنن أبي داود برقم (٢٦٤٧) وسنن الترمذي برقم (١٧١٦) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٠٤) .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٢] - في م : « إليهم » .
[٣] - سقط من : ز ، خ .
[٤] - في ز : « ولو » .
[٥] - سقط من : ز ، خ .
[٦] - في ز ، خ : « بغضب » .

الفرارون . فقال : « **لا ، بل أنتم العكارون**(*) ، **أنا فئتكم ، وأنا فئة المسلمين** » . قال : فأتيناه حتىٰ قبلنا يده ، وهكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة من طرق : عن يزيد بن أبي زياد ، وقال الترمذي : حسن لا نعرفه إلا من [حديث ابن أبي زياد][١] .

ورواه ابن أبي حاتم من حديث يزيد بن أبي زياد به ، وزاد في آخره : وقرأ رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، هذه الآية : ﴿ **أو متحيزًا إلىٰ فئة** ﴾ .

قال أهل العلم : معنىٰ قوله: « **العكارون** » أي : العطافون ، وكذلك قال عمر بن الخطاب : - رضي اللّٰه عنه - [في أبي عبيدة][٢] ، لما قتل على الجسر[٣] بأرض فارس ، لكثرة الجيش من ناحية المجوس ، فقال عمر : لو انحاز إليّ كنت له فئة . هكذا رواه محمد ابن سيرين ، عن عمر(٥٤) .

وفي رواية أبي عثمان النهدي ، عن عمر قال : لما قتل أبو عبيدة[٤] ؛ قال عمر : أيها الناس ، أنا فئتكم(٥٥) .

وقال مجاهد : قال عمر : أنا فئة كل مسلم .

وقال عبد الملك بن عمير ، عن عمر : أيها الناس ، لا تغرنكم هذه الآية ، فإنما كانت يوم بدر ، وأنا[٥] فئة كل[٦] مسلم .

وقال ابن أبي حاتم(٥٦) : حدثنا أبي ، حدثنا حسان بن عبد اللّٰه المصري ، حدثنا خلاد ابن سليمان الحضرمي ، حدثنا نافع أنه سأل ابن عمر ، قلت : إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا ، ولا ندري من الفئة : إمامنا أو عسكرنا ؟ فقال : إن الفئة رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه

(*) العكارون : أي الكرارون إلى الحرب ، والعطافون نحوها ، يقال للرجل يولي عن الحرب ثم يكر راجعاً إليها : عكر ، واعتكر ، وعكرت عليه إذا حملت .النهاية ٢٨٣/٣)

وحاص المسلمون حيصة : أي جالوا جولة يطلبون الفرار ، والمحيص : المهرب ، والمحيد ، ويروى بالجيم ، والضاد المعجمة (النهاية ٤٦٨/١) .

(٥٤) - رواه ابن جرير في تفسيره (١٥٨١٢/١٣) .

(٥٥) - رواه ابن جرير (١٥٨١٤/١٣) .

(٥٦) - رواه ابن أبي حاتم (٨٨٩٧/٥)

---

[١] - في ز ، خ : « حديثه » .

[٢] - في ز ، خ : « عن أبي عبيد » .

[٣] - في ز : « الحر » .

[٤] - في خ : « عبيد » .

[٥] - في ز ، خ : « أنه » .

[٦] - في ز : « لكل » .

وسلم . فقلت : إن اللّٰه يقول : ﴿ **إذا لقيتم الذين كفروا زحفًا فلا تولوهم الأدبار** ﴾ . فقال : إنما نزلت هذه الآية في يوم بدر ، لا قبلها ولا بعدها .

وقال الضحاك في قوله : ﴿ **أو متحيزًا إلى فئة** ﴾ المتحيز الفار إلىٰ النبي وأصحابه ، وكذلك من فر اليوم إلىٰ أميره أو أصحابه .

فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب ؛ فإنه حرام وكبيرة من الكبائر ، لما رواه البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة رضي اللّٰه عنه قال(٥٧) : قال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **اجتنبوا السبع الموبقات** » قيل : يا رسول اللّٰه ، وما هن ؟ قال : «**الشرك باللّٰه ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم اللّٰه إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات** » .

[ولهذا الحديث][١] شواهد من وجوه أخر ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **فقد باء** ﴾ أي : رجع ﴿ **بغضب من اللّٰه ومأواه** ﴾ أي : مصيره ومنقلبه يوم ميعاده [ ][٢] ﴿ **جهنم وبئس المصير** ﴾ .

وقال الإمام أحمد(٥٨) : حدثنا زكريا بن عدي ، حدثنا عبيد اللّٰه بن عمرو الرقي ، عن زيد بن أبي أنيسة ، حدثنا جبلة بن سحيم ، عن أبي المثنىٰ العبدي ، سمعت السدوسي - يعني ابن الخصاصية[٣] - وهو بشير بن معبد - قال : أتيت ، النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، لأبايعه ؛ فاشترط عليَّ شهادة أن لا إله إلا اللّٰه ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأن أقيم الصلاة ، وأن أؤدي الزكاة ، وأن أحج حجة الإسلام ، وأن أصوم شهر رمضان ، وأن أجاهد في سبيل اللّٰه . فقلت : يا رسول اللّٰه ، أما اثنتان[٤] فواللّٰه لا أطيقهما ؛ الجهاد : فإنهم زعموا أنه[٥] من ولىٰ الدبر ، فقد باء بغضب من اللّٰه ؛ فأخاف إن حضرت ذلك خشعت نفسي وكرهت الموت . والصدقة: فواللّٰه مالي إلا غنيمة وعشر ذَوْد هن رَسَل أهلي

(٥٧) - صحيح البخاري في الوصايا برقم (٢٧٦٦) ، وصحيح مسلم في الإيمان برقم (٨٩) .

(٥٨) - المسند برقم ٢٢٠٤٧ - (٥/٢٢٤) . ورواه الطبراني في الكبير (٢/٤٤ ، ٤٥ رقم ١٢٣٣ ، ١٢٣٤) ، وفي الأوسط كما في مجمع البحرين (١/٨٤ رقم ٤٠) من طرقٍ عن عبيد الله بن عمرو به . وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٤٢) وقال : رواه أحمد ، والطبراني في الكبير ، والأوسط ، واللفظ للطبراني ، ورجال أحمد موثقون .

[١] - ما بين المعكوفتين في ت : « وله » .

[٢] - ما بين المعكوفتين في خ، ز : «مأواه».

[٣] - في ز : « الحضاضية » .

[٤] - في خ : « اثنتين » .

[٥] - في ت : « أن » .

وحمولتهم. فقبض رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم يده ، ثم حرك يده ، ثم قال : « **فلا**[١] **جهاد ولا صدقة ، فبم تدخل الجنة إذًا ؟** » فقلت[٢] : يا رسول اللَّه ، أنا[٣] أبايعك . فبايعته عليهن كلهن .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، ولم يخرجوه في الكتب الستة .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني(٥٩) : حدثنا أحمد بن محمد بن يحيىٰ بن حمزة ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم أبو النضر ، حدثنا يزيد بن ربيعة ، حدثنا أبو الأشعث ، عن ثوبان ، عن النبي، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، قال : « **ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف** » .

وهذا أيضًا حديث غريب جدًّا .

وقال الطبراني أيضًا (٦٠) : حدثنا العباس بن الفضل[٤] الأسفاطي ، حدثنا موسىٰ بن إسماعيل ، حدثنا حفص بن عمر الشني[٥] ، حدثني عمرو بن مرة ، قال : سمعت بلال بن يسار بن زيد مولىٰ رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، قال : سمعت أبي يحدث عن جدي ، قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **من قال : أستغفر اللَّه الذي لا إله إلا هو وأتوب إليه ، غفر له وإن كان قد فر من الزحف** » .

وهكذا رواه أبو داود عن موسىٰ بن إسماعيل به . [وأخرجه الترمذي عن البخاري ، عن موسىٰ بن إسماعيل به][٦] . وقال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

---

(٥٩) - **إسناده ضعيف** ، وهو في المعجم الكبير (٢/٩٥) ، وقال الهيثمي في المجمع (١٠٤/١) : « فيه يزيد ابن ربيعة ضعيف » . وأحمد بن محمد بن يحيى : ضعفه ابن حبان .

(٦٠) - المعجم الكبير ٤٦٧٠ - (٨٩/٥) ، وهو في سنن أبي داود ، في الصلاة ، باب : الاستغفار ، برقم (١٥١٧) ، وسنن الترمذي في الدعوات برقم (٣٥٧٧) . وقال المنذري : وإسناده جيد متصل ، فقد ذكر البخاري في تاريخه الكبير أن بلالاً سمع من أبيه يسار ، وأن يسار سمع من أبيه زيد مولى رسول الله ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، وقد اختلف في يسار والد بلال هل هو بالباء الموحدة أو بالياء المثناة تحت .

ورواه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال : صحيح على شرطهما ؛ إلا أنه قالها ثلاثاً . ورواه الطبراني في الصغير (٩١/٢) من حديث علي بن حميد ، عن عمرو بن فرقد ، عن عبد الله بن المختار ، عن أبي إسحاق ، عن البراء بن عازب ، وقال : لم يروه عن أبي إسحاق إلا عبد الله بن المختار البصري ، ولا عن عبد الله إلا عمرو بن فرقد ، تفرد به علي بن حميد ، ورواه في الكبير من حديث ابن مسعود .

---

[١] - في ت : « لا » .

[٢] - في ت : « قلت » .

[٣] - سقط من : ز ، خ .

[٤] - في ز : « المفضل » .

[٥] - في ز ، خ : « السني » .

[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

قلت : ولا يعرف لزيد مولىٰ النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم عنه سواه .

وقد ذهب ذاهبون إلىٰ أن الفرار إنما كان حرامًا علىٰ الصحابة ؛ لأنه [يعني الجهاد][١] كان فرض عين عليهم ، وقيل : علىٰ الأنصار خاصة ؛ لأنهم بايعوا علىٰ السمع والطاعة في المنشط والمكره . وقيل : المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة ، يروىٰ هذا عن عمر ، وابن عمر ، وابن عباس ، وأبي هريرة ، وأبي سعيد ، وأبي نضرة ، ونافع مولىٰ ابن عمر ، وسعيد ابن جبير ، والحسن البصري ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك وغيرهم .

وحجتهم في هذا : أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيئون إليها سوى[٢] عصابتهم تلك ، كما قال النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض**(٦١) . **ولهذا قال عبد اللَّه بن المبارك**(٦٢) ، **عن مبارك بن فضالة ، عن الحسن في قوله : ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾** قال : ذلك يوم بدر ، فأما اليوم فإن انحاز إلىٰ فئة أو مصر - أحسبه قال : فلا بأس عليه .

وقال ابن المبارك أيضًا(٦٣) ، عن ابن لهيعة ، حدثني يزيد بن أبي حبيب قال : أوجب اللَّه تعالى لمن فر يوم بدر النار ، قال : **﴿ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفًا لقتال أو متحيزًا إلىٰ فئة فقد باء بغضب من اللَّه ﴾** ، فلما كان يوم أحد بعد ذلك ، قال : **﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقىٰ الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ﴾** إلىٰ قوله : **﴿ ولقد عفا اللَّه عنهم ﴾** ، ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين ، قال : **﴿ ثم وليتم مدبرين * ثم يتوب اللَّه من بعد ذلك علىٰ من يشاء ﴾** .

وفي سنن أبي داود ، والنسائي ، ومستدرك الحاكم ، وتفسير ابن جرير ، وابن مردويه من حديث داود بن أبي هند ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد(٦٤) أنه قال في هذه الآية : **﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾** إنما أنزلت في أهل بدر .

وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف حرامًا علىٰ غير أهل بدر ؛ وإن كان[٣]

(٦١) - رواه مسلم في الجهاد والسير ، برقم (١٧٦٣) ، والترمذي في التفسير ، سورة الأنفال برقم (٣٠٨١) ، وأحمد برقم (٢٢١) من حديث عمر .

(٦٢) - رواه الطبري (١٣/١٥٨٠٩) .

(٦٣) - رواه ابن جرير برقم (١٣/١٥٨١١) .

(٦٤) - رواه أبو داود في الجهاد ، باب : التولي يوم الزحف ، برقم (٢٦٤٨) ، والنسائي في الكبرى برقم (١١٢٠٣) ، والحاكم في المستدرك (٢/٣٢٧) ، وابن جرير (١٣/١٥٨٠٠) .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ . [٢] - في ت : « إلا » .

[٣] - سقط من : ز ، خ .

سبب [نزول الآية][١] فيهم ، كما دل عليه حديث أبي هريرة المتقدم ، من أن الفرار من الزحف من الموبقات ، كما هو مذهب الجماهير ، والله أعلم .

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾

يبين تعالىٰ أنه خالق أفعال العباد ، وأنه المحمود علىٰ جميع ما صدر عنهم من خير ؛ لأنه هو الذي وفقهم لذلك ، وأعانهم عليه[٢] ، ولهذا قال : ﴿ **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم** ﴾ أي : ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم ، مع كثرة عددهم وقلة عددكم ، أي[٣] : بل هو الذي أظفركم عليهم ، كما قال : ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون** ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ **لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين** ﴾ ، يعلم تبارك وتعالىٰ أن النصر ليس عن[٤] كثرة العدد ، ولا بلبس اللأمة والعدد ، وإنما النصر من [عند الله][٥] تعالىٰ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ .

ثم قال تعالىٰ لنبيه صلىٰ الله عليه وسلم أيضًا : في شأن القبضة من التراب ، التي حصب بها وجوه المشركين[٦] يوم بدر ، حين خرج من العريش ، بعد دعائه وتضرعه واستكانته ، فرماهم بها ، وقال : « **شاهت الوجوه** » ، ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا ، فأوصل الله تلك الحصباء إلىٰ أعين المشركين ؛ فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمىٰ** ﴾ أي : هو الذي بلغ ذلك إليهم وكبتهم بها لا أنت .

قال علي بن أبي طلحة(٦٥) ، عن ابن عباس : رفع رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، يديه - يعني يوم بدر - فقال : « **يارب ، إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبدًا** » . فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب ، فارم بها في وجوههم ، [فأخذ قبضة من

(٦٥) - رواه ابن جرير برقم (١٥٨٢٧/١٣) .

[١] - ما بين المعكوفتين في ز : « النزول » .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في خ : « على » .
[٥] - في خ : « عنده » .
[٦] - في ت : « الكافرين » .

التراب ، فرمىٰ بها في وجوههم][١] ، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين .

وقال السدي : قال رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، لعليٍّ رضي اللَّه عنه يوم بدر : « **أعطني حصبًا من الأرض** ». فناوله[٢] حصبًا عليه تراب ، فرمىٰ به في وجوه القوم ، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء ، ثم[٣] ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم ، وأنزل اللَّه : ﴿ **فلم تقتلوهم ولكن اللَّه قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن اللَّه رمىٰ** ﴾ .

وقال أبو معشر المدني(٦٦) ، عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي قالا : لما دنا القوم بعضهم من بعض ، أخذ رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، قبضة من تراب فرمىٰ بها في وجوه القوم ، وقال : « **شاهت الوجوه** » . فدخلت في أعينهم كلهم ، وأقبل أصحاب رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، يقتلونهم ويأسرونهم ، وكانت هزيمتهم في رمية رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، فأنزل اللَّه : ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن اللَّه رمىٰ** ﴾ .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن اللَّه رمىٰ** ﴾ قال : هذا يوم بدر ، أخذ رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، ثلاث حصيات[٤] ، فرمىٰ بحصاة[٥] ميمنة القوم ، وحصاة[٦] في ميسرة القوم ، وحصاة[٧] بين أظهرهم ، وقال : « **شاهت الوجوه** » . فانهزموا .

وقد روي في هذه القصة(٦٧) ، عن عروة [ابن الزبير و][٨] مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة وغير واحد من الأئمة : أنها نزلت في رمية النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم يوم بدر ، وإن كان[٩] قد فعل ذلك يوم حنين أيضًا .

---

(٦٦) - رواه ابن جرير برقم (١٥٨٢٣/١٣)

(٦٧) - انظر : تفسير ابن جرير (٤٤٣/١٣-٤٤٥) .

---

[١] - سقط من : ز ، خ .
[٢] - في ز ، خ : « فناولته » .
[٣] - في ز : « و » ، سقط من : خ .
[٤] - في ز : « حصبات » .
[٥] - في ز : « بحصبات » ، خ : « بحصيات » .
[٦] - في ز : « حصبات » ، خ : « وحصيات » .
[٧] - في ز : « حصبات » ، خ : « وحصيات » والمثبت من تفسير الطبري .
[٨] - في خ : « عن » .
[٩] - سقط من : ز .

وقال أبو جعفر بن جرير(٦٨) : حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا يعقوب بن محمد ، حدثنا عبد العزيز بن عمران ، حدثنا موسىٰ بن يعقوب بن عبد اللّه بن زمعة[١] ، عن يزيد ابن عبد اللّه ، عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة[٢] ، عن حكيم بن حزام قال : لما كان يوم بدر سمعنا صوتًا وقع من السماء ، كأنه صوت حصاة وقعت في طست ، ورمىٰ رسول اللّه ، صلىٰ اللّه عليه وسلم ، تلك الرمية فانهزمنا .

غريب من هذا الوجه ، وهٰهنا قولان آخران غريبان جدًّا :

(أحدهما) :

قال ابن جرير(٦٩) : حدثنا محمد بن عوف الطائي ، حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان بن عمرو[٣] ، حدثنا عبد الرحمن بن جبير : أن رسول اللّه ، صلىٰ اللّه عليه وسلم - يوم ابن أبي الحقيق بخيبر - دعا بقوس فأتي بقوس طويلة ، وقال : « **جيئوني بقوس غيرها** » فجاءوه بقوس كبداء(٧٠) ، فرمىٰ النبي ، صلىٰ اللّه عليه وسلم ، الحصن ، فأقبل السهم يهوي ، حتىٰ قتل ابن أبي الحقيق وهو في فراشه ، فأنزل اللّه عز وجل : ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن اللّه رمىٰ** ﴾ .

وهذا غريب ، وإسناده جيد إلىٰ عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، ولعله اشتبه عليه ، أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله ، وإلا فسياق الآية في سورة الأنفال في قصة بدر لا محالة ، وهذا مما لا يخفىٰ علىٰ أئمة العلم ، واللّه أعلم .

(والثاني) : روىٰ ابن جرير أيضًا ، والحاكم في مستدركه(٧١) ، بإسناد صحيح إلىٰ سعيد بن المسيب والزهري أنهما قالا : أنزلت في رمية النبي ، صلىٰ اللّه عليه وسلم ، يوم أحد أبي بن خلف بالحربة ، وهو في لأمته فخدشه في ترقوته ، فجعل يتدأدأ(٧٢) عن فرسه

(٦٨) - تفسير ابن جرير (١٥٨٢٢/١٣) وهو ضعيف لضعف عبد العزيز بن عمران . وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٤/٦) وقال : رواه الطبراني في الكبير ، والأوسط ، وإسناده حسن .

(٦٩) - رواه ابن أبي حاتم (٨٩١١/٥) ، ورواه الواحدي في أسباب النزول (١٧٤) وقد سقط هذا الأثر والذي يليه من نص ابن جرير وأثبته المحقق في الهامش (٤٤٦/١٣) .

(٧٠) - أي : معتدلة جيدة .

(٧١) - المستدرك (٣٢٧/٢) .

(٧٢) - أي : تدحرج وسقط .

[١] - في ز : « ربيعة » . [٢] - في ز : « حتمة » .

[٣] - في خ : « عمر » .

مرارًا ، حتىٰ كانت وفاته بعد أيام ، قاسىٰ فيها العذاب الأليم ، موصولًا بعذاب البرزخ المتصل بعذاب الآخرة .

وهذا القول عن هذين الإمامين غريب أيضًا جدًّا ، ولعلهما أرادا : أن الآية تتناوله بعمومها ، لا أنها نزلت فيه خاصة ، كما تقدم ، والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير في قوله : ﴿ **وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسنًا** ﴾ أي : ليعرّف المؤمنين [من][1] نعمته عليهم ؛ من إظهارهم علىٰ عدوهم ، مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ؛ ليعرفوا بذلك حقه ، ويشكروا بذلك نعمته (٧٣) .

وهكذا فسر ذلك[2] ابن جرير أيضًا ، وفي الحديث : « **وكل بلاء حسن أبلانا** » .

وقوله : ﴿ **إن الله سميع عليم** ﴾ أي : سميع الدعاء ، عليم بمن يستحق النصر والغلب .

وقوله : ﴿ **ذلكم[3] وأن الله موهن كيد الكافرين** ﴾ هذه بشارة أخرىٰ مع ما حصل من النصر ، أنه أعلمهم تعالىٰ بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل ، مصغر أمرهم ، وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار ، ولله الحمد والمنة .

إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

يقول تعالىٰ للكفار : ﴿ **إن تستفتحوا** ﴾ أي : تستنصروا وتستقضوا الله ، وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين ، فقد جاءكم ما سألتم ، كما قال محمد بن إسحاق وغيره ، عن الزهري ، عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعير[4] ؛ أن أبا جهل قال يوم بدر :اللهم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا نعرف ، فأحنه الغداة . وكان ذلك[5] استفتاحًا منه ، فنزلت : ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح** ﴾ إلىٰ آخر الآية .

(٧٣) - تفسير ابن جرير (١٣/١٥٨٣٠) .

[١] - سقط من خ .

[٢] - سقط من : ت .

[٣] - سقط من : ز ، خ .

[٤] - في ز : « صغير » .

[٥] - سقط من : ت .

وقال الإمام أحمد(٧٤) : حدثنا يزيد - يعني : ابن هارون - أخبرنا محمد بن إسحاق ، حدثني الزهري ، عن عبد اللَّه بن ثعلبة ، أن أبا جهل قال حين التقىٰ القوم : اللهم ، أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا نعرف ، فأحنْه الغداة . فكان المستفتح .

وأخرجه النسائي في التفسير من حديث صالح بن كيسان ، عن الزهري ، به . وكذا رواه الحاكم في مستدركه ، من طريق الزهري به ، وقال : صحيح علىٰ شرط الشيخين ، ولم يخرجاه . وروي نحو[١] هذا عن ابن عباس ومجاهد ، والضحاك وقتادة ، ويزيد بن رومان وغير واحد .

وقال السدي : كان المشركون حين خرجوا من مكة إلىٰ بدر ، أخذوا بأستار الكعبة ، فاستنصروا اللَّه ، وقالوا : اللهم ، انصر أعلىٰ الجندين ، وأكرم الفئتين ، وخير القبيلتين . فقال اللَّه : ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح** ﴾ يقول : قد نصرت ما قلتم ، وهو محمد ﷺ .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو قوله تعالىٰ إخبارًا عنهم : ﴿ **وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وإن تنتهوا** ﴾ أي : عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ، ﴿ **فهو خير لكم** ﴾ أي : في الدنيا والآخرة .

[وقوله تعالىٰ][٢] : ﴿ **وإن تعودوا نعد** ﴾ ، [ ][٣] كقوله : ﴿ **وإن عدتم عدنا** ﴾ معناه : وإن عدتم إلىٰ ما كنتم فيه من الكفر والضلالة ، نعد لكم بمثل هذه الوقعة[٤] .

وقال السدي : ﴿ **وإن تعودوا** ﴾ أي : إلىٰ الاستفتاح ﴿ **نعد** ﴾ أي[٥] : إلىٰ الفتح لمحمد صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، والنصر له ، وتظفيره علىٰ أعدائه ، والأول أقوىٰ .

﴿ **ولن تغني عنكم فئتكم شيئًا ولو كثرت** ﴾ أي : ولو جمعتم من الجموع ما عسىٰ أن تجمعوا ، فإن من كان اللَّه معه ، فلا غالب له ، فإن اللَّه مع المؤمنين ، وهم الحزب النبوي والجناب المصطفوي .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ

---

[١] - سقط من : ز ، خ .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٣] - ما بين المعكوفتين في ز : « أي » .
[٤] - في ت : « الواقعة » .
[٥] - سقط من : ز .

ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

يأمر تعالىٰ عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ، ويزجرهم عن مخالفته ، والتشبه بالكافرين به المعاندين له ، ولهذا قال : ﴿ **ولا تولوا عنه** ﴾ أي : تتركوا طاعته وامتثال أوامره ، وترك زواجره ﴿ **وأنتم تسمعون** ﴾ أي : بعد ما علمتم ما دعاكم إليه .

﴿ **ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون** ﴾ قيل : المراد المشركون . و[١]اختاره ابن جرير .

وقال ابن إسحاق : هم المنافقون ؛ فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا ، وليسوا كذلك .

ثم أخبر تعالىٰ أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة، فقال: ﴿ **إن شر الدواب عند الله الصم** ﴾ أي : عن سماع الحق ، ﴿ **البكم** ﴾ عن فهمه ؛ ولهذا قال : ﴿ **الذين لا يعقلون** ﴾ فهؤلاء شر البرية ؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة للَّه فيما خلقها له ، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا ؛ ولهذا شبههم بالأنعام في قوله : ﴿ **ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون** ﴾ ، وقال في الآية الأخرى : ﴿ **أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾ .

وقيل : المراد بهؤلاء المذكورين نفر من بني عبد الدار من قريش . روي عن ابن عباس ومجاهد ، واختاره ابن جرير .

وقال محمد بن إسحاق : هم المنافقون .

قلت : ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا ؛ لأن كلًّا منهم مسلوب الفهم الصحيح ، والقصد إلىٰ العمل الصالح .

ثم أخبر تعالىٰ بأنهم لا فهم لهم صحيح ، ولا قصد لهم صحيح ، لو فرض أن لهم فهمًا ، فقال : ﴿ **ولو علم الله فيهم خيرًا لأسمعهم** ﴾ أي : لأفهمهم ، وتقدير الكلام ولكن لا خير فيهم ، فلم يفهمهم ؛ لأنه يعلم أنه ﴿ **لو أسمعهم** ﴾ أي : أفهمهم ﴿ **لتولوا** ﴾ عن ذلك قصدًا وعنادًا بعد فهمهم ذلك . ﴿ **وهم معرضون** ﴾ عنه .

---

[١] - سقط من : ز .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

قال البخاري(٧٥) : ﴿ **استجيبوا** ﴾ أجيبوا ﴿ **لما يحييكم** ﴾ لما يصلحكم . حدثنا[١] إسحاق ، حدثنا روح ، حدثنا شعبة ، عن خبيب بن عبد الرحمن ؛ قال : سمعت حفص ابن عاصم يحدث ، عن أبي سعيد بن المعلى - رضي اللَّه عنه - قال : كنت أصلي ، فمر [بي النبي][٢] صلىٰ اللَّه عليه وسلم فدعاني ، فلم آته حتىٰ صليت ، ثم أتيته ، فقال : « **ما منعك أن تأتيني ؟ ألم يقل اللَّه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا للَّه وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾** ». ثم قال : « **لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج** ». فذهب رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم ليخرج ، فذكرت له - وقال معاذ : حدثنا شعبة ، عن خبيب بن عبد الرحمن ، سمع حفص بن عاصم ، سمع أبا سعيد رجلًا من أصحاب النبي ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، بهذا - وقال : هي[٣] ﴿ **الحمد للَّه رب العالمين** ﴾ السبع المثاني .

هذا لفظه بحروفه ، وقد تقدم الكلام علىٰ هذا الحديث بذكر طرقه في أول تفسير الفاتحة .

وقال مجاهد في قوله : ﴿ **لما يحييكم** ﴾ قال : الحق[٤] .

وقال قتادة : ﴿ **لما يحييكم** ﴾ قال : هو هذا القرآن ، فيه النجاة والتقاة والحياة .

وقال السدي : ﴿ **لما يحييكم** ﴾ ففي الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر .

وقال محمد بن إسحاق(٧٦) ، عن محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا للَّه وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ أي : للحرب التي أعزكم اللَّه تعالىٰ بها بعد الذل ، وقواكم بها بعد الضعف ، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم .

---

(٧٤) - المسند ٢٣٧٧٢ - (٤٣١/٥) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٢٠١) والمستدرك (٣٢٨/٢) .

(٧٥) - البخاري في تفسير القرآن ، باب : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم ...** ﴾ برقم (٤٦٤٧) .

---

[١] - في : « حدثني » .

[٢] - في ز : « رسول الله » .

[٣] - سقط من : ز ، خ .

[٤] - في ت : « للحق » .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **واعلموا أن اللَّه يحول بين المرء وقلبه** ﴾ قال ابن عباس : يحول بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر وبين الإِيمان(٧٧) .

رواه الحاكم في مستدركه موقوفًا(٧٨) ، وقال : صحيح ولم يخرجاه . ورواه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعًا (٧٩) ، ولا يصح ؛ لضعف إسناده ، والموقوف أصح . وكذا قال مجاهد وسعيد وعكرمة والضحاك وأبو صالح وعطية ومقاتل بن حيان والسدي في رواية عن مجاهد في قوله : ﴿ **يحول بين المرء وقلبه** ﴾ حتىٰ تركه لا يعقل .

وقال السدي : يحول بين الإِنسان وقلبه ؛ فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه .

وقال قتادة : هو كقوله : ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ .

وقد وردت الأحاديث عن رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، بما يناسب هذه الآية .

وقال الإِمام أحمد(٨٠) : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن أنس بن مالك -رضي اللَّه عنه- قال : كان النبي ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، يكثر أن يقول : « **يا مقلب القلوب ، ثبت قلبي علىٰ دينك** » . [قال][١] فقلنا : يا رسول اللَّه ، آمنا بك ، وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ . قال : « **نعم ، إن القلوب بين أصبعين من أصابع اللَّه تعالىٰ يقلبها** » .

وهكذا رواه الترمذي في كتاب القدر من جامعه ، عن هناد بن السري ، عن أبي معاوية محمد بن حازم الضرير ، عن الأعمش - واسمه سليمان بن مهران - عن أبي سفيان - واسمه طلحة بن نافع - عن أنس ، ثم قال : حسن .

وهكذا روي عن غير واحد ، عن الأعمش ، ورواه بعضهم عنه ، عن أبي سفيان ، عن جابر ، عن النبي ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، وحديث أبي سفيان عن أنس أصح(٨١) .

---

(٧٦) - رواه ابن جرير موقوفاً على ابن إسحاق - قوله - رقم ١٢م٠١٥٨٧٣) .

(٧٧) - رواه ابن جرير (١٥٨٨٩/١٣) .

(٧٨) - المستدرك (٣٢٨/٢) ولفظه : « يحول بين الكافر ، وبين الإيمان ، ويحول بين المؤمن وبين المعاصي » .

(٧٩) - ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٥/٤) .

(٨٠) - رواه أحمد في المسند ١٢١٢٧ - (١١٢/٣) ، ١٢٧٢٢ - (٢٥٧/٣) عن عفان عن عبد الواحد عن الأعمش به ، والترمذي برقم (٢١٤٠) . ورواه الحاكم مختصراً (٥٢٦/١) ، ورواه أبو يعلى ٣٦٨٧ - (٣٥٩/٦) ، و٣٦٨٨ - (٣٦٠/٦) وروى الطبراني من حديث ثابت عن أنس : أن النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم كان يدعو : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك .

---

[١] - سقط من خ ..

(حديث آخر) [قال الإمام أحمد][١] ، وقال عبد بن حميد في مسنده(٨٢) : حدثنا عبد الملك بن عمرو ، حدثنا شعبة عن الحكم ، عن ابن أبي ليلى ، عن بلال - رضي الله عنه - أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم كان يدعو : « **يا مقلب القلوب ، ثبت قلبي علىٰ دينك** » هذا حديث جيد الإِسناد إلا أن فيه انقطاعًا ، وهو مع ذلك علىٰ شرط أهل السنن ، ولم يخرجوه .

(حديث آخر) قال[٢] الإِمام أحمد(٨٣) : حدثنا الوليد بن مسلم قال : سمعت ابن جابر يقول : حدثني بسر[٣] بن عبد الله الحضرمي ، أنه سمع أبا إدريس الخولاني يقول : سمعت النواس بن سمعان الكلابي - رضي الله عنه - يقول : سمعت النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ، يقول : « **ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين ، إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه** » . وكان يقول : « **يا مقلب القلوب ، ثبت قلوبنا علىٰ دينك** » . قال : « **والميزان بيد الرحمن ، يخفضه ويرفعه** » .

وهكذا رواه النسائي وابن ماجة ، من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، فذكر مثله .

(حديث آخر) قال الإِمام أحمد(٨٤) : حدثنا يونس ، حدثنا حماد بن زيد ، عن المعلىٰ ابن زياد ، عن الحسن ؛ أن عائشة قالت : دعوات كان رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، يدعو بها : « **يا مقلب القلوب ، ثبت قلبي علىٰ دينك** » . قالت : فقلت : يا رسول الله ، إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء . فقال : « **إن قلب الآدمي بين أصبعين من أصابع الله ؛ فإذا شاء أزاغه ؛ وإذا شاء أقامه** » .

(حديث آخر) قال الإِمام أحمد(٨٥) : حدثنا هاشم ، حدثنا عبد الحميد ، حدثني[٤]

(٨١) - رواه الحاكم في المستدرك (٢٨٨/٢) من طريق الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر ، رضي الله عنه ، وقال : وقد أخرج مسلمٌ حديث عبد الله بن عمرو في قلوب بني آدم . ورواه أبو يعلى ٢٣١٨ - (٢٠٧/٤) .

(٨٢) - رواه أحمد ، وعبد بن حميد كما في المنتخب برقم (٣٥٩) .

(٨٣) - المسند ١٧٦٦٧ - (١٨٢/٤) وسنن النسائي الكبرى برقم (٧٧٣٨) وسنن ابن ماجة برقم (١٩٩) .

(٨٤) - المسند (٩١/٦) . وروى الطبراني معناه في الأوسط (٣١٩/٢) رقم ١٥٥٣ ، من حديث مبارك بن فضالة ، عن علي بن زيد ، عن ابن أبي مليكة ، عن عائشة ، وقال الطبراني : لم يرو هذا الحديث عن مبارك إلا معلى ، تفرد به إبراهيم .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت .

[٢] - في ز : « وقال » .

[٣] - في خ : « بشر » .

[٤] - في خ : « حدثنا » .

شهر ، سمعت أم سلمة تحدث ؛ أن رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، كان يكثر في دعائه ، يقول: « **اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي علىٰ دينك** » . قالت : فقلت[١] : يا رسول الله ، أو إن القلوب لتقلب ؟ قال : « **نعم ، ما خلق الله من بشر من بني آدم ، إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل ؛ فإن شاء أقامه ، وإن شاء أزاغه ، فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة ، إنه هو الوهاب** » . قالت : فقلت[٢] : يا رسول الله ؛ ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي ؟ قال : « **بلىٰ ، قولي : اللهم رب النبي محمد ، اغفر لي ذنبي ، وأذهب غيظ قلبي ، وأجرني من مضلات الفتن ما أحييتني** » .

(حديث آخر) : قال الإمام أحمد(٨٦) : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة ، أخبرني أبو هانئ ، أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلي ، أنه سمع عبد الله بن عمرو ، أنه سمع رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، يقول : « **إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن ، كقلب واحد ، يصرف كيف شاء** » . ثم قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **اللهم مصرف القلوب ، صرف قلوبنا إلىٰ طاعتك** » .

انفرد[٣] بإخراجه مسلم عن البخاري ، فرواه مع النسائي من حديث حيوة بن شريح المصري به .

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾

يحذر تعالىٰ عباده المؤمنين ﴿ **فتنة** ﴾ ، أي : اختبارًا ومحنة يعم بها المسيئ وغيره ، لا يخص بها أهل المعاصي ، ولا من باشر الذنب ، بل يعمها[٤] حيث لم تدفع وترفع ، كما قال الإمام أحمد(٨٧) : حدثنا أبو سعيد مولىٰ بني هاشم ، حدثنا شداد بن سعيد ، حدثنا

(٨٥) - المسند (٣٠١/٦) ، ورواه الترمذي في السنن برقم (٣٥٢٢) من طريق شهر بن حوشب ، به . قال الترمذي : « هذا حديث حسن » . ورواه الطبراني (٣٣٨/٢٣) رقم ٧٨٥ ، ورواه الطبراني أيضاً من حديث الحسن ، عن أمه ، عن أم سلمة (٣٦٦/٢٣) رقم ٨٦٥ .

(٨٦) - المسند ٦٥٦٩ - (١٦٨/٢) ، وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٥) ، وسنن النسائي الكبرى برقم (٧٨٦١) .

(٨٧) - المسند (١٦٥/١ ، ١٦٧) .

[١] - في ز : « قلت » .

[٢] - في ز : « قلت » .

[٣] - في خ : « تفرد » .

[٤] - في خ : « يعمهما » .

غيلان بن جرير ، عن مطرف ؛ قال : قلنا للزبير : يا أبا عبد اللَّه ؛ ما جاء بكم ؟ ضيعتم الخليفة الذي قتل ، ثم جئتم تطلبون بدمه ؟ فقال الزبير -رضي اللَّه عنه- : إنا قرأنا على عهد رسول اللَّه ، صلى اللَّه عليه وسلم ، وأبي بكر وعمر وعثمان رضي اللَّه عنهم : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ لم نكن نحسب أنا أهلها ، حتى وقعت منا حيث وقعت .

وقد رواه البزار(٨٨) ، من حديث مطرف ، عن الزبير . وقال : لا نعرف مطرفًا روى عن الزبير غير هذا الحديث .

وقد روى النسائي(٨٩) ، من حديث جرير[١] بن حازم ، عن الحسن ، عن الزبير نحو هذا .

و[٢]روى ابن جرير(٩٠) ، حدثني الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا مبارك بن فضالة ، عن الحسن قال : قال الزبير : لقد خوفنا بها[٣] ، يعني قوله تعالى : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ ، ونحن مع رسول اللَّه ، صلى اللَّه عليه وسلم ، وما ظننا أنا خصصنا بها خاصة .

وكذا رواه حميد ، عن الحسن ، عن الزبير ، رضي اللَّه عنه(٩١) .

وقال داود بن أبي هند ، عن الحسن في هذه الآية ، قال : نزلت في علي وعمار وطلحة والزبير رضي اللَّه عنهم(٩٢) .

وقال سفيان الثوري ، عن الصلت بن دينار ، عن عقبة بن صهبان[٤] ، سمعت الزبير يقول : لقد قرأت هذه الآية زمانًا ، وما أرانا من أهلها ، فإذا نحن المعنيون بها : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن اللَّه شديد العقاب** ﴾(٩٣) .

---

(٨٨) - مسند البزار برقم (٩٧٦) ، وفي إسناده الحجاج بن نصير ، وهو ضعيف .
(٨٩) - وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٢٠٦) .
(٩٠) - تفسير ابن جرير (١٣/١٥٩١٣) .
(٩١) - رواه ابن جرير (١٣/١٥٩٠٥) ، وفي إسناده زيد بن عوف : ضعيف .
(٩٢) - رواه ابن جرير (١٣/١٥٩٠٣) .
(٩٣) - رواه ابن جرير (١٢/١٥٩٠٦) .

---

[١] - في ز : « جابر » .
[٢] - في م : « وقد » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في ز : « ضبيان » .

وقد روي من غير وجه ، عن الزبير بن العوّام .

وقال السدي : نزلت في أهل بدر خاصة ، فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله تعالىٰ : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ يعني أصحاب النبي ، صلىٰ اللّه عليه وسلم ، خاصة .

وقال في رواية له[١] ، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : أمر اللّه المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين ظهرانيهم ، فيعمهم اللّه بالعذاب .

وهذا تفسير حسن جدًّا ، ولهذا قال مجاهد في قوله تعالىٰ : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ : هي أيضًا لكم . وكذا قال الضحاك ويزيد بن أبي حبيب وغير واحد .

وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل علىٰ فتنة ، إن اللّه تعالىٰ يقول : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ ، فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن . رواه ابن جرير .

والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم ، وإن كان الخطاب معهم - هو الصحيح ؛ ويدل [على ذلك][٢] الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن ؛ ولذلك كتاب مستقل يوضح فيه إن شاء اللّه تعالىٰ ، كما فعله الأئمة وأفردوه بالتصنيف ؛ ومن أخص ما يذكر هٰهنا ، ما رواه الإمام أحمد حيث قال(٩٤) : حدثنا أحمد بن الحجاج ، أخبرنا عبد اللّه - يعني : ابن المبارك - أنبأنا سيف بن أبي سليمان ، سمعت عدي بن عدي الكندي يقول ؛ حدثني مولىٰ لنا أنه سمع جدي - يعني : عدي بن عميرة - يقول : سمعت رسول اللّه ، صلىٰ اللّه عليه وسلم ، يقول : « **إن اللّه - عز وجل - لا يعذب العامّة بعمل الخاصة ؛ حتىٰ يروا المنكر بين ظهرانيهم ، وهم قادرون علىٰ أن ينكروه ، فلا ينكروه ، فإذا فعلوا ذلك عذب اللّه الخاصة والعامّة** » .

---

(٩٤) - **إسناده ضعيف** ، لجهالة الراوي عن عدي بن عميرة ، وهو في المسند ١٧٧٧٠- (١٩٢/٤) ، ورواه أحمد ١٧٧٧٣ - (١٩٢/٤) ، والحديث أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٨/١٧ - ١٣٩) حديث (٣٤٣ ، ٣٤٤) ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧١/٧) وقال : رواه أحمد من طريقين - إحداهما هذه ، والأخرى : حدثني عدي بن عدي ، حدثني مولى لنا ... وهو الصواب - وكذا رواه الطبراني ، وفيه رجل لم يسم ، وبقية رجال أحد الأسانيد ثقات .

---

[١] - في ز ، خ : « عنه » .

[٢] - ما بين المعكوفتين في ت : « عليه » .

فيه رجل مبهم[١] ، ولم يخرجوه في الكتب الستة ، ولا واحد منهم ، والله أعلم .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد(٩٥) : حدثنا سليمان الهاشمي ، حدثنا إسماعيل - يعني : ابن جعفر - أخبرني عمرو بن أبي عمرو[٢] ، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهل ، عن حذيفة بن اليمان ؛ أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « **والذي نفسي بيده ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهونّ عن المنكر ، أو[٣] ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده ، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم** » .

ورواه عن أبي سعيد(٩٦) ، عن إسماعيل بن جعفر ، وقال : « **أو ليبعثن الله عليكم قومًا ، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم** » .

وقال الإمام[٤] أحمد(٩٧) : حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا رزين[٥] بن حبيب الجهني ، حدثني أبو الرقاد ، قال : خرجت مع مولاي ، فدفعت إلى حذيفة ، وهو يقول : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة ، على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير منافقًا ، وإني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات ؛ لتأمرن بالمعروف ، و[٦]لتنهون عن المنكر ، ولتحاضن على الخير ، أو ليسحتنكم الله جميعًا بعذاب ، أو ليؤمرن عليكم شراركم ؛ ثم يدعو[٧] خياركم فلا يستجاب لهم .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد أيضًا(٩٨) : حدثني[٨] يحيى بن سعيد ، عن زكريا ، حدثنا عامر رضي الله عنه ؛ قال : سمعت النعمان بن بشير رضي الله عنه يخطب يقول - وأومأ بأصبعيه إلى أذنيه[٩] - يقول : مثل القائم على حدود الله ، والواقع فيها ، والمدهن

---

(٩٥) - المسند ٢٣٤٠٨ - (٥/٣٨٨) ، ورواه الترمذي في كتاب الفتن ، باب : ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤/٤٦٨/رقم : ٢١٦٩) .

(٩٦) - المسند ٢٣٤٣٤ - (٥/٣٩١) .

(٩٧) - المسند ٢٣٤١٩ - (٥/٣٩٠) . والحديث ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٩٧) وعزاه لأحمد وقال : « وفيه أبو الرقاد الجهني ، ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات » .

(٩٨) - المسند ١٨٤٢٢ - (٤/٢٦٩) ، وصحيح البخاري برقم (٢٤٩٣) ، (٢٦٨٦) وسنن الترمذي برقم (٢١٧٣) .

---

[١] - في ز : « منهم » .

[٢] - في ز ، خ : « عمر » .

[٣] - في ز : « و » .

[٤] - سقط من : ز .

[٥] - في ز ، خ : « زر » .

[٦] - في ز : « أو » .

[٧] - في ز : « يدعوا » .

[٨] - في خ : « حدثنا » .

[٩] - في خ : « أذنه » .

فيها ؛ كمثل قوم ركبوا سفينة ، فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها ، وأصاب بعضهم أعلاها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء ، مروا على من فوقهم فآذوهم ؛ فقالوا : لو خرقنا في نصيبنا خرقًا فاستقينا منه ، ولم نؤذ من فوقنا . فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعًا ؛ وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعًا .

انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم ، فرواه في الشركة والشهادات ، والترمذي في الفتن ، من غير وجه ، عن سليمان بن مهران الأعمش ، عن عامر بن شراحيل الشعبي ، به .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد(٩٩) : حدثنا حسين ، حدثنا خلف بن خليفة ، عن ليث ، عن علقمة بن مرثد ، عن المعرور بن سويد ، عن أم سلمة زوج النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قالت : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : « **إذا ظهرت المعاصي في أمّتي عمهم الله بعذاب من عنده** » . فقلت : يا رسول الله ، أما فيهم أناس صالحون ؟ قال : « **بلى** » قالت: فكيف يصنع أولئك ؟ قال : « **يصيبهم ما أصاب الناس ، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان** » .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد(١٠٠) : حدثنا حجاج بن محمد ، حدثنا[١] شريك ، عن أبي إسحاق ، عن المنذر بن جرير ، عن أبيه قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « **ما من قوم يعملون بالمعاصي[٢] ، وفيهم رجل أعز منهم وأمنع لا يغيرون - إلا عمهم الله بعقاب ، أو أصابهم العقاب** » .

ورواه أبو داود : عن مسدد ، عن أبي الأحوص ، عن أبي إسحاق ، به .

وقال الإمام أحمد أيضًا(١٠١) : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، سمعت أبا إسحاق يحدث، عن عبيد الله بن جرير ، عن أبيه ؛ أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال :

---

(٩٩) - المسند ٢٦٧٠٥ - (٣٠٤/٦) ، ورواه بإسناد آخر ٢٦٦٣٧ - (٢٩٤/٦) ، ورواه الطبراني في المعجم الكبير برقم ٧٤٧ - (٣٢٥/٢٣) ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٨/٧) وقال : رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح .

(١٠٠) - المسند ١٩٢٤٨ - (٣٦١/٤) ، ورواه أبو داود برقم (٤٣٣٩) ، وأبو يعلى في مسنده ٧٥٠٨ - (٤٩٧/١٣) ، والطبراني في الكبير ٢٣٧٩ - (١٣٣١/٢) ، وعبد الرزاق في مصنفه ٢٠٧٢٣ - (١١/ ٣٤٨) ، وابن حبان ٣٠٠ - (٥٣٦/١) ، والبيهقي (٩١/١٠) .

(١٠١) - المسند ١٩٢٨٥ - (٣٦٤/٤) ، و١٩٣٠٩ - (٣٦٦/٣) ، وانظر الحديث السابق .

---

[١] - في ز : أخبرنا . [٢] - في ز : « المعاصي » .

« ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعمله[١] ، ثم[٢] لم يغيروه ، إلا عمهم الله بعقاب » .

ثم رواه أيضًا ، عن وكيع ، عن إسرائيل . وعن عبد الرزاق ، عن معمر ، وعن أسود ، عن شريك ويونس كلهم ، عن أبي إسحاق السبيعي ، به .

وأخرجه ابن ماجة عن علي بن محمد ، عن وكيع ، به(١٠٢) .

وقال الإمام أحمد(١٠٣) : حدثنا سفيان ، حدثنا جامع بن أبي راشد ، عن منذر ، عن الحسن بن محمد ، عن امرأته ، عن عائشة تبلغ به النبي صلىٰ الله عليه وسلم : **« إذا ظهر السوء في الأرض ؛ أنزل الله بأهل الأرض بأسه »** . فقالت[٣] : وفيهم أهل طاعة الله ؟ قال : **« نعم ، ثم يصيرون إلىٰ رحمة الله »** .

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

ينبه تعالىٰ عباده المؤمنين علىٰ نعمه عليهم ، وإحسانه إليهم ، حيث كانوا قليلين فكثرهم ، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم ، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات ، واستشكرهم فأطاعوه ، وامتثلوا جميع ما أمرهم . وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة ، قليلين مستخفين مضطرين ، يخافون أن يتخطفهم[٤] الناس من سائر بلاد الله ، من مشرك ومجوسي ورومي ، كلهم أعداء لهم ؛ لقلتهم وعدم قوتهم ، فلم يزل ذلك دأبهم ، حتىٰ أذن الله لهم في الهجرة إلىٰ المدينة ، فآواهم إليها ، وقيض لهم أهلها ؛ آووا ونصروا يوم بدر وغيره ، وآسوا بأموالهم ، وبذلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله صلىٰ الله عليه وسلم .

قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله(١٠٤) في قوله تعالى : **﴿ واذكروا إذ أنتم قليل**

---

(١٠٢) - سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برقم (٤٠٠٩) .

(١٠٣) - المسند ٤٢٢٤٢ - (٤١/٦) ، ورواه الحاكم في المستدرك (٥٢٣/٤) من طريق الحسن بن محمد عن مولاة لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قالت : دخل النبي صلىٰ الله عليه وسلم على عائشة أو على بعض أزواج النبي صلىٰ الله عليه وسلم وأنا عنده فقال ... فذكر الحديث ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٦٨) وقال : « رواه أحمد وفيه امرأة لم تسم » .

(١٠٤) - رواه ابن جرير في تفسيره (٤٧٨/١٣) .

---

[١] - في ز : « يعملوه » .
[٢] - سقط من : ز .
[٣] - في ز : « قالت » .
[٤] - في ز : « تخطفهم » .

مستضعفون في الأرض﴾ قال : كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلًّا ، وأشقاه عيشًا ، وأجوعه بطونًا ، وأعراه جلودًا ، وأبينه ضلالًا ، [مكعومين على رأس حجر بين الأسدين : فارس والروم ، ولا و اللّه ما في بلادهم يومئذ من شيء يحسدون عليه][١] ، من عاش منهم عاش شقيًّا ، ومن مات منهم ردي في النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، واللّه ما نعلم قبيلًا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلًا منهم ، حتىٰ جاء اللّه بالإسلام ، فمكن به في البلاد ، ووسع به في الرزق ، وجعلهم به ملوكًا علىٰ رقاب الناس ، وبالإسلام أعطىٰ اللّه ما رأيتم ، فاشكروا [للّه نعمه][٢] ؛ فإن ربكم منعم يحب الشكر ، وأهل الشكر في مزيد من اللّه .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

قال [عبد اللّه][٣] بن أبي قتادة والزهري (١٠٥) : أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر ، حين بعثه رسول اللّه ، صلىٰ اللّه عليه وسلم ، إلىٰ بني قريظة ؛ لينزلوا علىٰ حكم رسول اللّه ، صلىٰ اللّه عليه وسلم ، فاستشاروه في ذلك ، فأشار عليهم بذلك ، وأشار بيده إلىٰ حلقه ، أي : إنه الذبح ، ثم فطن أبو لبابة ، ورأىٰ أنه قد خان اللّه ورسوله ؛ فحلف لا يذوق ذواقًا [حتىٰ يموت][٤] ، أو يتوب اللّه عليه . وانطلق إلىٰ مسجد المدينة ، فربط نفسه في سارية منه[٥] ، فمكث كذلك تسعة أيام ، حتىٰ كان يخر[٦] مغشيًّا عليه من الجهد ، حتىٰ أنزل اللّه توبته علىٰ رسوله ؛ فجاء الناس يبشرونه بتوبة اللّه عليه ، وأرادوا [أن يحلوه][٧] من السارية ، فحلف لا يحله منها إلا رسول اللّه ، صلىٰ اللّه عليه وسلم ، بيده ، فحله ، فقال[٨] : يا رسول اللّه ؛ إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة . فقال : « **يجزيك الثلث أن تصدق به** » .

---

(١٠٥) - رواه ابن جرير في تفسيره (١٥٩٢٣/١٣) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٢] - في م : « اللّه علىٰ نعمه » .

[٣] - في ز ، خ : « عبد الرزاق » .

[٤] - سقط من : ز ، خ .

[٥] - سقط من : ز .

[٦] - سقط من : ز ، خ .

[٧] - في ز ، خ : « ليحلوه » .

[٨] - في ز : « وقال » .

وقال ابن جرير(١٠٦) : حدثني الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا يونس بن الحارث الطائفي ، حدثنا محمد بن عبيد الله أبو[١] عون الثقفي ، عن المغيرة بن شعبة ، قال : نزلت هذه الآية في قتل عثمان -رضي الله عنه- : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ﴾** الآية .

وقال ابن جرير أيضًا(١٠٧) : حدثنا القاسم بن بشر بن معروف ، حدثنا شبابة بن سوار ، حدثنا محمد بن المحرم ، قال لقيت عطاء بن أبي رباح فحدثني ، قال : حدثني جابر بن عبد الله ؛ أن أبا سفيان خرج من مكة ، فأتى جبريل رسولَ الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن أبا سفيان [كذا وكذا . فقال النبي ، صلى الله عليه وسلم، لأصحابه : « **إن أبا سفيان]**[٢] **في موضع كذا وكذا ؛ فاخرجوا إليه واكتموا** » . فكتب رجل من المنافقين إليه : إن محمدًا يريدكم ، فخذوا حذركم . فأنزل الله عز وجل : **﴿ لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم ﴾** الآية .

هذا حديث غريب جدًّا ، وفي سنده وسياقه نظر .

وفي الصحيحين قصة حاطب بن أبي بلتعة (١٠٨)، أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، إياهم عام الفتح ، فأطلع الله رسولَه على ذلك ، فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه ، واستحضر حاطبًا فأقر بما صنع ، فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله ، ألا أضرب عنقه ؛ فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ؟ فقال : « **دعه ، فإنه قد شهد بدرًا ، وما**[٣] **يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ؛ فقد غفرت لكم** » .

قلت : والصحيح أن الآية عامة ، وإن صح أنها وردت على سبب خاص ، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء ، والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار ، اللازمة والمتعدية .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : **﴿ وتخونوا أماناتكم ﴾** الأمانة : الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد ، يعني : الفريضة ، يقول : لا تخونوا : لا تنقضوها .

---

(١٠٦) - تفسير ابن جرير (١٥٩٢٥/١٣)

(١٠٧) - تفسير ابن جرير (١٥٩٢٢/١٣) .

(١٠٨) - تقدم تخريجه عند تفسير الآية : ٩ من هذه السورة .

---

[١] - في تفسير الطبري : ابن .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٣] - في خ : « ما » .

وقال في رواية : ﴿ لا تخونوا اللّٰه والرسول ﴾ يقول : بترك[١] سنته ، وارتكاب معصيته .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير في هذه الآية ، أي : لا تظهروا له من الحق ما يرضىٰ به منكم ، ثم تخالفوه في السر إلىٰ غيره ؛ فإن ذلك هلاك لأماناتكم ، وخيانة لأنفسكم .

وقال السدي : إذا خانوا اللّٰه والرسول فقد خانوا أماناتهم .

وقال أيضًا : كانوا يسمعون من النبي ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، الحديث ، فيفشونه حتىٰ يبلغ المشركين .

وقال عبد الرحمن بن زيد : نهاكم أن تخونوا اللّٰه والرسول كما صنع المنافقون .

وقوله تعالى : ﴿ **واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ أي : اختبار وامتحان منه لكم إذ أعطاكموها ؛ ليعلم أتشكرونه[٢] عليها ، وتطيعونه[٣] فيها أو تشتغلون بها عنه ، وتعتاضون بها منه ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة واللّٰه عنده أجر عظيم** ﴾ ، وقال : ﴿ **ونبلوكم [بالشر والخير] فتنة** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر اللّٰه ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون** ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم فاحذروهم** ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ **وأن اللّٰه عنده أجر عظيم** ﴾ أي : ثوابه وعطاؤه وجناته ، خير لكم من الأموال والأولاد ؛ فإنه قد يوجد منهم عدو ، وأكثرهم لا يغني عنك شيئًا ، واللّٰه سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة ، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة .

وفي الأثر يقول اللّٰه[٤] تعالىٰ : « **يا بن آدم ، اطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء** » .

وفي الصحيح(١٠٩) عن رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، [أنه قال][٥] : « **ثلاث من**

---

(١٠٩) - رواه البخاري في كتاب الإيمان ، باب : حلاوة الإيمان ، حديث ١٦ . ومسلم في كتاب الإيمان من صحيحه برقم ٦٧ - (٤٣) من حديث أنس بن مالك ، رضي الله عنه .

---

[١] - في ز : « ترك » .
[٢] - في ز : « أتشكروه » .
[٣] - في ز : « وتطيعوه » .
[٤] - سقط من : ز ، خ .
[٥] - سقط من : خ .

كن فيه وجد بهن[١] حلاوة الإيمان : من كان اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان [ ][٢] أن يلقىٰ في النار أحب إليه من[٣] أن يرجع إلىٰ الكفر بعد إذ أنقذه اللَّه منه » .

بل حب رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، مقدم علىٰ الأولاد والأموال والنفوس ، كما ثبت في الصحيح(١١٠) أنه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، قال : « **والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين** » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

قال ابن عباس والسدي ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان : ﴿ **فرقانًا** ﴾ : مخرجًا[٤] . زاد مجاهد : في الدنيا والآخرة .

وفي رواية عن ابن عباس : ﴿ **فرقانًا** ﴾ : نجاة . وفي رواية عنه : نصرًا .

وقال محمد بن إسحاق : ﴿ **فرقانًا** ﴾ أي : فصلًا بين الحق والباطل .

وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم ، وهو[٥] يستلزم ذلك كله ؛ فإن من اتقىٰ اللَّه بفعل أوامره ، وترك زواجره ، وفق لمعرفة الحق من الباطل ، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا ، وسعادته يوم القيامة ، وتكفير ذنوبه وهو ومحوها ، وغفرها و[٦]سترها عن الناس - سببًا لنيل ثواب اللَّه الجزيل ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللَّه وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورًا تمشون به ويغفر لكم واللَّه غفور رحيم** ﴾ .

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾

---

(١١٠) - صحيح البخاري برقم (١٤) .

---

[١] - سقط من : ت .

[٢] - في ز ، خ : يحب .

[٣] - سقط من : ز .

[٤] - في خ : « نجاة » .

[٥] - في ز : « وقد » .

[٦] - سقط من : ز ، خ .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ﴿ **ليثبتوك** ﴾ ليقيدوك[١] . وقال عطاء وابن زيد : ليحبسوك . وقال السدي : الإِثبات هو الحبس والوثاق .

وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء ، وهو مجمع الأقوال ، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء .

وقال سُنَيد(١١١) ، عن حجاج ، عن ابن جريج ، قال عطاء : سمعت عُبيد بن عُمير يقول : لما ائتمروا بالنبي ، صلىٰ اللّه عليه وسلم ، ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ؛ قال له عمه أبو طالب : هل تدري ما ائتمروا بك ؟ قال : « **يريدون أن يسحروني[٢] أو يقتلوني أو يخرجوني** » . فقال من أخبرك[٣] بهذا ؟ قال : « **ربي** » . قال : نِعْم الرب ربك ، استوص به خيرًا . قال[٤] : « **أنا أستوصي به ! بل هو يستوصي بي** » .

وقال أبو جعفر بن جرير (١١٢): حدثني محمد بن إسماعيل البصري[٥] المعروف بالوساوسي ، أخبرنا عبد الحميد بن أبي روّاد[٦] ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن عبيد بن عمير ، عن المطلب بن أبي وداعة ؛ أن أبا طالب قال لرسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم : ما يأتمر بك قومك ؟ قال : « **يريدون أن يسحروني[٧] أو يقتلوني أو يخرجوني** » . فقال : من أخبرك[٨] بهذا ؟ قال : « **ربي** » . قال : نعم الرب ربك ؛ فاستوص به خيرًا . قال : « **أنا أستوصي به ؟ ! بل هو يستوصي بي** » . قال : فنزلت : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك** ﴾ الآية .

وذِكْرُ أبي طالب في هذا غريب جدًّا ؛ بل منكر ؛ لأن هذه الآية مدنية ؛ ثم إن هذه القصة ، واجتماع قريش علىٰ هذا الائتمار والمشاورة علىٰ الإِثبات أو النفي أو القتل ، إنما كان ليلة الهجرة سواء ، وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين ، لما تمكنوا منه واجترءوا عليه بعد[٩] موت عمه أبي طالب ، الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه ، والدليل علىٰ صحة ماقلنا - ما رواه الإِمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي ، عن عبد اللّه بن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ؛ قال : وحدثني الكلبي ، عن باذان

(١١١) - رواه ابن جرير في تفسيره (١٣/١٥٩٦٤) .
(١١٢) - تفسير ابن جرير (١٣/١٥٩٦٣) .

[١] - في ز : « ليعتدوك » .
[٢] - في خ : « يسجنوني » .
[٣] - في ز : « خبرك » .
[٤] - في ز : « فقال » .
[٥] - في ز : « المصري » .
[٦] - في ز : « داود » .
[٧] - في خ : « يسجنوني » .
[٨] - في ز : « خبرك » .
[٩] - في ت : « بسبب » .

مولىٰ أم هانئ عن ابن عباس ؛ أن نفرًا من قريش من أشراف كل قبيلة ، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة ، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل ، فلما رأوه قالوا له : من أنت ؟ قال : شيخ من أهل[١] نجد ، سمعت أنكم اجتمعتم ، فأردت أن أحضركم ، ولن يعدمكم رأيي ونصحي . قالوا : أجل ، ادخل . فدخل معهم ، فقال : انظروا في شأن هذا الرجل ، والله ليوشكن أن يواثبكم في أمركم بأمره . قال : فقال قائل منهم : احبسوه في وثاق ، ثم تربصوا به ريب[٢] المنون حتىٰ يهلك ، كما هلك من كان قبله من الشعراء : زهير والنابغة ، إنما هو كأحدهم . قال : فصرخ عدو الله الشيخ النجدي فقال : والله ما هذا لكم برأي ، والله ليخرجنه ربه من محبسه إلىٰ أصحابه ، فليوشكن أن يثبوا عليه حتىٰ يأخذوه من أيديكم ، فيمنعوه منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم . قال : فانظروا في غير[٣] هذا .

قال : [فقال][٤] قائل منهم : أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا[٥] منه ؛ فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع ، إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم ، وكان أمره في غيركم . فقال[٦] الشيخ النجدي : والله ما هذا لكم برأي ، ألم تروا حلاوة قوله[٧] ، وطلاوة[٨] لسانه ، وأخذ[٩] القلوب ما تسمع[١٠] من حديثه ؟ والله لئن فعلتم [ثم استعرض العرب][١١] ليجتمعن عليكم ، ثم[١٢] ليأتين إليكم[١٣] حتىٰ يخرجكم من بلادكم ، ويقتل أشرافكم . قالوا : صدق والله . فانظروا بابًا[١٤] غير هذا .

قال : فقال أبو جهل لعنه الله : والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم تصرمونه بعد ، [لا أرىٰ][١٥] غيره . قالوا : وما هو ؟ قال : نأخذ من كل قبيلة غلامًا شابًا وسيطًا نهدًا ، ثم يعطىٰ كل غلام منهم سيفًا صارمًا ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل ، فما أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون علىٰ حرب قريش كلها ، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا ، وقطعنا عنا أذاه .

قال : فقال الشيخ النجدي : هذا والله الرأي ، القول ما قال الفتىٰ لا رأي غيره . قال :

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - سقط من : ز ، خ .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من خ .
[٥] - في ز : « تستريحوا » ، وفي خ : « لتستريحوا ».
[٦] - في ز : « وقال » .
[٧] - سقط من : ز .
[٨] - في خ : « وطلاقاة » .
[٩] - في ز : « وأجد » .
[١٠] - في ز : « تشبع » .
[١١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[١٢] - سقط من : ز .
[١٣] - سقط من : ز ، خ .
[١٤] - في ت : « رأيًا » .
[١٥] - في ز : « ما رأى » .

فتفرقوا على ذلك ، وهم مجمعون له ، فأتى جبريل النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه ، وأخبره بمكر القوم ؛ فلم يبت رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته تلك الليلة ، وأذن الله له عند ذلك بالخروج ، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة الأنفال ، يذكر نعمه عليه ، وبلاءه عنده : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ . وأنزل في قولهم : تربصوا به [ريب المنون][١] حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء : ﴿ **أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون** ﴾ ، وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة ؛ للذي[٢] اجتمعوا عليه من الرأي(١١٣) .

وعن السدي نحو هذا السياق ، وأنزل الله في إرادتهم إخراجه قوله تعالى : ﴿ **وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذًا لا يلبثون خلافك إلا قليلًا** ﴾ .

وكذا روى العوفي ، عن ابن عباس . وروي عن مجاهد وعروة بن الزبير وموسى بن عقبة وقتادة ومقسم وغير واحد نحو ذلك .

وقال يونس بن بكير، عن ابن إسحاق: فأقام رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ينتظر أمر الله ، حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به ، وأرادوا به ما أرادوا ، أتاه جبريل - عليه السلام - فأمره أن لا يبيت في مكانه [الذي كان يبيت فيه][٣] ، فدعا[٤] رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب ، فأمره أن يبيت على فراشه ، وأن يتسجى ببرد له أخضر ، ففعل ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على القوم ، وهم على بابه ، وخرج معه بحفنة من تراب ؛ فجعل يذرها على رءوسهم ، وأخذ الله أبصارهم عن نبيه محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وهو يقرأ : ﴿ **يس والقرآن الحكيم** ﴾ [إلى قوله][٥] : ﴿ **فأغشيناهم فهم لا يبصرون** ﴾ .

و[٦]قال الحافظ أبو بكر البيهقي(١١٤) : وروي عن[٧] عكرمة ما يؤكد هذا .

---

(١١٣) - رواه ابن جرير في تفسيره (١٣/١٥٩٦٥) من طريق ابن إسحاق به .

(١١٤) - دلائل النبوة للبيهقي (٢/٤٦٩، ٤٧٠) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٢] - في ز : « الذي » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

[٤] - في ز : « دعا » .

[٥] - سقط من : خ .

[٦] - سقط من : ز .

[٧] - سقط من : خ .

وقد روىٰ ابن حبان في صحيحه(١١٥) ، والحاكم في مستدركه ، من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ؛ قال : دخلت فاطمة علىٰ رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، وهي تبكي ، فقال : « **ما يبكيك يا بنية ؟** » قالت : يا أبت ؛ ومالي لا أبكي ، وهؤلاء الملأ من قريش في الحجر ، يتعاقدون[١] باللات والعزىٰ ومناة الثالثة الأخرىٰ ، لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونك ، وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك . فقال : « **يا بنية ، ائتني بوضوء** » ، فتوضأ رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، ثم خرج إلىٰ المسجد ، فلما رأوه قالوا[٢] : إنما هو ذا . فطأطأوا رءوسهم ، وسقطت أذقانهم بين أيديهم ، فلم يرفعوا أبصارهم ، فتناول رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قبضة من تراب فحصبهم بها ، وقال : « **شاهت الوجوه** » . فما أصاب رجلًا منهم حصاة من حصياته ، إلا قتل يوم بدر كافرًا .

ثم قال الحاكم : صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه ، ولا أعرف له علة .

وقال الإمام أحمد(١١٦) : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، أخبرني عثمان الجزري[٣] ، عن مقسم مولىٰ ابن عباس ، أخبره عن ابن عباس في قوله : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك** ﴾ قال : تشاورت قريش ليلة[٤] بمكة ، فقال بعضهم : إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق . يريدون النبي صلىٰ الله عليه وسلم . وقال بعضهم : بل اقتلوه . وقال بعضهم : بل أخرجوه . فأطلع الله نبيه، صلىٰ الله عليه وسلم ، علىٰ ذلك، فبات علي رضي الله عنه علىٰ فراش رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم ، وخرج النبي صلىٰ الله عليه وسلم حتىٰ لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليًا يحسبونه النبي، صلىٰ الله عليه وسلم، فلما أصبحوا ثاروا إليه ؛ فلما رأوا عليًا ردّ الله تعالىٰ مكرهم ، فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا

---

(١١٥) - صحيح ابن حبان برقم (١٦٩١موارد) والمستدرك (١٥٧/٣) . والحديث في إسناده مسلم بن خالد الزنجي ؛ إلا أنه توبع ، ورواه أبو نعيم في دلائل النبوة (١٣٩) ، وأخرجه سعيد بن منصور (٣٧٨٩/٢ رقم (٢٩١٣) من طريق إسماعيل بن عياش ، وأحمد (٣٠٣/١) من طريق إسحاق بن عيسى ، حدثنا يحيى ابن سليم ، و(٣٦٨/١) من طريق عبد الرزاق ، عن معمر ، والبيهقي في الدلائل (٢٤٠/٦) من طريق أبي نعيم ، عن بكر بن عياش - جميعهم - عن عبد الله بن عثمان بن خثيم بهذا الإسناد . وأخرجه أيضاً الحاكم (١٥٧/٣) من طريق أبي بكر بن عياش ، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن فاطمة مختصراً وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(١١٦) - المسند (٣٤٨/١) وأورده الهيثمي في المجمع (٢٧/٧) وقال : « فيه عثمان بن عمرو الجزري وثقه ابن حبان وضعفه غيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

---

[١] - في م : « يتعاهدون » .
[٢] - في ز : « فقالوا » .
[٣] - في ز ، خ : « الجريري » .
[٤] - سقط من : ز ، خ .

أدري . فاقتصوا أثره ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا في الجبل ، فمرّوا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل هٰهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه . فمكث فيه ثلاث ليال .

وقال محمد بن إسحاق (١١٧) ، عن محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير في قوله : ﴿ **ويمكرون ويمكر اللّٰه واللّٰه خير الماكرين** ﴾ أي : فمكرت بهم[١] بكيدي المتين حتى خلصتك منهم .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)

يخبر تعالىٰ عن كفر قريش وعتوهم وتمردهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته ، حين[٢] تتلىٰ عليهم ؛ أنهم يقولون : ﴿ **قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا** ﴾ . وهذا منهم قول بلا فعل ، وإلا فقد تحدّوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله ، فلا يجدون إلىٰ ذلك سبيلًا ، وإنما هذا القول منهم يغرون به أنفسهم ومن تبعهم[٣] علىٰ باطلهم .

وقد قيل : إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث ، لعنه اللّٰه ، كما قد نص علىٰ ذلك سعيد بن جبير والسدي وابن جريج وغيرهم ، فإنه لعنه اللّٰه كان قد ذهب إلىٰ بلاد فارس ، وتعلم من أخبار ملوكهم رستم واسفنديار[٤] ، ولما قدم وجد رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، قد بعثه اللّٰه ، وهو يتلو علىٰ الناس القرآن ، فكان إذا قام ، صلى الله عليه وسلم ، من مجلس جلس فيه النضر فيحدثهم[٥] من أخبار أولئك ، ثم يقول : بالله أينا[٦] أحسن

---

(١١٧) - رواه ابن جرير موقوفاً على ابن إسحاق (١٣/١٥٩٧٥) .

---

[١] - سقط من : ز ، خ .
[٢] - في خ : « إذا » .
[٣] - في ز : « اتبعهم » .
[٤] - في ز : « اسفنذياد » ، خ : « اسفنذيار » .
[٥] - في ت : « فحدثهم » .
[٦] - في ز ، خ : « أيهما » .

قصصًا : أنا أو محمد ؟ ولهذا لما أمكن اللّٰه تعالىٰ منه يوم بدر ، ووقع في الأسارى ؛ أمر رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم أن تضرب رقبته صبرًا بين يديه ، ففعل ذلك ولله الحمد ، وكان الذي أسره المقداد بن الأسود - رضي اللّٰه عنه - كما قال ابن جرير :

حدثنا محمد بن بشار(١١٨) ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير؛ قال : قتل النبيُّ صلىٰ اللّٰه عليه وسلم يوم بدر صبرًا عقبة بن أبي معيط ، وطعيمة بن عدي، والنضر بن الحارث ، وكان المقداد أسر النضر ، فلما أمر بقتله قال المقداد : يا رسول اللّٰه ، أسيري . فقال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **إنه كان يقول في كتاب اللّٰه – عز وجل – ما يقول** » . فأمر رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، بقتله ، فقال المقداد : يارسول الله ؛ أسيري . فقال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم « **اللهم ، أغن المقداد من فضلك** » ، فقال المقداد : هذا الذي أردت . قال : وفيه أنزلت هذه الآية : ﴿ **وإذا تتلىٰ عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ .

وكذا رواه هشيم(١١٩) ، عن أبي بشر جعفر بن أبي وحشية[١] ، عن سعيد بن جبير ، أنه قال : المطعم بن عدي بدل طعيمة وهو غلط ؛ لأن المطعم بن عدي لم يكن حيًّا يوم بدر ؛ ولهذا قال رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، يومئذ : « **لو كان المطعم حيًّا ، ثم سألني في هؤلاء النَّتنَى لوهبتهم له** »(١٢٠)

يعني [ ][٢] الأسارىٰ ؛ لأنه كان قد أجار رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم يوم رجع من الطائف .

ومعنىٰ ﴿ **أساطير الأولين** ﴾ وهو جمع أسطورة ، أي : كتبهم اقتبسها فهو يتعلم منها ، ويتلوها علىٰ الناس ؛ وهذا هو الكذب البحت كما أخبر اللّٰه عنهم في الآية الأخرىٰ : ﴿ **وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملىٰ عليه بكرة وأصيلًا قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفورًا رحيمًا** ﴾ أي : لمن تاب إليه وأناب ، فإنه يتقبل منه ويصفح عنه .

---

(١١٨) - تفسير ابن جرير (١٣/١٥٩٧٩) .

(١١٩) - تفسير ابن جرير (١٣/١٥٩٨٠) .

(١٢٠) - رواه البخاري ، في كتاب فرض الخمس ، باب : ما منَّ النبي ﷺ على الأسارى من غير الخمس ، برقم (٣١٣٩) من حديث جبير بن مطعم ، رضي الله عنه .

---

[١] - في ز ، خ : « حية » . [٢] - في ز ، خ : « عن » .

وقوله : ﴿ **وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ هذا من كثرة جهلهم وعتوهم وعنادهم وشدة تكذيبهم وهذا مما عيبوا به ، وكان الأولىٰ لهم أن يقولوا : اللهم ، إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه ، ولكن استفتحوا علىٰ أنفسهم ، واستعجلوا العذاب ، وتقديم العقوبة ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ **ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمىٰ لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون** ﴾ . ﴿ **وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب** ﴾ . ﴿ **سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذي المعارج** ﴾ . وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة ، كما قال قوم شعيب له : ﴿ **فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين** ﴾ . وقال هؤلاء : ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ .

قال شعبة ، عن عبد الحميد صاحب الزيادي ، عن أنس بن مالك ، قال : هو أبو جهل ابن هشام ؛ قال : ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ ؛ فنزلت : ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** ﴾ الآية .

رواه البخاري(١٢١) عن أحمد ومحمد بن النضر ، كلاهما عن عبيد الله بن معاذ ، عن أبيه ، عن شعبة به .

وأحمد هذا هو أحمد بن النضر بن عبد الوهاب ، قاله الحاكم أبو أحمد، والحاكم أبو عبد الله النيسابوري ، والله أعلم .

وقال الأعمش ، عن رجل ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله : ﴿ [**وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك**][١] **فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ قال : هو النضر بن الحارث بن كَلَدَة قال : فأنزل الله : ﴿ **سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع** ﴾ . وكذا قال مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والسدي : إنه النضر بن الحارث . زاد عطاء : فقال الله تعالىٰ : ﴿ **وقالوا**[٢] **ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب** ﴾ وقال[٣] : ﴿ **ولقد جئتمونا فرادىٰ كما خلقناكم أول مرة** ﴾ وقال : ﴿ **سأل**

(١٢١) - صحيح البخاري في كتاب تفسير القرآن ، باب : قوله : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ برقم (٤٦٤٨) وطرفه (٤٦٤٩) .

[١] - سقط من : ز ، خ .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - سقط من : ز ، خ .

سائل بعذاب واقع للكافرين ﴾ قال عطاء : ولقد أنزل اللَّه فيه بضع عشرة آية من كتاب اللَّه عز وجل .

وقال ابن مردويه : حدثنا محمد بن إبراهيم ، حدثنا الحسن بن أحمد بن الليث ، حدثنا أبو غسان[١] ، [حدثنا أبو تميلة][٢] ، حدثنا الحسين ، عن ابن بريدة ، عن أبيه قال : رأيت عمرو بن العاص واقفًا يوم أحد على فرس ، وهو يقول : اللهم ، إن كان ما يقول محمد[٣] حقًّا ، فاخسف بي وبفرسي .

وقال قتادة في قوله : **﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾** الآية . قال : قال ذلك سفهة هذه الأمة وجهلتها ، فعاد اللَّه بعائدته ورحمته على سفهة هذه الأمة وجهلتها .

وقوله تعالى : **﴿ وما كان اللَّه ليعذبهم وأنت فيهم وما كان اللَّه معذبهم وهم يستغفرون ﴾** .

قال ابن أبي حاتم(١٢٢) : حدثنا أبي ، حدثنا أبو حذيفة موسى بن مسعود ، حدثنا عكرمة ابن[٤] عمار ، عن أبي زميل سماك الحنفي ، عن ابن عباس ؛ قال : كان المشركون يطوفون بالبيت ، ويقولون : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، فيقول النبي صلى اللَّه عليه وسلم : « **قد قد** » . ويقولون : [لبيك اللهم لبيك ، لبيك][٥] لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك ، ويقولون : غفرانك غفرانك . فأنزل اللَّه : **﴿ وما كان اللَّه ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾** . قال ابن عباس : كان فيهم أمانان : النبي صلى اللَّه عليه وسلم ، والاستغفار ، فذهب النبي صلى اللَّه عليه وسلم ، وبقي الاستغفار .

وقال ابن جرير(١٢٣) : حدثني الحارث حدثنا عبد العزيز ، حدثنا أبو معشر ، عن يزيد بن رومان ، ومحمد بن قيس ، قالا : قالت قريش بعضها لبعض : محمد أكرمه اللَّه من بيننا : **﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾** . فلما أمسوا[٦] ندموا على ما قالوا ، فقالوا : غفرانك اللهم ، فأنزل

---

(١٢٢) - تفسير ابن أبي حاتم (٩٠١٧/٥) ورواه ابن جرير في تفسيره (١٦٠٠٠/١٣) من طريق أبي حذيفة موسى بن مسعود ، به .

(١٢٣) - تفسير ابن جرير (١٦٠٠١/١٣)

---

[١] - في ز : « عسان » .
[٢] - في خ : « عبيدة » .
[٣] - في ز : « محمدا » .
[٤] - في ز : « عن » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٦] - في ز : « أمنوا » .

الله : ﴿ **وما كان اللَّه معذبهم وهم يستغفرون** ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ﴿ **وما كان اللَّه ليعذبهم وأنت فيهم** ﴾ يقول : ما كان اللَّه ليعذب قومًا ، وأنبياؤهم بين أظهرهم ، حتىٰ يخرجهم . ثم قال : ﴿ **وما كان اللَّه معذبهم وهم يستغفرون** ﴾ يقول : وفيهم من قد سبق له من اللَّه الدخول في الإيمان ، وهو الاستغفار ﴿ **يستغفرون** ﴾ يعني يصلون ، يعني بهذا أهل مكة .

وروي عن مجاهد وعكرمة وعطية العوفي وسعيد بن جبير والسدي - نحو ذلك .

وقال الضحاك وأبو مالك : ﴿ **وما كان اللَّه معذبهم وهم يستغفرون** ﴾ يعني المؤمنين الذين كانوا بمكة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثني أبي ، حدثنا عبد الغفار بن داود ، حدثنا النضر بن عربي[١] ؛ قال : قال ابن عباس : إن اللَّه جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين[٢] من قوارع العذاب ، ما داما بين أظهرهم ، فأمان قبضه اللَّه إليه ، وأمان بقي فيكم . قوله : ﴿ **وما كان اللَّه ليعذبهم وأنت فيهم وما كان اللَّه معذبهم وهم يستغفرون** ﴾ .

وقال أبو صالح عبد الغفار : حدثني بعض أصحابنا ، أن النضر بن عربي حدثه هذا الحديث ، عن[٣] مجاهد ، عن ابن عباس .

وروىٰ ابن مردويه وابن جرير(١٢٤) عن أبي موسىٰ الأشعري نحوًا[٤] من هذا ، وكذا روي عن قتادة ، وأبي العلاء النحوي المقرئ .

وقال الترمذي (١٢٥) : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا ابن نمير ، عن إسماعيل بن إبراهيم ابن مهاجر ، عن عباد بن يوسف ، عن أبي بردة بن أبي موسىٰ ، عن أبيه ؛ قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **أنزل اللَّه[٥] علي أمانين لأمتي** : ﴿ **وما كان اللَّه**

---

(١٢٤) - تفسير ابن جرير (١٦٠٠٣/١٣) .

(١٢٥) - سنن الترمذي برقم (٣٠٨٢) ، وقال الترمذي : « هذا حديث غريب ، وإسماعيل بن مهاجر يضعف في الحديث » . وعباد بن يوسف : مجهول .

---

[١] - في خ : « عدى » .

[٢] - في ز : « محبورين » .

[٣] - سقط من : ز .

[٤] - في ز : « نحو » .

[٥] - سقط من : ز .

ليعذبهم وأنت فيهم وما كان اللَّه معذبهم وهم يستغفرون ﴾ ، فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار [إلىٰ يوم القيامة][1] » .

ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد في مسنده، والحاكم في مستدركه(١٢٦)، من حديث عبد اللَّه بن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ، عن دراج ، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد ؛ أن رسول اللَّه، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، قال : « **إن الشيطان قال : وعزتك يارب ، لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم . فقال الرب : وعزتي وجلالي ، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني** » .

ثم قال الحاكم : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه .

وقال الإمام أحمد(١٢٧) : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا رشدين - هو ابن سعد - حدثني معاوية بن سعد التجيبي ، عمن حدثه ، عن فضالة بن عبيد ، عن النبي ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، أنه قال : « **العبد آمن من عذاب اللَّه ما استغفر اللَّه عز وجل** » .

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ

(١٢٦) - **إسناده ضعيف** ، وهو في المسند ١١٢٥٣- (٣/٢٩) ، والمستدرك (٤/٢٦١) وأخرجه أبو يعلى - (١٣٩٩) حدثنا زهير ، عن الحسن بن موسى ، عن ابن لهيعة به . وأخرجه عبد بن حميد في « المنتخب » (٩٣٢) والبغوي في شرح السنة (١٢٣٩) والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص١٣٣-١٣٤) ورواه أحمد (١١٧٤٦) (٣/٧٦) من طرق ، عن ابن لهيعة به ، وزاد : « وارتفاع مكاني » وهي زيادة منكرة تفرد بها ابن لهيعة ، حيث رواه عن دراج عمرو بن الحارث بدونها . أخرجه الحاكم (٤/٢٦١) من طريق عبد الله بن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن دراج به . وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وليس كما قالا لضعف دراج لاسيما في روايته عن أبي الهيثم . وأخرجه أبو يعلى (١٢٧٣) ، والطبراني في الأوسط (٨٧٨٨) (٨/٣٣٣) .

ورواه أحمد (١١٢٦٠،١١٣٨٣) (٣/٢٩،٤١) من طريق الليث بن سعد عن يزيد بن الهاد عن عمرو بن أبي عمرو عن أبي سعيد به نحوه . قال الشيخ الألباني في الصحيحة - (١/١٦٤) : « هذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين لكنه منقطع بين عمرو - وهو ابن أبي عمرو مولى المطلب - وبين أبي سعيد الخدري ؛ فإنهم لم يذكروا لعمرو رواية عن أحد من الصحابة غير أنس بن مالك .....

والحديث ذكره الهيثمي في « المجمع » - (١٠/٢١٠) وقال : رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه . والطبراني في الأوسط ، وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح ، وكذلك أحد إسنادي أبي يعلى .

(١٢٧) - المسند ٢٣٩٩٩ - (٦/٢٠) . وإسناده ضعيف لضعف رشدين بن سعد وجهالة شيخ معاوية بن سعد .

[١] - سقط من : ز ، خ .

أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

يخبر تعالىٰ أنهم أهل لأن يعذبهم ، ولكن لم يوقع ذلك بهم ؛ لبركة مقام الرسول ، صلىٰ الله عليه وسلم ، بين أظهرهم ؛ ولهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر ، فقتل صناديدهم ، وأسرت سراتهم ، وأرشدهم تعالىٰ إلىٰ الاستغفار من الذنوب ، التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد .

قال قتادة والسدي وغيرهما[١] : لم يكن القوم يستغفرون ، ولو كانوا يستغفرون ما عذبوا .

واختاره ابن جرير ؛ فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين ؛ لأوقع[٢] بهم البأس الذي لا يرد ، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك ، كما قال تعالىٰ في يوم الحديبية : ﴿ **هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفًا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابًا أليما** ﴾ .

قال ابن جرير(١٢٨) : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب ، عن جعفر بن أبي المغيرة ، عن ابن أبزى ، قال : كان النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ، بمكة ، فأنزل الله : ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم** ﴾ . قال : فخرج النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ، إلىٰ المدينة ، فأنزل الله : ﴿ **وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** ﴾ . قال : وكان أولئك البقية من المسلمين[٣] الذين بقوا فيها ، يستغفرون - يعني : بمكة - فلما خرجوا أنزل الله : ﴿ **وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه** ﴾ قال : فأذن الله في فتح مكة ، فهو العذاب الذي وعدهم .

وروي عن ابن عباس وأبي مالك والضحاك وغير واحد - نحو هذا .

وقد قيل : إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالىٰ : ﴿ **وما كان الله معذبهم وهم**

---

(١٢٨) - رواه ابن جرير (١٣/١٥٩٩٠) .

---

[١] - في ز : « وغيرهم » .
[٢] - في ت : « لوقع » .
[٣] - في ز : « المؤمنين » .

يستغفرون ﴾ على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم .

قال ابن جرير(١٢٩) : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يحيى بن واضح ، عن الحسين بن واقد ، عن يزيد النحوي ، عن عكرمة والحسن البصري ، قالا : قال في الأنفال : **﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾** ، فنسختها الآية التي تليها : **﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾** إلى قوله : **﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾** فقوتلوا[١] بمكة ، فأصابهم فيها الجوع والضر .

وكذا رواه ابن أبي حاتم ، من حديث أبي تميلة[٢] يحيى بن واضح .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا حجاج بن محمد ، عن ابن جريج وعثمان بن عطاء ، عن عطاء ، عن ابن عباس : **﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾** ثم استثنى أهل الشرك فقال : **﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام ﴾** .

وقوله : **﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾** . أي : وكيف لا يعذبهم الله ، وهم يصدون عن المسجد الحرام ، أي : الذي بمكة ، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة عنده والطواف به ؛ ولهذا قال : **﴿ وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ﴾** أي هم ليسوا أهل المسجد الحرام ، وإنما أهله النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه ، كما قال تعالى : **﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد[٣] الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾** ، وقال تعالى : **﴿ وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ﴾** الآية .

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية(١٣٠) : حدثنا سليمان بن أحمد - هو الطبراني - حدثنا جعفر بن إلياس بن صدقة المصري ، حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا نوح ابن أبي مريم، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال:

---

(١٢٩) - رواه ابن جرير (١٦٠١٧/١٢) .

(١٣٠) - رواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٥٠٠٢) « مجمع البحرين » وقال : « لم يروه عن يحيى إلا نوح تفرد به نعيم » . وقال الهيثمي في المجمع (٢٦٩/١٠) : « فيه نوح بن أبي مريم وهو ضعيف » .

---

[١] - في ز ، خ : « فقاتلوا » .

[٢] - في خ : « عمرو » .

[٣] - في ز : « مسجد » .

سئل رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، من آلُك ؟ قال : « **كل تقي** » . وتلا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ﴿ **إن أولياؤه إلا المتقون** ﴾ .

وقال الحاكم في مستدركه (١٣١) : حدثنا أبو بكر الشافعي ، حدثنا إسحاق بن الحسن ، حدثنا أبو حذيفة ، حدثنا سفيان ، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم[١] ، عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعة ، عن أبيه ، عن جده قال : جمع رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، قريشًا[٢] فقال : « **هل فيكم من غيركم ؟** » . فقالوا : فينا ابن أختنا[٣] ، وفينا حليفنا ، وفينا مولانا . فقال : « **حليفنا منا ، وابن أختنا[٤] منا ، ومولانا منا ، إن أوليائي منكم المتقون** » .

ثم قال : هذا صحيح ، ولم يخرجاه .

وقال عروة والسدي ومحمد بن إسحاق في قوله تعالىٰ : ﴿ **إن أولياؤه إلا المتقون** ﴾ قال : هم محمد صلىٰ الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم .

وقال مجاهد : هم المجاهدون من كانوا ، وحيث كانوا .

ثم ذكر تعالىٰ ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام ، وما كانوا يعاملونه به ؛ فقال : ﴿ **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية** ﴾ .

قال عبد الله بن عمر[٥] ، وابن عباس ، ومجاهد وعكرمة ، وسعيد بن جبير وأبو رجاء العطاردي ، ومحمد بن كعب القرظي ، وحجر بن عنبس ، ونبيط بن شريط ، وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو الصفير . وزاد مجاهد : وكانوا يدخلون أصابعهم في أفواههم .

وقال السدي : المكاء : الصفير ، علىٰ نحو طير أبيض ، يقال له : المكاء[٦] ، ويكون بأرض الحجاز ، والتصدية[٧] : [التصفيق[٨]] .

---

(١٣١) - المستدرك (٢/٣٢٨) ، ورواه أحمد من حديث وكيع ، عن سفيان ، عن ابن خثيم به نحوه وفيه زيادة .

---

[١] - في ز : « حسم » .
[٢] - في ز : « غيركم » .
[٣] - في ز : « أخينا » .
[٤] - في ز : « أخينا » .
[٥] - في ز ، خ : « عمرو » .
[٦] - في ز : « المكائلون » .
[٧] - في ز : « وتصدية » .
[٨] - سقط من : خ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو خلاد سليمان بن خلاد ، حدثنا يونس بن محمد المؤدب ، حدثنا يعقوب - يعني ابن عبد اللّه الأشعري - حدثنا جعفر بن [أبي[١]] المغيرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية** ﴾ قال : كانت قريش تطوف بالكعبة[٢] عراة تصفر وتصفق . والمكاء : الصفير . وإنما شبهوا بصفير الطير وتصدية التصفيق .

وهكذا روىٰ علي بن أبي طلحة والعوفي ، عن ابن عباس . وكذا روي عن ابن عمر ومجاهد ، ومحمد بن كعب ، وأبي سلمة بن عبد الرحمن ، والضحاك وقتادة ، وعطية العوفي ، وحجر بن عَنْبَس[٣] ، وابن أبزى نحو هذا .

وقال ابن جرير(١٣٢) : حدثنا ابن بشار ، حدثنا أبو عامر[٤] ، حدثنا قرة ، عن عطية ، عن ابن عمر في قوله : ﴿ **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية** ﴾ قال : المكاء : التصفير[٥] ، والتصدية : التصفيق . قال قرة : وحكىٰ لنا عطية فعل ابن عمر ، فصفر ابن عمر ، وأمال خده ، وصفق بيديه .

وعن ابن عمر أيضًا أنه قال : إنهم[٦] كانوا يضعون خدودهم علىٰ الأرض ، ويصفقون ويصفرون . رواه ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عنه .

وقال عكرمة : كانوا يطوفون بالبيت علىٰ الشمال .

قال مجاهد : وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك علىٰ النبي ، صلىٰ اللّه عليه وسلم ، صلاته .

وقال الزهري : يستهزئون بالمؤمنين .

وعن سعيد بن جبير ، وعبد الرحمن بن زيد ﴿ **وتصدية** ﴾ قال : صدُّهم الناس عن سبيل اللّه عز وجل .

قوله : ﴿ **فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ قال الضحاك ، وابن جريج ، ومحمد بن إسحاق : هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي . واختاره ابن جرير ولم يحك غيره .

---

(١٣٢) - رواه ابن جرير (١٣/١٦٠٢٩) .

---

[١] - سقط من : ز ، خ .
[٢] - في خ : بالبيت .
[٣] - في خ : « عبس » .
[٤] - في ز : « عمر »والمثبت من ابن جرير ، وخ .
[٥] - في ز ، خ : « الصفير » .
[٦] - سقط من : ز .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ؛ قال : عذاب أهل الإقرار بالسيف ، وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

قال محمد بن إسحاق(١٣٣) : حدثني الزهري ومحمد بن يحيىٰ بن حبَّان[١] ، وعاصم ابن عمر بن قتادة ، والحصين[٢] بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد[٣] بن معاذ ؛ قالوا : لما أصيبت[٤] قريش يوم بدر ، ورجع فَلُّهم إلىٰ مكة ، ورجع أبو سفيان بعيره - مشى عبد الله ابن أبي ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية في رجال من قريش ، أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومن كانت له في تلك[٥] العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش ، إن محمدًا قد وتركم ، وقتل خياركم ؛ فأعينونا بهذا المال علىٰ حربه ؛ لعلنا أن ندرك منه ثأرًا بمن[٦] أصيب منا! ففعلوا . قال : ففيهم[٧] - كما ذكر عن ابن عباس - أنزل الله عز وجل : ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله** ﴾ إلىٰ قوله[٨] : ﴿ **والذين كفروا إلى جهنم يحشرون** ﴾ .

وهكذا[٩] روي عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والحكم بن عتيبة ، وقتادة ، والسدي ، وابن أبزى : أنها نزلت في أبي سفيان ونفقته الأموال في أحد لقتال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم .

---

(١٣٣) - ورواه ابن جرير في تفسيره (١٦٠٦٣/١٣) ، وهو في السيرة لابن هشام (٦٤/٣) .

---

[١] - في خ : « حسان » .
[٢] - في ز : « والحصن » .
[٣] - في خ : « سعيد » .
[٤] - في ز : « أصيب » .
[٥] - في ز ، خ : « ذلك » .
[٦] - في ز : « ممن » .
[٧] - في ز : « فيهم » .
[٨] - سقط من : ز ، خ .
[٩] - في خ : « وكذا » .

وقال الضحاك : نزلت في أهل بدر .

وعلىٰ كل تقدير فهي عامة ، وإن كان سبب نزولها خاصًا ، فقد أخبر تعالىٰ أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق ، فسيفعلون ذلك ، ثم[١] تذهب أموالهم ، ﴿ **ثم تكون عليهم حسرة** ﴾ أي ندامة حيث لم تُجدِ شيئًا ؛ لأنهم أرادوا إطفاء نور اللَّه ، وظهور كلمتهم علىٰ كلمة الحق ، واللَّه متم نوره ولو كره الكافرون ، وناصر دينه ، ومعلن كلمته ، ومظهر دينه علىٰ كل دين ، فهذا الخزي لهم في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب النار ؛ فمن عاش منهم رأىٰ بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه ، ومن قتل منهم أو مات فإلىٰ الخزي الأبدي والعذاب السرمدي ؛ ولهذا قال : ﴿ **فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلىٰ جهنم يحشرون** ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **ليميز اللَّه الخبيث من الطيب** ﴾ ، قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ **ليميز اللَّه الخبيث من الطيب** ﴾ : فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء . وقال السدي : يميز المؤمن من الكافر . وهذا يحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة ، كقوله : ﴿ **ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم** ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون** ﴾ ، وقال في الآية الأخرىٰ ﴿ **يومئذ يصدعون** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وامتازوا اليوم أيها المجرمون** ﴾ .

ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا ، بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين ، وتكون اللام معللة لما جعل اللَّه للكفار[٢] من مال ، ينفقونه في الصد عن سبيل اللَّه ، أي : إنما أقدرناهم علىٰ ذلك : ﴿ **ليميز اللَّه الخبيث من الطيب** ﴾ أي : من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين ؛ أو يعصيه بالنكول عن ذلك ، كقوله : ﴿ **وما أصابكم يوم التقىٰ الجمعان فبإذن اللَّه وليعلم المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل اللَّه أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالًا لاتبعناكم** ﴾ الآية ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وما كان اللَّه ليذر المؤمنين علىٰ ما أنتم عليه حتىٰ يميز الخبيث من الطيب وما كان اللَّه ليطلعكم علىٰ الغيب** ﴾ الآية ، وقال تعالىٰ : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم اللَّه الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾ . ونظيرتها في براءة أيضًا .

فمعنىٰ الآية علىٰ هذا إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم ، وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك ؛ ليميز اللَّه[٣] الخبيث من الطيب ويجعل[٤] الخبيث بعضه علىٰ بعض

---

[١] - سقط من : ز ، خ .
[٢] - في خ : « للكافرين » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في ز : « فيجعل » .

[﴿ فيركمه﴾ أي : يجمعه كله ، وهو جمع الشيء بعضه على بعض ،][1] كما قال تعالى في السحاب : ﴿ **ثم يجعله ركامًا** ﴾ أي : متراكما متراكبًا ، ﴿ **فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون** ﴾ أي : هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة .

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ **قل للذين كفروا إن ينتهوا** ﴾ أي[2] : عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد ، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة ؛ يغفر لهم ﴿ما قد سلف﴾ ، أي : من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم ، كما جاء في الصحيح(١٣٤) من حديث أبي وائل عن ابن مسعود رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « **من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر** » .

وفي الصحيح أيضًا(١٣٥) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **الإسلام يَجُبّ ما قبله ، والتوبة تجب ما كان قبلها** » .

وقوله : ﴿ **وإن يعودوا** ﴾ أي : يستمروا على ما هم فيه ﴿ **فقد مضت سنة الأوّلين** ﴾ أي : فقد مضت سنتنا في الأولين ، أنهم إذا كذبوا ، واستمروا على عنادهم ، أنا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة .

قال مجاهد في قوله : ﴿ **فقد مضت سنة الأوّلين** ﴾ أي : في قريش يوم بدر ، وغيرها من الأمم . وقال السدي ومحمد بن إسحاق : أي : يوم بدر .

وقوله تعالى : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ قال

(١٣٤) - صحيح البخاري ، كتاب استتابة المرتدين برقم (٦٩٢١) ، وصحيح مسلم ، كتاب الإيمان برقم (١٢٠) .

(١٣٥) - رواه أحمد من حديث عمرو بن العاص .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ . [٢] - سقط من : ز .

البخاري(١٣٦) : حدثنا الحسن بن عبد العزيز[١]، حدثنا عبد اللّٰه بن يحيىٰ ، حدثنا حَيْوَة بن شريح ، عن بكر بن عمرو[٢] ، عن بكير ، عن نافع ، عن ابن عمر ؛ أن رجلًا جاءه فقال : يا أبا عبد الرحمن ؛ ألا تسمع[٣] ما ذكر اللّٰه في كتابه : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** ﴾ الآية . فما يمنعك أن لا تقاتل ، كما ذكر اللّٰه في كتابه ؟ فقال : يا بن أخي ، أعيَّر بهذه الآية ولا أقاتل أحب إلي من أن أعير بالآية التي يقول اللّٰه ، عز وجل : ﴿ **ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا** ﴾ إلىٰ آخر الآية . قال : فإن اللّٰه تعالىٰ يقول : ﴿ **وقاتلوهم حتىٰ لا تكون فتنة** ﴾ قال ابن عمر : قد فعلنا علىٰ عهد رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، إذ كان الإسلام قليلًا ، وكان الرجل يفتن في دينه ، إما أن يقتلوه ، وإما أن يوثقوه ، حتىٰ كثر الإسلام فلم تكن فتنة . فلما رأىٰ أنه لا يوافقه فيما يريد ، قال : فما قولك في علي وعثمان ؟ قال ابن عمر : أما قولي في علي وعثمان ؟ أما عثمان فكان اللّٰه قد عفا عنه ، وكرهتم أن يعفو اللّٰه[٤] عنه ، وأما علي فابن عم رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، وخَتَنُه - وأشار بيده[٥] - وهذه ابنته - أو بنته - حيث ترون .

وحدثنا أحمد بن يونس(١٣٧) ، حدثنا زهير ، حدثنا بيان ، أن وبرة حدثه ، قال : حدثني سعيد بن جبير ؛ قال : خرج علينا أو : إلينا ابن عمر - رضي اللّٰه عنهما - فقال رجل[٦] : كيف ترىٰ في قتال الفتنة ؟ فقال : وهل تدري ما الفتنة ؟ كان محمد ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، يقاتل المشركين ، وكان الدخول عليهم فتنة ، وليس بقتالكم علىٰ الملك .

هذا كله سياق البخاري رحمه اللّٰه تعالىٰ .

وقال عبيد اللّٰه ، عن نافع ، عن ابن عمر ، أنه أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير ، فقالا : إن الناس قد صنعوا ما ترىٰ ، وأنت ابن عمر بن الخطاب ، وأنت صاحب رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، فما يمنعك أن تخرج ؟ قال : يمنعني أن اللّٰه حرم علي دم أخي المسلم ؟ قالوا : أو لم يقل اللّٰه : ﴿ **وقاتلوهم حتىٰ لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ قال : قد قاتلنا حتىٰ لم تكن فتنة ، وكان الدين كله لله ، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتىٰ تكون فتنة ، ويكون الدين لغير اللّٰه .

---

(١٣٦) - صحيح البخاري ، كتاب تفسير القرآن برقم (٤٦٥٠) .

(١٣٧) - رواه البخاري برقم (٤٦٥١) .

---

[١] - في ز ، خ : « الرحمن » .
[٢] - في ت : « عمر » .
[٣] - في خ : « تصنع » .
[٤] - سقط من : ز .
[٥] - في ز : « بيديه » .
[٦] - سقط من : ز ، خ .

وكذا رواه حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن أيوب بن عبد اللَّه اللخمي ، قال : كنت عند عبد اللَّه بن عمر ، رضي اللَّه عنهما ، فأتاه رجل ، فقال : إن اللَّه يقول : ﴿ **وقاتلوهم حتىٰ لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ .

فقال ابن عمر : قاتلت أنا وأصحابي حتىٰ كان الدين كله لله ، وذهب الشرك ، ولم تكن فتنة ، ولكنك وأصحابك تقاتلون حتىٰ تكون فتنة ، ويكون الدين لغير اللَّه . رواهما ابن مردويه .

وقال أبو عوانة ، عن الأعمش ، عن إبراهيم التيمي ، عن أبيه ؛ قال : قال ذو البطين - يعني أسامة بن زيد : لا أقاتل رجلًا يقول : لا إله إلا اللَّه أبدًا . قال[١] : [فقال سعد بن مالك : وأنا والله ، لا أقاتل رجلًا يقول : لا إله إلا اللَّه أبدًا][٢] . فقال رجل : ألم يقل اللَّه : ﴿ **وقاتلوهم حتىٰ لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ فقالا : قد قاتلنا حتىٰ لم تكن فتنة ، وكان الدين كله لله . رواه ابن مردويه .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : ﴿ **وقاتلوهم حتىٰ لا تكون فتنة** ﴾ يعني : لا يكون شرك .

وكذا قال أبو العالية ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والسدي ، ومقاتل ابن حيان[٣] ، وزيد بن أسلم .

وقال محمد بن إسحاق : بلغني عن الزهري ، عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا : ﴿ **حتىٰ لا تكون فتنة** ﴾ : حتىٰ لا يفتن مسلم عن دينه .

وقوله : ﴿ **ويكون الدين كله لله** ﴾ قال الضحاك ، عن ابن عباس في هذه الآية ، قال : يخلص التوحيد لله .

وقال الحسن وقتادة وابن جريج : ﴿ **ويكون الدين كله لله** ﴾ : أن يقال : لا إله إلا اللَّه .

وقال محمد بن إسحاق : ويكون التوحيد خالصًا لله ؛ ليس فيه شرك ، ويخلع ما دونه من الأنداد .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ **ويكون الدين كله لله** ﴾ لا يكون مع دينكم

---

[١] - سقط من : ز .

[٢] - سقط من : ز ، خ .

[٣] - في خ : « حبان » .

كفر .

ويشهد لهذا[١] ما ثبت في الصحيحين(١٣٨) عن رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، أنه قال : « **أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا : لا إله إلا الله ؛ فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم علىٰ الله عز وجل** » .

وفي الصحيحين(١٣٩) عن أبي موسىٰ الأشعري ؛ قال : سئل رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله عز وجل ؟ فقال : « **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله عز وجل** » .

وقوله : ﴿ **فإن انتهوا** ﴾ [أي : بقتالكم عما هم فيه من الكفر ، فكفوا عنهم ، وإن لم تعلموا بواطنهم][٢] ؛ ﴿ **فإن الله بما يعملون بصير** ﴾ ، كقوله : ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم** ﴾ . وفي الآية الأخرىٰ : ﴿ **فإخوانكم في الدين** ﴾ . وقال : ﴿ **قاتلوهم حتىٰ لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا علىٰ الظالمين** ﴾ .

وفي الصحيح(١٤٠) أن رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف ، فقال : لا إله إلا الله . فضربه فقتله ، فذكر ذلك لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال لأسامة : « **أقتلته بعد ما قال : لا إله إلا الله ؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة ؟** » . فقال : يا رسول الله ؛ إنما قالها تعوذًا . قال : « **هلا شققت عن قلبه ؟** » . وجعل يقول ويكرر عليه : « **من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة ؟** » قال أسامة : حتىٰ تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا ذلك اليوم .

وقوله : ﴿ **وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولىٰ ونعم النصير** ﴾ أي : وإن استمروا علىٰ خلافكم ومحاربتكم ، فاعلموا أن الله مولاكم و[٣] سيدكم وناصركم علىٰ أعدائكم ، فنعم المولىٰ ونعم النصير .

---

(١٣٨) - رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الإيمان برقم (٢٥) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان برقم (٢٢) من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنهما .

(١٣٩) - صحيح البخاري ، كتاب الجهاد والسير برقم (٢٨١٠) ، وصحيح مسلم ، كتاب الإمارة برقم (١٩٠٤) .

(١٤٠) - صحيح البخاري ، كتاب المغازي برقم (٤٢٦٩) ، وصحيح مسلم ، كتاب الإيمان برقم (٩٦) .

---

[١] - في ز : « له » .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

[٣] - سقط من : ز .

وقال محمد بن جرير(١٤١) : حدثني عبد الوارث بن عبد الصمد ، حدثنا أبي ، حدثنا أبان العطار ، حدثنا هشام بن عروة ، عن عروة ؛ أن عبد الملك بن مروان كتب إليه يسأله عن أشياء ، فكتب إليه عروة : سلام عليك ؛ فإني أحمد إليك اللّه الذي لا إله إلا هو . أما بعد ، فإنك كتبت إلي تسألني عن مخرج رسول اللّه ، صلىٰ اللّه عليه وسلم ، من مكة ، وسأخبرك به ، ولا حول ولا قوة إلا بالله : كان من شأن خروج[١] رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم من مكة ، أن اللّه أعطاه النبوة ، فنعم النبي ، ونعم السيد ، ونعم العشيرة ، فجزاه اللّه خيرًا ، وعرفنا وجهه في الجنة ، وأحيانا علىٰ ملته ، [وأماتنا عليها][٢] ، وبعثنا عليها ، وأنه لما دعا قومه لما بعثه اللّه له[٣] من الهدىٰ والنور الذي أنزل عليه ، لم يبعدوا منه أول ما دعاهم إليه[٤] ، وكادوا يسمعون منه ، حتىٰ إذا[٥] ذكر طواغيتهم ، وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال ، أنكر ذلك عليه ناس ، واشتدوا عليه ، وكرهوا ما قال ، وأغروا به من أطاعهم ، فانصفق عنه عامة الناس فتركوه ، إلا من حفظه اللّه منهم ، وهم قليل ، فمكث بذلك ما قدر اللّه أن يمكث ، ثم ائتمرت رءوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين اللّه ، من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم ، فكانت فتنة شديدة الزلزال ، فافتتن من افتتن ، وعصم اللّه من شاء منهم ، فلما فُعِل ذلك بالمسلمين ، أمرهم رسول اللّه ، صلىٰ اللّه عليه وسلم ، أن يخرجوا إلىٰ أرض الحبشة ، وكان بالحبشة ملك صالح يقال له : النجاشي ، لا يظلم أحد بأرضه ، وكان يُثنَىٰ عليه مع ذلك ، وكانت أرض الحبشة متجرًا لقريش يتجرون فيها ، وكانت مَسْكَنًا لتجارهم ، يجدون[٦] فيها رفاغا[٧] من الرزق ، وأمنًا ومتجرًا حسنًا ، فأمرهم[٨] بها النبي ، صلىٰ اللّه عليه وسلم ، فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة ، وخاف عليهم الفتن ، ومكث هو فلم يبرح ، فمكث بذلك سنوات يشتدون علىٰ من أسلم منهم ، ثم إنه فشا الإِسلام فيها ، ودخل فيه رجال من أشرافهم ومنعتهم .

فلما رأوا ذلك استرخوا استرخاءة[٩] عن رسول اللّه ، صلىٰ اللّه عليه وسلم ، وعن

---

(١٤١) - تفسير ابن جرير (١٣/٥٣٩ - ٥٤٣) رقم (١٦٠٨٣).

---

[١] - في ز ، خ : « مخرج » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٣] - في ت : « به » .
[٤] - سقط من : خ .
[٥] - سقط من : ت .
[٦] - في ز : « يتخذون » .
[٧] - في ز : « رفاعا » ، خ : « رقاغا » .
[٨] - في ز : « وأمرهم » .
[٩] - سقط من : ز ، خ .

أصحابه ، وكانت الفتنة الأولىٰ هي التي[١] أخرجت من خرج[٢] من أصحاب رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم قِبَل أرض الحبشة مخافتها ، وفرارًا مما كانوا فيه من الفتن والزلزال ، فلما استرخي عنهم ، ودخل في[٣] الإسلام من دخل منهم ، تحدث باسترخائهم عنهم ، فبلغ ذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، أنه قد استرخي عمن كان منهم بمكة ، وأنهم لا يفتنون . فرجعوا إلىٰ مكة ، وكادوا يأمنون بها ، وجعلوا يزدادون[٤] ويكثرون ، وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير ، وفشا الإسلام بالمدينة ، وطفق أهل المدينة يأتون رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، بمكة ، فلما رأت قريش ذلك تآمرت علىٰ أن يفتنوهم ويشتدوا ، فأخذوهم فحرصوا علىٰ أن يفتنوهم ، فأصابهم جهد شديد ، فكانت الفتنة الأخيرة ؛ فكانت فتنتان ؛ فتنة أخرجت من خرج منهم إلىٰ أرض الحبشة ، حين أمرهم النبي ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، بها ، وأذن لهم في الخروج إليها . وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة .

ثم إنه جاء رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، من المدينة سبعون نقيبًا ، رءوس الذين أسلموا فوافوه بالحج ، فبايعوه بالعقبة ، وأعطوه عهودهم و [ ] [٥] ، علىٰ أنا منك وأنت منا ، وعلىٰ أن[٦] من جاء من أصحابك أو جئتنا ؛ فإنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا . فاشتدت عليهم قريش عند ذلك ، فأمر رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، أصحابه أن يخرجوا إلىٰ المدينة ، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، أصحابه ، وخرج هو . وهي التي أنزل اللَّه - عز وجل - فيها : ﴿ **وقاتلوهم حتىٰ لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ .

ثم رواه عن يونس بن عبد الأعلىٰ(١٤٢) ، عن ابن وهب ، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه ، عن عروة بن الزبير أنه كتب إلىٰ الوليد - يعني ابن عبد الملك بن مروان - بهذا ... فذكر مثله . وهذا صحيح إلىٰ عروة ، رحمه اللَّه .

۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ

(١٤٢) - تفسير ابن جرير (١٣/٥٤٢) .رقم (١٦٠٨٤) .

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في ز : « أخرجت » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في ز : « يزادون » .
[٥] - في ت : ومواثيقهم .
[٦] - في ز : « أنه » .

عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

يبين تعالىٰ تفصيل ما شرعه مخصصًا لهذه الأمة الشريفة ، من بين سائر الأمم المتقدمة [من إحلال المغانم][١] . والغنيمة هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل . والركاب والفيء ما أخذ منهم بغير ذلك ؛ كالأموال التي يصالحون عليها ، أو يتوفون عنها ولا وارث لهم ، والجزية والخراج ونحو ذلك ، هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء[٢] [ ][٣] السلف والخلف .

ومن العلماء من يطلق الفيء علىٰ ما تطلق عليه الغنيمة والغنيمة علىالفيء أيضًا ؛ ولهذا ذهب قتادة إلىٰ أن هذه الآية ناسخة لآية الحشر : ﴿ **ما أفاء اللّٰه علىٰ رسوله من أهل القرىٰ فلله وللرسول ولذي القربىٰ واليتامى والمساكين** ﴾ .

قال : فنسخت آية الأنفال تلك ، وجعلت الغنائم أربعة أخماسها[٤] للمجاهدين[٥] ، وخمسًا منها لهؤلاء المذكورين ، وهذا الذي قاله بعيد ؛ لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر ، وتلك نزلت في بني النضير ، ولا خلاف بين علماء السير والمغازي قاطبة أن بني النضير بعد بدر ، وهذا أمر لا يشك فيه ولا يرتاب ، فمن يفرق بين معنىٰ الفيء والغنيمة يقول : تلك نزلت في أموال الفيء ، وهذه في المغانم . ومن يجعل أمر المغانم والفيء راجعًا[٦] إلىٰ رأي الإمام يقول : لا منافاة بين آية الحشر وبين التخميس ، إذا رآه الإمام ، واللّٰه أعلم .

فقوله[٧] تعالىٰ : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن للّٰه خمسه** ﴾ توكيد لتخميس كل قليل وكثير ، حتى الخيط والمخيط ؛ قال اللّٰه تعالىٰ : ﴿ **ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفىٰ كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ .

وقوله : ﴿ **فأن للّٰه خمسه وللرسول** ﴾ اختلف المفسرون هٰهنا ، فقال بعضهم : للّٰه نصيب من الخمس ، يجعل في الكعبة .

قال أبو جعفر الرازي(١٤٣) ، عن الربيع ، عن أبي العالية الرياحي ، قال : كان رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، يؤتى بالغنيمة ، فيقسمها[٨] علىٰ خمسة ، تكون أربعة أخماس

(١٤٣) – رواه ابن جرير في تفسيره (١٣/٥٥٠) رقم (١٦١٠٢) .

[١] – في خ : «بإحلال الغنائم» .
[٢] – في ز : « العلماء » .
[٣] – ما بين المعكوفتين في ز : « من » .
[٤] – في ت : « أخماس » .
[٥] – سقط من : ز ، خ .
[٦] – في ز : « راجع » .
[٧] – في ز : « وقوله » .
[٨] – في ت : « فيخمسها » .

لمن شهدها ، ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه ، فيأخذ منه الذي قبض كفه ، فيجعله للكعبة ، وهو سهم اللّٰه ، ثم يقسم ما بقي علىٰ خمسة أسهم ؛ فيكون سهم للرسول ، وسهم لذوي القربىٰ ، وسهم لليتامىٰ ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل .

وقال آخرون : ذكر اللّٰه هٰهنا استفتاح كلام للتبرك ، وسهم لرسوله عليه السلام .

قال الضحاك ، عن ابن عباس -رضي اللّٰه عنهما- : كان رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم، إذا بعث سرية فغنموا ، خمس الغنيمة ؛ فضرب ذلك الخمس في خمسة[١] ، ثم قرأ : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن للّٰه خمسه وللرسول** ﴾ ﴿ **فأن للّٰه خمسه** ﴾ مفتاح كلام : ﴿ **للّٰه ما في السموات وما في الأرض** ﴾ ، فجعل سهم اللّٰه وسهم الرسول ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، واحدًا ، وهكذا قال إبراهيم النخعي ، والحسن بن محمد ابن الحنفية ، والحسن البصري والشعبي ، وعطاء بن أبي رباح ، وعبد اللّٰه بن بريدة ، وقتادة ومغيرة وغير واحد : إن سهم اللّٰه ورسوله واحد .

ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي بإسناد صحيح(١٤٤) ، عن عبد[٢] اللّٰه بن شقيق ، عن رجل [من بلقين(*)][٣] قال : أتيت النبي ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، وهو بوادي القرىٰ ، وهو يعرض فرسًا ، فقلت : يا رسول اللّٰه ، ما تقول في الغنيمة ؟ فقال : « **للّٰه خمسها ، وأربعة أخماسها للجيش** » . قلت : فما أحد أولىٰ به من أحد ؟ قال : « **لا ، ولا السهم تستخرجه من جيبك ليس أنت أحق به من أخيك المسلم** » .

وقال ابن جرير(١٤٥) : حدّثنا عمران بن موسىٰ ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا أبان ، عن الحسن، قال : أوصى [أبو بكر][٤] بالخمس من ماله، وقال : ألا أرضى من مالي بما رضي اللّٰه لنفسه .

ثم اختلف قائلو هذا القول ، فروىٰ علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ؛ قال : كانت الغنيمة تقسم[٥] علىٰ خمسة أخماس ؛ فأربعة منها بين من قاتل عليها ، وخمس واحد يقسم علىٰ أربعة أخماس : فربع للّٰه وللرسول [صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، ولذي القربىٰ - يعني قرابة

---

(١٤٤) - السنن الكبرى (٣٢٤/٦) .

(١٤٥) - تفسير ابن جرير (٥٥٠/١٣) رقم (١٦٠٩٩) .

(*) - بلقين : أصله : بنو القين ، حي من بني أسد ، تخفف العرب ذلك كما قالوا : بلحارث وبلهجيم . يعنون بني الحارث وبني الهجيم . تاج العروس .

---

[١] - في ت : « خمس » .

[٢] - في ز : « عبيد » .

[٣] - في الدر : من بلقين عن ابن عم له .

[٤] - في خ : « الحسن » .

[٥] - في ت : « تخمس » .

النبي صلى الله عليه وسلم][١] فما كان لله وللرسول فهو لقرابة النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ، ولم يأَخذ النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ، من الخمس شيئًا ، [والربع الثاني لليتامىٰ ، والربع الثالث للمساكين ، والربع الرابع لابن السبيل][٢] .

وقال ابن أبي حاتم : ثنا أبي ، ثنا أبو معمر المنقري ، ثنا عبد الوارث بن سعيد ، عن حسين المعلم ، عن عبد الله بن بريدة في قوله : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول** ﴾ قال : الذي لله فلنبيه ، والذي للرسول لأزواجه .

وقال عبد الملك بن أبي سليمان ، عن عطاء بن أبي رباح ؛ قال : خمس الله والرسول واحد ، كان[٣] يحمل منه ويصنع[٤] فيه ما شاء ، يعني النبي صلىٰ الله عليه وسلم (١٤٦) .

وهذا أعم وأشمل ، وهو [أن الرسول][٥] ، صلىٰ الله عليه وسلم ، يتصرف في الخمس الذي جعله الله له بما شاء ، ويرده في أمته كيف شاء ، ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد حيث قال(١٤٧) :

حدثنا إسحاق بن عيسىٰ ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم ، عن أبي سلام[٦] الأعرج، عن المقدام بن معد يكرب الكندي، أنه جلس مع عبادة بن الصامت ، وأبي الدرداء ، والحارث بن معاوية الكندي –رضي الله عنهم – فتذاكروا حديث رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، فقال أبو الدرداء لعبادة : يا عبادة ، كلمات رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس . فقال عبادة : إن رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، صلىٰ بهم في غزوة إلىٰ بعير من المغنم ، فلما سلم قام

---

(١٤٦) – تفسير ابن جرير (١٣/٥٥٠) رقم (١٦١٠٠)

(١٤٧) – المسند (٥/٣١٤ ، ٣١٦) رقم (٢٢٧٨٣، ٢٢٨٠٢) وإسناده ضعيف من أجل أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم . والحديث أخرجه الطبراني في الأوسط كما في مجمع البحرين (٥/ ١٣/رقم: ٢٦٢٤) من طريق محمد بن عبد الله الحضرمي ، عن عبد الله بن سالم ، عن عبيلة بن الأسود ، عن القاسم بن الوليد ، عن أبي صادق ، عن ربيعة بن ناجد ، عن عبادة بن الصامت . وأخرجه ابن أبي عاصم في الجهاد حديث (٥) بنفس الإسناد ، وأخرجه من طرق أخرى حديث (٦ و٧) . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد مفرقًا بعضه في (٥/ ٢٧٢) وعزاه لأحمد والطبراني في الكبير والأوسط بأطول من هنا ، وقال : « وأحد أسانيد أحمد وغيره ثقات » . وفي (٥/ ٣٣٨) وعزاه لأحمد وقال : « وفيه أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف».

---

[١] – [٢] – مابين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٣] – زيادة من ابن جرير .

[٤] – في تفسير ابن جرير : يضع .

[٥] – في خ : « أنه » .

[٦] – في خ : « إسلاح » .

رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم فتناول وبرة بين أنملتيه ، فقال : « **إن هذه من غنائمكم ، وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم ؛ إلا[١] الخمس، والخمس مردود عليكم ؛ فأدوا الخيط والمخيط ، وأكبر من ذلك وأصغر ، ولا تغلّوا ؛ فإن الغلول عار ونار علىٰ أصحابه في الدنيا والآخرة ، وجاهدوا الناس في اللَّه القريب والبعيد ، ولا تبالوا في اللَّه لومة لائم ، وأقيموا حدود اللَّه في السفر والحضر ؛ [ ][٢] وجاهدوا في [سبيل][٣] اللَّه ؛ فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، ينجي اللَّه به من الهم والغم** » .

هذا حديث حسن عظيم ، ولم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه ، ولكن روىٰ الإِمام أحمد أيضًا ، وأبو داود ، والنسائي من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده عبد اللَّه بن عمرو(١٤٨) ، عن رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، نحوه في قصة الخمس ، والنهي عن الغلول .

وعن عمرو بن عبسة[٤] ، أن رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، صلىٰ بهم إلىٰ بعير من المغنم فلما سلم ، أخذ وبرة من هذا[٥] البعير ، ثم قال : « **ولا يحل لي من[٦] غنائمكم مثل هذه إلا الخمس ، والخمس مردود فيكم** » . رواه أبو داود والنسائي(١٤٩) .

وقد كان للنبي ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، من المغانم[٧] شيء يصطفيه لنفسه : عبد[٨] أو أمة ، أو فرس[٩] ، أو سيف[١٠] ، أو نحو ذلك . كما نص عليه محمد بن سيرين ، وعامر الشعبي ، وتبعهما علىٰ ذلك أكثر العلماء .

وروىٰ الإِمام أحمد ، والترمذي - وحسنه - عن ابن عباس(١٥٠) : أن رسول اللَّه ، صلىٰ

(١٤٨) - المسند (٢/١٨٤) وسنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب : فداء الأسير بالمال برقم (٢٦٩٤) . والنسائي في الهبة (٣٦٨٨) ، وفي قسم الفيء (٤١٣٩) .

(١٤٩) - سنن أبي داود ، كتاب الجهاد برقم (٢٧٥٥) من حديث الوليد بن عتبة ، عن الوليد بن مسلم قال : حدثنا عبد الله بن العلاء أنه سمع أبا إسلام الأسود قال : سمعت عمرو بن عبسة فذكره ، والوليد بن مسلم ثقة إلا أنه يدلس ويسوي ، وقد صرح بالتحديث والسماع في كافة الإسناد فانتفت العلتان .

(١٥٠) - المسند (١/٢٧١) ، وسنن الترمذي برقم (١٥٦١) ، وابن ماجه حديث (٢٨٠٨) ، =

[١] - سقط من : ت .

[٢] - في ز : «وجاهدوا في الله » .

[٣] - سقط من : خ .

[٤] - في ز ، خ : « عنبسة » .

[٥] - في خ : « ذلك » .

[٦] - في ز ، خ : « في » .

[٧] - في ز ، خ : « الغنيمة » .

[٨] - في ز ، خ : « عبدًا » .

[٩] - في ز ، خ : « فرسًا » .

[١٠] - في ز ، خ : « سيفًا » .

اللَّه عليه وسلم ، تنفل سيفه ذا[١] الفقار يوم بدر ، وهو الذي رأىٰ فيه الرؤيا يوم أحد

وعن عائشة ، رضي اللَّه عنها قالت : كانت صفية من الصفي . رواه أبو داود في سننه(١٥١) .

وروىٰ أيضًا بإسناده(١٥٢) ، والنسائي أيضًا عن يزيد بن عبد اللَّه قال : كنا بالمربد ، إذ دخل رجل معه قطعة أديم ، فقرأناها فإذا فيها : « **من محمد رسول اللَّه إلىٰ بني زهير بن أقيش ، إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا اللَّه ، وأن محمدًا رسول اللَّه ، وأقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وأديتم الخمس من المغنم ، وسهم النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، وسهم الصفي ؛ أنتم آمنون بأمان اللَّه ورسوله** » ، فقلنا : من كتب لك هذا ؟ فقال : رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم .

فهذه أحاديث جيدة تدل علىٰ تقرير هذا وثبوته ، ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات اللَّه وسلامه عليه ، وقال آخرون : إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين ، كما يتصرف في مال الفيء .

وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية -رحمه اللَّه- : وهذا قول مالك وأكثر السلف ، وهو أصح الأقوال .

فإذا ثبت هذا وعلم ، فقد اختلف أيضًا في الذي كان يناله - عليه السلام - من الخمس ، ماذا يصنع به من بعده ؟ فقال قائلون : يكون لمن يلي الأمر من بعده . روي هذا عن أبي بكر ، وعلي ، وقتادة وجماعة . وجاء فيه حديث مرفوع(١٥٣) .

وقال آخرون : يصرف في مصالح المسلمين .

وقال آخرون : بل هو مردود علىٰ بقية الأصناف : ذوي القربىٰ ، واليتامىٰ ، والمساكين ، وابن السبيل . اختاره ابن جرير .

= وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث ابن أبي الزناد ، وقد اختلف أهل العلم في النفل من الخمس .

(١٥١) - سنن أبي داود ، كتاب الخراج والإمارة والفيء ، باب : ما جاء في سهم الصفي برقم (٢٩٩٤) .

(١٥٢) - سنن أبي داود ، كتاب الخراج والإمارة والفيء ، باب : ما جاء في سهم الصفي حديث (٢٩٩٩) ، والنسائي (١٣٤/٧) .

(١٥٣) - رواه البيهقي في السنن الكبرى (٣٠٣/٦) من طريق الوليد بن جميع عن أبي الطفيل : لما سألت فاطمة أبا بكر عن الخمس فقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « **إذا أطعم الله نبيًا طعمة ثم قبضه كانت للذي يلي بعده** » فلما وليت رأيت أن أرده على المسلمين .

[١] - في خ : « ذو » .

وقال آخرون : بل سهم النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، وسهم ذوي القربىٰ مردودان علىٰ اليتامىٰ ، والمساكين ، وابن السبيل . قال ابن جرير : وذلك قول جماعة من أهل العراق .

وقيل : إن الخمس جميعه لذوي القربىٰ ، كما رواه ابن جرير(١٥٤) :

حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا عبد الغفار، حدثنا المنهال بن عمرو : سألت عبد اللّٰه بن محمد بن علي ، وعلي بن الحسين عن[١] الخمس ، فقالا : هو لنا . فقلت لعلي : فإن اللّٰه يقول : ﴿ **واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل** ﴾ فقالا : يتامانا ومساكيننا .

وقال سفيان الثوري ، وأبو نعيم ، وأبو أسامة ، عن قيس بن مسلم ، سألت الحسن بن محمد ابن الحنفية[٢] رحمه اللّٰه تعالىٰ ، عن قول اللّٰه تعالىٰ : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن للّٰه خمسه وللرسول** ﴾ ، فقال : هذا مفتاح كلام اللّٰه ، الدنيا والآخرة . ثم اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، فقال قائلون : سهم النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم تسليمًا للخليفة من بعده ، وقال قائلون : لقرابة النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم . وقال قائلون[٣] : سهم القرابة لقرابة الخليفة ، [واجتمع رأيهم][٤] أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل اللّٰه ، فكانا علىٰ ذلك في خلافة أبي بكر وعمر - رضي اللّٰه عنهما - .

[قال الأعمش ، عن إبراهيم : كان أبو بكر وعمر][٥] يجعلان سهم النبي ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم في الكراع والسلاح ؛ فقلت لإبراهيم : ما كان علي يقول فيه ؟ قال : كان أشدهم فيه .

وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء - رحمهم اللّٰه - .

وأما سهم ذوي القربىٰ ، فإنه يصرف إلىٰ بني هاشم وبني المطلب ؛ لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية ، [وفي أول الإسلام][٦] ، ودخلوا معهم في الشعب غضبًا لرسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، وحماية له : مسلمهم طاعة للّٰه ولرسوله ، وكافرهم حمية للعشيرة وأنفة ، وطاعة لأبي طالب عم رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم . وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل ، وإن كانوا بني[٧] عمهم ، فلم يوافقوهم على ذلك ، بل حاربوهم

---

(١٥٤) - التفسير (١٦١٢٨/١٣) .

---

[١] - في ز : « على » .
[٢] - في ت : « الحنيفة » .
[٣] - في ت : « آخرون » .
[٤] - في ز : « فاجتمع قولهم على » .
[٥] - سقط من : ز ، خ .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٧] - في ز : « ابنا » ، خ : « أبناء » .

ونابذوهم ومالئوا[١] بطون قريش على حرب الرسول ، ولهذا كان ذم أبي طالب لهم[٢] في قصيدته اللامية أشد من غيرهم ؛ لشدة قربهم ، ولهذا يقول في أثناء قصيدته :

جزىٰ اللَّه عنا عبد شمس ونوفلا ... [عقوبة[٣] [شر عاجل][٤] غير آجل][٥]
بميزان قسط لا يخيس شعيرة ... له شاهد من نفسه غير عائل
لقد سفهت أحلام قوم تبدلوا ... بني[٦] خَلفَ قيضًا بنا والغياطل
ونحن الصميم من ذؤابة هاشم ... وآل قصي في الخطوب الأوائل

وقال جبير[٧] بن مطعم بن عدي [بن نوفل][٨] : مشيت أنا وعثمان بن عفان يعني ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس إلىٰ رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، فقلنا : يا رسول اللَّه ، أعطيت بني المطلب من خمس خيبر ، وتركتنا ونحن وهم منك بمنزلة واحدة . فقال : « **إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد** » . رواه مسلم(١٥٥) .

وفي بعض روايات هذا الحديث : « **إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام** »(١٥٦) .

وهذا قول جمهور العلماء ، إنهم بنو هاشم وبنو المطلب .

قال ابن جرير : وقال آخرون : هم بنو هاشم . ثم روى عن خصيف عن مجاهد قال : علم اللَّه أن في بني هاشم فقراء ، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة .

وفي رواية عنه ، قال : هم قرابة رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، الذين لا تحل لهم الصدقة .

ثم روى عن علي بن الحسين نحو ذلك .

قال ابن جرير(١٥٧) : وقال آخرون بل هم قريش كلها .

---

(١٥٥) - رواه البخاري في فرض الخمس ، باب : من الدليل على أن الخمس للإمام حديث (٣١٤٠) ، وأبو داود (٢٩٧٨ ، ٢٩٧٩ ، ٢٩٨٠) والنسائي في قسم الفيء (٤١٣٦ ، ٤١٣٧) ، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٨١) وأحمد (١٦٢٩٩ ط: إحياء التراث) ولم نقف عليه عند مسلم .

(١٥٦) - سنن النسائي ، باب : قسم الفيء (٧/١٣٠)رقم (٤١٣٧) .

(١٥٧) - تفسير ابن جرير (١٣/٥٥٥) رقم (١٦١١٧) .

---

[١] - في ز : « قالوا » .
[٢] - سقط من : ت .
[٣] - سقط من : ز ، خ .
[٤] - في ز : « بشر عاجلًا » .
[٥] - في حاشية (ز) : «عقوبة سوءٍ من غرام مماثل ».
[٦] - في خ : « بنو » .
[٧] - في ز ، خ : « ابن جبير » .
[٨] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

[حدثني يونس بن عبد الأعلىٰ ، حدثني عبد اللَّه بن نافع ، عن أبي معشر ، عن سعيد المقبري][١] قال : كتب نجدة إلىٰ عبد اللَّه بن عباس يسأله عن ذوي القربىٰ ؛ فكتب إليه ابن عباس كنا نقول : إنا هم ، فأبىٰ علينا ذلك قومنا ، وقالوا : قريش كلها ذوو قربىٰ .

وهذا الحديث [ ][٢] صحيح، رواه[٣] مسلم(١٥٨) وأبو[٤] داود ، والترمذي ، والنسائي من حديث سعيد المقبري ، [عن يزيد بن هرمز ، أن نجدة كتب إلىٰ ابن عباس يسأله عن ذوي القربىٰ][٥] فذكره ، إلىٰ قوله : فأبىٰ ذلك[٦] علينا قومنا .

والزيادة من أفراد أبي معشر نجيح بن عبد الرحمن المدني ، وفيه ضعف .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا إبراهيم[٧] بن مهدي المصيصي ، حدثنا المعتمر ابن سليمان ، عن أبيه ، عن حنش ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **رغبت لكم عن غسالة الأيدي ؛ لأن لكم من خمس الخمس ما يغنيكم** » أو « **يكفيكم** » .

هذا حديث حسن الإسناد ، وإبراهيم بن مهدي هذا وثقه أبو حاتم ، وقال يحيىٰ بن معين : يأتي بمناكير(١٥٩) ، واللَّه أعلم[٨] .

وقوله : ﴿ **واليتامىٰ** ﴾ أي أيتام المسلمين ، واختلف العلماء هل يختص بالأيتام الفقراء ، أو يعم الأغنياء والفقراء ؟ علىٰ قولين .

والمساكين هم المحاويج ، الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنتهم .

﴿ **وابن السبيل** ﴾ هو المسافر أو المريد للسفر إلىٰ مسافة تقصر فيها الصلاة ، وليس له ما ينفقه في سفره ذلك . و[٩] سيأتي تفسير ذلك في آية الصدقات من[١٠] سورة براءة إن شاء اللَّه وبه الثقة وعليه التكلان .

---

(١٥٨) - صحيح مسلم برقم (١٨١٢) وسنن أبي داود برقم (٢٩٨٢) ، وسنن الترمذي برقم (١٥٥٦) وسنن النسائي (١١٢٨/٧) ، وهو عند أبي داود والنسائي من حديث الزهري عن يزيد .

(١٥٩) - انظر : ميزان الاعتدال للذهبي (٦٨/١) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين مكرر في : خ .
[٢] - ما بين المعكوفتين في ز : « في » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في ز : « وأبي » .
[٥] - سقط من : ز ، خ .
[٦] - سقط من : ز ، خ .
[٧] - سقط من : ت .
[٨] - سقط من : ز .
[٩] - سقط من : خ .
[١٠] - في ز : « في » .

وقوله : ﴿ **إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا علىٰ عبدنا** ﴾ أي : امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وما أنزل علىٰ رسوله ؛ ولهذا جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس(١٦٠) ، في حديث وفد عبد القيس ، أن رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، قال لهم : « **وآمركم بأربع وأنهاكم عن أربع : آمركم بالإيمان بالله** » ثم قال : « **هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا الخمس من المغنم** » الحديث بطوله ، فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان ، وقد بوب البخاري علىٰ ذلك في كتاب الإيمان من صحيحه ، فقال : « **باب أداء الخمس من الإيمان** » ثم أورد حديث ابن عباس هذا ، وقد بسطنا الكلام عليه[١] في شرح البخاري ، ولله الحمد والمنة(١٦١) .

وقال مقاتل بن حيان[٢] : ﴿ **وما أنزلنا علىٰ عبدنا [يوم الفرقان** ﴾ أي : في القسمة . وقوله ﴿ **يوم الفرقان]**[٣] **يوم التقىٰ الجمعان والله علىٰ كل شيء قدير** ﴾ ينبه تعالىٰ علىٰ نعمته وإحسانه إلىٰ خلقه ، بما فرق به بين الحق والباطل ببدر ، ويسمىٰ الفرقان ؛ لأن الله تعالى أعلىٰ فيه كلمة الإيمان علىٰ كلمة الباطل ، وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه .

قال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس : يوم الفرقان يوم بدر ؛ فرق الله فيه بين الحق والباطل . رواه الحاكم .

وكذا قال مجاهد ، ومقسم ، وعبيد الله بن عبد الله والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان وغير واحد : إنه يوم بدر .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري ، عن عروة بن الزبير في قوله : ﴿ **يوم الفرقان** ﴾ يوم فرق الله بين الحق والباطل ، وهو يوم بدر ، وهو أول مشهد شهده رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة ؛ فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو سبع عشرة مضت من رمضان ، وأصحاب رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا ، والمشركون بين الألف والتسعمائة ، فهزم الله المشركين ، وقتل منهم زيادة علىٰ السبعين ، وأسر منهم مثل ذلك .

---

(١٦٠) - صحيح البخاري كتاب الإيمان ، باب : أداء الخمس من الإيمان برقم (٥٣) وصحيح مسلم ، كتاب الإيمان برقم (١٧) .

(١٦١) - وانظر كلام الحافظ ابن حجر في : فتح الباري (١/١٢٩-١٣٥) .

---

[١] - سقط من : ت . [٢] - في خ : « حبان » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

وقد روىٰ الحاكم في مستدركه(١٦٢) ، من حديث الأعمش ، عن إبراهيم ، عن الأسود ، عن ابن مسعود قال في ليلة القدر : تحروها لإحدىٰ عشرة يبقين ؛ فإن في[١] صبيحتها يوم بدر ؛ وقال : علىٰ شرطهما .

وروي مثله عن عبد الله بن الزبير أيضًا ، من حديث جعفر بن برقان ، عن رجل عنه .

وقال ابن جرير(١٦٣) : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يحيىٰ بن واضح ، حدثنا يحيىٰ بن يعقوب أبو طالب ، عن ابن عون ، عن محمد بن عبد الله الثقفي ، عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : قال [ ][٢] الحسن بن علي : كانت ليلة الفرقان ، يوم التقىٰ الجمعان ، لسبع عشرة[٣] من رمضان ، إسناد جيد قوي .

ورواه ابن مردويه ، عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب ، عن علي قال : كانت ليلة الفرقان ليلة التقىٰ الجمعان في صبيحتها ليلة الجمعة ، لسبع عشرة مضت من شهر رمضان .

وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير .

وقال يزيد بن أبي حبيب[٤] إمام أهل الديار المصرية في زمانه : كان [يوم بدر][٥] يوم الإثنين . ولم يتابع علىٰ هذا ، وقول الجمهور مقدم عليه ، والله أعلم .

﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾

يقول تعالىٰ [مخبرًا عن][٦] يوم الفرقان : ﴿ **إذ أنتم بالعدوة الدنيا** ﴾ أي : إذ أنتم

(١٦٢) - المستدرك (٣/٢٠) .

(١٦٣) - تفسير ابن جرير (١٣/٥٦٢) رقم (١٦١٣٥) ويحيى بن يعقوب : منكر الحديث .

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في ز ، خ : « كان » .
[٣] - في م : « عشر » .
[٤] - في (ز) الكلمة غير واضحة وهى تشتبه بـ « سعيد » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

نزول بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلىٰ المدينة ، ﴿ **وهم** ﴾ أي : المشركون نزول ﴿ **بالعدوة القصوىٰ** ﴾ أي : البعيدة [من المدينة إلىٰ][١] ناحية مكة ، ﴿ **والركب** ﴾ أي : العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة ، ﴿ **أسفل منكم** ﴾ أي : مما يلي سيف البحر ، ﴿ **ولو تواعدتم** ﴾ [أي : أنتم والمشركون إلىٰ مكان][٢] ، ﴿ **لاختلفتم في الميعاد** ﴾ .

قال محمد بن إسحاق : وحدثني يحيىٰ بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه في هذه الآية ، قال : ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم ، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم ؛ ما لقيتموهم ، ﴿ **ولكن ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا** ﴾ أي : ليقضي الله ما أراد بقدرته ، من إعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله من[٣] غير ملأ منكم ، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه .

وفي حديث كعب بن مالك قال(١٦٤) : إنما خرج رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، والمسلمون يريدون عير قريش حتىٰ جمع الله بينهم وبين عدوهم علىٰ غير ميعاد .

وقال ابن جرير (١٦٥) : حدثني يعقوب ، حدثني ابن علية ، عن ابن عون ، عن عمير بن إسحاق قال : أقبل أبو سفيان في الركب من الشام ، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، وأصحابه ، فالتقوا ببدر ، ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء ولا هؤلاء بهؤلاء حتىٰ التقت السقاة ، ونهد الناس بعضهم لبعض .

وقال محمد بن إسحاق في السيرة (١٦٦) : ومضىٰ رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، علىٰ وجهه ذلك ، حتىٰ إذا كان قريبًا من الصفراء ، بعث بسبس بن عمور[٤] ، وعدي بن أبي الزغباء الجهنيين يلتمسان الخبر عن أبي سفيان ؛ فانطلقا حتىٰ إذا وردا بدرًا فأناخا بعيريهما إلىٰ تل من البطحاء ، فاستقيا في شن لهما من الماء فسمعا جاريتين تختصمان[٥] : تقول إحداهما[٦] لصاحبتها : اقضيني حقي ، وتقول الأخرىٰ : إنما تأتي[٧] العير غدًا أو بعد غد ؛ فأقضيك حقك ، فخلص بينهما مجدي بن عمرو ، وقال : صدقت ، فسمع ذلك[٨] بسبس

(١٦٤) - رواه البخاري في صحيحه ، كتاب المغازي ، باب : قصة غزوة بدر برقم (٣٩٥١) .

(١٦٥) - تفسير ابن جرير (١٣/٥٦٧) رقم (١٦١٤٨) .

(١٦٦) - انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/٦١٧) .

[١] - في ز : « التي من » ، وسقط من : خ .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - في ز : « عن » .
[٤] - في خ : « عمر » .
[٥] - في ز ، خ : « تختصما » .
[٦] - في ز : « إحديهما » .
[٧] - في خ : « تأت » .
[٨] - في خ : « بذلك » .

وعدي ، فجلسا على بعيريهما حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبراه الخبر .

وأقبل أبو سفيان حين وليا وقد حذر ، فتقدم أمام عيره ، وقال لمجدي بن عمرو : هل أحسست على هذا الماء من أحد تنكره ؟ فقال : لا والله ، إلا أني قد رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل ، فاستقيا في شن لهما ، ثم انطلقا . فجاء أبو سفيان إلى مناخ بعيريهما ، فأخذ من أبعارهما ففته ، فإذا فيه النوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب ، ثم رجع سريعًا فضرب وجه عيره ، فانطلق بها ، فساحل حتى إذا رأى أنه قد أحرز عيره [بعث][1] إلى قريش فقال : إن الله قد نجى عيركم وأموالكم ورجالكم فارجعوا .

فقال أبو جهل : والله ، لا نرجع حتى نأتي بدرًا - وكانت بدر سوقًا من أسواق العرب - فنقيم بها ثلاثًا ، فنطعم بها الطعام ، وننحر بها الجزر ، ونسقي بها الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا ؛ فلا يزالون يهابوننا بعدها أبدًا.

فقال الأخنس بن شريق : يا معشر بني زهرة ، إن الله قد نجى[2] أموالكم ونجى صاحبكم فارجعوا ؛ فأطاعوه[3] فرجعت بنو زهرة ، فلم يشهدوها ولا بنو عدي .

قال محمد بن إسحاق(١٦٧) : وحدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال : وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دنا من بدر علي بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام في نفر من أصحابه ، يتجسسون له الخبر ، فأصابوا سقاة لقريش ؛ غلامًا لبني سعيد بن العاص ، وغلامًا لبني الحجاج ، فأتوا بهما رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فوجدوه يصلي ، فجعل أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يسألونهما : لمن أنتما ؟ فيقولان : نحن سقاة لقريش ، بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم خبرهما ، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان ؛ فضربوهما فلما أزلقوهما قالا : نحن لأبي سفيان ؛ فتركوهما . وركع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسجد سجدتين[4] ، ثم سلم وقال : « **إذا صدقاكم ضربتموهم وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقا والله إنهما لقريش ، أخبراني عن قريش** » . قالا : هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى ، والكثيب : العقنقل ، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **كم القوم ؟** » قالا : كثير . قال : « **ما عدتهم ؟** » قالا : ما ندري . قال « **كم ينحرون كل يوم ؟** » قالا : يومًا تسعًا ، ويوما عشرًا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **القوم ما بين التسعمائة إلى**

(١٦٧) - انظر : السيرة النبوية لابن هشام (٦١٦/١) .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٢] - في خ : « أنجى » .
[٣] - سقط من : م .
[٤] - في ز : « سجدتيه » .

الألف » ، ثم قال لهما : « **فمن فيهم من أشراف قريش ؟** » قالا : عتبة[١] بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البختري[٢] بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدي بن [نوفل والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام وأمية بن][٣] خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبد ودّ ، فأقبل رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، علىٰ الناس فقال : « **هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها** » .

قال محمد بن إسحاق رحمه الله تعالىٰ(١٦٨) : وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، لما التقىٰ الناس يوم بدر : يا رسول الله ، ألا نبني لك عريشًا تكون فيه ، وننيخ إليك ركائبك ، ونلقى عدونا ؛ فإن أظهرنا[٤] الله عليهم وأعزنا فذاك ما نحب ، وإن تكن الأخرىٰ فتجلس علىٰ ركائبك ، وتلحق بمن وراءنا من قومنا ، فقد والله تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد لك حبًا منهم ، لو علموا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك ، ويوازرونك وينصرونك. فأثنىٰ عليه رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، خيرًا ودعا له به ، فبني له عريش ، فكان فيه رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، وأبو بكر ما معهما غيرهما .

قال ابن إسحاق(١٦٩) : وارتحلت قريش حين أصبحت ، فلما أقبلت و[٥]رآها رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، تصوب من العقنقل ، وهو الكثيب الذي جاءوا منه إلىٰ الوادي ، فقال : « **اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ؛ تحادّك وتكذب رسولك ، اللهم أحنهم الغداة** » .

وقوله : ﴿ **ليهلك من هلك عن بينة ويحيىٰ من حيّ عن بينة** ﴾ قال محمد بن إسحاق : أي ليكفر من كفر بعد الحجة ، لما رأىٰ من الآية والعبرة ، ويؤمن من آمن علىٰ مثل ذلك . وهذا تفسير جيد ، وبسط ذلك أنه تعالىٰ يقول : إنما جمعكم مع عدوّكم في مكان واحد علىٰ غير ميعاد ؛ لينصركم عليهم ، ويرفع كلمة الحق علىٰ الباطل ، ليصير الأمر ظاهرًا ، والحجة قاطعة ، والبراهين ساطعة ، ولا يبقىٰ لأحد حجة ولا شبهة ، فحينئذ يهلك

(١٦٨) – انظر : السيرة النبوية لابن هشام (٢٦٠/١) .

(١٦٩) – انظر : السيرة النبوية لابن هشام (٦٢١/١) .

[١] – في ز : « علبة » ، خ : « علية » .

[٢] – في ز : « البحتري » .

[٣] – ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٤] – في خ : « أظفرنا » .

[٥] – سقط من : ز .

من هلك أي : يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره ، أنه مبطل لقيام الحجة عليه ، ﴿ ويحيىٰ من حي ﴾ أي : يؤمن[١] من آمن ﴿ عن بينة ﴾ أي : حجة وبصيرة . والإيمان هو حياة القلوب ، قال الله تعالىٰ : ﴿ أو من كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشي به في الناس ﴾ وقالت عائشة في قصة الإفك : فيَّ هلك من هلك ، أي : قال فيها ما قال من [الكذب و][٢] البهتان والإفك .

وقوله : ﴿ وإن الله لسميع ﴾ أي : لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به . ﴿ عليم ﴾ أي : بكم ، وأنكم[٣] تستحقون النصر علىٰ أعدائكم الكفرة المعاندين .

إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

قال مجاهد : أراه[٤] الله إياهم[٥] في منامه قليلًا ، وأخبر[٦] النبي صلىٰ الله عليه وسلم أصحابه بذلك ؛ فكان تثبيتًا لهم . وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد . وحكىٰ ابن جرير عن بعضهم ، أنه رآهم بعينه التي ينام بها .

وقد روىٰ ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا يوسف بن موسىٰ المدبر ، حدثنا أبو قتيبة ، عن سهل السراج ، عن الحسن في قوله : ﴿ إذ يريكهم الله في منامك قليلًا ﴾ قال : بعينك .

وهذا القول غريب ، وقد صرح بالمنام هاهنا ، فلا حاجة إلىٰ التأويل الذي لا دليل عليه .

وقوله : ﴿ ولو أراكهم كثيرًا لفشلتم ﴾ أي : لجبنتم عنهم ، واختلفتم فيما بينكم ، ﴿ ولكن الله سلم ﴾ أي : من ذلك بأن أراكهم قليلًا ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي : بما تجنه الضمائر ، وتنطوي عليه الأحشاء ؛ فـ ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ .

---

[١] - في خ : « يومئذ » .

[٢] - ما بين المعكوفتين زيادة من : ز .

[٣] - في ز : « فإنكم » .

[٤] - في ز : « أراهم » .

[٥] - سقط من : ز .

[٦] - في ز : « فأخبر » .

وقوله : ﴿ **وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم**[١] **قليلًا** ﴾ وهذا أيضًا من لطفه تعالىٰ بهم ؛ إذ[٢] أراهم إياهم قليلًا في رأي العين ؛ فيجرئهم[٣] عليهم ، ويطمعهم فيهم .

قال أبو إسحاق السبيعي(١٧٠) ، عن أبي عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : لقد قللوا في أعيننا يوم بدر ، حتىٰ قلت لرجل إلىٰ جنبي[٤] : تراهم سبعين ؟ قال : لا ، بل هم[٥] مائة حتىٰ أخذنا رجلًا منهم فسألناه فقال[٦] : كنا ألفًا . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

وقوله : ﴿ **ويقللكم في أعينهم** ﴾ قال ابن أبي حاتم(١٧١) : [حدثنا أبي][٧] ، حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، عن الزبير بن الخريت ، عن عكرمة : ﴿ **وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلًا ويقللكم في أعينهم** ﴾ . قال : حضض[٨] بعضهم علىٰ بعض . إسناد صحيح .

وقال محمد بن إسحاق(١٧٢) : حدثني يحيىٰ بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه في قوله تعالىٰ : ﴿ **ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا** ﴾ أي : [ليلقي بينهم الحرب][٩] للنقمة ممن أراد الانتقام منه ، والإنعام علىٰ من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته .

ومعنىٰ هذا أنه تعالىٰ أغرىٰ كلًّا من الفريقين بالآخر ، وقلله في عينه ليطمع فيه ، وذلك عند المواجهة ، فلما التحم القتال ، وأيد الله المؤمنين [ ][١٠] بألف من الملائكة مردفين ، بقي حزب الكفار[١١] يرىٰ حزب [الإيمان ضعفيه][١٢] ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرىٰ كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد**

---

(١٧٠) - تفسير ابن جرير (٥٧٢/١٣) رقم (١٦١٥٦) .

(١٧١) - تفسير ابن أبي حاتم (٩١٢٨/٥) .

(١٧٢) - تفسير ابن جرير (٥٧٣/١٣) رقم (١٦١٦٠) .

---

[١] - في ز : « أعينهم » .

[٢] - في ز : « إن » .

[٣] - في ت : « فيجرؤهم » .

[٤] - في ز : « جانبي » .

[٥] - سقط من : ز ، خ .

[٦] - في ز : « قال » .

[٧] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٨] - في ز : « حصص » .

[٩] - عند ابن جرير : «ليؤلف بينهم على الحرب» .

[١٠] - في ز : « بالملائكة » .

[١١] - في ز : « الإيمان » .

[١٢] - في ز : « الكفر ضعيف » .

بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين ؛ فإن كلًّا منها حق وصدق ولله الحمد والمنة .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

هذا تعليم من الله [تعالىٰ لعباده][١] المؤمنين ، آداب اللقاء ، وطريق الشجاعة عند مواجهة[٢] الأعداء فقال[٣] : **﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ﴾** .

ثبت في الصحيحين(١٧٣) ، عن عبد الله بن أبي أوفىٰ ، عن[٤] رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، أنه[٥] انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدوّ ، حتى إذا مالت الشمس ؛ قام فيهم فقال : « **يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدوّ ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف** » . ثم قام النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ، وقال : « **اللهم منزل الكتاب ، ومجري السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم** » .

وقال عبد الرزاق(١٧٤) : عن سفيان الثوري ، عن عبد الرحمن بن زياد ، عن عبد الله بن يزيد ، عن عبد الله بن عمرو ؛ قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **لا تتمنوا لقاء العدوّ ، واسألوا[٦] الله العافية ؛ فإذا لقيتموهم فاثبتوا ، واذكروا الله ، فإن [أجلبوا وضجوا][٧] فعليكم بالصمت[٨]** » .

---

(١٧٣) - صحيح البخاري رقم (٢٩٣٣ ، ٢٩٦٦ ، ٣٠٢٤ ، ٤١١٥ ، ٦٣٩٢ ، ٧٤٨٩) وصحيح مسلم ، كتاب : الجهاد والسير رقم (١٧٤٢) .

(١٧٤) - مصنف عبد الرزاق برقم (٩٥١٨) ورواه البيهقي في السنن الكبرى (١٥٣/٩) من طريق ابن وهب ، وابن أبي شيبة في المصنف (٤٦٣/١٢) من طريق عبدة بن سليمان ، كلاهما عن عبد الرحمن بن زياد به .

---

[١] - في ز : « عباده » .
[٢] - في ز : « مواجهته » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في خ : « أن » .
[٥] - سقط من : ت .
[٦] - في ز : « وسلوا » .
[٧] - في ز : « جلبوا وصبحوا » .
[٨] - في ز : « الضمت » .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني (١٧٥) : حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوي ، حدثنا أمية بن بسطام ، حدثنا معتمر بن سليمان ، حدثنا[١] ثابت بن زيد ، عن رجل ، عن زيد بن أرقم ، عن النبي ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، مرفوعًا[٢] قال : « **إن اللَّه يحب الصمت عند ثلاث : عند تلاوة القرآن ، وعند الزحف ، وعند الجنازة** » .

وفي الحديث الآخر المرفوع(١٧٦) يقول اللَّه تعالىٰ : « **إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني ، وهو مناجز قرنه** » أي : لا يشغله ذلك الحال عن ذكري ودعائي واستعانتي .

وقال سعيد بن أبي عروبة : عن قتادة في هذه الآية ، قال[٣] : افترض اللَّه ذكره عند أشغل ما يكون ، عند الضرب[٤] بالسيوف .

وقال ابن أبي حاتم(١٧٧) : حدثنا أبي ، حدثنا عبدة بن سليمان ، حدثنا ابن المبارك ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، قال : وجب الإنصات [وذكر اللَّه][٥] عند الزحف ، ثم تلا هذه الآية ، قلت : يجهرون بالذكر ؟ قال : نعم .

وقال أيضًا(١٧٨): [قرئ على][٦] يونس بن عبد الأعلىٰ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرني عبد اللَّه بن [ ][٧] [عياش][٨] ، عن يزيد بن قوذر[٩] ، عن كعب الأحبار قال : ما من شيء أحب إلىٰ اللَّه تعالىٰ من قراءة القرآن والذكر ، ولولا[١٠] ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال ؛ ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال ، فقال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا اللَّه كثيرًا لعلكم تفلحون** ﴾ .

قال الشاعر :

---

(١٧٥) - المعجم الكبير (٢١٣/٥) وفيه راوٍ لم يسم .

(١٧٦) - رواه الترمذي في السنن برقم (٣٥٨٠) من طريق عفير بن معدان ، عن أبي دوس اليحصبي ، عن ابن عائذ ، عن عمارة بن زعكرة مرفوعًا ، وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، ليس إسناده بالقوي ، ولا نعرف لعمارة بن زعكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا هذا الحديث الواحد » .

(١٧٧) - تفسير ابن أبي حاتم (٩١٣٣/٥) .

(١٧٨) - تفسير ابن أبي حاتم (٩١٣٢/٥) .

---

[١] - في ز ، خ : « بن » .
[٢] - سقط من : ز .
[٣] - في ز : « وقال » .
[٤] - في ز : « الضراب » .
[٥] - في ز : « والذكر » .
[٦] - في خ : « قرأ عليَّ » .
[٧] - ما بين المعكوفين في ت : « عبد الله » .
[٨] - في ز : « عباس » .
[٩] - في ز : « فوذر » .
[١٠] - في ز : « وأولى » .

ذكرتك والخطيّ يخطر بيننا وقد نهلت فينا المثقفة السمر

وقال عنترة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل[١] مني[٢] وبيض[٣] الهند تقطر من دمي

فأمر تعالىٰ بالثبات عند[٤] قتال الأعداء ، والصبر علىٰ مبارزتهم ، فلا يفروا ، ولا ينكلوا ، ولا يجبنوا ، وأن يذكروا اللّٰه في تلك الحال ، ولا ينسوه ، بل يستعينوا به ويتوكلوا[٥] عليه ، ويسألوه[٦] النصر علىٰ أعدائهم ، وأن يطيعوا اللّٰه ورسوله في حالهم ذلك : فما أمرهم اللّٰه تعالىٰ به ائتمروا ، وما نهاهم عنه انزجروا ، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضًا فيختلفوا ؛ فيكون سببًا لتخاذلهم وفشلهم .

﴿ **وتذهب ريحكم** ﴾ أي : قوتكم[٧] وحدتكم ، وما كنتم فيه من الإقبال ، ﴿ **واصبروا إن اللّٰه مع الصابرين** ﴾ .

وقد كان للصحابة[٨] -رضي اللّٰه عنهم- في باب الشجاعة والائتمار [بما أمرهم اللّٰه ورسوله][٩] وامتثال ما أرشدهم إليه ، ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم ، ولا يكون لأحد ممن بعدهم ؛ فإنهم ببركة الرسول ، صلىٰ اللّٰه عليه وآله وسلم ، وطاعته فيما أمرهم ، فتحوا القلوب والأقاليم شرقًا وغربًا في المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلىٰ جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم . قهروا الجميع حتىٰ علت كلمة اللّٰه وظهر دينه علىٰ سائر الأديان ، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ، في أقل من ثلاثين سنة ، فرضي اللّٰه عنهم وأرضاهم أجمعين ، وحشرنا في زمرتهم إنه كريم وهاب .

وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ

---

[١] - في ز : « شواجر » .
[٢] - في ز ، خ : « فينا » .
[٣] - في ز : « فبيض » .
[٤] - في ز ، خ : « في » .
[٥] - في ز : « ويتكلوا » .
[٦] - في ز : « يسالونه » .
[٧] - في ز : « قربكم » .
[٨] - في ز ، خ : « الصحابة » .
[٩] - في ز : « بأوامر اللّٰه » ، خ : « بما أمر اللّٰه » .

ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

يقول تعالىٰ بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله ، وكثرة ذكره ، ناهيًا لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم ﴿بطرًا﴾ ، أي : دفعًا للحق ، ﴿ **ورئاء الناس** ﴾ وهو المفاخرة والتكبر عليهم ، كما قال أبو جهل لما قيل له : إن العير قد نجا فارجعوا ، فقال : لا[١] والله ، لا نرجع حتىٰ نرد ماء بدر ، وننحر الجزر ، ونشرب الخمر وتعزف علينا القيان ، وتتحدث العرب بمكاننا [فيها يومنا][٢] أبدًا ؛ فانعكس ذلك عليه أجمع ، لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحِمام ، ورموا[٣] في أطواء[٤] بدر مهانين أذلاء ؛ صغرة أشقياء في عذاب سرمدي أبدي ، ولهذا قال : ﴿ **والله بما يعملون محيط** ﴾ أي : عالم بما جاءوا به وله ، ولهذا جازاهم عليه[٥] شر الجزاء لهم .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي في قوله تعالىٰ : ﴿ **ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس** ﴾ قالوا : هم المشركون الذين قاتلوا رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، يوم بدر . وقال محمد بن كعب : لما خرجت قريش من مكة إلىٰ بدر خرجوا بالقيان والدفوف ، فأنزل الله : ﴿ **ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط** ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم** ﴾ الآية ، حسن لهم ، لعنه الله ، ما جاءوا له ، وما هموا به ، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ، ونفىٰ عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر ، فقال : إني[٦] جار لكم ، وذلك أنه تبدىٰ لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم

---

[١] - سقط من : ز ، خ .

[٢] - ما بين المعكوفتين كذا في الأصول ، لعل الصواب : « فيهابوننا » ، كما سبق في (ص ٨١) من هذا الجزء .

[٣] - في ت : « وركموا » .

[٤] - في خ : « أطوار » .

[٥] - في ز : « على ذلك » .

[٦] - في ز : « أنا » .

سيد بني مدلج ، كبير تلك الناحية ، وكل ذلك منه كما قال تعالىٰ عنه : ﴿ **يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا** ﴾ .

قال ابن جريج[١] : قال ابن عباس في هذه الآية : لما كان يوم بدر سار إبليس[٢] برايته وجنوده مع المشركين ، وألقىٰ في قلوب المشركين أن أحدًا لن يغلبكم ، وإني جار لكم ، فلما التقوا ، ونظر الشيطان إلىٰ إمداد الملائكة ﴿ **نكص علىٰ عقبيه** ﴾ قال : رجع مدبرًا ، وقال : ﴿ **إني أرىٰ ما لاترون** ﴾ الآية .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قال : جاء إبليس يوم بدر ، في جند من الشياطين ، معه رايته في صورة رجل من بني[٣] مدلج ، والشيطان في صورة سراقة بن مالك ابن جعشم ، فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإني جار لكم ، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، قبضة من التراب ، فرمىٰ بها في وجوه المشركين ، فولوا مدبرين ، وأقبل جبريل - عليه السلام - إلىٰ إبليس ؛ فلما رآه ، وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع يده ، ثم ولىٰ مدبرًا هو[٤] وشيعته ، فقال الرجل : يا سراقة ، أتزعم أنك لنا جار فقال : ﴿ **إني أرىٰ ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب** ﴾ ، وذلك حين رأىٰ الملائكة .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، أن إبليس خرج مع قريش في صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، فلما حضر القتال ورأىٰ الملائكة ﴿ **نكص علىٰ عقبيه وقال إني بريء منكم** ﴾ فتشبث به الحارث بن هشام ، فنخر[٥] في وجهه فخر صعقًا ، فقيل له : ويلك يا سراقة ، علىٰ هذه الحال تخذلنا وتبرأ منا ، فقال : ﴿ **إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب** ﴾ .

وقال محمد بن عمر الواقدي (١٧٩) : أخبرني عمر بن عقبة ، عن شعبة مولىٰ ابن عباس ، عن ابن عباس قال : لما تواقف الناس أغمي علىٰ رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، ساعة ، ثم كشف عنه ؛ فبشر الناس بجبريل في جند من الملائكة ميمنة الناس ، وميكائيل في جند آخر ميسرة الناس ، وإسرافيل في جند آخر ألف ، وإبليس قد تصور في صورة سراقة ابن مالك بن جعشم المدلجي يدبر المشركين ، ويخبرهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ،

---

(١٧٩) - المغازي للواقدي (٧٠/١) .

---

[١] - في ت : « جرير » .
[٢] - في ز ، خ : « الجيش » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - سقط من : ز ، خ .
[٥] - في ز : « فبحر » .

فلما أبصر عدو الله الملائكة ﴿ **نكص علىٰ عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرىٰ ما لا ترون** ﴾ فتشبث به الحارث بن هشام ، وهو يرىٰ أنه سراقة لما سمع من كلامه ، فضرب في صدر الحارث ، فسقط الحارث ، وانطلق إبليس لا يرىٰ حتىٰ سقط في البحر ، ورفع ثوبه ، وقال : يارب موعدك الذي وعدتني .

وفي الطبراني(١٨٠) عن رفاعة بن رافع قريب من هذا[١] السياق ، و[٢]أبسط منه ذكرناه في السيرة .

وقال محمد بن إسحاق(١٨١) : حدثني يزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير ، قال : لما أجمعت[٣] قريش المسير[٤] ذكرت الذي بينها وبين بني بكر من الحرب ؛ فكاد ذلك أن يثنيهم ، فتبدىٰ لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي ، وكان من أشراف بني كنانة ، فقال : أنا جار لكم أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه ؛ فخرجوا سراعًا .

قال محمد بن إسحاق(١٨٢) : فذكر لي أنهم كانوا يرونه في كل منزل في صورة سراقة ابن مالك ، لا ينكرونه حتىٰ إذا كان يوم بدر ، والتقىٰ الجمعان ، كان الذي رآه حين نكص الحارث بن هشام أو عمير بن وهب ، فقال : أين [أي][٥] سراقة ؟ ومثل[٦] عدو الله فذهب . قال : فأوردهم ثم أسلمهم ، قال : ونظر عدو الله إلىٰ جنود الله قد أيد الله بهم رسوله والمؤمنين ﴿ **فنكص[٧] علىٰ عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرىٰ ما لا ترون** ﴾ وصدق عدو الله ، وقال : ﴿ **إني أخاف الله والله شديد العقاب** ﴾ ، وهكذا روي عن السدي ، والضحاك ، والحسن البصري ، ومحمد بن كعب القرظي وغيرهم رحمهم الله .

وقال قتادة : وذكر لنا أنه رأىٰ جبريل عليه السلام ، تنزل معه الملائكة ؛ فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة ؛ فقال : ﴿ **إني أرىٰ ما لا ترون إني أخاف الله** ﴾ وكذب عدو الله . والله ما به مخافة الله ولكن علم أنه لا قوة له ، ولا منعة ، وتلك عادة عدو الله لمن

---

(١٨٠) - المعجم الكبير (٤٢/٥) من طريق عبد العزيز بن عمران عن رفاعة بن يحيى بن معاذ بن رفاعة عن رفاعة بن رافع ، رضي الله عنه ، وقال الهيثمي في المجمع (٨٢/٦) : « وفيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف » .

(١٨١) - تفسير الطبري (٨/١٤) رقم (١٦١٨٥) .

(١٨٢) - السيرة النبوية (٦١٣/١) وتفسير ابن جرير (٨/١٤ ، ٩) رقم (١٦١٨٥ ، ١٦١٨٦) .

---

[١] - في ت : « هذه » .

[٢] - سقط من : ز .

[٣] - في ز ، خ : « اجتمعت » .

[٤] - في ز : « للمسير » .

[٥] - ما بين المعكوفتين في ز : « أين » .

[٦] - في ز ، خ : « وميل » .

[٧] - في ز : « انتكص » .

أطاعه واستقاد له ، حتىٰ إذا التقىٰ الحق والباطل أسلمهم شر مسلم ، وتبرأ منهم عند ذلك .

قلت : يعني بعادته لمن أطاعه قوله تعالىٰ : ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين** ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ **وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم** ﴾ .

وقال يونس بن بكير(١٨٣) ، عن محمد بن إسحاق ، حدثني عبد الله بن أبي بكر بن عمرو[١] بن حزم ، عن بعض بني ساعدة قال : سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعد ما كف[٢] بصره يقول : لو كنت معكم الآن ببدر[٣] ، ومعي بصري ؛ لأخبرتكم بالشعب الذي خرجت منه الملائكة ، لا أشك ولا أتمارىٰ .

فلما نزلت[٤] الملائكة ، ورآها إبليس ، وأوحىٰ الله إليهم إني معكم فثبتوا الذين آمنوا ، وتثبيتهم أن الملائكة كانت تأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه ، فيقول له : أبشر فإنهم ليسوا بشيء ، والله معكم ، كروا[٥] عليهم ، فلما رأىٰ إبليس الملائكة ﴿ **نكص علىٰ عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرىٰ ما لا ترون** ﴾ وهو في صورة سراقة ، وأقبل أبو جهل يحضض[٦] أصحابه ويقول : لا يهولنكم خذلان سراقة إياكم ؛ فإنه كان علىٰ موعد من محمد وأصحابه . ثم قال : واللات والعزىٰ لا نرجع حتىٰ نقرن محمدًا وأصحابه في الحبال ؛ فلا تقتلوهم وخذوهم أخذًا . وهذا من أبي جهل - لعنه الله - كقول فرعون للسحرة لما أسلموا : ﴿ **إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها** ﴾ . وكقوله : ﴿ **إنه لكبيركم الذي علمكم السحر** ﴾ وهو من باب البهت والافتراء ؛ ولهذا كان أبو جهل فرعون هذه الأمة .

وقال مالك بن أنس(١٨٤) ، عن إبراهيم بن أبي عبلة[٧] ، عن طلحة بن عبيد الله بن كريز : أن رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، قال : « **ما رؤي[٨] إبليس يومًا[٩] هو فيه**

---

(١٨٣) - انظر : السيرة النبوية لابن هشام (٦٣٣/١) .

(١٨٤) - الموطأ كتاب الحج (٤٢٢/١) حديث (٢٤٥) .

---

[١] - في ز ، خ : « عمر » .
[٢] - في ز ، خ : « أصيب » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في ت : « أنزلت » .
[٥] - في خ : « فكروا » .
[٦] - في خ : « عضض » .
[٧] - في ز ، خ : « علية » وهو تحريف .
[٨] - في ز : « رأى » .
[٩] - في ز : « في يوم » .

أصغر ، ولا أحقر ، ولا أدحر ، ولا أغيظ [منه في][١] يوم عرفة ، وذلك مما يرىٰ من تنزل[٢] الرحمة ، والعفو عن[٣] الذنوب ، إلا ما رأىٰ[٤] يوم بدر » قالوا : يا رسول اللّٰه ، وما رأىٰ يوم بدر ؟ قال : « **أما إنه رأىٰ جبريل - عليه السلام - يزع الملائكة** » .

هذا مرسل من هذا الوجه .

وقوله : ﴿ **إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم** ﴾ قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في هذه الآية : قال : لما دنا القوم بعضهم من بعض ، قلل اللّٰه المسلمين في أعين المشركين ، وقلل المشركين في أعين المسلمين ، فقال المشركون : غرّ هؤلاء دينهم ؛ وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم ؛ فظنوا[٥] أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك ، فقال اللّٰه : ﴿ **ومن يتوكل علىٰ اللّٰه فإن اللّٰه عزيز حكيم** ﴾ .

وقال قتادة رأوا عصابة من المؤمنين تشدّدت لأمر اللّٰه ، وذكر لنا أن أبا جهل عدو اللّٰه ، لما أشرف علىٰ محمد ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، وأصحابه قال : واللّٰه لا يعبدون[٦] اللّٰه بعد اليوم - قسوة وعتوًّا .

وقال ابن جريج في قوله : ﴿ **إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض** ﴾ : هم قوم كانوا من المنافقين [ ][٧] بمكة قالوه يوم بدر .

وقال عامر الشعبي : كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام ، فخرجوا مع المشركين يوم بدر ؛ فلما رأوا قلة المسلمين قالوا : غرّ هؤلاء دينهم .

وقال مجاهد في قوله -عز وجل- : ﴿ **إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم** ﴾ قال : فئة من قريش ؛ أبو[٨] قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبو قيس بن الفاكه ابن المغيرة والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب ، وعلي بن أمية بن خلف ، والعاص بن منبه بن الحجاج خرجوا مع قريش من مكة ، وهم علىٰ الارتياب فحبسهم ارتيابهم ، فلما رأوا قلة أصحاب رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، قالوا : غر هؤلاء دينهم ، حتىٰ قدموا علىٰ ما قدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم .

---

[١] - في ز ، خ : « من » .
[٢] - في خ : « نزول » .
[٣] - في ز ، خ : « من » .
[٤] - في ز : « رى » .
[٥] - في ز : « وظنوا » .
[٦] - في ز : « يعبدوا » ، وسقط من : خ .
[٧] - ما بين المعكوفتين في ز : « كانوا » .
[٨] - سقط من : ز ، خ .

وكذا[١] قال محمد بن إسحاق بن يسار سواء .

وقال ابن جرير(١٨٥) : حدثنا محمد بن عبد الأعلىٰ[٢] ، حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن الحسن في هذه الآية ، قال : هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين ، قال معمر : وقال[٣] بعضهم : هم قوم كانوا أقروا بالإسلام وهم [ ][٤] بمكة ، فخرجوا مع المشركين يوم بدر ، فلما رأوا قلة المسلمين ، قالوا : غر هؤلاء دينهم .

وقوله : ﴿ **ومن يتوكل علىٰ الله** ﴾ أي : يعتمد علىٰ جنابه ، ﴿ **فإن الله عزيز** ﴾ أي : لا يضام من التجأ إليه ، فإن الله عزيز منيع الجناب عظيم السلطان ﴿ **حكيم** ﴾ في أفعاله لا يضعها إلا في مواضعها ، فينصر من يستحق النصر ، ويخذل من هو أهل لذلك .

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

يقول تعالىٰ : ولو عاينت يا محمد ، حال توفي الملائكة أرواح الكفار ؛ لرأيت أمرًا عظيمًا هائلًا فظيعًا منكرًا إذ ﴿ **يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾ [ويقولون لهم][٥] : ﴿ **ذوقوا عذاب الحريق** ﴾ .

قال ابن جريج ، عن مجاهد : ﴿ **وأدبارهم** ﴾ أستاههم ، قال : يوم بدر .

قال ابن جريج : قال ابن عباس : إذا أقبل المشركون بوجوههم إلىٰ المسلمين ؛ ضربوا وجوههم بالسيوف ، وإذا ولوا أدركتهم[٦] الملائكة فضربوا[٧] أدبارهم .

و[٨]قال ابن أبي نجيح عن مجاهد في[٩] قوله : ﴿ **إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾ يوم بدر .

(١٨٥) - تفسير ابن جرير (١٣/١٤ - ١٤) حديث (١٦١٩٦) .

[١] - في ز : « هكذا » .
[٢] - في ز : « الا » ، خ : « الألي » .
[٣] - في ز : « قال » .
[٤] - ما بين المعكوفتين في ز : « قوم » .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - في خ : « ضربتهم » .
[٧] - في خ : « يضربون » .
[٨] - سقط من : ز .
[٩] - سقط من : ز ، خ .

وقال وكيع ، عن سفيان الثوري ، عن أبي هاشم إسماعيل بن كثير ، عن مجاهد ، و[١]عن شعبة ، عن يعلىٰ بن مسلم ، عن سعيد بن جبير ﴿ **يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾ قال : وأستاههم ، ولكن اللَّه يكني .

وكذا قال عمر مولىٰ غفرة[٢] .

وعن الحسن البصري قال : قال رجل : يا رسول اللَّه ، إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشراك[٣] ، قال : [ما ذاك ؟][٤] قال : « **ذاك[٥] ضرب الملائكة** » .

رواه ابن جرير(١٨٦) وهو مرسل .

وهذا السياق وإن كان سببه وقعة بدر ولكنه عام في حق كل كافر ؛ ولهذا لم يخصصه تعالىٰ بأهل بدر . بل[٦] قال تعالىٰ : ﴿ **ولو ترىٰ إذ يتوفىٰ الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾ وفي سورة القتال مثلها ، وتقدم في سورة الأنعام قوله تعالىٰ : ﴿ **ولو ترىٰ إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم** ﴾ أي : باسطو أيديهم بالضرب فيهم يأمرونهم ، إذا[٧] استصعبت أنفسهم ، وامتنعت من الخروج من الأجساد ، أن تخرج قهرًا ، وذلك إذ[٨] بشروهم بالعذاب والغضب من اللَّه ، كما في حديث البراء : أن ملك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة[٩] المنكرة يقول : اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، إلىٰ سموم وحميم وظل من يحموم ؛ فتفرق في بدنه ، فيستخرجونها من جسده ، كما يخرج السفود من الصوف المبلول ، فتخرج[١٠] معها العروق والعصب . ولهذا أخبر تعالىٰ أن الملائكة تقول لهم : ﴿ **ذوقوا عذاب الحريق** ﴾ .

[وقوله تعالىٰ][١١] : ﴿ **ذلك بما قدمت أيديكم** ﴾ أي : هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا ، جزاكم[١٢] اللَّه بها هذا الجزاء ﴿ **وأن اللَّه ليس بظلام للعبيد** ﴾ أي : لا يظلم أحدًا من خلقه ، بل هو الحكم العدل الذي لايجور تبارك

---

(١٨٦) - تفسير ابن جرير (١٤/١٦ - ١٧) رقم (١٦٢٠٥) .

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في ز : « عفرة » .
[٣] - في ز ، خ : « الشوك » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٥] - سقط من : ز
[٦] - سقط من : ت .
[٧] - في خ : « إذ » .
[٨] - في خ : « إذا » .
[٩] - في ز ، خ : « الصور » .
[١٠] - في ز : « فيخرج » .
[١١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[١٢] - في ت : « جازاكم » .

وتعالىٰ وتقدس وتنزه الغني الحميد ؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح عند مسلم(١٨٧) - رحمه اللَّه - من رواية أبي ذر رضي اللَّه عنه ، عن رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **إن اللَّه تعالىٰ يقول : « يا عبادي ، إني حرمت الظلم علىٰ نفسي ، وجعلته بينكم محرمًا ؛ فلا تظالموا ، يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ؛ فمن وجد خيرًا ؛ فليحمد اللَّه ، ومن وجد غير ذلك ؛ فلا يلومن إلا نفسه** » ولهذا قال تعالىٰ :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول تعالىٰ : فعل هؤلاء [المشركون المكذبون][١] ، بما أرسلت به يا محمد ، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم ؛ ففعلنا بهم ما هو دأبنا ، أي : عادتنا وسنتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل ، الكافرين بآيات اللَّه : ﴿ **فأخذهم**[٢] **اللَّه بذنوبهم** ﴾ [أي : بسبب ذنوبهم][٣] [أهلكهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر][٤] ، ﴿ **إن اللَّه قوي شديد العقاب** ﴾ أي[٥] : لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

يخبر تعالىٰ عن تمام عدله وقسطه في حكمه ، بأنه تعالىٰ لا يغير نعمة أنعمها علىٰ أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **إن اللَّه لا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد اللَّه بقوم سوءًا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال** ﴾ . [وقوله : ﴿ **كدأب آل فرعون** ﴾ أي][٦] : كصنعه بآل فرعون وأمثالهم ، حين كذبوا بآياته أهلكهم بسبب ذنوبهم ، وسلبهم تلك النعم التي أسداها[٧] إليهم ، من جنات وعيون وزروع وكنوز ومقام

(١٨٧) - صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧) .

[١] - في ز ، خ : « المشركين المكذبين » .

[٢] - في ز : « أخذهم » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٥] - سقط من : ز .

[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

[٧] - في خ : « أزداها » .

كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، وما ظلمهم الله في ذلك ؛ بل كانوا هم الظالمين .

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

أخبر تعالىٰ أن شر مادب علىٰ وجه الأرض ، هم الذين كفروا ، فهم لا يؤمنون . الذين كلما عاهدوا عهدًا نقضوه[١] ، وكلما أكدوه بالأيمان نكثوه ، ﴿ **وهم لا يتقون** ﴾ أي : لا يخافون من الله في شيء ارتكبوه من الآثام .

﴿ **فإما تثقفنهم في الحرب** ﴾ أي : تغلبهم وتظفر بهم في حرب : ﴿ **فشرد بهم من خلفهم** ﴾ أي : نكل بهم ، قاله ابن عباس ، والحسن البصري ، والضحاك ، والسدي ، وعطاء الخراساني وابن عيينة ، ومعناه : غلظ عقوبتهم ، وأثخنهم قتلًا ؛ ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم ، ويصيروا لهم عبرة : ﴿ **لعلهم يذكرون** ﴾ .

و[٢]قال السدي : يقول : لعلهم يحذرون أن ينكثوا[٣] ؛ فيصنع بهم مثل ذلك .

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالىٰ لنبيه صلىٰ الله عليه وسلم : ﴿ **وإما تخافن من قوم** ﴾ قد عاهدتهم ﴿ **خيانة** ﴾ ، أي : نقضًا لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود ، ﴿ **فانبذ إليهم** ﴾ أي : عهدهم ﴿ **علىٰ سواء** ﴾ ، أي : أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم ، حتىٰ يبقىٰ علمك وعلمهم بأنك حرب لهم ، وهم حرب لك ، وأنه لا عهد بينك وبينهم علىٰ السواء ، أي : تستوي أنت وهم في ذلك قال الراجز :

فاضرب وجوه الغدر للأعداء[٤] حتىٰ يجيبوك إلىٰ السواء(١٨٨)

وعن الوليد بن مسلم أنه قال في قوله تعالىٰ : ﴿ **فانبذ إليهم علىٰ سواء** ﴾ أي : علىٰ

(١٨٨) - الرجز في تفسير ابن جرير (٢٧/١٤) .

[١] - في خ : « نبذوه » .

[٢] - سقط من : ز .

[٣] - في ز : « ينكبوا » .

[٤] - في ز : « الأعداء » .

مهل . ﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾ أي : حتىٰ ولو في حق الكفار[١] لا يحبها أيضًا .

قال الإمام أحمد(١٨٩) : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبي الفيض ، عن سليم بن عامر قال : كان معاوية يسير في أرض الروم وكان بينه وبينهم أمد[٢] ، فأراد أن يدنو منهم ، فإذا انقضىٰ الأمد ؛ غزاهم ، فإذا شيخ علىٰ دابة يقول : الله أكبر الله أكبر وفاءً لا غدرًا[٣] ؛ إن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال : « **ومن كان بينه وبين قوم عهد ؛ فلا يحلن عقدة ، ولا يشدها حتىٰ ينقضي أمدها ، أو ينبذ إليهم علىٰ سواء** » قال : فبلغ ذلك معاوية ، فرجع ؛ فإذا[٤] الشيخ[٥] عمرو بن عبسة[٦] - رضي الله عنه - .

وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة ، وأخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه ، من طرق ، عن شعبة به . وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقال الإمام أحمد أيضًا(١٩٠) : حدثنا محمد بن عبد الله الزبيري ، حدثنا إسرائيل ، عن عطاء بن السائب، عن أبي البختري[٧] ، عن سلمان - يعني الفارسي رضي الله عنه - أنه انتهىٰ إلىٰ حصن أو مدينة ، فقال لأصحابه : دعوني[٨] أدعوهم[٩] ؛ كما رأيت رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، يدعوهم ؛ فقال : إنما كنت رجلًا منكم ، فهداني الله - عز وجل - للإسلام ، فإن أسلمتم فلكم مالنا ، وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون ، وإن[١٠] أبيتم نابذناكم علىٰ سواء : ﴿ **إن الله لا يحب الخائنين** ﴾ يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله .

---

(١٨٩) - مسند أحمد (١١١/٤) رقم (١٧٠٦٥) ، ومسند الطيالسي برقم (١١٥٥) وسنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب : الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير إليه برقم (٢٧٥٩) وسنن الترمذي كتاب السير ، باب : ما جاء في الغدر (١٢١/٤) حديث (١٥٨٠) . وقال أبو عيسى : حسن صحيح ، والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨٧٣٢) ورواه البيهقي (٢٣١/٩) . وصححه الألباني في صحاح السنن المذكورة .

(١٩٠) - المسند (٤٤٠/٥) رقم (٢٣٨٣٣) ورواه الترمذي في السنن كتاب السير ، باب : ما جاء في الدعوة قبل القتال برقم (١٥٤٨) من طريق أبي عوانة ، عن عطاء بن السائب ، عن أبي البختري به نحوه ، وقال : « حديث سلمان حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث عطاء بن السائب ، وسمعت محمدًا يقول : أبو البختري لم يدرك سلمان ؛ لأنه لم يدرك عليًا ، وسلمان مات قبل علي » .

---

[١] - في ز : « الكافرين » .
[٢] - في ز : « أمدًا » .
[٣] - في ز : « غدر » .
[٤] - في ز : « وإذا » .
[٥] - في خ : « بالشيخ » .
[٦] - في ز ، خ : « عنبسة » .
[٧] - في ز : « البحتري » .
[٨] - في ز ، خ : « ادعوني » .
[٩] - في خ : « أدعوكم » .
[١٠] - في ز : « فإن » .

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿**ولا تحسبن**﴾ -يا محمد- ﴿**الذين كفروا سبقوا**﴾، أي: فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم[١] تحت قَهْر قدرتنا وفي قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا، كما قال تعالى: ﴿**أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون**﴾، أي: يظنون، وقال تعالى: ﴿**لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير**﴾ وقال تعالى: [ ][٢] ﴿**لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد. متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد**﴾ ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم**﴾، أي: مهما أمكنكم، ﴿**من قوة ومن رباط الخيل**﴾.

قال[٣] الإمام أحمد(١٩١): حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو ابن الحارث، عن أبي علي ثمامة بن شُفَيّ[٤]، [أنه سمع][٥] عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي.

رواه مسلم، عن هارون بن معروف، وأبو داود عن سعيد بن منصور، وابن ماجه عن يونس بن عبد الأعلى، ثلاثتهم عن عبد الله بن وهب، به.

ولهذا الحديث طرق أخر(١٩٢) عن عُقْبَة بن عامر، منها ما رواه الترمذي، من حديث

(١٩١) - المسند (٤/١٥٦) رقم (١٧٤٧٩)، وصحيح مسلم كتاب الإمارة، باب: فضل الرمي والحث عليه برقم (١٩١٧)، وسنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب: في الرمي برقم (٢٥١٤)، وسنن ابن ماجه، كتاب الجهاد، باب: الرمي في سبيل الله (٢/٩٤٠) حديث (٢٨١٣). والدارمي في كتاب الجهاد، باب: في فضل الرمي والأمر به (٢/٢٠٤). وأبو داود الطيالسي في مسنده (١١٨٢).

(١٩٢) - سنن الترمذي، كتاب التفسير، باب: ومن سورة الأنفال (٥/٢٥٢) حديث (٣٠٨٣). =

[١] - سقط من: خ.

[٢] - ما بين المعكوفتين في ز: «و».

[٣] - سقط من: ز.

[٤] - في ز: «سقّى».

[٥] - في ز: «ابن»، خ: «أخي».

صالح بن كيسان، عن رجل، عنه.

وروى الإمام أحمد وأهل السنن(١٩٣)، عنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: **«ارموا واركبوا، وأن تَرْمُوا خيرٌ[١] من أن تركبوا»**.

وقال الإمام مالك(١٩٤)، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح السَّمان، عن أبي هريرة - رضي الله عنه: أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: **«الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر؛ فأما الذي له أجر فرجل رَبَطَها في سبيل الله، فأطال لها في مَرْج[٢] أو روضة، فما أصابت في طِيَلها ذلك من[٣] المرج أو[٤] الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قَطَعت طيلَها فاستنَّتْ شَرَفًا أو شَرَفين، كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يُرِد أن يَسقى به، كان ذلك حسنات له؛ فهي لذلك الرجل أجر. ورجل ربطها تَغَنيًا[٥] وتعففًا، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له ستر. ورجل ربطها فخرًا ورياء ونواء فهي على ذلك وِزْر»**.

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمر فقال: **«ما أنزل الله عليَّ فيها شيئًا إلا هذه الآية الجامعة الفاذة[٦]: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره﴾»**.

رواه البخاري - وهذا لفظه - ومسلم، كلاهما من حديث مالك.

وقال الإمام أحمد(١٩٥): حدثنا حجاج، أخبرنا شريك، عن الركين[٧] بن الربيع، عن القاسم بن حسان؛ عن عبد الله بن مسعود، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: **«الخيل ثلاثة: ففرس للرحمن، وفرس للشيطان، وفرس للإنسان، فأما فرس الرحمن**

= وقال: «صالح بن كيسان لم يدرك عقبة بن عامر، وقد أدرك ابن عمر».

(١٩٣) - المسند (١٤٤/٤) رقم (١٧٣٤٨)، ورواه الترمذي حديث (١٦٣٧). وابن ماجه في كتاب الجهاد، باب: الرمي في سبيل الله (٩٤٠/٢) حديث (٢٨١١)، والحاكم في المستدرك في كتاب الزكاة (٤١٧/١ - ٤١٨).

(١٩٤) - الموطأ (٤١٤/٢) ومن طريقه البخاري في صحيحه برقم (٢٣٧١) وأما مسلم فرواه من طريق حفص بن ميسرة، عن زيد بن أسلم عن أبي صالح به برقم (٩٨٧).

(١٩٥) - المسند (٣٩٥/١).

[١] - في ز، خ: «خيرًا».
[٢] - في ز، خ: «مرح».
[٣] - في ز، خ: «في».
[٤] - في ز: «و».
[٥] - في ز، خ: «بغناء».
[٦] - في ز: «الفادة».
[٧] - في ز: «الدكين».

فالذي يربط في سبيل اللَّه، فعلفه وروثه وبوله، وذكر ما شاء اللَّه. وأما فرس الشيطان فالذي يقامر أو يراهن عليه، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها، فهي ستر من فَقْر».

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك رضى الله عنه إلى أن الركوب أفضل من الرمي، وقول الجمهور أقوى للحديث، واللَّه أعلم.

وقال الإمام أحمد(١٩٦) : حدثنا حجاج وهشام قالا: حدثنا ليث؛ حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن ابن شُماسة؛ أن معاوية بن حُديج[١] مَرّ على أبي ذَرّ، وهو قائم عند فرس له، فسأله ما تعالج من فرسك هذا؟ فقال: إني أظن أن هذا الفرس قد استجيب له دعوته! قال: وما دعاء بهيمة من البهائم؟ قال: والذي نفسي بيده، ما من فرس إلا وهو يدعو كل سحر فيقول: اللهم؛ أنت خَوَّلتني عبدًا من عبادك، وجعلتَ رزقي بيده، فاجعلني أحبَّ إليه من أهله وماله وولده.

قال: وحدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الحميد بن جعفر؛ حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن سويد بن قيس، عن معاوية بن حُديج[٢] ؛ عن أبي ذر -رضي اللَّه عنه- قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: **«إنه ليس من فرس عربي إلا يُؤذن له مع كل فجر، يدعو بدعوتين، يقول: اللهم، إنك خوّلتني من خولتني من بني آدم، فاجعلني من أحب أهله وماله إليه- أو: أحب أهله وماله إليه»**.

رواه النسائي(١٩٧) ، عن عمرو بن عليّ الفَلاس، عن يحيى القطان، به.

وقال أبو القاسم الطبراني(١٩٨) : حدثنا الحسين بن إسحاق التُستريّ، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا المطعم بن المقدام الصنعاني، عن الحسن بن أبى الحسن أنه قال لابن الحنظلية- يعني سهلًا-: حَدِّثنا حديثًا سمعته من رسول اللَّه، صلى اللَّه عليه وسلم، فقال: سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول: **«الخيل معقود في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، ومن ربط فرسًا في سبيل اللَّه كانت النفقة عليه، كالمادّ يده بالصدقة لا يقبضها»**.

---

(١٩٦) - المسند (١٦٢/٥) رقم (٢١٥٢٣).

(١٩٧) - المسند (١٧٠/٥) رقم (٢١٥٧٨) وسنن النسائي (٢٢٣/٦).

(١٩٨) - المعجم الكبير (٩٨/٦).

---

[١] - في خ: «خديج». [٢] - في ز، خ: «خديج».

والأحاديث الواردة في فضل ارتباط الخيل كثيرة، وفي صحيح البخاري، عن عُرْوَةَ بن أبي الجعد البارقي؛ أن رسول اللَّه، صلى اللَّه عليه وسلم، قال: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجرُ والمغنم**»(١٩٩).

وقوله: ﴿**ترهبون**﴾، أي: تخوفون ﴿**به عدو اللَّه وعدوكم**﴾ أي: من الكفار ﴿**وآخرين من دونهم**﴾ - قال مجاهد: يعني «**قريظة**». وقال السدي: «**فارس**»، وقال سفيان الثوري: قال ابن يمان[١]: «**هم الشياطين التي في الدور**». وقد ورد حديث بمثل ذلك، قال ابن أبي حاتم(٢٠٠):

حدثنا أبو عتبة أحمد بن الفرج الحمصي، حدثنا أبو حيْوَة - يعنى شُرَيح بن يزيد المقرئُ - حدثنا سَعيد بن سنَان، عن ابن عَرِيب[٢] - يعني يزيد بن عبد اللَّه بن عرَيب[٣] - عن أبيه، عن جده؛ أن رسول اللَّه، صلى اللَّه عليه وسلم، كان يقول في قوله: ﴿**وآخرين من دونهم لا تعلمونهم**﴾، قال: هم الجن.

ورواه الطبراني(٢٠١)، عن إبراهيم بن دُحَيم؛ عن أبيه، عن محمد بن شعيب؛ عن سنان ابن سعيد بن سنان؛ عن يزيد بن عبد اللَّه بن عَرِيب[٤] به[٥]. وزاد: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**لا يُخْبل بيت فيه عتيق من الخَيل**».

وهذا الحديث منكر، لا يصح إسناده ولا مَتْنه.

وقال مقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المنافقون.

وهذا أشبه الأقوال، ويشهد له قوله: ﴿**وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم**﴾.

وقوله: ﴿**وما تنفقوا من شيء في سبيل اللَّه يوف إليكم وأنتم لا تظلمون**﴾، أي:

---

(١٩٩) - صحيح البخاري برقم (٢٨٥٠).

(٢٠٠) - ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده برقم (٦٥٠) «بغية الباحث» حدثنا داود بن رشيد عن أبي حيوة، به.

(٢٠١) - المعجم الكبير (١٧/١٨٨) ورواه أبو الشيخ في العظمة برقم (١٠٨٩): حدثنا ابن أبي عاصم عن دحيم به نحوه.

---

[١] - في خ: «غاز».

[٢] - في ز: «غريب».

[٣] - في ز، خ: «غريب».

[٤] - في ز، خ: «غريب».

[٥] - سقط من: ز.

مهما أنفقتم في الجهاد، فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال؛ ولهذا جاء في حديث رواه أبو داود[٢٠٢]؛ أن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿**مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم**﴾.

وقال ابن أبي حاتم[٢٠٣]: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدَّشْتكي، حدثنا أبي، عن أبيه، حدثنا الأشعث بن إسحاق، عن جعفر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه كان يأمر أن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت: ﴿**وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم**﴾، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين.

وهذا أيضًا غريب.

﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة فانبذ إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حربك ومنابذتك فقاتلهم، ﴿**وإن جنحوا**﴾، أي: مالوا ﴿**للسَّلم**﴾، أي: المسالمة والمصالحة والمهادنة، ﴿**فاجنح لها**﴾، أي: فمل إليها، واقبل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح، ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تسع سنين؛ أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد[٢٠٤]: حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا فضيل بن سليمان - يعني النميري - حدثنا محمد بن أبي يحيى، عن إياس بن عمرو الأسلمي، عن

---

(٢٠٢) - سنن أبي داود برقم (٢٤٩٨) ولفظه: «إن الصلاة والصيام والذكر تضاعف على النفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف» وقد تقدم نحو هذا اللفظ عند تفسير الآية: ٢٦١ من سورة البقرة من حديث عمران ابن حصين.

(٢٠٣) - تفسير ابن أبي حاتم (٥/٩١١٤).

(٢٠٤) - زوائد المسند (١/٩٠) وقال الهيثمي في المجمع (٧/٢٣٤): «رجاله ثقات».

عليّ بن أبي طالب - رضي اللَّه عنه - قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**إنه سيكون [بعدي]**[١] **اختلاف - أو: أمر - فإن استطعت أن يكون السّلم، فافعل**».

وقال مجاهد: نزلت في بني قريظة.

وهذا فيه نظر؛ لأن السياق كله في وقعة بدر، وذكرها مكتنف لهذا كله.

وقَوْلُ ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، وعكرمة، والحسن، وقتادة: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في «براءة»: ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون باللَّه ولا باليوم الآخر ...**﴾ الآية - فيه نظر أيضًا؛ لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيفًا، فإنه تجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي صلى اللَّه عليه وسلم يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص، واللَّه أعلم.

وقوله: ﴿**وتوكل على اللَّه**﴾، أي: صالحهم وتوكل على اللَّه، فإن اللَّه كافيك وناصرك، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقووا ويستعدوا، ﴿**فإن حسبك اللَّه**﴾، أي: كافيك وحده.

ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار، فقال: ﴿**هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم**﴾، أي: جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك ومُوازرتك. ﴿**لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألَّفت بين قلوبهم**﴾، أي: لما كان بينهم من العداوة والبغضاء؛ فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع اللَّه ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿**واذكروا نعمة اللَّه عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين اللَّه لكم آياته لعلكم تهتدون**﴾.

وفي الصحيحين(٢٠٥) أن رسول اللَّه، صلى اللَّه عليه وسلم، لما خَطَب الأنصار في شأن غنائم حُنَين قال لهم: «**يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلالًا فهداكم اللَّه بي، وعالة فأغناكم اللَّه بي، وكنتم متفرقين فألَّفكم اللَّه بي**» - كلما قال شيئًا قالوا: اللَّه ورسوله أمَنّ.

---

(٢٠٥) - صحيح البخاري برقم (٤٣٣٠) وصحيح مسلم برقم (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم، رضي الله عنه.

---

[١] - سقط من: خ.

ولهذا قال تعالى: ﴿ولكن اللَّه ألَّف بينهم إنه عزيز حكيم﴾، أي: عزيز الجناب. فلا يَخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه.

قال الحافظ أبو بكر البيهقي(٢٠٦): أخبرنا أبو عبد اللَّه الحافظ، أنبأنا[١] عليُّ بن بشر الصيرفي القزويني في منزلنا، أنبأنا أبو عبد اللَّه محمد بن الحُسَين[٢] القنْديلي الأسترابادي، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن النعمان الصفار، حدثنا ميمون بن الحكم، حدثنا بكر بن الشرود، عن محمد بن مسلم الطائفي، عن إبراهيم بن ميسرة، عن طاوس، عن ابن عباس؛ قال: قرابة الرحم تقطع، ومنة النعمة تكفر، ولم يُرَ مثل تقارب القلوب؛ يقول اللَّه تعالى: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألَّفت بين قلوبهم﴾، وذلك موجود في الشعر:

إذا مَتّ[٣] ذُو القُرْبَى إليك برحْمه فَغَشَّكَ واستَغْنى فَليس بذي رحْم
ولكن ذا القربى الذي إن دعوته أجاب ومن يرمي[٤] العدو الذي تَرْمي

قال: ومن ذلك قول القائل:

وَلَقد صَحبتُ الناس ثُمَّ سَبَرْتُهم وَبَلوت ما وَصَلوا من الأسْبَاب
فَإِذَا القَرابَةُ لا تُقَرِّبُ قَاطعًا وإذا المَوَدَّةُ أقْرَبُ الأسْبَاب

قال البيهقي: لا أدري هذا موصولًا بكلام ابن عباس، أو هو من قول من دونه من الرواة.

وقال أبو إسحاق السَّبِيعي، عن أبي الأحوص، عن عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه، سمعته يقول: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم ...﴾ الآية. قال: هم المتحابون في اللَّه - وفي رواية: نزلت في المتحابين في اللَّه.

رواه النسائي والحاكم في مستدركه، [وقال: «صحيح][٥]»(٢٠٧).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس؛ قال: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر؛ وإن اللَّه إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء، ثم قرأ: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم﴾.

(٢٠٦) - شعب الإيمان للبيهقي برقم (٩٠٣٤).

(٢٠٧) - النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٢١٠) والمستدرك (٢/٣٢٩).

[١] - سقط من: خ.

[٢] - في خ: «الحسن».

[٣] - في خ: «بت».

[٤] - في خ: «وأن يرمى».

[٥] - سقط من: خ.

رواه الحاكم أيضًا(٢٠٨).

وقال أبو عمرو الأوزاعي(٢٠٩): حدثني عبدة بن أبي لبابة، عن مجاهد - ولقيته فأخذ بيدي فقال: إذا تراءى المتحابان في الله، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، وضحك إليه، تحاتّت خطاياهما كما يتَحاتّ[١] ورق الشجر. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسير!. فقال: لا تقل ذلك؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿**لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم**﴾!. قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني.

وقال ابن جرير(٢١٠): حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان، عن إبراهيم الخوزيّ، عن الوليد بن أبي مغيث، عن مجاهد قال: إذا التقى المسلمان فتصافحا غُفر لهما، قال: قلت لمجاهد: بمصافحةٍ يغفر لهما؟ فقال مجاهد: أما سمعته يقول: ﴿**لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم**﴾؟ فقال الوليد لمجاهد: أنت أعلم مني.

وكذا روى طلحة بن مصرف، عن مجاهد.

وقال ابن عون، عن عمير بن إسحاق قال: كنا نُحدّث: أول ما يرفع من الناس - أو قال: عن الناس - الألفة.

وقال الحافظ أبوالقاسم سليمان بن أحمد الطبراني(٢١١) - رحمه الله - حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا عبيد[٢] الله بن عمر القواريري، حدثنا سالم بن غيلان، سمعت جعدًا أبا عثمان، حدثني أبو عثمان النهدي، عن سلمان الفارسي أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «**إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم، فأخذ بيده، تحاتّت عنهما ذنوبهما، كما يتَحاتّ الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ولو كانت ذنوبهما مثل زَبَد البحار[٣]**».

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ

---

(٢٠٨) - المستدرك (٣٢٩/٢).

(٢٠٩) - رواه ابن جرير في تفسيره (٤٦/١٤) رقم (١٦٢٦٠).

(٢١٠) - تفسير ابن جرير (٤٦/١٤) (١٦٢٥٩).

(٢١١) - المعجم الكبير (٢٥٦/٦) وفيه: «مثل زبد البحر» وقال الهيثمي في المجمع (٣٧/٨): «رجاله رجال الصحيح غير سالم بن غيلان وهو ثقة».

---

[١] - في خ: «تحات».

[٢] - في خ: «عبد».

[٣] - في خ: «البحر».

ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

يحرض تعالى نبيه -صلوات الله وسلامه عليه- والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبهم، أي: كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين.

قال ابن أبي حاتم(٢١٢): حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم، حدثنا عبيد الله بن موسى، أنبأنا سفيان، عن[١] شوذب، عن الشعبي في قوله: ﴿**يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين**﴾، قال: حسبك الله، وحسب من شهد معك.

قال: وروي عن عطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد مثله.

ولهذا قال: ﴿**يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال**﴾، أي: حثهم وذمّر[٢] عليه؛ ولهذا كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يحرّض على القتال عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر، حين أقبل المشركون في عَددِهم وعُدَدهم: «**قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض**». فقال عمير بن الحمام: عرضها السموات والأرض؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**نعم**». فقال: بَخٍ بَخٍ، فقال: ما يحملك على قولك «**بخ بخ؟**» قال: رجاء أن أكون من أهلها! قال: «**فإنك من أهلها**». فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه، وأخرج ثمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيّتهن من يده، وقال: لئن أنا حييتُ حتى آكلهنّ إنها لحياة طويلة! ثم تقدم فقاتل حتى قتل، رضي الله عنه(٢١٣).

وقد رُوي عن سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير؛ أن هذه الآية نزلت حين أسلم عمر

(٢١٢) - تفسير ابن أبي حاتم (٩١٣٤/٥).

(٢١٣) - رواه مسلم في صحيحه برقم (١٩٠١) من حديث أنس، رضي الله عنه.

[١] - بعدها في خ: «ابن».
[٢] - سقط من: خ.

ابن الخطاب، وكمل به الأربعون.

وفي هذا نظر؛ لأن هذه الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة وقبل الهجرة إلى المدينة، والله أعلم.

ثم قال تعالى مُبَشِّرًا للمؤمنين وآمرًا: ﴿**إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفًا من الذين كفروا**﴾، كل واحد بعشرة[١]. ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة.

قال عبد الله بن المبارك، حدثنا جرير بن حازم، حدثني الزبير بن الخِرِّيت[٢]، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ قال: لما نزلت: ﴿**إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين**﴾، شق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: ﴿**الآن خفف الله عنكم ...**﴾ إلى قوله: ﴿**يغلبوا مائتين**﴾، قال: خفف الله عنهم من العدة، ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم.

وروى البخاري من حديث ابن المبارك نحوه (٢١٤).

وقال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس في هذه الآية قال: كتب عليهم أن لا يفر عشرون من مائتين، ثم خفف الله عنهم، فقال: ﴿**الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفًا**﴾، فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مائتين.

وروى البخاري(٢١٥)، عن علي بن عبد الله، عن سفيان، به نحوه[٣].

وقال محمد بن إسحاق: حدثني ابن أبي نجيح، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائة ألفًا، فخفف الله عنهم، فنسخها بالآية الأخرى فقال: ﴿**الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفًا**... ﴾ الآية، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدو لهم لم ينبغ لهم أن يفروا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم قتالهم، وجاز لهم أن يتحوزوا[٤] عنهم.

وروى علي بن أبي طلحة والعوفي، عن ابن عباس نحو ذلك. قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، والضحاك نحو

(٢١٤) - صحيح البخاري برقم (٤٦٥٣).

(٢١٥) - صحيح البخاري برقم (٤٦٥٢).

[١] - في خ: «لعشرة».

[٢] - في خ: «الحارث».

[٣] - في ز: «ونحوه».

[٤] - في خ: «يتجوزوا».

ذلك.

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، من حديث المسيب بن شريك، عن ابن عون، عن نافع، عن ابن عمر -رضي الله عنهما- : ﴿**إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين**﴾ قال: نزلت فينا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

وروى الحاكم في مستدركه(٢١٦)، من حديث أبي عمرو بن العلاء، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قرأ: ﴿**الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفًا**﴾، رفع. ثم قال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

قال الإمام أحمد(٢١٧) : حدثنا علي بن عاصم، عن حميد، عن أنس -رضي الله عنه- قال: استشار رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الناس في الأسارى يوم بدر، فقال: إن الله قد أمكنكم منهم. فقام عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله؛ اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي، صلى الله عليه وسلم، ثم عاد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: «**يا أيها الناس، إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس**» فقام عمر فقال: يا رسول الله؛ اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم، ثم عاد النبي صلى الله عليه وسلم فقال للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- فقال: يا رسول الله، نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء. قال: فذهب عن وجه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم، وقبل منهم الفداء. قال: وأنزل الله -عز وجل- : ﴿**لولا كتاب من الله سبق**﴾ ... الآية.

وقد سبق في أول السورة حديث ابن عباس في صحيح مسلم بنحو ذلك.

وقال الأعمش(٢١٨)، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله؛ قال: لما كان

---

(٢١٦) - المستدرك (٢/٢٣٩).

(٢١٧) - المسند (٣/٢٤٣) رقم (١٣٥٨١).

(٢١٨) - المسند (١/٣٨٣) وسنن الترمذي برقم (٣٠٨٤)، والمستدرك (٣/٢١)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن وأبو عبيدة بن عبد الله لم يسمع من أبيه».

يوم بدر قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : ما تقولون في هؤلاء الأسارى ؟ . قال : فقال أبو بكر : يا رسول الله ، قومك وأهلك ، استبقهم واستتبهم ، لعل الله أن يتوب عليهم . قال : وقال عمر : يا رسول الله ؛ أخرجوك ، وكذبوك ، فقدمهم فاضرب أعناقهم . قال : وقال عبد الله بن رواحة : [يا رسول الله][١] ، أنت في وادٍ كثير الحطب ، فأضرم الوادي عليهم نارًا ، ثم ألقهم فيه . [قال : فقال العباس : قطعت رحمك][٢] قال : فسكت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فلم يرد عليهم شيئًا ، ثم قام فدخل فقال ناس : يأخذ بقول أبي بكر . وقال ناس : يأخذ بقول عمر . وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة . ثم خرج عليهم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم - عليه السلام - قال : ﴿ **فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم** ﴾ ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى - عليه السلام - قال : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ ، وإن مثلك يا عمر مثل موسى - عليه السلام - قال : ﴿ **ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ ، وإن مثلك يا عمر كمثل نوح - عليه السلام - قال : ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا** ﴾ ، أنتم عالة فلا ينفلتن[٣] أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق . قال ابن مسعود : قلت : يا رسول الله ، إلا سهيل بن بيضاء ، فإنه يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع عليّ حجارة من السماء مني في ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : إلا سهيل[٤] بن بيضاء . فأنزل الله تعالى : ﴿ **ما كان لنبي أن يكون له أسرى** ﴾ ... إلى آخر الآية .

رواه الإمام أحمد والترمذي ، من حديث أبي معاوية ، عن الأعمش ، والحاكم في مستدركه ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

وروى الحافظ أبوبكر بن مردويه ، عن عبد الله بن عمر ، وأبي هريرة - رضي الله عنهما - عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، نحوه ، وفي الباب عن أبي أيوب الأنصاري .

وروى ابن مردويه أيضًا - واللفظ له - والحاكم في مستدركه (٢١٩) ، من حديث عبيد الله ابن موسى : حدثنا إسرئيل ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، عن ابن عمر[٥] ؛ قال : لما

---

(٢١٩) - المستدرك (٢/٣٢٩) وقال الذهبي : « على شرط مسلم » .

---

[١] - سقط من : خ .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - في خ : « ينفكن » .
[٤] - في خ : « سهل » .
[٥] - بعده في خ : « عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

أسر الأسارى يوم بدر، أسر العباس فيمن أسر، أسره رجل من الأنصار، قال: وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه. فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إني لم أنم الليلة من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه**» فقال له عمر: أفآتهم؟ قال: نعم. فأتى عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس. فقالوا: لا، والله لا نرسله. فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، رضا؟ قالوا: فإن كان لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، رضا فخذه. فأخذه عمر فلما صار في يده قال له: يا عباس، أسلم، فوالله لأن تسلم أحب إليَّ من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه إسلامك، قال: فاستشار رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أبا بكر، فقال أبو بكر: عشيرتك. فأرسلهم، فاستشار عمر، فقال: اقتلهم. ففاداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله: ﴿**ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض**﴾ الآية.

قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وقال سفيان الثوري، عن هشام - هو ابن حسان - عن محمد بن سيرين، عن عبيدة، عن عليٍّ - رضي الله عنه - قال: جاء جبريل إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، يوم بدر فقال: خَيِّر أصحابك في الأسارى: إن شاءوا الفداء، وإن شاءوا القتل على أن يقتل منهم مقبلًا مثلهم. قالوا: الفداء ويقتل منا.

رواه الترمذي، والنسائي، وابن حبان في صحيحه من حديث الثوري به[٢٢٠]. وهذا حديث غريب جدًا.

وقال ابن عون، عن عبيدة، عن عليٍّ؛ قال[٢٢١]: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في أسارى يوم بدر: «**إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم فاديتموهم واستمتعتم بالفداء، واستشهد منكم بعدتهم**» قال: فكان آخر السبعين ثابت بن قيس، قتل يوم اليمامة، رضي الله عنه.

ومنهم من روى هذا الحديث عن عبيدة مرسلًا، فالله أعلم[٢٢٢].

(٢٢٠) - سنن الترمذي برقم (١٥٦٧) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨٦٦٢) وقال الترمذي: «هذا حديث غريب من حديث الثوري لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة».

(٢٢١) - رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ١٤٠) والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٣٩) من طريق إبراهيم بن عرعرة قال: أخبرنا أزهر، عن ابن عون، عن محمد، عن عبيدة، عن علي به، وقال ابن عرعرة: «رددت هذا على أزهر فأبى إلا أن يقول: عبيدة عن علي» وصححه الحاكم وقال: «على شرط الشيخين».

(٢٢٢) - رواه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ٦٧) من طريق ابن علية عن ابن عون عن ابن سيرين عن عبيدة به مرسلًا.

وقال محمد بن إسحاق، عن ابن أبي نجيح، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿**ما كان لنبي أن يكون له أسرى**﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿**عذاب عظيم**﴾، قال: غنائم بدر قبل أن يحلها لهم، يقول: لولا أني لا أعذب من عصاني حتى أتقدم إليه، لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم.

وكذا روى ابن أبي نجيح، عن مجاهد.

وقال الأعمش: سَبَق منه أن لا يعذب أحدًا شهد بدرًا. وروي نحوه عن سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن جبير، وعطاء.

وقال شعبة، عن أبي هاشم، عن مجاهد: ﴿**لولا كتاب من الله سبق**﴾، أي: لهم بالمغفرة. ونحوه عن سفيان الثوري - رحمه الله -.

وقال عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿**لولا كتاب من الله سبق**﴾، يعني: في أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى حلال لكم، ﴿**لمسكم فيما أخذتم**﴾ من الأسارى ﴿**عذاب عظيم**﴾، قال الله تعالى: ﴿**فكلوا مما غنمتم ...**﴾ الآية. وكذا روى العوفي، عن ابن عباس. وروي مثله عن أبي هريرة، وابن مسعود، وسعيد بن جبير، وعطاء، والحسن البصري، وقتادة، والأعمش أيضًا؛ أن المراد ﴿**لولا كتاب من الله سبق**﴾ لهذه الأمة بإحلال الغنائم. وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه في الصحيحين[٢٢٣]، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أعطيت خمسًا، لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة**».

وقال الأعمش، عن أبي صالح؛ عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال[٢٢٤]: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لم تحل الغنائم لسود الرءوس غيرنا**».

ولهذا قال الله تعالى: ﴿**فكلوا مما غنمتم حلالًا طيبًا واتقوا الله إن الله غفور رحيم**﴾، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء.

---

(٢٢٣) - صحيح البخاري برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١).

(٢٢٤) - رواه الترمذي في السنن برقم (٣٠٨٥) من طريق معاوية بن عمرو عن زائدة، عن الأعمش به نحوه، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث الأعمش».

وقد روى الإمام أبو داود في سننه(٢٢٥) ؛ حدثنا عبد الرحمن بن المبارك العيشي[١] ، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة ، عن أبي العنبس ، عن أبي الشعثاء ، عن ابن عباس ؛ أن رسول اللّٰه، صلى اللّٰه عليه وسلم ، جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة .

وقد استقر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء ؛ أن الإمام مخير فيهم ، إن شاء قتل - كما فعل ببني قريظة - وإن شاء فادى بمال - كما فعل بأسرى بدر - أو بمن أسر من المسلمين - كما فعل رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع ، حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين ، وإن شاء استرق من أسر. هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء ، وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر في موضعه من كتب الفقه .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٧١ ﴾

قال محمد بن إسحاق : حدثني العباس بن عبد اللّٰه بن مغفل ، عن بعض أهله ، عن عبد اللّٰه ابن عباس - رضي اللّٰه عنهما - أن رسول اللّٰه ، صلى اللّٰه عليه وسلم ، قال يوم بدر : « **إني قد عرفت أن أناسًا من بني هاشم وغيرهم ، قد أخرجوا كرهًا ، لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقي منكم أحدًا منهم - أي : من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مستكرها** » فقال أبو حذيفة بن عتبة : أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العباس؟ ! واللّٰه لئن لقيته لألجمنه بالسيف ! فبلغت رسول اللّٰه ، صلى اللّٰه عليه وسلم، فقال لعمر بن الخطاب : « **يا أبا حفص** » - قال عمر: واللّٰه إنه لأول يوم كناني فيه رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم - « **أيضرب وجه عم رسول اللّٰه بالسيف ؟** » فقال عمر: يا رسول اللّٰه؛ ائذن لي فأضرب عنقه ، فواللّٰه لقد نافق . فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك : واللّٰه ما آمن من تلك الكلمة التي قلت ، ولا أزال منها خائفًا ، إلا أن يكفرها اللّٰه عني بشهادة . فقتل يوم اليمامة شهيدًا رضي اللّٰه عنه .

وبه ، عن ابن عباس قال : لما أمسى رسول اللّٰه ، صلى اللّٰه عليه وسلم ، يوم بدر،

---

(٢٢٥) - سنن أبي داود برقم (٢٦٩١) .

---

[١] - في خ : « العبسي » .

والأسارى محبوسون بالوثاق، بات رسولُ اللَّه، صلى اللَّه عليه وسلم، ساهرًا أول الليل، فقال له أصحابه: يا رسول اللَّه، ما لك لا تنام؟ - وقد أسر العباسَ رجلٌ من الأنصار- فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: سمعت أنين عمي العباس في وثاقه فأطلقوه. فسكت فنام رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم.

قال محمد بن إسحاق: وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب، وذلك أنه كان رجلًا موسرًا» فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهبًا.

وفي صحيح البخاري(٢٢٦)، من حديث موسى بن عقبة، قال ابن شهاب: حدثني أنس ابن مالك، أن رجالًا من الأنصار استأذنوا رسول اللَّه، صلى اللَّه عليه وسلم، فقالوا: ائذَنْ لنا فَلْنترُك لابن أختنا عباس فداءه. قال: «**لا، واللَّه لا تَذَرون منه درهمًا**».

وقال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رُومان، عن عروة - وعن الزهري، عن جماعة سماهم قالوا: بعثت قريش إلى رسول اللَّه، صلى اللَّه عليه وسلم، في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول اللَّه، قد كنت مسلمًا! فقال رسول اللَّه صلى اللَّه[١] عليه وسلم: «**اللَّه أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن اللَّه يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان علينا، فافتد نفسك وابني أخيك: نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعَقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث ابن فهر**» قال: ما ذاك عندي يا رسول اللَّه! قال: فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها: إن أصبتُ في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبَني: الفضل، وعبد اللَّه، وقُثم؟ قال: واللَّه يا رسول اللَّه، إني لأعلم أنك رسول اللَّه، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل، فاحسب لي يا رسول اللَّه؛ ما أصبتم مني: عشرين أوقية من مال كان معي؟ فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**لا، ذاك شيء أعطانا اللَّه تعالى منك. ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه**»، وأنزل اللَّه -عز وجل- فيه: ﴿**يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم اللَّه في قلوبكم خيرًا يؤتكم خيرًا مما أخذ منكم ويغفر لكم واللَّه غفور رحيم**﴾، قال العباس: فأعطاني اللَّه مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبدًا، كلهم في يده مال يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة اللَّه، عز وجل.

وقد روى ابن إسحاق أيضًا، عن ابن أبي نَجيح، عن عطاء، عن ابن عباس في هذه الآية بنحو مما تقدم.

---

(٢٢٦) - صحيح البخاري برقم (٤٠٢٦).

---

[١] - سقط من: خ.

وقال أبو جعفر بن جرير(٢٢٧) : حدثنا ابن وكيع، حدثنا ابن إدريس [عن ابن إسحاق][١] عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس ؛ قال : قال العباس : فيّ نزلت : ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾، فأخبرت النبي، صلى الله عليه وسلم، بإسلامي، وسألته يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذ مني، فأبى، فأبدلني الله بها عشرين عبدًا، كلهم تاجر، مالي في يده.

وقال ابن إسحاق أيضًا(٢٢٨) : حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، عن جابر ابن عبد الله بن رئاب ؛ قال : كان العباس بن عبد المطلب يقول : فيّ نزلت - والله - حين ذكرت لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، إسلامي - ثم ذكرنحو الحديث كالذي قبله.

وقال ابن جُرَيج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس : ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾ : عباس وأصحابه، قال : قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : آمنا بما جئت به، ونشهد أنك رسول الله، لننصحن لك على قومنا. فأنزل الله : ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيرًا يؤتكم خيرًا مما أخذ منكم﴾، إيمانًا وتصديقًا، يخلف لكم خيرًا مما أخذ منكم ﴿ويغفر لكم﴾ الشرك الذى كنتم عليه. قال : فكان العباس يقول : ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا، وأن لي الدنيا، لقد قال : ﴿يؤتكم خيرًا مما أخذ منكم﴾، فقد أعطاني خيرًا مما أخذ مني مائة ضعف، وقال : ﴿ويغفر لكم﴾، وأرجو أن يكون غُفر لي.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في الآية : كان العباس أسر يوم بدر، فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب، فقال العباس حين قرئت هذه الآية : لقد أعطانا الله عز وجل خَصلتين، ما أحب أن لي بهما الدنيا، إني أسرت يوم بدر فَفَدَيت نفسي بأربعين أوقية، فآتاني أربعين عبدًا، وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله جل ثناؤه.

وقال قتادة في تفسير هذه الآية : ذُكر لنا أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفًا، وقد توضأ لصلاة الظهر، فما أعطى يومئذ ساكتًا ولا حرم سائلًا، وما صلى يومئذ حتى فرقه، فأمر العباس أن[٢] يأخذ منه ويحتثي فأخذ. قال : فكان العباس يقول : هذا خير مما أخذ منا، وأرجو المغفرة.

وقال يعقوب بن سفيان(٢٢٩) : حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن

(٢٢٧) - تفسير الطبري (٧٣/١٤) رقم (١٦٣٢١).

(٢٢٨) - تفسير الطبري (٧٣/١٤) رقم (١٦٣٢٢).

(٢٢٩) - ورواه الحاكم في المستدرك (٣٢٩/٣) من طريق هاشم بن القاسم عن سليمان بن المغيرة به نحوه، وقال : « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ».

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ. [٢] - سقط من : خ.

حميد بن هلال ؛ قال : بعث ابن الحضرمي إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من البحرين ثمانين ألفًا ، ما أتاه مال أكثر منه لا قَبلُ ولا بَعدُ. قال[١] : فنثرت على حصير ونُودي بالصلاة. قال : وجاء رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فمثل قائمًا على المال ، وجاء أهل المسجد فما كان يومئذ عَدَدٌ ولا وَزْنٌ ، ما كان إلا قَبْضًا ، وجاء العباس بن عبد المطلب يحثي في خميصة عليه ، وذهب يقوم فلم يستطع ، قال : فرفع رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، ارفع[٢] علي. قال : فتبسم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حتى خرج ضاحكه - أو : نابه - وقال له : « **أعدْ من[٣] المال طائفة ، وقم بما تطيق** ». قال : ففعل ، وجعل العباس يقول - وهو منطلق - : أمّا إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا ، وما ندري ما يصنع في الأخرى : ﴿**يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسارى**﴾... الآية ، ثم قال : هذا خير مما أخذ منا ، ولا أدري ما يصنع الله في الأخرى ، فما زال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ماثلًا على ذلك المال ، حتى ما بقي منه درهم ، وما بعث إلى أهله بدرهم ، ثم أتى الصلاة فصلّى.

حديث آخر في ذلك ، قال الحافظ أبو بكر البيهقي(٢٣٠) : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرني أبوالطيب محمد بن محمد بن عبد الله الشعيري[٤] ، حدثنا مَحْمش بن عصام ، حدثنا حفص بن عبدالله ، حدثنا إبراهيم بن طهمان ، عن عبد العزيز بن صهيب ، عن أنس ابن مالك ؛ قال : أُتي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بمال من البحرين ، فقال : انثروه في المسجد قال : وكان أكثر مال أُتِي به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه ، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه ، فما كان يرى أحدًا إلا أعطاه ، إذ جاء العباس فقال : يا رسول الله ؛ أعطني فإني[٥] فاديت نفسي ، وفاديت عَقيلًا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **خذ** ». فحثا في ثوبه، ثم ذهب يُقلّه فلم يستطع ، فقال : مُرْ بعضهم يرفعه إليّ. قال : « **لا** ». قال: فارفعه أنت عليّ. قال : « **لا** ». فنثر منه ثم احتمله على كاهله، ثم انطلق ، فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبعه بصره حتى خَفِيَ عنه ، عَجَبًا من حِرصْه ، فما قام رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وثَمَّ منها درهم.

وقد رواه البخاري في مواضع من صحيحه تعليقًا بصيغة الجزم(٢٣١) ، يقول : « وقال إبراهيم بن طهمان » ويسوقه وفي بعض السياقات أتم من هذا.

---

(٢٣٠) - السنن الكبرى (٣٥٦/٦).

(٢٣١) - صحيح البخاري برقم (٤٢١،٣٠٤٩،٣١٦٥).

---

[١] - سقط من : خ.

[٢] - سقط من : خ.

[٣] - في خ : « في ».

[٤] - في خ ، ت : « السعيدي »

[٥] - سقط من : خ.

وقوله: ﴿**وإن يريدوا خيانتك**﴾، أي: فيما أظهروا لك من الأقوال، ﴿**فقد خانوا الله من قبل**﴾، أي: من قبل بدر بالكفر به، ﴿**فأمكن منهم**﴾، أي: بالإسار[١] يوم بدر، ﴿**والله عليم حكيم**﴾، أي: عليم بما يفعله، حكيم فيه.

قال قتادة: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح الكاتب حين ارتد، ولحق بالمشركين.

وقال ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: نزلت في عباس وأصحابه، حين قالوا: «**لننصحن لك على قومنا**».

وفسرها السدي على العموم، وهو أشمل وأظهر، والله أعلم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

ذكر تعالى أصناف المؤمنين، وقسمهم إلى مهاجرين: خرجوا من ديارهم وأموالهم، وجاءوا لنصر الله ورسوله، وإقامة دينه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك. وإلى أنصار، وهم: المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم، وواسوهم في أموالهم، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم، فهؤلاء بعضهم [أولياء بعض][٢]، أي: كل منهم أحق بالآخر من كل أحد. ولهذا آخى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بين المهاجرين والأنصار، كل اثنين أخوان، فكانوا يتوارثون بذلك إرثًا مقدمًا على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، ثبت ذلك في صحيح البخاري(٢٣٢)، عن ابن عباس.

ورواه العَوْفي، وعليّ بن أبي طلحة، عنه(٢٣٣).

وقال به مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة وغيرهم.

(٢٣٢) - صحيح البخاري، كتاب الفرائض، باب: ذوات الأرحام برقم (٦٧٤٧).

(٢٣٣) - رواه ابن جرير في تفسيره (١٤/٧٨، ٧٩) رقم (١٦٣٣١، ١٦٣٣٢).

[١] - في خ: «بالأسارى».

[٢] - في خ: «أولى ببعض».

قال الإمام أحمد(٢٣٤) : حدثنا وكيع، عن شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن جرير - هو ابن عبد الله البجلي رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **المهاجرون والأنصار [أولياء بعضهم لبعض]**[١]، **والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة**. تفرد به أحمد.

وقال الحافظ أبو يعلى(٢٣٥) : حدثنا شيبان، حدثنا عكرمة - يعني ابن إبراهيم الأزدي، حدثنا عاصم، عن شقيق، عن ابن مسعود؛ قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: « **المهاجرون والأنصار، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف، بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة** ». هكذا رواه في مسند عبد الله بن مسعود.

وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه، فقال: ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار ...** ﴾ الآية، وقال: ﴿ **لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ...** ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿ **للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ...** ﴾ الآية.

وأحسن ما قيل في قوله: ﴿ **ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا** ﴾، أي: لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، لا يختلفون في ذلك؛ ولهذا قال الإمام أبو بكر أحمد[٢] بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده(٢٣٦)، حدثنا محمد بن معمر، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا[٣] حماد بن سلمة، عن عليٍّ بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن حذيفة قال: « **خيّرني رسولُ الله، صلى الله عليه وسلم، بين الهجرة والنصرة، فاخترت الهجرة** ».

ثم قال: لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

---

(٢٣٤) - المسند (٣٦٣/٤) (١٧٢٦٩) والطبراني في الكبير (٢/ ٣١٤، ح ٢٣١١)، (٢/ ٣١٦/ح ٢٣١٤).

(٢٣٥) - مسند أبي يعلى (٤٤٦/٨) وفيه عكرمة بن إبراهيم، ضعيف.

(٢٣٦) - مسند البزار - رقم (٢٧١٨) « كشف الأستار » وفيه علي بن زيد، ضعيف.

---

[١] - في خ: « بعضهم أولياء بعضٍ ». [٢] - سقط من: خ.

[٣] - في خ: « ابن ».

وقوله: ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم﴾، [قرأ حمزة: ولايتهم بالكسر، والباقون بالفتح، وهما واحد كالدِّلالة والدَّلالة][١] ﴿من شيء حتى يهاجروا﴾، هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بَوَاديهم، فهؤلاء ليس لهم في المغانم نَصِيبٌ، ولا في خُمسها إلَّا ما حضروا فيه القتال، كما قال الإمام أحمد(٢٣٧):

حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بُرَيدة عن أبيه: بُرَيدة ابن الحُصَيب الأسلمي - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذا بعث أميرًا على سرية أوجيش، أوصاه في[٢] خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا، وقال: «**اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى[٣] ثلاث خصال - أو: خلال - فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله ثم قاتلهم**».

انفرد به مسلم، وعنده زيادات أخر.

وقوله: ﴿**وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير**﴾.

يقول تعالى: وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا في قتال ديني، على عدوّ لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم، لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على القوم من الكفار ﴿**بينكم وبينهم ميثاق**﴾، أي: مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا[٤] ذمتكم، ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم. وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢٣٧) - المسند (٥/٣٥٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٣١).

[١] - سقط من: خ.

[٢] - سقط من: خ.

[٣] - في خ: «باسم الله».

[٤] - في خ: «تحقروا».

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

لما ذكر تعالىٰ أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض قطع الموالاة بينهم وبين الكفار ، كما قال الحاكم في مستدركه(٢٣٨) :

حدثنا محمد بن صالح بن هانئ ، حدثنا أبو سعيد يحيى بن منصور الهروي ، حدثنا محمد بن أبان ، حدثنا محمد بن يزيد ، وسفيان بن حسين ، عن الزهري ، عن علي بن الحسين ، عن عمرو بن عثمان ، عن أسامة ، عن النبي ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، قال : « **لا يتوارث أهل ملتين ، ولا يرث مسلم كافرًا ، ولا كافر مسلمًا ثم قرأ ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾** . ثم قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

قلت : الحديث في الصحيحين من رواية أسامة بن زيد قال(٢٣٩) : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **لا يرث المسلم الكافر ، ولا الكافر المسلم** ».

وفي المسند والسنن من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال (٢٤٠): قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **لا يتوارث أهل ملتين شتى** » . وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقال أبو جعفر بن جرير(٢٤١) : حدثنا محمد [عن محمد بن ثور][١] عن معمر ، عن الزهري أن رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم أخذ علىٰ رجل دخل في الإسلام فقال : « **تقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتحج البيت وتصوم رمضان ، وأنك لا ترىٰ نار مشرك إلا وأنت له حرب** » .

وهذا مرسل من هذا الوجه ، وقد روي متصلًا من وجه آخر عن رسول اللَّه صلىٰ اللَّه

(٢٣٨) - المستدرك (٢/٢٤٠) .

(٢٣٩) - صحيح البخاري برقم (٦٧٦٤) ، وصحيح مسلم برقم (١٦١٤) .

(٢٤٠) - المسند (٢/١٩٥) وسنن أبي داود برقم (٢٩١١) ولم أقع عليه في سنن الترمذي ، وإنما أشار إليه عند حديث أسامة بن زيد ، والله أعلم .

(٢٤١) - تفسير ابن جرير (١٤/٨٢) .

[١] - سقط من : خ .

عليه وسلم أنه قال : « **أنا بريء من كل مسلم بين ظهراني المشركين** » . ثم قال : « **لا يتراءىٰ ناراهما** »(٢٤٢).

وقال أبو داود في آخر كتاب الجهاد(٢٤٣) : حدثنا محمد بن داود بن سفيان ، أخبرني يحيى بن حسان[١] ، أنبأنا سليمان بن موسى أبو داود ، حدثنا جعفر بن سعد بن سمرة [ابن جندب ، حدثني خبيب بن سليمان عن أبيه سليمان بن سمرة][٢] عن سمرة بن جندب : أما بعد ، قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله** » .

وذكر الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث حاتم بن إسماعيل ، عن عبد الله بن هرمز ، عن محمد وسعيد ابني عبيد ، عن أبي حاتم المزني ؛ قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**[٣] » . [قالوا : يا رسول الله ؛ وإن كان ...؟ . قال : « **إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه** » . ثلاث مرات .

أخرجه أبو داود والترمذي من حديث حاتم بن إسماعيل به بنحوه(٢٤٤) .

ثم روي من حديث عبد الحميد بن سليمان ، عن ابن عجلان ، عن ابن وثيمة النصري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال(٢٤٥) : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض** »][٤] .

ومعنىٰ قوله : ﴿ **إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير** ﴾ أي : إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين وإلا وقعت فتنة في الناس وهو التباس الأمر واختلاط المؤمنين

(٢٤٢) - رواه أبو داود في السنن برقم (٢٦٤٥) والترمذي في السنن برقم (١٦٠٤) والنسائي في السنن (٨/ ٣٦) من حديث جرير بن عبد الله ، رضي الله عنه .

(٢٤٣) - سنن أبي داود برقم (٢٧٨٧) .

(٢٤٤) - رواه أبو داود في المراسيل برقم (٢٢٤) والترمذي في السنن برقم (١٠٨٥) .

(٢٤٥) - ورواه الترمذي في السنن برقم (١٠٨٤) من طريق عبد الحميد بن سليمان به ، وقال : « حديث أبي هريرة قد خولف عبد الحميد بن سليمان في هذا الحديث ، ورواه الليث بن سعد عن ابن عجلان عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا ثم قال : وحديث الليث أشبه ، ولم يعد حديث عبد الحميد محفوظًا » .

[١] - في خ : « حبان » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - في خ : « كبير » .
[٤] - زيادة من : خ .

بالكافرين فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾

لما ذكر تعالىٰ حكم المؤمنين في الدنيا عطف بذكر ما لهم في الآخرة ، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان كما تقدم في أول السورة ، وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت ، وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف دائم مستمر أبدًا لا ينقطع ولا ينقضي ولا يسأم ولا يمل لحسنه وتنوعه .

ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا علىٰ ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة ، كما قال : ﴿ **والسابقون الأولون ...** ﴾ الآية ، وقال : ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم** ﴾ الآية . وفي الحديث المتفق عليه بل المتواتر من طرق صحيحة عن رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم أنه قال : « **المرء مع من أحب** » . وفي الحديث الآخر : « **من أحب قومًا [فهو منهم** » . وفي رواية][١] : « **حشر معهم** »(٢٤٦) .

وقال الإمام أحمد(٢٤٧) : حدثنا وكيع ، عن شريك ، عن عاصم ، عن أبي وائل ، عن جرير ؛ قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض ، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلىٰ يوم القيامة** » قال شريك : فحدثنا الأعمش ، عن تميم بن سلمة ، عن عبد الرحمن بن هلال ، عن جرير ، عن النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم مثله .

---

(٢٤٦) - جاء من حديث أبي قرصافة وجابر ، أما حديث جابر فرواه الطبراني في المعجم الكبير (١٩/٣) من طريق زياد عن عزة بنت عياض عن أبي قرصافة مرفوعًا بلفظ : « من أحب قومًا حشره الله في زمرتهم » ، وفي إسناده من لا يعرف . رواه الخطيب في تاريخه (١٩٦/٥) من طريق إسماعيل بن يحيى عن سفيان عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر مرفوعًا بلفظ : « من أحب قومًا على أعمالهم . حشر يوم القيامة في زمرتهم ، فحوسب بحسابهم وإن لم يعمل أعمالهم » وإسماعيل بن يحيى ، ضعيف .

(٢٤٧) - المسند (٣٤٣/٤) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

تفرد به أحمد من هذين الوجهين .

وأما قوله تعالىٰ : ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولىٰ ببعض في كتاب اللّٰه** ﴾ أي : في حكم اللّٰه وليس المراد بقوله ﴿ **وأولوا الأرحام** ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض علىٰ القرابة الذين لا فرض لهم ولاهم[١] عصبة ، بل يدلون بوارث كالخالة والخال والعمة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم - كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية ، ويعتقد ذلك صريحًا في المسألة ، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات ، كما نص عليه ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد علىٰ أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولًا ، وعلىٰ هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص ، ومن لم يورثهم يحتج بأدلةٍ ، من أقواها حديث : « **إن اللّٰه قد أعطىٰ كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث** » . قالوا : فلو كان له حق لكان ذا فرض في كتاب اللّٰه مسمىٰ ، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثًا ، واللّٰه أعلم .

آخر تفسير سورة الأنفال وللّٰه الحمد والمنة

وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل .

---

[١] - سقط من : خ .

[٣٨٣و]

/ سورة الأنفال

مدنيّة، ستّ وسبعون آيةً.[١]

[٣٨٣ظ]

/ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ النَّفَل: الغنيمة، سُمّيت به لأنّها عطيّة مِن الله تعالى زائدة على ما هو أصل الأجر في الجهاد مِن الثواب الأخرويّ. ويُطلَق على ما يعطَى بطريق التنفيل زيادةً على السَّهم مِن المَغنَم. وقُرئ: "عَلَّنْفَالِ"[٢] بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وإدغام نون ﴿عَنْ﴾ في اللام.

رُوي أنّ المسلمين اختلفوا في غنائم بدر وفي قِسمتها، فسألوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: كيف تُقسَم؟ ولِمن الحُكم فيها، أللمهاجرين أم للأنصار أم لهم جميعًا؟[٣]

وقيل: إنّ الشُّبّان قد أبلَوا يومئذ بلاءً حسَنًا، فقتلوا سبعين، وأسَروا سبعين، فقالوا: «نحن المقاتلون، ولنا الغنائم»، وقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: «كنّا رِدْءًا[٤] لكم وفئةً تنحازون إليها»، حتّى قال

---

[١] م - سورة الأنفال. مدنيّة. ستّ وسبعون آيةً؛ س: سورة الأنفال، مدنيّة، وهي سبعون آيةً. | وفي هامش م: حسبنا الله تعالى ونعم الوكيل، به تعالى أثق وإليه أنيب، مِن سورة الأنفال. | قال ابن عاشور في التحرير والتنوير، ٢٤٦/٩: «وعدد آيها في عَدّ أهل المدينة وأهل مكّةَ وأهل البصرة: ستّ وسبعون، وفي عَدّ أهل الشام: سبع وسبعون، وفي عَدّ أهل الكوفة: خمس وسبعون».

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصِن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠١.

[٣] انظر: مسند أحمد، ٤٢١/٣٧-٤٢٢ (٢٢٧٦٢)؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٣٦؛ والكشّاف للزمخشري، ١٩٤/٢.

[٤] تقول: "أردأتُه بنفسي"، إذا كنتَ له رِدْءًا، وهو العَون. الصحاح للجوهري، «ردأ».

سعد بن مُعاذ[١] لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «والله ما منعَنا أن نطلب ما طلب هؤلاء زهادةٌ في الأجر، ولا جُبنٌ مِن العدوّ، ولكنْ كرهنا أن نُعريَ مصافّك، فيعطِفَ عليك خيلٌ مِن المشركين»، فنزلت.[٢]

وقيل: كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد شرَطَ لِمن كان له بلاءٌ أن يُنفِّله؛ ولذلك فعل الشُّبّان ما فعلوا مِن القتل والأسر، فسألوه عليه السلام ما شرَطه لهم، فقال الشيوخ: «المَغنَم قليل، والناسُ كثير، وإن تُعطِ هؤلاء ما شرطتَ لهم حرَمتَ أصحابَك»، فنزلت.[٣]

والأوّل هو الظاهر لِما أنّ السؤال استعلام لحُكم الأنفال بقضيّة كلمة ﴿عَنْ﴾، لا استعطاءٌ لنفسها كما نطق به الوجه الأخير. وادّعاءُ زيادة ﴿عَنْ﴾ تعسّفٌ ظاهرٌ. والاستدلال عليه بقراءة ابن مسعود وسعد بن أبي وقّاص وعليّ بن الحسين[٤] وزيدٍ[٥] ومحمّدٍ الباقرِ[٦] وجعفر الصادق وعكرمةَ وعطاءٍ:

---

[١] هو سعد بن مُعاذ بن النعمان بن امرئ القيس الأنصاري الأوسي، أبو عمرو (ت. ٥هـ/٦٢٧م). أسلم بالمدينة بين العقبة الأولى والثانية على يدَي مصعب بن عُمير. وشهد بدرًا وأحدًا والخندق. ورُمي يومَ الخندق بسهم، فعاش شهرًا، ثمّ انتقض جُرحه، فمات منه. وفي الصحيحين وغيرهما مِن طرقٍ: أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «اهتزّ العرش لموت سعد بن مُعاذ». انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٣/٤٢٠-٤٣٦؛ **والإصابة** لابن حجر، ٤/٣٠٣-٣٠٤.

[٢] انظر: **سنن أبي داود**، ٤/٣٦٩-٣٧٠ (٢٧٣٧)؛ **وأسباب النزول** للواحدي، ص ٢٣٥. وهو مع قول سعد بن معاذ في **معالم التنزيل** للبغوي، ٣/٣٢٣-٣٢٤.

[٣] انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢/١٩٤.

[٤] هو عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب الهاشمي القرشي، أبو الحسن، الملقّب بـ"زين العابدين" (ت. ٩٤هـ/٧١٢م). رابعُ الأئمّة الاثني عشر عند الإماميّة، ومِن سادات التابعين. وهو عليّ الأصغر ابن الحسين، وأمّا عليّ الأكبر ابن الحسين، فقُتل مع أبيه بنهر كربلاء، وليس له عُقب. مولده ووفاته بالمدينة. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٥/٢١١-٢٢٢؛ **ووفيات الأعيان** لابن خلّكان، ٣/٢٦٦-٢٦٩.

[٥] هو زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب الهاشمي القرشي، أبو الحسين (ت. ١٢٢هـ/٧٤٠م). إمام الزيديّة. قرأ على واصل بن عطاء، واقتبس منه علم الاعتزال. وكانت إقامته بالكوفة، وأشخص إلى الشام، فضيّق عليه هشام بن عبد الملك، وعاد إلى العراق، ثمّ إلى المدينة، فلحق به بعض أهل الكوفة يحرّضونه على قتال الأمويّين، ورجعوا به إلى الكوفة، وقُتل هناك. وله مِن الكتب: **المجموع في الفقه، وتفسير غريب القرآن المجيد، وكتاب الصفوة**. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٥/٣٨٩-٣٩١؛ **والأعلام** للزركلي، ٣/٥٩.

[٦] هو محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب العلوي الفاطمي المدني، أبو جعفر (ت. ١١٤هـ/٧٣٣م [؟]). خامسُ الأئمّة الاثني عشر ›

"يَسْأَلُونَكَ الْأَنْفَالَ"[١] غيرُ متهضٍ؛ فإنّ مَبناها -كما قالوا-[٢] على الحذف والإيصال، كما يُعرب عنه الجواب بقوله عزّ وجلّ: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي: حكمُها مختصّ به تعالى، يقسِمها الرسولُ عليه السلام كيفما أُمر به مِن غير أن يدخل فيه رأيُ أحد.

/ ولو كان السؤال استعطاءً لَما كان هذا جوابًا له؛ فإنّ اختصاص حكم ما شُرط لهم مِن الأنفال بالله والرسول لا يُنافي إعطاءَها إيّاهم، بل يحقّقه؛ لأنّهم إنّما يسألونها بموجَب شرط الرسول عليه السلام الصادرِ عنه بإذن الله تعالى، لا بحكمٍ سبَقَ أيديهم إليها أو نحو ذلك ممّا يخلّ بالاختصاص المذكور. [٣٨٤و]

وحملُ الجواب على معنى: أنّ الأنفال بالمعنى المذكور مختصّةٌ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، لا حقَّ فيها للمُنفَّل كائنًا مَن كان، ممّا لا سبيلَ إليه قطعًا ضرورةَ ثبوت الاستحقاق بالتنفيل. وادّعاءُ أنّ ثبوته بدليلٍ[٣] متأخّرِ التزامٌ[٤] لتكرُّر النسخ[٥] مِن غير علم بالناسخ الأخير.

ولا مساغَ للمَصير إلى ما ذهب إليه مجاهد وعكرمةُ والسدّي مِن أنّ الأنفال كانت لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم خاصّةً، ليس لأحد فيها شيءٌ بهذه الآية، فنُسخت بقوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال، ٨/٤١]،[٦] لِما[٧] أنّ المراد بـ"الأنفال" فيما قالوا هو المعنى الأوّل حتمًا كما نطَق به قوله تعالى:

= عند الإماميّة. وُلد بالمدينة، وتوفّي بها. وشُهر بـ"الباقر"، مِن: "بقَرَ العلمَ"، أي: شقَّه، فعرف أصله وخفيَّه. وكان ناسكًا عابدًا، له في العلم وتفسير القرآن آراء وأقوال. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤/٤٠١-٤٠٩؛ والأعلام للزركلي، ٦/٢٧٠-٢٧١.

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عنهم في المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٧٢، إلّا عطاء وعكرمة، فهي مرويّة عنهما في اللباب لابن عادل، ٩/٤٤٣.

[٢] اللباب لابن عادل، ٩/٤٤٣.

[٣] وفي هامش م: خبر "أنّ". «منه».

[٤] وفي هامش م: خبر المبتدأ. «منه».

[٥] وفي هامش م: بأن يُنسَخ بهذه الآية استحقاقُ المنفَّل لِما شُرط له بعد مشروعيّته -وإلّا لَما شَرَط عليه السلام لهم ذلك- ثمّ يُنسَخَ بناسخ آخر. «منه».

[٦] قول مجاهد وعكرمة والسدّي في جامع البيان للطبري، ١١/٢١-٢٢؛ واللباب لابن عادل، ٩/٤٤٧.

[٧] تعليل لقوله: "ولا مساغَ للمَصير إلى"... إلخ، وليس للقول بالنسخ.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ الآية [الأنفال، ٤١/٨]، على أنّ الحقّ أنّه لا نسخ حينئذ أيضًا حسبما قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛[١] بل بُيّن في صدر السورة الكريمة إجمالًا أنّ أمرها مفوَّض إلى الله تعالى ورسوله، ثمّ بيّن مصاريفها وكيفيّة قِسمتها على التفصيل.

وادّعاء اقتصار هذا الحكم -أعني: الاختصاص برسول الله صلّى الله عليه وسلّم- على الأنفال المشروطة يومَ بدرٍ بجعل "اللام" للعهد مع بقاء استحقاق المُنفَّل في سائر الأنفال المشروطة، يأباه مقام بيان الأحكام، كما يُنبئ عنه إظهار ﴿ٱلۡأَنفَالِ﴾ في موقع الإضمار، على أنّ الجواب عن سؤال الموعود ببيان كونه[٢] له عليه السلام خاصّةً ممّا لا يَليق بشأنه الكريم أصلًا.

وقد رُوي عن سعد بن أبي وقّاص أنّه قال: «قُتل أخي عُمَيرٌ يومَ بدرٍ، فقتلتُ به سعيد بنَ العاص، / وأخذتُ سيفه، فأعجبني، فجئتُ به رسولَ الله [٣٨٤ظ] صلّى الله عليه وسلّم، فقلتُ: "إنّ الله تعالى قد شفى صدري مِن المشركين، فهَبْ لي هذا السيفَ"، فقال عليه السلام: "ليس هذا لي ولا لك، اطرَحْه في القَبَض"،[٣] فطرحتُه وبي ما لا يعلمه إلّا الله مِن قتل أخي وأخذِ سَلَبي، فما جاوزتُ إلّا قليلًا حتّى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "يا سعدُ، إنّك سألتَني السيفَ وليس لي، وقد صار لي، فاذهبْ فخُذْه"».[٤] وهذا -كما ترى- يقتضي عدمَ وقوع التنفيل يومئذ، وإلّا لَكان سؤال السيف مِن سعد بموجَب شرطه عليه السلام ووعدِه، لا بطريق الهِبَة المبتدأة.

---

[١] انظر: جامع البيان للطبري، ٢٢/١١-٢٣؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٧/٤. | هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العُمَري المدني. مولى عمر بن الخطّاب. كان كثيرَ الحديث، ضعيفًا. حدّث عن أبيه وابن المُنكَدر. وروى عنه أصبَغ بن الفرج وقتيبة وهشام بن عمّار، وآخرون. كان صاحبَ قرآن وتفسير، جمع تفسيرًا في مجلّد، وكتابًا في الناسخ والمنسوخ. توفّي بالمدينة في أوّل خلافة هارون سنة اثنتين وثمانين ومائة. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤١٣/٥؛ وميزان الاعتدال للذهبي، ٥٦٤/٢-٥٦٦.

[٢] أي: كون الموعود.

[٣] القَبَض: ما جُمع مِن الغنائم. تهذيب اللغة للأزهري، ٢٧٣/٨ «باب القاف والضاد».

[٤] انظر: مسند أحمد، ١٢٩/٣ (١٥٥٦)؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٣٤-٢٣٥؛ والكشّاف للزمخشري، ١٩٤/٢-١٩٥.

وحملُ ذلك مِن سعدٍ على مراعاة الأدب -مع كون سؤاله بموجَب الشرط- يرُدّه ردُّه عليه السلام قبل النزول، وتعليلُه بقوله: «ليس هذا لي» لاستحالة أن يَعِدَ عليه السلام بما لا يقدر على إنجازه، وإعطاؤه[١] عليه السلام بعد النزول، وترتيبُه[٢] على قوله: «وقد صار لي» ضرورةَ أنّ مناط صَيْرُورته له عليه السلام قولُه تعالى: ﴿ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾، والفَرْضُ أنّه المانع مِن إعطاء المسئول.

وممّا هو نصٌّ في الباب قوله عزّ وعلا:[٣] ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: إذا كان أمر الغنائم لله تعالى ورسوله، فاتَّقُوه تعالى، واجتنِبوا ما كنتم فيه مِن المشاجرة فيها والاختلاف الموجِب لسَخَطه تعالى؛ أو فاتَّقُوه في كلّ ما تأتون وما تذَرون، فيدخل فيه ما هم فيه دخولًا أوّليًا. ولو كان السؤال طلبًا للمشروط لَما كان فيه محذور يجب اتّقاؤه.

وإظهار الاسم الجليل لتربية المَهابة وتعليل الحكم.

﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ جُعِل ما بينهم مِن الحال لملابستها التامّة لبَيْنهم صاحبةً له، كما جُعلت الأمور المضمَرة في الصدور "ذاتَ الصدور"،[٤] أي: أَصلِحوا ما بينكم مِن الأحوال بالمواساة والمساعدة فيما رزَقَكم الله تعالى وتفضَّلَ به عليكم.

وعن عُبادة بن الصامت: «نزلتْ فينا، مَعشَر أصحاب بدر، / حين اختلفنا [٣٨٥و]
في النَّفَل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله تعالى مِن أيدينا، فجعله لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم،[٥] فقسَمه بين المسلمين على السواء»،[٦] وكان في ذلك تقوى الله وطاعةُ رسوله وإصلاحُ ذات البَيْن.

وعن عطاء: «كان الإصلاح بينهم أنْ دعاهم وقال: "اقسِموا غنائمكم بالعدل"، فقالوا: "قد أكلنا وأنفقنا"، فقال: "لِيرُدَّ بعضُكم على بعض"».[٧]

---

١ وفي هامش م: أي: يردّه إعطاؤه... إلخ. «منه».

٢ أي: ترتيب إعطاءه عليه السلام.

٣ س: وجلّ.

٤ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران، ١١٩/٣].

٥ م - صلّى الله عليه وسلّم.

٦ هو باختلاف يسير في مسند أحمد، ٤١٠/٣٧-٤١١ (٢٢٧٤٧)؛ وجامع البيان للطبري، ١٤/١١-١٥.

٧ الكشّاف للزمخشري، ١٩٥/٢.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ بتسليم أمره ونهيه. وتوسيط الأمر بإصلاح ذات البَيْن بين الأمر بالتقوى والأمرِ بالطاعة لإظهار كمال العناية بالإصلاح بحسب المقام، وليندرجَ الأمر به[١] بعينه تحت الأمر بالطاعة.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ متعلِّق بالأوامر الثلاثة، والجوابُ محذوف ثقةً بدلالة المذكور عليه، أو هو[٢] الجواب، على الخلاف المشهور. وأيًّا ما كان، فالمقصود تحقيقُ المعلَّق بناءً على تحقّق المعلَّق به. وفيه تنشيط للمخاطَبين وحثٌّ لهم على المسارعة إلى الامتثال. والمراد بالإيمان كماله، أي: إن كنتم كاملي الإيمانِ؛ فإنّ كمال الإيمان يدور على هذه الخِصال الثلاث: طاعةِ الأوامر واتّقاءِ المعاصي وإصلاحِ ذات البَيْن بالعدل والإحسان.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ جملة مستأنَفة مَسوقة لبيان مَن أُريدَ بـ"المؤمنين"[٣] بذكر أوصافهم الجليلة المستتبعة لِما ذُكر مِن الخِصال الثلاث. وفيه مزيدُ ترغيب لهم في الامتثال بالأوامر المذكورة. أي: إنّما الكاملون في الإيمان المخلِصون فيه ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: فزِعت لمجرّد ذكره مِن غير أن يذكَر هناك ما يوجِب الفزَعَ مِن صفاته وأفعاله استعظامًا لشأنه الجليل وتهيُّبًا منه. وقيل: هو الرَّجل يَهُمّ بمعصية، فيقال له: "اتّقِ الله"، فيَنزِع عنها خوفًا مِن عقابه.[٤]

وقُرئ: "وَجَلَتْ"[٥] بفتح الجيم، وهي لغة. وقُرئ: "فَرِقَتْ"،[٦] أي: خافت.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أيّ آيةٍ كانت، ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي: يقينًا وطُمأنينة نفس؛ فإنّ تظاهر الأدلّة وتعاضُدَ الحُجج والبراهين موجِبٌ لزيادة الاطمئنان

---

١ أي: الأمر بالإصلاح.
٢ أي: المذكور.
٣ في الآية السابقة.
٤ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٩.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب وإبراهيم النخعي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٢.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٢.

وقوّة اليقين. وقيل: إنّ نفس الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان، وإنّما زيادتُه باعتبار زيادة المؤمَن به، / فإنّه كلّما نزلت آية صدّق المؤمنُ بها، فزاد إيمانه [٣٨٥ظ] عددًا، وأمّا نفس الإيمان، فهو بحاله. وقيل: باعتبار أنّ الأعمال تُجعَل مِن الإيمان، فيزيد بزيادتها.

والأصوَب أنّ نفس التصديق يقبل القوّةَ. وهي التي عُبّر عنها بـ"الزيادة" للفرق النيّر بين يقين الأنبياء وأرباب المكاشَفات ويقينِ آحاد الأمّة. وعليه مَبنى ما قال عليّ رضي الله تعالى عنه: «لو كُشف الغِطاء ما ازددتُ يقينًا».[١] وكذا بَيْن ما قام عليه دليل واحد وما قامت عليه أدلّة كثيرة.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[٢] مالكِهم ومدبّرِ أمورهم خاصّةً ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفوّضون أمورهم، لا إلى أحدٍ سِواه. والجملة معطوفة على الصلة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ مرفوع على أنّه نعتٌ للموصول الأوّل أو بدلٌ منه أو بيانٌ له، أو منصوبٌ على القَطع المُنبِئ عن المدح. ذُكر أوّلًا مِن أعمالهم الحسنة أعمالُ القلوب مِن الخشية والإخلاص والتوكّل، ثمّ عُقّب بأعمال الجوارح مِن الصلاة والصدقة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٤﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى مَن ذُكرت صفاتهم الحميدة مِن حيث إنّهم متّصفون بها. وفيه دلالة على أنّهم متميّزون بذلك عمّن عداهم أكملَ تميّزٍ، منتظِمون بسببه في سِلك الأمور المشاهَدة. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ رُتبتهم وبُعدِ منزلتهم في الشرف.

﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم حقّقوا إيمانهم بأن ضمّوا إليه ما فُصّل مِن أفاضل الأعمال القلبيّة والقالبيّة. و﴿حَقًّا﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: أولئك

---

[١] هو منسوب إلى عليّ رضي الله عنه في الذريعة للراغب الأصفهاني، ص ١٤٩؛ ونظم الدُّرر للبقاعي، ١٣٦/٢. وذكره القشيري في لطائف الإشارات، ٥٨/١، مِن كلام عامر بن عبد القيس، والغزّالي في إحياء علوم الدين، ١٧١/١، مِن كلام الربيع بن خُثَيم.

[٢] وفي هامش م: وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة ما لا يخفى مِن المزيّة. «منه».

هم المؤمنون إيمانًا حقًّا، أو مصدر مؤكِّد للجملة، أي: حقَّ ذلك حقًّا، كقولك: "هو عبدُ الله حقًّا".

﴿لَهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ مِن الكرامة والزُّلفى. وقيل: درجات عالية في الجنّة. وهو إمّا جملة مبتدَأة مبنيّة على سؤالٍ نشأ مِن تَعداد مناقبهم، كأنّه قيل: ما لهم

بمقابلة هذه / الخِصال؟ فقيل: لهم كَيْتَ وكَيْتَ، أو خبرٌ ثانٍ لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾. [٣٨٦و]

وقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ إمّا متعلِّق بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ مؤكِّدة لِما أفادها التنوين مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أي: كائنةٌ عنده تعالى، أو بما تعلّق به الخبر -أعني: ﴿لَهُمْ﴾- مِن الاستقرار. وفي إضافة الظرف إلى "الربّ" المضاف إلى ضميرهم مزيدُ تشريف ولطفٍ لهم، وإيذانٌ بأنّ ما وُعد لهم متيقَّنُ الثبوت والحصولِ مأمونُ الفَواتِ.

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لِما فرَط منهم، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا ينقضي أمَدُه ولا ينتهي عدده. وهو ما أُعدَّ لهم مِن نعيم الجنّة.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ "الكاف" في محلّ الرفع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، تقديره: هذه الحال كحال إخراجك، يعني: أنّ حالهم في كراهتهم لِما رأيتَ مع كونه حقًّا كحالهم في كراهتهم لخروجك للحرب وهو حقٌّ؛ أو في محلّ النصب على أنّه صفة لمصدر مقدَّر في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ﴾،[١] أي: الأنفال ثبتتْ لله والرسولِ مع كراهتهم ثباتًا مثلَ ثباتِ إخراج ربّك إيّاك مِن بيتك في المدينة أو مِن المدينة إخراجًا ملتبِسًا بالحقّ.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ أي: والحال أنّ فريقًا منهم كارهون للخروج، إمّا لنفرة الطبع عن القتال أو لعدم الاستعداد.

---

١ الأنفال، ٨/١.

وذلك أنّ عِيرَ قريشٍ أقبلتْ مِن الشام، وفيها تجارة عظيمة، ومعها أربعون راكبًا، منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام،[١] فأخبر جبريلُ رسول الله صلّى الله عليهما وسلّم، فأخبَرَ المسلمين، فأعجَبَهم تلقّي العِيرِ لكثرة الخير وقلّة القوم، فلمّا خرجوا بلغ أهلَ مكّةَ خبرُ خروجهم، فنادى أبو جهل فوق الكعبة: «يا أهلَ مكّةَ، النجاءَ النجاءَ على كلّ صَعب وذَلُول![٢] عِيرَكم أموالَكم![٣] إن أصابها / محمّدٌ لم تُفلِحوا بعدها أبدًا»، وقد رأت أختُ العبّاس بن عبد المطّلِب[٤] رؤيا، فقالت لأخيها: «إنّي رأيتُ عَجَبًا، رأيتُ كأنّ ملَكًا نزل مِن السماء، فأخذ صخرةً مِن الجبل، ثمّ حلّق بها، فلم يبقَ بيتٌ مِن بيوت مكّةَ إلّا أصابه حَجَر مِن تلك الصخرة»، فحدّث بها العبّاسُ، فقال أبو جهل: «ما يرضى رِجالهم أن يتنبّئوا حتّى تتنبّأ نساؤُهم»، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكّةَ، وهم النفير، فقيل له: «إنّ العِير أخذت طريقَ الساحل ونجتْ، فارجِعْ بالناس إلى مكّةَ»، فقال: «لا واللهِ، لا يكون ذلك أبدًا حتّى ننحَرَ الجَزور ونشربَ الخمور ونُقيمَ القَيْناتِ والمعازفَ ببدرٍ، فيتسامع جميعُ العرب بمَخرَجنا، وأنّ محمّدًا لم يُصب العِيرَ، وأنّا قد أعضَضْناه»،[٥] فمضى بهم إلى بدر -وبدرٌ ماءٌ كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يومًا في السنة- فنزل جبريلُ فقال: «يا محمّدُ، إنّ الله وعدكم إحدى الطائفتين، إمّا العِيرَ، وإمّا قريشًا»، فاستشار النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أصحابه، فقال: «ما تقولون؟ إنّ القوم قد خرجوا مِن مكّةَ على كلّ صَعب وذَلُول، فالعِيرُ أحبُّ إليكم أم النفيرُ؟»، فقالوا: «بل العِير أحبُّ إلينا مِن لقاء العدوّ»، فتغيّر وجهُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ ردّد عليهم فقال: «إنّ العِير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل»، فقالوا: «يا رسولَ الله، عليك بالعِيرِ، ودع العدوَّ»، فقام عندما غضِب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم [٣٨٦ظ]

---

١ عمرو بن هشام هو أبو جهل، ولم يكن في العِير، وإنّما كان في النفير كما سيأتي.

٢ ركِبوا كلَّ صَعب وذَلولٍ في أمرهم: إذا بذَلُوا فيه الطاقةَ. أساس البلاغة للزمخشري، «ذلل».

٣ "أموالَكم" بدلُ "عيرَكم".

٤ هي عاتكة بنت عبد المطّلب كما في معالم التنزيل للبغوي، ٣/٣٢٩.

٥ وفي هامش م: أي: جعلناه عاضًا يدَه ندمًا وتحسّرًا. «منه».

[٣٨٧و] / أبو بكر وعمرُ رضي الله تعالى عنهما، فأحسَنَا،[١] ثمّ قام سعد بن عُبادةَ[٢] فقال: «انظُرْ أمرك فامضِ، فوالله لو سِرتَ إلى عَدَنِ أَبْيَنَ[٣] ما تخلَّفَ عنك رجل مِن الأنصار»، ثمّ قال المِقداد بن عمرو:[٤] «يا رسولَ الله، امضِ لِما أمرك الله تعالى، فإنّا معك حيثما أحببْتَ، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيلَ لموسى عليه السلام: "اذهبْ أنت وربُّك فقاتِلَا إنّا ههنا قاعدون"،[٥] ولكن: اذهَبْ أنت وربُّك فقاتِلَا إنّا معكما[٦] مقاتلون ما دامت عينٌ منّا تطرفُ»، فضحِك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ قال: «أَشيروا عليَّ أيّها الناس»، وهو يريد الأنصار؛ لأنّهم قالوا له حين بايعوه على العَقَبة: «إنّا بُرَآءُ مِن ذِمامك حتّى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلتَ إلينا، فأنت في ذِمامنا، نمنعك ممّا نمنع منه أبناءنا ونساءَنا»، فكان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٧] يتخوّف ألّا يكونَ الأنصارُ لا ترى عليهم نُصرتَه إلّا على عدوّ دَهَمَه بالمدينة، فقام سعد بن مُعاذ فقال: «لَكأنّك تريدنا يا رسولَ الله؟»، قال: «أجَل»، قال: «قد آمنّا بك وصدّقْناك، وشهِدنا أنّ ما جئتَ به هو الحقّ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقَنا على السمع والطاعة، فامضِ يا رسولَ الله لِما أردتَ، فوالذي بعثك بالحقّ، لو استعرضتَ بنا هذا البحرَ فخُضتَه، لخُضناه معك،

---

[١] أي: أحسَنَا الكلامَ في اتّباع مراد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

[٢] هو سعد بن عُبادة بن دُليم بن حارثة الأنصاري، أبو ثابت (ت. ١٤هـ/٦٣٥م [؟]). سيّد الخزرج، وأحد الأمراء الأشراف في الجاهليّة والإسلام. كان نقيبًا، شهد العقبة، وبدرًا في قول بعضهم. وكان سيّدًا جوّادًا. وهو صاحب راية الأنصار في المَشاهد كلِّها. وكان وجيهًا في الأنصار، ذا رياسة وسِيادة، يعترف قومه له بها. وكان في الجاهليّة يكتب بالعربيّة، وكانت الكتابة في العرب قليلًا. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٣/٦١٣-٦١٧؛ **والاستيعاب** للنّمري، ٢/٥٩٤-٥٩٩.

[٣] العَدَن: موضع باليمن. ويقال له أيضًا: عَدَنُ أَبْيَنَ، نُسب إلى أَبْيَنَ -رجل مِن حِمْير- لأنّه عَدَنَ به، أي: أقام. **لسان العرب** لابن منظور، «عدن».

[٤] هو المِقداد بن عمرو بن ثَعْلبة بن مالك البَهراوي، أبو مَعبَد (ت. ٣٣هـ/٦٥٣م). أحد السابقين إلى الإسلام في مكّة ومِن الفضلاء النُّجباء الكِبار الخِيار مِن الصحابة. شهد المَشاهد كلَّها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وكان حالفَ الأسود بن عبد يغوث الزهري في الجاهليّة، فتبنّاه، فكان يقال له: المِقداد بن الأسود، فلمّا نزل القرآن: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب، ٣٣/٥]، قيل: المِقداد بن عمرو. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٣/١٦١-١٦٣؛ **وأسد الغابة** لابن الأثير، ٥/٢٤٢-٢٤٣.

[٥] ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة، ٥/٢٤].

[٦] س: معكم.

[٧] س: عليه السلام.

ما تخلّف منّا رجل واحد، وما نكرَهُ أن تلقى بنا عدوّنا، إنّا لَصُبُرٌ عند الحرب صُدُقٌ عند اللقاء، ولعلّ الله يُريك منّا ما يُقرّ به عينَك، فسِرْ بنا على بركة الله»، ففرح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وبسَطه قولُ سعد، / ثمّ قال: «سِيروا على بركة الله، وأَبشِروا، فإنّ الله تعالى وعدني إحدى الطائفتين، واللهِ لَكأنّي الآنَ أنظرُ إلى مصارع القوم».[1] [٣٨٧ظ]

ورُوي أنّه قيل لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين فرَغ مِن بدر: «عليك بالعِير، ليس دونها شيءٌ»، فناداه العبّاس[2] وهو في وَثاقِه: «لا يصلُح»، فقال له النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لِم؟» قال: «لأنّ الله وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك».[3]

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾ الذي هو تلقّي النفير لإيثارهم عليه تلقّيَ العِير. والجملة استئناف، أو حال ثانية، أي: أخرجك في حال مجادلتهم إيّاك. ويجوز أن يكون حالًا مِن الضمير في ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ منصوب بـ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾، و﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: بعد تبيّن الحقّ لهم بإعلامك أنّهم يُنصَرون أينما تَواجهوا، ويقولون: ما كان خروجُنا إلّا للعِير، وهلّا قلتَ لنا لنستعدَّ ونتأهّبَ. وكان ذلك لكراهتهم القتالَ.

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ "الكاف" في محلّ النصب على الحاليّة مِن الضمير في ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾، أي: مُشبهين بالذين يُساقون بالعُنف والصَّغار إلى القتل.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١٩٧/٢-١٩٨. وأخرج الطبري بعضه عن ابن عبّاس وبعضَه عن عُروة بن الزبير وبعضَه عن السدّي بتقديم وتأخير وزيادة ونقص. انظر: جامع البيان للطبري، ٤١/١١-٤٨. والقصّة بتفصيلها في سيرة ابن هشام تحت عنوان "غزوة بدر الكبرى"، إلّا أنّه لم يذكر عمرو بنَ هشام مِن أصحاب العِير.

٢ هو العبّاس بن عبد المطّلب بن هاشم القرشي، أبو الفضل (ت. ٣٢هـ/٦٥٣م). عمُّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وجَدُّ الخلفاء العبّاسيّين. كان مِن أكابر قريش في الجاهليّة والإسلام. وكان محسِنًا لقومه، سديدَ الرأي، واسعَ العقل، مولعًا بإعتاق العبيد، كارهًا للرِّقّ. اختُلف في إسلامه، فقيل: إنّه لم يسلم حتّى وقعة بدر، وقيل: أسلم قبل الهجرة وكتَم إسلامَه، وأقام بمكّة يكتب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخبار المشركين، ثمّ هاجر إلى المدينة. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٥/٤-٣٣؛ والإصابة لابن حجر، ٥٧٧/٥-٥٧٨.

٣ انظر: مسند أحمد، ٤٦٦/٣ (٢٠٢٢)؛ وسنن الترمذي، ٢٦٩/٥ (٣٠٨٠).

﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ حال مِن ضمير ﴿يُسَاقُونَ﴾، أي: والحالُ أنّهم ينظرون إلى أسباب الموت ويشاهدونها عِيانًا. وما كانت هذه المرتبة مِن الخوف والجزَع إلّا لقلّة عددهم وعدم تأهّبهم وكونِهم رَجّالةً. رُوي أنّه لم يكن فيهم إلّا فارسانِ.[١]

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان جميل صُنع الله عزّ وجلّ بالمؤمنين مع ما بهم مِن قلّة الحزم ودَناءة الهمّة وقصورِ الرأي والخوفِ والجزَع. و﴿إِذْ﴾ منصوب على المفعوليّة بمضمَرٍ خُوطبَ به المؤمنون بطريق التلوين والالتفات، و﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ﴿يَعِدُكُمْ﴾، أي: اذكروا وقتَ وعدِ الله إيّاكم إحدى الطائفتين.

[٣٨٨و] وتذكير الوقت -مع أنّ المقصود تذكيرُ ما فيه مِن الحوادث- لِما مرّ / مرارًا مِن المبالغة في إيجاب ذكرها، لِما أنّ إيجاب ذكر الوقت إيجابٌ لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهانيّ، ولأنّ الوقت مشتمل على ما وقع فيه مِن الحوادث بتفاصيلها، فإذا استُحضر كان ما وقع فيه حاضرًا مفصَّلًا، كأنّه مشاهَد عِيانًا.

وقُرئ: "يَعِدْكُمْ"[٢] بسكون الدال تخفيفًا. وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدلُ اشتمالٍ مِن ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾، مبيّنٌ لكيفيّة الوعد، أي: يَعِدكم أنّ إحدى الطائفتين كائنةٌ لكم مختصّةٌ بكم مسخَّرةٌ لكم، تتسلّطون عليها تسلّطَ المُلّاكِ، وتتصرّفون فيهم كيف شئتم.

﴿وَتَوَدُّونَ﴾ عطفٌ على ﴿يَعِدُكُمْ﴾، داخلٌ تحت الأمر بالذِّكر، أي: تُحبّون ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ مِن الطائفتين، لا ذاتَ الشَّوكة، وهي النفير، رئيسُهم أبو جهل، وهم ألفُ مقاتلٍ. وغيرُ ذاتِ الشَّوكة هي العِير، إذ لم يكن فيها

---

[١] التفسير البسيط للواحدي، ١٠/٣٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٩٩.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي زيد وسلمة بن محارب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٢.

إلّا أربعون فارسًا، ورأسُهم أبو سفيان. والتعبير عنهم بهذا العنوان للتنبيه على سبب ودادتهم لملاقاتهم وموجِبِ كراهتهم ونفرتهم عن موافاة النفير. والشَّوكة: الحِدّة، مستعارةٌ مِن واحدة "الشَّوك"، وشَوْكُ القَنَا شَبَاها.[١]

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ عطفٌ على ﴿تَوَدُّونَ﴾، منتظِمٌ معه في سِلك التذكير ليظهرَ لهم عظيم لطف الله بهم مع دناءة هِممهم وقصور آرائهم، أي: اذكروا وقتَ وعدِه تعالى إيّاكم إحدى الطائفتين وودادتِكم لأدناهما وإرادتِه تعالى لأعلاهما؛ وذلك قوله تعالى: ﴿أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يُثبتَه ويُعليَه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: بآياته المنزلة في هذا الشأن، أو بأوامره للملائكة بالإمداد، وبما قضَى مِن أسرهم وقتلهم وطرحهم في قَليب بدر. وقُرِئَ: "بِكَلِمَتِهِ".[٢]

﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: آخِرَهم، ويستأصِلَهم بالمرّة. والمعنى: أنتم تريدون سَفسافَ الأمور،[٣] واللهُ عزّ وعلَا يريد معالِيَها وما يرجع إلى عُلوّ كلمة الحقّ وسُموِّ رُتبة الدين. وشتّانَ بين المرادَين!

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾

وقوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ جملة مستأنَفة سِيقت لبيان الحكمة الداعية إلى اختيار ذات الشَّوكة / ونصرِهم عليها مع إرادتهم لغيرها. [٣٨٨ظ]
و"اللام" متعلِّقة بفعلٍ مقدَّر مؤخَّر عنها، أي: لهذه الغاية الجليلة فعَلَ ما فعل، لا لشيء آخرَ. وليس فيه تكرار؛ إذ الأوّل لبيان تفاوتِ ما بين الإرادتين، وهذا لبيان الحكمة الداعية إلى ما ذُكر. ومعنى إحقاقِ الحقّ إظهارُ حقّيّته، لا جعلُه حقًّا بعد أن لم يكن كذلك، وكذا حال إبطال الباطل.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: المشركون ذلك، أي: إحقاقَ الحقّ وإبطالَ الباطل.

---

١ شَبَاة كلّ شيء: حدُّ طرفِه. والجمع: الشَّبَا والشَّبَوات. **الصحاح** للجوهري، «شبا».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن سلمة بن محارب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٢.

٣ السَّفساف: الرديء مِن كلّ شيء والأمرُ الحقير. وفي الحديث: «إنّ الله يُحبّ معاليَ الأمور، ويكرَهُ سَفسافَها». **الصحاح** للجوهري، «سفف».

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ⑨﴾

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ بدل مِن ﴿إِذْ يَعِدُكُمْ﴾،[١] معمولٌ لعامله، فالمراد تذكير استمدادهم منه سبحانه والتجائهم إليه تعالى حين ضاقت عليهم الحِيَل وعيّتْ بهم العِلَلُ وإمدادِه تعالى حينئذ.

وقيل:[٢] متعلِّق بقوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ على الظرفيّة. وما قيل[٣] مِن أنّ قوله تعالى ﴿لِيُحِقَّ﴾ مستقبل؛ لأنّه منصوب بـ"أنْ"، فلا يمكن عملُه في ﴿إِذْ﴾؛ لأنّه ظرف لِما مضى، ليس بشيء؛ لأنّ كونه مستقبَلًا إنّما هو بالنسبة إلى زمان ما هو غاية له مِن الفعل المقدَّر، لا بالنسبة إلى زمان الاستغاثة حتّى لا يعملَ فيه؛ بل هما في وقت واحد، وإنّما عُبّر عن زمانها بـ﴿إِذْ﴾ نظرًا إلى زمان النزول، وصيغةُ الاستقبال في ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة.

وقيل: متعلِّق بمضمَر مستأنَف، أي: اذكروا وقتَ استغاثتِكم. وذلك أنّهم لمّا علموا أنّه لا بدّ مِن القتال، جعلوا يدعون الله تعالى قائلين: أيْ ربُّ، انصُرنا على عدوّك، يا غِياثَ المستغيثين، أَغِثْنا.[٤]

وعن عمرَ رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نظر إلى المشركين وهم ألْفٌ، وإلى أصحابه وهم ثلاثُمائة وبِضعة عشرَ، فاستقبل القبلةَ ومدَّ يديه يدعو: «اللّهمّ أنجِزْ لي ما وعدتَني، اللّهمّ إن تهلِكْ هذه العصابة، / لا تُعبَدْ في الأرض»، فما زال كذلك حتّى سقط رِداؤُه، فأخذه أبو بكر، فألقاه على مَنكِبه، والتزمه مِن ورائه وقال: «يا نبيَّ الله، كفاكَ مناشدتُك ربَّك، فإنّه سيُنجِز لك ما وعدك».[٥] [٣٨٩و]

﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ عطفٌ على ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾، داخلٌ معه في حكم التذكير، لِما عرفتَ أنّه ماضٍ وصيغةُ الاستقبال لاستحضار الصورة. ﴿أَنِّي مُمِدُّكُمْ﴾ أي:

---

١ الأنفال، ٨/٧.
٢ قاله الطبري في جامع البيان، ١١/٥٠.
٣ قاله ابن عادل في اللباب، ٩/٤٥٩.
٤ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٠٠.
٥ انظر: صحيح مسلم، ٣/١٣٨٣-١٣٨٤ (١٧٦٣)؛ وسنن الترمذي، ٥/٢٦٩-٢٧٠ (٣٠٨١). والألفاظ مِن اللباب لابن عادل، ٩/٤٦٠.

بأنّي، فحُذف الجارّ، وسُلّط عليه الفعل، فنصب محلّه. وقُرئ بكسر الهمزة[١] على إرادة "القول"، أو على إجراء ﴿ٱسْتَجَابَ﴾ مُجرى "قال"؛ لأنّ الاستجابة مِن مقولة القول.

﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أي: جاعلين غيرَهم مِن الملائكة رديفًا لأنفسهم، فالمراد بهم رؤساؤهم المستتبعون لغيرهم. وقد اكتُفي ههنا بهذا البيان الإجماليّ، وبُيّن في سورة آل عمرانَ مقدارُ عدّهم.[٢] وقيل: معناه: مُتبِعين أنفسَهم ملائكةً آخَرِين، أو مُتبِعين المؤمنينَ، أو بعضهم بعضًا، مِن "أردفتُه" إذا جئتَ بعده؛ أو مُتبِعين بعضَهم بعضَ المؤمنين أو أنفسَهم المؤمنين، مِن "أردفتُه إيّاه فردِفَه".

وقُرئ: "مُرْدَفِينَ"[٣] بفتح الدال، أي: متّبَعِين أو متّبِعِين،[٤] بمعنى: أنّهم كانوا مقدّمةَ الجيش[٥] أو ساقَتَهم.[٦] وقُرئ: "مُرُدِّفِينَ" بكسر الراء وضمِّها وتشديدِ الدال،[٧] وأصلُهما "مرتَدِفين" بمعنى "مترادِفين"، فأُدغمت التاء في الدال، فالتقى الساكنان، فحُرّكت الراء بالكسر على الأصل، أو بالضمّ على الإتباع.[٨] وقُرئ: "بِآلَافٍ"[٩] ليوافقَ ما في سورة آل عمران. ووجهُ التوفيق بينه وبين المشهور أنّ المراد بـ"الألْف" الذين كانوا على المقدّمة أو الساقةُ أو وجوهُهم وأعيانهم أو مَن قاتل منهم.

واختُلف في مقاتلتهم، وقد رُوي أخبارٌ تدلّ على وقوعها.[١٠]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن الكوفة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٢.

٢ ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۞ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران، ١٢٤/٣-١٢٥].

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٧٥/٢.

٤ م ط س - أو متّبِعين ["صح" في هامش م]. | ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

٥ وفي هامش م: على أنّه مِن "أردفه" بمعنى "جاء بعده". «منه».

٦ وفي هامش م: على أنّه بمعنى "أردفه إيّاه"، أي: جعله رديفًا له. «منه».

٧ ذكر الخليل بن أحمد مِن رجل مِن أهل مكّة أنّه يقرأه: "مُرِدِّفِينَ"، واختلفت الرواية عن الخليل في هذا الحرف، فقال بعضهم: "مُرُدِّفِينَ"، وقال آخر: "مُرِدِّفِينَ". انظر: المحتسب لابن جنّي، ٢٧٣/١؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٢.

٨ أي: على إتباع الميم.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٢.

١٠ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٠١/٢.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ كلام مستأنَف سِيق لبيان أنّ الأسباب الظاهرة بمَعزِل مِن التأثير، وإنّما التأثير مختصّ به عزّ وجلّ ليثِقَ به المؤمنون ولا يقنَطوا مِن النصر عند فُقدان / أسبابه. والجعل متعدٍّ إلى مفعول واحد، هو الضمير العائد إلى مصدرِ فعل مقدَّر يقتضيه المقام اقتضاءً ظاهرًا مُغنيًا عن التصريح به، كأنّه قيل: فأمدَّكم بهم، وما جعل إمدادَكم بهم. [٣٨٩ظ]

﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾[١] وهو استثناء مفرَّغ مِن أعمّ العِلل، أي: وما جعل إمدادَكم بإنزال الملائكة عِيانًا لشيء مِن الأشياء إلّا للبُشرى لكم بأنّكم تُنصَرون، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ﴾ أي: بالإمداد ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ وتسكنَ إليه نفوسُكم، كما كانت السكينة لبني إسرائيلَ كذلك. فكِلاهما مفعول له لـ"الجَعل". وقد نُصب الأوّل لاجتماع شرائطه، وبقي الثاني على حاله لفُقدانها، وقيل: للإشارة إلى أصالته في العلّيّة وأهمّيّته في نفسه، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل، ٨/١٦].

وفي قَصر الإمداد عليهما إشعار بعدم مباشرة الملائكة للقتال، وإنّما كان إمدادُهم بتقوية قلوب المباشرين وتكثيرِ سوادهم ونحوه، كما هو رأي بعض السلف.[٢]

وقيل: الجعل متعدٍّ إلى اثنين، ثانيهما ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ على أنّه استثناء مِن أعمّ المفاعيل، أي: وما جعله الله شيئًا مِن الأشياء إلّا بِشارةً لكم؛ فـ"اللام" في ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ متعلِّقة بمحذوف مؤخَّر، تقديره: ولِتطمئنَّ به قلوبُكم فعَلَ ذلك، لا لشيء آخرَ.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ﴾ أي: حقيقة النصر على الإطلاق ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: إلّا كائن مِن عنده عزّ وجلّ، مِن غير أن يكون فيه شركة مِن جهة الأسباب والعُدَد، وإنّما هي مظاهرُ له بطريق جريان السنّة الإلهيّة.

---

[١] م س + لكم.

[٢] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٠١.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالَب في حكمه، ولا ينازَع في قضيّته، / ﴿حَكِيمٌ﴾ [٣٩٠و]
يفعل كلَّ ما يفعل حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة. والجملة تعليل لِما قبلها، متضمِّنٌ للإشعار بأنّ النصر الواقع على الوجه المذكور مِن مقتضَيات الحِكَم البالغة.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ أي: يجعله غاشيًا لكم ومحيطًا بكم. وهو بدلٌ ثانٍ مِن ﴿إِذْ يَعِدُكُمْ﴾[1] لإظهار نعمة أخرى، وصيغة الاستقبال فيه وفيما عُطف عليه لحكاية الحال الماضية كما في ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾؛ أو منصوبٌ بإضمار "اذكُروا". وقيل: هو متعلِّق بالنصر، أو بما في ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ مِن معنى الفعل، أو بالجعل، وليس بواضح. وقُرئ: "يُغْشِيكُمْ"[2] مِن "الإغشاء" بمعنى "التغشية"، والفاعل في الوجهين هو الباري تعالى. وقُرئ: "يَغْشَاكُمْ"[3] على إسناد الفعل إلى "النُّعاس".

وقوله تعالى: ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ على القراءتين الأُولَيَين منصوبٌ على العلّيّة بفعل مترتِّب على الفعل المذكور، أي: يُغشّيكم النُّعاسَ، فتنعَسون أمنًا كائنًا مِن الله تعالى، لا كَلالًا وإعياءً؛ أو على أنّه مصدر لفعل آخرَ كذلك، أي: فتأمنون أمنًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران، ٣٧/٣] على أحد الوجهين. وقيل: منصوب بنفس الفعل المذكور. و"الأَمَنة" بمعنى "الأمان". وعلى القراءة الأخيرة منصوب على العلّيّة بـ"يَغْشَاكم" باعتبار المعنى، فإنّه في حكم "تنعَسون"، أو على أنّه مصدر لفعل مترتِّب عليه كما مرّ. وقُرئ: "أَمْنَةً"[4] كـ"رَحْمة".

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ تقديم الجارّ والمجرور على المفعول به لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر؛ فإنّ ما حقُّه التقدّمُ

---

[1] الأنفال، ٧/٨.
[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٧٦/٢.
[3] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢٧٦/٢.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصِن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٣.

إذا أُخِّر، تبقَى النفسُ مترقِّبةً له، فعند وروده يتمكّن عندها فضلَ تمكّنٍ. وتقديم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لِما أنّ بيان كون التنزيل عليهم أهمُّ مِن بيان كونه مِن السماء. / وقُرئ بالتخفيف مِن "الإنزال".[1] [٣٩٠ظ]

﴿لِيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ أي: مِن الحَدَث الأصغر والأكبر، ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ الكلام في تقديم الجارّ والمجرور كما مرّ آنفًا. والمراد بـ﴿رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وسوسته وتخويفه إيّاهم مِن العطش.

رُوي أنّهم نزلوا في كَثيبٍ أَعْفرَ تسُوخُ فيه الأقدام[2] على غير ماءٍ، وناموا، فاحتلم أكثرهم، وقد غلب المشركون على الماء، فتمثّلَ لهم الشيطان، فوسوس إليهم وقال: «أنتم يا أصحابَ محمّد تزعُمون أنّكم على الحقّ، وإنّكم تُصلّون على غير وضوء وعلى الجنابة، وقد عطِشتم، ولو كنتم على الحقّ، ما غلبكم هؤلاء على الماء، وما ينتظرون بكم إلّا أن يَجهَدكم العطش، فإذا قطَعَ أعناقَكم مشَوا إليكم، فقتلوا مَن أَحبّوا، وساقوا بقيّتَكم إلى مكّةَ»، فحزِنوا حُزنًا شديدًا وأشفَقوا، فأنزل الله عزّ وجلّ المطرَ، فمُطروا ليلًا حتّى جرى الوادي، فاغتسلوا وتوضّئُوا، وسَقَوا الرِّكاب، وتلبَّدَ الرمل الذي كان بينهم وبين العدوّ حتّى ثبتت عليه الأقدام، وزالت وسوسة الشيطان، وطابت النفوس وقويَت القلوب.[3]

وذلك قوله تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يُقوّيها بالثقة بلطف الله تعالى فيما بعدُ بمشاهدة طلائعه،[4] ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ ولا تسُوخَ في الرمل. فالضمير لـ"الماء" كالأوّل، ويجوز أن يكون لـ"الرَّبْط"، فإنّ القلب إذا قوي وتمكّنَ فيه الصبر والجرأة، لا تكاد تزِلّ القدمُ في معارك الحروب.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾

---

[1] قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٢/٢٠٣.

[2] قوله: "كثيبٍ أعفرَ"، أي: رملٍ أبيضَ تَعلوه حُمرة. و"تسُوخ"، أي: تدخل فيه الأقدام وتغيب. فتوح الغيب للطيبي، ٧/٤٢.

[3] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٠٣. وهو مع اختلاف بالنقص والزيادة في جامع البيان للطبري، ١١/٦٣-٦٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣/٣٣٤.

[4] أي: طلائع لطف الله تعالى.

وقوله تعالى: / ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ منصوب بمضمَر مستأنَف، [٣٩١و] خُوطبَ به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بطريق التجريد حسبما ينطِق به "الكاف" لِما أنّ المأمور به ممّا لا يستطيعه غيره عليه السلام، فإنّ الوحي المذكور قبل ظهوره بالوحي المَتلوّ على لسانه عليه السلام ليس مِن النعم التي يقف عليها عامّة الأمّة كسائر النعم السابقة التي أُمروا بذِكر وقتها بطريق الشكر.

وقيل: منصوب بقوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾،[١] فلا بدَّ حينئذ مِن عود الضمير المجرور في ﴿بِهِ﴾ إلى "الرَّبط على القلوب" ليكون المعنى: ويثبِّتَ أقدامَكم بتقوية قلوبكم وقتَ إيحائه إلى الملائكة وأمرِه بتثبيتهم إيّاكم، وهو وقت القتال. ولا يخفى أنّ تقييد التثبيت المذكور بوقت مُبهَم عندهم ليس فيه مزيدُ فائدة.

وأمّا انتصابه على أنّه بدلٌ ثالثٌ مِن ﴿إِذْ يَعِدُكُمْ﴾[٢] كما قيل،[٣] فيأباه تخصيص الخطاب به عليه السلام، مع ما عرفتَ مِن أنّ المأمور به ليس مِن الوظائف العامّة للكلّ كسائر أخَواته.

وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن التنويه والتشريف ما لا يخفى. والمعنى: اذكُر وقتَ إيحائِه تعالى إلى الملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: بالإمداد والتوفيق في أمر التثبيت، فهو مفعول ﴿يُوحِي﴾. وقُرئ بالكسر[٤] على إرادة "القول" أو إجراءِ "الوحي" مُجراه. وما يُشعِر به دخولُ كلمة ﴿مَعَ﴾ مِن متبوعيّة الملائكة عليهم السلام[٥] إنّما هي مِن حيث إنّهم[٦] المباشرون للتثبيت صورةً، فلهم الأصالةُ مِن تلك الحيثيّة، كما في أمثال قوله عزّ قائلًا:[٧] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة، ١٥٣/٢؛ الأنفال، ٤٦/٨].

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنّ إمداده تعالى إيّاهم مِن أقوى موجِبات التثبيت.

---

١ في الآية السابقة.

٢ الأنفال، ٧/٨.

٣ أجازه الزمخشري في الكشّاف، ٢٠٤/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الثقفي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٣.

٥ س – عليهم السلام.

٦ س + عليهم السلام.

٧ س: تعالى.

واختلفوا في كيفيّة التثبيت، فقالت جماعة: إنّما أُمروا بتثبيتهم بالبِشارة وتكثير السواد ونحوهما ممّا تقوى به قلوبُهم وتصِحّ عزائمهم ونيّاتُهم ويتأكّد جِدّهم في القتال. وهو الأنسب بمعنى التثبيت وحقيقتِه التي هي عبارة عن الحمل على الثبات في موطن الحراب والجِدّ في مقاساة شدائد القتال.

وقد رُوي أنّه كان المَلك يتشبّه بالرجل الذي يعرفونه بوجهه، فيأتي ويقول: «إنّي سمعتُ المشركين يقولون: "واللهِ لئن حملوا علينا لننكشفنّ"»، ويمشي بين الصفّين فيقول: «أبشِروا، فإنّ الله ناصِركم».[1]

[٣٩١ظ] / وقال آخرون: أُمروا بمحاربة أعدائهم، وجعلوا قوله تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾، وقولَه تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا﴾... إلى آخره تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿فَثَبِّتُوا﴾ مبيّنًا لكيفيّة التثبيت.

وقد رُوي عن أبي داود المازني[2] رضي الله عنه -وكان ممّن شهد بدرًا- أنّه قال: «اتّبعتُ رجلًا مِن المشركين يومَ بدر لأضرِبَه، فوقعتْ رأسُه بين يديَّ قبل أن يصل إليه سيفي».[3] وعن سَهل بن حُنيف[4] رضي الله عنه أنّه قال: «لقد رأيتُنا يومَ بدر، وإنّ أحدنا يُشير بسيفه إلى المشرك، فتقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف».[5] وأنت خبير بأنّ قتلهم للكَفَرة -مع عدم ملاءمته لمعنى تثبيت المؤمنين- ممّا لا يتوقّف على الإمداد بإلقاء الرُّعب، فلا يتّجِه ترتيبُ الأمر به عليه[6] بـ"الفاء".

---

[1] انظر: التفسير البسيط للواحدي، ١٠/٥٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٢٠٤.

[2] هو أبو داود الأنصاري ثمّ المازني. اختُلف في اسمه، فقيل: عمرو، وقيل: عُمير بن عامر بن مالك بن خنساء بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجّار. شهد بدرًا وأحدًا. انظر: أسد الغابة لابن الأثير، ٢/٩٢-٩٣؛ والإصابة لابن حجر، ١٢/٢٠٣.

[3] جامع البيان للطبري، ٦/٢٣؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣/٣٣٥.

[4] هو سَهل بن حُنيف بن واهب الأنصاري الأوسي، أبو سعد (ت. ٣٨هـ/٦٥٨-٦٥٩). شهد بدرًا والمَشاهد كلّها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وثبت يومَ أحد، وكان بايعه يومئذ على الموت، فثبت معه حين انكشف الناس عنه. روى عنه ابناه: أبو أمامة وعبد الملك، وعبيد بن السباق وأبو وائل وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وغيرهم. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣/٤٧١-٤٧٣؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ٢/٥٧٢-٥٧٣.

[5] الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٣٣٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣/٣٣٥.

[6] أي: ترتيب الأمر بقتلهم للكَفَرة على إلقاء الرُّعب.

وقد اعتذر الأوّلون بأنّ قوله تعالى: ﴿سَأُلْقِي﴾... إلى آخره ليس بنصٍّ فيما ذُكر؛ بل يجوز أن يكون ذلك إثر قوله تعالى ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ تلقينًا للملائكة ما يثبّتونهم به، كأنّه قيل: قولوا لهم قولي: ﴿سَأُلْقِي فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟﴾... إلى آخره، فالضاربون هم المؤمنون.

وأمّا ما قيل مِن أنّ ذلك خطاب منه تعالى للمؤمنين بالذات على طريق التلوين، فمبناه توهّمُ وروده قبل القتال. وأنّى ذلك، والسورةُ الكريمة إنّما نزلت بعد تمام الوقعة.

وقوله تعالى: ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي: أعالِيَها التي هي المَذابح أو الهامَات.[1]

﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قيل: البَنان: أطراف الأصابع مِن اليدين والرِّجلين. وقيل: هي الأصابع مِن اليدين والرِّجلين. وقال أبو الهَيثم:[2] «البَنان: المَفاصل، وكلُّ مَفصِل بَنانة».[3] قال ابن عبّاس رضي الله عنهما وابن جُريج والضحّاك: «يعني: الأطراف»،[4] أي: اضربوهم في جميع الأعضاء مِن أعاليها إلى أسافلها. / وقيل: المراد بـ"البَنان" الأداني، وبـ"فوق الأعناق" الأعالي، والمعنى: فاضربوا الصناديد والسفلةَ. وتكرير الأمر بالضرب لمَزيد التشديد والاعتناء بأمره. و﴿مِنْهُمْ﴾ متعلِّق به أو بمحذوف وقع حالًا ممّا بعده. [٣٩٢و]

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما أصابهم مِن العقاب. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد درجته في الشدّة والفظاعة. والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم

---

[1] الهامَة: وسطُ الرأس. تهذيب اللغة للأزهري، ٢٤٧/٦ «باب الهاء والميم».

[2] هو خالد بن يزيد بن أبي شُويد بن أسد، أبو الهيثم. لغويّ. كان إمامًا في اللغة وعلم العربية والصلابة في السنّة. مات سنة ستّ وسبعين ومائتين، وهو ابن تسعين سنةً. انظر: معجم الأدباء للحَموي، ١٢٣٧/٣-١٢٣٨.

[3] لسان العرب لابن منظور، «بنن»؛ اللباب لابن عادل، ٤٧٢/٩.

[4] جامع البيان للطبري، ٧٢/١١-٧٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣٤/٤.

أو لكلّ أحد ممّن يَليق بالخطاب. ومحلّه الرفع على الابتداء، خبرُه قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: ذلك العقاب الفظيع واقعٌ عليهم بسبب مُشاقّتهم ومغالبتهم مَن لا سبيلَ إلى مغالبته أصلًا.

واشتقاق "المُشاقّة" مِن "الشِّق" لِما أنّ كلًّا مِن المُشاقَّين في شِقٍّ خلافِ شِقّ الآخَر، كما أنّ اشتقاق "المُعاداة" و"المخاصمة" مِن "العُدوة" و"الخُصم"، أي: الجانب؛ لأنّ كِلا المتعادِيَين والمتخاصِمَين في عُدوةٍ وخُصمٍ غيرِ عُدوة الآخر وخُصمِه.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الإظهار في موضع الإضمار لتربية المَهابة وإظهار كمال شناعة ما اجترءُوا عليه والإشعارِ بعلّة الحكم. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ إمّا نفس الجزاء، قد حُذف منه العائد إلى ﴿مَنْ﴾ عند مَن يلتزمه، أي: شديد العقاب له، أو تعليلٌ للجزاء المحذوف، أي: يعاقِبُه الله؛ فإنّ الله شديد العقاب.

وأيًّا ما كان، فالشرطيّة تكملة لِما قبلها وتقريرٌ لمضمونه وتحقيقٌ للسببيّة بالطريق البرهانيّ، كأنّه قيل: ذلك العقاب الشديد / بسبب مُشاقّتهم لله تعالى [٣٩٢ظ] ورسولِه، وكلُّ مَن يشاقق الله ورسولَه كائنًا مَن كان، فله بسبب ذلك عقاب شديد، فإذن لهم بسبب مُشاقّتهم لهما عقاب شديد.

وأمّا أنّه وعيد لهم بما أُعدَّ لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا كما قيل،[١] فيردّه ما بعده مِن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾؛ فإنّه -مع كونه هو المسوقَ للوعيد بما ذُكر- ناطقٌ بكون المراد بالعقاب المذكور ما أصابهم عاجلًا، سواء جُعل ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارةً إلى نفس العقاب، أو إلى ما يفيده الشرطيّة مِن ثبوت العقاب لهم.

أمّا على الأوّل، فلأنّ الأظهر أنّ محلّه النصب بمضمَر يستدعيه قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوهُ﴾، و"الواو" في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾... إلخ بمعنى "مع"، فالمعنى: باشِروا ذلكم العقابَ الذي أصابكم، فذُوقوه عاجلًا مع أنّ لكم عذابَ النار آجلًا، فوضع الظاهر موضعَ الضمير لتوبيخهم بالكفر وتعليل الحكم به.

---

١ قاله ابن عادل في اللباب، ٤٧٤/٩.

وأمّا على الثاني، فلأنّ الأقرب أنّ محلّه الرفع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، وقولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾... إلخ معطوف عليه، والمعنى: حكمُ الله ذلكم، أي: ثبوتُ هذا العقاب لكم عاجلًا، وثبوتُ عذاب النار آجلًا، وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوهُ﴾ اعتراضٌ وُسّط بين المعطوفَين للتهديد.

والضمير على الأوّل لنفس المُشار إليه، وعلى الثاني لِما في ضِمنه. وقد ذُكر في إعراب الآية الكريمة وجوهٌ أُخَرُ. ومدار الكلّ على أنّ المراد بـ﴿ٱلْعِقَابِ﴾ ما أصابهم عاجلًا. والله تعالى أعلم.

وقُرئ بكسر ﴿أَنَّ﴾[1] على الاستئناف.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ١٥﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطاب للمؤمنين بحكم كلّيّ جارٍ فيما سيقع مِن الوقائع والحروب، جِيء به في تضاعيف القصّة إظهارًا للاعتناء بشأنه ومبالغةً في حثّهم / على المحافظة عليه. [٣٩٣و]

﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا﴾ الزَّحْف: الدَّبيب، يقال: "زحَف الصبيُّ زحفًا"، إذا دَبَّ على استِهِ قليلًا قليلًا، سُمّي به الجيش الدَّهْم[2] المتوجِّهُ إلى العدوّ؛ لأنّه لكثرته وتكاثفِه يُرى كأنّه يزحَف، وذلك لأنّ الكلّ يُرى كجسم واحد متّصلٍ، فيُحَسّ حركته بالقياس إليه في غاية البُطء، وإن كانت في نفس الأمر على غاية السرعة. قال قائلهم:

وأَرعَنَ مثلِ الطَّوْدِ تحسَبُ أنّهم ... وُقوفٌ لِحَاجٍ[3] والرِّكابُ تُهَمْلِجُ[4]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٣.

[2] الدَّهْم: العدد الكثير. والجمع: الدهوم. الصحاح للجوهري، «دهم».

[3] وفي هامش م: أي: حاجة.

[4] البيت للنابغة الجَعدي في ديوانه، ص ٤٩؛ ولسان العرب لابن منظور، «صرد». وفيهما: "بأرعن" بدل "وأرعن". | الرَّعْن: أنفُ الجبل المتقدِّم، ثمّ يُشبَّه به الجيش فيقال: "جيشٌ أَرعَنُ"، وهو المضطرب لكثرته. وحَاجٌ: جمعُ الحاجة. والهَمْلجة فارسيّ معرَّب، وهي مشيٌ سهلٌ. يقول: حاربنا العدوّ بجيشٍ مثلِ الجبل العظيم تحسب أنّهم وقوفٌ لِحاجٍ، والحالُ أنّ الرِّكاب تُهَملِج وتُسرع. فتوح الغيب للطيبي، ١١/٥٩٢-٥٩٣.

ونصبُه إمّا على أنّه حال مِن مفعول ﴿لَقِيتُمْ﴾، أي: زاحفين نحوَكم، وإمّا على أنّه مصدر مؤكِّد لفعل مضمَر هو الحال منه، أي: يزحَفون زَحفًا.

وأمّا كونه حالًا مِن فاعله أو منه ومِن مفعوله معًا كما قيل،[1] فيأباه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾؛ إذ لا معنى لتقييد النهي عن الإدبار بتوجّههم السابقِ إلى العدوّ أو بكثرتهم؛ بل توجّهُ العدوّ إليهم وكثرتُهم هو الداعي إلى الإدبار عادةً والمُحوِجُ إلى النهي عنه. وحملُه[2] على الإشعار بما سيكون منهم يومَ حُنينٍ، حيث تَوَلَّوا مُدبِرين وهم زحفٌ مِن الزحوف اثنا عشَرَ ألفًا، بعيدٌ.

والمعنى: إذ لقيتموهم للقتال وهم كثير جَمٌّ وأنتم قليل، فلا تُوَلُّوهم أدبارَكم فضلًا عن الفرار؛ بل قابِلوهم وقاتِلوهم مع قلّتكم فضلًا عن أن تُدانوهم في العدد أو تُساووهم.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ اللقاء ﴿دُبُرَهُۥ﴾ فضلًا عن الفرار. وقُرئ بسكون الباء.[3] ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ إمّا بالتوجّه إلى قتال طائفة أخرى أهمَّ مِن هؤلاء، وإمّا بالفرّ للكرّ / بأن يخيِّل عدوَّه أنّه منهزِم لِيغُرَّه ويُخرجَه مِن بين [٣٩٣ظ]
أعوانه، ثمّ يعطِفَ عليه وحدَه أو مع مَن في الكَمين مِن أصحابه، وهو باب مِن خُدَع الحرب ومكايدِها. ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أي: مُنحازًا إلى جماعة أخرى مِن المؤمنين لينضمَّ إليهم، ثمّ يقاتلَ معهم العدوَّ.

عن ابن عمرَ رضي الله عنهما: «أنّ سريّةً فرُّوا، وأنا معهم، فلمّا رجعوا إلى المدينة استحيَوا، ودخلوا البيوت، فقلتُ: "يا رسولَ الله، نحن الفرّارون"، فقال صلّى الله عليه وسلّم: "بل أنتم العَكّارون،[4] وأنا فئتُكم"».[5] وانهزم رجلٌ

---

[1] أجازه الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٠٦.

[2] أجازه الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٠٦.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٠٦.

[4] وفي هامش م: أي: الكرّارون، مِن "عكَرَ" إذا رجع. «منه».

[5] انظر: مسند أحمد، ١٠/١٣٥ (٥٨٩٥)؛ وسنن الترمذي، ٤/٢١٥ (١٧١٦). والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٠٦.

مِن القادسيّة،[1] فأتى المدينةَ إلى عمرَ رضي الله عنه، فقال: «يا أميرَ المؤمنين، هلكتُ ففرَرتُ مِن الزَّحف»، فقال رضي الله عنه: «أنا فئتُك».[2]

ووزنُ "متحيّز" "متفَيْعل"، لا "متفعِّل"، وإلّا لكان "متحَوّزًا"؛ لأنّه مِن "حاز يحُوز". وانتصابهما إمّا على الحاليّة، وإلّا لغوٌ لا عمَلَ لها، وإمّا على الاستثناء مِن المُوَلِّين، أي: ومَن يُوَلِّهم دُبُرَه إلّا رجلًا منهم متحرِّفًا أو متحيِّزًا.

﴿فَقَدْ بَآءَ﴾ أي: رجع ﴿بِغَضَبٍ﴾ عظيمٍ لا يقادَر قدره. و﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلّقة بمحذوف هو صفة لـ﴿غَضَبٍ﴾ مؤكِّدةٌ لِما أفاده التنوين مِن الفخامة والهول بالفخامة الإضافيّة، أي: بغضب كائنٍ منه تعالى. ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ أي: بدلَ ما أراد بفراره أن يأوِيَ إليه مِن مأوى يُنجيه مِن القتل، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾. في إيقاع "البَوْء" في موقع جواب الشرط الذي هو "التولية" مقرونًا بذكر "المَأوى" و"المَصير" مِن الجزالة ما لا مزيدَ عليه.

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّ الفرار مِن الزّحف مِن أكبر الكبائر».[3] وهذا إذا لم يكن العدوّ أكثرَ مِن الضِّعف، لقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ الآية.[4] وقيل: الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه في الحرب.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ رجوع إلى بيان بقيّة أحكام الوقعة وأحوالِها وتقريرِ ما سبق منها. و"الفاء" جوابُ شرط مقدَّر يستدعيه ما مرّ مِن ذكر إمداده تعالى وأمرِه بالتثبيت وغير ذلك، / كأنّه قيل: إذا كان الأمر كذلك، فلم تقتلوهم [٣٩٤و]

---

[1] هو موضعٌ بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخًا. وبهذا الموضع كان يوم القادسيّة بين المسلمين والفُرس في أيّام عمرَ بن الخطّاب رضي الله عنه، في سنة ١٦ مِن الهجرة. انظر: معجم البلدان للحَمَوي، ٤/٢٩١-٢٩٣.

[2] انظر: مصنّف ابن أبي شيبة، ٦/٥٥٥ (٣٣٧٧٤). والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٠٦.

[3] انظر: جامع البيان للطبري، ١١/٨١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٢٠٦.

[4] ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال، ٨/٦٦].

أنتم بقوّتكم وقدرتكم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم وإلقاءِ الرُّعب في قلوبهم.

ويجوز أن يكون التقدير: إذا علمتم ذلك، فلم تقتلوهم، أي: فاعلَموا أو فأُخبِرُكم أنكم لم تقتلوهم. وقيل: التقدير: إن افتخرتم بقتلهم، فلم تقتلوهم، على أحد التأويلَين، لِما رُوي أنّهم لمّا انصرفوا مِن المعركة غالبين غانمين، أقبلوا يتفاخرون يقولون: «قتلتُ وأسرتُ وفعلتُ وتركتُ»، فنزلت.[1]

وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين طلعت قريشٌ مِن العَقَنْقَل[2] قال: «هذه قريشٌ جاءت بخُيَلائِها وفخرِها يكذِّبون رسولك، اللّهمّ إنّي أسألك ما وعدتَني»، فأتاه جبريلُ عليهما السلام، فقال: «خُذْ قبضةً مِن ترابٍ فارمِهم بها»، فلمّا التقى الجَمْعانِ قال لعليّ رضي الله عنه: «أعطِني قبضةً مِن حَصْباء الوادي»، فرمى بها في وجوههم وقال: «شاهت الوجوهُ»، فلم يبقَ مشركٌ إلّا شُغِل بعينَيه، فانهزموا؛[3] وذلك قوله عزّ وجلّ بطريق تلوين الخطاب: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ تحقيقًا لكون الرَّمْي الظاهر على يده عليه السلام حينئذٍ مِن أفعاله عزّ وجلّ.

وتجريد الفعل عن المفعول به لِما أنّ المقصود الأصلي بيانُ حال الرمي نفيًا وإثباتًا؛ إذ هو الذي ظهر منه ما ظهر، وهو المَنشأ لتغيّرِ المَرميّ به في نفسه وتكثّرِه إلى حيث أصاب عينَي كلّ واحد مِن أولئك الأمّة الجَمّة شيءٌ مِن ذلك، أي: وما فعلتَ أنت -يا محمّدُ- تلك الرَّمْية المستتبِعةَ لهذه الآثار العظيمة حقيقةً حين فعلتَها صورةً / -وإلّا لكان أثرُها مِن جنس آثار الأفاعيل البشريّة- [٣٩٤ظ]

---

[1] انظر: جامع البيان للطبري، ١١/٨٣-٨٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٢٠٦-٢٠٧.

[2] العَقَنْقَل مِن الرِّمال والتِّلال: ما ارتكَمَ واتّسع، ومِن الأودية: ما عرُضَ واتّسع بين حافتَيه. والجمع: عقاقل وعقاقيل. كتاب العين للخليل بن أحمد، ١/١٦١ «باب العين والقاف واللام».

[3] انظر: جامع البيان للطبري، ١١/٨٤-٨٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٢٠٧. اختُلِف هل هذه الرَّمية وقعت يومَ بدر أم لا؟ والحاصل أنّه قد ثبت عن غير واحد مِن الأئمّة أنّها كانت يوم بدر، وإن كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فعل ذلك يومَ حُنين أيضًا. انظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/١٨-٢٠ (٥٠٠)؛ والكافي الشاف لابن حجر، ص ٦٨ (٦٤).

ولكنّ الله فعلها، أي: خلقها حيث باشرْتَها؛ لكنْ لا على نهج عادته تعالى في خلق أفعال العباد؛ بل على وجهٍ غيرِ معتاد، ولذلك أثّرت هذا التأثير الخارجَ عن طَوْق البشر ودائرةِ القُوى والقُدر؛ فمدارُ إثباتها لله تعالى ونفيِها عنه عليه السلام كونُ أثرها مِن أفعاله سبحانه، لا مِن أفعاله عليه السلام.

وقُرئ: "وَلٰكِنِ اللهُ"[1] بالتخفيف والرفع في المَحلَّين.[2]

و"اللام" في قوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ﴾ أي: ليُعطيَهم مِن عنده تعالى ﴿بَلَآءً حَسَنًا﴾ أي: عطاءً جميلًا غيرَ مَشوب بمُقاساة الشدائد والمَكاره، إمّا متعلِّقةٌ بمحذوف متأخِّر، فـ"الواو" اعتراضيّة، أي: وللإحسان إليهم بالنصر والغنيمة فعَلَ ما فعل، لا لشيء غيرِ ذلك ممّا لا يُجديهم نفعًا، وإمّا بـ﴿رَمَىٰ﴾، فـ"الواو" للعطف على علّة محذوفة، أي: ولكنّ الله رمَى ليمحَقَ الكافرين وليُبليَ... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لدعائهم واستغاثتهم، ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بنيّاتهم وأحوالهم الداعية إلى الإجابة، تعليلٌ للحكم.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحَسَن. ومحلّه الرفع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ -بالإضافة- معطوفٌ عليه، أي: المقصد إبلاء المؤمنين وتوهينُ كيد الكافرين وإبطالُ حِيلهم. وقيل: المشار إليه القتل أو الرميُ، والمبتدأ "الأمرُ"، أي: الأمر ذلكم، أي: القتل، فيكون قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ الآية مِن قبيل عطف البيان. وقُرئ: "مُوهِنٌ" بالتنوين مخفَّفًا ومشدَّدًا ونصبِ ﴿كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.[3]

---

[1] قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٩.

[2] وفي هامش م: ههنا وفي قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾. «منه».

[3] أي: "مُوهِنٌ كَيْدَ الكَافِرِينَ" مخفَّفًا و"مُوَهِّنٌ كَيْدَ الكَافِرِينَ" مشدَّدًا. قرأ بالأولى ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم، وبالثانية نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٦.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٩﴾

[٣٩٥و] / ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ خطاب لأهل مكّةَ على سبيل التهكّم بهم، وذلك أنّهم حين أرادوا الخروج تعلّقوا بأستار الكعبة وقالوا: «اللّٰهمّ انصرْ أعلى الجُندَين وأهدَى الفئتين وأكرمَ الحِزبين»،[١] أي: إن تستنصروا لِأعلى الجُندَين ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ حيث نُصِر أعلاهما، وقد زعمتم أنكم الأعلى، فالتهكّم في المَجيء؛ أو فقد جاءكم الهزيمة والقهر، فالتهكّم في نفس الفتح، حيث وُضع موضعَ ما يقابله.

﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ عمّا كنتم عليه مِن الحِراب ومعاداةِ الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ﴿فَهُوَ﴾ أي: الانتهاء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: مِن الحِراب الذي ذُقتم غائلته، لِما فيه مِن السلامة مِن القتل والأسر. ومَبنى اعتبار أصل الخيريّة في المفضَّل عليه هو التهكّم.

﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ أي: إلى حِرابه عليه السلام، ﴿نَعُدْ﴾ لِما شاهدتموه مِن الفتح.

﴿وَلَن تُغْنِيَ﴾ بالتاء الفوقانيّة، وقُرئ بالياء التحتانيّة؛[٢] لأنّ تأنيث "الفِئة" غيرُ حقيقيّة وللفصل، أي: لن تَدفعَ أبدًا ﴿عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ جماعتُكم التي تجمعونهم وتستعينون بهم ﴿شَيْـًٔا﴾ أي: مِن الإغناء أو مِن المضارّ. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ جملة حاليّة. وقد مرّ التحقيق. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولأنّ الله مُعين المؤمنين كان ذلك، أو والأمرُ أنّ الله مع المؤمنين، ويقرُب منه بحسب المعنى قراءةُ الكسر على الاستئناف.[٣]

وقيل: الخطاب للمؤمنين، والمعنى: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، وإن تنتهُوا عن التكاسل والرغبة عمّا يرغِب فيه الرسول صلّى الله عليه وسلّم،

[١] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٠٨. ونحوه في أسباب النزول للواحدي، ص ٢٣٨.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب وإبراهيم النخعي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٤.

[٣] أي: " وَإِنَّ اللهَ". قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٦.

فهو خير لكم مِن كلّ شيء لِما أنّه مناط لنَيل سعادة الدارَين، وإن تعودوا إليه نعُدْ عليكم بالإنكار وتهييج العدوّ، ولن تُغنيَ حينئذ كثرتُكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر، والأمرُ أنّ الله مع الكاملين في الإيمان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ۝٢٠﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ﴾ بطرح إحدى التاءين، وقُرئ بإدغامها.[١] ﴿عَنۡهُ﴾ أي: لا تتولّوا / عن الرسول، فإنّ المراد هو الأمر [٣٩٥ظ] بطاعته والنهيُ عن الإعراض عنه، وذكرُ طاعته تعالى للتمهيد والتنبيه على أنّ طاعته تعالى في طاعة رسوله عليه السلام: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء، ٨٠/٤]. وقيل: الضمير للجهاد، وقيل: للأمر الذي دلّ عليه الطاعة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ جملة حاليّة واردة لتأكيد وجوب الانتهاء عن التولّي مطلقًا، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة، ٢٢/٢]، لا لتقييد النهي عنه بحال السماع، كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء، ٤٣/٤]، أي: لا تتولّوا عنه والحالُ أنكم تسمعون القرآن الناطق بوجوب طاعته والمواعظ الزاجرة عن مخالفته سَماعَ فهمٍ وإذعانٍ.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٢١﴾

﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ تقرير للنهي السابق وتحذير عن مخالفته بالتنبيه على أنّها مؤدّية إلى انتظامهم في سِلك الكَفَرة بكون سماعهم كَلَا سماعٍ، أي: لا تكونوا بمخالفة الأمر والنهي ﴿كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا﴾ بمجرّد الادّعاء مِن غير فهم وإذعان، كالكَفَرة والمنافقين الذي يدّعون السماع ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ حال مِن ضمير ﴿قَالُواْ﴾، أي: قالوا ذلك والحالُ أنّهم لا يسمعون، حيث لا يصدّقون ما سمعوه، ولا يفهمونه حقَّ فهمِه، فكأنّهم لا يسمعونه رأسًا.

---

[١] قرأ بها البَزّي عن ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢٣٢/٢.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ استئناف مَسوق لبيان كمال سُوء حال المشبَّه بهم مبالغةً في التحذير وتقريرًا للنهي إثرَ تقريرٍ، أي: إنّ شرّ ما يَدِبّ على الأرض أو شرّ البهائم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكمه وقضائه ﴿ٱلصُّمُّ﴾ الذين لا يسمعون الحقّ، ﴿ٱلْبُكْمُ﴾ الذين لا ينطِقون به.

وُصفوا بالصَّمَم والبَكَم؛ لأنّ ما خُلق له الأذن واللسان سماعُ الحقّ والنطقُ به، وحيث لم يوجد فيهم شيءٌ مِن ذلك، صاروا كأنّهم فاقدون للجارحتين رأسًا. وتقديم ﴿ٱلصُّمُّ﴾ على ﴿ٱلْبُكْمُ﴾ لِما أنّ صَمَمهم متقدِّم على بَكَمِهم، فإنّ السكوت عن النُّطق بالحقّ مِن فروع عدم سماعهم له، كما أنّ النُّطق به مِن فروع سماعه.

ثمّ وُصفوا بعدم التعقّل فقيل: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ تحقيقًا لكمال سُوء حالهم، / فإنّ الأصمّ الأبكَمَ إذا كان له عقل ربّما يفهم بعضَ الأمور، ويُفهمُه غيرُه بالإشارة، ويهتدي بذلك إلى بعض مطالبه، وأمّا إذا كان فاقدًا للعقل أيضًا، فهو الغاية في الشرّيّة وسوء الحال. وبذلك يظهر كونهم شرًّا مِن البهائم، حيث أبطلوا ما به يمتازون عنها وبه يفضَّلون على كثير مِن خلق الله عزّ وجلّ، فصاروا أخسَّ مِن كلّ خَسيس. [٣٩٦و]

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ شيئًا مِن جنس الخير الذي مِن جملته صَرفُ قُواهم إلى تحرّي الحقّ واتّباع الهدى، ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ سماعَ تفهّمٍ وتدبّرٍ، ولَوقفوا على حقّيّة الرسول عليه السلام، وأطاعوه وآمنوا به، ولكنْ لم يعلم فيهم شيئًا مِن ذلك لخلوّهم عنه بالمرّة، فلم يُسمِعْهم كذلك لخلوّه عن الفائدة وخروجِه عن الحكمة. وإليه أشيرَ بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟﴾ أي: لو أسمعهم سماعَ تفهّمٍ وهم على هذه الحالة العارية عن الخير بالكلّيّة، لَتولّوا عمّا سمعوه مِن الحقّ، ولم ينتفعوا به قطُّ، أو ارتدُّوا بعد ما صدّقوه، وصاروا كأن لم يسمعوه أصلًا.

وقوله تعالى: ﴿وَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ إمّا حال مِن ضمير ﴿لَتَوَلَّواْ﴾، أي: لَتولَّوا على أدبارهم والحالُ أنّهم مُعرِضون عمّا سمعوه بقلوبهم، وإمّا اعتراض تذييليّ، أي: وهم قومٌ عادتُهم الإعراضُ.

وقيل: كانوا يقولون لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أَحْيِ قُصَيًّا، فإنّه كان شيخًا مبارَكًا، حتّى يشهدَ لك ونؤمنَ بك»،[1] فالمعنى: ولو أسمعهم كلام قُصَيّ... إلخ. وقيل: هم بنو عبد الدار بن قُصَيّ، لم يُسلِم منهم إلّا مصعب بن عُمير وسُوَيد بن حرملة، كانوا يقولون: «نحن صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ عمّا جاء به محمّد، لا نسمعه ولا نُجيبه»، قاتَلَهم الله تعالى، فقُتلوا جميعًا بأُحد، / وكانوا [٣٩٦ظ] أصحابَ اللواء.[2] وعن ابن جُريج: «أنّهم المنافقون».[3] وعن الحسن رحمه الله: «أنّهم أهل الكتاب».[4]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تكرير للنداء مع وصفهم بنعت الإيمان لتنشيطهم إلى الإقبال على الامتثال بما يرِدُ بعده مِن الأوامر، وتنبيههم على أنّ فيهم ما يوجِب ذلك. ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بحسن الطاعة ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ أي: الرسول، إذ هو المباشِر لدعوة الله تعالى، ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ مِن العلوم الدينيّة التي هي مناط الحياة الأبديّة، كما أنّ الجهل مدار الموت الحقيقيّ، أو هي ماء حياة القلب، كما أنّ الجهل موجِب موته. وقيل: لمجاهدة الكُفّار؛ لأنّهم لو رفضوها لَغلبوهم وقتلوهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة، ١٧٩/٢].

رُوي أنّه عليه السلام مرّ على أُبيّ بن كعب وهو يصلّي، فدعاه، فعجَّل في صلاته، ثمّ جاء، فقال عليه السلام: «ما منعك مِن إجابتي؟»، قال: «كنتُ

---

[1] معالم التنزيل للبغوي، ٣٤٤/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٥/٣.
[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٤١/٤-٣٤٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٠٩/٢-٢١٠.
[3] الكشّاف للزمخشري، ٢١٠/٢.
[4] الكشّاف للزمخشري، ٢١٠/٢.

في الصلاة»، قال: «ألَم تُخبَر فيما أوحِيَ إليّ: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾... إلخ [الأنفال، ٢٤/٨]».[١]

واختُلف فيه، فقيل: هذا مِن خصائص دعائه عليه السلام، وقيل: لأنّ إجابته عليه السلام لا تقطع الصلاةَ. وقيل: كان ذلك الدعاء لأمر مهمّ لا يحتمل التأخيرَ، وللمصلِّي أن يقطع الصلاة لمثله.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ تمثيل لغاية قُربه تعالى مِن العبد، كقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق، ١٦/٥٠]، وتنبيهٌ على أنّه تعالى مطّلِع مِن مكنونات القلوب على ما عسى يغفُل عنه صاحبها، أو حثٌّ على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها قبل إدراك المَنيّة، فإنّها حائلة بين المَرء
[٣٩٧و] وقلبِه، أو تصويرٌ وتخييلٌ / لتملّكِه على العبد قلْبَه بحيث يَفسَخ عزائمه، ويغيّر نِيّاتِه ومقاصدَه، ويحُول بينه وبين الكفر إن أراد سعادته، ويُبدله بالأمن خوفًا وبالذِّكر نِسيانًا، وما أشبه ذلك مِن الأمور المعترضة المفوِّتة للفُرصة.

وقُرئ: "بَيْنَ المَرِّ"[٢] بتشديد الراء، على حذف الهمزة وإلقاء حركتها على الراء وإجراءِ الوصل مُجرى الوقف.

﴿وَأَنَّهُۥ﴾ أي: الله عزّ وجلّ أو الشأن ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ لا إلى غيره، فيجازيكم بحسب مراتب أعمالكم، فسارِعوا إلى طاعته[٣] تعالى وطاعة رسوله، وبالِغوا في الاستجابة لهما.

﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢٥﴾

﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ أي: لا يختصّ إصابتها بمَن يباشِر الظلم منكم؛ بل يعُمّه وغيرَه كإقرار المنكَر بين أظهُرهم والمداهنةِ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر وافتراقِ الكلمة وظهورِ البِدَع والتكاسل

---

[١] انظر: مسند أحمد، ٢٠٠/١٥-٢٠١ (٩٣٤٥)؛ وسنن الترمذي، ١٥٥/٥-١٥٦ (٢٨٧٥). والألفاظ مِن أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٥/٣.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والزهري. المحتسَب لابن جنّي، ٢٧٦/١.

[٣] س: طاعة الله.

في الجهاد، على أنّ قوله: ﴿لَا تُصِيبَنَّ﴾... إلخ إمّا جواب الأمر على معنى: إن أصابتْكم لا تُصيبنَّ... إلخ، وفيه أنّ جواب الشرط متردِّد، فلا يَليق به النون المؤكِّدة،[1] لكنّه لمّا تضمَّنَ معنى النهي ساغَ فيه، كقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ [النمل، ١٨/٢٧]؛ وإمّا صفة لـ﴿فِتْنَةً﴾، و﴿لَا﴾ للنفي، وفيه شذوذ؛ لأنّ النون لا تدخل المَنفيَّ في غير القَسم، أو للنهي على إرادة "القول"، كقول مَن قال:

حتّى إذا جَنَّ الظَّلامُ واختلَطْ   جاءُوا بمَذْقٍ هل رأيتَ الذِّئبَ قَطْ[2]

وإمّا جواب قَسم محذوف، كقراءة مَن قرأ: "لَتُصِيبَنَّ"،[3] وإن اختلف المعنى فيهما. وقد جُوّز أن يكون نهيًا عن التعرّض للظلم بعد الأمر باتّقاء الذنب، / فإنّ [٣٩٧ظ]
وبالَه يُصيب الظالمَ خاصّةً ويعود عليه.

و﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنكُمْ﴾ على الوجوه الأُوَل للتبعيض، وعلى الأخيرين للتبيين. وفائدته التنبيهُ على أنّ الظلم منكم أقبحُ منه مِن غيركم.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ولذلك يُصيب بالعذاب مَن لم يباشِر سببَه.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ أي: وقتَ كونِكم قليلًا في العدد. وإيثار الجملة الاسميّة للإيذان باستمرار ما كانوا فيه مِن القلّة وما يتبعها مِن الضَّعف والخوف.

---

[1] وفي هامش م: والتحقيق أنّه لا يكون حينئذ جوابًا للأمر؛ بل لشرط مستأنَف، كما إذا قُدّر "إن لم تتّقوا"، وتكون الجملة صفةً لـ﴿فِتْنَةً﴾، أي: واتّقوا فتنةً تعمّ الكلّ عند عدم الاتّقاء. «منه».

[2] البيت للعَجّاج في ملحق ديوانه، ٣٠٤/٢. وهو بلا نسبة في **أسرار البلاغة** للجرجاني، ص ٣٣٦؛ و**الإيضاح** للقزويني، ص ١٣٢؛ و**حياة الحيوان الكبرى** للدميري، ٤٩٨/١. | قال الزمخشري في **الكشّاف**، ٢١٢/٢: «أي: بمَذْقٍ مَقُولٍ فيه هذا القول؛ لأنّه سَمارٌ فيه لون الورقة التي هي لون الذِّئب».

[3] ط س: ليصيبنّ. | يظهر في نسخة المؤلّف أثر الكشط والتصحيح، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س. | وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبي العالية رفيع بن مهران الرياحي والحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٤.

وقوله تعالى: ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ خبرٌ ثانٍ أو صفة لـ﴿قَلِيلٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في أرض مكّةَ تحت أيدي قريش،[1] والخطاب للمهاجرين، أو تحت أيدي فارسَ والروم، والخطاب للعرب كافّةً، فإنّهم كانوا أذِلّاءَ تحت أيدي الطائفتين.

وقوله تعالى: ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ خبر ثالث، أو صفة ثانية لـ﴿قَلِيلٌ﴾، وُصف بالجملة بعد ما وُصف بالمفرد، أو حالٌ مِن المستكنّ في ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ﴾. والمراد بـ﴿النَّاسُ﴾ على الأوّل -وهو الأظهر- إمّا كُفّار قريش أو كُفّار العرب لقُربهم منهم وشدّةِ عداوتهم لهم، وعلى الثاني فارسُ والروم، أي: واذكروا وقتَ قلّتكم وذِلّتكم وهَوانكم على الناس وخوفِكم مِن اختطافهم.

﴿فَآوَاكُمْ﴾ إلى المدينة، أو جعَلَ لكم مأوى تتحصّنون به مِن أعدائكم، ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾ على الكُفّار، أو بمظاهرة الأنصار، أو بإمداد الملائكة، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ مِن الغنائم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النِّعم الجليلةَ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ أصل "الخَوْن" النقص، كما أنّ أصل "الوفاء" التمام، واستعمالُه في ضدّ الأمانة لتضمّنه إيّاه، أي: لا تخونوهما بتعطيل الفرائض والسُّنن، أو بأن تُضمِروا خلافَ ما تُظهرون، أوْ بالغلول[1] في الغنائم.

[٣٩٨و] رُوي / أنّه عليه السلام حاصَر بني قُريظةَ إحدى وعشرين ليلةً، فسألوا الصُّلح -كما صالَح بني النضير- على أن يَسيروا إلى إخوانهم بأذرِعاتٍ وأريحاءَ مِن الشام، فأبى إلّا أن ينزلوا على حكم سعد بن مُعاذ رضي الله عنه، فأبَوا وقالوا: «أرسِلْ إلينا أبا لُبابةَ»،[2] وكان مناصِحًا لهم لِما أنّ ماله وعِياله

---

١ ط س: في الغلول. | يظهر في نسخة المؤلّف أثر الكشط والتصحيح، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٢ هو بشير -وقيل: رفاعة- بن عبد المُنذر، أبو لُبابةَ الأنصاري. نقيب، شهِد العقبةَ وبدرًا وسائر المشاهد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وهو الذي أرسله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى بني قريظة لمّا حاصرهم. واختُلف في تاريخ وفاته، فقيل: مات في خلافة عليّ، وقيل: مات بعد مقتل عثمان، وقيل: عاش إلى بعد الخمسين. انظر: **أسد الغابة** لابن الأثير، ١/٣٩٩-٤٠٠، ٢/٢٨٥-٢٨٦؛ **والإصابة** لابن حجر، ١٢/٥٧٠-٥٧١.

كان في أيديهم، فبعثه إليهم فقالوا: «ما ترى؟ هل ننزل على حكم سعدٍ؟»، فأشار إلى حَلْقه: «إنّه الذَّبح». قال أبو لُبابةَ: «فما زالت قَدَماي حتّى علمتُ أنّي خُنتُ الله ورسولَه»، فنزلت، فشدّ نفسَه على سارية مِن سواري المسجد، فقال: «واللهِ، لا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتّى أموتَ أو يتوبَ الله عليَّ»، فمكث سبعةَ أيّامٍ حتّى خرَّ مغشيًّا عليه، ثمّ تاب الله عليه، فقيل له: «قد تِيبَ عليك، فحُلَّ نفسَك»، قال: «لا، والله لا أحُلّها حتّى يكونَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم هو الذي يحُلّني»، فجاءه عليه السلام،[1] فحلَّه فقال: «إنّ مِن تمام توبتي أن أهجُرَ دار قومي التي أصبتُ فيها الذنب، وأن أنخلِع مِن مالي»، فقال عليه السلام: «يُجزِئك الثُّلُثُ أن تتصدّق به».[2]

﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾ فيما بينكم. وهو مجزوم معطوفٌ على الأوّل، أو منصوب على الجواب بـ"الواو". ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنّكم تخُونون، أو أنتم علماءُ تميّزون الحَسن مِن القبيح.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنّها سببُ الوقوع في الإثم والعقاب، أو مِحنةٌ مِن الله عزّ وجلّ ليبلُوَكم في ذلك، فلا يحملنّكم حُبُّهما على الخيانة كـ[أبي][3] لُبابةَ. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لِمن آثَرَ رِضاه تعالى عليهما وراعى حدودَه فيهما، فنِيطُوا هِممَكم بما يؤدّيكم إليه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ تكرير الخطاب والوصفِ بالإيمان لإظهار كمال العناية

---

[1] س: رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

[2] أسباب النزول للواحدي، ص ٢٣٨-٢٣٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢١٣-٢١٤. وانظر: سيرة ابن هشام، ٢/٢٣٦-٢٣٨.

[3] في الأصول الخطّيّة "كلُبابة". والظاهر ممّا سبق أنّه "أبو لبابة"، كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٥٦.

[٣٩٨ظ] / بما بعده، والإيذانِ بأنّه ممّا يقتضي الإيمان مراعاتَه والمحافظةَ عليه، كما في الخطابين السابقين.

﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: في كلّ ما تأتون وما تذَرون، ﴿يَجْعَل لَّكُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿فُرْقَانًا﴾ هدايةً في قلوبكم تفرِّقون بها بين الحقّ والباطل، أو نصرًا يفرِّق بين المُحقّ والمُبطِل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين، أو مَخرَجًا مِن الشُّبُهات، أو نجاةً عمّا تحذرون[١] في الدارين، أو ظهورًا يشهِّر أمرَكم وينشر صِيتَكم، مِن قولهم: "بِتُّ أفعلُ كذا حتّى سطَع الفرقانُ"، أي: الصُّبح.

﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي: يستُرْها، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبَكم بالعفو والتجاوز عنها. وقيل: السيّئات: الصغائر، والذنوب: الكبائر. وقيل: المراد ما تقدّمَ وما تأخّرَ؛ لأنّها في أهل بدر، وقد غفرهما الله تعالى لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ تعليل لِما قبله وتنبيه على أنّ ما وعده الله تعالى لهم على التقوى تفضّلٌ منه وإحسانٌ، لا أنّه ممّا يوجبه التقوى كما إذا وعد السيّدُ عبدَه إنعامًا على عمل.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ منصوب على المفعوليّة بمضمَرٍ خُوطبَ به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم معطوفٍ على قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ﴾... إلخ،[٢] مسوقٌ لتذكير النعمة الخاصّة به عليه السلام بعد تذكير النعمة العامّة للكلّ، أي: واذكرْ وقتَ مَكرهم بك ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ بالوثاق -ويعضُده قراءة مَن قرأ: "لِيُقَيِّدُوكَ"-[٣] أو الإثخانِ بالجرح، مِن قولهم: "ضرَبه حتّى أثبته، لا حِراك به ولا بَراح". وقُرِئ: "لِيُثَبِّتُوكَ" بالتشديد، و"لِيُبَيِّتُوكَ" مِن "البَيات".[٤]

---

[١] ط س: يحذرون.

[٢] الأنفال، ٨/٢٦.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. الكشّاف للزمخشري، ٢/٢١٥.

[٤] هما قراءتان شاذّتان، الأولى مرويّة عن يحيى بن وثّاب، والثانية عن إبراهيم النخعي. اللباب لابن عادل، ٩/٥٠٢.

﴿أَوۡ يَقۡتُلُوكَ﴾ أي: بسُيوفهم، ﴿أَوۡ يُخۡرِجُوكَ﴾ أي: مِن مكّةَ.

وذلك أنّهم لمّا سمعوا بإسلام الأنصار ومبايعتِهم له عليه السلام، فَرِقوا[١] واجتمعوا في دار النَّدوة[٢] يتشاورون في أمره عليه السلام، فدخل عليهم إبليسُ في صورة / شيخ وقال: «أنا مِن نَجْد، سمعتُ اجتماعكم، فأردتُ أن أحضُركم، ولن تَعدَموا منّي رأيًا ونُصحًا»، فقال أبو البَخْتري:[٣] «رأيي أن تحبِسوه في بيتٍ، وتسُدّوا منافذه غيرَ كُوّةٍ، تُلقُون إليه طعامه وشرابَه منها حتّى يموتَ»، فقال الشيخ: «بئسَ الرأي! يأتيكم مَن يقاتلكم مِن قومه، ويخلّصه مِن أيديكم»، فقال هشام بن عمرو:[٤] «رأيي أن تحمِلوه على جمل وتُخرجوه مِن أرضكم، فلا يضُرّكم ما صَنع»، فقال: «وبئسَ الرأي! يُفسِد قومًا غيرَكم ويقاتلكم بهم»، فقال أبو جهل: «أنا أرى أن تأخذوا مِن كلّ بَطن غُلامًا وتُعطُوه سيفًا، فيضربوه ضربةً واحدةً، فيتفرّقَ دمُه القبائلَ، فلا يقوى بنو هاشم على حربِ قريشٍ كلِّهم، فإذا طلبوا العَقْل عقَلْناه»، فقال: «صدَقَ هذا الفتى»، فتفرّقوا على رأيه، فأتى جبريلُ[٥] النبيَّ عليهما[٦] السلام، وأخبره بالخبر، وأمره بالهجرة، فبيَّت عليًّا رضي الله تعالى عنه على مَضجَعه، وخرج هو مع أبي بكر إلى الغار.[٧] [٣٩٩و]

﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُ﴾ أي: يردّ مكرَهم عليهم، أو يجازيهم عليه، أو يعاملهم معاملةَ الماكرين، وذلك بأنْ أخرجهم إلى بدرٍ، وقلّل المسلمين في أعيُنهم

---

١ وفي هامش م: أي: خافوا.

٢ النَّدِيّ: مجلس القوم ومتحدَّثهم. وكذلك النَّدْوة والنادي والمنتدَى. ومنه سُمّيت دار النَّدوة بمكّةَ التي بناها قُصَيّ؛ لأنّهم كانوا يَندُون فيها، أي: يجتمعون للمشاورة. **الصحاح** للجوهري، «ندا».

٣ في أكثر المصادر: أبو البَخْتري، بالخاء. وهو العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العُزّى، أبو البَخْتري. مِن زعماء قريش في الجاهليّة. كان ممّن نقض الصحيفة التي تعاقد فيها مشركو قريشٍ على مقاطعة المسلمين. ولم يُعرَف عنه إيذاء للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ بل كان في بَدء الدعوة يكُفّ الناسَ عنه. ولمّا كانت وقعة بدر، حضَرها مع المشركين، ونهى النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم عن قتله، إلّا أنّه لمّا لم يقبل الاستسلام قتله المجذَّر بن ذِيَاد البَلَوي. انظر: **سيرة ابن هشام**، ١/٦٢٨-٦٣١؛ و**الأعلام** للزركلي، ٣/٢٤٧.

٤ هو هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حُبيب القُرشي العامري. كان مِن المؤلّفة قلوبهم. انظر: **أسد الغابة** لابن الأثير، ٥/٣٧٨-٣٧٩؛ و**الإصابة** لابن حجر، ١١/٢٣٤.

٥ س + عليه السلام.

٦ س: عليه.

٧ انظر: **سيرة ابن هشام**، ١/٤٨٠-٤٨٣؛ و**جامع البيان** للطبري، ١١/١٣٤-١٣٥؛ و**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣/٥٧.

حتّى حمَلوا عليهم، فلقُوا منهم ما لقُوا. ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ لا يُعبَأ بمكرهم عند مَكره. وإسناد أمثال هذا إليه سبحانه ممّا يحسن للمشاكلة، ولا مساغَ له ابتداءً لِما فيه مِن إيهامِ ما لا يَليق به سبحانه.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣١﴾

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ التي حقُّها أن تَخِرّ لها صُمُّ الجبال، ﴿قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَا﴾ قاله اللعين النَّضر بنُ الحارث،[1] وإسنادُه إلى الكلّ لِما أنّه كان رئيسَهم وقاضيَهم الذي يقولون بقوله ويأخذون برأيه. وقيل: قاله الذين ائتَمَروا في أمره عليه السلام في دار النَّدوة.[2]

وهذا -كما ترى- غاية المكابرة ونهايةُ العناد؛ كيف لا، ولو استطاعوا شيئًا
[٣٩٩ظ] مِن ذلك، فما الذي كان يمنعهم / مِن المشيئة، وقد تُحُدّوا عشرَ سِنينَ، وقُرّعوا على العجز، وذاقوا مِن ذلك الأمرين، ثمّ قُورِعوا بالسيف، فلم يعارضوا بما سِواه مع أَنَفتِهم وفرطِ استنكافهم أن يُغلَبوا، لاسيّما في باب البيان.

﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: ما يسطّرونه مِن القِصص.

﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٢﴾

﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ هذا أيضًا مِن أباطيل ذلك اللعين. رُوي أنّه لمّا قال: «إنْ هذا إلّا أساطيرُ الأوّلين»، قال له النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «وَيلَك، إنّه كلام الله تعالى»، فقال ذلك.[3] والمعنى: أنّ القرآن إن كان حقًّا مُنزلًا مِن عندك، فأمطِرْ علينا الحجارةَ عقوبةً على إنكارنا، أو ائتِنا بعذاب أليم سِواه. والمراد منه التهكّم وإظهارُ اليقين والجزمِ التامّ على أنّه ليس كذلك، وحاشاه.

---

١ جامع البيان للطبري، ١٤٢/١١.
٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٧/٣.
٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٧/٣.

وقُرئ: "الحَقُّ"[١] بالرفع على أنّ ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، لا فصلٌ. وفائدة التعريف فيه الدلالةُ على أنّ المعلَّق به كونُه حقًّا على الوجه الذي يدّعيه عليه السلام، وهو تنزيله؛ لا الحقُّ مطلقًا لتجويزهم أن يكون مطابِقًا للواقع غيرَ مُنزل كالأساطير.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣﴾

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ جواب لكلمتهم الشَّنعاء، وبيان للموجِب لإمهالهم والتوقّف في إجابة دعائهم. و"اللام" لتأكيد النفي والدلالةِ على أنّ تعذيبهم عذابَ استئصالٍ والنبيُّ صلّى الله عليه وسلّم بين أظهُرهم خارجٌ عن عادته تعالى غيرُ مستقيمٍ في حكمه وقضائه.

والمراد باستغفارهم في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إمّا استغفارُ مَن بقي منهم مِن المؤمنين، أو قولُهم: «اللّهمّ اغفر»، أو فرضُه، على معنى: لو استغفروا لم يعذّبوا،[٢] كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ[٣] ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ[٤] وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود، ١١/١١٧].

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٣٤﴾

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بيان لاستحقاقهم العذابَ / بعد بيانِ أنّ المانع [٤٠٠و] ليس مِن قِبلهم، أي: وما لهم ممّا يمنع تعذيبَهم متى زال ذلك؟ وكيف لا يعذّبون ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: وحالُهم ذلك؟ ومِن صدّهم عنه إلجاءُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الهجرة وإحصارُهم عامَ الحُديبية.

﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ حال مِن ضمير ﴿يَصُدُّونَ﴾، مفيدة لكمال قُبح ما صنعوا مِن الصدّ، فإنّ مباشرتهم للصدّ عنه -مع عدم استحقاقهم لولاية أمره- في غاية القُبح.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عَبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٥.

[٢] وفي هامش م: فالمراد بالعذاب هو عذاب الاستئصال. «منه».

[٣] م س: مهلك.

[٤] م س - بظلم.

وهو ردٌّ لِما كانوا يقولون: «نحن وُلاة البيت والحَرم، فنصُدّ مَن نشاء، ونُدخِل مَن نشاء».[١]

﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ مِن الشرك، الذين لا يعبدون فيه غيرَه تعالى، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّه لا ولايةَ لهم عليه. وفيه إشعار بأنّ منهم مَن يعلم ذلك، ولكنّه يعانِد. وقيل: أريدَ بـ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ كلُّهم، كما يراد بالقلّة العدمُ.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٥﴾

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: دعاؤهم، أو ما يُسَمّونه صلاةً، أو ما[٢] يضعون موضعَها، ﴿إِلَّا مُكَآءً﴾ أي: صفيرًا. "فُعَال" مِن "مَكَا يمكُو" إذا صفَر. وقُرئ بالقصر،[٣] كـ"البُكى". ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ أي: تصفيقًا. تَفْعِلَة مِن "الصَّدَى" أو مِن "الصدّ" على إبدال أحد حرفَي التضعيف بالياء. وقُرئ: "صَلَاتَهُمْ"[٤] بالنصب على أنّه الخبرُ لـ﴿كَانَ﴾.

ومساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذابَ أو عدمِ ولايتهم للمسجد، فإنّها لا تَليق بمَن هذه صلاتُه. رُوي أنّهم كانوا يطُوفون عُراةً، الرجال والنساء مشبِّكين بين أصابعهم، يَصفِرون فيها ويصفِّقون.[٥] وقيل: كانوا يفعلون ذلك / إذا أراد النبيّ [٤٠٠ظ]
صلّى الله عليه وسلّم أن يصلّيَ، يُخلطون عليه، ويُرُون أنّهم يُصلّون أيضًا.[٦]

﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: القتل والأسرَ يومَ بدرٍ، وقيل: عذابَ الآخرة. و"اللام" يحتمل أن يكون للعهد، والمعهود ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.[٧] ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ اعتقادًا وعملًا.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢١٧.

٢ س: إمّا [مكان "أو ما"].

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبّاس عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٥. وهي غير القراءة المشهورة عن أبي عمرو.

٤ قرأ بها عاصم في بعض الروايات. انظر: السبعة لابن مجاهد، ص ٣٠٥-٣٠٦. ولم يذكرها عنه ابن الجزري في النشر. وذكرها الكرماني في شواذّ القراءات، ص ٢٠٥، عن أبي البرهسم وأبي الحياة وعاصم.

٥ جامع البيان للطبري، ١١/١٦٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢١٨.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢١٨. وما في معناه في الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٣٥٣-٣٥٤.

٧ الأنفال، ٨/٣٢.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ٣٦ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٣٧﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ نزلت في المُطعِمين يومَ بدرٍ، وكانوا اثنَي عشرَ رجلًا مِن قريش، يُطعم كلُّ واحد منهم كلَّ يوم عشرَ جُزُرٍ؛[1] أو في أبي سفيان، استأجر ليوم أُحد ألفَين سِوى مَن استجاش مِن العرب، وأنفق فيهم أربعين أُوقيّةً؛[2] أو في أصحاب العِير، فإنّه لمّا أصيبَ قريش يومَ بدر قيل لهم: «أَعِينوا بهذا المال على حرب محمّد، لعلّنا نُدرك ثأرَنا منه»، ففعلوا.[3] والمراد بـ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينه واتّباعُ رسوله.

﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ بتمامها. ولعلّ الأوّلَ إخبار عن إنفاقهم في تلك الحال، وهو إنفاق يوم بدر، والثاني إخبار عن إنفاقهم فيما يستقبل، وهو إنفاق يوم أُحد. ويحتمل أن يُراد بهما واحدٌ، على أنّ مساق الأوّل لبيان الغرض مِن الإنفاق، ومساقَ الثاني لبيان عاقبته، وأنّه لم يقع بعدُ.

﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ندمًا وغمًّا لفَواتها مِن غير حصول المقصود. جُعل ذاتها حَسْرةً -وهي عاقبة إنفاقها- مبالغةً. ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ آخِرَ الأمر، وإن كان الحرب بينهم سِجالًا[4] قبل ذلك. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: تمّوا على الكفر وأصرّوا عليه ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أي: يُساقون، لا إلى غيرها.

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٥٥/٤؛ أسباب النزول للواحدي، ص ٢٤٠. | الجَزُور مِن الإبل يقع على الذَّكر والأنثى. والجمع: الجُزُر. الصحاح للجوهري، «جزر».

[2] جامع البيان للطبري، ١١/١٧٠-١٧١؛ أسباب النزول للواحدي، ص ٢٤٠-٢٤١. | الأُوقيّة: أربعون درهمًا. والجمع: الأواقي، بالتشديد والتخفيف. المغرب للمُطَرِّزي، ص ٤٩٢ «الواو مع القاف».

[3] جامع البيان للطبري، ١١/١٧٣؛ أسباب النزول للواحدي، ص ٢٤١.

[4] الحرب بيننا سِجال، معناه: أنّا نُدال عليه مرّةً، ويُدال علينا أخرى. وأصله أنّ المُستَقِيَين بسَجْلَين مِن البِئر، يكون لكلّ واحد منهما سَجْل، أي دَلْو مَلْآنُ ماءً. تهذيب اللغة للأزهري، ٣١٠/١٠ «باب الجيم والسين».

[٤٠١و] ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي: الكافرَ مِن المؤمن، أو الفسادَ / مِن الصلاح، و"اللام" متعلِّقة بـ﴿يُحْشَرُونَ﴾ أو بـ﴿يُغْلَبُونَ﴾؛ أو ما أنفقه المشركون في عداوته عليه السلام ممّا أنفقه المسلمون في نُصرته، و"اللام" متعلِّقة بقوله: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾. وقُرئ: "لِيُمَيِّزَ"[١] بالتشديد للمبالغة.

﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ أي: يضُمَّ بعضَه إلى بعض حتّى يتراكبوا لفرط ازدحامهم فيجمعه، أو يضمَّ إلى الكافر ما أنفقه ليزيدَ به عذابَه كمالِ الكانزين.[٢] ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ كلَّه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾، إذ هو عبارة عن الفريق، أو إلى المنفِقين. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد درجتهم في الخبث. ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الكاملون في الخُسران؛ لأنّهم خسِروا أنفسهم وأموالَهم.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ هم أبو سفيانَ وأصحابه، أي: قلْ لأجْلِهم: ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ عمّا هم فيه مِن مُعاداة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالدخول في الإسلام، ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ مِن الذنوب. وقُرئ: "إِنْ تَنْتَهُوا[٣] يُغْفَرْ لَكُمْ"،[٤] و"يَغْفِرْ لَكُمْ"[٥] على البناء للفاعل، وهو الله تعالى.

﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ إلى قتالهم، ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الذين تحزّبوا على الأنبياء عليهم السلام بالتدمير، كما جرى على أهل بدر، فليَتوقَّعوا مثلَ ذلك.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣٩﴾

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٤.
٢ وفي هامش م: أي: للذهب والفضّة غير المنفِقِين لهما في سبيل الله. «منه».
٣ س – إن تنتهوا.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٥.
٥ قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٢/٢٢٠.

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾ عطفٌ على ﴿قُل﴾. وقد عُمّم الخطاب لزيادة ترغيب المؤمنين في القتال لتحقيق ما يتضمّنه قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ مِن الوعيد. ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: لا يوجَدَ منهم شرك ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ ويضمحِلّ الأديان الباطلة، إمّا بإهلاك أهلها جميعًا، أو برجوعهم عنها خشيةَ القتل.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ عن الكفر بقتالكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فيجازيهم على انتهائهم عنه وإسلامِهم. / وقُرئ بتاء الخطاب،[1] أي: بما تعملون مِن الجهاد [٤٠١ظ]
المُخرِج لهم إلى الإسلام. وتعليقه بـ"انتهائهم" للدلالة على أنّهم يُثابون بالسببيّة، كما يُثاب المباشِرون بالمباشرة.

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ ولم ينتهوا عن ذلك ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ ناصرُكم، فثِقوا به ولا تُبالوا بمُعاداتهم. ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ لا يُضيع مَن تولّاه. ﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ لا يُغلَب مَن نصره.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤١﴾

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم﴾ عن الكلبي: «أنّها نزلت ببدر».[2] وقال الواقدي: «كان الخُمُس في غزوة بني قَينُقاع بعد بدر بشهر وثلاثةِ أيّامٍ للنصف مِن شوّال على رأس عشرين شهرًا مِن الهجرة».[3] و﴿مَا﴾ موصولة، وعائدها محذوف، أي: الذي أصبتموه مِن الكُفّار عَنوةً.[4] وأصل الغنيمة: إصابة الغَنَم مِن العدوّ، ثمّ اتُّسع وأُطلقَ على كلّ ما أُصيبَ منهم كائنًا ما كان.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٥.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٢٢؛ اللباب لابن عادل، ٩/٥٢٤.

[3] انظر: المغازي للواقدي، ١/١٧٦-١٨٠. نقله المصنّف مِن الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٢٢.

[4] العَنوة: القهر. أخذها عَنوةً، أي: قهرًا بالسيف. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٢/٢٥٢ «باب العين والنون».

وقوله تعالى: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ بيان للموصول، محلُّه النصب على أنّه حال مِن عائد الموصول، قُصد به الاعتناء بشأن الغنيمة، وألّا يشذّ عنها شيء، أي: ما غنِمتموه كائنًا ممّا يقع عليه اسمُ الشيء حتّى الخَيط والمِخيَط؛ خَلَا أنّ سلَبَ المقتول للقاتل إذا نفّله الإمامُ، وأنّ الأسارَى يخيَّر فيها الإمامُ، وكذا الأراضي المغنومة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ مبتدأ، خبرُه محذوف، أي: فحقٌّ أو واجبٌ أنّ له تعالى خُمُسه. وهذه الجملة خبرٌ لـ﴿أَنَّمَا﴾... إلخ. وقُرئ بالكسر.[١] والأُولى آكَدُ وأقوى في الإيجاب لِما فيه مِن تكرّر الإسناد، كأنّه قيل: فلا بدَّ مِن ثبات الخُمس، ولا سبيلَ إلى الإخلال به. وقُرئ: "فَلِلهِ خُمُسُهُ".[٢] وقُرئ: "خُمْسَهُ"[٣] بسكون الميم.

والجمهور على أنّ ذِكر الله تعالى للتعظيم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة، ٦٢/٩]، وأنّ / المراد قِسمة الخُمس على المعطوفِين عليه بقوله تعالى: ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾. وإعادة "اللام" في ﴿ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ دون غيرهم مِن الأصناف الثلاثة لدفع توهّمِ اشتراكهم في سَهْم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمَزيد اتّصالهم به عليه السلام. [٤٠٢و]

وهم بنو هاشم وبنو المطّلب، دون بني عبد شمس وبني نَوفل، لِما رُوي عن عثمانَ وجُبير بن مُطعِم[٤] رضي الله عنهما أنّهما قالا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «هؤلاء إخوتُك بنُو هاشم، لا نُنكِر فضلَهم لمكانك الذي جعلك الله منهم،

---

١ قراءة شاذّة. رواها الجُعفي عن هارون عن أبي عمرو. اللباب لابن عادل، ٥١٨/٩. وحكاها ابن عطيّة في المحرّر الوجيز، ٥٣١/٢، عن الجُعفي عن أبي بكر عن عاصم.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن إبراهيم النخعي. الكشّاف للزمخشري، ٢٢١/٢؛ اللباب لابن عادل، ٥١٨/٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٥.

٤ هو جُبير بن مُطعِم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف بن قُصيّ القرشي النوفلي، أبو محمّد، وقيل: أبو عديّ (ت. ٥٩هـ/٦٧٨-٦٧٩). كان مِن حُلَماء قريش وساداتِهم، وكان يؤخَذ عنه النَّسب لقريش وللعرب قاطبةً. وكان له عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدٌ. وهو أحدُ الذين قاموا في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على مقاطعة المسلمين. انظر: الاستيعاب للنّمري، ٢٣٢/١-٢٣٣؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ٥١٥/١-٥١٧.

أرأيتَ إخوانَنا بني المطّلب أَعطيتَهم وحرَمتَنا، وإنّما نحن وهم بمنزلة واحدة؟»»، فقال عليه السلام: «إنّهم لم يفارقونا في جاهليّة ولا إسلام، إنّما بنو هاشم وبنو المطّلب شيء واحد»، وشبّك بين أصابعه.[1]

وكيفيّة قِسمتها عندنا أنّها كانت في عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على خمسة أسهُمٍ: سَهْمٌ له عليه السلام، وسَهْمٌ للمذكورين مِن ذَوي قُرباه، وثلاثة أسهُمٍ للأصناف الثلاثة الباقية. وأمّا بعده عليه السلام، فسَهْمه ساقطٌ، وكذا سَهْم ذَوي القُربى، وإنّما يُعطَون لفقرهم، فهم أُسوَة لسائر الفقراء، ولا يُعطَى أغنياؤهم، فيُقسَم على الأصناف الثلاثة.

ويؤيّده ما رُوي عن أبي بكر رضي الله عنه أنّه منع بني هاشم الخُمسَ، وقال: «إنّما لكم أن يُعطَى فقيركم، وتُزوَّج أيِّمُكم، ويخدَّمَ مَن لا خادم له منكم، ومَن عَداهم،[2] فهو بمنزلة ابن السبيل الغنيّ، لا يُعطَى مِن الصدقة شيئًا».[3] وعن زيد بن عليّ مثلُه، قال: «ليس لنا أن نبنيَ منه قصورًا، ولا نركَبَ منه البراذينَ».[4]

وقيل: سَهْم الرسول صلّى الله عليه وسلّم لوليّ الأمر بعده.[5]

/ وأمّا عند الشافعي رحمه الله، فيُقسَم على خمسة أسهُمٍ: سَهْمٌ لرسول الله عليه السلام،[6] يُصرَف إلى ما كان يصرِفه عليه السلام مِن مصالح المسلمين، كعُدّة الغُزاة مِن الكُراع[7] والسلاح ونحو ذلك، وسهمٌ لذَوي القُربى مِن أغنيائهم وفقرائهم، يُقسَم بينهم للذكر مثلُ حظّ الأنثيَين، والباقي للفِرَق الثلاث.[8] [٤٠٢ظ]

---

[1] مسند أحمد، ٢٧/٣٠٤-٣٠٦ (١٦٧٤١)؛ سنن النسائي، ٧/١٣٠ (٤١٣٧). وبعضه في صحيح البخاري، ٤/٩١ (٣١٤٠).

[2] ط س - ومَن عداهم. | يظهر في نسخة المؤلّف أثر الكشط والتصحيح، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[3] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٢٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥/٣٢٤.

[4] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٢٢. | البِرذَون: الدابّة. والأنثى: بِرذَونة. وجمعُه: بَراذِين. والبَراذِين مِن الخيل: ما كان مِن غير نِتاج العِراب. لسان العرب لابن منظور، «برذن».

[5] قاله الحسن البصري. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٢٢.

[6] س: صلّى الله عليه وسلّم.

[7] الكُراع: اسمٌ يجمع الخيل والسلاحَ إذا ذُكر مع السلاح. والكُراع: الخيل نفسُها. تهذيب اللغة للأزهري، ١/٢٠٢ «باب العين والكاف مع الراء».

[8] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٢١.

وعند مالك رحمه الله: الأمر فيه مفوَّض إلى اجتهاد الإمام، إن رأى قسَمَه بين هؤلاء، وإن رأى[١] أعطاه بعضًا منهم دون بعض، وإن رأى غيرَهم أَولى وأهمَّ، فغيرهم.[٢]

وتعلّق أبو العالية[٣] بظاهر الآية الكريمة، فقال: «يُقسَم ستّةَ أسهُمٍ، ويُصرَف سهم الله تعالى إلى رِتاج الكعبة»،[٤] لِما رُوي أنّه عليه السلام كان يأخذ منه قَبْضةً، فيجعلها لمصالح الكعبة، ثمّ يقسم ما بقي على خمسة أسهُمٍ.[٥]

وقيل: سهمُ الله لبيت المال.[٦] وقيل: هو مضموم إلى سهم الرسول عليه السلام.

هذا شأن الخُمس. وأمّا الأخماس الأربعة، فيُقسَم بين الغانمين، للراجل سهمٌ وللفارس سهمان عند أبي حنيفة رحمه الله،[٧] وثلاثةُ أسهُمٍ عندهما. قال القرطبي: «لمّا بيَّن الله تعالى حُكم الخُمس وسكَتَ عن الباقي، دلَّ ذلك على أنّه ملكٌ للغانمين».[٨]

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ يُنبئ عنه المذكور، أي: إن كنتم آمنتم به تعالى، فاعلَموا أنّ الخُمس مِن الغنيمة يجب التقرّبُ به إلى الله تعالى، فاقطَعوا أطماعكم منه، واقتنِعوا بالأخماس الأربعة. وليس المراد به مجرّدَ العلم بذلك؛ بل العلمُ المشفوع بالعمل والطاعة لأمره تعالى.

---

١ ط س: رآه. | يظهر في نسخة المؤلّف أثر الكشط، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢٢١/٢.

٣ هو رُفيع بن مِهران، أبو العالية الرِّياحي (ت. ٩٠هـ/٧٠٩م). المقرئ المفسّر، مِن التابعين. أدرك زمان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو شابٌّ، وأسلم في خلافة أبي بكر الصدّيق. قرأ القرآن على أُبيّ بن كعب وغيره. وسمع مِن عمر وابن مسعود وعليّ وعائشة، وطائفة. وعنه قتادة وخالد الحذّاء وداود بن أبي هند وعوف الأعرابي والربيع بن أنس وأبو عمرو بن العَلاء، وطائفة. وله تفسير، رواه عنه الربيع بن أنس البكري. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٢٠٧/٤-٢١٣؛ طبقات المفسّرين للداوودي، ١٧٨/١-١٧٩.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٢/٢. | الرِّتَج: الباب العظيم. وكذلك الرِّتاج. الصحاح للجوهري، «رتج».

٥ رواه أبو العالية مرفوعًا. انظر: مصنّف ابن أبي شيبة، ٥٠٠/٦ (٣٣٢٩٨)؛ والمراسيل لأبي داود، ص ٢٧٥ (٣٧٤).

٦ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٢/٢.

٧ م - رحمه الله.

٨ تفسير القرطبي، ١٣/٨.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ عطفٌ على الاسم الجليل، أي: إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلناه ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ وقُرئ: "عُبُدِنَا"،[1] وهو اسمُ جمع، أريدَ به الرسول صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنون، فإنّ بعض ما نزل[2] نازلٌ عليهم بالذات، / كما ستعرفه. [٤٠٣و]

﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يومَ بدر، سُمّي به لفَرْقه بين الحقّ والباطل. وهو منصوب بـ﴿أَنزَلْنَا﴾ أو بـ﴿ءَامَنتُم﴾. ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: الفريقان مِن المؤمنين والكافرين. وهو بدلٌ مِن ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ أو منصوبٌ بـ﴿ٱلْفُرْقَانِ﴾. والمراد ما أُنزلَ عليه عليه السلام يومئذ مِن الوحي والملائكة والفتح، على أنّ المراد بـ"الإنزال" مجرّد الإيصال والتيسير، فينتظم الكلّ انتظامًا حقيقيًا.

وجعلُ الإيمان بإنزال هذه الأشياء مِن موجِبات العلم بكون الخُمس لله تعالى على الوجه المذكور مِن[3] حيث إنّ الوحي ناطقٌ بذلك، وأنّ الملائكة والفتحَ لمّا كانا مِن جهته تعالى، وجَبَ أن يكون ما حصل بسببهما مِن الغنيمة مصروفةً إلى الجهات التي عيّنها الله تعالى.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقدر على نصر القليل على الكثير والذليلِ على العزيز كما فعل بكم ذلك اليوم.

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بدلٌ ثانٍ مِن ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾. والعُدوة، بالضمّ: شَطُّ الوادي، وكذا بالفتح والكسر، وقد قُرئ بهما أيضًا.[4] ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ أي: البُعدى مِن المدينة. وهي تأنيث "الأقصى". وكان القياسُ قلبَ الواو ياءً،

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٦.

[2] وفي هامش م: وهو الملائكة والفتح. «منه».

[3] وفي هامش م: خبر.

[4] قرأ قتادة وأبو السمّال بالفتح شاذّة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٦. وقرأ بالكسر ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٧٦/٢.

كـ"الدنيا" و"العُليا" مع كونهما مِن بنات الواو، لكنّها جاءت على الأصل، كـ"القَوَد" و"استصْوَبَ"، وهو أكثرُ استعمالًا مِن "القُصْيَا".

﴿وَٱلرَّكْبُ﴾ أي: العِير أو قُوّادُها ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي: في مكانٍ أسفلَ مِن مكانكم، يعني: الساحل. وهو نصبٌ على الظرفيّة، واقعٌ موقعَ الخبر. والجملة حال مِن الظرف قبلها، وفائدتُها الدلالة على قوّة العدوّ واستظهارِهم بالركب وحَوْضِهم على المقاتلة عنها وتوطينِ نفوسهم على ألّا يُخلُوا مراكزَهم ويبذُلوا منتهى جهدهم وضعفِ شأن المسلمين والْتِياثِ[1] أمرهم واستبعادِ غَلَبتهم عادةً. وكذا ذكرُ مراكز الفريقين، فإنّ العُدوة الدنيا كانت رِخوةً تسُوخُ فيها الأرجل، ولا يمشَى فيها إلّا بتعب، ولم يكن فيها ماء، بخلاف العُدوة القُصوى.

[٤٠٣ظ] وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ﴾ / أي: لو تَواعدتم أنتم وهم القتالَ، ثمّ علمتم حالكم وحالَهم، لَاختلَفتم أنتم في المِيعاد هَيبةً منهم ويأسًا مِن الظفر عليهم، ليتحقّقوا أنّ ما اتّفق لهم مِن الفتح ليس إلّا صُنعًا مِن الله عزّ وعلَا خارقًا للعادات، فيزدادوا إيمانًا وشكرًا، وتطمئنَّ نفوسهم بفرض الخُمس.

﴿وَلَٰكِن﴾ جمع بينكم على هذه الحال مِن غير مِيعاد ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ حقيقًا بأن يُفعَل مِن نصر أوليائه وقهر أعدائه، أو مقدَّرًا في الأزل.

وقوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ بدل منه أو متعلِّق بـ﴿مَفْعُولًا﴾، أي: ليموتَ مَن يموت عن بيّنة عايَنَها، ويَعيشَ مَن يَعيش عن بيّنة شاهَدَها، لئلّا يكونَ له حجّة ومعذرة، فإنّ وقعة بدر مِن الآيات الواضحة؛ أو ليصدرَ كفرُ مَن كفر وإيمانُ مَن آمن عن وضوح بيّنة، على استعارة الهلاك والحياة للكفر والإيمان.

---

[1] ط س: والتثاث. | يظهر في نسخة المؤلّف أثر الكشط، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س. | وفي هامش م: اللثّ والإلثاث واللَّثْلَثة: الضَّعف والحبس والتردّد في الأمر. قاموس. والالتياث: الاختلاط والالتفاف والإبطاء والقوّة والسمن والحبس. قاموس. | القاموس المحيط للفيروزآبادي، «لثث».

والمراد بـ﴿مَنۡ هَلَكَ﴾ و﴿مَنۡ حَيَّ﴾ المشارِفُ للهلاك والحياة، أو مَن حالُه في علم الله تعالى الهلاكُ والحياة. وقُرئ: "لِيَهۡلَكَ"[1] بالفتح، و"حَيِيَ"[2] بفكّ الإدغام حملًا على المستقبل.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: بكفر مَن كفر وعقابه وإيمانِ مَن آمن وثوابه. ولعلّ الجمعَ بين الوصفين لاشتمال الأمرين على القول والاعتقاد.

﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗا﴾ منصوب بـ"اذكُرْ"، أو بدل آخرُ مِن ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾، أو متعلّق بـ﴿عَلِيمٌ﴾،[3] أي: يعلم المصالحَ، إذ يقلّلهم في عينك في رؤياك، وهو أن تُخبِر به أصحابك، فيكون تثبيتًا لهم وتشجيعًا على عدوّهم.

﴿وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ﴾[4] أي: لَجَبُنتم وهِبْتُم الإقدام، ﴿وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ أي: أمرِ القتال، وتفرّقت آراؤكم في الثبات والقرار، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ / سَلَّمَ﴾ أي: أنعم بالسلامة مِن الفشل والتنازع. [٤٠٤و]

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يعلم ما سيكون فيها مِن الجُرأة والجُبن والصبر والجزَع؛ ولذلك دبَّر ما دبَّر.

﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا﴾ منصوب بمضمَر خُوطبَ به الكلّ بطريق التلوين والتعميم معطوفٍ على المضمَر السابق. والضميران مفعولَا

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش ويحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٦.

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر يعقوب وخلف والبزّي وأبو بكر. واختُلِف عن قُنبُل. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٦.

[3] وفي هامش م: أي: بما يدلّ هو عليه بنفسه. «منه».

[4] وفي هامش م: ترتّب فشلهم وتنازعهم في الأمر على إراءتهم كثيرًا باعتبار إخباره عليه السلام بما رآه وحكايته للمسلمين. «منه».

﴿يُرى﴾، و﴿قَلِيلًا﴾ حال مِن الثاني. وإنّما قلّلهم في أعيُن المسلمين -حتّى قال ابن مسعود رضي الله عنه لِمن إلى جَنْبه: «أتَراهم سبعين؟»، فقال: «أراهم مائةً»-[١] تثبيتًا لهم وتصديقًا لرؤيا الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ حتّى قال أبو جهل: «إنّما أصحابُ محمّد أَكَلَةُ جَزور».[٢] قلّلهم في أعيُنهم قبل الْتِحام القتال ليجترئوا عليهم ولا يستعِدّوا لهم، ثمّ كثّرهم حتّى رأوهم مثلَيهم لِيفاجِئَهم الكثرة فيُبهَتوا ويُهابوا. وهذه مِن عظائم آيات تلك الوقعة، فإنّ البصر قد يرى الكثير قليلًا والقليلَ كثيرًا؛ لكنْ لا على هذا الوجه، ولا إلى هذا الحدّ، وإنّما ذلك بصدّ الله تعالى الأبصارَ عن إبصار بعضٍ دون بعضٍ مع التساوي في الشرائط.

﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ كُرّر لاختلاف الفعل المعلّل به، أو لأنّ المراد بالأمر ثَمّةَ الالتقاءُ[٣] على الوجه المذكور، وههنا إعزازُ الإسلام وأهلِه وإذلالُ الكفر وحِزبه.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ كلُّها، يصرّفها كيفما يريد، لا رادَّ لأمره، ولا معقِّبَ لحُكمه، وهو الحكيم المجيد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ صُدّر الخطاب بحرفَي النداء والتنبيهِ إظهارًا لكمال الاعتناء بمضمون ما بعده. ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ / أي: حارَبتم جماعةً مِن الكفَرة. [٤٠٤ظ]
وإنّما لم يوصَفوا بالكفر لظهور أنّ المؤمنين لا يحارِبون إلّا الكَفَرةَ. و"اللقاء" ممّا غلَبَ في القتال. ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ أي: للقائهم في مواطن الحرب، ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: في تضاعيف القتال مستمِدّين منه متسعِينين به مستظهِرين بذكره مترقّبين لنصره.

---

[١] وتمام قول ابن مسعود: «فأسرنا رجلًا، فقُلْنا: كم كنتم؟ قال: ألفًا». انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٦٢/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٢٥/٢.

[٢] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٦٣/٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٦٤/٣.

[٣] وفي هامش م: أي: التلاقي مِن غير مِيعاد. «منه».

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: تفوزون بمَرامكم وتظفَرون بمُرادكم مِن النُّصرة والمَثُوبة. وفيه تنبيه على أنّ العبد ينبغي ألّا يشغلَه شيء عن ذكر الله تعالى، وأن يلتجِئَ إليه عند الشدائد، ويُقبِلَ إليه بكلّيّته فارِغَ البال واثقًا بأنّ لطفه لا ينفكّ عنه في حال مِن الأحوال.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في كلّ ما تأتون وما تذَرون، فيندرج فيه ما أُمروا به ههنا اندراجًا أوّليًّا. ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ باختلاف الآراء كما فعلتم ببدر أو أُحد، ﴿فَتَفْشَلُواْ﴾ جواب للنهي، وقيل: عطفٌ عليه. ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ بالنصب، عطفٌ على جواب النهي. وقُرئ بالجزم[١] على تقدير عطفِ ﴿فَتَفْشَلُواْ﴾ على النهي.

أي: تذهب دولتُكم وشَوْكتكم، فإنّها[٢] مستعارة للدولة مِن حيث إنّها في تمشّي أمرها ونفاذِه مشبَّهةٌ بها في هُبوبها وجرَيانها. وقيل: المراد بها الحقيقة، فإنّ النُّصرة لا تكون إلّا بريحٍ يبعثها الله تعالى. وفي الحديث: «نُصِرتُ بالصَّبَا، وأُهلكتْ عادٌ بالدَّبور».[٣]

﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ على شدائد الحرب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالنصرة والكلاءة. وما يُفهَم مِن كلمة ﴿مَعَ﴾ مِن أصالتهم إنّما هي مِن حيث إنّهم المباشِرون للصبر، فهم متبوعون مِن تلك الحيثيّة، ومعيّتُه تعالى إنّما هي مِن حيث الإمدادُ والإعانةُ.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

/ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ بعد ما أُمروا بما أُمروا به مِن أحاسن الأعمال، نُهُوا عمّا يقابلها مِن قبائحها. والمراد بهم أهل مكّةَ حين خرجوا [٤٠٥و]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان وعاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٣. ولعلّ عاصم هو الجحدري، دون العشرة.

[٢] أي: الريح.

[٣] صحيح البخاري، ٣٣/٢ (١٠٣٥)؛ صحيح مسلم، ٦١٧/٢ (٩٠٠).

لحِماية العِير ﴿بَطَرًا﴾ أي: فخرًا وأَشَرًا ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ ليُثنُوا عليهم بالشجاعة والسماحة؛ وذلك أنّهم لمّا بلغوا جُحْفةَ[1] أتاهم رسول أبي سفيان وقال: «ارجِعوا فقد سلِمت عِيرُكم»، فأبَوا إلّا إظهار آثار الجلادة، فلَقُوا ما لَقُوا حسبما ذُكر في أوائل السورة الكريمة،[2] فنُهي المؤمنون أن يكونوا أمثالَهم مُرائين بَطِرين، وأُمروا بالتقوى والإخلاص مِن حيث إنّ النهي عن الشيء مستلزِم للأمر بضدّه.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عطفٌ على ﴿بَطَرًا﴾، إن جُعل مصدرًا في موضع الحال، وكذا إن جُعل مفعولًا له، لكنْ على تأويل المصدر. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فيجازيهم عليه.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤٨﴾

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ منصوب بمضمَر خُوطبَ به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بطريق التلوين، أي: واذكر وقتَ تزيين الشيطان أعمالَهم في مُعاداة المؤمنين وغيرها بأن وسوس إليهم.

﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي: ألقَى في رُوعهم،[3] وخيَّل إليهم أنّهم لا يُغلَبون ولا يُطاقون لكثرة عُدَدهم وعَدَدهم، وأوهمهم أنّ اتّباعهم إيّاه فيما يظنّون أنّها قُرُبات مُجيرٌ لهم، حتّى قالوا: «اللّهمّ انصُرْ أهدى الفئتين وأفضلَ الدينين».[4] و﴿لَكُمْ﴾ خبرُ ﴿لَا غَالِبَ﴾ أو صفتُه، وليس صلته، وإلّا لَانتصب كقولك: "لا ضاربًا زيدًا عندنا".

---

[1] قرية كبيرة ذات مِنبر على طريق المدينة مِن مكّة. وإنّما سُمّيت الجُحْفة؛ لأنّ السيل اجتحفها وحمل أهلها في بعض الأعوام. انظر: معجم البلدان للحَمَوي، ١١١/٢.

[2] انظر: تفسير الأنفال، ٥/٨.

[3] الرُّوع: القلب والعقل. يقال: وقع ذلك في رُوعي، أي: في خَلَدي وبالي. الصحاح للجوهري، «روع».

[4] انظر: تفسير الأنفال، ١٩/٨.

/ ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ أي: تلاقى الفريقان، ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ رجع القَهقَرى،[1] أي: بطل كيده، وعاد ما خيّل إليهم أنّه مُجيرهم سببًا لهلاكهم، ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ أي: تبرّأ منهم، وخاف عليهم، ويئِسَ مِن حالهم لمّا رأى إمدادَ الله تعالى للمسلمين بالملائكة. [٤٠٥ظ]

وقيل: لمّا اجتمعت قريش على المَسير ذكرت ما بينهم وبين كِنانةَ مِن الإحنة،[2] فكاد ذلك يَثنِيهم، فتمثّل لهم إبليس في صورة سُراقةَ بن مالك الكِناني، وقال: «لا غالبَ لكم اليومَ مِن الناس، وإنّي مُجيركم مِن كِنانةَ»، فلمّا رأى الملائكةَ تنزِلُ، نكَصَ، وكان يدُه في يد الحارث بن هشام، فقال له: «إلى أين؟ أتَخذُلنا في هذه الحالة؟»، فقال: «إنّي أرى ما لا ترَون»، ودفع في صدر الحارث فانطلق، فانهزموا، فلمّا بلغوا مكّةَ قالوا: «هزَم الناسَ سُراقةُ»، فبلغه ذلك فقال: «واللهِ، ما شعَرتُ بمَسيركم حتّى بلغني هزيمتكم»، فلمّا أسلموا علموا أنّه الشيطان.[3]

وعلى هذا يحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾: أخافه أن يُصيبني بمكروهٍ مِن الملائكة، أو يُهلكَني ويكونَ الوقت هو الوقت الموعود، إذ رأى فيه ما لم يرَه قبله. والأوّل ما قاله الحسن رحمه الله،[4] واختاره ابن بحر.[5]

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يجوز أن يكون مِن كلامه أو مستأنفًا مِن جهة الله عزّ وجلّ.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

---

١ القَهقَرى: الرجوع إلى خَلف. فإذا قلتَ: رجعتُ القهقرى، فكأنّك قلتَ: رجعتُ الرجوعَ الذي يعرَف بهذا الاسم؛ لأنّ القهقرى ضرب مِن الرجوع. الصحاح للجوهري، «قهر».

٢ الإحنة: الحِقد والغضب. القاموس المحيط للفيروزآبادي، «أحن».

٣ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٦٥/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٢/٣.

٤ س: رضي الله عنه. | جامع البيان للطبري، ٢٢٤/١١-٢٢٥.

٥ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٢/٣. | لعلّه محمّد بن بحر، أبو مسلم الأصفهاني (ت. ٣٢٢هـ/٩٣٤). مِن متكلّمي المعتزلة. كان عالمًا بالتفسير وبغيره مِن صنوف العلم. وله شعر. مِن كتبه: جامع التأويل لمحكم التنزيل في التفسير، أربعة عشر مجلدًا، جمع سعيد الأنصاري الهندي نصوصًا منه وردت في تفسير الرازي، وسمّاها: ملتقط جامع التأويل لمحكم التنزيل. ومن كتبه: الناسخ والمنسوخ، وكتاب في النحو. انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ٥٩/١؛ والأعلام للزركلي، ٥٠/٦.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ منصوب بـ﴿زَيَّنَ﴾، أو بـ﴿نَكَصَ﴾، أو بـ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

[٤٠٦و] ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: الذين / لم تطمئنَّ قلوبهم بالإيمان بعدُ وبقِيَ فيها نوعُ شبهة. وقيل: هم المشركون. وقيل: هم المنافقون في المدينة، والعطفُ لتغايُر الوصفين، كما في قوله:

يا لَهْفَ زيّابةَ للحارثِ الصـ ـابحِ فالغانمِ فالآيبِ[1]

﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعنُون المؤمنين. ﴿دِينُهُمْ﴾ حتّى تعرّضوا لِما لا طاقةَ لهم به، فخرجوا وهم ثلاثُمائةٍ وبِضعةَ عشرَ إلى زُهاءِ ألفٍ.[2]

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ جواب لهم مِن جهته تعالى وردٌّ لمقالتهم. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ، لا يذلّ مَن توكّل عليه واستجار به وإن قلَّ، ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقول ويحار في فهمه ألباب الفحول. وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ أي: ولو رأيتَ؛ فإنّ "لو" الامتناعيّةَ تردّ المضارعَ ماضيًا، كما أنّ "إنْ" تردّ الماضيَ مضارعًا. والخطاب إمّا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أو لكلّ أحد ممّن له حظّ مِن الخطاب. وقد مرّ تحقيقه في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام، ٢٧/٦].

وكلمة ﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ظرف لـ﴿تَرَىٰٓ﴾، والمفعول محذوف، أي: ولو ترى الكَفَرةَ أو حالَ الكَفَرةِ حين يتوفّاهم الملائكة ببدر. وتقديم المفعول للاهتمام به. وقيل:[3] الفاعل ضمير عائدٌ إلى الله عزّ وجلّ، و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ خبرُه، والجملةُ حال

---

[1] البيت لابن زيّابة في شرح كتاب الحماسة للفارسي، ١٢٠/٢؛ وأمالي ابن الشجري، ٥٠٨/٢؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ٤٦٥/١، وبلا نسبة في خزانة الأدب للبغدادي، ١٠٧/٥.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٢٢٨/٢.

[3] الكشّاف للزمخشري، ٢٢٩/٢.

مِن الموصول، قد استُغني فيها بالضمير عن "الواو". وهو[١] على الأوّل حال منه، أو مِن ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أو منهما لاشتماله على ضميرَيهما.

﴿وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ أي: وأستاهَهم، أو ما أقبَلَ منهم وما أدبرَ مِن الأعضاء. ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ على إرادة "القول" معطوفًا على ﴿يَضۡرِبُونَ﴾ أو حالًا مِن فاعله، أي: ويقولون أو قائلين: ذُوقُوا بشارةً بعذاب الآخرة. وقيل: كانت معهم مَقامعُ مِن حديد، كلّما ضربوا التهبَتْ النار منها.[٢]

وجواب ﴿لَوۡ﴾ محذوف للإيذان بخروجه عن حدود البيان، أي: لرأيتَ أمرًا فظيعًا، لا يكاد يوصَف.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٥١﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن الضرب والعذاب. وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بكونهما في الغاية القاصية / مِن الهَول والفظاعة. وهو مبتدأ، خبرُه ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ أي: ذلك الضرب والعذاب واقعٌ بسبب ما كسبتم مِن الكفر والمعاصي. [٤٠٦ظ]

ومحلّ ﴿أَنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ الرفع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: والأمرُ أنّه تعالى ليس بمعذِّب لعَبيده بغير ذنب مِن قِبَلهم. والتعبير[٣] عن ذلك بنفي الظلم -مع أنّ تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم قطعًا على ما تقرّر مِن قاعدة أهل السنّة، فضلًا عن كونه ظلمًا بالغًا- قد[٤] مرّ تحقيقه في سورة آل عمران.[٥] والجملة اعتراض تذييلي مقرِّرٌ لمضمون ما قبلها.

وأمّا ما قيل[٦] مِن أنّها معطوفة على ﴿مَا﴾ للدلالة على أنّ سببيّته مقيَّدة بانضمامه إليه، إذ لولاه لأمكن أن يعذّبهم بغير ذنوبهم، فليس بسديدٍ؛ لِما أنّ إمكان تعذيبه تعالى لعبيده بغير ذنب -بل وقوعَه- لا ينافي كونَ تعذيب هؤلاء الكَفَرة

---

١ يعني قوله تعالى: ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ﴾.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٦٧/٤.

٣ وفي هامش م: مبتدأ.

٤ وفي هامش م: خبر.

٥ انظر: تفسير آل عمران، ١٨٢/٣.

٦ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢٢٩/٢.

المعيَّنة بسبب ذنوبهم حتّى يُحتاجَ إلى اعتبار عدمه معه. نعم، لو كان المدّعَى كونَ جميع تعذيباته تعالى بسبب ذنوب المعذَّبين، لاحْتِيج إلى ذلك.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ في محلّ الرفع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، والجملةُ استئناف مَسوق لبيان أنّ ما حلَّ بهم مِن العذاب بسبب كفرهم، لا بشيء آخرَ مِن جهة غيرهم، بتشبيه حالهم بحال المعروفين بالإهلاك بسبب جرائمهم لزيادة تقبيح حالهم، وللتنبيه على أنّ ذلك سنّة مطّردة فيما بين الأمم المهلَكة، أي: شأنُهم الذي استمرّوا عليه ممّا فعلوا وفُعل بهم مِن الأخذ كدأب آل فرعونَ المشهورين بقباحة الأعمال وفظاعة العذاب والنَّكال، ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مِن قبل آل فوعونَ مِن الأمم التي فعلوا مِن المعاصي ما فعلوا ولقُوا مِن العقاب ما لقُوا، كقوم نوح عليه السلام وعادٍ وأضرابهم مِن أهل الكفر والعناد.

وقوله تعالى: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تفسير لدأبهم الذي فعلوه، لا لدأب آل فرعونَ ونحوهم كما قيل؛[1] فإنّ ذلك معلوم منه بقضيّة التشبيه. وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ تفسير لدأبهم الذي فُعل بهم. و"الفاء" لبيان كونه مِن لوازم جناياتهم وتبعاتها المتفرّعةِ عليها. وقوله تعالى: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ لتأكيد ما أفاده "الفاء" مِن السببيّة، مع الإشارة إلى أنّ لهم مع كفرهم ذنوبًا أُخَرَ، لها دخلٌ في استتباع العقاب.

ويجوز أن يكون المراد بـ﴿ذُنُوبِهِمْ﴾ معاصيهم المتفرّعةَ على كفرهم، فيكون "الباء" للملابسة، أي: فأخذهم متلبِسين بذنوبهم غيرَ تائبين عنها. فدأبُهم مجموعُ ما فعلوا وفُعل بهم، لا ما فعلوه فقط كما قيل. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إنّ آلَ فرعونَ أيقنوا أنّ موسى نبيّ الله، فكذّبوه، كذلك هؤلاء، جاء محمّد عليه السلام بالصدق، فكذّبوه، فأنزل الله تعالى بهم عقوبته، كما أنزل بآل فرعونَ».[2]

---

[1] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٢٩.

[2] التفسير الوسيط للواحدي، ٢/٤٦٦؛ اللباب لابن عادل، ٩/٥٤٣.

وجعلُ العذاب مِن جملة دأبهم -مع أنّه ليس ممّا يُتصوّر مداومتهم عليه واعتيادُهم إيّاه، كما هو المعتبر / في مدلول الدأب- إمّا لتغليب ما فعلوه على ما فُعل بهم، أو لتنزيل مداومتهم على ما يوجبه مِن الكفر والمعاصي منزلةَ مداومتهم عليه لِما بينهما مِن الملابسة التامّة. [٤٠٧و]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ اعتراض مقرِّر لمضمون ما قبله مِن الأخذ.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾... إلخ استئناف مَسوق لتعليل ما يفيده النظم الكريم مِن كون ما حلَّ بهم مِن العذاب مَنوطًا بأعمالهم السيّئة غيرَ واقعٍ بلا سابقة ما يقتضيه. وهو[١] المشار إليه، لا نفسُ ما حلَّ بهم مِن العذاب أو الانتقام كما قيل؛[٢] فإنّه، مع كونه معلَّلًا بما ذُكر مِن كفرهم وذنوبهم، لا يُتصوّر تعليله بجرَيان عادته تعالى على عدم تغيير نعمته على قومٍ قبل تغييرهم لحالهم.

وتوهّمُ[٣] أنّ السبب ليس ما ذُكر كما هو منطوق النظم الكريم؛ بل ما يُستفاد مِن مفهوم الغاية مِن جرَيان عادته تعالى على تغيير نعمتهم عند تغيير حالهم،[٤] بناءً على تخيّلِ أنّ المعلَّل ترتّبُ عقابهم على كفرهم مِن غير تخلّف عنه رُكوبُ[٥] شططٍ هائل، وإبعادٌ عن الحقّ بمراحلَ، وتهوين لأمر الكفر بآيات الله، وإسقاط له عن رتبة إيجاب العقاب في مقام تهويله والتحذير منه.

فالمعنى: ذلك، أي: ترتّبُ العقاب على أعمالهم السيّئة دون أن يقع ابتداءً مع قدرته تعالى على ذلك ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: بسبب أنّه تعالى ﴿لَمْ يَكُ﴾ في حدّ ذاته

---

١ الضمير راجع إلى قوله: "ما يفيده النظم الكريم مِن"... إلخ.

٢ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٢٩-٢٣٠.

٣ وفي هامش م: "م" [اختصار "مبتدأ"].

٤ وفي هامش م: عبارة القائل: «وليس السبب عدم تغيير الله ما أنعم عليهم حتّى يغيّروا حالهم؛ بل ما هو المفهوم له، وهو جريُ عادته تعالى على تغييره متى غيّروا حالهم». «منه». | القائل هو البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/٦٤.

٥ وفي هامش م: "خ" [اختصار "خبر"].

﴿مُغَيِّرًا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا﴾ أي: لم يَنبَغِ له سبحانه ولم يصحَّ في حكمته أن يكون بحيث يغيّر نعمةً أنعم بها ﴿عَلَىٰ قَوۡمٍ﴾ مِن الأقوام، أيَّ نعمةٍ كانت، جلّت أو هانت، ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ مِن الأعمال والأحوال التي كانوا عليها وقتَ ملابستِهم بالنعمة، ويتّصفوا بما ينافيها، سواء كانت أحوالهم السابقة مرضيّةً صالحةً، أو قريبةً مِن الصلاح بالنسبة إلى الحادثة، كدأب هؤلاء الكَفَرة، حيث كانوا قبل البعثة كَفَرةً عَبَدةَ أصنامٍ مستمرّين على حالة مصحِّحة لإفاضة نعمة الإمهال وسائر النعم الدنيويّة عليهم، فلمّا بُعث إليهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالبيّنات، غيّروها إلى أسوأَ منها وأسخطَ، حيث كذّبوه عليه السلام وعادَوه ومَن تبعه مِن المؤمنين، وتحزّبوا عليهم يبغُونهم الغوائلَ، فغيّر الله تعالى ما أنعم به عليهم مِن نعمة الإمهال، وعاجَلَهم بالعذاب والنكال.

وأصل ﴿يَكُ﴾: يكُنْ، فحُذفت النون تخفيفًا لشبهها بالحروف الليّنة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ عطفٌ على ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾... إلخ، داخلٌ معه في حيّز التعليل، أي: وبسبب أنّه تعالى سميع عليم يسمع ويعلم جميعَ ما يأتون وما يذَرون مِن الأقوال والأفعال السابقة واللاحقة، فيرتِّبُ على كلٍّ منها ما يَليق بها مِن إبقاء النعمة وتغييرها. وقُرئ: "وَإِنَّ اللهَ"[١] بكسر الهمزة، فالجملة حينئذ استئنافٌ مقرِّر لمضمون ما قبلها.

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۝٥٤﴾

/ وقوله تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ في محلّ النصب على أنّه نعتٌ لمصدر محذوف، أي: حتّى يغيّروا ما بأنفسهم تغييرًا كائنًا كدأب آل فرعونَ، أي: كتغييرهم، على أنّ دأبهم عبارة عمّا فعلوه فقط، كما هو الأنسب بمفهوم الدأب. [٤٠٧ظ]

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ تفسير له بتمامه. وقوله تعالى: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم﴾ إخبار بترتّب العقوبة عليه، لا أنّه مِن تمام تفسيره. ولا ضَيْرَ في توسّط قوله تعالى:

---

[١] قال الكرماني في شواذّ القراءات، ص ٢٠٧: «ولو قُرئ: "وَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ" جازَ».

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١] بينهما، كما مرّ نظيره في سورة آل عمران، حيث جوّزوا انتصاب محلّ "الكاف" بـ﴿لَن تُغْنِيَ﴾ مع ما بينهما مِن قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾.[٢] هذا على تقدير عطف الجملة[٣] على ما قبلها. وأمّا على تقدير كونها[٤] اعتراضًا، فلا غبارَ في توسّطها قطعًا.

وقيل: في محلّ الرفع[٥] على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف كما قبله، فالجملة حينئذ استئنافٌ آخَرُ مَسوقٌ لتقرير ما سِيق له الاستئناف الأوّل بتشبيه دأبهم بدأب المذكورين؛ لكن لا بطريق التكرير المحض، بل بتغيير العنوان وجعلِ الدأب في الجانبين عبارةً عمّا يلازم معناه الأوّل مِن تغيير الحال وتغييرِ النعمة أخذًا ممّا نطق به قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً﴾ الآية،[٦] أي: دأبُ هؤلاء وشأنهم الذي هو عبارة عن التغييرين المذكورَين كدأب أولئك، حيث غيّروا حالهم، فغيّر الله تعالى نعمته عليهم، فقوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ تفسير لدأبهم الذي فعلوه مِن تغييرهم لحالهم، وقوله تعالى ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾ تفسير لدأبهم الذي فُعل بهم مِن تغييره تعالى ما بهم مِن نعمته. وأمّا دأبُ قريش، فمستفاد منه بحكم التشبيه. فلله دَرُّ شأن التنزيل، حيث اكتُفِي في كلٍّ مِن التشبيهين بتفسير أحد الطرفين.

وإضافة "الآيات" إلى "الربّ" المضاف إلى ضميرهم لزيادة تقبيح ما فعلوا بها مِن التكذيب. والالتفات إلى نون العَظَمة في ﴿أَهْلَكْنَا﴾ جريًا على سَنَن الكبرياء لتهويل الخَطب. والكلام في "الفاء" وفي قوله تعالى: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ كالذي مرّ. وعطفُ قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ على ﴿أَهْلَكْنَا﴾ مع اندراجه تحته للإيذان بكمال هول الإغراق وفظاعته، كعطف جبريلَ على الملائكة عليهم السلام.[٧]

١ في الآية السابقة.

٢ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾... إلخ [آل عمران، ٣/١٠-١١].

٣ وفي هامش م: وهي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

٤ س: كونه.

٥ يريد: قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾... إلخ.

٦ في الآية السابقة.

٧ كما في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة، ٢/٩٨].

﴿وَكُلٌّ﴾ أي: كلٌّ مِن الفِرَق المذكورين، أو كلٌّ مِن هؤلاء وأولئك، أو كلٌّ مِن غرقَى القِبط وقتلى قريشٍ ﴿كَانُواْ / ظَٰلِمِينَ﴾ أي: أنفُسَهم بالكفر والمعاصي، [٤٠٨و]
حيث عرّضوها للهلاك، أو واضعين للكفر والتكذيب مكانَ الإيمان والتصديق؛ ولذلك أصابهم ما أصابهم.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٥﴾

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ بعد ما شُرح أحوال المهلَكين مِن شِرار الكَفَرة شُرِع في بيان أحوال الباقين منهم وتفصيلِ أحكامهم.

وقوله تعالى: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكمه وقضائه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: أصَرّوا على الكفر ولجُّوا فيه. جُعلوا شرَّ الدوابّ -لا شرَّ النّاسِ- إيماءً إلى أنّهم بمَعزِل مِن مجانستهم، وإنّما هم مِن جنس الدوابّ، ومع ذلك شرٌّ مِن جميع أفرادها، حسبما نطق به قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان، ٢٥/٤٤].

وقوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ حكمٌ مترتّبٌ على تماديهم في الفكر ورسوخهم فيه، وتسجيلٌ عليهم بكونهم مِن أهل الطبع، لا يَلويهم صارف، ولا يَثنيهم عاطف أصلًا. جِيءَ به على وجه الاعتراض؛ لا أنّه عطفٌ على ﴿كَفَرُواْ﴾ داخلٌ معه في حيّز الصلة التي لا حكمَ فيها بالفعل.

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ٥٦﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾ بدل مِن الموصول الأوّل، أو عطفُ بيان له، أو نصبٌ على الذمّ، أي: عاهدتَهم.[١] و﴿مِنۡ﴾ للإيذان بأنّ المعاهدة التي هي عبارة عن إعطاء العهد وأخذِه مِن الجانبَين معتبَرةٌ ههنا مِن حيث أخذُه عليه السلام عهدَهم، إذ هو المناط لقباحة ما نُعِي عليهم مِن النقض، لا إعطاؤُه عليه السلام إيّاهم عهدَه، كأنّه قيل: الذين أخذتَ منهم عهدهم. وقيل: هي للتبعيض؛ لأنّ المباشِر بالذات للعهد بعضُهم،[٢] لا كلُّهم.

---

[١] س: عاهدتم.

[٢] وفي هامش م: وهم عُرَفاؤهم. «منه».

﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿عَٰهَدتَّ﴾ / داخلٌ معه في حكم الصلة. [٤٠٨ظ]
وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدّد النقض وتعدّده وكونِهم على نيّته في كلّ حال، أي: ينقُضون عهدهم الذي أخذتَه منهم ﴿فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ أي: مِن مرّات المعاهدة، إذ هي التي يُتوقّع فيها عدم النقض ويُستقبح وجوده؛ لا مِن مرّات المحاربة كما قيل،[١] إذ لا يُتوقّع فيها عدم النقض؛ بل لا يُتصوّر أصلًا حتّى يُستقبح فيها وجوده لكونها مَظِنّةً لعدمه، فلا فائدةَ في تقييد النقض بالوقوع في كلّ مرّة مِن مرّاتها؛ بل لا صحّةَ له قطعًا؛ لأنّ النقض لا يتحقّق إلّا في المرّة الواردة على المعاهدة، لا في المرّات الواقعة بعدها بلا معاهدة.

ولَئِن سُلّم أنّ المراد هي المرّات الواقعة إثْرَ المعاهدة، يبقى النقض الواقع بلا محاربة كبيع السلاح ونحوه خارجًا مِن البيان. ولَئِن عُدَّ ذلك مِن المحاربة، فلا مَحيصَ مِن لزوم خُلوّ الكلام عن الفائدة بالمرّة؛ لأنّ المحاربة بهذا المعنى عينُ النقض، فيئُول الأمر إلى أن يقال: ينقُضون عهدهم في كلّ مرّة مِن مرّات النقض.

وحملُ المحاربة على محاربة غيرهم ليكونَ المعنى: ينقُضون عهدهم في كلّ مرّة مِن مرّات محاربة الأعداء -مع كونه في غاية البُعد والركاكة- يستلزِمُ خروجَ بَدْئهم بالنقض مِن البيان.

﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَنقُضُونَ﴾، أي: يستمرّون على النقض، والحالُ أنّهم لا يتّقون سُبّةَ[٢] الغدْر، ولا يُبالُون بما فيه مِن العار والنار.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ شروع في بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم. و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي: فإذا كان حالهم كما ذُكر، فإمّا تُصادِفنّهم وتظفَرنّ بهم ﴿فِى ٱلْحَرْبِ﴾ أي: في تضاعيفها، ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾

---

[١] وفي هامش م: قاضي. | هو البيضاوي، أجازه في أنوار التنزيل، ٦٤/٣.

[٢] م ط س: سيئة [صُحّح في هامش م]. | ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

أي: ففرِّق عن مناصبتك تفريقًا عنيفًا موجِبًا للاضطرار والاضطراب، ونكِّل عنها بأن تفعل بهم مِن النِّكاية والتعذيب ما يوجب أن تُنكِّل.

[٤٠٩و] / ﴿مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: مَن وراءَهم مِن الكَفَرة. وفيه إيماء إلى أنّهم بصدد الحِراب قريبٌ مِن هؤلاء. وقُرئ: "شَرِّذْ"[١] بالذال المعجمة، ولعلّه مقلوبُ "شذِّر"، بمعنى: فرِّق. وقُرئ: "مِنْ خَلْفِهِمْ"،[٢] أي: افعل التشريدَ مِن ورائهم. والمعنى واحد؛ لأنّ إيقاع التشريد في الوراء لا يتحقّق إلّا بتشريد مَن وراءَهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتّعِظون بما شاهدوا ممّا نزل بالناقضين، فيرتدِعوا عن النقض أو عن الكفر.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ بيان لأحكام المشرِفين إلى نقض العهد إثرَ بيان أحكام الناقضين له بالفعل. والخَوف مستعار للعلم، أي: وإمّا تعلَمنَّ مِن قوم مِن المعاهدين نقضَ عهدٍ فيما سيأتي بما لاح لك منهم مِن دلائل الغَدْر ومخايل الشرّ، ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: فاطرَحْ إليهم عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ على طريقٍ مستوٍ قصدٍ بأن تُظهِر لهم النقض وتُخبِرَهم إخبارًا مكشوفًا بأنّك قد قطعتَ ما بينك وبينهم مِن الوصلة، ولا تناجِزْهم الحربَ وهم على توهّم بقاء العهد كيلَا يكونَ مِن قِبلك شائبةُ خيانة أصلًا. فالجارّ متعلِّق بمحذوف هو حال مِن النابذ، أي: فانبِذْ إليهم ثابتًا على سواء. وقيل: على استواءٍ في العلم بنقض العهد، بحيث يستوي فيه أقصاهم وأدناهم، أو تستوي فيه أنت وهم. فهو على الأوّل حال مِن المنبوذ إليهم، وعلى الثاني مِن الجانبين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالنَّبْذ، إمّا باعتبار استلزامه للنهي عن المناجزة التي هي خيانة، فيكون تحذيرًا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم منها،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٧.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٧.

/ وإمّا باعتبار استتباعه[1] للقتال بالآخرة، فيكون حثًّا له عليه السلام على النَّبذ أوّلًا، وعلى قتالهم ثانيًا، كأنّه قيل: وإمّا تعلمنّ مِن قوم خيانةً، فانبِذْ إليهم، ثمّ قاتِلْهم، إنّ الله لا يُحبّ الخائنين، وهم مِن جملتهم لِما علمتَ حالهم. [٤٠٩ظ]

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: أنفُسَهم، فحُذف[2] للتكرار. وقوله تعالى ﴿سَبَقُوا۟﴾ أي: فاتوا وأفلَتوا مِن أن يُظفَر بهم، مفعولٌ ثانٍ لـ﴿يَحْسَبَنَّ﴾. والمراد إقناطهم مِن الخلاص، وقطعُ أطماعهم الفارغة مِن الانتفاع بالنَّبذ، والاقتصارُ على دفع هذا التوهّم مع أنّ مقاومة المؤمنين -بل الغلبةَ عليهم أيضًا- ممّا يتعلّق به أمانيّهم الباطلةُ، للتنبيه على أنّ ذلك ممّا لا يحوم حوله وهمهم وحسبانُهم، وإنّما الذي يمكن أن يدور في خَلَدهم حسبان المَنَاص فقط.

وقيل: الفعل مسنَد إلى "أحَدٍ" أو إلى ﴿مَنْ خَلْفَهُمْ﴾،[3] والمفعول الأوّل الموصولُ المتناوِل لهم أيضًا. وقيل: هو الفاعل، و"أنْ" محذوفة مِن ﴿سَبَقُوا۟﴾، وهي مع ما في حيّزها سادّة مسدَّ المفعولَين، والتقدير: ولا يحسَبنَّ الذين كفروا أنْ سبَقوا. ويعضُده قراءة مَن قرأ: "أَنَّهُمْ سَبَقُوا".[4] ونظيره في الحذف قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ [الروم، ٢٤/٣٠]، وقولُه تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ[5] ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ الآية [الزمر، ٦٤/٣٩]. قاله الزجّاج.[6]

وقُرئ بالتاء[7] على خطاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهي قراءة واضحة. وقُرئ: "وَلَا تَحْسَبِ الَّذِينَ" بكسر الباء، وبفتحها على حذف النون الخفيفة.[8]

وقوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أي: لا يفوتون ولا يجدون طالبَهم عاجزًا عن إدراكهم، تعليلٌ للنهي على طريقة الاستئناف. وقُرئ بفتح الهمزة[9] على حذف

---

١ وفي هامش م: أي: النبذ.
٢ س: فحذفت.
٣ الأنفال، ٥٧/٨.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٧.
٥ م س: أغير.
٦ انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٤٢١/٢.
٧ قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢٧٧/٢.
٨ هما قراءتان شاذّتان، مرويّتان عن الأعمش. الكشّاف للزمخشري، ٢٣١/٢.
٩ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٧٧/٢.

لام التعليل. وقيل: الفعل واقعٌ عليه، و﴿لَا﴾ زائدة، و﴿سَبَقُوٓاْ﴾ حال، بمعنى: سابقين، أي: مُفلِتين هاربين. وهذا على قراءة الخطاب لإزاحة ما عسى يُحذَر مِن عاقبة النَّبذ لِما أنّه إيقاظ للعدوّ وتمكينٌ لهم مِن الهرب والخلاصِ مِن أيدي المؤمنين. وفيه نفيٌ لقدرتهم على المقاومة والمقابلة على أبلغ وجهٍ وآكَدِه كما أشيرَ إليه.

وقيل: نزل فيمن أفلَتَ مِن فَلِّ[1] المشركين.[2] وقُرِئ: "لَا يُعْجِزُونِ"[3] بكسر النون، و"لَا يُعَجِّزُونَ"[4] بالتشديد.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ۝٦٠﴾

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾ توجيه الخطاب إلى كافّة المؤمنين لِما أنّ المأمور به مِن وظائف الكلّ، كما[5] أنّ توجيهه فيما سبق وما لحق إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لكون ما في حيّزه مِن وظائفه عليه السلام، أي: أَعِدّوا لقتال الذين / نُبِذ إليهم العهد وهَيّئوا لحِرابهم، أو لقتال الكُفّار على الإطلاق، وهو الأنسب بسياق النظم الكريم.[6] [٤١٠و]

﴿مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ مِن كلّ ما يُتقوّى به في الحرب كائنًا ما كان. وعن عُقبةَ بن عامر:[7] سمعتُه عليه السلام يقول على المِنبر: «ألَا إنّ القوّة الرَّميُ»،

---

[1] الفَلّ: القوم المنهزمون. لسان العرب لابن منظور، «فلل».

[2] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٣١.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٧.

[4] قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٢/٢٣١.

[5] س: لما.

[6] وفي هامش م: وهو قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ﴾. «منه».

[7] هو عُقبة بن عامر بن عَبس بن مالك الجُهَني، أبو حمّاد (ت. ٥٨هـ/٦٧٨م). أمير. صحِبَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فلمّا قُبض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وندَبَ أبو بكر الناسَ إلى الشام، خرج عُقبة بن عامر، فشهد فتوحَ الشام ومصر، وشهد مع معاوية صفّين، ثمّ تحوّل إلى مصر، فنزلها، وابتنى بها دارًا، وتُوفّي بها في آخر خلافة معاوية. كان شُجاعًا فقيهًا شاعرًا قارئًا. وهو أحد مَن جمع القرآن. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤/٣٤٣-٣٤٤، ٧/٤٩٨؛ والإصابة لابن حجر، ٧/٢٠٥-٢٠٦.

قالها ثلاثًا.[١] ولعلّ تخصيصَه عليه السلام إيّاه بالذكر لإنافته على نظائره مِن القُوى.

﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ الرِّباط: اسم للخيل التي تُربَط في سبيل الله تعالى، "فِعال" بمعنى "مفعول"، أو مصدرٌ سُمّيت هي به، يقال: "ربَط ربطًا ورِباطًا، ورابَطَ مرابطةً ورِباطًا"، أو جمعُ "رَبيط" كـ"فَصيل" و"فِصَال"، أو جمعُ "رَبْط" كـ"كَعب" و"كِعاب" و"كَلب" و"كِلاب". وقُرئ: "رُبطِ الخَيْلِ" بضمّ الباء وسكونها،[٢] جمع "رِباط". وعطفُها على "القوّة" -مع كونها مِن جملتها- للإيذان بفضلها على بقيّة أفرادها، كعطف جبريلَ وميكالَ على الملائكة عليهم السلام.[٣]

﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ أي: تخوّفون. وقُرئ: "تُرَهِّبُونَ"[٤] بالتشديد. وقُرئ: "تُخْزُونَ بِهِ".[٥] والضمير لـ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُم﴾، أو للإعداد، وهو الأنسب. ومحلّ الجملة النصبُ على الحاليّة مِن فاعل ﴿أَعِدُّوا۟﴾، أي: أَعِدّوا مرهِبين به، أو مِن الموصول، أو مِن عائده المحذوف، أي: أَعِدّوا ما استطعتموه مُرهَبًا به.

﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهم كُفّار مكّةَ، خُصُّوا بذلك مِن بين الكُفّار -مع كون الكلّ كذلك- لغاية عُتوّهم ومجاوزتهم الحدَّ في العداوة. ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ مِن غيرهم مِن الكَفَرة. وقيل: هم اليهود، وقيل: المنافقون، وقيل: الفُرس.[٦] ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ أي: لا تعرفونهم بأعيانهم، أو لا تعلمونهم كما هم عليه مِن العداوة. وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ أي: لا غيرُه، فإنّ أعيانهم معلومة لغيره تعالى أيضًا.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ﴾ لإعداد العَتاد، قلَّ أو جلَّ، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي أوضَحُه الجهاد، ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: جزاؤه كاملًا، ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ بترك الإثابة

---

[١] انظر: صحيح مسلم، ١٥٢٢/٣ (١٩١٧)؛ ومسند أحمد، ٦٤٢/٢٨-٦٤٣ (١٧٤٣٢).

[٢] هما قراءتان شاذّتان. القراءة بضمّ الباء مرويّة عن الحسن وعمرو بن دينار وأبي حياة، وبسكونها مرويّة عن أبي حياة أيضًا. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٧.

[٣] كما في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة، ٩٨/٢].

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٨.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس ومجاهد. الكشّاف للزمخشري، ٢٣٢/٢.

[٦] انظر: جامع البيان للطبري، ٢٤٧/١١-٢٤٩

[٤١٠ظ] أو بنقص الثواب. / والتعبير عن تركها[١] بالظلم -مع أنّ الأعمال غيرُ موجِبة للثواب حتّى يكونَ تركُ ترتيبه عليها ظلمًا- لبيان[٢] كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى مِن القبائح وإبرازِ الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه تعالى، كما مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ [آل عمران، ١٩٥/٣].

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١﴾

﴿وَإِن جَنَحُواْ﴾ الجُنوح: المَيل، ومنه: الجَناح، ويُعدّى بـ"اللام" وبـ"إلى"، أي:[٣] إن مالوا ﴿لِلسَّلۡمِ﴾ أي: للصلح بوقوع الرهبة في قلوبهم بمشاهدة ما بكم مِن الاستعداد وإعتاد العَتاد، ﴿فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ أي: للسَّلْم. والتأنيث لحمله على نقيضه. قال:

السَّلْم تأخُذُ منها ما رضِيتَ به والحربُ يَكفِيكَ مِن أنفاسِها جُرَعُ[٤]

وقُرئ: "فَاجْنُحْ"[٥] بضمّ النون.

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولا تخَفْ أن يُظهروا لك السَّلمَ وجوانحُهم مطويّة على المَكر والكيد. ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ فيسمع ما يقولون في خلواتهم مِن مقالات الخِداع، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ فيعلم نيّاتِهم، فيؤاخذهم بما يستحقّونه، ويردُّ كيدَهم في نحرهم. والآية خاصّة باليهود، وقيل: عامّة، نسختْها آية السيف.[٦]

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ بإظهار السَّلم وإبطالِ الحِراب، ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: فاعلَمْ بأنّ مُحسِبك الله مِن شرورهم وناصِرك عليهم.

---

١ وفي هامش م: أي: ترك الإثابة. «منه».
٢ وفي هامش م: خبر.
٣ س - أي.
٤ البيت للعبّاس بن مِرداس السلمي في ديوانه، ص ١٠٣؛ وإصلاح المنطق لابن السكّيت، ص ٢٩؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ١٨/٤.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأشهب العُقيلي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٨.
٦ وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة، ٥/٩]. قال بنسخها قتادة والحسن البصري. انظر: جامع البيان للطبري، ٢٥٢/١١-٢٥٣.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ تعليل لكفايته تعالى إيّاه عليه السلام بطريق الاستئناف، فإنّ تأييده تعالى إيّاه عليه السلام فيما سلف على ما ذُكر مِن الوجه البعيد مِن الوقوع مِن دلائل تأييده تعالى فيما سيأتي، أي: هو الذي أيّدك بإمداده مِن عنده بلا واسطة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران، ١٢٦/٣؛ الأنفال، ١٠/٨]، أو بالملائكة مع خَرْقه للعادات، ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مِن المهاجرين والأنصار.

﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٦٣﴾

﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ مع ما كان بينهم قبل ذلك مِن العصبيّة والضغينة[١] والتهالك على الانتقام / بحيث لا يكاد يأتلِف فيهم قلبانِ، حتّى صاروا بتوفيقه تعالى كنفس واحدة. وهذا مِن أبهر معجزاته عليه السلام. [٤١١و]

﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ أي: لتأليف ما بينهم، ﴿مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ استئناف مقرّر لِما قبله، ومبيّن لعزّة المَطلب وصعوبة المَأخذ، أي: تناهى التعادي فيما بينهم إلى حدٍّ لو أنفَقَ منفِقٌ في إصلاح ذاتِ البَيْن جميعَ ما في الأرض مِن الأموال والذخائر، لم يقدر على التأليف والإصلاح. وذكرُ "القلوب" للإشعار بأنّ التأليف بينها لا يتسنّى، وإن أمكن التأليفُ ظاهرًا.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡ﴾ قلبًا وقالِبًا بقدرته الباهرة. ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ كاملُ القدرة والغلبة، لا يستعصي عليه شيء ممّا يريده، ﴿حَكِيمٞ﴾ يعلم كيفيّةَ تسخير ما يريده.

وقيل: الآية في الأوس والخزرج، كان بينهم إحَنٌ[٢] لا أمدَ لها، ووقائعُ أفنَتْ ساداتِهم وأعاظِمَهم، ودقّت أعناقهم وجماجمَهم. فأنسى الله عزّ وجلّ جميع ذلك، وألّف بينهم بالإسلام حتّى تصافَوا وأصبحوا يرمُون عن قَوسٍ واحدةٍ، وصاروا أنصارًا.[٣]

---

[١] الضِّغن والضغينة: الحِقد. مختار الصحاح للرازي، «ضغن».

[٢] الإحْنة: الحِقد. وجمعها: إحَنٌ. مختار الصحاح للرازي، «أحن».

[٣] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٣٤/٢؛ واللباب لابن عادل، ٥٥٩/٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ شروع في بيان كفايته تعالى إيّاه عليه السلام في جميع أموره وأمور المؤمنين أو في الأمور الواقعة بينهم وبين الكَفَرة كافّةً، إثرَ بيان كفايته تعالى إيّاه عليه السلام في مادّة[1] خاصّة. وتصدير الجملة بحرفَي النداء والتنبيهِ للتنبيه على مَزيد الاعتناء بمضمونها. وإيراده عليه السلام بعنوان النبوّة للإشعار بعلّيّتها للحكم.

﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ أي: كافِيك في جميع أمورك، أو فيما بينك وبين الكَفَرة مِن الحِراب. ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في محلّ النصب على أنّه مفعول معه، / أي: كَفَاك وكفَى أتباعَك اللهُ ناصرًا، كما في قول مَن قال: [٤١١ظ]

فحَسْبُكَ والضحّاكَ عَضْبٌ مُهنَّدُ[2]

وقيل: في موضع الجرّ عطفًا على الضمير، كما هو رأي الكوفيّين، أي: كافيك وكافيهم، أو في محلّ الرفع عطفًا على اسم الله تعالى،[3] أي: كفاك الله والمؤمنون.

والآية نزلت في البيداء[4] في غزوة بدر قبلَ القتال.[5] وقيل: أسلم مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ثلاثةٌ وثلاثون رجلًا وستُّ نسوةٍ، ثمّ أسلم عمرُ رضي الله عنه، فنزلت؛[6] ولذلك قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «نزلت في إسلام عمرَ رضي الله عنه».[7]

---

[1] وفي هامش م: هي إرادة الخدعة. «منه».

[2] وفي هامش م: صدره:

إذا كانت الهَيْجاء وانشقّت العَصَا

البيت بلا نسبة في اللامع العزيزي للمَعَرّي، ص ٢٨؛ وأمالي القالي، ٢٦٢/٢؛ والصحاح للجوهري، «عصا»؛ ولسان العرب لابن منظور، «حسب»؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ٩٠٠/٢. وفي كلّها إلّا الأوّل: "سَيف" مكانَ "عَضب".

[3] س - تعالى.

[4] البيداء: اسم لأرض مَلساء بين مكّة والمدينة، وهي إلى مكّة أقربُ. معجم البلدان للحَمَوي، ٥٢٣/١.

[5] التفسير البسيط للواحدي، ٢٣١/١٠-٢٣٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٣٤/٢.

[6] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٧٠/٤؛ أسباب النزول للواحدي، ص ٢٤١-٢٤٢. وفي الثاني: "تسعة وثلاثون رجلًا"، دون التصريح بالنسوة.

[7] م - رضي الله عنه. | التفسير البسيط للواحدي، ٢٣٠/١٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٣٤/٢.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ بعد ما بُيِّن كفايته إيّاهم بالنصر والإمداد أُمِر عليه السلام بترتيب مبادي نصره وإمداده. وتكرير الخطاب على الوجه المذكور لإظهار كمال الاعتناء بشأن المأمور به. ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ أي: بالِغ في حثّهم عليه وترغيبهم فيه بكلّ ما أمكن مِن الأمور المرغِّبة التي أعظمُها تذكيرُ وعده تعالى بالنصر وحكمِه بكفايته تعالى أو بكفايتهم.[١]

وأصل التحريض: الحَرَض، وهو أن يُنهِكَه المرضُ حتّى يُشفيَ على الموت. وقال الراغب: «كأنّه في الأصل: إزالة الحَرَض، وهو ما لا خيرَ فيه ولا يُعتدّ به».[٢] قلتُ: فالأوجه حينئذ أن يُجعَل الحَرَض عبارةً عن ضَعف القلب الذي هو مِن باب نَهْك المرض. وقيل: معنى تحريضهم: تسميتُهم حَرَضًا بأن يقال: "إنّي أراك في هذا الأمر حَرَضًا"، أي: ممرَّضًا فيه لتهييجه إلى الإقدام. وقُرِئ: "حَرِّص"[٣] بالصاد المهملة، وهو واضح.

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ وعدٌ كريمٌ منه تعالى بتغليب كلّ جماعة مِن المؤمنين على عشرة أمثالهم / بطريق الاستئناف بعد الأمر [٤١٢و]
بتحريضهم. وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا﴾ -مع انفهام مضمونه ممّا قبله لكون كلٍّ منهما عِدةً بتأييد الواحد على العشرة- لزيادة[٤] التقرير المفيدة لزيادة الاطمئنان، على أنّه قد يجري بين الجمعين القليلين ما لا يجري بين الجمعين الكثيرين مع أنّ التفاوت فيما بين كلٍّ مِن الجمعين القليلين والكثيرين على نسبة واحدة، فبُيِّن أنّ ذلك لا يتفاوتُ في الصورتين.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بيان لـ"الألف". وهذا القيد معتبَر في المائتين أيضًا، وقد تُرِك ذكره تعويلًا على ذكره ههنا، كما تُرِك قيد الصبر ههنا مع كونه معتبَرًا حتمًا ثقةً بذكره هناك.

---

[١] وفي هامش م: على تقدير كون ﴿مَن﴾ معطوفًا على اسم الله تعالى. «منه».

[٢] انظر: المفردات للراغب، ص ٢٢٨، «حرض».

[٣] حكاها الأخفش كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٣٥.

[٤] وفي هامش م: خبر لقوله: "وقوله تعالى". «منه».

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ متعلِّق بـ﴿يَغْلِبُوا﴾، أي: بسبب أنّهم قوم جَهَلة بالله تعالى وباليوم الآخر لا يقاتِلون احتسابًا وامتثالًا بأمر الله تعالى وإعلاءً لكلمته وابتغاءً لرضوانه كما[1] المؤمنون، وإنّما يقاتِلون للحَميّة الجاهليّة واتّباعِ خُطُوات الشيطان وإثارةِ ثائرة البغي والعُدوان، فلا يستحقّون إلّا القهرَ والخذلانَ.

وأمّا ما قيل[2] مِن أنّ مَن لا يؤمن بالله واليوم الآخِر لا يؤمن بالمَعاد، فالسعادة عنده ليست إلّا هذه الحياة الدنيويّة، فيشحّ بها ولا يعرّضها للزوال بمزاولة الحروب واقتحامِ موارد الخُطوب، فيَميل إلى ما فيه السلامة، فيفِرّ فيُغلَب، وأمّا مَن اعتقد أنْ لا سعادةَ في هذه الحياة الفانية، وإنّما السعادة هي الحياة الباقية، فلا يبالِي بهذه الحياة / الدنيا، ولا يُقيم لها وزنًا، فيُقدِم على الجهاد بقلب قويّ وعزمٍ صحيح، فيقوم الواحد مِن مثله مَقامَ الكثير، فكلامٌ[3] حقٌّ، لكنّه لا يلائِم المقامَ. [٤١٢ظ]

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ لمّا كان الوعد السابق متضمِّنًا لإيجاب مقاومة الواحد للعشرة وثباته لهم، كما نُقل عن ابن جُريج أنّه كان عليهم ألّا يفِرّوا ويثبُتَ الواحدُ للعشرة، وقد بعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حمزةَ في ثلاثين راكبًا، فلقي أبا جهل في ثلاثمائةِ راكبٍ، فهزَمهم، ثقُلَ[4] عليهم ذلك، وضجُّوا منه بعد مدّة، فنُسخ وخُفّف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين.[5] وقيل: كان فيهم قلّة في الابتداء، ثمّ لمّا كثُروا نزَل التخفيف.[6]

---

١ وفي هامش م: "ما" إمّا كافّة لـ"الكاف" عن العمل، كما في قولهم: "كُنْ كما أنت"، وقولِه:
كما سيفُ عمرو لم تخُنه مَضارِبُهْ
وإمّا مصدريّة موصولة بجملة اسميّة، أي: كما المؤمنون يفعلون. «منه». | صدر البيت:
أخٌ ماجدٌ لم يُخزِني يومَ مَشهَد
وهو لنَهْشَل بن حُرّي الدارمي في شرح ديوان الحماسة للتبريزي، ٣٦٠/١؛ والمستقصى للزمخشري، ٣٦٦/١؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ٥٠٢/١.

٢ انظر: تفسير الرازي، ٥٠٥/١٥؛ واللباب لابن عادل، ٥٦٥/٩.

٣ السياق: وأمّا ما قيل... فكلامٌ حقٌّ، لكنّه...

٤ وفي هامش م: جواب "لمّا".

٥ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٣٥/٢.

٦ رُوي عن ابن عبّاس. انظر: جامع البيان للطبري، ٢٦٦/١١.

والمراد بـ"الضَّعف" ضعفُ البدن، وقيل: ضعفُ البصيرة، وكانوا متفاوتين في الاهتداء إلى القتال؛ لا الضعفُ في الدين كما قيل.[١] وقُرئ: "ضُعفًا"[٢] بضمّ الضاد، وهي لغة فيه، كـ"الفَقْر" و"الفُقْر" و"المَكْث" و"المُكْث". وقيل: الضعف بالفتح ما في الرأي والعقل، وبالضمّ ما في البدن.[٣] وقُرئ: "ضُعَفَاءَ"[٤] جمع "ضعيف". والمراد بعلمه تعالى بضعفهم علمُه تعالى به مِن حيث هو متحقّق بالفعل، لا علمُه تعالى به مطلقًا؛ كيف لا، وهو ثابتٌ في الأزل.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾ تفسير للتخفيف، وبيان لكيفيّته. وقُرئ: "تَكُنْ" ههنا وفيما سبق بالتاء الفوقانية.[٥] ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بتيسيره وتسهيله. وهذا القيد معتبَر فيما سبق مِن غلبة المائة المائتين والألفَ وغلبةِ العشرين المائتين، كما أنّ قيد الصبر معتبَر ههنا، وإنّما تُرك ذكره ثقةً بما مرّ، وبقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ / فإنّه اعتراض تذييلي مقرِّرٌ لمضمون ما قبله. [٤١٣و]

والمراد بالمَعيّة معيّةُ نصره وتأييده. ولم يُتعرّض ههنا لحال الكَفَرة مِن الخذلان، كما لم يُتعرّض هناك لحال المؤمنين -مع أنّ مدار الغلبة في الصورتين مجموعُ الأمرين، أعني: نصرَ المؤمنين وخذلانَ الكَفَرة- اكتفاءً بما ذُكر في كلّ مقام عمّا تُرك في المقام الآخر. وما يُشعِر به كلمة ﴿مَعَ﴾ مِن متبوعيّة مدخولها لأصالتهم مِن حيث إنّهم المباشِرون للصبر كما مرّ مرارًا.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ وقُرئ: "لِلنَّبِيِّ"[٦] على العهد. والأوّل أبلغُ لِما فيه مِن بيانِ

---

[١] ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٣٥.
[٢] قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٧.
[٣] انظر: لسان العرب لابن منظور، «ضعف».
[٤] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٧.
[٥] قرأ فيهما بالتاء ابن كثير ونافع وابن عامر. وقرأ أبو عمرو بالياء فيما سبق، وبالتاء ههنا. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٧.
[٦] قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٢/٢٣٥.

أنّ ما يُذكَر سنّة مطّرِدة فيما بين الأنبياء عليهم السلام، أي: ما صحّ وما استقام لنبيّ مِن الأنبياء عليهم السلام ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ وقُرئ بتأنيث الفعل،[١] و"أُسَارَى" أيضًا.[٢]

﴿حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: يُكثِر القتلَ ويبالغَ فيه حتّى يذِلَّ الكفر ويقِلَّ حِزبه، ويعِزّ الإسلام ويستوليَ أهله. مِن "أثخَنَه المرض والجُرْح" إذا أثقله وجعله بحيث لا حراك به ولا بَراح. وأصله: الثخانة التي هي الغِلَظ والكثافة. وقُرئ بالتشديد للمبالغة.[٣]

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ استئناف مَسوق للعِتاب، أي: تريدون حُطامها بأخذكم الفِداءَ. وقُرئ: "يُرِيدُونَ" بالياء.[٤] ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي: يريد لكم ثوابَ الآخرة الذي لا مقدار عنده للدنيا وما فيها، أو يريد سبب نَيل الآخرة مِن إعزاز دينه وقَمع أعدائه. وقُرئ بجرّ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾[٥] على إضمار المضاف، كما في قوله:

أكُلَّ امرِئٍ تَحسبِينَ إمْرَأً ونارٍ تَوقَّدُ بالليل نارًا[٦]

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يغلِّب أولياءَه على أعدائه، ﴿حَكِيمٌ﴾ يعلم ما يَليق بكلّ حال ويخصّه بها، كما أمر بالإثخان ونهَى عن أخذ الفِداء حين كانت الشوكة للمشركين، وخيَّر بينه وبين المَنّ بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد، ٤/٤٧] لمّا تحوّلت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين.

رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أُتِي بسبعين أسيرًا، فيهم العبّاس[٧]

---

١ قرأ بها أبو عمرو يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٧.

٢ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٧.

٣ أي: "يُثَخِّنَ". وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٨.

٤ قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٢/٢٣٧.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن جمّاز. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٨١.

٦ البيت لأبي داود الإيادي في ديوانه، ص ١١٢؛ والكتاب لسيبويه، ١/٦٦؛ والشعر والشعراء لابن قتيبة، ١/٢٣٣. وهو منسوب لعديّ بن زيد في ديوان عديّ، ص ١٩٩؛ والكامل للمبرّد، ٣/٧٥.

٧ هو العبّاس بن عبد المطّلب بن هاشم القرشي، أبو الفضل (ت. ٣٢هـ/٦٥٣م). عمّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. سبقت ترجمته.

وعَقيل بن أبي طالب،[١] فاستشار فيهم، فقال أبو بكر: «قومُك وأهلُك، استَبقِهم، لعلّ الله يتوب عليهم، وخُذْ منهم فديةً تُقوّي بها أصحابك»، وقال عمرُ: «اضرِبْ أعناقهم، فإنّهم أئمّة الكفر، وأنّ الله أغناك عن الفِداء، مَكِّنْ عليًّا مِن عَقيل وحمزةَ مِن العبّاس، ومَكِّني مِن فلان -لنسيبٍ له- فلنضرِبْ أعناقهم»، فقال عليه السلام: «إنّ الله ليُلَيِّن قلوبَ رجالٍ حتّى يكونَ أليَنَ مِن اللَّبَن، وإنّ الله ليُشدِّد قلوبَ رجالٍ حتّى يكونَ أشدَّ مِن الحجارة، وإنّ مَثلك يا أبا بكر مَثَلُ إبراهيمَ، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [إبراهيم، ٣٦/١٤]، ومَثَلك يا عمرُ مثلُ نوحٍ، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح، ٢٦/٧١]»، فخيَّر أصحابَه، فأخذوا الفِداء، فنزلت، فدخل عمرُ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فإذا هو وأبو بكر يبكِيان، فقال: «يا رسولَ الله، أخبِرْني، فإن وجدتُ بُكاءً بكَيتُ، وإلّا تباكيتُ»، فقال: «أبكي على أصحابك في أخذهم الفِداءَ، ولقد عُرض عليَّ عذابُهم / أدنى مِن هذه الشجرة»، لشجرةٍ قريبةٍ منه.[٢] [٤١٣ظ]

ورُوي أنّه عليه السلام قال: «لو نزَل عذاب مِن السماء، لَما نجَا غيرُ عمرَ وسعدِ بن مُعاذ»،[٣] وكان هو أيضًا ممّن أشار بالإثخان.

﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٦٨﴾

﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ أي: لولا حكمٌ منه تعالى سبَقَ إثباته في اللوح المحفوظ، وهو ألّا يعاقِبَ المخطِئَ في اجتهاده، أو ألّا يعذِّبَ أهل بدر أو قومًا

---

[١] هو عَقيل بن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم القرشي، أبو يزيد (ت. ٦٠هـ/٦٨٠م). ابن عمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. قدم البصرة، ثمّ الكوفة، ثمّ الشام. شهد بدرًا مشركًا، وأُخرجَ إليها مكرَهًا، فأسر، ولم يكن له مال، ففداه عمُّه العبّاس، ثم أتى مسلمًا قبل الحُديبية، وشهد غزوة مُؤتة، ثمّ رجع، فعرَض له مرض، فلم يُسمَع له بذكر في غزوة الفتح ولا حُنين ولا الطائف. وكان أعلمَ قريش بالنَّسب وأعلمَهم بأيّامها. وتُوفّي في خلافة معاوية. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤٢/٤-٤٤؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ٦١/٤-٦٣.

[٢] انظر: صحيح مسلم، ١٣٨٣/٣-١٣٨٥ (١٧٦٣)؛ وجامع البيان للطبري، ٢٧٥/١١-٢٧٦. والألفاظ مِن أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٧/٣. وهو حتّى قوله: "فخيَّر أصحابَه" في مسند أحمد، ١٣٨/٦-١٤٠ (٣٦٣٢).

[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٧٣/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٣٧/٢. وانظر: جامع البيان للطبري، ٢٨٣/١١.

لم يصرّح لهم بالنهي. وأمّا أنّ الفدية التي أخذوها ستَحِلّ لهم،[١] فلا يصلح أن يُعدّ مِن موانع مساس العذاب؛ فإنّ الحِلّ اللاحق لا يرفع حكمَ الحُرمة السابقة، كما أنّ الحُرمة اللاحقة -كما في الخمر مثلًا- لا ترفع[٢] حكمَ الإباحة السابقة، على أنّه قادحٌ في تهويل ما نُعي عليهم مِن أخذ الفِداء.

﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أي: لَأصابكم ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ أي: لأجل ما أخذتم مِن الفِداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادَر قدره.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ رُوي أنّهم أمسكوا عن الغنائم، فنزلت.[٣] قالوا: "الفاء" لترتيب ما بعدها على سبب محذوف، أي: قد أبحتُ لكم الغنائمَ، فكُلوا ممّا غنمتم. والأظهر أنّها للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: دَعُوه،[٤] فكلوا ممّا غنِمتم. وقيل: ﴿مَا﴾ عبارة عن الفدية، فإنّها مِن جملة الغنائم. ويأباه سِباق النظم الكريم وسياقُه.

﴿حَلَٰلًا﴾ حال مِن المغنوم، أو صفة للمصدر، أي: أكلًا حلالًا. وفائدته الترغيبُ في أكلها. وقوله تعالى: ﴿طَيِّبًا﴾ صفة لـ﴿حَلَٰلًا﴾ مفيدةٌ لتأكيد الترغيب. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: في مخالفة أمره ونهيه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيغفِر لكم ما فرَط منكم مِن استباحة الفِداء قبل ورود الإذن فيه، ويرحَمكم ويتوبُ عليكم إذا اتّقيتموه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم﴾ أي: في مَلَكَتِكم، كأنّ أيديَكم قابضة عليهم، ﴿مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ وقُرئ: "مِنَ الأُسَارَى".[٥] ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾

---

١ ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٣٧.

٢ ط س: يرفع.

٣ التفسير البسيط للواحدي، ١٠/٢٦٠؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٦٧.

٤ وفي هامش م: ما أخذتم. «منه».

٥ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٧.

خلوصَ إيمانٍ وصحّةَ نيّةٍ، ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ مِن الفِداء. وقُرئ: "أَخَذَ"[١] على البناء للفاعل.

رُوي أنّها نزلت في العبّاس، كلّفه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يفدِيَ ابنَي أخيه عَقيل بنَ أبي طالب ونوفل بنَ الحارث،[٢] فقال: «يا محمّدُ، تركتَني أتكفَّفُ قريشًا ما بقيتُ؟»، فقال له عليه السلام: «فأين الذهَبُ الذي دفعتَه إلى أمّ الفضل[٣] وقتَ خروجك مِن مكّةَ / وقلتَ لها: ما أدري ما يُصيبني في وجهي هذا، [٤١٤و]
فإنْ حدَثَ بي حدَثٌ، فهو لكِ ولعبد الله وعُبيد الله والفضل؟»،[٤] فقال العبّاس: «ما يُدريك؟»، فقال: «أخبرَني به ربّي»، قال العبّاس: «فأنا أشهد أنّك صادق، وألّا إلهَ إلّا الله، وأنّك عبده ورسوله، واللهِ لم يطّلع عليه أحدٌ إلّا الله، ولقد دفعتُه إليها في سَواد الليل، ولقد كنتُ مرتابًا في أمرك، فأمّا إذا أخبرتَني بذلك، فلا ريب». قال العبّاس بعد حين: «فأبدَلَني الله خيرًا مِن ذلك؛ لي الآنَ عشرون عبدًا، وإنّ أدناهم لَيَضرِبُ في عشرين ألفًا، وأعطاني زمزمَ، ما أُحبّ أنّ لي بها جميعَ أموال أهل مكّةَ، وأنا أنتظر المغفرة مِن ربّي»،[٥] يتأوّل به ما في قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ فإنّه وعدٌ بالمغفرة مؤكَّدٌ بما بعده مِن الاعتراض التذييليّ.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن شيبة ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٨.

٢ هو نوفل بن الحارث بن عبد المطّلب بن هاشم القرشي، أبو الحارث (ت. ١٥هـ/٦٣٦). ابن عمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. أُسر يومَ بدر كافرًا، وفداه عمُّه العبّاس، ولمّا فداه أسلم، وقيل: أسلم وهاجر أيّامَ الخندق، وقيل: بل هو فدى نفسه برِماح كانت له. وآخَى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بينه وبين العبّاس، وكانا شريكَين في الجاهليّة متفاوضَين متحابَّين. شهد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فتح مكّة وحُنينًا والطائف. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤/٤٤-٤٧؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ٥/٣٤٧-٣٤٨.

٣ هي لُبابة بنت الحارث بن حَزْن بن بُجَير بن الهُزَم، أمّ الفضل. زوجُ العبّاس بن عبد المطّلب والدةُ أولاده الفضل وعبد الله وغيرهما. وهي لُبابة الكبرى، مشهورة بكُنيتها، ومعروفة باسمها. أسلمت قبل الهجرة فيما قيل، وقيل: بعدها. ماتت في خلافة عثمان قبل زوجها العبّاس. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤/٦؛ والإصابة لابن حجر، ١٤/١٦٩، ٤٧٦-٤٧٨.

٤ هم أولاد العبّاس بن عبد المطّلب بن هاشم القرشي. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤/٦؛ والاستيعاب للنمري، ٣/٩٣٣-٩٣٩، ١٠٠٩-١٠١٠، ١٢٦٩-١٢٧٠.

٥ هو مع اختلاف بالنقص والزيادة في مسند أحمد، ٥/٣٣٤-٣٣٦ (٣٣١٠)؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٤٥. والألفاظ مِن أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٦٧-٦٨.

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٧١﴾

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ أي: نكْثَ ما بايعوك عليه مِن الإسلام. وهذا كلام مَسوق مِن جهته تعالى لتسليته عليه السلام بطريق الوعد له والوعيد لهم. ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ بكفرهم ونقضِ ما أُخذ على كلّ عاقل مِن ميثاقه، ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي: أقدَرَك عليهم حسبما رأيتَ يومَ بدر، فإنْ أعادوا الخيانة، فاعلَمْ أنّه سيُمكِّنك منهم أيضًا. وقيل: المراد بـ"الخيانة" منعُ ما ضمِنوا مِن الفِداء.[1] وهو بعيد.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما في نيّاتهم وما يستحقّونه مِن العقاب، ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل كلَّ ما يفعله حسبما يقتضيه حكمته البالغة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٧٢﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ هم المهاجرون، هاجروا أوطانهم حُبًّا لله تعالى ولرسوله، ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ بأن صرفوها إلى الكُراع[2] والسلاح وأنفقوها على المَحاويج،[3] ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ بمباشرة القتال واقتحام المعارك والخوضِ في المَهالك، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بـ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾، قيدٌ لنوعَي الجهاد. ولعلّ تقديمَ "الأموال" على "الأنفس" لِما أنّ المجاهدة بالأموال أكثرُ وقوعًا وأتمُّ دفعًا للحاجة، حيث لا يُتصوّر المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالمال.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ هم الأنصار، آوَوا المهاجرين، وأنزلوهم منازلَهم،

---

[1] ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٣٩.

[2] الكُراع: اسمٌ يجمع الخيل والسلاحَ إذا ذُكر مع السلاح. والكُراع: الخيل نفسُها. تهذيب اللغة للأزهري، ١/٢٠٢ «باب العين والكاف مع الراء».

[3] المَحاويج: المحتاجون. عاميّ. المغرب للمطرّزي، ص ١٣٢ «الحاء مع الواو».

وبذَلوا إليهم أموالَهم، وآثروهم على أنفسهم ولو كانت بهم خَصاصة،[١] ونصروهم على أعدائهم.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصوفين بما ذُكر مِن النعوت الفاضلة. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ طبقتهم وبُعدِ منزلتهم في الفضيلة. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿بَعۡضُهُمۡ﴾ إمّا بدل منه، وقوله تعالى:[٢] ﴿أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ خبرُه، وإمّا مبتدأ ثانٍ، و﴿أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ خبرُه، والجملةُ خبر للمبتدأ الأوّل، أي: بعضُهم أولياءُ بعض في الميراث. وقد كان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنُّصرة دون الأقارب حتّى نُسخ بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ الآية.[٣] وقيل: في النُّصرة والمظاهرة.[٤] ويردّه قوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ بعد نفي موالاتهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾ كسائر المؤمنين ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾ أي: مِن تولّيهم في الميراث، وإن كانوا مِن أقرب أقاربكم، ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾. وقُرئ بكسر الواو[٥] تشبيهًا بالعمل والصناعة، كـ"الكتابة" و"الإمارة". ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ فواجبٌ عليكم أن تنصروهم على المشركين، ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ﴾ منهم ﴿بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَـٰقٌ﴾ معاهدة، فإنّه لا يجوز نقض عهدهم بنصرهم عليهم.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فلا تخالِفوا أمره كيلَا يحِلّ بكم عقابه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾

---

١ الخَصاصة والخَصاص: الفقر. الصحاح للجوهري، «خصص». | وأشيرَ إليهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَـٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر، ٩/٥٩].

٢ م - تعالى.

٣ ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَـٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ [الأحزاب، ٦/٣٣]. | انظر: جامع البيان للطبري، ١١/٢٨٩-٢٩٣؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣٧٤/٤-٣٧٥.

٤ أجازه البيضاوي في أنوار التنزيل، ٦٨/٣.

٥ أي: "وِلَايَتِهِمْ". قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢٧٧/٢.

[٤١٤ظ] / ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ آخَرَ منهم، أي: في الميراث أو في الموازرة.[١] وهذا بمفهومه مفيدٌ لنفي الموارثة والموازرة بينهم وبين المسلمين وإيجابِ المباعدة والمصارمة، وإن كانوا أقاربَ.

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: ما أُمرتم به مِن التواصل بينكم وتولّي بعضِكم بعضًا حتّى التوارث ومِن[٢] قطع العلائق بينكم وبين الكُفّار، ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تحصُلْ فتنة عظيمة فيها، وهي ضَعف الإيمان وظهورُ الكفر، ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ في الدارين. وقرئ: "كَثِيرٌ".[٣]

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٧٤﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ كلام مَسوق للثناء عليهم والشهادةِ لهم بفوزهم بالقِدح المعلّى[٤] مِن الإيمان، مع المَوعِد الكريم بقوله تعالى: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا تبعةَ له ولا منّةَ فيه. فلا تكرارَ لِما أنّ مساق الأوّل[٥] لإيجاب التواصل بينهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ۝٧٥﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ﴾ بعد هجرتكم ﴿وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ﴾ في بعض مغازيكم، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ أي: مِن جملتكم -أيها المهاجرون والأنصار- وهم الذين جاءوا مِن بعدهم يقولون: «ربّنا اغفِرْ لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان»،[٦]

---

١ الموازرة بالهمز: المساواة والمحاذاة والمعاونة، وبالواو شاذّ. **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «أزر».

٢ السياق: ما أُمرتم به مِن التواصل... ومِن قطع العلائق...

٣ قراءة شاذّة، رواها الشيرازي عن الكسائي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٩. وهي غير القراءة المشهورة عن الكسائي.

٤ القِدح المعلّى: سابع سِهام الميسر، وهو أوفرُ السهامِ نصيبًا. **الكلّيّات** للكفوي، ص ٧٣٣.

٥ أي: الأنفال، ٧٢/٨.

٦ ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر، ١٠/٥٩].

ألحَقَهم الله تعالى بالسابقين وجعَلَهم منهم تفضّلًا منه وترغيبًا في الإيمان والهجرة. وفي توجيه الخطاب إليهم بطريق الالتفات مِن تشريفهم ورفع محلّهم ما لا يخفى.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ آخَرَ منهم في التوريث مِن الأجانب ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حُكمه أو في اللوح أو في القرآن. واستُدلّ به على توريث ذَوي الأرحام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومِن جملته ما في تعليق التوارث بالقرابة الدينيّة أوّلًا وبالقرابة النّسَبيّة آخِرًا مِن الحِكَم البالغة.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الأنفال وبراءة، فأنا شفيعٌ[١] له يومَ القيامة وشاهدٌ[٢] أنّه بريءٌ مِن النِّفاق، وأُعطِيَ عشرَ حَسَناتٍ بعدد كلِّ مُنافقٍ ومُنافقةٍ، وكان العرشُ وحَمَلَتُه يستغفرون له أيّامَ حياته».[٣]

---

١ ط س: فإنّهما تشفعان. | يظهر أثر الكشط والتصحيح في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٢ ط س: وتشهدان. | يظهر أثر الكشط والتصحيح في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٣ ط س + والله تعالى أعلم وأحكم. | **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٢٤/٤؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٤٠/٢. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١. وانظر لتخريجه: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ٣٤٣/٤-٣٤٧. | وفي هامش م: إلى هنا انتهى التسويد بفضل الله سبحانه وتعالى حامدًا ومصلّيًا، يوم الأربعاء، الرابع والعشرين مِن المحرّم المحترَم، لسنة ثمانٍ وستّين وتسعِمائةٍ، والحمد لله وحدَه.

٨

سورة الأنفال

مدنية أو إلاّ «وإذ يمكر» الآياتِ السبعَ فمكية، خمسٌ أو ستّ أو سبع وسبعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

لمّا اختلف المسلمون في غنائم بدرٍ، فقال الشُّبّانُ: هي لنا لأننا باشرْنا القتال. وقال الشُّيوخُ: «كنّا رِدءًا لكم تحت الرايات، ولو انكشفتم لفِئتم إلينا. فلا تستأثروا بها»، نَزَلَ: ١ ـ ﴿يَسألُونَكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿عَنِ الأنفالِ﴾: الغنائمِ لمَن هي؟ ﴿قُلِ﴾ لهم: ﴿الأنفالُ لِلهِ والرَّسُولِ﴾ يجعلانها حيثُ شاءا. فقسَّمها رسول الله ﷺ بينهم على السواء. رواه الحاكم في «المستدرك». ﴿فاتَّقُوا اللهَ وأصلِحُوا ذاتَ بَينِكُم﴾..

سورة الأنفال

قولُه: (الشُّبَّانُ) بضمِّ الشينِ وتشديدِ الباءِ، جمعُ: شَابٌّ.

قولُه: (رِدْءاً) أي: معينينَ لكم بالتَّدبيرِ ثابتينَ تحت الأعلامِ.

قولُه: (انكَشَفتُم) أي: انهزَمتُم.

(لفِئتُم) بكسرِ الفاءِ؛ أي: رجعتُم.

(فَلا تَستَأثِرُوا) أي: لا تختصُّوا بالغنائِم.

قولُه: (الغَنائِم) أي: حُكمِها، جمعُ: نَفَلٍ محرَّكة.

قولُه: (شاءَا) بصيغةِ التَّثنيَةِ.

قالَ تعالى: (﴿فاتَّقُوا اللهَ﴾) أي: في الاختِلافِ.

أي: حقيقةَ ما بينكم بالمودّة وترك النزاع، ﴿وأطِيعُوا اللهَ ورَسُولَهُ، إن كُنتُم مُؤمِنِينَ﴾ حقًّا.

٢ - ﴿إنّما المُؤمِنُونَ﴾ الكاملو الإيمانِ ﴿الَّذِينَ إذا ذُكِرَ اللهُ﴾ أي: وعيدُه ﴿وَجِلَتْ﴾: خافت ﴿قُلُوبُهُم، وإذا تُلِيَتْ عَلَيهِم آياتُهُ زادَتهُم إيمانًا﴾: تصديقًا، ﴿وعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ﴾: به يثقون لا بغيره، ٣ - ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾: يأتون بها بحقوقها، ﴿ومِمّا رَزَقْناهُم﴾: أعطَيناهم ﴿يُنفِقُونَ﴾ في طاعة الله. ٤ - ﴿أُولئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر ﴿هُمُ المُؤمِنُونَ حَقًّا﴾: صِدقًا بلا شكّ، ﴿لَهُم دَرَجاتٌ﴾: منازل في الجنّة ﴿عِندَ رَبِّهِم ومَغفِرةٌ ورِزقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنّة.

٥ - ﴿كَما أخرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيتِكَ بِالحَقِّ﴾: مُتعلّقٌ بـ «أخرج»، ﴿وإنَّ فَرِيقًا مِنَ المُؤمِنِينَ لَكارِهُونَ﴾ الخُروجَ - والجملة: حال من كاف «أخرجك»، وكما: خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه الحالُ في كراهتهم لها مِثلُ إخراجِك في حال كراهتهم. وقد كان خيرًا لهم، فكذلك [هذه] أيضًا. وذلك أنّ أبا سُفيانَ قَدِمَ بِعِير من الشام فخرج ﷺ وأصحابه ليغنموها،..........................

قولُه: (حَقِيقَةَ مَا بَينِكُم) أو الحالُ التي بينكُم، أو حالُ وصلتِكُم أو فرقَتِكُم، فإنَّ «بين» من الأضدادِ.

قولُه: (بالمَوَدَّةِ) والمواساةِ والمساعَدَةِ فيما رزقَكُمُ اللهُ وتسليمِ أمرِهِ إلى اللهِ ورسولِهِ.

قولُه: (حقًّا) أي: إن كنتُم كامِلي الإيمانِ، فإنَّ كَمالَ الإيمانِ بالطَّاعةِ والاتِّقاءِ والإصلاحِ.

قولُه: (الإيمَانِ) بالنَّصبِ على نَزعِ الخافِضِ.

قولُه: (أي: وعِيدُهُ) أو مُطلَقاً.

قولُه: (خافَتْ) أو فزِعَتْ لذكرِهِ استعظاماً له وتهيُّباً من جلالِهِ.

قولُه: (تَصدِيقاً) فيه أنَّ التَّصدِيقَ عند أربابِ التَّحقيقِ لا يقبلُ الزِّيادةَ والنُّقصانَ، فالصَّحِيحُ لزيادةِ المؤمنِ به أو لاطمئنانِ النَّفسِ ورُسُوخِ اليقينِ بتظاهُرِ الأدلَّةِ أو بالعملِ بمُوجِبِها، فإنَّ الكلامَ في كامِلي الإيمانِ.

قولُه: (لا بغَيرِهِ) الحصرُ مُستَفادٌ من تقديمِ الصِّلةِ.

قولُه: (صِدقاً) و(﴿حَقًّا﴾) مصدرٌ مؤكِّدٌ كقولِه: هو: عبدُ الله حقًّا.

قولُه: (﴿دَرَجاتٍ﴾ في الجنَّةِ) يرتقُونَها بأعمالِهِم.

قولُه: (حال) أي: في موقعِ حالٍ؛ يعني: أخرجَكَ من مكَّةَ في حالِ كراهَتِهِم.

قولُه: (في كرَاهَتِهِم) إيَّاها مثلُ إخراجِكَ للحَربِ في كراهَتِهِم له.

قولُه: (بعِيرٍ) العِيرُ: القافلَةُ، وكان فيها تجارةٌ ومعها أربعُونَ راكِباً فأخبرَ جبريلُ رسُولَ اللهِ ﷺ فأخبرَ

فعلمت قريش فخرج أبو جهل ومقاتلو مكة ليذبّوا عنها، وهم النفير. وأخذ أبو سُفيان بالعِير طريقَ الساحل فنجت، فقيل لأبي جهل: ارجِعْ. فأبى وسار إلى بدر، فشاور ﷺ أصحابَه وقال: «إنّ اللهَ وَعَدَنِي إحدَى الطّائفتَينِ» ـ فوافقوه على قتال النفير، وكرهَ بعضهم ذلك وقالوا: «لم نَستَعِدَّ له» كما قال تعالى:

٦ ـ ﴿يُجادِلُونَكَ في الحَقِّ﴾: القتالِ ﴿بَعدَ ما تَبيَّنَ﴾: ظهر لهم، ﴿كأنّما يُساقُونَ إلَى المَوتِ، وهُم يَنظُرُونَ﴾ إليه عِيانًا في كراهتهم له.

٧ ـ ﴿و﴾اذكرْ ﴿إذ يَعِدُكُمُ اللهُ إحدَى الطّائفتَينِ﴾: العِيرَ أو النفيرَ ﴿أنّها لَكُم، وتَوَدُّونَ﴾: تُريدون ﴿أنَّ غَيرَ ذاتِ الشَّوكةِ﴾ أيِ: البأسِ والسلاح ـ وهي العِير ـ ﴿تَكُونُ لَكُم﴾ لِقِلّة عَدَدها وعُدَدها بخِلاف النفير، ﴿ويُرِيدُ اللهُ أن يُحِقَّ الحَقَّ﴾: يُظهرَه ﴿بِكَلِماتِهِ﴾ السابقة بظهور الإسلام، ﴿ويَقطَعَ دابِرَ الكافِرِينَ﴾: آخِرَهم بالاستئصال. فأمَرَكم بقتال النفير ٨ ـ ﴿لِيُحِقَّ الحَقَّ ويُبطِلَ﴾: يمحق ﴿الباطِلَ﴾: الكُفر، ﴿ولَو كَرِهَ المُجرِمُونَ﴾: المُشركون ذلك.

المسلمِينَ فأعجبَهُم تلقِّيها لكثرَةِ المالِ وقلَّةِ الرِّجالِ، فعلمَتْ قريشٌ فنادَى أبو جهلٍ فوقَ الكَعبةِ: يا أهلَ مكّةَ النَّجا النَّجا على كُلِّ صَعبٍ وذلُولٍ، عيرُكُم أموالُكُم إن أصابَها محمَّدٌ لم تفلِحُوا بعدَها أبداً[1].

قولُه: (لم نستَعِدَّ لَه) أي: للقِتالِ، إنَّا خرَجنا للعيرِ.

قولُه: (في القِتَالِ) أي: في إيثارِكَ القتالَ بإظهارِ الحقِّ لإيثارِهم تلقِّي العيرِ عليه.

قولُه: (ظَهرَ لَهُم) أنَّهم يُنصَرونَ أين ما توجَّهُوا بإعلامِ الرَّسولِ ﷺ.

قولُه: (في كَراهَتِهِم له) أي: يكرهُونَ القتالَ كراهَةَ من يُساقُ إلى الموتِ وهو يشاهِدُ أسبابَهُ، وكانَ ذلك لقلَّةِ عدَدِهِم وعَدمِ تأهُّبِهِم لعُدَدِهِم، إذ رويَ: أنَّهُم كانُوا مُشاةً وما كان فيهم إلَّا فارِسانِ.

و(﴿إحدَى﴾) ثانِي مفعُولَي ﴿يعدُكُم﴾ و(﴿أنَّها لَكُم﴾) بدَلُ اشتمالٍ.

قولُه: (أو النَّفِيرَ) يعنِي: العسكَر، وكان أهلُ مكَّةَ إذا عايَرُوا بعضَ النَّاسِ يقولُونَ له: لست من العِيرِ ولا من النَّفِيرِ[2].

قولُه: (تُرِيدُون) الأظهرُ: تحبُّونَ وتتمنَّونَ.

قولُه: (يُظهِرَهُ) أي: يُبيِّنَهُ ويُعليَه.

قولُه: (فأمَرَكُم) قدَّرَهُ لتتعلَّقَ به اللامُ.

---

(١) لم أقف عليه مسنداً، وانظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٥٠).

(٢) انظر: «جمهرة الأمثال» للعسكري (٢/ ٣٩٩) (١٩٠٣)، و«الأمثال» للهاشمي (١/ ٢٨٦) (١٤٢٣).

٩ ـ اذكرْ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾: تطلبون منه الغوث بالنصر عليهم، ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي﴾ أي: بأني ﴿مُمِدُّكُم﴾: مُعينكم ﴿بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾: مُتتابعين يُردف بعضهم بعضًا. وعَدَهم بها أوّلاً، ثمّ صارت ثلاثة آلاف ثمّ خمسة كما في «آل عمران». وقُرئ: «بِأَلُفٍ» كأفلُس، جمعٌ. ١٠ ـ ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي: الإمدادَ..

قولُه: (تَطلُبُون) لأنَّهم لمَّا علمُوا أن لا محيصَ من القتالِ أخذُوا يقولُونَ: أي ربِّ انصُرنا على عدوِّكَ، أغِثنَا يا غياثَ المستغيثِينَ، وعن عُمرَ أنَّه ﷺ نظرَ إلى المشركينَ وهُم ألفٌ وإلى الصَّحابةِ وهم ثلاثمائة، فاستقبَلَ القبلَةَ ومَدَّ يديهِ وقال: «اللَّهمَّ أنجِزْ لِي ما وعدتَنِي، اللَّهمَّ إن تُهلِك هذِه العصابةَ لا تُعبَدْ في الأرضِ» فما زالَ كذلك حتَّى سقطَ رداؤُه، فقالَ أبو بكرٍ: يا نبيَّ اللهِ كفاكَ مناشدَتُك ربَّكَ، فإنَّهُ سيُنجِزُ لك ما وعدَكَ[1].

قولُه: (بأنِّي) فحذفَ الجارَّ وسلَّطَ عليه الفعلَ.

قولُه: (متتَابعِينَ) أو مُتَّبعِينَ المؤمنينَ، من أردفتَهُ: إذا جئتَ بعدَهُ، وقرَأَ[2] نافعٌ بفتح الدَّالِ؛ أي: متَّبَعِينَ بمعنَى أنَّهم كانُوا مقدِّمَةَ الجيشِ أو ساقَتَهُم.

قولُه: (بهَا) أي: بالألفِ... إلخ، وقيل: المرادُ بالألفِ الَّذين كانُوا على المقدِّمةِ أو السَّاقةِ، أو وجوهُهُم وأعيانُهُم، أو من قاتَلَ منهم، واختُلِفَ في مُقاتلتِهِم، وقد روي: أخبارٌ تدلُّ عليها[3].

قولُه: («بألُفٍ» كأَفلُسٍ جمعٌ) وكذا «بآلافٍ»[4] فيوافِقُ ما في سورَةِ آل عمرانَ[5].

قولُه: (أي: الإمدَادَ) المفهُومَ من يُمِدُّ.

---

(١) رواه مسلم (١٧٦٣)، والترمذي (٣٠٨١)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٦٨٤)، وأحمد في «مسنده» (٢٠٨)، والبزار في «مسنده» (١٩٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٧٩٣).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٠٤)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٢٤)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٢٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٠٧).

(٣) روى مسلم (١٧٦٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٧٩٣) قال أبو زميل: فحدثني ابن عباس، بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه، كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري، فحدث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة».

(٤) وهما من القراءات الشاذة، انظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٠٤)، و«زاد المسير» (٢/ ١٩١)، و«أنوار التنزيل» (٣/ ٥١)، و«فتح القدير» (٢/ ٣٣١)، وبعضهم عزاها لعاصم الجحدري وغيره.

(٥) وهي قوله تعالى: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

﴿إلاّ بُشرَى، ولِتَطمَئنَّ بِهِ قُلُوبُكُم. وما النَّصرُ إلاّ مِن عِندِ اللهِ. إنَّ اللهَ عَزيزٌ حَكِيمٌ﴾.

١١ ـ اذكرْ ﴿إذْ يَغشاكُمُ النُّعاسُ أمَنةً﴾: أمْنًا ممّا حَصَلَ لكم من الخوف، ﴿مِنهُ﴾ ـ تعالى ـ ﴿ويُنزِلُ عَلَيكُم مِنَ السَّماءِ ماءً، لِيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ من الأحداث والجنابات، ﴿ويُذهِبَ عَنكُم رِجْزَ الشَّيطانِ﴾: وسْوَسَتَه إليكم بأنكم لو كنتم على الحقّ ما كنتم ظِماءً مُحدِثين، والمشركون على الماء، ﴿ولِيَربِطَ﴾: يَحبِسَ ﴿عَلَى قُلُوبِكُم﴾ باليقين والصبر، ﴿ويُثَبِّتَ بِهِ الأقدامَ﴾ أن تسوخ في الرمل.

١٢ ـ ﴿إذْ يُوحِي رَبُّكَ إلَى المَلائكةِ﴾ الذين أمدّ بهم المسلمين: ﴿أنّي﴾ أي: بأنّي ﴿مَعَكُم﴾ بالعون والنصر. ﴿فثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالإعانة والتبشير. ﴿سأُلقِي في قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعبَ﴾: الخوفَ. ﴿فاضرِبُوا فَوقَ الأعناقِ﴾أي: الرؤوسَ، ﴿واضرِبُوا مِنهُم كُلَّ بَنانٍ﴾ أي: أطرافَ اليدين والرجلين.

وقولُه: (﴿إلَّا بُشرَى﴾) أي: إلَّا بشارَةً لكُم بالنَّصرِ ولتطمَئنَّ قلوبُكُم فيَزولَ ما بها من الوجَلِ لقلَّتِكُم وذِلَّتكُم.

قالَ تعالى: (﴿ومَا النَّصرُ﴾) يعنِي: إمدادُ الملائكَةِ، وكثرَةُ العدَدِ والعُدَدِ ونحوُها وسائطُ لا تأثيرَ لها فلا تحسِبُوا النُّصرةَ منها، ولا تيأسُوا منه بفَقدِها.

قالَ تعَالى: (﴿إذ يُغشِّيكُمُ﴾) قَرأَ نافعٌ بالتَّخفيفِ، من أغشَيْتُهُ إيَّاهُ، والفاعلُ على القراءَتَينِ هو اللهُ، وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبُو عَمرٍو: «يَغْشَاكُمُ النُّعاسُ» بالرَّفعِ(١).

قولُه: (أَمْناً) أي: من اللهِ، وهو مفعُولٌ له باعتبارِ المعنى.

قولُه: (ظِمَاءً) عِطاشاً وزناً ومعنًى.

قولُه: (أَنْ تَسُوخَ) أي: كراهتَهُ، والأظهَرُ: حتَّى لا تسُوخَ، يقالُ: ساخَتْ قوائمُهُ في الأرضِ دخلَتْ فيها وغابَتْ، والضَّميرُ في ﴿بِهِ﴾ للمطَرِ، وقيل: بالرَّبطِ على القُلُوبِ حتَّى تثبُتَ في المعرَكَةِ.

قولُه: (أي بأَنّي) فيه أنَّه مفعُولُ ﴿يُوحِي﴾ فتقديرُ الباء غيرُ صحيحٍ.

قولُه: (بالإِعَانَة) بتكثيرِ سوادِهِم أو بمُحاربَةِ أعدائِهِم فيكونُ ما بعدَهُ كالتَّفسيرِ لقولِه: ﴿إنِّي معَكُم فثَبِّتُوا﴾ وفيه دليلٌ على أنَّهُم قاتَلُوا.

قولُه: (أي: الرُّؤُوس) يعنِي: أعالِي الأعناقِ الَّتي هي المذابحُ من الرُّؤوسِ.

قولُه: (أي: أطرَافَ) أي: حزُّوا رقابَهُم وقطِّعُوا أطرافَهُم، والبنانُ: الأصابعُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٠٤)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٢٥)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٢٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٠٨).

فكان الرجل يقصد ضرب رقبة الكافر، فتسقط قبل أن يصل سيفه إليه. ورماهم ﷺ بقبضة من الحصى، فلم يبقَ مُشرك إلاّ دخل في عينيه منها شيء فهُزموا. ١٣ ـ ﴿ذلِكَ﴾ العذاب الواقع بهم ﴿بِأَنَّهم شاقُّوا﴾: خالفوا ﴿اللهَ ورَسُولَهُ، ومَن يُشاقِقِ اللهَ ورَسُولَهُ فإنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقابِ﴾ له. ١٤ ـ ﴿ذلِكُم﴾ العذابُ ـ ﴿فذُوقُوهُ﴾ أيها الكُفّار في الدنيا ـ ﴿وأنَّ لِلكافِرِينَ﴾ في الآخِرة ﴿عَذابَ النّارِ﴾.

١٥ ـ ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، إذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحفًا﴾ أي: مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون ﴿فلا تُوَلُّوهُمُ الأدبارَ﴾ منهزمين. ١٦ ـ ﴿ومَن يُوَلِّهِم يَومَئِذٍ﴾ أي: يومَ لقائهم ﴿دُبُرَهُ، إلاّ مُتَحَرِّفًا﴾: مُنعطفًا ﴿لِقِتالٍ﴾ بأن يُريهم الفَرّةَ مَكيدةً وهو يريد الكرّةَ ﴿أو مُتَحَيِّزًا﴾: مُنضمًّا ﴿إلَى فِئَةٍ﴾:..........

قولُه: (فتَسقُطُ) بالتاءِ، أو الياءِ؛ أي: الرَّقبَةُ أو الكافرُ.

قولُه: (العَذَابُ) إشارةٌ إلى الضَّربِ، أو الأمرِ به، والخطابُ للرَّسُولِ، أو لكلِّ أحدٍ من المخاطبينَ قبلُ.

قولُه: (خَالَفُوا) واشتقاقُه من الشِّقِّ؛ لأنَّ كلًّا من المتعاندَينِ في شقٍّ خلافِ شقِّ الآخرِ، أو من الشَّقِّ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ يريدُ مشقّةَ الآخرِ.

قولُه: (العَذَابُ) الخطابُ فيه للكفَرَة على طريقةِ الالتِفاتِ، ومحلُّهُ النَّصبُ بفعلٍ دلَّ عليهِ: ﴿فذُوقُوهُ﴾ أو محلُّهُ الرَّفعُ؛ أي: الأمرُ ذلكُم أو ذلكُم واقعٌ.

قولُه: (في الآخِرَةِ) عطفٌ على: ﴿ذلِكُم﴾، أو نصبٌ على المفعُولِ معه.

قولُه: (مُجتَمِعِين) يعنِي: انتصابُه على الحالِ من المفعُولِ فقط، وهو مصدَرُ زحَفَ الصَّبيُّ: إذا دبَّ على مقعَدِهِ قليلًا قليلاً، سُمِّيَ به الجمعُ الكثيرُ.

قولُه: (مُنهَزِمِينَ) حالٌ مقدَّرٌ احترازيٌّ من الفاعلِ، والمعنَى: فلا تُوَلُّوهُم الأدبارَ بالانهزامِ فضلاً أن يكونوا مثلَكُم، أو أقلَّ، والأظهرُ: أنَّها محكمَةٌ مخصُوصَةٌ بقولِه: ﴿حَرِّضِ المؤمِنِين﴾ [الأنفال: ٦٥] الآية.

قولُه: (أي: يَومَ لِقَائِهِم) وقيل: هذا مختَصٌّ بأهلِ بدرٍ.

قولُه: (الفِرَّة) بكسرِ الغينِ المعجمَة؛ أي: تغرِيرَ العدوِّ، فإنَّهُ من مكائدِ الحربِ، في الحديثِ: «والحَربُ خَدعَةٌ»[1].

قولُه: (الكَرَّة) أي: الرَّجعَة، ومنه الكُرَّارُ[2].

---

(١) رواه البخاري (٣٠٣٠)، ومسلم (١٧٣٩)، وأبو داود (٢٦٣٦)، والترمذي (١٦٧٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) وهم الذين عادوا من غزوة مؤتة، فقال لهم الناس: يا فُرَّار في سبيل الله، فقال لهم النبي ﷺ: «ليسوا بالفُرَّار ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله».

=

جماعة من المسلمين يستنجدُ بها، ﴿فقَد باءَ﴾: رجَع ﴿بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ، ومأواهُ جَهَنَّمُ، وبِئسَ المَصِيرُ﴾: المرجعُ هي! وهذا مخصوص بما إذا لم يَزِد الكُفّارُ على الضِّعف.

١٧ ـ ﴿فلَم تَقتُلُوهُم﴾ ببدر بقوّتكم، ﴿ولكِنَّ اللهَ قَتَلَهُم﴾ بنصره إيّاكم، ﴿وما رَمَيتَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ أعيُنَ القوم، ﴿إذْ رَمَيتَ﴾ بالحصباء لأنّ كفًّا من الحصباء لا يملأ عُيون الجيش الكثير برمية بشَر، ﴿ولكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ بإيصال ذلك إليهم.

قولُه: (يستَنجِدُ) يستَعينُ، وانتصابُ ﴿متحَرِّفاً﴾ و﴿متحَيِّزاً﴾ على الحالِ، و﴿إلا﴾ لغوٌ لا عملَ له، أو الاستثناءُ من المولِّينَ؛ أي: إلَّا رجُلاً متحَرِّفاً أو متحَيِّزاً، كذا قالَهُ البيضاويُّ[1]، وقولُهُ: و﴿إلَّا﴾ لَغوٌ؛ أي: في اللَّفظِ لا في المعنَى؛ إذِ المعنى: فلا تولُّوهُم الأدبارَ في حالٍ من الأحوالِ إلَّا تحرُّفاً، وفي قولِهِ: لا عملَ له، إشارَةٌ إلى هذا المعنى.

قولُه: (الكُفَّارُ) أي: الحامِلونَ على المسلِمينَ.

قولُه: (على الضِّعْفِ) لقولِهِ: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُم﴾ [الأنفال: ٦٦] الآيَةَ، وقيل: الآيَةُ مخصوصَةٌ بأهلِ بدرٍ أو الحاضِرينَ معه في الحربِ مُطلَقاً.

قولُه: (بنَصرِهِ) وتسليطِكُم عليهم وإلقاءِ الرُّعبِ في قلوبِهِم.

قولُه: (أَعيُنَ القَومِ) أي: رَميًا توصِلُها إلى أعيُنِهم ولم تقدِرْ عليه.

قولُه: (بالحَصَى) أي: أتيتَ بصورةِ الرَّمي، وقيل: ما رميتَ خَلْقاً إذ رمَيتَ كَسْباً.

قولُه: (بإيصَالِ) أي: أَتَى بما هو غايَةُ الرَّمي فأوصَلَها إلى أعيُنِهم جَميعاً حتَّى انهَزَموا، وتمكَّنتُم من قطعِ دابِرِهِم، وقرأ ابنُ عامرٍ وحمزَةُ والكِسائيُّ بالتَّخفيفِ ورَفعِ ما بعدَهُ في الموضعَينِ[2]، قالَ في «الكَشفِ»[3]:

= رواه الطبري في «تاريخه» (٣/ ٤٢)، عن عروة بن الزبير، وذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (٤/ ٢٨٣) قال: وقد قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر عن عروة، وذكره، ثم قال: هذا مرسل من هذا الوجه وفيه غرابة، وعندي أن ابن إسحاق قد وهم في هذا السياق فظن أن هذا لِجُمْهور الجيش، وإنما كان للذين فروا حين التقى الجمعان، وأما بقيتهم فلم يفروا بل نُصِروا كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ المسلمين وهو على المنبر في قوله: «ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله ففتح الله على يديه» فما كان المسلمون ليسمونهم فراراً بعد ذلك وإنما تلقوهم إكراماً لهم وإعظاماً، وإنما كان التأنيب، وحثي التراب للذين فروا وتركوهم هنالك، وقد كان فيهم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٥٣).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ١٦٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٠٩)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ١٣٤).

(٣) انظر: «فتوح الغيب» (٧/ ٥٢، ٥٣).

فعلَ ذلك ليقهر الكافرين، ﴿وليُبلِيَ المُؤمِنينَ مِنهُ بَلاءً﴾: عطاء ﴿حَسَنًا﴾ هو الغنيمة. ﴿إنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم. ١٨ ـ ﴿ذلِكُم﴾ الإبلاء حقّ، ﴿وأنَّ اللهَ مُوهِنٌ﴾: مُضْعِفٌ ﴿كَيدَ الكافِرينَ﴾.

١٩ ـ ﴿إن تَستَفتِحُوا﴾ أيها الكُفّار: تطلبوا الفتحَ، أي: القضاءَ، حيثُ قال أبو جهلٍ منكم: «اللّهمَّ، أيُّنا كان أقطعَ للرَّحِم، وآتانا بما لانَعرِفُ، فأحِنْه الغَداةَ» أي: أهلِكه، ﴿فقَد جاءَكُمُ الفَتحُ﴾: القضاء بهلاك من هو كذلك ـ وهو أبو جهل ومن قُتل معه دون النبيّ والمؤمنين ـ ﴿وإن تَنتَهُوا﴾ عن الكُفر والحرب ﴿فهُوَ خَيرٌ لَكُم، وإن تَعُودُوا﴾ لقتال النبيّ ﴿نَعُدْ﴾ لنَصره عليكم، ﴿ولَن تُغنِيَ﴾: تَدفعَ ﴿عَنكُم فِئَتُكُم﴾: جماعتُكم ﴿شَيئًا، ولَو كَثُرَتْ! وإنَّ اللهَ مَعَ المُؤمِنِينَ﴾، بكسرِ «إنّ» استئنافًا، ....

الذي عليه المحدِّثونَ: أنَّ الرَّميَ كان يومَ حنينٍ، وأمَّا المفسِّرونَ فقد ذكرُوا الرَّميَ في الموضعَينِ.

قولُه: (فَعَلَ ذَلكَ) أي: ما فعلَ.

قولُه: (الإبلاءُ) أو البلاءُ الحسنُ، أو القتلُ، أو الرَّميُ.

قولُه: (حقٌّ) خبَر ﴿ذلِكُم﴾ فمحلُّهُ الرَّفعُ، أو المقصُودُ: أو الأمرُ ذلكم.

وقولُه: (﴿وأنَّ اللهَ﴾) معطُوفٌ عليهِ؛ أي: المقصُودُ: إبلاءُ المؤمنينَ وتوهِينُ كيدِ الكافِرينَ وإبطالُ حيلتِهم.

قولُه: (مُضْعِفٌ) الحرميَّانِ وأبو عَمرٍو بالتَّشديدِ، وحفصٌ بالإضافةِ والتَّخفيفِ[1].

قولُه: (أيُّهَا الكُفَّارُ) خطابٌ لأهلِ مكَّةَ على سبيلِ التَّهكُّمِ، وذلك أنَّهم حين أرادُوا الخرُوجَ تعلَّقُوا بأستارِ الكعبةِ، وقالوا: اللَّهمَّ انصُر أعلى الجندَينِ، وأهدَى الفئتينِ، وأكرَمَ الحزبَينِ.

قولُه: (وأتَانَا) أي: جاءَنا.

قولُه: (فأَحِنْهُ) بفتحِ الهمزةِ وكسرِ الحاء وسكونِ النُّونِ.

قالَ تعَالى: (﴿فهوَ خَير﴾) لتضمُّنِه سلامَةَ الدَّارينِ وخيرَ المنزِلَين.

قالَ تعَالى: (﴿شيئاً﴾) أي: من الإغنَاءِ، أو المضَارِّ؛ ولو كثُرَتْ فئتُكم.

قولُه: (استِئنَافاً) فيه معنَى التَّعليلِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٠٤)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٢٧)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٢٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٠٩).

وفتحِها على تقدير اللام.

٢٠ ـ ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، أَطِيعُوا اللهَ ورَسُولَهُ، ولا تَوَلَّوا﴾: تُعرِضوا ﴿عَنهُ﴾ بمُخالفة أمره، ﴿وأنتُم تَسمَعُونَ﴾ القُرآن والمواعظ، ٢١ ـ ﴿ولا تَكُونُوا كالَّذِينَ قالُوا: سَمِعْنا. وهُم لا يَسمَعُونَ﴾ سماعَ تدبُّر واتِّعاظ، وهم المُنافقون أو المُشركون.

٢٢ ـ ﴿إنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ﴾ عن سماع الحقّ ﴿البُكمُ﴾ عن النُّطق به ﴿الَّذِينَ لا يَعقِلُونَـ﴾ـه، ٢٣ ـ ﴿ولَو عَلِمَ اللهُ فِيهِم خَيرًا﴾: صلاحًا بسماع الحقّ ﴿لَأَسمَعَهُم﴾ سماعَ تفهُّم، ﴿ولَو أسمَعَهُم﴾ ـ فرْضًا وقد علم أنْ لا خير فيهم ـ ﴿لَتَوَلَّوا﴾ عنه ﴿وهُم مُعرِضُونَ﴾ عن قبوله عِنادًا وجُحودًا.

٢٤ ـ ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، استَجِيبُوا للهِ ولِلرَّسُولِ﴾ بالطاعة، ﴿إذا دَعاكُم لِما يُحيِيكُم﴾ من أمر الدِّين لأنه سبب الحياة الأبديّة، ﴿واعلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَينَ المَرءِ وقَلبِهِ﴾، ....

قولُه: (وفتحِهَا) نافعٌ وشاميٌّ وحفصٌ[١].

قولُه: (على تَقدِيرِ اللَّام) يعنِي: ولأنَّ اللهَ مع المؤمنينَ كانَ ذلك.

قولُه: (تُعرِضُوا) بحذفِ التاءِ.

قولُه: (﴿عنهُ﴾) أي: الرَّسولِ، وقيل: الضَّميرُ للجهَادِ.

قولُه: (والمَواعِظَ) سماعَ فَهمٍ وتَصديقٍ.

قولُه: (سَمَاعَ تَدَبُّرٍ) فكأنَّهُم لا يسمعونَ رَأساً.

قولُه: (وهمُ المنَافِقُون...) إلخ؛ أي: الَّذين ادَّعوُا السَّماعَ.

قولُه: (عَن سمَاعِ الحَقِّ) و﴿الدَّوابِّ﴾: ما يدِبُّ على الأَرضِ، أو البَهائمِ، عدَّهُم من البَهائمِ، ثمَّ جعلَهُم شرَّهَا لإبطالِ ما ميِّزُوا به وفُضِّلُوا لأجلِهِ.

قولُه: (صَلَاحاً) أو سعادَةً كتبَتْ لهم، أو انتِفاعاً بالآياتِ.

قولُه: (عنهُ) ولم ينتَفِعوا به، أو ارتَدُّوا بعد التَّصديقِ والقَبُولِ.

قولُه: (من أَمرِ الدِّينِ) وعُلومِهِ، بَيانٌ لـ﴿مَا﴾ فإنَّها حياةُ القلبِ، والجهلُ موتُهُ، كقول بعضِهِم:

لا تُعجِبَنَّ الجَهُولَ حُلَّتُهُ ... فَذاكَ مَيْتٌ وثَوبُهُ كَفَنُ[٢]

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٠٥)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٢٨)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٢١)، و«حجة القراءات» (ص: ٣١٠).

(٢) البيت مذكور في «الكشاف» (٢/ ٢١٠)، وقال الطيبي في «فتوح الغيب» (٧/ ٦٤): البيت من قول أبي الطيب، وقال الشهاب =

فلا يستطيع أن يُؤمن أو يكفر إلاّ بإرادته، ﴿وأنّهُ إلَيهِ تُحشَرُونَ﴾ فيُجازيكم بأعمالكم، ٢٥ ـ ﴿واتَّقُوا فِتنَةً﴾، إن أصابتكم ﴿لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُم خاصّةً﴾، بل تعمّهم وغيرَهم ـ واتقاؤها بإنكار مُوجِبها من المُنكَر ـ ﴿واعلَمُوا أنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقابِ﴾ لِمَن خالفه، ٢٦ ـ ﴿واذكُرُوا إذْ أنتُم قَلِيلٌ مُستَضعَفُونَ في الأرضِ﴾: أرض مكّة، ﴿تَخافُونَ أن يَتَخَطَّفَكُمُ النّاسُ﴾: يأخذَكم الكُفّار بسُرعة، ﴿فآواكُم﴾ إلى المدينة، ﴿وأيَّدَكُم﴾: قوّاكم ﴿بِنَصرِهِ﴾ يومَ بدر بالملائكة، ﴿ورَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّباتِ﴾: الغنائمِ، ﴿لَعَلَّكُم تَشكُرُونَ﴾ نِعَمَه.

ونزلَ في أبي لُبابة بنِ عبدِ المُنذر، وقد بعثه ﷺ إلى بني قُريظةَ ليَنزلوا على حُكمه فاستشاروه، فأشار إليهم أنّه الذبحُ لأنّ عِيالَه ومالَه فيهم:..........................

أو ممّا يُورثُكُم الحياةَ الأبديَّةَ والنِّعَمَ السَّرمديَّةَ من العقائدِ والأعمالِ، أو من الجهادِ، فإنَّه سببُ بقائكُم إذ لو تركُوهُ لغلبهُم العدوُّ وقتلَهُم، أو الشَّهادةِ لقولِه تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، ووحَّدَ ضميرَ «دعا» لأنَّ طاعةَ اللهِ في طاعةِ الرَّسُولِ، أو لأنَّ دعوةَ اللهِ تسمَعُ من الرَّسُولِ.

قولُه: (فَلا يستَطِيعُ) وقيل: تمثيلٌ لغايَةِ قربِهِ من العبدِ، وتنبيهٌ على أنَّه مطَّلعٌ على مكنُوناتِ القُلوبِ بما عسَى يَغفُلُ عنه صاحِبهَا، أو حثٌّ على المبادرةِ إلى إخلاصِ القُلوبِ وتصفيَتِها قبلَ أن يحُولَ اللهُ بينَهُ وبين قلبِهِ بالموتِ أو الارتدادِ.

قولُه: (إن أَصَابَتكُم) الأظهرُ: إن لم تتَّقُوها.

قولُه: (بَل تَعمُّهُم) أي: الظَّالمينَ.

قولُه: (مُوجِبهَا) بكسرِ الجيمِ؛ أي: سببِ الفتنَةِ، وبافتِراقِ الكلمَةِ وظهُورِ البدَعِ والتَّكاسُلِ في الجهادِ.

قولُه: (أرضِ مَكَّة) يستضعفُكُم قريشٌ والخطابُ للمُهاجرِينَ، وقيل: للعربِ كافَّةً، فإنَّهُم كانوا أذلَّاءَ في أيدِي فارِسَ والرُّومِ.

قولُه: (الكُفَّارُ) أي: كفَّارُ قريشٍ، أو من عداهُم، فإنَّهُم كانُوا جميعاً مُعادِينَ مضادِّينَ لهم.

قولُه: (إلى المَدِينَة) أو جعلَ لكم مَأوىً تتحصَّنونَ به عن أعاديكُم.

قولُه: (بالملائِكَة) أو بمظاهَرةِ الأنصارِ.

قولُه: (لأنَّ) علَّةٌ لـ(أشَارَ).

= الخفاجي في «حاشيته على البيضاوي» (٤/ ٢٦٣): البيت المذكور للزمخشري، كما قرأته في ديوانه من قصيدة مدح بها المؤتمن بالله الخليفة، وقد ألمَّ فيه بقول أبي الطيب من قصيدته.

٢٧ ـ ٢٨ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، لا تَخُونُوا اللهَ والرَّسُولَ، و﴾ لا ﴿تَخُونُوا أماناتِكُم﴾: ما اؤْتُمنتُم عليه من الدِّين وغيره، ﴿وأنتُم تَعلَمُونَ، واعلَمُوا أنَّما أمْوالُكُم وأولادُكُم فِتْنَةٌ﴾ لكم صادّةٌ عن أُمور الآخِرة، ﴿وأنَّ اللهَ عِندَهُ أجرٌ عَظِيمٌ﴾. فلا تُفوِّتوه بمُراعاة الأموال والأولاد والخِيانة لأجلهم. ونزلَ في تَوبتِه:

٢٩ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، إن تَـتَّـقُوا اللهَ﴾ بالأمانة وغيرها ﴿يَجعَلْ لَكُم فُرقانًا﴾ بينكم وبين ما تخافون فتنجون، ﴿ويُكَفِّرْ عَنكُم سَيِّئاتِكُم، ويَغفِرْ لَكُم﴾ ذُنوبكم. ﴿واللهُ ذُو الفَضلِ العَظِيمِ﴾.

٣٠ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ـ يا مُحمّد ـ ﴿إذْ يَمكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقد اجتمعوا للمُشاورة في شأنك بدار الندوة، ﴿لِيُثبِتُوكَ﴾:..

قالَ تعَالى: (﴿لا تَخُونُوا اللهَ والرَّسُولَ﴾) بأن تضمِرُوا خِلافَ ما تُظهِرونَ، أو بتعطيلِ الفرائضِ والسُّننِ، أو بالغُلُولِ في الغنائمِ.

قولُه: (﴿و﴾ لا) إشارةٌ إلى أنَّهُ مجزُومٌ بالعطفِ على الأوَّلِ وجُوِّزَ نصبُه على الجوابِ بالواوِ.

قولُه: (منَ الدِّينِ) أو فيما بينكُم.

قالَ تعالى: (﴿وأنتُم تَعلَمُون﴾) أنَّكم تخُونونَ، أو أنتُم علماءُ تميِّزونَ الحسنَ من القَبيحِ.

قولُه: (صَادَّةٌ) أي: مانِعةٌ وشاغلَةٌ، أو لأنَّهم سببُ الوقُوعِ في الإثمِ والعقابِ، أو محنَةٌ من اللهِ ليبلُوَكُم فيهم فلا يحملنَّكُم حبُّهُم على الخيانَةِ كأبِي لبابَةَ؛ قالَ حمدُونُ[1]: من اعتمَدَ على شَيءٍ سوَى اللهِ فهو عليه فتنَةٌ.

قولُه: (﴿أجرٌ عَظِيم﴾) لمن آثرَ رِضا اللهِ عليهم، وراعَى حدودَهُ فيهم.

قالَ تعالى: (﴿فرقانا﴾) هدايَةً في قلوبِكُم تفرِّقُونَ بها بين الحقِّ والباطلِ، أو نَصْراً يُفرِّقُ بين المحقِّ والمبطِلِ بإعزازِ المؤمنينَ وإذلالِ الكافرينَ أو مخرَجاً من الشُّبهاتِ، أو نَجاةً عمَّا تحذرُونَ في الدَّارينِ، وإليه مالَ الشَّيخُ وعليه مآلُ كلامِهِ.

قولُه: (ذُنوبَكُم) قيل: السَّيِّئاتُ: الصَّغائرُ، والذُّنُوبُ: الكبائرُ، وقيل: المرادُ ما تقدَّمَ وما تأخَّرَ؛ لأنَّها في أهلِ بدرٍ، وقد غفرَهُما اللهُ لهم، كما في الأحاديثِ الصِّحاحِ[2].

قولُه: (وقدِ اجتمَعُوا) حين سمعُوا بإسلامِ الأنصارِ ومتابعتِهِم وفرِقُوا، فدخلَ عليهم إبليسُ في صورَةِ

---

(١) وانظر: «تفسير السلمي» (٢/ ٦٠).

(٢) روى البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤)، وأبو داود (٢٦٥٠)، والترمذي (٣٣٠٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٥٢١) من حديث علي رضي الله عنه، وفيه: أن النبي ﷺ قال في حق حاطب رضي الله عنه: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

يُوثقوكَ ويَحبِسوكَ ﴿أو يَقتُلُوكَ﴾ كلّهم قِتلَةَ رجلٍ واحد ﴿أو يُخرِجُوكَ﴾ من مكّة ـ ﴿ويَمكُرُونَ﴾ بك، ﴿وَيمكُرُ اللهُ﴾ بهم بتدبير أمرك بأن أوحى إليك ما دبّروه، وأمرك بالخروج، ﴿واللهُ خَيرُ الماكِرينَ﴾: أعلَمُهم به ـ ٣١ ـ ﴿وإذا تُتلى عَلَيهِم آياتُنا﴾: القُرآنُ ﴿قالُوا: قَد سَمِعْنا. لَو نَشاءُ لَقُلْنا مِثلَ هذا﴾ ـ قاله النضرُ بن الحارث لأنه كان يأتي الحِيرة يَتّجر، ....

شيخٍ، وقال: أنا من نجدٍ سمعتُ اجتماعَكُم فأردْتُ أن أحضُرَكُم ولن تعدِمُوا منِّي رأياً ونُصْحاً، فقالَ أبو البختريِّ: رأيِي أن تحبِسُوهُ في بيتٍ وتسُدُّوا منافذَهُ غيرَ كوَّةٍ تلقُونَ إليه طعامَهُ وشرابَهُ منها حتَّى يمُوتَ، فقالَ الشَّيخُ: بئسَ الرَّأيُ، يأتيكُم من يقاتلُكُم من قومِهِ ويخلِّصُهُ من أيديكُم، فقالَ هشامُ بن عَمرٍو: رأيِي أن تحملُوهُ على جملٍ فتخرِجوهُ من أرضِكُم فلا يضرَّكُم ما صنعَ، فقال: بئسَ الرَّأيِ، يفسِدُ قَوماً غيرَكُم ويقاتِلكُم بهم، فقال أبو جهلٍ: أنا أرَى أن تأخُذوا من كلِّ بطنٍ غُلاماً وتُعطوهُ سَيفاً فيضرِبوهُ ضربَةً واحدةً فيتفرَّقَ دمُهُ في القبائلِ فلا يَقوَى بنو هاشمٍ على حربِ قريشٍ كلِّهم فإذا طَلَبوا العقلَ عقَلناهُ، فقالَ: صدَقَ هذا الفتَى، فتفرَّقُوا على رأيِهِ[1].

قولُه: (بتَدبيرِ أمرِكَ) أي: بردِّ مكرِهِم عليهم، أو بمُجازاتِهِم عليهِ، أو بمعامَلةِ الماكِرينَ معهم بأن أخرجَهُم إلى بدرٍ وقلَّلَ المسلمينَ في أعيُنِهم حتَّى حَملوا عليهم فقُتِلوا.

قولُه: (بأنْ أَوحَى) وأتى جبريلُ وأخبرَهُ بالخبرِ، وأمرَهُ بالهجرَةِ، فبيَّتَ عليًّا على مضجَعِهِ وخرجَ مع أبي بَكرٍ إلى الغارِ[2].

قولُه: (أعلَمُهُم) أو لا يُؤبَهُ بمكرِهِم دُونَ مكرِه، وإسنادُ أمثالِ هذا إنَّما يحسُنُ للمُزاوَجَةِ، ولا يجوزُ إطلاقُهَا ابتداءً لما فيه من إيهامِ ذمٍّ.

قولُه: (قالَهُ النَّضْرُ) وإسنادُه إلى الجميعِ إسنادُ ما فعلَهُ رئيسُ القومِ، فإنَّهُ كانَ قاصَّهُم[3].

قولُه: (الحِيرَة) بالكسرِ، محلَّةٌ بنيسابُورَ أو بلدٌ قربَ الكُوفةِ، كذا في «القامُوسِ»[4] والثَّانِي أقرَبُ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥٩٦٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٧)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (١٥٤)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٤٦٨) عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) جاء فيما قبله.

(٣) روى الطبري في «تفسيره» (١٥٩٧٧) عن ابن جريج في قوله: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ قال: كان النضر بن الحارث يختلف تاجرًا إلى فارس، فيمرُّ بالعِباد وهم يقرأون الإنجيل ويركعون ويسجدون، فجاء مكة، فوجد محمدًا ﷺ قد أنزل عليه وهو يركع ويسجد، فقال النضر: ﴿قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾، للذي سَمِع من العباد. فنزلت: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ قال: فقص ربُّنا ما كانوا قالوا بمكة، وقص قولهم: إذ قالوا: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك... ﴾ الآية.

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٣٨٢).

فيشتري كُتب أخبار الأعاجم، ويحدِّث بها أهل مكّة ـ ﴿إنْ﴾: ما ﴿هذا﴾ القُرآن ﴿إلاّ أساطِيرُ﴾: أكاذيبُ ﴿الأوَّلِينَ﴾.

٣٢ ـ ﴿وإذْ قالُوا: اللَّهُمَّ، إن كانَ هذا﴾ الذي يقرؤه مُحمّد ﴿هُوَ الحَقَّ﴾ المُنزَلَ ﴿مِن عِندِكَ فأمطِرْ عَلَينا حِجارةً مِنَ السَّماءِ، أوِ ائتِنا بِعَذابٍ أليمٍ﴾: مؤلم على إنكاره. قاله النضر أو غيره استهزاءً وإيهامًا أنه على بصيرةٍ وجزمٍ ببُطلانه. ٣٣ ـ قال تعالى: ﴿وما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم﴾ بما سألوه، ﴿وأنتَ فِيهِم﴾ لأنّ العذاب إذا نزل عَمَّ، ولم تُعذَّب أُمّة إلاّ بعد خروج نبيّها والمؤمنين منها، ﴿وما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُم، وهُم يَستَغفِرُونَ﴾ حيثُ يقولون في طوافهم: غُفرانَكَ غُفرانَكَ. وقيل: هم المُؤمنون المُستضعفون فيهم كما قال تعالى: «لَو تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنهُم عَذابًا ألِيمًا».

٣٤ ـ ﴿وما لَهُم ألاّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ﴾ بالسيف بعد خُروجك والمُستضعفين ـ وعلى القول الأوّل هي ناسخة لما قبلها، وقد عذّبهم الله ببدر وغيره ـ ﴿وهُم يَصُدُّونَ﴾: يمنعون النبيّ والمُسلمين ﴿عَنِ المَسجِدِ الحَرامِ﴾ أن يطوفوا به، ﴿وما كانُوا أولِياءَهُ﴾ كما زعموا؟ ....

قولُه: (أو غَيرُه) أبو جهلٍ.

قولُه: (غُفرَانَكَ) انظُر نظرَ اعتبارٍ، إذا كان مجرَّدُ الاستغفارِ نفَعَ الكفَّارَ، فكيف لا ينفَعُ الأبرَارَ، فعليك به لا سيَّما أطرافُ النَّهارِ.

قولُه: (همُ المُؤمِنُونَ) أي: من بقيَ فيهم من المؤمِنينَ.

قولُه: (بالسَّيفِ) أي: ما لهم ممَّا يمنعُ تعذيبَهُم متى [زال] ذلك، وكيف لا يعذَّبُون وحالُهُم ذلك[1].

قولُه: (والمُستَضعَفِين) أي: وبعدَ خُروجِهِم، أو تركِ الكفَّارِ الاستغفارَ.

قولُه: (نَاسِخَةٌ) فيه أنَّ الأخبارَ لا تنسَخُ.

وقولُه: (وقَد عذَّبَهُم) فيه أنَّ ما قَبلَها عذابٌ عامٌّ فلا مُنافاةَ.

قولُه: (أَن يَطُوفُوا) يعنِي: ومِنْ صدِّهِم عنه إلجاءُ رسولِ اللهِ والمؤمنينَ إلى الهجرَةِ وإحصارُهُم عامَ الحديبِيَةِ.

قولُه: (كَمَا زعَمُوا) أي: ما كانُوا مستحقِّينَ ولايَةَ أمرِه مع شركِهِم، وهو ردٌّ لما كانوا يقولُونَ نحنُ ولاةُ البيتِ والحرمِ فنصُدُّ من نشاءُ وندخِلُ من نشاءُ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٢/ ٥٨).

﴿إنْ﴾: ما ﴿أَولياؤُهُ إلاّ المُتَّقُونَ، ولكِنَّ أكثَرَهُم لا يَعلَمُونَ﴾ أن لا ولاية لهم عليه. ٣٥ ـ ﴿وما كانَ صَلاتُهُم عِندَ البَيتِ إلاّ مُكاءً﴾: صفيرًا ﴿وتَصدِيةً﴾: تصفيقًا، أي: جعلوا ذلك موضع صلاتهم التي أُمروا بها. ﴿فذُوقُوا العَذابَ﴾ ببدر ﴿بِما كُنتُم تَكفُرُونَ﴾.

٣٦ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أموالَهُم﴾ في حرب النبيّ ﴿لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ. فَسَيُنفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ﴾ في عاقبة الأمر ﴿عَلَيهِم حَسْرَةً﴾: ندامة لفواتها وفوات ما قصدوه، ﴿ثُمَّ يُغلَبُونَ﴾ في الدُّنيا ـ ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا﴾ منهم ﴿إلَى جَهَنَّمَ﴾ في الآخِرة ﴿يُحشَرُونَ﴾: يُساقون ـ.........

قالَ تعَالى: (﴿إلَّا المتَّقُون﴾) أي: من الشِّركِ؛ يعنِي: الذين لا يعبُدُونَ فيه غيره، وقيل: الضَّميرانِ للهِ.

قولُه: (أنْ لا وِلايَةَ) كأنَّهُ نبَّه بالأكثرِ على أنَّ منهم من يعلَمُ ويعانِدُ، أو أرادَ به الكُلَّ كما يُرادُ بالقلَّةِ العدَم.

قولُه: (﴿صَلَاتُهم﴾) أي: دُعاؤُهم، أو ما يسمُّونَهُ صلاةً، أو ما يضَعونَ موضِعَها، كذا في البيضاوِيِّ[١].

وقولُ الشَّيخِ: (الَّتي أُمِرُوا بهَا) زيادَةُ ضررٍ إذِ اختُلِفَ في أنَّ الكفَّارَ مخاطَبونَ بالفُرُوعِ أم لا، والثَّانِي: هو المعتمَدُ عندَنا معَ أنَّ مذهبَ الشَّافعيِّ هو أنَّهُم مخاطَبونَ بالفُروعِ لكن بشرطِ تقدُّمِ الإيمانِ[٢].

قولُه: (ببَدرٍ) وقيل: عذابَ الآخرَةِ.

قولُه: (في حَربِ النَّبيِّ) نزلَتْ في أبي سُفيانَ، كذا في «المبهَمات»[٣]، استأجَرَ ليومِ أُحُدٍ ألفَينِ من العَربِ سوَى من استجاشَ[٤] من العَربِ، وأنفَقَ عليهِم أربعِينَ أوقيةً أو في أصحابِ العيرِ، فإنَّه لمَّا أُصيبَ قُريشٌ ببدرٍ قيل لهم: أعينُوا بهذا المالِ على حربِ محمَّدٍ لعلَّنا ندرِكُ منه ثأرَنا ففعَلوا.

أو في المطعِمينَ يومَ بَدرٍ وكانوا اثنَي عشَرَ رجُلاً من قرَيشٍ يطعِمُ كلُّ واحدٍ منهم كلَّ يومٍ عُشْرَ جُزورٍ.

والمَرادُ بـ(﴿سبِيلِ اللهِ﴾) دينُهُ واتِّباعُ رسولِهِ.

وقولُه تعَالى: (﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾) أي: بتمامِها، ولعلَّ الأوَّلَ: إخبارٌ عن إنفاقِهم في تلك الحالِ، وهو إنفاقُ بدرٍ، والثَّاني: إخبارٌ عن إنفاقِهم فيما يُستَقبلُ وهو إنفاقُ أُحُدٍ.

قولُه: (في الدُّنيَا) أي: آخرَ الأمرِ، وإن كانَ الحربُ بينهم سِجالاً قبلَ ذلك.

قولُه: (مِنهُم) أي: الذين ثبَتُوا على الكُفرِ منهم، إذ أسلَمَ بعضُهُم كأبي سُفيانَ وخالدٍ وعكرِمةَ.

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) انظر: «فصول البدائع» (١/ ٢٩٦)، و«المستصفى» (ص: ٧٣)، و«روضة الناظر» (١/ ١٦٠ ـ ١٦٢)، و«الإبهاج في شرح المنهاج» (١/ ١٧٧).

(٣) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٤٩).

(٤) في (ص): «احتَبَس».

٣٧ ـ ﴿لِيَمِيزَ﴾: مُتعلّق بـ «تكونُ»، بالتخفيف والتشديد، أي: يَفصِلَ ﴿اللهُ الخَبيثَ﴾: الكافرَ ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾: المُؤمنِ، ﴿ويَجعَلَ الخَبيثَ بَعضَهُ علَى بَعضٍ فيَركُمَهُ جَمِيعًا﴾: يجمعَه متراكبًا بعضُه فوق بعض، ﴿فيَجعَلَهُ في جَهنَّمَ. أُولئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ﴾.

٣٨ ـ ﴿قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كأبي سُفيانَ وأصحابِه: ﴿إن يَنتَهُوا﴾ عن الكُفر وقِتال النبيِّ ﷺ ﴿يُغفَرْ لَهم ما قَد سَلَفَ﴾ من أعمالهم، ﴿وإن يَعُودُوا﴾ إلى قِتاله ﴿فقَد مَضَت سُنَّةُ الأوَّلِينَ﴾ أي: سُنَّتُنا فيهم بالإهلاك. فكذا نفعل بهم. ٣٩ ـ ﴿وقاتِلُوهُم حَتَّى لا تَكُونَ﴾: تُوجَدَ ﴿فِتنةٌ﴾: شِركٌ، ﴿ويَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ﴾ وحده ولا يُعبَدَ غيرُه. ﴿فإنِ انتَهَوا﴾ عن الكُفر ﴿فإنَّ اللهَ بِما يَعمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيُجازيهم به،....

قولُه: (متعلِّقٌ بـ﴿تَكُونُ﴾) أي: ما أنفقَهُ المشرِكونَ في عداوَةِ رسولِ اللهِ ﷺ ممَّا أنفقَهُ المسلمُونَ في نُصرتِهِ، أو متعلِّقٌ بـ﴿يُحشَرُونَ﴾ أو ﴿يُغلَبُونَ﴾ أي: الكافِرَ من المؤمنِ، أو الفسادَ من الصَّلاحِ، وبهذا التَّفصيلِ عرَفتُ أنَّ في كلامِ الشَّيخِ تلفِيقاً.

قولُه: (والتَّشدِيد) حمزَة والكِسائِي[1].

قولُه: (﴿على بعض﴾) لفَرْطِ ازدحامِهِم، أو يضمَّ إلى الكافرِ ما أنفَقَهُ ليزِيدَ به عذابَهُ، كمالِ الكانِزينَ.

وقولُه تعَالى: (﴿أُولَئكَ﴾) إشارَةٌ إلى الخبيثِ إن قُدِّرَ: الفريقُ الخبيثُ، أو إلى المنفقينَ، فإنَّهُم الكاملونَ في الخُسرَانِ؛ لأنَّهُم خسِرُوا أنفسَهُم وأموالَهُم.

قولُه: (كأبِي سفيَانَ) أي: قُل لأجلِهِم.

قولُه: (مِن أَعمَالِهِم) الأظهَرُ: من ذنُوبِهِم، أو إشارَةٌ إلى ما قيل:

مَـن لـم يَكُـنْ لِلوِصَـالِ أهلًا   فَـكُـلُّ طَاعَـاتِـهِ ذُنُـوبُ[2]

يعني: فَضلاً عن سائرِ أعمالِهِ.

قولُه: (قِتَالِه) أي: النَّبيِّ ﷺ.

قولُه: (فِيهِم) أي: الأوَّلِينَ الذين تحزَّبُوا على الأنبياءِ كما جَرَى على أهلِ بَدرٍ فليتوَقَّعُوا مثلَ ذلك.

قولُه: (شِرْكٌ) أي: فيهم.

قولُه: (بِه) أي: بانتهائِهِم عنه وإسلامِهِم.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٠٦)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٥٢)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ١٧٢).

(٢) انظر: «ديوان أبي بكر الشبلي» (ص: ٨٩)، إلا أنه قال: فكل إحسانه ذنوب.

٤٠ ـ ﴿وإن تَوَلَّوا﴾ عن الإيمان ﴿فاعلَمُوا أنَّ اللهَ مَولاكُم﴾: ناصرُكم ومُتولّي أُموركم، ﴿نِعمَ المَولَى﴾ هو! ﴿ونِعمَ النَّصِيرُ﴾ أي: الناصرُ لكم!

٤١ ـ ﴿واعلَمُوا أنَّ ما غَنِمتُم﴾: أخذتم من الكُفّار قهرًا ﴿مِن شَيءٍ فأنَّ لِلهِ خُمُسَهُ﴾ يأمرُ فيه بما يشاء، ﴿ولِلرَّسُولِ ولِذِي القُربَى﴾: قرابةِ النبيّ ﷺ من بني هاشم والمُطّلب، ﴿واليَتامَى﴾: أطفالِ المُسلمين الذين هلك آباؤهم وهم فقراء، ﴿والمَساكِينِ﴾: ذوِي الحاجة من المُسلمين، ﴿وابنِ السَّبِيلِ﴾: المنقطع في سفره من المسلمين ـ أي: يستحقّه النبيّ والأصناف الأربعة، على ما كان يقسمه من أنّ لكُلٍّ خُمُسَ الخُمُسِ، والأخماس الأربعة الباقية للغانمين ـ ﴿إن كُنتُم آمَنتُم بِاللهِ﴾ فاعلموا ذلك،

قولُه: (عنِ الإيمَانِ) ولم ينتَهوا عن الكُفرِ.

قولُه: (ناصِرُكُم) فثِقُوا به ولا تُبالُوا بمعاداتِهِم.

قولُه: (هو) لا يُضيِّع من تولَّاهُ.

قولُه: (أي: النَّاصِرُ) لا يُغلَبُ من نصرَهُ.

قالَ تعالى: (﴿مِن شَيءٍ﴾) ممَّا يقعُ عليه اسمُ الشَّيءِ حتَّى المِخْيطِ.

وقولُه: (﴿فَأَنَّ للهِ﴾) مبتدأٌ خبرُه محذُوفٌ؛ أي: ثابتٌ.

قولُه: (يأمُرُ) فيه إشارَةٌ إلى أنَّ ذكرَ ﴿الله﴾ للتَّعظيمِ، وهو قولُ الجمهُورِ(١)، وقيل: سهمُهُ يصرَفُ إلى الكعبَةِ.

قولُه: (بني هاشِمٍ وبَنِي المطَّلِب) دونَ بني عبدِ شمسٍ وبنِي نوفَلٍ.

قولُه: (خُمُسَ الخُمُسِ) وأمَّا بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ فسهمُهُ ساقِطٌ، وكذا سهمُ ذوِي القُربَى، وإنَّما يعطَونَ لفقرِهِم، كذا في «المدَارِك»(٢).

قولُه: (فاعلَمُوا ذلكَ) إشارَةٌ إلى أنَّ ﴿إنْ﴾ متعلِّقٌ بمحذُوفٍ دلَّ عليهِ ﴿واعلَمُوا﴾ أي: إن كنتُم آمنتُم باللهِ فاعلمُوا أنَّ الخُمُسَ لهؤلاءِ فسلِّموهُ إليهم واكتَفُوا بالأخماسِ الأربعةِ الباقِيَةِ، فإنَّ العلمَ العمَلِي إذا أُمرَ به، لم يُرَدْ منه العلمُ المجرَّدُ؛ لأنَّه مقصُودٌ بالعَرَضِ، والمقصودُ بالذَّاتِ هو العمل. هذا كلامُ القاضِي(٣).

وقدَّرَ الفاضلُ الهندِيُّ: فاعلَمُوا بذلك، نصًّا على المقصُودِ، وحَذَراً من التَّكرارِ.

---

(١) وانظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٦٠)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٢)، و«البحر المديد» (٢/ ٣٣٢).

(٢) انظر: «مدارك التنزيل» (١/ ٦٤٥).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٦٠).

﴿وما﴾ ـ عطفٌ على «بالله» ـ ﴿أنزَلْنا علَى عَبدِنا﴾ مُحمّد من الملائكة والآيات ﴿يَومَ الفُرقانِ﴾ أي: يوم بدرٍ الفارقِ بين الحقّ والباطل، ﴿يَومَ التَقَى الجَمعانِ﴾: المسلمون والكُفّار. ﴿واللهُ علَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾، ومنه نصركم مع قِلّتكم وكثرتهم.

٤٢ ـ ﴿إذ﴾ ـ بدلٌ من «يوم» ـ ﴿أنتُم﴾ كائنون ﴿بِالعُدْوةِ الدُّنيا﴾: القُربَى من المدينة، وهي بضمّ العين وكسرها: جانبِ الوادي، ﴿وهُم بِالعُدْوةِ القُصوَى﴾: البُعدى منها، ﴿والرَّكبُ﴾: العِير كائنون بمكانٍ ﴿أسفَلَ مِنكُم﴾ ممّا يلي البحر، ﴿ولَو تَواعَدتُم﴾ أنتم والنفير لِلقِتال ﴿لَاختَلَفتُم في المِيعادِ، ولكِنْ﴾ جمعَكم بغير مِيعاد ﴿لِيَقضِيَ اللهُ أمرًا كانَ مَفعُولاً﴾ في عِلمه، وهو نصر الإسلام ومحق الكُفر، فعلَ ذلك ﴿لِيَهلِكَ﴾: يَكفرَ ﴿مَن هَلَكَ عَن بَيِّنةٍ﴾ أي: بعد حُجّة ظاهرة قامت عليه ـ وهي نصر المُؤمنين مع قِلّتهم على الجيش الكثير ـ ﴿ويَحْيا﴾: يُؤمنَ ﴿مَن حَيَّ عَن بَيِّنةٍ. وإنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قولُه: (الفَارِقَ) فرّقَ اللهُ فيه.

قولُه: (من ﴿يَومَ﴾) أي: ﴿يومَ الفُرقَانِ﴾.

قولُه: (وكسرِهَا) مكّيٌّ وبصريٌّ[١]، وقرئَ بالفتحِ[٢].

قولُه: (العِيرُ) أو قُوّادُها.

قولُه: (بمَكَانٍ) إشارةٌ إلى أنّ ﴿أسفَلَ﴾ منصُوبٌ على الظَّرفِ واقعٌ موقعَ الخبرِ.

وقولُه تعالى: (﴿مِنكُم﴾) أي: من مكانِكُم، والجملةُ حالٌ من الظَّرفِ قبلَهُ.

قولُه: (ممَّا يَلِي البَحرَ) يعني: السَّاحلَ.

قولُه: (للقِتَالِ) ثمَّ علمتُم حالَكُم وحالَهُم (﴿لاختَلَفتُم﴾) أنتم هيبَةً منهم ويأساً من الظَّفَرِ.

قولُه: (في عِلمِهِ) أي: حقيقاً بأن يُفعلَ.

قولُه: (فعلَ) والأولَى: أنَّ ﴿ليَهلِكَ﴾ بدلٌ من ﴿ليَقضِي﴾، أو متعلِّقٌ بقولِه: ﴿مفعُولاً﴾.

قولُه: (يكفُرَ) أي: ليصدُرَ كُفْرُ من كفرَ وإيمانُ من آمنَ عن وضُوحِ بيِّنةٍ على استعارةِ الهلاكِ والحياةِ للكُفرِ والإسلامِ، والمرادُ بـ(﴿مَن هلكَ﴾) و(﴿من حيَّ﴾): المشارفُ للهلاكِ والحياةِ، أو من هذا حالُه في علمِ اللهِ

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٠٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٣١٠)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٢٨)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٢١).

(٢) وهي من القراءات الشاذة، انظر: «البحر المحيط» (٥/ ٣٢٧)، و«الدر المصون» (٥/ ٦٠٩)، ونسبها للحسن وقتادة وزيد بن علي وعمرو بن عبيد.

٤٣ ـ اذكرْ ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ في مَنامِكَ﴾ أي: نومك ﴿قَلِيلاً﴾ فأخبرتَ به أصحابك فسُرّوا، ﴿وَلَو أَراكَهُم كَثِيرًا لَفَشِلتُم﴾: جَبُنتم ﴿ولَتَنازَعتُم﴾: اختلفتم ﴿في الأمرِ﴾: أمر القتال، ﴿ولكِنَّ اللهَ سَلَّمَـ﴾ ـكم من الفشل والتنازُع ـ ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾: بما في القُلوبِ ـ ٤٤ ـ ﴿وإِذْ يُرِيكُمُوهُم﴾، أيُّها المُؤمنون، ﴿إِذِ التَقَيتُم في أعيُنِكُم قَلِيلاً﴾ نحوَ سبعين أو مِائةٍ وهم ألف لتُقدِموا عليهم، ﴿ويُقَلِّلُكُم في أعيُنِهِم﴾ ليُقْدِموا ولا يرجعوا عن قِتالكم ـ وهذا قبل التحام الحرب. فلمّا التحم أراهم إيّاهم مِثلَيهم

وقضائه، أو المعنَى: ليَموتَ من يموتُ عن بيِّنةٍ عايَنها، ويعيشَ من يعيشُ عن حجَّةٍ شاهَدَها لئلَّا يكونَ له حجَّةٌ ومعذِرَةٌ، فإنَّ وقعَةَ بدرٍ من الآياتِ الواضحَةِ.

وقرأَ[1] نافعٌ والبزِّيُّ وشعبَةُ: «من حَيِيَ» بفكِّ الإدغامِ للحملِ على المستقبلِ، ونسبَةُ القاضِي[2] هذهِ القراءَةَ إلى ابنِ كثيرٍ غيرُ صَحيحَةٍ.

قولُه: (اختَلَفتُم) وتفرَّقَتْ آراؤكُم بينَ القرارِ والفرارِ.

قولُه: (﴿سَلَّمَ﴾ كُم) أي: أنعمَ عليكم بالسَّلامةِ.

قولُه: (بمَا في القُلُوبِ) يعلمُ ما سيكونُ فيها وما يُغيِّرُ أحوالَها.

قولُه: (أيُّهَا المُؤمِنُونَ) الضَّميرانِ مفعُولا «يُرِي»، و﴿قَلِيلًا﴾ حالٌ من الثَّانِي.

قولُه: (نَحوَ سَبعِينَ) قال ابنُ مسعودٍ لمن إلى جنبِهِ: أتُراهُم سبعِينَ؟ فقالَ: أُرَاهُم مئةً[3] تثبِيتاً لهم وتصدِيقاً لرُؤيا الرَّسولِ ﷺ.

قولُه: (ليُقْدمُوا) حتَّى قال أبو جهلٍ: إنَّ محمَّداً وأصحابَهُ أكلَةُ جَزُورٍ[4].

قولُه: (مِثلَيهِم) لتُفاجئَهُم الكثرةُ فتبهَتَهُم وتكسِرَ قلوبَهُم، وهذا من عظائمِ آياتِ تلك الواقعةِ فإنَّ البصَرَ وإن كانَ قد يَرى الكثيرَ قليلاً والقليلَ كثيراً لكِنْ لا على هذا الوجهِ، ولا إلى هذا الحدِّ، وإنَّما يتصوَّرُ ذلك بصدِّ اللهِ الأبصارَ عن إبصارِ بعضٍ دُونَ بعضٍ مع التَّساوِي في شرُوطِ الرُّؤيةِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٠٦)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٢٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٣١١).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٦١). قلت: هي من رواية البزي عن ابن كثير، أما قراءة: ﴿حي﴾ فهي لابن كثير من رواية قنبل.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٠٢٦٩)، والطبري في «تفسيره» (١٦١٥٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٠)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٤٧) (١٠٢٦٩)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٦٧)، وأحمد بن منيع كما في «المطالب العالية» لابن حجر (١٧/ ٣١٥) وقال ابن حجر: هذا إسناد صحيح، إن كان أبو عبيدة سمعه من أبيه، فقد اختلف في سماعه منه.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٦٧٨) عن عكرمة، والبزار كما في «كشف الأستار» (٢/ ٣١٣) عن عكرمة عن ابن عباس، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٧٦) (٩٩٥٤): رجاله ثقات.

كما في «آل عمران» ـ ﴿لِيَقضِيَ اللهُ أمرًا كانَ مَفعُولاً. وإلَى اللهِ تَرجِعُ﴾: تصير ﴿الأُمُورُ﴾.

٤٥ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، إذا لَقِيتُم فِئَةً﴾: جماعة كافرة ﴿فاثبُتُوا﴾ لقتالهم ولا تنهزموا، ﴿واذكُرُوا اللهَ كَثِيرًا﴾: ادعوه بالنصر، ﴿لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ﴾: تفوزون، ٤٦ ـ ﴿وأطِيعُوا اللهَ ورَسُولَهُ، ولاتَنازَعُوا﴾: تختلفوا فيما بينكم، ﴿فتَفشَلُوا﴾: تجبنوا ﴿وتَذهَبَ رِيحُكُم﴾: قُوّتكم ودَولتكم، ﴿واصبِرُوا ـ إنَّ اللهَ مَعَ الصّابِرِينَ﴾ بالنصر والعون ـ ٤٧ ـ ﴿ولا تَكُونُوا كالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيارِهِم﴾ ليمنعوا عِيرهم ولم يرجِعوا بعد نجاتها ﴿بَطَرًا ورِئاءَ النّاسِ﴾، حيثُ قالوا: «لا نرجِعُ حتّى نشربَ الخمر وننحرَ الجَزور، وتَضربَ علينا القِيانُ ببدر، فيتسامعَ بذلك النّاسُ»،.........................

وقولُه تعالى: (﴿لِيَقضِيَ اللهُ﴾) كرَّرَهُ لاختلافِ الفعلِ المعلَّلِ.

قولُه: (تصِيرُ) هذا تفسِيرٌ لقراءةِ شامِيٍّ وحمزَةَ والكِسائيِّ على البناءِ للفاعلِ(١)، وأمَّا تَفسيرُ قراءَةِ الباقِينَ(٢) فـ: تُرَدُّ.

قولُه: (جمَاعَةً) أي: حارَبتُم، ولم يصِفْها بالكُفرِ؛ لأنَّ المؤمنينَ ما كانُوا يلقَونَ إلا الكفَّارَ، واللِّقاءُ ممَّا غلبَ في القتالِ.

قولُه: (فِيمَا بَينَكُم) كما فعلتُم ببَدرٍ أو أُحُدٍ، و﴿تنازَعُوا﴾ بحذفِ إحدى التَّاءينِ.

قولُه: (تجبُنُوا) جوابُ النَّهيِ.

قولُه: (﴿رِيحُكُم﴾) الرِّيحُ مُستعارَةٌ للدَّولةِ من حيثُ إنَّها في تمشِّي أمرِها ونفاذِهِ مشبَّهةٌ بها في هُبوبِهَا ونُفُوذِها، أو المرادُ بها: الحقيقَة، فإنَّ النُّصرَةَ لا تكونُ إلَّا بريحٍ يبعثُهَا اللهُ، وفي الحديثِ: «نُصِرتُ بالصَّبَا، وأُهلِكَتْ عَادٌ بالدَّبُورِ»(٣).

قالَ تعالى: (﴿بَطَرًا﴾) أي: فَخراً وأَشراً ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ ليُثنُوا عليهم بالشَّجاعةِ والسَّخاوةِ بها.

قولُه: (القَيْنَاتُ) وفي بعضِ النُّسخِ: «القِيان» الجَوارِي المغنِّياتُ، فوافَوها ولكن سُقُوا كأسَ المنايا وناحَتْ عليهم النَّوائحُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ١٨١)، و«حجة القراءات» (ص: ١٣٠)، و«الحجة للقراء السبعة» (٢/ ٣٠٤)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ١٤٦).

(٢) وهي ﴿تُرجع﴾ بضم التاء، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ١٨١)، و«حجة القراءات» (ص: ١٣١)، و«الحجة للقراء السبعة» (٢/ ٣٠٤)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ١٤٥).

(٣) رواه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٠٣)، وأحمد في «مسنده» (٢٠١٣)، والطيالسي في «مسنده» (٢٧٦٣)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٦٤٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ. واللهُ بِما يَعمَلُونَ﴾ ـ بالياء والتاء ـ ﴿مُحِيطٌ﴾ عِلمًا فيُجازيهم به.

٤٨ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ﴾: إبليس ﴿أعمالَهُم﴾ بأن شجّعهم على لِقاء المُسلمين، لمّا خافوا [حين] الخُروج من أعدائهم بني بكر، ﴿وقالَ﴾ لهم: ﴿لا غالِبَ لَكُمُ اليَومَ مِنَ النّاسِ، وإنِّي جارٌ لَكُم﴾ من كِنانة. وكان أتاهم، في صُورة سُراقةَ بنِ مالكٍ سيّدِ تلك الناحية. ﴿فلَمّا تَراءتِ﴾: التقَتِ ﴿الفِئتانِ﴾ المُسلمة والكافرة ورأى الملائكةَ، وكان يده في يد الحارث بن هشام، ﴿نَكَصَ﴾: رجَع ﴿علَى عَقِبَيهِ﴾ هاربًا، ﴿وقالَ﴾ لمّا قالوا له: «أتَخذُلُنا على هذا الحال»؟: ﴿إنِّي بَرِيءٌ مِنكُم﴾: من جِواركم. ﴿إنِّيَ أرَى ما لا تَرونَ﴾ من الملائكة. ﴿إنِّيَ أخافُ اللهَ﴾ أن يُهلكني، ﴿واللهُ شَدِيدُ العِقابِ﴾.

٤٩ ـ ﴿إذْ يَقُولُ المُنافِقُونَ والَّذِينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾: ضعفُ اعتقاد: ﴿غَرَّ هؤُلاءِ﴾ أي: المسلمين ﴿دِينُهُم﴾ إذ خرجوا مع قِلّتهم يُقاتلون الجمع الكثير توهّمًا أنهم يُنصرون بسببه. قال تعالى في جوابهم: ﴿ومَن يَتَوَكَّلْ علَى اللهِ﴾: يَثِقْ بِهِ يَغلِبْ، ﴿فإنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾: غالب على أمره ﴿حَكِيمٌ﴾ في صُنعه.

قولُه: (باليَاء) العشرَةُ متّفقونَ على الغيبَةِ.

قولُه: (فيُجَازِيهِم) وفي البيضاوِيِّ[1]: فيُجازِيكُم، يوهِمُ أنَّ القراءةَ بالخطابِ، وليس كذلك.

قولُه: (بني بَكرٍ) المشهورُ بنِي كنانَةَ.

وقولُه: (من كنَانَةَ) يدلُّ عليه؛ أي: مجِيرٌ منهم.

قولُه: (وكَانَ) أي: إبلِيسُ.

قولُه: (مَالِكٍ) الكِنانِي.

قولُه: (أن يُهلِكَنِي) ويكون الوقتُ هو الوَقتُ الموعُودُ؛ إذ رَأَى فيه ما لم يرَ قَبلُ، أو المعنَى: يُصيبَنِي مكرُوهٌ من الملائكَة.

قولُه: (ضَعفُ اعتِقَادٍ) أي: الذين لم يطمئنُّوا إلى الإيمانِ بعد، وبقيَ في قلوبِهِم شُبهَةٌ، وقيل: هم المشركُونَ، وقيل: المنافقُونَ، والعطفُ لتغايُرِ الوصفينِ.

قولُه: (معَ قلَّتِهم) ثلاثَمئةٍ وبضعَةَ عَشَر.

قولُه: (الجَمعَ الكَثِير) زُهاءَ ألفٍ.

قولُه: (بسَبَبِهِ) أي: دينِهم.

قولُه: (يَغلِبْ) أشارَ إلى أنَّ الجزاءَ مصدَرٌ، وأنَّ قولَهُ: ﴿فإنَّ اللهَ عَزِيزٌ حكِيمٌ﴾ دليلُ الجزاءِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٦٢).

٥٠ ـ ﴿ولَو تَرَى﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿إِذْ يَتَوَفَّى﴾، بالياء والتاء، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا المَلائكةُ، يَضرِبُونَ﴾: حالٌ ﴿وُجُوهَهُم وأدبارَهُم﴾ بمَقامعَ من حديد، ﴿و﴾ يقولون لهم: ﴿ذُوقُوا عَذابَ الحَرِيقِ﴾ أي: النارِ. وجواب «لو»: لرأيتَ أمرًا عظيمًا. ٥١ ـ ﴿ذلِكَ﴾ التعذيب ﴿بما قَدَّمَتْ أيدِيكُم﴾ ـ عُبّر بهما دون غيرهما، لأنّ أكثر الأفعال تُزاول بهما ـ ﴿وأنَّ اللهَ لَيسَ بِظَلَّامٍ﴾ أي: بذِي ظُلم ﴿لِلعَبِيدِ﴾، فيُعذِّبَهم بغير ذنب. دأبُ هؤلاء ٥٢ ـ ﴿كَدأْبِ﴾: كعادةِ ﴿آلِ فِرعَونَ والَّذِينَ مِن قَبلِهِم، كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ، فأَخَذَهُمُ اللهُ﴾ بالعِقاب ﴿بِذُنُوبِهِم﴾. جُملة «كفروا» وما بعدها: مفسِّرة لما قبلها. ﴿إنَّ اللهَ قَوِيٌّ﴾ على ما يُريده ﴿شَدِيدُ العِقابِ﴾.

٥٣ ـ ٥٤ ـ ﴿ذلِكَ﴾ أي: تعذيب الكفرة ﴿بِأنَّ﴾ أي: بسبب أنّ ﴿اللهَ لَم يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمةً أنعَمَها علَى قَومٍ﴾: مبدّلاً لها بالنقمة، ﴿حتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأنفُسِهِم﴾: يُبدّلوا نِعمتهم كُفرًا كتبديل كُفّار مكّة إطعامَهم من جوع وأمنَهُم من خوف وبَعْثَ النبيّ إليهم، بالكُفر والصدّ عن سبيل الله وقِتال المؤمنين، ﴿وأنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، كَدأْبِ آلِ فِرعَونَ والَّذِينَ مِن قَبلِهِم، كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِم، فأهلَكْناهُم بِذُنُوبِهِم، وأغرَقْنا آلَ فِرعَونَ﴾:..

قولُه: (يا محمَّد) أي: لو رأيتَ، فإنَّ «لو» تجعلُ المضارعَ ماضِياً عكسَ «إنْ».

قولُه: (والتَّاء) التَّأنيثُ للشَّاميِّ[1].

قولُه: (حَالٌ) منهم، أو من الملائكةِ، أو منهما؛ لاشتمالِه على الضَّميرينِ، قالَ تعَالى: ﴿وأَدبَارَهُم﴾ ظهورَهُم، أو أستاهَهُم، ولعلَّ المرادَ تعميمُ الضَّربِ؛ أي: يضربونَ ما أقبلَ منهم وما أدبرَ.

قولُه: (﴿و﴾ يقُولُون) إشارةٌ إلى أنَّ: ﴿ذُوقُوا﴾ عطفٌ على ﴿يَضرِبُون﴾ بإضمارِ القولِ.

قولُه: (بهِمَا) أي: بسببِ ما اكتسبتُم من الكُفرِ والمعاصِي، وهو خبرٌ لـ﴿ذَلِك﴾.

قولُه: (أي: بذِي ظُلم) فالتَّشديدُ للنِّسبَةِ كتَمَّارٍ، أو للتَّكثيرِ لأجلِ العَبيدِ.

قولُه: (لَهَا) الأظهرُ: إيَّاها.

قولُه: (يُبَدِّلُوا نعمَتَهم) الظَّاهر: حتَّى يبدِّلُوا ما بهم من الحالِ إلى حالٍ أسوَأ، كتغييرِ قريشٍ حالَهُم في صلَةِ الرَّحمِ والكَفِّ عن تعرُّضِ الآياتِ والرُّسُلِ السَّابقِينَ بمُعاداةِ الرَّسُولِ ومن تبعَهُ منهم إلى غير ذلك ممَّا أحدَثُوا بعد المبعثِ.

وقولُه: (كتبَدِيلِ كفَّارِ مَكَّة) من إضافةِ المصدرِ إلى المفعُولِ، أو إلى الفاعلِ، والإسنادُ للسَّببِيَّةِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٠٧)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٢١)، و«حجة القراءات» (ص: ٣١١).

قومَه معه، ﴿وكُلٌّ﴾ من الأُمم المُكذِّبة ﴿كانُوا ظالِمِينَ﴾.

ونزل في قُرَيظةَ: ٥٥ ـ ٥٦ ـ ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِندَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ـ فَهُم لا يُؤمِنُونَ ـ الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنهُم﴾ ألاّ يُعينوا المشركين، ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهدَهُم فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ عاهدوا فيها، ﴿وهُم لا يَتَّقُونَ﴾ اللهَ في غدرهم. ٥٧ ـ ﴿فإمّا﴾ ـ فيه إدغام نون «إن» الشرطيّة في «ما» المزيدة ـ ﴿تَثقَفَنَّهُم﴾: تَجِدَنّهم ﴿في الحَربِ فشَرِّدْ﴾: فرِّقْ ﴿بِهِم مَن خَلْفَهُم﴾ من المُحاربين بالتنكيل بهم والعقوبة، ﴿لَعَلَّهُم﴾ أي: الذين خلفهم ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾: يتّعظون بهم، ٥٨ ـ ﴿وإمّا تَخافَنَّ مِن قَومٍ﴾ عاهدوك ﴿خِيانَةً﴾ في العهد بأمارةٍ تلوح لك ﴿فانبِذْ﴾: اطرحْ عهدهم ﴿إِلَيهِم عَلَى سَواءٍ﴾: حالٌ، أي: مُستويًا أنت وهم في العِلم بنقض العهد بأن تُعلِمَهم به، لئلاّ يتّهموك بالغدر. ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الخائِنِينَ﴾.

ونزل فيمن أَفلَتَ يومَ بدر: ٥٩ ـ ﴿ولا تَحسِبَنَّ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ اللهَ، أي: فاتُوه ـ ﴿إِنَّهُم لا يُعجِزُونَ﴾: لا يفوتونه. وفي قراءة بالتحتانيّة، فالمفعول الأوّل محذوف، أي: أنفُسَهم، وفي أُخرى بفتح «أنّ» على تقدير اللام ـ..............................

قولُه: (المكَذِّبَة) أو من غَرْقَى القِبْطِ وقتلَى قريشٍ.

قولُه: (بالتَّنكِيلِ) متعَلِّقٌ بـ﴿شَرِّدْ﴾.

قولُه: (حالٌ) أي: في موقعِ الحالِ؛ أي: من النّابِذِ والمنبُوذِ إليهم.

قولُه: (أَفلَتَ) أي: تخلَّصَ.

قولُه: (وفي قِرَاءَة) لشامِيٍّ وحفصٍ وحَمزَةَ[1].

قولُه: (بالتَّحتَانيَّةِ) يعنِي: في ﴿لا يحسبن﴾[2] فحقُّهُ التَّقدِيمُ على: ﴿إِنَّهُم﴾.

قولُه: (فالمفعُولُ) يعنِي: والفاعِلُ ﴿الذينَ كَفَرُوا﴾ وقيل: الفاعلُ ضمِيرُ أحَدٍ، أو حاسِبٌ، أو ﴿مَن خلفَهم﴾.

قولُه: (مَحذُوف) للتّكرارِ المعنويِّ.

قولُه: (وفي أُخرَى) أي: مختصَّةٌ للشّاميِّ[3].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٠٧)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٥٤)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٢١)، و«حجة القراءات» (ص: ٣١٢).

(٢) في الأصول: «لا يحسبَنَّهم»: وهو خطأ.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٠٨)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٥٧)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٢٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٣١٢).

٦٠ ـ ﴿وأعِدُّوا لَهُم﴾: لقتالهم ﴿ما استَطَعتُم مِن قُوَّةٍ﴾ ـ قال ﷺ: «هِيَ الرَّمْيُ» رواه مسلم ـ ﴿ومِن رِباطِ الخَيلِ﴾: مصدرٌ بمعنى حبسها في سبيل الله، ﴿تُرهِبُونَ﴾: تُخوِّفون ﴿بِهِ عَدُوَّ اللهِ وعَدُوَّكُم﴾ أي: كُفّارَ مكّة ﴿وآخَرِينَ مِن دُونِهِم﴾ أي: غيرهم ـ وهم المنافقون أو اليهود ـ ﴿لا تَعلَمُونَهُمُ، اللهُ يَعلَمُهُم. وما تُنفِقُوا مِن شَيءٍ في سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إلَيكُم﴾ جزاؤه، ﴿وأنتُم لا تُظلَمُونَ﴾: تُنقَصون منه شيئًا.

٦١ ـ ﴿وإن جَنَحُوا﴾: مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ بكسر السين وفتحها: الصُّلحِ ﴿فاجنَحْ لَها﴾ وعاهِدْهم ـ وقال ابن عبّاس: هذا منسوخ بآية السيف. ومُجاهدٌ: مخصوص بأهل الكتاب إذ نزلتْ في بني قُرَيظةَ ـ ﴿وتَوَكَّلْ علَى اللهِ﴾: ثِقْ به ـ ﴿إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ للقول ﴿العَلِيمُ﴾ بالفعل ـ ٦٢ ـ ٦٣ ـ ﴿وإن يُرِيدُوا أن يَخدَعُوكَ﴾ بالصُّلح ليستعدّوا لك ﴿فإنَّ حَسْبَكَ﴾: كافيَك ﴿اللهُ. هُوَ الَّذِي أيَّدَكَ بِنَصرِهِ وبِالمُؤمِنِينَ، وألَّفَ﴾:..............................

قولُه: (لِقِتَالِهِم) أي: ناقضِي العهدِ، أو الكفّار.

قالَ تعَالى: (﴿مِن قُوَّةٍ﴾) من كُلِّ ما يُتقوَّى به في الحربِ.

قولُه: (هيَ الرَّمي) وفي نُسخَةٍ: «هو» فالتَّذكيرُ باعتبارِ الخبرِ، ولعلَّ تخصيصَهُ بالذِّكرِ؛ لأنَّه أقواهُ.

قولُه: (أو اليهُودُ) أو الجنُّ، أو أهلُ فارسَ، أو الشَّياطينُ التي في الدُّورِ، كذا في «المبهَمات»[1].

قالَ تعالى: (﴿لا تَعلَمُونَهُم﴾) أي: لا تعرفُونَهُم بأعيانِهِم.

قولُه: (منهُ) أي: جزائِهِ.

قولُه: (بكَسرِ السِّين) شُعبَةُ[2].

قولُه: (عاهِدْهُم) الأظهرُ: عاهِدْ معهُم، وتأنيثُ الضَّميرِ لحملِ السِّلمِ على نقيضِها وهو الحربُ.

قولُه: (بالفِعلِ) والنيَّة.

قولُه: (كَافِيكَ) قالَ جريرٌ[3]:

إنِّـي وَجَدتُ مِنَ المـكَارِمِ حَسبَكُم ... أَن تَلبَسُـوا خُزَّ الثِّيَابِ وتَشبَعُوا

(١) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٥٠).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٠٨)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٥٨)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٢٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٣١٢).

(٣) انظر: «الكشاف» (٢/ ٢٣٣)، و«أنوار التنزيل» (٣/ ٦٥).

جمع ﴿بَينَ قُلُوبِهِم﴾ بعد الإِحَن، ﴿لَو أنفقتَ ما في الأرضِ جَمِيعًا ما أَلَّفتَ بَينَ قُلُوبِهِم، ولكنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُم﴾ بقُدرته. ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾: غالب على أمره ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يَخرج شيء عن حكمته.

٦٤ ـ ٦٥ ـ ﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ، حَسْبُكَ اللهُ و﴾ حسبُك ﴿مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤمِنِينَ. يا أَيُّها النَّبِيُّ، حَرِّضِ﴾: حُثَّ ﴿المُؤمِنِينَ عَلَى القِتالِ﴾ للكفّار، ﴿إن يَكُنْ مِنكُم عِشرُونَ صابِرُونَ يَغلِبُوا مِائَتَينِ﴾ منهم، ﴿وإن يَكُنْ﴾ ـ بالياء والتاء ـ ﴿مِنكُم مِائَةٌ﴾ صابرة ﴿يَغلِبُوا ألفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُم﴾ أي: بسبب أنّهم ﴿قَومٌ لا يَفقَهُونَ﴾. وهذا خبر بمعنى الأمر، أي: لِيقاتل العشرون منكم المِائتَين والمِائةُ الألفَ ويَثبُتوا لهم.

ثمّ نُسخ لمّا كثروا بقوله: ٦٦ ـ ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُم، وعَلِمَ أَنَّ فِيكُم ضُعفًا﴾ ـ بضمّ الضاد وفتحها ـ عن قِتال عشَرةِ أمثالكم. ﴿فإن يَكُنْ﴾ ـ بالياء والتاء ـ ﴿مِنكُم مِائَةٌ صابِرةٌ يَغلِبُوا مِائَتَينِ﴾ منهم،

قولُه: (الإِحَنِ) كعِنَب جمعُ: إِحْنَةٍ ـ بالكَسر ـ: الحِقدُ والغضَبُ[1]، وهذا من مُعجزاتِهِ ﷺ وبيانُهُ: ﴿لو أنفقتَ﴾... إلخ.

قولُه: (﴿و﴾ حَسبُك) فـ﴿مَن اتَّبَعَكَ﴾ في محلِّ الرَّفعِ عَطفاً على اسمِ ﴿اللهِ﴾، وقيل: في محلِّ النَّصبِ على المفعُولِ معه، أو الجرِّ عَطفاً على كافِ الخطابِ عند الكُوفيِّينَ، نزلَتْ لمَّا أسلمَ معه ﷺ أربَعونَ آخرُهم عُمر، كما أخرجَه الطَّبرانِيُّ وغيرُه[2].

قولُه: (حُثَّ) أي: بالغْ في حثِّهم عليه.

قولُه: (والتَّاء) التَّأنيث؛ الحرميَّان وابنُ عامِرٍ[3].

قولُه: (وهذَا خَبرٌ) الظَّاهرُ: شَرطٌ.

قولُه: (وفتحِهَا) عاصِمٌ وحَمزَةُ[4].

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١١٧٤).

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٦٠) (١٢٤٧٠)، والآجري في «الشريعة» (١٣٥٣) عن ابن عباس رضي الله عنه.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٨) (١١٠٣٢): رواه الطبراني، وفيه إسحاق بن بشر الكاهلي وهو كذاب.

ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٨) عن سعيد بن جبير، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٧٦): وقد روي عن سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير، أن هذه الآية نزلت حين أسلم عمر بن الخطاب وكمل به الأربعون، وفي هذا نظر، لأن هذه الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة، وقبل الهجرة إلى المدينة، والله أعلم.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٠٨)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٦٠)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٢٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٣١٣).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٠٩)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٦١)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٢٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٣١٣).

﴿وإِن يَكُن مِنكُم ألفٌ يَغلِبُوا ألفَينِ بِإذنِ اللهِ﴾: بإرادته. وهو خبر بمعنى الأمر، أي: لِتقاتلوا مثلَيكم وتَثبُتوا لهم. ﴿واللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بعونه.

ونزل لمّا أخذوا الفِداء من أسرى بدر: ٦٧ ـ ﴿ما كانَ لِنَبِيٍّ أن تَكُونَ﴾ ـ بالتاء والياء ـ ﴿لَهُ أَسرَى حَتَّى يُثخِنَ في الأرضِ﴾: يُبالغ في قتل الكُفّار. ﴿تُرِيدُونَ﴾ ـ أيها المُؤمنون ـ ﴿عَرَضَ الدُّنيا﴾: حُطامَها بأخذ الفِداء، ﴿واللهُ يُرِيدُ﴾ لكم ﴿الآخِرَةَ﴾ أي: ثوابَها بقتلهم، ﴿واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. وهذا منسوخ بقوله: «فإمّا مَنًّا بَعدُ، وإمّا فِداءً». ٦٨ ـ ٦٩ ـ ﴿لَولا كِتابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ﴾ بإحلالِ الغنائم والأسرى لكم ﴿لَمَسَّكُم فِيما أخَذتُم﴾ من الفِداء ﴿عَذابٌ عَظِيمٌ﴾.........................

قولُه: (والياء) التَّذكِير للكُوفِي[1].

قولُه: (والياء) التَّذكِير [لغير] بَصرِي[2].

قولُه: (يُبَالِغَ) حتَّى يُذِلَّ الكفرَ، ويقلَّ حزبُهُ، ويعزَّ الإسلامُ ويستَولِي أهلُهُ.

قولُه: (وهذَا مَنسُوخٌ) قال ابنُ عبَّاسٍ: كانَ هذا يومَ بدرٍ، والمسلمونَ يومئذٍ قليلٌ، فلمَّا كثُروا واشتَدَّ سلطانُهُم أنزلَ اللهُ في الأسارَى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعدُ وإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤] فجعلَ اللهُ نبيَّهُ والمؤمنينَ في أمرِ الأسارَى بالخيارِ إن شاؤُوا قتلوهُم وإن شاؤُوا استعبدوهُم، وإن شاؤُوا فادَوهُم، وإن شاؤُوا أعتَقوهُم، كذا ذكَرهُ البغَويُّ[3]، وهو ليسَ نصًّا في النَّسخِ، فتأمَّل.

قالَ تعَالى: (﴿لَولا كِتَابٌ﴾) أي: لولا حُكمٌ سبقَ في اللَّوحِ المحفُوظِ، وهو أنَّه لا يُعاقَب أحدٌ بالخطأ، وكانَ هذا خطأً في الاجتهادِ، وأن لا يعذَّبَ أهلُ بدرٍ، أو أنَّ الفديَةَ التي أخذُوها ستحِلُّ لهُم، وهذا معنَى قوله: (بإحلَالِ الغنَائمِ).

قالَ تعَالى: (﴿عَذَابٌ عَظِيم﴾) رويَ أنَّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام قالَ: «لو نزَلَ العَذابُ لمَا نجَا منه غيرُ عُمرَ وسعدِ بنِ مُعاذٍ»[4] لأنَّهما أشَارَا إلى الإثخانِ.

---

(١) انظر المصادر السابقة.

(٢) انظر المصادر السابقة.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٣١٠).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦٣١٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٣٥) وذكر فيه عمر رضي الله عنه.

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٦٣٢٠) وذكر فيه سعد بن معاذ رضي الله عنه.

قال العراقي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٣٩)، والمناوي في «الفتح السماوي» (٢/ ٦٦١): روى الطبري عن ابن =

فكُلُوا مِمَّا غَنِمتُم حَلالاً طَيِّبًا ـ واتَّقُوا اللهَ ـ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

٧٠ ـ ٧١ ـ ﴿يا أيُّها النَّبيُّ، قُلْ لِمَن في أيدِيكُم مِنَ الأُسارَى﴾، وفي قراءة «الأَسرَى»: ﴿إن يَعلَمِ اللهُ في قُلُوبِكُم خَيرًا﴾: إيمانًا وإخلاصًا ﴿يُؤتِكُم خَيرًا مِمّا أُخِذَ مِنكُم﴾ من الفِداء بأن يُضعِفه لكم في الدنيا ويُثيبَكم في الآخرة، ﴿ويَغفِرْ لَكُم﴾ ذُنوبكم. ﴿واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وإن يُرِيدُوا﴾ أي: الأسرى ﴿خِيانَتَكَ﴾ بما أظهروا من القول ﴿فقَد خانُوا اللهَ مِن قَبلُ﴾: قبلِ بدر بالكفر، ﴿فأمكَنَ مِنهُم﴾ ببدر قتلاً وأسرًا. فلْيتوقَّعوا مثلَ ذلك إن عادوا. ﴿واللهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه.

٧٢ ـ ٧٣ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا بِأموالِهِم وأنفُسِهِم في سَبِيلِ اللهِ﴾ ـ وهم المهاجرون ـ ﴿والَّذِينَ آوَوْا﴾ النبيَّ ﴿ونَصَرُوا﴾هُ ـ وهم الأنصار ـ ﴿أُولئِكَ بَعضُهُم أولِياءُ بَعضٍ﴾ في النُّصرة والإِرث، ﴿والَّذِينَ آمَنُوا ولَم يُهاجِرُوا ما لَكُم مِن وِلايَتِهِم﴾ ـ بكسر الواو وفتحها ـ ﴿مِن شَيءٍ﴾، فلا إرث بينكم وبينهم ولا نصيب لهم في الغنيمة، ﴿حَتَّى يُهاجِرُوا﴾ ـ وهذا منسوخ بآخِر السُّورة ـ......

وقولُه تعالى: (﴿مِمَّا غَنِمتُم﴾) من الفديةِ فإنَّها من جملةِ الغنائمِ.

قولُه: (وفي قِراءَة) لغيرِ أبي عَمرٍو[1]، وسُمِّي منهم العبَّاسُ وعقيلُ ونوفَلُ بنُ الحَارثِ وسُهَيلُ بنُ بيضاءَ[2].

قالَ تعالى: (﴿فَأَمكَنَ﴾) أي: فأمكنَكَ.

قالَ تعالى: (﴿وجَاهَدُوا بأموَالِهِم﴾) بصَرفِها في الخيلِ والسِّلاحِ والإنفاقِ على المحتاجينَ.

قولُه: (النَّبيَّ) والمهاجرينَ إلى ديارِهم.

قولُه: (بكَسرِ الواوِ) حمزَة[3]؛ أي: من تولِّيهم في الميراثِ.

قولُه: (بآخِرِ السُّورَةِ) ﴿وأُولُوا الأَرحَام... ﴾ إلخ.

= إسحاق: لم يكن أحد من المؤمنين ممن حضر بدراً إلا أحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب فإنه جعل لا يلقى أسيراً إلا ضرب عنقه وقال سعد بن معاذ يا رسول الله الإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال فقال رسول الله ﷺ: «لو نزل من السماء عذاب لما نجا منه غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ».

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٠٩)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٦٢)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٢٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٣١٤).

(٢) ذكروا في حديث طويل رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ١٠١) عن موسى بن عقبة.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٠٩)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٦٥)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٢٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٣١٤).

﴿وإنِ استَنصَرُوكُم في الدِّينِ فعَلَيكُمُ النَّصرُ﴾ لهم على الكُفّار ﴿إلاّ علَى قَومٍ بَينكُم وبَينَهُم مِيثاقٌ﴾: عهدٌ، فلا تنصروهم عليهم وتنقضوا عهدهم ـ ﴿واللهُ بِما تَعمَلُونَ بَصِيرٌ ـ والَّذِينَ كَفَرُوا بَعضُهُم أولِياءُ بَعضٍ﴾ في النُّصرة والإرث. فلا إرث بينكم وبينهم. ﴿إلاّ تَفعَلُوهُ﴾ أي: تَولِّيَ المسلمين وقطعَ الكُفّار ﴿تَكُنْ فِتنَةٌ في الأرضِ وفَسادٌ كَبِيرٌ﴾ بقوّة الكُفر وضعف الإسلام.

٧٤ ـ ﴿والَّذِينَ آمَنُوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا في سَبِيلِ اللهِ والَّذِينَ آوَوْا ونَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ المُؤمِنُونَ حَقًّا، لَهُم مَغفِرةٌ ورِزقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنّة، ٧٥ ـ ﴿والَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعدُ﴾ أي: بعدِ السابقين إلى الإيمان والهجرة ﴿وهاجَرُوا وجاهَدُوا مَعَكُم فأُولئِكَ مِنكُم﴾ ـ أيّها المُهاجرون والأنصار ـ ﴿وأُولُو الأرحامِ﴾: ذَوُو القرابات ﴿بَعضُهُم أَولَى بِبَعضٍ﴾ في الإرث من التوارثِ بالإيمان والهجرة المذكورِ في الآية السابقة ﴿في كِتابِ اللهِ﴾: اللوحِ المحفوظ. ﴿إنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾، ومنه حِكمة الميراث.

قولُه: (فلَا إرثَ) يعني: بطَريقِ المفهومِ.

قولُه: (منَ التَّوَارُثِ) متعَلِّقٌ بـ﴿أَوْلى﴾.

قولُه: (اللَّوحِ المَحفُوظ) أو في حُكمِ اللهِ، أو القُرآنِ، قالَ في «المدارِكِ»[1]: وهو دلِيلٌ لنا على توريثِ ذوي الأرحامِ. واللهُ تعالى أعلمُ.

* * *

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (١/ ٦٦٠).

سورة الأنفال

مدنيةٌ كما رُوي عن زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزُّبير، وجاء ذلك في روايةٍ عن ابن عباس ﵄، وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جُبير أنه سُئل الحَبْر عنها فقال: تلك سورةُ بدر، وفي رواية أخرى أنه قال: نزلت في بدر.

وقيل: هي مدنيةٌ إلا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية [٣٠]؛ فإنها نزلت بمكَّة على ما قاله مُقاتل، ورُدَّ بأنه صحَّ عن ابن عباس ﵄ أن هذه الآية بعينها نزلت بالمدينة، وجمع بعضُهم بين القولين بما لا يخلو عن نظر.

واستثنى آخرون قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾الآية [٦٤]، وصحَّحه ابنُ العربيِّ وغيره، ويؤيِّده ما أخرجه البزَّار عن ابن عباس ﵄ أنها نزلت لما أسلم عمر ﵁(١).

وهي في الشاميِّ سبعٌ وسبعون آية، وفي البصريِّ والحجازيِّ ستٌّ وسبعون، وفي الكوفيِّ خمسٌ وسبعون.

ووجه مناسبتها لسورة «الأعراف»: أن فيها: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الآية:١٩٩]، وفي هذه كثيرٌ من أفراد المأمور به، وفي تلك ذِكْرُ قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم، وفي هذه ذِكْر النبيِّ ﷺ وذِكْرُ ما جرى بينه وبين قومه.

وقد فصَّل سبحانه وتعالى في تلك قصصَ آلِ فرعون وأضرابهم، وما حلَّ بهم، وأجمل في هذه ذلك، فقال سبحانه وتعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الآية:٥٢].

---

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار (٢٤٩٥)، وقال الهيثمي في المجمع ٩/ ٦٥: وفيه النضر أبو عمر، وهو متروك. وأخرج نحوه الطبراني في الكبير (١٢٤٧٠)، وأورده الهيثمي في المجمع ٧/ ٢٨، وقال: وفيه إسحاق بن بشر الكاهلي، وهو كذاب.

وأشار هناك إلى سوء زعمِ الكفرة في القرآن بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ [الآية:٢٠٣]، وصرَّح سبحانه وتعالى بذلك هنا بقوله جلَّ وعلا: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الآية:٣١].

وبيَّن جلَّ شأنُه فيما تقدَّم أنَّ القرآن هدًى ورحمةٌ لقومٍ يؤمنون، وأردف سبحانه وتعالى ذلك بالأمرِ بالاستماع له، والأمر بذِكْره تعالى، وهنا بيَّن جلَّ وعلا حال المؤمنين عند تلاوته، وحالَهم إذا ذُكر الله تبارك اسمُه بقوله عزَّ من قائل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الآية:٢]. إلى غير ذلك من المناسبات.

والظاهر أن وضعَها هنا توقيفيٌّ، وكذا وضعُ «براءة» بعدَها، وهما من هذه الحيثية كسائر السور، وإلى ذلك ذهب غيرُ واحدٍ كما مرَّ في المقدِّمات.

وذكر الجلالُ السيوطي[1] أن ذِكْر هذه السورة هنا ليس بتوقيفٍ من الرسول ﷺ للصحابة رضي الله عنهم كما هو المرجَّح في سائر السور، بل باجتهادٍ من عثمان رضي الله عنه.

وقد كان يظهر في بادئ الرأي أنَّ المناسب إيلاءُ «الأعراف» بـ «يونس» و«هود»؛ لاشتراك كلٍّ في اشتمالها على قَصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأنها مكيةُ النزول، خصوصاً أن الحديثَ ورَدَ في فضل السَّبع الطُّول[2]، وعدُّوا السابعةَ «يونس»[3]، وكانت تُسمَّى بذلك كما أخرجه البيهقيُّ في «الدلائل»[4]، ففي فَصْلها من «الأعراف» بسورتين فصلٌ للنظير من سائر نظائره، هذا مع قِصَر سورة «الأنفال» بالنسبة إلى «الأعراف» و«براءة»، وقد استَشْكل ذلك

---

(١) في تناسق الدرر في تناسب السور ص٥٥.

(٢) ينظر حديث واثلة بن الأسقع في فضائل القرآن لأبي عبيد ص١٢١، ومسند أحمد (١٦٩٨٢)، والمعجم الكبير ٢٢/ (١٨٧)، وشعب الإيمان (٢٤١٥)، وحديث عائشة في مسند أحمد (٢٤٤٤٣)، ومسند إسحاق بن راهويه (٨٥٨) والشعب (٢٤١٥).

(٣) أخرج البيهقي في الشعب (٢٤١٨) عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ قال: السبع الطول: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس.

(٤) لم نقف عليه، والذي في دلائل النبوة للبيهقي ٧/ ١٤٢-١٤٣ عن الحسن تسميتها: التاسعة.

قديماً حَبْر الأمة ﷺ، فقال لعثمان ﷺ: ما حمَلَكم على أن عمدتُم إلى «الأنفال» وهي من المثاني، وإلى «براءة» وهي من المئين، فقرنتُم بينهما ولم تكتبوا البسملةَ بينهما، ووضعتُموهما في السبع الطُّوَل؟ ثم ذكر جواب عثمان ﷺ. وقد أسلفنا الخبرَ بطوله سؤالاً وجواباً[١].

ثم قال[٢]: وأقول: يتمُّ [بيان] مقصد عثمان ﷺ في ذلك بأمورٍ فتح الله تعالى بها:

الأول: أنه جعل «الأنفال» قبل «براءة» مع قِصَرها لكونها مشتملةً على البسملة، فقدَّمها لتكون كقطعةٍ منها ومفتتحَها، وتكون «براءة»؛ لخلوِّها من البسملة كتتمَّتها وبقيَّتها، ولهذا قال جماعةٌ من السلف: إنهما سورةٌ واحدة.

الثاني: أنه وَضَع «براءة» هنا لمناسبة الطُّول؛ فإنه ليس بعد الستِّ السابقة سورةٌ أطول منها، وذلك كافٍ في المناسبة.

الثالث: أنه خلَّلَ بالسورتين أثناء السبع الطُّول المعلوم ترتيبُها في العصر الأول، للإشارة إلى أنَّ ذلك أمرٌ صادرٌ لا عن توقيف، وإلى أنَّ رسول الله ﷺ قُبض قبل أن يبيِّن كلتيهما فوُضِعا هنا كالوضع المستعار، بخلاف ما لو وُضِعتا[٣] بعد السبع الطّول؛ فإنه كان يُوهم أن ذلك محلُّهما بتوقيفٍ، ولا يتوهَّم هذا على هذا الوضع؛ للعلم بترتيب[٤] السبع. فانظر إلى هذه الدقيقة التي فتح الله تعالى بها، ولا يغوصُ عليها إلا غوَّاص.

الرابع: أنه لو أخَّرهما وقدَّم «يونس»، وأتى بعد «براءة» بـ «هود»، كما في مصحف أبيٍّ؛ لمراعاة مناسبة السبع، وإيلاءِ بعضها بعضاً، لَفَاتَ مع ما أشرنا إليه أمرٌ آخر آكَدُ في المناسبة؛ فإن الأَولى بسورة «يونس» أن تُوْلَى[٥] بالسور الخمس التي بعدها؛ لِمَا اشتركتْ فيه من المناسبات: من القَصص، والافتتاح بـ «الر»، وبذكر الكتاب، ومن كونها مكيَّات، ومن تناسُب ماعدا «الحجر» في المقدار، ومن

---

(١) سلف ١/ ١٥٣.
(٢) يعني السيوطي.
(٣) في الأصل و(م): وضعا، والمثبت من تناسق الدرر.
(٤) في الأصل و(م): بترتب، والمثبت من تناسق الدرر.
(٥) في الأصل و(م): يؤتى، والمثبت من تناسق الدرر.

التسمية باسم نبيٍّ، والرعد اسمُ ملك، وهو مناسبٌ لأسماء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فهذه عدَّة مناسبات للاتصال بين «يونس» وما بعدها، وهي آكد من ذلك الوجه الواحد في تقديم «يونس» بعد «الأعراف»، ولبعض هذه الأمور قُدِّمت سورة «الحجر» على «النحل» مع كونها أقصرَ منها، ولو أُخِّرت «براءة» عن هذه السور الستِّ لبعُدت المناسبة جدًّا؛ لطولها بعد عدَّة سورٍ أقصر منها، بخلاف وضع سورة «النحل» بعد «الحجر»؛ فإنها ليست كـ «براءة» في الطول.

ويشهد لمراعاة الفواتح في مناسبة الوضع ما ذكرناه من تقديم «الحجر» على «النحل» لمناسبة «الر» قبلها، وما تقدَّم من تقديم «آل عمران» على «النساء»، وإن كانت أقصر منها؛ لمناسبتها «البقرة» في الافتتاح بـ «الم»، وتوالي الطواسين والحواميم، وتوالي «العنكبوت»، و«الروم»، و«لقمان»، و«السجدة»؛ لافتتاح كلٍّ بـ «الم»، ولهذا قُدِّمت «السجدة» على «الأحزاب» التي هي أطولُ منها. هذا ما فتح الله تعالى به عليَّ.

ثم ذَكَر أن ابن مسعود ﷺ قدَّم في مصحفه «البقرة»، و«النساء»، و«آل عمران»، و«الأعراف»، و«الأنعام»، و«المائدة»، و«يونس»، راعى السبع الطُّول فقدَّم الأطول منها فالأطول، ثم ثنَّى بالمئين، فقدم «براءة»، ثم «النحل»، ثم «هود»، ثم «يوسف»، ثم «الكهف»، وهكذا الأطول فالأطول.

وجعل «الأنفال» بعد «النور»، ووجه المناسبة أن كلًّا مدنيةٌ ومشتملة على أحكام(١)، وأن في «النور»: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [الآية: ٥٥]، وفي «الأنفال»: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلخ [الآية: ٢٦]. ولا يخفى ما بين الآيتين من المناسبة؛ فإن الأولى مشتملةٌ على الوعد بما حصل، وذكّر به في الثانية، فتأمَّل. اهـ.

وأقول: قد منَّ الله تعالى على هذا العبد الفقير بما لم يَمُنَّ به على هذا المولى الجليل، والحمد لله تعالى على ذلك، حيث أوقفني سبحانه على وجهِ مناسبةِ هذه السورة لما قبلها، وهو لم يُبيِّن ذلك.

---

(١) في الأصل: الأحكام.

ثم ما ذكره من عدم التوقيف في هذا الوضع في غاية البعد كما يُفهم مما قدمناه في المقدمات، وسؤال الحبر وجوابُ عثمان رضي الله عنهما ليسا نصًّا في ذلك.

وما ذكره عليه الرحمةُ في أول الأمور التي فتح الله تعالى عليه بها غيرُ ملائم بظاهره ظاهرَ سؤال الحبر رضي الله عنه؛ حيث أفاد أن إسقاط البسملة من «براءة» اجتهاديٌّ أيضاً، ويُستفاد مما ذكره خلافُه، وما ادَّعاه من أن «يونس» سابعةُ السبع الطول ليس أمراً مجمَعاً عليه، بل هو قولُ مجاهد، وابن جُبير، وروايةٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي رواية عند الحاكم أنها «الكهف»[1]. وذهب جماعةٌ - كما قال في «إتقانه»- إلى أن السبع الطُّول أولُها «البقرة» وآخرها «براءة»[2]، واقتصر ابنُ الأثير في «النهاية» على هذا[3]، وعن بعضهم أن السابعة «الأنفال» و«براءة»، بناء على القول بأنهما سورة واحدة، وقد ذكر ذلك الفيروزآبادي في «قاموسه»[4].

وما ذكره في الأمر الثاني يغني عنه ما علَّل به عثمانُ رضي الله عنه؛ فقد أخرج النحاس في «ناسخه» عنه أنه قال: كانت «الأنفال» و«براءة» تُدْعيان في زمن رسول الله ﷺ: القرينتين، فلذلك جعلتُهما في السبع الطول[5].

وما ذكره من مراعاة الفواتح في المناسبة غير مطَّرد؛ فإن «الجن»، و«الكافرون»، و«الإخلاص» مفتتَحات بـ «قل»، مع الفصل بعدَّة سور بين الأولى والثانية، والفصل بسورتين بين الثانية والثالثة. وبعد هذا كلِّه لا يخلو ما ذكره عن نظرٍ كما لا يخفى على المتأمِّل، فتأمَّل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ جمع نَفَل بالفتح: وهو الزيادة، ولذا قيل للتطوع: نافلة، وكذا لولد الولد، ثم صار حقيقةً في العطية، ومنه قولُ لبيد:

---

(١) المستدرك ٢/ ٣٥٥.

(٢) الإتقان ١/ ١٩٩.

(٣) النهاية (طول).

(٤) مادة (طول).

(٥) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٣٩٨.

إنَّ تقوى ربِّنا خيرُ نَفَلْ وبإذن الله رَيْثي وعَجَلْ[١]

لأنها لكونها تبرعاً غير لازم كأنها زيادةٌ، ويسمَّى به الغنيمةُ أيضاً، وما يشترطُه الإمام للغازي زيادةً على سهمه لرأي يراه، سواءٌ كان لشخصٍ معيَّن، أو لغيرِ معيَّنٍ كـ : «مَن قَتَلَ قتيلاً فله سَلَبه»[٢]. وجعلوا من ذلك ما يزيدُه الإمام لمن صدر منه أثرٌ محمود في الحرب، كبِرازٍ، وحُسْنِ إقدام، وغيرهما.

وإطلاقه على الغنيمة باعتبار أنها منحةٌ من الله تعالى من غير وجوب، وقال الإمام عليه الرحمة: لأن المسلمين فُضِّلوا بها على سائر الأمم التي لم تحلَّ لهم[٣]. ووجهُ التسمية لا يلزم اطِّرادُه، وفي الخبر أن المغانم كانت محرَّمةً على الأمم، فنفَّلها الله تعالى هذه الأمة[٤].

وقيل: لأنها زيادةٌ على ما شُرع الجهاد له، وهو إعلاءُ كلمة الله تعالى، وحمايةُ حوزة الإسلام، فإن اعتُبِر كونُ ذلك مظفوراً به سُمِّي غنيمةً.

ومن الناس من فرَّق بين الغنيمة والنفل بالعموم والخصوص، فقيل: الغنيمةُ: ما حصل مستغنماً سواءٌ كان ببعثٍ أو لا، باستحقاقٍ أو لا، قبل الظَّفَر أو بعده. والنفل: ما قبل الظَّفَر، أو ما كان بغير قتال وهو الفيء، وقيل: ما يفضُلُ عن القسمة.

ثم إن السؤال- كما قال الطيبي، ونُقل عن الفارسي- إمَّا لاستدعاءِ معرفةٍ أو ما يؤدي إليها، وإما لاستدعاء جَداً[٥] أو ما يؤدي إليه، وجواب الأول باللسان، وينوب عنه اليدُ بالكتابة أو الإشارة، ويتعدَّى بنفسه وبعن والباء، وجواب الثاني باليد، وينوب عنها اللسان موعداً وردًّا، ويتعدَّى بنفسه أو بمن، وقد يتعدَّى لمفعولين، كأعطى واختار، وقد يكون الثاني جملة استفهامية نحو: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم﴾ [البقرة: ٢١١].

---

(١) ديوان لبيد ص١٧٤.
(٢) أخرجه أحمد (٢٢٦٠٧)، والبخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١) من حديث أبي قتادة ﷺ.
(٣) تفسير الرازي ١٥/ ١١٤.
(٤) يشير إلى قوله ﷺ: «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي»، وقد سلف تخريجه ٩/ ٣٧٠.
(٥) الجَدَا: العطيَّة. القاموس: (جدو).

والمراد بـ «الأنفال» هنا: الغنائم كما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد، وطائفةٍ من الصحابة وغيرهم، وبالسؤال: السؤالُ لاستدعاء المعرفة كما اختاره جمعٌ من المفسرين؛ لتعدِّيه بـ «عن»، والأصل عدمُ ارتكاب التأويل، ويؤيِّد ذلك ما أخرجه أحمد، وابن حبان، والحاكم من حديث عبادة بن الصّامت رضي الله عنه ـ وهو سبب النزول ـ أنَّ المسلمين اختلفوا في غنائم بدر وفي قِسْمتها، فسألوا رسول الله ﷺ كيف تُقسم، ولمن يُحكم فيها، أهو للمهاجرين، أم للأنصار، أم لهم جميعاً؟ فنزلت هذه الآية[١].

وقال بعضهم: إن السؤال استعطاءٌ، والمراد بالنفل ما شُرِط للغازي زائداً على سهمه، وسبب النزول غير ما ذُكر؛ فقد أخرج عبد الرزاق في «المصنف»، وعَبْد بن حُميد، وابنُ مَرْدويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما كان يومُ بدر قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قتل قتيلاً فله كذا، ومَنْ جاء بأسيرٍ فله كذا» فجاء أبو اليَسَر بن عمرو الأنصاريُّ بأسيرين، فقال: يا رسول الله، إنك قد وعدتَنا. فقام سعد بنُ عبادة فقال: يا رسول الله، إنك إن أعطيتَ هؤلاء لم يبقَ لأصحابك شيء، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادةٌ في الأجر، ولا جبنٌ عن العدو، وإنما قمنا هذا المقام محافظةً عليك أن يأتوك من ورائك. فتشاجَروا، فنزل القرآن[٢].

وادَّعوا زيادة «عن»، واستدلُّوا لذلك بقراءة ابن مسعود، وسعد بن أبي وقَّاص، وعليِّ بن الحسين، وزيد، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق، وطلحة بن مصرِّف: «يسألونك الأنفال»[٣].

وتُعقِّب بأن هذه القراءةَ من باب الحذف والإيصال، وليست دعوى زيادة «عن» في القراءة المتواترة لسقوطها في الأخرى أَولى من دعوى تقديرها في تلك القراءة لثبوتها في القراءة المتواترة، بل قد ادَّعى بعضٌ أنه ينبغي حَمْل قراءة إسقاط «عن» على إرادتها، لأن حذفَ الحرف وهو مرادٌ معنًى أسهلُ من زيادته للتأكيد.

---

(١) مسند أحمد (٢٢٧٦٢)، وصحيح ابن حبان (٤٨٥٥)، والمستدرك ٢/ ١٣٥-١٣٦.
(٢) مصنف عبد الرزاق (٩٤٨٣)، وعزاه لعبد بن حميد وابن مردويه السيوطي في الدر ٣/ ١٦٠.
(٣) القراءات الشاذة ص٤٨، والمحتسب ١/ ٢٧٢، والبحر المحيط ٤/ ٤٥٦.

على أنه يُبعِد القولَ بالزيادة هنا الجوابُ بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فإنَّ المراد به اختصاصُ أمرها وحكمِها بالله تعالى ورسوله ﷺ، فيقسمُها النبيُّ عليه الصلاة والسلام كما يأمرُه الله تعالى من غير أن يدخل فيه رأي أحد؛ فإن مَبْنَى ذلك القول القولُ بأن السؤالَ استعطاءٌ، ولو كان كذلك لما كان هذا جواباً له؛ فإن اختصاصَ حكم ما شُرِط لهم بالله تعالى والرسول ﷺ لا ينافي إعطاءه إياهم، بل يُحقِّقُه؛ لأنهم يسألونَه بموجب شرطِ الرسول عليه الصلاة والسلام الصادر عنه بإذن الله تعالى، لا بحكمِ سَبْقِ أيديهم إليه، أو نحو ذلك مما يخلُّ بالاختصاص المذكور.

وحَمْل الجواب على معنى أن الأنفال بذلك المعنى مختصَّةٌ برسول الله ﷺ، لا حقَّ فيها للمنفَّل كائناً من كان، لا سبيل إليه قطعاً؛ ضرورةَ ثبوت الاستحقاق بالتنفيل، وادعاءُ ثبوته بدليل متأخِّر التزامٌ لتكرُّر النسخ من غير علم بالناسخ الأخير، ولا مساغَ للمصير إلى ما ذهب إليه مجاهد وعكرمة والسُّدي من أن الأنفال كانت لرسول الله ﷺ خاصَّةً ليس لأحد فيها شيء بهذه الآية، فنُسخت بقوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١] لِمَا أن المراد بـ «الأنفال» فيما قالوا هو المعنى الأولُ حسبما نطقَ به قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ الآية [الأنفال: ٤١]، على أن الحقَّ أنه لا نسخَ حينئذٍ حسبما قاله عبد الرحمن بنُ زيد بن أسلم، بل بيَّن هنا إجمالاً أن الأمر مفوَّضٌ لرسول الله ﷺ، وشرح فيما بعدُ مصارِفَها وكيفيةَ قسمتها. وادعاءُ اقتصار الاختصاص بالرسول ﷺ على الأنفال المشروطةِ يوم بدر بجعلِ اللام للعهد، مع بقاء استحقاق المنفلِ[1] في سائر الأنفال المشروطة، يأباه مقامُ بيان الأحكام، كما يُنبئ عنه إظهارُ «الأنفال» في مقام الإضمار. على أنَّ الجواب عن سؤالِ الموعود ببيان كونه له عليه الصلاة والسلام خاصَّة مما لا يليق بشأنه[2] الكريم أصلاً.

وقد رُوي عن سعد بن أبي وقَّاص أنه قال: قُتل أخي عُمير يوم بدر، فقتلتُ به سعيد بن العاص، وأخذتُ سيفَه فأعجبني، فجئتُ به رسولَ الله ﷺ فقلت: إن الله

---

(١) في الأصل: المتنقل.

(٢) في الأصل: بشأن، والمثبت من (م)، غير أنه سقط منها لفظ: لا.

قد شفى صدري من المشركين، فهَبْ لي هذا السيفَ، فقال عليه الصلاة والسلام: «ليس هذا لي ولا لك، إِطرحْه في القَبَض»، فطرحتُه وبي ما لا يعلَمُه إلا الله من قتل أخي وأَخْذ سَلَبي، فما جاوزتُ إلا قليلاً حتى نزلت سورةُ «الأنفال»، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا سعدُ، إنك سألتني السيفَ وليس لي، وقد صار لي، فاذهب فخُذْه»[١].

وهذا كما ترى يقتضي عدمَ وقوع التنفيل يومئذٍ، وإلا لكان سؤالُ السيف من سَعْد بموجب شرطِهِ عليه الصلاة والسلام ووَعْدِه، لا بطريق الهبة المبتدأة، وحمْلُ ذلك من سعد على مراعاة الأدب مع كون سؤاله بموجب الشرط يردُّه ردُّه ﷺ قبل النزول، وتعليلُه بقوله: «ليس هذا لي»؛ لاستحالة أن يَعِدَ ﷺ بما لا يقدِرُ على إنجازه، وإعطاؤه عليه الصلاة والسلام بعد النزول وترتيبُه على قوله: «وقد صار لي» ضرورةَ أن مناطَ صيرورتِهِ له ﷺ قوله تعالى: (ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ)، والفرض أنه المانعُ من إعطاء المسؤول.

ومما هو نصٌّ في الباب قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فإنه لو كان السؤالُ طلباً للمشروط لما كان فيه محذورٌ يجب اتقاؤه. قاله شيخُ الإسلام عليه الرحمة[٢]. وحاصلُه: إنكار وقوع التنفيل حينئذٍ، وعدمُ صحة حمل السؤال على الاستعطاء، و«الأنفال» على المعنى الثاني من معنييها.

وأنا أقول: قد جاء خبرُ التنفيل عن ابن عباس رضي الله عنهما من الطريق الذي ذكرناه، ومن طريقٍ آخر أيضاً؛ فقد أخرج ابنُ أبي شيبة وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن حبان وأبو الشيخ والبيهقيُّ في «الدلائل» والحاكم ـ وصحَّحه ـ عنه رضي الله عنه قال: لما كان يومُ بدر قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ قتل قتيلاً فله كذا وكذا، ومَنْ أسر أسيراً فله كذا وكذا». فأما المشيخةُ فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان فتسارعوا إلى القتل والغنائم، فقالت المشيخةُ للشبَّان: أشرِكونا معكم؛ فإنا كنَّا لكم ردءاً، ولو كان

(١) سيذكر المصنف تخريجه قريباً، وسيذكر أن سعيد بن العاص غير محفوظ، وأن المحفوظ: العاصي بن سعيد.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢-٣.

منكم شيء للجأتُم إلينا، فاختصموا إلى النبيِّ ﷺ، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية، فقسَمَ الغنائمَ بينهم بالسوية[(١)].

ويشير إلى وقوعه أيضاً ما أخرجه أحمد وعَبْد بن حُميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم والبيهقيُّ في «السنن» عن أبي أُمامة قال: سألتُ عبادة بنَ الصامت عن الأنفال، فقال: فينا أصحابَ بدرٍ نزلت، حين اختلفنا في النفل، فساءتْ فيه أخلاقُنا، فانتزعه الله تعالى من أيدينا وجعله إلى رسوله ﷺ، فقسَمه عليه الصلاة والسلام بين المسلمين عن بَوَاء[(٢)].

ولعل في الباب غيرُ هذه الروايات، فكان على الشيخ حيثُ أنكَرَ وقوع التنفيل أن يطعَنَ فيها بضعفٍ ونحوِه ليتمَّ له الغرضُ.

وماذكره من حديث سعد بن أبي وقَّاص فقد أخرجه أحمد، وابن أبي شيبة عنه[(٣)]، وهو ـ مع أنه وقع فيه سعيد بن العاصي والمحفوظُ كما قال أبو عُبيد[(٤)]: العاصي بن سعيد ـ مضطربُ المتن؛ فقد أخرج عَبْد بن حُميد والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعد أنه قال: أصاب رسولُ الله ﷺ غنيمة عظيمة، فإذا فيها سيفٌ، فأخذتُه فأتيت رسولَ الله ﷺ، فقلت: نفِّلني هذا السيفَ، فأنا مَنْ علمتَ. فقال: «رُدَّه من حيث أخذتَه» فرجعتُ به، حتى إذا أردتُ أن أُلقِيَه في القَبَض لامتني نفسي، فرجعتُ إليه عليه الصلاة والسلام فقلتُ: أعطِنِيه. فشدَّ لي صوتَه، وقال: «رُدَّه من حيث أخذتَه»، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾[(٥)]. فإن هذه الرواية

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٣٥٦، وسنن أبي داود (٢٧٣٧)، والسنن الكبرى للنسائي (١١١٣٣)، وتفسير الطبري ١١/ ١٣، والأوسط لابن المنذر ١١/ ١٤٦، وصحيح ابن حبان (٥٠٩٣)، ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ١٣٥، والمستدرك ٢/ ٣٢٦-٣٢٧. وعزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر ٣/ ١٥٩، وعنه نقل المصنف.

(٢) مسند أحمد (٢٢٧٤٧)، وتفسير الطبري ١١/ ١٤-١٥، والمستدرك ٢/ ١٣٦، وسنن البيهقي ٦/ ١٩٢، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٣/ ١٥٩. والبواء: السواء. القاموس (بوأ).

(٣) مسند أحمد (١٥٥٦)، ومصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٣٧٠، وأخرجه أيضاً أبو عبيد في الأموال (٧٥٦).

(٤) في الأموال (٧٥٦)، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٤/ ٢٥١.

(٥) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٣٦٩-٣٧٠، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٣/ ١٥٩، وهو عند مسلم ص١٨٧٧ (١٧٤٨) كتاب فضائل الصحابة.

ظاهرةٌ في أن السيفَ لم يكن سَلَباً كما هو ظاهرُ الرواية الأولى، بل إن سعداً رضي الله عنه وجَدَه في الغنيمة، وطلبه نفلاً على سهمه الشائع فيها.

وأخرج النحاس في «ناسخه» عن سعيد بن جُبير، أن سعداً ورجلاً من الأنصار خرجا يتنفَّلان، فوجدا سيفاً ملقًى، فخرّا عليه جميعاً، فقال سعد: هو لي. وقال الأنصاريُّ: هو لي، لا أُسلمه حتى آتي رسولَ الله ﷺ، فأتياه فقصَّا عليه القصةَ، فقال عليه الصلاة والسلام: «ليس لك يا سعدُ ولا للأنصاريِّ، ولكنه لي»، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية[١].

ومخالفةُ هذه الرواية للروايتين السابقتين المختلفتين كما علمتَ في غاية الظهور، فلا يكاد يعوَّل على إحداها إلا بإثبات أنها الأصحُّ، ولم نقف على أنهم نصُّوا على تصحيح الرواية التي ذكرها الشيخ[٢]، فضلاً عن النصِّ على الأصحِّيَّة.

نعم أخرج أحمد وأبو داود والترمذيُّ ـ وصحَّحه ـ والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم ـ وصححه ـ والبيهقيُّ في «السنن» عن سعدٍ المذكور رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول، قد شفاني الله تعالى اليوم من المشركين، فهَبْ لي هذا السيفَ، قال: «إن هذا السيفَ لا لك ولا لي، ضَعْه». فوضعتُه ثم رجعتُ، قلت: عسى يُعطي هذا السيفَ اليوم مَنْ لا يُبلي بلائي، إذا رجلٌ يدعوني من ورائي، قلت: قد أُنزل فيَّ شيء. قال عليه الصلاة والسلام: «كنتَ سألتني هذا السيفَ وليس هو لي، وإني قد وُهِبَ لي، فهو لك». وأنزل الله هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ إلخ[٣].

---

(١) الناسخ والمنسوخ ٢/ ٣٧٠. وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) بل هي رواية ضعيفة؛ فإنها من طريق محمد بن عبيد الله الثقفي عن سعد، ومحمد لم يدرك سعداً، والرواية المذكورة عن سعيد بن جبير ضعيفة أيضاً، لأنها غير متصلة كما ذكر النحاس، وفي إسنادها أحمد بن محمد بن الحجاج، قال ابن عدي: كذبوه، وأنكرت عليه أشياء. الميزان ١/ ١٣٣. والصحيح هي الرواية الثانية، وقد أخرجها مسلم كما سلف.

(٣) مسند أحمد (١٥٣٨)، وسنن أبي داود (٢٧٤٠)، وسنن الترمذي (٣٧٠٩)، والسنن الكبرى للنسائي (١١١٣٢)، وتفسير الطبري ١١/ ١٥-١٦، وتفسير ابن أبي حاتم (٨٧٥٦)، والمستدرك للحاكم ٢/ ١٣٢، وسنن البيهقي ٦/ ٢٩١. وأخرجه بنحوه مسلم (١٧٤٨): (٣٤).

فهذه الروايةُ وإن نُصَّ فيها على التصحيح، إلا أنه ليست ظاهرةً في أن السيف كان سَلَباً له من عُمير كما هو نصُّ الرواية الأولى، وإن قلنا: إن هذه الرواية وإن لم تكن موافقةً للأولى حذو القذَّة بالقذَّة، لكنها ليست مخالفةً لها، وزيادةُ الثقة مقبولةٌ سواء كانت في الأول أم في الآخر أم في الوسط، فلا بدَّ من القول بالنسخ؛ كما هو إحدى الروايات عن ابن عباس ﵄؛ لما أنها ظاهرةٌ في كون الأنفال صارت ملكاً لرسول الله ﷺ، ليس لأحدٍ فيها حقٌّ أصلاً، إلا أن يجودَ عليه ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ كما يجودُ من سائر أمواله.

والمولى المذكورُ ذهب إلى القولِ بعدم النَّسخ، ولم يعلم أنَّ هذا الخبرَ الذي استنَدَ إليه في إنكار وقوعِ التَّنفيل يعكِّر عليه.

وادعاءُ أنَّ معنى قوله ﷺ فيه: «وقد صار لي»: أنه: صار حكمُه لي، لكنْ عبَّر بذلك مشاكلةً لِمَا في الآية، يردُّه ما في الرواية الأخرى المنصوصِ على صحَّتها من الترمذي والحاكم: «وإني قد وُهِبَ لي»، وحَمْل ذلك أيضاً على مثل ماحُمِل عليه الأول مما لا يكاد يُقدِمُ عليه عارفٌ بكلام العرب، لا سيما كلام أفصح مَنْ نطَقَ بالضاد ﷺ.

وما ذكره قُدِّس سره من أن قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ﴾إلخ لا يكون جواباً لسؤال الاستعطاء؛ فإنَّ اختصاصَ حكم ما شُرِط لهم بالرسول عليه الصلاة والسلام لا ينافي الإعطاءَ بل يُحقِّقُه = قد يُجاب عنه بالتزام الحمل الذي ادعى أن لا سبيلَ إليه قطعاً، ويقال بالنسخ، وهو من نَسْخِ السُّنة قبل تقرُّرِها بالكتاب، وأن المنسوخَ إنما هو ذلك التنفيلُ.

والتنفيلُ الذي يقول به العلماءُ اليوم هو أن يقول الإمام: مَنْ قتل قتيلاً فله سَلَبُه، أو يقول للسَّرية: جعلتُ لكم الربع بعد الخمس، أي: بعد ما يُرفع الخمسُ للفقراء، وقد يكون بغير ذلك، كالدراهم والدنانير.

وذكر في «السِّير الكبير» أنه لو قال: ما أصبتُم فهو لكم، ولم يقل: بعد الخُمس، لم يَجُزْ؛ لأن فيه إبطالَ الخمسِ الثابتِ بالنصِّ، وبعين ذلك يبطل ما لو قال: من أصاب شيئاً فهو له؛ لاتحاد اللازم فيهما، بل هو أولى بالبطلان، وبه

أيضاً ينتفي ما قالوا: لو نفَّل بجميع المأخوذ جاز إذا رأى مصلحةً، وفيه زيادةُ إيحاش الباقين وإيقاع الفتنة.

وذكر السادة الشافعية أن الأصحَّ أن النفلَ يكون من خُمس الخُمس المُرْصَدِ للمصالح إن نفل مما سيغنم في هذا القتال؛ لأنه المأثور عندهم كما جاء عن ابن المسيّب.

ويحتمِلُ أن التنفيلَ المنسوخَ الواقعَ يوم بدر ـ عند القائلِ به ـ لم يكن كهذا الذي ذكرناه عن أئمتنا، وكذا عن الشافعية الثابتِ عندهم بالأدلَّة المذكورة في كتب الفريقين، والأخبارُ التي وقفنا عليها في ذلك التنفيل غيرُ ظاهرةٍ في اتحاده مع هذا التنفيل، وحينئذ فما نُسِخ لم يثبت، وإنما ثبَتَ غيرُه. وربما يقال على فَرَض تسليم أن ما ثبَتَ هو ما نُسخ: إن دليل ثبوته هو قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥]؛ فإن في ذلك التحريض ما لا يخفى، ودعوى أن حَمْل «أل» في «الأنفال» على العهد يأباه المقامُ، في حيِّز المنع، ومما يُستأنس به للعهد أنه يقال لسورة «الأنفال»: سورة «بدر»، فلا بِدْع أن يراد من «الأنفال» أنفالُ بدر.

وإنباء الإظهار في مقام الإضمار على ما ادَّعاه في غاية الخفاء، وكونُ الجواب عن سؤال الموعود ببيان اختصاصه به عليه الصلاة والسلام مما لا يليقُ بشأنه الكريم أصلاً، مما لا يكاد يُسلَّم، كيف والحكمُ إلهيٌّ، والنبيُّ ﷺ مأمورٌ بالإبلاغ؟

وقد يقال: حاصلُ الجواب: يا قوم، إن ما وعدتُكم به بإذن الله تعالى قد ملَّكنيه سبحانه وتعالى دونكم، وهو أعلمُ بالحكمة فيما فعَلَ أولاً وآخراً، فاتقوا الله من سوء الظنِّ وعدمِ الرِّضا بذلك. ومن هنا يُعلم حسنُ الأمرِ بالتقوى بعد ذلك الجواب، وبطلانُ ما ادَّعاه المولى المدقِّقُ من أن هذا الأمر نصٌّ في الباب.

وقد يقال أيضاً: لا مانعَ من أن يُحمل السؤال على الاستعلام والاختصاصُ على اختصاصِ الحكم مع كون المراد بـ «الأنفال» المعنى الثاني، والمعنى: يسألونَكَ عن حالِ ما وعدتَهم إيَّاه؛ هل يستحقُّونه وإن حُرِمَ غيرُهم ممَّن كان رِدْءاً وملجأً؛ حيث إنك وعدتَهم وأطلقتَ لهم الأمر؟ قل: إن ذلك الموعودَ قد نُسِخ

استحقاقُكم له بالوعدِ المأذون فيه من قَبْل، وفُوِّضَ أمرُه إليَّ، ولم يُحجَر عليَّ بإعطائِه لكم دون غيركم، بل رخّصتُ أن أساوي أصحابَكم الذين كانوا ردءاً لكم معكم؛ لئلا يرجع أحدٌ من أهل بدرٍ بخفَّي حُنَين، ويستوحشوا من ذلك، وتَفْسُدَ ذاتُ البَيْن، فاتقوا الله تعالى من الاستقلال بما أخذتُموه، أو إخفاء شيء منه بناءً على أنَّكم كنتُم موعودين به، ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾بالردِّ والمواساة فيما حلَّ بأيديكم، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في كلِّ ما يأمُرُ به وينهى عنه؛ فإنَّ في ذلك مصالحَ لا تعلمونها، وإنما يعلَمُها الله تعالى ورسولُه ﷺ.

وتقريرُ السؤال والجواب على هذا الأسلوب، وإن لم يكن ظاهراً، إلا أنه ليس بالبعيد جدّاً.

ثم ما ذكره قدِّس سرُّه من أن حديثَ النسخ الواقعِ في كلام مجاهد وعكرمة والسُّدي إنما هو للأنفال بالمعنى الأول؛ لدلالة الناسخ على ذلك = مُسَلَّم، لكن جاء في آخر رواية النحَّاس عن ابن جُبَير السابقة في قصَّة سعدٍ وصاحبِه الأنصاريِّ ؓ ما يُوهم كونَ النسخ للآية، مع حَمْل «الأنفال» على غير ذلك المعنى، وليس كذلك.

هذا ثم إني أعود فأقول: إن هذا التكلُّفَ الذي تكلَّفناه إنما هو لصيانةِ الروايات الناطقةِ بكون سبب النزول ما استند إليه القائلُ بأن «الأنفال» بالمعنى الثاني عن الإلغاء قبل الوقوف على ضَعْفِها، ومجرَّد ما ذكره المولى قدِّس سرُّه لا يدلُّ على ذلك، ألا تراهم كيف يَعْدِلون عن ظواهر الآيات إذا صحَّ حديثٌ يقتضي ذلك؟ وإلا فأنا لا أُنكر أنَّ كونَ حمل «الأنفال» على المعنى الأول، والذهابِ إلى أن الآيةَ غيرُ منسوخة، والسؤال للاستعلام، أقلُّ مؤونةً من غيره، فتأمَّل ذاك، والله سبحانه وتعالى يتولَّى هداك.

والمراد بقوله تعالى: (فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ)إلخ على هذا: أنه إذا كان أمرُ الغنائم لله ورسوله ﷺ فاتقوه سبحانه وتعالى، واجتنبوا ما أنتم فيه من المشاجرة فيها، والاختلاف الموجبِ لشَقِّ العصا، وسخطِهِ تعالى، أو فاتقوه في كلِّ ما تأتون وتَذَرون - فيدخُلُ ما هم فيه دخولاً أوليّاً- وأصلحوا ما بينَكم من الأحوال بتركِ الغُلول ونحوِه، وعن السديِّ: بعدم التسابِّ، وعن عطاء: كان الإصلاحُ بينهم أَنْ

دعاهم رسولُ الله ﷺ فقال: «اقسموا غنائمَكم بالعدل» فقالوا: قد أكلنا وأنفقنا. فقال عليه الصلاة والسلام: «ليرُدَّ بعضُكم على بعض»[١].

و«ذات»- كما قيل- بمعنى صاحبة، صفةٌ لمفعول محذوف، و«بين» إما بمعنى الفِراق، أو الوصل، أو ظرف، أي: أحوالاً ذات افتراقكم، أو ذات وصلكم، أو ذات الكمال المتَّصل بكم.

وقال الزجَّاج وغيره: إن«ذات» هنا بمنزلة حقيقة الشيء ونفسه[٢]، كما بيَّنه ابنُ عطية[٣]، وعليه استعمالُ المتكلمين. ولما كانت الأحوال ملابِسةً للبَيْن أُضيفت إليه، كما تقول: اسقني ذا إنائك، أي: ما فيه، جُعِل كأنه صاحبُه.

وذِكرُ الاسم الجليل في الأمرين لتربية المَهابة وتعليلِ الحكم، وذِكْر الرسول ﷺ مع الله أولاً وآخراً لتعظيم شأنه، وإظهارِ شرفه، والإيذانِ بأنَّ طاعتَه عليه الصلاة والسلام طاعةُ الله تعالى.

وقال غير واحد: إن الجمعَ بين الله تعالى ورسوله ﷺ أولاً لأنَّ اختصاصَ الله تعالى بالأمرِ، والرسولِ ﷺ بالامتثال، وتوسيطُ الأمر بإصلاح ذاتِ البَيْن بينَ الأمرِ بالتقوى والأمر بالطاعة لإظهار كمال العناية بالإصلاح بحسَبِ المقام، وليندرجَ الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة.

وقرأ ابنُ مُحَيصن: «يسألونكَ عَلَّنْفَال» بحذف الهمزة، وإلقاء حركتها على اللام، وإدغامِ نون «عن» فيها[٤]، ولا اعتدادَ بالحركة العارضة.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾ متعلِّق بالأوامر الثلاثة، والجوابُ محذوفٌ ثقةً بدلالة المذكور عليه، أو هو الجوابُ، على الخلاف المشهور، وأيّاً ما كان فالمرادُ بيانُ ترتُّب ما ذُكر عليه، لا التشكيكُ في إيمانهم، وهو يكفي في التعليق بالشرط.

والمرادُ بالإيمان التصديقُ، ولا خفاء في اقتضائه ما ذُكر على معنى أنه من

---

(١) لم نقف على من أخرجه، وأورده الزمخشري ٢/ ١٤١.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٠٠.

(٣) في المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٠.

(٤) القراءات الشاذة ص٤٨، والكشاف٢/ ١٤١.

شأنه ذلك، لا أنه لازمٌ له حقيقةً. وقد يراد بالإيمان الإيمانُ الكامل، والأعمالُ شرطٌ فيه أو شطرٌ، فالمعنى: إن كنتم كاملي الإيمان؛ فإنَّ كمالَ الإيمان يدورُ على تلك الخصال الثلاثة: الاتِّقاء، والإصلاح، وإطاعة الله تعالى ورسولِهِ ﷺ.

ويؤيِّدُ إرادةَ الكمال قولُه سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾إلخ، إذ المرادُ به قطعاً: الكاملون في الإيمان، وإلا لم يصحَّ الحصرُ، وهو حينئذٍ جارٍ على ما هو الأصلُ المشهور في النكرة إذا أُعيدت معرفةً، وعلى الوجه الأول لا يكونُ هذا عين النكرة السابقة، ويلزمُ القول بأن القاعدةَ أغلبيةٌ كما قد صرَّحوا به في غير ما موضع، أي: إنما المؤمنون الكاملون في الإيمان، المخلصون فيه ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾أي: فزعت استعظاماً لشأنه الجليل، وتهيُّباً منه جلَّ وعلا.

والاطمئنانُ المذكور في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨] لا ينافي الوجَلَ والخوفَ؛ لأنه عبارةٌ عن ثَلَج الفؤاد وشَرْح الصدر بنور المعرفة والتوحيد، وهو يجامع الخوفَ، وإلى هذا ذهب ابنُ الخازن(١).

ووفَّق بعضُهم بين الآيتين بأن الذِّكر في إحداهما ذِكْر رحمة، والأخرى ذِكْر عقوبة، فلا منافاةَ بينهما.

وأخرج البيهقيُّ وجماعةٌ عن السُّديِّ أنه قال في الآية: هو الرجلُ يريد أن يَظْلِمَ أو يهمّ بمعصية، فيقال له: اتقِ الله تعالى، فَيَجِلُ قلبُه(٢). وحَمْلُ الوَجَلِ فيها على الخوف منه تعالى كلَّما ذُكر أبلغُ في المدح من حَمْله على الخوف وقتَ الهمِّ بمعصية، أو إرادةِ ظلم.

وهذا الوَجَل في قلب المؤمن كضَرَمَة السَّعَفَة كما جاء عن عائشة رضي الله عنها(٣). وأخرج ابنُ جرير وغيره عن أمِّ الدرداء أن الدعاءَ عند ذلك مستجابٌ، وعلامتُه حصولُ القُشَعْريرة(٤).

---

(١) تفسير الخازن ٣/ ٤.

(٢) شعب الإيمان (٧٣٧).

(٣) أخرجه الحكيم الترمذي كما في الدر المنثور ٣/ ١٦٢. والضَّرَمة محركة: السَّعَفة في طرفها نار، والحجرة، والنار. القاموس (ضرم).

(٤) تفسير الطبري ١١/ ٢٩.

وقُرئ: «وَجَلت» بفتح الجيم[١]، ومضارعه يَجِلُ، وأما وَجِلَ بالكسر فمضارعه يَوْجَلُ، وجاء يِيْجَلُ وياجَلُ، وهي لغاتٌ أربع حكاها سيبويه[٢].

وقرأ عبد الله: «فَرِقَت»[٣]، أي: خافت.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: القرآن كما رُوي عن ابن عباس.

﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي: تصديقاً كما هو المتبادر؛ فإنَّ تظاهُرَ الأدلةِ، وتعاضُدَ الحُجج، مما لا ريب فيه في كونه موجباً لذلك.

وهذا أحدُ أدلة مَنْ ذهب إلى أن الإيمانَ يقبلُ الزيادة والنَّقص، وهو مذهب الجمِّ الغفير من الفقهاء والمحدِّثين والمتكلِّمين، وبه أقول؛ لكثرة الظواهر الدالَّة على ذلك من الكتاب والسنة من غير معارِضٍ لها عقلاً.

بل قد احتجَّ عليه بعضُهم بالعقل أيضاً؛ وذلك أنه لو لم تتفاوت حقيقةُ الإيمان لكان إيمانُ آحادِ الأمة، بل المنهمكين بالفسق والمعاصي، مساوياً لإيمان الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام، واللازمُ باطلٌ، فكذا الملزومُ.

وقال محيي الدين النوويُّ في معرض بيان ذلك: إنَّ كلَّ أحدٍ يعلم أنَّ ما في قلبه يتفاضل حتى يكون في بعض الأحيان أعظمَ إخلاصاً ويقيناً منه في بعضها، فكذلك التصديقُ والمعرفة بحسب ظهورِ البراهين وكثرتها.

وأجابوا عما اعتُرض به عليه ـ من أنه متى قَبِل ذلك كان شكًّا، وهو خروجٌ عن حقيقته ـ بأنَّ مراتبَ اليقين متفاوتةٌ إلى علم اليقين، وحقِّ اليقين، وعينِ اليقين، مع أنه لا شكَّ معها.

وذهب الإمامُ أبو حنيفة رضي الله عنه وكثيرٌ من المتكلمين إلى أن الإيمانَ لا يزيدُ ولا ينقص ـ واختاره إمام الحرمين[٤] ـ محتجِّين بأنه اسمٌ للتصديق البالغ حدَّ الجزم

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٨، والبحر ٤/ ٤٥٧.
(٢) الكتاب ٤/ ١١١-١١٢، وليس فيه وَجَل يَجِلُ، وقد حكاها السمين ٥/ ٥٥٧.
(٣) البحر المحيط ٤/ ٤٥٧.
(٤) في الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ص٣٣٥.

والإذعان، وذلك لا يُتصوَّر فيه زيادةٌ ولا نقصان، فالمصدِّق إذا أتى بالطاعات[١] وارتكب المعاصي فتصديقُه بحاله لم يتغيَّر أصلاً، وإنما يتفاوتُ إذا كان اسماً للطاعات المتفاوتة قلةً وكثرةً، على ما ذهب إليه القلانسيُّ وجماعةٌ من السلف.

وبما رواه الفقيه أبو الليث السَّمرقنديُّ في «تفسيره»[٢] عن محمد بن الفضل وأبي القاسم السَّاباذي[٣]، عن فارس بن مَرْدويه، عن محمد بن الفضل بن العابد، عن يحيى بن عيسى، عن أبي مُطِيع، عن حمَّاد بن سلمة، عن أبي المُهزِّم، عن أبي هريرة ﵁ قال: جاء وفدُ ثَقِيف إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، الإيمانُ يزيدُ وينقصُ؟ فقال: «لا، الإيمان مكمَّلٌ في القلب، زيادتُه ونقصانُه كفر».

وأجابوا عما تمسَّك به الأولون من الآيات والأحاديث بأنَّ الزيادة بحسَب الدوام والثبات، وكثرةِ الزمان والساعات، وإيضاحُه ما قاله إمامُ الحرمين[٤]: إن النبيَّ ﷺ يفضُلُ مَنْ عداه باستمرار تصديقه، وعصمةِ الله تعالى إياه من مخامرة الشُّكوك، والتصديقُ عَرَضٌ لا يبقى بشخصه زمانين، بل بتجدُّدِ[٥] أمثالِهِ، فتقع للنبي ﷺ دون غيره متواليةً، فيثبُتُ له ﷺ أعدادٌ من الإيمان لا يثبُتُ لغيره إلا بعضُها، فيكون إيمانُه أكثر.

واعتُرض هذا بأن حصولَ المِثْل بعد انعدام الشيء لا يكون زيادةً فيه، ودُفع بأن المراد زيادةُ أعدادٍ حصلَتْ، وعدمُ البقاء لا ينافي ذلك.

وأجابوا أيضاً بأن المراد الزيادةُ بحسَب زيادةِ ما يؤمنُ به، والصحابةُ ﵃ كانوا آمنوا في الجملة، وكانت الشريعةُ غير تامَّة، والأحكامُ تتنزَّل شيئاً فشيئاً، فكانوا

---

(١) في الأصل: بالطاعة.

(٢) المسمى: بحر العلوم، والكلام فيه ٢/ ٩٩.

(٣) كذا في الأصل و(م)، وفي تفسير أبي الليث: الشنابازي، ولعل الصواب: السناباذي، نسبة إلى سناباذ، ومن قرى بلخ أيضاً قرية تدعى شناباذ. ينظر معجم البلدان ٣/ ٢٥٩ و٣٦٦، واللباب في تهذيب الأنساب ٣/ ٤٢. وأيًّا كان فهو مجهول كما سيرد.

(٤) في الإرشاد ص٣٣٦.

(٥) في الأصل: يتجدد.

يؤمنون بكلٍّ ما يتجدَّد منها، ولا شكَّ في تفاوت إيمان الناس بملاحظةِ التفاصيل كثرةً وقلةً، ولا يختصُّ ذلك بعصر النبوة؛ لإمكان الاطِّلاع عليها في غيره من العصور.

وبأنَّ المراد زيادةُ ثمرته، وإشراقُ نوره في القلب؛ فإنَّ نوره يزيد بالطاعات، وينقُصُ بالمعاصي.

ولا يخفى أن الحجَّة الأولى يُعلم جوابُها مما ذكرناه أولاً، وأما الحجَّة الثانية التي ذكرها أبو الليث فممَّا لا يُعوَّل عليها عند الحفاظ أصلاً؛ لأن رجال السند إلى أبي مطيع كلّهم مجهولون لا يُعرفون في شيء من كتب التواريخ المشهورة، وأما أبو مطيع وهو الحكم بن عبد الله بن مسلمة البلخيُّ، فقد ضعَّفه أحمد بنُ حنبل، ويحيى بنُ معين، وعَمْرو بن علي الفلَّاس، والبخاري، وأبو داود، والنسائي، و[أبو][1] حاتم الرازي، وأبو حاتم محمد بن حِبان البُسْتي، والعُقَيلي، وابن عَدِي، والدارقطني، وغيرهم.

وأما أبو المهزِّم ـ وقد تصحَّف على الكتاب[2]، واسمه يزيد بنُ سفيان ـ فقد ضعَّفه أيضاً غيرُ واحدٍ، وتركه شعبة بن الحجَّاج، وقال النسائيُّ: متروك، وقد اتهمه شعبةُ بالوضع حيث قال: لو أعطَوه فِلْسين لحدَّثهم سبعين حديثاً[3]. ومَنْ مارس الأحاديث النبوية لا يشكُّ في أن ذلك اللفظ ليس منها في شيء، وما ذكره إمامُ الحرمين ـ على ما فيه ـ مبنيٌّ على تجدُّد الأعراض وعدمِ بقائها زمانين، والمسألةُ خلافية، ودون إثبات ذلك خَرْطُ القَتاد.

وما أجابوا به أولاً من أن زيادةَ الإيمان بحسَب زيادة المؤمن به ـ مع كونه خلافَ الظاهر، ولا داعي إليه عند المنصف ـ لا يكاد يتأتَّى من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقوله تعالى:

---

(١) مابين حاصرتين من شرح العقيدة الطحاوية ٢/ ٤٨٠، والكلام منه، وقد نقله مصنفه ابن أبي العز عن شيخه ابن كثير رحمه الله.

(٢) وقع اسمه في مخطوط تفسير أبي الليث: المحرم، وفي شرح العقيدة الطحاوية: المحزم.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ٢/ ٤٨٠، وقد حكم بوضع الخبر أيضاً ابن حبان والحاكم والجوزقاني والذهبي. ينظر المجروحين ٢/ ١٠٣، والميزان ٣/ ٤٢، واللآلي المصنوعة ١/ ٤١.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]؛ إذ ليس هناك زيادةُ مشروعٍ يحصُلُ الإيمان به ليقال: إنَّ زيادةَ الإيمان بحسَب زيادة المؤمن به، وحالُ الجوابِ الثاني لا يخفى عليك.

وذهب جماعةٌ منهم الإمام الرازيُّ وإمام الحرمين في قولٍ إلى أن الخلافَ في زيادة الإيمان ونقصانه وعدمهما لفظيٌّ، وهو فرعُ تفسير الإيمان؛ فمن فسَّره بالتصديق قال: إنه لا يزيدُ ولا ينقص، ومن فسَّره بالأعمال مع التصديق قال: إنه يزيدُ وينقص، وعلى هذا قولُ البخاريِّ: لقيتُ أكثرَ من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيتَ أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قولٌ وعمل، ويزيدُ وينقص[١].

وهو المعنيُّ بما روي عن ابن عمر ﵄ قال: قلنا: يا رسول الله، إن الإيمان يزيد وينقص؟ قال: «نعم، يزيد حتى يدخل صاحبه الجنةَ، وينقص حتى يدخل صاحبَه النار»[٢].

واعترض على هذا بأن عدم قبول الإيمان الزيادةَ والنقص على تقدير كون الطاعات[٣] داخلةً في مسمَّاه أولى وأحقُّ من عدم قبوله ذلك إذا كان مسمَّاه التصديق وحده، أما أولاً: فلأنه لا مرتبة فوق كل الأعمال لتكون زيادة، ولا إيمان دونه ليكون نقصاً، أما ثانياً: فلأن أحداً لا يستكمل الإيمان حينئذ، والزيادة على ما لم يكمل بعدُ محال.

وأجيب بأن هذا إنما يتوجَّه على المعتزلة والخوارج القائلين بانتفاء الإيمان بانتفاء شيء من الأعمال، ونحن إنما نقول: إنها شرطُ كمال فيه، واللازم عند الانتفاء انتفاءُ الكمال، وهو غير قادحٍ في أصل الإيمان.

والحق أن الخلاف حقيقيٌّ، وأن التصديق يقبل التفاوت بحسب مراتبه، فما المانع من تفاوته قوةً وضعفاً كما في التصديق بطلوع الشمس، والتصديق

---

(١) ذكره بهذا اللفظ ابن حجر في الفتح ١/٤٧، وعزاه للالكائي، وهو في شرح أصول الاعتقاد (١٥٩٧) دون قوله: ويزيد وينقص.

(٢) نسبه الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٣٤ إلى الثعلبي.

(٣) في الأصل: الطاعة، والمثبت من (م).

بحدوث العالم، وقلةً وكثرةً كما في التصديق الإجماليِّ، والتصديق التفصيليِّ المتعلق بالكثير، وما عليَّ إذا خالفتُ في بعض المسائل مذهبَ الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه للأدلة التي لا تكاد تحصى، فالحقُّ أحقُّ بالاتباع، والتقليدُ في مثل هذه المسائل من سنن العوام.

نعم أخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس أنه فسَّر الإيمان في هذه الآية بالخشية[1]، وعبر عنها بذلك بناءً على أنها من آثاره، وهو خلافُ الظاهر أيضاً، وكأنَّ المعنى عليه: إن المؤمنين الكاملين هم الذين إذا ذُكر الله، من غير أن يُذكر هناك ما يوجب الفزعَ من صفاته وأفعاله، وَجِلَت قلوبُهم، وإذا تُليت عليهم آياتُه المتضمنة لذلك زادتهم وجلاً على وَجَل.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ أي: يفوِّضون أمورهم كلَّها إلى مالكهم ومدبِّرهم خاصةً، لا إلى أحد سواه؛ كما يدلُّ عليه تقديمُ المتعلِّق على عامله.

والجملة معطوفةٌ على الصلة، وجوَّز أبو البقاء[2] كونَها حالاً من ضمير المفعول، وكونَها استئنافيةً.

وقولُه سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ مرفوع على أنه نعتٌ للموصول الأول، أو بدلٌ منه، أو بيانٌ له، أو منصوبٌ على القطع المنبئ عن المدح، وقد مدَحَهم سبحانه وتعالى أولاً بمكارم الأعمال القلبية من الخشية والإخلاص والتوكل، وهذا مدحٌ لهم بمحاسن الأعمال القالبية من الصلاة والصدقة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المتصفون بما ذُكر من الصفات الحميدة من حيثُ إنَّهم كذلك ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم حقَّقوا إيمانَهم بما ضمُّوا إليه ما فضل من أفاضل الأعمال.

وأخرج الطبرانيُّ عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مرَّ برسول الله ﷺ، فقال له: «كيف أصبحتَ يا حارث؟» قال: أصبحتُ مؤمناً حقًّا. فقال ﷺ «انظُرْ ما تقولُ؛

---

(١) تفسير الطبري ١١/ ٢٩-٣٠، وتفسير ابن أبي حاتم (٨٧٨١).

(٢) إملاء ما من به الرحمن ٣/ ٩٢.

فإنَّ لكلِّ شيء حقيقةً، فما حقيقةُ إيمانِكَ؟» فقال: عزفَتْ نفسي عن الدنيا، فأسهرتُ ليلي، وأظمأتُ نهاري، وكأني أنظُرُ إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظُرُ إلى أهل النار يتصارخون فيها. قال عليه الصلاة والسلام: «يا حارث، عرفتَ فالزَمْ». ثلاثاً[1].

ونُصب «حقًّا» على أنه صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، فالعاملُ فيه «المؤمنون»، أي: إيماناً حقًّا، أو هو مؤكِّد لمضمون الجملة، فالعامل فيه حقٌّ مقدَّر.

وقيل: إنه يجوز أن يكون مؤكِّداً لمضمون الجملة التي بعدَه، فهو ابتداءُ كلام، وهو مع أنه خلافُ الظاهر إنما يتَّجه على القول بجواز تقديم المصدر المؤكِّد لمضمون الجملة عليها، والظاهر منعُه كالتأكيد.

واستدلَّ بعضُهم بالآية على أنه لا يجوز أن يصف أحدٌ نفسَه بكونه مؤمناً حقًّا؛ لأنه سبحانه وتعالى إنما وصَفَ بذلك أقواماً على أوصافٍ مخصوصةٍ، وكلُّ أحدٍ لا يتحقَّقُ وجود تلك الأوصاف فيه، بل يلزمُه أن يقول: أنا مؤمنٌ إن شاء الله تعالى.

وقرَّر بعضُهم وجهَ الاستدلال بما يُشير إليه ما رُوي عن الثوري أنه قال: مَنْ زعم أنه مؤمنٌ بالله تعالى حقًّا، ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة، فقد آمَنَ بنصف الآية، ولم يؤمن بالنصف الآخر. وهذا ظاهرٌ في أن مذهبَه الاستثناء، وهو كما قال الإمام مذهبُ ابن مسعود، وتبِعَه جمعٌ عظيم من الصحابة والتابعين، وبه قال الشافعيُّ، ونُسب إلى مالك وأحمد، ومنعه الإمام الأعظم رضي الله عنه، ورُوي عنه أنه قال لقتادة: لم تستثني في إيمانك؟ قال: اتِّباعاً لإبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، فقال له: هلا اقتديتَ به في قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ حين قيل له: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِن﴾ [البقرة: ٢٦٠] فانقطع قتادة. قال الرازيُّ: كان لقتادة أن يُجيب أبا حنيفة عليهما الرحمة ويقول: قولُ إبراهيم عليه

(١) المعجم الكبير (٣٣٦٧)، وأخرجه أيضاً العقيلي في الضعفاء ٤/ ٤٥٥، وقال: ليس لهذا الحديث إسناد يثبت.

السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠] بعد قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ طلبٌ لمزيد الطمأنينة، وذلك يدلُّ على جواز الاستثناء[١].

وفي «الكشف»: أن الحقَّ أن مَنْ جوَّز الاستثناء إنما جوَّز إذا سُئل عن الإيمان مطلقاً، أما إذا قيل: هل أنتَ مؤمنٌ بالقَدَر؟ مثلاً، فقال: أنا مؤمنٌ إن شاء الله تعالى. لا يجوز، لا لأنَّ التبرُّك لا معنى له، بل للإيهام فيما ليس له فائدةٌ، وأما في الأول فلمَّا كان الإطلاق يدلُّ على الكمال ـ وهو الإيمان المنتفَعُ به في الآخرة ـ عُلِّق بالمشيئة تفاؤلاً وتيمُّناً، وذلك لأن هذه الكلمة خرجت عن موضوعها الأصلي إلى المعنى الذي ذُكر في عرف الاستعمال، وتراهم يستعملونها في كلِّ ما لهم اهتمامٌ بحصوله شائعاً بين العرب والعجم، فلا وجهَ لقولِ مَنْ قال: إنَّ معنى التبرُّك: أنا أشكُّ في إيماني تبرُّكاً، وذلك أنَّ المشيئة عنده غيرُ مشكوكة عنده، بل هو تعليقٌ بما لا بدَّ منه نظراً إلى أنه السببُ الأصلي، وأنه تفويضٌ من العبد إلى الله تعالى، ومن فوَّض كُفي، لا نظراً إلى أن المشيئة غيبٌ غير معلوم، فيكون شكّاً في الإيمان، وقد جاء: «من شكَّ في إيمانه فقد كفر»[٢].

وما أحسن ما نُقل عن الحسن أن رجلاً سأله: أمؤمن أنتَ؟ فقال: الإيمان إيمانان، فإن كنتَ تسألني عن الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبِه، ورسله، واليوم الآخر، والجنة والنار، والبعث والحساب، فأنا مؤمنٌ، وإن كنتَ تسألني عن قوله تعالى: (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ)إلخ، فوالله لا أدري أمنهم أنا أم لا؟ وهذا ونحوه مما يجعل الخلافَ لفظيا، وقد صرَّح بذلك جمعٌ من المحقِّقين عليهم الرحمة.

﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: كرامةٌ وعلوُّ مكانةٍ، على أن يُراد بالدرجات العلوُّ المعنويُّ، وقد يراد بها العلوُّ الحسِّيُّ، وفي الخبر عن أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ

---

(١) تفسير الرازي ١٥/ ١٢١، وجاءت العبارة الأخيرة فيه: وهذا يدل على أنه لابد من قول: إن شاء الله.

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج ابن حبان في المجروحين ٢/ ٢٠٢ من حديث أنس ﷺ: «من شك في إيمانه فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين» وهو حديث موضوع كما في الفوائد المجموعة ص٤٥٣، ولكن معناه مجمع عليه، فقد قال ابن نجيم في البحر الرائق ٥/ ١٣٤: أجمعوا على أن مَن شك في إيمانه فهو كافر.

قال: «في الجنة مئةُ درجة، لو أن العالمين اجتمعوا في إحداهنَّ لوسعتهم»[١].

وعن الربيع بن أنس: سبعون درجة، ما بين كلِّ درجتين حضر الفرس المُضَمَّر سبعين سنة. ووجهُ الجمع على الوجهين ظاهرٌ.

والتنوين للتفخيم، والظرف إما متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقَعَ صفةً لها مؤكِّدةً لما أفادَه التنوين، أو بما تعلَّق به الخبرُ ـ أعني: لهم ـ من الاستقرار. وجوَّز أبو البقاء[٢] أن يكون العاملُ فيه: «درجات»؛ لأنَّ المراد بها الأجور.

وفي إضافته إلى الربِّ المضاف إلى ضميرهم مزيدُ تشريفٍ لهم ولطفٍ بهم، وإيذانٌ بأن ما وعدَهم متيقَّنُ الثبوت، مأمونُ الفوَات.

والجملةُ جُوِّز أن تكون خبراً ثانياً لـ«أولئك»، وأن تكون مبتدأ مبنيةً على سؤالٍ نشأ من تعدُّد مناقبهم، كأنه قيل: ما لهم بمقابلة هذه الخصال؟ فقيل: لهم درجات، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ عظيمةٌ لما فرَطَ منهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ وهو ما أُعدَّ لهم من نعيم الجنة.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن محمد القُرظيِّ قال: إذا سمعتَ الله تعالى يقول: «رزق كريم» فهو الجنة[٣].

والكَرَم كما نقل الواحديُّ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحمَد ويُستحسن في بابه، فلعلَّ وصف الرزق به هنا حقيقة.

وقال بعضُ المحققين: معنى كون الرزق كريماً أن رازقَه كريمٌ، ومن هنا وصفوه بالكثرة وعدمِ الانقطاع؛ إذ من عادة الكريم أن يُجزِل العطاء ولا يقطَعَه، فكيف بأكرم الأكرمين تباركَ وتعالى، وجعلُه نفسه كريماً على الإسناد المجازيِّ للمبالغة.

ولم يذكروا لتوسيط المغفرة ـ والظاهرُ كما قيل تقديمُها هنا ـ نكتةً.

---

(١) لم نقف عليه من حديث أبي هريرة، وأخرجه أحمد (١١٢٣٦)، والترمذي (٢٥٣٢) من حديث أبي سعيد. قال الترمذي: هذا حديث غريب.
وأخرج أحمد (٨٤١٩)، والبخاري (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله».

(٢) في الإملاء ٣/ ٩٢.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٨٨٠١).

وربما يقال في وجه ذِكْر هذه الأشياء الثلاثةِ على هذا الوجه: إنَّ الدرجات في مقابلة[1] الأوصافِ الثلاثة، أعني الوجَلَ والإخلاص والتوكل، ويُستأنس له بالجمع، والمغفرةُ في مقابلة إقامة الصلاة، ويُستأنس له بما ورد في غير ما خبرٍ أن الصلوات مكفِّراتٍ لما بينها من الخطايا[2]، وأنها تُنَقِّي الشخصَ من الذنوب كما يُنَقِّي الماءُ من الدَّنَس[3]، والرزقُ الكريم بمقابلة الإنفاق، والمناسبةُ في ذلك ظاهرةٌ، وإلى هذا يُشير كلامُ أبي حيان[4].

أو يقال: قدَّم سبحانه الدرجاتِ لأنها بمحضِ الفضل، وذَكَر بعدها المغفرةَ لأنها أهمُّ عندهم من الرزق، مع اشتراكهما في كونهما في مقابلة شيء، ويؤيِّد هذا ما أخرجه ابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد أنه قال في الآية: المغفرةُ بترك الذنوب، والرزقُ الكريم بالأعمال الصالحة[5]. فتدبَّر، والله تعالى أعلمُ بأسرار كلامه.

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾أي: إخراجاً متلبِّساً به، فالباء للملابسة. وقيل: هي سببية، أي: بسبب الحقِّ الذي وجب عليك، وهو الجهاد.

والمرادُ بالبيتِ: مسكنُه ﷺ بالمدينة، أو المدينةُ نفسُها؛ لأنها مثواه عليه الصلاة والسلام. وزعم بعضُهم أن المراد به مكةُ، وليس بذاك.

وإضافةُ الإخراج إلى الربِّ سبحانه وتعالى إشارة إلى أنه كان بوحي منه عزَّ وجل، ولا يخفى لطفُ ذِكْر الربِّ، وإضافتِهِ إلى ضميره ﷺ.

---

(١) في الأصل: بمقابلة، والمثبت من (م).
(٢) من ذلك ما أخرجه أحمد (٨٧١٥)، ومسلم (٢٣٣): (١٥) من حديث أبي هريرة: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، كفارات لما بينهن».
(٣) من ذلك ما أخرجه أحمد (٨٩٢٤)، والبخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧)من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟» قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا».
(٤) في البحر المحيط ٤/٤٥٨.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم (٨٨٠٠)، وعزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر ٣/١٦٣.

والكافُ يستدعي مشبَّهاً، وهو غير مصرَّح به في الآية، وفيه خفاءٌ، ومن هنا اختلفوا في بيانه وكذا في إعرابه على وجوه: فاختار بعضهم أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ هو المشبَّه، أي: حالهم هذه في كراهة ما وقع في أمر الأنفال كحال إخراجِكَ من بيتك في كراهتهم له، وإلى هذا يشير كلامُ الفراء[1] حيث قال: الكاف شبَّهت هذه القصةَ التي هي إخراجُه ﷺ من بيته بالقصة المتقدِّمة التي هي سؤالُهم عن الأنفال، وكراهتُهم لما وقع فيها، مع أنه أولى بحالهم.

أو أنه صفةُ مصدرِ الفعل المقدَّر في «لله والرسول»، أي: الأنفال ثبتَتْ لله تعالى وللرسول عليه الصلاة والسلام ـ مع كراهتهم ـ ثباتاً كثبات إخراجك. وضعَّفَ هذا ابنُ الشجريِّ[2]، وادَّعى أن الوجه هو الأول؛ لتباعُدِ ما بين ذلك الفعل وهذا بعشر جملٍ. وأيضاً جَعْلُه في حيِّز «قل»[3] ليس بحسَنٍ في الانتظام، وقال أبو حيان[4]: إنه ليس فيه كبيرُ معنى، ولا يظهر للتشبيه فيه وجهٌ، وأيضاً لم يُعهَدْ مثلُ هذا المصدر. وادعى العلامةُ الطِّيبي أنَّ هذا الوجه أدقُّ التئاماً من الأول، والتشبيه فيه أكثرُ تفصيلاً؛ لأنه حينئذٍ من تتمة الجملة السابقة، داخلٌ في حيِّز المقول مع مراعاة الالتفات، وأطال الكلامَ في بيان ذلك، واعتَذَر عن الفصل بأن الفاصل جارٍ مجرى الاعتراض، ولا أُراه سالماً من الاعتراض.

وقيل: تقديره: وأصلحوا ذاتَ بينكم كما أخرجَكَ. وقد التفَتَ من خطابِ جماعةٍ إلى خطابِ واحدٍ.

وقيل: المرادُ: وأطيعوا الله والرسولَ كما أخرجَكَ إخراجاً لا مِرْيةَ فيه، وقيل: التقدير: يتوكَّلون توكُّلاً كما أخرجَكَ، وقيل: إنهم لكارهون كراهةً ثابتةً كإخراجك.

وقيل: هو صفةٌ لـ «حقًّا»، أي: أولئك هم المؤمنون حقًّا مثل ما أخرجَكَ.

---

(١) حكاه عنه أبو حيان في البحر ٤/ ٤٦١، وانظر معاني القرآن للفراء ١/ ٤٠٣.

(٢) في أماليه ٣/ ١٨٣-١٨٥.

(٣) في الأصل: قال، والمثبت من (م).

(٤) في البحر المحيط ٤/ ٤٦٢.

وقيل: صفةٌ لمصدر «يجادلون»، أي: يجادلونك جدالاً كإخراجك. ونُسِبَ ذلك إلى الكسائي.

وقيل: الكاف بمعنى إذ، أي: واذكر إذ أخرجَكَ، وهو مع بُعْدِه لم يثبت.

وقيل: الكافُ للقسم، ولم يثبُتْ أيضاً وإن نُقل عن أبي عُبَيد[١]، وجُعِلَ «يجادلونك» الجواب مع خلوِّه عن اللام والتأكيد، و«ما» حينئذٍ موصولةٌ، أي: والذي أخرجَكَ.

وقيل: إنها بمعنى على، و«ما» موصولةٌ أيضاً، أي: امضِ على الذي أخرجَكَ ربُّك له من بيتك؛ فإنه حقٌّ. ولا يخفى ما فيه.

وقيل: هي مبتدأ خبرُه مقدَّر، وهو ركيكٌ جدًّا.

وقيل: في محلِّ رفعِ خبرِ مبتدأ محذوف، أي: وعدُه حقٌّ كما أخرجك، وقيل: تقديرُه: قِسْمَتُكَ حقٌّ كإخراجِكَ[٢].

وقيل: ذلكم خيرٌ لكم كإخراجِكَ، وقيل تقديره: إخراجُك من مكة لحكم كإخراجك هذا.

وقيل: هو متعلِّق بـ «اضربوا»، وهو كما تقول لعبدك: ربَّيتُك، افعَلْ كذا.

وقال أبو حيان[٣]: خطر لي في المنام أنَّ هنا محذوفاً، وهو: نَصَركَ، والكافُ فيها معنى التعليل، أي: لأجل أن خرجتَ لإعزازِ دين الله تعالى نصرَكَ وأمدَّك بالملائكة، ودلَّ على هذا المحذوفِ قولُه سبحانه بعدُ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ الآيات.

ولو قيل: إنَّ هذا مرتبطٌ بقوله سبحانه: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ على معنى: رزقٌ حسنٌ كحُسْنِ إخراجِكَ من بيتك، لم يكن بأبعَدَ من كثيرٍ من هذه الوجوه.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وقد نسب ابن هشام هذا القول في المغني ص٧٠٧ إلى أبي عبيدة، وهو في مجاز القرآن له ١/ ٢٤٠.

(٢) في الأصل: كما أخرجك.

(٣) في البحر المحيط ٤/ ٤٦٣.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ للخروج، إمَّا لعدم الاستعداد للقتال، أو للميل للغنيمة، أو للنَّفْرة الطبيعية عنه، وهذا مما لا يدخُلُ تحت القدرة والاختيار، فلا يَرِدُ أنه لا يليقُ بمنصب الصحابة ﷺ.

والجملةُ في موضع الحال، وهي حالٌ مقدَّرةٌ؛ لأنَّ الكراهة وقعت بعد الخروج كما ستراه إن شاء الله تعالى، أو يعتبر ذلك ممتدًّا.

والقصةُ -على ما رواه جماعةٌ وقد تداخَلتْ رواياتُهم- أنَّ عِيْرَ قريش أقبلت من الشام، وفيها تجارةٌ عظيمةٌ، ومعها أربعون راكباً منهم: أبو سفيان، وعَمرو بنَ العاص، ومَخْرَمة بن نوفل، فأخبر جبريلُ عليه السلام رسولَ الله ﷺ، فأخبَرَ المسلمين، فأعجبهم تلقِّيها؛ لكثرة المال وقلة الرجال، فلمَّا خرجوا بلغ الخبرُ أهلَ مكة، فنادى أبو جهل فِرَقَ الكفر: النَّجاءَ النَّجاءَ على كلِّ صَعْبٍ وذَلُول، عِيْركم، أموالكم، إن أصابها محمدٌ لم تفلحوا بعدها أبداً.

وقد رأت عاتِكَة بنتُ عبد المطلب في المنام أنَّ راكباً أقبل على بعيرٍ له، حتى وقَفَ بالأبطَح، ثم صرَخَ بأعلى صوته: ألا انفِرُوا يا آلَ غُدَر لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناسَ قد اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجدَ والناسُ يتبعونه، فبينما هم حولَه مثَلَ به بعيرُه على ظهرِ الكعبة، فصرخ مثلَها، ثم مثَلَ به بعيرُه على رأس أبي قُبيس، فصرَخَ مثلَها، ثم أخذ صخرةً فأرسَلَها، فأقبلت تهوي، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفَضَّتْ، فما بقي بيتٌ من بيوت مكة ولا دارٌ من دورها إلا ودخَلَ فيها فِلْقَةٌ. فحدَّثت به أخاها العباسَ، فحدَّث بها الوليدَ بن عُتْبة وكان صديقاً له، فحدَّث بها أباه عتبةَ، ففشا الحديثُ وبلغ أبا جهل، فقال للعباس: يا بني عبد المطلب، أما رضيتُم أن تتنبَّأ رجالكم حتى تتنبَّأ نساؤكم؟! فأنكرَ عليه الرؤيةَ، ثم إنه خَرَجَ بجميع مكةَ ومضى بهم إلى بدرٍ.

وكان رسول الله ﷺ بوادي دَقْران[1]، فنزل عليه جبريل عليه السلام بالوعد

---

(١) بدال مهملة وقاف وراء مهملة على وزن سلمان: واد قريب من الصفراء. ينظر القاموس (دقر)، وحاشية الشهاب ٤/ ٢٥٤. وجاء في بعض المصادر: ذَفِران، قال في القاموس (ذفر): وذَفِران بكسر الفاء: واد قرب وادي الصفراء، أو هو تصحيف لدَقْران.

بإحدى الطائفتين: إمَّا العِيْر، وإمَّا قريش، فاستشار أصحابَه فقال بعضُهم: هلا ذكرتَ لنا القتال حتى نتأهَّبَ له، إنَّا خرجنا للعِير. فقال ﷺ: «إنَّ العير مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبَلَ» فقالوا: يا رسول الله، عليك بالعِيْر، ودع العدوَّ. فغضب عليه الصلاة والسلام، فقام أبو بكر وعمر ﷺ، فأحسنا الكلامَ في اتِّباع أمرِ رسول الله ﷺ، ثم قام المقداد بنُ عَمرو، فقال: يا رسول الله، امضِ لما أمَرَكَ الله تعالى، فنحن معك حيث أحببتَ، لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهَبْ أنتَ وربُّك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون. فتبسَّم رسولُ الله ﷺ، ثم قال: «أشيروا عليَّ أيُّها الناسُ»، وهو يريدُ الأنصارَ؛ لأنهم كانوا عدَدَهم[١]، وقد شرطوا حين بايعوه بالعَقَبة أنهم برآء من ذِمَامه حتى يَصِل إلى ديارهم، فتخوَّف أن لا يَرَوا نُصْرتَه إلا على عدوِّهم بالمدينة، فقام سعد بنُ معاذ ﷺ فقال: يا رسول الله، إيَّانا تريدُ؟ قال: «أجل». قال: قد آمنَّا بك وصدَّقناك، وشهدنا أنَّ ما جئتَ به هو الحقُّ، وأعطيناكَ على ذلك عهودَنا ومواثيقَنا على السَّمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردتَ، فوالذي بعثَكَ بالحقِّ لو استعرضتَ بنا هذا البحرَ فخضتَه لخضناه معكَ ما تخلَّفَ منَّا رجلٌ واحد، ولا نكرَهُ أن تلقَى بنا عدوَّنا، وإنا لصُبُر عند الحرب صُدُق عند اللقاء، ولعل الله تعالى يُريك منَّا ما يُقِرُّ به عينيك، فسِرْ بنا على بركات الله تعالى. فنشَّطَه قولُه، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «سيروا على بَرَكةِ الله تعالى؛ فإنَّ الله تعالى قد وعَدَني إحدى الطائفتين، والله لَكأنِّي أنظُرُ إلى مصارع القوم». اهـ[٢].

وبهذا تبيَّن أن بعضَ المؤمنين كانوا كارهين، وبعضَهم لم يكونوا كذلك، وهم الأكثر كما تشير إليه الآية.

---

(١) في الأصل و(م): عدوهم، وهو تصحيف، والمثبت من تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٤/ ٢٥٤، وجاء في غيره من المصادر: وذلك أنهم كانوا عَدَدَ الناس. أي: كانوا أكثرهم عدداً.

(٢) تفسير الطبري ١١/ ٤١-٤٣، والسيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٠٦-٦٠٨و ٦١٤-٦١٥، والمستدرك للحاكم ٣/ ٢١، ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٢-٣٥، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٤/ ٢٥٤.

وجاء في بعض الأخبار أن النبيَّ ﷺ لما فرَغَ من بدر قيل له: عليكَ بالعِيْر، فليس دونها شيء. فناداه العباسُ وهو في وَثَاقه: لا يصلُحُ. فقال له: «لمَ؟»، فقال: لأنَّ الله تعالى وعدَكَ إحدى الطائفتين، وقد أعطاكَ ما وعَدَك(١).

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ﴾ الذي هو تلقِّي النفير المُعْلي للدين؛ لإيثارهم عليه تلقِّي العِير. والجملةُ إما مستأنفةٌ أو حالٌ ثانية، وجُوِّز أن تكون حالاً من الضمير في «لكارهون».

وقوله سبحانه: ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾متعلِّق بـ «يجادلون»، و«ما» مصدريةٌ، وضمير «تبيَّن» لـ «الحق»، أي: يجادلون بعد تبيُّن الحقِّ لهم بإعلامك أنهم يُنصرون، ويقولون: ما كان خروجُنا إلا للعِيْر، و: هلَّا ذكرتَ لنا القتالَ حتى نستعدَّ له ونتأهَّب.

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾أي: مشبَّهين بالذين يُساقون بالعنف والصَّغار إلى القتل، فالجملةُ في محلِّ نصبٍ على الحالية من ضمير «لكارهون»، وجُوِّز أن تكون صفةَ مصدرٍ لـ: «كارهون» بتقدير مضافٍ، أي: لكارهون كراهةً ككراهةِ مَنْ سِيْق للموت.

﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ حالٌ من ضمير «يساقون»، وقد شاهدوا أسبابَه وعلاماتِهِ.

وفي قوله سبحانه وتعالى: (كَأَنَّمَا) إلخ إيماءٌ إلى أنَّ مجادلتَهم كانت لفرط فَزَعهم ورُعْبهم؛ لأنهم كانوا ثلاث مئة وتسعةَ عشر رجلاً في قول، فيهم فارسان: المِقْداد بنُ الأسود والزُّبير بن العوَّام - وعن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: ما كان منَّا فارسٌ يومَ بدرٍ إلا المِقْداد - وكان المشركون ألفاً قد استعدُّوا للقتال.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾كلام مستأنفٌ مسوقٌ لبيان جميل صُنْع الله تعالى بالمؤمنين مع ما بهم من الجَزَع وقِلَّة الحَزْم، فـ «إذ» نصب على المفعولية بمضمر إن كانت متصرِّفة، أو ظرفٌ لمفعول ذلك الفعل، وهو خطابٌ للمؤمنين

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٢٢) و(٢٨٧٣)، والترمذي (٣٠٨٠)، وهو من طريق سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس، ورواية سماك عن عكرمة فيها اضطراب، ومع ذلك فقد قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وجوَّد إسناده الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

بطريق التلوين والالتفات، و«إحدى» مفعولٌ ثان لـ «يَعِدُ»، وهو يتعدَّى إلى المفعول الثاني بنفسه وبالباء، أي: اذكُروا وقتَ أو الحادثَ وقتَ وعدِ الله تعالى إياكم إحدى الطائفتين.

وقُرِىء: «يَعِدْكم» بسكون الدال[1] تخفيفاً.

وصيغةُ المضارعة لحكاية الحال الماضية؛ لاستحضار صورتها.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدلُ اشتمالٍ من «إحدى» مبيِّنٌ لكيفية الوعد، أي: يعدكم أنَّ إحدى الطائفتين كائنةٌ لكم، مختصَّةٌ بكم، تتسلَّطون عليها تسلُّط المُلَّاك، وتتصرَّفون فيها كيفما شئتُم.

﴿وَتَوَدُّونَ﴾ عطفٌ على «يعدكم» داخلٌ معه حيث دخل، أي: تحبُّون ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ من الطائفتين، وذاتُ الشوكة هي النَّفيرُ، ورئيسُهم أبو جهل، وغيرُها العِيْر، ورئيسُهم أبو سفيان، والتعبيرُ عنهم بهذا العنوان للتنبيه على سبب وِدَادَتِهم لملاقاتهم، وموجِبِ كراهتهم ونَفْرتهم عن موافاة النفير.

والشَّوكةُ في الأصل: واحدةُ الشَّوك المعروف، ثم استُعيرت للشدَّة والحِدَّة، وتُطلق على السلاح أيضاً، وفسَّرها بعضُهم به هنا.

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾أي: يُظهِرَ كونَه حقًّا ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾المُوحَى بها في هذه القصَّة، أو أوامره للملائكة بالإمداد، أو بما قضى من أَسْر الكفار، وقَتْلهم، وطَرْحهم في قَلِيب بدر.

وقُرئ: «بكلمتِهِ» بالإفراد[2]؛ لجعل المتعدِّد كالشيء الواحد، أو على أن المراد بها كلمةُ «كن» التي هي عند الكثير عبارةٌ عن القضاء والتكوين.

﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾ أي: آخرَهم، والمراد: يُهلكهم جملةً من أصلهم؛ لأنه لا يفنى الآخرُ إلا بعد فناءِ الأول، ومنه سُمِّي الهلاكُ دباراً.

والمعنى: أنتم تريدون سَفْساف الأمور، والله عزَّ وجلَّ يريد مَعَاليها، وما يرجع

---

(١) البحر ٤/ ٤٦٤.

(٢) القرءات الشاذة ص٤٩، والكشاف ٢/ ١٤٥.

إلى علوِّ كلمة الحقِّ، وسموِّ رتبة الدِّين، وشتَّان بين المُرادَين، وكأنه للإشارة إلى ذلك عبَّر أولاً بالوِدادة، وثانياً بالإرادة.

وقوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾جملةٌ مستأنفةٌ سِيْقت لبيان الحكمةِ الدَّاعية إلى اختيار ذاتِ الشَّوكة ونَصْرهم عليها مع إرادتهم لغيرها، واللامُ متعلِّقةٌ بفعل مقدَّر مؤخَّر عنها، أي: لهذه الحكمة الباهرة فَعَل ما فَعَل، لا لشيء آخر.

وليس فيه مع ما تقدَّم تكرارٌ؛ إذ الأولُ لبيانِ تفاوتِ ما بين الإرادتين، وهذا لبيان الحكمة الداعية إلى ما ذُكر. وأشار الزمخشريُّ إلى أن هذا نظيرُ قولك: أَرَدْتَ أن تَفْعَلَ الباطلَ، وأَرَدْتُ أن أَفْعلَ الحقَّ، ففعلتُ ما أَرَدْتُه لكذا، لا لمقتضى إرادتك، وليس نظيرَ قولك: أردتُ أن أكرم زيداً لإكرامه، ليكون فيه ما يكون[(١)].

ومعنى إبطال الباطل على طَرْز ما أشرنا إليه في إحقاق الحقِّ.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ذلك، أعني: إحقاقَ الحقِّ وإبطالَ الباطل، والمرادُ بهم المشركون، لا مَن كَرِهَ الذهابَ إلى النفير لأنه جُرْم منهم، كما قيل.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾بدلٌ من «إذ يعدكم»، وإن كان زمانُ الوعد غيرَ زمان الاستغاثة؛ لأنه بتأويل أنَّ الوعد والاستغاثَة وَقَعا في زمنٍ واسع كما قال الطيبيُّ، قيل: وهو يَحتَمِلُ بدَلَ الكلِّ إن جُعِلا متَّسعين، وبدل البعض إن جُعِلَ الأول متَّسعاً والثاني معياراً.

وجُوِّز أن يكون متعلِّقاً بقوله سبحانه: «ليحق». واعتُرِض بأنه مستقبل لنصبه بـ أَنْ، و«إذ» للزمان الماضي، فكيف يعمل بها؟

وأُجيب بأن ذلك مبنيٌّ على ما ذهب إليه بعضُ النحاة كابن مالك من أنَّ «إذ» قد تكون بمعنى إذا للمستقبل، كما في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۞ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ

---

(١) كلام الزمخشري في الكشاف ٢/ ١٤٥: فإن قلت: أليس هذا تكريراً؟ قلت: لا؛ لأن المعنيين متباينان، وذلك أن الأول تميز بين الإرادتين، وهذا بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم، ونصرتهم عليها، وأنه ما نصرهم ولا خذل أولئك إلا لهذا الغرض الذي هو سيد الأغراض. اهـ. وما ذكره المصنف لعله منقول من أحد حواشي أو شروح الكشاف.

أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾ [غافر: ٧٠-٧١]، وقد يُجعل من التعبير عن المستقبل بالماضي لتحقُّقه.

وقال بعضُ المحقِّقين في الجواب: إن كونَ الإحقاق مستقبلاً إنَّما هو بالنسبة إلى زمانِ ما هو غايةٌ له من الفعل المقدَّر، لا بالنسبة إلى زمانِ الاستغاثة حتى لا يعمَلَ فيه، بل هما في وقتٍ واحد، وإنما عبَّر عن زمانها بـ «إذ» نظراً إلى زمن النزول، وصيغةُ الاستقبال في «تستغيثون» لحكاية الحال الماضية؛ لاستحضارِ صورتها العجيبة.

وقيل: هو متعلِّق بمضمَرٍ مستأنف أي: اذكروا. وقيل: بـ «تودُّون». وليس بشيء.

والاستغاثةُ كما قال غيرُ واحدٍ: طلبُ الغَوْث، وهو التخليصُ من الشدَّةِ والنِّقمةِ، والعونُ، وهو متعدٍّ بنفسه، ولم يقع في القرآن الكريم إلا كذلك، وقد يتعدَّى بالحرف، كقوله:

حتى استغاث بماءٍ لا رِشاءَ له ... من الأباطح في حافاته البُرَكُ[1]

وكذا استعملَه سيبويه[2]، وزَعْمُ أنه خطأٌ خطأ.

والظاهر أن المستغيث هم المؤمنون، قيل: إنهم لمَّا علموا أن لا محيصَ من القتال أخذوا يقولون: أي ربِّ، انصُرْنا على عدوِّك، أغِثْنا يا غياثَ المستغيثين. وقال الزُّهريُّ: إنه رسول الله ﷺ والمسلمون معه.

وظاهرُ بعض الأخبار يدلُّ على أنه الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فقد أخرج أحمدُ ومسلمٌ وأبو داود والترمذيُّ وغيرُهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدَّثني عمر بنُ الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يومُ بدر نظر النبيُّ ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثُ مئة وبضعةَ عشر رجلاً، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألفٌ وزيادة، فاستقبَلَ نبيُّ الله ﷺ القِبْلة، ثم مدَّ يدَه وجعل يهتِفُ بربِّه: «اللهمَّ أنجِزْ لي ما وعدتَني، اللهمَّ إن تَهلك

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه بشرح أبي العباس ثعلب ص١٧٥. وقوله: لا رشاء له؛ أي: ظاهر يجري على وجه الأرض. وقد تحرف رشاء في الأصل و(م) إلى رشاد. والبرك: طائر أبيض.

(٢) في الكتاب ٢/ ٢١٥.

هذه العِصابةُ من أهل الإسلام لا تُعبَدُ في الأرض». فما زال يهتِفُ بربِّه، مادًّا يديه، مستقبِلَ القِبلة، حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر رضي الله عنه، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزَمَه من ورائه وقال: يا نبيَّ الله، كفاك مناشدَتَك ربَّك؛ فإنه سينجِزُ لك ما وعدك. فنزلت الآيةُ في ذلك[1]. وعليه فالجمعُ للتعظيم.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾أي: فأجاب دعاءكم عَقِيب استغاثتكم إيَّاه سبحانه على أتمِّ وجه.

﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾أي: بأنِّي، فحذَفَ الجارَّ، وفي كون المنسبك بعد الحذف منصوباً أو مجروراً خلافٌ.

وقرأ أبو عَمرو بالكسر[2] على تقدير القول، أو إجراءِ «استجاب» مجرى قال؛ لأن الاستجابةَ من جنس القول. والتأكيدُ للاعتناء بشأن الخبر، وحملُه على تنزيل غير المنكَر بمنزلة المنكَر بمنزلة المنكَر عندي.

والمرادُ بـ «ممدكم»: معينُكم وناصرُكم.

﴿بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ۝٩﴾أي: وراء كلِّ مَلَكٍ مَلَكٌ، كما أخرجه ابنُ جرير وغيرُه عن ابن عباس رضي الله عنهما[3].

ورَدِف وأردَفَ بمعنى، كتَبِعَ وأتبَعَ في قول، وعن الزجَّاج[4] أن بينهما فرقاً: فرَدِفتُ الرجلَ بمعنى: ركبتُ خلفَه، وأردَفْتُه بمعنى: أركبتُه خلفي.

وقال بعضهم: ردِفتُ وأردفتُ: إذا فعلتَ ذلك [بنفسك][5]، فإذا فعلتَه بغيرك فأردفتُ لا غير.

---

(١) مسند أحمد (٢٠٨)، وصحيح مسلم (١٧٦٣)، وسنن أبي داود (٢٦٩٠)، وسنن الترمذي (٣٠٨١). والمذكور قطعة من الحديث، وهي لم ترد في رواية أبي داود.

(٢) القراءات الشاذة ص٤٨-٤٩، والكشاف ٢/ ١٤٥، والبحر المحيط ٤/ ٤٦٥. والمشهور عن أبي عمرو القراءة بفتح الهمزة.

(٣) تفسير الطبري ١١/ ٥٤.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٢.

(٥) ما بين حاصرتين من تهذيب اللغة ٤/ ٩٧، واللسان والتاج (ردف)، وحاشية الشهاب ٤/ ٢٥٦، وعنه نقل المصنف.

وجاء أردَفَ بمعنى: اتَّبع مشدداً، وهو يتعدَّى لواحد، وبمعنى: أَتْبع مخففاً، وهو يتعدَّى لاثنين على ما هو المشهور، وبكلٍّ فُسِّر هنا، وقدَّروا المفعول والمفعولين حسبما يصحُّ به المعنى ويقتضيه، وجعلوا الاحتمالات خمسةً:

احتمالان على المعنى الأول:

أحدُهما: أن يكون الموصوفُ جملةَ الملائكة، والمفعول المقدَّر المؤمنين، والمعنى: متَّبعين المؤمنين، أي: جائين خلفَهم.

وثانيهما: أن يكون الموصوفُ بعضَ الملائكة، والمفعولُ بعضاً آخر، والمعنى: مُتْبِعاً بعضُهم بعضاً آخَرَ منهم، كرُسُلهم عليهم السلام.

وثلاثةُ احتمالات على المعنى الثاني:

الأول: أن يكون الموصوفُ كلَّ الملائكة، والمفعولان: بعضَهم بعضاً، على معنى أنهم جعلوا بعضَهم يَتْبَع بعضاً.

الثاني كذلك، إلا أنَّ المفعول الأول بعضُهم، والثاني المؤمنين، على معنى أنهم أتبعوا بعضَهم المؤمنين، فجعلوا بعضاً منهم خلفَهم.

والثالث كذلك أيضاً، إلا أن المفعولين أنفسهم والمؤمنين، على معنى أنهم أتبعوا أنفسَهم وجملتَهم المؤمنين، فجعلوا أنفسهم خلفهم.

وقرأ نافع ويعقوب: «مُرْدَفين» بفتح الدال[1]، وفيه احتمالان: أن يكون بمعنى متَّبَعين بالتشديد، أي: اتَّبعهم غيرُهم، وأن يكون بمعنى مُتْبَعين بالتخفيف، أي: جعلوا أنفسَهم تابعةً لغيرهم، وأُريد بالغير في الاحتمالين المؤمنون، فتكونُ الملائكةُ على الأول مقدِّمةَ الجيش، وعلى الثاني ساقَتَهم.

وقد يقال: المرادُ بالغير آخرون من الملائكة، وفي الآثار ما يؤيِّده؛ أخرج ابنُ جرير عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه قال: نزل جبريلُ عليه السلام في ألف من الملائكة عن ميمنةِ النبيِّ ﷺ وفيها أبو بكر رضي الله عنه، ونزل ميكائيلُ عليه السلام في

(١) التيسير ص١١٦، والنشر٢/ ٢٧٥.

ألفٍ من الملائكة عن ميسَرة النبيِّ ﷺ وأنا فيها[١]. لكن في «الكشاف» بدل الألف في الموضعين: خمس مئة[٢].

وقرئ: «مردِّفين» بكسر الراء وضمها[٣]، وأصله على هذه القراءة: مُرْتَدِفين بمعنى مترادفين، فأُبدلت التاء دالاً لقرب مخرجِهما، وأُدغمت في مثلها، فالتقى الساكنان، فحرِّكت الراءُ[٤] بالكسر على الأصل، أو لإتباع الدال، أو بالضمِّ لإتباع الميم، وعن الزجَّاج[٥] أنه يجوز في الراء الفتحُ أيضاً للتخفيف، أو لنقلِ حركة التاء، وهي القراءةُ التي حكاها الخليلُ عن بعض المكيين.

وذكر أبو البقاء[٦] أنه قرئ بكسر الميم والراء، ونَقَل عن بعضهم أن مرَدَّفاً بفتح الراء وتشديد الدال من رَدَّف بتضعيف العين، أو أن التشديد بدلٌ من الهمزة، كأفرحتُه وفرَّحته.

ومن الناس من فسَّر الارتداف بركوب الشخص خلفَ الآخر، وأنكره أبو عُبيدة[٧]، وأيَّده بعضهم.

وعن السُّدِّي أنه قرأ: «بآلاف» على الجمع[٨]، فيوافقُ ما وقع في سورة أخرى: ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ﴾ [آل عمران: ١٢٤] و﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ﴾ [آل عمران: ١٢٥] قيل: ووجه التوفيقِ بينَه وبين المشهور أن المراد بالألف: الذين كانوا على المقدِّمة أو الساقَة، أو وجوهُهم، أو من قاتل منهم.

---

(١) تفسير الطبري ١١/٥٨.
(٢) الكشاف ٢/١٤٥.
(٣) المحتسب ١/٢٧٣، والبحر ٤/٤٦٥.
(٤) تحرفت في الأصل إلى: الدال. والمثبت من (م).
(٥) في معاني القرآن ٢/٤٠٣.
(٦) في الإملاء ٣/٩٧.
(٧) كذا في الأصل و(م)، وفي الدر المصون ٥/٥٦٧: أبو عُبيد.
(٨) القراءات الشاذة ص٤٩، والبحر المحيط ٤/٤٦٥، وقد تحرفت فيهما إلى: «بالألف». وقد نص في الدر المصون ٥/٥٦٦ أنها على وزن: أَحْمال. وذكر أبو حيان والسمين عن الجحدري قراءة: «بألُفٍ» على وزن أَفْلُس.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن الشَّعبي أنه قال: كان ألفٌ مردفين، وثلاثةُ آلاف منزَلين. وهو جمعٌ ليس بالجيِّد(١).

وأخرج ابنُ جرير وعَبْد بن حُميد عن قتادة أنهم أُمِدُّوا أولاً بألف، ثم بثلاثة آلاف، ثم أكملَهم الله تعالى خمسةَ آلاف(٢).

وأنتَ تعلم أن ظاهر ما رُوي عن الحَبْر يقتضي أن ما في الآية ألفان في الحقيقة، وصرَّح بعضُهم أن ما فيها بيانٌ إجمالي لما في تلك السورة، بناءً على أن معنى «مردفين»: جاعلين غيرَهم من الملائكة رديفاً لأنفسهم، وهو ظاهر في أن المراد بالألف الرؤساءُ المستتبِعون لغيرهم.

والأكثرون على أن الملائكة قاتلتْ يومَ بدر، وفي الأخبار ما يدلُّ عليه، وذكروا أنها لم تقاتل يوم الأحزاب ويوم حُنين، وتفصيلُ ذلك في السِّيَر، وقد تقدَّم بعضُ الكلام فيما يتعلَّق بهذا المقام فتذكَّر.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ لبيان أنَّ المؤثِّر الحقيقيَّ هو الله تعالى؛ ليثق به المؤمنون، ولا يقنطوا من النَّصر عند فقدان أسبابه، والجَعْل متعدٍّ إلى واحد، وهو الضميرُ العائدُ إلى المصدر المنسبك في «أني ممدُّكم» على قراءة الفتح، والمصدرِ المفهومِ من ذلك على الكسر، واعتبارُ القول ورجوعُ الضمير إليه ليس بمعتبرٍ من القول.

أي: وما جعل إمدادَكم بهم لشيء من الأشياء ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي: بشارةً لكم بأنكم تُنصَرون ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ﴾ أي: بالإمداد ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ وتسكن إليه نفوسُكم، وتزول عنكم الوسوسةُ.

ونصب «بشرى» على أنه مفعولٌ له، و«لتطمئن» معطوفٌ عليه، وأُظهرت اللام لفقد شرطِ النصب، وقيل: للإشارة إلى أصالته في العلِّية، وأهميته في نفسه، كما قيل في قوله سبحانه: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٦٣.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٢٥، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٣/ ١٧١.

وقيل: إنَّ الجَعْل متعدٍّ إلى اثنين ثانيهما «بشرى» على أنه استثناءٌ من أعمِّ المفاعيل، واللامُ متعلِّقة بمحذوفٍ مؤخَّر، أي: وما جعله الله تعالى شيئاً من الأشياء إلا بشارةً لكم، ولتطمئنَّ به قلوبُكم فعَلَ ما فعَلَ لا لشيء آخر، والأولُ هو الظاهر.

وفي الآية إشعارٌ بأنَّ الملائكة لم يُباشروا قتالاً، وهو مذهبٌ لبعضهم، ويُشعر ظاهرُها بأنَّ النبيَّ ﷺ أخبرهم بذلك الإمداد، وفي الأخبار ما يؤيِّده، بل جاء في غير ما خبرٍ أن الصحابةَ رأوا الملائكةَ عليهم السلام.

ورُوي عن أبي أُسَيْدٍ ـ وكان قد شهد بدراً ـ أنه قال بعدما ذهب بصرُه: لو كنتُ معكم اليوم ببدر ومعي بصري لأريتُكم الشِّعب الذي خرجتْ منه الملائكة.

﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾أي: وما النَّصرُ بالملائكة وغيرِهم من الأسباب إلا كائنٌ من عنده عزَّ وجل، فالمنصورُ هو من نَصَره الله سبحانه، والأسبابُ ليست بمستقلَّة. أو المعنى: لا تحسبوا النصرَ من الملائكة عليهم السلام؛ فإنَّ الناصرَ هو الله تعالى لكم وللملائكةِ، وعليه فلا دخل للملائكة في النصر أصلاً. وجعل بعضهم القصر على الأول إفرادي، وعلى الثاني قلبيّ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾لا يُغالَب في حكمه، ولا يُنازَعُ في قضيَّته ﴿حَكِيمٌ ۝١٠﴾ يفعل كلَّ ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمةُ الباهرة.

والجملة تُعليلٌ لما قبلها، وفيها إشعارٌ بأنَّ النصر الواقعَ على الوجه المذكور من مقتضيات الحكمة البالغة.

﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾أي: يجعله غاشياً عليكم، ومحيطاً بكم. والنعاسُ: أولُ النوم قبل أن يَثْقُل.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن قتادة أن النُّعاس في الرأس، والنوم في القلب[1]. ولعل مراده الثِّقَل والخِفَّة، وإلا فلا معنى له. والفعل نعَسَ كمنع، والوصف ناعس، ونعسان قليلٌ.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٦٤.

و«إذ يغشيكم» بدلٌ ثانٍ من «إذ يعدكم» على القول بجواز تعدُّد البدل.

وفيه إظهارُ نعمةٍ أخرى؛ فإن الخوف أطار كَرَاهُم من أوكاره، فلما طامَنَ الله تعالى قلوبَهم رفرفَ بجناحه عليها فنعسوا. وصيغةُ المضارع لحكاية الحال الماضية، أو هو منصوبٌ باذكروا.

وجُوِّز تعلُّقه بـ «النصر»، وضُعِّف بأن فيه إعمالَ المصدر المعرَّف بأل، وفيه خلافُ الكوفيين، والفصلَ بين المصدر ومعموله، وعملَ ما قبل «إلا» فيما بعدَها من غير أن يكون ذلك المعمولُ مستثنى، أو مستثنى منه، أو صفةً له، والجمهورُ لا يجوِّزون ذلك خلافاً للكسائيِّ والأخفش.

وتعلُّقُه[1] بما في «عند الله» من معنى الفعل. وقيل عليه: إنه يلزمُ تقييدُ استقرار النَّصر من الله تعالى بهذا الوقت، ولا تقييدَ له به. وأجاب الحلبيُّ بأن المراد به نصرٌ خاصٌّ، فلا محذور في تقييده[2].

وبالجعل، وفيه الفصلُ، وعملُ ما قبل «إلا» فيما ليس أحدَ الثلاثة.

وبما دلَّ عليه: «عزيز حكيم»، وفيه لزومُ التقييد، ولا تقييد، وأُجيب بما أُجيب. والإنصافُ بُعْد الاحتمالات الأربع.

وقرأ نافع: «يُغْشِيكم» بالتخفيف[3]، من الإغشاء بمعنى التغشية، والفاعلُ في القراءتين هو الله تعالى.

وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو: «يغشاكم»[4] على إسناد الفعل إلى النُّعاس.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ نصبٌ على أنه مفعولٌ له، وهو مصدرٌ بمعنى الأمن، كالمَنَعة، وإن كان قد يكونُ جمعاً وصفةً بمعنى آمنين كما ذكره الراغب[5]، واستُشكل بأن شرط النصبِ الذي هو اتحادُ فاعِلِه وفاعلِ الفعل العامل

---

(١) معطوف على تعلقه المتقدم.

(٢) الدر المصون ٥/ ٢٧٤.

(٣) النشر ٢/ ٢٧٦. وسقطت القراءة من مطبوع التيسير.

(٤) التيسير ص١١٦، والنشر ٢/ ٢٧٦.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن (أمن).

فيه مفقودٌ؛ إذ فاعلُه هم الصحابةُ الآمنون ﷺ، وفاعلُ الآخر هو الله على القراءتين الأُوليين، والنُّعاس على الأخرى.

وأُجيب بأنه مفعولٌ له باعتبار المعنى الكنائيِّ؛ فإنَّ«يغشاكم النعاس» يلزمه تنعسون، و«يغشيكم» بمعناه، فيتَّحِدُ الفاعلان؛ إذ فاعلُ كلٍّ حينئذٍ الصحابةُ.

وقال بعض المدقِّقين: إنه على القراءتين الأُوليين يجوز أن يكون منصوباً على العِلِّية لفعلٍ مترتِّبٍ على الفعل المذكور، أي: يغشيكم النعاس فتنعسون أمناً، أو على أنه مصدرٌ لفعل آخر كذلك، أي: فتأمنون أمناً، وعلى القراءة الأخيرة منصوبٌ على العِلِّيَّة بـ «يغشاكم» باعتبار المعنى؛ فإنه في حكم تنعسون، أو على أنه مصدرٌ لفعل مترتِّب عليه كما علمت، وما تقدَّم أقلُّ انتشاراً.

وجُوِّز أن يُراد بالأَمَنة الإيمانُ بمعناه اللغويّ: وهو جعلُ الغير آمناً، فيكون مصدر آمَنَه، وهو على بُعْده إنما يتمشَّى في القراءتين الأُوليين؛ لأنَّ فاعل التغشية والأمان هو الله تعالى، وأما على القراءة الأخرى فلا، ويحتاج إلى ما مرَّ.

ومن الناس من جوَّز فيها أن يُجعل الأمنُ فعلَ النعاس على الإسناد المجازيِّ؛ لكونه من ملابسات أصحابِ الأمن، والإسنادُ في ذلك مقدَّر، وليس المرادُ به النسبةَ التي بين الفعلِ والمفعول له، أي: يغشاكم النعاس لأمنةٍ، أو على تشبيه حاله بحال إنسان شأنُه الأمن والخوفُ، وأنه حصَلَ له من الله تعالى الأمانُ من الكفار في مثل ذلك الوقت المَخُوف، فلذلك غَشِيَكم[1] وأنامَكم، فيكون الكلامُ تمثيلاً وتخييلاً للمقصود بإبراز المعقول في صورة المحسوس.

والقطب جَعَل في الكلام استعارةً بالكناية، حيث ذكر أنه شبَّهَ النعاسَ بشخص من شأنه أن يأتيهم، لكنَّه لا يأتيهم في وقت الخوف، وإذا أمِنَ أتاهم، ثم ذكر النعاسَ وأراد ذلك الشخصَ، والقرينةُ ذِكْر الأَمَنة لأنها من لوازم المشبَّه به. وقد وصف الزمخشريُّ النوم بنحو ذلك في قوله:

يهابُ النومُ أن يغشى عيوناً تهابُك فهو نفَّارٌ شَرُودُ[2]

(١) في (م) غشاكم، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٤/ ٢٥٧.
(٢) البيت من قصيدة للزمخشري فيما ذكر الشهاب الخفاجي، وهو في الكشاف ٢/ ١٤٧، =

وما يقال: إنَّ مثل هذا إنما يليقُ بالشعر لا بالقرآن الكريم فغيرُ مسلَّم.

وذكر ابنُ المنير[١] في توجيه اتِّحاد الفاعل على القراءتين أنَّ لقائلٍ أن يقول: فاعلُ تغشيةِ النعاسِ إيَّاهم هو الله تعالى، وهو فاعل الأَمَنة أيضاً؛ لأنه خالقُها، فحينئذٍ يتَّحد فاعلُ الفعل والعِلَّة، فيرتفعُ السؤال، ويزول الإشكال على قواعد أهل السنة التي تقتضي نسبةَ أفعال الخلق إلى الله تعالى على أنه خالقُها ومبدعُها.

وتعقَّبه[٢] بأن للمُورِدِ أن يقول: المعتبَرُ الفاعل اللغويُّ، وهو المتصف بالفعل، وهو هنا ليس إلا العبد؛ إذ لا يقال لله سبحانه وتعالى: آمِنٌ وإن كان هو الخالقُ، وحينئذٍ يحتاج إلى الجواب بما سلَفَ.

والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «أَمَنَة»، أي: أمنةً كائنة منه تعالى لكم، ولعل مغايرةَ ما هنا لما في سورة «آل عمران» لاختلاف المقام، فقد قالوا: إنَّ ذلك المقامَ اقتضى الاهتمامَ بشأن الأمن، ولذلك قدَّمه سبحانه وتعالى، وبسط الكلام فيه ـ كما لا يخفى على مَنْ تأمَّل في السياق والسباق ـ بخلافه هنا؛ لأنه في مقام تعداد النِّعم، فلذا جيء بالقصة مختصرةً للرمز.

وقرئ: «أَمْنة» بالسكون[٣]، وهو لغةٌ فيه.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ عطفٌ على «يُغشِّيكم» وكان هذا قبلَ النعاس كما رُوي عن مجاهد.

وتقديمُ الجارِّ والمجرور على المفعول به للاهتمام بالمقدَّم، والتشويق إلى المؤخَّر، كما مرَّ غير مرَّةٍ، وتقديم «عليكم» لما أنَّ بيان كون التنزيل عليهم أهمُّ من بيان كونه من السماء.

وقرأ ابنُ كثير وسَهْل ويعقوب وأبو عمرو: «يُنْزِل» بالتخفيف[٤] من الإنزال.

= وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٤/ ٢٥٨، والبحر المحيط ٤/ ٤٦٨.

(١) في الانتصاف ٢/ ١٤٦.

(٢) يعني ابن المنير.

(٣) وهي قراءة ابن محيصن، ورويت عن النخعي ويحيى بن يعمر. البحر المحيط ٤/ ٤٦٨.

(٤) التيسير ص٧٥، والنشر ٢/ ٢١٨، ولم نقف على من نسبها إلى سهل.

وقرأ الشعبيُّ: «ما لِيُطَهِّرَكُمْ به»[1] أي: من الحدث الأصغر والأكبر، ووجهُها ـ كما قال ابنُ جنيّ[2] ـ أن «ما» موصولةٌ، واللام متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع صلةً لها، أي: ويُنزل عليكم الذي ثبَتَ لتطهيركم، ونظيرُ هذه اللام اللامُ في قولك: أعطيتُ الثوبَ الذي لدَفْع البرد، وهي في قراءة الجماعة نظيرُ اللام في قولك: زرتُك لتُكرمني، ومرجعُ القراءتين واحدٌ، والمشهورةُ أفصحُ بالمراد.

وانظر لِمَ لا يجوز أن تُخرَّج هذه القراءةُ على ما سُمِعَ من قولهم: اسقني ما، بالقصر، وقد حكى ذلك في «القاموس»[3]، وأرى أن العدولَ عن ذلك ـ إن جاز ـ كالتيمُّم مع وجود الماء.

﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾أي: وسوسَتَه وتخويفَه إيَّاكم من العطش؛ أخرج ابنُ المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جُرَيج عن ابن عباس ﵄، أن المشركين غَلَبوا المسلمين في أول أمرهم على الماء، فظمئ المسلمون وصَلَّوا مُجْنِبِين مُحْدِثين، وكانت بينهم رمالٌ، فألقى الشيطانُ في قلوبهم الحُزْن، وقال: أتزعمون أنَّ فيكم نبيًّا، وأنكم أولياءُ الله تعالى، وتصلُّون مُجْنِبِين مُحْدِثين؟ فأنزل الله تعالى من السماء ماءً، فسال عليهم الوادي، فشربوا وتطهَّروا، وثبتَتْ أقدامُهم، وذهبت وسوسةُ الشيطان[4].

وفسَّر بعضُهم الرجزَ هنا بالجنابة مع اعتبار كون التطهير منها، واعتُرِض بلزومِ التكرار، ودُفِع بأنَّ الجملة الثانيةَ تعليلٌ للأولى، والمعنى: طهَّرَكم من الجنابة؛ لأنها كانت من رجز الشيطان وتخييله.

وقُرِئ: «رجس»[5]، وهو بمعنى الرِّجز.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾أي: يقوِّيها بالثقة بلطف الله تعالى فيما بعدُ بمشاهدةِ طلائعه. وأصلُ الربط: الشدُّ، ويقال لمن صبرَ على الشيء: ربَطَ نفسَه عليه.

---

(١) المحتسب ١/ ٢٧٤، والبحر المحيط ٤/ ٤٦٨.
(٢) في المحتسب ١/ ٢٧٤.
(٣) مادة: (موه).
(٤) الدر المنثور ٣/ ١٧١.
(٥) في المحتسب ١/ ٢٧٥، والبحر ٤/ ٤٦٩.

قال الواحديُّ(١): ويُشبه أن تكون «على» صلةً، أي: وليربطَ قلوبَكم. وقيل: الأصلُ ذلك، إلا أنه أتى بـ «على» قصداً للاستعلاء، وفيه إيماءٌ إلى أن قلوبَهم قد امتلأتْ من ذلك، حتى كأنَّه علا عليها، وفي ذلك من إفادة التمكُّنِ ما لا يخفى.

﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ ولا تَسُوخَ في الرمل، فالضمير للماء كالأول. وجوّز أن يكون للرَّبط؛ والمرادُ بتثبيت الأقدام- كما قال أبو عُبيدة- جعلُهم صابرين، غيرَ فارِّين، ولا متزلزلين(٢).

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ متعلِّق بمضمرٍ مستأنفٍ، أي: اذكر، خُوطب به النبيُّ ﷺ بطريقِ التَّجريدِ حسبما ينطِقُ به الكاف.

وقيل: منصوبٌ بـ «يثبت»، ويتعيَّن حينئذٍ عَوْد الضمير المجرور في «به» إلى الربط؛ ليكون المعنى: ونُثبِّتَ الأقدامَ بتقويةِ قلوبكم وقتَ الإيحاء إلى الملائكة، والأمرِ بتثبيتهم إياكم، وهو وقت القتال. ولا يصحُّ أن يعود إلى الماء؛ لتقدُّم زمانه على زمان ذلك، وقال بعضُهم: يجوز ذلك؛ لأنَّ التثبيتَ بالمطر باقٍ إلى زمانه، أو يُعتبر الزمانُ متَّسعاً قد وقع جميعُ المذكور فيه، وفائدةُ التقييد التذكيرُ بنعمةٍ أخرى، والإيماءُ إلى اقترانِ تثبيتِ الأقدام بتثبيت القلوب المأمور به الملائكةُ الذين لا يعصون الله ما أمَرَهم ويفعلون ما يؤمرون، أو الرمزُ إلى أن التقويةَ وقعتْ على أتمِّ وجهٍ.

وقيل: هو بدلٌ ثالث من «إذ يعدكم»، ويُبعِدُه تخصيصُ الخطاب بسيِّد المخاطبين عليه الصلاة والسلام.

واختار بعضُ المحقِّقين الأولَ مدَّعياً أن في الثاني تقييدَ التثبيت بوقتٍ مبهَمٍ، وليس فيه مزيدُ فائدة، وفي الثالث إباءُ التخصيص عنه، مع أنَّ المأمورَ به ليس من

---

(١) في الوسيط ٢/ ٤٤٧.

(٢) مجاز القرآن ١/ ٢٤٢. وقد تعقبه الطبري في تفسيره ١١/ ٦٨-٦٩، قائلاً: وذلك قول خلاف لقول جميع أهل التأويل من الصحابة والتابعين. . . ثم ذكر أن معناه: ويثبت أقدام المؤمنين بتلبيد المطر الرمل حتى لا تسوخ فيه أقدامهم وحوافر دوابهم.

الوظائف العامة للكلِّ كسائر أخواته، ولا يستطيعُهُ غيرُه عليه الصلاة والسلام؛ لأنَّ الوحي المذكورَ قبل ظهوره بالوحي المذكور[١].

ولا يخفى على المتأمِّل أنَّ ما ذُكر لا يقتضي تعيُّنَ الأول، نعم يقتضي أولويَّته.

والمراد بـ «الملائكة»: الملائكةُ الذين وقَعَ بهم الإمدادُ، وصيغةُ المضارع لاستحضار الصورة، والمعنى: إذ أَوْحَى.

﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: معينُكم على تثبيتِ المؤمنين، ولا يمكن حملُه على إزالةِ الخوف كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]؛ لأن الملائكةَ لا يخافون من الكَفَرة أصلاً، وما تُشعر به كلمة «مع» من متبوعيَّة الملائكة لا يضرُّ في مثل هذه المقامات، وهو نظير: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] ونحوه، والمنسبكُ مفعولُ «يوحي».

وقرئ: «إني» بالكسر على تقدير القول، أي: قائلاً: إني معكم، أو إجراء الوحي مجراه؛ لكونه متضمِّناً معناه[٢].

والفاءُ في قوله سبحانه: ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لترتيب ما بعدَها على ما قبلَها، والمرادُ بالتثبيت: الحملُ على الثباتِ في موطنِ الحرب، والجِدُّ في مقاساة شدائد القتال قالاً أو حالاً، وكان ذلك هنا ـ في قولٍ ـ بظهورهم لهم في صورةٍ بشريةٍ يعرفونها، ووَعْدِهم إياهم النصرَ على أعدائهم؛ فقد أخرج البيهقيُّ في «الدلائل»[٣] أن المَلَك كان يأتي الرجلَ في صورة الرجل يعرفُه، فيقول: أبشروا؛ فإنهم ليسوا بشيء، واللهُ معكم، كرّوا عليهم.

وجاء في روايةٍ: كان المَلَك يتشبَّه بالرجل، فيأتي ويقول: إني سمعتُ المشركين يقولون: والله لئن حَمَلوا علينا لنُكشفنَّ، ويمشي بين الصفين ويقول: أبشروا؛ فإن الله تعالى ناصرُكم.

---

(١) جاءت العبارة في تفسير أبي السعود ٤/ ١٠: لأن الوحي المذكور قبل ظهوره بالوحي المتلوّ على لسانه عليه الصلاة والسلام ليس من النعم التي يقف عليها عامة الأمة كسائر النعم السابقة التي أُمروا بذكر وقتها بطريق الشكر.

(٢) البحر المحيط ٤/ ٤٦٩، ونسب القراءة إلى عيسى بن عمر بخلاف عنه.

(٣) ٣/ ٥٣.

وقال الزجاج[1]: كان بأشياء يُلقونها في قلوبهم تصحُّ بها عزائمُهم، ويتأكّد جدُّهم، وللمَلَك قوةُ إلقاء الخير في القلب، ويقال له: إلهامٌ، كما أنَّ للشيطان قوةَ إلقاء الشرِّ، ويقال له: وسوسة.

وقيل: كان ذلك بمجرَّد تكثير السواد.

وعن الحسن: أنه كان بمحاربة أعدائهم.

وذهب إلى ذلك جماعةٌ، وجعلوا قولَه تعالى: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾تفسيراً لقوله تعالى: (أَنِّى مَعَكُمْ)، كأنه قيل: إني معكم في إعانتهم بإلقاء الرُّعب في قلوبِ أعدائهم.

و«الرُّعب» بضم فسكون ـ وقد يقال بضمَّتين، وبه قرأ ابنُ عامرٍ والكسائيُّ[2] ـ: الخوفُ، وانزعاجُ النفس بتوقُّع المكروه، وأصلُه التقطيعُ، من قولهم: رَعَّبْتُ السَّنام ترعيباً: إذا قطعتَه مستطيلاً، كأن الخوفَ يقطع الفؤاد، ويقطع السرور بضده، وجاء: رَعَب السيلُ الوادي: إذا ملأه، كأنَّ السيل قطَعَ السلوك فيه، أو لأنه انقطَعَ إليه من كلِّ الجهات.

وجعلوا قولَه سبحانه وتعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟﴾ إلخ تفسيراً لقوله تبارك وتعالى: (فَثَبِّتُوا۟) مبيِّن[3] لكيفية التثبيت. وقد أخرج عَبْد بنُ حُمَيد وابنُ مردويه عن أبي داود المازنيِّ قال: بينا أنا أتبعُ رجلاً من المشركين يوم بدرٍ، فأهويتُ بسيفي إليه، فوقع رأسُه قبل أن يصلَ سيفي إليه، فعرفت أنه قتَلَه غيري[4].

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: بينما رجلٌ من المسلمين يشتدُّ في أَثَر رجلٍ من المشركين أمامَه، إذ سمِعَ ضربةً بالسَّوط فوقَه، وقائلاً يقول: أقدِمْ حَيْزُوم، فخرَّ المشركُ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ وشُقَّ وجهُه، فجاء فحدَّث بذلك رسولَ الله ﷺ، فقال: «صدقتَ، ذلك من مدَدِ السماء الثالثة»[5].

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٤.

(٢) وكذلك قرأ به أبو جعفر ويعقوب. النشر ٢/ ٢١٦.

(٣) كذا في الأصل و(م)، وفي تفسير أبي السعود ٤/ ١٠- والكلام منه-: مبيناً، وهو الصواب.

(٤) الدر المنثور ٣/ ١٧٣، وأخرجه مسلم في سياق حديث طويل (١٧٦٣).

(٥) أخرجه أحمد (٢٣٧٧٨).

وجوَّز بعضُهم أن يكون التثبيتُ بما يُلقون إليهم من وَعْد النصر، وما يتقوَّى به قلوبُهم في الجملة، وقولُه سبحانه وتعالى: (سَأُلْقِي) إلخ جملةٌ استئنافيةٌ جاريةٌ مجرى التعليل لإفادة التثبيت بأنه[1] مصدِّقُه ومبيِّنُه؛ لإعانته إيَّاهم على التثبيت، وقولُه سبحانه وتعالى: (فَٱضْرِبُوا) إلخ جملة مستعقبة للتثبيت، بمعنى: لا تقتصِروا على تثبيتهم، وأمدُّوهم بالقتال عَقِيبَه من غيرِ تراخٍ، وكأنَّ المعنى: إني معكم فيما آمرُكم به، فثبِّتوا واضربوا. وجيء بالفاء للنكتةِ المذكورة، ووُسِّط (سَأُلْقِي) تصديقاً للتثبيت، وتمهيداً للأمر بعدَه.

وعلى الاحتمالين تكونُ الآيةُ دليلاً لمن قال: إنَّ الملائكة قاتلت يومَ بدرٍ.

وقال آخرون: التثبيتُ بغيرِ المقاتلة، وقولُه عز وجل: (سَأُلْقِي) تلقينٌ منه تعالى للملائكة على إضمار القول على أنه تفسيرٌ للتثبيت، أو استئنافٌ بيانيٌّ، والخطابُ في «فاضربوا» للمؤمنين صادراً من الملائكة حكاه الله تعالى لنا، وجُوِّز أن يكون ذلك الكلامُ من جملة الملقَّن داخلاً تحت القول، كأنه قيل: قولوا لهم قولي: «سألقي» إلخ، أو كأنه قيل: كيف نثبِّتُهم؟ فقيل: قولوا لهم قولي «سألقي» إلخ، ولا يخفى أنَّ هذا القول أضعفُ الأقوال معنى ولفظاً.

وأما القولُ بأنَّ «فاضربوا» إلخ خطابٌ منه تعالى للمؤمنين بالذات على طريق التلوين، فمبناه توهُّم ورودِهِ قبل القتال، وأنَّى ذلك والسورةُ الكريمة إنَّما نزلت بعد تمام الواقعة؟

وبالجملةِ الآيةُ ظاهرةٌ فيما يدَّعيه الجماعةُ من وقوعِ القتال من الملائكة.

﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾أي: الرؤوس، كما رُوي عن عطاءٍ وعكرمة، وكونُها فوقَ الأعناق ظاهرٌ. وأما المذابحُ- كما قال البعض- فإنها في أعالي الأعناق، و«فوق» باقيةٌ على ظرفيَّتها؛ لأنَّها لا تتصرَّف، وقيل: إنها مفعولٌ به، وهي بمعنى الأعلى إذا كانت بمعنى الرأس، وقيل: هي هنا بمعنى على، والمفعولُ محذوفٌ، أي: فاضربوهم على الأعناق، وقيل: زائدةٌ، أي: فاضربوا الأعناق.

(١) في (م): لأنه.

﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢﴾ قال ابنُ الأنباريِّ: البَنانُ أطرافُ الأصابع من اليدين والرجلين، والواحدةُ بَنانة، وخَصَّها بعضُهم باليد.

وقال الراغب[١]: هي الأصابعُ، وسُمِّيت بذلك لأنَّ بها إصلاحَ الأحوال التي بها يمكن للإنسان أن يبِنَّ، أي: يقيم، من: أَبَنَّ بالمكان وبَنَّ: إذا أقام، ولذلك خُصَّ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤] وما نحنُ فيه؛ لأجل أنهم بها يُقاتلون ويُدافعون.

والظاهرُ أنها حقيقةٌ في ذلك، وبعضُهم يقول: إنها مجازٌ فيه، من تسمية الكلِّ باسم الجُزْء.

وقيل: المراد بها هنا مطلقُ الأطراف؛ لوقوعِها في مقابلةِ الأعناق والمَقَاتل، والمراد: اضربوهم كيفما اتفَقَ من المَقَاتل وغيرِها، وآثَرَه في «الكشاف»[٢].

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها الجسدُ كلُّه في لغة هُذَيل، ويقال فيها: بنام بالميم.

وتكريرُ الأمرِ بالضرب لمزيدِ التشديد، والاعتناء بأمره.

«ومنهم» متعلِّق به، أو بمحذوف وقع حالاً من «كلّ بنان»، وضُعِّف كونُه حالاً من «بنان» بأنَّ فيه تقديمَ حالِ المضاف إليه على المضاف.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الضرب والأمرِ به، أو إلى جميع ما مرَّ.

والخطابُ لرسول الله ﷺ، أو لكلِّ مَنْ ذُكر قبلُ من الملائكة والمؤمنين على البَدَل، أو لكلِّ أحدٍ ممَّن يليقُ بالخطاب. وجُوِّز أن يكون خطاباً للجمع، والكافُ تُفْرَد مع تعدُّد مَنْ خُوْطب بها، وليست كالضمير على ما صرَّحوا به.

ومحلُّ الاسم الرفعُ على الابتداء، وخبرُه قوله سبحانه وتعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وقال أبو البقاء: إنَّ «ذلك» خبرُ مبتدأ محذوف، أي: الأمرُ ذلك[٣]. وليس الأمرُ ذلك. والباءُ للسببية.

---

(١) في مفردات ألفاظ القرآن: (برّ).
(٢) ٢/ ١٤٨.
(٣) الإملاء ٣/ ١٠٠.

والمشاقَّة: العداوةُ، سُمِّيت بذلك أخذاً من شَقِّ العصا، وهي المُخالَفة، أو لأنَّ كلًّا من المتعادِيَيْن يكون في شقٍّ غيرِ شقِّ الآخر، كما أن العداوةَ سُميت عداوةً لأنَّ كلًّا منهما في عَدْوةٍ، أي: جانبٍ، وكما أن المخاصمةَ من الخَصْم بمعنى الجانب أيضاً، والمراد بها هنا: المخالفةُ، أي: ذلك ثابتٌ لهم، أو واقعٌ عليهم بسبب مخالفتهم لمن لا ينبغي لهم مخالفتُه بوجهٍ من الوجوه.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يُخالف أمرَ الله تعالى ورسولِهِ عليه الصلاة والسلام.

والإظهارُ في مقامِ الإضمار لتربيةِ المَهَابة، وإظهار كمالِ شناعة ما اجترؤوا عليه، والإشعارِ بعِلِّية الحكم، و: «بئس خطيبُ القوم أنت»[1] اقتضاه الجمعُ على وجهٍ لا يَبِينُ منه الفرق ممَّن هو في رِبْقة التكليف؛ وأين هذا من ذاك لو وقَعَ ممن لا حَجْرَ عليه؟

وإنما لم يُدْغم المِثْلان لأنَّ الثاني ساكنٌ في الأصل، والحركةُ لالتقاء الساكنين، فلا يُعتدُّ بها.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١٣﴾ إما نفسُ الجزاء قد حُذِف منه العائدُ عند من يلتزمُه ولا يكتفي بالفاء في الرَّبط، أي: شديدُ العقاب له، أو تعليلٌ للجزاء المحذوف، أي: يُعاقِبْه الله تعالى؛ فإنَّ الله شديدُ العقاب، وأيًّا ما كان فالشرطيةُ بيانٌ للسَّببية السابقة بطريق برهانيٍّ، كأنه قيل: ذلك العقابُ الشديدُ بسبب المُشاقَّة لله تعالى ورسولِهِ عليه الصلاة والسلام، وكلُّ من يُشاقق اللهَ ورسولَه كائناً مَنْ كان فله بسبب ذلك عقابٌ شديد، فإذَنْ لهم بسببِ مُشاقَّة الله ورسوله عقابٌ شديد.

وقيل: هو وعيدٌ بما أعدَّ لهم في الآخرة بعد ما حاقَ بهم في الدنيا.

قال بعضُ المحققين[2]: ويرُدُّه قولُه سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٤﴾ فإنه ـ مع كونه هو المسوقَ للوعيد بما ذُكر ـ ناطقٌ بكون

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٨٧٠)، وفيه قصة، وينظر ما سيأتي عند تفسير الآية (٦٥) من سورة النمل، وعند تفسير الآية (٥٦) من سورة الأحزاب.

(٢) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ١٠-١١.

المراد بالعقاب المذكورِ ما أصابهم عاجلاً، سواء جُعل «ذلكم» إشارةً إلى نفس العقاب، أو إلى ما تفيدُه الشرطيةُ من ثبوته لهم، أما على الأول فلأنَّ الأظهر أن محلَّه النصبُ بمضمرٍ يستدعيه «فذوقوه»، والواو في «وأنَّ للكافرين» إلخ بمعنى مع، فالمعنى: باشروا ذلكم العقابَ الذي أصابَكم، فذوقوه عاجلاً مع أنَّ لكم عذابَ النار آجلاً، فوقع الظاهرُ موضع المضمر؛ لتوبيخهم بالكفر، وتعليلِ الحكم به، وأما على الثاني فلأنَّ الأقرب أنَّ محلَّه الرفعُ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، وقولُه سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّ﴾ إلخ معطوفٌ عليه، والمعنى: حكمُ اللهِ تعالى ذلكم، أي: ثبوتُ هذا العقابِ لكم عاجلاً، وثبوتُ عذابِ النار آجلاً، وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوهُ﴾ اعتراضٌ وُسِّط بين المعطوفين للتَّهديد، والضميرُ على الأول لنفسِ المشار إليه، وعلى الثاني لما في ضمنه. اهـ.

واعتُرض على الاحتمال الأول بأنَّ الكلامَ عليه من باب الاشتغال، وهو إنما يصحُّ لو جوَّزنا صحةَ الابتداء في «ذلكم»، وظاهرٌ أنه لا يجوزُ؛ لأنَّ ما بعد الفاء لا يكونُ خبراً إلا إذا كان المبتدأُ موصولاً، أو نكرةً موصوفةً.

ورُدَّ بأنه ليس متَّفَقاً عليه؛ فإنَّ الأخفشَ جوَّزه مطلقاً، وتقديرُ: باشروا، ممَّا استحسنه أبو البقاء[1] وغيرُه، قالوا: لتكون الفاءُ عاطفةً، لا زائدةً أو جزائيةً كما في نحو: زيداً فاضرِبْه، على كلامٍ فيه.

وبعضُهم يُقدِّر: عليكم، اسمَ فعلٍ. واعترضَه أبو حيان[2] بأن أسماء الأفعال لا تُضمر. واعتذر عن ذلك الحلبيُّ[3] بأن من قدَّر لعلَّه نحا نحوَ الكوفيين؛ فإنَّهم يُجرون اسمَ الفعل مجرى الفعل مطلقاً، ولذلك يُعمِلونه متأخِّراً، نحو: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢٤].

وما أشار إليه كلامُه من أنَّ قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ إلخ منصوب على أنه مفعولٌ معه على التقدير الأول = لا يخلو عن شيء؛ فإنَّ في نصب المصدر

---

(١) في الإملاء ٣/ ١٠١.
(٢) في البحر المحيط ٤/ ٤٧٢.
(٣) في الدر المصون ٥/ ٥٨٢.

المؤوَّل على أنه مفعولٌ معه نظراً، ومن هنا اختار بعضُهم العطفَ على «ذلكم» كما في التقدير الثاني، وآخرون اختاروا عطفَه على قوله تعالى: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ داخلٌ معه تحتَ الإيحاء، أو على المصدر في قوله سبحانه وتعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

ولا يخفى أن العطفَ على «ذلكم» يستدعي أن يكون المعنى: باشروا، أو: عليكم، أو: ذوقوا، وأنَّ للكافرين عذاب النار، وهو ممَّا يأباه الذَّوق، ولذا قال العلامةُ الثاني: إنه لا معنى له. والعطفان الآخران لا أدري أيُّهما أمرٌّ من الآخر، ولذلك ذهبَ بعضُ المحقِّقين إلى اختيارِ كون المصدر خبرَ مبتدأ محذوف، أو مبتدأً خبرُه محذوف، وقيل: هو منصوبٌ باعلموا.

ولعلَّ أهونَ الوجوه في الآية الوجهُ الأخير.

والإنصافُ أنها ظاهرةٌ في كون المراد بالعقاب ما أصابَهم عاجلاً، والخطابُ فيها مع الكَفَرة على طريق الالتفات من الغَيبة في «شاقُّوا» إليه، ولا يُشترط في الخطاب المعتبرِ في الالتفاتِ أن يكون بالاسم كما هو المشهور، بل يكونُ بنحوِ ذلك أيضاً، بشرط أن يكون خطاباً لمن وقَعَ الغائبُ عبارةً عنه، كذا قيل، وفيه كلام.

وقرأ الحسن: «وإنَّ للكافرين» بالكسر[1]، وعليه فالجملةُ تذييليةٌ، واللام للجنس، والواو للاستئناف.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطابٌ للمؤمنين بحكم كليٍّ جارٍ فيما سيقعُ من الوقائع والحروب، جيءَ به في تضاعيف القصَّة إظهاراً للاعتناء به، وحثًّا على المحافظة عليه.

﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا﴾ الزحفُ كما قال الراغب[2]: انبعاثٌ مع جرِّ الرِّجْل، كانبعاثِ الصبيِّ قبل أن يمشي، والبعير المُعيي، والعسكر إذا كَثُر فتعثَّر انبعاثُه.

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٩، وزاد أبو حيان في البحر ٤/ ٤٧٣ نسبتها إلى زيد بن علي، وسليمان التيمي.
(٢) في مفردات ألفاظ القرآن (زحف).

وقال غيرُ واحد: هو الدَّبيب، يقال: زحَفَ الصبيُّ: إذا دبَّ على اسْتِه قليلاً قليلاً، ثم سُمِّي به الجيشُ الدَّهم المتوجِّه إلى العدو؛ لأنه ـ لكثرته وتكاثُفه ـ يُرى كأنه يزحف؛ لأن الكلَّ يُرى كجسمٍ واحد متصلٍ، فتحسُّ حركتُه بالقياس في غاية البطء، وإن كانت في نفس الأمر في غاية السرعة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨]، وقال قائلهم:

وأرعَنَ مثل الطَّودِ تحسب أنه ... وقوفٌ لحاجٍ والرِّكاب تُهَمْلِجُ(١)

ويُجمع على زُحُوف؛ لأنه خرج عن المصدرية. ونصبُه إما على أنه حالٌ من مفعول «القيتم»، أي: زاحفين نحوَكم، أو على أنه مصدرٌ مؤكِّد لفعلٍ مضمَرٍ هو الحال منه، أي: يزحفون زحفاً.

وجُوِّز كونُه حالاً من فاعله، أو منه ومن مفعوله معاً.

واعتُرض بأنه يأباه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ إذ لا معنى لتقييد النَّهي عن الإدبار بتوجُّههم السابقِ إلى العدوِّ وبكثرتهم، بل توجُّهُ العدوِّ إليهم وكثرتُهم هو الداعي إلى الإدبار عادةً، والمحوجُ إلى النهي، وحملُه على الإشعار بما سيكونُ منهم يوم حُنين حين تولَّوا وهم اثنا عشر ألفاً بعيدٌ. انتهى.

وأجيب بأنَّ المراد بالزَّحف ليس إلا المشي للقتال من دون اعتبار كثرةٍ أو قلةٍ، وسُمِّي المشي لذلك به؛ لأنَّ الغالبَ عند ملاقاةِ الطائفتين مشيُ إحداهما نحو الأخرى مشياً رويداً، والمعنى: إذا لقيتُم الكفار ماشين لقتالهم، متوجِّهين لمحاربتهم، أو ماشياً كلُّ واحدٍ منكم إلى صاحبِهِ، فلا تُدبروا. وتقييدُ النهي بذلك لإيضاح المراد بالملاقاة، ولتفظيع أمرِ الإدبار؛ لما أنه منافٍ لتلك الحال، كأنه قيل: حيث أقبلتُم فلا تُدبروا. وفيه تأمُّل.

والمراد من تولية الأدبار: الانهزامُ؛ فإنَّ المنهزمَ يولِّي ظهرَه مَن انهزم منه.

---

(١) البيت للنابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص١٨٧. وقوله: لحاج، تحرف في الأصل و(م) إلى: لجاج، والمثبت من الديوان. وقوله: أرعن؛ قال في الصحاح: (رعن): الرعن: أنف الجبل المتقدم، ثم يشبه به الجيش فيقال: جيش أرعن. اهـ. والهَمْلَجَة: مشي الهِمْلاج من البراذين، فارسي معرب. المعرب للجواليقي ص٣٩٨.

وعدَلَ عن لفظ الظُّهور إلى الأدبار تقبيحاً للانهزام، وتنفيراً عنه. وقد يقال: الآيةُ على حدِّ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢].

والمعنى على تقدير الحاليةِ من المفعول كما هو ظاهر، واعتبارِ الكثرةِ في الزَّحف، وكونها بالنسبة إليهم: يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتُم أعداءكم الكفرةَ للقتال وهم جمعٌ جمٌّ، وأنتم عددٌ نَزْرٌ، فلا تُوَلُّوهم أدبارَكم، فضلاً عن الفرار، بل قابلوهم، وقاتلوهم مع قِلَّتكم، فضلاً عن أن تُدانوهم في العدد أو تساوُوهم.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ اللقاء ووقتَه ﴿دُبُرَهُۥ﴾ فضلاً عن الفرار. وقرأ الحسنُ بسكون الباء[1].

﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أي: تاركاً موقِفَه إلى موقفٍ أصلَحَ للقتال منه، أو متوجِّهاً إلى قتالِ طائفةٍ أخرى أهمَّ من هؤلاء، أو مستطرداً يريد الكرَّ، كما رُوي عن ابن جُبَير رضي الله عنه. ومن كلامهم:

نــفــرٌّ ثــم نــكــرُّ والــحــربُ كــرٌّ وفــرٌّ

وقد يصير ذلك من خُدَع الحرب ومكايدها، وجاء: «الحرب خدعة»[2].

وأصل التحرُّف على ما في «مجمع البيان»[3]: الزَّوالُ عن جهةِ الاستواء إلى جهة الحرف، ومنه الاحترافُ: وهو أن يقصِدَ جهةً من الأسباب طالباً فيها رزقَه.

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾أي: منحازاً إلى جماعة أخرى من المؤمنين، ومنضمًّا إليهم، وملحقاً بهم؛ ليقاتلَ معهم العدوَّ. والفئةُ: القطعةُ من الناس، ويقال: فَأَوتُ رأسَه بالسيف: إذا قطعتَه. وما ألطَفَ التعبيرَ بالفئة هنا!

واعتبر بعضُهم كونَ الفئة قريبةً للمتحيِّز ليستعين بهم، وكأنه مبنيٌّ على التعارف، ولم يعتبر ذلك آخرون اعتباراً للمفهوم اللغويِّ، ويؤيِّده ما أخرجه أحمدُ وابن ماجه وأبو داود، والترمذيُّ وحسَّنه، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» واللفظ له، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنَّا في غزوة، فحاصَ الناس حيصةً، قلنا: كيف نلقى النبيَّ ﷺ وقد

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٩، والبحر المحيط ٤/ ٤٧٥.
(٢) أخرجه البخاري (٣٠٢٩)، ومسلم (١٧٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وسلف ١/ ٤٢٠.
(٣) مجمع البيان ٩ (تتمة) / ١٢١.

فَرَرْنا من الزَّحفِ وبُؤْنا بالغضب؟ فأتينا النبيَّ ﷺ قبل صلاةِ الفجر، فخرج فقال: «من القومُ؟» فقلنا: نحن الفارُّون، فقال: «لا، بل أنتُم العكَّارون». فقبَّلنا يدَه، فقال عليه الصلاة والسلام: «أنا فئتُكم، وأنا فئةُ المسلمين» ثم قرأ: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾[1]. والعكَّارون: الكرَّارون إلى الحرب، والعطَّافون نحوها.

وبما رُوي أنه انهزم رجلٌ من القادسية، فأتى المدينةَ إلى عمر رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، هلكتُ؛ فررتُ من الزَّحف. فقال عمر رضي الله عنه: أنا فئتُك.

وبعضُهم يحمل قولَه عليه الصلاة والسلام: «أنتُم العكَّارون» على تسليتهم وتطييبِ قلوبهم، وحَمْل الكلام كلِّه في الخبرين على ذلك بعيدٌ. نعم إن ظاهرَهما يستدعي أن لا يكاد يوجد فارٌّ من الزَّحف.

ووزن «متحيِّز» مُتَفَيْعِل، لا مُتَفَعِّل، وإلا لكان متحوِّزاً؛ لأنه مِن حاز يحوز، وإلى هذا ذهب الزمخشريُّ[2] ومن تبعه.

وتُعُقِّب بأن الإمام المرزوقيَّ ذكر أنَّ تديَّر تفعَّلَ مع أنه واويٌّ؛ نظراً إلى شيوع ديَّار[3]، وعليه فيجوز أن يكون تحيَّز تفعَّل، نظراً إلى شيوع الحَيِّز بالياء، فلهذا لم يجئ تدوَّر وتحوَّز.

وذكر ابنُ جنيٍّ أن ما قالَه هذا الإمامُ هو الحقُّ[4]، وأنهم قد يعدُّون المنقلبَ كالأصليِّ، ويُجْرون عليه أحكامَه كثيراً، لكنَّ في دعواه نفي تحوَّز نظراً؛ فإنَّ أهل

---

(١) مسند أحمد (٥٣٨٤)، وسنن ابن ماجه (٣٧٠٤)، وسنن أبي داود (٢٦٤٧)، وسنن الترمذي (١٧١٦)، والأدب المفرد (٩٧٢). ورواية ابن ماجه مختصرة على ذكر تقبيل يد النبي ﷺ، ولذلك اعترض الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار٢/ ١٧على المنذري لعزوه الحديث لابن ماجه؛ لأنه لم يذكر منه سوى هذا الجزء.

(٢) في الكشاف ٢/ ١٤٩.

(٣) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٥٩٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٤/ ٢٦٠.

(٤) عبارة المصنف توهم أن ابن جني ينقل عن المرزوقي، والكلام من حاشية الشهاب ٤/ ٢٦٠، ولفظه: ما ذكره الإمام المرزوقي أيده بعض النحاة، وذكر ابن جني في إعراب الحماسة أنه هو الحق، وأنهم... إلخ.

اللغة قالوا: تحوَّز وتحيَّز، كما يدلُّ عليه ما في «القاموس»[١]، وقال ابنُ قتيبة: تحوَّز تفعَّل، وتحيَّز تَفَيْعل.

وهذه المادةُ في كلامهم تتضمَّن العدولَ من جهةٍ إلى أخرى، من الحَيِّز بفتح الحاء وتشديد الياء، وقد وهم فيه مَنْ وهم، وهو فناءُ الدَّار ومرافقُها، ثم قيل لكل ناحية، فالمستقِرُّ في موضعه كالجبل لا يقال له: متحيِّز، وقد يطلقُ عندهم على ما يُحيط به حيِّز موجود، والمتكلمون يريدون به الأعمَّ، وهو كلُّ ما أُشير إليه، فالعالَم كلُّه متحيِّز.

ونصبُ الوصفين على الحالية، و«إلا» ليست عاملةً، ولا واسطةً في العمل، وهو معنى قولهم: لغوٌ، وكانت كذلك لأنه استثناء مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، ولولا التفريغُ لكانت عاملةً أو واسطةً في العمل على الخلاف المشهور، وشرطُ الاستثناء المفرَّغ أن يكون في النفي أو صحَّة عمومِ المستثنى منه، نحو: قرأتُ إلا يومَ كذا، ومنه ما نحن فيه، ويصحُّ أن يكون من الأول باعتبار أنَّ «يولِّي» بمعنى: لا يُقْبِل على القتال، ونظيرُ ذلك ما قالوا في قوله عليه الصلاة والسلام: «العالم هَلكى إلا العالمون» الحديث[٢]. وجوِّز أن يكون على الاستثناء من المولِّين، أي: من يولِّهم دُبُرَه إلا رجلاً متحرِّفاً لقتالٍ أو متحيِّزاً ﴿فَقَدْ بَآءَ﴾ أي: رجَعَ ﴿بِغَضَبٍ﴾ عظيمٍ لا يقادَرُ قدرُه، وحاصلُه: المولُّون إلا المتحرِّفين والمتحيِّزين لهم ما ذُكِرَ.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صفةُ «غضبٍ» مؤكِّدة لفخامتِهِ، أي: بغضبٍ كائنٍ منه تعالى شأنه.

﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ أي: بدل ما أراد بفراره أن يأويَ إليه من مأوى يُنجيه من القتل. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٦﴾ جهنَّم.

---

(١) مادة: (حوز).

(٢) أورده الصغاني في الموضوعات (٣٩)، وقال: وهذا الحديث مفترى وملحون، والصواب في الإعراب: إلا العالمين. وقد سلف الحديث بتمامه ٢/ ٢٨٢. وانظر ما نقله العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٤١٥ عن إعراب: العالمون.

ولا يخفى ما في إيقاع البَوْء في موقع جواب الشرط الذي هو التَّولية مقروناً بذِكْر المأوى والمصير من الجَزالة التي لا مزيدَ عليها.

وفي الآية دلالةٌ على تحريم الفرار من الزَّحف على غير المتحرِّف أو المتحيِّز، وأخرج الشيخان وغيرُهما عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «اجتنبوا السَّبع المُوبقات». قالوا: يا رسول الله، وما هنَّ؟ قال: «الشِّركُ بالله تعالى، والسِّحر، وقتلُ النَّفس التي حرَّم الله إلا بالحقِّ، وأكل الرِّبا، وأكلُ مال اليتيم، والتولِّي يومَ الزَّحف»[1]. وجاء عدُّه في الكبائر في غيرِ ما حديثٍ.

قالوا: وهذا إذا لم يكن العدوُّ أكثرَ من الضِّعف؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٦٦]، أما إذا كان أكثرَ فيجوزُ الفرارُ، فالآيةُ ليست باقيةً على عمومها، وإلى هذا ذهبَ أكثرُ أهل العلم. وأخرج الشافعيُّ وابنُ أبي شيبة عن ابن عباس ﷺ أنه قال: مَنْ فرَّ من ثلاثةٍ فلم يفرَّ، ومن فرَّ من اثنين فقد فرَّ[2]. وسُمِّي هذا التخصيصُ نسخاً، وهو المرويُّ عن [عطاء بن][3] أبي رباح.

وعن محمد بن الحسن أن المسلمين إذا كانوا اثني عشر ألفاً لم يَجُزِ الفرار، والظاهرُ أنه لا يجوز أصلاً؛ لأنهم لا يُغلبون عن قِلَّة كما في الحديث[4].

ورُوي عن عمر، وأبي سعيد الخُدْري، وأبي نَضْرة، والحسن- وهي رواية عن الحَبْر أيضاً- أنَّ الحكم مخصوصٌ بأهل بدر.

وقال آخرون: إن ذلك مخصوصٌ بما ذُكر، وبجيشٍ فيه النبيُّ ﷺ، وعلَّلوا ذلك بأنَّ وقعةَ بدرٍ أولُ جهادٍ وقع في الإسلام، ولذا تهيَّبوه، ولو لم يثبتوا فيه لزمَ مفاسدُ عظيمةٌ، ولا ينافيه أنه لم يكن لهم فئةٌ ينحازون إليها؛ لأن النظمَ لا يوجب وجودَها، وأما إذا كان النبيُّ ﷺ معهم فلأنَّ الله تعالى ناصرُه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف تخريجه ٥/٤٦٦، والسابعة هي: قذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

(٢) مسند الشافعي (٣٨٧)، ومصنف ابن أبي شيبة ١٢/٥٣٧.

(٣) ما بين حاصرتين لم يرد في الأصل و(م)، والمثبت هو الصواب؛ فقد أخرجه عنه الطبري ١١/٨٠.

(٤) أخرجه أحمد (٢٦٨٢) وغيره من حديث ابن عباس ﷺ.

وأنت تعلمُ أنه كان في المدينة خلقٌ كثير من الأنصار لم يخرجوا؛ لأنهم لم يعلموا بالنَّفير وظنُّوها العِيْر فقط، وأن النبيَّ ﷺ ـ حيث إنَّ الله تعالى ناصرُه ـ كان فئةً لهم.

وقال بعضُهم: إنَّ الإشارة بـ «يومئذٍ» إلى يوم بدر لا تكادُ تصحُّ؛ لأنه في سياق الشَّرط، وهو مستقبل، فالآيةُ إن كانت نزلت يومَ بدرٍ قبل انقضاءِ القتال فذلك اليومُ فردٌ من أفراد أيام اللقاء[1]، فيكون عامًّا فيه لا خاصًّا به، وإن نزلت بعدَه فلا يدخلُ يومُ بدر فيه، بل يكون ذلك استئنافَ حكمٍ بعدَه، و«يومئذ» إشارةٌ إلى يوم اللقاء.

ودُفع بأنَّ مراد أولئك القائلين أنَّها نزلت يومَ بدر، وقد قامت قرينةٌ على تخصيصها، ولا بُعْدَ فيه. اهـ.

وعندي أن السورةَ إنما نزلت بعد تمام القتال، ولا دليلَ على نزول هذه الآية قبلَه، والتخصيصُ المذكور مما لا يقوم دليلُه على ساق، ويدُ الله مع الجماعة، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

هذا، ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ﴾ إذ لم يرتفِعْ عنهم إذ ذاك حجابُ الأفعال ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ أي: حكمُها مختصٌّ بالله تعالى حقيقةً، وبالرسول مظهريةً.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بالاجتناب عن رؤية الأفعال برؤيةِ فعلِ الله تعالى ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ﴾ بمحوِ صفات نفوسكم التي هي منشأُ صدورِ ما يوجبُ التنازُعَ والتخالفَ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ بفنائها؛ ليتيسَّر لكم قَبولُ الأمر بالإرادة القلبية الصادقة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الإيمانَ الحقيقيَّ.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ كذلك ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ بملاحظةِ عظمتِهِ تعالى وكبريائه وسائرِ صفاته، وهو ذِكْرُ القلب، وذِكْرُه سبحانه وتعالى بالأفعال ذِكْرُ النفس. ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت؛ لإشراق أنوار تجلياتِ تلك الصفات عليها.

---

(١) في الأصل: من أفراد اللقاء، وفي (م): من أفراد يوم اللقاء، والمثبت من حاشية الشهاب ٤/ ٢٦١.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ بالترقِّي من مقام العلم إلى العين. وقد جاء أن الله تعالى تجلَّى لعباده في كلامه لو يعلمون.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ إذ لا يرون فعلاً لغيرِه تعالى.

وذكر بعضُ أهل العلم أنه سبحانه وتعالى نبَّه أولاً بقوله عزَّ قائلاً: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ على بَدْء حال المريد؛ لأنَّ قلبَه لم يقوَ على تحمُّل التجليات في المبدأ؛ فيحصُلُ له الوجَلُ، كضَرَمة السَّعْفة، ويقشعرُّ لذلك جلدُه، وترتعدُ فرائصُه، وأما المنتهي فقلَّما يعرِضُ له ذلك؛ لما أنه قد قوي قلبُه على تحمُّل التجلِّيات وأَلِفَها، فلا يتزلزلُ لها ولا يتغيَّر، وعلى هذا حمَلَ السهرورديُّ قُدِّس سرُّه ما رُوي عن الصديق الأكبر ﵁ أنه رأى رجلاً يبكي عند قراءة القرآن، فقال: هكذا كنَّا حتى قسَت القلوبُ، حيث أراد: حتى قويت القلوبُ؛ إذ أدمنتْ سماعَ القرآن، وأَلِفتْ أنوارَه، فما تستغربُه حتى تتغيَّر.

ونبَّه سبحانه ثانياً بقوله جلَّ وعلا: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ على أخذ المريد في السلوك والتجلِّي، وعُرُوجه في الأحوال.

وثالثاً بقوله عزَّ شأنُه: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ على صعودِهِ في الدرجات والمقامات.

وفي تقديم المعمول إيذانٌ بالتبرِّي عن الحَوْل والقوَّة، والتفويض الكامل، وقطعِ النظرِ عمَّا سواه تعالى، وفي صيغة المضارع تلويحٌ إلى استيعابِ مراتب التوكُّل كلِّها، وهو ـ كما قال العارفُ أبو إسماعيل الأنصاريُّ ـ: أن يفوِّض الأمرَ كلَّه إلى مالكه، ويعوِّل على وكالته، وهو من أصعبِ المنازل، وهو دليلُ العبودية التي هي تاجُ الفخر عند الأحرار، والظاهرُ أن الخوفَ الذي هو خوفُ الجلال والعظمةِ يتَّصفُ به الكاملون أيضاً، ولا يزولُ عنهم أصلاً، وهذا بخلافِ خوف العقاب؛ فإنه يزول، وإلى ذلك الإشارةُ بما شاع في الأثر: «نعمَ العبدُ صهيبٌ، لو لم يخفِ اللهَ لم يعصِهِ»(١).

---

(١) أورده القاري في المصنوع في معرفة الحديث الموضوع (٣٨٥)، وقال: لا أصل له. وقد سلف ٤/ ١٥٣.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: صلاةَ الحضور القلبيِّ، وهي المعراجُ المعنويُّ إلى مقام القرب ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ من العلومِ التي حصلتْ لهم بالسَّير ﴿يُنفِقُونَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم الذين ظهرت فيهم الصفاتُ الحقَّة، وغَدَوا مرايا لها، ومن هنا قيل: المؤمنُ مرآةُ المؤمن.

﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من مراتبِ الصفات، وروضاتِ جنَّات القلب ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لذنوب الأفعال ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ من ثمرات أشجار[1] التجلِّيات الصِّفاتية.

وقال بعضُ العارفين: المغفرةُ: إزالةُ الظلماتِ الحاصلة من الاشتغال بغير الله تعالى، والرزقُ الكريم: الأنوارُ الحاصلةُ بسبب الاستغراق في معرفته ومحبَّته، وهو قريبٌ مما ذكرنا.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ﴾ متلبِّساً ﴿بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم المحتجِبون برؤية الأفعال ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾ أي: حالُهم في تلك الحالة كحالهم في هذه الحال.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ لك أو لهم بالمعجزات.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ بالبراءةِ عن الحَوْل والقوَّة، والانسلاخ عن ملابس الأفعال والصِّفات النفسية ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ عند ذلك ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم﴾ من عالم المَلَكوت؛ لمشابهة قلوبكم إيَّاه حينئذٍ ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: القُوى السماوية وروحانيَّاتها ﴿مُرْدِفِينَ﴾ لملائكةٍ أخرى، وهو إجمالُ ما في «آل عمران».

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: ما جعَلَ الله تعالى الإمدادَ ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي: بشارةً لكم بالنَّصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ لما فيه من اتِّصالها بما يُناسبها.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ والأسبابُ في الحقيقة ملغاةٌ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ قويٌّ على النصر من غيرِ سبب ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعلُ على مقتضى الحكمة، وقد اقتضت فعلَه على الوجهِ المذكور.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ وهو هدوء القوى البدنية والصِّفاتِ النفسانيةِ بنزول السَّكينة ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ أي: أَمْناً من عنده سبحانه وتعالى.

---

(١) في (م): أشعار، وهو تصحيف.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سماء الروح ﴿مَآءً﴾ وهو ماءُ علم اليقين؛ ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ عن حدَثِ هواجِسِ الوهم، وجَنَابة حديثِ النفس، ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وسوسَتَه وتخويفَه، ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يقوِّيها بقوةِ اليقين، ويُسكِّن جأشَكم، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾إذ الشجاعةُ وثباتُ الأقدامِ في المخاوف من ثمراتِ قوةِ اليقين.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ أي: يمدُّ الملكوتَ بالجبروت ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ لانقطاعِ المدَدِ عنهم، واستيلاء قَتام الوهم عليهم ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ لئلَّا يرفعوا رأساً ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ لئلَّا يقدِرُوا على المُدافعة.

وبعضُهم جعل الإشارة في الآيات نفسيةً، والخطابَ فيها حسبما يليقُ له الخطابُ من المرشد والسالك مثلاً، ولكلٍّ مقامٍ مقال، وفي «تأويل النيسابوري» نبذةٌ من ذلك، فارجع إليه إن أردتَه.

وما ذكرناه يكفي لغرضنا: وهو عدمُ إخلاء كتابنا من كلماتِ القوم، ولا نتقيَّدُ بآفاقيةٍ أو أنفسيةٍ، والله تعالى الموفِّقُ للرَّشاد.

❁ ❁ ❁

ثم إنه تعالى عاد كلامُه إلى بيان بقيةِ أحكام الواقعة وأحوالها، وتقريرِ ما سبَقَ؛ حيث قال سبحانه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ الخطابُ للمؤمنين، والفاء قيل: واقعةٌ في جواب شرطٍ مقدَّرٍ يستدعيه ما مرَّ من ذِكْر إمدادِه تعالى، وأَمْرِه بالتثبيت، وغير ذلك، كأنه قيل: إذا كان الأمرُ كذلك فلم تقتلوهم أنتم بقوَّتكم وقدرتكم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ﴾ بنصرِكم، وتسليطِكم عليهم، وإلقاء الرُّعب في قلوبهم.

وجُوِّز أن يكون التقديرُ: إذا علمتُم ذلك فلم تقتلوهم، على معنى: فاعلموا، أو فأُخبرُكم أنكم لم تقتلوهم.

وقيل: التقدير: إن افتخرتُم بقتلهم فلم تقتلوهم؛ لما رُوي أنهم لما انصرفوا من المعركة غالبينَ غانمينَ أقبلوا يتفاخرون يقولون: قتلتُ وأسرتُ، وفعلتُ وتركتُ، فنزلت.

وقال أبو حيان: ليست هذه الفاءُ جوابَ شرطٍ محذوف كما زعموا، وإنما هي للربط بين الجُمل؛ لأنه قال سبحانه: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾، وكان امتثالُ ما أُمروا به سبباً للقتل، فقيل: فلم تقتلوهم، أي: لستُم مستبدِّين بالقتل؛ لأن الإقدارَ عليه والخلقَ له إنما هو لله تعالى[1].

قال السَّفاقسيُّ: وهذا أَولى من دعوى الحذف. وقال ابنُ هشام: إن الجوابَ المنفيَّ لا تدخُلُ عليه الفاء. ومن هنا ـ مع كون الكلام على نفي الفاعلِ دون الفعل كما قيل ـ ذهب الزمخشريُّ[2] إلى اسميةِ الجملة، حيث قدَّر المبتدأ، أي: فأنتُم لم تقتلوهم.

وجعل بعضُهم المذكورَ علَّة الجزاء أُقيمت مقامَه، وقال: إن الأصلَ: إن افتخرتُم بقتلهم فلا تفخَروا؛ لأنكم لم تقتلوهم. ونظائرُه كثيرةٌ، ولعلَّ كلامَ أبي حيان - كما قال السفاقسيُّ - أولى.

والخطابُ في قوله سبحانه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ خطابٌ لنبيِّه عليه الصلاة والسلام بطريقِ التلوين، وهو إشارةٌ إلى رميه ﷺ بالحصى يوم بدر وما كان منه؛ فقد رُوي أنه عليه الصلاة والسلام قال لما طلعت قريشٌ من العَقَنْقَل: «هذه قريشٌ بخُيَلائها وفَخْرها، اللهمَّ إني أسألُكَ ما وعدتَني»، فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال له: خُذْ قبضةً من ترابٍ فارمِهم بها، فلما التقى الجمعان قال لعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه: «أعطني قبضةً من حصباءِ الوادي». فرمى بها وجوهَهم، فقال: «شاهتِ الوجوهُ»، فلم يبقَ مشركٌ إلا شُغل بعينه، فانهزموا، وردِفَهم المؤمنون يقتلونَهم ويأسرونَهم[3].

وجاء من عدة طرق ذكرها الحافظ ابنُ حجر[4] أن هذا الرميَ كان يومَ بدر،

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٤٧٦.

(٢) في الكشاف ٢/ ١٤٩.

(٣) أورده الزمخشري في الكشاف ٢/ ١٤٩ بمثل رواية المصنف، وأخرجه الطبري في تفسيره ١١/ ٨٤، ٨٥، ٨٦ مقطعاً. وانظر سيرة ابن هشام ١/ ٦٢١-٦٢٨، ومجمع الزوائد ٦/ ٨٤. والعقنقل: الوادي العظيم المتسع. القاموس: (عقل).

(٤) في تخريج أحاديث الكشاف ص٦٨.

وزعم الطيبيُّ أنه لم يكن إلا يومَ حُنين، وأن أئمةَ الحديث لم يذكر أحدٌ منهم أنه كان يومَ بدر، وهو - كما قال الحافظُ السيوطيُّ- ناشئٌ من قلَّة الاطلاع؛ فإنه عليه الرحمةُ لم يبلغ درجةَ الحفَّاظ، ومنتهى نظرِه الكتبُ الستُّ، و«مسند أحمد»، و«مسند الدرامي»، وإلا فقد ذكر المحدِّثون أن الرميَ وقع في اليومين، فنفيُ وقوعِه في يومَ بدرٍ مما لا ينبغي، وذِكْر ما في حُنين في هذه القصَّة من غير قرينة بعيدٌ جدًّا، وما ذكره في تقريب ذلك ليس بشيء كما لا يخفى على من راجَعَه وأنصف.

ويَرِدُ نحو هذا على ما رُوي عن الزهريِّ وسعيد بن المسيِّب من أن الآيةَ إشارة إلى رميه عليه الصلاة والسلام يومَ أحد؛ فإنَّ اللعين أبيَّ بنَ خلف قصدَه عليه الصلاة والسلام، فاعترض رجالٌ من المسلمين له ليقتلوه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «استأخِرُوا» فاستأخَرُوا، فأخذ عليه الصلاة والسلام حربَتَه بيده فرماه بها، فكسر ضِلْعاً من أضلاعه ـ وفي رواية خدش تَرْقُوته ـ فرجع إلى أصحابه ثقيلاً وهو يقول: قتَلني محمد، فطفِقُوا يقولون: لا بأسَ عليك، فقال: والله لو كانت بالناس لقتَلَتهم، فجعل يخورُ حتى مات ببعض الطريق[1].

وما أخرج ابنُ جرير عن عبد الرحمن بن جُبَير، أنَّ رسول الله ﷺ يومَ ابن أبي الحُقيق ـ وذلك في خيبر ـ دعا بقوسٍ، فأُتي بقوس طويلةٍ، فقال عليه الصلاة والسلام: «جيئوني بقوسٍ غيرِها»، فجاؤوه بقوسٍ كَبْداء، فرمى ﷺ الحصنَ، فأقبل السهمُ يهوي حتى قَتَلَ ابنَ أبي الحُقَيق في فراشه، فأنزل الله تعالى الآيةَ[2]. والحقُّ المعوَّلُ عليه هو الأول.

وتجريدُ الفعل عن المفعول به؛ لما أنَّ المقصود بيانُ حالِ الرمي نفياً وإثباتاً؛ إذ هو الذي ظهر منه ما ظهر، وهو المنشأُ لتغيُّر المرميِّ به في نفسه، وتكثُّره إلى حيث أصاب عيني كلِّ واحدٍ من أولئك الجمع الغفير شيءٌ من ذلك.

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه ٢/ ٣٢٧، وأورده البيهقي في الدلائل ٣/ ٢١١-٢١٢.

(٢) ليس في المطبوع من تفسير الطبري، وقال الشيخ محمود شاكر في تعليقه على التفسير ١٣/ ٤٤٦: أخشى أن يكون في هذا الموضع من التفسير نقص. ثم نقل رحمه الله هذا الحديث عن ابن كثير، حيث ذكره عن ابن جرير بإسناده. والقوس الكبداء: التي يملأ الكفَّ مقبضُها. القاموس: (كبد).

والمعنى ـ على ما قيل ـ: وما فعلتَ أنتَ يا محمدُ تلك الرميةَ المستتبِعةَ لتلك الآثارِ العظيمةِ حقيقةً حين فعلتَها صورةً، ولكنَّ الله تعالى فعلَها، أي: خَلَقَها حين باشرتَها على أكملِ وجهٍ؛ حيث أوصَلَ بها الحَصْباء إلى أعينهم جميعاً.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ أفعالَ العباد بخلقِهِ تعالى، وإنما لهم كسبُها ومباشرتُها قال الإمام: أثبَتَ سبحانَه كونَه ﷺ رامياً، ونفى كونَه رامياً، فوجَبَ حملُه على أنه عليه الصلاةُ والسلام رمى كسباً، والله تعالى رمى خَلْقاً[1].

وقال ابنُ المنير[2]: إن علامةَ المجازِ أنْ يصدُقَ نفيُه حيث يصدُقُ ثبوتُه، ألا تراك تقولُ للبليد: حمار، ثم تقول: ليس بحمار؟ فلما أثبَتَ سبحانه الفعلَ للخلق ونفاه عنهم دلَّ على أنَّ نفيَه على الحقيقةِ، وثبوتَه على المجاز بلا شبهة، فالآية تكفَحُ ـ بل تلفَحُ ـ وجوه القَدَرية بالردِّ.

فإن قلت: إن أهلَ المعاني جعلوا ذلك من تنزيل الشيء منزلةَ عدمِهِ، وفسَّروه بـ: ما رميتَ حقيقةً إذ رميتَ صورةً، والرميُ الصوريُّ موجود، والحقيقيُّ لم يوجد، فلا تنزيل.

أُجيب: بأنَّ الصوريَّ مع وجود الحقيقيِّ كالعدم، وما هو إلا كنورِ الشمع مع شعشعة الشمس، ولذا أتى بنفيه مطلقاً كإثباته، وما ذكروه بيانٌ لتصحيح المعنى في نفس الأمر، وهو لا ينافي النكتةَ المبنيَّة على الظاهر، ولذا قال في «شرح المفتاح»: النفيُ والإثبات واردان على شيء واحد باعتبارين، فالمنفيُّ هو الرميُ باعتبار الحقيقة، كما أن المثبَتَ هو الرميُ باعتبار الصورة.

والمشهور حملُ الرمي في حيِّز الاستدراك على الكامل، وهو الرميُ المؤثِّرُ ذلك التأثيرَ العظيم.

واعتُرض: بأنَّ المطلق ينصرف إلى الفرد الكامل؛ لتبادره منه، وأمَّا ما جرى على خلافِ العادة، وخرج عن طَوْق البشر، فلا يَتَبادر حتى ينصرف إليه، بل ذلك ليس من أفراده.

---

(١) تفسير الرازي ١٥/ ١٣٩.

(٢) في الانتصاف ٢/ ١٤٩.

وأُجيب: بأنَّا لا ندَّعي إلا الفردَ الكامل من ذاك المطلق حَسْبما تقتضيه القاعدةُ، وكونُ ذلك الفرد جارياً على خلافِ العادة، وخارجاً عن طَوْق البشر، إنَّما جاء من خارج، ووصفُ الرمي بما ذُكر بيانٌ لكماله، ولا يستدعي ذلك أن لا يكون من أفرادِ المطلق، ومن ادَّعاه فقد كابر.

واعتُرض على التفسير الأول بأنه مشعرٌ بتفسير «رمى» في حيِّز الاستدراك بـ : خَلَق الرمي، وتفسير «رميتَ» في حيِّز النفي بـ : خلقتَ الرميَ، فحاصلُ المعنى حينئذٍ: وما خلقتَ الرميَ إذ صدَرَ عنك صورةً، ولكنَّ الله سبحانه خلَقَه، ويلزم منه صحةُ أن يقال مثلاً: ما قمتَ إذ قمتَ، ولكنَّ الله سبحانه قامَ، على معنى: ما خلقتَ القيامَ إذ صدر عنك صورةً، ولكن الله تبارك وتعالى خلَقَه، ولا أظنُّك في مِرْية من عدم صحة ذلك.

وأُجيب بأن القياسَ يقتضي صحَّة ذلك، إلا أنَّ مدارَ الأمر على التوقيف.

واعتُرض على ما يستدعيه كلامُ ابنِ المنير من أنَّ المعنى: وما رميتَ حقيقةً إذ رميتَ مجازاً، ولكنَّ الله تعالى رمى حقيقةً، بأنَّ نفيَ الرمي حقيقةً حين إثباتِهِ مجازاً من أجلى البديهيات، فأيُّ فائدةٍ في الإخبار بذلك؟

قيل: ومثلُ ذلك يرِدُ على كلام الإمام؛ لأنَّ كسب العبدِ للفعل عندهم ـ على المشهور ـ عبارةٌ عن مَحلِّيةِ العبد للفعل، من غيرِ تأثيرٍ لقدرته في إيجاده، ويؤولُ ذلك إلى مباشرته له من غير خَلْق، فيكون المعنى: وما خلقتَ الرميَ إذ باشرتَ ولم تخلق، وهو كما ترى. وهو كما ترى.

وبالجملة كلامُ أكثرِ أهل الحقِّ في تفسير الآية والاستدلالِ بها وكذا بالآية قبلَها على مذهبهم، لا يخلو عن مناقشةٍ ما، ولعلَّ الجواب عنها متيسِّر لأهله.

وقال بعضُ المحققين: إنه أُثبتَ له ﷺ الرميُ؛ لصدوره عنه عليه الصلاة والسلام، ونُفيَ عنه؛ لأنَّ أثَرَه ليس في طاقة البشر، ولذا عدَّ ذلك معجزةً، حتى كأنه ﷺ لا مدخَلَ له فيه، فمبنى الكلام على المبالغة، ولا يلزم منه عدمُ مطابقته للواقع؛ لأن معناه الحقيقيَّ غيرُ مقصود، ولا يصحُّ أن تُخرَّج الآيةُ على الخلقِ والمباشرة؛ لأن جميعَ أفعال العباد بمباشرتهم وخلقِ الله تعالى، فلا يكونُ للتخصيص بهذا الرمي معنى. وله وجهٌ، وإن قيل عليه ما قيل.

وأنا أقول: إن للعبدِ قدرةً خلَقَها الله تعالى له مؤثِّرة بإذنه، فما شاء الله سبحانه كان، وما لم يشأْ لم يكن، لا أنَّه لا قدرةَ له أصلاً كما يقول الجَبْرية، ولا أنَّ له قدرةً غيرَ مؤثِّرةٍ كما هو المشهور من مذهب الأشاعرة، ولا أنَّ له قدرةً مؤثِّرة بها يفعلُ ما لا يشاءُ الله تعالى فِعْلَه كما يقول المعتزلةُ، وأدلةُ ذلك قد بُسِطت في محلِّها، وألِّفت فيها رسائل تُلْقِم المخالفَ حجراً، وليس إثباتُ صحةِ هذا القولِ، وكذا القولِ المشهور عند الأشاعرة- عند من يراه- موقوفاً على الاستدلال بهذه الآية، حتى إذا لم تَقُمِ الآية دليلاً يبقى المطلَبُ بلا دليل.

فإذا كان الأمرُ كذلك فأنا لا أرى بأساً في أن يكون الرميُ المثبَتُ له ﷺ هو الرميُ المخصوصُ الذي ترتَّب عليه ما ترتَّب مما أبهَرَ العقولَ وحيَّر الألباب، وإثباتُ ذلك له عليه الصلاة والسلام حقيقةً على معنى أنه فعَلَه بقدرةٍ أُعطيت له ﷺ، مؤثِّرةٍ بإذن الله تعالى، إلا أنه لمَّا كان ما ذُكر خارجاً عن العادة؛ إذ المعروفُ في القُدَر الموهوبةِ للبشر أن لا تؤثِّر مثلَ هذا الأثر، نُفي ذلك عنه، وأُثبت لله سبحانه مبالغة، كأنه قيل: إن ذلك الرميَ، وإن صدر منك حقيقةً بالقدرة المؤثِّرة بإذن الله سبحانه، لكنه لعِظَم أمرِه، وعدم مشابهته لأفعال البشر، كأنه لم يصدُرْ منك، بل صدَرَ من الله جلَّ شأنُه بلا واسطة. وكذا يجوز أن يكون المعنى: وما رميتَ بالرُّعب إذ رميتَ بالحَصْباء، ولكنَّ الله تعالى رمى بالرُّعب. فالرميُ المنفيُّ أولًا والمثبَتُ أخيراً غيرُ المثبَتِ في الأثناء.

وعلى الوجهين يظهَرُ بأدنى تأمُّلٍ وجهُ تَخالُفِ أسلوبي الآيتين؛ حيث لم يقل: وما رميتَ ولكنَّ الله رمى؛ ليكون على أسلوب: «فلم تقتلوهم ولكنَّ الله قتلهم»، ولا: فلم تقتُلوهم إذ قتلتُموهم ولكن الله قتَلَهم؛ ليكون على أسلوب: «وما رميتَ إذ رميتَ ولكنَّ الله رمى». ولا يظهر لي نكتةٌ في هذا التخالُفِ على الوجوه التي ذكرها المعظَمُ، وكونُها الإشارةَ إلى أنَّ الرميَ لم يكن في تلك الوقعة كالقتلِ، بل كان في حُنين دونه- على ما فيه- مخالفٌ لما صحَّ من أن كلا الأمرين كان في تلك الوقعة كما علمتَ، فتأمَّل؛ فلمسلَكِ الذهنِ اتِّساع.

وقُرئ: «ولكنِ اللهُ» بالتخفيف، ورفعِ الاسم الجليل في المحلَّين(١).

---

(١) وهي قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. التيسير ص٧٥، والنشر ٢/ ٢١٩.

﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾ أي: ليعطيَهم سبحانه من عنده إعطاءً جميلاً غيرَ مشوبٍ بالشدائد والمكارِهِ، على أنَّ البلاءَ بمعنى العطاء، كما في قول زُهير:

جزى الله بالإحسانِ ما فَعَلا بكم فأبلاهُما خيرَ البلاءِ الذي يُبلي[1]

واختار بعضُهم تفسيرَه بالإبلاء في الحرب بدليل ما بعدَه، يقال: أبلى فلانٌ بلاءً حسناً، أي: قاتَلَ قتالاً شديداً، وصبر صبراً عظيماً، سُمِّي به ذلك الفعلُ لأنه ما يُخبر به المرءُ، فتظهَرُ جلادَتُه وحُسْن أثرِه.

واللامُ إمَّا للتعليل متعلِّق بمحذوفٍ متأخِّر، فالواو اعتراضيةٌ، أي: وللإحسان إليهم بالنصر والغنيمة فعَلَ ما فعل، لا لشيء آخر غيرِ ذلك ممَّا لا يُجديهم نفعاً، وإما بـ «رمى»، فالواو للعطفِ على علَّةٍ محذوفةٍ، أي: ولكنَّ الله رمى ليَمحق الكافرين، وليُبلي، إلخ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لدعائهم واستغاثتهم، أو لكلِّ مسموعٍ، فيدخل فيه ما ذُكر. ﴿عَلِيمٌ ١٧﴾ أي: بنيَّاتهم وأحوالهم الداعيةِ للإجابة، أو لكلِّ معلومٍ، ويدخل فيه ما ذُكر أيضاً = تعليلٌ للحكم.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحَسَن، ومحلُّه الرفع على أنه خبرُ مبتدأ محذوف. وقولُه سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٨﴾ معطوفٌ عليه، أي: المقصِدُ إبلاءُ المؤمنين، وتوهينُ كيدِ الكافرين، وإبطالُ حِيَلهم.

وقيل: المشارُ إليه القتلُ أو الرمي، والمبتدأ الأمر، أي: الأمرُ ذلكم، أي: القتلُ أو الرميُ، فيكونُ قوله تعالى: (وَأَنَّ ٱللَّهَ) إلخ من قَبِيل عطفِ البيان.

وقيل: المشار إليه الجميعُ بتأويلِ ما ذُكر.

وجوِّز جعلُ اسمِ الإشارة مبتدأً محذوفَ الخبر، وجعلُه منصوباً بفعل مقدَّر.

وقرأ ابنُ كثير ونافع وأبو بكر: «مُوَهِّنٌ» بالتشديد ونصب «كيدَ»، وقرأ حفصٌ عن عاصم بالتخفيف والإضافة، وقرأ الباقون بالتخفيف والنَّصب[2].

---

(١) البيت في ديوانه ص١٠٩، وفيه: يبلو، بدل يبلي.

(٢) وبمثل قراءة ابن كثير ومن معه قرأ أبو عمرو وأبو جعفر. التيسير ص١١٦، والنشر ٢/ ٢٧٦.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ خطابٌ للمشركين على سبيل التهكُّم؛ فقد رُوي أنهم حين أرادوا الخروجَ تعلَّقوا بأستار الكعبة، وقالوا: اللهمَّ انصُرْ أعلى الجُنْدين، وأهدَى الفئتين، وأكرم الحِزْبين.

وفي روايةٍ أنَّ أبا جهل قال حين التقى الجمعان: اللهمَّ ربَّنا، دينُنا القديمُ ودينُ محمدٍ الحديثُ، فأيُّ الدِّينين كان أحبَّ إليك وأرضى عندَك فانصُرْ أهلَه اليوم.

والأولُ مرويٌّ عن الكلبيِّ والسُّدي. والمعنى: إن تستنصروا لأعلى الجُنْدين وأهداهما ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ حيث نصَرَ أعلاهما وأهداهما، وقد زعمتُم أنكم الأعلى والأهدى. فالتهكُّم في المجيء، أو فقد جاءكم الهلاكُ والذِّلَّةُ، فالتهكُّم في نفس الفتح حيث وُضِع موضع ما يقابلُه.

﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ عن حِراب[1] الرسولِ عليه الصلاة والسلام ومعاداتِهِ ﴿فَهُوَ﴾ أي: الانتهاءُ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الحِراب الذي ذقتُم بسببه ما ذقتُم من القتل والأسر، ومبنى اعتبارِ أصل الخيرية في المفضَّل عليه هو التهكُّم.

﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ أي: إلى حِرابه عليه الصلاة والسلام ﴿نَعُدْ﴾ لما شاهدتُموه من الفتح.

﴿وَلَن تُغْنِيَ﴾ أي: لن تدفعَ ﴿عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ جماعتُكم التي تجمعونها وتستغيثون بها ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء أو المضارِّ ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ تلك الفئةُ.

وقُرئ: «ولن يُغني» بالياء التحتانية[2]؛ لأن تأنيثَ الفئة غيرُ حقيقيٍّ، وللفصل.

ونصب «شيئاً» على أنه مفعولٌ مطلقٌ، أو مفعولٌ به، وجملةُ «ولو كثرت» في موضع الحال.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٩﴾ أي: ولأنَّ الله تعالى معينُ المؤمنين كان ذلك، أو والأمرُ أنَّ الله سبحانه معهم.

وقرأ الأكثر: «وإنَّ» بالكسر على الاستئناف، قيل: وهي أوجَهُ من قراءة

---

(١) في الأصل: حرب.

(٢) نسبها ابن خالويه ص٤٩ إلى يحيى وإبراهيم، وهي غير منسوبة في البحر ٤/ ٤٧٩.

الفتح[١]؛ لأنَّ الجملة حينئذٍ تذييلٌ، كأنه قيل: القصدُ إعلاءُ أمر المؤمنين، وتوهينُ كيدِ الكافرين، وكيتَ وكيتَ، وإنَّ سنةَ الله تعالى جاريةٌ في نصر المؤمنين وخِذْلان الكافرين، وهذا وإن أمكن إجراؤه على قراءة الفتح، لكنَّ قراءةَ الكسر نصٌّ فيه، ويؤيِّدُها قراءةُ ابنِ مسعود: «والله مع المؤمنين»[٢].

ورُوي عن عطاء وأبيٍّ بن كعب - وإليه ذهب أبو عليٍّ الجُبَّائي - أن الخطاب للمؤمنين، والمعنى: إن تستنصروا فقد جاءكم النصرُ، وإن تنتهوا عن التكاسُلِ والرغبةِ عما يرغَبُ فيه الرسولُ ﷺ، فهو خيرٌ لكم من كلِّ شيء؛ لما أنه مدارٌ لسعادةِ الدارين، وإن تعودوا إليه نَعُدْ عليكم بالإنكار وتهييجِ العدوِّ، ولن تُغني عنكم حينئذٍ كثرتُكم؛ إذ لم يكن الله تعالى معكم بالنصر، والأمر أنَّ الله سبحانه مع الكاملين في الإيمان.

ويُفهِمُ كلامُ بعضهم أنَّ الخطاب في «تستفتحوا» و«جاءكم» للمؤمنين، وفيما بعدَه للمشركين، ولا يخفى أنه خلافُ الظاهرِ جدًّا.

وأُيِّد كونُ الخطاب في الجميع للمؤمنين بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ﴾ أي: تتولَّوا، وقُرئ بتشديد التاء[٣]. ﴿عَنْهُ﴾ أي: عن الرسول، وأُعيد الضميرُ إليه عليه الصلاة والسلام لأن المقصود طاعتُه ﷺ، وذكر طاعة الله تعالى توطئةً لطاعته، وهي مستلزمةٌ لطاعةِ الله تعالى؛ لأنه مبلِّغ عنه، فكان الراجعُ إليه كالراجعِ إلى الله تعالى ورسوله[٤].

وقيل: الضميرُ للجهاد. وقيل: للأمر الذي دلَّ عليه الطاعةُ، والتولِّي مجازٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠﴾ جملةٌ حاليةٌ واردةٌ لتأكيد وجوبِ الانتهاء عن التولِّي مطلقاً، لا لتقييدِ النهي عنه بحال السَّماع، أي: لا تتولَّوا عنه والحالُ أنكم تسمعونَ القرآن الناطقَ بوجوبِ طاعته، والمواعظَ الزاجرةَ عن مخالفته سماعَ تفهُّم وإذعان.

(١) وقد قرأ بالفتح حفص ونافع وابن عامر وأبو جعفر. التيسير ص١١٦، والنشر ٢/ ٢٧٦.
(٢) البحر المحيط ٤/ ٤٧٩.
(٣) الكشاف ٢/ ١٥٠، وتفسير أبي السعود ٤/ ١٥.
(٤) حاشية الشهاب ٤/ ٢٦٣، وجاءت العبارة الأخيرة فيه: فكان الراجع إليه كالراجع إليهما.

وقد يُراد بالسَّماع التصديق، وقد يبقى الكلامُ على ظاهره من غير ارتكاب تجوُّزٍ أصلاً.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ تقريرٌ لما قبله، أي: لا تكونوا بمخالفةِ الأمر والنَّهي ﴿كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ كالكفرة والمنافقين الذين يدَّعون السماعَ ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: سماعاً ينتفعون به؛ لأنهم لا يُصدِّقون ما سمعوه، ولا يفهمونَه حقَّ فهمِهِ.

والجملة في موضع الحال من ضمير «قالوا»، والمنفيُّ سماعٌ خاصٌّ، لكنَّه أتى به مطلقاً للإشارة إلى أنهم نُزِّلوا منزلةَ مَنْ لم يسمَعْ أصلاً، بجعل سماعهم كالعَدَم.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيان كمال سوء حال المشبَّه بهم، مبالغةً في التحذير، وتقريراً للنهي إثرَ تقرير.

و«الدوابُّ» جمع دابة، والمرادُ بها إما المعنى اللغويُّ أو العرفيُّ، أي: إن شرَّ مَنْ يَدِبُّ على الأرض، أو شرَّ البهائم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكمه وقضائه ﴿ٱلصُّمُّ﴾ الذين لا يسمعون الحقَّ ﴿ٱلْبُكْمُ﴾ الذين لا ينطقون به. والجمعُ على المعنى، ووُصفوا بذلك؛ لأنَّ ما خُلق له الحاسَّتان: سماعُ الحقِّ والنطقُ به، وحيث لم يُوجد فيهم شيء من ذلك صاروا كأنَّهم فاقدون لهما رأساً.

وتقديم «الصمّ» على «البكم» لما أنَّ صمَمَهم متقدِّم على بَكَمِهم؛ فإنَّ السكوتَ عن النطق بالحقِّ من فروع عدمِ سماعهم له، كما أن النطقَ به من فروعِ سماعه.

وقيل: التقديمُ لأنَّ وصفَهم بالصمَمِ أهمُّ؛ نظراً إلى السابق واللاحق.

ثم وُصفوا بعدم التعقُّل في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ تحقيقاً لكمال سوء حالهم؛ فإنَّ الأصمَّ الأبكم إذا كان له عقلٌ ربما يَفهم بعضَ الأمور، ويفهمُه غيره، ويهتدي إلى بعض مطالبه، أما إذا كان فاقداً للعقل أيضاً فقد بلغ الغايةَ في الشَّرِّية وسوءِ الحال، وبذلك يظهر كونُهم شرَّ الدوابِّ حيث أَبطلوا ما به يمتازون عنها.

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ﴾ أي: في هؤلاء الصُّمِّ البكم ﴿خَيْرًا﴾ أي: شيئاً من جنس الخير الذي من جملته صَرْفُ قواهم إلى تحرِّي الحقِّ، واتِّباع الهدى ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ سماعَ تدبُّرٍ وتفهُّم، ولَوَقفوا على الحقِّ، وآمنوا بالرسول عليه الصلاة والسلام وأطاعوه.

﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ سماعَ تفهُّم وتدبُّر ـ وقد علم أن لا خيرَ فيهم ـ ﴿لَتَوَلَّوا﴾ ولم ينتفعوا به، وارتدُّوا بعد التصديق والقَبول ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾؛ لعنادِهم. والجملةُ حال مؤكِّدة مع اقترانها بالواو.

ومما ذُكر يُعلم الجوابُ عما قيل: إن الآية قياسٌ اقترانيٌّ من شرطيتين، ونتيجتُه غيرُ صحيحةٍ؛ لما أنه أُشير فيه أولاً إلى منع القَصْد إلى القياس؛ لفقد الكلية الكبرى، وثانياً إلى منع فساد النتيجة؛ إذ اللازمُ: لو علم الله تعالى فيهم خيراً في وقتٍ لتولَّوا بعدَه، قاله بعضُ المحقِّقين.

وفي «المغني»[1]: والجوابُ من ثلاثة أوجه:

اثنان يرجعان إلى منعِ كونِ المذكور قياساً، وذلك لاختلاف الوسط؛ أحدُهما: أن التقدير: لأسمعهم سماعاً نافعاً، ولو أَسمعهم سماعاً غيرَ نافعٍ لتولَّوا.

والثاني: أن يُقدَّر: ولو أسمعهم على تقدير علمِهِ عدمَ الخير فيهم، كما أُشير إليه.

والثالث إلى منع استحالةِ النتيجة بتقدير كونه قياساً متَّحِدَ الوسط؛ إذ التقديرُ: ولو علم الله تعالى فيهم خيراً في وقتٍ ما لتولَّوا بعدَ ذلك.

ولا يخفى ضعفُ الجواب الأول؛ لأنه لا قرينةَ على تقييد «لو أسمعهم» بالسماع الغيرِ النافع، ولأنه تحقَّق فيهم الإسماعُ الغيرُ النافع، إلا أن يُقيَّدَ بالإسماع بعد نزول هذه الآية، وكذا ضعفُ الثالث؛ لأن علمَه تعالى بالخير ـ ولو في وقتٍ ـ لا يستلزم التولِّي بل عدَمَه.

وأما الجوابُ الثاني فهو قويٌّ؛ لأن الشرطيةَ الأُولى قرينةٌ على تقييد الإسماع في الشرطية الثانية بتقدير علم عدم الخير فيهم.

وذكر بعضُهم في الجواب أن الشرطيتين مهمَلَتان، وكبرى الشكل الأول يجبُ أن تكون كليةً، ولو سُلِّم فإنما يُنتِجان أي اللزومية لو كانتا لزوميَّتين، وهو ممنوعٌ، ولو سلم فاستحالةُ النتيجة ممنوعةٌ، أي: لا نُسلِّم استحالةَ الحكم باللزوم بين

---

(١) مغني اللبيب ص٣٤٣-٣٤٤.

المقدَّم والتالي، وإن كان الطرفان مُحالَين؛ لأنَّ عِلْمَ الله تعالى فيهم خيراً محال، والمحالُ جاز أن يستلزمَ المحالَ، وإن لم يُوجَد بينهما علاقةٌ عقلية على ما هو التحقيقُ من عدم اشتراط العلاقة في استلزام المُحال للمُحال.

واعتُرض على أصل السؤال: بأن لفظ «لو» لم يستعمل في فصيح الكلام في القياس الاقترانيِّ، وإنما يُستعمل في القياس الاستثنائيِّ المستثنى فيه نقيضُ التالي؛ لأنها لامتناعِ الشيء لامتناع غيرِه، ولهذا لا يُصرَّح باستثناء نقيض التالي. وعلى الجواب: بأَنَّ فيه تسليمَ كونِ ما ذُكِرَ قياساً، ومنع كونه منتجاً؛ لانتفاء شرائط الإنتاج، وكيف يصحُّ اعتقادُ وقوعِ قياسٍ في كلام الحكيم تعالى أُهملت فيه شرائطُ الإنتاج، وإن لم يكن مرادُه تعالى قياسيَّته؟!

وذُكر أن الحقَّ أن قولَه سبحانه: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ واردٌ على قاعدة اللغة، يعني أن سببَ عدمِ الإسماع عدمُ العلم بالخير فيهم، ثم ابتدأ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا﴾ كلاماً آخر على طريقة: «لو لم يَخَفِ اللهَ تعالى لم يَعْصِه»[1].

وحاصل ذلك أنه كلامٌ منقطعٌ عما قبلَه، والمقصودُ منه تقريرُ قولهم في جميع الأزمنة، حيث ادُّعي لزومُه لما هو منافٍ له؛ ليفيد ثبوتَه على تقدير الشرط وعدمه، فمعنى الآية حينئذٍ: أنه انتفى الإسماعُ لانتفاء علمِ الخير، وأنهم ثابتون على التولِّي، ففي الشرطية الأُولى اللزومُ في نفس الأمر، وفي الثانية ادعائيٌّ، فلا يكون على هيئة القياس.

وقال العلامة الثاني: يجوز أن يكون التولِّي منفيًّا بسبب انتفاء الإسماع، كما هو مقتضى أصل «لو»، لأنَّ التولِّي بمعنى الإعراض عن الشيء، كما هو أصل معناه، لا بمعنى مطلق التكذيب والإنكار، فعلى تقدير عدمِ إسماعهم ذلك الشيء لم يتحقَّق التولِّي والإعراضُ؛ لأن الإعراضَ عن الشيء فرعُ تحقُّقه، ولم يلزم من هذا تحقُّق الانقياد له؛ لأنَّ الانقياد للشيء وعدمَ الانقيادِ له ليسا على طرفي النقيض، بل العدولُ والتحصيلُ لجواز ارتفاعهما بعدم ذلك الشيء، وحاصلُه- كما قيل- أنه إذا

(١) انظر ما سلف قريباً ص٦١ من هذا الجزء.

كان التولِّي بمعنى الإعراض يجوز أن يكون «لو» بمعناه المشهور، ويكون المقصود الإخبار بأن انتفاءَ الثاني في الخارج لانتفاء الأول فيه، كالشرطية الأُولى، ولا ينتظم منهما القياسُ؛ إذ ليس المقصودُ منهما بيانُ استلزام الأول للثاني في نفس الأمر ليستدلّ، بل اعتبارُ السببية واللزوم بينهما ليُعلَم السببيةُ بين الانتفائين المعلومين في الخارج، وما يقال من أن انتفاء التولِّي خير، وقد ذكر أن لا خير[1] فيهم، مجابٌ عنه بأنَّا لا نُسلِّم بأن انتفاءَ التولِّي بسبب انتفاءِ الإسماع خيرٌ؛ لأنه يجوزُ أن يكون ذلك بسببِ عدم الأهلية للإسماع، وهو داءٌ عضالٌ، وشرٌّ عظيم، وإنما يكون خيراً لو كانوا من أهله، بأن أُسمِعُوا شيئاً ثم انقادوا له ولم يُعرضوا، وهذا كما يقال: لا خير في فلانٍ لو كان به قوةٌ لقَتَلَ المسلمين؛ فإن عدم قتل المسلمين بناءً على عدم القوةِ والقدرةِ ليس خيراً فيه، وإن كان خيراً له. اه. وردَّه الشريفُ قُدِّس سره بما تعقَّبه السيالكوتي عليه الرحمة.

نعم، قال مولانا محمد أمين بن صدر الدين[2]: إن حملَ التولِّي هاهنا على معنى الإعراض غيرُ ممكنٍ؛ لمكان قوله سبحانه: ﴿وَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ وأوجَبَ أن يُحمل إما على لازم معناه: وهو عدمُ الانتفاع؛ لأنه يلزمُ الإعراضَ، أو على ملزومِهِ: وهو الارتدادُ؛ لأنه يلزمُه الإعراضُ، فليُفهم.

وعن الجُبَّائيِّ أنهم كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أَحْيِ لنا قُصيًّا؛ فإنه كان شيخاً مباركاً، حتى يشهَدَ لك ونؤمن بك، فالمعنى: ولو أسمعهم كلامَ قصيٍّ، إلخ.

وقيل: هم بنو عبدِ الدار بن قُصَيٍّ، لم يُسلم منهم إلا مصعب بنُ عُمَير وسُوَيد بن حَرْملة، كانوا يقولون: نحن صمٌّ بكمٌ عميٌ عمَّا جاء به محمد، لا نسمعه ولا نجيبُه، قاتَلَهم الله تعالى، فقُتلوا جميعاً بأحد، وكانوا أصحابَ اللواء.

وعن ابن جُرَيج أنهم المنافقون، وعن الحَسَن أنهم أهلُ الكتاب.

---

(١) قوله: وقد ذكر أن لا خير، سقط من الأصل، والمثبت من (م).
(٢) الشرواني، نسبة إلى شروان من نواحي بخارى، أقام مدة في الآستانة، عالم مشارك في أنواع العلوم، من مصنفاته: حاشية على تفسير البيضاوي، لم تكمل، والفوائد الخاقانية، تشتمل على ثلاثة وخمسين علماً. توفي ١٠٣٦ هـ. الأعلام للزركلي ٦/ ٤١، ومعجم المؤلفين ٣/ ١٤٢.

والجملةُ الاسمية في موضع الحال من ضمير «تولَّوا»، وجُوِّز أن تكون اعتراضاً تذييليًّا، أي: وهم قومٌ عادتُهم الإعراض.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ تكريرُ النداء مع وَصْفِهم بنعت الإيمان؛ لتنشيطهم إلى الإقبال على الامتثال بما يَرِدُ بعده من الأوامر، وتنبيههم على أنَّ فيهم ما يوجبُ ذلك.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بحُسْنِ الطاعة ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ أي: الرسول؛ إذ هو المباشِرُ لدعوة الله تعالى مع ما أشرنا إليه آنفاً. ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: لما يُوْرِثُكم الحياةَ الأبدية في النعيم الدائم، من العقائد والأعمال، أو من الجهاد الذي أعزَّكم الله تعالى به بعدَ الذلِّ، وقوَّاكم به بعد الضعف، ومنعكم به من عدوِّكم بعد القَهْر، كما رُوي عن عروة بن الزُّبير.

وإطلاق ما ذُكر على العقائد والأعمال، وكذا على الجهاد، إما استعارةٌ، أو مجازٌ مرسلٌ بإطلاق السبب على المسبَّب.

وقال القُتبيُّ: المراد به الشهادةُ، وهو مجازٌ أيضاً. وقال قتادة: القرآن. وقال أبو مسلم: الجنة.

وقال غيرُ واحد: هو العلومُ الدينية التي هي مناطُ الحياة الأبدية، كما أنَّ الجهل مدارُ الموت الحقيقيِّ، وهو استعارةٌ مشهورةٌ ذكرها الأدباء وعلماءُ المعاني، وللزمخشريِّ:

لا تُعْجِبَنَّ الجهولَ حُلَّتُه ... فذاك ميتٌ وثوبُه كفن[(١)]

واستدلَّ بالآية على وجوب إجابته ﷺ إذا نادى أحداً وهو في الصلاة، وعن الشافعيِّ أنَّ ذلك لا يُبطلها؛ لأنها أيضاً إجابةٌ. وحكى الرويانيُّ أنها لا تجبُ، وتَبْطُلُ الصلاةُ بها. وقيل: إنه يقطعُ الصلاةَ إذا كان الدعاءُ لأمرٍ يَفُوتُ بالتأخير، كما إذا رأى أعمى وصل إلى بئرٍ، ولو لم يحذِّره لهلك.

وأيِّد القولُ بالوجوب بما أخرجه الترمذيُّ والنسائيُّ عن أبي هريرة، أنه ﷺ مرَّ

---

(١) الكشاف ٢/ ١٥٢. قال الشهاب في الحاشية ٤/ ٢٦٤: البيت المذكور للزمخشري من قصيدة مدح بها المؤتمن بالله الخليفة.

على أبيّ بنِ كعب وهو يصلِّي، فدعاه، فعجَّل في صلاته ثم جاء، فقال: «ما منعك من إجابتي؟» قال: كنت أصلِّي. قال: «ألم تخْبَرْ فيما أوحي: (ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)؟» قال: بلى، ولا أعودُ إن شاء الله تعالى. ثم إنه ﷺ قال له: «لأعلمنَّكَ سورةً أعظمَ سورةٍ في القرآن: «الحمد لله رب العالمين» وهي السبع المثاني»[1]. وأنت تعلم أنه لا دلالةَ فيه على أنَّ إجابته ﷺ لا تقطع الصلاة.

وقال بعضهم: إنَّ ذلك الدعاء كان لأمرٍ مهمٍّ لا يحتملُ التأخير، وللمصلِّي أنْ يقطع الصلاة لِمِثْلِه. وفيه نظر.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ عطفٌ على «استجيبوا».

وأصلُ الحول كما قال الراغب: تغيُّر الشيء وانفصالُه عن غيره، وباعتبارِ التغيُّرِ قيل: حالَ الشيءُ يَحُولُ، وباعتبارِ الانفصال قيل: حالَ بينهما كذا[2].

وهذا غير متصوَّرٍ في حقِّ الله تعالى، فهو مجازٌ عن غايةِ القُرْبِ من العبد؛ لأنَّ مَن فَصَلَ بين شيئين كان أقربَ إلى كلٍّ منهما من الآخر؛ لاتصاله بهما، وانفصالِ أحدهما عن الآخر.

وظاهرُ كلام كثيرٍ أنَّ الكلام من باب الاستعارة التمثيلية، ويجوزُ أن يكون هناك استعارةٌ تبعية، فمعنى يَحُول: يقرب، ولا بُعْدَ في أنْ يكون من باب المجاز المرسل المركَّب؛ لاستعماله في لازم معناه وهو القُرْبُ، بل ادُّعيَ أنه الأنسبُ، وإرادة هذا المعنى هو المرويُّ عن الحسن وقتادة، فالآيةُ نظيرُ قوله سبحانه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنَ

---

(١) سنن الترمذي (٢٨٧٥)، وسنن النسائي الكبرى (١١١٤١)، وهو عند أحمد (٩٣٤٥). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وفي الباب عن أنس، وفيه عن أبي سعيد بن المعلى. اهـ.

وأخرج البخاري (٤٤٧٤) من حديث أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ. . .، وذكره بنحو حديث أبي هريرة. قال الحافظ في الفتح ٨/ ١٥٧: وجمع البيهقي بأن القصة وقعت لأبي بن كعب ولأبي سعيد بن المعلى، ويتعين المصير إلى ذلك لاختلاف مخرج الحديثين، واختلاف سياقهما.

(٢) مفردات الراغب: (حول).

﴿حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، وفيها تنبيهٌ على أنه تعالى مطَّلعٌ من مكنونات القلوب على ما قد يغفلُ عنه أصحابُها.

وجوِّز أن يكون المرادُ من ذلك الحثَّ على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها، فمعنى يحول بينه وبين قلبه: يميتُه، فتفوتُه الفرصةُ التي هو واجدُها، وهي التمكُّنُ من إخلاص القلب، ومعالجةِ أدوائه وعلله، وردِّه سليماً كما يريدُه الله تعالى، فكأنه سبحانه بعد أن أمرهم بإجابة الرسول عليه الصلاة والسلام أشار لهم إلى اغتنام الفرصة من إخلاص القلوب للطاعة، وشبَّه الموت بالحيلولة بين المرء وقلبه الذي به يعقلُ، في عدم التمكُّن من علم ما ينفعُه عِلْمُه، وإلى هذا ذهب الجبائي.

وقال غير واحد: إنه استعارةٌ تمثيلية؛ لتمكُّنه تعالى من قلوب العباد، فيصرِّفُها كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها، فيفسخ عزائمه، ويغيِّرُ مقاصده، ويلهمُه رُشْدَه، ويُزيغُ عن الصراط السويِّ قلبَه، ويبدِّله بالأمن خوفاً، وبالذِّكر نسياناً، وذلك كمَن حال بين شخصٍ ومتاعه(١)، فإنه القادر على التصرُّف فيه دونه، وهذا كما في حديث شهر بن حوشب عن أم سلمةَ، وقد سألتْ رسول الله ﷺ عن إكثاره الدعاء بـ: «يا مقلب القلوب، ثبِّتْ قلبي على دينك» فقال لها: «يا أم سلمة، إنه ليس آدميٌّ إلا وقلبُه بين أصبعين من أصابع الله تعالى، فَمَن شاء أقام، ومَن شاء أزاغ»(٢).

ويؤيِّد هذا التفسيرَ ما أخرجه ابنُ مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سألتُ النبيَّ ﷺ عن هذه الآية، فقال عليه الصلاة والسلام: «يحول بين المؤمن والكفر، ويحولُ بين الكافر والهدى»(٣). ولعل ذلك منه عليه الصلاة والسلام اقتصارٌ على الأمرين اللذين هما أعظمُ مدارٍ للسعادة والشقاوة، وإلا فهذا فرع من فروع التمكُّن الذي أشرنا إليه، ولا يختصُّ أمرُه بما ذكر، وقد حال سبحانه بين العدلية وبين اعتقاد هذا، فعدلوا عن سواء السبيل.

---

(١) في الأصل: وبين متاعه، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٤/ ٢٦٥.

(٢) أخرجه أحمد (٢٦٥٧٦)، والترمذي (٣٥٢٢)، وقال: حديث حسن. اهـ. وله شاهد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أخرجه أحمد (٦٥٦٩)، ومسلم (٢٦٥٤).

(٣) الدر المنثور ٣/ ١١٦، وأخرجه الطبري ١١/ ١٠٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً.

وبيَّن بعضُ الأفاضل رَبْطَ الآيات على ذلك بأنه تعالى لمَّا نصَّ بقوله عزَّ من قائل: (وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ) إلخ، على أنَّ الإسماع لا ينفعُ فيهم تسجيلاً على أولئك الصمِّ البكم، منَّ على المؤمنين بما منحهم من الإيمان، ويسَّر لهم من الطاعة، كأنه قيل: إنكم لستُم مثلَ أولئك المطبوعين على قلوبهم؛ فإنهم إنما امتنعوا عن الطاعة لأنهم ما خُلقوا إلا للكفر، فما تيسَّر لهم الاستجابةُ، وكلٌّ ميسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له، فأنتم لما منحتم الإيمان، ووفِّقتُم للطاعة، فاستجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لِمَا فيه حياتُكم من مجاهدة الكفار، وطلبِ الحياة الأبدية، واغتنموا تلك الفرصةَ، واعلموا أنَّ الله تعالى قد يحول بين المرء وقلبه؛ بأن يحولَ بينه وبين الإيمان، وبينه وبين الطاعة، ثم يجازيه في الآخرة بالنار. وتلخيصُه: أوليتُكم النعمةَ فاشكروها ولا تكفروها؛ لئلَّا أزيلها عنكم. اهـ.

ولا يخفى ما فيه من التكلُّف.

وقيل: إنَّ القوم لمَّا دُعوا إلى القتال والجهاد، وكانوا في غاية الضعف والقلَّة، خافت قلوبهم، وضاقت صدورهم، فقيل لهم: قاتلوا في سبيل الله تعالى إذا دُعيتم، واعلموا أنَّ الله يحولُ بين المرء وقلبه، فيبدِّلُ الأمنَ خوفاً، والجبنَ جرأةً.

وقرئ: «بين المَرِّ» بتشديد الراء على حذف الهمزة، ونَقْلِ حركتها إليها، وإجراءِ الوصل مجرى الوقف[1].

﴿وَأَنَّهُۥٓ﴾ أي: الله عزَّ وجل، أو الشأن ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ لا إلى غيره، فيجازيكم بحسب مراتب أعمالكم التي لم يَخْفَ عليه شيءٌ منها، فسارعوا إلى طاعته وطاعةِ رسوله ﷺ، وبالغوا في الاستجابة.

وقيل: المعنى: أنه تحشرون إليه تعالى دون غيره فيجازيكم، فلا تألوا جهداً في انتهاز الفرصة.

أو المعنى: أنه المتصرِّفُ في قلوبكم في الدنيا، ولا مَهْربَ لكم عنه في الآخرة، فسلِّموا الأمرَ إليه عزَّ شأنه، ولا تحدِّثوا أنفسَكم بمخالفته.

---

(١) المحتسب ١/ ٢٧٦ عن الحسن والزهري.

وزعم بعضهم أنه سبحانه لمَّا أشار في صدر الآية إلى أنَّ السعيد مَن أسعده، والشقيَّ من أضلَّه، وأن القلوب بيده يقلبها كيفما يشاء، ويخلقُ فيها الدواعيَ والعقائد حَسْبَما يريد، خَتَمها بما يفيد أنَّ الحشر إليه؛ ليُعْلم أنه مع كون العباد مجبورين، خُلِقوا مُثابِينَ معاقَبين إما للجنة وإما للنار، لا يُتْرَكون مُهْمَلينَ معطَّلين.

وأنت تعلم أنَّ الآية لا دلالةَ فيها على الجبر بالمعنى المشهور، وليس فيها ـ عند مَن أنصف ـ بعد التأمُّل أكثر من انتهاء الأمور بالآخرة إليه عزَّ شأنُه.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ أي: لا تختصُّ إصابتُها لمن يباشِرُ الظلم منكم بل تعمُّه وغيرَه، والمرادُ بالفتنة الذنبُ، وفسِّر بنحو إقرار المنكر، والمداهنةِ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وافتراقِ الكلمة، وظهورِ البدع، والتكاسُلِ في الجهاد، حَسْبما يقتضيه المعنى، والمصيبُ على هذا هو الأثر، كالشآمة والوبال، وحينئذٍ إما أن يُقدَّر، أو يُتجوَّزَ في إصابته، وجوِّز أن يراد به العذاب، فلا حاجةَ إلى التقدير أو التجوُّز فيما ذكر؛ لأنَّ إصابته بنفسه، وكذا لا حاجة إلى ارتكاب تقديرٍ في جانب الأمر، ولا التزامِ استخدامٍ(١).

و«لا» نافية، والجملةُ المنفيةُ قيل: جواب الأمر، على معنى: إنْ أصابتكم لا تصيبُ الظالمين منكم(٢).

واعتُرض بأنَّ جواب الأمر إنما يقدَّر فعلُه من جنس الأمر المظهَر لا من جنس الجواب، ولو قدِّر ذلك وفاءً بالقاعدة فَسَدَ المعنى؛ إذ يكون: إن تتَّقوا الفتنة تعمّكم إصابتُها، ولا تختصّ بالظالمين منكم، وهو كما ترى.

وأجيب بأن أصل الكلام: واتَّقوا فتنةً لا تصيبنَّكم، فإنْ أصابتكم لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصةً بل عمَّتكم، فأقيم جوابُ الشرط الثاني مقام جواب الشرط المقدَّر في جواب الأمر، لتسبُّبه منه، وسمِّي جوابَ الأمر لأنَّ المعاملة معه لفظاً.

---

(١) الاستخدام: أن يؤتى بلفظ له معنيان أو أكثر مراداً أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر. الإتقان ٢/ ٩٠١.

(٢) أي: لا تصيب الظالمين منكم خاصة بل تعمكم. الكشاف٢/ ١٥٢، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٤/ ٦٦.

وفيه أنَّ من البيِّن أنَّ عموم الإصابة ليس مسبَّباً عن عدم الإصابة، ولا عن الأمر، وظاهرُ التعبير يقتضيه.

وقال بعض المحققين: إنَّ ذلك على رأي الكوفيين من تقدير ما يناسبُ الكلام، وعدمِ التزام كونِ المقدَّر من جنس الملفوظ نفياً أو إثباتاً، فيقدِّرون في نحو: لا تَدْنُ من الأسد يأكلك، الإثباتَ، أي: إنْ تَدْنُ يأكُلْك، وفي نحو: اتقوا فتنة، النفيَ، أي: إنْ لم تتقوا تُصِبْكم.

واعتُرض عليه: بأنَّ ذلك القائل لم يقدِّر لا هذا ولا ذاك، وإنما قدَّر ما يستقيم به المعنى من غير نظرٍ إلى مضمون الأمر أو نقيضه.

وأجيب: بأنَّ مراده أنَّ التقدير: إن لم تتقوا تُصِبْكم، وإن أصابتكم لا تختصُّ بالظالمين، فأقيم جوابُ الشرط الثاني مقامَ جواب الشرط المقدَّر الذي هو نقيضُ الأمر؛ لتسبُّبه عنه. وما أُورِدَ على هذا من أنه لا حاجةَ إلى اعتبار الواسطة حينئذٍ، إذ يكفي أن يقال: إن لم تتقوا لا تُصِبِ الظالمين خاصةً، فمع كونه مناقشةً لفظيةً مدفوعٌ بأدنى تأمُّل؛ لأنَّ عدم اختصاص إصابةِ الفتنة بالظالمين، كما يكون بعموم الإصابة لهم ولغيرهم، كذلك يكون بعدم إصابتها لهم رأساً، فلا بدَّ من اعتبار الواسطة قطعاً.

وقال بعض المتأخِّرين: مرادُ مَن قدَّر إن أصابتكم: إن لم تتَّقوا، على مذهبِ مَن يرى تقديرَ النفي، لكنه عبَّر عنه بأصابت؛ لتلازُمها، فلا يَرِدُ حديثُ الواسطة. نعم قيل: إنَّ جواب الشرط متردِّدٌ، فلا يليقُ تأكيدُه بالنون؛ إذ التأكيدُ يقتضي دَفْعَ التردُّد.

وأجيب: بأنه هنا طلبيٌّ معنىً[1]، فيؤكَّد كما يؤكَّد الطلبيُّ، وهو لا ينافيه التردُّد في وقوعه؛ لأنه لا تردُّد في طلبه، على أنه قيل: إنه وإن كان متردِّداً في نفسه؛ لكونه معلَّقاً بما هو متردِّدٌ وهو الشرط، لكنه ليس بمتردِّدٍ بحسب الشرط، وعلى تقديرِ وقوعه فيليقُ به التأكيدُ بذلك الاعتبار، وأنت تعلم أنَّ ابن جنِّي رجَّح أنَّ المنفيَّ بـ «لا» يؤكَّد في السعة؛ لشَبَهِه بالنهي، كما في قوله سبحانه: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ﴾ [النمل: ١٨].

---

(١) جاء في حاشية (م): وزعم بعضهم أن «لا» دعائية. اهـ منه.

وقال ناصر الدين: إن هذا الجواب لمَّا تضمَّن معنى النهي ساغ توكيدُه[١].

ووَجْهُه: أنَّ النفي إذا كان مطلوباً كان في معنى النهي وفي حكمه، فيجوز فيه التأكيدُ كالنهي الصريح، ولا خفاء في أنَّ عدم كونهم بحيث تصيبُهم الفتنةُ مطلوبٌ، كما أنَّ عدم كونهم يَحْطِمُهم سليمان وجنوده كذلك.

وجوّز أن تكون الجملة المنفية في موضع النصب صفةً لـ «فتنة».

واعترض بأنَّ فيه شذوذاً؛ لأنَّ النون لا تدخل المنفيَّ في غير القسم.

وقد يجاب بأنك قد عرفتَ أنَّ ابن جنِّي ـ وكذا بعض النحاة ـ جوَّز ذلك، وقد ارتضاه ابن مالك في «التسهيل»[٢]، نعم ما ذُكر كلام الجمهور.

وقال أبو البقاء وغيره: يحتمل أن تكون «لا» ناهيةً، والجملة في موضع الصفة أيضاً لكنْ على إرادة القول، كقوله:

حتى إذا جنَّ الظلام واختلط   جاؤوا بمذقٍ هل رأيتَ الذئب قط[٣]

لأنَّ المشهور أنَّ الجملة الإنشائية ـ نهياً كانت أو غيرها ـ لا تقعُ صفةً ونحوها إلا بتقديرِ القول، وقد صرَّحوا بأنَّ قولك: مررت برجلٍ اضْرِبْه، بتقدير: مقولٍ فيه: اِضْرِبْه، وليس المقصودُ بالمقولية[٤] الحكايةُ، بل استحقاقُه لذلك حتى كأنه مقولٌ فيه.

ومن الناس مَن جوَّز الوصف بذلك باعتبار تأويله بـ: مطلوبٍ ضَرْبُه، فلا يتعيَّن تقديرُ القول.

---

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٤/ ٢٦٦.
(٢) ص٢١٦.
(٣) الكشاف ٢/ ١٥٢، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٤/ ٢٦٧، والدر المصون ٥/ ٥٩٠، وتفسير أبي السعود ٤/ ١٦، وجميعهم ذكروا هذا القول، وذكر أبو البقاء في الإملاء ٣/ ١٠٢ احتمال النهي في «لا» دون الإشارة إلى محل الجملة.
والبيت مذكور أيضاً في الكامل للمبرد ٢/ ١٠٥٤، والخزانة ٢/ ١٠٩ وفيه: المذق: اللبن الممزوج بالماء، وهو يشبه لون الذئب لأن فيه غُبرة وكُدورةً... وهذا الرجز لم ينسبه أحد من الرواة إلى قائله، وقيل: قائله العجاج، والله أعلم.
(٤) في الأصل: بالقولية، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٤/ ٢٦٧، والكلام منه.

وأن تكون الجملةُ جوابَ قسم محذوف، أي: والله لا تُصيبنَّ الظالمين[١] خاصةً، بل تعمُّ، وحينئذٍ يظهر أمرُ التأكيد، وأيِّد ذلك بقراءة عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وزيد بن ثابت وأبيٍّ وابن مسعود والباقر والربيع وأبي العالية: «لَتُصيبنَّ»[٢]، فإنَّ الظاهر فيها القَسَميةُ. وقيل: إنَّ الأصل «لا»، إلا أنَّ الألف حُذفت تخفيفاً، كما قالوا: أَمَ واللهِ. وقال بعضهم: إنَّ «لا» في القراءة المتواترة هي اللام، والألفُ تولَّدت من إشباع الفتحة كما في قوله:

فأنت من الغوائل حين ترمي ... ومن ذمِّ الرجال بمُنْتَزاحِ[٣]

وكِلَا القولين لا يعوَّل عليه.

ويحتمل أن تكون نهياً مستأنفاً لتقرير الأمر وتأكيدِه، وهو من باب الكناية؛ لأنَّ الفتنة لا تنهى عن الإصابة؛ إذ لا يتصوَّر الامتثالُ منها بحال، والمعنى حينئذٍ: لا تتعرَّضوا للظلم فتصيبكم الفتنة خاصةً.

و«من» على تقديرِ كونِ «لا» ناهيةً - سواءٌ جُعلت الجملةُ صفةً أو مؤكِّدةً للأمر - بيانيةٌ لا تبعيضيةٌ؛ لأنها لو اعتُبرت كذلك لكان النهيُ عن التعرُّض للظلم مخصوصاً بالظالمين منهم دون غيرهم، فغيرُ الظالم لا يكون منهيًّا عن التعرُّض له بمنطوق الآية، وذلك شيءٌ لا يراد.

وأمَّا على الوجوه الأُخَرِ من كون «لا» نافيةً لا ناهيةً ـ سواءٌ كان قوله سبحانه وتعالى: «لا تصيبن» صفةً لـ «فتنة» كما هو الظاهر، أو جوابَ الأمر، أو جوابَ قسم ـ فهي تبعيضيةٌ قطعاً؛ إذ الآية على هذه التقادير جميعاً مخبِرةٌ بأنَّ إصابة الفتنة لا تَختصُّ[٤] بالظالمين، بل تعمُّ غيرهم أيضاً، فلو بيِّن «الذين ظلموا» بالمخاطبين لأَفْهَمتْ أنَّ الأصحاب ﷺ كلهم ظالمون، وحاشاهم.

ثم لا يخفَى أنَّ الخطاب إذا كان عامًّا للأمَّة، وفسِّرت الفتنةُ بإقرار المنكر،

---

(١) في الأصل: الذين ظلموا.

(٢) القراءات الشاذة ص٤٩، والمحتسب ١/ ٢٧٧، والكشاف ٢/ ١٥٢-١٥٣، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٤/ ٢١٧، والبحر ٤/ ٤٨٤، والدر المصون ٥/ ٥٩٢.

(٣) البيت لإبراهيم بن هرمة، وهو في ديوانه ص٩٢. وقوله: الغوائل، تصحيف في الأصل و(م): إلى: العواتك.

(٤) في (م): تخص.

لا يجيء الإشكال على عموم الإصابة بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤]؛ لأنه كما يجب على مرتكب الذنب الانتهاءُ عنه يجب على الباقين رفعُه، وإذا لم يفعلوا كانوا آثمين، فيصيبهم ما يصيبهم لإثمهم.

ويدلُّ للوجوب ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أَمَر الله تعالى المؤمنين أن لا يُقِرُّوا المنكر بين أظهرهم؛ فيعمَّهم الله تعالى بعذابٍ يصيبُ الظالم وغيرَ الظالم.

وأخرج الترمذيُّ وأبو داود عن قيس بن [أبي] حازم، عن أبي بكر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الناسَ إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أَوْشَكَ أنْ يعمَّهم الله تعالى بعقاب»[(١)].

وروى الترمذيُّ أيضاً عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا وقعتْ بنو إسرائيل في المعاصي نهاهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، وَوَاكَلُوهم وشارَبوهم، فضرب الله تعالى قلوبَ بعضِهم ببعضٍ، ولَعَنَهم على لسان داودَ وعيسى ابنِ مريم، ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون»[(٢)].

ومَن ذهب إلى أنَّ الخطاب خاصٌّ فسَّر الفتنة بافتراق الكلمة، وجَعَلَ ذلك إشارةً إلى ما حدث بين أصحاب بدرٍ يوم الجمل، وممن ذهب إلى أنهم المعنيُّون السديُّ وغيرُه، وأخرج غيرُ واحد عن الزبير قال: قَرَأْنا هذه الآية زماناً وما نرى أنَّا من أهلها، فإذا نحن المعنيُّون بها[(٣)].

وقد أُخرِج نهيُهم عن ذلك على أبلغ وجهٍ، وأُقيم الظالمون مقامَ ضميرهم؛ تنبيهاً على أنَّ تعرُّضَ الفتنة وهي افتراقُ الكلمة من أشدِّ الظلم، لا سيما من هؤلاء الأجلاء، ثم فسَّر بضميرهم دلالةً على الاختصاص، وأكَّد بـ «خاصة»، وكثيراً ما يشدَّد الأمر على الخاصة.

---

(١) سنن الترمذي (٢١٦٨)، وسنن أبي داود (٤٣٣٨)، وهو عند أحمد (١)، وما بين حاصرتين من هذه المصادر. قال الترمذي: حديث صحيح.

(٢) سنن الترمذي (٣٠٤٧)، وأخرجه أحمد (٣٧١٣)، وهو من طريق أبي عبيدة عن ابن مسعود، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه عبد الله بن مسعود. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٣) أخرجه الطبري ١١/ ١١٤، وبنحوه أحمد (١٤١٤) و(١٤٣٨).

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢٥﴾ لمن خالَفَ أمره، وكذا مَن أقرَّ مَن انتهك مَحارِمَه.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ﴾ أي: في العدد، والجملةُ الاسميةُ للإيذان باستمرار ما كانوا فيه من القلَّة وما يتبعها، وقولُه سبحانه: ﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ﴾ خبرٌ ثانٍ، وجوَّز أن يكون صفةً لـ «قليل».

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في أرض مكة تحت أيدي كفار قريش، والخطابُ للمهاجرين. أو تحت أيدي فارسَ والروم، والخطابُ للعرب كافةً، مسلمِهم وكافرِهم على ما نُقل عن وهب. واعتُرض بأنه بعيدٌ لا يناسبُ المقام، مع أنَّ فارس لم تحكم على جميع العرب.

وقوله تعالى: ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ خبر ثالث، أو صفةٌ ثانيةٌ لـ «قليل»، وُصِفَ بالجملة بعدما وُصِفَ بغيرها، وجوَّز أبو البقاء أن تكون حالاً من المستكنِّ في «مستضعفون»[1].

والمراد بـ «الناس» على الأول- وهو الأظهر- إما كفارُ قريشٍ، أو كفارُ العرب كما قال عكرمةُ؛ لقربهم منهم، وشدَّةِ عداوتهم لهم. وعلى الثاني فارس والروم.

وأخرج الديلميُّ وغيرُه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل: يا رسول الله، ومَن الناس؟ قال: «أهل فارس»[2].

والتخطُّف كالخطف: الأخذُ بسرعة، وفسِّر هنا بالاستلاب، أي: واذكروا حالَكم وقتَ قلَّتكم وذلِّكم وهَوَانِكم على الناس، وخوفِكم من اختطافكم، أو: اذكروا ذلك الوقت.

﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ أي: إلى المدينة، أو جعل لكم مأوًى تتحصَّنون به من أعدائكم.

﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾ بمظاهرةِ الأنصار، أو: بإمداد الملائكة يومَ بدر، أو: بأن قوَّى شوكتكم إذ بعث منكم مَن تَضطَرِبُ قلوبُ أعدائكم من اسمه.

---

(١) الإملاء ٣/ ١٠٤.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب ٤/ ٤٠٧-٤٠٨، وأخرجه أيضاً أبو نعيم في تاريخ أصبهان ١/ ١٠. وفي إسناده ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من الغنائم، ولم تَطِبْ إلَّا لهذه الأمة. وقيل: هي عامةٌ في جميع ما أعطاهم من الأطعمة اللذيذة. والأول أنسب بالمقام، والامتنانُ به هنا أظهر، والثاني متعيِّنٌ عند مَن يجعل الخطاب للعرب.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ هذه النعمَ الجليلة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ أصلُ الخون: النقصُ، كما أنَّ أصل الوفاء: الإتمام، واستعمالُه في ضدِّ الأمانة لتضمُّنه إياه؛ فإنَّ الخائن ينقصُ المخون شيئاً مما خانه فيه. واعتبر الراغب في الخيانة أن تكون سرًّا[(١)].

والمرادُ بها هنا: عدمُ العمل بما أمر الله تعالى ورسولُه عليه الصلاة والسلام. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ خيانة الله سبحانه بتَرْكِ فرائضه، والرسولِ ﷺ بترْكِ سنَّته، وارتكابِ معصيته[(٢)].

وقيل: المراد النهي عن الخيانة؛ بأن يضمروا خلاف ما يظهرون، أو يغلُّوا في الغنائم.

وأخرج أبو الشيخ عن يزيد بن أبي حبيب أنَّ المراد بها الإخلالُ بالسلاح في المغازي[(٣)].

وذكر الزهريُّ والكلبيُّ أنَّ رسول الله ﷺ حاصَرَ يهود قريظةَ إحدى وعشرين ليلة - وفي رواية البيهقي: خمساً وعشرين- فسألوا رسول الله ﷺ الصلحَ كما صالح إخوانهم بني النضير، على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعات من أرض الشام، فأبى رسول الله ﷺ أن يعطيهم ذلك إلَّا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أَرْسِلْ لنا أبا لبابةَ رفاعةَ بنَ عبد المنذر ـ وكان مناصحاً لهم؛ لأنَّ ماله وولده وعياله كان عندهم ـ فبعثه رسول الله ﷺ، فأتاهم، فقالوا: يا أبا لبابة، ما ترى؟ أننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار بيده إلى حلقه، يعني أنه الذبحُ، فلا تفعلوا. قال

---

(١) مفردات الراغب: (خون).
(٢) تفسير الطبري ١١/ ١٢٥.
(٣) الدر المنثور ٣/ ١٧٨.

أبو لبابة: والله ما زالت قدماي عن مكانهما حتى عرفتُ أنِّي قد خنتُ الله تعالى ورسولَه عليه الصلاة والسلام. ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ، وشدَّ نفسه[1] على ساريةٍ من سواري المسجد، وقال: واللهِ لا أذوقُ طعاماً ولا شراباً حتى أموتَ، أو يتوبَ الله تعالى عليَّ. فلما بلغ رسولَ الله ﷺ خبرُه قال: «أمَا لو جاءني لاستغفرتُ له، أما إذا فعل ما فعل فإنِّي لا أطلقُه حتى يتوب الله تعالى عليه». فمكث سبعةَ أيامٍ لا يذوقُ طعاماً ولا شراباً حتى خرَّ مغشيًّا عليه، ثم تاب الله تعالى عليه، فقيل له: يا أبا لبابةَ، قد تيبَ عليك. فقال: والله لا أحلُّ نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلُّني. فجاءه عليه الصلاة والسلام فحلَّه بيده، ثم قال أبو لبابة، إنَّ تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أَصَبْتُ فيها الذنبَ، وأن أنخلع من مالي. فقال ﷺ: «يجزيك الثلثُ أنْ تَصَدَّقَ به». ونزلت فيه هذه الآية[2].

وقال السدِّيُّ: كانوا يسمعون الشيء من رسول الله ﷺ، فيُفْشونه حتى يبلغ المشركين، فنُهوا عن ذلك.

وأخرج أبو الشيخ وغيرُه عن جابر بن عبد الله، أنَّ أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبريلُ عليه السلام النبيَّ ﷺ فقال: إنَّ أبا سفيان بمكانِ كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ أبا سفيان بمكانِ كذا وكذا، فاخرجوا إليه واكتُموا»، فكتب

(١) جاء في هامش الأصل و(م): المشهور أن أبا لبابة ربط نفسه لتخلفه عن تبوك، وحسنه ابن عبد البر. اهـ منه. وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) نقله المصنف عن البيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٤/ ٢٦٨، وذكر مثله الزمخشري في الكشاف ٢/ ١٥٥، وأخرجه بنحوه عن الزهري الطبري ١١/ ١٢١-١٢٢، وعن الكلبي عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٣/ ١٧٨. وذكره مطولاً ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٦-٢٣٨، وأخرجه البيهقي في الدلائل ٤/ ١٥ من طريق ابن إسحاق عن أبيه عن معبد بن كعب بن مالك، ثم قال: هكذا قال ابن إسحاق بإسناده، وزعم سعيد بن المسيب أن ارتباطه بسارية التوبة كان بعد تخلُّفه عن غزوة تبوك حين أعرض عنه رسول الله ﷺ وهو عليه عاتب بما فعل يوم قريظة، ثم تخلف عن غزوة تبوك فيمن تخلف، والله أعلم، وفي رواية علي بن أبي طلحة وعطية بن سعد عن ابن عباس في ارتباطه حين تخلف عن غزوة تبوك ما يؤكد قول ابن المسيب. اهـ. ورواية علي بن أبي طلحة وعطية أخرجهما الطبري ١١/ ٦٥١-٦٥٢.

رجلٌ من المنافقين إلى أبي سفيان: إنَّ محمداً مُريدكم، فخذوا حِذْرَكم. فنزلت[1].

﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ عطف على المجزوم أولاً، والمرادُ النهيُ عن خيانة الله تعالى والرسولِ، وخيانةِ بعضِهم بعضاً، والكلامُ عند بعضٍ على حذف مضافٍ، أي: أصحابَ أماناتكم، ويجوزُ أن تُجعل الأمانة نفسُها مخونةً.

وجوَّز أبو البقاء أنْ يكون الفعل منصوباً بإضمارِ «أنْ» بعد الواو في جواب النهي[2]، كما في قوله:

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مثلَه عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ[3]

والمعنى: لا تجمعوا بين الخيانتين، والأولُ أولى؛ لأنَّ فيه النهيَ عن كلِّ واحدٍ على حِدَتِه، بخلافِ هذا؛ فإنه نهيٌ عن الجمع بينهما، ولا يلزمُه النهيُ عن كلِّ واحدٍ على حدته.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما تفسير الأمانات بالأعمال التي ائتمَنَ الله تعالى عليها عباده.

وقرأ مجاهد: «أمانَتَكم» بالتوحيد، وهي روايةٌ عن أبي عمرو[4]، ولا منافاةَ بينها وبين القراءة الأخرى.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٧﴾ أي: تبعةَ ذلك ووبالَه، أو: أنَّكم تخونون، أو: وأنتم علماءُ تميِّزون الحسن من القبيح، فالفعلُ إما متعدٍّ له مفعولٌ مقدَّرٌ بقرينة المقام، أو منزَّلٌ منزلةَ اللازم، قيل: وليس المرادُ بذلك التقييدَ على كلِّ حال.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنها سببُ الوقوع في الإثم والعقاب،

---

(١) الدر المنثور ٣/ ١٧٨، وأخرجه أيضاً الطبري ١١/ ١٢١، وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذا حديث غريب جدًّا، وفي سنده وسياقه نظر.

(٢) الإملاء ٣/ ١٠٤.

(٣) نسب هذا البيت إلى المتوكل الكناني، وسابق البربري، والطِّرمَّاح، والأخطل، والمشهور أنه لأبي الأسود الدؤلي. ينظر الخزانة ٨/ ٥٦٤-٥٦٩.

(٤) القراءات الشاذة ص٤٩.

أو محنةٌ من الله عزَّ وجل يختبرُكم بها، فلا يحملنَّكم حبُّها على الخيانة كأبي لبابة.

ولعل الفتنة في المال أكثرُ منها في الولد، ولذا قدِّمت الأموال على الأولاد، ولا يخفى ما في الإخبار من المبالغة.

وجاء عن ابن مسعود: ما منكم من أحدٍ إلَّا وهو مشتملٌ على فتنةٍ؛ لأنَّ الله سبحانه يقول: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾ إلخ، فمن استعاذ منكم فليستعذ بالله تعالى من مُضِلَّات الفتن. ومثلُه عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨﴾ لمن مالَ إليه سبحانه، وآثَرَ رضاه عليهما، وراعَى حدوده فيهما، فأنيطوا هممكم بما يؤدِّيكم إليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في كلِّ ما تأتون وما تَذَرون ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ﴾ بسبب ذلك الاتِّقاء ﴿فُرۡقَانٗا﴾ أي: هدايةً ونوراً في قلوبكم تفرِّقون به بين الحقِّ والباطل، كما روي عن ابن جريج وابن زيد، أو نصراً يفرِّق بين المحقِّ والمبطِلِ، بإعزاز المؤمنين وإذلالِ الكافرين كما قال الفراء[1]، أو نجاةً في الدارين كما هو ظاهرُ كلام السديِّ، أو مخرجاً من الشبهات كما جاء عن مقاتل، أو ظهوراً يشهر أمركم وينشر صيتكم ـ كما يُشْعِرُ به كلام محمد بن إسحاق ـ من: بتُّ أفعلُ كذا حتى سَطَعَ الفرقانُ، أي: الصبح. وكلُّ المعاني ترجِعُ إلى الفَرْقِ بين أمرين، وجوَّز بعضُ المحققين الجمعَ بينها.

﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ أي: يسترها في الدنيا ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾ بالتجاوُزِ عنها في الأخرى، فلا تكرار.

وقد يقال: مفعولُ «يغفر» الذنوبُ، وتفسَّر بالكبائر، وتفسَّر السيئات بالصغائر.

أو يقال: المراد: ما تقدَّم وما تأخَّر؛ لأنَّ الآية في أهل بدر، وقد غفر لهم، ففي الخبر: «لعل الله اطَّلع على أهلِ بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم»[2].

---

(١) في معاني القرآن ١/٤٠٨.

(٢) أخرجه أحمد (٦٠٠)، والبخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث عليٍّ ﵁.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ تعليلٌ لِمَا قبله، وتنبيهٌ على أنَّ ما وَعَدَ لهم على التقوى تفضُّلٌ منه سبحانه وإحسانٌ، وأنها بمعزلٍ عن أن توجِبَ عليه جل شأنه شيئاً. قيل: ومن عظم فضله تعالى أنه يتفضَّل بلا واسطةٍ، وبدون التماسِ عوضٍ، ولا كذلك غيرُه سبحانه.

ثم إنه عزَّ وجل لمَّا ذكَّر مَن ذكَّر نعمتَه بقوله تعالى: (وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ) إلخ، ذكَّر نبيَّه عليه الصلاة والسلام النعمة الخاصةَ به بقوله عزَّ مِن قائل: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فهو متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع مفعولاً لفعلٍ محذوفٍ معطوفٍ على ما تقدَّم، أو منصوبٌ بالفعل المضمَر المعطوفِ على ذلك، أي: واذكر نعمتَه تعالى عليك إذ، أو: اذكر وقتَ مكرهم بك.

﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ بالوثاق، ويعضدُه قراءةُ ابن عباس: «ليقيِّدوك»[١]، وإليه ذهب الحسن ومجاهد وقتادة. أو بالإثخان بالجرح، من قولهم: ضَرَبَه حتى أَثْبتَه لا حراكَ به ولا براح[٢]، وهو المرويُّ عن أبان وأبي حاتم والجبائيِّ، وأنشد:

فقلتُ ويحكم ما في صحيفتكم قالوا الخليفةُ أمسى مُثْبَتاً وَجِعا[٣]

أو بالحبس في بيتٍ كما روي عن عطاء والسدي.

وكلُّ الأقوال ترجعُ إلى أصلٍ واحدٍ، وهو جَعْلُه ﷺ ثابتاً في مكانه أعم من أن يكون ذلك بالربط، أو الحبس، أو الإثخان بالجراح حتى لا يقدر على الحركة، ولا يَرِدُ أنَّ الإثخان إن كان بدون قتلٍ فلا ذِكْرَ له فيما اشتهر من القصة، وإن كان بالقتل يتكرَّر مع قوله تعالى: ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾؛ لأنَّا نختارُ الأول، ولا يلزم أن يذكر في القصة؛ لأنه قد يكون رأيَ مَن لا يُعتدُّ برأيه، فلم يُذْكَر، والمراد ـ على ما تقتضيه «أو يقتلوك» ـ: بسيوفهم.

﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾أي: من مكة، وذلك على ما ذكر ابنُ إسحاق[٤] أنَّ قريشاً لمَّا

---

(١) الكشاف ٢/ ١٥٥.

(٢) البراح: مصدر برح مكانه، أي: زال عنه، فنفيه يدل على الثبوت. حاشية الشهاب ٤/ ٢٦٩.

(٣) البيت ليزيد بن معاوية، كما في الأغاني ١٧/ ٢١٢، والعقد الفريد ٤/ ٣٧٣، وهو فيهما برواية: قلنا لك الويل ماذا في صحيفتكم...

(٤) كما في سيرة ابن هشام ١/ ٤٨٠، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

رأتْ أنَّ رسول الله ﷺ قد كانت له شيعةٌ وأصحابٌ من غيرهم من غيرٍ[1] بلدهم، ورأوا خروجَ أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعةً، فحذِروا [خروج] رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أَجْمعَ لحربهم، فاجتمعوا في دار الندوة- وهي دارُ قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها- يتشاورون فيها ما يصنعون في أمره عليه الصلاة والسلام. فلمّا اجتمعوا - كما قال ابن عباس- لذلك، واتَّعدوا أن يدخلوا الدار ليتشاوروا فيها، غدوا في اليوم الذي اتَّعدوا فيه، وكان ذلك اليومُ يسمَّى يومَ الزحمة، فاعترضهم إبليسُ عليه اللعنة في هيئة شيخ جليلٍ عليه بدلةٌ[2]، فوقف على باب الدار، فلمَّا رأوه واقفاً على بابها قالوا: مَن الشيخ؟ قال: شيخٌ من أهل نجد سمع بالذي اتَّعدْتُم له، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أنْ لا يُعْدِمَكم منه رأياً ونصحاً. قالوا: أجل فادخل، فدخل معهم وقد اجتمع أشرافُ قريشٍ، فقال بعضهم لبعض: إنَّ هذا الرجل قد كان من أمره ما رأيتم، وإنَّا والله ما نأمنُه.

قال: فتشاوروا ثم قال قائل[3] منهم: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه باباً، ثم تربَّصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهيراً، والنابغةَ، ومَن مضى منهم من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم. فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا برأي، والله لئن حَبَسْتُموه كما تقولون ليَخْرُجَن أمرُه من وراء الباب الذي أغلقتُموه دونه إلى أصحابه، فلَأَوْشَكوا أن يَثِبُوا عليكم فينزعوه من أيديكم، ثم يكاثِروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي فانظروا في غيره.

فتشاوروا ثم قال قائل[4] منهم: نُخرِجُه من بين أظهُرِنا فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنَّا فوالله ما نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع، إذا غاب عنَّا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وأُلْفَتَنا كما كانت. قال الشيخ النجديُّ: لا والله ما هذا لكم برأي،

---

(١) في السيرة: بغير، بدل: من غير.
(٢) في السيرة: بتلةٌ، وهي الكساء الغليظ.
(٣) في هامش الأصل و(م): هو أبو البختري بن هشام. اهـ منه.
(٤) في هامش الأصل و(م): هو أبو الأسود بن عمير. اهـ منه.

ألم تروا حُسْنَ حديثه، وحلاوةَ منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتُ[1] أن يحلَّ على حيٍّ من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثِه حتى يبايعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم فيطؤكم بهم في بلادكم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبِّروا فيه رأياً غيره.

قال: فقال أبو جهل: والله إنَّ لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتُم عليه بعدُ. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كلِّ قبيلةٍ فتىً شابًّا جليداً، نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كلَّ فتىً منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدون إليه فيضربونه بها ضربةَ رجلٍ واحدٍ، فيقتلونه فنستريحُ منه؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرَّق دمه في القبائل جميعاً، فَرَضُوا منَّا بالعقل فعقلناه لهم. قال: فقال الشيخ النجدي: القولُ ما قال الرجل، هو هذا الرأي لا أرى غيره. فتفرَّقوا على ذلك.

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فقال: لا تَبِتْ هذه الليلةَ على فراشك الذي كنتَ تَبيتُ عليه. فلمَّا كانت عتمةٌ من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينامُ فيَثِبُون عليه، فلمَّا رأى رسول الله ﷺ مكانَهم قال لعليٍّ كرم الله تعالى وجهه: «نم على فراشي، وتسجَّ ببردي هذا الحضرميِّ الأخضر، فنم فيه؛ فإنه لن يَخلُصَ إليك شيءٌ تكرهُه منهم» وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام.

وأُذن له عليه الصلاة والسلام في الهجرة، فخرج مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه إلى الغار، وأنشد عليٌّ كرم الله تعالى وجهه مشيراً لِمَا مَنَّ الله تعالى به عليه:

وقيتُ بنفسي خيرَ مَن وَطِئَ الحصى ... ومَن طاف بالبيت العتيقِ وبالحِجْرِ
رسولَ إلهٍ خاف أن يمكُروا به ... فنجَّاه ذو الطول الإلهُ من المَكْرِ
وبات رسولُ الله في الغار آمناً ... وقد صار في حفظ الإله وفي سترِ
وبتُّ أراعيهم وما يَتْهمونني ... وقد وطَّنْتُ نفسي على القتل والأسرِ[2]

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ أي: يردُّ مَكْرَهم، ويجعلُ وخامَتَه عليهم، أو يجازيهم عليه، أو يعاملهم معاملةَ الماكرين، وذلك بأنْ أخرجهم إلى بدرٍ، وقلَّل المسلمين

---

(١) في السيرة: أمنتم.

(٢) وردت هذه الأبيات ضمن خبر أخرجه الحاكم ٣/ ٤ عن علي بن الحسين.

في أعينهم حتى حملوا عليهم، فلَقوا منهم ما يشيبُ منه الوليد، ففي الكلام استعارةٌ تبعيةٌ، أو مجازٌ مرسلٌ، أو استعارةٌ تمثيليةٌ، وقد يُكْتَفى بالمشاكلة الصرفة.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ إذ لا يُعتدُّ بمكرهم عند مكرِه سبحانه. قال بعض المحققين: إطلاقُ هذا المركَّب الإضافي عليه تعالى إن كان باعتبارِ أنَّ مكره جلَّ شأنهُ أنفذُ وأبلغُ تأثيراً فالإضافة للتفضيل؛ لأنَّ لمَكْرِ الغير أيضاً نفوذاً وتأثيراً في الجملة، وهذا معنى أصل فعل الخير، فتحصلُ المشاركة فيه، وإذا كان باعتبارِ أنه سبحانه لا يُنْزِلُ إلا الحقَّ، ولا يصيبُ إلا بما يستوجبه الممكورُ به فلا شركةَ لمكرِ الغير فيه، فالإضافة حينئذٍ للاختصاص، كما في: أَعْدَلَا بني مروان[1]؛ لانتفاء المشاركة.

وقيل: هو من قبيل: الصيفُ أحرُّ من الشتاء، بمعنى أنَّ مَكْرَه تعالى في خيريته أبلغُ من مكر الغير في شرِّيته[2].

وادَّعى غيرُ واحدٍ أنَّ المكر لا يطلق عليه سبحانه دون مشاكلةٍ؛ لأنه حيلةٌ يُجلَب بها مضرَّةٌ إلى الغير، وذلك مما لا يجوز في حقِّه سبحانه.

واعتُرِضَ بوروده من دون مشاكلة في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وأجيب بأنَّ المشاكلة فيما ذكر تقديريةٌ، وهي كافيةٌ في الغرض، وفيه نظر؛ فقد جاء عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: مَن وسَّع عليه في دنياه ولم يَعْلَم أنه مكر به فهو مخدوعٌ في عقله. والمشاكلةُ التقديرية فيه بعيدة جداً، بل لا يكاد يدَّعيها منصفٌ.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ التي لو أنزلناها على جبلٍ لرأيتَه خاشعاً متصدِّعاً من خشية الله.

﴿قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ قائلُه النضر بنُ الحارث من بني عبد الدار، على ما عليه جمهور المفسرين، وكان يختلفُ إلى أرض فارس والحيرة، فيسمعُ أخبارهم عن رستم وإسفنديار وكبارِ العجم، وكان يمرُّ باليهود والنصارى، فيسمعُ منهم التوراة والإنجيل.

---

(١) أي: عادِلا بني مروان، وتمام القول: الأشجُّ والناقص أعدلا بني مروان.

(٢) حاشية الشهاب ٤/ ٢٧٠.

وإسناد القول إلى ضمير الجمع من إسناد فعل البعض إلى الكلِّ؛ لِمَا أنَّ اللَّعينَ كان رئيسَهم وقاضيَهم الذي يقولون بقوله، ويعملون برأيه.

وقيل: قاله الذين ائتمروا في أمره عليه الصلاة والسلام في دار الندوة.

وأيًّا ما كان فهو غايةُ المكابرة، ونهايةُ العناد؛ إذ لو استطاعوا شيئاً من ذلك فما منعهم من المشيئة؟ وقد تحدَّاهم عليه الصلاة والسلام وقَرَّعَهم بالعجز عَشْرَ سنين، ثم قارَعَهم بالسيف فلم يعارضوا بما سواه، مع أَنفَتهم واستنكافهم أن يُغْلَبوا، لا سيما في ميدان البيان؛ فإنهم كانوا فرسانه المالكين لأزمَّته، الحائزين قَصَبَ السَّبْقِ به. واشْتَهَر أنهم علَّقوا القصائد السبعة المشهورة على باب الكعبة متحدِّين بها. لكنْ تُعقِّب[1] أن ذلك مما لا أصل له وإن اشْتَهَر.

وزعم بعضهم أن هذا القول كان منهم قبل أن ينقطع طمعُهم عن القدرة على الإتيان بمثله، وليس بشيء.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ جمع أسطورة ـ على ما قاله المبرِّد ـ كأحدوثةٍ وأحاديث، ومعناه: ما سُطِرَ وكُتِبَ. وفي «القاموس»[2]: الأساطير: الأحاديث لا نظام لها، جَمْعُ إسْطار وإسْطِير وأُسْطُور، وبالهاء في الكلِّ. وأصل السَّطْرِ: الصفُّ من الشيء، كالكتاب والشجر وغيره، وجمعُه: أَسْطُر وسُطُور وأَسْطار، وجمعُ الجمع: أساطير، ويحرَّك في الكلِّ.

وقال بعضهم: إنَّ جمع سَطْر بالسكون: أَسْطُر وسُطُر، وجمع سَطَر: أسطار وأساطير، وهو مخالفٌ لِمَا في «القاموس».

والكلام على التشبيه، وأرادوا: ما هذا إلا كقصص الأوَّلين وحكاياتهم التي سطروها، وليس كلامَ الله تعالى، وكأنه بيانٌ لوجه قدرتهم على قول مثله لو شاؤوا.

﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ قائل هذا النضرُ أيضاً على ما روي عن مجاهد

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): المتعقب الشهاب. اهـ منه. وهو في حاشية الشهاب ٤/ ٢٧٠.

(٢) مادة (سطر).

وسعيد بن جبير. وجاء في روايةٍ أنه لمَّا قال أولاً ما قال، قال له النبيُّ ﷺ: «ويلك! إنه كلامُ الله تعالى» فقال ذلك.

وأخرج البخاريُّ والبيهقيُّ في «الدلائل» عن أنس بن مالك أنه أبو جهل بن هشام[١].

وأخرج ابن جرير عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس أن قريشاً قال بعضُها لبعض: أَكْرمَ الله محمداً ﷺ من بيننا، اللهمَّ إن كان هذا هو الحقَّ إلخ[٢]. وهو أبلغُ في الجحود من القول الأول؛ لأنهم عدُّوا حقِّيته محالاً، فلذا علَّقوا عليها طَلَبَ العذاب الذي لا يطلبه عاقلٌ، ولو كانت ممكنةً لفرُّوا من تعليقه عليها.

وما يقال: إنَّ «إنْ» للخلوِّ عن الجزم، فكيف استُعملت في صورة الجزم؟ أجاب عنه القطب بأنها لعدم الجزم بوقوع الشرط، ومتى جُزِمَ بعَدَمِ وقوعه عُدِمَ الجزمُ بوقوعه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ [البقرة: ٢٣]. وفيه بحثٌ ذكره العلَّامة الثاني.

واللام في «الحق» قيل: للعهد، ومعنى العهد فيه أنه الحقُّ الذي ادَّعاه النبي ﷺ، وهو أنه كلامُ الله تعالى المنزل عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على النمط المخصوص، و«من عندك» إن سلِّم دلالتُه عليه فهو للتأكيد، وحينئذٍ فالمعلَّق به كونُه حقًّا بالوجه الذي يدَّعيه النبيُّ ﷺ، لا الحقُّ مطلقاً؛ لتجويزهم أن يكون مطابقاً للواقع غيرَ منزلٍ كأساطير الأوَّلين.

و في «الكشاف»: إنَّ قولهم: «هو الحق» تهكُّمٌ بمن يقول على سبيل التخصيص والتعيين: «هذا هو الحق»[٣]. وزعم بعضهم أنَّ هذا قولٌ بأنَّ اللام للجنس، وأشار إلى أنَّ الأَوْلَى حَمْلُها على العهد الخارجيِّ، على معنى: الحقُّ المعهودُ المنزَلُ من عند الله تعالى هذا لا أساطيرُ الأوَّلين، فالتركيب مفيدٌ لتخصيص المسنَدِ إليه بالمسنَدِ على آكَدِ وجهٍ، وحَمَلَ كلام البيضاويِّ على ذلك[٤]، وطَعَنَ في

---

(١) صحيح البخاري (٤٦٤٨)، ودلائل النبوة ٣/ ٧٥، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٧٩٦).
(٢) تفسير الطبري ١١/ ١٥١.
(٣) الكشاف ٣/ ١٥٥.
(٤) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٤/ ٢٧١.

مسلك «الكشاف» بعدم ثبوتِ قائلٍ أوّلاً على وجه التخصيص يُتهكَّمُ به، ولا يَخفى ما فيه من المنع والتعسُّف.

و«أَمْطِرْ» استعارةٌ أو مجازٌ لأَنْزِلْ، وقد تقدَّم الكلام في المطر والإمطار.

و قوله سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ صفةُ «حجارة»، وذَكَره للإشارة إلى أنَّ المراد بها السجِّيلُ، والحجارةُ المسوَّمةُ للعذاب، يُروى أنها حجارةٌ من طينٍ طُبِخَتْ بنارِ جهنم مكتوبٌ فيها أسماءُ القوم. وجوِّز أن يكون الجارُّ متعلِّقاً بالفعلِ قبله.

والمراد بالعذاب الأليم غيرُ إمطار الحجارة بقرينة المقابلة، ويصحُّ أن يكون من عَطْفِ العامِّ على الخاصِّ.

و تعلَّق «من عندك» بمحذوفٍ قيل: هو حالٌ مما عنده، أو صفةٌ له.

و قرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما والأعمش: «الحقُّ» بالرفع[1] على أنَّ «هو» مبتدأ لا فصلٌ، وقول الطبرسيِّ: إنه لم يُقرأ بذلك[2]، ليس بذاك، ولا أرى فرقاً بين القراءتين من جهة المراد بالتعريف خلافاً لمن زعمه.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ جوابٌ لكلمتهم الشنعاء، وبيانٌ لِمَا كان الموجبَ لإمهالهم، وعدم إجابة دعائهم الذي قصدوا به ما قصدوا، واللام هي التي تسمَّى لامَ الجحود ولامَ النفي؛ لاختصاصها بمنفيِّ «كان» الماضية لفظاً أو معنىً، وهي إمَّا زائدةٌ، أو غيرُ زائدةٍ والخبرُ محذوف، أي: ما كان اللهُ مريداً لتعذيبهم، وأيًّا ما كان فالمرادُ تأكيد النفي، أمَّا على زيادتِها فظاهرٌ، وأما على عدمِ زيادتها وجَعْلِ الخبرِ ما علمتَ فلأنَّ نفْي إرادةِ الفعل أبلغُ مِن نفيه.

وقيل في وجه إفادة اللام تأكيدَ النفْي هنا: إنها هي التي في قولهم: أنتَ لهذه الخطَّة، أي: مناسبٌ لها وهي تَليقُ بك، ونفْي اللياقةِ أبلغُ مِن نفي أصلِ الفعل. ولا يخلو عن حُسْنٍ وإن قيل: إنه تكلفٌ لا حاجة إليه بعدَ ما بيَّنه النُّحاةُ في وجه ذلك.

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٩، والبحر ٤/ ٤٨٨.
(٢) مجمع البيان ٩/ ١٣٨.

وحَمَلَ غيرُ واحدٍ العذابَ على عذابِ الاستئصال، واعتُرِض بأنَّه لا دليلَ على هذا التقييدِ مع أنَّه لا يلائمه المقامُ، وأجيبَ بمنْعِ عدم الملاءمة، بل مَن أمْعَن النظرَ في كلامهِم رآه مُشْعِراً بطلبِ ذلك، والدليلُ على التقييد أنَّه وَقَع عليهم العذابُ والنبيُّ ﷺ فيهم كالقَحْط، فعُلم أنَّ المرادَ به عذابُ الاستئصال، والقرينةُ عليه تأكيدُ النفْي الذي يصْرِفُه إلى أعظمه، فالمراد من الآية الإخبارُ بأنَّ تعذيبَهم عذابَ استئصالٍ والنبيُّ ﷺ بين أظهرهم خارجٌ عن عادته تعالى، غيرُ مستقيم في حكمِه وقضائِه.

والمرادُ بالاستغفارِ في قوله سبحانهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾: إمَّا استغفارُ مَن بقِيَ بينَهم مِن المؤمنين المستضْعَفِين حينَ هاجر رسولُ الله ﷺ، ورُوي هذا عن الضحَّاك، واختاره الجبائيُّ[١]، وقال الطيبيُّ: إنَّه أبلغُ؛ لدلالته على أنَّ استغفارَ الغير مما يُدْفَع به العذابُ عن أمثالِ هؤلاء الكَفَرة، وإسنادُ الاستغفار إلى ضميرِ الجميع لوقوعهِ فيما بينَهم، ولجعْلِ ما صدَرَ عن البعضِ - كما قيل - بمنزلة الصادر عن الكلِّ، فليس هناك تفكيكٌ للضمائرِ كما يُوهِمه كلام ابن عطية[٢].

وإما دعاءُ الكَفَرةِ بالمغفِرَة، وقولُهم: غُفرانك، فيكون مجرَّدُ طلبِ المغفرة منه تعالى مانعاً مِن عذابه جلَّ شأنهُ ولو من الكَفَرةِ، ورُوي هذا عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس، قالا: إنَّ قريشاً لمَّا قالوا ما قالوا نَدِموا حين أمسَوا، فقالوا: غفرانك اللّهم[٣].

و إما التوبةُ والرجوعُ عن جميعِ ما هم عليه من الكفر وغيرِه، على معنى: لو استغفروا لم يُعَذَّبوا، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، ورُوي عن السديِّ وقتادة وابنِ زيد[٤].

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما كلٌّ من الأقوالِ الثلاثةِ[٥].

---

(١) كما في مجمع البيان ٣/ ١٤٠.

(٢) في المحرر الوجيز ٢/ ٥٢١.

(٣) تفسير الطبري ١١/ ١٥١.

(٤) النكت والعيون ٢/ ٣١٤.

(٥) ينظر: تفسير الطبري ١١/ ١٥٠ و١٥١ و١٥٥.

وأيًا ما كان فالجملةُ الاسميةُ في موضع الحالِ، إلا أنَّ القيدَ مثبَتٌ على الوجهين الأوَّلين، منفيٌّ على الوجه الأخير، ومَبْنَى الاختلافِ في ذلك ما نُقل عن السَّلَف من الاختلاف في تفسيره، والقاعدةِ المقرَّرة بين القوم في القيد الواقع بعد الفعل المنفيِّ، وحاصلُها - على ما قيل - أنَّ القيد في الكلام المنفيِّ قد يكون لتقييد النفي، وقد يكون لنفي التقييد، بمعنى انتفاءِ كلٍّ من الفعل والقيد، أو القيد فقط، أو الفعلِ فقط.

وقيل[1]: إنَّ الدالَّ على انتفاء الاستغفار هنا على الوجه الأخير القرينةُ والمقامُ لا نفسُ الكلامِ، وإلا لكان معنى: «وما كان الله ليعذِّبهم وأنت فيهم» نفيَ كونه فيهم؛ لأنَّ أمرَ الحالية مشتركٌ بين الجملتين.

وأطال الكلام في نفي تساوي الجملتين سؤالاً وجواباً، ثم تكلَّف للتَّفرِقة بما تكلَّف، واعترض عليه بما اعترض، والظاهرُ عندي عدمُ الفرق في احتمالِ كلٍّ من حيث إنه كلامٌ فيه قيدٌ توجَّه النفيُ إلى القيد.

ومن هنا قال بعضهم: إنَّ المعنى الأولى: لو كنتَ فيهم لم يعذَّبوا، كما قيل في معنى الثانية: لو استغفروا لم يعذَّبوا، ويكون ذلك إشارة إلى أنَّهم عُذِّبوا بما وقع لهم في بدر؛ لأنَّهم أخرَجوا النبيَّ ﷺ من مكة ولم يبقَ فيهم فيها.

إلا أنَّ هذا خلافُ الظاهر، ولا يظهَرُ عليه كونُ الآية جواباً لكلمتهم الشنعاء.

وعن ابن عباس: إنَّ المراد بهذا الاستغفار استغفارُ مَن يؤمِنُ منهم بعدُ[2]، أي: وما كان الله معذِّبهم وفيهم مَن سبق له مِن الله تعالى العنايةُ أنَّه يُؤْمِن ويستغفِر، كصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وأضرابهم.

وعن مجاهد: إنَّ المرادَ به استغفارُ مَن في أصلابهم ممن عَلِم اللهُ تعالى أنَّه يؤمِن، أي: ما كان الله معذِّبَهم وفي أصلابهم مَن يستغفر. وهو كما ترى.

ويظهر لي مِن تأكيدِ النفي في الجملة الأولى وعدمِ تأكيده في الجملة الثانية أنَّ كونَ النبيِّ ﷺ فيهم أدْعَى حكمةً لعدم التعذيب من الاستغفار، وحَمَل بعضُهم

(١) جاء في هامش (م): القائل السعد. اهـ منه.

(٢) تفسير الطبري١١/ ١٥٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٩٢.

التعذيبَ المنفيَّ في الجملة الثانية ـ بناءً على الوجه الأخير ـ على ما عدا تعذيبِ الاستئصال.

وحَمْل الأوَّلِ على التعذيب الدنيويِّ والثاني على الأخرويِّ ليس بشيء.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أيُّ شيءٍ لهم في انتفاءِ العذاب عنهم، أي: لا حَظَّ لهم في ذلك، وهم معذَّبون لا محالةَ إذا زال المانع، وكيف لا يعذَّبون ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: وحالُهم الصدُّ عن ذلك حقيقةً كما فعلوا عامَ الحديبيةِ، وحكماً كما فعلوا برسولِ الله ﷺ وأصحابِه حتى ألجؤوهم للهجرة.

ولمَّا كانت الآيتان يتراءى منهما التناقُضُ زادوا في التفسير: إذا زال، ليزول كما ذكرنا، وأنتَ تعلم أنه إذا حُمل التعذيبُ في كلٍّ على تعذيبِ الاستئصالِ احتيجَ إلى القول بوقوعِه بعدَ زوالِ المانع، وهو خلافُ الواقع.

وقال بعضُهم في دفع ذلك: إنَّ التعذيبَ فيما مرَّ تعذيبُ الاستئصال، وهنا التعذيبُ بقتلِ بعضهم.

ونقل الشهابُ عن الحسن ـ والعُهدةُ عليه ـ أنَّ هذه نسختْ ما قبلها[1]، والظاهرُ أنَّه أراد النفييْن السابقَيْن، والذي في «الدر المنثور» أنه وكذا عكرمةُ والسديُّ قالوا: إنَّ قولَه سبحانه: (وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) منسوخٌ بهذه الآية[2].

و أيًّا ما كان يَرِدُ عليه أنَّه لا نسخَ في الأخبار إلا إذا تضمَّنت حكماً شرعيًّا، وفي تضمُّنِ المنسوخ هنا ذلك خفاءٌ.

و قال محمدُ بن إسحاق: إنَّ الآية الأولى متصِلةٌ بما قبلَها على أنها حكايةٌ عن المشركين، فإنهم كانوا يقولون: إن اللهَ تعالى لا يعذِّبنا ونحن نستغفر، ولا يعذِّبُ الله سبحانه أمَّةً ونبيُّها معها، فقصَّ الله تعالى ذلك على نبيه ﷺ مع قولِهم الآخَر، فكأنه قيل: وإذ قالوا: اللهم إلخ، وقالوا أيضاً كيت وكيت، ثم ردَّ عليهم بقوله سبحانه:

---

(١) حاشية الشهاب ٤/ ٢٧٢، وذكره النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٣٨١، ثم قال: النسخ ها هنا محال؛ لأنه خبرٌ خبَّر الله تعالى به.

(٢) الدر المنثور ٣/ ١٨١، وأخرج قول الحسن وعكرمة الطبري في تفسيره ١١/ ١٥٧، وابن أبي حاتم في تفسيره ٥/ ١٦٩٣، وقول السدي عزاه السيوطي لأبي الشيخ.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ على معنى أنَّهم يعذَّبون وإن كنتَ بين أظهُرِهم، وإن كانوا يستغفرون[(١)].

وفيه أنَّ وقوعَ هذا القولِ منهم في غاية البُعد، مع أنَّ الظاهرَ حينئذٍ أن يقال: ليعذِّبَنا، و: معذِّبَنا، ونحن نستغفر، ليكون على طرز قولِهم السابقِ، وأيضاً الأخبارُ الكثيرةُ تأبى ذلك، فقد أخرج أبو الشيخ، والحاكم وصحَّحه، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن أبي هريرة ﷺ قال: كان فيكم أمانان، مضى أحدُهما وبقي الآخر، وتلا: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ إلخ[(٢)].

و جاء مثلُ ذلك عن ابن عباس وأبي موسى الأشعريِّ[(٣)]، وأخرج أبو داود، والترمذيُّ في «الشمائل»، والنسائيُّ عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: انكسفت الشمسُ على عهدِ رسول الله ﷺ، فقام عليه الصلاة والسلام فلم يكدْ يركَع، ثم ركع فلم يكَدْ يرفَع، ثم رفع فلم يكَدْ يسجد، ثم سجد فلم يكَدْ يرفَع، ثم رفع ثم لم يكد يسجُد، ثم سجد فلم يكد يرفع، ثم رفع، وفعل في الركعة الأخرى مثلَ ذلك، ثم نفَخَ في آخرِ سجوده، ثم قال: «ربِّ، ألم تَعدْني أن لا تعذِّبَهم وأنا فيهم؟ ربِّ ألم تعدْني أن لا تعذِّبَهم وهم يستغفرون؟ ونحن نستغفرك»، ففَرغ رسول الله ﷺ من صلاته وقد انمحصت الشمس[(٤)].

وذهب الجبائي إلى أنَّ المنفيَّ فيما مرَّ عذابُ الدنيا، وهذا العذابُ عذابُ الآخرةِ، أي: أنَّه يعذِّبُهم في الآخرة لا محالةَ. وهو خلافُ سياق الآية.

و«ما» على ما عليه الجمهورُ ـ وهو الظاهرُ ـ استفهاميةٌ. وقيل: إنها نافيةٌ، أي: ليس يَنْفِي عنهم العذابَ مع تلبُّسهم بالصدِّ عن المسجد الحرام.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٦٧٠.

(٢) المستدرك ١/ ٥٤٢، وشعب الإيمان (٦٥٤)، وعزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر ٣/ ١٨١. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

(٣) قول ابن عباس أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٤٩١)، وقول أبي موسى أخرجه الطبري في تفسيره ١١/ ١٥٢، والحاكم في المستدرك ١/ ٥٤٢.

(٤) سنن أبي داود (١١٩٤)، والشمائل المحمدية ص١٦٦، وسنن النسائي٣/ ١٣٧، وأخرجه أيضاً أحمد (٦٤٨٣)، ووقع في الأصل و(م): عبد الله بن عمر، وهو تصحيف.

﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ أي: وما كانوا مستحقِّين ولايةَ المسجدِ الحرام مع شِرْكهم، والجملةُ في موضع الحالِ من ضميرِ «يصدُّون»، مُبيِّنةٌ لكمالِ قبحِ ما صنعوا مِن الصدِّ؛ فإنَّ مباشَرتَهم للصدِّ عنه مع عدمِ استحقاقِهم لولايةِ أمره في غاية القُبح، وهذا ردٌّ لِمَا كانوا يقولون: نحن ولاةُ البيت والحرم، فنصدُّ مَن نشاء، وندخل من نشاء.

﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ﴾ أي: ما أولياءُ المسجدِ الحرام ﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ من الشرك الذين لا يَعبُدون فيه غيرَه تعالى، والمرادُ بهم المسلمون، وهذه المرتبةُ الأولى من التقْوى.

وما أشرنا إليه من رجوع الضميرَيْن إلى المسجد هو المتبادِرُ المرويُّ عن أبي جعفر والحسن.

و قيل: هما راجعان إليه تعالى، وعليه فلا حاجةَ إلى اعتبارِ الاستحقاق فيما تقدَّم آنفاً؛ إذ لم تَثبُت لهم ولايةُ الله تعالى أصلاً، بخلافِ ولايةِ المسجد الحرام؛ فإنَّهم كانوا متولِّين له وقتَ النزول، فاحتِيجَ إلى التأويل بنفْي الاستحقاق. ويفسَّر «المتقون» حينئذٍ بما هو أخصُّ من المسلمين؛ لأنَّ ولايةَ الله تعالى لا يكفي فيها الإسلامُ، بل لابدَّ فيها أيضاً من المرتبة الثانية من التقْوى، وإن وُجِدَت المرتبةُ الثالثةُ منها، فالولايةُ ولايةٌ كبرى، وهذا ما نعرفه مِن نُصوصِ الشريعة المطهَّرةِ، والمحجَّةِ البيضاء التي ليلُها كنهارِها.

وغالبُ الجَهَلة اليومَ على أنَّ الوليَّ هو المجنونُ، ويعبِّرون عنه بالمجذوب، صدقوا ولكن عن الهُدى، وكلَّما أطبِق جنونُه، وكثُر هَذَيانُه، واستقْذَرَت النفوسُ السليمةُ أحوالَه كانت ولايتُه أكملَ، وتصرُّفُه في مُلك الله تعالى أتمَّ.

وبعضُهم يُطلِق الوليَّ عليه وعلى مَن تَرَك الأحكامَ الشرعيةَ، ومَرَق من الدين المحمَّديِّ، وتكلَّم بكلماتِ القوم، وتزيَّا بزيِّهم، وليس منهم في عيرٍ ولا نفيرٍ، وزَعَم أنَّ مَن أجهد نفسَه في العبادة محجوبٌ، ومن تمسَّك بالشريعة مغبونٌ، وأنَّ هناك باطناً[1] يخالِفُ الظاهرَ إذا هو عرِف انحلَّ القيدُ، ورُفع[2] التكليفُ، وكَمُلتِ النفسُ:

---

(١) في الأصل و(م): محجوباً.... مغبوناً... باطن.

(٢) في الأصل: وبطل.

وألقَتْ عصاها واستقرَّ بها النوى كما قرَّ عيناً بالإياب المسافرُ[١]

ويسمُّون هذا المُرشِدَ، صَدَقوا ولكن إلى النار، والشيخَ، صَدَقوا ولكن النجديَّ، والعارفَ، صدقوا ولكن بسَباسبِ الضلال، والموحِّد، ولكن للكُفر والإيمان، وقد ذكر مولانا حجَّةُ الإسلام الغزاليُّ هذا النوعَ من الكَفَرة الفَجَرة، وقال: إنَّ قتلَ واحدٍ منهم أفضلُ عند الله تعالى من قتلِ مئة كافر. وكذا تكلَّم فيهم الشيخُ الأكبر قدِّس سرُّه في «الفتوحات» بنحو ذلك:

إلى الماءِ يَسْعى مَن يَغَصُّ بلُقْمةٍ إلى أين يَسْعى مَن يَغَصُّ بماء[٢]

والزمخشريُّ جَعَل «المتقون» أخصَّ من المسلمين على الوجه الأول أيضاً، وهو أبلغُ في نفْي الولاية عن المذكورين، أي: لا يصلُح لأن يليَ أمرَ المسجد مَن ليس بمسلمٍ، وإنَّما يستأهِلُ ولايتَه مَن كان برًّا تقيًّا، فكيف بالكَفَرة من عَبَدةِ الأوثان؟[٣].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أن لا ولايةَ لهم عليه، وكأنَّه نبَّه سبحانه بذكر الأكثرِ على أنَّ منهم مَن يعلم ذلك ولكن يجحَدُه عناداً.

وقد يُراد بالأكثر الكلُّ؛ لأنَّ له حكمَهُ في كثيرٍ من الأحكام، كما أنَّ الأقلَّ قد لا يُعتبَر، فينزَّل منزلةَ العدم.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ﴾ أي: المسجدِ الحرام الذي صدُّوا المسلمين عنه، والتعبيرُ عنه بـ «البيت» للاختصار مع الإشارةِ إلى أنَّه بيتُ الله تعالى، فينبغي أن يُعظَّم بالعبادة، وهم لم يفعلوا.

﴿إِلَّا مُكَاءً﴾ أي: صفيراً، وهو فُعال بضمِّ أوله كسائر أسماء الأصوات،

---

(١) اختلف في قائله: فنسبه الميداني في مجمع الأمثال ١/ ٣٦٤ إلى معقِّر البارقي، ونسبه الجاحظ في البيان والتبيين ٣/ ٤٠ إلى مضرس الأسدي، وقال ابن بري ـ كما في اللسان (عصا) ـ: هذا البيت لعبد ربه السلمي، ويقال: لسليم بن ثمامة الحنفي، وذكر الآمدي أن البيت لمعقِّر بن حمار البارقي. اهـ. وهو في الصحاح (عصا)، وخزانة الأدب ٦/ ٤١٣ دون نسبة.

(٢) سلف ٢/ ١٦٦.

(٣) الكشاف ٢/ ١٥٦.

فإنَّها تجيء على فُعال إلا ما شذَّ كالنِّداء، مِن مَكَا يمكُو: إذا صفَر، وقُرِئ: «مُكاً» بالقصر كبكاً[١].

﴿وَتَصْدِيَةً﴾ أي: تصفيقاً: وهو ضربُ اليد باليد بحيث يُسمَع له صوتٌ، ووزْنُه تَفْعِلَةٌ من الصدِّ كما قال أبو عبيدة[٢]، فَحُوِّلَ إحدى الدالَيْن ياءً كما في تقضَّى البازيُّ؛ لتقضُّضِه، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف:٥٧]، أي: يضِجُّون؛ لمزيدِ تعجُّبهم. وأُنكِر عليه.

وقيل: هو من الصدى: وهو ما يُسمع مِن رَجْع الصوت عند جبلٍ ونحوِه.

والمرادُ بالصلاة إمَّا الدعاءُ، أو أفعالٌ أُخَر كانوا يفعلونها ويُسمُّونها صلاةً، وحَمل المكاءِ والتصدية عليها على ما يشير إليه كلامُ الراغب[٣] بتأويلِ ذلك بأنَّها لا فائدةَ فيها ولا معنى لها، كصَفير الطيور، وتصفيق اللعب.

وقد يقال: المرادُ أنهم وضعوا المُكاءَ والتصدِيةَ موضعَ الصلاة التي تليق أن تقَعَ عندَ البيت، على حدِّ:

تحيَّةُ بينِهم ضربٌ وَجِيعُ[٤]

يُروى أنَّهم كانوا إذا أراد النبيُّ ﷺ أن يصلي يخلطون عليه بالصفير والتصفيق، ويُرْوَنَ أنَّهم يُصَلُّون أيضاً[٥].

وروي أنَّهم كانوا يطوفون عراةً، الرجالُ والنساءُ مشبِّكين بين أصابعهم، يصفرون فيها ويصفقون[٦].

وقال بعض القائلين: إنَّ التصديةَ بمعنى الصدِّ: والمراد صدُّهم عن القراءة، أو

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٩، والبحر٤/ ٤٩٢.
(٢) ذكر كلامه ابن جني في سر صناعة الإعراب ٢/ ٧٦٢، والأزهري في تهذيب اللغة ١٢/ ١٠٤، وابن يعيش في شرح المفصل ١٠/ ٢٥، والشهاب في الحاشية ٤/ ٢٧٣.
(٣) في المفردات (صدى).
(٤) وصدره: وخيل قد دلفت لها بخيل، وهو لعمرو بن معدي كرب، وسلف ٥/ ٦٤.
(٥) تفسير الطبري ١١/ ١٦٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٩٦ عن مجاهد.
(٦) تفسير الطبري ١١/ ١٦٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٩٦ عن ابن عباس.

عن الدينِ. أو الصدُّ بمعنى الضجَّةِ كما نُقل عن ابن يعيش في قوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف:٥٧][١]. والمأثورُ عن ابن عباس وجمعٍ من السلف ما ذكرناه.

نعم رُوي عن ابن جبير تفسيرُ التصدية بصدِّ الناس عن المسجد الحرام، وفيه بُعدٌ، وأبعدُ من ذلك تفسيرُ عكرمةَ لها بالطواف على الشمال[٢]، بل لا يكاد يسلَّم.

والجملةُ معطوفةٌ إمَّا على «وهم يصُدُّون»، فتكونُ لتقريرِ استحقاقِهم للعذاب ببيانِ أنَّهم صَدُّوا ولم يقوموا مقامَ مَن صدُّوه في تعظيم البيت، أو على «وما كانوا أولياءه» فتكونُ تقريراً لعدمِ استحقاقهم لولايته.

وقرأ الأعمش: «صلاتَهم» بالنصب، وهي روايةٌ عن عاصم وأبان[٣]، وهو حينئذٍ خبرُ «كان»، و«مكاءٌ» بالرفع اسمُها، وفي ذلك الإخبارُ عن النكرة بالمعرفة، وهو مِن القلبِ عند السكاكيِّ[٤]، وقال ابن جني: لا قلبَ، ثم قال: لسْنا ندفع أنَّ جعلَ اسم كان نكرةً وخبرها معرفةً قبيحٌ، وإنَّما جاءت منه أبياتٌ شاذةٌ، لكن من وراءِ ذلك ما أذكره، وهو أنَّ نكرة الجنسِ تُفيد مفادَ معرفتِه، ألا تراك تقول: خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب، فتجد معناه: فإذا الأسد بالباب، ولا فرقَ بينهما، وذلك أنَّك في الموضعين لا تريد أسداً واحداً معيَّناً، وإنَّما تُريد واحداً من هذا الجنس؟ وإذا كان كذلك جاز هنا النصبُ والرفعُ جوازاً قريباً، كأنه قيل: وما كان صلاتَهم إلا هذا الجنسُ من الفعل، ولا يكون مثلَ قولك: كان قائمٌ أخاك، لأنه ليس في «قائم» معنَى الجنسية. وأيضاً فإنَّه يجوز مع النفي ما لا يجوز مع الإيجاب، ألا تراك تقول: ما كان إنسانٌ خيراً منك، ولا تُجِيز: كان إنسانٌ خيراً منك؟[٥]. وتمامُ الكلام عليه في موضعه.

---

(١) شرح المفصل لابن يعيش ١٠/ ٢٥.

(٢) قول سعيد بن جبير أخرجه الطبري ١١/ ١٦٧، وقوله وقول عكرمة أخرجهما ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٩٦-١٦٩٧.

(٣) القراءات الشاذة ص٤٩، والمحتسب ١/ ٢٧٩-٢٨٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٢٣، والبحر ٤/ ٤٩٢.

(٤) مفتاح العلوم ص٢١٠-٢١١.

(٥) المحتسب ١/ ٢٧٩.

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ يعني القتلَ والأسرَ يومَ بدر كما رُوي عن الحسن والضحَّاك(١). وقيل: عذاب الآخرة، وقيل: العذابُ المعهود في قوله سبحانه: (أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ) ولا تعيينَ.

والباءُ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٥﴾ للسببية، والفاءُ ـ على تقدير أن لا يرادَ من العذابِ عذابُ الآخرة ـ للتعقيب، وعلى تقدير أن يرادَ ذلك للسببية كالباءِ، وأمْرُ اجتماعهما ظاهرٌ.

والمتبادِرُ من الكُفر ما يرجع إلى الاعتقاد، وقد يُراد به ما يشمَلُ الاعتقادَ والعملَ، كما يُراد مِن الإيمان في العرف ذلك أيضاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ نزلت ـ على ما رُوِيَ عن الكلبيِّ والضحَّاك ومقاتل ـ في المُطْعمين يومَ بدرٍ، وكانوا اثني عشر رجلاً: أبو جهل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأبو البختريِّ بن هشام، والنضر بن الحارث، وحكيمُ بن حزام، وأبيُّ بن خلف، وزمعة بن الأسود، والحارث بن عامر بن نوفل، والعباس بن عبد المطلب، وكلُّهم من قريش، وكان كلَّ يوم يُطعِم كلُّ واحدٍ عشرَ جُزُر، وكانت النوبةُ يومَ الهزيمة للعباس(٢).

وروى ابن إسحاق أنَّها نزلت في أصحاب العير؛ وذلك أنَّه لمَّا أصيبَت قريشٌ يومَ بدرٍ، ورجعوا إلى مكة، مشى صفوانُ بن أمية وعكرمة بن أبي جهل في رجالٍ من قريشٍ أصيب آباؤُهم وإخوانُهم ببدرٍ، فكلَّموا أبا سفيان ومَن كانت له في تلك العير من قريش تجارةٌ، فقالوا: يا معشر قريش، إنَّ محمداً قد وَتَركم وقتل رجالَكم، فأعينونا بهذا المال على حربِه لعلَّنا أن نُدرِكَ منه ثأرَنا بمن أصيب منا، ففعلوا(٣).

---

(١) تفسير الطبري ١١/ ١٦٩، والنكت والعيون ٢/ ٣١٦.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٢٣٢، وتفسير البغوي ٢/ ٢٤٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٢٥، ووقع في الأصل و(م): بنية ومنية ابنا الحجاج، وهو تصحيف.

(٣) ذكره ابن هشام مختصراً في سيرته ١/ ٦٧١، وأخرجه الطبري في تفسيره ١١/ ١٧٣ من طريق ابن إسحاق كما ذكره المصنف، وهو عند الواحدي في أسباب النزول ص٢٣٤.

وعن سعيد بن جبير ومجاهد: أنّها نزلت في أبي سفيان، استأجر ليوم أحدٍ ألفين من الأحابيش ليقاتلَ بهم النبيَّ ﷺ سوى مَن استجاشَهم من العرب، وأنفق عليهم أربعين أوقية من الذهب، وكانت الأوقيةُ يومئذٍ اثنين وأربعين مثقالاً من الذهب، وفيهم يقول كعبُ بن مالك من قصيدة طويلة أجابَ بها هبيرةَ بن أبي وهب:

فجئنا إلى موجٍ من البحْرِ وسْطُه أحابيشُ منهم حاسرٌ ومُقَنَّعُ
ثلاثةُ آلافٍ ونحن عصابةٌ ثلاثُ مئين إن كَثُرنا فأرْبَع[1]

و«سبيل الله»: طريقُه، والمرادُ به دينُه واتباعُ رسوله ﷺ.

واللام في «ليصدوا» لامُ الصيرورة، ويصحُّ أن تكونَ للتعليل؛ لأنَّ غرضَهم الصدُّ عن السبيلِ بحسبِ الواقع وإن لم يكن كذلك في اعتقادهم، وكأن هذا بيانٌ لعبادتهم المالية بعد عبادتِهم البدنية.

والموصولُ اسم «إن»، وخبرُها ـ على ما قاله العلامةُ الطيبيُّ ـ قولُه تعالى: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾، و«ينفقون» إما حالٌ، أو بدلٌ من «كفروا»، أو عطفُ بيانٍ، واقترن الخبرُ بالفاء لتضمُّن المبتدأ الموصولِ مع صلته معنَى الشرط، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [البروج: ١٠]، فهو جزاءٌ بحسب المعنى، وفي تكرير الإنفاق في الشرط والجزاء الدلالةُ على كمالِ سوءِ الإنفاق كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، وقولِهم: من أدرك الصمَّان فقد أدرك المرعى[2].

والكلامُ مشعرٌ بالتوبيخ على الإنفاقِ والإنكارِ عليه، قيل: وإلى هذا يرجعُ قولُ بعضِهم: إنَّ مساقَ ما تقدَّمَ لبيانِ غرضِ الإنفاق، ومساقُ هذا لبيانِ عاقبته، وأنَّه لم يقعْ بعدُ، فليس ذلك من التكرار المحظور.

---

(١) البيتان في ديوان كعب ص١٨٢، والخبر أخرجه الطبري عن سعيد بن جبير مطولاً ١١/ ١٧٠-١٧١، وعن مجاهد مختصراً ١١/ ١٧٢، وهو في تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٩٧، والنكت والعيون ٢/ ٣١٦، وورد البيتان أيضاً في سيرة ابن هشام ٢/ ١٣٤ برواية «نصيَّةٌ» بدل «عصابةٌ»، والنصية: الخيار من القوم. ووقع في الأصل و(م): وسطهم، وهو تصحيف.

(٢) الصمَّان: قال في اللسان (صمم): أرض لبني حنظلة، وقال الأزهري: إذا أخصبت الصمَّان رتعت العرب جميعاً. تهذيب اللغة ١٢/ ١٢٩.

و قيل في دفعه أيضاً: المرادُ من الأول الإنفاق في بدرٍ، و«ينفقون» لحكاية الحالِ الماضية، وهو خبر «إن»، ومن الثاني الإنفاقُ في أحُدٍ، والاستقبالُ على حاله، والجملةُ عطفٌ على الخبر، لكن لمَّا كان إنفاقُ الطائفة الأولى سبباً لإنفاق الثانية، أتى بالفاء لابتنائه عليه.

وذهب القطبُ إلى هذا الإعراب أيضاً على تقديرِ دفع التكرار باختلاف الغرضين، وذَكر أنَّ الحاصلَ أنَّا لو حملنا «ينفقون» على الحال فلابدَّ من تغايُرِ الإنفاقين، وإن حملناه على الاستقبال اتَّحدا، كأنه قيل: إنَّ الذين كفروا يُريدون أن ينفقوا أموالَهم، فسينفقوها.

وحَمْلُ المنفَق في الأول على البعضِ وفي الثاني على الكلِّ لا أراه إلا كما ترى.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ عطفٌ على ما قبلَه، والتراخي زمانيٌّ، والحسرةُ: النَّدَمُ والتأسُّفُ، وفعلُه: حَسِرَ كفَرِحَ، أي: ثم تكونُ عليهم ندماً وتأسُّفاً؛ لفَواتها من غيرِ حصولِ المطلوب.

وهذا في بدرٍ ظاهرٌ، وأما في أُحُد فلأنَّ المقصودَ لهم لم ينتجْ[1] بعدَ ذلك، فكان كالفائت.

وضميرُ «تكون» للأموالِ، على معنى: تكون عاقبتُها عليهم حسرةً، فالكلامُ على تقديرِ مضافَيْن، أو ارتكابِ تجوُّزٍ في الإسناد.

وقال العلامة الثاني: إنَّه من قبيلِ الاستعارة في المركَّب، حيث شُبِّه كونُ عاقبةِ إنفاقهم حسرةً بكونِ ذاتِ الأموال كذلك، وأُطلِق المشبَّه به على المشبَّهِ. وفيه خفاء.

ومن الناس مَن قال: إنَّ إطلاقَ الحسرة بطريق التجوُّز على الإنفاق مبالغةٌ، فافهم.

﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ أي: في مواطنَ أُخَر بعد ذلك.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الذين أصرُّوا على الكفر مِن هؤلاء ولم يُسلموا ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: يُساقُون، لا إلى غيرها.

---

(١) في حاشية الشهاب ٤/ ٢٧٤ (والكلام منه): لم يتح.

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي: الكافرَ من المؤمنِ، أو الفساد من الصلاح، واللامُ على الوجهين متعلِّقةٌ بـ «يحشَرُون».

وقد يُراد مِن «الخبيث» ما أنفقَه المشركون لعداوةِ رسول الله ﷺ، و«الطيب» ما أنفقه المسلمون لنُصرته عليه الصلاة والسلام، فاللامُ متعلِّقةٌ بـ «تكون عليهم حسرةٌ» دون «يحشرون»؛ إذ لا معنى لتعليلِ حشرِهم بتمييزِ المال الخبيثِ من الطيِّب.

ولم تتعلَّق بـ «تكون» على الوجهين الأوَّلَيْنِ؛ إذ لا معنى لتعليلِ كونِ أموالِهم عليهم حسرةً بتمييز الكفَّار من المؤمنين، أو الفسادِ من الصلاح.

وقرأ حمزة والكسائيُّ ويعقوب: «ليميِّز» من التمييز[1]، وهو أبلغُ من المَيْز، لزيادة حروفه، وجاء من هذا: ميَّزْتُه فتميَّز، ومن الأول: مِزْتُه فانْمَازَ. وقرئ شاذًّا: «وانمازوا اليوم أيها المجرمون» [يس:٥٩][2].

﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ أي: يضمّ بعضَه إلى بعض ويجمعه، من قولهم: سحابٌ مركومٌ، ويوصف به الرملُ والجيشُ أيضاً، والمرادُ بـ «الخبيث» إمَّا الكافرُ، فيكونُ المرادُ بذلك فرطُ ازدحامهم في الحشر، وإما الفسادُ فالمراد أنه سبحانه يضمُّ كلَّ صنفٍ بعضَه إلى بعض ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ كلَّه، وجَعْلُ الفساد فيها بجَعْلِ أصحابِه فيها، وإمَّا المالُ المنفَقُ في عداوةِ الرسولِ ﷺ، وجَعْلُه في جهنَّم لتُكْوَى به جباهُهم وجنوبُهم.

وقد يراد به ما يعمُّ الكافرَ وذلك المالَ، على معنى أنه يُضَمُّ إلى الكافر الخبيثِ مالُه الخبيثُ ليَزِيدَ به عذابُه، ويضُمُّ إلى حسرةِ الدنيا حسرة الآخرة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى «الخبيث»، والجمْعُ لأنه مقدَّر بالفريق الخبيث، أو إلى المنفِقين الذين بقوا على الكفر، فوجْهُ الجمع ظاهرٌ. وما فيه من معنى البُعْد على الوجهين للإيذان ببُعْدِ درجتهم في الخُبْث.

---

(١) التيسير ص٩٢، والنشر ٢/ ٢٤٤، وهي قراءة خلف.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٦، والبحر ٤/ ٤٩٤، والدر المصون ٥/ ٦٠٣. ووقع في الأصل و(م): «فانمازوا» بالفاء، والمثبت من المصادر.

﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٣٧﴾ أي: الكاملون في الخسران، لأنَّهم خَسِروا أنفسَهم وأموالَهم.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: المعهودين وهم أبو سفيان وأصحابُه، واللام عندَ جمعٍ للتعليل، أي: قُل لأجلهم: ﴿إِن يَنتَهُوا۟﴾ عمَّا هم فيه مِن مُعاداةِ الرسولِ ﷺ بالدخول في الإسلام ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ منهم من الذنوب التي مِن جملتها المعاداةُ والإنفاقُ في الضلال.

وقال أبو حيان[1]: الظاهرُ أنَّ اللامَ للتبليغ، وأنه عليه الصلاة والسلام أُمِرَ أن يقولَ هذا المعنى الذي تضمَّنتْه ألفاظُ هذه الجملة المحكية بالقول، سواء قاله بهذه العبارة أم غيرِها.

وهذا الخلافُ إنما هو على قراءة الجماعة، وأما على قراءة ابن مسعود: «إن تَنتهوا يُغْفَر لكم» بالخطابِ[2]، فلا خلافَ في أنَّها للتبليغ على معنى خطابهم بذلك.

وقرئ: «يَغْفِر لهم»[3] على أنَّ الضميرَ لله عز وجل.

﴿وَإِن يَعُودُوا۟﴾ إلى قتالِه ﷺ، أو إلى المعاداة، على معنى: إن داوَمُوا عليها ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾ أي: عادةُ الله تعالى الجاريةُ على[4] الذين تحزَّبوا على الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام، مِن نصْرِ المؤمنين عليهم، وخِذْلانِهم وتدميرِهم. وأضيفت السنَّةُ إليهم لِمَا بينهما من الملابسة الظاهرة، ونظيرُ ذلك قولُه سبحانه: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا﴾ [الإسراء: ٧٧]، فأضافَ السنَّةَ إلى المرسلين - مع أنَّها سنتُه تعالى؛ لقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧] - باعتبار جَرَيانها على أيديهم.

---

(١) في البحر المحيط ٤/ ٤٩٤.

(٢) القراءات الشاذة ص٥١، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٢٧.

(٣) الكشاف ٢/ ١٥٧، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٤/ ٢٥٧، والبحر ٤/ ٤٩٤، والدر المصون ٥/ ٦٠٦. وتصحفت «يغفر» في الأصل و(م) إلى: نغفر.

(٤) في (م): في.

ويدخل في «الأولين» الذين حاقَ بهم مكرُهم يومَ بدرٍ، وبعضُهم فسَّره بذلك، ولعل الأوَّل أولى؛ لعمومه، ولأنَّ السنَّة تقتضي التكرُّرَ في العرف، وإن قالوا: العادةُ تثبُتُ بمرَّةٍ.

والجملة ـ على ما في «البحر» ـ دليلُ الجواب، والتقديرُ: إن يعودوا انتقمْنا منهم، أو نَصَرْنا المؤمنين عليهم، فقد مضت سنة الأولين(١).

وذَهَب غيرُ واحدٍ إلى أنَّ المراد بـ «الذين كفروا» الكُفَّار مطلقاً. والآية حثٌّ على الإيمان وترغيبٌ فيه، والمعنى أنَّ الكفَّارَ إن انتهَوا عن الكفر وأسلَمُوا غُفر لهم ما سلف منهم مِن الكفر والمعاصي، وخَرجوا منها كما تنسلُّ الشعرةُ من العجين، وإن عادوا إلى الكفر بالارتداد فقد رجع التسليطُ والقهرُ عليهم.

واستُدِلَّ بالآية على أنَّ الإسلام يجبُّ ما قبله، وأنَّ الكافر إذا أسلم لا يخاطَبُ بقضاءِ ما فاته من صلاةٍ، أو زكاةٍ، أو صومٍ، أو إتلافِ مالٍ أو نفسٍ، وأجرى المالكيةُ ذلك كلَّه في المرتدِّ إذا تاب؛ لعموم الآية، واستدلوا بها على إسقاطِ ما على الذميِّ من جزيةٍ وجبت عليه قبل إسلامه، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن وهب عن مالك قال: لا يؤاخَذُ الكافرُ بشيءٍ صنعه في كفره إذا أسلم، وذلك لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿إِن يَنتَهُوا﴾ إلخ(٢).

وقال بعضٌ: إن الحربيَّ إذا أسلم لم تَبْق عليه تبعةٌ أصلاً، وأمَّا الذميُّ فلا يلزمه قضاءُ حقوق الله تعالى، وتلزمه حقوقُ العباد.

ونُسب إلى الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أنَّ مذهَبَه في المرتدِّ كمذهب المالكية في أنه إذا رجع إلى الإسلام لم تبقَ عليه تبعةٌ، وهو كالصريح في أنَّ من عصى طول العمر ثم ارتدَّ ثم أسلم لم يَبْقَ عليه ذنبٌ. ونسب بعضُهم قولَ ذلك إليه رضي الله عنه صريحاً، وادَّعى أنه احتجَّ عليه بالآية، وأنه في غاية الضَّعف؛ إذ المرادُ بالكفر المشار إليه في الآية هو الكفرُ الأصلي، و«ما سلف»: ما مضى في حالِ الكفر.

وتعقَّب ذلك بأنَّ أبا حنيفة ومالكاً أبْقيَا الآيةَ على عمومها؛ لحديثِ «الإسلام

---

(١) البحر المحيط: ٤/ ٤٩٤.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٧٠٠، وينظر تفسير القرطبي ٩/ ٥٠٠-٥٠٣.

يهدم ما كان قبله»[١]، وأنَّهما قالا: إنَّ المرتدَّ يلزمه حقوقُ الآدميين دونَ حقوقِ الله تعالى كما في كتاب «أحكام القرآن» لابن عبد الحق. وخالفهما الشافعيُّ رضي الله عنه وقال: يلزمه جميعُ الحقوق.

وأنا أقول: ما ذكره ذلك البعضُ عن أبي حنيفة في العاصي المذكورِ في غاية الغرابة، وفي كتب الأصحاب ما يخالفه، ففي «الخانية»: إذا كان على المرتدِّ قضاءُ صلواتٍ أو صياماتٍ تَرَكَها في الإسلام ثم أسلم، قال شمسُ الأئمة الحلواني: عليه قضاءُ ما ترك في الإسلام؛ لأنَّ تَرْكَ الصلاةِ والصيام معصيةٌ تبقى بعدَ الردَّةِ. نعم ذَكَر قاضيخان فيها ما يدلُّ على أنَّ بعضَ الأشياء يسقُط عن هذا المرتدِّ إذا عاد إلى الإسلام.

وأطال الكلامَ في المرتدِّ، ولا بأسَ بنقل شيء مما له تعلُّقٌ في هذا المبحث؛ إذ لا يخلو عن فائدةٍ، وذلك أنه قال: مسلمٌ أصاب مالاً، أو شيئاً يجب به القصاصُ أو حدُّ قذفٍ، ثم ارتدَّ، أو أصاب ذلك وهو مرتدٌّ في دار الإسلام، ثم لَحِقَ بدار الحرب وحارب المسلمين زماناً، ثم جاء مسلماً، فهو مأخوذٌ بجميع ذلك، ولو أصاب ذلك بعدَما لحِق بدارِ الحربِ مرتدًّا وأسلم فذلك كلُّه موضوعٌ عنه. وما أصاب المسلمُ مِن حدود الله تعالى كالزنا، والسرقةِ، وقطْعِ الطريق، ثم ارتدَّ، أو أصابَ ذلك بعدَ الردَّةِ، ثم لَحِقَ بدار الحرب، ثم جاء مسلماً، فكلُّ ذلك يكونُ موضوعاً عنه، إلا أنَّه يضمَنُ المالَ في السرقة، وإذا أصاب دماً في الطريق كان عليه القصاصُ. وما أصاب في قَطْع الطريق مِن القتل خطأً ففيه الديةُ على عاقلتِه إن أصابه قبلَ الردَّةِ، وفي ماله إنْ أصابه بعدها. وإن وجب على المسلم حدُّ الشرب، ثم ارتدَّ، ثم أسلم قبلَ اللحوقِ بدار الحرب، فإنَّه لا يؤاخَذُ بذلك؛ لأنَّ الكفر يمنع وجوبَ الحدِّ ابتداءً، فإذا اعترَضَ مَنَعَ البقاءَ[٢]، وإن أصاب المرتدُّ ذلك وهو محبوسٌ لا يؤاخَذُ بحدِّ الخمر والسُّكر، ويؤاخَذُ بما سوى ذلك من حدودِ الله تعالى. ويتمكَّن الإمام من إقامةِ هذا الحدِّ إذا كان في يده، فإن لم يكن في يده حين أصاب ذلك، ثم أسلم قبلَ اللحوق بدار الحرب، فهو موضوعٌ عنه أيضاً. انتهى.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم (١٢١) وسيرد قريباً بتمامه.
(٢) أي: إذا اعترض الكفر بعد الوجوب منع البقاء. البحر الرائق ٥/١٣٨، وعنه نقل المصنف.

ومنه يُعلَم أنَّ قولَهم: المرتدُّ يلزَمُه حقوقُ العباد دونَ حقوقِ الله تعالى ليس على إطلاقه، وتمامُ الكلام في الفروع، وأنت تعلم أنَّ الوجهَ في الآية هو المطابِقُ لمقتضَى المقامِ، وأنَّ المتبادِرَ من الكفر الكفرُ الأصليُّ.

و: «الإسلام يهدِمُ ما كانَ قبلَه» بعضٌ من حديثٍ أخرجه مسلمٌ عن عمرو بن العاص قال: أتيت النبيَّ ﷺ، فقلتُ: ابسط يمينَك لأبايعَك. فبسط يمينَه الشريفةَ، قال: فقبضتُ يدي، فقال عليه الصلاة والسلام: «مالك يا عمرو؟» قلتُ: أردتُ أن أشترِطَ، قال: «تشترِطُ ماذا؟» قلت: أشترِطُ أن يُغْفَرَ لي، قال: «أما علمتَ أنَّ الإسلامَ يهدِمُ ما كان قبلَه، وأنَّ الهجرةَ تهدِمُ ما كان قبلَها، وأنَّ الحجَّ يهدِمُ ما كان قبلَه؟» الحديثَ[١].

والظاهر أنَّ «ما» لا يمكن حملُها في الكلِّ على العموم كما لا يخفى، فلا تغفلْ.

وذكر بعضُهم أنَّ الكافرَ إذا أسلم يلزمه التوبةُ والندمُ على ما سلف مع الإيمان حتى يُغْفَرَ له. وفيه تأمُّلٌ، فتأمَّلْ.

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾ عطفٌ على «قل»، وعُمِّمَ الخطابُ لزيادةِ ترغيب المؤمنين في القتال؛ لتحقيقِ ما يتضمَّنه قولُه سبحانه: (فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ) من الوعيد.

﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: لا يوجَدَ منهم شركٌ كما رُوي عن ابن عباس والحسن[٢].

وقيل: المرادُ: حتى لا يَفْتَتِنَ مؤمنٌ عن دينه.

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ وتضمَحِلَّ الأديانُ الباطلة كلُّها؛ إما بهلاكِ أهلِها جميعاً، أو برُجوعهم عنها خشيةَ القتل، قيل: لم يجئ تأويلُ هذه الآية بعدُ، وسيتحقَّقُ مضمونُها إذا ظهر المهديُّ؛ فإنَّه لا يبقى على ظهرِ الأرض مشركٌ أصلاً على ما رُوي عن أبي عبد الله رضي الله عنه[٣].

(١) سلف تخريجه قريباً.
(٢) تفسير الطبري ١١/١٧٩.
(٣) مجمع البيان ٣/١٤٧.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡا۟﴾ عن الكفرِ بقتالِكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرࣱ ۝٣٩﴾، والجملة قائمةٌ مقامَ الجزاءِ، أي: فيجازيهم على انتهائِهم وإسلامِهم، أو جُعِلَت مجازاً عن الجزاء، أو كنايةً، وإلا فكونُ الله تعالى بصيراً أمرٌ ثابتٌ قبلَ الانتهاء وبعدَه، ليس معلَّقاً على شيءٍ.

وعن يعقوب أنَّه قرأ: «تعملون» بالتاء[1]، على أنه خطابٌ للمسلمين المجاهدين، أي: بما تعملونَ من الجهادِ المُخرِجِ لهم إلى الإسلام.

وتعليقُ الجزاءِ بانتهائهم للدلالة على أنَّهم يثابُون بالسببية كما يثاب المباشِرُون بالمباشرة.

﴿وَإِن تَوَلَّوۡا۟﴾ ولم ينتهوا عن كُفرِهم ﴿فَٱعۡلَمُوۤا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ أي: ناصرُكم، فثِقُوا به، ولا تُبالُوا بمُعاداتهم. ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ لا يضيِّع من تولَّاه ﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾ لا يُغْلب مَن نصره.

* * *

هذا، ومن باب الإشارة في الآيات:

﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ﴾ تأديبٌ منه سبحانه لأهلِ بدرٍ، وهدايةٌ لهم إلى فناءِ الأفعال حيثُ سَلَبَ الفعل عنهم بالكلية، ويُشبِه هذا من وجهٍ قولُه سبحانه: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ والفرقُ أنَّه لمَّا كان النبيُّ ﷺ في مقام البقاء بالحقِّ سبحانه نَسَب إليه الفعلَ بقوله تعالى: ﴿إِذۡ رَمَيۡتَ﴾ مع سَلْبه عنه بـ ﴿وَمَا رَمَيۡتَ﴾، وإثباتِه لله تعالى في حيِّز الاستدراك؛ ليفيدَ معنَى التفصيل في عينِ الجمع، فيكونُ الرامي محمداً عليه الصلاة والسلام بالله تعالى لا بنفسِه، ولعُلُوِّ مقامِه ﷺ وعدمِ كونِهم في ذلك المقام الأرفع نَسَب الله سبحانه إليه ﷺ ما نَسب، ولم يَنْسِب إليهم ﷺ مِن الفعل شيئاً، وهذا أحدُ أسرارِ تغييرِ الأسلوبِ في الجملتَيْن حيثُ لم ينسِبْ في الأولى ونَسَبَ في الثانية.

بقي سرُّ التعبيرِ بالمضارع المنفيِّ بـ «لم» في إحداهما، والماضي المنفيِّ بـ «ما»

---

(١) النشر ٢/ ٢٧٦.

في الأخرى، فارجع إلى فِكْرك، فلعلَّ الله تعالى يفتحه عليك.

﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ أي: ليعطيَهم عطاءً جميلاً وهو توحيدُ الأفعال، والمرادُ بهذا فعلُ ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ بخطراتِ نفوسِكم بنسبة القتل إليكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأنه القاتلُ حقيقةً، وأنَّكم مظهرٌ لفعله.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لاحتجابِهم بأنفسهم.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟﴾ الآية، قيل فيها: أي: تَفْتَحوا أبوابَ قلوبِكم بمفاتيح الصِدْق والإخلاصِ، وتركِ السوى في طلب التجلِّي، ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ بالتجلِّي؛ فإنَّه سبحانه لم يزل متجلِّياً ولا يزال، لكن لا يُدْرِك ذلك إلا من فَتَح قلبَه، ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عن طلب السوى ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لِمَا فيه من الفوز بالمولى، ﴿وَإِن تَعُودُوا۟﴾ إلى طلب الدنيا وزَخارِفها ﴿نَعُدْ﴾ إلى خِذْلانكم، ونكِلكُم إلى أنفسكم، ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ الدنيوية ﴿شَيْـًٔا﴾ مما لخاصَّته سبحانه ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ لأنَّها كسرابٍ بقيعةٍ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ لأنَّ ثمرةَ السماع الفهمُ والتصديقُ، وثمرتُهما الإرادةُ، وثمرتُها الطاعةُ، فلا تصحُّ دعوى السَّماع مع الإعراض، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لكونهم محجوبين عن الفهم.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ﴾ عن السماع، ﴿ٱلْبُكْمُ﴾ عن القَبول، ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لِمَاذا خُلقوا، ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ استعداداً صالحاً ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ سماعَ تفهُّم، ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ مع عدَم علم الخير فيهم ﴿لَتَوَلَّوا۟﴾ ولم يَنْتَفِعوا به وارتدُّوا سريعاً؛ إذ شأنُ العارضِ الزوالُ، ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ بالذات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بالتصفية ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وهو العلمُ بالله تعالى.

وقد يقال: استجيبوا لله تعالى بالباطنِ والأعمالِ القلبية، وللرسولِ بالظاهر وبالأعمال النفسية.

أو: استجيبوا لله تعالى بالفناء في الجمع، وللرسول عليه الصلاة والسلام بمراعاةِ حقوقِ التفصيل إذا دعاكم لِمَا يحييكم من البقاء.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ فيزول الاستعدادُ، فانتهزوا الفرصةَ ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيُجازِيكم على حسب مراتبِكم.

﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ بل تشمَلُهم وغيرَهم بشُؤْم الصحبة.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ من حيثُ القدرُ؛ لجهلكم ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ في أرض النفس ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: ناسُ القُوى الحسِّيَّةِ لضَعفِ نفوسكم ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ إلى مدينة العلم ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ في مقام توحيد الأفعال ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: علومِ تجلياتِ الصفات ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ذلك.

وقد يقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾ أيها الأرواح والقلوبُ إذ كنتم قليلاً ليس معكم غيرُكم؛ إذ لم يَنْشأ لكم بعدُ الصفاتُ والأخلاقُ الروحانيةُ، ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ في أرض البدن، ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ من النفس وأعوانِها، ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ إلى حظائر قُدسه ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ بالوارداتِ الربَّانية ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وهي تجلِّياتُه سبحانه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ بترك الإيمان ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ بترك التخلُّقِ بأخلاقِه عليه الصلاة والسلامُ ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ وهي ما رزقكم الله تعالى من القُدْرَةِ وسلامةِ الآلات بترك الأعمال الحَسَنةِ.

أو: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ بنقْضِ ميثاق التوحيدِ الفطريِّ السابقِ ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ عليه الصلاة والسلام بنقضِ العزيمةِ ونبذِ العقْد اللاحقِ ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ من المعارفِ والحقائقِ التي استودعَ الله تعالى فيكم حسبَ استعدادكم بإخفائها بصفاتِ النفس ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قبحَ ذلك، أو: تعلمون أنَّكم حاملوها.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ يختبِرُكم الله تعالى بها ليَرى أتحتجِبُون بمحبَّتها عن محبته أوْ لا تحتجبون ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن لا يفتَتِن بذلك، ولا يشغلُه عن محبته.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بالاجتناب عن الخِيانة، والاحتجابِ بمحبَّة الأموالِ والأولادِ ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ نوراً تفرِقون به بين الحقِّ والباطل.

وربَّما يقال: إنَّ ذلك إشارةٌ إلى نورٍ يفرقُون به بين الأشياء بأن يعرفوها بواسطتِه معرفةً يمتازُ بها بعضُها عن بعضٍ، وهو المسمَّى عندهم بالفَراسة؛ وفي بعض الآثار: «اتقوا فراسةَ المؤمن؛ فإنَّه ينظر بنورٍ من نورِ الله تعالى»(١).

﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ وهي صفاتُ نفوسِكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبَ ذواتِكم ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فيجعلُ لكم الفرقانَ ويفْعَل ويفْعَل.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآيةَ، جعَلها بعضُهم خطاباً للنبيِّ ﷺ، ومعناها ما ذكرناه سابقاً، وجَعَلها بعضُهم خطاباً للروح، وهو تأويلٌ أنفسيٌّ، أي: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ أيها الروحُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهي النفسُ وقُواها ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ليقيِّدوك في أسرِ الطبيعة ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بانعدامِ آثارِكِ ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من عالَمِ الأرواح.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ لأنَّك الرحمة للعالمين ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾؛ إذ لا ذنبَ مع الاستغفار، ولا عذابَ من غيرِ ذنبٍ.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: إنَّهم مستحِقُّون لذلك، كيف لا ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ المستعدِّين ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الذي هو القلبُ بإغرائهم على الأمورِ النفسانيةِ واللذَّاتِ الطبيعية؟ ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ لغلبةِ صفاتِ أنفُسِهم عليهم ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ تلك الصفاتِ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك الحكمَ.

وقال النيسابوريُّ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: المتقين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّهم أولياؤه؛ لأنَّ الوليَّ قد لا يعرفُ أنه وليٌّ(٢).

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾ وهو ذلك المسجدُ ﴿إِلَّا مُكَآءً﴾إلا وساوسَ وخطراتٍ شيطانيةً، ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ وعزماً على الأفعالِ الشنيعةِ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ من الاستعداد الفطريِّ في غيرِ مرضاةِ الله

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٢٧) عن أبي سعيدٍ الخدري ﷺ مرفوعاً، وقال: هذا حديثٌ غريب.
(٢) غرائب القرآن ٩/ ١٥٣.

تعالى ﴿لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طريقِه الموصلِ إليه، ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ لزوال لذَّاتِهم حتى تكونَ نسْياً منْسيًّا ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ لتمكُّنِ الأخلاقِ الذميمةِ فيهم، فلا يستطيعون العدولَ عنها، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: وهم، إلا أنَّه أقيم الظاهرُ مقامَ المضمر تعليلاً للحكم الذي تضمَّنه قولُه سبحانه: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ وهي جهنَّمُ القطعية.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ﴾ عما هم عليه ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ لمزيدِ الفضْلِ.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾ أي: قاتلوا أيها المؤمنون كفَّارَ النفوسِ؛ فإنَّ جهادَها هو الجهادُ الأكبرُ ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ مانعةٌ عن الوصولِ إلى الحقِّ ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ ويضمحِلّ دينُ النفس الذي شرعَتْه، ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازِيهم على ذلك، والله تعالى الموفِّقُ لأوضَح المسالك، لا ربَّ غيرُه، ولا يُرجى إلا خيرُه.

❋ ❋ ❋

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ روي عن الكلبيِّ أنها نزلت في بدرٍ، وهو الذي يقتضيه كلامُ الجمهور، وقال الواقديُّ: كان الخمسُ في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهرٍ وثلاثةِ أيام، للنصف من شوال، على رأس عشرين شهراً من الهجرة[١].

و«ما» موصولةٌ، والعائد محذوف، وكان حقُّها أن تكون مفصولةً، وجَعْلُها شرطيةً خلافُ الظاهر، وكذا جعلُها مصدريةً.

وغَنِمَ في الأصل من الغُنْم بمعنى الربح، وجاء غَنِمَ غنْماً بالضمِّ وبالفتح وبالتحريك، وغنيمة وغُنْماناً بالضم. وفي القاموس[٢]: المَغْنَم والغَنيمُ والغَنيمَة والغُنْم بالضمِّ: الفيء.

والمشهورُ تغايرُ الغنيمة والفيء، وقيل: اسمُ الفيء يشملُهما؛ لأنَّها راجعةٌ إلينا

(١) الكشاف ٢/ ١٥٩.

(٢) مادة (غنم)؛ وما قبله منه.

ولا عَكْسَ، فهي أخصُّ. وقيل: هما كالفقير والمسكين.

وفسَّروها بما أُخذ من الكفار قهراً بقتالٍ أو إيجاف، فما أُخذ اختلاساً لا يسمَّى غنيمةً وليس له حكمُها، فإذا دخل الواحدُ أو الاثنان دارَ الحرب مُغِيْرين بغير إذن الإمام فأخذوا شيئاً، لم يخمَّس. وفي الدخول بإذنه روايتان، والمشهورُ أنَّه يخمَّس؛ لأنَّه لما أذن لهم، فقد التزم نصرتَهم بالإمداد، فصاروا كالمنعة، وحكي عن الشافعيِّ رضي الله عنه في المسألة الأولى التخميسُ وإن لم يسمَّ ذلك غنيمةً عنده؛ لإلحاقه بها.

وقوله سبحانه: ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ بيانٌ للموصول محلُّه النصب على أنَّه حال من عائده المحذوفِ، قصد به الاعتناء بشأنِ الغنيمة وأنْ لا يشذَّ عنها شيء، أي: ما غنمتموه كائناً مما يقع عليه اسم الشيء حتى الخيط والمخيط، خلا أن سَلَبَ المقتول لقاتله إذا نفلَه الإمام. وقال الشافعية: السَّلَبُ للقاتل ولو نحوَ صبيٍّ وقنٍّ وإن لم يشترط له، وإن كان المقتول نحوَ قريبه وإن لم يقاتل، أو نحوَ امرأةٍ أو صبيٍّ إن قاتلا ولو أعرض عنه؛ للخبر المتفق عليه: «مَن قَتلَ قتيلاً فلَهُ سَلَبُه»[1] نعم القاتل المسلم القنُّ لذميٍّ لا يستحقُّه عندهم وإن خرج بإذن الإمام.

وأجاب أصحابُنا بأن السَّلَب مأخوذ بقوة الجيش، فيكون غنيمةً، فيُقسم قسمتَها، وقد قال ﷺ لحبيبِ بن أبي سلمةَ[2]: «ليس لك من سَلَبِ قتيلكَ إلَّا ما طابتْ به نفسُ إمامك»[3] وما رَوَوْه يحتملُ نصبَ الشرع، ويحتملُ التنفيلَ، فيُحمل على الثاني لما رويناه. والأسارى يخيَّر فيهم الإمام وكذا الأرضُ المغنومة عندنا، وتفصيلُه في الفقه.

---

(١) صحيح البخاري (٣١٤٢)، وصحيح مسلم (١٧٥١) وسلف ١/ ٣٤٢.

(٢) كذا نقل المصنف عن الهداية، وصوابه: حبيب بن مسلمة، والخطاب فيه من معاذ بن جبل لحبيب لا من الرسول ﷺ. ينظر نصب الراية ٣/ ٤٣٠، والدراية ٢/ ١٢٨. وينظر كذلك التعليق الذي بعده.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٥٣٣)، والأوسط (٦٧٣٩) وفيه: فقال معاذ: يا حبيب، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما للمرء ما طابت به نفس إمامه». قال الزيلعي في نصب الراية ٣/ ٤٣١: وهو معلول بعمرو بن واقد. اهـ. وذكر له البيهقي في معرفة السنن والآثار ٩/ ٨ إسناداً آخر عن معاذ، ثم قال: ولا حجة في هذا الإسناد.

والمصدرُ المؤوَّل من «أنَّ» المفتوحةِ مع ما في حيِّزها في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ، أي: فحقٌّ أو واجبٌ أنَّ لله خُمُسَه، وقُدِّر مقدّماً؛ لأن المطَّرد في خبرها إذا ذُكر تقديمُه؛ لئلا يتوهَّم أنَّها مكسورة، فأجري على المعتاد فيه. ومنهم مَن أعربه خبر مبتدأ محذوف، أي: فالحكمُ أنَّ، إلخ.

والجملة خبرٌ لـ «أنَّ» الأولى، والفاء لما في الموصول من معنى المجازاة، وقيل: إنَّها صلةٌ، و«أنَّ» بدل من «أنَّ» الأولى.

وروى الجعفيُّ عن أبي عمرو: «فإنَّ» بالكسر، ويقوِّيه قراءةُ النخعيِّ: «فلله خُمُسُه»[1]. ورُجِّحت المشهورةُ بأنها آكَدُ؛ لدلالتها على إثبات الخُمسِ، وأنه لا سبيلَ إلى تركه[2] مع احتمال الخبرِ لتقديراتٍ كـ: لازم وحقّ وواجب ونحوِه، وتعقَّبه صاحبُ «التقريب» بأنه معارَض بلزوم الإجمال.

وأجيب بأنه إنْ أريدَ بالإجمال ما يحتمل الوجوبَ والندبَ والإباحةَ، فالمقام يأبى إلَّا الوجوبَ، وإن أريدَ ما ذكر من لازمٍ وحقٍّ وواجبٍ، فالتعميمُ يوجب التفخيمَ والتهويلَ.

وقرئ: «خُمْسَه» بسكون الميم[3].

والجمهور على أنَّ ذكرَ الله تعالى لتعظيم الرسول عليه الصَّلاة والسلام كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] أو لبيانِ أنَّه لا بدَّ في الخمسية من إخلاصها له سبحانه، وأنَّ المراد قسمةُ الخمس على مَن[4] ذكر في قوله تعالى: ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قيل: ويكون قوله تعالى: (وَلِلرَّسُولِ) معطوفاً على «لله» على التعليل الأول، وبتقدير مبتدأ، أي: وهو ـ أي: الخمس ـ للرسول. . إلخ، على التعليل الثاني.

وإعادةُ اللام في «ذي القربى» دون غيرِهم من الأصناف الباقية؛ لدفع توهُّم

---

(١) القراءتان في القراءات الشاذة ص ٤٩، والبحر ٤/ ٤٩٩.
(٢) في (م): لتركه.
(٣) الكشاف ٢/ ١٥٨، والبحر ٤/ ٤٩٩.
(٤) في (م): ما.

اشتراكهم في سهم النبيِّ ﷺ؛ لمزيد اتصالهم به عليه الصلاة والسلام، وأريد بهم بنو هاشم وبنو المطلب المسلمون؛ لأنه ﷺ وضع سهمَ ذوي القربى فيهم دونَ بني أخيهما شقيقهما عبد شمس، وأخيهما لأبيهما نوفل، مجيباً عن ذلك حين قال له عثمان وجبيرُ بن مطعم: هؤلاء إخوتك بنو هاشم لا يُنكَر فضلُهم لمكانك الذي جعلك الله تعالى منهم، أرأيتَ إخواننا من بني المطلب[1] أعطيتَهم وحرْمتَنا، وإنما نحن وهم بمنزلةٍ [واحدة]: «نحن وبنو المطلب شيءٌ واحدٌ» وشبَّك بين أصابعه. رواه البخاريُّ[2]، أي: لم يفارقوا بني هاشم في نصرته ﷺ جاهليةً ولا إسلاماً.

وكيفية القسمة عند الأصحاب أنَّها كانت على عهد رسول الله ﷺ على خمسةِ أسهم؛ سهمٍ له عليه الصَّلاة والسلام، وسهمٍ للمذكورين من ذوي القُربى، وثلاثةِ أسهم للأصناف الثلاثة الباقية. وأما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، فسقط سهمُه ﷺ، كما سقط الصفيُّ - وهو ما كان يصطفيه لنفسه من الغنيمة؛ مثل درعٍ وسيفٍ وجاريةٍ - بموته ﷺ؛ لأنَّه كان يستحقُّه برسالتِهِ، ولا رسولَ بعدَه ﷺ، وكذا سقط سهمُ ذوي القربى، وإنما يُعطَون بالفقر، وتُقدَّمُ فقراؤهم على فقراءِ غيرِهم، ولا حقَّ لأغنيائهم؛ لأنَّ الخلفاءَ الأربعةَ الراشدين قَسَموه كذلك، وكفى بهم قدوةً.

وروي عن أبي بكر رضي الله عنه أنَّه منع بني هاشم الخمسَ، وقال: إنَّما لكم أن يُعطى فقيرُكم، ويزوَّجَ أيِّمُكم، ويخدمَ من[3] لا خادم له منكم، فأما الغنيُّ منكم فهو بمنزلة ابنِ السبيل الغنيِّ[4] لا يُعطى من الصدقة شيئاً، ولا يتيمٌ موسر.

وعن زيد بن علي كذلك، قال: ليس لنا أن نبني منه القصورَ، ولا أن نركبَ منه البراذين.

ولأنَّ النبيَّ ﷺ إنَّما أعطاهم للنُّصْرة لا للقرابةِ كما يشير إليه جوابه لعثمان

---

(١) في الأصل و(م): بني عبد المطلب، والمثبت هو الصواب.

(٢) في صحيحه (٣١٤٠) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه، وهو عند أحمد (١٦٧٤١)، وما بين حاصرتين منهما. وليس عندهما: وشبك بين أصابعه، وقد وردت هذه الزيادة في رواية الحديث عند أبي داود (٢٩٨٠)، والنسائي في المجتبى ٧/ ١٣٠ - ١٣١.

(٣) في الأصل و(م): ما، والمثبت من الكشاف ٢/ ١٥٩، والبحر ٤/ ٤٩٨، وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٢.

(٤) في الأصل و(م): غني، والمثبت من البحر وتفسير أبي السعود، وفي الكشاف: ابن سبيل غني.

وجبير رضي الله عنهما[١]، وهو يدلُّ على أنَّ المراد بالقُربى في النصِّ قربُ النُّصْرة لا قربُ القرابة، وحيث انتهت النصرةُ انتهى الإعطاء؛ لأنَّ الحُكم ينتهي بانتهاءِ علَّتِه.

واليتيمُ صغيرٌ لا أبَ له؛ فيدخل فقراءُ اليتامى من ذوي القُربى في سهم اليتامى المذكورين دون أغنيائهم، والمسكينُ منهم في سهم المساكين.

وفائدةُ ذكر اليتيم مع كون استحقاقِهِ بالفقر والمسكنةِ لا باليُتم[٢]: دفعُ توهُّم أنَّ اليتيمَ لا يستحقُّ من الغنيمة شيئاً لأنَّ استحقاقها بالجهاد، واليتيمُ صغيرٌ فلا يستحقُّها.

وفي «التأويلات»[٣] لعَلَم الهدى الشيخ أبي منصور: أنَّ ذوي القربى إنَّما يستحقُّون بالفقر أيضاً، وفائدةُ ذِكْرِهم دفعُ ما يتوهم أنَّ الفقير منهم لا يستحقُّ؛ لأنَّه من قبيل الصدقة ولا تحلُّ لهم.

وفي «الحاوي القدسي»: وعن أبي يوسف: أنَّ الخمس يُصرف لذوي القُرْبى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وبه نأخذ. انتهى. وهو يقتضي أن الفتوى على الصرف إلى ذوي القربى الأغنياء، فليحفظ.

وفي «التحفة»[٤] أنَّ هذه الثلاثةَ مصارفُ الخمس عندنا لا على سبيل الاستحقاق، حتى لو صُرف إلى صنفٍ واحدٍ منهم جاز، كما في الصدقات. كذا في «فتح القدير»[٥].

ومذهبُ الإمام مالك أنَّ الخمس لا يلزمُ تخميسُه، وأنه مفوَّضٌ إلى رأي الإمام، كما يُشعر به كلامُ خليل[٦]؛ وبه صرَّح ابنُ الحاجب فقال: ولا يخمّس

---

(١) وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام» وهذه قطعة من حديث جبير بن مطعم السالف وردت في رواية الحديث عند أحمد والنسائي. وينظر حاشية الشهاب ٤/ ٢٧٦.

(٢) في (م): باليتيم، وهو تصحيف.

(٣) ٢/ ٣٥٢.

(٤) تحفة الفقهاء ٣/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٥) لابن الهمام ٤/ ٣٢٨.

(٦) ابن إسحاق بن موسى المالكي، المعروف بالجُنْدي، الملقب ضياء الدين، الفقيه الحافظ، =

لزوماً، بل يصرف منه لآلِه عليه الصلاة والسلام بالاجتهاد ومصالح المسلمين، ويُبْدَؤون استحباباً ـ كما نقل التتائيُّ[1] عن البساطيِّ[2] ـ بالصَّرف على غيرهم، وذكر أنَّهم بنو هاشم، وأنهم يوفَّر نصيبُهم لمنعهم من الزكاة حَسْبَما يرى من قلَّةِ المال وكثرتِه، وكان عمرُ بنُ عبد العزيز يخصُّ ولدَ فاطمةَ رضي الله عنها كلَّ عام باثني عشر ألفَ دينار سوى ما يُعطى غيرُهم من ذوي القربى.

وقيل: يُساوى بين الغنيِّ والفقير، وهو فعلُ أبي بكر رضي الله عنه. وكان عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه يعطي حسبَ ما يراه.

وقيل: يخيَّر؛ لأنَّ فِعْلَ كلٍّ من الشيخين حجَّة.

وقال عبد الوهَّاب[3]: إنَّ الإمام يبدأ بنفقتِه ونفقةِ عياله بغير تقدير. وظاهرُ كلام الجمهور أنَّه لا يبدأ بذلك، وبه قال ابنُ عبد الحكم، والمراد بذكر الله سبحانه عندَ هذا الإمام أنَّ الخمسَ يُصرف في وجوه القُرُبات لله تعالى، والمذكورُ بعدُ ليس للتخصيص، بل لتفضيلِه على غيره، ولا يرفع حكم العموم الأوَّل، بل هو قارٌّ على حاله، وذلك كالعموم الثابت للملائكة وإن خصَّ جبريل وميكائيل عليهما السلام بعدُ.

= ألف شرح جامع الأمهات لابن الحاجب وسماه: التوضيح، وله مختصر في المذهب مشهور، قصد فيه إلى بيان المشهور مجرداً عن الخلاف، وجمع فيه فروعاً كثيرة، وأقبل عليه الطلبة ودرسوه واعتنوا بشرحه وحفظه، وله شرح على ألفية ابن مالك، توفي سنة (٧٦٧هـ) وقيل غير ذلك. ينظر الدرر الكامنة ٢/ ٢٠٧، والديباج ١/ ٣٥٧، وشجرة النور الزكية ص ٢٢٣. وينظر كلام خليل في شرح الخرشي على مختصر سيدي خليل ٣/ ١٢٩.

(١) أبو عبد الله، شمس الدين محمد بن إبراهيم التتائي المالكي، الفقيه الفَرَضي، له شرحان على مختصر خليل: فتح الجليل، وجواهر الدرر، وشرح على ابن الحاجب الفرعي، وغير ذلك، توفي سنة (٩٤٢هـ). ينظر شجرة النور الزكية ص٢٧٢، والأعلام ٢/ ٣٠٢.

(٢) في الأصل و(م): السنباطي، والصواب ما أثبتناه. وهو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان البساطي المالكي القاضي، من تصانيفه: المغني في الفقه، وشفاء الغليل في مختصر الشيخ خليل، وشرح الحاجب الفرعي، وحاشية على المواقف للعضد، ومقدمة في أصول الدين، توفي سنة (٨٤٠هـ). إنباء الغمر ٩/ ٨٢، وشذرات الذهب ٩/ ٣٥٦.

(٣) ابن علي بن نصر التغلبي العراقي، أبو محمد القاضي شيخ المالكية، له: التلقين، والمعرفة، وغير ذلك، توفي سنة (٤٢٢هـ). سير أعلام النبلاء ١٧/ ٤٢٩.

ومذهبُ الشافعيِّ في قسمةِ الغنيمة أنْ يقدَّمَ من أصل المال السَّلَبُ، ثم يُخرجَ منه ـ حيث لا متطوِّع ـ مؤنةُ الحفظ والنقل وغيرهما من المؤن اللازمة؛ للحاجة إليها. ثم يخمَّسُ الباقي فيجعلُ خمسةَ أخماسٍ[(١)] متساوية، ويكتبُ على رقعةٍ: لله تعالى، أو: للمصالح، وعلى رقعةٍ: للغانمين، وتدرجُ في بنادقَ، فما خرج لله تعالى، قُسم على خمسٍ:

مصالح المسلمين؛ كالثغور، والمشتغلين بعلومِ الشرع وآلاتها ولو مبتدئين، والأئمةِ، والمؤذِّنين، ولو أغنياءَ[(٢)]، وسائرِ من يشتغل عن نحوِ كسبِه بمصالح المسلمين لعموم نفعهم، وأُلحق بهم العاجزون عن الكسب، والعطاءُ إلى رأي الإمام مُعتبِراً سعةَ المال وضيقَه. وهذا هو السهم الذي كان لرسول الله ﷺ في حياته، وكان ينفقُ منه على نفسِه وعيالِه، ويدَّخر منه مؤنةَ سنةٍ، ويصرفُ الباقي في المصالح.

وهل كان عليه الصلاة والسلام مع هذا التصرُّف مالكاً لذلك أو غيرَ مالك؟ قولان؛ ذهب إلى الثاني الإمامُ الرافعيُّ، وسبقه إليه جمعٌ متقدِّمون، قال: إنه عليه الصلاة والسلام مع تصرُّفه في الخمس المذكور لم يكن يملكه ولا ينتقلُ منه إلى غيره إرثاً.

ورُدَّ بأنَّ الصوابَ المنصوصَ أنه كان يملكه، وقد غلَّط الشيخُ أبو حامد مَن قال: لم يكنْ ﷺ يملك شيئاً وإن أُبيح له ما يحتاج إليه. وقد يؤوَّل كلامُ الرافعيِّ بأنه لم يَنْفِ الملكَ المطلقَ، بل الملكَ المقتضيَ للإرث عنه. ويؤيِّد ذلك اقتضاءُ كلامِهِ في «الخصائص» أنه يملك.

وبنو هاشم والمطلب[(٣)]، والعبرةُ بالانتساب للآباء دونَ الأمهات، ويشتركُ فيه الغنيُّ والفقير ـ لإطلاق الآية، وإعطائه عليه الصلاة والسلام العباسَ وكان غنيّاً[(٤)] ـ والنساءُ، ويفضَّلُ الذَّكر كالإرث.

---

(١) في (م): أقسام.

(٢) قوله: ولو أغنياء، راجع لجميع ما قبله.

(٣) أي: ويُعْطَى بنو هاشم وبنو المطلب السهم الثاني. ينظر نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ٦/١٣٦.

(٤) ينظر حديث أنس ﷺ عند البخاري (٣١٦٥).

واليتامى، ولا يمنع وجود جدٍّ، ويدخل فيهم ولدُ الزنا والمنفيُّ، لا اللقيطُ على الأَوْجَه، ويُشترط فقرُه على المشهور. ولابدَّ في ثبوت اليتم والإسلام والفقرِ هنا من البيِّنة، وكذا في الهاشميِّ والمطلبيِّ، واشترط جمعٌ فيهما معها استفاضةَ النسبةِ.

والمساكين وابن السبيل ولو بقولهم، بلا يمين. نعم يظهر في مدَّعي تلف مالٍ له عُرِفَ أو عيالٍ أنَّه يكلَّف بينةً. ويُشترط الإسلام في الكلِّ، والفقرُ في ابن السبيل أيضاً، وتمامُه في كتبهم.

وتعلَّق أبو العالية بظاهر الآية الكريمةِ، فقال: يُقسم ستةَ أسهمٍ، ويُصرفُ سهمُ الله تعالى لمصالحِ الكعبة، أي: إن كانت قريبةً، وإلا، فإلى مسجد كلِّ بلدةٍ وقع فيها الخمسُ كما قاله ابنُ الهمام[1]. وقد روى أبو داود في «المراسيل» وابنُ جرير عنه: أنَّه عليه الصلاة والسلام كان يأخذُ منه قبضةً فيجعلُها لمصالحِ الكعبة، ثمَّ يقسمُ ما بقي خمسةَ أسهمٍ[2].

ومذهب الإماميَّة أنَّه ينقسم إلى ستة أسهم أيضاً كمذهب أبي العالية، إلا أنَّهم قالوا: إنَّ سهمَ الله تعالى وسهمَ الرسول ﷺ، وسهمَ ذوي القربي للإمام القائمِ مقامَ الرسول عليه الصلاة والسلام، وسهم ليتامى آلِ محمد ﷺ، وسهم لمساكينهم، وسهم لأبناء سبيلهم لا يشركُهم فيه[3] غيرُهم، ورووا ذلك عن زين العابدين ومحمد بن علي الباقر رضي الله عنهما، والظاهرُ أنَّ الأسهم الثلاثةَ الأُوَل التي ذكروها اليوم تخبَّأ في السرداب، إذ القائمُ مقامَ الرسول قد غاب عندهم، فتخبأ له حتى يرجع من غيبتِه.

وقيل: سهمُ الله تعالى لبيت المال. وقيل: هو مضمومٌ لسهم الرسول ﷺ.

هذا ولم يبيِّن سبحانه حالَ الأخماس الأربعة الباقية، وحيثُ بيَّن جلَّ شأنُه حكمَ الخمس ولم يبيِّنها، دلَّ على أنها ملكُ الغانمين. وقسمتُها عند أبي حنيفةَ: للفارس سهمان، وللراجلِ سهْمٌ واحد؛ لِمَا رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنَّ النبيَّ ﷺ فعل

(١) في فتح القدير ٤/ ٣٣٦.
(٢) المراسيل (٣٧٤)، وتفسير الطبري ١١/ ١٨٩ - ١٩٠.
(٣) في (م): في ذلك.

كذلك[١]، والفارسُ في السفينة يستحقُّ سهمين أيضاً وإن لم يمكُنه القتالُ عليها فيها؛ للتأهُّب، والمتأهِّب للشيء كالمباشر كما في «المحيط»، ولا فرقَ بين الفرس المملوكِ والمستأجَرِ والمستعار، وكذا المغصوبُ على تفصيل فيه.

وذهب الشافعيُّ ومالك إلى أنَّ للفارس ثلاثةَ أسهم؛ لما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنَّ النبيَّ ﷺ أسهم للفارس ذلك[٢]. وهو قولُ الإمامين.

وأجيب بأنَّه قد روي عن ابن عمرَ أيضاً، أنَّ النبيَّ ﷺ قَسَم للفارس سهمين[٣]. فإذا تعارضت روايتاه، تُرجَّح رواية غيره بسلامتِها عن المعارضة فيعمل بها، وهذه الروايةُ روايةُ ابن عباس رضي الله عنهما.

وفي «الهداية»[٤] أنَّه عليه الصلاة والسلام تَعَارَضَ فِعْلاهُ في الفارس فنرجعُ إلى قوله عليه الصلاة والسلام، وقد قال ﷺ: «للفارسِ سهمان وللرَّاجل سهم»[٥].

وتعقَّبه في «العناية»[٦] بأنَّ طريقة استدلاله مخالفةٌ لقواعدِ الأصول، فإنَّ الأصلَ أن الدليلين إذا تعارضا وتعذَّر التوفيقُ والترجيح، يُصار إلى ما بعدَه لا إلى ما قبلَه،

---

(١) قال الحافظ في «الدراية» ٢/ ١٢٣: لم أجده. وقال الزيلعي في نصب الراية ٣/ ٤١٦: غريب من حديث ابن عباس، وفي الباب أحاديث. . ثم ذكر من هذه الأحاديث حديث مجمع بن جارية عند أبي داود (٢٧٣٦)، وأحمد (١٥٤٧٠)، وحديث المقداد بن عمرو عند الطبراني في الكبير ٢٠/ (٦١٤)، وحديث الزبير في مغازي الواقدي، وحديث عائشة في تفسير ابن مردويه، ولا يخلو كل منها من مقال.

(٢) أخرجه أحمد (٤٤٢٨)، والبخاري (٢٨٦٣)، ومسلم (١٧٦٢) عن ابن عمر قال: قسم رسول الله ﷺ يوم خيبر للفرس سهمين وللرجل سهماً.

(٣) أخرجه الدارقطني (٤١٨٠) ونقل عن شيخه أبي بكر النيسابوري توهيم بعض رواته وترجيح الرواية التي في الصحيحين. وقال الحافظ في الفتح ٦/ ٦٨: لا وهم؛ لأن المعنى: أسهم للفارس بسبب فرسه سهمين غيرَ سهمه المختصِّ به.

(٤) الهداية مع فتح القدير ٤/ ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٥) قال الحافظ في «الدراية» ٢/ ١٢٣: لم أجده من قوله ﷺ. وقال الزيلعي في نصب الراية ٣/ ٤١٧: غريب جدًّا، وأخطأ من نسبه لابن أبي شيبة، وسيأتي لفظه في الذي بعد هذا. ثم ذكر حديث ابن عمر عند الدارقطني: أن رسول الله ﷺ جعل للفارس سهمين وللراجل سهماً. وقد سلف الكلام عليه قريباً.

(٦) العناية للبابرتي على هامش فتح القدير ٤/ ٣٢١.

وهو قال: فتعارض فعلاه، فنرجعُ إلى قوله. والمسلك المعهودُ في مثله أن نستدلَّ بقوله، ونقول: فعلُه لا يعارضُ قولَه؛ لأن القولَ أقوى بالاتفاق.

وذهب الإمام إلى أنَّه لا يسهم إلا لفرسٍ واحد، وعند أبي يوسف يُسهم لفرسين، وما يستدلُّ به على ذلك محمولٌ على التنفيل عند الإمام كما أعطى عليه الصلاة والسلام سلمةَ بن الأكوع سهمين وهو راجلٌ[(١)]. ولا يُسهم لثلاثة اتفاقاً.

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ شرطٌ جزاؤه محذوفٌ، أي: إن كنتم آمنتم بالله تعالى، فاعلموا أنه تعالى جعل الخُمس لمن جعل، فسلِّموه إليهم، واقنعوا بالأخماس الأربعةِ الباقية، وليس المراد مجرَّدَ العلم بذلك، بل العلم المشفوعُ بالعمل والطاعةِ لأمره تعالى، ولم يُجعل الجزاءُ ما قبلُ؛ لأنَّه لا يصحُّ تقدُّمُ الجزاء على الشرط على الصحيح عند أهل العربية، وإنما لم يقدر العمل قصراً للمسافة، كما فعله النسفيُّ[(٢)]؛ لأنَّ المطَّرد في أمثال ذلك أن يقدَّر ما يدلُّ ما قبله عليه، فيقدَّر من جنسه.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ عطف على الاسم الجليل، و«ما» موصولة، والعائد محذوفٌ، أي: الذي أنزلناه ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ. وفي التعبير عنه بذلك ما لا يخفى من التشريف والتعظيم.

وقرئ: «عُبُدِنا» بضمتين جمع عبد[(٣)]، وقيل: اسم جمع له، وأريد به النبيُّ ﷺ والمؤمنون؛ فإنَّ بعض ما نزل نازلٌ عليهم.

﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ هو يومُ بدر، فالإضافة للعهد، والفرقان بالمعنى اللغويِّ فإنَّ ذلك اليوم قد فُرِّق فيه بين الحقِّ والباطل. والظرفُ منصوب بـ «أنزلنا»، وجوَّز أبو البقاء[(٤)] تعلُّقه بـ «آمنتم»، وقولُه سبحانه: ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ بدلٌ منه أو متعلِّق بـ «الفرقان»، وتعريفُ «الجمعان» للعهد، والمرادُ بهم الفريقان من المؤمنين والكافرين.

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٥٣٩)، ومسلم (١٨٠٧).

(٢) في تفسيره ٢/ ١٠٤، وفيه: إن كنتم تؤمنون بالله فاعملوا به، وارضوا بهذه القسمة، فالإيمان يوجب الرضا بالحكم والعملَ بالعلم.

(٣) القراءات الشاذة ص ٥٠، ونسبها أبو حيان في البحر المحيط ٤/ ٤٩٩ لزيد بن علي.

(٤) في الإملاء ٣/ ١١٢.

والمرادُ ما[1] أُنزل عليه ـ عليه الصَّلاة والسلام ـ من الآيات والملائكةِ والنصر، على أنَّ المراد بالإنزال مجردُ الإيصال والتيسير، فيشملُ الكلَّ شمولاً حقيقياً، فالموصول عامٌّ، ولا جمع بين الحقيقة والمجاز خلافاً لمن توهَّم فيه.

وجعل الإيمان بهذه الأشياء من مُوجِباتِ العلم بكون الخمس لله تعالى على الوجه المذكور، من حيث إن الوحي ناطقٌ بذلك، وأن الملائكة والنصر لما كانا منه تعالى وجب أن يكون ما حصل بسببهما من الغنيمة مصروفاً إلى الجهات التي عيَّنها الله سبحانه.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ ومن آثار قدرته جلَّ شأنُه ما شاهدتُموه يومَ التقى الجمعان.

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بدل من «يوم»، أو معمول لـ «اذكروا» مقدراً، وجوَّز أبو البقاء[2] أن يكون ظرفاً لـ «قدير»، وليس بشيء.

والعدوة بالحركات الثلاث: شطُّ الوادي، وأصلُه من العَدْو: التجاوُز، والقراءةُ المشهورة الضمُّ والكسرُ وهو قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب[3]، وقرأ الحسن وزيد بن عليٍّ وغيرُهما بالفتح[4]، وكلُّها لغاتٌ بمعنًى ولا عبرة بإنكار بعضها.

و«الدنيا» تأنيثُ الأدنى، أي: إذ أنتم نازلون بشفير الوادي الأقربِ إلى المدينة ﴿وَهُم﴾ أي: المشركون ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ أي: البُعْدَى من المدينة، وهو تأنيثُ الأقصى.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «القُصْيا»[5]، ومن قواعدهم أنَّ فُعْلَى من ذوات الواو إذا كان اسماً تُبدل لامه ياءً كدنيا؛ فإنه من دنا يدنو: إذا قَرُبَ، ولم يُبدل من «قصوى» على المشهور لأنه بحسب الأصل صفةٌ، ولم يبدل فيها للفرق بين الصفة

---

(١) في الأصل و(م): بما، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/ ٢٣، والكلام فيه بنحوه.
(٢) في الإملاء ٣/ ١١٢.
(٣) التيسير ص ١١٦، والنشر ٢/ ٢٧٦.
(٤) المحتسب ١/ ٢٨٠، والبحر المحيط ٤/ ٤٩٩.
(٥) البحر المحيط ٤/ ٥٠٠.

والاسم، وإذا اعتُبر غلبتُه وأنه جرى مجرى الأسماء الجامدة، قيل: قُصْيَا وهي لغة تميم، والأُولى لغةُ أهل الحجاز.

ومن أهل التصريف مَن قال: إن اللغة الغالبة العكس، فإن كانت صفةً أُبدلت اللام، نحو: العليا، وإن كانت اسماً أقرَّتْ نحو: حُزْوَى؛ قيل: فَعَلَى هذا «القصوى» شاذَّةٌ، والقياس: قُصيا، وعَنَوا بالشذوذ مخالفةَ القياس لا الاستعمالِ، فلا تُنافي الفصاحةَ، وذكروا في تعليل عدم الإبدال بالفرق أنه إنما لم يُعكس الأمر وإن حصل به الفرق أيضاً لأن الصفة أثقل فأُبقيت على الأصل الأَخَفِّ لثقل الانتقال من الضمة إلى الياء، ومَن عَكَس أعطى الأصل للأصل ـ وهو الاسم ـ وغيَّر في الفرع للفرق.

﴿وَالرَّكْبُ﴾ أي: العير، أو: أصحابها أبو سفيان وأصحابه، وهو اسمُ جمعِ راكبٍ لا جمعٌ على الصحيح.

﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي: في مكانٍ أسفلَ من مكانكم، يَعني ساحلَ البحر، وهو نصبٌ على الظَّرفية، وفي الأصل صفةٌ للظرف كما أشرنا إليه، ولهذا انتصب انتصابَه وقام مقامه ولم ينسلخ عن الوصفية خلافاً لبعضهم، وهو واقعٌ موقعَ الخبر، وأجاز الفرَّاءُ والأخفشُ رَفْعَه على الاتِّساع، أو بتقدير: موضعُ الركبِ أسفلُ[1].

والجملة عطفٌ على مدخولِ «إذ»، أي: إذ أنتم إلخ، وإذ الركبُ إلخ، واختار الجمهور أنها في موضع الحال من الضمير المستتر في الجارِّ والمجرورِ قبلُ.

ووجهُ الإطناب في الآية ـ مع حصول المقصود بأن يقال: يومَ الفرقان يومَ النصر والظَّفر على الأعداء، مثلاً ـ تصوير ما دبَّر سبحانه من أمر وقعة بدر، والامتنانُ والدلالة على أنه من الآيات الغرِّ المحجَّلةِ، وغير ذلك.

وهذا مرادُ الزمخشريِّ بقوله: فائدةُ هذا التوقيت، وذكرِ مراكز الفريقين، وأنَّ العير كان أسفلَ منهم، الإخبارُ عن الحال الدالَّة على قوة شأن العدو وشوكته، وتَكامُلِ عدَّتِه، وتمهُّدِ أسباب الغلبة[2] له، وضَعْفِ شأن المسلمين والْتِياثِ

(١) معاني القرآن للفراء ١/٤١١، ومعاني القرآن للأخفش ٢/٥٤٦.
(٢) في الأصل و(م): العدة، والمثبت من الكشاف.

أمرهم[١]، وأنَّ غلبتهم في مثل هذه الحال ليست إلا صنعاً من الله تعالى، ودليلاً على أنَّ ذلك أمرٌ لم يتيسَّر إلا بحوله سبحانه وقوَّته وباهرِ قدرته، وذلك أن العدوة القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء، وكانت أرضاً لا بأس بها، ولا ماء بالعدوة الدنيا وهي خَبار[٢] تسوخ فيها الأرجُلُ، وكانت العير وراء ظهر العدو مع كثرة عددهم، فكانت الحماية دونها تُضاعف حميتهم، وتشحذُ في المقاتَلةِ عنها نيَّاتِهم، وتوطِّنُ نفوسَهم على أنْ لا يبرحوا مواطنَهم، ولا يُخلوا مراكزَهم، ويبذلوا منتهى نجدتِهم، وقُصارى شدَّتهم، وفيه تصويرُ ما دبرَّ سبحانه من أمر تلك الوقعة[٣]. وليس السؤال عن فائدةِ الإخبار بما هو معلوم للمخاطَبِ ليكون الجواب بأنَّ فائدتَه لازمةٌ ـ كما ظنَّه غيرُ واحد ـ لما لم لا يخفى.

وعلى هذا الطرز ذكر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي: لو تواعدتُم أنتم وهم القتالَ وعَلِمْتُم حالَهم وحالَكم، لاختلفتم أنتم في الميعاد هيبةً منهم ويأساً من الظَّفَر عليهم، وجعلُ الضمير الأول شاملاً للجمعين تغليباً والثاني للمسلمين خاصَّة هو المناسب للمقام؛ إذ القصدُ فيه إلى بيان ضعف المسلمين ونصرةِ الله تعالى لهم مع ذلك.

والزمخشريُّ جعله فيها شاملاً للفريقين لتكونَ الضمائرُ على وتيرةٍ واحدة من غير تفكيكٍ، على معنى: لو تواعدتم أنتم وأهلُ مكَّةَ، لخالف بعضُكم بعضاً، فثبطَّكم قلَّتُكم وكثرتُهم عن الوفاء بالموعِدِ، وثبَّطهم ما في قلوبهم من تهيُّبِ رسول الله ﷺ والمؤمنين، فلم يتَّفقْ لكم من التلاقي ما وفَّقه الله تعالى من التلاقي وسبَّبَ له[٤]. ولا يخفى عدمُ مناسبته، وأمرُ التفكيك سهل.

﴿وَلَكِن﴾ تلاقيتُم على غيرِ موعد ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا﴾ وهو نصرُ المؤمنين وقهرُ

---

(١) أي: صعوبته والتباسه عليهم، من قولهم: التاثت عليه الأمور، أي: التبست واختلطت. حاشية الشهاب ٤/ ٢٧٨.

(٢) الخَبار من الأرض: ما لان واسترخى، وساخت فيه قوائم الدواب. المعجم الوسيط (خبر).

(٣) الكشاف ٢/ ١٦٠.

(٤) المصدر السابق.

أعدائهم ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: كان واجباً أنْ يُفعلَ بسبب الوعدِ المشارِ إليه بقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] أو: كان مقدَّراً في الأزل.

وقيل: «كان» بمعنى «صار» الدالَّةِ على التحوُّل، أي: صار مفعولاً بعد أن لم يكن.

وقوله سبحانه: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ بدلٌ من «ليقضي» بإعادة الحرف، أو متعلِّقٌ بـ «مفعولاً».

وجوَّز أبو البقاء[1] أيضاً تعلُّقه بـ «يقضي»، واستطْيب الطِّيبي الأوَّل.

والمرادُ بالبينة الحجَّةُ الظاهرة، أي: ليموتَ مَن يموتُ عن حجَّةٍ عاينها، ويعيشَ مَن يعيشُ عن حجَّةٍ شاهدها، فلا يبقى محلٌّ للتعلُّل بالأعذار، فإنَّ وقعةَ بدرٍ من الآيات الواضحة، والحجج الغرِّ المحجَّلة.

ويجوز أن يُرادَ بالحياة الإيمانُ، وبالموت الكفرُ، استعارةً أو مجازاً مرسلاً، وبالبيِّنة إظهارُ كمال القدرة الدالَّة على الحجَّةِ الدافعة، أي ليصدر كفرُ مَن كفر وإيمانُ من آمن عن وضوح بيِّنة، وإلى هذا ذهب قتادة ومحمد بن إسحاق.

قيل: والمراد بـ «مَن هلك» و«مَن حيَّ»: المشارفُ للهلاك والحياة، أو مَنْ هذا حاله في علم الله تعالى وقضائِه، والمشارفةُ في الهلاك ظاهرةٌ، وأما مشارفة الحياة، فقيل: المراد بها الاستمرارُ على الحياة بعد الوقعة، وإنما قيل ذلك؛ لأنَّ «مَن حيَّ» مقابلٌ لـ «مَن هَلَكَ»، والظاهرُ أن «عن» بمعنى «بعد»، كقوله تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠].

وقيل: لما لم يتصوَّر أن يهلكَ في الاستقبال من هلك في الماضي، حُمل «مَن هلك» على المشارفة؛ ليرجع إلى الاستقبال، وكذا لما لم يتصوَّر أن يتَّصف بالحياة المستقبلة مَن اتَّصف بها في الماضي حُمل على ذلك لذلك أيضاً، لكن يلزم منه أن يختصَّ بمن لم يكن حيًّا إذ ذاك، فيحمل على دوامِ الحياة دون الاتِّصاف بأصلها؛ ليكون[2] المعنى: لتدوم حياةُ مَن أشرف لدوامها، ولا يجوزُ أن يكون المعنى:

---

(١) في الإملاء: ٣/ ١١٥.

(٢) في (م): فيكون.

لتدوم حياةُ مَن حيٍّ في الماضي؛ لأنَّ ذلك صادق على مَن هلك، فلا تحصل المقابلةُ إلا أن يخصَّص باعتبارها.

وتكلَّف بعضُهم لتوجيه المضيِّ والاستقبال بغيرِ ما ذكر ممَّا لا يخلو عن تأمُّل.

واعتبارُ المضيِّ بالنظر إلى علم الله تعالى وقضائه، والاستقبال بالنظر إلى الوجود الخارجيِّ، مما لا غبارَ عليه، و«عن» لا يتعيَّن كونُها بمعنى «بعد»، بل يمكن أن تبقى على معنى المجاوزةِ الذي لم يذكر البصريون سواه.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣] بناءً على أنَّ المراد: ما نتركها صادرين عن قولك، كما هو رأيُ البعض، ويمكن أن تكونَ بمعنى «على» كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمد: ٣٨] وقول ذي الإصبع:

لاهِ ابنُ عمِّك لا أفضلتَ في حَسَبٍ عنِّي ولا أنتَ ديَّاني فتَخْزُوني[١]

وقرأ الأعمش: «ليهلَكَ» بفتح العين، وروي ذلك عن عاصم[٢]. وهي على ما قال ابنُ جني في «المحتسب»: شاذَّة مرغوبٌ عنها؛ لأنَّ الماضي هَلَكَ بالفتح، ولا يأتي فَعَلَ يَفْعَلُ إلاَّ إذا كان حرف الحلق في العين أو اللام، فهو من اللغة المتداخلة[٣].

وفي «القاموس»[٤]: أنَّ «هلك» كضَرَبَ ومَنَعَ وعَلِم. وهو ظاهرٌ في جوازِ الكسر والفتح في الماضي والمضارع.

نعم المشهورُ في الماضي الفتحُ، وفي المضارع الكسر.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر ويعقوب: «حَيِيَ» بفكِّ الإدغام[٥]؛ قال أبو البقاء: وفيه وجهان:

---

(١) المفضليات ص ١٦٢، وأدب الكاتب ص ٥١٣، والخزانة ٧/ ١٧٣. قال البغدادي: لاهِ ابنُ عمِّك، أي لِلَّه ابنُ عمِّك.

(٢) القراءات الشاذة ص ٥٠، والبحر ٤/ ٥٠١.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩بنحوه.

(٤) مادة (هلك).

(٥) التيسير ص ١١٦، والنشر ٢/ ٢٧٦، وهي رواية البزي عن ابن كثير، وقرأ بها أيضاً أبو جعفر وخلف.

أحدُهما: الحملُ على المستقبل وهو يَحْيَى، فكما لم يُدغم فيه لم يدغم في الماضي.

والثاني: أنَّ حركةَ الحرفين مختلفةٌ، فالأولُ مكسورٌ، والثاني مفتوحٌ، واختلافُ الحركتين كاختلاف الحرفين؛ ولذلك أجازوا في الاختيار: ضَبِبَ البلدُ، إذا كثر ضَبُّه، ويقوِّي ذلك أنَّ الحركة الثانية عارضةٌ فكأنَّ الياء الثانية ساكنةٌ، ولو سكنت لم يلزم الإدغامُ، فكذلك إذا كانت في تقدير الساكن، والياءان أصلٌ، وليست الثانيةُ بدلاً من واو، وأمَّا الحيوان فالواوُ فيه بدلٌ من الياء، وأمَّا الحواء فليس من لفظِ الحيَّةِ، بل مِن حَوَى يحوي: إذا جمع(١).

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ أي: بكفرِ مَن كفر وعقابِه، وإيمانِ مَن آمن وثوابِهِ، ولعلَّ الجمعَ بين الوصفين لاشتمال الكفر والإيمان على الاعتقاد والقول، أمَّا اشتمالُ الإيمانِ على القول فظاهر؛ لاشتراك إجراء الأحكام بكلمتي الشهادة، وأما اشتمالُ الكفر عليه، فبناء على المعتاد فيه أيضاً.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ مقدَّر بـ «اذكر»، أو بدلٌ من «يوم الفرقان». وجوِّز أن يتعلَّق بـ «عليم»، وليس بشيء. ونصب «قليلاً» على أنَّه مفعولٌ ثالث عند الأجهوري، أو حالٌ على ما يُفهمُه كلامُ غيره.

والجمهورُ على أنَّه ﷺ أُري ما أُري في النوم، وهو الظاهر لا المتبادر، وحكمةُ إراءتهم إيَّاه ﷺ قليلين أنْ يخبرَ أصحابَه ﷺ، فيكون ذلك تثبيتاً لهم. وعن الحسن: أنَّه فسر المنام بالعين؛ لأنَّها مكانُ النوم، كما يقال للقطيفة: المنامة، لأنَّها يُنام فيها. فلم يكن عندَه هناك رؤيا أصلاً، بل كانت رؤيةً، وإليه ذهب البلخيُّ.

ولا يخفى ما فيه؛ لأنَّ المنام شائعٌ بمعنى النوم، مصدرٌ ميميٌّ على ما قال بعضُ المحققين، أو في موضع الشخص النائم على ما في «الكشف»، ففي الحمل على خلافِ ذلك تعقيدٌ، ولا نكتةَ فيه.

وما قيل: إن فائدةَ العدول الدلالةُ على الأمن الوافر، فليس بشي؛ لأنَّه لا يفيد

---

(١) الإملاء ٣/ ١١٧ ـ ١١٩.

ذلك، فالنومُ في تلك الحالِ دليلُ الأمن، لا أن يريَهم في عينه التي هي محلُّ النوم.

على أنَّ الروايات الجمَّةَ برؤيته ﷺ إياهم مناماً، وقصِّ ذلك على أصحابه مشهورةٌ لا يعارضُها كونُ العين مكانَ النوم نظراً إلى الظاهر، ولعل الروايةَ عن الحسن غيرُ صحيحةٍ؛ فإنَّه الفصيحُ العالم بكلامِ العرب.

وتخريجُ كلامِه على أنَّ في الكلام مضافاً محذوفاً أقيم المضافُ إليه مُقامه، أي: في موضع منامك، مما لا يرتضيه اليقظان أيضاً.

والتعبيرُ بالمضارع لاستحضار الصورةِ الغريبة، والمراد: إذ أراكهم الله قليلاً.

﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ أي: لجبُنْتُم وهِبْتُم الإقدامَ، وجمع ضمير الخطاب في الجزاء مع إفراده في الشرط إشارةٌ كما قيل: إلى أنَّ الجُبنَ يعرضُ لهم لا له ﷺ إن كان الخطابُ للأصحاب فقط، وإن كان للكلِّ، يكونُ من إسناد ما للأكثرِ للكل.

﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أي: أمرِ القتال وتفرقتْ أراؤكم في الثبات والفرار ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي: أنعم بالسلامة من الفَشَل والتنازع.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤٣﴾ أي: الخواطرِ التي جُعلت كأنَّها مالكةٌ للصدور، والمراد: أنَّه يعلم ما سيكون فيها من الجراءةِ، والجبنِ، والصبر، والجزع، ولذلك دبَّر ما دبَّر.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ مقدَّر بمضمر خوطب به الكلُّ بطريق التلوين والتعميم، معطوفٌ على ما قبلُ. والضميران مفعولَا «يرى»، و«قليلاً» حالٌ من الثاني.

وإنَّما قلّلهم سبحانه في أعين المسلمين حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه إلى مَن بجنبه: أتراهم سبعين؟ فقال: أراهم مئة[1]! تثبيتاً لهم وتصديقاً لرسوله عليه الصلاة والسلام.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٤/ ٣٧٤، والطبري ١١/ ٢١١.

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال أبو جهل: إنَّما أصحاب محمد ﷺ أَكْلةُ جزور. وكان هذا التقليل في ابتداء الأمر قبل التحام القتال؛ ليجترؤوا عليهم، ويتركوا الاستعدادَ والاستمدادَ، ثم كثَّرهم سبحانه حتَّى رأَوهم مثليهم؛ لتفاجئهم الكثرةُ فيُبهتوا ويهابوا.

﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ كرَّر لاختلاف الفعل المعلَّل به، إذ هو في الأول اجتماعُهم بلا ميعاد، وهنا تقليلُهم ثمَّ تكثيرُهم، أو لأنَّ المرادَ بالأمر ثَمَّ الالتقاءُ على الوجه المحكيِّ، وهاهنا إعزازُ الإسلامِ وأهلِه، وإذلالُ الشِّرْك وحزبِه.

هذا وذكر غيرُ واحدٍ أنَّ ما وقع في هذه الواقعةِ من عظائمِ الآيات، فإنَّ البصرَ وإنْ كان قد يرى الكثيرَ قليلاً والقليلَ كثيراً، لكن لا على ذلك الوجه، ولا إلى ذلك الحدِّ، وإنما يتصوَّرُ ذلك بصدِّ الأبصار عن إبصارِ بعضٍ دون بعضٍ مع التساوي في الشرائط.

واعتُرض بأنَّ ما ذُكر من التعليل مناسبٌ لتقليل الكثير لا لتكثير القليل.

وأجيب بأنَّ تكثيرَ القليل من جانبِ المؤمنين بكون الملائكة عليهم السلام [معهم][1] ومن جانب الكفرةِ حقيقةٌ، فلا يحتاج إلى توجيهٍ فيهما، وإنَّما المحتاج إليه تقليلُ الكثير.

وذكر في «الكشاف» طريقين لإبصار الكثير قليلاً: أنْ يستر الله تعالى بعضه بساتر، أو: يُحدثَ في عيونهم ما يستقلُّون به الكثيرَ، كما خلق في عيون الحُولِ ما يستكثرون به القليلَ فيرونَ الواحدَ اثنين[2]، وعليه فيمكن أن يقال: إن رؤيتَهم للمؤمنين مثليهم من قبيل رؤيةِ الأحول، بل هي أعظمُ على تقديرِ أنْ يراد مثلي أنفسِهم، وحينئذٍ لا يحتاجُ إلى حديثِ رؤيةِ الملائكةِ مع المؤمنين.

وفي «الانتصاف»: أن في ذلك دليلاً بيِّناً على أنه تعالى هو الذي يخلقُ الإدارك في الحاسَّة غيرَ موقوفٍ على سبب من مقابلة أو قربٍ أو ارتفاعِ حُجُبٍ أو غير

(١) زيادة من حاشية الشهاب ٤/ ٢٨٠، والكلام منه.
(٢) الكشاف ٢/ ١٦١.

ذلك؛ إذ لو كانت هذه الأسبابُ موجبةً للرؤية عقلاً، لما أمكن أنْ يستترَ عنهم البعضُ وقد أدركوا البعض، والسببُ الموجب مشتركٌ، فعلى هذا يجوزُ أن يخلقَ الله تعالى الإدراك مع انتفاءِ هذه الأسباب، ويجوز أن لا يخلقَه مع اجتماعها، فلا ربطَ إذن بين الرؤية وبينها في مقدور الله تعالى، وهي رادَّةٌ على القدريَّة المنكرين لرؤيتِهِ تعالى لفَقْد شرطها وهو التجسُّم ونحوه، وحسبُهم هذه الآيةُ في بطلان زعمهم، لكنهم يمرُّون عليها وهم عنها معرضون[1].

ثم إن رؤياه عليه الصَّلاة والسلام كانت في قولٍ على طرز رؤية أصحابه ﷺ المشركين، وذكر بعضُ المحققين أنَّها كانتْ في مقامِ التعبير؛ فلا يلزمُ أن تكونَ على خلافِ الواقع، والقلَّةُ معبَّرة بالمغلوبية، والواقعةُ من الرؤيا: منها ما يقع بعينِه، ومنها ما يعبَّر ويؤوَّل، وتحقيقُ الكلام فيها يقتضي بسطاً فتيقَّظ واستمعْ لما يتلى فنقول:

اعلم أنَّ النفس الناطقةَ الإنسانية سلطانُ القوى البدنية، وهي آلاتٌ لها، وظاهرٌ أنَّ القوةَ الجسمانية تَكِلُّ بكثرة العمل، كالسيف الذي يكلُّ بكثرةِ القطع، فالنفس إذا استعملت القوى الظاهرةَ استعمالاً كثيراً بحيث يَعْرِضُ لها الكلالُ، تُعطِّلها لتستريحَ وتقوى، كما أنَّ الفارس إذا أكثر ركوبَ فرسِه يرسلُه ليستريح ويرعى.

وهذا التعطُّل الحاصلُ باسترخاءِ الأعصاب الدماغية المتَّصلة بآلات الإدارك هو النوم، وما يتراءى هناك هو الرؤيا، إلا أنَّ المتكلِّمين، والحكماء المشائين، والمتألِّهين من الإشراقيين، والصوفية، اختلفوا في حقيقتها إلى مذاهب:

فذهب المعتزلةُ وجمهورُ أهل السُّنَّةِ من المتكلِّمين إلى أنَّ الرؤيا خيالاتٌ باطلة، ووجه ذلك عندَ المعتزلة فَقْدُ شرائط الإدارك حالةَ النوم؛ من المقابلة، وانبثاث الشعاع، وتوسُّط الشِّغاف، والبنيةِ المخصوصة، إلى غير ذلك من الشرائط المعتَبَرة في الإدارك عندَهم. وعند الجماعة وهم لم يشترطوا شيئاً من ذلك: أنَّ الإدارك حالةَ النوم خلافُ العادة، وأن النومَ ضدُّ الإدارك، فلا يجامعُه، فلا تكون الرؤيا إداركاً حقيقةً.

---

(١) الانتصاف ٢/١٦١ ـ ١٦٢.

وقال الأستاذ أبو إسحاق: إن الرؤيا إدراك حقٌّ؛ إذ لا فرق بين ما يجدُه النائمُ من نفسه من إبصارٍ وسمعٍ وذوقٍ وغيرها من الإدراكات، وما يجدُه اليقظانُ من إدراكاته، فلو جاز التشكيكُ فيما يجدُه النائم، لجاز التشكيكُ فيما يجدُه اليقظان، ولزم السفسطةُ والقدحُ في الأمور المعلومة حقيقتُها بالبداهة[1]. ولم يخالف في كون النوم ضدَّ الإدراك[2]، لكنه زعم أنَّ الإدراكات تقومُ بجزءٍ من أجزاء الإنسان غير ما يقوم به النومُ من أجزائه، فلا يلزمُ اجتماع الضدين في محلٍّ.

وذهب المشَّاؤون[3] إلى أنَّ المدرَكَ في النوم يوجدُ في الحسِّ المشترك الذي هو لوحُ المحسوسات ومجمعُها، فإنَّ الحواسَّ الظاهرةَ إذا أخذت صورَ المحسوسات الخارجية، وأدَّتْها إلى الحسِّ المشترَك، صارتْ تلك الصورُ مشاهدةً هناك، ثم إن القوةَ المتخيِّلةَ التي من شأنِها تركيبُ الصور إذا ركَّبتْ صورةً فربما انطبعتْ تلك الصورةُ في الحسِّ المشترَك وصارتْ مشاهدةً على حسب مشاهدةِ الصورةِ الخارجية، فإن مدارَ المشاهدة الانطباعُ في الحسِّ المشترك، سواء انحدرتْ إليه من الخارج أو من الدَّاخل، ثمَّ إنَّ القوةَ المتخيّلة من شأنِها التصويرُ دائماً، لا تسكن نوماً ولا يقظةً، فلو خلِّيتْ وطباعها، لما فَتَرتْ عن رسم الصور في الحسِّ المشترك، إلا أنَّه يصرفها عن ذلك أمران:

أحدهما: تواردُ الصور من الخارج على الحسِّ المشترك؛ إذ بعد انتقاشه بهذهِ الصورةِ لا يسعُ أن ينتقشَ بالصورةِ التي تركِّبها المتخيِّلة.

وثانيهما: تسلُّطُ العقلِ أو الوهم عليها بالضبط عندما يستعملانها في مدركاتهما.

ولا شكَّ في انقطاع هذين الصَّارفين عند النوم، فيتسع لانتقاش الصُّور من الداخل، فيكون ما يدركه النائمُ صوراً مرتسمةً في الحسِّ المشتَرك وموجودةً فيه، وهو الرؤيا، إلا أنَّ منها ما هو صادقٌ، ومنها ما هو كاذب:

---

(١) في (م): بالبديهة.

(٢) في (م): ضدا للإدراك.

(٣) هم طائفة من الفلاسفة من أتباع أرسطو.

أمَّا الأولى: فهي التي تَرِدُ تلك الصورُ فيها على الحسِّ المشترك من النفس الناطقة، وبيانُه أنَّ صورَ جميع الحوادث ـ ما كان وما يكون ـ مرتسمةٌ في المبادي العالية التي يعبِّر عنها أربابُ الشرع بالملائكة، ومنطبعةٌ بالنفوس المجرَّدة الفلكية، واتصال النفس المجرَّدة بالمجرد لعلَّة الجنسية أشدُّ من اتصالها بالقوى الجسمانية، فمن شأنها أن تتَّصلَ بذلك وتنتقشَ بما فيه، إلَّا أن اشتغالَها بالحواسِّ الظاهرة والباطنة واستغراقَها بتدبيرِ بدنها يمنعانها عن ذلك الاتِّصال والانتقاش؛ لأن اشتغالَ النفس ببعض أفاعيلها يمنعُها من الاشتغال بغيره، فإنَّ الذي لا يشغلُه شأنٌ عن شأنٍ هو الله الواحدُ القهَّار، ولا يمكن إزالةُ العائق بالكلِّيَّة، إلا أنه يَسْكُن اشتغالُها بالإدراكات الحسِّيَّة حالةَ النوم؛ إذ في اليقظة ينتشر الروحُ إلى ظاهر البدن بواسطة الشرايين، وينصبُّ إلى الحواسِّ الظاهرة حالةَ الانتشار، ويحصلُ بها الإدراكُ، فتشتغلُ النفسُ بتلك الإدراكات، وأمَّا في النوم الذي هو أخو الموت فينحبس الروحُ إلى الباطن، ويرجع عن الحواسِّ الظاهرة بعد انصبابه إليها فتتعطل، فيحصلُ للنفس أدنى فراغ، فتتصل بتلك المبادي اتصالاً روحانيًّا معنويًّا، وتنتقش ببعض ما فيها مما استعدت هي له، كالمرايا إذا حوذي بعضُها ببعض، فانتقش في بعضها ما يتَّسع له ممَّا انتقش في البعض الآخر، فتدركُ النفس مما ارتسم في تلك المبادي ما يناسبُها من أحوالها وأحوالِ ما يقارنها من الأقارب والأهل والولد والإقليم والبلد، ماضيه وآتيه، إلا أنَّ هذا الإدراكَ لعدم تأدِّيه من طرف الحسِّ كليٌّ، فتحاكيه القوةُ المتخيِّلةُ التي جبلت محاكيةً لما يَرِدُ عليها بصورٍ جزئية، مثالية، خيالية، مناسبة إيَّاه، فتحاكي ما هو خيرٌ بالنسبة إليها في صورة جميلة، وما هو شرٌّ كذلك في صورةٍ قبيحةٍ هائلة، على مراتبَ مختلفةٍ، ووجوهٍ متعددة، ومن ثمةَ قد ترى ذاتها بصفةٍ جميلةٍ، صوريَّة ومعنويَّةٍ، من الجمال والعلم والكرم والشجاعة، وغير ذلك من الصفات المحمودة، وقد ترى ذاتها متَّصفةً بأضدادِ ما ذكر، وقد ترى تلك الصفات في صورة ما غلبتِ الصفاتُ عليه، وبل قد ترى أنَّها نفسها صارت نوعاً آخرَ؛ لغلبة صفاته عليها، ومتى غلبتْ عليها الصفاتُ الجميلةُ والأخلاقُ الحميدة، ترى صوراً جميلة وأشخاصاً حميدة، كذوي الجمال والعلماءِ والأولياءِ والملائكة، بل قد ترى أنَّها صارت عالِماً أو ملكاً مثلاً. ومتى غلبت عليها الصفاتُ الذميمةُ ترى صوراً هائلةً، كصورةٍ غُوليَّةٍ أو سبُعيَّةٍ، وكذا رؤية حال مَن يقاربه من الأهل والولدِ والإقليم مثلاً، فإنها تراها

باعتبار اختلاف المراتب والمناسبات على ما هي عليه في المضيِّ، أو الحال، أو الاستقبال، حتى لو اهتمت بمصالحِ الناس رأتْها، ولو كانت منجذبةَ الهمة إلى المعقولات، لاحتْ لها أشياءُ منها، فمتى لم يكن اختلافٌ بين تلك الصورة وبين ما هي مأخوذةٌ منه إلَّا بالكلِّيَّة والجزئية، كانت الرؤيا غيرَ محتاجة إلى التعبير، والتجاوُزِ عنها إلى ما يناسبها بوجهٍ من المماثلة أو الضدِّية التي يقتضيها نحو الإلف والخلق والأسباب السماوية، وغير ذلك من وجوهٍ خفيَّةٍ لا يطَّلع عليها إلا الأفرادُ من أئمة التعبير، وإن كانت مخالفةً لها؛ لقصورٍ يقع في المتخيِّلة، إمَّا لذاتها أو لعروضِ دهشةٍ وحيرةٍ لها مما ترى أو لغير ذلك، كانت محتاجةً إلى التعبير، وهو أن يرجع المعبِّر القهقرى مجرِّداً لمَا يراه النائم عن تلك الصور التي صوَّرتْها المتخيِّلةُ إلى أن ينتهي بمرتبةٍ أو مراتبَ إلى ما تلقَّتْه النفسُ من تلك المبادي، فيكون هو الواقع، وقد يتفق ـ سيما إذا كان الرائي كثيرَ الاهتمام بالرؤيا ـ أن يعبِّرَ رؤياه في النوم الذي رآها فيه أو غيره، فهو إما بتذكُّره لمَا كانت الرؤيا حكايةً عنه، وإما بتصوير المتخيلةِ حكايةَ رؤياه بحكايةٍ أخرى، وحينئذٍ يحتاج إلى تعبيرين.

وأما الثانية: فهي تكون لأشياء؛ إما لأنَّ النفس إذا أحسَّت في حال اليقظة ـ بتوسُّط الآلات الجسمانية ـ بصُورٍ جزئية محسوسةٍ أو خياليَّةٍ، وبقيت مخزونةً في قوة الخيالِ، فعند النوم الذي يخلصُ فيه الحسُّ المشترك ممَّا[1] يرِدُ عليه من الحواسِّ الظاهرة تُرسمُ في الحسِّ المشترك ارتسامَ المحسوسات، إما على ما كانت عليها، وإمَّا بصورٍ مناسبة لها، أو لأنَّ النفسَ أتقنتْ بواسطة المتخيلةِ صورةً أَلِفَتْها، فعند النوم تتمثَّل في الحسِّ المشترك، أو لأنَّ مزاجَ الدماغ يتغيَّر، فيتغير مزاجُ الروح الحاملةِ للقوةِ المتخيلةِ، فتتغيَّرُ أفعالُ المتخيلةِ بحسب تلك التغيُّرات، ولذلك يرى الدمويُّ الأشياءَ الحمرَ، والصفراويُّ النيرانَ والأشعَّةَ، والسوداويُّ الجبالَ والأدخنة، والبلغميُّ المياه والألوانَ البيض، ومن هذا القبيل رؤيةُ كون بدنِه أو بعضِ أعضائه في الثلج، أو الماء، أو النار، عند غلبة السخونةِ أو البرودة عليه، ورؤيةُ أنَّه يأكلُ أو يشربُ أو يبولُ عند عروض الاحتياج إلى أحدها.

---

(١) في (م): عما.

ومن العجائب في هذا الباب أنَّه إذا غلب المنيُّ واحتاجت الطبيعةُ إلى دفعه، تحتالُ باستعانةِ القوَّة المتخيلةِ إلى تصوير ما يندفعُ به من الصور الحسنة، وفي إرسال الريح الناشرة لآلة الجماع وإرادة حركاته[1]، حتَّى يندفعَ بذلك ما أرادت اندفاعَه، وقد يكون ذلك التوجُّه والاعتيادُ لا لغلبة المنيِّ، فلهذا قد لا يندفع به شيء.

وقد يَعْرِضُ للروح اضطرابٌ وتحريكٌ من الأسباب الخارجة والداخلة، فترى أموراً متغيِّرةً متفرِّقةً غيرَ منضبطة، فربَّما يتركب من المجموع صورةٌ غيرُ معهودةٍ قلَّما يتصوَّرها أحدٌ، أو يقعُ مثلها في الخارج، وقد يكون ذلك لاتِّصالاتٍ فلكيَّة وأوضاعٍ سماوية، فإذا كانت الرؤيا لأحدِ هذه الأمور تسمَّى أضغاثَ أحلام، ولا تعبيرَ لها ولا تقع.

وقد ذكروا أن أصدق الناس رؤيا أعدلُهم مزاجاً، ومَن كان مع ذلك منقطعاً عن العلائق الشاغلة، والخيالات الفاسدةِ، معتاداً للصدق، متوجِّهاً إلى الرؤيا واستثباتها وكيفيتها، كانت رؤياه أصحَّ وأصدقَ، وأكثرُ أحلام الكذَّاب والسكران والمغموم، ومَن غلب عليه سوءُ مزاجٍ أو فكرٍ أو خيالاتٍ فاسدة، ومقتضياتِ قوًى غضبيةٍ وشهويةٍ، كاذبةٌ لا يُعتمد عليها، ومن هنا قالوا: لا اعتمادَ على رؤيا الشاعر؛ لتعوُّده الأكاذيبَ الباطلةَ، والتخيلاتِ الفاسدةَ.

وذهبَ أصحابُ[2] المكاشفات وأربابُ المشاهداتِ، من الحكماء المتألهين، والصوفية المنكرين لارتسام الصور في الخيال، إلى أنَّ الرؤيا مشاهدةُ النفس صوراً خياليةً موجودةً في عالم المثال الذي هو برزخٌ بين عالَم المجرَّدات اللطيفةِ المسمَّى عندهم بعالَم الملكوت، وبين عالَم الموجودات العينيَّة الكثيفةِ المسمَّى بعالَم الملك.

وقالوا: فيه موجوداتٌ متشخِّصة مطابقةٌ لمَا في الخارج من الجزئيات، مِثْلٌ لها، قائمةٌ بنفسها، مناسبةٌ لما في العالَمينِ المذكورَينِ: أمَّا لعالَم الملك؛ فلأنَّها

---

(١) في (م): حركاتها.
(٢) في (م): بعض أصحاب.

صورٌ جسمانية شَبَحيَّة، وأما لعالَم الملكوت؛ فلأنَّها معلَّقةٌ غيرُ متعلِّقة بمكانٍ وجِهَةٍ كالمجرَّدات، حتى إنه يرى صوراً مثاليةً لشخصٍ واحدٍ في مرايا متعدِّدةٍ، بل في مواضعَ متكثِّرةٍ، كما يُرى بعضُ الأولياء في زمان واحد في أماكنَ متعدِّدةٍ، شرقيةٍ وغربية، ثمَّ إنَّ لِتلك الصور مجاليَ مختلفةً، كالمرايا والماء الصافي.

والقوى الجسمانيةُ سيما الباطنة إذا انقطعتْ عن الاشتغال بالأمور الخارجية العائقةِ، إذ بذلك يحصلُ لها زيادةُ مناسَبةٍ لذلك العالَمَ كما للمتجرِّدينَ عن العلائق البشرية، وإذا قُويَتْ تلك المناسَبةُ، كما للأنبياء عليهم السلام، والأولياءِ الكُمَّل قدَّس الله تعالى أسرارَهم، تظهرُ في القوى الظاهرة أيضاً، ولهذا كان النبيُّ ﷺ يشاهدُ جبريلَ عليه السلام حين ما ينزل بالوحي، والصحابةُ ﷺ حولَه كانوا لا يشاهدونه[1].

هذا واستُشْكِل قولُ المتكلمين: إن الرؤيا خيالاتٌ باطلة. بأنه قد شهد الكتابُ والسنَّةُ بصحَّتها، بل لم يكنْ أحدٌ من الناس إلَّا وقد جرَّبها من نفسه تجربةً توجبُ التصديقَ بها.

وأجيب بأنَّ مرادَهم أنَّ كونَ ما يتخيَّله النائمُ إدراكاً بالبصر رؤيةً وكونَ ما يتخيَّله إدراكاً بالسمع سمعاً باطلٌ، فلا ينافي كونَها أَمارةً لبعض الأشياء.

وذكر حجَّةُ الإسلام الغزاليُّ عليه الرحمة في شرح قولِه عليه الصلاة والسلام: «مَن رآني في المنام فقد رآني» الحديثَ[2]، أنَّه ليس المرادُ بقوله عليه الصلاة والسلام فقدْ رآني رؤيةَ الجسم، بل رؤيةَ المثال الذين صارَ آلةً يتأدَّى بها المعنى الذي في نفسه إليه، ثمَّ ذكر أنَّ النفسَ غيرُ المثال المتخيَّل، فالشكلُ المرئيُّ ليس روحَه ﷺ، ولا شخصَه، بل مثالَه على التحقيق، وكذا رؤيتُه سبحانه نوماً، فإنَّ ذاتَه تعالى منزَّهة عن الشكلِ والصورةِ، لكن تنتهي تعريفاتُه تعالى إلى العبدِ بواسطة مثالٍ محسوسٍ من نورٍ أو غيرِه، وهو آلةٌ حقًّا في كونه واسطةً في التعريف، فقول الرائي: رأيتُ الله تعالى نوماً. لا يعني به أنه رأى ذاته تعالى.

---

(١) ينظر حديث يعلى بن أمية عند أحمد (١٧٩٤٨)، والبخاري (١٥٣٦)، ومسلم (١١٨٠).

(٢) أخرجه أحمد (٧١٦٨)، والبخاري (١١٠)، ومسلم (٢٢٦٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (١٣٨٤٩) والبخاري (٦٩٩٤) من حديث أنس ﷺ. وأخرجه أحمد (١٤٧٧٩)، ومسلم (٢٢٦٨) من حديث جابر ﷺ.

وقال أيضاً: مَن رآه ﷺ مناماً، لم يُرِدْ رؤيتَه حقيقةً لشخصه[١] المودَعِ روضةَ المدينةِ، بل رؤيةَ مثاله، وهو مثالُ روحِه المقدَّسة عليه الصلاة والسلام.

قيل: ومن هنا يُعلم جوابٌ آخر للإشكال وهو: أنَّ مرادَهم أنَّ ما يُرى في المنام ليسَ له حقيقةٌ ثابتةٌ في نفس الأمر كما أنَّ المرئي في اليقظة كذلك، بل هو مثالٌ متخيَّل يُظهره الله تعالى للنفس في المنام، كما يُظهر لها الأمورَ الغيبيةَ بعد الموت، والنومُ والموتُ أخوان، ووَصْفُ ما ذُكر بالباطل لعلَّه من قبيل وصفِ العالم به في قول لبيد:

ألا كــلُّ شــيءٍ مــا خــلا الله بــاطــل[٢]

وأنت تعلم أنَّ ما ذكره حجَّةُ الإسلام ليس مما اتفق عليه علماؤُه، فقد ذهب جمعٌ إلى أنَّ رؤيته ﷺ بصفتِه المعلومة إدراكٌ على الحقيقة، وبغيرِها إدراكٌ للمثال. على أنَّ كلام المتكلِّمين ظاهرُ المخالفة للكتاب والسنَّة، ولا يكادُ يَسْلَم تأويلُه عن شيء، فتأمَّل. ولعلَّ النوبةَ تفضي إلى ذكرِ زيادةِ كلامٍ في هذا المقام.

وبالجملة إنكارُ الرؤيا على الإطلاق ليس في محلِّه، كيف وقد جاء في مدحها ما جاء؟ ففي صحيح مسلم: «أيها الناس، لم يبق من مبشِّرات النبوة إلَّا الرؤيا الصالحةُ، يَراها مسلمٌ أو تُرَى له»[٣]. وجاء في أكثر الروايات أنَّها جزءٌ من ستٍّ وأربعين[٤]. ووجِّه ذلك بأنَّه عليه الصلاة والسلام عمل بها ستةَ أشهر في مبدأ الوحي، وقد استقام ينزل عليه الوحي ثلاثاً وعشرين سنة، ولا يتأتَّى هذا على رواية

---

(١) في (م): بشخصه.

(٢) وعجزه: وكلُّ نعيم لا محالة زائل، وهو في ديوان لبيد ص ٢٥٦.

(٣) صحيح مسلم (٤٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو عند أحمد (١٩٠٠).

(٤) أخرجه أحمد (١٢٠٣٧)، والبخاري (٦٩٨٣)، ومسلم (٢٢٦٤) من حديث أنس رضي الله عنه.
وأخرجه أحمد (١٢٩٣٠)، والبخاري (٦٩٨٧)، ومسلم (٢٢٦٤) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.
وأخرجه أحمد (٧١٨٣)، والبخاري (٦٩٨٨)، ومسلم (٢٢٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري (٦٩٨٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

خمسٍ وأربعين[١]، وكذا على روايةِ سبعين جزءاً[٢]، ورواية[٣] ستٌّ وسبعين - وهي ضعيفة[٤] - ورواية ستٌّ وعشرين وقد ذكرها ابنُ عبد البر[٥]، وروايةُ النوويِّ: من أربعة وعشرين، والله تعالى أعلم[٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي: حاربتم جماعةً من الكفرة، ولم يَصِفْها سبحانه؛ لظهور أنَّ المؤمنين لا يحاربون إلا الكفارَ، وقيل: ليشملَ بإطلاقه البغاةَ، ولا ينافيه خصوصُ سببِ النزول.

ومنهم مَن زعم أنَّ الانقطاع معتبرٌ في معنى الفئة؛ لأنها من «فأَوْتُ» أي: قَطَعْتُ، والمنقطِعُ عن المؤمنين إمَّا كفَّارٌ أو بغاة، وبنى على ذلك أنَّه لا ينبغي أن يقال: لم توصف لظهور.. إلخ. وليس بشيءٍ كما لا يخفى.

واللقاء قد غَلَبَ في القتال كالنِّزال. وتصديرُ الخطاب بحر في النداء والتنبيه؛ إظهاراً لكمال الاعتناء بمضمون ما بعده.

﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ للقائهم ولا تولُّوهم الأدبار، والظاهر أنَّ المراد «إلا» و«أو» على ما مرَّ[٧] ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: في تضاعيف القتال، وفسَّر بعضهم هذا الذكرَ بالتكبير، وبعضُهم بالدعاء، وروَوا أدعيةً كثيرة في القتال منها: «اللهم أنت ربُّنا وربُّهم، نواصينا ونواصيهم بيدك، فاقتلهم واهزمهم»[٨].

وقيل: المراد بذكره سبحانه إخطارُه بالقلب وتوقُّعُ نصره.

وقيل: المراد: اذكروا ما وَعَدكم الله تعالى؛ من النصر على الأعداء في الدنيا، والثوابِ في الآخرة، ليدعوَكم ذلك إلى الثبات في القتال.

---

(١) أخرجها مسلم (٢٢٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجها أحمد (٤٦٧٨)، ومسلم (٢٢٦٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٣) في (م): أو رواية.
(٤) ضعفها ابن حجر في الفتح ١٢/ ٣٦٢، وهي عند الطبراني في الكبير (١٠٥٤٠).
(٥) في التمهيد ١/ ٢٨٢ من حديث أنس رضي الله عنه، وقال: وهو حسن الإسناد.
(٦) جاء في هامش الأصل: والمراد من كلٍّ التكثير، كذا قيل. اهـ منه.
(٧) يعني في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال: ١٦].
(٨) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٥٢١) من طريق أبي عبد الرحمن الحبلي عن النبي ﷺ، وهو مرسل رجاله ثقات كما ذكر الحافظ في الفتح ٦/ ٣٣.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝﴾ أي: تفوزون بمرامكم من النصر والمثوبة، والأَولى حملُ الذِّكر على ما يعمُّ التكبيرَ والدعاءَ وغيرَ ذلك من أنواع الذكر، وفي الآية تنبيهٌ على أنَّ العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر مولاه سبحانه، وذكرُه جلَّ شأنهُ في مثل ذلك الموطن من أقوى أدلَّة محبته عزَّ شأنه، ألا ترى مَن أحبَّ مخلوقاً مثله كيف يقول:

ولقد ذكرتُك والرِّماحُ نواهلٌ   منِّي وبيضُ الهندِ تشربُ من دمي
فوددتُ تقبيلَ السيوف لأنَّها   بَرَقَتْ كَبَارِقِ ثغرِكِ المتبسِّم[1]

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كلِّ ما تأتون وما تَذَرون، ويندرجُ في ذلك ما أُمروا به هنا.

﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ باختلاف الآراءِ كما فعلتم ببدرٍ وأُحد. وقرئ: «ولا تّنازعوا» بتشديد التاء[2].

﴿فَتَفْشَلُوا﴾ أي: فتجبُنوا عن عدوِّكم، وتضعُفوا عن قتالهم. والفعل منصوب بأنْ مقدَّرة في جواب النهي، ويحتمل أن يكونَ مجزوماً عطفاً عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ بالنصب معطوفٌ على «تفشلوا» على الاحتمال الأوَّل. وقرأ عيسى بن عمر: «ويَذْهَبْ» بياء الغيبة والجزم[3]، وهو عطفٌ عليه أيضاً على الاحتمال الثاني.

والريح ـ كما قال الأخفشُ ـ مستعارةٌ للدولة؛ لشَبَهِها بها في نفوذ أمرها وتَمشِّيه. ومن كلامهم: هبَّت رياحُ فلان، إذا دالَتْ له الدولةُ وجَرَى أمرُه على ما يريد، و: ركدت رياحُه، إذا ولَّت عنه وأدبر أمرُه، وقال:

إذا هبَّتْ رياحُك فاغتنمْها   فإنَّ لكلِّ خافقةٍ سكونُ
ولا تَغْفَلْ عن الإحسان فيها   فما تدري السكونُ متى يكون[4]

(١) البيتان من معلقة عنترة، وقد وردا في إحدى نسخ جمهرة أشعار العرب كما ذكر محققه في الحاشية ١/ ٤٨٨، وهما في خلاصة الأثر ٢/ ٣١٨.
(٢) هي رواية البزِّي عن ابن كثير، كما في التيسير ص ٨٣.
(٣) ذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٤/ ٥٠٣.
(٤) البيتان لابن هندو، وهما في التمثيل والمحاضرة ص ٢٣١، وغرر الخصائص ص ٢٤٠.

وعن قتادة وابن زيد أنَّ المرادَ بها ريحُ النصر، وقالا: لم يكن نصرٌ قطُّ إلا بريحٍ يبعثُها الله تعالى تضربُ وجوهَ العدوِّ.

وعن النعمان بن مقرِّن قال: شهدتُ مع رسول الله ﷺ، فكان إذا لم يقاتلْ أوَّلَ النهار، انتظر حتى تميلَ الشمسُ وتهبَّ الرياح[1].

وعلى هذا تكونُ الريح على حقيقتها. وجوِّز أن تكون كنايةً عن النصر، وبذلك فسَّرها مجاهد.

﴿وَاصْبِرُوا﴾ على شدائدِ الحرب ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ بالإعانة والإمداد، وما يُفهم من كلمة «مع» من أصالتهم بناءً على المشهور من حيثُ إنهم المباشرون للصبرِ، فهم متبوعون من تلك الحيثية.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم﴾ بعد أن أُمروا بما أُمروا من أحاسن الأعمالِ ونُهوا عمَّا يُقابلها، والمرادُ بهم أهلُ مكَّة؛ أبو جهل وأصحابُه حين خرجوا لحماية العِير ﴿بَطَرًا﴾ أي: فخراً وأشراً ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: لمَّا رأى أبو سفيان أنَّه أَحْرَز عيرَه أرسل إلى قريشٍ أن ارجعُوا فقد سَلِمَتِ العيرُ، فقال أبو جهل: والله لا نرجعُ حتَّى نَرِدَ بدراً، ونشربَ الخمور، وتعزفَ علينا القَيْناتُ، ونُطعمَ بها مَن حَضَرَنا من العرب[2]. فوافَوْها ولكن سُقوا كأسَ المنايا بدل الخمور، وناحت عليهم النوائحُ بدل القينات، وكانت أموالُهم غنائِمَ بدلاً عن بذلها.

ونَصْبُ المصدرين على التعليل، ويجوز أن يكونا في موضع الحال، أي: بَطِرين مُرائين، وعلى التقديرين المقصودُ نهيُ المؤمنين أن يكونوا أمثالَهم في البطر والرِّياء، وأمرُهم بأنْ يكونوا أهلَ تقوى وإخلاص إذا قلنا: إنَّ النهي عن الشيء أمرٌ بضدِّه.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٧٤٤)، وأبو داود (٢٦٥٥)، والترمذي (١٦١٣). وأخرجه البخاري (٣١٦٠) بنحوه.

(٢) «سيرة ابن هشام» ١/ ٦١٨ ـ ٦١٩ دون ذكر ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عطفٌ على «بطراً»، وهو ظاهرٌ على تقدير أنَّه حالٌ بتأويل اسم الفاعل؛ لأنَّ الجملةَ تقعُ حالاً من غير تكلُّف، وأمَّا على تقدير كونِه مفعولاً له، فيحتاجُ إلى تكلُّف؛ لأنَّ الجملةَ لا تقع مفعولاً له، ومن هنا قيل: الأصلُ: أنْ يصدُّوا، فلما حُذفت «أنْ» المصدرية، ارتفع الفعلُ مع القصد إلى معنى المصدريَّة بدون سابكٍ، كقوله:

أَلَا أيُّهذا الزاجري أَحْضُرُ الوَغَى[1]

أي: عن أن أحضرَ، وهو شاذ. واختير جعلُه على هذا استئنافاً.

ونكتة التعبير بالاسم أولاً والفعل أخيراً: أنَّ البطر والرياءَ دأبُهم، بخلاف الصدِّ فإنَّه تجدَّدَ لهم في زمن النبوَّة.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ فيجازيهم عليه.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ مَقدَّرٌ بمضمر[2] خوطب به النبيُّ ﷺ بطريقِ التلوين على ما قيل، ويجوز أن يكونَ المضمرُ مخاطباً به المؤمنون، والعطف على «لا تكونوا»، أي: واذكروا إذ زيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم في معاداة المؤمنين وغيرها بأنه وسوس إليهم ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي: ألقى في روعهم وخيَّل لهم أنهم لا يُغلبون لكثرةِ عَدَدِهم وعُدَدِهم، وأوهمهم أنَّ اتِّباعَهم إيَّاه فيما يظنون أنَّها قرباتٌ مجيرٌ لهم، وحافظ عن السوء، حتى قالوا: اللَّهم انصر أهدى الفئتين وأفضل الدينين. فالقولُ مجازٌ عن الوسوسة.

والإسناد في «إنِّي جارٌ» من قبيل الإسناد إلى السبب الداعي، و«لكم»خبر «لا»، أو صفةُ «غالب» والخبرُ محذوف، أي: لا غالبَ كائناً لكم موجودٌ، و«اليوم» معمولُ الخبر، ولا يجوز تعلُّق الجارِّ بـ «غالب» وإلا لانتصب؛ لشَبَهِهِ بالمضاف حينئذٍ، وأجاز البغداديُّون الفتحَ، وعليه يصحُّ تعلُّقه به.

---

(١) البيت لطرفة من معلقته، وهو في ديوانه ص٣٢، وسلف ٢/ ٢٧٧.

(٢) أي أن «إذ» منصوب بمضمر، والتقدير: واذكر وقت تزيين الشيطان...، تفسير أبي السعود ٤/ ٢٦، وحاشية الشهاب ٤/ ٢٨١.

و«من الناس» حالٌ من ضمير الخبر، لا من المستتر في «غالب» لما ذكرنا، وجملة «إني جارٌ» تحتمل العطف والحاليَّة.

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ أي: تلاقى الفريقان، وكثيراً ما يُكْنَى بالتَّرائي عن التَّلاقي، وإنَّما أوِّل بذلك لمكان قوله تعالى: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي: رجع القهقرى، فإن النكوصَ كان عند التلاقي لاعند الترائي، والتزامُ كونِه عنده فيه خفاءٌ.

والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال الموكِّدةِ أو المؤسِّسة إن فُسِّر النكوصُ بمطلق الرجوع، وأيًّا ما كان ففي الكلام استعارةٌ تمثيلية، شبَّه بطلانَ كيده بعد تزيينه بمن رجع القهقرى عمَّا يخافه، كأنه قيل: لما تلاقتا بطل كيدُه، وعاد ما خُيِّل إليهم أنه مجيرُهم سببَ هلاكهم.

﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ تبرَّأ منهم؛ إمَّا بتركِهم، أو بتركِ الوسوسة لهم التي كان يفعلها أولاً، وخاف عليهم، وأَيِس من حالهم، لمَّا رأى إمدادَ الله تعالى المسلمين بالملائكة عليهم السلام، وإنما لم نقل: خاف على نفسه؛ لأنَّ الوسوسة بخوفه عليهم أقربُ إلى القبول، بل يَبْعُدُ وسوستُه إليهم بخوفه على نفسه. وقيل: إنه لا يخاف على نفسه؛ لأنَّه من المنظَرِين، وليس بشيء.

وقد يقال: المقصود من هذا الكلام أنه عظَّم عليهم الأمر، وأخذ يخوِّفهم بعد أن كان يحرِّضُهم ويشجِّعهم، كأنه قال: يا قومِ، الأمرُ عظيمٌ والخَطْبُ جسيمٌ، وإني تارِكُكُم لذلك وخائفٌ على نفسي الوقوعَ في مهاوي المهالك، مع أنِّي أَقْدَرُ منكم على الفرار وطيِّ[1] مراحل هذه القفار، وحينئذٍ لا يبعد أن يراد من الخوف الخوفُ على نفسه، حيث لم يكن هناك قولٌ حقيقةً.

وقال غيرُ واحد من المفسرين: إنه لما اجتمعت قريشٌ على المسير ذكرت ما بينها وبين كنانةَ من الإِحْنة[2] والحرب، فكاد ذلك يثبِّطُهم، فتمثَّل لهم إبليسُ

(١) في (م): وعلى، بدل: وطي.
(٢) أي: الحقد. اللسان (أحن).

بصورةِ سراقةَ بن مالك الكنانيّ، وكان من أشراف كنانةَ، فقال لهم: لا غالبَ لكم اليومَ، وإنِّي جارٌ لكم من بني كنانةَ، وحافظُكم، ومانعٌ عنكم، فلا يصل إليكم مكروهٌ منهم. فلما رأى الملائكةَ تنزلُ من السماء، نكص وكانت يدُه في يد الحارث بن هشام، فقال له: إلى أين، أتخذلنا في هذه الحالة؟ فقال له: إني أرى ما لا ترون. فقال له: والله ما نرى إلا جعاسيس[1] يثرب! فدفع في صدر الحارث وانطلق، وانهزم الناسُ، فلما قدموا مكةَ قالوا: هزم الناسَ سراقةُ. فبلغهُ الخبرُ فقال: والله ما شعرت بمسيرِكم حتى بلغتني هزيمتُكم. فلما أسلموا علموا أنَّه الشيطان. وروي هذا عن ابن عباس والكلبيِّ والسِّديِّ وغيرهم. وعليه يحتمل أن يكونَ معنى قوله: «إني أخاف الله»: إني أخاف أن يصيبَني بمكروهٍ من الملائكة أو يهلكَني، ويكونُ الوقتُ هو الوقتُ الموعود؛ إذ رأى فيه مالم يرَ قبله؟

وفي «الموطأ»[2]: «ما رؤي الشيطان يوماً هو أصغر فيه ولا أدحرُ ولا أحقرُ ولا أغيظُ، منه في يوم عرفةَ؛ لما رأى[3] من تنزُّل الرحمة، وتجاوُز الله تعالى عن الذنوب العِظام، إلا ما رأى[4] يومَ بدر، فإنه قد رأى جبريلَ عليه السلامَ يَزَعُ الملائكةَ عليهم السلام». وما في كتاب «التيجان»[5] من أنَّ إبليس قُتل ذلك اليوم مخرَّجٌ على هذا[6]، وإلا فهو تاجُ سلطان الكذب. وروي الأول عن الحسن، واختاره البلخيُّ والجاحظ.

وقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ يحتمل أن يكون من كلام اللَّعين وأن يكون مستأنفاً من جهته سبحانه وتعالى، وادَّعى بعضُهم أن الأولَ هو الظاهرُ؛ إذ على احتمال كونه مستأنفاً يكونُ تقريراً لمعذرته، ولا يقتضيه المقامُ، فيكون فضلةً من الكلام. وتُعقِّب بأنه بيان لسبب خوفِه حيثُ إنه يعلم ذلك، فافهم.

---

(١) الجعاسيس: اللئام في الخَلْق والخُلُق. اللسان (جعس)
(٢) ١/ ٤٢٢، من طريق طلحة بن عبيد الله بن كريز عن النبي ﷺ مرسلاً.
(٣) في (م): يرى، والمثبت من الأصل والموطأ.
(٤) في (م): رؤي، وفي الموطأ: أري.
(٥) لعله كتاب التيجان لابن هشام صاحب السيرة. ينظر كشف الظنون ١/ ٥١٨.
(٦) جاء في هامش الأصل: أو نحوه مما يظهر بالتأمل، فتأمل. اهـ منه.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ ظرفٌ لـ «زيَّن»، أو «نكص»، أو «شديد العقاب»، وجوَّز أبو البقاء[1] أيضاً أن يقدَّر: اذكروا.

﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: الذين لم تطمئنَّ قلوبُهم بالإيمان بعدُ، وبقي فيها شبهة. قيل: وهم فتية[2] من قريش أسلموا بمكة، وحبسهم آباؤهم حتَّى خرجوا معهم إلى بدر، منهم قيس بنُ الوليد بنِ المغيرة، والعاصُ بنُ منبه بنِ الحجَّاج، والحارثُ بنُ زمعة، وأبو القيس بنُ الفاكه. فالمرضُ على هذا مجازٌ عن الشبهة.

وقيل: المرادُ بهم المنافقون، سواءٌ جُعل العطفُ تفسيريًّا، أو فُسِّر مرضُ القلوب بالإحَن والعداواتِ والشكِّ، مما هو غيرُ النفاق، والمعنى: إذ يقول الجامعون بين النِّفاق ومرضِ القلوب.

وقيل: يجوز أن يكون الموصولُ صفةَ المنافقين، وتوسَّطت الواوُ لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، لأنَّ هذه صفةٌ للمنافقين لا تنفكُّ عنهم. أو تكون الواو داخلةً بين المفسَّر والمفسِّر، نحو: أعجبني زيدٌ وكرمه. وزعم بعضُهم أنَّ ذلك وهمٌ، وهو من التحامل بمكان؛ إذ لا مانعَ من ذلك صناعةً ولا معنى، والقول بأنَّ وجهَ الوهم فيه أنَّ المنافقين جارٍ على موصوفٍ مقدَّر ـ أي: القوم المنافقون ـ فلا يوصفُ، ليس بوجيه؛ إذ للقائل أن يقول: إنَّه أُجري «المنافقون» هنا مجرى الأسماء، مع أنَّ الصفةَ لا مانع من أن توصفَ، وقيامُ العَرَضِ بالعَرَضِ دونَ إثبات امتناعه خَرْطُ القتاد.

ومن فسَّر «الذين في قلوبهم مرضٌ» بأولئك الفئةِ الذين أسلموا بمكة، قال: إنهم لما رأوا قلَّةَ المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعنون المؤمنينَ الذين مع رسول الله ﷺ ﴿دِينُهُمْ﴾ حتَّى تعرَّضوا لمن لا يَدَيْ لهم به[3]، فخرجوا وهم ثلاثُ مئةٍ وبضعة عشر إلى زهاءِ الألف.

---

(١) في الإملاء ٣/ ١٢١.

(٢) في الأصل: فئة.

(٣) يدي مثنى يد بمعنى القدرة، أي: لا طاقة لهم به، وهذا التركيب سمع من العرب بهذا المعنى، وحذفت نون التثنية منه كما أثبتت الألف في «لا أبا لك» لتقدير الإضافة فيه. حاشية الشهاب ٤/ ٢٨٢.

وعلى احتمال جَعْلِه صفةً للمنافقين، يُشعر كلامُ البعض أنَّ القول لم يكن عند التلاقي، فقد روي عن الحسن أنَّ هؤلاء المنافقين لم يشهدوا القتالَ يومَ بدر.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: هم يومئذ في المسلمين[١]. وفي القلب من هذا شيء، فإنَّ الذي تشهد له الآثارُ أن أهل بدر كانوا خلاصةَ المؤمنين.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ جوابٌ لهم وردٌّ لمقالتهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ لا يَذِلُّ من توكَّل عليه، ولا يُخْذَلُ من استجار به وإن قلَّ ﴿حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ يفعلُ بحكمته البالغة ما تستبعده العقولُ، وتحارُ في فهمه ألبابُ الفحول.

وجوابُ الشرطِ محذوفٌ لدلالة المذكور عليه، أو أنه قائمٌ مقامَه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ خطابٌ للنبيِّ ﷺ، أو لكلِّ أحدٍ ممَّن له حظٌّ من الخطاب، والمضارع هنا بمعنى الماضي؛ لأنَّ «لو» الامتناعية تردُّ المضارعَ ماضياً، كما أنَّ «إنْ» تردُّ الماضيَ مضارعاً، أي: ولو رأيت ﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إلخ لرأيتَ أمراً فظيعاً، ولابدَّ عند العلَّامةِ من حَمْلِ معنى المضيِّ هنا على الفَرْض والتقدير[٢]، وليس المعنى على حقيقةِ المضيِّ، قيل: والقصدُ إلى استمرار امتناع الرؤية وتجدُّدِه، وفيه بحث.

و«إذ» ظرفٌ لـ «ترى» والمفعولُ محذوف، أي ولو ترى الكفرةَ أو حالهم حينئذٍ، و«الملائكة» فاعلُ «يتوفى»، وتقديمُ المفعول للاهتمام به، ولم يؤنث الفعل لأنَّ الفاعل غيرُ حقيقيِّ التأنيث، وحسَّن ذلك الفصلُ يبنهما، ويؤيد هذا الوجه قراءةُ ابنِ عامر: «تتوفَّى» بالتاء[٣].

وجوَّز أبو البقاء أن يكون الفاعلُ ضميرَ الله تعالى، و«الملائكةُ» على هذا مبتدأٌ وخبرُه جملةُ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾[٤]، والجملةُ الاسمية مستأنفةٌ، وعند أبي البقاء في

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٧١٦.
(٢) كأنه قيل: قد مضى هذا المعنى ولم تره ولو رأيته لرأيت أمراً فظيعاً. حاشية الشهاب ٤/ ٢٨٢.
(٣) التيسير ص١٦، والنشر ٢/ ٢٧٧.
(٤) الإملاء ٣/ ١٢٤.

موضع الحال، ولم تَحْتَج إلى الواو لأجل الضمير[١]، ومَن يرى أنَّه لابدَّ فيها من الواو وتَرْكُها ضعيفٌ يلتزمُ الأول.

وعلى الأول يحتمل أن تكون جملة «يضربون» مستأنفةً، وأنْ تكون حالاً من الفاعل أو المفعولِ أو منهما؛ لاشتمالها على ضميريهما، وهي مُضارِعيةٌ يُكتفَى فيها بالضمير كما لا يخفى.

والمراد من «وجوههم» ما أَقْبَلَ منهم، ومن قوله سبحانه: ﴿وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ ما أدبر، وهو كلُّ الظَّهر. وعن مجاهد أنَّ المرادَ منه أستاهُهم، ولكن الله تعالى كريم يَكْني. والأولُ أَوْلَى. وذِكْرُهما يحتمل أن يكون للتخصيص بهما؛ لأنَّ الخزيَ والنكالَ في ضَرْبهما أشدُّ، ويحتمل أن يرادَ التعميمُ، على حدِّ قوله تعالى: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] لأنَّه أقوى ألماً.

والمراد من «الذين كفروا»: قتلى بدرٍ، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيرِه. وروي عن الحسن أنَّ رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إنِّي رأيتُ بظهر أبي جهل مثل الشراك. فقال عليه الصلاة والسلام: «ذلك ضربُ الملائكة[٢]».

وفي روايةٍ عن ابن عباس ما يُشعِرُ بالعموم، فقد أخرج ابنُ أبي حاتم عنه أنَّه قال: آيتان يبشَّرُ بهما الكافرُ عند موته، وقرأ: (وَلَوْ تَرَىٰٓ) إلخ[٣]. ولعل الرواية عنه رضي الله عنه لم تصحَّ.

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ عطفٌ على «يضربون» بإضمار القول، أي: ويقولون ذوقوا، أو حالٌ من ضميره كذلك، أي: ضاربين وجوهَهم وقائلين: ذوقوا، وهو على الوجهين من قول الملائكة، والمراد بعذاب الحريق عذابُ النار في الآخرة، فهو بشارةٌ لهم من الملائكة بما هو أدهى وأمرُّ ممَّا هم فيه.

وقيل: كان مع الملائكة يومَ بدرٍ مقامعُ من حديد، كلما ضربوا المشركين بها التهبت النارُ في جراحاتهم[٤]. وعليه فالقول للتوبيخ.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) أخرجه الطبري ١١/ ٢٣٠.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٧١٧.
(٤) تفسير البغوي ٢/ ٢٥٦.

والتعبيرُ بـ «ذوقوا» قيل: للتهكُّم؛ لأنَّ الذوقَ يكون في المطعومات المستلذَّة غالباً.

وفيه نكتةٌ أخرى، وهو أنه قليل من كثير، وأنه مقدِّمةٌ كأنموذج الذائق. وبهذا الاعتبار يكون فيه المبالغةُ، وإنْ أَشْعَرَ الذوقُ بقلَّتِه.

وذكر بعضُهم ـ وهو خلاف الظاهر ـ أنه يحتمل أن يكون هذا القولُ من كلام الله تعالى كما في «آل عمران»: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

وجواب «لو» محذوفٌ لتفظيع الأمر وتهويله، وتقديرُه ما أشرنا إليه سابقاً، وقدَّره الطيبي: لرأيتَ قوةَ أوليائه، ونصرَهم على أعدائه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الضربُ والعذابُ اللذان هما هما، وهو مبتدأٌ خبرهُ قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ والباء للسببية، وتقديمُ الأيدي مجازٌ عن الكسب والفعل، أي: ذلك واقعٌ بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصي.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ قيل: خبرُ مبتدأ محذوفٍ، والجملةُ اعتراض تذييلي مقرِّرٌ لمضمون ما قبلها، أي: والأمر أنه تعالى ليس بمعذِّبٍ لعبيده من غير ذنبٍ من قِبَلهم. والتعبيرُ عن ذلك بنفي الظلم ـ مع أنَّ تعذيبهم بغير ذنبٍ ليس بظلم قطعاً على ما تقرَّر من قاعدة أهل السنة، فضلاً عن كونه ظلماً بالغاً ـ لبيان كمال نزاهته تعالى بتصويره بصورة ما يستحيل صدورُه عنه تعالى من الظلم.

وقال البيضاويُّ بيَّض الله غرَّة أحواله: هو عطف على «ما» للدلالة على أن سببيَّتَه مقيَّدةٌ بانضمامه إليه، إذ لولاه لأَمْكَنَ أن يعذِّبَهم بغير ذنوبهم، لا أنْ لا يعذِّبهم بذنوبهم، فإنَّ تركَ التعذيب من مستحقِّه ليس بظلمٍ شرعاً ولا عقلاً حتى ينتهض نفي الظلم سبباً للتعذيب(١).

وأراد بذلك الرَّد على الزمخشريِّ عامَلَهُ الله تعالى بعدْلِه، حيثُ جَعَلَ كلًّا من الأمرين سبباً، بناءً على مذهبه في وجوب الأصلح(٢). فقوله: لا أن لا يعذِّبَهم.

---

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٤/ ٢٨٣-٢٨٤.

(٢) الكشاف ٢/ ١٦٣-١٦٤، ونقله المصنف بواسطة الشهاب في الحاشية ٤/ ٢٨٣.

عطفٌ على: أن يعذِّبهم، والمعنى: أنَّ سبب هذا القيد دفعُ احتمال أن يعذِّبهم بغير ذنوبهم، لا احتمالُ أنْ لا يعذبهم بذنوبهم، فإنه أمرٌ حسن.

وقوله: للدلالة.. إلخ، على معنى: أنَّ تعيُّنه للسببية إنما يحصل بهذا القيد؛ إذ بإمكان تعذيبهم بغيرِ ذنبٍ، يحتمل أن يكون سببُ التعذيب إرادةَ العذاب بلا ذنب، فحاصل معنى الآية: إنَّ عذابَكم هذا إنما نشأ من ذنوبكم لامن شيءٍ آخرَ. فلا يَرِدُ عليه ما قيل: كون تعذيب الله تعالى للعباد بغير ذنبٍ ظلماً لا يوافقُ مذهب الجماعة.

وما قيل: إنَّ هذا يخالفُ ما في «آل عمران» من أنَّ سبَبيَّتَه للعذاب من حيث إنَّ نفيَ الظلم يستلزمُ العدلَ المقتضي إثابةَ المحسن ومعاقبةَ المسيء = مدفوعٌ بأنَّ لنفي الظلم معنيين: أحدُهما ما ذكر من إثابة المحسن إلخ، والآخر عدمُ التعذيب بلا ذنبٍ، وكلٌّ منهما يَؤُولُ إلى معنى العدل، فلا تدافُعَ بين كلاميه. وأما جَعلُه هناك سبباً وهُنا قيداً للسبب، فلا يوجبُ التدافعَ أيضاً؛ فإن المرادَ - كما ذكرنا فيما قبلُ - بالسبب الوسيلةُ المحضةُ، وهو وسيلةٌ سواءٌ اعتُبر سبباً مستقلًّا أو قيداً للسبب.

ولمولانا شيخ الإسلام في هذا المقام كلامٌ لا يخفى عليك ردُّه بعد الوقوف على ما ذكرنا. وقد تقدَّم لك بَسْطُ الكلام فيه[(١)].

ومن الناس من بيَّن قولَ القاضي: للدلالة.. إلخ. بقوله: يريد أنَّ سببيَّةَ الذنوب للعذاب تتوقَّفُ على انتفاء الظلم منه تعالى، فإنه لو جاز صدورُه عنه سبحانه، لأمكن أن يعذِّب عبيدَه بغير ذنوبهم، فلا يصلحُ أن يكونَ الذنبُ سبباً للعذاب لا في هذه الصورة ولا في غيرها.

ثم قال: فإنْ قلتَ: لا يلزم من هذا إلا نفيُ انحصار السبب للعذاب في الذنوب، لا نفيُ سببيتها له، والكلام فيه؛ إذ يجوز أن يقعَ العذابُ في الصورة المفروضة بسببٍ غير الذنوب[(٢)]، ولا ينافي هذا كونها سبباً له في غير هذه الصورة كما في أهل بدر، فلا يتم التقريب[(٣)].

---

(١) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (٨٢) من سورة آل عمران.

(٢) في الأصل: الذنب، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٤/ ٢٨٣، والكلام منه.

(٣) في حاشية الشهاب: الترتيب.

قلت: السببُ المفروضُ في الصورة المذكورة إن أوجب استحقاقَ العذاب يكون ذنباً لا محالة، والمفروضُ خلافهُ، وإن لم يوجب فلا يُتَصَوَّر أن يكونَ سبباً؛ إذ لا معنى لكون شيءٍ سبباً إلَّا كونه مقتضياً لاستحقاقه له، فإذا انتفى هذا ينتفي ذلك، وبالجملة فمآل كونِ التعذيب من غيرِ ذنبٍ إلى كونه بدون السبب، لانحصار السبب فيه. انتهى.

ورُدَّ بأن قوله: وإنْ لم يُوْجِبْ فلا يُتصوَّر أن يكون سبباً... ممنوع؛ فإنَّ السبب الموجِبَ ما يكون مؤثِّراً في حصول شيءٍ، سواءٌ كان عن استحقاق أو لم يكن، ألا يرى أن الضربَ بظلم والقتلَ كذلك سببان للإيلام والموت، مع أنهما ليسا عن استحقاق، فاعتراضُ السائل واقعٌ موقعَه، ولا يمكن التفصِّي عنه إلا بما قرِّر سابقاً من معنى الآية[1]، فإن المقام مقامُ تعيين السببية وتخصيصِها للذنوب، وذلك لا يحصلُ إلا بنفي صدور العذاب بلا ذنبٍ منه سبحانه وتعالى.

ومن هنا عُلم أنَّ قوله: وبالجملة..إلخ، ليس بسديدٍ؛ فإنَّ مبناه كونُ الاستحقاق شرطاً للسببية وقد مرَّ ما فيه، مع ما فيه من المخالفة لكلام الأجلَّةِ من كون نفي الظلم سبباً آخر للتعذيب، لأنَّ سببيةَ نفي الظلم موقوفةٌ على إمكان إرادة التعذيب بلا ذنب، وكونِها سبباً للعذاب، فكيف يكونُ مآلُ كون التعذيب بلا ذنبٍ إلى كونه بدون السبب؟ فتأمَّلْ، فالمقامُ معترك الأفهام.

ثم إنَّ المرادَ في الآية نفيُ نفسِ الظُّلم وإنما كُثِّر توزيعاً على الآحاد، كأنه قيل: ليس بظالم لفلانٍ، ولا بظالمٍ لفلان، وهكذا، فلما جُمع هؤلاء عَدَلَ إلى «ظلَّام» لذلك.

وجوِّز أن يكون إشارةً إلى عِظَم العذاب على سبيل الكناية؛ وذلك لأنَّ الفعل يدلُّ بظاهره على غاية الظلم إذا لَم يتعلَّق بمستحقِّه، فإذا صدر ممن هو أعدل العادلين، دلَّ أنه استحقَّ أشدَّ العذاب؛ لأنه أشدُّ المسيئين. قال في «الكشف»: وهذا أوفقُ للطائف كلام الله تعالى المجيد. وفيه وجوهٌ أُخَرُ مرَّ لك بعضُها.

---

(١) وهو أن معناها: ذلك العذاب بكسب أيديكم لا لشيءٍ آخر من إرادة التعذيب بلا ذنب، فإنه تعالى ليس بظلام. حاشية الشهاب ٤/ ٢٨٤.

وقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ خبر مبتدأ محذوفٍ، أي: دأبُ هؤلاء كائنٌ كدأب. . إلخ، والجملة استئنافٌ مسوقٌ لبيان أنَّ ما حلَّ بهم من العذاب بسبب كفرهم لا بشيءٍ آخرَ، حيث شبَّه حالَهم بحال المعروفين بالإهلاك لذلك، لزيادة تقبيحِ حالهم، وللتنبيه على أنَّ ذلك سنَّةٌ مطَّردةٌ فيما بين الأمم المُهلَكة.

والدأبُ: العادةُ المستمرَّة، ومنه قولهُ:

وما زال ذاك الدأبُ حتى تخاذلتْ هوازنُ وارفضَّت سُلَيمٌ وعامرُ[1]

والمرادُ: شأنُهم الذي استمرُّوا عليه مما فعلوا وفُعل بهم من الأخذ، كدأب آل فرعونَ المشهورين بقباحةِ الأعمال، وفظاعةِ العذاب والنكال.

﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من قَبْلِ آل فرعون وأصحابِه من الأمم الذين فعلوا ما فعلوا، ولقُوا من العذاب ما لقُوا، كقوم نوح وعادٍ وأضرابهم.

وقوله تعالى: ﴿كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ﴾ تفسيرٌ لدأبهم لكنْ بملاحظةِ أنَّه الذي فعلوه، لا لدأب آل فرعون ومَن بعدَهم، فإنَّ ذلك معلومٌ منه بقضية التشبيه.

والجملةُ لا محلَّ لها من الإعراب لما أشيرَ إليه، وكذا على ما قيل من أنَّها مستأنفةٌ استئنافاً نحويًّا أو بيانيًّا. وقيل: إنها حاليةٌ بتقدير «قد»، فهي في محلِّ نصبٍ، وقولهُ سبحانه: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ عطفٌ عليها، وحكمُه في التفسير حكمُها، لكنْ بملاحظة الدأب الذي فُعِلَ بهم. والفاءُ لبيان كونه من لوازم جناياتهم وتبعاتها المتفرِّعة عليها.

وذِكْرُ الذنوب لتأكيدِ ما أفادته الفاءُ من السببيّة، مع الإشارة إلى أنَّ لهم مع كفرهم ذنوباً أُخر لها دخلٌ في استتباع العقاب. وجوِّز أن يُرادَ بذنوبهم معاصيهم المتفرِّعةُ على كفرهم، فتكون الباء للملابسة، أي: فأخذهم ملتبسين بذنوبهم، غير تائبين عنها.

وجَعْلُ العذاب من جملة دأبهم ـ مع أنَّه ليس ممَّا يُتصوَّر مداومتهم عليه واعتيادُهم إياه كما هو المعتبر في مدلول الدأب كما عرفت ـ إمَّا لتغليب ما فعلوه

(١) البيت لخداش بن زهير كما في مجاز القرآن ١/ ٢٤٨، والأغاني ٢٢/ ٧٠، ونسبه صاحب المفضليات ص٣٦٦ لعوف بن الأحوص. ووقع في (م): حتى تجادلت.

على ما فُعِل بهم، أو لتنزيل مداومتهم على ما يوجبُه من الكفر والمعاصي بمنزلة مداومتهم عليه، لما بينهما من الملابسة التامَّة.

وإلى كون المراد بدأبهم مجموعَ ما فعلوه وما فُعل بهم يشير ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنَّ آل فرعون أيقنوا بأنَّ موسى عليه السلام نبيُّ الله تعالى فكذَّبوه، كذلك هؤلاء جاءهم محمد ﷺ بالصِّدق فكذَّبوه، فأنزل الله تعالى لهم عقوبةً كما أنزل بآل فرعون. وإلى ذلك ذهب الخازن[1] وغيره.

وقيل: المراد بدأبهم: ما فعلوا فقط، وقيل: ما فُعل بهم فقط، وليس بشيءٍ.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله من الأخذ، أي: إنه سبحانه لا يغلبُه غالبٌ فيدفعَ عقابه عمَّن أراد معاقبته.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما يفيده النظمُ الكريم من كون ما حلَّ بهم من العذاب منوطاً بأعمالهم السيئة غيرَ واقع بلا سابقةٍ ما يقتضيه، وهو مبتدأٌ خبرُه قوله سبحانه: ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ إلخ، والباءُ للسببية، والجملةُ مسوقةٌ لتعليل ما أُشير إليه، أي: ذلك كائن بسبب أنَّ الله سبحانه ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا﴾ أي: لم يَنْبغِ له سبحانه ولم يصحَّ في حكمته أن يكونَ بحيث يغيِّر نعمةً أيَّ نعمة كانت، جلَّت أو هانت، أَنْعَم بها ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾ من الأقوام ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ - أي: ذواتهم - من الأعمال والأحوال التي كانو عليها وقتَ ملابستهم للنعمة، ويتَّصفوا بما ينافيها، سواءٌ كانت أحوالُهم السابقة مرضيةً صالحةً أو أهونَ من الحالة الحادثة، كدأب كفرة قريشٍ المذكورين، حيث كانوا قبلَ البعثة كفرةً عبدة أصنامٍ مستمرِّين على حالٍ مصحِّحةٍ لإفاضة نِعَمِ الإمهال وسائر النعم الدنيوية عليهم، كصِلة الرحم، والكفِّ عن تعرُّض الآيات والرسل عليهم السلام، فلما بُعث النبيُّ ﷺ غيَّروها على أسوأ حالٍ منها وأسخط[2]، حيث كذبوه عليه الصلاة والسلام وعادَوه ومَن تبعَه من المؤمنين، وتحزَّبوا عليهم، وقطَّعوا أرحامهم، فغيَّر الله تعالى ما أنعم به عليهم من نعمةِ الإمهال، ووجَّه إليهم نبالَ العقاب والنَّكال.

---

(١) في (م): ابن الخازن، وينظر تفسير الخازن ٣/ ٤٢.

(٢) في تفسير أبي السعود ٤/ ٢٩ (والكلام منه): غيروها إلى أسوأ منها وأسخط.

وقيل: إنهم لما كانوا متمكِّنين من الإيمان ثمَّ لم يؤمنوا، كان ذلك كأنه حاصلٌ لهم فغيَّروه، كما قيل في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٦]، ولا يخلو عن حُسن.

وجَعَل بعضُهم الإشارة إلى ما حلَّ بهم، ثمَّ إنه لمَّا رأى أنَّ انتفاء تغييرِ الله تعالى حتَّى يغيِّروا لا يقتضي تحقُّقَ تغييره إذ غيَّروا، وأنَّ العدم ليس سبباً للوجود هنا، وأيضاً عدمُ التغيير صارفٌ عمَّا حلَّ بهم لا موجبٌ له بحسب الظاهر. قال: إنَّ السبب ليس منطوقَ الآية بل مفهومَها، وهو جريُ عادته سبحانه على التغيير متى[1] غيَّروا حالَهم، فالسبب ليس انتفاءَ التغيير، بل التغييرُ، قيل[2]: وإنما أوثر التعبيرُ بذلك؛ لأنَّ الأصلَ عدمُ التغيير من الله تعالى، لسَبْقِ إنعامه ورحمته، ولأنَّ الأصل فيهم الفطرةُ، وأما جَعْلُه عادةً جاريةً فبيانٌ لما استقرَّ عليه الحالُ من ذلك، لا أنَّ كونَه عادةً له دخلٌ في السببية.

ولا يخفى أنَّ ما ذكرناه أسلمُ من القِيل والقال، على أنَّ ما فعله البعضُ لا يخلو بعدُ عن مقالٍ فتدبر.

وأصل «يك»: يكن، فحذفت النونُ تخفيفاً لشبهها بأحرف العِلَّة في أنَّها من الزوائد، وهي تحذفُ من أحرفِ المجزوم، فلذا حذفت هذه، وهو مختصٌّ بهذا الفعل لكثرة استعماله.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٥٣﴾ عطفٌ على «أن الله» إلخ داخلٌ معه في حيِّز التعليل، أي: وبسبب أنه تعالى سميعٌ عليم، ليسمع ويعلم جميعَ ما يأتون ويذرون من الأقوال والأفعال السابقة واللَّاحقة، فيرتِّب على كلٍّ منها ما يليقُ من إبقاء النعمةِ وتغييرِها.

وقرئ: «وإنَّ الله» بكسر الهمزة[3]، فالجملةُ حينئذٍ استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله.

---

(١) في (م): حين، والمثبت من الأصل وتفسير البيضاوي على هامش حاشية الشهاب ٤/ ٢٨٥.
(٢) القائل هو الشهاب في الحاشية ٤/ ٢٨٥.
(٣) الإملاء للعكبري ٣/ ١٢٤.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ استئنافٌ آخر ـ على ما ذكرهُ بعضُ المحقِّقين ـ مسوقٌ لتقريرِ ما سيق له الاستئناف الأول، بتشبيه دأبهم بدأب المذكورين، لكنْ لا بطَريقِ التكرير المحض، بل بتغيير العنوان، وجَعْلِ الدأب في الجانبين عبارةً عمَّا يلازمُ معناه الأول من تغيير الحال وتغيير النعمة، أخذاً مما نَطَقَ به قوله تعالى: (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا) إلخ، أي: دأب هؤلاء وشأنهم الذي هو عبارةٌ عن التغييرين المذكورين كدأب أولئك حيثُ غيَّروا حالَهم، فغيَّر الله تعالى نعمتَه عليهم، فقوله سبحانه: (كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ) تفسيرٌ لدأبهم الذي فعلوه من تغييرهم لحالهم، وأشير بلفظ الرب إلى أنَّ ذلك التغييرَ كان بكفران نِعَمِه تعالى؛ لما فيه من الدلالة على أنَّه مربِّيهم المنعم عليهم. وقوله سبحانه: «فأهلكناهم» تفسيرٌ لدأبهم الذي فُعل بهم، من تغييرِه تعالى ما بهم من نِعمته جلَّ شأنه.

وفي الإهلاك رمزٌ إلى التغيير، ولذا عبَّر به دون الأخذ المعبَّر به أوَّلاً، وليس الأخذُ مثلَه في ذلك، ألا ترى أنه كثيراً ما يُطْلَقُ الإهلاكُ على إخراج الشيء عن نظامه الذي هو عليه، ولم نرَ إطلاقَ الأخذ على ذلك.

وقيل: إنَّما عبَّر أوَّلاً بالأخذ وهنا بالإهلاك، لأن جنايَتهم هنا الكفرانُ وهو يقتضي أعظم النَّكال، والإهلاكُ مشيرٌ إليه، ولا كذلك ما تقدَّم. وفيه نظر.

وأما دأبُ قريش فمستفادٌ مما ذُكر بحكم التشبيه، فلله تعالى دَرُّ التنزيل حيث اكتفى في كلٍّ من التشبيهين بتفسيرِ أحدِ الطرفين.

وفي «الفرائد»: أن هذا ليس بتكريرٍ لأنَّ معنى الأول: حالُ هؤلاء كحال آل فرعون في الكفر، فأَخَذَهم وأتاهم العذابُ. ومعنى الثاني: حالُ هؤلاء كحال آل فرعون في تغييرهم النِّعم، وتغييرُ اللهِ تعالى حالَهم بسبب ذلك التغيير، وهو أنه سبحانه أغرقهم، بدليل ما قبله. وما ذكرناه أتمُّ تحريراً.

واعترضه العلَّامة الطِّيبي بأنَّ النظم الكريمَ يأباه؛ لأنَّ وجه التشبيه في الأول كفرُهم المترتِّبُ عليه العقابُ، فكذلك ينبغي أن يكون وجههُ في الثاني ما يفهَمُ من قوله سبحانه: (كَذَّبُوا) إلخ لأنه مثلهُ؛ لأنَّ كلًّا منهما جملةٌ مبتدأة بعد تشبيهٍ، صالحةٌ

لأنْ تكونَ وجهَ الشَّبه، فتحمل عليه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وأما قوله سبحانه: (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ) إلخ فكالتعليل لحلول النَّكال معترضٌ بين التشبيهين، غيرُ مختصٍّ بقوم، بل هو متناولٌ لجميع مَن يغيِّر نعمةَ الله تعالى من الأمم السابقة واللاحقة، فاختصاصُه بالوجه الثاني دون الأول، وإيقاعُه وجهاً للتشبيه مع وجوده صريحاً كما علمتَ، بعيدٌ عمَّن ذاق معرفة الفصاحتين، ووقف على ترتيب النَّظم من الآيتين. انتهى.

ولا يخفى أنَّ هذا غيرُ ما قدَّمناه عند التأمل.

والقولُ في التفرقة بين الآيتين: أنَّ الأُولى لبيان حالهم في استحقاقِهم عذابَ الآخرة، والثانيةَ لبيان استحقاقهم عذابَ الدنيا. أو أنَّ المقصودَ أولاً تشبيهُ حالهم بحالِ المذكورين في التكذيب، والمقصودَ ثانياً تشبيهُ حالهم بحالهم في الاستئصال. أو أنَّ المرادَ فيما تقدَّم بيانُ أخذهم بالعذاب، وهنا بيانُ كيفيَّتِه = ممَّا لا ينبغي أن يعوَّل عليه.

وقال بعضُ الأكابر: إنَّ قوله سبحانه: (كَدَأْبِ) في محلِّ النصب على أنه نعتٌ لمصدرٍ محذوف، أي: حتى يغيِّروا ما بأنفسهم تغييراً كائناً كدأب آل فرعون، أي: كتغييرهم، على أنَّ دأبَهم عبارةٌ عمَّا فعلوه، كما هو الأنسبُ بمفهوم الدأب. وقوله تعالى: (كَذَّبُواْ) إلخ تفسيرٌ له بتمامه، وقوله سبحانه: (فَأَهْلَكْنَٰهُم) إلخ إخبارٌ بترتُّب العقوبة عليه، لا أنَّه من تمام تفسيره، ولا ضَير في توسُّط قولِه عزَّ شأنه: (وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) بينهما سواءٌ عطفاً أو استئنافاً.

وفيه خروجُ الآية عن نمطِ أختها بالكلِّيَّة، وأيضاً لا وجهَ لتقييدِ التغيير الذي يترتَّب عليه تغييرُ الله تعالى بكونه كتغيير آل فرعون، على أنَّ كونَ الجارِّ في محلِّ نصبٍ على أنه نعتٌ بعيدٌ مع وجود ذلك الفاصل وإنْ قلنا بجواز الفصل. ومَن أنْصفَ عَلِمَ أنَّ بلاغةَ التنزيل تقتضي الوجهَ الأوَّل.

والالتفاتُ إلى نون العظمةِ في «أهلكنا» جرياً على سَنَنِ الكبرياءِ؛ لتهويل الخَطْبِ، وهذا لا ينافي النكتةَ التي أشرنا إليها سابقاً كما لا يَخْفَى. والكلامُ في الفاء وذكر الذنوب على طرزِ ما ذكرناه في نظيرِه.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ عطفٌ على «أهلكنا»، وفي عطفه عليه مع اندراج مضمونِه تحت مضمونه إيذانٌ بكمالِ هول الإغراق وفظاعته.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي: كلٌّ من الفِرق المذكورين، أو: كلٌّ من هؤلاء وأولئك. أو: كلٌّ من آل فرعون وكفَّارِ قريش ـ على ما قيل ـ بناءً على أنَّ قبله في تشبيه دأبِ كفرة قريش بدأبِ آل فرعون صريحاً وتعييناً، وأنَّ مثله يكفي قرينةً للتخصيص.

﴿كَانُوا ظَٰلِمِينَ ۝٥٤﴾ أي: أنفسَهم بالكفر والمعاصي، ولو عمّم لكان له وجه، أو: واضعينَ للكفر والتكذيب مكانَ الإيمان والتصديق، ولذلك أصابهم ما أصابهم.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حُكْمِه وقضائه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: أصرُّوا على الكفر ورَسَخوا فيه، وهذا شروعٌ في بيان أحوال سائر الكفرة بعد بيان أحوالِ المهلَكين منهم، ولم يقلْ سبحانه: شرَّ الناس؛ إيماء إلى أنَّهم بمعزلٍ عن مُجانَستهم، بل هم من جنس الدوابِّ وأشرِّ أفراده.

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥﴾ حكمٌ مترتِّبٌ على تماديهم في الكفر ورسوخِهم فيه، وتسجيلٌ عليهم بكونهم من أهل الطبع لا يلويهم صارفٌ، ولا يُثنيهم عاطفٌ، جيء به على وجه الاعتراض.

وقيل: عطفٌ على الصِّلة مُفْهِمٌ معنى الحال، كأنه قيل: إنَّ شرَّ الدوابِّ الذين كفروا مصرِّين على عدم الإيمان.

وقيل: الفاءُ فصيحة، أي: إذا علمت أنَّ أولئك شرُّ الدواب، فاعلم أنَّهم لا يؤمنون أصلاً، فلا تُتعب نفسَك.

وقيل: هي للعطف، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ تحقُّقَ المعطوف عليه يستدعي تحقُّق المعطوف، حيثُ جُعل ذلك مترتِّباً عليه ترتُّبَ المسبَّب على سببه، والكلُّ كما ترى.

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ بدل من الموصول الأول، أو عطفُ بيان، أو نعتٌ، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أو نصبٌ على الذمِّ. وعائدُ الموصول قيل: ضميرُ الجمع المجرور، والمرادُ: عاهدتهم، و«من» للإيذان بأنَّ المعاهدةَ التي هي عبارةٌ عن إعطاء العهد وأَخْذِه من الجانبين معتبرةٌ هاهنا من حيث أَخْذُه ﷺ؛ إذ هو المناطُ لِمَا

نَعَى عليهم من النقض، لا إعطاؤه عليه الصلاة والسلام إياهم عهده، كأنه قيل: الذين أخذتَ منهم عهدَهم. وإلى هذا يرجع قولهم: إنَّ «من» لتضمين العهد معنى الأخذ، أي: عاهدتَ آخذاً منهم.

وقال أبو حيان[1]: إنها تبعيضية؛ لأنَّ المباشر بعضُهم لا كلُّهم.

وذكر أبو البقاء[2] أنَّ الجارَّ والمجرور في موضع الحال من العائد المحذوف، أي: الذين عاهدتهم كائنين منهم. وقيل: هي زائدة. وليس بذاك.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ عطفٌ على الصِّلة، وصيغةُ الاستقبال للدلالة على تعدُّد النقض وتجدُّدِه، وكونِهم على نيَّته في كلِّ حال، أي: ينقضون عهدَهم الذي أُخذ منهم ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ أي: من مرات المعاهَدة كما هو الظاهرُ، واختاره غيرُ واحد. وجوِّز أن يراد: في كلِّ مرَّة من مرَّات المحارَبة، وفيه بحث.

﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦﴾ في موضع الحال من فاعل «ينقضون»، أي: يستمرُّون على النقض والحالُ أنَّهم لا يتَّقون سبَّةَ الغدر ومغبَّته، أو لا يتَّقون الله تعالى فيه. وقيل: لا يتقون نصرةَ المسلمين وتَسلُّطَهم عليهم.

والآية على ما قال جمع: نزلتْ في يهودِ قريظةَ، عاهدوا رسول الله ﷺ أنْ لا يمالئوا عليه، فأعانوا المشركين بالسلاح، فقالوا: نسينا. ثمَّ عاهدهم عليه الصلاة والسلام فنكثوا ومالَؤوهم عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يومَ الخندق، وركب كعبٌ إلى مكةَ فحالفهم على حرب رسول الله ﷺ.

وأخرج أبو الشيخ[3] عن سعيدِ بن جبير أنَّها نزلتْ في ستة رَهْطٍ من يهود منهم ابنُ تابوت. ولعلَّه أراد بهم الرؤساءَ المباشرين للعهد.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ شروعٌ في بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم، والفاءُ لترتيب ما بعدَها على ما قبلها، والثقفُ يُطلق على المصادفة وعلى الظفر، والمراد به هنا المترتِّب على المصادفةِ والملاقاة، أي: إذا كان حالُهم كما ذكر فإمَّا تصادفنَّهم

---

(١) في البحر ٤/٥٠٨.
(٢) في الإملاء ٣/ ١٢٥.
(٣) كما في الدر المنثور ٣/ ١٩١.

وتظفرنَّ بهم ﴿فِي ٱلْحَرْبِ﴾ أي: في تضاعيفها ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾ أي فرِّق بهم ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: مَن وراءَهم من الكفرة، يعني: افعل بهؤلاء الذين نقضوا عهدَك فعلاً من القتل والتنكيل العظيم يفرِّق عنك بسببه مَن خلفَهم، ويَعْتَبِر به مَن سَمِعَه من أهل مكةَ وغيرهم، وإلى هذا يرجع ما قيل مِن أنَّ المعنى: نكِّل بهم[1] ليتَّعظ مَن سواهم.

وقيل: إنَّ معنى شرِّد بهم: سمِّع بهم في لغة قريش؛ قال الشاعر:

أطوِّفُ بالأباطح كلَّ يومٍ مخافةَ أن يشرِّد بي حكيمُ[2]

وقرأ ابنُ مسعود والأعمش: «فشرِّذ» بالذال المعجمة.[3] وهو بمعنى «شرِّد» بالمهملة. وعن ابن جني[4] أنَّه لم يمر بنا في اللغة تركيبُ «شرذ». والأَوْجَهُ أن تكونَ الذالُ بدلاً من الدال، والجامع بينهما أنَّهما مجهوران ومتقاربان.

وقيل: إنه قَلْبٌ مِن شَذَرَ، ومنه: شَذَرَ مَذَرَ للمتفرِّق.

وذهب بعضُ أهل اللغة إلى أنَّها موجودة ومعناها التنكيلُ، ومعنى المهمل التفريقُ كما قاله قطرب، لكنها نادرة.

وقرأ أبو حيوة: «مِن خَلْفِهم» بـ «مِن» الجارَّة[5]، والفعل عليها منزَّلٌ منزلةَ اللازم، كما في قوله:

يجرحْ في عراقيبها نَصْلي[6]

---

(١) في (م): به.

(٢) البيت للحارث بن أمية الأصغر كما في أخبار مكة للأزرقي ٢/ ٢٤٢، وأخبار مكة للفاكهي ٣/ ٢٨١، والمنمق لابن حبيب ص٢٨٦، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٩، واللسان (شرد). وجاء في بعض المصادر: يشردني. وحكيم هو ابن أمية بن حارثة السلمي، وذكر ابن الأثير في أسد الغابة ٢/ ٤٣ أنه أسلم قديماً بمكة.

(٣) القراءات الشاذة ص٥٠، والمحتسب ١/ ٢٨٠.

(٤) في المحتسب ١/ ٢٨٠.

(٥) القراءات الشاذة ص٥٠.

(٦) قطعة من بيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ١/ ١٥٦، والبيت بتمامه:

وإن تعتذر بالمَحْل من ذي ضروعها على الضيف يجرحْ في عراقيبها نَصْلي

أي: إن اعتذرتْ بقلَّة اللبن بسبب القحط إلى الضيف، أعقرها لتكون هي عوض اللبن. الخزانة ٢/ ١٢٩.

فالمعنى: افعل التشريد من ورائهم، وهو في معنى جَعْلِ الوراء ظرفاً للتشريد، لتقارُب معنى «مِن» و«في»؛ تقول: اضرب زيداً من وراء عمرو، ووراءه، أي: في ورائه، وذلك يدلُّ على تشريدِ مَن في تلك الجهةِ على سبيل الكناية، فإنَّ إيقاعَ التشريد في الوراء لا يتحقَّق إلا بتشريدِ مَن وراءهم، فلا فرقَ بين القراءتين ـ الفتحِ والكسر ـ إلَّا في المبالغة.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧﴾ أي: لعل المشرَّدين يتَّعظون بما يعملونه مما نزل بالناقضين، فيرتدعُون عن النَّقص، قيل: أو عن الكفر.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ بيانٌ لأحكام المشرفين إلى نقض العهد إثر بيان أحكام الناقضين له بالفعل، والخوفُ مستعارٌ للعلم، أي: وإما تعلمنَّ من قومٍ معاهِدينَ لك نقضَ عهدٍ فيما سيأتي بما يَلُوح لك منهم من الدلائل ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: فاطرح إليهم عهدَهم، وفيه استعارةٌ مكْنيَّةٌ تخييليَّةٌ ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: على طريقٍ مستوٍ وحالٍ قَصْدٍ، بأن تُظهرَ لهم النقضَ وتُخبرَهم إخباراً مكشوفاً بأنَّك قد قطعتَ ما بينك وبينهم من الوصلةِ، ولا تناجزهم الحربَ وهم على توُّهم بقاءِ العهد؛ كيلا يكونَ من قِبَلِكَ شائبةُ خيانةٍ أصلاً، فالجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بمحذوف وقع حالاً من المستكنِّ في «انبذ»، أي: فانبذ إليهم ثابتاً على سواء.

وجوِّز أن يكون حالاً من ضمير «إليهم»، أو من الضميرين معاً، أي: حالَ كونهم كائنين على استواءٍ في العلم بنقض العهد بحيث يستوي فيه أقصاهُم وأدناهُم، أو: حالَ كونك أنت وهم على استواءٍ في ذلك.

ولزومُ الإعلامِ عند أكثر العلماء الأعلام إذا لم تَنْقَضِ مدَّةُ العهد، أو لم يَسْتَفِضْ نقضُهم له ويظهر ظهوراً مقطوعاً به، أمَّا إذا انْقَضت المدَّةُ أو استفاض النقضُ وعَلِمه الناسُ، فلا حاجة إلى ما ذُكر، ولهذا غزا النبيُّ ﷺ أهلَ مكةَ من غير نبذٍ ولم يُعْلمهم؛ لأنَّهم[1] كانوا نقضوا العهدَ علانيةً بمعاونتهم بني كنانةَ على قتل خزاعةَ حلفاءِ النبيِّ ﷺ.

---

(١) في (م): بأنهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾ تعليلٌ لأمر بالنبذ باعتبار استلزامِه للنهي عن المناجزة التي هي خيانةٌ، فيكونُ تحذيراً للنبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم منها.

وجوِّز أن يكون تعليلاً لذلك باعتبار استتباعه للقتال بالآخرةِ، فتكون حثًّا له ﷺ على النبذ أولاً وعلى قتالهم ثانياً، كأنَّه قيل: وإمَّا تعلمنَّ من قوم خيانةً فانبذ إليهم ثمَّ قاتِلْهم، إنَّ الله لا يحبُّ الخائنين وهم من جملتهم لِمَا علمتَ حالَهم.

والأول هو المتبادر، وعلى كلا التقديرين المرادُ من نفي الحبِّ إثباتُ البغض، إذ لا واسطةَ بين الحبِّ والبُغض بالنسبة إليه تعالى.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ بياء الغيبة، وهي قراءةُ حفص وابن عامر وأبي جعفر وحمزة[1]. وزَعْمُ تفرُّد الأخير بها وهمٌ، كزَعْمِ أنَّها غيرُ نيِّرة، فقد نصَّ في «التيسير» على أنه قرأ بها الأوَّلان أيضاً، وفي «المجمع» على أنه قرأ بها الأربعة، وقال المحققون: إنها أَنْوَرُ من الشمس في رابعة النهار؛ لأنَّ فاعلَ «يحسبنَّ» الموصولُ بعدَه، ومفعولَه الأولَ محذوفٌ، أي: أنفسَهم، وحُذف للتكرار، والثاني جملةُ «سبقوا»، أي: لا يحسبنَّ أولئك الكافرون أنفسَهم سابقين، أي: مُفْلَتين من أنْ يظفرَ بهم[2].

والمراد من هذا إقناطُهم من الخلاص، وقطعُ أطماعهم الفارغة من الانتفاع بالنبذ. والاقتصارُ على دفع هذا التوهُّم، وعدمُ دَفْع توهم سائر ما تتعلَّق به أمانيُّهم الباطلةُ من مقاومة المؤمنين أو الغلبةِ عليهم؛ للتنبيه على أنَّ ذلك مما لا يَحومُ عليه عُقابُ وَهْمِهم وحسبانِهم، وإنَّما الذي يمكن أن يدورَ في خَلَدِهم حسبانُ المناصِ فقط.

ويحتمل أن يكونَ الفاعلُ ضميراً مستتراً، والحذفُ لا يخطرُ بالبال كما توهِّم، أي: لا يحسبن هو، أي: قبيلُ المؤمنين، أو الرسلُ، أو الحاسبُ، أو من خلفهم، أو أحدٌ، وهو معلومٌ من الكلام، فلا يَرِدُ عليه أنه لم يَسْبِقْ له ذكر، ومفعولا الفعل «الذين كفروا» و«سبقوا».

---

(١) التيسير ص١١٧، والنشر ٢/ ٢٧٧.

(٢) مجمع البيان ١٠/ ١٦٨.

وحكي عن الفراء[١] أنَّ الفاعل: «الذين كفروا»، وأنَّ «سبقوا» بتقديرِ: أنْ سبقوا، فتكون «أنْ» وما بعدها سادَّةً مسدَّ المفعولين، وأيَّد بقراءة ابن مسعود: «أنَّهم سبقوا»[٢]. واعترضه أبو البقاء[٣] وغيرُه بأنَّ «أنْ» المصدريةَ موصولٌ، وحذفُ الموصول ضعيفٌ في القياس، شاذٌّ في الاستعمال، لم يَرِد منه إلا شيءٌ يسير كـ: تسمعُ بالمعيديِّ خيرٌ من أن تراه، ونحوِه، فلا ينبغي أن يخرَّج كلام الله تعالى عليه.

وقرأ مَن عدا مَن ذُكر: «تَحسبن» بالتاء الفوقية[٤]، على أنَّ الخطاب للنبيِّ ﷺ، أو لكلِّ مَن له حظٌّ في الخطاب، و«الذين كفروا سبقوا» مفعولاه، ولا كلامَ في ذلك.

وقرأ الأعمش: «ولا تَحْسَب الذين» بكسر الباء وفتحِها على حذفِ النون الخفيفة[٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ - أي: لا يفوتون اللهَ تعالى، لا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم - تعليلٌ للنهي على طريق الاستئناف. وقرأ ابن عامر: «أنهم» بفتح الهمزة[٦]، وهو تعليلٌ أيضاً بتقدير اللام المطَّردِ حَذْفُها في مثله.

وقيل: الفعلُ واقعٌ عليه، و«لا» صلة، ويؤيِّده أنه قرئ بحذفها[٧]، و«سبقوا» حال بمعنى سابقين، أي: مفلتين هاربين.

وضعِّف بأن «لا» لا تكون صلةً في موضعٍ يجوز أن لا تكونَ كذلك، وبأنَّ المعهود كما قال أبو البقاء في المفعول الثاني لـ «حسب» في مثل ذلك أن تكون «إنَّ» فيه مكسورةً[٨].

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٤١٥.
(٢) ذكرها الفراء في معاني القرآن ١/ ٤١٤، وأبو حيان في البحر ٤/ ٥١٠.
(٣) الإملاء ٣/ ١٢٧-١٢٨.
(٤) التيسير ص١١٧، والنشر ٢/ ٢٧٧، وقراءة شعبة بفتح السين والباقون بكسرها.
(٥) الكشاف ٢/ ١٦٥، والبحر ٤/ ٥١٠.
(٦) التيسير ص١١٧.
(٧) ذكرها الشهاب في الحاشية ٤/ ٢٨٧.
(٨) الإملاء ٣/ ١٢٨-١٢٩.

وهذا ـ على قراءة الخطاب ـ لإزاحة ما عسى أن يحذر من عاقبة النبذِ؛ لِمَا أنَّه إيقاظٌ للعدوِّ، وتمكينٌ لهم من الهرب والخلاص من أيدي المؤمنين، وفيه نفيٌ لقدرتهم على المقاومة والمقابلة على أبلغ وجهٍ وآكدِه كما أشير[1] إليه.

وذكر الجبَّائي أنَّ «لا يُعْجزون» على معنى: لا يُعْجِزونَك، على أنَّه خطابٌ أيضاً للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، ولا يخلو عن حُسن.

والظاهر أنَّ عدم الإعجاز كيفما قدِّر المفعولُ إشارةٌ إلى أنه سبحانه سيمكِّن منهم في الدنيا، فما روي عن الحسن أنَّ المعنى: لا يفوتون اللهَ تعالى حتى لا يَبعثَهم في الآخرة[2]. غريبٌ منه إن صحَّ.

وادَّعى الخازنُ[3] أنَّ المعنى على العموم، على معنى: لا يُعْجِزون الله تعالى مطلقاً، إمَّا في الدنيا بالقتل، وإمَّا في الآخرة بعذاب النار. وذكر أنَّ فيه تسليةً للنبي ﷺ فيمَن فاته من المشركين ولم ينتقم منهم. وهو ظاهر على القول بأنَّ الآية نزلت فيمَن أفلتَ من فلِّ المشركين، وروي ذلك عن الزهري.

وقرئ: «يعجزون» بالتشديد[4].

وقرأ ابن محيصن: «يُعْجِزونِ» بكسر النون[5]، بتقدير: يعجزونني، فحذفت إحدى النونين للتخفيف، والياءُ اكتفاءً بالكسرة، ومثله كثيرٌ في الكتاب.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾ خطابٌ لكافَّة المؤمنين؛ لما لأنَّ المأمورَ به من وظائف الكلِّ، أي: أعدُّوا لقتال الذين نُبذ إليهم العهد، وهيِّئوا لحرابهم، كما يقتضيه السياق، أو: لقتال الكفار على الإطلاق، وهو الأَوْلَى كما يقتضيه ما بعده.

---

(١) في (م): يشير.
(٢) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٠/ ١٧٠.
(٣) في تفسيره ٢/ ٤٤-٤٥.
(٤) قرئ بتشديد النون وتشديد الجيم، فقد قرأ ابن محيصن: «يُعْجزونِّ» بنون مشددة مكسورة، وعنه أيضاً: «يعجِّزونِ» بفتح العين وتشديد الجيم وكسر النون. معاني القرآن للنحاس ٣/ ١٦٥-١٦٦، والبحر ٤/ ٥١١، والدر المصون ٥/ ٦٢٦.
(٥) القراءات الشاذة ص٥٠، وذكرها أبو حيان في البحر ٤/ ٥١١ عن طلحة بن مصرف.

﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أي: من كلِّ ما يُتقوَّى به في الحرب كائناً ما كان، وأطلق عليه القوة مبالغة، وإنما ذكر هذا لأنَّه لم يكن لهم[١] في بدرٍ استعدادٌ تام، فنبِّهوا على أنَّ النصر من غير استعداد لا يتأتَّى في كل زمان. وعن ابن عباس رضي الله عنهما تفسيرُ القوة بأنواع الأسلحة.

وقال عكرمة: هي الحصون والمعاقل. وفي رواية أخرى عنه: أنها ذكورُ الخيل.

وأخرج أحمد ومسلم وخَلْقٌ كثيرٌ عن عقبةَ بن عامر الجهنيِّ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول وهو على المنبر: (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ) ألا إنَّ القوةَ الرميُ» قالها ثلاثاً[٢]. والظاهر العمومُ، إلا أنَّه عليه الصلاة والسلام خصَّ الرميَ بالذكر لأنَّه أقوى ما يتقوَّى به، فهو من قبيلِ قوله ﷺ: «الحجُّ عرفة»[٣].

وقد مدح عليه الصلاة والسلام الرميَ وأمر بتعلُّمه في غير ما حديثٍ، وجاء عنه عليه الصلاة والسلام: «كلُّ شيءٍ مِنْ لَهْو الدنيا باطلٌ إلَّا ثلاثةً: انتضالَك بقوسك، وتأديبَك فرسَك، وملاعبتَك أهلَك، فإنَّها من الحقِّ»[٤].

وجاء في روايةٍ أخرجها النسائيُّ وغيرُه: «كلُّ شيءٍ ليس من ذكر الله تعالى فهو لغوٌ وسهوٌ، إلا أربَع خصالٍ: مشيَ الرجل بين الغرضين، وتأديبَ فرسه، وملاعبتَه أهلَه، وتعليمَ السباحة[٥]».

وجاء أيضاً: «انتضلوا واركبوا، وأن تنتضلوا أحبُّ إليَّ، إنَّ الله تعالى ليُدخِلُ

---

(١) في (م): له.
(٢) مسند أحمد (١٧٤٣٢)، وصحيح مسلم (١٩١٧).
(٣) سلف ٣/ ١٩١.
(٤) قطعة من حديث أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٣٠٥)، والحاكم ٢/ ٩٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال الهيثمي في المجمع ٥/ ٢٦٩: فيه سويد بن عبد العزيز، قال أحمد: متروك، وضعفه الجمهور، ووثقه دحيم، وبقية رجاله ثقات. اهـ. وله شاهد من حديث عقبة بن عامر عند أحمد (١٧٣٠٠)، وأبو داود (٢٥١٣)، والترمذي (١٦٣٧)، والنسائي ٦/ ٢٢٢-٢٢٣. قال الترمذي: حسن صحيح.
(٥) سنن النسائي الكبرى (٨٨٩٠) من حديث جابر رضي الله عنه.

بالسهم الواحدِ ثلاثةً الجنةَ: صانعه محتسباً، والمعينَ به، والراميَ به في سبيل الله تعالى»[(١)].

وأنتَ تعلم أنَّ الرمي بالنِّبال اليوم لا يصيب هدفَ القصد من العدو؛ لأنَّهم استعملوا الرميَ بالبندق والمدافع، ولا يكاد ينفع معهما نبلٌ، وإذا لم يقابَلوا بالمثل عمَّ الداءُ العضالُ، واشتدَّ الوبالُ والنَّكالُ، وملَكَ البسيطةَ أهلُ الكفر والضلال، فالذي أراه ـ والعلم عند الله تعالى ـ تعيُّنُ تلك المقابلة على أئمة المسلمين وحُماةِ الدين، ولعلَّ فَضْلَ ذلك الرمي يثبت لهذا الرمي؛ لقيامه مقامه في الذبِّ عن بيضة الإسلام، ولا أرى ما فيه من النار ـ للضرورة الداعية إليه ـ إلا سبباً للفوز بالجنة إن شاء الله تعالى، ولا يبعدُ دخولُ مثلِ هذا الرميِ في عموم قوله سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾.

﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ الرباط قيل: اسمٌ للخيل التي تُربط في سبيل الله تعالى، على أنَّ فِعال بمعنى مفعول، أو مصدر سميت به، يقال: رَبَط رَبْطاً ورِباطاً، ورابَطَ مرابَطَةً ورباطاً.

واعتُرض بأنه يلزم على ذلك إضافة الشيء لنفسه.

وردَّ بأن المرادَ أنَّ الرباطَ بمعنى المربوط مطلقاً، إلا أنَّه استُعمل في الخيل وخُصَّ بها، فالإضافة باعتبار المفهوم الأصليِّ.

وأجاب القطبُ بأنَّ الرباط لفظٌ مشتركٌ بين معاني الخيل، وانتظارِ الصلاة بعد الصلاة، والإقامةِ على جهاد العدوِّ بالحرب، ومصدرِ رابطتُ، أي لازمتُ، فأضيف إلى أحدِ معانيه للبيان، كما يقال: عينُ الشمس وعين الميزان. قيل: ومنه يُعلم أنه يجوز إضافة الشيء لنفسه إذا كان مشتركاً، وإذا كانت الإضافة من إضافة المطلَق إلى المقيَّد، فهي على معنى «من» التبعيضية.

وجوِّز أن يكون جَمْعَ ربيط، كفَصِيل وفِصَال، أو جمعَ رَبْطٍ، ككعب وكِعاب، وكلب وكلاب.

(١) قطعة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الطبراني في الأوسط (٥٣٠٥)، والحاكم ٢/ ٩٥، وقد سلفت قطعة منه قريباً. وله شاهد من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وقد سلف تخريجه مع حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن عكرمة تفسيرُه بإناث الخيل، وهو ـ كتفسيره القوةَ بما سبق قريباً ـ بعيد.

وذكر ابنُ المنير أنَّ المطابق للرمي أن يكونَ الرباط على بابه مصدراً[١].

وعلى تفسير القوة بالحصون يتمُّ التناسبُ بينَه وبين رباط الخيل؛ لأنَّ العرب سمَّت الخيلَ حصوناً، وهي الحصونُ التي لا تحاصَر كما في قوله:

ولقد عَلِمتُ على تجنُّبيَ الرَّدى ... أنَّ الحصونَ الخيلُ لا مَدَرُ القُرى[٢]

وقال:

وحِصني من الأحداث ظهرُ حصاني[٣]

وقد جاء مدحُها فيما لا يُحصى من الأخبار، وصحَّ: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة»[٤]. وأخرج أحمد عن مَعقِل بن يسار والنسائيُّ عن أنس: لم يكن شيءٌ أحبَّ إلى رسول الله ﷺ بعد النساء من الخيل[٥].

وميَّز ﷺ بعضَ أصنافها على بعض، فقد أخرج أبو عبيدةَ عن الشعبيِّ في حديثٍ رفعه: «التمسوا الحوائجَ على الفرس الكميتِ الأرثم، المحجَّل الثلاثِ، المطلقِ اليد اليمنى»[٦].

---

(١) الانتصاف ٢/١٦٦.

(٢) البيت للأسعر الجُعْفي الشاعر الفارس، وهو في الأصمعيات ص١٤١، والمؤتلف والمختلف للآمدي ص٥٨، وفي الأصمعيات: تجشمي، بدل: تجنبي.

(٣) ذكره الشهاب في الحاشية ٤/ ٢٨٨.

(٤) أخرجه أحمد (١٩٣٥٩)، والبخاري (٣١١٩)، ومسلم (١٨٧٣) من حديث عروة بن الجعد البارقي ﷺ.

(٥) مسند أحمد (٢٠٣١٢)، والمجتبى ٦/ ٢١٧-٢١٨.

(٦) أخرجه أبو عبيدة في بداية كتاب الخيل له، وهو مرسل. وأخرج أحمد (٢٢٥٦١)، والترمذي(١٦٩٦) من حديث أبي قتادة، عن النبي ﷺ: «خير الخيل الأدهم الأقرح الأرثم، ثم الأقرح المحجل، طَلْقُ اليمين، فإن لم يكن أدهم فكُميتٌ على الشِّيَةِ». قال السندي كما في حاشية المسند: الأدهم: الأسود. الأقرح: ما كان في جبهته قُرْحة، وهو بياض يسير دون الغرة. الأرثم: هو الذي أنفه أبيض وشفته العليا. المحجل: هو الذي في قوائمه بياض. طلق اليمين، أي: مطلقها، ليس فيها تحجيل. الكميت: هو الذي لونه بين السواد والحمرة.

وأخرج أبو داود والترمذيُّ وحسَّنه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ «يُمنُ الخيل في شقرها»[١].

وأخرج مسلم وغيرُه عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يكره الشِّكال من الخيل»[٢].

واختلف في تفسيره؛ ففي «النهاية»[٣]: الشِّكال في الخيل أن تكون ثلاثُ قوائمَ محجَّلةً وواحدةٌ مطْلَقةً، تشبيهاً بالشِّكال الذي يُشكل به الخيل؛ لأنه يكون في ثلاث قوائمَ غالباً. وقيل: هو أن تكونَ الواحدةُ محجَّلة والثلاثُ مطلقةً. وقيل: هو أن تكون إحدى يديه وإحدى رجليه من خلافٍ محجَّلتين. وإنما كرهه عليه الصلاة والسلام تفؤُّلاً[٤]؛ لأنَّه كالمشكول صورةً، ويمكن أن يكون جرَّب ذلك الجنس فلم يكن فيه نَجَابة، وقيل: إذا كان مع ذلك أغرَّ زالت الكراهةُ؛ لزوال شِبْه الشِّكال. انتهى.

ولا يخفى عليك أن حديثَ الشعبيِّ يُشْكِلُ على القول الأوَّل، إلا أن يقال: إنه يخصِّص عمومَه، وإنَّ حديثَ التفاؤل غيرُ ظاهر، والظاهرُ التشاؤم.

وقد جاء: «إنَّما الشؤمُ في ثلاثٍ؛ في الفرس والمرأة والدَّار»[٥] وحمله الطَّيبي على الكراهة التي سببُها ما في هذه الأشياء من مخالفةِ الشرع أو الطبع، كما قيل: شؤمُ الدَّارِ ضِيقُها وسوءُ جيرانها، وشؤمُ المرأة عُقْمُها وسَلَاطةُ لسانِها، وشؤمُ الفرس أنْ لا يُغزَى[٦] عليها.

لكنْ قال الجلالُ السيوطيُّ في «فتح المطلب المبرور»[٧]: إنَّ حديثَ التشاؤم

---

(١) سنن أبي داود (٢٥٤٥)، وسنن الترمذي (١٩٦٥)، وهو عند أحمد (٢٤٥٤).
(٢) صحيح مسلم (١٨٧٥)، وهو عند أحمد (٧٤٠٧).
(٣) مادة: (شكل).
(٤) في (م): تفاؤلاً، وهما بمعنى، والمثبت من الأصل والنهاية.
(٥) أخرجه أحمد (٤٥٤٤)، والبخاري (٢٨٥٨)، ومسلم (٢٢٢٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٦) في الأصل: يقرا.
(٧) تمام تسميته: فتح المطلب المبرور وبرد الكبد المحرور في الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور. رسالة أجاب فيها السيوطي عن الأسئلة التي وردت إليه من بادية التكرور - وهي بلاد تنسب إلى قبيل من السودان في أقصى جنوب المغرب - وهي مطبوعة ضمن: الحاوي للفتاوى، والكلام فيه ١/ ٤٥٢.

بالمرأة والدَّار والفرس قد اختلف العلماءُ فيه: هل هو على ظاهره، أو مؤوَّل؟ والمختار أنَّه على ظاهره، وهو ظاهرُ قولِ مالك. انتهى.

ولا يُعارضه ما صحَّ عن ابن عمرَ رضي الله عنهما قال: ذُكر الشُّؤم عند النبيِّ ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن كان الشُّؤمُ في شيءٍ ففي الدَّار والمرأة والفرس»[1] فإنه ليس نصًّا في استثناء نقيضِ المقدَّم وإنْ حمله عياضٌ على ذلك[2]؛ لاحتمال أن يكون على حدِّ قوله ﷺ: «قد كان فيمَن قَبْلكم من الأمم محدَّثون، فإنْ يَكُنْ في أمتي منهم أحدٌ، فإنَّه عمرُ بن الخطاب[3]» وقد ذكروا هناك أنَّ التعليقَ للدلالة على التأكيد والاختصاص، ونظيرُه في ذلك: إنْ كان لي صديقٌ، فهو زيد. فإنَّ قائلَه لا يريد به الشَّك في صداقة زيد، بل المبالغةَ في أنَّ الصداقة مختصَّة به لا تتخطاه إلى غيره، ولا محذور[4] في اعتقاد ذلك بعد اعتقاد أنَّ المذكورات أماراتٌ، وأنَّ الفاعلَ هو الله تبارك وتعالى.

وقرأ الحسن: «ومن رُبط الخيل» بضم الباء وسكونِها جمع رِباط[5].

وعطف ما ذكر على القوة بناءً على المعنى الأول لها؛ للإيذان بفضلها على سائر أفرادها، كعطف جبريلَ وميكالَ على الملائكة عليهم السلام.

﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ أي: تخوِّفون به، وعن الراغب: أنَّ الرهبةَ والرَّهْبَ مخافةٌ مع تحرُّزٍ واضطراب[6]. وعن يعقوب أنه قرأ: «ترهِّبون» بالتشديد[7]. وقرأ ابن عباس

---

(١) أخرجه من حديث ابن عمر البخاري (٥٠٩٤)، ومسلم (٢٢٢٥) (١١٨)، وأخرجه أحمد (٢٢٨٦٦)، والبخاري (٥٠٩٥)، ومسلم (٢٢٢٦) عن سهل بن سعد رضي الله عنه وفيه: المسكن، بدل الدار.

(٢) ينظر إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض ٧/ ١٥٠.

(٣) أخرجه أحمد (٨٤٦٨)، والبخاري (٣٦٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (٢٤٢٨٥)، ومسلم (٢٣٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) في (م): محظور.

(٥) ذكر ضم الباء عن الحسن ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٥٠، وذكر سكونها عنه أبو حيان في البحر ٤/ ٥١٢.

(٦) مفردات الراغب (رهب).

(٧) هي رواية رويس عن يعقوب كما في النشر ٢/ ٢٧٧.

ومجاهد: «تُخزون»(١).

والضمير المجرور لـ «ما استطعتم»، أو للإعداد وهو الأنسب. والجملةُ في محلِّ نصب على الحالية من فاعل «أعدُّوا» أي: أعِدُّوا مُرْهِبينَ به، أو من الموصول كما قال أبو البقاء(٢)، أو من عائدِهِ المحذوف، أي: أعدُّوا ما استطعتموه مُرْهَباً به.

وفي الآية إشارةٌ إلى عدم تعيُّن القتال؛ لأنه قد يكون لضربِ الجزية ونحوه مما يترتَّب على إرهاب المسلمين بذلك ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾ المخالفين لأمره سبحانه ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ المتربِّصين بكم الدوائر، والمرادُ بهم على ما ذكره جمعٌ: أهلُ مكة، وهم في الغاية القصوى من العداوة. وقيل: المراد هم وسائرُ كفار العرب.

﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ أي: من غيرِهم من الكفرة، وقال مجاهد: هم بنو قريظةَ. وقال مقاتل وابن زيد: هم المنافقون. وقال السُّديُّ: هم أهلُ فارس.

وأخرج الطبرانيُّ وأبو الشيخ وابن المنذر وابنُ مردوية وابنُ عساكر وجماعةٌ عن يزيد بن عبد الله بن عَريب، عن أبيه، عن جدِّه، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «هم الجنُّ، ولا يخبلُ الشيطانُ إنساناً في داره فرسٌ عتيق»(٣).

وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، واختاره الطبريُّ(٤)، وإذا صحَّ الحديث، لا ينبغي العدولُ عنه.

وقوله سبحانه: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ أي: لا تعرفونَهم بأعيانهم ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ لا غير، في غاية الظهور، وله وجه(٥) غير ذلك، وإطلاقُ العلم على المعرفة شائعٌ، وهو المرادُ هنا كما عرفت، ولذا تعدَّى إلى مفعول واحد.

---

(١) ذكرها عنهما أبو حيان في البحر ٤/٥١٢، وأخرج قراءة ابن عباس الطبري في تفسيره ١١/٢٤٧ وينظر القراءات الشاذة ص٥٠.

(٢) في الإملاء ٣/١٢٩.

(٣) المعجم الكبير ١٧/(٥٠٦)، والعظمة (١١٠٦)، وتاريخ ابن عساكر ٤٥/٧٨. وأخرجه أيضاً الحارث في مسنده (٦٥٢ـ زوائد). وقال الهيثمي في المجمع ٧/٢٧: رواه الطبراني، وفيه مجاهيل. وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية مختصراً بذكر الجن وقال: هذا الحديث منكر لا يصح إسناده ولا متنه.

(٤) في تفسيره ١١/٢٤٩.

(٥) بعدها في (م): على.

وإطلاقُ العلم بمعنى المعرفة على الله تعالى لا يضرُّ، نعم منع الأكثرُ إطلاقَ المعرفة عليه سبحانه وجوَّزه البعضُ بناءً على إطلاقِ العارف عليه تعالى في «نهجِ البلاغة»، وفيه بحث، وبالجملة لا حاجةَ إلى القول بأنَّ الإطلاقَ هنا للمشاكلة لما قبله؟

وجوِّز أن يكون العلمُ على أصله، ومفعولهُ الثاني محذوف، أي: لا تعلمونهم معادين أو محاربين لكم، بل الله تعالى يعلمهم كذلك، وهو تكلُّف.

واختار بعضُهم أن المعنى: لا تعلمونهم كما هم عليه من العداوة، وقال: إنه الأنسب بما تفيده الجملةُ الثانية من الحصر نظراً إلى تعليقِ المعرفة بالأعيان؛ لأنَّ أعيانَهم معلومةٌ لغيره تعالى أيضاً. وهو مسلَّم نظراً إلى تفسيره، وأما الاحتياجُ إليه في تفسير النبيِّ ﷺ ففيه تردُّدٌ.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ﴾ جَلَّ أو قلَّ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهي وجوهُ الخير والطاعة، ويدخلُ في ذلك النفقةُ في الإعداد السابق والجهاد دخولاً أوَّليًّا، وبعضُهم خصَّص اعتباراً للمقام ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: يؤدَّى بتمامه، والمراد: يؤدَّى إليكم جزاؤه، فالكلامُ على تقدير المضاف، أو التجوُّز في الإسناد.

﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ بترك الإثابة أو بنقصِ الثواب، والتعبير[1] عن ذلك بالظلم ـ مع أنَّه له سبحانه أنْ يفعلَ ما يشاء ـ للمبالغة، كما مرَّ.

﴿وَإِن جَنَحُواْ﴾ الجنوحُ: الميل، ومنه جناحُ الطائر؛ لأنَّه يتحرَّك ويميل، ويعدَّى باللام وبـ: إلى، أي: وإن مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ أي: الاستسلام والصلح. وقرأ ابنُ عباس وأبو بكر بكسر السين[2]، وهو لغة.

﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ أي: للسلم، والتأنيثُ لحملِه على ضده وهو الحرب، فإنه مؤنَّث سماعيٌّ. وقال أبو البقاء[3]: إن السَّلْم مؤنثٌ. ولم يذكُر حديثَ الحمل، وأنشدوا:

السَّلْمُ تأخذُ منها ما رضيتَ به ... والحربُ يكفيكَ من أنفاسِها جُرَعُ[4]

---

(١) في الأصل و(م): وفي التعبير، وهو خطأ، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/ ٣٢، والكلام منه.
(٢) التيسير ص١١٧ عن أبي بكر.
(٣) في الإملاء ٣/ ١٣١.
(٤) البيت لعباس بن مرداس كما في إصلاح المنطق ص٣٥ و٣٩٩، والخزانة ٤/ ١٨، وفيه: الجُرَع جمع جُرعة، وهي ملء الفم.

وقرأ الأشهب العقيلي: «فاجنُح» بضم النون[1]، على أنه مِن جَنَحَ يجنُح، كقَعَدَ يقعُد، وهي لغة قيس، والفتح لغةُ تميم وهي الفصحى.

والآية قيل: مخصوصةٌ بأهل الكتاب، فإنها ـ كما قال مجاهد والسديُّ ـ نزلت في بني قريظةَ، وهي متَّصلةٌ بقصتهم بناءً على أنهم المعنيُّون بقوله تعالى: (ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ) إلخ، والضمير في «وأعدُّوا لهم» لهم.

وقيل: هي عامَّة للكفار، لكنها منسوخةٌ بآية السيف؛ لأنَّ مشركي العرب ليس لهم إلا الإسلامُ أو السيف، بخلاف غيرِهم فإنه تُقبل منهم الجزيةُ، وروي القولُ بالنسخ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. وصحِّح أنَّ الأمر فيمَن تُقبل منهم الجزيةُ على ما يرى فيه الإمامُ صلاحَ الإسلام وأهلِهِ من حربٍ أو سلم، وليس بحتمٍ أن يقاتَلوا أبداً، أو يجابوا إلى الهدنة أبداً، وادَّعى بعضُهم أنه لا يجوز للإمام أن يهادن أكثرَ من عشر سنين اقتداءً برسول الله ﷺ؛ فإنه صالَحَ أهلَ مكة هذه المدَّة[2]، ثمَّ إنهم نقضوا قبلَ انقضائها كما مرَّ فتذكر.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: فوِّض أمرك إليه سبحانه، ولا تَخَفْ أن يُظهروا لك السَّلْمَ وجوانحُهم مطويةٌ على المكرِ والكيد ﴿إِنَّهُۥ﴾ جلَّ شأنه ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ فيسمع ما يقولون في خلواتهم من مقالاتِ الخداع ﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٦١﴾ فيعلم نيَّاتِهم فيؤاخذهم بما يستحقُّونه، ويردُّ كيدهم في نحرهم.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ بإظهار السَّلم ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: مُحْسِبكَ الله وكافيك، وناصرك عليهم، فلا تُبال بهم، فحَسْبُ صفةٌ مشبهةٌ بمعنى اسم الفاعل، والكاف في محلِّ جرٍّ كما نصَّ عليه غيرُ واحدٍ، وأنشدوا لجرير:

إنِّي وجدتُ من المكارمِ حَسْبَكم ... أن تلبسوا خُرَّ الثياب وتَشْبَعوا[3]

---

(١) المحتسب ١/ ٢٨٠.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٩١٠) مطولاً، وأبو داود (٢٧٦٦) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، وأصله في صحيح البخاري دون ذكر المدة.

(٣) نسبه لجرير الزمخشري في الكشاف ٢/ ١٦٦، ونسبه سيبويه في الكتاب ٣/ ١٥٣ لعبد الرحمن بن حسان، ونسبه السيرافي في شرح أبيات سيبويه ٢/ ١٦٨ لابنه سعيد بن عبد الرحمن بن حسان.

وقال الزجّاج[1]: إنَّه اسمُ فِعْلٍ بمعنى كفاك، والكافُ في محلٍّ نصب. وخطَّأه فيه أبو حيَّان[2]، لدخول العوامل عليه، وإعرابِه في نحو: بحَسْبِكَ درهم، ولا يكونُ اسمُ فعل هكذا.

﴿هُوَ﴾ عزَّ وجلَّ ﴿ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتعليل كفايته تعالى إيَّاه ﷺ، فإنَّ تأييده عليه الصلاة والسلام فيما سلف على الوجه الذي سلف من دلائل تأييده ﷺ فيما سيأتي، أي: هو الذي أيَّدك بإمداده من عنده بلا واسطةٍ أو بالملائكة مع خَرْقِه للعادات ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ من المهاجرين والأنصار على ما هو المتبادر. وعن أبي جعفر ؓ والنعمان بن بشير وابن عباس والسُّدِّيِّ أنَّهم الأنصارُ ؓ.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ مع ما جُبلوا عليه ـ كسائر العرب ـ من الحميَّة والعصبيَّة، والانطواءِ على الضغينة، والتهالُكِ على الانتقام، بحيث لا يكادُ يأتلفُ فيهم قلبان، حتَّى صاروا بتوفيقه تعالى كنفسٍ واحدة.

وقيل: إنَّ الأنصارَ وهم الأوسُ والخزرج كان بينهم من الحروب ما أهلك ساداتِهم، ودقَّ جماجمَهم، ولم يكن لبغضائهم أمدٌ، وبينهم التجاورُ الذي يهيِّج الضغائنَ، ويُديمُ التحاسد والتنافسَ، فأنساهم الله تعالى ما كان بينهم، فاتَّفقوا على الطاعة، وتصافَوا وصاروا أنصاراً، وعادوا أعواناً، وما ذاك إلا بلطيف صنعه تعالى، وبليغ قدرته جلَّ وعلا.

واعترض هذا القولُ بأنه ليس في السِّياق قرينةٌ عليه.

وأجيب بأنَّ كونَ المؤمنين مؤيَّداً بهم يُشعر بكونهم أنصاراً. ولا يَخفى ضعفُه، ولا تجد له أنصاراً. وبالجملة ما وقع من التأليف مِن أبْهرِ معجزاته عليه الصلاة والسلام.

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: لتأليف ما بينهم ﴿مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لتناهي عداوتِهم وقوَّةِ أسبابها. والجملةُ استئنافٌ مقرِّرٌ لِمَا قبله، ومبيِّن لعزَّة المطلبِ

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٤٢٣.

(٢) في البحر ٤/ ٥١٦.

وصعوبةِ المأخذِ. والخطابُ لكلِّ واقف عليه؛ لأنَّه لا مبالغةَ في انتفاء ذلك من منفقٍ معين. وذكرُ القلوب؛ للإشعار بأنَّ التأليف بينها لا يتسنَّى وإن أمكنَ التأليفُ ظاهراً.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ جلَّت قدرته ﴿أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ قلباً وقالباً بقدرته البالغة ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ كاملُ القدرة والغلبة، لا يستعصي عليه سبحانه شيءٌ مما يريده[1].

﴿حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ يعلمُ ما يليق تعلُّقُ الإرادة به، فيوجدُه بمقتضى حكمته عزَّ وجلَّ، ومن آثار عزَّته سبحانه تصرُّفه بالقلوب الأبيَّة المملوءةِ من الحميَّة الجاهلية، ومن آثار حكمته تدبيرُ أمورِهم على وجهٍ أحدث فيهم التوادَّ والتحابَّ، فاجتمعتْ كلمتُهم، وصاروا جميعاً كنانةَ رسول الله ﷺ الذابِّين عنه بقوسٍ واحدة، والجملةُ على ما قال الطِّيبي كالتعليل للتأليف.

❁ ❁ ❁

هذا ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ طبَّقه بعضُ العارفين على ما في الأنفس فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ أي: أيُّها القوى الروحانية ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ من العلوم النافعة ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ وهي كلمةُ التوحيد التي هي الأساس الأعظم للدِّين ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ الخاصِّ، وهو القلب ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الذي هو السِّرُّ ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ من القوَّة النظريَّة والعملية ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ من القوى النفسانية ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الذي هو النفسُ السالكةُ الداخلةُ في الغُربة، السائحةُ في منازل السُّلوك، النائية عن مقرِّها الأصلي باعتبار التوحيد التفصيلي، والأخماسُ الأربعة الباقيةُ بعد هذا الخمس من الغنيمة تُقسم على الجوارح والأركان والقوى الطبيعية.

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ تعالى الإيمانَ الحقيقيَّ جمعاً ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ وقتَ التفرقة بعد الجمع تفصيلاً ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ من فريقَي القوى الروحانية والنفسانية عند الرجوع إلى مشاهدة التفصيل في الجمع ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيتصرَّف فيه حَسْبَ مشيئته وحِكمته.

---

(١) في (م): يريد.

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أي: القريبة من مدينة العلم ومحلِّ العقل الفُرقاني ﴿وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ أي: البعيدةِ من الحقِّ ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أي: ركبُ القوى الطبيعية الممتارة ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ معشَر الفريقين ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ اللقاءَ للمحاربة من طريق العقل دونَ طريق الرياضة ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ لكون ذلك أصعبَ من خرطِ القتاد ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ مقدَّراً محققاً فعل ذلك.

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ﴾ وهي النفسُ الملازِمةُ للبدن الواجبِ الفناء ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ وهي الرُّوح المجردةُ المتَّصلة بعالمِ القُدس الذي هو معدن الحياة الحقيقية الدائمِ البقاء، وبيِّنةُ الأول تلك الملازمة، وبيِّنة الثاني ذلك التجرُّد والاتصال.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ أيُّها القلب ﴿فِي مَنَامِكَ﴾ وهو وقتُ تعطُّلِ الحواسِّ الظاهرة، وهُدوِّ القوى البدنية، ﴿قَلِيلًا﴾ أي: قليلَ القَدْرِ ضعافَ الحال ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا﴾ في حال غلبة صفاتِ النفس ﴿لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: أمرِ كسرها وقهرِها؛ لانجذابِ كلٍّ منكم إلى جهة ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ من الفشل والتنازُع بتأييده وعصمته ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بحقيقتها، فيَثْبُتُ علمُه بما فيها من باب الأَوْلى.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم﴾ وهم القوى النفسانيَّة، خرجوا من مقارِّهم وحدودهم ﴿بَطَرًا﴾ فخراً وأَشراً ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ وإظهاراً للجلادة. وقال بعضهم: حذَّر الله تعالى أولياءه بهذه الآية عن مشابهة أعداءه في رؤيةِ غيره سبحانه. ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهو التوحيد والمعرفة.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: شيطانُ الوهم ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ في التغلُّب على مملكة القلب وقُواه ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ أوهمهم تحقيقَ أمنيتِهم بأنْ لا غالبَ لكم من ناسِ الحواسِّ، وكذا سائرِ القوى ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ أمدُّكم وأقوِّيكم وأمنعُكم من ناس القوى الروحانية.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ لشعورِه بحال القوى الروحانية وغلبتِها؛ لمناسبته إيَّاها من حيثية إدراك المعاني ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ﴾ لأنِّي لستُ من

جنسكم ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ من المعاني ووصول المدد إليهم من سماء الروح، وملكوتِ عالم القُدس ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ سبحانه لشعورٍ ببعض أنواره وقهره.

وذكر الواسطيُّ بناءً على أنَّ المرادَ من الشيطان الظاهر، أنَّ اللعين ترك ذنبَ الوسوسة إذ ذاك، لكنَّ تركَ الذنب إنَّما يكون حسناً إذا كان إجلالاً وحياءً من الله تعالى لا خوفاً من البطش فقط، وهو لم يخف إلا كذلك. ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ إذ صفاتُه الذاتيَّةُ والفعليَّة في غاية الكمال. اهـ بأدنى تغييرٍ وزيادة. وذكر أنَّ الفائدة في مثل هذا التأويل تصويرُ طريق السلوك للتنشيط في الترقِّي والعروج.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم الذين غلبتْ عليهم صفاتُ النفس ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: ملائكةُ القهر والعذاب ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ﴾ لإعراضهم عن عالَم الأنوار، ومزيدِ الكبرِ والعُجْبِ ﴿وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ لميلهم إلى عالَم الطبيعة، ومضاعفِ الشهوة والحرص، ويقولون لهم: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ وهو عذابُ الحرمان وفواتِ المقصود.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ أي: حتى يفسدوا استعدادَهم، فلا تبقى لهم مناسبةٌ للخير، وحينئذ يغيِّر سبحانه النعمة إلى النقمة؛ لطلبهم إيَّاها بلسان الاستعدادِ، وإلا فاللهُ تعالى أكرمُ من أن يسلبَ نعمةَ شخصٍ مع بقاء استحقاقِها فيه.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لجهلهم بربِّهم وعصيانهم له دونَ سائر الدوابِّ ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ لغلبةِ شقاوتهم ومزيدِ عتُوِّهم وغيِّهم. ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾ من مرَّات المعاهدة؛ لأنَّ ذلك شنشنةٌ[١] فيهم مع مولاهم، ألا ترى كيف نقضوا عهدَ التوحيد الذي أُخِذَ منهم في مُنْزَل: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ﴿وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ العارَ ولا النار.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ قال أبو علي الرُّوْذْباري[٢]: القوةُ هي الثقة

---

(١) الشِّنشنة: الطبيعة والخليقة والسجية. اللسان (شنن).

(٢) بضم الراء وسكون الواو والذال المعجمة، محمد بن أحمد بن القاسم، من كبار الصوفية، ومن أهل الفضل والفهم، وله تصانيف حسان في التصوف، كان من أبناء =

بالله تعالى. وقال بعضهم: هي الرميُ بسهام التوجُّه إلى الله تعالى عن قِسِيِّ الخضوع والاستكانة.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ الذي لم يُعهَدَ مثله ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ بجَذْبها[1] إليه تعالى، وتخليصِها ممَّا يوجب العداوةَ والبغضاءَ، أو لكشفِه سبحانه لها عن حُجُب الغيب حتى تعارفوا فيه، و«الأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ، ما تَعارَفَ منها ائتلف، وما تَناكَرَ منها اختلف»[2].

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لصعوبة الأمر، وكثافةِ الحجاب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ والتأليفُ من آثارِ ذلك، والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

❁ ❁ ❁

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ شروعٌ في بيان كفايته تعالى إيَّاه عليه الصلاة والسلام في جميع أموره، وحده أو مع أمور المؤمنين، أو في الأمور المتعلقة بالكفار كافَّةً، إثر بيان الكفاية في مادَّةٍ خاصة. وتصديرُ الجملة بحرفي النداء والتَّنبيه؛ للنداء والتنبيه على الاعتناء بمضمونها، وإيرادُه عليه الصلاة والسلام بعنوانِ النبوَّة؛ للإشعار بعلِّيَّة الحكم، كأنَّه قيل: يا أيها النبيُّ ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ أي: كافيك في جميع أمورك، أو فيما بينَك وبين الكفرةِ من الحِراب لنبوَّتك.

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ قال الزجَّاج[3]: في محلِّ النصب على المفعول معه، كقوله على بعضِ الروايات:

فحسبُكَ والضَّحاكَ سيفٌ مهنَّدُ ... إذا كانت الهيجاءُ واشتجر القنا[4]

= الرؤساء والوزراء والكتبة، ولزم الجنيد وصار أحد أئمة الزمان، توفي سنة (٣٢٢هـ). الأنساب للسمعاني ٦/ ١٨٠ـ ١٨١.

(١) في الأصل: لجذبها.

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٣٥)، ومسلم (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة ﷺ. وعلقة البخاري (٣٣٣٦) عن عائشة.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٤٢٣.

(٤) البيت مقلوب، وهو في الصحاح (عصا)، وشرح المفصل ٢/ ٤٨، وذيل الأمالي ص١٤٠ =

وتعقَّبه أبو حيَّان[١] بأنه مخالف لكلام سيبويه، فإنَّه جعل زيداً في قولهم: حَسْبُكَ وزيداً درهمٌ. منصوباً بفعلٍ مقدَّرٍ، أي: وكفى زيداً درهم، وهو مِن عَطْفِ الجُمل عنده. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ سيبويه كما قال ابنُ تيمية لأبي حيَّان لمَّا احتجَّ عليه بكلامه حين أنشد له قصيدةً فغلَّطه فيها: ليس نبيَّ النحو فيجبَ اتباعه[٢].

وقال الفراء[٣]: إنه يقدَّرُ نَصْبُه على موضع الكاف، واختاره ابنُ عطية[٤]، وردَّه السفاقسي بأنَّ إضافتَه حقيقيةٌ لا لفظيةٌ، فلا محلَّ له، اللهم إلا أن يكون من عطفِ التوهُّم. وفيه ما فيه.

وجوِّز أن يكونَ في محلِّ الجرِّ عطفاً على الضمير المجرور، وهو جائزٌ عند الكوفيين بدون إعادة الجارِّ، ومَنَعه البَصريون بدون ذلك، لأنَّه كجزءِ الكلمة فلا يُعطف عليه. وأنْ يكون في محلِّ رفعٍ؛ إمَّا على أنَّه مبتدأٌ والخبرُ محذوفٌ، أي: من اتبعك من المؤمنين كذلك، أي: حسبهم الله تعالى، وإمَّا على أنه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: وحَسْبُكَ مَن اتبعك، وإمَّا على أنَّه عطفٌ على الاسم الجليل واختاره الكسائيُّ وغيرُه، وضُعِّف بأنَّ الواو للجمع، ولا يَحْسُنُ هاهنا كما لم يحسن في: ما شاء الله تعالى وشئتَ، والحَسَنُ فيه «ثُم»، وفي الأخبار ما يدلُّ عليه[٥]، اللهم إلَّا أنْ يقال بالفرق بين وقوع ذلك منه تعالى وبين وقوعِه منَّا.

والآية على ما روي عن الكلبيِّ نزلتْ في البيداء في غزوة بدرٍ قبل القتال. والظاهر شمولُها للمهاجرين والأنصار، وعن الزهريِّ أنَّها نزلت في الأنصار.

= برواية: إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا. . .، وقوله: واشتجر القنا، رواية في البيت كما ذكر الشهاب في الحاشية ٤/ ٢٨٦. ونسب في ذيل الأمالي لجرير وليس في ديوانه.

(١) في البحر ٤/ ٥١٦.

(٢) ذكر القصة ابن حجر في الدرر الكامنة ١/ ١٧٨.

(٣) في معاني القرآن ١/ ٤١٧.

(٤) في المحرر الوجيز ٢/ ٥٤٩.

(٥) أخرج أحمد (٢٣٢٦٥)، وأبو داود (٤٩٨٠) عن حذيفة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لاتقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، وقولوا: ماشاء الله ثم شاء فلان».

وأخرج الطبرانيُّ وغيرُه عن ابن عباس، وابنُ المنذر عن ابن جبير، وأبو الشيخ عن ابن المسيب: أنَّها نزلت يوم أسلم عمرُ بن الخطاب ﷺ مكمِّلاً أربعين مسلماً ذكوراً وإناثاً هنَّ ستٌّ[1]. وحينئذ تكون مكيةً.

و«من» يحتمل أن تكونَ بيانيةً وأن تكونَ تبعيضيَّةً، وذلك للاختلاف في المراد بالموصول.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ﴾ بعد أن بيَّن سبحانه الكفايةَ، أمَر جلَّ شأنُه نبيَّه ﷺ بترتيب بعض مباديها، وتكريرُ الخطاب على الوجه المذكور؛ لإظهار كمالِ الاعتناء بشأنِ المأمور به.

والتحريضُ: الحَثُّ على الشيء. وقال الزجَّاج: هو في اللغة أنْ يُحثَّ الإنسان على شيء حتَّى يُعلمَ منه أنه حارضٌ، أي: مقاربٌ للهلاك[2]. وعلى هذا فهو للمبالغة في الحثِّ.

وزعم في «الدرِّ المصون» أنَّ ذلك مستبعدٌ من الزجَّاج[3]، والحقُّ معه، ويؤيِّده ما قاله الراغبُ من أنَّ الحَرَضَ يقال لما أشرفَ على الهلاكِ، والتحريض: الحثُّ على الشيء بكثرةِ التزيينِ وتسهيلِ الخَطْبِ فيه، كأنَّه في الأصل: إزالة الحرض، نحو قذَّيتُه: أزلتُ عنه القذى، ويقال: أحرضتُه إذا أفسدته، نحو: أقذيتُه إذا جعلت فيه القذى[4]. فالمعنى هنا: يا أيُّها النبيُّ بالغْ في حثِّ المؤمنين على قتال الكفار.

وجوِّز أن يكون من تحريضِ الشخص، وهو أن يسمِّيه حَرَضاً، ويقالُ له: ما أراك إلا حَرَضاً في هذا الأمر ومحرَّضاً فيه، ونحوه: فسَّقتُه، أي: سمَّيته فاسقاً،

---

(١) خبر ابن عباس في المعجم الكبير (١٢٤٧٠). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٨: فيه: إسحاق بن بشر الكاهلي وهو كذاب. والخبرين الآخرين ذكرهما السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٢٠٠، وأخرجه عن سعيد بن جبير أيضاً ابن أبي حاتم ٥/ ١٧٢٨.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٢٣، وفيه: التحريض في اللغة: أن يُحثَّ الإنسان على الشيء حثًّا يعلم منه أنه حارضٌ إن تخلف عنه، والحارض الذي قد قارب الهلاك. وعبارة المصنف توافق ما في الدر المصون ٥/ ٦٣٥، وحاشية الشهاب ٤/ ٢٩٠.

(٣) الدر المصون ٥/ ٦٣٥.

(٤) المفردات (حرض).

فالمعنى: سمِّهم حَرَضاً، وهو من باب التهييج والإلهاب. والمعنى الأولُ هو الظاهر.

وقرئ: «حرِّص» بالصاد المهملة[١]، من الحرص وهو واضح.

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفًا﴾ شرطٌ في معنى الأمر بمصابرة الواحدِ العشرةَ، والوعدِ بأنهم إنْ صبروا غلبُوا بعون الله تعالى وتأييدِه، فالجملةُ خبريَّةٌ لفظاً إنشائيَّةٌ معنىً، والمراد: لِيَصبِرنَّ الواحدُ لعشرةٍ، وليست بخبرٍ مَحْضٍ.

وجَعَلَها الزمخشريُّ[٢] عِدَةً من الله تعالى وبشارةً، وهو ظاهرٌ في كونها خبريةً.

والآية كما ستعلم قريباً إن شاء الله تعالى منسوخةٌ، والنسخُ في الخبر فيه كلامٌ في الأصول، على أنَّه قد ذكر الإمام[٣] أنَّه لو كان الكلامُ خبراً، لزم أن لا يغلبَ قطُّ مئتان من الكفَّار عشرين من المؤمنين، ومعلومٌ أنَّه ليس كذلك.

والاعتراضُ عليه بأنَّ التعليق الشرطيَّ يكفي فيه ترتُّبُ الجزاءِ على الشرطِ في بعضِ الأزمان لا في كلِّها، ليس بشيءٍ كما بيَّنه الشِّهاب[٤].

وذكرُ الشرطية الثانية مع انفهام مضمونها ممَّا قبلها، للدلالة على أنَّ الحال مع القلَّة والكثرة واحدةٌ لا تتفاوت؛ لأنَّ الحال قد تتفاوتُ بين مقاومةِ العشرين المئتين والمئةِ الألفَ، وكذا يقال فيما يأتي.

و«يكن» يحتمل أن يكونَ تامًّا والمرفوعُ فاعله، و«منكم»حالٌ منه أو متعلقٌ بالفعل، ويحتمل أن يكون ناقصاً والمرفوعُ اسمه و«منكم» خبره.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بيانٌ للألْفِ.

وقوله سبحانه: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ متعلِّق بـ «يغلبوا»، أي: بسبب أنهم قومٌ جهلةٌ بالله تعالى وباليوم الآخر، لا يقاتلون احتساباً وامتثالاً لأمر الله

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٠، ونسبها أبو حيان في البحر المحيط ٤/٥١٧ للأعمش.

(٢) في الكشاف ٢/١٦٧.

(٣) في تفسيره ١٥/١٩٢.

(٤) في حاشيته ٤/٢٩٠.

تعالى وإعلاءً لكلمته وابتغاءً لرضوانه كما يفعل المؤمنون، وإنَّما يقاتلون للحميَّة الجاهلية واتِّباع خطوات الشيطان وإثارةِ ثائرةِ البغي والعدوان، فلا يستحقُّون إلَّا القهرَ والخُذلان.

وقال بعضهم: وجهُ التعليل بما ذُكر: أنَّ مَن لا يؤمنُ بالله تعالى واليومِ الآخِرِ لا يؤمنُ بالمَعَاد، والسعادةُ عندَه ليست إلَّا هذه الحياةَ الدنيا، فيشحُّ بها ولا يعرِّضها للزوال بمزاولةِ الحروب واقتحامِ مواردِ الخطوب، فيميل إلى ما فيه السَّلامةُ، فيَفِرُّ فيُغْلَبُ، وأما مَن اعتقد أنْ لا سعادةَ في هذه الحياة الفانية، وإنما السعادةُ هي الحياةُ الباقية، فلا يبالي بهذه الحياة الدنيا ولا يلتفت إليها، فيُقْدِمُ على الجهاد بقلبٍ قويٍّ وعزمٍ صحيح، فيقوم الواحدُ من مثله مَقامَ الكثير. انتهى. وتُعقِّب بأنه حقٌّ لكنَّه لا يلائم المقام.

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أخرج البخاريُّ وغيرُه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت (إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ) إلخ شقَّ ذلك على المسلمين؛ إذ فُرض عليهم أن لا يفرَّ واحدٌ من عشرة، فجاء التخفيفُ[1]. وكان ذلك ـ كما قيل ـ بعد مدَّة.

وقيل: كان فيهم قلةٌ في الابتداء، ثم لمَّا كثروا بعدُ، نزل التخفيف.

وهل يُعدُّ ذلك نسخاً أم لا؟ قولان اختار مكِّي[2] الثانيَ منهما، وقال: إنَّ الآية مخفِّفةٌ، ونظيرُ ذلك التخفيفُ على المسافر بالفِطر. وذهبَ الجمهورُ إلى الأوَّل، وقالوا: إن الآية ناسخةٌ.

وثمرةُ الخلاف؛ قيل: تظهرُ فيما إذا قاتل واحدٌ عشرةً فقُتل هل يأثم أم لا؟ فعلى الأوَّل لا يأثم، وعلى الثاني يأثم.

والضعفُ الطارئُ بعدُ: عدمُ القوَّة البدنيَّة على الحرب؛ لأنَّه قد صار فيهم الشيخُ والعاجزُ ونحوُهما، وكانوا قبلَ ذلك طائفةً منحصرةً، معلومة قوَّتُهم

(١) صحيح البخاري (٤٦٥٣).

(٢) في الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص٢٩٧ و٣٠١.

وجلادتُهم، أو: ضعفُ البصيرةِ والاستقامة وتفويضِ النصر إلى الله تعالى؛ إذ حدث فيهم قومٌ حديثو عهدٍ بالإسلام ليس لهم ما للمتقدِّمين من ذلك.

وذكر بعضهم في بيان كونِ الكثرة سبباً للضعف: أنَّ بها يضعف الاعتمادُ على الله تعالى والتوكُّلُ عليه سبحانه، ويَقْوَى جانبُ الاعتماد على الكثرةِ كما في حُنين، والأول هو الموجبُ للقوة كما يرشد إليه وقعةُ بدر، ومن هنا قال النصراباذيُّ: إنَّ هذا التخفيفَ كان للأمة دونَ رسول الله ﷺ، فإنَّه الذي يقول: «بك أصولُ وبك أحولُ»[1].

وتقييدُ التخفيف بـ «الآن» ظاهرٌ، وأما تقييدُ عِلْمِ الله تعالى به فباعتبار تعلُّقه، وقد قالوا: إنَّ له تعلُّقاً بالشيء قبلَ الوقوع، وحالَ الوقوع، وبعدَه، وقال الطِّيبي: المعنى: الآن خفَّف الله تعالى عنكم لمَّا ظهر متعلَّقُ علمه، أي: كثرتُكم التي هي موجبُ ضَعْفِكم بعدَ ظهور قلَّتِكم وقوَّتكم.

وقرأ أكثرُ القرَّاء: «ضُعفاً» بضمِّ الضاد[2]، وهي لغة فيه كالفقر والمكث. ونُقل عن الخليل: أنَّ الضعفَ بالفتح ما في الرَّأي والعقل، وبالضمِّ ما في البدن[3].

وقرأ أبو جعفر: «ضُعَفاءَ»[4] جمع ضعيف.

وقرأ ابنُ كثير ونافعٌ ابنُ عامر: «تكن» المُسنَدَ إلى المئة في الآيتين بالتاء[5] اعتباراً للتأنيث اللفظي، ووافقهم أبو عمرو ويعقوب في «يكن» في الآية الثانية[6]؛

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٣٢) من حديث أنس ﷺ. قوله: أحول، أي: أتحرك، وقيل: أحتال، وقيل: أدفع وأمنع. النهاية (حول). والنصراباذي هو إبراهيم بن محمد بن أحمد الخراساني الزاهد، أبو القاسم، شيخ الصوفية، توفي سنة (٣٦٧ هـ). سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٦٣، والوافي بالوفيات ٦/ ١٠٧. وقد نقل المصنف كلامه عن حاشية الشهاب ٤/ ٢٩١.

(٢) وهم نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب من العشرة. التيسير ص١١٧، والنشر ٢/ ٢٧٧.

(٣) العين ١/ ٢٨١.

(٤) النشر ٢/ ٢٠٠.

(٥) التيسير ص١١٧، والنشر ٢/ ٢٧٧. وهي قراءة أبي جعفر من العشرة.

(٦) التيسير ص١١٧، والنشر ٢/ ٢٧٧.

لقوة التأنيث بالوصفِ بـ «صابرة» المؤنَّث، وأما: «إن يكن منكم عشرون» فالجميعُ على التذكيرِ فيه. نعم روي عن الأعرج أنَّه قرأ بالتأنيث[١].

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، وفي النظم الكريم صنعةُ الاحتباك[٢]؛ قال في «البحر»: انظر إلى فصاحةِ هذا الكلامِ، حيثُ أثبت قَيداً في الجملة الأولى وهو «صابرون»، وحذف نظيرَه من الثانية، وأثبت قيداً في الثانية وهو «من الذين كفروا»، وحَذَفه من الأولى، ولما كان الصبرُ شديد المطلوبيَّة، أثبت في [أُولَى] جملتي التخفيف، وحُذف من الثانية، لدلالة السابقة عليه، ثمَّ ختم الآية بقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ مبالغةً في شدَّة المطلوبيَّة، ولم يأتِ في جملتي التخفيف بقيدِ الكفر؛ اكتفاءً بما قبله. انتهى[٣].

وذكر الشهاب[٤] أنه بقي عليه أنه سبحانه ذكر في التخفيف «بإذن الله» وهو قيدٌ لهما، وأنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾إشارة إلى تأييدهم وأنَّهم منصورون حتماً؛ لأنَّ مَن كان الله تعالى معه لا يُغلب.

وأنا أقول: لا يَبْعُدُ أن يكونَ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ تحريضٌ لهم على الصبرِ بالإشارة إلى أنَّ أعداءَهم إنْ صبروا كان الله تعالى معهم فأمدَّهم ونصرَهم.

وبقي في هذا الكلام الجليل لطائفُ غير ما ذُكر، فلله تعالى درُّ التنزيل ما أعذبَ ماءَ فصاحتِه، وأنْضَرَ رونقَ بلاغتِه!

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ قرأ أبو الدراء وأبو حيوة: «للنبي» بالتعريف[٥]. والمراد به نبيُّنا ﷺ، وهو عليه الصلاة والسلام المرادُ أيضاً على قراءة الجمهور عند بعض، وإنَّما عبَّر بذلك تلطُّفاً به ﷺ حتَّى لا يواجَهَ بالعِتاب، ولذا قيل: إنَّ ذاك على تقديرِ

(١) البحر المحيط ٤/ ٥١٧.
(٢) هو أن يُحذف من الأول ما أُثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول. الإتقان ٢/ ٨٣١.
(٣) البحر المحيط ٤/ ٥١٦، وما سلف بين حاصرتين منه.
(٤) في حاشيته ٤/ ٢٩١.
(٥) القراءات الشاذة ص٥٠.

مضافٍ، أي: لأصحاب النبيِّ ﷺ، بدليل قوله تعالى الآتي: ﴿تُرِيدُونَ﴾ ولو قصد بخصوصه عليه الصلاة والسلام، لقيل: تريد، ولأنَّ الأمورَ الواقعة في القصَّة صدرتْ منهم لا منه ﷺ. وفيه نظرٌ ظاهر.

والظاهرُ أنَّ المراد على قراءة الجمهورِ العمومُ، ولا يَبْعُدُ اعتبارُه على القراءة الأخرى أيضاً، وهو أبلغُ لما فيه من بيان أنَّ ما يُذكر سنَّةٌ مطَّردةٌ فيما بين الأنبياء عليهم السلام. أي: ما صحَّ وما استقام لنبيٍّ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب: «تكون» بالتاء الفوقية[1]؛ اعتباراً لتأنيث الجمعِ.

وعن أبي جعفر أنه قرأ أيضاً: «أُساری»[2]. قال أبو عليٍّ[3]: وقراءة الجماعة أقيسُ؛ لأنَّ أسيراً فعيلٌ بمعنى مفعول، والمطَّردُ فيه جمعُه على فَعْلَى، كجريحٍ وجَرْحَى، وقتيلٍ وقتلى، ولذا قالوا في جمعه على أساری: إنه على تشبيه فعيلٍ بفَعْلان، ككسلان وكسالى، وهذا كما قالوا: كَسلى، تشبيهاً لفعلان بفعيل. ونسب ذلك إلى الخليل[4].

وقال الأزهري[5]: إنَّه جَمْعُ أسرى. فيكونُ جمعَ الجمع. واختار ذلك الزجَّاج[6]، وقال: إنَّ فَعْلَى جمعٌ لكلِّ مَن أصيب في بدنه أو في عقله، كمريضٍ ومَرْضَى، وأحمق وحَمْقَى.

﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يبالغَ في القتل ويكثرَ منه، حتى يذلَّ الكفرُ ويقلَّ حزبُه، ويَعزَّ الإسلامُ ويستوليَ أهلُه.

وأصل معنى الثخانة: الغلظُ والكثافةُ في الأجسام، ثمَّ استُعير للمبالغة في القتل والجراحة؛ لأنَّها لمنعها من الحركة صيَّرته كالثخين الذي لا يسيل.

---

(١) التيسير ص١١٧، والنشر ٢/ ٢٧٧.
(٢) النشر ٢/ ٢٧٧.
(٣) في الحجة ٤/ ١٦٣.
(٤) ينظر الكتاب ٣/ ٦٤٧ ـ ٦٥٠.
(٥) في تهذيب اللغة ١٣/ ٦١.
(٦) في معاني القرآن له ٢/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥.

وقيل: إنَّ الاستعارة مَبْنِيَّةٌ على تشبيه المبالغةِ المذكورة بالثخانة في أنَّ في كلٍّ منهما شدَّةٌ في الجملة.

وذكر «في الأرض» للتعميم. وقرئ: «يثخِّن» بالتشديدِ[١]؛ للمبالغة في المبالغة.

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ استئنافٌ مسوقٌ للعتاب. والعَرَضُ: ما لا ثباتَ له ولو جسماً. وفي الحديث «الدنيا عَرَضٌ حاضر»[٢] أي: لا ثباتَ لها، ومنه استعاروا العَرَضَ المقابل للجوهر، أي: تريدون حُطامَ الدنيا بأخْذِكم الفديةَ. وقرئ: «يريدون» بالياء[٣]، والظاهرُ أنَّ ضميرَ الجمع لأصحابِ رسول الله ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: يريدُ لكم ثوابَ الآخرة، أو: سببَ نيل الآخرة من الطاعة بإعزازِ دينه وقمعِ أعدائه، فالكلامُ على حذف المضافِ وإقامةِ المضاف إليه مُقامه، وذُكرَ «نيل» في الاحتمال الثاني قيل: للتوضيحِ، لا لتقدير مضافين. والإرادةُ هنا بمعنى الرضا، وعبَّر بذلك للمشاكلة، فلا حجَّة في الآية على عدمِ وقوعِ مراد الله تعالى كما يزعمُه المعتزلةُ. وزيادةُ «لكم» لأنَّه المراد.

وقرأ سليمان بن جماز المدني[٤]: «الآخرةِ» بالجرِّ، وخُرِّجت على حذفِ المضاف وإبقاء المضاف إليه على جرِّه، وقدَّره أبو البقاء[٥]: عَرَضَ الآخرة، وهو من باب المشاكلة، وإلا فلا يَحْسُنُ؛ لأنَّ أمورَ الآخرة مستمرَّة. ولو قيل: إنَّ المضافَ المحذوف على القراءة الأولى ذلك لذلك أيضاً لم يَبْعُدْ. وقدَّر بعضُهم هنا كما قدَّرنا هناك من الثواب أو السبب، ونظيرُ ما ذكر قوله:

---

(١) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٥٠ إلى يزيد بن القعقاع ويحيى بن يعمر.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧١٥٨) من حديث شداد بن أوس ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ١٨٩: فيه أبو مهدي سعيد بن سنان، وهو ضعيف جدًّا.

(٣) القراءات الشاذة ص٥١.

(٤) هو سليمان بن مسلم بن جماز، وقيل: سليمان بن سالم بن جماز بالجيم والزاي مع تشديد الميم، أبو الربيع الزهري مولاهم المدني، عرض على أبي جعفر وشيبة، ثم على نافع، وأقرأ بحرف أبي جعفر ونافع، مات بعد السبعين ومئة. طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٣١٥. وقراءته في المحتسب ١/ ٢٨١.

(٥) في الإملاء ٣/ ١٣٣.

أكُلَّ امرئٍ تحسبين امرأً ونارٍ توقَّدُ في الليل نارا[1]

في روايةِ مَن جرَّ «نارٍ» الأولى، وأبو الحسن يحمله على العطف على معمولي عاملين مختلفين.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يغلِّب أولياءَه على أعدائه ﴿حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ يعلمُ ما يليقُ بكلِّ حالٍ ويخصُّه بها، كما أمر بالإثخان ونهى عن أخذِ الفدية حيث كان الإسلام غضًّا وشوكةُ أعدائهِ قويَّة، وخيَّر بينه وبين المنِّ بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤] لما تحوَّلت الحالُ، واستغلظ زرع الإسلام، واستقام على سوقه.

أخرج أحمد، والترمذيُّ وحسَّنه، والطبرانيُّ، والحاكم وصحَّحه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما كان يومُ بدر جيء بالأسارى وفيهم العباس، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما تَرَوْنَ في هؤلاء الأسارى»؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: يارسولَ الله، قومُك وأهلُك، اسْتَبْقِهم لعلَّ الله تعالى أن يتوبَ عليهم. وقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، كذَّبوك وأخرجوك وقاتلوك، قدِّمهم فاضربْ أعناقَهم. وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: يارسول الله، انظرْ وادياً كثيرَ الحطب، فأضْرِمْه عليهم ناراً. فقال العباسُ وهو يسمع ما يقول: قطعتَ رَحِمَكَ. فدخل النبيُّ ﷺ ولم يَرُدَّ عليهم شيئاً. فقال أناسٌ: يأخذ بقول أبي بكر. وقال أناسٌ: يأخذ بقولِ عمر. وقال أناسٌ: يأخذ بقولِ عبد الله بن رواحة. فخرج رسولُ الله ﷺ فقال: «إنَّ الله تعالى لَيُلِينُ قلوبَ رجالٍ حتى تكونَ أَلْيَنَ من اللَّبَن، وإنَّ الله سبحانه لَيُشدِّدُ قلوبَ رجالٍ فيه حتى تكونَ أشدَّ من الحجارة. مَثَلُكَ يا أبا بكر مَثَلُ إبراهيم عليه السلام قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ومَثَلُكَ يا أبا بكر مثلُ عيسى عليه السلام قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] ومَثَلُك يا عمر كمَثَلِ موسى عليه السلام إذ قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] ومَثَلُك يا عمر مَثَلُ نوح عليه السلام إذ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] أنتم عالَةٌ، فلا يَنفلتَنَّ أحدٌ إلا بفداءٍ أو ضربِ عنقٍ» فقال عبدُ الله رضي الله عنه: يا رسول الله

---

(١) البيت لأبي دُؤادٍ الإيادي كما في الكتاب لسيبويه ١/ ٦٦، والأصمعيات ص١٩١، ونسبه المبرد في الكامل ١/ ٣٧٦ و٢/ ١٠٠٢ لعدي بن زيد.

إلَّا سُهيلَ بن بيضاءَ، فإني سمعتُه يذكرُ الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيتني في يومٍ أخوفَ من أن تقعَ عليَّ الحجارةُ من السماء منِّي في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «إلَّا سهيلَ بنَ بيضاءَ»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: قال عمرُ رضي الله عنه: فهوي رسولُ الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلتُ، وأخذ منهم الفداءَ، فلمَّا كان الغدُ جئتُ فإذا رسولُ الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان، قلت: يا رسول الله، أخبرني مِن أيِّ شيءٍ تبكي أنتَ وصاحبُك، فإنْ وجدتُ بكاءً بكيتُ، وإن لم أجدْ تباكيت لبكائكما؟ فقال رسولُ الله عليه الصلاة والسلام: «أبكي على أصحابك في أخذِهم الفداءَ، ولقد عُرِضَ عليَّ عذابُهُم أدنى من هذه الشجرة» لشجرةٍ قريبةٍ منه ﷺ(٢).

واستُدلَّ بالآية على أنَّ الأنبياء عليهم السلام قد يجتهدون، وأنَّه قد يكون الوحيُ على خلافِه ولا يُقَرُّون على الخطأ.

وتُعُقِّب بأنَّها إنما تدلُّ على ذلك لو لم يقدَّر في ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾: لأصحاب نبي، ولا يخفى أنَّ ذلك خلافُ الظاهر، مع أنَّ الإذنَ لهم فيما اجتهدوا فيه اجتهادٌ منه عليه الصلاة والسلام؛ إذ لا يمكن أن يكونَ تقليداً؛ لأنَّه لا يجوزُ له التقليدُ. وأما أنها إنَّما تدلُّ على اجتهاد النبيِّ ﷺ لاجتهادِ غيره من الأنبياء عليهم السلام، فغيرُ وارد؛ لأنَّه إذا جاز له عليه الصلاة والسلام، جاز لغيرِهِ بالطريق الأولى، وتمام البحث في كُتب الأصول.

---

(١) مسند أحمد (٣٦٣٢)، وسنن الترمذي ـ مختصراً ـ (١٧١٤)، و(٣٠٨٤)، والمعجم الكبير (١٠٢٥٨)، والمستدرك ٣/ ٢١ـ٢٢، وهو من طريق أبي عبيدة عن أبيه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه به. قال الترمذي: هذا حديث حسن، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه. قال ابن سعد في الطبقات الكبرى ٤/ ٢١٣: والذي روى هذه القصة في سهيل بن بيضاء، قد أخطأ؛ سهيل بن بيضاء أسلم قبل عبد الله بن مسعود ولم يَسْتَخْفِ بإسلامه، وهاجر إلى المدينة وشهد بدراً مع رسول الله ﷺ مسلماً لا شك فيه، فغلط من روى الحديث ما بينه وبين أخيه، لأن سهيلاً أشهر من سهل، والقصة في سهل. وأقام سهل بالمدينة بعد ذلك، وشهد مع النبي ﷺ بعض المشاهد. اهـ. قلنا: وقد ورد الاسم على الصحيح في رواية أحمد (٣٦٣٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٦٣).

لكن بقي هاهنا شيءٌ، وهو أنَّه قد جاء: «من اجتهد وأخطأ فله أجرٌ، ومَن اجتهد وأصاب فله أجران إلى عشرة أجور»[(١)] فهل بين ما يقتضيه الخبرُ من ثبوتِ الأجر الواحدِ للمجتهد المخطئ وبينَ عتابه على ما يقعُ منه منافاةٌ أم لا؟ لم أرَ مَن تعرَّض لتحقيق ذلك. وإذا قيل بالأوَّل، لا يتمُّ الاستدلال بالآية كما لا يخفى.

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ قيل: أي: لولا حكمٌ منه تعالى سبقَ إثباته في اللوح المحفوظ، وهو أنْ لا يعذِّب قوماً قبل تقديم ما يبيِّن لهم أمراً أو نهياً، وروى ذلك الطبرانيُ في «الأوسط» وجماعةٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)]. ورواه أبو الشيخ[(٣)] عن مجاهد. أو: المخطئَ[(٤)] في مثل هذا الاجتهاد.

وقيل: هو أنْ لا يعذِّبَهم ورسولُ الله ﷺ فيهم.

أو: أنْ لا يعذِّبَ أهلَ بدر رضي الله عنهم، فقد روى الشيخان وغيرُهما أنَّ رسول الله ﷺ قال لعمر رضي الله عنه في قصة حاطب، وكان قد شهد بدراً: «وما يدريك لعلَّ الله تعالى اطَّلع على أهل بدرٍ، وقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم»[(٥)]. وقريبٌ من هذا ما روي عن مجاهدٍ أيضاً وابن جبير.

وزَعْمُ أنَّ هذا قولٌ بسقوطِ التكليفِ لا يصدرُ إلَّا عمَّن سقط عنه التكليف،

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٧٧٤)، والبخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه بلفظ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد، فأخطأ، فله أجر».
وأخرج أحمد (٦٧٥٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: «وإذا قضى القاضي فاجتهد فأصاب فله عشرة أجور، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر أو أجران»، وإسناده ضعيف، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند، وينظر كذلك التلخيص الحبير ٤/ ١٨٠.

(٢) المعجم الأوسط (٨٧٠٧).

(٣) كما في الدر المنثور ٣/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٤) قوله: المخطئ، منصوب بالعطف على قوله: قوماً، فيكون المعنى: لولا حكم منه تعالى سبق إثباته في اللوح المحفوظ وهو أن لا يعذب المخطئ... ينظر تفسير أبي السعود ٤/ ٣٦.

(٥) صحيح البخاري (٣٠٠٧)، وصحيح مسلم (٢٤٩٤)، وأخرجه أحمد (٦٠٠)، وهو من حديث علي رضي الله عنه.

والعَجَبُ من الإمام الرازي كيف تفوَّه به[١]؛ لأنَّ المرادَ أنَّ مَن حضر بدراً من المؤمنين يوفِّقه الله تعالى لطاعتِه، ويغفرُ له الذنبَ لو صدر منه، ويثبِّته على الإيمان الذي ملأ به صدرَه إلى الموافاة، لعِظَمِ شأن تلك الواقعة؛ إذ هي أوَّلُ وقعةٍ أعزَّ الله تعالى بها الإسلامَ، وفاتحةٌ للفتوح، والنصرُ من الله عزَّ وجلَّ، وليس الأمر في الحديث على حقيقته كما لا يخفى.

وقيل: هو أنَّ الفديةَ التي أخذوها ستصير حلالاً لهم.

واعترُض بأنَّ هذا لايصلحُ أن يعدَّ من موانع مساسِ العذابِ، فإنَّ الحِلَّ اللاحقَ لا يرفعُ حكمَ الحرمة السابقة، كما أنَّ الحرمةَ اللاحقةَ ـ كما في الخمر مثلاً ـ لا ترفع حكمَ الإباحة السابقة، على أنَّه قادحٌ في تهويل ما نُعي عليهم من أخذِ الفداء، كما يدلُّ عليه قوله سبحانه: ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أي: لأصابكم ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ أي: لأجل أخْذِكم، أو: الذي أخذتموه من الفداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ لا يقادَرُ قدرُه.

وأجيب بأنَّه لا مانعَ من اعتبار كونِها ستحِلُّ سبباً للعفو، ومانعاً عن وقوع العذابِ الدنيويِّ المراد بما في الآية، وإن لم يعتبر في وقتٍ من الأوقات كونُ المباح سيحرم سبباً للانتقام ومانعاً من العفو؛ تغليباً لجانب الرحمة على الجانب الآخر، وحاصلُ المعنى: أنَّ ما فعلتم أمرٌ عظيمٌ في نفسه مستوجبٌ للعذاب العظيم، لكنَّ الذي تسبَّب العفوَ عنه، ومَنَعَ ترتُّبَ العذابِ عليه، أنِّي سأحلُّه لكم قريباً[٢]. ومثلُ ذلك ـ نظراً إلى رحمتي التي سبقت غضبي ـ يصير سبباً للعفو، ومانعاً عن العذاب.

وكأنَّ الداعيَ لتَكلُّفِ هذا الجواب أنَّ ما ذُكِرَ أخرجه ابنُ أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه[٣]. وأخرجاه هما والبيهقيُّ وابنُ جرير وابنُ المنذر وغيرُهم عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً[٤].

---

(١) تفسير الرازي ١٥/ ٢٠٢ـ٢٠٣.
(٢) في (م): قريباً لكم.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٧٣٤ـ١٧٣٥، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٣/ ٢٠٣، وأخرجه أيضاً الطبري ١١/ ٢٧٨.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٧٣٤، وسنن البيهقي ٧/ ٢٩٣، وتفسير الطبري ١١/ ٢٧٧، وعزاه لابن مردويه وابن المنذر السيوطي في الدر ٣/ ٢٠٣.

ولا يَبْعُدُ عندي أن يكونَ المانعُ من مساس العذاب كلَّ ما تقدَّم، وفي ذلك تهويلٌ لما نُعِيَ عليهم، حيث مَنَعَ مِن ترتُّبِ مساسِ العذابِ عليه موانعُ جمَّة، ولولا تلك الموانعُ الجمةُ لترتَّب. وتعدُّدُ موانعِ شيءٍ واحدٍ جائزٌ، وليس كتعدُّد العلل واجتماعها على معلولٍ واحدٍ شخصي كما بُيِّن في موضعه(١).

وبهذا يجمعُ بين الروايات المختلفة عن الحبر في بيان هذا «الكتاب»، وذلك بأنْ يكون في كلِّ مرةٍ ذكر أمراً واحداً من تلك الأمور، والتنصيصُ على الشيء بالذكر لا يدلُّ على نفي ماعداه، وليس في شيء من الروايات ما يدلُّ على الحصر، فافهم.

وقال بعضهم: إنَّ المعنى: لولا حُكْمُ الله تعالى بغلبتِكم ونَصْرِكم، لمسَّكم عذابٌ عظيم من أعدائكم بغلبتِهم لكم وتسلُّطهم عليكم، يقتلون ويأسِرون وينهبون.

وفيه نظر؛ لأنَّه إنْ أُريدَ بهذه الغَلَبَةِ المفروضةِ الغَلَبَةُ يومَ(٢) بدر، فالأخذ الذي هو سببُها إنَّما وقع بعد انقضاء الحرب، وحينئذٍ يكون مآلُ المعنى: لولا حكمُ الله تعالى بغَلَبتكم، لغلبكم الكفارُ قبلُ بسبب ما فعلتم بعدُ، وهو كما ترى. وإن أريد الغلبة بعدَ ذلك، فهي قد مسَّت القوم في أُحد، فإنَّ أعداءهم قد قتلوا منهم سبعين عدد الأسرى، وكان ما كان، فلا يصحُّ نفيُ المسِّ حينئذ.

نعم أخرج ابن جريرٍ عن محمد بن إسحاق أنَّ النبيَّ ﷺ قال عند نزول هذه الآية: «لو أُنزل من السماء عذابٌ لما نجا منه غيرُ عمر بنِ الخطاب وسعدِ بن معاذ» لقوله: كان الإثخان في القتل أحبَّ إليَّ(٣). وأخرجه ابن مردويه(٤) عن ابن عمرَ لكنْ لَمَ يَذْكُرْ فيه سعد بن معاذ. وذلك يدلُّ على أنَّ المرادَ بالعذاب عذابٌ [في] الدنيا غير القتل مما لم يُعْهَدْ؛ لمكانِ «أُنزل من السماء» وحينئذٍ لا يَرِدُ أنَّه استُشهد

---

(١) ينظر ما سلف ٩/ ١٨١، وما سيأتي عند تفسير الآية [٢٥] من سورة الأحقاف.

(٢) في (م): في، بدل: يوم.

(٣) عزاه للطبري ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٧١ والشهاب في الحاشية ٤/ ٢٩٣، وعنه نقل المصنف، وهو في تفسير الطبري ١١/ ٢٨٣ دون ذكر عمر رضي الله عنه.

(٤) كما في تخريج أحاديث الكشاف ص٧١، والدر المنثور ٣/ ٢٠٢ ـ٢٠٣، وحاشية الشهاب ٤/ ٢٩٣. والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه.

منهم بعدَّتهم؛ لأنَّ الشهادة لا تعدُّ عذاباً، لكن هذا لا ينفعُ ذلك القائلَ؛ لأنه لم يفسِّر العذابَ إلا بالغلبة، وهي صادقةٌ في مادة الشهادة.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ قال محيي السنة: روي أنَّه لما نزلت الآية الأولى، كفَّ أصحابُ رسول الله ﷺ أيديهم عمَّا أخذوا من الفداءِ، فنزلتْ هذه الآية[1]. فالمراد من «ما غنمتُم» إمَّا الفديةُ، وإمَّا مطلقُ الغنائم والمرادُ بيانُ حكمِ ما اندرج فيها من الفدية، وإلا فحِلُّ الغنيمة ممَّا عداها قد عُلم سابقاً من قوله سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ إلخ.

بل قال بعضهم: إنَّ الحلَّ معلومٌ قبل ذلك بناءً على ما في كتاب «الأحكام»: أنَّ أول غنيمةٍ في الإسلام حين أرسل رسول الله ﷺ عبدَ الله بن جحش رضي الله عنه لبدر الأولى ومعه ثمانيةُ رهطٍ من المهاجرين رضي الله عنهم، فأخذوا عيراً لقريش وقَدِموا بها على النبيِّ ﷺ فاقتسموها، وأقرَّهم على ذلك[2].

ويؤيِّد القولَ بأنَّ هذه الآية محلِّلة للفدية ما أخرجه ابنُ مردويه عن أبي هريرة[3] رضي الله عنه ممَّا هو نصٌّ في ذلك.

وقيل: المراد بـ «ما غنمتم» الغنائمُ من غيرِ اندراجِ الفديةِ فيها؛ لأنَّ القومَ لما نزلتِ الآية الأولى، امتنعوا عن الأكل والتصرُّف فيها تزهُّداً منهم، لا ظنًّا لحرمتها، إذ يُبعده أنَّ الحلَّ معلومٌ لهم مما مرَّ. وليس بالبعيد.

والقولُ بأنَّ القولَ الأوَّلَ مما يأباه سباقُ النظمِ الكريم وسياقه[4]. ممنوعٌ، ودون إثباته الموتُ الأحمر.

والفاء للعطف على سببٍ مقدَّر، أي: قد أبحتُ لكم الغنائمَ فكلوا، مثلاً، وقيل: قد يستغنَى عن العطف على السبب المقدَّر بعطفه على ما قبله؛ لأنه بمعناه، أي: لا أؤاخذكم بما أخذتم من الفداء فكلوه.

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٢٦٢.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٧١-٨٧٢.

(٣) كما في الدر المنثور ٣/ ٢٠٤.

(٤) هو قول أبي السعود في تفسيره ٤/ ٣٦.

وزعم بعضُهم[١] أنَّ الأظهرَ تقديرُ «دَعُوا» والعطفُ عليه، أي: دَعُوا ما أخذتم فكلوا ممَّا غنمتم، وهو مبنيٌّ على ما ذَهَبَ إليه من الإباء.

وبنحو هذه الآية تشبَّث مَن زعم أنَّ الأمر الوارد بعد الحظر للإباحة، وضُعِّف بأنَّ الإباحة ثَبَتَتْ هنا بقرينة أنَّ الأكلَ إنما أُمر به لمنفعتهم، فلا ينبغي أنْ تثبت[٢] على وجهِ المضرَّة والمشقَّة.

وقوله تعالى: ﴿حَلَٰلًا﴾ حالٌ من «ما» الموصولة، أو من عائدِها المحذوفِ، أو صفةٌ للمصدر، أي: أكلاً حلالاً. وفائدةُ ذِكْرِه، وكذا ذِكْرُ قوله تعالى: ﴿طَيِّبًا﴾ تأكيدُ الإباحة؛ لما في العتاب من الشدَّة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفته ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ ولذا غفر لكم ذنبكم، وأباح لكم ما أخذتموه.

وقيل: فيغفرُ لكم ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل ورود الإذن، ويرحمُكم ويتوب عليكم إذا اتَّقيتموه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم﴾ أي: في ملكتِكم واستيلائكم، كأنَّ أيديَكم قابضةٌ عليهم ﴿مِّنَ الْأَسْرَىٰٓ﴾ الذين أخذتم منهمُ الفداءَ. وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر: «من الأُسارى»[٣].

﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ إيماناً وتصديقاً كما قال ابنُ عباس ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من الفداء.

والآية على ما في رواية ابنِ سعد وابن عساكر نزلتْ في جميع أسارى بدرٍ[٤]. وكان فداءُ العباس منهم أربعين أوقية، وفداءُ سائرِهم عشرين أوقيةً. وعن محمد بن سيرين أنه كان فداؤُهم مئةَ أوقية، والأوقيةُ أربعون درهماً وستةُ دنانير.

---

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ٣٦.

(٢) في الأصل: يثبت.

(٣) التيسير ص١١٧، والنشر ٢/ ٢٧٧.

(٤) طبقات ابن سعد ٤/ ١٥، وتاريخ مدينة دمشق ٢٦/ ٢٩٣، من حديث ابن عباس ﵄، وأخرجه أيضاً الطبري ١١/ ٢٨٦.

وجاء في رواية أنها نزلت في العباس ﷺ[١]، وقد روي عنه أنه قال: كنتُ مسلماً لكن استكرهوني. فقال رسول الله ﷺ: «إنْ يَكُنْ ما تَذْكُرُ حقًّا فاللهُ تعالى يَجْزِيكَ، فأمَّا ظاهِرُ أمرك فقد كان علينا، فادِ نفسَك وابني أخويك نوفل بن الحارث وعقيل بن أبي طالب، وحليفَك عتبةَ بن عمرو» فقلتُ: ما ذاك عندي يا رسول الله. قال عليه الصلاة والسلام: «فأين الذي دفنتَ أنتَ وأمُّ الفضل، فقلت لها: إنِّي لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإنْ حَدَثَ بي حَدَثٌ، فهو لكِ ولعبد الله وعبيدِ الله وقُثَم» فقلتُ: وما يدريك؟ فقال ﷺ: «أخبرني ربِّي» فعند ذلك قال العباس: أشهد أنَّك صادقٌ، وأنْ لا إله إلا الله، وأنَّك رسولُ الله. إنَّه لم يطَّلع على ذلك أحدٌ إلا الله تعالى، ولقد دفعتُه إليها في سواد الليل[٢].

وروي عنه ﷺ أنه قال بعد حين: أبدلني الله خيراً من ذلك؛ لي الآن عشرون عبداً إنَّ أدناهم ليضربُ في عشرين ألفاً، وأعطاني زمزم وما أحبُّ أنَّ لي بها جميعُ أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرةَ من ربكم[٣]. بتأويل ما في قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٠﴾ فإنه وعدٌ بالمغفرة مؤكَّد بالاعتراض التذييلي.

وروي أنه قَدِمَ على رسول الله ﷺ مالُ البحرين ثمانون ألفاً، فتوضَّأ ﷺ وما صلى حتَّى فرَّقه، وأمر العباس أن يأخذَ منه، فأخذ ما قدر على حمله[٤]. وكان ﷺ يقول: هذا خيرٌ مما أخذ مني، وأرجو المغفرة[٥].

---

(١) تفسير الطبري ١١/ ٢٨٤ ـ٢٨٥.

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ١٤٢ـ١٤٣ من طريق ابن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن عروة، عن الزهري وجماعة سماهم. وأخرجه الحاكم ٣/ ٣٢٤ من حديث عائشة ﷺ. وأخرجه أحمد (٣٣١٠) من طريق ابن اسحاق قال: حدثني من سمع عكرمة عن ابن عباس. وأخرجه ابن سعد في الطبقات ٤/ ١٥ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٢٣٨ عن الكلبي.

(٣) قطعة من خبر الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عند ابن سعد ٤/ ١٥، وأخرجه الطبري ١١/ ٢٨٤ـ٢٨٧ من طرق أخرى عن ابن عباس دون ذكر إعطائه زمزم.

(٤) أخرجه البخاري (٤٢١) من حديث أنس ﷺ.

(٥) أخرجه الطبري ١١/ ٢٨٥ عن قتادة.

والظاهر أنَّ الآية عامةٌ لسائر الأسارى على ما يقتضيه صيغةُ الجمع، ولا يأبى ذلك روايةُ أنها نزلت في العباس؛ لِمَا قالوا من أنَّ العبرةَ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقرأ الأعمش: «يُثِبْكُم خيراً». والحسن وشيبة: «مما أَخَذَ منكم» على البناء للفاعل[1].

﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾ أي: الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ أي: نَقْضَ ما عاهدوك عليه من إعطاء الفديةِ، أو: أنْ لا يعودوا لمحاربتِك، ولا إلى معاضدةِ المشركين.

ويجوز أن يكون المرادُ: وإنْ يريدوا نكثَ ما بايعوكَ عليه من الإسلام، والرِّدَّة واستحبابَ دينِ آبائهم ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ بالكفر ونقضِ ميثاقه المأخوذ على كلِّ عاقلٍ، بل ادَّعى بعضُهم أنَّه الأقرب.

﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ﴾ أي: أقْدرَكَ عليهم حَسْبَما رأيت في بدر، فإنْ أعادوا الخيانةَ فاعلم أنَّه سيمكِّنك الله تعالى منهم أيضاً، فالمفعول محذوفٌ. وقوله سبحانه: (فَقَدْ خَانُواْ) قائم مقامَ الجواب، والجملةُ كلامٌ مسوقٌ من جهتِهِ تعالى لتسليتِهِ عليه الصلاة والسلام بطريقِ الوعدِ له ﷺ والوعيدِ لهم.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما في نيَّاتِهم، وما يستحقونه من العقاب ﴿حَكِيمٌ ۝٧١﴾ يفعلُ كلَّ ما يفعلُه حَسْبَما تقتضيه حكمتُه البالغةُ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ هم المهاجرون الذين هجروا أوطانهم وتركوها لأعدائهم في الله لله عزَّ وجلَّ ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ فصرفوها للكراعِ والسلاحِ، وأنفقوها على المحاويج من المسلمين ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ بمباشرة القتال، واقتحامِ المعارك، والخوض في لُججِ المهالك.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قيل: هو متعلِّق بـ «جاهدوا» قيدٌ لنوعي الجهاد، ويجوز أن يكونَ من باب التنازع في العمل بين «هاجروا» و«جاهدوا».

---

(١) ذكر القراءتين ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٥٠.

ولعلَّ تقديمَ الأموال على الأنفس لما أن المجاهدةَ بالأموال أكثرُ وقوعاً، وأتمُّ دفعاً للحاجة، حيث لا يُتصوَّر المجاهدةُ بالنفس بلا مجاهدةٍ بالمال.

وقيل: ترتيبُ هذه المتعاطفات في الآية على حَسَبِ الوقوع، فإنَّ الأوَّل الإيمانُ، ثمَّ الهجرةُ، ثمَّ الجهادُ بالمالِ لنحوِ التأهُّب للحرب، ثم الجهاد بالنفس.

﴿وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا﴾ هم الأنصار آووا المهاجرين، وأنزلوهم منازلهم، وآثروهم على أنفسِهم، ونصروهم على أعدائِهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المذكورون، الموصوفون بالصِّفات الفاضلة، وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ﴾ إما بدلٌ منه[1] وقولهُ سبحانه: ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ خبر، وإما مبتدأٌ ثان و«أولياء» خبره والجملة خبرٌ للمبتدأ الأول.

أي: بعضُهم أولياءُ بعضٍ في الميراث، على ما هو المرويُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن ومجاهد والسدِّيِّ وقتادة؛ فإنهم قالوا: آخى رسولُ الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، فكان المهاجريُّ يرثُه أخوه الأنصاريُّ إذا لم يكن له بالمدينة وليٌّ مهاجريٌّ، ولا توارثَ بينه وبين قريبِه المسلم غير المهاجريِّ، واستمرَّ أمرُهم على ذلك إلى فتح مكة، ثم توارثوا بالنَّسَب بعد إذ لم تكن هجرة. فالولايةُ على هذا: الوراثة المسبَّبة عن القرابة الحُكمية. والآية منسوخةٌ[2].

وقال الأصمُّ: هي محكمة، والمرادُ الولايةُ بالنُّصرة والمظاهرة. وكأنَّه لم يسمع قولَه تعالى: (فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ) بعد نفي موالاتهم في الآية الآتية.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ كسائر المؤمنين ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: تولِّيهم في الميراث، وإن كانوا أقربَ ذوي قرابتكم ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ وحينئذٍ يثبت لهم الحكمُ السابق.

وقرأ حمزة والأعمش ويحيى بنُ وثاب: «وِلايتهم» بالكسر[3]. وزعم الأصمعيُّ أنه خطأ، وهو المخطئ؛ فقد تواترت القراءةُ بذلك، وجاء في اللغة الولايةُ مَصدراً

(١) في (م): منهم.
(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٣٩٤-٣٩٥.
(٣) التيسير ص١١٧ عن حمزة.

بالفتح والكسر، وهما لغتان فيه بمعنىً واحدٍ، وهو القُربُ الحسيُّ والمعنويُّ كما قيل.

وقيل: بينهما فرقٌ؛ فالفتحُ ولايةُ مولى النسب ونحوِه، والكسرُ ولايةُ السلطان، ونُسب ذلك إلى أبي عبيدة[1]، وأبي الحسن.

وقال الزجَّاج[2]: هي بالفتح النصرةُ والنسبُ، وبالكسر للإمارة. ونُقل عنه[3] أنه ذهب إلى أنَّ الوِلاية لاحتياجها إلى تمرُّنٍ وتدرُّبٍ شُبِّهت بالصناعات، ولذا جاء فيها الكسرُ كالإمارة، وذلك لِمَا ذهب إليه المحقِّقون من أهل اللغة من أنَّ فِعالة بالكسر في الأسماء لما يحيط بشيءٍ ويُجعلُ فيه؛ كاللِّفافة والعِمامة، وفي المصادر يكون في الصناعات وما يزاوَل بالأعمال، كالكتابة والخياطة والزراعة والحراثة.

وما ذكره من حديث التشبيه بالصناعات، يحتملُ أن يكون من الواضعِ؛ بمعنى أنَّ الواضعَ حين وضعها شبَّهها بذلك، فتكون حقيقةً، ويحتمل أن يكون من غيره على طرزِ تشبيهِ زيد بالأسدِ، فحينئذ يكون هناك استعارةٌ، وهي كما قال بعضُ الجلَّة: استعارةٌ أصلية؛ لوقوعها في المصدر دون المشتقِّ، وإن كان التصرُّف في الهيئة لا في المادة، ومنه يُعلم أنَّ الاستعارة الأصلية قسمان: ما يكون التجوُّز في مادته، وما يكون في هيئته.

﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ أي: فواجبٌ عليكم أن تنصروهم على المشركين أعداء الله تعالى وأعدائكم ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ﴾ منهم ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ فلا تنصروهم عليهم[4]؛ لِمَا في ذلك من نقضِ عهدِهم.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ فلا تخالفوا أمرَه، ولا تتجاوزوا ما حدَّه لكم؛ لكي لا يحلَّ عليكم عقابهُ.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ آخرَ منهم، أي: في الميراث كما روي عن

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٢٥١.
(٢) نقله عنه الرازي في تفسيره ١٥/ ٢١٠، والشهاب في الحاشية ٤/ ٢٩٤، والكلام منه.
(٣) كما في حاشية الشهاب ٤/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥.
(٤) في (م): عليه.

ابن عباس رضي الله عنهما. وقال قتادة وابنُ إسحاق: في المؤازرة. وهذا بمفهومه مفيدٌ لنفي المُوارَثةِ والمؤازَرَةِ بينهم وبين المسلمين، وإيجابِ ضدِّ ذلك وإن كانوا أقاربَ.

ومن هنا ذهب الجمهورُ إلى أنه لا يرثُ مسلمٌ كافراً ولا كافرٌ مسلماً، وأخرج ذلك ابن مردويه والحاكمُ وصحَّحه عن أسامة رضي الله عنه: أنه ﷺ قال ذلك وقرأ الآية[1].

ومن الناس مَن قال: إن المسلم يرثُ الكافرَ دون العكس. وليس مما يعوَّل عليه، والفتوى على الأول كما تحقَّق في محلِّه.

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: إلا تفعلوا ما أُمرتم به في الآيتين، وقيل: الضمير المنصوب للميثاق، أو حفظِه، أو الإرثِ، أو النصر، أو الاستنصارِ المفهوم من الفعل، والأَوْلى ما ذكرنا، وفي الأخير ما لا يخفى من التكلُّف.

﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تحصلُ فتنةٌ عظيمةٌ فيها، وهي اختلافُ الكلمة، وضعفُ الإيمان، وظهورُ الكفر ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ وهو سفكُ الدماء على ما روي عن الحسن، فالمرادُ: فسادٌ كبير فيها. وقيل: المراد: في الدارين، وهو خلافُ الظاهر.

وعن الكسائيِّ أنه قرأ: «كثير» بالمثلثة[2].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ كلامٌ مسوقٌ للثناء على القِسْمَين الأَوَّلَيْنِ من الأقسام الثلاثة للمؤمنين ـ وهم المهاجرون والأنصارُ ـ بأنَّهم الفائزون بالقدحِ المعلَّى من الإيمان، مع الوعد الكريمِ بقوله سبحانه: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لا يُقادَر قدرُها ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ أي: لا تبعةَ له، ولا منَّة فيه. وقيل: هو الذي لا يستحيلُ نجواً في الأجواف، وهو رزقُ الجنة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ أي: في بعض أسفاركم. والمرادُ بهم؛ قيل: المؤمنون المهاجرون من بعد صلح الحديبيةِ وهي الهجرةُ الثانية. وقيل:

---

(١) المستدرك ٢/ ٢٤٠، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٢٠٦ للحاكم وابن مردويه ولكن من حديث أبي أمامة، ولم نقف على حديث أبي أمامة عند الحاكم، وحديث أسامة رضي الله عنه أخرجه أحمد (٢١٧٤٧)، والبخاري (٦٧٦٤)، ومسلم (١٦١٤) دون ذكر الآية.

(٢) القراءات الشاذة ص٥٠-٥١، والمشهور عن الكسائي كقراءة الجماعة «كبير» بالباء.

من بعد نزول الآية. وقيل: من بعدِ غزوةِ بدرٍ. والأصحُّ أنَّ المراد بهم الذين هاجروا بعد الهجرة الأولى.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ﴾ أي: من جملتكم أيُّها المهاجرون والأنصار، وفيه إشارة إلى أنَّ السابقين هم السابقون في الشَّرف، وأنَّ هؤلاءِ دونهم فيه، ويؤيِّد أمرَ شرفِهم توجيهُ الخطاب إليهم بطريق الالتفات، وبهذا القِسْمِ صارت أقسامُ المؤمنين أربعة، والتوارثُ إنَّما هو في القسمين الأوَّلَيْنِ على ما علمت، وزعم الطبرسيُّ أنَّ ذلك الحكمَ يثبت لهؤلاء أيضاً، فيكون التوارثُ بين ثلاثةَ أقسام، وجعل معنى «منكم»: من جملتكم، وحُكْمُهم حُكْمُكُم في وجوب الموالاةِ والموارثةِ والنصرة[١]. ولم أره لأصحابنا.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي: ذوو القرابة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ آخرَ منهم في التوريث من الأجانب ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: في حُكْمه، أو: في اللوح المحفوظ.

أخرج الطيالسيُّ والطبرانيُّ وغيرهما عن ابن عباس ﵄ قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، وورَّث بعضَهم من بعض، حتَّى نزلتْ هذه الآية فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب[٢].

وأخرج ابن مردويه[٣] عنه ﵁ قال: توَارَثَ المسلمون لمَّا قدِموا المدينةَ بالهجرة، ثم نُسخ ذلك بهذه الآية.

واستُدِلَّ بها على توريث ذوي الأرحام الذين ذكرهم الفرضيون[٤]، وذلك لأنَّها نُسخ بها التوارُثُ بالهجرة ولم يفرِّق بين العصبات وغيرهم، فيدخل مَن لا تسميةَ لهم ولا تعصيبَ، وهم هم.

---

(١) مجمع البيان ١٠/ ١٨٥-١٨٦.

(٢) مسند الطيالسي (٢٦٧٥)، والمعجم الكبير (١١٧٤٨). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٨: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٣) كما في الدر المنثور ٣/ ٢٠٨.

(٤) ذوو الأرحام هم الذين لا سهم لهم في الكتاب والسنة من قرابة الميت وليسوا بعصبة، وهم أحد عشر: أولاد البنات، وأولاد الأخوات، وبنات الأخ، والخال، والعمة، والخالة، والعم أخ الأب للأم، والجد أبي الأم، والجدة أم أبي الأم، وابن الأخ للأم، وبنات الأعمام. ينظر الاستذكار ١٥/ ٤٨٠-٤٨١، والتهذيب في الفرائض للكلوذاني ص٢١٦، والمغني لابن قدامة ٩/ ٨٢.

وبها أيضاً احتجَّ ابنُ مسعود كما أخرجه ابنُ أبي حاتم والحاكمُ على أنَّ ذوي الأرحام أولى من مولى العتاقة، ولما سمع الحبرُ قال: هيهات هيهات، أين ذهب؟ إنَّما كان المهاجرون يتوارثون دونَ الأعراب فنزلت[1]. وخالفه سائر الصحابة ﷺ أيضاً على ما قيل.

وأنتَ تعلم أنه إذا أريد بكتابِ الله تعالى آياتُ المواريثِ السابقة في سورة النِّساء، أو حكمُه سبحانهُ المعلومُ هناك، لا يبقى للاستدلال على توريثِ ذوي الأرحام بالآية وجهٌ، وكذا ما قاله ابن الفرس من أنه قد يستدلُّ بها لمن قال: إنَّ القريبَ أولى بالصلاة على الميت من الوالي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ۝٧٥﴾ ومن جملته ما في تعليق التوارُثِ بالقرابة الدينيَّة أولاً على الوجه السابق، وبالقرابة النَّسبية آخراً، من الحِكم البالغة.

❁ ❁ ❁

هذا ومن باب الإشارة: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الإيمانَ العِلميَّ ﴿وَهَاجَرُوا۟﴾ من أوطان نفوسِهم ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ بإنفاقها حتَّى تخلَّلوا بعباءِ التجرُّدِ والانقطاع إلى الله عزَّ وجلَّ ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ بإتعابها بالرياضة ومحاربةِ الشيطان، وبذلِها ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تعالى وطريقِ الوصول إليه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟﴾ إخوانَهم في الطريق، ونصروهم على عدوِّهم بالإمداد ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ بميراثِ الحقائقِ والعلومِ النافعة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟﴾ عن وطن النفس ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ فلا توارثَ بينكم وبينهم؛ إذ ما عندكم لا يصلحُ لهم ما لم يستعدُّوا له، وما عندهم يأباه استعدادُكم ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ كما هاجرتم، فحينئذ يثبتُ التوارث بينكم وبينهم. ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ فإنَّ الدين مشترك.

وعلى هذا الطرزِ يقال في باقي الآيات، والله تعالى وليُّ التوفيق، وبيده أزمَّةُ التحقيق.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ١٧٤٣، والمستدرك ٤/ ٣٤٤، قال الحاكم: حديث صحيح.

(سورة الأنفال)

(مدنية وهي خمس أو ست أو سبع وسبعون آية)

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ (النفل) الغنيمة لأنها من فضل الله وعطائه، والأنفال الغنائم. ولقد وقع اختلاف بين المسلمين في غنائم بدر وفي قسمتها فسألوا رسول الله كيف نقسم ولمن الحكم في قسمتها للمهاجرين أو للأنصار أم لهم جميعًا؟ فقيل له: قل لهم هي لرسول الله وهو الحاكم فيها خاصة يحكم ما يشاء ليس لأحد غيره فيها حكم. ومعنى الجمع بين ذكر الله والرسول أن حكمها مختصّ بالله ورسوله يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته، ويمتثل الرسول أمر الله فيها، وليس الأمر في قسمتها مفوّضًا إلى رأي أحد ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الاختلاف والتخاصم وكونوا متآخين في الله ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ﴾ أحوال بينكم يعني ما بينكم من الأحوال التي تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق، وقال (الزجّاج): معنى ﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ﴾ حقيقة وصلكم. والبين الوصل أي فاتقوا الله

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله: (سورة الأنفال، مدنية، وهي خمس أو ستَ أو سبع وسبعون آية)، وألف وخمس وسبعون كلمة، وخمسة آلاف وثمانون حرفًا. اهـ خازن. **قوله:** (النَفل) ـ بالفتح ـ واحد الأنفال، مثل سبب وأسباب.

قوله: (الزجّاج) هو أبو إسحٰق إبراهيم بن محمد النَّحوي رحمه الله.

وكونوا مجتمعين على ما أمر الله ورسوله به. قال (عبادة بن الصامت) ﷺ: نزلت فينا يا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله ﷺ فقسمه بين المسلمين على السواء ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فيما أمرتم به في الغنائم وغيرها ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كاملي الإيمان.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إنما الكاملو الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (فزعت) لذكره استعظامًا له وتهيبًا من جلاله وعزّه وسلطانه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي القرآن ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ ازدادوا بها يقينًا وطمأنينة، لأن تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه وأثبت لقدمه، أو زادتهم إيمانًا بتلك الآيات لأنهم لم يؤمنوا بأحكامها قبل ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يعتمدون ولا يفوّضون أمورهم إلى غير ربهم لا يخشون ولا يرجون إلا إياه ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ جمع بين أعمال القلوب من الوجل والإخلاص والتوكّل، وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة.

قوله: (عبادة بن الصامت) الصحابي الأنصاري الخزرجي، شَهِد العقبة الأُولى والثانية مع رسول الله ﷺ، وشَهِد بدرًا وأُحدًا والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد، رُوِي له عن رسول الله ﷺ مائة وأحد وثمانون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم منها على ستّة، وانفرد البخاري بحديثين، ومسلم بآخرَيْن. توفي ببيت المقدس، وقيل: بالرَّمْلة، سنة أربع وثلاثين وهو ابن ثنتين وسبعين سنة، وقيل: توفي سنة خمس وأربعين، والأول أصح وأشهر. **قوله:** (فزعت[١]) لذكره استعظامًا له، يعني أن المراد من الوجَل الذي هو الخوف والفزع هٰهنا هو الخوف المتفرّع على مجرّد ذكر الله تعالى وملاحظة عظمته وجلاله، فإنّ هذا الخوف لا يزول عن قلب مَنْ ذكر الله تعالى عالمًا بنعوت جلاله وصفات كماله، سواء كان ملكًا مقرّبًا أو نبيًّا مرسلًا أو مؤمنًا تقيًّا، فإنّ كل واحد منهم عند ذكر الله تعالى يلاحظ عظمة الله تعالى واستغناءه عن جميع ما سواه، ويعلم احتياجه إليه في جميع مهمّاته، فلا

---

(١) من باب تعِبَ، ١٢ منه عمّ فيضهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ هو صفة لمصدر محذوف أي أولئك هم المؤمنون إيمانًا حقًّا، أو هو مصدر مؤكّد للجملة التي هي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ كقولك: «هو عبد الله حقًّا» أي حق ذلك حقًّا. وعن **(الحسن)** رحمه الله أن رجلًا سأله أمؤمن أنت؟ قال: إن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن، وإن كنت تسألني عن قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ الآية. فلا أدري أنا منهم أم لا. وعن **(الثوري)**: من زعم أنه مؤمن بالله حقًّا ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة فقد آمن بنصف الآية، أي كما لا يقطع بأنه من أهل ثواب المؤمنين حقًّا فلا يقطع بأنه مؤمن حقًّا، **(وبهذا يتشبث من يقول: أنا مؤمن إن شاء الله)**.

جرم يهابه ويقشعرّ جلده وتغلب عليه الدهشة، بحيث يكاد يعني وجوده. وأمّا خوف العقاب، فهو لا يحصل من مجرّد ذكر الله تعالى، وإنما يحصل بملاحظة معصيته، وذكر قهر الله وعقابه، واللائق بهذا المقام هو الحمل على خوف العظمة والجلال؛ لأنه اللازم لكمال الإيمان. اهـ شيخ زاده رحمه الله.

قوله: (الحسن) هو الإمام المشهور المُجمع على جلالته في كل فنّ، أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار التابعي البصريّ - بفتح الباء وكسرها - الأنصاري، أدرك من أصحاب رسول الله ﷺ مائة وثلاثين، مناقبه كثيرة مشهورة. توفي سنة عشر ومائة رضي الله تعالى عنه.

قوله: (الثوري) هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد الكوفي الإمام الجامع لأنواع المحاسن، وهو من تابعي التابعين، اتّفق العلماء على وصفه بالبراعة في العلم بالحديث والفقه والورع والزهد وخشونة العيش والقول بالحقّ وغير ذلك من المحاسن وأحوال الثوري والثناء عليه أكثر من أن يُحصر وأوضح من أن يُشهر، وهو أحد أصحاب المذاهب الستّة المتبوعة، وأجمعوا على أنه توفي بالبصرة سنة إحدى وستّين ومائة رحمه الله.

قوله: (وبهذا) أي بما ذكره الثوري رحمه الله من النكتة **(يتشبّث)** التشبّث بالشيء التعلّق به. اهـ مختار الصّحاح. أي يتمسّك **(مَن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله)**...

وكان (أبو حنيفة) رَحِمَهُ اللَّهُ لا يقول ذلك. وقال (لقتادة): لم تستثني في إيمانك؟ قال: اتباعًا لإبراهيم في قوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۝٨٢﴾ [الشعراء: الآية ٨٢]، فقال له: هلّا اقتديت به في قوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ﴾ [البقرة: الآية ٢٦].

وعن (إبراهيم التيمي): قل أنا مؤمن حقًّا فإن صدقت أثبت عليه، وإن كذبت فكفرك أشد من كذبك. وعن (ابن عباس) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَن لم يكن منافقًا فهو مؤمن حقًّا.

الخ. وهي مسألة الموافاة المشهورة وتحقيقها أنّ الاستثناء، أعني إن شاء الله، إنْ كان للتبرّك وتفويض الأُمور إلى مشيئته تعالى، أو للشكّ في الخاتمة، أو في الإيمان المنجّي الذي يترتّب عليه دخول الجنّة، أو لتعليق الإيمان الكامل الذي يدخل فيه الأعمال جاز، وبالجملة ليس للشكّ في حصول الإيمان في الحال، فيرتفع النزاع ويتبيّن أنه لفظيّ، كما ذهب إليه شرّاح الكشاف بأسرهم. اهـ شهاب رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: (أبو حنيفة) هو الإمام البارع النّعمان بن ثابت رضي الله تعالى عنهما، وُلد سنة ثمانين من الهجرة، وتوفي ببغداد سنة خمسين ومائة.

قوله: (لقتادة) بن دعامة ـ بكسر الدال المهملة ـ البصريّ التابعي، وُلِد أعمى. أجمعوا على جلالته وتوثيقه وحفظه وإتقانه وفَضْله. توفي سنة سبع عشرة، وقيل: سنة ثمان عشرة ومائة، وهو ابن ستّ وخمسين سنة، وقيل: خمس وخمسين سنة رحمه الله.

قوله: (إبراهيم التيميّ) هو إبراهيم بن محمد بن طلحة التيمي، أبو إسحٰق المدني، ثقة، مات سنة عشر ومائة، وله أربع وستّون رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: (ابن عباس) الصحابي ابن الصحابي المكّي ابن عمّ رسول الله ﷺ، وكان يقال له: حبر الأُمّة والبحر لكثرة علمه، رُوِي له عن رسول الله ﷺ ألف حديث وستّمائة حديث وستّون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم منها على خمسة وتسعين، وانفرد البخاري بمائة وعشرين، ومسلم بتسعة وأربعين. توفي بالطائف سنة ثمان وستّين، ومناقبه كثيرة مشهورة رضي الله تعالى عنهما.

وقد احتجّ (عبد الله) على (أحمد) فقال: (أيش) اسمك؟ فقال: أحمد، فقال: أتقول أنا أحمد حقًّا أو أنا أحمد إن شاء الله؟ فقال: أنا أحمد حقًّا. فقال: حيث سمّاك والداك لا تستثني وقد سمّاك الله في القرآن مؤمنًا تستثني. ﴿لَهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ مراتب بعضها فوق بعض على قدر الأعمال ﴿عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ﴾ وتجاوز لسيئاتهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ صافٍ عن كد الاكتساب وخوف الحساب.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾

الكاف في ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ في محل النصب على أنه صفة لمصدر الفعل المقدر، والتقدير: قل الأنفال استقرّت لله والرسول وثبتت مع كراهتهم ثباتًا مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون ﴿مِنۢ بَيْتِكَ﴾ يريد بيته بالمدينة، أو المدينة نفسها لأنها (مهاجره) ومسكنه فهي في اختصاصها به كاختصاص البيت لساكنه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إخراجًا متلبسًا بالحكمة والصواب ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ في موضع الحال أي أخرجك في حال كراهتهم. وذلك أن (عير قريش) أقبلت من الشام فيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكبًا منهم

قوله: (عبد الله) بن المبارك واضح أبو عبد الرحمٰن الإمام المُجمع على إمامته وجلالته في كل شيء الذي يستنزل الرحمة بذكره، وترتجى المغفرة بحبّه، وهو من تابعي التابعين، توفي سنة إحدى وقيل: اثنتين وثمانين ومائة رضي الله تعالى عنه.

قوله: (أحمد) بن حنبل، هو الإمام البارع أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيبانيّ المروزيّ ثم البغداديّ، وُلِد في شهر ربيع الأوّل سنة أربع وستّين ومائة، وتوفي ضحوة يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأوّل سنة إحدى وأربعين ومائتين، ودُفِن ببغداد وقبره مشهور معروف يتبرّك به رحمه الله.

قوله: (أيش) تحريف أيّ شيءٍ.

قوله: (مهاجره) بفتح الجيم على صيغة اسم المفعول، المراد به اسم المكان، أي موضع هجرته.

قوله: (عير قريش) العير ـ بكسر العين ـ الإبل التي تَحْمل المتاع، والمراد هنا القافلة من التجّار.

(**أبو سفيان**)، فأخبر جبريل النبيّ ﷺ فأخبر أصحابه فأعجبهم تلقي العير لكثرة الخير وقلّة القوم، فلما خرجوا علمت قريش بذلك فخرج (**أبو جهل**) بجميع أهل مكة وهو النفير (**في المثل السائر: لا في العير ولا في النفير**). فقيل له: إن العير أخذت طريق الساحل ونجت، فأبى وسار بمن معه إلى بدر ـ

قوله: (**أبو سفيان**) صخر بن حرب بن أُميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ القريشيّ الأُمويّ المكّي، أسلم زمن الفتح، وكان شيخ مكّة إذ ذاك ورئيس قريش، ولَقِيَ رسول الله ﷺ بالطريق قبل دخول مكّة لفتحها فأسلم هناك، وشهد حُنَيْنًا وأعطاه النبيّ ﷺ من غنائمها مائة بعير وأربعين أُوقية، وشهد الطائف، وفُقِئت عينه يومئذ، وشهد اليرموك. رَوَى له البخاري ومسلم حديث هرقل من رواية ابن عباس عن أبي سفيان، وكان أبو سفيان من تجّار قريش وأشرافهم، وكان من المؤلّفة ثم حَسُن إسلامه. نزل المدينة وتوفي بها سنة إحدى وثلاثين، وقيل: أربع وثلاثين، وهو ابن ثمانٍ وثمانين سنة، وهو والد يزيد ومعاوية وأُمّ حبيبة أولاد أبي سفيان وأخواتهم ﷺ.

قوله: (**أبو جهل**) عدوّ الله فرعون هذه الأُمّة، اسمه عمرو بن هشام، وهو ابن المغيرة المخزومي الجاهل المعروف، وكان يُكنى أبا الحكم فكناه النبيّ ﷺ أبا جهل، فغلبت هذه الكنية. قُتِل يوم بدر كافرًا، وكانت بدر في السنة الثانية من الهجرة قتله عمرو(١) بن الجموح وابن عفراء الأنصاريّان، وكانا حدَثَيْن وحديثهما في الصحيح مشهور. **قوله:** (**في المثل السائر**) أي الجاري بين الناس (**لا في العير ولا في النفير**) قال المُفَضَّل: أوّل مَنْ قال ذلك أبو سفيان بن حرب، وذلك أنه أقبل بعير قريش، وكان رسول الله ﷺ قد تحيّن انصرافها من الشام، فندب المسلمين للخروج معه، وأقبل أبو سفيان حتى دنا من المدينة وقد خاف خوفًا شديدًا، فقال لمُجْدِي بن عمرو: هل أحسست من أحد من أصحاب محمّد؟ فقال: ما رأيت مِنْ أحد أنكره إلا راكبين أتيا هذا المكان، وأشار إلى مكان عديّ وبَسْبَس عيني رسول الله ﷺ، فأخذ أبو سفيان أبعارًا من أبعار بعيريهما ففتّها، فإذا فيها نوى، فقال: علائف يَثْرب، هذه عيون محمّد، فضرب وجوه عيره فساحل بها

---

(١) في المرقاة: قتله ابن عفراء وقطع رأسه ابن مسعود ﷺ. ١٢ منه عمّ فيضهم.

وهو ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يومًا في السنة - ونزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، إن الله وعدكم إحدى الطائفتين، إما العير وإما قريشًا. فاستشار النبيّ ﷺ أصحابه وقال العير «أحب إليكم أم النفير؟» قالوا: بل العير

وترك بدرًا يسارًا، وقد كان بعث إلى قريش حين فصل من الشام يُخبرهم بما يخافه من النبيّ ﷺ، فأقبلت قريش من مكّة، فأرسل إليهم أبو سفيان يُخبرهم أنه قد أحرز العير ويأمرهم بالرجوع، فأبَتْ قريش أن ترجع ورجعت بنو زهرة من ثنيّة أجدى عدلوا إلى الساحل منصرفين إلى مكّة، فصادفهم أبو سفيان، فقال: يا بني زهرة لا في العير ولا في النفير، قالوا: أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع ومضت قريش إلى بدر، فواقعهم رسول الله ﷺ فأظفره الله تعالى بهم، ولم يشهد بدرًا من المشركين من بني زهرة أحد. قال الأصمعي: يُضرب هذا للرجل يُحَطّ أمره ويُصَغّر قدرُه، ورُوِي أن عبد الله بن يزيد بن معاوية أتى أخاه خالدًا، فقال: يا أخي، لقد هممت اليَوْم أن أفتك بالوليد بن عبد الملك، فقال له: والله بِئْسما هممت به في ابن أمير المؤمنين ووليّ عهد المسلمين، فقال: إنّ خَيْلي مرّت به فتعبّث بها وأصْغرها وأصغرني، فقال خالد: أنا أكفيكه، فدخل خالد إلى عبد الملك والوليد عنده، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ الوليد مرّت به خيل ابن عمّه عبد الله بن يزيد بن معاوية، فتعبّث بها وأصغره، وعبد الملك مُطرق فرفع رأسه وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ﴾ [النمل: الآية ٣٤]. . . إلى آخر الآية، فقال خالد: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: الآية ١٦]. . . إلى آخر الآية، فقال عبد الملك: أفي عبد الله تكلّمني؟ والله لقد دخل عليّ فما أقام لسانه لحنًا، فقال خالدًا: فعلى الوليد تقوّل؟ فقال عبد الملك: إن كان الوليد يلحن، فإن أخاه سليمان لا، فقال خالد: وإنْ كان عبد الله يلحن، فإن أخاه خالدًا لا؛ فقال له الوليد: اسكت يا خالد، فوالله ما تُعَدُّ في العير ولا في النّفير، فقال خالد: اسمع يا أمير المؤمنين ثم أقبل عليه فقال: ويحك مَن في العير والنفير غير جدّي أبو سفيان صاحب العير، وجدّي عُتْبة بن ربيعة صاحب النّفير، ولكن بوقلت غُنَيْمات وحُبَيْلات والطائف، ورحم الله عثمان، قلنا: صدقت عنى بذلك طرد رسول الله ﷺ الحكم إلى الطائف إلى مكان يُدعى غنيمات، وكان يأوي إلى حَبْلة وهي الكرمة، وقوله: رحم الله عثمان لردّه إيّاه. اهـ مجمع الأمثال.

أحبّ إلينا من لقاء العدو. فتغيّر وجه رسول الله ﷺ، ثم ردَّد عليهم فقال: «إن العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل» فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو. فقام عند غضب النبيّ ﷺ (أبو بكر وعمر) ﵄

قوله: (أبو بكر) الصدّيق الأكبر خليفة رسول الله ﷺ، عبد الله بن أبي قحافة، عثمان بن عامر مَنْ يُحصي مناقبه ويُحيط بفضائله غير الله عزّ وجلّ. رُوِي للصدّيق رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ مائة حديث واثنان وأربعون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم منها على ستّة، وانفرد البخاري بأحد عشر، ومسلم بحديث، وسبب قلّة رواياته مع تقدّم صحبته وملازمته النبيّ ﷺ أنّه تقدَّمت وفاته قبل انتشار الأحاديث واعتناء التابعين بسماعها وتحصيلها وحفظها، وكان النبيّ ﷺ يُكْرِمه ويُجلّه ويُعرّف أصحابه مكانه ويُثني عليه في وجهه، واستخلفه في الصلاة، ومناقبه غير مُنحصرة. أجمعت الأُمّة على صحة خلافته، وقدَّمته الصحابة ﷺ لكونه أفضلهم وأحقّهم بها من غيره، وحديث بيعته مشهور في الصحيحين معروف، وقد قال عليّ رضي الله عنه: قدَّم رسول الله ﷺ أبا بكر يصلّي بالناس وأنا حاضرٌ غير غائب، وصحيح غير مريض، ولو شاء أن يقدّمني لَقَدَّمني، فرَضِينا لدنيانا مَنْ رَضِيَه الله ورسوله لديننا. توفي في جمادى الأُولى سنة ثلاث عشرة، والصّحيح أنه توفي وله ثلاث وستّون سنة كرسول الله ﷺ، وعمر بن الخطاب توفي في آخر يوم الاثنين.

قوله: (وعمر) بن الخطّاب بن نُفيل اتّفقوا على أنه أوّل مَنْ سُمّي أمير المؤمنين، وإنما كان يقال لأبي بكر رضي الله تعالى عنه خليفة رسول الله ﷺ. رُوِي له عن رسول الله ﷺ خمسمائة حديث وتسعة وثلاثون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم منها على ستّة وعشرين حديثًا، وانفرد البخاري بأربعة وثلاثين، ومسلم بأحد وعشرين، وأجمعوا على كثرة علمه، ووفور فَهْمه وزهده وتواضعه، ورفعه المسلمين وإنصافه ووقوفه مع الحقّ، وتعظيمه آثار رسول الله ﷺ، وشدّة متابعته له واهتمامه بمصالح المسلمين، وإكرامه أهل الفضل والخير، وأحواله وفضائله وسيرته ورفقه برعيّته وتواضعه وجميل سيرته واجتهاده في الطاعة وفي حقوق المسلمين أشهر من أن تُذكر وأكثر من أن تُحصر، وطُعِنَ عمر رضي الله تعالى عنه يوم الأربعاء لأربع ليالٍ من شهر ذي الحجّة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة، ودُفِن يوم

(فأحسنا)، ثم قام (سعد بن عبادة) فقال: (انظر أمرك فامض فيه)، فوالله لو سرت إلى (عدن أبين) ما تخلف عنك رجل من الأنصار. ثم قال:

الأحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين، وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وإحدى وعشرين يومًا، وقيل غير ذلك.

قوله: (فأحسنا) أي الكلام في انقياد الرسول ﷺ.

قوله: (سعد بن عُبادة) بن دُلَيم بن حارثة الأنصاري الخزرجيّ أحد النقباء وأحد الأجواد، وقع في صحيح مسلم أنه شَهِد بدرًا، والمعروف عند أهل المغازي أنه تهيّأ للخروج فنُهِس[(١)]، فأقام. مات بأرض الشام سنة خمس عشرة، وقيل غير ذلك. اهـ تقريب. وفي تهذيب الأسماء: قالوا: يقال: إنّ الجنّ قتله، وأنشدوا فيه البيتين[(٢)] المشهورَيْن. اهـ.

قوله: (انظر أمرك) أي في أمرك. **قوله:** (فامْض فيه) أي افعل ما تريد، فنحن معك ولا نخالفك. **قوله:** (عدن أبْين) جزيرة باليمن أقام بها أبْيَنُ. اهـ قاموس. وفي لسان العرب: العَدَن موضع باليمن، وعَدَن أبْيَن ويَبْين نسب إلى أبْيَن رجل من حِمْيَر، لأنه عَدَن به، أي أقام. قال الأزهري: وهي بلد على سَيْف البحر في أقصى بلاد اليمن، وفي الحديث ذكر عدن أبْيَن هي مدينة معروفة باليمن أضيفت إلى أبْيَن بوزن أبيض، وهو رجل من حِمْيَر. اهـ. ذكره لغاية بعده، لأنه نهاية اليمن، وبعده البحر. وقال القاضي المرتضى اليمني: أبْيَن اسم قصبة بينها

---

(١) في المصباح: نَهَسه الكلب وكلّ ذي ناب نَهْسًا، من بابي ضرب ونفع عضّه. اهـ. ١٢ منه عمّ فيضهم.

(٢) وهما:

نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة فرميناه بسهمين فلم نخط فؤاده

وقيل:

نحن قتلنا سيّد الخز رج سعد بن عباده
ورميناه بسهـ ـم فلم نُخطىء فؤاده

وقيل:

قتلنا سيّد الخزرج سعد بن عباده
رميناه بسهم فلم يخطّ فؤاده

١٢ منه عمّ فيضهم.

(المقداد بن عمرو): امضِ (لما أمرك الله) فإنا معك حيث (أحببت)، لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾

وبين عدن مقدار ثلاثة فراسخ تجلب منها إلى عدن الفواكه والخضروات، فكانت الإضافة لمجرّد الملابسة.

قوله: (المقداد بن عمرو) الكندي الصحابي، وهو المقداد بن عمرو بن ثعلبة حقيقةً، واشتُهر بالمِقداد بن الأسود؛ لأنه كان في حجر الأسود بن عبد يغوث فتبنّاه فنُسِب إليه، ويقال له: المِقْداد الكندي، لأنه أصاب دمًا في بهراءَ فهرب منهم إلى كندة، فحالفهم ثم أصاب دمًا فيهم فهرب منهم إلى مكّة، فحالف الأسود بن عبد يغوث فهو بهرانيّ، ويقال: كندي، ويقال: زهريّ، وهو قديم الإسلام والصُّحبة من السابقين إلى الإسلام. قال ابن مسعود ﷺ: أوّل مَنْ ظهر إسلامه بمكّة سبعة منهم المقداد بن الأسود، وهاجر إلى الحبشة ثم عاد إلى مكّة، ثم هاجر إلى المدينة، وشَهِد مع رسول الله ﷺ بدرًا وسائر المشاهد، ولم يثبت أنه شهد بدرًا فارس مع رسول الله ﷺ غير المقداد، وقيل: كان الزبير فارسًا أيضًا. رُوِيَ له عن رسول الله ﷺ اثنان وأربعين حديثًا، اتّفقا على حديثٍ واحد، ولمسلم ثلاثة. ورَوَى عنه من الصحابة عليّ بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس والسائب بن يزيد وسعيد بن العاص والمستورد بن شداد وطارق بن شهاب. وروى عنه خلائق من التابعين، منهم عبيد الله بن عدي وهمام بن الحارث وعبدُ الرحمٰن بن أبي ليلى وأسلم بن عامر وميمون بن أبي شبيب وجبير بن نُفير وأبو ظبية ـ بالظاء المعجمة ـ وغيرهم. توفي بالجُرْف على عشرة أميال من المدينة، وحُمل على رقاب الرجال إلى المدينة، وقيل: توفي بالمدينة في خلافة عثمان بن عفان سنة ثلاث وثلاثين وهو ابن سبعين سنة، وصلّى عليه عثمان، وأوصى إلى الزبير، وشهد فتح مصر ومناقبه كثيرة. وفي الترمذي عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله عزّ وجلّ أمرني بحبّ أربعة وأخبرني أنه يحبّهم»، قيل: يا رسول الله سمّهم لنا، فقال: «عليٌّ منهم» يقول ذلك ثلاثًا «وأبو ذرّ والمقداد وسلمان»، قال الترمذي: حديث حسن رضي الله تعالى عنه.
قوله: (لما أمرك الله) بكسر اللام لما كان فعل النبيّ ﷺ بالوحي. **قوله:** (أحببت) من الأحباب أفعال من الحب.

[المائدة: الآية ٢٤]. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. ما دامت عين منّا (**تطرف**)، فضحك رسول الله ﷺ. وقال (**سعد بن معاذ**): امضِ يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق (**لو استعرضت بنا هذا البحر**) فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، فسر بنا على بركة الله. ففرح رسول الله ﷺ

قوله: (**تطرف**) في المصباح: طرف البصر طرفًا من باب ضرب تحرّك وطرف العين نظرها. اهـ.

قوله: (**سعد بن معاذ**) الأنصاري الصحابي، كان من أعظم الناس بركةً في الإسلام، ومن أنفعهم لقومه، شهد بدرًا وأُحدًا والخندق وقريظة، ونزلوا على حكمه، فحكم فيهم بقتل الرجال وسبي الذريّة، فقال النبيّ ﷺ: «لقد حكَمْتَ فيهم بحكم الله تعالى». وتوفي شهيدًا عام الخندق من جرحٍ أصابه من قتال الخندق، وثبت في صحيحَيْ البخاري ومسلم عن جابر ﷺ عن النبيّ ﷺ قال: «اهتزّ عرش الرحمٰن لموت سعد بن معاذ»، وفي صحيح مسلم عن أنس ﷺ مثله. قال العلماء: اهتزاز العرش فرح الملائكة لقدومه لما رأوا من منزلته. وفي الصحيحين عن البراء ﷺ، قال: أُهدي لرسول الله ﷺ ثوب حرير، فجعلنا نلمسه ونتعجّب منه، فقال النبيّ ﷺ: «والذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنّة خيرٌ من هذا وألْيَن». وفي الصحيحين عن أنس مثله، وفي رواية قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنّة أحسن من هذا». وفي الصحيحين عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أنّ رسول الله ﷺ حين بعث إلى سعد بن معاذ، فجاء على حمار فبلغ قريبًا من المسجد، وقال: «قوموا إلى سيِّدكم»، أو قال: «خيركم». وفي الترمذي عن أنس ﷺ: قال: لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون: ما أخفّ جنازته، وذلك لحكمه في قريظة، فقال النبيّ ﷺ: «إنّ الملائكة كانت تحمله»، قال الترمذي: هذا حديث صحيح، ومناقب سعد رضي الله تعالى عنه كثيرة مشهورة، وأنشدوا شعر:

وما اهتزّ عرش الله من موت هالك   سمعنا به إلا لسعدٍ أبي عمرو

رَوى له البخاري حديثًا من رواية ابن مسعود، وفيه معجزة من معجزات النبيّ ﷺ. **قوله:** (**لو استعرضت بنا هذا البحر**) أي لو طلبت منّا أن نعبره عرضًا،

ونشطه قول سعد ثم قال: «سيروا على بركة الله أبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى (مصارع القوم)» وكانت الكراهة من بعضهم لقوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ قال (الشيخ أبو منصور) رحمه الله: يحتمل أنهم منافقون كرهوا ذلك اعتقادًا، ويحتمل أن يكونوا مخلصين، وأن يكون ذلك كراهة طبع لأنهم غير متأهبين له.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ﴾ الحق الذي جادلوا فيه رسول الله ﷺ تلقي النفير لإيثارهم عليه تلقي العير ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ بعد إعلام رسول الله ﷺ بأنهم ينصرون وجدالهم قولهم ما كان خروجنا إلا للعير، وهلا قلت لنا لنستعد وذلك لكراهتهم

وخصّ ذلك لأنه أصعب من الطول، والباء تحتمل التعدية والمصاحبة، والأخير أنسب. وفي الصحاح: استعرض أي طلب أن يعرض ما عنده من الأمر، أي لو طلبت من البحر عرض ما عنده من الأمواج والأهوال حال ركوبك فيه ونحن في صحبتك لخُضْناه وما خفناه، وهذا مجاز من القول وفيه مبالغة. **قوله: (مصارع القوم)** المصارع الأمكنة التي سقطت أجسادهم مقتولين، والمراد بالقوم كفّار قريش، واللام للعهد.

قوله: (الشيخ أبو منصور) محمّد بن محمد بن محمود الماتريديّ، كان من كبار العلماء، كان يقال له إمام الهدى، له كتاب التوحيد، وكتاب المقالات، وكتاب ردّ أوائل الأدلّة للكعبي، وكتاب بيان وَهْم المعتزلة، وكتاب تأويلات القرآن، وهو كتاب لا يُوازيه فيه كتاب، ولا يُدانيه شيء من تصانيف مَنْ سبقه في ذلك الفنّ، وله كتب شتّى. مات رحمه الله سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة بعد وفاة أبي الحسن الأشعري بقليل، وقبره بسمرقند، كذا وجدته بخطّ شيخنا أبي الحسن عليّ الحنفي، ورأيت بخطّ شيخنا قطب الدّين عبد الكريم سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة رحمه الله .اهـ الجواهر المضيئة. نسبته إلى ماتريد بفتح الميم ثم الألف وضمّ التاء المنقوطة باثنتين من فوق وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناة التحتيّة في آخره دال مهملة، ويقال: ماتريت ـ بالتاء الفوقية المثناة موضع الدال ـ محلّة بسمرقند، ذكره السمعاني.

القتال ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ شبه حالهم في فرط فزعهم وهم يسار بهم إلى الظفر والغنيمة بحال من **(يعتل)** إلى القتل ويساق على **(الصغار)** إلى الموت وهو مشاهد لأسبابه ناظر إليها لا يشك فيها. وقيل: كان خوفهم **(لقلة العدد)** وإنهم كانوا **(رجّالة وما كان فيهم إلا فارسان)**.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ «إذ» منصوب بـ «اذكر» و﴿إِحْدَى﴾ مفعول ثانٍ ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدل من ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ وهما الغير والنفير والتقدير: وإذ يعدكم الله أن إحدى الطائفتين لكم ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي العير وذات الشوكة ذات السلاح، والشوكة كانت في النفير لعددهم وعدتهم أي تتمنون أن تكون لكم العير لأنها الطائفة التي لا سلاح لها ولا تريدون الطائفة الأخرى ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ **(أي يثبته ويعليه)** ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة، وبما قضى من قتلهم وطرحهم في **(قليب بدر)** ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ آخرهم والدابر الآخر فاعل من دبر إذا أدبر. وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال يعني أنكم تريدون الفائدة العاجلة

قوله: (يُعْتل) العتل: الجذب بعنف، وبابه ضرب. **قوله: (الصغار)** ـ بالفتح ـ الذلّ. **قوله: (لقلّة العدد)** لأنهم كانوا ثلاثمائة وتسعة رجال فيهم فارسان، وقيل: فارس واحد، والمشركون ألف ذو عِدّة وعُدّة. **قوله: (رجالة)** بفتح وتشديد جمع راجل، وهو الماشي. **قوله: (وما كان فيهم إلا فارسان)** هما المقداد بن الأسود والزبير بن العوام رضي الله تعالى عنهما، وفي مسند أحمد عن عليّ كرَّم الله وجهه: ما كان منّا فارسًا يوم بدر إلّا المقداد بن الأسود.

قوله: (أي يثبته ويعليه) يشير إلى أنه من حقّ بمعنى ثبت، فأحقّه أثبته وإعلاؤه إظهاره على غيره، وهو تفسير للحقّ؛ لأن الحقّ حقّ في نفسه لا يحتاج إلى إحقاق، كما أنّ الباطل باطل في حدّ ذاته لا يحتاج إلى إبطال؛ فالمراد بإحقاق الحق وإبطال الباطل إظهار كونه حقًّا وباطلًا لئلا يلزم تحصيل الحاصل. **قوله: (قليب بدر)** في المصباح: القليب البئر، وهو مذكّر. قال الأزهري: القليب عند

و(**سفساف الأمور**)، والله تعالى يريد معالي الأمور ونصرة الحق وعلوّ الكلمة، (**وشتّان**) ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة وكسر قوتهم بضعفكم وأعزّكم وأذلّهم.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ متعلّق بـ «يقطع» أو بمحذوف تقديره ليحق الحق ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ فعل ذلك والمقدّر متأخر ليفيد الاختصاص أي ما فعله إلا لهما، وهو إثبات الإسلام وإظهاره وإبطال الكفر ومحقه، وليس هذا بتكرار لأن الأول تمييز بين (**الإرادتين**)، وهذا بيان لمراده فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم ونصرتهم عليها ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ المشركون ذلك.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ (**بدل من «إذ يعدكم»**) أو متعلق بقوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ واستغاثتهم أنهم لما علموا أنه لا بد من القتال (**طفقوا يدعون الله**) يقولون أي ربنا انصرنا على عدوك، يا غياث المستغيثين أغثنا. (**وهي**) طلب الغوث وهو التخليص من المكروه ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فأجاب. وأصل ﴿أَنِّى

العرب: البئر العادية القديمة مطويّة كانت أو غير مطويّة، والجمع قُلُب، مثل بريد وبُرُد. اهـ. **قوله:** (**سفْسَاف الأُمور**) السَّفْساف الرّديء الحقير من الأمور، ويُقابلها المعالي. وفي الحديث: «إن الله تعالى يحبّ معالي الأُمور ويبغض سفسافها». **قوله:** (**شتَّان**) أي بَعُد.

قوله: (**الإرادتين**) إرادة الله تعالى إثبات الدِّين، وإرادتهم الفائدة العاجلة، وما هو من سفسافها.

قوله: (**بدل من «إذ يعدكم»**) بأن يكون إذ عبارة عن زمان واسع وقع الوعد في بعض أجزائه والاستغاثة في البعض. **قوله:** (**طفقوا يدعون الله**) في مختار الصِّحاح: طفق يفعل كذا، أي جعل يفعل كذا، وبابه طرب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ [الأعراف: الآية ٢٢]، وبعضهم يقول: من باب جلس. اهـ. **قوله:** (**وهي**) أي الاستغاثة.

مُمِدُّكُم﴾ «بأني ممدكم» فحذف الجار وسلّط عليه «استجاب» **(فنصب محله)** ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ ـ («مردَفين» ـ مدني. **غيره بكسر الدال)**. فالكسر على أنهم أردفوا غيرهم، والفتح على أنه أردف كل ملك ملكًا آخر. يقال: ردفه إذا تبعه، وأردفته إياه إذا اتبعه.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي الإمداد الذي دلّ عليه ممدكم ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ إلا بشارة لكم بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ يعني أنكم استغثتم وتضرّعتم لقلتكم فكان الإمداد بالملائكة بشارة لكم بالنصر وتسكينًا منكم وربطًا على قلوبكم ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي ولا تحسبوا النصر من الملائكة فإن الناصر هو الله لكم وللملائكة، أو وما النصر من الملائكة وغيرهم من الأسباب إلا من عند الله، والمنصور مَن نصره الله. واختلف في قتال الملائكة يوم بدر فقيل: نزل جبريل عليه السلام في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر رضي الله عنه، وميكائل في خمسمائة على الميسرة وفيها **(علي)** رضي الله عنه في صورة الرجال عليهم ثياب بيض

قوله: (فنصب محلّه) لأن إضمار الجار ضعيف. اهـ تفتازاني رحمه الله. **قوله: («مردَفين»)** بفتح الدال اسم مفعول، أي مردفين بغيرهم **(مدنيّ)** أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني، وليس من السبعة. **(غيره)** أي الباقون **(بكسر الدال)** اسم فاعل.

قوله: (علي) بن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي المكّي المدني الكوفي، أمير المؤمنين ابن عمّ رسول الله ﷺ، وهو أخو رسول الله ﷺ بالمواخاة وصهره على فاطمة سيّدة نساء العالمين، وأبو السِّبْطين، وأوّل هاشمي وُلِد بين هاشميّيْن، وأوّل خليفة من بني هاشم، وهو أحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنّة، وأحد الستّة أصحاب الشورى الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وأحد الخلفاء الراشدين، وأحد العلماء الربّانيّين والشجعان المشهورين والزهّاد المذكورين، وأحد السابقين إلى الإسلام، وأحواله في الشجاعة وآثاره في الحروب مشهورة. وأمّا علمه، فكان من العلوم بالمحلّ

و(عمائم) بيض قد أرخوا (أذنابها) بين أكتافهم فقاتلت حتى قال أبو جهل (لابن مسعود): من أين كان يأتينا الضرب ولا نرى الشخص؟ قال: من قبل الملائكة.

العالي، رَوَى عن رسول الله ﷺ خمسمائة حديث وستّة وثمانين حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم منها على عشرين، وانفرد البخاري بتسعة ومسلم بخمسة عشر، وأحوال عليّ رضي الله تعالى عنه وفضائله في كل شيء مشهورة غير مُنْحصرة، وُلّي الخلافة خمس سنين، وقيل: خمس سنين إلّا شهرًا، بُويع في الخلافة في مسجد رسول الله ﷺ بعد قتل عثمان ﷺ، لكونه أفضل الصحابة حينئذ، وذلك في ذي الحجّة سنة خمس وثلاثين. ضربه عبد الرحمٰن بن مُلْجم المرادي من الخوارج بسيفٍ مسموم في جبهته فأوصله دماغه في ليلة سبع عشرة من شهر رمضان، وهي ليلة الجمعة، ثم توفي عليّ رضي الله تعالى عنه في الكوفة ليلة الأحد التاسع عشر من شهر رمضان سنة أربعين، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة على الأصح وقول الأكثرين.

قوله: (عمائم) جمع عمامة. **قوله:** (أذنابها) أي أطراف العمائم، والأذناب جمع ذنب، مثل سبب وأسباب.

قوله: (لابن مسعود) هو أبو عبد الرحمٰن عبد الله بن مسعود بن غافل ـ بالغين المعجمة والفاء ـ ابن حبيب وأمّه أُمّ عبد بنت عبد ودّ بن سواء أسلمت وهاجرت فهو صحابي ابن صحابيّة، أسلم عبد الله قديمًا حين أسلم سعيد بن زيد قبل عمر بن الخطّاب بزمان، وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة وشهد مع رسول الله ﷺ بدرًا وأُحدًا والخندق وبيعة الرّضوان وسائر المشاهد وشهد اليرموك، وهو الذي أجهز على أبي جهل يوم بدر، وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة، وهو صاحب نعل رسول الله ﷺ كان يُلْبِسه إيّاها إذا قام، فإذا خلعها وجلس جعلها ابن مسعود في ذراعه، وكان كثير الولوج على رسول الله ﷺ والخدمة له، وكان يُعرف بصاحب السواد[1] والسواك

---

(١) في الإصابة: قال له رسول الله ﷺ: «آذنك على أن ترفع الحجاب وتسمع سوادي حتى أنهاك» أخرجه أصحاب الصحيح. اهـ. وفي النهاية في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال له: «آذنك على أن ترفع الحجاب وتسمع سِوادي حتى أنهاك السِّواد السِّرار». اهـ السّرار المُسارّة. ١٢ منه عمّ فيضهم.

قال: فهم غلبونا لا أنتم. وقيل: لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون (السواد) ويثبتون المؤمنين وإلا فملك واحد كافٍ في إهلاك أهل الدنيا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ بنصر أوليائه ﴿حَكِيمٌ﴾ بقهر أعدائه.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾

(﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾ بدل ثانٍ من «إذ يعدكم» أو منصوب بالنصر أو بإضمار اذكر. «يُغْشيكم» مدني ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ النوم والفاعل هو الله على القراءتين. «ويَغشيكم النعاس» مكي وأبو عمرو) ﴿أَمَنَةً﴾ مفعول له أي إذ تنعسون أمنة بمعنى أمنًا أي لأمنكم، أو مصدر أي فأمنتم أمنة فالنوم يزيح (الرعب) ويريح النفس ﴿مِّنْهُ﴾ صفة لها أي أمنة حاصلة لكم من الله (﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتخفيف: مكي

والنعل(١). رُوِي له عن رسول الله ﷺ ثمانمائة وثمانية وأربعون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم منها على أربعة وستّين، وانفرد البخاري بأحد وعشرين، ومسلم بخمسة وثلاثين. توفي سنة ثنتين وثلاثين، وقيل: سنة ثلاث وثلاثين، وهو ابن بضع وستّين سنة رضي الله تعالى عنه. **قوله:** (السَّواد) أي الجماعة.

قوله: (﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾ **بدل ثان من «إذ يعدكم»، أو منصوب بالنصر أو بإضمار اذكر. «يُغْشيكم»**) بضم الياء وسكون الغين وبياء بعدها من أغشى (**مدنيّ**) أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني وليس من السبعة. (﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ **النوم**) الخفيف بالنصب مفعول به، (**والفاعل هو الله**) تعالى (**على القراءتين**) أي يغشيكم ـ بضم الياء وفتح الغين وكسر الشين مشدّدة وبياء بعدها ـ (﴿**ويُغشيكم**﴾) بضمّ الياء وسكون الغين وبياء بعدها («**يغشاكم**») بفتح الياء وسكون الغين وفتح الشين وألف بعدها لفظًا (﴿**النعاس**﴾) بالرفع على الفاعليّة من غشي يغشى (**مكيّ**) أي ابن كثير المكّيّ (**وأبو عمرو**) البصريّ، والباقون بضمّ الياء وفتح الغين وكسر الشين مشدّدة وبياء بعدها ونصب النعاس من غَشَّى. (**الرعب**) بضم العين وبسكونها، يعني الخوف. **قوله:** (﴿وَيُنَزِّلُ﴾ **بالتخفيف**) أي بإسكان النون وتخفيف الزاي (**مكّي**) أي

(١) والوِسادة ـ بكسر الواو ـ المخدّة، والمطهرة: إناء يتطهّر به. ١٢ منه عمّ فيضهم.

وبصري، وبالتشديد): غيرهم ﴿عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطرًا ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ بالماء من الحدث والجنابة ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ وسوسته إليهم وتخويفه إياهم من العطش، أو الجنابة من الاحتلام لأنه من الشيطان وقد وسوس إليهم أن لا نصرة مع الجنابة ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ بالصبر ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ أي بالماء إذ الأقدام كانت **(تسوخ)** في الرمل، أو بالربط لأن القلب إذا تمكن فيه الصبر يثبت القدم في مواطن القتال.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾

﴿إِذْ يُوحِى﴾ بدل ثالث من «إذ يعدكم» أو منصوب بـ «يثبت» ﴿رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ بالنصر ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالبشرى وكان الملك يسير أمام الصف في صورة رجل ويقول: أبشروا فإن الله ناصركم ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ هو امتلاء القلب من الخوف و(﴿ٱلرُّعُبَ﴾ **شامي وعلي)** ﴿فَٱضْرِبُوا۟﴾ أمر للمؤمنين أو الملائكة، وفيه دليل على أنهم قاتلوا ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي أعالي الأعناق التي هي المذابح تطييرًا للرؤوس، أو أراد الرؤوس لأنها فوق الأعناق يعني ضرب **(الهام)** ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ **(هي الأصابع)** يريد

ابن كثير المكّي **(وبصريّ)** أبو عمرو البصري، وكذا يعقوب البصري، وليس من السبعة، **(وبالتشديد)** أي بفتح النون وتشديد الزاي غيرهم. **قوله: (تسوخ)** أي تدخل وتغيب.

قوله: (﴿ٱلرُّعُبَ﴾) بضم العين **(شاميّ)** أي ابن عامر الشاميّ **(وعليّ)** الكسائي، والباقون بالإسكان. **قوله: (الهام)** في المصباح: الهامة من الشخص رأسه، والجمع هام. اهـ. **قوله: (هي الأصابع)** اختلف أهل اللّغة في البنان، فقيل: هو الأصابع، واحده بنانة، وقيل: إطلاقه عليها مجاز مرسل من تسمية الكلّ بالجزء، وقيل: هي المفاصل، وقيل: هي مخصوصة باليد، وقيل: تعمّ اليد والرّجل، ويقال: بنام ـ بالميم ـ وأشار المصنف بقوله: يريد الأطراف إلى أن المراد بالبنان مجازًا مطلق الأطراف لوقوعه في مقابلة الأعناق والمَقاتِل؛ إذ المراد: ضربوهم كيف ما اتّفق من المقاتِل وغيرها، وإنما خصّت لأن بها المدافعة. **قوله:**

الأطراف، والمعنى فاضربوا المقاتل (**والشّوَى**) لأن الضرب إما أن يقع على مقتل أو غير مقتل، فأمرهم أن يجمعوا عليهم النوعين.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما أصابهم من الضرب والقتل والعقاب العاجل وهو مبتدأ خبره ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي ذلك العقاب وقع عليهم بسبب مشاقتهم أي مخالفتهم وهي مشتقة من الشق لأن كلا المتعاديين في (**شقّ**) خلاف شقّ صاحبه، وكذا المعاداة والمخاصمة لأن هذا في (**عدوة وخُصم**) أي جانب وذاك في عدوة وخصم ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ والكاف في ذلك لخطاب الرسول أو لكل أحد، وفي ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ للكفرة على طريقة الالتفات، ومحله الرفع على «ذلكم العقاب أو العقاب» ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾. والواو في ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ بمعنى «مع» أي ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذي لكم في الآخرة فوضع الظاهر موضع الضمير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾

(﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾) حال من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

(والشَّوَى) ما كان غير مقتل. في لسان العرب: الشَّوَى اليدان والرِّجلان وأطراف الأصابع وقحف الرأس، وهي جلدة الرأس يقال لها: شَوَاه وما كان غير مقتل، فهو شَوَى. اهـ.

قوله: (شقّ) ـ بالكسر ـ وهو الجانب. **قوله:** (عدوة) ـ بالضم والكسر ـ وهو الجانب. **قوله:** (**خصم**) بالضمّ، وهو الجانب كما بيَّنه أهل الاشتقاق. وقوله: أي جانب تفسير للخصم، أوْ له ولما قبله.

قوله: (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾ **الآية**) هذه الآية مُحكمة لا يحتمل النسخ، فلهذا قيل: إن الآية مخصوصة بأهل بدر والحاضرين معهم في الحرب، والأظهر أنّ الآية مخصوصة بقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ

....

عَنكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٦٦] الآية، ومحمولة على ما إذا لم يكن الكفار زائدين بالضعف؛ لأنه إنْ كان الكفار زائدين على التضاعف كما إذا كان المسلم واحدًا والكافر ثلاثًا لا يحرم الفرار، وإنما يحرم إذا كان المسلم واحدًا والكافر اثنين على ما سنذكره آنفًا في آخر هذه السورة، هكذا ذكره القاضي البيضاوي. والمختار للإمام الزاهد أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٦٦] الآية، هذا كلّه واضح ولا يتعلق به مقصود؛ لأنه مسألة معروفة مذكورة في القرآن غير مرّة، وإنّما الغرض إثبات أنّ الخدع في الحرب ليس بممنوع. وبيانه أنّ الله تعالى حيث أوجب الوعيد على الفارّ استثنى منه اثنين، فقال: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال: الآية ١٦]، وهو جملة معترضة بين الشرط والجزاء وانتصاب متحرّفًا أو متحيّزًا على الحال، وإلّا لغو لا عمل له أو استثناء من المولين، أي إلا رجلًا متحرّفًا أو متحيّزًا، ومعنى الأوّل وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ [الأنفال: الآية ١٦] إلا من يفر حال كونه متحرفًا لقتال، أي بحيث يحسب الخصم والعدوّ أنه يفرّ من جيوش المسلمين، فيغفل العدوّ ثم يكرّون بعد الفرّ، وهذا من جملة خدع الحرب، هكذا ذكره المفسّرون، فهو مشروع بخلاف الغدر، فإنه حرام كما سيأتي في آخر السورة.

والفرق على ما ذُكِر في شرح الوقاية أن الغدر أن يقول المسلم عن الخصم: إني لا أُقاتلك اليوم، ثم يقاتله بغفلة. والخداع أن لا يقول ذلك، ولكن يشغل بأفعال يَعلم منها الخصم أنه لن يُقاتل اليوم ليكون غافلًا، ثم يقاتل معه، ومعنى الثاني وهو قول تعالى: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال: الآية ١٦] إلا من يفر حال كونه متحيّزًا أو ملتجئًا أو منحازًا إلى فئة أخرى من المسلمين يطلبهم للتقوية ويستعينهم، فحينئذ يجوز الفرار بشرط أن يكون تلك الفئة قريبة، ومنهم مَنْ لا يشترط القرب، لما رَوى ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنّه لما كان في سرية بعثهم رسول الله ﷺ، ففرّوا إلى المدينة، فقلت: يا رسول الله نحن الفرّارون؟ فقال: «بل أنتم العكّارون، وأنا فئتكم»، أي أنتم المائلون إلى فئةٍ من المسلمين وجماعتهم، وهم أنا وأصحابي هكذا ذُكِر في البيضاوي. وفي الكشاف: أنه فرّ رجل من القادسيّة، فأتى المدينة إلى عمر رضي الله تعالى عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، هلكت وفررت عن الزحف، فقال عمر: وأنا فئتك. اهـ التفسيرات

والزحف الجيش الذي يرى لكثرته كأنه (يزحف أي يدب) دبيبًا من زحف الصبي إذا دبّ (على استه) قليلًا قليلًا سُمِيَ بالمصدر ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ فلا تنصرفوا عنهم منهزمين أي إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير وأنتم قليل، فلا تفروا فضلًا أن تدانوهم في العدد أو تساووهم، أو حال من المؤمنين أو من الفريقين أي إذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا﴾ مائلًا ﴿لِّقِتَالٍ﴾ (وهو الكرّ بعد الفرّ) يخيل عدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه وهو من خدع الحرب ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ منضمًا

الأحمدية. **قوله:** (يزحف) يقال: زحف يزحف زحفًا من باب فتح يفتح، أي مشى إليه ودنا قليلًا قليلًا. **قوله:** (أي يدبّ) في المصباح: دبّ الصغير يدبّ من باب ضرب دبيبًا ودبّ الجيش دبيبًا أيضًا ساروا سيرًا ليّنًا. اهـ. **قوله:** (على استه) في المصباح: الاست همزته وصل ولامه محذوفة، والأصل سته، وسيأتي. اهـ. وفيه في كتاب السين: الاست العجز، ويُراد به حلقة الدُّبر، والأصل سته بالتحريك، ولهذا يُجمع على أستاه، مثل سبب وأسباب ويصغر على ستيه، وقد يقال: سَهْ بالهاء، وسَتْ بالتاء، فيُعرب إعراب يد ودم، وبعضهم يقول في الوصل بالتاء، وفي الوقف بالهاء على قياس هاء التأنيث. قال الأزهري: قال النحويّون: الأصل سَتْهٌ ـ بالسكون ـ فاستثقلوا الهاء لسكون التاء قبلها، فحذفوا الهاء وسكنت السين ثم اجْتُلِبت همزة الوصل، وما نقله الأزهري في توجيهه نظر؛ لأنهم قالوا: سَتِه سَتَها من باب تعِب إذا كبرت عجيزته، ثمّ سُمّي بالمصدر ودخله النقص بعد ثبوت الاسم، ودعوى السكون لا يشهد له أصل، وقد نسبوا إليه سَتَهِيّ بالتحريك، وقالوا في الجمع: أَستاه، والتصغير وجمع التكسير يَرُدَّان الأسماء إلى أصولها. اهـ بحروفه. وأيضًا فيه: العَجْز من الرجل والمرأة ما بين الوَدكين، وهي مؤنّثة وبنو تميم يذكرون، وفيها أربع لغات: فتح العين وضمّها، ومع كل واحد ضمّ الجيم وسكونها، والأفصح وزان رَجُل، والجمع أعجاز. اهـ.

قوله: (وهو الكرّ بعد الفرّ) الكرّ من كرّ عليه العدوّ إذا حمل، والفرّ الرجوع.

﴿إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ إلى جماعة من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها وهما حالان من ضمير الفاعل في ﴿يُوَلِّهِمْ﴾ ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ و(**وزن متحيز «متفيعل»**) لا «متفعل»، لأنه من حاز يحوز، فبناء متفعل منه متحوز. ولما كسروا أهل مكة وقتلوا وأسروا وكان القاتل منهم يقول تفاخرًا قتلت وأسرت قيل لهم.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ والفاء جواب لشرط محذوف تقديره: إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم. (**ولما قال جبريل للنبي ﷺ: خذ قبضة من تراب**) فارمهم بها فرمى بها في وجوههم وقال:

قوله: (وزن متحيّز متفيعل) أصله متحيوز من تحيوز قُلِبت الواو ياء، فأُدغمت، ولو كان وزنه متفعلًا لقيل: إلا متحوّزًا؛ لأنه يُبنى من حاز يحوز حوزًا وهو واويّ، ويقال: في بناء التفعّل منه تحوّز يتحوّز تحوّزًا، فلمّا قيل: متحيّزًا علم أنه من تفيعل لا من تفعّل.

قوله: (ولما قال جبريل للنبي ﷺ: خذ قبضة من تراب) بضمّ القاف ويجوز فتحها: ملء الكفّ. قال العلّامة التفتازاني رحمه الله: المحدثون على أن الرمية لم يكن إلّا يوم حنين، انتهى. وقال العلّامة الشهاب عليه رحمة الله الوهاب: قال السيوطي: هذا الحديث أخرجه ابن جرير عن عروة مرسلًا، وليس فيه أمر جبريل عليه الصّلاة والسّلام له بذلك. (وروى ابن جرير) وابن مردويه أمر جبريل له بذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، ولم يقف عليه الطيبيّ، فقال: لم يذكر أحد من أئمّة الحديث أن هذه الرَّمية كانت يوم بدر، إنما هي في حُنَيْن، واغترّ به مَنْ قال المحدثون على أن الرَّمْية لم تكن إلّا يوم حُنين، وليس كما قالا، والطيبي لم يبلغ درجة الحفّاظ، ومنتهى نظره الكتب الستّة، وكثيرًا ما يقصر في التخريج، انتهى ـ يعني كلام[1] السيوطي ـ وقد سبقه الحافظ ابن حجر إلى هذا، وخرّج الرمي في بدر من طرق عديدة، انتهى.

---

(١) الذي ذكره العلّامة الشهاب قبل هذا. ١٢ منه عمّ فيضهم.

«(**شاهت الوجوه**)» فلم يبق مشرك إلا (**شغل**) بعينه فانهزموا قيل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ (**يا محمد**) ﴿إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ يعني أن الرمية التي رميتها أنت لم ترمها أنت على الحقيقة، لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم، وفي الآية بيان أن فعل العبد مضاف إليه كسبًا وإلى الله تعالى خلقًا لا كما تقول الجبرية والمعتزلة، لأنه أثبت الفعل من العبد بقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ ثم نفاه عنه وأثبته لله تعالى بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، («**ولكن الله قتلهم**»، «**ولكن الله رمى**» **بتخفيف لكن**

وأخرج عبد الرزّاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: الآية ١٧] قال: رماهم بالحَصْباء.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: الآية ١٧]، قال: نزلت يوم بدر أخذ رسول الله ﷺ ثلاث حصيات، فرمى بحصاة في ميمنة القوم، وحصاة في ميسرة القوم، وحصاة بين أظهرهم، وقال: «شاهت الوجوه»، فانهزموا.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن حكيم بن حِزام رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان يوم بدر سَمِعْنا صوتًا وقع من السماء إلى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت في طست، ورمى رسول الله ﷺ تلك الحصاة، وقال: «شاهت الوجوه»، فانهزمنا، فذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: الآية ١٧] الآية.

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت صوت حصيات وقعن من السماء يوم بدر كأنهن وقعن في طست، فلما اصطفّ الناس أخذهنّ رسول الله ﷺ فرمى بهنّ في وجوه المشركين، فانهزموا؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: الآية ١٧].

قوله: (شاهت الوجوه) أي قَبُحَت إمّا بمعنى الدعاء، أو الماضي للتفاؤل.
قوله: (شُغِل) بالبناء للمجهول، بمعنى اشتغل.

قوله: (يا محمد) فيه دفع توهّم جواز كون الخطاب لكل مَنْ يصلح للخطاب من أُولي الألباب. **قوله: («ولكن الله قتلهم»، «ولكن الله رمى» بتخفيف لكن)** أي

شامي وحمزة وعلي) ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وليعطيهم ﴿مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ عطاء جميلًا، والمعنى وللإحسان إلى المؤمنين فعل ما فعل وما فعل إلا لذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن ومحله الرفع أي الأمر ذلكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معطوف على ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي المراد إبلاء المؤمنين و(توهين) كيد الكافرين. (﴿مُوهِنُ كَيْدِ﴾ شامي وكوفي غير حفص. ﴿مُوهِنُ كَيْدِ﴾ حفص، ﴿مُوهِنُ﴾ غيرهم).

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ إن تستنصروا فقد جاءكم النصر عليكم وهو خطاب لأهل مكة، لأنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلّقوا بأستار الكعبة قالوا: اللهم إن كان محمد على حق فانصره، وإن كنا على الحق فانصرنا. وقيل: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟﴾ خطاب للمؤمنين ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ للكافرين أي ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عن عداوة رسول الله ﷺ ﴿فَهُوَ﴾ أي الانتهاء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأسلم ﴿وَإِن تَعُودُوا۟﴾ لمحاربته ﴿نَعُدْ﴾ لنصرته عليكم ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ جمعكم ﴿شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ عددًا

بتخفيف[1] النون ورفع الجلالة الشريفة فيهما (شامي) أي ابن عامر الشامي، (وحمزة وعليّ) الكسائي. والباقون بفتح النون مشدّدة ونصب الجلالة الشريفة.

قوله: (توهين) أي تضعيف. **قوله:** (﴿مُوهِنُ كَيْدِ﴾) بسكون الواو وتخفيف الهاء والتنوين على أنه اسم فاعل من أوهن كأكرم معدّى بالهمزة والتنوين على الأصل في اسم الفاعل، وكيد بالنصب على المفعولية به، (**شاميّ**) أي ابن عامر الشامي (**وكوفي غير حفص**) أي شعبة وحمزة والكسائي (﴿موهن كيد﴾) بإسكان الواو وتخفيف الهاء وترك التنوين وخفض دال كيد للإضافة، (**حفص** ﴿موهن﴾) بفتح الواو وتشديد الهاء وبالتنوين ونصب كَيْد مفعول به أيضًا (**غيرهم**).

---

(١) أي بكسر نون مخفّفة. ١٢ منه عمّ فيضهم.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (بالفتح مدني وشامي وحفص) أي ولأن الله مع المؤمنين بالنصر كان ذلك، (والكسر غيرهم. ويؤيده قراءة عبد الله «والله مع المؤمنين»).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ عن رسول الله ﷺ، لأن المعنى أطيعوا رسول الله كقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: الآية ٦٢] ولأن طاعة الرسول وطاعة الله شيء واحد ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [النساء: الآية ٨٠] فكان رجوع الضمير إلى أحدهما كرجوعه إليهما كقوله: «الإحسان والإجمال لا ينفع في فلان» أو يرجع الضمير إلى الأمر بالطاعة أي ولا تولوا عن هذا الأمر وأمثاله، وأصله ولا تتولوا فحذف إحدى التاءين تخفيفًا ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي وأنتم تسمعونه، أو ولا تتولوا عن رسول الله ﷺ ولا تخالفوه وأنتم تسمعون أي تصدقون لأنكم مؤمنون لستم كالصّمّ المكذبين من الكفرة ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ أي ادعوا السّماع وهم المنافقون وأهل الكتاب ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لأنهم ليسوا بمصدقين فكأنهم غير سامِعِين، والمعنى أنكم تصدقون بالقرآن والنبوّة فإذا توليتم عن طاعة الرسول في بعض الأمور من قسمة الغنائم وغيرها أشبه سماعكم سماع مَن لا يؤمن. ثم قال:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي إن شرّ مَن (يدبّ) على وجه الأرض البهائم، وإن شرّ البهائم الذين هم صمٌّ عن الحق لا يعقلونه، جعلهم من جنس البهائم ثم جعلهم شرّها لأنهم عاندوا بعد الفهم وكابروا بعد العقل ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ﴾ في هؤلاء الصم والبكم ﴿خَيْرًا﴾ صدقًا ورغبة

قوله: (بالفتح مدنيّ) أي نافع المدني (وشاميّ) أي ابن عامر الشامي (وحفص). **قوله:** (والكسر) على الاستئناف (غيرهم. **قوله:** (ويؤيّده قراءة عبد الله) ابن مسعود الصحابي رضي الله تعالى عنه (والله مع المؤمنين).

قوله: (يدبّ) أي يمشي.

﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ لجعلهم سامعين حتى يسمعوا سماع المصدقين ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا﴾ عنه أي ولو أسمعهم وصدقوا لارتدّوا بعد ذلك ولم يستقيموا ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن الإيمان.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وحد الضمير أيضًا كما وحده فيما قبله، لأن استجابة رسول الله ﷺ كاستجابته، والمراد بالاستجابة الطاعة والامتثال وبالدعوة البعث والتحريض ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ **(من علوم الديانات)** والشرائع لأن العلم حياة كما أن الجهل موت **(قال الشاعر:**

لا تعجبنّ الجهول حلته فذاك ميت وثوبه كفن)

قوله: (من علوم الدّيانات)... الخ. فحيث يكون احترازًا عن الأُمور الدُّنيوية والعلوم الغير الدِّينية من العلوم الفلسفيّة. اهـ قنوي. أي أطلقت الحياة على العلم، كما يطلق الموت على الجهل، وهو استعارة معروفة ذكرها الأدباء وأهل المعاني. اهـ شهاب رحمه الله. **قوله:** (قال الشاعر:

لَا تُعْجِبَنَّ الجَهُولَ حُلَّتُهُ فَذاكَ مَيِّتٌ وَثَوْبُهُ كَفَنُ)

لا تعجبنّ: من الإعجاب بمعنى التعجّب، أو من العجب خطاب لكل من يصلح للخطاب بقرينة، فذاك مفعوله الجهول، وحلّته بدل منه بدل اشتمال. اهـ قنوي. وقال العلّامة الشهاب عليه رحمة الله الوهّاب: البيت المذكور للزمخشري كما قرأته في ديوانه من قصيدة مدح بها المؤتمن بالله الخليفة، وأوّلها:

حدّث إلى أين مرّت الظّعن فعندهنّ الفؤاد مرتهن

ومنها:

لا تعجبنّ الجهول حلّته فذاك مَيّتٌ وثوبُهُ كفن

وقد أَلِمَ فيه بقول أبي الطيب من قصيدته التي أوّلها:

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من الهمّ أخلاهم من الفطن

أو لمجاهدة الكفّار لأنهم لو **(رفضوها)** لغلبوهم وقتلوهم، أو للشهادة لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: الآية ١٦٩]، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ **(أي يميته)** فتفوته الفرصة التي هو واجدها وهي التمكن من إخلاص القلب، فاغتنموا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله، أو بينه وبين ما تمنّاه بقلبه من طول الحياة فيفسخ عزائمه ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ واعلموا أنكم إليه تحشرون فيثيبكم **(على حسب)** سلامة القلوب وإخلاص الطاعة.

﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً﴾ عذابًا ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ هو جواب للأمر أي إن أصابتكم لا تصب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم، وجاز أن تدخل النون المؤكدة في جواب الأمر **(لأن فيه معنى النهي)** كما إذا قلت «انزل عن الدابة لا تطرحك» وجاز «لا تطرحنك». و«من» في ﴿مِنكُمْ﴾ للتبعيض ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ إذا عاقب.

ومنها:

لا تعجبنّ مضيمًا حُسْن بزّته وهل تروق دفينًا جودة الكفن

والعجب من النِّحرير في شرح قول الكشاف، وبعضهم: لا تعجبنّ... الخ. حيث قال: هذا كما هو عادته إذا أنشد شعرًا لنفسه أن يقول لبعضهم، والبيت لأبي الطيّب، وهذا من عدم التتبّع لكن خلطه بين بيتين من بحرين أعجب، مع تصريح الإمام الطيبي به، والحلّة معروفة، ومنهم مَنْ رواه: حليته، وجوّز فيه البدليّة من المجهول بدل اشتمال، فقد حرّفه كما يدريه مَنْ يدري الشعريّة. اهـ.

قوله: (رفضوها) في مختار الصِّحاح: رفضه تركه، وبابه نصر، ويرفض أيضًا - بالكسر - رَفَضًا - بفتحتين - فهو رفيض ومرفوض. اهـ. **قوله: (أي يُميته)**... الخ. فشبّه الموت بالحيلولة بين المَرْء وقلبه الذي به يعقل في عدم التمكّن من علم ما ينفعه علمه. اهـ شهاب رحمه الله. **قوله: (على حسب)** بفتح السين وسكونها، أي قدر.

قوله: (لأن فيه معنى النّهي) لأن المعنى لا تتعرّضوا لها.

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ «إذ» مفعول به لا ظرف أي واذكروا وقت كونكم (أقلة أذلة) ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مكة قبل الهجرة: أتستضعفكم قريش ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ لأن الناس كانوا لهم أعداء (مضادين) ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ إلى المدينة ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ بمظاهرة الأنصار وبإمداد الملائكة يوم بدر ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من الغنائم ولم تحل لأحد قبلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾

(﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ﴾) بأن تعطلوا فرائضه ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ بأن لا تستنوا به ﴿وَتَخُونُوٓا۟﴾ جزم عطف على ﴿لَا تَخُونُوا۟﴾ أي ولا تخونوا ﴿أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ فيما

قوله: (أقِلّة) جمع قليل. **قوله:** (أذِلّة) جمع ذليل. **قوله:** (مضادّين) بالتشديد والضاد المعجمة بمعنى معادين مخفّفة مفاعلة من العداوة.

قوله: (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ﴾)... الخ. قال صاحب الكشاف في نزوله: رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه حاصر يهود بني قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا الصلح كما صالح إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام، فأبى رسول الله ﷺ إلّا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسلْ إلينا أبا لُبابة مروان بن المنذر، وكان مناصحًا لهم؛ لأن عياله وماله في أيديهم، فبعثه إليهم، فقالوا له: ما ترى هل ننزل على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح، قال أبو لبابة: فما زالت قدماي حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله؛ فنزلت، فشدّ نفسه على سارية من سواري المسجد وقال: والله لا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى أموت أو يتوب الله ورسوله عليّ، فمكث سبعة أيام حتى خرّ مغشيًّا عليه ثم تاب الله عليه، فقيل: قد تِيب عليك، فحُلّ نفسك، فقال: لا والله لا أحلّها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلّني، فجاءه فحلّه بيده، فقال: إنّ مِنْ تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي، فقال عليه السلام: «يجزيك الثلث أن تصدق به». وعن المغيرة: نزلت في قتل عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، هذا لفظه، وقد ذكره الإمام الزّاهد مع

بينكم بأن لا تحفظوها ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (تبعة ذلك) ووباله، أو وأنتم تعلمون أنكم تخونون يعني أن الخيانة توجد منكم عن تعمد لا عن سهو، أو وأنتم علماء تعلمون حسن الحسن وقبح القبيح، ومعنى الخون النقص كما أن معنى الإيفاء التمام، ومنه تخوّنه إذا انتقصه، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه.

﴿وَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي سبب الوقوع في الفتنة وهي الإثم والعذاب، أو محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فعليكم أن تحرصوا على طلب ذلك وتزهدوا في الدنيا ولا

اختصار، وصاحب الحُسينيّ مع توجيه آخر، وهو أن الصحابة كانوا يفشون السرّ إلى الكفار، فنُهوا عن ذلك. وعلى كل تقدير ففي الآية نهي عن خيانة الله ورسوله وخيانة الأمانة، وقد مضى بيان الأمانة في سورة النساء مع بعض أحكامه، وهي في القرآن كثيرة. وذكر القاضي البيضاوي قصة أبي لُبابة بالتفصيل الذي قلت، وقال في معنى: ﴿لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [الأنفال: الآية ٢٧] بتعطيل الفرائض والسُّنن، أو بأن تضمروا خلاف ما تُظهرون، أو بالغلول في المغانم، هذا لفظه. فحينئذ ثبت من الآية حُرْمة الغلول في المغانم أيضًا على ما ذكره الفقهاء حيث قالوا: بلا غدر وغلول ومثلة، وهو المقصود هٰهنا، والأَوْلى أن يقال: خيانة الله والرسول عامّة في جميع ما أمرا به أو نَهَيا عنه، وأنّ خيانة الأمانة عامّة في كل جنس من الخيانات في جميع الأمانات؛ كالعارية والوديعة والمضاربة والشركة والإجارة والوكالة وغيرها، هكذا يخطر بالبال. اهـ التفسيرات الأحمديّة.

قوله: (تبعة ذلك) في مختار الصحاح: التَّبعة ما اتُّبعَ به ذكره الفارابي في الديوان. اهـ. وفي المصباح: التّبعة وزان كلمة ما تطلبه من ظلامة ونحوها. اهـ. وأيضًا فيه: الظلم اسم من ظلمه ظلمًا من باب ضرب، ومظلمة ـ بفتح الميم وكسر اللام ـ وتجعل المظلمة اسمًا لما تطلبه عند الظالم؛ كالظلامة ـ بالضم ـ. اهـ.

تحرصوا على جمع المال وحب الولد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ نصرًا لأنه يفرق بين الحق والباطل، وبين الكفر بإذلال حزبه والإسلام بإعزاز أهله، أو بيانًا وظهورًا (**يشهر أمركم ويبث صيتكم**) وآثاركم في (**أقطار**) الأرض من قولهم «سطع الفرقان» أي طلع الفجر، أو مخرجًا من الشبهات وشرحًا للصدور، أو تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الأديان وفضلًا ومزية في الدنيا والآخرة ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي الصغائر ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم أي الكبائر ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ على عباده.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لما فتح الله عليه ذكّره مكر قريش به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله في نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم. والمعنى واذكر إذ يمكرون بك، وذلك أن قريشًا لما أسلمت الأنصار فرقوا أن (**يتفاقم أمره**) فاجتمعوا في (**دار الندوة**) متشاورين في أمره، فدخل عليهم (**إبليس**) في صورة شيخ وقال: أنا شيخ من (**نجد**) دخلت مكة فسمعت باجتماعكم فأردت أن

قوله: (يشهر أمركم) في مختار الصّحاح: الشهرة وضوح الأمر، تقول: شهر الأمر من باب قطع، وشهره أيضًا فاشتهر وشهّرته أيضًا تشهيرًا.اهـ. **قوله: (ويثبت صيتكم)** ـ بالكسر ـ الذِّكر الجميل الذي ينتشر في الناس دون القبيح، يقال: ذهب صِيْتُه في الناس، وربما قالوا: انتشر صوته في الناس، بمعنى صيت.اهـ. مختار الصِّحاح. **قوله: (أقْطار)** جمع قُطر ـ بالضم ـ بمعنى الناحية والجانب.

قوله: (يتفاقم أمره) في مختار الصحاح: تفاقم الأمر عَظُم.اهـ. **قوله: (دار النّدوة)** نذا القوم ندوًا حضروا النديّ، وهو على فعيل مجلس القوم ما داموا فيه، فإذا تفرّقوا فليس بنديّ، ومنه سُمّيت دار الندوة بمكّة التي بناها قصيّ؛ لأنهم كانوا يندون فيها، أي يجتمعون للمشاورة. **قوله: (إبليس)** عدوّ الله كان اسمه عزازيل، فلمّا عصى الله لعنه الله وجعله شيطانًا مريدًا، وسمّاه إبليس. **قوله: (نجد)** من بلاد العرب، وهو خلاف الغور، فالغور تِهامة وكلّ ما ارتفع عن تِهامة إلى أرض العراق، فهو نجد، وهو مذكّر.اهـ مختار الصحاح.

أحضركم **(ولن تعدموا)** مني رأيًا ونصحًا. فقال **(أبو البحتري)**: رأيي أن تحبسوه في بيت وتشدوا **(وثاقه)** وتسدوا بابه غير **(كوّة)** تلقون إليه طعامه وشرابه منها **(وتتربصوا)** به **(ريب المنون)**. فقال إبليس: بئس الرأي، يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم. فقال **(هشام بن عمرو)**: رأيي أن تحملوه على جمل وتخرجوه من **(بين أظهركم)** فلا يضركم ما صنع واسترحتم. فقال إبليس: بئس الرأي، يفسد قومًا غيركم ويقاتلكم بهم. فقال أبو جهل لعنه الله: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلامًا وتعطوه سيفًا فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرّق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، **(فإذا طلبوا العقل عقلناه)**

قوله: (ولن تعدموا) من عدم يعدم، وهو ظاهر، وليس من الإعدام كما توهّم. **قوله: (أبو البحتري)** ـ بضم الباء والتاء بينهما حاء مهملة ساكنة، وبعضهم قال: بالخاء المعجمة، وبعضهم قال: بفتح الباء والتاء وبينهما خاء معجمة والراء مكسورة ـ ابن هشام بن عمرو بن الحارث بن أسد، مات كافرًا. **قوله: (وثاقه)** الوثاق ـ بفتح الواو وكسرها ـ ما يُوثَق به ويُشدّ. اهـ شهاب رحمه الله. **قوله: (كوّة)** في المصباح: الكوّة ـ تُفتح وتُضمّ ـ الثقبة في الحائط، وجمع المفتوح على لفظه كوّات، مثل حبّة وحبّات، وكواء أيضًا ـ بالكسر والمد ـ مثل ظبيّة وظباء وركوة وركاء، وجمع المضموم كُوى ـ بالضمّ والقصر ـ مثل مدية ومُدى، والكوّة بلغة الحبشة المشكاة، وقيل: كل كوّة غير نافذة مشكاة أيضًا، وعينها واو، وأمّا اللام فقيل: واو، وقيل: ياء، والكوّ ـ بالفتح مع حذف الهاء ـ لغة حكاها ابن الأنباريّ، وهو مذكّر، فيقال: هو الكوّ. اهـ. **قوله: (تتربّصوا)** التربّص الانتظار. **قوله: (رَيْب المَنُون)**(١) حوادث الدّهر، فيهلك كما هلك مَنْ قبله. **قوله: (هشام بن عمرو)** بن ربيعة بن الحارث بن حبيب، أسلم بعد ذلك، وله أثرٌ عظيم في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم وبني المطّلب في مقاطعتهم واعتزالهم، وأن لا يبيعوهم ولا يبتاعون، وكان هشام لبني هاشم واصلًا ـ يعني لما كانوا بالشِّعب ـ وكان ذا شرف في قومه رضي الله تعالى عنه. **قوله: (بين أظهركم)** بمعنى بينكم. **قوله: (فإذا طلبوا العقل عقلناه)** في المصباح: عقلت القتيل عقلًا من باب ضرب

---

(١) المنون: الدهر فعول من منّه إذا قطعه، فإن الدهر يقطع الأعمار، وقد يُطلق على الموت لأنه يقطع الأجل، والرَّيْب ما يقلق النفوس من الحوادث. ١٢ منه عمّ فيضهم.

واسترحنا. فقال اللعين: صدق هذا الفتى هو أجودكم رأيًا، فتفرّقوا على رأي أبي جهل مجتمعين على قتله، فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ وأمره أن لا يبيت في مضجعه وأذن له الله في الهجرة، فأمر عليًا فنام في مضجعه وقال له: (اتشح ببردتي) فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه. وباتوا مترصدين، فلما أصبحوا (ثاروا) إلى مضجعه فأبصروا عليًا (فبهتوا) وخيّب الله سعيهم (واقتصّوا أثره) فأبطل الله مكرهم ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ليحبسوك ويوثقوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بسيوفهم ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ ويخفون المكايد له ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ ويخفي الله ما أعد لهم حتى يأتيهم بغتة ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أي مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيرًا.

أدّيت دِيَّته. قال الأصمعي: سمّيت الدِّية عقلًا تسمية بالمصدر؛ لأن الإبل كانت تعقل بفناء وليّ القتيل، ثم كَثُر الاستعمال حتى أُطلق العقل على الدِّية إبلًا كانت أو نقدًا. اهـ. **قوله:** (اتّشِحْ) في المصباح: توشّح بثوبه، وهو أن يدخله تحت إبطه الأيمن ويُلقيه على منكبه الأيسر، كما يفعله المحرم، قاله الأزهري. واتّشح بثوبه كذلك. اهـ. وفي لسان العرب: قد توشّحت المرأة واتّشحت. اهـ. وأيضًا فيه: قال أبو منصور: التوشّح بالرّداء مثل التأبّط والاضطباع، وهو أن يدخل الثوب من تحت يده اليمنى فيُلْقيه على منكبه الأيسر، كما يفعل المحرم. اهـ. وأيضًا فيه: وفي الحديث أنه كان يتوشّح بثوبه، أي يتغشّى به. اهـ. (بِبُرْدتي) في المصباح: البُرْدة كساء صغير مربّع، ويقال: كساء أسود صغير. اهـ. وفي لسان العرب: البُردة كساء يُلْتَحف به. اهـ. **قوله:** (ثاروا) في المصباح: ثار الغبار يثور ثورًا وثُؤرًا على فعول، وثورانًا هاج، ومنه قيل للفتنة: ثارت وأثارها العدوّ وثار إلى الشر نهض. اهـ باختصار. **قوله:** (فبُهتوا) في مختار الصحاح: بَهت بوزن علم، أي دَهِشَ وتحيّر وبَهُتَ بوزن ظرُف مثله وأفصح منهما بُهِتَ، كما قال الله تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٨]، لأنه يقال: رجل مبهوت، ولا يقال: باهت ولا بَهِيت. اهـ. **قوله:** (واقتصّوا أثره) في مختار الصّحاح[(١)]: قَصّ أثره تَتَبّعه من باب رد، وقصصًا أيضًا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: الآية ٦٤]، وكذا اقتصّ أثره. اهـ.

---

(١) بالفتح لغة في الصحيح، كما في المصباح. ١٢ منه عمّ فيضهم.

كان عَلَيْهِ السَّلَامُ يقرأ القرن ويذكر أخبار القرن الماضي في قراءته فقال (النضر بن الحارث): لو شئت لقلت مثل هذا. وهو الذي جاء من بلاد فارس بنسخة حديث (رستم وأحاديث العجم) فنزل:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي القرآن ﴿قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهذا (صلف) منهم و(وقاحة)، لأنهم دعوا إلى أن يأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن فلم يأتوا به ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ أي القرآن ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ هذا اسم «كان» و«هو» فصل و﴿ٱلْحَقَّ﴾ خبر «كان». رُوِيَ أن النضر لما قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال له النبيّ عليه الصلاة والسلام: «ويلك هذا كلام الله» فرفع النضر رأسه إلى

قوله: (النضر بن الحارث) ـ بالضاد المعجمة ـ أُسِرَ يوم بدر وقُتل كافرًا، قَتَله عليّ بن أبي طالب بأمر رسول الله ﷺ، وأجمع أهل المغازي والسِّيَر على أنه قُتل يوم بدر كافرًا، وإنما قُتِل لأنه كان شديد الأذى للإسلام والمسلمين، وهذا الذي ذكرته مِنْ قَتْله يوم بدر كافرًا هو الصواب. **قوله:** (رستم) بفتح التاء وقد يُضمّ. اهـ تفتازاني رَحِمَهُ اللَّهُ. وفي القاموس: رُسْتُم بضمّ الراء[1] وفتح المثناة فوق وقد تُضمّ. وفي شمس اللّغات: رستم بضمّ معروف أو راپيليتن وتهمتن گويندكه زورهشتاديپل داشت. اهـ. **قوله:** (وأحاديث العجم) أي كاسفنديار وبهرام والأكاسرة وملوك الحِيرَة[2].

قوله: (صَلَفٌ) الصَّلَف هو الغلوّ في الظرف والزيادة على المِقْدار مع تكبّر. اهـ لسان العرب. وأيضًا فيه الصَّلَف مجاوز القدر في الظرف والبراعة والادّعاء فوق ذلك تكبّرًا. اهـ. **قوله:** (وقاحة) في مختار الصِّحاح: وقُح الرجل

---

(١) وسكون السين. ١٢ منه عمّ فيضهم.
(٢) في القاموس: قرية بفارس. ١٢ منه عمّ فيضهم.

السماء وقال: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره (**بالسجيل**) كما فعلت بأصحاب الفيل ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ بنوع آخر من جنس العذاب الأليم (**فقتل يوم بدر صبرًا**). وعن (**معاوية**) أنه قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة! قال: أجهل من قومي قومك، قالوا لرسول الله عليه السلام حين دعاهم إلى الحق ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق فاهدنا له.

من باب ظرف قلّ حياؤه، فهو وَقِح.اهـ. **قوله:** (**بالسُّجيل**)[1] أي الطين المطبوخ. **قوله:** (**فقُتل يوم بدر صبرًا**) أي مصبورًا، أي محبوسًا. **قوله:** (**معاوية**) بن أبي سفيان الصحابي ابن الصحابي، هو أبو عبد الرحمٰن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب، كان أحد الكتّاب لرسول الله ﷺ، رُوِيَ له عن رسول الله ﷺ مائة حديث وثلاثة وستّون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم على أربعةٍ منها، وانفرد البخاري بأربعة ومسلم بخمسة. رَوَى عنه من الصحابة ابن عباس وأبو الدرداء وجرير بن عبد الله ونعمان بن بشير وابن عمرو وابن الزبير وأبو سعيد الخدريّ والسائب بن يزيد وأبو أُمامة بن سهل، ومن التابعين: ابن المسيّب وحميد بن عبد الرحمٰن وغيرهما، واتّفقوا على أنه توفي بدمشق ثم المشهور أنه توفي يوم الخميس لثمانٍ بقَيْن من رجب[2]، وقيل: لنصف رجب سنة ستين من الهجرة، وقيل: سنة تسع وخمسين، وهو ابن اثنتين وثمانين سنة، وقيل: ثمان وسبعين سنة، وقيل: ستّ وثمانين. روى الترمذي عن عبد الرحمٰن بن أبي عميرة الصحابي عن النبيّ ﷺ أنه قال لمعاوية: «اللّهمّ اجعله هاديًا مهديًّا»، وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وفي صحيح البخاري في كتاب المناقب عن ابن أبي مُلَيْكة قال: قيل لابن عباس: هل لك في أمير المؤمنين معاوية، ما أوتر إلّا بواحدة؟ قال: أصاب، إنه فقيه.اهـ تهذيب الأسماء باختصار.

---

(١) معرب سنگ گل. ١٢ منه عمّ فيضهم.

(٢) منصرف.اهـ مصباح. ١٢ منه عمّ فيضهم.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ **(اللام لتأكيد النفي)** والدلالة على أن تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم، لأنك بعثت رحمة للعالمين وسنته أن لا يعذب قومًا عذاب استئصال ما دام نبيّهم بين أظهرهم، وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم (﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ **هو في موضع الحال ومعناه نفي الاستغفار عنهم)** أي ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما

قوله: (اللام[1] لتأكيد النفي) يعني أن اللام في قوله تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٣٣] لام الجحود، والفعل بعدها منصوب بإضمار أنّ وشرطها أن يتقدمها كون منفي، وذهب البصريّون إلى أن خبر كان محذوف، وتتعلّق هذه اللام بذلك الخبر المحذوف، والمعنى: وما كان الله مريدًا لتعذيبهم، وذهب الكوفيون إلى أن هذه اللام مع ما بعدها في محل الخبر ولا يقدرون شيئًا محذوفًا، ويزعمون أن الفعل بعدها منصوب بنفس اللام بإضمار أن، وأن اللام زائدة لتأكيد النفي، وظاهر كلام المصنّف يُشعر بأنه اختار مذهب الكوفيّين، إلّا أنه لا ينافي إتيانه على مذهب البصريّين؛ لأن انتفاء إرادة العذاب أبلغ وآكد من نفي العذاب، صرّح في خبر كان الأول بلام الجحود دون خبرها الثاني؛ للدلالة على أن كينونته عليه الصلاة والسّلام فيهم أبلغ في كونها سببًا لعدم تعذيبهم من استغفارهم، فأين بركة وجوده عليه الصّلاة والسّلام من بركة استغفارهم؟

قوله: (﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ هو في موضع الحال، ومعناه نفي الاستغفار عنهم) قال العلّامة الشهاب عليه رحمة الله الوهّاب: ذكر فيه ثلاثة أوجه: الأول أنّ المراد استغفار مَنْ بَقِيَ بين أظهرهم من المسلمين المستضعفين. قال الطيبيّ: وهذا الوجه أبلغ، لدلالته على أنّ استغفار الغير مما يدفع به العذاب عن أمثال هؤلاء الكَفَرة، وهو المرويّ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في كتاب الأحكام. والثاني: أنّ المراد به دعاء الكَفَرة بالمغفرة، وقولهم: غفرانك، فيكون مجرّد طلب المغفرة منه تعالى مانعًا من عذابه، ولو من

---

(١) هذه هي التي تسمّى لام الجحود ولام النفي؛ لاختصاصها بمعنى كان الماضية لفظًا ومعنًى، وهي تُفيد التأكيد باتّفاق النُحاة. ١٢ منه عمّ فيضهم.

عذبهم، أو معناه وما كانَ الله معذبهم وفيهم من يستغفر وهم المسلمون بين أظهرهم ممن تخلّف عن رسول الله ﷺ من المستضعفين.

الكفرة. والثالث: أنّ المراد بالاستغفار التوبة والرجوع عن جميع ما هم عليه من الكفر وغيره، وهو منقول عن قتادة والسُّدي ومجاهد رحمهم الله، فيكون القيد منفيًّا في هذا ثابتًا في الوجهين، ومبنى الاختلاف فيها ما نُقِل عن السّلف في تفسيره، والقاعدة المقرّرة وهي أن الحالَ بعد الفعل المنفيّ، وكذا جميع القيود قد يكون راجعًا إلى النفي قيدًا له دون المنفيّ، وقد يكون راجعًا إلى ما دخله النفي، وعلى الثاني فله معنيان: أحدهما، وهو الأكثر، أن يكون النفي راجعًا إلى القَيْد فقط، ويثبت أصل الفعل. وثانيهما: أن يقصد نفي الفعل والقيد معًا بمعنى انتفاء كلّ من الأمرين، والمعنى انتفاء الفعل من غير اعتبار لنفي القيد وإثباته، والحاصل أنّ القيد في الكلام المنفيّ قد يكون لتقييد النفي، وقد يكون لنفي المقيّد، بمعنى انتفاء كلّ من الفعل والقيد، أو القيد فقط، أو الفعل فقط؛ كما قرّره النِّحرير في سورة آل عمران، وقد مرّ تفصيله وتحقيقه في سورة البقرة.

وأمّا قول الشارح النّحرير هنا: أنّ الدالّ على انتفاء الاستغفار هنا على الوجه الأخير القرينة والمقام لا نفس الكلام، وإلّا لكان معنى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ [الأنفال: الآية ٣٣] نفي كونه فيهم.

فإنْ قيل: الحال قيد والنفي في الكامل راجع إلى القيد.

قلنا: وأنت فيهم حال أيضًا.

فإن قيل: الاستغفار من الكفر ينافي التعذيب، وقد ثبت أنهم يُعذّبون بمفارقة النبيّ ﷺ، وبقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: الآية ٣٤] فينتفي الاستغفار.

قلنا: وكذلك كونه فيهم ينافي بحكم العادة، وقضيّة الحكمة تعذيبهم، وقد بيَّن أنهم يعذّبون.

فإن قيل: كونه فيهم ليس مما يستمرّ، بل يزول البتّة، فيحدث التعذيب.

قلنا: الاستغفار عن الكفر يحتمل ذلك، غايته أنه احتمال بعيد، ويمكن أن يقال: هم يستغفرون للاستمرار، فينتفي بالتعذيب، ولو بعد حين؛ بخلاف أنت

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

(﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾) أي وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وهو معذبهم إذا فارقتهم، وما لهم ألا يعذبهم الله ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يصدّون عن المسجد الحرام كما صدّوا رسول الله ﷺ (**عام الحديبية**)، وإخراجهم رسول الله والمؤمنين من الصدّ وكانوا يقولون: نحن ولاة البيت والحرم فنصدّ مَن نشاء وندخل مَن نشاء فقيل: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ وما استحقّوا مع إشراكهم وعداوتهم للدين أن يكونوا ولاة أمر الحرم ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ من المسلمين. وقيل: الضميران راجعان إلى الله ﴿وَلَكِنَّ

فيهم، فإنه لمجرّد الثبوت، وهو متحقّق ما لم يُفارقهم ولم يُصِبْهم العذاب، وهذا إنما يتمّ إذا جعل وأهلها مصلحون للاستمرار والدوام دون الثبوت. اهـ. فلا يخفى ما فيه من التطويل، وما بين كلاميه من التنافي، ولبعض الناس هنا خبط تركه أوْلى من ذِكْره، وعلى الوجه الأوّل المستغفرون هم المسلمون، والاستغفار طلب المغفرة والتوفيق للثبات على الإيمان، والضمير للجميع لوقوعه فيما بينهم، ولجعل ما صدر عن البعض بمنزلة الصادر عن الكلّ، فلا يلزم تفكيك الضمائر كما قيل. اهـ.

قوله: (﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾)... الخ. قال النسفيّ: إن نزول ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٣٣] وهو ﷺ بمكّة ثم خرج من بين أظهرهم، فاستغفر مَنْ بها مِنَ المسلمين، فنزل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٣]، أي وفيهم أحد من المسلمين؛ فخرج المستغفرون من مكّة، فنزل: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: الآية ٣٤]... الخ. وأذن له في فتح مكّة. **قوله:** (**عام الحُديبية**) وهي السنة السادسة من الهجرة، والحُديبية الحجازيّون يخفّفونها، والعراقيون يثقلونها، والحديبية قرية سُمّيت ببئر هناك عند مسجد الشجرة، وبين الحديبية والمدينة تسع مراحل، وبينها وبين مكّة مرحلة، قيل: هي مِنَ الحرم، وقيل: بعضها من الحرم. قال المُحبّ الطبري: هي قرية قريبة من مكّة أكثرها في الحرم، وهي على تسعة أميال من مكّة. وفي شفاء الغرام: ومسجد الشجرة بالحديبية، والشجرة المنسوب إليها هذا المسجد هي الشجرة التي كانت

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك **(كأنه استثنى)** مَن كان يعلم وهو يعاند **(أو أراد بالأكثر الجميع)** كما يراد بالقلّة العدم.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ صفيرًا **(كصوت المكاء)** وهو طائر مليح الصوت، وهو فعال من مكا يمكوا إذا صفر ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ وتصفيقًا **(تفعلة من الصدى)**، وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت **(عراة وهم مشبكون بين أصابعهم)** ويصفرون فيها ويصفقون، وكانوا يفعلون نحو ذلك إذا قرأ

تحتها بيعة الرضوان، وكانت هذه الشجرة سمرة معروفة عند الناس، وهذا المسجد عن يمين طريق جدّة، وهو المسجد الذي يزعم الناس أنه الموضع الذي صلّى فيه رسول الله ﷺ وأصحابه، وثمّةَ مسجد آخر وهذان المسجدان والحديبية لا تُعرف اليوم، والله أعلم بذلك. **قوله: (كأنه استثنى)** أي أخرج بقوله أكثرهم الأقلين الذين كانوا يعلمون ويُعاندون. **قوله: (أو أراد بالأكثر الجميع)**؛ لأن للأكثر حكم الكلّ في كثير من الأحكام، ولكونه الجزء الذي عليه مدار الجميع.

قوله: (كصوت المكاء) ـ بضمّ الميم وبالمدّ والتشديد ـ طائر يصوّت في الرياض يسمّى مُكاء؛ لأنه يمكو، أي يصفّر كثيرًا، ووزنه فعال كخطاف، والأصوات فيْ الأكثر تأتي على فعال بتخفيف العين كالبكاء والصراخ والرغاء والنباح والجؤار ونحوه، وجمعه المكاكيّ، وهذا الطائر يصفّر ويصوّت كثيرًا. قال البغوي في تفسيره: المكاء الصفير، وهو في اللغة اسم طائر أبيض يكون بالحجاز له صفير. قال ابن السكّيت في إصلاح المنطق: فقال: مكا الطائر ومكا الرجل يملك مكوًا إذا جمع يديه وصفّر فيهما، وكأنهم اشتقوا له هذا الاسم من الصياح، وجمعه المكاكي، والمكاء الصفير، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾، أي صفيرًا وتصفيقًا. وقال ابن قتيبة: المُكاء الصفير، أي بالتخفيف، والمكّاء ـ بالتشديد ـ طائر يصفر في الرياض، ويمكو أي يصفر. **قوله: (تفعلة من الصّدى)** وهو ما يُسمع من رَجْع الصوت عند جبل ونحوه. **قوله: (عراة)** جمع عار. **قوله: (وهم مشبكون بين أصابعهم)** تصوير لمكائهم، فإن المكاء

رسول الله ﷺ في صلاته يخلطون عليه ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ عذاب القتل والأسر يوم بدر ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم. ونزل في المطعمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلًا وكلهم من قريش، وكان يطعم كل واحد منهم كل يوم (عشر جزائر).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي كان غرضهم في الإنفاق الصدّ عن اتباع محمد ﷺ وهو سبيل الله ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ثم تكون عاقبة إنفاقها ندمًا وحسرة، فكأن ذاتها تصير ندمًا وتنقلب حسرة ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ﴾ آخر الأمر وهو من دلائل النبوّة لأنه أخبر عنه قبل وقوعه فكان كما أخبر ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ والكافرون منهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ لأن منهم مَن أسلم وحسن إسلامه. واللام في ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ﴾ الفريق الخبيث من الكفار ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي من الفريق الطيب من المؤمنين، متعلقة بـ ﴿يُحْشَرُونَ﴾ (﴿لِيُمَيِّزَ﴾ **حمزة وعلي**) ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ﴾ الفريق الخبيث ﴿بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ فيجمعه ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ﴾ أي الفريق الخبيث ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الفريق الخبيث ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أنفسهم وأموالهم.

عبارة عن تشبيك الأصابع، ثم وضعها على الفم وأن ينفخ فيها. **قوله: (عشر جزائر)** جمع جزور، وهو البعير، ذكرًا كان أو أنثى، إلّا أن لفظه مؤنّث، تقول: هذه الجزور؛ فلذلك لم يقل: **عشرة** جزائر، بالتاء.

قوله: (﴿لِيُمَيِّزَ﴾) بضم الياء الأُولى وفتح الميم وكسر الثانية مشدّدة **(حمزة وعلي)** الكسائي، والباقون بفتح الياء وكسر الميم وإسكان الياء.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨﴾

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ (أي أبي سفيان وأصحابه) ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ عما هم عليه من عداوة رسول الله ﷺ وقتاله بالدخول في الإسلام ﴿يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ لهم من العداوة ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ لقتاله ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ بالإهلاك في الدنيا والعذاب في العقبى، أو معناه أن الكفار إذا انتهوا عن الكفر وأسلموا غفر لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصي، (وبه احتجّ أبو حنيفة رحمه الله في أن المرتد إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة).

قوله: (أي أبي سفيان) أبو معاوية رضي الله عنه؛ لأنه لم يدخل في الإسلام بعد **(وأصحابه)** فالتعريف في الذين كفروا للعهد الخارجي، والمعهود أبو سفيان وأصحابه.

قوله: (وبه احتجّ أبو حنيفة رحمه الله في أن المرتدّ إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة) أخذ ذلك كلام صاحب الكشاف، وأورد منه بالإيجاز، وصرّح صاحب الكشاف بأنّ الحربيّ إذا أسلم لم يبق عليه تَبعة قطّ. وأمّا الذِّميّ، فلا يلزمه قضاء حقوق الله تعالى وتبقى عليه حقوق الآدميّين، وبه احتجّ أبو حنيفة رحمه الله في أن المرتدّ إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة في حال الرِّدَّة وقبلها، وفسّر أن يعودوا بالارتداد، ولعلّ وجه الاحتجاج أنه لمّا حكم على الكفار جميعًا بالمغفرة عن العصيان بعْد الإسلام، فالظاهر أنّ المرتدّ كذلك؛ لأنه داخل في الكفار، وإن اختصّ باسم آخر، فإن يدخل في الإسلام يُغْفر له ما قد سلف من ارتداده وسائر ذنوبه من قضاء الصلاة والصوم وجميع أحكام الشرع، وهذا أمر معقول؛ لأنه حين ارتدّ لم يجب الصلاة والصوم، فلم يلزم القضاء، وكذا أسقط ما قبلها، وإنما فسّر أن يعودوا بالارتداد؛ لأنه فسّر ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ [الأنفال: الآية ٣٨] بالانتهاء عن الكفر، فلا بدّ أن يكون العَوْد بالعَوْد إلى الكفر، وهو الارتداد، لا لأن له دخلًا في الاحتجاج، وإنما قيّد بقوله أبو حنيفة رحمه الله؛ لأن الشافعي لمّا أوجب العبادات على الكفار بتقدير الإسلام اقتضاء، فأوْلى أن يوجب ذلك على المرتدّ، ولكن لا يظهر ثمرته ما دام مرتدًّا، فيلزم القضاء بعد الإسلام ولم يتعرّض القاضي للوجه الثاني رعايةً لمذهبه. اهـ التفسيرات الأحمديّة.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ إلى أن لا يوجد فيهم شرك قط ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ ويضمحل عنهم كل دين باطل ويبقى فيهم دين الإسلام وحده ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن الكفر وأسلموا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يثيبهم على إسلامهم ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أعرضوا عن الإيمان ولم ينتهوا ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم ومعينكم فثقوا بولايته ونصرته ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لا يضيع من تولّاه ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ لا يغلب مَن نصره. والمخصوص بالمدح محذوف.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ «ما» بمعنى «الذي»، ولا يجوز أن يكتب إلا مفصولًا إذ لو كتب موصولًا لوجب أن تكون «ما» كافة و﴿غَنِمْتُم﴾ صلته والعائد محذوف والتقدير: الذي غنمتموه ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ بيانه قيل حتى **(الخيط والمخيط)** ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ والفاء إنما دخلت لما في «الذي» من معنى المجازاة و«أن» وما عملت فيه في موضع رفع على أنه خبر مبتدأ تقديره: فالحكم أن لله خمسة ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى

وقال العلّامة الشهاب عليه رحمة الله الوهاب: **تنبيه**: قال النِّحرير: المراد بالذين كفروا هو الكفر الأصليّ وما سلف ما مضى في حال الكفر، فاحتجاج أبي حنيفة رحمه الله على أنّ مَنْ عصى طول العمر ثم ارتدّ ثم أسلم لم يبق عليه ذنب في غاية الضعف، انتهى. وهذا ليس بشيء، فإنّ أبا حنيفة ومالكًا أبْقيا الآية على عمومها؛ لحديث «الإسلام يهدم ما قبله»، وقالا: إنه يلزمه حقوق الآدميّين دون حقوق الله، كما في كتاب أحكام القرآن لابن عبد الحقّ، وخالفهما الشافعي رحمه الله، وقال: يلزمه جميع الحقوق. اهـ.

قوله: (الخيط) كناية عمّا قلّ مطلقًا. **قوله: (والمخيط)** في مختار الصحاح: المِخْيَط بوزن المِبْضَع الإبْرَة. اهـ.

﴿ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ **(فالخمس كان في عهد رسول الله ﷺ يقسم على خمسة أسهم):**

قوله: (فالخمس كان في عهد رسول الله ﷺ يُقسم على خمسة أسهم)... الخ. قد اتّفق أهل المذاهب على أنّ ما أخذ من الكفار قهرًا يُقسم خمسة أخماس: أربعة منها للغانمين، ولكنهم اختلفوا في الخُمس الباقي، فقال بعضهم: يُقسم الخمس على ستّة أسهم: سهم لله، وسهم للرسول، وهكذا القياس عملًا بظاهر الآية، ويصرف سهم الله إلى الكعبة على ما ذهب إليه أبو العالية، وقيل: لبيت المال، وقيل: مضموم إلى سهم الرّسول، والجمهور على أنّ ذكر الله تعالى للتبرّك يدلّ عليه تقدُّمه على خلاف سُنن المعطوفات، وكأنه قال: فإن لله خمسه يصرف إلى هؤلاء الأخصّين به، فيقسم الخمس على خمسة أسهم، هكذا فعله رسول الله ﷺ، ولكنهم اختلفوا فيما بينهم بعد وفاته؛ فعند الشافعي رحمه الله: يُصرف سهم الرسول إلى مصالح المسلمين، كما فعله الشيخان. وقيل: يُصرف إلى الإمام، وقيل: إلى الأصناف الأربعة، وعند أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه: سقط سهمه وسهم ذوي القربى بوفاته وصار الكلّ مصروفًا إلى الثلاثة الباقية، وعن مالك رضي الله تعالى عنه: الأمر فيه مفوّض إلى رأي الإمام يصرفه إلى ما يراه أهمّ.

وسهم ذوي القربة يُصرف إليهم، وهم: بنو هاشم وبنو المطّلب، وقيل: بنو هاشم وحدهم، وقيل: جميع قريش، والغنيّ والفقير سواء في ذوي القربى عند الشافعي رضي الله عنه، وقيل: هو مخصوص بفقرائهم كسهم ابن السبيل، وقيل: الخمس كلّه لذوي القربى لسقوط سهم الرسول بعد موته عليه السلام، ويكون المراد باليتامى والمساكين وابن السبيل مَنْ كان منهم، وإنما العطف للتخصيص، هذا كلّه ذُكر في بيضاوي أخذ ذلك من كلام صاحب الكشاف مع نوع تغيّر.

وذكر الإمام الزاهد: أن مبنى الاختلاف بيننا وبين الشافعي رحمه الله على أن نسخ القرآن بالخبر المتواتر جائز عندنا لا عنده، فإنّ سهم ذوي القربى منصوص في الكتاب، ولم يعمل به الخلفاء الراشدون، فصار منسوخًا به عندنا لا عنده، واقتصر صاحب المدارك على بيان مذهب أبي حنيفة رحمه الله، وتقديره على ما في الكتب أنه قال أبو حنيفة رحمه الله: يقسم الخمس بعد وفاته ﷺ على ثلاثة أسهم: سهم لليتامى،

....

وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل؛ لأن ذكر الله تعالى للتبرّك، وسهم الرسول سقط بموته ﷺ، وسهم ذوي القربى أيضًا يسقط بموته ﷺ؛ لأن المراد من ذوي القربى ذوو قربى رسول الله ﷺ بالإجماع، ولفظ مشترك بين القرابة الصلبية المودّة، وههنا الأخير مراد خاصّته بدليل أنّ رسول الله ﷺ ابن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف، وكان لعبد مناف أربعة[(١)] أبناء: هاشم، والمطّلب، وعبد شمس، ونوفل؛ وكان عثمان بن عفان من أولاد عبد شمس، وجبير بن مطعم من أولاد نوفل، فلمّا قسم رسول الله ﷺ غنائم خيبر أعطى خمس الخمس بني هاشم وبني المطلب، ولم يُعْطِ عثمان وجبيرًا أصلًا، فقالا: إنا لا ننكر فضل بني هاشم لمكانك الذي وضعك الله فيهم، يعني أنك منهم، وهم إخوتك، ولكن نحن وبنو المطّلب سواء، فما بالك أعطيتهم وحرمتنا؟ فقال عليه السلام: «إنهم لم يفارقوني في الجاهلية ولا في الإسلام»، وشبك[(٢)] بين أصابعه، فعُلِم أنّ المراد قرابة المودّة؛ لأنه لو كان المراد القرابة الصّلبيّة لأعطى عثمان وجبيرًا أيضًا، كما أعطى بني هاشم وبني المطّلب، فإذا كان المراد قرابة المودة فقد فات ذلك بوفاة رسول الله ﷺ؛ لأنه علّله بصحبته، وهي لم تبقَ، فلا يستحقّون السهم بعد وفاته إذا كانوا أغنياء.

غاية ما في الباب أنهم يستحقّونه إذا كانوا فقراء، وذلك لأنهم لما طلبوا الزكاة فمنعها عليه السلام عنهم، وقال: «يا معشر بني هاشم، إنّ الله حرّم عليكم غسالة الناس وأوساخهم وعوّضكم عنها بخمس الخمس من الغنيمة»، فقد جعل رسول الله ﷺ خمس الخمس عوضًا عن الزكاة، والزكاة إنما يستحقّها الفقراء، فكذا هذا. وقد صحّ أن الخلفاء الراشدين كلّهم قسموا على نحو ما نقلنا، هكذا

---

(١) وقال العلاّمة الشهاب عليه رحمة الله الوهاب: وكان لعبد مناف خمس بنين: هاشم وعبد شمس ونوفل والمطلب وأبو عمرو، كلّهم أعقبوا إلا أبا عمرو.اهـ. ١٢ منه عمّ فيضهم.

(٢) التشبيك إدخال بطن الأصابع ببطن أصابع أُخر، وتشبيكه عليه السلام بين أصابعه إشارة إلى كمال اختلاطهم به، وعدم مفارقتهم له، وبيان عدم المفارقة بالفعل بعد بيانه بالقول؛ لأنه أدخل في البيان مع البرهان. ١٢ منه عمّ فيضهم.

سهم لرسول الله، وسهم لذي قرابته من بني هاشم وبني المطلب دون بني عبد شمس وبني نوفل استحقوه حينئذٍ بالنصرة لقصة (عثمان) و(جبير) بن مطعم،

في شرح الوقاية. وقال صاحبه الهداية: إن هذا قول الكرخي، وعن الطحاوي: إن سهم الفقراء أيضًا ساقط بالإجماع، ولكن الأصحّ أن الساقط بالإجماع هم الأغنياء، والفقراء يدخلون في الأصناف الثلاثة المذكورة، وهذا غاية ما بذلوا فيه جهدهم، وفيه بحث وهو أن الزكاة إنما تُحرم على بني هاشم خاصّةً، فينبغي أن يكون بنو المطّلب غير مستحقّين لسهم الغنيمة، سواء كانوا فقراء أو أغنياء، على ما قيل، وسيجيء هذا الكلام مع نوع تدقيق وزيادة توضيح مني في سورة الحشر إن شاء الله تعالى. اهـ التفسيرات الأحمدية.

وفي هامشها: وقد ذكر في كتب الفقه أن آل بني هاشم آل عليّ وعباس وجعفر وعقيل وحارث بن عبد المطّلب ومواليهم، ولا يتوهّم منه أن آل المطّلب داخل في بني هاشم لأن عبد المطّلب غير المطّلب، والأوّل هو ابن هاشم، ويدخل فيه، والثاني هو أخوه، فكيف يدخل فيه؟. اهـ منه رحمه الله.

قوله: (عثمان) بن عفان أمير المؤمنين، هو أبو عمرو، ويقال: أبو عبد الله وأبو ليلى، عثمان بن عفّان بن أبي العاصي بن أُمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ القرشيّ الأموي، المكيّ ثم المدني، أمير المؤمنين. رُوِيَ لعثمان رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ مائة حديث وستّة وأربعون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم منها على ثلاثة، وانفرد البخاري بثمانية، ومسلم بخمسة. قُتِل شهيدًا يوم الجمعة لثمان عشرة خلَوْن من ذي الحجّة سنة خمس وثلاثين، وقيل: قُتِل يوم الأربعاء، وهو ابن تسعين سنة، وقيل: ثمانٍ وثمانين، وقيل: ثنتين وثمانين، وقيل غير ذلك، وبُويع له بالخلافة غرّة المحرّم سنة أربع وعشرين، وكانت خلافته ثنتي عشرة سنة إلّا ليالي. قال ابن عبد البرّ: بُويع له يوم السبت بعد دَفْن عمر رضي الله تعالى عنه بثلاثة أيّام، وحجّ فيها بالناس عشر سنين متوالية، وصلّى عليه جُبير بن مطعم ودُفِن ليلًا بالبقيع، وأُخفي قبره ذلك الوقت ثم أُظهر، وقيل: دُفِن بحش كوكب. قال ابن قُتيبة: هي أرض اشتراها عثمان وزادها بالبقيع، والحُشّ البستان، وكوكب اسم رجل من الأنصار. وعثمان بن

وثلاثة أسهم لليتامى والمساكين وابن السبيل، وأما بعد رسول الله ﷺ فسهمه ساقط بموته، وكذلك سهم ذوي القربى، وإنما يعطون لفقرهم ولا يعطى أغنياؤهم فيقسم على اليتامى والمساكين وابن السبيل. وعن ابن عباس ﵄ أنه كان على ستة: لله والرسول سهمان، وسهم لأقاربه حتى قبض فأجرى أبو بكر ﵁ الخمس على ثلاثة، وكذا عمر ومن بعده من الخلفاء ﵃، ومعنى ﴿لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ لرسول الله كقوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: الآية ٦٢] ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ﴾ فاعملوا به وارضوا بهذه القسمة فالإيمان يوجب الرضا بالحكم والعمل بالعلم ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ معطوف على ﴿بِاللَّهِ﴾ أي إن كنتم آمنتم بالله وبالمنزل ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يوم بدر ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ الفريقان من المسلمين والكافرين، والمراد ما أنزل عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذٍ وهو بدل من ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقدر على أن ينصر القليل على الكثير كما فعل بكم يوم بدر.

عفّان أحد العشرة المبشّرة لهم بالجنّة، وأحد الستّة أصحاب الشورى الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وأحد الخلفاء الرّاشدين السابقين إلى الإسلام، وأحد المُنْفقين في سبيل الله الإنفاق العظيم، وأحد أصهار رسول الله ﷺ، ولم يلبس السراويل في جاهليّته ولا إسلامه إلى يوم قتله، وقال: إني رأيت رسول الله ﷺ البارحة في المنام وأبا بكر وعمر فقالوا لي: اصبر، فإنك تفطر عندنا القابلة، ثم دعا بمصحف ففتحه فقُتل وهو بين يديه، وأعتق عشرين مملوكًا، وهو محصور رضي الله تعالى عنه.

قوله: (جبير) بن مطعم الصحابي، ومطعم ـ بكسر العين ـ هو أبو محمد، ويقال: أبو عدي، جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصيّ القرشيّ النوفليّ المدني، أسلم قبل عام خيبر، وقيل: أسلم يوم فتح مكّة. رُوي له عن رسول الله ﷺ ستّون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم على ستّة، وانفرد البخاري بثلاثة، ومسلم بحديث. رَوَى عنه سليمان بن صرد الصحابي، وابناه نافع ومحمد ابنا جبير، وسعيد بن المسيّب وآخرون. قال الزبير بن بكار: كان من علماء قريش وساداتهم. توفي بالمدينة سنة أربع وخمسين، وقال ابن قتيبة: سنة تسع وخمسين رضي الله تعالى عنه.

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)﴾

﴿إِذْ أَنتُم﴾ بدل من ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أو التقدير: اذكروا إذ أنتم ﴿بِالْعُدْوَةِ﴾ (شطر الوادي، وبالكسر فيهما: مكي وأبو عمرو) ﴿الدُّنْيَا﴾ القربى إلى جهة المدينة تأنيث الأدنى ﴿وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ البعدى عن المدينة تأنيث الأقصى، (وكلتاهما فعل من بنات الواو)، والقياس قلب الواو ياء كالعليا تأنيث الأعلى، وأما القصوى (فكالقود) في مجيئه على الأصل ﴿وَالرَّكْبُ﴾ (أي العير) وهو جمع راكب في المعنى ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ نصب على الظرف أي مكانًا أسفل من مكانكم يعني في أسفل الوادي (بثلاثة أميال)، وهو مرفوع المحل لأنه خبر المبتدأ ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أنتم وأهل مكة وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ

قوله: (شطر الوادي) أي جانبه. **قوله:** (وبالكسر) أي بكسر العين (فيهما مكّي) أي ابن كثير المكي (وأبو عمرو) البصري. والباقون بالضمّ فيهما، وهما لغتان لأهل الحجاز.

قوله: (وكلتاهما فعل من بنات الواو) أي من ذوات الواو. أمّا الدنيا، فلأنها من دنا يدنو دنوًّا. وأمّا القصوى، فلأنها من قصا المكان يقصو قصوًّا إذا بَعُد.
قوله: (فكالقود)... الخ. فإنه كان القياس فيه قلب الواو ألفًا لكنها لم تُقلب، فهي موافقة للاستعمال دون القياس. اهـ شهاب. وفي مختار الصحاح: القَوَد - بفتحتين - القصاص. اهـ.

قوله: (أي العير) أي القافلة. **قوله:** (بثلاثة أميال) المِيل بالكسر عند القدماء من أهل الهيئة: ثلاثة آلاف ذراع، وعند المحدّثين أربعة آلاف ذراع، والخلاف لفظيّ؛ لأنهم اتّفقوا على أن مقداره ستّ وتسعون ألف أصبع، والأصبع ستّ شعيرات بطن كل واحدة إلى الأخرى، ولكن القدماء يقولون الذراع اثنتان وثلاثون أصبعًا، والمحدّثون يقولون أربع وعشرون أصبعًا، فإذا قُسِم الميل على رأي القدماء كلّ ذراع اثنين وثلاثين أصبعًا كان المتحصّل ثلاثة آلاف ذراع، وإنْ قُسِم على رأي المحدّثين أربعًا وعشرين كان المتحصّل أربعة آلاف ذراع، والفرسخ عند الكلّ ثلاثة

فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾ لخالف بعضكم بعضًا (**فثبطكم**) قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد، وثبطهم: ما في قلوبهم (**من تهيب رسول الله ﷺ**) والمسلمين فلم يتفق لكم من التلاقي ما وفقه الله وسبب له ﴿وَلَٰكِن﴾ جمع بينكم بلا ميعاد ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ من إعزاز دينه وإعلاء كلمته، أو اللام تتعلق بمحذوف أي ليقضي الله أمرًا كان ينبغي أن يفعل وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه دبر ذلك. قال الشيخ أبو منصور ﷺ: القضاء يحتمل الحكم أي ليحكم ما قد علم أنه يكون كائنًا، أو ليتم أمرًا كان قد أراده، وما أراد كونه فهو مفعول (**لا محالة**) وهو عزّ الإسلام وأهله و(**ذلّ الكفر وحزبه**) ويتعلّق بـ «يقضي» ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ (﴿حَيَ﴾ **نافع وأبو عمرو**)، فالإدغام لالتقاء المثلين، والإظهار لأن حركة الثاني غير لازمة، لأنك تقول في المستقبل «يحيا» والإدغام أكثر. استعير الهلاك والحياة للكفر والإسلام أي ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالجة شبهة حتى لا يبقى له على الله حجة، ويصدر إسلام مَن أسلم أيضًا عن يقين وعلم بأن دين الحق الذي يجب الدخول فيه والتمسك به، وذلك أن وقعة بدر من الآيات الواضحة التي من كفر بعدها كان مكابرًا لنفسه مغالطًا لها،

أميال، وإذا قدر الميل بالغلوات[1]، وكانت كل غلوة أربعمائة ذراع، كان ثلاثين غلوة، وإنْ كانت الغلوة مائتي ذراع كان ستّين غلوة. اهـ مصباح. **قوله: (فثبطكم)**... الخ. في مختار الصحاح: ثبّطه عن الأمر تثبيطًا شغله عنه. اهـ. **قوله: (من تهيب رسول الله ﷺ)** في مختار الصحاح: الهَيْبة المَهابة، وهي الإجلال والمخافة وقد هابه يهابه والأمر منه هَبْ - بفتح الهاء - وتهيَّبْتُه خفتُه وتهيّبني خوّفني. اهـ. وفي لسان العرب: قال ابن سيّده: تَهَيَّبْتُ الشيءَ وَتَهَيَّبَني خِفْتُه وخَوَّفَني. اهـ. **قوله: (لا مَحالة)** أي لا بدّ. **قوله: (ذلّ الكفر)** الذُّل - بالضمّ - ضدّ العزّ. **قوله: (وحِزْبه)** أي أصحابه. **قوله: (﴿حَيَ﴾)** بكسر الياء الأُولى مع فكّ الإدغام وفتح الثانية (**نافع**) المدني، وكذا أبو جعفر المدني وليس من السبعة، (**وأبو عمرو**) الصواب أبو بكر كما في نسخة صحيحة، وكذا البزيّ وقنبل من طريق ابن شنبوذ ويعقوب وخلف عن نفسه. والباقون بياء مشدّدة مفتوحة، وبه قرأ قنبل

---

(١) جمع غلوة، مثل شهوة وشهوات. ١٢ منه عمّ فيضهم.

ولهذا ذكر فيها (مراكز) الفريقين، وأن العير كانت أسفل منهم مع أنهم قد علموا ذلك كله مشاهدة ليعلم الخلق أن النصر والغلبة لا تكون بالكثرة والأسباب بل بالله تعالى، وذلك أن العدوة القصوى التي (أناخ) بها المشركون كان فيها الماء وكانت أرضًا لا بأس بها، ولا ماء بالعدوة الدنيا وهي (خبار تسوخ) فيها الأرجل ولا يمشي فيها إلا بتعب ومشقّة، وكانت العِيرُ وَرَاء ظهور العدو مع كثرة (عددهم) وعدّتهم وقلّة المسلمين وضعفهم ثم كان ما كان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بكفر مَن كفر وعقابه وبإيمان مَن آمن وثوابه.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ نصب بإضمار «اذكر»، أو هو متعلق بقوله: ﴿لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي بعلم المصالح إذ يقللهم في عينك ﴿فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ أي في رؤياك، وذلك أن الله تعالى أراه إياهم في رؤياه قليلًا فأخبر بذلك أصحابه فكان ذلك تشجيعًا لهم على عدوهم ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ (لجبنتم) و(هبتم) الإقدام ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أمر القتال وترددتم بين الثبات والفرار ﴿وَلَٰكِنَّ

من طريق ابن مجاهد. **قوله:** (مراكز) جمع مركز. في المصباح: المركز وزان مسجد موضع الثبوت. اهـ. وفي مختار الصحاح: مركز الدائرة وسطها، ومركز الرجل موضعه، يقال: أخلّ فلان بمركزه. اهـ. **قوله:** (أناخ) في مختار الصحاح: أَنَخْت الجمل فاستناخ، أي أبركته فبرك. اهـ. **قوله:** (خبار) ـ بفتح الخاء المعجمة ـ أي أرض رخوة. في القاموس: الخبار كَسَحاب ما لَانَ من الأرض واسترخى. اهـ. **قوله:** (تسوخ) فيها الأرجل، أي تغيب وتزلّ. **قوله:** (عددهم) العدد ـ بضمّ العين ـ جمع عُدّة، وهو ما يُعَدّ للحرب وغيره كالسلاح.

قوله: (لجبنتم) في المصباح: جبن جبنًا وزان قرب قربًا، وجبانة بالفتح، وفي لغة من باب قتل فهو جبان، أي ضعيف القلب، وامرأة جبان أيضًا، وربما قيل: جبانة، وجمع المذكّر جبناء، وجمع المؤنّث جبانات. اهـ. **قوله:** (هبتم) في المصباح: هابه يهابه من باب تعب هيبة حذره. قال ابن فارس: الهَيْبة الإجلال، فالفاعل هائب والمفعول هيوب ومهيب أيضًا، ويهيبه من باب ضرب لغة. اهـ.

﴿ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ عصم وأنعم بالسلامة من (الفشل) والتنازع والاختلاف ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يعلم ما سيكون فيها من الجراءة (والجبن) والصبر والجزع.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الضميران مفعولان أي وإذ يبصركم إياهم ﴿إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾ وقت اللقاء ﴿فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ هو نصب على الحال. وإنما قللهم في أعينهم تصديقًا لرؤيا رسول الله ﷺ، وليعاينوا ما أخبرهم به فيزداد يقينهم ويجدوا ويثبتوا. قال ابن مسعود ﷺ: لقد قلّلوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة وكانوا ألفًا ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال قائل منهم: إنما هم (أكلة جزور). قيل: قد قلّلهم في أعينهم قبل اللقاء ثم كثّرهم فيما بعده ليجترئوا عليهم قلّة مبالاة بهم ثم تفجأهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا، ويجوز أن يبصروا الكثير قليلًا بأن يستر الله بعضهم بساتر، أو يحدث في عيونهم ما يستقلون به الكثير كما أحدث في أعين (الحول) ما يرون به الواحد اثنين، قيل لبعضهم: إن الأحول يرى الواحد اثنين وكان بين يديه (ديك واحد) فقال: ما لي لا أرى هذين الديكين أربعة: ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فيحكم فيها بما يريد (﴿تَرْجِعُ﴾ شامي) وحمزة وعلي.

قوله: (الفشل) بمعنى الجبن. **قوله:** (الجُبْن) في مختار الصحاح: الجُبْن صفة الجَبان والجُبُن بضمّتين لغة. اهـ.

قوله: (أكلة) بوزن كَتَبَة جمع آكل بوزن فاعل، (جزور) أي ناقة مثل يُضْرَب به في القلّة، أي قلّتهم بحيث تُشْبعهم جزور واحدة. **قوله:**

(الحُوْل) جمع أحْوَل. **قوله:** (ديك واحد) الدِّيك ذَكَر الدّجاج[1]. اهـ مصباح. **قوله:** (﴿تَرْجِعُ﴾) بفتح التاء وكسر الجيم بالبناء للفاعل، (شاميّ) أي ابن

---

(١) تفتح الدال وتكسر، ومنهم مَنْ يقول: الكسر لغة قليلة. اهـ مصباح. وفي مختار الصحاح: فتح الدال أفصح من كسرها، الواحدة دجاجة ذكرًا كان أو أنثى، والهاء للإفراد كحمامة وبطة. اهـ. وفي القاموس: الدجاجة م للذكر والأُنثى ويثلث. اهـ. وفي شرحه تاج العروس: والفتح أفصح ثم الكسر. اهـ. ١٢ منه عمّ فيضهم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ إذا حاربتم جماعة من الكفار وترك وصفها لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار، واللقاء اسم غالب للقتال ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ لقتالهم ولا تفرّوا ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مواطن الحرب مستظهرين بذكره مستنصرين به داعين له على عدوكم: اللهم اخذلهم اللهم اقطع (**دابرهم**) ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة، وفيه إشعار بأن على العبد أن (**لا يفتر**) عن ذكر ربه (**أشغل وما يكون قلبًا**) وأكثر **ما** يكون همًّا، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك وإن كانت (**متوزعة**) عن غيره.

عامر الشامي، وحمزة وعلي الكسائي، وكذا يعقوب وخلف. والباقون بضمّ التاء وفتح الجيم.

قوله: (**دابرهم**) أي آخرهم. في لسان العرب: دابر الشيء آخره، وقطع الله دابرهم، أي آخِر مَنْ بَقِيَ منهم، وفي التنزيل: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنعام: الآية ٤٥] أي استؤصل أمرهم، ودابرة الشيء كدابره، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجر: الآية ٦٦]، قولهم: قطع الله دابره. قال الأصمعي وغيره: الدابر الأصل، أي أذهب الله أصله، وفي حديث الدعاء: «وابعث عليهم بأسًا تقطع به دابرهم» أي جميعهم حتى لا يبقى منهم أحد، ودابر القوم آخر مَنْ يبقى منهم ويجيء في آخرهم. اهـ باختصار. **قوله:** (**لا يفتر**) الفَتْرة الانكسار والضعف، وقد فتر الحرّ وغيره من باب دخل. اهـ مختار الصحاح.

قوله: (**أشغل**) حال من ضمير **لا** يفتر أو من العبد وانتصابه على الظرفيّة (**وما**) مصدريّة، وضمير (**يكون**) للعبد أي أشغل أكوانه بمعنى أوقات كونه، وهذا تركيب شائع مستفيض، إلّا أن جعل (**قلبًا**) تمييزًا أورث فيه إشكالًا، ولا إشكال لأنه إذا جاز إثبات الشغل للوقت فليُجِز إثبات شغل القلب بلا فرق، ومَنْ جعل ما بمعنى شيء، أي أشغل شيء يكون، أي فرد وإنسان بمعنى أشغل الناس قلبًا إذا فُصِلوا فردًا فردًا، فقد ذهب بماء العبارة ورونقها. اهـ تفتازاني رحمه الله. **قوله:** (**متوزّعة**) أي متفرّقة.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأمر بالجهاد والثبات مع العدو وغيرهما ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾ فتجبنوا وهو منصوب بإضمار «أن» ويدلّ عليه ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ أي دولتكم يقال: «هبّت رياح فلان» إذا (دالت) له الدولة ونفذ أمره، شبهت في نفوذ أمرها وتمشيته بالريح وهبوبها. وقيل: لم يكن نصر (قطّ) إلا بريح يبعثها الله، (وفي الحديث «نصرت بالصبا) وأهلكت عاد بالدبور» ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ﴾ في القتال مع العدو وغيره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي معينهم وحافظهم.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ۝٤٧﴾

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ هم أهل مكة حين نفروا لحماية العير فأتاهم رسول أبي سفيان أن ارجعوا فقد سلمت عيركم فأبى أبو جهل وقال: حتى نقدم بدرًا ونشرب بها الخمور وننحر الجزور و(تعزف) علينا (القيان) ونطعم بها العرب، فذلك بطرهم ورياؤهم الناس بإطعامهم (فوافوها فسقوا كؤوس المنايا) مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القِيان، فنهاهم أن يكونوا

قوله: (دالت) أي دارت. **قوله:** (قطّ) أي أبدًا. **قوله:** (وفي الحديث: «نُصرت بالصبا»)... الخ. أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، والصَّبا ريح تهبّ في المستوى مطلع الشمس ويقابلها الدبور. اهـ شهاب رحمه الله. وفي مختار الصحاح: الصبا ريح ومهبّتها المُستوى، أي تهبّ من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار، ومقابلتها الدبور. اهـ. وفي المصباح: الدبور وزان رسول ريح تهبّ من جهة المغرب تقابل الصبا، ويقال: يقبل من جهة الجنوب ذاهبةً نحو المشرق. اهـ.

قوله: (تعزفُ) من العَزْفِ ـ بعين مهملة مفتوحة وزاي ساكنة وفاء ـ وهو الطرب والضرب بالدفوف. **قوله:** (القِيان) بكسر القاف جمع قَيْنة ـ بفتح القاف وسكون الياء ـ الجارية مغنيّة أو لا، لكن المراد هنا المغنيّة. **قوله:** (فوافوها) أي جاؤوها. **قوله:** (فسقوا) أي شربوا. **قوله:** (كؤوس) جمع كأس. قال ابن الأعرابي: لا تسمّى الكأس كأسًا إلّا وفيها الشراب. (المنايا) جمع منيّة، أي

مثلهم بطرين طربين مرائين بأعمالهم، وأن يكونوا من أهل التقوى (والكآبة) والحزن من خشية الله مخلصين أعمالهم لله. (والبطر) أن تشغله كثرة النعمة عن شكرها. ويصدون عن سبيل الله، دين الله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ عالم وهو وعيد.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ واذكر إذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم التي عملوها في معاداة رسول الله ﷺ، ووسوس إليهم أنهم لا يغلبون. وغالب مبنيّ نحو «لا رجل» و﴿لَكُمْ﴾ في موضع رفع خبر «لا». تقديره: لا غالب كائن لكم ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي مجير لكم أوهمهم أن طاعة الشيطان مما يجيرهم ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ فلما تلاقى الفريقان ﴿نَكَصَ﴾ الشيطان هاربًا ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ **(أي رجع القهقرى)** ﴿وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ أي رجعت عما ضمنت لكم من الأمان. رُوِيَ أن إبليس تمثل لهم في صورة **(سراقة بن مالك بن جعشم)** في جند من الشياطين معه راية، فلما رأى الملائكة تنزل نكص

الموت. **قوله:** (الكآبة) ـ بالمدّ ـ سوء الحال والانكسار من الحزن. **قوله:** (والبطر) بفتحتين.

قوله: **(أي رجع القهقرى)** في مختار الصّحاح: **القهقرى** الرجوع إلى خلف، ورجع القهقرى أي رجع الرجوع المعروف بهذا الاسم؛ لأن القهقرى ضربٌ من الرجوع. اهـ. وقال العلاّمة شيخ زاده رحمه الله: قوله: رجع القهقرى قيل: هذا أصل معنى النكوص، إلا أنه قد اتّسع فيه حتى اسْتُعْمل في كل رجوع وإن لم يكن قهقرى، والمراد مطلق الرجوع؛ لأنه كناية عن الفرار، وفيه بحث؛ لأن غالب الفرار حال القتال إنّما هو كما ذكر، وهو رجوع القهقرى لخوف الفارّ من جهة العدوّ. وقوله: ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨]، حال مؤكّدة؛ لأن رجوع القهقرى إنما يكون على العقبين. اهـ.

قوله: **(سراقة بن مالك بن جعشم)** هو أبو سفيان سراقة بن مالك بن جُعْشُم بن مالك الكناني والمدلجي الحجازيّ الصحابيّ، وجُعْشم ـ بضم الجيم

فقال له (الحارث بن هشام): أتخذلنا في هذه الحالة؟ فقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ أي الملائكة وانهزموا فلما بلغوا مكة قالوا: هزم الناس سراقة. فبلغ ذلك سراقة فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم، فلما أسلموا علموا أنه الشيطان ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ أي عقوبته ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ اذكروا.

﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٤٩﴾

﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ بالمدينة ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ **(هو من صفة المنافقين، أو أُريد والذين هم على حرف)** ليسوا بثابتي الأقدام في الإسلام ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ يعنون أن المسلمين اغترّوا بدينهم فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر

والشين المعجمة ـ هذا قول الجمهور من الطوائف، وحكى الجوهري ضمّ الشين وفتحها، وسراقة من مشهوري الصحابة. رُوِيَ له عن رسول الله ﷺ تسعة عشر حديثًا، روى البخاري أحدها. ورَوى عنه ابن عباس وجابر رضي الله تعالى عنهما، ومن التابعين سعيد بن المسيّب، وابنه محمد بن سراقة، وكان ينزل قديدًا ـ بضم القاف ـ بين مكّة والمدينة، وقيل: سكن مكّة ويعدّ في أهل المدينة. أسلم عند النبيّ ﷺ بالجعرانة حين انصرف من حنين والطائف. توفي سراقة في أوّل خلافة عثمان رضي الله تعالى عنه سنة أربع وعشرين، وقيل: توفي بعد عثمان رضي الله تعالى عنه، والصحيح الأوّل.

قوله: (الحارث بن هشام) بن مغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، أبو عبد الرحمٰن المكّيّ، من مسلمة الفتح. استشهد بالشام في خلافة عمر رضي الله تعالى عنه، وله ذكر في الصحيحين أنه سأل عن كيفية مجيء الوحي.

قوله: (هو من صفة المنافقين) وتوسّطت الواو لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف؛ لأن هذه صفة للمنافقين لا تنفكّ عنهم. **قوله: (أو أُريد والذين هم على حرف)** أي شكّ، وهم قوم من أهل مكّة تكلّموا بالإسلام، ولم يقوَ الإسلام في قلوبهم ولم يتمكّن، فلما خرج كفار قريش إلى حرب رسول الله ﷺ خرجوا معهم إلى بدر، فلمّا نظروا قلّة المسلمين ارتابوا وارتدوا وقالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ [الأنفَال: الآية ٤٩].

إلى (زهاء) ألف. ثم قال جوابًا لهم ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يكل إليه أمره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب يسلّط القليل الضعيف على الكثير القوي ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يسوي بين وليه وَعدوه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ ولو عاينت وشاهدت **(لأن «لو» ترد المضارع إلى معنى الماضي)** كما ترد «إن» الماضي إلى معنى الاستقبال ﴿إِذْ﴾ نصب على الظرف ﴿يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بقبض أرواحهم ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فاعل ﴿يَضْرِبُونَ﴾ حال منهم ﴿وُجُوهَهُمْ﴾ إذ أقبلوا ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ ظهورهم و**(أستاههم)** إذا أدبروا، أو وجوههم عند الإقدام وأدبارهم عند الانهزام. وقيل: في ﴿يَتَوَفَّى﴾ ضمير الله تعالى، و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مرفوعة بالابتداء و﴿يَضْرِبُونَ﴾ خبر والأول الوجه، لأن الكفار لا يستحقون أن يكون الله متوفيهم بلا واسطة دليله **(قراءة ابن عامر «تتوفى» بالتاء)** ﴿وَذُوقُوا۟﴾ ويقولون لهم ذوقوا معطوف على ﴿يَضْرِبُونَ﴾ ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ **(أي مقدمة عذاب النار)**، أو ذوقوا عذاب الآخرة بشارة لهم به، أو يقال لهم يوم القيامة: ذوقوا. وجواب «لو» محذوف أي لرأيت أمرًا **(فظيعًا)**.

قوله: (زهاء) بضم الزاي المعجمة والمدّ بمعنى قريب منه سواء كانوا أقلّ أو أكثر.

قوله: **(لأن «لو» تردَ المضارع إلى معنى الماضي)** قال العلّامة التفتازاني رحمه الله: لا بدّ أن يحمل معنى المضيّ هٰهنا على الفرض، والتقدير كأنه قيل: قد مضى هذا المعنى ولم تره، ولو رأيته لرأيت أمرًا فظيعًا، وإلا فظاهر أنه ليس المعنى هٰهنا على حقيقة المضيّ. اهـ.

قوله: (أستاههم) جمع استه ـ بالتحريك ـ مثل سبب وأسباب بمعنى العجز، ويُراد به حلقة الدُبر. **قوله:** (قراءة ابن عامر) الشامي («تتوفى» بالتاء) على التأنيث، والباقون قرؤوا بياء الغيبة. **قوله:** (أي مقدمة عذاب النار) يعني أنّ عذاب الحريق إشارة إلى عذاب نار جهنّم، لكن على حذف المضاف. **قوله:** (فظيعًا) أي شنيعًا.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي كسبت وهو رد على (**الجبرية**)، وهو من كلام الله تعالى أو من كلام الملائكة. و﴿ذَٰلِكَ﴾ رفع بالابتداء و﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ خبره ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ عطف عليه أي ذلك العذاب بسببين: بسبب كفركم ومعاصيكم، وبأن الله ﴿لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ لأن تعذيب الكفار من العدل. (**وقيل: ظلام للتكثير لأجل العبيد**)، أو لنفي أنواع الظلم.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

الكاف في ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ في محل الرفع أي دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون، ودأبهم عادتهم وعملهم الذي دأبوا فيه أي داوموا عليه ﴿وَٱلَّذِينَ مِن

قوله: (الجبرية) في المصباح: الجبر وزان فلس خلاف القدر، وهو القول بأنّ الله يجبر عباده على فعل المعاصي، وهو فاسد، وتُعرف أدلّته من علم الكلام، بل هو قضاء الله على عباده بما أراد وقوعه منهم؛ لأنه تعالى يفعل في مُلكه ما يريد ويحكم في خلقه ما يشاء، وينسب إليه على لفظه فيقال: جبريّ، وقوم جبريّة ـ بسكون الباء ـ وإذا قيل: جبريّة وقدريّة جاز التحريك للازدواج. اهـ. **قوله**: (**وقيل: ظلّام للتكثير لأجل العبيد**) جواب عمّا يقال ظلّام بناء المبالغة، فمدلول الآية انتفاء كونه تعالى كثير الظلم، وهو لا ينافي جواز اتّصافه تعالى بأصل الظلم، بل يدلّ على اتّصافه به بناءً على قاعدة رجوع النفي إلى القَيْد، وهو محال.

وتقرير الجواب: أنّ الظلّام للتكثير، فيدلّ على كثرة الظلم بالقياس إلى كلّ فرد من أفراد العبيد حتى يقال: انتفاء كثرة الظلم بالقياس إلى كل فرد لا ينافي أن يظلمه في الجملة، بل الكثرة المنفيّة إنما هي بإزاء كثرة إفراد العبيد على طريق التوزيع، كما يقال في مقابلة الجمع بالجمع، فإنّ العبيد يدلّ على الكثرة، بل على الاستغراق، فالظالم لهم يكون كثير الظلم لإصابة كلّ واحد منهم ظلمًا على حِدَة، فصار المعنى أنه تعالى ليس بظالم لهذا ولا لذاك إلى ما لا يحصى، والمنفيّ عن كل عبد إنّما هو أصل الظلم، وهو المطلوب.

﴿قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من قبل قريش أو من قبل آل فرعون ﴿كَفَرُواْ﴾ تفسير لدأب آل فرعون ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ والمعنى جروا على عادتهم في التكذيب فأجرى عليه مثل ما فعل بهم في التعذيب ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب أو الانتقام ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ بسبب أن الله لم يصح في حكمته أن يغير نعمته عند قوم حتى يغيّروا ما بهم من الحال، نعم لم يكن لآل فرعون ومشركي مكة حال مرضية فيغيروها إلى حال مسخوطة، لكن لما تغيرت الحال المرضية إلى المسخوطة تغيرت الحال المسخوطة إلى أسخط منها، وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول ﷺ إليهم كفرة عبدة أصنام، فلما بعث إليهم بالآيات فكذّبوه وسعوا في إراقة دمه، غيّروا حالهم إلى أسوأ مما كانت فغيّر الله ما أنعَم به عليهم من الإمهال وعاجَلهم بالعذاب ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقول مُكذّبوا الرُّسُل ﴿عَلِيمٞ﴾ بما يفعلون.

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ تكرير للتأكيد، أو لأن في الأُولى الأخذ بالذنوب بلا بيان ذلك، وهنا بين أن ذلك هو الإهلاك والاستئصال ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ **(وفي قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ زيادة دلالة)** على كفران النعم وجحود الحق ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ بماء البحر ﴿وَكُلّٞ﴾ وكلهم من **(غرقى)** القبط و**(قتلى)** قريش ﴿كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي أصرّوا على الكفر فلا يتوقع منهم الإيمان.

قوله: (وفي قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ زيادة دلالة) حيث لم يقل بها أو بآياته مع سبق بآيات الله، بل ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ [الأنفال: الآية ٥٤] بلفظ الربّ المضاف إليهم المُشعِر بكونه مالكهم والمنعم عليهم. **قوله: (غرقى)** جمع غريق. **قوله: (قتلى)** جمع قتيل.

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ٥٦﴾

(﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾) بدل من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي الذين عاهدتهم من الذي كَفَروا وجعلهم شرّ الدواب، لأن شرّ الناس الكفار وشرّ الكفار المصرّون وشرّ المصرّين الناكثون للعهود ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾ في كل معاهدة ﴿وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ لا يخافون عاقبة الغدر ولا يبالون بما فيه من العار والنار.

قوله: (﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾)... الخ. الحاصل أنّ هذه الآية يُفهم منها عدّة مسائل، منها: أن الذميّ إذا نقض عهده فحُكمه حكم الحربيّ حيث أمر بإكثار قتلهم، وبه تمسّك بعض مشايخنا سلّمه الله تعالى في بعض رسائله أنّ مَنْ يسكنون في القرى ويعطون خراج كلاّ أو بعضًا في وقت إقامة السلطان وتسلّط الحكّام ويلحقون مع أهل الحرب في أدنى تفرقة للحكام، ويخرّبون بيوت المسلمين وأمصارهم وقراهم من مواشيهم وأهليهم مع أهل الحرب ويلحقون بدار الحرب، كما هو المتعارف في زماننا، والأكثر في بلادنا والمعروف في أطرافنا، فهم حربيّون قطعًا ويقينًا بلا شبهة ولا رَيْب يجب قتلهم بالنصّ المنادى كل مرّة، وسيجيء الآيات الأخر الواردة في هذا الباب في سورة البراءة إن شاء الله تعالى.

ومنها أن الغدر منع؛ لأن معنى قوله تعالى: ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ [الأنفال: الآية ٥٨] على حسب ما ذكر في التفاسير: فاطرح عليهم العهد، وقل لهم: إنّا لا نعاهد منكم، بل نغلب عليكم ونقتلكم. وقال في شرح الوقاية أيضًا: النَّبذ نقض المصالحة مع إخبارهم بذلك، فقد شرط الإخبار بنقض العهد مع خوف الخيانة، فالعذر هو الغَلَبة عليهم مع الإخبار بخلافه أوْلى أن يمنع منه. ومنها أنّ طرح العهد عند خوف الخيانة واجب على ما هو الظاهر، وهذا إذا لم يوجد منهم خيانة، ويكون مجرّد خوف. أمّا إذا وجد منهم خيانة، فإنْ كان مِنَ البعض من غير منعة لا يكون نقضًا للعهد، وإنْ كان مِنْ منعة يكون نقضًا في حقّهم دون غيرهم، وإنْ كان ذلك بإذن الملك أو كان ذلك باتّفاق الكلّ كان ذلك نقضًا للعهد وخيانة، فإنْ وجد منهم ذلك بدأ، فلا حاجة إلى النبذ، أي قوتلوا قبل نبذ لو بدؤوا بالخيانة. وأمّا إذا عدم خوف الخيانة ووجودها، وقد كان صالحهم الإمام قبل ذلك، فإنْ كان نقض الصلح أنفع نبذ إليهم وقاتلهم؛ لأن المصلحة تبدل حينئذ كما نصّ به في الهداية، والله أعلم. اهـ التفسيرات الأحمدية.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ﴾ فإما (**تصادفنهم وتظفرن بهم**) ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ ففرق عن محاربتك و(**مناصبتك**) بقتلهم شرّ قتلة (**والنكاية**) فيهم (**من وراءهم**) من الكفرة حتى لا (**يجسر**) عليك بعدهم أحد اعتبارًا بهم واتعاظًا بحالهم. وقال الزجاج: افعل بهم ما تفرّق به جمعهم وتطرد به مَن عداهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (**لعل المشردين**) من ورائهم يتعظون.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ (**معاهدين**) ﴿خِيَانَةً﴾ نكثًا بأمارات تلوح لك ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ (**فاطرح إليهم العهد**) ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ على استواء منك ومنهم في العلم بنقض العهد وهو حال من النابذ والمنبوذ إليهم (**أي حاصلين**) على استواء في العلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ الناقضين للعهود.

قوله: (تصادفنّهم) أي تلاقينّهم، ولما لم يكن الملاقاة مستلزمة للظفر مع أن المقصود الظفر، قال: **قوله:** (وتظفرن بهم).اهـ قنوي. وفي لسان العرب: صادفت فلانًا، أي لاقَيْته ووجدته.اهـ. **قوله:** (مناصبتك) ـ بالصاد المهملة والباء الموحدة ـ وهي المعاداة والمحاربة. **قوله:** (النّكاية) في مختار الصحاح: نكى في العَدُوّ قتل فيهم وجرح ينكي نكايةً.اهـ. وفي المصباح: نكأت في العدوّ نكأ من باب نفع أيضًا لغة في نكيت فيه أنكى من باب رمى، والاسم النِّكاية ـ بالكسر ـ إذا قتلت وأثخنت.اهـ. **قوله:** (من ورائهم) مفعول فرق. **قوله:** (يجسر) في مختار الصحاح: جَسَر على كذا إقدام، يجسُر ـ بالضمّ ـ جَسَارة بالفتح.اهـ. **قوله:** (لعلّ المشردين) بصيغة المفعول، يعني أن ضمير ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٧] مرجعه من خلفهم، فإنهم إذا رأوا ما حلّ بالناظرين تذكّروا واتّعظوا.

قوله: (معاهدين) هذا الوصف مستفاد من خيانة؛ إذ النقض بعد العهد. **قوله:** (فاطرح إليهم العهد) النّبذ: الطَّرح، وهو مجاز عن إعلامهم بأن لا عهد بعد اليوم، فشبّه العهد بالشيء الذي يُرمى لعدم الرغبة فيه، وأثبت النّبذ له تخييلًا ومفعوله محذوف، وهو العهد. **قوله:** (أي حاصلين) أي أنت وهم.اهـ التفتازاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ۝٥٩﴾

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ﴾ بالياء وفتح السين: (**شامي**) و(**حمزة**) و(**يزيد**) و(**حفص**)، وبالتاء وفتح السين: (**أبو بكر**)، وبالتاء وكسر السين: غيرهم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ﴾ فاتوا و(**أفلتوا**) من أن يظفر بهم ﴿إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ﴾ (**أنهم**) لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزًا عن إدراكهم «أنهم» (**شامي**) أي لأنهم، وكل واحدة من المكسورة والمفتوحة تعليل غير أن المكسورة على طريقة الاستئناف، والمفتوحة تعليل صريح؛ فمَن قرأ بالتاء فـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مفعول أول والثاني ﴿سَبَقُوٓاْۚ﴾ ومَن قرأ بالياء فـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فاعل و﴿سَبَقُوٓاْۚ﴾ مفعول تقديره أن سبقوا فحذف «أن»، و«أن» مخففة من الثقيلة أي أنهم سبقوا فسد مسد المفعولين، أو يكون الفاعل مضمرًا أي ولا يحسبن محمد الكافرين سابقين ومَن ادّعى. تفرد حمزة بالقراءة، ففيه نظر لما بيناه من عدم تفرّده بها. وعن (**الزهري**) أنها نزلت فيمن (**أفلت من فلّ المشركين**).

قوله: (**شامي**) أي ابن عامر الشامي. **قوله:** (**حمزة**) بن حبيب الزيّات. **قوله:** (**يزيد**) هو أبو جعفر يزيد بن القعقاع القاري المدني، وقارة موضع من المدينة، وليس من السبعة. **قوله:** (**حفص**) عن عاصم. **قوله:** (**أبو بكر**) شعبة بن عياش عن عاصم رحمه الله. **قوله:** (**أفلتوا**) في المصباح: أفلت الطائر وغيره إفلاتًا تخلّص، وأفلته إذا أطلقته وخلصته يستعمل لازمًا ومتعدّيًا. **قوله:** («**أنهم**») بفتح الهمزة على إسقاط لام العلّة (**شاميّ**) أي ابن عامر الشاميّ، والباقون بكسرها.

قوله: (**الزهريّ**) هو أبو بكر محمّد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب القريشي الزهريّ المدني، سكن الشام، وكان بأيْلة، ويقولون تارةً الزهري، وتارة ابن شهاب، ينسبونه إلى جدّ جدّه وهو تابعي ومناقبه والثناء عليه وعلى حفظه أكثر من أن تُحصر. توفي ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شهر رمضان سنة أربع وعشرين ومائة، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة، ودُفِن بقرية له بأطراف الشام، يقال لها شغبد ـ بشين مفتوحة وغين ساكنة معجمتين وباء موحدة مفتوحة ثم دال مهملة مفتوحة مخفّفة ـ. **قوله:** (**أفلت**) أي خلص. **قوله:** (**من فلّ المشركين**) بفتح الفاء وتشديد اللام أي منهزميهم، والفلّ القوم المنهزمون، وهو مصدر سُمّي به يقع على الواحد والاثنين والجمع.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَأَعِدُّواْ﴾ أيها المؤمنون ﴿لَهُم﴾ لناقضي العهد أو لجميع الكفار ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ من كل (**ما يتقوّى به في الحرب من عددها وفي الحديث**) «ألا إن القوة (الرمي)» قالها ثلاثًا على المنبر. وقيل: هي الحصون ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ (**هو اسم للخيل التي تربط**) في سبيل الله، (**أو هو جمع ربيط**) كفصيل وفصال، (**وخصّ الخيل**) من بين ما يتقوّى به كقوله: ﴿(وَجِبْرِيلَ) وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: الآية ٩٨] ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ بما استطعتم ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي أهل مكة ﴿وَءَاخَرِينَ

قوله: (ما يتقوّى به في الحرب) أي فأطلق عليه القوّة مبالغةً. **قوله:** (من عددها) العُدد - بضم العين - جمع عدّة، وهو ما يُعدّ للحرب وغيرها كالسلاح. **قوله:** (وفي الحديث): «ألا إنّ القوة»... الخ. أخرجه مسلم عن عقبة بن عامر ﷺ. **قوله:** (الرّمي) أي الرمي بالنشّاب والقسيّ. **قوله:** (هو اسم للخيل التي تربط)... الخ. قيل: يلزم عليه إضافة الشيء لنفسه حينئذ، وردّ بأنّ المراد أن الرباط بمعنى المربوط مطلقًا، إلّا أنه اسْتُعْمل في الخيل وخصّ بها، فالإضافة باعتبار عموم المفهوم الأصلي. وقيل: إنّ قوله: اسم للخيل التي تربط تفسير لمجموع رباط الخيل لا للرباط وحده، فلا يحتاج إلى توجيه، وهذا بالآخرة يرجع إلى ما ذكره المجيب، وليس غيره كما توهّم. وقيل: الرباط مشترك بين معانٍ أُخر؛ كانتظار الصلاة وغيره، فإضافته لأحد معانيه للبيان كعين الشمس، ومنه يُعلم أنه يجوز إضافة الشيء لنفسه إذا كان مشتركًا، وإذا كان من إضافة المطلق للمقيّد، فهو على معنى من التبعيضيّة، وفيه ما مرّ. اهـ شهاب ﷺ. **قوله:** (أو هو جمع ربيط) بمعنى مربوط. **قوله:** (وخصّ الخيل)... الخ. أي هذا العطف من قبيل عطف الخاصّ على العام للتنبيه على فضلها حتى كأنها ليست من جنس القوّة، بل هي أمر وراء القوّة؛ لأن فيها مِزية وشرفًا ليست في غيرها، فباعتبار ذلك كأنها خرجت من إعداد أفراد العام، ولا يُعرف حكمها منها، فصحّ العطف بالنظر إلى هذا التغاير الوصفي المنزل منزلة التغاير الذاتي، وإلى هذا التفصيل أشار بقوله: (كقوله: (﴿وَجِبْرِيلَ﴾)... الخ.

مِن دُونِهِمْ﴾ غيرهم وهم اليهود، أو المنافقون، أو أهل (فارس) أو كفرة الجن. في الحديث «إن الشيطان لا يقرب صاحب فرس ولا دارًا فيها فرس (عتيق)». ورُوِيَ أن (صهيل الخيل) يرهب الجن ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ (لا تعرفونهم بأعيانهم) ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ يوفر عليكم جزاؤه ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ في الجزاء بل تعطون على التمام.

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾

(﴿وَإِن جَنَحُوا﴾) مالوا، جنح له وإليه مال ﴿لِلسَّلْمِ﴾ للصلح

قوله: (فارس) بلد. **قوله:** (عتيق) أي سابق. **قوله:** (صَهيل الخيل) الصَّهيل ـ بالفتح ـ صوت الفرس. **قوله:** (لا تعرفونهم بأعيانهم) جعل العلم بمعنى المعرفة لتعدّيه لواحد، وقد جوّز أن تكون على أصله ومفعوله الثاني محذوف، أي لا تعلمونهم محاربين لكم، أو معادين وهو تكلّف، وقال بأعيانهم لأن المعرفة تتعلّق بالذوات.

قوله: (﴿وَإِن جَنَحُوا﴾)... الخ. الآية دليل على أنّ الصُّلح معهم جائز وقت المصلحة، وإليه ذهب صاحب الهداية، حيث قال: وإذا رأى الإمام أن يُصالح أهل الحرب أو فريقًا منهم، وكان ذلك مصلحة للمسلمين، فلا بأس به؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: الآية ٦١]، ووادع رسول الله ﷺ أهل مكّة عام الحُديبية على أن يضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، هذا لفظه. وقال صاحب الكشاف: وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنّ الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: الآية ٢٩]. وعن مجاهد: بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: الآية ٥]، والصحيح أنّ الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام صلاح الإسلام وأهله من حرب أو سلم، وليس يحتم أن يقاتلوا أبدًا أو يُجابوا إلى الهدنة[1] أبدًا، وقال القاضي: والآية مخصوصة بأهل الكتاب لاتّصالها بقصّتهم، وقيل: عامّة نسختها آية السيف، ولعلّ منشأ كل ذلك كَوْن الأمر للوجوب أو الجواز، فإنْ كان للوجوب فالأمر كما قاله القاضي، وإنْ كان للجواز

---

(١) بالضمّ المصالحة. اهـ قاموس. ١٢ منه عمّ فيضهم.

(وبكسر السين): أبو بكر (وهو) مؤنّث (تأنيث ضدها وهو الحرب) ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ فمل إليها ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولا تخف من إبطانهم المكر في جنوحهم إلى السلم فإن الله كافيك وعاصمك من مكرهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالك.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ يمكروا ويغدروا ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ كافيك الله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ﴾ قواك ﴿بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جميعًا أو بالأنصار ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ قلوب (الأوس والخزرج) بعد تعاديهم مائة وعشرين سنة ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي بلغت عداوتهم مبلغًا لو أنفق منفق في إصلاح (ذات بينهم) ما في الأرض من الأموال لم يقدر عليه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بفضله ورحمته وجمع بين كلمتهم بقدرته، فأحدث بينهم التوادّ والتحابّ و(أماط) عنهم التباغض والتماقت ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ يقهر مَن يخدعونك ﴿حَكِيمٌ﴾ ينصر مَن يتبعونك.

ومقيّدًا بالمصلحة فالأمر كما قال صاحب الكشاف والهداية، ولم يتعرّض له باقي المفسّرين. اهـ التفسيرات الأحمديّة.

قوله: (وبكسر السين) أبو بكر وشعبة عن عاصم رحمه الله. والباقون بالفتح لغتان. **قوله:** (وهو) أي السّلم مؤنّث (تأنيث ضدّها وهو الحرب)، فإنها مؤنّثة سماعيّة.

قوله: (الأوْس) قبيلة من اليمن، وهو أوْس بن قَيْلة أخو الخزرج منهما الأنصار وقَيْلة أُمّهما. اهـ لسان العرب. **قوله:** (الخزرَج) قبيلة الأنصار غير قبيلة الأنصار هي الأوس وهي الخزرج ابنا قَيْلة، وهي أُمّهما نُسِبا إليها وهما ابنا حارثة بن ثعلبة من اليمن. اهـ لسان العرب. **قوله:** (ذات بينهم) أي العداوة. **قوله:** (أماط) أي أبْعد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤﴾ الواو بمعنى «مع» وما بعده منصوب، والمعنى كفاك وكفى أتباعك من المؤمنين الله ناصرًا. ويجوز أن يكون في محل الرفع أي كفاك الله وكفاك أتباعك من المؤمنين. قيل: أسلم مع النبيّ ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلًا وست نسوة ثم أسلم عمر فنزلت:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥﴾

(﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾) التحريض المبالغة في الحثّ على

قوله: (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾) إلى قوله: (﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾) هاتان الآيتان أوّلهما منسوخة والأخرى ناسخة لها، وما من آية في القرآن منسوخة عقيبها ناسختها تلاوةً سوى هذه الآية والتي في المجادلة، وبيانها واضح وهو أنّ الآية الأُولى ذكر فيها تحريض المؤمنين على القتال أوّلًا بقوله تعالى: ﴿حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٥] يعني بالغ في حثّهم على القتال، وإليه الإشارة في كلام صاحب الهداية، حيث قال: إنّ التنفيل من جملة التحريض المندوب إليه، أي بقوله تعالى: ﴿حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ [الأنفال: الآية ٦٥] على ما مرّ، ثم ذكر فيها أن الكفار إذا كانوا مضاعفين على المسلمين بعشرة درجات يكون فرار المؤمنين منهم ممنوعًا، مثلًا أن يكون المؤمنون عشرين، وكانت الكفار مائتين يجب على المؤمنين القتال معهم، وهكذا إنْ كان المسلمون مائة والكفار ألفًا يجب على المؤمنين القتال معهم، ويكون الفرار في هاتين الصورتين ذنبًا كبيرًا، وهكذا القياس، وكان هذا الحكم مشروعًا أوّلًا ثم بعد ذلك لمّا ضاقت صدور المؤمنين وحسبوه ثقيلًا نسخ الله ذلك الحكم بالآية المتصلة عقيبها، وهي قوله تعالى: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾ [الأنفال: الآية ٦٦] الآية، فلهذا خفّف عنهم الأثقال وأوجب الحكم على المضاعفة بحسب درجة واحدة، مثلًا إنْ كان المسلم مائة والكفار مائتين يجب القتال ويُحرم الفرار، وإن كان المسلم ألفًا والكافر ألفين يجب القتال ويُحرم الفرار، وهكذا القياس.

الأمر من (الحرض وهو أن ينهكه المرض حتى يشفى على الموت) ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هذه عدة من الله وبشارة بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفار بعون الله وتأييده ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ بسبب أن الكفار قوم جهلة يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهائم فيقل ثباتهم ويعدمون لجهلهم بالله نصرته، بخلاف مَن يقاتل على بصيرة وهو يرجو النصر من الله. قيل: كان عليهم أن لا يفرّوا ويثبت الواحد للعشرة، ثم ثقل عليهم ذلك فنسخ وخفّف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين بقوله:

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ﴾ (﴿ضَعْفًا﴾ عاصم وحمزة) ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ﴾ (بالياء فيهما: كوفي، وافقه البصري) في الأولى

قوله: (الحَرَض) بفتحتين (وهو أن ينهكه المرض) أي يضعفه ويجعله نحيفًا مهزولًا (حتى يشفى) من الأفعال، أي يشرُف ويقرب (على الموت)، وهذا أصله ثم استُعمل في حثّ الإنسان على شيء حتى يعلم أنه حارض، أي مُشرف على الهلاك لكمال جهده في تحصيله وانهماكه في كسبه، وبهذا البيان يُعلم المناسبة بين أصله وفرعه، وهذا الوجه مما استبعده بعضهم. وقال الراغب: كأنه في الأصل إزالة الحرض وهو ما لا خير فيه ولا يعتدّ به، انتهى. يريد أن باب التفعيل وبناءه للإزالة كقذيته، أي أزلت عند القذى، فأصل المعنى: حرّض المؤمنين، أي كن مزيلًا عنهم ما لا خير فيه، ثم استُعمل في ترغيب ما فيه خير وعاقبة حميدة، ولو بزعم المرغب. اهـ قنوي رحمه الله.

قوله: (﴿ضعفًا﴾) بفتح الضاد (عاصم وحمزة)، والباقون بضمّها، وكلاهما مصدر، وقيل: الفتح في العقل والرأي والضمّ في البدن. **قوله:** (بالياء) من تحت (فيهما) أي في ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟﴾ [الأنفال: الآية ٦٥]، ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ﴾ [الأنفال: الآية ٦٦] (كوفي) أي عاصم وحمزة والكسائي للفصل بالظرف، ولأن التأنيث مجازيّ (وافقه البصري) أي أبو عمرو البصريّ، وكذا

والمراد الضعف في البدن ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ **(وتكرير مقاومة الجماعة لأكثر منها مرتين قبل التخفيف وبعده، للدلالة على أن الحال مع القلّة والكثرة لا تتفاوت، إذ الحال قد تتفاوت بين مقاومة العشرين المائتين والمائة الألف، وكذلك بين مقاومة المائة المائتين والألف الألفين)**.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ ما صحّ له ولا استقام ﴿أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ﴾ **(«أن تكون»: بصري)** ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ الإثخان كثرة القتل والمبالغة فيه من الثخانة وهي

يعقوب البصري ـ وليس من السبعة ـ في الأُولى وقرأ بالتأنيث في الثانية؛ لأن وصفه بالمؤنّث وهو صابرة قوّاه، والباقون بالتأنيث فيهما لأجل اللفظ، وخرّج بإسناده إلى المائة إن يكن منكم عشرون، وإن يكن منكم ألف المتّفق على تذكيرها.

قوله: (وتكرير مقاومة الجماعة لأكثر منها مرّتين قبل التخفيف وبعده للدلالة على أن الحال مع القلّة والكثرة) واحدة **(لا تتفاوت)** في النصرة. اهـ كشاف. **(إذ الحال قد تتفاوت بين مقاومة العشرين المائتين والمائة الألف، وكذلك بين مقاومة المائة المائتين والألف الألفين)**؛ إذ الحال في الأوّل ضيّق، وفي الثاني وسيع، ولعلّه لهذا المعنى وصف الأوّل بالصابرة دون الثاني. اهـ التفسيرات الأحمديّة. وقال العلّامة التفتازاني رحمه الله: قوله: إذ الحال قد تتفاوت تعليل لاحتياج إلى هذه الدلالة والبيان، بمعنى ربما لا يقاوم العشرة المائة ويقاوم المائة الألف، وكذلك ربما لا يقاوم العشرة العشرين ويقاوم الألف الألفين. اهـ.

قوله: («أن تكون») بالتأنيث **(بصريّ)** أي أبو عمرو البصري، وكذا يعقوب البصري ـ وليس من السبعة ـ لكون الجمع في تأويل الجماعة، فإن أسرى جمع أسير، فأسارى جمع الجمع مثل جريح وجرحى. وقرأ الباقون بالتذكير لكون الفعل متعدّيًا وكون تأنيث أسرى غير حقيقيّ؛ لأن المراد بهم الذكور، وقد وقع الفصل بين الفعل والفاعل، وكل واحد من هذه الثلاثة إذا انفرد جاز تذكير الفعل، وعند

الغلظ والكثافة حتى (يذلّ) الكفر بإشاعة القتل في أهله، و(يعزّ) الإسلام بالاستيلاء والقهر، ثم الأسر بعد ذلك. رُوِيَ أن رسول الله ﷺ أتى بسبعين أسيرًا ـ فيهم (العباس) عمه و(عقيل) ـ فاستشار النبيّ عليه السلام أبا بكر فيهم فقال: قومك وأهلك، استبقهم لعل الله يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوّي بها أصحابك. وقال عمر

اجتماع الكلّ يكون أوْلى. اهـ شيخ زاده رحمه الله. لكن على قراءة التاء الفوقية تتعيّن الإمالة في أسرى، وعلى قراءة الياء التحتية تجوز الإمالة[1] وتركها. اهـ جمل.

قوله: (يذل) في مختار الصحاح الذلّ ضدّ العزّ وقد ذَلّ يَذِلّ بالكسر ذَلًّا[2] وذِلّة ومَذَلّة، فهو ذليل وهم أذلّاء وأذِلّة. اهـ. **قوله:** (يعِز) بكسر العين.

قوله: (العبّاس) بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ خرج مع المشركين إلى بدر مُكرَهًا وأُسر وفدا نفسه وابني أخويه عقيلًا ونوفل بن الحارث وأسلم عقيب ذلك، وقيل: أسلم قبل الهجرة وكان يكتم إسلامه مقيمًا بمكّة يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ، وكان عونًا للمسلمين المستضعفين بمكّة، قالوا: وأراد القدوم إلى المدينة، فقال له النبيّ ﷺ: «مقامك بمكّة خير»، وكان رسول الله ﷺ يعظّمه ويُكرمه ويبجّله، وكانت الصحابة تُكرمه وتعظّمه وتقدّمه وتشاوره وتأخذ برأيه. توفي بالمدينة يوم الجمعة لثنتي عشرة ليلة خلت من رجب، وقيل: من رمضان سنة ثنتين وثلاثين، وقيل: أربع وثلاثين، وهو ابن نحو ثمانٍ وثمانين سنة، وهو معتدل القامة وقبره مشهور بالبقيع. رُوِيَ له عن رسول الله ﷺ خمسة وثلاثون حديثًا، اتّفقا على حديث وانفرد البخاري بحديث، ومسلم بثلاثة، ومناقبه كثيرة مشهورة رضي الله تعالى عنه.

قوله: (عقيل) بن أبي طالب الصحابي، هو بفتح العين القريشي الهاشمي المكّي ابن عمّ رسول الله ﷺ، وهو أخو عليّ وجعفر وطالب لأبيهم، كان طالب أسنّ من عقيل بعشر سنين، وعقيل أسنّ من جعفر بعشر سنين، وجعفر أسنّ من عليّ بعشر سنين، حضر بدرًا مع المشركين مُكْرهًا وأُسر يومئذ ففداه عمّه العباس،

---

(١) فقرأ حمزة والكسائي وخلف مع الإمالة. ١٢ منه عمّ فيضهم.

(٢) في المصباح: ذَلّ ذُلًّا من باب ضرب، والاسم الذُل ـ بالضم ـ والذِّلّة ـ بالكسر ـ والمَذَلّة إذا ضَعُف وهان، فهو ذَليل، والجمع أذلاء وأذِلّة. اهـ. ١٢ منه عمّ فيضهم.

ﷺ: كذبوك وأخرجوك فقدمهم واضرب أعناقهم فإن هؤلاء أئمة الكفر، وإن الله أغناك عن (الفداء، مكّن عليًا) من عقيل، و(حمزة) من العباس، (ومكّني من فلان لنسيب له)، فلنضرب أعناقهم. فقال عليه السلام: «مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم حيث قال: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٦] ومثلك يا عمر كمثل نوح (حيث قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾) [نوح: الآية ٢٦]. ثم قال رسول الله ﷺ لهم: «إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدّتهم» فقالوا: بل نأخذ الفدا فاستشهدوا بأحد فلما أخذوا الفداء نزلت الآية ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ متاعها يعني الفداء سمّاه عرضًا لقلّة بقائه وسرعة فنائه ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ أي ما هو سبب الجنة من إعزاز الإسلام بالإثخان في القتل ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقهر الأعداء ﴿حَكِيمٌ﴾ في عتاب الأولياء.

ثم أسلم قبل الحُديبية، وجاء إلى المدينة مهاجرًا إلى رسول الله ﷺ سنة ثمان وشهد غزوة مؤتة مع أخيه جعفر، ثم رجع فعرض له مرض فلم يسمع له بذكر في فتح مكّة، ولا غزوة حُنين والطائف وأعطاه النبيّ ﷺ من خيبر مائة وأربعين وسقًا كل سنة. رَوَى عن النبيّ ﷺ أحاديث وهو قليل الحديث. توفي في خلافة معاوية، وقد كُفّ بصره ودُفِن بالبقيع وقبره مشهور عليه قبّة في أوّل البقيع.

قوله: (الفداء) بالكسر. **قوله:** (مكّن عليًا) يقال: مكّنته من الشيء وأمكنته منه إذا أقدرته عليه فتمكّن واستمكن، والمراد الإذن والرخصة.

قوله: (حمزة) بن عَبْد المطلب عمّ رسول الله ﷺ ورضي عنه، يقال له أسد الرحمٰن وأسد رسول الله ﷺ وعمّه وأخوه من الرّضاعة، كنيته أبو عمارة أسلم في السنة الثانية من مبعث رسول الله ﷺ، وهاجر إلى المدينة وشهد بدرًا وبارز وأبلى فيها بلاءً حسنًا، وقاتل بسيفين. استشهد يوم أُحد في نصف شوّال من السنة الثالثة من الهجرة بعد أن قتل أحدًا وثلاثين من الكفار، ودُفِنَ عند أُحد في موضعه وقبره مشهور يُزار ويتبرّك به وحزن عليه رسول الله ﷺ والصحابة رضي الله تعالى عنهم.
قوله: (ومكّني من فلان) أي خلّ بيني وبينه (لنسيب) أي قريب النسب (له) أي لعمر. **قوله:** (حيث قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾) أي نازل دار، والمعنى أحدًا. قال العلّامة الشهاب عليه رحمة الله الوهّاب: وفي قوله: ﴿لَا تَذَرْ

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لولا حكم من الله ﴿سَبَقَ﴾ أن لا يعذب أحدًا على العمل بالاجتهاد وكان هذا اجتهادًا منهم لأنهم نظروا في أن استبقاءهم ربما كان سببًا في إسلامهم، وأن فداءهم يتقوّى به على الجهاد، وخفي عليهم إن قتلهم أعزّ للإسلام وأهيب لمن وراءهم، أو ما كتب الله في اللوح أن لا يعذب أهل بدر، أو ألا يؤاخذ قبل البيان والإعذار.

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

(وفيما ذكر من الاستشارة دلالة على جواز الاجتهاد فيكون حجة على منكر القياس). ﴿كِتَٰبٌ﴾ مبتدأ و﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صفته أي لولا كتاب ثابت من الله و﴿سَبَقَ﴾ صفة أخرى له، وخبر المبتدأ محذوف أي لولا كتاب بهذه الصفة في الوجود، و﴿سَبَقَ﴾ لا يجوز أن يكون خبرًا لأن «لولا» لا يظهر أبدًا ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ **(لنالكم)** وأصابكم ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من فداء الأسرى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ رُوِيَ أن عمر ﷺ دخل على رسول الله ﷺ **(فإذا هو وأبو بكر يبكيان)** فقال: يا رسول الله

عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: الآية ٢٦] دقيقة، وهي الإشارة إلى ما وقع في خلافته من تطهير أرض الحجاز من الكَفَرة. اهـ. **قوله: (وفيما ذكر من الاستشارة دلالة على جواز الاجتهاد، فيكون حجّة على منكر القياس)**، وأيضًا فيه دلالة على أن المجتهد إذا أخطأ لم يكن معاقبًا في عمله، أي مجتهد كان. وأيضًا فيه دلالة على أنّ الحكم إذا اجتهد فيه ثم نزل نصّ بخلافه لم يسقط العمل بذلك الاجتهاد، ولم يجب العمل بذلك النصّ؛ لأن النبيّ عليه السلام لمّا حكم بأخذ الفداء بالاجتهاد ثم نزل بعده نصّ بخلافه، وهو هذه الآية لم ينقل مَنْ أخذ الفداء إلى القتل، بل استقرّ عليه، بخلاف ما إذا اجتهد المجتهد بحكم، ثم ظهر نصّ بخلافه، يعني كان نازلًا قبل الاجتهاد، ولكن ظهر الآن بأن يقف عليه آنفًا، فإنه يجب العمل بالنصّ ويسقط الاجتهاد كأبي حنيفة رحمه الله مثلًا يحكم بمسألة بالاجتهاد، ثم ظهر نص بخلافه يجب العمل به، فكم مِنْ فَرْق بين ظهور النصّ بخلاف الاجتهاد وبين نزوله بخلافه، هكذا صرّح في البزدويّ وحواشيه.

قوله: (لنالكم) أي وقع بكم. **قوله: (فإذا هو وأبو بكر يبكيان)** فإذا للمفاجأة أما بكاء أبي بكر رضي الله تعالى عنه على نفسه وعلى إخوانه، وأمّا بكاؤه عليه

(أخبرني) فإن وجدت بكاء بكيت وإم لم أجد بكاء **(تباكيت)**. فقال: «أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء (ولقد عرض) عليّ عذابهم **(أدنى من هذه الشجرة)**» لشجرة قريبة منه. **(ورُوِيَ أنه** عَلَيْهِ السَّلَامُ **قال:** «لَو نزل) عذاب من السماء **(لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ)**» لقوله: كان الإثخان في القتل أحب إليّ.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ رُوِيَ أنهم أمسكوا عن الغنائم ولم يمدّوا أيديهم إليها فنزلت. وقيل: هو إباحة للفداء **(لأنه من جملة الغنائم. والفاء للتسبيب)** والسبب

السلام على أصحابه. اهـ قنوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. **قوله: (أخبرني)** عن سبب بكائك وبكاء أبي بكر. **قوله: (تباكيت)** أي أظهرت البكاء. **قوله:** (ولقد عُرض) أي وبالله لقد عرض. **قوله: (أدنى من هذه الشجرة)** أي حال كون ذلك العذاب أقرب إليهم من قرب هذه الشجرة إليّ، وينبغي أن يكون هذا منه عليه الصّلاة والسلام إشارة إلى ما نزل بهم يوم أُحد. اهـ شيخ زاده رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وقال العلّامة الشهاب عليه رحمة الله الوهاب: قوله: أدنى من هذه الشجرة، أي أقرب منها يراه ويشاهده. قيل: والمراد به ما وقع بأُحد، واستشهد منهم سبعون كما وقع في الحديث: «إن شئتم فاديتموهم»، واستشهد منكم بعدتهم كما في الكشاف. اهـ. وهذا الحديث أخرجه أحمد وابن جرير وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، ومسلم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بنحوه. **قوله: (وروي أنه عليه السلام قال: لو نزل)** عذاب من السّماء **(لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ)** لقوله: «كان الإثخان في القتل أحبّ إليّ» أخرجه ابن جرير عن محمد بن إسحاق بلفظ: «لو أُنزل من السماء عذاب لما نجا منه غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ»؛ لقوله: «كان الإثخان في القتل أحبّ إليّ»، وأخرجه ابن مردويه عن ابن عمر، لكن لم يذكر فيه سعد بن معاذ، وهذا يدلّ على أنّ المراد بالعذاب عذاب في الدنيا غير القتل مما لم يعهد؛ لقوله: أنزل من السماء. وأمّا أنهم يستشهد منهم بعدتهم، فالشهادة لا تسمّى عذابًا. اهـ شهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: (لأنه من جملة الغنائم) إذ الغنيمة هو المأخوذ قهرًا وغلبة لا اختلاساً وسرقة، كما في الهداية. **قوله: (والفاء للتسبيب)** داخلة على المسبب.

محذوف، ومعناه قد أحللت لكم الغنائم فكلوا ﴿حَلَٰلًا﴾ مطلقًا عن العتاب والعقاب من حلّ (العقال) وهو نصب على الحال من المغنوم، أو صفة للمصدر أي أكلًا حلالًا ﴿طَيِّبًاۚ﴾ لذيذًا هنيئًا أو حلالًا بالشرع طيبًا بالطبع ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ فلا تقدموا على شيء لم يعهد إليكم فيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فعلتم من قبل ﴿رَّحِيمٌ﴾ بإحلال ما غنمتم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم﴾ (في ملكتكم) كأن أيديكم قابضة عليهم (﴿مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾) جمع أسير من الأسارى (أبو عمرو جمع أسرى) ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ خلوص إيمان وصحة نيّة ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ من الفداء، إما أن يخلفكم في الدنيا أضعافه أو يثيبكم في الآخرة ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ رُوِيَ أنه قدم على رسول الله ﷺ مال (البحرين) ثمانون ألفًا، فتوضأ

قوله: (العقال) في لسان العرب: عقل البعير يَعْقِله عقلًا وعقله واعتقله ثنى وظيفه مع ذراعه وشدّهما جميعًا في وسط الذّراع، وكذلك الناقة، وذلك الحبل العِقال والجمع عُقُل. اهـ. وأيضًا فيه الوظيف لكل ذي أربع ما فوق الرسغ إلى مفصل الساق. اهـ. وأيضًا فيه، وقال ابن الأعرابي: الوظيف من رسغ البعير إلى ركبتيه في يديه، وأمّا في رجليه، فمن رسغيه إلى عُرْقوبيه. اهـ. وأيضًا في الجوهري: الوظيف مستدقّ الذراع والساق من الخيل والإبل ونحوهما، والجمع الأوْظِفَة. اهـ. وأيضًا فيه: العُرْقوب العَصَب الغليظ المُوتَّر فوق عَقِب الإنسان، وعرقوب الدابّة في أرجلها بمنزلة الرُّكبة في يدها. اهـ.

قوله: (في مَلَكَتِكم) - بالتحريك - أي مِلككم. **قوله:** (﴿مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾) بضم الهمزة وفتح السين وبألف بعدها مع الإمالة (أبو عمرو) البصريّ (جمع أسرى) جمع أسير، فهو جمع الجمع، وقرأ أبو جعفر بضمّ الهمزة وفتح السين على وزن فعالى بلا إمالة، والباقون بفتح الهمزة وسكون السين بلا ألف على وزن فعلى مع الإمالة في قراءة حمزة والكسائي وخلف بلا إمالة في قراءة غيرهم. **قوله:** (البحرين) بلد.

لصلاة الظهر وما صلّى حتى فرقه، وأمر العباس أن يأخذ منه فأخذ ما قدر على حمله وكان يقول: هذا خير مما أخذ مني وأرجو المغفرة، وكان له عشرون عبدًا وإن أدناهم ليتجر في عشرين ألفًا وكان يقول: أنجز الله أحد الوعدين وأنا على ثقة من الآخر.

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ﴾ أي الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ نكث ما بايعوك عليه من الإسلام بالردّة أو منع ما ضمنوه من الفداء ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ في كفرهم به ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ﴾ **(فأمكنك منهم)** أي أظفرك بهم كما رأيتم يوم بدر فسيمكن منهم إن عادوا إلى الخيانة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمال ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما أمر في الحال.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ من مكة حبًّا لله ورسوله ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هم المهاجرون ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ أي آووهم على ديارهم ونصروهم على أعدائهم وهم الأنصار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ أي يتولّى بعضهم بعضًا في الميراث، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة وبالنصرة دون ذوي القرابات حتى نسخ ذلك بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ **(وقيل: أراد به النصرة والمعاونة)** ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾ من مكة ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾

قوله: (فأمكنك منهم) أي قدرك عليهم، وأشار إلى أنّ مفعوله محذوف.

قوله: (وقيل أراد به النّصرة والمعاونة)، فتكون محكمة. اهـ شهاب رحمه الله. أي يتولّى بعضهم بعضًا بالنّصرة والمعونة، فإنّ أولياء جمع وليّ نحو صديق وأصدقاء، والوليّ ضدّ العدوّ، يقال منه تولّاه، والوليّ يجيء بمعنى الناصر أيضًا، وكل واحد من الفريقين صديق للآخر يعظمه ويهتمّ بشأنه ويخصّه بمعاونته ومظاهرته، بل لفظ الولاية غير مُشعر بمعنى الوراثة، إلّا أن المفسّرين حملوه على هذا المعنى بناءً على

من توليهم في الميراث («ولايتهم» حمزة). وقيل: هما واحد ﴿مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ۚ﴾ فكان لا يرث المؤمن الذي لم يهاجر ممن آمن وهاجر، ولما أبقى للذين لم يهاجروا اسم الإيمان وكانت الهجرة فريضة فصاروا بتركها مرتكبين كبيرة، دلّ على أن صاحب الكبيرة لا يخرج من الإيمان ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾ أي مَن أسلم ولم يهاجر ﴿فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ أي إن وقع بينهم وبين الكفار قتال وطلبوا معونة فواجب عليكم أن تنصروهم على الكافرين ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ﴾ فإنه لا يجوز لكم نصرهم عليهم لأنهم لا يبتدئون بالقتال، إذ الميثاق مانع من ذلك ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تحذير عن تعدّي حد الشرع.

أن الولاية المُثبتة في هذه الآية هي الولاية المنفيّة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنفال: الآية ٧٢]، والولاية المنفيّة فيه ليست بمعنى النّصرة؛ لأنه تعالى عطف عليه. قوله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ [الأنفال: الآية ٧٢]، ولا شكّ أنّ ذلك عبارة عن المُوالاة في الدين والمعطوف مغاير للمعطوف عليه، فوجب أن يكون المراد من الولاية المذكورة أمرًا مغايرًا لمعنى النّصرة. اهـ شيخ زاده ﷺ. **قوله:** («ولايتهم») بكسر الواو (حمزة)، والباقون بفتح الواو، وفي تفسير البيضاوي: قرأ حمزة: ﴿ولايتهم﴾ بالكسر تشبيهًا لها بالعمل والصناعة؛ كالكتابة والإمارة، كأنه بتولّيه صاحبه يزاول عملًا. اهـ. قال العلّامة شيخ زاده ﷺ في حاشيته: قوله: تشبيهًا لها بالعمل، يريد أن المصدر الذي يجيء على فعالة بالكسر إنما يكون في الصناعات، وما يكون بمزاولة العمل كالكتابة والزراعة والخياطة والحراثة والنجارة والقصارة والصباغة ونحوها، والولاية ليست من هذا القبيل إلّا على سبيل التشبيه، فإنّ الوليّ بتولّيه صاحبه ونصرته كأنه يزاول عملًا، فشبَّه التولّي بالعمل ثم اسْتُعير له الولاية بالكسر. اهـ. وقال العلّامة الشهاب عليه رحمة الله الوهاب: جاء في اللغة: الولاية مصدرًا بالفتح والكسر، فقيل: هما لغتان فيه بمعنًى واحد، وهو القرب الحسّي والمعنويّ، وقيل: بينهما فرق فالفتح ولاية مولى النسب ونحوه، والكسر ولاية السلطان، قاله أبو عبيدة. وقيل: الفتح من النصرة، والنسب والكسرة من الإمارة، قاله الزجاج، وخطأ الأصمعي قراءة الكسر، وهو المخطىء لتواترها، واختلفوا في ترجيح إحدى القراءتين، ولمّا قال المحقّقون من أهل اللغة: إنّ فعالة بالكسر في الأسماء لما

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ ظاهره إثبات الموالاة بينهم، ومعناه نهي المسلمين عن موالاة الكفار وموارثتهم وإيجاب مباعدتهم و(مصارمتهم) وإن كانوا أقارب وأن يُتركوا يتوارثون بعضهم بعضًا. ثم قال: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾ أي إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولّي بعضهم بعضًا حتى في التوارث تفضيلًا لنسبة الإسلام على نسبة القرابة، ولم تجعلوا قرابة الكفار كَلا قرابة ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة، لأن المسلمين ما لم يصيروا يدًا واحدة على الشرك كان الشرك ظاهرًا والفساد زائدًا.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ لأنهم صدقوا إيمانهم وحققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن

يحيط بشيء، ويجعل فيه كاللّفافة والعمامة، وفي المصادر يكون في الصناعات، وما يزاول بالأعمال كالكتابة والخياطة ذهب الزجّاج وتبعه غيره إلى أن الولاية لاحتياجها إلى تمرّن وتدرب شبّهت بالصناعة، فلذا جاء فيها الكسر كالإمارة، وهذا يحتمل أن الواضع حين وضعها شبّهها بذلك، فتكون حقيقة ويحتمل كما في بعض شروح الكشاف أن تكون استعارة كما سمّوا الطب صناعة، لكنها وإنْ كان التصرّف فيها في الهيئة لا في المادّة استعارة أصليّة لوقوعها في المصدر دون المشتقّ، ومنه يعلم أنّ الاستعارة الأصلية قسمان ما يكون التجوّز في مادّته وما يكون في هيئته، وقوله: كأنه بتولّيه. . . الخ. أي كأنّ صاحبه يزاول عملًا بتولّيه، أي يحاوله ويعالجه وضمير كأنه للوليّ أو للشأن.

قوله: (مصارمتهم) في لسان العرب: الصَّرْم القطع البائن، وعمّ بعضهم به القطع أي نوع كان صرمه يصرمه صَرْمًا وصُرْمًا وانصرم.اهـ. وأيضًا فيه المصارمة بين الاثنين.اهـ.

ومفارقة الأهل و(السكن) والانسلاخ من المال والدنيا لأجل الدين والعقبى ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا منّة فيه ولا (تنغيض) ولا تكرار، لأن هذه الآية واردة للثناء عليهم مع الوعد الكريم والأولى للأمر بالتواصل.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ﴾ يريد اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة ﴿وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ جعلهم منهم تفضلًا وترغيبًا ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى الَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وأولوا القرابات أولى بالتوارث وهو نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة ﴿فِي كِتَٰبِ اللَّهِ﴾ **(في حكمه وقسمته أو في اللوح)**، أو في القرآن وهو آية المواريث **(وهو دليل لنا على توريث ذوي الأرحام)** ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيقضي بين عباده بما شاء من أحكامه. قسم الناس أربعة أقسام: قسم آمنوا وهاجروا، وقسم آمنوا ونصروا، وقسم آمنوا ولم يهاجروا، وقسم كفروا ولم يؤمنوا.

قوله: (السَّكَن) ـ بفتحتين ـ كل ما سكنت إليه. اهـ مختار الصِّحاح. وفي المصباح: السّكن ما يسكن إليه من أهلٍ ومال وغير ذلك، وهو مصدر سكنت إلى الشيء من باب طلب. اهـ. **قوله: (تنغيض)** أي تنقيص.

قوله: (في حكمه وقسمته أو في اللَوح)... الخ. لأن كتاب الله يُطلق على كلّ منها، وليس المراد آية المواريث؛ لأنه لا يناسب ما بعده، بل المراد هذه الآية، وفيه تأمّل. اهـ شهاب رحمه الله. **قوله: (وهو دليل لنا على توريث ذوي الأرحام)**؛ لأن هذه الآية نسخ بها التوارث بالهجرة، ولم يفرّق بين العصبات وغيرهم، فهو حجّة في إثبات ميراث ذوي الأرحام الذين لا قسمة لهم ولا تعصيب، وبها احتجّ أيضًا ابن مسعود رضي الله تعالى عنه على أنّ ذوي الأرحام أوْلى من مولى العتاقة، وخالفه سائر الصحابة رضوان الله عليهم، وإنما يصح الاستدلال إذا لم يكن المراد بكتاب الله تعالى آيات المواريث السابقة في سورة النساء، وهذا آخر ما يتعلق بسورة الأنفال. **اللّهمّ اجعلنا ببركتها ممّن غنم رضاك وفاز بجزيل عطاياك وصلّى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.**